











المؤلفاتُ الكاملة  
المجلدُ الثاني





نجيب محفوظ

الحائز على جائزة نوبل للآداب - ١٩٨٨

# المؤلفات الكاملة

السَّيَّارُ      بَيْنَ الْقَصْرِينِ  
بِدَايَةُ وَنْهَايَةُ      قَصْرِ الشَّوْءِ  
السُّكَّرِيَّةُ

مَكْتَبَةُ لِبْنَانِ

مَكْتَبَةُ لِبْنَانِ  
سَاحَةُ رِيَّاضِ الصَّلَاحِ - بَيْرُوتَ  
وَكَلَاءِ وَمُؤَزَّعُونَ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ  
جَمِيعِ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ ١٩٩١  
الطَبْعَةُ الْأُولَى ١٩٩١  
رقم الكتاب 01 R 160118  
طُبِعَ فِي لِبْنَانِ

# المحتويات

ص	
١	السَّراب .. .. .
١٥٩	بداية ونهاية .. .. .
٣٢٥	بين القصرين .. .. .
٥٧٩	قصر الشُّوق .. .. .
٨٠٩	السُّكَّرِيَّة ... .. .





الشيء الذي



لا تعرف الخور، فلماذا يا ترى هذا العناء كله؟ ألم آو عمري إلى الصمت والكتان، ألم تظفر الأسرار من صدري بقبر مغلق تستكن فيه وتوت؟ فما سر هذا الإلحاح العنيف؟ وكيف سللت القلم لأنيش قبراً تراكم عليه ثرى الإخفاء لقد ضاعت الحياة، والقلم ملاذ الضائع، هذه هي الحقيقة. إن الذين يكتبون هم في العادة من لا يحيون، ولا يعني هذا أنني كنت أحياء من قبل، ولكنني لم أكن آلو أن أرنو لأمل بسم أستضيء بنوره، وقد خمد هذا النور. ولست أكتب لإنسان، فليس من شأن المرضى بالجنون أن يطلعوا إنساناً على ذوات نفوسهم، ولكنني أكتب لنفسي، ونفسي فحسب، فطالما دارت همساتها حتى ضللت حقيقتها، وبت في أشد الحاجة إلى جلاء وجهها المطموس في صدق وصراحة وقسوة، عسى أن يعقب ذلك شفاء غير مقدور. أما محاولة النسيان فلا شفاء يرجى منها. والحق أن النسيان خرافة بارعة وحسبي ما كابدت من خرافات. ولعل في شروعي في الكتابة آية على أنني قد عدلت عن فكرة الانتحار نهائياً، وما كان الانتحار بالجزء الذي لا يستحقه إنسان قضى على نفسه، بل هو دون ما يستحق بكثير، ولكن ما حيلتي والحياة لا تتورع عن وسيلة في سبيل الدفاع عن نفسها؟ ولو كان الماضي قطعة من المكان المحسوس لوليت عنه فرازاً، ولكنه يتبعني كظلي، ويكون حيثما أكون، فلا مناص من أن ألقاه وجهاً لوجه بعين غير مختلجة، وقلب ثابت، ومهما يكن من أمر فالموت أهون من الخوف من الموت، وإنه لعمل فيه سحر، تستحيل به هذه الصفائف نفساً خالصة بغير حجاب. ولست أدعي العلم، فما ناصبت شيئاً العداء كالعلم، وإنّي لغبيّ كسول، ولكنني عانيت تجارب مرة زلزلتني

إني أعجب لما يدعوني للقلم، فالكتابة فنّ لم أعرفه لا بالهواية ولا بالمهنة، ويمكن القول بأنه فيها عدا الواجبات المدرسية على عهد صباي، والأعمال المكتبية المتعلقة بوظيفتي، فإني لم أكتب شيئاً على الإطلاق. والأعجب من هذا أنني لا أذكر أنني سوّدت خطاباً أو رسالة طوال الدهر الذي عشته في الدنيا وهو ما ينيف على ربع قرن من الزمان. والحق أن الرسالة - كالكلام - رمز للحياة الاجتماعية، وعنوان للوشائج التي تصل ما بين الناس في هذه الحياة، ولست من ذلك كله في شيء. السنا نشذب الأشجار فنبت ما اعوجّ من أغصانها وفروعها؟ فلماذا نُبقي على من لا يصلحون للحياة من أفراد الناس؟! لماذا نتسامح بل نعمل فنفرضهم على الحياة فرضاً أو نفرض الحياة عليهم كرهاً؟ لهذا يسعون في الأرض غرباء مذعورين، وقد بلغ الدعر منهم أحياناً أن يجبطوا على وجوههم كالمحمومين فيدرسوا بأقدامهم المتعثرة ضحايا أبرياء.

أقول مرة أخرى إنني لا أذكر أنني كتبت كتابة تستحق هذا الوصف. كذلك طالما أعياني الحديث وأعجزني، فكنت إذا اضطررت إلى كلام تلعثمت وأدركني العمي والحصار، ولم يكن الإعياء في قوة النطق أو الكتابة، إنّه أجلّ من ذلك وأخطر وإنّ العمي والحصار والعجز لأتفه عواقبه على وجه اليقين. ولذلك حق لي أن أتساءل عما يدفعني الآن إلى الكتابة. وليس الأمر قاصراً على رسالة تدوّن، إنّه شوط طويل تنقطع دونه الأنفاس، وإنّي لأعجب لما يستفزني من نشاط لم أعده، وحاس لم آلفه، حتى ليخيل لي أنني سأواصل الكتابة دون تردد أو تعب، في الليل والنهار، وبعزيمة

وزلزالاً، وليس كالتجارب كاشف عن مطاوي النفوس. إني لأتلهف على رفع النقاب، وهتك الأسرار، لأضع أصبعي على موطن الداء ومكمن الذكريات ومبعث الآلام، ولعلّي بذلك أتفادي نهاية محزنة، وأنجو من آلام لا قبل لي بها، وأتلمس في الظلماء سبيلاً. لست في الواقع إلا ضحية، ولا أقول ذلك تخفيفاً من ذنبي، ولا تهرباً من تبعتي، ولكنه حقّ وصدق، فالحقّ أنني ضحية، إلا أنني ضحية ذات ضحيتين. وأشدّ ما يحزّ في نفسي أنّ إحدى الضحيتين هي أمّي! أفضّع بها من حقيقة لا تصدّق! كيف أنسيت أنّها سرّ حياتي وسعادتي، وأنّي لا أحتمل الحياة بدونها! ولكيّ كنت أحياء على حافة عالم الجنون، وهكذا فقدت كلّ شيء، ووجدت نفسي في خلاء مظلم مخيف...

إني رجل مؤمن عميق الإيمان، وأعلم علم اليقين أنّي سأبعث حيّاً في اليوم الموعود، ولست أخشى آلام ذلك اليوم وأهواله - إذا تجرّدت أمام الله بما في يميني وبما في شألي - قدر ما أخشى أن أبعث على الحال التي عانيتُها في دنياي. أروم بعثاً جديداً حقّاً، ويومذاك تصبح الآمي لا شيء يطوئها الفناء إلى الأبد، فيمكنني لقاء أحبائي بقلب صافٍ ونفس نقيّة طاهرة.

كانت أمّي وحياتي شيئاً واحداً، وقد ختمت حياة أمّي في هذه الدنيا، ولكنّها لا تزال كامنة في أعماق حياتي، مستمرة باستمرارها. لا أكاد أذكر وجهها من وجوه حياتي حتّى يتراءى لي وجهها الجميل الخنون، فهي دائماً أبداً وراء آمالي والآمي، وراء حبّي وكراهيتي، أسعدتني فوق ما أطمع، وأشقتني فوق ما أتصوّر، وكأني لم أحب أكثر منها، وكأني لم أكره أكثر منها فهي حياتي جميعاً، وهل وراء الحب والكراهية من شيء في حياة الإنسان؟! فلأعترف بأنّي أكتب لأذكرها هي، ولأستعيد حياتها هي، بذلك تعود الحياة كلّها. وبذلك أصيّل ما انقطع من حبل حياتي، لعلّ الأمل أن يتجدّد في النجاة. يبدو لي كلّ شيء الساعة غامضاً متوارباً، كأنّ الشيطان يذرّ في عينيّ رماداً، ولكن مهلاً إني أتلمس سبيلي في صبر وأناة، ورائدي أمل الغريق في النجاة، ومن ورائي نية صادقة في تجديد حياتي

## ٢

ما جزء الميت - عندنا معشر الأحياء - إذا واره التراب؟ أن نفرّ من ذكره كما نفرّ من الموت نفسه! ولعلّ في هذا حكمة غالية، ولكنّ أنايتنا تأبى إلا أن تضفي على هذه الحكمة أسفاً حائناً مضحكاً. ولقد فررت من بيتنا مولياً كلّ شيء ظهري كالخائف المذعور، ثمّ مضيت أثوب إلى رشدي في هدوء نسبيّ، وأدرك هول الخطب الذي نزل بي، ففاض بي حين موجع، وفزعت يداي إلى خزانة الذكريات فاستخرجت كلّ ما بقي منها، ألا وهي صورة!

هي صورة كبيرة يظهر فيها جدّي جالساً على مقعد كبير، بجسمه الضخم وكرشه الكبير، وشاربه الأبيض كأنه هلال فوق فيه، في بذلته العسكرية المحلاة بالنيشين، وأقف أنا عند ركبتيه لا أكاد أجاوزهما إلا قليلاً، أنطلّع إلى عدسة المصوّر بعينين باسميتين وقد التصقت شفتاي في توتّر من يغالب ضحكة تغالبه. ووقفت أمّي إلى يمين جدّي معتمدة بساعدها الأيسر مسند الكرسيّ الكبير، في فستان طويل يشتمل عليها من العنق إلى القدمين، ولا ينحسر من ساعدها إلا عن اليدين، بقامة طويلة وجسم نحيل ووجه مستطيل وعينين واسعتين خضراوين وأنف دقيق مستقيم ونظرة حاملة تقطر حناناً ولا تخلو من بريق ينم عن الحيويّة وجدة المزاج. يا له من وجه شاء الرحمن أن يكرّره في وجهي حتّى لقد قيل إنّه لا يفرّق بيننا إلا الثياب! هذه صورة تطلّ عليّ من عالم الذكريات. ولقد ثبتّ عينيّ الملتهيتين على الوجه المحبوب طويلاً حتّى لم أعد أرى شيئاً سواه. كبرت قسماته في عينيّ حتّى خلّنتي روحاً صغيراً يعيش في أحضانها، واشتدّ ما يحيط بي من صمت فتيهاً لي أن هذا الفم المطبق سيفترّ بأسماً ويُسْمَعني من عذب الحديث ما العهد به غير بعيد. إنّ الصورة شيء عجيب فكيف غابت عنيّ هذه الحقيقة؟



وكراهية، وارتعشت يداي، واتسعت عيناي انزعاجًا، ثم لم أدر إلا ويداي تمزقانها إربًا، ومدت لي يدًا تحاول استنقاذها، ولكنني تغلبت عليها في حق وهياج، فلبثت صامتة وقد لاح في عينيها الصافيتين الحزن والأسف. وكأني لم أقنع بما فعلت فتصدت لها غاضبًا وسألته بلهجة تنم عن الاحتجاج: علام تأسفين؟!

فبسطت أسارير وجهها بشيء من الجهد وقالت:  
- يا لك من طفل مشاكس!... ألا ترى أنني أسف على صورة شبابي؟... لقد مزقت صورة أمك وأنت لا تدري.

وكانت ذكرى تلك الحادثة تعاودني في فترات متباعدة فتحز في نفسي، وتغلاني حيرة وقلقًا، فأمضي متسائلًا عما دعاها حقًا إلى الاحتفاظ بتلك الصورة ولماذا أحزنها تمزيقها؟ ثم أحاول أن أفند بخيالي إلى ما فاتني من حياتها، فأقلب متفكرًا مغتًا.

هكذا فقدت صورة الشباب الأول، وإنني لأسف على فقدانها - الآن - أسفًا خالصًا، ولكن ليس ذلك أسفًا مضحكًا بعد أن امتدت يدي إلى صاحبة الصورة نفسها فقضت عليها؟!

### ٣

ولم أكن الحظ العائر الوحيد الذي ابتليت به حياتها. روت لي يومًا قصة زواجها، في حذر وحرص شديد، خاصة وهي تسرد الذكريات الباسمة على ندرتها، فكانت تذكرها في عجلة واقتضاب وتحرج، وكأنها في أعماقها تخشاني، أو كأنها أشفقت مني أن تحقّق لطافة الذكرى من حدة كراهيتي لأبي.

على جسر إسماعيل رآها أبي أول مرة! وكان «الخانطور» ينطلق بأمي وجدي في بعض الأصائل للتنزه والفرجة، ففي مرة مرّ بهما «خانطور» يترع بصدرة شاب مزهو بشبابه وراثه أو على الأصح بما ينتظره من ثراء، فوقع بصره على وجهها، وسرعان ما وجّه عربته في أعقابها حتى بيتنا في المنيل. وكانا كلمًا غادرا البيت صادفاه في الطريق وكأنه ينتظر. ولم أدع

هذه أُمّي بجسمها وروحها، هذه أُمّي بعينيها وأنفها وفمها، وهذا الصدر الحنون الذي التصقت به عمري. ربّاه... كيف أقتنع بأنّها رحلت عن الدنيا حقًا؟! أجل إنّ الصورة شيء عجيب، ويبدو لي الآن أنّ كلّ شيء عجيب في هذه الدنيا، وقاتل الله العادة فهي التي تقتل روح العجب والإعجاب فينا. كانت هذه الصورة معلقة بحيث تراها العين في كلّ حين، بيد أنني أراها الآن شيئًا جديدًا، أطلع في صفحتها حياة عميقة كأنّ نفحة من الروح الطليق قد استكثت بها، وأرى في هاتين العينين نظرة شاردة تبعث الألم. إنّ هذه الصورة حيّة بلا ريب، ولن أسترّد بصري منها ولو جننت. عكفت عليها طويلًا، ثم تملكنتني رغبة قويّة في تخيل حياة صاحبها في جميع أطوارها من المهد إلى اللحد. تخيلتها طفلة تحبو، وصبيّة تلهو بعرائسها. ألا ليتها خلّفت لي صورًا أستعيد بها أحلام طفولتها السعيدة! ثم تخيلت عهد التساب الرطيب، وهي عادة حسناء ترنو بطرفها الساحي إلى الأمل والسرور وتلهو بلذّة الفتوة المشوبة، لقد عاصرت عهده الحلو، وكنت ثمرة لخصبه ونضارته، ومع ذلك فقد ضاعت معالمة وولت آثاره. غشيه الظلام كأنني لم أرتع حضنه وأرضع ثديه. وكنت إذا تخيلته فيما مضى من أيامي تخيلته في حيرة وقلق، وسألت نفسي في خجل واستياء ألم تنبض بدمه الحارّ تلك الرغبات الجائعة التي تستأثر الشباب؟! ولعلّ عاطفتي الغامضة تلك هي التي دفعتني في صباي إلى تمزيق الأثر الباقي لهذا الشباب الأول. فقد دخلت حجرة نومنا ذات يوم فجأة فوجدت أُمّي منكبة على درج مفتوح في صوان الملابس تنظر في شيء بين يديها، فاقتربت منها في خفة تحذوني شطارة الغلمان المدلّكين، وأدخلت رأسي تحت ذراعها المبسوطة، فرأيتها ممسكة بصورة عرسها! وبادرت تحاول إرجاعها إلى مخبئها، ولكنني أمسكت بها في عناد، وحلقت فيها بدهشة، فرأيت شابًا جالسًا وأُمّي واقفة مستندة إلى كرسيه كالوردة الناضرة. وتعلّقت عيناي بصورة الرجل فأدركت أنّه أبي، وإن كنت أراه أول مرة، بل أراه بعد أن امتلأ الفؤاد له خوفًا

عن ذلك كله فهو نفسه لم يكن حصل على الابتدائية، ولم يكن يخلو من ميل للشراب والمقامرة. وبذلك صارت كرمته حرماً لرؤية لاذ أو رؤية بك لاذ كما كان يدعى، وظنّ جدّي أنّه فرغ من الواجبات الملقاة على عاتقه بتزويجه أصغر كرميته. ولكن ما كاد ينقضي أسبوعان على ليلة الزفاف حتى عادت أمّي إلى بيت جدّي دامعة العينين كسيرة الفؤاد! وانزعج جدّي انزعاجاً شديداً، ولم يكد يصدّق عينيه، ثمّ علم أنّ الشاب قد عاود سيرته الماضية في الحانات ولسّا يمضّر الأسبوع الأول من زواجه، وأنّه كان يرجع إلى بيته عند مشرق الشمس، وأنّه أوسعها ضرباً في ذلك اليوم الذي غادرت فيه قصره. واستفطع جدّي الأمر، وكان على تربيته العسكرية الصارمة رقيق القلب، ويحذب على ابنتيه حدباً عظيماً، فغضب غضباً شديداً، ومضى لتوه إلى قصر لاذ، وصبّ جام غضبه على الشاب وأبيه معاً، ولبثت أمّي في بيت جدّي حتى وضعت أختي الكبرى. وسعى نفر من أصدقاء الطرفين إلى إصلاح ذات البين، ووصل ما انقطع من حياة الزوجية، وكلّل مسعاهم بالنجاح فرجعت أمّي وطفلتها إلى قصر لاذ مرّة أخرى. وامتدّ مكثها به شهرين، ثمّ نفذ صبرها فهجرته إلى بيت جدّي مهيةة الجناح. والحق أنّها لم تلق الراحة إلاّ أياماً معدودات، ولكنّها تصبّرت وتجلّدت عسى أن تصلح الأيام ما فسد من حاله، فلم يكن يزداد إلاّ فساداً، ولم تعد ترى فيه إلاّ سكيراً عريداً لا يرفع لشيء حرمة، فأيست منه، ولأذت ببيت أبيها. وسعى الرجل إلى استردادها، مقرّراً بإدمانه الشراب، محاولاً إقناع جدّي بأنّه من الممكن أن تستقيم الحياة الزوجية مع إدمان الشرب، ولكنّ جدّي وقف منه موقفاً صلباً فطلّقها، وميّرت أشهر فوضعت أمّي أختي الأوسط، وعاشت في كنف أبيها متمتعة بعطفه وحضانه. ثمّ ترامت إليهم أنباء غريبة عن رؤية لاذ تقول إنّ الفتى الطائش قد حاول في ساعة نزق وجزع أن يدسّ السمّ لأبيه متعجلاً حظه من المراث، ولكنّ الأب اكتشف الجريمة بوساطة الطبّاخ، فطرده ابنه من قصره، ووقف نصف

هذا الفصل من القصّة يمرّ بي دون ملاحظة، فسألته عن الغزل في تلك الأيام وكيف كان، وتلقّت سؤالاً بريية وحذر، ولكنّي ما زلت بها حتى استنامت إليّ، فاستسلمت لرقّة الذكريات. وقالت إنّ كان يبعث إليها بنظرات تومض بالابتسام، أو يلتفت نحوها باهتمام وهو يقتل شارب الغزير الأسود، بيد أنّه لم يعدّ حدود الأدب قطعاً. وتفكّرت ملياً، وتبت في بيداء الخيال الخالم، فعانيت أحاسيس الدهشة والخيرة والضيق، ثمّ رفعت إليها عينيّ - ولم يكن لنا من سلوى في تلك الأيام إلاّ مواصلة الحديث - وسألته مبتسماً عن كيف كانت تلقى تلك المقدمات الغزليّة. ولم يخف عنها ما في سؤاله من خبث فتضاحكت، وكانت إذا ضحكت اهتزّ جسمها من الرأس إلى القدم، وقالت إنّها كانت تتجاهله بطبيعة الحال، وتنتظر فيما أمامها دون أن تلوي على شيء، وتظلّ على حالها كأنّها تمثال ذو برقع أبيض! وداخلني شكّ، وقلت إنّ أسأله عن الباطن لا الظاهر، عن القلب لا الوجه. ونازعني النفس إلى مصارحتها بما يدور في خلدي، ولكنّ خائنتني الشجاعة، وعقلني الحياء، ولورجعت إلى قلبي لعرفت الجواب، فهذا القلب من ذاك، يجري بهما دم واحد، ويسجعان عن خفقات واحد، فهل أنسى أنّي وقفت كثيراً كمثال التمثال والقلب شعله ناراً!

وتقدّم الشاب يطلب يدها، لم يكن ذا عمل ولا علم، بل ولا مال حتى ذلك الوقت، ولكنّه كان أحد ابنين لرجل من كبار الموسرين. ولما علم جدّي بموافقة الأب واستعداده لتكفل ابنه وأسرته، سرّ بالخطبة سروراً لا مزيد عليه، وفرح بجاه الأسرة العريق. وقيل له إنّ جاهل جهل العوامّ، فقال وما حاجته إلى العلم؟ وقيل له إنّ بلا عمل، فقال وما حاجته إلى العمل؟ بل قيل له صراحة إنّ شابّ ذو أهواء جامحة وإنّه سكير عرييد، فقال إنّ يعلم أنّه شابّ وليس براهب. ولم يكن جدّي طمّاعاً جشعاً، ولكنّه كان يروم السعادة لابنته. ويحسب أنّ المال كفيّل بتحقيق تلك السعادة، هذا إلى تأثر باسم الأسرة التي نودّ مصاهرته، واطمئنان إلى سمعتها الكريمة، وفضلاً

على استهتاره وعريدته، فلم يكن بين الرجلين عداً، ودعاه جدّي إلى «حانطوره» فاطاع، وأمر جدّي السائق بالذهاب إلى الحلميّة، وخيّم عليهما في الطريق صمت عجيب، فلم ينس أحدهما بكلمة، ولما بلغت العربة البيت أوسع له جدّي لينزل، ولكنّه أمسك بذراع الرجل ودعاه إلى بيته. واعتذر جدّي بتأخّر الوقت ولكنّ الآخر لم يقبل اعتذاره وأبى إلا أن ينزل معه وكان ما يزال ثملاً غموراً فأذعن جدّي على رغمه، فمضيا معاً إلى حجرة الاستقبال وخيوط الفجر الزرقاء تنشب في الظلماء. وارتمى رؤية لاذ على مقعد وجذب جدّي فأجلسه على مقعد قريب، وسرعان ما ولّى عنه سكوته فغلبه الانفعال والتأثر وراح يقول بلسان ثقيل حلتّ الخمر والانفعال عقده «أرأيت الأوباش كيف انهالوا علىّ لكتماً وصفعاً؟... أرأيت إلى الإهانة البالغة تنزل بكرامتي، وأنا رؤية بن لاذ، ربيب القصر العتيق؟! هذه هي الدنيا يا عمّاه... وما بالي أدعوك بعمّي؟ لقد جاوزت الأربعين ولم تُعدّ أنت الخمسين إلّا بقليل، فما أحراني أن أدعوك بأخي، ولكنّي أدعوك عمّي احتراماً وإجلالاً، فإنّك بمنزلة أبي... أستغفر الله أنت أعظم من ذلك وأجلّ، لا تؤاخذني بما أنطق من لفظ، واللفظ شيء نافه، أمّا ركلي بأقدام الأوباش فشيء خطير، اليس كذلك؟ لقد مات أبي غاضباً عليّ، ويقولون إنّه لا يظفر بالسعادة من حُرّم رضاء الوالدين، أحقّاً هذا يا عمّاه؟ حتّى ولو كان أحد الوالدين أبي؟ ربّاه، لقد سئمت هذه الحياة، إنّا حمى وهديان وجنون متواصل، لشدّ ما تنوق نفسي إلى الهدوء والطمأنينة، اليس هذا هو الندم؟ امدد إليّ يدك يا عمّاه، ولنقسم معاً بهذا الفجر الطالع أن نبدأ حياة جديدة لا إثم فيها ولا فجور، ردّ إليّ زوجي وطفليّ وأسكتي أسرتي... هلمّ... واشتدّ احمرار عينيه حتّى ظنّه جدّي باكياً، ولم يجد بداً من أن يطّيب خاطره. وعندما انطلق به الخطوط صوب المنزل وقد تحرّك سطح الأرض رويداً بالأفواج الأولى من الساعين إلى الرزق، أغمض عينيه في ارتياح، وتفتّح في الأمر ملياً، وكان يوّد أن يرى ابنته سيّدة لبيت يخصّها. وفي

ثروته لجهة خير، ووقف النصف الآخر على الابن الأكبر، ولعلّه لم يشأ أن يوقفها كلّها للأخ الأكبر حتّى لا يوغر صدر ابنه الشّرير عليه فيعرّضه بذلك لأذاه... واستيقظ رؤية لاذ بعد حلم طويل بالثروة الواسعة على فقر نسبيّ، فلم يعد يملك من حطام الدنيا إلّا ريع وقف ورثه في ذلك الوقت عن أمّه - وهي غير أمّ أخيه - يقارب الأربعين جنيهاً شهرياً وبيتاً ذا طابقين في الحلميّة انتقل إليه بعد طرده من قصر لاذ. وأثارت تلك الأنباء شجناً في بيت جدّي صفقت له ضلوع الذين يشفقون على مستقبل الوليدتين الصغيرين، فقد تضاءلت نفقتهما، وتجهّم مستقبلهما. وتشاور جدّي وجدّي وأميّ في الأمر، وانتهى بهم تبادل الرأي إلى أن يقابل جدّي لاذ الكبير، وأن يستعطف قلبه للوليدتين البرشين حتّى يغيّر وصيّته لصالحهما، ومضى جدّي إلى قصر لاذ، وحادث الرجل فيها جاء من أجله، ولكنّه وجد منه قلباً قاسياً وأذنًا صمّاً، ولعن بمحضره الابن وذريّته، فعاد جدّي محزوناً ثائراً.

وكان من سخرية الأقدار أن مات لاذ بك في نفس العام الذي سعى ابنه فيه إلى القضاء عليه. وانقضى من الدهر سبعة أعوام فبلغت أختي راضية الثامنة، وبلغ أخي مدحت السابعة أو نحو ذلك. وفي ذلك التاريخ حدث ما غير مجرى حياة أسرتنا الهادئ. وشاءت الأقدار أن يتمّ ذاك التغيّر بحادثة نافهة ممّا يعرض في الطريق، إذ كان جدّي يغادر نادياً للقمار بشوارع عماد الدين قبيل الفجر بقليل فرأى نفرًا من السوق يلتفون بأفندي ويوسعونه ضرباً وهو يتخبّط بينهم هائجاً مترنّحاً، فبادرهم هاتفاً أن يكفّوا عنه، ومضى صوبهم غاضباً، ثمّ لحق به شرطيّ على الأثر. وما كاد نفر يتفرّقون حتّى رأى جدّي رؤية لاذ في حالة سكر بينّ وقد سال الدم من أنفه. ودهش جدّي وتولّاه الارتباك موقع الدهشة، ولكنّه تقدّم من الرجل دون تردّد وسنده بذراعه وهو يوشك أن يقع. كان ما مضى قد سحب النسيان عليه ذبوله أو كاد، وكان الرجل من الناحية الأخرى يوالي إرسال النفقة لوليدته

الزمان يأوي إليه حام الذكريات، الساجع بالحنين إلى ما انقضى من أعمارنا، فلأنقّب في غياهبات الماضي عن أقصى ما يستطيع أن يستقبله رأسي من موجات الذكريات، إنّي أغمض عينيّ متوارباً عن عالم المحسوس، كي أهيئ لروحي سكينه تنطلق فيها إلى الماضي الخالد. ولا أعترف أنّي شديد الحنين إلى الماضي، وقد بتّ في هذه الفترة الأخيرة أشدّ ما أكون حنائاً إليه، ولعلّ ذلك منّي ليس إلّا توقفاً صريحاً إلى الطفولة، وإنّي لأدرك ما في هذا الحنين والتوق من خطورة هي سرّ دائي الأسيف في الحياة، ومع أنّي عشت حياتي متطعناً إلى ذلك الماضي - راضياً أو ساخطاً - شديد الشعور بما يشدني إليه من رباط وثيق، إلّا أنّي أقف عاجزاً حيال سجنه الكثيفة، ترتدّ ذاكرتي حسيرة عن أرقّ عهوده وأخطرها. ها أنا أغمض عينيّ في تشوّف وتساؤل، فيعيشو بصري إلى نور خافت، أرى يدي الصغيرة وهي تمتدّ إلى القمر من على كتف أمي. يا لها من ذكرى! ولكم تمتدّ أيدينا إلى أقدار ليست دون ذلك القمر منالاً، وتعاودني ذكرى جهد مضن بذلته كي أزدرد حلمة اللدي فيصنّدي شيء مرّ مذاقه. وشارب جدّي الهلاليّ وأبامي تشدّه في سرور لا مزيد عليه. وتحطيم أصص الزهور، وكيف هوت إحداها مرّة من حافة الشرفة على ذراع البوّاب النوبيّ فكادت تكسرها. وكان من عاديّ إلّا أستسلم للنوم حتّى أمطي منكب أمي فتذهب بي وتجيء بطول البيت وعرضه، وكلّما توانت حثثتها بقدمي. وكنت أرفل دائماً في فساتين البنات، وشعري مسدل حتّى المنكبين. وقد بدا لأمي يوماً أن تمهّي لي بذلة عسكريّة محلّاة بالنجوم والنياسين، فارتدينها مسروراً، وقطعت البيت في عجب وخيلاء، ضابطاً عظيماً ذا ضفيرة تهادى على ظهرها ولم يكن جدّي يرتاح إلى ذلك التدليل المفرط. ولكنّه لم يجد من وقته متسعاً للإشراف على تربيتي، إذ كان يغادر الفراش عادة عند الظهر ولا يرجع إلى البيت من نادي القمار إلّا قبيل الفجر. وكان من ناحية أخرى يشفق من تكدير أمي لسوء طالعها، ولأنّه لم يبق له في شيخوخته سواها. عشنا ثلاثنا وليس للأب

نفس الشهر رُدّت أمي إلى زوجها السابق واجتمع شمل الأسرة. ولكن لم تدم هذه الحياة الجديدة إلّا أسبوعين! بل لعلّها لم تدم إلّا يوماً واحداً، وتحملت أمي بقيتها صابرة متصبّرة حتّى أقضّها الإشفاق على طفلها من شرّ السكير العريبد، فحملتها وفرت إلى جدّي المسكين. وثار الرجل ثورة عنيفة، ومضى لتوه إلى التائب الزائف وانهاه عليه تعنيفاً وتقريعاً وازدراء، واستمع الآخر إليه صامتاً، ثمّ قال له إنّ زوجه هي الملوّمة لأنّها لا تؤدّ العيش معه وإنّه لا ذنب له إلّا أنّه يسكراً وغادره جدّي يائساً وبهده شهادة الطلاق. انقطعت حياة الزوجيّة إلى الأبد، وكنت أنا ثمرة تلك التوبة الكاذبة...

وقد سمعت جدّي يمازحني يوماً فيقول لي: «لقد جئت إلى هذه الدنيا نتيجة لحساقتي أنا دون سواي...» ولكن ما أكثر الذين جاؤوا هذه الدنيا في أعقاب الحماقات. ونشأت في بيت جدّي، فلم أعرف بيتاً سواه، بل لم أعرف من الأهل غير جدّي وأمي، لأنّي حين أخذت أعي ما حولي كان أبي قد استردّ أخي وأختي، وكانت جدّي قد ماتت. ولم أعرف أنّ لي أباً إلّا بلسان أمي، وحديثها المفعم مرارة وحزناً، فنمت كراهيتي له على الأيام. وقد أنتم الرجل قسوته عليها فلم يكتفِ باسترداد ابنه وابنته، ولكنّه حال بينهما وبين رؤية أمّهما، فمرّت الأعوام تلو الأعوام وهي لا ترى لها أثراً. وترامت الأخبار إلينا تقول إنّ الرجل يكاد يحبس نفسه دون العالم كلّ، فأراً من الدنيا وما فيها بسكر متواصل لا يفيق منه نهائاً ولا ليلاً...

## ٤

كان بيت جدّي بالمنيل مولدي وملعبي وديناي. وكان يتكوّن من دورين كبيرين نقيص في الأعلى منها، وله فناء صغير. لست أريد التحدّث عن البيت، ولكنّي أنلّهف على استعادة الماضي. وما من ماضٍ إلّا وله بيت تحوم حوله ذكرياته. إنّ حياتي لا تنفصل عن ذلك البيت أبداً، ولن تنفصل عنه ما حييت، وما البيت ببناء وعمارة وهندسة، ولكنّه برج ثابت في



مضى يزداد بتدريج في مدارج النمو، وآي ذلك أنها أقبلت تخوّفي أشياء لا حصر لها لتردّي عما أُنْطَلَع إليه من حرّية وانطلاق. ولتحتفظ بي في حضنها على الدوام. ملأت أذنيّ بقصص العفاريت والأشباح والأرواح والجنان والقتلة واللصوص، حتّى خلّطني أسكن عالمًا حافلًا بالشياطين والإرهاب، كلّ ما به من كائنات خليق بالخذر والخوف. ذاك عهد بعيد، ولكنّه لا يزال حيًّا في صدري ودمي، وهو الذي جعل من الخوف جوهرًا أصيلًا في نفسي تدور حوله حياتي جميعًا، فنغص عليّ صفوي، ورماني بتعاسة لا تريم، وما أنا إلّا مخلوق خائف لولا قيد الجسد لفرت روحه ذعرًا، وأخاف الناس، وأخاف الحيوان والحشرات، وأفرق من الظلام وما يرصدني من أوهامه، وأتحامى جهدي أن أفرد بقطّ، وهيهات أن أنام في حجرة بمفردي. على أنّ الخوف كان أعمق في حياتي من هذه الأشياء التي يتمثّل لي فيها، لقد استطال ظلّه الكثيف حتّى أظلّ الماضي والحاضر والمستقبل، والبقطة والنوم، وأسلوب الحياة وفلسفتها، والصحة والمرض، والحب والكراهية، فلم يترك شيئًا خالصًا. وقد عشت جلّ حياتي الماضية غرًا جاهلًا لا أدري لتعاسي سببًا، تمّ جلت لي المحن جوانب من حياتي، هاتكة بقسوتها ما استر من الخفايا الأسيفة، بيد أنّ شعوري بالعجز لا يفارقي، وهو يستند في الحقّ إلى قصور ثقافتي وضعف ثقتي في قواي العقلية. كانت أمّي مبعث هذه الآلام ولكنّها كانت الملاذ الوحيد منها، فأويت إليها في غير حيلة...

ومن ذكريات ذلك العهد التي لا تنسى، موقفنا - أنا وأمّي - على قبر جدّي في المواسم نكلّله بالرياحين ونقرأ الفاتحة مترجمين. وكنا نتحدّث كثيرًا عن القبور وأهل القبور، وكيف يرقدون، وكيف يستقبلون، وماذا يلقون من شدّة وحساب، وكيف تنزل عليهم الآيات نورًا، يُذهب وحشتهم ويلطف جفوتهم، ولمّا كان القبر قبر أمّ أمّي فقد أحببته حبًّا جمًّا. وكنت إذا وجدت منها غرة هرعت إلى جانب منه، أنشب في ثراه أظفري، وأحفر في عجلة لعليّ أطلع على ذلك المجهول

إلّا ابتته وليس للآم إلّا ابنها، وكانت أمّي تمهّو لذكريات أختي وأخي بعين دامعة وفؤاد كسير، وتتلهّف على رؤيتها ولو ساعة واحدة، ولم تجد في حزنها من عزاء سواي، فأودعتني حضنها، لا تحبّ أن أبرحه، وتودّ لو أجعل منه مرتعي ومراحي ودنياي جميعًا. وهفّت نسائم الحياة رخاء، فلم أدرك إلّا بعد فوات الوقت أنّه كان حننًا شاذًا قد جاوز حدّه، ومن الحنان ما يهلك. كانت مصابة في صميم أمومتها فوجدت فيّ أنا السلوى والعزاء والشفاء، كترست حياتها جميعًا لي، أنام في حضنها، وأقضي نهاري على كتفها أو بين يديها، وحتّى في الأويقات التي كانت تتعهّد فيها شئون البيت لم أكن أفارقها، أو لم تكن تدعني أفارقها، وحتّى في المطبخ كنت أمتطي منكبها مفترشًا رأسها بخذيّ متسلّيًا بمشاهدة الطاهي وهو يشعل النار ويقطع اللحم ويخرط البصل، بل كنّا نستحمّ معًا فتحطّني في طست عاريًا، وتجلس أمامي متجرّدة فأرشها بالماء وأقبض على رغوة الصابون النافشة على حسدها فأدلك به جسدي، ولم تكن بغادر البيت إلّا قليلًا، فصلّتنا بآل أبي مقطوعة، وخالتي كانت تقيم في ذلك الوقت بالمنصورة مع زوجها، فإذا خرجت في النادر لزيارة إحدى الجارات اصطحبني معها. على أنّنا كنّا نواظب على زيارة السيّدة زينب، ولعلّها الزيارة الوحيدة التي كنّا ننظرها بفارغ صبر. ولم يكن يسيئها شيء مثل أن تنني على امرأة من معارفها بما يثنى به على الأطفال عادة، فكانت تتطرّف من الشناء وترقيني من العين في إشفاق عميق، ومن عجب أنّي لا أذكر التعاويذ والرقّيّ باستهانة أو ازدراء، وأنّي لمؤمن بها، بل إنّي لأؤمن بكلّ ما كانت تؤمن به أمّي. وقد نلت من الثقافة حظًا، وحصلت على البكالوريا، ولكن بقي لي إيمان القديم سالمًا غير منقوص، وهيهات أن يتزعزع إيماني بالله ورسله وأوليائه والدعوات والتعاويذ والأضرحة.

بيد أنّي لا أستطيع أن أقول إنّي استكنت إلى تلك الحياة بلا غمّل. ولعلّي ضقت بها في أحيان كثيرة، وتطلّعت إلى الحرّية والانطلاق. ولعلّ ضيقي ذاك

خرجنا معاً لزيارة السيّدة. إذا كنت تحبّي حقاً فلا تفارقني.

ولاح في وجهي التذمّر والامتعاض فاستطردت تقول:

- لقد حُرمت رؤية أختك وأخيك، ولم يبق لي في الدنيا سواك، وها أنت تودّ فراقني، ساعك الله... فتودّدت إليها قائلاً:

- إني أحبّك أكثر من أيّ شيء في الدنيا، ولكّني أريد أن ألعب...

ولكنّها لم تكن لتدعّن لسرغيتي تلك، وكنت إذا ضقت بإصرارها نكيت أو نار بي الغضب ثورة لا أعفّ فيها عن شدّ شعوري وعزيق ثيابي، ولكنّ شيئاً لم يكن ليجعلها تدعّن لرغبتني في الابتعاد عنها. وفيها عدا ذلك لم تدخّر وسعاً لمرضاتي. كانت تبتاع لي اللعب أشكّالاً والواناً. وإذا لمست ضيقي ومللي دعت بطفل من أطفال الجيران ليشاركني هوي تحت سمعها وبصرها. بيد أنّ ذلك كلّه لم يروّغلي، فتحنّنت منها غفلة يوماً وانسللت هارباً من الشقّة أكاد أخرج من جلدي فرحاً، واستقبلني الأطفال في الفناء بدهشة وترحاب معاً. ومع أنّه كان بيننا شبه تعارف إلّا أنّه لم يسعني الاقتراب منهم، فوقفت مكاني في ارتباك وحياء، وسرعان ما أطلّت أمّي من الشرفة ونادتني في حدّة الغضب، ولكنّ أكبر الأطفال تقدّم مّي، ودعاني إلى اللعب، وهو يقول لي: «لا تباهلها» ولأول مرّة لم أبال صوتها. فاندفعت إلى حلقة اللعب، وأخذت مكاني في سرور لا يوصف، ولم تكد تمرّ دقائق حتّى شجر خلاف بيني وبين أحدهم فلطمني على وجهي، وذهلت ذهولاً شديداً فلعلّها كانت أوّل لطمّة تلقّيتها في حياتي، وارتميت على ساعده وغرست فيه أسناني، ولم يتردّد رفاقه فانهالوا عليّ ضرباً وركلاً، وتوعّدتهم أمّي في غضب شديد، ولكنّهم لم يقلعوا عني حتّى هذبتهم بقذفهم بالقلّة، فغادروني في حالة يرثى لها. ودعّني للصعود إليها، وكنت ألثّ والدموع ملء عينيّ، فقهرني الحياء وتسمرت قدماي فلم ألّب نداءها، ولم أرفع بصري عن الأرض، ولم أفارق موقعي حتّى جاء

المنطوي تحت الأرض. ولشدّ ما كان يحزّ في نفسي أن أسمعها تردّد: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون» أو «آخرتنا التراب» أو «الموت نهاية كلّ حيّ» فسألتها مرّة في دهشة.

- سنموت جميعاً؟!

فساءها السؤال، وحاولت أن تلهيني عنه، ولكنّي وقفت عنده لا أترجّح فقالت:

- بعد عمر طويل إن شاء الله.

فرمقتها بإشفاق وسألتها مرّة أخرى:

- وأنت يا أمّاه!...

فقالت لي وهي تداري ابتسامة:

- طبعاً. ساموت يوماً ما...

فوقع قولها من نفسي موقعاً ألياً وهتفت بها:

- كلّاً... كلّاً... لن تموت أبداً.

وربّنت على رأسي بحنان وقالت برقة:

- ادعُ لي بطول العمر، كما أدعو لك يستجيب لك الرحمن الرحيم.

وبسطت كفّي الصغيرتين ودعوت الله من أعماق قلبي، وعبّاي مغرورقتان بالدموع.

## ٥

أظّل الدهر في حجرها كآتني عضو من أعضاء جسدها؟! جاوزت الرابعة من عمري، وجاء سنّ الرفاق واللعب. ولم يكن لي من مهرب في البيت إلّا الشرفة، وهي تطلّ على فناء البيت، وتشرف على الطريق. وكان أطفال الأسرة التي تسكن الدور الأوّل يلعبون في الفناء، فجعلت أنظر إليهم بعينين مشوّقتين، فيتطلّعون أحياناً بأعين قرأت فيها دعوة صامتة اهتزت لها جوانحي، واستأذنت أمّي يوماً في الانضمام إليهم، فقالت لي بارتياح: ماذا حدث لعقلك؟... ألا ترى أنّهم لا يكفّون عن العراك؟!... ما عسى أن أفعل لو ضربوك أو جرحوك؟... أو خرجوا بك إلى الطريق لا تنقطع به العربات؟ بل ماذا تفيد منهم إلّا الشقاوة وسوء الأدب؟ أمّا أنا فأقصّ عليك القصص، وإذا شئت

لإقامة شقيقتها بيننا ذلك الشهر، لا لفتور في عواطفها نحوها، ولكن لأن أبناءها استأثروا بي من دونها، وأفسدوني عليها. وشكت مرة إلى خالتي ما تخافه علي من حوادث الطريق، فضحكت المرأة باستهانة وقالت لها بلهجة لم تخل من لوم:

- «هل ابنك من لحم ودم وأبنائي من حديد!... قوّي قلبك وتوكّلي على الله!». أمّا أنا فقد نسيت في سعادي الشاملة تعاليم أُمّي جيئاً، واستسلمت للسُرور شهراً صادف حياتي الرتيبة كالحلم البهيج، وألقيت بنفسي في أحضان اللعب بشراهة ونهم، لا أستشعر تعباً ولا مللاً. وفي الليل إذا أويت إلى البيت كنت أضع عمامة زوج خالتي على رأسي وأحكي لهجته في الحديث، وأتجشأ كما يتجشأ، وأنتم عقّب ذلك قائلاً: «استغفر الله العظيم» والكسل من حولي يضحكون!

كان شهراً كالحلم، ولكن الأحلام لا تدوم. وقد انقضى. ورأيت بعين الحسرة الحقايب وهي تُعدّ وتكوم استعداداً للرحيل. وحَمّ الفراق، فكان عناق وسلام، وحملتهم العربة جميعاً ومضت، وأنا أودّعهم من الشرفة بطرف داعم كبير.

وقالت لي أُمّي:

- كفّاك لعباً وجرياً في الشارع، ثب إلى رشدك، وعد إليّ كما كنت لا تفارقي ولا أفارقك.

وأصغيت إليها في صمت. كنت أحبها ملء فؤادي ولكنّي كنت أهفو كذلك للعب والمرح. وبدأ لأُمّي أن تحضر لنا خادمة صغيرة، وسمحت لها بأن تلاعبني تحت سمعها وبصرها. فكانت رفيقاً خيراً من عدمه على أيّ حال، كانت صبيّة دميمة، ولكنها كانت أفضل لي من الطاهي الهرم وأمّ زينب العجوز. وكانت أُمّي محافظة على صلاتها، فجعلت أفلدها إذا صلّت، ولعلها وجدت الفرصة مناسبة فمضت تلقني مبادئ الدين كما تعرفه. عرفت الدين مبتدئاً بالجنّة والنار، فانضافت إلى معجم خوافي كلمات جديدة، بيد أنّها كانت مصاحبة هذه المرة لعاطفة صدق وحب وإيمان.

البوّاب فحملني إليها. وغسلت لي وجهي وساقيّ وهي تقول في انفعال شديد:

- تستاهل... تستاهل... هذا جزاء من يخالف رأي أمّه، إنّ الله يغفر كلّ شيء إلا من يعاند أمّه، فلن يغفر له. هذا هو اللعب مع الأطفال، فكيف وجدته؟!

ألتمني هزيمتي أمامها أضعاف ما ألمني الضرب، ورحت أوكد لها كذباً أنّ الحقّ كان عليّ، وأني كنت المعتدي. ومن عجب أنّ أُمّي نفسها لم تكن تكثر من الاختلاط بالناس، فلم يألّف بيتنا الضيوف إلا فيما ندر. وكان جدّي يضيق بعزلتها، ويحثّها دائماً على المعاشرة لتسرّي عن نفسها. ثمّ شاء الله أن يؤنس وحشتنا، فحلّت خالتي ضيفة بيتنا هي وأسرتها! كانت خالتي تقيم مع زوجها - مدرّس لغة عربيّة - بالمنصورة، فانتقلوا إلى القاهرة ليقضوا بيننا شهراً من العطلة الصيفيّة. وجدت نفسي بين سنّة من الأولاد وبنت، فأقلت الزمام من يد أُمّي على رغبها. وكان أكبر الأولاد في العاشرة، وأصغرهم يحبو، فانقلب البيت الهادئ سرّاً تقفز به القروود والنسانيس، فلعبت ولهوت حتّى كدت أجنّ من الفرح والسُرور. لعبنا الجديد والحجلة، والواپور، والاستغماية.

ولمّا ضقنا بالبيت انطلقنا إلى الطريق وأنا لا أكاد أصدّق. وأرادت أُمّي أن تحول بيني وبين الانطلاق معهم، ولكنّ خالتي تصدّت لها قائلة:

- دعيه يلعب مع الأولاد يا أختي!... لو كان بنتاً ما جاز لك أن تحجبيه قبل الألوان!

كانت الشقيقتان مختلفتين في المزاج على تقاربهما في الشبه. كانت خالتي مفرطة في السمّة، ميّالة للمرح والمزاح، لا تكرب نفسها بالقلق على أبنائها بغير داع. وكانت إذا غادر جدّي البيت غنّت بصوت لطيف محاكية «منيرة المهدية». أمّا أُمّي فتبدو على العكس من هذا كلّ. فهي نحيفة، متزوية، كثيرة المخاوف والقلق، مفرطة في الحنان لحدّ الشذوذ. وقد أرهقت ظروف حياتها أعصابها، فكانت لا تكاد تخلو إلى نفسها حتّى تلفّها كآبة شاملة. ولعلّها لم ترتح كلّ الارتياح

- أنت الآن تلميذ عظيم، وستفتح المدرسة يوم السبت القادم...

وأعلنت أمي عن ارتياحها، ولكنها لم تستطع مداراة ما اعترأها من كآبة، حتى برم بها جدّي وقال لها بشيء من الحدة:

- ماذا تفعلين غداً إذا بلغ السابعة وأخذه أبوه!

فرمقت جدّي بنظرة فزع وألم وهتفت قائلة:

- لن يكون هذا وأنا على قيد الحياة.

وفي يوم السبت المنتظر أوصلني جدّي إلى المدرسة وعاد من حيث أتى. وقد تعلّقت بيده وهو يغادرني، واستشعرت خوفاً مبالغاً أنساني طول اشتياقي إلى تلك الساعة، واقترحت عليه أن يعود بي! ولكنه ضحك ضحكته الرئانة وقال وهو يومئ بأصبعه إلى التلاميذ:

- إليك أهلك الجدد...

وقفت على كذب من الباب في ارتباك لم أعان مثله من قبل، وتولّاني الندم، ونظرت إلى التلاميذ المتفرّقين في الفناء بخوف وحياء، وتمنّيت ألا تقع عين عليّ. ولكنّ أناقني وجدة ثيابي لفتنا إلى الأنظار فغضضت بصري في خجل شديد. وتساءلت حتّام يطول ذاك العذاب؟ بيد أنّ غلاماً اقترّب منّي وحيّاني، ووقف معي كأننا أصدقاء. ثمّ سألني بغير مناسبة:

- هل أبوك الذي جاء بك؟

وكنّت أعدّ جدّي جدّاً وأباً، فحنيت رأسي دلالة الإيجاب، فعاد يسألني:

- ما مهنته؟... وما اسمه؟

ولئن كان الحديث ضايقي، إلّا رحّبت بذلك السؤال خاصّة، فقلت بفخار:

- الأميرالاي عبد الله بك حسن.

وقال لي الغلام إنّ أباه فلان بك كذلك وقد نسيته. ولعلّه ضاق بصمّي وجودي فغادرني وانضمّ إلى غيري من الرفاق. اشتدّت بي الوحشة وتساءلت ترى أستطيع أن أندمج في أولئك الغلمان؟ هل يمكنني حقاً أن ألعبهم أم تتكرّر المأساة التي وقعت لي في فناء بيتنا؟ وتقبّض قلبي خوفاً، ولو واتني الشجاعة على الانسحاب من موقفتي والعودة إلى البيت لفعلت. ثمّ

وأدّت حال أمي تلك معي إلى تأجيل تاريخ التحاقني بالمدرسة، فقاربت السابعة دون أن أتعلّم حرفاً. وتدخل جدّي في الأمر، مدعاني يوماً إليه وهو جالس بالشرقة على مقعده الطويل الهزاز، وعرك أذني مداعباً وقال لي:

- طالما رغبت في الانضمام إلى أترابك من الغلمان، فالآن قد فكّ الله أسرك، وسأذن لك بالاشتراك معهم في حياتهم عمراً طويلاً، ستدخل المدرسة!

أنصتُ إليه في دهشة بادئ الأمر إذ لم أكن أدري شيئاً عن المدرسة، ثمّ بدا لي أنّه سيطلق سراحي فنظرت إلى أمي بين مصدّق ومكذّب، ولشدّ ما دهشت حين رأيته تبسم إليّ في تشجيع واستسلام، فانبعث الجبور في صدري فياضاً، وهتفت بجدّي مستائلاً:

- هل ألعب في المدرسة كالأطفال؟

فهزّ الشيخ رأسه الأبيض وقال:

- طبعاً... طبعاً... ستلعب كثيراً وتعلّم كثيراً،

ثمّ تصير فيها بعد ضابطاً مثلي...

فسأله في لهفة:

- متى أذهب؟...

فابتسم الرجل قائلاً:

- قريباً جدّاً، سأقيد اسمك غداً...

وفي صباح الغد - وكنا في مطلع الخريف - ألبسوني بدلة وطرבוشتاً وحذاءً جديداً فعادوني ذكريات العيد السعيد، ومضى بي جدّي إلى عطفة قاسم غير بعيد من بيتنا، ودخلنا ثاني بناء صادفنا إلى اليسار، مدرسة الروضة الأولى الأهلية، وقد وقع عليها الاختيار لقربها من البيت، كانت تتكوّن من فناء متوسط ودور واحد من ثلاث حجرات، فصلين وحجرة الناظر. وقد استقبل الناظر - وهو صاحب المدرسة أيضاً - جدّي بالاحترام والإجلال، ولاطفي في محضره برقة، وأطرى نظافتي وجدة ثيابي، فأنست إليه واستبشرت به خيراً. وتمّ إثباتي بين تلاميذ المدرسة في دقائق، ودفع جدّي المصروفات، وعدنا وهو يقول لي:

وارتقيت السلم وثبًا، وفي الشقة وجدت أمي في انتظار، فتهفت بي لَمَّا رأيته:

- أهلاً بنور العين...

ووقع بصرها مصادفة على البنطلون، فبدا في وجهها الانزعاج، وتمت بصوت منخفض:

- ربّاه... بلت على نفسك!

وانفجرت باكياً، وقلت لها منتحباً:

- لن أعود إلى المدرسة، إنّ جدّي لا يدري عنها شيئاً، وإنّي أكره الناظر والمدرسين والتلاميذ، أنقذيني منها ولن أبعد عنك ما حييت...

فجففت دموعي، ونزعت ملاسبي، وهي تقول رقة:

- لا تقل مثل هذا الكلام، ستألفها وتحبها، كيف تبقى في البيت والغلمان جميعاً في المدرسة؟ وهل يمكن أن تصير ضابطاً مثل جدك إذا تركت المدرسة؟!

وواصلت البكاء، وألحت في الشكوى، ولكنّها جعلت تلتطف من حزني وتحذّري من البوح لجدّي بشكواي أن يغضب ويحتقري. ولأول مرة أعارت دموعي أذنًا صمّاء.

\*\*\*

وبدا لها - تشجّعني على مواصلة الحياة الجديدة - أن توصلي كلّ صباح إلى المدرسة، فكنا نذهب يومًا، وأدخل أنا المدرسة بينما تقف هي على الطوار المقابل لها، وأظّل ملازمًا للسور، أبادلها النظرات والابتسام من خلال قضبانها، والكآبة ترين على صدري والضيق يمسك بخناق. كرهت المدرسة وحياتها جميعاً، ولكنّي أجبرت على الذهاب إليها، ولم ينفعني عصياني ولا بكائي ولم يغنيا عني شيئاً، فأيقنت أنّه قضي عليّ بسجن طويل الأمد. ولأول مرة وجدتي أحسد الكبار على حرّيتهم، وأغبط النساء على قبوعهنّ في البيوت. وإلى ذلك العهد يرجع سروري بيوم الخميس، فكان اليوم المفضّل عندي من الأيام، أمّا بقية أيام الأسبوع فقد جفوتها واستقلتها، وكنت أستشعر الكآبة ابتداء من أصيل يوم الجمعة، ويمرّ السبت والأحد والاثنين

دقّ الجرس فأنقذني من أفكاري، وأوقفونا صفًا، وأدخلونا الفصل. لم أكن أتصوّر حتّى ذلك الوقت إلّا أنّي التحقت بملاعب كبير، فلمّا أن جلست إلى مقطر، وراح المدرّس الشيخ يفتح العام الدراسي بالإرشادات التقليدية الخاصّة بالنظام وعدم الحركة والكلام، أيقنت أنّي دخلت سجنًا... وتولّتي الدهشة والانزعاج، ترى أأخطأ جدّي أم خدعوه؟ وطار خيالي إلى البيت فتمثّلت لي أمي في جلستها وحيدة، وتساءلت ترى هل نسيته؟ إنّها الآن تراقب أم زينب وهي تكنس الحجرات وتنفض الأثاث، ألم تفكر في؟.. هل تطيق فراق طول اليوم كلّهُ؟ وانتهت الحصّة الأولى دون أن ألفت لحظة واحدة إلى كلام الشيخ، ولا عجب، فقد قرّرت أن يكون ذلك اليوم الأوّل والأخير. وفي دقائق الاستراحة رأيت الناظر يمرّ بباب الفصل، فتنفّست الصعداء. ومضيت نحوه بلا تردد إذ لم أكن نسيته لطفه ورقته، واقتربت منه في حياء، فالتفت نحوي في دهشة، ورمقي بعينين جامدتين متسائلتين فظننته قد نسيني، وقلت بصوت لا يكاد يسمع:

- أنا ابن الأميرالاي عبد الله بك حسن.

فسألني بدهشة:

- وماذا تريد؟

فلممت أطراف شجاعتني وقلت:

- أريد أن أعود إلى البيت.

فصرخ في وجهي بصوت غليظ كالرعد:

- عد إلى قمترك... عمي في عينك...

وأذهلني صراخه، فعدت إلى مكاني يكاد يغمي عليّ من الرعب والألم. ولبثت في مكاني مروّعًا محزونًا. وفي أثناء النهار شعرت بحاجة إلى التبول ولكنّي كنتها في خوف شديد، ولم أفكر مطلقاً في استئذان المدرّس في الخروج. وغلبني الخياء في الفسحة فلم أستطع أن أسترشد بأحد عن موقع المراض. وجعلت أتملّل تملّل الملدوغ، وأشدّ على ركبتي في ألم وجزع. ومرّ الوقت في ثقل وعذاب حتّى دقّ جرس الخروج فأطلقت ساقني للرياح، فبلغت البيت في ثوانٍ،

الفاضحة. ولما اطلع جدّي على الشهادة غضب. وقال لأمي بحدة:

- هذا نتيجة تدليك... لقد... أفسدته يا ستي.

ثم توعد الناظر شراً، ومضى لمقابلته في المدرسة. ورجع إلينا بعد ساعة وهو يقول بارتياح:

- نجحت يا سيدي بالقوة، وإياك أن تسقط في السنة التالية!

وكان يداعبني أمل بأن سقوطي ربما عدل بهم عن إرسالني إلى المدرسة، فلما بشرني بذلك النجاح المغتصب خاب أمني. وجاءت السنة الثانية فلم تكن بخير من الأولى. وزاد من شقائي هفوة لسائبة عثرت بها فضاغت من تنغيص حياتي بقية المدة التي قضيتها في الروضة الأولى، رفعت أصبعي مرة لأستاذ المدرس في الخروج، ولكن بدلاً من أن أدعوه «يا أفندي» أخطأت وأنا لا أدري فقلت له «يا نينة».

وضج الغلمان بالضحك، وضحك المدرس نفسه وقال لي بسخرية:

- إيه يا سيد أملك؟...

وقهقه الفصل بالضحك، وتولاني الدهول، ولبثت ذاهلاً حتى اغرورقت عياني، لم يكن لي فيهم رفيق أو صديق، فقد بدا عجزني عن اتخاذ الأصدقاء منذ ذاك العهد البعيد، فلم يرحمني أحد منهم، ودعوني منذ تلك الهفوة بنينة حتى غلبت على اسمي الحقيقي، وكنت أتحامهم مقهوراً مغلوباً على أمري ونار الغضب ترعى صدري.

وفي نهاية العام جاءتني شهادة الأصفار فأنهت أمني المدرسة. وقرّر جدّي أن يلحقني بالمدرسة الابتدائية، ولما كنت متخرجاً في مدرسة أهلية اشترط الناظر أن أؤتي امتحاناً، ومضى جدّي بي إلى المدرسة قبيل افتتاح العام الدراسي، وانتظر نتيجة الامتحان. ولم تكن بحاجة إلى الانتظار، ورجا الناظر أن يقبلني بصرف النظر عن نتيجة الامتحان، وأراد الرجل أن يجمال جدّي لكبر سنّه ومقامه فطلب إليّ أن أكتب اسمي «كامل رؤية» ولكني أخطأت في كتابة رؤية

والثلاثاء في ضيق وتبرّم، حتى يأتي صباح الأربعاء فأنفّس الارتياح، ثم أستيقظ عند الفجر الخميس وأنقلب تحت الغطاء في سرور وجور والدنيا لا تسعني من الفرح. ولذلك تفوّقت في دروس الخميس، ولم تعد المحفوظات والديانة... على أن ذلك العهد لم يخل من ذكريات تثير الابتسام، وإن بدت لي وقتذاك في إطار من الجّد والصرامة، من ذلك أننا كنّا نبتاع السميد في الفسحة، وإذا أعوزنا الملح استعضنا عنه بالجبر الطافع من جدران الفناء. وكان مدرّسنا الشيخ يروق له أن يشرب كوباً من العرقسوس في أثناء الحصّة الأولى، فكان إذا تناول الكوب يأمرنا بالوقوف ويدارة ظهورنا له حتى لا يصيبه مكروه من أعيننا النهمة. وجاءنا يوماً متجهّماً وقال إنّه شعر ليلة أمس بمغص وإنّه لا يشكّ في أن أحداً استرق إليه النظر وهو يشرب العرقسوس، وأنذرنا إذا لم نرشد عن الجاني بالضرب على أيدينا جميعاً، ولما كنّا نجهل الجاني فقد ضربنا جميعاً. وكان زميله الآخر شيخاً هرمًا رقيق النفس، فلم يكن يضرب أحداً إلا إذا أعبته الوسائل، وكانت طريقته المفضّلة في إسكات التلاميذ وضبط النظام أن يخوفنا بالعفريت الذي يسكن أرض الحجرة من قديم الزمان، قائلاً إنّه لا يحبّ الضوضاء، وكان إذا أفلت الزمام من يده يجلس القرفصاء وينقر على أرض الغرفة ثم يقول بخشوع ورهبة «عفوك يا سيدنا». إنهم لا يدركون شيئاً. لا تركيبهم وساحهم هذه المرة.

أما الدراسة فإنّي لم أتعلّم شيئاً على الإطلاق. ولعلّ الفنّ الوحيد الذي أتقنته في مدرسة الروضة الأولى هو قياس الزمن بمراقبة تحوّل ضوء الشمس عن جدران الفصل، وأنا أعدّ الثواني في انتظار جرس الخروج. وكان المعنى الوحيد الذي يتضمّنه توجيه سؤال من المدرّس أنّي سأضرب كذا مسطرة على ظاهر كفي. ولم أحفظ في بحر عام دراسي إلا بعض السور القرآنية الصغيرة التي كنت أسمع أمني ترنّدها في صلاتها. وجاء الامتحان في نهاية العام فظفرت بجملّة أصفار تكفي لجعلي مليونيراً لو ظفرت بها في غير الشهادة

حتى أبلغ التاسعة، وقُبلت الشفاعة بمعجزة من السماء. وها قد اقتربت التاسعة، ولسوف أنتزع من أحضان أمي ما لم يتنازل أبي عن حقه في استردادي. وبكت أمي يوماً في محضر جدّي وقالت له:

- لقد فقدت راضية ومدحت فلم تقع عليهما عيني منذ تسع سنوات، ولم يبق لي إلا كامل، فهو عزائي الوحيد في هذه الحياة، ولا أدري ماذا أفعل إذا سلبني الرجل إياه.

وهزّ جدّي رأسه الأشيب متبرّماً، وكان ذاك الحديث يكرهه، وقال لها:

- وماذا بيدي أن أفعل؟! هذا حكم الشرع وما لنا من حيلة فيه، والرجل الذي تعينه هو أبوه على أيّ حال، وليس برجل غريب!

فهفت أمي في تألم واحتجاج:

- أبوه!... أتدعو هذا الوحش أباً؟! يا أسفي على راضية ومدحت في البيت الذي جعل السكير منه حانة. إنّ الأبوة لم تختلج بصدرة قط. وكامل قد ترعرع في رعائتي ونهل من حناني، ولم يدر شيئاً عن شواذ المحلوقات، فإذا أخذه الرجل هلك بين يديه، وهلك هنا وحدي...

وخنقتها البكاء فأمسكت عن الكلام مرغمة، ولما استردت أنفاسها استطردت تقول:

- هل تتصوّر يا أبي أنّ كامل يستطيع أن يعيش بعيداً عن أمّه؟ إنّ يديّ هاتين تطعمانه وتلبسانه وتنسّانه، إنّهُ يخاف خياله، وإنّهُ لَتُفزعهُ زفرات الصراصير، فكيف يأذن الشرع بأن يُنتزع مثل هذا الطفل من أحضان أمّه؟!

وقطّب جدّي متبرّماً، وبدا وكأنّه ضاق بشكواها، بيد أنّ وجهه لم يكن مرآة صادقة لقلبه، وكثيراً ما كان يبدو ساخطاً والقلب منه نديّ بالرحمة، ولم يزد وقتذاك على أن قال: كفّاك شكوى وبكاء. إن قسم له أن يمكث بيننا مكث، وإن أراد الله أن يذهب إلى أبيه فلا رادّ لقضائه...

ذاك كان قوله، أمّا صنيعه فكان شيئاً آخر. فقد حزم أمره يوماً ومضى إلى أبي ليفاوضه في شأن

فاعتذر الناظر من عدم إمكان قبولي. وعاد بي جدّي وهو يسخر منّي طوال الطريق، وقال لأمي وهو ينفخ: - لا فائدة ترجى من إعادته إلى المدرسة الأولى، فسأحضر له مدرّساً خصوصياً هذا العام.

وأنصت إليه وأنا لا أصدّق أذنيّ، سأله وأنا أدري فرحي:

- هل أبقى هذا العام في البيت؟

فحدجني بنظرة غاضبة من عينيه الخضراوين وقال بغيط:

- يا فرحة أمك بك!

## ٧

واستقبلت عامّاً مثمراً لأوّل مرّة في حياتي، وجلست أمناً مطمئناً بين يدي مدرّسي الشيخ، أتلقّن مبادئ العربيّ والحساب. بدأت أخطو الخطوات الأولى في طريق التعليم، وإن مضت ساعات الدراسة في ثقل وضيق كالعادة، ولكي أضمن معاملة حسنة من المدرّس أجلسات أمي غير بعيد من باب حجرة المدرّس للاستنجاذ بها عند الحاجة، ولا عجب فإنّ ذكرى العامين اللذين قضيتها في مدرسة الروضة - ما بين ضرب المدرّسين واعتداء التلاميذ - لم تمحّ من نفسي قط. ولم أكن أنصوّر حتى ذلك الوقت أنّ التعليم واجب ضروريّ سأؤدّيه شطراً طويلاً من العمر، ولكنتي عدده عقاباً فرض عليّ لسبب لا أدريه، ولم أياس من أن يلين قلب جدّي يوماً فيعفيني منه.

على أنّ أمي لم تكن أسعد حالاً منّي. كانت تعاني عذاباً من نوع أشدّ. وقد ازدادت كآبة في تلك الأيام، فلم تكن تخلو إلى نفسها حتى تبكي مرّ البكاء. ولم تكن تجلس إلى جدّي حتى تفاتحه بالأمر الذي يقضّ مضجعها، أجل لم يعد يفصل بيني وبين التاسعة إلا أشهر قلائل، فإذا بلغت حتى لأبي أن يضمّني إليه، وهو لا بدّ فاعل كما فعل بأختي وأخي من قبل. وقد تهدّنا ذاك الخطر حين بلغت السابعة، ولكنّ جدّي كتب إلى عمّي - وهو من كبار المزارعين في القيوم - راجياً أن يستشفع لي عند أبي ليركني في كفالة جدّي

جدي وأشبعته يده تقيلاً وهي تقول بلهفة:  
- حقاً؟... حقاً؟... هل رحم الله قلبي  
الكسير؟

وأخذ جدي يقتل شاربه في ارتياح بينما عادت أمي  
تسأله بنفس اللهفة:

- أرايت راضية ومدحت؟

فهز رأسه أسفاً وقال:

- كانا في المدرسة!

فدعت لها دعاء حاراً وعيناها تغرورقان. ولم يكن  
جدي يزورها لكرهه لآبي، ولأنه لم يكن ينتظر  
استقبالاً كريماً في بيته. ثم قص جدي كيف قابل أبي  
في الفراندا وبين يديه زجاجة خمر وكأس مترعة. وكيف  
تلقاه بدهشة واستغراب، وكيف أنه لم يعد له من عمل  
في الحياة إلا الشراب، ولعلّ اضمحلاله ذاك الذي  
جعله ينقاد لاقتراحه متنازلاً عن عناده القديم.

وقد بدا أول الأمر وكأنه يرتاب فيها يلقي على  
سمعه، فلما أن تبينه ضحك في سخرية وازدراء من  
غير ما معاندة أو غضب وقال ببساطة:

- لا دماغ لي للترية، ولاكون مرضعة من جديد.  
خله عندك إذا شئت ولكن لا تطالبني بمليم واحد،  
هذا شرط صريح، وإذا طولبت بمليم واحد فيما  
يستقبل من الأيام انتزعت منكم فلا تقع عليه أعينكم  
ما حييت.

وقبل جدي الشرط، وكان يحده مقدماً من قبل  
أن يذهب إليه، ولكنه عجب كيف أن الرجل لم يد  
عن أية رغبة في رؤية ابنه، ولا سأل عنه على  
الإطلاق. ثم قال جدي:

- لم يعد رؤية لآب إنساناً، لقد انتهى الرجل.

فغمغمت أمي في حزن وكآبة:

- واحزنه على راضية ومدحت!

فقال جدي يطمئنها:

- إن راضية في السابعة عشرة ومدحت في السادسة  
عشرة، ولم يعودا طفلين...

\*\*\*

وثبنا إلى طمانيتنا المعهودة، فنحنونا من ذاك الخوف

استبقائي في كفالته. والحق أن جدي كان يحبني حباً  
بالغا. أحبني لأنني كنت أنيس شيخوخته، والطفولة  
تحرك في الشيخوخة أعماق الصدور، وأحبني لحبه أمي  
التي لبثت إلى جانبه بعد وفاة جدي ترعاه بحنانها  
وعطفها وحبها. ذهب الشيخ إلى أبي وانتظرنا وأيدنا  
على قلوبنا. ومرّ وقت الانتظار على أمي في عذاب لا  
يمكن أن أنساه مهما امتدّ بي العمر. لم يكن ليقرّ لها  
قرار أو يسكن لها جانب، وجعلت تخاطبني حيناً  
وتخاطب نفسها أحياناً. ودعيتي مرّات إلى مشاركتها في  
الابتهاال إلى الله أن يكفل مسعى جدي بالنجاح.  
ومضيت أرقبها بعينين محزنتين حتى انتقلت عدوى  
قلقه إلى صدري فاستعبرت باكياً. انتظرنا طويلاً - أو  
هكذا خيل إلينا - يشملنا حزن وقلق، تسبح أعيننا  
دمعاً، وتلهج ألسنتنا بالدعاء، حتى سمعنا جرس  
حنطور فهرعنا إلى الشرفة، فرأينا جدي وهو يقطع فناء  
البيت بخطاه الثقيل... وعدنا إلى الباب ففتحنه،  
ودخل جدي صامتاً وهو يجدجنا بنظرة لم ندرك لها  
معنى.

ومضى إلى حجرته فتبعناه وقد خانت أمي الشجاعة  
أن تسأله عما وراءه، وراحت تهمس بصوت متهذج «يا  
ربي... يا ربي!» وخلع طربوشه بأناء وهو يتحامي  
عيني أمي، ثم جلس على مقعد كبير قريب من  
فراشه، ثم ألقى علينا نظرة طويلة وقال بصوته  
الأجش وكأنما يخاطب نفسه:

- رجل مجرم... ماذا كنت تنتظرين من رجل  
مجرم؟

وابيضّ وجه أمي وارتعشت شفتاهما، ولاح في  
عينيها القنوط، وجعلت أرّدد بصري بين جدي وأمي  
في قلق وخوف. وتركنا جدي لشقائنا هنيهة، ثم رثي  
لنا فرفع عن وجهه نقاب التجهم، وقهقه ضاحكاً،  
وقال بصوت ينم عن الظفر:

- لا تقتلي نفسك كمداً يا أم راضية. فقد أذعن  
الشیطان بغير تعب طويل.

بهتنا بادئ الأمر، ثم تهلّلت وجوهنا بشراً، وتلاّلا  
نور الفرح في عيني أمي، ثم جثت على ركبتها أمام



الغرياء، وزاد طبعي تعاسة ما جُبلت عليه من صمت وعي وحصر، فلم أحسن الكلام قط، فضلاً عن الدعاية والمزاح، لذلك جميعه رموني بثقل الدم، وقد أَلتني هذه الصفة، حتّى سألت أمي يوماً:

- هل أنا ثقیل الدم يا أمّاه؟

فرمقتني بنظرة ارتباع وقالت بحدة:

- من قال عنك ذلك؟

فقلت في حياء:

- التلاميذ كلّهم؟

فصاحت بغضب:

- قطعاً لألستهم. إنهم ينفسون عليك أدبك الكامل، والخطور الذي يحملك بيننا يتسكعون على أقدامهم، إنك وأن تتخذ منهم صديقاً...

ومتي كنت في حاجة إلى مثل تلك النصيحة؟! وهكذا كابدت الحياة في المدرسة في وحدة، يطالعي روح عداوة وبغضاء من الجو المحيط بي. ولعلها كانت لا تخلو من غبطة لو أنّي أسهمت في مسراتها، ولكنّ خجلي الشديد أجبرني على مقاطعة الألعاب بأنواعها كالكشفة والكرة والقسم المخصوص، حتّى الرحلات المدرسيّة لم توافق أمي على الاشتراك فيها أن يصيبي مكروه، وكان التلاميذ يتحدّثون عن الأهرام وأبي الهول ودار العاديات والفسطاط فاسترق السمع في حيرة وحزن وكأني أستمع إلى سائحين يقصّون عن بلاد نائية! ولشدّ ما يتأبني من خجل إذ أقرّر أن عيني لم تقعا من القاهرة - المدينة الوحيدة التي عشت بين أسوارها - إلّا على شوارع معدودات هي كلّ حظي من مشاهدات في هذه الدنيا الواسعة. ولم يكن لي من عزاء في تلك الأيام إلّا أن أنفرد بأمي في الشرفة أو في حجرتها، ثمّ نأخذ بأطراف الحديث، كان ليس لحديثنا من نهاية. وكانت عصا المدرّس تذكّرني بأنّ عليّ واجباً ينبغي أو أؤديه قبل النوم، فأقبل على الكتاب مستكرهاً، وأذاكر بلا روح ولا حماس وسرعان ما يترنّج رأسي ويرتق النوم بجفني.

\*\*\*

ويوماً قرئت علينا - في حصّة الديانة - هذه الآية

الذي اعترض سبيلنا مهتدّاً، وواصلت الدراسة في البيت أعالجها بصعوبة وضيق. واستدار العام، وحلّ الخريف وكثر الحديث عن الدراسة والمدرسة، وأيقنت أنّي معاد قريباً إلى السجن. وقلت يوماً لأمي:

- إذا كنت تحبّيني ولا توافقين على أن يأخذني أبي فلماذا ترضين بأن تفرّق المدرسة بيننا؟

فضحكت ضحكتها الرقيقة وقالت:

- يا للعار! كيف تقول هذا وأنت الرجل الكامل؟! ألا ترغب أن تكون يوماً ضابطاً كبيراً مثل جدك؟ وماذا يبقى إذا هجرت المدرسة إلّا أن تشتغل بائع فول أو كمساري ترام!

ومضى بي جدّي إلى مدرسة العقّادين بمصر القديمة، ونجحت في الامتحان هذه المرّة. وهل العام الدراسي، وانتظمت في المدرسة كارهاً مرغماً. وكان الخطور يوصلني صباحاً إلى المدرسة، ويعود بي مساءً إلى البيت، وفي نظير ذلك منع جدّي أمي من توصيلي بنفسها كما كانت تفعل على عهد المدرسة الأولى. عدت مرّة أخرى إلى المدرسة، وعانيت من جديد الدروس والنظام وقسوة المدرّسين وسخرية التلاميذ. كانت حياتي المدرسيّة شقاء كلّها. وأكّد ذلك الشقاء أنّي كنت ملكاً مستبدّاً في بقيّ وعبدًا ذليلاً في مدرستي. وطالما تحيّرت بين الحبّ الذي يغمرني في البيت وبين عصا العلّم وسخرية التلاميذ.

وقد اكتسبت عداوة المدرّسين ببلادي وخمود ذهني حتّى أطلق عليّ بعضهم «الغبيّ الممتاز» وكان مدرّس الرياضة إذا انتهى من شرح درس سألتني عنه وما يزال بي حتّى أجيب إجابة ترضيه فيتنفّس الصعداء ويلتفت نحو التلاميذ قائلاً: «لا بدّ أنكم فهمتم ما دام سي كامل قد فهم» ويضحّك الضحك!

أمّا التلاميذ فكان دأبهم السخرية منّي ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. وكان عجزني عن إنشاء علاقة صداقة حقيقة مرّة لا شكّ فيها فلم أظفر في حياتي بصديق. والحقّ أنّي لست أسوأ من كثيرين ممن يتمتّعون بصداقات سعيدة، ولكنّي شديد النفور بطبعي، شديد الخجل، محبّ للوحدة والعزلة، عديم الثقة في

فضرب جدي الأرض بقدمه حتى ارتجت أركان  
الحجرة وصاح بغضب:

- محال؟! بل هي الحقيقة الواقعة، هي الفضيحة  
العارية، هي الضربة القاصمة لكرامتنا..

ولم تحر أمي جوابًا كأنما فقدت النطق. وتنفس  
جدي بشيء من الجهد ثم قال وكأنه يخاطب نفسه:

- أي جنون سلبها الرشاد!... ليس هذا الدم  
الفساد بدمنا! هذا دم شيطاني يفضح سوء فعله

الأصل القذر الذي استمد منه. لقد مات حدّها وهو  
يصب لعناته على رأس أبيها فحلت اللعنة بذريته.

وازدردت أمي ريقها وتمتمت في ارتياح:

- أقطّع بها من كارثة! كيف ضلّت الفتاة؟! لقد  
أفسد السكير العريد عليها حياتها، ما أتعسها!

فقال جدي باستياء وحنق:

- لا تتحلّ لها الأعذار. لا شيء في الوجود يسوّغ  
هذا الفعل الشائن...

فغمخت أمي بصوت باك:

- لست أنتحل لها الأعذار، ولكنّها تعيسة ما في  
ذلك من شلّ...

وساد صمت محزن، ولبثا يتبادلان نظرات الغم  
والكدر والقنوط، وقد أصغيت إلى ما دار بينهما بانتهاء  
تدبير، فأدركت أهونه، وغابت عني خطورته الحقّة،  
كان الأمر يتعلّق بأخت لم تقع عليها عيناى لماذا  
هربت؟ وأين اختفت؟ وتساءلت:

- لماذا لم تحضر إلينا؟

فصاح بي جدي حانقا:

- اخرس!

وارتمى على مقعد، واستطرد يقول:

- جاءني عمّها في النادي وأبلغني الخبر قال إنّه لا  
يعلم شيئًا عن حقيقة الحال. وقد أبرق له مدحت  
للحضور فورًا، فجاء بلا إبطاء، ثم أخبره الشاب  
باختفاء شقيقته. أمّا المجرم السكير فلم يزد على أن  
قال «في داهية». ثمّ ذهنا معًا إلى بعض أصدقاء العمّ  
من رجال المحافظة وأفضينا إليهم بالخبر الشائن سائلين  
معونتهم.

الكرمية «إذا جاءت الصاخة، يوم يفرّ المرء من أخيه،  
وأمه وأبيه الخ...» فلا أذكر أنّي انزعجت لشيء  
انزعاجي لها، لم أطق أن أتصوّر أن أفرّ من أمي في يوم  
مهما كانت فظاعته، وأن أغادرها في أهواله بقامتها  
النحيلة الرقيقة وعينيها الخضراوين الخنونين، فقاطعت  
الشيخ على غير وعي ميّ هاتفاً:

- كلاً... كلاً...

وأحدثت مقاطعتي دهشة في الفصل لأني لم أكن  
أنبس بكلمة، ولم يدرك أحد ماذا أردت، ولم يلبثوا أن  
ضجّوا ضاحكين، وغضب الشيخ، وحملني مسئوليّة  
الإخلال بالنظام، فأقبل نحوي متغيّظًا ولطمني على  
وجهي بعنف وحنق. ورخت باللظمة كعذر ظاهر  
للبيكاء إذ كنت أقوم دموعي جاهداً ودون جدوى.  
لقد زلزلتني هذه الآية الكريمة، وكانت أوّل نذير لي  
عن مأساة الحياة...

## ٨

حياة رتيبة، كابدتها على استكراه، بيد أنّها لم تخلّ  
من هزّات عنيفة. فذات مساء عاد جدي مبكراً على  
غير عادته. وقلقت أمي لأنّه لم يكن يرجع إلى البيت  
قبل الفجر. واقتحم علينا الحجرة متجهّئًا، فنهضت  
أمي مستطلعة. ورفعت رأسي عن الكتاب، وقبل أن  
نسأله عمّا به قال بحدّة وهو يضرب طرف حدّاته  
بعصاه:

- زينب، كارثة نزلت بالأسرة... فضيحة  
ستجعلنا مضغة الأفواه!

فنطقت عينا أمي بالفزع، وهتفت بصوت متهدّج:

- رحماك يا ربّي!... ماذا حدث يا أبي؟

فقسّت نظرة عينيها الخضراوين، وقال بصوت أجشّ  
غليظ:

- ابتك... راضية... هربت!

وشحب وجه أمي، وخلجت عيناها، وسجلت ترنو  
إلى جدي بنظرة مستكرة لا تجد سبيلاً إلى تصديق ما  
صلّك أذنيها، ثمّ غمخت بصوت كالآنين:

- هربت!... راضية!... هذا محال!

تعيسة الحظ، رباه... أين هي الآن؟ خبّرني بكلّ ما تعلم.

فقال جدّي بهدوء:

- سافروا إلى بنها، أنا وعمّها ومدحت، فوجدناها في أسرة طيّبة محترمة، وتعرّفنا إلى زوجها وهو شابّ موظّف بالحقائيّة يدعى صابر أمين. فأخبرنا أنّه استاجر شقّة بشارع هدايت بشبرا وأنّه سينقل إليها هذا الأسبوع. وقالت راضية: إنّ زوجها تقدّم لخطبتها ولكنّ أباهما رفضه بغلظة، وأنّه رفض قبله شاباً آخر تقدّم لخطبتها كذلك... ولعلّها الخمر التي لم تبقَ على ذرّة من إنسانيته فأنسي واجباته وبدّد مرتباته، واستبدّ بها اليأس فهربت مع الشابّ. وسافروا إلى أسرته حيث كان المأذون في انتظارهما.

وأصغت أُمّي إليه وهي تبكي بكاء حارّاً، بعثه الحزن والارتياح معاً، ثمّ قالت:

- سأسافر إليها غداً...

فقال جدّي بتأكيد:

- ستجدينها في بيتها غداً أو بعد غد...

وعادت تتساءل:

- لماذا لم تأتي إليّ أنا؟

فقال جدّي كمن يعتذر عن الفتاة:

- لعلّها خجلت أن تأتي بخطيبها إلينا وهي هاربة من وجه أبيها، وعلى آية حال لنحمد الله على هذه النهاية التي لم تكن نحلم بها...

## ٩

ركبنا الخنطور جميعاً لأوّل مرّة، فجلس جدّي وأُمّي في الصدارة، وجلست على المقعد الخلفي. كانت أُمّي من الفرحة في نهاية، وقد بدت بعدما عانت في الأيام الأخيرة من همّ وحزن وكأنّها استردّت شبابها الأوّل. كانت عيناها تتألقان بنور السرور البهيج، وكان لسانها يسبح بالحمد والشكر. وانتقل سرورها إلى صدري ففرحت برحلتنا السعيدة. وجعلت أفكر في سقّيتي التي سأراها لأوّل مرّة بعد دقائق بدشة وسرور وقلق لم أدّر له سبباً، ترى ما شكلها؟ وكيف تلقانا؟ وهل

وترثت جدّي دقيقة ثمّ استطرّد:

- ويل للسكير المجرم!... إنّهُ المسئول الأوّل عن هذه المأساة، لأذهبنّ إليه وأحطمنّ رأسه!

ولاح الانزعاج في عيني أُمّي فقالت بجزع:

- كلّ... كلّ... هذا يزيد من حالنا سوءاً.

فقال جدّي بإصرار:

- ينبغي أن يجزى عن شرّه شراً.

فقال أُمّي بتوسّل:

- لا شأن لنا به... فلنركّز اهتمامنا في العثور على الفتاة علّنا نقيم ما اعوجّج من أمرها...

فحدجها بارتياح وتساءل:

- لماذا تلحقين في الحيلولة بيني وبين الذهاب إليه؟

فلاح في وجهها الارتباك وتمتعت:

- أخاف أن يزداد الأمر سوءاً.

فقال جدّي بحق:

- بل تخافين أن يؤدّي الشجار إلى أن يستردّ كامل.

إنّك لا تقيمين وزننا لتيّء، ولا تكثرين لغير نفسك، ألا لعنة الله عليكم أجمعين...

ولبس البيت رداء الحزن فكأته في حداد، واهتصرتنا أيام سود فنكد العيش، وكدت أختنق في ذلك الجوّ القاتم. وقد غير جدّي نظام حياته، وتخلّف عن سهراته المعتادة في النادي وكان يغيب خارج البيت طوال النهار دون أن ندري عن مكانه شيئاً، على حين تقضي أُمّي النهار ساهمة أو باكية. وحاءنا جدّي ذات مساء، فلما أن وقع بصره على أُمّي بادرها قائلاً:

- عثرنا على ضالّتنا أخيراً...

فجرت أُمّي نحوه وهي تصيح:

- حقّاً!.. اللهمّ ارحمنا...

فقال جدّي بصوت تنمّ نبراته عن الارتياح والسرور:

- أرسلت الفتاة المجنونة إلى مدحت كتاباً تنبّه بأنّها تعيش في بيت زوجها بنها، وتسأله المغفرة عن سلوكها الذي اضطرت إليه اضطراراً...

وتنهذت أُمّي من الأعماق وقالت وعيناها تدمعان:

- ألم أقل لك!... إنّ راضية فتاة طاهرة ولكنّها

تَحَبُّنا؟ وقطعت أُمِّي عليَّ حبل أفكارِي فسألت جَدِّي بلهفة:

- هل أجد مدحت هناك؟

فقال جَدِّي وقد اعتمد مقبض عصاه ببديه:

- الراجح أن يكون هناك... لقد تواعدنا على ذلك... ولاحت في عينيها نظرة حنان ورجاء. وسارت العربة ميممة شبرا. ورحت أتسلى بمشاهدة المازة والعربات والسترام، حتَّى بلغ الحنطور مقصده، وانعطف إلى شارع هدايت، ثم وقف أمام بيت متوسط الحجم، مكوّن من ثلاثة أدوار. وغادرت العربة وصعدنا إلى الدور الثاني وأُمِّي تقول بصوت كالمهمس: «ما أشدَّ خفقان قلبي!»، ودقَّ جَدِّي الجرس، وفُتح الباب، ودخلنا. رأيت فتاة وشابَّين، وقبل أن أعانيهما هرع اثنان منها إلى أُمِّي، فلم أر إلّا عنقا حارّا. ولم أسمع إلّا تنهّذات الدموع. رمقت الثلاثة بحيرة وخجل وصمت. وطال العناق، وطال البكاء، حتَّى تدخل جَدِّي بينهم ضاحكا وهو يقول:

- إلبك زوج ابنتك صابر أفندي أمين.

وتقدّم الشاب من أُمِّي فقبل يدها، وقبلت جبينه، ولم ألبث أن رأيت نفسي محطّ أنظار الجميع. وقالت أُمِّي وهي تبتسم خلال دموعها:

- أخوكم كامل..

وهرعت نحوي شقيقتي، وضمتني إلى صدرها، وقبلتني بحرارة، وأنا مستسلم بين يديها لا آتي حراكا، ولا أنطق بكلمة، وصاحت بفرح:

- ربّاه، إنّه شابّ يافع!... إنّه نسخة منك يا أمّاه!

ثمّ ضمّني شقيقتي إلى صدره وقبلتني وهو يقول بسرور:

- يا له من شابّ خجول!

ولم أكن حتّى تلك اللحظة قد أنعمت النظر إلى وجه من وجوههم، وظللت غاضبا بصري، والخجل يحرق جبیني وخدّتي. ثمّ مضوا بنا إلى حجرة الجلوس. فجلست أُمِّي بين راضية ومدحت، وجلس جَدِّي لصق زوج أختي، وأقعدتني شقيقتي إلى جانبها،

وقالت أُمِّي وهي تحفّف دمعها:

- يا رحمته! وجدّتكما شابَّين بعد أن انترعتما مئى طفلين، الحمد لله والشكر لله...

فقال زوج أختي بتأثر:

- يا لها من حياة هي بالمأساة أشبه! وإنّي لأشكر الله على أن جعلني الفرصة التي هيأت لكم هذا اللقاء!

وسالت الأشواق القديمة حديثا قياضا لا ينضب معينه، واثالت عليهم الذكريات والخواطر، وشكا كلّ بنّه وهمّه، وامتزجت الدموع بالبسمات. وكانت تلوح في عيني أُمِّي بين الحين والحين نظرة دهشة كأنّها لا تصدّق أنّ الله قد جمع شمل الأسرة بعد تفرّق ونوى. ولما شغلوا بأنفسهم عني أخذت أفيق من الخجل، وأستردّ أنفاسي، وشعرت بأنّي - لدرجة كبيرة - وحدي، فداخلي ارتياح، ولكن سرعان ما انتابني قلق وضيق، وجعلت أسترّق النظر إلى راضية ومدحت. بهرني جمال أختي، رأيتها أقصر من أُمِّي قليلا ولكنّها ممثلة بضّة، ميّالة للبياض، أما وجهها فصورة من وجه أُمِّي، وصورة من وجهي أيضا، بعينه الخضراوين الصافيتين وأنفه الدقيق المستقيم. أما مدحت فأنموذج من نوع آخر، بدين في غير إفراط، مستدير الوجه والرأس، أبيض الوجه مشرب بحمرة، أسود العينين، ينمّ مظهره عن الفحولة والقوّة وإن لم يجاوز الثامنة عشرة. وكان يقهقه ضاحكا لأنفه الأسباب، ويبدو فرحا صحيحا معافى. استرقت إليهما النظر باستطلاع واهتمام، وسرعان ما جذبني إليهما شعور بالحبّ والعطف، واستنمت إلى روحهما المرحّة الباسمة. بيد أنّي لم أنعم بشعور الوحدة طويلا، فرمّا اتجهت صوبي الأنظار وبُذلت المحاولات لحملي على الكلام، واستدراجي لمشاركتهم سرورهم، ولكنني لم أنبس بكلمة قانعا برّد الابتسام بالابتسام. ولئن كان كلّ شيء ممّا يكتنفي يدعو للغظة إلّا أنّي لم أحلّ من مشاعر قلق غامض رغبني أكثر من مرّة في الرحيل، وقالت لي راضية باسمّة:

- كان مولدك عسيرا، والله يعلم كم تألّت أمّنا،

ولبنا أنا ومدحت في الحجرة المجاورة نبكي، ثمّ

بعد ذلك بيننا وبين شقيقتي، وكان مدحت يزورنا كلها  
سحنت له فرصة.

واستقبلتُ عامًا مشيرًا تورّعتني فيه الحيرة وحب  
الاستطلاع والتجربة القاسية. صدمني في مطلع  
هروب أختي وما علمت بعد ذلك من زواجها،  
فحبها، ثم إنجابها طفلة. وتساءلت نفسي كما ساءلت  
أمي عن معنى هذا كله، لماذا هربت من أبي إلى رجل  
غريب؟ لماذا لم تأت إلينا؟ ولماذا تزوّجته؟ وكيف  
حبّلت؟ وكيف خرجت زينب الصغيرة إلى نور  
الدنيا؟.. وارثبتك أمي حيال إلحاحي وتطفلي،  
وجعلت تصطنع لي الأجوبة الكاذبة حينًا وتتأثاني حتى  
أكبر حينًا آخر، فإذا لججت تكلفت لي حزمًا غير  
معهود ولا مألوف. فلم أظفر منها بشيء ينقع الغلّة،  
وفي الوقت نفسه شعرت بأنّ ثمة سرًا يراود إخفاؤه  
عني. ثم جاءني العون من حيث لا أدري، فتطوّعت  
الخادمة لإمالة اللثام عمّا حيرّ خيالي وألهبه. كانت  
تكبرني بأعوام، وكانت دميعة قبيحة، ولكنها كانت  
تكرّس فراغها لخدمتي وكانت تخلو لي في أوقات نادرة  
إذا شُغلت أمي بعمل أو حاجة. وبدا أنّها استرقت  
السمع يومًا إلى ما يدور بيني وبين أمي عن الألغاز التي  
استثارتنني من سباتي، فصارحتني مرّة بأنّها تعلم أمورًا  
خليفة بأن تُعرف، وانجذبتُ إليها على قبحها في اهتمام  
وسرور، وواجهت التجربة بلذّة وسداجة. على أنّ  
العهد بها لم يطل، فما أسرع أن ضبطننا أمي متلبّسين.  
ورأيت في عينيّ أمي نظرة باردة قاسية فأدركت أنّي  
أخطأت خطأ فاحشًا. وقبضت على شعر الفتاة ومضت  
بها فلم تقع عليها عيناها بعد ذلك. وانتظرت على  
خوف ونجمل. ثم عادت متجهّمة قاسية، ورمّت  
صنيحي بالمذمة والعار، وحدّثتني عمّا يستوجبه من  
عقاب في الدنيا وعذاب في الآخرة. ووقع كلامها مني  
موقع السياط حتى أجهدت باكيا، ولبثت أياّمًا اتّحامي  
أن تلتقي عيناها خزيًا وخجلًا.

أدخلنا في النهاية ورأيناك في اللّفة كقبضة اليد فاهلنا  
عليك بالقبل.

وقهقه مدحت وقال:

- وأردت أن أطعمك قطعة من الشيكولاتة  
فحملوني إلى الخارج.

وقالت راضية برقة:

- وكنا نتخيّلك في وحدتنا بيت أينا فنقول لعلّه  
يجو الآن، أو أنّه يمشي ويلعب، أو هذا أوان المدرسة.  
وعلى فكرة أيّ سنة بلغت من دراستك؟

وشعرت بحرارة احمرار خديّ، وانعقد لساني،  
فأجاب عنيّ جدّي قائلاً بلهجة لا تخلو من تهكم:

- إنّه يعيد السنة الأولى الابتدائية وهو في العاشرة  
من عمره

فقال مدحت ضاحكًا:

- الحال من بعضه، فقد التحقت بالزراعة المتوسطة  
بعد سقوط عامين بالثانوي!

وقالت أمي:

- إنّ جدّك يريد أن يجعل منه ضابطًا..

فهزّ مدحت رأسه وقال:

- عليه إذن أن يحصل على البكالوريا.

وكان جدّي من الذين ألحقوا بالمدرسة الحربية  
بالابتدائية فقال بازدرأ:

- إنّ بكالوريا اليوم لا تعدل ابتدائية الأمس...

ثمّ دار الحديث عن الحياة في بيت أبي، حتى قالت  
راضية:

- كنّا في الحقيقة نعيش بمفردنا، ولم نكن نرى أبانا  
إلا مرّة في الصباح الباكر، ثمّ نمضي وقتنا معًا، نذاكر  
أو نلعب أو نتحدّث، وقد حمدنا الله على تلك  
الوحدة.

وتنبّهت أمي إلى الشطر الأخير من الكلام.  
وتنبّهت في إشفاق، فقال جدّي:

- إن كان أبوكما أعفاكم من عشرته ومخالطته حقًا،

فقد فعل خيرًا يستحقّ عليه الشكر والدعاء!

وتقضىّ النهار كلّهُ في جوّ عابق بالحبّ والأشواق،  
وعدنا إلى المنيل مجبوري الخاطر. واتّصلت الأسباب

تحلم، فناديتها حتى استيقظت. ولبثنا مستيقظين حتى أسفر الصبح.

وفي اليوم التالي زار جدّي ذلك الضابط المتقاعد، وحدث ما حدث بالأمس فدعا جدّي أمّي إلى حجرته، ولبثا منفردين زهاء الساعة، ثم جاءا معاً إلى الشرفة وهي تتعلّق بذراعه وتحتف بانفعال وتأثر شديدين:

- كلّاً... كلّاً... هذا محال، ولا أحبّ أن يعلم شيئاً. ولكنّه لم يأبه فيما بدا وقال لي بحزم: - إني متظرك في حجرتي.

وجعلت أمّي تتوسّل إليه وتضرع، ولكنّه رجع إلى حجرته وأنا في أعقابها على حين مضت أمّي إلى حجرة نومنا في حالة غضب واستياء. وجلس جدّي على مقعده الكبير، وأمرني أن أقرب منه، فاقتربت في رهبة وخوف حتى وضع يده النحيلة على منكبي، ورمقني بنظرة دقيقة ثم قال:

- أريد يا كامل أن أحدثك بأمر هام. لا زلت صغيراً بغير شكّ، ولكن يوجد في مثل سنّك من ينهض بأعمال الرجال، وأحبّ أن تفهمني جيّداً، فهل تعدني بذلك؟

وأجبت بطريقة آليّة:

- أعدك يا جدّي.

فابتسم إليّ متلفظاً ثم قال:

- الأمر هو أنّ رجلاً فاضلاً غنياً من أصدقائي يرغب أن يتزوّج من أمك، وأني أوافق على ذلك رغبة منّي في سعادة أمك، فلا بدّ للمرأة من رجل يراعها، وأنا قد جاوزت السنين، وأخاف أن أموت قبل أن تضطلع أنت بواجبك كرجل فلا تجد من تعتمد عليه في الحياة.

وواصل كلامه باستفاضة، ولكنّ عقلي كلّ فلم يتابعه، ولم أعد أفقه معنى ما يقول.

شلتّ عبارة «يتزوّج من أمك» مسامعي، وانفجرت في دماغي، واتّسعت عيناها دهشة ورعباً وتفزّراً وتساءلت: هل يعني جدّي ما يقول حقاً؟ أجل لقد روت أمّي لي قصّة زواجها، ولكن كان ذاك قصّة

الامتحان. وقلّقت إلى السنة الثانية، وإن كنت قضيت عامين في السنة الأولى. ولما أطلع جدّي على الشهادة قال لي مداعباً:

- لو كنت ما أزال في خدمة الجيش لجئتك بفرقة الطوبجيّة، وأمرتهم بإطلاق أربعة وعشرين مدفعاً احتفالاً بِنجاحك.

على أنّ جدّي إذا كان لم يمكنه أن يطلق لنجاحي أربعة وعشرين مدفعاً، فقد قذف حياتي بقنبلة - عن قصد حسن - كادت تودي بي. حدث أن زاره يوماً ضابط متقاعد في الخمسين من عمره ممّن عملوا تحت قيادته في السودان. وعقب انصرافه مباشرة جاءنا جدّي في الشرفة وراح يتفرّس في وجهنا في صمت وإن نمّ وجهه عن ارتياح وسرور. ثمّ قال مخاطباً أمّي بلهجة مليئة بالمرح:

- اتبعيني بمفردك يا زوزو هانم!

وانفجرت ضاحكاً لذلك التذليل اللطيف. على حين تبعته إلى حجرة نومه وميّت نفسي ببشرى جميلة... وغابت أمّي مقدار ساعة ثمّ عادت إليّ، وما إن وقعت عليها عيناها حتى بادرتها قائلاً:

- أهلاً وسهلاً يا زوزو هانم...

وقهقهت ضاحكاً، ولكنّها ابتسمت ابتسامة باهتة على غير ما انتظرت، وجلست على كرسيّها يلوح في عينيها السهوم والتفكير، وساورني القلق، فملت نحوها. وسألته عماً ألم بها؟ فقالت لي باقتضاب:

- أمور تافهة لا تهتمّك.

ولكنّ تهربها ضاعف من رغبتني في معرفة ما وراءها، فالححت عليها أن تفضي إليّ بمكنون صدرها، فنفضت في تبرّم، ورجتني أن أمسك. وجلسنا صامتين طويلاً، ثمّ تجاذبنا أحاديثنا المعتادة في فتور. ودّعينا إلى العشاء فأكلت لقمات معدودات، ولما تهيّأنا للنوم وقفت أمام المراة طويلاً، ثمّ استلقت إلى جانبي.

ووضعت راحتها على رأسي وقرأت سوراً قصاراً من القرآن كالعادة، حتى رنق النوم بجفنيّ. واستيقظت في المزيج الأخير من الليل، فخيّل إليّ أنّي أسمع حسّاً كاهمس، فأرهفت أذنيّ فأيقنت أنّها تغمغم، وظننتها

- لعلّ جدّك قال لك إنّه يريد أن يزوّجني، ولكنّه لم يقل بلا ريب إنّي وافقت على هذا الزواج، والحقّ أنّي رفضته لأوّل وهلة، وبلا أدنى تردّد، ووددت لو لم تعلم عن الأمر شيئاً على الإطلاق، ولما أعطاني مهلة للتفكير قلت...

وقاطعتها بحدّة قائلًا:

- ولكن يريد لك أمرًا معيياً محرّماً؟! فصمتت قليلاً وهي ترنو إليّ بطرف حائر. ثمّ استطردت متجاهلة اعتراضني:

- قلت إنّ المهلة مضيعة للوقت، وأبيت أن أجعل هذا الأمر موضوعاً للتفكير، وذلك من أجلك أنت، من أجلك وحدك، فلا تحزن ولا تغضب، ولا تظنّ بأنك الظنون.

ولئن أخرجني كلامها من ظلمات القنوط إلّا أنّني أصرت على ترديد اعتراضني حتّى قالت لي بعد تردّد: - لم أقل أبداً إنّ الزواج من العيوب أو المحرّمات، بل هو علاقة شريفة يباركها الله، إلّاّ دُمت عيوباً أخرى.

وانعقد لساني حياءً وخجلاً، وربّيت هي على خدي لتسرّي عنيّ وقالت بصوت ينمّ عن العتاب:

- يا لك من طفل جحود، ألا تستأهل توضيحي في نظرك كلمة شكر؟... أترك تذكرها فيما يقبل من العمر؟ أبداً!... لتزوّجن يوماً ولتغادرن وحيدة بلا رفيق ولا أنيس!

وقطّبت ساخطاً، وقلت بحماس:

- لن أفارقك ما حييت.

عبثت بشعري مبتسمة، ولاحت في عينيها الجمليتين نظرة ساهمة..

سارت حياتي المدرسيّة في بطء وتشاقل يدعوان للباس، فبلغت الرابعة عشرة وما جاوزت السنة الثالثة الابتدائية، وكان جدّي يقول متأفّفاً:

- متى تُقبل على الدراسة بهمةً ونشاط؟ متى تعرف واجبك؟ ألا ترى إذا اطّردت دراستك على هذا المنوال

وتاريخاً بعيداً، ولم أنصوّره حقيقة واقعة أبداً. وذكرت لتوّي الحادمة المطرودة فغاض قلبي في صدري وقلت لجدّي وأنا ألهث:

- أمّي لا تتزوّج. ألا تفهم ما هو الزواج؟!

ولم يتمالك الشيخ نفسه من الضحك، ثمّ قال مبتسماً:

- الزواج سنّة من سنن الله، والله يفضّل المتزوّجين على غير المتزوّجين، ولقد تزوّجت أنا جدّتك، كما تزوّجت أمك فيما مضى، وكما ستزوّج حضرتك يوماً ما. أصغ إليّ يا كامل، أريدك على أن تذهب إلى أمك وتقول لها إنّك ترغب في تزويجها مثلي، وإنّ سعادتك تضاعف بسعادتها... ينبغي أن توافق على ما يسعدها، وحسبها ما قاست من أجلكم جميعاً.

وجعلت أطرافي تنتفض انفعالاً وتأثراً، ونظرت إلى جدّي كما تنظر الفريسة إلى معذّبها، ثمّ سألته بصوت منتهّدج:

- أريد أن يأخذها ذلك الرجل؟

فابتسم وقال لي:

- نعم، ولكن ليرعاها ويسعدها.

فسألته بحدّة وأنا لا أدري:

- وأنا؟.

فقال برقة بالغة:

- إن شئت ذهبت معها، أو بقيت عندي على الرحب والسعة...

فعضضت على شفّتي بقسوة لأحبس دمعني، وتراجعت فجأة فأفلتت من يده، وركضت خارجاً متجاهلاً نداءه، وعدوت إلى حجرة نومنا، فوجدت أمّي جالسة محمّرة العينين من البكاء، وفتحت لي ذراعيها فارغمت بينهما منتفض الأطراف من التأثّر، وبادرتني قائلة:

- لا تصدّقه، أعني لا تصدّق أنّ شيئاً ممّا قال لك سيقع، لا تبك ولا تحزن... واعذابه!

وحدجتها بنظرة استغراب واستنكار، وصحت بها:

- ألم تقولي إنّ هذا عار وحرام؟!

فشدّت عليّ بحنان وهي تقاوم ابتسامه، ثمّ قالت:

فستنتهي منها وقد استوفيت سنّ المعاش؟!  
ولشدّ ما كانت تأسى أمّي لذلك التهكّم المرّ،  
وكانت تسأله دائماً ألا يلقيه في وجهي أن تنكسر نفسي  
فأزداد بلاة، أو تقول له:

- الذكاء من عند الله، وحسبه ما جملة به من كريم  
الخلق، لأنّه كالعدراء حياء وأدباً!

وكان أن كابدت حياتي تطوّراً خطيراً لا أذكر متى  
بدأ ولا كيف بدأ، وأخشى أن يكون الخيال قد زور  
منه أموراً على الذاكرة. دبّت في النفس والجسم يقظة  
غريبة، سرت في أطرافي قللاً واضطراباً. طافت بي في  
وحدتي أحلام جديدة، وغيّبتني في المدرسة شروء ركز  
شعوري كلّهُ في نفسي. وكنت إذا انطلقت بي العربة  
من المدرسة إلى البيت سرّحت طرفي في آفاق السماء  
وبنفسى لو أحلّق إلى ذراها المتلفعة بتلك الزرقة  
الغامضة. ولشدّ ما انتابني الكآبة وغشيبي الكدر  
فروّحت عن قلبي بالدمع الغزير. ولا أنسى الأشواق  
الغامضة، والمخاوف المجهولة، والألآت المهموسة،  
والشعيرات النابتة. ربّاه إنّى كائن يتمخّض عن حياة  
مخوفة مجهولة، تعبت بي شياطينها في النهار والليل، في  
اليقظة والأحلام.

واكتشفت بنفسى - تحت ضغط تلك الحياة - هوية  
الصبا الشيطانية لم يغرنى بها أحد إذ كنت معدوم  
الرفاق. فاكشفتها كما اكشفت أول مرّة في حياة  
البشر. واستقبلتها بالدهشة واللذة، ورضيت بها عن  
كلّ شيء في الوجود، ووجدت فيها أنساً لوحدي  
الغريبة، وعكفت عليها في إدمان، وراح خيالي يقطف  
لي من صور المخلوقات ما أزيّن به مائدة العشق  
الوهمية.

ومن عجيب أن خيالي في عشقه لم يعدّ دائرة  
الخواادم بالنيل اللاتي يسعين حاملات الحضر والفلو.  
ولم تكن تلك ظاهرة عارضة ثمّ ولّت، إنّها سرّ دفين،  
أو هي داء دفين. كآتي موكل بعشق الدمامة  
والقدارة! إذا طالعت وجهاً ناضراً مشرقاً يقطر نوراً  
وبهساء ملكني الإعجاب، وبردت حيوانيّتي، وإذا  
صادفني وجه دميم ذو صحّة وعافية أثارني وتملّكني،

وأخذته زاداً لأحلام الوحدة وعيبتها. وأفرطت إفراط  
جاهل بالعواقب. وخيّل إلى جهلي المفرط أن أحدّا  
سواي لا يدري بها، حتّى سمعت يوماً - في فناء  
المدرسة - بعض التلاميذ يتقاذفون بها في غير حياء  
فانزعجت انزعاجاً فظيماً وتولّاني خجل أليم. ومنذ  
تلك الساعة أمضيت الألم، وكدر صفوي تأنيب الضمير  
والشعور بالذنب... ولم يكن ذاك ليصدّني عن  
ممارستها، فقضيت وحدتي في لذّة جنونيّة سريعة يعقبها  
نكد طويل.

وكانت تسطع في أيّامنا الرتيبة ساعات باسبات  
فتزورنا أسر من الجيران والأقارب، سيّدات وبنات في  
سنّ الصبا، وربّما قدّمت سيّدة بنتها على سبيل  
المداعبة:

- هذه عروس كامل.

فكانت أمّي تلقى هذه المداعبة وأمثالها بفتور  
ملحوظ، لا يخفى على مخاطبتها، ولا عليّ. فازددت  
شعوراً بالحياء وبالفور، وبالخوف خاصّة حيال المرأة.  
ثمّ لا تفتأ - عقب انصراف الزائرات - تنتقد مداعباتهنّ  
الفاضحة المفسدة للأخلاق!... ومضيت في حياتي  
الوحيدة الموحشة أتملّل تحت ضغطها المتواصل دون  
أن أبدي حراكاً، أنتهب لذّاتها الخفيّة في جزع ويأس،  
وأجني مرّ الشعور بالذنب وقد شقّ عليّ الخلاص، في  
عزلة غابت بي عن خضمّ الحياة. على أنّي كنت أدرك  
إدراكاً غامضاً أنّه توجد حياة واسعة فيما وراء أفقي  
الضيّق. كنت أسترق السمع إلى ما يتناثر من أحاديث  
التلاميذ عن السياسة والسينما والألعاب الرياضية  
والبنات، وكأنيّ أصغي إلى سگان كوكب آخر.  
وددت لو كان لي بعض فصاحتهم ومرحهم وحبورهم،  
وددت لو يُرفع ذاك الحاجز الأصمّ الذي يحبسني  
دونهم. ولكم رمقتهم بعينين محزنتين كأنيّ سجين  
ينظر من خلال القضبان إلى الطلّاء. بيد أنّي لم أحاول  
قطّ أن أنطلق من سجنّي، لم يكن ليغيب عنيّ ما  
ينتظرني في دنيا الحرّيّة من قسوة ومهانة، بل إنّني لم  
أسلم في سجنّي من أذى وسخرية وتهجّم، ذاك سجنّي  
فلأفنع به، فيه لذّتي وألمي، وفيه أمان من الخوف. إنّهُ



سجن مفتوح الباب ولكن لا سبيل إلى تجاوز عتبه، ولم أجد من متنفس غير الأحلام. كنت أمكث في الفصل غائباً عما حولي وخيالي يصنع المعجزات، يحارب ويقتل ويقهر، يمتطي متون الجياد ويعتلي الطائرات ويقتحم الحصون ويستأثر بالحسان وينكل بالتلاميذ تنكيلاً مروّعاً، حتى لا يست أحياناً حركات رأسي وتقلصات وجهي انعكاسات من تلك الأخيلة، يرتفع لها الرأس كبرياء ويقطب الوجه قسوة وتشير اليد بالذير والوعيد!

ولم تقف أحلامي عند حدّ الخلق فطارت إلى ملكوت الخالق. وكان إيماني قديماً راسخاً يعمر قلبي وروحي بحبّ الله وخوفه معاً. وقد أدّيت الفرائض في سنّ مبكرة أخذاً عن أمي ومحاكاة لها. ولما أجدت لي لذاتي الخفيفة شعوراً بالذنب لم يكن لي به عهد قويّ شعوري الدينيّ، ولفحت إيماني لفة حارة إلى الله ورحمته فما ختمت صلاتي مرةً حتى بسطت يديّ مستغفراً. بيد أنّ أشواقي لم تقف عند حدّ، وانقلبت طلعة لمعرفة الله، وتنتيت من صميم فؤادي لو كان أتاح لعبيده رؤيته وشهود جلاله الذي يحيط بكلّ شيء ويوجد في كلّ مكان. وسالت أمي يوماً:

- أين يوجد الله؟  
فأجابني بدهشة:  
- إنه تعالى في كلّ مكان...  
فرونرت إليها بطرف حائر وتساءلت في خوف:  
- وفي هذه الحجرة؟  
فقلت بلهجة تنم عن الاستنكار:  
- طبعاً... استغفره على سؤالك هذا!

واستغفرته من أعماق قلبي، ونظرت فيما حولي بحيرة وخوف، وذكرت بقلب موجع كيف أنّي ألمّ بالإثم تحت بصره القريب لشدّ ما حزني الألم، وغصني الندم، ولكنّي ما فتئت أغلب على أمري.

\* \* \*

وشقّ عليّ النزاع المتواصل فانتهى بي إلى التفكير الجديّ في الانتحار. بلغت وقتذاك السابعة عشرة، وكنت أستمّد لامتحان الابتدائيّة للمرة الثالثة بعد أن

أخفقت مرّتين في عامين متتاليين. تملّكي الفرع والقنوط وازددت فرحاً وقنوطاً للامتحان الشفويّ، فما كانت لي قدرة على الكلام، ولا قلب أواجه به الممتحن. وقد سألتني الممتحن الإنجليزي في العام السابق عن معالم القاهرة التي زرعتها؟ وكان كلّما سألتني عن أثر من أثارها أو موقع من مواقعها أجبت بأنّي لا أعرفه، فظنّني أتهرّب من أسئلته وأسقطني. تملّكي الخوف وأوردني مهالك القنوط ووجدتني لأوّل مرّة ألقى على الحياة نظرة عامّة شاملة متأثراً خطّ الحياة من البداية إلى النهاية، حتى لم أعد أرى منها إلّا البداية والنهاية متعامياً عما بين هذا وذاك. ميلاد وموت، هذه هي الحياة! وقد فات الميلاد فلم يبق إلّا الموت.

ساموت وينتهي كلّ شيء كان لم يكن، ففيم تحمّل هذا العناء؟! فيم أكابد الخوف والضيق والوحشة والجهد والامتحان؟! وازدحت برأسي ذكرياتي المحزنة عن الحياة التي أحيّاها... امتحان لا حيلة لي فيه ثمّ سقوط فسخرية مريّة، حرمان من أفراح الحياة التي يحظى بها التلاميذ. دعاؤهم لي بالأبكم، رميمهم إليّ بثقل الدم حتى رأيّ تلميذ مرةً قادماً وكان قريباً من باب مسجد المدرسة فكّر كفه على أذنه كأنه يدعو للصلاة وصاح في وجهي منشداً «يا ثقیل الدم!» وقهقهه الآخرون ضاحكين. وأذكر أنّ مدرّساً أراد يوماً أن يختبر معلوماتنا العامّة، فلمّا جاء دوري ووقفت مبهوئاً لا أجيب عن شيء سألني عن اسم رئيس الوزراء؟ ولازمت الصمت، فصاح بي «هل أنت من بلاد الواق؟!». كانت مناسبات الإضراب كثيرة، ولكنّي لم أشترك في مظاهرة على الإطلاق، وقد أضرت المدرسة يوماً وخرجت في مظاهرة عن بكرة أبيها، إلّاّي، فقد تخلّفت في الفناء مرتبّكاً خائفاً على كوني من أكبر التلاميذ سناً، ورأيت على تلك الحال مدرّس عُرف وقتذاك بوطنيتّه فقال لي معتفاً: «لماذا خرجت عن الإجماع؟ أليس هذا الوطن وطنك أيضاً؟» ووجدتني في حيرة شديدة بين تعنيف المدرّس وبين وصايا أمي التي تحلّفتني كلّ صباح على اتّباعها. يا لها من ذكريات خلّيقة بأن تُفقد الحياة كلّ قيمة! أليس في الموت غناء

مستغفراً. بيد أنّ أشواقي لم تقف عند حدّ، وانقلبت طلعة لمعرفة الله، وتنتيت من صميم فؤادي لو كان أتاح لعبيده رؤيته وشهود جلاله الذي يحيط بكلّ شيء ويوجد في كلّ مكان. وسالت أمي يوماً:

- أين يوجد الله؟  
فأجابني بدهشة:  
- إنه تعالى في كلّ مكان...  
فرونرت إليها بطرف حائر وتساءلت في خوف:  
- وفي هذه الحجرة؟  
فقلت بلهجة تنم عن الاستنكار:  
- طبعاً... استغفره على سؤالك هذا!

واستغفرته من أعماق قلبي، ونظرت فيما حولي بحيرة وخوف، وذكرت بقلب موجع كيف أنّي ألمّ بالإثم تحت بصره القريب لشدّ ما حزني الألم، وغصني الندم، ولكنّي ما فتئت أغلب على أمري.

\* \* \*

وشقّ عليّ النزاع المتواصل فانتهى بي إلى التفكير الجديّ في الانتحار. بلغت وقتذاك السابعة عشرة، وكنت أستمّد لامتحان الابتدائيّة للمرة الثالثة بعد أن

وحدثت نفسي قائلاً: «يقولون إنني لا أحسن شيئاً في الحياة... ولكنني سأفعل الآن ما لا يسع أحداً الإقدام عليه!». وألقيت على الماء نظرة متحجرة، وتمثل لي ما سأفعله بسرعة البرق ينبغي أن يتم كل شيء في ثوانٍ وإلا أفسد عليّ تدخل المازة غرضي، أتسور السور ثم ألقى بنفسي، ولن يستدعي ذلك مع حزم الأمر إلا لحظات. وانقبض قلبي وأنا أنظر إلى الماء الجاري وقد بدا تحت النظرة العمودية سريعاً صاخباً فدار رأسي. واحد... اثنان... وسرت في بدني قشعريرة، ترى ما إحساس الإنسان إذا هوى من شاطئ... وكيف يكون اصطدامه بالماء؟ وكيف إذا غاص تحت لجته؟ ومتى يخلص الإنسان من عذاب الغرق؟! وشدّت قبضتي على حافة السور، وتقلّصت ساقي، وقلت بلساني أن سينتهي كل شيء حالاً، ولكنني كنت في الواقع أترجع وأتقهقر وتخور قواي. هزمتني الخواطر والتصوّرات التي اعترضت عزمي. لا ينبغي للمتحرر أن يفكر أو يتخيّل، لقد تفكّرت وتخيّلت فانهزمت. واشتدّ خفقان قلبي. وتراخت قبضتاي عن السور. ثم تحوّلت عنه متنهّداً كالذاهل. ومحلّتي ساقاي المخلخلتان إلى نهاية الجسر حيث تنتظر العربية، فركبت، واستلقيت على المقعد في إعياء حتّى غالبتي رغبة في النوم.

وطالما ساءلت نفسي عمّا أنقذني من الموت ذلك الصباح؟ فقال قلبي: إنّه الخوف! وقال لساني: إنّه الله الغفور الرحيم.

ولا شكّ أنّي بالغت فيما يتعلّق بدوافعي نحو الانتحار، لأنّي حصلت على الابتدائية في ختام العام!

## ١٢

فقدت أسرتنا الصغيرة مظهرًا من أجمل مظاهرها فاختفت من أفقها العربية والحوادان والحوذيّ المعجوز. باع جديّ العربية والحوادين واستغنى عن الحوذيّ. وعلمت ممّا تسقطه من الحديث أنّه خسر ليلة في النادي خسارة جاوزت المعهود، فاضطرّ إلى اقتراض ما يساوي معاشه من النقود. ولمّا كان رجلاً مطبوعاً على

عن هذا كلّ؟ بل وإنّي لأتمنّى الموت. وملأت تلك الأفكار عليّ شعاب قلبي فأجمعت على أن أرمي بنفسي إلى النيل... وعندما أتى المساء صليت طويلاً، ثمّ نمت ويدي قابضة على يد أمي، وأنا أظنني في عداد الأموات. وجعلت في الصباح أسترق النظر إلى وجه أمي في خوف وحزن، وأثر في نفسي هدوؤها وجمالها، فغالبنني شعور بالبكاء، وأكرمني ألا أستطيع توديعها، وساءلت نفسي في إشفاق كيف تتلقّى الصدمة؟ وهل تطيق الصبر عليها؟ ساكون المسئول عن تكدير هاتين العينين الصافيتين، وتجعيد صفحة هذا الوجه المنبسط، وزوال هذه الطمأنينة إلى الأبد ثمّ خفت الخور فجأة فأمدّني اليأس بقوة جديدة، وحفزني إلى الهرب. وأتيت على قدح الشاي وعيناي لا تفارقان وجهها، ثمّ حيّيتها وغادرت الحجرة منقبض الصدر مرير النفس وركبت الحنطور، وألقيت على البيت نظرة وأنا أغمغم: «الوداع يا أمّاه، الوداع يا بيتنا العزيز». وانطلقت العربية حتّى طالعتني جسر الملك الصالح فدقّ قلبي بعنف حتّى شقّ عليّ التنفّس. ينبغي أن ينتهي الآن كلّ شيء. دقائق معدودات ثمّ الراحة الأبدية. ولم يكن لديّ علم عن عذاب المنتحر في الآخرة، فلم أشكّ في أنّي أستهلّ حياة مطمئنة. واقترب الجسر رويداً، وراح توقيع سنايك الخيل يصبك قلبي، ولاحت منّي التفاتة إلى النيل فرأيت لآلئ الشمس تنتشر على صفحته الدكناء، وخلّني أتمخّط على أديمه والأمواج الهادئة الصامتة تتقاذفني بغير مبالاة، مطمئنة إلى نتيجة الصراع. وتوثّبت لما عقدت العزم عليه بجنون فغاب عن خاطري كلّ شيء في الحياة فهتفت بالحوذيّ المعجوز وهو ينعطف إلى الجسر:

.. قف!

فشدّ الرجل على الزمام وتوقفت العربية، فغادرتها متعجلاً وأنا أقول له:

.. اسبق إلى نهاية الجسر وسألق بك مشياً على الأقدام.

وانظرت ريثما ابتعد عنيّ عدّة أذرع ثمّ ملت إلى سور الجسر، وأشرفت على النهر بقامتي الطويلة.

ونظام فقد أثر أن يبيع العربية والجوادين على أن يربك

ميزانيته. لشد ما أحننا بيع العربية، وضياح الجوادين،

ووداع عمّ كريم الحوذني العجوز الذي قضى عمره في

خدمة جدّي حتّى فُقد فيها أسنانه. ولقد بكيت الجميع

بكاء مرّاً دون أن أنبس بكلمة. وكان جدّي يعيش في

نادي القمار أكثر ممّا يعيش بيننا، ولم تكن له من سلوى

أو فرجة سواه وخاصة عقب تركه الخدمة. ولم يكن

يحاول إخفاء سيرته بما جُبل عليه من صراحة وميل

للمرح، فكثيراً ما كان يقصّ على أمّي طرّاً ممّا يصادفه

في سهراته، فيقول هازماً رأسه الأشيب: «بالأمس

لازمي سوء الحظّ طوال الليل حتّى قبيل الختام بقليل

فعوّضت خسارتي جميعاً بضربتين موفقتين»، أو يقول:

«يا للطمع الأشعبي! أضاع عليّ بمقامرة واحدة في

أخريات الليل عشرين جنبها ربحتها بشقّ النفس».

ولكنّه كان بوجه عامّ مقامراً عاقلاً إن جاز لي أن أقول

ذلك، تستأثر به لذّة المقامرة الجنونيّة دون أن تنسيه

طاقة ميزانيته وواجباته كربّ لأسرتنا ولا أملك في أنّ

أمر مستقبله قد شغله كثيراً، لا لذاتي فحسب. وإن

غمرني دائماً بحبّه ورعايته. ولكن لارتباط مصير أمّي

بمصيري. ثمّ كان ما كان من تعثر حياتي المدرسيّة

فأخذت الابتدائيّة في السابعة عشرة وقد اقترب هو من

حدود السبعين، وأخذ القلق يساوره كثيراً وهو أعلم

بما جمع من ثروة لا تكاد تذكر. على أنّه كان يتغلّب

دائماً على قلقه بما طبع عليه من ميل للتفاؤل مردّه في

الغالب إلى ما وهبه الله من صحّة حسنة لم تزايله رغم

طعونه في السنّ. إلّا أنّ خسارته الأخيرة ذكرته بقلقه

ومخاوفه ودفعته إلى أن يعالجها بالحيلة والحرص، فقال

يوماً لأمّي بعد تردّد غير قليل وكنا يتحدثان عن

مستقبلي:

- أرى أنّه لا يجوز أن يجهل كامل أباه هذا الجهل

المطلق.

فامتقع وجهها ورمقته باستنكار وتساءلت:

- ماذا تعني يا أبتاه؟

فقال جدّي بغير مبالاة:

- أعني أنّه يجب أن يتعرّف إليه. هذا أمر ضروريّ

وإلا بدا في أعين الناس وكأنّ لا أب له..

فقلت أمّي بصوت متهذّب:

- هذا أبّ، الجهل به أشرف.

فلاح في وجه جدّي الضيق وقال بحزم:

- كأنك تخافين أن يسترده إذا رآه، فيا له من وهم

لا يدور إلّا في رأسك، وإني لعلّ ثقة من أنّه سرّ

سروراً كبيراً حين هيأت له الأقدار من يرّبي ابنه عنه.

ولكنّي أرى الآن أنّه ينبغي أن يتعرّف كامل إلى أبيه.

وقد صمّمت على أن أذهب به إليه، فمن يدري أنّه لا

يحتاج إليه غداً؟ هل ضمنت أن أبقى له إلى الأبد؟ ولا

تسني أنّ كامل وشيك الالتحاق بالمدارس الثانويّة وربّما

أقنعت أباه بمعاونتي في تعليمه!

ولا شك أنّ أمّي كانت تتحقّر للمعارضة، فلما

سمعت الشطر الأخير من كلامه فتر تحفّزها وبدا الحزن

في عينيها، ولم تنبس بكلمة، ولما غادرنا جدّي

اغرورقت عيناها بالدموع فاقتربت منها متأثراً محزّناً

وجفّفت عينيها، وقلت لها:

- لا شيء يستدعي البكاء يا أمّاه.

فابتسمت إليّ ابتسامة باهتة وقالت بحزن:

- لا شيء حقّاً. ولكنّي أبكي الأيام الماضية يا

كامل... أبكي الطمأنينة المطلقّة التي استتمت إليها

طويلاً. كانت الحياة رغيدة طيِّبة لا يكدرها علينا

مكدر، اليوم يتحدّث جدّك عن الغد، وهو إذ يتحدّث

عنه يملؤني خوفاً وقلقاً. لنندعُ الله معاً ألاّ يشتت

شملنا، وأن يطيل لنا في عمر جدّك، ويغنيينا عن

الناس...

ثمّ تفكرت ملياً، وقالت لي وهي تحدّثني بنظرة

غريبة:

- قابله إذا قابلته بأدب فهو أبوك على أيّ حال،

ولكن لا تنسى فيما بينك وبين نفسك أنّه هو الذي

عدّ بنا جميعاً.

وجرت على شفّتي ابتسامة خفيفة لهذا التحذير

الملفوف الذي لم أكن في حاجة إليه. ليس في وسعي

أن أحبّ شخصاً كرهه أبوه. ثمّ فكرت في تلك الزيارة

المرتقبة بين ابن وأبيه لأوّل مرّة، وحاولت أن أتخيّل

الفسيفساء. تبعته جدي في قلق يزداد بتوغلنا في الحديقة، وعندما أخذت في ارتقاء السلم جفّ حلقي من الاضطراب. وبدا أبي واقفاً ينتظر، فألقيت عليه نظرة سريعة من وراء جدي.

كان وقتذاك في الستين من عمره، ربعة، بدينًا وإن بدا في جلبابه الأبيض الفضفاض أذن من الواقع بكثير، أبيض البشرة، محمّر الوجه والعنق، منتفخ الأوداج، محتقن الوجه بالدم، أما قسبات وجهه فكبيرة واضحة في غير تنافر: أصلع الرأس، أسود العينين، وقد جحظت مقلته وتشابكت بها حطوط حمر دقيقة كالشعيرات، وقلقت بها نظرة زائغة شاردة خاملة بددت ما كانت ضخامته خليفة بأن تبعته في النفس من رهبة. خامرتني شعور بالغرابة والإنكار والنفور، وحقدت على جدي المسؤول عن الزيارة. اشتدّ بي الإنكار عندما وضح لي أنه لم يبد أي الترحيب بنا إلا تلك الوقفة الخاملة. تصافح الرجلان، وسمعت صوتًا غليظًا ذكرني بصوت أخي مدحت يقول:

- أهلاً وسهلاً... كيف حالك يا عبد الله بك؟  
فردّ جدي قائلاً:

- الحمد لله... وكيف أنت؟!

وتنحّى جدي قليلاً ليكشف عني وأوما إليّ قائلاً وهو يتسم:

- كامل ابنك.

وتقدّمت منه في ارتباك ظاهر وعيناي متطلّعتان إليه، فحدجني بنظرة متفحّصة في اهتمام شديد وقد لاح في عينيه نور خافت، ثم مددت يدي، وعند ذاك قال جدي ولعله أراد أن يتفادى من خطأ رائي حرباً أن أقع فيه:

- اقهر هذا الخجل وقبل يد والدك!

وأدركت مراده فقبضت على اليد الممدودة إليّ ولثمت ظاهرها، ورفعت إليه عينيّ فوجدته مبتسماً، وسمعته يقول:

- مرحباً بالابن الذي لم يعرف أباه... ما شاء الله (والفتت نحو جدي مستدركاً) صار رجلاً وفرع أباه طويلاً.

صورة لأبي، أو أن أتذكر صورته القديمة التي مرّقتها بيديّ فلم أفلح. . وشعرت بنفور شديد من الزيارة وتمنيت لو يعدل حدي عن رأيه.

ولكنّه قرّر أن نقوم بزيارتنا في صباح اليوم التالي، وقال لي وهو يستحثني:

- ينبغي أن نكرّ في الذهاب إليه قبل أن يغيبه السكر!

وخرجنا معاً، قطعنا الطريق إلى محطة الترام مشياً على الأقدام. ثم أخذنا الترام إلى العتبة، ومنها إلى الحليمية، ثم سرنا إلى شارع مبارك. وجعل يوصيني في الطريق بما ينبغي أن أتحمّل به في حضرة أبي من الأدب والتؤدّد. قال لي:

- أنت خحول جدّ، منطوي على نفسك، وأخاف أن يطنّ ما بك نفوراً مه فيادلك نفوراً بنفور خصوصاً وأنه لم يهتم يوماً بحبّ إنسان، فانفض عنك الجمود ولاقه بالتؤدّد والرقة والألفة.

ووقفنا أمام بيت كبير مكوّن من دورين، لا يبدو من دوره الأوّل إلا أعلاه لارتفاع سور البيت، وطرقتنا باناً ضحاً، ففتح عن صرير غليظ، وبرز لنا بواب نوبيّ طاعن في السنّ، فسلم على جديّ باحترام وترحيب وتنحّى جانباً وهو يقول:

- روبة بك في السلامك...

وسكّ الاسم مسمعي، فشعرت على رغمي بما يربطني بهذا البيت. وتعلّكتني رغبة مباغته في الرجوع والتقهقر، ولكنّها كانت رغبة لا سبيل إلى تحقيقها، ونظرت فيما أمامي فأريت حديقة كبيرة، وسرعان ما سطعت أنفي رائحة الليمون الزكيّة. هي حديقة كبيرة تأخذ الناظر بضخامة أشجارها ما بين نخيل وليمون وتوت ويزدحم جوّها بالفروع والأغصان، وتغطّي أرضها بالأوراق الجافّة، وبها وبالحوّ المحيط بها مسحة حزن وكآبة اسربت إلى نفسي في غير إبطاء. وفي نهايتها يقع البيت، وقد بدا السلامك مقاماً على سوره حدار خشبيّ يحجب ما بداخله عنّ في الحديقة. سبقنا البواب إلى الداخل ليستأذن للقادم، ثم عاد بعد قليل وهو يدعونا باحترام، وسار بين يدينا في ممشي من

وليس أشقّ على النفس من تغيير عادة، ولكيّ أؤكّد لك أنّه سرٌّ جدًّا بتعرّفه بك. لا تأخذ عليه صمته وارتيابه فإنّه كالعذراء حياء.

فهزّ أبي رأسه الأصلع المستدير وفوه لا يزال منفرجًا عقب القهقهة، وسألني فيما يشبه التحديّ:  
- هلّا مكثت معي فترة من عطلتك؟! شهرًا أو أسبوعين؟!

فبادر جدّي قائلاً:

- أمّا هذا فعن طيب خاطر!...

وفطنت إلى ما في قول جدّي من إيجاء موجّه إليّ، فوجدتني كالفأر في المصيدة. وتولّاني ضيق كاد ينشقّ له صدري، ولعنت ذلك التصميم المزعج الذي حدا بجدّي إلى سوقي إلى هذا البيت الكتيب. وانعقد لساني في يأس وعناد، حتّى قال أبي متهمًّا:

- هذا قولك أنت يا عبد الله بك، ولكيّ أفسد عس رأي كامل بك!...

وألني تهكمه، وانقلبت إلى حال من التعاسة فلم أنطق ولم أرفع رأسي. وتذكّرت أمني بلهفة المستغيث شاني إذا اشتدّ بي كرب. وقهقهه أبي ساخراً وقال:

- ولعلّه يُسرّ بمعرفتي ولكن من بعيد... .

وتغيّرت لهجته الساخرة فقال بصوت ينمّ عن القوة:

- ألا تعلم أنّي إذا أردت أن تبقى هنا لم يحلّ دون ذلك حائل؟!

وترثّ لحظة ريثاً يحدث تصريحه الأثر المطلوب، ثمّ صحك مستدرجًا.

- لا تخف، لا حاجة بي إلى هذا على الإطلاق... .

وساد صمت رهيب. ولعلّ جدّي أدرك أنّ الرجل قد كشف بقوله ذاك عن شعور عدائيّ. وشعرت أنا بغريزي أنّ كلينا يجد نحو صاحبه نفورًا لا خفاء فيه... . وهالني ما صدم جدّي من خيبة مريرة وتوقّعت أن يوسعي تعنيقًا وتقريبًا. ثمّ قال جدّي بصوت منخفض:

- ابنك سيّ الحظّ يا رؤبة بك، فقد حرم نعممة التعبير عمّا يدور بخلده. إنّ طفل خجول لا يدري عن

فضحك جدّي ضحكته العظيمة وقال:

- أجل إنّ رجل... . ولكن لا تثريب عليه إذا كان لم يعرف أباه!

وتفرّس أبي في طولًا وعرضًا، ثمّ دعانا إلى الجلوس، فجلسنا على مقعدين مقاربين وجلس على كنية في الصدر وراء خوان من الخشب الأسود المطعم بالصدف وُضعت عليه قارورة حمراء وكأس ووعاء صينيّ مليء ثلجًا.

كانت القارورة مملوءة إلّا قليلًا، وكانت الكأس فارغة إلّا قليلًا. لم أكن رأيت الخمر أبدًا ولكيّ أدركت تواءمي حيال الشراب الملعمون الذي فعل بأسرتنا الأعاجيب، وسرعان ما ملأني التقرّز والنفور. واستدرك جدّي قائلاً:

- أي نعم ما ذبه المسكين؟... . إنّ لم يعرف لنفسه أبًا، ولا حيلة له في هذا، ولا داعي لإثارة ذكريات وكت. بيد أنّي وجدته رجلًا كما تقول، وقد حصل هذا العام على الابتدائية، وعمّا قليل يلتحق بالمدارس الثانوية، فاستنكرت أن يظلّ على جهله أباه، واقترحت عليه أن أقدمه لك، فرحب باقتراحي مسرورًا، وها أنا قد فعلت والحمد لله.

وكانت عينا أبي لا تتحوّلان عني فلم أتحفّ من ارتياكي وحيائي، ولمّا ختم جدّي كلامه لاحت في عينيه الشاردتين نظرة ارتياب وسألني:

- أحقًّا سرّك أن تُقدّم إليّ؟

فأجبته بصوت لا يكاد يسمع:

- نعم... .

فسألني وهو ينظر إليّ بمكر:

- أتحبّ أن تمكث معي؟!

وانقبض قلبي، ولاحت في عيني نظرة حائرة. ما عسى أن أقول؟! إنّ وصايا جدّي، لا تزال تطنّ في أذنيّ ولكن هبني أجبت بالإيجاب فدعاني إلى البقاء معه فكيف يكون المصير؟! كلًّا، لا يسعني هذا وغضضت طرفي مطبقًا شفتيّ ولم أنبس بكلمة. وقهقهه أبي بصوت ارتعد له جدّي وهو يحيدجني بنظرة استياء:

- ترفّق به يا رؤبة بك. إنّ لم يفترق عن أمّه قطّ

الدنيا شيئاً فترقّق به واعذره...  
فقال أبي بغلظة:

- ما هذا الذي تقول يا عبد الله بك!... خجول،  
عذراء، لا يدري شيئاً! ماذا فعلتم به؟ لقد كانت له  
أخت عذراء ومع ذلك فقد هربت مع رجل، فمن آية  
جيلة هو؟!

وشعرت بطعنة نجلاء تصيب قلبي. واندفع الدم  
إلى وجه جدّي فقطّب غاضباً وقال بكبرياء:  
- لقد اختارت أخته أن تمضي إلى زوجها بعد أن  
يُست من عدالة أبيها!  
وروّح عني قوله. أمّا أبي فاسترسل ضاحكاً وقد  
احتقن الدم بوجهه وبدا فظّاً قاسياً عمقوّثاً، ثم قال  
بسخرية:

- تقول بعد أن يُست من عدالة أبيها!... اسمح  
لي أولاً أن أملاً كاساً (وملاً الكأس وغلّ منها جرعة)  
هلاً تربت معي؟... كلاً؟... كما تشاء فلكلّ  
إنسان داء. ولتعد الآن إلى قولك. ماذا قلت يا حسن  
بك؟! بعد أن يُست من عدالة أبيها؟! وأنت؟! ألم  
تياس من عدالة أبيها؟!

فنظر إليه جدّي باستنكار وازدراء وسأله:  
- ماذا تعني؟!

- أريد أن أقول إنّ الفتاة إذا كانت قد يُست من  
أبيها فإنّ جدّها لم يياس من عدالته، وآي ذلك أنّك  
جئتني اليوم بهذا الفتى لا لتقدّم لي كما قلت، فقد كان  
يمكن أن يحدث ذلك في أيّ وقت من الماضي، ولكن  
لتخبرني أنّه عمّا قليل سيلتحق بالمدارس الثانوية...  
وهناك المصروفات... هه!!

فخرج جدّي عن طوره وصاح به مغضباً:

- لقد أعياني لإصلاحك فيما مضى، ومن الحمق أن  
أحاول ذلك الآن!... لقد ربّيته حتّى صار رجلاً دون  
أن يكلفك مئلياً واحداً...!

فصقّ أبي ساخرًا وقال وقد أخذ صوته يعلو:

- آه من مكر الرجال! بالأمس جئتني سائلاً أن أترك  
الغلام لكم، واليوم تمنّ عليّ أن ربّيته حتّى صار رجلاً!  
مرحى... مرحى، هلاً تذكّرت اتّفاقنا السابق؟

فاشدّت حنق جدّي وقال بصوت وشت نبراته  
بانفعاله وتأثّره:

- أيّ اتّفاق يا هُذا؟... نحن لا نتحدّث عن  
صفقة تجاريّة، ولكن عن ابنك، فأين الأبوة  
والعطف؟!

فقال أبي بتهكّم وازدراء:

- الأبوة؟... العطف؟... يا لها من سجايا كريمة  
بيد أنّ المال يفسدها. يا عبد الله بك لندع الهذر جانباً  
فإنّه لا يجمل برجل عسكريّ مثلك خاض حروب  
السودان! وإنّك لتعرفني حقّ المعرفة فكيف زينت لك  
نفسك أن تقصّدي بهذا الرجاء الخائب؟! تفكّر في  
الأمر مليّاً فإنّما تكفّلت «به» كما اتّفقتنا أو أتركه لي إذا  
شئت.

ونظرت إلى جدّي فوجدت وجهه ملتهباً بحمرة  
الغضب، وتوقّعت أن ينفجر في الآخر، ولكنّه ضبط  
نفسه بجهد كبير، وقال بهدوء:

- لولا واجبي نحو ابنك لاستكرهت أن أقف منك  
موقفي هذا، ولست أستجديك شيئاً لنفسي، ولكنّي  
أريد أن أطمئنّ على مستقبل الفتى خصوصاً وأني رجل  
طاعن في السنّ وقد أموت غداً...!

فقال أبي ضجراً:

- إذا متّ غداً تكفّلت به!

فقطّب جدّي مستاء، وهالني تعبير أبي القاسي  
فكرهته في تلك اللحظة ضعف ما كرهته طول حياتي،  
وكأنّما نفد صبر جدّي فنهض قائماً مكفهرّ الوجه،  
ونهضت معه كأنّني مشدود إليه. وألقى إلى أبي بنظرة  
متعالية في ترفع وغطرسة، وقال:

- لا أستطيع أن أقول إنّك خيّبت ظنيّ لأني لم  
أحسن بك الظنّ قطّ ولكنّها أخطاء ترتكبها كارهين  
ونحن أدرى بعواقبها، أستودعك الله.

وأخذ بيدي ومضى بي فغادرنا السلامك وأبي يقول  
منهكماً:

- مع السلامة يا عبد الله بك.

هكذا كان أوّل لقاء بيني وبين أبي. وقد خرجت  
منه وبفسي من النفور ما لا يقبل لي به. وما كدت

تكوينه الجسدي؟ والحق أنني رمته بنظرة غريبة لم يظن إليها أحد على أنني أحببته كثيرًا كما أحبنا كثيرًا. وقد عاتبته أمي على ندرة زيارته لنا فقال لها:

- أنت أدري بأخلاق المجنون!

فضحكت بسرور لا مزيد عليه، ورنوت إلى شقيقي بامتنان، فالتفت نحوي وقال أسفًا:

- علمت بما حدث في المقابلة الأخيرة...

فسألته أمي باهتمام:

- هل أخبرك عنها؟

فقال ضاحكًا:

- حدثني بها عمّ آدم البواب.

وداخلني استياء شديد فهتفت مستنكرًا:

- البواب!... أكان يسترق السمع!

فقال مدحت:

- كلاً، ليس به من حاجة إلى استراق السمع، فما من كبيرة أو صغيرة إلا ويحيطه بها أبي، فهو سميره القديم الذي يفضي إليه بمكنون صدره وإن لم ينبج من شرّ لسانه في غالب الأحيان. ولكم أحزني الموقف الذي وقفه من جدّي، فوددت لو لقيته اليوم هنا لأعتذر إليه وأقبل يده.

وتجادبنا الحديث طويلاً، وكان مدحت محدثاً ماهراً، يدير الحديث بطلاقة وروح مرحة، ويقهقه قهقهة أبينا العالية فيضاهيه في جلجلتها دون برودتها وقسوتها، فسرعان ما غبطته وأعجبت به وتمنيت لو كان لي بعض مرحة وطلاقة. وانساق الحديث إلى مستقبله، وكان حصل على شهادة الزراعة المتوسطة صيف ذاك العام، فقال:

- سافرت إلى عمّي في الفيوم ليجد لي وظيفة بواسطة أحد معارفه الكثيرين، لكنّه لم يوافق على توظيفي بالحكومة، وعرض عليّ أن أتمرن في عزبته بأجر عالٍ على أن يؤجر لي أرضاً في القريب العاجل، ورأيت في عرضيه فرصة تفتح لي أبواب الرزق العريض عن طريق الزراعة فقبلت. ولكنّ أمي لم ترتح لهذا العرض وقالت معترضة:

أجتاز باب البيت إلى الطريق حتّى تنهّدت ارتياحاً، ودعوت الله بقلبي ألا يقضي عليّ يوماً بأن أطرق هذا الباب أبداً. وسرنا نحو ميدان الحلمية، وجعل جدّي يحثّ خطاه منكس الذقن محمّر الوجه، وهو يغمغم بكلام غير مميّز ولا مفهوم وجعلت أسترق إليه النظر عزوئاً أسيفاً، وخائفاً في الوقت نفسه لشعوري بثقل مسئوليتي فيما أذى إلى الخصام. ثم أخذ صوته يتّضح رويداً فسمعتة يقول وكأنّه يحدث نفسه «حيوان أعجم، لماذا يرزق الله أمثاله أطفالاً؟ لماذا لم يعاقبه بالعقم؟!» ويقول أيضاً: «يا لك من وغدا! ليس بقلبك ذرة من عاطفة الأبوة؟ إنك لم تتركه لنا استجابة لرجائنا، ولكنك بعته بنفقاته».

وحين بلغنا المحطة لاذ بالصمت، ووقعت عليّ عيناه فحدجني بنظرة قاسية وأصرّ على أسنانه وقال لي بحدة:

- وأنت يا سي قطران أنظّل عمرك بغلاً! ألم يفتح الله عليك بكلمة طيبة؟ ماذا كان عليك لو تظاهرت بالتودّد إليه؟ أحسبته يا أحمق سيرتني عليك عشقاً وولها!

وأفرعني غضبه كما يفرعني الغضب عادة، وارتعشت شفتاي كالطفل إذا شرع في البكاء، ورأى حالي فنفخ مغيظاً محنقاً، وصاح بي:

- ما أسرع أن تبكي!... ما الذي يبكيك؟... هل ظلمتك؟ هل تجنّبت عليك؟... لقد أخطأت خطأ غيبي أحمق، وما زدت على أن قلت لك أخطأت، فهل كفرت؟!

ولم أنبس بكلمة طوال الطريق، ولبثت محزوناً منكسر الخاطر، حتّى ذكرت أنني عائد إلى أمي، وأني سأحدثها بكلّ شيء عمّا قليل، فسُرّي عني.

وزارنا يوماً مدحت أخي، في الأسبوع الذي تلا مقابلتنا لأبي. ولمّا تفرّست في وجهه تلك المرّة أيقنت أنّه صورة طبق الأصل من أبي. وتساءلت في حيرة عن سيرته وأخلاقه، وهل يشابه أباه فيها كما يشابهه في

وحدة إلّاها فهي أشنات لا تجتمع. اللهم عفوك  
ورضاك!

\*\*\*

واستدار الصيف واقترب ميعاد افتتاح الدراسة  
فألحقني جدّي بالسعيدية. وقد ذهبنا معاً، وقال لي في  
الطريق:

- لو كنت رجلاً حقاً لما أحوجتني إلى الذهاب  
معك، ولكنك لا تعرف الطريق إلى الجيزة وأنت ابن  
سبعة عشر، وعلى أية حال احفظ الطريق جيداً. لقد  
كنت ضابطاً في مثل سنك!

وكان يتظاهر بالتذمّر والسخط، ولكنّي شعرت  
بقلي أنه متهيج مسرور، وأحسست بعطفه يشملني،  
فأخجلني ما يتحمّله في سبيلي من المشقة وهو الشيخ  
السبعيني. وحين عودتنا ضربني بعصاه برقة وقال:

- إنك الآن طالب بالسعيدية، فاجتهد ترفع رأسنا.  
أريد أن أراك ضابطاً قبل أن أرحل.

ودعوت له بطول العمر من أعماق قلبي. وسكت  
ملياً ثم قال بغير مناسبة ظاهرة:

- على أيّامنا كانت الابتدائية شهادة عظيمة تعادل  
بحق أكبر الشهادات في هذه الأيام!

وهزّ رأسه ثم استدرك قائلاً:

- كانت أيّاماً، وكنا رجالاً!!

١٤

انتهت العطلة الصيفية فألمّ بي الحزن والكآبة.  
كانت المدرسة المنقّص الأول لحياتي، فكرهتها كرهاً  
عميقاً صادقاً. حقاً كنت بصدد مدرسة جديدة اقترنت  
في ذهني بالرجولة والفخار، ولكنّها مدرسة على أية  
حال لا تخلو من مواعيد وفصول وتلاميذ ومدّرّسين  
وعقوبات، ودروس تفوق صعوبتها بلا شكّ سابقاتها  
في المدرسة الابتدائية.

وفي صباح السبت الأول من أكتوبر استيقظت  
مبكراً بعد انقطاع هذه العادة الثقيلة أربعة أشهر،  
وارتديت البدلة، وتأنّقت كعادتي وانتقيت رباط رقبة  
فاخراً من صوان جدّي! وألقت أمّي عليّ نظرة طويلة  
ثم قالت بسرور:

- ليس الأكرم أن تتوظّف في الحكومة؟

فضحك أخي طويلاً ثم قال:

- إنّ دبلومي لا يؤهلني لوظيفة محترمة، أمّا عمّي  
فيهيم لي فرص العمل المثلث والثروة.

- وتعيش في الفيوم حياتك؟!

فقال باستهانة:

- الفيوم من ضواحي القاهرة!

فقال أمّي بحزن:

- طالما متّيت نفسي باليوم الذي تستقلّ فيه بحياتك  
لنعيش معاً؟! ...

فقبّل يدها برقة وقال مبتسماً:

- سوف ترينني كثيراً حتى تمّليني. ...

ثم ودّعنا وانصرف. وتنهّدت أمّي من الأعياق  
وقالت بحزن:

- غاب عني نصف حياته في بيت المجنون،

وسيغيب النصف الآخر في الفيوم!

وتفجّرت قليلاً ثم قالت وكأنّها تحدّث نفسها:

- إنّ عمّه لم يعرض عليه ما عرض حباً في سواد  
عينيه، ولكنّه ينوي بلا شكّ أن يزوّجه إحدى بناته.

وسألته ببساطة:

- وماذا عليه لو فعل؟!

فحدّثتني بنظرة غريبة، وهمتّ بالكلام أكثر من مرّة

ثمّ تنهّيت عني همّت به.

وقد صدق ظنّها، فجاءنا بعد ذلك بزمان غير طويل  
خطاب مدحت يخبرنا بخطبته لابنة عمّه، ويسمّي لنا  
يوم الزفاف ويدعونا لحضوره. ولم تخفّ أمّي استياءها،  
وهاها أن يخطب بدون مشورتها أولاً، وقالت لجديّ  
بغضب:

- أرايت إلى شقيق المجنون كيف خطف ابني!

ولم نحضر زفافه، لأنّي مرضت قبيل مواعده ولزمت

الفراش أسبوعين فنسيت أمّي الزفاف بأفراحه وآلامه.

وهكذا تزوّج مدحت دون أن يحضر زفافه لا أبوه ولا  
أمّه، حتّى قال جدّي متهمّاً كعادته:

- هذه الأسرة خلقها الله أعجوبة للبشر، كلّ أسرة



- تفضّل بالوقوف لترّد على خادم أبيك!  
ونهضت فزعاً، وليّت متصلياً دون أن أحر  
جواباً، فلطمني على خدي وصاح بي:  
- تُحَدّ شمالاً بماذا؟  
ولمّا لم أخرج عن صمّتي لطمني على خدي الآخر  
وسألني:

- لندع مؤقتاً ما يحَدّها شمالاً، فما هي التي أسأل  
عها يحَدّها شمالاً؟

ولازمت الصمت وخدّاي يلتهبان، فانهال عليّ  
لطمة يميناً ولطمة شمالاً وأنا لا أجرؤ على تغطية  
وجهي يديّ، حتّى انثأ غضبه فأمرني بالجلوس.  
وضجّ جانب من الفصل بالضحك، وجلست أغلب  
دموعي. انقلبت مرّة أخرى إلى أذى المدرّسين وسخرية  
التلاميذ. ومضيت أجتزّ الآمي في صمت واليأس  
يفتك بنفسي فتكّاً ذريعاً. خبا الأمل وانتهت المحاولة  
الجديدة بالإخفاق السريع، وعدت إلى تعاسّي  
المعهودة. وعلى رغم ذلك تعلّقت بخيط وإه فكرّست  
كلّ وقتي للمذاكرة. عكفت على كتيبي ساعات  
متواصلة، ولكنّه كان مجهوداً ضائعاً إلّا أقلّه، والحقّ  
أني كنت أثبت عينيّ على الصفحات على حين يتطاير  
خيالي في وديان الأحلام فلا أستطيع لّمه. وهي  
أحلام تحرّكها الشهوة وتعبث بها الخادومات القذرات،  
ثمّ تنتهي بالعادة الجهنميّة التي أدمنت عليها مذ ناهزت  
الحلم، فلا تفوت ليلة إلّا وأنصهر في أتونها في لدّة  
مفتعلة وندم موجع طويل.

ولم أف من رغبتني في صداقة الرفاق موقف الجمود  
المطلق، ولكن أخفقت في مساعي إخفاً كاملاً. كان  
يقابل تلك الرغبة في نفسي ميل أصيل للوحدة، ونفور  
وخوف من الناس، وانطواء على النفس دفعني إلى  
الكتمان الشديد فلا أحب أن يقف إنسان على سرّي  
ولا حتّى مسكني أو عمري، هذا إلى عجز عن  
الحديث، وعدم فهم للنكتة فضلاً عن تأليفها، فلم  
يجد في أحد من التلاميذ ميزة تجذبه إليّ، عادوا يرموني  
بثقل الدم. أخفقت في اكتساب صديق، وعشت  
العمر بلا صديق. بيد أنّي لم أكن أدرك حقيقة نفسي،

- كالقمر وحقّ كتاب الله!... وجه أمك على بشرة  
بيضاء ليس لي مثلاً. محروس بعناية الرّحمن.

ومضت توصيني بالحيلة في المشي والركوب والنزول  
وعبور الطريق، ودعت لي طويلاً... ولمّا غادرت  
البيت وقفت بالشرفة تراقب سيرتي حتّى غيبي عنها  
منعطف الطريق. وواصلت السير معتمّاً محزوّناً حتّى  
بلغت محطة الترام بشارع قصر العيني. ووقفت أنتظر  
الترام وحدي لأوّل مرّة في حياتي، فداخلي إحساس  
بالحرّة لم يداخلي من قبل. وسرّي عني قليلاً فوجدت  
شيئاً من الارتياح، ثمّ لاطفني أمل في بدء حياة  
جديدة! حياة لا تكدرها التعاسة التي لازمتني في  
مدرسة العقّادين. إنّي ماضٍ إلى مدرسة جديدة،  
وسألقي أناشأ جدداً، فلماذا لا أبدأ صفحة جديدة؟  
اللهمّ إنّي إذا اجتهدت تحاميت قسوة المدرّسين؟ وإذا  
أحسنّت التودّد إلى التلاميذ اكتسبت مودّهم ودفعت  
زرايتهم، وهذا شيء يقدر عليه الكثيرون فلماذا أعجز  
عنه وحدي؟! ورقص بين ضلوعي حاس بهيج،  
وقلت لنفسي إذا نجحت فيما أخفقت فيه في ماضي  
حياتي هيأت لنفسي حياة طيبة وحبيّت إلى قلبي الحياة  
المدرسيّة المفضيّي عليّ بها أردت أم لم أرد. وذهبت إلى  
السعيدة متفئّاً ظلّ الأمل الجديد الذي انبثق في نفسي  
بغته على محطة الترام!...

\* \* \*

ولكنّي وجدت الحياة أشقّ ممّا هيّا لي الأمل، فحال  
خجلي الشديد ونفوري من الناس دون اكتساب  
صديق، وضجّ شرود ذهني عليّ اجتهدادي هباءاً لشدّة  
ما عانيت من شرود ذهني! لقد سلّبي عقلي وأفقدني  
كلّ قدرة على الانتباه وتركيز الفكر، وجعلني صيداً  
سهلاً للمدرّسين. وقد استيقظت مرّة من شرودي - في  
الأسبوع الثاني من حياتي المدرسيّة الجديدة - على  
مسطرة المدرّس وهي تصدم جبيني، وصوته وهو  
يسألني بلهجة الوعيد:

- قلت تُحَدّ شمالاً بماذا؟

فحملت في وجهه بارتباك وفزع حتّى نسيت أن  
أنهض قائماً فزعت بي:

وتبادر أُمِّي إلى تأييدي في قولي فيهِز رأسه الأبيض ويتمتم:  
- الأمر لله.

ولذلك كنت أتوقع موسم الامتحان بقلق وخوف تتخللها الأحلام المزعجة، ولذلك أيضًا كان يغريني الحياء والغرور بتصنع التعب والتوَعك في الأشهر السابقة للامتحان لأعتلَّ بهما على إخفاقي المتوقع. وكانت أُمِّي من ناحيتها تزور أم هاشم وتنذر النذور، وتشدُّ حول عنقي التعاويذ. ولا أنسى مرة - وكنت قريبًا من امتحان الكفاءة - جاءني بامرأة ممن يقرآن الغيب مستعيذة بقدرتها على إنجاسي، فحرقت المرأة بين يديّ البخور، وركزت في المدفأة عصا قصيرة وأمرتني أن أفز فوقها ثلاث مرّات، وفعلت ما أمرت به، فقالت لي بيقين: «ستنجح بإذن الرحمن»، ولمّا سقطت في الامتحان قلت لأُمِّي متعجبًا: «كيف أسقط وقد قفزت المرات الثلاث؟»

وعلى رغم هذا كلّهُ واصلت الدراسة، وطويت عهد الثانوي وحصلت على البكالوريا وقد ناهزت الخامسة والعشرين!...

## ١٥

وداخلني على إخفاقي المتواصل شعور بالزهو والرجولة. إنّ كثيرين من موظفي الحكومة لا يحملون إلّا البكالوريا فأنا رجل ذو شأن! ولست أطمع من ورائها انخراطًا في سلك الحكومة ولكّني أرجو أن أخرج بها من البيت، أعني أن أحرّر بها من ربقته التي تشدني شدًا يكاد يمزّق ضلوعي. أجل لقد ملكني شعور جامح هفا بفؤادي إلى التجدّد والانطلاق. لم أعد غلامًا يقاد من أنفه، وها هي الحياة تستفزني للتمرد والثورة. ولكن أيّ تمرد وأيّة ثورة؟ على ماذا أو لماذا؟ لم أجد جوابًا واضحًا، والحقّ أنّي لم أكن أفكر، ولم يكن هياجي فكريًا، ولكن ثورة شعوريّة تنبعث من أعماق نفسي، تروم الانطلاق والتغيير، وتشوّف إلى المجهول. لم أستبن هدفاً على وجه التحديد، وعانيت حينئذٍ مؤلماً غامضاً كلّما تحرّك بصدري شملني بكابة

فاتّهمت الرفاق دون نفسي بالعيوب التي حرمتني الصداقة، واعتقدت زمناً أنّه لا صديق لي لأنّه لا يوجد من هو أهل لصداقتي! ما أعجب غرور الإنسان! إنّ السماء والأرض لا تسعانه. وعلى عجزه ونفاصي كان يخيّل إليّ أحياناً أنّي الكمال المطلق، فهذا الحياء القاتل أدب، وهذا الإخفاق في الدراسة عبقرية بطيئة النمو، وذلك الفقر المدقع في الصداقة والحبّ تسامٍ، وأمدني علم النفس - الذي دُرّس لنا عامًا في السنة الخامسة - بألفاظ غامضة انتفعت بها في إرضاء غروري الكاذب. ومع ذلك كانت تثقل عليّ ساعات بأس فأكاد أستشفّ الحقيقة، وقد قلت لأُمِّي يوماً، وهي الحبيب والصديق والأنيس الذي لم أظفر بسواه:  
- لا صديق لي، التلاميذ يزدرونني!

فتولّاهما الغضب، وهتفت بي:

- إنّ نعلك بألف رأس من هؤلاء التلاميذ. إنهم لا يحبّون من لا يجاريهم في شطارتهم وسوء خلقهم ويجسدونك لحياثك وأدبك. لا تحزن فلا فضيلة وراء البعد عن الناس!  
فقلت محزونًا: أشعر أحياناً بأنّي وحيد فتثقل الوحدة عليّ!

وهاها قولي ورمقتني بإنكار، وقالت:

- وأين أمك؟... كيف تقول هذا وأمك على قيد الحياة؟ ألسنت أكرّس حياتي لخدمتك ورعايتك؟ أجل، إنّها تكرّس حياتها لي، وإنّها كلّ شيء في حياتي، ولكن من لي خارج بيتنا؟  
وأطردت حياتي المدرسيّة في تعرّ وتثاقل على رغم كونها تتوكّأ على عكاز من المدرّسين الخصوصيّين.  
ولشدّ ما كان يحزن جذّي كلّما سقطت في امتحان، ولم يعد يسخر منّي في مزاح، ولعلّ طعنه في العمر رده شديد الإشفاق على مستقبلنا، فكان يقول لي:  
- لماذا تحفّق هكذا يا كامل؟ أكلّ عام بعامين؟...  
ألا ترى أنّي أتلهّف على رؤيتك موظفًا قبل أن أموت؟ وكان كلامه يقع من نفسي موقعًا محزنًا، ثمّ أقول له:

- ما ألوتُ أن ذاكرت حتّى منتصف الليل.

- ألا تفضل مهنة بعينها؟  
واشتدت حيرتي لأن نفسي لم تنزع بي إلى مهنة غير  
الحربية وذلك بتأثير جذبي نفسه وإيمانه، فلم أدر بماذا  
أجيب، وقلت:  
- كنت أممي نفسي بدخول الحربية، أما الآن فالمهن  
كلها بالنسبة إليّ سواء...  
- إنني أختار لك الحقوق فهي خير ما بقي لنا؟ ولا  
أوصيك بالاجتهاد لأنه من العار أن يخفق الإنسان في  
الجامعة، وربنا يعيننا على مصروفاتها!  
أسفت على ضياع المدرسة الحربية من يدي، ولكني  
لم أدرك فداحة خسارتي إلا حين أيقنت أنني سأواصل  
الدراسة أربعة أعوام أخرى على الأقل، أو ثمانية أعوام  
إذا سرت بالمعدل الذي لازمني في المدرستين الابتدائية  
والثانوية. وكنت بطبعي أكره الدراسة والمدرسة  
فنظرت إلى المستقبل بامتعاض غير قليل. ولم أكن  
أدري عن الجامعة شيئاً، ولكن رجحت ألا تكون  
بغضبة كالمدرسة، وقلت لنفسي إن طلابها في سن  
الرجال فلا يمكن أن يُثَلِّوا بي كإخوان لهم من قبل  
خلفوا في نفسي آثاراً لا تزول، كذلك استبعدت أن  
يكون العقاب مما يجوز أن يعامل به رجال أو من هم  
في حكم الرجال. ودأبت على تحييب الدراسة المنتظرة  
إلى نفسي، ولم أُلْ عن تهوين خطبها، حتى أستطيع أن  
أزدها في صبر وأناة. وفي صيف ذلك العام قُيدت  
طالباً - بكلية الحقوق.

١٦

وفي صباح السبت من منتصف أكتوبر غادرت  
البيت مزوّداً بالدعاء قاصداً الجامعة المصرية. ووقفت  
على طوار المحطة أنتظر الترام، وهو نفس الترام الذي  
كان يجملني إلى المدرسة السعيدية، ولم أخل ذلك  
الصباح - على امتعاضي - من شعور بالزهو. وإني لفي  
انتظاري، إذ طرق مسمعي صفقة مصراع نافذة  
فُتحت بعنف فلطمت الجدار، فارتفع بصري إلى  
الدور الثاني من عمارة برتقالية اللون تقع أمام المحطة  
مباشرة، حيث كانت توجد لافتة عيادة طبيب حتى قبل

ووحشة. وكنت كلما استبدت بي تلك الأحاسيس  
وقعت فريسة ليد الغضب الحمراء، فثار بي الغضب  
لألفه الأسباب.  
وفي تلك الأثناء كان جذبي يهدف إلى الثنايين،  
وكانت أمي تقطع الخطوات الأولى بعد الخمسين.  
انقلب جذبي شيئاً نحياً، ولكنه حافظ على  
صحته ونجا من شر الأمراض، وتمتع بما وهبه الله من  
نشاط يحسد عليه، ولم تزاوله روحه اللطيفة ودعابته  
الهادئة. أجل اضطر إلى تبديل نظام معيشته لأنه لم يعد  
يحتمل السهر الطويل المتواصل، فكان يذهب إلى  
مقهى لونا ببارك صباحاً ليجتمع بقلة من صحابه،  
ويعضي في النادي مساء ساعتين ثم يعود إلى البيت في  
العاشرة، وكان يمشي مشيته العسكرية في قوة ووقار  
دون أن ينحني له جذع. أما أمي فقد سارع إليها  
الكبر بنسبة أكبر منه إذا عدت بالقياس إلى عمرها.  
جفت عودها، واشتعل مفرق شعرها وسوالفها تنيباً،  
إلا أنها تمتعت بصحة جيدة، كما حافظ وجهها على  
جماله وبهائه. وكانت ربما استسلمت في أحيان للإهمال  
فلا تعنى عنايتها المعهودة بهندامها. ولشد ما كان  
يتولاني الحزن والاستياء لذلك، حتى قلت لها مرة  
«لاقيني بالهيئة التي تلقين بها الضيوف»، ولم تحب لي  
رجائي ذاك فكانت تبدو لي وهي على أحسن حال،  
وطابت نفسي ورضيت.

وظنّ جذبي أن الفرصة تهيأت ليحقق الأمل الذي  
طالما حلم به ألا وهو أن أصير ضابطاً، ولكني كنت  
جاوزت السن المقررة للالتحاق بالمدرسة الحربية،  
وحسب أن الشفاعة تستطيع أن تذلل تلك الصعوبة  
التي بددت حلمي فسعى إلى كثيرين من كبار  
الضباط، ولكنه أفهم أن القانون لا يتسامح في ذلك  
وحزن جذبي حزناً شديداً، وقال لي أسفاً:  
- لو دخلت الحربية لضمنت لك مستقبلاً حسناً،  
ولا طمأن قلبي عليك وعلى أمك.  
وهز رأسه في سخط، ثم سألني:

- علام نويت؟!

ف نظرت إليه في حيرة، ولم أحر جواباً، فعاد يسألني:

شهر تقريباً، فوق بصري على فتاة في الشرفة واقفة تحتسي شايًا. أدركت لتوي أن أسرة سكنت الشقة بعد أن أخلاها الطبيب، وثبتت عياني على الفتاة، وجعلت أتابعها وهي ترفع القدح إلى شفتيها فترشف رشفة، ثم تنفخ السائل الساخن بقم مزوم. وتبدأ وتعيد لاهية ملذة الشراب. وبدا لي منها قامة طويلة وقد نحيف رشيق وبشرة قمحية، في سرة وتايير رمادي، وكأنها وشيكة الذهاب إلى المدرسة في احتشام الطالبات. وكانت توليني جانب وجهها فلما اعتدل رأسها رأيت وجهًا مستديرًا، توحى هيئته بتنسيق جميل وإن لم أستطع تبيين معاله من موقفي، تعلوه هالة من شعر كسنتائي، فبعثت في نفسي أثرًا ببيجًا. ولم تبق هدفًا لناظري إلا قليلًا، ثم دارت على عقبيها ومقرت إلى الداخل. واحتفظت بصورتها في حب استطلاع ريثما جاء الترام، ثم ركبت متخففاً بالأثر البهيج الذي بعثه في من كآبة اليوم الذي تبدأ فيه الدراسة. على أي وجدت في الكليّة مزايًا خليقة بأن تذهب غاوفي وإن لم تقلل من أسباب نفوري العام من الدراسة. من ذلك أن وقت الدراسة مقصور على أربع ساعات في اليوم تنتهي عادة في الساعة الواحدة، ومنه تمتع الطلبة بحريّة الحضور أو الغياب بلا رقيب، ومنه وهو الأهم انعدام فكرة العقاب بل لمست في روح الطلبة أن ما يتهدد أساتذتهم أخطر مما يتهددهم هم. سررت بذلك كله وميّت نفسي بأن تنتهي هذه الدراسة على مرّها كما انتهت الدراسات السابقة، ولم يكن جديدًا عليّ أن أخرج دراسة على كره ونفور حتى الثالثة. وعندما عدت ذلك اليوم إلى المنزل شعرت بسرور مفاجئ هيّا لي أي رجل خطير، ونصف أستاذ وربيع وكيل نيابة!

\* \* \*

وفي صباح اليوم التالي ذكرت الشرفة وأنا أشارك المحطة فرفعت عيني مدفوعًا بتطلع هادئ طبيعي ولكني وجدت خالية، وتسلك بصري إلى الداخل فأريت مرآة في الجدار المواجه وإلى اليسار عمود سرير فضيًّا لامعًا ومصباحًا كهربائيًا يتدلّى من السقف ذا قبة زرقاء كبيرة، ثم بدا في وسط الحجرة رجل في الخمسين ذو

نظارة ذهبية يزور حاملة بنطلونه، فخفضت بصري ورحت أقطع الطوار جيئة وذهابًا. ولاحت ميّ التفاتة إلى المحطة المقابلة، للترام الذهاب إلى العتبة، فأريت الفتاة واقفة - وقد عرفتها بقامتها وزيّها - ويدها كتاب. كانت في وقار بدا حلواً بالقياس إلى عمرها الذي لا يجاوز العشرين، ولم يكن بصرها يعلق بأحد ممن يحشد حولها أو يمرّ بها، فأثر تحفظها في نفسي أثرًا جميلًا ملأني احترامًا وإعجابًا ثم شعرت نحوها بانجذاب وحنان. ولم يكن تأثير المرأة في بالأمر الجديد على نفسي، فلما أرى الحسان في الطريق أو في الترام، وأتبعهن عادة نظرة رجل عابر أمضه الحرمان والوحدة والرغبة، وأرجع منهنّ بالنشوة البديعة والهزة الموجهة. أما هذه الفتاة فلها شأن آخر، فلن يكون موقفي منها موقف العابر، ولكن موقف المقيم ومن هو في حكم الجار، فإني أراها اليوم، وأراها غدًا، وإلى ما شاء الله فضاعف ذلك من اهتمامي بها وحرك في قلبي آمالًا وهمية، ومثاني بسرور متجدد، فكأنه نوع من التعارف ولون من الأمل الغامض، وملهاة سرور سلمي لا يطمع في أكثر منه شخص خجول هباب مثلي. ثم ذهبت إلى الكليّة طيب الشعور، متسائلًا: هل يمكن يا ترى أن تنتبه إليّ؟... وقد ذكرت في أعماق الليل، في وحدتي النفسية، وهذيان الأحلام الجنسية يعث بخيالي، فوجدت من نفسي اعتراضًا وتمردًا وإساءة شديدًا، فأبعدتها عن أتون عاديّ الذميمة، قانعًا هنا بالحيوانات القدرة التي تلهب أحط الإحساسات من جسدي...

\* \* \*

وفي صباح اليوم الثالث انطلقت إلى المحطة وكأني من التطلع على موعد، وأرسلت ناظري إلى المحطة المقابلة، فأريت بموقف الأمس بقامتها الفارعة ووجهها البدري ووقارها الجذاب. وسرى في جوانحي الارتياح. ثم حدثتني نفسي بأن أجد سبيلًا إلى الاقتراب منها وهي لا تدري بي لأروي ظمائي إلى معرفة وجهها عن كذب، وحثني الإشفاق من عجيء الترام الذي تنتظره إلى تنفيذ ما تطمح إليه نفسي دون

مضج بالدم وأنا، فأهوي إلى خدّها ألثمه في إعجاب واحترام وحبّ يسمو عن الشهوات، أجل لا يحبّ خيالي أن يصوّرها لي إلّا في رداثها الطويل تحوط بها هالة الوقار والاحتشام.

\* \* \*

وبكرت في الذهاب إلى المحطة في صباح اليوم الرابع فوجدت الشرفة خالية، ونقلت بصري إلى نافذة على يسار الشرفة فرأيت الفتاة من جانب وجهها، وكانت تقف وقفة العناية والاهتمام التي يقفها الشخص حيال صورته على وجه المرأة، ومضت تسوّي شعرها وتمنحه اللمسات الخشامية التي تشبه لمسات التدليل والمداعبة فانشرح صدري وتبعت يدها بجوارحي حتّى خلّطني أجد مسّ الشعر الناعم وأشمّ عرقه الطيب. ثمّ رأيتها تتحوّل عن المرأة وتطلّ من وراء زجاج النافذة على الطريق فقدّرت من اتجاه وجهها أنّ عينيها على طوار المحطة، ونزعت بخجلي الفطريّ إلى خفض عينيّ، بيد أنّي تشجّعت بعد المسافة بيني وبينها وثبّت عينيّ بجهد قليل. ترى هل وقع بصرها عليّ؟ وهل ذكرت فتى الأمس الذي التقت عيناه بعينيها لحظة بديعة؟ كلّاً إنّها لا تحسّ لي وجوذاً، ولن تحسّ بهذا الوجود. لبثت قليلاً، ثمّ تراجعت إلى الداخل وغابت عن ناظريّ. وقطعت طوار المحطة ذهاباً وجيئة، ثمّ عدت إلى موقعي، وجاء ترام إثر ترام ثانٍ وأنا بمكاني كالمتنظر. وفي أثناء ذلك ظهرت في الشرفة فتاة في العاشرة في مريّة زرقاء أدركت لتويّ أنّها أختها. ثمّ رأيت فتاة تبرز من العمارة وتتّجه صوب المحطة المقابلة. رأيتها تسير لأوّل مرّة، فنحدث مشية هادئة مترنّة توافق وقارها الجميل وتناسب قدّها الرشيق وقامتها الطويلة. وتحركّ في أعماقي الإعجاب والإحترام. وأرسلت بناظري حتّى جاء الترام وصعدت إليه. استوفيت جزاء الانتظار سروراً وارتياحاً، وركبت الترام مزوّداً بأطبب أزاهر الأحلام ولم يخف عنيّ اهتمامي بها وسروري باحتشامها ووقارها، فلم أشكّ في أنّ التطلّع لذاك البيت سيكون من الآن فصاعداً هوايتي. وقلت لنفسي: «ما أحوجني إلى رفيقة

تردّد، فاتّجهت صوب المحطة الأخرى بقدمين قلقتين وقلب يغوص في صدري فرقاً، ومررت بها مسترقاً النظر، فرأيت في عجلة المذعور عينين عسلّيتين صافيتين تقطران ملاحه، وأنفاً صغيراً دقيقاً وشفنتين رقيقتين، ولعلّها أحسّت حرارة بصري فرفعت عينيها عرضاً فالتقت عينانا، وسرعان ما استرددت بصري لأنّه أيسر عليّ أن أهملق في قرص الشمس إبان اعتدالها من أن أحتمل وقع نظرة عين، ومضيت إلى طرف الطوار ولبثت حائراً لا أدري كيف أعود إلى المحطة الأخرى. وخيل لي أنّي ارتكبت شططاً جنونياً فأوقعت نفسي في ورطة عسيرة المخرج، هكذا كانت تتراءى لي أفنه الأمور. ولبثت مستمراً حتّى استقلّت الفتاة الترام وخلا الطوار من المنتظرين فعدت إلى مكاني لاهثاً، وجعلت أحدث نفسي: «أجلّ بها من ملاحه ورشاقة واحتشام! وعشت مع خيالها يومي فلم أكد أنتبه إلى ما يلقي عليّ من محاضرات. وعلى قدر ما نازعتني النفس إلى تمليّ عواطفني على قدر ما ازدادت كرهاً للمحاضرة التي تعترض سبيل أخيلتي، ففاض بي شعور بالتمرد على تلك الحياة الدراسية التي تعذب عقلي وتجاهل قلبي وشعوري وكأنيّ أنتبه إلى قلبي لأوّل مرّة، فأحسّ به عضواً حياً مثل بقيّة الأعضاء، يجوع جوع المعدة، ويرقّ رقة النفس، ويشوّف تشوّف الروح، فتمنّيت أن أكرّس حياتي لسعادته، وأن أستسلم لحنان المتعة التي تتفجّر عنها بنيابه.

تهدّدت من الأعماق وأنا جالس في نهاية قاعة المحاضرات بجسم حاضر وعقل غائب. وحذّثني نفسي بأنّ وراء هذه الحياة الجافّة الضيّقة المكبّلة بالأغلال حياة ناعمة واسعة حرّة، فهفّت نفسي إليها في جزع وهلّة. وعدت إلى الفتاة، ولم يقنع خيالي هذه المرّة بالرؤية. فخلق ما شاء له هواه فرأيتني ألقت نظرهما إليّ، واقتربت منها كما فعلت في الصباح، ولكنّي لم أرتبك كما ارتبكت فأومأت إليها في جسارة نادرة، ويغلبها ابتسام المودة فتبسم إليّ، وأهمس لها بما أحبّ وتممس لي كذلك، ونركب الترام معاً، وفي مكان ما على شاطئ النيل أقول لها أحبّك، فتقول لي بوجه

و غادرت البيت في ارتياح مطمئناً إلى ما عسى أن يتركه منظرني من أثر حسن في نفس الفتاة إذا شاء القدر أن يلفت عينيها إليّ. بيد أنّ ارتياحي لم يطل، و ذكرت أمراً طالما نغص عليّ صفوي، ففتر حماسي.. ذكرت ما رميت به كثيراً من ثقل الدم، ولم أستبعد في تلك اللحظة أن يكون ذلك العلة في إخفاقي في اكتساب صديق واحد، وسرعان ما تكدر صفوي وتجهمت لي الدنيا.. وسرت بخطأ ثقيلة حتى انتهيت إلى المحطة. ودار بصري ينقب في مكانها حتى استقرّ عليها في الشرفة تحسّي الشاي كما رأيتهما أول مرة. هناك نسيت كدري وهمي، وانشرح صدري، وانبعث السرور في كلّ قطرة من دمي. هناك أدركت أنّها سروري وفرحي وأنّها روحي وحياتي، وأنّ الدنيا من غير طلعة حيّها لا تساوي ذرة من رماد!

\*\*\*

وواظبت على ذلك الموعد الذي لا يدري به الطرف الآخر شهرين أو يزيد، يوماً بعد يوم دون انقطاع أو تأخير. تطلّعت بناظريّ حتى كلّ البصر، ووهبتها الإعجاب والاحترام عن طيب خاطر حتى ثوّت بهما، وتغلّيت السرور والأحلام حتى نسيت الحقيقة والواقع، وسحت في دنيا الهيام حتى سلبت العقل والرشاد، حفظتها عن ظهر قلب، طولاً وعرضاً، إماءة ولفنة، وقفة ومشية، سكوناً وحركة. وعرفت من وراء زجاج النوافذ أسرتهما من أب وأم وأخت وأخ، كلّ هذا وهي لا تدري بي، ولا تحسّ لي وجوداً، وكأنّني بالنسبة إليها ليس من سكان هذا الكوكب. وأمضيت الجزع والضيق، وأحرقني الرغبة في إثبات وجودي، ولكن شدّني عجزني إلى موقفني لا أتعده. حلمت في شرودي كثيراً بأنّي أعترض سبيلها، وأتبعها، أو أنّي أبوح لها بإعجابي واحترامي. أمّا في الحقيقة فلم تكن تبرز من باب العمارة حتى ينقبض قلبي حياءً وخوفاً، وحتى أنّها لغضّ بصري فيها إذا اتّجه بصرها نحوي. ولعلّه كان أسهل عليّ أن أرمي بنفسني من جسر الملك الصالح من أن أصمد نظرة من عينيها. وكنت أساءل في يأس وجزع متى تنتبه لوجودي؟ متى تدري أنّ

لحياتي في مثل كمالها! وضاعف من حسرتي أنّني عشت حياتي بلا رفيق. على أنّي شعرت بقلق من جرّاء إفصاحي عن هذه الرغبة، كما شعرت بحياء شديد. ولم تكن تلك أول مرة أفصح بها عن الرغبة في الرفيق، ولكنّه كان إفصاحاً عابراً وتشوّفاً عامّاً ورغبة بلا هدف معيّن وشوقاً غامضاً، أمّا هذه إفصاح خطير حرك حياتي وخوفي، وتشوّف خاص، ورغبة يغرّر بها أمل، وشوق يستمدّ الوقود كلّ صباح. وأعجب ما في شعوري أنّه كان شعوراً بيتيّاً إن صغّ هذا التعبير، فانصبّ من بادئ الأمر على الفتاة وبيتها، وما ذكرتها قطّ إلاّ وتحضرنى صورة البيت، فامتزجت الصورتان في غيّلتي، ونالتا من اهتمامي وأحلامي نصيباً واحداً! وسرعان ما تمثّلت فيها زوجتي! ولا عجب فإنّي امرؤ إذا وقعت عيناه على فتاة في الترام نشطت أحلامه الشاردة فتصوّر أنّه خطبها وعقد عليها وزفّ إليها والترام لا يزال في منتصف المسافة ما بين جسر الملك الصالح وجسر عباس! فكيف لا أتمثّل فتاة الصباح زوجة؟! وملكني الإعجاب والاحترام، وقدسيّة الإحساس البيّ، وحنان العاطفة الزوجيّة، وانتظم هذه الأحاسيس خيط موصول من الميل الصادق، لعلّه الحبّ الذي لم يعرفه قلبي.

وفي صباح اليوم الخامس أطلت وقفتي حيال المرأة قبل أن أغادر البيت، وألقيت على صورتي نظرة متفحّصة. ينبغي أن أعترف هنا بإعجابي الشديد بذاتي! فلم تكن أنايتي بقاصرة على سلوكي، ولكنّها امتدّت إلى حبّ الصورة والإعجاب بها. ولشدّ ما أنعمت النظر إلى هاتين العينين الخضراوين الواسعتين، وهذا الأنف الدقيق المستقيم، وهذا الوجه الطويل المتناسق ذي البشرة البيضاء.. وكان تأثقي مضرب الأمثال في البيت والمدرسة على السواء حتى لأذكر قول أستاذ اللغة العربيّة لي مرّة: «لو أتقنت العربيّة إتقانك لعقد رباط رقبته لما كنت أسوأ تلميذ عندي!» نظرت إلى صورتي طويلاً ذاك الصباح وجعلت أمني ترمقني بإعجاب وتمازحني بكلمات كالغزل فقلت لنفسني أه لو تدري لمن أنا أتأثّق!

مقضيًا عليّ بالهيام الصامت المنفرد وحببتي على قيد خطوة منّي!

## ١٧

واعترض سبيلي حادث لعلّه في ذاته تافه، ولكنّه غير مجرى حياتي. وكانت حياتي الدراسيّة نزاعًا متواصلًا بين عقلي الراكد ونفسي الشاردة يتمخض - كما تمخض في الماضي - عن عناء شديد وثمرّة قليلة. وقد بات الشرود لديّ ملكة آسرة غلبت على نفسي جميع قواها العقلية، حتّى أشفقت من ألا أنال الليسانس قبل الخامسة والثلاثين! على أنّي عرفت من خطورة دراسة القانون أشياء غاب عنيّ شيء لا يكاد يقيم له الطلبة وزناً، بل يقبلون عليه في سرور ويعدّونه رياضة وهواً، ذلك هو درس الخطابة. وكان يلقي علينا مرّة في الأسبوع في مدرّج عامّ يحضره جميع طلبة القسم الإعداديّ. وفي أثناء الشهرين الأوّلين استمعنا إلى دراسة نظريّة في فنّ الخطابة ثمّ بدأ التدريب العمليّ. وطفق الأستاذ يدعو الطلبة إلى ارتجال الخطب في الأغراض المختلفة فكانوا يخطبون بطلاقة، وبأصوات جهورية، في ثبات وشجاعة ورحّة أنصت إليهم في دهشة مقرونة بالإعجاب البالغ، مأخوذين بطلاقتهم وشجاعتهم، مذهولاً لمقدرتهم على التصديّ لهذا الموقف الرهيب حيال هذا الجمع الحاشد، فكنت أتطوّع بالحنجل نيابة عنهم حتّى يتفصّد جيبني عرقاً! وما أدري في أحد الأيام إلّا والأستاذ ينادي:

- كامل رؤية لاظ!

ونفضت قائماً بحركة عكسيّة، في الصفت الأخير من المدرّج - المكان المفضّل عندي - حيث لا تقع عليّ عين... وأحدث اسمي اهتماماً ساخراً، فهمس أحدهم قائلاً:

- هذا حفيد لاطوغي!

وتساءل آخر:

- اسم هذا أم فعل؟!

هنالك قلباً غريباً يكتنّ لها من الوداد أضعاف ما يكتنّ لها الوالدان!... أليس غريباً أن يمرّ شخص مرّ الكرام بقلب يودّ لو يفرش شغافه تحت قدميه؟!

وتركزت أفكاري - تلك الفترة - في قلبي بآلامه وآماله، مخاوفه وأفراحه، وشعرت شعوراً قوياً بحاجتي إلى نصيح أو مشير، وكانت أمّي هي صديقي الوحيد في دنياي، ولكنّي لم أتوجّه إليها بطبيعة الحال في أزمتي تلك لشعوري بأنّها ستقف من رغبات قلبي موقف العداوة!... بيد أنّي وجدت في بعض المجلّات التي يقرأها جدّي صفحات مخصّصة لأسئلة القراء فاملت أن أظفر منها بالمشير الذي أفقده. وأرسلت إلى إحداها هذا السؤال الذي أقفّ مضجعي: «رجل ثقيل الدم، أليس ثمة أمل أن يحبّه محبوبه؟» وكان جواب المجلّة «الحبّ سرّ من الأسرار لا شأن له بالخفّة ولا بالثقل، وقد يتعامى عن القبح والدماة فلا تحفّ على حبّك من ثقل دمك! وإذا جاز لنا أن نتفلسف عن طبيعة المرأة فلعلمه يصحّ أن نقول إنّها مغرمة بالقوّة والشجاعة!» سررت بمطلع الإجابة، فلما أن بلغت ختامها خامرتني شعور بالخيبة، وتساءلت عمّا يعنيه بالقوّة... آه. لست قوياً على أيّ حال، والحقّ أنّ إيماني العادة المردولة جعلني نحيفاً أكثر ممّا ينبغي وأضفى على بشرتي شحوباً. وعندما ذكرت الشجاعة لم أتمالك نفسي من ضحكة مريّة، وعددت ما يخيفني في هذه الدنيا من الأناسيّ والأجواء والفسيران والصراصير، فعصر اليأس قلبي!

ولكنّي لم أسلم لليأس لأنّ النار التي تستعر بنفسي كانت أقوى من أن تخمدّها ضربة من قبضة اليأس الباردة، فأرسلت إلى المجلّة هذا السؤال: «كيف أجذب محبوبتي؟» وكان الجواب: «اذهب إلى أبيها أو وليّ أمرها واطلب يدها إليه وإنّي كفيل بأن تحبّك». ربّاه، ما أقسى المجلّة! إنّها لا تدري أنّي طالب، وأنّ أُمامي أربعة أعوام - أو ثمانية - قبل أن أصير رجلاً مسئولاً، وأنّي فوق هذا كلّه أقدر عليّ اقتحام أبواب جهنّم منّي على طرق باب محبوبتي لأطلب يدها... يا أسفاً، ألا يعلم هؤلاء الناس ما الخجل؟! ما أراني إلّا

وقفت مبهورًا خافق الفؤاد، فقال الأستاذ:

- تعال إلى المنصة...

وتسمرت في مكاني في ارتباك لا يقبل لي به، رغبت أن أعتذر ولكن بعدي عن الأستاذ كان يوجب علي أن أعلي صوتي فيسمعه الجميع، فسكت على رغمي. ونظر الأستاذ إلي دهشًا، ثم قال:

- مالك واقفًا لا تحرك؟... تعال إلى المنصة!

واستدارت الرؤوس إلي حتى شعرت بأنني أحترق تحت وقعها، واستحيتي الأستاذ بإشارة من يده، فقلت على كره:

- لماذا؟

وضحك كثيرون من سؤالي، وقال الأستاذ بحدّة:

- لماذا؟! لكي تخطب يا أخي كالآخرين!

وقلت بصوت منخفض لم يجاوز صفين من المدرج - لا أدري كيف أخطب!

وطبعي أن صوتي لم يبلغ الأستاذ فتطوّر طالب قريب بإبلاغ جلي صائحًا بلهجة ساخرة:

- يقول إنه لا يدري كيف يخطب!

فقال الأستاذ بلهجة تنم عن التشجيع:

- هذا درس تدريب، وأخلق أن يتنفع به من لا يجيد الخطابة. تعال...

ولم أر مناصًا من الذهاب، فحرّكت قدمي في جهد وعذاب كأني أساق إلى المشتقة، ثم ارتقيت المنصة في حالة ذهول، ووقفت محدّقًا في الأستاذ باستسلام واستعطاف موليًا المدرج جانبي الأيسر. وأدرك الأستاذ ارتباكي فقال بلطف:

- انظر إلى زملائك، واملِك جنانك، وتكلّم كأنك وحدك. لا بدّ من اعتياد هذه المواقف لأنّ حياة

الحقوقي لا تخلو ساعة منها وإلا كانت هراء لا معنى له. كيف تقف غدًا في ساحة القضاء سواء تحت ظلّ النيابة أم المحاماة؟! ادعُ شجاعتك واخطب هذا الجمع حاثًا إيّاه على التبرّع لإحدى الجمعيات الخيرية.

وتطلّع إليّ الجميع باهتمام شديد لم يحظ بمثله الخطباء المصاقع، فحملت في الوجوه المتطلّعة دون أن أرى شيئًا، ولقني ذهول وخجل عميت فكّدت أقع

مغشيًا عليّ، وتولّاني ذلك الإحساس الحادّ بالقنوط الذي يمسك بخناقنا في الكابوس. ولم يخطر لي لحظة واحدة أن أفكر في الموضوع، ولعليّ أنسيته، ولم يكن يدور بخلدني إلّا هذا السؤال: متى تنكشف هذه الغمّة! ومّل الأستاذ الانتظار فقال:

- تكلّم. لا تخش الخطأ. أفصح عمّا ببالك جميعًا.

ربّاه متى ينقضي هذا العذاب؟ هيهات أن يرثي أحد لي. وها هم الطلبة يتغامزون ويتضحكون، وقد قال أحدهم بلهجة من يحذر إخوانه من الاستهانة بي:

- هكذا بدأ سعد زغلول.

وقال آخر:

- وهكذا انتهى!

وصاح ثالث:

- أنصتوا إلى بلاغة الصمت.

وامتلأ المكان ضجّة وضحكات فدار رأسي وأخذت أنفّس بصعوبة، ثم صمّمت على إنهاء ذلك الموقف المحزن فغادرت المنصة ومضيت صوب باب الخروج دون التفات إلى نداء الأستاذ، وضجّة الشياطين تلاحفني وتصلّك أدنيّ، وما زلت أخبط على وجهي محمومًا هاذيًا حتى انتهيت إلى محطة الترام. ورحت أردّد بتصميم وحنق «لن أعود... لن أعود»، وكان ذلك التصميم البلسم الشافي لجرح ذلك اليوم. أجل لن أعود، ولن تقع أعينهم عليّ مرّة أخرى، ولن أعرض نفسي لبسات الهزء والسخرية، وأيّة فائدة ترجى من العودة إلى الكليّة ما دامت حياة الحقوقي لا تخلو ساعة من هذه المواقف؟! الأفضل أن أسدل الستار على عهد الدراسة كلّها، وحسي ما عانيت من عبوديّة العذاب. وتعزّيت بهذا التصميم عن جميع ما لحقني من مهانة وإحراج بل نسيت به ألمي وحنقي فترطب صدري المحترق بنسمة ارتياح، وعدت إلى البيت وليس أمام عينيّ إلّا ذاك التصميم... وبعد الغداء قصصت على جدّي وأمي ما لقيت في يومي من شدّة ومكره، واختنق صوتي بالبكاء وأنا أقول:

- هذه حياة لا تطاق، ولن أعود إلى الكليّة أبدًا.



مغرورة العينين. ومع ذلك فلست أشك في أن معارضة جدّي كانت نصف جدّية فقط. ولو أنه أراد حقاً أن يكسر عزمي لما وسعي مخالفتي. والحق أن أمر مستقبلنا كان يحتلّ من تفكيره مكاناً واسعاً وخاصّة في تلك الأيام الأخيرة التي استوفى فيها شيخوخته، ولعلّه ارتاح لاقتراح توظيفي ليطمئنّ على مصير أمي.

وهكذا انقطعت حياتي الدراسية بعد أن قضيت نيتي وشهرين بكليّة الحقوق، بيد أنني لم أجد السرور الذي كنت أحلم به. أجل لم أفكر لحظة واحدة في الرجوع إلى تجربة الدراسة القاسية، إلا أنني وجدت نفسي بحاجة شديدة إلى انتحال الأعذار الكاذبة عن انقطاعي عن العلم وفراري من معاهده، وتصوير نفسي في صورة الضحية البريئة. ومع أن محاولتي تلك نجحت لحّد ما مع الآخرين أو على الأقلّ مع أمي الصديقة لي بالحقّ أو الباطل، إلا أنها لم تنفع معي إلا قليلاً. ملأني السخط والتبرّم، وثار بي نزوع نحو تأديب النفس ومعاقبتها! واتخذ ذلك النزوع صورة حملة هجائية على نفسي، فواجهت نقائصي في تسليم واعتراف لأول مرة.

رأيت حياتي كما هي أحلاماً شاردة سخيفة، وخجلاً وخوفاً يميناً المهمم، وأنانية مطلقة قضت عليّ بعزلة لا يؤنسها صديق أو رفيق، وجهلاً بالدنيا وما فيها، فلا زمان ولا مكان، ولا سياسة ولا رياضة، حتّى المدينة الكبيرة التي ولدت وعشت فيها لا أعرف منها إلا شارعين، وكأنّني أعيش في حجرة بمفازة! وغشيتني كتابة ثقيلة فاجترت أحزاني في وحدة قلبية مهلكة. ولكنّ أمي لم تفارقني لحظة واحدة في تلك الأيام السود، ولم تطق الوقوف منّي موقف المعارضة طويلاً فسرعان ما تحوّلت من جانب المعارضة إلى جانب التأييد، وتظاهرت بالسرور والارتياح، وقالت لي يوماً لتسري عني:

- الخير فيما اختار الله، وهل تملك لأنفسنا شيئاً؟  
وعما قليل تصبح رجلاً مسؤولاً، ويحيى دورك في تدليل أمك لتقضي بعض ما عليك من دين!  
وقضينا الساعات الطوال معاً، وأنا آنس بحديثها

وهال جدّي الأمر فقال بانزعاج:

- أأنت رجل! ألا ليتك خلقت بشأ. إذن لكنت أكمل الفتيا... أتريد أن تقطع حياتك التعليمية في السطور الأخير منها لأنك عاجزت عن قول كلمتين!... والله لو كانت أمك مكانك لخطبت الموجودين!

وجعلت أمي تقبض أصابع ينها وتبسطها في تشنّج وتقول:

- حسدوه... حسدوه يا ربّي!

وحاول جدّي أن يثني عن عزمي تارة باللين وتارة بالعنف، ولكنّ اليأس ثبت عنادي فلم أنثن، ولما فرغ صبره قال لي بحدّة:

- إذن ضاعت السنة، وليس ثمة فائدة من إلحاقك بكليّة أخرى بعد انقضاء شهرين وثيق على افتتاح العام الدراسي.

فركبني الخوف أن يلقي بي تارة أخرى إلى عذاب التعليم فقلت:

- ليس ثمة فائدة من مواصلة التعليم.

وقاطعتني أمي هاتفة بآلم:

- لا تقل هذا يا كامل. بل لتواصلنّ التعليم سواء في هذا المعهد أم أيّ معهد آخر.

وضرب جدّي كفّاً بكفّ وهو يقول:

- لقد جنّ، وهذه نهاية التدليل.

ولكنّي كنت كمن يدافع عن نفسه حيال الموت، ولم يعد بي من صبر أواجه به الطلبة والدروس والامتحانات، فقلت بحنوط:

- لا أستطيع... لا أستطيع... ارحموني!

وثار جدل عنيف صمدت له بقوة لا قبل لي بها، قوة مصدرها الخوف واليأس، حتّى سكّت جدّي مغيطاً حنقاً. وبعد فترة صمت مرهق سألتني:

- أترغب أن تتوظّف بالبالوروا!

فقلت خافض العينين:

- نعم!

واختلست منه نظرة فوجدته صامئاً مقطباً ويده تعبت بشاربه الفضيّ. وحولت عينيّ إلى أمي فأريتها

الطيب الشافي، وبفضلها وحدها انكشفت عني الغمة وتفتّح قلبي للحياة ونفض عن جوهره غبار الوسواس...

١٨

واستشفع حذّي بضابط عظيم من رجالات الجيش ممن «عمل ملازمًا صغيرًا تحت رئاسته في السودان» على حدّ قوله، ليجد لي وظيفة بوزارة الحربية وكُلّل مسعاه بالتوفيق ولكنّ الضابط أخبره بأنني ربّما عُيِّنت في السلم ولمّا قال جدّي ذلك تجهّم وجه أمي وقالت باستنكار:

- السلم؟! ألا ترى أنّ كامل لا يستطيع العيش بمفرده؟!

وكانت تظنّ السلم بلدًا قريبًا كالزقازيق أو طنطا على الأكثر، فلمّا عرفت حقيقتها ندّت عنها ضحكة عصبية وعدّت الأمر مزاحًا. وصاح جدّي متبرّما:

- وظّفيه بنفسك، أو عيّنه في حضنك وأريحني!

ولكنّه لم يأل جهدًا فسعى لدى معارفه القدماء من مواليد القرن التاسع عشر ممن عملوا قديمًا تحت قيادته، ولعلّهم تأثروا بشيخوخته الشبانينية ونشاطه الموفور. وما أيقظ في صدورهم من ذكريات فوعدهه خيرًا، ووجدوا لي بالفعل وظيفة بإدارة المخازن بديوان الوزارة العام. ولم يكن يفصل بين الوزارة وبين بيتنا إلا ثلاث محطات وعشر دقائق مشيًا على الأقدام فرضيت أمي وقرّرت عيّنًا، وقدمت مسوغات التعيين وتقدّمت للقومسيون الطيّب العام كالمُتبع، وبالاختصار صرت موظفًا من موظفي الدولة. وكان الشعور الذي لابسني وأنا أغادر البيت ميمًا الوزارة لأوّل مرّة شعورًا معقدًا، فيه زهو وخيلاء، وفيه فرح بالتحرّر من عبودية البيت والمدرسة على السواء، ولا يخلو من قلق يساورني كلّما أقبلت على جديد من الأمر. ومضيت بقلب خائف إلى محطة «عجوبي» لأنّ طريقنا أصبح واحدًا منذ ذلك اليوم السعيد ولو لمحطات معدودات، ولئن لم يكن في الوظيفة إلّا هذا لكان حسبي من الهناء والسرور، واحتطت بقلبي الضعيف فوقفت في الطرف

البعيد من «الطوار» حتّى لا يصعقني وجودي على كتب منها. وجاءت بعد حين قليل تتهادى في مشيتها التي تجمع بين النشاط والوقار فاستقبلها قلبي بخفقان كزغردة اللسان، ولبثت غاضبًا بصري ولكن في نشوة جعلت الدنيا من حولي أطيافًا وترنيمات، وجاء الترام فركبنا معًا، وكانت أوّل مرّة يجمعنا مكان واحد فسرى من ملمسه إلى جسدي مثل الكهرباء، ووددت لو ينطلق بنا بغير توقّف. وإلى الأبد. وحين غادرت الترام عبرت الطريق متعجّلًا إلى الطوار وأرسلت بناظريّ إلى مقصورة السيّدات فوقعتا على ظهرها وهي جالسة عاكفة على كتاب بين يديها. ولمّا تحرّك الترام التفتت فجأة إلى وراء فوقع بصرها عليّ ثمّ ولّنتي ظهرها ثانية. انتفضت من الرأس إلى القدم، وتسمّرت قدماي في الأرض وعلقت عيني بالترام حتّى لم أعد أتبيّن من معالمة شيئًا، ثمّ واصلت السير غائبًا عمّا حولي، سكران بالنظرة التي جادت بها السماء، وتساءلت في ذهول ودهشة لماذا التفتت؟ أيّ داع دعاها إلى ذلك؟ بل أيّ داع يمكن أن يكون هذا إذا لم يكن تلبية لنداء روعي الخفيّ؟ إنّ الراديو يلتقط الصوت من تضاعيف الهواء على بُعد الشقة، فما وجه الاستحالة في أن تلبّي الروح نداء روح أخرى مشحونة بالهيام والرغبة! وازدهاني ذاك الحاطر وأمنت في سعادة لا توصف بأنّ لروحي تأثيرًا على روحها. ولكن رحمتك اللّهم، فلشدّ ما ارتجفت تحت وقع النظرة الحافظة! ترى هل أنكرت وجهي أم ذكرت به الفتى الذي تطلّع إليها لحظة على المحطة منذ ثلاثة أشهر؟! وكنت قد اقتربت من الوزارة فعاودتني اليقظة رويّدًا، وقلت لنفسي وكأنّي أودّع ساعة النشوة المولّية «إني أحبّها، ولهذا هو الحبّ بلا زيادة ولا نقصان»!

وخرجت من دنيا الهيام لأدخل دنيا الحكومة. وقدمت نفسي للمدير فقدمني بدوره إلى زملائي في الإدارة وكانوا تسعة. هؤلاء قلّة بالقياس إلى الطلبة وإنّهم لرجال حقًا فلا يمكن أن أتوقّع منهم زراية أو سخرية، ورجوت من صميم قلبي أن أبدأ حياة جديدة غنيّة، ولمّا لم يُعهد إليّ بعمل ذلك اليوم

مستولاً، أما الآن فلم أرَ أمامي إلا مستقبلًا متجهًا مريزًا لا نجاة منه إلا الموت. أجل أدركت أنني لن أظفر بالراحة مدى الحياة، وأنه لن تزايلني الرغبة الخفيفة في الحرب. ولكن إلى أين هذه المرة؟ ولم يكن سرّ بلوتي في عجزني حيال العقبات فحسب، ولكن في تضخيمها وتكبيرها، فإني نصبت من عقلي حرب أعصاب هائلة ضد نفسي... لم أرض نفسي على الحياة في الواقع، ولم أوظنها على احتماله، فلم أدر ما فلسفة الرضا أو الاستهانة، كما أنني لم أقدر على فلسفة القوة أو الثورة، وكان إذا صادفني أمر لا يُحتمل - والدنيا كلها عندي لا تحتمل - راح خيالي السقيم يصنع من الحبة قبة، ولاقيت الهمّ بما يشبه الصبر في الظاهر على حين أنطوي على نفسي في كمد قاتل وغمّ فتاك. لذلك لم يخلُ مكان أحلّ فيه من عدو حقيقي أو وهمي. كان التلاميذ والمدرّسون أعدائي القدماء فغدا الموظفون أعدائي الجدد.

\*\*\*

ولكن كنت أنتِ العزاء والسروور! الحياة صحراء قاحلة مهلكة وأنتِ بها وحدك الراحة الخضراء الرطبة تلوذ بها النفس. ووالله ما حمدت للوظيفة من شيء إلا أن نقلني طريقها إلى محطتك، فعندها أنتظر كلّ صباح مطلعك حتّى إذا رأيتك مقبلة في خفة الغزال ووقار الطاووس تراجعت إلى طرفها البعيد فيما يشبه الذعر ودعوت الله أن يخفّف عني شدة الخفقان ثمّ أسترّق إليك اللحظ متحامياً أن تلتقي العين بالعين فالتقاؤهما جلل لا يصمد له إلا الأكفء. وإذا جاء الترام ركبنا معاً ولا تدرين سروري به إذ يحملنا معاً، ثمّ أغادره فيسير بك إلى هدفه المجهول مزودة بدعائي أن يصونك المولى ويسعدك، وتبقى لي بعد ذلك صورتك عالقة بخيالي تدّر على الأنس في وحشة سجنني الحديد. ولكن إلامّ أظّل على تلك الحال؟ لقد صفّق الجرع بقلبي، وأمضيت الانتظار.

وزاد من التياغي أنني جعلت أراها في الأصائل كما أراها في الأبرار، لأنني كنت أغادر البيت عصراً كما يحلو لكثير من الموظفين في غير معارضة من أمي التي لم

وجدت فسحة لمعاودة خواطري السعيدة عن الحرّة التي أمّني النفس بها، والتي أرجو بها أن أستنقذ نفسي من سجن البيت وعبودية المدرسة، ثمّ عن النظرة السعيدة التي أنتزعها روحي من الأعماق قوّة واقتداراً.

\*\*\*

وأقبلت على الحياة الجديدة بأمل جذّاب. وظفرت بأول نوع من الصداقة عرفته في حياتي، وهو ما يسمّونه بصداقة «المكاتب» هي صداقة جبريّة تفرضها زمالة الموظفين في المكتب الواحد. وقد فرحت بها بادئ الأمر لأنّه لم يسعني - أنا الذي لم أعرف في حياتي صديقاً - إلا أن أفرح بين تسعة من الرجال ينادوني بلا كلفة، ويستقبلوني ويودّعونني بأطيب تحية. ولكن وأسفاه قام خجلي حاجزاً منيعاً بيني وبينهم. ثمّ أثبتت لي التجربة أنّ تلك صداقة لا تستحقّ الأسف عليها، فهي تبدأ مع الصباح بالتحية والمداعبة وقد تنقلب عند الظهيرة إلى وقية دنيئة تختم بإنذار أو عقاب. والأدهى من ذلك أنني لم أعرف لي عملاً مستقلاً، ولكن ما من واحد منهم إلا ويكلفني بعمل آلي أنفذه صاغراً. وربما قضوا أكثر النهار في ثرثرة وتدخين وشرب القهوة وأنا مكبّ على الأوراق في شبه سخرة. ولا شكّ أنهم فطنوا بمكرهم إلى أنني «غزّ خجول» فاستغلّوا ضعفي أسوأ استغلال. وضاق صدري، وخبا سروري بالحياة الجديدة في الشهر الأول منها، وأيقنت أنني المستجير من الرمضاء بالنار! زاد من سوء حالي أنّ الشroud لم ينقطع عني أثناء عملي فوقعت مراراً وتكراراً في أخطاء السهو، وتوالت عليّ الانتقادات الساخرة والإنذارات ممّن يدعونهم «برؤساء اليد» فكأنني رُددت إلى المدرسة بتلاميذها ومدّرسيها، فعاودتني مرارة حياتي الماضية، وصحّ عندي أنني لن أظفر براحة حقيقية ما دمت على صلة بأحد من الناس... واجتررت آلامي في خفاء. ولم أكن أثور على شيء قطّ ممّا يشقيني، وكان ديدني دائماً أن أطيع بقلب دامٍ كظيم، وسخط مكتوم. وزاد البلاء حدة أنني لم أجد لحياتي متحوّلاً، ولا أملاً في الخلاص ولو بعد حين. وقد كنت أتجلّد في المدرسة أحياناً على أمل أنها ستنتهي يوماً فأصير رجلاً حرّاً

وابتعت بالفعل فراشاً ولكني ركبته في نفس الحجرة  
فظلّت تحوينا معاً، وهي الحجرة التي رأيت فيها نور  
الدنيا.

## ١٩

ثمّ كان صباح تاريخي في حياتي إذ وقع بصرها  
عليّ. والتقت عينانا وهي قادمة نحو المحطة،  
وارتعشت جوارحي وتساءلت وأنا أعاني الحياء: ترى  
ألم تذكر الفتى الذي رآته يوم لبّت نداء روعي؟!  
واسكرتني نشوة لم يحمدها مجيء الرجلين المنافسين  
نفسه. وحملنا الترام جميعاً حتّى محطة الوزارة فغادرته،  
وهرعت إلى الطوار ثمّ بعثت بناطريّ إلى مقصورة  
السيدات، وكانت تجلس في الصفّ الآخر ووجهها إلى  
ناحيتي فالتقت عينانا مرّة أخرى، وغضضت بصري في  
حياء وصدرتي بالسعادة بترد، ثمّ غمغمت لنفسي وأنا  
أجدّ في السير «برح الخفاء وافنضحت!» وقد تذكّرت  
سعادتي عصراً وأنا جالس في حجرتي غير بعيد عن  
أمي فقلت لنفسي وأنا أختلس منها نظرة غريبة «آه لو  
تدري بأفكاري!». ألم تعلّمني تجاربي الماضية أن مثل  
سعادتي هذه ممّا تعدّه هي - أمي - كفراً لا يُغفر؟! هذه  
حقيقة لم تغب عن خاطري قطّ، ومع ذلك بدت لي  
وقتذاك غريبة مستنكرة كأنّما أكتشفها لأول مرّة،  
وسدّدت نحو الوجه الوقور الجميل نظرة احتجاج  
واستياء، وقلت لنفسي متغيّظاً: «ربّما كان الضرر يقع  
بي أخفّ لديّ من كشف حيّ!». ولعلّي بالغت  
كثيراً، ولكنّ سيرتها الماضية جعلتني لا أرنو إلى الخائب  
البهيج من الحياة إلّا في خوف وحياء شديدين من  
ناحيتها! وكأنّما ضفت بكتباتي سعادتي في حضرتها  
فغادرت البيت مسروراً وهرعت كالمتعبد إلى المحطة  
القديمة، وسبقني بصري فوقع على الشقيقتين وراء  
زجاج النافذة فتقدّمت في سعادة غامرة، أمشي على  
استحياء. . واندسست في زحمة الواقفين وقلبي يتمنّى  
ألّا أبرح المحطة حتّى يسدل الليل سدوله. وكان الجوّ  
شديد البرودة فداخلي سرور بأنّي أنحمّل قسوة الجوّ في  
سبيل نظرة من عينيها. ولم أشكّ في أنّ طول قامتي

يعد بوسعها أن تعارض في ذلك. وكنت أهرع إلى  
محطّتي القديمة لتلقاء بيتها، فأقف بين المنتظرين  
مستطعلاً مشرق روعي بطرف مشوّق، فاحياناً أرى  
الأمّ أو الأب أو الأخ أو الأخت، وأحياناً أراها في  
فستان بسيط أنيق من فساتين البيت يزلزل نفسي زلزالاً  
شديداً.

لم أعد أرى لحياتي أملاً إلّا في الرفيق الأنيس،  
فهتّت بها هيئاً، واستأسرتني رغبة صادقة حارة في  
السعادة التي لم يكن لها من معنى في نفسي إلّا أن أفنى  
فيها وأن تفنى فيّ. بيد أنّي لم أتجاهل العقبات، وهل  
كان دأبي إلّا تكبير العقبات؟! فلم أنس أنّي في أوّل  
الطريق وأنّ مرتّبي سبعة جنيهات ونصف؟ ثمّ  
لاحظت بمزيد القلق أنّ ثمة رجلين يقفان معنا في  
المحطة صباحاً لا يفتآن ينعان النظر في وجه الفتاة  
باهتمام. أمّا أحدهما فرأيتُه يخرج مرّات من العمارة التي  
تقيم فيها، وهو رجل في نحو الأربعين تلوح في وجهه  
آي الرزاة والوقار، ويسمّ بطابع الموظّفين الممتازين.  
وأما الآخر فشابّ في الثلاثين ميّال للضحامة والبدانة  
مع أناقة ووجاهة، إلّا أنّ إيماءاته ونظراته تنمّ عن  
العجب والزهو. وعجبت لتطلّعها المتواصل إليها وما  
من داعٍ إلى العجب، ولكني ظننتني - ويا له من ظنّ  
مضحك - أوّل من تهيّأ له كشف ذلك الكنز. وثار بي  
الغضب والحنق، وتلوّث دودة الغيرة في سويداء قلبي.  
إنّها لا تحيد عن نظرتها المستقيمة ولكن ترى هل  
تجهلها حقّاً كما تجهلني؟ خصوصاً هذا الجار الذي  
يقطن تحتها أو فوقها؟ وتقبّض قلبي فزغاً ويأساً  
ورمقتها يغيظ كأنّها المسئولة عن اهتمام الناس بها؟  
واطّردت حياتي بين عمل ممقوت وحبّ حائر  
غريب.

وكان بيتنا في ذلك الحين يعدّ من البيوت السعيدة،  
اطمأنت قلوب أهله، فسكن خاطر الشيخ الهرم،  
وقنعت أمي بما قسم لي ولها. بيد أنّ جدّي قال لي يوماً  
بلهجة ساخرة:

- ألا اخجل يا رجل وابتع لك فراشاً، أتظنّ الدهر  
تنام في حضن أمك؟!

وما كان قد كان». ومرة رأيت الأخت الصغيرة في النافذة وأنا مقبل نحو المحطة عصراً، ولما لمحتني التفتت إلى الورا كأنها تخاطب شخصاً لا أراه، ثم بدت الأم وراء زجاج النافذة وألقت عليّ نظرة متفحصة. ربّاه! لقد داخلني شعور الجاني إذا ضُبط متلبساً بجريمته. ولم يبقَ ثمة شكّ في أنّ البيت يعرفني، وازددت يقيناً فيما تلا ذلك من أيام! فما كان يقع عليّ بصر أحدهم حتّى يتفحصني باهتمام إلاّ مولاني طبعاً! وازددت اضطراباً.

ورحت أسائل نفسي الحيرى عمّا يقولون، وعمّا يظنون، لي منظر حسن خدّاع، ولعلّهم يظنونني موظّلاً مغبوطاً ذا مستقبل باهر! أوّاه، ما كنت موظّلاً كبيراً إلاّ في تقدير أمّي، ولعلّي ندمت عند ذاك على قطع حياتي الجامعيّة، وعزّيت نفسي المحزونة بأنّي سأرت يوماً ثروة لا بأس بها! مهما يكن من أمر فلا داعي للخوف من البيت. بل إنّي لأشعر بأنّه سعادتي المرموقة. وإنّي لأحبّه من مجامع قلبي، أناسه وأثائه وحجراته وحقّ خادمته. إنّي أعيش فيه بروحي، وأجاذب أهله. في الخيال - أشهى الأحاديث، أمّا حبيبتى فهي ملء القلب والعقل والخيال. وكنت إذا رأيت الغسيل منشوراً على الشرفة نفّس به نسائم الأصائل أرنو إليه بعين محبّ حنون، وبصري يتنقل بين ألوانه وأشكاله مشغولاً بأهداب رقاق يطرب لها قلبي طرباً قدسياً كأنما يشفّ آذاني سجع الحان الهمة! ولكمّ خاطبت حجرة حبيبتى موصياً إياها بها في اليقظة والمنام، وعندما تخلّق بها الأحلام، أو حين تتحدّث بنبراتنا التي لم أسعد بسامعها.

ويوماً دفعني الهوى إلى البقاء في الترام حتّى أوصّل حبيبتى إلى مدرستها. واضطربت خوفاً وقلقاً من جرّاء المخاطرة التي نشبت فيها، وبلغ الترام العتبة الخضراء وعيناي لا تفارقان مقصورة السيّدات لأرى أين تنزل حبيبتى. ودار الترام بنا مخترقاً شوارع كنت أراها لأوّل مرّة حتّى عبر جسر أبي العلاء. وفي المحطة التالية له غادرت الفتاة الترام. وهبطت إلى الطوار وأنا أتبعها عينيّ فرأيتها تتجه إلى الطوار الأيمن بطولها الفارع

ومعطفي الأسود خليقان بأن يذكّراها بي. ورفعت عينيّ في خوف شديد فرأيتها تنظر صوبي وإن لم أتمكن لبعد المسافة من تحديد تحديقه عينيها، ومع ذلك سرت إلى أطرافي رعدة السرور. وجاء الترام على رغمي، ودفعني الخجل دفعاً إلى ركوبه.

لم يعد لحياتي من غاية إلاّ المحطة وصاحبة المحطة. قصاراي أن أسترق النظر بعينين خجولتين، وأن أخفضهما سريعاً إذا رنت إليّ العينان اللتان أحبهما أكثر من الحياة نفسها. ولم تعد فتاتي تجهلني كما جهلتي أشهراً أربعة، فأحسّت بلا شكّ أنّ فتى يتطلّع إليها حيثما تحلّ، وأنه يتعمّد ذلك في صبر طويل وإن كان لا يبدي حراكاً. بل ابتسم الحظّ فجعلت أفوز بنظرة كلّ يوم تقريباً. وإن بدا أنّ الاتفاق وحده هو باعثها، نظرة عابرة تلقى على المكان كلّ فصادفني في جانب منه! وفيها عدا ذلك فقد حافظت على وقارها واحتشامها. أجل ما عادت تجهلني مهما تجاهلتي، وإنه لظفر رائع - بالقياس إلى عجزى - أن تحسّ وجودي بعد ذلك النضال الصامت الطويل. وثابرت على النظر والصبر وكأني أنتظر أن تحيى الخطوة التالية من ناحيتها هي، أو من ربّ السماوات والأرض...

تلك أيام حلوة سعيدة على خلّوها من الأمل. أنفقتها في إحساس عميق بهيج وأحلام لا يحيط بها الخيال، رقت على قلبي في طهر وقداسة. وقد أوصدت دونها باب خلوتي الليلية، ولذّي الشيطانية.

\*\*\*

وتبيّن لي بعد حين أنّ سرّي المكنون يتسرّب من أعماق صدري على تكتّمي وحرصى. لا أدري كيف حدث ذلك، ولعلّ الأمر لم يعد أنّي أنسى نفسي في لحظات الهيام فتقع العين متيّ على ما أحرص على كتمانها. وما أدري يوماً إلاّ والرجلان «النافسان» يرمقاني بريبة، وكأنّهما فطنا إلى ظهور منافس جديد. ويوماً مرّت بي في موقفي من المحطة خادمة الفتاة فألقت عليّ نظرة ذات معنى ذاب لها قلبي ذوباناً، وساءلت نفسي في خوف وسرور: ترى هل بلغ سرّي البيت نفسه؟! ثمّ غمغمت في حياة بالغ «انفضحت

والصالحه. ولم يجدّ جديد في حياتي إلا مواظبتي على الصلاة بعد أن كنت أنقطع عنها في فترات متباعدة. ولعلّ هيمان صدري بالحُبّ هو الذي هيأ لي ذلك الاتصال الطاهر بالله خمس مرّات في اليوم، على أنّ نفسي لم تتخفّف من ألمها القديم، وزادتها الصلاة ألماً، لما يفرط منّي في ساعات اللذة الجنونيّة التي اختلسها ليل، فلم يعد يسعني الكفّ عنها، بل زدت استسلاماً لها، دون أن يقرعك الندم يوماً واحداً، وليس أشقى من أن يقرعك الندم وأنت ذو إيمان. وما من شكّ في أنّ ذلك الصراع المتواصل هو الذي جذبني إلى إنعام النظر في نفسي وحياتي، فهالني أوّل الأمر ما تسير عليه حياتي من منوال رتيب فالיום فيها بعام والعام بيوم، ألم ينقضّ عليّ عام منذ توظّفتي بالحرية دون أن يجدّ جديد؟! عمر يمضي في ضيق بالعمل المقضيّ به عليّ، وفي وحشة لا تتبدّد إلا ساعتين: ساعة المحطّة، وساعة الأنس بأمنيّ في بيتنا. وحتىّ تلك الأوقات السعيدة لم تخل من تنغيص وألم، فعند حبيبتي كان يطاردني طيف أمي، وعند أمي كان يخيفني طيف حبيبتي. وتولّد من ذلك قلق محير امتزج في نفسي بما يثّر بها من ندم فشملي بكآبة لا تريم. وإني إذا رجعت بالذاكرة إلى تلك الأيام أنحيت باللائمة على نفسي، لا لأنّي لم أجد سبباً وجيهاً لتعاستي، ولكن لسوء صناعي المعتاد في تضخيم الأحزان والآلام، ولأنّي لم أواجه أمراً في حياتي بما يستوجبه من حزم وشجاعة. ولذلك لم تدّر أمي علّة لسهومي الذي كان يقلقها، ولطالما قالت لي بحزن وأسف:

- لماذا تبدو أحياناً كالخزين؟ لعمرى ماذا ينقصك؟ أردت أن تكون موظّفاً فكنت، ومتّعك الله بعطف جدّك الذي يهتّم لنا عيشاً وغيداً، وفي خدمتك أمّ لو استوهبت حياتها لو هبتك إياها عن طيب خاطر، وبين يديك الشباب والصحة أدامهما الله لك. فماذا ينقصك؟

وعجبت كيف تتساءل عمّا ينقصني!.. أجل إنّها عدّت لي نعماً سابعة، بيد أنّي أجهل فضل تلك

وقدّها الرشيق، ثمّ انعطفت إلى طريق جانبيّ يمتدّ بحذاء القصور المقامة على النيل، وسنحت منها التفاتة وهي تنعطف إلى الورااء فوقع بصرها عليّ وأنا واقف أنظر صوبها. ارتجفت أوصالي كأنّما مسني تيار كهربائيّ، وتساعد دم الخجل إلى وجهي. وسرعان ما غابت عن ناظريّ فتقدّمت خطوات حتّى أمكنني رؤية الطريق فرأيتها تبتعد بخطواتها الرشيقة، ثمّ مرقت من باب جانبيّ غير بعيد. ولبثت متردّداً، وفكرت في العودة إلى الوزارة التي تأخّرت عن ميعادها بغير اعتذار، ولكن أبّت نفسي أن تنتهي المخاطرة بلا نتيجة. وتقدّمت نحو المدرسة بقلب هيّاب، ثمّ مررت بها متعجّلاً، ولكنيّ قرأت اللافتة «معهد التربية العالي للبنات»، ورجعت إلى المحطّة وركبت الترام العائد وأنا أتساءل عن معنى ما قرأت. وعلمت ما فاتني علمه في إدارة المخازن فأخبرني موظّف أنّه معهد لتخريج المعلّات لمدارس البنات الابتدائيّة، وأنّهنّ يدخلنه بعد البكالوريا. وداخلني زهو لأنّ حبيبتي ستصير أستاذة، ولكن لم يغيب عنيّ الفارق الكبير بيننا في الثقافة، فلعلت نفسي الخائرة التي حملتني على الفرار من الجامعة! وساورني خوف وكآبة. ثمّ لجأت إلى المجلّة مشيري القديم فأرسلت إليها هذا السؤال: «هل يمكن أن تحبّ فتاة مثقّفة ثقافة عالية شاباً من حلة البكالوريا؟». فذكرت المجلّة في جوابها الأميرة التي أحبّت الراعي!..

وحلمت تلك الليلة بحبيبتي، فكانت أوّل زورة في المنام...

تركّزت أحلامي في أمرين، أن أتمتّع بدخل حسن - وهو آتٍ يوماً ما - وأن أظفر بعروسي. لم أكن بمن يشقيهم الطموح، وإذا كان لي منه شيء فيما مضى من أيّام الأحلام، فقد قُبر في إدارة المخازن بوزارة الحربيّة حيث تعدّ علاوة نصف جنّيه من الآمال البعيدة. أجل لم تشب بي الهمة في الطموح، ولكن هفّت نفسي إلى السعادة والطمأنينة، إلى المعيشة الطيبة والزوجة المحبة

- إِنْهُمْ لَا يَرْمَنُ سَعَادَتَكَ وَلَكِنَّهُمْ يَرْدُنَكَ مَطِيَّةً  
لسعادة بناتهم!  
لم أفهم لقولها معنى، وقرأت في عينيها أنها ترجو أن  
أفصح عن عدم اكتراثي للأمر، ولكنني تشجعت  
ولازمت الصمت، فقالت بلهجة تشي بالقلق:  
- الزواج سنة، ولا يجوز أن يتزوج الشخص قبل  
أن تكتمل رجولته.

فتساءلت في امتعاض: إذا لم تكتمل رجولتي في  
السادسة والعشرين فمتى تكتمل إذن؟ ووددت لو  
أصرح بأفكاري ولكن شجاعتي لم تسعفني فواصلت  
الصمت. وتفردت في وجهي ملياً ثم استطردت قائلة  
بجزع:

- إني أريد لك عروساً جذيرة بك حقاً. يبهز حسنها  
الآعين، وتطري أخلاقها اللسن، من أسرة كريمة ذات  
معدن، فتعني لك قصرًا شاملاً!

فسألتها وأنا أداري غيظي:

- وأين توجد مثل هذه العروس؟!

فقالت وهي تعض شفتيها:

- ستوجد حين يأذن الله!

وقلت لنفسي هذا تعجيز بلا ريب. واحتدم الغيظ  
بصدري وتراءى لي وجهها في حالة الغضب والثورة،  
فقلت لنفسي ساخناً:

- إن أمي إذا احتلت توارى جمالها ونضبت سباحة  
وجهها.

## ٢١

الزواج! الزواج! لم يعد لي فكرة سواه، ولم أجد  
لحياتي معنى إلا أن تتم به. إذا لم نتزوج فلماذا إذن  
نعيا، بل لماذا وجدنا في الحياة؟ إني أحن إليه حينئذ  
موجعاً تندى له الضلوع فتسح أشواقاً: إنه جنة المبلي  
بنار الجحيم. ولست أكف لحظة عن تخيله في أحلام  
اليقظة الشاردة التي تغيب بي عن الوجود. إني أراي  
لصق حبيتي وعلى وجهها الأنبيق نقاب الحرير المطرز  
بالفل، والشمع يزهر من حولنا. وأراي أمضي بها إلى  
مسكن في آخر القاهرة ولا أدري لماذا أحب أن يكون

النعم، وكانت لي بمثابة الهواء الذي ننع به في كل  
لحظة من لحظات حياتنا دون أن يخطر لنا أن نشكر  
عليه. ولكني لا أنفك عن التفكير فيما ينقصني فيعميني  
ما أنطلع إليه عما أنعم به. إني شخص لم يقدر له أن  
يعرف شيئاً عن حكمة الحياة، فلم يخرج قط عن دائرة  
نفسه الضيقة، وفي ذلك سر دائي، هو الذي حال  
بيني وبين مسرات الحياة، وما فيها من فضائل ومعاني  
وصداقات، وطوى صدري على النفور من الناس  
والخوف منهم، بل جعلني أعدّ الدنيا عدواً يتربص  
بي. ولعلّه لم يكن يرضيني إلا أن تخلي الدنيا نفسها من  
همومها لتكرس حياتها لسعادتي، ولما لم يسمعها ذلك  
قاطعتها في عجز وخوف وناصبتها العداء، وانكشمت  
في أعماق ذاتي جاهلاً ما يمتلئ صدرها من أناس وآمال  
وفضائل، وحتى الحب وهو أول إحساس سام ألمه  
وقفت حياله جامداً حائفاً، أنتظر في يأس أن يبادر هو  
إليّ...

ثم جاء دور أمي ولو متأخراً، فأخذت أتمرد عليها  
وإن لبث تمردي نازاً مكنونة لا يتطايها لها شرر. ونشأ  
ذلك من موقفها الغريب حيال ما يذكرها بزواجي  
عاجلاً أو آجلاً. وقد لمست ذلك بنفسي حين حدثتها  
خالتي - في إحدى زياراتها الرسمية - عن رغبتها في  
زواجي من ابنتها التي صارت شاة ناضجة، فرأيت  
كيف تلقت الاقتراح برفزة ظاهرة لم تستطع معها أن  
تحافظ على ما ينبغي المحافظة عليه فيما بين شقيقتين من  
مودّة أو بماملة فغادرتنا خالتي مغضبة.

ولمسته مرة أخرى حين اقترحت عليها امرأة دلالة -  
كانت تزورنا في مواسم الكساء - أن تخطب لي عروساً  
لائقة، فرأيت كيف انفجرت فيها غاضبة ساخطة حتى  
انعقد لسان المرأة دهشة وارتباكاً.

لاحظت ذلك بوجوم وغيظ، واستنكرته استنكاراً  
شديداً، ولم أجد له تفسيراً أرتاح إليه. ولم تكن بي  
رغبة إلى ابنة خالتي، ولا إلى عروس من عرائس  
الدلالة، ولكنني آنست منها كرمها لزواجي، فاشفقت  
على أمالي، واثارت ثائرتي وبدا لي أنّ قلبها توجس  
خيفة فقالت لي يوماً:

وتردّدت لحظة ثم استطردت متسائلة:

- ولكن... لماذا تلقي عليّ هذا السؤال؟

وحولت عنها بصري كأنني خفت أن تقرأ ما في ضميري، وقلت بعدم اكترار:

- سؤال لا أكثر. أحبّ دائمًا أن أعرف ما يحول بخاطرك.

فتهذّج صوته وهي تقول:

- ليس بخاطري إلّا فوق ما تحبّ لنفسك من

السعادة والهناء... ولكن ليس الزواج هوًا ولعبًا،

إليك مأساة أمك فهي أكبر دليل على ما أقول. واذكر

دائمًا أنّ اختيار الزوجة مهمّة شاقّة، وهي من شأن الأم

قبل أيّ إنسان آخر، لأنّ هذا ميدان تجاربها، وهي

تعرف ابنها أكثر ممّا يعرف نفسه، وتستهدف سعادته

قبل سعادتها هي، كذلك السنّ أمر عظيم الخطورة،

وأنت بعد في حكم الأطفال... لماذا تلقي عليّ هذا

السؤال «وهنا ازداد صوته تهذّجًا». إليك مأساة

أمك فهي لا ينبغي أن تغيب عن وعيك. كم

تعذّبت، وكم تألّت، وكم كابدت الإهانة تلو الإهانة!

كم بكيت حنيئًا إلى أطفال الذين عاشوا غرباء عنيّ

ونحن في مدينة واحدة! حتّى أنت كان شبح فراقك

يطاردني ويقضّ مضجعي، ولو أخذوك منّي لقضيت

غمًا وكمدًا وكم تمنّيت الموت صادقة لأرتاح من

وساوس حياتي المقلقة «خيّل إليّ أنّها تعني حياتها

الراهنة بقولها الأخير» ولذلك كرّست حياتي لرعايتك،

وضحيّت بسعادتي في سبيلك، و... «تردّدت لحظة

ولعلّها همت بتذكيري بالرجل الذي رفضته من أجلي ثمّ

عدلت». ولا تحسب أنّي آمنّ عليك، فالأمومة تستنكر

المَنّ. ليته كان للبنوة بعض ما للأمومة من عطف.

لشدّ ما تنسى... ربّاه لا تؤاخذي، أنا لا أدري ماذا

أقول. ولكن لا تظنّ بأمالك الظنون. إنّنا نعطي كلّ

شيء عن طيب خاطر، حتّى إذا شبّ المولود عن

الطوق لم يفكر إلّا في أن يولينا ظهره ويمجد لنفسه

مهرّبًا. أقول مرّة أخرى لا تؤاخذي. لست أحسن

ضبط نفسي وأسفاه. ولكن لقد عشنا معًا طوال هذا

العمر. وليس لي أمل في هذه الدنيا سواك، فإذا نبذتني

في آخر القاهرة. ثمّ أراها تنتظري بالشرفة فأهرع نحوها وقد انطلقت من قفص إدارة المخازن فتجد لي سعادة هفافة يعجزني تصوّرها حتّى في الأحلام بيد أنّي لم أتملّ الأحلام صافية فطالما أعقت نشوة الفرح الوهميّ كآبة غامضة لا أدريها، ولم يخل خاطري قطّ من وجه أمي المحبوب فكان يتبايني حياء شديد يتصبّب له جيبني عرقًا، ويخامرني شعور بالذنب تعافه النفس. فيتلوّى بوزي اشمزأًا...

وفضلاً عن هذا كلّه فلإنّي لم أتحلّص من بعض هوى للعزوبة نفسها! إنّ حبّ الوحدة داء، وإنّ شبه بالمخدر تودّ منه فرارًا ولا تستطيع عنه فكأثًا، وتبغضه لنفسك وأنت تعاني الحنين إليه. أتؤاتيني الجرأة حقًا على نبذ ماضيّ الطويل؟... إنّ نفسي تهفو إلى البيت الزوجيّ السعيد حينًا، ثمّ يملّكها الإشفاق على الوحدة الهادئة والطمأنينة المعفاة من المسؤوليات حينًا آخر. وإنّ الهرب من المسؤوليات داء قديم حتّى لأضيق بحلاقة الذقن أو عقد رباط الرقبة، فكيف أنبري لحمل تبعات البيت والزوجة والذريّة وما يجرّ ذلك من حياة اجتماعيّة متعبة بما تفرضه من واجبات وتقاليدي؟! إنّني أتحيل تلك الواجبات فتدّ أطرافني، ولكني في الوقت نفسه لا أكفّ دقيقة عن الحنين إلى الحياة الزوجيّة.

بتّ أشعر بأنّي فريسة همّين قاتلين: تردّدي وأمي. ومن يدري فلعلّ أمي هي الهمّ كلّه. وتجمّعت نفسي الحيريّ تروم سلامًا تلوذ به، فأجمعت على أن أقابل الخطر وجهاً لوجه وليكن ما يكون...

وإنّي لجالس إلى أمي ليلة إذ قلت لها بلا سابق إنذار:

- ألاحظ يا أمّاه أنّك لا ترغبين في زواجي.

فاتسّعت عيناها الخضراوان الجميلتان دهشة،

وقلقت فيهما نظرة حائرة، ثمّ قالت بصوت متغيّر:

- إنّني أُرغب في سعادتك دائمًا، وهذا لشغلي

الشاغل. وإذا كنت لم أوافق على ما عُرض لي من هذا

الأمر في الماضي فلأنيّ وجدته دون ما أرجوه لك، ولا

شكّ أنّك تدرك هذا تمام الإدراك. ولكن...



شديد الذبول والهزال لنحولها الطبيعي فتوجّع قلبي  
توجّعاً أليماً. ولم أطق أن أراها محرومة من جمالها  
وصحتها، فأحزنني منظرها وساءني إهمالها نفسها.  
وكانت تعصب رأسها بمندبل فبرزت تحت طرفه  
خصلات من شعرها وخَظَلها المشيب وشعثها الإهمال  
فضقت صدرًا وتجهّم لي وجه الدنيا. ويومًا - وكنت  
جالسًا إلى جانبها - جرت في تيّار شعوري خواطر  
غريبة لعلّ باعثها الخوف والإشفاق، فطرحت على  
نفسي هذا السؤال الخطير: كيف تكون الحياة لو خلت  
من هذه الأمّ الحنون؟ واقشعرّ بدني، بيد أنّ خيالي لم  
يمسك عن هذيانه، فتابعت المناظر أمام عينيّ  
واستسلمت لمشاهدها في حزن صامت ثقيل. رأيت  
بيتًا مقفّرًا ورأيتني تائهاً حائرًا كمن ضلّ سبيله في  
مفازة، وهذا جدّي متبرّمًا ساخطًا يصبّ جام غضبه  
على الخادم العجوز والطاهي. ولست عجزي عن  
مواصلة هذه الحياة الموحشة فاقترحت على جدّي أن  
أتزوّج لنجد من يكملنا برعايته. ثمّ رأيت حبيبتني  
بقامتها الرشيقة ووقارها المحبوب تتعهد البيت وآله  
بعطف سابع وحبّ شامل. ثمّ رأيتنا جميعًا - أنا  
وزوجي وجدّي - واقفين على قبر عزيز نرويه بدموعنا.  
وانتهت إلى نفسي في فرع فأحسست بالدمع حائرًا بين  
جفنيّ. وعضّ الندم قلبي، وامتلات نفسي امتعاضًا  
وثورة، وغمغمت لنفسي «اللهم غفرانك، اللهم اكتب  
لها طول العمر»، ثمّ هويت على وجهها فقبلته بحنان،  
وقد طاردتني ذكرى تلك الخيالات كثيرًا حتّى تركتُ فيّ  
آثارًا عميقة من الألم والحزن. ولازمني همّ مقيم حتّى  
بعد أن برأت وعادها نشاطها وجمالها. وكدت أعود  
إلى ذلك التفكير السقيم في الحياة الذي يقف عند  
طريقها - الميلاد والموت - ويرى ما عدا ذلك هباء في  
هباء، وهو ذلك التفكير الذي تأدّى بي فيها مضى إلى  
محاولة الانتحار لولا أنّ الله سلّم

جاء الصيف، ومعناه - بمقياس القلب - أنّ حبيبتني  
ستنقطع عن الذهاب إلى المعهد فلا تتاح لي رؤيتها إلّا

لم أجد لي مأوى. أنتم حياتنا في صغرنا وكبرنا على  
السواء، أمّا نحن فتحبّونا صغارًا وتكرهونا كبارًا، أو  
أنّكم تحبّونا حين لا تجدون من تحبّونه غيرنا، ماذا  
قلت؟... أستغفر الله... ساعني يا كامل، إنّي  
مضطربة، لست أحسن الحديث على الإطلاق...  
وعجبت كيف انحدر بها الحديث ذاك المنحدر  
الصعب. بدأ الكلام مقبولًا ثمّ تشنّج. وحاولت أن  
أحول دون استرسالها فلم تجد محاولتي، فاضطرت أن  
أتهجّره على ما أثار من ألم وحزن، وتبادلنا نظرة طويلة،  
دلّت على العتاب من ناحيتي، وعلى الذهول من  
ناحيتها. لم تكن في كامل وعيها وأسفاه. وقلت  
بأسى:

- أهذا جزاء من يسأل سؤالاً بريئاً؟!

فاغرورقت عيناها، وقالت وهي خافضة العينين:

- أنا لا أحسن الحديث أحيانًا ويحسن بي أن  
أمسك. لا تخش جانبي، وإذا راق لك يومًا أن أغيب  
عن وجهك فما عليك إلّا أن تومئ إليّ ولن تجد لي  
أثرًا...

ووضعت يدي على فمها وصحت بها:

- ساعحك الله. حسبنا كلامًا. لقد أخطأت بسؤالي

البريء خطأ كبيرًا!

ثمّ تظاهرتُ بعدم الاكتراث، بل ضحكت طويلاً،  
وكأنّ ما كان لم يكن، وراح قلبي وحده يجرّ آلامه.  
أثر فيّ كلامها حتّى هزّني هزًّا عنيقًا فحزنت حزنًا لم  
أشعر بمثله من قبل. وعجبت كيف يغلبها الانفعال  
على نفسها فتلقني في وجهي بتلك الاتّهامات الجارحة.  
ولم أخلّ من سخط عليها لا لأنّها اتّهمتني بالباطل -  
فذاك نثار غضب وقيّ لا قيمة له - ولكن لأنّها قابلت  
رغباني الكامنة بثورة تجاوزت حدود الحكمة! وتماذيت  
في سخطي فقلت إنّها ذكرت نفسها أكثر ممّا ينبغي  
ونسيتني أكثر ممّا ينبغي... واستسلمت كالعهد بي  
لداعي أنانيتي فرميتها بالأنانية..

وعقب حديثنا الغريب بيومين أصابتها وعكة مرض  
ألزمتها الفراش فلم أفرقها أثناء مرضها إلّا في أوقات  
العمل. ومع أنّ الحالة كانت خفيفة إلّا أنّ وجهها بدا

في الشرفة أو النافذة. إنَّها تعرفني الآن حقَّ المعرفة كما يعرفني البيت جميعاً، ذلك الفتى الذي يتطلَّع إليها دوماً، ويرنو صوبها بعينين يتجلَّى فيهما الإعجاب والحب، ويثابر على ذلك في صبر عجيب زهاء عام دون أن يبدي حراكاً، والأعجب من هذا كلُّه أنَّني كنت أضبط عينيها في لفتات عارضة وهما ترنوان إليَّ فأجنُّ جنوناً. وإني أكاد أسمعها تتساءل عما أريد، بل أسمعهم جميعاً يتساءلون، وهذا يسعدني ويشقيني معاً، والحقُّ أنَّي أحبك يا حبيبي، أحبك بكلِّ قوَّة نفسي، فإذا سألت بعد لماذا لا أبدي حراكاً؟ أجبتك بأنَّني لم أدرك كيف أبدي حراكاً في حياتي، ووراثي أم، وحظَّ محدود، فكيف يمكن تدليل هذه الصعاب؟... خبِّريني يا حبيبي أطر إليك بنير جناحين!

وكان يوم غريب في حياتي...

وبدأت الصباح بوقفة الهيام وتطلُّع العشق. ثم ذهبت إلى الوزارة تتنازعني أحاسيس السعادة والشقاء شأني كلَّ صباح، وراح الموظفون يستقبلون اليوم كعادتهم بالثرثرة، فقال أحدهم وكان يليني في مجلسه: - سكرت أمس حتَّى تأرجحت بي الكرة الأرضية! وثار اهتمامي فجأة وحضرتني أبي بصورته وذكرياته. ترك في قوله أثراً لم يدركه أحد ممَّن يجلسون حولي، ولا عجب فالخمر كتبت تاريخ أسرتنا وقررت مصائرها، والتفتُّ نحو الموظَّف ونذَّ عني هذا السؤال همساً بلا وعي تقريباً:

- لماذا تشرب حضرتك الخمر؟

ثمَّ أدركت في التوتُّر سرَّعي وخطئي فعلاَّن الارتباك والحياء. ولم أكن خاطبت أحداً في الإدارة منذ التحاقني بالخدمة في غير شؤون العمل حتَّى أطلقوا عليَّ «غاندي» لما عُرف عن الزعيم من أنَّه ينذر يوماً في الأسبوع للصمت. وفرح الرجل بتطقُّلي عليه وقال بصوت مرتفع وهو يوميء إليَّ:

- أخيراً تكلم!

وسأله أحدهم وهم يصوِّبون أنظارهم نحوي:

- من؟

- غاندي.

- وماذا قال؟

فقال الرجل ضاحكاً:

- يسألني لماذا أشرب الخمر!

فقال آخر:

- سكت دهرًا ونطق كفرًا!!

وقهقهوا ضاحكين، بينما ذهبت في مقعدي صامتاً، وراح أكثرهم يحدِّثني عن الخمر والنشوة واللذة والنسيان. ندمت على ما بدر مني ممَّا وضعني موضع سخرة ومزاح. وتفكرت في الأمر طويلاً، ثمَّ أفقت إلى نفسي فوجدتها - لدهشتي - تتلهف على تجربة الخمر!! ولشدَّ ما عجبت فيما أعقب ذلك من أيَّام لتلك اللهفة الغريبة بعد ستَّة وعشرين عاماً، قطعها فيما يشبه النسيان إذا استثنيت اللذة السريَّة التي جرَّعتني مرارة الذنب والندم. هل نشبت تلك الرغبة في نفسي فجأة؟ إنَّ ظاهر الأمر يدلُّ على أنَّ ذاك الحديث الذي دار بين الموظَّفين كان الباعث على تلك اللهفة، ولكن هل يعقل أن يهوي إنسان مستقيم مثلي لعارض تافه كذاكَ العارض؟! لقد ركبني جنون، فتمنَّيت أن ينقضي النهار سريعاً لأقرع باب اللذات الموصد، ولأحطِّم الأغلال التي أذعنت لها طوال عمري، وقلت لنفسي وكأنَّ الذي يتحدث شخص غريب: «سأجرب الليلة الخمر والنساء» وأراحني التصميم لأنَّه خير من القلق والتردد، ولأنَّي متَّيت نفسي بأنَّ أجد وراءه متنقِّساً للضغط الشديد الذي يؤودني، ولم أعرف التردد - ذلك الرفيق البغيض - طوال يومي، فعند الأصيل كان الترام يحملني إلى العتبة، ووقفت في الميدان حائراً لا أدري أين توجد الحانات! ثمَّ رأيت عربة فناديت الحوذني وركبت ثمَّ قلت له بصوت منخفض في حياء شديد:

- حانة... آية حانة من فضلك!

فحدجني الرجل بنظرة غريبة ثمَّ قال وهو يلهب

ظهر الجوادين بسوطه:

- سأذهب إلى شارع ألفي بك وهناك تختار الحانة

التي تعجبك!

كونياك... جعة... نبيذ؟!  
 فسألته في ارتباك أشد:  
 - أيها أفضل؟  
 - هذا يتعلق برغبتك، ولكنّ الجوّ حارّ فالجعة  
 شراب مفضّل.  
 وخرجت من حيرتي وطلبت جعة، وغاب دقائق ثمّ  
 عاد بقدرح يفور ووضعه أمامي، وقبل أن يبتعد سألته:  
 - كم قدحًا من هذه يُسكر؟  
 فنظر صوبي كما نظر الخوذي من قبل وقال:  
 - تختلف النسبة تبعًا للناس، ولكن إذا كنت مبتدئًا  
 يحسن ألاّ تجاوز القدرح الثالث.  
 فقبضت على القدرح فوجدته باردًا لطيفًا، وأدريت  
 منه أنفي فشمنت رائحة حمضية لم أرتح لها، ولكن  
 فأت وقت التردّد، وقربت وجهي وأدليت لساني،  
 ولعقت من رغوتها لعقة في خوف وحذر. واشتدّ توتّر  
 أعصابي فرفعت القدرح إلى فمي وأفرغت ما فيه دفعة  
 واحدة في تقزّز كأنما أتمرّع شربة. وأنعشتني برودته،  
 وشعرت به في بطني يتلوّى نائفًا حرارة غريبة.  
 وانتظرت ذاك الأثر السحريّ الذي سمعت عنه  
 الكثير. وفي تلك اللحظة جاءت لمة من الأجانب  
 يرطنون ويتضاحكون وتخلّقوا مائدة كبيرة، فداخطني  
 شعور بالضيق، بيد أنّهم لم يلتفتوا نحوي على  
 الإطلاق، فسكن روحي، وعاد شعوري إلى الحرارة  
 الطيبة التي تنتشر في بطني. وحمل الدم المتصاعد إلى  
 الرأس نفحة من هذه الحرارة إلى المخّ فتمطّى كما  
 يتمطّى المستيقظ لدى تلقّيه أوّل شعاع من الشمس،  
 ونفض عنه القلق والحذر، فأحسست ارتياحًا عامًا  
 للذيّ، وانبسطلت أسارير وجهي... وما لبثت أن  
 طلبت قدحًا آخر بشجاعة لم أعهدها في نفسي من  
 قبل، وما كاد النويّ يضعه أمامي حتّى رفعتني إلى فمي  
 وتمرّعته على دفتين. وانتظرت في ارتياح شامل  
 وإحساس مركّز في باطني، وسرى في جسمي سرور  
 عجيب أغمضت له جفني استسلامًا، سرور دار مع  
 دمي، ورقص في غيّي، باعثًا لذّة هي الجنون نفسه،  
 حتّى وجدتني مخلوقًا أثيرًا طليقًا من متاعب عقله وقلبه

وانطلقت العربة فذكرتني بالخانطور القديم وأيامه  
 الخوالي. وكان بحافظتي عشرون جنيهاً غير «الفكة»  
 لأنّ مرتبي وإن كان صغيرًا في ذاته إلّا أنّه كان يُترك لي  
 كلّ فكفاني وزاد عن كفايتي. ولمّا شعرت بأنّ العربة  
 تقترب من الهدف الذي تلهّفت عليه اليوم كلّ دقّ  
 قلبي بعنف واعتراي اضطراب شغلني عن رؤية  
 الشوارع التي تخرقها العربة. ووقفت العربة عند رأس  
 طريق طويل يتوسّطه صفّ طويل من السيّارات  
 والعربات. وقال الخوذيّ وهو يلوّح بسوطه:  
 - إليك الحانات على الجانبين...

وغادرت العربة بعد أن نقدته الأجرة فوجدت  
 نفسي حيال حانة صغيرة لا تزيد في الحجم على حجرة  
 كبيرة وقد وقف الدُّلّ ببابها لأنّه لم يكن أمّها أحد  
 بعد، وانتابني التردّد لأوّل مرّة ففكرت في أن أعود من  
 حيث أتيت. ووقفت متحيرًا ثمّ تولّاني الشعور الذي  
 ملكني يوم اندفعت إلى سور جسر الملك الصالح  
 لأرمي بنفسي إلى النيل فانطلقت صوب الحانة  
 ودخلت. وتبيّن لي أنّه يوجد في نهايتها مدخل إلى  
 حديقة صغيرة في حجم المكان الخارجيّ في وسطها  
 نافورة، وتطلّها عريشة عنب، وفي جنباتها الموائد،  
 فوجدتها آمن للمختلس، وانتقلت إليها وجلست إلى  
 إحدى الموائد بعيدًا عن مدخلها. كنت متوتّر  
 الأعصاب ولكن لم أعد أفكر في الهرب، وجاءني نويّ  
 في سروال أسود وسترة بيضاء فابتسم في أدب ووقف  
 منتظرًا أمري. فقلت بصوت مهموم والدم يتصاعد  
 إلى وجهي:

- خمرًا!

فلم يبد عليه أنّه فهم شيئًا، وتساءل في نبرات  
 كرنين النحاس:

- ويسكي؟... كونياك؟... جعة؟...

نبيذ؟...

وتولّنتني حيرة الجاهل، فقلت بارتباك:

- أريد خمرًا...

فابتسم الرجل ابتسامة ألتني وتساءل:

- أيّ نوع منها تريد؟... ويسكي...

وحياته . وداخلي إحساس لا عهد لي به بالثقة والعظمة فرفعت رأسي عاليًا في سلطنة وأنا أعجب للنشوة السحرية التي لم يدر بخلدي قط أنها توجد في هذه الدنيا . ثم فركت يدي في سرور ومددت ساقِي لا أبالي أين تقعان . . . وبغته تخاليلت لعيني صورة حبيبي بقامتها الهيفاء ونظرها المستقيمة المحتشمة فأترع قلبي حناؤًا وشوقًا وهزّني نشوة فوق نشوة الخمر . ما ألطفك يا حبيبي ! إنّي أدرك الآن سرّ نشوة الخمر . إنّه الحبّ .

الحبّ ونشوة الخمر من عصير واحد يقطر من صميم الروح ، وهل الحبّ الموقّق إلّا سكرة طويلة ؟ ! فإنّ فاتني الحبّ بين يديك فلن يفوتني في الخمر ! لماذا أخاف دائيًا ؟ ! إلّا أنّ المخاوف جميعًا لأوهام ، وإلّا فما لها اختفت من أفقي في غمضة عين ؟ ! لقد تكشّف لي وجه الحكمة ولن أتردّد بعد اليوم ، سأومئ لحبيبي إذا وقعت عليها عيناَي أو ألوّح لها بيدي . ستعقد الدهشة لسانها ويحمرّ منها الحذّان ! ويحيء دورها في الخجل ، دقّة بدقّة والبادئ أظلم . وسوف تتسائل في استغراب هل تحرك أخيرًا ، أجل يا حبيبي ، تحرك ، ولن يوقفه شيء ، ورأيت عند ذاك النادل يحوم حواليّ فطلبت القدح الثالث ثمّ ألحقته بصاحبيه . وعدت إلى خيال حبيبي بجسم كلّ قلوب ، وما به من عقل . وقلت بصوت مهموم وكأني أعظ جليسا غير منظور « إذا أحببت فبحّ حبّك إلى حبيبي وليكن ما يكون » ثمّ ذكرت أمي ، ولكن دون خوف هذه المرّة ، لم أشكّ في أنّها ستحبّ حبيبي إذا رأتها ، وستذهب غاوفي القديمة إلى غير رجعة ، أمّا جدّي فما أحرّاه إذا علم بالنبا السعيد أن يقهقه ضاحكًا ، وهنا ضحكت بصوت مسموع لفت إليّ الحاضرين . وألقيت نظرة على ما حولي فرأيت الحديقة اكتظّت بالوافدين . . . وقد تضاحك الأقربون ، ولكّني لم أرتبك ، بل ابتسمت إليهم وقلت بجسارة غريبة « اضحكوا ! » فضحكوا ، وتساءل أحدهم مبتسمًا :

- هل من أمر آخر ؟

وكنّت من السكر في غاية فقلت بلسان ملعثم :

- هاتوا لي حبيبي !

فسألني الشاب :

- أين هي ؟ . . . وأنا كفيل بإحضارها . . .

فقلت :

- البيت أمام المحطة !

فسألني مبتسمًا :

- آية محطة ؟

فتفكّرت قليلاً حتّى عثرت على شاهد للمحطة فقلت :

- المحطة أمام المرحاض العمومي !

فضحكوا جميعًا ، وانهلوا عليّ قفشًا وتنكيتًا ، وشاركهم ضحكهم بغير مبالاة ، ثمّ أثرت أن أغادر المكان ، فدعوت النادل ونقدته الثمن وحيّيت رفقاء السكر ، وذهبت وقفشاتهم تواصل توديعي بلا رحمة ، كنت أترنّج ، فقصدت عربة في الموقف ، وتوسّطت مقعدها في خيلاء ، وقلت للحوذيّ بصوت مرتفع :

- إلى بورّ الفساد !

وتحرّكت العربة وسرعان ما ارتحمت إلى سيرها اللوائي ، وجعلت أنظر إلى الطريق في لدّة وبهجة ، حتّى وددت أن يطول المسير إلى غير نهاية ، وأدركت أنّي مقبل على تجربة جديدة لا تقلّ خطورة عن الأخرى ، فساورني بعض القلق ، ثمّ غلبتني اللهفة . ووقفت العربة في شارع معربد ، ولوّح الحوذيّ بسوطه وهو يقول ضاحكًا :

- هنا الفساد الأصلي . . .

وسألته بعد ترّدّد :

- ألدّيك فكرة عن الأسعار ؟ !

فقال مقهقهًا :

- أغلى مرّة بريال !

والمني التعبير على رغم سكري ، وغادرت العربة فوجدتني في دنيا تتوهج بالأنوار كالصواريخ ، وتزدحم بالسكرار والعاثين ، وتختلط بها أصوات الضحك بالشتّم والصراخ ، وتنبعث من جنباتها دقّات الدفوف وأنغام مبتذلة من كمان مسلول أو بيان محشرج . وقد سطع أنفي شذا بخور طيّب . ولم أجد من نفسي الجراءة على التخبّط وسط الجموع المعرّبة ، فعرجت إلى أقرب

«تأخّرت كثيراً» ولم أجبها بكلمة وواصلت نزع الملابس حتّى خذلتني قدماي فارتميت على المقعد، واستجمعت قواي ونهضت، ولكنّي ترنّحت في موقفٍ وكدت أهوي إلى الأرض لولا أن أمسكتُ بعمود السرير. وانزلت أُمّي من فراشها وأقبلت نحوي متّسعة العينين دهشة وفزعاً، وتفرّست في وجهي قليلاً دون أن تنبس بكلمة، ثمّ أجلسني على المقعد وراحت تنزع عنيّ ملابسِي، ثمّ أنامتني على فراشي، فما مرّ جانبي الحشية حتّى سارع إليّ النوم. وخيل إليّ، أو حلمت، أنّ أُمّي تتحبّ...

## ٢٣

استيقظت مبكّراً على غير ما كان يُتوقّع. وتذكّرت الأملس كلّ في ثوانٍ. والتفت برأسي في خوف نحو الفراش الآخر فعثر بصري في طريقه بأُمّي وهي تصلّي. والتهب وجهي حياء، وغادرت الفراش في عجلة ومضيت إلى الحامّ في حيرة بالغة. ورجعت إلى الحجرة فوجدتها منتظرة، تحاول أن تبدو هادئة لولا أن خانتها عيناها الصافيتان اللتان لا تعرفان الكذب، وتحاميت نظراتها، وحبيتها تحيّة الصباح بصوت لا يكاد يُسمع، فتنهّدت بصوت مسموع، واقتربت منّي، ووضعت يدها على كتفي وقالت بصوت رقيق مفعمة نبراته بالرجاء:

- دعوت لك بعد صلاتي طويلاً والله سميع مجيب. ليس لدينا متّسع من الوقت فأصغِ إليّ يا كامل بقلبك قبل أذنيك. فات ما فات. ما كنت أتصوّر ذلك على الإطلاق، ولكنّ أوساط الموظفين أوساط غواية وفساد. إنّها زلّة شيطان تُنبئ إلى الله عنها. هل من حاجة إلى تذكرك بمأساة أبيك وأنت من شهودها وأملك من ضحاياها؟ ولكنّ قلبي مطمئنّ رغم ما حصل، لأنّك مؤمن تخاف الله ولأنّك ابن أملك لا ابن أبليك، وخليق بمن يصلي بين يدي الله خمس مرّات في اليوم مثلك أن يحرص على المثول بين يديه نقياً طاهراً. لا تنس أنّ هفوة الأملس شرّ كبير، وأنّها ستظلّ سكّيناً تقطّع قلبي. لم يعد في وسعي وأسفاه أن أستبقيك إلى جانبي، فإذا

باب ودخلت، وجدت نفسي عند مدخل فناء واسع مستدير تفتح عليه أبواب كثيرة، وعلى محيط دائرته صبّت الأرائك والكراسيّ يجتلفها رجال ونساء، وفرشت أرضه برمل أصفر فاقع، وراحت ترقص عليه امرأة نصف عارية، وكأنّ الحسارة التي خلقتها الخمر قد طارت فتمسّرت في مكاني لا أجازه ولم أدرك ما أنا فاعل. ثمّ ثبتت عيناي على الراقصة في دهشة لأنّي كنت أشاهد الرقص أوّل مرّة، ألقيت على الجسد الملتوي، الشبه العاري نظرة اشمئزاز وخوف، وأزعجتني حالة وجهها إذ أثقله الطلاء الفاضح، وانفجرت شفتاها عن أسنان ذهبية فكانت بعرائس الحلوى أشبه. وفجأة لاح أمامي رجل ذو جلباب مقلّم زاهي الألوان تنطق قساياه بالدمامة والدناءة ودعائي للجلوس، فتراجعت مبتعداً عنه فاصطدمت بشخص ورائي. فدرت على أعقابِي لأتفادى منه فأريت امرأة من جنس الراقصة ولا شكّ حالت بذراعيها بيني وبين الذهاب. كانت تتبسم ابتسامة كريمة، وتمضغ لادناً مفرقة بأسنانها، فبردت أطرافي، وانقبض قلبي جفولاً، وقرأت في وجهي الخوف والوجل فأطلقت ضحكة كالصفير، ومدّت يدها بسرعة فخطفت طربوشي، ووضعت على رأسها ومضت صوب باب قريب في خطوات سريعة. وقال لي الرجل وهو ما يزال بموقفه:

- اتبعها بلا تردّد، هذه زوزو المنبهجة، لا مثل لها ولا في المذهب!

ولم أطق الوقوف أكثر من ذلك فغادرت البيت لا ألوي على شيء، غير مكترث لفقدان طربوشي، وركت أوّل عربة صادفتني وقلت للحوذي «إلى المنزل». عدت إلى البيت قبل منتصف الليل مهيض الجناح، يميّزني الشعور بالهزيمة والإخفاق والخيبة. لم أكن أتصوّر أن يتمخّض الحلم المرموق عن هذه البشاعة الفظيعة. وكانت النشوة الساحرة قد طارت مخلفة وراءها خماراً ثقيلاً باسخت له روحي، ولم أدرك كيف أيقظت أُمّي وأنا أنخل ملابسِي، فجلست في فراشها ونظرت في «المنبه» وهي تغمم متشابثة:

تَلَوْنَهَا وتعَقَّدَهَا وطلَّانَهَا الكاذب وشقائِها الدفين فلماذا  
إذن أقاوم إغراء النشوة الساحرة؟!

\* \* \*

ودعيتني أُمِّي عصر ذلك اليوم إلى زيارة «أُمِّ هاشم»  
فخرجنا معاً بعد أن انقطعت عن الخروج في صحبتها  
أعواماً، وركبنا عربة، فجلسنا ملتصقين جلسة أعادت  
لنفسنا ذكريات «الحنطور» القديم، فحققت رقتنا من  
قلق النفس المستحوذ عليّ. كانت أُمِّي ترتدي معطفاً  
صيفياً رقيقاً تقمصه جسمها النحيل في رشاقة لطيفة.  
وبدا وجهها المليح هادئاً مستسلماً وعيناها الخضراوان  
صافيتين تلوح فيهما نظرة حاملة يشوبها شيء من  
الحزن. وقد تلَّعَ رأسها بخيار أسود أحاط وجهها  
بوقار لم يخلُ من أثر للأربعة والخمسين عاماً التي  
قطعتها فيما قُسم لها من حياة. وحنَّ قلبي لها فوددت  
لو أستطيع تقيلها، وتفكرت في تقدّم عمرها نحو  
الشيخوخة بأسى عميق، ثم ذكرت الخواطر الخائنة  
التي دارت برأسي على فراش مرضها، فعصضت على  
شفتي بقسوة وحنق. يا لها من خواطر مقيتة! إنَّها من  
صميم الألم الذي ألتمس في الحرب مه أيّ سبيل،  
وهوَّ من وجدي ما كان يحيل إليّ من أنَّها سترث عمر  
جدي الذي يهدف إلى التسعين.

كبر عليّ في تلك اللحظة عصيانها، بيد أنَّني شعرت  
في أعماق نفسي بأنِّي ذاهب إلى توبة كاذبة لا يسعني إلا  
الإذعان لها. وساءني ذلك وأحزنني. كيف ألقى أُمِّ  
هاشم بهذا القلب الخائن وهي التي لا تخفي عليها  
خافية؟ كيف انقلبت بين عشية وضحاها من وِرع  
طَّيَّب إلى شيطان مولع بالمعصية؟! وانتهينا إلى الجامع.  
ودخلنا ونحن نقرأ الفاتحة، وقصدنا الضريح يتوزَّع  
قلبي الحبِّ والإيمان والخوف. ونسَّمت على قلبي  
ذكريات الأيام الخوالي حين كنت أنفذ للجامع الطاهر  
بقلب سعيد لم يعانِ بعد الشعور بالذنب وعذاب  
الضمير. وتقدَّمتني أُمِّي إلى المقام وهي تهمس بحرارة:  
«جنتك يا أُمِّ هاشم بكامل، ليتوب عن هفوته بين  
يديك فباركيه وسدي خطاه!». ثم دفعتني نحو باب  
المقام فبسطت راحتي عليه، وشعرت ببرودة تسري إلى

خرجت إلى الدنيا فلاقها بقلب التقيِّ المؤمن. ستذهب  
اليوم إلى السيِّدة أُمِّ هاشم لتقدِّم توبتك على يديها.  
لم تلتق عيناها بعينيها ذاك الصباح. ومضيت إلى  
الوزارة محزوناً، أستعيد قولها كلمة كلمة، وأنعم فيه  
الفكر. هالني افتضاح أمرِي، وقدرت عنف الصدمة  
التي تلقَّتها أُمِّي البائسة. وذكرت الحبة التي منيت بها  
في فناء البيت الغريب، فتلوت شفتاي تقزُّزاً. على أنَّي  
لم أنس نشوة الخمر. لم أنسها رغم ما أعقبها من خار  
وتعب وفضيحة. ولم ينفذ مقتها إلى قلبي حتَّى بعد  
صلاة الصبح التي أدَّيتها في صدق وإيمان. ولم يكن  
ضميري مستريحاً، ومتى كان مستريحاً؟! ولكن أحلام  
النشوة الساحرة هجمت عليّ فاجتاحت في سبيلها  
ضميري وآلامي وأُمِّي. هي النشوة التي تظَلَّ معاني  
السعادة والطرب مغلقة حتَّى تجري في الدم فتفتح  
أبوابها المساوية. إنَّها مطلبي. ربَّاه كيف أهجرها  
وأَتوب عنها؟ وما عسى أن يبقى لي بعدها غير اللهفة  
الكظيمة والحسرة القاتلة والقلق الذي يمزِّق حياتي  
إرباً؟! وحتَّى لو استسلمت لإغرائها الشيطانيِّ،  
فهيهات أن تخلص لي صافية، بل ستضيف إلى  
ضميري نزاعاً جديداً ما كان أغناه عنه، كنت وما  
أزال في جذب ودفع متواصلين، بين اقتحام الدنيا  
والحفول منها، بين حبيبي وأُمِّي، بين إدمان العادة  
الجهنمية ورغبة الإقلاع عنها، فجاءني نزاع جديد بين  
الميل إلى الخمر والتوبة عنها زادني رهقاً، حتَّى انقلبتُ  
أرجوحة تدفعها الشياطين وتجذبها الملائكة، ولا تكفَّ  
عن التأرجح لحظة واحدة. وبلغ بي القلق غايته  
فتأوَّهت متسائلاً في حيرة بالغة: لماذا لم يخلق الله الحياة  
نشوة خالصة تدوم جيلاً فجيلاً؟ لماذا لا نفوز بالسعادة  
بلا عناء ولا قنوط؟ لماذا يخنق الحبُّ في قلوبنا يأساً،  
والحبيب يغدو ويروح على مرمى قبلة منا؟!

ليكن ما يكون، الخمر مفتاح الفرج. هي العزاء  
هي كلمة السرِّ التي تفتح لي باب حبيبي الموصد. لا  
أريد الدنيا ما دامت تأبى أن تغير ما بنفسها. إنَّ مقتي  
للواقع ليس دون مقتي لتلك الراقصة المخيفة. الدنيا  
نفسها تتكشَّف لي عن صورة شبيهة بتلك الراقصة في

فحملت في وجهه بفزع، وانعقد لساني، فربّت على كتفي وقال بصوت حزين:  
- تشجّع يا بنيّ من أجل والدتك، وكن رجلاً كما نرجو لك، كان جدّك يتوسّط مجلسنا كعادته كلّ صباح بلونابارك، فشعر بضيق في التنفّس وطلب قدحاً من الماء، ولم تكّد تمضي لحظات حتّى سقط على المائدة فحسيناه أصيب بإغماء، ثمّ تبيّن أنّ السرّ الإلهي قد صعد إلى بارئته. . .

هتفت بصوت مبحوح:

- وأين هو يا سيّدي؟

فتمتم الرجل:

- أحضرناه معنا في سيّارة.

وما كاد الرجل يثمّ قوله حتّى رأيت في أسفل السّلم رجالاً أربعة يحملون جدّي ويرتفون السّلم على مهل وحذر، فسارعت إليهم ذاهلاً، وشاركنهم في حمله وأطرافي ترتعد جميعاً، ثمّ دخلنا الشّقة وهو بين أيدينا، رأيت أمّي في نهاية الصّالة، وقد ندّت عنها صرخة فزع، وأقبلت نحونا لا تبالى الأغراب، وسألتنا بجزع:

- ما له! ماذا به؟!

ولكنّها لم تسمع جواباً، أو وجدت في الصمت جواباً فصرخت صرخة مدوّية، وولولت في توجّع «أبي... أبي». وأثمنه على الفراش، ثمّ أقبل الرجال عليه يقبلون جبينه واحداً في أثر آخر، وعزّوا أمّي، وخرجوا من الحجرة صامتين، وسألني بعضهم عمّا إذا كنت في حاجة إلى شيء فشكرت لهم، وتطوّع البك الذي قابلته أولاً فدّلّني على الإجراءات المتبعة، وأخبرني بأنّه سيقوم بإبلاغ وزارة الحربيّة؛ وأنّه يستحسن أن تشيّع الجنازة في العاشرة من صباح الغد. ورجعت إلى حجرة جدّي مهرولاً فوجدت أمّي تبكي بكاء مرّاً فلم أتمالك أن أجهشت في البكاء، ولكنّها لم تسمح لي بالبقاء في الحجرة، ولكي تشغلني عن الحزن أمرتني أن أبرق بالخبر إلى خالتي وأخي وأن أذهب إلى أختي لأخبرها بموت جدّها. وغادرت البيت لأداء هذه الواجبات، وعدت إليه مرّة أخرى ومعني أختي راضية

فؤادي، فوقفت صامتاً مليّاً، حيال جلال تخشع له القلوب، وخلت الحدث الطاهر يرمقني بعينين متألّقتين لم يغيّرهما الموت فدعوت بقلبي «أمّ هاشم» أن تلهمني الصواب وأن تنقّذي من حيرتي وشقائي، وأن تتوب عليّ. وتردّدت لحظة ثمّ سألتها أن ترعى حيّي التعيس بعين الرحمة!

وغادرت المشوى الطاهر وأمّي تحفّف عينيها، ثمّ سألتني:

- هل تبت إلى الله؟

فأجبته دون أن أحول إليها عيني:

- نعم.

فتمتمت برجاء:

- توبة صادقة إن شاء الله.

## ٢٤

لم يسعني مقاومة النزوة الجديدة. ولم يغن عني شيئاً لا ضميري ولا توبتي، ولا ما جُبلت عليه من مخافة الله. كنت من حياي في قنوط، فعملي جدّ بغض، وحيّي حسرة طويلة، وإنّ الأيام لتمرّ ثقيلة بلا عزاء وبلا أمل، فتنظر عيناوي ويخفق فؤادي، ويُعبي إرادتي العجز والخوف، فلم أجد من سلوى إلّا نشوة الخمر وتهالكت عليها! على أنّ ذاك العزاء التعيس لم يخلص لي طويلاً، ولم تمل الاقدار لي في الاستمتاع به، ففي مطلع الخريف من ذاك العام، وفي يوم من أيّام الجمع - وكنت جالساً مع أمّي نتحدّث كعادتنا - دقّ جرس الشّقة، وفتح الخادم الباب ثمّ جاء يدعوني لمقابلة واحد «بك». وذهبت من فوري فوجدت رجلاً مهيباً في السّتين أو السبعين، فحيّته بأدب والقيت عليه نظرة متسائلة، فبادرتني متسائلاً:

- حضرتك كامل أفندي؟

فقلت وأنا أنفّرس في وجهه:

- كامل رؤية. هذا بيت الأميرالاي عبد الله بك

حسن.

فأخذني من يدي إلى الخارج ثمّ مال نحوي قائلاً:

- لكم طول البقاء، لقد توفيّ جدّك يا بنيّ. . .

ورفاقه عليه، وأدركت - إن كان فائتي ذلك - أنه كان من الذين يألفون ويؤلفون، تلك الهبة الربانية التي حُرمتها وذُهِبت نفسي حسرة عليها مدى عمري. وقد تقرر تشييع جنازته في العاشرة صباحاً، ولما حُمّ الوداع امتلأت الشرفة بالباقيات وأطلقت المدافع تحية لجدته، ومُهل نعشه على مدفع سارت بين يديه فرقة من الحيش. وألقيت على جثمانه نظرة الوداع - وهو يخنفي في القبر - وأنا أنتحب كالأطفال.

## ٢٥

قالت لي في حزن بالغ:

- ليس لنا إلا الله.

فقلت وقلبي يستشعر خوفاً لا يدره:

- هو نعم المولى والنصير.

ومضت تتكشف لي الحقائق، فعلمت أن معاش جدّي قد انقطع بوفاته. وأحصيت تركته فوجدت أنه ترك بالمصرف أربعمائة جنيه، ولما كانت أمّي وخالتي وريثتي الوحيدتين فقد خصّ الواحدة منها مائتي جنيه صارت كلّ ما لنا عدا ماهيّتي الصغيرة! صرت إذن ربّ أسرة، وقد لفت عمّي نظري لهذه الحقيقة وهو يودّعني، فكرر لي العزاء، ووَضّاني بأُمّي قائلاً:

- أكرم أمك ما وسعك، فأنت ربّ البيت، وأنت خلّف جدك!

وتلقّيت قوله بخوف وتشاؤم، ونظرت إلى المستقبل المجهول بوجوم وامتعاض، وآلني أن أجِد نفسي مسئولاً عن غيري أنا الذي أُلِّفْتُ أن توكل مسئوليتي بغيري! ولما خلا البيت من المعزّين ورحل كلّ إلى طيّته، وجلسْتُ وأُمّي منفردين نتبادل الرأي قالت بلهجة أسيفة:

- اللّهمّ عونك.

ورفعت إليها بصري الحائر في خوف وكآبة، سألتها بإشفاق:

- ماذا ترين يا أمّاه.

فقالت بأسى:

- لن تمضي الحياة في يسر كما عهدناها. هذا أمر الله

وزوجها. ووجدت في الشابّ خير عون في القيام بالإجراءات المتبعة، أو بالأحرى فقد قام بها وحده واكتفيت بأن أأزمه دون وعي. وما كاد يختم المساء حتّى امتلأ البيت بالأهل، فحضرت خالتي وزوجها وأخي مدحت وزوجه وعمّي، ولم يتخلّف إلا أبي، وقد قال لمدحت وهو يعيّن إليه جدّي «البقيّة في حياتك، أرجو أن تعزّي أمك وأخاك وأختك، لأنّي لا أحضر لا جنازات ولا أعراساً» وكانت أمّي أشدّ الأهل فجيعة وحزناً لأنّها لم تفارقه طوال عمرها اللّهمّ إلا ثلاثة أشهر قضتها على مضض في بيت أبي...

هكذا مات جدّي. وقد تمتّع بحياة طويلة فلم يعجزه الكبر، ولم يقعه المرض. وفارق الحياة في مجلسه الأثير بالمقهى بين صحبه المخلصين، في سرّ قلّ أن يحظى به المحتضرون... وكنت لا أزال كلّما خطر على فكري حنيت الرأس إجلالاً لذكراه، واستمطرت الرحمة والعمور روحه الكبير. كان جدّي، وكان أبي، وكان جناح العطف الذي أظلّني فنعمت في ظلّه بالعيش الرغيد والحياة الرهيفة الطيِّبة. ولا أنسى أنّي اتهمته في الساعات السود التي كدّرت صفو حياتي بأنّه أساء تربيتي، أو أنّه تركني لأُمّي تفسد حياتي بتدليلها ولكيّني إذ تدبّرت الأمر لم يسعني إلا إقامة العذر له، لأنّي رأيت نور الدنيا وهو يتخطّى السّتين. وإنّه لمن أشقّ الأمور أن يعرف الإنسان حقيقة جدّه، لأنّه غالباً ما يبدو في حالة من التبجيل والقداسة، لأنّ مؤرّخيه من الأهل يكونون عادة ممن يبيجلونه ويقدّسونه. فإذا ركنك إلى ما لمسته بنفسي من حياته أمكنني الثناء عليه في غير تحفّظ. وطالما كانت صحّته وجبّه النظام ودقّته العسكرية التي لم تبلغ قطّ الصرامة أو القسوة مشار إعجابي الشديد. وكان حربه علينا لمتاً تهون إلى جانبه مصائب الحياة، وبحسبي أنّي لم أعرف مرارة الحياة الحقّة حتّى ودّعناه إلى مشواه الأخير. ومهما يطل بي العمر فلن تمحى من مخيلتي صورته في أيّامه الأخيرة وقد كلّلت الشيخوخة هامته بتاج ناصع البياض وأضفت عليه وقاراً وجسّالاً، وأذكت في عينيه الخضراوين بريق دعابة وعطف. فلم أدهش لحزن



واكتئاب، فتقبّض قلبي جفولاً من هذه الحياة السخيفة التي لا معنى لها. ألم أكن أنفق مرتبي كلّ في الشراب والطعام والعربات؟ ألم أكن مع ذلك شاكياً متبرماً تعيساً؟ رباه، كان الماضي عهداً غير منكور النعيم؟ ولكنّي لم أفطن إلى نعيمه إلا الآن حيث لم يبق منه إلا ذكريات، إني أعمى ما في ذلك من شك، تعميني الأحلام الطائشة عمّا بين يديّ، ومن كان مثلي قُضي عليه بالألّا يذوق للسعادة طعمًا في هذه الحياة. تحمّم لي وجه الدنيا، وخارت عزيمتي، وامتلأت نفسي تشاؤماً حتّى توقّعت شراً وراء كلّ خطوة أخطوها. أجل الا يجوز أن تستغني عني الحكومة لسبب أو لآخر فأحرم حتّى هذا المرتّب الضئيل؟... ألا يُحتمل أن يصادفني حادث في الطريق يقضي عليّ بعاهة تقعدني عن السعي من أجل الحياة؟! لماذا وُجدنا على الأرض؟ ولعلّ هذه الأفكار السود التي جعلتني أسأل أمي قائلاً:

- ماذا يُنتظر أن أرث عن أبي بعد وفاته؟

ولم ترتح أمي لمجرّد أفكارني وقالت باستياء:

- لا تُبني آمالك في الحياة على موت إنسان. الأعمار بيد الله. وإني أستحلفك بالله إلا ما طردت عن رأسك هذه الخواطر.

بيد أنّي استخففت بمخاوفها وألححت عليها أن تحييني على ما سألت، فقالت مدعنةً لإلحاحي:

- لأبيك أوقاف تدرّ عليه أربعين جنيهاً كلّ شهر، غير البيت الذي يسكنه...

وقدّرت بعملية حسابية ما يصيبي من هذا الميراث، فوجدته سنة عشر جنيهاً نصيبي من البيت، إذا أضيفت إلى مرتبي الصغير صار كبيراً بلا شك. واستسلمت للأحلام كالعتاد، ولكنّها لم تغيّر من الواقع شيئاً. وسألته مرة أخرى:

- ما عمر أبي؟

وأجابني على كره:

- لا يقلّ عن السبعين.

ترى هل يعمر كجديّ مثلاً؟ ماذا يكون حالي لو عمّر طويلاً وحرمني ميراثي عشرة أعوام أو عشرين؟! وتذكّرت ما قيل لي من أنّه انتظر يوماً على مضض

وعليّنا أن نذعن ونصبر ونشكر، وإنّه ليسوءني أن أكون حملاً ثقيلاً عليك. ولكن ما باليد حيلة.

فقلت بحرارة:

- لا تقولي هذا. أنت كلّ ما تبقى لي في الحياة، ولولاك ما عرفت لنفسي مأوى آوي إليه.

فافتّر ثغرها عن ابتسامة حزينة، ودعت لي طويلاً. ثمّ قالت:

- سيكون ما ورثته من مال قليل رهن إشارتك تستعين به عند الحاجة، حتّى يكبر مرتّبك!

ولذت بالصمت متفكّراً، وعيناها الحزبتان لا تفارقان وجهي، ثمّ استدركت بصوت متهدّج:

- لم يعد هذا البيت بالمسكن المناسب لنا، فهو كما ترى كبير، وأجرته تعادل مرتّبك، ولعلّنا نجد شقة صغيرة بما لا يزيد على مائة وخمسين قرشاً في حيننا هذا.

وساد الصمت مرة أخرى، ورحت أتساءل عمّا أعباني عن هذا المصير الذي كان متوقّعا من قبل، حتّى عادت أمي تقول بصوت منخفض:

- وينبغي أن نستغني عن الخدم، ولن نحتاج في المستقبل إلا لخدام صغير.

يا له من ضيق لا أدري كيف يتحمّله صدري! لست أعلم شيئاً على الإطلاق عن الكفاح الذي يشقى به الناس في سبيل الحياة، فلذلك حدثت أمي بنظرة ناطقة بالاستغاثة وسألته:

- بماذا تقدّرين تكاليف المعيشة بما فيها من سكن وطعام وخدام وغيرها؟

وتفكّرت أمي طويلاً، ثمّ قالت بصوت منخفض:

- بما لا يقلّ عن ستة جنيهاً!

ثمّ استدركت كأنّها لتخفّف من وقع كلامها:

- سأرصد مالي لكسائنا وللحوائج الضرورية فيما يخرج عن المصروفات اليومية...

ولكنّي لم ألقي بالألّا إلى قولها، ومضيت أفكر فيما يتبقّى لي من مرتبي بعد تكاليف المعيشة، في الجنيه والنصف، وما ينفق منه على المواصلات، وما يبقى بعد ذلك للترفيه عن نفسي. تفكّرت بامتعااض

موت أبيه، وكيف ساقه الجزع إلى الشروع في الجريمة التي قضت عليه بالحرمان من ثروة واسعة! إنني أعاني نفس المشاعر التي عاناها قبل ثلاثين عامًا، ولعلّه لو كان لي بعض قوّته لسلكت الطريق الذي سلك!

ثمّ استدعت أمّي الطاهي المعجوز وأمّ زينب وأخبرتهما في استحياء ولم بأننا سننتقل إلى بيت شقيقي «آثرتِ الكذب على الاعتراف بالفقر»، وأنها مضطّرة إلى الاستغناء عنها، وذكرت عهد خدمتهما الطويل بالأسف، وأثنت عليهما الثناء الجميل، ودعت لهما بالتوفيق، ثمّ نفحتهما بما يستعنيان به حتّى يجيدا عملاً جديدًا. وقد انتحبت المرأة باكية، ودعمت عينا الرجل المعجوز ودعا لجذّي بالرحمة والعفو، وقال بصدق وإخلاص:

- وددت يا سيّدي لو متّ قبل أن يغلق هذا البيت الكريم أبوابه...

ولم تتمالك أمّي نفسها فبكت، وانتقلت العدوى إليّ فبكيت، ومرّت بي ساعة سوء كابدت فيها ألمًا وخزيًا لم أشعر بمثلها من قبل. وانتقلنا قل ختام التهر إلى شقّة صغيرة في الدور الأوسط من بيت قديم ذي أدوار ثلاثة بشارع القاسم المتفرّع من شارع المنيل. وكان البيت يقع في وسط الطريق ما بين شارع المنيل والنيل، أمّا الشقّة فتتكوّن من ثلاث حجرات صغيرة فرشناها ببعض أثاثنا القديم، وبعنا بقيّته بثمن بخس. وساءلت نفسي في وجوم: هل تستطيع أمّي النهوض بأعباء الخدمة المنزليّة بعد ذاك العمر الطويل من الراحة والدعة؟ إنّهّا تهدف إلى منتصف الحلقة السادسة ولم يعد لها من معين إلّا خادم صغير فكيف تتحمّل هذه الحياة؟ وزادت حياتي تنغيصًا وداخلني سخط شامل على الوجود كلّ. على أنّ أمّي أقبلت على العمل بروح عالية فيها مرح كثير فنجحت في إيهامي بأنّها مسرورة بالحياة الجديدة، وكأنّها كانت تكبت طوال عمرها رغبة حارّة في الخدمة والعمل. وقالت لي بارتياح لمسته في نبرات صوتها وابتسامة عينيها:

- إنّ خدمة بيتك في السعادة التي ليس لي وراءها

مأرب.

وتجرّعت هذه الحياة الجديدة قطرة قطرة، وقد أضافت إلى حسرائي القديمة حسرة جديدة، هي حسرتي على العيش الرغيد والشراب خاصّة، وأجمعت على أن أقترّ على نفسي كي تنهّي لي ولو سكرة واحدة في الشهر، ولا عجب فلم تكن الخمر بالنسبة إليّ هوائًا وعبثًا، ولكن حياة وهميّة أفرّ إلى أحضانها من آلام الواقع البغيض.

ويومًا قالت لي أمّي وقد آنست متّي استنامة إلى حديثها:

- لعلّك لمست الحكمة التي أملت عليّ أن أرفض أيّ زواج لا يليق بك!

وأدركتُ ما تعني لنوّي، فكأنّما تقول لي: «ماذا كنت تصنع بحياتك لو كنت ربّ أسرة!». ولم يداخلني شكّ في صدق ملاحظتها، ولو كنت ربّ أسرة لتسقيت بالعيش أضعاف الشقاء الراهن، ومع ذلك لم أرتح لقولها، ووقع من نفسي المهضة موقع الشمّانة المريرة، فلفّني الحنق والغضب، وكابدت مشقّة في كظم عواطفي.

## ٢٦

وهلّ الخريف. ذلك الفصل الذي أحبيته لأنّه البشير بافتتاح المدارس، وسعود حبيبي إلى الملتقى المعهود على طوار المحطّة. حبيبي هي الزهرة الوحيدة التي تتفتّح في الخريف حين تعرى الأشجار وتذبل الأزهار. ولاحظت أنّ مواعيد خروجها لم تعد منتظمة كما كانت، ترى هل بدأت حبيبي حياتها كأستاذة؟ ولذّني ذاك الخاطر فاهترّ عطفائي سرورًا. بيد أنّي لا يمكن أن أنسى أنّ مجرى حياتي قد تغيّر، وأنّي أزرع تحت وقر الفقر والقنوط، فحبيبي ميثوس منها، ولكن ما كان اليأس إلّا ليزيدني هيأًا وولعًا، ويشبّ في قلبي أشواقًا وأحزانًا. ما أسرع أن ينقلب الحبّ اليأس ثورة على الحياة. أليس من الهزء بنا أن نخلق حياة ثمّ يحال بيننا وبينها؟ وزاد من لوعتي أنّه كان يتخيّل إليّ في

أواني للخمر من نوع جديد هي الدوارق، فدورق الكونيك بعشرة قروش، وهو ثمن بخس أستطيع معه أن أعاود الحانة مرتين أو أكثر في الشهر. وشربت واستسلمت لشوارد الأحلام في لذة وشوق. وأمّدتني المصادفة بزاز جديد للأحلام فأقبل عليّ بائع نصيب ولوّح لي بورقة وهو يهتف «ألف جنيه» فمددت يدي وتناولتها منه ونقدته ثمنها، ثم طويتها ودسستها في جيبي. زادّ جديد للأحلام يضاهي نشوة الخمر. ربّاه! ماذا كانت تكون الدنيا بغير الأحلام! إنّي أملك ألف جنيه بلا شريك! الأرض ثابتة تحت قدمي لا يززعها الخوف والفقر، والدنيا تبسم، ولسوف تفهقه ضاحكة إذا انتهى أبي! لا يجوز أن أتردّد بعد اليوم، سأقابل الرجل الوقور والد حبيبي وأقول له بصراحة: «إنّي أبتغي شرف مصاهرتك!» وأقدّم له بطاقتي، ومنذ ذا الذي لا يعرف أسرة لاظ؟! أجل إنّ الوظيفة صغيرة ولكنّي أملك ثروة لا بأس بها وسأرث ثروة أخرى، فلا يسع الرجل إلّا أن يتقبّلني قبولاً حسناً. ورأيتني أزف وسط الشموع وعروسي تتهدى كالقمر. ولم أطق البقاء بعد أن أفرغت الدورق في جوفي فغادرت الحانة، وهمت في الطرق على وجهي متفرّجاً حالماً، مسروراً بنفسي وبالدنيا. ولم أكن لأرجع إلى البيت حتّى أفيق، ولكنّي وجدت نفسي أمام بيت الحبيبة وبالرأس بقية من نشوة فلم أنعطف إلى المنزل. كانت الساعة تقترب من الثانية صباحاً، والطريق مقفرًا، والظلمة شديدة شاملة، والصمت عميقًا يكاد لعمقه أن يسمع ديب الخواطر بالنفس. ووقفت على الطوار متطلّعا إلى البيت النائم، واستقرّ بصري على نافذة مخدعها، وتسوّلت روحي خلالها فخلتني أحسن تردّد أنفاسها العطرة. إنّ إيماني بالروح لا حدّ له. ألم تجذب رأسها نحوي فيما مضى؟ فيمكنها الآن أن تندسّ في أحلامها فتراني، بل وأن تسمعي إذا ناجيتها! وبادرتها قائلاً:

- «إنّي أحبّك يا حياتي، أحبّك حباً هو من أعاجيب الكون كدوران الأفلاك سواء بسواء، ولشدّ ما أتمنى أن أقول لك (أحبّك) في يقظتي ولكنّي لا أستطيع، إنّ الخجل أبكم يا حياتي، والفقر سجن شاهق الجدران،

أحيان كثيرة أنّ عينيها ترنوان إلى نظرة فيها حياة. أية حياة؟ لست أدري، ولكنّها كفاية لبعث الجنون في خيالي، فيشمل بنشوة سحرية لا أفيق منها حتّى تصدمني حقيقة مرّة من حقائق حياتي. واشتدّ تطلّع أهل البيت نحوي، وبّت وكأني أسمعهم يتساءلون: ماذا تريد؟ لماذا تلتهمها بعينيك؟ أيّ رجل أنت؟ ألم يكفك عام ونصف عام؟! صدقتم والله، والحقّ معكم، ولكن ما حيلتي أنسا؟ ضعوا أنفسكم في مكاني وخبروني ماذا تفعلون! هل لديكم علاج للعجز والفقر؟

ولم يتركني الرجلان المعجبان بفتاتي في راحة، فلم يزالا يحومان حولها، حتّى بّت أخافهما خوفاً العجز والفقر، وأكرههما كرهى للشقاء الذي يضيق عليّ الخناق، مثل هذه الحياة ألذّ ما فيها الحرب منها! لذلك تلمّست السبيل إلى الحانة مهما كلّفتني الأمر من العناء. ولم يعد شارع الألفي بك بالمرئاد المناسب لحالي، فلجأت إلى حوذني - مشيري في الدنيا بعد أمي - وطلبت إليه أن يحملني إلى حانة متواضعة، وساقني الرجل إلى سوق الخضرا وكان هو نفسه - كما أخبرني - يرتادها من آن لأن، وقال لي مدللاً على حسن اختياره:

- الحانات الكبيرة مظاهر كاذبة لا يترّاز الأموال، والخمر هي الخمر، وخبرها ما أسكر بأبخس الأثمان! وأنصت إلى محاضرتي في خجل أليم تجاوب صداه أسى عميقاً في نفسي، فتهبّ لي حيناً أنّه يرثي نهايتي ويعزّيني عمّا سلف من زمني. وغادرته متعجّلاً، وسرت صوب حانة صغيرة في مطلع عمر من الممرات المفضية إلى السوق. وساورني شعور محزون بأنّي أنحدر إلى الهاوية التي ابتلعت أبي من قبل، ولكنّي لم يكن هذا ولا غيره بمانعي من المقدور، وكانت الحانة صغيرة مربّعة الشكل بها موائد معدودات، تبدو رثة باهتة نادها يونانيّ عجوز أعمش، ورؤاها من الشعب الأدنى أو بعض الموظّفين البائسين. ولكنّ الخمر هي الخمر كما قال الحوذني. ولا أنكر أنّي فرحت بمنظر القوارير على الرفّ الطويل، وسررت بها سروراً إنسانيّ آلام الضعة التي شدّني ضيق ذات اليد إليها. ورأيت

الكبير ذو السور تلوح وراءه رءوس الأشجار الضخمة. ورأيت البواب العجوز جالساً أمام الباب وقد طعن في السنّ حتّى صار هيكلًا أسود. وخانتي شجاعتي إذ غدوت منه على بعد خطوتين، فلم أتوقف عن السير، وجاوزته، وقد تمكّنتني شعور اليأس فحدّثتني نفسي بالعودة من حيث أتيت. وما جدوى بذل محاولة فاشلة حتّى! ولكّني لم أمعن في الهرب ولعلّ اليأس نفسه أمّدي بقوة غير منتظرة، فرجعت إلى البواب مستشعرًا عزمًا جديدًا، مستنكرًا الخور الذي يباعد بيني وبين بيت لي فيه حقّ غير منكور. حيّيت البواب فردّ تحيّي جالسًا، فقلت له بلهجة لم تخل من كبرياء:

- كامل رؤية لاط، خبّر البك من فضلك!

ونفض البواب مبتسمًا، ودعاني إلى دخول الحديقة، ومضى ليخبر البك. هي الحديقة نفسها، لا تزال تسطع جنباتها بشذا الليمون، تمتلئ سماؤها برءوس النخيل، وتسرّب منها إلى النفس كآبة ووحشة. وأرسلت ببصري إلى الفراندا في نهاية الحديقة فرأيت البواب يدعوني، فتقدّمت وأنا أطرد عن قلبي شعورًا بعدم الارتباك. وارتقت السلم، فسطالني المنظر القديم، الرجل والخوان المزركش والقارورة والكأس، مدّ لي يده وعلى فمه شبه ابتسامة فسلمت عليه، ثمّ دعاني للجلوس فجلست على مقعد إلى يمين الخوان. وألقيت عليه نظرة سريعة فرأيت الجسم المكتنز وقد ترهّل. واشتدّ احتقان الدم بالوجه الممتلئ، وغابت العينان في نظرة ذاهلة، وبان للكبر في صفحة وجهه غضون في الجبين وحول العينين، وذبول الخدين. لم أرتج لمنظره، ولكّني حرصت على ألا يبدو في وجهي أثر غمّا في نفسي... ولاحت منّي نظرة إلى القارورة المثلثة للنصف فرمقتها بنظرة غريبة، وذكرت كيف تراءت لعينيّ في الزورة الأولى فقلت لنفسي: لشدّ ما يسارع الفساد للإنسان! وكان يتلفّع بروب حريريّ وقاية من رطوبة الخريف في تلك الساعة من الأصيل. ولم يداخلي ريب في أنّه مفعم خمرة حتّى قمّته، فساورني القلق، وتساءلت عمّا دهاني من جنون حتّى

ولا حقّ لامرئ لا يملك من مرتبه إلّا جنيهاً ونصفاً أن ييوح بحبه لملك كريم مثلك، ولكّني أحبّك بالرغم من هذا كلّ، ولا أطيق أن تعرضني عن حيّي، وأكاد أجنّ حين أرى تطلّع الرجلين الثقيلين إليك، فشجّعيني يا حياتي، أشيري إليّ، ابتسمي في وجهي، ما في ذلك من بأس ما دمت محباً صادقاً كما لا بدّ تعلمين، وما دمت عاجزاً ميثوساً منه كما لا بدّ تدركين... آه...» وقفت طويلاً دون أن تتحوّل عيناى عن النافذة الموصدة، فثقلت جفوني وداخلي إحساس خفيف بالدوران والتعب من مشقة المشي وخمار الشراب. ثمّ قرع سمعي وقع أقدام ثقيلة فالتفت صوبها في توجّس فرأيت شيخ الشرطيّ مقبلاً، فتحولت عن موقفي وحثت خطاي.

## ٢٧

ماذا يحول بيني وبينك؟ الفقرا هكذا كان الجواب، ولم أجأوزه إلى غيره من الأسباب، لأنّه كان العائق الوحيد الذي لا أعدّ عنه مسئولاً، أو هذا ما اعتقدته. كيف أحصل على المال إذن؟ وتفكرت مغتياً، ثمّ مال بي الفكر إلى أبي! ذلك الذي تمثّيت موته طويلاً ولكن لم يغن عنيّ التمتّي شيئاً، فلماذا لا أزوره?... لماذا لا أستوهبه المال الذي أريد؟. وبدا الخاطر غريباً لا يصدّق، وخاصّة بالقياس إليّ أنا الذي أخافه أكثر من الجميع، ولم أوثقه قطّ، بيد أنّ الجزع كان بلغ منّي منتهاه في تلك الأيام، وجرى الحبّ منّي مجرى الدم، واشتدّ إحساسي بفوات العمر لدرجة تستحقّ الرثاء، فداخلي شعور بأنّي إذا بلغت الثلاثين فقد انتهيت. أمضتني هذه المخاوف، وكانت النظرات الحلوة التي تجود عليّ بها الحبيبة توسعني في أثناء ذلك سعادة وتأنياً صامتاً. فلم أر بداً في النهاية من أن أفكر جدّياً في زيارة أبي.

وذهبت دون أن أعلن ما في ضميري لأمي، واهتديت إلى الحلميّة مسترشداً بكمساري الترام، ولما بلغت شارع عليّ مبارك ذكرت لتويّ الطريق الذي قطعته مع جدّي منذ تسعة أعوام، وتراءى لعينيّ البيت

التعاسة أن تنجب بنات، هذا عار كبير مهما قالوا إن الزواج نصف الدين!! إلا إذا كان النصف الآخر هو الطلاق!... «ثم غير لهجته»... لماذا لا تطلب يد إحدى بنات عمك؟ ألا تعلم بأن ميراث الواحدة منهن لا يقل عن مائة جنيه كل شهر؟ ولكن دعنا من هذا كله واسمح لي أن أنظر في وجهك قليلاً فإني لا أكاد أعرفك. ما شاء الله، أنت رجل لا ينفصلك إلا

الشارب، لماذا لم ترسل شاربك؟... ثم إنك رجل جميل، ولكنك نحيل مهزول كأنك لا تأخذ كفايتك من الطعام؟ عار أن يكون شاب في مثل سنك نحيلًا. ومع ذلك فيا لها من سعادة أن يرى الأب ابنه رجلًا، خصوصًا إذا كان يراه لأول أو لثاني مرة! ألا ترى أنني أب عجيب؟ لقد أنجبت ثلاثة ولكني وحيد مهجور. ولست ساخطًا على حظي، لأنه من السعادة أن تبقى وحيدًا، وما من مرة خلوت بإنسان قط إلا وافترقنا خصمين، وهم يقولون عادة إنني مخطئ، وأنا أقول إنهم لمخطئون، فإله يفصل بيننا يوم القيامة. لا تدهش إذا سمعتني أقتبس من القرآن! فإنما الفضل في ذلك إلى الراديو، ولقد باعدت بيني وبين الدنيا ولكن الدنيا تأتي إلا أن تقتحم عليّ داري في الراديو. أهلاً أهلاً. أنت ولد بار يا كامل، ولكن ينبغي أن تعني بصحتك، وتأخذ كفايتك من الطعام حتى تسمن. ألم يترك جدك ثروة؟

كنت جزعًا يائسًا لا أدري كيف أطرق الموضوع الذي جئت من أجله في ضوضاء تلك الثروة التي لا ضابط لها، واشتدّ جزعي ويأسي حين رأيته - في أثناء ثروته - يملأ كأسًا جديدة، ولكنني انتهزت فرصة طرحه السؤال الأخير وقلت بلهجة لا يشوبها شك:

- لم يترك جدّي شيئًا على الإطلاق...  
فهزّ رأسه الأصبل الأحمر كأنه يقول «هذا ما توقعته» ثم قال:

- مرتّب عال، ذرّية قليلة، معاش ضخم، ثم لا يترك شيئًا، كان رحمه الله مقامًا، والمقامر يفضل أن يخسر نقوده على المائدة على أن يكتنّزها في المصرف، وما هو إلا طفل قد تمكّن من قلبه حبّ اللعب، ولست

قمت بهذه الزيارة التي لا رجاء منها. وجعل ينظر صوبي باهتمام، أو لعلّه حتّ استطلاع، فعجبت لذلك اللقاء الغريب بين أب وابنه بعد افتراق عمر كامل، وتساءلت في نفسي في دهشة وعدم تصديق عما يقال عن الحبّ بين الآباء والأبناء. ولم أدر بطبيعة الحال كيف أبدأ الحديث، ولكنّه أخذ يتكلّم فأنقذني من حيرتي. وقال بصوت غليظ:

- كيف حالكم؟ مات جدك! كان رجلًا لطيفًا، وأحفظ له ذكريات لا بأس بها على رغم ما كان، ولكنّي لم أشهد جنازته وهو ما لا يغفّره كثيرون، على أنّ الإنسان في مثل سنيّ ينبغي أن يعفى من الواجبات، والشيخ والطفل سيان في ذلك، ولا تنس من ناحية أخرى أنّ جنازتي لا يُنتظر أن يشيّعها أحد اللهمّ إلا عمّ آدم البواب، ولا يبعد أن يُشغل عنها عمّ آدم نفسه بتفتيش جيوب وسرقة ما يظنّه بها من نقود. هل تشيّع أنت نعمتي؟!

\*\*\*

دهمني سؤاله بعد قلق استحوذ عليّ بتأثير لهجته الثملة، فأيقنت أنّ مهمّتي ستكون شاقة خفيفة، ولكنّي بادرت قائلاً:

- أطال الله بقاءك!

فقهقه ضاحكًا، ورأيت أنّه فقد ضروسه، فسأني منظره وضحكه واستدرك قائلاً:

- يا لك من ولد بار، فجميل جدًّا أن تحبّ أباك وتدعو له بطول العمر! والبرّ بالأب سحبة فاضلة لم يكن لي منها نصيب وأسفاه، ولو أوتيت قدرًا من الرياء أو حظًا من الصبر لكنت الآن من أغنياء البلد المعروفين، مثل عمك قاتله الله، ألم تر إليه كيف لم يقنع بما ورث من مال لا تفنيه النار حتى استأثر بأخيك مدحت - ذلك الثور - فزوّجه ابنته؟! ولقد ظننته يومًا سيعتق مذهب الطلاق كأبيه ولكنّه يبدو خانعًا كالنساء، وانقلب فلأحًا مزارعًا يشارك القطعان معيشتها، ولعلّه يحلم بثروة عريضة بعد موت عمّه، ولكن خاب فإله، فلزوجه أخوات ست كلّهنّ مطمع الفحول من عشاق المال والنساء! ولذلك أقول إنّه من

الخمر، ولو أحب الناس جميعًا الخمر كما أحبها، واستهانوا بالمال، لأمكن حلَّ مشكلة الدنيا بكلمة واحدة. تصوّر معي بلدًا سعيدًا، يشطرونه شطرين فيشيدون المساكن على اليمين والحانات على اليسار والحكومة في الوسط، ولا يكون للناس من واجب إلا أن يشربوا، هذا بلد يريح ويستريح، ألا تشرب يا بني؟ كلاً. فإذا تعنتت من الشرور؟ إن قيمة المرء الحقيقية فيما يعمل من شر، هبني متّ غداً ولم أكن سكيراً، فما عسى أن يقول عني الناس؟ لا شيء! أما وأنا شرّيب فسيقولون حتياً: «كان شرّيباً سكيراً». بل ولو كنت أنصدّق بمالي هذا على الفقراء لما ذكرني أحد بكلمة. الناس ينسون الخير بسرعة ولو كانوا من صنائعه، فالشيء الوحيد الذي يخلّد ذكرك هو الشر... ما رأيك في كلامي هذا؟!

ولم أجد من الإجابة مفراً، فقلت:

- يجب أن نخاف الله ونطيعه...

فأمن على قولي بهزة من رأسه المستدير بدت هزلية واستدرك قائلاً:

- صدقت! هذا سرّ الوجود. أما والله لو كان حقاً ما يقولون عن الله فإنّ مصيرنا لأسود! بيد أنني عظيم الثقة والاطمئنان، وما أفقد ثقتي وطمانيتي إلا إذا ساء هضمي، هنالك تبدو الدنيا عابسة كالحلة! وذلك لأنّي أومن بأنّ الله لا يعذب عباده. كيف أصدق أنّ إلهاً عظيماً سبحانه يحرق مخلوقاً مثلي لأنّه أحبّ الخمر؟ ألا يعجبك كلامي؟ أنت آنستنا. أرى الملل في وجهك. ترى ما الذي دعاك إلى تذكّر أبيك بعد نسيان العمر كلّ؟!

وخفق قلبي، ولم أعد أطيع السكوت. ولعلّه لم يكن من الفطنة أن أطرق موضوعي أثر ذاك السؤال، لكنّي قلت في عدم تبصّر:

- أراني في ضيق شديد. وإذا كانت الظروف السيئة قد فرّقت بيننا فإنّك أبي على رغم هذه الظروف السيئة.

وقهقه ضاحكاً فكهرت منظره للمرّة الثانية. ثمّ قال بلهجته الهاذية التي تنزع من سامعه آية ثقة فيما يقول:

ألومه لأنّي بدوري شرّيب سكير، والفرق بين المقامر والسكير، أنّ الأوّل عمليّ يضارب ويخادع ويكسب ويخسر، أمّا الآخر فنظريّ يلحم ويلحم ويخلم. إذا طمع المقامر في الثراء قامر بثروته في اللعب فيخسرهما على الغالب، ويمتني نفسه بتعويض خسارته فما يزداد إلا خساراً حتّى إذا مات لم يترك شيئاً، يترك ذيناً ثقيلاً، والغريب في الأمر أنّ المقامرين جميعاً يخسرون ولا أدري من يربح إذن! أما الشرّيب فإذا طمع في الثراء وجده محضراً بين يديه دون أن يكلفه ذلك أكثر من ثلاثين قرشاً ثمن قارورة كهذه. أنقول إنّ ذلك محض وهم؟! ليكن، وهل ثمة شيء في الدنيا إلا وهو وهم وخيال؟! أين جدّك؟... كان جدّك حقيقة ملموسة فأين هو الآن؟ شمرّ للبحث عنه فلن تجد له أثراً. فتش عنه في البيت، وفي المقهى، وفي النادي، بل انظر في القبر نفسه، وهاك رقبتي إن وجدت له أثراً، فكيف يكون حقيقة! رحمه الله! وماذا فعلتم بعده؟ أما زلت طالباً؟!

فقلت وأنا أداري حنقي وجزعي بابتسامة باهتة:

- تعينت موظّفاً بوزارة الحربية!

فرفع كأسه ضاحكاً وقال:

- نحب مستقبلك! ما شاء الله! أسرّتنا مجيدة ولكن ليس بها من موظّف واحد، فأنت الذي تشقّ طريقها إلى الحكومة!

ولم أتمالك أن قلت بضيق:

- لست إلا موظّفاً صغيراً، وليس لي مرتّب يذكر!

فرمقني بنظرة توجّس من تحت حاجبيه الأشيبين وقال بغير مبالاة:

- لا تجزع، الصغير يكبر حتماً. قضت حكمة الدنيا

بأنّ الصغير يكبر والكبير يصغر... والظاهر أنّ الله خلق ثروة محدودة واحدة، لا يتغيّر مقدارها، ويتغيّر حظّ الناس منها، وإلاّ فلماذا لا يثرى الناس جميعاً؟ فاصبر يا بنيّ ولا تشغل نفسك بالتفكير في المال. التفكير في المال مهلكة كادت تورديني في يوم من الأيام، إنّي أعجب لماذا يحبّ الناس المال هذا الحبّ الكبير! لست في حاضري من محبّي المال، أنا لا أحبّ إلاّ

شهريّ مقداره أربعون جنيهاً غير أجرة الطباخ العلويّ، ولكن لا تغيب عنك نفقاتي، إليك الطباخ مثلاً فهو يسلمني عشرين جنيهاً كل شهر، وإذا خطر لي أن أراجعه مرة دَوْخ دماغه بحساب طويل لا أفقه عنه شيئاً. وإليك الخمر أيضاً فإنه يلزمي منها زجاجتان في اليوم أو ما يزيد على خمسة عشر جنيهاً في الشهر، وما يبقى بعد ذلك لا يكاد يفني بالضرورات الأخرى كالكساء والتدخين ورواتب الطباخ والبواب والخادم وأجرة العربة التي تجوب بي بعض الشوارع القريبة كلما سئمت طول المكث في البيت. ليس لي من رصيد في المصرف، حتّى إنّ أعالج سوء الهضم بالوصفات البلدية. لا تسألني مالاً يا بنيّ، وإنّي أقول هذا أسفاً علم الله، ولكن لماذا لا تتزوّج كما تزوّج أخوك من غير أن يبذل مليّاً واحداً؟! وإن احترمت نصيحتي فلا تتزوّج على الإطلاق!

وحدجني ببصره الزائع، فبدا لي فظيلاً كريماً. ثم استخرج علبة سجائره، وأخذ سيجارة وأشعلها وراح يدخنها بتلذذ. وجعل يراقب دخان السيجارة بعينه الحايبتين، فخيّل إلى أنّه نسبي. ثم وقع في نفسي أنّه يعدّبي! وملأني الحنق، ولكنّي بقيت على جمودي، وازددت إحساساً باليأس والحيرة. وساد الصمت مليّاً، ثم التفت نحوي، وألقى عليّ نظرة لا معنى لها، ثم ارتسمت على فمه الواسع ابتسامة وسألني:

- ألا تدخّن؟

- كلّاً...

وعدنا إلى الصمت. ألا يجدر بي أن أذهب؟ وتوتّبت للنهوض لولا أن لاح في وجهه ما جعلني أنظر إليه بدهشة وانزعاج. بدا متعباً وتفصّد جبينه عرقاً ودارت عيناه في أنحاء المكان وكأنّها لا تريان شيئاً. ورأيت خدّه الأيمن فيما يتّصل بفمه يرتعش ارتعاشة عصبية. ثم دمت عينه اليمنى... آ... توقّعت شيئاً مخيفاً لا أدري كنهه، ولكن لم تطل به تلك الحال، انبسط وجهه وعادت إلى عينيه الحياة الطفيفة التي تبدو فيها: ونظر صوبي مرةً أخرى، زابلي الخوف الغامض، وعادتي أحاسيس اليأس والحيرة

- معك حقّ. الويسكي هذا حكمة غالية، إنّه كاللدينا في مرارته، ولكنّ الحكيم الحكيم من يستطيعه ويألفه كما يستطيع الحكماء الدنيا ويألفونها، ويل لمن يجزعون لمرارته أو يقيثون، لن يصبروا إذن مع الحياة. قلت يا بنيّ إنّ معك حقاً. يعجبني والله حسن تمهيدك ولياقتك. تقاطعني عتاراً ثلاثين عاماً أو ما يقارب هذا، لا تؤاخذني على الخطأ لأنّ الحساب لا وزن له عند الشريب فليس حتماً أن يساوي واحد وواحد اثنين، وعسى واحداً يساوي عشرة، قلت إنّك تقاطعني عمراً ثمّ تخيئي معتذراً بجملة لطيفة. على أيّ أقبل العذر، ولمّ لا؟ الحقّ لا أسف على مقاطعة الناس لي. أمّا الضيق الذي تشكو فأمر يهمني جدّاً. فما يضايق ابني بضايقي بالتالي، فإذا تعني يا بنيّ؟

حدّثني نفسي بالذهاب لأنّي لم أجد في ذلك الهديان فائدة ترجى. بيد أنّي نبذت الفكرة في احتجاج وغضب. وعزّ عليّ أن أنكص على عقبي بعد أن أقدمت على ما أقدمت عليه. واستجمعت قواي، وبذلت فوق ما أحتمل عادة في مقاومة الحجل والارتباك وقلت بصوت منخفض:

- أريد أن أتزوّج!

وعاد الرجل السكران إلى قهقهته الكريهة، ثم قال بدهشة:

- ما بال أسرتنا لا تنجو أبداً من هذا الداء الويل؟! إنّ أختك لم تقط صبراً حتّى اختار لها بعلاً كما ينبغي فهربت مع رجل غريب وتزوّجته. وهذا أخوك ما كاد يشبّ عن الطوق حتّى كان راقداً في حضن عروسه. ولا أبرئ نفسي فقد حاولت أن أكون زوجاً مرةً وأخرى وثالثة، أعجبت بها من أسرة! ولعلّك تحتاج مالاً ليتّم لك ما تريد من زواج؟! لا استبعد هذا فالزواج وإن كان داء كما قلت إلّا أنّنا نفق عليه أموالاً طائلة، وفي هذا وحده الدليل الناطق على جنون الإنسان! ولعلّك جئتني وحملت نفسك ما لا تؤدّ من رأيي لتسألني مالاً تزفّ به إلى عروسك... لا استبعد هذا، ولكن من أين لي بالمال الذي تريد؟ هل «قالوا» لك إنّ غنيّ ميسور؟ لا أنكر أنّي أتمتّع بدخل

خلصت إلى الطريق محطّم النفس والقلب والأمل .  
وقطعت الطريق إلى المحطة وأنا أسبّ والنعن وأتميّز  
غيتًا وحنقًا: «لم أحتمله أكثر من ليلة واحدة!» .

ربّاه! . . لو أنّ ألف صفقة أهبّت قفاي في ميدان  
عموميّ لما أدتني كما أدتني تلك العبارة! وبلغ منّي التأثير  
مداه فازدحمت الدموع بعينيّ، واستسلمت للبكاء  
مستخفيًا بالظلمة التي تغشى الكون. ليس ثمة فائدة  
ترجى منه. موته وحده بيده أن يغيّر وجه حياتي! أجل  
لا أمل البتّة إلّا في موته. واستقللت الترام وشرودي  
المعهود ينقّس عن كربي أحلامه النათية، فرأيت نفسي  
جالسًا مع مدحت وشقيقتي راضية تنقاسم ميراث أبي  
بعد وفاته! واقترحت عليهما أن يبيع البيت الكبير  
فوافقتني في الحال وأصبحت في غمضة عين مالكا لألف  
جنيه! ولم يكن في الحلم أثر لأمي! فقابلت والد حبيبي  
وفاتحته بشجاعة عن رغبتني في مصاهرته وتمّ كلّ شيء  
دون عراقيل! وشعرت بارتياح خفّف من توتر أعصابي  
الذي أورتني تلك الزيارة المخيفة الفاشلة، بيد أنّي  
تذكرت بسرعة كيف أنّ الحلم لم يجعل لأمي وجودًا،  
وسرت في بدني رعدة خوف وتقزّر، وتقلّص قلبي  
امتعاضًا وندمًا، كيف سمحت لهذا الخاطر الشيطانيّ  
بأن يلوّث نفسي مرّة ثانية؟! ولازمي الامتناع  
والغضب طوال الطريق. وجعلت أردّد في نفسي:  
«اللهمّ بارك لي في عمرها»، ولم يغن عنيّ ذلك شيئًا  
فعدت إلى البيت موزّع النفس مشتت البال، ولم يرتح  
لي جانب حتّى طبعت على جبينها قبلة طويلة حارة . .

## ٢٨

وفي عصر اليوم التالي ذهبت إلى محطة الترام لأفوز  
بدقائق السعادة التي لا يجود اليوم إلّا بها. لم يعد لقاء  
الصباح بالملاح إلّا فيما ندر، وذلك منذ غدت حبيبي  
جالسة في الشرفة تحدّث شقيقتها، فوقفت متطلّعا،  
منتظرا زادي من نظرة عينها الذي يمّدني بماء الحياة،  
وانعطف الرأس المحبوب نحوي، ولكنّه ما كاد يراني  
حتّى تحوّل عنيّ فيما يشبه الحدة. ثمّ نهضت قائمة  
وغادرت الشرفة. خفضت بصري ذاهلا وقد خبا

والكراهية. ثمّ تأملت بعين الاستغراب الحقيقة الماثلة  
أمامي، وهي أنّ هذا الرجل هو أبي الذي أوجدني في  
هذه الدنيا ودعت هذه الحقيقة حقائق أخرى ممّا يتّصل  
بها، بدت في صور محسوسة؛ فساءني منظرها، وآلمني  
وأحزني. وليثت هنيهة من الألم في شبه ذهول، ثمّ  
تنهدت على غير وعي منّي بصوت مسموع، وتنبّه إليّ  
وسألني للمرّة الثانية:

- ألا تدخن؟

فهزّزت رأسي سلبيًا، فقال في تهكم:

- نعم الفتى أنت! لا عيب فيك إلّا أنّك ترغب في  
الزواج! حدّثني عن زواجك أهو رغبة عامّة؟ أم هو  
رغبة خاصّة في بنت من بنات حواء؟ «هنا خفق قلبي  
بعنف وكادت الدموع تسارع إلى عينيّ»، هذا ما يبدو  
لي، ترى كيف الحبّ هذه الأيام؟! لا شك أنّه لا يزال  
محتفظًا بخطورته وقوّته في خداع البشر! ومع ذلك أكرّر  
عليك النصيحة بالألّا تتزوّج على الإطلاق. هذه نصيحة  
رجل مجرب. الزواج سخرة. تصوّر أنّ امرأة تملكك  
ودع ما يقال من أنّك أنت الذي تملكها فهو كذب  
سمج، تنهك قواك وتسلبك مالك وتستبدّ بحريّتك ثمّ  
تستدرجك لاستعباد روحك وما تملك لرعاية شخصها  
وأناهاها فإذا متّ سعت إلى رجل غيرك قبل أن تجفّ  
دموعها، الزواج شيء سخيّف لم أحتمله أكثر من ليلة  
واحدة!

ترنّح قلبي تحت وقع الطعنة التي نفذت إلى  
صميمه، ونذت عنيّ على رغمي آهة من الأعماق،  
فنظر إليّ في شبه بلاهة. ورمقته بنظرة نارية حتّى  
حادثتني نفسي بأن أفدّفه بالقارورة في وجهه، ولكنّي لم  
أكن الرجل الذي ينقذ مثل ذلك الخاطر، وشعرت  
بالقهر لعجزتي، وبرغبة في البكاء قاومتها ما وسعني  
الجهد. وسألني في دهشة:

- هل أملك يا بنيّ؟

فنهضت قائمًا في حنق وصحت به:

- السلام عليكم . .

تمّ ندمت على إفلات هذا السلام منّي في اللحظة  
التالية، وغادرت المكان لا ألوي على شيء، ثمّ



حماسي وفتر. ما الذي أغضبها؟ ألم تحتمل جمودي؟ هل يقضى عليّ بالحرمان من نظراتها الحلوة؟ هل قرّرت أن تقابل جمودي بالإعراض والتجاهل؟ وتولّاني الحزن والقنوط والخجل. كان موقفني مخجلًا بلا ريب، ثم خطر لي خاطر بردت له أطرافي، وتساءلت في خوف أكون لأحد الرجلين اللذين ينافسان في الإعجاب بها شأن بهذا التحول الجديد؟ لئن صحّ هذا، فماذا يبقى لي في الحياة؟ أخبريني يا حبيبتى بحقّ شبابك الريان، أهى جفوة عطف خانه الصبر أم إعراض قلب ظفر بمبتغاه في ناحية أخرى؟ لن أنسى بؤس ذلك اليوم، ولا الأيام التي تلتها. اختفت حبيبتى من أفق حياتي، وتحامت الظهور بالشفرة حين أكون في المحطة، وفي مرّات التلاقي النادرة في الصباح حرصت ألا يقع بصرها عليّ. رحت أكل الشرفة والنافذة بعينين جائعتين أضناهما التطلع. وكنت أرى الأم أحياناً وهي ترمقني بنظراتها المتفحصة، والأخ وهو يلقي عليّ نظرة غريبة، والشقيقة الصغرى وهي ترمقني بنظرة اهتمام، أمّا حبيبتى فقد توارت، تاركة وراءها شجرة الحياة عارية، قشورًا صفراء وعروقًا ذابلة، ربّاه! ليس هذا بعدم اكتراث، لو كان عدم اكتراث حقًا لما أوجب هذا الحذر كلّهُ، ولوقع عليّ بصرها كما يقع اتفاقًا على المخلوقات والأشياء بالطريق. إنّها تتجشّبي عامدة قاصدة، إنّها غضبي برّمة، ولا شكّ أنّ قصّة الفتى الذي يبدو محبًا قد ملأت البيت. ولا شكّ أنّ جموده الغريب كان موضع تعليق ونقد واستفهام! كيف فاتني أن أقدر حرج حبيبتى وحيرتها؟ وتنهّدت من الأعماق، وتندّى جيبني خجلًا، وامتلات سخطًا على حظي التمس، وامتدّت السنة سخطي إلى أمتي المتوارية وراء كلّ شيء! وانطويت على كدر كأنما سفت ربح الخمسين غبارها على نفسي، فلم أجد ذاتي هدفًا لسخطي وكدري وغضبي، وهي عادة قديمة لي إذا ضاقت بي الدنيا أن أوسع نفسي نقدًا وهجاء وكشفًا عن عيوبها ومناقصها، فعدت إلى التنديد بعجزى المطلق، وخوفي الشامل من الدنيا والناس وكأفة المخلوقات الأخرى، وذلك الكرياء الكاذب الذي

يجعلني أصول وأجول في البيت بلا داعٍ حتّى إذا اصطدم بأحقر موظّف في الدولة انقلب ذلًا وخنوعًا، استسلمت لذلك التفكير الحزين طويلًا حتّى بدت لي نفسي قطعة من البشاعة والهوان، إنّني شخص لا يستحقّ أن يعيش، إنّ أنفه الأعمال يملأني ذعرًا وجفولًا، حتّى تمثّيت أن يكون لزيادة الماهية طريق غير الترقية كي لا أجد نفسي أبدًا مسئولًا عن عمل كبير، ولن أنسى أنّي بذلت قصارى جهدي حتّى وكّلوا بي في إدارة المخازن الآلة الكاتبة تفادياً لأعمال حقيرة لا تعدو الضرب والجمع والطرح، لست إلّا مخلوقًا غريبًا شدّ على قافلة الحياة الحقّة، ومن آي ذلك أنّي لا أحفل بشيء في الدنيا إلّا نفسي وما يتصل بها من قريب، ومن آي ذلك أيضًا أنّي لا أقرأ الجرائد على الإطلاق! ولشدّ ما كانت دهشة زملائي من الموظفين عظيمة حين تبينّ لهم اتفاقًا أنّي أجهل اسم رئيس الوزارة وقتذاك بعد أن مضت أشهر على توليه الحكم وراحوا يتندرون بجهلي كثيرًا وأنا صامت كظيم، وكأني لست من هذا المجتمع، فلا أدري شيئًا عن آماله وآلامه، قاداته وزعمائه، أحزابه وهيئاته. ولكم طرقت أذني أحاديث الموظفين عن الأزمة الاقتصادية وهبوط أسعار الفطن وتغيير الدستور فلم أكن أفقه لها معنى أو أجد لها في نفسي صدى، لا وطن لي ولا مجتمع، لا لأنّي أسبق الوطنية ولكن لأنّي لم أدركها بعد! ولعليّ أشعر أحياناً بأنّي أحبّ الناس جميعًا، الناس كشيء معنويّ عامّ، ولكن ما كان أحد من هؤلاء الناس - إذا اتّصلت أسبابه بأسبابي - إلّا ليثير في نفسي الجفاء والنفور. وحتّى لإعاني العميق لم يستطع أن يستنقذني من هذه الوحشية المخيفة، فضلًا عن أنّه أثقل ضميري بالقلق والتأنيب، وأوسعني إحساسًا حادًا بالخطيئة من جرّاء العادة المجنونة التي استبدّت بي...

لذلك إذا كان جاء يوم الأحلام انطلقت إلى حانتي الجديدة بسوق الخضّر لا ألوي على شيء، وطلبت الدورق الجهتميّ الذي لم يعد لي عزاء سواه...

الوجه، دقيق القسبات صغيرها، وكان يحلّي أصبعه بخاتم ذي فصّ ماسيّ، ويضع على عينيه نظارة سمكية أحدثت من نظرة عينيه، ويعبث بسلسلة ساعته الذهبية المدلاة من عروة صدرته. سألتني بأدب عيّا أفضله من المشروبات، ولمّا لم أحر جواباً طلب شيئاً، ثمّ قال:

- اعدني عن تطفلي هذا، ولكنّك ستقدّر موقعي بلا شكّ إذا علمت بما حداني إلى دعوتك. واسمح لي قبل كلّ شيء أن أقدم لك نفسي.. محمّد جودت مدير أعمال بوزارة الأشغال.

ووقعت كلمة «مدير» من نفسي موقعاً مروّعاً، فقلت:

- تشرفنا يا بك... أنا كامل روبة لاظ موظّف بوزارة الحربيّة.

وجاء النادل بأقداح الشاي، ولكنّي كنت أفكر في الفرق الكبير الذي يفصل بيننا كموظّفين. هو مدير أعمال، وأنا كاتب على الآلة الكاتبة بإدارة المخازن. ولحمت وراءه امرأة مثبّنة في الجدار، ورأيت صورتي معكوسة على صفحتها، فنظرت إلى وجهي المستطيل وعينيّ الخضراوين، وسرعان ما سرى عنيّ شعور بالارتياح والإعجاب! أمّا صاحبي فقال لي:

- يا أستاذ كامل، إنّي دعوتك لمشاورة أخويّة، وأرجو أن تقدّر رغبة رجل مثلي - اعتبره أخاك الأكبر - في التفاهم الصريح. لست بالمتجنّي على أحد، ولكنّي أرجو أن نكون صرحاء!

واصطنعت الدهشة وقلت:

- أرجو أن تفصح يا سيّدي عيّا تريد وستجدني رهن إشارتك...

فضحك ضحكة قصيرة خافتة، ثمّ قال بعد تردّد قليل:

- أتفصح عنيّ إذا سألتك سؤالاً ليس لي حقّ في توجيّهه؟

ربّاه إنّي أتلهّف على سماعه: أجل إنّي أوقن بأنّه لن يحمل لي نبأ سائراً ومع ذلك بدا لي كأشهى المنى. قلت

كنت واقفاً في المحطّة قبيل المغرب، لم أَلْ أن أتطلّع إلى الشرفة والنافذة، ولكنّ حبيبي لم ترق لي منذ جفتني، قاطعتني مقاطعة قاسية، وأضنت حياتي كمداً، وكان الشتاء في إبانهِ: وفي السماء سحب جوف انعكس ظلّه الثقيل على الأرض، وهبّت ريح باردة، وقفت ملتفّاً في معطفي الأسود، أرفع للبيت المحبوب من أن لآخر بصراً مشوّقاً يائساً، وعلى حين فجأة سمعت صوتاً رقيقاً يقول:

- من فضلك يا أستاذ...

فالتفت ورائي بدهشة، ولكنّ دهشتي تضاعفت ومازجها خوف كثير حين رأيت أمامي أحد الرجلين اللذين اتهمتهما بحبّ حبيبي، ذلك الرجل الوقور الذي يقطن في عمارتها وغمغمت بارتباك:

- أفندم؟

فقال بصوته الهادئ الرقيق، وبلهجة تنمّ على الوقار:

- تسمح ثمّني قليلاً معاً...

فتساءلت بحيرة وإن حدس قلبي الخبر:

- لماذا؟

فقال مبتسماً:

- لديّ أمر أوّد أن أحدثك عنه...

فلم أجد مناصاً من أن أقول:

- بكلّ سرور.

فقال وهو يرفع بصره إلى السماء:

- الجو بارد جدّاً، فهلاً وافقت على أن نستقلّ الترام

إلى ميدان إسماعيل، وهناك نجلس في مشرب الشاي فأحدثك دقيقتين؟ ألدّيك مانع؟

وركبنا ونزلنا، وجلسنا. حدّثتني نفسي سلفاً بموضوع الحديث، وداخلني إحساس بالخوف، بيد أنّ شعوري بأنّ الحديث سيدور حول حبيبي حملي على الذهاب معه بلا تردّد، بل وبرغبة لا تُقاوم، ولكنّي تساءلت طويلاً عيّا هو قاتل، وعيّا يرمي إليه من وراء حديثه، وألقيت عليه أوّل نظرة من قريب ونحن جالسان حول مائدة صغيرة، كان في الأربعين، معروق

من زمن طويل!

وساد صمت. ومضى يتفرّس في وجهي وقد تألّقت في عينيه نظرة ارتياح. أيّ مانع يمنعني؟ يا للسخرية! إنّ كلّ شيء يبدو كحلّم غريب، هل حقّاً نحن نتكلّم عن حبيبتي، وهل حقّاً أنّي لم أفكر في طلب يدها وليس لي من رغبة في ذلك. ربّاه ما أشدّ عذاباً! وقملّكني شعور باليأس لم أشعر بمثله طول حياتي الحافلة باليأس. وأخيراً خرج «البك» من صمته قائلاً:

- أكثر المصدرة عن تطفلي. الحقّ أنّ نيتي قد صدقت أخيراً على طلب يد الأنسة بعد أن زالت من طريقي أسباب صدّتي طويلاً عن التفكير في الزواج، وبدا لي أن أحدثك به حتّى لا أضع رجلي في غير موضعها، والآن لا يسعني إلّا شكر.

إنّه من فصيلة العجزة - هكذا حدّثني قلبي - إلّا أنّه صادف من هو أعجز منه، فهو سعيد الخطّ بلا ريب. فلم يعد لبقائي من مسوّغ، فنهضت مستأذناً في الانصراف وأنا أقول:

- مبارك يا سيّدي.

فنهض في أدب، وبسط لي راحته، وشدّ على يدي بامتنان فخلّته يشدّ على عنقي، وشعرت نحو السرور الضاحك في عينيه بحقد ناري، ثم ودّعته وغادرت المشرب. وسافقتني قدماي على غير هدى فاستسلمت لهما، لأنّه لم يكن لي غاية أقصدها، وأخذت نفساً عميقاً وقلت لنفسي: «الحمد لله»، وأعدت القول بصوت مسموع كأنّي أهني نفسي! ولعلّي كنت أهني نفسي حقّاً على اليأس، وأمّنيها بالخلاص من القلق والعذاب واللهفة التي لازمتني منذ أشهر طوال، أو منذ سكن الحب قلبي. وقلت لنفسي أيضاً: «لّي سعيد، وليس أحقّ منّي بالسرور أحد، انتهت آلامي إلى الأبد!» وخيل لي أنّي لو ألقيت بنفسي من جسر الملك الصالح - كما كان ينبغي أن أفعل في يوم مضى - لحلّقت بدل أن أهوي من شدّة السرور! ذقت لذة اليأس في سرور هذيان غريب، ومزّت بي لحظات جنونيّة. والآن علمت لماذا توارت عن عيني؟! فأخذت أفيق من شوقي الجنونيّة الكاذبة. ثم نشبت في قلبي

مبتسماً في ارتباك:

- بكلّ سرور يا بك...

فارتفق المائدة شابكاً أصابع يديه، وقال:

- لاحظت أنّك تبدي اهتماماً خاصّاً بشخص ما، ولعلّك أدركت من أعني «هنا خفق قلبي خفقة عنيفة» فلا تؤاخذني إذا سألتك عن حقيقة اهتمامك هذا، هل هناك رغبة أو نيّة أو صلة؟!

أوشكت أن أنظاها بالدهشة، وأعلن تجاهلي، ولكّني عدلت عن ذلك في اللحظة التالية. طالما التقت عينانا في المحطّة، وطالما رأيته يراقبني وأنا أنطلّع إلى الشرفة، كما رأي أراقبه وهو يسدّد عينيه لنفس الهدف، فهو يعرف كلّ شيء، ويعرف أنّي أعرف، فما جدوى التجاهل إلّا أن يكشف عن كذبي؟ فقلت متكلّفاً إبسماء كاذبة:

- حضرتك أخطأت الفهم، فقدّرت أنّي أبدي اهتماماً بشخص ما على حين أنّي أنظر إليه كما أنظر إلى سواه. إنّها محض عادة سيّئة!

وضحكت متظاهراً بالاستهانة، فابتسم إليّ، وقرأت في عينيه عدم التصديق ثمّ بادرني قائلاً:

- إنّك جتلمان كما قدّرت، فأرجو أن تخبرني صراحة هل لك بالأنسة علاقة ما؟ إذا أجبتني بالإيجاب شددت على يدك مهتئاً وانصرفت إلى حال سبيلي.

فقلت وقلبي يتقطّع ألماً.

- ليس لي بها أيّة علاقة...

فتردّد لحظات ثمّ سأل في حرج غير قليل:

- ألم تفكر في طلب يدها؟

تناوبتني أحاسيس متباينة. شعرت أوّل الأمر بعذاب لا يوصف، ثمّ داخلني سرور خفيّ لأنّي أيقنت أنّ الرجل الذي يخاطبني رعديد مثلي وإلّا لشرّق طريقه إلى بيت حبيتي دون أن يعبأ بي، بل أيقنت أنّه يخافني، فأرضى ذلك غروري إرضاء خفّف عني بعض ألمي. ثمّ وجدّتي مدفوعاً إلى الادّعاء والكذب بقوة لا تقاوم فقلت بيقين:

- لو فكرت فيما تقول لما منعتني مانع من طلب يدها

العاشرة بقليل فوقف لي عمّ آدم احتراماً، فحيّته ودخلت بلا طلب استئذان، إمّا لأني أبيت أن أستاذن في دخول بيت أعدّه بيتي، وإمّا لأني تناسيت ذاك في قلقي وغمي. ومضيت إلى الفراندا وارتقيت السلم متنحّناً، ولكّني وجدتها خالية، فوقفت مرتبكاً. وأدركني آدم فدفع باباً يفضي إلى الداخل وسبقني وهو يقول:

- كامل بك حضر.

وتنحّى لي، فاجترت العتبة يقدمين ثابتتين. وجدت نفسي في حجرة كبيرة مستطيلة تنتهي ببابين في الجدار المقابل علّقت بينهما صورة بالحجم الطبيعي لأبي في عزّ شبابه. وقد غطّيت أرضها ببساط نفيس منمنم، وصُفّت على جانبها الكتب، وأسدت الستائر على نوافذها وأبوابها. ورأيت أبي مرتباً على كنبه تتوسّط الجناح الأيسر للحجرة، وأدوات الشراب أمامه على منضدة أنيقة كأنّها - لعدم انفصالها عنه - عضو من أعضائه. ولم يكن بمفرده، كان الحلاق على كنب منه يجمع أدواته في حقيته، ثمّ حيّاه بأدب وذهب، وعلى أثر ذهابه تراجع عمّ آدم وردّ الباب. وانجّه بصري وأنا أقترّب منه صوب القارورة فوجدتها لم تُمسّ، وداخلني لذلك ارتياح وأمل. ومددت له يدي فتناولها بكفه الغليظة، وجرت على ستفّته ابتسامة باهتة وهو يقول:

- أهلاً بك، أنت في إجازة؟

لم أرتح إلى استقباله، ولكّني غضضت عن ذلك، والحقّ أنّ آلام الليلة الماضية، والصداع الناشب في رأسي ويأسي المرير، تغلّبت على ما طبعْتُ عليه من خجل وخوف وتخاذل، فقلت:

- نعم في إجازة خاصّة كي أقابلك في الحال.

فرمقي بنظرة لم يحاول إخفاء ما لاح فيها من قلق ممّا أثار حنقي وغيطي، وتساءل باقتضاب:

- أمر هام؟

تناسيت كلّ شيء إلاّ ألمي المبرّح وألمي الباقي فقلت بانفعال نمت عنه نبرات صوتي:

- هامّ جدّاً، أو بالأحرى هو حياتي ومستقبلي.

أنساب الغيرة السامة، أيمن أن يتمّ هذا حقّاً! لم أستطع أن أصدّق هذا. لماذا؟... ربّما كان مرجع هذا إلى ثقّي التي لا تتزعزع في الله الرحيم ورعايته، ولكن من كان يصدّق أن ينتهي بنا الحظّ إلى الحال التي نعيش عليها! وتنهّدت من الأعماق في يأس مرير، ثمّ سرت في جسمي رعدة من البرد القارص الذي تنبّهت إليه لأوّل مرّة بعد مغادرتي المشرب فأحكمت المعطف حول نفسي خوف البرد لكثرة ما يتهدّدني الزكام في الشتاء. وألّمت بي رغبة غريبة، هي أن أجد نفسي طريق الفراش!... وتخيّلت بارتياح رقادي تحوط به العناية والحنان! وعلى حين فجأة انهارت أعصابي تحت الضغط الشديد الذي تحمّلته، فوجدت ميلاً لا يقاوم إلى البكاء، فاستسلمت له متشبّجاً بالظلمة التي تلقّني وبكيت، ثمّ ازدادت استسلاماً فأجهشت في البكاء حتّى انتحبت وشهقت كالأطفال.

### ٣٠

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي كنت في طريقي إلى الحليميّة، إلى أبي، كيف انتهيت إلى هذا، خاصّة وأنّه لم يكد يمضي شهر على الزيارة المخيفة! إنّه اليأس. قضيت ليلة مسهّدة معدّبة لم يغمض لي فيها جف، ونفّسرت في أمري طويلاً حتّى تحسّست لي الأفكار شخوصاً تصرّخ بي أنّ اذهب إلى أبيك، مهما كلفك الأمر، وليكن ما يكون. ولم يكن التردّد بممكن في مثل حالتي، لقد فقدت رشادي، وأذهلني الألم عن مشاعري الطبيعيّة بالتردّد والخجل والخوف فكان أبي - على رغم كلّ شيء - الأمل الوحيد الباقي لي.

واخترت أن أزوره في الصباح لأنّي أملت أن أجده قبل سكره في حال خير من تلك التي وحدته عليها في الزيارة السابقة المشثومة، وفضلاً عن هذا كلّ فلم يكن بي من صبر أستطيع أن أنتظر به حتّى الأصيل، فتلفت إلى إدارة المخازن معتذراً ومضيت لطّيتي. وكان الصداع يدقّ غلاف رأسي بمطرقة، بعد ليلة سهاد وهّم، بيد أنّي تماسكت، واستمددت من يأسي قوّة لم أعهدّها في نفسي من قبل. وبلغت البيت بعد

والحنق فقلت بصوت مرتفع ملأ الحجرة الكبيرة:  
- إنك لم تنفق عليّ مئياً واحداً، فماذا يضيرك لو  
تنازلت لي عن بضع مئات من الجنيهات؟!

ونفخ الرجل عابساً، واشتدّ احمرار وجهه، ثم قال  
بصوت غليظ:

- يبدو لي أنك لا تفهم ما يقال، ولا تعي ما  
تقول، قلت لك ليس عندي مال... ليس عندي  
مال... ليس عندي مال!

وأفلت مني زمام نفسي فكشّرت قبضتي وضربت  
فخذي وصحت به:

- أليس ثمة رحمة في قلبك؟!  
فحدجني بنظرة كأنها يقول لي: «لقد أعياني  
إقناعك»، وقال باقتضاب وعدم مبالاة:  
- كلاً.

فرمقته بنظرة جامدة وشت بلا شك بأحاسيس  
الكراهية والحنق التي تغور بصدري حتّى رأيته يعبس  
ويتجهّم وجهه، ثمّ صاح بصوت كالخوار:  
- ألا تريخونني كي أعيش البقية الباقية من حياتي في  
هدوء؟!

فصحت به كمن فقد وعيه:  
- متى أزعجت حياتك؟ أنت الذي أزعجت حياتنا.  
إنّي في حاجة لبعض المال الذي تنفقه على الخمر بغير  
حساب ولا بدّ أن آخذ ما أحتاج إليه.  
فقبض على الكأس الفارغة بأصابع متشنّجة وزعق  
قائلاً:

- هذا كلام مجانين! أتسبّي في وجهي؟ أنهّدني؟  
اغربّ عن وجهي ولا تعد إلى هذا البيت ما دمتُ  
حيّاً!

فاشتدّ بي الغضب وصحت بانفعال شديد:  
- هذا بيتي، وما به من مال فهو مالي، ولن تمنعني  
قوّة عمّا أريد، أفاهم أنت؟ أفاهم أنت؟  
فنهض قائماً والشرر يتطاير من عينيه، وصفّق بقوة  
جنونيّة وصرخ فيّ قائلاً:

- اغربّ يا ولد عن وجهي وإنّك أن تعود إلى هذا  
البيت آدم... آدم...

فردّد قولي دون أن يخرج من جموده، وذهوله الذي  
استحال طبيعة أخرى له:

- حياتك ومستقبلك!  
فقلت برجاء وإشفاق:

- زواجي الذي حدّثتك عنه! إنّ رجلاً يوشك أن  
يطلب يد الفتاة التي أريد أن أتزوّجها، فإذا لم أتقدّم  
في التوّ والساعة أفلتت الفرصة من يدي، وضاعت  
حياتي...

أترأه قاذفي بإجابة ساخرة كعادته؟ وانقبض قلبي في  
فزع. ولكنّه لم يكن هادئاً ولا معربداً، ومع ذلك بدا  
جامداً سقيماً ذاهلاً، بل ميتاً. كان كلّ شيء يسوّغ لي  
اللباس، بيد أنّي أبيت أن ألبس، وثبت ذهني المكدود  
على فكرة واحدة عميت عمّا عداها في السباق الجنونيّ  
الذي أكابده. انتظرت على جزع حتّى قال:

- اطمئنّ فإنّ حياة الإنسان لا تضيع لضياح امرأة.  
فهتفت بحرارة:

- إنّي أعلم الناس بحياتي!  
فقال بعدم اكترات:  
- أنت وشأنك يا بنيّ. لن أتدخلّ فيما لا يعنيني!  
فقلت بعناد:

- إنّي في حاجة قصوى إلى المال، سبق أن أخبرت  
حضرتك بذلك.  
فسألني بلهجة ثمت عن الملل:  
- وماذا قلت لك؟

فتملّكني الحنق. وبدا لي في صحوه أظفّع منه في  
سكره، وقلت مدافعاً عن نفسي بإصرار وقنوط:  
- لا بدّ أن أحصل على المال الذي أريد. أرجو أن  
تقدّر حرجي وشدّتي، فإذا ضاعت منّي هذه الفرصة  
انعدم أمني في الحياة.

والقني نظرة على القارورة، ثمّ قطّب قليلاً وقال:  
- أنت تطلب مالاً وليس عندي مال!  
- هذا غير معقول...  
- هو الحقّ الذي لا شك فيه!

وأيقنت من لهجته واستهاتته وتبرّمه أنّ الساء أقرب  
إلى إثارة اهتمامه وعطفه، وتألّب عليّ القنوط والصداع

وفتح الباب ودخل عمّ آدم كأنه في الانتظار،  
واقترَب مِنّا وهو يقول:

- أفندم يا بك... خير إن شاء الله.

وبردت فجأة كأنّ «دشًا» انهار عليّ. سكّت عني الغضب، وخذ الهياج، وولّى قلبي فراؤًا. وقبضت يد الخوف الباردة على عنقي فتسوّمت في مكاني مرتبّكا ذاهلاً زائع النصر. ذهب كامل الذي اصطّبعه الغضب واليأس، وبقي كامل الآخر كما خلّفته الطيبة. ولم يرحم الرجل الهائج ضعفي فصاح بالبواب قائلاً:

- أوصل هذا إلى الباب ولا تسمح له بالدخول مرّة أخرى. إنّه يتهدّدني بالقتل.

وحملت في وجهه بذهول وانزعاج لا أكاد أصدّق أدنّى، فلاح لي في هياجه الجنونيّ كشيطان رجيم. وصرخ في وجهي:

- اغربّ عن وجهي.

ولكنّي لم أبدأ حراكًا، أو بالأحرى لم أستطع أن أبدي حراكًا، ثمّنت لو تنشقّ الأرض وتبتلعني، ومثّ خوفًا وكمدًا وخجلًا. وانتظر الرجل عابسًا، فلمّا رأي لا تحرك ولا يظهريه وغادر الحجرة إلى الداخل على حين تفهقر البواب إلى الفراندا. وجدت نفسي وحيدًا معضضت على تنفّتي، واستعدت وعبي فاستطعت أن أنفض قائمًا في وجوم، ثمّ غادرت الحجرة متحاميا النظر ناحية البواب. وحشت خطاي في الحديقة والبواب يتبعني مغتمًا بالاعتذار والتأسّف، متحلًا للبك الاعتذار قائلاً: «إنّه دائئًا هكذا».

وابتعدت عن البيت دون أن أنبس بكلمة...

قطعت نصف النهار الأوّل متسكّما في الطرق مخنّق الأنفاس من اليأس والحنق والقهر والحزني والحجل... وعدت إلى البيت في الموعد المعتاد حتّى لا تتساءل أمّي عمّا جاء بي قبله. وغلبني النوم بعد الغداء فاستغرقت فيه حتّى أوّل المساء، ثمّ غادرت البيت مثقل النفس كأنّما أحمل الأرض على رأسي، وتساءلت

أين أذهب، فما وجدت إلّا جوابًا واحدًا. نادّني الحانة نداء مغريًا، واستصرخني قلبي أن التّبي وأطيع. بيد أنّي لم أغفل عن الحقيقة الراهنة وهي أنّ ميزانتي - ذلك الشهر - ستختلّ حتّى بعد السكره المشتهة فلا أجد ما أنفقه حتّى قبض المرتّب الجديد... على أنّ النداء ظلّ عنيفًا لا يقاوم، وبدأ لي في تلك اللحظة التعمّسة أنّ نشوة ساعة خير من حياة لا خير فيها... وتحسّست يدي ساعتى الذهبية فقفز إلى خاطري أن أبيعها إذا أعوزني المال، ودخلني ارتياح فابتسمت لأوّل مرّة في يومي. على أنّي تساءلت في اللحظة التالية عمّا أقول لأمتي إذا افتقدت ساعتى، ولا بدّ أن تفتقدها يومًا؟ ولكنّي نفخت ضجرًا وهتفت حائشًا: «أمّي، أمّي، دائئًا أمّي! سأفعل ما أشاء». واستقللت الترام بلا تردّد. وفي الطريق هفّت على نفسي ذكرى جدّي لغير ما سبب واضح، فذكرت أيام الرغد والهناء التي فقدتها بفقدته ثمّ وجدتني أتمنّى لو كان قبض يده الكريمة عني ونشأني على البخل والتقتير، أما كنت أكون أقدر على تحمّل حياتي الراهنة! وقرأت الفاتحة على روجه المحبوبة. ثمّ غادرت الترام في العتبه وقصدت سوق الخضّر حيث توجد حائتي المتواضعة وما انتهيت من نزع معطفي والجلوس إلى مائدة حالية حتّى جاء النادل اليونانيّ بالدورق. حائتي شعبيّة بلا ريب، ولكنّها محترمة لدرجة ما، فلمّا جانب الحوذنيّة والمجلبيين تجددت من الموظّفين الكهول الذين لا تسمح لهم ظروف المعيشة وأعباء الأسر بارتياح الحانات الغالية. ومن هؤلاء موظّف عجوز مغرم بالغناء والطرب. ما يكاد يسكر حتّى يسترسل في ترديد الأدوار القديمة مثل: «في العشق يا ما كنت أنوح» و«يا ما أنت واحشني»، ولم يكن صوته يخلو من تطريب وأداء يبشّ له الجلوس ويتطوّع نفر منهم لترديد المذهب في انسجام للذيذ. أخذت في الشرب، وكالعادة تولّاني الشعور بالارتياح والمرح، ذلك الشعور الذي لا أجده إلّا بين السكارى في الحانة، المكان الأوحد الذي أتخفّف فيه من وقار الحجل والعبيّ والحصر والقلق والمخاوف ونعمت بطمأنينة وسرور كأنّي أرّدت إلى أهلي وعشيرتي

ساقني عليه في جلسة سلطنة وأبته غير شاعر بهودة الجوّ وداخلي ارتياح لحركة العرب الحاملة، وسرعان ما خامرتي ميل إلى العبث فقلت للحوذني في حذر كاذب:

- إن امرأة تنتظري في الطريق وسأخذها معي...  
فقال الرجل:

- رهن أمرك يا بك...

فقلت لنفسي في سخرية إن كل شيء على ما يرام،  
عربة مريحة وحوذني طيع وليل ستار فلا ينقصنا إلا  
المراة. ثم قلت مستسلماً لداعي الكذب:

- هي سيّدة من الطبقة الراقية فهلاً وجدت لنا  
طريقاً آمناً؟

فقال ضاحكاً:

- أظن جاردن سني آمن طريق قريب!

فهتفت به:

- خاب فالك، إن قصرها بجاردن سني؟

فقال ناهتمام:

- أمامنا جزيرة الروضة وإن كان الجوّ بارداً وأنا  
رجل عجوز لا أحتمل البرد!

فقلت مشجعاً:

- سأعطيك جنيهاً كاملاً!

وشكر الرجل لي بحماسة وقد تهيأ له أنه عثر على  
كنز، وجعلت أضحك في سري وأتحس بأصابعي  
الريال الذي لم يبق لي غيره حتى نهاية الشهر. ومرّ زمن  
ثم رأيت العمارة المحبوبة - عمارة حبيبي - تقترّب،  
ودبّت في قلبي يقظة غريبة وعلقت بها عيناوي. لم أعد  
أملك حرّية النظر إليها - وكان كلّ عزائي - بعد ما  
كان بيني وبين خطيبتها المرتقب! لم يعد بوسعي أن  
أنتلّع إلى الشرفة أو النافذة. ترى هل خاطب سعادة  
مدير الأعمال أباهما؟ هل صارت حبيبي مخطوبة حقاً،  
ألم تذكر المحب القديم - الصامت العاجز - وهي تنتقل  
إلى دنياها الجديدة؟ ألم تجد نحوه شيئاً من الأسف؟  
وشعرت برغبة في الانتقام من الدنيا جميعاً، وتولّاني  
إحساس بالذهول والانقباض فلبثت جامداً حتى بلغت  
العربة شارعنا، فأمرت الحوذني بالوقوف وغادرت

بعد اغتراب ثقيل، وتميّت لو كان في الإمكان ألا  
أبرحهم مدى الحياة. وما لبثت أن غمرتني النشوة  
الساحرة، وأفعم وجداني طرباً. ولم يكن الموظف  
الفنان قد بدأ العناء بعد، وكان يحدث رفاقه بصوت  
مرتفع يسمعه الجالسون جميعاً، ولا بأس من أن  
يشتركوا فيه كما يشتركون في الغناء. قال:

- تصوّروا يا هوه أنّ الطبيب ينصحني بالكفّ عن

الخمير!

- لماذا كفى الله الشرّ؟

- وجد عندي ضغط دم وتصلّباً في الشرايين.

- اشرب حلبة على الريق تضمن صحتك طول  
العمر.

- وقال لي إذا واصلت الشراب ستهلك لا محالة.

- العمر بيد الله!

- فقلت: وإذا لم أواصل الشراب فساهلك يوماً لا  
محالة.

- إجابة تستاهل عليها دورق كونيّاك على شرط أن  
تدفع ثمنه.

- هل تصدّقون أيّ رأيت هذا الطبيب ذات مساء  
جالساً في سانت جيمس يشرب ويسكي؟!

- وهكذا الأطباء جميعاً! ينتش أحدهم جنيهاً

ويقول لك «إياك والخمر»، ويمضي به إلى سانت  
جيمس ويشرب قارورتين...

واعتدل الموظف العجوز في جلسته قليلاً، وراح  
ينقر على المائدة ويهزّ رأسه، ثم غنى قائلاً: «أنصف  
محبك يا جميل»، وأنجّمت نحوه الأبصار، وأخذت  
الجوفة أهبتها للترديد. وكنت أشرب، وأجاذب من  
يجاذبني الحديث، وأضحك ملء قلبي ودار رأسي  
كالعادة بسرعة، ورقصت النشوة في قلبي، وطرت إلى  
سواء السرور واللامبالاة. ومكثت على ذلك زمناً طويلاً  
أو قصيراً لا أدري لأنّ السكران يفقد حاسة الزمن،  
ثم ودّعت الصحاب وغادرت الحانة ورنين الطرب  
يلاحقني. وضربت على وجهي زمناً آخر، ثم ناديت  
عربة وركبت دون مبالاة بالميزانية المنتحرة، وأمرته أن  
يذهب إلى المنيل. وسوّيت المقعد الخلفي ومددت

وذاك أنني كنت خالي الذهن حتى بعد أن دخلت الشقة، ولم ينب إلى خاطري أن أوقفها إلا عندما وقع بصري عليها، فلما أن لبّيت ندائي قلت ما قلت بلا تردّد وربما بلا إدراك ولكّني كنت مدفوعاً بقوة لا تقاوم!... ولم أستشعر ندماً وقتذاك، وجعلت أنفّس في وجهها المتألم وهي تنزع ملابسها جامدة الإحساس متجنّبة الشعور. ثم ابتعدت عنها صوب المشجب فتناولت البيجاما وارتديتها صامتاً، وصعدت إلى فراشي واندستت تحت الغطاء... واقتربت مني، ووضعت راسها على جبيني، وسألتني بصوت مرتجف النبرات:

- أتشكو شيئاً. هل أصنع لك قهوة تسند رأسك؟  
فقلت لها:  
- شكراً. لا أريد شيئاً على الإطلاق.

## ٣٢

مضى على تلك الليلة وما حلّفت من شجن أسبوع، أو أكثر لا أذكر وكنت قد انتهيت من عملي اليومي وجلست أنتظر موعد الانصراف في ملل وتعب، وقيل الساعة الثانية بقليل استدعيت إلى التليفون فانتقلت إليه في دهشة لأنّه لم يحدث قبل هذه المرة أن يطلبني أحد بالتليفون ولأنني لم أكن أنتظر أية مكالمات تليفونية إطلاقاً. ووجدت المتحدث شقيقاً مدحت وقد قال لي باقتضاب:

- والدنا توفي، احضر إلى الحلمية...

وعقدت الدهشة لساني فلم أزد أن قلت:  
- سأحضر في الحال.

وأعدت السّاعة إلى موضعها ولبثت واقفاً في مكاني. وأنجّمت نحوّي الأبصار وسألني الزملاء عما هناك؟ فقلت في ذهول:

- مات أبي...

وتلقّيت التعازي كالعتاد، وما لبثت دهشتي أن استحالت خوفاً، لأنّ الموت يخيفني دائماً، وغادرت الوزارة وانطلقت صوب المحطة. مات أبي إذن! هذه حقيقة لا شكّ فيها. وأخذت أفيق من وقع الدهشة،

العربة، ونقدته ثمانية قروش فتناولها في دهشة ونتمت متسائلاً:

- والمشوار الآخر؟

وانطلقت مني ضحكة خافتة على رغمي ومضيت إلى حال سبيلي. وارتقيت السلم في تشاقل وتعب، وفتحت الباب بمفتاح في جيبي ورددته بلا حذر، ثم سرت إلى حجرة النوم وأثرت الكهرباء فوقع بصري على أمي وهي مستسلمة لنوم عميق ينمّ عمقه على الجهد الذي تبذله في يومها الشاق الطويل، فوففت لحظة أنفّس في وجهها، ثم هفت بها قائلاً:

- نينة!

وفتحت عينيها وهي تغمغم:

- من!... كامل!

فقلت بهدوء واستهانة:

- إني سكران...

فحملت في وجهي بانزعاج، ثم جلست في الفراش باضطراب وقالت:

- إنك ترعيني بدعابتك.

فقلت بغير مبالاة.

- ليس في الأمر دعابة على الإطلاق، لقد شربت دورقي كونياك أوتار.

وانزلت من الفراش، واقتربت مني بارتياح وعيناها لا تتحوّلان عن عينيّ حتى شعرت بأنفاسها تتردّد على وجهي، ثم امتنع لونها وقالت بصوت متهدّج:

- لم فعلت هذا بنفسك؟... كيف تطيع الشيطان بعد أن تبت إلى الله؟

فلم أنبس بكلمة، واشتدّ بي الدهول، واستدركت هي تقول:

- اخلع ملابسك... دعني أساعدك...

وراحت تنزع عنيّ ملابسها وأنا صامت ذاهل. لماذا فضحت نفسي على ذاك النحو الغريب؟... لم أكن في حالة سكر يتعدّر معها ضبط نفسي، بل من المؤكّد أنني رجعت في ليالي سابقة في حالة أشدّ سكرًا فما أحدثت مكرًا، وما تهاونت في حدري كي لا تستيقظ من نومها، فما الذي دهاني تلك الليلة؟ والأعجب من هذا



لم يعد على خلاف عادته، وانتظره الرجل قلقاً حتى قبيل الفجر ثم أرسل لنا البرقية في الصباح الباكر، وأنا أعلم أنّ والدنا كان يحلوه الخروج من أن لأن عند الأصائل، وهو تمل- كما تعلم- فيسير قليلاً على قدميه ثم يستقلّ عربة تنطلق به حيثما اتفق ثم يعود إلى البيت بعد ساعة أو ساعتين، ولكنّه لم يحدث أبداً أن قضى الليل خارج بيته، ولذلك أثار غيابه قلق الرجل وأوقعنا في حيرة شديدة. ولم نكن نعلم له من صديق أو جهة، ولكن وقع في ظننا أنّه ربّما يكون ذهب إلى راضية فمضينا إليها ولكنّها لم تكن رآته منذ مفارقتها البيت، ولم نشأ أن نضيّع الوقت سدى فاتفقنا أن تذهب هي إلى أمنا من باب التقصي، وأن نستفسر- أنا وعمك- عنه في قسم الخليفة، وهناك أخبرنا الباشاجويش أنّ حودياً جاء إلى القسم أمس يحمل رجلاً له أوصاف أبنينا وقد فارق الحياة، وقال الحوذيّ أنّه استقلّ عربته في ميدان باب الخلق وسار به كرجلته في اتجاه الأمام، وليّا أراد أن يستفسر منه عن وجهته بالتحديد في أثناء الطريق وجده كالنائم، وناداه ليوقظه فلم يغني عنه النداء، فأوقف العربة وانتقل إليه وهزّه برفق، ثم تبين له أنّه فارق الحياة، فلم يَزْ بدأ من أن يحمله إلى القسم، وقد قبضوا على الحوذيّ على سبيل الاحتياط، ومُحِلّ أبي إلى القصر العيني حيث انتصح موته ميتة طبيعياً بالسكنة القلبية، وانتقلنا إلى القصر العيني فادخلونا إلى بهو الجثث المشرحة...

وسكت مدحت وقد لاحت في عينيه أي الألم والتفجع، ثم استدرك في شبه ثورة مكتومة:  
- يا له من منظر!... لا أدري كيف عرفنا أبي!... كان شيئاً آخر!

واغرورقت عيناه بالدموع، ولم أكن رأيته إلّا ضاحكاً فاشتدّ بي التأثير وطفرت الدموع إلى عينيّ. ولزم الصمت حتى استعاد رباطة جأشه، ثم أخبرني بما نمّ الاتفاق عليه من تشييع الجنائز في الساعة الرابعة، ثم قال لي:

- إنّه رافد الآن في غدعه فاذهب لتلقي عليه النظرة الأخيرة...

وأستشعر نسائم ارتياح عميق تهفو على نفسي! بيد أنّ صورته تثلت لعينيّ في وضوح بصلعته المستديرة ونظرته الغائبة، وخيل إليّ لحظة آنيّ أستمع إلى صوته الأجلّس وضحكته الساخرة. ترى متى مات؟ وكيف مات؟ ألا ما أغرب الموت! إنّ الموت لا يتخلّى عمّا له من خواصّ المأساة حتى في حال رجل كأبي عاش جلّ عمره عيشة الأموات بعيداً عن الدنيا والناس، فعيشة الأموات شيء والموت نفسه شيء آخر. وطرحنا على نفسي هذا السؤال: من عسى أن يحزن لموت أبي؟... مدحت؟ راضية؟ بدا لي أنّه سيفادر الدنيا غير مودّع بحزن أو أسى، وبدا لي ذاك مأساة أظع من مأساة الموت نفسها. أليس مستكراً أن يحيا إنسان في هذه الدنيا أكثر من سبعين عاماً ثم لا يترك وراءه راثياً! وجدت عند ذاك عطفاً وحزناً وإثناً لعاطفة غريبة لم تخلج له في صدري من قبل، ولعلّها كانت وليدة الارتياح لا الأسى، لأنّه في مثل حالتي قد تجود النفس بالحزن لتداري سرورها، أو لتعبر عن هذا السرور بطريق ملتو، ولعلّها عاطفة صادقة أفصحت عن نفسها بعد أن ذهبت- بموته- العوائق التي كانت تعاقها. مضيت إلى الحليمية، وليّا أقبلت على البيت القديم رأيت نفرّاً من الأسرة يجلسون صفّاً على الكراسي الخيزران، يتوسطهم رجل وقعت عليه عيناوي أول مرّة وعلمت أنّه عمّي بعد ذلك، وكان مدحت يجلس إلى يمينه ويليّه زوج أختي. وسلّمت واجماً مرتبكاً حتى نهض شقيقي ومضى بي إلى الحديقة وقال لي:

- كان يوماً شاقاً مريّاً، ولكن انتهى كلّ شيء... فسألته:

- لماذا لم تستدعني قبل ذلك؟

فتنهّد مدحت وقال:

- كنّا في شغل شاغل، ولولا أنّ راضية ذهبت بنفسها إلى أمنا فجاءتا معاً لما علمتُ حتى الآن بالخبر. ألا تدري ماذا حصل؟ لقد تلقّيت برقية في الصباح الباكر من عمّ ادم يطلب إليّ الحضور تَوْاً لأنّ والدي لم يعد إلى البيت منذ ليلة أمس، فحضرنا جميعاً، وأخبرنا عمّ ادم بأنّ والدنا غادر البيت قبيل غروب الأمس وأنّه

أفضل، حال الصباح أم حال المساء؟! ولم أستطع مقاومة موجة رقيقة من الارتياح والسرور على أن شعوري الديني العميق احتج احتجاجاً صارخاً وبث في حناياي الخوف والقلق فتعذت بالله من الشيطان الرجيم. ورحت أتهرب من إحساس السرور والارتياح الذي يلاحقني، فقلبت متجهماً وأنا لا أدري، ولكن دون جدوى، فسرعان ما هزأ عقلي بهذه المحاولات الصيانية وانطلق يفكر في الثروة المنتظرة. وذكرت ما سبق أن حلمت به من بيع البيت، فساءلت: ترى هل يتحقق الحلم؟ هل أصبح مالكاً لألف من الجنيهات وثبت؟ ولكن هل تلكاً منافسي في اتخاذ الخطوة الحاسمة أم قضي الأمر وليس ثمة أمل! أ تكون الثروة المنتظرة وسيلتي للسعادة المرموقة، أم تكون أداة جديدة من أدوات القدر التي يستعملها في السخرية من المخلوقات الضعيفة! لقد سخر من فقري وعجزتي، وإنه لقادر على أن يسخر من ثرائي وقوتي، ليريني آتياً على الحاليتين مقضي عليّ بالحسرة والتعاسة! وفتر حماسي وخد، وعرائي وجوم وقلق، ودعوت الله في رجاء وإشفاق أن يجعل فتاتي من قسمتي ونصيبتي... وانتهيت من أفكاري على توقّف سير الجنائز أمام الجامع. وأدخل النعش للصلاة عليه، على حين انفصل عنا المعزّون مشكورين. ثم أودع النعش سيارة الموتى، وانطلقت بنا وبه إلى الأمام، وانتهى المطاف...

واجتمعت الأسرة ليلاً في الحجر الكبرية التي قابلت فيها أبي لآخر مرة، فجلست وعمي وشقيقي وزوج أختي في جانب منها وجلست أمي وأختي وزوجنا وعمي وأخي في الجانب الآخر. وكان عمي رجلاً عملياً. وقد ذكرني مظهره بأبي. فتحدثت عن الإجراءات الواجبة لإثبات الوراثة واقترح أن يقدمنا إلى صديق له في وزارة الأوقاف لييسر لنا قبض مرتباتنا الشهرية. وتحدث أخي مدحت فقال إنه يرى أن نبيع البيت ما دام أحدنا لا يرغب في سكناه، ووقع رأيه من نفسي موقفاً حسناً لم أحلم به، فوافقت عليه

وخفقت قلبي خفقة عنيفة، وتلكني خوف شديد، ولكني لم أستطع رفع بصري إليه، ولم أجد مناصاً من التظاهر بالترحيب بفكرته، فأنجّته صوب الفراندا متعزّراً في خوفي وارتباك، وارتقيت السلم مزدرداً ربي فلمحت شقيقتي ولمحتني في وقت واحد، والظاهر أنها أخبرت أمي بحضوري فجاءت على عجل وقابلتني في الفراندا وسألني في قلق عن وجهتي، فقلت:

- أريد أن أرى أبي...

فقال: برجاء وإشفاق.

- هلاً عدلت عن هذا يا كامل؟... إن قلبك أضعف من أن يحتمل مشهد المتقين إلى رحمة الله... وتنهذت في ارتياح، وارتفع عن عاتقي حمل ثقيل. لم يكن ما بي شيء غير الخوف. وهل يستطيع أن يواجه الموت في أبشع حالاته وأفظعها قلب تتولاه الرجفة حيال فار أو خنفساء؟! ورجعت إلى الخارج وجلست بين عمي وأخي صامتاً، وقبل الموعد المحدد لسير الجنائز بنصف ساعة أخذ المشيعون يتوافدون علينا، فجاء بعض الجيران وموظفو إدارة المخازن بالحريية، ولما لم يكن لأبي معارف، لم يكن لعمي أصدقاء في القاهرة، فلم يزد عدد المشيعين على عشرين. وقال عمي متأثراً أنه سيحجي ليلة الماتم في بيته بالقيوم. ثم أذفت اللحظة الأخيرة، وارتفع صوت أختي راضية يمزق الصمت الثقيل فاهتز قلبي تأثراً ودمعت عينا. ولم نلبث أن انتظمتنا الجنائز. وغشيتني بادئ الأمر كآبة ثقيلة استتارها في نفسي منظر النعش، وظلّ الموت، وما عاودني من ذكريات جدّي ووفاته. ثم جعلت الغشاوة تنقش والسكينة تعاودني، واسترقت النظر إلى من يحيطون بي فرأيت وجوهاً هادئة، وأخرى باسمه لسبب أو لآخر، فسُرّي عني وثابت إليّ نفسي. وذكرت بغتة كيف كنت أسير في الصباح صوب الوزارة خالي الذهن ممّا يترصدني من أحداث اليوم، وكيف أسير الآن وراء النعش فعجبت لحياتنا الغريبة، ونخيل إليّ في تلك اللحظة أن الحياة تبرز لسانها في شطارة وتهكم مغرقة في الضحك! ثم ساءلت نفسي عن أيّ الحالين

فِي المَقْت لِأبي، لَكِنْ لَمْ يَخْطُرْ لِي عَلَى بَالٍ أَنْ أَذْكُرَهَا  
بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْعَجِيبَةِ. ثُمَّ عَدْنَا إِلَى بَيْتِنَا دُونَ أَنْ يَنْبَسِ  
أَحَدُنَا بِكَلِمَةٍ...

### ٣٣

لَمْ أَعُدِ الْفَقِيرَ الْمُعْوِزَ الَّذِي كُنْتُ، رَفَعْتُ عَنْ كَاهِلِي  
عِبَاءَ الْحَاجَةِ وَالْحَرَمَانِ، غَدَوْتُ ذَا دَخَلٍ لَا بَأْسَ بِهِ  
غَيْرِ الثَّرْوَةِ الَّتِي سَتَوَافَيْتُ فِي خِلَالِ شَهْرٍ أَوْ شَهْرَيْنِ،  
وَلَكِنْ مَسْتِي جَنُونٌ لَمْ يَكُنْ لِي بِهِ عَهْدٌ، جَنُونٌ مَحَبٍّ لَا  
يُقْعِدُهُ الْفَقْرُ كَانَ لِي مِنَ الْفَقْرِ رَادِعٌ يَحْدُّ مِنْ طُمُوحِي،  
وَيَجْعَلُ مِنْ حَبِّي حَسْرَةً طَوِيلَةً مَنْطُوبَةً فِي ذَاتِ نَفْسِي،  
وَلِذَلِكَ سَلَّمْتُ بِالْهَزِيمَةِ حَيَالَ مَنَافِسِي مُحَمَّدَ جَوْدَتِ دُونَ  
مَكَابِرِهِ، وَانْطَلَقْتُ فِي الطَّرِيقِ أَنْشَجَ كَالْأَطْفَالِ، فَلَمَّا  
قُتِلَ الْفَقْرُ غَدَا الْحُبُّ مَطْمَعًا غَيْرَ مُحَالٍ. فَتَنَاسَيْتِ  
الْعَوَاقِقَ الْآخَرَى، وَرَكِبْتِي جَنُونٌ جَدِيدٌ، جَنُونٌ مَن  
تَبْدُو لَهُ السَّعَادَةُ مُمَكِّنَةً، وَلَا يَجُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا أَنْ  
يَتَغَلَّبَ عَلَى خَجَلِهِ فَيَقْتَحِمَ سَبِيلَهُ وَيَجْرِبَ حَقْلَهُ، لَزِمْتُ  
الْمَحْطَةَ طَوِيلًا فِي عَصْرِ الْيَوْمِ التَّالِيِ لِلْوَفَاةِ، وَجَعَلْتُ  
أَنْطَلِعَ إِلَى النَّافِذَةِ الْمُحِبَّةِ بِرَغْبَةٍ جَنُونِيَّةٍ، مَا عَدْتُ أَرَى  
حَبِيبَتِي، وَمَا أَدْرِي إِنْ كَانَ الَّذِي أَحْشَى قَدْ وَقَعَ، وَلَكِنْ  
كَانَ فُلَانٌ أَجَنِي مِنْ ثُرَوَتِي إِلَّا السَّيِّئَ الزَّعَافِ، وَلَكِنْ  
هَبْهَا لَاحَتْ وَرَاءَ النَّافِذَةِ فَمَا عَسَى أَنْ أَصْنَعَ! هَلْ  
تَوَاتَيْتِي الشَّجَاعَةُ عَلَى أَنْ أُوْمِئَ لَهَا بِطَرَفٍ خَفِيِّ...  
لَشَدَّ مَا يَنْقَبِضُ قَلْبِي خَوْفًا وَجَفْؤًا!... لَسْتُ مِنْ  
ذَلِكَ فِي شَيْءٍ... لَوْ كَانَ بِي ذَرَّةٌ مِنْ شَجَاعَةٍ  
لَاقْتَحَمْتُ بَابَ الْعِمَارَةِ دُونَ تَرَدُّدٍ وَلَا سِتَازَةٍ فِي مُقَابَلَةِ  
الْبَلِّ وَعَرَضْتُ عَلَيْهِ مَا يَجُولُ بِخَاطِرِي. هَلْ يُعَدُّ هَذَا  
مِنَ الْخَطُورَةِ بِحَيْثُ يَسْتَدْعِي كُلُّ هَذَا الْخَوْفِ؟ وَهَبْهُ  
عَلَى أَسْوَأِ فُرْصٍ قَدْ اعْتَذَرَ مِنْ عَدَمِ الْقَبُولِ، فَلَمَّاذَا أَعَدَّ  
هَذَا الرِّفْضَ أَشَدَّ مِنَ الْمَوْتِ وَأَقْتُلَ مِنَ الْقَتْلِ!... لِمَاذَا  
لَا يَكَادُ يَجُولُ بِخَاطِرِي حَتَّى أَنْصَبَّ عِرْقًا وَيَنْتَزِي قَلْبِي  
فِي صَدْرِي! يَا لَهِ!... أَمَا يَتَزَوَّجُ النَّاسُ كُلُّ يَوْمٍ  
بِالْعَشْرَاتِ وَالْمِائَاتِ!... كَيْفَ يَتَلَمَّسُ الْأَزْوَاجَ  
الْوَسَائِلَ وَيَقْتَحِمُونَ السَّبِيلَ! لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ مَبْتَغَايَ إِلَّا  
أَنْ أَطْرُقَ هَذَا الْبَابَ. فإِذَا سَعَادَةُ الْأَمَلِ أَوْ رَاحَةُ

بِحِمَاسٍ نَسِيتُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَلَمْ تَمْنَعْ رَاضِيَةً، وَقَالَ  
عَمِّي:

- إِنَّهُ بَيْتٌ قَدِيمٌ ضَخْمٌ لَا يَغْرِي إِلَّا شَارِبًا مَثْرِيًا،  
يَهْدُهُ وَيَشِيدُ مَكَانَهُ عِمَارَةٌ كَبِيرَةٌ عَلَى طَرَازٍ حَدِيثٍ، عَلَى  
أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَبَاعَ بِأَقْلَ مِنْ أَرْبَعَةِ آلَافٍ جَنْيَةٍ.

أَرْبَعَةُ آلَافٍ، آه لَوْ يَكُونُ مَنَافِسِي تَأَخَّرًا وَكِبَرًا عَلَيَّ  
أَنْ أَتَصَوَّرَ أَنْ يَحْبِبَ اللَّهُ رَجَائِي بَعْدَ أَنْ حَقَّقَ أَحْلَامِي  
عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ الْبَاهِرَةِ، إِنَّ ثَقَاتِي بِاللَّهِ لَا حُدَّ لَهَا وَهُوَ  
الْخَبِيرُ الْمَطْلَعُ. وَلَاحَتْ مِنِّي التَّفَاتَةُ نَحْوَ أُمِّي فَوَجَدْتُهَا  
صَامِتَةً غَارِقَةً فِي أَفْكَارِهَا وَقَدْ ارْتَفَعَ حَاجِبَاهَا الْخَفِيفَانِ  
وَانْفَرَحَتْ شَفَتَاهَا عَنْ أَسْنَانِهَا الصَّغِيرَةِ اللَّامِعَةِ، تَرَى  
فِيمَ تَحْمِلُ! وَمَا حَقِيقَةُ مَشَاعِرِهَا حَيَالَ الْمُتَوَقِّ؟... هَلْ  
أَعَادَهَا هَذَا الْبَيْتَ الْقَدِيمَ إِلَى عَهْدِ حَيَاتِهَا الْمَنْطُوبَةِ!  
وَشَعَرْتُ نَحْوَهَا بِعُطْفٍ وَحَبٍّ، ثُمَّ ذَكَرْتُ الْأَفْكَارَ الَّتِي  
تَمَلَّكْنِي فَدَاخَلْنِي إِحْسَاسٌ بِالْقَلْقِ وَالْخَوْفِ...

وَلَمَّا اقْتَرَبَ اللَّيْلُ مِنْ مُنْتَصَفِهِ اقْتَرَحَ أَخِي أَنْ نَبْنِي  
لَيْلَتَنَا بِالْبَيْتِ، لَكِنْ أُمِّي آثَرَتْ أَنْ نَعُودَ إِلَى بَيْتِنَا عَلَى  
أَنْ نَرْجِعَ مَعَ الصَّبَاحِ، وَبِذَلِكَ غَادَرْنَا الْبَيْتَ الْقَدِيمَ  
وَسَرْنَا جَنِبًا إِلَى جَنْبِ صَوْبِ الْمَحْطَةِ، وَحَدَّثْتَنِي فِي  
الطَّرِيقِ قَائِلَةً:

- أَمَا كَانَ الْأَفْضَلُ أَنْ تُبْقُوا عَلَى الْبَيْتِ.

فَقُلْتُ بَدَهْشَةً:

- وَمَاذَا نَصْنَعُ بِهِ؟. إِنِّي فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى نَصِيبِي

مِنْ ثَمَنِهِ...

فَقَالَتْ:

- حَسْبُكَ رَاتِبُكَ الشَّهْرِيُّ، أَمَّا هَذَا الْقَدْرُ الْكَبِيرُ فَمَا

أَدْرِي وَاللَّهِ مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ!

تَرَى هَلْ اسْتَشْعَرَ قَلْبُهَا خَوْفًا! وَسَاوَرَنِي الْقَلْقُ  
وَالْإِسْتِيَاءُ، وَاسْتَخْلَسْتُ مِنْهَا نَظْرَةً وَلَكِنِّي لَمْ أَتَبَيَّنْ فِي  
الظُّلْمَةِ مَا يَدُو عَلَى وَجْهِهَا، وَوَاصَلْتُ حَدِيثَهَا قَائِلَةً فِي  
لَهْجَةٍ تَنْمُ عَنْ الْإِشْفَاقِ:

- إِنَّاكَ وَأَنْ تَفْرَحَ لِمَوْتِ أَحَدٍ لَا تَذْكُرُ أَبَاكَ مِنَ الْآنَ

فَصَاعِدًا إِلَّا دَعَوْتُ لَهُ بِالرَّحْمَةِ، فَمَا أَحَبُّ لَكَ أَنْ تَسِرَّ

لِمَوْتِ إِنْسَانٍ مِمَّا كَانَ هَذَا الْإِنْسَانُ!

عَجِبْتُ لِهَذَا الْكَلَامِ يَلْقَى عَلَيَّ مِنَ الْقَمِ الَّذِي بَتَّ

عن كل شيء في الوجود إلا هذا المنظر البهيج الذي ارتعدت له جوارحي فرحاً وخوفاً، ورفعت إلى وجهي عينيها عرساً فالتقت عينانا لحظة قصيرة، وبدا لي أنها ترددت قليلاً على عتبة المقصورة، ولكن لم يكن وراءها موضع لقدم فغادرت المقصورة على رغمها، والتمس بصرها فيما ورائي مكاناً تقف فيه ولكن كان تكتل الواقفين متماسكاً، فاضطرت أن تحتل الموضع الذي كنت تشاغله وأسندت ظهرها إلى الباب، ووقفت أمامها مسكاً بمقبض الباب، على مرمى الأنفاس منها، هي هي دون غيرها، جادت بها السماء لتبلى جوانحي من الحقائق ما هو أعجب من الأحلام، وهذه أعجب الحقائق. ماذا بي؟... ترى أهذا سرور أم خوف أم وقدة نار؟ لولا دقة الموقف وشدة حيائي لطاب لي أن أبكي! غبت عن كل شيء، فلم أعد أحسن للناس وجوداً على تكتلهم، وحتي حبيتي نفسها لا أذكر لون فستانها ولا ماذا كان بيدها، يبدو لي أن للقلب بصراً إذا اشتد تفرسه غطى على بصر الأعين فينقلب الإنسان أعمى وهو بصير - ولا أدري كيف وائتني الشجاعة فاسترقت إليها النظر، ورأيتها فخفق قلبي بغير رحمة وهيئ لي أن وجودي هو الباعث على هذا التودد الفاتن وذاك الارتباك المليح، وتنهدت على رغمي فتموجت خصلة من شعرها لوقع أنفاسي، ورفعت إلي عينيها ثم خفضتهما بسرعة فراراً من عيني، آه... عثرت أخيراً على من يفر مني!... وشاعت في رأسي نشوة اللذ من نشوة الخمر وأحمى، وركبني جنون لا عهد لي به فثبتت على وجهها عيني في جسارة خارقة، بل هي بالنسبة إلي جنونية، ثم وثبتت إلى شعوري رغبة عربية أن أنطلق وأن أبوح بما يضغط أنفاسي، وازدردت ريتي في توتر عصبي عنيف، وجعلت أتحفز وأتوئب في قلق وهياج نفسي مروع، وأبدني الجنون الذي يضطرب في روحي، ودفعني ما عانيت في الأيام الماضية من لفة قلق وقنوط ثم تملكني إحساس يشبه إحساس المنتحر إذا تجمع للوثة الأخيرة، وتحركت شفتاي بصوت خرج همساً قائلاً:

- أريد أن أقول لك كلمة...

اليأس، بالأم أتردد وأحجم؟ إنه بيت وليس بحصن، وإني طالب زواج ولست بعدو، فلماذا أخاف كل هذا الخوف! ليست غيبي أن أغزو قارة ولا حتى أن أخوض معركة، ليس المطلوب أن أكون نابليون أو هانيبال، لا يعدو الأمر أن أقدم نفسي، وأن أعرض سؤالي، وأنا محوط بالرعاية التي يتلقاها ضيف من مضيف كريم، ثم ليكن الجواب ما يكون فما يجاوز على أسوأ حال الاعتذار الرقيق... قلت هذا لنفسي في يسر وتأنيب: ولكن ما إن تجسم لي الخيال حتى التهاب مني الجلين واشتدت ضربات قلبي وأحسست رعدة تسري في أطرافي، وحضرتني بغتة ذكرى ساعة الخطابة المشثومة بكآبة الحقوق التي طوحت بي بعيداً عن الجامعة، فتنهدت من الأعماق في قنوط قاتل. إن الإقدام فوق طاقتي، وربما كان يوسعي أن أقضي العمر على هذا «الطوار» باكياً، أما عبور الطريق وطرق الباب فما لا أستطيع، وبلغ مني الهلع أن انقلب القلق الذي يساورني حتى تحرق القلب والرأس، ثم انقضت أيام قلائل عشتها فيها يشبه الهذيان، نسيت الثروة التي وقعت علي، نهد حماسي للحياة والامل، وتركزت تفكيري في شيء واحد لا يتحول عنه، جعلت أدور حوله دون أن أحرز على الدنونه، أو أستطيع الابتعاد عنه، ووجدت على أمي وجداً لم أحاول إخفاءه، فقلت لنفسي في حق بالغ: لو لم أخشها لبعثتها تحطب لي وتكفيني شر الحمى التي تسعر في كياني.

متى تنقشع هذه الغمة؟ لم أكن لأرى لها من نهاية لولا حادث عارض! كنت عائداً من الحلمية، فنزلت في العتبة حين الغروب، وصعدت إلى ترام الجيزة الذاهب عن طريق الروضة كالعادة. وكانت القاطرة مكتظة بالجالسين والوقوف، فرحت أتزحزح حتى أسندت ظهري إلى باب مقصورة الدرجة الأولى. ولما غادر الترام الميدان بقليل سمعت نقرأ على الباب فأدركت أن أحد الراكبين يستأذن لفتحه فابتعدت عنه قليلاً دائراً على عقبي لأفسح للمقادم طريقاً، وفتح الباب عن وجه أعرفه، رأيت أمامي حبيتي دون غيرها! وثب قلبي وثبة عنيفة زلزل لها صدري، وغبت

فحزني الإشفاق من إفلات الفرصة إلى الدنو منها،  
متشجماً بالظلام، ثم قلت بصوت متهدج:

- معذرة... لا تؤاخذيني على تهجمي...

- ماذا تريد؟... وما هذا الذي فعلته أمام الناس؟  
واشتد بي الارتباك، وكنت أسمع صوتها لأول مرة  
فهزّنتي به غثة لطيفة على حدّته وغضبه، وقلت:

- أسألك المغفرة. إنّي أودّ أن أقول لك كلمة من  
زمن طويل ولم تنهني لي الفرصة إلّا اليوم!

وشعرت بصعوبة شديدة في التعبير والكلام، وبأنّ  
إحساساتي الحاضرة يخونها الإفصاح، ووجدت قهراً  
وضيقاً. وزاد من ضيقي أنّها ولّنتي ظهرها بغير اكتراث  
وعبرت الطريق إلى الطوار عجلة، فتبعتها بسرعة  
مندفعاً، وقلت:

- أرجوك... لحظة واحدة، أصغي إليّ، كلمة  
واحدة ثمّ يذهب كلانا إلى حال سبيله...

فقلت دون أن تنظر إليّ أو تكفّ عن السير:

- بأيّ حقّ تكلمني يا هذا؟

فهتفت بدون وعي منّي:

- إنّي أعرفك منذ أكثر من عامين...

فقلت بلهجة تنمّ على الانزعاج:

- ما هذا الافتراء؟!

أيمكن ألا تكون عرفتني؟! يا لي من غيبي!... ألم  
تدعن لإرادتي حتّى نزلنا في هذه المحطة؟! يدلّ هذا  
على أنّها ترغب في سماع كلمتي... إنّ الفرصة  
سانحة ولكنّي أفسدها بالعمي والحصر والارتباك.  
واستجمعت قواي وقلت بصوتي المتهدج المضطرب  
النرات:

- إنّي أتلهّف على قول كلمة منذ أشهر وأشهر...

ماذا يضريك لو أصغيت إليّ؟!

لماذا لم أتكلّم بدل أن أسوق هذه المقدمات؟ اللهم  
إنّي أستعينك على حلّ عقدة لساني وبدا لي أنّ حبيتي  
فطنت لخنجلي المميت. لم أدرك البواعث التي حملتها  
على التوقّف، ولكنّي رأيتها تتحوّل نحوي وترمقني  
بعينيها الجميلتين اللتين أحبّهما أكثر من نور البصر، ثمّ  
تسألني بحدة:

ربّاه... ترى هل بلغ سمعها؟... أجل،...

رمقتني بعين دهشة وقد تورّد وجهها ورمشت عيناها!

وسرّ وقت قاسٍ غليظ. جنّ حلقي وتوالى

ضربات قلبي في سرعة عنف، آية هاوية أوردني

جنوني؟ لقد هوى المتجر وجاء دور الاستغاثة. مع

ذلك داخلني ارتياح عميق لأنّي زحزحت أضخم سدّ

اعترض حياتي. تكلمت، نطق الحجر ولو بعد حين،

لن أموت على آية حال وسرّي دفين صدري. ولكنّ

الترام لا يمهلي طويلاً، وإنّهُ وشيك الوصول إلى محطة

حبيتي، وها هي ترمي بنظرها خلل النافذة، وها هي

بدها تلمّس مقبض الباب لفتحه، سيّنتهي كلّ شيء!

وركبي الجنون تارة أخرى فشددت على مقبض الباب

أمنع فتحه! من أين لي بهذه الجراءة؟! وبدا في الوجه

الجميل الاستياء، ورمقتني غاضبة، فهمست برجاء

كأنّه البكاء:

- كلمة واحدة...

وتوقّعت لحظات قاسية أن تنقُص الصاعقة على

رأسي! أن تزجرني أو تنهري فتستثير غضب

الحاضرين... ثمّ عليّ السلام! ما بي قوّة لاحتال مثل

هذا الموقف، ولئن وقع لأموتنّ حيث أنا! ووقف الترام

ويدي قابضة على الباب، ثمّ تحرك ثانية وهي بمكانها

مقطّبة مستاءة ولكن دون أن تبدي اعتراضاً جدياً أو

ثورة علنية! وسرت في جسدي رعدة السرور والظفر

والجنون وخيل إليّ أنّي أتحوّل إلى عملاق جبّار يجرّ له

الموت نفسه صريعاً بضربة واحدة. وانتظرت حتّى

ابتعد الترام محطّتين ثمّ فتحت الباب وأنا أهمس

«تفضّلي» فدارت على عقبيها بحركة عصبية وسارت

تشقّ لها طريقاً وسط الزحام وأنا أتبعها، واعترض

نشوتي خاطر، ألا يكون استسلامها حياءً وارتباكاً

وتفادياً من الفضيحة؟! ألا يُحتمل أن تكون قد كظمت

غضبها حتّى تصبّه عليّ في الطريق بعيداً عن أعين

النظارة؟ وأوشكت قواي أن تخذلني، وغادرت الترام

وراءها وأنا قلق مضطرب، كانت الظلمة غاشية

والطريق كالمقفر إلّا من سيّارات تذهب وتجيء،

وابتعدت عني بسرعة وهمّت بعبور الطريق إلى الطوار،

- إني أدرك هذا، بيد أنني خفت أن يكون أحد قد سبقني...

فقلت بصوت لا يكاد يُسمع:

- هب هذا حصل...

فهتفت في إشفاق وحسرة:

- أأفلت الفرصة من يدي؟!

فنفتخت قائلة:

- لا تتبعني إلى أكثر من هذا لأني أقترّب من البيت...

فسألته وقلبي يفزع بكلّ قواه إلى التملّص من قبضة اليأس:

- أليس ثمة رجاء؟

فقلت وهي تحثّ خطاها:

- لست أنا الذي أحاطب في هذا الشأن..

وتوقفت عن السير، ولبثت هنيهة جامدًا ذاهلاً. ثمّ صحتُ وأنا أفرع بأصابعي: يا لي من غيبي! لو أنّها أرادت الرفض لما أعوزها الجواب القاطع! ألم تدعن لي في الترام؟ ألم تصغريّ مني منذ دقائق؟ ألم تقل لي إنّها ليست هي التي تحاطب في هذا الشأن؟ فقيم أطمع وراء ذلك؟ إنّها دعوة متوارية لطيفة. وشاع في نفسي سرور كالخمر، وخيل إليّ أنني أترنّج كالثلّمل...

### ٣٤

وعدت إلى البيت وذكريات الساعة الماضية تسجّع في قلبي أعذب الألحان. تملّكني شعور بالقوّة لا حدّ له، وازدهاني الغرور والزهو، وحييت في الدقيقة الواحدة دهرًا طويلًا من السعادة الصافية. وقلت وأنا أرتقي السّلم: «سأفانح أمّي بالأمر كلّ». قلته بلا خوف ولا تردّد، ربّما بلا رحمة أيضًا، وطرقت الباب، ففتحت لي بنفسها وهي تتمتم مبتسمة كعادتها:

- أهلاً بنور العين...

وجدتها على الأناقة التي أحبّ أن تلقاني بها، وتفرّست في وجهها الوديع الوقور المشرق بابتسامة الترحيب، فبدت لي خطورة ما أنا مقدم عليه،

- ماذا تريد؟

ماذا أريد؟ لم يتيسّر لي القول بعد؟ ها هي تنتظر الكلمة التي أتعبّتها في استئذان قولها، ألم أكن أعددتها؟ وجدت رأسي فراغًا وكأني فقدت النطق. ماذا ينبغي أن يقال؟ وازدردت ريفي الجافّ في شبه قنوط، ثمّ بدا منها ما يدلّ على نفاد الصبر، والتحفّز للسير، فخرجت عن صمتي هاتفاً:

- صبرًا، أرجوك،... أنا أريد أن أقول... إني راغب في... (وقفت عبارة «طلب يدك» في زوري)... إنّك تفهمين بلا شكّ، اليس كذلك؟! فهل يمكن هذا؟!

فتأفّفت وقالت:

- لا بدّ أن أعود إلى البيت فلا تتبعني من فضلك...

وتولّاني الهلع فقلت مندفعًا بلا تردّد هذه المرّة:

- إني أفكر... أعني أنّي أرغب في طلب يدك إذا سمحت لي...

وتنهّدت بصوت مسموع، وغمرني ارتياح واستسلام، تكلمت أخيرًا ونفّست عن صدري وليكن ما يكون...

ومضت ثانية من الصمت العميق مثل الهدوء الذي يعقب عاصفة هوجاء، ثمّ أخذت تسير في خطوات قصيرة دون أن تنبس فعاودني الجزع وتبعته وأنا أقول كمن يستجدي الجواب:

- هذه كلمتي...

فقلت بصوت منخفض خيل إليّ أنّه بلغ أذنيّ هادئًا لا أثر فيه لحدة أو غضب:

- لا يليق بك أن تتبعني هكذا.

فقلت بعجلة ولهجة:

- إني استأذنتك فلا تركبني بغير جواب...

فقلت بضيق:

- لست أنا الذي أحاطب في هذا الشأن!

فخفق قلبي بعنف وفاض به سرور لا يوصف وقلت:

- ما أسعدني بذلك! هذه هي السعادة حقًا. ترى هل جاءتك هذه النية اليوم؟ الآن؟ لماذا لم تخبرني قبل اليوم؟! مبارك، مبارك، يا بني.  
وأزعجني تهجّج صوتها، واضطراب نبراتهما، وانفعالها الظاهر، فقلت:  
- إني أستاذك لأنّي أحبّ دائمًا أن تكوني راضية عني.

فهتفت في لهوجة:  
- وهل تتصوّر أن أبخل عليك ساعة واحدة برضاي؟ يا الله، أبعد هذا الحبّ كلّهُ أجري عنه بالتشكّك في إخلاصي؟... ستجدي راضية عنك ولو قتلتني، أنسى أنّ حياتي كلّها لك؟  
فازددت ريفي وقلت وأنا أحتلس منها نظرة قلق:  
- إني أعلم هذا وأكثر يا أمّاه  
فلاح في وجهها وجوم شديد وبدا عليها أنّها تحاول عبثًا أن تضبط عواطفها:

- هذا ما يعلمه القاضي والداني وآية أم لا تفرح لزواج ابنها ولو كانت وحيدة ليس لها سواه! هذه حكمة الحياة، أن احتضنك العمر كلّهُ ثمّ أسلمك شابًا رائعا لعروسك، إني أبكي من الفرح.  
اغرورقت عينها وهي تتكلّم، ونظرت إليّ خلال دموعها وكأنّها ارتاعت لوجومي، فقالت معذرة:

- معذرة يا كامل، ليست هذه بدموع... إنّها دموع الفرح، بيد أنّك فجأتني مفاجأة، ولم تتلفّف في إخباري، ولكن لا داعي للتلفّف، ألا ترى أنّي أعتذر بما هو أقبح من الذنب؟ ليغفر لي ذنبي حتّي الكبير وحسن نيّتي وقلبي الذي وهبتك إيّاه وإن لم تعد بك حاجة إليه... وإنّك لتعلم بأنّي إذا انفعلت أقلت زمام لساني من يدي. إني أهتلك بمن احترت لنفسك، ولكن هل نبتت هذه الرغبة الآن فحسب؟ إني لا أطيق أن أتصوّر أنّك رغبت في الزواج من قبل ولم تسعفك الوسيلة. أكنت ترغب في الزواج من زمن طويل؟

فقلت وأنا أداري بابتسامة ميتة:  
- كلًّا يا أمّاه ما فكّرت في ذلك إلّا من زمن قصير حين بدا لي أنّي كبرت...

واعتراني وجوم وخوف، وقلت لها في تردّد غابت عنها أسبابه وبواعثه:  
- لننتقل عمّا قريب إلى مسكن لائق، لأعيدنّ إليك خدمك وحشمك!  
فابتسمت وقالت:  
- هذه أسعد أيام حياتي لأنّي أقوم فيها على خدمتك.

وخلعت ملابسي، وعدت إلى الصالة فجلسنا على كنبه متجاورين وأنا أقول بقلبي: «اللهمّ عونك ورحمتك». واستحوذ عليّ القلق والحياء، إنّها مهمّة شاقة، محزنة، ولكن ما منها بدّ. واسترقت إليها نظرة فوجدتها آمنة مطمئنة، غافلة عمّا أضمره لها، فوخزني الندم، وكادت تتخلّى عني قوّة التصميم. بيد أنّي أشفقت من عواقب التردّد والاستسلام لدواعي الخور، فرميت بنفسي في الهاوية قائلاً:  
- أمّاه أريد أن أحدثك بأمر هام...

ورمقتني بنظرة غريبة، خلتها مريبة متوجّسة، حتّي حسبتها قد كشفت حقيقة الأمر كلّهُ بقوّة إلهام خارقة... أتمت نبرات صوتي على ما يدور بنفسي؟! أم فضحتني نظرة عيني؟! أم لم يكن هناك شيء ممّا حسبت وشبّه لي الوهم ما لا حقيقة له؟! أمّا هي فقالت بهدوء وتساؤل:  
- خير إن شاء الله...

وصمّمت أن أجوز منطقة الخطر دفعة واحدة فقلت مستشعرًا خوفًا لا مرأى فيه:

- سأتوكّل على الله وأتزوّج...  
رئت كلمة «أتزوّج» في أذنيّ ربيّنا غريبًا، أنكرته، وأخجلني كأنّما تفوّتت بلفظة جارحة معيبة! رفعت هي عينها إليّ في دهشة، واتّسعت حدقتها، ولاح فيهما ذهول وغباء كأنّهما لم تفهم شيئًا، ثمّ تساءلت:  
- تتزوّج؟!

وكنت قد تخطّيت أكبر عقبة فأمكنني أن أقول:  
- أجل... هذا ما انتويته.  
ونذت عنها ضحكة متقلّعة بالاضطراب والارتباك أشبه، وقالت بصوت منهجّج:

فندت عنها ضحكة هسترة، وصاحت:

- اسمعوا يا هوه، كامل يبدو أنه كبر! وأنا؟! لا بد  
أني عشت أكثر مما ينبغي!  
فتأوهت قائلاً:  
- أمّاه، إنك تحزينيني.

- لا عاش من يحزنك. الأم التي تحزن وليدها لا  
تستاهل نعمة الحياة... ولكنك تقول على نفسك  
بالباطل وتزعم أنك كبرت. يا لك من طفل  
مكابر!... لكأني أراك تحبو، وأنت تركب منكبي،  
ثم وأنت تختال في بزة الضابط وضفيرتك تنهدل على  
كتفك، فكيف تدعي الكبر؟!  
فقلت مفتتاً:

- أأست على عتبة الثامنة والعشرين!

- أصغر أبنائي على عتبة الثامنة والعشرين! يا لي  
من امرأة عجوز! لكن مشيتك. ومهما يكن من  
عمرك فستكون أصغر الأزواج، وسأفرح بك فرحاً  
ليس وراءه مذهب لفرحان. ولكن ما مالك واجماً...  
أساءك كلامي؟ يعلم الله أنني لا أحسن الكلام، ولكن  
الموت أحب إلي من الإساءة إليك...  
فقلت بقلب ثقيل:

- ساعك الله يا أمّاه...

فابتسمت: أي والله ابتسمت وقالت مصطنعة  
المرح:

- لنذع هذا جانباً، ولنقدّم الأهم على المهم. أصغ  
إلي يا كامل، تزوج بالهناء والسرور، وسأخطب لك  
إذا أمرتي.

فترددت لحظة ثم تمكّني الضيق فقلت:

- ليس ثمة اختيار، فقد وقع اختياري.

فمرت إليّ بدهشة، ولذت بالصمت ملياً، ثم  
تساءلت:

- متى تمّ ذلك؟

- منذ زمن يسير...

فلاحت في عينيها نظرة لوم وعتاب كأنما عزّ عليها  
أن أكتمها هذا الأمر الخطير، ثم خفضت عينيها في

استسلام، وسألت بصوت هادئ، بل هادئ جداً:

- من؟

- لا أدري بالضبط، الراجح أنها مدرّسة، وهي  
تقطن العمارة البرتقاليّة أمام القصر العيني.  
فعاودتها الدهشة، وتساءلت:

- ألم تحدّث بأمرها أحدًا؟

- مطلقاً!

فتفكرت ملياً ثم واصلت حديثها:

- أليس من المحتمل أن تكون مخطوبة، «وهنا خفق  
قلبي بعنف»... ثم ألا تدري عن أهلها شيئاً!...  
من أوهها؟  
- لا أدري...

- ألم أقل لك إنك طفل... الزواج أخطر ممّا  
تظنّ. لعل وجهها أعجبك، وهذا شيء لا وزن له.  
المهم أن تعلم آية فتاة هي وأني قوم أهلها، وما  
مكانتها، وما أخلاقهم. الشاب في الواقع يتزوج من  
أسرة لا من فرد، وينبغي أن يطمئنّ قبل أن يخطو  
الخطوة الأخيرة إلى من ستغدو أمّاً لأبنائه ومن يكونون  
أخوالاً لهم.

وتولّاني الارتباك، وأحسست بحرق لأول مرة فقلت  
بيقين.

- أسرتها كريمة... لا يداخلني في هذا شكّ.

- ومن أدراك؟

فقلت بلهجة من لا يحتمل في ذلك جدلاً:

- إنني واثق.

فبدأ في وجهها الاستياء وقالت:

- مدرّسة! إن بنات الأسر الطيّبة لا يشغلن  
مدرّسات! والمدرّسة إمّا أن تكون عادة دميمة أو  
مستهترّة مسترجلة.

فوخزني ألم في صميم الفؤاد وهتفت بحدة:

- يا لها من آراء فاسدة!... أنت لا تدري شيئاً  
عن الدنيا التي نعيش فيها، لقد تغيّر كلّ شيء، ولا  
شكّ أنّها فتاة كاملة ومن أسرة عالية!

وغلّبها الانفعال على هدوئها المصطنع فقالت  
بنرفزة:



مرة أجمع الرأي فيها على قرار حتى أجد همسه يفت في عضدي ويتغص صفوي... بيد أن سعادتي هذه المرة كانت أجل من أن يؤثر فيها مؤثر.

## ٣٥

وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى المحطة وبني أمل جديد مسكر. وكأنها كانت تنتظري، رأيته وراء زجاج النافذة معصوبة الرأس بمنديل أبيض. واستخفني الفرح فابتسم مني الفم والعينان والقلب، وتسامت إليهما عينا في شجاعة غير معهودة. وما كان أشد سروري وسعادتي حين رأيت الوجه الصبيح يجمود بابتسامة. انتهى عهد التعاسة والحرمان، وانقضت ظلمة النفس، ولاحت طلعة حبيبي بعد اختفاء طويل معذب، وصرنا أصدقاء نتبادل الابتسام! يا لها من حقيقة لا تصدق! حتى هذا الصباح كنت أخاف أن يكون لكلام الأمس معنى غير الذي فهمته. أما بعد هذا الانتظار المثير وهذه الابتسامة المشرقة فاستطيع أن أستسلم لنداء السعادة في صفاء لا يشوبه شك. ذهبت إلى الوزارة كالثلج. ما أغربك يا دنيا! إن من يتعسه الحظ برؤية تجهل لا يتصور أنك تجودين بمثل هذه الابتسامة. وتعلمت الحقيقة التي لا تصدق، ابتسامة حبيبي، فقلت لنفسي إن معنى هذا أن أبواب السماء مفتحة تسح على قلبي هناك، ولكن لا يجوز أن أجد أو أن أصمت بعد اليوم، وفزت بابتسامة أخرى عند الأصيل، وثالثة في صباح اليوم التالي، وشعرت بأنه ينبغي أن أقطع الجمود بالعمل الحاسم. وجاء صباح الجمعة بعد ذلك اليوم، فغادرت البيت في معطفي الأسود بايدي الأناقة، تمثلتًا تصميمًا وعزمًا. ووجدت حبيبي في الشرفة تتشمس. فتبادلتنا تحية الابتسام ثم ألقيت على ما حولي نظرة حذرة. وأومات إليها أن تنزل لمقابلتي، يا لها من جراءة! من كان يصدق هذا؟ وثبت نظري عليها في إشفاق وخوف، ورنيت إلي بهدوء، ثم جرت على شفيتها ابتسامة لطيفة وتراجعت إلى الداخل، هل تجيء لمقابلتي؟... رباه لقد قضيت ليلة الأمس كلها في عمل «البروفات» لهذه

- لا داعي لإهانتي من أجل فتاة مدرّسة لا تعرف عنها شيئًا! وما قصدي إلا إرشادك لما فيه خيرك... استند بي الحنق، ولو أنني استسلمت له لتفوّعت بما أندم عليه، ولكنني ضبظت نفسي وقلت برجاء: معاذ الله أن أقصد إهانتك، فأرحو أن تمسكي عن كلام يسوّني... فدارت انفعالها بابتسامة، واستعادت هدوءها مرة أخرى، وقالت بتسليم:

- إن ما يسوؤك يسوؤني، وما يسعدك يسعدني، ونصيحتي إليك إذا شئت أن تتقبلها أن تعرف لرجلك قبل الخطر موضعها، وفقك الله لما فيه الخير والسعادة. فضغطت على يدها برقة، وقلت بصوت ملؤه التردد:

- إن رضاك عني بالدنيا وما فيها... فابتسمت قائلة:

- سيدعو لك قلبي آناء الليل وأطراف النهار... وساد الصمت مليًا حتى حسبت الأمر انتهى عند هذا الحد، ولكنها بدت مهتمة متفكرة كأن خاطرًا يلح عليها أن تفصح عنه، وخالستني نظرة قلقة أكثر من مرة، ثم خرجت عن الصمت والتردد بأن قالت في حذر وإشفاق:

- ألا يحسن بك أن تؤجل الشروع في الخطبة حتى يحول الحول على موت أبيك؟ إن أخوف ما أخافه أن يقال عنك إنك خطبت ولمّا ينته الحداد على أبيك كأنك كنت ترصد موته على لهفة؟!

ولم أكد أصدق أذن!... وبدا لي قولها نوعًا من المكر المكشوف لا أحبه ولا أطيقه، وعادوني الحنق والغيط، وكدت أنفجر غاضبًا، ولكنني استمسكت بالصمت حتى ولّت العاصفة، ثم قلت:

- لن يتم الزواج على أية حال قبل مضي عام... وانتهى الحديث عند ذلك كما تمّنت، وشعرت بأنّي تخفّلت أكبر عقبة في سبيلي. وكان ينبغي أن أكون سعيدًا، وقد كنت سعيدًا بلا شك، ولكن شاب سعادتي إحساس بالقلق طالما عذبني في حياتي. إنه لا يفتأ يطاردي حتى في أحفل ساعاتي بالسرور، وما من

المقابلة المأمولة. ولاحت الشقيقة الصغرى في الشرفة، ثم تبعتهما الأم بعد قليل، وجعلتا تنظران نحوي، هل تعلمان؟ هذا ما أتمناه حتى آمن خطر محمد جودت. وبدت حبيتي وراء النافذة وهي ترتدي معطفها، فحقق فؤادي خفقة عنيقة، وانتظرتُ كمن في حلم. ومن عجب أن إحساسي بالسعادة تغير فجأة، فتر، كأنه صوت جميل اعترضته سعة، وساورني قلق لم أدر سببه، وحيرة مؤلمة كأنني أحاول أن أتذكر أمراً هاماً يضمن به النسيان، ثم شعرت بخطورة الخطوة التي أرفع رجلي لأخطوها، فاستحوذ عليّ التردد والخوف، ونازعتني نفسي إلى الهروب! بيد أنها كانت لحظة عابرة، ولت عني بسرعة، فاستعدت الثقة والسرور، وتنهدت في ارتياح عميق، ورحت أقطع الطوار مجبوراً سعيداً في انتظار حبيبة القلب المشوق... ثم رأيتهما تبرز من باب العمارة في معطف سنجابي فارعة أنيقة مليحة، وجاءت المحطة تحظر في خطواتها الوقور ووقفت بعيداً عني. وكانت الأم في الشرفة كأنها تبارك اللقاء وتضفي عليه شرفاً، فشعرتُ - إلى سعادي - بالمسؤولية. وجاء الترام الذي سيقُلنا، فنظرت إليه بامتنان ودعوت له بالسلامة ولسائقه بالسعادة وزيادة الأجور! وصعدنا معاً، ورأيتها تنج على غير عاداتها إلى مقصورة الدرجة الأولى فتبعتهما على الأثر، ولم يكن بالمقصورة إلا رجل وامرأة، فجلست فتاتي موزدة الوجه من الحياء، ولعلها انتظرت أن أجلس إلى جانبها، وأن أسلم عليها، ولكن خاتنتي الشجاعة فجلست على المقعد المقابل في ارتباك وحياء وسخط على نفسي. وسار الترام يطوي الطريق، وأنا أخالسهما النظر في صمت وصبر، حتى عبر الترام جسر عباس. فهضمت قائمة وغادرت المقصورة وأنا في أثرها، ونزلنا في المحطة التالية. وسارت صوب شارع يمتد وشاطئ النيل، فتبعتهما، وتداينت منها بقلب خافق، متعزراً في خجل قهّار وقلت بصوت لا يكاد يسمع:

- صباح الخير...

فابتسمت دون أن تلتفت إليّ وغمغمت في مثل حياتي:

- صباح الخير...

وغمرني ردّ التحية بسرور، فسرنا جنباً إلى جنب وأنا أقول في نفسي بحرارة: «يا سيّدة يا أم هاشم نظرة!» كنت خائفاً حقاً شديد الارتباك والخجل. وحاولت أن أتذكر «بروفات» أمس، ولكنّ الاضطراب غلبني على أمري فوجدت رأسي خاوياً ولساني منعقداً، وقطعنا مسافة غير يسيرة دون أن أنبس بكلمة. كيف أبدأ الحديث؟ ما عسى أن أقول؟ وتولّاني ضيق شديد لأنّي أدركت بطبيعة الحال أنه ينبغي أن أتكلّم، وأنه لا يليق بي أن أصمت هكذا، ومع ذلك فلم يفتح الله عليّ بكلمة واحدة، وبدأ كأنّ الكلام وظيفة لم أمارسها قط. وكأنّها أدركت سرّ ارتبائي، فنظرت إليّ وعلى شفيتها ابتسامة رقيقة، فابتسمتُ في حياء شديد، ولم أجد ما أقوله إلا أن أعيد التحية قائلاً:

- صباح الخير.

فازدادت ابتسامتها اتساعاً وقالت:

- صباح الخير.

ربّاه! أأفلس معجمي، وعُدّت إلى العذاب مرّة أخرى؟ إنّي أشعر كأنّ يدين حديديتين تشدان على عنقي. ولن أتحمّل هذا الموقف المزري أكثر من هذا. وتملّكني اليأس فغلب في نفسي الخجل واستغثت بها قائلاً:

- أعذريني! لا أدري ماذا أقول... هذه أوّل مرّة أناخاطب فتاة...

ولم تتألك نفسها فنذت عنها ضحكة قصيرة، ولعلها تشجعت بحيائي نفسه، فتغلّبت على حيائها، وقالت في دعابة:

- بل هذه ثاني مرّة إن صدقت...

آه! إنّها تشير إلى مطاردي لها منذ ثلاثة أيّام! وذكرتها بدهشة، كأنني لم أكن بطلها الجريء. مهسا يكن من أمر فقد شجعتني دعابتها وخففت عني الارتباك والحياء، وأمكنني أن أقول:

- لا تسيئي بي الظنّ. فوالله لو أسعفني لساني لما وسعتني الدنيا كلاماً...

وضحكت وهي تصعد في نظرها وتصوب ثم قالت:

- ألا ترى أننا لم نتعارف بعد؟

أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال. ليت الحديث يكون أسئلة من ناحيتها وأجوبة من ناحيتي! وقلت بارتياح:

- كامل رؤية لاظ بوزارة الحربية.

وثبتت لو كان في الإمكان أن أخبرها بإيرادي الشهري وثروتي المنتظرة، أما هي فقالت:

- رباب جبر مدرسة بروضة الأطفال بالعباسية.

وأعجبني الاسم، فأحببته كما أحب صاحبته، وغمغمت كأنما لأستعيد وقعه في أذني:

- رباب...!

ووجدت أنسا وشجاعة فقلت ببساطة:

- تصوّري!... إنّي أداوم على اختلاس النظرات من وجهك من عامين وحتى اسمك لا أعرفه!

فلاحت الدهشة في وجهها الجميل وقالت:

- عامين!

فسرتني دهشتها وقلت بحجاسة:

- أجل من قرابة عامين، ألم تظني إلى هذا؟!

فقلت ضاحكة وأنا أجمع انتباهي في أذني لأتملّ الصوت الذي شاقني استماعه طويلاً:

- منذ أشهر فقط! ما أجل صبرك!

هذه وخزة بلا ريب! كأنها تقول لي: وما الذي أسكتك حتى أوشكت الفرصة أن تفلت من بين يديك! وانتهزت الفرصة لأصرّح بما وددت لو كنت صرّحت به، فقلت وقد أصبح الكلام ممكناً:

- قبل منعتني ظروف قاسية، لم يكن بوسعي أن أتقدّم وأنا غير كفاء لك، ثم تغيّرت الظروف وتحسّنت الحالة فلم أتردد عن اعتراض سبيلك في الترام في جنون أخرجنني عن وعيي، فالحق أنّي لم أنتظر وأنا قادر إلّا أياماً معدودات وإن كنت... (كدت أقول: «وإن كنت أحببتك منذ عامين» ولكنّي عجزت)... وإن كان ما تعلمين منذ عامين.

ونظرت فيها أمامها مبتسمة ابتسامة خفيفة وقالت:

- ماذا أعلم ترى!

فلذت بالصمت لحظات أستجمع قواي، وقلت:

- ما تعلمين من أنّي...

ورسّمت شفّطاي «أحبك» دون أن تنطقا بها، ولكنّها رأت وفهمت بلا أدنى شك. وخفضت بصري حياءً، ودقّ قلبي بعنف. وانتزعتني من الوجود غيبوبة عابرة غيّبتني عمّا حولي. واسترقت إليها النظر فالفيتها صامتة رزينة مورّدة الوجه. هذه لحظة مقدّسة. أجل إنّ الزمن لينوء بما يحمل من جلائل اللحظات التي مرّت بالإنسانية في تاريخها، ولكنّ هذه اللحظة من أجلّ ما عرف الزمن رغم هذا كله. ولن ينقص منها أنّها معادة وأنها تحدث كلّ يوم آلاف المرات في بقاع الأرض الواسعة، فهي الشيء الوحيد المعاد الذي لا يُملّ، وما ينبغي أن يُملّ وهو يتضمّن سرّ الوجود الأعظم، ألا وهو الحب. لم يكن بوسعي أن أضّمها إلى صدري - لا لمرور قافلة جمال تحمل برتقالاً - ولكنّ لأنّه لم يكن بوسعي أن المسها على الإطلاق، وقطعنا شوطاً صامتين، وحال حيائي دون مواصلة الحديث في هذه النقطة بالذات، وعادت التفكير في المسألة من وجوها الأخرى فقلت مبسّطاً:

- وماذا تمّ من أمر محمّد جودت؟

وحدجتني بدهشة عظيمة، وسألتني:

- من أدراك به؟

فقصصت عليها نبأ المصابلة التي تمّت بين محمّد جودت وبينني وهي تصغي إليّ باهتمام شديد، ثمّ قالت:

- إنّه رجل فاضل محترم، وموظّف كبير، وقد رحّب به أبي، أمّا أمي فقابلت عرضه بفتور لأنّه يكبرني كثيراً، ولأنّه سبق أن تزوّج وله بنت في الخامسة عشرة. وقد حادثت أمي عن لقائنا في الطريق منذ ثلاثة أيّام... فاشترطت أن يعرفوا عنك كلّ شيء قبل أن تعلن عن رأيها.

وخفق قلبي في مزيج من سرور وقلق، وسألته وإن لم أكن في حاجة إلى السؤال:

- وهل تعلم بمقابلتنا هذه؟

- أُرشدني الآن إلى ما ينبغي فعله .  
 فسألتني في دهشة قائلة :  
 - ماذا تعني ؟  
 فقلت بحيرة :  
 - ينبغي أن أتقدم لطلب يدك .  
 فنظرت فيا أمامها بحيرة ولم تنبس . وكنت في حيرة  
 من أمري فسألتها :  
 - كيف . . . كيف يخطف الناس عادة ؟  
 فنذت عنها ضحكة رقيقة ، وقالت برقة :  
 - بوساطة السيدات أو بالاتصال الشخصي ، ألم تدر  
 شيئاً عن هذا ؟  
 وذكرني قولها «وساطة السيدات» بأني فأنقبض  
 قلبي فيما يشبه الذعر . ثم تساءلت ترى هل أستطيع  
 أن أقوم بما يتطلبه الاتصال الشخصي من لباقة  
 وشجاعة ؟ وذكرت عند ذاك أنني لا أعرف شيئاً عن  
 أبيها فسألتها :  
 - هلّا تكرمت وأخبرتني عن والدك !  
 فحدجتي بنظرة ملؤها الشك وغمغمت :  
 - ألا تعرف عنه شيئاً ؟  
 فقلت ببساطة وصدق :  
 - كلاً وأسفاه . . .  
 وأدركت أنها كانت تظنني نشطت لمعرفة ما ينبغي  
 معرفته عن الأسرة التي أطمح للاندماج فيها ؟ وعجبت  
 كيف أنني لم أحرك ساكناً طوال عهد حبي قانعاً بالنظر  
 واللهفة واليأس . وقالت رباب بلهجة لا تخلو من  
 زهو :  
 - جبر بك السيد مفتش ريّ بالأشغال . . .  
 فقلت بإجلال :  
 - تشرّفت .  
 واستشعرت ثقل التبعة الملقاة على عاتقي ، ولكّني لم  
 أجد بداً من أن أقول :  
 - سأقابله بنفسي ، متى يحسن أن أقابله ؟  
 - في بحر الأسبوع القادم لأنه سيسافر بعد ذلك في  
 رحلة تفتيشية كمادته ، وهو لا يكاد يغادر البيت عقب  
 عودته من الوزارة . . .

فابتسمت ولم تحر جواباً ، وذكرت «وظيفتي» بعدم  
 ارتياح وخجل ، ولكن لم يخطر لي على بال أن أكذب أو  
 أبذل من الواقع فقلت :  
 - إنّي كما قلت لك موظف بالحربيّة ، ولكن لي دخلاً  
 ستة عشر جنيهاً من أوقاف ، وأملك إلى ذلك قدرًا من  
 المال يجاوز الألف الجنيه ، وليس في سيرتي ما يشين ،  
 وسترين إذا ما تحرّوا عني أنّي التزمت الصدق حقًا . . .  
 فابتسمت قائلة في إخلاص :  
 - لا شك في هذا مطلقًا .  
 ورنوت إليها بامتنان عميق ، وذكرت في تلك  
 اللحظة آلامي وما عانيت من تشوّق إليها وحسرة  
 عليها فهزّني سرور يحلّ عن الوصف . بيد أنني  
 تساءلت في خوف : ترى هل أروق في عيني الأم ؟ . . .  
 ألا تستصغر وظيفتي ، أو لا تجدني أهلاً لهذه الأستاذة  
 المحبوبة ؟ . . . وانقبض قلبي ذعرًا ، وحدّثني نفسي  
 بأن أفتحها فيما يكدر صفوي ، ولكنّ عقلي الحياء . ثم  
 خطر لي خاطر جديد فسألتها على الفور :  
 - هل تواصلين العمل في وظيفتك إذا تمّ الأمر كما  
 أرجو ؟  
 - ولم لا ؟ إنّي أحبّ عملي حبًّا جمًّا ، وكثيرات من  
 زميلاتي . . .  
 وأدركت ما كانت على وشك قوله فحقق قلبي  
 بغبطة ونظرت إليها نظرة حيّة ملؤها الحبّ والأمل ،  
 ثم قلت برضا :  
 - هذا حسن . . .  
 ساد الصمت قليلاً فعلا وقع أقدامنا على أرض  
 الطريق المفروشة بأشعة الشمس ، ولاحت منّي التفاتة  
 إلى النيل فرأيت صفحته السماء تترقرق تحت لؤلؤ  
 النور المنثور ، وأخذت أتصفّح وجوه المازة القلائل  
 الذين يمزّون بنا في حياء وارتباك . وقد لطفّت الشمس  
 من برودة الجوّ وبثّت في حنايانا نشاطًا وجورًا فشعرت  
 بطيب الحياة كما لم أشعر به من قبل ، وامتلاّت امتنانًا  
 حتّى وددت لو ألثم الثرى شكرًا . بيد أنني لم أنس ما  
 يشغلني من خطير الأمور ، أو ما يبدو لي من خطيرها ،  
 فلذلك سألتها :

بسطة لأمالك أنفاسي. حتى طالعتني باب الشقة المغلق  
فخارت قواي، ووسوست لي نفسي أن أعود، أن أفرّ  
بنفسي، أن أوّجّل الزيارة الخطيرة ليوم آخر. ولكنّي  
نفيت عني فكرة التأجيل بغضب، وبدا لي أن أنزل  
وأن أخفّف عن توتر أعصابي بالمشي ومعاودة ترتيب  
أفكاري. وهممت بالتراجع، ولكنّي تساءلت في  
اللحظة التالية ألا يرتاب البوّاب في أمري إذا رأي  
نازلًا بعد دقيقة من مخاطبته ثمّ رأي بعد دقائق عائداً  
إلى العمارة؟... وعدلت عن فكرة النزول، ووقفت  
مع ذلك ساكنًا لا أبدي حراكًا. وحمد بصري على  
الباب حتى خلت ثقبه عينًا تحدّق في وجهي بسخريّة.  
وانتقلت عينايا إلى زرّ الجرس وثبتت عليه بخوف  
وهلع. ما عسى أن يحدث لي لو فتّح الباب فجأة عن  
وجه من الوجوه التي أعرفها وتعرفني! وتمنّيت في تلك  
اللحظة لو كانت حياتي واصلت مسيرها الوثيد دون أن  
تصطدم بهذا الحبّ الذي قلبها رأسًا على عقب!  
وجاءني بغتة صوت رفيع من الداخل يصيح: «افتحي  
الراديو يا صباح» فارتعدت أوصالي وأرهفت السمع في  
خوف متزايد. وتُلي منك يا أمّاه، أما كان الأفضل أن  
تكوني في مكاني هكذا؟ ثمّ قرع أذنيّ وقع قدمين  
صاعدتين فتضاعف اضطرابي ولم أجِد من التقدّم  
مناصًا، وتدّانيت من الباب، ورفعت يدي إلى زرّ  
الجرس، وترتّبت لحظة في اضطراب، ثمّ ضغطت  
عليه فرنّ رنينًا مزعجًا، وتنحّيت جانبًا، منتظرًا في  
حالة يرثى لها. وفتّح الباب وبرز وجه أسود كاللحم  
لجارية في الخمسين، فحدّجتني بعينين برّاقتين وقالت:  
- أفندم؟

وقلت وأنا أتمنّى أن يكون البك خارج البيت لسبب  
أو لآخر:

- جبر بك موجود؟

ولكنّها أجابت قائلة:

- نعم يا سيّدي... مين حضرتك؟

فاستخرجت من محفظتي بطاقة وقدّمتها لها قائلاً:

- أرجو أن يأذن لي البك بمقابلة قصيرة...

ومضت الجارية بالبطاقة وانتظرتُ خافق الفؤاد

وكنا قد توغلنا في الطريق طويلاً فاقترحت أن  
نعود، ودرنا على عقيبنا عائدين. ولم نتبادل في عودتنا  
إلا كلمات قلّلت، وكنت من السعادة في حلم، ولكنّي  
لم أغفل لحظة عمّا أنا مقبل عليه من جلائل الأمور...

### ٣٦

واستحوذ عليّ الخوف والقلق، وعادوني ذلك  
الإحساس الخائق الذي قهرني يوم دعاني أستاذي بكلّيّة  
الحقوق إلى منصّة الخطابة. هل تستطيع قدمي أن  
تحمّلني إلى بيت جبر بك؟ هل أستطيع مكاشفة  
الرجل بما في صدري؟ اللهم أدركني برحمتك فإنّ الحبّ  
يركبني مركبًا صعبًا لا يقبل لي به، ولما ضقت بالواقع  
المخيف روّحت عن نفسي بالأحلام، فرأيتني في جزيرة  
مهجورة، وليس بها حيّ إلّا حيبيتي، حيث الحبّ  
لا يسمّى المحبّ خطبة ولا كلامًا ولا اتّصالًا بأحد،  
وهفّت نفسي في محنتي إلى تلك الجزيرة المهجورة.

ومضى السبب والأحد في عذاب نفسيّ عنيف،  
فصمّمت على أن أستجير من عذاب الفكر بقاء الخطر  
وجهاً لوجه. وغادرت البيت عصرًا بعد أن أخذت  
زيتني، وقطعت الطريق واجف القلب وأنا أتلو آية  
الكرسيّ. ولما عبرت الجسر ولاح لي عن بُعد جانب  
من العمارة ثقلت قدمي وكدت أرجع من حيث  
أتيت، ولكن كان تصميمي رافعًا، وكان إشفاعي من  
أن تستبطئ حبيبي قدومي لا يدع لي فرصة للتردد.  
وجعلت أشجع نفسي قائلاً أنّه لو لم يكن ثمة أمل لما  
رضيت حبيبي بأن تلقاني يوم الجمعة، ولما مهّدت  
السبيل لمقابلة أبيها، ودفعْتُ قدمي الثقيلتين فأخذت  
أقترب رويدًا من العمارة. ولم يكن بالنافذة ولا الشرفة  
أحد فارحمت لذلك لأني اضطرب في سيري تحت وقع  
الأعين، ثمّ وجدتي مقبلًا نحو البوّاب، فوقف الرجل  
متسائلًا فقلت:

- جبر بك السيّد.

فقال:

- الدور الثاني...

وارتقيت السلم في رهبة وخوف، متوقّفاً عند كلّ

- إني تشرفت بعرفتك يا أستاذ كامل! ... ترى  
أحضرتك من حيناً هذا؟  
فقلت وقد سررت بما هيأ لي من سبب للحديث:  
- نعم يا بك، إني من سكان منيل الروضة!  
- حيّ هادئ لطيف.  
فقلت وقد آنست إليه:

- وإني من مواليدته أيضاً، وقد أقام به جدّي  
الأميرالاي عبد الله بك حسن منذ أكثر من سبعين  
عاماً  
فقال متفكراً:

- عبد الله بك حسن! ... أظنني سمعت بهذا  
الاسم! أهو جدّك لوالدك؟  
فقلت مضطرباً:  
- كلاً، إنه جدّي لأمي، أما أبي فمن أسرة  
لاظ...

- وهل كان ضابطاً أيضاً؟  
فقلت وقد تزايد قلقي:  
- كلاً... كان أبي رحمه الله من الأعيان...  
فابتسم قائلاً:

- حسبته كذلك لأن أهل المهنة الواحدة كثيراً ما  
يرتبطون بالزواج فيما بينهم...  
وأمّنت على قوله، وسكت الرجل فلم أجد ما  
أقوله، وعدت إلى تذكر محفوظاتي فحضرني الجملة  
الخطيرة التي يتوقّف عليها حظي في الحياة، ولكن  
خاني لساني، فلذت بالصمت، وما لبث أن عاودني  
الاضطراب والهلح، والتهب رأسي حياء وارتباكاً، وفي  
تلك اللحظة جاءت الخادم الصغيرة - التي تعرفني حقّ  
المعرفة - تحمل صينيّة الشاي، فوضعتها على منضدة  
مُكفّت سطحها بمرآة مصقولة، وتراجعت وهي تداري  
ابتسامة خفيفة! ورحت بدخولها وبالشاي الذي حملته  
لأنها استنقذاني من حرج الصمت الذي ثقلت وطاته  
عليّ. وملأ البك قدحين ودعاني للشراب، فتناولت  
قدحي شاكراً ورحت أرتشفه متمهلاً وعقلي لا يني عن  
التفكير. وفرغت منه على رغمي، ووجدتني مرّة أخرى  
حيال جبر بك وابتسامته اللطيفة الغامضة التي.

مضطرب النفس. وتميّلت البك وهو يقرأ البطاقة  
بصوت مرتفع فيتبادل الجميع النظرات والابتسامات،  
ويهرعون إلى مكان آمن يروني منه حين دخولي،  
فالتهب وجهي حياء وازدادت اضطراباً، وبرز رأس  
الجارية مرّة أخرى وهي تقول:  
- تفضّل.

ودخلت خافض الرأس، فأرشدتني إلى باب على  
يمين الداخل مباشرة، فدخلت حجرة الاستقبال، وهي  
حجرة أنيقة ذات أثاث كحليّ، فأنجبت إلى مقعد  
يفصل بين كنيّتين وجلست، بعيداً عن سمت الباب.  
لم أكد أصدّق أنّي بلغت حقاً مجلسي هذا من البيت.  
وجعلت أرهف السمع في خوف وقلق وهلح. وتميّت  
لو يتأخّر البك ريثما أسترّد أنفاسي، ثمّ دفعني العذاب  
إلى تمّي حضوره سريعاً لوضع حدّ لآلامي. ولا أدري  
كم انتظرت حتّى سمعت وقع أقدام تقترب. دخل  
البك فنهضت قائماً، ثم سلّم عليّ في أدب وترحيب  
وأوماً إلى المقعد وهو يقول:  
- تفضّل بالجلوس...

وجلّس على الكنبه غير بعيد. كان طويلاً نحيلاً،  
في الخمسين من عمره، له قامه حبيبي وعيناها،  
فسرعان ما أحببته، وكان يتلقّع بعباءة فضفاضة ضاربة  
للحمرة، ويسطع من راحتيه عطر زكيّ، ونظر إليّ  
مبتسماً وقال مرحباً:

- شرفتنا يا أستاذ كامل... أهلاً وسهلاً...

فقلت بامتنان:

- شكراً لك يا بك...

ترى هل علم بالغرض من الزيارة؟... هل سمع  
قبل الآن بهذا الاسم الذي قرأه في البطاقة؟  
على أنّه مهما يكن أمره فلا مناص من مفاتحه في  
الموضوع كما لو كان يجهله. وكنت قد كتبت صورة نما  
ينبغي قوله كما تصوّرت، وقرأتها مراراً حتّى حفظتها  
قبل مغادرة البيت، فقلت بصوت منخفض:

- إني أسف على إزعاجي سعادتك بهذه الزيارة على  
غير سابق معرفة...

فقال والابتسامة اللطيفة لا تفارق شفّته الرقيقتين:

ولست من ذلك كله في شيء، ولكن رباب لا تودّه، ولو كان بها من رغبة فيه لما قابلتني وشجعتني على مقابلة أبيها، ورطب هذا الخاطر قلبي المحترق وردني إلى نشوتي، ولكنّه لم يستطع أن يستأصل الشك والقلق من قرارة نفسي. وتتابع أيام الانتظار وما أزداد إلا كآبة وتشاؤماً، ولذلك أخفيت سرّي عن أمي حتى لا تعلم بإخفاقي إذا كان مقدوراً، وكابدت الانتظار ومرارة الشك في وحدة مخيفة، ومن عجب أننا لم نعد إلى موضوع الزواج منذ ذلك المساء العنيف. وقد اعتور سلوكها شيء من التحفظ والتغير لم يخفيا عن إحساسي الدقيق. وبدت في أحيان كثيرة كالطفل الغاضب وانطوت على نفسها. وكنت إذا أقبلت عليها محدثاً تلقّيتني بريبة لا تزايلها حتى تطمئنّ إلى نوع الحديث. وأحتقني تغيرها ولكنّي لزمّت معها الأدب والتودّد. وفي أثناء ذلك أسرّ إليّ زميل من الموقّفين بأنّ «بعضهم» يتحرّى عني كما أخبره موظّف بإدارة المستخدمين، وسرعان ما ذاع بين موظّفي إدارة المخازن أنّي شارح في الزواج، وجعلوا يعرضون لي بما في أنفسهم مداعين فأزداد امتعاضاً وحنقاً، ولما انقضت فترة الانتظار مضيت إلى مقابلة جبر بك السيّد، ولكنّي لم أذهب إلى بيته - حال دون ذلك خوفي من الخذلان - فقابلته في وزارة الأشغال، ورحّب بي الرجل ترحيباً جميلاً وأعلن لي موافقته! هكذا انتهى عذابي ورُدّت إليّ الروح. وفي تلك المقابلة اتّفقنا على يوم الخطبة. وإذا كانت حياة الإنسان خليطاً من الشقاء والسعادة فقد بدا لي أنّ أيام شقائي قد ولّت، وأنّي سأجزى عن صبري وتعاسي وغاوفي سعادة صافية فيما بقي لي من عمر. ورجعت إلى البيت ودعوت أمي وأخبرتها بما تمّ، وقد استمعت إليّ في استسلام ودهشة وقالت لي متسائلة:

- ولماذا أخفيت عني الأمر كلّهُ؟

فقلت متضاحكاً في ارتباك:

- لم أكن أقدر أن ينتهي مسعائي إلى ما انتهى إليه...

فقلت بحدّة:

- يا لله! أكنت تتصوّر أن يرفضوا يدك؟! يا لك

تستحقّني في صمت على الكلام، لا بدّ ممّا ليس منه بدّ، وإلا انقلبت الجلسة إلى مهزلة تستثير السخرية. لاصطنعن شيئاً من الرجولة أمام الرجل الذي أروم مصاهرته أن أصغر في عينيه. ولمت أطراف شجاعتي وقلت وإن تهذّب صوتي وتخلّلت نبراته:

- سيّدي، أردت... أعني... الحقّ أنّي أرجو التشرّف بمصاهرتك...

ولم تكن الجملة التي كتبتها وحفظتها لتفترق عني قلت كثيراً، وقد اعتراني الاضطراب بعد أن فتحت فيّ بالكلام ولكنّ الله سلّم وأفصحت عن رأيي بعبارة لا بأس بها ونظرت إلى الرجل فوجدته ما يرال ميسراً، وترثّ لحظات استغلّظ وقعها في نفسي المروعة، ثمّ قال بأدب جَمّ:

- أشكر لك حسن ظنّك بنا...

وصمت لحظات أخرى متفكّراً ثمّ واصل حديثه قائلاً:

- ولكن أرجو أن تمهلي أسبوعين لمشاورة أصحاب الشأن الآخرين.

فبادرته قائلاً:

- طبعاً... طبعاً... ولا يسعني إلّا شكرك على كرم أخلاقك وحسن ضيافتك؟

ونهضت قائماً مستأذناً في الانصراف، ولكنّه دعاني للبقاء فترة أخرى، فاعتذرت شاكرًا له جميل أدبه، وسلّمت وذهبت. وتهدّدت في الخارج من الأعماق وشعرت كأنّ حملاً ثقيلاً رُفع عن عاتقي. وبدا لي الأمر هيئاً لا يستدعي بعض ما عانيت من خوف وقلق وهلع، فابتمست في ارتياح، ثمّ استرسلت ضاحكاً...

### ٣٧

تملّيت نشوة الارتياح والظفر حتّى المساء، ثمّ عاودني القلق ذلك الرفيق القديم الذي لا يملّ عشري... أيرضى جبر بك بموظّف صغير مثلي زوجاً لابنته؟... ألا ترجح كفّة عمّد جودت رغم دخلي من الأوقاف؟... إنّه مهندس كجبر بك، وجار وصدّيق،

- ينبغي أن نجد علاجًا لحجلك، فوالله ما رأيت مثلك رجلاً.  
ولم آبه لانتقاده وسخريته. كنت سعيدًا. . .

## ٣٨

. . . ثمّ هان عليّ عناء الزيارات، اعتدتها وأنست إليها. أمكنني أن أضغط على زرّ الجرس دون أن ينخلع قلبي، وأن أمضي إلى حجرة الاستقبال دون أن أعثر بطرف سجّادة أو قطعة أثاث، وأن ألقى آلي الجلد غير خافض الرأس ولا ملهوج الحديث، بل أمكنني أن أتحدّث أيضًا وأن أضحك إذا دعى الداعي للضحك، في حدود طاقتي. وأسرتي الجديدة أسرة لطيفة حقيقة بالموّدة، حبيبتني عنوانها، وحسبها هذا شهادة وثناء، وقد توثّقت الأسباب بيني وبين جبر بك السيّد فصرنا صديقين، وقربت الألفة بيني وبين نازلي هانم فكأننا ابن وأمّ. وأسرتي الصغيران محمد وروحية بظرفهما، حتّى الخادم الصغيرة والجارية السوداء حظيتا بنصيب من وديّ، فأحببتهم جميعًا حبًّا دلّ على ما بقلبي من هيام بحبيبتني وشوق مكبوت للمعايشة والتودّد.

وكان جبر بك السيّد من أولئك الرجال الذين لا يرحون بيوتهم إلّا للضرورة القصوى، فإن لم يكن في الوزارة أو في رحلة تفتيشيّة بالأقاليم فهو في بيته وبين زوجته وأبنائه، بدا لي من أوّل يوم لتعارفنا مهذبًا رقيق الحاشية، ولم يخفّ عن عينيّ - على ضعف ملاحظتي - أنّه من الأزواج المطيعين وأنّ زوجته هي الأمرة الناهية في البيت، ولكنّ ذلك لم يضعف من منزلته، ولعلّه حظي من حبّ أبنائه بما لم تحط به الأمّ نفسها، ولم يخلّ من ميل للفخر والمباهاة على تجاوزه الخمسين، وما أسهل أن تلاحظ ذلك إذا سمعته محدّثًا عن عمله ومركزه وصلاته بأقرانه ومرءوسيه، أو منوّهاً برحلاته التفتيشيّة وملاحظاته، وما أكثر ما ينتقد المهندسين الشبان ممّن تلقّوا علومهم في إنجلترا وألمانيا، فيقول إنّ علم الهندسة في مصر هو علم الهندسة في أوروبا، وإنّ القدم لا ترسخ في العلم إلّا بالتجربة والممارسة، الأمر

من طفل غريرا ألا تعلم أنّ الفتيات لا حصر لهنّ، وخيرًا من فتاتك ألف مرّة، يرضين بك عن طيب خاطر!

فقلت بلهجة نمت عن عدم رغبتني الاسترسال في النقاش:

- لآني أنتظر تهنتك يا أمّاه. . .

فمالت نحوي حتّى لثمت خدي وتمتعت:

- لآني أحقّ منك بالتهاني. . .

ودعت لي طويلًا، وكان وجهها كالصفحة المصقولة لا تخفى بها خافية، ولم تكن تحسن مداراة ما يعتمل في نفسها، فلمست في نظرة عينيها خيبة عميقة نغصت عليّ صفوي، بيد أنّي تجاهلتها وتظاهرت بتصديق كلماتها، وسرعان ما شغلت عنها بسعادتي، وكتبت في نفس اليوم لأخي خطابًا أخبرته بما كان ودعوته لشهود الخطبة، وزرت אחتي راضية ودعوتها كذلك، وذهبتا جميعًا في اليوم الموعد. ولست أدري كيف واتتني شعاعتي ذلك اليوم. لقد شبكت ذراعي بذراع شقيقي مدحت ورجوته أن يكون مرشدي، ولشدّ ما أتعبتني بجمودي وارتباكّي وخجلي.

لم أنبس بكلمة طوال السهرة، ولم أرفع عينيّ عن الأرض، ولبثت محاصرًا بأعين المستطلعين رجالًا ونساء، ولم تزايلني الرهبة حتّى بعد انصراف الأقارب واقتصار الموجودين على الأهل. وقد ضحكك حرم جبر بك وقالت لي:

- أنت خجول يا سيّ كامل. . . وقد أدركت الآن السرّ في أنّك كنت تخوم حول عروسك أشهرًا طوالًا كالخائف. . .!

وخفق قلبي لقولها، واختلست من أمني نظرة لأرى وقعه في نفسها فوجدتها مشتبكة مع جبر بك في حديث. وجلست طوال الوقت بجانب رباب دون أن أستطيع إرواء قلبي الظامئ لرؤيتها. وما ألقيت عليها إلّا نظرة سريعة حيّة حين دخولها الحجرة في حالة من نور وبهاء ثمّ غبت في حيائي وارتباكّي، ولمّا انفضّ الحفل العائليّ وغادرنا البيت ضحك أحى مدحت في الطريق مقهقها وقال لي بدهشة:



الذي يتجاهله الشبان. وكان في تلك الأيام قلقًا على مركزه بالوزارة، ولا يفتأ شاكيًا ما يلقي من اضطهاد سياسي مرده في رأيه إلى صلته بالوزير الوفدي السابق، حتى أنه صرح مرّةً بأنه يفكر في طلب تحويله إلى المعاش والاشتراك في النشاط السياسي، ولكنه لم يستطع الاسترسال في شرح رأيه لتصدّي زوجه له بالمعارضة الحاسمة التي لا تحتمل مناقشة. وكنت أجد حياله شعورين متضادين: شعورًا بالضالة لتفاهة مركزي في الحكومة وقلة حظّي من الثقافة، وشعورًا بالزهو لانتسابي لرجل مثله عظيم في قدره ومركزه وعلمه. أمّا نازلي هانم فعلى نقيضه ميالة للقصر مفرطة في السمعة، وكانت على اقترابها من الخمسين ذات وسامة لا بأس بها تدلّ بلا ريب على ما كانت تتمتع به من جمال في صباها. وكانت على سمتها المفرطة بالغّة في نشاطها ويقظتها وسهرها على رعاية بيتها وأبنائها وزوجها، وقد شكّا زوجها مرّةً إلى حرصها الزائد عن الحدّ على تنسيق البيت وتنظيفه ومراقبة الخادم والطاهية، وإفراطها في ذلك إفراطًا هو أدنى إلى الوسوسة والإرهاق، ولكنه لم يخل في شكواه مما يشي بإعجابه ورضاه.

وبدت لي ظريفة في غير ما تكلف، ولشدّ ما ضحكّت من ذكريات تطلّعي الصامت إلى الشرفة والنافذة، وقارنت بين حيائي وبين وقاحة الشبان، وعلّقت على ذلك قائلة:

- فمن حسن الحظّ أن تكون لرباب، ومن حسن الحظّ أن تكون رباب لك، فهي ليست كفتيات اليوم أيضًا.

هذا حقّ، حبيبي ليس كمثليها شيء، هي الحياة والذكاء والجمال، وإنّ الأيام لتزديني بها تعلّقًا وهيأًا وإعجابًا، ما أرحم صوتها، وما أرشق إيماءتها، وما أجمل رزانتها، وكانت إلى هذا كلّه أنوثة ناضجة كاملة، وإنّ عينها لتطالعاني بالإخلاص والمودة والصدق من غير ما حاجة إلى خفة مصطنعة أو تكلف غير بريء. ولم أكن أفوز بها في خلوة أبدًا، ولم تنهتني لي فرصة للانفراد بها منذ إعلان خطبتنا. وشاقني كثيرًا أن

وتمّ الاتفاق فيما بيننا على أن يكون الزواج في العطلة الصيفية، ولم يألوا جهدًا في إعداد الجهاز، واقترحت نازلي هانم أن ينتقلوا إلى شقة كبيرة على أن انضمّ إليهم، ولكنّ الاقتراح أزعجني وذكرني بأمي، فاعتذرت من عدم استطاعتي قبوله قائلًا إنّّي لا يمكنني التخلّي عن أُمّي، وعند ذلك قالت نازلي هانم:

- والدتك سيّدة محترمة ولطيفة ولكن يبدو لي أنّها لا تميل إلى المعاشرة!

وفهمت ما تعنيه، والحقّ أنّ أُمّي لم تزرّ بيت خطيبتي منذ إعلان الخطبة إلّا مرّة واحدة تحت ضغط وإلحاح، فقلت في ارتباك غير قليل:

- لقد اعتادت أُمّي الوحدة... ولم تألف الزيارات قطّ...

وقصصت عليهم جانبًا من حياتي متحاميًا الفجوات التي لا تطيب ذكراها. ولا أنكر أنّ ملاحظة نازلي هانم أزعجتني، وذكرّني بأمر أخافها، فدعوت الله مخلصًا أن يقبني مغبّة الشقاق في حاضري ومستقبلي.

وفي مرّة، وكنت جالسًا إلى فتاتي وأمّها فقط، واتّني الشجاعة فذكرت عهد تطلّعي الصامت إلى «رباب»، وعجبت كيف انتهت إلى هذا الختام السعيد وهو ما لم أكن لأحلم به! وضحكّت حبيبي وقالت:

- ومع ذلك فلم تكذّ تخطو خطوة واحدة حتى تمّ كلّ شيء في غمضة عين!

وقالت نازلي هانم:

- طالما تساءلنا ماذا يريد هذا الشاب؟! ولشدّ ما

- أترين ضرورة في إحياء ليلة الزفاف؟  
فرمقتني بنظرة استنكار كأنّ تساؤلي أدهشها وقالت:  
- طبعاً!  
فغمغمت في ذهول:

- قيان وزفاف ورقص وغناء!  
- ينبغي أن تكون ليلة فريدة غناء...  
وتملكني الخوف، ورفعت إليها عينين ملوّهما الرجاء  
والاستعطاف، ثمّ قلت ببأس:  
- لا يمكنني أن أرفّ بين المدعوّين! هذا فوق ما  
أستطيع.  
فلاححت في وجهها الدهشة والانزعاج وقالت  
بغربة:  
- لست أفهم شيئاً!... هل يعجزك الحياء لهذا  
الحّد؟

فقلت بضراعة، وبحرارة من يدافع عن نفسه حيال  
الموت:  
- لا أستطيع... لا أستطيع... صدّقيني يا  
سيدتي إنّ الموت أهون عليّ من الزفاف بين المدعوّين  
والقيان...  
- هذا شيء عجيب، إنّك تكون أوّل رجل يهرب  
من الزفاف!  
فقلت بأشئى وقد شعرت بالسنة الخجل تلهب جيبيني  
وتخديّ:  
- ربّما، ولكن ما باليد حيلة، إنّّي أستحلفك بالله أن  
ترحميني...  
فتساءلت في إنكار:  
- وما عسى أن نفعل؟

فقلت بلهفة وقد عاودني الرجاء:  
- نكتب العقد في جمع من الأهل فحسب، ثمّ  
أمضي بالعروس إلى بيتنا!  
- وكيف يكون هذا فرحاً!  
لو كان الأمر غير ما يتّصل بالخجل لسلمت دون  
عناء، والحقّ أنّي سريع للمطاطعة مها كلّفتني الأمر من  
تضحية إلّا إذا كنت بموقف الذائد عن حيائي، هناك  
أنقلب إلى الاستماتة والتشبّث. وقد استمددت من

حدّرت «رباب» أن تكون من الشبان الذين يطاردون  
الفتيات في الطريق! وقدّرنا في وقت ما أنّك مشغول  
بالتحرّي عتاً كما يفعل طلاب الزواج. فلمّا طال تردّدك  
بعد ذلك داخلني استياء وتساءلت عتاً لم يعجبك  
فيّنا؟!

فقلت مرتبكاً متألّماً:  
- ما فعلت شيئاً من هذا، وحتّى الأسماء ظللت على  
جهلي بها حتّى اللحظة الأخيرة...  
وكان لديّ من المال ما يُعدّ بالقياس إلى ثروة،  
فأغدقت على حبيبتي الهدايا، وجعلت من شقيقتي  
راضية مشيرتي في هذه الأمور التي أخفيت عنها عن أمّي  
فمحضتني المشورة وأرشدتني إلى «الواجب» وخاصّة في  
المواسم كعيد الفطر وعيد الأضحى، فأصبحت بفضل  
رأيها خطيباً مشرفاً؟

وظلّت العلاقة بيني وبين أمّي على ما يرام، على  
الأقلّ في الظاهر، وحرصت على أن أشركها في مهمّة  
الإعداد للحياة الجديدة لتبدو وكأنّها تباركها، فكلفتها  
بأن تبحث لنا عن شقّة جديدة، ووقع اختيارها على  
عمارة في شارع قصر العيني على بعد محطّات ثلاث من  
عمارة حبيبتي، ولم يدر منها ما يعكّر صفوي، ولكنّها  
بدت كشخص مغلوب على أمره، تزحزح على رغمه  
إلى هامش الحياة، فانطورت على نفسها انطواء لم أجد  
في معالجته حيلة، وقطّع قلبي. ولكن لم يكن في وسع  
شيء في الوجود أن يعتاق تيّار السعادة المتدفّق الذي  
يسكرني ليل نهار. والواقع أنّ تلك الفترة من حياتي  
هي أسعد ما لقيت في الدنيا من أيّام...

## ٣٩

وقالت لي نازلي هانم يومئذ، وكانت الأسرة قد  
أعدّت عدتها للزواج:  
- إنّ رباب أوّل عهدنا بالأفراح فينبغي أن تكون  
ليلتها بالغة المسرة.

وولّى قلبي فراژاً، ولم يعد بدّ من مواجهة الأمر  
الخطير الذي طالما تحاميته إشفاقاً وجبنًا. وتساءلت في  
قلبي:

وتقضى نصفه الأول في تهيئتي، فمضى بي شقيقي مدحت إلى حلاق مشهور عدت من لدنه على أحسن حال، حتى قالت لي أختي في دعابة:  
- أنت أجمل من عروسك!... اليس كذلك يا أمّاه؟

وهمت أُمّي بالكلام، ولكنها أطبقت شفتيها دون أن تنبس، وجعلت أتساءل عما أرادت قوله. وارتديت بدلة العرس السوداء على حرارة الجو، ثم ذهبنا إلى بيت العروس قبيل العصر بقليل ومعني أُمّي وأختي وأختي وزوجها وعمّي وبعض بناته وخالتي وأسرتها. ولما اقتربنا من مدخل العمارة رأيت الأرض قد فُرشت رملاً فاقع اللون، وتدلت مصابيح كهربائية كبيرة من عمد ملوّنة، فداخلي اضطراب وقلت لنفسي: «هذا خروج عن الاتفاق!» وارتقينا السلم وقد أبيت إلا أن أسير في المؤخرة شابكاً ذراعي بذراع مدحت... وما كاد أولنا يدخل الشقة حتى استقبلتنا عاصفة من الزغاريد المجلجلة، فشددت على ذراع أخي وشعرت برغبة في التساوي، ولكن أين؟ وخفضت عيني، وسرت، بل جرّني أخي، إلى حجرة الاستقبال، دون أن أرى شيئاً مما يحيط بي وإن أحسست بأذني وأنفي أنّ البيت مكتظ برواد السرور... وأجلست وأنا متشبّث بذراع مدحت وقد همست في أذنه:

- أرجو ألا تفارقني...

فرّة عليّ هامساً:

- تشجّع وإلا بدت عروسك دونك خجلاً!

ولم أكبد أُنثى الصعداء لمرو لحظة الاستقبال المفزعة حتى جاءني جبر بك السيد ليقدّمني لصفوة المدعوين، فوقفت مرتبكاً كالعادة، وراحت يدي تسلم، ولساني يردّد كالآلة «تشرّفنا... تشرّفنا» ثم جلست مرّة أخرى دون أن أحفظ اسماً واحداً. ودار حديث طويل، لم يفزع عقلي لفهمه فصلاً عن الاشتراك فيه، ولم يغب عني حرجي، فتضاعف ارتباك، وخيل لي أنّ الجميع يتغامزون بي، أو يهزّعون بي في سرائهم. ومرّ الوقت قاسياً حتى دُعيت إلى كتابة العقد، وخفّ عني أن تمّ ذلك في حجرة

يأسي وخوفي قوّة فتوسّلت وضرعت وألحفت حتى كُفّت السيدة عن المناقشة وهي تهزّ رأسها عجباً، ولم يكن بي خوف أن يظنّوا بي تهرباً من تكاليف الزفاف لما أبديت من سخاء كخطيب كان حديث الجميع، على أنّ جبر بك السيد أخبرني بعد ذلك بأنّه مصمّم على دعوة نفر من خاصّة أصدقائه، وأنّه سيولم للجميع وليمة عشاء فاخرة، ثمّ أخبرني بعد حين بأنّ أحد أصدقائه من هواة الغناء والموسيقى تطوّع بإحياء الليلة في حدودها الضيقة، وقال مخفّفاً عني وقع الخبر:  
- وهكذا يحبي ليلتك موظّف كبير...  
فقلت محزوناً:

- يؤسفني والله ألاّ أحقّق رغبتكم في إحياء ليلة زفاف باهرة ولكنّي لا أحتمل أن أُرّف!  
فهزّ كتفيه في عدم اكتراث وقال مبتسماً:  
- لا أحبّ أن أضايك فلك ما تشاء...

وحمل الجهاز إلى الشقة الجديدة، وفُرشت حجرة خاصّة لأُمّي، وانتقلنا من المنيل إلى الشقة الجديدة قبل الليلة الموعودة بأسبوع. وأشرفت شقيقي على فرش شقة العروس بنفسها. وبهرت شقة العروس عينيّ فجعلت أنتقل بين الحجرات في غبطة وفرح ساوي. ولما جاء دور المخدع اجتزت بابه بعد تردّد، وفي حياء شديد ورهبة. يا له من منظر خليق بأن يهزّ الفؤاد هزّاً جعلت أقلب ناظريّ فيها حولي وأنا بين مستيقظ وحالم. فراش كالذهب، وأغطية حريرية في لون الورد الزاهر، ومراة مصقولة رقيقة. دبّت الحياة في قطع الأثاث فلم تعد جامدة ولا صلبة، وحامت ألوانها الجذابة تورّد الخدود والتساع الأعين، وندّت عن حواشيها المسدولة همسات خافتة منغومة خفق لها الفؤاد خفقاناً متتابعاً.

\*\*\*

وفي صباح اليوم الرهيب ساءلت نفسي متى أعود بعروسي وقد خلّفت ورائي الناس والضيّوضاء؟ ليت التقاليد كانت تقضي بأن ينتظر الرجل عروسه في بيته من غير هذا العناء كلّ! بدا لي يوماً عسيراً لم يُخلَق لأمثالي، فلم يفارق قلبي الشعور بالرهبة والخوف.

فسرت في جسدي رعدة وهفت في هلع:  
- كلاً... كلاً... اتفقنا على ألا تكون زفة!  
- ليس الأمر كما تتصور، فقد أقمنا في الصالة  
الكبيرة منصّة للعروسين، فتجيء بعروسك وتجلسان  
عليها، الجميع يريدون أن يروا العروسين فما ذنبي  
أنا؟!

كان كلامه ينقلب في مخيلتي صوراً، فرأيتني أمشي  
وسط الجميع إلى حجرة العروس وأعود بها والمدعوون  
يحيطون بنا مهللين، ثم نجلس فريسة للأعين!...  
رباه... سأقع مُغمى عليّ.  
وقلت بحرارة:

- ولكن هذه الزفة!... ليس في مقدوري!...  
أرجو يا بك أن تعفني... لا أستطيع...  
- الأمر أسهل مما تتصور، ولا بدّ مما ليس منه بدّ،  
وإلا ماذا يقول المدعوون؟!

فهفت في فزع:

- دعهم يقولوا ما يقولون. لا أستطيع... سأنتظر  
العروس على بسطة السلم ثم نذهب إلى بيتنا...  
ولم يتمالك الرجل نفسه فضحك وصاح بي حتّى علا  
صوته على صوت المغني:

- بسطة السلم... يا لك من عريس عجيب!  
وكان مدحت يصغي إلينا صامتاً، فضغط على  
ذراعي وقال لي بحزم:

- ما هذه الأفكار الصبيانية؟!... ألا تريد أن  
تجيء بعروسك؟! ألا تستطيع أن تشقّ طريقك بين  
نخبة من السيّدات الفضليات؟ أتريد البك على أن  
يعتذر عن عدم ظهورك بأنك خجول لا تستطيع  
الظهور أمام المدعوّات؟! وافضحته!

وتشجّع جبر بك بكلام شقيقي، أمّا أنا فحدجت  
أخي بعينين غير مصدّتين، لم أكن أتصوّر أن تجيئي  
الطعنة القاتلة من اليد التي أعتمد عليها، وضحك  
أخي لفزعي وذهولي، وأراد أن يتكلّم، ولكنّي قاطعته  
محزّوناً يائساً:

- كيف تدفعني إلى ما لا قبل لي به؟... أتريد أن  
تجعلني أضحوكة المدعوّات؟

نكاد تكون خالية، ولكن انفجرت الزغاريد في تسابق  
عنيف، وعادوني مرّة أخرى رغبتني في التواري،  
وعدت إلى مجلسي الصامت، ومرّ الوقت، ولم يكن  
بالنسبة إلّيّ إلّا صمتاً وفكرًا محترقاً ولهفة على الفرار.  
ثمّ دُعينا إلى سباط أعيدّ على سطح العمار في الهواء  
الطلق. والعشاء عناء جديد لمثلي، ولكنّه محتمل  
بخلاف الحديث، لأنّ المدعوّين يشتغلون بالطعام عمّا  
عداه فيجد من كان مثلي فسحة للطمانينة  
والسكينة... وعدنا إلى مجالسنا، شابكاً ذراعي بذراع  
أخي، ثمّ بدأ الغناء. وكان المغني الهاوي وفرقة - من  
الهواة كذلك - يتصدّرون حجرة الاستقبال وقد غنّى  
«يا ما انت وحشي» بصوت لا بأس به، فاق في نظري  
صوت فتان حانة سوق الخضّر. وجاء جبر بك للجوقة  
بقيّتين من الويسكي، وقُدّمت كئوس مترعة  
لآخرين، وقد همس مدحت في أذني:

- ألا تشرب كأساً أو كأسين؟

ف نظرت إليه نظرة لم يفهم معناها وقلت بإنكار:  
- محال...!

فلتها بلهجة تنمّ عن الاستفطاع، ثمّ خلوت إلى  
ذكرياتي في صمت. لشدّ ما همّت بنشوة الخمر! أفليس  
عجباً أنّي لم أذقها منذ الساعة التي اجترأت فيها على  
مخاطبة حبيبي؟... هجرتها في غير ما عناء كأنّها لم  
تكن، ولم تنازعني النفس إليها ولا مرّة واحدة! وتتابع  
الغناء والحديث وعلا الضحك. وكنت حريّاً بأنّ أنس  
الجوّ، وأن يذهب عني الضيق وتوتر الأعصاب، لولا  
شعوري بخطورة الساعة التي تتربّص بي!... متى  
أنلقى عروسي؟ وأين... وهل يحدث هذا في خفية  
عن الأبصار؟! ومرّ الوقت. ثمّ انتهت بغتة على جبر  
بك السيّد وهو يقف حيالي ويضع يده على كتفي قائلاً  
بصوت منخفض:

- هلمّ يا سيّ كامل أزف الوقت.

ورفعت إليه بصري في ارتباك وغمغمت:

- أن وقت الذهاب!

فقال ضاحكاً:

- ليس في الحال ولكن بعد زفة بسيطة؟

- ارفع رأسك، حملق في وجوه الحسان حتى يغضبن حياء!

ولكنني تقدّمت على مهل خافض الرأس. لم أشك في أن منظري استثار الضحك المكتوم. وبلغ مسمعي صوت نسائي يتساءل: «أيها العروس؟» فأجابت أخرى: «الطويل!». كان المكان مكتظًا، وقد رايت عديدًا من السيقان والأحذية البيض على جانبي الطريق الذي أفسح لنا. ثم سمعت صوت أخي يهمس في أذني:

- بلغنا المنصة، اصعد إليها، وحيّ عروسك واجلس.

ارتقيت درجتين، ورفعت عينيّ في حذر وإشفاق فرأيت حبيتي جالسة تحت ظلّ من الأزهار، في ثوب العرس الأبيض وعلى رأسها هالة من الفلّ والياسمين تنسدل منها على الظهر ذيول من الحرير. وكانت بهاء ونورًا وفلًا وياسمينًا، وقد غضت بصرها ولاحت على ثغرها ابتسامة خفيفة. وصرت منها على قيد خطوة، وتذكرت قول أخي: «حيّ عروسك واجلس». كيف أحبيها؟ أأسلم باليد؟ أم أوجّه إليها تحية المساء؟ وترددت مرتبكا، ورأيت في ابتسامتها الخفيفة الخجلة ما ينم عن انتظار تحيّي، ثم شعرت بما غاب عني لحظات قصار، أو عاودني الشعور بالأعين المحدقة بي تكاد تحرق ظهري، ففقدت جنائي، وجلست على المقعد الخالي دون أن أنبس بكلمة أو أحرك يدي.

أخطأت بلا شك؟! ماذا تقول النسوة؟... ماذا تظنّ حبيتي؟... آه يا له من موقف؟... لو عرفت هذا من قبل ما فكرت في الزواج أبدًا!... الموسيقى تعزف، والزغاريد تجلجل، وأريج الروائح الزكية يتطاير في الجو. الموت أهون من الزواج! هل أظلل الدهر ضحية للمنصات؟ بالأمس قضت منصة الخطابة بكلية الحقوق على مستقبلي، والليلة تكاد تقضي منصة العروس على حياتي! ترى ماذا يقلن عن عينيّ اللتين لم تزايدا الأرض؟! وذكرت بغتة أمي، ترى أين تجلس؟ إنها تراني في هذه اللحظة بلا ريب، وتضاعف حيائي، وتولّاني شعور من يُضبط وهو يقترف عيًّا. ووجدت

وتأثّر جبر بك للهجتي الحزينة البائسة، فقال برقة:  
- المدعوّات جميعًا من الأهل. وقد تعرّفت إليهنّ يوم الخطبة، وسترى صدق قولي...

لم يزل الفزع يتملكني، وتناهى بي الضيق فقلت بتوسّل:

- نشدتكما الله أن ترحماني!

وكان أخي أدرك أن الكلام لا يجدي، فوجّه خطابه لجبر بك قائلاً:

- يمكن أن نتفق على حلّ وسط فتجيء العروس إلى المنصة بين صويحباتها، وأذهب مع أخي إليها، فيجلسان معًا بين الأهل ردحًا من الزمن قبل الذهاب...

وأومأ إلى البك ألا يعارض، فذهب الرجل، والتفت إلى أخي مغنيًا عنقًا وقلت له:

- يا لك من أخ خائن!... كيف تسمّي هذا حلًا وسطًا وما هو إلّا التكيل بي...

فندّت عنه ضحكة مجلجلة ذكرتني بأبينا وقال لي:

- إنك تعرّ بلدًا، فدع النضال، وسنذهب معًا...

ليتني أجد كلّ يوم زفة فاشقّ سبيلًا طريًا بين النساء! وصمت لحظة قصيرة، ثم لكزني في كتفي وعاد يقول:

- إذا حدّثتك نفسك بالنكوص فاهرب واستغن عن العروس!

واستسلمت إلى الواقع في يأس وضيق وهلع. وعزفت الفرقة نشيد الزفة فخفق قلبي بارتباغ وشعرت بدنو الخطر. وقرعت أذنيّ الزغاريد الآتية من الصالة فانهارت قواي، والتفت إلى مدحت قائلاً:

- أما من حيلة؟ أما من طريق؟

فشدّ على ذراعي ونهض وهو يقول:

- طريق واحد يفضي إلى المنصة كأنك طفل يُساق إلى الختان!

وسار، فتحرّكت قدماي وقلبي يغوص في صدري...

وقال لي همسًا ونحن نجتاز الباب:

صورها المعكوسة على مراياه التي ترسم حولها نصف دائرة، وراحت تنزع إكليل الفلّ والباسمين، بينما وقفت في وسط الحجرة مرتفعاً حافة الفراش الخشبية، مردّداً بصري بين ظهرها الرشيق وصورها المتنافسة في الحسن. هذه الحجرة هي دنيائي، وحسبي بها من دنيا، وهذه الفتاة هي نصيبي من الكون وحسبي بها من نصيب، هي حبي وسعادي وأمي، ولن أسأل الدنيا مطمئناً بعد اليوم.

انتهت حبيتي من نزع إكليلها، وأخذت تسوي ما بعثر من خصلات شعرها الكستنائي في تمهل من يرغب في اكتساب أقصى ما يسعه من وقت. ولكن ستنتهي حتماً فترة الانتظار فما العمل؟

ربّاه إنّ قلبي يقظ متوّب، وإنّي لأجد رعدة ترعش ركبتي، وإنّي لأتساءل في حيرة عن الخطوة التالية بنفس هيابة وحياء شديد يدور مع دمي. وأدركت رغم اضطرابي أنّه ينبغي أن نبذل ملابسنا، ولكنني لم أدر كيف يتمّ هذا وكلانا في حجرة واحدة مغلقة! وبدت لي وكأنّها تنتظر مني شيئاً، فقد انتهت من تسوية خصلاتنا وإن تظاهرت بالعكس، ولاح في وجهها الارتباك والخرج. وإنّي أعلم أموراً ولكن فاتتني التفاصيل، وأعوزتني الحيلة والعزيمة. ليتني استخبرت أخي مدحت، أוליته كان لي أصدقاء أرجع إليهم في أمثال هذه الأسرار، ولكن قاتل الله الحياء الذي يقيم بيني وبين أخي والناس سداً، ثبأ له! لماذا لا يرايلي وقد صرنا وحدنا!

وبلغ ضيقي بصمتي وجودي منتهاه، وثار بي الغضب على نفسي، فصمت لأنكلمن - وهو أضعف الإيمان - وقلت بصوت غريب أنكرته أذناي:

- ما أجملك!

هذه أول كلمة غزل أتقوه بها في حياتي!... وقد سددت بصرها نحو صورتي المائلة في المرأة وابتمت، ثم غصت بصرها، وشبكت ذراعيها على صدرها. لم يعد يجدي التظاهر بتسوية الشعر فشبت ذراعيها في استسلام المنتظر. وازدادت حرجاً، وعضضت على شفتي قهراً وغيطاً. وبدا لي تغيير ملابسنا كأكبر مشكلة

إحساساً لا يقبل لي بمقاومته يدفعني إلى البحث عن موضعها، وارتفعت عينايا في رفق وحذر، ولكنّها كانت أقرب ممّا أتصوّر، كانت تجلس في الصف الأول الذي يحدّق بالمنصّة، فالتقت عينايا، وتبادلنا ابتسامة رقيقة. وطار خيالي إلى صورة من الماضي البعيد، فرائتي أفق وراء سور المدرسة الأولى وهي بموقفها على الطوار المقابل للسور، ترنو إليّ بعين التشجيع والتوديع، فشعرت بغمز على قلبي.

وتنفس الصعداء حين أقبلت نازلي هانم نحونا وقالت مبتسمة:

- الآن إلى بيتكما مصحوبين بالسلامة.

ثم خاطبتي هامسة:

- ستذهب الجارية صباح مع سيّدها الصغيرة لأنّها لا تحتمل مفارقتها!... وإنّي أوصيك بها خيراً، وستجد فيها خير طاهية.

وتنحّت المرأة جانباً مغرورة العينين، ونهضنا من مجلسنا، وأخذت بيد عروسي وغادرنا المكان في سير وثيد والزغاريد والأنغام تودّعنا حتى باب العمارة. وكان أحد أصدقاء جبر بك قد وضع سيّارته تحت تصرّفنا حتى نبلغ دارنا. واحتوتنا السيارة معاً، ثم انطلقت بنا. والتفت نحوها متهدّداً فكأنّي أراها لأول مرة.

وقلت بارتياح:

- يا له من موقف قاس!

- يا لك من خجول!... لهذا الحد؟!

فندت عني ضحكة أداري بها ارتباكاً، وجعلت أتملّ غبطة تملأ القلب والعين والروح.

أغلقت باب المخدع بيد مضطربة. كان هذا الجناح من الشقة خالياً صامتاً، تفصله صالتان صغيرتان متداخلتان عن الجناح الآخر حيث توجد حجرتا أمي والاستقبال... وكان مخدعنا مرئياً يتوسطه الفراش، وعلى يمين الداخل مباشرة مقعد طويل ذو لون وردي، وفي الجدار المقابل التواليت والمشجب. مضت رباب إلى آخر الحجرة وجلست على مقعد التواليت بين

يضمّهما إليه، فماذا يغلّني؟  
إنّ هي إلّا خطوة أقطعها، فهل تكلف خطوة واحدة كلّ هذا العناء؟ كان قلبي متلهّفاً متعطّشاً، وكان خجلي حارّاً محرّجاً، أمّا جسمي فكان ميتاً لا حراك به! أأظّل هكذا أبداً؟.. لماذا لا أداري موتي بالحديث؟.. ولكن ما عسى أن أقول!.. لقد عقد الاضطراب لساني، وكلّ دقيقة تمرّ تركني أشدّ ضعفاً واضطراباً. وعلى حين بغتة انحرف ذهني إلى حجرة أمّي دون داعٍ، وتساءلت ترى هل نامت؟ هل تتخيّل ماذا أفعل الآن؟ وتضاعف اضطراب الحجل بنفسي، وشعرت بما يشبه الاختناق. سلّمت من جانبي باليأس والعجز، وتساءلت هل نبقي على هذا الوضع المضحك حتّى الصباح؟ ووجدت في أعماقي نزوعاً إلى الهرب، ولهّفاً عليه، وكدت أتمتّي لو لم يكن ما كان!.. وأفقت من أشجائي على صوت حبيبتى وهي تقول:

- الجوّ حارّ..

وتحوّلت صوب النافذة لتفتحها، ووجدت فرصة مواتية فدفعت نفسي وراءها وأكملت عنها فتح المصريين وهمت حبيبتى بالعودة فقلت كالمتستغيث:

- هلاً وقفنا في النافذة قليلاً..

ولبت حبيبتى نداء الاستغاثة. فوقفنا جنباً لجنب لا يفصل بيننا إلّا قيراط. وكانت النافذة تطلّ على الناحية الخلفيّة للعمارة، وتقع تحتها مباشرة حديقة كنيسة تقوم بجنباتها أشجار عالية تتصاعد همسات حفيفها في صمت الليل. وهفت على وجهنا نسمة رطبة أتطلّع إليها كما يتطلّع الطفل إلى القمر؟ ها هي ذي لا يفصلنا إلّا قيراط. وملت بجسمي في تودة وحذر، فتماست ملابسنا. ثمّ شعرت رويداً بلمس طريّ، والتصق الجنبان. ونذت عني تنهدة مسموعة أيقظت حيائي فتريت قليلاً. وخفت أن تصدني أو تبعد عني حياة فأغلب على أمري ولا يعود ثمة أمل، ولكنّها لبثت بمكانها وارتفعت حافة النافذة.

ودفعتّ بيسراي إلى الوراء قليلاً، ووجهتها وراءها حتّى رسمت خلف خصرتها نصف دائرة، وجعلت

في الوجود، فهل نبقي على هذه الحال الأليم حتّى مطلع الصبح؟.. لماذا لا أمضي نحوها فأضمّها إلى صدري حتّى تحلّ المسألة نفسها بنفسها؟.. ولكن كيف أقدم على هذه الخطوة العظيمة؟! إني أستطيع أن أتخيّل، وأن أحادث نفسي، أمّا الإقدام على عمل فهو المحال. وامتلاً قلبي غيظاً وألماً، وازددت إحساساً بالعجز والخزي، فصممت أن أخرج من صمتي على الأقلّ، فقلت:

- هلاً بدّلت ملابسك يا عزيزتي؟

فأقلت بعد تردّد:

- ليس أمامك!

لعلّها توقّعت دعاية أو مغازلة ردّاً على قولها، ولكنّي لم أفكر في شيء من هذا، وتركّز تفكيري في إيجاد مكان أتوارى فيه ريثما تخلع هي فستان العرس. وتراجعت قليلاً جاعلاً الفراش بيني وبينها، ثمّ جلست على أرض الغرفة مخفياً عن عينيها وأنا أقول:

- بدّلي ملابسك يا عزيزتي..

وحسبني قد ظفرت بالحلّ السعيد. وانهزت الفرصة فمضيت أخلع ملابسني في هدوء محاذراً أن يبدو منّي شيء، ووضعت البدلة على الفراش، وتناولت البيجاما وكانت ملقاة على المقعد الطويل، وحشرت فيها نفسي وأنا لا أزال ملازماً موضعني على الأرض. وانتظرت ملياً ثمّ سألتها برقة:

- هل انتهيت يا عزيزتي؟

فأجابتنى بصوت مهموس:

- أجل..

فنهضت قائماً وهنا وقع بصري على صورتني في المرآة فرأيت الطربوش ما يزال على رأسي فنزعته مبتسماً! ونظرت صوبها في حياء فوجدتها بمجلسها السابق وقد التفت في روب من الحرير الأبيض، وأدارت المقعد مستقبلة به الحجر. وعدت إلى موقعي مرتفعاً حافة الفراش، رانياً إليها في غبطة وهيام، وكلّما رفعت إليّ عينيها غضضت بصري في حياء. انتهينا من تغيير ملابسنا، لكن ليس هذا كلّ شيء!.. بدت الليلة وكأنّ لا نهاية لمشاكلها.. بيد أنّ قلبي يرغب أن

وذكرت في التوأمي، وتساءلت عما تظن بهذا الاستيقاظ المتأخر، وشعرت بحياء أليم، زاد من ألمه أنه لم يحدث ما يستدعي التأخير قط، وأحسست بضيق نغص عليّ سعادتني، وكأنني أدرك لأول مرة أن الليلة الماضية لم تحل من فشل وإخفاق. على أنني قاومت هذا الإحساس الخائن، ورغبت عن الانفراد به فغادرت الحجرة. وقابلتني في الصالة الجارية صباح - التي انضمت إلى أسرتنا - فهتأنتني «بالصباحية» وأخبرتني بأن العروس تنتظرن في حجرة السفرة فمضيت إليها، ووجدتها جالسة كالوردة البيضاء فانشرح صدري بمنظرها وأقبلت نحوها متلهلاً وقبّلت خدّها. وتناولنا إفطارنا معاً المكوّن من اللبن والشاي والبيض والجاتوه. وتبادلنا على المائدة حديثاً عادياً، فسألناها متى استيقظت، وأجابتن بأننا استيقظت في الثامنة، وبأننا تستيقظ في العادة مبكرة مهما تأخر بها وقت المنام. ثم جاءت أُمّي فهتأتنا معاً، وجالستنا بعض الوقت. وانتقلنا إلى حجرتنا، وقضينا النهار في حديث عذب لا يمل. وذهبت عني الوحشة فأنست بها وقصصت عليها قصة حيّ من البداية إلى النهاية، وكنا نفضل حديثنا بالقبّل السعيدة المتبادلة. وسألته متى أحسّت بوجودي في دنياها، فقالت إنها فطنت لجوّاني حولها وتطلّعي إلى الشرفة منذ عام أو أكثر قليلاً، وإن أمّها لاحظت ذلك في نفس الوقت تقريباً، ثم صرت بعد ذلك

حديث البيت فكانت الخادمة الصغيرة إذا لمحتني من النافذة آتياً من طريق المنيل قالت لهم صاحكة «عريس ستّ رباب»، وكانوا يزجرونها بشدة، ولمّا طال بي المطال دون أن أتقدّم خطوة ظلّوا بي الظنون، ونهتها أمّها عن الظهور بالنافذة أو الشرفة في الأوقات التي أكون فيها بالحطة. وسألته بلهفة:

- ألم تشعرني نحوي بعاطفة ما؟

فابتسمت ابتسامة رقيقة، فتحت فاهما لتتكلم، ولكنّها أطبقت شفيتها دون أن تنبس. وكان بي هم شديد لسبب ما يبذل جوانحي فألححت عليها أن تتكلم، فقالت بصوت لا يكاد يسمع:

- لا أدري... لا أدري متى أحبتك.

أضيقها على مهل وحذر وخوف حتّى مسّت ثنيات الروب الحريري، فسرت من مسّها لقلبي رجفة ونذت عني للمرّة الثانية تهلّة مسموعة. ثمّ توتّبت بمجامع قلبي وأحطت خاصرتها بذراعي... ولم تُبدِ حبيبي لا معارضة ولا حراكاً. ونفضت عني أفكار التردّد والهزيمة، وشددتها نحوي مستعيناً بذراعي اليمنى، وتلقّيتها في حضني وأسندت جبينها إلى صدري، فهويّت بشفتي على مفروق شعرها، وغمغمت وأنا لا أدري:

- أحبك.

ولبنا في عناقنا، والله أعلم بما لبنا ثمّ تراجعنا متسكّين إلى الفراش، وصعدنا إليه وذراعاي لا تتخلّيان عنها. وأسندنا منكبنا إلى غمرقتين عاليتين، وحبيبي وما عليها من روب على صدري وبين ذراعي، ومن عجب أنّ بصري لم يتطفّل عليها فاتّجه إلى السماء خلال النافذة. وامتلات نفسي حياة لا عهد لي بها. أمّا جسمي فظلّ جامداً بارداً لا ينبض ولا تدبّ به حياة، كأنّ نفسي استأثرت بكلّ قطرة من حياتي. أسكرتني نشوة روحية باهرة غناء طروب سامية، وظللت على حالي حتّى مطلع الفجر، ولم أدرك كيف استرقّ النوم خطاه إلى جفني...

## ٤١

استيقظت ونور الشمس يملأ نصف الحجرة تحت النافذة المفتوحة، فوقع بصري على المرأة، وعادتنني ذكريات الليلة الماضية في لمح البصر. ودارت عينا في الحجرة فوجدتها خالية، وأدركت أنّ حبيبي غادرتها وأنا أغطّ في نومي، فتننّدي قلبي حناناً وبعثت لها بتحية ودعاء. وقلت لنفسي إنّ متاعب الخطبة والزواج والزفاف قد انتهت، ولن يضمّر لي المستقبل إلّا صفاء لا يكدره مكدر. وراجعت ذكريات الأمس فساحت نفسي في متاهة النشوة والسعادة. بيد أنّه لم يغب عني أنّي لم أبدأ بعد، وأنّي لم أكتب حرفاً واحداً في كتاب الزواج الضخم. وغادرت الفراش ونظرت في الساعة فوجدتها قد جاوزت العاشرة، فهالني تأخيري،



مرّت هذه الخواطر برأسي وحييتي ما تزال بين يديّ. فانقلبت تمثالاً جامداً من شرّ الفكر، وضاعت سعادة السعادة هباء. وتنهّدت، ولعلّها ضاقت بالوقفة، فوخزني تنهّدتها ولم أعد أطيق جمودي. ورفعتها بين يديّ، وسرت بحملي المحبوب إلى الفراش، وأتمتها في رفق ثم اضطجعت إلى جانبها. ودفعني الشوق إلى تقبيل شفيتها وخديها وعنقها بسرعة وغزارة، فداخلتها رقة وأحاطت عنقي بذراعها البضة والتصقنا طويلاً وتناهى بها العطف والحنان، واصططعت بقلبي أحاسيس الحب واليأس واللذة والخوف فكأنّي في متاهة حمّى يذهب بي هذيانا ويحيي بين أخيلة السرور وأشباح المخاوف. إني في حلم سعيد ولكنّ الخوف لا يزيلايني واليأس يثير في وجهي غباراً، وكيف لي بالنجاة وجسمي ميت لا حياة فيه؟ وأحرق جفاف الخوف حلقي، ووقفت حيال عجزي ويأسي حائراً أتساءل، ولكنّي لم أفكر لحظة واحدة في التقهقر، وأين المفر؟... بل دفعني اليأس إلى أن أنزع الروب عنها، فجرت يديّ إلى عقدة زناره وحلّتها، وشعرت بصدرها يرتجف تحت صدري، فأزحت جانبها عن صدرها فبدا جسمها الرشيق في قميص من الحرير الأبيض لا يكاد يستر شيئاً، وبادرث تُرجع طرف الروب تستر فأزحته مرّة أخرى فانحسر عن القميص الشفاف، ورنوت إلى هيئة الجسم الفاتنة بعينين لم يترك لها الاضطراب إلّا قليلاً من الإبصار. كان حالي ممّا يرثى له. ولم يكن عذاب مختصر يجاهد يائساً للاستمسك بحياة جسده بأسوأ من عذابي. ورغم هذا كلّه تابرت على عنادي، واستمددت من يأسى وعذابي قوّة وإن لم تكن تهدي. إنّ الخجول لا يفرّ إبان المعركة لأنّ الفرار شجّل حيال الغريم. أجل إنّ يتحامى المعركة، ويفرّ منها بعيداً عن الأعين، فإذا ولج ميدانها وغدا محطّاً للأنظار بات الفرار - كالعراك سواء بسواء - فوق احتماله. لذلك أجلسيت حبيبي ونزعت الروب من ذراعها وتركتها قميصاً شفافاً وجسداً بادياً. وأدارت عني رأسها، وأخفته في الوسادة. ولم تكن تعلم بأنّ نفسي تحترق يائساً، وبأنّ

وشعرت بتخدير عميق وددت لو أنام به دهرًا. وجعلت وجهها بين راحتيّ متملّكاً شفيتها اللتين برزتا تحت ضغط يديّ، ثم وضعت عليهما شفقيّ، وذبت في قبلة طويلة، وجدت حبيبي فتنة، حديثها عذب، وبديتها حاضرة، وذكاؤها باهر حتّى بدا حديثي على ضوء حديثها فاتراً باهتاً. وبدت لي لطيفة خفيفة الروح فلم يكن وقارها إلّا تأدّباً واحتشاماً. ولا أدري لماذا كنت أتحلّلها مثلاً لضبط النفس، بل وللبرود أيضاً، ولكنّي لمست في قبالتها حرارة تذيب القلب، وفي نظرة عينها عاطفة عميقة وإحساساً مرهفًا. وانطلقت على سجيّتها بأسرع ممّا توقّعت، وربّما شجّعها على ذلك ما رأت من شدّة حيائي.

ولمّا جاء الليل وأغلقت الباب ورائنا قلت لنفسي وبى رهبة زحفت عليّ مع الظلام «الليلة يتمّ الأمر بإذن الله». لم تكن لي تجارب على الإطلاق، ولم أعرف من الحياة الجنسية إلّا العادة الجهنميّة التي لم أكد أنجو منها، ولكنّي عرفت أموراً بالسماح عفواً - في الوزارة - لا أدري إن كانت تغني عني شيئاً. ورأيت حبيبي واقفة حيال المرأة تمشط شعرها فراقني منظر قامتها الرشيق الفارعة، وتدانيت منها، ولففت ذراعيّ حولها، فاستدارت حتّى شعرتُ بمسّ صدرها على قلبي. وضممتها إلى صدري في حنان وهيام. إنّهُ الحب، ولكنّي أدركت بغريزتي أنّه ينبغي أن أستنزله من السماء كثيراً كي أقوم بسواجبي!... ولكن كيف؟ إنّها تسكن إلى صدري كأنّها طيف من نسج السحاب الطاهر. وإني أبدو كروح خالصة لا يحيط بها جسد فكيف أجد جسدي؟ وسرعان ما انسربت إلى نفسي مشاعر قلق وخوف وتوتر أذكتها جميعاً تجربة الأمس الفاشلة. ولم تكن تراءت لي كتجربة فاشلة إلّا في هذا الصباح، وكذّبت رأيي أو كدت في أثناء النهار، ولكنّي عدت إليه في تلك اللحظة بتسليم ويقين ويأس. ثمّ استحوذ عليّ الحياء القاتل فأثلج دمي وأوهن عزيمتي. وركبني خوف شديد من الفراش الذي لا أجد لنفسي عذراً عليه بينا أجد شبه عذر بعيداً عنه.

هذا المشهد ما هو إلا مهزلة، فتضاعف ألمي وخجلي. ومع ذلك مددت يدي مرة أخرى كأنني ما زلت أطمع في أمل لا أدريه. مددتها وهي ترتجف من اليأس والبرودة فنذ عن حبيتي صوت يهمس:  
- إني خائفة...

واخجلتاه!... ممّ تخاف؟!... لقد ألهيتني همستها كسوط حُمِلت أطرافه بالرصاص، ومع ذلك لم أتوقف... لم تتني لا المقاومة ولا الصدود... حتى بلغ النظر غايته! ماذا دهاني؟ ليس الموت فحسب ما بي. إنه شيء جديد مفزع مزعج، ماذا دهاني؟ ربه حبيتي جميلة لطيفة ولكنّه الجهل والخيال الأعمى! كنت غرّاً أعمى لم تر عينا نور الحياة، فتخيلت عنه خيالات صبيانية فلما أن رأت النور الحقيقي أنكرته! إنها مأساة. ولعله لولا موتي لما كانت مأساة على الإطلاق. وقد علمتني تلك التجربة القاسية أنّ الحب يخلق الجمال كما يخلق الجلال الحب... ومهما يكن من أمر فقد ركبني الفزع فوق ما بي من يأس وخجل ولم يعد ثمة أمل. ولبثت جامداً وحبيتي دافئة وجهها في الوسادة، مستسلمة تحت رحمة جلاّدها... لبثت جامداً لا أدري ماذا أفعل ولا كيف أترجع ووجدت في لحظة رهبة قوة عصبية متوترة تدفعني إلى الضحك لولا أن تماسكت وشعرت في اللحظة الثانية برغبة في البكاء، ولولا أنّ البكاء مخجل لروّحت بالدمع عن نفسي الملتاعة... ثم استنقلت الجمود كما خفته فضممتها إلى صدري وقبّلتها ومشاعري العطف والحزن - علينا معاً - تسيل من شفقيّ، كان رثاء بالقبل. ومرّ الوقت كأنّ دقائقه وتوانيه أسنان منشار يحزّ عنقي، ومرّت دقائق ورّماً ساعات. ثم انقلب الحال مملاً مضيئاً، وفي حركة لطيفة تخلّصت من ذراعي... وتغلّطت بثيابها وبدا لي النوم نهاية مضحكة ولكن ما حيلتي؟! وقدت حبيتي دون أن تلتقي عينانا فلم أدري متى رنق الكرى بجفنيها. ولبثت مسهّداً متعباً لا أدري بأيّ وجه ألقاها في الصباح. أيّ شيطان أغراني بالزواج؟... ألم يكن عذاب الحسرة القديم خيراً من هذا العذاب؟... كيف خانني جسمي؟

ليس هو الجسم الذي يلتهم نازاً في العادة الجهّمية!! وإلّا يدوم هذا اليأس!... ظلّ رأسي كقطعة محبّة من الحديد يتطاير عنها شرر الأفكار.

حبيتي عطف ورحمة. وقد طالعتني في الصباح بالابتسامة المشرقة. ووثبت هنا وهناك ببشر وسرور ومرح، فلم يداخلني شكّ في أنّها عروس سعيدة. ولو بدا لي أنّها تتظاهر بالبهجة لتخفّ عني الحرج لما وسعتني الدنيا شقاء، ولكنّها كانت تصدر في مرحها عن وحي فطرة بسيطة سليمة لا تعرف التصنّع ولا التمثيل. وشعرت بصدق وحقّ بأنّ فتاتي تحبّني، وبأنّها قلب كبير مليء بالحنان والعطف والأنوثة، فعادوني الأمل. وقلت لنفسي إنّنا ما زلنا في البداية وإنّ مسرّات لا حصر لها تنتظرننا إذا عبرنا الخطوة الأولى الشاقة، وقضينا النهار معاً، بعضه في الحديث وبعضه الآخر في مشاهدة الرسوم والألعاب التي مهرت في إبداعها لأطفال الروضة. وحين المساء زارتنا أسرتها، وجلسنا جميعاً في حجرة الاستقبال ومعنا أمي أيضاً. وتحذّثنا طويلاً، والتهمنا بلذّة الشيكولاتة والمثلّس. وحاولوا أن يجزّوا أمي إلى الحديث، ولكنّها - متلي - لم تكن محدّثة ماهرة، فبدت متحفظة، وخيل إليّ أنّ محضرها لم يترك أثراً حسناً في نفوسهم، وأنّ رباب شاركهم نفس الشعور، وما لبثت أن سرت العدوى إليّ، وكنت أجد نحوها إحساسين متناقضين. إحساساً بالرغبة في وجودها معي وهو ما ألفته وطُبعت عليه، وآخر بالخجل الأليم لوجودها في بيت الزوجية. والحقّ أنّي ما كنت أذكرها حتّى يتندّى جيبني خجلاً. ولما انفضّ السامر وأقبل الليل استقبلته بكابة وخوف، وما كاد باب حجرتنا يغلق وراءنا حتّى نضب معين السرور والبشر من قلبي، وغاض منه الأمل الذي ابتعته مرح النهار، وبدا لي أنّ فتاتي تعاني بعض ما أعاني، وأنّها تداري قلماً لم تنفع لباتها في مداراته. تولّت عني الثقة في أقلّ من ثانية، وتحايلت لعينيّ ذكريات الليلة الماضية، وتميّت لو كان في الإمكان أن ننام دون أن

فكابدتُ عذابِي وحيدًا صامتًا يائسًا. وكان نهارًا محتملاً، بل بهيجًا بفضل حبيبي التي تذيب روحها راكد الهمِّ، حتَّى إذا جاء الليل غشيتنا كآبة لم تنفع حيلة في تبديدها: كان كلانا يشعر بالخرج والضيق والخوف. ولم تواتني الشجاعة على معاودة التجربة بعد إخفاق الليلتين المتعاقبتين، فكنت أقنع بأن نضطجع جنبًا إلى جنب، وأضُمَّها إلى صدري، منتظرًا الرحمة في خوف وقلق واهلع، حتَّى يتسلي النوم من عذابِي، ولذلك لم يزل الحياء حجابًا بيني وبينها، ولو أتيت لنا الامتزاج لرفع الحجاب رويدًا رويدًا، فلم أستطع أن أشكو إليها بئي وهمني، وطالما نازعتني نفسي إلى الترويح عنها بالكلام، فما أكاد أفتح شفتي حتَّى أطبقها في ارتباك وخجل. وفي إحدى هذه المرات قالت لي بصوت مهموس:

- هل ترغب أن تقول شيئًا؟ ...

ووجدت وراء تساؤلها دعوة إلى الكلام، فخفقت قلبي بعنف وقلت في اضطراب أخففته بجهد شديد:

- أرغب دائمًا أن أقول إنِّي أحبك!

هذا حق في ذاته، ولكنِّي كنت أرغب بلا ريب أن أقول شيئًا آخر، وأحسست بأنّها تقرأ صفحة أفكارِي الخفية، فجثم الكذب على صدري كالكابوس، وغمغمت بعد أن جاهدت حياتي جهادًا مريرًا:

- إنَّ ما مضى من حياتنا المشتركة لا يقاس إلى ما ينتظرنا من عمر طويل.

وخيل إليَّ أنَّ وجهها تضرَّج بالاحمرار وإن كنت أراه على ضوء المصباح الساهر الخافت، وداعبت شعري بأناملها، ثمَّ قبلتني قبلة عذبة على شفتي، وسألتني في أذني:

- أياضيك شيء؟

فالتهب جسمي خجلًا وألمًا. وقلت بإخلاص:

- معاذ الله ...

وصمت على رغمي مليًا، وقلبي يخفق بشدَّة وعنف، ثمَّ قلت وبودِّي لو أتوارى عن ناظرِيها:

- إنَّها مسألة وقت ...

هكذا تعاقبت الأيام، ومرة أخرى أقول إنَّه لولا

نجرَّب محاولة جديدة، وأيقنت بالإخفاق قبل البدء. على أنَّي لم أجد بدءًا مما ليس منه بدء. وأعدت التجربة بحذافيرها من قُبَل وعناق وإخفاق! أجل إخفاق وإخفاق وإخفاق. مسكينة حبيبي، لقد استسلمت بادئ الأمر فيما يشبه الخوف. ثمَّ انتهت بأن لمت نفسها في حياء وارتباك. انتهينا في ساعة متأخرة كما انتهينا أمس، فنامت هي، وبقيت مسهَّدًا متفكرًا. ماذا بي! ... إنِّي أحبُّها بكلِّ قوَّة نفسي، بل إنِّي أعبدُها عبادة ولئن يغلو بيتي منها بعد اليوم لأهلكنَّ لا محالة، أنكمن المأساة فيما دهاني به النظر من انزعاج لم أتوقَّعه! ولكن هذا محض افتراء لأنَّ موتِي سابق للنظر فليس فيها رأيت دخل فيه، بل إنِّي آلف الحقيقة التي غابت عني سريعًا وتكاد تنهزم خيالات الوهم الصبيانية حيال الواقع الحقيقي، ولم يتغيَّر متي شيء. ... وقد أثر فيّ حياؤها وارتباكها - وهي ترتدي ثيابها - تأثيرًا عميقًا فأقسمت لا أقرِّب ثيابها حتَّى يغيَّر الله ما بي!

ومضت بنا الأيام في حبِّ طاهر، فامتزج روحانا، حتَّى صارا روحًا واحدًا في جسمين غير متصلين. ولولا حبُّها العميق، ومرحها الطليق، وبساطة قلبها الكبير، لمثُ غمًا وكمدًا ...

وإنَّها لأيام عجيبة، وإنَّه شهر غسل غريب! وكانت حبيبي مثالًا للشعور الحي والرقَّة البالغة والحبِّ الصادق. وكثيرًا ما كنت أسترق إليها نظرات متفحصة مستربة فلم أجد منها إلَّا الصفاء والوداعة والرضا، فكاد يقع في روعي أنَّه لا يعوزنا شيء، وأستطيع أن أقول إنِّي لم أنعم بالراحة إلَّا في تلك اللحظات. وفيما عدا ذلك كانت حياتي جحيماً مستعرًا لا يدري به أحد، لم تعد سعادتي إلَّا أويقات طارئة كأنَّها إفاقات من يعاني سكرات الموت. وشعرت بشدَّة حاجتي إلى المشير. ولكنَّ حياتي وقف في طريقي سدًّا منيعًا كالجبل الراسخ فاستحالت عليَّ المشورة حتَّى محرَّد تخيلها كان يشبُّ في نارا ويبعث في نفسي إحساسًا قاهرًا للفرار والاختفاء. وفضلاً عن هذا وذاك فلم يكن لي صديق، وكانت أمي - وهي صديقي الوحيد في دنياي - أبعد من أن أذكرها في هذا الأمر خاصَّة،

حبها العميق ومرحها الطليق وبساطة قلبها الكبير لم تُغَيِّمًا وكمدًا

\* \* \*

وذاث مساء - وكان مضى على زواجنا ثلاثة أسابيع - لاحظت أنها تخالسي نظرات تنم عن الحيرة، وأن لديها ما تقوله، فقلت لها مدفوعًا برغبة قويّة في استدراجها إلى الكلام:

- في عينيك كلام...

فقلت مبتسمة في ارتباك:

- أجل...

فمضيت إليها وكانت جالسة على المقعد الطويل وجلست لصقها، وقلت مستسلمًا للشعور الطارئ نفسه:

- هاتي ما عندك...

- أتي...

وانفجر الاسم في أذني كالقنبلة، إنّه لفظ واحد ولكنّه يتضمّن كتابًا، وإني على رغم غبائي أفهم ما يعنيه. ولعلّ الأمّ تواحدها بهذا السؤال الطبيعيّ المعروف فتسمع ردًا على سؤالها جوابًا واحدًا لا يتغيّر «كلّا بعد...»! ولما طال السكوت قالت حبيبي برقة:

- إنّا لا تفتأ تسألني، ولا أدري ماذا أنفد صبرها...

وقتلني الخجل، وتميّزت غيظًا، ثم قلت بهدوء:

- هذه شؤوننا الخاصّة. أليس كذلك؟

فقلت كمن تعتذر:

- طبعًا... إنّ هي إلّا تريد أن تطمئنّ علينا. هذا كلّ ما هنالك...

فسألته محزونًا مغنّيًا:

- وماذا قلت لها؟

فقلت باهتمام وعجلة:

- لم أقل «شيئًا» مطلقًا... فقط صارحتها بأن لا داعي للعجلة.

- وماذا قالت؟!

فتفكرت مليًا كأنما لترن كلماتها، ثمّ قالت:  
- قالت لي إنّ للموقف رهبة، وخاصّة بالنسبة لشابّ طاهر خجول، وإنّه إذا دعا الحال فلدينا صباح الجارية...

فأتسعت عيني دهشة وقلت بذهول:

- صباح!

فأومأت برأسها بالإيجاب في ارتباك، فتساءلت بدهشة:

- وماذا تستطيع صباح؟

وتردّدت لحظة، ثمّ أنشأت تشرح لي ما غمض عليّ أوّل وهلة، وأنصتُ إليها باهتمام حتّى أدركت كلّ شيء، وأخذت أفيق من ذهولي رويدًا رويدًا. ولست أخفي أنّي شعرت بارتياح إلى اقتراح الأمّ، فهو يزيل عقبة من سبيلي، ويخلّيني من بعض المسئوليّة، ويعفيني من مراقبة الأمّ، ولا أظنّها تسأل بعد ذلك عن شيء... وسألت زوجي بحياء:

- وكيف نخبر صباح؟

فقلت ببساطة:

- لقد حضرت صباح جانبًا من حديث أُمّي...

فهتفت بحياء وانزعاج:

- كيف؟... كيف بالله!

فقلت مبتسمة:

- لا عليك من هذا، إنّها أُمّي أيضًا ولا نخفي عنها شيئًا.

وتبادلنا نظرًا طويلًا صامتًا... ثمّ سألت في إشفاق:

- وهل علم أحد من الآخرين؟

قالت بلهجة لا تدع مجالًا للشكّ:

- مطلقًا...

فداخلي ارتياح، ولكن شعرت بحاجة إلى مزيد من الاطمئنان، فقلت بلهجة ذات معنى:

- أرجو ألاّ تخرج «أسرارنا» من هذا الباب!

فحدجتي بنظرة عتاب وتساءلت:

- أيدخلك في هذا الشكّ؟!

وعدت وأنا لا أدري إلى أمر العادة الجهنمية التي لم يعرفها زوج قبلي. ألا ما أشد حيرتي وقهري! كيف يقع لي هذا وقلبي يعبدها عبادة!... بل كيف ونظرة إلى وجهها أنفس عندي من الدنيا وأنعمها! إنها حياتي وسعادتي ودنياي جميعاً.

\*\*\*

وجدتها يوماً وكأنها تعاني رغبة الإفصاح عن شيء يعتلج بنفسها، ففحق قلبي قلقاً وخوفاً، ولكن لم يسعني أن أتجاهل ما رأيت مفصلاً أن ألقى الخطر وجهاً لوجه على أن أضيف جديداً إلى ما أكتمه في نفسي من القلق والوساوس، فسألتها:

- ماذا وراءك يا عزيزتي؟

فلاح في وجهها التردد والضيق ولاذت بالصمت، فتضاعف قلقي وقلت بفؤاد منقبض:

- هاتي ما عندك لا تخفي عني شيئاً...

فنفخت قائلة:

- أمي...

وقع قولها من نفسي موقع الفزع والهلوع، ما بال هذه المرأة لا تريح ولا تستريح! ولشد ما أبغضتها في تلك اللحظة، على أنني تساءلت متظاهراً بقلّة المبالاة:

- ما لها يا رباب؟

فقال بصوت منخفض وهي تنظر فيما بين قدميها:

- لا تفتأ تسألني هل جدّ جديد في الطريق!

ومن عجب أيّ فهمت المراد من هذا المجاز! فهمته بغريزي، أو بالخوف الكامن في نفسي وبلا أدنى تردد، ولكّني تساءلت متجاهلاً:

- ماذا تعنين يا رباب؟

فاومأت إلى بطنها وهمست قائلة:

- تعني هل جدّ جديد هنا؟!

تولّاني فزع شديد، فاطرقت مرتبكاً محزوناً، عمّ تسأل المرأة؟ لعلّها تريد أن تعرف شيئاً أخرى ضمناً، وحنقت عليها حنقاً فظيماً. واختلست من رباب نظرة فوجدتها ساهمة الطرف، صامتة... أحقاً يضايقها تساؤل أمّها أم هي تبلّغني وفي نفسها غرض؟ أبانت بدورها تشارك أمّها قلقها وجزعها؟... ولماذا تتوارى

ولكن ليس هذا كلّ شيء في الزواج. وكيف يكون كلّ شيء وهو «واجب» قامت به صباح؟! وتساءلت في سذاجة مضحكة عمّا ينقص حياتي الزوجية، وهل هو ضروري لهذه الحياة! ومن عجب أنني ترددت عن الجزم! وتساءلت ألسنا سعداء! نحن نعيش في هناء وغبطة، ويحبّ كلانا صاحبه حبّاً لا حدّ له ولا يداخل أحداً شكّ في سعادتنا، فلماذا تزعجني الأوهام؟! ولكنّ الإنسان موكل دائماً بالتفكير فيما ينقصه، حتّى ينسى ما بين يديه بما هو بعيد عن يديه، فلم تزايلني الوسواس، ولم أستتم لحياتي. وفي ليلة من الليالي، وكنت مضطجعاً على ظهري أراود النوم وقد رنق الكرى بجفنيّ حبيبي، طاف بي الفكر مسارح بعيدة حتّى نسيت ما حولي أو كدت، فساورني شعور بالوحدة، قوّاه في نفسي ما يحيط بي من ظلمة، ورويداً وجدت حياة تدبّ في جسدي، كتلك الحياة التي كان يستثيرها الظلام والوحدة.

وسرعان ما استخفّني الفرح فكدت أصبح من فرط سروري. ثمّ أقبلت على حبيبي النائمة أيقظها بالقبّل حتّى فتحت عينيها في انزعاج استحالة دهشة، ومرّت ثوان قبل أن تستفيق من دهشتها، ثمّ مدّت ذراعيها إلى عنقي فضممتها إلى صدري بلهفة وشوق، ولكّني ما كدت أفعل حتّى عاد كلّ شيء إلى أصله، وزحف الموت البارد على جسدي حتّى شمله في أقلّ من ثانية، وانقلبت إلى حيرة خرساء وخجل غزير! وتبادلنا نظرة غريبة على ضوء المصباح الخافت، وبدا في وجهها أنّها لا تفهم شيئاً فسألتي:

- أكنت تحلم؟

ما أصدقها من كلمة وإن قلت اعتباطاً، ولشدّ ما زلزلتني تلك الحادثة زلزلة عنيفة قضت قضاء مبرماً على ما كان يترامى لي أحياناً من أمل وإيه، وعرضت لي خلوات أخرى في ظلام الليل وحبيبي غارقة في نومها، وعساودني ديبب الحياة الغريب، ولكن لم تتواتي الشجاعة مرّة أخرى على إيقاظها، ووجدتني أتردّى من جديد في الهاوية التي انتشلتني الزواج منها قرابة شهر،

تعمري حبيبي الطاهرة المحتشمة هذه الشهوة الوحشية؟ إن هذا لأبغض مما أتصور!

\*\*\*

وانتهت إجازتي فعدت إلى إدارة المحازن بالوزارة، واستقبلي الموظفون استقبالاً حافلاً، لم يكن لي بينهم صديق، ولكن المناسبة - عودة عروس من شهر العسل - أنستهم تحفظهم فأقبلوا عليّ بين مهوٍ ومداعب وتلقّيتهم في صمت وارتباك وخجل، وتكلّموا كثيراً. وتطوّع أحدهم بتحذيري من الإفراط، واستفاح الحديث حتّى ألهاهم عنيّ، وخاضوا في طبيعة الرجل وطبيعة المرأة، واستشهدوا بالأمثال والحوادث والحكايات. أنصت إليهم خفية وأنا أظهار بفحص الآلة الكاتبة، بقلب مكلوم ونفس معذّبة، وكم تمثّيت أن يستشهد أحدهم بحالة «كحالتني»، ولكنّ حالي لم تقع لأحدهم في حسابان، وامتلات نفسي بما سمعت حتّى دارت بي الأرض، إنّ رباب امرأة فهل يصدق عليها ما يصدق على النساء إن صحّ ما يقوله هؤلاء الموظفون؟ أيمن أن تضيق بحياتها أو تمثّل عشري؟ ولكنّها سعيدة؟ ما رأيت وجهها إلّا متألقاً بنور السعادة، وما رنت عيناها إليّ إلّا بالحب والإخلاص، إنّ وجهها لا يعرف الرياء، وإنّه لصفحة نقيّة ومرتاد طاهر لا يكتّم كذباً ولا يداري إثماً. كذب هؤلاء الموظفون! إنهم حيوانات فلا يرون الناس إلّا حيوانات مثلهم. بيد أنّي غير مطمئن، ولن أذوق الطمأنينة مهما أقنعت نفسي بها، لقد نبت دُمّل الشكّ. ولما خلوت إلى حبيبي ذلك اليوم جعلت أنظر إليها طويلاً متفكّراً دون أن أنبس، حتّى ضحكت وقالت لي:

- هل عاودك الحنين إلى النظر الصامت القديم؟ وهفّت على فؤادي نسمة لطيفة من قديم الذكريات حين فؤادي مضطرم وأملّ مشرق وهذه البلوى لا تدور لي في خلد. وتمثّلت الذكرى ملياً، ثمّ سألتها في إشفاق:

- رباب... أأنت سعيدة؟

خلف أمّها؟ إنّ المكر لا يجعل بمن كانت في مثل جهالها وطهارتها! وما كان أغناها عن اللفّ والدوران! هكذا حملني الفزع على عدم تقدير موقف فتاتي المظلومة. واستندّ بي الحرج حتّى أرهقني وأعياني، ثمّ تركّز اهتمامي في شيء واحد، وهو أن أسبرمدى ما تعرف نازلي هانم من أسرارنا، فسألته قائلاً:

- وماذا قلت لها؟

فقلت بساطة:

- قلت لها الحقيقة!

فتشّج قلبي تشنّجة حادة وصحت بفزع:

- الحقيقة!

فحدجتي بدهشة وتساءلت:

- ما لك؟!

فهتفت في انزعاج:

- أحقاً قلت لها الحقيقة؟!

فقلت بعجلة ولهوجة:

- أجل قلت لها إنّه لم يجذّ شيء بعد!

وتنفّست الصعداء! إنّها تعني حقيقة غير التي تشغل

بالي. على أنّه بقي في النفس شيء. فقلت بحرارة:

- «رباب» أهذا كلّ ما قالت؟ لا تخفي عنيّ شيئاً وأنت قلبي وحياتي.

فقلت بارتباك وقد قرأت البراءة في عينيها:

- عمّ تساءل يا كامل؟ إنّي لم أقل لها كلمة واحدة

زيادة عمّا قلت لك. لقد سألتني عن هذا الأمر فلم

يسعني إلّا أن أجيب بالحقّ والصدق، وهو أمر كما

تعلم لا ينفع فيه الكذب، فهل تراني أخطأت؟ أم

كنت تريدني على أن أظهار بالحبّل؟...

فقلت في ارتياح نسبيّ:

- كلّاً يا عزيزتي... لقد أحسنت بصراحتك...

لن أذوق طعم الأمان ما دامت هذه المرأة على مقربة

منّا... ربّاه، إنّي أحتضن همّي وحدي لا صديق ولا

مشير. ولقد ضقت ذرعاً بأمّها وبأمّي وبنفسِي! وعاودني

السؤال القديم: هل ما ينقصنا ضروريّ للحياة

الزوجيّة؟ هل تجد حبيبي مثل هذا الإحساس الحيوانيّ

الذي دفعني إلى اعتناق العادة الاثمة؟! أيمن أن

بالخط الكبير: «الدكتور أمين رضا، أخصائي في الأمراض التناسلية من جامعة دبلن» ولم أكن رأيته من قبل، فحدثني نفسي فجأة بالجلوء إلى الطبيب. ومع ذلك لم أستسلم للفكرة بغير تردد. ثار خجلي وخوفي، وكادا يثنيني عما خطر لي ولكنّ تلّهني على النجاة كان أقوى من خجلي هذه المرة، فصممت على الذهاب ذات مساء، وذهبت...

كان الطبيب مشغولاً بفحص مريض. فجلست في حجرة الانتظار، وكانت الحجرة خالية فداخني ارتياح عميق، وإن شعرت بالاستهانة بالطبيب. ولم يطل بي الانتظار، فدُعيت بعد دقائق إلى حجرة الكشف ووجدتها آية في فخامتها وأناقتها، كاملة العدد، وبها من أدوات الرهبة ما ردّ إليّ الهارب من ثقتي. وإلى يمين الداخل مباشرة جلس الطبيب إلى مكتب كبير مزدحم بالكتب والكراسات. كان شاماً في الثلاثين على أكثر تقدير، نحيف القوام، طويل القامة، مجعد الشعر، ذا بشرة سمراء وقسمات دقيقة واضحة، وعينين حادتين تلتصقان وراء نظارة أنيقة. وكان مما يلفت النظر إليه شارب كثيف فاحم غطى فمه وأكسبه وقاراً ليس من سنّه، حيثّه فردّ تحيّي باقتضاب، وحدجني بنظرة مستهمة قرأت فيها الترفع والكبرياء، وثقة بالنفس تبلغ حدّ الغرور، فلم أرتح إليه. وكان منظره عامّة مخيّباً لأملّي، لأنّي توقّعت أن أرى شيئاً مهيباً بساماً كطبيب ذهب بي أمّي إليه مرّة منذ أعوام طوال، فاستأنت ووددت لو لم أكن قدت نفسي إلى هذا الشرك. وقال لي بهدوء:

- تفضّل بالجلوس.

فأذعنت وأنا أرمقه بقلق. وجعل ينظر إليّ منتظراً أن أبدأ بالكلام. ولكنّ فكري تشّتت وجفّ حلقي ولبثت ملازماً الصمت حتى قال متسائلاً:

- أفندم؟

فاستجمعت قواي، ولكنّي لم أزد على أن قلت:

- جئت للكشف...

فسألني بهدشة:

- ماذا تشكو على وجه التحديد؟

فنظرت إليّ باستغراب وقالت بصوت ينم عن الصدق:

- سعيدة جداً...

فتساءلت وعيناي تطرقان من فرط الحياء:

- أتحبيني؟

وكانت على بعد شبر منّي فتزحزحت حتى التصقت

بي ورفعت إليّ وجهها موزّداً وغمغمت:

- أجل أحبّك...

فأحطت خاضعتها بذراعي وقبّلت شفّتها وخذها، وتناولت يدها الصغيرة الجميلة وجعلت أقبل أناملها أغلة أغملة في حنان وهيام، وكنت في الواقع أمهد بما قلت لما أرغب في الإفصاح عنه ممّا ضقت بكتمانها، ولمّا هممت بالكلام خانتني شجاعتي وانعقد لساني. أردت أن أثبها همتي، وأن أعترف لها بأنّ ما يعتريني حيالها طارئ غريب لا أدري كنهه، وأنّي لم أكن كذلك بل إنني لست كذلك إذا خلوت إلى نفسي، وأن أسألها المشورة والمعونة، هذا ما كنت أريد البوح به، ولكن خانتني العزيمة فنكصت مغلوباً على أمري. ثمّ سلّمت بالهزيمة كعادتي، وجعلت أسوّعها لنفسي قائلاً: إنّ البوح بهذه الأسرار حريّ بأن يسيء إليها ويغضبها، وربّما قضى على سعادتها قضاء مبرماً.

وعندما آوينا إلى الفراش حدثني نفسي بأن أعاود التجربة، ولكنّي تردّدت، وتردّدت طويلاً حتى تملّكتني الخوف فوّلّ قلبي فرازاً، لقد بتّ أخاف جسمها بقدر ما أحبّها، وتأملت حياتي في صمت الليل وظلمته، فبدت لي غريبة متنافرة، وضاق صدري فلم أجد من متنفس له غير البكاء فبكيت طويلاً...

#### ٤٤

وخطر لي أن أستشير طبيباً، وجاء الخاطر فجأة، بل لعلّه كان محض مصادفة، ولم أكن فكّرت في استشارة طبيب الخجلي الشديد من ناحية، ولا اعتقادي بأنّ حالتي لا شأن لها بالطبيب من ناحية أخرى، ولكنّ بصري قد وقع يوماً وأنا في طريقي إلى الوزارة على لافتة كبيرة مثبتة على شرفة بشارع قصر العيني قد كُتب عليها

وعانيت عذاباً شديداً قبل أن أقول:

- لمي رجل متزوج .

ثم سكّ، أو بالأحرى انعقد لساني، ولكنني استنقلت السكوت، على حين استحثّني عينا الطبيب الحادّتان فاعترفت بكلّ شيء! تكلمت بادئ الأمر باضطراب وتعثر، ثم تشجعت بما لاح في وجهه من أمارات الجذّ والرزانة فتدفقت بلا توقّف، وشعرت كأنما ألقيت عن عاتقي حملاً ثقيلاً، وكأنما بات هو المسئول من الآن فصاعداً عن الشقاء الذي نغص عليّ صفوري. وسألني الطبيب:

- متى تزوّجت؟

فقلت:

- منذ قرابة شهر ونصف.

- متى وجدت هذه الحال؟

قلت بامتعاض:

- من أوّل ليلة.

- هل انتابتك قبل الزواج؟

- لم يكن لي تجارب مطلقاً. . .

وسألني عن الأخرى فتردّدت لحظة ثم أجبت بالصدق. وسألني عن بعض التفاصيل فأجبت به صراحة، ولم أخفب عنه إفراطي المخيف. وعاد يسألني.

- ألم تمارس عادتك بعد الزواج؟

وأعجبت به لسؤاله الذي بدا لي فراسة ثاقبة فقلت:

- بلى. . .

فقال متفكراً:

- كأنّ طبيعتك لا تتغيّر إلاّ حيال زوجك.

فقلت بحيرة وأسى:

- أجل. . .

فسكت ملياً ثم قال:

- سأطرح عليك أسئلة صريحة وأرجو أن تجيبي بالصدق. هل تحبّ زوجك؟

- جداً. . .

- أهبها شذوذ من أيّ نوع كان، أو برودة في

الطبيعة؟

- أبداً. . .

- هل نشأتما نشأة واحدة منذ الصغر؟

- إنّها ليست من ذوات قرباي. . .

والقى عليّ بعد ذلك أسئلة استفطعتها، ولكن لم يكن بي شيء منها، فأجبت بصدق وصراحة. ونهض قائماً، ثم أجرى عليّ فحصه في أناة وعناية، فاحتملته بقلب واجف ونفس يصطرع بها الأمل واليأس. وعدنا إلى جلستنا السابقة، فراح يقيد في كراسه ما يعنّ له ثم اعتدل في جلسته وقال لي:

- جسمك سليم. أجل إنّك أسأت إلى نفسك بعادتك المردولة فتركت بك أثراً يحتاج لغسيل خاصّ، ولكن لا علاقة لحالتك الأخرى بهذا فيما أعتقد، فليس عجزك بنشأتي عن سبب فيزيقي، ولعلّك تعاني أزمة نفسية، أليس في بلادكم عيادات نفسية؟

فلم أفقه معنى للشطر الأخير من كلامه، وعجبت لقوله «بلادكم» كأنّه أجنبيّ عن هذه البلاد. وقلت له بدهشة:

- أنت أعلم مني بما تسأل عنه يا دكتور!

فقال مبتسماً:

- الحقّ أنّي حديث عهد بالوطن، ولم أفتح عيادتي هذه إلّا منذ أيّام. . .

فأدركت لماذا وجدت عيادته مقفرة، ولماذا لم أر لافتته من قبل. بيد أنّي بت أدرك كذلك أنّ هذه المرمطة التي ابتليت بها قد انتهت إلى لا شيء، فعاودني القنوط والكمّد. واستطرد هو قائلاً:

- ليس بك من نقص مطلقاً، وإنّك تستطيع أن تقوم بالواجبات الزوجية، وستقوم بها يوماً ما فلا تدع لليأس سبيلاً إلى نفسك. كثيراً ما يحدث هذا لبعض الشبان ثمّ لا يلبثون أن يعودوا إلى حالتهم الطبيعية بعد فترات متفاوتة، فانظر يومك بثقة لا شكّ فيها. وأنصحك أن تمرّ عليّ للغسيل حتّى تزول حالة الاحتقان الخفيفة.

أصغيت إليه باهتمام وبكلّ جوارحي، وتنازعني



مخلصة، ولم تعد إلى ذكر أمها، فلم أدر إن كانت المرأة انقطعت عن تساؤلها أم كانت حببتي تخفي عني ما يدور بينها من حديث. لشدة ما أحبها يا ربي، إن امتزاجنا في حياة واحدة لم يذهب عني سحرها، بل أسكنها أعمق مكان في قلبي. وإني لأهيم بها وهي لصقي على المقعد أو الفراش كما كنت أهيم بها وهي تلوح في الشرفة أو وراء زجاج النافذة. وإنه لمن التعاسة حقاً أن ينقص عليّ سوء الحظ تلك الأيام الحافلة بأشهى فرص السعادة والهناء.

وكان سوء الحظ لم يقنع بما رماني به في نفسي، فرماني بأمني أيضاً...

وأمني على تأديها لم تكن لتعلج أبداً في مداراة عواطفها، فإن لم يخنها لسانها خانتها عينها، وإن لم تخنها عينها ثمت عليها ما التزمت من حال عريضة سليبة. انطوت على نفسها، وجعلت من حجرتها سجنًا لا تكاد تغادره، وكأنما فرغت للعبادة والصلاة، ولم تخف على رباب هذه الجفوة الطويلة، وكانت على دمايتها ورقتها تنقلب حيال أمني كأية امرأة من النساء انفعالاً وغضباً، فكانت لا تفتأ تقول لي: «لشد ما تكرهني أمك». ولم تقبل أمني أن تغير من سلوكها، معتلة بأنها لم تعد صالحة للمجاملة والاختلاط. وكنت إذا ذهبت للجلوس معها تلقيني برقة وابتسام، وحذثني بخضوع واستسلام، فسرعان ما أشعر بغربة الجوّ، وبأنّ حجاباً ثقيلاً يقوم بين نفسيها، وبأنّ حيال شخص آخر غير الأم التي عرفتها طوال تلك الأعوام. وما أكاد أفاطمها بأن زوجي تضيق بتحفظها حتى تقول لي بحدة: «إنّ زوجك تكرهني، هذا كلّ ما هنالك». كنت أتجلّد وأتصبر والألم يمحض نفسي والكآبة تغشى روحي...

وذهبت مرة إلى أختي راضية لقضاء يومين، وكان المكان أعجبها فمكثت اليوم الثالث وأوشكت أن يلحق بها اليوم الرابع. كان أول أيام نفترقها في حياتنا المشتركة، فثقل على قلبي فراقها، ووجدت وحشة لا تطاق في خلوّ البيت منها، وذهبت إلى شقيقتي لأعود بها فلم تحبّ رجائي وعدنا معاً.

اليأس والأمل بعنف وقسوة. متى يأتي هذا اليوم! وهل يأتي حقاً! انتهى الطبيب من عمله وقوله، ولكنني لم أبدأ حراكاً وظللت متشبّثاً بمكاني، وثبتت عيناى عليه في استغائة وضراعة. ثمّ سألت:

- ماذا عنت بالعيادة النفسية؟

- أوه... إنها عيادات من نوع حديث ولا أحسبها توجد في بلادنا. ولكن لا تلق بالآ لما قلت، ولا أظنك في حاجة إليها.

- قلت إنني ربّما كنت أعاني أزمة نفسية. فما معنى هذا؟!

- قلت لك لا تلقي بالآ لما قلت قد غاليت في تقديري، ولست على أية حال طبيباً نفسياً فلا أخوض بك أموراً عسى أن تضر أكثر ممّا تنفع. إنّ علاجك بيدك فلا تيأس ولا تفقد ثقتك بنفسك واقهر الخوف والقلق، وانتظر الشفاء بثقة لا شك فيها.

وسألته سؤالاً آخرًا:

- أرايك هذا حاسم لا شك فيه؟

فأجابني بثقة:

- أجل...

وغادرت العيادة حيرةً ممّا دخلتها. عدت وبى أمل ورجاء. وقلت لنفسي. إنّ الطبيب لا يكذب ولا يخطئ فاستخفني السرور، وقطعت الطريق إلى البيت مشياً على الأقدام. ومررت في طريقي بالعمارة التي تقطنها أسرة زوجي، عمارة الذكريات، فحلّق بي الخيال بعيداً، وعلى حين فجأة فتر حماسي واستحوذ عليّ القلق، ولم ألبث أن انقلبت إلى التجهّم، بيد أنني رحت أردّد على مسمعي ما أكّده لي الطبيب متلمساً الثقة بأيّ سبيل.

وبالرغم من قلبي الدائم كنت أعلّل النفس بالشفاء. وواصلنا حياتنا البريئة محدوني هذا الأمل. وكنت أسترّق إليها النظر إذا اشتدّ بي القلق وأسأل نفسي ترى أهي سعيدة حقاً كما تبدو لي؟ أما تزال تحبني؟ أما هي فكانت تبدو سعيدة راضية، محبة

وقلت لها في الطريق متودّداً:

- لم أحتمل البيت بغير وجودك...

فافتّر ثغرها عن ابتسامة صافية، وكانت تتأثر بالكلمة الطيبة تأثر الأطفال ولكنها قالت لي:

- يَحْتَلِ إليّ أنّ وجودي في بيتك لا معنى له، وأنه يضايقكم.

فأحنقني قولها، وقلت باستياء:

- ساعحك الله على ما ترميننا من تهمة باطلة. لقد تغيّرت يا نينة بلا موجب فتغيّرت الحقائق في نظرك، ولا يسعني إلا أن أقول مرة أخرى ساعحك الله.

فنظرت نحوي بغرابة وقالت بهدوء يقين:

- إنّ زوجك تكرهني، وبالتالي فهي لا تودّ بقائي في البيت، وقد ظننت أنّ ما تودّه زوجك ينبغي أن تودّه أنت.

وشعرت بأنّها لا تترقّق بي متعمّدة فكاد ينفجر غضبي لولا رغبتي الصادقة في المسالمة والمصالحة فكظمت نفسي وقلت واجماً:

- إنّ زوجي لا تكرهك، وهي على العكس من هذا تظنّ أنّها موضع كرهك لما تبدين نحوها من تحفّظ وجفاء ومقاطعة. حرام عليك أن تقولي قولاً ينغص عليّ حياتي..

فبدأ على وجهها الارتباك ولم تنبس بكلمة. ربّاه. لشدّ ما تغيّرت!... ألا يمكن أن تمنحني ابتسامتها المشرقة بدلاً من هذه الابتسامة الباهتة?... ألا تعود إلى فتح صدرها لي في ثقة وطمأنينة؟ ترى هل ينبغي أن أكشفها بآلامي لتعلم بأنني لم أنزوّج في الواقع وأنني أشقى إنسان في الوجود فتصفح عني وتعود إلى سابق عهدها?...

ورجعت من الوزارة يوماً فوجدت زوجي باكية، فهالني الأمر، وأقبلت نحوها في جزع ولم وانزعاج. وكانت صباح حاضرة فأخبرتني أنّها - صباح - كانت تباشر عملها في المطبخ حين دخلت عليها أمي وجرحتها بانتقاد مرّ، فتدخلت زوجي لتصلح الأمر فما كان من أمي إلا أن رمتها بكلام قارص غادرت المكان على أثره باكية...

وذهبت من فوري إلى حجرة أمي ثائر الأعصاب، فما روعني إلا أن أجدها محمّرة العينين من البكاء.

ولمحت عبوس وجهي فهتفت في توجّع:

- هل أرسلتْكَ لتؤدّبني!

فرفعت رأسي إلى السماء وقلت من الأعماق: «يا ربّ الساء خذني وأرحني من الدنيا ومَن عليها».

ولكنّها صاحت بي:

- بل يأخذني أنا، إنّ عحوز لا خير فيها. أما كان يجمل بزواجك أن تؤجّل شكوها حتى تخلع ثيابك وتأكل لقمتك?... ولكن هيهات أن تدعن لغير عنادها وتجبرها...

فقلت في استياء وغضب:

- إنّها تبكي بكاء مرّاً...

فصاحت بي وكأنّها فقدت أعصابها:

- لقد سبّتي وشتمتني حتّى شبعت، وهما هي تستقبلك بدموعها الكاذبة لتوغر صدرك وقد أفلحت...

ما أضيع الحقّ بين النساء! لقد أعياني الكلام والنضال ولم أنته إلى شيء. وأعجزني أن أصلح بينهما فنكد عشنا طويلاً وساد البيت جوّ خصام. وكففت يدي يائساً تاركاً للأيام أن توفّق بأناتها فيما أخفقت فيه.

\*\*\*

وبدأت أشعر في حياتي الزوجية بفراغ! ولم يداخطني شكّ في أنّ زوجتي تشاركني هذا الشعور. ولم يعد الليل وحده الذي يثقل على أعصابنا، فما كان انفرادنا الطويل نهائياً ممّا يمكن أن نطبقه على وثيرة واحدة إلى الأبد. لذلك اقترحت عليها أن تقتل الوقت بأسباب التسلية حتّى يحين موعد افتتاح الدراسة ونجد ما يشغلها. وتقبّلت اقتراحي بسرور ودعّني لزيارة ألسا الكثيرين، فتتقلنا من بيت لبيت وزارونا بدورهم، ثمّ اقترحت على أن نذهب إلى السينما يومين في الأسبوع فقبلت، ولا أدري إن كنت أروم التسلية حقاً أم أهرب من حياتي الضائعة! ووجدت في السينما راحة وإن كنت بطبعي أؤثر الوحدة والعزلة، ولكنّي ضقت

القلب، ونصحها باتباع إرشاداته دواءً لتفادي من النوبات في المستقبل.

وطال رقادها بالرغم من أن الطبيب أكد لنا عدم خطورة الحال، ولكن بدا لي أنها تعين المرض على نفسها، وأن روحها توشك أن تنهار. ووقع في نفسي أنني المسئول عن مرضها فعانيت مرارة التأنيب والندم في حزن وصمت، وكأنما أردت أن أكفر عن ذنبي فسهرت بنفسي على رعايتها وتعاهدتها بالخدمة والدواء، ولم تأل رباب في القيام بواجبها. لقد ألتني حقاً ولكن عن حسن نية، أما أنا فقد ألتها عامداً تحت تأثير غضب خفيف. ومررت بي أيام قاسية مظلمة، كنت أرنو إلى وجهها الذابل الشاحب بفؤاد كبير، وراحتها بين يدي، ولساني يلهج بالدعاء. وكانت متعبة خائبة، ولكن قرأت في عينيها نظرة راضية سعيدة، كأنما نسيت بعطفي وحبي جميع آلامها.

#### ٤٦

وهلّ الخريف بجوّه اللطيف وسحابه الرقيق، واستقبلت المدارس عاماً جديداً، وكنت وزوجي نخرج معاً في الصباح، ونستقلّ تراماً واحداً. وكانت الذكريات تنثال على قلبي في وجد وحزن، حتى قلت مرة:

- في مثل هذه الأيام كنت أهرع إلى المحطة أكاد أموت شوقاً إلى اجتلاء محياك...

فابتسمت رقيقة وقالت:

- وكنت أنتظر بمثل هذا الشوق...

الله محبوبتي!... ما وجدت مثلها محبة راضية مسرورة.

كانت حبيبتي سعيدة مغلصة في غير ما تكلف أو رياء. أكانت تجد آلاماً ثم تغلب عليها بما طبعَتْ عليه من مودة وطهر؟ ومن أدراني بما كان يعتلج في أعماق صدرها؟ وما كان يدور في خاطرها عني وعن حياتها؟ ولكنها كانت سعيدة صادقة محبة وهل من داع يدعوها إلى ذاك التظاهر المتواصل بالسعادة إذا كانت تعيش أو كارهة؟ بيد أنه لم يداخلي شك كذلك في نضج

على عجل بالزيارات التي أفقد فيها نفسي وأقع فريسة للحياء والارتباك والعني والحصر، وما لبثت أن تخلفت عنها تاركاً زوجي وحدها تقوم بها.

وكان بوسعي أن أحملها على العدول عنها أسوة بي، ولكنني لم أرد أن أحرّمها سبباً من أسباب التسلية وتزجية الفراغ، ولعلني بتّ أخاف في أعماقي أن تضيق بالوقت كما أضيق به. كنت أودّ بكلّ قلبي أن أهني لها جميع أسباب الراحة والسرور، وما كنت أتردد لحظة عن بذل جميع ما أملك في سبيل مرضاتها، لقد صارت رباب كلّ شيء، ولم أعد شيئاً مذكوراً. ولكن بدا لي أنّ أمي لا ترتاح لحياتنا هذه. وقد قالت لي يوماً:

- لا يجمل بك أن تسمح لزوجك بقضاء كلّ هذا الوقت خارج البيت...

وضاق صدري بملاحظاتنا فقلت باقتضاب:

- أنسيت أنّ زوجي موظّف؟

فقال بلهجته الانتقادية:

- وإن كانت...

وأشفقت من أن يتأذى لنا الجدل إلى ما لا نحمد عقباه فقلت برجاء:

- انسيها يا أمّاه تستريح وتريحني!

فغلبها الانفعال وقالت:

- لو كنت لسان دفاع لي كما أنت لها لما احتقرتني وسبّنتي...

ولذت بالصمت لعلها تمسك، ولكنها استطردت تقول:

- إنّا تتيه بلا موجب، فكيف لو كانت أمّا!

فقاطعتها صائحاً كالوحش وقد هوى كلامها على رأسي كالطرقة:

- اسكتي... لا تنسي بكلمة أخرى.

وحددتني بارتياح دون أن تنبس، ثم أطرقت. ولكنني لم أرث لها ولم أرحمها إذ أفقدني الغضب والالم وعيي.

وحدث عقب ذلك بأيام أن شعرت بتعب ألزمها الفراش، وقال لنا الطبيب الذي استدعيته إنه

راح يدق بعنف تباعاً. تملّكني الهلع وخجل قاتل،  
وثقل على صدري ضيق غليظ كأنما هويت إلى أعماق  
بئر سحيقة. وإذا بنازلي هانم تقدمني له، ثم تقدّم لي  
قائلة:

- هذا قريب لم تسعدنا الظروف بتقدمه إليك، لأنّه  
عاد من أوروبا حديثاً، ولأنّه يندر أن يتفصّل علينا  
بزيارة: الدكتور أمين رضا ابن عمّي.

وتصافحنا كاللؤلؤف. التقت عينانا لحظة قصيرة،  
فلم أقرأ في عينيه إلّا نظرة ترحيب باسمة، لم تشـ.  
عيناه بأنّه تذكّرني، وظلّ ملازماً سمة المترقّع المتحصّن  
ضدّ الانفجالات. ولمّا انتهى من مصافحة الجالسين،  
جلس إلى جوار جبر بك وراحا يتحدثان، وتحت أنا في  
أفكاري الفزعة الشاردة، ترى هل تذكّرني!... لعلّه  
نسيني شأن الأطباء الذين يلقون وجوهاً بعدد  
الدقائق!... ولكنّه طبيب جديد قليل الرّواد!...  
ومسح ذلك فلم يبدُ في عينيه أنّه عرفني على  
الإطلاق... أم يكون عرفني وتجاهلني رافة بي!...  
ليتني أجد وسيلة للتحقّق من هذه النقطة! وهبّه  
عرفني فهل يمكن أن يبوح بسرّي لقريبته نازلي  
هانم... ما أبعد هذا عن التّصوّر، ولكن ما أبعدي  
عن الطمأنينة كذلك! وجدتي عريقاً في بحر لجّي من  
السّواسوس والمخاوف فهل كنت في حاجة إلى  
مزيد!...

ودّعينا إلى الطعام فخرجت من أفكاري وإن علقت  
بي آثارها، كالخارج من نار. وجلسنا حول المائدة،  
وعند ذلك التفتت نازلي هانم وقالت مبتسمة:  
- أنت حجول يا سيّ كامل ولكن حذار فالولائم لا  
ترحم الخجولين.

وعلّق بعضهم على قولها فسخطت عليها واشتدّ بي  
الضيق، على أنّهم لم يلبثوا أن شغلوا عنيّ بما بين  
أيديهم من لذيق المأكّل. ولم أكّد أشعر بالارتباك الذي  
يركبني في أمثال هذه المجتمعات لشروء ذهنيّ فيما هو  
أجلّ وأخطر، فلا يفلّ الارتباك إلّا الارتباك! ثمّ عدنا  
إلى حجرة الاستقبال ودارت علينا القهوة. وتناولت  
الفنجان، وقربته إلى فمي، وعلى حين بغتة طار خيالي

أنوثتها وعمق عواطفها. كانت أبعد ما تكون عن  
النزق والطيش، ولكنّها كانت عامرة القلب بالحيويّة  
والحرارة والعطف. لعلّها كانت تحيا حياة يحدها الأمل  
نفسه الذي أتطلّع إليه صابراً متصبّراً. على أنّ الحقّ  
الذي لا مِرّة فيه أنّي كنت مشغولاً بهمومي على حال لم  
تدع لي إلّا قليلاً للانشغال بهوم غيري. ربّما رجع  
ذلك قبل كلّ شيء إلى أنايتي الفطريّة، وكان للجھلي  
كذلك نصيبه. ولعلّي كنت أحسب أنّي الضحيّة  
الأولى - إن لم تكن الوحيدة - في تلك المأساة.

وفي أوائل ذلك الحريف دعانا جبر بك ونازلي هانم  
إلى وليمة غداء أقامها للأهل والأقارب لمناسبة شفاء  
محمّد - شقيق زوجي - من مرض ألمّ به.

وذهبت وزوجي على حين تخلّفت أمّي معتذرة  
بالنظام الجديد الذي تتبعه في غذائها منذ أشار عليها  
الطبيب بذلك. مضيت مرتبّكا كالعادة، لأنّ وليمة  
غداء أشدّ على نفسي من المرض، ولأنّها - هي وأمّثالها  
من المجتمعات - تعيد إلى ذهني ذكرى منصّة الخطابة  
بكتيّة الحقوق. وقد تعمّدت أن نذهب ميكرين لنسبق  
المدعوّين جميعاً فلا أتعرّض لنظرات أعينهم حين  
دخولي حجرة الاستقبال. ونجحت خطّتي فوجدنا  
البيت قاصراً على أهله. هم أهلي أيضاً، وإني لأحبّهم  
جميعاً وإن بتّ أخاف نازلي هانم خوفاً شديداً يثير في  
نفسي أشدّ الألم. وأخذ المدعوّون يتوافدون. فجاء  
أعمام رباب الثلاثة وأخوالها الأربعة مصحوبين  
بزوجاتهم وأبنائهم وحضرت كذلك خالّاتها، واحدة  
مصطحبة زوجها، والأخرى - وهي أرملة - برفقة  
كبرى بناتها. ومضت نازلي هانم لتستقبل قادماً جديداً  
فسمعتها تقول له: «لماذا تأخّرت يا سيّ أمين؟» فردّ  
القادم عليها معتذراً بصوت خيل إلى أنّي سمعته قبل  
ذلك، فتطلّعت إلى الباب باهتمام... ودخل المدعوّ  
الجديد فعرفته من أوّل نظرة. رأيت أمامي ذلك  
الدكتور الذي زرتّه منذ شهرين وبعث له بسرّ شقائي  
كلّه، ثبتت عيناها عليه في ارتياح بادئ الأمر، ثمّ  
تمالكت نفسي بسرعة وقوّة، وإنّي على إخفاء ما يعتلج  
بصدري لقادر، ولكّني لم أجد حيلة مع قلبي الذي

- إنك مغرم بتحميل نفسك الهموم على اختلافها كأنك المسئول عن الدنيا ومَن عليها. ركُز اهتمامك في عيادتكَ وحياتك ومسألة زواجك على وجه الخصوص، ألا ترى أنك في الثلاثين وهي سنٌ فاصلة؟! وهنا قالت لإحدى خالتي رباب:

- اطمئني يا אחتي فلعلك أن تسمعي أخبارًا سارة قبل استدارة هذا العام.

ودار الحديث حول كريمة أحد كبار الأطباء... وقالت لي رباب همساً - وكانت تجلس إلى جانبي - إن هذه الفتاة التي يتحدثون عنها حسناء مفرطة في الحسن والورثة المنتظرة لثروة طائلة، وإنها زاملتها عهدًا في الدراسة. والظاهر أن أحد أحوال رباب كان مُمَن تجذبهم أحاديث السياسة، فما كاد حديث الزواج ينتهي حتَّى قال مخاطبًا الدكتور:

- لا داعي للتشاؤم فكل شيء مصيره إلى الصلاح وإن طال الزمن. وها نحن على أبواب انتخابات جديدة، ولعلَّ الرياح أن تهب هوائًا ورخاء.

فاشتدَّت عينا الدكتور وقال بحدة:

- من الخير لهذا البلد أن تحكمه حكومة فاسدة، ذلك أنَّ الحكومة الصالحة لا تستطيع أن تفعل شيئًا ذا بال في حدود الأوضاع القائمة، فالخير أن تستبدَّ الحكومة الفاسدة حتَّى تعجَّل بالنهاية... النهاية المحتملة!

فضحك جبر بك وقال:

- ما زلت ساخطًا متبرِّمًا. ألا تجد في مصر ما يستحقُّ إعجابك وتقديرك؟ فأدار الدكتور عينيه البرَّاقتين في الحاضرين وقال مبتسمًا:

- بلى... أم كلثوم...

وضجوا جميعًا بالضحك. وجعلت أصغي إليه باهتمام واستغراب، ولكنِّي لم أكُد أفقه معنى لما يقول. وعجبت لمن يشغلون أنفسهم بهذه الأمور وأمثالها، أليس في حياتهم هموم تشغلهم عنها؟ وتثُل لي في حديثه رجل عِلْم ورأي وثورة، بادي الغرور والعجرفة. وكم كانت دهشتي كبيرة حين ذكر أم كلثوم

إلى الحانة القديمة بشوارع الألفي وتراءى لعيني قدح الخمر... كيف جاءتني هذه الذكرى، ما الباعث عليها؟... لقد وجدت دهشة صادقة، ولكنِّي شعرت كذلك بارتياح عجيب، كسرور الحبيب بالحبيب، الخمر... النشوة... السرور... ألا ما أشدَّ حاجتي إلى مهرَب. كان خاطرًا مفاجئًا غريبًا ولكنَّه كان قويًّا لا يقاوم... وعدت بانتهائي إلى ما حولي في حذر وخوف. واتَّجهت عيناي إلى الطبيب فوجدته منهمكًا في الحديث، يلقي أقواله بثقة وفصاحة وترَفُّع، وكثيرًا من الحاضرين يتوثَّبون للنقاش في اهتمام وسرور. وجَرَ الحديث إلى الحياة في بلاد الإنجليز فقال الدكتور: إنَّ دراسته شغلت جلَّ وقته فلم يتمتَّع بحياته هناك كسائح إلَّا فيما ندر، على أنَّه استطاع رغم ذلك أن يجنَّب عن كتب متانة الأسس التي ينهض عليها بنيان الحياة السياسيَّة، وما يتمتَّع به الشعب من مستوى عالٍ للمعيشة، وحرِّيَّة شاملة تتناول كلَّ شيء، قال له جبر بك:

- كأنك واطيت في إنجلترا على الاهتمام بما كنت تهتمُّ به في مصر قبل بعثتك.

وقال أحد المدعوين ضاحكًا:

- أجل يا جبر بك، ذكره بعهد كَلِيَّة الطبِّ والثورة الوطنيَّة.

وقال آخر:

- مَن كان يظنُّ أنَّه سينتهي بك المطاف إلى بلاد العدو وأنك ستعود منها حاملًا له هذا الإعجاب كله؟ فقال الدكتور مبتسمًا:

- العداوة لا تُناقض الإعجاب...

فعاد جبر بك يسأله:

- ألم تزل كما كنت، وفديًا متطرِّفًا؟... لقد

سُجنت يومًا بسبب الوفد!

فقال الشاب وقد مطَّ بوزه برمًا:

- أرى الآن المصريين جميعًا يعيشون في سجن كبير، والحقُّ يا سيدي أنَّ الأخبار الوحيدة التي كانت تسوِّنا

ونحن في إنجلترا هي أخبار مصر...

وقالت نازلي هانم مبتسمة:

كالشيء الوحيد الذي يستحق إعجابه في البلد، وتساءلت في حيرة: أيعشق الغناء حقاً مَنْ كان ذا جَدٍّ وصرامة وحِدَّة كهذا الدكتور المجنون؟! ولَمَّا كنت أحب الغناء فقد ارتحت لهذه المشاركة الوجدانية، بعد أن أعياني أن أجد صلة شَبَه بيني وبينه! وكان الدكتور أوَّل المنصرفين، فقام الحاضرون جميعاً لمصافحته، وصافحته بدوري وأنا أنفَحَص عينيه بخوف واهتمام فلم أجد فيها وراء نظراتها المترقِّعة ما يرييني. ثمَّ غادرنا نحن البيت في نحو الخامسة. عدنا مشياً على الأقدام ولم تكفَّ حبيبي عن التعليق على المأدبة والمدعوين طوال الطريق ولكنِّي لم أستطع أن ألقى إليها انتباهي، واستسلمت لتيار أفكار الزاخر المضطرب، كيف ألقى الحظَّ العائر في طريقي بهذا الدكتور المجنون؟ وكيف قادني القدر إلى الاعتراف له بسرِّي الذي أخاف عليه آذان الحيطان!

## ٤٧

أوصلت رباب إلى باب العمارة ثمَّ عدت أدراجي إلى المحطَّة معتذراً لبعض أعمال خياليَّة! استقلت الترام إلى العتبة، ثمَّ مضيت إلى شارع الألفي بك. كان قلبي ينفق في خوف ووهبة كما خفق أوَّل مرَّة حملتني قدماي إلى هذا الشارع، وتراءى لعيي خيال الكأس مفترقة الثغر عن إغراء عنيف. كنت نسيته فلم تخطر لي على بال منذ بلغ قلبي مناه حتَّى رأيتها اليوم في فنجان القهوة فحرَّك أعماق الفؤاد. أمي + زوجي + الدكتور أمين رضا = الخمر، هذه هي المعادلة التي استقرَّت في نفسي. على أنَّني تردَّدت حين أصبحت من حانتي القديمة على قيد خطوة، وتساءلت في حزن وقلق ألا يُعدَّ إقدامي هذا خيانة لزوجي؟. ولكنِّي أنكرت على نفسي هذا المنطق الغريب وشققت طريقي إلى الداخل. وتراءى لي فجأة خيال أبي، واثالث على ذهني صور من ذكرياته، فاستعرضتها في هدوء، وفي غير ما شئانة أو كراهية، ثمَّ جلست إلى المائدة وأنا أغغم، «رحمه الله وغفر له».

وجاء النادل مسرعاً فحياني وهو يقول لي:

- أين كنت من زمان؟  
فأجبت مبتسماً وقد سررت لتحيته:  
- الدنيا...

ثمَّ أريته خاتم الزواج فقال:

- مبارك... مبارك... وهل أنجبت طفلاً؟

وشعرت بامتعاض وألم، وهزرت رأسي سلماً، ثمَّ طلبت كأساً من الكونياك وشربت في اعتدال، حتَّى شعرت بدبيب النشوة في القلب والرأس، وارتسمت على فمي ابتسامة سخرت من جميع الآمي فقلت لنفسني: «أهلاً وسهلاً ومرحباً»، وحرصت على ألاَّ أجاوز الحدَّ، ثمَّ غادرت الحانة زهاء السابعة، ولم أكد أنتهي إلى شارع عماد الدين حتَّى تذكَّرت حانة سوق الخضرا! وكان رأسي بحالة تستهين بالعقبات فتساءلت في شبه تأنيب: أأنسى في رغدي الحانة التي آوتني في فقري؟ وأوقفت تاكسي وركبته وانطلق بي إلى حانة الموظَّفين المفلسين والحوذية. ووجدتها في حالة غناء وعريضة كما توقَّعت. وكان الموظَّف العجوز يغني «يا ما بكره نعرف» فيردِّد الجميع «وبعده نشوف»، ولَمَّا لمحني قادماً توقَّف عن الغناء وصاح:

- هس يا أولاد الحلال.

وعرفني الرفاق القدماء فتصافحنا في حرارة، وما كدت أطمش إلى مقعدي حتَّى سألني العجوز متغنياً:

- كنت فين يا حلو غايب؟

فقهقهت ضاحكاً وقلت:

- الدنيا...

فقال أحد الصحاب:

- فلنلعن الدنيا التي ترغم الحبيب على نسيان أحبابه...

فلعنَّها معهم عن طيب خاطر. وحدث أن رأى أحدهم خاتم الزواج في إصبعي فهتف:

- دخلت دنيا يا بطة...

وكان لإعلان الخبر أثر شامل فسألني الموظَّف الفنَّان:

- كيف وجدت هذه الدنيا؟...

وأفزعني تحوُّل الحديث إلى هذا الموضوع الخطير،

النور وغمغمت «مَن؟» ثم واصلت نومها دون أن تستيقظ، وخلعت ملابسها في عجلة واضطراب ويديا ترتعشان، وأنفاسي تتردد في دهشة وسرور وجزع، وهرعت إلى الفراش، وانسدست تحت الغطاء، ضممتها إلى صدري ووضعت شفتي على شفتيها حتى فتحت عينيها، وأمطرتها قبلاً بنهم ورغبة وسرور حتى أفادت وبادلتي القبل، وبدا ما بيننا كأنه حلم سعيد يضر به المنام، حلم لا يصدق بيد أنه كان حلاً قصيراً لم يستغرق ثابنتين من الدقيقة. وأفقت من سحره في طمأنينة وسلام، وبى من السعادة نشوة أضعاف ما بى من الخمر، واضطجعت في حبور، وأغمضت جفني مستسلماً لامتع الخواطر والأحلام. على أن أحلامي لم تنسج وشيها هذه المرة من مادة الخيال، ولكنها استمدته من الواقع، من صميم حياتي، وألذ العيش ما كان حلمه السعيد صدى للواقع الراهن! لا تلقيت السعادة بامتنان العابد، وأيقنت أن همومي انجلت إلى الأبد. وفي صباح اليوم التالي جعلت أرر إلى حبيتي بثقة وسرور، وشعرت حقاً بأن زوجي وبأن رجل... ولم تزايلني أحاسيس السعادة والفخار طوال اليوم، وعندما أتى المساء ذهبت إلى شارع الألفي بك، ثم عدت إلى حبيتي طائراً على جناحي نشوتي، وعللت من الكأس المترعة، بالسرور نفسه والسرعة نفسها، ثم اضطجعت ضجعة المطمئن، ما كان لثلي أن ينسى ما تجرّع من غصص العذاب، ولكن السعادة الحقة تستثير عطفنا حتى على ذكريات العذاب.

#### ٤٨

وتقصت أسابيع - لعلها لم تجاوز الشهرين - في سعادة وطمأنينة. وإني إذ أعود إلى ذكرى تلك الأيام يمضي شعور بالألم والأسى، لا حسرة على سعادة ذهبت، ولكن أسفاً على أكبر خدعة ابتليت بها في حياتي. لم يكن هنالك ما يستوجب سعادة على الإطلاق. وإذا كنت قد غثت بالسعادة زمناً رغداً، فما ذلك إلا لأنني كنت غراً جاهلاً أعمى. وما من بأس أن يتمتع الأعمى بسعادة وهمية على شرط أن يواصل

ولكني لم أجد بداً من أن أقول:

- حلوة!... أأنت متزوجة يا سيدي؟

فضحك الرجل حتى بانث أسنانه المزمرة وقال:

- المرأة إذا تجاوزت الشباب لم تعد امرأة...

فقال آخر مؤمناً على قوله:

- صدقت. المرأة أقصر المخلوقات عمراً وإن

هرمت.

وقال غيره:

- إن زوجي تدبر لي شجاراً نظير كل سهرة في

الحانة، وقد قلت لها: إني على أهبة الاستعداد لأن

أهجر الحانة تحت شرط واحد وهو أن تهجر هي

الدنيا!!

وبدوا جميعاً ساخطين على حياتهم فداخلي عزاء لم

أجده من قبل، وعجبت لهذه الأسباب الغريبة التي

تواخي بين السكّيرين. ثم لاحظت تغيب «فران»

شريب اشتهر بيننا بلذمانه وصمته. فسألت عنه؟

فأجابني العجوز الفنان:

- لم تعد الخمر لتؤثر فيه، فهو يمضي مساء كل يوم

إلى البذل ويشرب كحولاً صرفاً...

وواصلوا ما انقطع من الغناء، ورحلت أشرب

كالأيام الماضية. ما أعجب قدرتي على الشرب! إني

ضعيف رعديد حيال كل أمر، ولا ثقة لي في عقلي ولا

في قلبي. أما معدتي فقادرة على ابتلاع حانة! وغادرت

الحانة في العاشرة مودعاً بأطيب التحيات، وتنقلت من

طريق لطريق لا تسعني الأرض من فرط النشوة

والسلطنة، ثم هفا علي طيف حبيتي فتخيلتها بعين

السكران: وقد طال بها انتظاري فاستسلمت للرقاد،

فانتشلت نشوتي، وخفق فؤادي خفقان الوله، وهتفت

بنفسي الأشواق، وبحثت عيناى الزائغتان عن تاكسي

ثم مضيت إليه لا أروي على شيء وطلبت إلى السائق

أن يسرع بأقصى ما لديه من سرعة، فطار بي يطوي

الأرض طياً، وغادرته عند العمارة، وارتقيت السلم في

عجلة، ثم دخلت الشقة وسرت إلى حجرتي بلا تردد،

وأدرت مفتاح الكهرباء فوق بصري على حبيتي وقد

استغرقت في نوم هادئ. وقد تحرك رأسها لدى سطوع

سعدتُ به! أعجبَ بها من حقيقة تحيّري، ولكنّ إلّامَ  
أكذب نفسي! إنّها تبدو كأنّها تخاف الليل وتحمّاه،  
ولا نكاد نخلو إلى نفسينا حتّى يعثورها قلق تفصحه  
عيناها الصافيتان، ثمّ تفتأ - في هذه الأيام الأخيرة  
خاصّة - تعتذر بشئ الأعدار، فمنّ تعب إلى توعك  
إلى رغبة ملّحة في النوم. وإذا أذعنت لي فلنّما تدعن في  
تسليم لا سرور فيه، ثمّ تنتثر جسمها من جسمي في  
شبه استياء وغضب! وأقرّ إلى هذا كلّها بأنّها لم تعد  
فتاتي الضاحكة المستبشرة الصافية. شابّ ضحكها  
التكلّف، ودبّ في سعادتها الفئور، وانقلب ودها  
تودّداً. حاشاي أن أقول إنّها أعلنت سخطاً أو أساءت  
أدباً، حبيبي فوق هذا كلّها، ولكنّي أحسنّ قلقها  
بقلبي، وأدرك حيرتها بغريزي. ربّاه إنّ الدنيا جميعاً لا  
تساوي خردلة إذا تألّت حبيبي؟ فماذا بها؟... إنّني  
أفتقد حبيبي فلا أجدها، ولا بدّ أن أجدها، أو أموت  
كمدّاً...

وبلغ شقائي غايته إذ ترك نفورها في نفسي أثراً  
عميقاً، تغلغل في حناياها، فحرّك الداء القديم، وولّى  
الشفاء الساحر، ولم تنفع فيه الخمر. وتناهى بي الحزن  
حتّى أشفيت على الجنون. أيعاودني العجز؟ وهل أرزّ  
إلى ذلك اليأس المميت؟. وقلت لها مرّة في قنوط:  
- رباب... ماذا بك؟... لست الحبيبة التي  
عهدتها.

فلاذت بالصمت، وغصّت بصرها حيرة وارتباكاً،  
فقلت بتصرّع متسائلاً:

- إنّ قلبي لا يكذبني فخبريني ماذا غيرك؟  
فهمست قائلة وقد لاحت في عينيها نظرة ساهمة:  
- لا شيء...

فهتفت من الأعماق:

- بل شيء وأشياء، إنّ زوجك يا رباب وحياتي  
كلّها لك، فلا تخفي عني شيئاً. أه يا رباب إنّ أبكي  
آيأنا الماضية.

فتنهّدت ولاح في وجهها الارتباك والالم، ثمّ  
غمغمت في حذر وإشفاق:

- وإنّي أبكي آيأنا أيضاً...

عماه، أمّا إذا رُدّ إليه البصر ورأى سعادته سراباً فهل  
يجني من ذكريات سعادته إلّا حسرة مضاعفة وهماً  
مقيّاً؟! وهذه هي حالي بلا زيادة ولا نقصان، وما  
فطنت إليها إلّا في بطن شديد يوافق جهلي وبلادي.

لاحظت أنّ «رباب» تمضي النهار كلّها وشطراً من  
الليل خارج البيت، بين مدرستها وبيوت أهلها  
وأقاربها، وقد رافقتها بادئ الأمر رغم طبعي النفور،  
ثمّ شقّ عليّ الأمر فنكصت على عقبي، ولم أعد  
أصحبها إلّا فيما ندر من الزيارات. وعادت أمّي تعلن  
عن ملاحظاتها في مرارة وأسى وأنا أدافع عن زوجي  
بلا فتور وإنّ تجاوب لانتقادها في نفسي صدق عميق،  
وكنت فيما مضى أشجّع زوجي على هذه الزيارات  
لتنسّل بها عماً أشعر به من نقص حياتنا المشتركة، أمّا  
الآن فلم يعد من موجب في نظري للإفراط فيها.  
ولمت أطراف شجاعتي يوماً وقلت لها:

- كأنك تقاطعين بيتنا يا عزيزتي، فهلّا أقللت من  
هذه الزيارات المتواصلة؟

وحددتني بنظرة مريبة وسألتني بحدّة لم أعهد لها من  
قبل:

- أما زالت تشغل نفسها بانتقادي؟  
وفهمت أنّها تعني أمّي، وسأني أن تضمّر لها هذا  
النفور، فأجبتها متلفّفاً:  
- إنّ أمّي لا تتدخل فيما لا يعنينا. وهذا رجائي أنا  
دون غيري، والحقّ أنّي لا أطيق بيتنا إذا كنت  
خارجة...

فقالَت وقد استردّت هدوءها: هلّمّ نخرج معاً.  
لماذا تضيق بالناس؟...  
فقلت برقّة: هكذا أنا...

ولا أدري ماذا غيرها أثر كلمتي تلك فقالَت بحدّة:  
- إنّ الحياة لا تُحتمل على غير هذا الوجه.

أه يا حبيبي، لم تكن رقتك لتسمح بمثل هذا  
الضيق، فما الذي حدث؟ وليس هذا كلّ ما في الأمر،  
فإنّ قلبي أحياناً يرى ما لا تراه عيناى. ينبغي أن أشقّ  
ستار العمى وأن ألقى الحقيقة على مراتبها وجهها  
لوجه... يخيّل إليّ أنّ «رباب» لم تسعد بشقائي كما



لا أدري لماذا آلتني رقتها. ثم تذكّرت بعض ما سمعت في إدارة المخازن فقلت:

- ولكن لا يمكن أن تتمّ سعادة المرأة إلا بهذا...

فتورّد وجهها وقالت بسرعة ويقين:

- كلاً... كلاً... أنت غلط في هذا.

ورنوت إليها في حيرة! ترى حقاً تصدقي القول؟ ولكن ما عسى أن يحملها على الكذب؟! لم أكن إلا غرّاً جاهلاً، ولن تجد كالغُرّ الجاهل صيداً سهلاً للهجة التأكيد، فأثر في قولها تأثيراً عميقاً...

هل أكذب حبيبي وأصدق سخفاء الموظفين؟! ألم يعبر قولها هذا عن رأي قديم اعتنفته قبل أن يحولني عنه مجون الزملاء بإدارة المخازن؟... وفضلاً عن هذا وذاك فليس بوسعي وصالها بعد أن باحت، وبعد أن عاودني من العجز ما عاودني، لذلك كلّ تظاهرت بالارتياح، واصطنعت ابتسامة. ثم قلت بتسليم:

- ليس لي وراء سعادتك مطلب يا رباب!

وسرّي عنها، ولاح في عينيها نظرة ارتياح، وتدانّت مميّ حتى التصقت بي وقبّلتني!

عدنا كما كنّا. عدت زوجاً عذرياً ذا عادة ذميمة، ورحت أقول لنفسي: إنه لا ذنب لي فيما انتهينا إليه. إني رجل كامل ولولا طبعها هي ما انتابتني هذه النكسة! بل إني أحمّل هذه الحياة الغريبة إكراماً لها! يا له من عزاء كنت في ميسس الحاجة إليه! ولكن هل حقاً صدّقت نفسي؟! ومهما يكن من أمر فإنّ ذكرى عهد السعادة لم تغب عن ذهني لحظة واحدة، كيف انقضى ذاك العهد بتلك السرعة التي لم أتوقعها؟ وكيف أذي حبيبي حتى خرجت عن صمتها بهذه الشكوى السافرة؟ أليس معنى هذا أنّي شقي ولا حيلة لي في شقائي؟ آه... لشّد ما نازعتني النفس إلى الحرّية والفرار! وعادوني ذكريات تشرّدي في الطرق بحنان وهفّة...

هل عاد كلّ شيء إلى أصله؟!

وما زال الحبّ يجمعنا في عناق وعطف، وعادت حبيبي إلى مرحها وحبورها وهي تقضي يومها ما بين مدرستها وبيوت الأهل والأقارب، وبحسبي أن أراها

فتولّاني الذهول والانزعاج وسألتها في حيرة شديدة:

- كيف يا رباب؟... إني لا أفهم شيئاً. أما كان

ينبغي لحياتنا أن تكون أوفر سعادة!

ثمّ وجهها على أنّها تعاني من ضروب الحيرة مثلما أعاني، فازددت ذهولاً وانزعاجاً وانتظرت أن تميط اللثام عما يحيرها فتجلو لي ما يحيرني بالتالي. وانتظرت في قلق وإن بات قلبي يحدس أموراً يفرق لها رعباً ويأساً وخزياً. ولمّا طال بي الانتظار قلت:

- لماذا لا تكاشفيني بذات نفسك!

إنّها ترغّب في البوح بما ينوء به صدرها الرقيق ولكنّها لا تجد سبيلاً إلى الإفصاح أو لا تواتيها الشجاعة عليه، وإني أزداد خوفاً وقنوطاً حتى تنهى بي الجزع فقلت:

- رباب... إنك لا تتراحين لما جدّ في حياتنا!

فحدجتني بنظرة غريبة، ثمّ خفّضت بصرها وراحت تقضم ظفرها في حيرة وارتباك. برح الحفاء. بيد أنّ صمتها أخذ يضايقي فتساءلت فيما يشبه الصجر:

- أليس الأمر كذلك؟

ورنت إليّ بنظرة توسّل واستعطاف وقالت بصوت لا يكاد يُسمع:

- لنعد كما كنّا؟... كانت حياة طيبة!

وكأنّ لظمة هوت على وجهي فغضضت عينيّ حياءً وقنوطاً. ومع أنّ رغبتها هذه حقيقة بأن تهنيّ لي عذراً أداري به ما عاودني من عجز إلا أنّي تلقّيتها بخزي مميت. ولعلّها قرأت ما لاح في وجهي من أمارات الألم فقالت برقة:

- لست أعني شيئاً يمكن أن يذكرك، ولكنّي أهفو

لحياتنا الماضية. كانت حياة طاهرة سعيدة!

فقلت كأنني أكمل حديثها:

- ولم يكن بها ما ينقص صفوك؟

فطرفت عيناها، وتجلّت فيها نظرة عطف وقالت برقة:

- كنّا سعداء أليس كذلك؟... ولم يكن ينقصنا

شيء على الإطلاق...

نهضت مستأذناً وغادرت الحجرة. ولاحت مني التفاتة إلى حجرتنا - وكان بابها مفتوحاً كما تركته - فرأيت رباب جالسة على حافة الفراش تقرأ خطاباً. وأدركت لتوي أن ساعي البريد جاء به حين كنت منفرداً بأمي وإلا لعلمت به وقت وصوله، وظننته مرسلًا إلي من أخي لأن رباب لم تكن تتلقى خطابات، فعدت إلى حجرتي مستطلعاً، وشارفت بابها ورباب مغرقة في القراءة لم تنتبه لي حتى قلت لها:

- أهذا الخطاب لي؟

ورفعت رأسها نحوي في دهشة، وطوت يدها الخطاب بحركة آلية سريعة، وسألني في اضطراب ظاهر:

- هل نسيت شيئاً؟

فقلت وقد تولاني قلق لا أدريه:

- كنت في حجرة أُمِّي، ورأيتك عند مغادرتي لها تقرئين هذا الخطاب فظننته لي.

فنهضت من مجلسها وتراجعت صوب التواليت، وكانت بلا رب تحاول أن تضبط عواطفها، ولكن عينيها وشتا بما تركه حضوري المفاجئ في نفسها من وقع عميق لم تتوقعه، وقالت وقد نذت عنها ضحكة مقتضبة جافة لم تجد في مداراة اضطرابها:

- ليس خطاباً كما تظن، إن هي إلا ورقة سجلت

بها بعض ملاحظات تتعلق بعمل المدرسي...

وداخلني خوف غمّي في مفاصلي. لعلها لم تجاوز الصدق ولكن عدوى اضطرابها انتقلت إلى نفسي فشعرت بذلك الخوف الغريب، كأنه نذير شر مجهول يتجمع في أفقي المكفهر. ما الذي يدعوها إلى الكذب؟ ولكني رأيت في يدها خطاباً بلا ريب! وقد خفت أن أتمادى في إظهار الشك أن يكون الحق معها فأقع في حرج ما أغنائي عنه. على أنني لم أتمالك أن قلت:

- ولكني رأيت خطاباً بيدك..

وقع قولي من أذني موقناً شيئاً، فخيّل إلي أنني لم أحسن اختياره، وأنه يفصح عن شك واضح، ورمقتها في إشفاق. وانتظرت أن تبسط لي الورقة في حركة

سعيدة مسرورة. ولعل طبعها اعتراه تغير طفيف يبدو في سهومها الحين بعد الحين كما يبدو في سرعة غضبها لأقل همسة تصدر من أُمِّي.

هل كنت سعيداً؟

كانت حبيتي سعيدة يبدو لي، فكان طبيعياً أن أعد نفسي سعيداً. حقاً لم تنقطع بي الوسواس ولكنني متى عرفت الحياة بلا وسواس؟... وأطرّد تيار الحياة تتقاذفني أمواجه، يسعدني سرور حبيتي، ويشقيني حزن أُمِّي، أقضي وقتاً قبيلاً في الوزارة، وأنفق ساعات حائلة في الحانة على فترات متباعدة. وحتى ضميري الذي عانيت طويلاً من شعوره بالخطيئة لم أل أن أغضي عليّ أناثته وتآوّهاته بضحكات السرور والعريضة، وكنت كلما ألح عليّ وخزّه أقول لنفسي بصوت مرتفع إني سعيد، وكل شيء حسن!

ومضى الشتاء فالربيع ثم الصيف. وعدنا نستقبل الخريف والعام الدراسي الجديد بما تبتدرنا من عزيز الذكريات.

#### ٤٩

وعرض لي أمر بدا تافهاً ولكنه كاد يقلب حياتي رأساً على عقب، ومن عجب أنه تكشف لي عقب مصادفة، فحق لي أن أتساءل: أكانت حياتي تستهدف وجهة أخرى لو لم تعرض لي تلك المصادفة؟ ولكن ما هي المصادفة؟ ألا تبدو الحياة أحياناً سلسلة متصلة من المصادفات؟ ماذا ألقي برباب في طريقي غير المصادفة؟ وهل كان يتاح لي الزواج منها لو تأخر موت أبي شهراً واحداً؟ بل ماذا كان يحدث لي لو أصرّ أبي على استرداد كما فعل براضية ومدحت؟ على هذا المنوال أتساءل: ألم يكن من الممكن أن تطرد حياتي على وتيرة واحدة حتى الموت لو لم يطل اللقاء بيني وبين أُمِّي دقائق معدودات ذلك اليوم الذي لا ينسى؟!

كنّا في أواخر الخريف، وكان الوقت عصراً، وقد ودعت رباب وغادرت الحجرة لقضاء سهري المسائية. والتقيت بأُمِّي في الصلاة وكانت متوكة فمضيت معها إلى حجرتها ولبثت معها نتحدث فطال بنا الحديث، ثم

- إنه خطاب، ولن أرجع حتى تعترفي لي بكل شيء...

تراجعت متأوهة حتى استندت إلى مرآة الصوان وقالت بصوت تمزقه الشكوى:

- بالله لا تسئ بي الظن. لا شيء البتة يستوجب غضبك أو ارتياك، آواه لا تنظر إلي هكذا...

ولكني لبثت أرمقها بنظرة صارمة قاسية ونفسي تتلطف على الحقيقة، فإما النجاة وإما الهلاك. رباه إني لفي كابوس طاع. وهل كان يقع في ظني أن أقف منها هذا الموقف إلا في كابوس؟ واستدرت تقول بصوت متقطع الأنفاس:

- لا تنظر إلي هكذا! لقد أخطأت حقاً ولكنك أنت المسئول عن خطئي! لقد فاجأني فركبني الاضطراب، فتورطت في كذب لا داعي له...

رباه ما أحوجني إلى النجاة، ما أشدّ تلغفي على قطرة غيث تبلّ جوانحي... وقلت في حيرة:

- كان خطاباً...

فبادرتني قائلة:

- أجل! وكان يبدو لي أمره تافهاً حتى وقع في نفسك الارتياح. وتجهّم وجهك فتخيلت الأمر التافه جلاً خطيراً فالتمست مخرجاً في الكذب، وكان ما كان.

فسألته وما أزداد إلا حيرة:

- إذا كان خطاباً، فمن أرسله؟

فقال وبها مثلاً بي من الحيرة:

- لا أدري...

ففنخت قائلاً:

- ما هذه المعميات؟!

تولّى عنها الذعر رويداً، وتشجعت بانفشاء غضبي فقالت بصوت ملؤه الأمل:

- دعني أقصّ عليك قصة هذا الخطاب المشوم بالحرف الواحد: لقد تلقّيته صباح اليوم بالمدرسة، ففضضته بدهشة لأنّي لم أعتد تلقّي الخطابات، ووجدته غفلاً من الإمضاء، ولم يكن به سوى سخف وقح، خطه قلم شخص سمح! وملكني الحق بادي

عصبية وأن ترميني بطرف ساخر مؤتب، ولكنّها كانت تعاني أحاسيس أخرى. وكأنما قهرتها عاطفة مجهولة فقالت وهي توليني ظهرها:

- قلت لك إنّها وريقة خاصّة بملاحظات مدرسية.

ثمّ رأيتها تمزّقها بحركة مباغته، وتحولت صوب النافذة ورمت بها! كانت حركة مباغته أبعد من أن أنوقّعها فتسمّرت في مكاني كأنما حلّ بي شلل. واستقبلتني بوجهها منظرها بعدد المبالاة فتملكني حتى وغضب ويأس، وشعرت بأنّ جدّاً هائلاً قد انقضّ على حياتي فدفنها تحت ركامه، وأنّ عينيّ تفتّحان - بعد أوهم العمى - على حقائق بشعة. وهل غير الحقائق البشعة ما يستشير هذا الاضطراب وذلك الخداع الماكر؟ وصحت بلا وعي:

- كاذبة... لم تكن وريقة ملاحظات كما قلت كذباً وخداعاً. ولكنّه خطاب كما رأيت، وقد مرّفته لتواري عنيّ سواء...

وغاص الدم في وجهها فترك صفحته شاحبة كوجوه الموتى، ولكن بدا أنّها لا تريد أن تسلّم بغير دفاع المستيسر فغمغمت:

- أنت مخطئ... وظالم... لم يكن خطاباً! فتهتفت بها مغيطاً محنّاً والألم واليأس يطرقان رأسي بعنف:

- لماذا مرّفته؟... لماذا تولّك الذعر؟... تكلمي... لا بدّ أن أعرف الحقيقة... سأنزل إلى الطريق ألنقط القصاصات.

وانتهجت نحو النافذة في عجلة واضطراب وأطللت على الطريق فرأيت العطفة الضيقة التي تفصل مؤخرة العمارة عن حديقة الكنيسة، فداخلني يأس وأيقنت أنّ الهواء قد حمل القصاصات إلى حديقة الكنيسة. واسودّت الدنيا في عينيّ، وخيل إليّ أنّها تتمخض عن عالم من الشياطين الراقصة في تيّار من هيب. كيف أنزع الحقيقة من بين شفيتها؟ ودرت على عقبي فوجدتها بموقفها، يحاكي وجهها وجوه الموتى، وتلوح في عينيها نظرة ذعر وارتباك، فاشتدّت قسوة قلبي، ورميتها بنظرة طويلة رهيبة، وقلت بإصرار وحق:

وكأنني فقدت وعيي:

- لماذا مرّفته... لماذا مرّفته؟

فنفخت فيها يشبه اليأس، ولزمت الصمت مليًا،  
ثم قالت بهدوء واستسلام:

- لقد تسلّمت هذا الخطاب المشثوم في المدرسة،  
ولا أظنك تشك في هذا لأنّه من الجنون أن يرسله إلى  
البيت. والآن اطرح على نفسك هذا السؤال: ما  
الذي يدعوني إلى الاحتفاظ بالخطاب وحمله إلى البيت  
إذا كان به ما يريب؟ لماذا لم أمّرقه في المدرسة بعد  
قراءته!

وعقد الصمت لساني حيال وجهة الحجّة ولعلّي  
أسفت على ما بدر منّي من صياح كاسر. أمّا «رباب»  
فعادت تقول:

- لو كنت مذنب لما وجدتي بهذا الموقف السيئ، ولما  
علمت بشيء وهيهات أن أغفر لك سوء ظنك بي...  
فألني قولها، وداخلي شعور أليم بالخجل فخفضت  
بصري أن ترى به أي الهزيمة. على أنّ ألي لم يُنسني ما  
أحب أن أجعله من غامض الأمور فقلت بصوت  
منخفض:

- إنّ قولك مصلّق... ولكن لعلّ صاحب  
الخطاب لم يوقع بامضائه لظنه أنّه من السهل  
الاستدلال عليه، كأن يكون بمن يعترضون سبيلك  
مثلاً...

ولم يخفّف لين نبراتي من ألمها، بل لعلّه جعلها  
تتمادى فيه، وقالت بامتعاض:

- من عادي أن أسير فلا ألوي على شيء ولا ألقى  
بالاً لإنسان.

لم أكن في حاجة إلى قولها وقد خبرته بنفسه، ولكن  
لاح لعمري شبحا الرجلين اللذين قاسماني الإعجاب بها  
فيها مضى. فقلت متسائلاً:

- ألا يُحتمل أن يكون جارك الذي شرع في طلب  
يدك... أعني محمّد جودت؟

فقال بلا تردّد:

- هذا رجل وقور لا ينزل لهذه الأساليب الوقحة،  
وفضلاً عن ذلك فهو وشيك الزواج كما علمت منذ

الأم، ثم لم أعد أباله. وصمّمت على الاحتفاظ به  
لاطلعك عليه وفي ظنّي أنّي أعدّ لك مفاجأة تضحك  
منها طويلاً. ولكنّي غيرت رأيي عقب عودتك وخفت  
أن يثير بنفسك ما لا داعي له من الاستياء. وأخفيت  
عني أمره حتّى ظننتك غادرت البيت فاستخرجته من  
حقيبتي وأعدت تلاوته وفي نيتي أن أمّرقه ولكنك  
فاجأتني وقت تلاوته، ولم يغب عني حرج مركزي، ولم  
يعد بوسعي الاعتراف بالحقيقة، فتورّطت كما قلت لك  
في الكذب، وجنيت من كذبي ما جنيت ممّا لا  
أستحقّ.

أصغيت إليها وكليّ أذان. ولمّا انتهت من قصّتها  
لبثت بموقفي جامداً متحيّراً. خفّت وطأة الجنون الذي  
ركبني ولكنّي وقفت بباب التصديق والطمأنينة متردّداً.  
وجدت نفسي في حيرة قاتلة دعوت الله أن يكشفها  
عني، وأن يهني بصيرة نيرة أنفذ بها إلى أعماق هذا  
الصدر الجميل الذي كأنما خلّق لتعذبي. وأرهقني  
التفكير والتردّد فقلت وكأنني أسألك نفسي:

- من مُرّسله؟!

وكان السؤال ألمها، فغضّت بصرها مقطّبة وقالت:

- قلت كان غفلاً من الإمضاء.

فانفلت لساني يقول:

- هذا غير معقول.

فضربت الأرض بقدمها وقالت وقد لاح في وجهها  
الأم والتعسة:

- أنكذبني يا كامل بعد أن صارحتك الحقيقة؟ إنّي  
لا أحتمل هذا...

فاستطردت قائلاً وقد نال منّي تألمها:

- أعني ماذا يفيد الخطاب إذا لم يترك به إشارة تدلّ  
عليه؟ ألم يرسل لك خطاباً قبله؟

- ... هذا أوّل خطاب أتلقّاه...

- وماذا كان به؟

فغضّت بصرها وهي تقول بضيق:

- كلام سخيف عن الإعجاب والجمال...

ووثب إلى خيالي منظر يديها وهما تمرّقان الخطاب  
فلسعني الشك وانتفض جسمي في هلع فصحت بها

أعرف نفسي جيّدًا، وإني لأغار من الوهم ومن لا شيء! فأين منّي جزيرة نائية لم تطأها قدم رجل! وطار الخيال بغتة إلى حجرة أمي فسرت في جسدي قشعريرة وخلتها تقول لي «ألم أقل لك؟» فنفختُ كمن يزيع عن صدره كابوشًا، ولاحت منّي التفاتة نحو «رباب» فوجدتها تحملق في وجهي بدهشة، فخطر لي خاطر جديد لم أتوانَ عن الإفصاح عنه فقلت برقة:

- رباب، لماذا تواصلين خدمتك في الحكومة! لماذا تتجشمين هذه المشقة بلا ضرورة؟ لماذا لا تقنعين ببيتك كغيرك من الأزواج؟

فتفرّست في وجهي بإمعان وأناة، ثم قالت بهدوء:

- ألا تثق بي؟

فابتدتها قائلاً: معاذ الله ولكي... وقاطعتني قائلة:

- إذا كنت لا تثق بي فالأولى لي أن أغادر بيتك!

- رباب!

فلم تبال جزعي وقالت:

- إذا كنت ما تزال تثق بي فسأبقى في وظيفتي.

فقلت بتسليم:

- لك ما تشائين!

فالتت باللهجة نفسها:

- لا أحب أن أسمع كلمة أخرى عن هذا الموضوع.

وقد كان. وغادرت البيت، وأخذت أضرب في الأرض على غير هدى حتى تناهى بي الإعياء، فرجعت إلى البيت، وتلاقينا وكأن لم يكن بيننا شيء وتناولنا العشاء معًا، ثم آوينا إلى حجرتنا والتقت أعيننا في نظرات ذات معنى.

ولم تتمالك أن انفجرنا صاحكين، ومضينا إلى الفراش فاضطجعنا وقبّلتها قبله النوم. ولا أدري لماذا نازعتني نفسي إلى معاودة ما تعاهدنا على اجتنابه. والأعجب من هذا أنه لم تكن بي ذرة من ثقة، ومع ذلك كدت أهتم... لولا أن ردتني الخوف إلى وعيي! ثم خطر لي أن أسألها عمّا يجعلها تقضي على نفسها بالحرمان؟ وانفجرت شفتاي ولفظ صدرتي القول،

قراءة شهر في بيت أبي...  
فنفكرت قليلاً ثم قلت متحيراً:

- كان يوجد رجل سمين يواظب على التهامك بعينيه في ذلك العهد الذي كنت أحوم فيه حولك، أفلا يجوز أن يكون هو؟

فروت ما بين حاجبيها مستذكرة، ثم قالت وهي تهز رأسها:

- لا أعلم عنه شيئاً...  
وحاولت أن أذكرها به ولكنّها بدت وكأنّها لم تحسّ له وجوداً، فقلت بيأس وغيظ:

- أريد أن أعرفه كي أؤدبه.

فالتت بصوت دلّت نبراته على التعب:

- ليكون من يكون! لو لم يدفني الارتباك إلى تمزيقه لكنا نقرأه الآن صاحكين، فهلاً نسيته وحسبنا ما نالنا من كدرا!

فعضضت على شفتي، وجنحت إلى الصمت مغيطاً مقهوراً، فاستطردت قائلة:

- إنه أمر تافه، بل أتفه من أن يستحقّ كل هذا الاهتمام...  
فتنهّدت قائلاً وأنا لا أدري:

- ليتك لم تمزّقه!

والتمعت في عينيها نظرة غاضبة وتساءلت بحدة:

- ألا زال يساورك الشك؟

فقلت بعجلة:

- كلا... ولكنّي لن أهدأ حتى أؤدبه!

فالتت بضجر:

- ولكنّا لا نعرفه فما العمل؟

وأحنقني قولها، ولكنّي تحاميت الإفصاح عن حقيقي أن أشتير غضبها. وكان الوقوف أرهقها فمضت إلى كرسيّ التواليت وجلست عليه، وشعرت عند ذاك بأنّ في ظهري، فدلقت من الفراش واقتعدت حافته. إنّها صادقة بريئة، والأمر جدّ تافه، فليتني أستطيع أن أحوو من تخيلتي صورة يديها وهما تمرّقان الخطاب! لعلّ المجرم أحد أولئك الفضوليين الذين يراقبونها في ذهابها وإيابها! فليتني لم أخلق فريسة سهلة لأنياب الغيرة. إني

ولكنه جمد على طرف لساني! إنه الخوف أيضًا.

٥٠

وعندما فتحت عيني في الصباح الباكر عاودتني ذكريات الأمس، فتأملتُها في دهشة، وقد خيل إليّ أنه لم يكن هنالك ما يستحقّ كلّ ذلك العناء والألم. وقلت لنفسي: لو أنّها مرّقت الخطاب في الروضة لما علمت به أبدًا، وفي هذا آية صدقها، ثمّ تمثّلت لعيني وهي تمزّق الخطاب وترمي به من النافذة، فكأنّما هي تمزّق قلبي وتنثر شظاياه في الهواء، وسرت في جسدي رعدة عنيفة. وهزّزت رأسي غاضبًا كأنّي أنفض الأوهام وغادرت الفراش. ولمّا فرغنا من فطورنا جلسنا على المقعد الطويل نحسّي الشاي. استرقت إليها نظرة فرأيت وجهها المحبوب هادئًا باسمًا ينمّ عن جمال وسلام، فغضّني الندم على ما فرط منّي في حقّها وقلت لنفسي: «حقًّا إنّ الشيطان غوّى رجيم». وفي اللحظة التالية لاح لي خاطر كالبرق، أليس من الجائز أن تكون قد تسلّمت الخطاب في البيت وأنّه لم يكن بوسعها أن تمزّقه في مكان آخر؟ ولكنّي سرعان ما نبذته، إذ إنّّه غير معقول - كما قالت بحقّ - أن تبلغ الحماقة من شخص أن يرسل خطابًا غراميًا إلى بيت الزوج! ألا سحقا للأوهام، إنّ حبيتي أهل لكلّ ثقة، والثقة هي كلّ شيء، ولولاها ما حال دون الشرّ حائل.

ونخرجنا معًا. وركبنا الترام. لعلّ كثيرين يرمقونا بعين الحسد، فهل يتصوّرون كيف نحيا معًا؟! ألا ما أعجب العوالم التي تنطوي عليها النفوس. وأعجب من هذا أمر ربّاب، فكيف ترغب عن المعاشرة الزوجيّة بهذا الإصرار العريب؟ لشدّ ما يشوقني أن أغوص في أعماقها. عند ذلك شعرت بحاجتي إلى مرشد أقصّ عليه وأصغني إليه. لم أشعر من قبل بمثل ما شعرت به وقتها من الوحدة والعزلة وقلة الحيلة. وكان طبيعيًّا أن أذكر مرشدي الوحيد في الحياة، أمّي، ولكن سرعان ما تمثّلتني إحساس قويّ بالاختجل والغیظ، حتّى لكأنّ نُشر همومي على الملأ أهون عليّ

من أن أسارّ أمّي بها.

هل أستطيع أن أجلو السرّ بنفسي؟ أليكون الله قد خلقها خلقًا طاهرًا لا تطيب له الحياة إلّا بالعقّة؟! هذا فرض محتمل يؤيّد الواقع. ولست آسى عليه، فلولاها لكنت في مأزق حرج. والحقّ أنّ اتصالي بها - حتّى في أسعد أوقاته - لم يخل من قلق وخوف غامضين. وقد عاودني العجز في إبّان جنوحها إلى النفور، ولكنّي كنت أرى إلّا أن أصوّر نفسي في صورة الضحيّة لشذوذ حبيتي، والفداء لسعادتها... ولمّا بلغت هذا الحدّ من التفكير - وكنت أشارك الوزارة - اضطرب ذهني وشعرت بقلق طاعٍ لم أدركه. بدا لي الأمر وكأنّه يستدعي الطمأنينة التامة، ومع ذلك لفتني حيرة معذبة فدخلت الوزارة ذاهلاً... من عسى أن يكون الوغد الذي كتب الخطاب؟ معقول جدًّا ألاّ يكون الرجل الوقور محمّد جودت، فمن يكون؟ لماذا لا يكون الفتى الآخر ذا الجسم البدين والنظرة المتغترسة؟ وليس هذا بعيد. إنّّه في متناول يدي، وإنّي لأعرف موقفه الذي ينتظر به كلّ صباح... ترى هل حقًّا جهلته أم كانت تتجاهله؟ على أنّي تمثّيت بقلبي ألاّ يكونه، إذ لم يخفّ عني لحظة أنّه قادر على أن يبطش بي بضربة واحدة؟ وقلت لنفسي ساحطًا: لو أنّها أبقت على الخطاب لأمكنني كلّ شيء. أيّ شيء أعني؟ لا أدري على وجه التحقيق، لكنّي وجدت عليها مرّة أخرى بعد أن عُذّ الأمر منتهيًا. والله ما مرّفته إلّا خوفًا من اطلاعي عليه. ربّاه هل أتردّي ثانية في الجحيم؟ حذار! أن تتبادى! إنّ من يسمح لنفسه بالشكّ في ربّاب لا يستحقّ أن يكون إسنانًا. ألا يحسن بي أن أسأله في التليفون عمّا إذا كانت تلقّت خطابًا جديدًا؟ نازعتني إلى ذلك رغبة حاحّة ولكنّ حال دون تنفيذها الخوف... ودعاني صوت من الأعماق إلى الهرب! ولكنّ تمنّ أهرب؟ وإلى أين؟ إمّا أن أكون مجنونًا أو سخيًّا. إنّنا زوجان سعيدين في الواقع، ولكنّ عقلي شقيّ، فآه لو أستطيع حذف الأمس من الأيّام. آه لو تمحى ذكرى تمزيق الخطاب من خيالي. وإليك خاطرًا جديدًا: إذا كانت قرأت الخطاب في المدرسة فلماذا

فرائض الدين حتى لم أعد أواظب إلا على الصوم في حينه، ألسْتُ حقيقاً إذا عدت إلى هدى الصلاة أن يطمئن قلبي ويخفّظ عن ظهري وقر القلب والمخاوف.

وكان قلبي على الله يتفياً ظلّ النبوة الظليل، ويعبّ من غير صافٍ مثلوج، ويغمره سكون عميق يدعوني إلى الاستزادة من صفاء الساعة الهنيء. وفي نشوة من نشوات السلام تراءت لي آلامي كخيوط رقيق من نسيج القضاء المهيمن على كلّ شيء فنزعت إلى الرضى والتسليم. ودوّمت بنفسي صفاء روحيّ سها بي إلى ذروة من البهجة فوق المني فكأنّ القلب يعلو غصناً من أغصان الجنة تهمل عليه حمامة السلام. ولبثت في نشوي زماً لا أدري كم لبثت حتى اندسّ إلى خيالي على حين غرة صورة رباب وهي تمزّق الخطاب وقد تمكّنها الملح فأفقت بقسوة وعنف كمن يفيق من نوم على زلزال عنيف، وتهتدّت من قلب مكّوم ثم نهضت قائماً، وتلوت الفاتحة مرّة أخرى وغادرت الجامع، وقد وقع بصري لدى خروجي من الباب على رَمال مَمن يستطلعون الغيب، إنّي أوّمن بهؤلاء الناس إيمان أُمّي بهم. وقد انتظرت حتى انفضّ من حوله جماعة من السائلين واقتربت منه على حياء، وسألته أن يقرأ لي الطالع. وراح الرجل ينكت بإبهامه في نقرات الرمل وينقل فيما بينها قواقعه. كان نحيلاً كالومياء، شاحب اللون، متلفّعاً بكساء أبيض، فقال من فم لم تبق فيه إلا ثنيته العليان:

- كثير الهمّ والفكر.

فقلت لنفسي: لقد صدق، وأرهفت السمع بانتباه، فاستطرد قائلاً:

- ولك عدوّ ماكر.

فخفق قلبي! اليس هو صاحب الخطاب؟! وواصل الرجل حديثه قائلاً:

- إنّه يكرّمه وسيرّد الله كيده إلى نحره...

ألا يعني هذا أنّ «رباب» بريئة؟

- وستجيثك ورقة تسرّبها طويلاً...

- أتعني خطاباً؟

- ربّما، إنّي أرى أمامي ورقة...

أعادت قراءته في حجرتنا؟... أَلَدّها أن تعيد تلاوته أم كانت تستوثق من الميعاد؟ أو شكّ جيبني أن يتفجّر من حمّي الفكر...

ولمّا غادرت الوزارة أسعفني هواء الطريق اللطيف بروح من عنده فتنفّست تنفّساً عميقاً، وأحسست انتعاشاً ردّني إلى السكينة. وجعلت أرّدد: ما أحقني! وفي البيت لاقتني رباب بابتسامة وضّاء فانبسّطت أساريرى، وسألته ضاحكاً:

- هل من جديد؟

- أتعني خطاباً جديداً؟

فقلت وما أزال ضاحكاً:

- نعم.

فقال مبتسمة:

- كلّاً انقطع البريد...

وغادرت البيت عصراً وليس لي غاية، وما كدت استقرّ بمكاني في الترام حتى نشأت في صدري رغبة جميلة، هي أن أزور «السيدة» طالما كانت ملجئي وملاذي، ولم أتردّد عن تنفيذ هذه الرغبة التي ملكت نفسي. وعندما عبرت عتبة المسجد سرت إلى صدري نسمة ارتياح سعيدة، وطافت برأسي ذكريات محبّة إلى قلبي. رأيته بعين الخيال أسير ممسكاً بيدي أُمّي إلى الضريح الطاهر. وذكرته يوم جاءت بي لأتوب عن الذنب الذي أكاد ألفه وأعتاده. يا لها من ذكرى أعقبت ندماً وخجلاً حتى شعرت برغبة في التواري والفرار، ولكنني واصلت السير، فطفت بالضريح قارئاً الفاتحة، وتشجّعت إدلالاً بمنزلي منذ الصغر عند صاحبه الطاهرة، فوضعت راحتيّ على الباب وغمغمت في ضراعة: «يا أمّ هاشم، أنت أعلم بقلبي وطيبته، وبأنّي لم أضمر في حياتي أذى لإنسان فاجعلي جزائي من جنس عملي. هذا دعائي يا ست». وانتبذت ركناً وتربّعت على الأرض. سطعت أنفي رائحة ذكيّة لعلّها كانت رذاذاً يرشّه أحد المجذوبين، وتجاوبت في الأركان أصوات الدعاء يرددها الطائفون، على حين مضى شيخ غير بعيد يرتل بصوت مهموس آيات من الذكر الحكيم، وذكرت كيف انقطعت عن

فما العمل إذن؟ الصواب أن التمس إجازة من الوزارة، ثم أفرغ للمراقبة في خفاء لا يدري به أحد. أيهون عليّ أن أتجسس على «رباب»؟! ألا ما أشقّ هذا على نفسي، ولكن كلّ شيء يسهون إلّا عذاب الشكّ...

## ٥١

توثّبت للعمل وبني من الألم ما لا يعلمه إلّا الله، فخرجنا معاً كعادتنا كلّ صباح وركبنا الترام معاً، ثم نزلتُ في محطة الوزارة وناديت «تاكسي» وأمرت السائق بالذهاب إلى العباسية. سبقتها إلى مكان عملها لأهني نفسي موضعاً يصلح للمراقبة. وكانت الروضة تقع بشارع كمال - المتفرّع من الطريق العام إلى اليسار - على يمين الداخل بعد فوات بيتين من مدخله، وقفت في المحطة أتفحص ما حولي فرأيت شارعاً فرعياً يقابل شارع كمال على الناحية اليمنى من الطريق تقوم على ناصيته قهوة صغيرة، بدا لي أن أجلس في هذه القهوة حيث يسهل رؤية المدرسة من بعيد، ومراقبة زوجي حين دخولها وحين خروجها. واتّجهت إليها - وكان بابها يفتح على الشارع الجانبى - واخترت مجلساً على عتبة المدخل يمكنني أن أرى منه ما أريد رؤيته، وأن أتوارى إذا دعا الحال برحرحة الكرسي قليلاً إلى الوراء. وأدركت من نظرة واحدة مقدار حقارة القهوة، فكانت مواندها قديمة وكراسيها باهتة رثة وروادها من النوبيين، ولكن لم أبالِ هذا، بل وجدت به مدعاة للطمأنينة. جلست وعيناى لا تتحولان عن شارع كمال، وكلّما جاء ترام من المدينة اشتدّ انتباهي ويقظتي. ولم يطل بي الانتظار فما لبثت أن رأيت زوجي وهي تعبر الطريق متلفّنة يمة ويسرة لتتفادى من المركبات حتّى بلغت «الطوار» الأيمن لشارع كمال، ثم سارت بمعطفها الرصاصي المنمّم، بطولها الفارع الرشيق ومشيتها اللطيفة المهذّبة، في احتشامها المعهود وقارها المحبوب ثم انعطفت إلى مدخل المدرسة وقد وقف لها البوّاب احتراماً، غلبني الخجل والألم لموقفي ذلك، وترطب قلبي المحترق بالعطف والحبّ وأنا أذكر

ما معنى هذا؟! كان الأمر يزداد غموضاً، وسألته: هل تأتي من قبل العدو؟ - كلاً... كلاً... ناحية أخرى فتنجلي بها همومك. - آية ناحية؟ - يأتيك الخبر من حيث لا تدري.

فتولّتي الحيرة وتمنّيت لو يزيد بياناً، ولكنّه عاد يقول:

- إذا جدّت صعاب فسيذللّها هذا الحجاب بإذن الله.

وأعطاني لفافة صغيرة جدّاً من الورق مربوطة بخيط رقيق ثم قال:

- ضعه على القلب، وتوكل على الله...

\* \* \*

ذكرت في طريق العودة ما عانيت من ألم مند عصر أمس فأيقنت أنّ سعادة عام لا تزن شقاء يوم واحد، لم أهدت إلى مرسى وما ازداد إلّا حيرة وتلبّلاً. إنّ ما يظلّني أحياناً من طمأنينة ما هو إلّا سحابة صيف، ولن يهدأ لي جانب حتّى ألقى الحقيقة وجهاً لوجه، ما كنت أحبّ أن تلوث نفسي بالشكّ في الوجه الصبيح الطاهر، ولكنّ بدرة الشكّ قد ألفت في أعماقها ولن تزال تنمو وتثمر شوكتها الجهتية. لقد شددت بقوة اليأس على أهذاب الطمأنينة فتهتكت وتخرّقت، وما أطيق أن أحتمل الحياة متردّداً بين ساعة سلام خادعة وساعات عذاب طويل، فما من عيّد عن أن أرى وراء الحجب، قد يكون في ذلك هلاكى ولكنّ الحياة تقضي علينا في أحيان كثيرة بأن نجري وراء هلاكنا كأنه اللذّ المنى. إنّني أحبّك يا حبيبتي ولعلّ القدر قد رماني بهذا الحبّ ليقتضي به عليّ، ولكن هل أملك ردّ قضائه؟ لعلّي أدرك الآن لماذا لم يكن يزايلى القلق حتّى في أصفى ساعات سعادتى، أكان قلبي يشهد لمحات من المقدور وراء ستار الغيب؟... على أنّي لا أحبّ أن أتمادى في التشاؤم، فقد يكون المخبوء على غير ما توقع قلبي، وقد أجد به ما أتلهّف عليه من طمأنينة وسلام.



وارتفعت في القهوة ضجة ضحك فانتشلتني من الأحلام، فعدت إلى وعبي متعباً كالمرضى، وألقيت نظرة على الوجوه السود الدائبة على ثرثرة لا تنقطع بأصوات عربية مكهربة، ونطرت بين يديّ فإذا بفنجان القهوة لم يمس، فرفعته إلى فمي ورشفت منه رشقات باردة، وعدت بصري إلى الطريق حتى استقرت على باب الروضة. إنَّ «رباب» تباشر الآن عملها في طمأنينة، ومن يدري فلعلَّ هذا الرعب كلّه أن يتمخض عن لا شيء، ولعلّي أن أذكر موقفي هذا يوماً فلا أداري خجلي. أتكذب هاتان العينان الصافيتان؟ أيغدر هذا القلب الطاهر؟ وتتابع الدقائق في تفكير متواصل، حتى انتهت على طقطقة نافذة وهي تفتح، فاتجه بصري بحركة عكسية إلى الجانب الآخر من الطريق، فرأيت النافذة في الطابق الثاني من عمارة كبيرة وقد أطلت منها امرأة، ولعلّها عجبت لجلوس أفندي مثلي في قهوة النوبيين، فنظرت صوبي باهتمام، كان في عينيها جراءة، فارتد بصري في حياء. ومع أنّ عيني لم تثبتا عليها إلا لحظات إلا أنّها عادت منها بصورة واضحة لوجهها الغليظ وصدرها المكتنز، وداخلني إحساس بالقلق، لأنّ النافذة تطلّ على مجلسي مباشرة، وقد رفعت عينيّ في حذر شديد فرأيتها تدخن سيجارة وتنظر إلى شيء بين يديها على حافة النافذة، فتشجعت بتحوّل عينيها عنيّ وأدمت إليها النظر. كانت فوق الأربعين إن صدق نظري - وقُل أن يصدق في تقدير الأعمار - وكانت على رغم تأنّفها وتزيّنها أقرب للدعامة منها للحسن، ذات وجه مستدير غليظ، وعينين بارزتين ثقيليتي الجفنين، وأنف قصير أفتس، وشفتين ممثلتين، ووجنتين متكورّتين منتفختين، وشعر جعد لامع. وما لبثت أن غابت من النافذة فكدأ يذهب عنيّ القلق، ولكنّ باب شرفة تجاور النافذة فُتح على مضراعيه وبرزت المرأة منه تجرّ كرسيّاً، ثمّ وقفت قليلاً مرتفعة حافة الشرفة، فرأيت جسمها المكتنز المائل إلى القصر، ثمّ جلست على الكرسيّ واضعة رجلًا على رجل. كانت الشرفة أقرب إلى الطريق العام من النافذة، فأمكنني أن ألحظ من فيها دون حاجة إلى

كيف بهرني هذا الجمال الوقور أوّل مرّة، اللهم إذا كانت حبيبي ملائكا فلتحرقني بنقمتك وإذا كانت شيطاناً فلتحرقنا جميعاً، ولتتحرق الدنيا معنا فما يكون بها شيء يستحقّ الرحمة، وارتفعت عيناى إلى السماء وغمغمت: «ربّي! إذا شئت حكمتك أن تذّر سموم الغدر في حنايا هذا الجمال فلتغفر لي الجنون والثورة!».

وتفحصت الطريق أمامي متسائلاً في رهبة: ترى هل أرى بعد ساعات من يقف منتظراً بموضع من هذا الطريق؟ هل أراها وهما يتبادلان إيماءة أو ابتسامة أو يلحق أحدهما بالآخر؟ ما عسى أن أصنع لو انقضت هذه الصاعقة على رأسي! وانتفض جسمي غضباً ورعباً! وتخيّلت الكارثة كما لو كانت قد وقعت، وتخيّلتها حتى تجسّمت لناظريّ، ثمّ تساءلت مرّة أخرى عما عسى أن أفعل! ليس أسهل من البطولة والنصر والبطش في أحلام اليقظة، ومع ذلك فلم يسعفني الخيال بنفحة منها، ولعلّه تحرّج لأنّ الخطر الذي تهدّدي لم يكن بعيداً بحيث يسمح له بالاستمتاع بأحلامه، كان على العكس قريباً محتملاً، فشكمت الأحلام، وتمثّل لي الموقف البشع في حدود الواقع، فتصوّرت بقلب هيب ونفس مخلخلة القوائم، تمثّل لي العدو شخصاً حقيقياً في طريق مزحوم بالمائة فما أسعفني الخيال على التصدّي له جهازاً ونشر فضيحي على الملأ، أو خوض معركة لا أشكّ أنّي سأكون فيها من الخاسرين! تصوّر زوجاً خدوعاً صريعاً بلكمة من خادعه! ثبّا لي! لكم حققت في تلك اللحظة على ضعفي! غضبت غضب من يروم دكّ الجبال، وتهدّدت تنهّد من يعجز عن رفع حصاة، ولكن ما من الإقدام بدّاً! أرى «رباب» مع صاحب الخطاب ثمّ أقف مكتوف اليدين! محال... لاهجم إذن على غريمي وليكن ما يكون، أو أنفع بمشاهدة الجريمة الساعية في الأرض، ثمّ انتظرها في البيت حتى تعود وأقول لها بهدوء واستهانة: «لقد رأيت كلّ شيء بعينيّ، عودي إلى بيتك بسلام!». لماذا أقدمت على هذه الخطوة الجنونية؟ لماذا تزوّجت؟ ما كان ينبغي لمثلي أن يتزوَّج.

الشمس ثم تستقرّ عليه... ولاحت منها نظرة إلى القهوة، فلما وقعت عليّ لاح بعينها الاهتمام والدهشة وكأنّها تتساءلان عما دعاني إلى ملازمة مكاني بهذه القهوة الحفيرة طوال هذا الوقت، وتعمّدت أن تظهر لي دهشتها بغير ما حياء فلم يبق إلا أن تسألني عما يبقيني في مجلسي ذاك؟ وأشعلت سيجارة، وراحت تدخن بتلذذ، وتسلّى بالنظر إليّ من وقت لآخر. وصمّمت على أن أركّز انتباهي في هدفي، فأرسلت بناظريّ إلى الطريق، ولكن ظلّ شعوري في شغل شاغل! وتبدّت قوّة إرادتي في مقاومة ما يجذبني إلى رفع بصري، وغلبني الحياء والارتباك إذ تهيّأ لي - لضيق الشارع - أنني والمرأة في حجرة واحدة. ولم أخلّ من إحساس بالارتياح منشؤه أنني أجد نفسي محطّ نظرة امرأة لأول مرّة في حياتي، ولم يعد يخفى عليّ ذلك الانفعال الجنسيّ الذي بعثه في أعصابي وجهها الغليظ وساقها المرتويتان، ولئن كانت جرأتها قد أزعجتني فلم تعدم في نفسي إثارة من ارتياح غامض، لعله نوع من الإعجاب الذي لا يريد أن يفصح عن نفسه، وتساءلت في دهشة: ترى لو كان لجميع النساء ما لهذه المرأة من جرأة أكنت أقطع ما خلا من زماني موحواً بغير رفيق؟! وانسقت وأنا لا أدري إلى مقارنة هذه الجرأة الجذّابة بذاك الاحتشام الجميل الذي تتحلّى به زوجي المحبوبة، ولكنّي سرعان ما أنكرت المقارنة الوقحة، فامتلاّت سخطاً وتقزّزاً، وليث المرأة بمجلسها ساعة ثمّ عادت إلى الداخل وأغلقت باب الشرفة، فتنهّدت في ارتياح عميق وغمغت: «لا أرجعها الله»، وانفرد بي الانتظار، ومرّ الوقت في إعياء وسأم، فجعلت أتسلّى بمراقبة ستّة أو سبعة من النوبيّين هم كلّ من بقي بالقهوة من الزبائن، وقد واصل ثلاثة منهم الثرثرة على حين جمد الآخرون على مقاعدهم كتبائيل من البرونز. وحينما أرمي بنظري إلى الطريق العامّ أحصي المائة نساء ورجالاً، وأشاهد مركبات الترام الذاهبة الآتية، أو أتساءل كلّما قرع أذنيّ أزيز ترام آتٍ من بعيد أن يكون رقم ٣ أم رقم ٢٢، وهل يجرّ مركبة مكشوفة أو مغلقة ثمّ أحصي مرّات الصواب

عطف رأسي، فاخترت نظرات من ساقها المرتويتين السمرائين، وشبّسها الأحمر الفاقع، وأنقذني وجودها من تيار أفكار الجهنميّ وإن استحوذ عليّ ذلك القلق الطارئ، وراحت تنفخ الدخان من شفّتيها الغليظتين وتقلّب عينها فيما حوّلها، وكلّما التقتا بي تفحصتاني بجرأة منقطعة النظير حتّى شعرت بحرارة الخجل تلهب وجهي، وتساءلت في ارتباك: متى تخفّي؟ فلقد أربكني تفرّسها في وجهي، ولعله ترك في نفسي أثراً آخر غريباً لا يخلو من ارتياح حذر وانفعال جنسيّ لم أعرف له سبباً. وكنت كلّما رفعت إليها عينيّ حولت رأسها نحوي وحدجتني بنظرة وقحة ثابتة كأنّها ترى بأذنيها، أو أنّها تتمتّع بحساسيّة خارقة تقلّ إليها النظرات التي تصوّب نحوها من أيّ مكان كان، فركبني الخوف والحذر، وحرصت على ألا أرفع بصري القلق إليها. ترى هل يطول بي هذا الحذر والتوتّر؟ وعلى حين فجأة رنّ صوتها - صوت ممثليّ رنّان - وهي تقول وكأنّها تخاطب أحداً في الطريق: «إنيّ قادمة يا ماما» ثمّ نهضت قائمة ومضت إلى الداخل! ولم أتمالك أن ابتسمت في استغراب واستنكار، فقد هالني أن تقول «ماما» وهي المرأة التي جاوزت سنّ الشباب، كما أدهشني أن تستجيب لنداء أمّها بهذا الصوت الذي رنّ في الطريق بلا داع، وكان بوسعها أن تذهب إليها دون أن تنبس بكلمة، أو أن تخاطبها عقب دخولها إلى الحجرة، فبدت لي - إلى جراتها - غريبة الأطوار، محبة للظهور ولّفت الأنظار، متجاهلة لسنن العقل الذي تعطي ذروته. على أنّي سررت لذهابها، ولتخلّصي من سطوة نظراتها، وعدت إلى نفسي، وإلى الطريق الذي عليّ أن أراقبه حتّى ينطوي النهار. وتتابع الوقت فاتعبي تشاقله، واستحوذ عليّ الضجر. ألا يحسن بي أن أمضي هنا وهناك حتّى يقترب موعد انصراف الروضة؟ ولكنّ من يضمن لي ألاّ تحدث أمور في أثناء تجوالي؟ فلا ظلّ رهين مجلسي هذا حتّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً! وليث بمكاني متجرّعاً الصبر دقيقة فديقة، وجاءني صوت من الشرفة، فرفعت عينيّ، فرأيت المرأة وهي تنقل الكرسيّ إلى موضع من الشرفة تملأه أشعة

والخطأ. ولمّا آن وقت انصرف الروضة عاودتني اليقظة، ثمّ اشتدّ بي القلق والجزع، وجالت عيناى في جنبات الطريق ثمّ استقرت على باب المدرسة، ولشدّ ما خفق قلبي حين رأيت جماعة من المدرّسات يغادرن الروضة، وعلى أثرهنّ خرجت «رباب» بصحبة فتاة من زميلاتهما، وأنجبهتا نحو شارع العباسية وهما تتحدّثان وتضحكان. وافترقنا في الطريق العامّ فأنجبهت الفتاة إلى اليسار، وسارت زوجي إلى المحطة، ولمّا كانت وقتتها بحيث يتّجه وجهها صوب شارع القهوة الجانبيّ فقد تراجعت بالكرسيّ إلى الوراء منتحيًا عن مرمى بصرها، وتفحصت الطوار بعناية وقلبي يكاد يشب من موضعه من شدّة الخفقان فقد حدّثني نفسي بأنّي سألتقى الضربة القاصمة بعد لحظات. وكان على «طوار» المحطة شتيت من الرجال والنساء، ولكنّ زوجي انتبذت طرف الطوار البعيد ووقفت وقتتها المحتشمة لا تميل برأسها نحو أحد، وتنظر من آنٍ لآخر من وراء كتفها صوب الجهة التي يأتي منها الترام، لم أر ما يرييني، ولم تتحوّل عنها عيناى لحظة واحدة حتّى جاء الترام وصعدت إليه، وبارحت مكاني متعجّلاً وناديت تاكسي وركبته وطلبت من السائق أن يتبع الترام عن بُعد وجلست لصق النافذة اليسرى وعيناى إلى مقصورة السيّدات، حتّى بلغنا العتبة، ونزلت زوجي من الترام واخترقت الميدان إلى محطة الترام رقم ١٥ الذاهب عن طريق الروضة، فدرت بالتاكسي حتّى وقف بي على كئب من قسم الموسكي، رأيتها تقف في زحمة من الخلق فجعل بصري يدور في الحلقة التي تحيط بها ويثبت عليها في سرعة وجنون، وجاء الترام فصعدت إليه، ومضى بها، فتبعته محطة بعد محطة حتّى طوى الطريق إلى محطة عمارتنا ورأيتها تغادره وتعبّر الطريق صوب البيت! وانطلق بي التاكسي محطة أخرى، ثمّ غادرته وعدت إلى البيت مشيًا على الأقدام، وشعرت في طريق عودتي براحة مشوبة بخجل، وتساءلت في حيرة: ترى هل فتاتي بريئة أم ينطوي الغد على ما لم أعثر به في يومي؟ ولمّا انتهيت إلى الشقة وجدت أمي قلقة لتأخري، وكذلك «رباب»

فأخبرتها بأنّ العمل يستدعي بقائي في الوزارة هذه الساعة مدّة أسبوع على الأقلّ، وحين الأصيل أخذت «رباب» في ارتداء ثيابها وقالت لي إنّها ستزور أمها، ودعتني - كعادتها كلّما خرجت - إلى مرافقتها، وتساءلت كيف يمكنني مراقبتها في المساء؟ ليس الأمر سهلاً كما في الصباح، فالبیوت التي تتردّد عليها في أحياء متقاربة، وهي تقصدها مشيًا على الأقدام، فيما ندر، فلا أستطيع أن أمن على نفسي - إذا تبعتها - من الافتضاح، ولكنّي إذا لزمته في تحوالها أمنت المساء، ولم أدع لها فرصة لأمر، ممّا يضطرّها إلى مقارفة الإثم - إن كان ثمة إثم - في نصف النهار الأوّل فتقع في شبكي من حيث لا تدري.. لذلك تقبّلت دعوتها بسرور وقلت لها ضاحكًا:

- سأذهب معك تفاديًا من الملل الذي يقتلني في غيابك.  
فسرّرت لقبولي دعوتها وقالت برجاء:  
- لينك تخرج معي دائبًا فليس أحبّ إليّ من أن نذهب ونجى معًا...

## ٥٢

وفي صباح اليوم الثاني خرجنا معًا كعادتنا، وأعدت ما صنعت بالأمس، فاستقللت التاكسي إلى قهوة النوبيّين واتخذت مجلسي بمدخلها، وجاءت رباب في موعد الأمس ومضت إلى الروضة، وخطر لي وأنا أتبعها عينيّ أنّه لو كان لها حساسية المرأة الغربية - لم أذكرها منذ غادرت العباسية بالتاكسي أمس حتّى وتب لذهني هذا الخاطر - فالتفتت صوبي ووقع بصرها عليّ فدارت على عقبها وجاءت إليّ في دهشة تسألني عمّا أتى بي إلى هذه القهوة؟! تصوّرت هذا المنظر في فزع، فانكمشت في مجلسي هلعًا، وعصني الندم والألم، ولكنّ زوجي مالت إلى المدرسة أمة مطمئنة، غافلة عن العينين اللتين تراقبانها في حذر وارتباب، حتّى غيّبها الباب عن ناظريّ، فذهب عنيّ التوتر والخوف، وشعرت برهبة حيال الانتظار الذي كان عليّ أن أعانيه في تصبّر وتجلّد نهارًا آخر، وألقيت نظرة دائرية ضجرة

الشرفة الخشبيّ وجهًا لوجه، وليس بالشارع الجانبيّ دكان، ولا يكاد يمرّ به أحد إلّا فيها ندر، وأما زبائن القهوة فعاكفون على ثرثرتهم في الداخل لا يرون شيئاً، ومائدتي بموضعها من المدخل وحيدة، فخلتنا منفردين على نحو ما. وشعرت في اللحظة التالية بالارتباك والخرج، ولم أدر كيف يمكنني البقاء هكذا تحت رحمة عينيها الوقحتين، فتمنيت لو لم تحقّق رغبتني الخفيّة، وجعلت أنظر إلى الطريق البعيد تارة، أو أعطف بصري من فوق كفي إلى داخل القهوة تارة أخرى، شاعرًا في أثناء هذا وذاك بوقوع عينيها الثقيلتين على وجهي. إنّي راغب في وجودها ما في هذا من شك، ولكنّي لم أحتمله، وما من مرّة أسترّق إليها نظرة إلّا وأجدها متفرّسة في وجهي في هدوء وإمعان وبلا حياة أو تردّد، وإنّ هذا ليملأني سرورًا وخفّة ولكنّه يسومني ما لا طاقة لي به من خجل وارتباك. إنّ عينيها تنظران طويلًا ولكنّها لا تنظران فحسب، إنّهما تحدّثان بأجلى لسان، كلّما التقت عينانا خلّتها تخاطبتي فأغصّ الطرف وكأني أفرّ فرارًا. ونظرت نحوها مرّة فوجدتها تشعل سيجارة، وأطفأت عود الثقاب هزّتين ثمّ رمت به نحوي لولا أن أرجعه الهواء، وأخذت نفسًا عميقًا وقد ابتسمت عيناها، فحقّق قلبي بعنف وازدردت ريقني بصعوبة... ماذا تريد هذه المرأة؟.. كيف تواتيها الجرأة على هذا النظر العارم الوقح؟ بل كيف تطاردني هذه المطاردة الصامتة وهي لم تسبق لها بي معرفة، ولم ترني إلّا مرّة بالأمس ومرّة أخرى اليوم. واستحوذ عليّ الاضطراب، وشغلت بالشرفة انشغالًا تامًّا فلم أعد ألقي على باب الروضة إلّا نظرات سريعة لا تكاد ترى شيئًا. ورأيتني أنظر نحوها فوضعت رجلًا على رجل جاذبةً عينيّ قهراً إلى جانب عريض من فخذها أحدث التقاؤهما واشتباكها طيّات سمراء مثيرة فشعرت بمثل سورة الخمر وجفّ حلقي وطغى عواطفني على حيائي فذاب كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس النارية فحملت فيها بلا خجل ولا تردّد، وما لبثت أن نهضت قائمة وغادرت الشرفة! تركتني في ثورة جاحشة. وقلت لنفسي ساخطًا: آية هاوية تنفخر تحت قدمي! ثمّ

على شارع القهوة الجانبيّ وما يبدو لي من شارع العباسيّة والقهوة بزبائنها السود، تلك الأماكن التي قضيت عليّ بأن أمكث بينها كالسجين المجنون أتخبط في دياجير الأفكار وشوارد الأخيلة الجهنميّة... ولكنّي كنت ذكرت المرأة الغريبة وأنا أراقب زوجي في ذهابها إلى المدرسة، فرفعت عينيّ إلى العيارة على الجانب المواجه للقهوة، فرأيت النافذة والشرفة مغلقتين، وتساءلت كيف لي بتحمّل الانتظار نهارًا كاملاً بلا تسليّة أقتل بها الوقت؟ وكان تساؤلًا مريبًا أداري به رغبة في رؤيتها كرهت الاعتراف بها، ولكن ماذا يدعوني إلى إنكار هذه الرغبة؟ وهل هي رغبة في التسليّة وقتل الفراغ؟ أجل إنّ المرأة قد أهاجت في صدري انفعالاً جنسيًّا، ولكن ليس في هذا جديد، فقد كنت ولا زلت أتلقّى هذه الانفعالات الجنسيّة من أقبح الأدميّات، وأقذرهنّ. ولم يغيّر الزواج من حالي، ولم يشغني من دائي، فرُددت إلى عاداتي القديمة جميعًا، وعادوت النظر إلى النافذة مرّة أخرى، وكأني أعاني انتظاريّن! فلاأحاول فهم نفسي أكثر من هذا، لست طالب تسليّة فحسب، إنّي أرغب في رؤيتها مرّة أخرى، لتلتهمني بنظراتها كما فعلت بالأمس فيعودني ذلك الشعور العميق بالارتياح والرهو، وأسترّد بعض الثقة المسلوّبة، ولم أكد أستغرق في أفكاره حتّى قرع أذنيّ طقطقة النافذة، فرفعت عينيّ، فرأيتها وهي تفتح على مصراعها، ولاحت وراءها المرأة، والتقت عينانا، ولم تكن تتوقّع رؤيتي بطبيعة الحال. فتجلّت في عينيها دهشة واضحة، ولبثت دقيقة أو نحوها وهي ترنو إليّ ثمّ تحوّلت عنيّ واختفت، وداخلني سرور لا يتناسب مع شقاء المهمة التي جثت من أجلها إلى هذا المكان، وانجّه بصري صوب الشرفة المغلقة منتظرًا أن تفتح. وقد كان. فدفعت يد مصراعها حتّى اصطدما بعنف بالحائط على الجانبين، ثمّ دخلت المرأة تجرّ الكرسيّ بجسمها القصير المكتنز، وقد بدت لي في الروب الورديّ كبرميل إلّا أنّه مفصّل تفصيلًا بهيميًّا، ووضعت الكرسيّ في ركن الشرفة البعيد. وجلست عليه مستقبلة القهوة بوجهها ومدّت ذراعها على حافة

إلا إحساساً عابراً، ولم يبق منه أثر في اللحظة التالية. وغشيتني بعد ذلك كآبة وامتعاض، ولم تلبث المرأة أن غادرت الشرفة تلبية لنداء من الداخل كما دلت عليه استجابتها فلم تعد للظهور. وانتظرت طويلاً تتناوبني الأفكار والأخيلة المفزعة حتى انطوى يوم الانتظار ورأيت رباب - كالأمس - قادمة نحو المحطة. ولم يجدد جديد فرجعنا، هي في الترام وأنا في التاكسي. وعند المساء اقترحت عليّ أن نذهب معاً إلى سينما رويال فقبلت بلا تردد، وذهبتنا معاً.

## ٥٣

وفي صباح اليوم الثالث حملني التاكسي إلى نفس الهدف، وذكرت في الطريق المرأة الغريبة فتمثلت لعيني بوجهها الغليظ وجسمها القصير المكتنز. ولم أكرز أذكرها لأول مرة ذاك الصباح، فقد لاحظت لحاظي في البيت وأنا آخذ زيني أمام المرأة فكانت داعياً لمضاعفة العناية بتمشيط شعري وعقد رباط رقبي، وتولاني إحساس بالخلج والذنب والقلق، وألقيت تبعة هذه الورطة على رباب وسوء تصرفها الذي ساقني إلى هذه المراقبة الحمقاء! ولكن هل أستطيع أن أتمنى عدم ظهورها في الشرفة صادقاً؟ هل يمكنني احتفال يوم الانتظار الطويل بغير وجودها، وبغير وقاحتها الممتعة؟ وأتحدث مجلسي من القهوة فجأة في النادل ذو الجلباب الباهت، والطاقيّة المائلة إلى قذاله كاشفة عن ذؤابة متصلبة، والنعل المنجرد، وحياتي تحية لعله لا يلقيها إلا للزبائن القدماء، فطلبت القهوة التي أحسوها بتفرز واستكراه، وتساءلت متمعضاً ماذا وراء هذا التجسس المقيت؟ ألا يجمل بي أن ألقع عمّا أخذت نفسي به ظلياً وسوء ظن؟ لقد عاشت زوجي يومين كاملين في تناول بصري فهل وقفت منها على ما يريب؟ هل لاحظت عليها ضيقاً أو تبرّماً؟ أليس كالعهد بها صفاء ومودة وسعادة؟ وطاب لي الفكر فداخطني شعور بالطمأنينة والارتياح، ومرّ وقت فسارع إليّ الملل، ونظرت في الساعة، ترى هل استخبرها عمّا فات من زمن أم أسأله متى تفتح النافذة؟ ومهما يكن من أمر

ثبت إلى الهدوء رويداً فأمضيتي الأسف والخلج وألقيت على الشرفة نظرة غاضبة وغمغمت كما غمغمت بالأمس: «لا أرجعها الله!». قد يكون الانتظار مؤلماً ولكنّه خير من هذا الشرّ الذي يتهدّدني ولم يكن يساورني شكّ في أنّها ستعود، وكان بوسعي أن أغادر القهوة إلى غير عودة، وأن أبحث عن مكان جديد يصلح للمراقبة والانتظار، ولكنّي أقنعت نفسي بأنّ هذه القهوة المتوارية هي أصلح الأماكن قاطبة لمهمّتي، ولم تطل غيبة المرأة فعادت إلى مجلسها وفي عينيها نظرة باسمة، وتملّكني الغضب لا لعودتها ولكن للسرور الذي استخفّني. وقلت امرأة وقحة ما رأيت أغلظ ولا أقبح منها، ولكنّي عدت أخالسها النظر وأتمنى لو تأخذ راحتها وتضع رجلاً على رجل. وعدت أتملّ إثارها لي بالنظر والاهتمام فازدهاني عطفها وشعرت بنهم الجائع إلى الاستزادة منه، وهل كان هذا الاهتمام إلا لجبال وجهي ورشاقة قوامي! وقلت لنفسي في غرور صياني لعلّها معجبة بالأعين الخضراء والبشرة البيضاء والقامة الفارعة. وعلى حين نغمة انسلّ إلى خاطري صوت هامس يتساءل في سخرية. «وهل أغنى عنك جمالك شيئاً؟». وتمثلت لعيني تعاسي الزوجيّة فكانت قطعة كبيرة من الثلج وقعت على فورة حماسي فأخمدتها وخفت أنفاسي. فترت نشوتي وحلّ محلّها شعور بالغ بالشقاء والخبية، وتناسيت الشرفة، وهرعت أفكارني إلى الروضة فتمنّيت لو تنكشف لي الحقيقة مهما كانت بشعة قاسية لأنتهي من الأمر كلّ. تمنّيت - إذا لم يكن من الأمر بدّ - أن أرى صاحب الخطاب يلاقي رباب ويحادثها اليوم لا غداً ولا بعد غد، بل كان في ذهني شيء آخر - في تلك اللحظة - لا أدري كيف أعبر عنه. كأنني تمنّيت أن يصدق سوء ظني! لست مخطئاً، كان هذا هو الواقع، ولكن كيف أفسره؟ هل ثقل عليّ الشكّ فرغبت أن أنجو منه ولو بهذا الثمن الفادح؟ أو ضقت بهذا العجز الغريب الذي جعل من حياتي الزوجيّة مهزلة فتمنّيت أن أجد في جريمة زوجي مهرباً من حياتي؟ أو كان ضميري الرارح تحت وطأة الشعور بالإثم يلتمس عقاباً وتكفيراً؟! على أنّه لم يكن

أنساعاً. وغلبتني ابتسامة فابتسمت وأنا أطرق في خجل لا يوصف. وأطلقت هذه الابتسامة شحنة حبسية من ارتباكك فسُرِّي عني قليلاً، واستطعت أن أحس بما يستحقني من سرور. وشعرت شعوراً قوياً بالفارق بين عمرينا فلذني هذا الشعور، وتمنيت لو يتقهقر بي العمر إلى العشرين أو ما دونها. ربّاه. . .  
إني أهوي بلا وازع. ولكنّي لم أعد أبالي شيئاً. ولاحت منّي التفاتة إلى شارع كمال فصادفت عند ناصيته شيخ فتاة تنعطف إلى اليسار فحال بيني وبينها جدار القهوة. خلّفتني رأيت معطفاً رصاصياً كمعطف رباب فخفق قلبي خفقة عنيفة كاد ينخلع لها. ما الذي دعاها إلى مغادرة المدرسة في هذه اللحظة؟ وما الذي جعلها تتجه إلى اليسار على حين أنّ طريق المحطة إلى اليمين فيما لو فرض أنّ عذراً دعاها للعودة؟. . . وانتفضت قائماً وهولت مسرعاً إلى الطريق العامّ بلا تبصر ولا احتراص، ثمّ نظرت صوب المنعطف الذي سارت إليه ذات المعطف الرصاصي، فرأيتها: كانت امرأة في الخمسين تحثّ الخطى على الطوارى وتنهّد من الأعماق وغمغمت كعادتي كلّما نجوت من مأزق «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، وعدت إلى مقعدي وبّ ما يشبه الإعياء والخور. لن أنسى هذه الخفقة التي كاد يتصدّع لها صدري، فماذا يكون أمري لو وقع المحذور! ورفعت رأسي صوب الشرفة فرأيت المرأة تحملق في وجهي دهشة وعباءة تتساءلان عما حلّ بي؟! وارتمست على شفّتي ابتسامة! أجل أنساني الانزعاج خجلي فابتسمت. لم يعد يخفى ما بيننا من ابتسام، وحديث صامت يعبر تارة بالعين وتارة بالحاجب! ولم يعد يخفى عليّ ما يعتلج في صدري من عاطفة جهنمية. ولو كان ما بي حبّ لركبني الخوف وقدرت العواقب، ولكن بدا لي الأمر واضحاً لا لبس فيه فلم تزايلني الثقة. ولبثت ساعة أو أكثر أتلقّى هذا الغزل في صمت وحياء وسرور جنسيّ عجيب، ثمّ نهضت المرأة قائمة وهي تتمطى فانفرج الروب عن صدر ريان متنفخ يكاد يتهتّك من ضغطه القميص الورديّ الشفاف، ثمّ ألقت عليّ نظرة وداع باسمّة، وغمزت

فقد فُتحت النافذة ولاحت وراءها المرأة بغلاظتها وتبرّحها. اتّسعت عينها البارزتان دهشة ورفعت حاجبيها المزججيتين كأنها تقول: «أما زلت ملازماً مكانك!» ثمّ خففت رأسها لتسواري عن عينيّ ابتسامتها وخفق قلبي خفقاً سريعاً في سرور، وعادني الخجل من نفسي فجعلت أقول لضميري بأنني لا أنطّل لإثم، وإنّ مثلي حقيق بأن يسرّ إذا ما وجد من امرأة اهتماماً، أجل إني بريء، وما جئت هذه القهوة إلّا لغرض لا شأن له بهذه المرأة، وسأنقطع بعد يوم أو يومين عن هذا الحيّ كلّه فلا أعود أذكرها بخير أو بشر. أما المرأة فقد اختفت من النافذة، ثمّ فتحت الشرفة ودخلت بكرسيّتها، وجلست في الركن المواجه لي، وفي عينها ابتسامة من لم يعد بحاجة إلى تعارف. بتّ اليوم أقدر على احتمال هذا الموقف، ولكنّي ما زلت أنظّاه بالنظر إلى الطريق العامّ مختلساً من أنّ لأن نظرة إلى الساقين المدملجتين خلال قضبان الشرفة الحديدية، ولم يفارقني الارتباك بل لعلّه تضاعف بهذه الابتسامة التي تلوح في عينها كلّما التقت عينانا، يا لها من امرأة جسور، بوسعها أن تفعل ما تشاء بلا خوف، أما أنا فليس لديّ إلّا غصّ البصر! أيدور لها بجلد أنّي متزوج؟ وأنني ما جئت إلى هذه القهوة إلّا كي أضبط زوجي متلبّسة بجريمة الخيانة؟! ترى هل تبقى على اهتمامها بي إذا عرفت هذا كلّه؟ شعرت عند ذلك بخزي أليم. ثمّ ساءلت نفسي عنها من تكون. أهى زوجة أم أرملة؟! وماذا تريد؟! وحدث أن ارتفعت المنضدة بيساري وافترشت ظاهر يدي بذقني، فما كان منها إلّا أن ارتفعت حافة الشرفة بيسراها وافترشت يدها بذقنها وهي ترنو إليّ في دعابة. وتلقّيت الدعابة بخجل جعلني لا أرى شيئاً، وأرسل قلبي ضربات عنيفة طتّت في أذني. إنّها تغازلني صراحة، وأشعر بأنّ «الرجولة» تقضي بأن أخرج من هذا الجمود ولكنّي لا أبدي حراكاً، واشتدّ بي الارتباك فبتّ في حال يرثى لها. وسجبت يساري، وشبكته بيميناي على صدري فما أسرع أن سحبت يدها وشبكته بالأخرى على صدرها وقد ازدادت ابتسامتها

أيسر مما أتصور. ما أقطع هذا، ولكن ما أروحه لي كذلك، فإذا لم يكن من الكارثة بدّ فمن الرحمة أن تقع سريعاً، واستحوذ عليّ القلق والجزع، وأيقنت أنني لن أستطيع مع اليوم صبراً. ولاحت منّي التفاتة إلى النافذة المغلقة فتعلّق بها بصري فيما يشبه الاستغاثة، وتملّكتني إحساس عنيف بالضغط الذي يتصرني وتلهفت نفسي على منفذ تتسرّب منه بعض الأبخرة المزججّة في أعماقها. أيّ تنفيس ولو جرّ وراءه الإثم والخزي. وعند العاشرة فتحت النافذة وطلعتني الوجه الغليظ بابتسامة مشرقة. وتحوّل انتباهي إليها فأنقذني من نفسي، وثبتت عيني عليها في جرأة لا عهد لي بها، وانسبست أساري وأنا لا أدري فردّت التحية بمثلها. واختفت من النافذة فسبقتها عيني إلى الشرفة ولكن طال الانتظار عن المعتاد، ثمّ بدت مرّة أخرى في النافذة، فإذا بها قد ارتدت معطفاً وأخذت أهبتها للخروج. وخطر لي خاطر كالبرق، هل تدعوني إلى مرافقتها إلى مكان ما؟ وغمرتني موجة من السرور والخيرة والخوف. ما أحوجني إلى هذه الدعوة، ولكن هل أترك رباب في هذا اليوم الحاسم؟! إنّه بالعمى كله، وإنّ مصيري معلّق بمصر الجديدة فكيف أقاوم دعوة المرأة إذا دعيتي؟! وفرغت المرأة من زينتها، ثمّ وقفت تنظر إليّ في هدوء وابتسام. ونظرت إلى شيء بين يديها فتتبّعها بصري فإذا بأناملها تطوي ورقة صغيرة، ثمّ تشيها من الطرفين، وتفحصت الطريق بنظرة شاملة ثمّ رمت بها فسقطت على كعب من قديمي... وتناولتها بعجلة وبسطتها وقد سطع منها شذا طيّب تخدّر فوجدت بها هذين السطرين «انتظرني اليوم في تمام الساعة مساء عند الجسر في نهاية خطّ الترام». ودخلني ارتياح إذ إنّها منحتني مهلة عن غير قصد، ولكن ترى هل يسعني إنجاز الوعد إذا ارتبطت به؟ ألا يقع في مصر الجديدة ما يعوقني عنه؟ ولم أجد فسحة للتفكير والاختيار فقد حدجنتي بنظرة متسائلة وهزّت رأسها مستفسرة، فلم أملك أن حنيت رأسي بالإيجاب. وابتسمت إليّ ابتسامة حلوة وحيّيتني بإيماءة من رأسها ثمّ أغلقت النافذة، فأدركت أنّها ذاهبة إلى

بعينها قبل أن تغيب وراء الباب، تركتني في سعي التهمت ناره ساعات الانتظار الباقية، وفي ميعاد الانصراف غادرت رباب المدرسة واتجهت كالعادة إلى المحطة. وعدنا إلى البيت كلّ على طريقته. ولم نخرج مساء إذ زارتنا أختي راضية وزوجها فقصينا سهرة عائليّة ممتعة.

## ٥٤

اليوم الرابع، قالت لي رباب ونحن ننتظر الترام على طوار المحطة:

- سأتأخّر اليوم عن ميعاد عودتي لأنّي سأعود زميلة مريضة تغيّبت عن المدرسة من يومين. وألقيت عليها نظرة مريبة لو رأتها لساءت العاقبة. ثمّ خفضت بصري بسرعة، كاطماً عواطفني، وسألته بصوت ينم عن عدم الاكتراث:

- أين بيتها؟

- في مصر الجديدة.

- ومتى تعودين؟

- وقت الزيارة ومسافة الطريق... لن أتأخّر عن

السابعة.

بدأت تملّص من ظليّ الثقيل! واختلست منها نظرة فبدت لي جميلة رائعة، ثمّ ركبتني نزوة طارئة فتنبّيت لو أهوي عليها بفأس فاشقّها نصفين. وجاء الترام فصعدنا إليه وأنا في أسوأ حال، وغادرتني عند محطة الوزارة وناديت التاكسي، فطار بي إلى قهوة النوبيين. واستقبلت النافذة المغلقة بنظرة طويلة، ثمّ عدت إلى أفكاري. تلك الزيارة في مصر الجديدة! لن أدعها تذهب وحدها. كان تصميمي لا رجعة فيه ولكن هل ينجح مساعي؟ هبني تأثرتني إلى مصر الجديدة ثمّ رأيتها وهي تدخل بيتاً أو عمارة فمن يدري بما يقع وراء الجدران؟ قد تكون في عيادة زميلة حقاً، وقد تكون في أحضان عشيق! وانتفضت انتفاضة قاسية، وعضضت على أسناني حتّى سمعت صريرها كاللطقطة. ولكنّي أبيت أن أثبط عزيمتي. لأتبعها فلعلّي أراها معاً في الطريق، ولعلّي أحد ضبط الجريمة

من هذه الحياة المرة الطافحة بالخبية والشك. سينتهي كل شيء بعد دقائق معدودات، فلا يبقى داعٍ لأن أسأل نفسي أهى بريئة أم مذنب، ولا يسوقني وسواس لتجشّم أهوال المراقبة والتجسّس، وسيخلو البيت إلّا من الوجوه القديمة الآمنة، والحياة الهادئة الوادعة. أجل وددت لو أحطّم الرأس الذي حطّم قلبي، ولكنّي أضرتّ بنفسى عن أن تضيع بسبب امرأة آثمة. كان غضبي قويًا وحشيًا، ولكنّ حبّي السلامة كان أقوى وأعظم. ألم يكن غريبًا أن تدور أفكارى حول محور الخوف والسلامة حتّى في تلك اللحظة المخيفة؟! وتراءت لي العتبة فتساءلت مرّة أخرى أين تغادر الترام؟ ورأيتها في محطة الميدان شأنها كلّ يوم، فنزلت من التاكسي أن أفقدها في الميدان المكتظ. ثمّ رأيتها تخرقه إلى المحطة الأخرى التي تنتظر بها عادة، فدرت مع محيط الميدان ووقفت عند جدار القسم. وما أحقني إلّا أن تقف في احتشامها المألوف هادئة ساكنة كأنّني لا أشعل من أجلها نارًا... واستبعدت أن تقابل أحدًا في هذه الزحمة فتطلّعت إلى رؤية الترام الذي تصعد إليه، وتتابع المركبات بأرقامها المختلفة حتّى جاء ترام السروضة فسارعت إليه واستكنّت في مقصورة السيّدت. وتولّتي الدهشة، أأكون الأمر في حينًا؟! وهرعت إلى تاكسي وتبعته الترام. وجعل قلبي يدقّ في عنف، وتشدّد ضرباته كلّما مررنا بمحطة... ثمّ دخلنا شارع قصر العيني، وقطعنا محطة وثانية وثالثة ورابعة حتّى بلغنا محطة بيتنا، فما راعني إلّا أن أراها تغادر الترام. ونظرت من نافذة التاكسي الخلفية فראيتها تعبر الطريق وتدخل باب عمارتنا! وتوسّدت مسند المقعد وأغمضت عيني في إعياء وذهول. ماذا وراء هذا كلّ؟ هل فقدت عقلي؟ أما من نهاية هذا العذاب؟ وعدت إلى البيت فوجدتها لم تكد تفرّغ من ارتداء الروب بعد أن خلعت ملابسها، وبادرتها قائلاً في دهشة:

- حسبتك في زيارة زميلتك!

فافتّر ثغرها عن ابتسامه وقالت:

- لم يكن بها إلّا وعكة خفيفة وقد عادت اليوم إلى عملها دون أن تجشّم أحدًا مشقة عيادتها.

زيارة أو نحوها. هكذا ارتبطت بالموعد مدفوعًا بضغفي الذي يجهل المقاومة وإن كنت لا أدري أين أكون وقت أزوفه، وهكذا سقطت في نفس الخطيئة التي أتهم بها زوجي! أخلق بي أن أسرّ بهذه الخطوة الجسور أم أندم عليها؟ وهل ينتهي اليوم بحبّ أو بمأساة؟ لشدّ ما كرهت الحياة في تلك اللحظة. واندججت في تيار شعوري ألوان من المشاعر المتناقضة من سرور إلى خوف، ومن أمل إلى يأس، ومن حماس إلى فتور، ثمّ علته موجة طاغية من التلهّف على المغامرة لوأدا من الهّم الذي ينيخ عليّ فيكاد يجرم بي الأرض. وطويت الورقة بعد أن تلوتها عشرات المرات ثمّ دسستها في جيبى. وانفرد بي الانتظار حتّى فتحت الروضة أبوابها ولاحت لي رباب قادمة من بعيد. هذه هي الساعة التي أتربّص بها منذ أربعة أيّام هي أشقى أيّام حياتي. سأتبعها ما في ذلك شكّ تاركًا الموعد للظروف وحدها. وتوقّعت أن تميل إلى اليسار، صوب محطة الترام الصاعد إلى مصر الجديدة، ولكنّها عدلت إلى اليمين، إلى المحطة المعتادة التي تنتظر بها كلّ يوم! وأدركت لتسوي أنّها اختلقت قصّة الزميلة المريضة لتتخلّ عذرًا لغيابها، واضطرب صدري اضطرابًا لم أدر كيف أتمالك أنفاسي. هل أن لي أن أنتهي من هذا العذاب؟ ورمقتها بموقفها من الطوار بنظرة نارية وأنا أعجب لهذا الاحتشام الزائف الذي يطوي في أعماقه شرًا فظيئًا وفسقًا مخجلًا. ثمّ جاء دور المطاردة التي أرجو أن تكون مجدّية هذه المرّة. فصعدت إلى الترام، وناديت التاكسي، وجعلت ناظرني إلى مقصورتها لا تتحوّلان عنها. ترى أين تغادر الترام؟ أين تفعل فعلتها؟ لشدّ ما يكبر عليّ أن أتصوّرهما في أمثال هذه المواقف المريبة! ولئن تكذّبتني الحقيقة الواقعة وتكشف لي عن وجهها الشائه الدميم فما يشعني ويطفئ غليّ أن أدكّ رأسها بأحجار هذه المدينة الهائلة، ماذا يدفعها إلى هذا الانزلاق الآثم هي التي تعفّ عن علاقة الزوجية المشروعة؟ أم إنّها لا تبغيها إلّا عوجًا؟ لشدّ ما مزّقني الحيرة، لشدّ ما عذبني الغضب والحقد. على أنّي مئيت نفسي بالراحة من هذا العذاب كلّ، والخلاص



المأساة؟... آ... لا يزال أمامي متسع للهرب. ولكني لم أجد حراكًا. إن هذه المرأة هي فرصتي الوحيدة لاسترداد الثقة الضائعة. وملكتني روح مغامرة لا عهد لي بها قالت لي: جرب، لن نخسر شيئًا، وعلى أسوأ الفروض فلن نخسر شيئًا جديدًا... واستيقظت من أفكارني على سيارة متوسطة الحجم تقف أمامي بحذاء الطوار، ثم انخفض زجاج نافذتها الجانبية وبرز منه وجه المرأة الغربية وهي تجلس أمام عجلة القيادة. ابتسمت إليّ، ودعنتي إلى الالتفاف حول السيارة لأجلس إلى جانبها من الباب الآخر، فاطعت في اضطراب وفي أقل من ثانية كنت إلى جانبها، فجذبت الباب والتصقت به وأنا لا أكاد أشعر بما حولي من فرط الحياء. وأحسست بعينها على خدي اليسرى، فلازمت النظر إلى الأمام، حتى ضحكتم ملء فيها بصوت يُعدّ إلى غلظة وجهها وجسمها رقيقًا وقالت بلهجة تنم عن التحريض:

- لم يعد من داعٍ للحياء!

وانطلقت بالسيارة في مهارة ويشر وهي تقول:

- لنذهب إلى طريق الأهرام...

اندفعت بسرعة فائقة فوّلّي قلبي خوفًا، وجعلت كلما اعتاقها عن الاندفاع زحام أو إشارة المرور أتنفّس الصعداء... والأعجب من هذا أنها خففت من سرعتها الجنونية حين تركت وراءها الطريق المزدحمة. واسترددت أنفاسي، واسترقت إليها النظر، فرأيت جانبًا من وجهها الغليظ عن كسب، وذلك الصدر المكتنز، وتمثّل لعيني صورة ساقها البرونزية المرتوية، وذكرت أنّ قيراطًا واحدًا يفصلها عن ساقني، فاضطرب دمي. وأدهشني هدوؤها وطمانيتها فكأنها تصاحب زوجها أو أخاها لا رجلًا غريبًا لا يتمالك نفسه من الحياء والارتباك. سألتني دون أن تحوّل عينيها عن الطريق:

- ماذا أدعوك؟

فقلت في اقتضاب:

- كامل رؤية...

واكتفيت بذلك عن ذكر اللقب الذي كثيرًا ما يثير

تري هل تنتهي وسأوسي جميعًا إلى قبضة من الريح؟ ولا أتمنى على الله من شيء إلا أن أسكن إليها في طمأنينة وسلام. وقالت لي وأنا أبذل ثيابي:

- دعني خالتي بالتليفون إلى زيارتها مساء اليوم وكلفتني أن أنوب عنها في دعوتك...

فقلت لها وأنا لا أدري ماذا أقول:

- إن شاء الله.

وأدركت في اللحظة التالية أنني تسرعت بإجابتي تلك إذ ذكرت الموعد عند جسر العباسية. ولكن هل أروم حقًا أن أذهب إليه؟! إني الآن بعيد عن النافذة والشرفة وتأثيرهما أفلا أزال أفكر في المرأة تفكيرًا جديدًا؟... أيّ شيطان يغرب بي؟! إن قلبي لحبيبي دون سواها، فما بال نداء المرأة الغربية قهّارًا لا يقاوم؟! وتفكرت طويلًا وما أزداد إلا استسلامًا للنداء الشيطاني، حتى لم يعد يحول بيني وبينه إلا ما أخذت به نفسي من ملازمة زوجي مساء. ولكن أكانت تدعوني إلى زيارة خالتها لو كانت تضمير سوء؟! وعادوت التفكير في جهد لأنه ليس أشقّ عليّ من الاختيار بين أمرين. وتردّدت طويلًا قبل أن أقول:

- أوه لقد نسيت... إني مرتبط بموعد هام...

فتساءلت فيما يشبه الكدر:

- أعني أنك لا تستطيع الذهاب معي؟

فقلت وأنا أشعر بأنّ قدمي تنزلق إلى هاوية ما لها من قرار:

- اعتذري عني للست خالتك...

## ٥٥

بلغت جسر العباسية قبل الميعاد بدقائق... كان الجو لطيفًا والظلام شاملاً فاخترت موقفًا تحت مصباح غازي... ذهبت إلى الموعد بحال من القلق والتوتر ذكّرني بحالي يوم حملتني العربة إلى حانة شارع الألفي لأول مرة... كلّ هذا من أجل امرأة لا جمال لها ولا رشاقة، يجليني والله أن أظهر معها أمام الناس! ولمّا اقترب الميعاد ركبني الخوف الذي تناوبني كثيرًا في فترة الانتظار منذ العصر، ماذا يحدث لو تكرّر وقوع

الضحك، فتمتعت قائلة «عاشت الأساء»، وشعرت بأنه ينبغي أن أسأله كذلك عن اسمها. وتخبرت عبارة مناسبة، واستجمعت قواي للفظها، ولكنها لم تنتظر، وقالت ببساطة:

- ادعني عنايت إذا شئت.

وغمغمت في خجل «عاشت الأساء» ولكنها لم تسمع إلا همساً، والتفتت نحوي فجأة وقالت مبتسمة:

- يا له من حياء غريب! ألم تعلم بأن الحياء موضحة قديمة؟ وأن العذارى أنفسهن نبذهن بلا أسف؟ ففيم تستمسك به أنت؟

فندت عني ضحكة مرتبكة ولم أنبس بكلمة، فاستطردت قائلة:

- ولكن دعنا من هذا الآن فالدواء الناجح لا ينفع إلا في حينه، وخبرني بالله عليك ما الذي دعاك إلى مخالطة النوبيين في تلك القهوة القذرة؟

وتفكرت قليلاً متحيراً حتى وجدت في الكذب منجى فقلت:

- كنت يوماً راجعاً من مشوار طويل فلم أجد من مكان أستريح فيه إلا هذه القهوة.

- هذا عن أول يوم، وما قولك عن اليوم الثاني والثالث؟

وجاءني على البهامة جواب حسن، فتغلبت على الحياء وقلت بصوت منخفض:

- إنك المسئولة عن بقية الأيام...

فلحظتني ضاحكة وقالت بمكر:

- أحقاً تقول أم أردت التهرب بالغزل؟

فغمغمت:

- بل قلت الحق...

فرمت بنظرها إلى الطريق في دلال وقالت:

- فلماذا إذن تلتصق بالباب مبتعداً عني كأنك تكره

لسي

وتولاني الاضطراب، ولم أدر ماذا أفعل، ثم قلت كالمعتذر:

- ولكنها في الطريق...

وأغرقت في الضحك ثم قالت:

- نحن في السيارة لا في الطريق. إلا أن الطريق نفسه لا يمنع أمثالنا من الالتصاق إذا شاءوا. لا تتوارى وراء الأعذار الكاذبة. خبرني ما عمرك؟

- في الثامنة والعشرين من عمري.

- يا للعارا... وكم امرأة عشقت؟

ولدت بالصمت شاعراً بأنه لا قبل لي بها. وكانت عجيبت لصمتي فقالت بإنكار:

- أتريد أن تقول إنك لم تعشق امرأة من قبل؟ وهل أنا أول امرأة في حياتك؟... رباه وعيونك الخضراء لم تجذب أحداً؟ لا شك أنني أدركتك وأنت مشرف على الغرق، فليجزني الله على صنيعي خير الجزاء... رباه من يصدق هذا؟ كيف تعيش وماذا تصنع بحياتك؟

ولم أحر جواباً، وأثر في قولها تأثيراً موحجاً لم تدرك كنهه. ولعلها قرأت في وجهي الارتباك فرحتني بالصمت ملياً. ثم سألتني عن عملي فأجبتها بأنني موظف... واستدركت قائلاً إنني في إجازة قصيرة.

وساد الصمت مرة أخرى، وفي أثناء ذلك ترحزحت قليلاً صوبي حتى مس منكبها منكبي في رفق، فبعثت في قلبي المنكش حياة وبقطة فتابع وجيهاً على خوفي وخجلي ولما لازمت جمودي والتصاقي بالباب قالت باقتضاب وهي تكتم ضحكة:

- متى خطوة ومنك خطوة. ألا زلت هيباً؟

ولاقى مني النداء نفساً راغبة وقلباً خائفاً، ولكن جالدت الخوف مجالدة وترحزحت في حذر وإشفاق حتى مس جانبي - من أسفل الساق إلى أعلى المنكب - لحماً طرياً يتطاير منه عرف طيب ساحر، ولبثت هنيهة متملئاً من اللذيذ وكل جوارحي تنتفض، حتى التفتت نحوي وشعرت بأنفاسها تتردد على خدي، وهمست في أذني:

- أما زلت هيباً؟

كللاً، لقد أسكرتني العاطفة. وكانت أنفاسها لا تزال تتردد على خدي فمال رأسها نحوي حتى غاص فمي في شفيتها الرابتين وسرعان ما حولت رأسها عني

ها. إني بين يديها أتمرغ في التراب، ولكنّه تراب طيّب  
حنون يجود بالثقة والسعادة. وأدركت أخطاء الحياة  
الماضية، وذكّرت زوجتي المحبوبة في حزن وقنوط  
أوشكا أن يقصفا بعمر الساعة الساحرة، ولم أتردد عن  
تحميلها تبعة تعاسي كلّها!... هكذا بدا لي الأمر.  
على أنّ قلبي هفا إليها حتّى في تلك اللحظة وفي ذلك  
المكان! أمّا المرأة فقد ضربت أنفي بأغلثها وسألني:

- مبسوط؟...

فقلت من قلبي:

- جدّا.

وأخذت يسراي بين راحتها ورنّت إليّ طويلاً ثمّ  
غمغمت:

- يا لك من طفل رائع!

فتضاحكت قائلاً في حياء:

- طفل في الحلقة الثالثة!

ولاحت في عينيها نظرة جدّ واهتمام، وانتهت إلى  
أصابعها وهي تتحسّس خاتم الزواج، ثمّ ألقت عليه  
نظرة ذاهلة وهتفت بي:

- أنت متزوج؟! لم يدُر لي هذا بخلد!

واستحوذ عليّ الخوف ونظرت إليها صامتاً. وعادت  
تقهقه ضاحكة ثمّ قالت:

- كيف لم يخطر لي هذا على بال؟! ولكن كيف  
أصدّق هذا؟! ربّاه لماذا جربت ورائي؟... ألا  
تعجبك زوجك؟! يا لك من فاسق!

فخفقت عيني في حيرة وارتيابك ولم أنبس بكلمة،  
فسألني باهتمام:

- ألا تحبّ زوجك؟

وضايقتني السؤال، وتردّدت لحظة لا أدري ماذا  
أقول، ثمّ أرغمني حرج الموقف على أن أقول بصوت  
لا يكاد يسمع:

- إنّها ستّ طيّبة!

فقال بعجلة:

- إني أسألك ألا تحبّها؟

وشعرت بأنّ الكذب ينقلب فضيلة في حضرة

إلى الطريق أمامها، فأحطت خاصرتها الغليظة بيسراي  
وانهلت على جانب عنقها تقيبلاً. وانحرفت بالسيّارة  
إلى جانب الطريق وهي تغمغم ضاحكة «رويدك» ثمّ  
أوقفتها وهي تقول:

- لنسترح هنا قليلاً فهذا مكان آمن...

والقيت نظرة على الخارج فوجدتها اختارت موقفاً  
وسيطاً في المسافة بين مصباحين من مصابيح الطريق،  
تشمله الظلمة ويكتنفه الخلاء من الجانبين، وفيها عدا  
أزيز السيّارات التي كانت تمرّ بنا مرور البرق كان  
الصمت عميقاً محيطاً، سألتها هامساً:

- أليس ثمة خطر؟

فقال وهي تلفّ عنقي بيمنها:

- إنّهُ آمن من بيتك؟

واستدارت في جلستها حتّى مسّ متكبها المسند،  
وثنت ساقها اليمنى تحت فخذه اليسرى، فصرنا وجهاً  
لوجه، وانبرى لي صدرها العالي ينحسر عنه عنق  
الفتتان ومال وجهي نحو صدرها فتوسّده في حنان  
وذبول، وأسكرتني رائحة جسم آدميّ أشبه من  
العرف الذكيّ. وسكنت إليه ما طاب لي السكون  
ويدها تعبت بشعر رأسي. ثمّ رفعت إليها وجهي  
والتهمت شفّتيها، والتهمت شفّتي، وكأنّ كلينا يأكل  
صاحبه ويزدرده، وولّى الخوف إذ لم يعد له مسوّغ!  
وامتلأت حياة وجنوناً وثقة لا حدّ لها، لا أدري كيف  
واتّني الثقة، كانت المرأة سيّدة الموقف فوجدت فيها  
المرشد الذي ضلّته حياتي كلّها، أعادت إليّ الثقة  
والطمأنينة لأنّها أخّلتني من كلّ مسؤوليّة وأخذتني  
بالهودة والرفق، أدركت في تلك اللحظة - أكثر من أيّ  
وقت مضى - أنّ إلقاء أيّة تبعة عليّ خليك بأن يفقدني  
نفسي، وأنّني لا أجد هذه النفس المتهافئة إلّا بين يدين  
ثابتين قوّتين. ذابت الدنيا في نشوة جنونيّة ساحرة  
خرجت منها سكران بخمر الظفر والارتياح العميق.

وشعرت من الأعماق رغبة إلى هذه المرأة ليست دون  
الرغبة إلى الحياة، بل هي الحياة نفسها والكرامة  
والرجولة والثقة والسعادة. افترّ ثغري عن ابتسامة ظفر  
وسعادة، ورمقتها بنظرة امتنان لم تدرك عمقه وهيئات

النساء فقلت باستياء أخفيته بابتسامة:

- كلاً...

فانبسطت أساريرها وسألت باهتمام:

- كم مضى على زواجك؟

فقلت وقد أهاجت سيرة الزواج أشجائي:

- قرابة عامين!

- ألم تكن تحبها قبل؟

- كلاً...

- زواجك منها بغير سابق معرفة؟

- نعم...

فهتفت بغضب:

- يا له من إثم لا يغفر، وهي ألا تحبك؟!

فقلت صادقاً لأول مرة:

- إنَّها لا تحب الحب!

واتسعت عيناها دهشة، وفتحت فاهها - رأيت في

جانب فمها سَنتين ذهبيتين لأول مرة - وقالت: آه!

(بصوت مطوَّح)... فهتمت كل شيء. توجد نساء على

هذه الشاكلة، لم لا، ليس كل النساء بالكاملات...

وتبادلت نظرة طويلة في ابتسام وصمت، ثم سألتها

ضاحكاً:

- وأنت، ألسنت متزوجة؟

فقلت وهي لا تحوّل عينيها عني:

- لست إلّا أرملة، كان زوجي لواء عظيمًا يدعى

عليّ باشا سلام، تزوجني على كبر وتزوجته على صغر،

ثم مات من بضع سنين فعدت إلى أمي نعيش معاً،

والله وحده يعلم مع من أعيش غداً!!

جعلت تصفر بفمها وهي تبسم إليّ. ثم تناولت

حقيبتها واستخرجت منها فرشاة بودرة ومسحت على

وجهها وعنقها وصفّفت خصلات شعرها المبعثرة،

وراحت تلقي نظرة على وجهها في مرآة صغيرة مثبتة في

جانب السيارة وهي تسألني:

- متى تنتهي إجازتك؟

- بعد أيام قلائل...

فقلت بهدوء:

- سنلتقي كثيراً، كل يوم إن أمكن، ولنا في السيارة

متسع حتى نجد مكاناً صالحاً...

واستوت جالسة أمام عجلة القيادة، ولكنّي أمسكت

بمعصمها، ثم أحطت عنقها بذراعي، وضحكّت

ضحكة قصيرة، وضمتني إلى صدرها الرابي وهي

تقول:

- لماذا تركتني أستعيد زيتني يا شاطر؟!

## ٥٦

عدت إلى البيت في تمام العاشرة، ولم أسأل نفسي

عمّا إذا كنت قد أخطأت لأنّ ما استرددته من السعادة

والثقة كان فوق الخطأ والصواب، وكانت أمي قد

نامت، أمّا رباب فقد جلست في الفراش تطالع مجلة.

ما إن رأيت وجهها الصبيح حتى أشرق بروحي نور

بهيج وأحسست بأنني أنتقل من دنيا إلى دنيا أخرى.

وألني تفرّز مفاجئ لما صنعت بنفسي، ولكنه لم يتمكن

معي، فأنسانيه ذلك الحجاب الكثيف الذي يحول بيني

وبين زوجي... واستقبلتني بابتسامة وأبلغتني سلام

خالتها وعتابها، ثم أخبرتني بأنّ عشائي جاهز على

السفرة فمضيت إليه والتهمته بنهم متعب جائع.

وعدت إلى غدعنا وأنا أنساءل عمّا تفعل رباب لو

علمت بذنبي؟! وأخبرتني بأنّها دعيت إلى إعطاء درس

خاصّ لابنة قاضٍ كبير بالسنة الأولى الابتدائية

وسألني عن رأيي. ومع أنّي لم أفهم منها على ما يريب

إلا أنّي لم أرتع للاقتراح وقلت:

- حسبك ما تتجشّمين من مشقة طول النهار!

فقلت بغير اكترار:

- صدقت...

وسررت لموافقتها السريعة، وقلت لنفسي في شبه

نادم: «هيهات أن أقع على شبهة شك؟».

واضطجعت إلى جانبها، فتحت المجلة جانباً، وأطفأت

النور واضطجعت بسلام. كان النوم حريّاً بأن يسارع

إلى جفنيّ، لكنّ حالت دونه يقظة غريبة في النفس،

طار خيالي إلى عنايات، والسيارة في طريق الهرم، إنّي

خائن! أعجب بها من حقيقة! فمن يصدق أن يتخذ

الزوج العاجز عشيقاً؟! تمثّيت في تلك اللحظة لو تعلم

زوجي بهذه الحقيقة العجيبة، على أنها لم تكن إلا لحظة عابرة، وسرعان ما تقبّض قلبي خوفاً وخجلاً. لقد تعقّبت زوجي وبى شك في خيانتها فعدت خائناً لا شك فيه، أما هي فما وقفتُ منها على غير الاستقامة والاحتشام. كيف كان نصيبي منها العجز والإخفاق على حين أنني نعمت بين يدي المرأة الغليظة بهذه السعادة الجنونية؟! لفتني حيرة شديدة، تلهفت نفسي على بصيص من النور.

وزاد من حيرتي أنني شعرت شعوراً عميقاً بأنني لا غنى لي عنها معاً. بل لم أجد سبيلاً إلى المفاضلة بينهما، فهذه روحي وتلك جسدي، وما عذاب إلا عذاب من لا يستطيع أن يزاوج بين روحه وجسده. ماذا تكون قيمة الدنيا بغير هذا الوجه الجميل التسم بالطهر والكمال؟ ولكن ماذا يبقى لي من لذة ورجولة إذا فقدت المرأة الأخرى؟ وأغرقت في التفكير إغراقاً لم يدع للنوم سبيلاً إليّ، ومضت تترأى لعينيّ رباب ثم عنايات، وانحرف الخيال بغتة إلى أمي بلا داعٍ فأتخذت مكانها في شريط هذه الصور المتلاحقة! وتناهت بي الحيرة حتى شملتني حال من الحزن والكآبة...

وإلى من حيرتي أنني شعرت شعوراً عميقاً بأنني لا غنى لي عنها معاً. بل لم أجد سبيلاً إلى المفاضلة بينهما، فهذه روحي وتلك جسدي، وما عذاب إلا عذاب من لا يستطيع أن يزاوج بين روحه وجسده. ماذا تكون قيمة الدنيا بغير هذا الوجه الجميل التسم بالطهر والكمال؟ ولكن ماذا يبقى لي من لذة ورجولة إذا فقدت المرأة الأخرى؟ وأغرقت في التفكير إغراقاً لم يدع للنوم سبيلاً إليّ، ومضت تترأى لعينيّ رباب ثم عنايات، وانحرف الخيال بغتة إلى أمي بلا داعٍ فأتخذت مكانها في شريط هذه الصور المتلاحقة! وتناهت بي الحيرة حتى شملتني حال من الحزن والكآبة...

بيد أن أحاسيس الليل قلّ أن تعيش في ضوء النهار. إنها في الليل تندمج في تيار لحن غامض ينطلق في جو أثريّ يكتنفه الضباب، فإذا طلع عليه النهار لم يبق منه إلا أصداء خفيفة لا تمنعنا من أن نلتمس سبيلها في الحياة. جاء صباح اليوم الخامس فانطلقت كالعادة إلى العباسية، ترى أقتفي أثر رباب حقاً أم ألبي ذاك النداء المطاع؟ إن سيرة زوجي لا تدع مجالاً للشك، برّها كجهرها، فلا شك أنها صدقت فيما قالت عن الخطاب المشعوم، وإذا كان ثمة خائن فهو أنا.

وذهبت إلى قهوة النوبيين، فما أوفقها رمزاً لحبي الجديد. وانتظرت حتى فتحت النافذة فتبادلنا التحية بابتسامة لطيفة. وغابت برهة ثم بدت لي مرة أخرى وقد أخذت أهبتها للخروج، وأشارت إليّ إشارة ذات معنى أن انتظرها في مكان الأمس. لم أتوقع أن نتقابل

صباحاً بيد أنني لم أتردد فناديت النادل ودفعت له الحساب ومضيت من فوري إلى الجسر، ونخيل إليّ - في طريقي القصير - أنني أدركت حقيقة من حقائق الحياة، هي أنه لا توجد ثمة حركة بين الرجال إلا ووراءها امرأة! المرأة تلعب في حياتنا الدور الذي تلعبه قوة الجاذبية بين الأجرام والنجوم. فما من رجل «حي» إلا وفي خياله امرأة، حاضرة أو غائبة، ممكنة أو مستحيلة، محبة أو كارهة، مخلص أو خائنة. وفهمت فهمًا جديدًا، كأنه لقوته بكر جديد، معنى قولهم: إنّ الحب الحياة والحياة الحب: لم تكن حياة ثم كان حب، ولكن كان حب فكانت حياة، وأقسمت في تلك اللحظة ألا أعرض عن الحب ما حييت!

وجاءت السيارة فأتخذت مكاني كالأمس. وتساءلت المرأة ضاحكة:

- ما الذي جاء بك الآن؟ ألم يكن موعدنا المساء؟

فقلت مبتسماً:

- أنت أنت السبب...

فابتسمت في سرور وقالت:

- يجب أن نلتق بالغدا فلا ننفلص أبداً...

وتصاعد أزيز المحرك ينذر بانطلاق السيارة فقلت برجاء:

- الدنيا نهار فهل عدلت عن الطرق المزدحمة!

- أخاف أن يراك أحد؟

فقلت بخجل:

- نعم.

- آه! نسيت أنك متزوج!... لا تؤاخذني يا حضرة الزوج لنذهب إلى مصر الجديدة!

وانطلقت السيارة بالسرعة الجنونية، وسألتني في الطريق قائلة:

- ماذا فعلت بزوجك الأمس؟

فقطبت وأنا لا أدري، ولم أحر جواباً، فقالت:

- لهذا الحد لا تحب ذكرها؟

ثم تساءلت متجاهلة صمتي وارتباكِي:

- ألا تنامان في فراش واحد؟

وحاولت أن أغتصب ضحكة ولكنني عجزت،

زوجي بهذه الحقيقة العجيبة، على أنها لم تكن إلا لحظة عابرة، وسرعان ما تقبّض قلبي خوفاً وخجلاً. لقد تعقّبت زوجي وبى شك في خيانتها فعدت خائناً لا شك فيه، أما هي فما وقفتُ منها على غير الاستقامة والاحتشام. كيف كان نصيبي منها العجز والإخفاق على حين أنني نعمت بين يدي المرأة الغليظة بهذه السعادة الجنونية؟! لفتني حيرة شديدة، تلهفت نفسي على بصيص من النور.

وزاد من حيرتي أنني شعرت شعوراً عميقاً بأنني لا غنى لي عنها معاً. بل لم أجد سبيلاً إلى المفاضلة بينهما، فهذه روحي وتلك جسدي، وما عذاب إلا عذاب من لا يستطيع أن يزاوج بين روحه وجسده. ماذا تكون قيمة الدنيا بغير هذا الوجه الجميل التسم بالطهر والكمال؟ ولكن ماذا يبقى لي من لذة ورجولة إذا فقدت المرأة الأخرى؟ وأغرقت في التفكير إغراقاً لم يدع للنوم سبيلاً إليّ، ومضت تترأى لعينيّ رباب ثم عنايات، وانحرف الخيال بغتة إلى أمي بلا داعٍ فأتخذت مكانها في شريط هذه الصور المتلاحقة! وتناهت بي الحيرة حتى شملتني حال من الحزن والكآبة...

بيد أن أحاسيس الليل قلّ أن تعيش في ضوء النهار. إنها في الليل تندمج في تيار لحن غامض ينطلق في جو أثريّ يكتنفه الضباب، فإذا طلع عليه النهار لم يبق منه إلا أصداء خفيفة لا تمنعنا من أن نلتمس سبيلها في الحياة. جاء صباح اليوم الخامس فانطلقت كالعادة إلى العباسية، ترى أقتفي أثر رباب حقاً أم ألبي ذاك النداء المطاع؟ إن سيرة زوجي لا تدع مجالاً للشك، برّها كجهرها، فلا شك أنها صدقت فيما قالت عن الخطاب المشعوم، وإذا كان ثمة خائن فهو أنا.

وذهبت إلى قهوة النوبيين، فما أوفقها رمزاً لحبي الجديد. وانتظرت حتى فتحت النافذة فتبادلنا التحية بابتسامة لطيفة. وغابت برهة ثم بدت لي مرة أخرى وقد أخذت أهبتها للخروج، وأشارت إليّ إشارة ذات معنى أن انتظرها في مكان الأمس. لم أتوقع أن نتقابل

وشعرت بامتعاض كدّر عليّ صفوي، فقهرت صاحكة وقالت:

- لشّد ما أرغب في رؤيتها..

وأرادت أن تسري عني بطريقتها فداعبت شفتي بأصبعها وقالت محاكية الأم التي تداعب طفلها:

- كنتكوي... .

ووقفت السيّارة أمام مشرب شاي... فجلسنا معاً نقلّب الحديث ظهراً لبطن في لذة وسرور. وأخبرتني أنّ اختيارها قد وقع على بيت الخياطة ليكون مهدياً لغرامنا. وعند الظهر غادروا المكان، وقد أرادت أن تدفع الحساب ولكنني أبيت عليها ذلك، وافترقنا بعد أن تذاكرنا موعد المساء. وتكرّر اللقاء. ولمّا انتهت الإجازة بعد ذلك بيومين واصلنا لقاءنا في الأماشي. وأقنعتني التجربة الناجحة بأنّ الحبّ صحّة وعافية. ولم يخفّ على أحد دأبي على السهر، ومع أنّ رباب كانت تفضّل - على حدّ قولها - أن أمضي سهراتي معها في زيارتها التي لا تنقطع، إلّا أنّها تحاشت مضايقتي، فباشر كلانا حياته بالسييل الذي يرضاه. ولم يخفّ ذلك عن أمي أيضاً، وقد قالت لي: لاحظت يا بنيّ أنّك لم تكن على حالك الطبيعيّة في هذه الأيام الأخيرة، وقد خفت أن أعلن لك ملاحظتي أن تغضب، فإذا وجدت في السهر راحة فاسهر، هكذا الرجال جميعاً!!

## ٥٧

وانقضى شهر أو أكثر على حياة سعيدة لا يشوب صفاءها كدر. حلّ السلام مكان الشكّ وعادت علاقتي برباب إلى أصفى ما كانت عليه من الودّ الطاهر والحبّ البريء، أمّا من الناحية الأخرى فقد أسلمت نفسي لعنايات في حبّ مضطرب وسرور ظافر. إنّها امرأة موفورة الثروة. وما من مرّة نذهب إلى مهدنا المحبوب بيت الخياطة إلّا وتنفتحها بريال وأحياناً نصف جنيه، وأبت عليّ كرامتي إلّا أن أكون كريماً كذلك، ولو في حدود طاقتي. وهيات لي - وهي لا تدري - معاودة الشراب على حال لا تنقطع، فكانت

الخياطة تحتفظ لنا بقوارير الويسكي والصودا دوماً، بل أوشكت أن تعودني التدخين، وكان لها مزايا وأيّ مزايا. كانت كاملة الأنوثة والحيويّة، فهي متعة للعشّاق على كهولتها ودمامتها المحبوبة، بيد أنّها كانت كذلك على استهتار وجسارة يقشعر لها البدن. عندها الحبّ كلّ شيء، وفي سبيله تستطيع أيّ شيء. ولعلّها لم تكن من النوع الهلوك، ولعلّها لم تكن إلّا امرأة هالعة، تشعر دوماً بإدبار الحياة الزاهرة، وذبول الشباب اليانع، فلا تطيق أن يمضي يوم بلا حبّ. وكان أعجب ما في حبيّ لها أنّني فُتنت منها بما هو حرّيّ أن يُعدّ من النقائص في نظر الغير، بكهولتها ودمامتها وجسارتها، وكانت تملؤني ثقة لا حدّ لها، فلم أكن أحمل لشيء همّاً. ولولا ما كان يتتابني من قلق، مشوّه ذلك الانفصال المخيف بين روحي وجسدي، لتملّيت الحياة صفاء خالصاً، على أنّها كانت حياة سعيدة.

وفي ذات يوم، وبعد فراغي من الغداء مباشرة، ذهبت إلى حجرة أمي لأشرب فنجائاً من القهوة وأجاذبها الحديث كعادتي كلّ يوم، وسرعان ما لاحظت أنّها تردّد في وجهي عينيها الصافيتين في قلق وتفكّر، فنفرست في وجهها الذابل الذي فقد مرحه وسعاده، فأدركت لتويّ أنّها تريد أن تقول شيئاً، وداخلني القلق، ولكنّي قلت مبتسماً:

- ماذا وراءك: هاني ما عندك!

فلاح التردّد في عينيها لحظات ثمّ قالت:

- بالأمس سمعت أموراً أدهشتني، فهلاًّ خبّرتني عمّا بين رباب والسّت والدتها؟

كلّ شيء توقّعت إلّا هذا. وغامت عيناها بسحب ذكريات سود، وتساءل قلبي الخافق: هل عادت المرأة إلى لجاجتها القديمة؟! ولم تكن رباب قد أخبرتني شيئاً عن زيارة أمها لها بالأمس إلّا أن أقرّأني سلامها. وعدت إلى أمي أقول لها بصوت هادئ أو جعلته هادئاً:

- ليس بينهما إلّا كلّ خير..

فهزّت أمّي رأسها في ارتباب وقالت:

- لعلّه غابت عنك أشياء، أمّا أنا فلم أستطع استقبال نازلي هانم لأنّي كنت متعبة، ولما جاءت صباح لتخبرني بقصدها تصنّعت النوم. وطالت الزيارة، فانسَلت من الحجرة لقضاء حاجة، ودنوت من باب حجرة الاستقبال، فما راعني إلّا أن أسمع السّ وهي تقول في انفعال وغضب: «هذا شيء لا يُحتمل» فتردّ عليها رباب بعنف قائلة: «لا تتدخّلي في شؤني!» فما ملكت أن تراجعني إلى حجرتي...

التهب جبيني حياءً، ثمّ ركبني الغضب، فشعرت بمقت شديد نحو هذه المرأة الفضوليّة. واقتحمت أمّي عليّ أفكار متسائلة:

- ألم تعلم عنها شيئاً؟

- فقلت بحزم:

- لا شأن لنا بها.

وعدت بعد ذلك إلى مخدعي فوجدت رباب مستلقية على المقعد الطويل، فلمّا رأني الصقت ساقها بمسندته لتفسح لي مكاناً فجلست متفكّراً، كيف أخفت عنيّ ذلك النزاع؟ هل أشفقت من إزعاجي؟ ولعلّها لم تلاحظ تغرّ حالي فراحت تقول لي: إنّ اليوم الجمعة، وإنّها تقترح عليّ أن نذهب ممّا إلى السينما، فتركناها تتحدّث حتّى انتهت فسألناها قائلاً:

- كيف حال والدتك؟

فأجابني بأنّها على ما يرام، فنظرت إلى عينيها وتساءلت:

- هل مرّت زيارة الأمس بسلام؟

فلاحت في عينيها نظرة ارتباك وقالت:

- ماذا تعني؟

فقلت بحزن وكآبة:

- رباب، لا تحفي عنيّ شيئاً. أعادت والدتك إلى ذلك الموضوع القديم؟

فلاذت بالصمت ملياً وقد تجهم وجهها، ثمّ تساءلت بحدّة:

- من أدراك بذلك؟ أريد أن أعرف كلّ شيء!

فأخبرتها بما قالت لي أمّي، وكانت تصغي إليّ

باهتمام ثمّ انفجرت قائلة:

- أمك... أمك... ودائماً أمك!

ووخزني الألم الذي يحزّ في نفسي كلّما لاحت لي أي الكراهية المتبادلة بينهما، وقلت:

- لا داعي للغضب، لقد سمعتُ ما سمعتُ اتّفاقاً، ونقلته إليّ بقصد حسن كما هو ظاهر. بالله لا تستسلمي للغضب، وخبريني هل عادت أمك إلى ذلك الموضوع القديم؟

وسحبت ساقها من ورائي، وألقته على الأرض، وأطرقت في تجهم وغيظ وقالت:

- الأمر الذي لم أشأّ تعكير صفوك به أنّها اقترحت عليّ أن أعرض نفسي على طبيب ليرى أسباب عدم الحمل، فرفضت اقتراحها بطبيعة الحال فتشاجرنا!

وواصلنا الحديث البغيض ملياً حتّى طلبت إليّ أن أمسك، وأن أقبل طلباً للراحة من تعب اليوم، فأذعنت لمشيئتها ومضيت إلى الفراش واستلقيت عليه عزوئاً مكتئباً. ومضى وقت ليس بالقصير قبل أن أغفو، ولا أدري كم غفوت، ولكنّي استيقظت على شيء أطار عن عينيّ النوم. وفتحت عينيّ في انزعاج فسكّنت مسامعي ضوضاء آتية من الصالة، فأرهفت السمع، ولم ألبث أن أدركت أنّ رباب وأمّي يتبادلان أقسى الكلمات في ضجّة وصياح. وفقرت من الفراش في هلع ووثبت إلى الباب ثمّ مرقت منه إلى الصالة فإذا برباب تصيح وقد تطاير الشرر من عينيها:

- هذا تجسّس لا يليق بسيّدة محترمة.

ووقع بصر أمّي عليّ فخفضت بصرها وهي تقول:

- لا يسعى أن أجاريك في قلّة أدبك!

وهتفتُ برباب قائلاً: «رباب...» ولكنّها تحامتني

ورجعت إلى حجرتنا في غضب جنونيّ. ودارت أمّي على عقيبتها وسارت إلى حجرتها بخطوات ثقيلة فألحقتُ نحرها صامتاً متألّماً. رأيتهَا تمسك بأكرة الباب ثمّ تقف دون أن تضغط عليها كأنّها عدلت عن الدخول. ورأيتهَا تضع راحتها على جبينها فخيّل إليّ أنّها تنحني رويداً، وأسرعَتْ نحوها، فما كدت ألسها حتّى سقطت على يديّ فتلقّيتها بها في رعب وفزع.

قواها؟ فهالني الاقتراح وقلت بارتياح:

- هذا مستحيل.

فابتسمت إليّ متلطفة واستطردت قائلة:

- ألا ترى أنّها تحتاج لخدمة وعناية في كلّ حين، فمنّ ذا الذي يقوم بخدّمتها هنا؟ وأنت مشغول بعملك، وزوجك مشغولة بعملها، وصباح تقوم على خدمة المنزل، فإلى من تكبّل أمر أمّنا؟

ولكنّي استفظعت اقتراحها، وثرثرت على ما قدّمت من حجج قويّة، وقلت بإصرار صادر من أعماق قلبي:

- لن يطول رقادها بإذن الله، ولن تحتاج إلى من يلازمها إلّا في الأسبوع الأوّل كما قال لي الدكتور، ولأجدنّ خادماً خاصّة تتوفّر للعناية بها.

وحاولت راضية أن تثنييني عن إصراري ولكن لم تجدي محاولتها، وانتهى النقاش بأن قرّرت الإقامة في بيتي حتّى أوفّق لإيجاد خادم. وفي اليوم الثالث لمرض أمّي حضر أخي مدحت - وكنت أخبرته بمرضها في خطاب مستعجل - وجاءت معه زوجته. وقد اشتدّت وطأة المرض على أمّي في الأيام الأولى لمرضها، لم تكن تبدي حراكاً، ولا تكاد تنبس بكلمة، كانت إذا فتحت عينيها المتعبتين لاحت فيها نظرة ذابلة غائمة تقلّبها بيننا في صمت وتسليم فتمزّق قلبي إرباً؛ ولم تكن نفارقها، وكانت إذا عاودتها بقطعة خفيفة تردّد عينيها بيننا، وترسم على شفّتها الجافتين ابتسامة، أو تبسط راحتها وترفع بصرها إلى أعلى وتغمغم داعية لنا بصوت منخفض وإنّ. ولكن لم تطل بها الغيبوبة، فتحسّنت حالها قليلاً في نهاية الأسبوع الأوّل من الأزمة. واستطاعت أن تدرك بوضوح أنّ أبناءها جميعاً يحيطون بها، ولعلّها رأتهم كذلك لأول مرّة في حياتها. وقد جمّعنا الفراش مرّة فجلست راضية ننظر إلينا في صمت طويل، ثمّ طفح وجهها بالبشر، وهمت بصوت ضعيف:

- ما أسعدني بكم!... الحمد لله والشكر له.

ولاحت في عينيها نظرة رقيقة تنمّ عن الحنان

وناديتها فلم تجب، وتدلّى رأسها وذراعها. وصرخت منادياً صباح فجاءت تجري، فحملناها معاً وأمنأناها على فراشها. وجئت بزجاجة كولونيا ورششت منها على وجهها وعنقها، ودلّكت بها أطرافها، وجعلت أناديها بصوت متهلّج مبحرج دون توقّف، وغشيها الإغماء دقائق مرّين بي كالساعات، ثمّ فتحت جفنيها عن عيني غائمتين، فهتفت بها وأنا أزدرد ربيقي:

- أمّاه...

فشخصت بصرها إليّ، وأشارت بيدها إلى قلبها دون أن تنبس بكلمة، وانطلقت مغادرًا الشقّة إلى البَدال في أسفل العمارة، وتلفتت إلى طبييها أن يحضر، ثمّ صعدت إلى الشقّة وجلست إلى جانبها في حال من الذعر والحزن لا توصف. لم تفارقها عيناى لحظة واحدة حتّى استلّكت نظرة عينيها الغائمة دمعي الحبيس. شعرت بأنّي أشقى إنسان في الوجود، وأفعمت نفسي كآبة وامتعضاً. ثمّ جاء الطبيب وفحصها، وقال إنّها نوبة قلبية، تستلزم رقاداً طويلاً وعناية كبيرة، ووصفّ الدواء كالعادة. وكنت قد قصصت على الطبيب كيف أغمي عليها عقب شجار مع الخادم! فقال لي: إنّ الشجار سبب طارئ ولكنّ الداء قديم. وقضينا ليلة عبوساً. أمّا رباب فقد توارت في حجرتنا في شقاء بالغ وقد ناءت بثقل تبعثها، وما زالت تبكي حتّى انفطر قلبها من البكاء فلم يسعني إلّا أن أطيب خاطرها وأربّت على منكبيها قائلاً:

- حسبك بكاء، هذا قضاء الله، وربّنا يجعل العواقب سليمة...

## ٥٨

وامتلأ البيت بالعواد، فزارتنا أسرة رباب وجمّع من أقاربها، وجاءتنا أختي راضية وأسرّتها، وعادت رباب المريضة وقبّلت يدها واستوهبتها العفو بعين باكية حتّى رجوت أن نبدأ - بسبب هذا الحادث - حياة جديدة خالية من كدر القلوب. وتحيّنت راضية فرصة خلوّ الحجرة من الأغراب وقالت لي:

- لئني أستأذّنك في أن آخذ أمّي إلى بيتي حتّى تستردّ



والنأثر، ثم استدركت قائلة:

- إذا كان المرض يجمعنا هكذا فكم أتمنى ألا يزول.

وبدت - على مرضها - سعيدة، فانتقلت سعادتها إلى قلبونا. الثأمت أسرتنا التي قضى الله على عقدها بأن ينفرط منذ البداية: بتنا تحت سقف واحد، وأكلنا وشربنا معاً، وانتظمت قلوبنا خفقة واحدة. يا لها من أيام رددت أنفاسنا فيها الإشفاق والحنان والسعادة. بيد أنها كانت أياماً قلائل. فقد تقدّمت صحة أمي تقدّماً حسناً، وزال الخطر عنها وإن حتم الطبيب عليها بالآ تهرج الفراش شهراً كاملاً على أقل تقدير. وعند ذاك ودّعنا مدحت وعاد بأسرته إلى الفيوم واعدّا بالزيارة من آن لأن. وعادت راضية كذلك إلى بيتها - وكنت قد وقفت إلى اختيار خادم لأمي - على أن تعود أمها كل يوم. انفضّ السامر، وتفرّق الشمل، وعاد كل شيء إلى أصله. ولم يكد يمضي أسبوعان حتى أخذت أمي تسترد حيويّتها ويقظتها، وأمكنها أن تجلس إلى الفراش مستندة إلى وسادة منكسرة. ولشد ما سرّني أن تقوم رباب بواجبها نحو حمايتها، ولن أنسى ما عانت من مرارة الألم والقهر في الأيام الأولى للمرض.

ولمّا عاودتنا الطمأنينة، ولم يعد أمام أمي إلا رقاد وإن يكن طويلاً إلا أنه مأمون، عدنا إلى سيرتنا المألوفة في الحياة. عادت رباب تروح عن نفسها بزياراتها المسائية، وانطلقت على سبيل القديم. وقد استأذنتها في الخروج بضع ساعات ترويحاً عن النفس، فأذنت لي بحماس، وأفصحت لي عما كان يساورها من ألم لبقائي إلى جانبها كالسجين. وغادرت البيت متفكراً، متسائلاً ترى لو كنت أنا المريض أكانت تستأذن هي في مغادرة الحجرة ترويحاً عن النفس؟ وبدا لي منطق الحياة قاسياً ولكن لا حيلة لنا فيه!

وطرت إلى عناية. وكانت تتلفن لي كلّ صباح بالوزارة فبيّنت لها الأسباب التي حالت دون لقائنا. وعدنا كما كنا نلتقي في مهدنا فنسكر ونحبّ كانت حياة غريبة، وأخوف ما أحافه أن تكون الذاكرة قد

خانتني ولو في القليل من تفاصيلها. أكنت سعيداً حقاً؟ كان قلبي موزعاً بين أمي وزوجي وعنايات، وبين الذكريات العميقة والهيام السامي والحبّ العارم. وحسبتي قد آويت من زوابع الحياة إلى مرفأ هادئ، ولكنّ القلق القديم عاد يطرق بابي في حذر وتردد كأنما يمنعه الخجل من اقتحامه بلا سبب ظاهر. أجل كنت أمضي في طريقي، ثم أتوقف حيناً بعد حين في تردد كأنني أتساءل عن شيء أنسيته، هل أجد في السير أم يحسن بي أن ألقى نظرة إلى ما حولي، ثم يتبين لي أنه ليس ثمة ما يستوجب التردد فأمضي على وجهي...

ويوماً وجدت رباب على غير ما عهدتها من المرح والنشاط فسألتها عما بها؟ فقلت لي: إنها قضت نهائياً متعباً بالمدرسة، وإنها ترجّح أن تكون مصابة بإنفلونزا. وعدلت ذلك المساء عن الخروج. وفي صباح اليوم التالي، وعقب استيقاظها بقليل تفيأت بغتة، واستلقت في إعياء ووهن، فاقرحت عليها أن استدعي لها الطبيب، ولكنّها لم توافق قائلة: إنه يرد خفيض وستعالجه بغير معونة الطبيب. وجاءت أمها تزورها فلبثت النهار كله بحجرتها. على أنّ رباب أصرت في صباح اليوم الثالث على استئناف عملها وقالت لي: إنها تشعر بأنها استردت صحتها تماماً، ومضت بالفعل إلى الروضة على رغم نصحي لها بالبقاء في البيت يوماً أو يومين آخرين. وعادت من الروضة في ميعادها فوجدتها أسوأ ممّا كانت في الصباح، ولكنها أصرت على أنها متمتعة بكامل صحتها، ولم تقنع بهذا فارتدت ملابسها وغادرت البيت يوماً أو يومين آخرين. وعادت من الروضة في ميعادها وكنت في بيت الحياطة ولمّا عدت إلى البيت في منتصف الحادية عشرة لم أجد رباب في حجرتها. وكأنّ صباح كانت تنتظر عودتي فجاءتني على عجل وقالت لي:

- سبتيت ست رباب عند والدتها وقد أرسلوا الخادم

لتخبرنا بذلك...

ووقع الخبر من نفسي موقع الدهشة والانزعاج، فسألت صباح قائلاً:

- وما الذي دعاها إلى ذلك؟

فقلت الجارية بلهجة تنم عن الإشفاق:

- إنَّها بخبر يا سيدي. ولقد زرتها ورأيته بنفسه،  
إلا أنَّ حرارتها مرتفعة قليلاً فلم توافق الست الكبيرة  
على تعريضها للهواء، وآثرت على أن تبث عندها حتَّى  
تنخفض الحرارة.

وغادرت الحجرة بلا تردّد وأنا أقول في حق:

- لقد حذرتها من هذا ورجوتها مراراً ألا تهرج  
البيت.

وقابلتني في الصالة نفيسة «خادم أُمِّي» وأخبرتني بأنَّ  
أُمِّي ترجو أن أذهب إليها، فمضيت إلى حجرتها  
فأفصحت لي عن أسفها وكلفتني بأن أحمل دعاءها إلى  
«رباب» فشكرت لها، وغادرت البيت حائناً قلقاً.

## ٥٩

كان البيت نائماً تشمله ظلمة إلا نوراً ينبعث من  
حجرة الأم، فقصدتها لا أُلوي على شيء، ووجدت  
«رباب» مضطجعة في الفراش، والأم جالسة في فراش  
يقابله بالناحية الأخرى من الحجرة، فقابلتني بابتسامة،  
وانزلقت الأم من فراشها وأقبلت عليّ وهي تقول:

- هذا ما قدّرناه قلنا سينزعج ويحيى من توه،  
والأمر لا يعدو أن يكون إنفلونزا.

وانجھت صوب فراش «رباب»، وتناولت يدها،  
وقلت لها معاتياً:

- ألم أنصحك بعدم مبارحة البيت؟... ماذا  
بك؟... لماذا لم تعودي إلى بيتك؟

فابتسمت إليّ وقالت وهي تشير بأصبعها إلى أمها:

- أردت أن أعود ولكنَّ «ماما» لم توافق.

فابتدرتني نازلي هانم قائلة:

- إنَّ حالها لا تدعو للقلق مطلقاً، بيد أنَّ تعرّضها  
لللهواء أمر شديد الخطورة.

فقلت بحزم:

- سأدعو الطبيب بلا إبطاء.

فقلت الأم:

- لم يفتنا هذا، والطبيب نفسه الذي نصّح بعدم  
تعريضها للهواء، ليس في الأمر خطورة البتّة، وستعود

إلى بيتها بعد أسبوع أو عشرة أيّام على الأكثر.  
وغُلّبت على أمري فجلست على كنبه وثيرة تتوسّط  
الفراشين، بيد أنَّ هدوء الأم الظاهر انتقل إليّ رويداً،  
وجعلت الأم تقول: إنَّ الإنفلونزا بسيطة في ذاتها  
ولكن ينبغي أن نتقي نكستها.

فأصغيت إليها بغير وعي على حين رنوت إلى  
محبوبي بعيني وروحي، وتطلّعت إلى رباب مبتسمة  
ابتسامة فاترة، يلوح في عينيها الإعياء وقد رانت على  
نظرتها العذبة اللامعة غشاوة. وساد الصمت حيناً، ثمَّ  
تذكّرت جبر بك فجاءت فسألت عنه، فأجابني الأم بأنَّه  
في رحلة تفتيشية يعود منها في نهاية الأسبوع، ولمّا  
دقّت الساعة منتصف الثانية عشرة استأذنت في  
الانصراف، وقبّلت جبين زوجي، وغادرت البيت.

## \*\*\*

وفي صباح اليوم التالي تركت البيت قبل ميعاد  
خروحي المعتاد بثلاث ساعة، وكانت «صباح» قد  
استأذنتني في زيارة رباب، فعهدنا بشئون البيت إلى  
نفيسة، ومضيت من تويّ إلى بيت جبر بك، فقابلت  
على السلم محمّد وروحية، فسلمت عليهما وسألتهما  
عن رباب؟ فأجابني الأخت الصغيرة بأنَّها بخير،  
ودخلت الشقّة وذهبت إلى الحجرة فوجدتها في  
الفراش، والأم جالسة على الكسّة، وردّت تحيّي برقة  
وابتسام، ولكنّي رأيت في عينيها ذبولاً شديداً كأنّها لم  
تم ساعة واحدة في ليلتها الماضية، وساورني القلق  
واستحوذ عليّ الانقباض. ولكنّي أخفيت ما قام بنفسه  
أن أخفيها، وقلت متعمّداً الكذب:

- أراك أحسن حالاً؟

فقلت باستسلام أوجع قلبي.

- الحمد لله...

وجلسْتُ على طرف الكنبه قريباً منها، وثبّتُ على  
وجهها عينيّ، كانت عاصبة وجهها بمندبل بئيّ، يبدو  
وجهها تحته شديد الشحوب، وتلوح في عينيها  
الذابلتين نظرة ساهمة، فغشيت صدري كآبة، وضافت  
بي الدنيا وبدا لي وجهها قبيحاً كالخا، ولاحظت نازلي

دخلته فيها يشبه الهلع، ودققت الجرس، وفتح الباب بعد قليل، ولشدة ما كانت دهشتي حين رأيت أمامي الدكتور أمين رضا، وكان هو الذي فتح الباب، وكانت الصالة الصغرى التي يفتح الباب عليها مغلقة الأبواب وليس بها سواه، ولم أكن رأيت منذ اجتاعنا في مأدبة الغداء بهذا البيت. ترى ما الذي جاء به في هذه الساعة المبكرة؟ وما الذي أبقاه وحده في هذه الصالة المغلقة؟ ومددت له يدي وأنا أقول:

- السلام عليكم!

فمد لي يده قائلاً: «وعليكم السلام»، وكأني لاحظت أنه يحدجني بنظرة غريبة من وراء عويناته، فقلت له:

- ألا تفضل بالدخول؟ ...

فتحول عني وهو يقول:

- إني منتظر في حجرة الاستقبال.

وانتهج بالفعل نحو باب الحجرة، وفتحه، ودخل، ومضيت إلى باب الصالة الكبرى وفتحته ودخلت، وسرت نحو حجرة نازلي هانم، ولكنني ما قطعت خطوتين حتى قرع أذني صوت غريب لا أدري كيف أصفه، أكان تنهّداً طويلاً؟ أكان صراخاً مكتوماً؟ ولكنه كان آتياً بلا ريب من وراء باب الحجرة المغلقة، حجرة رباب، واندفعت نحو الباب، وأدركت الأكرة وفتحته، ودخلت خافق الفؤاد من الهلع، وانتهج بصري إلى الفراش فرأيت رباب نائمة، مغطاة إلى عنقها، وقد التفّ منديلها حول وجهها من قمة الرأس إلى أسفل الذقن ماراً بالأذنين، كانت عيناها مغمضتين، وبشرة وجهها شاحبة باهتة، يشوبها بياض خفيف. لقد بعث الوجه المعصوب في نفسي ذكريات غامضة لم أجد وقتاً لتوضيحها ولكنه حرك رعباً كامناً في أعماقي، ثم تبين لي في اللحظة التالية أنّ نازلي هانم جالسة على طرف الكنبه دافئة وجهها في وسادة الفراش، مفرقة في نحيب موجع، وأنّ «صباح» واقفة عند أسفل الفراش تولول باكية فلم تنتبه لدخولي ...

رباه! ... هل حقاً ماتت رباب؟!

هانم كآبتي فقالت بدهشة:

- ألم تحرّب وعكة البرد قبل اليوم؟ إنك تدللها يا سي كامل أكثر مما ينبغي ...

وسري عني قليلاً بأنّ التي تستهين بالحال هي أمها، ولو كان بزوجي ما يدعو للقلق لما ملكت الأم نفسها. وملتُ نحو الفراش قليلاً، ووضعت راحتي على خدّها فوجدته ساخناً، ولكنها ابتسمت إليّ وقالت:

- إذا كان بي تعب فالمسئول عنه أرقّ ألم بي الليلة الماضية، وسأستردّ انتعاشي إذا ما نمت ولو ساعتين ...

فقلت لها برجاء:

- حاولي أن تنامي معها كلّفك الأمر ...

ونظرتُ في عينيها طويلاً، فرنت إليّ دقيقة ثم خفضت عينيها بلطف، ولم أجد بداً من الانصراف، فنهضت واعدت بالزيارة عقب عودتي من الديوان، وذهبت.

بلغت الديوان بعد الثامنة بعشر دقائق، وعكفت على عملي، ولكنّ العمل لم يستطع أن يغيبني عن نفسي، وعدت بفكري إلى رباب فتمثلت لي نظرة عينيها الساهمة واستشعرت وحشة لم أدر لها سبباً، وحاولت أن أفنى في العمل ولكنني لم أفر بطائل، وغلبتني على أمري نفسي التي تخلق المخاوف من لا شيء، فاشتدّ بي القلق وجعلت أقول لنفسي: إنّ رباب عجزت عن العودة إلى بيتها، وهي تبدو مهزولة متضعضة فكيف أطمن؟ ... كيف أتركها؟! ولم يكن تهافت قلبي حيال أخفّ الملمات بجديد عليّ، وطالما جافاني النوم لوعكة خفيفة تنساب أمي، فلعلّ ذلك الخوف كان أثراً من هذا التهافت المقيم. أفيظع بها من كآبة ثقيلة! إنّ قلبي يقبض في خوف وألم، وكأنّه يكاتم صرخة استغاثة تحاول أن تنطلق. لماذا أعذب نفسي بتجرّع غصص انتظار لا موجب له؟ وعند ذاك طويت الأوراق واستأذنت في الانصراف معتذراً بمرض زوجي. وغادرت الوزارة في منتصف العاشرة، فبلغت البيت قبل العاشرة بدقائق ... وكنت كلما اقتربت من البيت ازداد قلبي وحشة، حتى

٦٠

هتفت كالمجنون:

- خبراني ماذا حدث؟

والتفتت نحوي صباح وصاحت وهي تنشج:

- سيدي... سيدي...

ورفعت المرأة وجهها في فزع ظاهر، وحملت في وجهي بعينين محمّرتين، ولبت لحظة جامدة لا تتكلم ولا تبكي، كأن محضري كان عليها أشد من الموت، ثم شهقت وأفحمت في البكاء. رددت بصري بين المرأتين في ذهول ثم استقرّ بصري على الوجه المعصوب. كيف أذعن لحكم هذا الواقع المخيف! ونازعني قلبي المتفتت إلى أن أرتمي على زوجي، وأن أبكي وأصرخ حتى أموت. بيد أنني لم أجد حراكًا، سمّرتني قوة غريبة في مكاني، وملأتني قسوة وحنونًا... واجتاحتني ثورة عارمة تتحدى قوة الموت نفسه ويطش القضاء. أبيت أن أصلّق عيني، واستعصى عليّ الاقتناع. ما معنى هذا؟ ولوّحت يدي للألم وسألتها بصوت كنت أسمع له لأول مرة:

- كيف... كيف...؟

فبسّطت ذراعها في قنوط وقد خنقتها العبرات، ولكنّ صباح أقبلت نحوي في حال من الهذيان مرعبة وصاحت بصوت مبحوح:

- العملية المشؤمة!... لعن الله العملية.

وتحوّلت إلى الجارية في ذهول وصحت بها:

- عملية... أية عملية!!؟

وأدركت عند ذلك أنني أشم رائحة غريبة، فأدّرت بصري في الحجرة حتى وقع على خوان في ركن منها صُفّت عليه أدوات طبيّة وأوعية وزجاجات وقطن. اقتربت من الخوان وتفحصته بعينين زائغتين، متى جاءوا بهذا كله؟ ومتى استقرّ الرأي عليه؟ كيف حدث هذا؟... ونظرت إلى المرأة فوجدتها ترمق الجارية بنظرة قاسية غريبة، فازداد ذهولي وحيرتي، ثم تحجّر قلبي قسوة وجنونًا، فألقيت عليها هذا السؤال بصوت رهيب:

- أية عملية التي تتحدّث عنها صباح؟

ونظرت المرأة إليّ بارتياح وارتباك ثم قالت بصوت خنثى بالعبرات:

- اشتدّ حال ابنتي فجأة فاستدعيت الطبيب فأشار بإجراء عملية في الحال...

فسألتها وقد استحلت شخصًا جديدًا خفيًا غير الشخص الذي عرفه العالم قرابة ثلاثين عامًا:

- في أيّ عضو؟

فقالت المرأة:

- قال الدكتور إنّه البروتون...

وكنت أسمع الاسم لأول مرة، ولكنّي لم أبال. ذلك، وسألت بالصوت الرهيب نفسه:

- هل أجرى العملية؟

فقالت وهي تبكي:

- نعم... وانتهت بما ترى!

فضربت الأرض بقدم حائقة وصحت بها:

- ولكنّي كنت هنا منذ ساعتين ولم يكن بها شيء! ألم تؤكّدي لي أنّ الحال أبسط من أن أجزع لها؟!

فقالت بصوت تخنقه الدموع:

- اشتدّت وطأة الألم فجأة!... ما حيلتي؟... ما حيلتي!

فسألتها دون أن تأخذني بها رحمة:

- ومن عسى أن يكون الدكتور القاتل؟!

فرمقتني بنظرة كسيرة خلال دموعها وغمغمت:

- لقد بذل ما في وسعه، ولكنّ قضاء الله سبق!

- من عسى أن يكون؟

فصمتت لحظة كأنها تأخذ نفسها، ثم قالت:

- الدكتور أمين رضا...

فسرّرت في جسدي رعدة شديدة، ردّدت قولها في ذهول: «أمين رضا»، ثم هتفت بها في غضب وازدراء:

- الدكتور أمين رضا؟! إنّه شاب مبتدئ!... ثم إنّه أخصائي في الأمراض التناسليّة!

فتولّاهما الارتباك، وراحت تقول: إنّه كان أقرب طبيب إليها، وإنّها ظنّت أنّ الطبيب يفهم الأمراض كافّة مهما كان اختصاصه، وإنّ الوقت لم يكن يسمح

الجارية بقبضة يدها ضربة هائلة فتراجعت الجارية في فرع، ثم التفتت نحونا ممسكة عن اللطم وصرخت في وجهينا - أنا والطبيب - بصوت كالزئير:

- أنتما اللذان قتلتماها... اغربا عن وجهي.

وانفلت الطبيب من الباب، ولبثت وحدي أحدها بنظرة قاسية لا تأبه لثورتها. «أنتما اللذان قتلتماها». إن المرأة تهذي، ولن تأخذني بها رحمة، ولن يهدأ خاطري حتى أعمل عملاً ترتج له القلوب. إني حيال جريمة، إلا تكن جريمة جهل وغباء، ولا بد أن يؤدي الثمن غالباً. لقد تمخض خضوع العمر في عن ثورة جائحة وغضب نارٍ وشراً مستطير. نسيت الجثة والحزن وتحاليت الشياطين لعيني. لتنفض الدواهي على رؤوس المجرمين.

وكانت المرأة تعول بصوت مزعج، وصباح تنتحب انتحاباً متواصلًا، فتحولت عنها بحركة مفاجئة، وغادرت الحجرة لا ألوي على شيء، ثم مرقت إلى الخارج مهولاً كأنني أفرّ فراؤًا.

## ٦١

بدت الدنيا لعيني حمراء قانية. وركبني عناد جهنمي دفعتني دفعا لا قبل لي به إلى ارتكاب أي شر أنفس به عن صدري. وكنت في شك من بلوغ أية نتيجة تشفي غليلي ولكني لم أتردد لحظة واحدة، وناديت تاكسي وأمرته أن يذهب بي إلى النيابة. ودخلت دار النيابة وليس في ذهني خطة معينة أو تهمة صريحة. وجدتني في زحمة خانقة وصكت مسامعي ضوضاء غير مميزة كهدير البحر، فلبثت حائراً لحظات حتى رأيت شرطياً فتقدمت منه وسألته أن يدلني على حجرة وكيل النائب، فقال لي بخشونة، «في الطابق الثاني»، فارتقيت السلم واسترشدت بموظف إليها، ثم استأذنت ودخلت، رأيت مكتباً في مواجهة الداخل جلس وراءه شاب قصير نحيل، مكباً على أوراق بين يديه، فرفع رأسه حين دخولي، وتفتطني بنظرة ثاقبة، ثم سألني:

- ماذا تريد؟

بالتردد الخ... فانتظرت حتى انتهت وأنا أنتفض غضباً وحنقاً، ثم انطلقت مني ضحكة باردة كرنين النحاس وصحت:

- طبيب تناسلي ويجري عملية في البروتون!... لا عجب إذا كنتم قتلتموها...

ودرت على عقبي واندفعت إلى الباب وصحت بصوت كالرعد:

- يا دكتور...

وكررت النداء، حتى جاء من أقصى البيت منقطع الوجه، ودخل الحجرة في خشوع لا يوائم كبرياءه المعهود، فشعرت نحوه بنحو وكرامية تضيق عنهما الأرض، وبادرته قائلاً:

- أخبرني الهانم أنك أجريت العملية التي قتلت زوجي، فهلاً دلتني على ما جعلك تأخذ على عاتقك إجراء عملية جراحية خطيرة على رغم أن الجراحة ليست من اختصاصك؟!

وبدا في وجهه الانزعاج، وحجج نازلي هانم بنظرة غريبة أعادت إلى غيظي نظرة المرأة إلى صباح فطفح بي الحقن، وداخلي شعور غامض بأنهم يدارون عني أمراً خطيراً، وصحت به بوحشية:

- أجبني!

فالتفت نحوي مقطباً، وصمت لحظة كأنما يشاور كبرياءه الضائع، ثم قال بصوت منخفض:

- كانت في حاجة إلى عملية عاجلة...

فقلت وأنا أضرب كفاً بكف:

- لماذا لم تدعوني؟... لماذا لم تستدعوا طبيباً جراحاً؟!

فقلت الأم بجزع:

- لم يكن في الوقت متسع!

فزعت بها:

- ولكن كان فيه متسع لقتلها...

وحملت المرأة في وجهي بجنون وجعلت تردّد: «قتلها... قتلها... قتلها» ثم انفجرت بغتة ففقدت صوابها، وانهاالت على خديها لطمًا، وقد أرادت صباح أن تحول بين كفيها وخديها، ولكنّها ضربت وجه

صدمني هذا السؤال البسيط فاستحال عقلي خواء، ووقفت ذاهلاً كأنني لا أدري على وجه التحديد لماذا جئت. ولاح التساؤل على وجه الشاب فأعاد سؤاله قائلاً:

- ماذا تريد؟

ينبغي أن أتكلّم مهما كلفني الأمر، فقلت تاركاً مقودي للسان:

- زوجي... (كدت أقول قُلت ولكنني عدلت عن ذلك خوفاً)... ماتت...

فقطّب الوكيل فيها يشبه الدهشة وقال:

- وما شأن النيابة في ذلك؟! ولكن من حضرتك؟ وتنفست تنفّساً عميقاً، ووجدت رهبة الخوف تزايلني، وعرفته بنفسه ثم قلت:

- إليك قصّتي يا سعادة الوكيل: تركت زوجي متوَعكة في بيت أمها صباح اليوم، وعدت إلى البيت بعد مغادرتي إيّاه بساعتين فوجدتها ميتة. وقالوا لي إنّ وطأة التعب اشتدّت عليها فجأة فاستدعوا طبيباً قريباً من أقرباء أمها، فرأى أنّ حالها تتطلب إجراء عملية عاجلة فقام بها وماتت على الأثر...

وازدردت ربيقي وأنا أرمق الرجل بنظرة طويلة، ولمّا وجدته غير قانع بما سمع استطردت قائلاً:

- الواقع أنّ هذا الطبيب أحصائي في الأمراض التناسلية، فهل يجوز أن يجري عملية جراحية؟ وإذا انتهت هذه العملية بالوفاة ألا يُعدّ مسئولاً عنها فيجب أن ينال جزاءه؟!

فصمت الرجل لحظة ثمّ سألتني:

- هل نُقلت إلى مستشفى؟

- كلّاً... أُجريت العملية في البيت حيث ترقد ميتة الآن.

- من الذي استدعى الطبيب؟

- حماتي...

- وكيف استدعت طبيباً تناسلياً لا شأن له بمرض

زوجك؟

- لقد سألتها نفس السؤال فقالت لي إنّهُ أقرب الأطباء إليها، وإنّها تظنّ أنّ الطبيب، مهما كان

اختصاصه، فهو يفهم الأمراض جميعاً... - وهل هو الذي أشار بإجراء العملية؟ - نعم.

- وهو الذي أجراها؟

- نعم! وقد سألته كيف يجري عملية جراحية على حين أنّه ليس جراحاً؟ فقال لي إنّ الحال كانت تستدعي عملية عاجلة...

فتفكّر الرجل ملياً، ثمّ سألتني:

- هل تتهم هذا الطبيب اتهاماً معيّناً؟

فلم أفهم ما يعنيه، ورنوت إليه في حيرة دون أن أنبس بكلمة، فسألني:

- هل لديك من الأسباب ما يملكك على اتهامه بقتلها عمداً؟

فخفقت قلبي، وهزّزت رأسي سلّماً، فقال متسائلاً: - هل تشكّ في حدوث خطأ أثناء العملية أدّى إلى الوفاة؟

- هذا جائز جداً يا سعادة البك، ولن يكون مجرد، خطأ، ولكنّه خطأ رجل ليس له خبرة بالجراحة، فمستولّيته لا شكّ فيها.

فعاود التفكير مرّة أخرى ثمّ قال:

- لا أستطيع أن أفصي برأي قبل أن يفحص الطبيب الشرعيّ الجثة، ويوضح أسباب الوفاة...

فاستحوذ عليّ خوف وكآبة، ولم أطلق تصوّر عبث الطبيب بالجثة، وفاض بي الألم فقلت:

- هلّا استدعيت الطبيب للتحقيق معه أوّلاً؟

فلم يحفل باعتراضي، وأمسك بساعة التليفون وطلب رقمّاً، ثمّ سمعته يحدث الطبيب الشرعيّ، ثمّ سألتني عن عنوان البيت، وطلب إليه أن ينتقل إليه ليفحص الجثة ويكتب تقريراً عن سبب الوفاة، وأنهى الحديث ثمّ التفت نحوي قائلاً:

- إذا كان ثمة مسئولية جنائية فسادهب للتحقيق...

وغادرت دار النيابة بعد إتمام الإجراءات الرسمية وقد فقدت تهوّري، فاستشعرت خطورة ما أقدمت عليه. ليس الأمر لعباً، إنّهُ نيابة وطبيب شرعيّ

فاستثار منظرها وسؤالها خوفاً وشعور الخزي الذي  
ركبني منذ فارقت دار النياحة ولم أعد أطيق حبس السرِّ  
الرهيب في صدري. نازعتني نفسي إلى الاعتراف،  
وإلى لقاء الخطر وجهاً لوجه، فقلت بهدوء:

- ذهبت إلى النياحة وطلبت إجراء التحقيق!

فاتسعت حدقتها وفغرت فاهها، وجعلت تحمق في  
وجهي كأنها لا تصدِّق ما سمعت أذناها، ثم غمغمت  
بذهول:

- النياحة...

فقلت بهدوء رهيب، وبصوت مرتفع لأسمع من في  
حجرة الاستقبال:

- أجل ذهبت إلى النياحة وسيجيء الطبيب الشرعي  
إلى هنا عما قليل.

وسرعان ما بدا الدكتور خارجاً من الثرى، فوقف  
غير بعيد ممتنع اللون ساهم الطرف، وعادت المرأة  
الداهلة تسأل:

- أية تهمة وجهتها إلينا؟

فقلت وأنا أتملأ الحقد والتشقي بوحشية:

- ليس تهمة تهمة، ولكن أجزم بوجود خطأ خطير  
نجمت عنه الوفاة، خطأ خليق بأن يقع فيه من ليس  
له خبرة بالجراحة وهو يتصدى للعبث بأرواح  
العباد...

وساد صمت متوتر أليم تلاقت فيه الأعين  
وافترقت. ثم شهقت المرأة شهقة عصبية وهتفت بي:

- كيف هان عليك أن تسلم جثة زوجك للنياحة؟  
ووخزي ألم عميق فكادت تنهار قواي، ولكّني  
غطيت على الألم بغضب مفتعل وصحت بعنف قائلاً:

- يهون عليّ ذلك ألا تضع حياتها هدراً!

وفغر الطبيب فاه ليقول شيئاً ولكنّ الجرس دقّ بقوة  
هلعت لها القلوب، فمضيت إلى الباب وفتحت، فبدا  
شرطيّ ابتدرني قائلاً:

- هل توجد في هذه الشقة المرحومة حرم كامل  
أفندي رؤبة الموظف بالحريّة؟

فأجبت بالإيجاب، فتنحى الرجل جانباً وهو يقول  
«سعادة الطبيب الشرعي»، ودخل رجل ربعة يحمل

وبوليس وفضيحة وقيل وقال، وقد يتمخض التحقيق  
عن لا شيء فلا يبقى لنا إلا الفضيحة والقليل والقال،  
بأي وجه ألقى الناس بعد ذلك؟ كيف ألقى أهلها  
وأهلي والناس جميعاً؟ ألم يكف زوجي ما قدّر لها من  
مصير تعيس حتى أجعلها معرضاً للأطباء الشرعيين  
ومضغة للأفواه؟ واحرّ قلباه! هكذا عدت صوب  
البيت مثقل النفس بالهم والفكر، ولما طالعتني العمارة  
توقفت متردداً وقد أهاب بي نداء أن أنكص هارباً!  
ولكن لم يكن لي مهرّب، ولم يكن بدّ من أن أتجرّع  
مرارة الكأس حتى الثمالة...  
ودقت الجرس، ثم دخلت واجماً مستخزياً...

## ٦٢

كانت الأبواب مغلقة إلا باب حجرة الاستقبال كان  
موارباً، ولم يكن بالبيت أثر من الضجة التي تشمل  
البيوت حين الموت، فتولّتي دهشة عفت على  
اضطراب نفسي. لقد جاوزت الساعة الحادية عشرة  
فكيف لم يطيروا الخبر المفجع إلى بيوت الأهل  
والأقارب! وعادوني شعور بالارتباب والحق...

فنظرت إلى الخادم الصغيرة التي فتحت لي - وكانت  
ملتهبة العينين من البكاء - وسألتها ألم يحضر أحد؟  
فهزّت رأسها سلماً في صمت وحزن، فأشرت إلى  
باب حجرة الاستقبال الموارب وسألتها:

- هل تهمة أحد هنا؟

فغمغمت قائلة «الدكتور أمين» فانتفض جسمي  
غضباً ومقتاً. ثم مضت الخادم إلى باب الصالة الكبيرة  
فدفعته ودخلت وذهبت إلى الحجرة التي ترقد فيها  
رباب في أقصى البيت. لبثت وحيداً في الصالة  
الصغرى لا أدري ماذا أنا فاعل، تتابني مشاعر الرهبة  
بما أقدمت عليه وأحاسيس الغضب والمقت التي يثيرها  
في نفسي الجوّ المحيط بي. ثم سمعت وقع أقدام آتية  
من الداخل، وظهرت من باب الصالة الكبيرة نازلي  
هانم مكلمة في السواد، فألقت عليّ نظرة باردة وسألتي  
بانفعال قائلة:

- أين كنت يا سيدي؟

بدفنها في الوقت المناسب، لا تفزعني يا سيّدي  
فسيتهي كل شيء في دقائق...

وارتمت المرأة على مقعد مغلوبة على أمرها وراحت  
تنشج باكية، على حين سرت أنا بين يدي الطبيب إلى  
حجرة رباب! ولمّا بلغت الباب جاءني نحيب صباح  
من الداخل، فدفعت الباب وناديتها دون أن تواتيني  
الشجاعة على النظر صوب الفراش، ولّبت الجارية  
ندائي فتحّتها جانباً موسّماً للطبيب الذي دخل  
الحجرة بلا تردّد، ثمّ رددت الباب وراءه، وسألني  
الجارية عن الرجل الذي جثت به فهرتها في جزع  
ودفعتها خارج الصالة. ورحت أذرع المكان جيئة  
وذهاباً في اضطراب شمل أعصابي جميعاً، ورائت على  
صدري كآبة قاتلة، فتصوّرت جثّة زوجي الحبيبة بين  
يدي هذا الطبيب الغريب، ينزع عنها الأستار،  
ويعبث بها في برود لا يعرف الرحمة.

لقد ندّ عني أنين موجد، وشعرت بأنّ حادّ يمزّق  
قلبي إرباً، ومرّت بي لحظات ذهول فخيّل إليّ أنّي  
فريسة كابوس شيطانيّ، وتلّقت فيا حولي كأنّما أتلمّس  
منفذاً للنجاة. ولكن هل نسيّت السوجه الشاحب  
المعصوب يمحّم على جبينه شبح الموت الرهيب؟  
ربّاه... إني أثوب إلى نفسي رويداً رويداً، تاركاً دنيا  
الجنون الذي ركبني إلى عالم الفجعة الواقع، تمثّلت لي  
الحقيقة المروعة في شيء من الهدوء المحزن فكأنّني أدرك  
لأوّل مرّة أنّ رباب قد ماتت حقّاً. لم تعد من الأحياء.  
وخلت منها حياتي إلى الأبد لن تعود إلى بيتي كما  
قالت أمّها، ولن أصبحها صباحاً إلى الترام، ولن  
أستقبلها مساء عقب عودتها من المدرسة وهي تغالب  
التعب بابتسامة حلوة، انتهى الشباب الرّيان، وانطفأ  
الحبّ الباهر، وصوّحت آمال وآمال. أين مّيّ ذاك  
التاريخ السعيد الذي بدا على طوار المحطّة، فنسج  
ذكرياته من مادّة الحبّ الأثيريّة، وطاف بي في وديان  
السعادة، ثمّ خلّقي خلقاً جديداً، أين مّيّ هذا  
التاريخ الساحر؟ هل انتهى حقّاً في دقيقة من الزمان  
بخطأ طبيب أحمق؟... وما ذنبي أنا؟... الموت  
كارثة فظيعة بيد أنّه غير مقنع!... ألم يكن أحدثها

حقيبة طبيّة وتبعه الشرطيّ على الأثر، وصادف الطبيب  
الشرعيّ الدكتور أمين في مواجهته فسأله:

- هل حضرتك الزوج الذي بلّغ النيابة؟

فقلت له وأنا أغلق الباب:

- أنا الزوج يا بك، وهذا هو الدكتور الذي أجرى  
العملية.

وردّد الطبيب عينيه بيننا في دهشة، وجرت على  
شفثيه ابتسامة خفيفة، ثمّ سأل الدكتور أمين قائلاً:

- أيّ عملية كانت؟

فقال الدكتور أمين بصوت منخفض:

- عملية في البروتون...

- وما سبب الوفاة؟

- حدث ثقب في البروتون نتيجة خطأ خارج عن  
إرادتي...

وقلت عند ذاك في انفعال شديد موجّهاً خطابي  
للطبيب الشرعيّ:

- أسأله يا سعادة الطبيب عمّا جعله يجري عملية  
جراحية وهو ليس جراحاً...

فتردّد الرجل لحظات ثمّ قال بصوت مرتفع:

- لقد جثت لهمة أخرى. أين الجثة من فضلكم؟

وكانت نازلي هانم واقفة بمكانها على كذب من باب

الصالة الكبرى تردّد عينيها المحمّرتين في وجوهنا في

صمت وذهول، فلمّا أن سمعت الطبيب يسأل عن

مكان الجثة ندّت عنها آهة وهتفت بلا وعي قائلة:

- هذا لن يكون أبداً...

فرمقها الطبيب بنظرة سريعة ثمّ قال لها برقة:

- تحمّلي بالصبر يا سيّدي...

وألقت عليّ المرأة نظرة مشتعلة بالغضب تمّ عادت

إلى الطبيب تقول برجاء:

- إنّ التوفّة كريمة رجل من كبار موظّفي الدولة،

جبر بك السيّد، كبير مفتشي الوجه البحريّ، لعلك

تعرفه يا سيّدي، فارحم ضعف امرأة مثلي وانتظر

عودته، لقد أبرقت له بالفاجعة.

فقال الطبيب برقة:

- ينبغي فحص الجثة بلا إبطاء حتّى يمكن التصريح



بالتحية. وسأل وكيل النائب عن حجرة المتوفاة، ثم مضى إليها توتاً يتبعه الكاتب، ولم أجد الشجاعة للحاق بها، فانتظرت خارجاً. ولم يطل غيابها فعادة مرة أخرى، ونظر الرجل فيما حوله ثم سار إلى حجرة الاستقبال وأنا في أثره، وجلس على كنبه، وافتعد الكاتب كرسياً قريباً باسطاً أوراقه على نضد. ووجه إليّ أسئلة عن اسمي وعمري ووظيفتي وطلب إليّ أن أروي معلوماتي عن الحادث. فصعدت بأمره والكاتب يسجل كل كلمة أقولها. ثم استدعى الدكتور أمين رضا فجاء الدكتور جامد الوجه صاحب اللون، وسمع له بالجلوس أمامه، ثم وجه إليّ الخطاب قائلاً:

- بوسعك أن تبقى معنا إذا شئت!

وخيل إليّ أنّي وجدت في لهجته ما يشبه الأمر، وكانت رغبتني في حضور التحقيق لا توصف، فجلست على مقعد ملاصق للكنبة التي جلس عليها المحقق وقد ملكتني الرهبة والتأثر. وبدأ الرجل يلقي عليه أسئلة عامة عن الاسم والعمر والمهنة، ثم قال له:

- أخبرني كيف اتصلت بهذا الحادث من بادئ الأمر؟

فقال الدكتور أمين بلا تردد:

- استدعيتُ إلى عيادة المريضة زهاء التاسعة صباحاً فوجدتها في حال سيئة من الألم، ففحصتها فنتيت لي أنّ البروتون ملتهب وأنه يستوجب عملية عاجلة فقررت إجراءها إنقاذاً لحياة المريضة، وأعلنت رأيي لأمها فوافقت، وفي الحال أجريتها، ولكن حدث أن ثقب الغشاء ثقباً خطيراً، وذهبت مجهوداتي في إنقاذها سدى، فتوقّيت...

- هل سبق لك أن عاجلت المتوفاة؟

- كلاً...

- ولا في هذا المرض الأخير؟

- كلاً، وقد علمت أنها رقدت ليلة واحدة وكانوا يظنونها مصابة بنوبة برد.

- هل من عادة هذه الأسرة أن تستدعيك فيما يلم بها من أمراض؟...

- لم يحصل هذا، إلى أنّي لم أزاول مهنتي إلا منذ

منذ ساعتين؟ ألم تكن كالوردة البانعة منذ يوم أو يومين؟ فكيف أصدّق أنّها صارت وأول ميت منذ ملايين السنين سواء. ثم إنّها حيّة في نفسي، إنّني أراها رؤية العين، وأسمعها، وألمسها، وأشمّها، إنّها ملء النفس والقلب، فهل من سبيل إلى إصلاح خطأ بسيط؟!

وحدثت حركة - لا أدري إن كانت جاءت من الصالة الخارجية أو من الحجرة المحزونة - ولكنّها أعادتني إلى وعيي فعلق خاطري بالطبيب وما يفعله. عاودني اضطرابي وقلقي ومخاوفي، ماذا أفعل لو لم يعثر الطبيب بشيء ذي بال؟ كيف ألقى القوم فيما بعد؟ لشدّ ما تمنّيت أن يُنزل الله عقابه بالقاتل؟ بيد أنّي لبثت على حال من الاضطراب لم تترك لي سبيلاً إلى نفسي أو عقلي. وطال الزمن واستطال حتّى خُيل إليّ أنّي شخت وهرمت وأنّي أموت. ثم فتح باب الحجرة ولاح وراءه الطبيب بوجه جامد لا يبين عن شيء، وتقدّم خطوات فصار في منتصف الصالة، فوقفت حياله فاغر الفم شاخص البصر، ومسح بأنامله على جبينه ثم قال بنبرات واضحة:

- لقد انتهت من كتابة تقريري، وسأحوّله إلى النيابة في الحال، وأظنّه يستوجب تحقيقاً عاجلاً...

## ٦٣

كان ينبغي أن أشعر بارتياح وتشفّ، ولكن خارت قواي فجأة فارتميت على أقرب مقعد ومددت ساقي واستسلمت لما يشبه النوم. ولم يحدث في فترة الانتظار التي أعقبت خروج الطبيب إلّا اندفاع نازلي هانم وصباح إلى حجرة المتوفاة، وتصاعد النواح والبكاء. ولاحق مّي نظرة إلى الصالة الصغرى فرأيت الدكتور أمين رضا يذرعها في بطء وتثاقل، وقد جلس الشرطي على كرسّي عند باب حجرة الاستقبال.

وعند منتصف الساعة الواحدة دقّ الجرس، فنهض الشرطي وفتح الباب، ودخل وكيل النائب يتبعه كاتب وشرطي، وخفق قلبي في ارتياح لرؤية رجال الحكومة، ونهضت قائماً واتّجهت صوب الرجل، ثم رفعت يدي

ولأول مرة تردّد الدكتور قبل الإجابة، ثم قال:

- كلاً!...

- كيف أتيت بها؟

- من زميل.

- جراح؟

- أجل...

- ولماذا لم تحضره؟

- كان مرتبطاً بعمل في نفس الوقت...

- من عسى أن يكون هذا الدكتور؟

فتردّد مرة أخرى، ثم تورّد وجهه الشاحب وقال بصوت منخفض:

- الحقّ أنّي أحضرتها من المستشفى، مستشفى فؤاد الأول.

- بصرف النظر عمّا إذا كان هذا التصرف سليماً أم لا من الناحية الإدارية، ألم يكن الأخلق بك وقد رأيت أنّك لا بدّ منفق وقتاً غير قصير في إحضار الأدوات بطريقة غير مشروعة، ألم يكن الأخلق بك أن تستدعي جراحاً خصوصاً وأنّ استدعاءه لم يكن يستند من الوقت أكثر ممّا يستنفده إحضار الأدوات؟

فتفكّر ملياً ثمّ بارتباك ظاهر:

- كنت متأثراً بحال المريضة فلم أفكر في هذا...

- الأقرب إلى المنطق أنّه كان ينبغي أن تفكّر في هذا بسبب هذا التأثير نفسه. وهب الحقّ كما تقول، فلماذا لم تنقل المريضة إلى المستشفى حيث يوجد الأخصائيون بوفرة؟

- لم توافق أمّها على نقلها...

- ألم يكن هذا أقلّ خطورة من تسليمها ليد غير

خبرة؟ ولكن لندع هذا الآن...

ويسط المحقّق صحيفة بين يديه، جرى بصره على سطورها، ثمّ قال وهو يعتدل في جلسته:

- ما رأيك في هذا، إنّي أراجع الآن تقرير الطبيب

الشرعيّ فإذا به يؤكّد أنّ التهاب البروتون لا يستوجب

هذه السرعة التي تتحدّث عنها كما تستوجب بعض

حالات الزائدة الدوديّة مثلاً، فما رأيك في هذا؟

فلاذ الدكتور بصمت عميق، ونمّ لمعان عينيه عن

شهور لا تجاوز العام، ولا أذكر أنّ أحداً من الأسرة قد مرض في هذه الفترة..

- هل تظنّهم كانوا يستدعونك في مثل هذه الحال؟

- الواقع أنّهم استدعوني في أوّل حال عرضت لهم.

- ألا يعرفون اختصاصك؟

- بلى ولكن شدّة الحال جعلت الأمّ تستنجد بي،

لقرب عيادتي من ناحية، وللقرابة التي تربطني بها من ناحية أخرى.

- لا أرى في هذه الظروف ما يمكن أن يؤثر في

اختيار الطبيب، ثمّ أنت كيف توافق على تلبية دعاء

لحال مرضيّة تعلم أنّها ليست من اختصاصك؟ ألا

يشير الأطباء في أمثال هذه الظروف باستدعاء الطبيب المناسب؟

- رأيت اللياقة تقضي بأن ألبي الدعوة على الفور،

فذهبت وفي ظنّي أنّها حال إغماء أو مغص شديد أو ما

شاكل ذلك ممّا لا يُعجز طبيباً على الإطلاق، وأظنّ

هكذا ما دار بخلد الذين استدعوني.

- ولكنك وجدت الأمر أخطر ممّا تصوّرت فكيف

كان تصرفك؟

فأمسك الدكتور عن الإجابة وخفض بصره في

ارتباك وتروّ، فبادره المحقّق قائلاً.

- لماذا لم تُشِرْ باستدعاء جراح؟

- كانت الحاجة ماسّة إلى عمليّة عاجلة.

- هل مارست الجراحة قبل ذلك؟

- في الكلّية طبعا!

- أعني بعد ذلك؟

- كلاً...

- يدهشني أن أتصوّر إقدامك على إجراء هذه

العمليّة الخطيرة.

فقال الدكتور أمين وقد تغيّرت نبرات صوته قليلاً

واعترتها حدّة عصبيّة:

- قلت إنّ الحال كانت خطيرة وتستدعي إجراء

سريعاً!

- وكيف أحضرت الأدوات الطبيّة اللازمة لهذه

العمليّة! هل كانت توجد بعيادتك؟

- سأزيد لك المسألة بياناً، يقرّر الطبيب الشرعي أنّ البروتون قد ثقب حقاً ولكن يؤكّد أنّه لا يوجد به شيء على الإطلاق من مرض أو التهاب، وأنّ حاله لم تكن لتستدعي علاجاً على الإطلاق فضلاً عن عمليّة جراحية!

- ولكنّي أجريت العمليّة بنفسِي.

- لم تُجرِ عمليّة على الإطلاق فيما عدا ثقب البروتون.

فقال الدكتور بصوت متهدّج وبحدّة غاضبة:

- أتريد القول بأنّي ثقت بالبروتون بلا داعٍ! ... ما معنى هذا؟ ...

- أنت ثقت البروتون فقتلتها!

- في أثناء إجراء العمليّة ...

- أوّكّد لك أنّك لم تُجرِ عمليّة البروتون ...

فصاح الدكتور في غضب:

- أتتّهمني بأنّي تظاهرت بإجراء العمليّة كي أقتلها؟ ... أتتّهمني بالقتل يا حضرة المحقّق؟ فقال المحقّق بهدوء:

- إنّي أتّهمك بالقتل حقاً، وستوافقي عمّا قليل على رأيي. وسترى بنفسك - بغير حاجة إلى نصيحتي - أنّه لن يبيّئ لك بعض النجاة إلّا الصدق والصراحة.

انكفأ وجه الدكتور وازداد تجهّماً، وركبته حال نعسة من القهر. أمّا المحقّق فقد ألقي نظرة أخيرة على تقرير الطبيب الشرعيّ، ثمّ استطرد قائلاً:

- لماذا أحدثت هذا الثقب القاتل بالبروتون؟

فقال الطبيب في تجهّم، وفيما يشبه اليأس:

- لقد أجبت على هذا من قبل!

- يجدر بك ألاّ تنغاي وأنت بلا شكّ شابّ ذكيّ، لقد أحدثت هذا الثقب لتخلق سبباً ظاهراً «مشروعاً» للوفاة التي ظننتها لا محالة واقعة ...

أطرق الدكتور صامتاً وبدأ كشخص يعترف مستسلماً، واستطرد المحقّق قائلاً:

- كنت تجري عمليّة حقاً ولكن في موضع آخر من الجسم، ثمّ حدث ثقب خطأ في هذا الموضع الآخر فظننت لقلة خبرتك بالجراحة أنّه سيفضي على المريضة

تفكيره وقلقه. وعاد المحقّق يقول:

- ويقول أيضاً إنّ العمليّة تستدعي بضع ساعات للتأهّب لها يتناول المريض في أثناءها شربة عادة، ألم تعلم بهذه المبادئ الأولى في فنّ الجراحة؟ - علمت أنّ المريضة تناولت شربة مساء أمس ولم تذق بعدها طعاماً ...

- هل أخذتها استعداداً للعمليّة؟

- كلّاً ... أخذتها بسبب ما ظنّ بها من برد، أمّا فكرة العمليّة فلم تنشأ إلّا بعد حضوري اليوم.

واشتدّ انتباهي عند ذلك، وعجبت كيف لم يذكر لي أحد أنّ زوجي تناولت شربة. وذكرت كيف أبقيت بهذا البيت مع أنّه كان بوسعها أن تعود إلى بيتنا ولو في تاكسي، ودخلني شعور ثقيل بالغموض والحيرة.

وعاد المحقّق يقول:

- إنّي حيال عمليّة أجريت بسرعة جنونيّة لغير ما سبب فتّيّ يستدعي ذلك، وببّد طبيب غير جراح كان بوسعه ولا شكّ أن يدعو جراحاً مختصّاً ... فما معنى هذا؟

وألقي المحقّق على الدكتور نظرة نافذة باردة، فتردّد بصريّ بينهما في قلق متزايد وخوف غريب. وبعث الاضطراب في نفسي توتّراً حادّاً. ثمّ سمعت المحقّق يقول:

- إنّي أتساءل عن الضرورة التي حثّمت أن تكون أنت الجراح، وفي هذا الوقت بالذات؟

وسكت ملياً ثمّ استدرك متسائلاً:

- وما سبب الوفاة؟

- ثقب البروتون ...

فقال المحقّق ببرود:

- يقرّر الطبيب الشرعيّ غير هذا.

فتساءل الدكتور أمين رضا مستنكراً:

- فما عسى أن يكون السبب إذن؟

- هذا ما يخلق بك أن تدلّني عليه بنفسك!

فقال الدكتور وقد اعتور نبرات صوته ذلك التوتّر العصبيّ:

- لا أفهم ماذا تعني ...

الثلاثة عن ناظري، وغابت الحجرة، ورأيت فراغاً خفياً تترج فيه الحمرة بالسواد، وتراقص فيه أشباح مربعة من الذكريات والخواطر... عملية إجهاض... كانت رباب حبل! الخطاب. هذا الطبيب الشاب... يستطيع الشيطان ولا شك أن يؤلف من هذه الحقائق المتناثرة جريمة مروعة، ساخراً من شكّي الذي دفعني إلى التجسس حيناً، هازئاً بالطمأنينة التي آويت إليها سادراً حيناً آخر... إن المحقق يسعى جاهداً وراء جريمة طبية، وسيعثر في طريقه الشائك بجريمة أدهى وأمر. ألم يحسد قلبي الكارثة من بادئ الأمر؟ أليكون الطبيب هو صاحب الخطاب؟ أم إنهم استشفعوا بقرابته على التسرّ والكتمان؟ ولكن لا شك أن الأم كانت تعلم كل شيء... كل شيء عن حياتي الزوجية، وزلة ابتها، ولعلها أرادت أن تطمس آثار الفضيحة بالعملية لولا أن هنك الموت تديرها. آه يا رباب! إن كل عذاب تُصاب به في هذه الدنيا حقّ وعدل لأننا تنفان في حبها على حين أنها لا تستحق إلا الموت.

واستيقظت على صوت المحقق وهو يهتف بي: «هو... اصبح!» فرفعت إليه عيني مرتجفاً وعدت رويداً رويداً إلى الشعور بما حولي. قال الرجل: - إنّي أسألك ألم تصارحك زوجك بكرهيتها للحبل؟ ألم تفض إليك برغبتها في إجهاض نفسها؟ واسترقت من الدكتور أمين نظرة سريعة، وقلت لنفسني إنه يعلم السرّ كله من بادئ الأمر، ولعله يعلم أضعاف ما أعلم، فعزّ عليّ أن أكذب وأن أعرض نفسي لإهانة جديدة، وتمتمت قائلاً:

- كلاً...  
- أكنت تراها مسرورة بحبلها؟  
فقلت في غير مهالة وقنوط:

- لم أعلم أنها كانت حبل إلا هذه الساعة  
فارتفع حاجبا المحقق فوق عويناته، وثبته على عينيه وهو يقدح فكره ثم سألني:  
- كيف تعلل إخفاءها الأمر عنك؟  
لشدّ ما زلزلني هذا السؤال! إنها كلمة واحدة ثم

حتماً فما عسى أن تفعل؟ لو عُرف سبب الوفاة الحقيقي لكشف الغطاء عن العملية الجراحية وهي غير مشروعة، وهنا هداك عقلك المضطرب إلى حيلة جنونية، وهي أن تثقب البروتون فيظن أنه سبب الوفاة، ثم تدعي كذباً بأنك كنت تجري عملية في البروتون، بذلك تحكم الستار على جريمة العملية غير المشروعة، أما قتلك مريضاً خطأ فلا يقع تحت طائلة القانون، ولكنك أخطأت، فالمریضة لم تمت من الثقب الأول ولكنك قتلها وأنت تثقب البروتون.

انفض الدكتور انتفاضة عصبية عنيفة، وهتف بالمحقق وكأنه فقد وعيه:

- كلاً... كلاً... لقد توفيت تماماً قبل أن أثقب البروتون...!

وجرت على شفقي المحقق ابتسامة خفيفة، ألقى على الدكتور نظرة ظافرة، على حين أطبق الآخر شفتيه في صمت وذبول، ورفع عينيه مرتين إلى وجه المحقق في حقن وقنوط بدا لي وكأنه قد صُرع تحت وقع ضربة قاضية فغلب على أمره. بيد أنني لم ألتجئ بالآ إلى إليه. كان عقلي يتنفض حرارة حركة وهياجاً، عملية غير مشروعة! عملية البروتون ما هي إلا خدعة زائفة للتسرّ على جريمة! إما أن أكون مجنوناً أو يكون الرجلان مجنونين!... توفيت تماماً قبل أن يثقب البروتون!... رباه! أكاد أخرج عن طوري فينفلت لساني هادياً رغم وجود هذا المحقق المخيف. على أن المحقق خرق الصمت الثقيل قائلاً في هدوء:

- اتفقنا، وأظن أنه أن أن تعترف بأنه وقع الاختيار عليك بالذات دون أطباء مصر جميعاً لإجراء عملية إجهاض!

لم يتوقّف عند هذا الحدّ، ولكنّه واصل حديثه، ولعله ذكر فيها قال البنج وأثره أو شيئاً من هذا القبيل، ولعلّ الآخر نطق ببضع كلمات كذلك، ولكنّي لم أعد أعي شيئاً ممّا يقال. تعلّق ذهني بقوله: «عملية إجهاض» وامتنع عن السير. لقد وقعت عليّ هذه العبارة فشطرتني شطرين، ثمّ مرّقتني إرباً، ودوّت في رأسي حتّى ذهلت بها عن كلّ شيء، غاب الرجال

انتفض واقفاً غاضباً، وألقى بالحقيقة من بين شفثيه في غطرسه وكبرياء: «لا تسأله عما لا يدري، إنها لم تكن زوجة إلا رسمياً فحسب». رباه، لماذا لم أدق عنقه؟ لماذا لم أرم بنفسي عليه وأنشب أظفاري في قلبه؟ لتلهبني هذه الذكرى حتى الموت بمثل السوط اشتعلت أطرافه بالنار. ولكن ما الذي جعله يرمي بنفسه إلى الهلاك؟

هل حمله اليأس من تربة نفسه من إحدى التهمتين على الاعتراف بالأخرى؟ أو أنه راعه ما جنى الحب على حبيبته فنازعته نفسه في ساعة يأس إلى اد يشاظرها المصير الأليم؟ أهي ثورة ضمير أم ثورة قلب أم الاثنين معاً؟ من لي بأن أطلع على سر هذا القلب المتغطرس؟ بيد أنني ازدادت حيرة وجعلت أتساءل: كيف هان عليه أن يرسلها إلى القبر مكفنة بالفضيحة؟ ألم يكن الأخلق به أن يتهمز الفرصة المبذولة فينقذ نفسه، ويستر شرف المرأة التي أحبتها... وأحبته؟... أتراه نادماً الآن على ما بدر منه أم لا يزال منتصب القامة غطرسه وعجرفة؟... إنه لغز، وسيظل لغزاً بالنسبة لي إلى الأبد، وكان قلبي متورماً من الحقد والغضب فوجدت في المصير الذي قضي عليهما به - هي في القبر وهو في السجن - راحة وغبطة.

وكانت قدماي قد حملتاني إلى ميدان الإسماعيلية، فلم أجد مهرّباً خيراً من حدائق قصر النيل فأنجّمت صوب الجسر... أه لو أستطيع أن أغيب عن القاهرة عاماً! ولم يدُر لي بخلد أن أشيخ جنازة المرأة التي كانت زوجاً لي، إذ لم يعد بوسعي أن أبدو أمام أحد ممن يعلمون بحقيقة الماساة. ولكن هل تزوجت حقاً؟ لم تكن إلا مهزلة طويلة، أو مأساة على الأصح، ولشد ما تملك الدهشة أهلي اليوم أو غداً إذا علموا بأن زوجي مات ودفنت دون أن يدعى أحد منهم لتشيع الجنازة، ولكن سرعان ما تذهب دهشتهم إذا عرفوا الحقيقة وسرعان ما يلهيهم التندر بها عما عداه، ويا لها من أحذوثة حقيقة بأن تحيي محافل السمرا وتقبّض قلبي وشعرت ببرودة تسري في أطراف. لشد ما تعاودني

يصبح سرّي نادرة المتنّدين. إن مشاعر الحقد والانتقام تستفزني جميعاً إلى نشر هذا السرّ الدفين كي أهتك سرّ الأئمة وأنزل انتقامي بالمجرم. أريد أن أقول إنه لم يكن في حياتنا ما يدعو إلى الحب ليضع المحقق يده القاسية على الفاسق. ولشد ما نازعتني نفسي إلى ذلك، وأوشكت الكلمات أن تثب إلى طرف لساني. بيد أنني لم أنبس بكلمة، وحلّ بي شلل عام لا أدري ما كنهه. هل يمكن أن يكون للخلج أثر حتى في مثل هذا الحال؟... هل يمكن أن تفوق رغبتني في التستر على عجزتي تحرّقي إلى الانتقام؟ لم أستطع التفوّه بالكلمة الفاصلة، وكلّما مرّت ثانية ازدادت عجزاً ونكوصاً، ثم تمنت قائلاً وأنا ألهث: - لا أدري...

وما أدري إلا والدكتور ينتفض واقفاً ثم يتراجع خطوتين شابكاً ذراعيه على صدره في تحدّ وكبرياء وغطرسه! ويقول للمحقق بثبات وعجرفة: - تسأله عما لا يدري، إنها لم تكن زوجته إلا رسمياً فحسب، وإني أنا المسئول عن كلّ شيء من البداية إلى النهاية...

## ٦٤

غادرت البيت دون أن أرى أحداً من أهله، فلم يعد البيت بيتي ولا الأهل أهلي. ووقفت عند باب العمارة فجرى بصري إلى المحطة، محطة الذكريات، وطاب لي أن أردّه بينها وبين الشرفة، ثم أغمض عيني لأرى موكب الذكريات يمرّ كالمح البصر، صورة صادقة من الحياة، جامعاً بين طرقي ملهاتها ومأساتها. ثم انطلقت في الطريق بلا غاية كأنما أجد في الهروب، استحال قلبي حجرة من نار يتطاير عنها شرر الغضب والشفاء والمقت. وقد خيل إليّ أنّ هذه الدنيا العاكفة على هومها ستتناسى شجونها غداً وتغرق في الحديث عن فضيحتي، على أنني لم أكن قد أفقت من دهشتي ولم أزل أتساءل عما حمل الدكتور المجرم على الاعتراف بالحقيقة الهائلة! لقد هاضني الجبن فكتمت الحقيقة، وهبته بذلك فرصة للهرب لو أراد هرباً، ولكنّه

صوبها لا يغمض وقد تقلص قلبي وتوالت ضرباته  
فرايت النور يشع من الشرفة والنوافذ. أما أمام مدخل  
العمارة فقد أقيم عمودان طويلان يتدلّ منها مصباحان  
كبيران مضاءان. قضي الأمر...

## ٦٥

ذكرت وأنا أرتقي سلم بيتنا أمي فارتعدت فرائصي  
واستحوذ عليّ حقن فطيع كأنه شيطان، ترى ماذا  
أحتقني؟... وسألت نفسي في حيرة عما عسى أن أقول  
لها... ربّاه! ما الذي جاء بي إلى البيت؟ هل ظننت  
أنه يسعني أن أقضي هذه الليلة في حجرة «رباب» وعلى  
فراشها؟ على أنني واصلت ارتقاء السلم كأنه قضاء  
عقوم، ودخلت الشقة بصدر منقبض ووجه مكفهّر،  
وجاءني صوت أمي وهي تتساءل في لهفة وجزع قائلة:  
«من؟» فجمدت في مكاني غاضبًا حانقًا ثم قلت  
بخشونة: «أنا» فهتفت بي بصوت باكٍ:

- كامل. تعال يا بني...

فخفق قلبي بعنف، وأيقنت أنها علمت بمصير  
«رباب» وذهبت إلى حجرتها وكانت جالسة في  
الفراش، فمدّت إليّ يديها وهي تشجج باكية وقالت  
بصوت تخنقه العبرات:

- ليتني كنت فداها!.. كان ينبغي أن تبقى هي  
لك...

فوقفت في وسط الحجرة متجاهلاً يديها الممدودتين،  
وسألتها في جمود وغلظة:

- كيف علمت بالخبر؟

فهتفت بصوتها المختنق:

- كيف نسيت يا بني أن تخبرني؟ إنّي أدرك من هذا  
شدة حزنك. وقد تفتّت قلبي رثاء لك... ليتني كنت  
الفداء لك ولها، أنا المعجوز المريضة، ولكنته قضاء  
ربّنا.

لم ينل تأثرها جمود نفسي، فلم أستجب لها،  
وسألتها وكأنني لم أسمع كلامها:

- كيف علمت بالخبر؟

- لقد انتظرت عودتك اليوم في قلق، ولمّا أن جاء

تلك الرغبة القديمة في الحرب! أين متّي بلد بعيد لم  
يطرق أبوابه طارق، من لي بأن أقطع كلّ صلة تربطني  
بماضيّ النغيض! أه لو يمكنني أن أولد من جديد في  
عالم جديد لا تطالعي فيه ذكرى من ذكريات هذا  
العالم، أجل لن أستطيع أن أواصل حياتي على حين  
يتبعني هذا الماضي كالظّل الثقيل... وقضيت بقية  
النهار متخبطًا في الطرق أو جالسًا شاردًا في الحدائق،  
لا أشعر بحرّ ولا ببرد ولا بظلمًا، حتّى أذنت الشمس  
بالمغيب وانتشرت سمرة المساء فوق رءوس الشجر،  
فعدت من حيث أتيت في خطو ثقيل، وبلغت ميدان  
الإسماعيلية وقد هبط الظلام على الكون فملكتني الحيرة  
ولم أعرف لنفسي مذهبًا، ثم وثبت إلى ذهني صورة  
الحانة فجأة فتهدّت من الأعماق، ونذت عن أعصابي  
المتوتّرة المكشوفة آهة ارتياح كأنما حظيت بفرحة بعد  
طول اختناق. وفي اللحظة التالية كان التاكسي ينطلق  
بي إلى شارع الألفي. بيد أنّ ارتياحي ولّى سريعًا،  
وحلّ محله قلق وانقباض وتردد، وجعلت أتساءل: ألا  
يجمل بي أن أولي وجهي وجهة أخرى! وغادرت  
التاكسي حيال الحانة ولكّني لم أمض إليها، ورحت  
أتمشّي على الطوار في خطى بطيئة مثقل الرأس  
والقلب، وغلبني اليأس، فانسقت معه إلى داخل  
الحانة وانتبذت ركنًا منفردًا، وشربت كأسًا وأخرى،  
وعللت، وما تكاد رأسي تستجيب للخمر، ولكّني  
شعرت بالجوع بغتة فأكلت بنهم وشهوة عجيبة وما  
كدت أفرغ حتّى حلّ بي تعب شمل معدتي ورأسي  
وأعضائي جميعًا فكأنّ جهد اليوم المبرّح قد وجد غرة  
فزحف عليّ بجحافله وناخ عليّ بكلّكله، ونهضت  
مترنّحًا، وغادرت الحانة إلى تاكسي واقف غير بعيد،  
فانطلق بي صوب قصر العيني، علاني التعب والجهد،  
وسرى في جسدي تخدير، وتولّاني شعور طارئ بعدم  
المبالاة، فرمقت مأساتي بعين ساخرة، فبدت لي لحظة  
كأنّها مأساة شخص غريب، أو كأنّها انتزعت من حياتي  
الخاصّة واحتلّت موضعها من موكب المأساة الإنسانية  
العامة. وجعل التاكسي يطوي الطريق حتّى شارف  
موقع العمارة التي امتحتني بها الدنيا، وانطلق بصري

يخلو منه بيت...  
ولكني لم أرحمها، ولم أفهم في الوقت نفسه كنه القوة  
التي دفعتني إلى تذكيرها بالماضي الأسيف كأنما آسي حقاً  
على «رباب»، بل غالبيت في الحقن عليها كما لو كانت  
السبب فيها حلّ بي من كارثة، وضاعف من حنفي ما  
وقع في نفسي من أنها تداري بهذا الحزن فرحاً وشاة،  
فأردفت لي غضب قاتلاً:

- الحقّ أنّ الدنيا لا تسمعك من الفرح!... إنّي  
أعرفك حقّ المعرفة كما أعرف نفسي سواء بسواء، فلا  
تحاولي خداعي، إنك تدارين فرحك بهذه الدموع  
الكواذب.

فتأوّت هاتفة:

- كامل لا تقسُ على أمك، لا تقل هذا، لم أكرهها  
علم الله، يحزنني ما يحزنك...

فبدرت مني ضحكة باردة كقرعة السوط في الهواء  
وقلت:

- لأزيدك فرحاً فاعلمي أنها لم تمت ولكن قُتلت!  
فحملت في وجهي في فزع ولعلها خافت عليّ  
الجنون وغمغت:

- اللهمّ لطفك.

فصحت باستهانة وجنون:

- قُتلت حين كان الطيب يجهبها.

فضربت صدرها بيدها وهتفت:

- يجهبها! وهل كانت حبلي؟ ربّاه لم أكن أعلم  
هذا.

- ولا أنا!... أخفّته عني لأنني لم أكن أبا

الجنين!... وصرخت أمني في فزع:

- كامل، رحمة بنفسك، رحمة بي، أنت لا تدري  
ماذا تقول.

- بل أدري أكثر ممّا تتوقعين، لقد عرفت في يوم ما  
لا يعرفه مثلي في جيل، قلت لك أخفت الأمر عني  
وذهبت إلى والد الجنين ليجهضها فأخطأ وقتلها...

- اللهمّ لطفك يا أرحم الراحمين.

- ألا يزال أرحم الراحمين؟ وداعاً، فلن أعبده بعد  
اليوم! أمّا أنت فلعلّك تقولين لنفسك في سرور

المساء ولم تحضر بلغ منّي الخوف، فوصفت للخادم  
موقع العارة وأرسلتها إلى هناك، فعادت إليّ بالخبر  
الأسود...

ورمقتها بنظرة مستريبة وسألتها بصوت منخفض:

- هل علمت كيف ماتت؟

فعاودها البكاء وهي تقول:

- كلّاً يا بني! ولا زلت في حيرتي وذهولي، أسفي  
على الشاة المسكينة، كيف وافاها الأجل على غير  
ميعاد؟

وداخلني ارتياح سرعان ما فتر وخمد... فقيم  
أخدع نفسي براحة كاذبة وما من قوة في الأرض  
تستطيع أن توارى فضيحتي؟ وأضجرتي بكأؤها، ووقر  
في نفسي أنّه أمانة حزن كاذب ممّا يصطنعه النساء  
فقلت بفظاظة:

- ماتت كما يموت الناس أثناء الليل وأطراف النهار،  
وكما مات جدّي وأبي وكما ستموت جميعاً...

وضغطت على «جميعاً» في حق، ثم بادرتها متسائلاً  
في سأم:

- لماذا تبكين؟

فرنت إليّ خلال دموعها بوجوم وكآبة وتمتمت:

- وددت لو كنت فداها...

فغلبنى الانفعال وقلت بحدة:

- كذب!... محال أن يرضى إنسان بأن يفتدي  
آخر من الموت... أكنت تقولين هذا لو كانت ما تزال  
على قيد الحياة؟!

وأحدقت في وجهي بارتياح، ثم غصّت بصرها في  
وجوم والم، وساد الصمت ملياً، حتّى خرّقته متممة:

- أسأل الله أن يُنزل سكينته على قلبك.

فقلت بجفاء:

- لا حاجة بي إلى الدعاء. بيد أنّي أكره الرياء،  
ولا يمكن أن أنسى أنّك أبغضتها حتّى قبل أن تقع  
عليها عينك.

فرفعت إليّ وجهها في استعطاف والم وقالت:

- كامل! رحمة بأمّك... يعلم الله أنّي لا  
أخادعك، ولكن مثل ما كان بيننا من نقار لا يكاد

غريب: «لقد نالت الأئمة بعض ما تستحق من جزاء، لقد حدثني قلبي بذلك من أول يوم ولكنت لم تصنع إلي!».

فزفرت أمي في شقاء وتعاسة وقالت بصوت كالأنين:

- لشد ما يحزنني كلامك، إنك تقتلني بلا رحمة.

فصحت بها كالمجنون:

- اشميتي ما شاءت لك الشبابة، ولكن إياك وأن تتصوري أننا سنعيش معًا. انتهى الماضي بخيره وشره ولن أعود إليه ما حييت. سأفرد بنفسى انفرادًا أبديًا. لن أعيش معك تحت سقف واحد، وسأطلب من الوزارة نقلي إلى مكان قصي أقضي فيه البقية من عمري.

أشرق الدمع بعينيها وعقد الألم لسانها ولبثت تنرو إلى في فزع ووجرم. وكأنه لم يكفي ما قلت فأردفت مرغياً مزيداً:

- اذهبي إلى أختي أو إلى أخي واحسبيني منذ اليوم في عداد الأموات.

ووليّتها ظهري وغادرت الحجرة ونحيبها يقرع أذني.

## ٦٦

لم يحط لي لحظة واحدة أن أذهب إلى حجرتي، كان ذلك أبعد شيء عن تصوّري، حتّى النظر إليها تحاميته، ومضيت إلى حجرة الاستقبال وارتيمت على الكنب في إعياء وقنوط، ومضى الليل ثقيلاً مضجراً فلم يعد نصيبي من النوم إغفاءات متقطّعات تتخلّلها أحلام مزعجة. ثم أخذ خصاص النوافذ ينضح بنور خافت إيذاناً بمطلع الصبح فتنفّست الصعداء وتمطّيت متعباً، ثم نهضت قائماً وغادرت الحجرة مدفوعاً برغبة في الهروب والاختفاء. واقتربت من الباب الخارجي في خطو خفيف حذر حتّى وضعت يدي على مقبضه، ولكنّي جمدت متردداً دون أن أبدي حراكاً، ثمّ تراجعت في سكون نحو حجرة أمي، ودفعت بابها الموارب في حذر بالغ وأدخلت رأسي. كان شخير

الخادم يتصاعد في انتظام، وعلى الفراش رقدت أمي في سكون عميق لا يكاد يُرى من وجهها إلا نصفه الأعلى. ألقيت عليها نظرة قصيرة، ثمّ تراجعت إلى الخارج، وأنجّبت نحو الباب الخارجي مرّة أخرى ومرقت منه ثمّ أغلقتة دون أن أحدث صوتاً، وترامى إلى أذني، أو خيل إليّ أنّ صوتاً يهتف بي، فظننتها استيقظت على حذري وحرصى وأنها تناديني. وتوقّفت ويدي على الدرابزين على حين تراخى قلبي ورقى، ولكنّي كنت على حال من القنوط لم أحسن معها التدبير فهزّزت منكبي استهانة ونزلت. واستقبلت الصباح الباكر في طريق مقفر أو يكاد فهفا على وجهي نسيم رطيب بارد، وتلبّثت متحيّراً لا أدري أين أذهب ثمّ قصدت محطة البرّول حيث موقف التاكسي واستقللت واحداً إلى ميدان الإسماعيلية. ومال بصري إلى العمارة الأخرى في الطريق فرأيت نوافذ مغلقة وسكوناً مطبقاً والمصباحين المعلقين وقد انطفأ نورهما. وانتهيت إلى الميدان فمضيت إلى لبّان وجلست إلى مائدة في أقصى المحلّ، وتناولت فطوراً بسيطاً، وعلائي تعب مبالغت فمددت ساقّي، ثمّ زحف على جوارحي نعاس قهّار لم أعد أملك معه رأسي فاستسلمت لسلطانها. وسرعان ما رحت في سبات عميق. وعادتني اليقظة فوجدتني منكفئاً على المائدة وقد توسّدت ساعديّ، فرفعت رأسي ناظراً فيما حوالي في دهشة وارتباك، وسرعان ما استحوذ عليّ حياء شديد.

وغادرت المكان مغمضاً عينيّ عن الجلوس وما كان أشدّ دهشتي حين رأيت ساعة الميدان تجاوز الثانية عشرة! نمت دهرًا طويلاً غائباً عن دنياي المتجهمة فما الذّ أن أنام إلى الأبد! وأنجّبت صوب حدائق قصر النيل وأنا أشعر شعوراً أليماً برثائه هيئتي وذبول منظري! وساءلت نفسي وأنا أجذ في السير عماً عسى أن أصنع بحياتي، ولكن وسوست لي النفس أن أوّجل البتّ في هذه المسألة جرياً مع طبيعتي التي تنكص عادة عن مواجهة المشكلات الخطيرة. ثمّ وجدتي أفكر في رباب! إنّ بنفسي غضباً عليها لا يزول كأنه عاهة مستديمة، ولشدّ ما أتمنى لو تُبعث حيّة ولو دقيقة واحدة



هل يسعني هجرها! طالما رقت على خاطري الرغبة في هجرها في صور أحلام غامضة، ولكن هل يسعني حقاً أن أهجرها؟ يا لها من خطوة خطيرة ما أخلقني أن أفق منها موقف المتفكر المتردد. لماذا أقسو عليها؟ فيم أنتقم منها! وإني لأعلم أن خطرة منها تخطر على الفؤاد حقيقة بأن تردني إلى أحضانها نادماً باكياً، يا له من حب بغيض لا أجد إلى الخلاص منه سبيلاً.

ورجعت إلى الميدان بعد الساعة الثانية بقليل، ووجدتني أذكر شارع الألفي بلهفة معهود. وعلى كنب من محطة الترام لمحت زميلاً لي من الوزارة فتجاهلته، ولكنه لمحني أيضاً وأقبل نحوي في اهتمام ووجوم وبسط لي يده قائلاً:

- البقية في حياتك يا كامل أفندي.

فسرت في جسدي رعدة وتساءلت في قلق كيف علم بالخبر وماذا علم عنه، وتمتعت في ارتباك:

- حياتك الباقية.

فقال الرجل وهو يضغط على يدي:

- عن إذنك ريثما أتناول لقمة ثم أعود للاشتراك في تشييع الجنازة.

رباه، كنت أظن أن الجنازة شُيّعت أمس أو صباح اليوم وانتهى المأزق الحرج، ولكنها لا تزال تنتظر مقدمي وقد أذاعوا النعي في الصحف! أيّ مأزق يتربص بي!... وسألته بصوت منخفض:

- هل قرأت النعي في الأهرام؟

فقال لي بدهشة:

- كلاً، لا أظنه ظهر في الأهرام وإلا لكانا علمنا به في الوزارة، ولكنني أطلعت عليه في البلاغ.

واستخرج الجريدة من تحت إبطه وفتحها ثم أشار إلى عمود وهو يقول: «هاك النعي» وتناولت الجريدة في ارتباك ونجول وجرى بصري على السطور القلائل الآتية: «انتقلت إلى رحمة مولاه كريمة المرحوم الأميرالاي عبدالله بك حسن، والدة مدحت بك رؤية لاه من أعيان الفيوم وكامل أفندي رؤية لاه الموظف بالحريّة وكرم صابر أفندي أمين...»

حملت في وجه صاحبي كالمجنون، ثم أعدت تلاوة

ريثما أبصق على وجهها! وهل أنسى أنني فرحت لموتها فرح حاقده شامت؟... هكذا أنا ولا داعي للخفاء! بيد أنني على حال من السكينة أستطيع معها أن أفز وأن أأمل. ومن عجب أنني على أنانيتي المفرطة لا أبخل على خصمي بالإنصاف والعدل. لا حباً في الإنصاف والعدالة ولكن لأنني ألفت أن أقيم الأعداء للخصم مداراة لعجزي عن الانتقام منه! لذلك تلمست الأعداء لرباب في مأساتها، وقلت لنفسي:

إنني أخطأت في تصديق ما ادّعت من أنها تكره الحب الجنسي، وإنّ عجزي حيالها هو الذي رمى بها إلى أحضان الغواية، وكيف يمكنني أن أشك في أنها أحبّني بإخلاص؟ وهبت على خيالي الذكريات كما تهفو نسائم عطرة على نار مؤججة، ذكريات النظرات المتبادلة، واللقاء الخالد في الترام، وصدودها عن خطيبها الأول وميلها إليّ في سحر هو أبهج ما اقتنيت من تحف السعادة المولّية. كان حباً صادقاً، ولكن عرضت له ربح ثلجية فاقتلعت جذوره وأغاضت منها ماء الحياة.

ألست شريكاً في قتلها؟! ودعوت الله في تلك اللحظة أن يختصر الطريق فيقيم القيامة ويرحم العباد من محنة الحياة، كان حبي سروراً إلهياً ثم مضى خلفاً وراءه مقتناً وغضباً. ولكن هل مضى حقاً؟ هب ما حلّ بي قد تمخّص بمعجزة عن حلم مزعج ولا شيء غير هذا ألا يعود حبي أقوى ممّا كان؟ بلى، فهو موجود إذن تحت ركام البغض والمقت، إنّ العضو الذي يفصل عن الجسد لا يعود إليه أبداً فهو غير موجود حقاً، أما الحب الذي يعود فلا يمكن أن يكون قد ذهب حقاً.

ولكن ما جدوى هذا التفكير الأليم؟! وقطبت كأنما لأخيف الذكريات التي تنثال عليّ. وصممت على الهرب منها ولو بمواجهة المشكلة الخطيرة التي تهرّبت منها منذ حين قصير ألا وهي مشكلة حياتي وماذا أصنع بها. لا ينبغي أن أترك أموري للمقادير. سأجد طريقة للتخلص من أثاث رباب ثم أنتقل إلى حيّ جديد. أأسعى حقاً إلى الانتقال لبلد بعيد؟ لشدّ ما تنازعني نفسي إلى الفرار، بيد أنني أعجز من أن أهجر القاهرة. هذا شعوري ويقيني. فهل أهجر أمي حقاً؟

الليلة البارحة فقرر رأينا على أن نخرج الجنازة اليوم...

وارتعد جسمي المغموم وتمتت في ذهول:  
- منتصف الليلة البارحة؟ ولكني رأيتها نائمة في فراشها هذا الصباح!...

ولاحظ في عيني مدحت نظرة حزينة وقال برثاء:  
- لم تكن نائمة. إنه القلب يا كامل.

تخيلت صورة ما بدا لي في وجهها من قنوط، وأطرافي ترتعش، وأعملت ذاكرتي لأستحضر الصورة كما رأيته، وساءلت نفسي أكان وجه ميت حقاً!...

وخارت قواي، ثم قلت بصوت ضعيف:  
- أريد أن ألقى عليها نظرة الوداع...

فوضع أخي يده على منكمبي وقال:  
- أصبر حتى تتمالك قواك. ثم إنَّ الحجرة ملاءى بالنساء.

ولكني نحيته عن سبيلي وانددت إلى داخل العمارة، وجرى أخي ورائي، فارتقبنا السلم وثباً، ثم مرقت إلى الشقة وأصوات البكاء تملأ أذني، فما راعني إلا أن أجد نفسي محاطاً بالنسوة من جميع الجهات. وزاغ بصري وحلَّ بي إعياء وارتباك، ولكن أدركني أخي فقبض على ذراعي وأجَّهه بي إلى حجرة النوم وهو يقول:

- لا تقاوم... ينبغي أن تخلو إلى نفسك قليلاً... وأجلسني على المقعد الطويل، وأغلق الباب، ثم جلس على حافة الفراش أمامي وقال بحزن:

- ثب إلى رشدك. لا ينبغي أن يغلبنا الحزن كالنساء، أليست هي أمي أيضاً؟ ولكننا رجال...

وراح عقلي يتردد، كبندول الساعة، بين أمرين في تركيز جنوني بين شجار الأسس المشثوم وبين رؤيتي لها هذا الصباح، وعلى حين بغتة وثبت إلى ذهني ذكرى فهتفت بأخي:

- كذب الطبيب!... لم تمت عند منتصف الليل... لقد سمعتها تتناديني وأنا أغادر الشقة...

فلاحت الدهشة في وجهه وسألني:  
- وهل ليبت نداءها؟... هل تحدّثت إليها؟

النعي، وجميع جسمي ينتفض، وصرخت بلا وعي:  
- هذا محال... هذا كذب...

ركضت لا أروي على شيء نحو تاكسي غير بعيد وارغميت داخله وأنا أحت السائق على السرعة. إنه لكذب وافتراء، ولأعلمن جليّة الخبر وعندها أعرف كيف أؤدّب من رامني بهذا العبث السخيف. وانطلق التاكسي يطوي الأرض وعنقي مشربب صوب الطريق، حتى تراءى لعيني سرادق مقام أمام بيتنا، وتنزى قلبي في صدري وارتعشت أطرافي جميعاً، وتوقّف التاكسي فغادرته زائغ البصر، لم أكن حزينا أو متألماً وإنما كنت مجنوناً، ها هو عمي جالساً عند مدخل السرادق، ولهذا أخي مدحت قادماً نحوي. وقد هرعت إليه فاقد الوعي وقبضت على رباط رقبته وصرخت في وجهه:

- كيف تخفون عني الخبر!  
وتخلّص أخي من قبضة يدي بجهد وهو يرمقني بقلق وانزعاج، على حين تدان متاً عمي وهو يقول:  
- أين كنت يا كامل؟ لقد بحثنا عنك في كلّ مكان فلم نعر على أثر...

فرددت بصري بينهما، ثم أقيت على السرادق نظرة غريبة وغمغمت.  
- أحقّ هذا؟

فقال لي عمي:  
- غمالك نفسك وكن رجلاً.

فسألت أخي في همس وإشفاق:  
- ماتت حقاً؟... كيف؟ متى علمتم؟

فقال مدحت في كتابة:  
- تلقّيت برقية في التاسعة صباحاً. هذا قضاء ربنا.

أين كنت؟ لشدّ ما أروعني أن تضطرّ إلى الخروج بالجنازة في غيابك.

فصحت به في غضب:  
- فيم هذه العجلة؟ لماذا لم تؤجّلوا الجنازة إلى غد؟

فقال أخي معترضاً:  
- أكّد الطبيب أنّ الوفاة حصلت عند منتصف

- صدّق يا أخي، إنك إذا لم توطّن نفسك على تصديق هذه المآسي وأمثالها خرجت من الدنيا كما دخلتها غراً جاهلاً. لقد قتلْتُ زوجي أيضًا ولكن كان معي شريك هذه المرة هو عشيقها.  
وضرب مدحت كفاً بكفّ وهتف بي:  
- لا يمكن أن تغادر الحجرة وأنت على هذه الحال...

فهزّزت رأسي في غضب ونهضت قائماً وأنا أقول:  
- هلم بنا.  
ولم أكد أنّ هذه الجملة حتّى غبت عن الوجود...

## ٦٧

لا علم لي بالساعات الطوال التي قضيتها في غيبوبة تامة، ولكن ثمة أوقات أخريات كنت أنحبّط في ظلمات بين الغيبوبة واليقظة. إنَّها دنيا غريبة معتمة، تتوزّعها الأحلام، فكان يداخلني شعور أنّي حيّ، ولكن حيّ كميّة وهنّاً وعجزاً، وكم من مرّة جهدت في شقاء ويأس كي أحرّك عضواً من أعضائي فأعيايني الجهد وسلّمت للضغط الحائق والخوف المبهم، وفي أحوال أخرى عابثني الوهم فخيّل إليّ أنّي غير بعيد من اليقظة، وأنّي أكاد أميّز أصواتاً مألوفة وأرى وجوهاً أعرفها حقّ المعرفة فاستصرختها أن تبرح إلى نجدتي، وناديت أمّي كثيراً حتّى أحقني تقاعدها عنيّ وعجبت له عجباً شديداً، وطافت برأسي المحموم أحلام غريبة، فرأيت فيما يرى النائم أنّي مُتَّطِّب منكب أمّي وأنها تذهب بي وتجيء كما كانت تفعل على عهد طفولتي، ورأيتني حيناً آخر ممسكاً بتلابيب أخي مدحت في نضال عنيف في جوّ صاحب وهو يصيح بي: لا تقتلني، وخيّل إليّ أنّي رأيت أحلاماً كثيرة ولكن ابتلعها الظلمة. وطالت غيبوتي حتّى ظننتها لا تنتهي، ثمّ تفتّحت عيناوي، وعدت إلى نور الدنيا، وتنهّدت من الأعماق. ووقع بصري على مرآة تعكس صورتي، وشعرت بوجود شخص عند رأسي فحرّكت عينيّ نحوه فرأيت أختي راضية جالسة على الفراش ويدها على رأسي، والتقت عينانا فابتسمت أساريرها

فتنهّدت من الأعماق في شقاء عمت وقلت:  
- لم ألبّ نداءها لأنّني كنت ناقماً عليها!... لشدّ ما كنت فظاً غليظاً معها...  
وسادنا صمت وحزن. وكان رأسي يكاد ينفجر من الألم والحُمّى. ثمّ قلت وكأنّني أحدث نفسي:  
- لقد قتلتها ما في ذلك ريب. ربّاه. كيف هان عليّ أن أقول لها ما قلت!  
فرمقني أخي بوجوم، وقال بلهجة تنمّ عن تحذير:  
- إيّاك وأن تستسلم لهذه الأفكار!...  
فقلت بعناد ورأسي يدور جنونياً:  
- لم أعصُ الحقّ في قولي. لقد قتلتها، ألا تفهم؟... إذا أردت أن تستوثق من صحّة قولي فادعُ النيابة والطبيب الشرعيّ...  
فتأوّه مدحت قائلاً فيها يشبه الخوف:  
- أنت تهذي بلا ريب، وإلّا تمالك نفسك فلن أسمح لك بالسير في الجنّازة.  
فندّدت منّي ضحكة باردة وقلت:  
- إنّ أسرّتنا مصابة بداء قتل الوالدين، ولقد حاول والدنا أن يقتل جدّنا فأخفق، وأعدت الكرة على أمنا فنجحت، وهكذا ترى أنّي كنت أعظم توفيقاً من أبي.  
فلاح القلق في وجه الشابّ ونهض قائماً. ثمّ ثبّت عينيه في وجهي وتساءل:  
- ماذا تنوي أن تصنع بنفسك؟... لم يبق إلّا ساعة على تشييع الجنّازة.  
فقلت في دهشة:  
- أسمح بتشيع الجنّازة دون تحقيق؟ يا لك من أخ رحيم! ولكنّ الواجب فوق الأخوة. ادعُ النيابة، وسادلك على الطريق إليها فقد عرفته بنفسه أسس، وقل لو كبل النيابة إنك تدعوه للتحقيق مع الشخص الذي دعاه أسس للتحقيق في مقتل زوجته.  
وبدا أخي كأنّه تذكّر أمراً مزعجاً فصاح:  
- يا له من حدث أليم!... كيف لم تبرق إليّ يا كامل؟ لقد أخبرتني الخادم اليوم فلم أكد أصدّق...  
فقلت فيها يشبه الهديان:

ولاحت في عينيها نظرة إشفاق وغمغمت بصوت حنون:

- كامل...

وحاولت أن ابتسم. وندت عنها تنهدة حارة وتمتمت:

- أشهد أن لا إله إلا الله.

تشهدت بصوت ينم عما برح بها من خوف وعذاب، ووجدتها لا ترفع يدها عن رأسي، ثم شعرت في اللحظة التالية بوجود شيء تحت راحتها، فسألته بصوت ضعيف وقع في أذني كالصغير المكتوم:

- ما هذا الشيء عل رأسي؟

فجاءني صوت آخر يقول:

- كيس تلج يا سيدي..

فالتفتُ إلى الناحية التي جاء منها الصوت فرأيت أخي مدحت جالساً على المقعد الطويل، وأدركت في تلك اللحظة أين أكون، وهجمت على الذكريات التي فررت منها بهذه الغيبوبة الثقيلة، وطالعتني الحياة بوجهها الكالح مرة أخرى، ووقع بصري على المنبه فإذا بعقربه قد جاوز العاشرة بقليل، العاشرة صباحاً كما يدل عليه ضوء النهار. وإذن فقد انقضت الليلة الكئيبة وأنا في نوم عميق! ونظرت إلى أخي بطرف كسير وتساءلت:

- هل شُيعت الجنازة؟

فألقي على نظرة طويلة ثم قال باقتضاب:

- طبعاً..

وصمت ملياً ثم استدرك قائلاً:

- لعلك لا تدري أنك غبت عن الوجود ثلاثة أيام كاملة.

ورنوت إليه بدهشة، ثم أغمضت جفني في ذهول، وتمتمت في حزن بالغ:

- قضى الله بآلأ أشيع لا أمي ولا زوجي إلى

مرقدهما الأخير.

الرهبة غريبة خالية. وشعرت بفراغ خفيف جداً. فقد خلا البيت، وخلت حياتي، وخلت الدنيا جميعاً. وكنت في حياتها أجد طمأنينة راسخة، وأشعر في أعماق قلبي بأنه مهما نكدت الدنيا فلي فيها حجرة دائمة الإشراف بالابتسام والحنان، أما الآن فما أشبهني بقارب تمزقت حبال مراساته في بحر هائج عاصف وحتى شقيقتي التي تحنو علي في مرضي فما أسرع أن تعتذر لي غداً أو بعد غد بيبتها وأولادها وتركني وحيداً. رباه هل خلقت - أنا الطفل المدلل - لمثل هذه الحياة؟!

ونظرت إلى أختي طويلاً في حب وامتنان، وأنعمت النظر في وجهها بشوق لا تدريه مجذوباً إلى مشابه فيه من وجه أمي، فاهتز صدري ودرّ حناناً وحزناً عميقاً. وألقيت على ما حولي نظرة حائرة فوجدت أثاث رباب يحدجني بنظرات غريبة، فقلت في ضيق:

- هيهات أن تطيب لي الإقامة في هذا البيت. سأقيم عندك يا أختاه..

فقالتي أختي بصدق وإخلاص:

- هذا ما كنت عقدت العزم عليه.. أهلاً بك وسهلاً!

وسألته أن تقرب أذنها مني ثم قلت لها بحزن:

- خذيني إلى حجرتها لألقي عليها نظرة..

فأظلمت عيناها واغرورتنا بالدمع، وقالت لي همساً:

- لا يمكن أن تفارق الفراش الآن، ثم إنه لم يعد بالحجرة شيء.

تخيلت الحجرة الخالية، أربعة جدران وسقف وأرضاً. ما أشبهها بحياتي. وتنهدت محزوناً وتمتمت:

- ما أشقاني!

فقالتي راضية برجاء وضراعة:

- هلاً أجلت الحزن حتى تبرأ!!

\*\*\*

ولازمتُ الفراش زهاء شهر، وأقامت راضية عندي أسبوعاً ثم عادت إلى بيتها مضطربة ولكنها دأبت على زيارتي كل يوم عصرًا، ولم تكن تفارقي قبل أن

وتحول بصري إلى أختي فرأيت عينيها مغروقتين بالدموع، فغشيتني كآبة موحشة بدت الحياة خلالها كالمرت. لشد ما بدت لي الحياة في تلك اللحظة

في أذنيّ، وتلك طمأنينة السلام تقرّ في قلبي! كان خيالي نشيطاً ولكنّه كان غادراً في كثير من الأحيان، فلم يكن يصعد بي إلى ذاك المرتقى حتّى يتخلّل عنيّ بغتة فاهوي من علّ، ثمّ أعود إلى قلبي القديم وخوفي المقيم... .

\* \* \*

وفي ذات صباح من أيّام النقاهة الأخيرة جاءني الخادم العجوز وقالت لي:

- جاءت سيّدة تريد مقابلتك وقد أدخلتها حجرة الاستقبال.

فرفعت إليها عينيّ في دهشة وسألتها:

- ألا تعرفينها؟

فهزّت المرأة رأسها قائلة:

- لم أرها يا سيّدي قبل اليوم.

ووثب إلى خاطري طيف فانتفض قلبي الضعيف واشتدّت ضرباته حتّى انبهرت أنفاسي. ربّاه أكون هي حقّاً؟ وهل انتهت الجراحة على اقتحام البيت؟ ألم تقدّر العواقب؟ ونظرت إلى الخادم في حيرة شديدة ثمّ تمتعت:

- ادعِها إلى حجرتي... .

والقيت على المرأة نظرة متفحّصة، ثمّ تناولت المشط ورجّلت شعري على عجل، وفي حياء شديد أنجبه بصري نحو الباب. ترى هل يصدق ظنيّ؟ وكيف غابت عن ذاكرتي طوال العهد كأنّها كانت كامنة في دم الصّحة الذي نضب؟ ثمّ سمعت وقع أقدام تقترب، وأطلّ عليّ وجه القادم يتسم في شوق وإشفاق، فهتفت فيها يشبه الاستغاثة وقد وشى صوتي بما شاع في صدري من الانفعال:

- أنت!... .

يغمض النوم جفنيّ... . وعاد مدحت كذلك إلى الفيوم، ولكنّه كان يمضي عندي نهاية الأسبوع.

ولمّا دخلت طور النقاهة كانت الحمى قد عرّقتني وخلفّتي جلداً على عظم. ولم تكد تبقى ثمة حياة إلّا في خيالي، فازدهرت حيويّته وامتلأ قوّة ونشاطاً فكاد يبلغ حدّ الهوس. ولم يكن شعور الوحشة والخوف ليفارقني ساعة من ساعات اليقظة. فبدت لي الحياة شاقّة مرعبة لا يقبل لي بها، وامتلات أذناي بذلك النداء القديم الذي يهيب بي - عند الشدائد - أن أوتّي فرازاً. ولكن أين المفرّ؟ ليتني أخلق شخصاً جديداً، سليم الجسم والروح، لا يعشّش بأركان نفسه الخوف والجفاء، فالقي بنفسي في خضمّ الحياة الإنسانيّة بلا خجل ولا نفور، أحبّ الناس ومحّبوني، وأعينهم ويعينوني، وآلفهم وبالفونني، وأندمج في كائهم الكبير عضواً عاملاً نافعاً! ولكن أين متّي هذه السعادة؟! وفيهم أعلّل النفس بالأمان الكاذبة؟ لم أخلق لشيء من هذا، وإنّما خلّقت للتصوّف، ومن عجب أن وردت هذه الكلمة على ذهني بغير قصد، لكن سرعان ما تشبّثت بها بدهشة وحيرة... . التصوّف؟ لست أدري ما هو على وجه التحقيق! ولكنّه وحده وعزوف وتفكير وما أحوّجني للوحدة والعزوف والتفكير عجّباً ألم أكن أشكو الوحدة طوال رقادي؟ الحقّ أنّي لم أشكّ الوحدة التي ألفتها العمر كلّه ولكنني استوحشت الوحدة التي خلفتها أمّي. أمّا الوحدة المعهودة فما أشدّ لهفتي إليها؟ ينبغي قبل ذلك أن أظهر جسمي ظاهره وباطنه، ثمّ أكرّس قلبي للسّاء. لقد خلّقت في الواقع متصوّفاً ولكن أضلّتني نوازع الحياة، وتصوّرت نفسي في طهر عجيب، يستحمّ جسدي بماء عطر، وتتسامى روحي في صفاء ونقاء، فلا مشهد أرنو إليه إلّا السّاء ولا خاطر ينبثق في نفسي إلّا الله، وهذه بلابل الجنة تسجع



بِذَلِكَ نَفْخُ الْفُيُوفِ





- ١ -

وعاد الضابط يتبعه الفتى واجمًا، وما إن وقعت عيناه على شقيقه حتى غمغم في دهشة:  
- وأنت أيضًا؟! . ماذا حدث؟!  
وتبدلا نظرة حائرة، ثم تبع الضابط الذي مضى متسمًا حجرة الناظر. وسأله حسين في لهجة رقيقة مؤدبة:

- ما الذي أوجب استدعاءنا من الفصل؟  
فأجاب الضابط بعد تردد قائلًا:  
- ستقابلان حضرة الناظر.

وقطعوا بقية الردهة دون أن ينبس أحدهم بكلمة. وكان الشقيقان متشابهين لدرجة كبيرة، فكلاهما له هذا الوجه المستطيل، وعينان عسلتان واسعتان، وبشرة سمراء ضاربة إلى العمق، إلا أن حسين في التاسعة عشرة، يكبر أخاه بعامين ودونه طولًا، على حين يمتاز حسين بدقة في قسرات وجهه أكسته وضاعة ووسامة. ومضى قلقهما يتزايد وهما يقتربان من حجرة الناظر، وتحاول لعينيهما منظره الصارم في رهبة وخوف. وزرر الضابط سترته، ونقر على الباب، ثم دفعه برقة ودخل وهو يومئ إليهما أن يتبعاه. ودخلا وهما ينظران إلى الرجل وقد انكب على مكتبه في صدر الحجرة يقرأ رسالة بعناية دون أن يرفع بصره نحو القادمين كأنه لم يشعر بحضورهم. وحيّاه الضابط بأدب جم وقال:

- التلميذان حسين كامل علي وحسين كامل علي.  
فرفع الناظر رأسه وهو يطوي الرسالة بيديه، وأطفأ عقب سيجارة في النافضة، وجعل يردد بصره بينهما، ثم تساءل:

- في أي سنة أنتم؟

فقال حسين بصوت متهدج:

- رابعة رابع.

ألقى الضابط نظرة كثيبة على الردهة الطويلة التي تفتح عليها فصول الستين الثالثة والرابعة، وقد شمل المدرسة - التوفيقية - سكون عميق، ثم مضى إلى فصل من فصول السنة الثالثة، ونقر على الباب مستأذنًا، ودخل متجهًا صوب المدرس وأسر في أذنه بضغ كلمات، فسدد المدرس بصره صوب تلميذ يجلس في الصف الثاني وناداه قائلًا:

- حسين كامل علي.

فقام التلميذ وهو يردد بين المدرس والضابط نظرة مليئة بالترقب والقلق، وغمغم:

- أفندم؟

فقال المدرس:

- اذهب مع حضرة الضابط.

فخرج التلميذ عن قِمَطَره، وتبع الضابط الذي غادر الفصل في خطوات بطيئة. ولم يطمئن قلبه لهذه الدعوة، وراح يسائل نفسه: ترى أجاءت بسبب المظاهرات الأخيرة؟ وكان قد اشترك في المظاهرات، وهتف مع الهاتفين: «ليسقط تصريح هور» و«ليسقط هور ابن الثور»، وقد ظن أنه نجا من الرصاص والعصي والعقوبات المدرسية جميعًا، فهل كان مغاليًا في ظنه؟ وسار وراء الضابط في الردهة الطويلة متفكرًا، يتوقع بين لحظة وأخرى أن يجبهه بما عنده من تهم، ولكن قطع عليه تفكيره وقوف الرجل حيال فصل من فصول السنة الرابعة ودخوله مستأذنًا، ثم بلغ مسمعه صوت المدرس وهو ينادي قائلًا:

- حسين كامل علي.

شقيقه أيضًا؟! ولكن كيف يمكن أن توجه إليه تهمة من هذه التهم وهو لا يشترك في المظاهرات بتاتًا؟!

وقال حسنين:

- الثالثة ثالث.

فنظر إليهما ملياً ثم قال:

- أرجو أن تكونا رجلين كما ينبغي. لقد توفي والدكما كما أبلغني أخوكما الأكبر والبقية في حياتكما..

ووجها في ذهول وانزعاج، وهتف حسنين وهو لا يدري قائلاً:

- توفي أبي!.. مستحيل!

وغمغم حسين وكأنه يحدث نفسه:

- كيف؟ لقد تركناه منذ ساعتين في صحة جيدة وهو يتأهب للخروج إلى الوزارة..

فصمت الناظر قليلاً ثم سألها برقة:

- ماذا يعمل أخوكما الأكبر؟

فقال حسين بعقل غائب:

- لا شيء..

فتساءل الرجل:

- أليس لكما أخ آخر موظف أو شيء من هذا القبيل؟

فهزّ حسين رأسه قائلاً:

- كلا..

فقال الرجل:

- أرجو أن تتحملاً الصدمة بقلوب الرجال، واذها الآن إلى البيت كان الله في عونكما..

- ٢ -

وغادرا المدرسة إلى شارع شبرا يلتمسان طريقهما خلل الدموع. وكان حسنين أسرعهما إلى البكاء فأراد حسين أن ينهره في حال عصبية ولكن أفحمه البكاء واختنق صوته فلم ينبس بكلمة. وعبرا الطريق إلى الجانب الآخر، وحثاً خطواتهما قاصدين عطفة نصرالله على مسيرة دقائق من المدرسة. وتساءل حسنين وهو ينظر إلى شقيقه كالمستغيث:

- كيف مات؟

فهزّ حسين رأسه واجماً وتمتم:

- لا أدري. لا أستطيع أن أتصور. لقد تناول

فطوره معنا، وتركناه في صحة جيدة. لا أدري كيف وقع لهذا..

وحاول حسنين أن يتذكر الصباح القريب بتفاصيله فذكر أنه رأى أباه أول ما رآه وهو عائد من المرافق فحيّاه كعادته قائلاً «صباح الخير يا بابا» فأجابه مبتسماً: «صباح الخير، ألم يستيقظ أخوك؟» واجتمعوا بعد ذلك حول المائدة، فدعا الرجل الأم إلى مشاركتهم الطعام فاعتذرت بأن نفسها مصدودة، فتذمّر الرجل قائلاً: «إذا جلست معنا انفتحت نفسك» ولكنها أصرت على الاعتذار، فقال بعدم اكتراث وهو يقشر بيضة: «على كيفك». لا يذكر أنه سمعه يتكلم بعد ذلك، اللهم إلا نحنة مقتضبة. وكان آخر ما رآه منه ظهره وهو يدخل حجرته مخففاً يديه في منشفته. ثم انتهى، انتهى، أبشع بها من كلمة! واسترق إلى حسين نظرة مروعة فوجده محزوناً واجماً كأنما كبر وشاخ، وعاد إلى ذكرياته وهو يكابد لوعة حارة: لا أصدق أنه مات، لا أستطيع أن أصدق. ما هو الموت؟ لا أستطيع أن أصدق. انتهى؟ لو كنت أعلم أنّ هذا آخر ما بقي لنا من عمره ما غادرت البيت. من أين لي أن أعلم؟ أيموت الإنسان وهو يأكل ويضحك؟ لا أصدق. لا أستطيع أن أصدق. وانتبه على أخيه وهو يجذبه من ذراعه إلى عطفة نصرالله التي كاد يفوتها في ذهوله. وسارا في طريقها الضيق تصطف على جانبيه البيوت القديمة والحوانيت الصغيرة إلى ما يعترضها من عربات الغاز والخضر والفاكهة. وسبقها البصر إلى عمارتهما ذات الأدوار الثلاثة والفناء المستطيل التراب، ثم ترامى إلى أذنيهما الصوات فتبيننا صوتي أمهما وأختها الكبرى وهزّهما حتى الأعماق فأجهشا في البكاء، وجريا لا يلبيان على شيء، وارتقيا السلم مهرولين إلى الدور الثاني فوجدوا باب الشقة مفتوحاً فتدافعا إلى الداخل، وقطعا الصالة إلى حجرة الأب في نهايتها ثم دخلا وهما يلهثان. وثبتت عيناهما على الفراش وقد وشى الغطاء بالجسم الممدّد تحته، ثم اقتربا من حافته وارتقيا عليها وأغرقا في نشيج حار. وكفّت الأم والأخت عن الصوات على حين غادرت الحجرة امرأتان غريبتان.

تغيّرًا شاملاً لا يدرى به، ولكنّها وجداهما كالعهد بها لم يتغيّر منها شيء. هُذا الفراش على يمين الداخل، والصوان في الصدر يليه المشجب، وإلى اليسار الكنية التي ارتمت عليها الأخت وقد أسند إلى حافتها عود انغرس ريشته بين أوتاره، وثبتت عينهما على العود في دهشة ممزوجة بالحزن. طالما لعبت أنامل الراحل بهذه الأوتار، وطالما التفت حولها الأصدقاء مُطربين يستعيدون ويعيد، فما أعجب ما بين الطرب والحزن من خيط رقيق، أرقّ من هذا الوتر. ثم مرّ بصرهما الحائر بساعة الراحل على خوان غير بعيد من الفراش، لا تزال تدور باعثة دقّات الهامسة، ولعلّ الراحل قرأ فيها آخر تاريخ له في الدنيا وأول عهدهما باليتيم. وهذا قميصه على المشجب وقد لاحت آثار عرقه ببنيقته، فرونوا إليها بحنان عميق، وقد بدا لها في تلك اللحظة أنّ عرق الإنسان أشدّ ثباتاً من حياته العظيمة. وليّت الأم تنظر إليهما في صمت. لم تجر لها خواطرهما على بالٍ ولكنّها كانت تدرك من هول الكارثة ما لم يدرّ بخلد. ونذت من حسنين تبهّدة حارّة لفتت إليه شقيقه فوضع يده على كتفه وهمس في أذنه:

- هلمّ بنا.

وألقي الشابان نظرة أحيرة على الجثمان المسجّى وهما يعتقدان - بحكم العادة المتوارثة - أنّ عيني أبيهما تريانهما رغم الموت فلم يولياه ظهرهما أن يسيء إعراضهما إلى شعوره، وبعثا إليه بتحيّة قلبية وتقهرقا إلى الباب ثم غادرا الحجرة. ولاحق من حسنين نظرة إلى أخيه فطالع في وجهه حزناً عميقاً مؤثراً فحقق قلبه وأحسّ نحوه بالعطف، كما أحسّ بحاجته الشديدة إلى عطفه.

- ٣ -

وغادر الشقيقان الشقّة إلى باب العبارة حيث اصطفت بعض الكراسي فوجدا أخاهما الأكبر - حسن - جالساً في صمت وكآبة. وجلسا إلى جانبه يشاركانه صمته وكآبته. لم يكن لديهما فكرة عمّا ينبغي عمله، أمّا حسن فكان ذا تجارب كثيرة. وكان يشبه أخويه إلى حدّ كبير بيد أنّه اختلف عنها في نظرة عينيه التي تنمّ

وأرادت الأم أن تتركها بنفسان عن صدرهما فتهاست واقفة في جلبابها الأسود وقد احترت عينها وانتفخ خدّها وأنفها، أمّا الأخت فقد ارتمت على كنية وأخفت وجهها في مسندها وراح جسمها ينتفض من البكاء. وكان حسين يبكي ولسانه يتلو بطريقة آليّة بعض السور الصغيرة استنزاً للرحمة. وكان حسنين يبكي في جوّ من الخوف والذهول والإنكار. وقف حيال الموت محتجاً نائراً ولكن في نفس الوقت خائفاً يائساً. «ليس هذا بأبي. لا يمكن أن يسمع أبي هذا البكاء كلّ دون أن يتحرّك. ربّاه لماذا يجمد هكذا؟ إثمهم يبيكون ولكن في تسليم من لا حيلة له. لم أكن لأتصوّر هذا، ولا أتصوّر. ألم أزه يمشي في هذه الحجرة منذ ساعتين؟ ليس هذا أبي. وليست هذه حياة». وبدأ الانتظار وكأنّ لا نهاية له، فاقتربت الأم من الشابين ومالت نحوهما قائلة:

- حسيكما. قم يا حسين خذ أخاك خارجاً.

وأعادت القول حتّى قام حسين وأنض أخاه ولكنّها لم يغادرا الحجرة، وقفا يلقيان على الجثث المسجّى نظرة طويلة غائمة بالدموع. ولم يستطع حسين أن يقاوم رغبة حارّة غامضة فانحنى على الجثمان وكشف الغطاء عن وجهه دون مبالاة بالحركة التي بدرت من أمه، فطالعه الوجه الغريب موسوماً بميسم الفناء، تشويه زرقه مروّعة، ويرين على صفحته سكون غير دينويّ، في عمق العدم ولانهايته، فسرت رجفة في أوصاله. لم يكن أحد منهما قد رأى ميتاً قبل هذه المرّة فركبهما الخوف والأسى. ونفذ إلى أعماقهما حزن قهّار إلى حيث لم تنفذ عاطفة من قبل. ومال حسين نحو الميت ولثم جبينه فعادته الرجفة. ومال حسنين نحوه كذلك ولثم جبينه في شبه غيبوبة. وأعادت الأم الغطاء على الرأس الفاني، وحالت بينها وبين الفراش، ثم قالت لها بلهجة حازمة:

- اخرجي.

فتراجعا خطوتين، وتولّى حسنين عناد طارئ فتوقّف، وتشجّع به حسين فتوقّف كذلك. وجال بصرهما بالحجرة فيها يشبه الدهول، وكأتهما كانا يتوقّعان

وقعت من هذين الطفلين الكبيرين فكيف تنقصه  
دواعي الحزن والأسف؟! واختلس من الوجوهين  
المحزونين نظرة سريعة من عينيه البرّاقتين ثمّ عضّ  
شفتيه. كان يحبّها على رغم الظروف التي تدعوه إلى  
الحقد عليهما وفي مقدّمتها جميعاً نجاح حياتهما المدرسيّة  
وتمتّعها بعطف أبيه. ولكنّه لم يكن يرى في المدرسة  
ميزة يحسد عليها أحد، ومن ناحية أخرى كان مقتنعاً  
بأنّ أباه يحبّه كشقيقه وإن ران على حبّه السخط  
والغضب، وأهمّ من هذا كلّهُ أنّ الشعور برابطة  
الأسرة كان ولا يزال قوياً في آل كامل بفضل الأمّ قبل  
كلّ شيء.

وعند الضحى أقبل عليهم رجل وامرأة في ثياب  
رفيّة فعرفوا فيها خالتهن وزوجها عمّ فرج سليمان،  
وقد عزّاهم الرجل وشاركهم جلستهم، على حين  
هرولت الحالة إلى الداخل وهي تصرخ «يا خراب  
بيتك يا اختي» فدوّت العبارة في آذانهم دويّاً مفعجاً  
وعاود الشائين البكاء. وراح عمّ فرج سليمان يحادث  
حسن بيّن خلا الشقيقان إلى نفسيهما في صمت طويل.  
والتقت أفكارهما وهما لا يدریان في مصير أبيهما بعد  
الموت. وكان حسين راسخ العقيدة عن وراثته وبعض  
العلم فلم يداخله شكّ في النهاية، وسأل الله بقلبه أن  
يلقى أباه في ذلك اليوم البعيد وهما على أحسن حال  
من رضوان الله. وأما حسنين فكان في حيرة من كرب  
الموت لا يدع للعقل راحة للتأمّل والتفكير. وكان يسلم  
بالإيمان تسليماً وراثياً لا شأن فيه للفكر، وقد حملته أمّه  
يوماً على أداء الفرائض فأذاها دون وعي، ثمّ هجرها  
في شيء من التردّد دون تكذيب أو زيف. ولم تتسلط  
العقيدة على فكره. ولم تشغل باله كثيراً، ولكنّه لم يجد  
نفسه خارجاً على حقائقها قطّ. وقد دفعه الموت إلى  
التفكير ولكنّه لم يطلّ به، وسرعان ما عاوده التسليم  
تؤيده هذه المرّة عاطفة حادة: «هل الموت هو النهاية؟  
ألا يبقى من أبي إلّا التراب ولا شيء وراء هذا؟ معاذ  
الله. لن يكون هذا. إنّ كلام الله لا يكذب». ولبث  
حسن وحده لا يشغله شيء من هذه الأفكار ولم يستطع  
الموت نفسه أن يدعوها إلى رأسه، كأنه كان وثيقاً

عن جرأة واستهتار، فضلاً عن أنّ طريقته في ترجيل  
شعره الكثيف المنفوخ، ولبس البدلة، دلّت على عنايته  
بنفسه من ناحية، وعلى قدر غير قليل من الابتذال من  
ناحية أخرى. كان حسن يعلم بما ينبغي عمله ولكنّه لم  
يبد حراكاً لأنّه كان ينتظر مقدم شخص هامّ. وقد  
سأله حسين بتأثر:

.. كيف مات والدنا؟

فأجاب قائلاً وهو يقطب:

.. مات فجأة فأذهلنا جميعاً. كان يرتدي ملابسه  
وكنّت جالساً في الصالة فما أدري إلّا ووالدنا تناديني  
بفزع، فهرعت إلى الحجرة، فوجدته ملقى على الكنبه  
وصدره يعلو وينخفض. وجعل يومئ في ألم إلى صدره  
وقلبه فحملناه إلى الفراش، وقدّمنا له كوب ماء ولكنّه  
لم يستطع أن يشرب. ثمّ غادرت الحجرة مسرعاً  
لاستدعاء طبيب، ولكنّي لم أكد أبلغ الفناء حتّى صكّ  
مسمعي صوات حادّ فعدت فزعاً، ووجدت أنّ كلّ  
شيء انتهى..

ورأى وجهي شقيقه يتقلّصان من الألم فازداد وجهه  
كآبة. كان يشعر بحرج شديد جعله يتوجّس خيفة من  
شقيقه أن يظنّوا بحزنه الظنون. كانا يعلمان بطبيعة  
الحال بما كان يقع بينه وبين والديه من شقاق وملاحاة  
بسبب حياته المضطربة المستهترّة؛ فخاف أن يحسباه  
دونها حزناً وأسناً. والحقّ أنّه يجد لوعة الحزن  
والأسى. والحقّ أنّه لم يغيض أباه قطّ على رغم ما  
كان. وإذا لم يكن حزنه كحزنها فمرجع هذا إلى تقدّمه  
عنها في السنّ - كان في الخامسة والعشرين - وإلى  
تمرّسه بالحياة حلوها ومرّها، ومرّها على الأكثر، الأمر  
الذي يلفظ عادة من مرارة الموت. حقّاً كان قلبه  
يحذّره بأنّه لن يجد بعد اليوم من يصرخ في وجهه  
قائلاً: «لا أستطيع أن أعول رجلاً خائباً مثلك إلى  
الأبد، فيما دمت قد نبذت الحياة المدرسيّة فشوّ سبيلك  
بنفسك ولا تلقِ بنفسك عليّ». حقّاً لن يجد من يقول  
له هذا بعد اليوم، ولكنّه لن يجد كذلك من يؤويه إذا  
ضاق به السبل وكثيراً ما تضيق به حتّى لا يوجد بها  
منفذ لأمل. إنّهُ أعظم إدراكاً لحقيقة الكارثة التي

عمّ جابر سليمان البقال بخير منه، والخلّاق أدهى وأمرّ، ونفر غيرهم غياهم أشرف من حضورهم. وانقبض صدره وغشيه كدر عميق. ولكنّه كان قليل الصبر فما وافت الساعة الرابعة حتّى تدفقت جماعات الموظّفين حتّى سدّوا عطفة نصرالله سدّا. وردّت إليه الروح فعاد إلى حزنه خالصًا من القلق. ثمّ حدث ما لم يدّر له في حسابان، فجاءت سيّارة فخمة تنطق بالعزّ والجاء، ووقفت على بعد يسير من البيت وغادها ساعٍ ففتح بابها ثمّ نزل منها رجل ينمّ مظهره على الألقاب والرتب. وتقدّم بجسمه الطويل العريض الذي عقدت عليه الخمسون هالة من وقار فهرج إليه الإخوة بأدب، واندسّ بينهم فريد أفندي محمّد ليحظى باستقبال الشخصية الممتازة التي ينبغي أن يقدرها - كموظّف - أكثر من سواه، وتساءل القادم في صوت منخفض:

- أليس هذا بيت المرحوم كامل أفندي عليّ؟

فبادره فريد أفندي قائلاً باحترام:

- بلى يا سعادة البك..

ولم يجدوا ما يقدمونه له إلّا كرسيًا خيزرانيًا على قارعة الطريق فشعروا بحرج غير قليل. وكان حسنين قد امتلأ ارتياحًا لمقدمه ولكنّه وجد ضيقًا لسؤاله عن بيت المرحوم ممّا دلّ على أنّه لم يعرف البيت، واقترب من أخيه حسن يسأله:

- من يكون هذا الرجل؟

فقال حسن:

- أحمد بك يسري، مفتش عظيم بالداخلية،

وصديق حميم للمرحوم..

فسأله بغرابة:

- لماذا سأل عن البيت كأنّه لا يعرفه؟

فحدّثه حسن بنظرة غريبة وقال:

- كان والدنا كثير التردّد على بيته، أمّا هو.. إلنه رجل عظيم كما ترى..!

وصمت الشاب لحظة ثمّ استدار قائلاً:

- كان المرحوم يحبه ويعدّه أعزّ صديق.

وتناسى حسنين هذا، ولم يشأ أن يفسد على نفسه

بالفطرة. والحقيقة أنّه لم يتأثر بأيّ نوع من التربية أو التهذيب. كان ابن الشارع كما كان يدعوه أبوه في ساعات الغضب. وقد طُبع على العبت فلم يعد قلبه تربة صالحة لبذور العقيدة، وما انفكّ يتخذ منها مادة لمزاحه ودعابته، وحتّى الأثر الخفيف الذي علق بقلبه من وحي أمّه ضاع في خضمّ الحياة التي اكتوى بناها. لذلك تاه به الفكر في ديان بعيدة عن الأبدية تتركّز حول هذه الحياة وحظّه وحظّ أسرته منها. بيد أنّه لم يطل به المكث مع شقيقه وزوج خالته فقد تراءى عن بُعد رجل يهول قادمًا ما إن وقع بصر حسن عليه حتّى قال بارتياح كأنّه كان ينتظره:

- فريد أفندي محمّد!

وكان القادم يحفّف جبينه بمندبل على رغم لطافة الجوّ الخريفيّ، ولكنّه كان بدنيًا مفرطًا في البدانة، ذا كرش عظيمة، ووجه مستدير مكتنز لاحت فيه قسامته دقيقة صغيرة، على أنّ بدانته وكهولته وأناقته أيضًا أضفت عليه وقارًا ممّا يعزّز به موظّفو الحكومة والكتبة منهم خاصّة. وعلقت به أعين الإخوة برجاء يستحقّه من كان جازًا مثله وصديقًا قديمًا لأبيهم، وأقبل الرجل عليهم معزّيًا. ثمّ خاطب حسن قائلاً:

- طلبت إجازة اليوم من الوزارة. هلّم بنا إلى ديوان المرحوم لصرف الدفنة ثمّ لابتياح اللوازم الضرورية. وجعل يسأل عمّا كان وصّاه به قبل ذهابه إلى الوزارة من إجراءات تستدعيها الوفاة، ثمّ تأبّط ذراعه وذهبا معًا..

- ٤ -

وعند اقتراب موعد الجنازة بلغ الاضطراب بحسنيين مداه، اضطراب من نوع جديد كان يشغله عن الحزن نفسه. كان يرجو لأبيه جنازة رائعة تليق بمقامه وبمكانته هو التي يحبّ أن يظهر بها أمام الناس. لم يكن أخواه ليكرثوا كثيرًا لهذا الأمر، أمّا هو فكان يعدّ إخفاق الجنازة كارثة كالموت نفسه، غضبًا لأبيه الذي يحبه، ولنفسه هو. ولقّب عينيه فيمن تجمّع من المشيعين فلم يرَ أحدًا يملأ العين إلّا جارههم الكريم فريد أفندي محمّد، أمّا زوج خالته فكان في حكم العمّال، وليس

بإنكار وأسف. ثم نظرت الأم إلى الأبناء وقالت:  
- قوموا للنوم..

وأذعنوا لمشيئتها بلا اعتراض بعد يوم شاقّ أليم،  
ومضوا إلى حجرتهم. وكان بالحجرة ثلاثة أسرة صغيرة  
فاخلوا واحدًا لزوج خالتهم الذي لحق بهم على الأثر،  
وشارك حسنين حسين في فراشه. ولكنهم لم يستسلموا  
للنوم، أو تأبى النوم عليهم، فراحوا يتحدثون عن  
أبيهم بحزن وحنان، ويذكرون أيامه الأخيرة، وميته  
المفاجئة. ثم قال حسنين:

- كانت جنازته تليق بمقامه حقًا..

فقال عمّ فرج سليمان مؤتمنًا على قوله:

- كان رحمه الله رحمة واسعة رجلًا عظيمًا، فلا  
عجب أن تكون جنازته عظيمة مثله. ولقد امتلأت  
عطفة نصر الله بالمشيعين من البيت إلى شارع شبرا..  
ولم يرتع حسنين لصوت الرجل، وكان يشعر  
لوجوده بضييق، ثم ذكر حانقًا أنه رأى القبر العاري،  
فقال:

- العجيب أنّ والدنا وقد أفنى مالا كثيرًا لم يفكر في  
بناء مقبرة تليق بالأسرة.

- هل كان يظنّ أنه سيهلك في مثل هذه السن؟ إنّ  
والدك في الخمسين. وعندنا في الريف كثيرون  
يتزوجون للمرة الثانية أو الثالثة في هذه السن.

وصمت الرجل مليًا ثم استدار قائلًا:

- ولا تنس أنّ والدك قد هاجر مع جدّته من دمياط  
إلى القاهرة وهو في مثل سنّك يا سيّ حسنين، فلست  
من أهل القاهرة الذين يتوارثون المقابر جيلاً بعد  
جيل.

فقال حسنين بامتعاض:

- حقًا لسنّا من أهل القاهرة وإن كانت أسبابنا بالنا  
في دمياط قد انقطعت.

وذكر في حزن أنّه لا يعرف لنفسه أقارب غير خالته  
هذه، وسيبقى هذا القبر المغمور في العراء رمزًا  
لضيقهم المخجل في هذه المدينة الكبيرة. وازداد ضيقًا  
بوجود هذا الرجل الذي احتلّ فراشه. فآثر الصمت  
حتى يقطع عليه سبيل الكلام. وساد الصمت حتى

زهوها، وودّ لو يراه - ذلك الفتش - المشيعون جميعًا.  
ثم حلت اللحظة المفجعة فخرج النعش من البيت  
وعلا الصوات من الشرفة والنوافذ. انتظمت الجنازة  
بالمشيعين جميعًا يتقدمهم النعش. وعلقت أعين  
الشقيقين بالنعش في ذهول وإنكار، وتساقط دمعهما  
طوال الطريق. وبلغوا المسجد وأخذوا في توديع  
المشيعين وشكرهم. وأظهر البعض استعدادًا لمرافقة  
النعش حتى مستقرّه الأخير، ولكنّ حسنين همس في  
أذن أخيه الأكبر قائلًا:

- لا تسمح لأحد بالذهاب معها كلّفك الأمر.

كان حريصًا على ألاّ تقع عين على القبر حفظًا  
لكرامة الأسرة. ووقّفوا إلى صرف المشيعين، وركبوا  
سيارة الموتى وليس في ركبهم إلّا عمّ فرج سليمان  
وفريد أفندي محمد الذي أبى الرجوع إباء لم ينفع فيه  
الرجاء. وانطلقت السيارة بهم إلى باب النصر،  
ووقفت بهم ناحية قامت بها القبور في العراء ثم ووريّ  
جثمان كامل أفندي في قبر غير بعيد من الطريق الملتوي  
الذي يشقّ المدافن كأنه من قبور الصدقة. ووقف  
حسنين غارقًا في الحزن والبكاء، ولكنّه على حزنه كان  
يسترق النظرات إلى فريد أفندي محمد في خجل  
واستياء «لو علم التلاميذ بالوفاة لجاءوا معزّين،  
ولرافقي بعضهم حتّى إلى هذا القبر. الحمد لله الذي  
لا يحمّد على مكروه سواه. لا مقبرة ولا يمزنون. لماذا  
لم يبنِ والدنا مقبرة تليق بأسرتنا؟».

- ٥ -

انتصف الليل أو كاد، وخلت الشقّة إلّا من أهلها.  
وأوت الأسرة إلى الصالة ومعهم الخالة وزوجها.  
وراحت الأمّ تعيد قصّة الوفاة للمرة العشرين في ذلك  
اليوم الحزين، وأنصت إليها حسين وحسنين باهتمام،  
على حين وجم حسن متفكرًا.

وتحدّث حسنين عن أحمد بك يسري متحاشيًا مسألة  
جهله للبيت لوجود خالته وزوجها من ناحية، ولأنّه لم  
يكن يحبّ أن يذكرها من ناحية أخرى. وكان شعور  
العطف نحو والده يملأ عليه نفسه فجعل يرنو إلى باب  
حجرته المغلقة بطرف حزين، ويتخيّل فراشه الخالي

وجدت في محفظته جنينين وسبعين قرشاً هي كلّ ما تملك من نقود حتى تتنظم الأمور؟ ورنّا بصرها إلى حجرة الأبناء في سهوم. اثنان في المدرسة، معفّان من المصاريف حقاً، ولكن هيهات أن يغني هذا عنهما شيئاً. أمّا الثالث ففي حكم الصعاليك! وتهدّت من الأعماق. ثمّ حوّلت عينيها إلى نفيسة فتقطع قلبها ألماً. فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها بلا مال ولا جمال ولا أب. وهذه هي الأسرة التي باتت مسئولة عنها بلا معين. بيد أنّها لم تكن من النساء اللاتي يفضضن همومهنّ بالدموع. وإنّ حياتها الماضية وإن أمست حلماً سعيداً مولياً إلا أنّها لم تكن سيرة خصوصاً في مطلعها حين كان المرحوم موظفاً صغيراً ذا جنبيات معدودات، وقد علّمتها الصبر والجلد والكفاح. كانت دائماً قويّة، وكانت محور البيت الأول، بل كانت على الأرجح تقوم بدور الأب، على حين كان المرحوم أدنى إلى حنان الآهات وضعفهنّ. والأبناء أنفسهم مثال حيّ على التباين بين الأب والأمّ، فكان حسن شاهداً تعيشاً على رخاوة الأب وتدليله، وكان حسين وحسين شاهدين على حزم الأمّ وحسن تربيتها. أجل كانت أرملة قويّة، ولكنّها لم تملك في تلك اللحظة من الليل إلاّ اجترار الحزن والقلق..

- ٦ -

في مساء اليوم التالي لم يبق في الدار أحد غير أهلها. وقد كُوم أثاث حجرة الراحل في ركن منها وأغلق بابها. واجتمع الأبناء حول أمهم وهم يشعرون بأنّه آن لهم أن يسمعوها. وكانت الأمّ تعلم بأنّه ينبغي لها أن تتكلّم. ولم يختلط عليها الأمر فيما يجب قوله، فقد كانت فكّرت فأطالت التفكير، ولعلّه لم يكن يغيّر شيء مثل هذا التناقض بين ظاهرها الدالّ على الحزم والقوّة، وباطنها الذي يندى رحمة وعطفاً على أسرمتها البائسة. وخفضت عينيها متحامية النظرات المصوّبة نحوها وقالت:

- مصيبتنا فادحة، ليس لنا إلاّ الله، والله لا ينسى عباده.

لم يكن بوسعها أن تتساءل «ما عسى أن نفعل؟»،

رُتقَ النوم بأجفانهم. وفي الصالة لم تبارح الأمّ وأختها وابنتها مجلسهنّ، ولم يتعبن من الحديث عن الفقيد العزيز. وكان الشعور بالفاجعة هنا أعمق من الحجرة الأخرى. وقد ارتسمت أماراته على وجه الأمّ النحيل البضاويّ وعينيها المتهبتين. وكانت بأنفها القصير الغليظ وذقنها المدبّب وجسمها النحيل القصير توحى بأنّها وهبت الأسرة خير ما فيها، فلم يبق من حيويّتها إلاّ نظرة قويّة تنمّ عن الصبر والعزم.

وكان التغيّر الطارئ عليها من العمق بحيث يتعدّر تصوّر ما كانت عليه أيام شبابه، إلاّ أنّ ابنتها نفيسة كانت تعيد حياتها وصورتها بدقّة كبيرة. كان لها هذا الوجه البضاويّ النحيل والأنف القصير الغليظ والذقن المدبّب، إلى شحوب في البشرة، واحديداب قليل في أعلى الظهر، فلم تكن تختلف عن أمّها إلاّ في طولها المائل لطول شقيقها حسنين. كانت بعيدة عن الوسامة وأدنى إلى الدمامة، وكان من سوء الحظّ أن خلقت على مثال أمّها، على حين ورث الإخوة خلقة أبيهم. وكان الحزن قد أتى عليها فبدت في صورة بشعة واستغرقت فكرها ذكريات والدها الحبيب. أمّا الأمّ فعلى حزنها الشديد دارت برأسها خواطر أخرى. كان يداخلها نحو أختها شعور بعدم الارتياح. ولم تستطع أن تنسى أنّها كانت تنعّص عليها حياتها، وأنّها كان يحلو لها كثيراً أن تقارن بين حظّيهما فتقول: إنّ أختها تزوّجت من موظّف أمّا زوجها هي فعامل في محليّ قطن، وإنّ أختها تقيم في القاهرة وهي مقضيّة عليها بالحياة في الريف، وإنّ أبناء أختها تلاميذ وأبناءها هي لا حظّ لهم إلاّ حظّ العمّال، وإنّ تكرار أختها لا ينضب معينه أمّا بيتها فلا يعرف السعة إلاّ في المواسم. لعلّها لا تجد الآن ما تحسدها عليه. وامتلات نفسها امتعاضاً إلى ما بها من حزن. إنّها تدرك من هول الكارثة ما لا يدركه أحد. انتهى زوجها، وإنّها لتتلفّ بمنّة ويسرة فلا تجد أحداً تعرفه إلاّ هذه الأخت التي لا يُعقد بها رجاء. لا قريب ولا نسيب. ولم يتخلّف الراحل شيئاً. وهيهات أن تأمل في معاش مناسب وقد كان مرتّبها كلّهُ يُستنفد في ضرورات الأسرة. وقد

وهيئات أن تنتظر جواباً من أحد من المحيطين بها، حتى كبيرهم حسن. وليس في الدنيا أحد تستطيع أن تلقي إليه بهذه الاستعانة فتشرکه في بعض همها. شعرت بالخلاء يكتنفها، ولكنها أبت أن تستسلم لليأس، واستدارت تقول:

- ليس لنا من قريب نعتمد عليه. وقد رحل العزيز الغالي دون أن يترك شيئاً إلّا معاشه، ولا شك أنه دون المرتب الذي كان لا يكاد يكفيننا. فالحياة تبدو كالحاة الوجه، ولكن الله لا ينسى عباده. وكم من أسرة مثلنا صبرت حتى أخذ الله بيدها فشقت طريقها إلى بر الأمان..

واختنق صوت نفيسة بالبكاء وهي تقول:

- لا أحد يموت جوعاً في هذه الدنيا، وسأخذ الله بيدنا، أما المصيبة التي تجلّ عن العزاء فهي موته هو. أسفي عليك يا بابا.

ولم تحدث هذه الدموع أثراً عميقاً لأنّ كلام الأم أندر بأمور خطيرة استأثرت بعجل اهتمامهم، فثبتت أعينهم على أمهم التي عادت تقول:

- لا يجوز إذن أن نياس من رحمة الله، ولكن ينبغي أن نعرف رأسنا من قدمنا وإلّا هلكنا، وأن نوطن نفوسنا على تحمل ما قدّر لنا من حظّ بصبر وكرامة، وربنا معنا.

وأحسّت بأنّ معين الكلام العام قد نفذ، وأنه ينبغي أن تخاطب الأبناء، كلّ بما يعنيه، ورأت عن حكمة أن تبدأ بمن هو أقلّ خطورة، تمهّد به لمن هو أشدّ خطورة، فنظرت صوب حسين وحسين، وقالت بصوت هادئ أن تكشف عمّا لحق قلبها من تأثر:

- لن يكون في الإيمان إعطاؤكم أيّ مصروف يوميّ، ومن حسن الحظّ أنّ المصروف ينفق عادة في وجوه تافهة..

وجوه تافهة! اشترك نادي الكرة، السينما، الروايات. أهذه وجوه تافهة؟! وقد تلقى حسين الحكم في وجوم، وتاه عقله متخيلاً الحياة بلا مصروف، ولكن دون أن ينبس بكلمة. أمّا حسين فقد انقضّ الحكم عليه كالصاعقة، وسرعان ما قال

معتزلاً، وبلا وعي تقريباً:

- كلّ المصروف؟! ولا ملّيم؟!

فحدجته أمه بنظرة طويلة ثم قالت بحزم:

- ولا ملّيم..

أحزنها اعتراضه، ولكنها رحبت به لأنه أتاح لها أن تؤكد قولها بما لا يدع سبيلاً إلى الشكّ فيه، ولكي يسمعه شخص آخر تحشى متاعبه أكثر من شقيقه. وفتح حسين شفّته، وهمهم دون أن يبيّن، ثم قال بصوت منخفض:

- سنكون التلميذين الوحيدين اللذين تخلو جيوبهما من مصروف..

فالت أمه بحدة:

- إنك واهم، المصائب كثيرة، والتلاميذ المصابون لا حصر لهم.. ولو أنك فتشت جيوب التلاميذ جميعاً لوجدت أكثرها فارغاً. وهبكم الوحيدين الفقيرين فما في هذا من عيب، ولست المسئولة عمّا وقع..

ولاذ حسين بالصمت متذكراً أنه يخاطب أمه. كان دائماً يجد عند أبيه من التسامح ما لا يجده عندها، وكان الرجل يحبه كثيراً فلم ينزل من نفسه هذه المنزلة إلّا ابنته نفيسة. أمّا الأم فلم تكن تتخلّى عن حزمها قطّ. ولما فرغت من الردّ على اعتراضه استطردت قائلة:

- كذلك أحذركم من ترك نصيبكم من الغداء المدرسيّ كما تفعلان عادة.

وكان الشقيقان يقنعان من غداثها المدرسيّ بلقما معدودات كي يتناولوا وجبتها الرئيسية في البيت. وكان التلاميذ الذين يأكلون في المدرسة حتى الشبع موضع غمز عادة. فتساءل حسين برقة:

- لماذا لا نأكل في بيتنا كعادتنا؟

فالت الأم بامتعاض:

- من يدري فلعله لن يتاح للبيت الطعام الذي تحب!

وارتسمت على شفّتي حسن - الذي أصغى إلى الحديث كلّ في صمت عميق - شبه ابتسامة، أخفاها بتقطيع مصطنعة، ولكنها لم تحف على الأم، فصمتت



مؤدبة، وشعور ممتلئ عطفاً وتقديرًا للمسئولية، ثم قال:

- إني أدرك كل شيء..

فقلت المرأة في ضيق متسائلة:

- ما عسى أن يجدي الإدراك وحده؟

- لا بد من عمل شيء.

فقلت في انفعال:

- هذا ما نسمعه كثيرًا.

- الآن تغير الحال.

- أليس ثمة أمل أن تتغير أنت؟

فقال حسن في نبرات قوية:

- مثلي لا يضع في الحياة، إني أستطيع أن أشق سبيلي. والفرص كثيرة والأسلحة في يدي لا حصر لها.

أصغ إلي يا أمه لن أطلبك بغير المأوى واللقمة!..

هذا أسلوبه! يبدأ وكأنه يسلم بكل شيء، ثم ينتهي وكأنه يطلب بحقوق جديدة. المأوى واللقمة، وماذا يبقى بعد ذلك؟! ورمقته باستياء وقالت:

- إن حالنا لا يحتمل هذا الهذر..

- الهذر؟

- أجل. نحن في حاجة إلى من يطعمنا فكيف نهتم

لك اللقمة؟! لماذا تضطري إلى مصارحتك بهذا؟

فابتسم ابتسامة باهتة وقال:

- أعني إلى حين. حتى تفرج. لن يضيق البيت بي،

أم تريد أن تطردني؟! وسوف ألتقط رزقي ما

وجدت إليه سبيلاً. ولكن هبي أياماً انقضت دون أن

أجد عملاً فلا أحسبك ترضين أن أموت جوعاً. وعلى

آية حال سأقاسمك رغيفك حتى أجد عملاً

وتنهت في يأس. إنها حيال مشكلة حقاً ولا تدري

ماذا تفعل. وأخوف ما تخاف أن يستسلم الحياة البطالة

والكسل والتسكع خاصة إذا فتر تأثره بموت أبيه فقلت

برجاء:

- أرجو أن تبحث بجدة وإخلاص عن عمل..

فقال بلهجة تنم عن الصدق:

- أعدك بهذا، وأقسم لك بقبر والدنا.

وأثار قسمه عاصفة حزن في الصدور لموقعه

على أن تواجهه بالحقيقة - إن كان حقاً في حاجة إلى ذلك - بعد هذا التمهيد الطويل فتساءلت بلهجة حزينة:

- وأنت يا حسن؟!

هذا أكبر الأبناء، أول من أيقظ أمومتها، الحبيب الأول! ولكنّه دليل ملموس على أنّ الأمومة قد تتأثر بأمور لا تمت للفطرة بسبب. لا يعني هذا بطبيعة الحال أنّها كرهته. إنّها أبعد ما يكون عن هذا. ولكنّها أسقطته من حسابها فتوارى من مرموق آمالها في حسرة بالغة. انزوى في ركن مظلم، ولم يعد حبه يتحرك في فؤاده إلا مصحوباً بالأسف والحزن وقاتم الذكريات. وقد كان ولا يزال المشكلة المستعصية لهذه الأسرة.

كان في البدء ضحية لفقر أبيه وتدليله، فلم يُبعث إلى المدرسة إلا في سن متأخرة. وسرعان ما ظهر تمردّه على الحياة المدرسية، وتكرّر هروبه من المدرسة، وتوالى سقوطه عامّاً بعد عام، حتى انقطع عنها ولم يجاوز السنة الثالثة. واستحال ما بينه وبين أبيه إلى نقار وشجار ثم إلى ما يشبه العداوة الحقة، فكان يطرده أحياناً من البيت فيقضي أياماً متسكّماً ثم يعود إلى البيت وقد اكتسب شرواً جديدة من غشاة الأصدقاء والغوص في

الإثم والإدمان وهو دون العشرين. ولما بلغ اليأس من أبيه مداه ألحقه بحانوت بقال فمكث به شهراً ثم طرده صاحبه بعد معركة كاد يذهب الحانوت ضحية لها. ثم عمل في شركة سيارات وطرد منها أثر عراك أيضاً. ولم يعد يابّه لا بغضب أبيه ولا بحزم أمّه ففرض نفسه على البيت فرضاً، يلقي سخطهم باستهانة أو بدعابة أو بشجار ولكنّه لا يتزحزح ولا يبحث جاداً عن عمل. وبدا وكأنّه لا يعمل للمستقبل حساباً، وظلّ سادراً مستهتراً حتى فاجأه موت الأب.

إنّه يدرك خطورة الحال، فهو الوحيد الذي عرف مرتب أبيه، وقدّر على وجه التقريب معاشه. وفهم ما تعني الأم بتساؤلها «وأنت يا حسن». «أنت تقولين إنّ الله لا ينسى عباده، وأنا عبد من عباده. فلننظر كيف يذكرنا. لماذا أخذ والدنا؟ ولماذا يعلن عن حكمته على حساب أمثالنا من الضحايا؟» ولكنّه طالعها بابتسامة

تألم كثيراً لمصير أخته ولكنه استسخر الاعتراض على اقتراح أوحى به الضرورة. وشعر في أله بأنه تعلم في هذين اليومين ما لم يتعلم في حياته كلها. أما نفيسة فسكنت مغلوبة على أمرها. ولم تكن تسمع الاقتراح لأول مرة فقد أقنعتها أمها بضرورته ووجاهته معاً. وكانت الخياطة هوايتها وملهاها، فلم يبق إلا أن توطن النفس لقبول الأجر. لهذا كله تضاعف حزنها على أبيها الذي لم تعد بعده شيئاً. ثم قطع حسن الصمت قائلاً بلهجة تنم عن الحسرة:

- من المؤسف حقاً أن المرحوم أبى على نفيسة أن تواصل تعلمها في المدرسة. تصوّروا لو كانت أختنا مدرّسة الآن!

وحده جوه بغرابة فادرك أنه تورط فيها يشبه الدعابة وهو لا يدري. أفلم يكن الأولى به أن يعرف للتعليم قيمته فيواصل حياته المدرسية؟! وقطب مغيضاً وقال:

- التعليم ينفع أمثاله ممن لا حيلة لهم..

- ٧ -

وفي صباح اليوم التالي مضت الأم إلى وزارة المعارف مصطحبة معها حسن أكبر الأبناء. ولما علم هناك أنها أرملة المرحوم كامل علي أفندي أظهر كثير من زملائه استعدادهم لأن يكونوا في خدمتها. وطلبت المرأة صرف المستحق من مرتبه فدلها بعضهم على إجراءات إثبات الوراثة. وسألت عن معاشه فذهب معها أحد الزملاء إلى إدارة المستخدمين. وتبين أن المرحوم خدم الحكومة حوالي الثلاثين عاماً فبلغ مرتبه ١٧ جنيهاً واستحق معاشاً قدره خمسة جنيهاً لورثته. لم تكن المرأة تتصوّر هذا، ولا كانت تعلم شيئاً عن نصيب الحكومة في معاش المتوفى، ولكن الذي أفرعها حقاً هو ما قيل عن الإجراءات الطويلة التي تسبق صرف المعاش، والتي تستغرق أشهراً طويلاً. هالها الأمر فلم تملك أن قالت:

- وكيف يتيسر لنا الانتظار طوال فترة الانتظار؟ وقال حسن مسوئلاً قلقاً أمه:

- نحن لا نملك إلا هذا المعاش المنتظر؟

وندم حسن على قوله عقب إلقائه مباشرة لأنه بدا

الآليم.. وهزتهم «قبر والدنا» هزة عنيفة. فأجهشت نفيسة في البكاء، وغاص قلب حسين في صدره، على حين رمق حسين أخاه بنظرة حيرة وعتاب. ولبثت الأم صامته ملياً تكابد جرحاً عميقاً، ولكنها لم تنس - حتى في هذه اللحظة - أنها لم تفرغ بعد من قول ما تريد قوله، فرددت عينيها اللتين انتفح جفناهما واحمرت أشفاههما بين أبنائها ثم قالت:

- أما نفيسة فتحسن الخياطة. وهي تخط كثيراً لجاراتنا محبة ومجاملة، ولست أرى بأساً في أن تتقاضى على تعبها مكافأة.

وهتف حسن بحماس:

- عين الصواب..

ولكن حسين صاح بغضب وقد اصفر وجهه غضباً:

- خياطة؟!!

فأجابه حسن معترضاً:

- ما عيب إلا العيب، فلتكن..

فقال حسين بحدّة:

- لن تكون أختي خياطة، كلاً، ولن أكون أختاً لخياطة.

وقطبت الأم في غضب وصاحت به:

- أنت ثور، تاكل وتنام، ولا تدري عن الدنيا شيئاً، وهيئات أن يفهم عقلك الغبي حقيقة حالنا! وفتح فاه ليعترض ولكنها صاحت به:

- اخرس..

فنفخ دون أن ينبس بكلمة. ورأت الأم أنها فرغت من معارضته فالتفتت إلى حسين، فالتقت عيناها برهة قصيرة، ثم خفض الفتى عينيه وثمتم على مضض:

- إذا لم يكن من هذا بدّ فالأمر لله..!

فقالت الأم بتأثر:

- ما عيب إلا العيب كما يقول حسن. لست أحب لأحد منكم المهانة ولكن للضرورة أحكام، ولا حيلة لي..

وساد صمت مؤلم. وكان حسين أشبه الأبناء بأخلاق أمه في صبرها وعقلها وإخلاصها للأسرة. وقد

غريباً من شخص في مثل طولهِ ورجولته، ولكنَّ الموقِّف قال دون أن يلقي بالاً إلى هذا:  
- أصدك يا سيدي بالآ نضيِّع دقيقة واحدة بلا عمل. أمَّا إجراءات وزارة المالِيَّة فلا حيلة لنا فيها..  
ما جدوى هذا الكلام الطيِّب؟ ولكن آية فائدة تنتظرها من التذمُّر والشكوى؟ وغادرا الوزارة في شبه ظلام من القلق واليأس. وهتفت المرأة:  
- كيف نلقى الحياة هذه الأشهر؟ وكيف نعيش بخمسة جنيهات بعد ذلك؟!

وخفض الشاب بصره في وجوم وضيق. ولاح لعيني المرأة المكدودتين بصيص من نور فقالت:  
- سأزور أحمد بك يسري. إنَّه مفتش عظيم نافذ الكلمة، وكان صديقاً عزيزاً لأبيك..  
فقال حسن بأمل:

- رأي حسن. إنَّ الكلمة منه تغَيِّر إجراءات الحكومة.  
فنظرت إليه باهتمام وقالت:  
- لا تضيِّع وقتك معي. لعلَّك تدرك حالنا على حقيقتها فاذهب وابحث لك عن عمل مهما كلفك الأمر..  
وعادت إلى شبرا بمفردها، ولبثت في البيت حتَّى العصر ثم قصدت شارع طاهر أو حيِّ الأعيان كما يسمُّونه. وكان يقع شمال عطوفة نصرالله بثلاث محطات، متفرِّعا من الطريق العام. تقوم على جانبيه الفيلاَّت الأنيقة والعمارات الحديثة. واسترشدت ببعض السابِلة حتَّى استدلَّت على فيلاَّ البك. وكانت بناء جميلاً مكوَّنا من دورين تحيط به حديقة مؤنَّقة. وذكرت للبواب صفتها «حرم المرحوم كامل أفندي عليّ» فعاد إليها مسرَّعا وقادها إلى بهو استقبال فاخر موصل بفراندة كبيرة، ثمَّ أخبرها أنَّ البك قادم بعد ارتداء

ملابسه. وخيِّل إليها أنَّ فترة الانتظار قد طالَّت، ولكنَّها لبثت بمكانها دون أن ترفع النقاب الأسود عن وجهها. وقد شغلت بأفكارها المضطربة عن رؤية المنظر النفيس الذي يكتنفها. بيد أنَّها كانت كبيرة الرجاء في هذا الصديق العظيم. طالما ذكره المرحوم

فأنلج صدرها ارتياحا، وشكرته، ثمَّ تردَّدت لحظات وقالت:  
- الحال يا بك تستدعي السرعة، والله المطلع.

فقال الرجل باهتمام:  
- طبعاً، طبعاً. إنِّي فاهم كلَّ شيء. هل أنتِ في حاجة إلى مساعدة؟

يا له من سؤال! إنَّها لا تملك إلَّا جنيهين هما ما

غريباً من شخص في مثل طولهِ ورجولته، ولكنَّ الموقِّف قال دون أن يلقي بالاً إلى هذا:

- أصدك يا سيدي بالآ نضيِّع دقيقة واحدة بلا عمل. أمَّا إجراءات وزارة المالِيَّة فلا حيلة لنا فيها..  
ما جدوى هذا الكلام الطيِّب؟ ولكن آية فائدة تنتظرها من التذمُّر والشكوى؟ وغادرا الوزارة في شبه ظلام من القلق واليأس. وهتفت المرأة:  
- كيف نلقى الحياة هذه الأشهر؟ وكيف نعيش بخمسة جنيهات بعد ذلك؟!

وخفض الشاب بصره في وجوم وضيق. ولاح لعيني المرأة المكدودتين بصيص من نور فقالت:  
- سأزور أحمد بك يسري. إنَّه مفتش عظيم نافذ الكلمة، وكان صديقاً عزيزاً لأبيك..  
فقال حسن بأمل:

- رأي حسن. إنَّ الكلمة منه تغَيِّر إجراءات الحكومة.  
فنظرت إليه باهتمام وقالت:  
- لا تضيِّع وقتك معي. لعلَّك تدرك حالنا على حقيقتها فاذهب وابحث لك عن عمل مهما كلفك الأمر..  
وعادت إلى شبرا بمفردها، ولبثت في البيت حتَّى العصر ثم قصدت شارع طاهر أو حيِّ الأعيان كما يسمُّونه. وكان يقع شمال عطوفة نصرالله بثلاث محطات، متفرِّعا من الطريق العام. تقوم على جانبيه الفيلاَّت الأنيقة والعمارات الحديثة. واسترشدت ببعض السابِلة حتَّى استدلَّت على فيلاَّ البك. وكانت بناء جميلاً مكوَّنا من دورين تحيط به حديقة مؤنَّقة. وذكرت للبواب صفتها «حرم المرحوم كامل أفندي عليّ» فعاد إليها مسرَّعا وقادها إلى بهو استقبال فاخر موصل بفراندة كبيرة، ثمَّ أخبرها أنَّ البك قادم بعد ارتداء

ملابسه. وخيِّل إليها أنَّ فترة الانتظار قد طالَّت، ولكنَّها لبثت بمكانها دون أن ترفع النقاب الأسود عن وجهها. وقد شغلت بأفكارها المضطربة عن رؤية المنظر النفيس الذي يكتنفها. بيد أنَّها كانت كبيرة الرجاء في هذا الصديق العظيم. طالما ذكره المرحوم

فأنلج صدرها ارتياحا، وشكرته، ثمَّ تردَّدت لحظات وقالت:  
- الحال يا بك تستدعي السرعة، والله المطلع.

فقال الرجل باهتمام:  
- طبعاً، طبعاً. إنِّي فاهم كلَّ شيء. هل أنتِ في حاجة إلى مساعدة؟

يا له من سؤال! إنَّها لا تملك إلَّا جنيهين هما ما

الأسرة فلم يكن غريباً أن يبحث لمشكلاته عن حلول عند الآخرين. وضاق صدره بصمت أخيه فسأله:  
- ما رأيك؟

فتساءل حسين متجاهلاً:  
- فيم؟

- فيما قالت! أتحسب حقاً أن حالنا بهذا السوء؟  
فهز منكبته قائلاً:

- ولماذا تكذبنا؟

فتألفت عينا الفتى بريق أمل وقال:

- كي تكسر من حذتنا. كي نخاف ونثند. وليس هذا عجباً فالشدّة مرّبة في طبعها، ولولا المرحوم والدنا ما عرفنا المرح!

فقال حسين بحزن:

- ليتنا ما عرفناه قط!

- ماذا تقول؟

- أقول ليتنا ما عرفنا الندل أبداً، إذن لكانت علينا الحياة الجديدة المقضي علينا بها!

فقال حسين وقد ساوره الخوف:

- إذن فأنت تصدّق ما قالت! أحقاً لم يترك والدنا شيئاً؟ ألا يسدّ المعاش نفقاتنا؟

فتنهّد حسين قائلاً:

- إني مؤمن بكلّ كلمة نطقت بها. هذه هي الحقيقة.

فتساءل حسين في جزع:

- كيف نطبق هذه الحياة؟

فارتسمت على شفّتي حسين ابتسامة حزينة. كان يشارك أخاه حزنه وقلقه لكنّه رأى من الحكمة أن يقف منه موقف المعارضة فقال:

- كما يطبقها الكثيرون. أم حسبت الناس جميعاً يحظون بأب كريم ورزق موفور؟! .. ومع ذلك فهم يعيشون ولا ينتحرون.

فامتلاً حسين غيظاً وهو يحذق في وجه أخيه وهتف به:

- لشدّ ما يحنقني برودك..

فقال حسين مبتسماً:

تبقياً من المبلغ الذي وجدته بمحفظة المرحوم، ولن تجد سواهما حتى يُصرف لها ما يستحقّ من مرتبه حتى تاريخ الوفاة. ولكن كيف تفصح له عن هذه الحقيقة؟ لم تتعرّض لمثل هذا الموقف من قبل، وإنّه لموقف يستوجب أن تألفه، وعقل الحياء لسانها فسكتت قليلاً ثم قالت بصوت منخفض:

- أحمد الله على السر. بوسعي أن أنتظر قليلاً..

وارتاح البك للجواب. لقد انزلت إلى السؤال متأثراً بالحياء والدوق. ولم يكن ارتياحه لبخل مركّب في طبعه، ولا لأنّه يكره أن يمدّ يد المساعدة إلى أرملة صديقه، ولكن لأنّه كان على ثرائه لا يكاد يقي على شيء لكثرة نفقاته على نفسه وأفراد أسرته. كان يضايقه أن يأخذ بيد هذه الأسرة حتى تبلغ برّ السلامة. ولكنّه كان على استعداد للبدل لو سأله المرأة إياه. وقد غاب عن المرأة أنّ زوجها لم يكن صديقاً للبك بالمعنى الذي يفهمه البك من الصداقة. ولعلّه كان صديقاً من أصدقاء الدرجة الثالثة. كان يحبه ويقربه ويودّ سمره وفته دون أن يعدّه ندّاً له، أو صديقاً كسائر البكوات والباشوات. ولكنّ نيّته صدقت على السعي لخدمة هذه المرأة حتى يُصرف لها المعاش، إكراماً لذكرى الراحل، وتضادياً من التورّط في مساعدتها، ونهضت المرأة مستأذنة في الانصراف فودّعها بالاحترام. ولما خلصت إلى الطريق تنهّدت في أمل، ولكنّها قالت لنفسها في شبه ندم: «لو أتيت قدراً من الشجاعة لما ضيّعت على نفسي معونة أنا في أمسّ حاجة إليها..».

- ٨ -

وخلا حسين وحسين لنفسيهما أوّل مرّة بعد الوفاة. كانت نفيسة في المطبخ والأمّ في وزارة المعارف سعيّاً وراء همومها الجديدة، وحسن لا يعلم بمكانه إلا الله، وكان حسين متربّعاً على فراشه، والآخر جالساً إلى مكتب المذاكرة بركن الحجرة يرعش بين أصابعه قلماً في نرفزة ويقول:

- يبدو أنّ الحياة لم تعد تطاق..

وانتظر أن يتكلّم حسين، ولكنّه تجاهل ملاحظته فرفع إليه بصره في حق. كان حسين آخر عنقود هذه

- لو جارتك في عواطفك لركبك اليأس وأجهشت باكياً.

فقال حسنين بسخط:

- إنَّ من يستسلم للأقدار يشجعها على التادي في طغيانها!

فابتسم الآخر ابتسامة ساخرة وقال في شبه دعاية:  
- هلمْ نثرْ عليها. دعنا نهتف لتسقط الأقدار كما هفتنا ليسقط هور.

- ألمْ تفدنا ليسقط هور؟!

- هيهات أن تفيدنا الأخرى.

وقطب حسنين في كدر وتساءل:

- مَنْ لنا الآن؟

فابتسم حسنين ابتسامة عريضة فَرَطَحَتْ أنفه الذي بدا في تلك اللحظة شيئاً نأف أمه الغليظ. وقال باقتضاب:

- الله . . .

وزاد الجواب من حقنه! إنَّه لا يشك في هذا ولكنَّه لا يقنع به. الله للجميع حقاً ولكن كم في الدنيا من جائع ومصاب! لم يتنكر يوماً لعقيدته ولكنَّه يتلهف في خوفه على سبيل محسوس للطمأنينة. وتوهم أنَّ أخاه يجرجه ليتخلص منه فتشبَّث بعناده وقال:

- لقد شاء أن يأخذ والدنا ويترتنا بلا معين!

فقال حسنين وكأنَّه يعمن في إثارته:

- هو المعين . . .

فانفجر حسنين قائلاً:

- إنَّ هدوءك الكاذب لا يجوز عليّ. . . أأنت مطمئنٌ حقاً؟

فأصغى حسنين إليه في امتعاض وألم، ثمَّ قال ولعلَّه كان يداري عواطفه:

- المؤمن لا تخونه طمأننته . . .

- إني مؤمن وقلق معاً!

فقال حسنين في غير إيمان بما يقول:

- هذا من ضعف الإيمان.

فقال حسنين بحق:

- أوه، ليكن . . . إني أعرف تلاميذ يجاهرون

بالشك!

- أعلم هذا.

- هم أذكاء ومطلعون.

- أحبُّ أن تفعل مثلهم؟

فقال في خوف:

- كلاً. لست من هواة الاطلاع. أنت نفسك تقرا كثيراً؟

فقال حسنين مبتسماً:

- هذا حقٌّ ولكنِّي لم أنتزع الله من قلبي. والحقُّ أنَّنا نغالي في تحميل الله مسئولية مصائبنا الكثيرة. ألا ترى أنَّ الله إذا كان مسئولاً عن موت والدنا فليس مسئولاً بحال عن قلَّة المعاش الذي تركه . . .

وشعر حسنين أنَّ تطوُّر الحديث نأى به عن مخاوفه الحقيقية فقال بضيق:

- دعنا من هذا وخترني كيف نعيش بلا مصروف؟

أي بلا سينما ولا كرة. والأدهى من هذا كلُّه أنَّي كنت شارعاً في تعلُّم الملاكمة!

فقطب حسنين قائلاً:

- نحام ما يؤلم أئماً، إذا لم يكن في وسعنا أن نساعدنا فلا أقلَّ من أن نريحها من منغصات لا داعي لها. واذكر أنَّها وحيدة فلا أعمام لنا ولا أحوال!

- لا أعمام ولا أحوال! كان هذا يهون لو لم تصبح أختنا خيَّاطة! ربَّاه ما عسى أن يقول الناس عتاً؟!

وضاق صدر حسنين، وغلبه الحزن، وقعت لفظة «خيَّاطة» من نفسه موقعاً مؤلماً، فقال بغضب:

- نستطيع أن نعيش دون مبالاة بما يقول الناس.

وأراد أن يقطع الحديث فنهض قائماً وغادر الحجرة.

- ٩ -

شعرا بحرج وهما يدخلان فناء المدرسة لأوَّل مرَّة بعد الوفاة. لن يستطيعا مواصلة الحياة الأولى وسيتغيَّر كلُّ شيء، هيهات أن تخفى خافية على أعين التلاميذ. وكانا يعانيان من هذا شعوراً مؤلماً وإن تباينت درجة ألمها. ولم يكن قد علم بالوفاة إلاَّ قليل فسرعان ما ذاع الخبر بين الأصدقاء وأقبلوا عليها معزيين. وقال أحدهم محدّراً:

- أرجو أن تعفيني وأخي من الإشتراك في نادي شبرا .

ولاحت الدهشة في وجه الرئيس، وأزعجه الطلب خاصة فيما يتعلق بحسين - جناح الفريق الأيمن - فقال معترضًا:

- لعل أمرًا ضايقكم!

فقال حسين بتأثر:

- توفي والدنا!

فوجم الرئيس مليًا، ثم عزاه برقة، وصمت لحظات ثم قال:

- ألا ترى أنّ هذا لا يدعو إلى حرمان النادي من عضوين بارعين مثلكما؟

فقال حسين بلهجة خاطفة:

- إنّ الحداد يقضي بهذا!

فقال الفتى بأشأ:

- إنّ ظروفنا تقضي بهذا. إنّني آسف!

ثم حيّاه مرة أخرى وغادره متحاميًا النظر إلى عينيه، وانضمّ إلى أصدقائه. ووجدتهم يتحدثون في السياسة، وكان أحدهم يقول:

- رحمة الله على شهداء الآداب والزراعة ودار العلوم!

فقال آخر:

- لا بدّ من التضحية فالدم هو اللغة الوحيدة التي يفهمها الإنجليز .

فقال ثالث:

- لم يَضِعِ الدم الطاهر عَبَثًا، ألم تسمعوا عن الدعوة إلى الاتحاد؟

- وهذه التيمس تلمح إلى المفاوضة .

ودقّ الجرس فأُتِجُوا إلى الفصول وهم يتناقشون .

- ١٠ -

قطعا فناء البيت في صمت حاملين كتبهما، ثم قال حسين وهما يرتقيان السلم:

- عمّا قليل يبدأ فريق نادي شبرا في التمرين استعدادًا للمباراة القادمة!

فلاذ حسين بالصمت. وجعل يتخيّل الملعب

- يجمل بذويكما أن يحسنا اختيار الوصيّ عليكما، فإنّي لم أدرك حقيقة الفاجعة بموت أبي حتّى ابتليت بوصاية عمّي!

الوصي! وتظاهر حسين بالإصغاء إلى نفر يتحدثون عن المظاهرات الأخيرة والمساغي المبذولة لضّم الصفوف، ولكنّه سمع حسين يجيب صاحبه قائلاً:

- نحن مطمئنون إلى الوصيّ كلّ الاطمئنان .

فقال محدّثه:

- إنّني أغبطكما على حظكما، بيد أنّ الأمر يتوقّف على نوع التركة، فإذا كانت أراضي زراعية تيسّر سبل الخداع، وإذا كانت عقارًا ضاقت السبل على الوصيّ بعض الشيء، أو هذا ما تقول أمي .

فقال حسين بهدوء:

- من حسن الحظّ أنّ تركتنا عقارًا!

وأصغى إليه حسين في غيظ. لم يحنقه الكذب فحسب ولكنّه أشفق من عواقبه. وكيف نواجه الحال الجديدة إذا ظنّ بنا الإخوان اليسار؟ ماذا نفعل وماذا نقول؟ . إنّهُ يكذب بلا مبالاة. سحقًا له! وصوّب عينيه نحو أخيه محدّثًا فتحاشاه الفتى في تذرّ. ثمّ تساءل تلميذ كيف مات والدهما فأجاب حسين في تأثر قائلاً:

- قيل لنا إنّهُ مات فجأة. ومن عجب أنّه لمّا رأيته خارجًا إلى المدرسة صباح اليوم الذي توفيّ فيه، وقبل أن يتوفّى بساعة واحدة، وضع يده على منكبي ورنا إلى في حنان وقال لي بلا داعٍ ظاهر «مع السلامة . مع السلامة» .

فمن كان يدريني أنّه يودّعني؟!

لم يكن شيء من هذا قد حصل، ولا يدري كيف قاله، والأعجب من هذا كلّهُ أنّه قاله بتأثر صادق كما لو كان وقع حقًا. وقد نطق به ارتجاءً مدفوعًا برغبة غامضة في تبجيل والده. وعجب حسين لوصفه ثمّ دهش لتأثره فكاد يغلبه الابتسام، ونحى وجهه جانبًا فرأى عن بعد قريب رئيس فرقة كرة القدم فأراد أن ينقّس عن ضيقه بمواجهة الحقائق فمضى إليه وحيّاه ثمّ قال:

من حالنا، فأظهرت روحاً طيبة ووافقت بلا تردد.  
فقال حسنين في استياء:  
- لو كانت ذات روح طيب حقاً لنزلت لنا عن فرق الإيجار مع إبقائنا في شقتنا!  
فقال الأم في حدة:  
- للناس أعمال أخرى غير العناية برفاهيتك!  
- وكيف ننام ليلتنا؟  
فقالت نفيسة بصوت كسير دلّ على أنها لم تنف بعد من صدمة الوفاة:  
- سنام في الشقة الجديدة.  
وخرج في تلك اللحظة حسن من حجرة المرحوم حاملاً بين يديه المشجب وهي آخر ما بقي من الأثاث في الحجرات وقال بسرعة:  
- كفاكم نقاراً وهلمّوا نرفع الأثاث إلى الدور التحتاني فليس بيننا وبين الليل إلا ساعتان.. وأراد أن يضرب لهم مثلاً عملياً فرفع كنية من جانب وخاطب حسين قائلاً:  
- ارفع...  
وفتحت نفيسة الباب على مصراعيه وسار الشقيقان بحملهما الثقيل، وجعل حسين يتساءل وهو يهبط في السلم بحذر: ترى هل يراها أحد من أسرة فريد أفندي عمّد جارهم الكريم بالدور الثالث؟ ليس الفراق شراً ما في الموت. إن الفراق حزن المطمئن. متاعبنا تسلاحق بحيث لا تدع لنا وقتاً للتفكير في الحزن. لشد ما تتغير وتندهور، ولكن ينبغي أن نصبر أو في الأقل أن نتظاهر بالصبر. أكبر جريعة في نظري أن نضاعف بجزعنا شقاء أمتنا. سأخاطب حسنين بحزم أكثر! ثم تبعتها الأم والأخت يحملان ما يقدران على حمله من قطع الأثاث. ولم يستطع حسنين أن يقف متفجعاً فانضمّ للعاملين. وما زالت الأسرة في نزول وصعود والأثاث يتحوّل من فوق لتحت. وكانت صاحبة البيت قد أدخلت الشقة وجّع أثاثها في الفناء إلى جانب الحمالين الذين وقفوا ينتظرون دورهم في العمل. وكانت الأسرة جميعاً - الصامت منهم والساخط - سواء في الحزن والام. ولم يكن وجه الأم

واللاعين، فكأنه يسمع الرئيس وهو ينهى الآخرين بانفصاهما «لظروف الأسرة الجديدة!» لا لعب ولا مسرة ولا رحمة من شكوى حسنين المتواصلة. وطرقا الباب ثم دخلا. وتسمرت أقدامهما وراء الباب لمنظر غريب لم يتوقّعه. رأيا أثاث البيت مكوّماً في الصالة في اضطراب شامل وقد رُصّت المقاعد فوق الكنبات ولُفّت الأبسطة وتُكّت الدواليب، ولاحت الأم ونفيسة مشمّرتين يعلوهما التراب وتتصيّبان عرقاً على لطافة الجوّ. وهتف حسنين:

- ماذا حصل؟

فقال الأم:

- سنترك الشقة.

- إلى أين؟!

- إلى الدور التحتاني. ستنبادل السكن مع صاحبة البيت.

شقة أرضية بمستوى الفناء التراب، لا شرفة لها، ونوافذها مطلة على عطفة جانبية تكاد تبدو منها رءوس المازة، وطبعاً محرومة من الشمس والهواء، وتساءل حسنين في امتعاض ولو أنّه كان يعرف الجواب مقدّماً:  
- لماذا؟!

فقال الأم بصوت واضح:

- لأنّ إيجارها ١٥٠ قرشاً!

فقال الشاب متذمّراً:

- فرق الإيجار أقل من ٥٠ قرشاً لا يتناسب مع

الفرق بين الشقتين!

فسألته الأم ساخطة:

- هل تتعهّد بدفع الفرق التافه؟

- لماذا رضينا إذن بأن تشتغل نفيسة خياطة؟

فالتهمته الأم بنظرة من نار وصاحت به:

- كي نأكل، كيلا تموتوا جوعاً!

وحافظ حسنين على طلاقة وجهه أن يفتضح

امتعاضه وسأل أمّه بلهجة لا أثر فيها للاعتراض:

- متى تمّ هذا يا أمّاه؟

فقال المرأة وهي تمسح جبينها بكمّ ثوبها الأسود:

- عرضت الأمر على صاحبة البيت غير مخفية شيئاً

مما تسهل قراءته، أما نفيسة فابتلّت عينها بالدموع. واشتغل حسن بهمة كأنه يتملّق بجهده أمّه فلا تلحف في تأنّيه على تعطله. وكان أقلّ الإخوة تأثراً للتغيّر الذي قلب الأسرة كما ينبغي لرجل ذاق التشريد وألف التسكّع. وهمس حسنين في أذن حسين وهو يلث من الجهد:

- ألا ترى أنّ خسارتنا بموت أبينا لا تعوّض أبداً؟  
وانسابت من عينيه دمعتان.

- ١١ -

غادر حسن البيت مبكراً، عقب خروج شقيقه للمدرسة. لم يكن ثمة داعٍ ضروريّ لهذا الخروج المبكر، ولكنّه أراد أن يتفادى من الاصطدام بوالدته أن يصحبها بنقار هي في غنى عنه بما تكابد من تغيّر الزمن ونجهم الحظ. انطلق من عطفة نصرالله بلا غاية ولا أمل. «ابحث عن عمل! لا تفتأ تردّد على مسمعي هذه الجملة. أين يوجد هذا العمل؟ صبيّ بقال؟! هذا معناه الإسعاف ثمّ البوليس.» ولكنّه لم يكن يائساً للحدّ الذي ترجه حاله. كان كبير الثقة بنفسه، وكان في طبعه تفاؤل لا يدري من أين يأتيه. ولكنّه لم يستطع أن يتجاهل دقّة موقفه وراح يخاطب نفسه قائلاً: «يا أبا عليّ، مات الوالد رحمه الله ففقدت الركن الذي كنت تأوي إليه. حقاً كنت تلتقط رزقك بالشجار والنقار، وتتحمل في سبيله السبّ واللعن، ولكنّه كان على أيّ حال رزقاً مضموناً. هذه البدلة التي تجعل منك أفندياً لا بأس به من نقوده رحمة الله عليه. أجل أبى أن يبتاعها لك بادئ الأمر ولكنك هدّته بأن تمشي في الطرق باللباس والفانلة وأن تقتحم عليه مجلسه بقصر أحمد بك يسري شبه عارٍ، فأذعن على مضض وكلف الحياط بأن يفصلها لك. الآن لو مشيت عارياً بلا لباس ولا فانلة فلن تجد من يسأل عن صحتك إلّا الشرطيّ!». كانت البدلة حسنة وإن لم تخلّ من بقع باهتة عند ثنية الركبة. وكان يربط رقبته ببابيون فبدا القميص في حال لا يُحسد عليها. وكان شعره أعجب ما فيه: فقد تركه حتّى غزر واسترسل، وتساعد في جعودة جعلت منه رأساً مستقلاً فوق

الرأس الأصليّ. أمّا وجهه فكان حسن كشقيقه إلى جسم طويل مقتول العضلات عريض العظام. سار متفكّراً فيما خاطب به نفسه، ثمّ وافته ثقتة بنفسه فجأة فقال «يا سيّدي لا تسمح للهّم بأن يركبك فما يجوز أن يركب إلّا البهائم من عباد الله. سوف تعيش طويلاً وتلقى الحياة بخيرها وشرّها. لم أسمع عن إنسان مات جوعاً. الأغذية تسدّ الطرق سدّاً. ولست طمّاعاً فما تريد إلّا اللقمة والسترة وكم كأساً من الكونياك، وكم نفّساً من الحشيش، وكم امرأة من النساء، وكلّ أولئك متوفّرة بكثرة، أكثر من الهّم على القلب. توكلّ على الله ولا تحمل همّاً» ولم يكن خلو الجيب فقد أشرف على جنازة أبيه، وخرج منها بأربعين قرشاً لم يعلم بها أحد وقد تساءل ألم يكن الأخلق به أن يعطيها لوالدته؟ «كلّاً لو نزلت عنها ما أفادت أمّي منها نفعاً مذكوراً، ولكنّ ضياعها يضّرني ضرراً لا شكّ فيه. لا أدري متى يتاح لي الحصول على مثلها!» وأخذت قهوة الجمال تلوح لعينيه الحادثتين فحثّ خطاه حتّى انتهى إليها. هي قهوة صغيرة لم تؤثّر من ميزة إلا وجودها على الطريق العامّ. ولم يوجد بها في هذه الساعة المبكرة إلّا زبونان جلسا إلى مائدة على الطوار يتشمّسان ويحتسيان القهوة، على حين قبع في ركن بالداخل شتان ثلاثة يدلّ مظهرهم ونظرات أعينهم الحائرة على الفراغ واليأس، فلم يكن عجيباً أن يقصدهم الشابّ وينضمّ إلى مجلسهم. وما لبث أن طلب أحدهم الورق فتهيئوا للعب الكومي. وكان كلّ منهم يمّني نفسه بأن يربح رزق يومه - خمسة قروش فوق الكفاية - من رفقاته. بيد أنّ حسن كثيراً ما يكون الصائد لمهارته من ناحية ولحفة يده وعينيه من ناحية أخرى. لهذا قال أحدهم قبل البدء في اللعب:

- لا نريد غشّاً.

فقال حسن:

- طبعاً.

فقال الشابّ:

- فلنقرأ الفاتحة..

وقرأوا الفاتحة جميعاً بصوت مسموع، ولعلّ حسن



- نحن رجالك، وفي الخدمة دائماً..  
فهز الأستاذ رأسه في رضى لأنه لم يكن يشعر بالعزة  
إلا إذا خاطبه أحد أفراد تحتة المستعنين، خصوصاً  
حسن، ذلك الشرس الجبار، الذي ينقلب بين يديه  
وديماً متملقاً، ثم قال:  
- طبعاً. إنك تردّد تردّداً حسناً، وصوتك لا بأس  
به.

فانطلقت أسارير حسن في بشر وقال:

- ولقد حفظت كثيراً من الطقاطيق...

- مثل ماذا؟!

- اللي حبك، ظالماني ليه، لِمَا انكويت بالنار.

فهز الأستاذ منكبيه استهانة وقال:

- إن علك الفنّ الدور والليالي. ماذا يُسمع الآن في  
الراديو؟ لا شيء. هذا زعيق فارغ وليس بغناء. ولو  
كانت المحطة تراعي وجه الفنّ وحده لكنت المذيع  
الأول بعد أمّ كلثوم وعبد الوهاب. وعبد الوهاب  
نفسه، يخاف كثيراً أن تحونه حنجرته فتراه يتحامي  
النفس الطويل، ويشطره أجزاء قصيرة متوارياً وراء ما  
يسمّيه بالتجديد، ثم يغطّي ضعفه بضجيج الآلات.  
إليك كيف غنّى «يا ليل» في الحفلة الأخيرة...  
وتنحّح ثم راح يغنّي يا ليل مقلّداً عبد الوهاب.  
وجاء النادل بالنارجيلة والقهوة وهو يغنّي فتناول  
الخرطوم دون أن يمسك عن الغناء حتّى انتهى.  
وحينذاك هتف رفاق حسن «الله.. الله..» فأخذ نفّساً  
من النارجيلة دون أن يلتفت إليهم، ثم قال لحسن  
همساً:

- هذا إعجاب بالصوت لا بالفنّ. اسمع هذه  
الليالي في نفّس واحد كما ينبغي أن تُغنى..

وأشدد بصوت ملأ القهوة الصغيرة حتّى رفع  
صاحب القهوة رأسه عن صندوق الماركات وأسارير  
وجهه تراوح بين الابتسام والاعتراض. وانتهى الأستاذ  
عليّ صبري، وعاد إلى النارجيلة وفي نيتّه أن يشكر في  
هذه المرة للرفاق استحسانهم إذا أبده، ولكن ساد  
الصمت فلم يُسمع إلا قرقرة الماء في قنينة النارجيلة،  
وقطب الأستاذ وقال في ثقة:

تعلم حفظها حول هذه المائدة، ثم لعبوا مقدار ساعة  
فريح أحدهم دوراً، وريح حسن دورين. كان صافي  
ربحه أربعة قروش ونصف بعد خصم نصف قرش  
ثمن فنجان القهوة، واقترح بعضهم أن يمدّوا وقت  
اللعب، ولكن دَخَلَ القهوة شاب ما إن رآه حسن حتّى  
نهض قائماً، وأقبل نحوه في احترام وسرور وهو يقول:  
- صباح الخير يا أستاذ عليّ صبري.

فمدّ له القصاد يده في حركة تشي بشعوره بقدر  
ذاته، وقال:

- صباح الخير...

وجلسا إلى مائدة متقابلين. واجتاحت نفس حسن  
موجة كرم عاتية فنادى النادل وطلب للأستاذ صبري  
قهوة، ثم قال الأستاذ للنادل قبل أن يذهب:  
- ونارجيلة...

وغاص قلب حسن في صدره أن يُلزم بدفع ثمن  
النارجيلة أيضاً فيضيع عليه ما ربح باللعب والحظّ  
واليد والعين. ولكنّه سرعان ما تناسى قلقه ليفرغ إلى  
استطلاع وجه الأستاذ. وكان عليّ صبري في منتصف  
عقده الثالث، متوسط القامة نحيل العود، صغير  
القسما، أما شعره فأشبه ما يكون بشعر حسن، إلى  
سواءل تزحف حتّى منتصف خدّه، وكان مظهره بوجه  
عام يدلّ على سوء الحال ولكنّه يغطيه بنفخة كاذبة  
وغرور غير محدود. قال حسن بأسف وهو يستطلع  
وجهه:

- لم نسمع صوتك من زمان!

وكان أذاع مرّات من المحطّات الأهليّة وبدا وكأنّ  
الحظّ يتسم له، فلمّا ألغيت المحطّات الأهليّة وأنشئت  
محطة الإذاعة الرسميّة حيل بينه وبين إحياء الحفلات،  
وضاعت مساعيه وراء هذا الأمل هباء. وكان حسن  
أحد أفراد تحتة المعطلّ، وطبيعيّ أنّ العمل لم يكن يدّر  
عليه أكثر من قروش في الحفلة، ولكنّه كان يحبّه ويؤثره  
على العمل الجدّيّ الذي لم يصادف فيه توفيقاً على  
مشقته و«حقارته»! وقال الأستاذ:

- سأبدأ نشاطاً جديداً عمّا قريب.

فخفق قلب حسن وقال برجاء:

أجمعت على بيع الفراش ولوازمه لما يشيره وجوده من  
الأحزان، ولأنها باتت في ميسر الحاجة إلى نقود.  
وكانت ترجو له ثمنًا أكثر من هذا لعله يسدّ بعض  
عوزها الملحّ إلى النقود، ولكنها لم تجد بداً من الإذعان  
فقالت للتاجر:

- غلبتنا ساعك الله ولكنني مضطرة للقبول..  
ودفع الرجل إليها بالجنهيات الثلاثة وهو يشهد الله  
أنه المغلوب، ثم أمر تابعين بحمل الفراش.  
واجتمعت الأسرة في الصالة تلقي نظرة الوداع على  
فراش فقيدهما المحبوب. وتثّل الراحل لهم فكأنهم  
يرونه رؤية العين، وغلب الحزن نفيسة فأجهشت في  
البكاء وأطبقت الأم شفيتها كائما آلامها. كانت تحرم  
على نفسها البكاء أمام أبنائها أن تعاودهم حدة الحزن.  
لم يكن لهم من أحد يعتمد عليه سواها فوجب أن  
تظهر بمظهر الرجولة. لو وجد هذا الشخص للذات  
بالدموع كسائر النساء ولكن لم يكن لها محيد عن  
التصبر والتجمل. وفضلاً عن هذا كله فلم تُواتها فرصة  
للتنفيس عن حزنها بما جبهها من هموم العيش وأثقاله،  
ووجدت نفسها في الغالب مضطرة إلى تناسي أحزان  
القلب لتتناضل ما يتهدد أسرتها من الضراء. «يحزّ في  
نفسه ألا أجد فراغاً للحزن عليك يا سيدي وفقيدي.  
ولكن ما الحيلة؟ حتى الحزن نفسه محرم على أمثالنا من  
الفقراء». ولم يكن حسين يتصور أن يفرضوا في  
مخلفات أبيه ولكنه لم يفكر في الاعتراض. والواقع أنّ  
حال الأسرة لم تعد تخفى على أحد. ومضى التاجر  
بالفراش وأغلق الباب فساد الوجوم حيناً، وأرادت  
الأم أن تبدّد سحابة الحزن التي أظلمتهم فقالت مخاطبة  
حسين وحسين:

- هيا إلى حجرتكما للمذاكرة..  
وقبل أن تبدأ حركة قالت نفيسة بانفعال:  
- لن أسمح لمخلوق بأن يمس ثياب أبي..  
فقال حسن مؤمناً على قولها:

- وما من فائدة ترجى من بيعها..  
وساد الصمت حيناً، ثم قال حسن مستدرّكاً وكأنه  
يواصل حديثه:

- هذه أصول الفن..  
فقال حسن بحماس:  
- لا شك في هذا..  
فقال بلهجة الناصح:  
- مرّن صوتك، لا تكفّ عن التمرين. أكثّر من  
الليالي. ولا تن عن مصّ السكر النبات..  
- يا سلام!

- مفيد جداً.. ويا حبذا لو استيقظت حين الفجر  
وأذنت للصلاة فهو خير مران للحنجرة، وهو ما كان  
يفعله سلامة حجازي..  
فضحك حسن وقال:  
- ولكنني أنام عادة قبيل الفجر..  
- إذن قبل النوم.  
- في مسجد؟!  
- المهمّ الأذان نفسه في هذه الساعة المبكرة. في  
مسجد، في حانة، كيفما اتفق!

- وإذا كان الإنسان من غير مؤاخذه سكران أو  
مسطولاً؟  
- يكون أفضل. فما تستطيعه وأنت غائب عن  
وعيك أضعاف ما تستطيعه وأنت صباح..  
- ينبغي أن تتقابل كثيراً حتى يفتح الله علينا..  
ثم التفت صوب الرفاق الثلاثة وسألهم:

- ماذا كنتم تفعلون؟  
- كنّا نلعب الكومي..  
فقال الأستاذ عليّ صبري باهتمام:  
- هلّمّ نجرب حظنا..  
ونفض الرفاق وأقبلوا نحوها بلا تردد، ثم تخلّقوا  
المائدة والطمع يلعب بقلوبهم جميعاً، بيد أنّ حسن كان  
قلقاً مشفقاً من مغبة هذا اللعب. «ما عسى أن أصنع  
مع ابن القديمة هذا؟ إذا كسبت أغضبته وإذا خسرت  
ضاع اليوم هدرًا؟!»

- ١٢ -

- لا أدفع ملياً واحداً أكثر من الثلاثة الجنهيات.  
قالها تاجر الأثاث وهو يلقي نظرة على فراش  
المرحوم. ولم تعد تجدي مساومة الأم. وكانت قد

خيرها لم يخلُ من نكد، وبدا التفكير في تجاعيد وجهها وهي تقول:

- هديّة مشكورة ولكنّ الواجب أن نهدي ما يماثلها عقب العودة من القرافة، فما العمل؟! وجد الإخوة خيبة، وأراد حسين أن يخفّف عن أمّه فقال:

- فلنُعِد الهدية إلى أصحابها شاكرين!

فقالت الأم في حيرة:

- يعدّ مثل هذا العمل معيًّا لا اثر للمودة فيه...

فقال حسن متحمّسًا لقول أمّه:

- بل يُعدّ سلوكًا عدائيًّا...

وتناول فطيرة، وشمّها ثم قال باستهانة:

- لا تحملوا همًّا، إنّما تُردّ هذه الهدايا في أوقاتها، فإذا مات فريد أفندي بعد عمر طويل أهدينا إلى أسرته سلّة فطائر، ولن يعجزنا صنعه وقتلذ بإذن الله.

وراح يلتهم الفطيرة. وتبادل الشقيقان نظرة ثمّ مدّا يديهما إلى السلّة، حتّى نفيسة سمعت تمطّطهم فلم تعد تقاوم..

- ١٣ -

جلست نفيسة على الكنبه في الحجرة التي تنام فيها مع أمّها مكبّة على ماكينة الخياطة، وقد نثرت على أرض الحجرة قصاصات من الأقمشة. كانت الأم في المطبخ، والشقيقان في المدرسة، أمّا حسن فحيث لا يدري أحد. وقد باتت الفتاة تضرّ لشقيقها الأكبر مرّ اللوم، فلو أنّه وجد لنفسه عملاً لما وجدت نفسها في الوضع التي هي فيه. لا يؤمن أحد بأنّه جادّ - كما يقول - في البحث عن عمل، ولكنّه يغيب النهار ونصف الليل ثمّ يعود كما خرج صفر اليدين. ولم تعد الأيام تطالعهم إلّا بما يسوء، فالיום اضطّرت الأم إلى الإستغناء عن الخادم الصغيرة لتوفّر أجرتها فأصبح عليها هي واجبان يومئذ: أن تبتاع حوائج البيت من الطريق لتسدّ الفراغ الذي تركته الخادم وأنّ تحكف سحابة يومها بعد ذلك على ماكينة الخياطة. وقد مهّدت لها الأم سبيل العمل بنفسها منذ يومين فقالت لصاحبة البيت حين جاءت بقطعة من القماش

- وفضلاً عن هذا فلن ينقضي وقت طويل حتّى تشتدّ حاجتنا إلى الملابس!

فساءلت نفيسة في ارتياح:

- أيمكن أن تستعملوا ملابس أبي؟!

ولم يجرؤ أحد على الاعتراض، ولكنّ الرقّة مسّت قلب الأمّ فقالت:

- ما في ذلك من ذنب. وليس فيه ما يسيء إلى المرحوم، بل لعلّه ممّا يطيب ثراه. ولكنّي سأحتفظ بها بنفسني حتّى تمسّ الحاجة إليها حقًّا.

وتشجّع حسن بقولها فقال في ارتياح:

- نطقت عن حكمة. وإنّي أذكرك بأنّي الوحيد الذي لا أكاد أختلف طولاً أو عرضاً عن المرحوم أبي. وتناسى الشقيقان الحزن الذي ران على صدرهما فقال حسنين محتجاً:

- إنّي وإن كنت أطول منك قليلاً إلّا أنّه يمكن مدّ ثنية البنطلون!

وقال حسين بلهجة ذات معنى:

- أو ثنيها مرّة أخرى...

فقالت الأمّ في ضيق:

- لا داعي للنزاع. توجد أكثر من بدلة في حال لا بأس بها وسأورّعها تبعاً للحاجة إليها.

ثمّ بلغ المسامع طرّق على الباب فقطع عليهم الحديث، وخفّت نفيسة إليه ففتحت، فدخلت خادم فريد أفندي محمّد حاملة سلّة مغطّاة بغطاء أبيض وضعتها على السفرة وهي تقول:

- سنيّ تسلّم عليك يا سنيّ وتقول إنّ هذا فطير القرافة.

فحملتها الأمّ السلام والشكر وذهبت الخادم من حيث أتت. واقترب حسن من السلّة وحسر عنها الغطاء، فبدت الفطائر بألوانها الوردية وطار عرفها الشهوي إلى الأنوف. ولم يكن تهيّاً للأسرة طوال الأسبوعين المنصرمين طعام شهويّ لما أخذت به الأمّ نفسها من الحذر والتقتير. ولاحت الرغبة في أعين الإخوة. ولكنّ الأمّ كانت تتجهّم لها الخواطر، والحقيقة أنّ تلك الأيام لم تكن تضرّ لها خيراً، وحتّى

لتفصيلها:

- هل عندك مانع من مكافأة نفيسة على عملها؟

فقالت المرأة بلا تردّد:

- أبداً يا ستّ أمّ حسن. هذا حقّ وعدل. وهيهات أن نوفي ما علينا من دين لستّ نفيسة.

ما زال سمعها يرجع هاتين الجملتين. وما تذكر أنّها وجدت نفسها في مثل هذا الموقف طوال عمرها. لقد تصاعد الدم إلى وجهها الشاحب فكاد ينضج به، وشعرت بأنّها تهوي من عل، وأنّها أمست فتاة أخرى. ليس بين الكرامة والضعّة إلّا كلمة. كانت فتاة محترمة فانقلبت خيّاطة. وأعجب شيء أنّه لم يستجدّ جديد بالنسبة إلى العمل نفسه، فظلّا خاطت ثياب صاحبة البيت، وامرأة فريد أفندي وابنتها وغيرهنّ من الجيران. فالخيّاطة هوايتها، ولها فيها من البراعة ما يجعلها قبلة الجيران والصديقات، لشدّ ما تغيّر شعورها. أحسّت بالخزي والهوان والضعّة، وتضاعف حزنها على أبيها، فبكته بكاء حارّاً، وبكت نفسها فيه. مات الفقيد المحبوب فمات بموته أعزّ ما فيها.

كانت تحيط منقبضة الصدر، لا ضاحكة الثغر ولا مترنّمة كعادتها فيها ولّى من أيّام. وكانت تنتظر حضور صاحبة البيت بين آونة وأخرى لتفصل لها بعض ثياب داخلية بعثت بها إليها هذا الصباح. أجل بعثت بها هذا الصباح فحسب، عقب حديث أمّها بيومين، ممّا جعلها تظنّ أنّها أرسلتها على سبيل الإحسان! وقد أفضت بأفكارها إلى أمّها فانهرتها قائلة:

- لا تسلّطي هذه الأوهام على نفسك وإلّا خاب مسعانا جميعاً.

ولم تكن تجرؤ على معارضة أمّها إلى ما باتت تكتّه لها من الرئاء في هذه الأيّام الأخيرة. «ما أغباني. هل حسبتها راضية عن حالي؟ إنّها تكابد حيرة قاتلة وهي أحقنا بالعطف. إنّ التعاسة تنفذ في لحمنا كما تنفذ هذه الإبرة في قطعة القماش. ما كان أبي ليسمع بشيء من هذا ولكن أين هو؟ إنّ حزني عليه يتضاعف يوماً بعد يوم لا للضرّ الذي مسنا بعده فحسب ولكن لأنّ هذا الضرّ نزل بمن يحبّهم ويحبّ لهم الخير. إنّني ألم

لأله. لا بدّ أنّه متألم لنا، لشدّ ما كان يحبّني. كسأته يحسد ما يرصدني من شقاء. اضحككي، ما أحبّ ضحككتك إلى نفسي، هكذا كان يقول لي كلّما تعالت ضحككي الرثانة. وكان يقول لي أيضاً الخفّة أنفس من الجلال كأنّه يعزّيني على دمامي. لله ما ألطفه وما أعذبه، لم يكن مثله أحد في الرجال. مات. مات. لن أنسى ما حييت لإيماءته إلى صدره وهو ملقى على الكنبّة: أبي يستغيث ولا مغيث. لتندكّ الجبال على الأرض. حياة بغنيضة مفعجة لا خير فيها. أبي ميت وأنا خيّاطة. عمّا قليل تحيء صاحبة البيت لا ضيفة كما كانت ولكن زبونة. كيف ألفاها؟ بأيّ عين تنظر إليّ؟ حسبي، حسبي، داخ رأسي». وسمعت أمّها تخاطب شخصاً في الصالة فكفّت يدها عن الماكينة وأرهفت السمع فقرع أذنيها صوت تاجر الأثاث وهو آخذ في مساوماته التي لا تنتهي وأمّها تحاوره بصوت ملؤه الإشفاق واللوم. «ليست أمّي بلهاء، وما كانت لتُغلب في مثل هذا الموقف، ولكنّها الحاجة القاسية التي تركبها، متى يصرف لنا المعاش؟ لا أدري، ولا أحد يسري يدري. هيهات أن يكفيني المعاش. خمسة جنيهات؟! كارثة. جاء الرجل ليحمل المرأة الكبيرة بحجرة الاستقبال ولما يمض أسبوعان على بيع الفراش العزيز. وسيأتي غداً وبعد غد حتّى يترك الشقة أرضاً عارية. لماذا خُلِقنا أسرى أدلّاء للغذاء والكساء والمسكن؟ هذا سرّ متاعبنا». وخفّت إلى باب الحجرة ففتحت وراّت التاجر ومعاونيه يحملون المرأة الطويلة إلى الخارج وقد فُتح باب حجرة الاستقبال على مصراعيه ووقفت أمّها على عتبتها. وكان الرجل الذي يحمل مؤخّرة المرأة قصيراً فحُمِلت المرأة في وضع مائل وراّت سطحها ينعكس عليه ركن سقف الصالة متأرجحاً بحركة الرجلين كأنّما سرى بأوصال البيت زلزال. وذكرت وهي لا تدري نعش أبيها. واشتدّ انقباض صدرها وهي تلقي نظرة الوداع على المرأة التي عاشرتها منذ رأت النور. وعادت إلى مجلسها: «ينبغي أن تكون المرأة آخر ما أحزن عليه. لن تعكس لي وجهها أسرّ به. الخفّة أنفس من الجلال! هذا قولك يا

ومضت أسابيع. وكان الليل قد أرحى سدوله وشملت الشقة كآبة وما يشبه الصمت. وكان الشقيقان يجلسان إلى المكتب متقابلين، منهمكين في المذاكرة، على حين جلست الأم ونفيسة في الصالة في شبه ظلام قانتين من النور - على سبيل الاقتصاد - بما ينبعث من حجرة الأبناء. وتناجى في صوت منخفض شأنها كل مساء، وكانت هموم العيش أكثر ما يستأثر بحدِيثها. لم تنزل الحاجة ههنا الأكبر، وما انفك الخوف يقض مضجع الأم ويجعلها ترمق المستقبل بقلق وحزن عميق. بيد أن العادة كانت تحدث أثرها اللطيف في تهوين الخطب وإساعته، فلم يعد التقشف في الغذاء مزعجاً كما كان بادئ الأمر، وأخذت نفيسة تألف مهنتها الجديدة، وتتطلع إلى زبائن جدد، في شيء من الانكسار وكثير من الرجاء. حتى الشقيقان، تعوداً أن يجعلاً من غذاء المدرسة وجبتهم الرئيسية، وأن يبيتا بلا عشاء في صبر وجلد. كانت العادة تحدث أثرها، وكان حزم الأم يسيطر على ضبط أعصاب الأسرة المنكوبة. وفي ذاك المساء جاء فريد أفندي محمد وزوجته يزوران الأسرة فاستقبلتهما الأم ونفيسة بترحاب وقادتهما إلى حجرة الاستقبال.

وكان فريد أفندي يرتدي جلباباً ومعطفاً، أما حرمه فقد التفت بالروب، وكأنتها في شقتها بغير ما كلفة. وجلس الرجل على الكنبه ليفسح المجال لجسمه المكتنز وراح يحدث حديثه الودود في لطف وإيناس. وكانت زوجته - ست أم بهية - بدينة مثله مع ميل إلى القصر، إلا أنها كانت تُعدّ أجل امرأة في العمارة لبياض بشرتها وزرقة عينيها. وقد قالت تخاطب أم حسن متسائلة في لهجة تنم عن العتاب:

- لماذا تلزمان البيت هكذا؟ لماذا لا تروّحان عن أنفسكما بزيارتنا كما كنتم تفعلان؟  
ف قالت الأم:

- هجم برد الشتاء وما إن يأتي المساء حتى يركبنا الكسل، أما نهارنا فلا يخلو ساعة من هموم البيت. . .  
ف قال فريد أفندي:

أبي وحدك، ولولاي ما قلته أبداً. لا جمال ولا مال ولا أب. كان يوجد قلبان يساورهما القلق على مستقبل، مات أحدهما، وشغلت الهموم الآخر. وحيدة، وحيدة، وحيدة في يأسى وألمى، ثلاثة وعشرون عاماً! ما أبشع هذا! لم يأت الزوج بالأمس والدنيا دنيا فكيف يأتي اليوم أو غداً؟! وهبه جاء راضياً بالزواج من خيطة فمن عسى أن يقوم بنفقات الزواج؟ لماذا أفكر في هذا؟ لا فائدة، لا فائدة. سوف أظل هكذا ما حييت.

ودق الباب، ثم جاءت صاحبة البيت متلهلة كعادتها، واحتضنتها وقبّلتها. ثم جلستا جنباً إلى جنب وتحادثت المرأة برقة ومودة، ولعلها حرصت على الرقة والمودة أكثر من ذي قبل. وتظاهرت نفيسة بالرضا والارتياح تداري بهما ارتباكها وخجلها. ولكن من المؤكد أن مبالغة المرأة في إظهار مودتها ألبها وآذاها وضاعف من ارتباكها وخجلها. وقد جرّبت المرأة الفستان الذي انتهت نفيسة من خيطه، وقاست الثياب الداخلية، ثم جلست لصقها وغمرت يدها بنقود فضّية وهي تقول:

- هيهات أن نوفي دينك السابق.

ومكثت معها ردحاً من الزمن ثم ودّعتها وانصرفت. وبسطت نفيسة يدها فرأت قطعتين من ذوات العشرة القروش. وثبتت عينها عليهما وصدرها جيّاش وقلبها خافق. ثم قهرها الحياء والهوان «شيء مؤلم، ولكن ينبغي أن أفكر في هذا. ما جدوى وجع الدماغ؟ روضي نفسك على قبول ما لا بد منه. هذه حياتي ولا حياة لي غيرها. . .» وجاءت الأم وهي لا تزال تنظر إلى النقود فأخذتها من يدها وسألتها:

- أجرة الثياب كلها أم الفستان وحده؟

فغمغمت الفتاة:

- لا أدري. . .

ف قالت الأم وهي تزدد ريقها بصعوبة:

- أجرة حسنة على أية حال.

وتحاشت الأم أن ينم وجهها على شيء مما يقوم في نفسها. . .

كلّ يوم أو يومًا بعد يوم، هذا رجائي يا ست أم حسن.

وأدركت المرأة أنّ الرجل يهين سبيلًا غير ماسّ بالكرامة لنفح ابنها بمصروف شهريّ يرقّه عنها. هذا واضح كالنهار ويتّفق مع ما طبع الرجل عليه من دماثة ورقة. وقالت برقة وحياء:

- إنّ حسين وحسين ابنك، وهما طوع أمرك. . ١

فقال الرجل بسرور:

- فليسعفاني بسرعة إذن، وليبدءا يوم الجمعة القادم. .

وعادوا إلى حديثهم الطويل، ثمّ غادر الرجل وزوجه الشقة حوالي التاسعة. وهرعت نفيسة إلى حجرة أخوها حاملة خبرًا سارًا لأول مرّة منذ عهد ليس بالقصير، وقالت بمرح وقد استرذت شيئًا من طبيعتها الأولى:

- مفاجأة!

فرفعا رأسيهما إليها في استطلاع فقالت:

- فريد أفندي راغب في اختيار مدرّس لسالم. .

- وما شأننا في ذلك؟

- منكما.

- لأيّ ماذة؟

- الإنجليزي. .

فصاح حسين:

- أنا طبعًا!

- والحساب أيضًا.

فقال حسين وهو يتنهد:

- أنا. .

فقالت في مكر:

- يريدكما معًا، وطبعًا بالمجان!

ففتقا معًا في سرور وقد أدركا ما وراء كلامها:

- طبعًا!

- ١٥ -

لم يكن ثمة ما يدعو إلى ارتداء البدلة في ذهابها إلى شقة في نفس العمارة فارتديا معطفيهما على البيجامتين. وإلى هذا كانت أمهما تحرّم عليها ارتداء البدلة - أن

- نحن أسرة واحدة، وينبغي أن نمضي جلّ فراغنا معًا.

كان فريد أفندي تمنّ لا يبرحون بيوتهم بغير داعٍ قهّار، ويُرى طيلة فراغه متربّعًا على الكنبه ومن حوله زوجته وبهية ابنته وسالم ابنه الصغير، يسمرون، ويمصّون القصب أو يشبون أبا فروة. وكانت الأم تكثر مودة صادقة لعطفه ومروته، ولا تنسى له ما تجشّم من تعب يوم وفاة زوجها. وفضلًا عن هذا كلّ فقد أقرضها بعض المال حين صرف المعاش، ولم يكن يني عن الذهاب إلى وزارة المالية للاستعلام والاستعجال. بيد أنّه كان موظفًا تافه الشأن وهو ما غاب عن تقدير المرأة. ولم يرقّ إلى الدرجة السادسة إلّا حديثًا على بلوغه الخمسين. وكانت جبرته للأسرة ترجع إلى عهد بعيد. وتوثقت أواصر الصداقة بينها لطيب معشرهما وقرب أسباب المعيشة بين الأسرتين. وكانت حياة لا بأس بها، ولا تخلو من ألوان الترفيه. ثمّ نعمت أسرة كامل أفندي برفاهية جديدة حين زوّج المرحوم إلى الدرجة السادسة قبل وفاته بخمسة أعوام. واستقبل فريد أفندي عهدًا جديدًا منذ عامين، فورث بيتًا بالسيدة زينب يدرّ إيجاره عشرة جنيهات شهريًا، وبلغ به دخله ثمانية وعشرين جنيهًا، ممّا يعدّ ثروة في عام ١٩٣٣. وبات فريد أفندي سيّد عطفة نصراالله، وزاد ترقيًا على ترقي، ولولا حرص زوجة على الاقتصاد لمواجهة مستقبل فئاتها وابنها الصغير لنفد الرجل ما أراد يومًا من الانتقال إلى شقة بشارع شبرا.

وتنقلّ بهم الحديث من وادٍ لواء، ثمّ قال فريد أفندي مفصّلًا عن رغبة لعلّها كانت أول ما بعثه إلى هذه الزيارة:

- يا ست أم حسن، إنّي قاصدك في رجاء. .

فقالت الأم:

- مُر يا سيّدي. .

- إبني سالم، وهو في السنة الثالثة الابتدائية،

ضعيف في الإنجليزي والحساب. وقد رأيت على سبيل الاقتصاد - لأنّ المدرّسين طماعون كما تعلمين - أن أعهد إلى حسين وحسين بالقيام بهذه المهمة، ساعة

وهو يتصفّح وجهيها باهتمام وترحيب، ثم نادى سالم، فجاء الغلام ووقف في حياء وارتيابك، فقال فريد أفندي:

- سلّم على أستاذك. أنت تعرفها طبعًا ولكنّها من الآن فصاعدًا شخصان جديدان. هما أستاذك فتأذّب في محضرهما كما تتأذّب أمام معلّمك...

فاقترب منها الغلام في أدب وهو يغالب ابتسامة حيال الشابين اللذين لم يألّف احترامهما بعد، وأشار الأب إلى حجرة إلى يسار الداخل وقال:

- حجرة الاستقبال أوفى حجرة للدرس، وبها الشرفة إذا أراد أحدكم أن يتشّمس...

ومضى الأستاذان إلى الحجرة يستقبلهما التلميذ، وبادر الغلام إلى الشرفة ففتح بابها، ثم أغلق باب الحجرة. وكانا يدخلان الشقة لأول مرة لأنّه لم يكن لفريد أفندي ابن في سنّها فتدعوها صداقته إلى التردّد عليها. ووجدوا حجرة الاستقبال بمنزلة حجرتهما بوجه عامّ فهي مكوّنة من طاقم قديم ذي كنيّتين إفرنجيّتين وستّة كراسيّ، ومراة كبيرة ذات حوض مذهب يحوي وردًا اصطناعيًا بيد أنّ حجرتهما بقيت على قدامها وبيعت مرآتهما، أمّا هذه فيبدو أنّ يد النجّاد قد جدّدت حشوها وكساءها. وجلس حسين على كنبه فجاء سالم بكرسيّ وجلس قبالة واضعًا بينهما خوانًا صُفّت عليه الكتب والكراسات، على حين خرج حسين إلى الشرفة في انتظار دوره. وجعل حسين يتصفّح كراسات الغلام وكتبه، ثم قال له:

- سأعيد الدروس من الأوّل شارحًا ما يغمض عليك على أن نبدأ في الدرس التالي بتسميع ما تمّ شرحه.

وبدأ الدرس في اهتمام جدّي.

ووقف حسين في الشرفة مرتفقًا حافتها كما كان يفعل أيّام كان لهم شرفة. وكان المنظر الذي أثاره لا يزال ناشبًا في مخيلته. الساقان البديعتان، والوجه البدريّ ذو العينين الزرقاوين. نظرة هادئة رزينة توحى بالثبات لا بالخفة. جمال يبهر وإن شابه شيء من ثقل الدم ولكنّه لم يترك أثرًا سيئًا في نفسه. لا يزال دمه

يبلّغها طول الاستعمال - إلّا للضرورة القصوى. وكان الضحى بسّام الشمس فلطّفت حرارتها من برودة الجوّ. وارتقيا السّلم مملّاهما السرور والأمل. ومَرّا في صعودهما بباب شقّتها القديمة فألقيا عليها نظرة صامتة، وانتهيا إلى الشقة العليا فوجدوا الباب مواربًا ووفقًا لحظات متردّدين. ثمّ اقترب حسين من الباب ورفع يده لينقر عليه ولكنّ يده جمدت في الهواء ورنّت عيناه إلى الداخل على رغمه. رأى فتاة مولى الباب ظهرها ومنحنية على شيء بين يديها - لعلّها تبحث في درج من أدراج البوفيه - وقد برز ردفاها اللطيفان، وانحسر الفستان عن ساقها وباطن ركبتيها، ساقان مدججتان يكسوهما بياض ضاحك تكاد العين تحسّ طراوتها. وثبتت عيناه على المنظر فلم يبد حراكًا. وعجب حسين لموقفه فدنا منه في اهتمام وألقى ببصره من فوق كتفه وهو يشرب بعنقه فغمرته دهشة، ولكن سرعان ما ارتدّ عن فرجة الباب كالهارب وجذب أخاه من ذراعه وهو يرميه بنظرة حادة كأنّها يقول له «أمجنون أنت؟». ولبثا حينًا وقد ركبهما ما يشبه الشعور بالذنب، وكان المنظر ذرّ في شقوق صدرهما الشطة. ومال حسين على أذن حسين وهمس:

- بهيّة...

فغمغم الآخر متظاهرًا بعدم الاكتراث:

- لعلّها...

فتردّد حسين وفي عينيه بسمه شيطانيّة ثمّ قال:

- ألا نسرق نظرة أخرى؟

فلكزه في كتفه ونحّاه جانبًا ثمّ اقترب من الباب وطرقه. وسمعا وقع أقدام آتية، وفتح الباب عن وجه جميل، مستدير، ممتلئ، أبيض مشوب بشحوب خفيف، تزينه عيان زرقاوان صافيتان. وما إن رأت القادمتين حتّى تراجعتهما في خفر. ثمّ جاء من بعيد صوت فريد أفندي وهو يهتف:

- تفضّل يا حضرتي الأستاذين الكبيرين!

ودخلا إلى الصالة - حجرة السفارة أيضًا - فرأيا فريد أفندي جالسًا على كنبه في مواجهة البوفيه، في جلباب فضفاض، جعل منه كهينة المنطاد. وسلّم عليه

المقابلة لحجرتها، أما حسين فقد غَضَّ بصره في وقاره  
المعهود. وأما هو فقد رنا إليها بنظرة قويّة فخفضت  
عينها في حياء.

- ١٦ -

- كم تظن أن يكون أجرنا؟  
فقال حسين متظاهراً بعدم الاكتراث:  
- لا تكن شحاذاً ثقيلًا..

فقال حسنين بأمل:

- نحن ندرّس لسالم يومًا بعد يوم وقد مضى زمن لا  
بأس به فلعلّه ينقدنا أجرنا أوّل الشهر، نينة لا تستبعد  
أن يعطي كلّنا منّا نصف جنيه وهو مصروف عال!  
ستعود أيام الكرة والسينما وشيكولاتة المصنف في  
الفسحة...

كانا يرتقيان السّلم وقد غاب نهار الشتاء القصير في  
ظلمة المساء المبكر. وطرقا الباب كعادتهما وانتظرا أن  
يجيء من يفتحهما وهما يطويان في صدرهما أملاً يتجدّد  
مساء بعد مساء دون أن يتحقّق. وجاءت الخادم  
وقادتتهما إلى حجرة الاستقبال. كانت الصالة خالية  
والضوء ينبعث من حجرة نوم الوالدين في نهاية الصالة  
فسار حسنين وهو يلحظ المكان بجانب عينيه دون  
جدوى ثمّ جاء سالم وأغلق وراءه الباب وجلس أمام  
حسين وبدأ الدرس. وشعر حسنين بخيبة وملل.  
وكان أحضر معه كتابًا يذاكره حتّى يجيء موعد درسه  
فراح ينظر فيه بعينين غائبتين. وجعل يرفع بصره إلى  
الباب المغلق بحق شديد، ثمّ تساءل بمكر:

- ألا يحسن بنا أن نغلق الشرفة اتقاء للبرد ونفتح  
الباب؟

وهمّ سالم بالنهوض ولكنّ حسين أشار له بالجلوس  
وقال:

- أغلق الشرفة إذا أردت على أن يبقى باب الحجرة  
مغلقًا.

ورمقه بنظرة ذات معنى فتلقاها حسنين باستياء  
مكتوم. وضاق بمجلسه فقام إلى الشرفة متناسيًا أنّه  
كان يقترح إغلاقها منذ لحظات. ووجد حبال الظلمة  
كأية مثل تلك السحب التي كانت مرنّقة بصفحة

يتدفّق حارًا في عروقه، وقلبه يخفق بنشوة المنظر،  
ورأسه لا يمكّ عن خلق الصور والأحلام. هذه  
أسطح البيوت المكددة به وهذه عطفة نصرالله في  
أسفل، وهؤلاء خلق كثيرون ذاهبون آثبون، كلّ  
أولئك يلوح وراء غلالة حمراء نشرها خياله المحتقن  
الدم، متى تعود السكنية إلى نفسه؟ إنّه يذكر بهيّة.  
كان يراها كثيرًا وهي صغيرة تحجل في فناء العمارة.  
ولكنّها اختفت منذ الثالثة عشرة، وانقطعت عن  
المدرسة أيضًا قبل أن تلتحق بالمدرسة الثانوية. ولعلّها  
في الخامسة عشرة، ولكن كان كأنه يراها لأوّل مرّة.  
«إنّي بحاجة إلى مثل هذه الفتاة. نذهب إلى السينما  
معًا، ونلعب معًا، ونتحدّث كثيرًا. وما من بأس في أن  
أقبلها وأعانقها. ليس في حياتي وجه جميل يجذبني إليه.  
وحسي ما صادقت من فتیان المدرسة ونادي شبرا.  
أريد فتاة. أريد هذه الفتاة. في أوروبا وأمريكا ينشأ  
الفتيان والفتيات معًا كما نرى في السينما. هذه هي  
الحياة. أمّا هذه فما إن رأتنا حتّى توارت عن الباب  
كأننا وحوش نروم التهامها. وكان أجدادنا يقتنون  
الجواري. لو نشأت في بيت مليء بالجواري لعرفت  
حياة أخرى على رغم أمي وإنذاراتها ولكلماتها. حتّى  
الخادمة الصغيرة طردت لفرقنا. ما يخجّي لنا المستقبل،  
أظنّ أكبر ذنب يؤخذ به في الآخرة هو أن نترك هذه  
الدنيا دون أن نستمتع بحلاوتها. أجل منظر حقًا هو  
بطن ركبته. في وسطه عضلة رقيقة مشدودة تشفّ  
بشرتها عن زرقة العروق. لو انحسر الفستان قليلاً  
لرأيت مطلع الفخذ. أجل منظر في الدنيا منظر امرأة  
تخلع ثيابها. أجل من المرأة العارية نفسها. يقولون إنّ  
مدرّس التاريخ زير نساء. متى أجد نفسي رجلًا  
حرًا؟! عندنا غدا حصّة تاريخ ويجب أن أحفظ هذه  
الليلة القبائل الجرمانية. انكحوا ما طاب لكم من  
النساء، هذا أمرك يا ربّ ولكنّ هذا البلد لم يعد يحترم  
الإسلام». وتابع أحلامه في نشاط حتّى ترامى إليه  
صوت حسين يدعوه إلى درس الإنجليزي فغادر  
موقفه..

وعند انصرافها بدت لها الفتاة جالسة في الحجرة



عَمَّا يعاني من إغراء. «جسم لدن. عينان جذّابتان. هيهات أن يخفي هذا الفستان الطويل ما انطبع في حسي من صورة الساقين. وبطن الركبة خاصة. لا الفستان ولا الباب ولا الظلام. أعظم واجب في هذه الدنيا أن تلاعب فتاة جميلة تحبها. إنني أعجب كيف أن فتاة يمنعها الحياء من التحديق في وجه حبيبها تستطيع يومًا أن تنزع ثيابها بين يديه دون مبالاة! هذا التطور خاصة خالق بأن يبعث بهج الأمل في موات النفوس. أو لعلها العادة؟! يجوز. هذه العادة التي جعلتنا نألف المبيت على الطوى! كيف يحق لي أن أفكر في الحب على ما نكابذ من قساوة الحياة! شكرًا، الشاي به الكفاية! أحسنت بشكرها صنعًا. لا يجب طبعي الجبن والتردد. وبذلك يمكن أن أقتنص فرص الحب وسط برودة الفقر. الفقرا لو كان الفقر رجلاً لقتلته! ولكنّه امرأة. تقتلنا ونحن راضون. ترى هل يتألم أبي لحالنا؟ ترى ما هيئته الآن؟ لهنّي عليك يا أبي. حقًا إنّ الحياة أكذوبة ضخمة. ولكنّها جاءت بنفسها بالسكّرية! جاءت لي أنا في الواقع. أريد أن أكون شارلمان عصري. لو عدت يومًا إلى عطفة نصرالله محاطًا بعظمة فروسيته لألقت بنفسها عليّ من الشرفة... وما يدري إلاّ وحسين يقول له:

- دورك..

اللغة الإنجليزية! وحلّ محلّ أخيه، وألقى درسًا ممتلئًا عطفًا وحبًا للغلام الذي يجري في عروقه الدم الذي يجري في عروقها. ذلك الدم الذي استشفّه في بطن ركبته. وانتهى بعد زمن لم يدرك له طولًا، ثمّ غادرا الشقة معًا إلى السّلّم المظلم. ولم يعد يطيق صبرًا فقال:

- كان ظهورها اليوم مفاجأة بديعة!
- فقال حسين بلهجة تنمّ عن الانتقاد:
- حاذر لا تكن وقحًا. هذا بيت محترم!
- ماذا فعلت فأستحقّ هذا التأييب؟
- لا تفعل شيئًا تندم على فعله إذا كان فريد أفندي معنا.

وغلبه السرور فقال وكأنّه يناجي نفسه:

السماء تزيد الظلمة عمقًا ووحشة، لم يكن بالأفاق نجم واحد، ولاحت أضواء المصابيح خافتة تحت غاشية من الضباب، وخيم على الكون سكوت ثقيل وبرودة صامتة كأنما كتمت أنفاسه. «حنبلّي، حنبلّي». يجب أن يكون رجلًا وقورًا قبل الأوان. ولا يبدو أنّه يريد أن يعاونني. من يدري لعلها لو كانت لها أخت لتغيّر سلوكه. إنّه كأتمه جدّ صارم. ينبغي أن أفضّ هذه المشكلة بالحلّ الموقّ، وراح يتفكّر باهتمام حتّى سمع صوت سالم يناديه فغادر موقفه إلى الحجرة. وقال له الغلام:

- تفضّل شايًا.

ورأى قذحين من الشاي على الخوان فتناول أحدهما وقد خفف منظر الشاي من توتر أعصابه. وقبل مضيّ دقيقة سمعا صرير الأكرة فنظرا صوب الباب ففتح قليلًا وبدت بهيّة! كانت تحمل السكّرية فأعطتها لسالم وهي تقول:

- خذ هذه فربما لم يكف ما بالشاي من سكر..

كانت ترتدي فستانًا بنيًا تكاد تمسّ أهدابه أعلى القدم فأضفى طولها على قامتها المائلة للقصر ملاحه. وحملق الشقيقان في وجهها وهي لا تحوّل عينيها عن الغلام. ثمّ غضّ حسين بصره وليّا يبق من وقع المفاجأة بينا ظلّ حسين يحمق في وجهها كأنّه عجز عن استرداد بصره. ورأى الغلام يجيء بالسكّرية، وأخذت الفتاة تردّ الباب فملاً الجرع قلبه الخافق، وعزّ عليه أن تختفي وهو غارق في ذهوله وجموده، وطفرت من أعماقه رغبة في الإفصاح لا تقاوم، فقال بعجلة:

- شكرًا. الشاي به الكفاية..!

وتحوّلت عيناها إليه في ارتباك، ثمّ اختفت دون أن تنبس بكلمة، ولعلّ عينيها تمّتا عن ابتسامة مكتومة. وتحاشى النظر صوب أخيه فحصر بصره في قدح الشاي. «مفاجأة لم أكن أنتظرها. حلم سعيد. على الرغم من الباب المغلق!» ورشف رشفة كبيرة من السائل الساخن فلسعت لسانه وسقف حلقة وجعلته ينفخ في جزع. ولكنّ سخونة الشاي لم تغيّبه طويلًا

- جاءت بنفسها، لله ما أَلطفها!

- ليس في هذا ما يعجب... .

- ترى أَكلَفها أبوها بإحضار السَّكْرِيَّة؟

فقال حسين بملل:

- من أدراي بِذلك!

- أم جاءت من تلقاء نفسها؟

- ليكن هذا أو ذاك.

- وإذا كان من تلقاء نفسها فهل جاءت تحت بصر والديها؟

فلم يجبه الآخر وإن ظلَّ متبهِها لما يقول في اهتمام شديد، فعاد حسنين يتساءل:

- أو جاءت خفية؟!

فهتف حسين:

- خفية؟!

فضغط الشابُّ على ذراع أخيه وقال وهما يغادران آخر درجات السلم:

- ألا يقولون «من القلب للقلب رسول ٩١».

- ١٧ -

- جئت الآن وحدي، وسيجيء حسين بعدي، حتَّى لا يضيع وقتنا بلا ضرورة!

فقال سالم بأدب:

- هذا أفضل.. .

وأتخذ كلاهما مجلسه، ولكنَّ حسنين قال قبل أن يبدأ درسه: الأوفى أن تغلق الشرفة وتفتح الباب!

ونهض سالم فحقَّق رغبة أستاذه. ورأى الصالة مظلمة صامتة ولكن لم يفتر أمله، فلا يزال في الوقت مَتَسِع للشاي، ثمَّ للسَّكْرِيَّة! وأراد سالم أن يتوَدَّد إلى مدرِّسه بأن يفضي إليه بما في نفسه فقال:

- بابا وماما عند سَتِّي.. .

فحقَّق قلبه بعنف، ونظر إلى الغلام طويلاً، ثمَّ سأله:

- متى ذهباً؟

- بعد العصر.. .

وساوره القلق أن تكون قد ذهبت معها فتساءل:

- وكيف تبقى وحدك في البيت؟

فقال الغلام:

- معي أبله بهيَّة.. .

وابترد صدره بلذَّة الارتياح والأمل: «الشاي والسَّكْر. السَّكْر خاصَّة، بل السَّكْرِيَّة. سأتحقَّق اليوم ممَّا إذا كانت تتعمَّد الظهور أمامي!». وأمر الغلام أن يطلع ويبدأ الدرس، وأصغى إليه دقائق ثمَّ مضى يغيب عنه. «هل أطلب شيئاً؟ قلَّة ذوق! ولكن إذا تأخَّر الشاي فلا بدَّ من طلبه. إنِّي مضطرب أكثر ممَّا ينبغي. إننا وحيدان في الشقَّة أنا وهي. لا يَخْدش هذه الوحدة سالم أو الخادم الصغير، فنحن وحيدان. فلأنعم طويلاً بهذه الوحدة الخياليَّة. لو كانت الدنيا بسيطة كبساطتها الحلوة الأولى لقمتم إليها وأخذتها بين ذراعي، وسألتها باطمئنان كامل أن تكشف لي عن ساقبها. ما الذي يجعلني أحجم عن رغبة كهذه؟ هذا سخف الدنيا الذي قتل أبي وأنزل بنا ما نحن فيه». وانتبه إلى سالم وهو يسأله عن معنى كلمة فذكر له معناها، وأمره أن يواصل المطالعة. وقبل أن يغيب عنه صوت الغلام سمع وقع أقدام تقترب فأعجبه بصره ناحية الباب المفتوح، ثمَّ رأى صينيَّة الشاي تتقدَّم حاملها، ووقع بصره على الساعدين اللتين تحملاها فحقَّق قلبه خفقة عفيفة ونهض قائماً كمن به مَسٌّ، وجاءه صوت رقيق وهو يخطر نحو الباب يقول بصوت كالممس:

- سالم.. .

فظهر حيالها وهو يتفحصها بنظرة عارمة ثمَّ همس:

- ألف شكر.. .

وتورَّد الوجه الأبيض المائل للشحوب ولعلَّه لم يتوقَّع ظهوره، ثمَّ غصَّت بصرها في ارتباك. ومدَّ حسنين يديه فتناول الصينيَّة، فأطبقت يده اليمنى على أصابع يسراها، وسرى مَسُّها في يده، وذراعه، وجسمه، وروحه، في أقلَّ من الثانية. ولم تقف به جرأته عند حدٍّ فضغط على أصابعها ضغطة غير خافية، فاستخلصت يدها في استياء، وفي وجهها عبوسة، وتحولت عن الباب في حدَّة الغضب. وعاد إلى انخوائه بالصينيَّة شديد التأثُّر، ثمَّ جلس على مقعده وهو يقول

إلى الداخل، ثم جاءه الغلام بالمنديل فتناوله ومضى وقد نسي أن يشكره . .

- ١٨ -

ورفع حسين رأسه عن المكتب وتفحصه بدهشة ثم سأل:

- ما لك؟

فضحك حسين ضحكة قصيرة دون أن يجيب، فسأله الآخر بلهجة ذات معنى:

- أعطيت درسك؟

فارتدى حسين على فراشه وتساءل:

- هل أبدو متغيرًا؟

- بلا ريب.

فتنهّد الشاب قائلاً:

- يحقّ لي أن أحمد الله على أنّ أمنا تجلس فيها يشبه الظلام.

- ماذا حدث؟

هل يخبره بما حدث؟ ولكن هل يلقى منه إلّا زجرًا؟ قال:

- لم يحدث شيء؟

- واضطرابك؟! إنك إذا اضطربت تؤثر نفسك كالخمار.

قال حسين ذلك ثم تساءل في نفسه هل يتوتر أنف الخمار حقًا، كيف اختار هذا التشبيه؟ ولكن الآخر تضاحك قائلاً:

- هيجان شعور، هذا كلّ ما هنالك. . .

- وبعد؟

- ولا قبل!

فقال حسين بجدّ واهتمام:

- أريد أن أعرف مقصدك.

- لا أفهم ما تقول.

- لا تتجاهل ما أعني أنت تفهم كلّ شيء. لماذا لا

تركها وشأنها؟ ألا تخاف أن يفطن فريد أفندي إلى

عشك أو أن يبلغه أمرك عن طريق الفتاة نفسها؟

سترمي بنا إلى مركز حرج. . .

فقال حسين مبتسمًا:

للغلام في ارتباك:

- استمر. .

«ترى هل تعجلت الأمر قبل أن ينضج؟ ما أقلّ

صبري، هكذا أنا دائمًا. يا لها من عبوسة! عبست

وتولّت. إن يكن حياء فهو عزّ المنى، وإن يكن حنقًا

فلعلّه الختام. هيهات أن أتراجع. هيهات أن يطيب

لي التردّد أبدًا، لماذا جاءت بنفسها؟ لماذا لم تكلف

الخادم بحمل الصينية؟ جاءت لي أنا. هذا واضح. لا

داعي للخوف». وكان يتبّه إلى سالم في أويقات

متقطعة، ويملي عليه بعض الأسئلة، ثم يغيب عنه في

قلق يراوح بين الإشفاق والسرور. ولمّا أن انتهى

الدرس خطرت له فكرة فصمّ على تنفيذها دون

تردّد. ونهض قائمًا، وغادر سالم الحجرة ليوسع له

الطريق فأخرج منديله من جيب معطفه وتركه على

المقعد، ثم غادر الشقّة. ولكنّه لم يبرح مكانه بعد

إغلاق الباب. وقف يرهف السمع إلى خطوات الغلام

حتى ضاعت، وترتّب لحظة ثم نقر على الباب. وانتظر

وقلبه يشب وثبًا من شدّة الخفقان. «إذا جاءت الخادم

ضاع تدبيره هباء، ولكن من المحتمل أن تأتي هي.

أمري لله». وأضاء نور الصالة وسمع وقع أقدام قادمة

ثم فُتح الباب. هي. ولم يبال ما ارتسم على وجهها

من أي الدهشة، ولم يضيّع وقته سدّى فتساءل في رقة

وإشفاق:

- أخاف أن أكون أغضبتك!

فتراجعت خطوة دون أن تفتح فاها فقال بعجلة:

- لا أطيق أن تغضبي أبدًا. . .

فغمغمت في استنكار كأنها لا تحتمل أن يوجّه إليها

خطابًا:

- لا، لا، لا، هذا كثير!

ولم يستطع أن يتكلّم لأنّ سالم ظهر على عتبة الغرفة

اليسرى وهو يتساءل:

- جاءت ماما؟

فقال حسين بصوت مرتفع:

- نسيت منديلي في الحجرة!

وجرى سالم إلى الحجرة، وسارعت الفتاة بالعودة

- والله يا أخي لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أتركها ما تركتها أو أهلك دونها. . .  
فضحك حسين على رغبته، ثم قال وهو يستعيد مظهر الجدِّ والرزانة:  
- ماذا تريد منها؟

يا له من سؤال! يبدو غاية في البساطة ولكن من له بأن يجيب عليه، ولم يكن طرح على نفسه هذا السؤال فلم يدر له جوابًا. كان اندفاعه بوجي من عواطفه وغرائزه دون حاجة إلى تفكير. ثم قال في حيرة:  
- في مثل الحالي لا تفرق بين الباعث والغاية.  
- لا أفهم ما تقول.

- ولا أنا بفاهم!  
- إذن دعها وشأنها كما قلت لك.  
- لن أزال وراءها حتى...  
فتفحصه حسين بنظرة كثيفة وتمتم متسائلًا:

- حتى ماذا؟  
- حتى تقع كما وقعت.  
- ثم؟!  
فقال الشاب الحائر:  
- حسبي هذا!

فهزَّ حسين رأسه في حدة وقال:  
- أنت مخطئ. إنها فتاة مهذَّبة، ومن أسرة طيبة، ولن ترضى عن سلوكك..

- هي ما قلت وأكثر ولكني لن أتخلَّى عن أملي..  
وقام إلى المكتب فأخذ كتبه وكراساته وعاد إلى الفراش ثم وضعها على حافة النافذة المخلقة التي تلي فراشه مباشرة، وجلس متربِّعًا حياها كأنه جالس إلى مكتب، فسأله حسين متعجبًا:

- لم لا تجلس إلى المكتب؟  
- أريد أن أترجِّع لأدقِّ ساقبي.

وكان يفكر في أمر ذي بال ففتح كراسة واقتطع منها صفحة وأمسك بالقلم يعمل ذهنه في اهتمام ووجد واضطراب. «سأكتب لها كلمة. لن تتاح لي فرصة لمخاطبتها فلا حيلة لي إلا هذه. ولكن ماذا أكتب؟». وركَّز فكره مستعينًا بالسكون الذي يغشى

الحجرة لا يחדشه شيء إلا خشخشة أوراق الكرّاسة إذا قلبها حسين، ولكن أخذت أذناه تستبين صوت راديو يتسلَّل من النافذة المغلقة وانيًا من بيت من بيوت العطفة. وقطَّب متظاهرًا بالضجر ولكنّه ارتاح إلى سماعه هربًا من حيرة أفكاره. وأصغى إلى «عادت ليالي الهناء» فسلمَّ سريعًا بمجامع نفسه وجاش صدره بالحنان وندى بالعطف وهفا قلبه نشوة للحبِّ والحياة. وغمرته موجة حماس فامتلاً نشاطًا وتمنَّى لو ينطلق إلى الخلاء متلفعًا بالظلام. وجعل يغيب عن النغم رويدًا بعد أن فتح لروحه أبواب جنة عامرة بالأحلام والرؤى. «يجب أن أكتب كلمتين. جملتين فحسب، حتى لا أسودَّ إلا ورقة صغيرة إذا رميت بها عند قدميها لم يستنّبها أحد». وحرك القلم كاتبًا: عزيزي بهيَّة إنِّي أسف جدًّا لأنِّي أغضبتك. «أليس الأفضل أن أقول: لا تغضبني يا عزيزي؟.. سيّان. ثم ماذا؟ ينبغي أن أعترف لها بحبي. أريد جملة غير مبتذلة. اللهمَّ عونك.» وقطع حسين عليه تفكيره متسائلًا:

- ماذا تكتب؟  
- موضوع إنشاء.  
- ما هو؟  
فقال بلا تردّد:

- أثر الموسيقى في نهضة الأمم...  
عزيزي بهيَّة، إنِّي أسف جدًّا لأنِّي أغضبتك. أبحث لك الغضب لأنِّي أحبك؟ «يكفي هذا فخير الكلام ما قلَّ ودلَّ. كلّا لا يكفي. النعمة ناقصة. استشهد بيت من الشعر. كلّا فهذا يثير الضحك عادة. وضحكة واحدة خليقة بأن تفوّت عليَّ الغرض. جملة أخرى مؤثّرة. يا ربَّ يا معين!» ووثبت إلى ذهنه عبارة لا بأس بها فشرع يكتب: والله ما فعلت ما فعلت.. ولكن حسين قاطعه مرةً أخرى قائلاً:

- هل انتهيت من نقط الموضوع؟  
فانزعج حسين في غيظ مكتوم:  
- تقريبًا.. عن إذنك لحظة واحدة!  
وعاد إلى الخطاب في تصميم من يريد الفراغ منه فكتب: والله ما فعلت ما فعلت إلا لأنِّي أحبك.

تقول:

- ستّ زينب ثني عليك جميل الشاء. وإني أتوسّم  
فيك الخير..

فابتسمت نفيسة ابتسامة باهتة وانفرجت شفاتها  
دون أن تنبس بكلمة. «لعلّها قالت إني خياطة ماهرة.  
هذا حسن. أمّذح أم ذمّ؟ لا أدري. ترى هل قصّت  
عليك نبا أسرتنا؟ كان أبي كأبيك. وكنت سيّدة  
مثلك. وطالما انتظرت العريس ولكنّه لم يأت. ولن  
يأتي». وسألت العروس في رقة وهي تعلم الجواب:

- لماذا ترتدين السواد؟

فأجابتها في حزن:

- توفي والدي منذ شهرين. وكان رحمه الله موظفًا  
في وزارة المعارف.

- حدّثتنا بذلك ستّ زينب. البقية في حياتك.

- حياتك الباقية. نحن من بناها، وخالي تقيم هناك  
مع زوجها الذي يملك محلجًا للقطن.

ودخلت عند ذاك خادماً حاملة بقجة فوضعتها إلى  
جانب سيّدها وذهبت. وحلّت العروس عقدتها  
فانحسرت عن كوم من الحرائر مختلفة ألوانها. وأدركت  
نفيسة من النظرة الأولى أنّها أقمشة للثياب الداخلية.  
ولعلّها أرسلت بالفساتين إلى خياطة كبيرة، وارتاحت  
لهذا لأنّها كانت تشفق من أن تعرّض سمعتها لتجربة  
شائعة لا قيّل لها بها، عمل في حدود طاقتها وريح  
مضمون. وقامت إلى مجلس العروس وراحت تتفحص  
الأقمشة وتحسّسها قائلة:

- مبارك عليك. يا له من حرير نفيس.

فافتّر ثغر العروس عن ابتسامة سعيدة وقالت:

- نبدأ الآن بالقياس. وعلى فكرة أعندك مانع من  
مباشرة العمل هنا في بيتنا؟ عندنا ما نحتاجين إليه من  
الأدوات كلّها، وليس ثمة أطفال في البيت، وفضلاً  
عن هذا كلّه فبيتنا غير بعيد من عطفتكم فنستطيعين  
الحضور كلّ يوم في غير مشقة.

ولم ترّ نفيسة بدأ من أن تقول:

- لك ما تشائين يا هانم..

وقامت الفتاة ووقفت أمامها، وجعلت نفيسة تقيس

وسأحكك ما حييت، ولا حياة لي إلّا برضاك عني.  
وأعاد قراءتها بعناية، ثمّ تنهّد في ارتياح عميق،  
وطواها وثني طرفيها ثمّ أودعها جيبه. «سأنتهز فرصة  
اقترابها من الباب، أو مروري بها في الصلاة، ثمّ أرمي  
بها إليها، وليكن ما يكون»..

- ١٩ -

وجدت نفيسة نفسها في حجرة متوسطة الحجم،  
قامت على جانبيها كبتان كبيرتان وبضعة مقاعد، أمّا  
أرضها ففرشت ببساط أسويطي، وفي جدارها المواجه  
لمدخلها شرفة تطلّ من الدور الرابع على شارع شبرا.  
كان الأثاث قديماً والظاهر أنّ الحجرة كانت معدّة  
لجلوس الأسرة في أوقات الفراغ كما يمكن أن يُستدلّ  
عليه من وجود الراديو بداخلها على كذب من الباب.  
وقد لاحظت الفتاة مذ وطئت قدمها الشقة أنّها على  
قدر وافر من الجاه يبدو في الصلاة الصغرى التي أثّنت  
كمدخل للبيت، والصلاة الكبرى الفاخرة المعدّة  
للسفرة، فحقّ لها أن تصدّق صاحبة بيتهم بعطفة  
نصرالله حين قالت لها «جئت لك بربونة ملائنة،  
عروس ومن أسرة كريمة، فأرجو أن تخطي ثيابها بما  
تستحقّ من عناية علّها تفتح لك مغلق الأبواب».  
وكانت نفيسة مضطربة لدخولها بيتاً غريباً للعمل أوّل  
مرة. وجلست على مقعد قريب من الباب تنتظر.  
وكانت ترتدي ثوب الحداد وقد أرسلت شعرها الأسود  
في ضفيرة قصيرة فبدا وجهها العاطل من الزواق  
والحسن شاحباً بائساً. «بيت غريب وأناس غرباء.  
خطوة جديدة في سبيل المهنة. لست إلّا خياطة. ليست  
كرامتي التي تعرّ عليّ ولكن كرامتك أنت يا أبي». ولم  
يطل بها الانتظار إذ جاءت من الحجرة فتاة في العشرين  
على حسن ورشاقة، فقامت تستقبلها، وسلّمت عليها  
القادمة وهي تلقي نظرة متفحّصة ثمّ قالت:

- أهلاً وسهلاً. حضرتك الستّ نفيسة التي  
أرسلتكَ ستّ زينب؟

فقالت الفتاة في حياء:

- نعم يا هانم. وحضرتك العروس؟

فأومأت بالإيجاب مبتسمة، ثمّ جلستا، وهي

وغادرت بيت العروس قبيل الأصيل متعبة. وكانت عطفة نصرالله تبعد عن البيت محطتين فشقت طريقها بين السابلة على مهل وتراخ. وأنعشها الهواء البارد فحسّت خطاها. ووجدت ذكريات ممّا مرّ بها في بيت العروس تنثال على غيبتها في لذة وألم معاً: كانت تجلس على كنبه وقد جلس الخطيبان على الكنبه المقلّبة. كانا ملتصقين. وكانا يتحدثان في صوت مسموع حيناً، وينخفض حيناً فيصير مناجاة وهمساً. وكم ودّت وقتذاك أن ترفع رأسها عن الماكينة إليهما ولكنّها خافت وعقلها الحياء أن تلتقي عيناها بعينيها. ومرة رفعت عينيها من تحت رأسها المنحني فوقع نظرها على ساقين ملتصقتين، ثمّ انتبهت على العروس وهي تضربه على يده قائلة في لهجة تنمّ على الدلال والوعيد:

- حذار!

استغرقها الخيال حتّى كادت تصطدم بالمآزة، ثمّ دخلها إحساس نهم بالتحرقّ إلى الحبّ. لم تحظّ طوال حياتها بقلب يحبّها ويعطف عليها، ولم تجد من متنفس عن توتر أعصابها إلّا في الضحك والسخرية من نفسها وإخوتها والناس فاشتهرت بالعبث الضاحك الذي تتوارى خلفه مرارة في الأعماق. ولم تكن لها حيلة في إحساسها فالواقع أنّ غريزتها الأنثويّة كانت الشيء الوحيد بها الذي سلم من النقص والضعف واستوى ناضجاً حارّاً، فلم يخلُ صدرها من عذاب سجين وقفت له تربيته وكرامته وأسرتها بالمرصاد. ولكنّ منظرًا كالذي رآته اليوم ببيت العروس كان خليقاً بأن يهزّها هزّة عنيفة قاسية. ولما تخاللت لعينيها عطفة نصرالله عابثاً أمل جديد داعبها كثيراً في الأيام الأخيرة. هنالك بقالة عمّ جابر سليمان التي تقع قبل عمارتهم بقليل، أو هناك سليمان جابر سليمان ابن عمّ جابر وصبيّه. ولقد اعتادت التردّد على البقالة بعد طرد الخادم لابتياح ما يلزمهم فعرفت الفتى معرفة أخذت تزداد بمرور الأيام. واستحضرت صورة الفتى بقامته الطويلة المائلة للامتلاء ووجهه البيضاويّ الأسمر،

الأقمشة عليها. امتلأ أنفها الغليظ برائحة الحرير الجديد، وشعرت لمسّه وهو ينزلق بين أصابعها بإحساس غريب، فيه اشتها وفيه ألم. بيد أنّها أحسّت كذلك، حيال استسلام الفتاة وما تعقده على مهارة يديها من رجاء بنوع من السيادة. فكأنّها ظفرت بأمل في العزاء، ولكنّه سرعان ما فتر وأخلف وراءه يأساً قائماً «عروس وحرير أحقّاً أخط هذه الثياب لهذه العروس؟. كلاً هذه الثياب الداخلية تبيّاً للعريس قبل العروس!.. ستداعب أنامله أهدابها الناعمة وماذتها اللطيفة. إنّني أشارك في هذا الزواج. وسأشارك في زيجات كثيرة دون أن أنزوّج، فأنعة من هذا كلّه بأحلامي المحرقة. يا لها من فتاة مليحة وسعيدة. تكاد السعادة تتوهّج في عينيها، اليوم تجهّز الحرير، وغداً تنتظر الحبيب، وتتسّم أنفاس الأمومة الحارّة تنفو عليها من أفق وديّ. طالما حلمت بهذا وأبي يقول لي إنّ الخفة أنفاس من الجبال، ثمّ بلغت الثالثة والعشرين بين الإشفاق والرجاء، وبموته مات الرجاء. لماذا خلّقت هكذا دميّة؟. لماذا لم أخلق كإخوتي الذكور؟ ما أجمل حسنين، وحسين، حتّى حسن، إنّني ميتة كأي، وهو في باب النصر وأنا في شبرا» وسمعت العروس تسألها:

- اتّحّين أن تتسلّمي بعض أجرك مقدّماً؟

فقالت بعجلة:

- لا داعي لذلك مطلقاً.

ثمّ عضّها الندم على ما قالت فتضاعف حنقها ويأسها. وسمعت أطيح حذاء يقترّب فرفعت رأسها نحو الباب فرأت شابّاً يدخل الحجرة هاشماً، وأقبل على العروس فالتحمت يداهما، وتبادلا ابتسامة سعيدة، ثمّ سألها:

- أين والدتك؟

- في حمجرتها.

ثمّ التفتت إلى نفيسة وقالت تقدّم لها الشاب:

- حسن خطيب.

ثمّ عطفت رأسها إليه قائلة:

- ستّ نفيسة الخطّاطة..

الوحيد الذي يمكن أن يتّصف بالجمال في وجهه. وأبى إلا أن يباردها بالكلام فقال:

- أيّ خدمة يا ستّ نفيسة؟

فقال الفتاة وهي ترمش ارتباكًا:

- حلالة طحينيّة بقرش.

فتناول السكّين وقطع لها قطعة وافية، ثم قشط قطعة صغيرة وهو يقول بصوت منخفض:

- هذه الزيادة إكرامًا لك يا ستّ نفيسة.

ولفّ الحلالة في ورقة وقدمها لها، ثم أخذ القرش وهو يلحظ أباه بطرف خفيّ، ولمّا وجده مكبًا على الدفتر، تشجّع وقال همسًا:

- سأحفظ بقرشك بركة!

فابتسمت ابتسامة خفيفة وذهبت. ابتسمت عمدًا كأنها تشجّعه وترجّبه به. وقد كلّفها هذا جهدًا كبيرًا. «لم يعد يقنع بلغة العيون فتكلّم، وحسنًا فعل». وعلى رغم ضالة شأنه ومنظره اهتزّ قلبها سرورًا، وجاش صدرها بالانفعال. وكانت تخيلت هذا الموقف - قبل أن يحدث - وهي عاكفة على عملها بيت العروس فلم يفترق الواقع عن الخيال إلا قليلًا. تخيلت نفسها واقفة أمامه لتبتاع الحلالة فجعل يلتهمها بعينه ثم قال لها وهو يتناول القرش «أنت أحلى من الحلالة». حقًا لم يقل هذا ولكنّه قال قولًا يضاهيه. وتنهّد بارتياح ثمّ طار خيالها إلى ذكريات عشاقها الغابرين! كان أولهم وزيرًا وقد رأيته في صفحة مجلّة المصوّر ثمّ راحت تسجّ حول صورته وشيّا من أحلامها حتّى أنجبت له غلامًا فريدًا وكان فريد أفندي محمّد نفسه العاشق الثاني، وبسببه خاصمت في الخيال زوجته وأسرته. أمّا سلمان فهو أسوأهم حالًا ولكنّه العاشق الوحيد الحقيقيّ. ولمّا بلغت منتصف الفناء خافت أن تلومها أمّها على قضاء النهار خارج البيت فضاق صدرها وقالت كأنما تردّ عليها:

- كفيّ عن لومك فما عدت أحمل أكثر ممّا بي.

وعلا صوتها ورنّ في بئر السلم فنظرت فيما حولها بحذر، وكنمت بأصابعها ضحكة كادت تفلت من شفيتها!!

وعينه الضيّقتين، وتساءلت ترى هل حقًا يبدي نحوها اهتمامًا أو أنّها واهمة؟ خيل إليها كثيرًا أنّه يبتسم إليها في تردّد ولعلّه لم يستطع أن ينسى بعد أنّها كريمة كامل أفندي عليّ. وكانت على جفوة طلعتها تحظى بمظهر الفتيات المحترّفات، أمّا سلمان فما هو إلا ابن بقال بسيط، ولا تعلق منزلته في دكان أبيه عن صبيّ. وكانت تعلم بهذا كلّها ولكن لم يكن بوسعها أن تنفر من إنسان أيّا كان إذا أبدى نحوها ميلًا. لا يسعها إلا أن تحبّ من يحبّها. بيد أنّها رُدّت فجأة إلى فنور وامتناع وأطبق عليها شبح اليأس القديم؟ وكان قلبها يقول لها: لا تغرّري بنفسك ولا تسمحي لكواذب الآمال أن تعبت بعقلك. ارتضي اليأس، واقنعي منه بالراحة وهي السلوى الوحيدة لفتاة مثلك لا مال ولا جمال ولا أب لها. ولكنّها كانت تعلم أنّها لن تطيع قلبها أو - على الأصحّ - صوت مخاوفها. وكانت تزدد استسلامًا كلّما قربت من عطفة نصرالله وعادوها الأمل والحنان. الله قادر على كلّ شيء. وكما يقضي عليها بالأحزان يهب إذا شاء الأمل والعزاء، ما لي من رجاء سواه. ولن يخيب عنده رجاء. لم أجنّ ذنبًا استحقّ عليه الهوان. ولم تجنّ أسرتنا ذنبًا. فلا بدّ أن تنكشف هذه الغمّة. ولكن من سلمان؟ هل يرضى به حسنين؟ إنهم جميعًا ذوو كبرياء ولا أظنّ الفقر يغالب على كبريائهم. وحسن ليس له من الأمر شيء. حسن!! لبيته يغيّر من طبعه ويتشّلن ممّا نحن فيه. لا معاش أبي ولا عملي بكافيين فماذا صنع هو؟ لن يرضى أحد بسلمان ولن يأتي من هو خير منه. ومن أدراي أنّه يفكر فيّ حقًا؟!». ومالت إلى العطفة تسبقها عينها إلى بقالة عمّ جابر سلمان حتّى بلغتها. وخطر لها أن تمضي إليها لتبتاع شيئًا، أيّ شيء، ومضت إليها دون تردّد. كان عمّ جابر سلمان العجوز جالسًا إلى مكتبه الصغير عاكفًا على دفتر الحسابات، بينا وقف ابنه الشاب سلمان جابر وراء الطاولة التي تعترض مدخل الدكان. وانتبه الفتى إليها حال وقوفها أمامه فنظر إليها متهلّل الوجه وقد لمعت عيناه الضيّقتان. كانت قسّماته تشي بالغباء والحيوانيّة والجبن، وكان شاربه الصغير الشيء

## - ٢١ -

وأغلقت الباب، وابتعدت عن موقفه متجهة إلى الباب. ولم يسمح لها بالإفلات فوثب خطوتين ووقف معترضاً سبيلها، فحدجته بنظرة غضبي واستقام رأسها في حدة وقالت مستنكرة:

- هذا كثير!

فقال الشاب بجرأة ورقة معاً:

- دائماً غضبي! إني أعجب لحظي فما أجد منك غير الغضب!

فلاح في وجهها الضجر وقالت باستياء:

- دعني أمر من فضلك...

فبسط ذراعيه كأنه يريد سد الفراغ كله وقال:

- هذه فرصة لم يكن بوسعي أن أحلم بها فلا يمكن أن أدعها تفلت من يدي. ويحق لي أن أستبقيك بعض الوقت بعد اختفائك المتعمد الذي عذّبني أشدّ العذاب، لماذا تختفين؟ أو دعيني أسألك ماذا وجدت برسالي؟

فقطبت في استياء وقالت بحدة:

- أتذكر هذه الورقة! يا لها من جرأة غير محمودة لا أوافق عليها..!

وكان يرنو إليها بين الأمل والخوف. «هل أصدق هذا الغضب الظاهر؟.. قلبي يحدثني بأنه مبالغ فيه. لعلّه عرض من أعراض الحياء. إنه كذلك حتماً. لو أردت أن تشقّ طريقها ما وسعني منعها. لا أريد أن أصدق. ولكن لماذا أصررت على الاختفاء؟» وقال باستعطاف:

- جرأة مُحلت عليها بعد أن أعياني الصبر!

فهزّت رأسها متبرّمة وتمتمت:

- الصبر! لا تعبت بهذه الألفاظ، ودعني أذهب من فضلك.

فقال في صدق وحرارة:

- ما قلت إلا الصدق. والصدق وحده كان محرّضي على كتابة رسالتي الصغيرة، فكلّ ما بها صدق. وإنه ليسوعي كلّ الإساءة ألا تلقى عواطفني منك إلا الغضب والنفور!

وازدرد ريقه وهو يلهث ثم استدرك قائلاً بصوت

غادر حسنين شقّة فريد أفندي محمّد، وأغلق الباب وراءه. كان من الكتابة في غاية، واتّجه نحو السلم طاوئاً صدره على اليأس والقهر ولكنّه توقّف ويده على الدرابزين، ورفع رأسه متتبّعاً حفيف ثوب. فرأى طرف فستان أو معطف وقد عبر صاحبه بسطة السلم الأخيرة المفضية إلى سطح العمارة. من؟ من عسى أن يرتدي هذا اللون الأحمر من سگان العمارة الذين يعرفهم حقّ المعرفة؟ ودقّ قلبه بعنف وشعر بقوة تدفعه إلى أعلى فألقى على الباب المغلق نظرة حذر وأنصت في انتباه وقلق ثمّ تحوّل عن موقعه وقطع الردهة أمام الشقّة على أطراف مشطه متّجهاً صوب السلم الأخير الصاعد إلى السطح: لعلّها هي. لم يعد يراها منذلقى برسالته المطوية تحت قدميها، لا في الحجرة ولا في الصالة. اختفت غاضبة ولا شكّ غير عابئة برسالته وعواطفه، ولم تعد ساعات الدرس بعدها إلّا عذاباً وضجراً. وقد ارتقى السلم دون أن يحدث صوتاً حتّى بلغ البسطة الأخيرة فرأى شعاع الشمس المائلة للغروب في مستوى عينيه، ونسمت على جبينه موجات لطيفة من الهواء، وألقى على السطح نظرة شاملة ما بين سوره المطلّ على عطفة نصرالله وسوره الخلفي فلم يجد أثراً لإنسان، ولم يكن به من قائم إلّا حجرتان خشبيتان للدجاج، إحداها في مواجهة باب السطح، والأخرى في ركن السطح عند طرف السور الخلفي وهي الخاصة بأسرة فريد أفندي، واقترب من الحجرة البعيدة في سكون ووقف قريباً من بابها مرهف السمع ولم يسمع بادئ الأمر إلّا قوقأة الدجاج، ثمّ سمع صوتاً يدعو الدجاج «ك ك ك ك» فلم يستطع أن يتيّن حقيقة صاحبه، وخاف أن تكون الأمّ التي بالداخل فتراجع خطوة مضطرباً، وهمّ بالهروب، ولكن فُتح الباب وبدت على عتبة بهيّة في معطف أحمر. واتّسعت عيناها الزرقاوان دهشة، وثبت بصرها عليه في ذهول، ثمّ تضرّج وجهها بحمرة شديدة كأنّ صفحته استحال رقة من غمّل المعطف. ولكن لم يدم هذا إلّا لحظات، ثمّ تماثلت نفسها فجاوزت العتبة



متهتج:

- أجل إني أحبك...

وأدارت وجهها جانباً، وهي لا تزال مقطّبة كما بدا من انقباض حاجبها وزمة شفيتها، ولكنّها لا ذات بالصمت قليلاً - ممّا بعث فيه روحاً جديداً من الأمل - ثمّ قالت بصوت بدا ألطف موقّعاً ممّا سبقه:

- دعني أذهب. ألا تحبني أن يقتحم السطح علينا أحد؟!

ربّاه! ألم يعد يضايقها شيء إلا أن يقتحم السطح عليها أحد؟! وتمشّت في جوارحه نشوة سرور، فقال بحماس وعينه العسلتان تضيئان بنور بهيج:

- دعيني أفصح لك عن شعوري. إني أحبك. أحبك أكثر من الحياة نفسها. بل ليس في الحياة من خير إلا أنّي أحبك. لهذا ما كتبت. وما أقوله وما أعيده. صدّيقني ولا تلزمي السكوت فما أطيع هذا السكوت...

فعطفت وجهها نحوه فطالع في صفحته النقيّة الرزانة والجذّة ولكن خيّل إليه أنّه يرى نوعاً من التأثير لعلّها بالغت في كتامه. ثمّ سمعها تقول بصوت منخفض كالهمس:

- حسبك!.. هلّا تركتني أذهب!؟

تاب أن تجلو هذا القناع الشّد ما تستكين لحياها. وتنهّد بصوت مسموع وتتم:

- لا أريد أن أعود لعذابٍ بغير نفحة أمل. لقد فتحت لك صدري وأريتك قلبي ولا أطمع في أكثر من كلمة طيّبة تردّ إليّ روعي...

ولكنّها بدت أعجز من أن تقول هذه الكلمة، واشتدّت عليها وطأة الارتباك فنذّت عنها هذه العبارة:

- ربّاه!.. كيف أغادر هذا المكان! فغلبه التأثير، ولكن زاده التعلّق بالأمل عناداً وإلحاحاً فقال بحرارة:

- لا تجزعي هكذا! إني أحبك. ألا يشير هذا الاعتراف في نفسك إلّا الضيق!؟ لن أعود يائساً إلى العذاب. لن. لن...

- وبعده؟!

وتفحص وجهها المورّد في سمرة المغيب المأدبة فاستفزّته عاطفة هيام جامحة فشعر بأنّ الهلاك أهون من التراجع وقال باستعطاف منبث من الأعناق:

- كلمة واحدة! إذا لم تستطيعي فإيماء... وإذا تعذّر هذا فحسبي صمت أستشفّ منه الرضى!

فتحرّكت شفاتها دون أن تنبس، ثمّ التصقتا، ثمّ عطفت عنه وجهها وقد اشتدّت تورّده عمقاً. وثب قلبه في صدره من حرارة النشوة، وهتف في طمع متزايد:

- أهذا الصمت الذي أريده؟ إني أحبك، وأعاهدك أن أكون لك حتّى الموت...

ومال وجهها إلى السوراء أكثر دون أن تخرج عن صمتها المحبوب فسرت في جسده هزة سرور طاغية حتّى سكر بصره، وما يدري إلّا وهو ينفو إليها، ولكنّها تراجعت في جفول كمن يستيقظ من حلم عميق على هزة عنيفة، وتفاوت منه فيما يشبه الوثب، ثمّ ولّت مسرعة. وتسمّر في مكانه مرسلأ وراها بصراً هائماً حنوناً حتّى غيّبها الباب. وتنهّد من القلب وأطلق بصره بعيداً في سمرة المغيب، والأفق أطياف وشيات، فأحسّ بروحه تذوّب في الكون وتفنّى في بهائه. ثمّ تحرّك في بطء مخموراً متوهّجاً حتّى شارف الباب، ولكنّه شعر وهو يمرّ بالحجرة الخشبيّة الأخرى بشيء يجذب إحساسه فلاحته منه التفاتة إلى يساره فرأى أخاه حسين واقفاً وراء جدار الحجرة...

- ٢٢ -

وقال بدهشة:

- حسين!

وسرعان ما لاحظ تغيّر لونه. كان الشاب غاضباً مكفهراً الوجه. وكان يبذل غاية جهده ليضبط أعصابه ويثألك نفسه. وتساءل حسين عيماً جاء به إلى السطح ورجّح أن يكون - حين صعد لإعطاء درسه - لمحه وهو يرتقي السلم محاذراً إلى السطح فشكّ في الأمر وتبعه! هذا هو التفسير المعقول. بيد أنّ التواري وراء الجدران لاستراق النظر والسمع ليس من شيمه! ولم يدّر له بخلد أن يسأله عيماً جعله يقف هذا الموقف، وعلى العكس من هذا تولّاه الحياء والارتباك. ولم يكن الآخر

- على تغييره - بأقل منه حياء وارتباكًا. لعلّه أراد أن يداري حياءه وارتبائه بالتهادي في الغضب فقال:  
- رأيت أمورًا ساءتني كثيرًا. كيف تطارد الفتاة هذه المطاردة الوقحة؟! هذا سلوك شائن لا يليق بجار يحترم واجبات الجيرة!

ووجد حسنين في لهجة أخيه القاسية ما أنقذه من حيائه وارتبائه فقال عابسًا:

- ما أتيت منكروا! ولعلك سمعت ما قالت!  
فأغضى حسنين عن ملاحظته الأخيرة وقال بحدة أشد:

- وهل من منكر وراء اعتراضك لسييلها على هذا النحو غير اللائق؟!

- لا أحسبها تعدّه كذلك!

فقال حسنين:

- ستخبر أباه.

- لن نخبره...

فتناهى الحنق بحسين وقال بحدة:

- لشد ما خفت أن تهجم عليها، ولو فعلت لأدبتك تاديبًا قاسيًا!...

ودهش حسنين لهذا الوعيد المتأخر فكاد يطيح الغضب برأسه، ووثبت كلمات شديدة إلى طرف لسانه ولكنّه نجح بأعجوبة في القبض عليها. وصمت مليًا حتى ذهب عنه وقدة الغضب ثم قال:

- ما كان لك أن تخاف حدوث شيء كهذا...

فتفكر حسنين قليلاً ثم قال مترجعًا:

- يسرني على أية حال أن أسمع هذا القول. وإذا حق لي أن أنصحك فنصيحتي إليك أن تلزم دائيًا جادة الشرف.

فقال الآخر ببرود:

- لست في حاجة إلى مثل هذه النصيحة..

وغادر موقفه فتبعه حسنين، ونزلا معًا دون أن ينس أحدهما بكلمة. ولم يذهب حسنين إلى شقة فريد أفندي ولا حظ حسنين هذا دون تعليق. أمّا الأم فقالت لحسين متسائلة:

- ما الذي عاد بك سريعًا!

فقال حسنين:

- لم يحفظ سالم درسه السابق وسأعود إليه غدًا...  
وذهبا إلى حجرتهما فجلس حسنين إلى كرسيه من المكتب، ومضى حسنين إلى النافذة ففتحها وجلس على حافة الفراش. وأسوأ نهاية لأحسن بداية: ما أحقه! كيف سوّلت له نفسه التجسس عليّ. أفسد عليّ شاعرية الموقف السعيد. كلّ لا يمكن أن يفسدها شيء. سيزول كلّ شيء وتبقى هي وضيئة سعيدة باهرة. هيهات أن أنسى لحظة الصمت الناطق. قالت كلّ شيء دون أن تنبس بكلمة...

- أغلق النافذة هل أنت مجنون؟!

أفزعته صيحة أخيه، ثم ركب الحنق والعناد فقال:

- الجوّ محتمل ولطيف...

فصاح به حسنين:

- أغلق النافذة بلا مكابرة...

فحملته لهجة أخيه على التهادي في العناد فقال:

- انتقل إلى الكرسي الآخر لتبتعد عن تيار الهواء إن

كان ثمة تيار!

فنفخ حسنين متغيظًا وقام إلى النافذة فأغلقها بشدة ففرقت في السكون طقطقة مزعجة وتحطم لوح من الزجاج. وساد صمت ورعب، وسرعان ما أعياه الغضب فلطم حسنين صارتخًا:

- أنت السبب!

وجنّ جنون حسنين فضربه بقبضة يده في رأسه، ثم اشتبك في عراك. وما لبثت الأم ونفيسة أن هرولتا إلى الداخل، وبحضور الأم كفّ كلاهما وهو يدمدم ويهيم. ووقفت الأم حيالهما تردّد بينهما بصرا غاضبًا، ثم استقرت عيناها على الزجاج المحطم. وتساءلت في هدوء ينذر بالعاصفة:

- ما خطبكما؟

فقال حسنين بعجلة ولهجة:

- كان يغلق النافذة بقوة فتحطم الزجاج ثم

لطمني...

وقال حسنين بصوت متهذّب:

- فتح النافذة في هذا الجو البارد فطلبت إليه أن

يغلقها فأبى بوقاحة فقامت لأغلقها بنفسى وحصل ما حصل...  
 فزفرت الأم قائلة:  
 - رحماك يا ربّي ألا يكفيني ما بي!  
 وقبضت بيديها على منكبيها وجذبتها إلى وسط الحجرة، وصاحت في وجه حسين قائلة:  
 - ألا تخجل من نفسك وأنت في سنّ الرجال.  
 ودفعته في صدره بقبضة يدها مرّتين، ثمّ لطمته، وانقضّت على حسين الذي تراجع وهو يصيح:  
 - هو البادئ بالضرب، وهو السذي حطّم الزجاج...  
 ولكنّها هوت بكفّها على فمه، ثمّ كيّلت له الضربات على رأسه ووجهه حتّى حالت بينها نفيسة. وصاحت المرأة:  
 - حذار أن أسمع لأحدكما صوتًا. أمّا النافذة فستبقى مكسورة حتّى تصلحها بنفسكما...  
 وغادرت الحجرة منكفئة الوجه تملأها تعاسة لا حدّ لها. ولبثت نفيسة بينها برهة محزونة ثمّ تمتعت:  
 - زمن العراك انتهى. أنتبا رجلان الآن!  
 ثمّ خاطبت حسين مبتسمة:  
 - ضمت بالهواء لحظة فماذا أنت فاعل الآن وقد فتحتها إلى الأبد؟! أليصقا جريدة مكان الزجاج وإلا فعليه العوض فيكما...  
 ولما لم تجد لقولها الأثر الذي انتظرت غادرت الحجرة. وعاد حسين إلى كرسيّه صامتًا على حين ارغى حسين على الفراش منفعلًا. كثيرًا ما ينتهي الشجار بينهما بتدخل الأم على هذا النحو. ولم تكن حياتها تخلو من ملاحظة وشجار على صداقتها الوطيدة؛ وصحبتهما التي لا غنى لأحدهما عنها. وكانت الغيرة كثيرًا ما تعكر عليها صفوهما ولكنها ظلّا رغم هذا صديقين يتبادلان الأخوة والحبّ ولا يستغني أحدهما عن صاحبه. وكان حسين أعقل الأخوين وحسين أقواهما، فكان الأول يقوم بمهمّة الإرشاد والتوجيه فيما يعرض لهما من مشكلات يتعلّق أغلبها باللعب والمسائل الاقتصادية الصغيرة، وكان الآخر يحمل عبء الدفاع الأكبر فيما

يشتجر بينها وبين الآخرين من عراك، خصوصًا وأنهما كانا يتفاديان من الاستعانة بحسن إذا اشتدّ الخصم عليهما أن يتحوّل النزاع من عراك بين تلاميذ متخاصمين إلى معركة حقيقيّة دامية وخيمة العواقب، بيد أنّه أصبح من النادر جدًا أن يتشاجرا في الأعوام الأخيرة، ونذر بالتالي أن تؤدّبها الأم بالضرب، وقد سبقَت المعركة الأخيرة بفترة سلام طويلة كادت تقارب العام. ومهما يكن من أمر فلم يكن أثر الخصام ليحول بينهما أكثر من يوم، ثمّ يبدأ المعتدي بمخاطبة أخيه في شيء قليل من الارتباك، ولا يلبثان أن يتناسيا العراك كأنّه لم يكن. شخص آخر كان يعاني من شجارهما أكثر ممّا يعانيان، هي الأم، فكان يترك في نفسها ألمًا عميقًا ونكدًا متغلغلًا. ولم تجد من وسيلة لتأديبها خيرًا من الضرب لعلّه يصلح ما أفسد الأب بتدليله لها. ولم يكن أبغض لنفسها من أن يشدّ أحد أبنائها عن حدوده، أو أن يبدّر منه ما يعدّ افتئاتًا على رابطة الأسرة المقدّسة. وكان لها من حسنّ عبرة بذلّ الحياة أهون عليها من أن تتكرّر. وحسن نفسه لم ينبج من لكائنها ولكن بعد فوات الأوان وضياح الفرصة. وكانت لا تفتأ تلوم نفسها وأباه على تلفه، ويعذّبها أشدّ العذاب أنّه كان ضحيّة للتهاون والفقّر. وممرّ شطر من الليل والشقيان صامتان جامدان، واشتدّ السكون بعد أن آوت الأم ونفيسة إلى حجرتهما. ثمّ بدأ حسين يطالع في كتاب محاولاً أن يركّز انتباهه المشتّت. وراح حسين يراقبه اختلاصًا وهو يتساءل ترى ماذا يجد نحوه؟ وكان يحظى بذكريات جميلة خليقة بأن تعزّيه عمّا أصابه وبأن تشييه إلى طمأنينته. وسرعان ما رفّت على شفتيه ابتسامة. «كلّ شيء حسن. لاذت بالصمت، ومعناه أنّها تخبّي. حقًا؟! لشدّ ما يشوقني أن أسمعها قولًا تتحرّك به الشفتان الشهيتان. رويدك. كلّ آت قريب. الصمت بداية أمّا النهاية؟!» ولاحت منه التفاتة نحو أخيه فعاوده الابتسام. «ما كان ضررني لو أغلقت النافذة؟! يبدو أنّه لا يستطيع متابعة القراءة. لو وُهب مثل حظّي السعيد لما أعياه النسيان!» وداخله نحوه شيء من العطف.

## - ٢٣ -

عادت نفيسة إلى عطفة نصرالله عند الغروب، كعادتها في هذه الأيام الأخيرة. وكان يبدو عليها أنها أخذت تعبر نفسها اهتماماً وعناية، وهو ما أهملته طويلاً حداداً على وفاة والدها، فكحلت عينيها وصبغت خديها وشفتيها بحمرة خفيفة. شيء خير من لا شيء بل إن دأبه على التودد إليها ومغازلتها خلق بها بعض الثقة بنفسها، والطمأنينة والأمل. ولم تعد تذكر أنه ابن بقال وأنها ابنة موظف فاهتمامه بها أنزله من نفسها منزلة أثيرة رفعت فوق مقام أفضل الناس في نظرها. وانسأقت إلى تشجيعه بدافع من عواطفها المشبوبة المكبوتة، ويأسها الخائق، والرغبة في الحياة التي لا تموت إلا بالموت. وبات مع الأيام صورة مألوفة، بل محبوبة، أثبتت لها في جذب الحياة زهرة مترعة بالأمل، فلم تعد تستقبل يومها بعين خابية لا تنتظر جديداً. وما هي تنقل خطاها في عطفة نصرالله بعد نهار حافل بالعمل فيهرّها سرور حار دافق يسري من القلب وينتشر مع دمها في الأعصاب والأعضاء. قال لها مرة «تريدين حلاوة؟ ما الحلاوة إلا أنت!». وغزا قوله نفسها فابتسمت في بهجة ومرح. وقد حدثتها نفسها أن تقول له «لا تكذب، لست من الحلاوة في شيء» ولكنها أمسكت في حيرة وشك، وذكّرت نفسها بقول القائل «لكل فولة كيال» من يدري فلعلها ليست بالقبح الذي تظن. وجعلت تطوي الطريق وعيناها إلى الدكان حتى وقفت أمامه وجهاً لوجه. ولاح السرور في وجه سلمان فقال:

- أهلاً وسهلاً كنت أتساءل متى تأتين؟

ومرّت بنظرة إلى مقعد الأب فوجدته خالياً، ثم لمحته يصلي وراء العمود القائم وسط الدكان محملاً بالعلب والبطرمانات فداخلتها طمأنينة وقالت في دلال:

- ولماذا تتساءل؟

فضيق عينيها الضيقتين وقال مبتسماً:

- حزري... أسألي قلبي...

فرفعت حاجبيها المزججين وقالت:

- أسأل قلبك؟؟ ماذا وراءك يا قلبه؟

فقال الشاب همساً:

- يقول قلبي إنه سرّ لرؤياك وينتظره على لهفة!

- حقاً؟!

فاستدرك في جد أكثر من ذي قبل:

- ويقول أيضاً إنه يرغب في أن يلقاك الآن في

الشارع ليفضي إليك بأشياء هامة...

والثفت إلى أبيه فسمعه يقرأ التحيات فقال لها بعجلة:

- في وسعي أن أغيب عن الدكان فاسبقيني إلى الشارع العام!

ونظرت إليه في اضطراب وحيرة. وجدت في نفسها رغبة إلى ملاقاته، ولكنها أبت أن تدعن دون ممانعة من جانبها وإلحاح من جانبه فقالت:

- أخاف أن أتأخر...

فقال بجزع وهو يوميئ صوب أبيه محدّراً:

- دقائق معدودات. اسبقيني قبل أن يختم الرجل صلاته.

ولم تجد في الوقت مَسْعاً للتمنّع والدلال فتحوّلت عن موقفها وقلبها يدق ثم اتجهت بعد لحظة تردّد إلى شارع شبرا. ركبها الاضطراب والقلق والخوف، ولكنها أمعنّت في السير دون أن تفكر في العدول. خطوة جديدة هون من وقعها طول ما حلمت بها. وما لبثت أن تغلّبت على الخوف فارغة للأمل الحلو الذي يتخايل لعينيها في نهاية الطريق. ولما انتهت إلى الشارع نظرت وراءها فرأته يحثّ خطاه وقد ارتدى جاكته على جلبابه، فالت إلى اليمين وأوسعت خطاها مبتعدة عن حيّها. ولحق بها مهرولاً فقال بسرور:

- استأذنت من أبي دقائق...

والقت على زيه نظرة لم يخف عنه معناها فقال كالمعتذر:

- لا يمكن أن أرتدي البذلة إلا ساعات العطلة!

وكان يبدو فرحاً مسروراً. لم تكن عينه العاشقة من العمى بحيث تراها جميلة ولكنه كان من أبيه المستبدّ في ضيق وحرمان فرحب بهذه الفرصة التي تتيح له الممكن

الكلمة التي تلهّف على سماعها ويريح قلبها؟ وعاد وهو يسأل:

- هل نتقابل إذن يوم الجمعة القادم؟

فتردّت قليلاً ثم غمغمت:

- إن شاء الله .

وعادت إلى البيت كثيرة الفكر. هذا بدء الحب الذي طالما تلهّفت عليه. نفّس قلبها الغبار عن جوهره ودبّت فيه حياة مفعمة بالنشوة والحرارة والأمل. كلّ هذا حقّ، بيد أنّها قلقّة متحيّرة لا تدري شيئاً عمّا يمكن أن يتمخّض عنه، ولا عمّا يمكن أن يقابل به نبأه في أسرتها!

- ٢٤ -

انتهى حسنين إلى باب السطح ثمّ تنهّد بصوت مسموع ليبلغها صوته ولكنّها تجاهلته وسارت متمهّلة صوب الحجرة الخشبيّة، فتنحّج، ثمّ اندفع نحوها بجسارة والشمس تلقي عليها أشعة الوداع، فدارت على عقبيها وطالعتته بوجه كتوم يأبى أن يعلن عن غضب أو رضى، ثمّ تمتمت:

- أما لهذا من آخر؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال:

- إنك تؤدّبيني أدباً لن أنساه .

فقال وهي تحافظ على سكون وجهها:

- ليتك تزدرج.

ففرق بإصبعه وهتف:

- هيهات!

ثمّ تنهّد بصوت مسموع وكان يطير من الفرح لما آنسه من رغبتها في محادثته.

- هيهات أن أنثني عن حبك.

فتورّد وجهها، وعبست قائلة:

- لا تردّد هذه الكلمة.

فقال بعناد وهذوء وتوكيد:

- أحبك!

- أتروم إغاظتي!

- لا أروم إلّا حبك.

فقال بحلّة:

من الحبّ، فتى في مثل حالها من اليأس والدمامة والعجز، ووجد فيها - مهما تكن - أنثى تتسبب للجنس المحبوب العزيز المثال. وخاف أن تمضي الدقائق دون أن يقول لها ما يريد فقال بعجلة:

- الدكان يغلق عادة عقب ظهر الجمعة، فقابليني عصر الجمعة ومن ثمّ نذهب معاً إلى روض الفرج.

فقال باستنكار:

- نذهب معاً؟! هذه طريقة لا أرضاها.

- ماذا علينا لو فعلنا؟

- لست من أولئك الفتيات!

- حاشاي أن أظنّ بك السوء. ولكن ينبغي أن نجد مكاناً آمناً للحديث.

- أخاف أن يرانا أحد من إخوتي.

- من السهل أن نتفادى هذا!

فهزّت رأسها وقالت في حيرة:

- لا أحبّ هذه الحياة المليئة بالخواف.

- ولكن ينبغي أن نتقابل.

فتفكرت ملياً ثمّ تساءلت:

- لماذا؟

فنظر إليها في دهشة ثمّ قال:

- كي . . كي نتقابل!

فقال بقلق:

- لا . . لا . . لست لهذا!

- أليس لدينا ما نقوله؟

- لا أدري.

- لديّ الكثير.

- فما هو؟

- ستعلمينه في حينه. ليس لديّ الآن متسع من الوقت . . .

فساورها الشكّ حيناً ثمّ قالت وقد تورّد وجهها:

- قلت لك إنّني لست من أولئك الفتيات!

فقال الشابّ بلهجة تنمّ عن الأسف:

- يا سلام يا ستّ نفيسة! أنا رجل سوق وأفهم الناس!

فدخلها الارتياح، وإن تساءلت لماذا لا يقول

رشاده. وفهم ما فاته فهمه، وأدرك أن الأمر جد لا هو ولعب. ولم يأسف على هذا بل زاد سرورًا ولكن غشيته غاشية خوف وقلق لم تخف عليه دواعيها. وخرج من حيرته بأن قال:

- إني أدرك وجاهة رأيك، وأوافق عليه، ولكن ليس هذا كل شيء. إني أسأل قلبك أولًا...؟

ولانت ملاحظها ولكنها لم تفقد السيطرة على إرادتها، فقالت:

- أرجو ألا تستدرجني لحديث لا أحبه!

- لا تخيبي!

ولم تكن تعني ما قالت بالضبط ولكنها لم تَرِ بدءًا من أن تغمغم قائلة بصوت ضعيف:

- أجل...

فقال حسنين بارتياح:

- هذه طعنة دامية في قلبي!

فقالت بحيرة وارتباك وحياء:

- لا أحب أن أسلك سلوكًا أو أقول قولًا يستوجب الإخفاء!

فلم يملك أن ابتسم قائلاً:

- ولكن هذه ضرورة لا بد منها، وما فيها من عيب!

فلم ترتج لقلبه ولا لابتسامته واشتد تورّد وجهها فقالت بشيء من الحدة:

- كلاً! لا أحب المداعبات ولا الغزل!

- ولكني أحبك حبًا صادقًا...

- أف. لا تقسرنى على سماع ما لا أطيق سماعه!

فتساءل مبتسمًا:

- هل أقتل نفسي؟

فابتسمت أفكارها دون أن يبدو شيء على وجهها وقالت:

- لا داعي مطلقًا لقتل نفسك. لقد قلت ما عندي!

وأعادته العبارة الأخيرة إلى حيرته وخوفه، فقال بعد تردّد:

- لست إلا شابًا في السابعة عشرة، وتلميذ بالسنة

- سأصمّ أذنيّ.

فرفع صوته قليلًا قائلاً:

- أحبك. أحبك. أحبك!

فلاذت بالصمت، وجعل يلتهم وجهها بعينيه في شوق وانجذاب حتّى لم تعد تحتل وقع نظراته فولّته ظهرها مبتعدة ولكن اندفع وراءها فالتفت نحوه مقطّبة، وقالت:

- أرجو أن تدعني وتذهب.

فقال بدهشة:

- لا محلّ لهذا القول الآن. مضى زمنه وبات قديمًا.

نحن الآن في «أحبك»!

- وماذا تريد؟

- أن أحبك؟

وهمت باتنهاره فغلبها الابتسام الذي أعيهاها كتبانه، ثم ضحكت ضحكة مقتضبة مكتومة خرجت من أنفها نقخة لطيفة، ولم تملك أن خفضت رأسها حياء. وهزّته هذه الحركة فهاجت صوته وأقبل نحوها متشجعًا طامعًا ومدّ يده ليمسك يدها، ولكنها تراجعت فيما يشبه الرعب، وخاطبته بلهجة جادة لا تترك ريبة في جدّيتها:

- لا تمسني!

فغاضت ابتسامه الظفر في شفتيه ولكنها لم تناله واستطردت قائلة بنفس اللهجة الجدّة:

- لا تحاول أن تمسني أبدًا. لا أسمح بهذا ولا أنصوّره!

فوجم قليلًا ثم قال بدهشة:

- إني آسف. ما قصدت سوءًا. إني أحبك بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معنى صحيح...

فقالت وهي تنظر إلى قدميها وقد نمّ مظهرها على شعورها بخطورة ما تقدم على قوله:

- إني شاكرة لك هذا، ولكن ليس «أنا» الذي أملك الردّ عليه!!

ووقع قولها من نفسه موقع المفاجأة والدهشة. كان يجري وراء عاطفته مستغرقًا فيها دون أن يفكر فيها عداها. كان يحب ولا يرى إلا الحب، فأعاده قولها إلى

الثالثة الثانوية، فكيف أفتح هذا الحديث؟

فنَحَّت عنه وجهها قائلة ببرود:

- انظر حتى تصير رجلاً!

فقال في دهشة ممزوجة بالاستنكار:

- بهيَّة!

فقال في هدوء:

- ما من سبيل إلَّا هذا...

شعر بغیظ، وضاق بما تلقاه به من حزم، ولكنَّه أحسَّ في الوقت نفسه بحبِّها يغلبه على أمره ويطيح بخوفه وقلقه، فقال باستسلام:

- لك ما تشائين. سأحدِّث مَنْ بيدهم الأمر...

فرفعت إليه عينها لحظة ثمَّ خفضتها، وبدت حيناً كأنَّها تمهمُّ بالكلام ولكن غلبها الصمت فقال:

- سأحدِّث فريد أفندي.

- أنت!

- نعم.

فصلاح في وجهها الاعتراض دون أن تنبس، فتساءل:

- هل من الضروري أن تقوم أمي بهذه المهمة؟

فتردَّدت قليلاً ثمَّ قالت بصعوبة ووجهها يتضجَّر بالاحمرار:

- أظنَّ هذا!

وضاق صدره بهذا القول الصريح الذي يساوره الاعتراف في قلعه. تخاللت لعينيه صورة أمه الحزينة وهي قابعة في الصالة التي لا يضاء مصباحها توفيراً للنفقات فاضطرب صدره، وقال بصوت منخفض:

- سأحدِّثه وأقنعه بمفاتيح أمي في الأمر.

فتساءلت الفتاة في دهشة:

- ولماذا لا تحدِّثها بنفسك؟!

أوشك أن يقول «لا أستطيع» ولكنَّه أطبق فاه، ثمَّ قال متجاهلاً سؤالها:

- لشدَّ ما أخاف أن يسخر مني، أو أن يعترض على استبْشائك في الانتظار حتى أتمَّ مرحلة التعليم الطويلة.

وقالت بصبر نافذ وبلا وعي تقريباً:

- سيوافق على الانتظار ما دمت أوافق عليه!

وعصَّت على شفيتها في حياءٍ ولم تفتطع إليها في لفةٍ وشغف، ومدَّ إليها ذراعيه وقلبه يضطرم اضطراماً، ولكنَّها تراجعته عنه، مقبلة لتخفي تأثرها، وتمتعت:

- كلاً، كلاً، أنسيت ما قلت لك؟!

- ٢٥ -

كان الشقيقان يجلسان حول المكتب كعادتهما كلَّ مساء. وكان حسين يعتمد وجهه بيده غائباً في أفكاره تنمُّ نظراته وقضمه لأظافره من أنٍ لآخر على قلعه وتوتر أعصابه. وحسين نفسه لم يبدُ عليه أنه يجني ثمرة تُذكر من نظره في كتاب مفتوح أمامه، وكان يختلس من وجه أخيه نظرات متقطعة فلا يتمالك نفسه من التبسُّم، وعواطف شتى تتناوب قلبه، وضاق بالصمت فقال بلهجة ذات معنى:

- طالت المفاوضات!

فانتبه إليه حسين في فزع ثمَّ تنهَّد قائلاً:

- مرَّت ساعة، بل أكثر. ترى ماذا هناك؟

فقال حسين ساخراً:

- انقلبت الآية، فالتبُّع أن يذهب آل الشاب لطلب يد الفتاة، ولكن في حالتك يجيء والد الفتاة لطلب يد الفتى!

فقال حسين بنرفزة وحنق:

- يحقُّ لك أن تسخر مني فلا خوف عليك. ترى ماذا يقال الآن في حجرة الاستقبال؟ ماذا تقول أمي؟!

فقال حسين في هدوء:

- عمَّا قليل ستعلم بكلِّ شيء!

- أنظِّفها ترفض رجاء رجل كفريد أفندي؟

- من يدري؟ الذي أعلمه علم اليقين أننا سنخسر - في حالة الرفض - مرتبنا الشهري الذي لم نحلم به! فرماه حسين بطرف حائر ثمَّ تساءل:

- إلَّام يطول هذا الانتظار المزعج!

وعادا إلى الصمت وكانا قلباً المسألة على جميع وجوهها، وطال حديثها عنها في أوقات متقطعة منذ أفضى حسين إلى شقيقه بما كان من حديث بينه وبين

وسألته في هدوء:

- ألا تدري فيم كان يحادثني فريد أفندي وزوجه؟  
فارتبك الشاب الذي لم يكن يتوقع استجوابًا وظنَّ  
أنه - بالنسبة للمسألة كلها - من المتفرجين، فلم يمر  
جوابًا، حتَّى قالت الأم بخشونة:

- أجب... .

فتحوّل بصره صوب حسنين في حيرة واستغالة،  
فاقتنعت الأم بهذه الحركة وسألته:

- متى علمت؟

قال في إشفاق:

- أول أمس!

- ولماذا أخفيت عني؟

فلاذ بالصمت لاعتنا أخاه وحظه اللذين أורطاه في  
المسئولية بلا ذنب جناه، وتهددت عند ذاك وقالت  
بأسى:

- الأمر لله فإن شقائي بكما فاق ما ألاقى من زمني  
الأسود!

وكانت نفيسة تكره جو الشقاق بطبعها فأرادت أن  
تلطف من حدّته. ولا يعني هذا أنها كانت تشجع  
أخاها على رغبته، ولعلّها كانت أشدّ غضبًا من أمّها،  
بل إنّها عدّت الأمر كلّ تدبيرًا دنيئًا لاختطاف شقيقها،  
ولكنّها رغبت صادقة في تحامي نزاع لم يعد يجدي،  
فقالت مخاطبة أمّها:

- لا تبيجي دمك. ما كان كان، فارحمونا من وجع  
الدماع.

فانتهرتها أمّها بحدّة قائلة:

- اخبرني!

والتفتت إلى حسنين قائلة بازدرأ:

- لعلّك ملهوف على معرفة ما انتهى إليه مسعاك  
الذي دبرته بليل... .

وهزّت رأسها في أسى ثمّ قالت:

- لك قلب تحسد عليه، فإنّه يستطيع رغم فجيعتنا  
وتعاستنا أن يعشق، وأن يستهين بنا جميعًا في سبيل  
سعادته، والحقّ أنّي ذهلت حين حدّثني فريد أفندي  
عن آمالك الواسعة، وهيامك العجيب. ولكنّي حدّثته

فريد أفندي محمّد. وقد رحّب الرجل بطلب الشاب  
ترحيبًا وقع من نفسه موقع الدهشة، فلم يكن ينتظره،  
ولم يكن ينتظر بعضه، ثمّ وعد بمخاطبة الأم، وتذليل  
آية عقبة مهما تكن خطورتها! ولمّح حسين - تفسيرًا  
لهذا - إلى أزمة الزواج من ناحية، وطيبة فريد أفندي  
وحبه الماثور لأسرتهم من ناحية أخرى. ولم يبق الآن  
إلا أن ينتظر النتيجة الوشيكة الظهورا وجعل قلق  
حسين يتزايد بمرور الوقت. «بعد دقائق أعلم كلّ  
شيء. هل تكون هيئة لي أو أدفن هذا الأمل الوليد؟ لا  
سبيل إليها إلّا بهذا. إنّني أريدها ولا غنى لي عنها.  
ترى فيم تفكر هي في هذه اللحظة؟ ألا يتورّعها القلق  
على مصيرنا؟ إنّها تحبني بلا ريب. حسبي هذا من  
الدنيا جميعًا. ثبّا له إنّهُ يبالغ في هدوء، ويستمتع  
بمراقبة المعركة من بعيد لا حبّ ولا قلق. لشدّ ما  
تسومنا هذه العاطفة الطاغية من عناء. من قال إنّها  
تقيم في القلب؟ الأرجح أنّها تعشش في العقل؟! وهذا  
سرّ الجنون!» واستيقظ على صوت حسين وهو يقول:  
- إنّها خارجان!

وأرهف حسنين السمع فبلغه ما يتبادل الرجل  
وزوجه وأمه من عبارات المجاملة المألوفة. ومضوا إلى  
الباب الخارجيّ إلّا نفيسة قد جاءت إلى باب الحجرة  
ووقفت تنظر إلى أخيها بغرابة ثمّ قالت:

- يا ما تحت الساهي دواهي! أتريد حقًا أن  
تنزوّج؟!

وغمغم حسين:

- أول الغيث قطرًا!

وانتقل حسنين مدفوعًا بغريزة الدفاع عن النفس  
من كرسيه إلى فراشه في أقصى الحجرة لصق النافذة  
التي حلّ ورق الصحف محلّ زجاجها المفقود. ثمّ  
سمعوا وقع أقدام الأم وهي قادمة، ودخلت تسير في  
خطا ثقيلة صلبة القسامات جامدة النظرة، وبحث  
عينها عن حسنين حتّى استقرّتا عليه في آخر الحجرة  
ولبثت تنظر إليه حينًا ثمّ مضت إلى الكرسيّ الذي تركه  
وجلست عليه في شبه إعياء. ساد الصمت مليًا فلم  
يجرؤ أحد على خرقه حتّى نظرت المرأة إلى حسين



فأنصتت نفيسة باهتمام وقلوبها يتابع ضرباته، لم يعد جديداً أن تسير متأبطة ذراعه في شارع من الشوارع المتفرعة عن شارع شبرا حيث يغلب الظلام على جنباتها ويقل المارة. وكان يبدو لها دائماً، على دمامته وحقارته، فتى رائعا لحرارة عاطفته وشدة انكبابه عليها، وكانت لهذا تحبه من أعماقها، بل باتت مجنونة به.

واعتقدت أنه الحبيب الأول والأخير. ليس لها سواه، ولن يكون لها سواه، فتعلقت به بقوة الأمل، وبقوة اليأس، وأحبته بأعصابها ولحمها ودمها، ووجدت فيه غرائزها المشبوبة العارمة أداة نجاة تتسلسلها من الأعماق.

كان أول رجل بعث فيها الثقة، وطمانها إلى أنها امرأة كبقية النساء. وكان إذا قال لها «أحبك» تُخلق خلقاً جديداً فتري الدنيا - على كثافة الظلام المحيط - نوراً وبهاء. بيد أنها لم تقنع بكلمات الحب، تلهفت إلى شيء آخر ليس دون الحب منزلة، أو لعلها شيء واحد في نظرها. فلم تفتأ تستدرجه حتى قال ما قال ثم تشجعت بالظلمة وتساءلت:

- وماذا أنت فاعل؟

فقال بلا تردد:

- كان من الطبيعي أن أعلن أبي برائي ثم نذهب معاً إلى والدتك لنطلب يدك، أليس كذلك؟  
- أظن هذا...

فتنهّد بصوت مسموع وقال:

- يا ليت! هذا أمل بعيد المنال في الوقت

الراهن...

فانقبض قلبها وتساءلت في انزعاج:

- لماذا؟

فقال بغيط:

- أبي!.. لعنة الله عليه. رجل عجوز أحمق عنيد، ويطمع أن يزوجني من ابنة جبران التوني البقال عند تقاطع شبرا بشارع الوليد. ولست في حاجة إلى أن أقول لك إنني لم أوافق، ولن أوافق، ولكنني لا أستطيع أن أقترح عليه الزواج من أخرى في الوقت

بدوري عن كفاحنا وتعاستنا. حدثته عن أئاثنا الذي نبيعه قطعة قطعة لنحصل على الضروري من القوت وعن شقاء أختك التي تمتهن الخياطة وتقطع النهار بين هذا البيت وذلك، ثم صارحته بأن أحداً من أبنائي لن يتزوج حتى ينهض بأسرته المنهارة.

وسكتت المرأة وعيناها لا تتحولان عن وجهه وهو خافض العينين تعلوه كآبة وقنوط، ثم استطردت قائلة بحزن:

- ومهما يكن من أمر فلا يسعني إلا أن أشكر لك عطفك وإنسانيتك!

وقامت المرأة وغادرت الحجرة لا تكاد ترى ما بين يديها من الغضب والحزن وخلفت وراءها صمماً ثقيلاً. وبلغ التأثير من نفيسة فتناست غضبها الدفين واقتربت من حسنين وقالت متظاهرة بالمرح:

- نينة لم تقل كل شيء. وأؤكد لك أن ثمة ما يدعو حقاً لحزنك. وما كان بوسعها إلا أن تبقي على صداقة فريد أفندي ومودته، ومن ذا يستطيع أن ينسى جميله ومروته؟! قالت له إنها تعد موافقته على طلبك شرفاً كبيراً بيد أنها ذكرت له حالنا الذي يعرفه حتى المعرفة وسألته أن ينتظر حتى تنهض أسرتنا من عثرتها مكتفياً بكلمتها على أن تعلن الخطبة في حينها إذ أنت رجل مسئول. وقالت له أيضاً إنه يسعدها أن تختار بهيئة زوجاً لابنها، فلا داعي للحزن على الإطلاق...

ونظرت الفتاة إلى وجه أخيها والاشراق يعاوده فدخلها غيظ مفاجئ ولكنها أحسنت كتمانها وقالت بلهجة لم تخل من حدة:

- اعذر نينة فهي مسكينة حزينة، ومما يعزّيها ولا شك أن نشاركها همومها أما إذا وجدت مناء... ما علينا، لا أحب أن أعود إلى هذا. وحسي أن أقول لك إن الأمور تسير كما تحب (ثم ضاحكة) لعنة الله عليك وعلى الحب معاً!..

- ٢٦ -

قال سليمان جابر سلمان:

- فلا يداخلك شك في هذا. ستتزوج كما قلت لك. وهذا عهد ممي أمام الله.

الحاضر، وإلا كان جزائي الطرد...

وأحسّت جفافاً في حلقها، ورمقته بازدياد، ثم تساءلت في قلق:

- والعمل؟

- نصبر، ثم نصبر. ولن تحولي قوة في الأرض عن غايي، بيد أنه يجب أن نأخذ حذرنا أن يفطن الرجل إلى علاقتنا...

- وإلام نصبر؟

فتردّد في حيرة ثم تمتم:

- حتّى يموت!

فهتفت بانزعاج:

- يموت؟ هبنا متنا قبله!

فضحك ضحكة جافة في ارتباك وقال:

- دعي هذا لي وللزمن. لم تضق بنا الحيل بعد!

كلام عائم لا يروي غلة. «لا أستطيع أن أقول له إنّي أخاف أن يتقدّم لي أحد في أثناء الانتظار لطلب يدي. هذه حجة وجيهة في يد غيري تمنّ يحظين بقسط من الجبال أو المال. أمّا أنا فمن عسى أن يتقدّم لي في هذه الأيام التي لا يتزوّج فيها أحد. رضيت بالهم ولكنّ الهم لا يرضى بي. ابن بقال! إنّ البدلة تبدو على جسمه قلقة نائية». وشعرت بيد القهر تقبض على عنقها. وزادها الخوف تعلّقاً به فلو وزن في هذه اللحظة بالدنيا كلّها لرجح بها في قلبها. إنّه لا تدري على وجه الوضوح كيف يمكن أن تتزوّج منه حتّى ولو ذلّل ما يعترضه من عقبات، فإنّ أمّها لا تستطيع أن تقدّم لها شيئاً، فضلاً عن أنّ الأسرة باتت لا تستغني عن القروش التي تربحها لها، ولكنّها تريده، تريده من الأعماق، وبأيّ ثمن. وتجهّم وجهها، وفتحت فاهها لتتكلم ولكن لاحظت منها الفتاة إلى شبح قادم فجمد الدم في عروقها؛ وشهقت شهقة فزعة وكادت تطلق ساقيها هاربة لولا أن مرّ القادم تحت المصباح فتسوّر وجهه وتنهّدت تنهّد الأمان بعد الرعب، وعجب سلمان لشأنها فسألها:

- ما لك؟

فقالت وهي تلهث:

- حسبته أخي حسن!

وانتهز الشاب الفرصة ليفصح عن رغبة طال احتضانه لها فقال:

- لن نأمن الخوف ما دمنا نخبط على وجوهنا في

هذه الطرق. أصغي إليّ، لماذا لا نذهب إلى بيتنا فنمكث فيه قليلاً بعيداً عن الأنظار؟

فصاحت به في دهشة:

- بيتك؟!

- نعم أبي يقضي مساء الجمعة حتّى منتصف الليل

عند شيخ الطريقة الشاذليّة، وأمّي في الرقازيق عند

أختي التي جاءها المخاض اليوم، ليس في البيت أحداً!

فقالت في ذهول وقلبها يدقّ بعنف:

- كيف أذهب معك إلى بيتك؟.. أجننت يا هذا؟!

فقال بضراعة حارة:

- إنّي ألتمس مكاناً آمناً. بيتي آمن ودعوتي بريئة.

أريد أن أدخل إليك في أمان فنعالج همومنا في روية بعيداً عن المخاوف والعيون...

كان يتكلّم وكانت تصغي مقبّبة. وكانت تتخيّل

على رغمها البيت الخالي في قلق وخوف، وحاولت أن

تطمس خياله بالتبادي في الغضب ولكنّه ظلّ قائماً في

رأسها. وقالت في حدة:

- ليس في بيتك...

فقال الشاب باستعطاف وهو يشدّ على راحتها:

- لم لا؟! ظننتك ترحّين بدعوتي. أليس لك ثقة

فيّ؟ أليس لك ثقة في نفسك؟ أريد أن أدخل لذاتنا،

وأن نتحدّث، وأن أطلعك على مدى حبّي وآمالي

وخططي. ليس فيما أدعوك إليه من عيب ولن يدري

بنا أحد.

فهزّت رأسها في عناد وقلبها يوالي ضرباته

الشديدة. ودّت لو تستطيع أن تخلو إلى نفسها لتتفكّر

طويلاً، وشعرت برغبة في الهروب. ولكنّها لم تبد

حراكاً، وسارت إلى جانبه وراحتها في يده وعينها

حاولت أن تبعد خيالها عن البيت الخالي المنتظر. ثمّ

جاءت لحظة فشعرت بأنّ باطنها ينقلب رأساً على عقب

وأنها تغوص في أعماق ما لها من قرار. وازدادت

اضطرابًا وقلقًا فقالت في ضيق:

- ليس في بيتك!

فشدَّ على يدها بيد مرتجفة وقال:

- بل في بيتي. فكُري قليلًا. ماذا تخافين؟ إني أحبك وأنت تحبينني ونريد أن نتحدَّث عن حبنا ومستقبلنا في أمن عن العيون. هذه فرصة وهيئات أن نجد البيت خاليًا مرَّة أخرى. إني أعجب لترددك...

وإنما تشاركه عجه من ناحية أخرى. إنَّها تتردَّد حقًا. ولو أرادت أن ترفض رفضًا حاسمًا لما أعيها البيان. ولكنَّها يبدو أنَّها تدأب على الرفض المتردَّد الذي لا يحكم إغلاق الباب. إنَّها في الغالب خائفة وخجولة ولكن لم تعد تستطيع تجاهل الانقلاب الذي حدث في باطنها. وفاضت نفسها بالقلق والاضطراب والتوتر، ثمَّ قالت بصوت ضعيف:

- الأفضل أن نواصل المشي...

فجذبها بإغراء وهو يقول:

- قد تنشقَّ الأرض في أيِّ موضع وفي أيِّ لحظة عن أخيك حسن!

فوجدت نفسها تجاريه في تخوُّفه في استسلام:

- إني أخاف هذا!

فقال وهو يتنهد في ارتياح زافرًا من صدره شواظًا من نار:

- لنذهب إلى البيت...

فقاومت يده في وهن وهي تقول:

- كلاً... لن أذهب.

- دقائق معدودات. عطفنا معتمة ولن يرانا أحد.

وسار بها وهي تتبعه في تناقل قائلة:

- كلاً...

وكان قلبها يدقُّ بعنف يكاد تصدع له الضلوع...

- ٢٧ -

وفتح الباب بمفتاح معه وهمس في أذنها «تفضَّلي»

فقالت بتوسُّل:

- لنعد...

فدفعها برقَّة وهو يقول:

- لا بدَّ أن تشرَّفي البيت...

ودخل وراءها وأغلق الباب فوجدت نفسها في ظلام دامس، وارتفع وجهها إلى السقف في انتظار النور، ولكنَّها شعرت بيده تتحسَّس منكبيها فسرت بها قشعريرة وهمست في خوف:

- النور.

فقال معتذرًا:

- مصباح الصالة تالف...

فقالت في ضيق:

- أشعل أيَّ مصباح نستضيء بنوره.

فأحاط خاصرتها بذراعه وجذبها معه وهو يقول:

- إني أعرف الطريق إلى حجرتي...

وحاولت أن تتملَّص من ذراعه ولكنَّه شدَّ على خاصرتها فلم يتخلَّ عنها وسار بها ببطء وجنباها ملتصقان، فجثم على صدرها ضيق خائق وجعلت تتساءل في نفسها «ماذا فعلت بنفسي؟» ثمَّ أخذت تألف الظلمة رويدًا فلاححت لها في الظلام أشباح كراسي وصوان وأشياء أخرى لم تتبيها. وقطعا الصالة في بطة وحذر، ثمَّ مدَّ يده الأخرى ففتح بابًا مرقَّ صريه الصمت المخيف، ودفعها أمامه من خاصرتها ثمَّ ردَّ الباب بقدمه، سرعان ما تخلَّصت من يديه وقالت بحلَّة:

- أشعل المصباح فقد ضبقت بالظلمة...

فجاءها صوته يقول برقَّة وحذر في لهفة تنمَّ عن الاعتذار:

- آسف يا ستي فإنَّ شقَّة عمي ملاصقة لشقَّتينا ولا

أمن إذا رأوا نورًا بها أن يطرق أحد منهم بابنا!

فسألته في دهشة واستنكار:

- هل نبقى في الظلام؟

فقال متودِّدًا:

- في نورك الكفاية...

فقالت في توسُّل:

- دعني أخرج...

فتملَّس يدها في الظلام حتَّى عثر بها ورفعها إلى فمه

فقبلها مرَّة ومرَّة ثمَّ قال بصوت مضطرب:

- بل تجلسين لتسترعي، وستألفين الظلمة فلا تزعجك.

ومال نحوها - فيها يشبه الانقضاخ - فرفعها بين يديه، وسار بها إلى نهاية الحجر وأجلسها على كنبه وجلس لصقها وهي مستسلمة من شدة الاضطراب والذهول، ثم قال:

- دعينا من الأخذ والرد. ينبغي أن نجلس في هدوء وأن نتحدث. لقد نجشمتنا مشقة كبيرة في سبيل المجيء إلى هنا وسيان أن نمكث في الظلام أو النور. ليس هذا بذى بال ولا يصح أن يكدر صفونا...

وتناول ساعدها وأمطره قبلات من شفتيه الغليظتين وهي ترتجف وتحاول عبثاً أن تجمع شتات أفكارها. ثم تزحزحت بعيداً عن جنبه الملتصق بها لتسترده أنفاسها فمال نحوها ولكنها حالت دونه بيديها وهي تقول لاهثة:

- دعني وحدي، إني تعب...

فاسترده أنفاسه وقال ضاحكاً:

- تشجعي. ما لك خيفة مرتجفة!.. أنت في بيتك في بيت زوجك.

وكانت نبضات قلبها تدق في أذنيها وتقرع رأسها، فتنفست من الأعياق. وشعرت بيده تتناول يدها فهمت بجذبها ولكنها عدلت عنه وكانت استسحفت نفسها، فأبقاها بين يديه وقال بصوت تغيرت نبراته:

- كل شيء هادئ ولطيف. إني أرى جمالك رغم هذه الظلمة.

فقالت بلا وعي تقريباً:

- لست جميلة...

فذلك يدها براحتيه وقال:

- دعني تقدير هذا لي، إني لا أجنّ للشيء...

وساد الصمت ملياً فتركز انتباهها وهي لا تدري في راحتها التي تلتهمها كفاه، وسرت فيها دغدغة بثت في ساعديها وذراعيها وصدرها تحديراً فاقشعر بدننا وهمست:

- حبسك...

فقال بصوت منهجج:

- أعطيني شفتيك أقبلها، سأقبلها كثيراً مائة قبله أو ألفاً، سأقبلها حتى أموت...

واندلق عليها وقبل شفتيها قبله طويلة شرهة حتى مال رأسها إلى مسند الكنبه ثم أمطرها قبلاً نهمه حامية، ورفع وجهه عن وجهها أثمة وهمس:

- قبلي... أريد أن أشعر بشفتيك تأكلان شفتي... هه.

وكانت بحال من الإعياء لم تدع لها قدرة على العصيان فرفعت وجهها قليلاً وقبلته، ثم غمغمت:

- لم نجئ هنا لهذا...

- إذن لماذا؟

- لنجلس ونتحدث!

فأطبق شفتيه على شفتيها، ثم عطف وجهه فجعل يده على فيها وهمس في أذنها:

- هذا أفضل. لقد تكلمنا كثيراً. وأعيد عليك أنك زوجي. زوجي ولو ناصبتني الدنيا العدا. هي مسألة وقت لن يطول...

لعله يظن أنها جزءة متعجلة. فلتدعه في وهمه. ولعل الانتظار أوفق لحال أسرتنا التي لا ترحب بزواجها الآن، ولا تستطيع أن تعد العدة له. ليس في الانتظار ضرر ولكنها لن تعلن عما في ضميرها. وعاد سليمان يقول:

- مسألة وقت. ولكن ما أحوجنا في فترة الانتظار إلى الترفيه!

ومد يسراه وراء ظهرها، ويمناه حول صدرها، فشعر بشديها تحت ساعده ناهدين صليبين فغلى دمه وضمها إليه بوحشية، وانهمرت أنفاسه على خدّها وعنقها. وعادوها الدهول والتخدير والرغبة والخوف، وامتزج في صدرها القلق واللذة واليأس، ثم اشتدت الظلمة، ظلمة عميقة غريبة، كأنها تنشر أجنحتها على فضاء لا نهائي، فلا مكان ولا زمان...

\*\*\*

قالت لها أمها:

- تأخرت أكثر من كل يوم.

فقالت واجمة:

هي بالخفيفة، ولكن هيات أن يقلل هذا من قيمتها.  
إنه يحبها بعقله وجسمه، أو لعل إحساسه غالب عما  
عده. أتعني حقاً ألا حق له؟ عجباً، لقد حسب أن  
الخطبة ستملكه حقاً؟ وحقاً؟ قال بدهشة:

- يُخَيَّلُ لِيَّ في بعض الأحيان أنه لا قلب لك!  
فتورّد وجهها، وخفضت عينيها في حياء، ثم  
رفعتها قائلة في خشونة:

- ما دليل القلب عندك؟  
فقال في حماس:  
- أن تصرّخي لي بأنك تحبّيني، ... وأن ...  
- وأن ...

- وأن نتبادل قبلة ...  
ف قالت بحدة:  
- إذن حقاً لا قلب لي.

- يا عجباً ألا تحبّيني يا بهية!!  
فلاذت بالصمت في ارتباك وضيق.  
- ألا تحبّيني؟  
فتنهّدت قائلة:

- إذن لماذا تمّ ما تمّ؟!  
فابتلّ صدره المحترق وهتف برجاء:  
- أحبّ أن أسمعها بأذني ...  
- لا تكلفني ما لا أطيق!  
فتنهّد بدوره في شبه يأس، ثم قال بلين:  
- إن أعيالك الكلام فلن تعييك قبلة.  
- يا خبر اسود ...  
- يا خبر وردّي كالشهادة من غير هذه القبلة أموت  
كمدّاً.

- إذن فليرحمك الله!  
- لا تطيقينها أيضاً؟ لن تكلفك شيئاً. ابقي كما  
أنت ثم أتقدّم خطوة وأضع شفّتي على شفّتك فتكون  
الحياة التي ما بعدها حياة ...

- أو الفراق الذي ليس بعده تلاقٍ!  
- بهية!  
- أفندم!  
- أنت لا تعين ما تقولين ...

- أردت أن أنتهي من عملي وقد انتهيت ...  
ثم وضعت في يد الأم خمسة وسبعين قرشاً  
واستطردت قائلة:  
- أعطوني الحساب كلّه وسأحتفظ لنفسني ببقية  
الجنّيه.

وسكتت الأم فمضت الفتاة إلى حجرتها وأخذت  
تخلع ملابسها. وفي السكون الشامل ترامي إليها  
صوت حسنين وهو يطالع فترك في نفسها أثراً عجبياً لم  
تدر إن كان خوفاً أم حزناً خالصاً ...  
- ٢٨ -

- بهية ولطافة المغيب هما شيء واحد في نفسي ...  
قالها وهو يوميئ إلى الشمس الغاربة، رائياً إلى  
وجهها الأبيض البدرى، وقد افترّ ثغرها عن درّ،  
ف قالت:

- لن تفتأ تتبعني إلى هنا حتّى يرانا أحدا  
فقال حسنين بزهو:  
- إني خطيبك، ولي الحق في كلّ شيء!  
- لا حق لك على الإطلاق!

فضحك من قلب جذل ضحكة من لا يصدّق  
قولها، وملاً عينيه العاشقتين من منظرها. كانت ملتفة  
في معطفها الأحمر، ينحسر جيبه في أعلى الصدر عن  
فستان رماديّ، وتهدل على ظهره غيفرتان مكتنزتان.  
وكان عمق حمرة بضفي على بشرتها البيضاء وعينيها  
الزرقاوين نقاء وبهاء. «هي ميّالة إلى القصر، فلو  
التصقّت بها لمس مفرق شعرها ذقني. ولكنّها بضّة  
ريّانة فتباً للمعطف الذي يخفي قسّات هذا الجسم  
وثناياه، حريصة محافظة. تعجبني بقدر ما تغيظني!»  
وقال متعجباً:

- لا حق لي على الإطلاق!!  
ف قالت في هدوء ينمّ عن القوة:  
- طبعاً ...

أتعني ما تقول حقاً؟ يا لها من جميلة. لقد سما بها  
هذا السطح عن الدنيا وجعل من آفاق السماء إطاراً  
لصورتها. وما من شيء يشابهها كهذا الإطار في هدوئه  
وحشمته وتناثيه. تقول نفيسة عنها إنّها ثقيلة الدم، وما

انقضاضه فتقهقرت فزعة وتلقته براحتها ثم هتفت به  
لاهة:

- حسنين، إياك...

لمح في عينيها غضباً يتقد فخدمت حدته، وارتد  
خجلاً مرتبكاً، فغمغمت:

- احذر أن أغير رأيي فيك...

ثم استدركت في جزع:

- أظن أن لك أن تعود...

ودارى ارتباكاً بضحكة قصيرة وتمتم:

- على شرط ألا تكوني غاضبة...

فسكتت هنيهة قبل أن تقول بلهجة رقيقة:

- وعلى شرط ألا تعود لهذا مرة أخرى...

وتحول في خطوات ثقيلة، يلوح في مظهره الارتباك  
والياس فرق قلبها له وقالت وهي لا تدري:

- إن سعادتي في أن أصون لك...

وكأنما تنبّهت إلى نفسها فعضت على شفتيها ولم  
تنبس بكلمة.

- ٢٩ -

وجاء عيد الأضحى فجذب أفكار الأسرة وعواطفها  
إلى وادٍ واحد تلتقي فيه ذكريات الأمس واليوم،  
 واجتمعت الأسرة ليلة الوقفة في الصلاة حتى حسن  
كان بينهم، واستعرت في الصدور رغبة كظيمة في  
الاحتفال بالعيد. وطافت برؤوسهم ذكريات الأعياد  
الماضية في حنين دافق لم تعلن عنه ألسنتهم. كان  
الخروف - في مثل هذه الليلة - يربطه في شرفة شقته  
الأولى يشرب بعنقه بين قضبانه نائجاً، مذياعاً بثوآجه  
في عطفة نصرالله احتفال الأسرة بالعيد. ولم يكن  
الشقيقان ليفارقانه، فهما إما يعلفانه ويسقيانه، أو  
يناطحانه أو يحلمان بالغد القريب في أمل وفرح.

وفي الصباح وعقب ذبح الضحية يبدأ سباق إلى شيء  
للحوم والتهامها، والأم مشغولة بهذا وبتوزيع  
الصدقات على بعض الفقراء كالكناس وصبي الفران  
وغيرهما، أما الأب فيتناول فطوره من الشواء على  
السفرة ثم يأوي إلى حجرته في انبساط فيضمّ عوده إلى  
صدره ويمضي في مداعبة أوتاره. وهناك - غير هذا -

- أعني ما أقول تماماً.

- ولكنها قبله وليست جريمة!

- جريمة في نظري...

- ما سمعت هذا قبل الآن...

فتمكرت قليلاً ثم تمتمت:

- ولكني سمعته كثيراً...

- أين؟

فعاودها التفكير، ترددت ملياً، ثم قالت بصراحة  
وسداجة:

- ألم تقرأ ما تنشره الصباح عن فتيات مهجورات

لا استهتارهن؟ ألا تسمع الراديو؟

فغمر فاه، ونذت عنه ضحكة، ثم صاح:

- من يقول إن القبلة استهتار؟ ألم تقرني ما قال

المنفلوطي في القبلة وهو الشيخ المعمم؟ إنك تحرمين

على نفسك ما أحل الحب الطاهر لنا. الصباح؟...

الراديو؟... كلام فارغ!

فرمقته بريية وحذر وقالت:

- لا تضحك مني. هو الحق. قالت أمي لي مرة

«إن الفتاة التي تشبه بالعشاق كما يظهرون في السينما

فتاة ساقطة خائبة الأمل»...

بنت الكلب!... أمي التي قالت لك هذا؟...

القصيرة الماكرة، أفسدت علي وأفسدت حياتنا. إن

الغيظ يقتلني. ماذا أفدت من الخطبة التي تجرعت

بسببها تقريراً ولوفاً مرّاً! لا شيء. فتناي عنيدة

مجنونة. السبب أمها بنت الكلب «حالة الخطب»

وتساءل في يأس:

- أناخذين نفسك بهذا التشفّح حقاً؟

- طبعاً.

- إذن هو حب اسمي فحسب؟

- ليكن.

وتفحصها بنظرة طويلة فرآها ثابتة عنيدة قوية.

وجرى بصره مع عنقها الرقيق، وتخيل أصله المتواري

تحت الفستان، والمنكبين، والصدر الناهد، فركبته

عاطفة جاعحة حارة، وأفلت زمامه من يده، فانقضّ

عليها وهو يسدّد ثغره صوب شفتيها. ولم تكن تتوقع

- لحماً طبعاً. لهذا أمر ربنا لا حيلة لنا فيه!  
ونذت عن نفيسة ضحكة ولكنها لم تسترسل خشية  
أن تُتهم بتشجيعه وقالت الأم بحزن:  
- هذا أمر ربنا حقاً ولكن كيف لنا بتحقيقه؟  
فقال حسن في ملق بارع:

- نحققه بفضلك أنت. أنت الخير والبركة. أنت  
الحزم والتدبير. ثم إنك أعظم طاهية في العالم. كيف  
يمضي العيد دون أن نشبع من المشويّ والمسلوّق  
والمحمّر والكفتة والكستلّية والمبار والموزة؟ سفرة  
الست أم حسن، أنعم بها وأكرم...

وسرى في الجوّ القاتم نسيم مرح لطيف، وجرت  
على فم الأم الجافّ بسمه خفيفة، ولكنها قالت  
بأسف:

- طاهية ماهرة ولكنها مقطوعة اليدين!  
ونظرت نفيسة إلى أمها نظرات ذات معنى ثم قالت  
لإخوتها:

- اسمعوا، علمنا أنّ فريد أفندي سيهدي إلينا  
نصف خروف!

وتطلّعت إليها الأبصار في دهشة ووجوم. ولم يعد  
في وسع المرأة السكوت فقضت عليهم كيف حادّتها  
فريد أفندي في الأمر بلباقة وكيف رفضت شاكراً فتأثّر  
الرجل لحّد الغضب وذكرها بأنهم أسرة واحدة. ألخ.  
وكانت تلوح في عيني حسين نظرة كئيبة، وبدا حسين  
وهو يزدرد ريقه بصعوبة أما حسن فقال:

- يا له من رجل فاضل وفي!

فهتف حسين في ضيق وألم:

- مستحيل... لن يقع هذا...

فبادره حسن قائلاً:

- ليس في الأمر ما يمسّ الكرامة، إن هي إلا تقاليد  
مرعية، وليس فريد أفندي بالرجل الغريب...

وخافت نفيسة أن يفضي تصريحها إلى فتنة فقالت:  
- لا داعي للنزاع، فإذا أبيتم قبول الهدية فلنشتري  
بضعة أرطال من الضأن.

فتساءل حسن في حدة:

- كم رطلاً؟

العيدية والملابس الجديدة ونزهة الصباح في الخلوات  
وفسحة الليل في السينا وما بين هذا وذاك من ألوان  
الخلوى واللعب والمفرقات. وها هي الأسرة مجتمعة  
ولكن بلا أب. وإتهم لينظرون فيما حولهم فلا يجدون  
بشيراً بمقدم العيد ولا أملاً في بهجته، ثم يسترقون  
النظر إلى أمهم المتلفعة بالسواد بأعين مستطلعة والسنة  
قلقة مشفقة. كلاً، لا عيد، ولا بشيراً به. وتساءل  
حسين في سرّه «ترى هل يمكن أن يمضي العيد كما كان  
يمضي غيره من الأيام؟». وقال حسين لنفسه «لا  
عيد. إنّي أعلم ذلك. انتهى، انتهى». حسن وحده  
كان أدناهم إلى التفاؤل. ولعلّ كثرة تغيّبه عن البيت  
جعلته يبنأى بعض الشيء عن نوع الحياة التي يحياها  
أهله. وكان إلى هذا - شأنه شأن بقيّة الإخوة - يعدّ  
أمه قادرة على كلّ شيء، وكثيراً ما يتعزّى عن كسله  
وتلفه فيقول لنفسه «لديهم معاش وأرباح نفيسة!» وقد  
اعتاد دائماً إذا رجع إلى البيت أن يخلو إلى نفيسة  
فيسألها «كيف الحال؟» فكانت تجيبه بالشكوى المُرّة  
ولكن قلبها لم يكن يطاوعها على تجاهل يده إذا مدها  
لها طامعاً في بضعة قروش. كان متفائلاً رغم ما يحرق  
به من تجهم، ومثته نفسه بنصيب هائل من اللحم  
يعوّض عليه أيّاماً طويلاً انقضت دون أن يذوق اللحم  
طعماً، وضاق بالجوّ الكئيب الصامت فمال على أذن  
نفيسة وسألها همساً:

- ماذا أعددتُم للعيد؟

وفطنت الأم إلى همسه فعاجلته متسائلة:

- ماذا أعددت للعيد يا رجل الأسرة؟

فضحك قائلاً:

- لنا أم نُحسد عليها! خفيفة الروح وبنت نكتة  
ولطيفة. ما أقول يا أمّاه؟ لم يأمر الله بالرزق بعد.  
وحسبكم أتّي كفيتمكم شريّ فلم أكل لقمة في بيتكم  
منذ وفاة أبي إلاّ مرّات معدودات...

وكانت يشبّ من نصحه ولومه معاً فتنهّدت  
صامتة، وتشجّع حسين بفتح باب الكلام فتساءل:

- ماذا سنأكل في العيد؟

فتطوّع حسن بالإجابة قائلاً:

- ما يسعنا شراؤه. عشرة مثلاً!

فصاح حسن في انزعاج:

- عشرة أرتال على أربعة أيام! إياكم أن ترفضوا الهدية. النبي قَبِلَ الهدية يا هوه. أم تريدون أن تُغضبوا أسرة تودّ مصاهرتكم!

فصاح به حسنين:

- هذه شحاذة!

فقال حسن يقيّن:

- كلاً. الشحاذة شيء آخر اسألني أنا عنه. أما هذه فهديّة، هديّة، هديّة.

وتكلّم حسين لأوّل مرّة فقال:

- هديّة من النوع الذي كنّا نهديه في الأعياد إلى الكنّاس وصبيّ القرآن...

وغضب حسن لأنّه كان يطمع أن يضمّ حسين إلى رأيه أو أن يبقى على الحياد على الأقلّ، وقال محتدّاً:

- لا تخطّ بين الهدية والصدقة، إذا أعطيت الكنّاس فهي صدقة، أما إذا أعطيت صديقاً فهي هديّة...

وكان حسنين يعلم بأنّ مناقشة حسن هذر غير مجدّ فحفض عينيه وقال في حياءٍ وألم:

- الواجب أن يكون المهدي هو الخطيب لا الخطيبة...

فقال حسن ساخراً:

- هذا إذا كان هو الذي طلب يد الخطيبة، أما إذا كانت هي التي طلبت يده...

- حسن!...

- أرخنا من الفلسفة التي لا تشيع من جوع. لا

عيب في قبول هذه الهدية. كانت هدايا أحمد بك يسري تُحمل إلينا في المواسم، على فكرة ما باله نسينا

هذا العام ابن الكلب؟! هذا رجل غير وفيّ. فريد أفندي رجل الوفاء حقّاً. من حسن الخلق أن تقبل

هديّته. ثنّ بأنّه إذا كان في القبول ما يمسّ الكرامة لكننت أوّل الرافضين.

فقال حسين بكآبة:

- تصوّر ماذا يقولون عنّا!

- تصوّر الشواء وأنت تقلّبه على النار والرائحة الشهية تملأ البيت.

والتفت حسنين إلى أمّه وسألها:

- علام نويت؟

فقال المرأة دون أن تنظر إليه:

- لم يسعني إلّا القبول...

وساد الصمت، لا لأنّ أحداً لم يجرؤ على الاحتجاج

فحسب ولكن لأنّ هذا القبول أنقذهم من النزاع

القائم في صدورهم بين غصبة ضيائهم ورغبتهم في الاستمتاع بهجة العيد ولذائذه. وهم إلى هذا كلّ

يؤمنون بأنهم إيماناً كبيراً، كأنّها لا يمكن أن تخطئ،

فإذا كانت قد ارتضت قبول الهدية فلا ضير من قبولها.

هذا ما قالوه لأنفسهم، أو هذا ما قاله لنفسه الحائر

منهم لينجو من حيرته. وكانت الأم أسوأ حالاً منهم.

ولم تجد من عزاء إلّا في هذه الحقيقة وهي أنّ فريد

أفندي اضطرّها إلى القبول بإلحاحه وحرارة صداقته

وقد رجّحت بإثارة نفيسة للموضوع لعلّها تجد في قبول

الأبناء عزاء، فلمّا أنست من الابنين المهمّين معارضة

تضاعف ألمها وصرّحت بالحقيقة فيما يشبه الاعتراف

بالذنب، وضاعف من آلامها أنّهم باتوا لا يشعرون إلّا

في الأعياد شأن المساكين الذين كانوا يقصدونهم فيمن

يقصدون من أهل الخير. انحدار يعقبه انحدار ولا

تدري أين يقف. أمّا حسن فقد اطمأنّ. ولم يرَ بأساً

من أن يتفلسف فقال بلهجة الوعظ:

- قَبِلَ النبي مرّة هديّة أهداها إليه يهوديّ فهل

يكون فريد أفندي شرّاً من اليهود؟!

فتساءل حسين في دهشة:

- من قال هذا؟

- التاريخ!

- أيّ تاريخ!

فصاح به حسن: أحسبت أنّهم يقولون لك كلّ

شيء في المدرسة؟

فقال حسنين بحدّة:

- حدّثنا عن التاريخ الذي تعلّمه الشوارع!

فتظاهر حسن بالغضب وقال:



ثم قال مستطرذاً بعد تردد:  
- أو خذي إذا شئت به حلاوة أو جيناً.  
فتساءلت مدفوعة بغريزة الحرص:  
- ألا تخاف أن يلاحظ أبوك أنني لا أدفع ثمن ما  
أخذه؟  
فضحك قائلاً:  
- إنه لا يرى أبعد من موضع قدميه...

وجاء ترام روض الفرج فصعدا إليه وجلسا  
متجاورين. «كيف أبدر نقودي على هذا النحو؟ البيت  
في شديد الحاجة إلى كل ملئم أجني من عملي الطويل.  
أمي لا تفتأ تبيع قطع الأثاث. حتى أخي حسن أحتق  
بهذا الشلن من هذا المثلّس. ماذا أفعل بنفسي؟ إنني  
أبعثر نقود أخرى لا يتباع البودرة والأحمر. آواه. إنه  
ليس رجلاً. لو كان رجلاً لما تعلّق بأبيه هذا التعلّق  
المضحك، ولما خافه هذا الخوف. حرمة الرجل يومئته  
كما يُحرم الطفل مصروفه. بيد أنني أحبه وأريده. إنني له  
نفساً وجسداً. ليس لي سواه. من أين لي هذه النفس  
التي تسميني هذا كله؟! وسمعتة يهمس في أذنيها:  
- من المؤسف حقاً أنّ أمي عادت من بلدة أختي  
فلم يعد البيت خالياً...

ليست بحاجة إلى من يذكّرها بهذا، فهي تعلمه  
حقّ العلم. بيد أنها سرّت في أعماقها بفتحها هذا  
الباب. ودبّت في جسمها يقظة فنشط خيالها وتذكّرت  
الظلمة الشاملة والأصوات الهامسة، تذكّرت هذا في  
حرارة مشوبة بخوف. ولم تشأ أن تعلّق على قوله  
فتجاهلته عن حياء، وتورّد وجهها الذي جعله الزواق  
مثيراً للنظر. أمي عادت، وأبي لا يرضى! متى ينتهي  
هذا كله؟... متى تملكه بلا خوف، ويشرع الله؟ آه  
ثم آه، لشدّ ما يركبها الخوف أحياناً فتودّ الموت نفسه  
والراحة من الحياة جميعاً. وعاد صوته الهامس يقول:  
- ولكنّي سأخلق الفرص بنفسي. لا بدّ أن تعاد  
الفرصة. وأن يخلو البيت...

فقال بصوت بارد:  
- لا... لا... لا داعي لهذا...  
- الله يساعذك... أنسيت؟... أنسيت حقاً؟ لا

- قسمًا برّب العزّة لولا أنك سبب هذه الهدية  
لكسرت رأسك.  
ثم استدرك قائلاً:  
- وعلى هذا كله كان الواجب يقضي بأن يهدوا إلينا  
خروجاً كاملاً لا نصف خروج (ثم ملتفتاً إلى نفيسة)  
احذري أن تقبلي الهدية إلّا إذا كان فيها نصف الكبد  
أيضاً...

- ٣٠ -

وقفا متقابلين ينتظران الترام. هي في معطفها  
القديم الذي تودّ أن تستبدل به أحسن منه ولو نصف  
عمر، وهو في البذلة التي تبدو عليه قلق جافية. وكان  
يلوح في وجهه التردد، والرغبة المذبذبة في الإفصاح عن  
شيء يثقل عليه الإفصاح عنه، ثم خاف أن يجيء  
الترام قبل أن يتكلّم فقال في ارتباك:  
- نفيسة... ينجّلني جدّاً أن أصرّح لك بأمري...  
فتساءلت الفتاة:

- ماذا بك؟

فقال همساً:

- أمرني أبي أن أصبح اليوم إلى حضرة شيخ  
الشاذليّة فرفضت حتى أثرت غضبه...  
وشعرت بخوف لم تدرك كنهه، لعلّ ذكر أبيه الذي  
هيجّه، وتوقّعت خبراً غير سارّ، فرمقته بعين متسائلة  
دون أن تنبس، فقال بصوته الهامس:

- ثار غضبه لعنادي وحرمني أجرة يومي!

وحلّت الدهشة محلّ الخوف وسألته:

- أليس معك نقود؟

- كلا. أبي رجل جبّار، ربّنا يأخذه...

فقال لنفسها «آمين» ثم تمتمت:

- معي بعض النقود...

فسكت لحظات في قلق ثم سألهما في خجل:

- هل تدفعين ثمن التذكّرتين أمام الجالسين؟

وفطنت إلى ما يريد، فرقّت له، وفتحت حقيبتها  
وتناولت شلّناً وأعطته إيّاه فأخذه وهو يلحظ الواقفين  
بحذر ثم قال:

- شكراً لك. سأردّه إليك في اللقاء الآتي.

أين أيامك؟ فيما عدا أيام العيد لم أتناول لقمة في بيتنا. وماذا يأكلون؟ الفول غذائي الوحيد، فول، فول. الحمير تجد شيئاً من التنوع. لماذا لا يبحث جاداً عن عمل؟ جرب حظّه مرّتين فانتهى في كلّ مرّة بمعركة كادت تؤدي به إلى السجن: كلّاً ليست هذه الأعمال التافهة بمبتغاه. ولا يزال يؤثر عليها حياة التسكّع والمقامرة الحفيرة. الواقع أنّه يتعيش من السرقة، إنّهُ ورفاقه يعلمون ذلك حقّ العلم. إنّهم يتصيدون الزبائن الأغراب ويوهومونهم بأنهم يلاعبونهم على حين أنّهم يسرقونهم. حياة شاقّة مغفوفة بالمخاطر في سبيل قروش، كيف يستقيم إلى هذه الحياة! لم يكن لا سعيّاً ولا راضيّاً، وكأنّه كان ينتظر معجزة تشله من وهدهته إلى حلم من الأحلام. كانت حياته عادة ضارية كالمخدّر المهلك، اعتاد أن يعيش بلا عمل حقيقيّ حائزاً - رغم هذا - مركزاً مرموقاً مرجعه الرهبة والخوف فلم يحتمل أن يبدأ من جديد صانعاً بسيطاً أو عاملاً مطيعاً ولم يكن يغيب عنه مدى حاجة أمّه إلى جدّه، ولا تزال تطنّ في أذنيه شكائهما المكروبة، تطارده كلّها أفاق إلى نفسه. إنّهُ يحبّ أمّه ويحبّ أسرته، ولكنّه ينتظر، ويتنظر، دون أن يحرك ساكناً. لا أزال في البداية. عمل حيوانيّ طويل بقروش. حماقة خير منها...

- مساء الخير يا سي حسن.

ورفع رأسه منفثلاً من سحبات أفكاره فرأى الأستاذ عليّ صبري يجلس قبالة في هدوء وكبرياء فاهتز صدره فرحاً وهتف به:

- مساء الخير يا أستاذ.

ونادى الأستاذ النادل وطلب نارجيلة ثمّ التفت إلى حسن وقال دون تريث:

- قرّرت أن نعمل معاً!... أعني أن أضمّك إلى

تحتي...!

واتّسعت عينا حسن ولاح فيهما بريق خاطف. إنّ التخت هو العمل الوحيد الذي يحبّه، لا لميل فنيّ مرّكب في طبعه، ولكن لأنّه يسير ولذيد وينسم جوّه عادة باريج الخمر والمخدّرات والنساء. ومع أنّ أمه في

يجوز أن تموت في فترة الانتظار. لا أحبّ الانتظار... ليس الانتظار خيراً ممّا فعلت بنفسها؟ بلى. كلّاً. بلى كلّاً. بلى بلى. كلّاً كلّاً. بلى بلى. كلّاً كلّاً. وتهدّت في حيرة، وعاودها شعور اليأس الذي ألفته، ولكنّها قالت:

- لا أحبّ الانتظار مثلك، ولكنّي لا أحبّ هذا أيضاً...

فقال بمكر:

- كاذبة. تحبّينه وتحبّينه. هل نسيت...؟ محال...

- لا أذكر شيئاً...

- لن أنسى ما حييت!... أنت غاية في الحرارة والحياة كأنّ حرارتك لا تزال تلفحني...

- هس. أنت مجنون ولا شك!

- مهما يكن من أمر فسنجد حتّى طرقاً خالية مظلمة...

- حذار. بصرك ضعيف كأبيك، وقد تحسب

الطريق خالياً والشرطيّ أمامك!

- البركة في عينيك أنت...

ثمّ قال متبّداً بعد لحظة صمت:

- متى يتاح لنا الزواج؟!

فألما تساؤله وأغاظها، وأخجلها في الوقت نفسه،

ولازمها فتور ووجوم بقية الطريق.

- ٣١ -

انتصف الليل ولم يكذب في قهوة الجّمال إلّا نفر قليل، وكان حسن يجلس إلى مائدة خالية بعد أن فارقها أصحابه تاركين في جيبه ما استطاع أن يظفر به من قروشهم. كان يجلس كالمفكّر ملقياً على المقهى نظرة جامدة من عينيه المتعبتين. هذا صاحب القهوة وقد أخذ يراجع حساب اليوم مكوّماً المراكات في طبق صاج كبير، على حين وقف النادل مستنّداً إلى إحدى ضلف الباب واضعاً إحدى يديه في جيب المريلة يعبث بالقروش فيتصاعد وسواسها في إغراق شهويّ: «رحمك الله يا أبي، ألا تعلم بأنّي تبعت كثيراً بعد موتك؟ كان نزاعنا لا يهدأ، وكنت أشعر أحياناً بأنّي أمقتك، ولكن

## بداية ونهاية ٢١١

بالنارجيلة واستمتع الأستاذ بالأنفاس الأولى، وتنحنح  
ثم سأل الأستاذ:

- ما رأيك في موال: يا عيني ليه بتبكي؟

- عال... .

وراح حسن ينشد الموال في صوت غير مرتفع.  
مُجيدًا ما وسعته الإجابة، والآخر يذهب معه برأسه  
ويجيء متظاهرًا بالاستغراق، حتى انتهى حسن،  
فقال:

- هذا فوق الكفاية بالنسبة لستيد. أحب أن أسمعك  
في الهنك أيضًا، هل تحفظ «في البعد يا ما كنت  
أنوح؟».

فتنحنح الشاب مرة أخرى وقد حميت حنجرته  
واشتعل حماسه واندفع يغني الدور حتى أن عليه، فقال  
الأستاذ:

- عال، عال، هل تعرف أصول النغم، السيكا  
والبياتي والحجاز وغيرها.

وكان لا يداخله شك في جهل الأستاذ بهذه  
الأصول فقال بجرأة ندر أن توجد في غيره:

- طبعًا.

- أسمعني ليا لي رست...

فأنشد بعض الليالي كيفما اتفق، فهز علي صبري  
رأسه قائلاً:

- برافو... أخرى نهاوند...

وانطلق يغني وهو يغالب سحرته القلقة في صدره  
والآخر يتابعه باهتمام ظاهري، ثم لاح في وجهه  
التفكر فجأة وبدا كأنه يريد الإفصاح عن شيء هام.  
وكان حسن ينتظر هذه اللحظة بغريزته فتساءل متحيرًا  
ترى هل يريد أن يندبني إلى معركة؟... ماذا يريد  
على وجه التحقيق؟... وقال الأستاذ:

- صوتك حسن. بيد أن العمل في التخت يتطلب  
مهارة أخرى. ينبغي أن نتفاهم تمامًا. وعلى سبيل  
المثال أقول لك إنك يجب أن تأخذ بقسط وافر من  
أساليب الدعاية...

- الدعاية؟!

- نعم. كأن تنوّه بغني في المناسبات. أن تسعى

علي صبري كان دائئًا محدودًا إلا أنه كان يراه شيئًا خيرًا  
من لا شيء، ولعلّه عتبة لما بعده، أجل من يدري؟!  
قال:

- حقًا يا أستاذ؟

- بدون شك.

- هل نعمل في صالة أو قهوة؟

فتخلّل الأستاذ شعره النائر بأصابعه الطويلة النحيلة  
وقال:

- ستريسي إلى هذا يومًا قريبًا. وربما غزونا الراديو  
نفسه. ولكننا سنقتصر بادئ الأمر على الأفراح...

وسرعان ما أخذ الحماس. ولو كان علي صبري  
شخصًا لا يعقد به رجاء ولو ضئيلًا لصعقه بضربة  
تجعل عاليه سافله. لقد عمل معه بالفعل في بعض  
الحفلات العائلية نظير ريال والعشاء، وما كان هذا  
ليحدث إلا مرّات في العام، فما الجديد في هذا؟!  
وشعر بأن هذه الدعوة أمرًا وداعبه أمل جديد، فتظاهر  
بالسرور وقال:

- ستحتلّ المكانة التي تليق بك يومًا بلا شك. أنت  
لك بحة ليست لعبد الوهاب نفسه.

فانبطحت أسارير وجهه، ثم سأله:

- ماذا تختار من آلات التخت؟... كنت حدّثني  
عن المرحوم والدك كعواد بارع؟

- لم أتعلّم آلة على الإطلاق...

- ولا الدف؟

فقال حسن بقلق:

- سبق أن جرّبتني كستيد، أظنني أنفع  
«ستيدًا»...

فهز الأستاذ رأسه قائلاً:

- كما تشاء. هل تحفظ أدوارًا كثيرة؟

- مواويل وأدوار وطقاطيق...

- أحب أن أسمعك منفردًا...

وشعر حسن في أعماقه بسخرية. نفخة كذّابة  
وامتحان لحساب أمل ضعيف! ولكنه كان مصممًا على  
مجاراته إلى النهاية. كان يعلم بأن يغني لحسابه الخاص  
يومًا ولو في المقاهي البلدية. وانتظر حتى جاء النادل

لإغراء البعض بطلبي لإحياء الأفراح ولك جزاء طبعاً. أن تكون في حفلة يحببها مغنٌ ما فتعلن نقدك لصوته وتقول لمن حولك آه لو كان عليّ صبري في مكان هذا المغني. وهكذا...

فابتسم حسن قائلاً:

- لهذا هيّ، وأكثر منه...

فقال عليّ صبري بعد فترة تفكّر:

- ثم إنك شاب قويّ وجريء وينبغي أن تستغلّ مواهبك إلى أقصى حدّ. ولكن دعني أسألك سؤالاً قبل كلّ شيء: أي المخدرات أحبّ إليك؟

ما الذي يدعوه إلى هذا التحقيق؟ أريد أن ينفحه بهديّة؟! إنّه يجيد قبول الهدايا، أمّا الجود بها فهذه عادة لم يمارسها. أم يرمي إلى إشراكه في عمل هامّ؟ ودقّ قلبه لهذا الخاطر. طالما حلم بتجارة المخدرات. على أنّه أثر الحرص والحذر فقال بمكر:

- أظنّ المخدرات تؤذي الحنجرة...

فضحك عليّ صبري، ثم انطلق يغني من الليالي ما شاء في صوت كالرعد وفي نفس طويل قويّ، ثم تساءل:

- ما رأيك في هذا؟

- لم أسمع له مثيلاً!

فقال ساخراً:

- هذا نتيجة خمسة عشر عاماً من تعاطي الحشيش والأفيون والمنزول، منها خمسة أعوام أدمنت فيها الكوكايين...

- يا سلام!

- المخدرات دم الغناء، وما من مغنٍ يستحقّ هذا الاسم إلّا وقد تعاطى من المخدرات مثلاً التهمّ من الملوخية والفول المدسّس.

فضحك حسن وقال بلهجة تنمّ عن التسليم:

- لهذا لو تيسّرت...

- صدقت، وهذا ما ختمته. إنك لا تكره المخدرات ولكنك لا تستطيعها. وإذن فاعلم أنّه من اليسر أن نجعل الأنهار خمرًا والجبال حشيشًا. إنك جريء قويّ ولكني لا أخفي عليك باقي خفت كثيرًا...

- خفت ماذا؟

فضحك عليّ صبري ضحكة قصيرة كشفت عن أسنانه الصفر وقال:

- أكره الناس إليّ من يقول «أخلاقي لا تسمح لي بكيت وكيت» أو من يقول «أتق الله» أو من يتساءل في خوف «والبوليس؟!». فهل أنت أحد هؤلاء؟

فقال حسن مبتسماً وهو يشعر بأن صبره الطويل يوشك أن يظفر بحسن الجزاء:

- إني أعيش في هذه الدنيا على افتراض أنّه لا يوجد بها أخلاق ولا ربّ ولا بوليس...

فضحك عليّ صبري بقوة زلزلت القهوة كغناائه وقال:

- فلنقض بقية الليل في بيتي فما زال في الحديث بقية...

ولبت حسن متفكراً دون أن تخونه ثقته بنفسه لحظة واحدة. كان قليل الثقة في محدّثه ولكنّه لم يكن يائساً منه كلّ اليأس. كان يشعر في أعماقه بأنّ ثمة انتظاراً طويلاً لا يزال أمامه قبل أن تثبت الأرض القلقة تحت قدميه.

- ٣٢ -

كانت الأمّ ونفيسة جالستين بالصالة قانعتين من النور بما يشعّ من حجرة الإخوة حين زارتهما صديقتها صاحبة البيت. ورحبتا بها ترحيباً يليق بأيادها البيض على نفيسة. وجلست المرأة بينهما على الكنب. أبت حتّى أن تضيئاً مصباح الصالة. وجعلت هي والأمّ تتسلّيان بالحديث على حين ذهبت نفيسة إلى المطبخ لإعداد القهوة. وكانت الأمّ تنتظر دائئاً من وراء زيارة صديقتها عملاً مربحاً لنفيسة، وقُلّ أن خيبت لها رجاء. لم يكن عقلها يخلو أبداً من هموم العيش، خاصّة بعد أن استدار العام واقتربت العطلة المدرسية، وبات من المتوقّع قريباً أن يضاف إلى واجباتها واجب جديد هو تغذية ابنها بدلاً من المدرسة. كانت تشكو إلى صاحبها ما عانت من حياتها في الأشهر المنقضية والمرأة تواسيها وتشجّعها، حتّى عادت نفيسة بالقهوة. وأرادت المرأة أن تعلن عمّا دعاها إلى هذه الزيارة

في دهشة. وظننت الضيفة أنه كبر على الفتاة أن يحظى بمثل هذه العروس شاب تافه كسلمان فقالت:  
- نعم سلمان. والظاهر أن عم جبران لم يمانع لصداقته لعم جابر سلمان. وربك يعطي الأرزاق بلا حساب...

أدركت رغم هول الصدمة أنها كادت تفضح نفسها فتماسكت في جهد شديد. لقد انفجرت الصرخة في صدرها بلا وعي وانطلقت من فيها دامية. ولم تعد تستطيع أن تتابع حديث المراتين وشعرت بأنها تموت موتاً سريعاً منقضاً. وساعدتها الظلمة على إخفاء معالم وجهها فشدت على أصابعها حتى لا تصرخ مرة أخرى. ماذا قالت المرأة! ليس ما بها كابوس أو جنون، إنه حقيقة بلا ريب، سلمان جابر سلمان، دون غيره. وعادتها ذكرى مخاوف قديمة كانت تنتابها من حين لآخر في ساعات انفرادها، مخاوف غامضة أحياناً كقلقي ينشب أظافره في صدرها، أو واضحة أحياناً أخرى تنبذ في صور بشعة يقشعر لها البدن. وخالت في ذهولها لحظة أن ما بها ليس إلا حالة مرعبة من هذه الحالات، ولكن لم تكن إلا لحظة واحدة ثم عاودها هذا الشعور الثقيل الرهيب بأنها تموت. لقد ذاقنا قساوة الدنيا مع أسرته جميعاً ولكنها لم تصدق أنها قاسية إلى هذا الحد، وعصت على شفيتها وهي لا تدري كيف تقاوم هذا الانحلال والتهدم، السارين في روحها وجسدها. ما هي بخية الحب، هي خيبة الحياة كلها، ولكن يجب أن تتمالك نفسها، وعسى أن تدعوها الضيفة إلى الحديث لأية مناسبة فلا يصح أن ترتعش نبرات صوتها، أو تحتقن من شدة التأثر. ولعله من الخير أن تلوذ بالفرار إلى حين. ولم تن عن تحقيق نيتها فتناولت قدح القهوة ومضت إلى المطبخ. هنالك زفرت من الأعماق، وشدت يديها على ضفيريتهما القصيرتين بشدة وهي تخلق في سقف المطبخ الملوّث بالباب وقد عسّش العنكبوت بأركانها، وليثت في جمود كالذاهلة. ولم يكن أملاً، ولكن خدعة، كذبة مفزعة، ضربة قاضية، سرقة، لطخة، جرحاً لا يندمل، وحلاً، لقد انتهت. انتهت بلا أدنى ريب. لا يمكن أن

فقال وهي تبسم ابتسامة حلوة تنم عن طيبة قلبها:  
- جئتكم بعروس جديدة...

فضحكت نفيسة ضحكة سرور وقالت:  
- يحق لي أن أطلق على نفسي خيطة العرائس!  
- أسأل الله أن تعدي ثياب عرسك بنفسك قريباً.  
فتمتمت الأم قائلة:  
- آمين.

وأمنت نفيسة على الدعاء بقلبها، على ما أثار في نفسها من قائم الذكريات. «متى يمكن أن أكون عروساً؟ ليس قبل أن يموت عم جابر سلمان. يا للسخرية! أمل كلّفني نفسي وجسدي. هل يدور هذا لأني في خلدي! إنما تحسب أن هموم المعيشة أكبر الرزايا. يا لها من جاهلة بائسة!» وتساءلت الأم:  
- من تكون الزبونة الجديدة؟

- العروس الجديدة هي كريمة عم جبران التونسي البقال...

وتبّعت حواس نفيسة لهذا الاسم الذي لا يمكن أن تنساه فدق قلبها بعنف وقالت متسائلة:

- دكانه عند تقاطع شارعي شبرا والوليد؟  
- بالضبط.

وضحكت الأم قائلة:  
- أصبحت جوّالة يا نفيسة كشيخ الحارة...  
فضحكت الفتاة ضحكة آليّة وقالت لنفسها «هي دون غيرها». هي الفتاة التي كان عم جابر سلمان يرغب في أن يزوّجها لسلمان كما قال لها الفتى. فلتتزوج ولترفع عن صدرها كابوس ذكراها. وتساءلت الأم:

- وهل جبران التونسي هذا غني؟  
- على جانب من اليسار لا بأس به...  
- ومن العريس؟  
فضحكت المرأة وقالت:

- إنه أقرب مما تتصورين. هو سلمان ابن عم جابر سلمان البقال.  
- سلمان!

نذت عن نفيسة كالصرخة، فالتفتت المراتان صوبها

الربيع. وسارت إلى الباب الخارجي ثم عرجت غير هيّابة إلى دكان عمّ جابر. كان الرجل العجوز عاكفًا على مراجعة الحساب الختامي لليوم، على حين وقف سلمان مرتفعًا الطاولة ناظرًا فيما بين يديه في شروء. واقتربت منه وهي تلقي عليه نظرة حادة ملتهبة فرفع إليها عينيه الصغيرتين ولم تلبث أن لاحت فيهما نظرة جفول وارتيابك ثم قال ببلاهة:

- أيّ خدمة يا ستّ نفيسة؟

فقال بعزم وثبات:

- الحقّ بي في الحال...

فأومأ لها بالإيجاب وهو يتظاهر بأنّه يقدّم لها شيئًا من الدكان. ومضت إلى الشارع ووقفت تنتظر عند رأس عطفة نصرالله وهي تنفّص ما حولها بعناية وحذر. وطابت نفسها بما فعلت. فما كان في وسعها أن تصبر دون حراك حتّى مطلع الصباح. وجعلت تنظر داخل العطفة حتّى رآته قادمًا بجلبابه وجاكتته مسرعًا في خطاه الملهوكة. حقير تافه، شيء تعافه النفس، مخادع غثاقل كذاب. ما أحقر هذا! ماذا هي فاعلة به؟ أترتمي على قدميه باكية مستعطفة؟ هل تضرع إليه أن يظلّ لها وحدها؟ بدا أنّ هذا كلّ شيء فظيع مستنكر، وعلى هذا فقد وشى بمشاعر عميقة صادقة لا تدري كيف تفصح عن نفسها، فقبل ساعة واحدة كانت تعدّه رجُلها وتعدّ نفسها امرأته، والهلاك أهون من أن تنفصم هذه العروة بين يديها. كانت شيئًا وليست الآن شيئًا على الإطلاق. عدم خيف ويأس قاتل. واقترب منها في حذر وغمغم دون أن يلتفت إليها:

- خير؟

وأثار صوته حنقها ولكنّها كظمت نفسها وقالت

وهي تسير:

- اتبعني إلى شارع الألفي.

ومضت إلى الشارع الجانبيّ بعيدًا عن الأعين المستطلعة، ثمّ أبطأت الخطو حتّى لحق بها، وبادرته قائلة وقد نفذ صبرها:

- أليس عندك ما ترى إخباري به؟

فتساءل متجاهلًا في قلق وخوف:

تتخلّل أمّها هذا، أمّا حسين وحسين فبهيات. ربّاه كيف استطاع خداعها إلى هذا الحدّ؟ كانا معًا يوم الجمعة الماضي فأنيّ مجرم هذا وأنيّ إجرام. ماذا يجدي الغضب أو الحقد، أو الكراهية؟ شعرت نحوه بالكراهية تقتل أيّ أثر للخير في النفس. ما أشدّ حاجتها إلى التفكير والتدبّر، إنّها تتلهّف على مكان قصيّ خالٍ ينأى بها عن هذا المحيط الذي باتت تضمر له البغض أشدّ البغض، مكان تستطيع أن تسأل فيه نفسها كيف هوت بمثل هذه السهولة، ويمثل هذه السرعة، ويمثل هذا الهوان...

- نفيسة...!

بلغ نداء أمّها مسامعها فانتفضت في ذعر، ثمّ حنقت عليها حنقًا شديدًا كأنه المقت، ولم تأت حراكًا فأعادت الأمّ النداء فذهبت وهي تعضّ على نواجذها، ووجدت الضيفة متأهبة للذهاب وأمّا تودّعها عند الباب الخارجي. وقالت لها وهي تسلم عليها:

- تعالي إليّ بعد غد فنذهب معًا إلى بيت العروس...

فأومات برأسها بدلالة الإيجاب دون أن تنبس، ولسًا أغلق الباب قالت الأمّ:

- سلمان! والله ما يستاهل هذا الحظّ...

فشعرت بخنجر ينفرس في شغاف قلبها، ولم تعلق بكلمة. وضاق صدرها بالمكان والجوّ وأيقنت بأنّها أعجز من أن تتحمّل المكث إلى جانب أمّها، وخطر لها خاطر كلسان من لبّ انشقّ عنه صدرها فمضت بقدم ثابتة إلى حجرتها، ثمّ عادت وقد ارتدت معطفها فسألته أمّها بدهشة:

- أذهابه إلى الخارج؟

فقال وهي تتوجّه صوب الباب:

- نعم سأشتري شيئًا للعشاء وربّما ذهبت إلى شقّة

فريد أفندي ساعة...

- ٣٣ -

ومالت نحو فناء البيت وأنفاسها تتردّد في ثقل وصعوبة، كانت السهاء صافية مرصّعة بالنجوم، والجوّ باردًا بعض الشيء تتخلّله نسائم لطيفة من طلائع

فقال بلهجة تقطر أسفاً وحزناً:

- أعرف وأسفاه. الله وحده يعلم بحزني وأسفي...

فألقت عليه نظرة حامية وقد أثارها لهجته الأسيفة  
لحدّ الكراهية القاتلة وقالت بصوت مرتعش:

- حزين وأسف، يا لك من مسكين! وماذا تظنني صانعة بحزنك وأسفك؟! إِنَّ الحزن وحده لا يصلح الخطأ، فإذا تظنني صانعة بحزنك؟ لقد أوقعتني في ورطة قاتلة فلا يجوز أن تدعني وحدي وتهرب: ألا تفهم هذا؟

وبدا وكأنَّ الحيرة تمسك بلسانه، ونظر صوبها في خوف دون أن يحرج جواباً. وأثارها صمته كما أثارها تظاهره - كانت متأكدة من هذا - بالأسف، فقالت بحدّة:

.. ما عسى أن أصنع؟!

فازدرد ريقه وقال بصوت متقطع منخفض:

- والاسفاه... إِنِّي أدرك حرج موقفك... لشدّ ما يؤلّني هذا... ولكن... أعني... ما عسى أن أصنم أنا؟

فقلت بحقد وهي تكظم عواطفها النائرة:  
- ارفض هذا الزواج. لا نجاة لي إلا بهذا...  
- أرفضه؟! ... فات الوقت...  
- يجب أن ترفضه. لم يفت الوقت بعد. يجب أن  
تفكر في... لا نجاة لي إلا بأن ترفضه...  
وقال بلهجة اليائس وهو يشعر بخوف:  
- ليس في وسعي هذا...

، وتولّاها القنوط، ولم يوح لها الشخص الخائر المائل  
أمامها بأقل رجاء. وصاحت بانفعال:

- كان في وسعك أن تفعل ما فعلت. وكان بوسعك أن تقبل الزواج من هذه الفتاة. ولكن ليس بوسعك أن تصلح الخطأ، ليس بوسعك أن تَعُدَّ يَدًا لِنَقَازي...

.. ما أشدَّ ضيقِي ! إِنَّ أَسْفَى لَا حَذَّ لَهُ ..

– ماذا يفيدني هذا الأسف؟

ولہٰذا وجدته صامتاً صرخت فی وجهہ :

- عما تسألين؟

فغاضها للدرجة الجنون وقالت بحدّة خيفة:  
- ألا تدري حقاً عمّا أسأل؟. هات ما عندك  
وكفالك خداعاً!

فتنہء فی تسلیم وغمغم فی خوف:

### ٢- تقصدين مسألة الزواج...

فقال في سخرية مريّة:

- أظنّ هذا. ألا تراها مسألة تستحقّ السؤال؟

فقال بصوت شاك:

- أبي؟

فصاحت بحدّة وجسمها يتفّض غضباً وهياجاً:

- أبي، أبي، أرجل أنت أم امرأة؟

فَقَالَ بَذَلْ وَخُنُوعٌ وَتَسْلِيمٌ:

- رجل ولكن كعدمه!

- یعنی امرأة!

- ساعحك الله . لا أسمع إلّا نهرًا وتقريرًا سواء منك  
أو منه . ماذا أصنع؟

ورمته بنظرة حامية وصدرها يستعر حقًا وغيظًا.  
امرأة، جبان، حقير، كيف أحبتّه، كيف هانت عليها  
نفسها فسلمت له! إِنَّ سَعْدِيَا إِلَيْهِ، وتعلّقها اليائس  
به، وحرصها الذليل على استرجاعه، هي شرّ ما  
تسيما الدنيا من بؤس وعذاب. وصاحت به:  
- يا لك من شاكٍ بالكَ حقير. كيف سوّلت لك  
نفسك الغدر بعد ما كان. كيف أخفيت عني الأمر؟  
أجب...

فنفتح قائلاً :

- مضى أبي إلى هدفه على رغمى، غير مقيم لرأبى  
وزناً حتى وجدت نفسى بين أمرين لا ثالث لهما: فإما  
النزول عند إرادته، وإما الموت جوعاً.

۲۔ لماذا لا تبحث عن عمل في غير دكان أبيك؟

فتمتم في نرات يائسة :

- لا أستطيع، لا أستطيع...

فاحتدم الغبط في صدرها وقالت:

.. يا لك من جبان حقير. ألا تعرف ماذا يعني هذا

بالنسبة إلى؟!

- ما يفيدني أسفلك؟

فغمغم:

- ماذا عسى أن أصنع؟

وركبها شيطان الغضب والياس فالتفت نحوه، وانقضت عليه بسرعة البرق وأمسكت بتلابيبه وهي لا تدري ماذا تفعل، وصاحت في وجهه:

- أنسألني عما تصنع! هل حسبتي لعبة تلهو بها حين تشاء وتحطمها حين تشاء؟!

فقال وهو يحاول عبثاً أن يخلص سترته من يديها:

- نفيسة، اعقلي، نحن في شارع...

فصاحت به وقد فقدت وعيها:

- جبان، سافل، وغد، غادر...

وسحبت يدها بسرعة وهوت بقبضتها على وجهه بقسوة جنونية، مرة، وأخرى، حتى رأت الدم يسيل من أنفه، وجعلت تلهث وصدرها يضطرب في عنف وعدم انتظام، وتحسّس سلمان أنفه بيده ويسطها أمام ناظره في صمت، ثم أخرج منديله من جيبه ووضع على فمه وأنفه. وبدا هادئاً ساكناً على غير ما كانت تنتظر. شعر بادئ الأمر بخوف، ثم حلّ محلّ الخوف ارتياح غريب، كأنه جاز منطقة الخطر، ولم يعد ثمة ما يخافه. انفجرت الأزمة، وزال الخطر، وسقط ما كان لها من شبه حقّ عليه بعد هذا الدم المسفوح، وقال في هدوء وصبر:

- ساعحك الله يا نفيسة، أنا عاذرك.

وهيجهأ حديثه فجأة فعاودها الجنون، وانقضت عليه مرة أخرى بدافع غريزي، ثم أمسكت بتلابيبه كشيء يريد الإفلات وتأنى عليه - بكلّ قواها - أن يفلت. وركبه الذعر فأنحلّ تماسكه، ونتش سترته فجأة فخلصها من يدها وتراجع صارخاً:

- إياك وأن تلمسيني. ابعدي عني. ابعدي لا حقّ لك عليّ.

وهجمت عليه ولكنّه دفعها في صدرها وصاح بها في هياج أحدثه الذعر:

- لا تلمسيني. لم أجبرك على شيء. لقد ذهبت معي إلى البيت راضية. لا تلمسيني وإلا نأديت

الشرطي!

وواصل تراجعاً حتى ابتعد عنها مسافة غير قصيرة ثم دار على عقبيه ومضى مهرولاً كأنه يفرّ فراراً... وتسمّرت في مكانها وجسمها ينتفض انتفاضاً. فقدت سلطان الإرادة على جسدها وروحها وعواطفها. وبدا لها الأمر كحلم، أو هذيان مَرَض، أو حال لا تمتّ بصلة إلى عالم الحقيقة. لهذا شارع وهذه شجرة وهذا مصباح وهؤلاء بعض السابلة، أشياء هذه أم أشباح؟! إنها لا تدري. بدا كلّ شيء بعيداً عن الواقع والحقيقة. ولعلّها لم تثب إلى وعيها إلا حين انفجرت باكية بدموع حارّة ملتبهة صاعدة من أعماق صدرها...

- ٣٤ -

كان سلمان يمسح الطاولة حين رأى ظلّ شخص ينعكس عليها فرفع رأسه فرأى حسن واقفاً حياله. وسرت في جسده قشعريرة رعب فكان صاعقة انقضت على رأسه. وكان حسن يقف بقامته الطويلة، منفوش الشعر، وقد حال لون بدلته من كثرة الاستعمال، ينبعث من عينيه نور حادّ ينمّ عن العنف والجرأة. وقال سلمان لنفسه «إني هالك. إذا كانت نفيسة قد أفضت إليه بسرّها فساعتي قد دنت ولا شك» ونظر إليه كما ينظر الفأر إلى القطّ دون أن ينبس. وقال حسن بصوت مرتفع رنّ في أذنيه رنيناً مؤلماً خفيفاً:

- السلام عليكم...

وردّ عمّ جابر سلمان من وراء مكتبه قائلاً:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. كيف حالك يا سيّ حسن؟...

وذهل سلمان في خوف عن ردّ التحية وقال لنفسه «ما هذه بتحية، هي نذير. ربّاه كيف تعرّضت لفتاة لها مثل هذا الأخ؟» وقال حسن:

- الحمد لله لقد جئتكم لأحدّثكم في أمر هامّ جدّاً...

إنّه يعلم بهذا الأمر. عمّا قليل يعلم أبوه بالفضيحة ما هو الشيطان يقترب. لقد رفع طرف الطاولة ومرق



بالفوائد التي تقترن بإحيائي ليلة الفرح. وأهم هذه  
الفوائد في نظري أنّ شخصاً مهما بلغ من القوة والشرّ  
لن تحدّثه نفسه بالاعتداء على الخفلة كما يحدث كثيراً.  
فلاح الاهتمام في وجه الرجل العجوز، وأدرك  
بسهولة ما وراء هذا الكلام الطيّب من الوعيد، ونظر  
في وجه الشابّ المخيف مبتسماً وتساءل في لين ورقة  
وابنه يتابعه فاغراً فاه:

- لا تخلو ليلة من حفلة فرح تمرّ بأمن وسلام.  
فضحك حسن ضحكة غريبة وقال:  
- يوجد كثيرون لا همّ لهم إلا الشرّ والاعتداء،  
وهم يتصيّدون الأفراح عادة للنهب والاعتداء...  
فقال العجوز بحذر:  
- كان لهذا في الزمن الغابر، أمّا الآن فلعلهم  
يخافون الشرطة.

فقال حسن وهو يهزّ رأسه مبتسماً:  
- إنهم لا يحسبون للشرطة حساباً. ويتنهون من  
عدوانهم عادة قبل حضور الشرطة. وما أيسر عملهم  
الذي يتوجّه بادي الأمر إلى تحطيم المصابيح، فلذا  
انقلب الفرح ظلاماً وركب الخوف النفوس أتمّ  
المدعوّون عملهم وهم يتخبّطون في الظلام لا يدرون  
أين تقع أرجلهم، فتتهار الزينات وتقلب المقاعد  
ويندلق الطعام وتُسرَق الملابس ويصاب أهل  
العروسين بجروح خطيرة. وإذا انجابت موجة الشرّ  
يجد القوم أنفسهم أشدّ حاجة إلى رجال الإسعاف منهم  
إلى رجال الشرطة. وأين الفاعل؟... مجهول...  
وإذا أرشد إليه أحد عرض نفسه لخطر أكبر يحوّل  
القضية من محكمة الجنح إلى محكمة الجنايات. وأعطني  
عقلك ما جدوى العقاب على فرض نزوله بالجاني بعد  
ضياع الأنفس والأموال!

وأنصت عمّ جابر بانتباه، وفي تشاؤم ثقيل، وشعر  
بمعجزه حيال الشرّ المائل أمامه الذي يعرف من سيرته  
ما يعرف الجميع. ولم يدرك كيف يدفعه فتعزّى قائلًا إنّه  
على أيّة حال يحسن الغناء لدرجة لا بأس بها، وابتسم  
الرجل ابتسامة باهتة وقال:

- مهما يكن من أمر هؤلاء الأشرار فلن تسوّل لهم

إلى الدكان. لا يفصله عن قبضة يده شبر. آية حماقة  
جعلته يعتدي على نفسه؟ ليت يمهله حتّى يرفض  
الزواج ويصلح خطاه. ومال حسن على المكتب معتمداً  
حافته بكلتا يديه، وردّد بصره بين الأب والابن،  
وسلمان مُطْرِق في توقّع مروع للضربة المجتمعة. وقال  
حسن:

- علمت أنّ زواج سلمان قريب؟  
فقال عمّ جابر:  
- إن شاء الله. العقبى لك...  
- وليلة الفرح؟  
- قريباً جداً إن شاء الله.  
فقرر حسن بأصبعه على المكتب وقال بجراحة:  
- نحن جيران يا عمّ جابر واحسبني خير من يحيي  
هذه الليلة!

واتّسعت عينا سلمان الصغيرتين. إنّه لا يصدّق  
أذنيه... لهذا الغرض جاء؟ كيف غاب عنه أنّ  
نفسه تفضّل الموت نفسه على البوح بسرّها لهذا الأخ  
الجبار! ونذت عنه ضحكة. وأردفها بأخرى. ثمّ  
انفجر ضاحكاً ضحكاً عصيياً لم يتمالك معه نفسه حتّى  
التفت حسن وأبوه نحوه في دهشة وإنكار، وسرعان ما  
أمسك. ثمّ خاطب حسن قائلاً في أريحية وسرور:  
- لا كانت الليلة إن لم تحيها أنت...

وابتسم حسن في رضا وخاف الأب عواقب هذا  
الوعد الأحقّ فقال:

- على العين والرأس يا سي حسن. لا يمكن أن  
يوجد مانع من ناحيتنا، ولكنّي أخشى أن يكون لوالد  
العروس رأي آخر...

فرمقه حسن بريية ثمّ قال:  
- الرأي رأي والد العريس.  
فقال عمّ جابر برقة:

- أنت من تفضّل يا سي حسن، ولكن أمهلني حتّى  
أشاور عمّ جبران التوني...

فتفكّر حسن ملياً وقد أخذ دم الغيظ يجري في  
عروقه ثمّ قال بلهجة ذات معنى:

- شكراً لك يا عمّ جابر. ولكنّي أحبّ أن أذكرك

نفوسهم الاعتداء علينا وأنت مطرب ليلتنا!

فابتسم حسن في ارتياح وقال:

- إنك رجل كريم يا عم جابر، ولعلّ الأيام  
تسعدني بإحياء فرحك أنت إذا نويت الزواج مرة  
أخرى.

فضحك سلمان ضحكة من ينعم بلذة النجاة بعد  
الخطر المحقق. أما الأب فابتسم ابتسامة صفراء  
وغمغم:

- عفا الله عنك...

وسعل حسن سعالاً مصطنعاً وقال بلهجة جديدة  
ودون تلثم:

- لا أحب أن أطيل عليك. أن لي أن أذهب شاكرًا  
بعد قبض مقدم الأتعاب...

فقال العجوز بجزع:

- الآن ١٩

- خير البر عاجله. لست إلّا مغنيًا متواضعًا لا  
تعدّي أتعابه - هو وتخته - الخمسة جنيهاً، وأقنع  
الآن بجنيه واحد...

وصمت الرجل متحيرًا حينًا. ثم قال لنفسه «الأمر  
لله من قبل ومن بعده» وفتح درج المكتب وتناول جنيهاً  
ووضعه على المكتب فأخذه حسن وذهب وهو يقول:

- ربنا يتمّ بالحير...

- ٣٥ -

جاء الترام فركبت نفيسة وتبعته على الأثر صاحبة  
البيت. أرادت المرأة أن تصحبها إلى بيت عمّ جابر  
التوني لتقدّمها إلى آلها بنفسها وقد أخذت نفيسة زيتها  
وصنعت من وجهها خير ما يمكن أن يصنع منه  
وارتدت أحسن ما عندها من الثياب. ولم يكن يغيب  
عن شعورها لحظة واحدة ما في رحلتها من غرابة. وقد  
قالت لنفسها كثيرًا إنّه من الجنون أن تذهب إلى هذا  
البيت ولكنها لم تدري كيف تنبذ هذه الفرصة السعيدة  
التي فرحت بها أمّها أيّما فرح. والحقّ الذي لا مريّة فيه  
أنّ حديثها لنفسها هذا لم يعبر عن حقيقة رغباتها، أو  
أنّه دارى هذه الرغبات مدارة لم تخف عنها. كانت تؤدّ  
رؤية العروس مهما كلّفها هذا من عناء، وكانت رغبته

من القوّة والتغلغل بحيث لا يمكن مقاومتها. وليس  
يمكن القول بأنّها كانت تريد أن تقيس جمالها بجمالها،  
فهي تعلم بالبداية أنّها - العروس - أجمل منها، وليس  
في هذا من جديد، ولكن على رغم وضوح هذه  
الحقيقة ظلّت رغبته في رؤية الفتاة مشتتة لا تقاوم،  
وكأنّ رباطاً وثيقاً يصل أسبابها بأسبابها، ويقرن  
مصريها بمصريها. ولم تكن أفاقت من أثر الصدمة  
العنيفة التي هرسّت نفسها وجسدها هرساً، ولكنّ  
انقضاء أيّام أخذ الثورة الهائجة، في ظاهرها على  
الأقلّ، وأحلّ محلّها مرارة سائمة ويأساً مميّثاً، وشعوراً  
معذباً بالوحشة، كأنّها غريبة بين أهلها، شاذّة عن  
المخلوقات، إلى إحساس بالظلم طاغى بعث في نفسها  
رغبتين متناقضتين تناوبتاها تناوباً متواصلًا، رغبة في  
التمرد والجموح ورغبة في الاستزادة من الظلم  
والتعذيب حتّى الموت، وقد ركبت الترام وهي على  
هذه الحال، وتلّهفت على اللقاء القريب وهاتان  
الرغبتان المتناقضتان تتعاورانها. وغادرت الترام بعد  
محطات أربع، وانّجحت إلى شارع الوليد، ثمّ مالتا إلى  
عمارة كبيرة تقوم في أسفلها بقالة عمّ جبران التوني.  
وصعدتا إلى الدور الثاني ودخلتا شقّة به. واستقبلتهما  
سيّدة في الخمسين متوسطة القامة مفرطة في السمنة،  
بيضاء البشرة، فدخلن جميعاً حجرة الاستقبال، وما إن  
استقرّ بهم المجلس حتّى قالت الستّ زينب صاحبة  
بيت نفيسة:

- هذه ستّ نفيسة، وستشهادين لها بالمهارة  
والدوق.

فقالت السيّدة:

- حدّثنا ستّ زينب عنك كثيرًا. أهلاً وسهلاً...  
وآلها الثناء كأنّه سبّ وهجاء، وأغاظها وأحنقها  
لسبب لا تدريه، وتزعزعت ثقتها في أعصابها أن يفلت  
زمامها من يدها. أمّا السيّدة فمالّت نحو باب الحجرة  
ونادت بصوت مرتفع «عديلة» ودقّ قلب نفيسة،  
ورجّحت أنّها تنادي العروس وخيل إليها أنّها تسمع  
سلمان وهو يهتف بهذا الاسم، وخالته يضمّها إلى  
صدره وقد أذهلته حرارة العاطفة وراح يقول لها بصوته

يتجمّع في أعماقها لم تعبأ معه بالحقيقة والواقع .  
وصممت العروس هنيهة ثمّ عادت تسألها قائلة :

- هل تسكنين في عمارة ستّ زينب؟

فقال مدفوعة بالإحساس نفسه :

- نعم . منذ أعوام طويلة . كان المرحوم أبي موظفًا  
بوزارة المعارف . . .

- أخبرتنا بهذا ستّ زينب . ألا تعرفين أنّ بقالة  
العريس قريبة من عمارتكم؟

ووجدت شكّة دامية في قلبها، وخفضت عينيها أن  
تري الأخرى ما ارتسم فيهما، ثمّ تمتمت :

- تعين عمّ جابر سلمان؟

- هو نفسه . العريس ابنه . ألا تعرفونه؟

«أعرفه أكثر منك! . . لن تعرفيه مثلي قبل  
أشهرًا . . وستجدينه حيوانًا وغذاء» . قالت :

- نعرفه حقّ المعرفة . ألم تريه؟

- قابلته هنا مرّة واحدة . . .

وسألته بدافع لم تستطع مغالته :

- هل أعجبك؟

فضحكت ضحكة كرهتها على أثر سماعها أضعافًا،  
وقالت :

- كانت الحجرة مزدحمة بالمدعوّين، وأنت تعرفين  
هذا الموقف طبعًا!

فقالت بلهجة باردة :

- لست أعرفه .

فضحكت العروس قائلة :

- دعيني أسألك أنت التي تعرفينه حقّ المعرفة، ما  
رأيك فيه؟

ودهمها السؤال . لم تكن تتوقّعه . وانهارت القوّة التي  
تغالب بها أعصابها . انهارت بغتة كأنما انفجرت فيها  
قنبلة خفيفة . واجتاحتها موجة طاغية من التمرد  
والجموح والجنون، فقالت بصوت غريب :

- ليس هو من النوع الذي يعجبني . . .

وغاضت آثار الضحكة في عينيّ العروس، واتّسعت  
عيناها في دهشة وإنكار، وجعلت تنظر إلى نفيسة لحظة  
سامية واجبة كأنها لا تصلّق أذنيها، ثمّ تساءلت

المتهمّج «عديلة . . . أحبك، أحبك أكثر من الدنيا  
والآخرة معًا»، فهذا قوله عادة إذا أذهلته حرارة  
الإحساس . وهو قول كاذب أو هكذا كان بالنسبة  
إليها، والغالب أنّ الدنيا كذبة كبيرة . وتوجّه رأسها  
نحو الباب، مثالّة قانطة حانقة، وعندما سمعت وقع  
أقدام آتية داخلها إحساس آخر بالخوف فودّت لو كان  
بوسعها أن تختفي، ولعلّه كان إحساسًا عارضًا  
سطحيًا . وجاءت فتاة في مقتبل العمر، متوسّطة القامة  
كأنها بيضاء البشرة، بياضيّة الوجه، كبيرة القسيات  
ولكن في تناسق حسن، بيد أنّها سمينة لحدّ الإفراط .  
وتساءلت نفيسة في نفسها كيف تصير إذن إذا تزوّجت!  
واضطربت في أعماقها ضحكة ساخرة متوتّرة، لم يتح  
لها التنفّس . وذهب عنها الخوف العارض وشعرت  
باضطراب عصبيّ بذلت جهدًا شديدًا للتغلّب عليه .  
وتّم التعارف وتبادل السلام دون أن تنبس خشية أن  
تخونها نبرات صوتها . ولدغتها الغيرة بغتة فمزّقت قلبها  
شرّ ممزّق . هذه التي سلبتها رجُلها، رجلها دون غيرها  
بعد ما كان، فلا توجد امرأة لها مثل ما لها عليه من  
حقوق، فكيف تكون هذه الجاموسة عروسة وتكون  
هي الحياطة التي تعدّ لها ثياب العروس؟! من أجل  
هذا تستحقّ الدنيا أن تكون طعمة للنيران، ولن تكون  
أحمر من النيران التي تلتهم قلبها . ربّاه كيف تستطيع  
العمل بهذه الأعصاب المريضة؟! وغادرت المرأتان  
الحجرة تاركتين الفتاتين معًا . وجاءت خادم بالأقمشة  
ووضعتها إلى جانب نفيسة على الكنبه فوجدت فيها  
مهربًا من أفكارها وراحت تنفّحها باهتمام ظاهريّ  
وعيناها المنكّستان تسترقان النظر إلى قدّميّ العروس .  
وسألته العروس قائلة :

- هل سبق أن خطت ثياب عرائس؟

ورفعت إليها عينيها فيما يشبه الدهشة كأنها لم تكن  
تتوقّع أن توجّه إليها خطابًا وقالت باستهانة :

- كثير جدًّا . . .

- أظنّ هذا يجعل العمل يسيرًا عليك .

- لا أجد فيه أثرًا لصعوبة . . .

كانت إجابتها تعبيرًا عن إحساس بالتمرد والثورة

بغربة:

- حقاً! ترى ما النوع الذي يعجبك؟

فقال: ببرد دون أن تفارقها هذه الروح الجنونية:

- دعك من هذا. . . المهم أن يعجبك أنت، أليس كذلك؟

فقالت ولما تفق من دهشتها:

- أظنّ هذا. . .

- مبارك عليك. . .

ولكنّ الفتاة لم تقبل أن ينتهي الحديث عند هذا الحدّ. أفاقت من دهشتها وكبر عليها قول الأخرى فثار بها الغيظ وقالت متسائلة في تهكم:

- وزبونناك الأخريات من العرائس ألم يكن أزواجهنّ من النوع الذي يعجبك؟

وأدركت نفيسة ما في قولها من التهكم والتحدّي فتبادت بها روح الشرّ التي ركبته واندفعت قائلة وكأنّها تلقي عبثاً ثقيلاً عن كاهلها:

- جميعهم جديرون بالإعجاب حقاً، فهم موظّفون محترمون!

فاستكرت العروس هذه الوقاحة التي لم تكن تتوقّعها وتساءلت بغضب:

- ألا يكون الإنسان محترماً إلّا إذا كان موظّفاً؟

فقال نفيسة بصوت مرتعش النبرات أعيائها التحكّم فيه:

- أعتقد هذا. . .

فصرخت العروس قائلة:

- وإذا كان خيطة؟

فقال نفيسة بحقد وغضب:

- لا عليّ أن أكون خيطة. إخوتي طلبة مثقّفون،

وكان أبي موظّفاً محترماً. . .

- حقاً لا يستاهل الرحمة كلّ المساكين ما دام يوجد

بينهم من هو في قلّة أدبك!

- لا يدعشني هذا السباب من ابنة بقال. . .

فهبت العروس واقفة وهي تستفّض غضباً وصاحت:

- يا مجرمة، يا قليلة الأدب، اغربي عن وجهي قبل

أن أدعو الخدم ليرموك خارجاً. . .

ونفضت نفيسة فاقدة الوعي، وتناولت بقعة الأقمشة وقذفتها في وجهها فانتثرت الحرائر على كتفي العروس وتحت قدميها، وتلّوت على الأرض في ألوانها الزاهية، ثمّ غادرت الحجرة مهرولة وصراخ الفتاة ينطلق وراءها بأقذع أنواع السباب، وتركت الشقّة في هوجة الفرار. وتراخت أعصابها المتوتّرة وداخلها ارتياح غريب. وكاد يغلبها الضحك ولكن هذا لم يدم طويلاً فسرعان ما انقلبت واجمة متفكّرة وبدا لها سلوكها على حقيقته. «ما هذا الذي فعلت؟ سيقولون كلّ شيء لست زينب وستقول هذه بدورها كلّ شيء لأمي. لا بدّ أن تغضب أُمّي وستحزن كثيراً على الريح الذي أضعت بحماقتي. ولكنّني أقول لها إنّ العروس خاطبتني بعجرفة، وأهانتي بلا سبب حتّى ثرت لكرامتي. وإذا لم تقبل عذري أبثّ شكواي بصوت مرتفع ليبلغ مسمعيّ حسنين فيغضب لغضبي ويشور لكرامتنا وينتهي كلّ شيء. هذا حسن. ولكن كيف اندفعت إلى هذا! أيّ جنون! لم يكن في نيتي شيء من هذا فكيف حدث؟ وضاع عمل مربح. ولكن لا داعي للأسف. لديّ عمل لا بأس به في هذا الشارع نفسه. لست آسفة على ما وقع». وانتهت إلى شارع شبرا ولم يعد يرى من شعاع الشمس إلّا أثر خفيف في أعلى الدور. وسارت على الطوار في اتجاه المحطّة فمرّت في طريقها بجراج لإصلاح السيّارات، وكانت غائبة عمّا حولها في تيّار أفكارها، فما تدري إلّا وشخص يعترض سبيلها وهو يقول «أهلاً وسهلاً» ورفعت رأسها فראت شاباً ذا بنطلون وقميص خاكيّين، مشمّراً عن ساعديه، يدلّ مظهره على أنّه من عمال الجراج، فألقت عليه نظرة شذراء وتنحّت عن موقعه، ولكنّه اعترض سبيلها مرّة أخرى وقال:

- حلمك يا ستّ هانم، انظري إلى يسارك، هذه السيّارة ملك العبد لله. وهي على قدمها تستطيع أن تعملنا إلى أيّ مكان شئت، محسوبك محمّد الفلّ صاحب هذا الجراج ولا فخراً

فصاحت به:

الخ. أما إخوته فالحق أنهم سرّوا برؤيته بعد اختفائه الطويل. كانوا يحبّونه كما كان يحبّهم، وسألته نفيسة: - حمداً لله على السلامة. أين كنت طوال هذه الأسابيع؟

وخلع الشاب سترته وطرحها على المكتب، ثم جلس على الفراش وقال باسماً: - أكل العيش يحبّ التعب! (ثم ملتفتاً إلى أمه). . . أبشري يا ستّ أمّ حسن. أخذت تفرج! فرفعت الأم رأسها ونظرت صوبه بريئة واهتمام معاً، ثم تتمتت في شيء من الأمل: - حقاً؟!

فضحك سروراً بإثارته لاهتمامها بعد ما لاقى من تجاهلها وقال: - سبق أن أخبرتكم بأنّ الأستاذ عليّ صبري ضمّني إلى تحته. . .

فتنهّدت الأم في جزع وقالت: - لا أعتقد أنّ هذا عمل جدّي. . . - لقد دُعي الأستاذ منذ أسبوع إلى إحياء ليلة فرح ببولاق وذهبت معه لقاء ريال غير العشاء طبعاً. إنّي أعلم أنّه مبلغ تافه ولكنّ الرزق دأبه التمتع بادئ الأمر. . .

فقالت الأم في ضيق: - أتوسّل إليك للمرأة الألف أن تبحث لك عن عمل جدّي لخير نفسك إن لم يكن خيرنا نحن. ما عسى أن أقول يا حسن؟ ألا تعلم بأننا لا نكاد نشبع أبداً؟

وخفض عينيه في ارتباك. كان حبّ أسرته العاطفة الشريفة الوحيدة التي يخفق بها قلبه، ولعلّها الأثر الوحيد الذي تركته أمه في خلقه. وغمغم قائلاً: - صبرك، لم أفرغ من كلامي بعد. . . وهنا قاطعه حسنين قائلاً: - أنظرن أنّ عليّ صبري هذا يمكن أن يكون يوماً مغنّياً حقاً؟!

فرفع حسن حاجبيه الكثيفين في إنكار، وأراد أن يزيل أثر حديث أمه في مرج:

- ابعد ولا ناديت العسكري. . .

فضحك الشاب وقال:

- لا داعي لذلك. أنا أحبّ النسوان ولا أحبّ العساكر. . .

- ٣٦ -

في الأسابيع التالية أدّى الشقيقان امتحان النقل في ختام العام الدراسي، وكُلّل اجتهداهما بالنجاح فانتقل حسين إلى السنة الخامسة، وحسين إلى السنة الرابعة. كانا يعلمان أنّه لا بدّ لهما من النجاح، وأنّ حال الأسرة لم يعد يحتمل العثرات، فواصلوا العمل بعزيمة صادقة وجاءت النتيجة كما يخبّان. وبدأت العطلة الصيفيّة التي تمتدّ حوالى الخمسة الأشهر فاستجذبت متاعب جديدة للأمّ تتعلّق بغذاء الشاّين. وكانت الأمّ وابنتها تقنعان عادة بأبسط الطعام، وتعتمدان في الغالب على ما تجلبان من السوق من طعام جاهز اقتصاداً لنفقات اللحم والسمن والوقود، فوجدت المرأة نفسها مضطّرة إلى تعديل هذا النظام القاسي مهما كلفها الأمر من عناء وتعبير. وهكذا لم يُسرّ أحد بالنجاح إلّا قليلاً، وبدأت الحياة وكأنيّما تزداد مع الأيام تمهّماً وتطالعهم بعبوس بعد عبوس. وفي ذات مساء جاء حسن بعد انقطاع دام ثلاثة أسابيع متواصلة، وأقبل على أسرته ضاحكاً، كعادته، وكثيراً ما يداري بضحكته حرجه وارتبائه، وقال:

- مساء الخير يا أمّي، مساء الخير يا أولاد. أوحشتموني كثيراً. . .

وردّ إخوته التحيّة وهم يرمقونه بدهشة، أمّا أمه فلبثت تنظر فيما بين يديها معلنة على سخطها بالصمت والتجاهل. بيد أنّها عدلت عمّا كانت تلقاه به من التعنيف والحساب أو الحثّ على العمل. هيهات أن يجدي الكلام بعد ما كان. وألحّ عليها الحزن الذي يغشى نفسها كلّما فكّرت في أمره أو وقعت عليه عيناها. حتّى السّؤال عن غيابه الطويل لم يخطر لها على بال، وإنّما لتعلم سلفاً بما أعدّ - طبعاً - من جواب، سيقول بصوت مؤثّر إنّّه يخفي حتّى يوفّر عليها نفقة إطعامه وإيوائه، وإنّه لا يبي عن البحث عن عمل

- سفعخص على هذا البلد الذي لا يقدرا الأستاذ علي صبري فنان كبير. إن «يا ليل» منه شفاء ودواء. هل سمعته وهو ينتقل من البياتي إلى الحجاز ثم يعود إلى البياتي؟ لم يفعل هذا إلا الحمولي، وسلامة حجازي مرة أو مرتين. أما محمد عبد الوهاب فإذا خرج من البياتي فقل أن يعود إليه إلا في حفلة تالية. وليس يعيبه أنه أحيأ ليلة بجنيهات معدودات فلا يزال في أول الطريق، والتاريخ يحدثنا بأن من كبار الفنانين من أحيأ أولى لياليه لقاء بضعة أرغفة!

وضحك إخوته لهُدْه أُمَّا الأم فتهدت قائلة:

- سلّمت أمرك لله!

فألقي عليها نظرة من علّ وقال:

- لندع حديث الفن جانباً. المهم أن تعلمي أنني سأحيي حفلة عرس غداً..

- في تحت علي صبري؟

- وحدي! سأحييها بنفسي!

ونظرت الأم نحوه بإنكار، وسألته نفيسة:

- أصبحت مطرباً حقاً؟

- يحدث أحياناً أن يُختار أحد أفراد التخت من المشهود لهم لإحياء حفلة كمطرب. خطوة لها ما بعدها..!

وسألته أمّه بلهجة لا تخلو من تهكم:

- ومن الذي دعاك لإحياء ليلته؟

- عمّ جابر سلمان لإحياء ليلة زفاف ابنه سلمان.

وخفضت نفيسة عينيها وقد خبا حماسها، وران على نفسها كدر خائق...

ودهشت الأم وخاطبت حسن متسائلة وهي تومئ إلى نفيسة:

- بعدما حدث؟!

فضحك حسن قائلاً:

- تمّ الاتفاق بيننا قبل معركة ست نفيسة في بيت العروس، ولم يجرؤ الرجل على خرقه!

وساد الصمت قليلاً والأعين تحدّق فيه في غير تصديق، كان في صوته حلاوة ولكن ليس للدرجة التي تجعل منه مطرباً. وأخيراً سأله أمّه في حيرة:

- أحقّ ما تقول؟

- نعم ورحمة أبي...

- أجر؟!

- خمسة جنيهاً، لك منها جنيهاً كامل.

وسكت حتّى تغلغل أثر كلامه في النفوس ثم ردّد عينيهِ بين شقيقه وتساءل:

- ما رأيكما في أن تعملّا معي سنيدين في التخت وكلاكما ذو صوت لا بأس به؟!

وانفجر الشقيقان ضاحكين، وواصلّا ضحكهما، حتّى قال:

- يا لكما من غبيّن. هذه فرصة نادرة للاشتراك في البوفيه الحافل بما لذّ وطاب من المأكّل والمشارب.

ولم يكفّ الشابان عن الضحك في استهزاء، ولكن تمثّل لعينيها منظر المائدة وقد صُفّت عليها الأطباق، وراح خيالهما يشب من طبق إلى طبق، في عجلة، وبلا رحمة، حتّى صاحبت به نفيسة بحدّة وغيظ:

- أتريد أن تجعل من شقيقك متسولين في بيوت البقالين؟

فقهقه الشاب قائلاً لأخته:

- إنّي أدرك تغيطك يا ست نفيسة فإنّ اعتدائك على العروس حرمك حتّى الدعوة إلى هذه الليلة، ولكن ما ذنب هذين المسكينين؟! ليس الأمر هوّاً ولعباً ولكن طيوراً ولحوماً وفطائر وخضراً وفاكهة وحلوى... فمكّرّا ثمّ فكّرّا...

ولم يجد لدعوته من صدق فهوّ منكبيه استهانة ولم يعد الكثرة. كان حسن النية وأراد لأخويه خيراً ولكن حماقتها ضيّعت عليها هذا الخير، هكذا قال لنفيسة في أسف. ولم يشاركه الشقيقان أسفه ولكنّ نفسيهما اهتزتا في حنان لذكر الطيور واللحوم والفطائر والخضر والفواكه والحلوى. ونشط خيالهما في حسرة وألم زاد من شدّتهما اقتراب وقت العشاء الذي يندر أن تعترف به أمّهما. لم يكن للأسرة عشاء عادة، وكانوا يتحامون أن يجهروا بالجوع أن يضاعفوا من تعاسة أمّهم وسخطها، فلاذ الشابان بالتخيّل دون أن ينس أحدهما بكلمة، على حين عكفت نفيسة على أفكارها، وهي أبعد ما

الختام فكان عقب انتهاء الحفلة وقد التفت حوله أفراد التخت يطالبونه بأجورهم فقال لهم ببساطة:

- أليس حسبكم ما التهمتم من طعام؟!

- والأجرة؟!

فقال بوحشية:

- خذوها بالقوة إن استطعتم!

وانفصلوا عنه ساخطين غاضبين يائسين. شيء واحد أسف له أشد الأسف هو أن أسرته لم تشاركه طعامه الشهية، أمه ونفيسة وحسين وحسين. وكان بؤده أن يعطي أمه فوق ما أعطى ولكن نشرده الطويل علّمه الحرص. على الأقل ما دامت هذه الحال. وها هو يقصد كلوت بك، بل درب طياب بالذات حيث ينتظره علي صبري الذي مناه بضروب من العيش توافق مزاجه وتلهب حماسه. وكان علي صبري قد أخبره بأنه ينتظره في قهوة وسط الدرب أمام بيت زينب الخنفاء، فارتقى السلم المفضي إلى الدرب وحث خطاه بين بيوت مغلقة لم تستيقظ بعد. وجد الدرب كالمقفر حتى المقاهي الصغيرة كان عمّالها ينفضون عنها رماد سهرة الأمس. وبلغ وسط الدرب ورأى الأستاذ علي صبري جالساً أمام باب القهوة فأنجبه إليه وسلم وجلس على كرسي إلى جانبه. لم تعد قهوة كما كانت يوماً ما، ولكنها باتت مشروع قهوة جديدة إذا صدق ظنه، فبعض العمال يعكفون على تبييض الجدران وإعدادها للحال الجديدة. قال علي صبري مرهواً:

- هنا حيث تراني جالساً سنبداً حياة جديدة...

فتولّت حسن الدهشة لأنه لم يكن سمع عن هذا المشروع على كثرة ما سمع عن مشاريعه وتساءل:

- والتخت والأفراح؟

فبصق الأستاذ بصقة أصابت جدران بيت زينب الخنفاء أمامهما - وكان لا يزال مغلقاً - ثم قال:

- سيعمل التخت في هذه القهوة. أما الأفراح فربنا يجعلها مآتم. انتهى زمان الأفراح، ولا نسمع الآن إلا عن «حفل عائلي» اقتصر على آل العروسين» والراديو احتكرته أم كلثوم وعبد الوهاب وشرذمة من المطربين المختصين بالنشاز، وهيهات أن يكون لنا عيش في هذا

تكون عن لذة الطعام، ولذة الحياة عامة. ردّها حديث حسن إلى أشجانها ويأسها وخاوفها، وتساءلت في دهشة أحقاً يجيب حسن - شقيقها - ليلة الزفاف؟!

- ٣٧ -

وحوالى التاسعة من صباح اليوم التالي لليلة الزفاف كان حسن يسير في ميدان الخازندار متّجهاً إلى كلوت بك حيث دعاه الأستاذ علي صبري إلى مقابلته. وكان متعباً عقب سهرة الأمس التي لا زالت ذكرياتها تدور برأسه. كانت ليلة وكان جريئاً ليس كمثل جراته شيء. وقد شقّ طريقه في السرداق الذي أقيم على سطح بيت عمّ جابر سلمان بقدمين ثابتتين حتى بلغ المنصة بين أيدي تصقّق وحناجر تهتف للمغنيّ الجديد، وردّ تحياتهم برزانة وجلس وسط تحتة المكوّن من عوادم وقانونجي وكمانجي عملوا معه كعازفين وستيدة معاً. ثم غنى «قد ما أحبك زعلان منك» وما لبث أن لمس بنفسه الفتور الذي استحوذ على الجميع، ولكنّه واصل الغناء دون ميالة، وأكثر من الشراب. وعند بدء الوصلة الثانية تصايح كثيرون يطلبون «في الليل لِمَا خَلَى» ولم يكن يحفظها فعنى «بستان جالك» وسرعان ما انقطعت الأسباب بين المدعوين والمطرب، هذا يذبح صوته بغناء لا غناء فيه وأولئك يشربون ويضحكون ثم بلغ الحرج غايته حين وقف سكران مترنحاً وقال بلسان ثقيل موجّهاً خطابه للمطرب:

- والله لو لم تكن فتوة لقلت لك اسكت...

وعرفه حسن، كان حدّاداً في أوّل عطفة نصرالله، وتوعّده شراً ولكنّه واصل غناءه «والله زمان، زمان والله والله زمان، زمان والله» ذكر هذا ضاحكاً وهو يحثّ خطاه ثم قال لنفسه: «ما كان كان. لا داعي للأسف ما دمت قد انتزعت الخمسة جنيهاً». وليس هذا فحسب، وهل يمكن أن ينسى البوفيه؟ لشّد ما أبل في بلاء حسناً وقد بلغ القمة حين ازدرد حمامة بعظامها. لم يكن أكلاً ولكن كان التهاماً وخطفاً وسلّياً وعراكاً، وبلغت المعركة ذروتها حين فرغت صحيفة اللحم البقريّ فما كان منه إلّا قبض على يد المدعوّ الذي يليه واستصفى ما فيها من شرائح. أمّا حسن

البلد...

فقال حسن متظاهراً بالاستياء:

- صدقت يا أستاذ (وسكت لحظة ثم تساءل) ولكن ماذا يفعل النخث هنا؟

فمدَّ الأستاذ ساقيه فبلغتا منتصف الطريق الضيق وقال مشيراً إلى القهوة التي يعدّها العمّال:

- إليك قهوة بالنهار، وحانة بالليل وسيرقص فيها نسوان الستّ زينب الخنفاء - وهي على فكرة شريكتي - وبين ساعة وأخرى أغني، مجال العمل واسع، والرزق مضمون. ولكن عليك بحفظ أغاني عبد الوهاب يا حلو...

- لا أكاد أحفظ منها شيئاً!

- لا بدّ مما ليس منه بدّ. وطقاطيق أم كلثوم أيضاً، هذا حكم الزمان!

فقال حسن ضاحكاً:

- ربّنا معنا.

فقال عليّ صبري باطمئنان:

- إني متفائل خيراً. هذا المكان مبارك، وهو أصل ثروة محمد العربي نفسه.

وتساءل حسن من أين للأستاذ الثروة التي يبدأ بها هذه الحياة الجديدة؟ زينب الخنفاء! هي فوق الأربعين على أحسن الفروض، وليس بها من جمال فيما عدا جسمها البقريّ، ولكنّها لقية وذات ساعدين مثقلتين بالذهب. لا داعي للحسد ما دام سيحظى بنصيبه من هذه الثروة. فُرجت، ولعلّ ليالي التسكّع والجوع قد غارت إلى غير رجعة. ثمّ سمع الأستاذ يقول:

- ولكنّ عملك كسّيد ثانويّ بالقياس إلى ما يُنتظر منك!

- وماذا يُنتظر منّي؟

ألقي سؤاله بثقة وزهو كأنه عالم حقاً بما يُنتظر منه، فقال الأستاذ:

- إنك أدري الناس بهذه الأحياء، ففي كلّ متر مربّع بلطحيّ أو برنجيّ أو سكرير عريبد فمن هؤلاء؟ أنت! وهناك المخدرات وتجارتها فنّ هائل يطلب مهارة

وقوة وجراحة فمن لها؟ أنت!

وابتسم حسن ابتسامة عريضة، ظلّت مرتسمة على شفثيه طويلاً. وداخله سرور وحماس وفخار. هذه هي الحياة حقاً، حياة تدبّ تحت مهاوي النبايت ومساقط الكراسي وفي دهايز الغرز، حيث السناء ذهب والأرض أشواك والطريق مسارب شتّى يفضي بعضها إلى اللذة والعزة وبعضها إلى السجن والموت فهنا وطنه ومراحه، وما هو بالغريب في هذا الدرب المتعرج المتلاطم الشرفات، حيث تختلط أهات الدلال بعواء العريضة، وأريج البخور بعرف الخمور، وسباب المتعاريك بقيء المخمورين، إلى غناء وعزف وقصص. بوسعه أن يقضي بين أحضانه أعماراً دون ملل، يأكل ويشرب ويربح ويسكر ويحشّش ويغني. وأشرق وجهه بنور الأمل وألقى على ما حوله نظرة. كان السكون يتبدّد تحت وقع أقدام القادمين، فهذه ضحكات معطوطة، وأرداف متأرجحة، ونظرات فاجرة عارمة. وفُتحت الأبواب وأحرق البخور، وصُفّت المقاعد، وطقطقت ضحكة ولعلت أخرى... صباح الخير...

- ٣٨ -

قال حسنين بتأثر:

- شكراً للصيف!

فتساءلت في حياء وهي تدري ما يعني:

- لماذا تشكر الصيف؟

- لأنّه جرّدك من معطفك السميك فتبدّيت في فستان يجلو محاسنك ومفاتنك...

فتوزّد وجهها، وقطّبت تداري لمعة السرور الذي يبعثها النشاء، وقالت:

- ألم أنك عن هذا؟! لا تفتأ تتسأدى في ما

يضايقي...

وأصغى إليها على شفثيه ابتسامة حائرة، وعيناه تلتهمان جسمها البضّ بارتياح. فستان مؤدّب محشم ولكنّه على تحفّظه يكشف عن الساعدين وأسفل الساقين والعنق الرقيق الشفاف، ويشي بقسبات الجسم اللدن المدمليج. ثمّ علق بصره بالمشربّة الدقيقة



- إني أعجب ألا تودين حقاً أن تنطع شفتاي على شفتيك؟  
 فنفخت في غيظ قائلة:  
 - يُسرُّك بلا شك أن تغيطني!  
 - وأن تستنيمي إلى دقات قلبي وذراعي تشدان على خاصرتك؟  
 فأعرضت عنه عابسة، فقال في ضيق:  
 - إذا لم يكن هذا هو الحب فما هو؟  
 فغمغمت في توصل:  
 - كما كنا طوال العهد الماضي...  
 - لقاء وحديث واحترق؟  
 - لقاء وحديث فحسب.  
 - تكذبن على نفسك.  
 - ساعلك الله.  
 - أو تحبين بلا قلب!  
 - ساعلك الله.  
 ف ضرب الأرض مغيطاً محنقاً وجعل يذهب ويحيى أمامها في حيرة وعبوس، فبدا في وجهها القلق وقالت:  
 - اعتقدت أنك تناسيت طلباتك المزعجة وطبت نفساً بحياتنا الوديفة اللطيفة فما الذي ينزع بك اليوم إلى إلحاحك المخيف القديم؟ كن طفلاً مهذباً وأمسك عن الإلحاح والطمع. الحب الحقيقي لا يعرف هذا العبث...  
 فهز رأسه في قهر وياس وعجب. وما أدراك بالحب الحقيقي؟ أي لغزاً؟ أمحبه حقاً؟ لا يسعه أن يشك في هذا، ولكنه حب لا يفهمه، أو أنه لا يستطيع فهمها هي. يا لها من شابة رزينة هادئة. عينان زرقاوان صافيتان، ليس فيهما ذرة من شيطنة أو خفة، ولا حرارة، باردتان. ومن عجب أن يكون هذا الجسم الفتان لصاحبة هاتين العينين المادتين الباردتين. إن نار الحب لا تُروى بالماء ولكن بنار مثلها أو أشد منها. وهكذا يمضي اليوم كما مضى أمس وكما يمضي الغد، بلا أمل. وكثيراً ما يبدو له أن حديث الحب يزعجها ويقلقها، وأنها تسترد طمأنينتها حين يشوب إلى الصمت، أو إلى حديث آملها البعيدة، وهي لا تمل

المكورة فوق الصدر صورتها الحياطة حقاً لشدين ناهدين يكادان لشدة نهوضهما يطيران لولا ما يمسكهما من صدر أبيض صافٍ، تحيل أنه يدغدغهها بأنامله فانبعث في جسده قشعريرة الرغبة، وتحيل أنه يشد عليها وأنها يقاومان الشد بصلابتهما فازدرد ريقه في ظمأ. ولكنها لا تريد ولا تتسامح وتصر على عنادها بغير هودة. وكان يظنها تلين مع الزمن ولكن لم يعد ثمة أمل وقال بحزن:  
 - بهيئة، إنك تتكلمين بقسوة شأن من لم يذق قلبه الحب...  
 ...

ولاحت في عينيها نظرة اعتراض وقالت:  
 - إني أنكر الحب الذي تريد، وإنك تسيء فهمي عمداً...  
 - ولكن الحب واحد لا يتجزأ...  
 فقالت بإصرار وحدة:  
 - كلاً، كلاً، لا أوافقك على هذا الرأي.

فتنهد في قهر وألقى نظره إلى الأفق البعيد. كانت الشمس قد توارت خلفه وراءها هالة حمراء مترامية، أقصاها حمرة دامية، تخفت عند الوسط كأنها تقطر من ورد مصفى، ثم تشحب عند أطرافها الدانية حتى تبتلعها زرقة عميقة صافية تمنمها هنا وهناك سحائب رفاق كتبهذات وانية. وارتد بصره إلى وجهها وقال ب رجاء:

- إني أحبك، وإني خطيبك، وما أريد إلا أن يحظى حبنا بحقه من الحياة البريئة...  
 فتجلت في عينيها الحيرة، وبدت حيناً وكأنها تتعذب، ثم قالت:

- لا أستطيع ولا أريد...  
 فابتسم ابتسامة لا معنى لها وقال:  
 - إنك تدفعيني إلى أحضان وحشة غريبة لا أطيعها. إني أتحرق إلى أن أطبع قبلة على شفتيك وأن أضمك إلى قلبي. هذا حق، وحق حبنا...  
 - كلاً، كلاً إنك تخيفني...  
 - ألا تحبينني؟  
 - لا تسأل عما تعلم...

الحديث عن هذه الآمال، وبه تنسى نفسها والزمان والمكان، فتشع عيناها نورًا بهيجًا، وتتدفق في أطرافها حيوية جديدة. وفي هذه الساعة يجتمع قلبه بيد أنه حب لا يخلو من تكدر، أو من غيظ وحنق في بعض الأحيان، ويقلب متسائلًا لماذا لا ينشرح صدرها أيضًا بالحب نفسه؟ لماذا تخافه وتجفل من ذكره وإشارته؟ وإلام يبقى هذا الحجاب قائمًا بينه وبينها؟ وتفترس في وجهها طويلاً فيما يشبه الحنق ثم تسأل:

- هل أكابد هذا الحرمان إلى الأبد؟

وابتسمت - على رغمها - وقد زادت الابتسامة من حقه وقالت:

- ليس إلى الأبد!

وشعر برجفة في قلبه، رنا إليها لا يحول عنها عينيه ثم قال باقتضاب:

- الزواج؟!

فخفضت عينها حتى لم يعد يُرى إلا جفنين مسدلين وخدين موردين، وحينذاك شبت بنفسه رغبة في الانتقام والإيذاء ولو باللسان فقال:

- وإذا تم الزواج بذلت لي ما تتمنين عنه بنفس راضية أليس كذلك؟ تهينني شفتيك وصدرك وجسدك وتزعجن عنك ثوبك فتبدلين عارية كالبلور... ولكنّها كانت قد غادرت كائنًا تفرّ وحثّت خطاها نحو باب السطح. وكانت الكلمات تُقذف من فيه بحرارة وحنق وتشفّ.

- ٣٩ -

أصبحت قهوة عليّ صبري ملهى صغيرًا بما تحفل به من غناء ورقص وخمر، وقد رُكبت على هامتها لافتة كبيرة سُطر عليها بالخط العريض «عليّ صبري». وأقيمت في نهايتها من الداخل منصّة للتخت، ونُصّدت الموائد والكراسي على الجانبين وبحذاء مدخلها. وكان الأستاذ عليّ صبري قد انتهى من الوصلة الأولى وأنس الجلوس بكئوسهم وسمرهم، حين جاء زنجي - طويل رشيق مفتول العضلات يتطاير الشرر من عينيه - فوقف على عتبة القهوة وصاح بصوت وقع مرتفع:

- أين صاحب القهوة؟

فجاءه الأستاذ عليّ صبري مداريًا دهشته بابتسامة باهتة وتسأل:

- أفندم؟

فقال الزنجي بتحدّ:

- سمعت أنّ لديك أقذر خمر توجد في، هذه الناحية، ولما كانت الخمر الجيدة لم تعد تؤثر في، فقد قصدتك لأسكر...!

وأزاحه عن سبيله بحركة غليظة وأتجه صوب مائدة يجلس إليها نفر من الأفندية فألقى عليهم نظرة وحشية وقال بلهجة امرأة:

- أدخلوا هذه المائدة!

ولم يسع الأفندية إلّا أن ينهضوا صامتين وغادروا القهوة، فجلس الزنجي على كرسيّ وطرح ساقيه على كرسيّ آخر وهو يتفترس في الوجوه بتحدّ وقحة. واقترب صبيّ القهوة من الأستاذ عليّ صبري وهمس في أذنه قائلاً:

- محروس الزنجي. فتوة رهيب يعرفه الحيّ كلّ...

فسأله الأستاذ بقلق:

- ترى هل يمكث طويلاً؟

- إنّه يرتاد ما يشاء من القهوات فيأكل ويشرب دون أن يجرؤ أحد على مطالبته بشئ مما يلتهمه، ولعلّه جاء ليعرفك بنفسه، أو لعلّ...

وتردّد الغلام قليلاً فحثّه الأستاذ قائلاً:

- تكلم...

- لعلّ أحد أصحاب المقاهي في الدرب اتفق معه على تخريب قهوتنا!...

واختلس عليّ صبري نظرة من الزنجي فراه كالنائم، آمنًا مطمئنًا كأنه في بيته، وقد أدخل الزبائن الموائد القريبة منه، فانقبض قلبه خوفًا وإشفاقًا، ثم تراجع في سكون إلى منصّة التخت حيث يجلس حسن مع بقيّة الأفراد، وأومأ إليه ثم انتحي به وراء المقصف، وأسرّ إليه ما قال الغلام ثم سأله:

- ألا يحسن بنا أن نستدعي المعلّمة زينب الخنفاء

وصاح به :

- وعليك وعلى أهلك اللعنة، ماذا تريد؟  
وحافظ حسن على هدوئه الظاهري، وقال بنبرات واضحة:  
- سمعتك تهتف طالباً كونياك فرأيت من واجبي أن  
أخبرك بأنّ الدفع هنا مقدّم . . .

فسحب محروس ساقيه من الكرسيّ أمامه وأغرق في ضحك طويل مفتعل وهو يضرب على ركبته من شدة الانفعال، ثم أخذ يهذئ من انفعاله حتّى ذهب عنه الضحك، ورمى ببصر هازئ إلى الشاب، وتساءل ساخراً:

- حامي القهوة؟ .. هه؟

فقال حسن بهدوء:

- وأحبّ أن أقول لك أيضاً إنّ هذه المعاملة خاصّة بالزبائن غير المحترمين . . .

ومرّت ثوانٍ، وفي أنفائها كان الزبائن القريبون يتدافعون إلى خارج القهوة، وامتلاً الطريق فيما يلي مدخل القهوة بالمارّة والنسوة من كلّ لون وسرّ، على حين نشط عمال المقصف إلى إخفاء القوارير وما يخافون عليه من التلف من الأكواب والآلات الموسيقيّة وغيرها. وحمد محروس وعلى شفّته الغليظتين بسمّة هازئة، ثمّ دفع قدمه بغتة بقوة فأصابت ساق حسن اليسرى فمال مترنحاً إلى الوراء. كان يراقبه بيقظة وحذر بيد أنّه ركّز انتباهه في يديه متوقّفاً أن يقذفه بشيء أو يشهر عليه خنجراً فلم يتنبّه إلى قذيفة قدمه حتّى كانت منقضة عليه، فانكمش متهاشكاً، وتفادى بهذا من السقوط، ولكنّه مال إلى الوراء مترنحاً وهو بعض على نواجذه ليتغلّب على الألم الذي بعث جنون الغضب في دمه. ولم يدعه الزنجيّ ثانية واحدة فوثب عليه كمن يشب إلى الماء، وخاف حسن أن يؤخذ فريسة سهلة فأمسك عن مقاومة الميل إلى الوراء وقفز إلى الخلف بسرعة عجيبة فاصطدم بجدار القهوة زائغاً من خصمه الجبار. ولم يسمح له الزنجيّ بثانية يتمالك فيها توازنه فانقضّ عليه موجّهاً ضربة إلى بطنه فحال الآخر دونها بيديه، ولكنّها كانت ضربة خادعة قصد

لتعالج هذه المصيبة بحكمتها؟

فقال حسن وهو يتفحص عن بُعد الزنجيّ محروس:

- لا أوافق على أن نستغيث بامرأة. لن تجدي هذه السياسة في هذا الدرب، دع الأمر لي . . .  
- يقولون إنّ فتوة شديد البأس.

فابتسم حسن قائلاً:

- هذا ما يقال عنيّ أيضاً ولكنّ أهل الدرب لا يعلمون، دع الأمر لي . . .

وخطر له خاطر فقال لنفسه ساخراً «ليست أمّي وحدها التي تكابد من حياتها المرّ في سبيل العيش!» ثمّ قال للأستاذ:

- ستكون معركة شديدة، لكن هيهات أن يكون لنا عيش هنا بلا معركة ظافرة!

- وإذا لم تكن ظافرة!

- اعتمد على الله وعليّ . . .

لن يفرّ من المعركة مهما تكن النتيجة، وهل من سبيل إلى رفع مكانته عند الأستاذ وفي الحيّ كلّ إذا تفادى من هذه المعركة؟ ولعلّ عليّ صبري على حقّ في تخوّفه، فالقهوة قهوته والمال ماله، ولكن مستقبله هو يتوقّف على نتيجة هذه المعركة، وفي سبيل هذا فليذهب عليّ صبري نفسه إلى الجحيم. ولا ينبغي أن ينسئ إلى هذا كلّ فتيات زينب الخفاء فما من سبيل إليهنّ إلّا بنصر إن أجلاً أو عاجلاً، فحظّه في الحياة، ورّماً حظّ أسرته المنهارة - خطرت له هذه الخاطرة كالمعنى المتداعي - يتوقّفان على خوض المعركة.

وتحرّك الزنجيّ محروس وهو يتمطّى ويتجشّأ ثمّ صاح بوحشية:

- أين الكونياك القذر الذي حدّثونا عنه كثيراً؟!

وغادر حسن موقفه في ثبات وهدوء واقترب من الزنجيّ بخطر وثيد حتّى وقف أمامه، ثمّ قال بهدوء:

- سلام عليكم!

فرفع الزنجيّ عينيه الملتهيتين صوبه في تكبر، وتفحص جسمه الصلب وعينه البرافتين برية وشرّ، ثمّ عبس في حقّ فاستحال وجهه هيئة غير آدميّة

الباب منتظراً أن تألف عيناه الظلام. وساد صمت شامل حيناً ثم مضت أذناه تلقطان حس أنفاس تتردد، فصغى إليها مبتسماً، وتوقع قولاً أو فعلاً ولكن لم يحدث شيء، وأنجحه على مهل إلى يساره متمسكاً الأنفاس المترددة حتى مسّت ركبته شيئاً صلباً، جسّه بيده، فأدرك أنه حافة فراش خشبي، ووقف ينظر إلى أسفل بعينين برّاقتين حتى شفت الظلمة الشاملة عن كتلة مظلمة ممتدة لا تبين لها معالم. وهوى بإبهامه رويداً رويداً حتى انغرست أغلته في لحم طري ثم انبعثت تحت أصبعه رجفة ونذت عن الظلمة ضحكة مكتومة...

\*\*\*

ثم أضاء النور وأخذ يرتدي ثيابه. وأخرج من جيبه نصف ريال ووضع على الفراش والمرأة تراقبه بعينين ضاحكتين، ثم وثبت إلى أرض الحجر وسارت بجسمها العاري إلى صوان ففتحت وعادت بورقة مر ذات الخمسين قرشاً وحطتها فوق نصف الريال دون أن تنبس بكلمة، فساءل ضاحكاً:

- أهو الباقي؟

فقال بهدوء:

- أجرك!

وأتّم ارتداء ثيابه في هدوء متظاهراً بعدم الاكتراث ضابطاً عواطفه حتى لا ينم وجهه عن فرحه، ثم تناول النقود ودسّها في جيبه. وسألته وهي ترمقه بنظرة عميقة:

- ترافق؟

فقال مستعيناً بالكذب:

- لي رفيقة!

فتساءلت في اهتمام بدا في لمعة عينيها:

- في هذا الدرب؟

- في الآخر.

- أفرنجية؟

- بنت عرب!

وساد السكون دقيقة، ثم سأله:

- ألا تزال لك فيها رغبة؟

فابتسم حسن ابتسامة ذات معنى وقال:

- لكنّه حبّ لا نفع فيه. انتظر وسنرى...

وودّع الأستاذ وقام ثم تتبّع الغلام إلى البيت الذي يواجه القهوة، وطرق الغلام الباب ففتح عن شقّ في حذر فمرق منه الغلام وتبعه حسن، ثم أغلق الباب. ووجد حسن نفسه في مدخل البيت وقد انتثرت على الكنبات بأركانها فتيات، انتحت كلّ برجل تشاربه وتداعبه، وعلى كرسيّ في الصدر جلس رجل ضئير ينفخ في الناي، على حين اتخذت المعلمة زينب الخنفاء مجلسها على أريكة عالية ملتفة بملاءتها السوداء وعلى وجهها برقع ذو عروس ذهبية كبيرة تخفي به أنفها المتآكل. وألقى حسن على الحاضرين نظرة متفحصة فلم ير فتاة خالية، ولكنّ الغلام مال إلى الستار المسدل على مدخل السلم وأزاحه ودخل فتمعه، وارترقيا الأدراج معاً في سكون حتى تساءل حسن:

- من هي؟

- الستّ سناء...

وذكرها لتوه، امرأة عرفت بسمرتها العميقة وشعرها الجعد وجسمها المكتنز، واشتهرت بشفتين غليظتين وعينين دعجواوين وكانت تجلس سحابة النهار على كرسيّ عند مدخل البيت واضعة ساقها على ركبته كاشفة عن فخذهما حتى السروال الحريري الأبيض. وانتهيا إلى الدور الثاني وسارا في دهليز طويل يفضي إلى صالة صغيرة تحدد بها أبواب ثلاثة، ومضى الغلام إلى الباب الأوسط وطرقه ثلاثاً فجاء صوت له رنين النحاس يهتف:

- ادخل...

ودفع الغلام الباب قليلاً وتنحّى جانباً فتقدّم حسن إلى الداخل وقبل أن يردّ الباب وراءه شعر بيد الغلام تربّت ظهره فالتفت صوبه فضحك الغلام وقال وهو يبتعد:

- اقرأ لنا الفاتحة...

وأغلق الباب فوجد نفسه في ظلام دامس. وحذّته نفسه أن يتحسّس وضع الرّر الكهربائيّ ليضيء الحجر ولكن سرعان ما عدل عن خاطره، ووقف مستنداً إلى

ثم أحسَّ بيد توضع على كتفه ورأى الأستاذ علي صبري يتسم إليه بوجه تعلوه صفرة الموت، وسمعه يهيمس في أذنه:

- تعال معي أقدم لك كأسًا من الكونياك. . .

فسار معه دون أن ينبس، وجلس على كرسيه على منصّة التخت وجاءه الرجل بكأس مترعة فتجرّعها، وطلب أخرى فأحضرها له، ثم قال بإشفاق:

- لشدّ ما تعبت!

فغمغم حسن بثقة:

- كانت معركة لا بدّ منها.

وجاء النادل يقول ضاحكًا:

- أطلق الناس عليك لقب «الروسي» لأنك صرعته برأسك!

وشعر حسن برغبة في تحاشي الأنظار، فقال لعلي صبري:

- دعنا نمتح أثر المعركة فابدأ الوصلة الثانية. . .

- ٤٠ -

استعاد حسن توازنه بفضل قوّته وحيويّته واعتياده العراق يومًا بعد يوم. وكان الليل قد جاوز منتصفه بساعة أو أكثر، وأخذت قهوة «علي صبري» تلفظ آخر المترنّحين من روادها. وأطفئت الأنوار الخارجية في الدرب فساد شبه ظلام ومضت البيوت تغلق أبوابها مفتوحة سهراتها الداخلية التي لا تنتهي عادة قبل الفجر، على حين مرّ شرطيان يهزان الأرض بسوق أقدامهما الثقيلة. وكان حسن يجلس على كنب من علي صبري في نهاية القهوة يعلّقان على إيراد الليلة حين قصدهما غلام يعمل نادلاً ببيت زينب الخنفاء فحيّاهما ثمّ مال على أذن حسن وهمس باسمًا:

- بعضهم يريدك. . .

وسمع علي صبري ما همس به الغلام فلاح الاهتمام في وجهه وتمتم:

- امرأة؟!

فقال حسن بعدم اكتراث:

- أظنّ هذا. . .

- ألا تفضّل مثلي الحبّ الطيّاري؟

بها محروس أن يكشف خصمه عن عنقه، وبسرعة البرق قبض بيدين حديديّتين على رقبته وضغط بوحشية ليكنم أنفاسه. وبدا للجميع أنّ المعركة في حكم المنتهية، ودارت الأرض بعلي صبري، وابتضّت وجوه رجال التخت والعَمال، وتبادلوا نظرات زائغة لا تخلو من دعوة إلى العمل. ولكنّ أحدًا منهم لم يحرك ساكنًا، أمّا الفتيات فشرعن في الصوات استقبالا للجثة التي ستقع. وتأكّد حسن بعد تمكّن خصمه من عنقه - وفي بدء غيبوته - بأنّه لا قبل له بفكّ الحصار القاتل، وأنّه مانت لا محالة إذا توافى، فعضّ على نواجذه وشدّ على عضلات رقبته ليركّز فيها قوّته، ثمّ ثنى ساقه اليمنى وطعن أسفل بطن خصمه بركبته بكلّ ما تبقى فيه من قوّة. وشعر في اللحظة التالية بتراحي قبضة الزنجيّ حول رقبته فاستطاع أن يتنفّس وهو يرتجف حقّداً وحنقًا، ثمّ ثأها بطعنة أخرى، حدث هذا كلّ في نصق الدقيقة الأولى لمحاولة كتم أنفاسه، وانفكّ الحصار، وتراجع محروس بوجه تنعقد في عيوسته الضغينة وعينين تغشى نظراتهما الحمراء سحابة ذهول قائمة. ولم يضع حسن وقتًا مطمئنًا إلى سيطرته على الموقف فانقضّ على خصمه الذي بذل مجهودًا جبّارًا للتغلب على ألمه ونطحه بجبهته بقوّة خارقة في رأسه، مرّة أخرى، فكان لاصطدامهما طقطقة تقشعر لها الأبدان، دون أن يشبه عس هدفه ما كالمه الآخر من لكمات مزلّلة. وتنفّج الدم من رأس محروس وسال على وجهه كأنّه هب ينبعث من قطران، وبدا وكأنّه يترنّج من دوار، وتغلّب حسن على آلام ساقه وعنقه وصدره ووجّه لعنق خصمه المكشوف ضربة من حافة كفّه - كالسكين - فشقق الزنجيّ وسقط على الأرض غائبًا عن الوجود. وقف حسن عند رأس خصمه وصدره يعلو وينخفض، تهزّه نشوة الظفر، وتهرس عظامه آلام قاسية أخذ صراخها الباطني يتعالى بعد زوال الخطر. ولعلّه لو غابت العين لارتضى أن يرغمي إلى جانب خصمه ولكن أقام ظهره الأبصار المتطلّعة إليه فتجلّد وتماسك، وانثال على أذنيه صراخ وغوغاء وضجيج، وشعر بحركة غريبة تسري في القهوة كلّها،

فلم يشأ أن يجيب بلا أو نعم، قائمًا بابتسامة ذات معنى، فسألته ضاحكة:

- أين تقطن؟

- شبرا.

- ما أبعداها عن مكان عملك، هل ثمة ما يضطرك إلى المبيت هناك؟

- كلاً...

- مسكني قريب في عطفة حندف بكلوت بك.

تعرفها؟

- سوف أعرفها من الآن فصاعداً...

- ٤١ -

كانت الشمس تميل إلى الغروب حين غادرت نفيسة بيت إحدى زبائننا بشارع الوليد، وكان يلوح في وجهها الضيق، وهي حال لا تفارقها إذا خلت إلى نفسها، ولكن زادها تعاسة أنها لا تحني من عملها إلا مبالغ زهيدة تبتلعها حاجة أسرته الشديدة فلا تكاد تبقي لها على شيء. وكانت إلى هذا تبدو في مظهر جديد ينم عن تغردي بال، فتزيتت في فستان برتقالي مزخرف بأزهار البنفسج أعلن عن جسمها الطويل النحيل، وأخذت زيتنها في غير تحفظ. وسارت وشارع الوليد حتى انتهت إلى شارع شبرا، وانعطفت مع الطوار وهي ترمي ببصرها إلى الجراج عن بعد فذببت في قلبها يقظة وحيوية. وأعادها منظر الجراج - وصاحبه محمد الغل - إلى ذكريات صراع عنيف نشب في نفسها في غير ما رحمة ولا هوادة طوال الأسابيع الماضية، وجعلت تقدم رجلاً وتؤخر أخرى حتى توقفت عن السير تماماً، وعقل الخوف قدميها، ومع أنها كانت قد انتهت من ترددها المذبذب إلى نهاية، إلا أن الخوف ركبها وهي تخطو الخطوات الأخيرة. «ألا يحسن بي أن أستزيد من التفكير؟ كلاً، كلاً، لن أجنبي من التفكير إلا وجمع الدماغ. سيعترض سبيلي كما يفعل كل مساء. لا أستطيع أن أنكر أنني ابتسمت لدعاباته فماذا بعد هذا؟ فات أوان التراجع. وهو لا يخفي دواعيه ولا مقاصده، ولست أجهلها، إنني أدرك كل شيء، أدرك لماذا يدعوني إلى سيارته، لا يحاول

خداعي كما فعل غيره، فالأمر واضح، فهل أقدم على هذا؟ لماذا يتعلّق بي؟ لست جميلة، وهيهات أن يغير هذا الزواق من الحقيقة شيئاً. ولكنّ الدمامة نفسها سلعة لا بأس بها في سوق الخلاعة، وعشاق اللذة - أو بعضهم - لا يرفعون عن مطلب. هذه هي الحقيقة. الزواج أمره مختلف أمّا اللذة فلا اختلاف عليها. هل أدع نفسي تهوي! ولماذا أمنعها؟ لن أخسر شيئاً. ليس ثمة ما أخاف عليه. ولكن ألا يحسن أن أمدّ لنفسي حبل التفكير؟ وعادتها ذكريات اليأس الذي أمرت غصصه ريقها، وكيف لم يعد ثمة أمل على الإطلاق. على أن الأمر لم يكن مجرد يأس فحسب، فهناك هذه الرغبة المشبوبة التي تشتعل في دمها ولا حيلة لها فيها. وكلما استنامت إلى قبضة اليأس شكتها في الأعماق كشوكة مستعرة. هذه الرغبة وحدها تأبى عليها أن تعزل الحياة وتتوارى حتى كرهتها فيما تكره من حياتها. بيد أنها لم تعترف بها أمام شعورها، وأنكرتها، وقالت لنفسها إنها ترضى «الهلوان» في سبيل النقود التي تمس حاجة أسرته إليها. ولم تكن في هذا كاذبة، فإنه حق لا شك فيه، ولكنها صارت نفسها بحقيقة وتجاهلت الأخرى، وسرها - إن كان ثمة سرور - أن تبدو لعينيها شهيدة، وضحية لليأس والفقر، وبرز الفتى عند ذاك من الجراج ووقف يتحدث بعض العمال فحفظ قلبها ولم تتحوّل عنه عيناها. وأدركت بغريزتها أنها لن تراجع فسلمت - على البعد - وهو موليتها ظهره، سلمت تسليمًا نهائيًا، وانتهى في تلك اللحظة الصراع العنيف المحزن الذي نشب في قلبها منذ أسابيع. وزفرت في يأس وحرارة وغادرت موقفها. واقتربت منه في خطوات وثيدة متجاهلة إياه، حتى أحسّت به يعترض سبيلها قليلاً بجرائه المألوفة: - الصخر نفسه يلين يا ست، هاك السيارة عند منعطف الطريق تنتظرك منذ أجيال.

ثم سار إلى جانبها متشجعًا بابتسامتها وهو يقول:

- كفاك تدللاً، لو كان لي صبر أيوب لنفد...

ما ألدّ الغزل ولو كذب، حال مخزية ولكنها تردّ إليها اعتبارها وكرامتها كأنثى مهيضة الجناح. «ليتته

## بداية ونهاية ٢٣١

تخافه على نفسها. وسمعتة يقول ضاحكًا في زهو:  
- ما أطول نَفْسك في التدلُّل!.. ولكن طالما قلت  
لنفسى مصير الحلو أن يقع، وما هو قد وقع...  
ورجبت بالكلام لتهرب من أفكارها واضطرابها،  
فارتسمت على شفيتها ابتسامة وتساءلت:

- ومن أدراك أني وقعت؟!

فضحك ضحكة وقال:

- سنرى ما يكون في صحراء المأظلة...

وتساءلت في قلق:

- صحراء المأظلة؟.. هل نغيب طويلاً؟

- حتى منتصف الليل!..

فتملكها فزع شديد تراءى لها خلاله وجه أمها  
وشقيقها، وقالت بلهجة المستصرخ:

- يا خبر اسود، يجب أن أعود إلى البيت قبل  
العشاء!.. أوقف السيارة بربك...

فقال بدهشة وفزع:

- حقاً؟! لا تخافي، سنعود قبل العشاء، ولكن ماذا  
تخافين؟

- أهلي...

فلحظها بارتباب ساخر وسألها بلهجة ذات معنى:

- أهلك!.. ألا تعلمون؟!

ووخزها قوله حتى خرم قلبها كالطعنة الحادة. أهلها  
يعلمون؟ ماذا يظنُّ بها؟! واندفعت تقول:

- كيف يعلم أهلي! إخوتي طلبة بالجامعة، وكان أبي  
موظفًا.

وهز رأسه متظاهراً بالتصديق، وقال لنفسه ساخرًا:

«لا أم غسالة إلا أمي، ولا إخوة صعاليك إلا إخوتي،  
الأمر لله» وضاعف من سرعة السيارة ليبلغ هدفه في  
أقصر وقت، ومضى يستشعر حمياً النبذ فطاب نفساً  
وسألها:

- ما اسمك؟

- نفيسة.

ولم يعجبه الاسم فسألها:

- لماذا لم تتقي اسماً أرق منة؟

- إنَّه يعجيني!

يدرري من أنا، ومن كان أبي». ثم سمعتة يقول بلهجة  
تنم عن وعيد:

- هاك السيارة فإذا لم تصعدي إليها رفعتك بذراعي  
أمام الرائح والغادي.

وكانا بلغا موقف السيارة في العطفة الثانية فقبض  
على يدها وفتح بالأخرى باب السيارة، وازدردت ريقها  
واندفعت إلى الداخل في حركة عصبية، وجلست،  
فأغلق الباب وراءها، ودار حول السيارة ودخل من  
الباب الآخر وهي لا تكاد تدري به، ومالت إلى الوراء  
لتباعد بين وجهها وبين النافذة المشرقة على الطريق،  
ثم غشيتها غرابة. بدا لها كل شيء غريباً خيالياً لا  
يمت للواقع بسبب، الطريق الذي تتساقط عليه ظلمات  
المساء وأشباح المازة، والسيارة المهرمة المتهلهلة،  
ونفسها، وأصوات الناس، ودوي عجلات الترام،  
واستعدت إرادتها بقوة لتعود إلى وعيها واسترقت نحوه  
نظرة وهو جالس أمام عجلة القيادة بقوام فارغ ووجه  
معروق صلب ووجنتين بارزتين وأنف ضخمة صخري  
وفم عريض كفم البوليدج فأعادها منظره إلى عالم  
الحقيقة، والوعي والأعصاب، والدم والخوف.  
واستخرج الرجل قارورة من تحت مقعده وفضَّ  
سداداتها ثم نظر فيما حوله في شيء من الحذر، ورفع  
فوهنتها إلى فيه وأفرغ في جوفه جرعات غزيرة، والتفت  
إليها بوجه متقلص العضلات وسألها:

- ألا تشربين قليلاً من النبيذ؟

فقالت بعجلة واضطراب:

- كلا، لا أتعاطى الخمر...

فرفع حاجبيه دهشة وهو يمصمص، وأعاد القارورة  
إلى موضعها، وبدأت السيارة تتحرك وهو يقول:

- من الحكمة أن أشرب الآن حتى إذا بلغنا مقصدنا  
بلغته في سلطنة...

وانطلقت السيارة مقرقرة تشق سبيلها بسرعة  
مستهترة. وعجبت نفيسة من جرأته وبدأ لها قوياً  
جسوراً، وفي الوقت نفسه غير أهل للثقة أو الشرف.  
ولكن ما حاجتها إلى الرجل الشريف؟ لم تعد أهلاً له،  
ولم يعد ضالَّتها، ولا تخاف شيئاً في الوجود بقدر ما

- عاشت الأساء يا ستّ نفيسة. لا مؤاخذه...  
وأخيراً مالت السيّارة إلى الطريق الصحراويّ  
تغوص في ظلمة شاملة، ولاحت المدينة عن بعد في  
أنوارها الموصولة كأنها مارد جبّار ذو أعين نارِيّة لا  
حصر لها، وأخذ يهدّئ من سرعة السيّارة حتّى أوقفها،  
وأطفأ مصابيحها، وبغفّة مدّ ذراعه حول خصرها  
وجذبها نحوه بعنف لم تتوقّعه. فاندلقت عليه متأوّهة،  
فغفر فاه العريض وأطبق على فمها حتّى منتصف  
ذقنها، وضمّها إلى صدره بوحشيّة وأنفاسه تتردّد في  
أنفه في نخير محسّج، فشعرت بادئ الأمر بالم وقلق،  
ثمّ مضت آلامها تغيب في ظلمة باطنيّة غريبة كما غاب  
شبحاها في الظلمة المحيطة الشاملة وآمنت بأنّها مدينة  
للظلام بالشيء الكثير، فقد شجّعها، وفي الوقت نفسه  
أخفى عيوبها، وبذلت قصارى جهدها - مدفوعة بحافز  
فطريّ - لإرضائه. ولعلّها وجدت بادئ الأمر حياء إلى  
ما تجذ من قلق وخوف ولكن سرعان ما شملتتها حرارة  
جنونيّة تذيب الخوف والقلق والحياء.  
ثمّ قال لها بإغراء:

- ألا يحسن بنا أن ننتظر ثمرة أخرى؟

فقال بضراعة وهي تحفّف العرق المتصبّب من  
جبينها:

- لا أستطيع، أرجو أن يعود في الحال...

وتناول القارورة وأروى ظمأه بجرات متتابعة، ثمّ  
انطلق بالسيّارة بوجه جامد، وظلّ صامئاً حتّى بلغا  
ميدان المحطّة، وقال بغلظة:

- توجد ثمرة دانية، ألا نعود؟

فقالت برجاء وجزع:

- كلّاً، كلّاً... لا أستطيع...

وقطّب ساخطاً فجأة، وقال بفظاعة لم تتوقّعها:

- الله يقرّك، هذه رحلة لا تستاهل البترول الذي  
احترق.

ووقع قوله من نفسها موقع السوط فانعقد لسانها،  
وأفعم فؤادها خيبة ومرارة وخجلاً، ونظرت نحوه في  
ذهول، ولكنّه لم يلتفت إليها، ودفع السيّارة صامئاً  
ساخطاً إلى شبرا. عسى أن تكون رغبته في المزيد عذراً

ولكن أما كان يجمل به أن يترقّق بها أو في الأقلّ أن  
يسمح خشونته بكلمة رقيقة؟ وواصل انطلاقه صامئاً،  
ثمّ عرّج إلى شارع جانبيّ لينزلها في أمن من الأعين.  
وأوقف السيّارة إلى جانب الطوار. وتساءلت وهي  
تغادر موضعها عمّا تفعل إذا سمّى لها موعداً آخر أنقبل  
رغم إهائته أم ترفض على رغمها؟ وجابتهها حيرة لم  
تستعدّ لها، بيد أنّه مدّ لها يده بنصف ريال وهو يقول:

- هذا يكفي لمرة واحدة...

ولمّا رأى جمودها ترك القطعة الفضيّة عند قدميها  
وانطلق بالسيّارة غلغلاً وراءه ذيلًا من دخان خانق،  
وقرقة مزججة. وركبها جنون غضب أعمى فتستمرت  
في موقفها وجسمها ينتفض. وأتصل انتفاضها وهي  
تعصّ على نواجذها، ثمّ مضت تزفر في عجلة كأنّها  
تنفّس عن صدرها أن ينفجر. لم يتكلّف موعداً آخر.  
مرة عابرة... كأنني... ربّاه، مرة عابرة. ثمّ يرمي لي  
بنصف ريال! وخطر لها خاطر فباخ غضبها وخمد،  
وحلّ محلّه خجل وخيبة، أجل، ألا يجوز أنّها لم ترق له  
ولم تعجبه؟! هذا محتمل. هذا مرجّح. هذا مؤكد!  
وأمصّها شعور أليم بالحزن والقهر، ثمّ تنبّهت لموقفها  
من الطوار فهتّت بمغادرته ولكنّها ذكرت القطعة الملقاة  
عند قدميها فنظرت إليها بغرابة دون أن تدري ما هي  
فاعلة، ثمّ ذكرت لتوّها القطعة ذات الخمسة قروش  
التي اقترضها سلمان منها يوماً على محطّة الترام، ثمّ يوم  
قادها إلى مسكنه، والظلام الدامس وشجارها معه في  
الطريق، وتغرّل أبيها بخفّة دمها، ثمّ عاد انتباهها إلى  
القطعة الفضيّة تحت عينيها، فرنت إليها طويلاً دون  
أن تتحوّل عنها. أيّ شيء ثمة يدعوها إلى  
تركها؟!...

- ٤٢ -

وفي ذات ليلة زار حسن الأسرة زيارة غير متوقّعة  
بعد انقطاع غير قصير، وكانت الأسرة مجمعة بحجرة  
الإخوة التي تتخذ منها مجلساً مختاراً في شهور الصيف.  
جاء هذه المرّة ويده قفّة فوضعها وراء الباب وأقبل  
عليهم مسلماً ضاحكاً فاستقبلوه بترحاب كالعادة، أعلنه  
الإخوة في غير تحفّظ، أمّا الأم فرمقت القفّة بنظرة



- كان فيلسوفًا رحيماً، ومن أي رحمة أنه امتنع عن أكل اللحوم رحمة بالحيوان...  
 - إني أدرك الآن لماذا تفتح الحكومة المدارس، إنها تفعل كي تبغض لكم اللحوم فتأكلها دون منافس...  
 ونهض حسن وذهب إلى حيث ترك الفقة وعاد بها ووضعها أمام أمه، ثم نزع عنها غطاء من الورق فبدت تحته فخذ خروف مكتنز تتصل على سطحها حمرة اللحم ببياض الدهن. وإلى جانبها علبة من الصفيح متوسطة الحجم. وصاح حسنين:  
 - لا أصدق عيني، وما هذا داخل العلبة؟  
 - سمن!  
 ودبت في الإخوة حيوية ولعت أعينهم، وسرت عدوى الفرح إلى قلب الأم فابتسمت وتمتمت:  
 - ضمناً للغد غداء فاخراً!  
 وهتف أكثر من صوت:  
 - بل عشاء فاخراً، الساعة.  
 - متى ينتهي طهيها؟  
 - ننتظر حتى الفجر.  
 ونهضت نفيسة فحملت الفقة وسبقت أمها إلى المطبخ.  
 وكفت الأم عن المعارضة وقامت أيضاً فغادرت الحجرة وهي تومئ إلى حسن أن يتبعها فتبعها على الأثر مبتسماً ابتسامة ذات معنى، فانتبذت به ركناً في الصالة وسألته بلهفة:  
 - هل تيسرت سبل الرزق حقاً؟  
 - بعض الشيء! لا أدري ما يأتي به الغد...  
 - هل أطمئن إلى أنك ستمد لنا يد المعونة؟  
 - كلنا واتاني الرزق. أرجو هذا...  
 وصمتت لحظة ثم سألته:  
 - أين تقطن؟  
 وكان يعلم أنها تفهمه فهماً لا يجدي معه الكذب فقال:  
 - عطنة جندف بكلوت بك رقم ١٧.  
 فسألته بعد تردد:  
 - امرأة؟

متسائلة وغمغمت ساخرة «إيش جاب الغراب لأمه؟» فقال ضاحكاً وهو يتخذ مجلسه بينهم.  
 - لا تتعجلي. الصبر طيب...  
 بيد أنهم لم يلقوا بالآ لفقته. ولم يكن من عادتهم أن ينتظروا خيراً منه، قالت له نفيسة:  
 - لا نراك إلا كالزائر!  
 - أخوك سائح في أرض الله الواسعة، يلتقط رزقه في جهد ومشقة، ولكن لا تعجبي إذا لم تريني إلا زائراً فقد وجدت لنفسك مسكناً!  
 وتطلعت إليه الأبصار في اهتمام وسألته أمه:  
 - هل هداك الله أخيراً ووجدت عملاً؟  
 - تحت علي صبري ولا شيء غيره ولكن الله فتح عليه وعلينا.  
 فقالت الأم بامتعاض:  
 - لا يدخل عقلي بحال أن هذا عمل بالمعنى الصحيح...  
 فقال حسن مستكراً:  
 - لم يا أمه!! إني في التخت أغني بينا في المهن الأخرى أتشاجر كما تعلمين...  
 وسأله حسين:  
 - وهل وجدت لنفسك مسكناً حقاً؟.. أين؟  
 فسكت ملياً ثم سأله:  
 - ولماذا تريد أن تعرف؟  
 - كي نزورك بدورنا!  
 - كلاً. ليس مسكني معداً للزيارة، وليس هو خاصاً بي إذ يقطنه أفراد التخت جميعاً، دعونا من هذا وخبروني متى أكلتم اللحم آخر مرة؟  
 فقال حسنين ساخراً:  
 - الحق أنا نسينا، دعني أتذكر قليلاً... تتخايل لعيني شريحة لحم في ظلام الذكريات ولكن لا أدري أين ولا متى.  
 وضحك حسين قائلاً:  
 - نحن أسرة فلسفية على مذهب المعري.  
 فتساءل حسن:  
 - ومن يكون المعري هذا؟.. أحد أجدادنا؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال:

- نعم .

- زواج؟

فضحك مرة أخرى وتمتم:

- كلاً . . .

ولم يرَ في الظلام ما ارتسم على وجهها من أمارات الامتناع، ولكنها كانت قد پشت منه من زمن بعيد فأعفت نفسها من لومه أو نصحه، بيد أنها سألته باهتمام وحرارة:

- اليس رزقاً شريعياً؟

فقال بلهجة مطمئنة وتوكيد:

- بلى، لا تشكّي في هذا . . . إننا نحيا أفرأحاً

كثيرة ونغني في المقاهي والصالات . . .

- ٤٣ -

وانقضى عام آخر. وواصلت الحياة سيرها لا تلوي على شيء، ومضى كل فرد من أفراد الأسرة في سبيله بما يلقى من خير وشر. ولو أتيج للأب أن يعود إلى الحياة لأزعجته الدهشة لما طرأ من تغير على أسرته شمل الأرواح والأجساد والصحة ونظرات الأعين، ولكن كان حتماً سيعرفهم، سيعرف أن المرأة هي زوجته وأن الأبناء أبناءه، أما الذي كان ينكره، ولا يعرفه مهما أجهد ذاكرته فهو البيت. اختفى الأثاث أو كاد، فلم يبقَ بحجرة الاستقبال إلا كنية وبساط باهت ناعل كان مفروشاً بحجرة نوم الأم ثم وضعوه بحجرة الاستقبال بعد بيع سجادتها، واقتصرت غرفة الأم على كنبين تستعملان نهاراً للجلوس وليلاً للنوم، وخلت الصالة - حجرة السفارة قديماً - ببيع البوفيه والمائدة والكراسي، وانتهى بهم الحال إلى تناول طعامهم على صينية مقتعدين الأرض، بل بيع فراش حسن. ولولا الضرورة القصوى لبيع الفراشان الباقيان. كانت حياة شاقة عسيرة، ولولا حزم الأم، وحسن تدبيرها، لما نهض المعاش وكسب نفيسة القليل بضرورة المسكن والمأكّل. أما حسن فلم تعدّ معونته لأسرته زيارات متباعدة كانت للأسرة بمثابة المواسم يطيب لها فيها الطعام والأمل، وربما ابتاع لأمه من آن لآخر جلباباً أو

مندبلاً أو بعض الثياب الداخلية، وفيما عدا هذه الأوقات فلم يكن يراه أو يسمع به أحد. وكان يعتذر لأمه بمشاق الكفاح وقلة الرزق، ولم يكن في اعتذاره غلّو دائماً. والحق أنه وجد الحياة أشقّ مما كان يتصور. كان يغني في تحت عليّ صبري، وينبري للعراك إذا دعا الداعي، ويتجر بالمخدرات في حدود ضيقة، وفي حوزته امرأة لا بأس بجالها ونقودها، ولكن ظلّ كسبه دون ما كان يحلم به بكثير فضلاً عما أوجبه حياته عليه من الإنفاق السخيّ ليظفر بقلوب أعوانه، وليظفر بالمظهر اللائق به . . . وكان النزاع بين ضروريات حياته وأنانيته من ناحية وحبه لأسرته من ناحية أخرى لا يبدأ بنفسه، يتغلب ذاك حيناً، ويتغلب هذا في أغلب الأحيان، يمسك يده مستسلماً لتيار حياته الجارف، ثم يجود بما في طوقه، ويتمنى كثيراً لو يردّ أسرته إلى سابق عهدها بالحياة، ثم ينسى أسرته في خضم مغامراته، ثم يعود إلى تذّكرها في ندم وألم، وهكذا إلى غير نهاية. ومهما يكن من أمره فلم تجد فيه الأسرة الرجل الذي يقيل عثرتها أو يأخذ بيدها وإن تنسّت في زيارته نسايم الترفيه والراحة. الأم وحدها كانت عصب حياة الأسرة، وفي سبيل الأسرة انهذ حيلها وهرمت في عامين كما لم تهرم خلال نصف قرن من الزمان، فنحلت وهزلت حتى استحالت جلداً وعظاماً، بيد أنها لم تستسلم للمحنة، ولم تعرف الشكوى، ولم تتخلّ عن سجاياها الجوهرية من الصبر والحزم والقوة. وكانت تعمل النهار كله، تطبخ وتغسل وتكنس وتمسح وترتق وترفو، وترعى ابنها خاصة، تراقب لهما، وتحثهما على العمل، وتفرض نزاعهما التافه، وتكبح من نزواتهما، خصوصاً طفلها المتقلب حسنين. وبين هذا وذاك تعكف على التفكير في الحاضر والمستقبل، وتجتر كثيراً من الآلام التي تبعثها في نفسها ابتتها نفيسة في تجوالها الدائم بين بيت وبيت، تعمل كثيراً وتربح قليلاً وتواصل سعيها في مشقة وأس. لشد ما تتجرّع غصص الألم في سكون متجملة بصبر لا يين، لائذة بإيمان لا يزعزع، متشبّة بأهداب أمل لا بد أن يتحقّق وإن طال انتظاره. ويفضلها

- هيهات أن يعرض شيء عن هلاك روح شابة.  
فقال حسين ضاحكاً:

- لقد عشت يا أمّاه نصف قرن في ظلّ الاحتلال  
فلندعُ الله أن يمدّ لنا في عمرك نصف قرن آخر في  
كنف الاستقلال...

فقال الأمّ متمعة:

- احتلال، استقلال، لا أدري أيّ فرق بينهما. خير  
لنا أن ندعو الله أن يكشف عنا الغمة وأن يبذلنا من  
عسرنا يسراً...

فقال حسين بحسّ وإيمان:

- لو لم يكن الاحتلال لما تركت أسرنا بعد موت أبي  
بلا معين! «ثم مخاطباً حسين» أليس كذلك؟  
فقال حسين بأمل:

- أعتقد هذا!

وردّت الأمّ نظرها بينهما في شك كبير. لم تكن  
تحفل بهذه الأحاديث العامة التي تساق إليها أحياناً من  
حيث لا تدري، أمر واحد يهّمها، وتنسى من أجله  
الدنيا وما فيها، هو أن تبلغ بهذين الشابين اللذين  
تحبهما أكثر من الحياة نفسها برّ الأمان، وأن تراهما  
رجلين ناجحين سعيدين قد أمنا شرّ الحياة، وأوت  
الأسرة منها إلى ركن ركين...

- ٤٤ -

وفي نهاية العام حصل حسين على البكالوريا. وقد  
ذاقت الأسرة في فترة الانتظار السابقة لظهور النتيجة  
مرارة الإشفاق والشك. ولم يكن أحد يجرؤ على أن  
يتكهّن بما يجدر فيها لو أخفق حسين وحرم من المجانيّة.  
ولم تكن الأمّ تتصوّر أن ينتهي صبرها هذه النهاية، ولا  
أن تنكشف آمالها عن مثل هذا القنوط. وعندما تناول  
حسين الجريدة من البائع وأجرى بصره الزائغ في  
صفحاتها باحثاً عن ثمرته، التفّ به أخوه وأخته وأمّه  
بقلوب خافقة ينبض في أعماقها الأمل ويظّلها الخوف  
والعذاب. فانطبعت اللحظة الرهيبة على نفوسهم إلى  
الأبد. ثمّ كان يوم سعيد، أوّل يوم سعيد منذ عامين  
كثيرين، فطابت النفوس، ولهجت الألسن بالشكر لله،  
وراحوا يفتضحون عن سعادتهم بالحديث اللطيف

عرف الشقيقان سبيلهما. فلم يجد أيّهما عن جادته،  
وأمكنهما - على ما يكتنفهما من تقشّف وحرمان - أن  
يراصلا اجتهدهما في ماثرة تدعو للإعجاب. وكان  
حسين يعدّ ما يلقاه من ظروف العيش أهون ممّا يجد  
في حبّه من حرمان، ولكنّ فئاته لم تكن دون أمّه  
عناداً. فأرغمته على الرضى بحبّ ظاهر متقشّف لا  
يستسيغه طبعه الحامي. وأوشكت الحياة الخاصّة أن  
تلهي الشقيقين عمّا انتاب حياة الوطن في تلك الفترة  
من التطوّرات الهامة. والحقّ أنّ حسين لم يبدِ اهتماماً  
يستحقّ الذكر بالسياسة العامة ولعلّ حسين كان أكثر  
اهتماماً بالسياسة من أخيه، ولكن ليس إلى القدر  
الذي يجعل منه تلميذاً سياسياً، واقتصر اهتمامه في  
الغالب على النقاش الحزبيّ أو الاشتراك في المظاهرات  
السلميّة. وكانت الأمّ أيضاً الحائل بين ابنيها وبين  
الاشتراك في الحياة السياسيّة، فلم تكن لتفقه حرفاً في  
السياسة، واستغرقت الأسرة مشاعرها فلم تترك نصيباً  
للوطنيّة. ولما ذاعت الأخبار المحزنة عن ضحايا  
المظاهرات من الطلبة أصابها الفزع وراحت تقول  
مخاطبة الشابين:

- قُتلوا يا ولداه فهل تغني عنهم السياسة أو  
المظاهرات؟! فجعوا أهليهم وخربوا بيوتهم وضاعوا  
هباء...

وقال لها حسين منقّساً عن شعور مكبوت لتخلّفه  
عن الثائرين:

- إنّ الأوطان تحيا بموت الأبطال...

فرمته بنظرة صارمة فخفض عينيه وقد عدل عن  
مواصلة حديثه الحماسي. ثمّ جدّت أحداث فتكوّنت  
الجهة الوطنيّة، وشرع في المفاوضات، وانتهت  
المفاوضات إلى الاتفاق، وسرى في البلد ارتياح عامّ،  
وحينذاك عاد حسين إلى حديثه، وكان أجراً على أمّه  
من أخيه، فقال لها يوماً:

- رأيت أنّ الأرواح التي زهقت لم تذهب تضحياتها  
عبثاً.

ولم تغضب هذه المرّة لشعورها بأنّ الخطر قد زال  
وحلّ محلّه السلام ولكنها لم تثن عن رأيها فقالت:

كلامه فقال بإشفاق:  
 - إني أقرر مبدأ عامًا يجوز عليك اليوم وعليّ غدًا.  
 - تعني أنّه يجب أن أجد وظيفة؟  
 فزأغ عن الجواب الصريح وتساءل:  
 - ما رأيك أنت؟  
 فالتفت حسين صوب أمّه وسألها مبتسمًا:  
 - ما رأيك يا أمّاه؟  
 وأثرت ابتسامته في نفسها تأثيرًا عميقًا، وأدركت أنّه يضع مصيره بين يديها. وأنّه يحملها وحدها مسئولية مستقبله. ولكنّها لن تقضي عليه بما لا يحبّ، لن تفعل ولو ذاقوا الهوان أربعة سنوات أخرى. إنّهُ الوحيد الذي يذعن لمشيئتها بلا تردّد أو تذمّر فهل يكون جزاؤه الفداء؟! وقالت الأمّ بوضوح:  
 - رأيي رأيك يا حسين...  
 فابتسم حسين ابتسامة غامضة وقال مدفوعًا برغبة عابثة في مضايقة حسنين:  
 - أرى أن أكمل مرحلة التعليم العالي...  
 فقالت نفيسة بسرور:  
 - أحسنت...  
 وقال حسنين بعد تردّد:  
 - أمامنا أربعة أعوام عجاف أخرى...  
 فقال حسين مبتسمًا:  
 - عام واحد فحسب ثمّ تتوفّل أنت في نهايته إن شاء الله!  
 فضحك حسنين مغلوبًا على أمره وقال بلهجة المعتذر:  
 - لعلّك تظنّ أنّي أريدك على أن تتوفّل لتتيح لي فرصة أكمل فيها تعليمي العالي في هدوء وطمأنينة، ولكنّ الحقيقة أنّي أودّ أن أرحم أسرّتنا ممّا تعانيه، وفضلًا عن هذا وذاك فإذا كان على أحدا أن يضحيّ بذاته - إذا اعتبرنا التوفّل بالباكالوريا تضحية - فأنت الذي يجب أن تبذل هذه التضحية، لا لأنّي أريد لك ما لا أريد لنفسني، ولكن لأنّ أسرّتنا تستطيع أن تنتفع بتضحيتك الآن على حين يجب أن تنتظر عامًا آخر حتّى يمكنها الانتفاع بتضحيتي أنا.

حيثما، وبالصمت المطمئنّ الباسم حينًا آخر. ثمّ وجدوا أنفسهم يطرقون باب المستقبل، ويفكّرون في الغد القريب والبعيد معًا، فنسوا سعادتهم وهم لا يشعرون، ونخائلت لأعينهم مرّة أخرى الصعاب التي تكتنف حياتهم، فحلّ التفكير وهمومه محلّ السعادة الصافية العابرة، عرف حسنين حقيقة جديدة في حياته وهي أنّ السعادة قصيرة الأجل وأنها لا تعمّر في النفس طويلًا كالخزن أو الحسرة. ولم يكن التفكير في مستقبله بالأمر الجديد عليه، كان بطبيعة الحال ذا آمال وأحلام، ولكنّ الحقائق لم تكن لتغيب عنه كذلك، وكأنّه أراد أن يستدرجهم إلى إعلان آرائهم فتساءل:  
 - ماذا لديكم عن الخطوة التالية؟

وكان للأمّ رغبة، فهي تودّ أن تنتهي الحال التي يكابدونها بأيّ ثمن. وكانت تعلم - قد خلا البيت ممّا يمكن الانتفاع بثمن بيعه - أنّهم لن يستطيعوا مواصلة هذه الحياة بعد الآن. بيد أنّها لم ترتح إلى إملاء رغبتها عليه، ونفرت من التحكّم في مستقبله كما تتحكّم في حياته. أجل لم يعد طفلًا، فإذا وافق على رأيها اختارًا فيها ولا فليقبض في أمر نفسه بما هو قاضٍ، وليمدّوا هم في حبال الصبر والتجلّد، بل والجوع حتّى يأمر الله بالفرج. لذلك قالت باقتضاب:  
 - فلنتدبّر الأمر طويلًا.

ولكنّ حسنين كان يفكر بسرعة مدفوعًا بعواطفه كعادته، وكانت أنانيّته تتوارى خلف ما يظنّه الصالح العامّ، فقال:

- لم تعد الحياة تطاق. غذاؤنا سيّئ ونحن في حُكم الجباة وثيابنا متداعية عمّرة أو مرفّوة، وبيتنا عارٍ، فلا يصحّ أن نطيل أمد العذاب. لا سبيل إلّا أن نبدأ حياتنا العملية...

وكان حسنين يفهم أخاه خير الفهم، فأدرك لتوّه ما يرمي إليه، وكان مقتنعًا بما يريد أن يذهب إليه ولكن ساءه مكره فتغيّظ عليه وقال:

- لماذا تقول «نبدأ»؟.. لماذا تستعمل صيغة الجمع بين الأمر يتعلّق بي وحدي؟  
 وأدرك حسنين أنّ أخاه نفذ كعادته إلى ما وراء

فضحك حسين قائلاً:

- منطق زائف. إني أعلم علم اليقين أنك لن ترضى بالتضحية لا العام القادم ولا الذي بعده...

وقالت الأم حسناً للجدل:

- افعل ما تشاء يا حسين، ولا اعتراض لنا...

فابتسم إليها في صفاء وقال:

- لم أعني ممّا قلت حرفاً واحداً ولكّني أردت أن يعرف حسين أنّي أحسن فهمه. ولست ألومه أيضاً على تفكيره فله عذره. ينبغي أن يضحي أحداً ويرضى بالتؤلف الآن، وهذا هو واجبي أنا، أنا أخوه الأكبر، وأنا صاحب البكالوريا. إني أدرك الحال على حقيقتها، وأعلم أنّه من القسوة الشّريّة أن أفكر في تكملة تعليمي، فلأرض بحظي، ولندعُ الله جميعاً أن يوفقنا إلى ما نريد...

وقرأ الارتياح في أعينهم جميعاً رغم ما تنطق به ألسنتهم من عبارات الأسف، فداخله شعور طيب بالسرور والارتياح على حزنه وأسفه. «أسرتنا كادت تنسى معاني الارتياح والطمأنينة. ها أنا أعيد إلى نفوسها بعض هذه المعاني. علام آسف! مدرّس أو كاتب سيّان. لو كنّا نفتقد في أحلامنا، أو كنّا نستلهم الواقع في خلق هذه الأحلام، لما ذقنا طعم الأسف أو الحنينة».

- ٤٥ -

وقالت الأم:

- لدينا أحمد بك يسري صديق المرحوم والدكم، وهو يستطيع أن يوظّفك في غمضة عين...

وتفكرت الأم ملياً ثمّ واصلت حديثها قائلة:

- لن أستطيع الذهاب إليه بنفسني لأنّ معظفي لم يعد لائقاً للظهور أمام الناس المحترمين، فامضِ إليه أنت، وخذ معك أخاك تشجّع به. وما عليكم إلّا أن تقولوا للبواب إنكما ابنا المرحوم كامل أفندي عليّ...

وذهب الشقيقان عصرًا إلى شارع طاهر وقصدا بيت البك وطلبا مقابله كما أوصتها أمهما فغاب البواب دقائق ثمّ جاء ليدعوها إلى حجرة الاستقبال. ودخلا يسيران في ممشي الحديقة الوسط وهما ينظران إلى

شقيّ الأزهار التي كست الأرض بألوان بهيجة بدهشة، ثمّ صعدا إلى السلامك، ثمّ إلى بهو الاستقبال الكبير، وأخذوا مجلسها بارتباك على كنب من الباب بالموضع الذي اختارته أمهما قبل ذلك بعامين. وجرى بصرهما سريعاً على البساط الغزير الذي يغطي أرض الحجرة الواسعة، والمقاعد الكثيرة الأنيقة، والطنافس والوسائد، والستائر التي تنهض على الجدران كالعالمقة، والنجفة المتدلّية في حالة لالاعة من سقف عال انتشرت بجوانبه المصابيح الكهربائية. وأشار حسين إلى النجفة وقال بسداجة:

- مثل نجفة سيّدنا الحسين!

وكان حسين يفكر في أمور أخرى فقال:

- نعم... دعنا من النجفة، ما عسى أن نقول؟...

ينبغي أن تساعدنا بلسانك!

فقال حسين هازئاً:

- أنظرنَ أنك ستحدث شيطاناً؟... تكلم بشجاعة،

وسأتكلّم أنا أيضاً. ملعون أبوه!

ونذت عنه اللعنة - لا لحن - ولكن ليشجّع أخاه، وليتشجّع هو نفسه. وألقى نظرة ذاهلة على ما يحيط به من أي الثراء ثمّ تساءل بصوت منخفض:

- هل يثير موت رجل كأحمد بك حزناً في نفوس ورثته؟

فقال حسين بنصف وعي:

- أما كنّا نحزن لوفاة والدنا لو كان غنياً؟

فقطّب الشاب متفكراً ثمّ قال:

- أعتقد هذا. ولكن لعلّ الحزن أنواع ودرجات.

آه... لماذا لم يكن أبونا غنياً...

- هذه مسألة أخرى...

- ولكّنها كلّ شيء. خبرني كيف صار هذا البك غنياً؟

- لعلّه وجد نفسه غنياً...

فالتمعت عينا حسين العسلتين وقال:

- يجب أن نكون جميعاً أغنياء...

- وإذا لم يكن هذا!

- إذن يجب أن نكون جميعاً فقراء...

- وإذا لم يكن هذا؟!

فقال بحنق:

- إذن نثور ونقتل ونسرق...

فابتسم حسين قائلاً:

- هذا ما نفعله منذ آلاف السنين...

- يعز عليّ أن أتصور أن تمضي حياتنا في عناء وقذارة

إلى الموت...

فقال حسين مبتسماً:

- لا قدر الله...

وقبل أن يفتح حسين فمه سمعا وقع أقدام آتية

من الفراندا، ثم دخل البك بجسمه الطويل العريض

في بدلة بيضاء حريرية، وسلم عليها مرحّباً وهو

يتفرّس في وجهيها بعينين ضاحكتين، ثم سألها وهو

يجلس:

- أهلاً بابي الحبيب المرحوم، كيف حال والدتكما؟

فشكرا له بلسان واحد، وقد نسي حسين في طيب

اللقاء حنقه على حين عاود حسين ارتبأكه. وتوجّس

أحمد بك خيفة من هذا اللقاء الذي لا بدّ أن يسفر عن

بذل وعطاء، وكان يسلم سلفاً بأنّه لن يستطيع أن

يرفض لها رجاء إذا سألاه. والحقّ أنّه لم يكن بخيلاً،

بل كان جواداً، ولكن لا عن طيب خاطر، كان يجود

في برم وضيق دون أن يستطيع أن يقول «لا»، وتغلّب

حسين على ارتبأكه وقال بصوت رقيق مؤدّب تغني

نبراته عن ألفاظ الرجاء والضراعة:

- حصلت يا بك على البكالوريا، وظروف أسرنا

تضطرّني إلى البحث عن وظيفة، لذلك رأيت والدتي

أن ترسلني إلى سعادتك لما لنا جميعاً فيك من عظيم

الرجاء...

فجعل البك يعبث بشاربه الغزير المصبوغ، ثم

قال:

- وظيفة؟!.. باب الحكومة ضيق في أيامنا هذه،

ولكنّي سأبذل ما في وسعي يا بني. لا أعتقد أنّي سأجد

لك وظيفة في الداخلية ولكنّي صديق لوكيل المعارف،

وكذلك وكيل الحربية، جهّز طلب استخدام وسأكتب

لك توصية قوية...

وشكرا له كرم أخلاقه ثم سلّما وغادرا الفيلاً،

والقى حسين على الفيلاً نظرة توديع وهما يتعدان

عنها، وعاد ببصره إلى وجه أخيه فوجده راضياً حالماً

فسأل نفسه في دهشة: ترى هل يفرح الآن بما عدّه

بالأمس تضحية؟ ثم قال:

- أيقنت الآن فحسب، وبعد أن تنسّمت عبر

الحياة الحقّة في هذه الفيلاً، أنّه من الظلم أن نعدّ

أنفسنا بين الأحياء...

وكان حسين مشغولاً بالتفكير في طلب الاستخدام

والتوصية القويّة فلم يعن بالردّ على أخيه، فقال

حسين حائثاً:

- إني أعجب لما تتحلّى به من رضى وهدوء! ولكنّه

تظاهر لا يمكن أن يخدعني...

فغمغم حسين مبتسماً:

- وما جدوى الحق؟.. لن نغيّر الدنيا!

- يجب أن تتغيّر. من حقنا ولا شك أن ننعّم

بالسكن النظيف والمأكل الصحيّ والمركز المرموق.

ولكنّي أراجع حياتنا جملة فلا أجد بها خيراً أبداً...

فحدّجه حسين بنظرة غريبة لم يفهم معناها وقال

له:

- ولكنك تتمتّع بالحبّ، وستكمل تعليمك. أليس

هذا خيراً؟

ونظر إليه ثمّ نظر في ما أمامه، ترى ماذا يعني؟

وشعر بعدم ارتياح، وتضاعف ضيقه. ثمّ روجّ عن

صدره متسائلاً:

- ألم يكلفك هذا التضحية بنفسك؟ إنّ لنا حقوقاً

بديّة ولا يجوز أن يضيع شيء منها، فأين نحن من

هذا؟.. كيف نعيش؟.. ماذا تكابد أمتنا؟.. أين

أخونا حسن؟.. كيف انقلبت أختنا خيطة؟...

وقطّب حسين وقد تنغص عليه صفوه، وتناسى

جوهر الموضوع ووقف عند الصفة الأخيرة حائثاً،

وصاح بأخيه في لهجة تنمّ على العتاب:

- خيطة...

فقال حسين في هياج وانفعال:

- نعم خيطة، هل تكره هذا حقاً؟ أمتي حقاً لو

وتبدلها حالاً بعد حال، فجاء السفر مخيباً لهذا الرجاء، وتغيرت الأم بين فرحها وحسرتها، وأيقنت أن الوظيفة لن ترقه عن الأسرة إلا قليلاً، وأن خيارها ستتبدل ما بين طنطا والقاهرة. وإلى هذا كله فقد لاح في أفق الأسرة شبح فراق جديد لم تألفه، فتوجعت قلوبها، وعجبت الأم لهذا الحظ الذي يأتي أن يمنحها ابتسامة إلا تحت عبوسة متجهمة، والذي يمد يد النوى بينها وبين الابن الوحيد الذي لا يخلق لها المتاعب. كانت ترى في حسين صورة من نفسها الهادئة الصابرة، وكانت تجد عنده من الأناقة والراحة ما لا تظفر به عند غيره. أجل لم يكن أحب الجميع إلى قلبها، إذ كان حسين الطفل المشاكس الذي يحظى بهذه المنزلة، ولكنه بدا لعينها وقتذاك كأنفس ما تملك في حياتها. ووقع الفراق من نفس حسين موقعاً سيئاً، وحزن له حزن رجل لم يبتعد عن بيته يوماً واحداً في حياته، وضاعف أثره في نفسه تعلقه الشديد بأمه وإخوته وما كان يأمل من الترفيه عنهم بوجوده بينهم. وكان يقول لنفسه كثيراً «سأعيد نفيسة إلى بيتها سيدة محترمة حال تسلمي أول مرتب من الحكومة» ولكنه رأى حلمه يتبدد، وغداً يذهب إلى بعيد خلفاً أسرته المحبوبة وراءه على حال ليست أفضل كثيراً مما كانت عليه. ولعل هذا ما جعله يمضي إلى أحمد بك يسري مستشفعاً بنفوذ على إبقائه في القاهرة ولكن البك - وكان قد ضاق به - أخبره بأن رغبته بعيدة عن التحقيق في الوقت الحاضر. ثم اعترضته مشكلة جديدة تتعلق بالنقود التي يجب أن تتوافر له ليقوم بها أسباب معيشته في طنطا حتى يتسلم أول مرتب له في نهاية الشهر، من أين له بهذه النقود، وأنجه نحو أخته نفيسة ولكن الفتاة كانت تنزل لأمها عن جل أرباحها المحدودة ولا تكاد تبقي لنفسها على شيء إلا ما يلزم لكسائها، وإلى هذا فما تبقى من أثاث البيت لا يفي ثمنه - إذا بيع جميعه - بمطلبه، فلم يجد من ملاذ أماسه إلا أخاه حسن وخطب أمه فيما تراءى له فوافقت عليه ولم يداخلها شك في نجدة ابنها الأكبر إذا وسعه ذلك، وأطلعت على عنوان أخيه لأول مرة فمضى من توه إلى شارع كلوت

كانت تزوجت كأمثالها من الفتيات؟ كذب. لو كانت تزوجت، بل لو لم تكن خياطة لاضطرر كلانا إلى الانقطاع عن المدرسة والبحث عن مهنة حقيرة. هذه هي الحقيقة...

واشتد الغضب بحسين، لا لأنه لا يسلم بما قال أخوه، ولكن لأنه يسلم به في أعماقه، ولأنه ما كان يرحب حقاً بزواج الفتاة وسعادتها. «إننا نأكل بعضنا بعضاً، ينبغي أن نسرّ بهريج حسن وعبه ما دام يعيشنا كل شهر بفخذ خروف. وينبغي أن نسرّ بأختنا الخياطة ما دامت تعد لنا لقمتنا الجافة. وهذا الشاب المتذمر ينبغي أن يسرّ بانقطاعي عن التعليم ما دام سيتم تعليمه هو. يأكل بعضنا البعض. أي وحشية. أي حياة! لعل لا أجد إلا عزاء واحداً وهو أن قوة أكبر منا جميعاً تطحننا طحناً وتلتهمنا التهاماً وأننا نصمد ونقاتل.» وتركز تفكيره في الخاطر الأخير، فيما ساء العزاء الوحيد، فسكنت نفسه، وسكت عنه الغضب وقال وكأنه يخاطب نفسه:

نحن لا يأكل بعضنا البعض. لا تقل هذا (لم تكن هذه العبارة من قول شقيقه ولكنه لم يقطن لهذا)... لا تقل هذا أبداً. نحن أسرة بائسة ولنا نظائر وأشباه لا يحيط بهم حصر. وواجب كل واحد منا أن يجود بما يقدر عليه من البذل والتضحية... ثم طلب إلى أخيه في حزم أن يسلك عن الجدل، وكانا بلغا محطة الترام...

- ٤٦ -

وتبين لحسين أن الوظيفة - أو التضحية التي رضي ببذلها عن طيب خاطر - لم تكن منالاً يسيراً، فقد انصرفت ثلاثة أشهر وهو يتردد في هم ويأس ما بين فيلاً أحمد بك يسري ووزارتي المعارف والحربية، وأخيراً أخبره البيك بأنه أمكن إلحاقه بوظيفة كاتب بمدرسة طنطا الثانوية، وحته على تقديم نفسه للقومسيون والاستعداد للسفر لتسلم عمله في أول أكتوبر. وسرّ الفتى. وسرّت الأسرة، ولكنه سرور لم يكن خالصاً، وشابته مرارة. كانت الأم تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر كي تنتشل الأسرة من وهدهتها

رائحة السلم، ووجد نفسه في دهليز شبه مظلم تكتنفه حجرتان واحدة إلى يمين الداخل والأخرى في مواجهته وإلى اليسار المرافق. وابتسم حسين إلى أخيه وقال كالمعتذر:

- هل أتيت مبكرًا؟.. الساعة الحادية عشرة!

فتشاءب حسن طويلًا ثم قال ضاحكًا:

- إنني أستيقظ عادة حوالي العصر. المغنون ليلهم نهار ونهارهم ليل. ولكن خبرني قبل كل شيء كيف حالكم؟

- بخير والحمد لله... وكيف أنت؟

فقال وهو يسير به إلى الحجرة التي إلى يمينه:

- نحمده...

دخلوا حجرة صغيرة تكاد تقسم مناصفة بين فراش وصوان بينهما إلى الجدار الداخلي كنبه علقت فوقها على الحائط صورة كبيرة تجمع بين حسن وامرأة لحيمة عميقة السمرة قد اعتمدت منكبه بساعديها المشتبكين، فثبتت عينا حسين عليها في دهشة لفتت نظر أخيه فتساءل ضاحكًا:

- ماذا يدور برأسك؟

فسأله حسين بسذاجة:

- هل تزوجت يا أخي؟

فأجلسه على الكنبه ووثب إلى الفراش وترجع عليه وهو يقول:

- تقريبًا...

- خطبت؟

- الثالثة...

- الثالثة؟!

- أعني الفرض الثالث!

فرجع الشاب إليه عينيْن داهشتين في وجوم ثم ابتسم ابتسامة آليّة على الرغم منه ولاح في وجهه ما يشبه الحياء فضحك حسن عاليًا وقال باستهانة:

- هي زوجة في كل شيء إلا العقد...

فسأله حسن في خوف:

- ألسنت وحدك الآن؟

فحنى رأسه دلالة الإيجاب، ثم تشاءب بصوت

بك وراح يبحث عن عطفة جندف. وكان غادر البيت كبير الأمل ثم تسلل القلق إلى نفسه رويدًا رويدًا حتى تساءل في النهاية ترى هل يعطيني حسن ما أريد حقًا؟! وإذا لم يفعل فهل تضيع الوظيفة من أجل بضعة جنيهات لا يجدها؟! ثم اهتدى إلى عطفة جندف وهو على حال من التشاؤم مؤلمة، ووجدتها عطفة ضيقة متعرجة، تقوم على جانبيها بيوت متداعية، وتسطع في هوائها الفاسد رائحة السمك المقلّي، وتكتظ بالمزارة وعربات اليد، وتتجاوب في جوّها نداءات الباعة ثم تتخللها شتائم ونحنحات محشجة وبصقات غليظة، ثم تأخذ أرضها المغطاة بالأتربة ونفايات الخضر وروث الدواب في الصعود تدريجيًا حتى خيل إليه في النهاية أنها مقامة على سفح تلّ. ومضى الشاب إلى البيت رقم ١٧ وهو بيت قديم من دورين يلفت الأنظار بضيقه فكأنه دُوم ولَبّ وفول سودانيّ فدخل كالمتروّد وارتنى رائحة دُوم ولَبّ وفول سودانيّ وقد زكمت أنفه رائحة ننته صاعدة من بثر السلم، حتى انتهى إلى الدور الثاني وطرق الباب. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة صباحًا، وكان أخوف ما يخافه ألا يجد أخاه في الشقّة، وزاد من خوفه أنّ أحدًا لم يلبّ الطارق. وعاود الطرق بشدّة ويأس حتى كلّت يده، ثم وقف يائسًا لا يدري ماذا يصنع، وقبل أن يتحوّل عن موقفه جاءه صوت غليظ من الداخل يهتف بحنق:

- من ابن الكلب الذي يطرق الباب في هذه الساعة المبكرة؟!

- أنا حسين يا حسن...

وقال الصوت بدهشة «حسين»، ثم سمع خشخشة المزلاج وهو يُرفع، وفُتح الباب، فرأى أخاه بشعر هائج مشعث وعينيْن محمرّتين منتفختين فمدّ له يده وهو يهتف بدهشة:

- حسين!.. أهلاً وسهلاً، ادخل، خيرًا إن شاء

الله. ماذا وراءك؟

فدخل حسين في شيء من الارتباك، وسرعان ما تطاير إلى أنفه عرف بخور طيب بدا عذبًا مريحًا عقب



تصرف المرتبات مؤخرًا  
وأدرك حسن ما يعنيه قبل أن يتم كلامه، فتفكر  
دون أن يبدو على وجهه شيء مما يدور في نفسه. ثم  
سأله:

- وما المرتب الذي تنتظره؟  
- سبعة جنيهات.

- يا خبيثها يوم أرسلتك إلى المدرسة! .. وطبعًا لا  
تملك من نفقات السفر ومعيشة شهر أكتوبر مليًا؟

فابتسم حسين في تسليم وهو يعجب لما شعر به نحو  
أخيه - في هذا الموقف - من الارتباك والحياء كأنه يسأل  
رجلًا غريبًا. وجعل حسن ينظر إليه صامتًا وعقله لا  
يبنى عن التفكير. «جاء حسين في ظرف غير مناسب.  
إنني أنتظر نقودًا لا أدري متى تأتي ولكن يدي الآن  
فارغة. مصفاة لا يبقى فيها شيء. تبًا لها! لا يمكن أن  
أصارحك بالحقيقة، لتقم القيامة قبل ذلك. إنه في  
حاجة ملحة إلى النقود، ولا بد أن يحصل عليها.  
مستقبل الأسرة يتوقف على هذه الجنيهات، وليست في  
الواقع بالكثير، ثمن أوقيات حشيش، وينفق مثلها أي  
فتى أرعن في أسبوع بدرج طياب. سناء مفلسة أيضًا،  
لم أعد أبقى لها على شيء. ولكن لا بد أن أعينه،  
كيف؟ ولماذا لم يحضر إلّا اليوم؟ إلّا لم تبقى أسرتنا شوكة  
في جنيبي؟». وظلّ ينظر إلى أخيه صامتًا حتى امتلأ  
حسين قلقًا وخوفًا. ثم غادر حسن الفراش فجأة  
وزهب إلى الصوان ففتح درجًا وعكف عليه دقائق ثم  
عاد إلى مجلسه ومدّ يده إلى أخيه فإذا فيها أربع أساور  
ذهبية، وقال بسرعة:

- خذ هذه الأساور، وبعها في الحال وانتفع  
بشمنها. . .

وجمدت يد حسين فلم تتحرك، واتسعت عيناه  
انزعاجًا وإنكارًا، وهتف وهو لا يدري:

- ما هذا؟ أساور من هذه؟

فقال حسن ببساطة وقد ضايقه انزعاج الآخر:

- أساور سناء، امرأتى!

- وبأي حق آخذها؟

- إن أخاك يعطيك إياها. لا شأن لك

مرتفع كالنبيق، ثم قال محدّرًا:

- طبعًا لن نخبر أحدًا؟

- طبعًا. . .

فضحك حسن وقال:

- لا أحب إيذاء مشاعرهم، لهذا كل ما هنالك.

وبهذه المناسبة ألم تجرب النساء؟

فهز الشاب رأسه سلبيًا في حياء فسأله مستطردًا:

- وحسين؟

فارتج قلبه في خوف وألم لم يدري لها سببًا، ثم قال:

- ولا حسين. . .

فتفكر حسن مليًا ثم قال:

- هذا أفضل بالنسبة لكما. . . (ثم ضاحكًا) إذا

نويت الزواج يومًا فاقصدي أزودك بنصائح عظيمة.

فقال حسين بهدوء:

- لست أفكر في الزواج كما تعلم. . .

- أمن الممكن أن يتزوج حسين قبلك؟

فخفق قلبه، ولكنه قال بهدوء:

- هذا مؤكد لأنه مرتبط بوعد قديم. . .

فقال حسن بتأثر:

- على أية حال إذا انتهى حسين من دراسته فليس

ثمة عائق. آه، على فكرة، ماذا جدّ من أنباء الوظيفة

التي تبحث عنها؟

وسرّ حسين بما هيّا له من فرصة يلج بها موضوعه

فقال:

- لقد جئتك لأخبرك بأنني تعيّنت كاتبًا بمدرسة

طنطا الثانوية، وبأنني سأسلم عملي في أول

أكتوبر. . .

فقال حسن بدهشة:

- هل تسافر إلى طنطا؟ وما الفائدة التي تجنيها

أمك إذا فتحت بيتًا جديدًا في طنطا؟

- فائدة قليلة، ولكن ما الحيلة؟

- لهذا سوء حظّ قارح، وهذه هي نتيجة المدرسة!

فابتسم حسين يغالب ارتباك، ولم أطراف شجاعته

وقال:

- سأسافر في نهاية سبتمبر، وأنت تعلم أنّ الحكومة

وكانت الأساور ما تزال في يده. فخفض عينيه وقال  
بخجل:

- إني أشكر لك كرمك، وأقبله على العين والراس،  
وأرجو أن تعدّه ديتًا أقضيه عند الميسرة بإذن الله...  
- أقبله هدية إذا شئت، ولا تنس أن تخبر أمك بأنني  
أقترضت النقود من الأستاذ صبري...

وأثار ذكر أمّه ألماً حاداً في نفسه فوجد امتعاضاً،  
وتضاعف هذا الامتعاض وهو يتناول الأساور ويدسّها  
في جيبه، ثم قال:

- يؤسفني أنني أزعجتك، وأظنّ أنّه ينبغي أن  
أذهب كي تواصل نومك...

فمدّ حسن له يده بالسلام، وضغط على يده باسماً،  
ثم قال:

- مع سلامة الله. بلّع تحيَّاتي للجميع، وقل لأُمك  
بأنني سأزورها قريباً...

وغادر الشقة شاعراً بغربة وإنكار. وهبط السلم  
الذي لا درابزين له في حذر، ولكنّه لم يتنبّه للرائحة  
النتنة من شدة إغراقه في تيار أفكاره...

- ٤٧ -

كانوا يجلسون بحجرة الإخوة التي ستصبح من الآن  
فصاعداً حجرة حسين وحده. ورتت نفيسة إلى وجه  
حسين فغمر الألم قلبها وهتفت:

- رباه. هذه آخر ليلة نجتمعنا معاً!

أحسّت الأمّ بطعنة تصيب فؤادها الذي علّمه  
الدهر من الصبر فنوّتاً، ولكنّها ابتسمت، أو رسمت  
ابتسامة على شفّتها الجافّتين، وقالت بعطف:

- حسين رجل كامل، وسيعرف كيف يعيش وحده  
دون ارتباك أو اضطراب. وإنّي مطمئنة كلّ الاطمئنان  
إلى أنّه لن ينسانا، فسيذكرنا دائماً كما سنذكره دائماً.  
وهذه هي الحياة يا عبيطة، ومصير كلّ أسرة إلى التفرّق  
السعيد - على ما به من حزن - حيث ينهض كلّ بدوره  
الجديد...

وكان حسن يعرف أمّه جيّداً فأدرك أنّها تداري  
حزنها بالحكمة والحزم كعادتها دائماً، فصمّم على أن  
يعالج وحشة قلبه بالحزم كذلك. لقد بكى مرّة

بصاحتها...

واشتدّ انزعاجه وتساءل في امتعاض كيف يعيش  
أخوه؟ ثمّ تمتم:

- لست مرتاحاً إلى أخذها، أما من سبيل آخر؟  
وحنق حسن على هذا «التعقّف» فقال بجفاء:  
- إذا كنت حنبلياً حقاً فما عليك إلّا أن ترفضها،  
وليس عندي غيرها!...

فرمقه بارتياح، ولكنّه قرأ في وجهه الصدق فأحسّ  
بضيق وقهر. «أساور امرأة!... أيّ امرأة!... محال.

شيء لا يصدّق ولا يمكن أن يدور لي بخلد، ولم أعلم  
- ولو في كابوس - بأنّه وقع لي. كيف يمكن أن أحترم

نفسي بعد ذلك؟! أرفض؟ والعمل؟! ليس لديه نقود  
أخرى، ينبغي أن أصدّقه. ولكن محال أيضاً أن أضيّع

الوظيفة، وما عسى أن أصنع لو أفلتت الفرصة؟ كلّاً  
لا يمكن أن أرفض. لا يمكن أن أقبل. لا يمكن أن

أرفض. لا يمكن أن أقبل. أرفض. أقبل. أرفض.  
أرفض. أقبل. أقبل. شيء واحد يستحقّ اللعنة، هو

الحياة، الحياة والحظّ... والوالدان اللذان أتيا بنا إلى  
هذه الدنيا. كان يلعب بأوتار العود ولا يبالي شيئاً!

سحقاً لي، كيف أفكر؟ هيهات أن أذهب من مخيلتي  
صورة جثمانه. رحمة الله عليه، ليس الذنب ذنبه.

كالدجاج نلتقط رزقنا بين القاذورات. حجرة الدجاج  
على السطح ملتقى حسين وبهية. شيء تسمشّر منه

النفس؛ فلا أرفض. ولكن لا حياة إلّا بالإذعان. لن  
يدري أحد. ولكنّي سأذكره ما حييت، وسأخجل منه

ما حييت. إنّه ينتظر الجواب فإمّا الإذعان وإمّا الموت.  
فلاخذها كذّبن ثمّ أقضيه عند الميسرة. إنك تخادع

نفسك. بل إني صادق ولأقضيّ ديني. أرفض أو لا  
تزعم بعد الآن أنك رجل شريف. إني جائع. شريف

وجائع. ولن أرفض. ثبّاً للحياة. إني أدرك الآن ماذا  
ساق أخني إلى هذا الوكر. أسرة ضائعة وحياة قاسية.

يجب أن أبتّ في الأمر وإلّا تفجّر رأسي  
كالدجاج...

- ماذا قلت؟

ورفع عينيه في ذهول وقد أثر فيه صوته تأثراً غليظاً.

سيرتك الحميدة في بلدك الجديد، وأن تحذر صحبة  
السوء...

فابتسم حسين قائلاً:

- اطمئني كلّ الاطمئنان يا أمّاه...

على أنّ عبارة «صحبة السوء» استدعت إلى مخيلته  
صورة عطفة جندب والبيت الذي لا درابزين له  
والأساور الذهبية فشعر بفقر أغراض الإشراف الذي  
رسمته الابتسامة على وجهه فانحنى على الحقيبة ليواري  
وجومه عن الأعين، أمّا الأمّ فاستطردت قائلة باهتمام:  
- ولا تنس أسرتك. حقاً ليس ثمة حاجة إلى  
تنبيهك لهذا، ولكنني أحبّ أن أذكرك بأننا سنظلّ في  
حاجة إلى رعايتك حتّى يتزوّف حسين وتتزوّد نفيسة!  
- ما توقّفت إلّا لهذا.

وسرّت في نفس نفيسة قشعريرة رعب، ونفذت  
كلمة «تزوّد» إلى أعماقها وخالتها تنبش ما استتر من  
خيبتها. ألا يزال هذا الأمل يداعب أمّها؟.. ألا  
تدري أنّ الموت أحبّ إليها منه؟ ونظرت إلى وجه  
حسين بغرابة، إنّه لا يدري، وهيئات أن يخطر لهم  
هذا على بال. هيئات هيئات. وغابت الحجرة عن  
عينها فخيّل إليها أنّها تراهم وقد أحدقوا بها في ثورة  
جنونية وقد جحظت أعينهم ملتبهة بنار الغضب ثمّ  
انقضّوا عليها كالوحوش. وهزّت رأسها لتطرد عنها  
أشباح هذه الأوهام المرعبة فعادت إلى حاضرها، ولكن  
سرعان ما وجدت نفسها تشدّكر على الرغم منها  
ساعات ضعفها تلك الساعات التي تذهل فيها عمّا  
يدفعها إلى تسليم نفسها من دواعي اليأس والفقر،  
هنالك تنسى كلّ شيء إلّا الرغبة المحرومة الجائعة  
فتمثّل بنفسها أفظع تمثيل. تذكّرت ساعات الضعف  
هذه وهي بينهم صامدة فعلاها خجل أليم وخوف لا  
قيل لها به، وعادت تردّد بصرها بين أمّها وشقيقها  
بغربة. ما يزال أمامها فرصة للتراجع، لا لرأب  
الصدع طبعاً فقد ولّى أوانه، ولكن... ربّاه لا  
تدري ماذا تقول، ما الفائدة؟ أيّ أمل قد بقي في  
الحياة؟.. لقد قضي عليها بأن تقضي على نفسها...  
واصلت الأمّ حديثها قائلة:

كالأطفال ولكّنه لن يبكي مرّة أخرى. وتمتم مقلّداً أمّه  
في ابتسامتها:

- سوف نلتقي في الإجازات، ولعلّي أنقل يوماً إلى  
القاهرة. فقال حسين بأمل:

- لا بدّ أن يحدث هذا يوماً ما...

وكان حسين يحدّ كآبة وحزناً. لم يفترق عن شقيقه  
مد رأى نور الدنيا فلم يدر كيف يلقي الحياة بدونه.  
كان شقيقه وصديقه معاً، أجل كثيراً ما نشب النزاع  
بينهما، وبلغ الشجار أحياناً ولكن لم يكن لأحدهما غنى  
عن الآخر. لو كانت بهيّة أقلّ عناداً لما شكّا الوحدة  
قطّ، بيد أنّه بوسعه أن يتعرّى عن الفراق بالرسائل  
يجرّها له من أن لأن فتصل ما ينقطع بينهما من أسباب  
العشرة والحديث، ولعلّه يستطيع أن يسافر إليه في  
العطلة. ترى هل يمكنه أن يجري عليه راتباً شهرياً؟  
خسون قرشاً أو ثلاثون خصوصاً وهو يعلم بأنّ راتب  
الدروس الخصوصية ينقطع بانتهاء السنة المدرسية!  
ليت شجاعته تؤاثره الآن فيحدّثه بأمانيه!.. ولكن  
صبراً، وليؤجّل هذا إلى فرصة أوفق.

وكانت الأمّ تواصل التفكير بلا توقّف. لقد وقّفت  
إلى الظهور بالمظهر الذي تحبّ أن تظهر به، أو الذي  
اعتادت أن تظهر به، ولكتّبتا كانت تعاني ألماً عميقاً  
بلغت شدّته ذروتها عند المساء، كانت تكابد تأنيباً خفياً  
لشعورها بأنّها تؤثر حسين بأكبر جهاد، والآن ماذا  
ترى؟.. ترى الأخ السوديع يضحيّ بمستقبله ويرمي  
بنفسه بين أحضان النوى في سبيل الأسرة، بل في  
سبيل حسين بالذات. وضاعف من آلامها أنّها كانت  
ترى الواجب يحتم عليها خوض حديث أبعد ما يكون  
عن العواطف، حديث إن دلّ ظاهره على الحذب على  
الفتى المسافر فباطنه يرمي إلى الدفاع عن الأسرة قبل  
كلّ شيء. وجعلت تؤجّلّه وهو يلحّ عليها حتّى اقتنعت  
بأنّها إذا لم تسقه الآن فقد تفلت منها الفرصة إلى  
الأبد، ونظرت إلى حسين بإشفاق وحنان - وكان يرتّب  
ثيابه في حقيبة أبيه - وقالت:

- إنك رجل عاقل، وهذا ما يجعلني جديرة  
بالاطمئنان ولست أطمع في شيء أكثر من أن تواصل

كبيراً، ووجد نحو الأسرة التي يحبها - الأب والأم والفتاة وتلميذه السابق - امتناناً عميقاً، وجرى الحديث بين ذكريات الماضي وآمال الحاضر لطيفاً صادقاً، مباركة عليك الوظيفة، تسافر مصحوباً بالسلامة، ستترك وراءك وحشة، لقد خسر سالم أستاذًا لا يعوِّض، إلخ وبهية نفسها على حيائها وتحفظها قالت بركة «تعود بالسلامة قريباً إن شاء الله» فشكر لها تلطفها بلسانه وقلبه «فتاة حسنة حقاً، مهذبة محتشمة، وحسين شاب رائع وسيكون زوجاً رائعاً. ترى ألم يقبل هذا الثغر؟ طالما شكاً تحصنها متدماً فيها لها من فتاة نادرة حقاً! سأسافر غداً ونمسون صوّراً وذكريات، وستجتمعون كاجتماعكم هذا، وربما لا تذكروني إلا قليلاً، أو لا تذكروني بتاتاً، ولكن كيف أكون؟ وأين؟ وهل أملك مع وحدتي إلا أن أذكركم؟ كلّمنا اشتدّ الدهر ازدادت قوّة وصبراً، ولاظننّ هكذا إلى الأبد!..»

- ٤٨ -

غاب وجه حسين في زحمة المؤدّعين، وتراجع سقف محطّة مصر الهرميّ حتّى بدا من الداخل مظلماً، كلّ شيء يتراجع بسرعة متزايدة، وداعاً يا مصر. وعاد حسين برأسه إلى الداخل واعتدل في جلسته وهو يغمض عينيه ليخفي دموع رقيقة غالبت إرادته طويلاً ورمش سريعاً لينفض نداها عن أهدابه. وكان إلى يساره أفندي يتصفّح جريدة على حين جلس قبالة قرويان يتجادبان الحديث ومع أنّ العربة كانت نصف ممتلئة إلا أنّ ضجّة الراكبين كادت تملو على صلصلة عجلات القطار، وذكر في حزن مرطب بسرور أنّه رأى دموعاً في عيني حسين، أجل لقد تجلّداً وهما يتحادثان على طوار المحطّة، ولكن حين تحرّك القطار وأخذ الفتى يلوح له بيده اغرورقت عيناه بالدموع. وفي البيت كانت نفيسة تبكي صراحة حتّى التهبت عيناها، لشدّ ما يذكر وجهها - الذي حرمه الله نعمة الحسن - بعطف وثناء وحنان. أمّا أمّه - وقد ابتسم على رغمه - فقد ضمّته إلى صدرها وقبّلت خديّه، ولعلّها تفعل هذا لأوّل مرّة، أو في الأقلّ فهو لا يذكر أنّها قبّلت قبل

- أنظر ماذا يلزمك من نقود كي تنهض بضرورات المعيشة وأرسل إلينا الفائض من مرتّبك. لا بدّ من هذا يا حسين لأنّه لم يعد يبقى لدينا ما يستحقّ البيع. - سأبذل قصارى جهدي.

وتبدّد أمل حسين - أو كاد - من الفوز براتب شهريّ من أخيه بعد أن طالبت الأمّ بالفائض من مرتّبه. أجل لا يبعد أن تحسّ الأسرة بشيء من الترفيه ولكنّه لن يروي جفاف يده، خاصّة في العطلة الصيفية الطويلة. ترى هل تطالبه أمّه إذا وُظف يوماً ما بما تطالب به حسين؟ غير معقول. إذا انتهى هو من دراسته فستخفّف أمّه من أثقل واجبات الأسرة، ويسعه وقتذاك أن يتزوَّج وأن يعنى بأمر نفسه. إنّ نفيسة وحسين يتصدّيان للزوجة في إلتانها، وقد وجد نحوهما عطفاً وثناء دون أن يمنعه هذا من الفرح بحظّه.

ولم تفرغ الأمّ من الإفصاح عمّا يدور بنفسها كلّها، فودّت لو تحدّره من أن يستدرجه أحد إلى الزواج. ولم تكن تجهل أنّ كثيراً من الآباء والأمّهات يتصيّدون العزّاب أمثاله في غربتهم بسهولة: ولكنّها لم تدري كيف توجه إليه هذا التحذير وعن يمينه أخوه الأصغر قد خطب وتبيّن للزواج وهو ما يزال تلميذاً!.. عدلت عن رغبتها كارهة، ولكن مطمئنة في الوقت نفسه إلى رجاحة عقله وحسن تقديره. وتحدّثوا طويلاً ما شاء لهم الحديث. ثمّ جاء فريد أفندي حمّد وأسرته لتوديع حسين. واستقبلوهم ما يستقبلونهم عادة بالترحيب والسرور، فليس ثمة أحد إلا ويقدر مودّتهم وكرمهم وحسن جبرتهم. أجل لعلّه طراً على بعض النفوس تغير باطنيّ منذ تمّت خطبة حسين لبهية غير الرسميّة، فالأمّ مثلاً أمنت بأنهم رموا شبابهم حول الفتى قبل أن ينهض، وأنهم راموا باستئثارهم أشدّ آمالها تألقاً، أمّا نفيسة فلم يكن بوسعها أن تحبّ شخصاً يطمح إلى امتلاك حسين خاصّة. ولكنّ هذه المشاعر الصامته لم تكن لتؤثّر في رابطة الودّ والإخاء التي تجمع بين الأسرتين، ولم يكن من الهين أن تنسى الأمّ أيادي فريد أفندي ومروءته. وقد سرّ حسين بزيارة التوديع سروراً

إن مصر تأكل بنيتها بلا رحمة. مع هذا يقال عتاً لئنا شعب راضٍ. هذا لعمري منتهى البؤس. أجل غاية البؤس أن تكون بائساً وراضياً. هو الموت نفسه. لولا الفقر لوصلت تعليمي هل في ذلك من شك؟ الجاه والحظ والمهن المحترمة في بلدنا هذا وراثية. لست حاقداً ولكني حزين. حزين على نفسي وعلى الملايين. لست فرداً ولكنني أمة مظلومة، وهذا ما يولد في روح المقاومة ويعزّيني بنوع من السعادة لا أدري كيف أسميه. كلاً لست حاقداً ولا يائساً أبضاً، وإذا كانت فرصة التعليم العالي قد أفلتت من يدي، فلن تفلت من يد حسنين، وربما وجدت نفيسة الزوج المناسب. سوف تردّ الروح إلى أسرتنا فنذكر أيماننا السود بالفخار» ولاحت منه التفاتة إلى يساره فوجد الأندني الذي كان يتصفّح الجريدة قد طواها ونظر إليه نظرة من ضاق بالوحدة وألصمت، وكأنه كان ينتظر هذه الالتفاتة العارضة فقال بلا داعٍ ولا تمهيد وهو يلوح بالجريدة المطوية:

- لولا الطلبة ما ائتلف الزعماء، من كان يتصوّر أن يجلس صدقي مع النحاس على مائدة واحدة؟  
ورحب حسين بالحديث ليريح رأسه من أفكاره وقال:

- هذا حقّ يا سيدي.  
- ومن كان يصدّق أن يعترف الإنجليز بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة، وأن ينزلوا عن التحفّظات الأربعة؟.. أتظنّ أن تلغي الامتيازات حقاً؟  
- أعتقد هذا.  
فقال الرجل بسرور:  
- سيحكم النحاس إلى الأبد. انتهى عهد الانقلابات. حضرتك وفديّ.

- نعم...  
- قرأت هذا في ساحة وجهك. الوطني هو الوفديّ، وما الأحرار الدستوريّون إلّا إنجليز بطرايش بصرف النّظر عمّا يقال عن الائتلاف وفوائده.  
- هذا حقّ لا شك فيه...  
- حضرتك مسافر إلى الإسكندرية؟

هذه المرأة! لشدّ ما تأخذ نفسها بالحزم حيالهم، هذا طبعها، ولكن هيهات أن يطمس حنانها العميق. ولم تنشأ أن تبكي وهي تودّعه إذ أنّها تشاءم من دموع التوديع، ولكنّه قرأ في تقلّص جفניה نديراً بالبكاء لا يلبث أن يستفيض دموعاً إذا وراه الباب عن عينيها. قال لنفسه لعلّها بكت طويلاً، ولعلّها لا تزال تبكي، وشعر لهذا بكاءة وحزن. ولم يكن رآها تبكي قبل وفاة والده فاشتدّ تأثره، «يا لها من امرأة عظيمة. شاء الله أن يبتي أسرتنا بمصيبة قاصمة ولكن سبق لطفه فقدر أن تكون هذه المرأة أمنا. ماذا يكون مصيرنا لولاها؟ كيف غدّتنا وكستنا؟ كيف سيطرت على توجيهنا؟ كيف نهضت بضرورات أسرتنا في هذه الظروف القاسية؟ يا لها من معجزة تحجّر العقول. حتّى حسن أخي فغي ظنيّ أنّه لولا المرحوم أبي لأمكن أن تجعل منه رجلاً غير الرجل. آه... لاقتصدنّ في الكلام عن حسن. لولاه ما عرفت سبيلي إلى وظيفتي، نقوده هي كلّ مالي حتّى آخر الشهر. الأساور؟ يا للذكرى! انس، ينبغي أن أنسى كي أعيش. سأقضي الدين يوماً وأسدل الستار على أسوأ الذكريات». وأرسل بصره من النافذة فاراً من أفكاره فرأى الحقول تترامى حتّى الأفق، والخضرة يانعة ناضرة بهيجة تميل رءوسها مع الهواء في موجات متصلة، وهنا وهناك فلأحون ونيران تلوح كالدمى تكاد تبتلعها الأرض، وسوائم ترعى، وفوق هذا كلّ سماء الخريف متلّعة بياض شاحب ينحسر في أكثر من موضع عن بحيرات من زرق صافية. ومرّ القطار بجدول صافٍ ذابت أشعة الشمس على سطحه زئبقاً يبهّر الأعين. ورأى أسلاك البرق في أمواجه المتواصلة تشملها حركة منتظمة كأنّها تسبح في الفضاء على وقع طفطقة القاطرة الرتيبة. ثمّ مدّ بصره كرة أخرى إلى الأرض المنبسطة، الصامتة الصابرة، الخيرة، فنذكر دون وعي أمه!.. كهذه الأرض الخضراء صبراً وجوداً والدهر يجرّثها بسنانه! لم يعد بوسعها أن تقوم بزيارة محترمة لأنّها لا تجيد الثياب اللائقة! وتغيّمت عيناه فغابت عن ناظره بهجة المنظر ودعا الله أن يرزقه حتّى يرقّه عن أمه المتصبّرة وأسرته المتجلّدة. «يا للعجب.

- إلى طنطا فقط.

- شي الله يا سيّد يا بدوي، لقد عشت في طنطا أعوامًا...

ولاح الاهتمام في وجه حسين فسأل:

- إني موظف جديد، فهل أدلتني على فندق معتدل الأسعار يصلح للإقامة؟

فجعل الرجل يدعك ذقنه بيده متفكرًا ثم قال:

- عليك بفندق بريطانيا بشارع الأمير فاروق لصاحبه ميشيل قسطندي.

يمكن أن تقيم في حجرة نظير جنيه ونصف شهرًا...

ثم تحدّثا طويلاً عن الإقامة في الفنادق وسكنى الشقق والمفاضلة بينها...

- ٤٩ -

كانت حجرتي بالفندق صغيرة، ذات فراش لشخص واحد وصوان ومقعد خشبيّ ومشجب، وكان جوها يشي بالرطوبة الكامنة، إذ كان بها نافذة واحدة تفتح على عطفة جانبية ضيقة ومحول بينها وبين الفضاء جدار بيت قديم، فلم تجد الشمس سبيلاً إليها. وكان يوجد بالفندق حجرات تطلّ على شارع الأمير فاروق ولكنها مرتفعة الإيجار فعدّل عنها إلى هذه الحجرة البسيطة قائلاً لنفسه: «من العدل أن أعيش كما يعيشون في عطفة نصرالله». وكان أول ما فعل أن فتح النافذة وأطلّ منها مدفوعاً بحبّ الاستطلاع فوق بصره على عطفة حقيرة تقوم على جانبيها بيوت قديمة فعجب للفارق الكبير بينها وبين الشارع الذي تتفرّع منه، ثم رأى جدار البيت الذي يحجب عنه الفضاء فداخله ضيق وأيقن بأنّه لن يظفر في وحدته بتسليّة. وتحولّ عن النافذة إلى مرآة الصوان فطالع صورته في هيئة غريبة، بدا وجهه طويلاً وقسماته شائثة إلى ما تنأثر على صفحتها الباهتة من إفرازات الذباب، فتضاحك وقال مخاطباً صورته «إني أجمل منك بفضل الله ورحمته» ثم مضى يخلع ثيابه، وارتدى جلبابه، وربّ ملابسه القليلة في الصوان الذي بدا على صغره فارغاً، والواقع أنّه لم يكن يملك غير بدلة وجلبابين وملابس داخلية

من نسختين، وجميعها قديمة عملت بها يد الرفو والترقيع، وعلى سبيل الاطمئنان دسّ يده في جيب الجاكّة وأخرج رزمة الجنيّات وعدّها ثم أعادها إلى مكانها وقد عاودته ذكرياتها الأليمة، ثم ذهب إلى الفراش وتربّع عليه. لا يدري ماذا يفعل في بقية النهار، ولمّا لم يجد أحدًا يحادثه ولا عملاً يعمله فقد استسلم بكلّيته إلى التأملات والأحلام. وشعر بالوحدة والدهشة، وأدرك أنّه سيعاني مرّة العناء من فراغه. أجل إنّهُ يحبّ القراءة ولكن حتّى إذا أمكنه ابتياع ما يريده من الكتب فسيظلّ لديه من الفراغ ما يضيّق به. لم يألّف الحياة في هذا الصمت الثقيل، وشعر في وحدته الصامتة بأنّه شيء ضائع تافه لا يحفل به أحد ولا يابه له أحد. أين صوت حسنين الحاذّ العصبيّ الذي لا يفتأ يضحّ بالضحك أو بالشكوى، أين صوت نفيسة الرفيع وتعليقاتها اليومية الساخرة على الجيران والحوادث. ولكنّه لم يشأ الاستسلام لشعوره، وأثر أن يبحث شئون ميزانيته التي سينقّم معيشتة على أساسها. مرتبه سبعة جنيّات، مبلغ لا بأس به في ذاته لولا ما يحرق به من ظروف. منه أجرة سكن ١٥٠ قرشاً، و٢٠٠ قرش للأكل لا يجوز له أن يتعدّها بحال، فول للفطور، وطبق خضر باللحم وأرز ورغيف للغداء، وحلاوة طحينيّة أو جبن للعشاء، وإذا دعا الأمر أقلع عن العشاء كما اعتادوا أن يفعلوا طوال العامين المنصرمين، ومهما يكن من أمر فلن يسمح لمعدته بأن تكون مصدرًا للمتاعب والارتباك، إنّهُ أعظم من هذا وبوسعه أن يقرّر هذه الحقيقة الآن، وهو في مأمن من معارضة حسنين، وإنّ تحمّل المضايقة في سبيل الحياة التي يرضى فيها عن نفسه لالذّ من شهوة الطعام. ثمّ ٢٠٠ قرش لأمّه، وهو قدر زهيد، وكان بؤده لو يضاعفه ولكن لا حيلة له فلم يبقّ لنفقاته الثريّة وكسائه إلّا ١٥٠ قرشاً فيما عدا الضرائب التي تخصم عادة من المرتّب. ثمّ تساءل فيما يشبه الحيرة ألا يمكنه أن يقتصد ولو مبلغاً قليلاً في صندوق التوفير؟ إنّهُ لا يطيق الحياة بلا اقتصاد من أيّ قدر كان، ولا يظنّ أنّ إنساناً احتضنته أمّ كأمّه يستطيع أن يمارس

اليوم الأول للفراق ثم يهون الأمر رويدًا رويدًا. وتخيّر ماذا يفعل، هل يقضي سحابة اليوم في هذه الحجرة أو ينطلق إلى الخارج ليجول جولة في المدينة الجديدة، ثم خطر له خاطر هبط على نفسه كما تهبط أداة النجاة على المتخبط بين الأمواج، وهو أن يكتب رسالة لأخيه. وجاء بخطاب وبدأ يكتب بلا توانٍ فوصف رحلته والفندق وصاحبه قسطندي وحجرتة وأشواقه ثم حمّله تحيَّاته إلى أمّه ونفيسة ثم توقف متسائلًا هل يهدي تحية إلى هبة؟ هل يذكرها بالاسم، أو يصفها بخطيبة أخيه أو يقنع بتحية عامة لأسرة فريد أفندي؟ ثم أثر الأخير بعد تردد طال أكثر مما ينبغي...

- ٥٠ -

وغادر حجرتة في الصباح الباكر، ولكنّه وجد الخواجا ميشيل قسطندي جالسًا إلى مكتبه البالي عند أسفل السلم. وقد سأله الرجل عمّا إذا كان يحتفظ بشيء ثمين في حجرتة، فابتسم حسين على رغمه وقال له «الأشياء الثمينة في جيبي». وانطلق إلى الطريق. ثم قصد إلى مطعم فول في نهايته كان عرف موقعه في أثناء جولته أمس بالمدينة، وتناول فطوره، ولقت نظره بصفة خاصّة سلطة حمّص لم يعرف لها نظيرًا في القاهرة. وتمشّى في المدينة حتى التاسعة ثم ذهب إلى المدرسة الثانوية ليقدم نفسه إلى الباشكاتب ويتسلم عمله رسميًا. وقد اهتزّت نفسه لمراى المدرسة، وعاودته ذكريات قرية حية لاحت في عينيه كالخلم. وعرف البوّاب بشخصيّته فمضى به إلى حجرة الباشكاتب وطلب إليه أن ينتظر حتى يحضر الرجل عمّا قليل. وجلس حسين على كرسي قريبًا من المكتب وجعل ينظر خلل الباب المفتوح إلى فناء المدرسة في جوّ ينقل عليه الصمت. بعد أسبوع يبدأ العام الدراسي وتمتلك هذه المدرسة بحياة حارة. وذكر كيف كان - منذ أشهر - يقضي أسعد أوقاته بالمدرسة في مثل هذا الفناء، وكيف كان يتملّخ خشوعًا حيال أيّ موظّف من موظّفيها. إنه الآن أحد هؤلاء الموظّفين، بيد أنّه لم يستسلم للزهو. إنّ التلميذ حلم أمّا الموظّف فحقيقة، التلميذ مشروع مستشار أو وزير أمّا الموظّف فدرجة

الحياة بلا اقتصاد. والحق أنّ أمّه بين النساء كألمايا بين الدول قادرة على الاستفادة من كلّ شيء ولو كان زباله! كانت ترقع البنطلون حتى إذا بلغ اليأس قلبته، فإذا أدركه اليأس مرة أخرى قصّت أطرافه وجعلت منه سرّوًا داخليًا، ثم تصنع من بعضه طاقة وتستعمل بقيّته ممسحة. ولا يلفظه البيت إلا فتية. لا بدّ من الاقتصاد مهما كلفه الأمر، وإنّ قسوة الحياة التي عضّتهم بلا رحمة حرّية بأن تجعل من الاقتصاد عقيدة لهم. وعندما بلغ هذا الحدّ من التفكير تداعت إلى نفسه مشاعر الخوف التي كانت تعذب أسرته بسبب وبلا سبب والتي لم يكن من باعث لها إلا الفقر. أجل كانوا في خوف دائم من أن تزيد النفقات الضرورية على الإيراد المحدود، كأن يتعرض أحدهم للمرض، أو يجد من ناحية المدرسة طلب، أو تتعطّل نفيسة عن الكسب ردحًا من الزمن أو أو، ممّا لا يقف عند حدّ، أوّاه لشدّ ما يشعر بغمز الألم في صميم قلبه وهو يجترّ هذه الذكريات، ومن خلالها يترأى لعينيّه وجه أمّه المعروق الجاف كمثال حيّ للصبر والألم، أحبّ الوجوه إلى قلبه على بؤسه ودماسته، ومن عجب أن نفذت إلى نفسه - وقتذاك - نسمة مطلولة بغتة لشعوره بأنّه بات قادرًا على التخفيف عنها ممّا يثقل كاهلها. أجل إنه من الغد موظّف من موظّفي الدولة، وبعد أعوام قصيرة أو طويلة يصبح حسنين موظّفًا أيضًا من درجة أعلى، وسيفآخر هو مدى الحياة بأنّه قنع بشهادة متوسطة لبيسر لأخيه الحصول على شهادة عليا. ترى هل يذكر حسنين هذه العبر؟ إنه يبدو مشغولًا بأمر نفسه عمّا عداها، ذكيّ بلا ريب، ومجتهد، بيد أنّه... آه فليمسك عن نقده في غريته. فما أشدّ حنينه إليه، وما أكبر شوقه حتى إلى عناده وملاحاته. ومزّق الصمت صفير قطار قطع عليه أفكاره وخفق قلبه. وكان الفندق غير بعيد من المحطة، فلم يكن بدّ من أن تذكره القطر بين آن وأن بالقاهرة وأهلها. وعاودته ذكريات الدواع فنهشت قلبه حتى سحّ حينًا دافقًا. ثم غشيت قلبه سحابة مظلمة من الوحشة والكتابة فقال لنفسه يصبرها ويعزّيها: لعلّها ضريبة

- إن شاء الله. أحببت أن أعرفك بنفسى، هذا كلما هنالك. إني ألن نفسي كثيرًا. اللعن مريح في أحيان لا حصر لها، ولولاه ل مات كثيرون كمداً. ستعلم عما قريب معنى العمل في مدرسة (ثم متنهّداً) وصل الكتاب الخاص بتعيينك من الوزارة (وبحث عنه في أوراقه حتى وجده) وهو الرقيم ١١٧٥ بتاريخ ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٣٦. وقد جئنا ونحن في أشد الحاجة إليك، وستبدأ الآن في مراجعة كشوف الأسماء والمصروفات. لقد تزوّج الكاتب السابق من كريمة مفتش بالوزارة فنقله فجأة إلى القاهرة. حضرتك متزوّج يا حسين أفندي؟

فقال حسين مبتسمًا:

- كنت تلميذًا حتى الربيع الماضي!

- وهل تظن أن التلمذة مانعة من الزواج؟ لقد تزوّجت وأنا تلميذ بالثانوي، وهذه أيضًا من عادات أسرتنا كتسمية الابن الأكبر باسم أبيه، وكان لنا عادات أخرى عظيمة أبطلها صديقي باشا لا سامحه الله. . .

فنظر حسين متسائلًا، فاستطرد الرجل في حزن قائلاً:

- والدي حسن بك وفديّ كبير وأحد أعضاء الهيئة الوفديّة. وقد طالبه صديقي باشا أثناء حكمه المشؤم بالانفصال عن الوفد ولما أبى كما ينتظر منه حرمه معونة بنك التسليف في عزّ الأزمة فبيعت الأرض وضاعت الثروة.

فقال حسين:

- ولكنّ النحاس قد عاد إلى الوزارة؟

- ولكنّ الأرض ضاعت. والأدهى من هذا كلّهُ أن صديقي انضمّ إلى الوطنيين وقد خطب أول هذا العام في مستقبله بدسوق فبلّغهم تحيات «زعيمي النحاس» يا خسارتك يا حسن حسن حسن!

فتظاهر حسين بالتأثر وغمغم:

- ربّنا يعوّضكم عن خسارتكم خيرًا. . .

فهزّ الرجل رأسه، وسكت دقيقة، ثم قال:

- حظك سعيد إذ عُينت في المدرسة بعد أن ولّى

ثامنة لا أكثر. ولم يطل به الانتظار فما عتَم أن صبّغت أذنيه سعة غليظة ونحنحة عميقة ثم أزيز بصقة، ورأى على الأثر رجلًا يقتحم الحجرة مهرولًا، قصير القامة، رقيق الجسم، كرويّ الوجه، أعمش العينين، تعلوه صلعة ناصعة البياض، وقد قبض على طربوشه بيد وراح يحفّف صلعته بمندبل باليد الأخرى، وما إن وقعت عيناه على الشاب حتى صاح به:

- بسم الله الرحمن الرحيم، كيف طلعت هنا؟..

هل بتّ ليلتك في حجرتي؟.. تلميذ مستجدّ؟

فوقف حسين مرتبكًا وقال:

- أنا يا بك الكاتب الجديد حسين كامل عليّ. . .

فقهقه الرجل ضاحكًا. ولكن أدركه السعال وعادته النحنحة فامتلاً فمه مرّة أخرى ونظر حوله في حيرة، ثم جرى إلى الخارج، وغاب نصف دقيقة ثم عاد أحسن حالاً وهو يقول كالمعتذر:

- لعن الله البرد، أصاب به كلّ مطلع فصل من فصول السنة فتجدني في حيرة دائمة ما بين فصول السنة وفصول المدرسة، لا مؤاخذه يا حسين أفندي السلام عليكم أولاً. . .

فمدّ حسين يده مبتسمًا وهو يرّد تحيته بأحسن منها، ثم جلس الرجل إلى مكتبه ودعاه إلى الجلوس فجلس، وأنشأ الباشكاتب يقول:

- إسمي حسن حسن حسن. العادة في أسرتنا أن يتسمّى الابن الأكبر باسم أبيه، ألم تسمع بأسرة حسن بالبحيرة؟ كلاً؟.. كلاً كلاً يا سيّدي، الله الغنيّ، التلاميذ الكلاب يدعونني بحسان أس<sup>٣</sup>.

فضحك حسين ملء قلبه، ولكنّ الرجل حدّجه بنظرة انتقاد من بصره الأعمش وقال:

- علامّ تضحك؟ ألم تتخلّص بعد من عقليّة التلاميذ؟ وبهذه المناسبة أقول لك إني رجل عصبيّ جدًّا ولكنّ قلبي طيّب. وكثيرًا ما ألن أبا أحسن واحد، بلا قصد سيّئ ومع الاحترام الكلّي للشخص الملعون! فافهمي ولا تنس آني في سنّ والدك!

فقال حسين في ارتباك شديد:

- لن يحصل بيننا ما يثير الغضب إن شاء الله.



وفرش الأخرى بالأثاث الجديد وكان للحجرة نافذة تطلّ على شارع وليّ الله - حيث يوجد مدخل البيت - وينسرح أمامها الفضاء بلا عائق لارتفاعها عمّا حولها، فشعر الفتى - بعد ضيق - براحة الفضاء وطلاقة الجو، وسرّ لذلك كثيرًا. وكان يوم انتقاله إلى الشقة الجديدة يومًا سعيدًا حقًا، إذ إنّه وجد نفسه - لأول مرة في حياته - صاحب بيت وأثاث ومرتب. ولم يكن نسي ذلك الإحساس اللطيف بالارتياح والسرور الذي انبعث في نفسه وهو يتسلّم مرتبه صباح ذلك اليوم، ولا كيف دارى ابتسامة انطلقت من قلبه إلى شفثيه حياء أن يطلع الصراف على فرحه، ولكنّ هذا السرور كلّه لا يعدّ شيئًا إلى السرور الذي امتلأ به قلبه وهو يبعث بالجنهين إلى أمّه، كانت لحظة عظيمة عرف أثناءها أنّ صبره الطويل لم يذهب سدى. وما كاد يستقرّ به المقام حتّى زاره حسن أفندي مهتئًا وقال له «لن تكون غريبًا ما دمت بيننا» فشكر له فضله وحفظ له في نفسه من الامتنان ما هو خليق بقلبه الشكور، وغفر له ما يلقي منه في المدرسة من حدة الطبع وسوء التصرف والارتباك في العمل، والحقّ أنّه قد ألف هوسه متعزّيًا بطيبة قلبه وخفّة روحه، ولم يرصّ حسن أفندي أن يتركه منفردًا ودعاه إلى قضاء سهرته بشرفة شقته فذهب معه مغتبطًا وجلسا معًا وحسان أفندي يقول:

- يبدو لي أنّك لا تحبّ المقاهي فاجعل من هذه الشرفة ناديك الليلي. . .

وكانت الشرفة مهية للجلسة الطيبة ففي جانبها الأيمن كرسيان كبيران من القشّ بينهما خوان وفي الجانب الآخر شلّة كبيرة تقوم وراءها وسادة، وعلى خوان في ركن من الشرفة وضعت صينية صُفّت بها قُلتان وإبريق وقد عام على الماء المجتمع في وسطها الليمون البنزهر. وراح حسن أفندي يتحدّث بلا توقّف تقريبًا وكيفما اتفق، وقد بدا في جلبابه الفضفاض أصغر منه في البدلة فلم يكن شيئًا يذكر، أو كان لسانًا فحسب. ورحب حسين بالجلسة لما عاناه من الفراغ في الأسابيع الماضية، فلم يكن يدري ماذا

عهد الإضراب، كادوا يحرقون بنا المدرسة أثناء المظاهرات الأخيرة لعن الله المظاهرات والطلبة وصدقي باشا. أين تقيم يا حسين أفندي؟  
- في فندق بريطانيا.

- فندق؟! خبيك الله، معذرة، أعني ساعلك الله. الفنادق مقام غير صالح للإقامة الطويلة ويجب أن تبحث فورًا عن شقة صغيرة.

- ولكنّي لم أحمل معي أثاثًا؟  
فتفكر حسن أفندي وهو يقرض أظافره باهتمام طارئ ثم قال:

- فرش حجرة لن يكلفك كثيرًا ويمكن أن تؤدّي ثمنه مقسطًا بضمانتي إذا شئت. . .

وعاود التفكير وهو يتفرّس وجه الشاب واستطرد:  
- توجد شقة مكوّنة من حجرتين على سطح البيت الذي أقيم فيه لن تزيد أجرتها عن جنيه واحد فما رأيك؟

ثار اهتمام حسين لأول مرة بعد سماع قيمة الإيجار فقال:

- سافكر في الأمر جدّيًا. . .

- الأمر واضح مثل  $1 + 1 = 2$  والآن هلمّ إلى العمل فإنّ الأوراق أكوام مذ تزوّج ابن القديّة وتقل إلى القاهرة. . .

- ٥١ -

وفرّ حسين أفندي أن يبقى في الفندق حتّى يتسلّم مرتبه أوّل الشهر الجديد، وأخذ يقتنع بمرور الأيام بوجوب الانتقال إلى شقة خاصّة يتهيأ له فيها الشعور بالاستقرار والطمأنينة على وجه أفضل. وكان حسن أفندي دائبًا على تزيين فضائل الإقامة في شقة له، حتّى هلّ الشهر الجديد فابتاع له فراشًا وصوآنًا صغيرًا ومقعّدًا بحوالي الجنهين تمّ الاتفاق على أدائها على أربعة أقساط بضمان حسن أفندي، ولمّا كان إيجار الشقة جنيهاً فلم تزد نفقاته شيئًا. وكانت الشقة الجديدة تشغل نصف سطح البيت الذي يقيم حسن أفندي بطبقته الوسطى، وكانت مكوّنة من حجرتين غير المرافق. فأغلق الشاب حجرة لعدم الحاجة إليها

اللعب والكلام معاً، وكان اللعب نفسه يهين له فرصاً لا تنتهي للثرثرة فكان يعلّق على آية نقلة للقطع مزهواً بلعبه ساخراً من لعب الشاب، ثم صاح به بعد أن غلبه أول عشرة:

- العن سوء الحظّ الذي رمى بك بين يديّ، وهيهات أن تذوق الفوز ما دمت حيّاً. . .

وعادوا للّعب بحماس وتحفّز، وانهمك فيه حسين انهماكاً شديداً فلم يفتق حتّى طرق سمعه صوت أقدام خفيفة تقترب من الشرفة، والتفت نحو الباب بحركة عكسيّة فرأى فتاة تحمل بين يديها صينيّة شاي، وسرعان ما استردّ بصره في حياء واربتك لأنّه أدرك من أول نظرة أنّ الفتاة لا يمكن أن تكون خادمة. وأحسّ بشخصها إحساساً غامضاً وهو ينحني قليلاً ليضع الصينيّة على كرسيّ خيزران، ثمّ به وهو يذهب مبتعداً. ولم يكن بصره قد ارتدّ عنها فارغاً، أجل علقت به صورة وجه ممثّل يميل إلى البياض، وعينين سوداوين - أو لعلّها عسلتان؟ - ذواتي نظرة مليحة. ولبت في ارتبائه مورّد الوجه على حين أمسك حسّان أفندي عن ثرثرته بغتة، ثمّ عاد يقول بصوت منخفض:

- هذه ابنتي إحسان، لم أر بأساً في أن تقدّم لنا الشاي ما دمت أعدك كأحد أبنائي. . .

وحرك حسين شفتيه كأنّه يتكلّم ولكنّه لم ينبس بكلمة، وقال حسّان أفندي وهو يصبّ الشاي في القدحين:

- البنت في البيت نعمة كبرى، لقد تزوّج أخواتها واحدة في القاهرة واثنتان في دمنهور ولم يبق غيرها!

تمتم حسين في ارتباك:

- ربّنا يفرّحك بها. . .

ومضيا يحسبان الشاي في صمت. وأخذ الارتباك يذهب عن حسين مخلفاً وراءه شعوراً بالخرج لم يدّر له سبباً واضحاً، أو لعلّه تهرّب من السبب وتجاهله. ووجد إلى هذا أنّه لا يزال متأثراً بما علق في مخيلته من صورة الفتاة على غموضها، تائراً يعرفه في نفسه حيال آية فتاة ولا دلالة خاصّة له سوى أنّه انفعال مكتوب

يفعل بالوقت، ولم تنفع القراءة في تزجية فراغه إلّا قليلاً، لا لأنّه كان يضيق بها ولكن لأنّ نقوده لم تسعفه بشراء ما يحبّ من الكتب فاكتمى مضطراً بكتاب غير الجريدة اليومية. وجرب الاختلاف إلى المقهى ولكنّه لم يهشّ له وخاف أن يجرّه إلى بعثرة نقوده المعدودة فيما لا يجدي وكان بطبعه حريصاً، لهذا كلّ رَحَب بدعوة حسّان أفندي وصدقت نيّته على أن يجعل منها تسلية محبوبة مهلاً كلّها. وهذا. وتأذى الحديث إلى الشقّة الجديدة فقال حسّان أفندي:

- لا يهّمك تنظيف شقّتك فقد أمرت الخادم بأنّ يتعهّدها بالتنظيف كلّ صباح، وسوف أوصي غسّالة تعرفها «الجماعة» بأنّ تذهب إليك كلّ يوم جمعة.

فشكر حسين صنيعة في حياء وتأثر، ولكنّه تضايق بعض المضايقة لأنّه كان يستطيع أن ينظّف حجرته بنفسه، ولأنّ قيام الخادم بهذه الخدمة اليومية يوجب عليه أن ينقذه ببعض النقود بين آن وآخر الأمر الذي لا يمكن أن يتقبّله بارتياح. وضحك حسّان أفندي بسرور ثمّ قال:

- أمّا مفاجأة المفاجآت التي أعدّها لك فهي النرد. . . هل تحبّ لعبها؟

فقال حسين بسرور:

- بعض الاجادة. . .

فغادر الرجل الشرفة في حماس ثمّ عاد بالنرد ووضعها على الخوان وهو يقول بفخار صبيانيّ:

- أنا بحمد الله خير من يلعبها بالوجه البحريّ، وربّما بالقبليّ أيضاً. . .

سرّ حسين حقاً بهذه التسلية التي لم يكن يتوقّعها وتساءل:

- عادة أم حبس؟

فقال حسّان أفندي بثقة:

- اختر لنفسك ما تشاء، إنك على الحالين لمغلوب. . .

وبدأ يلعبان. وقد اتّضح لحسين أنّ حسّان أفندي يرشّ وجه المستمع إليه عن قرب برذاذ ريقه إذا حادثه فأمل أن يلهيه اللعب عن الكلام، ولكنّه كان يواصل

بأن أمه قرّرت أن ترصد النقود التي يرسلها لضرورات الكساء وحده، وأنه ظفر منها بجاكته جديدة يرتديها مع البنطلون القديم، وأنها ابتاعت لنفسها روباً ترتديه فوق فساتينها الخفيفة فيكسيها دفئاً تستغني به عن الملابس الصوفية، وكان من نتائج ذلك - رصد نقوده لضرورات الكساء - أنهم لم يستطيعوا الانتفاع بها في تحسين حالهم الغذائية التي ظلت على ما يعلم من التهاة والسوء. وحذّته عن نفيسة فقال إنها تظفر من آني لأن بتقدّم سير وإن الأم لم تعد تستولي على جلّ كسبها كما كانت تفعل قبل ورود نقوده، فتوفّر لديها مال قليل تنفقه على ثيابها كي تظهر أمام الناس بالظاهر اللائق بهم. أما حسن فيبدو أنّ حياته الجديدة تستأثر به استثاراً شغله عنهم، أو لعله ظنّ بعد توطئه - حسين - أنهم لم يعودوا بحاجة إليه فانقطع عنهم انقطاعاً كلياً. وواصل موافاته بأنباء استعداده لامتحان البكالوريا في نهاية العام قائلاً إنه يستبسل في مذكراته لأنه يعلم ما يعنيه سقوطه. وفي آخر رسالة وردت منه تودّد إلى أخيه تودّداً كبيراً ثمّ سأله في ختامها هل يطمح أن يمده بثمان بنطلون منجّماً على أشهر ثلاثة نظراً لأنّ الجاكته الجديدة قد فقدت بهاءها فوق البنطلون القديم الناحل؟ ووقف حسين عند هذا الرجاء متفكّراً، لا يدري إن كان يستطيع أن يحقّق له رغبته دون مساس بالقدر الذي يودعه صندوق التوفير. لكنّ فيم يفكر وهو يعلم بأنّه لن يجيب لحسين رجاء؟ ربّما كان بوسعه أن يزجره لو لم يفرّق بينها هذا البعاد، ولكنّ البعاد رفق قلبه وجعل حنينه إلى أهله قوّة لا تقاوم. أجلّ إنه حريص لا يرحّب بشائاً ببعثرة النقود. لكنّ حرصه يتخلّى عنه بلا عناء كبير إذا كان البذل لأهله. لن يضيره التقدير على نفسه ثلاثة أشهر كثيراً في سبيل إرضاء حسين. إنه يعرفه حقّ المعرفة، ويعلم بأنّه يعدّ ما يقدّم من خير واجباً على الآخرين، فإذا لم يسعفه بالبنطلون نسي في حقنه صنيع الجاكته. ووجد إلى هذا شعوراً غريباً يدفعه إلى أن يغمر بجميله الفتى الذي يؤمن بأنّه سيكون له مستقبل باهر غداً. لقد ضحّى بمستقبله في سبيله وينبغي أن تكون التضحية كاملة.

على كلّ شابّ بصفة عامّة، وكلّ شابّ بكر بصفة خاصّة، ولعلّ انبعائه هذه المرّة في بيت - لا في الطريق ولا في الترام - هو الذي أشاعه في جوّ من الحيرة والبهجة والعمق. وكان حتّى أن يفكر في أمور أخرى بعيدة عنه بعد القاهرة فتساوره مشاعر خوف وحذر، ولبتّ حسن أفندي يراقبه صامتاً، ثمّ ضاق بالصمت فقال:

- اشرب شايبك وتأهّب للعشرة الآتية، وقعت في غلالي ولا نجاة لك.

- ٥٢ -

كانت على درجة من الحسن تسوّغ تأثره، وقد صدق ظنّه فيما تلا من أيام وأسابيع فراها في الطريق بصحبة أمها، ولحها في البيت أكثر من مرّة. ومن حسن الحظّ أنّها لم ترث من هيئة أبيها إلّا خديّه المنتفخين، ولكنّها جعلها طابعا خاصاً ولم يقنح وجهها. وأدرك بسهولة أنّ شقة حسن أفندي باتت تجذب إليها بقوّة لا يبرّرها نشدان التسلية وحده. وكان يمتلئ شباباً وحيوّة، فكان قلبه كان ينتظر أول طارق، وسرعان ما ترعرعت بين جنبيه عاطفة يضطرم فيها الميل والرغبة والاعجاب، فرامها أنسا لوحشته ورأى لظمته، ولكن لم تغب عنه دقّة موقفه لحظة واحدة من بادئ الأمر، فلم يكن يغفل عن متاعبه ولم يندّر له بخلد أن يتراخى في القيام بواجبه، بيد أنّه لم يعالج أمره بالحزم، وكان هذا فوق طاقته، وكان عليه أن يجتار بين الاغضاء من ناحية وبين الانزواء في حياة جافّة موحشة لا نسمة فيها ولا أمل. واشتدّت به الحيرة، وفكر مراراً في العودة إلى الفندق منتحلاً عذراً من الأعذار، ولكنّه لم يفعل، ثمّ وجد نفسه يسلم للأقدار تاركاً لها الأمر كلّه تقضي فيه بقضائها. وتواصلت الأيام دون أن يجده جديد، وكان نادراً ما يرى الفتاة ولكنّها لم تغب عن خاطره قطّ، أمّا حسن أفندي فلم يخرج عن مألوف ثرثرته وتجاهل الأمر كلّه. وفي أثناء ذلك لم تنقطع عنه أخبار أسرته بفضل رسائل حسين التي لا تترك كبيرة ولا صغيرة، فكانه يواصل حياته بينهم، ويشاركهم عواطفهم جميعاً. وقد أخبره

حال توظّف أخيك، أمّا إذا أصرّ على تكملة تعليمه ووافقت والدتك على هذا فلا يحقّ لها أن تعارض في زواجك، أجل لا يحقّ لها أن تدلّ واحداً على حساب حرمان الآخر من حقّه الأوّل في الحياة.

ووجد حسين حديث الرجل مؤثراً أكثر منه مقنعاً، ولكنّه لم يشأ أن يقطع بالرفض أن تنفصم ما بينه وبين الرجل من أسباب المودة، فقال:

- أعتقد أنّه من الممكن أن أحقّق آمالي دون أن أقضي على آمال أخي.

وكان حديث الزواج يدور دون هدف معيّن في الظاهر ولكنّ التفاهم الصامت عن الهدف كان تاماً بينهما، وسبقت إليه إشارات فيها ينشأ بينهما من أحاديث كلّ مساء، وكأنّ حسين لم يشأ أن يقنع بهذا القدر من التفاهم فقال في حياة شديد:

- وأظنّ أنسة إحسان لم تُعدّ أولى خطي الشباب...

فضحك الرجل عالياً وقال:

- إحسان صغيرة طيّبا ولكنّ الزواج لم يخلق للكبار...

لم يتقدّم الموقف عن هذا الحدّ فيها تلا ذلك من أيام حتّى اقترح حسن أفندي أن يقدمه لبعض أقاربه في حفل عائليّ فلم يَسعَ حسين إلّا القبول. وخجل أن يظهر أمام الأقارب بمظهره الذي لا يَسرّ حبيباً، وركبه فجأة ما يشبه الجنون - هكذا وصفه فيما بعد - ففصل بدلة جديدة على أقساط وابتاع حذاء وطربوشاً مدفوعاً إلى هذا كلّه بعواطفه ونزوته الطارئة حتّى إذا جاء أوّل الشهر أدرك أنّه من المستحيل أن يرسل النقود إلى أمّه، وأرسل بدلاً منها خطاب اعتذار كاذب يقول فيه إنّ مرضاً ألمّ به وإنّه أنفق في العلاج ما ناءت به ماهيته المحدودة. وقد كتب الرسالة بيد باردة ونفس منقبضة مقتنعاً في أعماقه بأنّه هوى من خطأ إلى خطأ، وأنّ تعاقب الأخطاء قد أفقده أتران التفكير وسداد الرأي فلم يحسن حتّى اختلاق العذر...

- ٥٣ -

ثمّ كان يوم الخميس، وكان حسين مستلقياً على

وعاوده ذلك الشعور السعيد الحزين بأنّه الضحية الصابرة على الأقدار التي تجهّم لهم، وأنّه الدرع الذي يتلقّى ضربات دون أن يتحطّم، إنّه عزاء يستمدّ منه قوّة وسرواً، ويضفي على حياته معنى خفياً باهراً.

ثمّ حدث ما لم يقع له في حسابان - هكذا قال لنفسه وإن لم يكن صادقاً - إذ كان يوماً يجالس حسن أفندي ويتنازعان الحديث كالعادة، فسأله الرجل:

- ألم تفكر في الزواج؟

فاضطرب الشاب، وشعر بما يشبه الذعر، ثمّ غمغم قائلاً:

- كلّ...

فرجع الرجل حاجبيه مستنكراً وقال:

- وفيّ تفكّر إذن؟ ولماذا تعيش؟ هل تظنّ للرجل من غاية، خاصّة إذا اطمأنّ جانبه بالوظيفة، سوى الزواج؟

وتردّد حسين قليلاً ثمّ قال:

- عليّ واجبات خليقة بالتقديم عمّا عداها.

ثمّ صارحه بما يكتنف أسرته من متاعب مستعينة بالمبالغة أحياناً حتّى يقوّي مركزه حياله. وأصغى الرجل إليه باهتمام حتّى انتهى من قصّته، ولكنّه لم يبدّ عليه الاقتناع، ولم يكن على استعداد للاقتناع بما يحول بينه وبين أمانه، ثمّ هزّ رأسه الأصلع باستهانة وقال:

- أراك تبالغ في تقدير خطورة الحال. حسبك الصبر حتّى يحصل أخوك على البكالوريا، ثمّ تكون في حلّ من التحرّر من مسؤوليتك، وعليه هو أن يتوظّف بدوره. النحاس باشا نفسه تزوّج فهل ترى نفسك أكبر مسؤوليّة منه؟

فضحك حسين في ارتباك وقال:

- ولكنّ أخي مصمّم على استكمال تعليمه...

فعاد الرجل يقول هازئاً:

- اسمع إذا كانت لك أهداف في الحياة لإعادة دستور سنة ١٩٢٣ مثلاً فالأخلق بك أن تؤجّل زواجك، ولكنّ دستور سنة ١٩٢٣ قد عاد والحمد لله فلماذا لا تتزوّج؟ يجب أن تتزوّج في نهاية هذا العام

## بداية ونهاية ٢٥٣

- لشدّ ما انزعجنا جميعًا خصوصًا وأنتك طمانتنا على صحتك في خطابك الأسبق...  
ثمّ استدركت بعد وقفة قصيرة:  
- وتوهمنا في الأمر خطورة، والعياذ بالله، لما رأينا من اضطراك قُطْع نقود هذا الشهر عتًا...  
وشعر بمثل شُكّة الابرة في نفسه، وقال بعجلة مبتسًا ابتسامة باهتة:  
- اضطررت إلى استدعاء طبيب وشراء أدوية فأنفقت أكثر من جنيهن، وأنت تعلمين بأنّه ليس لديّ احتياطيّ للطوارئ!  
- لا عليك من هذا إنّ مسرورة لآتي وجدتك في صحّة جيّلة، ويحسن بك أن تبعث برسالة في الحال إلى أخيك لتطمئنه هو ونفيسة اللذين تركتهما في أشدّ حالات القلق...  
ثمّ ألقت نظرة متفحّصة على حجرته، فعلق بصورها بالبدلة الجديدة على المشجب في خوف وقلق وتهيّا عقله لاختلاق كذبة جديدة، ولكنّها قالت:  
- حجرتك نظيفة وأثاثها جيّد، هلّمّ أرنى شقتك...  
فضحك حسين قائلاً:  
- ليست شقتي إلّا هذه الحجرة، وتوجد حجرة أخرى مغلقة لعدم الحاجة إليها.  
- كأنك تستأجر حجرة بإيجار شقّة!.. ألم يكن الفندق أفضل؟...  
- على العكس فإنّ إيجارها ينقص عن الفندق خمسين قرشًا.  
- أخبرتنا بأنك لم تحتاج إلى خادم أنلا يتعبك تنظيفها؟  
- كلّاً، هذا عليّ هيّن كما تعلمين!  
فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت:  
- يبدو لي أنّك مرتاح ومسرور يا بنيّ، ولذا فأنا سعيدة...  
وخيل إليه أنّ الأزمة قد مرّت بسلام فقال بارتياح صادق:  
- أنا السعيد يا أمّاه، وسأستأثر بك شهرًا كاملاً.

فراشه يقرأ جريدة الصباح التي يحتفظ بها عادة لوقت العصر، فسمع دقًا على الباب فظنّه خادم حسان أفندي ومضى إلى الباب وفتحّه وإذا به يرى أمّه أمامه. أجل أمّه دون غيرها، ففغر فاه دهشة ثمّ أخذ يدها بين يديه هائئًا:

- أمّاه!.. في طنطا؟! لا أكاد أصدّق عينيّ!  
وشدّ على يدها، ثمّ قبل خديها أو تبادلًا بالأحرى قبلتين، وفي طريقهما إلى حجرته سألها بدهشة:  
- لماذا لم تخبرني حسين بحضورك كي أنتظر في المحطة؟ فجلست المرأة على الكرسيّ الذي قدّمه لها وهي تقول مبتسمة:

- لم أجد صعوبة تذكر في الاهتداء إلى مسكنك، إنّ الاهتداء إلى مسكن في شبرا أشقّ من هذا بكثير. وقد اقترح حسين أن أنتظر حتّى يخبرك عن حضوري برسالة خاصّة ولكنّي لم أجد داعيًا لازعاجك وأنت مريض كما لم أحتمل البقاء في القاهرة وأنا أعلم أنّك هنا وحيد ومريض...  
مريض! أيقظته هذه الكلمة من نشوة اللقاء فشعر بالخوف يقبض قلبه، ولكنّه قاوم الخوف بقوة الخوف نفسه فضحك وقال:

- يؤسفني أنّي أزعجتك يا أمّاه، ولكنّي ما كنت أطمح في هذه النتيجة السائرة وهي حضورك بنفسك!...  
وجعلت تتفحّصه بعناية بوجه ينمّ عن إشفاق ورحمة ثمّ قالت:

- ماذا بك يا بنيّ؟.. كيف حالك؟.. حدّثني عن مرضك؟!

وداخله ارتباك بذل قصاره كي لا تلوح أماراته في وجهه. وكان واثقًا من أنّ مظهره لا يشي بمرض، بل لم يكن يخفي عليه أنّ صحّته تقدّمت تقدّمًا ملموسًا منذ تولّفه لتحسّن حالته الغذائيّة بصفة عامّة، قال ببساطة:

- لا شيء ذي بال. أصبت بنزلة معويّة حادة ولكنّها لم تلازمي أكثر من يوم ويضع يوم...  
فقالت وعيناها لا تتحوّلان عنه:

فما تمالكت أن ضحككت وقالت:

- بل هذه الليلة فحسب. ليس لي مكان أنام فيه، وسأكلُك أكثر مما تحتمل ما دمت تحيي بطعامك من السوق.

وقبل أن يتكلّم دقّ الباب فقام إليه، وسمعت الأم صوتًا يقول بلهجة ريفيّة «سيدي حسان يسأل عيّا أخرّك اليوم» ثمّ سمعت حسين يعتذر بحضور والدته من القاهرة، وأغلق الباب وعاد الشاب إلى مجلسه من الفراش فوجد أمّه تنظر إليه بعينين متسائلتين فقال:

- خادم جاري حسان أفندي باشكاتب المدرسة... وكانت تعلم من رسائله أنّه الرجل الذي أقنعه بالانتقال إلى الشقة وعاونّه على ذلك بضمانته لأثائه الجديد فقالت:

- يبدو من قول الخادم أنّك تمضي عنده فراغك.

وتوهم لحظة أنّها مطلّعة على سرّه كلّ فقال دون أن ينظر إليها وهو يشعر بلسعة الخوف تجري في لعابه وتعترض زوره:

- كثيرًا ما أفعل. إنّهُ رجل طيّب وهو إلى هذا رئيسي وقد وجدت في صحبته ما أغناني عن المقاهي و«مفاسدها»... لا بدّ للإنسان من تسليّة يزجي بها فراغه...

ثمّ قامت الأم إلى الحُمام فغسلت وجهها، وخلعت معطفها فتناولته حسين ونفض عنه الغبار بفرشاته وهو يدعو الله أن تمرّ الزيارة بسلام. أجل قد تولّاه القلق وخاف على سرّه الافتضاح واضطرب لوجودها في موطن هذا السرّ فلعن الظروف السخيفة التي أجبرته على منع النقود عنها. وعادت المرأة إلى مجلسها وأخذت تسأله عن أحواله وحياته، ولكن لم يمتدّ حبل الحديث طويلًا لأنّ الباب دقّ مرّة أخرى فذهب حسين ليفتحه فيما يشبه الحقن وكان القادم هو الخادم نفسه وقد قال بصوت بلغ مسمعيها:

- السّت الكبيرة ترغب في أن تحيي السّت والدتك.

ونفضت الأمّ مسرعة وخرجت إلى الردهة وقالت للخادم:

- لا يوجد مكان هنا لاستقبالها، سأزورها

بنفسي...

وذهب الخادم فعادا إلى الحجرة وحسين يقول:  
- لا داعي لهذه الزيارة، ولا يجوز أن نفترق دقيقة واحدة في المدة القصيرة التي تمكث فيها هنا.

فتنهّدت قائلة:

- مجاملات لا بدّ منها، ولا يخفى عليك أنّه يهمني أن أجامل أسرة رئيسك...

وعاودا حديثها ردحا من الزمن حتّى خفّت حدة النور وأقبل الأصيل فنهضت الأم لترتدي معطفها قائلة «أن لي أن أزور حرم جارك» وراقبها الفتى بعينين كئيبتين حتّى غادرت الشقة، ثمّ تنهّدت من الأعماق وتساءل «ترى هل يساورها شك؟.. كيف تنتهي هذه الرحلة؟!»

- ٥٤ -

ولبت وحده مغتًا قلقًا، وتزايد قلقه بمرور الوقت، ثمّ لم يعد يشكّ في افتضاح سرّه، ثمّ تساءل مدافعًا عن نفسه فيم هذا الوهم كلّهُ؟! عسى أن يمرّ كلّ شيء في سلام، لا يمكن أن يلحقوا إلى شيء، هذا مؤكد، ولكن هل تغيب عنها الحقيقة إذا رأت إحسانًا وتنبّه إلى زحف الظلام فقام وأشعل المصباح الغازي، ثمّ سمع الباب يدقّ فدقّ قلبه معه في عنف ومضى إليه ففتحه فدخلت أمّه وهي تقول:

- لا أظنني غبت كثيرًا.

وعادا إلى الحجرة فوقف هو مستندًا إلى حافة النافذة وراحت هي تتخلع معطفها وحذاءها في صمت، وجعل يقول لنفسه «وراء هذا الوجه شيء»، بل أشياء، إنّي أعرف هذا. أراهن على أنّها لم تتجشّم السفر لتطمئنّ على صحّتي. ليست أمّي بالأمّ الضعيفة، إنّها حنونة حقًا ولكنها قويّة ما في هذا من شكّ. ما أظنّ هذا الصمت، متى ينقطع؟» وسألمها متظاهراً بعدم الاكتراث:

- كيف وجدتهم؟

فارتقت فراشه وتربّعت عليه ثمّ قالت باقتضاب:

- لا أدري لماذا لم يرتح قلبي إليهم!

إنّهُ يدري لماذا، برح الحفاء، ووقع المحذور.

وقال:

- الحق أن حسان أفندي رجل طيب...

- ربما. لم أقابلها بطبيعة الحال...

لن يسألها عما لم ترتح إليه منهم، فليتجاهل المسألة، ولن يطول هذا طويلاً على أية حال. ووجدها تنظر إلى يديها اللتين شبكتهما على حجرها. إنها تفكر فيما ينبغي قوله. لشدة ما أخطأ! ما كان ينبغي أن يستسلم للإغراء الظروف التي انتهت بمنع إرسال نقوده هذا الشهر. كيف ضلّ عائل الأسرة؟! ورأى أمه ترنو إليه بطرف واجم ثم تقول:

- أما وقد اطمأنتت عليك فلا أظن أن يخجلني أن أصارك بأن منع النقود عنا قد أخافني. اعذري يا بني إذا اعترفت لك بأنه ساورني بعض الظن بأن يكون المرض مجرد اعتذار!

فصاح وهو لا يدرى:

- أمّاه!

- معذرة يا بني إن بعض الظن إثم، ولكني كنت أفكر طويلاً فيما يمكن أن يلقي شابٌ وحيد في بلد غريب. أجل إني أومن بعقلك ولكن الشيطان شاطر فحفت أن يكون أضلك، ولا تسل عن حزني وأنت تعلم بأنّي أعتمد بعد الله عليك. أخوك حسن لم يعد متاً، ونفيسة فتاة تعيسة الحظ، وحسين تلميذ وسيظلّ تلميذاً طويلاً، وأنت أدري به! وإنّا لنشقى ونجوع في مغالبة حظنا، وقد خسرنا نصيبك من المعاش وسنخسر عما قريب نصيب أخيك منه.

فقال حسين بانفعال:

- لست في حاجة إلى من يذكرني بهذا يا أمّاه، لقد أخطأت... اضطررت إلى منع النقود اضطراراً لا حيلة لي فيه. إني جدّ حزين يا أمّاه.

فقال برقة وكأنها تحدث نفسها:

- أنا الحزينة...

ثم استطردت بعد لحظة صمت:

- أنا الحزينة لأنّي أبدو كثيراً وكأني أحول بين أبنائي

وبين سعادتهم!

فقال بقلق:

- لشدة ما تظلمين نفسك، أنت أمّ رحيمة كأحسن

ما تكون الأمّ رحمة...

- يسرّي أنك تفهمني يا بني.

وتنهّدت وهي تنظر في عينيه ثم قالت:

- لا يقلقني شيء في حياتي كما يقلقني مستقبل أختك نفيسة. أودّ لو أغمض عينيّ ثمّ أفتحها فأجدها في بيت زوجها. ولكن كيف؟! لسنا مثلك لتجهيزها مليّاً، وأخوف ما أخاف أن أموت قبل أن أطمئنّ عليها. أنتم رجال أما هي فمن الولايات اللاتي لا نصير لهنّ.

فصاح حسين مستنكراً:

- لن تكون بلا نصير ونحن على قيد الحياة...

فتنهّدت مرّة أخرى قائلة:

- مدّ الله في أعماركم، ولكنّ الفتاة لا تضمن

سعادتها في بيت أخيها المتزوّج!

ولاحت في عينيه نظرة ذات معنى. إنّه يفهم ما يقال. إذا كانت الفتاة لا تضمن سعادتها في بيت أخيها المتزوّج، وما دام حسين في حكم المتزوّجين، فلا يجوز له أن يتزوّج! منطق معقول! ورحيم أيضاً! بيد أنّه ينطوي على حكم بالإعدام. ما عسى أن يقول؟ لم يعد يخاف أن تنهال عليه ضرباً كما كانت تفعل أحياناً، ولكنّه لن يتخذ من هذا الأمان مسوّغاً لإغصابها، وعلى العكس سيّخذ منه دافعاً بريئاً للمبالغة في إكرامها، وقال بهدوء:

- اطمئني يا أمّاه. أرجو ألاّ تجد نفيسة نفسها يوماً

في هذا المأزق!

فهزّت رأسها هزّة كأنها تقول له لنندع الإدارة جانباً ولنتكاشف ثمّ قالت:

- الحقّ لقد ألحّت عليّ بعض الخواطر فلم أجِد فرجة إلّا في أن أسافر إليك على مشقّة السفر وكثرة النفقات.

فابتسم بلا وعي تقريباً:

- إذن لم تحضري كي تطمئني على صحّتي!

وندم في اللحظة التالية على إفلات هذا القول منه،

ولكنّها ابتسمت إليه ابتسامة حزينة وقالت:

- اصنع إليّ يا حسين، أترغب في أن تتزوج؟

فتظاهر بالانزعاج ليخفي اضطرابه وقال:

- إني أعجب لما يدعوك إلى هذا الظن!

- ليس أحب إليّ من أن أراكم أزواجاً سعداء، ولكن هل ترغب في أن تعجل بالزواج حتى قبل أن تنهض أسرتك من كبوتها؟

- لم أفكر في هذا مطلقاً...

- ألا يضايقك تطفلي هذا؟

- مطلقاً!

- وإذا اقترحت عليك أن تؤجل التفكير في الزواج،

ألا تجد في اقتراحي ظملاً؟

- هو عين العدل والرحمة...

فخففت عينيها قائلة في حزن:

- ليس شقائي الحقّ فيما نزل بنا ولكن فيما أراه واجباً بما يبدو لعين المتعجل قسوة وأنانية...

- لست هذا المتعجل على آية حال!

فتردّت لحظة ثم قالت:

- إن ما أراه من حسن تقبّل لكلامي يشجّعني على أن أنصحك بأن تترك هذه الشقة وتعود إلى حجرتك بالفندق.

رح الخفاء! وأصيب بذهول، ثم غمغم متسائلاً:  
- الفندق؟!

فقالت بحزم:

- أنت لا تدري من أمر الناس شيئاً. ولعلّ جيرانك أناس طيّبون ولكنهم لا يحفلون إلا بمصلحتهم. وإذا حافظت على جبرتهم كرهتنا وأنت لا تدري؟

- ٥٥ -

ولم يعودا إلى هذا الحديث مرّة أخرى فلم تكن الثروة من طبعها شأن الكثيرات من النساء. وقد قضيا صباح الجمعة في سعادة شاملة، حيناً في البيت، ثم انطلقا في المدينة لزيارة السيّد البدوي، ولكنّها صمّمت على الذهاب إلى المحطة مع الضحى فلم يسعه إلا الإذعان لها مرغماً. وذهبا معاً وقطع لها تذكرة، وفي أثناء انتظار القطار قال لها:

- سأبقى في البيت حتى نهاية الشهر لأنّي دفعت

الإيجار كما تعلمين...

فكان جوابها أن دعت له بالتوفيق والسداد، ثم جاء القطار فودّعته وصعدت إلى عربة من عربات الدرجة الثالثة وانحشرت بين جمع حافل من القرويات والقرويين، وغشيته كآبة ثقيلة، لأنّه كان يقف منها موقف التوديع لأول مرّة في حياته، فغمز القطار الذاهب قلبه غمزة قويّة، ولأنّه عزّ عليه أن يراها منزوية في العربة الحقيمة وسط البؤس والبائسين، وعاد إلى البيت كثير الهمّ والفكر. «أنا المملوم. إني أدفع ثمن حماقتي. أيّ شيطان يخنّني بعنابته؟ هذه هي المرّة الثانية، الخيبة تلاحقني دائماً، لا مفرّ». وجاءه خادم حسن أفندي يدعو والدته إلى الغداء فأخبره بأنّها سافرت إلى القاهرة. وجاءه مرّة أخرى في المساء يدعو إلى السهرة المعتادة فلم يسعه إلاّ الذهاب.

وجلسا حول خوان النرد في الحجرة بعد أن أحكم الشتاء إغلاق الشرفة. وسأله حسن أفندي:

- كيف عادت والدتك بهذه السرعة؟

فأجاب حسين مبتسماً:

- لا يمكن أن يستغني عنها بيتنا أكثر من يوم...

- تحيى الخميس وتذهب الجمعة؟!.. رحلة لا تستحقّ مشقة القطار!

- ولكنّها حقّقت لها ما تريد فاطمأت عليّ وتبركت

بزيارة السيّد...

وأشار الرجل إلى داخل الشقة قائلاً:

- قالوا لي إنّها ستّ طيبة جدّاً.

- بعض ما عندكم...

فتساءل الرجل وهو يرمش بعينيهِ العشاوين:

- كنّا نودّ لو زارتنا قبل الرحيل!

- كانت متعجّلة، وقد حاولت أن أوخّر سفرها إلى

العصر ولكنّها اعتذرت بحاجة بيتنا إليها...

فقال الرجل بأسف:

- وأعددتنا لها غداء طيباً فاخترت لها بنفسها ثلاث

دجاجات مسمّنة...

فابتسم حسين في ارتباك وتمتم:

- بالهنا والشفاء لكم...



تدرك متاعب أسرة كأسرتنا...  
ونذت عن الرجل ابتسامة خيلاء داراها بعبوسة  
مصطنعة وتتمت:  
- عالج أمورك كما تشاء ولكن لا تنس نفسك. قال  
تعالى: «ولا تنس نصيبك من الدنيا». وكل آت  
قريب، ما هي إلا أشهر معدودات ثم يحصل أخوك  
على البكالوريا فيتغير الموقف. ارم الزهر لنرى من  
يكون البادئ باللعب...  
- ٥٦ -

وبعد مضي أسبوعين جاءته رسالة من حسين ينبئه  
فيها بأنه أدى رسوم الامتحان وأنه يذاكر ليل نهار  
لضمان النجاح. وكان عظيم الثقة بذكاء أخيه ومقدرة  
فلم يداخله شك في النتيجة المأمولة. ونزعت به نفس  
إلى الأحلام مع أنه لم يكن من الذين يستسلمون  
لسحرها عادة، إلى أنه كان يؤمن بكذب هذه الأحلام  
بالذات. ورغم هذا كله تخيل أخاه قد فاز بشهادته.  
واقنع بأنه ينبغي أن يتوقف ليحمل العبء عنه، ثم  
تخيل نفسه يبدأ حياة سعيدة بضمير مطمئن! إنه لا  
يطمح إلى أكثر من حياة مطمئنة هانئة في ظل  
الزوجة. وقد علمته هذه الحياة التي حملها منفرداً في  
شقته المقفرة معنى الأسرة فحنّ إلى حضنها الدافئ حين  
المقرور تحت مطر منهمر إلى المأوى. لم يعد يطبق  
الاختلاف إلى المطاعم العامة لتناول غذائه، وبات  
وكأنه يخاف الانفراد بنفسه في حجرته ولو إلى حين  
قصير، وأتعبه لحد السقم ما تتطلبه حياة الأعزب من  
رعاية متواصلة لشقته وأثاثه وملابسه، وكل هذا يهون  
إلى جانب ما يعاني من جوع قلبه وأشواقه. ولم يكن  
يحبّ الفتاة بالذات بقدر ما أحبّ فيها المرأة والحياة  
الزوجية، ولكنها كانت المثال المحسوس لأحلامه فهفا  
إليها قلبه وحنينه. وزاد من تعلقه بها أنه لم يكن يراها  
إلا في القليل النادر مما تجود به المصادفات السعيدة،  
وحسب حسين أنهم يتعمدون إخفاءها، ولكن تبين له  
أن حسان أفندي رجل محافظ حقاً وأنه قد يتسامح  
ولكن بالقدر الذي لا يחדش حياة ولا يجاوز حدّاً. ولو  
أنّ حسين رضي بالوظيفة لمضى من توه إلى فتاته

وضحك الرجل، ثم فتح علبة النرد ولكنه بدلاً من  
أن يشرع في إعداد القطع للعب سأل بهتهم:  
- ألم تفتحها بما «أفقتنا» عليه؟  
فشعر حسين بحرج ولكنه قال:  
- كلا...  
- لمه؟  
- إنها تعدني رجل بيتها فكيف أفقتها بهذا؟  
فتناول الرجل زهر النرد في قبضته وهزه ورمه، ثم  
قال:

- أنت رجل خواف. كانت أمك خليقة بأن تفرح  
لهذا النبأ.

- إنه خليق بالفرح إذا جاء في حينه...  
فضحك الرجل ضحكة عالية ثم قال ببطء:  
- لي فلسفتي الخاصة في الحياة، التي بنفسك في  
عبابها ولا تحشّ شيئاً. هل سمعت عن شخص واحد  
بمصر مات جوعاً؟

فقال حسين مبتسماً:

- أصل شعبنا اعتاد الجوع!

فضحك حسان أفندي واستطرد قائلاً:

- كل الناس يعيشون. أغمض عينيك ثم افتحها  
تجد الصغير كبيراً والتلميذ موظفاً والأعزب متزوجاً ولا  
تجد خاسراً إلا من كان خوافاً مثلك. هذه هي  
الحياة...

خواف؟ وضابقت هذه الصفة فثار عليها ثورة  
باطنية. ليس الخوف ولكنه أدرك الموقف على حقيقته.  
أكان يكون شجاعاً حقاً لو تخلى عن المرأة وتركها تعود  
مهيضة الجناح خائبة الأمل؟ ليس الخوف. الرجل  
الأحقّ سيء فهمه. إنه مصاب في آماله ولا يجد من  
يرحمه ولا من يفهمه. وعندما بلغ هذه النقطة من  
أفكاره وجد رائحة غريبة مفاجئة، أجل وجد سروراً  
في أن يكون على حق وإن أساء الناس فهمه، بل أكثر  
من هذا تركّز السرور في أن سيء الناس فهمه وهو  
على حق، سرور غامض كذلك السرور الذي يخامره  
وهو يستسلم لعنت القضاء. وقال مبتسماً:

- أنت يا حسان أفندي من أسرة كبيرة فلا يمكن أن

يتهرَّب الفأر وراء رجل كرسِيّ لن تغني عنه شيئاً:  
- بوسعي أن أعلن الخطوبة فوراً على أن أنتظر بعد ذلك...

فتساءل حسن أفندي بفتور:

- كم عاماً؟

آه إنّ الرجل يظنّه لا يحسب حساباً إلّا لأخيه، ولا يكاد يدري شيئاً عن نفيسة ومشكلتها المستعصية، ليته كان بوسعه حقّاً أن يصارحه بالحقيقة كلّها بغير خفاء!.. وأجابه قائلاً في إشفاق شديد:

- أربعة أعوام!؟

ونظر إليه ليرى وقع تصريحه من نفسه ثمّ بادر قائلاً:

- لن يضيرنا الانتظار شيئاً، ألا تنق في؟  
ومطّ الرجل بوزّه وهو يهزّ رأسه ثمّ قال بهدوء خفيف:

- أربعة أعوام! يا ترى من يعيش!.. أتريدني على أن أقول لأمّها إنّني رفضت ابن عمّها الذي يرغب في الزواج منها الآن كي تنتظر أربعة أعوام!.. يبدو لي يا حسين أفندي أنّك لم تكن جاداً فيما أظهرت من رغبة!

وانتنفض حسين في ألم بالغ وهتف:

- ساحك الله يا حسن أفندي! إنّني رجل مخلص ولا زلت عند رغبتني الصادقة، ولا أدري سبباً وجيهاً يحول بيني وبينها.

فقال الرجل بفتور:

- لست أبناً ولا أمّاً فلا عجب ألا ترى وجهة السبب، والآن فلندع النقاش جانباً وأجبن باختصار ألا تستطيع الإقدام على الزواج في هذا العام؟

وساد الصمت، وطال دون أن ينبس حسين بكلمة. لم يجد شيئاً يقوله، وتفكّر طويلاً في حيرة، ثمّ أطبق شفثيه في يأس وقهر. وابتمس حسن أفندي ابتسامة باهتة، وأطبق شفثيه بدوره وقد نمّ وجهه البيضاءي الصغير على الجمود والكدر. وطال الصمت والجمود وفاحت رائحة الخضم كالغبار في يوم خماسيّ فلم تعد تحتفلها الأعصاب. ومع ذلك لم يحتمل

وضمّها إلى نفسه وحيي الحياة الحقّة. لهذا حلمه، ولكنّه مجرّد حلم، ولا يدري متى يتحقّق. وسيواصل حسين تعليمه وما ينبغي له أن يحقّق لهذا، أجل فليدع الأمور تجري كما يشاء الله وليتظر. ولكن تبين له ذات مساء أنّه لن ينعم بالانتظار في هدوء وطمأنينة، إذ قال له حسن أفندي عقب فراغهما من احتساء الشاي مباشرة:

- جدّ أمر هامّ يستحقّ أن أشارك فيه.

رفع إليه حسين عينيه متسائلاً فقال الرجل باهتمام:  
- الأمر أنّ ابن عمّ إحسان - وهو تاجر ومزارع بالبحيرة - يرغب في طلب يدها، وقد رايت أن أسألك عن رأيك قبل البتّ في الموضوع برأيي!!

وكانت مفاجأة سيّئة وجم لها الشاب في قهر وحيرة كأنّه لا يصدّق. والحقّ أنّ بعض الشكّ ساوره ولكنّه وجد نفسه في مأزق لا يخرج منه تشكّكه. وشعر بحقنق إنسان وضعته ظروف قاسية بين لا ونعم وهو عاجز عن الكلام، فما عسى أن يقول؟! إذا قال نعم خان أسرته، وإذا قال لا قطع ما بينه وبين حسن أفندي. وتراءى لعينه على اضطرابه وحيرته وجه الفتاة التي تعلّقت بها آماله فشرع بقبضة اليأس تشدّ على عنقه، ورمق الرجل الذي يعذبّه بنظرة باردة تخفي وراءها حنقاً متزايداً. وكان الآخر يتفرّس في وجهه صابراً فلمّا طال الصمت غمغم متسائلاً:

- ما قولك يا حسين أفندي؟

ولم يجد بداً من الكلام فقال بلهجة تنمّ عن الرجاء:

- لقد فصلت لك ظروفنا بما لا يحتاج إلى مزيد.

فقال الرجل فيما يشبه الضجر:

- سيفرغ أخوك من دراسته في أوائل الصيف القادم.

- ولكنّه فيما أرى مصمّم على مواصلة تعليمه...

فقال الرجل بضيق:

- فكرة سخيفة لا يصحّ أن تدعن لها وتحمّل

مسئوليّتها.

وأراد أن يتفادى من الخطر المائل فقال متهرّباً كما

أن يستسلم للحزن، أجل إنه يعلم أنه سيحزن طويلاً ما دام الشعور لا يخضع للعقل، ولكنه يؤمن أيضاً بأن لكل شيء نهاية، حتى هذا الحزن الحائق لا بد أن يدركه العزاء. وانتظر هذا العزاء كما ينتظر فريسة الكابوس صحوة النجاة. إنه آتٍ لا ريب فيه كما علمته المحن، وهناك لن يجد ما يندم عليه وسيجد ما يفخر به ويطمئن ضميره. إن شعوره بالواجب يفوق مشاعره الأخرى، ولشد ما أخطأ الرجل حين اتهمه بالخوف، وبحسبه أن أمه تفهمه وأنها تعده الأمل والعزاء، واقتَر ثغره عن ابتسامة لهذا الأمل المنتظر وهو يعاني مرارة الحزن الراهن...

- ٥٧ -

وحوالى منتصف الصيف استقبلت الأسرة - بعطف نصر الله - يوماً سعيداً حين نجح حسين في امتحان البكالوريا. وجلسوا ثلاثتهم جلسة هناء وصفاء، فمرت ساعة لا يشوبها كدر، وتملت الغبطة قلوب نهكها التعب. وجاء فريد أفندي محمد وأسرته للتهنئة فشعر حسين حيال خطيبته بشعور سعيد بخيلاء ساذجة كأن البكالوريا قد أضفت عليه رجولة جديدة خليقة باحترامها وعطفها. كان كعادته مرحاً لطيفاً فتحدث طويلاً منتشياً بالفوز والضحكات تنطلق من فيه تباعاً، وكان منظر هبة مما يستثير سعادته وألمه معاً، كان يسعده أن تلتقي عيناهما خفية فيقرأ في نظراتها الصافية المحبة العميقة المهذبة، ولكنه لم يكن يحظى بالصفاء تحت نظرتها إلا قليلاً ثم يندلع في قلبه لسان لهب، ثم يذكر حرمانه الطويل فيثور حنقه، ويرمق العامين المنطوين بحسرة وأسف. واسترق إليها النظر خلال الحديث فانصهر بصره على وجهها البدرى وجسمها البض، وتخيّلها - كما كان يطيب له أن يتخيّلها كثيراً - متجردة إلا من شعرها المنسدل فبلغ ريقه درجة الغليان. وجعل يتساءل صامتاً ألا يمكن أن تغير من سياستها بعد حصوله على البكالوريا؟ أليس من العدل أن تهبه قبلة على سبيل التهنية؟! وظلّ وعيه منتقلاً بينها وبين أخيلته وبين الحاضرين، وكان السرور شاملاً بيد أنه لم يخل من عذاب لا يكاد يرحمه

حسين أن تحيء القطيعة من ناحيته فتساءل بصوت حزين كأنه كان يتنبأ الجواب سلفاً:

- ألا يمكن الانتظار؟

فقال الرجل بنفزة:

- كلا!

ومكث حسين قليلاً في خجل وألم ثم نهض مستأذناً في الانصراف فادن له. وغادر الشقة لا يكاد يرى ما أمامه من شدة الحزن واليأس، غادرها وهو يعلم أنه لن يعود إليها مرة أخرى. وذهب إلى حجرته فأوقد المصباح الغازي وارتمى على الفراش. وألقى على ما حوله نظرة سخط وعداوة، عداوة لكل شيء، كان في تلك اللحظة عدواً لنفسه وللشخص جميعاً «أضعيف أنا أم قوي؟ وما صنعت بنفسي أهو إقدام أم فرار؟! كل شيء بغض مضيق، هذه الحجرة التي أودعها وحجرة الفندق التي تنتظرنى بالوحشة نفسها وحسان أفندي وطنطا وحسين وأمي وأنا. ربما تصوّر الرجل أنه يستطيع أن يضايقي في عملي بالمدرسة!.. ثباً له، سيجدني أصلب مما يتصوّر. ولكن ما قيمة هذا كله! الموت أرحم من الأمل. لست أعجب لهذا فالموت من صنع الله والأمل وليد حماقتنا. الأولى خيبة والثانية خيبة فهل قضي عليّ أن أمني بالخيبة مرة بعد أخرى؟ لماذا لا يتوظّف بالبكالوريا؟! لماذا لا يحب لنفسه ما أحب لي؟! وتناهى به الضيق فلم يعد يحتمل وحدته فقام إلى المشجب وارتدى بدلته وغادر البيت، وجعل يخط على وجهه من شارع إلى شارع في ليل بارد حتى أعياه المشي فمضى إلى مقهى. وأنعشه المشي والبرد من حيث لا يدري فالتخّد مجلسه وهو أهدأ نفساً. وراح يتسلّى بمنظر الجلوس ويستمتع إلى ما يتطاير من سمرهم فلم يخل من كلمة أولفته تدعو إلى الابتسام. وخبت فورة الغضب الجنونية وانحسرت موجتها الصارخة عن حزن عميق لكنه هادئ وصامت. ولا يخلو في الوقت نفسه من ندم. أكان يؤثر حقاً أن يوافق الرجل على رايه؟ هل يسره أن يترك أسرته تحت رحمة الأقدار؟ يا له من أحق! من حقّه أن يحزن، ولكن ليس من حقّه أن يغضب هذا الغضب الجنوني. وليس من الحكمة

في محضرها.

ثم خلت الأسرة إلى نفسها مرة أخرى فداخلها إحساس جديد - غير السرور الصافي - بالمسؤولية، لأنهم تعلموا أن الظفر بالكالوريا سعادة يعقبها تفكير ومتاعب. وكان إتمام تعليمه العالي أمراً مفروغاً منه فيها بينهم ولكن الرأي لم يستقر على اختيار بعينه. وقد قالت نفيسة:

- عليك الآن أن تختار المهنة التي تريدها.

فقال حسنين الذي كان قد قتل الأمر بحثاً:

- التعليم العالي مرحلة طويلة شاقّة، ومستقبله مجهول.

فنظرت إليه المراتان في دهشة فاستطرد قائلاً:

- لقد فكّرت في الأمر طويلاً، وانتهيت من تفكيري إلى أنه يجب أن أختار مدرسة من مدرستين البوليس أو الحربية!

وهتفت نفيسة بسرور:

- ما أجل هذا!

ولم يحفل بسرورها لأنه كان يفكر في الصعاب التي تعترض آماله فقال:

- دراسة عامين فحسب ثم أصير ضابطاً، والنجاح مضمون تقريباً لأنها دراسة باللعب أشبه، والوظيفة في النهاية لا شك فيها. هذه ميزات لا يستهان بها! فهتفت نفيسة بالحماس نفسه:

- دراسة عامين ثم تصير ضابطاً!.. ما أشبه هذا بالأحلام!

وتساءلت الأم بإشفاق:

- والمصروفات؟!

ونظر إليها طويلاً كالحائر ثم قال:

- البوليس غالبية جداً، ولكن الحربية معقولة... مصروفاتها سبعة وثلاثون جنيهًا.

فتطلّعت إليه المراتان بوجوم ودهشة فبادرهما قائلاً:

- ليس الأمل في المجانية معدوماً أو على الأقل في نصف المصروفات، ولنا في أحمد بك يسري شفيع عظيم القدر في هذه الحال..

ولم يذهب الوجوم من نظرة الأم وبدت قلقة حيال

هذا الأمل. فقالت:

- حدّثني فريد أفندي محمّد عن معهد التربية الابتدائيّ فوجدت فيه ميزات تستحقّ التقدير، فمدة دراسته ثلاثة سنوات بالمجان تضمن بعدها وظيفة مدرّس.

فقال الشابّ بامتعاض:

- إنّي أكره أن أعمل مدرّساً، وأكره أكثر أن ألتحق بمعهد بالمجان.

- ولكنك لا ترى مانعاً من دخول الحربية بالمجان.

- ثمة فرق كبير يقوم بين معهد يقوم على المجانية ومعهد قد يعفني من مصروفاته كلّها أو نصفها. سيقول الناس عن الحال الأولى إنّي تعلّمت بالمجان أمّا في الأخرى فهيها أن يعلم بها أحد غير كاتب المدرسة!

فهزّت الأم رأسها غير مقتنعة وتمتعت:

- المسألة أخطر من هذا!

- لا يوجد ما هو أخطر من هذا، أنا أكره الفقر وسيرته، ولا أحبّ أن أخفض رأسي بين أناس مرفوعي الرؤوس!

ولم يكن هذا فحسب دافعه الحقيقيّ إلى هذا الاختيار، والواقع أنّه طمح إلى المدرسة الحربية مدفوعاً بنفسه الظمأى إلى السيادة والقوة والمظهر الخلّاب، بيد أنّ أمّه ظلّت على قلقها وعدم اقتناعها فتساءلت:

- وإذا لم يتيسّر إعفاؤك من المصروفات؟

ففكر متجهماً ثم قال:

- سأحتاج بادئ الأمر إلى الدفعة الأولى من المصروفات وفي مرجويّ أن أناها من أخي حسن! لا أظنّه يتخلّى عنيّ كما لم يتخلّ عن حسين، أمّا الباقي فليس بمتعذّر توفيره إذا نزلت لي عن نقود حسين، إلى ما يمكن أن تجود به نفيسة (ناظراً إلى أخته) ولا أظنّها تبخل عليّ خاصّة وأنّ عملها يجيئها بكسب لا بأس به...

ونقل بصره بين أمّه وأخته ليسرّ وقع كلامه ولكنّه لم يحظ بما يشجّعه فاستطرد يقول برقة:

- عامان شدة يمرّان كما مرّ غيرهما وبعدهما الراحة

ثم ذكر النقود التي يريد بها فهاهنا الأمر، ماذا لو عجز حسن عن أن يمد له يد المعونة؟ وشعر بإصبع باردة تقبض على قلبه وتوشك أن تعصف بآماله. واهتدى أخيراً إلى عطفة جندف وأخذ يرتقي أرضها القذرة باحثاً عن البيت رقم ١٧ حتى انتهى إليه، ورأى غير بعيد بائع بطاطة جالساً القرفصاء على الأرض أمام عربته فسأله مشيراً إلى البيت:

- هل يقيم هنا حسن أفندي كامل؟

فسأله الرجل بدوره:

- تعني حسن الروسي؟

فقال حسنين بدهشة:

- حسن كامل عليّ المغني؟

فقال الرجل:

- هذا بيت حسن الروسي الذي يعمل بقهوة عليّ

صبري بدرب طياب ..

وأغضى حسنين في حياء منزعاً انزعاجاً فظيلاً، لم يعد يشك في أنه حيال بيت أخيه وقد توكد ذلك بذكرى عليّ صبري، ولكنه لم يتصور أنه يعمل بهذا الدرب الذي فرقع اسمه في أذنه كالقنبلة. وهذا اللقب: الروسي ما معناه؟ ودخل البيت وكأنه يفرّ فزكمته رائحة بثر السلم التنته وارتقى السلم الحزوني وهو يشعر بأنه يهبط إلى هاوية ما لها من قرار. وطرق الباب فجاء صوت امرأة يصيح في ابتذال «من؟» ثم فُتح الباب عن امرأة قصيرة بدينة عميقة السمرة تنطق سحنتها بجبال وقح. حدجته بنظرة نافذة وسألته:

- ماذا تريد؟

فقال حسنين بصوت منخفض من الاضطراب:

- حسن كامل ..

- من أنت؟

- أخوه ..

فانبسطت أسارير المرأة وتنحّت جانباً وهي تقول:

- سي حسنين؟

فتمتم في ذهنه:

- حسنين!

ودخل في تهيّب وحياء. من تكون هذه المرأة؟

والهنا!

وشابر على ترديد بصره بينهما في رجاء، ثم قال بإغراء:

- أم ضابط وأخت ضابطا .. تصوّرا هذا! تصوّرا مغادرتنا لهذه العطفة إلى شقة محترمة بالشارع العام!

ورقت نفيسة لنظرته المتوسّلة فاجتاحها موجة إثارة وكرم فقالت:

- لا تحمل همّاً من ناحيتي، سأهيك أقصى ما يمكنني أن أهيه!

فتجلّت في عينيه نظرة امتنان وغمغم:

- شكراً لك يا نفيسة، ولن تكون أمي دونك كرمًا، وسيمضي كلّ شيء على الوجه الذي نحبّ جيئاً ..

ودعت له الأم بالتوفيق، لم تكن ترجو من ورائه خيراً كثيراً. وكان أقصى ما تطمح إليه أن يؤجّل زواجه - بعد توفّقه - عامين حتى ترمّم ما تهدّم من أسرتها، ولكن لم يسعها إلا أن تنزل له عن نقود الانقاذ التي يرسلها حسين وأن تدعوه بالتوفيق من أعماق قلبها. وتأثرت نفيسة بما غمرها من إثارة وكرم ارتقيا بها إلى منزلة عالية من الصفاء والسرور والحماس، ونعمت بهذه السعادة لحظات غالية. ولكنها لم تدم طويلاً، اصطدم تيّارها الدافق بعقبة كتود من الذكريات السود فتوقّف عن الجريان الساجع وتجمّع وتطّين، وفتّر الحماس فخفضت عينها في خمود، ليس الفرحة الصافي من حقّها، وما عسى أن يصنع السرور بنفس ملوثة منطوية على البشاعة والشقاء؟

- ٥٨ -

قال حسنين لنفسه وهو يغادر ميدان الخازندار إلى شارع كلوت بك «سيقول حسن إننا لا نسعى إليه إلا إذا طمعنا في نقوده!» وتأمّل لهذا الخطر، ولكنه خفّف من وقعه قائلاً إنه هو - حسن - الذي لم يشأ أن يتردّد أحد منهم على بيته. وجعل يتساءل في حبّ استطلاع عما سيجد في هذا المسكن المحرّم! ثمّة شيء «غير طبيعي، ولكنه لا يستغرب من حسن!».

من أخبار حسين ثم قال بلهجة تنم عن العتاب:  
- انقطعت عنا كأنتك لست منا ولسنا منك، وباتت  
أمتنا في حزن شديد..

وهز حسن رأسه في كآبة وقال:  
- إني غارق في حياتي حتى قمّة رأسي، ولكنّ  
توظيف حسين طمانني عليكم..

وتساءل حسنين متأثراً بما طرأ على أخيه من تغيّر في  
مظهره ترى هل بقي على حبّه القديم لهم؟ وانساق  
بغريزته إلى التودّد إليه قبل أن يتطرّق إلى مهمّته  
وتساءل في قلق:

- ما هذا يا أخي؟!

فقال حسن ضاحكاً:

- غلّفات معارك. لم تكن حياتي لتخلو من عراق  
وقد أصبح العراك من أهمّ واجباتي في الحياة  
الجديدة..

وودّ لو يسأله عن هذه الحياة الجديدة ولكّنه تحامى  
ذلك بغريزته أيضاً، لقد قصد هذا البيت المحرّم في  
سبيل الحياة، وحسن يتخذ من العراك واجباً في سبيل  
الحياة أيضاً، فما أظفّع ما تسيمنا الحياة من خسف!  
«من كان يحلم بهذا المصير ونحن صغار نلعب! كان  
حسن طفلاً حاذقاً شاطرًا، وكان أبي يحبّه أكثر من أيّ  
شيء في الوجود، ثمّ بدا وكأنّه انقلب له عدوّاً، ولكنّ  
لم يكن يتصوّر أحد أن ينتهي به المطاف إلى هذا  
البيت! لا شك أنّ حسين أدرك الحقيقة في زيارته لهذا  
البيت في سبتمبر الماضي، ولكن ترى هل تعلم أمي  
بكلّ شيء؟». لم تواته شجاعة على السؤال الصريح  
ولكنّه تساءل في مكر:

- ما العلاقة بين الغناء والعراك؟

فقهقه حسن ضاحكاً ثمّ قال:

- هما شيء واحد في عرف الكثيرين..

وهنا جاء صوت المرأة من خارج وهي تقول:

- إني ذاهبة، هل تريد شيئاً؟

فقال لها باقتضاب:

- مع السلامة..

ولم يستطع حسنين أن يقاوم حبّ استطلاع فساله

وكيف عرفت أساءهم؟ هل تزوّج حسن؟ وشعر  
بقشعريرة باردة. أميكن أن يقال عن هذه المرأة إنّها  
زوجة أخيه؟ وإنّ أمّه حماتها؟! وتمنّى من أعماق قلبه أن  
تكون مجرد رفيقة. ومضت المرأة إلى باب في نهاية  
الدهليز ونقرت عليه ففتّح بعد قليل وظهر حسن على  
العتبة، وكأنّه شعر بوجوده فاتّجه بصره إليه ثمّ هتف  
بدهشة وسرور:

- حسنين..

وهرع نحوه وشدّ على يده بترحيب وشوق، وقبل  
أن يتكلّم أحدهما تسلّل من الحجرة نفر من الرجال  
متتابعين، ألّقوا على حسنين نظرة عابرة وقال بعضهم  
مخاطباً حسن:

- سنسافر عصر اليوم إلى السويس بإذن الله،  
وتلحق بنا غداً..

ثمّ غادروا الشقة. كانوا من ذوي الجلايل، تلفت  
سحتهم النظر بغرابتها ولا يكاد يخلو وجه أحدهم من  
تشويه. وداحل حسنين شعور بالقلق، من يكون  
هؤلاء الرجال؟.. أفراد التخت؟.. ما أبعد هذا عن  
التصوّر! لقد ذكّره منظرهم برجال العصابات كما  
يظهرون على الشاشة وطرات عليه فكرة مرعبة بأنّ  
شقة أخيه تناصب القانون العداء! وألقى على حسن  
نظرة متوجّسة فراه يرتدي جلباباً مقلّمًا فضفاضًا،  
ويبدو في صحّة وقوّة ولكن يلوّح فوق حاجبه الأيسر  
وفي صفحة عنقه اليسرى ندبان كبيران كأنّهما أثرا  
طعنتين شديتين، ربّاه. إنّ أخاه لا يخلو من تشويه  
إجراميٍّ أيضًا! ولعلّه الآن يستطيع أن يدرك حقيقة  
الأسباب التي حجّبه عن عالمهم. وأوما حسن إلى  
الحجرة في نهاية الدهليز وقال للمرأة:

- رتّبي الحجرة واجمعي الأشياء..

وشبك ذراعه بذراع حسنين واتّجه إلى حجرة النوم،  
ثمّ أغلق الباب وراءهما وأجلسه إلى جانبه على الكنية  
وهو يقول:

- كيف حالكم؟.. كيف والوالدة؟.. ونفيسة؟..

وما أخبار حسين؟

وحدّثه عن الأسرة بعقل شارد وروى له ما يعلم

بقلق:

- هل تزوجت يا أخي؟

- كلاً..

فلاح الارتباك في وجه حسنين غير خاف فتساءل

حسن:

- أسركَ هذا؟

- نعم...

- لماذا؟

فقال الشاب بسداجة:

- أفضل أن تختار زوجك من وسط كوستنا..

فقطب حسن كالستاء وقال:

- إننا أفضل من سيدات كثيرات، تحبني وتخلص لي

ولا تضنَّ عليَّ بما..

وأوشك أن يقول له «ومن مالها الخاص أعطيت

حسين ما احتاجه من نفقات» ولكنه أمسك رحمة بأخيه

- لم يستطع التغير الذي لحق بطبعه أن يؤثر في عواطفه

نحو أخيه حتى حين استيائه - ولما رأى القلق والندم

يلوحان في عيني الشاب قال برقة:

- إن إخلاص الزوجة لزوجها لا يخلو من منفعة

وراء أما هذه المرأة فإخلاصها غير مشوب. سوف

تعلمك الحياة أموراً كثيرة تجهلها..

فهز حسنين رأسه متظاهراً بالاعتناء، وابتسم إلى

أخيه ابتسامة رقيقة متودداً. ثم ذكر أمراً كاد ينساه

فرحب به ظناً منه أنه خليف بأن يضيفي على الجوّ الذي

كاد يتوتر روحاً من المرح فسأل أخاه ضاحكاً:

- علمت وأنا أسأل عن بيتك أنهم يدعونك الروسي

فما معنى هذا؟

فضحك حسن ضحكة عالية أعادت الطمأنينة إلى

نفس الآخر وهو يشير إلى رأسه:

- نسبة إلى هذا.. إني أكسب بعرق جيبني على

نحو ما (وبسط يده ونطحها برأسه ثم نظر إلى أخيه

نظرة ذات معنى ضاحكاً) أو بالأحرى بدم جيبني. لا

بدّ من العرق كي تعيش ولكنه يختلف العضو الذي

يعرق بين فرد وآخر.

وشعر حسنين بغرابة نحو أخيه، وفكر ملياً، ثم

قال بحزن:

- ثمّة أناس يكسبون دون أن يعرق لهم جبين!

وبدا حسن وكأنه لم يفهم قوله على حقيقته فقال

بحماس:

- هذه غاية الشطارة... أن تكسب بعرق جباه

الآخرين! وشم حسنين هذا الحديث الذي يجري بلا

ضابط فصمم على أن يطرق الموضوع الذي جاء من

أجله. وصمت قليلاً ثم قال بصوت منخفض:

- أظنَّ يسركَ أن تعلم بأنني نجحت في امتحان

البكالوريا..؟

فهتف حسن بسرور:

- مبارك. أسرَّ طبعاً بسرورك وسرور أمنا!

تفرّس في وجه الشاب ثم استطرد في لهجة لا تخلو

من إشفاق وسخرية:

- وظيفة، ثم طنطا أو الزقازيق، أليس كذلك؟

فقال الشاب متنهزاً هذه الفرصة التي هيأها الآخر

كي يتقدّم خطوة جديدة في سبيل غرضه:

- كلاً، في نيتي أن ألتحق بالكلية الحربية!

- الحربية!.. عظيم جداً!.. الحمد لله على أنك لم

تختَر مدرسة البوليس!..

- مصروفاتها كبيرة...

- لا أعني هذا ولكني لا أستلطف ضباط البوليس!

فحدجه الشاب نظرة تساؤل فقال حسن مبتسماً:

- ضباط الجيش رجال أفرح، نراهم أمام المحمل

وفي الاحتفالات الكبرى أما ضباط البوليس فلا نراهم

إلا عادين وراء خراب البيوت!..

وساد الصمت وراحا يتبادلان النظرات، حسنين في

قلق وحياء وحسن في ابتسام له معناه، ولبثا كذلك

طويلاً حتى انفجر حسن ضاحكاً فضحك الآخر وهو

يغضُّ بصره حياءً، وواصل الضحك حتى تعباً، ثم

سأله حسن بلهجة ذات مغزى:

- كم؟!

فضحك حسنين مرّة أخرى وقد احمرَّ وجهه من

الحياء. ثم قال:

- الدفعة الأولى من المصروفات. يؤسفني أن أقول

لأنها مبلغ لا يستهان به ولكنّي سادّبر الدفعة الأخرى ومصرّوفات العام الثاني من نقود حسين وما وعدتني به نفيسة!

وذكر حسن كيف كان يُعَدّ فيها مضي الخائب الفاشل في الأسرة جميعاً: الآن يرونه ملاذهم في الملمات! وأحسّ زهوًا ولكنّ هذا لم يغيّر من شعوره الطيّب المتأصل في نفسه نحو أسرته بل لعلّه ضاعفه. وساءل أخاه مبتسماً:

- كم هذا المبلغ الذي لا يستهان به؟

فقال حسنين في خوف:

- عشرون جنيهاً!

ولاح الانزعاج في عيني حسن وقال وهو لا يدري:

- عشرون جنيهاً؟ .. إنّ جيشنا كلّ لا يساوي هذا

المبلغ! .. هل تنوي الالتحاق بمدرسة اللواءات؟

وانتظر حسنين في اضطراب وقلق ولم ينس بكلمة حتى عاد الآخر يقول بجذّ واهتمام:

- هذا مبلغ جسيم حقاً، ولا يمكنني أن أعطيك -

اليوم على الأقل - أكثر من عشرة جنيهاً!

وسادت فترة من صمت اليم، ثم نفخ حسن في

ضيق وقال:

- لو جيئني قبل أسبوع! .. وعلى آية حال سأسافر

غداً إلى السويس ولعلّي أعود بما يكفيك!

وتفكّر ملياً على حين قال حسنين بصوت منخفض:

- يؤسفني أنّي أزعجتك!

فقرصه في أنفه ضاحكاً وقال:

- كيف تعلّمت هذا الأدب وعهدي بك طويل

اللسان! لا تنزعج سأتيك بما تريد ولو قتلت قتيلاً ونشلت محفظته.

ثم أعطاه عشرة جنيهاً، وحمله السلام إلى أمه وأخته، وطلب إليه أن يستمسك بالحكمة إذا تحدّث عباً رآه في بيته. وشدّ حسنين على يده شاكرًا وغادر الشقة. وما إن انفرد بنفسه حتى قال بصوت ثقيل كثيب «حياة حسن فضيحة يجب التسرّ عليها، ولعلّ ما خفي منها أدهى وأظلم». وقطع الطريق متفكراً مغتماً يلقه إحساس بالاشمئزاز والخوف. لم يكن بوسعه

أن ينسى جميله ولا ما أبداه نحوه من عطف أخويّ، ولكنّه لم يستطع كذلك نسيان المرأة والرجال المشوهين والندبين الخطيرين، نقش هذا كلّ على صفحة قلبه بمداد التقرّز والرعب. ربّاه، لقد انقلب حسن إلى نوع آخر من الأدميين، لم يعد من الأسرة ولا من المجتمع الذي يعرفه. إنّهُ يترنّج كأنما ضربة قد هوت على رأسه فأفقدته وعيه، وكلّما جدّ في السير امتلأ شعوره بفداحة الخطب. وذكر حاجته إليه التي جعلته يستوهبه نقوداً لا يدري من أين أتت، فاشتدّ اشمئزازه وحنقه، ولعن هذه الحاجة من أعياق قلبه في يأس وقهر. وأمراً من هذا كلّ أنّ حاجته لم تنته، فسيعود إليه بعد أيّام ويمدّ إليه يده سائلاً! ترى من أيّ سبيل تأتيه النقود من السويس! إنّ قلبه لا يكذّبه، وفيها رأى بعينه الكفاية لمن ينشد الدليل، ورغم هذا كلّ سيعود إليه ويسأله أن يتمّ صنيعه له! هل يستطيع أن يغضب لكرامته حقاً؟ هل يستطيع أن يردّ هذه الجنيهاً إلى أخيه ويصيح في وجهه إنّ لا أرضى عن حياتك القذرة؟ ونذت عنه ضحكة مبحوحة مرّة. .. إنّهُ يعلم أنّه يهذي هذياناً سخيفاً. سيعود إليه راضياً ويأخذ النقود - إذا تفضّل بها - شاكرًا ممتنًا. ولو علم أنّه ذاهب إلى السويس ليسرقها ما وسعه إلّا أن يدعو له بالتوفيق. وقال وكأنّه يحاور ضميره المتوجّع «مهما يكن من أمر فهو بالنسبة لنا أخ فاضل كريم!».

- ٥٩ -

وفي عصر اليوم نفسه مضى إلى فيلاً أحمد بك يسري بشارع طاهر. والواقع أنّه كان يندفع بحيويّة هائلة نحو الأمل الذي ركّز فيه حياته جميعاً، فإمّا الحربيّة أو الموت. وجلس في السلامك ينتظر البك مسرّحاً طرفه في أطراف الحديقة أو في الشطر الأمامي منها على الأصحّ. وكان مشبّت اللبّ فرأها رؤية غامضة، وتنقّل بصره الشارد بين نخيلها الرشيق المنغرس وسط دوائر من الحشائش المنسّقة سُورت بنبات الشيح وانتشرت في رقاعها شجيرات الورد على هيئة أهلة. وارتاح لحظة من أفكاره فاستقرّ ناظره على دائرة حشائش كبيرة تتوسّط المكان ما بين مدخل الفيلاً



فوجد فيها من فتاة الدراجة أثرًا يشبه الأثر الذي تركته الحديقة والفيلا ونجفة بهو الاستقبال، طموحًا وثورة وسخطًا! «ما أجل أن أملك هذه الفيلا وأنا فوق هذه الفتاة». ليست شهوة فحسب ولكنها قوة وعزة. فتاة مجد تتجرد من ثيابها وترقد بين يدي في تسليم مسيلة الجفون وكأن كل عضو من جسدها الساخن يهتف بي قائلاً «سيدي. هذه هي الحياة. إذا ركبته ركبته طبقة بأسرها!» ثم عاودته ذكرى بهية فتضاعف ألمه وامتزج به ما يشبه الندم والخجل. وهنا سمع وقع أقدام آتية من ناحية السلم فالتفت صوبها منقطعاً عن تيار أفكاره فرأى أحمد بك قادماً في بدلة بيضاء من الحرير وقد رشق في عروة الجاكete وردة حمراء فانفض قائلاً وأقبل نحوه في أدب وانحنى على يده مسلماً في إجلال وابتسم اليك مرحباً وسأله وهما يجلسان:

- كيف حال الأسرة يا بني؟

فقال حسنين بتودد:

- يقبلون يدك الكريمة ويذكرون صنائعك.

فغمغم اليك:

- أستغفر الله.

وأيقن اليك أنه سيتلقى عملاً قليل رجاء بتوظيف هذا الشاب أو نقل أخيه إلى القاهرة الخ. لم يكن يومه يخلو من مثل هذا، وكان يضيق بالرجاوات ولكنه كان في قرارة نفسه يحبها كذلك ولا يطيق أن يخلو بيته يوماً من صاحب حاجة. وقال:

- خير يا بني؟

فقال حسنين بحرارة:

- جئتكم يا سعادة اليك مستنجداً بشفاعتك في إلحاقني بالكلية الحربية...

ودهش اليك وكأنه كان يتوقع كل شيء إلا هذا الطلب الأرستقراطي وتساءل دون أن يخفي دهشته:

- ولماذا اخترت هذا الباب الضيق؟!

وتألم الشاب لما لاح في وجه الرجل من دهشة وكرهه لحظتها كراهية عمياء، بيد أنه قال بنفس اللهجة المتوددة المهذبة:

- يبدو لي يا سعادة اليك أنه توجد فرصة ذهبية هذا

والسلامك فاستسلم إليها فأزاً من قلقه. وكانت تنبثق من وسطها نخلة قصيرة ذات جذع أبيض ترف عليها روح الطفولة وتغشي سطحها شجيرات الورد بوفرة حتى تماست أغصانها وتعانقت أزهارها فامتزجت في هالة كبيرة انثالت عليها الحمرة والخضرة والصفرة في وئام وائتلاف وسلام. وابتسم وهو لا يدري. وكان الظل قد زحف على أرض الحديقة وما وراءها من الطريق ولاحت آثار الشمس المائلة في أعلى الدور على الجانب الآخر للطريق ولكن الهواء هفا مائلاً للسخونة مفعماً بعرف الياسمين الجاثم على سور الفيلا. وورد على خاطره هذا السؤال «هل يمكن أن أقتني يوماً فيلاً كهذه؟» وتخيّل الحياة فيها ما بين المخذع والحديقة وما يتبعها عادة من سيارة وأسرة محترمة. هذه هي المرة الثانية التي يزور فيها فيلاً أحمد بك يسري، وفي كلتا المرات انفجر في صدره بركان من الطموح والسخط والتلهف على متع الحياة النظيفة المحترمة. وكان أخوف ما يخافه أن ينحصر في حياة كحياة حسين فيقطع عمر ما بين الدرجتين الثامنة والسادسة بلا أمل ناضر. في الحياة متع عالية وهواء نقى وينبغي أن يأخذ نصيبه منها كاملاً. وتوقف عن التفكير فجأة حين لمح دراجة تمرق من الجانب الأيسر للحديقة وعليها فتاة. وكانت الفتاة توجه الدراجة في حذر على مماشي السيفساء بين دوائر الزهور فاستغرقتها الحذر عن النظر فيما حولها. كانت في السادسة عشرة، ترتدي فستاناً أبيض هفهاً وتعصب رأسها بإيشارب منمنم، ذات قامة نحيلة وصدر ناهد وبشرة نقيّة. وقد أعجبه النظر إلى ساقها المدملجتين اللتين تتناوبان الارتفاع والانخفاض فلم يكذب يتبين وجهها، واختفت وراء جناح الفيلا الأيمن قبل أن يستدرك ما فاتته منها. وثار في عينيه اهتمام ويقظة. إذا لم تكن هذه الفتاة كريمة أحمد بك فمن تكون؟ وابتدرت تخيلته تستدعي صورة بهية بحسبها اللدن الممتلئ ووجهها البدرى، شهية جميلة ولكنها ليست من هذه الرشاقة في شيء! ثم ذكر أخته نفيسة فعجب للاختلاف البين بين مخلوقات من جنس واحد، ثم شعر في قلبه بغمز ألم وعطف وعاد إلى نفسه

البياض. وثار في أعماقها حبّ استطلاع وطمع ولذلك لم تغادر موقفها حين انقطع تيار السيارات، وحولت نحوه عينها فوجدته ما يزال يحدّق فيها، وكأنّه تشجّع بنظرتها فتقدّم منها في خطوات ثقيلة وهمس وهو يمرّ بها:

- اتبعيني إلى سيّارتي...

ثمّ واصل سيره إلى سيّارة واقفة لصق الطوار مثله في الهرم والوقار، يكاد يعلو سلّمها على الطوار شبرين ويقف عند بابها سائق كالتمثال. وصعد إليها دون أن يغلق الباب وراءه وأمر سائقه فاتخذ مكانه خلف عجلة القيادة. ماذا يريد الشيخ؟ وابتسمت خواطرها في تشوّف، ثمّ عادت تنصت إلى همس الطمع. وكأنّه استبطأها فخلع نظارته ثمّ أوما لها بيده فما تمالكت أن ابتسمت، وألقت على ما حولها نظرة متفحّصة ثمّ اتجهت نحو السيّارة، يحدوها الطمع وحده لأوّل مرّة. وأوسع لها فجلست إلى جانبه وما عتمت أن سطعت أنفها رائحة الخمر الفائحة من فيه، فاستحوذ عليها القلق، وقالت:

- لا أستطيع أن أتأخّر.

فقال بلسان ثقيل:

- ولا أنا أيضًا!

وأمر السائق بالسير فانطلقت السيّارة. ولم يفارقها شعورها بالغربة في أثناء الطريق، ثمّ غشيتها سحابة حزن وخوف لإحساسها بأنّها تندهور إلى ما لا نهاية. لم يسبق لها قبل هذه المرّة أن ذهبت مع رجل قبل تعارف طويل أو قصير، ولو بعد رؤيته مرّتين أو ثلاثًا، إلى أنّها لم تكن تخلو من رغبة. أمّا هذه المرّة فما هي تستسلم لعابر سبيل، مدفوعة بالطمع وحده، وبلا أدنى رغبة. أيّ تدهور وأيّ نهاية! ترى كيف عرف أنّها ضالّته! هل انقلب وجهها - على دماسته - يثني بتدهورها؟ وتقبّض قلبها فرقًا، وجبهتها حيرة قديمة جديدة معًا، بين أن تتزيّن فتبدو في هذه الهيئة البتيلة أو أن تتعطل فتكشف عن دماستها النقاب! ووضع الرجل كفّه على يدها وقال بصوت ملثم:

- جميلة كالقمر!

العام لم يوجد مثلهما في السنين الماضية لما تعترمه الحكومة من زيادة عدد الجيش، ومهما يكن من أمر فشفاعتك أهمّ من كلّ شيء!

وتساءل البك باقتضاب:

- والمصرفات؟

وكرهه مرّة أخرى. وسرعان ما تناسى رجاء المجانيّة أو صمّم على أن يؤجّله لفرصة أخرى وقال بثقة وطمأنينة:

- إلّني على استعداد لأداء المصرفات كاملة!

ففكر البك مليًا ثمّ قال:

- إنّ وكيل الحربيّة صديق قديم وسأحدّثه بشأنك...

فكان جواب حسنين أن أقبل على يده يحاول تقبيلها فسحبها الرجل ونهض قائمًا - ربّما إنهاء للزيارة - فقنع حسنين بالانحناء على يده مسلّمًا وكرّر الشكر وغادر السلامك مريح الصدر بالأمل. وذكر وهو يقطع الحديقة فتاة الدراجة وتخلّت صورتها وهو يرنو إلى أثر العجلتين في الممشى، ولكن لم يدم هذا إلّا لحظة قصيرة، ثمّ استأثر بوعيه كلّ مستقبله وآماله...

- ٦٠ -

في نفس الساعة كانت نفيسة في ميدان المحطة... كانت السماء تتخشّع لهبوط المساء على حين واصل الميدان في حياته الصاخبة يستبق على أديمه الانسان والحيوان والترام والسيّارات. وكانت الفتاة واقفة على طوار تمثال نهضة مصر تنتظر انقطاع تيار السيّارات لتعبر الطريق إلى محطة الترام فلاحظت أنّ رجلًا واقفًا على بعد أذرع منها ينظر إليها نظرة غريبة باتت مع الأيام تفهمها حتّى فهمها. وتولّتها دهشة وتساءلت: حتّى هذا؟! كان رجلًا في السنين؟! يجمع في جسمه بين ترهل العمر ووقاره، مرتديًا بدلة صوفيّة على حرارة الجوّ ويقبض بيده على مذبّة أنيقة عاجيّة المقبض، ويضع على عينيه نظارة زرقاء. وقد انحسر طربوشه المائل إلى الوراء عن جبهة عريضة لفحت الشمس أسفلها وبدا أعلاها لامع البياض فيما فوق حرّ الطربوش، أمّا سوائفه وما لاح من قداله فشديد

بالغربة ومغالبة الضحك. وأخيراً ارتقى خموراً وقال بصوت غليظ:

- مدّي يدك إلى مقعد السائق وناوليني الزجاجاة.  
ورفع سدّاتها وعَلَّ منها ثمّ أسلم ظهره إلى المسند وراح يتنفس تنفساً ثقيلاً غليظاً. ولم تعد تحتل ثقل الانتظار فقالت برجاء مشيع بالتودّد لأنّها تعلّمت أن تخاف هذه الآونة أكثر من أيّ شيء آخر:  
- أن لنا أن نعود.

فقال وكأنّه يخاطب نفسه:  
- ليتني لا أعود أبداً...

ولم تدرك ما يعني ولكنّها استجمعت شجاعتها وغمغمت:

- تسمح!  
ودسّ يده في جيبه وأخرجها في تكاسل ثمّ ترك ريالاً يسقط في حجرها فتناولته في دهشة وانزعاج وحجته باستنكار وتساءلت وهي تتميّز غيظاً:  
- ما هذا؟

فقال بجفاء مبالغت وعيناه تعكسان بريق الخمر:  
- نعمة كبرى! إذا لم ترضي به عاد إلى موضعه السابق إلى الأبد...

فقالت بحنق:  
- أظنّ مقامك أعلى من هذا بكثير...  
فصبّ في فيه جرعة كبيرة ومصمص بشفتيه مقطباً وقال:

- هذا حقّ، ولكنّ الريال أعلى من مقامك بكثير! أراهن على أنّه لا توجد امرأة لها مثل هذا الأنف وتطمع في مثله!

وجرحت الاهانة صدرها فاضطرب وقالت وهي تغالب الغضب بالخوف:

- لماذا تحدّثني بهذه اللهجة؟  
- لأنك طماعة... ولأنك السبب فيما يقع لي.

اعلمي أنّي لا أحمل معي إلّا الفكّة، وحقّ في هذه تحاسبي زوجي عليها عقب عودتي إلى البيت، وأهون عليّ أن أضربك من أن تضربني هي.

ولاذت بالصمت وهي تتنفض غضباً وغيظاً فعاد هو

ولم يفتّر ثغرها عن ابتسامة كما كانت تفعل قديماً وتمتعت:

- لست من الجمال في شيء...  
فقال مستنكراً:  
- لا تخلو امرأة من جمال!  
كاذب أو مخادع فلشدّ ما يعمي الفسق العيون،  
وقالت ببساطة:  
- إلّا أيّ!...

فنقر بأصبعه على ثديها وقال:  
- لولا جمالك ما وجدت هذه الرغبة!

ودّت لو تستطيع أن تصدّق قوله، ولكن هيهات، فلم يظفر بأحد يحبّها أكثر من ساعات. لعلّه يعربد أو يخرّف أو يعاني مرارة اليأس مثلها سواء بسواء. لقد كابدت من الرجال ما جعلها تحقد عليهم ولكن دون أن تحمد لهذا رغبة جسدها الذي يسيّمها الهوان فكرهته كما تكره الفقر. ما هي إلّا أسيرة للجسد والفقر ولا تدري كيف تستنقذ نفسها منها. جرفها التيار وجرحتها الصخور فلم تعد ترى من خير في أن تاوي إلى الشاطئ عارية مثخنة بالجراح وبلا نصير أو رحيم، ثمّ سمعت صوته يقول متنبّها «وصلنا» فالتفتت إلى الخارج فرأت السيّارة تدور مع طريق دائريّ تقوم على جانب منه الأشجار الضخمة كأشباح عمالقة وعلى الجانب الآخر يجري النيل في رقعة عظيمة من الظلمة إلّا ما انفرس في جناحه البعيد من رواح الأنوار المنثالة من المصابيح، وقالت كالمسائلة:

- الجزيرة؟  
فضحك ضحكة فاجرة وقال بلهجة ذات مغزى:  
- تعرفينها طبعاً...

وتريّث ريشاً غادر السائق موضعه واختفى في الظلام فخلع نظّارته وهو يقول:

- أرييني شطارتك فكلّ شيء يتوقّف عليها...

كان هروماً مجنوناً، يكاد ينزّ خمرًا. وانهال عليها بمداعبة غليظة فعصّها بوحشيّة وراح يقرصها حتّى أوشكت أن تصرخ. ولاحت في الجوّ نلر هزء وسخرية، ثمّ تعب حتّى اليأس، انفرج عن إحساس

يقول:

- ضايقتني امرأة ذات مرة في مثل موقفنا هذا فصفعتها وقذفت بها خارج السيارة نصف عارية، ماذا فعلت فيما تظنين؟ .. لا شيء! كانت تعلم بلا ريب أن الشرطي أخطر عليها مني. ومع ذلك فهي مظلومة وأنت مظلومة وأنا مظلوم أيضًا، والظالم الحقيقي هي زوجي ...

فزفرت زفرة غيظ وتمتعت:

- نعود من فضلك ...

فقال وهو يتشاءب:

- لك هذا. افتحي النافذة ونادي السائق ...

وانطلقت السيارة في طريق العودة فترحزحت حتى نهاية المقعد، وسهمت إلى الظلمة بعين خائبة.

- ٦١ -

يعترف لوساطة أحمد بك بالدور الخطير الأول الذي لعبته في قبوله فقال لأمه إنَّ الفضل الأول لمزايها الجسميّة وتفوّقه في الرياضة. وقال لنفسه في زهو «أستطيع أن أعدّ نفسي من الضباط منذ الآن» وراح خياله المختال يستعرض الأدميين الذين ستؤثر فيهم بذلته الرسميّة تأثيرها السحريّ - الجنود والفتيات وعامة الشعب بل وأحمد بك يسري نفسه وهو مرح نشوان. وحمل الخبر السارّ بنفسه إلى أسرة فريد أفندي محمّد فاستقبلته بفرحة تحلّ عن الوصف. وقال له فريد أفندي ضاحكًا «شرّفنتنا يا حضرة الضابط». وقال الشاب على مسمع من هيئة لغرض في نفسه «سأغيب عنكم أربعين يومًا قبل أن يُسمح لنا بالخروج مرة كلّ أسبوع» وكان يطمع أن يحظى تلك الساعة بما حُرّم عليه عامين ولكنّه لم يتح له أن يخلو إلى الفتاة إلّا دقائق، ولم تكن الدقائق لتمنعه من نيل مشتهاه لو أرادت الفتاة أن تجود له به ولكنّها لم تترحزح عن تعفّفها حتّى في هذه اللحظة. وغلبها الحياء كعادتها، فانكمشت وقلبها يخفق بالعطف والألم تأثّرًا بالدواع. وقال لها بعجلة في صوت لا يكاد يسمع «أريد قبلة حارة من شفتيك» ولمّا رأى حياءها وجهوها قال بجزع «أتأتين عليّ هذا حتّى في هذه اللحظة! .. لا يمكن أن أتصوّر أنّك تحبينني!» وخرجت الفتاة عن صمتها قائلة في قلق «بل لهذا أرفض أن أذعن لك!» وتساءل في إنكار «لا أفهم ما تعنين» فقالت بشجاعة مؤثّرة «أرفض لأنّي أحبّك» وكان يسمع هذا الاعتراف الصريح البسيط لأول مرة فبلغ به التأثير حدّ السكر وهمّ بالاقتراب منها ولكنّها أشارت إليه محدّرة وهي تومئ برأسها ناحية باب الحجرة المفتوح، وما لبث أن عاد فريد أفندي وزوجه ففضى بقية الوقت ممزقًا بين نشوة السكر وقلق الشوق وحنق الغيظ، ثمّ ودّعهم ونزل إلى شقّته وهو يقول لنفسه «هذا حبّ عاقل!» حبّ يسيطر عليه الحزم والتدبير. كأنّها رسمت خطة حكيمه كي تضمن زواجي بها. ولكن هل يعرف الحبّ الحقيقيّ هذا المنطق البارد؟! وكان حديثه لنفسه في الواقع خاضعًا لما استحوذ عليه من غيظ

وكان يوم قبول حسنين طالبًا بالكلية الحربيّة أسعد الأيام جميعًا. وكان يحسبه مطلبًا غير عسير كشأنه حيال مطالبه، ثمّ أخذ يتبينّ عسره وعناده حتّى اقتنع آخر الأمر بأنّ تدبيره للدفعة الأولى من المصروفات كان أخفّ متاعبه. وقد طال تردّده إلى فيلّا أحمد بك يسري وكاد الرجل يئأس من قبوله فنصححه بالعدول عن اختياره ولكنّ تصميم الشابّ وتقدّم ترتيبه وحسن هيئته وتفوّقه في الكرة والعدو ثمّ شفاعه أحمد بك قبل كلّ شيء، كلّ أولئك ساعد على إحداث المعجزة - على حدّ تعبيره بعد اليأس - وتمّ القبول وكاد يجنّ من الفرح، والحقّ أنّه علّق آماله كلّها على هذا القبول بحيث لم يكن يدري ماذا يفعل أو كيف يولي وجهه وجهة أخرى لو أخفق مسعاه. كان طموحه إلى الحربيّة يتفجّر من صميم روحه الملهوفة على السيادة الشائرة على تعاسة حياته وضيقها، وبدت الكلية لعينيه كمصنّع سحريّ قادر على تحويله من إنسان مهزول مغمور إلى ضابط مرموق في ظرف عامين، وبأقلّ جهد، وكان سمع مرة صاحبًا له يصف ضباط الجيش بقوله «الضباط مرتّبات عالية ونفخة كاذبة وعمل كاللعب لا خير فيه» فهامت بالحربيّة نفسه وقوي حلمها في روحه. ولمّا علم بقبوله في الكلية أبى أن

والحسرة، وعدّ وداعه لها أسوأ وداع مُنيّ به عاشق. ثم أمضى شطرًا من الليل بين أمّه وأخته. ولم تستطع نفيسة - كعادتها - مغالبة مشاعرها فدمعت عينها وقالت في حزن «قضي علينا بأن نعيش وحدنا» ولم يخلُ هو من كآبة خليقة بمن يفارق أهله لأول مرة ولكن هون من وقعها أنّ روحه كانت تمفو كثيرًا إلى الحياة المستقلّة، في بيت غير البيت ووسط غير الوسط. أمّا الأمّ فحافظت على هدوئها الظاهريّ، ولم تشجّع نفيسة على الاسترسال في حزنها وقالت لها بحلّة «لا تبكي كالأطفال، سنراه كثيرًا، وحسبنا سرورًا أنّه نال ما تمّنى». بيد أنّ قلبها كان في وادٍ آخر، حرّك الفراق الوشيك أشجانها فرجعت أوتارها الأحزان المنطوية، فذكرت وداع حسين، وتخيّلت خلوّ البيت من أبنائها جميعًا، وتداعمت إلى ذهنها - على كره - ذكرى رحيل زوجها، فعجبت لحياتها التي لا تجود لها بسعادة إلّا مصحوبة بوداع وفراق. فهل قدر لها أن تمضي البقية الباقية من حياتها وحيدة؟ وهي في سبيل هذه النهاية تصبّرت وتجلّدت وعانت ما عانت من مرارة الكفاح؟! ولكنّها لم تستسلم لحزنها إلّا بمقدار يسير، ونادت قوتها الكامنة، وذكّرت ما صادف ابنها من آي التوفيق لتستعين به على تهديد كآبتها. مهما يكن من أمر فلنّها تؤمن الآن بأنّ ما بذلت من دبر وكفاح لم يضع سدًى، وأنّ سفينتها الضالّة في سبيل الهداية إلى مرفأ آمن. ويحقّ لها أن تفرح فما من ثمرة تحيى في هذه الأسرة إلّا وهي غرس يديها وعصارة قلبها.

وفي الصباح الباكر ودّع حسين أمّه وأخته ومضى في سبيله إلى الكلية الجديدة...

- ٦٢ -

ثم وجد نفسه في فناء الكلية بين جماعة المستجدين من الطلبة ويبحث عينه فيما بينهم لعلّه يجد صاحبًا قديمًا من التوفيقيّة فيلوذ من وحشته ولكنّه لم يظفر بوجه قديم. وضايقه هذا وإن أحسّ زهوًا لكونه الطالب الوحيد من مدرسته الذي قُبِل في الحربيّة. وتمّنى كثيرًا أن يبدأ أحد بالكلام، وطال انتظاره. ولكن أبى كبرياؤه أن يكون هو البادئ. ثم مضى يتسلّى بمشاهدة

ثم وجد نفسه في فناء الكلية بين جماعة المستجدين من الطلبة ويبحث عينه فيما بينهم لعلّه يجد صاحبًا قديمًا من التوفيقيّة فيلوذ من وحشته ولكنّه لم يظفر بوجه قديم. وضايقه هذا وإن أحسّ زهوًا لكونه الطالب الوحيد من مدرسته الذي قُبِل في الحربيّة. وتمّنى كثيرًا أن يبدأ أحد بالكلام، وطال انتظاره. ولكن أبى كبرياؤه أن يكون هو البادئ. ثم مضى يتسلّى بمشاهدة

وتوترت شفتاه، وانتبذ موضعًا بعيدًا متحاميًا النظر إلى أحد أقرانه وإن تخيلهم وهم يتغامزون ويتضحكون. ماذا دهاه الأحمق! ترى هل أهانه لضغينة اضطنغنها عليه أو فقد رشاده؟ أمن الممكن أن يكون هذا هو النظام المتبع في هذه الكلية؟ ولبت مستغرقًا في أفكاره لا يرى مما حوله شيئًا حتى نودي على الطلبة المستجدين ودُعوا إلى أول طابور لهم بالملابس المدنية. ووقفوا صفين متوازيين بإرشاد الباشجاويش محمد عرفان وبعض الجنود، وقد تجنّب النظر إلى صاحبه القديم الذي وجده معلقًا فوق رأسه كالسيف وكظم عواطفه المستعرة أن يلوح منها أثر في وجهه. ثم جاء ضابط عظيم محاطًا ببعض الضباط من رتب أقل، وألقى عليهم نظرة ثابتة ثم راح يخطبهم عن الحياة العسكرية التي آثروها. وكان يخطب باللغة العامية بصوت أجش يوافق ما ارتسم على أساريه من الصلابة والعنف، وكان يفصل بين كثير من جملة هذه العبارة «العقاب الصارم» حتى صارت كضربات الإيقاع وملأ القلوب رهبة وحذرًا. وما إن انتهى من خطبته حتى بدأ أول يوم في الحياة العسكرية الجديدة. واستقبل به حسنين حياة جديدة لم يسبق له بها عهد. وبدأ اليوم - والأيام جميعًا - شاقًا طويلًا، يبتدئ بالبدش البارد في الصباح الباكر، ويثنى بالطابور، ثم الدروس، جهد متواصل، وخشونة في المأكّل والملبس والمعاملة حتى إذا جاء وقت النوم استلقوا كالقتلى. وكانت خشونة المعاملة أفظع ما يلاقونه، كان الرؤساء يرونها فرضًا واجبًا، ويكفي أن يحظى طالب بشرط لأقدميته حتى يمارسها كحق من حقوقه، وهو يمارسها في غير رافة وبسطة تبلغ في أكثر الأحيان إهانة صريحة وتجريحًا متعمدًا. ولم يكن ثمة مجال للاعتراض أو الاحتجاج إذ لم يكن للكلية من شعار تحرص عليه كالطاعة العمياء الخرساء البكماء. ولم يجد حسنين من عزاء في ذلك الجو الرهيب إلا أنه سيصير يومًا أو مباحيًا ثم باشجاويشًا. وهنالك يقضي ديونه دفعة واحدة! وقد ذكر عهد التوفيقية - الذي وصفه يومًا بالإرهاب - بالترحم والراء. وبلغ منه الضيق أحيانًا أن ندم على اختياره لهذه الكلية الجهنمية

وتنقّى لو تواتيه الشجاعة على التخلص منها. وكان يشاركه إحساسه هذا كثيرون في الأيام الأولى على وجه الخصوص. وقد عصرتهم قساوة الحياة فسارع إليهم الهزال، ولعلّ حسنين كان الطالب الوحيد الذي لم يخضع لهذا القانون الطبيعي، بل لعلّ جسمه اكتسب ارتواء غير منتظر لأنّ غذاء الكلية - على خشونته - هيأ له وجبات منتظمة لم يعتدها في أعوام الشدة الأخيرة. بيد أنه تعرّض لآلام نفسية غير متوقعة في أيام الجمع التي يُسمح فيها عادة بالزيارات. كان فناء المدرسة الخارجي يمثل بالآباء والأمهات والأقارب فيحظى الطلبة جميعًا بنهار تمتع ويعودون إلى حجراتهم مثقلين بالهدايا من حلوى وفاكهة ودسم الطعام، حتى الطلبة الريفين لم يُعدموا أقارب من القاهرة، فلم يكن ثمة طالب يقضي هذا اليوم السعيد وحيدًا إلاّ، لم يزره أحد ولم ينتظر أحدًا. وكانت أمه قد أخبرت - قبل رحيله - بأنها لن تستطيع زيارته لأنها - كما يعلم - لم تتمكن من ابتياع معطف جديد يليق بالظهور أمام أقرانه، أمّا نفيسة فقد قالت له بمزاحها المألوف «لا أظنّ أنّه ممّا يشرفك أن أبدو أمام زملائك بهذا الوجه»، ولم يكن ثمة أمل في أن تزوره بهيئة لحيائها وعدم اعتيادها الظهور في مجتمع من الأغراب، فلم يبقَ إلاّ فريد أفندي وكان بطبعه كسولًا لا يكاد يفارق بيته إلاّ لضرورة قصوى، ومع هذا فقد زاره مرّة وحمل إليه هدية من البسكوت. واعتاد في أيام الزيارات أن يختار موقفًا عند مدخل الفناء الداخلي يراقب منه الزوّار بعينين كئيبتين ويتملّ بمشاهدة النساء والفتيات مأخوذًا بجملهنّ وأناقتهنّ وآي النعيم البادية في وجوههنّ وثيابهنّ. وعجب لهذه الفوارق التي تباعد بين الأدميين، وبدت لعينيه غيرة بقدر ما هي مزعجة. وثارَت بنفسه انفعالات السخط والغضب والتمرد فلم يجد من متنفس إلاّ في أن يناقش ربّه الحساب، متسائلًا - فيما يشبه التحدي - عن أسرار حكمته التي جعلت من الدنيا ما هو كائن! وسأله مرّة زميل له عن سرّ عزلته فقال بلا تردد:

- أبي متوفى. وأخي مدرّس بطنطا. أمّا الأسرة

بدت لعيني غريبة لُكَّتْها على غرابتها استتارت حنانه  
 وذكرياته . ووقفوا ثلاثتهم والمرأتان ترنوان إليه  
 بإعجاب وحبٍّ، ثم دعت له الأم وأفصحت عن  
 سرورها بعبارات مقتضبة . ثم لاذت بالصمت، أما  
 نفيسة فلم يسكن لسانها لحظة «لشد ما أوحشتنا» .  
 «البيت من غيركم كالقبر» . «اضطربني وجهي» .  
 «لم يتمكن حسين من القيام بإجازته هذا العام لمرض  
 زميله وقد كدنا نحن من الحزن» . «هل حقاً كتبنا  
 تتراسلان؟» . «لقد أخبرني بهذا منذ عشرة أيام» .  
 «ماذا تعلّمت؟ هل تستطيع الآن أن تطلق بندقيّة؟»  
 وكان يجيب على أسئلتها في دعاية، ثم خلع طربوشه  
 ووضع عصاه وقفّاه على المكتب ولبث واقفاً وهو ينظر  
 إلى سترته ليرى ما فعل العناق بها . وجلست أمه على  
 الفراش وهي تقول:

- اجلس يا بني . . .

فتردّد لحظة ثم قال:

- أخاف أن ينكسر البنطلون! . . .

فتساءلت المرأة بدّهشة:

- هل تظّل واقفاً طالما أنت لابس البدلة؟!

وابتسم في ارتباك ثم جلس على الكرسي في حذر  
 ومدّ ساقيه وهو يفحص بنطلونه باهتمام، وقال:

- إن كسرة واحدة بالبنطلون خليقة بأن توقع عليّ  
 عقاباً صارماً لا يقلّ عن حبس شهر بالكلية .

ونظر في وجه أمه ليرى أثر هذه الكذبة في نفسها  
 فقرأ في صفحته الانزعاج فاستطرد قائلاً بصوت ينمّ  
 عن التضجّر:

- حياتنا شاقّة لا يمكن أن يتصوّرها إنسان، فنهارنا  
 كلّهُ وشطر من الليل نقضيها في الحلاء بين المدافع  
 والقنابل والرصاص، وقد تودي هفوة بسيطة بحياة  
 فرد!

فأتسعت عينا نفيسة في فزع، وتساءلت الأم في  
 اضطراب:

- كيف يُلقون بأبناء الناس إلى الهلاك؟!

وهتفت نفيسة في انفعال:

- لماذا اخترت هذه المدرسة؟

فمحافظة لم تألف الظهور بين الناس على هذا النحو  
 بيد أنّ الأفكار السوداء لم تجد من نفسه مرتعاً  
 خصيباً إذ إنّ الحياة العسكرية لا تمهل الأفكار حتّى  
 يستفحل خطبها، وقد علّمتها أن ينسى باطنه أكثر  
 وقته . ثمّ بمرور الأيام، أخذ يألف شدتها وجوها  
 الخائقة فمضت تخفّ وطأتها وتحمّل، إلى ما ظفر به من  
 صداقات جديدة ابتلّ بها صدره الموحش فاستطاع أن  
 يضحك ملء قلبه - رغم كلّ شيء - كعهده القديم .  
 وهكذا انقضت الأربعون يوماً . . .

- ٦٣ -

وخيل إليه - لدى خروجه من الكلية بالملايس  
 الرسميّة - أنّه حقّق حلماً بديعاً بتصدّيه للعالم بالبدلة  
 الملوّنة . . . كان ينطلق كالعامود في استقامته،  
 كالطاووس في خيلائه، ملقياً على صورته التي تعكسها  
 مرايا الحوانيت والمقاهي نظرات ارتياح تشمل الشريط  
 الأحمر والطربوش الطويل والحذاء اللامع، ملوّحاً  
 بعصاه القصيرة ذات الرأس الفضيّ، قابضاً على قفّاه  
 كأنّه يتحدّى العالم . ولمّا تراءت لعينه عطفة نصرالله  
 جاش صدره بمشاعر متنازعة من العطف والنفور، ثمّ  
 مضى إليها مطمئناً إلى أنّ أحداً لن يراه بمن يودّ ألاّ  
 يروه - لم يُطلع أحداً من أقرانه على عنوانه - راجياً أن  
 يراه جميع الذين يودّ أن يروه، وأحدت به الأعين  
 ولوّحت له الأيدي من رقّاع الأحذية إلى الحدّاد ومن  
 بائع السجائر إلى جابر سلمان البقال . وتطلّع رأسه إلى  
 شرفة فريد أفندي فوجدها مغلقة فسرّ لما تهيّأ له من  
 مفاجأة سعيدة غير مسبقة بتنبّيه، ثمّ قطع فناء البيت  
 إلى الشقّة وطرق الباب وانتظر مبتسماً . وجاءه صوت  
 نفيسة وهي تزعم «من؟» وفتح الباب فما إن رآته حتّى  
 هتفت كالمجنونة:

- حسنين!

وشدّت على يده في انفعال وجعلت تهرّأ بقوة  
 وفرح، وجاءت الأم مهرولة على صوت ابنتها فاستسلم  
 لذراعيها النحيلتين وهي تضمّه إلى صدرها وقبّل  
 جبينها في سرور شائب شيء من القلق على سترته التي  
 طوّقتها ذراعها، ثمّ سار بينهما إلى حجرته القديمة التي

- فهز رأسه بثقة وقال:  
- لا تخافي عليّ! إنّني ألعب بالنار بمهارة استحققت إعجاب الضباط جميعاً!  
فقالت الأمّ بصوت متهذج:  
- ما عسى أن نصنع بإعجابهم إذا أصابك سوء لا قدر الله؟!  
فقال حسنين في سرور خفي:  
- وماذا تصنعين إذا دُعينا إلى الحرب؟.. ألم تسمعا بأنّ هتلر يعدّ عدّته لإشعال نار الحرب؟ وإذا نشبت الحرب هجم موسوليني على مصر فتُدعى جميعاً للقتال! وحدجته الأمّ بارتياح، ثمّ سأله بجِدّ واهتمام:  
- أحقّ ما تقول يا بنيّ؟  
وتراجع قليلاً...  
- هذا ما يقوله بعض الناس!  
- وما رأيك أنت فيما يقوله هؤلاء الناس؟  
وقبل أن يجيب صاحبت به نفيسة:  
- إذا صحّ ما يقولون فاترك المدرسة بلا تردّد.  
فضحك الشاب ملء فيه وقال مشفقاً من إفساد سرور اللقاء:  
- ما أردت إلّا إخافتك!... (ثمّ غيّر لهجته متسائلاً)... فلندع الهذر جانباً وخبريني يا ستّ نفيسة ماذا تعدّين لي غداء للغد؟!  
فابتسمت الفتاة وأدركت أنّ أخاها «ضيفها» نصف نهار الخميس ونهار الجمعة وأنّ إكرامه واجب عليها قبل أيّ إنسان آخر. فقالت:  
- سأشتري لك دجاجتين تطبخهما نينة في ملوخية!  
- عال!.. والحلوى؟  
- برتقال.  
- نفسي في الكنافة. فطالما رأيت هداياها تُحمل إلى الطلبة أيام الجمع فيتخلّب ريقى من بعيد!  
ولم تهتمّ الفتاة للكنافة قدر ما اهتمّت للسمن اللازم لها ولكنها لم تتراجع في نشوة الكرم التي غمرتها فقالت:  
- وستحلّ بالكنافة كما تشتهي!  
فقال الشاب بعد تردّد:
- لو كنت وقحاً لسألتك أن تحشيها بالفسق والبندق!  
- ولكنك لست وقحاً والحمد لله...  
هكذا تهرّبت بالمزاح وأدرك حسنين أنّه لم يعد بوسعها أن تسخو أكثر ممّا سخت فقال ضاحكاً:  
- آه لو رأيتم الهدايا التي كانت تُحمل إلى الطلبة!.. وفي مرّة أهدى إليّ صديق قطعة من حلوى اسمها «بودنج»!  
- بودنج!  
- نعم بودنج...  
فضحكت نفيسة قائلة:  
- لولا الملامة قللت إنّها سلاح لضرب النار! ثمّ سأله أمّه:  
- لماذا لا تخلع ملابسك؟  
فقال في شيء من الخجل:  
- سأذهب إلى السينما!  
ولاح التذمّر في عيني الأمّ فاستدرك قائلاً:  
- وسأعود مبكراً لنسهر معاً، وسنمضي الغد معاً كذلك!
- وعادوا إلى الحديث والذكريات طويلاً، ولكنّه لم يعد يسهه أن يملك خياله الذي ينازعه إلى الشقة العليا! وكان يجد صعوبة في قَطْع الحديث والإفصاح عن رغبته في زيارة جاره فريد أفندي، وأخيراً قال بعدم اكتراث:  
- أنّ لي أن أترككمم للذهاب إلى السينما ولعليّ أجد بعض الوقت لزيارة فريد أفندي!



- كذبت على أمي بقولك إنك استأذنت والدتك،  
وستغضب نفسي لأتأك لم تدعها معنا!  
فأشار إليها بالسكوت وأخذها من يدها إلى الفناء  
ثم إلى العطفة، وسارا معًا والوالدان يطلآن عليهما من  
الشرقة. وكانت بهيئة ترتدي المعطف الأحمر الذي يجلو  
نقاء بشرتها فبدت كالقطة الجميلة. بيد أن القلق لم  
يذهب عنها وقالت له في لوم:  
- ستعلم أسرتك برحلتنا إن عاجلاً أو آجلاً...  
ولم يدع له سروره بالظفر مكاناً لهم فقال ضاحكاً:  
- لم نرتكب إثماً، ولن تحرق الدنيا!  
- ألم يكن الأخلق بك أن تدعو نفسي معنا؟  
- ولكني أريد أن أفرد بك!  
فقالت بقلق، وكانت تخاف نفسي أكثر من أي  
مخلوق آخر:  
- أنت لا تبالي شيئاً وأسفاه...  
ولم يكن لديه من وسيلة للانتقام من تحفظها  
وبرودها سوى الكلمات الصريحة وأحياناً النابية فقال:  
- وددت لو كنت ارتكبت معصية معك حتى  
أستأهل هذا الوصف عن جدارة...  
فتضرع وجهها بالاحمرار وعبست في استياء دون أن  
تنبس بكلمة لأنهما كانا قد اندسا بين الواقفين على  
طوار المحطة، وجعل ينظر إلى وجهها الساخط في  
سرور باطني، ثم همس مبتسماً:  
- أعني معصية خفيفة!  
فأعرضت عنه حتى جاء الترام فصعدا إلى الدرجة  
الأولى ولم يكن بها إلا سيّدة أجنبية تشعر بارتياح،  
وجلس لصقها، ثم سألها في دعاية:  
- كيف كان شوقك إليّ في غيابي؟  
فقالت في شبه غضب:  
- لم تخطر لي على بال قط...  
فهز رأسه كالخزين وقال:  
- ما آلني شيء كما آلني إحساسي بتشوّك إليّ.  
فقالت ببرود وهي تخفي ابتسامة:  
- أصارحك بأنّ الكليّة الجديدة قد زادت دمك  
ثقلاً!

فوجد مشقة في تتبّع الكلام النافه ومشقة أكبر في  
الاشتراك فيه. ثم أخذ يستشعر بالملل والضيق، وكلما  
استرق إليها نظرة وتخلّل قوامها البضّ ثار دمه وحقد  
على الجلسة وشهوها. ورأى في عينيها هدأة وطمأنينة  
كأنه لا يكدّر صفوها مكدر، وإنها لكذلك دائماً كأنما  
لا يجري في عروقها دم، وليس أحبّ إليها من أن  
تجلس بين والديها تصغي لحديثه وهي في مأمن من  
نزواته!.. لذلك يحنّ عليها أحياناً، ولكنه لا يستطيع  
أن يتجاهل ما بثته في حناياه من طمأنينة وثقة فكان  
يشعر بأنّه يأوي من حبّها إلى ركن ركين وعاطفة عميقة  
ثابتة لا تززعها الحدثان. واستمرّ الحديث فلم تجد  
من نفسها شجاعة على الاشتراك فيه فأنهت بهزة من  
رأسها أو ابتسامة من شفيتها فبلغ منه الضيق نهايته،  
وفكر في خرج فخطرت له فكرة جريئة لم يقعد عن  
تنفيذها مدفوعاً بجسارته، فقال موجّها خطابه إلى فريد  
أفندي:  
- هل تأذن لي في أن أصحب بهيئة معي إلى السينما؟  
وتبادل الزوجان النظر على حين خفضت بهيئة عينيها  
موردة الوجه، ثم قال فريد:  
- أظنّ العالم الحديث يستسيغ هذا السلوك بين  
خطيبين...  
ولكنّ زوجه قالت بلهجة المعارضة:  
- أخاف ألا يروق هذا للسّ والدتك.  
ولم يتورّع حسنين عن الكذب إنقاذاً لمشروعه  
فقال:  
- لقد استأذنتها فوافقت بسرور.  
فابتسمت أسارير المرأة وقالت وهي تنظر صوب  
زوجها:  
- ما دام والدها موافقاً فلا مانع عندي.  
وطلب إليها فريد أفندي أن تأخذ أهبتها للذهاب  
مع الشاب فمضت متعثرة في خطوات الخجل، وما  
هي إلّا دقائق حتى كانا يغادران الشقة معاً. ولاحظت  
بهيئة أنّه جعل يسير في حذر عندما اقتربا من شقة  
الأسرة كأنه يخاف أن يتنبه إليهما أحد من الداخل  
فساورها قلق وهمست في أذنه:

المشتهة... .

فرمته بنظرة وعيد ثم نظرت فيها أمامها. وحاول في الظلام أن يعاينها بكوعه أو بقدمه ولكنها لم تشجعه، ثم اضطرت تحت ضغطه وإلحاحه أن تترك راحتها في راحته على الذراع التي تفصل بين كرسييهما، ومضى الوقت في سعادة شاملة... .

- ٦٥ -

وفي مساء الجمعة كان يقف بميدان الملكة فريدة ينتظر الأتوبيس رقم ١٠ ليحمله إلى الكلية. وكان أمضى نهائاً سعيداً في أسرته وتناول غداء لذيذاً، وبدت نفيسة في مرحها المألوف ولكنها - على ذلك - قالت له على مسمع من أمها وبلهجة ساخرة:

- وددت لو رأيتك وأنت ذاهب مع «الهانم» إلى السينما!

وأدرك أن سره افُضح وأن الحرب أعلنت فضحك عالياً ونظر صوب أمه فأراها صامته وعلى شفيتها ما يشبه الابتسامة، وشكر في نفسه بدلتة العسكرية التي أنقذته من لكامتها إلى الأبد. وعادت نفيسة تقول بنفس اللهجة:

- ما أجلكم من زوجين! حضرتك في طول الغمود والهانم طول الشبر ودمها الثقيل يوسع لكما الطريق!

فنهرتها أمها قائلة:

- لا تكوني عيابة وفيك كل العبرا

فقالت الفتاة ضاحكة:

- أنا على الأقل خفيفة، ولكن لك حق يا سي

حسين فوجهي لم يخلق للسينما!

واعتذر لها ما وسعه الاعتذار ولكنه شعر بندم كما يشعر الآن، وما ضره لو كان دعاها للذهاب معه؟ كان يستعيد ذكريات اليوم وهو واقف ينتظر، وما لبث أن انضم إليه كثيرون من زملائه، ثم جاء الأتوبيس فصعدوا إليه متراجمين ولحق بهم آخرون رأى بينهم بعض من قابلهم أمس في السينما فترجح لديه أنهم سيعلقون على فتاته شأنهم في هذه الأحوال، وشّر لذلك سرواً كبيراً وانتظر على لهفة الحديث الذي سيكون دون جوابه. ولم يطل به إلى انتظار لأن أكثر من

وذكر وهو لا يدري ما تعرض به نفيسة من ثقل دم فتاته فرنا إليها متأثراً فوجدتها جميلة فوق ما يشتهي، ولكنها لا تخلو من هذه الصفة! وما غاب عنه أنه يحب هذه الصفة كما يحب العاشق نقائص معشوقه. وعدل فجأة عن معاينتها فقال بحرارة:

- لم تغيبني عن نفسي لحظة واحدة طوال ذلك الفراق، وقد تعلمت جديداً وهو أن الحب في القرب - على طموحه المعبذب - جنة أما على البعد فهو مأساة كاملة.

وخفضت عينيهما دون أن تنبس ولكنها شم في استسلامها وما اعترأها من سهوم رائحة الوجد الصامت وامتلات رثاءه بارتياح عميق... . وتحذت كيفاً اتفق حتى بلغ الترام ميدان المحطة فغادره ومضيا صوب عماد الدين. وطلب إليها أن تتأبط ذراعه ففعلت بعد تردد، ولما كانت تسائر شخصاً - غير أمها - لأول مرة فقد تولأها ارتباك وحياء. وشعرت بكوعه وهو يس - عفواً أو قصداً - لثديها فسحبت ذراعها من ذراعه، وتساءل محتجاً:

- ماذا فعلت!

- هذا أروح لي... .

فتعيط لإفلات الفرصة وقال:

- سيكون من المعجزات تحويلك إلى زوجة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، أي امرأة محبة تعانق وتقبل الخ الخ!

وبعد حين قصير كانا يجلسان جنباً لجنب في السينما، وعأوده شعور بالزهو والخلاء، غير أنه استأثر هذه المرة بميزتين بدلتة العسكرية وحييته. ومر به كثيرون من زملائه الطلبة وخطفت أعينهم من فتاته نظرات متفحصة فتزايد شعوره بالسرور، ومال نحوها وهمس:

- ألا ترين أن جالك يجذب الأنظار من المقاعد والألواح؟

فافتّر ثغرها عن ابتسامة حيية فأطلق مرحة وهمس مرة أخرى:

- قلبي يحذني بأنني سأنال الليلة المقبلة

وضحكوا جميعاً، ثم غيروا مجرى الحديث. وانطوى على نفسه في غَمٍّ وهَمٍّ يعاني سكرات الهزيمة. تبرا من فئاته وهو لا يدري. أه لو علموا أنها خطيبته وأنه استعصى عليه نيل قبله منها بعد مثابرة عامين! طابع بلديّ، ممتلئة أكثر مما ينبغي، قصيرة أكثر مما يُستحب، دم ثقيل من رتبة لواء، أهله بهيمة حقاً؟ وهي إلى هذا كله دقة قديمة! لا يخلو هذا القول من حقّ فهي لا تدري كيف تصحبه في الطريق ولا كيف تحسن الحديث والدعابة، ولا يكاد يذكر من قولها إلا التائب والتذمر. كيف يسعه إذا تزوّجها أن يظهر بها أمام الناس؟ سيقولون هذا وأكثر منه. وشعر بكرب وامتعاض، وغاب عَمَّا حوله غارقاً في أفكاره فلم ينتبه إلى وقوف الأنوبيس أمام محطة الكلية حتّى نهض الطلبة قائمين...

- ٦٦ -

وفي الأسبوع التالي صعد في الوقت المعتاد لزيارة فريد أفندي، وكان الأب وسالم الصغير في مشوار فجلس مع الأم وبهية، واستمتع بقدر من الحرّة لا يتاح له بمحضر الأب. وبدت بهية في فستان بُنيّ تنبسط على أعلى صدره شبه مروحة من الحرير المزركش ينغرز مقبضها أسفل البنيقة وتنتشر أهدابها فوق الثديين، فلم يكن ينقصها إلا المعطف وتصيح متأهبة للذهاب معه إلى السينما إذا دعاها. ولكنّه كان أبعد ما يكون عن التفكير في هذا، وكان صوت نفيسة لا يزال يطنّ في أذنيه وهي تقول له بعد أن أعطته نصف ريال لسهرته:

- هذا لفسحتك أنت وحدك!

ولكن لم تكن نفيسة كلّ شيء، كان في الواقع لا يجد الشجاعة للظهور معها مرّة أخرى أمام زملائه، وبات ينجل منها وهو لا يدري. كان يحسبها أجل فتاة، ولكنّه لم يكن فتح عينيه بعد وجاءت ملاحظات زملائه الساخرة آية على عماها! ورنا إليها فالتقت عيناهما، وهناك نسي أفكاره، وانبعث حرارة دمه واضطربت به الرغبة مستهينة بكلّ شيء، مليحة شهية، لا يستطيع أن يماري في هذا ولكن كيف

واحد منهم بدأ متحفّزاً، فقال قائل منهم وهو يشير إليه:

- أما علمتم؟.. رُئيّ الصنديد أمس وفي يده فتاة! وودّ أن يسمع الجميع وأن يخلصوا لحديثه وحده. وتساءل البعض:

- من أيّ نوع؟!

- النوع البيّ... .

- جميلة؟

وتركز انتباه حسنين واشتدّ وعيه أما المتحدث فقال:

- لها عينان زرقاوان ولكن يغلب عليها الطابع البلديّ!

وتصاعد الدم إلى وجهه وشعر بفتور قضى في الحال على حماسه ونشوته، على حين واصل الآخرون حديثهم في ضحك وصخب:

- ممتلئة أكثر مما ينبغي قصيرة أكثر مما يُستحب!

- ودمها ثقيل من رتبة لواء!

- دقة قديمة على وجه العموم، أين وجدتها؟!

وأدرك أنّ السؤال الأخير موجه إليه ولكنّه لم ينبس بكلمة، وجعل يضحك متظاهراً بالاستهانة وهو يعاني شعوراً جارحاً بالجلجل والقهر. وقال شابّ بلهجة تنمّ على الإشفاق:

- احذر أن تكون خطيبتك!

واندفع قائلاً بلا وعي تقريباً:

- كلاً طبعاً!

- حبيبة؟!

فقال مدفوعاً بمشاعر الألم والخللان التي تصطرع في نفسه:

- نوع من التسلية ليس إلا!

- إذن فلا بأس بها. عذراء؟!

وأجاب باضطراب شديد: نعم...

- خيّب الله أملك! لماذا تنفق وقتك عبثاً؟ ألم تدري

بأنّ التقاليد تقضي بأن تكون ليلة الخميس للعشيق

ويوم الجمعة للخطيبة أو من يقوم مقامها؟!

فتكلّف الشابّ ضحكة وقال:

- سأصطحّ جدول النساء في المستقبل!

- ماذا أحدثت ذهابنا معاً إلى السينا في بيتك؟  
ووجد فيها تعنيه بسؤالها عذراً ينفعه في تجنّب ما  
يريد تجنّبه فقال:

- لا شيء ذا بال إلّا أنّ والدتي ساءها أن أدعوك إلى  
مخالفة تقاليد أسرتك المحترمة!

فقالت ببرود:

- ليس ممّا يسيء إلى الأسر المحترمة أن تذهب فتياتها  
إلى السينا!

- كما لا يسيء إليها العناق والقبل ولكنك - مثل  
أمي - لا تصدّقين!

فتجاهلت إشارته وتساءلت:

- هل منعتك من العودة إلى تلك المخالفة؟!

- كلّاً!.. ولكنّها تخاف أن أسيء من غير قصد إلى  
أسرتك الكريمة.

- ألم تخبرها بموافقة والدتي؟

- أخبرتها ولكنّها اعتقدت أنّها وافق متورّطين.

- هل أفهم من هذا أنّنا لن نخرج معاً بعد اليوم؟  
ولم يستطع أن يجابهها بما يبطن فقال:

- بل نخرج حين نشاء.

وندم على قوله أثر التفوّه به، أمّا هي فابتسمت في  
حياء وقالت بصوت منخفض:

- ظننت أنّنا سنذهب اليوم إلى السينا!

وعجب لهذه الدعوة تقيء من ناحيتها هي، ومع  
أنّه رقّ لها إلّا أنّه لم يستسلم لعاطفته فقال:

- لولا أنّني مرتبط بموعد كما قلت لك.

- آه... هذا أهمّ من ذهابي معك!

- ليس الأمر كذلك لكن سبق منّي وعداً... ثمّ...  
ثمّ لا يجمل بنا أن نعاود ما تظنّه أمي مخالفة للتقاليد

بهذه السرعة!

فهزّت رأسها في ابتسامة حزينة وقالت:

- إذن فليس الموعد الذي يمتنع!

فقال بتسليم:

- كلا الأمرين معاً... لا تؤاخذني أمي على  
عقليّتها القديمة.

فخرجت عن ضبط عواطفها لأوّل مرّة قائلة:

يتعامى عن هذه الحقيقة المرعبة وهي أنّه يتحاشى  
الظهور معها أمام الناس؟! وكانت الأمّ لا تمسك عن  
الحديث وهو يحاورها باقتضاب وشروء حتّى قالت له:

- ما لك يا سيّ حسنين كأنّك مشغول البال!

فأفاق إلى نفسه مضطرباً وقال كالمعتذر:

- كان الأسبوع الماضي حافلاً بالتمارين القاسية  
حتّى غادرنا الكليّة كالأموات!

وواصل الحديث وهو أشدّ انتباهاً له حتّى استأذنت  
الأمّ لأداء الصلاة فخلا لها الجوّ، وبادرته الفتاة قائلة:

- ما لك؟

فقال مبتسماً ليذهب عنها الشك:

- لا شيء!

- لست كعادتك!

وخطر له خاطر مآكر بعثه في نفسه خلّو المكان  
وعواطفه الثائرة فقال متظاهراً بالحزن:

- لا أنسى تحفّظك معي!

- أتعود إلى هذا؟

- طبعاً!.. هذا حقّي ولا أنزل عنه ما حييت.

فقال الفتاة برجاء:

- حسبت أنّنا انتهينا من هذا؟

- إنّني في حيرة من أمرك، جميع زملائي لهم خطيبات  
مثلك ولكنّهنّ لا يجرمنهم حقوقهم من العناق والقبل.

وعغمخت موردة الوجه:

- لسن مثلي ولست مثلهنّ!..

هذا حقّ، ولعلّ زملاء لم يقتصدوا في توكيد هذا  
ولكنّها لا تدري ماذا تقول! وتفكر فيها بنطوي عليه

قوها من سخرية لم تُدّر لها بخلد، وقبل أن يتكلّم  
عجلّت هي بتغيير مجرى الحديث فسألته:

- أذهب أنت إلى السينا؟

وأدرك أنّها تهيئ له فرصة ليدعوها للذهاب معه،  
وساوره إحساس بالضيق ولكنّ إشفافه كان أكبر من

حرجه فقال:

- كلّاً سأوافي بعض الزملاء إلى موعد سابق!

وخفضت عينيها في خجل، ثمّ ساد صمت أليم،  
وأخيراً سأله بلهجة ذات معنى:

بشجاعة الرجل الذي يستصحب هذه المرأة دون مبالاة بأحد. ولاحت منه التفاتة إلى يساره فرأى في الكرسي الذي يليه فتاة حسناء مرتدية جاكته رمادية وتأثيراً، ونخيل إليه لحظة أنه لا يرى هذا الوجه لأول مرة. وراح ينقب في طوايا ذاكرته، وفي أثناء ذلك انتقل بصره إلى امرأة تليها ثم إلى رجل ما إن رآه حتى دق قلبه بعنف ونهض قائلاً ومد له يده بأدب وهو يقول:

- مساء الخير يا سعادة البك.

فالتفت الرجل صوبه - كان أحمد بك يسري - وابتسم إليه مسلماً، ثم قدّمه إلى زوجته وكريمته وعقب على التعرف به قائلاً «ابن المرحوم كامل أفندي علي» فسلم عليهما في غاية من الأدب وعاد إلى جلسته ومس يد الفتاة يسري في جسده، وسأله البك عن حاله في الكلية فأجابه شاكراً ثم فرغ كل لحاله. ونظر إلى أمامه وهو يشعر بارتياح لأنه جاز فترة التعارف وهو ثابت متمالك لأعصابه مع أنه كان يقدم إلى عضوين في هذا الجنس اللطيف العالية لأول مرة في حياته. ومّا ذاك نادل يحمل ألواناً من الشيكولاتة والمشروبات لو كان يملك من النقود ما يسعفه بتقديم بعض منه الأسرة، ولكن لم يكن في جيبه إلا قروش، فحنق عر إفلات هذه الفرصة منه، وحقد على فقره كما لم يحقد عليه من قبل! ثم أطفئت الأنوار وعادت الحياة إلى الشاشة، ولكنه لم يندمج فيها ووجد من وعيه وخياله إباء وجوحاً. تأكد لديه الآن أنه لم يكن يرى هذا الوجه البديع لأول مرة، وذكر الساق العارية التي كشفت عنها حركة الدراجة بحديقة الفيلا. ترى أي أثر قد تركه في نفسها؟ وأي أثر أخلفه قول أحمد بك من أنه «ابن المرحوم كامل أفندي علي»؟ كان والده موقفاً صغيراً، وفضلاً عن هذا فلا شك أن المراتين تعلمان بما بذل البك لأسرته من شفاعاة تارة ليوظف حسين، وتارة ليلحقه بالكلية الحربية، وهيهات أن يغيب عنها حقيقة مستواه الاجتماعي. ولعل الفتاة لم ترف فيه إلا صنعة لمعروف والدها، ولعلها قالت لنفسها إنه لولا يد أبيها ما ارتدى - هو - بدلتة ذات الشريط الأحمر! كل هذا محتمل، بل هو مؤكد، وقد التهب

- فكيف تسمح لنفسية بالخروج كل يوم!؟  
ولم تعجبه لهجتها، وساءه ما تضمنته فقال بلهجة لم تخل من حدة:

- لولا العمل لما غادرت نفيسة البيت أبداً!

وبادرت قائلة بلين وإشفاق وأسف:

- لم أقصد سوءاً بأحد. أردت أن أقول إن الخروج لا يعيب إنساناً...

وساد الصمت قليلاً ثم سمعا وقع أقدام الأم وهي راجعة فساءلت بهيئة في لهفة وإشفاق:

- حسنين أنت غاضب؟

ولم يستطع أن يجيبها بسبب ظهور الأم فابتسم لها ابتسامة رقيقة أثابت إليها طمأنينتها... ومكث معها ساعة ثم ودّعها وانصرف.

- ٦٧ -

لم يكن ثمة موعد كما زعم وقد ذهب إلى السينما بمفرده ودخلها بعد بدء العرض بدقائق فأرشد إلى كرسية في الظلام. وجعل يشاهد الجريدة بنصف انتباه والنصف الآخر هائم في البيت الذي غادره معتذراً بالكذوبة. وذكر كيف ضغطت على يده بحنو وهي تودعه، ضغطة لذيدة أرعشت قلبه وغفرت لها ما تقدم وما تأخر من إساءة! «أمنيتي الآن أدنى إلى التحقيق، لو مارست ضبط النفس بدل التهالك والتوسل لفزت بما أشتهي من زمن. لو عبست في وجهها مرتين لما أصرت على قول «لا». ما أحقني! لن أقنع بقبلة. لأضمتها إلى صدري حتى يقطع عظمها تحت ذراعي، بعيداً عن أعين النقّاد التي لا تعجبها إلا الملاحة والرشاقة والموضة. ولكن هل أصرّ على إخفائها عن الأعين بعد أن أنزّج منها؟ لماذا لا أستعين بالناس وألستهم؟ يا له من شر لا قبل لي بالتعامي عنه! هكذا أنا» وارتاح من أفكاره بتركيز وعيه على الشاشة فرأى هتلر وهو يستقبل سفراء الدول بمناسبة عيد ميلاده، ثم شاهد فصلاً من الصور المتحركة وأضيئت الأنوار. ودار برأسه فيها حوله متفرساً في الوجوه فاستوقف نظره امرأة هائلة مفرطة في السمنة لحدّ مُزّر تجلس لصق زوجها وتنازعه الحديث، ولم يسعه إلا الإعجاب

تركيز انتباهه في الشاشة، ولكنه كان قد استنفذ حيويته كبيرة فبدأ المنظر متعباً مملأً، وتصبر عليه في جهد حتى انتهى وأضيئت الأنوار. والتفت الأعين فحنى رأسه تحية ثم انخرط في تيار الخارجين. انفلت من الزحام فتمشى في الطرق ساعة ثم استقل الترام إلى شبرا. وأقبل على حيه فبدت له عطفة نصر الله أشد كآبة من عهدها، وزكمت أنفه رائحتها التي يختلط بها التراب بالدخان بمواد شحمية كثيرة فقطعها برماً خابي العينين.

- ٦٨ -

وتواصلت الأيام حتى أوشك العام الدراسي على الختام. وفي تلكه الأخير علم أن وزارة التربية قررت تخريج دفعة الشاب مكتفية بعام دراسي واحد على أن يتم التخرجون تدريبهم في الفرق التي يلحقون بها، وذلك لتواجه زيادة عدد الجيش بعد إقرار المعاهدة. وضعف العمل للطلبة ولكنهم أقبلا عليه مستبشرين ومتحمسين، والواقع أنها كانت حقيقة أقرب ما تكون إلى الخيال فلم يكن ثمة واحد منهم يصدق أنه سيكون ضابطاً بعد عام دراسي واحد، وكان آخر هؤلاء جميعاً حسنين نفسه. ثم انتهى العام وتخرج الشاب واستخف الطرب الأم وكانت أشبه بملاح تائه تمرق شراعه ونقد طعامه إذ تكشف الضباب لعينيه فجأت عن مرفاً آمن، ولهج لسانها بحمد الله وجعلت تقول في حرارة وإيمان عميق «أنت وحدك يا ربّي الذي أخذت بيدي، ومن كان يرى حالنا بالأمس ونحن نتخبط في ظلمات اليأس ويرانا اليوم وكل شيء من حولنا يدعو للأمل يقر من صميم قلبه بعدلك ورحمتك». وغبطت نفسها على سعادتها لأول مرة في حياتها وأخذت محنتها الطويلة تترأى لعينها الذابلتين في هالة من الفخار والسرور وكأنها لم تكن سوى عبوسة مصطنعة على جبين الأقدار الرحيمة، فابتلت عينها بدموع الفرح والشكر. وكانت تقتصد من نقود حسين ونفيسة ما تعدّه لسداد مصروفات السنة التالية فأخذ حسين ليهيئ به ملابس الضابط الكاملة وشغل بذلك طول المهلة التي تُمنح للتخرجين قبل توزيعهم على الفرق المختلفة. ولما كان ترتيبه بين الأوائل فقد

جبينه خجلاً وسخطاً. «لقد رأيت ساقك على الدراجة، عاجية جذابة ولكنها ليست بمعجزة. لا توجد معجزات في هذه الدنيا. ألسنت تنامين كأني فتاة، وتغييب عن الوجود كأني امرأة، وتحيلين كما تحيل الخادمة التي طردناها، لفقرنا، وتعوين حين المخاض كأني كلبة!» وحك أنفه بسبائه فجأة فتسّم شذاً لطيفاً مما علق براحته عند السلام، فيه إثارة للأعصاب ونفاذ إلى القلب كأنه السحر، فأسكره عرفه وبث في نفسه رضى وسلاماً مسحاً عن صدره أدران الحنق والألم. ولحظ طيفها اللطيف فحدس أنها شابة ذراعيها على صدرها، وتمنى لو تريح ساعدها على يد المقعد فتمسّ ساعده عفواً. ثم تحيل صورة وجهها الذي ألقى عليه نظرة خاطفة وهو يسلم عليها، بطوله الممتلئ وعينها السوداوين اللتين تنان عن حيوية وخفة، وهالة شعرها الأسود العميق السواد، وبشرتها النقية التي تزين وجنتها اليسرى شامة، ثم راح يستحضر صورة بهية، ويعرض الصورتين جنباً إلى جنب حيال مخيلته حتى اقتنع بأن هذه الفتاة ليست أجل من فتاته، ولكنه شعر في الوقت نفسه بأن بهية جمال جامد وهذه جمال متحرك، كأنما يبت في النفس حرارة ويشع في الخيال حياة. وليس هذا فحسب فإثباتها تثلب لعينيه الطموحتين كرمز حي للدنيا الراقية التي يتطلع إليها بشغف جنوني. لم تكن فتاة بقدر ما كانت طبقة وحياة. وبرغم نشوته الراهنة لم يحدع عن حقيقة شعوره، ولم يتوهم أنها تغلغل في قلبه حيث استكنّت بهية. فهذه على سلبيتها المطلقة - تقبض على جذور غرائزه وأعصابه، ولكن الأخرى تخاطب مباشرة طموحه الذي لا يقف عند حد، ولعله عرف على ضوء عينها جانباً من نفسه كان غامضاً وهو أنه يؤثر في أعماقه الطموح على السعادة والسلامة! ثم هبطت عليه نوبة فتور مفاجئ فقال لنفسه «إني أحلم أحلاماً سخيفة. ولكن لا يحق لي أن أروّج عن صديري بالأحلام؟ أليست الأحلام نفسها حلماً؟ بلى، إنها حلم، ولا يكدر صفوها إلا شعورنا الوهمي بأنها حقيقة!». وانقضى زمن لا يدريه قبل أن يتمكن من

- كلام يقال ولكنه لن يغني عَنَّا شيئاً وأنت أخبر بالنفوس!

- لا أحب لك يا بني أن تنقص عليك صفوك بأمثال هذه التخيّلات! . . .

فاستدرك قائلاً وكأنه لم يسمع قولها:

- هذه العطفة الحقيمة تعرفنا على حقيقتنا، فلهذا لا أطيق البقاء فيها. . .

وأشفقت الأمّ من تكدير سعادتها الشاملة فقالت بتوسّل:

- ستسوّى هذه الأمور مع الزمن فلا تتعجّل بحمل همّها!

وحدها بنظرة غريبة وغبطها في نفسه على قوّة أعصابها، ولكنه سرعان ما تغيط لعدم اكترائها بالأخطار التي تتهوّل في رأسه وقال بحلّة:

- قد تسوّى هذه الأمور مع الزمن حقّاً ولكن بعد أن تكون قد قضيت عليّ!

فلاحت في عيني المرأة نظرة ارتياح وقالت له في عتاب:

- أراك كعادتك نافذ الصبر متعجّلاً للمتاعب، ونصيحتي لك ألا تخلط أفراحك الحقيقية بأتراح وهميّة لا أهميّة لها.

فقال باستنكار:

- لا أهميّة لها!

ماضي نفيسة وما يعرفه هذا الحيّ عَنَّا لا أهميّة له؟

- إذا لم تأخذ نفسك بالإيمان بهذا فلن ننعم بالسعادة أبداً.

فتنهّد حسنين قائلاً:

- أودّ أن أسدل على الماضي ستاراً كثيفاً.

- تجمل بالصبر وسيكون لك هذا.

فالتهب الشاب غيظاً وقال كمن ضاق صدره:

- لا أخاف شيئاً كخوفي الصبر الذي تدعيني إليه.

انظري إلى هذه العطفة الحقيمة وهذا البيت العاري هل أستطيع أن أخفيها إلى الأبد عن أعين زملائي؟! وشعرت المرأة بتعاسة وأدركت أنّ حياتها لن تخلو من همّ وكدر. وقالت له بمرارة:

ألحق بسلاح الفرسان بالقاهرة وتبيّاً للأسرة من حسن التوفيق ما لم تكن تحلم به، وارتدى حسنين بدلة الضابط فتحقّق حلمه القديم وجعلت أمّه تنظر إليه بعينين أذهلهما الفرح حتّى شدّت عن المألوف من صمتها ورزانتها، فهذا هو الابن المحبوب، زهرة حياتها وأملها المنشود. وقد قال لها مرّة:

- إذا حان موعد الاحتفال بالمحمل فسيتاح لك ولنفيسة فرصة باهرة لتشاهداني على صهوة جوادي على رأس فرقة الفرسان!

فلم تتمالك أن قالت له:

- هذا إذا ابتعت لي معطفاً يليق بالظهور في الطريق الغاصّ بالمتفرّجين!

فضحك الشاب قائلاً:

- صبرك حتّى أقبض مرتّبي!

كانت أليماً سعيدة صفت لهم فيها الدنيا وطابت. بيد أنّ الشاب كان يفكر في أمور كثيرة، وكان يروم أن يقيم سعادته المتاحة على أسس ثابتة لا يتطرّق إليها الفساد، فانتهاز فرصة انفراده بأتمّة مرّة - كانت نفيسة في الخارج - وقال لها بصوت ينمّ عن الاهتمام الشديد:

- أمّاه، يجب أن تنقطع نفيسة عن عملها المزري في الحال لأنّه لا يجوز لأخت الضابط أن تكون خيّاطة.

فابتسمت الأمّ وقالت في بساطة:

- سترحب بهذا يجمع قلبها يا بني. . .

كان ينتظر هذا القول بلا ريب بيد أنّه لم يحج من نفسه ما يعتلج بها من مثار الفكر فاستطرد متنهّداً في كتابة:

- ليتنا نستطيع أن نحمو الماضي من صفحة الوجود! . . . أخاف أن يعيرنا قوم بما كان. وأنت أعلم بنفوس الناس، وأكره ما أكره أن يترامى شيء من هذا إلى أحد من زملائي فأفقد كرامتي بين أقراني. . .

فسرى إليها بعض همّه ولكنها ربّتت على كتفه مبتسمة وقالت باستهانة:

- كنّا فقراء، وأكثر الناس فقراء ولا عيب في هذا. . .

فهزّ رأسه معترضاً وقال في أسى:

- خطوة خطوة! كنّا لا نجد الطعام فانظر أين نحن الآن!!

فهزّ رأسه في حزن وقال:

- ما أردت إغضابك يا أمّاه ولكنّي أفكر في هذه الأيام كثيرًا في المتاعب التي تتهدّنا. وقد ذكرت لك بعضها، ولعلّ ما بقي أدهى وأمرّ. فانظري مثلاً إلى أخي حسن وسيرته في الحياة! كيف نستقبل الحياة في هدوء وحولنا هذه المتاعب؟!

وتفرّست في وجهه بدهشة وكأنّها تعجب لقدرته على اصطياذ الهموم، وغتمت فيما يشبه اليأس:

- دع الخلق للخالق. كنّا هكذا دائماً فلم نهلك ولم يقض علينا.

فقال الشاب بإنكار:

- لم أكن ضابطاً أمّا الآن فقد أصبحت سمعتي مهذّدة!

وتجهّم وجه الأمّ ولاذت بالصمت في كرب شديد فتهدّ حسنين قائلاً:

- ينبغي أن يتغيّر كلّ شيء، حتّى قبر والدنسا المكشوف بين قبور الصدقة. تصوّري ماذا يظنّ بنا زملائي لو علموا بمكانه!

ودارت الأمّ مشاعرها بابتسامة وقالت برجاء:

- إنّي أحبّ لنا ما تحبّ ولكنّي أوصيك بالصبر وأحدرك عواقب ثورة لن تجدي الآن إلّا الحزن. تريد أن تمحو الماضي وتغيّر البيت وتنشئ مقبرة وتبدّل أخاك من حال إلى حال، ولكن هيهات أن يتمّ لك ما تريد قبل زمن طويل فكيف يكون العمل؟ طالما تمّنت أن تسعدنا وأن تسعد معنا فإذا لم تروّض نفسك على التسليم بالواقع وتأخذها بالصبر شقيت وشقينا!

وضاق بالكلام ضيقه بمتاعبه فأمسك عنه. ولم يقع قولها من نفسه الثائرة موقع الانتناع أو القبول فخيّل إليه أنّها لا تشاركه آماله وعواطفه، وأنّه وحيد في معركة الحياة أو الموت. إنّ نفسه تهفو لحياة أفضل وأنظف، ولن يحيد عن هدفه، وليدافع عن سعادته وآماله بكلّ ما أوتي من قوّة ورغبة في الحياة. ودقّ الباب عند ذاك، وكان المساء يمدّ رواقه، فحدس أنّها

نفيسة عائدة من عملها، فهرع إلى الباب في تصميم جديد.

- ٦٩ -

ودخلت الفتاة مبتسمة وكانت لا تُرى تلك الأيام إلّا مبتسمة مستبشرة. واستبان في وجه أمّها سهوً فاقتربت منها وقالت مداعبة:

- تحلّي يا أمّاه عن هذا الجدّ الذي لا داعي له فقد انتهت متاعبنا.

وردد حسنين قولها في نفسه محزوناً، هل حقّاً انتهت متاعبهم؟ إنّ ميزانيّة الجيش كلّها لا تكفي لإنهاء متاعبهم! ثمّ رفع بصره إليها وقال بلهجة ذات معنى:

- أن لك أن تسترحي...

فتساءلت ضاحكة:

- أتعني أن أترك مهنتي؟

- نعم...

- أتركها غير آسفة، وسألزم بيتي كالهوانم، ألسنت شقيقة ضابط؟!...

ولم يتالك أن قال ساخراً:

- وشقيقة سي حسن أيضاً!

فرددت عينيها بينه وبين أمّها في دهشة وتساءلت عمّا جعله يقحم أخاه بهذه اللهجة المرّة، أمّا هو فسأها متهكماً:

- ألا يسرك هذا؟

وقالت الفتاة برقة وعطف:

- مهما يكن من أمر أخينا حسن ففضله لا يمكن أن ينكر.

وتدارك الشاب قائلاً:

- لست في حاجة إلى من يذكرني بهذا، وعلم الله أنّي أحبّه، ولكن لا حيلة لي إذا قلت إنّ سلوكه في الحياة ليس ممّا يشرف.

وثقبت العبارة الأخيرة قلبها فلاح في عينيها نظرة زائغة، وتخيّلت أموراً فبردت أطرافها رعباً، ثمّ خيّل إليها أنّه يعينها بالذات، ولم تعد ترتاح للصمت فغمغمت في فتور:

- وآية أسرة تخلو من شيء من هذا القبيل!



فقال حسنين بامتعاض:

- ولكنّه لا يوجد في الأوساط المحترمة.

وركبها الضيق والقلق فرغبت في الاختفاء وتظاهرت بالضحك وقالت في مرح متكلف:

- لا يستحيل أن يوجد شقيقان أحدهما وزير والآخر لص، بالله لا تكذّر صفونا، واعلم أنّي صنعت لك صينيّة كنانة فدعني أسخّنها ولنأكل في سلام!

وغادرت الحجرة إلى المطبخ بوجه مكفهّر ونفس حائرة يشيع في قلبها خوف وقلق. إنّهُ يدعوها إلى القبوع في البيت أسوة بالنساء المحترمات، وإنّهُ ترحّب بهذا ولكن ما كان كان ولا سبيل إلى إصلاحه. وهي تستطيع إذا شاءت أن تتحلّ لسلوكها الأعذار وأن تقول لنفسها إنّها إنّما ارتضت تلك الحياة للحصول على النفود التي أقامت بها أود أسرتها في أكلح ساعات حياتها، وهذا حقّ ولكنّه ليس الحقّ كلّهُ فهنالكَ أيضًا

الرغبة المعبّدة واليأس القاتل. وكم ودّت في ساعات يأس لو تموت هذه الرغبة ولو تموت هي بموتها ولكنّها كانت تزداد رغبة وانحدارًا ويأسًا ثمّ تمرّدًا واستسلامًا. وعانت كثيرًا شقاء الذنب وكان عزاؤها الوحيد - إن كان عزاء على الإطلاق - أنّ الأقدار لا يمكن أن تدخّر لها حياة أفضل. وكم تمرّقها الحيرة الآن بين ماضٍ

تعيس ورغبة لا تسكت عنها. وحتيّ هذه الحياة الجديدة الموعودة لا تدري إن كانت تستطيع حقًا أن تخلص لها بعد ما كان، فلن تغيض رغبتها ولن يتخلّى عنها اليأس، وفيّمْ تأخذ نفسها بصر لا مطمع لأمل وراءه وليس لديها ما يصحّ المحافظة عليه؟ هل يمكن أن تقنع من الحياة بانتظار طويل ممّ للموت؟ لا تدري إن كان بوسعها حقًا أن تخلص للحياة الجديدة، وأن تتعدّب عذابًا طويلًا متّصلًا بعد أن خسرت كلّ شيء.

إنّهُ تمقت الماضي وتخافه ولكنّها تُشدّ إليه بقوة شيطانيّة فلا تستطيع منه فكّاكًا، ولن تفتأ تتبعه يائسة مثقلة بالذنب مرتعبة، كمن يسلم لل سقوط من علّو شاهق في كابوس بعد أن أيس من اليقظة. وجعلت تنظر في سهوم إلى صفحة الكنانة المورّدة حتّى تحيّل نفسها في الصينيّة تخرّق وقد اسودّت بشرتها، وفي تلك اللحظة

بدأت الحياة لها عابثة قاسية، تعبت في قسوة. وتقسو في عبث. فتساءلت «لماذا خلّقي الله؟». ومع ذلك كانت تحبّ الحياة، ولم يكن يأسها وعذابها وخوفها إلّا آيات على هذا الحبّ، وكانت إلى هذا كلّهُ تنتظر مع الغد موعدًا لم تضمر النكوص عنه.

وحملت الصينيّة بخرقة بالية وعادت إلى الحجرة فوضعتها على المكتب وهي تقول في مرح وكأنّها نسيت أفكارها ومخاوفها:

- أقدم لك آخر كنانة من عرق جبيني، وعليك وحذك منذ الآن أن تحيّل الاستننا!

وأقبلوا على الكنانة بشهوة وقد تطهّرت الأنف من همومها، وقالت الأم وهي تغرز أصابعها في الصينيّة:

- ليت حسين كان معنا.

ولوّح لها حسنين بإصبعه حتّى ابتلع ما في فيه ثمّ قال:

- آن لنا أن نسعى إلى نقله إلى القاهرة. كان أحمد بك يسري قد وعد بنقله بعد مرور عام أو نحوه وما قد أوشك أن يمضي عامان على تعيينه في طنطا. كان يرغب في معايشة أخيه كعهدهما القديم، وكان يأمل أن يجد فيه عونًا على متاعبه، وقد رحّب إلى هذا وذاك بفرصة تتيح له زيارة أحمد بك في قصره.

- ٧٠ -

ذهب مع أصيل الغد إلى فيلّا أحمد بك يسري وفي نيّته أن يقدّم له فروض الشكر المناسبة فخرّجه ثمّ يستشفّعه لنقل أخيه إلى مدرسة من مدارس القاهرة. وقد وقف البوّاب احترامًا للضابط ثمّ قاده إلى السلامك ومضى إلى الداخل لابناء البك بحضوره. وجلس حسنين إلى الكرسيّ الذي جلس عليه أكثر من مرّة في أوقات متباعدة وظروف مختلفة، وراح يسرح طرفه في الحديقة. وجرى بصره في المشى الطويل المتعرّج الذي رأى الدّراجة تقطعه في مهل وحذر منذ أكثر من عام وتساءل ترى ألا تزال تلهو بهذه الرياضة؟ وإبتسم للذكرى حينًا ثمّ تساءل مرّة أخرى أحقّ جاء للشكر والشفاعة وحدهما؟! وعاوذه الابتسام. بيد أنّه كان في حيرة من أهدافه قلقًا حيال البواعث التي

الارتباك حيال البك وأنداده من عليّة القوم. وذهب  
البواب لاحضار الليمون أما البك فسأله برقة:

- أين كان تعيينك؟

فقال حسنين بزهو مكتوم:

- سلاح الفرسان بالقاهرة.

- كنت من المتقدمين؟

- الثامن....

وهتاه الرجل، ثم ساد الصمت. وكان في عزمه -  
لو قابل البك منفردًا - أن يعدّد أياديه على أسرته وما  
بذل من شفاعاة محمودة له ولأخيه على أن يتدرّج من  
الثناء إلى عرض مسألة أخيه حسين، ولكنّه عدل عن  
هذا مصمّمًا على الاحتفاظ بكبريائه أمام المرأتين، وأمام  
الفتاة خاصّة، ولم يرَ ضيرًا في تأجيل مسألة شقيقه إلى  
غد أو بعد غد على أن يتحدث البك عنها في مكتبه  
بالوزارة. وجاء خادّم نوبيّ بأقداح الليمون دار بها  
عليهم. وانتهاز حسنين فرصة رفعه للقدح إلى فمه  
فاسترق إلى الفتاة نظرة من فوق حافة القدح فراها  
وهي تحسو شرابها في رفق ولطافة، فلم يند عن زورها  
هذه الحركات العصبية التي يبعثها الازدراء العنيف،  
وتمرّزت السائل في رقة فانسكب في هودة وحياء، وقد  
اكسى وجهها بهدوء بديع واسترخاء حالم كأنها تستنيم  
للمسات النعاس، وأعاد القدح إلى الصينية ثملاً بنشوة  
افتتان تبعثها الأناقة والرشاقة وأمارات الأرستقراطية.  
وتخيّلها فجأة بين ذراعيه مستكنة مستنيمة فأصرّ على  
أسنانه. «ما هذا الجنون الذي ينبعث في دمي. ليس  
شهوة فحسب، بل ليس شهوة على الإطلاق، بهيمة  
أشهى منها وإن كان يخجلني الظهور معها أمام الناس،  
ليس ركوب هذه الفتاة بعمل جنسيّ ولكنّه غزو كامل  
وفتح مظفر. هذه!». وانتبه من أفكاره على صوت  
أحمد بك وهو يسأل:

- كيف حال الأسرة؟؟

فخطر له خاطر ظنّ أنّه يرفع من كبريائه، وكانت  
الأكاذيب تنبعث في نفسه أحيانًا بوحى البديهة فقال بلا

تردد:

- الحمد لله. انقضت متاعبنا بعد أن كسبنا

تحرّكه، مشفقًا من الاساءة إلى خطيئته، ثم ذكر زيارته  
الأخيرة - التي أعقبت تحرّجه - لبيت فريد أفندي  
وكيف مرّت في أحاديث مملولة وشعور أليم بالحرمات.  
حقّ أنّه لم يظفر بجلّسة منفردة واحدة بفتاته، ذكر هذا  
فوجد من التذمّر ما هوّن عليه إحساس التائب الذي  
دبّ في أعماقه لسروره بذكريات فيلّا أحمد بك. ونفض  
عن رأسه أفكاره واستسلم لمشاعر الطموح التي تتوهّج  
في قلبه في محيط هذه الفيلا الرائعة فانثالت على غيّلته  
الأحلام، ماضٍ جديد وبيت جديد وقبر جديد وأهل  
جدد ومال موفور وحياة وضّاء لامعة. ومع أنّه صار  
ضابطًا، ولعلّ كثيرين يرمقونه بعين الحسد لذلك، إلّا  
أنّه أدرك الناس بقلبه الذي يحترق لهفة على الحياة  
السامية النظيفة، هذا القلب الذي أوردته الجزع موارد  
القلق والسخط والشقاء، ولبث على استسلامه  
للأحلام حتّى عاد البواب من الداخل وتنحّى عن  
الباب في أدب وهمس «سعادة البك قادمًا». ونهض  
حسين، ثمّ ظهر البك في بدلته البيضاء والوردة  
الحمراء تزّين عروته، ولما رأى الشابّ ألقى على بدلته  
العسكرية نظرة شاملة ثمّ قال ضاحكًا:

- أهلاً بالضابط.

وانحنى الشابّ على يده مسلّمًا وهمّ بالكلام ولكنّه  
رأى حرم البك تتبعه قادمة من الداخل وفي أثرها  
الفتاة. وأدرك أنّه جاء في وقت غير مناسب لغرضه لأنّ  
الأسرة متأهبة للخروج، وقد توكّد هذا لديه حين لمح  
السيّارة تدور في الممشى الواسع وتقف عند أسفل  
السلامك منتظرة الداهيين، فما كان منه إلّا أن سلّم  
على المرأتين وتأخّر خطوتين قائلاً:

- جئت لأقدّم لسعادتك فروض الشكر لمناسبة  
تحرّجي، وأرى أن أستاذن في الانصراف الآن حتّى لا  
أؤخركم.

ولكنّ البك قال:

- بل نجلس لنشرب ليمونًا معًا، ما يزال أمامنا  
فسحة من الوقت...

وجلسوا فجلس وهو يبذل قصاره ليعبّط أعصابه .  
فلم يكن أبغض إليه من أن يتولّاه الاضطراب أو

القضية!

فتساءل البك:

- أي قضية؟

فقال بلبات وثقة:

- قضية قديمة بين أمي وأخوالي على أوقاف وقد

حكم لأمي بنصيبها كاملاً!

فقال الرجل:

- مبارك... مبارك...

وشعر حسنين بارتياح وزهو، ثم وهو يقول:

- لقد أخرجتكم وأنا أسف يا سعادة البك.

ونفضوا جميعاً وهبطوا إلى موقف السيارة، وتمنى لو

يدعوه الرجل إلى الركوب معهم، ولكنه مد له يده

مودعاً فسلم عليه وحنى رأسه تحية لأسرته ومضى إلى

الباب مسرعاً. كانت الزيارة تبدو خفيفة لأنه لم يمس

الموضوع الذي جاء من أجله ولكنه كان يرى توفيقه

بهذا اللقاء غير المنتظر وهذه الكذبة التي جادت بها

البدية السعيدة أخطر من غرضه الأول الذي لن يؤثر

فيه تأجيل يوم أو يومين...

- ٧١ -

وقب وجهه في السماء ولما يرح شارع طاهر فطالع

في صفحتها نظرة الغروب الشاحبة فتساءل ترى هل

يجد أخاه حسن في بيته إذا جازف بزيارته؟ كان مصمماً

على مجابته برأيه وإن كان ضعيف الأمل في إصلاح ما

فسد من أمره، ولكن تركيز أفكاره في مستقبله

ومستقبل أسرته جعله يستهين بكل شيء حتى مناقلة

حسن نفسه. ومضى يشق طريقه بعزيمة لا تنتهي ولكنه

كان يحمل قلباً أثقله الهم والشك. واستقل الترام حتى

ميدان الخازندار ثم اتجه إلى شارع كلوت بك وقد

تحول انتباهه إلى بدلته العسكرية التي فرضت عليه

الظروف - كانت أمه قد استغلت ملابسه القديمة في

أغراض جديدة كعادتها - أن يجترق بها طرقات مريبة! لم

يكن الاختيار بيده، وكان يرى في حسن مشكلة

الأسرة المعقدة الأولى. لقد تخلت نفيسة عن مهنتها،

وسوف يهجر قريباً عطفة نصرالله بل وشبرا جميعاً،

وربما أسدل ستار النسيان على الماضي البغيض كله،

فلم يبق إلا حسن وهيئات أن يطمن له جانب ما دام

شقيقه مقارفاً حياته الأثمة. وطالعت عطفة جندف

فرج إليها متجنباً الأنظار التي تطلعت إليه في دهشة

وقطعها مسرعاً إلى بيت أخيه ورمق إليه كالهارب

مستقبلاً الرائحة النتنة، وارتقى السلم الحلزوني

متمعضاً، ذاكراً في صيق وخجل زيارته الأولى لهذا

البيت منذ عام، حتى وقف أمام باب الشقة في شبه

ظلام وطرق الباب. وفتح الباب عن وجه رجل غريب

- وجه شائه من الوجوه التي لم ترح ذاكته منذ زيارته

الأولى - وما إن وقع بصره عليه حتى دفع الباب فأغلقه

في وجهه بسرعة غريبة وقد نذت عن فيه صرخة

قائلة: «بوليس!» فدهش الشاب، ثم حدث ما هنالك

فانزعج وأحس بخزي وألم لم يحس بمثلها من قبل.

ولبت متمسكاً في مكانه لا يدري ماذا يفعل. وفكر في

العدول عن الزيارة، ولكنه لم يبرح مكانه ووجد من

نفسه تصميماً عنيداً على إنجاز مهمته مهما كلفه الأمر.

ليست المسألة لهواً وعيباً؛ هي حياة أو موت، ولن

يستطيع السير في حياته قدماً ووراء هذا البيت.

وطرق الباب مرة أخرى، وانتظر وهو يعلم بعث

الانتظار، ثم أعاد الطرق بشدة. ترى هل يمكن أن

يكونوا قد هربوا من الشقة من إحدى النوافذ؟ وأراد

أن ينادي أخاه بصوت مرتفع فيتعرف عليه بصوته

ولكنه خاف أن يعرفه كما يريد ثم يعلن شخصيته

لصاحبه المذعور ليطمئنه فتذاع الصلة التي يمتنى ألا

تُعرف أبداً، ومع هذا فمن أدراه أن حسن لم يخبر

أحدًا بحقيقة شقيقه ولو على سبيل الفخار؟ وأصر

على أسنانه في خزي ويأس، ولكن اليأس أمده بقوة

عناد جديدة فطرق الباب بقبضة يده بعنف وصاح «يا

حسن، يا حسن، أنا حسنين!». ولم يطل انتظاره بعد

الداء ففتح الباب وبدا حسن خلفه يطالعه بعينين

ذاهلتين. وبدا كمن يفيق من صدمة، وثبت بصره

لحظات دون أن يتحرك، ثم دبّت في عينيه يقظة،

وشاح في نظرتها الابتسام وهتف:

- حسنين!!.. ضابط!.. لا أصدق عيني!

وشد على يده. وربّت بالأخرى على ذراعه، وجذبه

إلى الداخل وهو يضحك ضحكة عصبية عالية. ثم سار به إلى حجرة النوم وهو يقول:

- ضابط... يا لها من مفاجأة!.. مبارك مبارك.. هذا يوم سعيد..

وجلس حسنين على الكنبه، وأغلق حسن الباب ثم جاء فجلس إلى جانبه. وكان الشاب يبذل جهدًا جبارًا ليتغلب على اضطرابه ويتألك أعصابه، ونظر إلى أخيه مبتسمًا وقال:

- إني أحق الناس بالتهنئة ولكذك أنت أحقهم بالشكر.

فضحك حسن بسرور ولعل شعوره بالسرور كان مضاعفًا بعد ما كان من انزعاجه وقال:

- علام أستحق الشكر؟ ما أدبت إليك إلا بعض حقك عندي. دعنا من هذا وخبرني عن حال الأسرة، وكيف أمنا ونفيسة وما أخبار حسين؟

وراح يحدّثه عما يريد بباطن فاتر وظاهر متكلف الاهتمام. وكاد الحديث يسوقه وهو لا يدري إلى سؤاله عما قطعه عنهم، ولكنه أمسك عن السؤال في اللحظة الأخيرة ذاكراً أنّ انقطاعه هذا خير غير مقصود وأنّ وصاله شرّ ما يبتلون به وهو على هذا الحال، ولما فرغ من حديثه قال حسن:

- الحقّ أنّي أحزن إليهم كثيراً ولكنّ حياتي لم تعد تسمح لي بإشباع هذا الحنين. نحن في بلد واحد ولكني في الواقع كائن في بلد بعيد منقطع عن العالم، وربما خفّف عني الألم أحياناً أنّهم لم يعودوا بحاجة إليّ وأنّي أدبت بعض الواجب عليّ. وفضلاً عن هذا فلست تجدي في يسر متّصل، فقد يمتلئ جيبني بالنقود أيّاماً ثم يفرغ أسابيع. وفي حالة امتلائه تجدي مضطراً للإنفاق بغير وعي. لا عليك من هذا، لقد أصبحت ضابطاً فمبارك عليك حظك ولا يصحّ أن أخلط بفرحي شيئاً آخر... مبارك يا حضرة الضابط!

وجعل حسنين يصغي إليه وهو يتفرّس في وجهه فهاله ما يرى من تغير وتشويه وغبابة كأنه يستهلك في العام الواحد من حياته المحفوفة بالمهلك أعواماً طوالاً. لقد انتهى حسن، وشعر بانقباض وتشاؤم،

ويثقل المهمة التي جاء من أجلها. ومع هذا فلم يخطر له لحظة واحدة أن يعدل عما يراه واجبه، وعزم على أن يتسلّل إلى هدفه برفق فابتسم وقال:

- أخاف أن أكون قد أزعجتك بزيارتي!  
- ابصق هذه العبارة من فيك!.. ما هذا القول يا حضرة الضابط؟

فأشار حسنين ناحية الخارج وقال متصنّعاً الدهشة:  
- لقد فتح الباب لي رجل غريب ثم صرخ مرتعّباً «بوليس» وأغلق الباب في وجهي! ففقهه حسن عاليًا وقال:

- حصل سوء تفاهم نادر ولكنّي عرفت صوتك فأنتهى الأمر بخير... فوجد حسنين صعوبة قبل أن يقول متسائلاً:

- وما الذي أخافه؟  
فألقي عليه نظرة كأنما تسائله أيمهل حقاً أم

يتجاهل! ثم قال بعدم اكتراث:  
- يوجد أناس كما تعلم يخافون البوليس! فتساءل الشاب بإشفاق:

- أليس من الخطر أن تفتح أبواب بيتك لمثل هؤلاء؟

فصمت حسن قليلاً ثم قال:  
- بلى ولكنّ الإنسان ليس حرّاً في اختيار أصحابه! فقال بدهشة:

- كيف هذا يا أخي؟... الإنسان حرّ بلا شك في اختيار أصحابه... فقال حسن بلهجة من يرغب في تغيير مجرى

الحديث:

- فلندع هذا جانباً ولنختر حديثاً لطف!  
- لا أستطيع أن أدعه حتى أطمئنّ عليك... فقال حسن ضاحكاً:

- لا خوف عليّ، اطمئن!  
- إني أعجب لما يدعوك إلى مصادقة هؤلاء

الأشرار... أنت فتان محترم وتستطيع أن تختار من بين زملائك أحسن الأصدقاء.

وخفض حسن عينيه ليخفي نظرة التجهم التي

- هما شيء واحد...  
- حقاً؟! لا أرى رأيك أو دعني أسألك لماذا لم توجه إليّ هذه النصيحة من قبل؟.. منذ عام مثلاً؟  
لا يسعه - بعد أن قال له، وهو لا يدري، إنه إنما جاء لهذا الأمر - أن يدعي أنه كان يجهله، وركبه الضيق، ولكنه تهرب من سؤال أخيه قائلاً:  
- ألا ترى وجه الخير لك فيها أريد؟  
فتجاهل حسن سؤاله وقال بنفس اللهجة الساخرة:  
- كنت قبل عام في حاجة جنونية إلى النقود فلم تهتم بالنصح والإرشاد أما الآن وقد أصبحت ضابطاً فلا يهتك إلا الدفاع عن هذه النجمة اللامعة!  
ومع أن وجه حسين لم يتغير إلا أن قلبه ماج بالغيظ والحنق وكأنما أهاجه أن يقرأ الآخر أعماقه بهذه السهولة الساخرة ولكنه قال بلهجة ليّنة:  
- أخي...  
وأشار إليه الآخر أن يسكت فسكت، ثم قال باستهانة:  
- سأكون معك صريحاً إلى أبعد حدّ، وإذا كنت تسائل نفسك حقاً عن عملي فأني أقول لك إنني فتوة قهوة بدرب طيّاب (ثم مشيراً إلى الصورة فوق رأسه) وعشيق هذه المرأة، وبائع مخدرات.  
وهتف حسين في انزعاج:  
- لا أصدق هذا!  
فقال الرجل مبتسماً في هدوء:  
- بل تصدّقه كلّ التصديق، ولعلّك تحمته فيما مضى، وما قد صحّ تخمينك، فماذا ترى؟  
فرنا الشاب إليه صامتاً في إشفاق وألم، حتى ضاق بصمته فقال محزوناً:  
- ليس أحبّ إليّ من أن تبدأ حياة جديدة شريفة! فضحك حسن عالياً ثم قال بسخرية:  
- بفضل حياتي غير الشريفة أمكنني أن أدفع عن أسرتنا غائلة الجوع، وأن أزود أخاك حسين بما كان في حاجة إليه كي يباشر عمله الحكومي، وأن أهنيئ لك قسط المصروفات الذي جعلك ضابطاً والحمد لله.  
ووخزه كلامه بمثل شك الإبر فترأت له الحياة

لاحت فيها. غضب الرجل، ولو ثار غضبه حيال شخص آخر غير حسين لانفجر، ولكنه كظمه وعالجه بالحسنى. أغضبه شعوره بأن أخاه يعلم من أمره أكثر ممّا يتظاهر به، وأنه يعامله معاملة الأطفال. ولو أنه صارحه بذات نفسه، بل لو أنه وصفه بالشرّ كما وصف أصحابه لما غضب كما يغضب الآن. وعزم على أن يكشف القناع عن الحديث الكاذب فقال باقتضاب وبصوت - رغم كظمه غضبه - غير الذي تكلم به من قبل:

- إني واحد من هؤلاء الأشرار!  
وفغر حسين فاه دهشة فقال الآخر بجفاء:  
- حسين إنيك والتظاهر بالدهشة. لست غيباً ولست غيباً فيحسن بك أن تحدّثني بالصراحة التي تعودت أن تحدّثني بها دائماً. ما وجه الغرابة في أن أكون شريراً؟ ألم أكن طوال عمري هكذا؟  
وخفض الشاب عينيه في وجوم وخجل وتشتت منطقته فانعقد لسانه، وارتاح الآخر لارتبائه فعاوده مرّحه وأراد أن ينهي هذا الحديث المؤلم فقال:  
- لا عليك من هذا، ولعن الله الرجل الرعديد فلولا فزعه الصبياني ما جرى الحديث بيننا هذا المجري السخيف، ولنعد الآن إلى الأهمّ (ثم ضاحكاً) لا شك أنك جئتني لحديث آخر!

فجمع الشاب ما تشتت من أفكاره وقال متنبّهاً:  
- الحقيقة أنني ما جئت إلا لهذا الأمر!  
فلاح الاستنكار في وجه حسن وقال متهمكاً:  
- حسبك جئت تطلب نقوداً!  
وشعر الشاب بغضب أخيه ولكن لم ينثن عن عزمته فقال بلهجة رقيقة متودّداً إليه:  
- بفضلك السابق لم أعد في حاجة إلى نقود ولكن مهتني الآن أجل من النقود، إني أريد أن أطمئن عليك...

فحدّجه بنظرة ثابتة وقال بسخرية:  
- لا زلت أطالبك بالمزيد من الصراحة!.. إنك يا حضرة الضابط تريد أن تطمئن على نفسك لا عليّ أنا! فقال حسين وهو يشعر بقهر وغيظ:

ضبيقة خائفة، ولكنَّ رغبته الحارّة في الدفاع عن نفسه أبت عليه أن يسلم بالهزيمة فقال:

- كان هذا بفضل نبلك ولا فضل لهذه الحياة الخطيرة في ذاتها!

- لا تغالط نفسك. إنهم يدعونني بالروسيّ لا بالنبل. ثم ما هي الحياة غير الشريفة؟ ليس ثمة إلّا حياة فحسب، وكلّنا يسعى للرزق..

- توجد حياة آمنة، وحياة يفزعها مجرد توهم البوليس..

- هذا من عسف البوليس، ولا ذنب لنا، بالله خبّرني ماذا تريد عليّ أن أعمل؟

فقال حسنين بحماس وقد لاحت له بارقة أمل:

- اهجر هذه الحياة واختر لنفسك عملاً شريعاً كسابق عهدك.

وانفجر الرجل ضاحكاً وتساءل في دهشة:

- صبيّ ميكانيكيّ؟!.. هذا كمن يطلب إليك أن تستقيل من الجيش لتبدأ من جديد بالتوفيقية!

وغلى حتى الشاب في أعماقه مرة أخرى، ولكنّه تساءل في هدوء وابتسام:

- ألا تدري ما النهاية المحتومة لحياتك؟

فقال متهمكاً في بساطة:

- أن أسجن أو أقتل.. وإذا قدّر عليّ أن أقتل أولاً نجوت بطبيعة الحال من السجن!

فتظاهر بالضحك وما يزداد إلّا حنقاً، واشتدّ حنقه خاصّة لاستهانتّه، ومع أنّه يشس منه أو كاد إلّا أنّه استطرّد قائلاً:

- أرى أنّ خطورة حياتك لا تغيب عن فطنتك، فلست في حاجة إلى أن أبصرك بعواقبها الوخيمة، وإنّي أستحلفك بالله أن ترعى نفسك بالحكمة..

فألقي عليه نظرة طويلة باسمّة كأنّه يقول له «لا تحاول خداعي بتودّك» وقال:

- لا تخف عليّ، أستغفر الله أعني لا تخف على نفسك أو سمعتك، لا تحمّل نفسك هموماً فارغة، هبني كشيء لم يكن، لا تكثرث لما يقول الناس عنكم بسببي فإنّك تستطيع أن تحيا الحياة التي تروق لك على

رغم كلام الناس..

وتنهّد حسنين في ضيق وقنوط، وحنق عليه في تلك اللحظة حنقاً أسود تميّ معه لو كان شيئاً لم يكن حقاً، ولكنّه كائن، ومسلّط على رأسه كالسيف القاتل، فما عسى أن يفعل؟ وتنهّد مرّة أخرى وتساءل:

- أليس ثمة أمل في أن تعود إلى الحياة الشريفة؟..

أهذه كلمتك النهائية؟!

وغضب حسن، وكأنّه أشفق على أخيه من غضبه فانفض قائلاً وقطع الحجر الصغيرة ذهاباً وإياباً مرتين مفرغاً بخار غضبه في حركاته العنيفة، ثم استند إلى حافة السرير، وشبك ذراعيه على صدره، وقال بلهجة من نقد صبره:

- حياة شريفة، حياة شريفة! لا تعد هذه العبارة على مسمعي فقد أسقمتمني. ميكانيكيّ بقروش معدودات في اليوم، أهذه هي الحياة الشريفة؟!.. السجن أحبّ إليّ منها! ولو أنّي استمسكت بها طوال حياتي لما حلّيت كنتك بهذه النجمة، ألحسب أنّ حياتي وحدها غير الشريفة؟.. يا لك من ضابط واهم!.. حياتك أنت أيضاً غير شريفة، فهذه من تلك، ولقد جعلت منك ضابطاً بنقود محرّمة مصدرها تجارة المخدرات وأموال هذه المرأة (وأشار إلى الصورة)، فانت مدين ببذلتك لهذه المومس والمخدرات، ومن العدل إذا كنت ترغب حقاً في أن أفلح عن حياتي الملوّثة أن تهجر أنت أيضاً حياتك الملوّثة، فاخلع هذه البذلة ولتبدأ حياة شريفة معاً!

واصفرّ وجه حسنين وغضّ بصره في ذهول وبأس وقد امتلأ صدره غيظاً وحقدًا. وانفجرت شفاته أكثر من مرّة كأنّه يهمّ بالكلام ولكنّه كان يطبقها في تسليم اليأس. ولم يرحمه حسن على ما بدا من قهره ووجومه فقال:

- أرايت أنّك تؤثر النجمة على الحياة الشريفة؟!.. ولست ألومك فأنا مثلك أؤثر رزقي على الحياة الشريفة (ثمّ ضاحكاً).. نحن شقيقان ويجري في عروقنا دم واحد!

ونفض حسنين عابساً وهو يقول:

بقوة عنيفة ولكن يرغب به عنها ما يرغب به عن عطفة نصر الله وعطفة جندب. لم تعد الأمل الذي يرنو إليه، وما هي إلا لوثة في دمه يبغى منها شفاء. وأدام النظر إليها حتى خال وجهها الهادئ المهذب عقاباً مجسماً فوجد وخزاً في قلبه، وطرده أفكاره دون أن يبت فيها برأي وسمعها تقول له:

- لا تحملق في هكذا...

ما ألد أن يضمها إلى صدره ويمطرها قُبلاً! إنه لا يدري ما هو فاعل بها غداً ولكنه يأسى على طول حرمانه.

وقال مبتسماً:

- إني أفكر في تقبيلك قبله حارة نبداً بها حياة جديدة.

- لا يحلو لك إلا هذا الكلام!

- هل ثمة ما هو أحلى؟

فترددت قليلاً ثم خفضت عينها قائلة:

- يوجد ما هو أهم!

وحس ما تعنيه بلا تردد. وساوره قلق. ولكنه تجاهل ظنه متسائلاً:

- أهم من القبله؟!

- أحب أن تحدّثني جاداً ولو مرة...

- ولكني أود أن أقبلك جاداً!

فتفكرت فيما يشبه الحيرة، كأنما تغالب خطرة ثم بدا كأنها تغلبت على حيرتها فقالت:

- ألا تدري ماذا قالت أمي؟

صدق حدسه! لا بدّ ممّا ليس منه بدّ! وتساءل متبهاً:

- ماذا قالت؟

فقالت بصوت منخفض وفي عناء من حياء:

- قالت لي لقد طال انتظارك، وما قد صار ضابطاً وأحسّ في أعماقه بحقّ حامٍ كأنه سمع تجديفاً، ومع أنّه كان يعلم بأنّه ليس له حقّ في حنقه إلا أنّه

كره الأم في تلك اللحظة. ثمّ تساءل:

- هل تتعجّل الزواج؟

فتضجّ وجهها بالاحمرار وغمغمت:

- لا تسخر مني جزاء ما أوليتك من نصيحة!

ثمّ انجّه نحو باب الحجرة وهو يقول:

- أستودعك الله..

ولمّا وضع يده على أكرة الباب سأله الآخر برقة مفاجئة:

- ألا تريد أن تسلّم عليّ؟

فتحوّل إليه ومدّ له يده، فشدّ عليها الآخر وأبقاها في يده وهو يقول ضاحكاً:

- يؤسفني أنّي أغضبتك. انس ما كان ولنبق كما كنّا

ولو على البعد، ستجدني دائماً «الروبيّي» الذي عهدته.

ولا تنس أن تهدي سلامي إلى أمنا ونفيسة. مع ألف سلامة..

- ٧٢ -

وأطلع أمّه على صورة واضحة من سيرة حسن فقد

كان صدره أضيق من أن يتسع لها وحده. واستمع لما

جاد به لسانها من ضروب العزاء والنصح بقلب

مغلق، كان في الحقيقة متجهماً متشائماً حاقداً. ولمّا

كان لديه بضعة أيام من الفراغ قبل أن يبدأ عمله

بالفرقة فقد خطر له أن يسافر إلى طنطا للقاء حسين،

وعاوده شعوره القديم بالحاجة إلى مشاورة أخيه فيما

يلمّ به من أحداث. بيد أنّه لم يقدم على تنفيذ فكرته

وبدا كالتردد، وفيما بين هذا وذلك لم يجد من سلوى

إلا في شقّة فريد أفندي. ولكنه كان يذهب إليها

ناشداً عزاء لا ملتبساً شوقاً، ولم تغب عنه حقيقة مشاعره

فحمل كاتبه العامة مسئولية تغييره، ثمّ أخذ يستعين أنّ

تغييره أعمق من أن يكون أثرًا عارضاً وقتياً، وتساءل في

حيرة ألم يعد يحبّها؟! عرض له هذا التساؤل أول ما

عرض في ضحى اليوم الذي جاء بعد زيارته لحسن

بيومين، وكان يجالس بهيّة على انفراد بحجرة الاستقبال

على حين شغلت الأمّ بالمطبخ، فجعل ينظر إلى الفتاة

متسائلاً ألم يعد يحبّها؟! هي فتاته بجسمها وروحها،

ولم تزل مثار رغبة جاعحة ولكن كأنه يرغب في أن يوتّي

عنها فيما يرغب أن يوتّي عنه من ماضيه جميعاً. وتحير

بين رغبته فيها وما يتساءل عنه من انتهاء حبّه لها!

أيمكن أن يرغب فيها ولا يحبّها في آن؟ إنه يُجذب إليها

- كَلَّا وَلَكِنَّمَا تَرَى أَنَّهُ أَن تَعْلَنَ الْخُطْبَةُ .

- أَلَمْ يَتَمَّ هَذَا؟

فَتَحَسَّسْتُ بِنَصْرِ يَمْنَاهَا فِي حَيَاءٍ وَغَمَغَمَتْ:

- ثَمَّةُ أُمُورٍ لَمْ تَزَلْ نَاقِصَةً . . .

وفهم ما تشير إليه في استياء لم يدر سببه. لم يكن ثمة شيء مستغرب فيما يطلبون ومع ذلك حتى عليهم جميعاً وركبه شعور المطارد إذا تهدده خطر، وتفرس في وجهها وهو يذكر ما قال زملاؤه عنها في الأتوبيس وقال لنفسه «فتاة طيبة ولكنّها ليست أهلاً لأن تكون زوج ضابط مثلي، ولو تمّ هذا الزواج لكان الأول من نوعه!» ثمّ قال لها في هدوء باسم:

- هذه أمور لا وزن لها.

- ولكنّها هامة جدّاً في نظر الناس فطلما تسأل

أقاربنا عن الخاتم! . . .

وعجب للحاسها، وتمنّى لو كانت تعلن عن بعض هذا الحساس في الحب. «ولكنّها تريد أن تتزوّجني لا أن تحبّني. هذا سرّ برودها وتحفظها. وإذا لم يكن حبّ، بل وحبّ قهّار جنونيّ، فما الذي يغريني بالزواج منها؟!» وقال:

- لا داعي للعجلة، ستحقّق آمالنا في الوقت

المناسب.

- ومتى يكون هذا الوقت المناسب؟

فقرّب ما بين حاجبيه كأنه يفكّر وقال:

- أظنّ إذا رُقيت إلى رتبة الملازم أوّل أصبح في

وسعي أن أفتح بيتاً مع معاونة أهلي الذين لا يستغنون

عني كما تعلمين.

وبدا في وجهها الوجوم وجعلت تقرض ظفرها حانية الرأس خابية العينين. ومع أنّه ارتاح لتصرّحه الذي مدّ له في حرّيته إلّا أنّه رَقّ لمنظرها، وجرى بصره على جسمها فدقّ قلبه وتناسى أفكاره ومخاوفه وحنقه فنهض إليها وجلس إلى جانبها على الكنب، ولكنّها تباعدت إلى نهاية المقعد وحالت دونه بساعديها قبل أن تُذهب روح المقاومة الطارئة مسحة الحزن من عينيها. وقبض على ساعديها وهوى على كفّيهما يقبلهما، حتّى قامت مبتعدة عنه وهي تهتف:

- دعني . . . دعني . . . لم تعد كما كنت.

وقام في أعقابها مدفوعاً بفورة إحساسه وجنون أعصابه وطوّقها بذراعيه وأطرافه ترتعش، ودافعته بقوة فهوى بفيه إلى شفّتها فأملت رأسها إلى الوراء فمست شفّته طرف ذقنها، ثمّ تملّصت من ذراعيه ووقفا وجهها لوجه وهما يلهثان، وصاحت به بصوت متهلّج:

- لا تهجم عليّ غصباً!

وانقلبت شهوته غضباً فحدّثته نفسه بهجر الحجرة، وسار خطوتين صوب الباب، ثمّ تحوّل إليها بغتة وقد انقلب غضبه شهوة جنونيّة فانقضّ عليها مصمّماً على إرواء عواطفه، وطوّقها بذراعيه رغم مدافعة يديها، وضمّها إلى صدره بعنف ووحشيّة، ثمّ طبع شفّته على شفّتها، وكلّما مالت بوجهها عنه اتبعها وجهه لازقاً فاه بفيها، ملاقيّاً دفعات مقاومتها بقوة وحشيّة، حتّى سكنت بين ذراعيه في شبه إغماء. ولم يبال خورها فراح يضمّها إلى صدره حتّى استشعر طراوة جسمها اللدن على بطنه وفخذه فتمسّك به إلى إحساسه في ارتياح عميق كأنّه كشف جديد عن لذّة الحياة. ونذت عنها مقاومة طارئة ضعيفة كصحوحة الموت ولكنّه قضى عليها بوحشيّته. وجنّ انفعلاً وتطلّع واستزادة، وانصهر قلبه وسرى ذوبه في أعصابه باعثاً لذّة خياليّة، ثمّ انهارا في تسليم متوقّع مفاجئ معاً. وأفاق كمن يفيق من حلم فوجداه بين ذراعيه وشفّته على خدّها، ولما شعرت بذراعيه تتراخيان عنها دفعته في صدره متراجعة وقالت وهي تتنهد في صوت ضعيف:

- لن أصفح عنك . . .

ولم يترك قولها في نفسه أثراً، لا حسناً ولا سيّئاً، فلم يابه لها وكأنّ إحساسه تجاهل وجودها. شعر بظفر وارتياح ثمّ غلبه عليهما فتور فراجع إلى مقعده الأوّل وجلس عليه في دهشة. ولبث هي بموقفها كالمتردّدة ثمّ عادت إلى مجلسها في استياء وراحت تعاتبه وتعتقه دون أن يلقي إليها بالاً. ورنا إليها بغرابة وساءل نفسه: أهذه هي؟ أهذا أنا، أين هي وأين أنا؟ ثمّ ران عليه فتور ثقيل أكثر ممّا يحتمل.

وجعل يصغي إليها دون أن يحتمل نفسه مشقّة



- لقد خلقت لتكون أبا باراً...  
فابتسم حسين على ما أثار قوله في نفسه من  
ذكريات محزنة ولكنه لم يعلق عليها بكلمة وقال مشيراً  
إلى نجمة الضابط:

- إني فخور بك...

فقال حسنين بتأثر:

- إني مدين بها لنبل تضحياتك.

وهبط قوله على قلبه برذاً وسلاماً، وتمتم:

- لا تبالح! أنت رجل جدير بكل خير...

وقال حسنين لنفسه «هذا شقيق لا يشين، ولولا  
ماضي نفيسة وحاضر حسن وماضيه ما وجد إنسان على  
الأرض أسعد مني» ثم قال لأخيه بسرور:

- أبشر لقد رجوت أحمد بك يسري أن يسعى

لنقلك إلى القاهرة فوعدني خيراً...

- عفارم! وبهذه المناسبة أخبرك أنني سأعود معك

إلى القاهرة قائماً بإجازتي السنوية...

ثم غادر الفراش وهو يقول:

- اغسل وجهك ونفّض بدلتك من وعشاء السفر

وهلمّ نطلق إلى المدينة فلا خير في البقاء في هذه

الحجرة الضيقة...

وارتدى بدلته ثم خرجاً معاً يتمشيان في طرقات

المدينة، ثم مضى به إلى قهوة السمر وجلسا معاً

يواسلان حديثهما. وتكلم حسين عن حياته في طنطا

كثيراً، وشكا إلى أخيه وحدته وكيف عودته على غشيان

المقهى كل مساء فيمضي ساعتين على الأقل مع نفر من

الموظفين يلعبون النرد حيناً ويسمرون حيناً آخر، ثم

يعود إلى الفندق فيطالع ساعة أو أكثر قبل النوم،

وحذّته عن آخر كتاب ابتاعه وهو الاشتراكية لمكدونالد

المترجم عن الإنجليزية وكيف أنّ النظام الاشتراكي لا

يتعارض مع الدين ولا الأسرة ولا الأخلاق. كان في

وحده وضيقه يسعد بأحلام الإصلاح ويتخيل مجتمعا

خيراً من المجتمع الذي يعيش بين أعضائه، وحالاً

خيراً من الحال المقدورة له، وأسعده الأمل في إمكان

تحقيق خياله دون الاعتداء على العقائد التي أشرب

حبها والإيمان بها منذ طفولته.

الاعتذار، وانتهاز فرصة حضور أمها فجالسها دقائق ثم  
قام مستأذناً في الانصراف. ولما غادر الشقة شعر  
برغبة في الهرب، وحينذاك عادته فكرة السفر إلى  
طنطا فابتسم لها في ترحاب وحماس.

- ٧٣ -

عندما انتهى إلى فندق بريطانيا بشارع الأمير فاروق  
بطنطا كانت الساعة حوالي الخامسة مساء وقاده غلام  
إلى حجرة أخيه فنقر على الباب ووقف مبتسماً انتظاراً  
للمفاجأة السارة وفتح الباب وظهر حسين في جلبابه،  
وسرعان ما اتسعت عيناه دهشة فأقبل على القادم وهو  
يهتف:

- حسنين! لا أصدق عيني!

وتعانقا عناقاً حاراً، ثم دخلا الحجرة الصغيرة  
وحسين يلقي عليه نظرة متفحصة في حب وإعجاب ثم  
قال بصوت متهدج من التأثر والسرور:

- يا لها من مفاجأة سعيدة. أهلكذا يهجم  
العسكريون بلا إنذار؟ مبارك. لقد أرسلت برقية  
تهنئة...

- وصلتني ورأيت أن أجيتك بنفسى شاكرًا!

- وكيف حال نينة ونفيسة؟

- على خير حال. وجدت لدي بضعة أيام إجازة  
قبل بدء العمل فضلت أن أمضيها معك...

- أحسنت صنعاً. وحسن؟ أما من جديد عنه؟

وغاض البشر من وجه حسنين ولكنه أبى أن يخلط  
باللقاء كدراً فقال:

- دعنا منه الآن على الأقل...

وحسد حسين ما أحزنه ولكنه لم يكن أقل رغبة  
منه في تأجيل النكد إلى وقت آخر فدعاه إلى الجلوس  
على الكرسي الوحيد ووثب هو إلى الفراش. وتبادلا  
نظرات مشوّقة متفحصة فلمس كل منهما ما طرا على  
الأخر من أمارات الصحة والعافية وإن كان وزن  
حسين قد زاد أكثر مما يتصوره أخوه، كذلك وجده قد  
رَبَّى شاربه بطول شفثيه وعرضها ممّا أكسبه مظهر  
رجولة وقور وجعله يبدو أكبر من سنّه، وقد داعبه  
قائلًا:

- وأأسفاه، كان حسن ضحيةً للمرحوم والدنا، وكان والدنا ضحيةً لضيق ذات اليد!

فقال حسنين بجزع:

- ألا تستطيع إقناعه بالإقلاع عن أسلوب حياته؟

فقال الآخر متنهّداً:

- لن يقلع عنها مهما قلنا أو فعلنا، شيء واحد يستطيع أن يعدل به عن حياته وهو أن نهيئ له رأس مال مناسب كي يبدأ حياة جديدة، فهل يسعنا هذا؟ وتبادلا نظرة يائسة لأن السؤال لم يكن في حاجة إلى جواب، ثم قال حسنين بحلّة:

- أنتركه في غيّه كي يقضي على آمالنا!

- لقد قضى على نفسه.

- وعلينا! كيف تواجه العالم ولك مثل هذا الأخ؟ سوف تظهر أساؤنا يوماً في الجرائد بين أعمدة الحوادث والجنايات!

فتنهّد حسنين محزوناً متفكّراً في كلام أخيه الذي رجّع أصداء أفكار طالما أكرهته في وحدته، ولكنّه قال معارضاً أخاه ونفسه معاً:

- لا ذنب لنا، ولا يصحّ أن ندع الخوف يتهوّل في قلوبنا. قد يصيبنا رشاش من السنة الناس، الآن أو فيما بعد، ولكنّا لن يمكننا مواجهة الحياة إذا لم نُدّرع بقدر من عدم المبالاة...

بدا له حسنين كأنه لا يعي ما يقول، أو كأنه لا يبالي السمعة الطيبة التي هي أس كلّ أمل في الحياة بيد أنّه مهما يكن من أمره فهو ليس ذا أصدقاء كأصدقائه يشفق من أن يظّلوا على أسرار أسرته، كذلك لا تنازعه نفسه إلى المجد والطموح فليس في آماله ما يخاف عليه السنة الناس. أجل أخطأ تقديره ولن يجد من أخيه مشاركة وجدانيّة، وحقن عليه في تلك اللحظة كثيراً، واحتقر استسلامه وهذوه. واندفع قائلاً وكأنّه لا يروم إلّا الترويح عن حنقه:

- هل نعدّ أنفسنا شرفاء؟

فقال حسنين بدهشة:

- ولم لا؟!

- ولكنّا استعنا على تقويم حياتنا بنقود ملوثة!

ثمّ تساءل في نفسه ترى هل أفضت أمّه للشباب بالسّر الذي دفعها إلى زيارته منذ عام ونصف؟ ولما لم يشر حسنين إلى الموضوع بكلمة اطمأنّ إلى أنّها كتمت الأمر كلّهُ وهو ما ترجّح لديه من بادئ الأمر. وذكره هذا الخاطر بآلامه الماضية ولكنّه ذكرها بقلب خالٍ هادئ لولا حنينه العامّ إلى الرفيق والحبّ ما تشكّى قطّ، ثمّ وجد نفسه وهو لا يدري يسأل حسنين عن خطيبته! وأجاب الشابّ إجابة عامّة قائلاً: «بخير والحمد لله»، وساءل نفسه هل يصارح أخاه بما طرأ في نفسه من تغرّير وتطوّر؟ ولكنّه جفل عن هذا، وأجلّه إلى المستقبل إذا جدّ جديد من الأمر، وكان يعلم سلفاً بأنّ حسين لا يمكن أن يوافق على نواياه أو يرضى عن منازعه. وتواصل الحديث بينها طيّباً لطيفاً حتّى عزم حسنين على خوض الموضوع الخطير الذي يشغله فقال متنهّداً:

- تصوّر كم كانت الحياة جميلة لولا ماضينا وأخونا حسن...

وأحسن حسنين بما وراء هذا التنهّد من حزن وسخط فقال ببساطة:

- أعتقد أنّ آلامنا قد انتهت، أمّا ماضينا فليس فيه ما يُججل، وأمّا حسن فلن يضرّ وأأسفاه إلّا نفسه... فهو رأسه دلالة على عدم الموافقة وقال في حزن: - أنا علمت أنّ حسن قد انقلب مع الزمن بلطجيّاً وتاجر مخدرات؟!

ومع أنّ حسن كان يتخيّل شقيقه الأكبر على أسوأ حال إلّا أنّه لم يكن يظنّ أنّه تردّى إلى هذا القرار، فهتف في ارتياح:

- لا تقل هذا..!

فكان جواب حسنين على ارتياحه أن قصّ عليه ما شاهده في زيارته الأخيرة لحسن وما سمع، وأصغى إليه أخوه في صمت ووجوم. ولما طال صمته سأله حسنين:

- ما رأيك؟

فبسط له راحتيه كأنه يقول له: «ما حيلتنا؟» ثمّ غمغم:

مكان اللوح الزجاجي المحطم، كل أولئك ذكريات عزيزة. أما سريره فلم يعد له أثر، بيع في الوقت المناسب كالمشبع، ولحق بسرير حسن، وكأنه لم يعد من أهل البيت! ومع أنه كان يحس هذا بالبداية إلا أنه شعر بحزن وكآبة. وهنا شعر بنفسية وهي تغادر الحجرة قائلة:

- أمهلاني ساعتين أعدّ لكما غداء طيبًا!

وابتسم ارتياحًا. إنه لم يذق طعامًا طيبًا منذ عهد بعيد، ربما منذ وفاة والده. أجل كان طعامه طيبًا وهو موظف أفضل من طعامه وهو تلميذ كما يشهد بذلك ارتواء جسمه، ولكنّه لم يطلق لشهوته العنان قط. على أنه كان مشغولًا بما هو أخطر من لذّة الطعام وهو تذوّق عودته السعيدة إلى منته الأول وجوّه الأصلي. كان حنانه كالغنة الحلوة يتردّد في حواسه جميعًا، حتى هواء عطفة نصرالله الفاسد وحد له ميل ألفة ورقة ومودة فكأنه الصّحة والعافية. وجعل يحادث أمه وعيناه تتردّدان في أنحاء الحجرة الصغيرة حتى استقرّتا على جاكّة حسنين المعلّقة بالشجّب فنظر إلى النجمة طويلاً. سيرقى حسنين عامًا بعد عام حتى يصير ضابطًا عظيمًا على حين يبقى هو كاتبًا في الدرجة السابعة - أو السادسة على أحسن فرض - طوال مدة خدمته. على أنه لم يجد أي أثر لشعور الحسد أو الحق، كان أبعد ما يكون عن هذا، بل كان سروره بأخيه لا يداني، ولكنّه وجد نفسه يتأمل في صمت حزين الفوارق الطاغية التي تميّز بين الموظفين، وامتدّ خياله وهو لا يدري إلى الفوارق الطاغية التي تفصل بين الناس عامّة. ترى ألا يمكنه إذا نُقل إلى القاهرة أن يلتحق بمعهد ليلي عسى أن يتغيّر من حال إلى حال؟ وابتسم قلبه لهذا الخاطر السعيد وأودعه صدره كامل احتياطيّ يلجأ إليه في حينه فينجّيه من مصير كمصير حسن أفندي حسن! وحتى حسن أفندي نفسه لم يكن ليرقى إلى الدرجة السادسة لولا الوزير الوفدي؛ وذكر عند ذاك أمورًا سمع بها في طنطا فسأل أخاه:

- هل حقًا ما يقال عن احتمال سقوط الوزارة؟

فضحك حسنين قائلاً:

تطايّر الشرر بغتة من عيني حسين، وحملق في وجه أخيه وهو صامت، وكأنّ آلامه الدفينة قد طفت على سطح قلبه داعية معها من الأعماق أسوأ الذكريات، ثم قال بحدّة:

- كنّا في موقف دفاع عن النفس، والدفاع عن النفس يُجِلّ القتل...

وشعر حسنين بارتياح خفيّ لغضب أخيه، وجعل يتساءل في حيرة عمّا دفعه إلى مجابته بهذا التصريح الأليم. ثم استطل الصمت حتى سئم الموضوع فخاضا في غيره، غير أنه مضى زمن غير قصير قبل أن يطيب لهما الحديث...

- ٧٤ -

وبعد بضعة أيّام عاد الشقيقان إلى القاهرة فكان يوم في حياة الأسرة لا ينسى. وقبلت الأم حسين طويلاً ثم عانقته نفيسة عناقًا حارًّا، وأمضى الشات ساعة طويلة من الظهر وهو يحدث عن طنطا وحياته بها والمرأتان منصتتان. وجعلت نفيسة تتفرّس في شاربته وبدانته الأخذة في النموّ فهالها تغيّره وقالت باستنكار:

- فيم تبدو كالرجال وأنت طفل!

فقال حسين مبتسمًا:

- لم أعد طفلًا.

وقال حسنين ضاحكًا:

- نحن رجال وأنت أختنا «الكبرى»!

فقال الفتاة بحدّة:

- كنت أكبركم فيها مضى أما من الآن فصاعدًا فأنتما

تكبرانني، هل تفهمن؟!

ثم التفتت إلى أمّها وساءلتها في اعتراض:

- هل يعجبك هذا الشارب الذي يكبر نفسه

ويكبرنا معه بلا داع؟!

وكان الوقت ظهرًا فراح حسين يخلع ملابسه، وقد بدا البيت لعينيه غريبًا، بيد أنّ حبّه العميق لأسرته ولببته استيقظ ودّر حنانيًا فملكه ارتياح شامل، ارتياح من اهتدى إلى مأواه بعد أن تحبّط ضالًّا طويلاً، وأجال طرفه في حجرة المذاكرة، هذا المكتب القديم، وهذين الكرسيّين، وهذه النافذة التي تقوم صفحة الجريدة منها

- غير مسموح للضابط بالاشتغال بالسياسة.

فضحك الشاب، ثم قال:

- كيف تسقط بعد أن نفخ الإنجليز أيديهم من سياستنا؟

وتساءلت الأم:

- أعود مرة أخرى إلى المظاهرات؟

- من يدري؟

فعادت تقول بقلق:

- لا شأن للجيش مع المظاهرات؟

فقال حسنين بمكر:

- إذا قامت ثورة فلا بد من تدخل الجيش!

وضحك حسنين، وأدركت الأم ما تعنيه ضحكته فرمت حسنين بنظرة شذراء وهزت منكبيها استهانة.

وعادت نفيسة لتقول لهم إنَّ الغداء يتهيأ على أحسن

حال، ثم سألتهم عن السُّلطة المفضلة لديهم،

وغادرت الحجرة مشمرة عن ساعديها والعرق يتصبب

من جبينها، وساد الصمت فعاد حسنين إلى أفكاره

وفكر هذه المرة في الإجازة وكيف يمضيها. كان

الموظفون في طنطا يدعونه باليهودي لأنه لا يقامر ولا

يسكر ولا ينفق أكثر من قرش واحد في القهوة،

ولكنهم جهلوا حقيقة حاله. أجل إنه ميال بطبعه إلى

الاقتصاد ولكن هل تركت مسؤولياته له شيئاً يقتصد؟!

ولم تدعه أمه لأفكاره طويلاً فعادت تنازعه الحديث،

وخيل إليها أنها ترنو إليه بحنو نادراً ما تعلنه، ترى هل

ذكرت كيف قست عليه يوماً؟! لقد قست عليه حقاً،

ولكن قسوة الدهر عليهم جميعاً كانت أعظم. ترى

ماذا هي فاعلة مع حسنين؟. ولكن لماذا لا يبدو

الفتى متحمساً لزوجاه! لماذا لم يحدثه عنه؟! وحوالي

الساعة الثانية جاءت نفيسة حاملة صينية الغداء،

فوضعتها على المكتب وهي تقول:

- نأكل اليوم على المكتب لأن الموظفين لا يصح أن

يأكلوا على الأرض.

جمعتهم المائدة لأول مرة منذ عامين، ثم عادوا إلى

جلستهم على الفراش الصغير وواصلوا الحديث في

أنس وسرور، وحوالي منتصف الرابعة دق الباب

الخارجي فغادرت نفيسة الحجرة لتفتح للقادِم. ووثب

لرأس حسنين خاطر عجيب، أنكون أسرة فريد أفندي

قد جاءت لتَهَيَّء العائد؟!. وفي هذه الساعة؟

وعادت نفيسة جرياً ووقفت على عتبة الحجرة وهي

تنظر إليهم بعينين متسعيتين تلوح فيهما الدهشة

والانزعاج، ثم هتفت قائلة:

- ضابط وعساكر...

- ٧٥ -

ووقف الشقيقان في دهشة وحسنيين يتناول جاكته

ويرتديها بسرعة متسائلاً:

- ماذا يريدون؟

وكانت نفيسة تردّد بصرها بينهم وبين القادمين

فقال فجأة بذعر:

- رباه... لقد دخلوا الصالة.

واندفع الشابان خارج الحجرة فوجدا ضابطاً

وشرطيّين ورجلاً آخر يبدو من مظهره أنه مخبر، فتقدّم

حسنيين من الضابط متسائلاً:

- ماذا تريد حضرتك؟

فقال له الضابط:

- لا مؤاخذه، لدي أمر بتفتيش هذه الشقة!

وأطلعه على أمر كتابي فنظر فيه حسنيين بعينين لا

تريان شيئاً، على حين سأل حسنين:

- لعلك أخطأت الشقة. ماذا يدعو لتفتيش بيتنا؟

فقال الضابط:

- نحن نبحث عن حسن كامل عليّ الشهير

بالروسي!

وجم الشابان وهما ينظران إلى الضابط في انزعاج

وقنوط، وكانت المراتان تقفان على عتبة الحجرة فركبها

الدع وتسمرتا في مكانهما. وعاد الضابط يقول:

- لقد قبض على بعض شركائه ولكنّه اختفى قبل

القبض عليه، ودلنا بعضهم على مسكنه الأول وتحققنا

من هذا بواسطة شيخ الحارة...

فقال حسنيين بصوت متهدج:

- ولكنّه لا يقيم هنا. لقد غادر بيتنا منذ أعوام ولا

ندري عنه شيئاً.

- بودي لو أقتل!.. لن يروح عن صدري أقل من القتل.

وضاقت الأم بعنفه بنفسه فغمغمت قائلة:

- هدي من روعك يا بني، ماذا يجدي ضربك نفسك هكذا؟

فصاح في غضب:

- دعيني أقتل نفسي ما دمت لا أجد من أقتله!

وخرج حسين عن صمته فقال بصوت غريب:

- يجب أن نتدبر أمرنا في هدوء.

فرماه بنظرة من عينين محمومتين وقال:

- أي أمر نتدبره؟.. لقد افتضحنا وانتهينا!

- هذه مصيبة لا حيلة لنا فيها ولكننا لم ننته، فلنتدبر أمرنا.

لم يكن صدره ليحتمل المناقشة فمضى إلى حجرته وارتمى على فراشه، وكان الحزني يخنقه والغضب يحرقه فمقت أخاه المذنب مقتاً قتلاً ودّ معه لو يخفيه عنه الموت إلى الأبد. واستسلم لحواطر دموية جنونية راح يجترها في ذهول وهذيان، ولحق به حسين فجلس على الكرسي صامتاً متحامياً لإثارته، وكان هو نفسه في حالة تستحق الرثاء. لم يبلغ منه الحزن يوماً ما بلغه في تلك الساعة، فلم يغب عنه ما أصاب سمعته من طعنة قاتلة، وما يتهدهم من قلاقل في الحاضر والمستقبل وما نزل بأخيه الأكبر من قضاء لا قائمة له بعده. ماذا جنت أسرته حتى تستحق هذا كله؟! وأخذت تتجمع في ذاكرته ذكريات من آلام الماضي ويربسطها بالآلام الحاضر فبدت له كدمل خطير يتكشف فجأة عن مضاعفات سامة في الوقت الذي يظن به الاندمال والشفاء. وكعادته قرن آلام أسرته بالآلام الناس فوجد نفسه يتأمل حزناً شاملاً، وكان يلقي على تأمله هذا كآبة لا شك فيها ولكنها كثيراً ما توحى بشيء من الصبر والغزاء. ثم نزعته به نفسه إلى تلمس بصيص نور في ظلامه المحيط، وجعل يسترق النظر إلى وجه أخيه المكفهر متحياً فرصة لمحادثته.

ولبت الأم وابنتها بموقفهما ونفيسة لا تمسك عن النحيب. لم يعد بوسع المرأة المحنكة أن تحسن التفكير

فهز الضابط رأسه وقال:

- على أي حال سأقوم بتفتيش الشقة تنفيذاً للأمر...

وبدا التفتيش فتراجع أحد الجنديين إلى الباب واقتحم الضابط والأخيران الحجرات، وقد جمد الشقيقان في موقفهما كأنهما استحالا حجريين. وقال حسين لنفسه «سأذكر هذه الساعة ما حيت»، وتبع خياله الضابط وهو ينتقل من حجرة إلى حجرة، وكأنه يرى معه الحجرات الخالية العارية ويقلب أثاثها البالي الحقيق ظهراً لبطن. لم يكن تفتيشاً عن حسن فحسب، لأن حسن لا يمكن أن يخترق في درج المكتب أو تحت حشية الفراش، فالفضيحة أظلم مما يتصور. وحتى في تلك اللحظة الرهيبة لم يستطع أحد أن ينتزع من نفسه الخجل الجارح الذي عفى عزة نفسه والضابط يهتك بعينه المتفحصتين حقارة البيت وفقره، وبلغ مسمعه - على ذهوله - صوت بكاء مكتوم فارتفع بصره إلى نفيسة وصاح بها بحدة جنونية:

- اكنمي أنفاسك!

وانتهى التفتيش فأمر الضابط رجاله بمغادرة الشقة ثم اقترب من حسين وقال برقة:

- أكرر الأسف. وإنه ليسرني أنني لم أعثر على شيء كان حرياً بأن يسبب لكم المتاعب!

ورفع يده إلى جبينه بالتحية وغادر الشقة مخلفاً وراءه سكوناً محزناً، وتبادل الشقيقان نظرة ذاهلة دون أن ينبسا بكلمة، وأقبلت المرأتان نحوهما بوجهين ميتين. وانتبه حسين من ذهوله بغتة متأوها فوثب إلى الباب وأبرز رأسه رامياً بطرفه إلى فناء البيت فرأى رجال البوليس في نهاية الفناء يشقون طريقهم وسط لمة من الرجال والصبية بينهم البقال والحذاد وبائع السجائر فتراجع وهو يضرب صدره بقبضته صائحاً:

- الجميع يتفرج على فضيحتنا. افتضحنا وانتهينا.

وعاودت نفيسة البكاء ونظرت الأم إلى حسين كأنها تستغيث به ولكن الشاب لم يدر ماذا يقول، وبدا كأنه يقاوم طعنة قاسية. وجعل حسين يذرع الصالة وهو يواصل ضرب صدره بعنف ويقول:

والتدبير، غلبت على أمرها. وقهرها الحزن والأسى. وكان قلبها يعاني الآلام التي تتوزع قلوب أبنائها جميعاً يضاف إليها ألم خاصّ دفين يخفيها بقدر ما يعذبها، وتشفق إشفافاً شديداً من ذبوعه وافتضاحه، هو الملمح لحسن نفسه. أين ذهب؟ ماذا يفعلون به لو قبضوا عليه؟؟ أيّ مصير يرصدونه؟ لا ينبغي أن تذكر له إلا عطفه وحنانه، وأنه جاذ لهم بخير ما في نفسه، وأنه كان ملاذهم في الملمات. يا له من طريد لا نصير له ولا حبيب! حتى أهله ينكروونه ويمقتونه. عين حسود أصابتهم، نفسوا عليها الموظف والضابط ونسوا الآلام التي تركتها حطاماً، وتهدّت في عصبيّة لأتّها لم تعد تحتمل نحيب نفيسة وانتهرتها قائلة:

- كفّاك بكاء ارحميني فإنّي لا أجد من يرحمني!

ولكنّ نفيسة لم تكن غلّك من نفسها شيئاً، حتى آلام الموقف الحقيقيّة غابت عنها في حالتها العصبيّة. غلبها خوف غريب ترتعد منه الفرائص. ولم تكن تبكي حزناً أو أسفاً أو غضباً ولكن بكاء هستيرياً تغالب به خوفاً لا يغلب خيال إليها معه أنّها هي المطاردة. وتوقع قلبها شراً فظيماً، أفضع ممّا وقع، فتلفّت فيما حولها في دعر كأنّها تحشى أن ينقضّ عليها فجأة. وسمعت أمّها تقول بصوت ضعيف «هلّمي بنا إليها» فرحبت بالدعوة لتفرّ من مشاعرها وسارت وراء أمّها إلى الحجرة في خطوات ثقيلة، ثمّ خفق قلبها وهي تجوز العتبة كأنّها تحفل من لقاء أخويها...

- ٧٦ -

ثمّ التفت حسنين إلى حسين وسأله بوحشيّة:

- أين تظنّه هرب؟

وكانت مرّت فترة من الوقت ثاب فيها حسين إلى بعض نفسه فلم يرتح للهجة الشاب القاسية وقال:

- من لي بأن أعلم! (ثمّ بلهجة لا تخلو من تأنيب)

تذكر أنّه أخونا!

- بعد هذا كلّه!

- نعم، بعد هذا كلّه...

نطقها بصوت عميق ليعزّي قلباً يعلم أنّه - على صمته - في أمسّ حاجة إلى العزاء، ولكن ثارت ثائرة

الآخر وصاح به:

- لقد قضى علينا...

فقال حسين بصوت متعب:

- لا تبالي ولا تصح. ينبغي أن تفكر في هدوء.

- إنّ الحيّ كلّ يتحدّث عن فضيحتنا...

فقال حسين في هدوء:

- في وسعنا أن نهجر الحيّ كلّ...

فتطلّع إليه حسنين بعينين حائرتين انشقت ظلمتهما عن بصيص أمل. هذا دعاء تهفوله نفسه مليّة وكأنّها هي التي تتكلّم، وغمغم قائلاً:

- ماذا قلت؟

- لم لا؟ القاهرة واسعة لا تُحَدّ، وسيطوي النسيان

قصتنا في أقلّ من أسبوع!

فتهدّ حسنين في شبه ارتياح، ولكنّه قال في حذر:

- لن نلجأ الماضي.

- فلننكر في المستقبل...

- ولكنّ الماضي سيطارده المستقبل إلى الأبد...

فقال حسين بملل:

- فلننكر جدّاً في الانتقال إلى مكان آخر. ويجب

أن يتمّ هذا قبل انتهاء إجازتي.

وقالت الأمّ برجاء:

- أجدر بنا أن نفكر في هذا حقّاً.

وردّد حسنين نظره بينها حائراً. قد يُقبض على

أخيه وقد لا يُقبض عليه ولكنّه سيظلّ على الحاليتين

يطارداهم ويتهدّدهم. لن يطمئنّ لهم جانب وهو على

قيد الحياة. ثمّ تساءل في فتور:

- أين نذهب؟

فقالت الأمّ في أمل:

- إلى شارع شبرا بعيداً عن هنا.

فندّت عنه حركة تنمّ عن الجرع والسخط وقال:

- أبعد من هذا، أبعد من هذا... إلى مصر

الجديدة!

فقال حسين في شيء من الارتياح:

- كما تشاء...

فلاح في وجهه تردّد طارئ، ثمّ قال متنهّداً:

الجديدة إلى مكرماتهم السابقة. سحقاً لهم، لشد ما يضيق صدره بالمكرات قديمها وحديثها، وإنه ليتطلع إلى قوم جدد لا تحول بينه وبينهم المكرات ولا يربط الماضي البغيض أسبابه بأسبابهم. «انظري بحزن وحيرة كيف شئت، لست لك، لست لك. ينبغي أن يتغير كل شيء. ماذا فتني في هذا الجسم؟! ألا لله لحم طري؟ الأسواق ملأى بهذه اللحوم. جوّ بغيض. لو طال المقام بي هنا أكثر من ذلك سأبغض أسرتي نفسها». وطالت الزيارة فجعل يتحملها في صبر حتى انصرفت الأسرة قبيل المغرب بقليل. وقد دسّت الفتاة في يده ورقة مطوية وهي تسلم عليه، ولما أن خلا إلى نفسه وبسطها وجد بها هذه العبارة «قابلي فوق السطح». كانت أول رسالة توجهها إليه، وتفحص الخط بعناية وغرابة فوجده بخط الأطفال أشبه، وذكر لتوه تعليمها الابتدائي! بيد أنها كانت على إيجازها عميقة الدلالة حتى لكأنها صرخة استغاثة. ولا شك أنها كتبتها خلسة في شقتها قبل الزيارة مما يدل على أن قلبها توجّس خيفة من أن يواصل فراره منها الذي بدأه بالرحيل إلى طنطا. وأحسّ بغمز في قلبه وشمله عدم ارتياح فسخط كما يسخط على كل شيء حوله. ولكن فيم يسخط؟ ليس من الخير أن تلمّ بما طرأ على نفسه؟ وهل كان يظنّ أن الارتياح لن يشرب إلى نفسها بعد سفره المفاجئ؟ ليكون. لن يرضخ لضغط الظروف حتى يدمر نفسه بنفسه، ولن يغامر بسعادته ومستقبله من أجل عاطفة طفلية قديمة ووعد صياني. وخاف أن يخلو إلى نفسه أكثر مما خلا فمضى إلى حجرته وقال غاطباً أخاه:

- هلمّ بنا لنخرج.

ونضّ حسين موافقاً على دعوته وغادرا الحجره معاً. ووجد ما يشبه الندم، وتمنّى لو كان حسين قد تكاسل عن تلبية دعوته بهذه السرعة ليعاود التفكير! ولم تكن الفرصة قد ضاعت تماماً، فلم يزل بوسعه أن يراجع نفسه، ولكنّه لم ينس بكلمة، وواصل سيره إلى جانب أخيه. لعلّها تنتظر الآن أمام حجره الدجاج! وخفق قلبه خفقة شديدة. تنتظر بلا أمل؟ وما أفصح

- ولكنّا في حاجة ماسة إلى أثاث جديد!

فقال الأمّ بضيق:

- لا تزد الأمور تعقيداً، ماذا يهمّ الأثاث إذا لم تقع عليه العين!

- لا أستطيع أن أخفي بيتنا عن أصدقائي إلى الأبد!

فقال حسين:

- هذه مسألة أخرى، وبوسعك أن تتنازع كنية وكريسيين كبيرين وبساطاً أسبوطياً فتجعل منها حجره استقبال مؤقتة. وإذا شئت خرجنا معاً اليوم أو غداً للبحث عن شقة؟

وبذلك خفّت التوتر قليلاً وإن غشيت جوّ المكان كآبة استسلموا لها جميعاً في صمت حتى دقّ الباب وجاء فريد أفندي وأسرته. كانت زيارة منتظرة ولكنها جاءت في أسوأ حال، وذكر حسين في عجب كيف حلم بها منذ ساعات، وكيف يتلقاها الآن بفؤاد كسير ونفس فاترة. أما حسين فقد ثار غضبه بلا سبب ظاهر، ولو لم يره فريد أفندي ونفيسة تتقدّمه إلى حجره الاستقبال، لمضى هارباً إلى الخارج. واجتمعوا في حجره الاستقبال، ولقي حسين من الأسرة تحية حارة ثم استفاض الحديث عن الماضي والحاضر. وكانوا يتوقعون أن يثير الزوار مسألة التفتيش والبوليس ولكنّ آل فريد أفندي تجاهلوا الأمر كليّة كأنهم ما علموا به. ولم يلفظ هذا التجاهل من حقّ حسين، أو بالحرّي زاد من ثورته الباطنة وشعر بجرح عميق في كرامته. والتقت عيناه بعيني بهيّة أكثر من مرة فوجدها ترمقه بحزن وحيرة لم تخفّ عنه بواعثها منذ سفره المفاجئ إلى طنطا. ليكون، لقد ضاق صدره بهذا كلّ. الآن، وفي وقدة حنقه وضيقه، يستطيع أن يواجه خواطره الباطنة بصراحة وشجاعة. لن تكون هذه المرأة حماته، ولا هذا الرجل حماء... ولا هذه الفتاة زوجه! كلّ أولئك هم عطفة نصرالله بلا زيادة، عطفة نصرالله بذكرياتها السود وحاضرها الأغبر. إنهم يعلمون بما جاء بالبوليس كما يعلم الجيران جميعاً ولكنهم يتكرّمون عليهم بتجاهل الأمر، ولعلهم يضيفون هذه المكرمة

- أمران لا يمكن تأجيلهما وهما النور الكهربائي وخادم صغير فغير هُذين لا يصحّ أن نبقي هنا يوماً واحداً.

ولم يعترض على قوله أحد إذ كان مفهوماً أنّه هو الذي سيُدخل النور الكهربائي ويستحضر الخادم. ثمّ فُكر في الوسط الجديد من زاوية جديدة فتساءل في نفسه ترى هل تصلح أمّه وأخته لمخالطة هؤلاء القوم؟ وخيّل إليه أنّه سمع تعليقات السيّدات والهوانم عقب زيارة لبيته فتصاعد دمه إلى رأسه وقال مخاطباً أمّه في لهجة تنمّ عن التحذير:

- لا ينبغي أن نعرف أحداً في حيننا الجديد ولا يعرفنا أحد فلا نزور ولا نُزار.

فقالت أمّه بعدم اكتراث:

- لا رغبة لي في معرفة أحد...

وقالت نفيسة:

- لا صديق لنا هنا نأسف على قطعه!

فقال لها الشاب بقلق:

- يا حبّذا لو أهملت صديقاتك الأخريات أيضاً!

فاضطربت نفس الفتاة، ومع أنّ الانقطاع عن العالم «الخارجي» كان من أمانيتها إلّا أنّه كان أمنية تعجز عن تحقيقها دائماً، ولا تفتأ تساق إليه بقوة بغیضة أسرة، فتساءلت في إشفاق:

- وهل أبقي حياتي سجيّة؟!

وتدخّل حسين للدفاع عن أخته فقال:

- لا تغال يا أخي في طلباتك...

فقال الشاب في حدة:

- لا أريد أن يزورنا أحد من حيننا القديم.

- لن يتجسّم أحد زيارتنا فيما عدا فريد أفندي وأسرته.

وصمت حسين طويلاً سخطه. وذكر زيارة التوديع التي قامت بها أسرة فريد أفندي أمس، وكيف عرفوا العنوان الجديد وكيف تمّى وقد ذاك لو يغمض عينيه ثمّ يفتحها فلا يجد أثراً للماضي كلّ، خيره وشرّه!.. ترى هل أفضت الفتاة لوالدها بما تجد من فتوره؟.. ترى هل يفلت من هذه العلاقة بيسر أم تنشب به متاعب لا

هَذَا! وفي نفس المكان الذي لمس حرارته وسمع بهّ وشكواه؟ ما أعجب هذا! وحاول أن يطرد هذه الصورة عن مخيلته بتصميم عنيف، ثمّ سمع أخاه وهو يخاطبه قائلاً:

- لن نضيّع وقتنا، ولن ينقضي هذا الشهر حتّى نكون قد انتقلنا إلى البيت الجديد.

- ٧٧ -

وانقضت الأيام في البحث عن مسكن جديد حتّى اهتدوا إلى بيت بشارع الزقازيق بمصر الجديدة، ذي موقع ساحر وإيجار مستطاع على حدّ قول حسين، وفي اليوم المحدّد للانتقال اجتمعت كلمتهم على حمل الأثاث مساء على غير المألوف لإخفائه عن أعين المستطلعين، وتقدّ ذلك، ولبت حسين في الشقة مع الأثاث المكوّم على حين عاد حسين إلى عطفة نصرالله ليصحب أمّه وأخته إلى المقام الجديد. وودّعا حيّهم ليلاً غير آسفين، بل مستبشرين خيراً، ولما بلغوا الحيّ الجديد تولّتهم دهشة ممزوجة بإكبار لما شاهدوا من اتّساعه وصمته ومناظر العمارات والفيّلات المقامة على جانبيه وهوائه الجافّ النقيّ فلم تتمالك نفيسة نفسها من أن تقول باسمه على رغم أنّ الموقف لم يخل من ذكريات حزينة «لقد صرنا من الطبقة العالية حقّاً».

وكانت الشقة الجديدة في بيت مكوّن من دورين تحيط به حديقة بسيطة فارتقوا إليها سلماً ذا سبع درجات وهنالك وجدوا حسين في انتظارهم وقد أشعل المصباح الغازي، ونشطت المرأتان إلى فرش الحجرات الثلاث الصغيرة وعاونها الشابان فلم يستغرق تجهيز الشقة الجديدة بالأثاث البسيط أكثر من ساعة تخلّلتها فترة راحة. وبدت الكراسي والكنبتان والفرش غريبة نادرة وسط الحجرات الأنيقة، ولم يفت حسين التعليق على هذا بتلّمز كالعادة ولكنّه وجد بعض العزاء في حجرة الاستقبال التي كانت تفتح على الخارج فلا يضطرّ القادم إلى عبور الصالة الداخليّة إليها. وتحدّثوا غير قليل عن الوسط الجديد والعمارات والشوارع وما يتخيّلونه عن الجيران، وتحدّث حسين عن ضرورات الحياة الجديدة كما يراها حتّى قال:



حياته قد دنت، فلما النجاة وإما الهلاك. وتبادلا نظرة طويلة، هي في إنكار وتساؤل وهو بابتسامة باهتة لا معنى لها. ولم تلبث أن سأله مستنكرة:

- لماذا لا تزورنا؟

فقال واجماً:

- أسباب لا تحفى عليك تمنعني من الظهور في حيننا القديم!

ولكنها لم يبد عليها الاقتناع وعادت تسأله:

- لم لم تقابلني فوق السطح بعد أن تركت الورقة في يدك!

- كنت وأخي مرتبطين بموعد هام.

ففساءت بلهجة وشت بحزنها:

- وسفرك المفاجئ إلى طنطا دون أن تخبرني؟

فقال وهو يتحاشى عينيها:

- اضطررت إلى السفر فجأة...

فهتفت في انفعال:

- لم تعد تبالي حتى باختلاق الأعذار المعقولة!

إن الموقف دقيق حقاً، بل أليم، ولكن التخاذل معناه الموت بالنسبة إليه، ولن يتهاون في حق حرّيته ومستقبله. وتنهّد متظاهراً بالحزن وغمغم قائلاً:

- إن ظروفى أعقد من أن تقدّرها.

- أفصح عما تريد قوله. لا أفهم شيئاً إلا أنك تغيّرت. لم تعد كما كنت. لست غبية ولا حمقاء، أنت لا تريد أن تراني.

- ساحلك الله.

ولعل ضيق الوقت حلّ عقدة لسانها فقالت في تألم ظاهر:

- لا تلقِ إليّ بهذه العبارات المبهمة. أريد أن أفهم كل شيء. ماذا بك؟ لماذا تغيّرت هكذا؟ صارحني بما في ضميرك كله.

وحال تشبّهه بالنجاة والفرار دون إحساسه بما في كلماتها من يأس وعذاب فقال:

- لم أنغبر ولكن ظروفى تغيّرت.

فقال باستغراب:

- تغيّرت ظروفك حقاً ولكن إلى أحسن!

يحمل بها؟! ليصمدنّ مهما كان الأمر، الحرّية والمجد فوق المتاعب جميعاً. أجل لو تغلب على الماضي فسيتمتع بأشرف ما في الحياة من طمأنينة وسلام.

ثم انتحى حسنين بالشاب ليوازن معه ميزانيتها لما جدّ عليها من تكاليف النقل وشراء ما سمّوه «حجرة الاستقبال» إلى ما ينتظر من نفقات جديدة للنور والخدام. وقامت نفيسة للفرجة من نوافذ الشقة واستطلاع الدنيا الجديدة. وخلت الأم إلى نفسها فاستجمعت ما مرّ بها من حوادث في الأيام الأخيرة حتى انتهى بها المطاف إلى هذا الحي الجديد، فلم يستقرّ وعيها إلا على شيء واحد، هو حسن! ترى أين يهيم الفتى؟ ماذا صنع الله به؟ لم تكن تخلو إلى أفكارها حتى يطالعها من ثناياها فيستثير دفين الحسرة والألم... هكذا باتوا أولى ليايلهم بمصر الجديدة.

- ٧٨ -

- جئنا نهتئ بالبيت الجديد جعله الله مقاماً سعيداً...

قالت أم بهية ثم جلست هي والفتاة على الكنبه الجديدة. كان الوقت عصراً وكانت الأسرة مجتمعة ما عدا نفيسة التي غادرت البيت قبل وصول الأم وابنتها بنصف ساعة.

وأثنت أم بهية ثناءً جيلاً على المسكن الجديد وحيه الباهر، وشكت الوحشة التي شعروا بها بعد فراقهم، واعتذرت عن تغيب فريد أفندي بانهاكه في العمل بالوزارة بعد الظهر لمناسبة موسم الإجازات. ثم جرى الحديث المألوف واشترك حسنين كالمعتاد ولكنه كابد قلقاً لم تخف عنه بواعثه وشعوراً مؤلماً بالخرج.

وجعلت بهية تخالسه نظرات حزينة، فصيحة بغير بيان، فازدادت حاله توتراً، ثم أعربت أم بهية فجأة عن رغبتها في الانفراد بالأم، الأمر الذي زاده قلقاً وتوتراً؛ وما لبثت أن غادرتا حجرة الاستقبال معاً.

ووجد حسنين نفسه غريباً بين خطيين فغادر الحجرة متحلاً بعض الأعذار، وخلا الجو، وهو ما لم يكن يتوقّعه حسنين بحال. وكان يعرف بداهة ما دعا أم بهية إلى الانفراد بأمه، فأدرك أنّ الساعة الفاصلة في

- هذا في الظاهر فقط أما في الحقيقة فهي أنني بت أدرك مسئولياتي الشاقة.

فقلت بلهجة لا تخلو من غيظ:

- ألم تكن تدرك مسئولياتك من قبل؟.. إن مسئولياتك جميعاً لا تحول بينك وبين ما تريد إذا كنت تريده حقاً!

- أريد ولا أستطيع.

فرت إليه شاحبة الوجه وغمغمت:

- بل تستطيع ولا تريد.

ولم يجد ما يقوله، وتضاعف إحساسه بعذاب الموقف، ومع ذلك ازداد تصلباً وتشبثاً فتمتم:

- أنت مخطئة.

وكانت تنفضه في جزع وبأس وكأنها تريد أن تنفذ إلى أعماقه، وابتلعت ريقها بمشقة ثم قالت:

- كلاً، لست مخطئة. لو كنت تريد حقاً لما قلت لا

أستطيع. إن هي إلا معاذير (ثم متتهدة على رغمها) لم تعد تحبني وتريد أن تتخلص مني. هل ثمة سبب آخر!

ومع أن هذا ما كان يؤمن به في أعماقه إلا أن سماعه هاله وأكربه فرفع حاجبيه منكراً وقال:

- لشد ما تظلميني!

ولم تسكن لهجته خاطرهما، أو بالحري مكنت لقبضة اليأس من عنقها. وزاد إحساسها بضيق الوقت من جزعها فتناست حياءها المطبوع وهتفت:

- أنت الظالم، لقد خطبتني ثلاثة أعوام ثم بدا لك أن تتخلص مني...

وتحامي عينيها فنظر إلى الأرض. كان متحرّجاً متألماً ولكن تصميمه على عدم التراجع كان أعظم فقال:

- إن ظروفي أقسى من أن تدركها على حقيقتها.

أمامي صبر طويل.

ورقت لهجتها فجأة وقد تورّد وجهها وقالت برجاء:

- إذا لم يكن ثمة سبب آخر فبوسعي أن أشاركك

الصبرا

فتوجّس خيفة من تغير لهجتها وقال:

- إنه صبر طويل.

فقلت باللهجة نفسها:

- لا بأس، إلا أنني أرجو أن تعلن خطبتنا بالطرق

المعهود.

وذهب حيال انقلاب الحديث إلى هذا المجري بعد أن أوشك أن ينقطع، وركبه الخوف والضيق والجزع فهتف وهو لا يدري:

- كلاً!

وجعلت تمحلق في وجهه في ذهول، ثم خفضت

عينيها في يأس، واحمرّ وجهها خجلاً. وحركت شفيتها مرة ومرة كأنها تريد الكلام ولا تستطيعه ثم غمغمت:

- أرايت أنني كنت على حقّ لما قلت لك إنك تريد أن تتخلص مني؟...

ويلغ منه الارتباك مبلغاً لم يعهده من قبل، ولاذ بالصمت ملياً، ثم قال كالمعتذر:

- إني جدّ حزين، ربّما أقمت لي العذر يوماً.

فقلت في إعياء وقهر:

- حسبك، لا أريد سماع كلمة أخرى.

وساد صمت ثقيل الوطأة كالمرض ملأ الحجرة بأنفاس اليأس الخائفة، ولكن وجد الشاب على حرجه وألمه لوناً من الراحة، فمها يطلّ هذا العذاب فلا بدّ

أن ينتهي، وهناك يجد نفسه حرّاً طليقاً. وتساءل وهو يسترق إليها نظرة ترى ماذا يدور في رأسها؟ ألا زالت

تريده؟ أم كرهته؟ أم تتمنى الانتقام منه؟ لشد ما أحبها عهداً طويلاً، ولكن هكذا انتهى كلّ شيء.

وتساءل ترى فيم تتحدث الأمان؟ وعلام انتهى

الحديث الذي طال؟ ثم قال لنفسه «إن مصيري يتقرّر بيدي لا بيد أخرى». ثم ترامى إليه صوت المرأتين

وهما تتكلمان قادمتين فحقق قلبه واستحوذ عليه قلق مفاجئ. وعادتا إلى مجلسهما بوجهين يلوح فيهما الرضا

- ممّا ضاعف قلقه - ثم دق الباب وكانت القادمة نفيسة، ورجع حسين إلى الحجرة، فوجد حسين في

المحيطين به ما انتزع من أفكاره وردّ إليه شيئاً من هدوئه. ومع أن بهية بدت على حال من الوجوم لا

تحفى إلا أن الحديث لم يشدّ عن المألوف حتى انتهت

يكون لديك من الأسباب ما يبرر الإقدام على هذا الخطوة الفظيعة.

- ٧٩ -

وقالت الأم المنزعجة:

- يا للفضيحة!... لقد تمّ الاتفاق بيني وبين الأم في نفس الوقت الذي كنت تهدم فيه ما نبني، فما عسى أن تظنّ بي المرأة؟ ألا يمكن أن تشكّ في أنني كنت أخادعها وأنا أعلم بنواياك؟.. ماذا فعلت يا بني؟.. ما سبب هذا كلّ.. وماذا يعيب الشابة؟! وضاعت نفيسة بالمتكلمين فصاحت بحدة:

- دعونا نسمع صاحب الشأن.

وقال حسين مخاطباً أمّه:

- بهيّة شابة لا غبار عليها، ولكن تبين لي بوضوح أنّها ليست الزوجة التي أطمح إليها.

فقالت الأم:

- لقد خطبتها ثلاث سنوات فكيف يليق أن تهجرها

بلا سبب مقنع؟

وهزّ حسين رأسه مؤمناً على قول أمّه ثم قال:

- لهذا حقّ. إنّ فسخ خطبة أمر فطيع. ولا يجوز

أن يقع بلا سبب مقنع!

وتساءلت نفيسة باهتمام:

- كيف تبين لك أنّها ليست الزوجة التي تطمح

إليها؟ دعوه يتكلّم...

فقال حسين بضيق:

- لا ريب أنّ بهيّة لا تصلح زوجة لي. حقاً لقد

خطبتها بنفسها ولكنّي لم أكن أدري هذه الحقيقة

وقتذاك...

فقالت الأم بقلق:

- بهيّة فتاة جميلة ومؤدّبة، ولأبيها فضل علينا لا

ينسى... وقال حسين بلهجة تنمّ عن استياء:

- إني أعجب لحكمك هذا، ما هي الزوجة

الصالحة في نظرك؟ فصمت حسين قليلاً ثم قال:

- أريد زوجة من وسط أرقى، مثقفة، وعلى شيء

من الثراء...

فتساءل حسين بنفس اللهجة:

- أهذه هي الأسباب التي جعلتك تنكث بعهديك؟!

ونظر حسين صوب أمّه في قلق متسائلاً فأدركت أنّه يسأل عمّا دار بينها وبين أمّ بهيّة، ونظرت إليه نظرة لا تخلو من فتور وقالت:

- حدّثني ستّ أمّ بهيّة عن وجوب إعلان الخطبة بصفة رسمية، ووافقتها في النهاية على رأيها.

وقطّب الشاب في حنق وضرب يداً بالأخرى وهتف بها:

- تسرّعت يا أمّاه!

وشعر بما أحدثه قوله من دهشة فعاد يقول:

- لا لوم عليك بطبيعة الحال ولكنني فسخت الخطبة!

وحذّقت به العين التي تأبى تصديق ما سمعت وتساءلت الأم:

- ماذا تقول؟

فقال ضاعطاً على مخارج الألفاظ:

- لقد فسخت الخطبة اليوم، الآن، وغادرتنا بهيّة

وهي تعلم أنّ كلّ شيء بيننا قد انتهى.

وصاح حسين منزعجاً:

- لا!

وقالت الأم:

- إنك تحيّرتني بتصريحك هذا، ولست أفهم شيئاً؟

هل وقع بينكما خلاف بغتة؟.. متى وكيف؟

وكانت نفيسة آخذة في خلخلة حداثها فأمسكت

وقالت:

- تكلم يا حسين. هذا خبر لم يتوقّعه أحد!

فقال الشاب بوجوم:

- الواقع أنّي عقدت العزم على فسخ الخطبة من

زمن غير قصير ولكنني لم أشأ أن أخبر أحداً، واليوم

حين انفردت بها في هذه الحجرة لم أجد معذري عن

إعلان نيّتي فأنتهى كلّ شيء. أرجو ألاّ يسألني أحد عمّا

قلت أو عمّا قالت فهذا لا يعني أحداً سواي.

فقال حسين باهتمام وأسف:

- كان موقفاً قاسياً على الفتاة بلا شكّ، وأرجو أن

فقال حسين منتهذا:

- نحن فقراء، وبهية في حكم الفقراء كذلك،  
وأخاف إذا مت قبل نهاية المرحلة - كوالدنا - أن أترك  
أبنائي لقساوة الحاجة كما تركنا. . .  
وهتفت نفيسة قائلة بحماس:

- صدقت!!

فغضب حسين لحاس أخته وسأله:

- هل قدرت خطورة الخطوة التي أقدمت عليها؟

فقال حسين بحزن:

- لشدة ما حَزَّ في نفسي الأسف ولكني لم أوافق على  
ضياح حياتي. . .

- وتوافق على ضياح حياتها؟

- لن تضيع حياتها، لا زالت في عنفوان الشباب،  
والمستقبل أمامها باهر.

فتساءل حسين في حنق:

- هل تسمح لي بأن أصف لك سلوكك؟

فنظر إليه في وجوم ولم ينبس بكلمة فهزّ حسين  
رأسه في انزعاج وتساءل:

- إني أعجب كيف تسخط على سلوك حسن وله من  
الأعذار ما ليس لك!

وامتقع الشاب وقال بحدة:

- لا شك أنّ سلوكي لم يخل من قسوة ولكنّه  
سينتهي بخير بالنسبة لي ولها، وهو على آية حال أفضل  
من زواج غير موفق.

وأعرض الشاب عنه يائساً، وضربت الأم كفّاً بكفت  
وهي تتمتم:

- يا لها من إساءة شديدة لأطيب الناس طرّاً، ربّاه

كيف أخفي وجهي!

ومع أنّها كانت صادقة فيما تقول إلّا أنّ أعماقها لم  
تخل من ارتياح خفيّ. وقد كانت تشفق من أن يبادر  
حسين إلى الزواج فتعود الأسرة إلى الترتّج والقلق،  
وكانت ترمق نفيسة دائماً بعين الخوف متسائلة في حزن  
عن المستقبل القريب والبعيد. ولكن إذا كان هذا حقّاً  
لا شكّ فيه فحقّ كذلك ما تجد حيال أسرة فريد  
أفندي من أسباب الخجل والألم. أمّا نفيسة فلم تكن

تحسن إخفاء عواطفها فقالت:

- لا خوف على بهية، ستتزوج اليوم أو غداً.

فقال حسين بامتعاض:

- هذا كلام يصدق على كلّ فتاة ولكنّه لا يصلح  
دفاعاً عن خطئنا. . .

فقالت نفيسة متهمّة:

- لا يصدق على كلّ فتاة! . . والدليل على ذلك أنّه

لا يصدق على أخت حضرتك!

وخفّف تهكمها من التوتّر العامّ، وانتهز حسين  
الفرصة فقال بلهجة دبّ فيها الحماس:

- أليس الأفضل أن أختار زوجة من نوع خاصّ

ككرمية أحمد بك يسري مثلاً!

وقالت نفيسة بمرح:

- وما هذا على الله بكثير. من يدري لعلنا نراك

يوماً في فيلاً محترمة وتتدفّق علينا خيراتك يوماً بعد  
يوم. . .

ولم يلتجئ حسين إليها بالألّا، وقالت الأمّ وكأنّها تحدّث  
نفسها:

- سيعلم فريد أفندي بالخبر هذا المساء، ما عسى  
أن يقول عنّا! ليتني أجد الشجاعة لأزورهم وأعتذر  
إليهم!

ففكّر حسين طويلاً ثمّ تتمم بهدوء وحزم:

- لا تنقصني أنا هذه الشجاعة.

ووقع قوله من نفوسهم موقع الاهتمام، وسألته  
نفيسة:

- أتذهب حقّاً؟ . . وما عسى أن تقول لهم؟

فقال الشابّ مقتطّباً:

- أقول ما يفتح الله به عليّ. ربّاه لا شكّ أنّ في

دعنا شيئاً نجساً. . .

ومضى يرتدي ملابسه، ثمّ غادر الشقة. . .

لم يقصد غايته رأساً ولكنّه مضى إلى مشرب شاي  
بمصر الجديدة فجلس ساعة يقلّب الأمر على وجوهه  
ويعدّ له عدّة. سرّح خياله بين ذكريات الماضي  
وحوادث الحاضر، وساءل عقله طويلاً وساءل قلبه،

حسب بنات الناس العوبة يلهو بها على هواه، يخطب حين تحلو له الخطبة، ويفسخ حين يطيب له الفسخ؟! لقد عاملته كابني ولم يَدُرْ لي بخلد أنه يطوي صدره على قلب بهذا الخبث والغدر...

وزاد شعور حسين بالحرج وطأة فقال ينتحل الأعدار كيفها اتفق:

- أخي فتى طائش وقد أضاعحت حادثة حسن صوابه.

فتساءل الرجل في إنكار:

- وما ذنبنا نحن؟.. هذا عذر غير مفهوم!

- أقصد أن المصيبة أثارت أعصابه وأفسدت حكمه فضاق صدره بالدنيا جميعاً.

فلوح الرجل بيده في عنف وقال ساخطاً:

- كلام غير مقنع. إني رجل مجرب وأعلم أن الرجل لا يغدر بخطيته لمثل هذا السبب. قل غير هذا الكلام إذا شئت أن أصدّقك. قل إنه صار ضابطاً وبات يطمع في نوع آخر من النساء.

فقال حسين بلهجة حزينة:

- وددت بحياتي لو أصلح الأمر.

- فسد الأمر ولا صلاح له. إنه عبث لا يليق بالشرفاء، ولو كنت غير الرجل لقاضيته وأدبته، ولكني أحمد الله على ما كشف لي من حقيقة نفسه بعد أن خدعت به طويلاً. ما هو إلا شاب نذل جبان، ولا تؤاخذني على قول الحق...

ووقعت هذه الأقوال من نفس الشاب موقعاً ألياً فخفض بصره ملياً ثم قال بصوت ضعيف:

- إني جدّ أسف، بل كلنا آسفون، ولا مطعم لنا الآن إلا الإبقاء على الود القديم...

وساد الصمت برهة ثم تمت الرجل بفطور:

- ما عهدنا منكم شراً...

وشعر حسين بقلق وتوتر، وذكر ما انتهى إليه رايه قبل حضوره بقلب خافق مضطرب وتساءل فيما بينه وبين نفسه ترى هل من المناسب الآن الإقدام على الإفصاح؟! ومع أنه لم يجد من الجواب مشجعاً إلا أنه أبى التراجع أو التأجيل، ونظر إلى الرجل بعينين

ثم قرّ فكره على رأي. وكان في تفكيره جريئاً حازماً قاطعاً على غير عادته، فلم تعترضه الصعوبات ولم تشبطه المخاوف، حتّى عجب للسرعة التي بتّ بها في الأمر وتساءل في دهشة «ترى أمي من وحي الساعة أم أئر لما تجمّع في نفسي خلال ثلاث سنوات؟».

واستحوذ عليه شيء من الاضطراب، وعاد يسأل نفسه، ويستعرض الظروف المختلفة ولكن لم تكن قوّة لثنيته عمّا عقد العزم عليه. وقام من مجلسه تعتلج في صدره انفعالات شتّى من بسطة السرور وقبضة القلق وأريحية المغامرة، ثم اتخذ سبيله إلى عطفة نصرالله فبلغها في أوّل الليل. ومضى يقترب من البيت القديم وهو يشعر بثقل المهمة وحرج الموقف، ولكنّه أقدم بخطى ثابتة وعزيمة لا تثنى. ثم طرق الباب بقلب خافق ففتحت له الخادم، وحدهجه بدهشة أثارت أعصابه، ثم قادته إلى حجرة الاستقبال. وما عتّم أن جاء فريد أفندي بجسمه المترهل فرآه لأوّل مرّة مكفهر الوجه، يتوهّج الغضب في نظرة عينيه. وما كاد يفرغ الرجل من مجاملات السلام ويستقرّ على مجلسه حتّى قال بانفعال وتأثر شديد:

- عشرة العمر كلّه، وجيرة العمرة كلّه، وصداقة العمر كلّه، تمرّقونها جميعاً في دقيقة واحدة! فنظر حسين إلى الخوان أمامه في ارتباك وتمتم بصوت منخفض:

- إنّ ما بيننا من ودّ قديم لا يمكن أن يتغيّر، وإن نس لا ننسى فضلك ونبل أخلاقك ما حيناً...

فلم يعره الرجل التفاتاً وضرب كفّاً على كفّ وهو يقول:

- لم أدر حين خبروني كيف أصدّق أذنّي. إنّ طبيعة قلبي تأبى أن تصدّق هذا الغدر الشائن...

- إني عاذرك يا سيّدي. وصدّقني أننا لم نكن أدنى لتصدّيقه منك، حتّى إنني تركت أمي في حال يرثى لها...

- كنت ألاحظ أنّه يتأقل عن زيارتنا، وقيل لي في تفسير ذلك أعدار صبيانية زادتني تشاؤماً، حتّى علمت لهذا المساء بأنّه جاهر بنكث عهده، ما شاء الله، هل

حذرتين وتساءل:

- هل أستطيع أن أقابل الأنسة بهية؟

فقال الرجل بجزع وهو يلطم الهواء بظاهر كفه:

- ما الداعي لهذا؟.. فلندعها وحدها، هذا خير ما يفعل!

وغلب التأثر الشاب. ترى ماذا تفعل المسكينة؟ وماذا أحدثت الصدمة بنفسها الرقيقة؟ وماذا هو فاعل أيقدم أم ينكص؟ ألا يقع كلامه من هذا الجو المكهرب موقعاً مضحكاً! ولكنه شعر شعوراً خفياً بأنه إذا تراجع هذه اللحظة فلن يقدم أبداً، وتهدد تنهدة عميقة أزاح بها التردد عن صدره وقال بسكينة ظاهرة يداري بها اضطرابه:

- سيدي، لا أدري كيف أعرب عما في نفسي، ولست أزعج أي اخترت وقتاً مناسباً، ولكنني لا أستطيع أن أقاوم ما يدفعني إلى قول كلمة أخيرة وهي أنني أرجو أن تبارك يوماً رغبتني الصادقة في طلب يد الأنسة بهية!

والتسعت عينا الرجل دهشة وبدا أنه كان يتوقع كل شيء إلا هذا، ولعله أراد أن يتكلم ولكن ارتج عليه، أما حسين فكان قد عبر قمة أزمته فقال مسترداً بعض هدوئه:

- لا تحسبن أن ما يدفعني إلى هذا الرجاء هو ما أشعر به حيال تصرف أخي من خجل، أو ما عسى أن تتصوره عطفاً على حال الأنسة. كلا، وأقسم على هذا. إنها رغبة قائمة بذاتها، منبعشة أولاً وآخرًا من تقديري لكم ولحكم.

وواصل فريد أفندي دهشته الصامتة على حين استمد حسين من انطلاقة لسانه وصمت الرجل شجاعة وحرارة فاستطرد قائلاً:

- شيء واحد يجريني في هذا المسعى كله وهو ما أشعر به من أنني غير كفء لها.

فخرج الرجل عن صمته لأول مرة متممًا:

- لا تقلل من شأنك يا حسين أفندي، أنت عندي

بمنزلة الابن...

فقال حسين وقد تورّد وجهه:

- شكراً...

وتفكر الرجل قليلاً كالحائر ثم قال:

- لا يسعني إلا شكرك على رغبتك هذه، ويسرني - علم الله - أن تتحقق ولكنتك تدرك طبعاً أن وقت التحدث بشأنها لم يشن بعد؟...

- هذا طبيعي جداً يا سيدي، وبوسعي أن أمدد. أعني أن أنتظر حتى يجيء الوقت المناسب... وانتهى الحديث عند هذا الحد...

- ٨١ -

وعاد إلى مصر الجديدة غارقاً في أفكاره فلم يكدر يرى شيئاً من الطريق، ولكنه استعرض صفحة مطوية طويلة من حياته كما فعل في مشرب الشاي قبل أن يتجه إلى بيت فريد أفندي. وكان على حيرته يشعر بسرور وأمل لم يشعر بمثلها طيلة حياته. لقد أحب الفتاة فيما مضى ولكن حبه مات قبل أن يتزعزع ويزدهر، ولم يبق منها في قلبه الحكيم الوافي إلا المثال الذي يحلم به للزوجة الصالحة، وأنه يذكر أنه تألم كثيراً وصبر كثيراً، فتعلم أنه بشيء من الحكمة يمكن أن يعثر في دنيا الألم على مسرات عالية، وخرج من التجربة ساكن القلب بسام الثغر، وكان يقول لنفسه متعزياً إن مواجهة سوء الحظ بالصبر والتسامح، سرور ينبغي أن يعد من حسن الحظ... وهكذا تعزى ونسي من زمن طويل. ولما أن فتح له باب الأمل المغلق على حين غفلة نسي أنه كاد ينسى وأزهر الحب في قلبه كأن نائوته لم تهدأ لحظة واحدة من الزمان. وانطلق في سرور لا تشوبه شائبة حتى بلغ البيت. ووجد الجميع في انتظاره فما إن وقعت أعينهم عليه حتى صاحوا به:

- ماذا لقيت؟!

ورأى أن يمهد للخبر العجيب الذي يحمله بأن يهول من خطر الأمور فقال وهو يهز رأسه أسفاً:

- وجدتهم على حال من التأثر انزويت معها خجلاً وخزيًا، ولأول مرة في حياتي رأيت فريد أفندي الرجل الوديع نائراً غاضباً كاسراً...

وسألته الأم بحسرة:

- خبرني عما حصل كله. ألم تقابلك أم بهية؟

- لا يخلو الأمر من هذه الرغبة، بيد أني أكن للفتاة تقديرًا كبيرًا، وأعتقد أنه إذا لم يكن بد من الزواج فالأفضل أن يكون من فتاة مثلها... فتساءلت نفيسة في لهجة ساخرة: - ومن قال إنه لا بد من الزواج؟! وتداخلت الأم متسائلة: - وماذا قال لك فريد أفندي؟ فأجابت نفيسة بالنياحة عنه قائلة: - قال على العين والرأس طبعًا... وأجاب حسين دون أن يعبا بها: - شكر لي طلبي ولكنّه اعتذر بأنّه لا يستطيع أن يخاطب الفتاة الآن بهذا الشأن وطلب إليّ أن أمهله إلى حين...

وعاد حسين يسأل باهتمام: - أكنت تضمّر هذه النية حين غادرتنا؟ فأجاب حسين ببطئ: - كلاً... فقال الآخر بإشفاق: - أخاف أن تستين بعد حين أنك غير راغب في الزواج حقًا!

فقالت نفيسة متتهدة: - ربّنا يسمع منك... فصاحت بها أمها غاضبة: - نفيسة! أمّا حسين فقال مجيبًا أخاه: - إني أحب بطبعي الحياة المستقرة... فقال حسين بارتياح: - ليس أحب إليّ من سعادتك وسعادتها... وصمت قليلًا ثم استدرك قائلاً بصوت منخفض: - ولي أنا أيضًا آمالي، كأن أتزوج من كريمة أحمد بك يسري. انتظنه يا أخي أملاً أخرق؟ فقال حسين مبتسمًا: - لم لا؟ إنك كفاء لها...

وهتفت نفيسة ضاحكة في شيء من الاضطراب: - لنّا الله. أردنا أن نستردّ واحدًا والغالب أننا

- كلاً، قابلي الرجل وحده وقبل أن أفتح فمي بكلمة انهل علينا تانيبًا وتقريعًا... وأعاد عليهم كلام الرجل - فيما عدا الكلمات القارصة - مضيّقًا عليها من عنده ألوانًا من التأثير والحزن ليستثير ألمهم ويستدرّ عطفهم حتّى ملأهم الوجوم والخلجل، إلّا نفيسة فقد قالت: - ما كان ينبغي أن تلقاه الليلة. وعلى آية حال فالخطأ الأوّل ينصبّ على من يقبل تلميذًا صغيرًا كخطيب لابتنة فضلًا عن أن يكون هو الساعي بحيله إلى عقد الخطبة. ولا أجد حسين مستحقًا للوم فقد كان تلميذًا كما قلت لا يعرف ما يضرّه ممّا ينفعه، فلمّا أن بلغ طور الرجولة تبين أنّ الفتاة لا تصلح زوجة له فماذا عليه إذا تركها؟!

وصمّ حسين على أن يشقّ طريقه إلى هدفه فقال بهدوء مخاطبًا أخته: - تكلمي عن الفتاة برفق من فضلك فقد تصبح خطيبة أخيك الأخرى وحملت فيه العين بدھشة. ونذت عن نفيسة آهة سريعة، وتساءل حسين: - ماذا تقول؟ فقال حسين وهو يتغلب على ارتباك بقاء إرادته: - يجوز أن تصبح خطيبة لي... - لك أنت! - لي أنا... وهتفت نفيسة: - كلام لا يدخل المخ!

- ولكنّه الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان. وسألته الأم وهي تتفرّس في وجهه: - هل خطبتها حقًا؟ فقال الشاب خافضًا عينيه: - نعم، قلت له إنه يسرّي إذا وافق على أن أطلب إليه يد الفتاة... فساءله حسين بقلق: - أفعلت هذا رغبة في إصلاح الأمور؟ فتردّد حسين قليلًا ثم قال:

سنخسر الاثنين، وهذه إصابة عين حامية. . .

وتتمت الأم بهدوء:

- على بركة الله، إني مطمئنة إلى أن أبنائي لن ينسوني. . .

فقال لها نفيسة:

- ما أجهلك بالزواج وأسراره، سليلي أنا عليه.

ضحك حسنين قائلاً:

- أمنا أعرف بنا منك. . .

وساد الصمت فراح حسنين يتساءل في نفسه وهو يسترق النظر إلى أخيه: ترى أكانت خطبته بنت ساعتهما حقاً؟!

- ٨٢ -

«ربما كان الانتظار حكمة، ولكن ماذا يجدي الانتظار إذا طار الطائر؟!» هكذا تساءل حسنين فيما يشبه الغضب، وبعد انقضاء قرابة شهر لم ين فيه عن التفكير والتدبر ساعة واحدة. قالوا له - خاصة حسين - إنه ينبغي أن ينتظر حتى يكون ثروة صغيرة ثم يتقدم لطلب يد الفتاة، وليكن رأيهم صواباً، ولكن من ضمن له أن تنتظره الفتاة حتى تتكون هذه الثروة؟ وما شجعه على نبذ هذا الرأي «الحكيم» أن أحد بك يسري على علو مقامه قريب إليه بحكم العلاقات القديمة، فطمع في أن يوسع له صدره. أما إذا أفلتت من يده الفرصة السعيدة فليس لديه إلا أن ينتظر أعواماً طويلاً قبل أن تفتح له الأبواب أسرة كهذه. ألا يمكن أن يطلب يد الفتاة ثم يستمهل البك حتى يستكمل استعداداه؟. . . يمكن بلا ريب، وإذا لم يكن فإن احتمال الرفض لا يجب أن يقعه عن المسعى، إنه أجراً من أن يقعه شيء عن غاية، ثم إنه لا يطيق هذه الفضيلة التي يدعونها بالصبر. الآن، ودون خوف أو تردد، وليكن ما يكون. كان الشاب يدير هذه الأفكار في رأسه وهو يقترب من فيلاً أحمد بك يسري بشارع طاهر. صمم وشرع في التنفيذ بلا مبالاة. هذه هي الحياة التي يتلهف عليها بكل قوة نفسه. وليس ثمة ما يزعجه فقد اختفى حسن وصارت نفيسة آنسة محترمة والماضي في طور الاحتضار، وما يريد إلا الحياة

النظيفة السعيدة لنفسه وذويه. وكان قد أخذ زيتته وتبدى في منظر حسن يجمع إلى رشاقة الشباب فحولة الرجولة. وما انتهى إلى الفيلاً حتى أدخل إلى السلامك فجلس ينتظر بقلب خافق ونفسه قلقة، «ليس عجيباً أن أتقدم لطلب يد فتاة هذه فيلتها وأنا لا أملك إلا ما تبقى من مرتبي! وهناك قضية الوقف الوهمية التي حدثت البك عنها ولكن هيهات أن تغني عني شيئاً. لماذا لم يكن لأمي وقف؟ ولكن هذه مسألة أخرى، فلو كنا من أصحاب الوقف لكان الماضي غير الماضي والحاضر غير الحاضر، ليكن ما يكون، لن أراجع، ومهما يكن من أمر فلن يقطع رأسي، إذا ربحت ربحت الدنيا جميعاً وإذا خسرت لم أخسر شيئاً يذكر. إني آسف يا بني، سلام عليكم يا سعادة البك، هذا أظن ما يتوقع. إني كف لها بغير جدال. ما عسى أن تريد مما ليس لدي؟ المال؟ عندها المال بالانتظار. ما أحقكم يا أهل هذا البيت إذا رفضتم يدي! في هذا الموضع رأيتها أول مرة على دراجتها، ساق تستاهل ثقلها ذهباً وفخذ سبحان الخالق. مسكينة نفيسة. ترى أين حسن الآن؟ ليته يفر إلى بلد غريب فيختفي إلى الأبد. لا تكاد ذكره المزعجة تفارقي فمتى أرتاح من الماضي كله. لن أراجع. في هذا الموضع كادت تهوي بها الدراجة. أقدام البك؟» وأنصت في اهتمام ثم نهض قائماً في احترام حين رأى البك قادماً نحوه وسلم في إجلال والآخر يقول:

- أهلاً بحضرة الضابط، كيف حالك؟

وأجاب الشاب وهو يبذل أقصى جهده للسيطرة على انتباهه وإرادته:

- شكراً لك يا سعادة البك.

وتساءل البك ضاحكاً بلهجة ذات معنى:

- ألا يزال أخوك في طنطا!

ورحب حسنين بأي حديث يطيل له مهلة الاستعداد فقال باهتمام ظاهري:

- بلى يا سيدي!

وكانا قد اطمأنّا إلى مجلسيهما فقال البك:

- ليس في الإمكان نقله هذه العطلة ولكني أخذت



المحارب المحرج بهدنة آمنة وقال:  
- هذا طبيعي يا سعادة البك ولكني أرجو حقاً ألا  
أكون قد جاوزت حدّي .

فابتسم البك قائلاً:

- لا تُعذّ على مسمعي هذا القول .

ونفض الشاب مستأذناً في الانصراف ثم غادر  
الفيلا . واستعاد في الطريق كلّ كلمة قيلت وما  
صاحبها من حركات وإشارات ولمحات . وحاول أن  
يستشفّ ما وراءها من معانٍ ومقاصد ، ومع أنّه كان  
يؤوّل كلّ شيء بخيال جريء طموح متفائل إلا أنّه  
وجد انقباضاً وقلقلًا ، وفي النهاية قال لنفسه وهو يهزّ  
كتفيه استهانة: «إذا رحبت رحبت الدنيا جميعاً وإذا  
خسرت لم أخسر شيئاً يذكر» .

- ٨٣ -

لم يفكر حسين في معاودة زيارة فريد أفندي حتّى  
أوفت إجازته على نهايتها ، كأنما أراد أن يحدّ للرجل في  
مهلة تفكيره حتّى يستخلص منه رأياً قاطعاً . ولم يكن  
يكفّ في أثناء ذلك عن مشاورة والدته ، ولم تبد المرأة  
اعتراضاً ولكنّها نصحته أن يؤجّل زواجه عاماً حتّى  
يستكمل استعداداه . ومن عجب أنّها لم تفلح في إسداء  
مثل هذه النصيحة للشاب الآخر المتعجّل ولكنّ حسين  
نفسه لم يكن ليوافق أخاه على تعجّله الذي وصفه  
«بالتهور» ولم يخفّ عليه أنّه إذا وُفقّ حسين إلى هذه  
الزيجة الخياليّة ، وتمّ زواجه هو بعد عام ، فستجد أمّه  
وأخته نفسيهما وحيدتين بلا عائل ، ولهذا طمأن والدته  
إلى أنّه مصمّم أن يضمّ زوجته إلى البيت في كنف  
معيشة واحدة ، واطمأن قلبه وفكره فمضى إلى بيت  
فريد أفندي ، واستقبله الرجل بترحاب أنعش أماله ،  
ومع أنّه لم يكن للزيارة إلا معنى واحد لا يخفى على  
أحد إلا أنّه خاطب الرجل قائلاً في شيء من الارتباك:  
- جئت أستودعكم الله قبل عودتي إلى طنطا  
غداً . . .

فابتسم فريد أفندي ابتسامته الرقيقة وقال:

- مع سلامة الله ، وإن شاء الله نسعى قريباً عن

نقلك إلى القاهرة . . .

وعداً صادقاً بنقله في العطلة القادمة . . .

وكان حسين يعلم بهذا ولكنّه قال بامتنان:

- هذه مائدة جديدة تضاف إلى مائتك السابقة .

وساد صمت ، وشعر الشاب بأنّه يقتحم لحظة رهيبة  
من حياته ، وأنّه لم يعد وراءه ثمة مجال لتردّد أو  
تراجع ، فألقى بعزمه قائلاً بصوت لم يخل من  
اضطراب في نبراته:

- الواقع أنّي قصدتك يا بك في شأن يخصني أنا . . .

فرفع إليه الرجل عينيه متسائلاً:

- خير إن شاء الله؟ . . .

فاعتدل الشاب في جلسته كأنّه يستمدّ من اعتداله  
قوة وقال:

- إنّي أستشفّع بسعادتك لغاية بعيدة أراها فوق

مطمحي .

فتساءل البك مبتسماً وهو يدلّل بأصابعه شاربه  
الغليظ المصبوغ:

- أتريد أن ترقى لواء؟

فضحك الشاب ضحكة عصبية سرعان ما غاضت  
من أساريه وقال بصوت منخفض:

- أعزّ من هذا . إنّي طامح إلى شرف

مصاهرتك . . .

وحلّ اهتمام مفاجئ محلّ النظرة الباسمة ، وخيل  
إليه أنّ الرجل استحوذت عليه دهشة رغم ما يتظاهر  
به من الرزانة وضبط النفس ، ولكن آية دهشة يا  
ترى؟ دهشة المفاجأة أم الانزعاج؟ ودقّ قلبه بقوة  
وشعر شعوراً عميقاً بخطورة اللحظة التي يكابدها . أمّا  
الرجل فقال بعد صمت وتفكير:

- لا يسعني إلا أن أشكر لك حسن ظنك . . .

وتأثّر للقول الرقيق تأثراً لم يخل من ألم غامض وقال  
بتوكيد:

- أرجو ألا أكون قد جاوزت حدّي . . .

فقال البك مبتسماً:

- حاشا الله . إنّي أكرّر الشكر بيد أنّي أوّجّل

الجواب حتّى أشاور أصحاب الشأن .

فارتاح حسين لهذه المهلة التي رحّب بها ترحيب

فقال حسين برجاء:

- أرجو أن يتم هذا في العطلة القادمة. . .

وسأل نفسه ترى هل يفتح «الموضوع» أو ينتظر حتى يتكلم الرجل؟ . . لقد شاور أمه في الأمر كأنه أصبح حقيقة مفروغاً منها، ومع هذا فمن يعلم بما دار في نفوس أهل هذا البيت؟! وساوره قلق، أخذ يزايد كلما طال انتظاره للكلمة التي يؤد سماعها، حتى جاءت الست أم بهية فنهض لاستقبالها في أدب وشد على يدها في حرارة، وتفاعل بمقدمها خيراً. وقد قالت وهما يجلسان:

- إني سعيدة برؤيتك يا بني، كيف حال والدتك؟

فقال حسين بحرارة:

- بخير يا سيدي. وهي تفرئك السلام.

ثم نظر فريد أفندي إلى زوجه وقال لها:

- حسين أفندي جاء يؤدنا لأنه مسافر غداً وأظن من المناسب أن نخبره بما قر الرأي عليه (ثم محولاً رأسه إلى الشاب) بخصوص ما حدثني عنه يا حسين أفندي يسرني أن أقول لك «إننا» موافقون.

وتتبع فؤاده كلام الرجل في خفقان متواصل، استحال ألماً خالصاً عند بعض المقاطع، ثم انتهى بوثبة فرح فقال بصوت متهدج:

- شكراً لك يا سيدي ألف شكر، إني سعيد حقاً.

فابتسم الرجل وقال مخاطباً زوجه:

- وسينقل إلى القاهرة في العطلة القادمة.

فضحكت المرأة قائلة:

- خير سار، نحن نود بطبيعة الحال «أن تكونوا» على مقربة منا.

فتورد وجه الشاب وقال بصوت وشى بسروره:

- سيتحقق هذا بإذن الله.

ثم قال فريد أفندي:

- ولكن يحسن بنا أن ننظر فترة معقولة قبل إعلان الخطبة.

ثم ضحك ضحكة لم تخل من الارتباك واستطرد قائلاً:

- حتى ينقضي وقت مناسب بين الخطبتين.

فخفف حسين عينيه وهو يتمتم:

- إني رهن إشارتكم.

وقام فريد أفندي وغادر الحجرة، وغاب دقائق، ثم عاد تتبعه بهية. ومع أن حسين حدس الأمر إلا أنه وقع من نفسه موقع المفاجأة البكر فنهض باذلاً مكنون قوته لتمالك نفسه. ثم مد لها يده في صمت، فتلاقت يداهما، وشعر بيدها على يده ناعمة الملمس رقيقة الموقع، باردة الملمس، فاهتز صدره ودر رقة وشكراً. وشعر بأنه ينبغي أن يقول كلمة، وألح عليه هذا الشعور، ولكنّه وجد رأسه فارغاً، ولم يسمعفه الموقف بالتفكير فجلس دون أن ينبس بكلمة. وسرعان ما تناسى مشاعر الأسف المنبعثة من خرسه في موجة السرور والرضا التي غمرت حواسه جميعاً فنزلت عليه سكونية لطيفة أشبه بالشفاء الذي يعقب نوبة ألم. ما أجملها! كيف يعنى بعض الناس عن هذه المزايا المكتملة؟! إنها الوداعة والفضيلة اللتان ترويان الخنان الظامئ إلى حياة البيت السعيد. لا تثير استفزازاً من أي نوع كان ولكنها تبث سلاماً وطمانينة. لماذا جاء أبوها؟ ليس لهذا إلا معنى سعيد واحد، قال إننا موافقون ثم جاء ببقية «إننا» شاهداً ملموساً بوده لو يسعه أن يستخبر أفكارها هل أفاقت من الصدمة؟ هل برئ الفؤاد؟ أبدت حقاً تستشعر ميلاً إليه؟ ولم يتركه الوالدان لتأملاته فعاودا حديثهما الذي بدا الآن تافهاً متطفلاً. ألا يمكن أن تحدث معجزة فينادرا الحجرة؟ وقد التقت عيناه بعينيها مرة فتاه في صفاء وزرقة لحظة بهيجة. عنده ما يقوله ولديها ما يقال بلا ريب. ومهما يكن من أمر فالآيام آتية، وسيفصح عما في ضميره، عن كل كبيرة وصغيرة. وفي أوقات ما بين الحديث كان يتجعم في إحساس رقيق سعيد أفعنه بأن في الدنيا سروراً خليقاً بأن يُكفر عن جميع أكارها. سرور يقطر صفاء. ليدم طويلاً، لتدم هذه الجلسة، هذه الحال، هذا المنظر، هذا الإحساس، ليدم عمراً، ليشمل الحياة جميعاً. .

وتواصل الحديث ولكنها لم تشترك فيه اللهم إلا بإيماء أو غمغمة، حتى وجب الذهاب فنهض

الإخوان بما أغصبني وساءني.  
فحملق حسنين في وجهه بدهشة. كان يتوقع أي شيء إلا هذا. وتساءل في استنكار:  
- ماذا قال؟

فقال عليّ البرديسي بوجوم:  
- كُنا، أنا وبعض الأصدقاء، نلعب الورق في بيته بالمعادي.

- وبعد؟  
- لا أذكر المناسبة التي أثارَت الحديث. كُنا سكارى. ولكنّي سمعته يخوض في أمور تمسك. خبّرني أولاً هل سعت حقاً إلى طلب يد كريمة رجل يدعى أحمد بك يسري؟

وفجّر الاسم زلزالاً في صدر الشاب فدق قلبه دقة عنيفة، وذكر لتوه أنّ أحمد رأفت هذا على صلة وثيقة ببعض أقارب أحمد بك يسري. وبذل جهداً صادقاً ليتالك أعصابه، ثم قال باقتضاب وهو يكابد شعوراً غليظاً بالتشاؤم والخوف:  
- ربّما...

- أتعلم أنّ أحمد رأفت صديق لهذه الأسرة؟  
- هذا جائز، ولكن خبّرني ماذا قال؟  
فصمت البرديسي كالتردد حيناً ثم تتم بصوت منخفض والخرج بإد في أساريه:  
- فهمت من حديثه أنّ الأسرة لم توافق. يؤسفني أن أبليغك هذا...

وشعر بالخير يضغطه كحمل ثقیل فتضاءل تحته وأحسّ بانهايار في كرامته ورجولته. ثمّ فار غضبه حتّى أوشك أن يستسلم لنيرانه ولكنّه ثار على الاستسلام في اللحظة الأخيرة، وأبى إلا أن يتظاهر بعدم الاكتراث، بل نذت عنه ضحكة وتساءل:

- ألهذا ما أساءك يا صديقي؟  
فقال الصديق بوجوم وقلق:  
- هذا أمر عاديّ، يحدث كلّ يوم، ولكنّه ذكر في

غير لياقة الأسباب التي تبرّر عدم موافقة الأسرة، ومع أنّها أسباب تافهة لا يمكن أن تحطّ من قدر إنسان إلا أنّه ساءني جدّاً أن يرّدّها في جمع حافل من السكارى.

مستأذناً، وسلّم عليها، وغادر التفتّه وهو يشعر لأوّل مرّة بأنّه مقبل من حياته على وقت حصاد...

- ٨٤ -

وسافر حسين، وانقضت أيّام من فترة الانتظار التي دعاها حسنين بمدة «تحت الاختبار». والتي عاناها في تجلّد اضطراريّ والأمل واليأس يتجاذبان. وقد أسف على سفر أخيه لأنّه كان يفضل بلا شك أن يتلقّى ردّ أحمد بك يسري وهو غير بعيد عن مشورته، كان في الحقيقة يأنس إلى مشاورته وإن غلب عليه الاستبداد برأيه والاندفاع وراءه؛ على أنّ إقدام حسين على الشروع في الزواج كان قد ترك في صدره راحة لأنّه كان في أعماقه متعباً لسبقه إلى استكمال حياته بالزواج والآخر منزو تحت الأعداء كأنّه محروم من الانتفاع بحياته. ولا يعني هذا أنّه لم يكن مشغولاً بمستقبل أسرته فالحقّ أنّه كان يرجو من وراء زيجته النفيسة خيراً كبيراً لنفسه ولأسرته على السيّء. هكذا سوّى متاعبه الداخلية بهذا المنطق ليفرغ لملاقاة حظّه بقلب مطمئنّ. وإنّه لعلّى تلك الحال إذ دعاه أحد الأصدقاء من زملائه إلى موافاته إلى كازينو لونابارك بمصر الجديدة، وكان هذا الصديق - ويدعى عليّ البرديسي - أقرب زملائه مودة إلى قلبه، نشأت صداقتها وتوثقت بالكلّيّة، ثمّ حافظت على حرارتها رغم تعيينه هو بسلاح الفرسان والتحاق الآخر بالطيران، ومضى إلى مواعده فوجده في انتظاره، وجلسا معاً في حديقة الكازينو، ثمّ طلب الصديق قدحين من الجعة. وأدرك حسنين من اللحظة الأولى أنّ صاحبه قد دعاه لأمر، لأنّه على غير عادته - وبالرغم من مرحة الظاهر - بدا جاداً متفكّراً، وما لبث أن سألّه:

- أتذكر الملازم أحمد رأفت؟

فقال حسنين بعدم اكتراث:

- طبعاً، إنّه من دفعتنا، وأظنّه ضابطاً بالطوبجيّة، أليس كذلك؟...

فأومأ الصديق دلالة على الموافقة وقال بضيق ومرارة:

- سمعته بالأمس يتحدّث عنك في جمع من

فهزُ حسنين رأسه في حرارة وردد قول صاحبه في  
سخرية اليمة:  
- .. إن الفقر ليس جريمة! .. بديع! .. وماذا  
قال أيضًا؟  
- لا شيء.  
- حسبه! أخ قاطع طريق وأخت خد.. عاملة،  
هه؟ ويريد بعد هذا أن يتزوج من كريمة سك قد  
الدنيا!

قال البرديسي:  
- اعتقد أن حسن الخيار قد أخطأك في التقدّم من  
هذه الأسرة العيابة.  
فاتبسم حسنين ابتسامة مريضة وتمتم:  
- صدقت ...

ثم راح يقول لنفسه «إني غائص في الطين حتّى قَمّة  
رأسي، ليس لهذه الحال من علاج إلّا أن أدقّ عنق هذا  
الاحمد رأفت. ولكن هل يغيّر هذا من الواقع شيئاً؟  
كلّا إنّه دفاع غير مجدٍ بيد أنّه لا يجوز أن تغيب عني  
حقيقة هامّة وهي أنّ اللكمة القويّة تستطيع أن تنتزع  
الاحترام انتزاعاً وتفرضه فرضاً. إني قادر على هذا  
والحمد لله فلا تنقصني الشجاعة أو القوة. كان حسن  
أحقرنا شأنًا ولكنّه كان على ذلك أعظمنا احترامًا. هذا  
درس بنتفع به». ثمّ سمع صديقه يقول في عزاء:  
- لا تكثر أكثر ممّا ينبغي.

فقال وهو يهز منكميه متظاهراً بالاستهانة:  
- نصيحة معقولة. ليس في أسرتنا ما يشين. كنّا  
أغنياء في يوم ما ثمّ دهمتنا أيام شداد فلاقيناها بشجاعة  
حتّى تغلبنا عليها. ليس في هذا ما يشين.  
- بل فيه من دواعي الفخار ما فيه.  
فضرب الأرض فجأة بقدمه وقال مستعر العينين من  
الغضب:

- ولكنّي أعرف كيف أوذب من تحدّثه نفسه  
بإهانتي.  
- هذا حتّى لا شكّ فيه.

وساد صمت مرهق بالتعب والألم فلم يجد البرديسي  
خيرًا من أن يطلب قدحين آخرين من الجعة، ثمّ تمتم

كان يشعر دائمًا بأنّ مطرقة ثقيلة من ماضيه معلقة  
فوق رأسه تهدّده في كلّ حين، وها هي قد أهوت على  
يافوخته ونثرته هشيئًا. ليس الأمر بحاجة إلى إيضاح أو  
سؤال، ولكن أمن الممكن حقًا أن يتجاهل كلّ شيء؟! رفع  
بصره إلى وجه صديقه الواجم وسأله بلهجة  
آليّة:  
- خبرني عمّا قال.

فعبس الشاب في ضيق وتبرّم ثمّ استطرد:  
- إنّه حقيق بالإهمال ولكن من الإنصاف أن تعلم  
بما يقال عنك ولست في حاجة لأن أقول لك إني  
غضبت لك غضبة صادقة ألحمت السنة الهاذين...  
إذن اتّخذوا منه مائة هذيانهم! وأيّ مائة! كان  
ينبغي أن يفكر في هذا كلّ يوم أقدم على تلك الخطبة  
المشثومة. وابتسم إلى صديقه ابتسامة باهتة وقال:  
- لا يخالجي شكّ في شهادتك. إني أقدر إخلاصك  
حقّ قدره، ولكن أرجو أن تعيد على مسمعي كلّ كلمة  
قيلت. كلمة كلمة.  
وبدا الشاب متأنّفًا، واكتفى بأن يقول في امتعاض  
شديد:

- قال كلامًا كثيرًا عن أخ لك.. حتّى قلت له محتدًا  
إني أعرف قاطع طريق في بلدتنا أحوه وزير في القاهرة!  
فامتقع وجه حسنين، وتأدّى لدفاع صاحبه كأنّه  
يسمع التهمة نفسها، بيد أنّه ضحك في يأس وقال:  
- العادة أنّ عين الرضا لا ترى إلّا الوزير أمّا عين  
الغضب... ما علينا، وماذا أيضًا؟

فقال الشاب في تهرّب:  
- وكلام سخيف من هذا القبيل.  
ولكنّ حسنين هتف به في ضيق غلبه على أمره  
فجأة:

- أرجوك، أرجوك، لا تخفي عني شيئًا...  
فقال الشاب عابسًا من التحدّج:  
- أكره أن أخوض في الحرمات.  
- أختي؟!!

- قال إنّها كانت تعمل لترتّق؟ وقلت له غاضبًا إنّ  
العمل الشريف لا يعيب أحدًا وإنّ الفقر ليس جريمة.

مبتسماً:

- ستجد إذا شئت من هي خير منها. . .

فقال حسنين باستهانة:

- أوه، البنات في البلد أكثر من الهواء وأرخص من

التراب!

وعلى من الجعة في ظمأ، وشغل الصديق بقدحه أيضاً فعاد الصمت. «آه لو كان في وسع الإنسان أن يخلق حياته من جديد، فيولد في أسرة جديدة، وينشئ ماضياً جديداً. ولكن ما بالي أعذب نفسي بالأمان الكاذبة. هذا أنا، وهذه حياتي، ولن أسمح بأن أتخطم. لم تنته المعركة بعد!». - ٨٥ -

ولما غادر الكازينو مودعاً من صديقه كانت الصدمة والجعة تكادان تذهبان بعقله. وكان ينبغي أن ينفس عن صدره قبل كل شيء ومهما كلفه الأمر بيد أنه استسخر فكرة مواجهة الضابط أحمد رافت وأغراه شعوره المنطوي على التحدي والغضب بما هو أجل وأخطر. «إن غضبي على هذا الشاب المغرور غير عادل. لقد سمع قولاً بذنباً فردده. ليس لي عليه حق ولا أستطيع الزعم بأننا كنا أصدقاء. إذا سنحت فرصة للتحرش به في المستقبل فلن أدعها تفلت بسلام، ولكن لندع تأديبه حتى سنوح هذه الفرصة. هديني الحقيقي هو البك نفسه ذو الشارب المصبوغ. سأقول له إن أقل ما يستحقه رجل تقدم لطلب كرميتك هو أن تحافظ على كرامته خصوصاً إذا كان ابن صديق قديم، إذا تنصل من التهمة قذفته بالدليل القاطع وقلت له إن الفقر ليس بعيب بخلاف التشجيع على الناس فهو عيب حقير. إذا غضب ولا بد أن يغضب كما يحتم مركزه الكبير فلن أقصد في إظهار غضبي حتى أفرغ بخار صدري المكتوم.» وبهذا الشعور المتفجر وما ينبثق حوله من إشعاعات الجعة ألقى بنفسه في أول ترام صادفه فحملة إلى ميدان المحطة، ثم استقل الترام إلى شارع طاهر، وعندما تراءت له فيلاً أحمد بك يسري تناقلت قدماء كآته يمهل نفسه لمعاودة التفكير. وترددت في أعماقه هواتف تهيب به إلى التراجع ولكنها ذابت في

تيار الحمى المستعر في رأسه فدفع إلى الفيلا دفعا حتى وجد نفسه حيال البواب الذي وقف له احتراماً. وشق طريقه إلى الداخل دون استئذان وهو يشعر بغرابة سلوكه وسخافته ولكن دون أن ينشئ. كانت الشمس قد مالت نحو الأفق فلاحت شجيرات الورد والشيخ الناعسة في ظل المغيب، وارتسمت على أرض المشي الوسيط آثار عجلات السيارة في هيئة خطين عريضين منحنيين، فأعجبه نحو السلامك، تشي نظرة الحيرة والتردد التي تنتاب تصميمه من حين إلى حين بأنه لم يقتنع كل الاقتناع بوجاهة البواغث التي تدفعه إلى هذا التحدي. ومع هذا ارتقى السلم بسرعة غير متوقعة، وما كاد يبلغ الفراندا حتى وقف متمسكاً تحت صدمة دهشة مفاجئة لم تدر له بخاطر في هذيانه الطويل المتصل. رأى الفتاة - نفسها - جالسة على كرسي كبير وقد رفعت رأسها عن كتاب أو نحوه وتطلعت إلى القادم بعينين متسائلتين. وثبت عيناه عليها في جمود ذاهل وقد صعد صدره من الأعياق إحساس بالخزي أذابه ذوباناً. ثم أدرك أنه حيال موقف لو استسلم فيه لضعفه لباء بخزي جديد فاق ما تعرض له من ألوان الإهانة، فاستمد قوة جديدة من خوفه مصمماً على الخروج من ورطته بكرامة واستهانة. وأفاده التصميم فتمالك نفسه، وحنى رأسه باحترام وقال مبتسماً في لطف:

- مساء الخير يا آنسة. معذرة عن إزعاجي غير

المقصود لك. هل أستطيع أن أقابل البك؟

فقال برقة - وكان يسمع صوتها لأول مرة - دون

أن يعتورها أدنى ارتباك:

- والذي معتكف اليوم لوعكة خفيفة.

وحنى رأسه مرة أخرى، ولعله وجد ارتياحاً إلى هذا

الخلاص الذي جاء من حيث لا ينتظر، وقال وهو يهيم

بالذهاب:

- أستودعك الله. . .

ودار على عقبه وسار خطوة، وخطةوة أخرى، ثم

توقف في تصميم مباغت. اختفى منطق السلام وحل

عله غضب واستهتار وتلبسته الحال الغريبة التي دفعته

- كنت أودّ أن أسمع رأيك، ولكن حسبي هذا،  
إني آسف، وأرجو أن ترفعي تحيائي إلى البك.  
ودار على عقبيه مسرعًا وهبط السلم ثم سار نحو  
الباب. ومَرّت بخاطره مناظر متباعدة في سرعة  
وتدفّق. كموقفه مع بهيّة في بيتهم الجديد، وحديث  
البرديسي في الكازينو. وهذا الحديث القريب «لست  
عاشقًا خائبًا والحمد لله. كنت على وشك أن أكونه  
ولكن الله سلّم. بيد أنني رجل خائب وهذا أفظع.  
أحبّ أن أفكر طويلًا في هذه الأمور المعقّدة. إني أشعر  
بمرض من نوع جديد، أين الداء؟ أين الخطأ؟ أين  
العلاج؟»  
ولمّا خلس إلى الطريق كان مقتنعًا بأنّه ارتكب  
سخافة لا معنى لها.

#### - ٨٦ -

قالت الأمّ مبتسمة وإن نمت نظرة عينها عن أسي:  
- من عجب أنك ترمي بنفسك في أمور خطيرة دون  
أن تأخذ العدة لها. هبهم وافقوا على الزواج فماذا كنت  
تفعل؟ ألم تفكر في هذا؟ ألم نحذرك جميعًا من عواقبه؟  
كان قد مضى على حديث صاحبه البرديسي حوالي  
عشرة أيام ومع هذا لم تغب هذه المسألة عن أذهانهم،  
وكانوا كلّما جمعتهم جلسة في الشرفة المطلّة على الطريق  
في أوقات العصارى ولاح في وجهه الشرود أو التفكير  
انبرت الأمّ للحديث ترجو أن تبلغ به موضع التعرّي  
من قلبه وانضمت إليها نفيسة مازجة الجذّ بالمزاح.

وقال حسنين في ضجر:

- لا يبدو لي الغد خيرًا من اليوم.

فقالت نفيسة:

- كلام فارغ.

وصدّقت الأمّ على كلامها قائلة:

- وستبدي لك الأيام أنّه كلام فارغ، وستتزوج من  
خير منها...

وتساءل في نفسه لماذا يبدو المتشائم الوحيد في هذه  
الأسرة؟ أهى أسرة بلهاء أم هو الأبله؟ أليس الدور  
الذي يلعبه الشيطان في هذه الدنيا أخطر من أدوار  
الملائكة مجتمعين؟ بلى، فلماذا لا يروونه كذلك! ولقد

من مصر الجديدة إلى شبرا.  
ودار حول نفسه مرّة أخرى وواجه الفتاة في جراحة  
غير مبالٍ بنظرها المترفعة المتسائلة ثمّ قال بصوت أعلى  
ثمّ يستدعي الموقف:  
- معذرة، تعرّ عليّ أن أودّع هذا البيت الوداع  
الأخير دون أن أعرب عن أفكاري.  
فظلّت على تساؤلها الصامت دون أن تنبس بكلمة  
فاستطرد متسائلًا:

- أظنّ بلغك أنني طلبت يدك؟

فقال وهي تغصّ بصرها:

- لم تحجر العادة بأنّ يحذني أحد من زوّار أبي.

فقال فيها يشبه الدهشة:

- ظننتها عادة غير مستنكرة في الأوساط الراقية!

- ليس في جميع الأحوال.

فتبادى في الاستهانة قائلاً:

- اسمحي لي أن أنكلم رغم هذا، إنني قصدت  
البك لمحدثته في الأمر نفسه لأنّه غما إني أنّ طلبي عدّ  
وقاحة لا تغتفر.

فقال دون أن ترفع بصرها:

- يحسن بك أن تؤجّل حديثك حين لقاء البك.

فقال وعيناه لا تتحوّلان عن وجهها:

- ولكن ما يسعدني به الحظّ من لقائك - وأنت  
صاحبة الشأن الأوّل - يحتمّ عليّ أن أنكلم، بهمني أن  
أعرف رأيك، هل يعدّ طلبي وقاحة حقًا؟

فقال بما ينمّ عن الضجر:

- أرجو أن تؤجّل حديثك لحينه.

ومع أنّ ضجرها كان شيئًا منتظرًا إلّا أنّه آله وأحنقه  
فقال:

- إنّ الذي يسعى إلى يد فتاة يتقدّم عادة بخير ما  
فيه ولكن يحدث أحيانًا لسوء الحظّ ألا يروا إلّا شرّ ما  
فيه، كبعض مساوئ تتعلّق بأسرته مثلاً.

فنهضت قائمة عابسة، وهي تقول:

- لا مفرّ من الدهاب.

وانجذبت نحو مدخل البهو فلاحقها بصوت مرتفع  
قائلاً:

معهما حتّى السيّارة وأعطى الرجل النقود وصرفه  
مستبقياً الآخر، ثمّ سأله في اضطراب وجزع:

- ماذا حدث؟

فقال الرجل:

- سي حسن أخي وصديقي، ولعلّك تعلم أنّه كان  
هارباً من وجه البوليس فانتهاز بعض أعدائه هذه  
الفرصة وترئصوا له في بعض الأماكن التي يقطنها  
مستخفياً وانقضّوا عليه غدراً وسلبوه ماله ولاذوا  
بالفرار، وقد تحامل المسكين على نفسه حتّى بلغ  
مسكني ورجاني أن أذهب به إلى أهله فأخذنا التاكسي  
إلى عطقة نصرالله حيث أخبرنا الجيران أنّكم انتقلتم  
إلى هذا البيت فجننا من تونا.

وكان حسنين يصغي إلى الرجل في شبه ذهول،  
ومع أنّ إحساسات شقّ تعاونت قلبه إلّا أنّ إحساس  
الخوف والقلق غلبها جميعاً، ولمّا انتهى الرجل من  
حكايته غمغم الشاب:

- شكراً لك يا سيّدي على مروءتك، هلاً تفضّلت  
بالبقاء ساعة حتّى تستريح...

ولكن الرجل رفع يده إلى رأسه شاكراً وقال:

- إنّّي ذاهب في الحال، ولي كلمة قبل الذهاب وهي  
أنّه يجب الإسراع إلى علاج الجرح الخطير ولكن حذار  
من استدعاء الإسعاف أو حمله إلى القصر وإلّا أذى  
الأمر إلى التحقيق ثمّ إلى البوليس؟

وحياه الرجل ومضى إلى حال سبيله، فعاد الشاب  
إلى الحجرة كمن يشقّ سبيله في ظلمة حالكة والأرض  
تميد به. ووجد أخاه كما تركه راقداً وكأنّه اطمأنّ إلى  
الجوّ الجديد فأسلم إلى غيبوبة تامّة، وانكبّت عليه  
المرأتان في جزع بادٍ، ولمّا أحسّتا بالقادم تطلّعتا إليه  
بنظرة استغاثة. ورنا إلى الراقد طويلاً ثمّ تساءل  
بصوت غريب:

- ألم يتكلّم؟

فقال الأم وهي تزدد ريقها الجاف:

- غمغم كلمات لا تعني شيئاً ثمّ راح في غيبوبة.

أغثنا بدكتور.

ولكنّ الجريح حرّك يده بجهد، وبدا كأنّه يستطيع

أرسل إلى حسين كتاباً بآخر أنباء زواجه فماذا كان  
جوابه؟ لم يكذّر يزيد شيئاً عمّا تقول أمّه أو أخته! أماتوا  
وهم أحياء؟ ألم تعدّ تستهويهم الحياة الرفيعة الشريفة؟!  
وقطع عليه أفكاره جرس الباب الخارجي الذي رنّ  
رنيناً متواصلاً، ثمّ صوت الخادم وهي تصبح بحالة  
مزعجة بعد أن فتحت الباب «سيّدي... سيّتي» فهرع  
إلى الصالة مستطلعاً تتبعه أمّه وأخته فرأى عند باب  
الشقة المفتوح رجّلين غريبين يسندان ثالثاً بينهما، جريماً  
فيما يبدو من عصابة قدرة تطوّق رأسه وتنزّ دماً، وقد  
مال عنقه إلى كتف أحد الرجلين. واقترب حسنين من  
القادمين مبهوراً منزعجاً لا يدرك شيئاً ولا يفهم شيئاً  
حتّى صار على قيد خطوات منهم وعيناه لا تتحوّلان عمّا  
انحسرت عنه العصابة من وجه الجريح. بشرة شاحبة  
تشوبها زرقة تثير من الأعماق ذكرى الموت، وتعلوها  
فوضى مخيفة من شعر نابت وآثار التهاب، ولكنّ  
العينين المغمضتين رمشتا في إعياء فلاحت خلال  
أهدابها نظرة واهنة غير غريبة سرعان ما انتقلت  
حركاتها الضعيفة إلى ذاكرته وانفجرت بها كالقنبلة.  
وقبل أن يتحرّك لسانه جاء صوت أمّه من الخلف  
مؤكّداً ما انفجر في رأسه هاتفاً في نبرات يمزّقها الخوف  
والإشفاق:

- حسن... هذا حسن...

فصاح حسنين مردّداً قول أمّه في ذهول:

- حسن...

وهنا قال الرجل الذي يسند عنقه بكتفه ويشارك مع  
الآخر في حمله:

- يجب أن ننيمه في الحال...

وتقدّم الشاب في ذهول منهم وانحنى فوق قدمي  
أخيه وبسط ذراعيه تحت ساقيه ورفعهما في رفق وساروا  
معاً متعاونين في حمله إلى حجرة نومه، وأناموه على  
الفرش في جزع لا يوصف. وفي الصالة أشار الرجل  
الذي تكلم أوّل مرّة - وكان يرتدي جلباباً وطاقية - إلى  
الآخر - الذي كان يتزيّأ بزّي الأفنديّة - وقال:

- لا مؤاخذه، هذا سائق التاكسي.

فأدرك حسنين أنّه يلتمح إلى أجرة التاكسي فصار

أن يغالب غيوبته عند الضرورة فقال بصوت باهت ضعيف تجرد من فحولته المعهودة:

- لا دكتور... الدكتور... يبلغ... البوليس.

والقى عليه نظرة متفحصة فرأى العصابة المخضبة بالدم تخفي رأسه وجبهته وجانباً من صفحتي وجهه فلا تبدو إلا عينا المقلتان بالإعياء والذبول وذقنه النابتة الشعر، وقد فغر فماً تتردد فيه أنفاس ثقيلة محشجة، على حين تمزق رباط رقبته وجيب الجاكيت وانتثرت خيوط الأزرار، وراحت يمناه تنقبض وتنسبط، ويثن بين آونة وأخرى. وقف حسين حيال هذا المنظر ذاهلاً فتناسى مخاوفه وتركز شعوره في إحساس عميق بالألم والإشفاق. نسي برهة كل شيء إلا أنه حيال أخيه الجريح، وأنه ينبغي إنقاذه بأي ثمن. ثم جعلت تطفو من أعماقه مشاعر خوف وقلق طالما طاردته في الأيام الأخيرة في هيئة نذر تنهد سمعته ومستقبله، فانقبض قلبه، وداخله ألم جارح لهذه المشاعر ذاتها من ناحية، ولتأنيب الضمير على إحساسه بها في مثل هذا الموقف من ناحية أخرى. وكأنه فرغ إلى الحرب من باطنه بالكلام فقال مخاطباً الجريح برقة:

- دعني أحضر طبيباً. حياتك أهم من أي شيء آخر.

وقالت الأم ونفيسة برجاء معاً:

- نعم يا حسن، دعنا نحضر الطبيب.

ولكنه رفع جفنيه الثقيلتين وقال نبراته المضغوطة المتعبة:

- كلاً، لا تخافوا. هذه ضربة تافهة...

ثم حاول أن يأخذ نفساً عميقاً واستراح لحظة، ثم استدرك قائلاً مغمض العينين:

- غدروا بي. الويل لهم. إن كان لي عمر فالويل لهم. ولكن لا تستدعوا طبيباً. الطبيب يبلغ البوليس...

فقال حسين وكان لا يزال فريسة للنزاع الناشب من باطنه:

- لا بد من إحضار طبيب، وليس عسيراً أن نقنعه بتكتم الخبر.

وتوسلت إليه الأم قائلة:

- ارحمني يا حسن واقبل هذا...

فنفخ الرجل مغمغماً في ضجر:

- ارحموني أنتم ودعوني في سلام... أف

وجعلت الأم تردد بصرها بينه وبين حسين ولكن الشاب كان من العناء في بلوى. برح الخفاء وتبين حقيقة مشاعره، فليس تألمه لأخيه بشيء يذكر إلى جانب الخوف الذي يلقي عليه ظلاً ثقيلاً من شبهه الجاثم. «قضي علينا، قلبي لا يكذبني على الأقل في الشر، قضي علينا في مصر الجديدة كما قضي علينا في شبرا وسيطاردنا البوليس جميعاً كالمجرمين. أكاد أرى بعيني رأسي المحموم الضابط وهو يفش الحجرات ويلقي القبض على المجرم الهارب. هل سدت منافذ الحياة؟! أتقول إنه أخي؟ أجل إنه أخي، ولكنّها حياتي التي تتحطم تحت قدميه في طريقه الوعرة. أف، لشذ ما ضاق صدري!» ثم سمع أمه وهي تهتف به في يأس:

- أغثني يا حسين! ألا ترى أنه يموت بين أيدينا!

«كلّا لن يموت، أما أنا فإني أموت موتاً بطيئاً قاسياً. إن كرامتي تحضر. وهبه مات حيث هو الآن فسيأتي طبيب للكشف عليه ثم يلحق به البوليس والنيابة ولن يكون لهم سبيل على الجثة ولكن ستفوح النتانة من البيت في هيئة فضيحة رائعة!» ثم حانت منه التفاتة إلى أمه وكانت تردد بين الراقد وبينه نظرة حائرة زائغة فزعاً، ومع أنها كانت مطبقة الفم إلا أنه سمع لنظرتها تلك صرخة مدوية تمزق نياط القلب. وعجب لنفسه فقد حقد عليها بادئ الأمر ثم خيل إليه أن ذكريات غامضة سريعة تطرق قلبه في لمح البصر فتخاذل وضعف وعاد يركز بصره في العصابة الملوثة بالدم، واسترد قوة تفكيره فخطر له خاطر باهر تتمم على أثره بلا وعي «كيف نسيت هذا؟!» ثم قال مخاطباً أمه في عجلة:

- سأحضر طبيباً صديقاً من مستشفى الجيش،

انتظري قليلاً فلن أغيب طويلاً.

وهرع إلى بدلته فلبسها متعجلاً وغادر البيت لا



يلوي على شيء...

- ٨٧ -

فلو أنه مات في أرض بعيدة.

ثم ثبت عينيه على الوجه الذي أخذ يختفي تحت الأربطة فسرت في جسده رعدة، وامتلاً يأساً وانقباضاً وأخيراً سمع الطبيب يخاطبه قائلاً:

- انتهيت من الممكن عمله الآن، هلمّ معي إلى الخارج...

وانتظر حتى غسل الرجل يديه وارتدى جاكته ثم سار بين يديه إلى حجرة الاستقبال ولم يجلس الرجل وبدأ متفكراً، ثم قال مهدوء غير منتظر:

- لا أظنّ الحال خطيرة جداً ولكنّه سيحتاج إلى علاج طويل. يا له من اعتداء وحشيّ، لماذا لا تبلغ البوليس؟

فقال حسنين بجزع وإن ردّه قول الطبيب إلى بعض رشاده:

- إني أنفادي من الفضيحة، ومهما يكن من أمر فنحن أسرة واحدة!...

فهزّ الطبيب رأسه فيما يشبه التذمّر ثم قال بشيء من الحزم:

- سأعود لرؤيته صباحاً فإذا وجدته على ما يرام فيها ولأنا فساجدي مضطراً للتبليغ.

وساوره القلق فقال برجاء وكأنّه يخاطب نفسه:

- أرجو ألا يحدث هذا.

ثم خاطب الطبيب قائلاً:

- إني أشكر لك ما تجسّمت من جهد وتعب.

وانّجه الرجل إلى الخارج فوصله إلى الباب الخارجي وهو يشدّ على يده بامتنان، ولم يشأ الطبيب أن يذهب قبل أن يكرّر على مسمعه قائلاً في تأكيد:

- سأعود صباحاً...

ووقف يتابعه بناظريه وهو يستقلّ سيارته حتى انطلقت به مزججة في طريقها فتنهّد كأنّه يزيح ثقلًا لا يتزعزع ثم عاد إلى الحجرة ينقل خطواته في كآبة، وما كاد يلج الباب حتى هرعته إليه أمّه وسألته في لهفة وجزع:

- ماذا قال الطبيب؟

وكره لهفتها وجزعها من أعماق صدره ولكنّه لم يجد

وقف حسنين مستنذاً إلى حافة النافذة يراقب الطبيب وهو مكبّ على عمله الدقيق وقد غادرت الأم والأخت الحجرة وليثا وراء الباب المغلق يكاد يسمع تردّد أنفاسهما. كان عابساً شديد التأثر، وتولاه الفزع، ثم أخذ يهدأ رويداً، ويغيب في أعماق نفسه. وكان قد أخبر الطبيب لدى مقابلته أنّ أخاه أصيب بجرح في رأسه عقب معركة مع أحد أفراد الأسرة ورجاه أن يسعفه مبدئياً له رغبته الحارّة في تكتم الخبر حتى لا تخدش كرامة الأسرة بفضيحة عامّة! ومضى الطبيب معه في تحفّظ، ولمّا أجرى الكشف الابتدائيّ على رأس الجريح قال:

- كسر عميق، إلى ما استنزف من دم غزير. لا أدري ما وجه الحكمة في عدم إبلاغ البوليس؟!

فقال حسنين بتوسّل:

- فلتتخاش هذا بأيّ ثمن!

فقال الطبيب وهو يتهيأ للعمل:

- الظاهر أنّك لا تدري خطورة الأمر!.. وعلى أيّ فلنؤجلّ هذا إلى حينه!

وتركه طوال العملية الجراحية غير مستقرّ ولا مطمئنّ، بل قضى حديثه الأخير على نوازع عطف كانت تتحرّك في أعماقه. كان في ذهابه إلى المستشفى وعودته بالطبيب مجال حسن هيأ له جوّاً طيّباً تنمو فيه إحساسات العطف وتزكو فنزعت به الذكريات إلى الأيام الخوالي التي كان حسن فيها المرفق الوحيد عن بأسائهم، واليد المبسوطة التي تجود فتحقق لهم الآمال. ولكن سرعان ما استثار القلق الخوف فتحجّر قلبه ونضب معين العطف ولم يعد يرى في الرجل الجريح إلّا نذير الشرّ الذي يهدّد سمعته ومستقبله. ها هو يرقد في غيبوبة شاملة لا يشعر بالأسلحة الدقيقة التي تعبث بلحمه وعظمه، وهكذا كانت حياته دائماً جرحاً عميقاً يبتيلى سواء بالآلام. أمّا هو فلم يفق من غيبوبته قط: أو لم يشأ أن يفيق منها. ألم يضرع إليه بالدموع أن يغيّر حياته؟ بلى، وكان جزاؤه السخرية الاليمية،

بداً من أن يقول في هدوء:

- إنه مطمئن إلى الحالة وسيعود صباحاً، كيف حاله الآن؟

فألتفت نفيسة:

- لم يفق بعد.

وارتمى على الكرسي الوحيد بالحجرة وأغمض عينيه... «أنا الجريح حقاً. إنه ينام نوماً عميقاً في غيبوبة سعيدة فمن لي بمثل هذه الغيبوبة. لا أظنّ الحال خطيرة جداً، هكذا يقول الطبيب الغافل. كلاً إنهما خطيرة جداً. وإبلاله أخطر من موته. إذا ساءت الحال أبلغ الخبر إلى البوليس، وإذا تحسّنت جثم على صدري حتّى يبلغ أعداؤه البوليس عنه، فالفضيحة آتية لا ريب فيها... أين المهرب من هذه الآلام جميعاً. إنّي أمقت هذا الجريح وأمقت نفسي وأمقت الحياة جميعاً. أما من حياة غير هذه الحياة، وخلوقات غير هذه المخلوقات؟، والظاهر أنّ أفكاره انعكست على صفحة وجهه فتقبّضت أساريره في امتعاض وألم، ولاحت من أمه التفاتة إليه فاشتدّ بها التأثر وقالت له برقة:

- هوّن عليك، أخوك بخير، والله حافظه وحافظنا...

وفتح عينيه في دهشة، ورمقها بنظرة غريبة دون أن ينبس بكلمة...

- ٨٨ -

وجاء الطبيب في صباح اليوم الثاني ثمّ غادر البيت معلناً اطمئنانه، وبذلك نجا حسنين من الخطر القريب الداهم ليفرغ لقلق متّصل وعذاب بطيء وأوهام لا تفارقه ليلاً ولا نهاراً. وانقضت أيام والأسرة في هدوء نسبي، ومضى الرجل الجريح يفيق ويستردّ حيويته شيئاً فشيئاً، ويعودته إلى الحياة ساورته أفكار قديمة لم تلبث عدواها أن سرت إلى النفوس المحيطة به. وقد ابتسم في بادئ الأمر ابتسامة حزينة يشوبها تسليم لم تألفه طبيعته وقال كالمعتز:

- أعتبتكم كثيراً، والظاهر أنّ الله لم يخلقني إلّا للتعب... فليسأخني الله!

والتمعت فيما حوله بسبات المجاملة والتودّد فلم ينخدع بها، أو لم ينخدع بها جميعاً، فمالت عيناه نحو حسنين وقال:

- لا شك في أنّك غاضب ولعلّك تؤدّ أن تذكرني بمواعظك السالفة!...

فغمغم الشاب قائلاً:

- لا أودّ إلّا سلامتك...

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة، ثمّ ما عتّم أن تهيم وجهه، وتكالبت عليه الأفكار، فقال في لهجة مضطربة غير التي تكلم بها أوّل الأمر:

- سلبوني نقودي، الليل لهم، كنت عازماً على الهرب، ولا بدّ من الهرب.

وتحمّس رأسه بيده وأغمض عينيه، ثمّ تتمم وكأنّه يحدث نفسه:

- ماذا فعل الله بسناء؟.. هل يكفون عنها؟.. لن تستسلم لعدوّ من أعدائي، ولكنّها لن تستطيع الهرب معي، فات الوقت وفقدنا نقودنا...

وأنصت حسنين صامتاً، جافلاً من ملاقة هذا المذيان بغير الصمت، واختلس من أمه وشقيقته نظرة فوجدما تبادلان نظرة حائرة ثمّ عاد حسن يقول في نبراته المضطربة:

- يجب أن أخفي. إنّ الصديق الذي حملني إلى هنا رجل غلص ولكنه أجهل من أن يحفظ سرّاً، وليس أحبّ إليه من أن يروي قصّة مروءته لرفيقته، فتنقلها هذه لجارتها، حتّى تبلغ أحداً ممّن يترّبصون بي، فلا ندري إلّا والبوليس يقتحم علينا البيت.

وتنهّد حسنين في يأس، وحانت منه التفاتة صوب أمه فالتفت عيناها لحظة قصيرة قبل أن تغضّ بصرها، وامتلأ حنقاً فحاطبها في سرّه... لماذا أتيت بنا إلى الدنيا؟.. لماذا اقترفت هذا الجرم الشنيع؟.. ثمّ سمع أخاه يهتف بعنف:

- يجب أن أخفي. سأغادر البيت حالماً أقدر على الشئ، وربّما غادرت القطر كلّ...

واستروح حسنين نسمة باردة كالأمل لأوّل مرّة مذ جاء الرجل محمّلاً كالقضاء والقدر. «هل يمكن أن

- ٨٩ -

تناثرت نفوسهم كالشظايا: فوثب حسنين قائلاً وهو يحدّق في وجه الخادم، ورمى حسن بقدمه من على الفراش إلى أرض الحجرة وهو ينظر إلى النافذة في عبوس متمتلاً «الهرب!»، على حين ردّت الأمّ بينهما عينين زائغتين وكان حلقها من الجفاف بحيث لم يسمح لكلمة بالخروج. وجد حسنين في مكانه دقيقة، ثمّ استسحف جموده فهزّ منكبيه في يأس وغادر الحجرة إلى الباب الخارجي حيث وجد الشرطي واقفاً وتبادلا تحية آليّة ثمّ سأله الشابّ في استسلام:

- أفندم؟!

فقال الرجل بصوت أجشّ:

- هل حضرتك الضابط حسنين كامل عليّ؟

- نعم...

- حضرة ضابط نقطة السكاكيني يرغب في مقابلتك في الحال.

ونظر حسنين فيما وراء الرجل حتّى الطريق فلم يرَ غيره ممّن كان يتوقّع رؤيتهم، وداخله شيء من الطمأنينة، ولكنّه تساءل في حيرة:

- ماذا يريد حضرته؟

- أمرني أن أبلّغك رغبته دون أن يزيد.

وتردّد الشابّ قليلاً ثمّ استطرد ريشاً يرتدي ملبسه وعاد إلى الحجرة، ووجد أخاه وراء بابها ينتصّت فما إن رآه حتّى سأله في لهفة «هل جاءوا؟»، وكزّرت الأمّ السؤال في صوت مريض، فأعاد على مسمعيها ما دار بينه وبين الشرطيّ وهو يرتدي ملبسه، وما كاد ينتهي حتّى قال حسن:

- لعلّ الضابط من معارفك فأراد أن يتّبعك قبل أن يكبس البيت. هذا واضح. أصغر إليّ، إذا سألك عنيّ فقلّ له إنك لم ترني منذ أعوام. لا تتردّد ولا تخش عاقبة الكذب فلن يقفوا لي على أثر. سأختفي عقب ذهابك مباشرة فقلّها ولا تخف وربّنا معكم...

فتساءل حسنين وهو يخفي عنه عينيه حتّى لا يقرأ فيها ما تنفّس في أعماقه من أمل جديد:

- وهل لديك من القوّة ما يعينك على الهرب؟

يحدث هذا قبل أن تقع الواقعة!.. هل يختفي حقّاً فلا تقع عليه عين ولا يعرف له أثر؟! فليتنقّد حيث هو، يجب أن أحيّا حياة مطمئنة!.

ثمّ مرّ يوم ويوم ويوم حتّى غدا جرّ البيت على كآبته معهوداً مألوفاً، فلامس حسن الشفاء أو كاد وأخذ يفكر جدّاً في مغادرة البيت ثمّ في الهرب من الوطن كلّه ويرسم لذلك الخطط في صمت وتفكير متواصل، ولم تعد نفيسة تلزم نفسها القبوع في البيت فعادت إلى زياراتها التي لم تكن تنقطع يوماً، وكذلك عاود حسنين حياته العاديّة ما بين عمله وبيته والنادي ولكنّ رأسه لم يتوقّف عن التفكير في أخيه والخطر الذي يتهدّد سمعته بسبب إقامته بينهم. وقد دار بينه وبين أمّه مرّة حول هذه النقطة الحساسة فقال لها بعد إشفاق وتردّد:

- إذا كان البوليس لم يند إلى محلّ إقامته حتّى الآن فبمعجزة من الله لا يمكن أن تستمرّ طويلاً...

ونظرت إليه المرأة نظرة غريبة احتار في تفسيرها بادئ الأمر، أهي عتاب صامت، أم تسليم بالقضاء من العجز عن ملاقاته، أم استنكار يداريه الخوف من الإفصاح، كلّ أولئك بدا راجحاً حيناً لولا أن برح الخفاء فهتكته دمة ترقّرت في محجرها في بطة كالحياء وفي تردّد هو العذاب، هنالك ملأه الانزعاج لأنّه لم يكذّر أن رأى أمّه باكية على كثرة المحن والملمات، وتراجع فيما يشبه الفرار وصوّر من خزّمها وعزّمها تنثال على غيّلته في دهشة ألم، فكأنّه يشهد احتضار أسد هصور. على أنّه حين خلا إلى نفسه تناسى آلام الآخرين وانفرد بالآلامه هو وخوافه، فاشتدّ به الاستياء والحقن، ولعن نفسه وأمّه معاً...

وفي عصر اليوم التالي مباشرة أرادت هذه المخاوف أن تخطو خطوة جديدة. كان يجلس وأمّه وأخوه على الفراش يتجاذبون الحديث، وكانت نفيسة في الخارج. ورنّ جرس الباب فجأة فذهبت الخادم لتفتح، ثمّ عادت في ارتباك ظاهر وقالت للشابّ:

- سيّدي. عسكريّ بوليس يرغب في مقابلتك...

فقال حسن وهو يجذب بلدته من على المشجب:

- إني على خير عافية... مع سلامة الله.

وغادر حسنين الشقة ومضى في صحبة الشرطي، وكان أول ما بدا له أن يسأله عن اسم الضابط لعله يكون حقاً من معارفه ولكن الشرطي ذكر له اسماً غريباً لم يسمع به من قبل فعاودته الحيرة. وبدأ له الأمر شديد التعقيد. بيد أن عزم حسن على الاختفاء بث في نفسه طمأنينة لا حد لها. وبلغا نقطة البوليس قبل المغرب بقليل، وقاده الشرطي إلى حجرة الضابط ثم أدى التحية قائلاً:

- حضرة الملازم حسنين كامل علي.

كان الضابط جالساً إلى مكتبه، وعلى بعد ذراع من المكتب وقف رجلان وامرأة من أهل البلد تلوح في وجوههم آثار معركة حديثة العهد، ولكن الرجل نهض لاستقبال حسنين ومد له يده وهو يقول: «أهلاً وسهلاً» ثم أمر الشرطي بإخلاء الحجرة وإغلاق الباب. وطلب إلى الشاب أن يجلس على كرسي أمام المكتب فجلس وهو يقول لنفسه «ترى ما معنى هذا كله؟... ترحاب ومجاملة ثم ماذا؟!».

وخرج الضابط من مجلسه ووقف في مواجهته مستنداً يمينه إلى حافة المكتب، وجعل يتفحصه بنظرة غريبة تلوح فيها حيرة من لا يدري كيف يبدأ حديثه أو من يجد في ذلك قدرًا من الصعوبة لا يخفى. وشعر بفترة السكوت على قصرها غليظة لا تُحتمل، واشتد به إحساس كربه استحوذ عليه منذ اللحظة التي وطأت قدماه فيها أرض نقطة البوليس، إحساس بالرهبة والقلق والضيق «ضابط مهذب يتحرّج من إلقاء التهمة في وجهي، هذا غريب في ذاته، تكلم وأرحني فطالما تراءى ليخالي كابوس هذه اللحظة. إني أعلم سلفاً ما تريد قوله. تكلم...».

ونفذ صبره فقال:

- دعاني الشرطي لمقابلة حضرتك!

فقال الضابط:

- إني آسف لإزعاجك. كنت أود أن ألقاك في ظرف خير من هذا، ولكنك أدري بما يتطلبه الواجب

أحياناً.

وزفر حسنين آخر نسمة من أمل ضعيف في السلامة وقال في وجوم:

- إني أشكر لك كرم أخلاقك، وها أنا مصغٍ إليك... .

فقال الضابط باهتمام ورقة معاً:

- أرجو أن تتلقّى ما سأقول بشجاعة، وأن تسلك سلوكاً جديراً بضابط يقدّس القانون... .

فقال الشاب وهو يعاني ما يشبه الهزال والخور:

- هذا طبيعي جداً.

فعضّ الضابط على أسنانه كما بدا من تقبّض صدغيه ثم قال باقتضاب:

- الأمر يتعلّق بأختك... .

ورفع حسنين حاجبيه في استنكار ثم قال:

- تعني أخي؟

- الست أختك، ولكن معذرة أحب أن أسألك

أولاً هل لك أخت تدعى نفيسة؟

فقال حسنين في ذهول:

- نعم، هل وقع لها حادث؟

فعضّ الرجل طرفه وهو يقول:

- يؤسفني أن أخبرك بأنها ضُبطت في بيت بالسكاكيني... .

وفزع حسنين واقفاً، متصلاًب الجسم، مصفرّ الوجه محملاً في وجه محدته، وهو يلهث قائلاً:

- ماذا تقول؟

فربت الرجل على كتفه متأثراً وقال:

- ادعُ كلّ قوّة في نفسك كي تضبط أعصابك.

الموقف يستلزم الحكمة لا الغضب. أرجو أن تساعدني على القيام بواجبي ولا تجعلني أندم على ما اتخذت من إجراءات راعيت فيها المحافظة على كرامتك قبل كلّ شيء.

أنصت إليه وهو لا يزال يجملق في وجهه، تمتلئ عيناه بوجهه تارة فلا يرى سواه، ويغيب عنها أخرى فيسمع الصوت ولا يرى شيئاً، وثالثة لا يرى إلا شفتين تنطقان وتنفرجان فينثال من بينهما كلام هو

- تركناها في هذه الحجرة لأنه أغمر عليها حين علمت بأنني أرسلت في طلبك بدل أن أطلق سراحها. اسلك سلوك رجل يحترم القانون واذكر أنني مشول عن الأرواح. إنك رجل محترم ومهذب فعالج الأمر بالحكمة. لا يصح أن يعلم أحد ممن في النقطة شيئاً ولكن هذا يتوقف على سلوكك أنت، تذكر هذا جيداً...

فكرّ قوله بنفس الصوت الميت:

- دعني أراها من فضلك...

مضى الضابط إلى الباب المغلق متساقلاً وفتحته، واقترب حسنين منه كمن يمشي في حلم، وألقى بنظرة من فوق كتفه كمن ينظر ليتعرف على جهة في المشرحة، فرأى لصق الجدار المواجه للباب أريكة ارتمت عليها فتاة قد ألفت برأسها إلى الحائط، عيناها نصف مفتوحتين ولكنها مظلمتان لا تريان شيئاً ميتة أو مغمى عليها أو لعلها في ذهول الإفاقة الأول، وقد التصقت بجبهتها شعيرات مبتلة وعلت بشرتها صفرة الموت. لكنها نفيسة دون غيرها. «قلبي لا يكذبني في المصائب أبداً لو كانت ميتة لادّعت أنني لا أعرفها بلا تردد» ولم تبد حراكاً كأنها لم تحس للقادمين وجوداً، أو أنها لم تستطع أن تبدي حراكاً. ونظر الضابط صوبه متسائلاً ولكن عينيه لم تتحولاً عنها، جمد بصره وتحجر وغشيه ذهول وجد فيه مهرباً مؤقتاً مما كان وما سيكون وخيم عليهم سكون الموت، وانقضت فترة طويلة أو قصيرة، ثم شق الصمت صوت باطني يصرخ في أذنه «انتهى...»، وتحالفت لعينيه صورة أمه كما رآها منذ ساعة واقفة بينه وبين حسن في حيرة يائسة والرجل يتوَّج للفرار. ود تلك اللحظة لويقتحم تجارب الكفر والقسوة والموت «ماذا ينتظر هذا الضابط أن أفعل؟... ماذا ينبغي أن أفعل؟ رباه كيف أغادر هذا المكان؟!...» ثم سمع الرجل يقول:

- لقد قدّمت ما عندي من واجب نحوك فهات ما عندك من حكمة...

فسأله بدوره وهو يتحامي بعينه:

- أين الآخر؟!

الفرع واليأس والغربة، وبين هذا وذاك ترمش عيناه في حركة عصبية فتلتقطان منظرًا غريبًا هنا وهناك، بندقيّة مثبتة في جدار أو صفًا من البنادق أو محبرة، وربما امتلاً أنفه برائحة دخان محبوس أو رائحة جلود غريبة، ثم ينحلّ وعيه ويتراجع فجأة إلى ذكرى بعيدة لا صلة لها بالحاضر فيلوح لذاكرته منظر عطفة نصرالله وهو صبي يلعب حسين البل «ضبطت في بيت! أي بيت؟ إن أحداً فاقد العقل ولا شك ولكن من هو؟ ينبغي أن أتحقق من أنني عاقل أولاً...» وتنهّد في وهن، ثم سأله في استسلام:

- ماذا تقول يا سيدي؟

- يوجد في هذا الحي بيت تستأجره ست رومية وتؤجر حجراته بالساعة للعشاق. كبسنا البيت عصر اليوم فوجدنا الست... وجدناها مع شاب، واعتقلناها طبعاً وشرعنا في اتخاذ الإجراءات القاسية التي تعرفها فاضطرت تحت تأثير الخوف أن تعترف لي بأنها شقيقة ضابط على أمل أن أطلق سراحها... - أختي أنا؟... أنت متأكد؟... دعني أراها...

- اضبط نفسك، أرجوك، لو كنت متأكداً من أنها اختك لأطلقت سراحها. ولكني خفت أن يكون اعترافها خدعة، قد عرضت المسألة على المأمور فوافق على وقف الإجراءات على شرط التأكد من صدق قولها...

ومن عجب أنه لم يعد يداخله أدنى شك في حقيقة الواقعة فسرعان ما آمن بها قلبه المتشائم، ووجد في فظاعتها ترجيعاً لأصداء خوف قديم طالما ناوش قلبه وعذبه. أجل لم تُخلق هذه الواقعة إلا لحظه ولأسرته، إنه يعلم هذا علماً لا يتطرق إليه الشك. أهذه هي نهاية المطاف؟! ثم غلبه ذهول شعر معه بأنه أثر من آثار ماضٍ منطوي انقطعت صلته بالحاضر فضلاً عن المستقبل، كان، هذا هو، ولكنه لا يكون ولن يكون. ثم انبعثت منه لهفة على النهاية فقال بصوت ميت:

- أين هي؟... دعني أراها من فضلك...

فاشار الضابط إلى باب مغلق وقال:

وأدرك الضابط ما يعنيه فقال بلهجة لا تخلو من حزم:

- طُبِّقَتْ عليه الإجراءات وأُطلق سراحه.

فغمغم قائلاً:

- لنترك هذا المكان شاكرين.

- ٩٠ -

في الخارج لفحه هواء بارد وكان الظلام قد خيم فابتعدت عن نقطة البوليس في خطوات ثقيلة تتبعه هي على بعد ذراع منكسة الوجه، سارا مع قضبان الترام ولم يكن يدري أين ينتهي به المسير لأنه لم يسبق له المجيء لهذا الحي، ومع أن الليل كان في أوله إلا أن الطريق بدا مقفرًا، وتساءل في نفسه ترى أين ينتهي الطريق؟.. ثم بدا له تساؤله آية في الغرابة، فلم يكن المهم أن يعرف أين ينتهي الطريق ولكن الجدير بالمعرفة حقًا أن يعلم ما هو صانع «بها». كان يحسب أنه سيبدأ بالتنفيذ تروًا بعد خروجه من النقطة، وكانت هي تتوقع هذا، ولكن أقدامهما تقدّمت بهما دون أن يفعل شيئًا، وكان يشعر بوجودها وراءه في ضيق لا يُحتمل، ويسمع وقع قدميها كأنه رصاص في ظهره، ويحس أول فأول آية رغبة في أن ينظر إلى الخلف، ومع أنه بدا في صمته - ذلك الصمت الهائل الذي وقف حائلًا بينهما - وكأنه يفكر تفكيرًا متواصلًا إلا أنه في الحقيقة كان فارغ الرأس. كان فارغ الرأس بحال مزعجة، لم يُرِدْها إرادة، ولكنها فُرضت عليه قسرًا وبُشَّتْ في نفسه إحساسًا بالقلق، إحساس من يتلهّف على السيطرة على إرادته سيطرة غاشمة فلا يجد إلى ذلك سبيلًا. واصطدمت قدمه بحجر صغير اعترض سبيله فانطلقت في صدره شرارة حنق، وكأنها جذبت إليها أفكاره الماربة في الظلام، وسرعان ما وجد نفسه يتساءل في صمته أين هي؟.. أين رأسها بحذائه؟.. لا بدّ لصدوره من متنفّس. وظلّ الصمت الجهنمي سائدًا، وبينما كان يجمع عزمه لرحلة هذا الصمت تطوّعت هي - وهو ما عجب له - لرحلته. فسمعها تغمغم في نبرات مرتعشة متهدّجة قائلة:

- لقد أجمرت. إني أعلم هذا.. ولن أسالك

غفرانًا لست جديرة به.

هل حقًا وانتهت قواها على الكلام! يا للشيطان! وأحدث صوتها - على ضعفه - زوبعة من الهياج في صدره، زوبعة عمياء طاغية صبّت الغضب في أطرافه صبا فتوقّف عن السير والتفت نحوها في سرعة غريبة وارتفع ذراعه في الهواء وهوى على وجهها كالقذيفة فتراجعت مترنحة دون أن تنبس ثم سقطت على ظهرها واصطدم مؤخر رأسها بالأرض. لم تنبس بكلمة ولا ندّ عنها أي صوت، ولكنها جلست على الأرض بسرعة ثم لمّت نفسها ووقفت وأخذت في التراجع حتى ارتكنت إلى جدار بيت. واقترب منها فترأى لعينيها تصميمه رغم الظلمة التي تُظِلُّ وجهه فلوّحت له بيدها كأنها تسأله أن يقف ثم اندفعت قائلة في عجلة وتوسّل:

- قف، لا تفعل، لست أخاف على نفسي ولكني أخاف عليك، لا أريد أن يمسك سوء بسبي.

وزادته رقة كلامها هياجًا على هياج فصاح بها بصوت كالخوار:

- لا تريد أن يمسي السوء بسبك؟!.. يا عاهرة لقد صببت السوء عليّ صبا.

فأعادت بتوسّل حار:

- ولكني لا أطيق أن يسيثوا إليك ولو كان السبب هلاكي.

- هذا مكر حقير لن ينفعل في إنقاذ حياتك الحقيمة، هيهات، لن ينالني سوء بقتلك.

فهتفت في حرارة:

- لا ينبغي أن يمسك عقاب وإن هان، ثم بماذا نجيب إذا سُئِلت عما دفعك إلى قتلي؟! دعني أقم أنا بهذه المهمة فلا يكدرك مكدر ولا يدري أحد.

فتساءل فيها يشبه الدهول:

- تقتلين نفسك؟!

فقال وهي تلهث:

- نعم..

شعر فجأة - قبل أن يتألك نفسه - بأن حملًا ثقيلاً تزحزح عن عاتقه وهوى بعيدًا. كان مدفوعًا بغضب

فسرت في جسدها رعدة وقالت بذل:  
 - لا تعذب نفسك ولا تعذبني، سينتهي كل شيء في لحظات.  
 - أكان يعرفني؟  
 فقالت بعجلة وتوكيد:  
 - كلاً...  
 فتردد مرة أخرى وقد تضاعف عذابه ثم تساءل:  
 - أول مرة؟!  
 فعاودتها الرعدة بيد أنها قالت بتوكيد أيضاً:  
 - نعم...  
 فضرب الأرض بقدمه وصاح بها:  
 - كيف استسلمت للغواية؟  
 - أمر الشيطان.  
 - أنت الشيطان... لقد قضيت علينا.  
 فهتفت في رجاء:  
 - كلاً... كلاً... سينتهي كل شيء الآن ولن يدري أحد.  
 - اتعنين ما تقولين؟  
 - طبعاً...  
 - وإذا ساورك الخوف!  
 - كلاً، إن ما ورائي في الحياة أقطع من الموت.  
 وعادا إلى الصمت وكلاهما يشعر بجهد ونصب، ومضى يمدّ البصر مع قضبان الترام في حيرة، ثم سألها بلهجة ساخرة:  
 - إلى أين نحن ذاهبان، فلعلك أدري بهذا الحيّ مني؟  
 ولم تجب، ولكن تقبّضت أساريرها من الألم. ثم لاح لها ميدان الظاهر فترأت لعينيها آثار الحياة والعمران وترامت لأذنيها أصوات لأحياء، وجعل ينظر في قلق حتى ثبتت عيناه على صفّ من التاكسيات فمضى إلى مقدّمها وفتح لها الباب فدخلت ثم دخل وراءها. وفكر قليلاً والسائق ينتظر أوامره، ثم قال له بصوت منخفض:  
 - جسر الزمالك من فضلك.

مستعر وإحساس معذب بالواجب ولكنّ العواقب - كذبيوع الفضيحة والعقاب - ما فتئت تتخايل لعينيّه، فالآن بعد هذا الحكم الذي قضت به على نفسها يسعه أن يستردّ أنفاسه وأن يستتين بصيصاً من النور في هذه الظلمة الخائفة. وغمغم متسائلاً وهو لا يزال مستغرقاً في أفكاره:  
 - كيف؟  
 فقالت وهي تزدد ريقها:  
 - بأيّ وسيلة كانت.  
 فتفكر قليلاً متجهّم الوجه ثم قال وهو يرمقها بقسوة:  
 - النيل...  
 فقالت بهدوء:  
 - ليكن.  
 فنفخ حقناً وضيقاً ثم تراجع في تناقل وهو يغمغم «هلمّي» فغادرت الجدار وتقدّمت في خطو ثقيل، ثم دار حول نفسه وواصل السير فتبعته كما كانا. أحسّ هذه المرة شيئاً من الطمأنينة ولكنّ غضبه فقد عنصرًا كان يعتزّ به وهو لا يدري. فقد شعورًا بالكرامة كان يلازمه وهو مصمّم على قتلها بنفسه، فاستحال من شخص يندفع وراء الكرامة إلى آخر ينشد السلامة. وغصّ حيناً بقهر خائق، ولكنّه لم يكن من القوّة بحيث يعدل به عمّا تراءى له من سبيل النجاة، ولم يكن من الضعف بحيث يتركه في سلام، ونفّس عن صدره قائلاً في خشونة:  
 - كيف فعلت هذا؟! أنت؟! من كان يتصوّر هذا!  
 فتنبّدت قائلة في استسلام اليأس:  
 - أمر ربّنا.  
 فصاح مزيجراً:  
 - بل أمر الشيطان.  
 فقالت بنفس الصوت المتنبّه:  
 - نعم...  
 فتردد لحظة ثم تساءل:  
 - من هو؟

البغض والغضب؟ متى يسي كل شيء وقد انقضى؟  
هذه هي النهاية الوحيدة. ترى هل تحدس أمي  
الحقيقة؟ لا داعي للتفكير. إني ميتة».

ولبت حسنين مضطرباً متوتر الأعصاب يتجاذبه  
الغضب واليأس والرغبة. «كيف تنتهي هذه المحنة؟  
وكيف أخرج منها؟.. أيمكن حقاً أن يسدل عليها  
الستار دون أن تفوح منها رائحة حريرة بأن تجعل من  
هذا العناء كله عبئاً لا طائل تحته؟ إني أختنق. إن  
الماضي لا ينمحي ولكنه يسبق مستقبلي. لماذا لا نعيش  
بلا مبالاة؟ قضي الأمر ولا داعي للتفكير في هذا. لا  
داعي للتفكير مطلقاً. ما أشدّ عذابي، كيف أغتلب  
على هذه التعاسة كلها مهلاً، إني أسوقها إلى الموت،  
وهي تعلم أنها تُساق إلى الموت، ترى هل تواتيها  
القدرة؟ لا شك أنها تفكر الآن تفكيراً متواصلًا،  
ولكن فيما تفكر؟ لا ينبغي أن أفكر فيها. الموت خبر  
نهاية لها. لا يمكن أن تلتقي عيناها فهو فوق ما احتمال  
وفوق ما تحتمل هي. الأمر يتعلق بأختك، آه قاتل الله  
هذا الضابط، يؤسفني أن أخبرك أنها ضُبطت في بيت  
بالسكاكيني، من يتصور هذا! وليس الموت بنهاية  
ولكنه بداية لتعاسة أخرى تنتظرن في البيت. حتى متى  
أواصل هذا التفكير؟ أية مدخنة هذه؟ لعله مصنع،  
نحن نقرب من جسر أبي العلاء، هذه المدخنة تنفث  
دخاناً أسود كثيفاً، لو تحترق أفكاري وتذوب في  
أنفاسي لزفرت أقدر منه. لا أريد أن يمّسك سوء  
بسبي، صدقت، يجب أن تهلكي وحلك. متى يطوى  
الطريق!».

وعبرت السيارة جسر أبي العلاء فاندفعت إلى  
داخلها موجات غامرة من هواء بارد رطب مشبع بأريج  
النيل فاستقبله الشاب بترحاب من يُضلي نازراً حامية  
على حين سرت في أطرافها رعدة بثت في حناياها خوفاً  
غامضاً، ودام لحظات ثم ارتدت بعده لحالها الأولى من  
الاستسلام والجمود واليأس. وضاعفت السيارة من  
سرعتها حتى شارفت جسر أمبابة فحُفَّت قوّة اندفاعها  
رويداً، ثم التفت السائق نحو حسنين متسائلاً فقال له  
هذا بصوت منخفض «قف»، ودفع له حسابه وغادر

انطلقت السيارة بسرعة إلى شارع فاروق في طريقها  
إلى العتبة ثم إلى أمبابة.

كانا يجلسان كغريبين، أما هو فقد ألقى ببصره إلى  
الطريق خلال النافذة مولياً إياها نصف ظهره وأما هي  
فقد خففت رأسها وغابت في ذهول عميق. لم يكن  
في رأسها شيء، أو شيء ذو بال، كأنه السكون الذي  
يعقب عاصفة هوجاء أو جود الموت بعد نزع أليم.  
وقد بلغ بها الهياج ذروة الجنون قبل أن تسقط مغمى  
عليها وبعودتها إلى الوعي تكالبت عليها الأفكار  
المفرزة، واستعرضت عيناها شريط حياتها في رعب  
جهنمي حتى أثقلت الهموم رأسها فانحنى على صدرها  
كما ينحني رأس من سدّت في وجهه منافذ الحياة تحت  
جدار منهار. ويعد ما كان من الانهيار الكامل وظهور  
حسنيين، وما كان بينهما في الطريق، شعرت بأن كل  
شيء قد انتهى، وأخلى الهول مكانه من رأسها، تاركاً  
وراءه فراغاً صامتاً، فلم يعد به شيء، أو شيء ذو بال  
إلا أن تكون ذكرى بعيدة من ذكريات الصبا أو منظراً  
مما ينعكس على عينيها من أرض السيارة. بيد أنها  
كانت تكابد تجربة جديدة لا عهد لها بها من قبل، إذ  
هانت عليها الحياة حقاً، بالفعل لا بالقول، هانت  
الهوان الذي يجعل من الموت نجاة. أجل طلالاً تدمرت  
فيها مضي من حياتها وسخطت، حتى تمتت الموت  
أحياناً، ولكنها لم تسع إليه مع ذلك لأنه كان ثمة أمل  
في الحياة يدب متوارياً في أعماقها. الآن تقطعت بها  
عن الدنيا الأسباب، واقتلعت الجذور التي تشدّها  
للبقاء، ووجدت مع هذا اليأس العميق راحة  
زحزحت عن كاهلها الأعباء، فلم تعد تفكر في شيء  
ذي بال، ورمقت الموت الذي تنهب الأرض إليه  
باستسلام كأنه التخدير. وقد دارت السيارة حول  
منعطف وهي منطلقة في سرعتها فارتجت الفتاة في  
مجلسها وتنبّت إلى ما حولها فيما يشبه الفرع، ومع أنها  
ظلت منكسة الرأس إلا أنها أحسّت بوجوده إلى جانبها  
وتراءى شبحه الجاثم عن يمينها إلحظها في غموض  
فتقبّض قلبها ألماً وخزياً «ترى فيم يفكر؟ ألا يجد غير



سيات. رآها في وضوح تام تحت الأضواء المشرقة فثبتت عيناه على جانب وجهها المتعكس وهي تقطع الأرض قدماً قدماً حتى بلغت المنتصف فتوقفت عن المسير، ورفعت رأسها، وأجالته فيها حولها، ثم استدارت نحو السور وألقت ببصرها إلى الماء المصطخب الجاري. وجعل يكتم أنفاسه ويزدرد في تشنج ريقه الجاف وهو يترقب، ولكن ظهر في تلك اللحظة عند الطرف الآخر من الجسر رجلان ومضيا يقطعان الجسر في سرعة وهما يتحدثان، ثم لاح الترام القادم من أمبابة وهو ينعطف نحو الجسر ممزقاً الصمت بعجيجه، فاسترد الشاب أنفاسه ولكن إلى حين قليل، وسرعان ما ركبه القلق والضيق، وكان قلبه يخفق بعنف حتى خيل إليه من شدة وقع النبض في أذنيه أن العالم الخارجي يسمع دقات قلبه. ثم مرت به لحظات فتوهم أنه يشهد منظراً غريباً عنه لا شأن له به، ولكنها كانت لحظات ثم انقضت وغلبته الرهبة على ما في نفسه جميعاً فلم يعد يستشعر حقداً ولا غضباً، ثم اعتزكت الأفكار في رأسه في ثوانٍ ف شعر في حيرته بأنه يروم حل مسألة معقدة غامضة، ولكن لا قدرة له على حلها أو ليس لديه فسحة من الوقت للتفكير فيها، فهو منها في حيرة أي حيرة. وفي أثناء ذلك كان الرجلان قد عبرا الجسر، وسبقهما الترام إلى الطريق، وما زالت الفتاة تحملق في الماء. ونظر هنا وهناك فلم ير أنسراً لإنسان. وتجمعت نفسه في لحظة ترقب مليئة بالفزع والرعب. رآها تعطف رأسها يميناً وشمالاً. وبغتة، وفي حركة سريعة يائسة تسورت السور. وزلزل قلبه وهو يتابع حركاتها وجحظت عيناه، لا يمكن... ليس هذا... أما هي فألقت بنفسها، أو تركت نفسها تهوي، وقد انطلقت من حنجرتها صرخة طويلة كالعواء تمثل لعيني المبتلي بسماحها وجه الموت، فجاءها بصرخة فزع ولكنها ضاعت في صرختها. وشعر وهي ترمي بنفسها أن بوسعه أن يجد للمسألة المعقدة التي تحيرها حلاً، ولم يكن الحل فيا فعلت بنفسها، كان يمكن أن تكون نهاية أخرى، وكأنما حاول أن يستدرك الخطأ بصرخته ولكنها ضاعت، ثم صك مسمعيه

السيارة فغادرتها أيضاً من الباب الآخر، وما لبث التاكسي أن عاد من حيث أتى فوجدنا نفسيهما وحيدتين على كئيب من مدخل الجسر. وكانت المصاييح المقامة على جانبي الجسر تشع نوراً قوياً أحال ظلمته نوراً، بينا أطبق الظلام على ضفاف النيل بطول امتداده شمالاً وجنوباً - رغم المصاييح المتباعدة الخافتة - فبدت الأشجار المترامية على جانبيه كأشباح عابقة، وكان المكان مقفراً إلا من مار مسرع هنا أو هناك وقد تناوحت الغصون بأنين ريح باردة كلما كفت هبوبها تعالي هسيس النبات كالهمس. لازما موقفهما في جمود كالدهول، ثم استرق إليها النظر فرآها مقومة الظهر قليلاً منكسة الرأس غير أن منظرها لم يلق من صدره إلا قلباً متحجراً ونفساً خنق الهم فيه كل رحمة. وثار حنقه على جموده فجأة فقال بغلظة:

- أنت مستعدة؟

فغمغمت بصوت غريب لا عهد له به:

- نعم...

ونفذ الجواب على بساطته إلى أعماقه فلم يعد يطيق موقفه، وتزحزح عنه في خطو ثقيل، وقبل أن يتعد عنها ذراعين سمعها تقول بتوسل:

- لا تذكر إساءتي:

فندد عنه صوت غليظ وهو يوسع خطاه كالهارب قائلاً:

- فليرحمنا الله جميعاً...

تركها وحدها حيال الجسر، وهدف إلى الطوار الممتد إلى يمين الجسر على شاطئ النيل، ثم جد في المسير. حدثته نفسه بالهرب ولكن قوة غشوما جعلت تجذبه إلى الوراء، وخارت مقاومته عند شجرة صفصاف ضخمة الجذع على بعد ثلاثين متراً من مبدأ الطور فتوارى وراءها في إعياء وأرسل الطرف نحو الجسر. ولاح له الجسر كتلة صماء متوهجة بأنوار المصاييح تمسك من طرفيها بالشاطئين في عناد وتصميم كأنه وحش يغرز أنيابه في فريسته، وعند رأس الجسر، وعلى الجانب المواجه له، رآها تتحرك في خطو ثقيل خافضة الرأس، يعلوها جمود غريب كأنها تمشي في

اصطدامها بالماء فنذت عنه صرخة أخرى...

- ٩٢ -

وثب إلى منحدر الشاطئ وعينه تحملقان في المكان الذي ابتلعها تحت الجسر، ثم جمد في موقفه يكاد يحجراه أن يلفظا عينييه من شدة الحملة. وتوقع مرّات أن تطفو على ظهر الماء ثم أدرك أنّ النيل المندفع إلى ما تحت الجسر لا بدّ أن يكون قد جرفها معه فلعلّها تتخبط في جوف الجسر أو تغوص فيما يليه من النهر. ومزّ بخاطره أن ينزع سترته ويقذف بنفسه وراءها لعلّه ينشلها ولكنّه لم يحرك ساكناً، ووجد لهذه الخاطرة ما يشبه السخرية المريرة فازداد جوعاً وشعر بأنّه لم يعد لعهقه سيطرة عليه. وما يدري إلّا وصوت من وراء يسأله باهتمام محسوس:

- أسمعت صرخة؟

فالتفت إلى الوراء فرأى شرطياً تنمّ حركاته على الاهتمام فقال له في ذهول:

- نعم، لعلّه غريق...

وجعل الجنديّ يحذق في الظلام فوق النهر ثمّ حثّ خطاه نحو الجسر. وأعاد الجنديّ إلى شيء من وعيه فتراجع إلى موقفه الأوّل ولم يعد في طاقته أن يضبط نفسه فاندفع عدواً صوب الجسر ثمّ عبره إلى سوره المطلّ على الناحية الأخرى من النهر وألقى ببصره إلى التيار المتدفّق. وما لبث أن رأى آثاراً للحادثة لا تخطئها العين، رأى قارباً يشقّ الماء بسرعة قادماً من الشاطئ الأيسر نحو وسط النهر، وسمع أصوات استغاثة وصراخاً آتية من الشاطئ البعيد. وكان سطح النهر فيما يلي الجسر مضاً بما ينعكس عليه من أنوار المصابيح فتصفّحته عيناه هنا وهناك، ولكنّه لم يعثر على ضالّته. ثمّ تبعته عيناه القارب الذي أخذ يقترب من الوسط شاقاً سبيله في الرقعة المضاءة، ثمّ اندفع مع التيار حتّى خرج عنها إلى الظلام. ووجد نفسه يتساءل «ترى هل يفوز القارب في سباق الموت هذا؟». ولم يستبن حقيقة مشاعره، أو لعلّه هرب من باطنه بتركيز حواسّه في القارب فتابعه حتّى رآه يتوقّف عن التجديف ثمّ رأى شخصاً يقفز منه إلى الماء، على حين

تعلت أصوات الباقيين بالقارب. هذه هي اللحظة الفاصلة، وتتابع خفقان قلبه حتّى جفّ حلقه، وحاول عبثاً أن يرى شيئاً خلال الظلمة التي لفت القارب أو أن يميّز كلمة معبّرة في هدير الأصوات المختلفة، ثمّ كلّ منه البصر فلم يعد يرى شيئاً وكأنّه عمي. وأخذ يتنبّه - دون التفات - إلى تجمهر خلق كثيرين حوله، ثمّ سمع أحدهم يقول:

- القارب يعود إلى الشاطئ فلعلّه انتشل الغريق...

وتمسّت في أوصاله رجفة وتساءل «ترى أنجت أم هلكت؟ أذهب أم أفر؟» ولكنّه تحوّل عن موقفه وسار في اتجاه الشاطئ الذي يقصده القارب مدفوعاً برغبة لا تقاوم في تعذيب نفسه إلى أقصى حدّ، ولم يعد السير ليسعف جزعه فأطلق ساقيه للريح وعينه تسبقانه إلى بقعة من الشاطئ تجمهر عندها كثيرون. وبلغها والقارب يرسو إلى الشاطئ فدنا من المتجمهرين بساقيين متخاذلتين واندسّ بينهم وأطرافه ترتجف على رغمه ثمّ ألقى بعينين متحجّرتين إلى القارب الذي اكتنفه ستار خفيف من الظلمة. وكان يقف غير بعيد منه ضابط النقطة المواجهة للشاطئ ونفر من الشرطة. ثمّ بدت أشباح الرجال وهي تنتقل من القارب إلى الشاطئ حاملة بينها الغريق فصاح بعض المتجمهرين:

- هل نجا من الغرق؟

وأرهمف السمع ليتلقّى الجواب ولكن لم ينبس أحدهم بكلمة ومضوا يرتقون منحدر الشاطئ في شيء من الجهد والأعين محدقة بهم حتّى ميّزت حقيقة الحمل فصاح بعضهم في ارتياح:

- إنّا امرأة يا ولدا!

وتساءل آخر:

- كيف غرقت؟

فصاح غلام:

- رمت بنفسها من فوق الجسر فرأتها زوج النوبي

واستصرخت زوجها لإنقاذها...

وجعل حسنين يتبعهم ناظره في طائف من الغرابة والذهول فلم يدر كيف يصدّق أنّ هذه هي أخته وأنّ

النحيل صدمة الماء الغليظ، وماذا دار بذهنها وهي تتخبط بين أمواجه، وأي جهد وجدت والظمي يكتم أنفاسها، وأي عذاب ذاقت ورغبة الحياة تثب بها إلى سطحه فيشدها باطنه إلى الأعماق. إن محاولة الغريق اليائسة للنجاة أشبه بأحلام الشقي بالسعادة، كلتاها أمنية ضائعة. أتراها ترائي الآن من عالمها الآخر؟ أراضية هي أم غاضبة أم ساخرة؟ ماذا ترى في موقفها هذا؟ لماذا وقع هذا كله. وذكر بغتة أنه فحجبت صورتها الجثة عن عينيه، وهز رأسه كأنما ليطردها من مخيلته، وصمم بقوة على أن يتحامي التفكير فيها، وعاد بانتباهه المحموم إلى الجثة. وعلى رغمه وجد نفسه يتذكر أيادي الفتاة عليه، ما كانت تكن له من حب وما جادت به من كرم، فما كان يخطر لها ببال أن تكون نهايتها على يديه، وشعر بإعياء وقنوط وتساءل في جزع «لماذا هذا كله؟». وأغمض عينيه لأنه لم يعد يطيق النظر إليها. كان رأسه محموماً، وغيض الهم كل رغبة في الحياة في قلبه، وانقلب وجه الدنيا في عينيه كهذا الوجه الأزرق الناطق بالعدم، وقال لنفسه، وهو يتهد من الأعماق «رباه، لقد قضي علي». وسمع عند ذلك صوت الضابط وهو يأمر الشهود بالذهاب معه إلى النقطة، ثم رأى الجثة تحمل ورأى القوم يمشون بها إلى الجهة الأخرى من الطريق فاتبعهم طرفه حتى حال الظلام بينه وبينهم. وفي أقل من دقيقتين وجد نفسه وحيداً يكتنفه حفيف الأشجار التي تكاد تطبق أغصانها الغليظة الملتوية على البقعة كلها. وتراجع في تراخ وترنح حتى أسند ظهره إلى جذع شجرة وراح فيها يشبه السبات وكأنه يتردى في هاوية معتمة ليس بها بارقة أمل. «قضي علي. كنا جميعاً فريسة للشقاء فما كان ينبغي لأحدنا أن يعين الشقاء على أخيه. ماذا فعلت؟ إنه اليأس الذي فعل، ولكني قضيت عليها بالعقاب الصارم. أتني حقاً أخذت لنفسني أحق أني النائر لشرف أسرتنا؟ إني شر الأسرة جميعاً. حقيقة يعرفها الجميع، وإذا كانت الدنيا قبيحة فنفسى أقيح ما فيها. ما وجدت في نفسي يوماً إلا تمنيات الدمار لمن حولي فكيف أبحث لنفسي أن أكون

أحداً لا يعلم بهذه الحقيقة وأنه لا يفعل شيئاً إلا أن يقف بينهم كالغريب المستطلع. وبلغ الرجال طوار الطريق وسرعان ما نشطوا إلى عملية الإسعاف ليفرغوا ما في جوفها من ماء. وقد أمر الضابط العساكر بتشتيت المتجمهرين ولكن أحداً منهم لم يتعرض لحسين فلبث بمكانه جامداً لا يطرف لا تتحول عيناه عن الجسم المقوس الذي تعبت به أيدي الرجال الغليظة. وانتبه الضابط إليه فاقرب منه وحيّاه بإيماء من رأسه وسأله:

- أشهدت الحادث!

فخرج الشاب عن ذهوله في انزعاج ولكنه أجاب بعجلة:

- كلاً...

وأنام الرجل الفتاة على الأرض وجثا أحدهم إلى جانبها ثم جس نبضها وألصق أذنه بصدرها فوق القلب، ثم رفع رأسه قائلاً:

- صعد السر الإلهي إلى بارته، لا حول ولا قوة إلا بالله...

وعاود الشاب إحساسه بالغربة، وغلبه الإحساس على ما عداه، فلم يشعر لا بحزن ولا بارتياح، ولم يتحرك فكره لا إلى الأمام ولا إلى الوراء، وكأنه لم يطق هذا الفراغ المخيف فركز انتباهه في الجثة الراقدة غير بعيد عن قدميه. جرى بصره عليها وقد تبعثر شعرها والتصقت خصلات منه بخدها وجبينها، وران على الوجه جمود صامت لا يبشر ببقظة وعلته زرقة مروعة، وخيل إليه أنه يرى أخايد دقيقة حول الفم الفاسر والعينين كأنها تقلصات العذاب الذي كان آخر عهده بالدنيا، أما الفستان المشبع بالماء فقد لزق بالجسد وتلوّثت أهدابه بتراب الأرض فتطينت، وبدت قدم ما تزال ممسكة بفردة حذاها والأخرى في جوربها. ورجع بصره إلى وجهها فجاش صدره وامتلاً فراغه باضطراب وثوران «لماذا اضطرب هكذا؟ ألم أقتنع حقاً بأن هذه هي خير نهاية! ألم أسفها إلى الموت بنفسي؟ ينبغي أن تطمئن نفسي. بيد أنني أتساءل عما داخلها من شعور وهي تهوي إلى الماء، وكيف تلقى جسمها

حافظاً جديداً، وابتمد عن الشجرة وهو يلقي نظرة  
الوداع على نقطة البوليس ما في شعوره إلا السأم  
والنزوع إلى الهرب. «لا أريد أن يمَسَّك سوء بسببي .  
أمر ربنا. أمر الشيطان. النيل. ليكن. وإذا ساورك  
خوف. كلاً، إنَّ ما ورائي في الحياة أفضع من الموت.  
أأنت مستعدة؟ لماذا تغيب الملازم حسنين، ألم يرسل  
خطاب اعتذار؟ رأيت صاحب هذا الوجه عقب  
انتشال الجثة وسألته هل شاهدت الحادثة وكان  
مذهولاً.» وبلغ الموضع نفسه من الجسر فارتفق السور  
وألقي ببصره إلى الماء تتدافع أمواجه في هياج  
واضطخاب. وأخلى رأسه من الفكرة. «إذا أردت  
هلم. لن أصرخ. فلاكن شجاعاً ولو مرة واحدة.  
ليرحمنا الله. .»

قاضياً وأنا رأس المجرمين! لقد قضي عليّ.» وألقى  
نظرة على ما حوله في حيرة وخوف «أين أذهب؟ أيمكن  
أن أُمِرَ من هذه المحنة كما مرقت من غيرها من  
قبل؟.. لشدَّ ما تهزأ بي الأماني. لا تبال، حسن..  
ولكن هل يسعك هذا؟ احمل نفسك بشرها وأنشدها  
النسيان ثم السعادة، هاها. إنِّي أعبت بنفسي بلا  
رحمة. طالما أحببت أن أعمو الماضي، ولكنَّ الماضي  
التهمَّ الحاضر، ولم يكن الماضي الخفيف إلا نفسي، لماذا  
لا أواصل الحياة بهذه الأعباء؟ لا أستطيع. كان ينبغي  
أن أحب الحياة إلى النهاية، ومهما يكن من أمر، ولكنَّ  
في طبيعتنا خطأ جوهرى لا أدريه. لقد قضي  
عليّ. .»

واستوى واقفاً إمَّا لأنه ضاق بمسنده وإمَّا لأنه وجد

بَيْنَ الْقَصَرَيْنِ



وعادت به إلى الحجرة وهو يعكس على السقف من  
فؤهة زجاجته دائرة مهتزة من الضوء الشاحب تحفّ به  
حاشية من الظلال، ثم وضعته على خوان قائم بإزاء  
الكنبة. وأضاء المصباح الحجرة فبدت برقعته المربعة  
الواسعة وجدرانها العالية وسقفها بعمده الأفقية  
المساوية، إلا أنها لاحت كريمة الأثاث ببساطها  
الشرائزي وفراشها الكبير ذي العمّد النحاسية الأربعة  
والصوان الضخم والكنبة الطويلة المغطاة بسجاد صغير  
المقطع مختلف النقوش والألوان. واتجهت المرأة إلى  
المرآة وألقت على صورتها نظرة فرأت منديل رأسها  
البيّ منكمشاً مترجعاً وقد تشعثت خصلات من  
شعرها الكستنائي فوق الجبين، فمدّت أصابعها إلى  
عقدته فحلتها وسوّته على شعرها وعقدت طرفيه في  
أناء وعناية، ومسحت براحتيها على صفحتي وجهها  
كأنما لتزيل عنه ما علق به من آثار النوم. كانت في  
الأربعين متوسطة القامة، تبدو كالنحيفة ولكن جسمها  
بضّ ممتلئ في حدوده الضيقة لطيف التنسيق والتبويب.  
أما وجهها فهائل إلى الطول مرتفع الجبين دقيق  
القسمات، ذو عيني صغيرتين جميلتين تلوح فيهما نظرة  
عسليّة حاملة، وأنف صغير دقيق يتسع قليلاً عند  
فتحتيه، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتها ذقن مدبّب،  
وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها  
شامة سوداها عميق نقيّ. وقد بدت وهي تتلفّع  
بخيارها كالتعجّلة. واتجهت صوب باب المشربية  
فتحتته ودخلت، ثم وقفت في قفصها المغلق تردّد  
وجهها يمنة ويسرة ملقية نظراتها من الثقوب المستديرة  
الدقيقة التي تملأ أضلاعها المغلقة إلى الطريق.

كانت المشربية تقع أمام سبيل بين القصرين،  
ويلتقي تحتها شارع النحاسين الذي ينحدر إلى الجنوب

عند منتصف الليل استيقظت، كما اعتادت أن  
تستيقظ في هذا الوقت من كلّ ليلة بلا استعانة من  
منبه أو غيره ولكن بإيحاء من الرغبة التي تبيت عليها  
فتواظب على إيقاظها في دقة وأمانة. وظلّت لحظات  
على شكّ من استيقاظها فاحتلّطت عليها رؤى الأحلام  
وهمسات الإحساس، حتّى بادرها القلق الذي يلمّ بها  
قبل أن تفتح جفنيها من خشية أن يكون النوم خانها  
فهزّت رأسها هزّة خفيفة فتحت عينيها على ظلام  
الحجرة الدامس. لم يكن ثمة علامة تستدلّ بها على  
الوقت، فالطريق تحت حجرتها لا ينام حتّى مطلع  
الفجر، والأصوات المتقطعة التي تترامى إليها أوّل  
الليل من سُمّار المقاهي وأصحاب الحوانيت هي التي  
تترامى عند منتصفه وإلى ما قبل الفجر، فلا دليل  
تطمئنّ إليه إلا إحساسها الباطن - كأنه عقرب ساعة  
واعٍ - وما يشمل البيت من صمت ينمّ عن أنّ بعلمها لم  
يطرق بابه بعد ولم تضرب طرف عصاه على درجات  
سلمه.

هي العادة التي توقظها في هذه الساعة، عادة قديمة  
صاحبت شبابها منذ مطلعها ولا تزال تستأثر بكهولتها،  
تلقّنتها فيما تلقّنت من آداب الحياة الزوجية، أن  
تستيقظ في منتصف الليل لتتظنّ بعلمها حين عودته من  
سهرته فتقوم على خدمته حتّى ينام. وجلست في  
الفرش بلا تردّد لتتغلب على إغراء النوم الدافئ  
وبسّمت ثم انزلت من تحت الخطاء إلى أرض  
الحجرة، ومضت تتلمّس الطريق على هدي عمود  
السريّر وضلفة الشباك حتّى بلغت الباب ففتحتته،  
فانساب إلى الداخل شعاع خافت ينبعث من مصباح  
قائم على الكونصول في الصالة، فدفلت منه وحملته

وحدها في البيت الكبير، وأن الشياطين لا يمكن أن تصل طويلاً عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية، ولعلها أوت إليها قبل أن تحصل هي إلى البيت، بل قبل أن ترى نور الدنيا، فكم دب إلى أذنيها همساتهم! وكم استيقظت على لفحات من أنفاسهم، وما من مغيب إلا أن تتلو الفاتحة والصمديّة أو أن تهرع إلى المشربّة فتمدّ بصرها الزائغ من ثقبها إلى أنوار العربات والمقاهي وترهف السمع لانتقاط ضحكة أو سعلة تستردّ بها أنفاسها.

ثم جاء الأبناء تبعاً ولكنهم كانوا أول عهدهم بالدنيا لحماً طرياً لا يبدد خوفاً ولا يطمئن جانباً، وعلى العكس ضاعف من خوفها بما أثار في نفسها المتهافنة من إشفاق عليهم وجزع أن يمسه سوء، فكانت تحوهم بذراعيها وتغمرهم بأنفاس العطف وتحيطهم في اليقظة والمنام بدرع من السور والأحجية والرقا والتعاويد، أما الطمانينة الحقّة فلم تكن لتذوقها حتى يعود الغائب من سهرته. ولم يكن غريباً وهي منفردة بطفلها تنومه وتلاطفه، أن تضمّه إلى صدرها فجأة ثم تنصّت في وجل وانزعاج ثم يعلو صوتها هائفة وكأنها تخاطب شخصاً حاضراً: «أبعد عتاً، ليس هذا مقامك، نحن قوم مسلمون موحدون» ثم تتلو الصمديّة في عجلة وطموح. وعندما طالت بها معاشرّة الأرواح بتقدّم الزمن تحففت من غاؤها كثيراً واطمأنت لدرجة إلى دعاباتهم التي لم تجرّ عليها سوءاً قط فكانت إذا ترامى إليها حسّ طائف منهم قالت في نبرات لا تخلو من دالة: «ألا تحترم عباد الرحمن!». الله بيننا وبينك فاذهب عتاً مكرّماً. ولكنّها لم تكن تعرف الطمانينة الحقّة حتى يعود الغائب، أجل كان مجرد وجوده بالبيت - صاحباً أو نائماً - كفيلاً ببثّ السلام في نفسها، فتحت الأبواب أم أغلقت، اشتعل المصباح أم خمد. وقد خطر لها مرّة، في العام الأوّل من معاشرته، أن تعلن نوعاً من الاعتراض المؤدّب على سهره المتواصل فما كان منه إلا أن أمسك بأذنيها وقال لها بصوته الجمهوري في لهجة حازمة: «أنا رجل، الأمر الناهي، لا أقبل عل سلوكي آية ملاحظة، وما عليك

وبين القصرين الذي يصعد إلى الشمال، فبدأ الطريق إلى يسارها ضيقاً ملتوياً متلفعاً بظلمة تكثف في أعاليه حيث تطلّ نوافذ البيوت النائمة، وتحفّ في أسافله مما يُلقى إليه من أضواء مصابيح عربات اليد وكلوبات المقاهي وبعض الحوانيت التي تواصل السهر حتى مطلع الفجر، وإلى يمينها التفّ الطريق بالظلام حيث يخلو من المقاهي، وحيث توجد المتاجر الكبيرة التي تغلق أبوابها مبكراً، فلا يلتفت النظر به إلا مآذن قلاوون وبرقوق لاحت كأطياف من المرّة ساهرة تحت ضوء النجوم الزاهرة. منظر ألفته منها العينان ربع قرن من الزمان ولكنّها لم تسأمه، ولعلّها لم تدبّ ما السأم طوال حياتها على رتابتها، وعلى العكس وجدت فيه أنيساً لوحشتها وأليفاً لوحدها عهداً طويلاً عاشته وكأنّه لا أنيس ولا أليف لها.

كان ذلك قبل أن يأتي الأبناء إلى هذا الوجود، فلم يكن يحوي هذا البيت الكبير - بفنائسه التّرب وبشره العميقة وطابقه وحجراته الواسعة العالية الأسقف - سواها، أكثر النهار والليل. وكانت حين زواجها فتاة صغيرة دون الرابعة عشرة من عمرها، فسرعان ما وجدت نفسها، عقب وفاة حماتها وسيدها الكبير ربّة للبيت الكبير، تعاونها على أمره امرأة عجوز تغادرها عند جثوم الليل لتنام في حجرة الفرن بالفناء تاركة إياها وحيدة في دنيا الليل الحافلة بالأرواح والأشباح، تغفو ساعة وتأرق أخرى حتى يعود الزوج العتيد من سهرة طويلة.

ولكي يطمئن قلبها اعتادت أن تطوف بالحجرات مصطحبة خادمتها مائة يدها بالمصباح أمامها فتلقي في أركانها نظرات متفحّصة خائفة ثم تغلقها بإحكام، واحدة بعد أخرى، مبتدئة بالطابق الأوّل مُتّية بالطابق الأعلى، وهي تتلو ما تحفظ من سور القرآن دفْعاً للشياطين، ثم تنتهي إلى حجرتها فتغلق بابها وتندسّ في الفراش ولسانها لا يمكّ عن التلاوة حتى يغلبها النوم، ولشّد ما كانت تخاف الليل في عهدها الأوّل بهذا البيت، فلم يغيب عنها - هي التي عرفت عن عالم الجنّ أضعاف ما تعرفه عن عالم الإنس - أنّها لا تعيش



الذي تحبّه. لهذا الطريق الذي تنام الطرق والحواري والأزقة ويبقى ساهراً حتى مطلع الفجر، فكم سلى أرقها وأنس وحشتها وبدد مخاوفها لا يغير الليل منه إلا أن يغشى ما يحيط به من أحياء بالصمت العميق فيهنّ لأصواته جواً تعلو فيه وتوضح كأنه الظلال التي تملأ أركان اللوحة فتضفي على الصورة عمقاً وجلاء، لهذا ترنّ الضحكة فيه فكأنها تنطلق في حجرها، ويسمع الكلام العاديّ فتميّزه كلمة كلمة، ويمتدّ السعال ويخشوشن فيترامى لها منه حتى خافته التي تشبه الأنين، ويرتفع صوت النادل وهو ينادي: «تعميرة نادية» كهتاف المؤذن فتقول لنفسها في سرور: «الله هؤلاء الناس.. حتى هذه الساعة يطلبون مزيداً من التعميرة»، ثم تذكر بهم زوجها الغائب فتقول: «تُرى أين يكون سيدي الآن؟... وماذا يفعل؟... فلتصحبه السلامة في الحيلّ والترحال». أجل قبل لها مرة إنّ رجلاً كالسيد أحمد عبد الجواد في يساره وقوته وجماله - مع سهره المتواصل - لا يمكن أن تخلو حياته من نساء. يومها تسمت بالغيرة وركبها حزن شديد، ولما لم تواتها شجاعته على مشافهته بما قيل أفضت بحزنها إلى أمها، فجعلت الأم تسكن من خاطرها بما وسعها من حلو الكلام، ثم قالت لها: «لقد تزوّجك بعد أن طلق زوجته الأولى، وكان بوسعك أن يستردها لو شاء، أو أن يتزوّج ثانية وثالثة ورابعة، وقد كان أبوه مزواجاً، فلاحدي ربنا على أنه أبقاك زوجة وحيدة». ولو أنّ حديث أمها لم يُجِد مع حزنها وقت اشتداده إلا أنها مع الأيام سلّمت بما فيه من حقّ ووجاهة، فليكن ما قيل لها حقاً فلعلّه من صفات الرجولة كالسهر والاستبداد، وشرّ على أيّ حال خير من شرو كثيره، وليس من الهين أن تسمح لوسواس بأن يفسد عليها حياتها الطيبة المليئة بالهناء والرجد، ثم لعلّ ما قيل بعد هذا كله أن يكون وهماً أو كذباً. ووجدت أنّ موقفها من الغيرة، شأنها حيال المتاعب التي تعترض سبيل حياتها، لا يعدو التسليم بها كقضاء نافذ لا تملك حياله شيئاً، فلم تهتد إلى وسيلة في مقاومتها إلا أن تنادي الصبر وتستعدي مناعتها

إلا الطاعة، فحاذري أن تدفعيني إلى تأديبك»، فتعلّمت من هذا الدرس وغيره ثماً لحق به أنها تطيق كلّ شيء - حتى معاشرّة العفاريث - إلا أن يحمرّ لها عين الغضب، فعليها الطاعة بلا قيد ولا شرط، وقد أطاعت، وتفانت في الطاعة حتى كرهت أن تلومه على سهره ولو في سرّها، وقر في نفسها أنّ الرجولة الحقّة والاستبداد والسهر إلى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة لجوهر واحد، ثم انقلبت مع الأيام تباهي بما يصدر عنه سواء ما يسرّها أو يحزنها، وظلّت على جميع الأحوال الزوجة المحبّة المطيعة المستسلمة، ولم تأسف يوماً على ما ارتضت لنفسها من السلامة والتسليم، وإنها لتستعيد ذكريات حياتها في أيّ وقت تشاء فلا يطالها إلا الخير والغبطة، على حين تلوح لها المخاوف والأحزان كالأشباح الخاوية فلا تستحقّ إلا ابتسامة رثاء. ألم تعاشر هذا الزوج بعلاته ربع قرن من الزمان فجنت من معاشرته أبناء هم قرة عينها وبيتاً مترعاً بالخير والبركة وحياة ناضجة سعيدة.. بلى، أمّا مخالطة العفاريث فقد مرّت كما تمرّ كلّ ليلة بسلام وما امتدّت يد أحدهم إليها أو إلى أحد من أبنائها بسوء اللّهمّ إلا ما هو بالمزاح والمداعبات أشبه، فلا وجه للشكوى، ولكن الحمد كلّ الحمد لله الذي بكلامه اطمأنّ قلبها وبرحمته استقامت حياتها.

حتى ساعة الانتظار هذه، على ما تقطع عليها من لذيذ المنام وما تستأديها من خدمة كانت خليقة بأن تنتهي بزوال النهار، أحبتها من أعماق قلبها، فضلاً عن أنها استحالت جزءاً لا يتجزأ من حياتها، ومازجت الكثير من ذكرياتها، فإنها كانت ولم تزل الرمز الحيّ لحدها على بعلمها وتفانيها في إسعاده، وإشعاره ليلة بعد أخرى بهذا التفاني وذاك الحذب. لهذا امتلأت ارتياحاً وهي واقفة في المشربّة، وراحت تنقلّ بصرها خلال ثقبها مرة إلى سبيل بين القصرين ومرة إلى منعطف الخرنفش وأخرى إلى بوابة حمام السلطان ورابعة إلى المآذن، أو تسرّح بين البيوت المتكاثرة على جانبي الطريق في غير تناسق كأنها طابور من الجند في وقفة راحة تخفّف فيها من قسوة النظام. وابتسمت للمنظر

هيئته ووقاره، خالغاً مزاحه الذي لولا استراق السمع لظنَّته من مستحيل المستحيلات، ثمَّ سمعت وقع طرف عصاه على درجات السلم فمدَّت يدها بالمصباح من فوق الدرابزين لتنير له سبيله.

## ٢

وانتهى الرجل إلى موقفها فراحَت تتقدَّمه رافعة المصباح، فتبعها وهو يتمتم:  
- مساء الخير يا أمينة.  
فقالَت بصوت خفيض ينمُّ عن الأدب والخضوع:  
- مساء الخير يا سيدي.

وفي ثوانٍ احتوتهما الحجرة، فانجذبت أمينة إلى الخوان لتضع المصباح عليه، في حين علَّق السيدُ عصاه بحافة شبَّاك السرير وخلع الطربوش ووضعَه على الوسادة التي تتوسَّط الكنبه، ثمَّ اقتربت المرأة منه لتتزع عنه ملابسه، وبدا في وقفته طويل القامة عريض المنكبين ضخَم الجسم ذا كرش كبيرة مكتنزة اشتملت عليها جميعاً جبَّة وقفطان في أناقَة وبحيحة دُلَّتْ على رفاهية ذوق وسخاء، ولم يكن شعره الأسود المنبسط من مفرقه على صفحتي رأسه في عناية بالغة، وخاتمُه ذو الفصِّ الماسيِّ الكبير، وساعته الذهبية، إلَّا لتؤكد رفاهة ذوقه وسخاءه. أمَّا وجهه فمستطيل الهيئة مكتنز الأديم قويَّ التعبير واضح الملامح، يدلُّ في جملة على بروز الشخصية والجمال بعينه الزرقاوين الواسعتين، وأنفه الكبير الأشمَّ المتناسق على كبره مع بسطة الوجه، وفمه الواسع بشفتيه المثلثتين، وشاربه الفاحم الغليظ المقتول طرفاه بدقَّة لا مزيد عليها. ولمَّا تدانَت المرأة منه بسط ذراعيه فخلعت الجبَّة عنه وأطبقتها بعناية ثمَّ وضعتها على الكنبه، وعادت إليه ففكَّت حزام القفطان ونزعته وجعلت تدرِّجه بالعناية نفسها لتضعه فوق الجبَّة، على حين تناول السيدُ جلبابه فارزاه ثمَّ طاقِيته البيضاء فلبسها، وتمسَّطى وهو يتشأب وجلس على الكنبه ومدَّ ساقيه مسندًا قَدَّاله إلى الحائط. وانتهت المرأة من ترتيب ملابسه فقعدت عند قدميه

الشخصية، ملاذها الأوحَد في مغالبة ما تكرهه، فانقلبت الغيرة وأسبابها، كطباع زوجها الأخرى وكمعاشرة العفاريت، ممَّا تحتمل.

جعلت تنظر إلى الطريق وتنصت إلى السُّمَّار حتَّى ترامى إليها وقع سنابك جواد فعطفت رأسها صوب النحاسين فرأت (حنطورًا) يقترب وثيدًا ومصباحاه يسطعان في الظلام، فتهدَّت في ارتياح وغمغمت «أخيرًا...». ها هو «حنطور» أحد أصدقائه يوصله بعد السهرة إلى باب البيت الكبير ثمَّ يمضي كالعادة إلى الخرنفش حاملًا صاحبه ونفراً من الأصدقاء الذين يقطنون هذا الحيِّ، ووقف «الحنطور» أمام البيت، وارتفع صوت زوجها وهو يقول في نبرات ضاحكة:  
- أستودعكم الله...

وكانت تنصت إلى صوت زوجها وهو يودِّع أصحابه بشغف ودهشة، ولولا أنَّها تسمعه كلَّ ليلة في مثل هذه الساعة لأنكرته، فما عهدت منه - هي وأبناؤها - إلَّا الحزم والوقار والتزمَّت، فمن أين له بهذه النبرات الطروبة الضحكة التي تسيل بشاشة ورقة؟! وكأنَّ صاحب «الحنطور» أراد أن يمازحه فقال له:

- أما سمعت ماذا قال الجواد لنفسه بعد نزولك من العربية؟ قال إنَّه من المؤسف أن أوصل هذا الرجل كلَّ ليلة إلى بيته وهو لا يستحقُّ أن يركب إلَّا حمارًا... وانفجر الرجال بالعربية ضاحكين فانتظر السيدُ حتَّى عادوا إلى السكون ثمَّ قال يمجبه:

- أما سمعت بماذا أجابته نفسه؟ قالت إذا لم توصله أنت فسيركب البك صاحبنا... وضعَّ الرجال ضاحكين مرَّة أخرى. ثمَّ قال صاحب العربة:

- فلنؤجِّل الباقي إل سهرة الغد...

وتحرَّكت العربة إلى شارع بين القصرين وانجبه السيدُ نحو الباب فغادرت المرأة المشريَّة إلى الحجرة، وتناولت المصباح ومضت إلى الصالة، ومنها إلى الدهليز الخارجيّ حتَّى وقفت في رأس السلم، وترامت إليها صفقة الباب الخارجيّ وهو يغلق، وانزلاق المزلاج، وتخيَّلتَه وهو يقطع الفناء بقامته المديدة مستردًّا

الساعة إقبالاً منه في الحديث وتبسّطاً في فنونه قلّ أن تظهر بمثله في أوقات إفاقة الكاملة. وإنّها لتذكر كم ارتعت يوم أدركت أنّه يعود من سهرته ثملاً، واستدعت الخمر إلى ذهنها ما يقترن بها من وحشية وجنون ومخالفة الدين وهي الأفظع، فتقرّزت نفسها وركبها الذعر وعانت لدى عودته كلّها عاد ألاماً لا يقبل لها بها. ويمضي الأيام والليالي ثبت لها أنّه حين عودته من سهرته يكون الطف منه في جميع الأوقات، فيخفف من صرامته، وترقّ ملاحظته، ويسترسل في الحديث، فاستأنست إليه واطمأنت وإن لم تنس أن تضرع إلى الله أن يغفر له معصيته ويتوب عليه. ولكم تمتّ لو يتطّيع بنفس اللين النسبي وهو صالح متبته، وكم عجبت لهذه المعصية التي ترقق حواشيه، وتحيرت طويلاً بين ما تحبّ نحوها من كراهية دينية موروثة وبين ما تحبّ منها من راحة وسلام، ولكنّها دفنت أفكارها في أعماق نفسها، ودارتها مداراة من لا يطيق أن يعترف بها ولو فيها بينه وبين نفسه. أمّا السيّد فكان أحرص ما يكون على وقاره وحزمه، وما يصدر عنه من لطف فخلسة يصدر، وربّما جرت على شفّته ابتسامة عريضة - في جلسته هذه - لذكرى طافت به من ذكريات سهرته السعيدة فسرعان ما يتبته إلى نفسه، ويطبّق شفّته، ويسترق إلى زوجه نظرة فيجدها كعادتها بين يديه خافضة العينين، فيطمئن ويعود إلى ذكرياته. والحق أنّ سهرته لم تكن تنتهي بعودته إلى بيته، ولكنّها تواصل حياتها في ذكرياته، وفي قلبه الذي يجذبها إليه بقوة نهم إلى مسرّات الحياة لا يروى، وكأنّه لا يزال يرى مجلس الأنس تزينة النخبة المختارة من أصدقائه وأصفيائه، ويتوسّطه بدر من البدور التي تطلع في ساء حياته حيناً من بعد حين، وما برحت تطلّع في أذنيه الدعايات واللطفات والنكات التي تجود قريحته بدورها إذا هزّ السكر والطرب، وهذه الملح خاصّة يراجعها في عناية واهتمام ينضحان بالمعجب والزهو، ويتذكّر أثرها في النفوس وما لاقت من نجاح وابتهاج جعلاه الحبيب الأوّل لكلّ نفس، ولا عجب فإنّه كثيراً ما يشعر بأنّ الدور الذي يلعبه في سهرته من

الممدودتين وراحت تخلع حذاءه وجوريه، ولمّا كشف قدمه اليمنى بدا أوّل عيب في هذا الجسم الهائل الجميل في خنصره الذي تآكل من توالي الكشط بالموسى في موضع كاللؤلؤ مزمن. وغادرت أمينة الحجرة فغابت دقائق ثمّ عادت بطست وإبريق، فوضعت الطست عند قدمي الرجل ووقفت والإبريق في يدها على أهبة الاستعداد، فاستوى السيّد في جلسته ومدّ لها يديه - فصبّت له الماء فغسل وجهه ومسح على رأسه وتمضمض طويلاً، ثمّ تناول المنشفة من فوق مسند الكنبه ومضى يحقّف رأسه ووجهه ويديه بينها حملت المرأة الطست وذهبت به إلى الحمام. كانت هذه الخدمة آخر ما تؤدّي من خدمات في البيت الكبير، وقد واطبت عليها ربع قرن من الزمان بهمة لا يعترها الكلال، بل في سرور وانسراح، وبنفس الحماس الذي يستفرّجها إلى النهوض بواجبات البيت الأخرى من قبيل مطلع الشمس حتّى مغيبها، فاستحققت من أجله أن يطلق عليها جاراتها اسم «النحلة» لدأبها ونشاطها المتواصلين.

وعادت إلى الحجرة فأغلقت الباب وسحبت من تحت السرير شلّة فوضعتها أمام الكنبه وتربّعت عليها إذ لم تكن ترى لنفسها الحقّ في أن تجلس إلى جانبه تأدّباً. ومضى الوقت وهي ملازمة الصمت حتّى يدعوها إلى الكلام فتتكلم، وتراخي ظهر السيّد إلى مسند الكنبه، وبدأ عقب سهرته الطويلة متعباً فتقلّ جفناه اللذان جرى في أطرافهما احمرار طارئ من أثر الشرب، وجعل يزفر أنفاساً ثقيلة مغمورة. ومع أنّه كان يعاقر الخمر كلّ ليلة، إلى إفراط في الشرب حتّى السكر، إلّا أنّه لم يكن ليقرّر العودة إلى بيته حتّى تزايله سورة الخمر ويستعيد سيطرته على نفسه حرصاً منه على وقاره والمظهر الذي يجب أن يبدو به في بيته. وكانت زوجه الشخص الوحيد من آل بيته الذي يلقاه في أعقاب سهرته، ولكنّها لم تلمس من آثار الشرب إلّا رائحته، ولم تلاحظ على سلوكه شذوذاً مريباً، إلّا ما كان يبدو منه أوّل عهده بزواجها وقد تناسته، وعلى العكس من المنتظر جنت من مصاحبته في هذه

تهيمه في أعقابها لأسلوب طيب من الحياة هو الذي تتلهم عليه زوجه المطيعة المستسلمة حين تجد نفسها بين يدي رجل حلو المعشر يتبسط معها في الحديث ويفضي إليها بما في طويته على نحو يشعرها ولو إلى حين بأنها ليست جارية فحسب ولكنها شريكة حياته أيضًا. وهكذا راح يحدثها عن شئون البيت فأنبأها بأنه أوصى بعض التجار من معارفه على شراء خزين البيت من السمن والقمح والجنون، وجعل يحمل على ارتفاع الأسعار واختفاء المواد الضرورية بسبب هذه الحرب التي تطحن العالم منذ ثلاثة أعوام، وكعادته كلما ذكر الحرب اندفع يلعن الجنود الأستراليين الذين ينتشرون في المدينة كالجراد ويعيثون في الأرض الفساد. والحق أنه كان يحق على الأستراليين لسبب خاص به وهو أنهم بجبروتهم حالوا بينه وبين مجالي اللهو والطرب في الأزيكية فارتد عنها مغلوبًا على أمره - إلا في القليل النادر من مختلس الفرص - لأنه لم يكن يسعه أن يعرض نفسه للجنود الذين يسلبون الناس متاعهم جهازًا ويتسلون بصب ألوان الاعتداء والإهانة عليهم بغير رادع. ثم مضى يسأل عن حال «الأولاد» كما يدعوههم بلا تفرقة بين كبيرهم الكاتب بمدرسة النحاسين وصغيرهم التلميذ بمدرسة خليل آغا ثم تساءل بلهجة ذات معنى:

- وكمال؟! إياك وأن تستري على شيطنته!

فذكرت المرأة ابنها الصغير الذي تستر عليه حقًا فيها لا خطر له من اللعب البريء، وإن كان السيد لا يعترف ببراءة أي لون من ألوان اللعب واللهو، وقالت بصوتها الخاشع:

- إنه يلتزم أوامر أبيه.

وصمت السيد قليلًا فبدأ كالشارد، وعاد يقطف من ذكريات ليلته السعيدة، ثم تراجع مؤثر ذاكرته إلى ما سبق سهرته من أحداث يومه فذكر فجأة أنه كان يومًا حافلًا، ولما كان في حال لا يستحب معها كتمان شيء مما يطفو على سطح الوعي فقد قال وكأنه يخاطب نفسه:

- يا له من رجل كريم الأمير كمال الدين حسين!

الخطورة كأنه أمل الحياة المنشودة، وكأن حياته العملية بجملتها ضرورة يؤديها في سبيل الفوز بساعات مترعة بالشراب والضحك والغناء والعشق يقضيها بين صحبه وخلصائه، وبين هذا وذاك تسجع في باطنه أنغام حلوة لطيفة مما تردّد في المجلس السعيد فذهب معها وجاء وهتف وراءها من أعماق قلبه: «آه... الله أكبر»، هذا الغناء الذي يحبه ما يحب الشراب والضحك والصحاب والبدور، فلا يطيق أن يخلو منه مجلسه، ولا يابه للشقة البعيدة يقطعها إلى أطراف القاهرة لسمع الحامولي أو عثمان أو الملياوي حيثما تكون مغانيهم، حتى آوت أنغامهم إلى نفسه السخية ما تأوي البلباب إلى شجرة مورقة، فالتسب دراية بالنغم والمذاهب وتوجّح حجة في السمع والطرب، وكان يحب الغناء بروحه وجسمه، أما روحه فتطرب وتغمرها الأريحية، وأما جسمه فتهتاج حواسه وترقص أطرافه خاصة الرأس واليدان، ولهذا احتفظت نفسه لبعض المقاطع الغنائية بذكريات روحية وجسدية لا تنسى، مثل: «وليه بقى تلاويك وهجر» أو «يا ما بكره نعرف». وبعده نشوف» أو «اسمع بقى وتعالى ليا أقول لك» وكان حسبه أن تهفو إليه نغمة من هذه النغمات معانقة حواشيها من الذكريات كي تهيج موطن السكر من نفسه فيهر رأسه طربًا وترتفع على شفثيه ابتسامه أشواق ويفرقع بأصابعه وقد يشدو مترنمًا إذا كان إلى نفسه خاليًا، ومع هذا فلم يكن الغناء هو منفردًا يجذبه لذاته فحسب، ولكنه كان زهرة في طاقة يجلو بها ويحلو به ومرحبًا بين الصديق الصافي والحبيب الوفي والشراب المعتق والملحة العذبة، أما أن يصفو له وحده - كما يلتقي في البيوت عن الفونوغراف - فهو جميل حبيب بلا شك، ولكنه غاب عن جوّه وبيئته وملابساته، وهيهات أن يقنع به القلب، إنه يتوق إلى أن يفصل بين النغمة والنغمة بنكتة تهتز لها النفوس، وأن يسابق التردد بالهبل من كأس مترعة، ويرى أثر التطريب في وجه الصديق وعين الحبيب، ثم يتعاونون جميعًا على التهليل والتكبير. بيد أن السهرة لم يقتصر أثرها على بعث الذكريات، فمن مزاياها أيضًا أنها

سمعت السيد وهو يتجشأ فتمتعت:  
- صيحة وعافية...

### ٣

وفي هدوء الصباح الباكر، وذبول الفجر لا تزال ناشبة في أسهم الضياء، تعالى صوت العجين من حجرة الفرن بالفناء في ضربات متتابعة كدويّ الطبل، وكانت أمينة قد غادرت الفراش قبل هذا بنحو نصف ساعة. فتوضأت وصلّت ثم نزلت إلى حجرة الفرن فأيقظت أم حنفي - امرأة في الأربعين خدمت وهي صبيّة بالبيت وفارقت للزواج ثم عادت إليه بعد طلاق - وبينما نهضت الخادم لتعجن عكفت أمينة على إعداد الفطور. وكان للبيت فناء متسع، في أقصاه إلى اليمين بئر سلّت فوّهتها بعارض خشبيّ مذبت أقدام الصغار على الأرض وما تبع هذا من إدخال مواسير المياه، وفي أقصى اليسار على كنب من مدخل الحريم حجرتان كبيرتان أقيمت الفرن في إحداها واستعملت بالتالي مطبخاً، وأعدت الأخرى مخزناً. وكان لحجرة الفرن عل عزلتها علاقة بقلبها لا تبين، فلو حسب الزمن الذي قضته بين جدرانها لكان عمراً، إلى ما تتزيّن به الحجرة من مباحج المواسم عند حلولها حين تتطلع إليها القلوب الهاشّة لأفراح الحياة، وتتحبّب الأفواه لألوان الطعام الشهية التي تقدّمها موسماً بعد موسم كخشاف رمضان وقطائفه، وكعك عيد الفطر وفطائره، وخروف عيد الأضحى الذي يسمّن ويدلّل ثم يذبح على مشهد من الأبناء فلا يعدم دمعة رشاء وسط بهجة شاملة، هنالك تبدو عين الفرن المقوسة يلوح في أعماقها وهج النار كجدوة السرور المشتعلة في السرائر وكأنتها زينة العيد وبشائره. وإذا كانت أمينة تشعر بأنّها في أعلى البيت سيّدة بالنيابة وممثّلة لسلطان لا تملك منه شيئاً، فهي في هذا المكان ملكة لا شريك لها في ملكها، فهذه الفرن تموت وتحيا بأمرها، وهذا الوقود من فحم وحطب في الركن الأيمن يتوقّف مصيره على كلمة منها، والكانون الذي يحتلّ الركن المقابل تحت رفوف الحلل والأطباق والصينية النحاسية ينام أو

أما علمت بما فعل؟.. أبي أن يعتلي عرش أبيه المتوقّى في ظلّ الإنجليز.

ومع أنّ المرأة علمت بوفاة السلطان حسين كامل أمس إلا أنّها كانت تسمع اسم ابنه لأول مرة، ولم تجد ما تقول ولكتّها - مدفوعة بعواطف الإجلال للمتكلم - كانت تخاف ألاّ تعلق على كلّ كلمة يقولها بما يرضيه فقالت:

- رحم الله السلطان وأكرم ابنه.

فاستطرد السيد قائلاً:

- وقبل العرش الأمير أحمد فؤاد أو السلطان أحمد فؤاد كما سيدعى من الآن فصاعداً، وقد تمّ الاحتفال بتوليته اليوم فانتقل في موكبه من قصر البستان إلى سراي عابدين... وسبحان من له الدوام.

وأصغت أمينة إليه باهتمام وسرور، اهتمام يستثيره في نفسها أيّ نبأ يجيء من العالم الخارجي الذي تكاد لا تعرف عنه شيئاً، وسرور يبعثه ما تجد في حديث بعلمها معها عن هذه الشؤون الخطيرة من لفطة عطف تزدهيها، إلى ما في الحدث نفسه من ثقافة يلذّ لها أن تعيدها على مسمع من أبنائها وخاصة فتاتيهما اللتين تجهلان مثلها العالم الخارجي جهلاً تاماً، ولم تجد لتجزيه عن كريم عطفه خيراً من أن تردّد على مسمعيه دعاء تعلم مقدّماً بمقدار ارتياحه إليه كما ترتاح إليه هي من أعماقها فقالت:

- ربّنا قادر على أن يعيد إلينا أفندينا عباس.

فهزّ الرجل رأسه وتمتم قائلاً:

- متى؟.. متى؟.. علم هذا عند ربّي... ما نقرأ في الجرائد إلّا عن انتصارات الإنجليز، فهل ينتصرون حقّاً أو ينتصر الألمان والترك في النهاية؟ اللهم استجب..

وأغمض الرجل عينيه إعياء، وتشاءب، ثم تمطّى وهو يقول:

- أخرجني المصباح إلى الصلاة.

ونهضت المرأة قائمة وذهبت إلى الخوان فتناولت المصباح ومضت إلى الباب، وقبل أن تجوز العتبة

استيقاظه أسوأ أوقات يومه جميعاً، يغادر الفراش مترنحاً من الإعياء والدوار، ويستقبل حياة عاطلة من حلول الذكريات ولطيف المشاعر وكأنها تستحيل دقاً في الدماغ والجفون.

وتوالت دقات العجين على رؤوس النائمين بالدور الأول فاستيقظ فهمي، وكان استيقاظه يسيراً على رغم سهره عاكفاً على كتب القانون، فإذا استيقظ فأول إحساس يبادره صورة وجه مستدير تتوسط صفحته العاجية عينان سوداوان فيهمس باطنه قائلاً: «مريم»، ولو أذعن لسلطان الإغراء للبت تحت الغطاء طويلاً، خالياً إلى الخيال الزائر الذي جاء يصحبه بالطف الهوى، فيرنو إليه ما دعاه الشوق ويبدله الحديث ويبوح له بأسرار وأسرار، ويتدانى إليه بجساره لا تتأق في غير هذا الرقاد الدافئ في مطلع الصباح، ولكنّه كعادته أجّل نجواه إلى صباح الجمعة وجلس في فراشه، ثمّ مدّ بصره إلى أخيه النائم في الفراش الذي يليه وهتف:

- ياسين... ياسين... أضح.

انقطع شخير الشاب، ونفخ فيما يشبه الضيق وتمتم من أنفه:

- صاح... استيقظت قبلك.

فانتظر فهمي مبتسماً حتى عاود الآخر شخيره فصاح به:

- أضح...

فتقلّب ياسين في فراشه متدماً فأنحسر الغطاء عن جانب من جسمه الذي يضاهي جسم والده ضخامة وبدانة، ثمّ فتح عينين محمّرتين تلوح فيهما نظرة غائبة ارتسمت فوقها تقطية تنطق بالتدّم: «أف... كيف طلع الصباح بهذه السرعة!... لماذا لا ننام حتى نشبع... النظام... دائماً النظام... كأننا عساكر»، ونهض معتمداً على يديه وركبتيه وهو يحرك رأسه لينفض عنه النعاس فلاحت منه التفاتة إلى الفراش الثالث حيث يغطّ كمال في نومه الذي لن ينترعه منه أحد قبل نصف ساعة فغبطه عليه «يا له من غلام سعيداً». ولمّا أفاق قليلاً ترتّب على الفراش وأسند

يزغرد بالسنة الذهب بإشارة منها. وهي هنا الأم والزوجة والأستاذة والفنانة التي يترقب الجميع والثقة ملء قلوبهم ما تقدّم يداها، وآية ذلك أنها لا تفوز بإطراء سيدها إذا تفضّل بإطرائها إلاّ عن لون من الطعام أحكمت صنعه وطهيه، وأمّ حنفي كانت اليد اليمنى في هذه المملكة الصغيرة، سواء تصدّت للإدارة والعمل أم تخلّت عن مكانها لإحدى فئاتها لتتمرّس بفنّها تحت إشرافها، وهي امرأة بدينة في غير تنسيق ولا تفصيل، نما لحمها نمواً سخياً فراعى في غمّ السمنة فحسب وأهمل اعتبارات الجمال، بيدّ أنها رضيت عنه كلّ الرضا لأنها كانت تعدّ السمنة في ذاتها الجمال كلّ الجمال، ولا عجب فقد كان كلّ عمل لها في البيت يكاد يعدّ ثانوياً بالقياس إلى واجبها الأول وهو تسمين الأسرة - أو بالأحرى إنائها - بما تعدّ لها من «بلاييع» سحرية هي رُقيّة الجمال وسره المكنون، ومع أنّ أثر البلاييع لم يكن ناجحاً دائماً إلاّ أنّه يرهّن على جدارته في أكثر من مرة فاستحقّ ما يناط به من آمال وأحلام. فليس عجيباً بعد هذا أن تسمن أمّ حنفي، على أنّ سميتها لم تقلّ من نشاطها، فما إن أيقظتها سيّدتها حتى نهضت بنفس متفتّحة للعمل، وخفّت إلى «ماجور» العجين. وتعالى صوت العجين الذي يؤدّي وظيفة جرس المنبه في هذا البيت، فترامى إلى الأبناء في الدور الأول، ثمّ تصاعد إلى الأب في الدور الأعلى، منذراً الجميع بأنّ وقت الاستيقاظ قد آرف. وتقلّب السيد أحمد عبد الجواد على جنبه ثمّ فتح عينيه، وسرعان ما فُطّب حانقاً على الصوت الذي أزعج منامه، ولكنّه كظم حنقه لأنّه كان يعلم أنّه يجب أن يستيقظ، وتلقّى أول إحساس يتلقّاه عادة عقب استيقاظه وهو ثقل الرأس فقاومه بقوة إرادته وجلس في فراشه وإن كانت تغلبه الرغبة في معاودة النوم. ولم تكن لياليه الصاخبة لتسليه واجب النهار. فهو يستيقظ في هذه الساعة الباكرة مهما تأخّر به وقت النوم حتى يتسنى له الذهاب إلى متجره قبيل الثامنة، ثمّ له في القيلولة فسحة من وقت يعتاض بها عمّا فاتته من نوم، ويستعيد نشاطه للسهرة الجديدة. لهذا كان وقت

رأسه إلى يديه، ورغب في معاينة الخواطر اللذيذة التي تحملوها أحلام اليقظة ولكنّه كان يستيقظ - كأيّيه - على حال من ثقل الرأس تتعطل معها الأحلام، ولاحت لمخيلته زنوبة العوادة فلم تترك في حساسيته أثراً ممّا ترك في صحوه وإن افترت شفتاه عن ابتسامة.

وفي الحجرة المجاورة كانت خديجة قد غادرت الفراش دون حاجة إلى منبه العجيين. كانت أشبه الأسرة بأمّها في نشاطها ويقظتها، أمّا عائشة فتستيقظ عادة على الحركة التي كانت تبعث في السرير من نبوض شقيقتها وانزلاقها إلى أرض الحجرة في عنف متعمّد يجرّ وراءه جدلاً وملاحاة انقلبا مع التكرار نوعاً من الدعابة الفظّة، فإذا استيقظت وفزعت من النقار لم تهض، ولكنّها تستسلم لحلم طويل من أحلام اليقظة السعيدة قبل أن تغادر فراشها.

ثمّ دبّت الحياة فشملت الدور الأوّل كلّهُ، فُتحت النوافذ وتدفّق النور إلى الداخل وعلى أثره هفا الهواء حاملاً صلصلة عجلات سوارس وأصوات العتال ونداء بائع البلبلة، وتواصلت الحركة ما بين غرفتي النوم والحمام وبدا ياسين في جلبابه الفضفاض بلحمه المتكتّل، وفهمي بطوله الفارع وقبّله النحيف وكان - فيما عدا نحافته - صورة من أبيه. وهبطت الفتاتان إلى الفناء لتلحقا بأمّهما في حجرة الفرن، وكان في صورتيهما اختلاف قلّ أن يوجد مثله في الأسرة الواحدة، خديجة سمراء وفي قسماّت وجهها تنافر ملحوظ، وعائشة شقراء تشعّ هالة من حسن ورواء.

مع أنّ السيّد أحمد كان في الدور الأعلى بمفرده إلّا أنّ أمانة لم تدعه في حاجة إلى إنسان. وجد على الخوان طبق فنجان مملوءاً حلبة ليغيّر ريقه عليها، وذهب إلى الحمام فتطاير إلى أنفه عرف البخور الطيّب، وألقى على الكرسيّ ثياباً نظيفة مرتّبة في عناية، فاستحمّ بالماء البارد كعادته كلّ صباح - عادة لا ينقطع عنها صيفاً أو شتاء - ثمّ عاد إلى حجّره مستجداً حيويّة ونشاطاً، ثمّ جاء بسجادة الصلاة - وكانت مطويّة على مسند الكنبه - فسطها وأدّى فريضة الصبح، صلّى بوجه خاشع، وهو غير الوجه البسام المشرق الذي يلقي به

أصحابه، وغير الوجه الخازم الصارم الذي يواجه به آل بيته، لهذا وجه خافض الجناح تقطر التقوى والحبّ والرجاء من قسماّت المتراخية التي ألانها التزلّف والتودّد والاستغفار. لم يكن يصليّ صلاة آليّة قوامها التلاوة والقيام والسجود، ولكن صلاة عاطفة وشعور وإحساس يؤدّيها بنفس الحساس الذي ينفضه على ألوان الحياة التي يتقلّب فيها جيئاً، كما يعمل فيتنافى في عمله، ويصادق فيفرط في مودّته، ويعشق فيذوب في عشقه، ويسكر فيغرق في سكره، مخلصاً صادقاً في كلّ حال. وهكذا كانت الفريضة حجّةً روحيةً يطوف فيها برحاب المولى، حتّى إذا انفتل من صلاته ترتّع وبسط راحتيه وراح يدعو الله أن يكأله برعايته ويغفر له ويبارك في ذرّيته وتجارته.

وفرغت الأمّ من تجهيز الفطور فتركت للفتاتين إعداد الصبيّنة وطلعت إلى حجرة الإخوة حيث وجدت كماًلاً ما زال يغطّ في نومه، فأقبلت عليه باسمه وحطّت راحتها على جبينه وتلت الفاتحة، وجعلت تناديه وتهزّه برفق حتّى فتح عينيه، ولم تدعه حتّى فارق الفراش. ودخل فهمي الحجرة فلمّا رآها ابتسم إليها وحياها تحيّة الصباح فردّت عليه قائلة ونظرة الحبّ تترقق في عينها:

- صباح النور يا نور العين.

وبنفس الرقة صبّحت على ياسين «ابن» زوجها فردّ عليها بمودة خليقة بالمرأة التي تنزل من نفسه منزلة الأمّ الجديرة بهذا الاسم. وليّما عادت خديجة من حجرة الفرن تلقّاها فهمي وياسين - وياسين خاصّة - بما يغمرانها به عادة من دعابة. وكانت مثار دعابة سواء بصورتها المتنافرة أو بلسانها الحادّ رغم ما لها من نفوذ على الأخوين بما تتعمّد من شؤونها بمهارة فائقة يندر أن تجود بمثلها عائشة التي تلوح وسط الأسرة كالرمز الجميل رواء وجاذبيّة وعدم فائدة. وبأدائها ياسين قائلاً:

- كنّا نتحدّث عنك يا خديجة، وكنا نقول إنّه لو كان النساء جميعاً على شاكلتك لارتاح الرجال من متاعب القلوب.

فقال على البداة:

- ولو كان الرجال على شاكلتك لارتاحوا جميعًا من متاعب الرءوس...

عند ذلك هتفت الأم قائلة:

- أعدّ الفطور يا سادة.

#### ٤

كانت حجرة الطعام بالدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم الوالدين، وكان بنفس الدور غير هاتين الحجرتين أخرى للجلوس وأربع خالية إلا من بعض أدوات اللعب التي يلهو بها كمال في أوقات فراغه. وكان السباط قد أعدّ وصُفّت حوله الشلّة، ثمّ جاء السيّد فتصدّر متربّعًا، ودخل الإخوة الثلاثة تباغًا فجلس ياسين إلى يمين أبيه، وفهمي إلى يساره، وكمال قبائلته. جلس الإخوة في أدب وخشوع، خافضي الرءوس كأنهم في صلاة جامعة، يستوي في هذا كاتب مدرسة النحاسين وطالب مدرسة الحقوق وتلميذ خليل آغا. فلم يكن أحد منهم ليجترئ على التحديق في وجه أبيه. وأكثر من هذا كانوا يتجنبون في محضره تبادل النظر أن يغلب أحدهم الابتسام لسبب أو لآخر فيعرض نفسه لزرّة خفيفة لا يَئِيلُ له بها. ولم يكن يجمعهم بأبيهم إلا مجلس الفطور لأنهم يعودون إلى البيت عصرًا بعد أن يكون السيّد قد غادره إلى دكانه عقب تناول الغذاء والقبلولة، ثمّ لا يعود إليه إلا بعد منتصف الليل، وكانت الجلسة على قصر مدّتها شديدة الوطأة على نفوسهم بما يلتزمون فيها من أدب عسكري إلى ما يركبهم من رهبة تضاعف من حساسيتهم وتجعلهم عرضة للهفوات بطول تفكيرهم في تحاميلها، فضلًا عن أنّ الفطور نفسه يتمّ في جوّ يفسد عليهم تذوّقه واستلذذه، ولم يكن غريبًا أن يقطع السيّد الفترة القصيرة التي تسبق مجيء الأم بصنيّة الطعام في تفحص أبنائه بعين ناقدة حتّى إذا عثر على خلل ولو تافه في هيئة أحدهم أو بقعة في ثوبه انهال عليه نهرًا وتأنّيبًا، وربّما سأل كمال بغلظة: «غسلت يديك؟» فإذا أجابه بالإيجاب قال له أمرا: «أرنيهما» فيسقط الغلام

كفّيه وهو يزدرد ريقه فرّقًا، وبدلًا من أن يشجّه على نظافته يقول له مهدّدًا: «إذا نسيت مرّة أن تغسلهما قبل الأكل قطعتهما وأرحتك منها». أو يسأل فهمي قائلاً: «أبذاكر ابن الكلب دروسه أم لا؟» ويعرف فهمي بالبداة من يعني لأنّ «ابن الكلب» عند السيّد كناية عن كمال فيجيب بأنّه يحفظ دروسه جيّدًا. والحقّ أنّ شطارة الغلام - التي استوجب عليها حقّ أبيه - لم تقعد به عند الجدّ والاجتهاد كما يدلّ عليها نجاحه وتفوّقه، ولكنّ السيّد كان يطالب أبنائه بالطاعة العمياء الأمر الذي لا يطيقه غلام اللعب أحبّ إليه من الطعام، ولهذا يعلّق على إجابة فهمي قائلاً بامتناع: «الأدب مفضّل على العلم»، ثمّ يلتفت إلى كمال ويستطرد بحذّة: «سامع يا بن الكلب!». وجاءت الأمّ حاملة صنيّة الطعام الكبيرة فوضعتها فوق السباط وتقهقرت إلى جدار الحجرة على كتب من خوان وضعت عليه «قلّة»، ووقفت متأهبة لتلبية أيّة إشارة. وكان يتوسّط الصنيّة النحاسيّة اللامعة طبق كبير بيضاويّ امتلأ بالمدّس المقلّي بالسمن والبيض، وفي أحد طرفيها تراكت الأروغفة الساخنة، وفي الطرف الآخر صُفّت أطباق صغيرة بالجبن، والليمون والفلفل المخلّلين، والشّلّة والملح والفلفل الأسود، فهاجت بطون الإخوة بشهوة الطعام، ولكنهم حافظوا على جودهم متجاهلين المنظر البهيج الذي أنزل عليهم كأنّه لم يحرك فيهم ساكنًا، حتّى مدّ السيّد يده إلى رغيف فتناوله ثمّ شطّره وهو يتمتم: «كلوا»، فامتدّت الأيدي إلى الأروغفة في ترتيب يتبع السنّ، ياسين ففهمي ثمّ كمال وأقبلوا على الطعام ملتزمين أدهم وحياءهم. ومع أنّ السيّد كان يلتهم طعامه في وفرة وعجلة وكان فكّجه شطرا آلة قاطعة تعمل في سرعة وبلا توقّف، ومع أنّه كان يجمع في لقمة كبيرة واحدة من شتى الألوان المقدّمة - الفول والبيض والجبن والفلفل والليمون المخلّلين - ثمّ يأخذ في طحنها بقوّة وسرعة وأصابه ثَمَدُ اللقمة التالية، إلا أنّهم كانوا يأكلون متمهلّين في أناة بالرغم ممّا يحملهم تمهلهم من صبر لا يتفق وطبيعتهم الحامية، فلم يكن ليغيب عن



الخفيفة بل والعادية «لعباً» و«تضييع وقت» لا يجملان بمثله. وقد وُصف له الحشيش كفاتح للشهية - إلى فوائده الأخرى - فجرّبه ولكنه لم يألفه وانصرف عنه غير آسف وقد ساء به ظنه لما يورث من ذهول وقور مشبع بالهدوء مَيّال للصمت مشعر بالانفراد ولو بين الصفوة من الأصدقاء، ففر من أعراضه تلك التي تتجافى مع سجيته المولعة بصبوات المرح ونشوات الهياج ولذات الاندماج في النفوس ووثبات المزاج والقهقهة، ولكيلا يفقد مزياه الضرورية لفحول العشاق اعتاض عنه بنوع نفيس من المنزول اشتهر به عمّد العجمي بائع الكسكي عند مطلع الصالحية بالصاغة، وكان يعدّه خاصّة لصفوة زبائنه من التجار والأعيان، ولم يكن السيّد من مدمني المنزول ولكنه كان يلمّ به بين حين وآخر كلياً استقبل هوّى جديداً خاصّة إذا كانت المعشوقة امرأة خبيرة بالرجال وأحوالهم. فرغ السيّد من حسو قهوته ثمّ نهض إلى المرأة وراح يرتدي ملابس التي قدّمتها إليه أمينة قطعة قطعة، وألقى على صورة هندامه نظرة متفحّصة، ومسّط شعره الأسود المرسل على صفحتي رأسه، ثمّ سوّى شاربه وفنله، وتفرّس في هيئة وجهه ثمّ عطفه رويداً إلى اليمين ليرى جانبه الأيسر، ثمّ إلى اليسار ليرى جانبه الأيمن، حتّى إذا ارتاح إلى منظره مدّ يده إلى زوجه فناولته زجاجة الكولونيا التي عبّأها له عمّ حسنين الحلاق فغسل يديه ووجهه ونضح صدر ققطانه ومنديله، ثمّ وضع الطربوش على رأسه وأخذ عصاه وغادر الحجرة ناشراً بين يديه ومن خلفه عرفاً طيّباً. ذلك العرف المقطر من شقّ الأزهار يعرفه أهل البيت جميعاً، وإذا تنشّقه أحدهم تمثّل لعينيه السيّد بوجهه الوقور الحازم، فينبعث في قلبه - مع الحبّ - الإجلال والخوف. إلّا أنّ انتشاره في هذه الساعة من الصباح كان إيذاناً بذهاب السيّد، فالنفوس تتلقّاه بارتياح غير منكور على براءته، كارتياح الأسير إلى صليل السلاسل وهي تنفكّ عن يديه وقدميه، ويعلم كلّ أنّه سيستردّ حرّيته عمّا قليل في الكلام والضحك والغناء والحركة دون ثمة خطر. كان ياسين وفهمي قد فرغا من ارتداء ملابسهما، أمّا

أحدهم ما قد يتعرّض له من ملاحظة شديدة أو نظرة قاسية إذا تهاون أو ضعف فنسي نفسه وغفل بالتالي عمّا يأخذها به من الثأني والأدب. وكان كمال أشدهم تبرّماً لأنّه كان أعظمهم تخوّفاً من أبيه، وإذا كان أكثر ما يتعرّض له أحد أخويه نهره أو زجرة فأقلّ ما يتعرّض له هو ركلة أو لكمة، فلذلك كان يتناول طعامه في حذر وضيق، مسترقّاً النظر بين أونة وأخرى إلى المتبقي من الطعام الذي يتناقص سريعاً، وكلّما تناقص اشتدّ قلقه، وانتظر في جزع أن يصدر عن أبيه ما يدلّ على فراغه من طعامه فيخلو له الجوّ ليملاً بطنه. وعلى رغم سرعة أبيه في الاتهام وضخامة لقمته وتشبّعها بشقّي الأصناف كان يعلم بالتجربة أنّ ما يتهدّد الطعام - وما يتهدّده هو بالتالي - من ناحية أخويه أشدّ وأنكى، لأنّ السيّد كان سريع الأكل سريع الشبع، أمّا أخواه فكانا يبدآن المعركة حقّاً عقب جلاء السيّد عن السفرة، ثمّ لا يتخلّيان عنها حتّى تخلو الأطباق من كلّ شيء يؤكل، ولهذا فما كاد السيّد ينهض قائماً ويفارق الحجرة حتّى شمّر عن ساعديه وهجم على الطبق كالمجنون مستغلاً يديه الاثنيتين، يداً للطبق الكبير، ويذاً للأطباق الصغيرة، يبيد أنّ اجتهداه بدا قليل الجدوى فيما انبعث من نشاط الأخوين فلجأ إلى الحيلة التي يستغيث بها كلّما هدّد سلامته مهتدّ في مثل هذه الحال، وهي أن يعطس في الطبق عامداً متعمّداً، وعطس، فتراجع الأخوان، ونظرا إليه حانقين، ثمّ غادرا المائدة وهما غارقين في الضحك، فتحقّق له حلم الصباح وهو أن يجد نفسه وحيداً في الميدان.

وعاد السيّد إلى حجّرتة بعد أن غسل يديه فلحقت به أمينة ويدها قرح مزجت به ثلاث بيضات نيّثات بقليل من اللبن وقدمته له فتجرّعه ثمّ جلس ليحسو قهوة الصباح، وهذا القدح اللدسم خاتمة فطوره، وهو «وصفة» من وصفات يداوم عليها بعد الوجبات أو فيما بينها - كزيت السمك، والجوز واللوز والبندق المسكّر - رعاية لصحة بدنه الضخم، وتويضاً له عمّا تستهلكه منه الأهواء، إلى اقتصاره على اللحوم بأنواعها والأغذية المشهورة بدسمها حتّى ليعدّ الأكلة

كحال فقد هرع إلى الحجرة عقب خروج أبيه مباشرة ليشبع رغبته في محاكاة حركاته التي يختلس النظر إليها من زيق الباب الموارب، فوقف أمام المرأة ينظر إلى صورته بإمعان وارتياح ثم قال غاطباً أمه بلهجة أمرة وهو يُغلظ نبرات صوته «زجاجة الكولونيا يا أمينة»، وكان يعلم أنها لا تلبّي هذا النداء ولكنه جعل يمسح على وجهه وجاكيتته وينظرونه القصير بيديه كأنه ييلها بالكولونيا، ومع أن أمه كانت تغالب الضحك إلا أنه ثابر على التظاهر بالجدّ والصرامة، وراح يستعرض وجهه في المرأة من جانبه الأيمن إلى الأيسر، ثم مضى يسوّي شاربه الوهمي ويفتل طرفيه، ثم تحوّل عن المرأة وتجنّساً، ونظر صوب أمه، ولمّا لم يجد منها إلا الضحك قال لها محتجاً: «لماذا لا تقولين لي صحّة وعافية؟» فغمغمت المرأة ضاحكة: «صحّة وعافية يا سيدي»، هنالك غادر الحجرة مقلداً مشية أبيه محرّكاً بمناء كأنه يتوكأ على عصاه..

وبادرت الأم والفتاتان إلى المشربّة ووقفن وراء شبّاكها المطلّ على النحاسين ليرّين من ثقبه رجال الأسرة في الطريق، وبدا السيّد وهو يسير في تودة ووقار يحفّ به الجلال والجمال رافعاً يديه بالتحية بين حين وآخر وقد وقف له عمّ حسين الخلاق والحاجّ درويش بائع الفول والفولّي اللبّان ويومي الشربتلي، فأتبعنه أعيناً مترعة بالحبّ والزهو، وتلاه فهمي في مشيته المتعجّلة، ثم ياسين في جسم الثور وأناقاة الطاووس، وأخيراً ظهر كمال فلم يكذب بخطوطين حتى استدار ورفع بصره إلى الشبّاك الذي يعلم أن أمه وشقيقته مستخفيات وراءه، وابتسم، ثم واصل سيره متأبّطاً حقيبة كتبه منقّبة في الأرض عن زلطة يركلها.

كانت هذه الساعة من أسعد أوقات الأم، يئد أن إشفاقها من شرّ الأعين على رجالها لم يقف عند حدّ، فلم تكن تمسك عن تلاوة: «ومن شرّ حاسد إذا حسد» حتى يغيبوا عن عينيها...

وغادرت الأم المشربّة، وتبعته خديجة، على حين

وراء الخصاص دون أن يراها، ولمست في فرحة ظافرة كيف يتطلع بعينه إلى النافذة المغلقة باهتمام وتشوق، ثم كيف أخذ يستبين شبحها وراء الخصاص فتشع أساريره ضياء البهجة، وقلبها المشبوب - الذي يتمطى مستيقظاً لأول مرة - ينتظر هذه اللحظة في لهفة ويدوقها في سعادة ويودعها فيما يشبه الحلم، حتى دار الشهر دورته وعاد يوم التنفيض مرة أخرى فانبرت إلى الستارة تنفضها وراء النافذة المواربة متعمدة - هذه المرة - أن تُرى، وهكذا يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، حتى غلب التعطش للمزيد من الحب الخوف الجاثم فخطت خطوة - جنونية - وفرجت مصراعي النافذة ووقفت وراءها وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معاً، كأنها تعلن حبها له، بل كانت كمن يقذف بنفسه من علو ساحق ليتقي نازاً مستعرة تحيط به.

\*\*\*

استكنت عواطف الخوف والتأنيب ومضت تنعم بسكرة الحلم في ظلّ سلام، ثم أفأقت من حلمها، وصممت على أن تتحامي الخوف الذي ينقص عليها صفوها فجعلت تقول لنفسها استدراةً للطمأنينة: «لم تُزلزل الأرض ومرّ كلّ شيء بسلام، لم يربى أحد ولن يراني أحد، ثم إنّي لم أقرّف إثماً» ونهضت قائمة، ولكي توهم نفسها بخلو البال ترمّت - وهي تغادر الحجرة - بصوت عذب: «يا أبو الشريط الأحمر يا لبي أسرتني ارحم ذلي»، وردّتها مرةً ومرةً حتى جاءها صوت أختها خديجة من حجرة الطعام وهي تزعق في تهكم:

- يا ستّ منيرة يا مهدية، تفضلي، أعدت لك خادمتك السفرة.

وأثابها صوت أختها إلى نفسها غاماً فيما يشبه الرجّة فهوت من عالم المشال إلى عالم الواقع مرتعية بعض الشيء لسبب غير ظاهر - ما دام كلّ شيء قد مرّ بسلام - كما قالت لنفسها - ولكنّ اعتراض صوت أختها - بالذات - لغنائها وخواطرها أزعجها، ربّما لأنّ خديجة كانت تقف منها موقف المنتقد، يبدّ أنها طاردت هذا

ومع أنّها كانت تتلطف معها في الحديث تفادياً من حدّة لسانها إلا أنّ إصرار الأخرى على قرصها بلسانها كلّما سنحت فرصة جعلها تتعلّق أحياناً بإغاضتها فقالت مصطنعة الجذ:

- ألم تنفّق على تقسيم العمل بيننا في البيت؟ فعليك هذا الواجب وعليّ الغناء...

فنظرت خديجة إلى أمّها وقالت متهمّة وهي تعني الأخرى:

- يمكن ناوية تكون عالمة!

ولم تغضب عائشة، وبالعكس قالت باهتمام مصطنع أيضاً:

- وماله... أنا صوتي كالكروان.

ومع أنّ قولها السابق لم يستر غيظها لأنّه كان يبرّن الدعابة إلا أنّ كلامها الأخير استثاره لأنّه كان واضح الحق، ولأنّها تنفّس عليها جمال صوتها فيما تنفس عليها من مزاياء فقالت في تهكم:

- اسمعي يا ستّ هانم... هذا بيت رجل شريف لا يعيب بناته أن تكون أصواتهنّ كصوت الحمير ولكنّ يعيبهنّ أن يكنّ كالصورة لا فائدة منهنّ ولا نفع.

- لو كان صوتك جيلاً كصوتي ما قلت هذا!

- طبعاً... كنت تغنين وأردّ عليك، تقولين يا بو الشريط الأحمر يا لبي... فأقول لك أسرتني ارحم ذلي، وترك للستّ «مشيرة إلى أمّها» الكنس والمسح والطيخ.

وكانت الأم - التي ألفت هذا النكار - قد اتخذت مجلسها فقالت برجاء:

- أمسكاً بالله واجلسا لتأكل فطورنا بسلام.

وأقبلتا على السباط وجلستا وخديجة تقول:

- أنت يا نينة لا تصلحين لتربية أحد...

فتمتمت الأم في هدوء:

- ساءحك الله، سأترك لك أمر التربية على ألا تنسي نفسك... «ثم مدت يدها إلى الطبق»... بسم الله الرحمن الرحيم...

كانت خديجة في العشرين من عمرها، فهي كبرى إخوتها فيها عدا ياسين - أخاها من الأب - الذي ناهز عامه الواحد والعشرين، وكانت قوية ممتلئة - والفضل لأم حنفي - مع ميل إلى القصر، أما وجهها فقد قيس من قسائم الوالدين على نهج لم يُراعَ فيه الانسجام، ورثت عن أمها عينيها الصغيرتين الجميلتين، وعن أبيها أنفه العظيم، أو صورة مصغرة منه ولكن ليس إلى القدر الذي يغتفر له، ومهما يكن من شأن هذا الأنف في وجه الأب الذي يناسبه ويكسبه جلالاً ملحوظاً فقد لعب في وجه الفتاة دوراً مختلفاً.

أما عائشة فكانت في السادسة عشرة من ربيعها، صورة من بديع الحسن، رشيقة القَدِّ والقوام - وإن عدَّ هذا في محيط أسرتها من العيوب المتروك علاجها لأم حنفي - ووجه بدرى تزينه بشرة بيضاء مشربة بحمرة، وعينان زرقاوان أحسنت اختيارهما من الأب مع أنف الأم الصغير، إلى شعر ذهبي دلَّلها به قانون الوراثة فخصَّها به وحدها من ميراث جدِّها لأبيها. وطبعي أن تدرك خديجة ما يقوم بينها وبين شقيقتها من فوارق، ولم تكن براعتها الفائقة في التدبير المنزلي والتطريز ولا نشاطها الدائب الذي لا يكلُّ ولا يملُّ بمُغنين عنها شيئاً، فوجدت على الغالب نحوها غير لم تراعَ إخفاءها ممَّا حمل الفتاة الحسنة على البرم بها في كثير من الأحيان. ولكن من سوء الحظَّ أنَّ هذه الغيرة الطبيعية لم تترك رواسب سوداء في النفس، وكفاها أن تروِّج عن حدِّتها بسخريَّة اللسان وسلطته، وأكثر من هذا أن كانت الفتاة رغم مشكلتها الطبيعية أمَّا بالفطرة عامرة القلب بالحنوِّ نحو الأسرة التي لا تعفي أفرادها من مرارة تهكُّمها، فلم تكن غيرتها إلَّا نوبات تطول أو تقصر ولُكِّتْها لم تنحرف بسجَّيتها إلى الحقد أو البغضاء، يُبَدُّ أنَّ دأبها على السخريَّة - الذي اقتصر في الأسرة على الدعابة - خلق منها فيما وراء ذلك من الجيران والمعارف عيابة من الدرجة الأولى، لا تقع

عينها من الناس إلَّا على مناقصهم كعقرب البوصلة المنجذب إلى القطب أبداً، وإذا توارت المناقص تمحَّلت في الكشف عنها وتكبيرها، ثم راحت تطلق على ضحاياها أوصافاً تناسب عيوبهم كادت تغلب عليهم في محيط أسرتها، فهذه حرم المرحوم شوكت أقدم صديقة لوالديها تدعوها «المدفع الرشاش» لتناثر ريقها أثناء الحديث، وهذه السَّتْ أم مريم جارتهم بالبيت الملاصق لبيتهم تسميها «الله يا أسيادي» لاستعارتها بعض الأدوات المنزلية من بيتهم بين حين وآخر، كما تدعو شيخ كتاب بين القصرين «شرِّ ما خلق» لترديده هذه الآية ضمن سورتها كثيراً بحكم وظيفته مع قبح وجهه، وبائع الفول «الأقرع» لصلبعه، واللِّبَان «الأعور» لضعف بصره، إلى تسميات مخففة بعض الشيء خصَّت بها أسرتها، فأُمُّها «المؤذَّن» لتبكيرها في الاستيقاظ، وفهمي «عمود السرير» لنحافته، وعائشة «البوصة» للسبب نفسه، وياسين «مجة كُشْر» لسمته وأناقته. ولم تكن سلطة لسانها من وحي السخريَّة فحسب، فالحقُّ أنَّها لم تخلُ من قسوة على من عدا أهلها من الخلق وهكذا اتَّسم نقدها للناس بالعنف، وتحمَّاف عن التسامح والعفو، كما غلب عليها عدم الاكتراث للأحزان التي تلُمَّ بالناس يوماً بعد يوم، وتبدَّت هذه الغلظة في البيت في معاملة أم حنفي معاملة لا تلقاها من أحد سواها، بل في معاملة الحيوان الأليف كالقطط التي تحظى من عائشة بإعزاز يفوق الوصف. وكانت معاملتها لأم حنفي مثار خلاف بينها وبين أمها، فالأم تعامل الخدم كما تعامل أهل بيتها سواء بسواء، وكان ظنُّها بالناس أنَّهم ملائكة فلم تدِر كيف تسيء الظنَّ بأحد، على حين دأبت خديجة على سوء الظنَّ بالمرأة تمثيلاً مع طبيعتها التي تسيء الظنَّ بالناس جميعاً، ولم تخفِ تحوُّلها من بَيَّاسها غير بعيد من غرفة الخزين فقالت لأمها: «من أين تحيِّثها هذه السمينة المفرطة؟... من الوصفات التي تصنعها؟» كلُّنا نتعاطى وصفاتها فلا نضمن سميتها، ولُكِّتْها السمن والعسل اللذان تطفح منها بغير حساب ونحن نيام.

الأكل فقالت بصوت هادئ يختلف كل الاختلاف عن الصوت الذي كانت تزعم به منذ حين قصير:

- نينة... حلمت حلمًا غريبًا...

فقالت الأم قبل أن تزدد لقمته مبالغة في إكرام ابنتها المخيفة:

- خير يا بنتي إن شاء الله.

فقالت خديجة باهتمام مضاعف:

- رأيت كأنني أمشي على سور سطح، ربما كان سطح بيتنا أو غيره، وإذا بشخص مجهول يدفعني فأهوي صارخة.

وأمسكت أمينة عن تناول طعامها في اهتمام جذبي فلازمت الفتاة الصمت قليلًا لتستأثر بأكبر قدر من الاهتمام حتى تمتد الأم:

- اللهم اجعله خيرًا.

وقالت عائشة وهي تغالب ابتسامة:

- لم أكن أنا الشخص المجهول الذي دفعك... أليس كذلك؟

وخافت خديجة أن يفسد الجو بالمزاح فصاحت بها: - إنه حلم وليس لعبًا فكفّي عن هذرك «ثم مخاطبة أمها»... هويت صارخة ولكنّي لم أرتطم بالأرض كما توقّعت بل وقعت على جواد، حملني وطار.

وتنهّدت أمينة في ارتياح كأنما أدركت ما وراء الحلم واطمأنت إليه، وعادت إلى طعامها مبتسمة، ثم قالت:

- من يدري يا خديجة؟... لعلّ العريس...

لم يكن يباح الكلام عن «العريس» إلّا في هذه الجلسة، وفي إيجاز بالإشارة أشبه، ووجب قلب الفتاة الذي لم يكره شيء كما أكره أمر الزواج، وكانت على إيمان بالحلم وتأويله بحيث وجدت لكلام أمها سرورًا عميقًا، بيد أنها أرادت أن تداري حياءها بالسخرية كعادتها - ولو من نفسها - فقالت:

- أنظّنين الجواد عريسًا؟... لن يكون عريسي إلّا حمارًا.

فضحكت عائشة حتى تطاير نثار الطعام من فيها، ثم خافت أن تسيء خديجة فهم ضحكتهما فقالت:

لكنّ الأم دافعت عن أم حنفي ما وسعها الدفاع، ولمّا ضاقت بإلحاح ابنتها قالت: «فلنأكل ما تشاء، الخير كثير، وبطنها له حدّ لا يتعدّاه فلن نجوع على أيّ حال». ولم يعجبها قولها وراحت تفحص صفائح السمن وبلايص العسل كلّ صباح وأم حنفي ترى هذا باسمه لأنّها كانت تحبّ الأسرة كلّها إكرامًا لستّها الطيبة. وعلى النقيض من هذا كان حنان الفتاة حيال أهلها جميعًا فلم يكن يهدأ لها بال إذا أصابت أحدهم وعكة، ولمّا مرض كمال بالحصبة أبت إلّا أن تشاركه فراشه، حتى عاثشة نفسها لم تكن تطيق أن يلمّ بها أهون سوء، فلم يكن مثل قلبها لا في بروده ولا في رحته.

وبأنّحاذها مجلسها من السباط تناست ما نشب بينها وبين عائشة من نقار وأقبلت على الفول والبيض بشهية كانت مضرب الأمثال في الأسرة. وكان للطعام بينهما - إلى فائدته الغذائية - غاية جمالية عليا بصفته الدعامة الطبيعية للسمنة، فكُنّ يتناولونه في تودة واهتمام، ويبالغن في سحقه وطحنه، فإذا شعبن لم يسكن ولكن يستزدن منه حتى يمتلئن، على تفاوت لطافتهم، فكانت الأم أسرعهنّ إلى الانتهاء، تليها عائشة، ثم تنفرد خديجة ببقايا المائدة فلا تتخلّى عنها إلّا وهي أطباق مغسولة. ولم تكن نحافة عائشة لتتناسب مع اجتهادها في الأكل فضلًا عن عصيانها لسحر البلايص، ممّا دعا خديجة للسخرية منها والقول بأنّ المكر السيئ هو الذي يجعلها تربة غير صالحة للبدور الطيبة التي تلقى فيها، كما كان يطيب لها أن تعلّل نحافتها بضعف دينها فتقول لها: «كلّنا نصوم رمضان إلّا أنت، تتظاهرين بالصوم، وتندسين في حجرة الخزين كالفأرة وتملئين بطنك بالجوز واللوز والبندق، ثمّ تفطرين معنا بنهم يحسدك عليه الصائمون ولكنّ الله لا يبارك لك». وكانت ساعة الفسطور من الأوقات النادرة التي يختلن فيها إلى أنفسهنّ، فكانت أخلق الأوقات بالمكاشفة ونقض السرائر خاصّة في الأمور التي يدعو إلى كتمانها عادة الحياء البالغ الذي تتسم به مجالس الأسرة الحايوة للجنسين، وكان لدى خديجة ما تقوله رغم انهاكها في

على سبيل الاستعلاء أو على سبيل المشاكسة، فلهذا قالت:

- أنزل لك عن التنظيف إذا كنت تستقلين الغسيل، أما التمتع بالغسيل للبقاء في الحمام حتى ينتهي العمل في المطبخ فعذر مرفوض مقدّمًا.

وتجاهلت الفتاة ملحوظتها ومضت إلى الحمام وهي تدندن فقالت خديجة متهكّمة:

- يا بختك بالحمام يرّ فيه الصوت كما يرّ في نفير الفونوغراف فغنيّ وسمعي الجيران.

وغادرت الأمّ الحجرة إلى الدهليز ثمّ إلى السلم ورَفَّتْهُ إلى السطح لتجول فوقه جولتها الصباحية قبل أن تنزل إلى حجرة الفرن. لم يكن التشاحن بين الفتاتين بالجديد عليها بعد أن انقلب مع الأيام عادة مألوفة في غير الأوقات التي يوجد فيها الأب في البيت، أو التي يطيب فيها السمر بين أفراد الأسرة، وجعلت تعالجه بالرجاء والدعابة والرقة البالغة، وهي السياسة الوحيدة التي تنتهجها إزاء أبنائها لأنها صادرة عن طبع لا يطبق سواها، أما ما تقتضيه التربية أحيانًا من الحزم فشيء لم تعرفه، ربّما تمثّته دون أن تقدّر عليه. وربّما حاولت تجربته فغلبيها التأثير والضعف، وكأنّها لا تحتمل أن يقوم بينها وبين أبنائها غير أسباب المودة والحبّ، تاركة للأب - أو لشخصيته التي تسيطر من بعيد - تقويم المعوجّ وإلزام كلّ حدوده. لهذا لم يضعف النقد السخيف من إعجابها بفتاتيه ورضائها عنها، حتّى عائشة المولعة لحّد الهوس بالغناء والوقوف أمام المرأة، لم تكن دون خديجة مهارة وتدبيرًا بالرغم من تكاسلها. وكان هذا حرّياً بأن يمدّ لها في أوقات الراحة لولا ما طبعت عليه من وسوسة بالداء أشبه، فهي تأتي إلّا أن تشرف على كلّ صغيرة وكبيرة بالبيت، وإذا فرغت الفتاتان من عملهما نشطت هي بالمكنسة في يد والمنفضة في يد وراحت تتفقد الحجرات والصلوات والدهاليز، متفحّصة الأركان والجدران والستائر وسائر العفش عسى أن تزيل نقطة غبار منسية، واجدة لدّة وارتياحًا كأنّها تزيل قذّي من عينيها، ومن وسوستها تلك أنّها كانت تفحص الثياب المعدّة للغسيل قبل

- لشدّ ما تظلمين نفسك يا خديجة!.. ما فيك من شيء يعاب.

فحدجتها خديجة بنظرة تنمّ عن الحذر والشكّ على حين راحت الأمّ تقول:

- أنت فتاة نادرة المثال، من يضارحك في مهارتك أو نشاطك؟... وروحك الخفيفة ووجهك اللطيف؟ ماذا تريدان أكثر من هذا؟

فمست الفتاة بسبابتها أرنبة أنفها وتساءلت ضاحكة:

- ألا يسدّ هذا طريق الأزواج؟

فقالت الأمّ مبتسمة:

- كلام فارغ... ما زلت صغيرة يا بنية.

وتضايقت للذكر الصغر لأنّها لم تكن تعدّ نفسها صغيرة بالقياس إلى سنّ الزواج، وخاطبت أمّها قائلة:

- لقد تزوّجت يا بنية وأنت دون الرابعة عشرة.

فقالت الأمّ التي لم تكن في الحقّ دون ابنتها قلّقًا:

- لا يتقدّم أمر أو يتأخّر إلّا بإذن الله..

وقالت عائشة في صدق:

- ربّنا يفرّحنّا بك قريباً يا خديجة.

فلحظتها خديجة بريّة وذكّرت كيف طلبت إحدى جاراتهم يدها لابنها فرفض الأب أن تزوّج الصغرى قبل الكبرى، وتساءلت:

- أتودّين حقّاً أن أتزوّج أم تتمنّين أن يخلو لك السبيل فتزوّجي؟

فقالت عائشة ضاحكة:

- الاثنين معاً..

## ٦

ولمّا فرغن من الفطور قالت الأمّ:

- عليك يا عائشة الغسيل اليوم، وعلى خديجة

تنظيف البيت، ثمّ تلحقان بي في حجرة الفرن.

كانت أمينة تزوّع بينهما العمل عقب الفطور مباشرة، ومع أنّها ترضيان بحكمها، وترضى به عائشة بلا مناقشة، إلّا أنّ خديجة تكلف بتوجيه الملاحظات

غسلها، فإذا عثرت على قطعة منها قد خرقت قذارتها المألوف لم تترك صاحبها دون أن تتلطف في تنبيهه إلى واجبه، من كمال الذي يناهز العاشرة إلى ياسين الذي كان ذا ذوقين متناقضين في العناية بنفسه يتجلبان في تألقه المفرط في مظهره من البدلة والطربوش والقميص ورباط الرقبة والحذاء، وإهماله المعيب لثيابه الداخلية. ومن الطبيعى ألا تغفل هذه العناية الشاملة السطح وسكانه من الحمام والدجاج، بل كانت ساعة السطح حافلة بالحبّ والسرور، فيها من أغراض العمل ما فيها، إلى ما تجده من فرحة اللهو والمرح. ولا عجب فالسطح هو الدنيا الجديدة التي لم يكن للبيت الكبيرها عهد قبل انضمامها إليه، خلقتها بروحها خلقاً جديداً على حين ظلّ البيت محافظاً على الهيئة التي شيّد عليها منذ عهد سحيق. هذه الألفاف المثبتة في بعض جدرانها العالية يهدل عليها الحمام من وضعها، وهذه الأكواخ الخشبية يقوى الدجاج في مسارحها من تركيبها، وكم يملكها الفرح وهي ترمي الحبّ أو تضع على الأرض آنية السقيا فيستبق إليها الدجاج وراء ديكها، وتنبال مناقيرها على الحبّ في سرعة وانتظام كإبر آلة الخياطة، مخلفة في الأرض التربة بعد حين ثغرات دقيقات كآثار الرذاذ. وكم ينشرح صدرها إذ تنظر فتراها رائية إليها باعين دقيقة صافية، مستطلعة متسائلة، ناقة مقوفة، في مودة متبادلة ينزّ لها قلبها الحنون. أحبتّ الدجاج والحمام كما تحبّ مخلوقات الله جميعاً، فهي تناغيها مناغاة رقيقة تحسب أنّها تفهمها وتتأثر لها، ذلك أنّ خيالها يخلع الحياة الشاعرة العاقلة على الحيوان، وأحياناً الجساد نفسه. وعندها بمنزلة اليقين أنّ هذه الكائنات تسبح بحمد ربّها وتتصل بعالم الروح بأسباب، فعالمها بأرضه وسماه، حيوانه ونباته، عالم حيّ عاقل. ثم لا تقتصر مزايه على نعمة الحياة فيكملها بالعبادة. لم يكن غريباً بعد هذا أن تكثر معانيقها من الديوك والدجاج معتلة بسبب أو بآخر، لهذا لأنّها معمّرة وتلك لأنّها بيّاضة وهذا لأنّها تستيقظ على صياحه، ولعلّها لو تركت وشأنها ما ارتضت أن تعمل سكّينها في رقابها، وإذا دعتها الظروف إلى الذبح

تغيّرت الدجاج أو الحمام فيها يشبه الضيق، ثمّ نسقيها وتترخّم عليها وتبسم وتستغفر، وتذبحها وعزاؤها أنّها تستمتع بحقّ منحه الله الثمان وأوسع به على عباده. أمّا أعجب ما في السطح فكان نصفه الجنوبيّ المشرف على النحاسين حيث غرست يداها في الأعوام الخالية حديقة فريدة لا نظير لها في أسطح الحيّ كلّها التي تغطّي عادة بطبقة من قاذورات الدواجن، بدأت أوّل ما بدأت بعدد قليل من أضص القرنفل والورد، وراحت تستكثر منها عاماً بعد عام حتّى نصّدت صفوفها بحذاء أجنحة السور وثمت ثموا بهيجاً، وخطر لخياها أن تقيم فوق حديقته سقيفة، فاستدعت نجاراً فاقامها، ثمّ غرست شجرتي ياسمين ولبلاب ثمّ أنشبت سيقانها في السقيفة وحول قوائمها، فاستطالت وانتشرت حتّى استحالت المكان بستاناً معروشاً ذا سماء خضراء ينبثق منها الياسمين ويتضوّع في أرجائها عرف طيّب سباحر. هذا السطح بسكانه من الدجاج والحمام، وبستانه المعروش، هو دنيهاها الجميلة المحبوبة، وملهاها الأثير في هذا العالم الكبير الذي لا تعرف عنه شيئاً، وكشأنها في مثل هذه الساعة مضت تتعهده برعايتها فكنته، وسقت زرعها، وأطعمت الدجاج والحمام، ثمّ تمّلت طويلاً المنظر المحيط بها بنظر باسم وعينين حالمتين، ثمّ ذهبت إلى نهاية البستان ووقفت وراء السيقان الملتفة المتشابكة تمدّ بصرها من ثغراتها إلى ما يليها من فضاء لا تحدّه حدود. كم تروّعها المآذن التي تنطلق انطلاقاً ذا إيماء عميق، تارة عن قرب حتّى لترى مصابيحها وهلاها في وضوح كمآذن قلاوون وبرقوق، وتارة عن بعد غير بعيد فتبدو لها جملة بلا تفصيل كمآذن الحسين والغوري والأزهر، وثالثة من أفق سحيق فتراءى أطيافاً كمآذن القلعة والرفاعي، وتقلّب وجهها فيها بولاء وافتنان، وحبّ وإيمان، وشكر ورجاء، وتخلّق روحها فوق ذراها أقرب ما تكون إلى السماء، ثمّ تستقرّ منها العينان على مثذنة الحسين، أحبّها - حبّ صاحبها - إلى نفسها، فتنفّض نظرتها حناناً وأشراقاً، مشوبة بحزن يطوف بها كلّما ذكرت حرمانها من زيارة

الصدقة. والحق لم يكن السيد مرهوبًا مخوفًا إلا بين أهله، أما بين سائر الناس من أصدقاء ومعارف وعلماء فهو شخص آخر، له حفظه الموفور من المهابة والاحترام، ولكنه شخصية محبوبة قبل كل شيء، ومحبوبة لظرفها قبل أي من سجاياها الحميدة الكثيرة، فلا الناس يعرفون السيد الذي يقيم في بيته، ولا أهل البيت يعرفون السيد الذي يعيش بين الناس. وكان دكانه متوسط الحجم، مكسدة رفوفه وجنابته بجوالات البن والأرز والثقل والصابون، وعند ركنه الأيسر في قبالة المدخل يقوم مكتب السيد بدفاتره وأوراقه وتليفونه، وإلى اليمين من مجلسه تقوم الخزانة الخضراء داخل الجدار يوحي منظورها بالصلابة ويذكر لونها بالأوراق المالية. وفي منتصف الجدار فوق المكتب على إطار من الأنوس نقشت بداخله البسملة عمومة بالذهب. ولم تكن عجلة الدكان تدور قبل الضحى. فجعل السيد يراجع حسابات اليوم السابق بمشاهدة ورثها عن أبيه وحافظ عليها بحيويته الموفورة، على حين وقف الحمزاوي عند المدخل شابكا ذراعيه على صدره مواصلاً تلاوة ما تيسر من الآيات في صوت باطني غير مسموع دلت عليه حركة شفثيه المستمرة، ووسوسة خافتة تند من آن لأن عن أحرف السين والصاد، ولم يتوقف عن تلاوته حتى جاء شيخ ضريز رتبته السيد كل صباح. وكان السيد يرفع رأسه من الدفتر في فترات متباعدة فيستمع إلى التلاوة أو يمد بصره إلى الطريق حيث لا ينقطع تيار المارة وعربات اليد والكارو، وسوارس التي تكاد تترنح من كبرها وثقلها، والباعة المغنئون وهم يترنمون بقطايق الطماطم والملوخية والبامية كل على مذهبه، ولم تكن الضوضاء لتحول بينه وبين تركيز ذهنه بعدما اعتادها وألفها أكثر من ثلاثين عامًا فاستنم إليها حتى ليزعجه سكوتها. ثم جاء زبون فشغل الحمزاوي به، وأقبل نفر من أصحاب السيد وجيرانه من التجار ممن يحبون أن يقضوا معه وقتًا طيبًا ولو لزم من وجيز يتبادلون فيه التحية ويغيثون ريقهم - على حد تعبيرهم - على دعاية من دعاته أو نكته من نكته، الأمر الذي جعله يفاخر

ابن بنت رسول الله وهي على مسير دقائق من مثواه. وتنهدت نهدة مسموعة، استردتها من استغراقها فثابت إلى نفسها وراحت تتسلل بالنظر إلى الأسطح والطرق فلم تزايلها الأشواق، ثم استدبرت السور وقد فاض بها التطلّع إلى المجهول، المجهول بالنسبة إلى الناس جيمعًا وهو عالم الغيب، والمجهول بالقياس إليها وحدها وهو القاهرة. بل الأحياء المتاخة التي تترامى إليها أصواتها. ترى ما هذه الدنيا التي لم تر منها إلا المآذن والأسطح القرية؟ ريع قرن من الزمان خلا وهي حبسة هذا البيت لا تفارقه إلا مرّات متباعدة لزيارة أمها بالخرنفس. وعند كل زيارة يصطحبها السيد في حنطور لأنه لا يحتمل أن تقع عين على حرمه سواء وحدها أو بصحبته، لم تكن ساخطة ولا متذمرة، إنها أبعد ما تكون عن هذا. بيد أنها ما تكاد تنفذ ببصرها من ثغرات الياسمين واللبلاب إلى الفضاء والمآذن والأسطح حتى تعلو شفثيتها الرقيقتين ابتسامة حنان وأحلام. ترى أين تقع مدرسة الحقوق حيث يجلس فهمي في هذه اللحظة؟ وأين مدرسة خليل آغا التي يؤكد كمال أنها على مسير دقيقة من الحسين؟... وقبل أن تغادر السطح بسطت كفيها ودعت ربها قائلة: «اللهم أسألك الرعاية لسيدي وأبنائي، وأمي ويس، والناس جميعًا مسلمين ونصارى، حتى الإنجليز يا ربّي وأن تخرجهم من ديارنا إكرامًا لفهمي الذي لا يحبهم».

## ٧

عندما بلغ السيد أحمد عبد الجواد دكانه الذي يقع أمام جامع برقوق بالنحاسين كان جميل الحمزاوي وكيله قد فتحه وهياه للعمل، فحياه السيد تحية رقيقة وهو يتنسم ابتسامة وضيئة وأتجه إلى مكتبه. وكان الحمزاوي في الخمسين من عمره، أنفق منها ثلاثين عامًا في هذا الدكان، وكيلاً لمنشئه الحاج عبد الجواد ثم وكيلًا للسيد بعد وفاة أبيه، وظلّ على الوفاء للسيد بداعٍ من العمل والحب معًا، فهو يحله ويحبّه كما يحله ويحبّه جميع من يتصل به بسبب من أسباب العمل أو



بنفسه كمحدث فائق البراعة، لا يخلو حديثه من لمعات غير مقطوعة الصلة بالثقافة العامة التي اكتسبها، لا من التعليم حيث توقف فيه دون الابتدائية، ولكن من قراءة الصحف ومصادقة نخبة من الأعيان والموظفين والمحامين الذين أهله لمخالطتهم - مخالطة النذ للنذ - حضور بديته ولطفه وظرفه ومنزلته كتاجر موفور الرزق، فاستجد لنفسه عقلية غير العقلية التجارية المحدودة ضاعف من اعترازه بها ما حباه أولئك الممتازون من حب واحترام وتكريم، ولما قال له أحدهم مرة في صدق وإخلاص: «لو أتيت لك يا سيد أحمد أن تدرس القانون كنت محامياً مفعوها نادر المثال» نفخ قوله في خيالاته الذي يحسن مداراته بظرفه وتواضعه وحلو معاشرته. ولم يطل بأحد من الوافدين الجلوس فذهبوا تباعاً، وتزايدت حركة العمل بالدكان، ثم فجأة دخل رجل مهرولاً كأنها دفعته يد قوية، ووقف في منتصف الدكان وهو يضيق عينيه الضيقتين ليحد بصره، وسددهما صوب مكتب السيد، ومع أنه لم يكن يفصله عنه أكثر من ثلاثة أمتار إلا أنه أجده في معاينته بلا طائل ثم هتف متسائلاً:

- السيد أحمد عبد الجواد موجود؟

فقال السيد بأسماً:

- أهلاً وسهلاً بالشيخ متوئي عبد الصمد، تفضل، حلّت البركة...

وعطف الرجل رأسه فصادف اقتراب الحمزاوي منه ليسلم عليه ولكنه لم ينتبه ليد الممدودة وعطس على غير انتظار فتراجع الحمزاوي وهو يخرج منديله وقد التقت في صفحة وجهه ابتسامة وتقطبية، واندفع الشيخ إلى المكتب وهو يتعمم «الحمد لله رب العالمين»، ثم رفع طرف عباهه ومسح به على وجهه، وجلس على الكرسي الذي قدّمه السيد له، وبدا الشيخ في صمّة يحسد عليها على سنّه التي جاوزت الخامسة والسبعين، ولولا عيناه الكليلتان الملتهبتا الأشفار، وفوه المندثر، ما وجد ما يشكوه، وكان يتلقّع بعباءة بالية ناصلة وإن أمكنه أن يستبدل بها خيراً منها بما يجود به المحسنون، ولكنه استمسك بها لأنه - فيما يقول - رأى

- أوحشتنا يا شيخ متوئي... منذ عاشوراء لم نستمتع برؤيتك.

فقال الرجل ببساطة وبغير مبالاة:

- أغيب كما يحلو لي، وأحضر كما يحلو لي، ولا أسأل عن السب...

فابتسم السيد الذي ألف أسلوبه وتمتم قائلاً:

- إذا غبت أنت فلن بركتك لا تغيب...

فلم يئد على الشيخ أنه تأثر لإطرائه، وعلى العكس حرّك رأسه حركة تدلّ على نفاذ الصبر وقال بخشونة:

- ألم أنبه عليك أكثر من مرة بالآ تفانخي بالحديث، وأن تلزم الصمت حتى أتكلّم أنا؟!

فقال السيد وبه رغبة في التحكّك به:

- معذرة يا شيخ عبد الصمد، لئن كنت نسيت تنبيهك فعذري أنّي أنسيته لطول غيابك.

فضرب الشيخ كفّاً بكفّ وهتف:

- عذر أقبح من ذنب... (ثم منذراً بسبابته) إذا تماديت في مخالفتي امتنعت عن قبول هديتك!

فأطبق السيد شفّتيه بأسطاً راحتيه استسلاماً حاملاً نفسه على الصمت هذه المرة، فترث الشيخ متوئي ليتأكد من دخوله طاعته، وتنحج ثم قال:

- ابدأ بالصلاة على سيد الخلق الحبيب.

فقال السيد من الأعماق:

- عليه الصلاة والسلام.

- وأني على أهلك بما هو أهله، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنّاته، كأني به متخذاً مجلسك

هذا، لا فارق بين الأب وابنه إلا أن الراحل حافظ على العمامة واستبدلت بها هذا الطربوش...

فتمتم السيد مبتسماً:

- فليغفر الله لنا...

فتشاءب الشيخ حتى دمعت عيناه ثم استطرد قائلاً:  
- وأدعو الله أن يمن على أبنائك بالفلاح والتقوى،  
ياسين وخديجة وفهمي وعائشة وكمال وأمهم آمين...  
ووقع نطق الشيخ باسمي خديجة وعائشة من أذني  
السيد موقعاً غريباً على الرغم من كونه هو الذي أفضى  
إليه باسميهما منذ عهد طويل ليكتب لهما حجابين،  
وليست أول مرة ينطق الشيخ باسميهما، ولا آخر مرة،  
ولكن لم يكن يتردد اسم واحدة من حريمه بعيداً عن  
الحجرات - ولو على لسان الشيخ متوئلي - حتى يقع من  
نفسه موقعاً غريباً ينكره ولو إلى حين. بيد أنه غمغم  
قائلاً:

- آمين يا رب العالمين...

فتنهّد الشيخ قائلاً:

- ثم أسأل الله المنان أن يعيد إلينا أفندينا عباس  
مؤيداً بجيش من جيوش الخليفة لا يُعرف له أول من  
آخر...

- نسأله وليس شيء عليه بكثير...

فعلا صوت الشيخ وهو يقول غاضباً:

- وأن يُنقذ الإنجليز وأعوامهم بهزيمة منكرة فلا تقوم  
لهم بعدها قائمة.

- ربنا يأخذهم جميعاً...

فحرك الشيخ رأسه في أشئ وقال بحسرة:

- كنت بالأمس سائراً في الموسكي فاعترض سبيلي  
جنديان أسرتليان وطالباني بما معي فما كان مني إلا أن  
نفضت لهما جيوبى وأخرجت الشيء الوحيد الذي كان  
معي وهو كوز ذرة فتناولوه أحدهما وركله كالكرة  
وخطف الآخر عمامتي وحلّ الشال ومزقه ورمى به في  
وجهي.

وتابعه السيد وهو يغالب ابتسامة تراوده فما لبث أن  
داراه بالبالغة في إظهار استيائه صائحاً في استنكار:

- قاتلهم الله وأهلكهم...

فاتمّ الرجل حديثه قائلاً:

- رفعت يدي إلى السماء وصحت: يا جبار مزّق

أمتهم كما مزّقوا شال عمامتي...

- دعوة مستجابة بإذن الله...

ومال الشيخ إلى السواء وأغمض عينيه ليستريح  
قليلاً، ولبث على حاله والسيد يتفرّس في وجهه  
مبتسماً، ثم فتح عينيه وخاطب السيد بصوت هادئ  
ونبرات تنذر بموضوع جديد، قائلاً:

- يا لك من رجل شهيم جميل المروءة يا أحمد يا بن

عبد الجواد...

فابتسم السيد في رضى وقال بصوت خفيض:

- أستغفر الله يا شيخ عبد الصمد...

فبادره الشيخ قائلاً:

- لا تتعجل، إن مثلي لا يُلقي الثناء إلا تمهيداً

لقول الحق، على سبيل التشجيع يا بن عبد الجواد...

فلاح الاهتمام والحذر في عيني السيد وتتمّ قائلاً:

- ربنا يلطّف بنا...

فأشار إليه بسبّابته العجرا وتساءل فيما يشبه

الوعيد:

- ماذا تقول، وأنت المؤمن السورع، في ولّك

بالنساء؟

كان السيد معتاداً لصراحته فلم ينزعج لانقضاضه،

وضحك ضحكة مقتضبة ثم قال:

- ما عليّ من ذاك، ألا يحدث رسول الله ﷺ عن

حبّه للطيب والنساء؟

فقطّب الشيخ ومطّ بوزه محتجاً على منطق السيد

الذي لم يعجبه وقال:

- الحلال غير الحرام يا بن عبد الجواد، والزواج غير

الجرى وراء الفاجرات...

فمدّ السيد بصره للأشئ وقال بلهجة جدّية:

- ما ارتضت نفسي يوماً أن تعتدي على عرض أو

كرامة قطّ، والحمد لله على ذلك...

فضرب الشيخ ركبتيه بيديه وقال بغرابة واستنكار:

- عذر ضعيف لا يتحلّه إلا ضعيف، والفسق لعنة

ولو يكن بفاجرة، كان أبوك رحمه الله مولعاً بالنساء

بالتفكير الذاتي أو التأمل الباطني. شأنه في ذلك شأن الذين لا يكادون يخلون إلى أنفسهم، ففكره لا يعمل حتى يبعثه إلى العمل شيء خارجي، رجل أو امرأة أو سبب من أسباب حياته العملية، وقد استسلم لتيار حياته الزاخر مستغرقاً فيه بكليته، فلم يَر من نفسه إلا صورته المنعكسة على سطح التيار ثم لم يترأخ توثبه للحياة مع تقدّم العمر لأنه بلغ الخامسة والأربعين ولم يزل يتمتع بحيوية فياضة مشبوبة لا يتأثر بها إلا الشاب اليافع، لذلك جمعت حياته شتى المتناقضات التي تراوح بين العبادة والفساد، وحازت جميعاً رضاه على تناقضها دون أن يدغم هذا التناقض بسند من فلسفة ذاتية أو تدبير تما يصطنع الناس من ألوان الرياء، ولكنه كان يصدر في سلوكه عن طبيعته الخاصة بقلب طيب وسريّة نقيّة وإخلاص في كلّ ما يفعل، فلم تعصف بصدره عواصف الحيرة، وبات قرير العين. وكان إيمانه عميقاً. أجل كان إيماناً موروثاً لا دخل للاجتهاد فيه، بيد أن رقة مشاعره ولطافة وجدانه وإخلاصه أضفت عليه إحساساً رقيقاً سامياً نأى به عن أن يكون تقليداً أعمى، أو طوقساً مبعثها الرغبة أو الرهبة فحسب، وبالجملّة كان أبرز ما يميّز به إيمانه بالحبّ الخصب النقي. بهذا الإيمان الخصب النقي أقبل يؤدي فرائض الله جميعاً، من صلاة وصيام وزكاة في حبّ ويسر وسرور، إلى سريّة صافية وقلب عامر بحبّ الناس ونفس تسخو بالمروءة والنجدة جعلت منه صديقاً عزيزاً يستبق القوم إلى الريّ من منهل العذب، وبتلك الحيويّة الفيّاضة المشبوبة فتح صدره لمسرّات الحياة ولذائدها، يهشّ للمأكّل الفاخر، ويضطرب للشراب المعتق، ويهيم بالوجه القسيم، فينهل منها جميعاً في فرح وبهجة وولع، غير مثقل الضمير بإحساس خطيئة أو وسواس قلق، فهو يمارس حقاً منحة إياه الحياة، وكأنما لا تعارض بين حقّ الحياة على قلبه وحقّ الله على ضميره، فلم يشعر في ساعة من حياته بأنه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته، وآخاه في السلام. أكان شخصين منفصلين في شخصيّة واحدة؟ أم كان في اعتقاده في الساحة الإلهيّة

فتزوّج عشرين مرّة فلماذا لا تنتهج سبيله وتتنكّب طريق المعاصي؟!

فضحك السيّد ضحكة عالية وقال:

- أأنت وليّ من أولياء الله أم مأذون شرعي؟! كان أبي شبه عقيم فأكثّر من التزوّج، وبالرغم من أنّه لم ينجب سواي إلا أنّ عقاره تبدّد بيني وبين زوجات أربع مات عنهنّ، إلى ما ضاع على التفقات الشرعيّة في حياته، أمّا أنا فأب لثلاثة ذكور وأنثيين، وما يجوز لي أن أنزلق إلى الإكثار من الزوجات فأبدّد ما يسّر الله علينا من رزق، ولا تُنسّ يا شيخ متوليّ أنّ غواني اليوم هنّ جوارى الأمس واللاتي أحلّهنّ الله بالبيع والشراء، والله من قبل ومن بعد غفور رحيم...

فتأوّه الشيخ وقال وهو يهزّ نصفه الأعلى بمئة ويسرة: - ما أبرعكم يا بني آدم في تحسين الشرّ، والله يا بن عبد الجواد لولا حُبّي لك ما باليت أن تحدّثني وأنت قاعد على فاجرة...

فبسط السيّد راحتيه وقال باسماً:

- اللّهُمّ استجب...

فنفخ الشيخ متبرّماً وهتف قائلاً:

- لولا مزاحك لكنت أكمل الناس...

- الكمال لله وحده...

فالتفت إليه وهو يشير بيده كأنه يقول «فلنذخ هذا جانباً» ثم ساءله بلهجة المحقّق الذي ضيق عليه الخناق:

- والخمر؟... ماذا تقول فيها؟!

وسرعان ما فترت روح السيّد ولاح في عينيه الضيق ولزم الصمت ملياً، وآنس الشيخ من صمته تسليماً فصاح بظفر:

- أليست حراماً لا يقارفه من يحرص على طاعة الله ومحبّته؟

فبادره السيّد قائلاً في حماس من يدفع بلاء محقّقاً:

- لشدّ ما أحرص على طاعة الله ومحبّته!

- باللسان أم بالعمل؟

ومع أنّ الجواب كان حاضراً إلا أنّه تمهل متفكّراً قبل أن ينطق به. لم يكن من عادته أن يشغل نفسه

الشيخ وهو يقول ضاحكاً:  
 - في صحتك...  
 فتناولها الشيخ وهو يقول:  
 - رزقك الله رزقاً واسعاً وغفر لك...  
 فغمغم السيد «آمين» ثم سألته بأسياً:  
 - ألم تكن يوماً من أهل ذلك يا سيدنا الشيخ؟  
 فضحك الشيخ قائلاً:  
 - ساعك الله، أنت رجل كريم طيب القلب،  
 وبهذه المناسبة أحذركم من التهاذي في الكرم فإنه لا  
 يتفق وما يطالب به التاجر من القصد...  
 فتساءل السيد دهشاً:  
 - أتغريني باسترداد الهدية؟  
 فنهض الرجل وهو يقول:  
 - هديتي لا تجاوز القصد فابدأ بغيرها يا بن عبد  
 الجواد والسلام عليكم ورحمة الله...  
 وغادر الشيخ الدكان مهزولاً وغاب عن الأنظار.  
 ولبت السيد مفكراً، ومضى يدير في نفسه ما ثار من  
 جدل بينه وبين الشيخ ثم بسط راحتيه في ضراعة وتمتم  
 «اللهم اغفر لي ما تقدم وما تأخر من ذنب، اللهم  
 إنك أنت الغفور الرحيم».

## ٨

عند العصر غادر كمال مدرسة خليل آغا يضطرب  
 في تيار زاهر من التلاميذ الذين يسدون الطريق  
 بزحمتهم ثم يأخذون في التفرق، بعضهم إلى الدراسة،  
 وبعضهم إلى السكة الجديدة، وآخرون إلى طريق  
 الحسين، على حين تتحلّق جماعات منهم حول الباعة  
 المتجولين الذين يعترضون تياراتهم عند رؤوس  
 الطرقات المنفردة عن المدرسة بما تحمل سلاهم من  
 اللب والفول السوداني والدوم والحلوى، وإلى هذا فلا  
 يخلو الطريق في هذه الساعة من معارك تشب هنا  
 وهناك بين تلاميذ اضطروا إلى كتمان خلافاتهم في أثناء  
 النهار تفادياً من العقوبات المدرسية. وكانت المرات  
 التي سبق فيها إلى الاشتباك في معركة نادرة جداً،  
 ولعلها لم تتعدّ المرّتين طوال العامين اللذين قضاهما في

بحيث لا يصدّق أنها تحرّم هاتيك المسرات حقاً، وحتى  
 في حال تحرّمها فهي حريّة بأن تغفو عن المذنبين ما لم  
 يؤذوا أحداً! الأرجح أنه كان يتلقّى الحياة بقلبه  
 وإحساسه دون ثمة تفكير أو تأمل، وجد بنفسه غرائز  
 قويّة، يطمح بعضها لله فراضها بالعبادة، ويتحفّز  
 بعضها الآخر للذات فأرواها باللهو، وخلطها بنفسه  
 جميعاً آمناً مطمئناً دون أن يشقّ على نفسه بالتوفيق  
 بينها. لم يكن يضطرّ إلى تبريرها بفكره إلّا تحت ضغط  
 انتقاد كالذي جابهه الشيخ متولّي عبد الصمد، وفي  
 هذه الحال يجد نفسه أضيق بالتفكير منه بالتهمة  
 نفسها، لا لأنه يهون عليه أن يكون متهماً أمام الله،  
 ولكن لأنه لا يصدّق أبداً أنه متهم، أو أنّ الله يغضبه  
 حقاً أن يلهو لهواً لا يصيب أحداً بأذى، أمّا التفكير  
 فكان يتعبه من ناحية ويكشف عن قفاهة علمه بدينه  
 من ناحية أخرى، لذلك تجهّم للسؤال الذي ألقاه  
 الرجل عليه متحذّياً وهو «باللسان أم بالعمل» وأجابه  
 بلهجة لا يخفى فيها الضيق:  
 - باللسان والعمل معاً، بالصلاة والصيام والزكاة،  
 بذكر الله قائماً وقاعداً، وما عليّ بعد ذلك إذا روّحت  
 عن نفسي بشيء من اللهو الذي لا يؤذي أحداً أو  
 يغفل فريضة، وهل حرّم محرّم إلّا لهذا أو ذاك؟  
 فرفع الشيخ حاجبيه وأغمض عينيه معلّناً عن عدم  
 اقتناعه ثم تمتم:

- يا له من دفاع في سبيل الباطل!  
 وتحول السيد فجأة من الضيق إلى المرح كعادته  
 فقال بأريحية:

- الله غفور رحيم يا شيخ عبد الصمد، إنّي لا  
 أتصوّره عزّ وجلّ غاضباً أو متجهّماً أبداً، حتّى انتقامه  
 رحمة خافية، وإنّي أقدم بين يديه الحبّ والطاعة والبرّ،  
 والحسنة بعشر أمثالها...  
 - أمّا في حساب الحسنات فأنت رابع...  
 فأشار السيد إلى جميل الحمزاوي ليأتي بهديّة الشيخ  
 وهو يقول مسروراً:

- حسّبتنا الله ونعم الوكيل.  
 وجاءه الوكيل باللفّة فأخذها السيد وقدمها إلى

عرف عنه من سباحة نفس ورقة شياكل حتى ألان عريكتهم فأصدروا عن الغلام عفوه بل وتهقدوا بحبايته كأحد أبنائهم، ولم ينته اليوم حتى بعث السيد بمن يحمل إليهم نفحة من هداياه، ونجا كمال من عصي الفتوات ولكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار، لأن عصا أبيه فعلت بقدميه ما لم تكن لتفعله عشرات العصي.

غادر الغلام المدرسة، ومع أنه كان لرلين الجرس المؤذن بانتهاء اليوم الدراسي فرحة في نفسه لا تعادها فرحة في تلك الأيام إلا أن نسائم الحرية التي نشقها خارج بوابة المدرسة بصدر رحب لم تمنح أصدقاء الدرس الأخير الحبيب - درس الديانة - من قلبه. وقد قرأ عليهم الشيخ ذلك اليوم سورة «قل أوحى إلي أني أنه استمع نفر من الجن» وشرحها لهم، فتركز فيه بوعيه، ورفع أصبعه أكثر من مرة سائلاً عما أغلق عليه، ولما كان الأستاذ يعطف عليه لإقباله على الاستماع لدرسه باهتمام بارز، إلى حفظه للسور حفظاً جيداً، فقد أوسع صدره لأسئلته بحال يندر أن يحظى بها أحد التلاميذ، وراح الشيخ يتحدث عن الجن وطوائفهم، وعن المسلمين منهم خاصة الذين سيطفرون بالجنة في النهاية أسوة بإخوانهم من البشر، وحفظ الغلام عن ظهر قلب كل كلمة نطق بها، ولم يزل يديرها في نفسه حتى هذه اللحظة التي يعبر فيها الطريق قاصداً دكان البسبوسة على الجانب الآخر، فإلى شغفه بالديانة كان يعلم أنه لا يتلقاها لنفسه فحسب، وأن عليه أن يعيد ما وعى منها في البيت على أمه - كما اعتاد أن يفعل مذ كان في الكتاب - فيلقي إليها بمعلوماته وتستعيد هي على ضوئها ما عندها من معلومات عرفت عن أبيها الذي كان شيخاً أزهرياً، ويتذاكران معارفها طويلاً ثم يحفظها الجديد من السور التي لم يسبق لها حفظها. وانتهى إلى دكان البسبوسة فمد يده الصغيرة بالماليم التي احتفظ بها منذ الصباح، ثم تناول القطعة في ارتياح شامل لا يشعر به إلا في مثل هذا الموقف اللذيذ، مما جعله يحلم كثيراً بأن يكون يوماً صاحب دكان حلوى ليأكلها لا لبيعها، ثم واصل سيره في

المدرسة، لا لندرة خلافاته التي لم تكن نادرة في الواقع، ولا لكراهية للعراك فقد أورثه اضطرابه إلى تحببه أسفاً عميقاً، ولكن لتقدم الكثرة الغالبة من التلاميذ عليه في السن مما جعله هو وقلة من أترابه غرباء في المدرسة يتعزّون في بنطلوناتهم القصيرة بين تلاميذ طعنوا فيها بعد الخامسة عشرة وكثير منهم ناهزوا العشرين، فشققوا طريقهم في صلف وكبرياء وقد طرّ شواربهم. من هؤلاء من كان يتعرض له في فناء المدرسة بلا سبب فيخطف الكتاب من يده ويقذفه بعيداً كالكرة، أو من يسلبه قطعة من الحلوى فيدسها في فمه بغير استئذان مواصلاً ما كان فيه من حديث، فلم تكن الرغبة في العراك لتنقصه ولكنه كظمها تقديرًا للعواقب، وما لبّاهما حتى دعاه إليها أحد أقرانه الصغار، فوجد الهجوم عليه متنفساً لعواطفه الثائرة المكبوتة واسترداده لثقتة بقوته ونفسه. وليس العراك، أو العجز عنه، بأسوا ما لاقى من وقاحة المعتدين، فإلى هذا ما كان يترامى إلى أذنيه، سواء كان المقصود به أم غيره، من الشتائم والسباب، منه ما فطن لمعناه فحذره، ومنه ما جهله فردّه في البيت بحسن نية فأثار به عاصفة من الثورة والفرع اتصلت أنباؤها في صورة شكوى لضابط المدرسة الذي كان صديقاً لأبيه، ولكن سوء الحظ وحده هو الذي قضى بأن يكون أحد غريميه في المعركتين الوحيدتين اللتين خاضهما من أسرة فتوات معروفة بالدراسة، فلما كان عصر اليوم التالي للمعركة وجد الغلام في انتظاره عند باب المدرسة عصابة من الشبان مدججين بالعصي في حالة من شرٍ مستطير، ولما أشار إليه غريمه ليدلّ عليه تنبه لحركته وأدرك ما يترتب به من خطر فراجع هارباً إلى المدرسة وهو يستغيث بالضابط، وعبثاً حاول الرجل أن يصرف العصابة عن مقصدها، وأغلظوا له القول حتى اضطّر إلى استدعاء شرطي ليوصل الغلام إلى داره، وزار الضابط السيد دكانه وأنباه بما يتهدد ابنه من شرٍ ناصحاً إياه بمعالجة الأمر بالحلم والكياسة، ولجأ السيد إلى بعض معارفه من تجار الدراسة فمضوا إلى بيت الفتوات مستشفعين له، وهنالك استعان السيد بما

مؤكدة له أن كبر الرأس من كبر العقل، وأن النبي عليه السلام كان كبير الرأس، وأنه ليس وراء التشابه بين الرسول وبينه من مطمع لطامع. ولما انتزع نفسه من صورة المدخنة واصل سيره رانياً هذه المرة إلى جامع الحسين الذي قضت نشأته بأن يكون لقلبه مثار أخيلة وعواطف لا تنضب. ومع أن المكانة التي نزلها الحسين من نفسه - تبعاً لمنزلته من نفس أمه خاصة والأسرة عامة كانت وليدة قرابته من النبي - إلا أن معرفته للنبي وسيرته لم تكن شفيعاً إلى معرفته بالحسين وسيرته، وما تهفو نفسه دائماً إليه من استعادة هذه السيرة والتزود منها بأنبل القصص وأعمق الإيمان. حتى لقد وجدت منه على مر القرون مستمعا مشغوفاً ومحباً مؤمناً وأسيافاً بكاء، فلم يهون من بلواه إلا ما قيل من أن رأس الشهيد بعد فصله عن جسده الطاهر لم يرض من الأرض مسكناً إلا في مصر فجاء طاهراً مسبحاً ثم نوى حيث يقوم ضريحه. وكم وقف حيال الضريح حالماً مفكراً، يود لو ينفذ ببصره إلى الأعماق ليطلع على الوجه الجميل الذي أكدت له أمه أنه قاوم غير الدهر بسره الألهي فاحتفظ بنضارته ورونقه حيث يضيء ظلمة المثلوى بنور غرته، ولما لم يجد إلى تحقيق أمنيته سبيلاً قنع بمناجاته في وقفات طويلة، مفصلاً عن حبه، شاكياً إليه متاعبه الناشئة من تصوراته عن العفاريث وخوفه من تهديد أبيه مستنجداً به على الامتحانات التي تلاحقه كل ثلاثة أشهر، ثم خائفاً مناجاته عادة بالتوسل إليه أن يكرمه بالزيارة في منامه. ومع أن عادة مروره بالجامع صباحاً ومساءً خففت بعض الشيء من شدة تأثره به إلا أنه لم تكن تقع عليه عيناه حتى يقرأ له الفاتحة ولو تكرّر ذلك منه مرّات في اليوم الواحد، أجل لم تستطع العادة أن تقتل من صدره بهجة الأحلام، فلم يزل لمنظر الجدران السامقة تجاوبها مع قلبه، ولم يزل لثدنته العالية نداء ما أسرع أن تلبّيه نفسه. قطع طريق الحسين وهو يقرأ الفاتحة ثم انعطفت إلى خان جعفر، ومنها اتجه إلى بيت القاضي، ولكنه بدلاً من أن يمضي إلى البيت مخترقاً النحاسين عبر الميدان إلى درب قمرز على وحشته

شارع الحسين وهو يقضم منها مسروراً مترنماً. نسي وقتذاك أنه كان سجيناً النهار كله، وأنه كان محروماً من الحركة فضلاً عن اللعب والمرح، وأنه كان عرضة في أية لحظة لعصا المدرّس المسلطة على الرؤوس، بيد أنه رغم هذا كله لم يكره المدرسة كراهية مطلقة لأنه كان يظفر بين جدرانها بأسباب من التقدير والتشجيع - بسبب تفوقه الذي يرجع كثير من الفضل فيه إلى شقيقه فهيم - لا يحظى بعشر معشارها عند أبيه. ومرّ في طريقه بدكان ماتوسيان لبيع السجائر فوقف كعادته كل يوم في مثل هذه الساعة تحت لافتتها يصعد عينيه الصغيرتين إلى الإعلان الملون الذي يصور امرأة مضطجعة على ديوان وبين شفتيها القرمزيتين سيجارة يتطاير منها دخان متعرج، معتمدة بساعدها على حافة نافذة يلوح وراء ستارها المنحسرة منظر يجمع بين حقل نخيل ومجرى من مجريات النيل، وكان يدعوها فيها بينه وبين نفسه «أبلة عائشة» لما بين الاثنين من شبه يتمثل في الشعر الذهبي والعينين الزرقاوين، ومع أنه كان يناهز العاشرة إلا أن إعجابه بصاحبة الصورة فاق كل تقدير، فكلم تخيلها متمتعة بالحياة في أبهى مناظرها، وكم تخيل نفسه وهو يقاسمها حياتها الرغيدة بين حجرة ناعمة، ومنظر ريفي متاح لها - لها - أرضه ونخيله وماؤه وسأؤه، يسبح في الوادي الأخضر أو يعبر النهر في قارب بدا في نهاية الصورة كالطيف، أو يهزّ النخيل فيساقط عليه الرطب، أو يجلس بين يدي الحسناء طامح الطرف إلى عينيها الحاملتين. على أنه لم يكن جيلاً كأكخويه، ولعله كان أشبه الأسرة بأخته خديجة، فمثلها قد جمع في وجهه بين عيني أمه الصغيرتين وأنف أبيه الضخم ولكن بكامل هيئته لا مهذباً بعض التهذيب كما ورثته خديجة، إلى رأس كبير يبرز عند الجبهة برواً واضحاً جعل عينيه تبدوان غائرتين أكثر ممّا هما في الواقع، وكان من سوء الحظ أن نبه إلى غرابه صورته بحال مثيرة للسخرية حين دعاه أحد الرفاق بابي «راسين» فأهاج غضبه وأورطه في إحدى المعركتين اللتين خاضهما، ولم يسكن خاطره الانتقام فشكا في البيت حزنه إلى أمه التي تكذّرت لكدره وراحت تعزّيه

وإثارته لمخاوفه ليتفادى من المرور بدتكان أبيه. كان يرتعد فرقا من أبيه ولا يتصور أنه يخاف العفريت لو طلع له أكثر منه إذا زعق به غاضبا، وضاعف من كربه أنه لم يقتنع يوما بالأوامر الصارمة التي يلاحقه بها للحيلولة بينه وبين ما تصبو إليه نفسه من اللعب والمرح، فلو أنه أذعن لمشيئته مخلصا لقضى وقت فراغه كله متربعا مكتوف اليدين لذلك لم يسعه أن يطيع تلك المشيئة الجبارة العاتية واختلس اللهو من وراء ظهره كلما حلا له، في البيت أو في الطريق، وظل الرجل على جهل بأمره إلا أن يبلغه شيء بوشاية من أهل البيت إذا ضاقوا بخلوه وإفراطه، من ذلك أنه جاء يوما بسلم وارتقاه إلى عرش اللبلاب والياسمين فوق السطوح، ورأته أمه وهو على تلك الحال بين السماء والأرض فصرخت فزعة حتى أجبرته على النزول، ثم غلب إشفاقها من مغبة لعبة خطيرة كتلك على خوفها عليه من شدة أبيه فصرحت للسيد بما كان منه، وسرعان ما دعا به وأمره أن يمد قدميه وانهاه عليها بعصاه غير مبال بصراخه الذي ملأ البيت، وغادر الغلام الحجرة وهو يظلع ليجد إخوته في الصالة وهم يغالبون ضحكهم إلا خديجة التي حملته بين يديها هامسة في أذنه «تساهل... كيف تعلقو اللبلاب وتناطح السهاء! أحسبت نفسك زبلن؟» على أنه فيما عدا الألعاب الخطرة كانت أمه تستر عليه وتبيح له ما يشاء من اللعب الهريء. ولشد ما يعجب كلما ذكر كيف كان هذا الأب نفسه ظريفا لطيفا معه على عهد طفولته القريبة، وكيف كان يتسلل بمداعبته وكيف ينفحه من أن لآخر بألوان شتى من الخلوى، وكيف هو عليه يوم الختان - على فظاعته - فملا حجره بالشيكلات والمليس وشمله بعطفه ورعايته، ثم ما أسرع أن تغير كل شيء فتبدل عطفه صرامة، ومناغاته زعقا، ومداعباته ضربا، حتى الختان نفسه اتخذ أداة لإرهابه حتى اختلط عليه الأمر ردحا من الزمن فظن أنه من الممكن حقا أن يلحقوا ما تبقى له بما ذهب! وليس الخوف وحده الذي شعر به نحو أبيه فإجلاله له لم يكن دون خوفه منه، كان يعجب بمظهره العظيم

القوي، ومهابته التي تعنوها الهام، وأناقته ملبسه، وما يعتقده فيه من قدرة على كل شيء، ولعل حديث الأم عن سيدها هو الذي هو له عنده فلم يتصور أنه يوجد في الدنيا رجل يضارعه في قوته أو إجلاله أو ثروته. أما عن الحب فقد كان كل من في البيت يحب الرجل لحد العبادات فانسرب حبه إلى قلبه الصغير بإجماع البيعة، بيد أنه ظل جوهرة مكنونة في حق مغلق من الخوف والرعب. مضى يقترب من قبور درب قرمز المظلم الذي تتخذ العفاريت مسرعا لألعابها الليلية، والذي أثره لنفسه طريقا عن المرور بدتكان أبيه، وعندما دخل في جوفه راح يقرأ «قل هو الله أحد» بصوت مرتفع رن في الظلمة تحت السقف المنحني، وسبقته عيناه إلى فوهة القبو البعيدة حيث يشع نور الطريق، ثم حث خطاه وهو يردد السورة لطرد من تحذته نفسه بالظهور من العفاريت، فالعفاريت لا سبيل لها على من يدور بآيات الله، أما أبوه فلن يدرا غضبه عنه إذا ثار أن يتلو كتاب الله كله. وخرج من القبو إلى الشطر الآخر من الدرب، وعند نهايته طالع سبيل بين القصرين ومدخل حمام السلطان، ثم لاحظت لعينه مشربيات بيته بلونها الأخضر القاتم، والباب الكبير بمطرقته البرنزية فاقتصر ثغره عن ابتسامه فرح لما يدخره له هذا المكان من أفانين المرح، فعما قليل يهرع الغلمان إليه من جميع البيوت المجاورة إلى فناءه الواسع الذي يحوي عدة حجرات تتوسطها الفرن فيكون لعب وهو وبطاطة. وفي تلك اللحظة رأى سوارس وهي تقطع الطريق على مهل متجهة إلى بين القصرين فوثب قلبه وشاع فيه سرور مأكرا، وما لبس أن دس حقيقته كتبه تحت إبطه الأيسر وجرى وراءها حتى أدركها ثم وثب إلى سلمها الخلفي، ولكن الكمساري لم يتركه في سروره طويلا فجاءه يطالبه بشمن التذكرة وهو يرمقه بنظرة تنم عن رغبة وتحذ فقال له متوذا إنه سيغادرها حالما تقف لأنه لا يسعه النزول وهي سائرة، فتحول الرجل عنه إلى السائق وهتف به أن يوقف العربدة وهو يزجر غاضبا فانتهاز الغلام فرصة تحوله عنه وشب على أمشاط قدميه وصفعه ثم وثب إلى الأرض وانطلق

هاربًا وشتائم الكمساري تلاحقه أشد من الأحجار المطينة... لم تكن خطة مدبرة، ولا هي من مختار شطارته، ولكنّه رأى غلامًا يفعلها في الصباح فراقته، ثمّ وجدها سائحة لإعادتها بنفسه ففعل.

## ٩

واجتمعت الأسرة - ما عدا الأب - قبيل المغيب فيما يعرف بينها بمجلس القهوة. وكانت الصالة بالدور الأول مكانه المختار حيث تحيط بها حجرات نوم الإخوة والاستقبال ورابعة صغيرة أعدت للدرس وقد قُرشَت الصالة بالخُصُر الملوّنة وقامت في أركانها الكنبات ذوات المساند والوسائد. وتدلّ من سقفها فانوس كبير يشعله مصباح غازي في مثل حجمه. وكانت الأم تجلس على كنبه وسيطة وبين يديها مدفاة كبيرة دفنت كنجة القهوة حتّى النصف في جمرتها التي يعلوها الرمد، وإلى يمينها خوان وضعت عليه صينية صفراء صقّت عليها الفناجين، يجلس الأبناء حيالها سواء من يؤذن له باحتساء القهوة معها كياسين وفهمي ومن لا يؤذن له بحكم التقاليد والآداب فيقنع بالسمر كالشقيقتين وكمال. تلك ساعة محببة إلى النفوس يستأنسون فيها إلى رابطتهم العائليّة، وينعمون بلذة السمر، وينضوون جميعًا تحت جناح الأمومة في حبّ صافٍ ومودة شاملة. وبدت في جلساتهم راحة الفراغ وتجرّره فكانوا بين مرتبّع ومضطجع، وبينما جعلت خديجة وعائشة تستحسان الشاربين على الفراغ من شربهم لتقرأ لهم الطالع في فناجينهم راح ياسين يتحدث حينًا ويقرأ في قصّة اليتيمتين من مجموعة مسامرات الشعب حينًا آخر. كان من عادة الشاب أن يهب بعض فراغه لمطالعة القصص والأشعار لا لإحساسه بنقص تعليمه - فالابتدائية وقتذاك لم تكن مطلبًا صغيرًا - ولكن غرامًا بالتسلية ولعًا بالشعر والأساليب الجزلة. وقد بدا بجسمه المكتنز في جلبابه الفضفاض كقربة هائلة إلا أنّ مظهره لم يتعارض - بحكم الزمن - مع قسامة في وجهه الأسمر الممتلئ بعينيه السوداءوين الجذابتين وحاجبيه المقرونين وشفثيه

الشهوانيتين، ونمّ بجملته - رغم حداثة سنّه الذي لا يجاوز الواحدة والعشرين - على رجولة مفعمة بالفحولة. ولبد كمال لصقه ليلتقط ما يرمي إليه بين آونة وأخرى من نوادر القصص وهو لا يكفّ عن الاستزادة منها غير مكترث لما يحدثه إلحاحه على أخيه من الضيق كي يشبع أشواقًا تشتعل بخياله في مثل هذه الساعة من كلّ يوم، ولكن ما أسرع أن يشغل عنه ياسين بالحديث أو بالاستغراق في المطالعة متفضّلًا عليه بين حين وآخر - كلّما اشتدّ إلحاحه بكلمات مقتضبة إن وجد بها الجواب على بعض أسئلته فيما أخرى أن تستثير أسئلة جديدة لا جواب لها عنده، ثمّ لا يفتأ يرمق أخاه وهو آخذ في المطالعة التي تبيح له مفتاح العالم السحريّ بعين الحسد والحزن، فكم حزّ في نفسه عجزه عن قراءة القصّة بنفسه، وكم أحزنه أن يجدها بين يديه بحيث يقلّبها كيف شاء دون أن يسمعه حلّ رموزها فالولوج منها إلى دنيا الرؤى والأحلام، فقد وجد في هذا الجانب من ياسين مثيرًا لخيله هيّا له من ألوان المسرة ما هيّا، وهيج من أسباب الظما وعذابه ما هيج، وكثيرًا ما كان يرفع عينيه إلى أخيه ويسأله في لهفة: «وماذا حدث بعد ذلك؟» فينفخ الشابّ قائلاً: «لا تضيّق عليّ بأسئلتك ولا تتعجّل حظّك فإن لم أقصّ عليك اليوم فغداً»، ولم يكن يجزئه شيء كاستنظاره للغد حتّى اقترنت لفظة الغد في ذهنه بالخسرة، ولم يكن نادرًا أن يتحوّل إلى أمّه بعد تفرّق المجلس وبه أمل أن تقصّ عليه ما «حدث بعد ذلك» ولكنّ المرأة كانت تجهل قصة اليتيمتين وغيرها ممّا يقرأ ياسين إلّا أنّها يعزّ عليها أن تردّه خائبًا فتروي له ما تحفظ من حكايات اللصوص والعفاريت فيروغ خياله إليها رويدًا ظافرًا بزاد من العزاء. في مجلس القهوة ذاك لم يكن عجيبًا أن يشعر بأنّه ضائع مهمل بين أهله، لا يكاد يلتفت إليه أحد، وأنهم مشغولون عنه بأحاديثهم التي لا تنتهي. فلم يتورّع عن الاختلاق في سبيل الاستئثار باهتمامهم ولو إلى حين، ولذلك رمى بنفسه في مجرى الحديث معترضًا تبارّه بجرأة وقال بلهجة حادة فجائية كانطلاق القذيفة كأنما تذكر أمرًا



خطيراً بغتة:

الايان على صدقه ولكن احتجاجة ضاع في ضجة من الضحك جمعت الغليظ والرفيع من حناجر الرجال والنساء في هارموني واحدة، وتحركت طبيعة خديجة الساخرة فقالت:

- ما أكثر ضحاياك، لو صدقت فيما تروي من أخبار لما أبقيت على أحد من أهل النحاسين حياً... ماذا تقول لربنا لو حاسبك على أخبارك هذه؟!

ووجد في خديجة مهاجماً يقدر عليه، وكعادته كلما ارتطم بسخريتها راح يعرض بأنفها قائلاً:

- أقول له إن الحق على منحور أختي...!

فقالت الفتاة وهي تضحك:

- من بعض ما عندهم. السنّا في البلوى سواء!

وهنا قال ياسين مرة أخرى:

- صدقت يا أختاه.

وتحوّلت إليه متحفزة للانقضاض فبادرها قائلاً:

- هل أغضبتك...! لماذا...! ليس إلا أنني

جاهرت بالموافقة على رأيك...

فقالت له حانقة:

- اذكر عيوك قبل أن تعرض بعيوب الناس...

فرفع عينيه متظاهراً بالحيرة ثم تمتم:

- والله إن أكبر عيب ليهون إلى جانب هذا

الأنف...

وتظاهر فهمي بالاستنكار ثم تساءل في نبرات

وشت بانضمامه إلى المهاجرين:

- ماذا قلت يا أخي، أهو أنف أم جريمة؟

ولمّا كان فهمي لا يشترك في مثل هذا النضال إلا

نادراً فقد رحب ياسين بقوله في حماس وقال:

- هي الاثنان معاً، فكّر في المسؤولية الجنائية التي سيتحمّلها من يقدّم هذه العروس إلى عريسها المنكود.

وقهقه كحال ضاحكاً بصوت كالصفيّر المتقطع ولم

ترتج الأم إلى وقوع ابنتها بين كثرة من المهاجرين

فأرادت أن ترجع الحديث إلى أصله وقالت بهدوء:

- خريج بكم الكلام الفارغ عن موضوع الحديث،

كان حديثاً عن السيّد كمال أصدّق في أخباره أم لم

يصدق، ولكن أظنّ أنّه لا داعي إلى الشكّ في صدقه

- يا له من منظر لا ينسى الذي رأيته اليوم وأنا عائداً... رأيت غلاماً يشب إلى سلّم سوارس ثمّ صفع الكمساري وركض بأكبر سرعة فما كان من الرجل إلا أن عدا وراءه حتّى أدركه ثمّ ركله في بطنه بكلّ قوّته...

وقلّب عينيه في الوجوه ليرى أثر حديثه فلم يجد ثمة اهتمام ولس إعرافاً عن خبره المثير وتصميماً على مواصلة الحديث، بل رأى يد عائشة تمتد إلى ذقن أمّه وتحولها عنه بعد أن همّت بالإصغاء إليه، ولمح إلى هذا ابتسامة هازئة ترتسم على شفطي ياسين الذي لم يرفع رأسه عن الكتاب، فركبه العناد وقال بصوت مرتفع:

- وسقط الغلام يتلوّى وازدحم حوله الناس فإذا به قد فارق الحياة...

وأبعدت الأم الفئجان عن فمها وهتفت:

- يا ولداه!... أتقول إنّه مات؟!

وسرّ باهتمامها وركّز قوّته فيها كما يركّز المهاجم اليائس قوّته في نقطة ضعيفة من سور منيع فقال:

- أجل مات، ورأيت بعينيّ دمه وهو يسيل بغزارة...

وحججه فهمي بنظرة ساخرة كأنّها تقول له «إني أذكر لك أكثر من قصّة من هذا النوع» وقال متسائلاً في تهكم:

- قلت إنّ الكمساري ركله في بطنه؟... فمن أين سال الدم؟!

وانطفأت شعلة الظفر التي تلالأت في عينيه منذ جذب أمّه إليه، وحلّ محلّها سهوم الارتباك والحنق، ولكن أسمعفه الخيال فاستردّت نظرة عينيه حيويّتها وقال:

- لمّا ركله في بطنه سقط على وجهه فشجّ رأسه!

وهنا قال ياسين دون أن يرفع عينيه عن اليتيمين:

- أو أنّ الدم سال من فيه، فالدم قد يسيل من الفم

دون حاجة إلى جرح ظاهريّ، هنالك أكثر من تفسير لخبرك المكذوب - كالعادة - فلا تخف...

واحتجّ كمال على تكذيب أخيه وراح يحلف بأغلظ

- مضى أربع سنوات ونحن نردّد هذا الكلام...  
 فقال فهمي برجاء وإشفاق:  
 - لكلّ حرب نهاية، ولا بدّ أن تنتهي هذه الحرب،  
 ولا أظنّ الألمان ينهزمون!...  
 - هذا ما ندعو الله أن يتحقّق، ولكن ماذا يكون  
 رأيك لو وجدنا الألمان كما يصفهم الإنجليز؟!  
 ولمّا كانت المعارضة تشعل حدّته فقد علا صوته  
 وهو يقول:  
 - المهمّ أن نتخلّص من كابوس الإنجليز، وأن تعود  
 الخلافة إلى سابق عظمتها فنجد طريقنا ممهّداً...  
 وتدخلت خديجة في الحديث متسائلة:  
 - ولماذا تحبّون الألمان وهم الذين أرسلوا زبلن ليلقي  
 قنابله علينا؟!  
 وراح فهمي يؤكّد - كعادته - أنّ الألمان قصصوا  
 الإنجليز بقنابلهم لا المصريين، فانتقل الحديث إلى  
 مناطيد زبلن وما يقال عن ضخامتها وسرعتها  
 وخطورتها، حتّى استوى ياسين في جلسته ونهض إلى  
 حجرته ليرتدي ملابسه تمهيداً لمغادرة البيت إلى سهرته  
 المعتادة، وعاد بعد فترة وجيزة وقد تهيّأ وأخذ زيتته،  
 فترأى أنيق الملبس، جميل المظهر، وبدا بجسمه  
 الضخم وفحولته الناضجة وشاربه الثابت أكبر من سنّه  
 كثيراً، ثمّ حيّاهم وانصرف وشيّعهم كيال بنظرة تنمّ عيّا  
 يغطيه عليه من التمتّع بحريّته في انطلاق ساحر، فلم  
 يغب عنه أنّ أخاه لم يعد يُحاسب - منذ تعيينه كاتباً  
 بمدرسة النحاسين - على ذهابه وإيابه، وأنّه يسهر كما  
 يشاء ويعود حين يشاء، ما أجلّ هذا وأسعده، وكم  
 يكون إنساناً سعيداً لو ذهب وجاء كما يحبّ، ومدّ  
 سهرته إلى حيث يشاء، وقصر القراءة - حين تتمّ له  
 أداتها - على الروايات والأشعار، ثمّ سأل أمّه فجأة:  
 - أيمكنني إذا وظّفت أن أسهر في الخارج كياسين؟  
 وابتمت الأمّ قائلة:  
 - ليس السهر في الخارج بالغاية التي يصحّ أن تحلم  
 بها من الآن!  
 فصاح محتجّاً:  
 - ولكن أبي يسهر، وياسين يسهر كذلك.

بعد أن حلف... أجل كيال لا يحلف كذباً أبداً...  
 وباخ سرور الغلام الانتقائيّ لتوّه، ومع أنّ إخوته  
 واصلوا المزاح حيناً آخر إلّا أنّه انقطع عنهم بروحه،  
 متبادلاً مع أمّه نظرات ذات معنى، ثمّ خالياً بنفسه  
 متفكّراً في قلق وكدر. كان يدرك خطورة الحلف  
 الكاذب فيما يثير من سخط الله وأوليائه، ويعزّز عليه  
 جدّاً أن يحلف كذباً بالحسين خاصّة لولعه به، ولكنّه  
 كثيراً ما وجد نفسه في مأزق حرج - كما وجد اليوم - لا  
 مخرج منه في نظره إلّا بالخلف الكاذب، فينساق وهو لا  
 يدري إلى التورّط فيه. بيّد أنّه لم يكن ينجو، خاصّة  
 إذا دُكر بجريسته، من الهمّ والقلق، ويودّ لو يقتلع  
 الماضي السيئ من جذوره، وأن يبدأ صفحة جديدة  
 نظيفة، وذكر الحسين، وموقفه عند أصل مثذنته حيث  
 تراءى وكأنّ هامتها تتصلّ بالسما، وسأله في ضراعة  
 أن يعفو عن زلّته وهو يشعر بغضاضة من اجترأ على  
 حبيب بإساءة لا تغفر. وغرق في توسلاته مليّاً ثمّ أخذ  
 يفيق إلى ما حوله ويفتح أذنيه إلى ما يدور من حديث  
 فيه ألعاد وفيه الجديد، وقليل منه ما يسترعي انتباهه،  
 ولكنّه لا يكاد يخلو من ترديد ذكريات منزعة من ماضي  
 الأسرة البعيد أو القريب، وأنباء ممّا يجري عن مسرّات  
 الجيران وأحزانهم، ومواقف حرجة للأخوين أمام أبيهما  
 الجبّار، تنهري خديجة إلى استعادة وصفها وتحليلها على  
 سبيل الفكاهة أو الشماتة، ومن هذه وتلك نمت للغلام  
 معرفة تبلورت في مخيلته على صورة غريبة تأثّر تكوينها  
 غاية التأثير بما تجاذب طرفيه من روح خديجة التهجميّة  
 وروح أمّه السمحة العفوة. وانتبه أخيراً إلى فهمي وهو  
 يقول مخاطباً ياسين:  
 - إنّ هجوم هندنبرج الأخير شديد الخطورة ولا  
 يبعد أن يكون الهجوم الفاصل في هذه الحرب.  
 وكان ياسين يعطف على آمال أخيه ولكن في هدوء  
 متّسم بقلّة الاكتراث، تمثّى مثله أن يتنصر الألمان  
 وبالتالي الترك وأن تستردّ الخلافة سابق عزّتها، وأن  
 يعود عبّاس ومحمّد فريد إلى الوطن ولكنّ أمنية من  
 هذه الأماني لم تكن لتشغل قلبه في غير أوقات الحديث  
 عنها، وقد قال وهو يهزّ رأسه:

فرغت الأم حاجبها ارتباكًا وتمتت:  
- شدّ حيلك أولًا حتّى تصير رجلًا ثمّ موقّفاً،  
ووقتها يفرجها ربّنا!

ولكن كمال بدا متعجلاً فتساءل:  
- ولماذا لا أتوقّف بالابتدائية بعد ثلاثة أعوام؟  
وصاحت خديجة في سخرية:

- تتوقّف دون الرابعة عشرة!... وماذا تصنع إذا  
بليت على نفسك في الوظيفة؟!  
وقبل أن يعلن ثورته على أخته قال له فهمي  
بازدراء:

- يا لك من حمار... لماذا لا تفكّر في دخول  
الحقوق مثلي؟... إنّ ظروف ياسين القاهرة هي التي  
جعلته يأخذ الابتدائية في العشرين من عمره، ولولاها  
لأتمّ تعليمه... ألا تدري كيف تتميّ يا كسول!

#### ١٠

عندما صعد فهمي وكمال إلى سطح البيت كانت  
الشمس على وشك الاختفاء، فلاح قرصاً أبيض  
مسالماً تولّت عنه حيويته وبردت حرارته وانطفأ  
توهجه، وقد بدا بستان السطح المسقوف باللبلاب  
والياسمين في ظلمة وانية، ولكنّ الشابّ والغلام مضيا  
إلى شطر السطح الآخر حيث لا يحجب فلول النور  
حجاب، ثمّ مالا إلى السور الملاصق لسور السطح  
المجاور، سطح الجيران. وكان فهمي يرقى بكمال إلى  
هذا الوضع كلّ مغيب بحجّة مراجعة دروسه في الهواء  
الطلق على الرغم من أنّ جوّ نوفمبر أخذ يميل إلى  
البرودة في هذه الساعة من اليوم، وأوقف الغلام  
بحيث جعل ظهره إلى السور، ووقف هو لقاءه بحيث  
أمكنه أن يمدّ بصره إلى سطح الجيران الملاصق دون  
تلفّت كلّما بدا له. وهناك بين حبال الغسيل لاح  
فتاة - شابة في العشرين أو نحو ذلك - وقد انهمكت في  
جمع قطع الثياب الجافّة وتكديسها في سلّة كبيرة. ومع  
أنّ كمال راح يتكلّم بصوت مرتفع كعادته إلّا أنّها  
واصلت عملها وكأنّها لم تنتبه إلى مجيء الطارئ. أمل  
كان يجيء به دائماً في مثل هذه الساعة لعلّه يفوز منها

بنظرة إذا اتّفق ودعاها إلى السطح بعض شأنها، ولم  
يكن تحقيقه سيراً كما دلّ تورّد وجهه الناطق بفرط  
سروره، وخفقان قلبه المتتابع بهجة مفاجئة، فجعل  
ينصت إلى أخيه الصغير بعقل تائه وعينين أفلقهما  
استراق النظر، وهي تترأى تارة وتحتجب أخرى، أو  
يبدو بعضها ويغيب بعضها، كيفما اتّفق موقفها من  
الثياب والملاءات المنشورة... كانت فتاة متوسّطة  
القامة صافية البشرة مع ميل إلى البياض، سوداء  
العينين، تنطق مقلتهاها بنظرة تفيض حياة وخفّة  
وحرارة، إلّا أنّ جمالها وعاطفته المتوتّبة وإحساسه  
بالظفر لرؤيتها لم تستطع أن تمحو القلق الذي يدبّ  
وراء قلبه - وانيًا حين حضورها ثمّ قوياً إذا خلا إلى  
نفسه - لجرائها على التعرّض لعينه كأنه ليس بالرجل  
الذي ينبغي أن تتوارى فتاة مثلها عن عينيه، أو كأنّها  
فتاة لا تباي التعرّض للرجال، وطالما ساءل نفسه ما  
بالها لا تفزع موليّة كخديجة أو عائشة لو وجدت  
إحداها نفسها في مثل موقفها! أيّ روح عجيب يشدّ  
بها عن التقاليد المرعية والأداب المقدّسة!، وألّا يكون  
أهدأ جانباً لو بدا منها ذاك الاحتشام المتقد ولو على  
حساب سروره الذي يفوق الوصف برؤيتها؟!...  
بيد أنّه دأب على انتحال الأعذار لها من يَدَم الجوار  
ووحدة النشأة، وربّما الوداد أيضاً. ثمّ لا يفتأ وراء  
نفسه يحاورها ويجادلها حتّى تشجع وترضى. ولما لم  
يكن جريئاً كجرائها فقد جعل يحنّس من الأسطح  
المجاورة النظر ليطمئنّ إلى خلوها من الرقيب لأنّه لم  
يكن ممّا يُغضّ الطرف عنه أن يجرح شابّ في الثامنة  
عشرة حرمة الجيران، وخاصّة من كان منهم في طيبة  
جارهم السيّد محمّد رضوان ولهذا أفلقه دائماً شعوره  
بخطورة فعلته، وخوفه من أن يترامى نبؤها إلى أبيه  
فتكون الطامة. ولكنّ استهانة الحبّ بالمخاوف عجب  
قديم فلم يقدر شيء منها على إفساد نشوته أو انتزاعه  
من حلم ساعته، فمضى يراقبها وهي تبدو أو تختفي  
حتّى خلا ما بينه وبينها وباتت تواجهه ويداعها  
الصغيرتان ترتفعان وتنخفضان وأصابعها تنقبض  
وتنبسط على مهل وتؤدّه كأنّها تتعمّد إطالة عملها.

إلى موقفه هذا مساء بعد مساء؟... وكيف يلقي قلبها هذه الخطى الجريئة من ناحيته؟... وتخيل نفسه متخطيًا سور السطوح إلى مكانها في الظلام، وتخيلها على أطوار شتى تارة تنتظره على ميعاد، وتارة تباغت بمقدمه حتى تهتم بالفرار، ثم تصور ما يكون بعد ذلك وما يند عنه من بوح وشكوى وعتاب، ثم ما قد يستتبعه هذا أو ذاك من عناق وقُبُل، بيد أنها كانت عرض تحيُّلات وأوهام، وكان أدرى الناس - بما جبل عليه من دين وآداب - ببطلانها ومغالها. وبدأ الموقف صامتًا إلا أنه كان صمًّا مكهرًا يكاد ينطق بغير لسان، وحتى كمال لاحت في عينيه الصغيرتين نظرة حائرة كأنه يسائل نفسه عن معنى هذا الجلد الغريب الذي يثير استطلاعاً على غير جدوى، ثم نفذ صبره فرفع صوته قائلاً:

- لقد حفظت الكلمات، ألا تسمعه لي؟

وأفاق فهمي على صوته فتناول الكرّاسة منه ومضى يسأله عن معاني الكلمات والآخر يجيب حتى وقعت عيناه على كلمة عزيزة وجد بينها وبين ما كان فيه سبباً وأي سبب فرفع صوته عمداً وهو يسأله عن معناها قائلاً:

- قلب...؟

وأجاب الغلام وتهبّجى الآخر يتلمّس أثر موقع الكلمة من وجهها، ثم رفع صوته مرّة أخرى متسائلاً:

- حب...؟

وارتبك كمال قليلاً ثم قال بصوت يدلّ على الاعتراض:

- ليست هذه الكلمة في الكرّاسة...

قال فهمي باسماً:

- ولكنّي ذكرتها لك مراراً، وكان يجب أن تحفظها...!

وقطّب الغلام كأنه يشدّ قوس حاجبيه لاصطياد الكلمة الهاربة ولكنّ أخاه لم ينتظر نتيجة محاولته وواصل امتحانه بنفس الصوت المرتفع قائلاً:

- زواج...

وحس قلبه ذاك التعمّد وهو بين الشكّ والتمنّي ولكنّه لم يقتصد في الانطلاق مع فرحته إلى أبعد الآفاق حتى استحال باطنه رقصاً وأنغاماً، ومع أنّها لم ترفع عينها إليه قطّ إلا أنّ هبتها وتورّد وجنتيها وتحاميتها النظر إليه نمت جميعاً عن شدّة إحساسها بوجوده أو انعكاس وجوده على إحساسها. وبدت في هدوئها وصمتها موفورة الرزانة كأنّها ليست هي التي تشيع الفرحة والبهجة في بيته إذا زارت شقيقته، أو ليست هي التي يعلو صوتها في جنبات الدار وترنّ ضحكاتها، هنالك يقبع وراء باب حجرته وكتابه في يده استعداداً للتظاهر بالاستدكار إذا طرّقه طارق، ويروح يستقبل بوعيه المركز أنغامها الناطقة والضاحكة بعد استخلاصها من أصوات الآخرين الملبسة لها التي لا يكاد يشعر بها كأنّها وعيه مغناطيس يجذب إليه الصلب وحده من بين أخلاط شتى، وربما لحظ بعضاً منها وهو يعبر الصالة، وربما التقت عيناهما في لمحة خاطفة ولكنّها كافية لإسكاره وإذهاله كأنّه تلقى بها رسالة خطيرة دار رأسه بخطورتها، وملاً بنظراته المسترقة من وجهها عينيه وروحه، على الرغم من أنّها كانت مسترقة خاطفة إلا أنّها مستأثرة بروحه وإحساسه فكانت شديدة النفاذ والقوة التي تأتي النظرة منها بما لا يستطيعه النظر الطويل والسير العميق، كأنّها انبثاق البرق الذي يتوهج لحظة قصيرة فتضيء شرارته الرحاب وتختطف الأبصار، وتمل قلبه بسرور مسكر عجيب ولكنّه لم يخلُ - كحالة أبداً - من ظلّ أمي يتبعه كما تتبع رياح الحُمسين مشرق الربيع، لأنّه لم يكن يكفّ عن التفكير في الأربعة الأعوام التي يتمّ تعليمه فيها، والتي لا يدري كم من يد قد تمتدّ في أثنائها إلى الثمرة الناضجة لتطففها. ولو كان جو البيت غير هذا الجو الخائى الذي تشدّ على عنقه قبضة أبيه الحديدية لأمكنه أن يلمس إلى سلام قلبه أقصر السبل، ولكنّه خاف دائماً أن ينفس عن آماله فيعرّضها لزجرة من أبيه قاسية تطيرها وتبددها. وتسأله وهو يمدّ بصره فوق رأس أخيه تُرى أيّ أفكار تدور برأسها؟ ألا يشغله حقاً إلا ما تجمع من قطع الملابس؟... ألم تشعر بعد بما يجذبه

وخيّل إليه عند ذاك أنّه لمح على شفتيها شبه ابتسامة فتوالت ضربات قلبه في سرعة وحرارة، وملأه شعور بالظفر لأنّه أمكنه أخيراً أن ينقل إليها شحنة من الكهرباء التي تستعر في صدره، بيّد أنّه تساءل لماذا يا ترى لم تفصح عن تأثرها إلّا عند هذه الكلمة، ألاّتها استنكرت سابقتها أم أنّ الأخيرة كان أوّل ما وعت أذناها؟! ... وما يدري إلّا وكهال يقول محتجاً بعد أن أعياه التذكّر:

- هذه الكلمات صعبة جدّاً. . .

وأمن قلبه بقوله أخيه البريّة، وذكر على ضوئها حاله ففترت فورة سروره أو كادت. وهمّ بالكلام ولكنّه رآها انحنت على السّلة ثمّ حملتها وأنجّمت نحو السور الملاصق لسطح بيته ووضعتها عليه وراحت تضغط الغسيل براحتيها، قريبة من موقعه لا يفصلها عنه إلّا ذراعان، ولو شاءت لاختارت موضعاً آخر من السور ولكن كأنّها تعمّدت أن تتصدّى له وجهها لوجه، فبدت في هجومها جريئة لحدّ أخافه وأربكه، وإن عاود قلبه الخفقان السريع الحارّ حتّى شعر بأنّ الحياة تبيح له من كنوزها لوناً جديداً لم يذره، لطيفاً بهيجاً مفعماً حيويّة وأفراحاً. ولكنّ وقفها القريبة لم تطلّ فما لبثت أن رفعت السّلة بين يديها واستدارت موليّة صوب باب السطح حتّى مرقت منه وغابت عن ناظره. وجعل ينظر إلى الباب مليّاً دون مبالاة بأخيه الذي عاود التشكّي من صعوبة الكلمة ثمّ شعر برغبة في الانفراد لتملّي ما استجدّ من تجارب الهوى فقلّب عينيه في الفضاء في تظاهر بالدهشة كأنّها يتنبّه إلى الظلمة الزاحفة في الأفق لأوّل مرّة، وتمتم قائلاً:

- أن لنا أن نعود. . .

وكان كهال يستذكر دروسه في الصّالة، تاركاً حجرة الاستذكار لفهمي وحده، ليكون غير بعيد عن مجلس أمّه وأختيه؛ وكان ذلك المجلس امتداداً لمجلس القهوة إلّا أنّه يقتصر على النسوة وحديثهنّ الخاصّ الذي يجدن فيه على تفاهته متعة لا تدانيها متعة، وقد جلسن

كعادتهنّ متلاصقات كأنّهنّ جسم واحد ذورءوس ثلاثة في حين ترّبع كهال على كتبة أخرى قبالهنّ فاتحاً كتابه في حجره يقرأ فيه حيناً، ويغمض عينيه ليحفظ عن ظهر قلب حيناً آخر، ويتسلّى بين هذا وذاك بالنظر إليهنّ والإصغاء لحديثهنّ، ولم يكن فهمي يوافق على استذكاره لدروسه بعيداً عن مراقبته إلّا على كره ولكنّ تفوّق الغلام في المدرسة شفع له في اختيار المكان الذي يحبّ أن يستذكر فيه. والحقّ كان اجتهاده فضيلته الوحيدة التي تحمّد له، ولولا شقاوته لاستحقّق عليها تشجيع أبيه نفسه، ولكنّه على اجتهاده وتفوّقه كانت تلمّ به ساعات ملل فيضيق بالعمل والنظام حتّى ليغبط أمّه وأختيه على خلوّ بالهنّ وما يحظّين به من راحة وسلام، وربّما تمّقي فيما بينه وبين نفسه لو كان حظّ الذكور في هذه الدنيا كحظّ النساء. إلّا أنّها كانت ساعات عابرة فلم تستطع أن تنسيه ما يتمتّع به من مزايا دعته في أحيان كثيرة إلى التناول عليهنّ بالفخر والمباهاة لداعٍ ولغير ما داعٍ فلم يكن من النادر أن يسألنّ وفي صوته رنة من التحدّي «من منكنّ تعرف عاصمة الكاب؟» أو «ما معنى شابّ بالإنجليزية؟» فيجد من عائشة صمناً لطيفاً على حين تقرّ له خديجة بجهلها ثمّ تعرّض به قائلة: «ليس لهذه الطلاسم إلّا من كان له رأس كراسك!» أمّا أمّه فتقول له في إيمان ساذج: «لو علّمتني هذه الأشياء كما تعلّمي الديانة لما قصّرت فيها دونك». ذلك أنّ أمّه - على استكانتها ورقّتها - كانت شديدة الاعتزاز بثقافتها الشعبيّة المتوارثة عن أجيال متعاقبة منذ القدم، ولم تكن تظنّ أنّها بحاجة إلى مزيد من العلم أو أنّه استجدّ من العلم ما يستحقّ أن يضاف إلى ما لديها من معارف دينيّة وتاريخيّة وطبيّة، وضاعف من إيمانها بها أنّها تلقّته عن أبيها أو في بيته الذي نشأت فيه، وكان الأب شيخاً من العلماء الذين فضّلهم الله - لحفظهم القرآن - على العالمين. فلم يكن معقولاً أن تعدل بعلمه علماً ولو لم تجهز برأيها إيتاراً للسلامة، ولهذا كثيراً ما أساءت الظنّ ببعض ما يقال للأبناء في المدارس ووجدت ثمة حيرة شديدة سواء في تفسيره أو في السماح بتلقينه للناسئين،

كان لا يشرب جرعة الماء من القُلة إلا إذا دعاها للشرب قبله ليضع شفتيه موضع شفتيها المبتلّ بريقها. ومضت الجلسة كما تمضي كل ليلة حتّى قاربت الساعة الثامنة فقامت الفتاتان وودّعتا أمهما وذهبتا إلى حجرة نومهما، وعند ذلك عجل الغلام بقراءة درسه حتّى فرغ منه ثم تناول كتاب الديانة وانتقل إلى جانب أمه على الكنبه المقابلة له وهو يقول لها بصوت ينم عن الإغراء:

- استمعنا اليوم إلى تفسير سورة عظيمة ستعجبك جدًا.

فاستوت المرأة في جلستها وهي تقول باحترام وإجلال:

- كلام ربنا عظيم كلّ... .

وسره اهتمامها وهزه شعور بالغبطة والعزة لا يجده إلا حين هذا الدرس الأخير من اليوم. أجل كان يجد في هذا الدرس الديني أكثر من سبب للسعادة، فإنّه يقوم في أثناء نصفه على الأقلّ بدور المدرّس، ويحاول ما استطاع أن يستعيد ما يعلق بذاكرته من هيئة مدرّسه وحركاته وما يتمثله فيه من إحساس بالاستعلاء والقرّة، وإنّه يستمتع في نصفه الآخر بما تلقى عليه أمه من ذكريات وأساطير، وإنّه يستأثر وحده في شطريه بأقمة دون شريك. ونظر كمال في الكتاب فيما يشبه الإدلال ثم قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم. قل أوحى إليّ أنّه استمع نقر من الجنّ فقالوا إنّنا سمعنا قرآنًا عجيبًا، يهدي إلى الرشد فأمّا به ولن نشرك بربنا أحداً...» حتّى أتمّ السورة ولاح في عيني الأم التردّد والخيرة، إذ كانت تحدّره من التفوّه باسمي العفريت والجنّ درّةً لشور تذكّر بعضها على سبيل التخويف وتمسك عن البعض إشفاقاً ومبالغة في الحبيطة، فلم تدر كيف تتصرّف وهو يتلو أحد الاسمين الخطيرين في سورة شريفة، بل لم تدر كيف تحول بينه وبين حفظها أو ماذا تفعل لو دعاها كالعتاد إلى حفظها معه. وقرأ الغلام في وجهها هذه الخيرة فداخله سرور مأكّر، وجعل يبدأ ويعيد ضاغظاً على مخارج الاسم الخطير وهو يلحظ حيرتها متوقّفاً أن تنصح أخيراً عن إشفاقها

بيد أنّها لم تعثر باختلاف يذكر بين ما يقال للغلام في المدرسة عن أمور الدين وبين ما لديها منها، ولمّا كان المدرس المدرسي لا يكاد يتّسع إلا لقراءة السور وتفسيرها وتبيّن المبادئ الدينيّة الأولى فقد وجدت متسعاً لقص ما عندها من أساطير لا تنفصل في اعتقادها عن حقيقة الدين وجوهره بل لعلّها رأّت فيها دائماً حقيقة الدين وجوهره، وجلّها معجزات وكرامات عن النبيّ والصحابة والأولياء، وتعاوّد شتّى للوقاية من العفاريت والزواحف والأمراض فصدّتها الغلام وآمن بها، لأنّها صادرة عن أمه من ناحية، ولأنّها جديدة في موضوعها فلم تتعارض مع معارفه الدينيّة المدرسيّة من ناحية أخرى، وفضلاً عن هذا وذاك فلم تكن عقليّة مدرّس الديانة كما تنكشف في تبسّطه في الحديث أحياناً - لتختلف عن عقليّة أمه كثيراً أو قليلاً، ثمّ إنّ شغف بالأساطير شغفاً لم يظفر بمثله في الدروس الجافّة فكان درس أمه من أسعد ساعات اليوم وأحفلها بالمتعة والخيال. أمّا فيها عدا الدين فلم يكن النزاع نادراً إذا تبيّنت أسبابه، من ذلك أنّها اختلفت مرّة عن الأرض وهل هي تدور حول نفسها في الفضاء أو تهض على رأس ثور، ولمّا وجدت من الغلام إصراراً تراجعت مظاهرة بالتسليم، ولكنّها تسلّلت إلى حجرة فهمي وسألته عن حقيقة الثور الذي يحمل الأرض وهل ما زال على عهده يحملها. ورأى الشاب أن يترقّب بها ويبيها باللغة التي تحبّها فقال لها إنّ الأرض مرفوعة بقدرة الله وحكمته. وعادت المرأة قانعة بهذا الجواب الذي سرّها وإن لم يمتّع من مخيلتها ذاك الثور الكبير. على أنّ كمال لم يؤثر هذا المجلس لاستدكاره رغبة منه في الفخر بعلمه أو حبّاً في النزاع الفكريّ، كان في الحقّ يحبّ بكلّ قلبه ألا يفارقهنّ ولو في وقت عمله، وكان يجد لمرآته سروراً لا يعادله سرور، فهذه الأم يحبّها أكثر من أيّ شيء في الدنيا ولا يحتمل تصوّر الوجود بدونها لحظة واحدة، وهذه خديجة وهي تلعب في حياته دور أم أخرى رغم سلاطة لسانها ووخز مزاحها، وهذه عائشة التي وإن لم تتحمّس يوماً لخدمة إنسان إلا أنّها أحبّه حباً عظيماً فبأدائها حبّاً بحبّ حتّى

بتأثير الضياء، وساءل نفسه متى يرى الله، وفي أي صورة يتبدى، وإذا به يسأل أمه مغيرًا مجرى الحديث فجأة مرة أخرى:

- أيجاف أبي الله؟!

فتولتها الدهشة وقالت في إنكار:

- يا له من سؤال غريب!... أبوك رجل مؤمن يا بني، والمؤمن يخاف ربه.

فهز رأسه في حيرة وقال بصوت خفيض:

- لا أتصور أن أبي يخاف شيئًا.

فهمت المرأة في عتاب:

- ساعك الله... ساعك الله...

واعتذر عن قوله بابتسامة رقيقة، ثم دعاهما إلى حفظ السورة الجديدة، وراحا يتلوانها آية آية ويعيدان. ولما استفرغا جهدهما نهض الغلام ليذهب إلى حجرة النوم فتبعته حتى اندس في فراشه الصغير، ثم وضعت راحتها على جبينه وتلت آية الكرسي، وانحنى فوقه وطبعت قبلة على خده فأحاط عنقه بذراعه وردّ بقبلة طويلة صادرة من أعماق قلبه الصغير. وكانت تلقى دائمًا صعوبة في التخلص منه عند توديعه مساء لأنه كان يذلل كل حيلته ليستيقظها إلى جانبه أطول مدة ممكنة إن لم يفز باستبقائها حتى يغيب في نومه وهو بين ذراعيها، ولم يجد وسيلة لبلوغ غايته خيرًا من أن يطلب إليها أن تتلو على رأسه. إذا ختمت آية الكرسي - سورة ثانية ثم ثالثة، حتى إذا آنس منها ابتسامة اعتذار توسّل إليها معتلاً بخوفه من وحدته في الحجرة أو بما يترأى له به من أحلام مزعجة لا تدفعها إلا تلاوة طويلة للسور الشريفة، وربما تمادى في تشبّثه بها إلى حدّ تصنّع المرض، غير واجد في تحايله هذا جورًا، بل رآه عن يقين ممارسة منقوصة لحقّ من حقوقه المقدّسة التي هضمت أظفح هضم يوم فصل عن أمه ظلمًا وعدوانًا وجي به إلى هذا الفراش المفرد بحجرة أخويه. كم يذكر مع الحسرة عهدًا غير بعيد من ماضيه حين مضجعهما كان واحدًا، وحين ينام متوسّدًا ذراعها وهي تسكب في أذنه بصوتها الرقيق قصص الأنبياء والأولياء، وحين النوم يغشاه قبل رجوع

في لون من ألوان الاعتذار، ولكّنها على شديد حيرتها لاذت بالصمت فمضى يعيد عليها التفسير كما سمعه حتى قال:

- ها أنت ترين أن من الجنّ من استمع إلى القرآن وآمن به، فلعلّ سكّان بيتنا من هؤلاء الجنّ المسلمين ولأما ما أبقوا علينا طوال هذا العمر.

فالت المرأة في شيء من الضيق:

- لعلمهم... ولكن من الجائز أن يكون بينهم غيرهم، فيحسن بنا ألا نردّد أساءهم! - لا خوف من ترديد الاسم... هكذا قال مدرّسنا.

فحدجته المرأة بنظرة عتاب وقالت:

- المدرّس لا يعرف كلّ شيء!..

- وإن كان الاسم ضمن آية شريفة؟

وشعرت سحّال تساؤله بقهر ولكّنها لم تجد بداً من أن تقول:

- كلام ربنا بركة كلّ.

واقننت كمال بهذا القدر ثم واصل حديثه عن التفسير قائلاً:

- ويقول شيخنا أيضًا إن أجسامهم من نار!

وبلغ بها القلق غايته فاستعادت بالله وبسملت عدّة مرّات، أمّا كمال فاستطرد قائلاً:

- وسألت الشيخ هل يدخل المسلمون منهم الجنة فقال نعم فسألته مرة أخرى كيف يدخلونها بأجسام من نار، فأجابني بحدّة قائلاً إن الله قادر على كلّ شيء.

فرنا إليها باهتمام ثم تساءل:

- وإذا التقينا بهم في الجنة ألا تحرقنا نارهم؟!

فابتسمت المرأة وقالت في ثقة وإيمان:

- ليس فيها أذى أو خوف.

وسرح الغلام بعينه حالمًا وإذا به يسأل مغيرًا مجرى الحديث فجأة:

- أنرى الله في الآخرة بأعيننا؟

قالت المرأة بنفس الثقة والإيمان:

- هذا حق لا ريب فيه.

فلاحت في نظرتها الحاملة أشواق كما تلوح في الغلس

- ما سمع أحد لي شخيراً قط، ولكنّها لا تدعي أنام بثرثرتها المتواصلة.

فقلت الأمّ في عتاب:

- أين وصيّتي لكما بأن تكفّا عن هذركما وقت النوم؟ وردّت الباب وسارت إلى حجرة الاستذكار فطرفت بابها بخفّة ثمّ فتحت وأدخلت رأسها وهي تقول باسمّة:

- أفي حاجة إلى خدمة يا سيّدي الصغير؟

فرفع فهمي رأسه عن الكتاب وشكرها مشرق الوجه بابتسامة لطيفة، فردّت الباب وابتعدت عنه وهي تدعو لفتاها بالفلاح وطول العمر، ثمّ عبرت الصالة إلى الدهليز الخارجي وارتقت السلم إلى الدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم السيّد وصوتها يسبقها نالياً الآيات.

## ١٢

لما غادر ياسين البيت كان يدري بطبيعة الحال وجهته التي يقصد مساء بعد مساء ولكنّه بدا - كمعادته دائماً إذا مشى في الطريق - وكأنّه لا وجهة له. كان شأنه إذا سار أن يسير متمهلاً في هوادة ورفق، مختلاً في عجب وزهو، كأنّه لا يغفل لحظة واحدة عن أنّه صاحب هذا الجسم العظيم وهذا الوجه الفاضل حيويّة وفحولة، وهذه الملابس الأنيقة الآخذة حظّها - وأكثر - من العناية، إلى منشئة عاجيّة لا تفارق يده صيقاً أو شتاء، وطربوش طويل مائل يمنة حتّى يكاد يمسّ حاجبه، ومن عادته أيضاً إذا سار أنّه كان يرفع عينيه - دون رأسه - مستطعاً ما وراء النوافذ لعلّ وعسى، فلم يكن يقطع طريقاً حتّى يشعر في نهايته بما يشبه الدوار من كثرة تحريك عينيه، إذ كان ولعمه بالتهام النسوة اللاتي يصادفنه داء لا شفاء منه، فهو يتفحصهنّ مقبلات ويتبع عينيه أردافهنّ مديرات، ويظلّ في قلقه كثور هائج حتّى ينسى نفسه فلا يعود يتدبّر مداراة مقاصده، الأمر الذي تنبّه له مع الزمن عمّ حسنين الحلاق والحاجّ درويش بائع الفول والفوليّ اللبان ويومي الشربلي وأبو سريع صاحب المقل

أبيه من سهرته، وينحسر عنه بعد نهوض الرجل إلى الحطام، فلم يكن يرى مع أمّه ثالثاً، وكانت الدنيا له بلا شريك. ثمّ بقضاء أعمى لم يدر له حكمة فرقوا بينهما، وتطلّع إليها ليرى أثر نفيه في نفسها فما عجب إلّا بتشجيعها الموحى بموافقتها وتهنئتها له قائلة: «الآن صرت رجلاً فمن حقّك أن يفرد لك فراش خاصّ»، من قال إنّ سرّه أن يكون رجلاً أو أنّه يطمح إلى أن يفرد له فراش خاصّ! ومع أنّه بلّل أوّل وسادة خاصّة له بدمعه، ومع أنّه أنذر أمّه بأنّه لن يعفو عنها مدى الحياة، إلّا أنّه لم يجرؤ على التسلّل إلى مضجعه القديم لأنّه كان يعلم أنّ وراء تلك الحركة الجائرة الغادرة تجثم إرادة أبيه التي لا تردّ، ولشّد ما حزن حتّى رسبت عكارة الحزن في أحلامه، ولشّد ما حنق على أمّه - لا لأنّه لم يسعه أن يحقن على أبيه فحسب - ولكن لأنّها كانت آخر من يتصوّر أن يخيب عنده الأمل، يئد أنّها عرفت كيف تسترضيه وتردّه إلى الصفاء رويداً ودأبت على ألا تفارقه بادئ الأمر حتّى يوافيه النوم، وجعلت تقول له: «لم نفرّق كما تزعم، ألسنت ترانا معاً؟ وسنبقى دائماً معاً، لن يفرّق بيننا إلّا النوم الذي كان يفرّق بيننا ونحن في فراش واحد». والآن لم تعد تطفو على شعوره حسرة ممّا تخلف عن تلك الذكرى، واستنام إلى حياته الجديدة، يئد أنّه لم يكن يدعها تذهب حتّى يستنفد الحليل لاستبقائها إلى جانبه أطول مدّة ممكنة، وقد قبض على راحتها في حرص شديد كما يقبض الطفل على لعبته بين أطفال يتخاطفونها. وراحت هي تلو الآيات على رأسه حتّى غافله الكرى، فودّعته بابتسامة رقيقة وغادرت الحجرة وأنجّمت إلى الحجرة التالية ففتحت بابها في خفّة ونظرت صوب فراش لاح شبّحه في جانبها الأيمن وتساءلت في رقة: «ممتناً؟» فجاءها صوت خديجة وهي تقول:

- كيف يتأتّى لي النوم وشخير ستّ عائشة يملأ عليّ

الحجرة!؟

ثمّ سُمع صوت عائشة وهي تقول في نبرات ناعسة:



الأرائك. واتخذ مجلسه على أريكة تحت الكوة - مجلسه المختار منذ أسابيع - وطلب الشاي. جلس بحيث يواجه بصره في سر ودون إثارة ظن إلى الكوة، ومنها يصعد كلاً يشاء إلى نافذة صغيرة في بيت على الجانب الآخر للطريق، لعلها كانت الوحيدة بين النوافذ المغلقة التي لم يعن بإحكام إغلاق خصاصها، ولا عجب فقد كانت تابعة لمسكن زبيدة «العالة» ولم تكن «العالة» مطمحة فدون هذا مراحل من المجنون عليه أن يجتازها في صبر وأناة، ولكنّه راح يرصد ظهور زئوبة العوادة ربيبة «العالة» ونجمة تحتها اللامعة. وكانت فترة توظيفه بالحكومة عهداً حافلاً بالذكريات جاءه بعد طول تقشّف إجباريّ عاناه محاذراً في ظل أبيه الرهيب، فانطلق من ثمة كالشلال ينحدر في مهاوي الأزيكية على ما لاقى من مضايقات الجنود الذين قذفهم عجلة الحرب إلى القاهرة، ثمّ ظهر في الميدان الاستراليون فاضطروا إلى التخلي عن مغاني العبت فراوا من وحشيتهم وضابت به السبل فمضى يتقلب في أزقة حيّه كالمجنون وأقصى ما يطمع فيه من لذّة بائعة يرتقل أو غجريّة تمّن يقرآن الطالع، حتّى رأى يوماً زئوبة فتبعها مذهولاً إلى موطنها، ثمّ تعرّض لها مرّة بعد مرّة ولا يكاد يظفر منها بما يبلّ صدره. كانت امرأة وكلّ امرأة عنده رغبة، يبدّ أنها كانت إلى هذا ذات حسن فهوسته، وليس الحبّ لديه إلّا تلك الشهوة العمياء أو هذه الشهوة المبصرة وهي أسمى ما عرف من ألوانه، وجعل يمدّ بصره خلال القضبان إلى النافذة الخالية في جزع وقلق أنسيه نفسه فحسا الشاي دون أن ينتبه إلى سخونته إلّا وهو يزدرده وراح ينفخ متألّماً، ثمّ أعاد القدح إلى الصينيّة الصفراء مسترقاً النظر إلى السّمّار الذين أزعجته أصواتهم المرتفعة كأنما هي المسؤولة عن لسعته أو أنها السبب في عدم ظهور زئوبة بالنافذة. . . «ترى أين الملعونة؟. . . أتعتقد الاختفاء. . . من المحقّق أنها تعلم بوجودي هنا. . . ولعلّها رأياني قادماً. . . فإذا اصطنعت التدلّل إلى النهاية ألحقت هذا اليوم بأيامي المحرقة». وعادوا استراق النظر إلى الجلوس ليرى هل يلاحظ أحد منهم ولكنّه وجدهم

وغيرهم فمنهم من حمله محمل الدعابة ومنهم من أخذه مأخذ الانتقاد لولا أنّ الجيرة ومنزلة السيّد أحمد عبد الجواد شفعتا له بالإغفاء والتسامح. كانت حيويته من العنف بحيث ملكت عليه فراغه كلّ، فلم تدع له وقتاً يستريح فيه من استفزازها، وشعر دائماً بالسستها تلهب حواسّه ووجدانه، وكانت عفريت يركبه ويوجهه حيث يشاء، يبدّ أنّه عفريت لم يخفه أو يضيق به، ولم يؤدّ الخلاص منه، بل لعلّه رام منه المزيد. ولكن سرعان ما توارى عفريته واستحال ملاكاً لطيفاً حين اقترب الشاب من دكان أبيه، هناك أغضى طرفه واستقامت مشيته، وتحلّى بأدب وحياء، وحثّ خطاه لا يلوي على شيء، ولما مرّ بباب الدكان التفت إلى داخله فرأى خلقاً كثيرين ولكنّه التقى بعيني أبيه وهو جالس وراء مكتبه فانحنى في إجلال رافعاً يده إلى رأسه في أدب، فردّ الرجل تحيته مبتسماً، ثمّ استأنف مسيره مسروراً بهذه الابتسامة كأنما حظي بنعمة نادرة المثال. والحق أنّ عنف أبيه المعهود، ولو أنّه اعتوره تغيّر ملموس منذ أن انخرط الفتى في سلك موظفي الدولة إلّا أنّه لم يزل في نظره نوعاً من العنف الملطف بالكياسة، فلم يزايل الموظف خوفه القديم الذي ملأ قلبه وهو تلميذ، ولم يفارقه شعوره بأنّه ابن وأنّ الآخر الأب، وما فتئ يتضاءل بمحضرة على ضخامته كأنما يستحيل عصفورة يرعشها وقع الحصة، وما إن ابتعد عن دكان أبيه وصار بمنجى من عينيه حتّى استردّ خيلاءه وعادت عيناه إلى الذبذبة غير مفرقة بين الهوانم وبائعات الدوم أو البرتقال، إذ كان العفريت الذي يركبه مولعاً بالنساء كافّة، متواضعاً يستوي عنده الرفيع والوضيع منهنّ، فبائعات الدوم والبرتقال - على سبيل المثال - وإن شابهنّ الأرض التي يقتعدنها لوئناً وقذارة لا يخلين أحياناً من ميزة حُسن، كثنيتين ناهدين أو عيين مكمولتين. وماذا يروم غير هذا؟. . . ثمّ اتجه صوب الصاغة ومنها إلى الغوريّة، ومال إلى قهوة سي علي على ناصية الصناديق، وكانت شبه دكان متوسطة الحجم يفتح بابها على الصناديق وتطلّ بكوة ذات قضبان على الغوريّة وقد اصطفت بأركانها

انحسر طرف ملاءتها عند أعلى الرأس عن منديل قرمزي ذي أهداب منمنمة، لمعت تحته عينان سوداوان ضاحكتان تنفث نظرتيها لعباً وشيطنة. واقتربت من العربية ومدّت يدها بالعود فتناولته امرأة، ثم رفعت قدماً إلى أعلى العجلة فاشرباً ياسين بعنقه وهو يزدرد ريقه فلمح نثية الجورب معقودة فوق الركبة على أديم بدا منه صفاء عذب خلال أهداب فستان برتقالي... «آه لو تغوص بي الأريكة في الأرض مراً... ربّاه... إن وجهها أسمر ولكن لحمها المكسّون أبيض... أو شديد الميل للبياض... فكيف يكون الورك!... وكيف يكون البطن!... البطن يا هوه...» وثبتت زئوبة راحتها على سطح العربية وتحاملت عليها حتى حطّت ركبتها على حافة العربية ثم مضت تتحرّك رويداً على أربع... «يا لطيف... آه لو كنت على باب البيت... أو حتى في دكان محمد الطرابيشي... انظر إلى ابن الكلب كيف يحمل في الطابيّة بعينه... ما أجدر أن يسمّي نفسه منذ اليوم محمد الفاتح... يا لطيف... يا منقذ...» وأخذ ظهرها يستقيم حتى نهضت واقفة على سطح العربية، وفتحت الملاءة وقبضت على طرفيها وجعلت تهزّها بيديها هزّات متابعات كأنها طائر يخفق بجناحيه، ثم لفّتها حول جسمها لفّة محكمة وشت بدقائق تقاطيعه وتفاصيله وأبرزت - خاصّة - عجيّزة مدملجة رقرقة، ثم جلست عند مؤخرة العربية فتكوّر ردفها تحت الضغط متبلوراً ذات اليمين وذات اليسار فينعم الوسادة... ونهض ياسين وغادر القهوة فوجد العربية قد تحرّكت فتبعها متمهلاً وهو يلهث ويصرّ على أسنانه من شدّة الانفعال. وراحت العربية تسير سيرتها المتمهّلة المتأيلة والنسوة على سطحها يتأرجحن معها يمنة ويسرة فركّز الشابّ عينيه في وسادة العوادة، يذهب معها ويحيي حتى خالها بعد حين ترقص. وكانت الظلمة قد بدأت تغشى الطريق الضيق وأخذت كثرة من الدكاكين تغلق أبوابها، إلى أن غلبت المائة كانت من جمهور العاملين العائدين إلى بيوتهم منبوكي القوى فوجد ياسين بين الظلمة والجمهور المتعب

جميعاً منهمكين في أحاديثهم التي لا تنتهي، فداخله ارتياح وأرجع بصره إلى الهدف المرموق، بيّدت أنه اعترضت ثيّر أفاكاره ذكريات عن متاعب اليوم التي صادفته في المدرسة إذ شكّ الناظر في أمانة متعهّد اللحوم فقام بتحقيق اشتراكه هو فيه بوصفه كاتب المدرسة، ثم بدا منه شيء من التراخي في عمله حمل الناظر على نهره ممّا نغص عليه صفوه بقيّة اليوم وجعله يفكر في أن يشكو الناظر إلى أبيه - وهما صديقان قديمان - لئلا خوفه أن يجد أباه أشدّ عليه من الناظر... «اطرح عنك هذه الأفكار السخيفة... انتهينا من المدرسة والناظر عليها اللعنة... حسبي الآن ما ألاقى من القارحة بنت القارحة التي تبخل علينا بنظرة» وإذا بأحلام عارية تشال على خياله، أحلام كثيراً ما تمثّل على مسرح أوهامه وهو يرنو إلى امرأة أو يستعيد ذكراها، تخلقها عاطفة هوجاء تنزع عن الأجساد أعطيتها وتجلوها عارية كما خلقها الله غير مستثنية جسده هو، ثم تمضي في فنون من العبث لا عاصم لها، ولكنّه ما كاد يستنيم إلى هذه الأحلام حتى انتبه على صوت حوذيّ وهو يصيح على حمارة «يس» فرمى ببصره ناحية الصوت فرأى عربية كاروتقف أمام بيت العالمة. وتساءل ترى أ جاءت العربية لتحمل أفراد التخت إلى فرح من الأفراح؟... ونادى صبيّ القهوة ودفع إليه الحساب متأهباً لمغادرة المكان في آية لحظة إذا دعا داع. ومضت فترة انتظار وترقّب ثم فتح باب البيت وبرزت امرأة من نسوة التخت وهي تجرّ رجلاً أعمى مرتدياً جلباباً ومعطفاً وعوينات سوداء ومتأبطاً القانون، وصعدت المرأة إلى العربية وتناولت القانون ثم أخذت بيد الأعمى، وأعانه الحوذيّ من ناحية أخرى حتى لحق بالمرأة وجلسا متجاورين في مقدّمة العربية، وتبعتهما على الأثر امرأة ثانية تحمل دفاً، ثم ثالثة متأبطة صرة، وقد تبدّين في ملاءاتهنّ اللفت سافرات، كاسيات - بدلاً من البراقع - بأقنعة من زواق فاقع الألوان جعلهنّ بعرائس المولد أشبه. ثم ما هذا؟... رأى بصر شيق وقلب خافق العود وهو يبرز من الباب في جرابه الأحمر... وأخيراً بدت زئوبة وقد

حانوت كبير ظاهره بدالة وباطنه حانة يفصل بينها باب صغير- ووقف عند مدخلها مختلطاً بالزبائن ريشاً يتفحص الطريق أن يكون أباه هنا أو هناك، ثم اتجه صوب الباب الصغير الداخلي ولكن ما كاد يتقدم خطوة حتى لمح في طريقه رجلاً واقفاً أمام الميزان والخواجة كستاكى نفسه يزن له لغة كبيرة، فانجذب رأسه إليه بلا إرادة، وسرعان ما اكفهر وجهه وسرت في بدنه رجفة قاسية تقبض لها قلبه خوفاً واشمئزازاً. لم يكن في مظهر الرجل ما يسبغ هذه العواطف العدائية. كان في الحلقة السادسة، مرتدياً جلباباً فضفاضاً وعمامة، وقد ابيض شاربه وعلاه الكبر والوداعة، إلا أن ياسين واصل سيره مضطرباً كأنما يفر قبل أن تطلع عليه عينا الرجل، ودفع باب الحانة بشيء من القوة ثم دخل تكاد تميد به الأرض...

### ١٣

ارتقى على أول مقعد صادفه غير بعيد من الباب وقد بدا خائر القوى ساهماً، ثم دعا النادل وطلب دُورق كونيكا بنبرات تمت على نفاد صبره. وكانت الحانة بالحجرة أشبه، تدل من سقفها فانوس كبير، وصفت بجنايتها موائد خشبية وكراسي خيزران جلس إليها نفر من أهل البلد والعمال والأفندية، وتوسط المكان تحت الفانوس مباشرة مجموعة من أضص القرنفل. من عجيب أنه لم يتس الرجل، وأنه عرفه من النظرة الأولى، متى رآه آخر مرة؟... لا يستطيع أن يجزم، ولكن من المحقق أنه لم تقع عليه عيابه في مدى اثنتي عشرة سنة إلا مرتين إحداهما التي زلزلته الآن. وقد تغير الرجل ما في ذلك من شك فغداً شيئاً هادئاً وقوراً!... ألا سحق الله المصادفة العمياء التي ألقت به في سبيله. والتوت شفتاه تقزراً وامتناعاً وشعر بمرارة الهوان تجري في ريقه. يا له من هوان مدل ما يكاد يفيق من دواره القديم بالعناء والعناد كالتى ترده إليه ذكرى من الذكريات الممتعة أو مصادفة لعينة كالتى حدثت اليوم فيقلب ذليلاً منكسراً... ضائعاً. وعلى رغمه حملقت عيناه في الماضي البغيض،

متسماً لإنعام النظر والأحلام في أمن ودعة... «اللهم لا تجعل لهذا الطريق من نهاية، ولا لهذه الحركة الراقصة من ختام... يا لها من عجيبة سلطانية جمعت بين العجرفة واللفظ يكاد البائس مثلي يحس بطراوتها وشدها معاً بالنظر المجرد... وهذا الفرق العجيب الذي يشطرها تكاد تنطق الملاء عنده... وما خفي كان أعظم... إني أدرك الآن لماذا يصلي بعض الناس ركعتين قبل أن يبني بعروسه... أليست هذه قبة؟... بلى وتحت القبة شيخ... وإني لمجذوب من مجاذيب هذا الشيخ... يا هو... يا عدوى...» وتنحنح والعربة تقترب من بوابة المتوكل فالتفتت زئوبة وراها وراثه. ثم خيل إليه، وهي تعيد رأسها، أنه لمح على شفتيها بشير ابتسامة فدفق قلبه في عنف وسرت في وجدانه سكرة سرور ملتهب، ومقرت العربة من بوابة المتوكل ثم مالت إلى اليسار، وهناك اضطر الشاب إلى التوقف عن متابعتها لأنه رأى عن كثر معالم زينات وأنوار وجهوراً مهلاً فتراجع قليلاً وبصره لا يفارق العودة، وجعل يراقبها بنهم وهي تنزل على الأرض، وهي ترمي ناحيته بنظرة عابثة، ثم وهي تتجه إلى بيت العروس حتى واراها الباب في ضجة من الزغاريد. وتهد تنهدة حامية، ولفته حيرة حائقة فبدا قلقاً كأنه لا يدري أي وجهه يقصد... «لعنة الله على الاستراليين! أين أنت يا أزيكية لأبئك همي وأشجاني وأزود منك بشيء من الصبر...» ثم دار على عقبيه وهو يتمتم «إلى العزاء الباقي... إلى كستاكى»، وما كاد ينطق باسم البدال اليوناني حتى تنلدى رأسه حينئذ إلى حميا الشراب... كانت المرأة والخمر في حياته متلازمتين متكاملتين، ففي مجلس المرأة عاقر الخمر لأول مرة، ثم صارت بحكم العادة من مقومات لذته وبواعثها، بيد أنه لم يتخ لها- المرأة والخمر- أن يتلازما دائماً، وخلت ليلال كثيرات من النساء، فلم يجد بداً من أن يخفف لوعته بالشراب، ولكرور الأيام واستحكام العادة بات وكأنه المولع بالخمر لذاتها. وعاد من نفس الطريق الذي جاء منه، وقصد بدالة كستاكى عند رأس السكة الجديدة-

بقوة الهياج المثار في رأسه وقلبه، فانشقّ الظلام عن أشباح شائثة طالما ناوشته كرموز للعذاب والكراهية، فميّز من بينها دكانً فاكهة يقوم على رأس عطفة قصر الشوق، وطالعه صورة غامضة المعالم، هي صورته وهو صبيّ، فراه وهو يحثّ خطواته المتقاربة إلى ذلك الدكان حيث استقبله ذلك الرجل ثمّ حمّله قرطاسًا مليئًا بالبرتقال والتفاح فتناوله مسرورًا وعاد به إلى المرأة التي بعثته وانتظرت، إلى أمّه دون غيرها وأسفاه! وانعكست الذكرى على جبينه عبوسة حنق وضيق، ثمّ استعادت مخيلته صورة الرجل فتساءل جزعًا أكان يعرفه لو وقعت عليه عيناه؟... أكان يذكر فيه الصبيّ الصغير الذي عرفه قديمًا ابنًا لتلك المرأة؟... وقرصته قشعريرة فزع فتخاذل جسمه البادن الفارع وتضائل في حسّه حتّى استحال لا شيء. وجيء عند ذاك بالدُّورق والقدح فصبّ ونهل في نهم وعصبية متعجلاً حفظ الشاربين من الانتعاش والنسيان. ولكن فجأة تراءى له من أعماق الماضي وجه أمّه فلم يتمالك من أن يصبق. أهيّا يلعن: الحظّ الذي جعلها أمّه أم جمالها الذي شغف كثيرين حبًا وأحاطه بالكوارث؟... والحقّ أنّه لم يكن بوسعه أن يغيّر أمرًا مما قدّر عليه، ولم يكن بوسعه إلّا أن يدعن للقضاء الذي هرس عرّة نفسه، أفليس من الظلم أن يكفر بعد ذلك عن حكم القضاء كأنّه هو الجاني الأثيم؟... ولم يدر لمّ استحقّ اللعنة، فالأطفال الذين استقبلوا الدنيا في حضانة أمّهات مطلّقات مثله غير قليلين، وعلى خلاف أكثرهم وجد من أمّه حنانًا غير مشوب وحبًا لا يعرف الحدود وتدليلاً سابقًا لا تشكّمه رقابة أب فتمتّع بطفولة سعيدة قوامها الحبّ واللين والدماثة. ولا تزال ذاكرته تحتفظ بالكثير من ذكريات البيت القديم بقصر الشوق، كسطحه الذي يشرف على أسطح لا عداد لها ويرى مآذن وقبابًا من نواحيه الأربع، ومشربيته التي تطلّ على الجبالية حيث تمرّ ليلة بعد أخرى مواكب الزفاف تضيئها الشموع ويكتنفها الفتوّات فينجلي أكثرها عن معارك تشتجر فيها النبائيت وتسيل الدماء. في ذلك البيت أحبّ أمّه حبًا لا مزيد عليه وفيه شاعت

في قلبه الريبة الغامضة، وفيه رمى إلى صدره بالبذور الأولى لنفور غريب - نفور ابن من أمّه - التي قدّر لها أن تنمو وتستفحل حتّى انقلبت مع الزمن كراهية كالداء العضال، وكثيرًا ما قال لنفسه إنّه ربّما كان في وسع الإرادة القويّة أن تتيح لنا أكثر من مستقبل واحد ولكنّا لن يكون لنا - مهما أوتينا من إرادة - إلّا ماضٍ واحد لا مفرّ منه ولا مهرب. والآن يتساءل - كما تسأل من قبل كثيرًا - متى فطن إلى أنّ أمّه لم تكن الشخص الوحيد في حياته؟... بعيد جدًا أن يعرف هذا على وجه اليقين، وما يذكر إلّا أنّه في فترة ما من طفولته وعت حواسّه شخصًا جديدًا كان يطرأ على البيت من حين لآخر، ولعلّه - ياسين - كان يتطلّع إليه بغرابة وشيء من الخوف، ولعلّ الآخر بذل ما في وسعه لإيناسه وإرضائه، إنّه يجملق في الماضي على استكراه ونفور شديدين، ولكنّه وجد المقاومة لا تهدي، كأنما ذاك الماضي دُمّل يودّ لو يتجاهله على حين لا تمسك يده عن جسّه من أن يآخر. ثمّ إنّ هناك أمورًا لا يمكن أن تنسى... ففي مكان ما ووقت بين النور والظلمة وتحت أعلى نافذة أو باب مطعم بمثلثات من الزجاج الأزرق والأحمر... في ذاك المكان كان يذكر أنّه اطلع فجأة - في ظروف فرضها النسيان - على ذلك الشخص الطارئ وهو كأنّه يفترس أمّه، فها عمالك أن صرخ من أعماق قلبه وولول باكيًا حتّى أقبلت المرأة عليه في اضطراب بادٍ وراحت تطيبّ خاطره وتسكّن نائره. وانقطعت من شدة الامتعاض عند ذاك سلسلة خواطره فقلّب عينيه فيها حوله واجمأ، ثمّ صبّ من الدُّورق في القدح وشرب، وقد لمح وهو يعيد القدح إلى موضعه نقطة من سائل منداحة فوق طرف جاكته فظفها خفّارًا وأخرج منديله وأنشأ يدلّكها، ثمّ خطر له خاطر فتفحص ظاهر القدم فرأى قطرات من الماء عالقة بأسفله فرجح عنده أنّ ما سقط على سترته ماء لا خمر واستردّ طمأنينته... ولكن أيّ طمأنينة خادعة! لقد رجعت عيناه إلى مرآة الماضي البغيض. لا يذكر متى وقعت الواقعة السالفة، ولا كم كان عمره حين وقوعها، ولكنّه يذكر بلا ريب أنّ الشخص المفترس لم

ينقطع عن البيت القديم، وأنه كثيرًا ما تودّد إليه بما لذّ وطاب من ألوان الفاكهة، ثمّ كان يراه بعد ذلك في دكان الفاكهة عند رأس العطفة إذا استصحبتّه أمّه معها في مشواره، وبسذاجة الأطفال كان يلفت نظرها إليه فكانت تجذبه في عنف بعيدًا عنه وتمنعه من الإجماء إليه حتّى تعلّم أن يتجاهله وهو في صحبتها بالطريق، وازداد الشخص في نظره إجمامًا وغموضًا، ثمّ حدّثته من أن يعود إلى ذكره أمام خالٍ عجوز كان وقتذاك على قيد الحياة ويزورهم من حين لآخر فاتّبع تحذيرها وما يزداد إلّا حيرة. ولم يقنع الحظّ منه بذاك القدر فكانت أمّه - إذا غاب الرجل عن البيت أيامًا - يكون مبعوثًا إليه ليدعوه إلى أن يحضر «الليلة»! وكان الرجل يستقبله بلطف ويملأ قوطاسًا من التفاح والموز، ويمثله موافقته أو اعتذاره كيفما اتفق، ثمّ بلغ به الحال أنّه إذا اشتاق إلى للذيذ الفاكهة استأذن أمّه في أن يذهب إلى الرجل ليدعوه «الليلة»، ذكر هذا وجبينه يندى خزيًا ثمّ نفسخ في قهره، ثمّ صبّ وجرح، ورويدًا انبعث الحميا في دمه، وبدأت تلعب دورها الساحر في معاونته على حلّ متاعبه... «قلت ألف مرّة إنّني يجب أن أدع الماضي مدفونًا في قبره... لا فائدة... لا أمّ لي وحسي امرأة أبي الرقيقة الطيبة... كلّ شيء طيب ما عدا ذكرى قديمة بيدي أن أميتها... تُرى لم أجاري إلخافها عليّ فأبعثها من قبرها حيّنا بعد حين!... لم!... سوء الطالع وحده الذي رمى بالرجل في طريقه اليوم ولكنّ مصيره أن يموت يومًا... أوّد أن يموت كثيرون... لم يكن الرجل الوحيد...» بيد أنّ خياله الشائر واصل إسرائه في ظلمات الماضي رغم مقاومته النظرية ولكن على حال أخفّ توترًا، أجل لم يعد في تلك القصّة بالذات من بقية طويلة، ولعلّها - هذه البقية - تمتاز بما يضيئها من نور نسبيّ بعد عبور طور الطفولة المعتم. كان هذا في السنوات القلائل التي سبقت انتقاله إلى حضن أمّه، وقد وجدت أمّه الشجاعة لتصارحه بأنّ ذاك «الفكهاني» يتردّد عليها طلبًا ليدها، وأنها متردّدة في قبوله، وأنها غالبًا سترفض إكرامًا له! تُرى أصدّق ما قيل له؟... هيهات أن

يستوثق من تفاصيل ذكرياته، ولكنّه كان بلا ريب يشرب للإدراك والفهم، ويعاني نوعًا من الريبة الغامضة التي تتكشف للقلب دون العقل، ويكابد ألوانًا من القلق أطار عن هامته حمامة السلام، فتهيأت في نفسه تربة لتلقي بذرة النور التي صارت مع الأيام إلى ما صارت إليه. ثمّ انتقل في التاسعة من عمره إلى حضن أمّه الذي لم يكن رآه إلّا مرّات معدودة تحميًا للاحتكاك بأمّه. انتقل إليه غلامًا على الفطرة لم يتلقّن من مبادئ العلم كلمة واحدة، ومضى يكفّر عن سيئات التدليل الذي غلّته به أمّه فتلقّى العلم بنفس كارهة وإرادة خائرة، ولسولا شدّة السيّد وطية جو البيت الجديد ما دُفع إلى النجاح في الابتدائية بعد أن نيف على التاسعة عشرة من عمره. وبنموّ عمره وإدراكه حقائق الأشياء، استعرض حياته الماضية في بيت أمّه وقلوبها على وجوهها، ملقيًا عليها من خبرته الجديدة أنوارًا فاضحة فتكشفت له الحقائق بشاعنتها ومرارتها، وكلّما تقدّم في الحياة خطوة بدا له الماضي سلاحًا مسمومًا مغرّسًا في صميم نفسه وكرامته، وقد دأب أبوه بادئ الأمر على أن يسأله عن حياته في بيت أمّه ولكنّه على حدّ ذاته سنّه، نحاشي نبش الذكريات المحزنة وغلب كبرياءه الجريح على الرغبة في استشارة اهتمام أبيه وحبّ الثروة الذي يستهوي أمثاله من الغلمان، ولزم الصمت حتّى ترامى إليه نأ غريب عن زواج أمّه من تاجر فحم بالبيضاء فبكى الغلام طويلاً، واشتدّ ضغط السخط على صدره حتّى ففضفض فانطلق يحدث أباه عن «الفكهاني» الذي زعمت يومًا أنها رفضت الزواج منه إكرامًا له!... وانقطعت صلته بها من ذاك العهد - منذ إحدى عشرة سنة - فلم يعد يدري عنها شيئًا إلّا ما ينقله إليه أبوه من حين لآخر كطلاقها من الفحام بعد انقضاء عامين على زواجها منه، ثمّ زواجها من باشجويش في العام التالي لطلاقها، ثمّ طلاقها مرّة أخرى بعد حوالي عامين إلخ... إلخ... وفي فترة قطيعتها الطويلة سعت المرأة كثيرًا إلى رؤيته، فكانت ترسل إلى أبيه من يستأذنه في السباح له بالذهاب إليها، ولكن ياسين صدّ

قبل اليوم أن باطنك بهذا اللون الرائق... أف ينبغي أن أحو الفكر من رأسي... الحق أن أُمي كالضرس الثائر، لا يسكن حتى ينخلع...»

## ١٤

جلس السيد أحمد عبد الجواد وراء مكتبه بالدكان تعبت أنامل يسراه بشاربه الأنيق كشأنه كلما جرفه تيار خواطره، ويرنو إلى لا شيء بوجه تنم معالنه عن ارتياح ورضى. إنه يرضيه بلا ريب أن يشعر بما يكنه له الناس من حب ومودة، ولو عرض له من حبه دليل كل يوم لأوجد له كل يوم سرورًا مشرقًا لا يلبيه التكرار، وقد أتاه اليوم دليل جديد بسبب اضطرابه إلى التخلّف ليلة الأس من شهود حفلة أنس دعاه إليها أحد الأصدقاء، فما استقرّ به مجلسه بالدكان هذا الصباح حتى وافاه السداعي وبعض الإخوان من المدعوين وأوسعوه عتابًا لتخلّفه وحلوه تبعه ما ضاع عليهم من بهجة وطرب، ثم قالوا - فيما قالوا - إنهم لم يضحكوا من قلوبهم كما تعودوا أن يضحكوا معه، ولم يجدوا للشراب لذته التي يجدون في منادمته، وأن مجلسهم خلا - على حدّ تعبيرهم - من روحه. وها هو يستعيد أقوالهم في سرور وزهو لظنًا كثيرًا بما لاقى من حدة الملام من ناحيتهم وحرارة الاعتذار من ناحيته، بيد أنه لم يخل من تأنيب ضمير حريص بطبعه على إرضاء الخلّان، بدار إلى النهل من موارد الصداقة والمودة في إخلاص وإيثار، فكاد يكدّر صفوه لولا ما أشاعت ثورة الأحباب الناطقة بحبهم في نفسه من أريج الرضا والعجب، أجل طالما كان الحب الذي يجذبه إلى الناس ويجذبهم إليه معينًا لقلبه يقدق عليه ما يشاء من فرح بهيج وزهو بريء وكأنه خلق للصداقة قبل كل شيء. وثمة آية أخرى على هذا الحب - والأصدق أن يقال إنه حب من نوع آخر - تجلّت له ضحى اليوم حين أُلّمت به أم علي الخاطبة وقالت له بعد حديث دارت فيه حول غرضها ما شاء لها الدوران: «ألا تعلم أن ست نفوسة أرملة الحاج علي الدسوقي تملك سبعة دكاكين في المغربلين؟» وابتسم

عن دعوتها بإباء ونفور شديدتين رغم نصح أبيه له بالتسامح والعفو. والحق أنه وجد عليها موجدة حامية نابعة من صميم قلب جريح، فأغلق دونها باب العفو والغفران وأقام وراءه متاريس حنق وكراهية مؤمنًا إلى هذا بأنه لم يظلمها ولكن أنزلها بحيث أنزلتها فعاها. «امرأة. أجل ما هي إلا امرأة... وكلّ امرأة لعنة قدرة... لا تدري امرأة ما العفة إلا حين تنتفي أسباب الزنا... حتى امرأة أبي الطيبة، الله وحده يعلم ماذا كان يمكن أن تكون لولا أبي!» وقطع عليه أفكاره صوت رجل علا قائلاً: «الخمر كلّها فوائده، ومن يقل غير هذا أقطع رأسه... الخشيش والمنزول والأفيون كثيرة الضرر... أما الخمر فكلّها فوائد... فتساءل صاحبه: «وما فوائدها؟» فقال الرجل مستنكرًا: «وما فوائدها! ما أعجب سؤالك!... كلّها فوائد كما قلت... وأنت تعلم هذا وتؤمن به...» فقال صاحبه: «ولكن الخشيش والأفيون والمنزول مفيدة كذلك فيجب أن تعلم هذا وتؤمن به...» الناس جميعًا يقولون هذا فهل تخالف الإجماع؟» وترث الرجل قليلًا ثم قال: «كلّها مفيدة إذن، الكلّ، الخمر والخشيش والأفيون والمنزول وما يستجدا» فعاد صاحبه يقول بلهجة تنم عن ظفر: «ولكن الخمر حرام!» فقال الرجل محتدًا: «وهل ضاقت السبيل، زك... حُج... أطعم المساكين... أبواب التكفير واسعة والحسنة بعشر أمثالها...»

وابتسم ياسين في شيء من الارتياح، أجل أمكنه أخيرًا أن يبتسم في شيء من الارتياح: «لتذهب إلى الجحيم، ولتأخذ الماضي معها... لست عن شيء مسئول... كل إنسان ملوث في هذه الحياة ومن يزح الستاريز عجبًا... شيء واحد يهمني جدًّا هو عقارها. دكان الحمزاوي وربع الغورية والبيت القديم بقصر الشوق... وإني أعيذ أمام الله إذا ورثته كاملاً يوماً أن أترحم عليها بلا أسف... آه... زنوبة... كدت أنساك وما أنساك إلا الشيطان. امرأة عذبتني وامرأة أنس عندها العزاء... آه يا زنوبة ما علمت

السيد، وفطن بالغريزة إلى ما تومئ إليه المرأة وحدته قلبه بأنها ليست خاطبة فحسب هذه المرة ولكنها رسول موصى بالكتان، ألم يخجل إليه في أكثر من مناسبة أن الست نفوسة تكاد تعلن عن ودّها أثناء ترددها على دكانه لابتياح حوائجها؟.. بيد أنه أراد استدراج المرأة ولو على سبيل التفكّه فقال باهتمام ظاهري: «عليك باختيار زوج صالح لها، فما أعزّ المطلوب!»، وظنّت أمّ علي أنّها بلغت الغاية فقالت: «قد اخترتك من دون الرجال. فما قولك؟»، وضحك السيد ضحكة مجلجلة وشت بسروره ونفته بنفسه ولكنّه قال بلهجة قاطعة: «لقد تزوّجت مرّتين، أخفقت في الأولى ووقفتي الله في الأخرى، ولن أبتر بنعمة الله». والحقّ أنّه طالما تغلب على مغريات الزواج على كثرة ما تمهّأ له من فرص مواتية، بقوة إرادة لا تنثني، وكأنّه لم ينس مثل أبيه الذي انزلق إلى زيجات متلاحقة بلا وعي، بددت ثروته وجرت عليه المتاعب، ولم تبق له هو- عقبه الوحيد- إلّا على شيء من المال لا يغني، ثمّ إنّ من ربحه ودخله في بسطة من العيش هيأت لأسرته هناك ورغدًا وأتاح له ما يشاء للإنفاق في مسرّاته وملاهيهِ فكيف يقدم على ما يخلّ بهذا الوضع البديع المتناسق الذي يكفل له الكرامة والحرّيّة؟! أجل لم يجمع السيد ثروة، لا لقصور في وسائلها عن تجميعها ولكن لما طبع عليه من جود جعل إنفاقها والاستمتاع بآثارها المعنى الوحيد لها الذي يؤمن به، إلى إيمان عميق بالله وفضائله ملأ نفسه طمأنينة وثقة وآمنه من الخوف الذي يساور كثيرين عن أرزاقهم ومستقبلهم. على أنّ صده عن مغريات الزواج لم يمنعه من السرور والزهو كلّما رامتة فرصة طيبة، وبالتالي لم يستطع أن يتناسى أنّ سيّدة جميلة كالست نفوسة تودّه بعلاً لها. وغلبت هذه الذكرى على خواطره فراح يراقب وكيله والزيائن بعينين غابيتين وأسارير حاملة باسمه، وذكر- بأسياً أيضاً- ما قال له صاحب من صاحبه صباح اليوم وهو يعاينه معرّضاً بأناقته وتعطره: «حسبك. حسبك يا عجوز!... عجوز؟!... إنّ في الخامسة والأربعين حقاً، ولكن ما قول العاذل في هذه القوّة العارمة

والصحّة الدافقة والشعر السبط اللامع السواد! لم يهن إحساسه بالشباب ولا تراخى، وكأنّ فتوّه ما تزداد مع الأيام إلّا قوّة، إلى أنّ مزاياه لم تكن لتغيب عنه، بل كان على تواضعه وسماحة نفسه شديد الشعور بها، منظوياً في أعماقه على زهو وعجب. يحبّ النساء حبّاً جمّاً، وكأنّه بتواضعه ولطفه يستزيد منه ويحثّ الرفاق بمكر حسن عليه، ولكن مع أنّ نفته بنفسه بلغت حدّ الاعتقاد بأنّه خير الرجال قوّة وبهاء وظرفاً وكياسة إلّا أنّه لم يثقل أبداً على أحد من الناس، لأنّ تواضعه كان طبعاً وسجيّة كذلك، ولأنّه نبع من فطرة تسيل بشاشة وإخلاصاً وجبّاً. والحقّ أنّه كان ينزع بفطرته إلى أن يحبّ كما يحبّ، ولا يمسك عن نشدان المزيد من الحبّ، فأنجّته طبيعته بوحى من غريزته الظامئة للحبّ إلى الإخلاص والوفاء والصفاء والتواضع، تلك السجاياء التي تجذب الحبّ والرضا كما تجذب الزهور الفرائش، ومن هنا استوى أن يقال إنّ تواضعه كياسة أو طبيعة والأصحّ أن يقال إنّ طبيعة تستمدّ كياستها من وحي الغريزة لا تدبير الإرادة فتجلّت طبعاً بسيطاً لا تكلف فيه ولا تعمل، ولذلك كان السكوت عن فضائله ومواراة مزاياه بل والتدنر بعيوبه وهنائه التماساً للعطف والحبّ أحبّ إليه من نشرها والمباهاة بها اللذين يجرّان عادة إلى الاستفزاز والحسد، وهي كياسة سديدة دفعت المحيّن إلى التنويه بما يغضي عنه حكمة وحياء، وأذاعت سجايه على نحو لم يكن ليقدّر عليه بنفسه دون التضحية بأجل جوانب شخصيته، وبما يحظى من جاذبيّة وحبّ لا تشوبها شائبة. وبهذا الوحي الغريزيّ نفسه استهدى حتّى في جانب حياته المألجّن، في مجالس أنسه وطربه، فلم يتخلّ فيها- مهما لعب الشراب برأسه- عن لباقة وكياسته، ولو شاء بما أوتي من خفّة الروح وحضور البديهة وحلاوة الفكاهة وحدة السخريّة، لاكتسح السّمار بلا عناء، ولكنّه كان يدير مجلس الأنس بمهارة وأريحيّة تفسح المجال لكلّ سامر، ويشجّع أهل الدعابة وإن خالفهم التوفيق بضحكاته المجلجلة، إلى حرصه الشديد على ألاّ يخلّف مزاحه في نفس جرحاً، فإن اضطرّه الموقف إلى الحملة

ناحية الدكان تحت ضغط امرأة هائلة مضت تغادرها في بطة شديد على قدر ما تسمح به طيات لحمها وشحمها وقد سبقتها إلى الأرض جارية سوداء فمذت لها يدها لتعتمد عليها في أثناء نزولها. وكالمحمل وقفت مليًا وهي تتنهد كأنها تستجيم من عناء النزول، وكالمحمل راحت تتمايل وتخطر إلى ناحية الدكان بينما علا صوت الجارية في لهجة شبه خطابية لتعلن عن مولاتها:

- وسع يا جدد أنت وهو للست زبيدة ملكة العوالم.

ونذت عن الست زبيدة ضحكة مسجوعة وقالت تخاطب الجارية بلهجة تنم عن زجر كاذب:

- الله يساعك يا جلجل... ملكة العوالم مرة واحدة... هلاً عرفت فضيلة التواضع!

وهرع إليها جميل الحمزاوي مفتر الثغر عن ابتسامة عريضة وهو يقول:

- أهلاً وسهلاً، كان حقاً علينا أن نفرش الأرض بالرمل.

ونفض السيد وهو يتفحصها بنظرة تنم عن دهشة وتفكير ثم قال متمماً تحية وكيله:

- بل بالخائن والورد ولكن ما حيلتنا والحظ يقبل إذا أقبل غير مسبوق ببشير؟...

ورأى السيد وكيله وهو يتجه إلى كرسي ليأتي به فسبقه إليه بخطوة واسعة بدت كالوثبة فتنحى الرجل جانباً وهو يداري ابتسامة، وقدم السيد لها الكرسي بنفسه وهو يوميئ براحته مرحباً كأنه يقول لها «تفضلّي» بيّد أنّ راحته انبسطت - ربّما بلا شعور منه - لآخر طاقته وانفجرت ما بين أصابعه حتى صارت يده كالمروحة، ولعلّه تأثر في بسطها بما تركه في خياله منظر العجيزة الهائلة التي ستملاً مقعد الكرسي وتفيض على جوانبه حتّى. وشكرته المرأة بابتسامة من وجهها الذي أسفر حسنه بغير حجاب، وجلست وهي تشع بزواقتها وحليها نوراً، ثم التفتت إلى جاريتها وخاطبتها قائلة وهي تعني بالخطاب غيرها:

- ألم أقل لك يا جلجل أنه ليس ثمة ما يدعوننا

على قرين داوى عواقب حملته بتشجيعه والتودّد إليه ولو بالسخرية من نفسه. فلا ينفصّ المجلس إلّا وقد حظي كلّ سامر من أطايب ذكرياته بما يشرح الصدر ويستأثر الفؤاد. على أنّ كياسته الفطرية أو فطرته الكيسية، لم تقتصر آثارها الطيبة على حياته الضاحكة فحسب، ولكنّها امتدّت إلى جوانب هامة من حياته الاجتماعية، فأعلنت عن نفسها أروع إعلان في كرمه الماثور - سواء ما يتجلّى منه في الولائم التي يدعو إليها من حين لآخر في البيت الكبير أو في الهبات التي ينفع بها المحتاجين ممّن يتصلون بعمله أو بشخصه - وفي شهامته ومروءته ونجدته التي فرضت له على أصدقائه ومعارفه نوعاً من الوصاية المشربة بالحبّ والوفاء يفيئون إليها إذا دعت الضرورة إلى المشورة أو الشفاعة أو الخدمة فيما يعرض لهم من هموم العمل والمال أو شئون المسائل الشخصية والعائلية كالخطبة والزواج والطلاق، أجل ارتضى لنفسه وظائف يؤدّيها بلا أجر - غير الحبّ - فكان سمساراً ومأذوناً ومعكّماً، ثم وجد دائماً في أداائها - على مشقته - حياة مليئة بالبهجة والغبطة. مثل هذا الرجل الذي تجود نفسه بفضائل اجتماعية كثيرة ثم يطوبها كأن في نشرها أدّى وأيّ أدّى، مثل هذا الرجل يكون خليقاً - إذا خلا إلى خواطره وانقشع عنه الحياء الذي يتولاه حيال الناس - بأن يتملّ مزاياه طويلاً ويستسلم لزهوه وعجبه. لذلك راح يستعيد عتاب أصدقائه المحيّن ودعوة أم علي الخاطبة بلذّة وسرور وانسراح تعانقت في قلبه عن نشوة خالصة حتى تطفّلت على خلوته لذعة أسف فمضى يحدّث نفسه...

«نفوسة هانم سيّدة ذات مزاي لا يستهان بها... يتمناها كثيرون ولكنّها رغب فيّ أنا... بيّد أنّي لن أتزوّج، هذا أمر مفروغ منه، وليست هي بالمرأة التي تقبل أن تعاشر رجلاً بغير زواج... هذا أنا وهذه هي فكيف يمكن أن نلتقي!... ولو صادفتني في غير هذه الأيام التي سدّ فيها الاستراليون علينا المنافذ لكان الأمر ولكنّها تصدّت لنا ونحن في حاجة إليها فوالأسفاه».

وقطع عليه أفكاره وقوف حنطور أمام مدخل الدكان فمدّ بصره مستطلعاً فرأى العربية وهي تميل



للتخبط هنا وهناك لابتياح حوائجنا وعندنا هذا الدكان الفاجر؟

فأمنت الجارية على قول سيدها قائلة:

.. صدقت كعادتك يا سلطنة، لماذا نذهب بعيداً وعندنا السيد الكريم أحمد عبد الجواد

فتراجع رأس الست كأنما هالها ما صرحت به جلجل وألقت عليها نظرة استنكار ثم رددت عينيها بين السيد والجارية لتشهدده على استنكارها وقالت وهي تداري ابتسامة:

.. واخجلناه! .. حدثتك عن الدكان يا جلجل لا عن السيد أحمد! ..

وشعر فؤاد السيد الذكي بالجو الودي الذي ينفته حديث المرأة فاندمج فيه بغريزته المتوثبة وتمتم بأسماً: .. الدكان والسيد أحمد شيء واحد يا سلطنة. فرفعت حاجبيها في دلال وقالت بعناد لطيف: .. ولكننا نريد الدكان لا السيد أحمد.

وبدا أن السيد أحمد لم يكن الشخص الوحيد الذي شعر بالجو الطيب الذي خلفته السلطنة، فهذا جميل الحمزاوي يراوح بين مساومة الزبائن واستراق النظر إلى ما تيسر من جسم العالة، وهؤلاء الزبائن جعلوا يُجِيلون أبصارهم بين البضائع لتمر في الذهاب والإياب بالست، بل بدا أن الزيارة الماركة قد لفتت بعض الأنظار في الطريق فرأى السيد أن يقترب من السلطنة وأن يولي الباب والقوم ظهره العريض ليحول بينها وبين تطفل المتطفلين، بيد أن هذا لم يُنبِسه ما كان فيه من أسباب الحديث فقال يصل منه ما انقطع:

.. قضى الله جلّت حكمته أن يكون الجهاد أحياناً أسعد من الإنسان.

فأالت بلهجة ذات معنى:

.. أراك تغالي. لن يكون الجهاد أسعد حظاً من الإنسان، ولكنه كثيراً ما يكون أجلاً فائدة.

فتقبها السيد بعينه الزرقاوين متظاهراً بالدهشة:

.. أجل فائدة! .. (ثم مشيراً إلى الأرض) ... هذا الدكان! ..

فوهبته ضحكة قصيرة عذبة ولكنها قالت بلهجة لا

تخلو من خشونة مدبرة:

.. أريد سكرّاً وبنّاً وأرزاً فهل يغني الإنسان فيها عن الدكان شيئاً! ... (وبنرات اختلط فيها عدم الاكتراث بالدلال) ... ثم إن الرجال أكثر من الهم على القلب.

وكان السيد قد تفتحت له من الطمع أبواب، وشعر بأنه مقبل على شيء أجل خطراً من البيع والشراء، فقال محتجاً:

.. ليست كلّ الرجال سواء يا سلطنة، فمن قال لك إن الإنسان لا يغني عن الأرز والسكر والبن شيئاً! الإنسان حقاً من تجددين فيه الغذاء والحلاوة والكيف! فسأله ضاحكة:

.. إنسان أم مطبخ هذا؟

فقال السيد بلهجة تدل على الظفر:

.. لو نظرت من قريب لوجدت تشابهاً عجباً بين الرجل والمطبخ ... كلاهما حياة للبطون! ...

وغضت المرأة بصرها ملياً، وانتظر السيد أن ترفعه إليه موسوماً بابتسامتها المشرقة، ولكنها واجهته بنظرة رزينة فأحس لتوه أنها غيّرت «السياسة» أو لعلها لم ترتع كل الارتياح لانزلاقها فعدلت عنه ثم سمعها تقول في هدوء:

.. أفادك الله! ... ولكن حسبنا اليوم الأرز والبن والسكر.

وتحوّل السيد عنها متظاهراً بالجدّ ودعا إليه وكيله ثم وضاه بصوت مرتفع بطلبات الست فأوحى مظهره بأنه قرّر أيضاً العدول عن «التودّد» والعودة إلى «العمل»، ولكنها لم تكن إلاّ مناورة استعداد على أثرها ابتسامته الهجومية وتمتم غاطباً السلطنة:

.. الدكان وصاحبه تحت أمرك!

وكان للمناورة أثرها فقالت المرأة في دعابة:

.. أريد الدكان وتأيي إلا أن تجود بنفسك!

.. نفسي بلا ريب خير من دكاني، أو خير ما في دكاني.

فأشرق وجهها بابتسامة مكرة وهي تقول:

.. هذا يخالف ما سمعناه عن جودة بضاعتك!

فقهقه السيد قائلاً:

- ما حاجتك إلى السكر وفي لسانك هذه الحلاوة

كلها؟

وأعقب هذه المعركة الكلامية فترة سكون بدا فيها كلاهما راضياً عن نفسه، ثم فتحت العاملة حقيبتها وأخرجت مرآة صغيرة ذات مقبض فضي وراحت تنظر في صورتها فمضى السيد إلى مكتبه ووقف مستنداً إلى حافته وهو يتفرس في وجهها باهتمام. والحق لقد حدثه قلبه حين وقعت عليها عينها بأنها جادت بالزيارة لأمر غير الشراء والبيع، ثم جاء حديثها باستجاباته الحارة مؤكداً لظنه، فلم يعد أمامه إلا أن يقرر من الآن هل يوصلها بتاريخه أو يؤدعها الوداع الأخير. ولم يكن رآها لأول مرة، فقد رآها مرات في أراح بعض الأصدقاء، وعرف عن الرواة أن السيد خليل البنان اتخذها خليله دهرًا حتى انفصلا منذ عهد غير بعيد، ولعل هذا ما جعلها تستبضع من دكان جديد... وهي موفورة الحسن وإن لم تغد منزلتها كعالمه المرتبة الثانية بين العوالم، بيد أن المرأة تهمة أكثر من العاملة، وإنها لشهية لطيفة وبها من طيات اللحم والدهن ما يدفئ المرقور في زمهرير الشتاء الذي غدا على الأبواب، واعترض أفكاره مجيء الحمزاوي حاملاً ثلاث لفات، فتناولتها الجارية، ودست الست يدها في الحقيبة لتخرج النقود فيها بدا، ولكن السيد أشار إليها عذراً وهو يقول:

- يا له من عيب!

وتظاهرت المرأة بالدهشة وقالت:

- أي عيب يا سي السيد!... ليس في الحق عيب.

- هذه زيارة ميمونة يحق علينا أن نحییها بما هي أهلها من الإكرام، وهيئات أن نوفيها حقها.

وكانت قد نهضت وهو يتكلم فلم تُبِد مقاومة جدية لكرمها ولكنها قالت:

- ولكن كرمك هذا سيجعلني أتردد مرة ومرتين قبل أن أقصدك مرة أخرى.

فقهقه السيد قائلاً:

- لا تخافي، إني أكرم الزبون في المرة الأولى ثم

أعوّض خسارتي في المرات اللاحقة ولو بالسرقة! هذا شعارنا نحن التجّار.

فابتسمت الست، ومدت له يدها قائلة:

- الكريم مثلك يُسرق ولا يسرق... أشكرك يا سيد أحمد.

فقال من كل قلبه:

- العفو يا سلطنة.

ووقف ينظر إليها وهي تتبخر صوب الباب حتى صعدت إلى العربة واتخذت مجلسها، وجلست جلجل على المقعد الصغير قبالتها، وتحركت العربة بحملها النفيس، ثم غابت عن ناظره، هنالك قال الحمزاوي وهو يقلب صفحة من دفتر الحساب:

- كيف يمكن أن يسد هذا الحساب؟

فألقي السيد على وكيله نظرة باسمه وقال:

- اكتب مكان الأرقام «بضائع أتلفها الهوى».

ثم غمغم وهو يضي إلى مكتبه «الله جميل يجب الجمال».

## ١٥

وحين المساء أغلق السيد الدكان وغادره تحف به المهابة ويتضوّع منه عرف طيب ثم مضى صوب الصاغة، ومنها إلى الغورية حتى قهوة سي علي فلحظ في مروره بها بيت العاملة وما يكتنفه فرأى الدكاكين التي تمتد على جانبيه لا تزال مفتوحة وتيار السابلة في تدفقه، فواصل السير إلى بيت أحد الأصدقاء حيث قضى ساعة ثم استأذن عائداً إلى الغورية وقد غشيتها ظلمة فانقلبت كالمقفرة، وجعل يقترب من البيت آمناً مطمئناً، ثم طرق الباب وانتظر وهو يدق النظر فيها حوله ولم يكن ثمة نور إلا ما ترامى من كوة قهوة سي علي، ومصباح غازي على عربة يد عند منعطف السكة الجديدة. وفتح الباب وبدا شيخ خادم صغيرة فبادرها متسائلاً بصوت قوي غير متردد لبوحي بما يؤد من الصدق والثقة:

- الست زبيدة موجودة؟

فرفعت إليه الخادم رأسها وسأله بدورها في تحفظ

أملته عليها ظروف وظيفتها:

- من أنت يا سيدي؟

فقال بصوته القوي:

- شخص يروم الاتفاق معها على إحياء ليلة.

وغابت الخادم دقائق ثم عادت وهي تقول:

«تفضل»، وأوسعت له فدخل ورقى وراءها في سلم

متقارب الدرجات انتهى به إلى دهليز ثم فتحت له باباً

في مواجهته انتقل منه إلى حجرة مظلمة فظل واقفاً على

كتب من المدخل وهو ينصت إلى أقدام الخادم وهي

تجري، ثم وهي تعود حاملة مصباحاً، وتتبعها بعينه

وهي تضعه على خوان وتجيء بكرسي إلى وسط الحجرة

وتقف عليه لتشعل المصباح الكبير المدلى من السقف

ثم تعيد الكرسي إلى موضعه وتحمل المصباح الصغير

وتغادر الحجرة قائلة في أدب: «تفضل بالجلوس يا

سيدي»، وأتجه السيد إلى كنية في صدر الحجرة وجلس

في ثقة وهدوء دلّ على اعتياد هذا الموقف وأمثاله،

وطمأنينة إلى الخروج منه بما يرضي ويطيب، ثم خلع

الطربوش وحطه على ثمرقة تتوسط الكنية ومدّ ساقيه في

ارتياح. رأى حجرة متوسطة الحجم نضدت بجنباتها

الكنبات والمقاعد وفرشت أرضها بسجادة فارسية وقام

حيال كل كنية من كنياتها الثلاث الكبرى خوان مطعم

بالصدف، وقد أسدلت الستائر على نافذتها وبابها

فحبست في جوها شذا بخور سرّ به متسلّياً بالنظر إلى

فراشة راحت ترفّ على المصباح في نشاط عصبي،

وانتظر بعض وقت جاءت في أثناؤه الخادم بالقهوة،

حتى ترامى إلى أذنيه وقع شيشب منغوم ذي دقات

مدغدغة فتنبّعت أعصابه وحدّق إلى الباب الذي

سرعان ما امتلأ فراغه بالجسم المفصل الهائل وقد لفت

لغة شهوانية في فستان أزرق، وما كادت عينا المرأة

تقعان عليه حتى توقفت دهشة وهتفت:

- بسم الله الرحمن الرحيم... أنت...!

فجری بصره على جسمها في عجلة ونهم كما يجري

الفار على جوال أرز ليجد لنفسه منفذاً، وقال

بإعجاب:

- باسم الله ما شاء الله...!

فواصلت تقدّمها بعد التوقّف وهي تقول في خوف

مصطنع:

- عينك!... أعوذ بالله...!

فنهض السيد مستقبلاً يدها الممدودة بترحاب

وتشمّ شذا البخور بأنفه العظيم وقال:

- ألتخافين الحسد وعندك هذا البخور؟!

فاستخلصت يدها من يده وتراجعت إلى كنية

جانبية وجلست وهي تقول:

- بخوري خير وبركة، إنّه أخلاط من أنواع شتى

بعضها عربيّ وبعضها هنديّ أُلّف بينها بنفسي، فهو

جدير بأن يخلّص الجسد من ألف عفريت

وعفريت...!

فعاد السيد الجلوس قائلاً وهو يلوح بيديه في

يأس:

- إلّا جسدي!... بجسدي عفريت من نوع آخر

لا يجدي معها البخور، الأمر أجّل وأخطر...

فضربت المرأة صدرًا ناهضًا كالقربة وهتفت:

- ولكيّ أحيي حفلات أفرّاح لا حفلات زار!

فقال السيد برجاء:

- سنرى إن كان لدائي عندكم شفاء!

وساد الصمت قليلاً فجعلت السلطانة تنظر إليه فيما

يشبه التفكير وكأنّها تستخبره عن سرّ حضوره وهل جاء

حقاً للاتفاق على إحياء ليلة كما قال للخادم؟...

وغلبتها الرغبة في الاستطلاع فسألته:

- فرح أم ختان؟

فقال السيد بأسياً:

- لك ما تشائين!

- عندك مخنث أم عروس؟

- عندي كلّ شيء...

فأنذرتة بنظرة كأنّها تقول له «كم أنت متعب!» ثمّ

تمتعت في تهكم:

- نحن في خدمتك على أيّ حال...

فرفع السيد يديه إلى قمة رأسه في هيئة تنمّ عن

الشكر وقال بوقار يناقض نواياه:

- عظم الله قدرك... بيد أنّي ما زلت مصرّاً على

- يا لك من رجل مظهره الوقار والتقوى وباطنه  
الخلاعة والفجور، الآن صدّقت حقاً ما قيل لي  
عنك. . .

واستوى السيّد في جلسته في اهتمام وتساءل:  
- وماذا قيل؟ . . اللهم اكفنا شرّ القيل والقال. . .  
- قالوا لي إنّك زير نساء وعبد شراب. . .  
فتنهّد بصوت مسموع يذيع به ارتياحه وقال:  
- حسبيته ذمّاً والعياذ بالله. . .  
- ألم أقل لك إنّك رجل قارح فاجر؟  
- هي الشهادة لي بأنّي حزت القبول إن شاء  
الله. . .

فرفعت المرأة رأسها في غطرسة وقالت:  
- بُعذك! . . . لست كمن عرفت من النساء. . .  
إنّ زبيدة معروفة ولا فخر بعزّة النفس ودقّة  
الاختيار. . .

فبسط السيّد راحتيه على صدره ونظر إليها في تحدّ  
مُشرب باللفظ وقال بطمأنينة:  
- عند الامتحان يُكرّم المرء أو يهان. . .  
- من أين لك بهذه الثقة وأنت لم تختن بعد  
بشهادتك؟

فقهقه السيّد طويلاً حتّى قال:  
- لا تصدّقي يا ختونة. . . وإن كنت في شك. . .  
ولكمته في منكبّه قبل أن يتمّ جملته فأمسك ثمّ أغرقا  
في الضحك معاً، وسرّ بمشاركتها إيّاه في ضحكها،  
وحديث وراء ذلك - بعد ما جرى بينهما من تلميح  
وتصريح - لو أنّ من الجهر بالرضا ثبّته في وعيه بسمه  
دلال سالت بطرفها المكحول، وراح يفكر في أن يحثي  
هذا الدلال بتحية تليق به لولا أن قالت له محذرة:  
- لا تحملني على مضاعفة سوء الظنّ بك. . .  
فأعاده قولها إلى تذكّر ما ردّده عن القيل والقال،  
وسألها باهتمام:

- من الذي حدّثك عني؟  
فقالت باقتضاب وهي تلحظه بنظرة اتهام:  
- جلييلة. . .!  
وفجأه الاسم كأنّه عاذل يطرق مجلسهما فابتسم

أن أترك لك الاختيار!

فتنهّدت بغيط بالدعابة أشبه وقالت:

- لآي أفضل أفراح العرايس بطبيعة الحال!  
- ولكنّي رجل متزوّج ولا حاجة بي إلى زفة من  
جديد. . .!

فصاحت به:

- يا لك من رجل مهذار. . . إذن ليكن ختائناً. . .  
- ليكن. . .  
وتساءلت وهي تحاذر:

- وليدك؟

فقال ببساطة وهو يفتل شاربه:

- أنا! . . .

فأطلقت السلطانة ضحكة مائعة وقرّرت العدول  
عن التفكير في مسألة إحياء الليلة التي ختمت خبيثتها  
وهتفت به:

- يا لك من رجل قارح، لو طالتك يدي لقصمت  
ظهرك. . .

فنهض السيّد وأقبل عليها قائلاً:

- لا أحرمتك رغبة قطّ. . .

وجلس جانبها فهتمت بضربه ولكنها تردّدت ثمّ  
أمسكت، فسألها بقلق:

- لماذا لم تتكرّمي بضربي؟

فهزّت رأسها وقالت ساخرة:

- أخاف أن أنقض وضوئي. . .

فتساءل في لهفة:

- أأطمع في أن نصلي معاً؟!

واستغفر الله في سرّه عقب النطق بدعابته مباشرة  
لأنّ هذره وإن كان لا يقف به في سكرة المجون عند  
حدّ إلا أنّ قلبه لم يكن ليطمئنّ ويواصل ابتهاجه حتّى  
يستغفر في باطنه صادقاً ممّا يعيب به لسانه مازحاً. أمّا  
المرأة فتساءلت في دلال ساخر.

- أتعني، يا صاحب الفضيلة، الصلاة التي هي

خير من النوم؟

- بل الصلاة التي هي والنوم سواء. . .

ولم تتمالك إلا أن تقول ضاحكة:

- لآني من صلب رجال يتزوَّجون في السَّتين...  
 - بدافع العشق أم بدافع الخرف؟  
 ففقهه السيّد قائلاً:  
 - يا وليّة اتقي الله ودعينا نتكلّم في الجذّ...  
 - الجذّ؟... أتعني إحياء الليلة التي جثت تتفق عليها؟  
 - أعني إحياء العمر كلّ...  
 - كلّ أم نصفه؟  
 - ربّنا يقدرنا على ما فيه الخير...  
 - ربّنا يقدرنا على الطيّب...  
 واستغفر الله في سرّه مقدّمًا ثمّ تساءل:  
 - نقرأ الفاتحة؟  
 ولكنّها نهضت بغتة متجاهلة دعوته وهتفت متظاهرة بالجزع:  
 - ربّاه... سرقني الوقت ولديّ الليلة عمل هام...  
 ونهض السيّد بدوره، ومدّ يده فتناول يدها ثمّ بسط راحتها المخضبة بالحناء، ورنا إليها بشوق وافتتان، وأصرّ على احتفاظه بها رغم جذبها إيّاها مرّة ومرّتين، حتّى قرصته في أصبعه ورفعت يده إلى شاربه مهدّدة:  
 - دعني أو تخرج من بيتي بفردة شارب واحدة...  
 ورأى ساعدها قريبًا من فيه فزهّد في النقاش وقرب منه شفّتيه رويدًا حتّى غاصتا في لحمه الطريّ فتطايّر منه إلى أنفه رائحة قرنفلية ذات طعم حلو، ثمّ تنهّد مغمغماً:  
 - إلى الغد؟  
 فتخلّصت من يده مقاومة من ناحيته هذه المرّة، وحدّقت إليه طويلاً ثمّ ابتسمت وتمتعت:  
 عصفوري يا أمّه عصفوري  
 لالعب وأوريّ لهُ أموري  
 وجعلت تردّد «عصفوري يا أمّه» مرّات وهي تودّعه، وغادر السيّد الحجرة وهو يردّد مطلع الأغنية بصوت منخفض ملؤه الوقار والرزانة كأنّما يستخبر الألفاظ عمّا وراءها من معاني...

ابتسامه دلّت على حرجه. جليّة، تلك العالمة المشهورة التي عشقها دهرًا حتّى فصل بينها الشبع ثمّ عاشا وما زالا على مودة متبادلة على البعد، بيدّ أنّه كخبير بالنساء لم يَزْ بدأ من أن يقول في لهجة صادقة:  
 - لعنة الله على وجهها وصوتها معًا... (ثمّ متهرّبًا)... دعينا من هذا كلّ ولنتكلّم في الجذّ... فتساءلت متهكّمة:  
 - ألا تستحقّ جليّة كلمة أرقّ وألطف؟... أم هذا شأنك عند ذكر من قطعتهنّ من النساء؟  
 وداخل السيّد شيء من الحرج إلّا أنّه ذاب في موجة الزهو الجنسيّ التي أثارها في نفسه حديث عشيقته جديدة عن عشيقه ولّت، وأخذ مليًا بنشوة ظفر حلوة ثمّ قال بلباقة معهودة:  
 - لا يسعني وأنا بمحضر من هذا البهاء أن أغادره إلى ذكريات طويت ونسيت...  
 وبالرغم من أنّ السلطانة حافظت على نظرتها التهكميّة إلّا أنّها استجابت للثناء كما بدا في رفع حاجبيها ومداراتها لابتسامه خفيفة اندسّت إلى شفّتيها، ولكنّها خاطبته بازدرأ قائلة:  
 - لسان تاجر يسخو بالحلاوة حتّى ينال غرضه...  
 - لنا الجلّة نحن التجّار بما يظلمنا الناس...  
 وهزّت كتفيها استهانة ثمّ سألت في اهتمام غير خاف:  
 - متى رافقتها؟  
 فلوّح السيّد بذراعه كأنّه يقول «ما أبعد من زمن!» ثمّ تمتم:  
 - منذ أزمان وأزمان...  
 فضحكت في تهكّم وقالت بنبرات تنمّ عن التشفّي:  
 - في أيّام الشباب الذي مضى...  
 فرنا السيّد إليها معاتبًا ثمّ قال:  
 - بودّي أن أمصّ من لسانك الأذى.  
 ولكنّها واصلت حديثها بنفس اللهجة قائلة:  
 - أخذتك لحناً وتركك عظامًا...  
 فأومأ إليها حدّراً وقال:

جلست زبيدة متربعة على الديوان وإلى يمينها زُتوبة العوادة ربيبتها، وإلى يسارها عبده عازف القانون الضرب، واستوت النسوة جلوساً عن يمين وشمال ما بين ممسكة بالدَف أو ماسحة على الدربكة أو عابثة بالصنّج. وأثرت السلطانة السيّد أحمد بأول مجلس في الجناح الأيمن، وأتخذ الباقون من صحبه مجالسهم بلا كلفة كأنهم أصحاب الدار، ولا عجب فلم يكن الجوّ بالجديد عليهم، ولا السلطانة والتي يرونها لأول مرة، وقدم السيّد أحمد أصحابه إلى العالمة مبتدئاً بالسيّد علي بائع الدقيق فضحكت زبيدة قائلة:

- ليس السيّد علي بالغريب فقد أحيت فرح كريمته في العام الماضي...

ثم ثنى بالسيّد الفار تاجر النحاس، ولما رماه أحدهم بأنه من رواد بمية كثر بادر الرجل قائلاً:

- وجئت تائباً يا ست.

وتتابع التعارف حتى تمّ، ثم جاءت الجارية جلجل بأقداح الشراب ودارت على المدعوّين، ومضت النفوس تستشعر حيوية مشبعة بالآريحية والمرح، وبدا السيّد عريس الحفلة بلا منازع، بهذا دعاه الأصدقاء، وبهذا شعر في أعماقه، وقد وجد لذلك بادئ الأمر لولاً من الارتباك قل أن يلمّ به، فداراه بالإسراف في الضحك والمرح، حتى إذا أخذ في الشراب زايله بلا عناء، فاستعاد طمأنينته واندمج في الطرب بكلّ قلبه. وجعل كلما لجّ به الشوق - والأشواق في مغاني الطرب تثار - يمدّ بصره إلى سلطنة المجلس بنهم فيتلجأ ناظره عند طيّات جسمها المكتنز، فطاب قلباً بما أفاء عليه الحظّ من نعمة، وهناً نفسه على ما يترقبها من لذيذ المسرات، هذه الليلة والليالي الأخريات: «عند الامتحان يكرم المرء أو يهان»، هذا التصريح الذي تحدّثتها به، يجب أن أكون عند كلمتي، أيّة امرأة هي يا ترى، وأي مدّى مداها، سأعرف الحقيقة في الساعة المناسبة ثمّ ألبس لكلّ حال لبوسها، لكي تضمن الانتصار على غريم ينبغي أن تفترض فيه الغاية من المناعة والبأس. لن أحمّد عن شعاري القديم وهو أن أجعل من لذّي أنا مطلباً ثانوياً ومن لذتها هي الهدف

كان ما يُطلق عليه بهو الحفلات بيتت العالمة زبيدة يتوسّط الدار كالصالّة، أو كأنّ الصالّة بالفعل استجذت لها أغراض أخرى. ولعلّ أهمّ أغراضه أنّها كانت تقوم فيه - هي وجوقتها - بالتجارب الغنائية وحفظ الأغاني الجديدة، وقد اختارته لبعده عن الطريق العامّ بما يفصل بينها من حجرات النوم والاستقبال. وجعله اتّساعه - إلى هذا - صالحاً لإحياء الحفلات الخاصّة التي تتراوح عادة بين الزار والغناء، والتي تدعو إليها الخاصّة من أصدقائها ومعارفهم المقربين. ولم يكن الباعث على هذه الحفلات أريحية كرم فحسب - إن كان ثمة كرم على الإطلاق فإنّه غالباً ما ينهض بأعبائها الأصدقاء أنفسهم - ولكنّها رمت من ورائها إلى الإكثار من الأصدقاء الممتازين الخليقين بأن يدعوها لإحياء الحفلات أو يقوموا لها بالدعاية النافعة في الأوساط التي يتقلّبون فيها، ومن بينهم - إلى هذا كله - تتقي الخليل بعد الخليل. وجاء دور السيّد أحمد عبد الجواد ليشرّف البهو السعيد محاطاً بالخاصّة من معارفه. والحقّ أنّه تبدّى على نشاط جمّ عقب المقابلة الجريئة التي تمت بينه وبين زبيدة في بيتها فسرعان ما حمل رسله كريم الهدايا من النقل والحلوى والهدايا... إلى مدفاة أوصى على صنعها ونقشها وطيها بالفضّة لتكون - جميعاً - عربوناً للمودة المقبلة. ففي لقائه هذا دعت السلطانة، تاركة له الخيار في دعوة من يشاء من أصدقائه، إلى حفلة تعارف تكريماً للحبّ الجديد - ولشدّ ما كان البهر موسوماً بطابع بلديّ جذّاب بكتباته المتلاصقة المزركشة الناعمة الموحية بالنفاسة والخلاعة، الممتدة على الجانبين حتى الصدر حيث يقوم ديوان الست تكتنفه الشلت والوسائد المعدّة للجوقة، أمّا أرضه المستطيلة فمفروشة بسجاد متعدّد الألوان والشكول، وعلى كونصول يتوسّط الجناح الأيمن - كالشامة رواء وصفاء - أوقدت الشموع منغوسة في الفناير، غير مصباح ضخم يتدلّى من قمة مثوّر يتوسّط سقف الحجرة ذي منافذ على سطح الدار تفتح في الليالي الدافئة وتغلق بأصلاص زجاجيّة في ليالي البرد.

- كيف ترون صاحبكم؟  
فقالوا في نفس واحد:  
- معذورا!  
وهنا حرّك عازف القانون الضربير رأسه بمنة ويسرة  
وقد تدلّت شفته السفلى وتمتم:  
- قد أعذر من أنذر.  
ومع أنّ حكمته لاقت ترحيباً إلا أنّ الستّ التفتت  
نحوه كالغاضبة ولكزته في صدره هائفة:  
- اسكت أنت وسدّ فاك الذي يبلع المحيط...  
وتلقّى الضربير الضربة ضاحكاً ثمّ فتح فاه كأنها  
ليتكلم ولكنّه أغلقه مرّة أخرى مؤثراً السلامة فوجهت  
المرأة رأسها صوب السيّد وقالت بلهجة تنمّ عن  
الوعيد:  
- هذا جزء من يجاوز حدّه.  
فقال السيّد متظاهراً بالانزعاج:  
- ولكنني جئت لأتعلّم قلة الأدب.  
فدقّت المرأة صدرها بيدها وصاحت:  
- يا خبر!... أسمعتم قوله؟!...  
فقال أكثر من واحد منهم في وقت واحد:  
- إنه خير ما سمعنا حتّى الآن.  
وأضاف إلى هذا أحد الرفقاء قائلاً:  
- بل عليك بضربه إذا جاوز حدود قلة الأدب.  
وقال آخر مؤمناً على قوله:  
- الزمي طاعته ما قلّ أدبه.  
فتساءلت المرأة وهي ترفع حاجبيها لتعلن عن  
دهشة لا أثر لها في نفسها:  
- لحدّ هذا تحبّون قلة الأدب!  
فتنهّد السيّد قائلاً:  
- ربّنا يديها علينا.  
فما كان من العالمة إلا أن تناولت الدفّ وهي تقول:  
- سأسمعكم شيئاً أفضل.  
ونقرت عليه فيما يشبه العبث، ولكن علا النقر في  
حومة اللغو كالنذير حتّى أسكته، وداعب الأذان متودّداً  
فبدّل القوم حالاً بعد حال، تحفّز أفراد الجوقة للعمل،  
وفرغ السادة الكنوس ثمّ مدّوا رءوسهم نحو السلطانة

والنهاية، وبذلك تتحقّق لذّي على أكمل وجه». ومع  
أنّ السيّد لم يخبر من ألوان الحبّ - على وفرة مغامراته -  
إلا الحبّ العضويّ وحُبّ اللحم والدم، إلا أنّه تدرّج  
في اعتناقه إلى أرقّ صورة وأنفاها، فلم يكن حيواناً  
بحثاً ولكنّه إلى حيوانيته وهب لطافة إحساس ورهافة  
شعور وولع مغلغل بالغناء والطرب، فسما بالشهوة إلى  
أسمى ما يمكن أن تسمو إليه في مجالها العضويّ. بهذه  
البواعث العضوية وحدها تزوّج أوّل مرّة ثمّ ثاني مرّة،  
أجل أنّرت عاطفته الزوجية - بمرور الأيام - بعناصر  
جديدة هادئة من المودة والألفة ولكنّها ظلّت في جوهرها  
جسديّة شهوانيّة، ولمّا كانت عاطفة من هذا النوع -  
خاصّة إذا أوتيت قوّة متجدّدة وحيويّة دافقة - لا يمكن  
أن تستقيم إلى لون واحد فقد انطلق في مذاهب العشق  
والهوى كالثور الهائج، كلّما دعت صبوة استجاب لها في  
نشوة وحاس. لم يَز في أيّة امرأة إلا جسداً، ولكنّه لم  
يكن يخفي هامته لهذا الجسد حتّى يجده خليقاً حقاً بأن  
يرى ويلمس ويشمّ ويذاق ويسمع، شهوة نعم ولكنّها  
ليست وحشيّة ولا عمية، بل هدّبتها صنعة، ووجّهاها  
فنّ فاتخذت لها من الطرب والفكاهة والبشاشة جرّاً  
وطاذاً. فلم يكن أشبه بشهوته من جسمه، فهو مثلها  
في الضخامة والقوّة اللتين توحيان بالقسوة والوحشيّة  
ولكنّه - مثلها أيضاً - فيها ينطوي عليه في أعياقه من  
لطف ورقة ومودة على ما يتسرّب به أحياناً - متعمّداً  
من الصرامة والشدة. ولذلك فلم يتركز خياله  
النشيط - وهو يلتهم السلطانة بنظراته - في المضاجعة  
ونحوها ولكنّه تاه - إلى هذا - في أفانين من أحلام  
اللهو واللعب والغناء والسمر. وأحسّت زبيدة بحرارة  
عينيه فقالت تخاطبه وهي تقلّب عينيهما في وجوه  
المدعوّين بعجب ودلال:  
- حسبك يا عريس، هلاً استحييت خيال رفاقك!  
فقال السيّد متعجباً:  
- وما انتفاعي بالحياء خيال قنطار من اللحم  
والدهن!  
فأطلقت العالمة ضحكة رنانة وتساءلت في غاية من  
الانبساط:

وساد المكان صمت يكاد ينطق من شدة التهيؤ للطرب. وأومات العالمة إلى الجوقة فانطلقت تعزف بشرف عثمان بك، وراحت الرعوس تذهب مع الأنغام وتجيء، وسلم السيد نفسه لرنين القانون الذي جعل يلذع قلبه فيشعل فيه أصداء الأنغام المختلفة من عهد طويل حافل بليالي الطرب كأنها ذرات نبط تساقط على جمر مكنون، أجل كان القانون أحب آلات الطرب إلى نفسه - لا لمهارة العقاد وحدها - ولكن لسرّ مستلهم من طبيعة أوتاره، ومع أنه كان يعلم أنه يستمع إلى العقاد أو سي عبده إلا أن قلبه العاشق دارى بعشقه ما قصر دونه الفن. وما إن فرغت الجوقة من عزف البشرف حتى انطلقت العالمة تنشد «والذي أسكر من عذب اللها» فلحقت بها الجوقة في حاس، وكان أجمل ما يطرب فيها صوتان متجاوبان، أحدهما غليظ عريض للعاظ الضرير والآخر رقيق يندى بالطفولة لزينة العوادة، فجاش صدر السيد بالانفعال فابتدر الكأس الذي بين يديه فأفرغه في جوفه واندفع يشارك في إنشاد التوشيح وقد وشت نبرات صوته - عند مطلع الغناء - بشرق في حلقه لاندفاعه إلى الإنشاد قبل أن يتم بلع ريقه، وما لبث أن تشجع بقية الرفاق فحدوا حذوه وسرعان ما انقلب البهو جوقة تنشد عن صوت واحد. ولما ختم التوشيح تبيأت روح السيد - بحكم العادة - لاستماع التقاسيم والليالي ولكن العالمة ذلت الختام بضحكة من ضحكاتها الرنانة معلنة عن سرورها وعجبها، ومضت تهيئ أفراد الجوقة المستجدين مداعبة وتسألهم عن الدور الذي يؤدون سماعه، وانزعج السيد في باطنه ومرت به لحظة كدر امتحن فيها ولعه بالغناء امتحاناً قاسياً لم يفطن إليه كثيرون ممن حوله، ولكنه أدرك في اللحظة التالية أن زبيدة ليست كفّاً لتقاسيم الليالي شأن جميع العوالم بما فيهن «مجة كشر» نفسها، فتمنى لو تختار المرأة طقطوقة خفيفة مما تغني للسيدات في الأفراح، مفضلاً هذا عن محاولة غناء دور من أدوار الفحول ستعجز حتماً عن إجادة ترجمه، وصمم على أن يتفادى من المتاعب التي تخافها أنه بأن يقترح أغنية خفيفة تناسب حنجرة الست فقال:

- ما رأيكم في عصفوري يا أمه؟  
وحدها بنظرة ذات معنى كأنما ليثير في نفسها إحياء هذه الطقطوقة التي توجت بها حوار تعارفها في حجرة الاستقبال منذ أيام قلائل، ولكن جاء صوت من أقصى البهو يصيح ساخراً:  
- الأولى أن تطلبها من أمك! . . .

وسرعان ما ضاع الاقتراح فيما تفجر من قهقهات أفست على السيد خطته، وقبل أن يكرّر المحاولة طلب نقر «يا مسلمين يا أهل الله» وطلب آخرون «سلامتك يا قلبي» ولكن زبيدة التي تحاشت أن ترضي فتة على حساب أخرى أعلنت أنها ستغنيهم «على روعي أنا الجاني» فاستقبلت بترحاب حار. ولم يجد السيد بدءاً من توطئ النفس على الانبساط مستعيناً بالشراب، وبأحلام ليلته الواعدة، فتألق ثغره بابتسامة وضيفة أدرك بها ركب النشاوى بلا كدر، بل وجد عطفاً على رغبة المرأة في محاكاة الفحول إرضاء لمستمعها الراسخين في السماع وإن لم يتخل حالها من غرور تألفه الغواني. وفيما تهيئ الجوقة للغناء نهض أحد الرفاق وهتف بحماس:

- دعوا الدف للسيد أحمد فهو به خبير!  
فهزت زبيدة رأسها عجباً وتساءلت:  
- حقاً؟!

فحرك السيد أصابعه في سرعة ورشاقة كأنما يعرض عليها مثلاً من صنعه فقالت زبيدة باسمه:

- فيم العجب وأنت تلميذ جليلة!

وضحك السادة في غير ما تحفظ، وتواصل الضحك حتى علا صوت السيد الفار وهو يسأل السلطانة قائلاً:

- وماذا تنوين أن تعلّميه أنت؟

فقالت بلهجة ذات معنى:

- ساعلمه القانون. . . ألا يروك هذا؟

فقال السيد باستعطاف:

- علميني الهنك إن شئت.

وحث كثيرون السيد على الانضمام إلى التخت وأخذ الدف فما كان منه إلا أن نهض وخلع الجبة فبدأ بطوله وعرضه في القفطان الكموني كجواد يقف



بلغت الخمر بالضرب نهايته ونثرت الشهوات نثرًا  
فتركتهن كأدواح راقصة في حومة عاصفة هوجاء.

ورويذاً رويذاً شارف الدور الختام وراحت زبيدة  
تحنمه مرددة نفس المطلع الذي افتتحت به وهو «على  
روحي أنا الجاني» ولكن بروح يوحى بالدعة والتذكير  
والوداع والنهاية، وغابت الأنعام كما تغيب طيارة  
بحبيب وراء الأفق. ومع أن الختام قوبل بعاصفة من  
التهليل والتصفيق إلا أنه سرعان ما ساد القاعة صمت  
دلّ على همود أنفُس أعيانها الجهد والانفعال، ومضت  
فترة لم يسمع فيها إلا سعلة أو نحنة أو حكة عود  
ثقاب أو كلمة لا تستحقّ المراجعة، وقال لسان الحال  
للمدعوين «تفضّلوا بسلام» فلاح من بعضهم  
نظرات إلى قطع الثياب التي تحفّفوا منها في فورة  
الطرب فوضعوها وراءهم على مساند، ولكنّ البعض  
الآخر ثمن تعلّقت نفوسهم بحلاوة السهرة أبوا أن  
يغادروها حتّى يرشفوا آخر قطرة متاحة من الرحيق،  
فصاح أحدهم:

- لا نبرح حتّى نرّف السلطنة إلى السيّد أحمد.

وقبل الاقتراح بترحاب وتأييد، على حين أغرق  
السيّد والعاملة في الضحك غير مصدّقين، وما يدریان  
إلا ونفر من الصحاب يحيطون بهما وينهضونهما ثمّ  
يشيرون إلى الجوقة لتشرع في النشيد السعيد.

وقفا جنبًا لجنب، هي كالمحوّل وهو كالجمل،  
عملاقين ملطفين بالحسن، ثمّ تأبّطت في دلال ذراعه  
وأشارت إلى المحدثين بهما ليفسحوا الطريق. ونفرت  
الدقّافة على الدفّ فانطلقت الجوقة وكثرة من المدعوين  
يردّدون نشيد الرقة «انظر بعينك يا جميل» ومضى  
العروسان في خطر وثيد يتبختران طربًا وسكرًا فلم  
تتمالك زنوبة مع هذا المنظر إلا أن تمسك عن اللعب  
بأوتار العود ريثما تطلق زغرودة مجلجلة طويلة النفس  
لوحجّست لبدت لسانًا متعرجًا من لهب يشقّ الفضاء  
كالشهاب. وتسايق الأصدقاء يزجون النهائي تباغًا:

- بالرفاء والبنين.

- ذرّية صالحة من الراقصات والمغنيات.

وصاح به أحدهم محدّرًا:

مستوفزًا على رجله الخلفيتين، ثمّ شمّر عن ساعديه  
ومضى إلى الديوان ليأخذ مجلسه إلى جانب الستّ،  
ولكي تفسح له قامت نصف قومة مترحّزة إلى اليسار  
فانحسر الفستان الأحمر عن ساق لحمة مرتوية بيضاء  
مشربة بلون ورديّ من أثر الحفّ والتنفّ على أسفلها  
بخلخال ذهبيّ أعيا ضمّمها ذراعيه، ورأى بعضهم ذاك  
المنظر فصاح بصوت كالرعد:

- تحيا الخلافة!

وكان السيّد يغمز ثديي المرأة بعينه فهتف وراءه:

- قلّ يحيا الصدر الأعظم.

فصاحت العاملة محدّرة:

- خفّضوا أصواتكم أو يبيّتنا الإنجليز في السجن.

فهتف السيّد الذي لعبت الخمر برأسه:

- أذهب معك مؤنّدًا مع الشغل.

وعلا أكثر من صوت يقول:

- لا عاش من يترككما تذهبان وحدكما.

وأرادت المرأة أن تحسم النزاع الذي أثاره منظر

ساقها فمدّت يدها بالدفّ إلى السيّد وهي تقول:

- أربي شطارتك.

وتناول السيّد الدفّ، ومسح عليه براحته مبتسمًا،  
وبدأت أصابعه تنقر عليه في مهارة على حين انطلقت  
آلات الطرب عازفة، ثمّ غنّت زبيدة وهي ترنو إلى  
الآعين المحدثّة إليها:

على روحي أنا الجاني

ونجّلي في الهوى رمانِي

ووجد السيّد نفسه في موقف عجيب، تهفّو إليه

أنفاس السلطنة بين اللفتة واللفتة فتلتقي بإشعاعات

الخمر المتطايرة من يافوخه بين الحسوة والحسوة، فما

أسرع أن غابت عن وعيه أصداء الحامولي وعشان

والمنيلوي، وعاش في لحظته الراهنة قائمًا سعيدًا، ثمّ

سرى إليه من نبرات صوتها ما حرك أوتار قلبه فاستمر

نشاطه ولعب بالدفّ لعبًا لا يدانيه المحترفون، وما

بلغت المرأة في الغناء قوما «أمانة يا رايح يمه تبوس لي

الحلو من فمه» حتّى كان من النشوة في سكرة عاتية

ملهمة مدغدغة محرقة، ولحق به الرفاق أو سبقوه إذ

- لا تؤجل عمل اليوم إلى غد.

ولم تزل الجوقة تواصل الإنشاد، والأصدقاء يلوحون بأيديهم مودعين، حتى توارى السيد والمرأة وراء الباب المفضي إلى داخل الدار.

## ١٧

كان السيد أحمد جالساً إلى مكتبه بالدكان حين دخل ياسين على غير انتظار، ولم تكن زيارة غير منتظرة فحسب، ولكنها كانت قبل كل شيء غير مألوفة، إذ لم يكن من الطبيعي أن يزور الفتى أباه في دكانه على حين يتحاشاه على قدر استطاعته في بيته، وإلى هذا بدا شارد اللب ساهم النظرة... وأقبل على أبيه مكتئباً برفع يده إلى رأسه بطريقة آلية دون أن يلتزم ما يلتزم عادة بمحضه من أدب بالغ وخضوع كأنما نسي نفسه، ثم قال بلهجة ثمت عن شديد تأثره:

- السلام عليكم يا أبي، جئت لأحدثك في أمر هام...

ورفع السيد إليه عينيه متسائلاً وقد ساوره قلق استعان على إخفائه بقوة إرادته ثم قال بهدوء:

- خير إن شاء الله...

وجاء جميل الحمزاوي بكروسي وهو يرحب بمقدمه فأمره والده بالجلوس فقرب الشاب الكرسي من مكان أبيه وجلس، وبدا لحظات كالمتروك، ثم زفر نائراً بتردده وقال بنبرات متهذجة وفي اقتضاب مؤثر:

- المسألة أن أمي شارعة في الزواج...

ومع أن السيد توقع خيراً سيئاً إلا أن خياله لم يجنح في جولته التشاؤمية إلى تلك الناحية التي أودعها ركناً مهجوراً من ماضيه، لذلك لقيت منه المفاجأة صيداً غافلاً، وسرعان ما قلب كما يقطب كلما عرض له عارض من ذكريات زوجه الأولى، وتولاه لذلك ضيق، ثم انزعاج لما يمس ابنه مباشرة في صميم كرامته، وكشأن السائلين الذين يلقون السؤال لا ليعرفوا جديداً ولكن ليلتمسوا منفذاً للنجاة من الواقع وهم يائسون، أو ليهيئوا لأنفسهم مهلة للتروّي وتمالك الأعصاب، وسأله:

- ومن أدراك بهذا؟

- قريبها الشيخ حمدي، زارني اليوم بمدرسة النحاسين وألقى عليّ الخبر مؤكداً بأنه سيتم في ظرف شهر...

الخبر حق لا ريب فيه، وما هو بالأول من نوعه في حياتها، ولن يكون الأخير إذا اتخذ الماضي مقياساً للمستقبل، ولكن أيّ ذنب جناه هذا الشاب ليلقى هذا الجزاء الصارم المتجدد الأذى؟ وجد الرجل نحو ابنه رثاء وعطفاً، وعزّ عليه أن يقف من آلامه موقف العجز وهو الذي يقصده الناس في الملأت، وتساءل فيما بينه وبين نفسه ماذا تكون حاله لو كان هو المبلى بهذه الأم!... فانقبض صدره وتضاعف رثاؤه وعطفه نحو ابنه، ثم شعر برغبة تدفعه إلى السؤال عن ذلك الزوج المنتظر، ولكنه لم يستسلم لها، إنما لأنه أشفق من أن تزيد جرح ابنه عمقاً واتساعاً وإنما لأنه أنكرها على نفسه لما آسبها من حب استطلاع، لا يليق بالمسأة الراهنة، موجه إلى المرأة التي كانت زوجاً له، بيد أن ياسين قال منفعل من تلقاء نفسه وكأنه يجيب خاطرته:

- ونحن نتزوج!... من شخص يدعى يعقوب زينهم صاحب مخبز في الدراسة... في الثلاثين من عمره!

واشتد انفعاله وتهجّص صوته وهو ينطق العبارة الأخيرة كأنما يلفظ شظية، فانتقل إحساسه إلى أبيه تقزراً واشمئزاً، وجعل يردد في سرّه: في الثلاثين من عمره... يا له من عمل فاضح... إنه فسق في ثياب زواج... غضب الرجل لغضب ابنه، وغضب لحساب نفسه هو كما اعتاد أن يغضب كلما ترامى إليه نبأ من مبادها كأنما يتجدد شعوره بتبعته في اعتبارها يوماً زوجة له، أو كأنما يعزّ عليه - ولو بعد مرور ذلك الزمن الطويل - أنها أفلتت من تأديبه والإذعان لسنته! وإنه ليذكر أيام معاشرته لها - على قصرها - كما يذكر الإنسان حمى هاضته، ورجماً كان مغالياً في تصوّره، ولكن رجلاً في مثل اعتداده بنفسه جدير بأن يرى في مجرد الرغبة عن الإذعان لمشيئته جريمة لا تغتفر وهزيمة

فقال ياسين في حزن وقنوط:  
- ولكنّها شيء كائن يا أبي!... ومهما يكن من أمر  
تعاهدنا فلن تزال أمي إلى ما شاء الله، سواء في نظري  
أم في نظر الناس جميعاً... لا مفر ولا خلاص...  
ونفخ الشاب من الأعصاق، ورنّا إلى أبيه بعينيه  
السوداوين الجميلتين - اللتين ورثهما عنها - في استغاثة  
صارخة وكأنّه يقول له: «إنّك أبي الجبار القادر فمدّ لي  
يدك»، فبلغ التأثير بالسيد غايته ولكنّه واصل تظاهره  
بالهدوء المقرون بالاستهانة قائلاً:  
- لا أنكر عليك تألّك ولكنّي أنكر عليك أن تغالي  
فيه، كذلك يطيب لي أن أعذرك على غضبك ولكنّ  
قليلاً من العقل حريّ بأن يردّك بلا عناء، سائل  
نفسك في هدوء ماذا عليك من زواجها؟... امرأة  
تتزوج، كما تتزوج النساء كلّ يوم وكلّ ساعة، وليست  
هي التي تحاسب على مثل هذا الزواج لما سلف من  
سلوكها، بل لعلّها خليقة بأن تشكر عليه، وكما قلت  
لك مراراً لن يرتاح لك بال حتّى تسقطها من حسابك  
كانّها لم تكن، فافعل بالله وأرخ نفسك، وتعزّ - مهما  
يكن من أمر القليل والقال - بأنّ الزواج علاقة  
مشروعة... شريفة...

قال السيد هذا بلسانه فحسب - إذ كان يناقض كل  
المنافضة ما طبع عليه من غيرة متطرّفة فيما يتصل  
بالآداب المطلقة للأسرة - ولكنّه قال بحرارة كالصدق،  
منشئها ما مارسه من لباقة أهله لأن يكون الحكم  
الحكيم ووسيط الخير الذي لا يعجزه فضّ نزاع بين  
الناس، ومع أنّ كلامه لم يضع هباء - حيث إنّّه من  
المستحيل أن يضع كلام للسيد هباء حيال أحد من  
أبنائه - إلّا أنّ غضب الفتى كان أعمق من أن يتبخّر  
بنفخة واحدة فوقع منه موقع قدح بارد من إبريق بالماء  
المغلّي، وما لبث أن خاطب أباه قائلاً:

- هو علاقة مشروعة حقّاً يا أبي ولكنّها تبدو أحياناً  
أبعد ما تكون عن الشرع، إنّي أسأل نفسي عمّا يدفع  
هذا الرجل إلى الزواج منها؟!

وبالرغم من خطورة الحال قال السيد لنفسه في  
شيء من السخرية «أولّ بك أن تسأل عمّا يدفعها

فتالة. ثمّ إنّها كانت - ولعلّها لا تزال - جميلة مترعة  
أنوثة وجاذبيّة فتعيم بمعاشرتها أشهراً حتّى بدا منها شيء  
من المقاومة لإرادته التي نزع إلى فرضها على المتصلين  
به من آله، ولم ترّ بأساً في الاستمتاع بالحرّيّة ولو بالقدر  
الذي يتيح لها زيارة أبيها من آنٍ لآنٍ، فغضب السيد  
وحاول منعها بالزجر أوّلاً ثمّ بالضرب المبرّح أخيراً، فما  
كان من المرأة المدلّة إلّا أن فرّت إلى والديها وأعمى  
الغضب الرجل المتعجرف فظنّ أنّ خير سبيل إلى  
تأديبها وإرجاع عقلها إلى رأسها هو أن يطلقها إلى  
حين - إلى حين طبعاً لأنّه شديد التعلّق بها - فطلقها،  
وتظاهر بإهمالها أيّاماً وأسابيع وهو ينتظر أملاً أن يجيئه  
وسيط خير من آلهاء، فلمّا لم يطرق بابها أحد داس  
كبرياءه وبعث هو بمن يحسّ النبض تمهيداً للصالح فعاد  
الرسول يقول إنهم يرحّبون به على شرط ألاّ يسجنها أو  
يضرّ بها!... ولكنّه كان ينتظر موافقته بلا قيد ولا  
شرط فثار غضبه ثورة عاتية وأقسم فيما بينه وبين نفسه  
ألاّ يضمّمها رباط إلى الأبد. هكذا ذهب كلاهما إلى  
حال سبيله، وهكذا قضى على ياسين أن يولد بعيداً  
عن أبيه وأن يلقي من حياته في بيت أمّه ما لقي من  
ضروب المذلّة والألم...

ومع أنّ المرأة تزوّجت أكثر من مرّة، ومع أنّ الزواج  
كان - في نظر ابنها - أشرف سقطاتها، إلّا أنّ هذا  
الزواج الجديد المتوقّع بدا أفظع من سوابقه وأمعن في  
الإيلام، لأنّ المرأة استوت على الأربعين من ناحية،  
ولأنّ ياسين اكتمل شاباً مدرّكاً بوسعه إذا شاء أن يدفع  
عن كرامته الإساءة والهوان من ناحية أخرى، فقد  
جاوز إذن موقفه القديم الذي ألزّمه إيّاه حدّاته سنّه  
حين كان يتلقّى الأنباء المشيرة عن أمّه بالدهش  
والانزعاج والبكاء إلى موقف جديد بدا فيه أمام نفسه  
رجلاً مستولاً، لا يصحّ له أن يلقي الإساءة مكتوف  
اليدين. دارت هذه الخواطر بذهن السيد، وقدر  
خطورتها بقلق، ولكنّه صمّم على التهوين من شأنها ما  
وسعته الحيلة ابتعاداً بابنه الأكبر عن المتاعب، فهزّ  
كتفيه العريضين متظاهراً بالاستهانة وقال:

- ألم نتعاهد على اعتبارها كشيء لم يكن!؟...

هي!»، وقبل أن يحاور ابنه واصل ياسين حديثه قائلاً:

- إنه الطمع... ولا شيء غيره!

- أو لعلها رغبة صادقة في الزواج منها...

ولكن الشاب هاج ناثره وهتف في حنق وألم معاً:

- بل الطمع وحده...

وبالرغم من خطورة الموقف لم تخف على السيد حدة

اللهجة التي خاطبه بها ابنه، بل لم يتخل الرجل من

ضيق إلى تقديره لحاله وحزنه أن يعود إلى توكيد قوله

السابق، فلما لم يفعل استطرد قائلاً في هدوء نسبي:

- إن ما يدفعه إلى الزواج من امرأة تكبره بعشرة

أعوام هو الطمع في مالها وعقارها...

وجد السيد في تحول النقاش إلى هذه النقطة فائتة لم

تغب عن ألمعيته، فهو ينزع الفتى من تركيز تفكيره في

أمور أشد حساسية وأبعث للألم وبحسبه أن يصرفه عن

النظر فيما يدفع أنه إلى الزواج إلى ما يدفع الرجل،

وإلى هذا كله لم يخف عليه ما في رأي ابنه من وجهة

فيما يتعلق بالزواج فسرعان ما اقتنع به وشاركه مخاوفه

فيه. أجل إن هنية - أم ياسين - غنية لدرجة لا بأس

بها، وقد سلمت لها ثروتها من العقار على ما خاضت

من تجارب الزواج والهورى، بيد أنها كانت فيما مضى

شابة حسنة ذات سحر وسلطان، يخاف منها ولا يخاف

عليها، أما الآن فبعيد عن الاحتمال أن تملك نفسها -

فضلاً عن أنفس الآخرين - ما ملكت، وإذن فثروتها

خليقة بأن تتبدد في معركة الغرام التي لم تعد من

رؤماتها، وإنه لحرام وأي حرام أن يخرج ياسين من

جحيم هذه المأساة جريح الكرامة وصفر اليدين، وقال

السيد مخاطب ابنه وكأنه يحاور نفسه ويستلهمها

الرأي:

- أراك على حق يا بني فيما تقول، إن امرأة في سنّها

صيد يسير خليق بأن يغري الطماعين من البشر، فما

عسى أن تفعل؟ انتلمس سبيلاً إلى ذاك الرجل لنحمله

على العدول عن مغامرته؟... إن الحملة عليه

بالوعيد والتهديد سلوك لا ترتضيه آدابنا وما عرفنا به

بين الناس، كذلك التوسل إليه بالرجاء والاقتناع مهانة

لا تهضمها كرامتنا... فلم يبق أمامنا إلا المرأة

نفسها!... ولست أجهل ما حفرت بينك وبينها من

قطيعة كانت بها - ولا تزال - خليقة، بل الحق أتي لا

أرتاح إلى أن تصل ما انقطع بينك وبينها لولا ما

استجد من أعدار قهرية، فللضرورة أحكام، ومهما

يشق عليك الرجوع فهو رجوع إلى أمك، ومن يدري

فلعل ظهورك المفاجئ في أفقها يردّها إلى شيء من

الصواب...

ويدا ياسين أمام أبيه، كالوسيط أمام المنوم

المغناطيسي في اللحظات التي تسبق ما يوحى به إليه،

ذاهلاً صامتاً، فوشى حاله بنفاذ تأثير الرجل إلى نفسه،

أو لعله دلّ على أنه لم يفاجأ بهذا الاقتراح، وأنه يحتمل

أن يكون ممّا دار بنفسه قبل مجيئه، بيد أنه تمت قائلاً:

- ليس ثمة حلّ أوفق...

فقال السيد بقوة ووضوح:

- أراه أوفق الحلول...

فقال ياسين وكأنه يحدث نفسه:

- كيف أرجع إليها؟... كيف أزعج نفسي في

ماضٍ فررت منه وليس أحب إليّ من أن يُبسر من

حياتي بترّاً... لا أم لي... لا أم لي...

ولكن بالرغم من ظاهر قوله شعر السيد بأنه وُفق

إلى جذبه إلى رأيه فقال بلباقة:

- هذا حقّ، ولكن لا أظنّ أنّ ظهورك أمامها فجأة

بعد ذاك الغياب الطويل يضي بلا أثر، لعلها إذا رأتك

بين يديها شاباً ناضجاً أن تتحرك أمومتها فتجفل ممّا

عساه يسيء إلى كرامتك وتعذل عن سيرتها... من يدري؟

فطامن ياسين رأسه غارقاً في أفكاره، غير مبالي بما

دلّ عليه من ضيق ويأس، كان يرتعد خوفاً من وقوع

الفضيحة، ولعلّ هذا كان أفضح ما يكرّبه ولكنّ خوفه

على ضياع الثروة التي ينتظر أن يرثها يوماً لم يكن دون

ذلك، وما عسى أن يفعل؟... مهما يقلّب أوجه

الرأي فلن يجد حلاً أوفق ممّا ارتأى أبوه، بل إنّ صدور

الرأي عن أبيه البسه في نظره - على تقلقل حاله -

وجاهة وأعفاه هو من هموم كثيرة. ليكن... هكذا

قال في نفسه، ثم قال مخاطباً أباه:

- كما ترى يا أبي...

صاحبها ويقول «نية تطلب منك أن تحضر الليلة»، أو كأنه يراه وهو عائد بقرطاس الفاكهة ضاحك الأسارير، أو وهو يلفت نظر أمه في الطريق إلى الرجل فتجذبه من ذراعه بعيداً أن يلفت إليها الأنظار، أو وهو ينشج باكياً أمام منظر الافتراس الوحشي الذي يخلقه خلقاً جديداً - كلما ورد على ذهنه - على ضوء تجاربه الراهنة فيقلب البشاعة نفسها، طفقت الصور الملتبته تطارده وهو يجد في الفرار منها، ولكنه ما إن يتملص من قبضة إحداها حتى يقع في قبضة الأخرى، مطاردة عنيفة وحشية أثارت في أعماقه بركان الحق والحقد فواصل السير إلى غايته وهو على أسوأ حال «كيف أمرق إلى العطفة وعلى رأسها هذا الدكان... وهذا الرجل. أترأه بموقفه القديم منه؟... لن ألتفت نحوه، أي قوة مأكرة تغريني بالنظر، أيعرفني إذا التفت عينانا؟... إذا بدا منه أنه عرفني قتلته. ولكن كيف له أن يعرفني؟... لا هو ولا أحد من الحي، أحد عشر عاماً، تركته غلاماً وأعود إليه ثوراً ذا قرنين! ثم لا تواتينا القوة على إبادة الحشرات السامة التي لا تنفك تلدغنا...؟»

ومال إلى العطفة مسرعاً بعض الشيء، متخيلاً القوم وهم يستطلعونه بأنظارهم متسائلين «أين ومتى رأينا هذا الوجه!»، وركي في الطريق المتصاعد في غير استواء، جامعاً عزمه على نقض الغبار الخائق عن وجهه ورأسه ولو إلى حين، وتشجيعاً لعزمه فر بنفسه بعيداً وراح يتأمل ما حوله ويحدث نفسه قائلاً: «لا تضيق بالطريق المتعب فكم كنت تفرح به صغيراً وأنت تترحل على منحدره فوق لوح من الخشب!» بيد أنه عاد يقول حين تراءى له جدار البيت: «إلى أين أسير؟... إلى أمي!... يا للتعجب. لا أصدق، كيف ألفاها وكيف تلتقاني... وددت لو...» ومال يميناً إلى عطفة مسدودة ثم انجبه إلى أول باب في جانبها الأيسر. هو البيت القديم بلا أدنى شك، قطع الطريق إليه كما كان يقطعه وهو صغير، بلا تردد أو تساؤل وكأنه ما تركه إلا أمس القريب، ولكنه اقتحم بابه هذه المرة باضطراب غير معهود، وركي في الدرج

لما بلغت به قدماه طريق الجالية انقبض صدره حتى شعر بأنه يختنق. لقد غاب عنه أحد عشر عاماً. أحد عشر عاماً تصرمت فلم يناعه القلب إليه مرة واحدة، أو ترف عليه ذكرى من ذكرياته إلا في حالة قائمة مقبضة نسج وشيها من مادة الكابوس، والحق أنه لم يكن غادره ولكن وافته فرصة ففر منه فراراً، ثم ولّاه ظهره غاضباً يائساً، ثم تجبّه بكل قوة فلم يعرفه بعد ذلك كغاية في نفسه أو معبراً إلى سواه من الأحياء بيد أنه هو الحي كما عهده في طفولته وصباه، ولم يتغير منه شيء، ما زال ضيقاً تكاد تسده عربة يد إذا اعترضت سبيله، وما هي بيوته تكاد تتماس مشربياتها، ودكاكينه الصغيرة في تلاصقها وزحمتها والطينين الصادر عنها كخلايا النحل، وأرضه التربة بفجواتها المفعمة وحلاً، وغلمان الذين يغشون جوانبه ويطبعون على أديمه آثار أقدامهم الخافية، وسابله الذين لا ينقطع لهم تيار، ومقل عم حسن ومطعم عم سليمان، كل أولئك باقي كما عهده فتكاد ترف على شفثيه ابتسامة حنان يريد ثغر طفولته أن يفتر عنها لولا مرارة الماضي وسقم الحاضر...

وتراءت لعينيه عطفة قصر الشوق خففق قلبه بقوة حتى كاد يصم أذنيه، ثم لاحت على رأس منعطفها الأيمن سلال البرتقال والتفاح منضدة على الطوار أمام دكان الفاكهة فعض شفتيه وغض طرفه في خزي. الماضي ملطخ بالعار، مدفون الرأس في الطين من الخجل، دائم الجار بالشكوى من الخزي والألم، ولكنه كله في كفة وهذا الدكان في كفة وحده، بل إنه يرجح به، إذ أنه رمزه الحي الباقي على الزمن. جمعت في صاحبه وسلاله وفاكهته وموقعه وذكرياته الخزي متبجحاً، والألم ناطقاً بالهزيمة مولولة. وإذا كان الماضي أحدائاً وذكريات هي بطبعها عرضة للتخلخل أو النسيان فهذا الدكان يقوم شاهداً مجسماً يكشف مخلخله ويفضح منسيه. وكان كلما تقدّم من المنعطف خطوة تفهقر عن الحاضر خطوات طاوياً الزمن على رغم إرادته وكأنه يرى في الدكان «غلاماً» يرفع رأسه إلى

وبالشجويش. وركبه توتر وضيق فأدرك أنه لم يطرق باب البيت القديم فحسب ولكنه نكأ جرحاً متورماً وغاص في قيحه. ولم يطل انتظاره، ولعله جاء أقصر مما يتصور، إذ ابتدر أذنيه وقع أقدام متتابعة متدافعة، وصوت يتردد محاوراً نفسه بكلام علا جرسه ولم يستبن اللفاظه، ثم أحس بها - وهو لم يزل مولئ الباب ظهره - وضلفة الباب المغلقة تطفلق تحت صدمة منكيها، ثم جاءه هتافها وهي تقول بأنفاس مبهورة:

- ياسين!... ابني!... كيف أصدق عيني؟!... ربي... صار رجلاً!...

وتدافع الدم إلى وجهه المكتنز، واستدار نحوها في ارتباك وهو لا يدري كيف يلقاها ولا كيف يكون اللقاء، ولكن المرأة أعفته من تدبير أمره فهرعت إليه واحتوته بذراعيها وضمت إليها بشدة عصبية وراحت تقبل صدره - وهو غاية ما وسع شفتها أن تبلغاه من جسمه المنتصب - ثم اختنقت نراها واغرورت عيناها فدفنت وجهها في صدره مستسلمة ملياً ريثما تسترد أنفاسها. لم يكن حتى تلك اللحظة قد أن حركة أو نطق بكلمة، ومع أنه شعر شعوراً عميقاً ألياً بأن جموده أشد من أن يحتمل إلا أنه لم يبدر منه ما ينم عن حياة: أي حياة، فلازم جموده وخرسه، بيد أنه كان متأثراً غاية التأثير وإن لم يتضح له نوع التأثير بادئ الأمر بحال يطمئن إليها، ولكنه، على حرارة استقبالها، لم يجد رغبة للارتقاء في حضنها أو تقبيلها، لعله لم يستطع أن ينزع الذكريات المحزنة الناشئة في نفسه كمرض مزمن رافقه منذ الصبا، ومع أنه وجه إرادته بعزم وتصميم إلى إخلاء المسرح من الماضي في اللحظة الراهنة ليملك فكره وحكمته، إلا أن الماضي المطرود انعكس على صفحة قلبه ظلالاً قائمة كذبابة نشأت عن الفم بعد أن خلفت وراءها جرثومة تسري، فأدرك في ذاك الموقف الرهيب أكثر مما أدرك في ماضيه كله الحقيقة المحزنة التي طالما أدمت فؤاده وهي أن أمه قد اقتلعت من صدره. ورفعت المرأة رأسها إليه وهي تدعوه إلى تقريب وجهه فلم يستطع الإباء وأذن وجهه منها فقبلته في خديه وجبينه، التقت أثناء العناق عيناها

بخطوات ثقيلة بطيئة. وبالرغم من قلقه وجد نفسه يفتحها باهتمام مطابقاً بينه وبين صورته المحفوظة في خياله فالفاه أضيئ قليلاً مما في ذاكرته وقد تاكلت بعض جوانبه وتهدمت أجزاء صغيرة من أطراف درجاته المطلّة على بشر السلم، وسرعان ما حجبت الذكريات الحاضر كله. ومز وهو على تلك الحال بالدورين المأجورين حتى انتهى إلى الدور الأخير، ووقف لحظات يتنصت وصدره يعلو وينخفض، ثم هز منكيه كالمستهين ونقر على الباب، وبعد دقيقة أو نحوها فتح الباب عن وجه خادم متوسط العمر ما إن تبينت فيه رجلاً غريباً حتى توارت وراء الباب وهي تسأله في أدب عما يريد. واثارت أعصابه فجأة وبلا داعٍ معقول لما بدا من الخادم من جهل بشخصه فدخل بأقدام ثابتة واتجه نحو حجرة الاستقبال وهو يقول بلهجة امرأة:

- قولي لسنتك ياسين هنا...

«تري ماذا تظن الخادم بي؟... والتفت وراءها فوجدتها مسرعة إلى الداخل، أما لأن لهجته الأمرة غلبتها على أمرها، وأما... وعض على شفتيه وهو يرق إلى داخل الحجرة. إنها حجرة الضيوف كما قدر بلا وعي في لهجته وحدته ولكن ذاكرته كانت تعرف أركان البيت بلا دليل، ولو وجد في ظرف غير الظرف لطف مسترجعاً ذكرياته من الحلم الذي كان يحمل إليه وهو يبكى إلى المشربية التي كان ينظر من وراء ثقبها إلى موكب الزفة مساء وراء مساء. ترى أأثاث الحجرة الراهن هو أأثاث الماضي البعيد؟

إنه لا يذكر من الأثاث القديم إلا امرأة طويلة ثبتت في حوض مذهب تنبثق من ثغرات في سطحه ورود صناعية مختلفة الألوان، وترتكز في زاويتي المتباعدتين فناير تتدلى من أعناقها أهلة بلورية طالما ولع بالعبث بها والنظر خلالها إلى المكان فيلوح في حلال غريبة يذكر إغراءها وإن غاب عنه منظرها، ولكن لا داعي للتساؤل، فأثاث اليوم غير أثاث الأمس، لا بلجته فحسب، ولكن لأن حجرة امرأة مزواج خليفة بأن تتغير أو تتجدد، كما تغير أبوه، وتاجر الفحم،

صباح مساء بأنَّ له أمًا، ولكن أيَّ شيءٍ وأيَّ أشياء؟  
ورفع إليها عينيه في حيرة دون أن ينبس فالتقت  
عيناهما لحظة، وابتدرته المرأة قائلة:

- لماذا لا تتكلم؟

فخرج ياسين من حيرته بتنهدة مسموعة ثم قال  
وكأنه لم يجد بداً مما قال:

- ذكرتكَ كثيرًا، ولكن آلامي كانت أفظع من أن  
تطاق.

وقبل أن يتم كلامه كان النور الذي ينبعث من  
نظرتها قد خمد، واحتلت الحدتين غمامة خيسة وفنور  
ساقتها رياح تهب من جوف الماضي الأسيف، فلم تعد  
تطبق التحديق في عينيه وخفضت جفניה وهي تقول  
بلهجة حزينة:

- ظننتك برئت من أحزان الماضي، وإنَّها عَلم الله  
لا تستحقَّ بعض ما أوليتها من غضب حلك على  
هجري أحد عشر عامًا.

وعجب لعناها عجبًا أحقَّه، واستنكره استنكارًا دُرَّ  
على غضبه المكتوم فلفلًا فانفعل انفعالًا لولا القصد  
الذي جاء من أجله لثار بركانه، أتبعي المرأة حقًا ما  
تقول؟ أهان عليها ما فعلت لهذا الحد؟ أم تظنُّ به  
الجهل بما كان؟ يبدُّ أنه ضبط أعصابه بقوة إرادته التي  
لم تغفل عن هدفها وقال:

- تقولين إنَّها لا تستحقَّ غضبي؟... أراها تستحقُّ  
الغضب كلَّ الغضب وأكثر.

فتركت ظهرها يسقط على مسند الكنبه كشيء  
تهدم، ورمته بنظرة بين العتاب والاستعطاف قائلة:

- ما وجه العيب في أن تتزوَّج امرأة بعد طلاقها؟  
فشعر بنيران الغضب تنأجج في عروقه وإن لم تَبْدُ  
منها آثار إلا في انطباق شفثيه ثم التصاقهما، لا زالت  
تتكلم ببساطة كأنها مقتنعة على يقين ببراءتها...  
وتساءل عن وجه العيب في أن تتزوَّج «امرأة» بعد  
طلاقها، حسن، لا عيب في أن تتزوَّج «امرأة» بعد  
طلاقها، أمَّا أن تكون المرأة أمه فهذا شيء آخر، شيء  
آخر جدًّا، وأيَّ زواج الذي تعنيه؟... إنَّه زواج  
وطلاق ثم زواج وطلاق ثم زواج وطلاق... هناك

فلثم جبينها تأثرًا بارتباكها وحيائه لا لعاطفة أخرى، ثم  
سمعها تغمغم:

- قالت لي ياسين هنا، قلت ياسين! من يكون  
هذا؟ ولكن من يكون غيره؟ ليس لي إلا ياسين  
واحد، ذاك الذي حرَّم بيتي على نفسه وحرَّم نفسه  
عليّ، فإذا حدث؟ وكيف استجيب الدعاء آخر  
الدهر؟! وجئت عدوًّا كالمجنونة لا أصدقُ أدني، وها  
أنت، أنت دون غيرك والحمد لله، تركتني غلامًا  
وعدت إليَّ رجلًا، كم قتلني الشوق إليك وأنت لا  
تحسن لي وجودًا...

وأخذته من ذراعه إلى الكنبه فمضى معها وهو  
يسائل نفسه متى تنحسر هذه الموجة الطاغية من  
الاستقبال الحارَّ حتَّى يتبيَّن الطريق إلى هدفه، وجعل  
يسترق إليها النظر في استطلاع مقرون بالدهشة  
والقلق؟... كأنها لم تتغيَّر إلا أن يكون جسمها قد زاد  
امتلاءً ولكنَّه لا يزال عافًا على حسن تقطيعه، أمَّا  
الوجه القمحي المستدير والعينان السوداوان المكحولتان  
فعلَّ سابق عهدهما تقريبًا من القسامة البارعة. ولم  
يرتج إلى ما رآه على صفحة الوجه والعنق من زواق  
كأنه كان ينتظر أن تغيَّر أعوام القطيعة من دأبها القديم  
على العناية بنفسها وولمها بالتريج لداعٍ ولغير ما داعٍ  
أي حتَّى في تلك الأوقات التي تخلو فيها إلى نفسها.  
وجلسا جنبًا إلى جنب وهي تحدِّق إلى وجهه بحنان تارة  
وتقيس طوله وعرضه بعينين معجبتين تارة أخرى ثم  
تمتمت بصوت متهذج:

- آه يا ربِّي لا أكاد أصدقُ عيني، أنا في حلم، هذا  
ياسين! أيَّ عمر ذهب هباء، كم دعوتك ورجوتك،  
وبعثت إليك الرسول تلو الرسول، ماذا أقول؟...  
دعني أسألك كيف قسا قلبك عليَّ لهذا الحدِّ؟...  
كيف أعرضت عن دعواتي الحارة؟ كيف تصاممت عن  
نداء قلبي المكروب؟... كيف... كيف... كيف  
نسيت أن لك أمًا منزوية هنا؟

ووقف انتباهه عند الجملة الأخيرة فوجدتها غريبة  
تدعو إلى السخرية والرائء معًا، وكأنَّها أفلتت منها في  
ذهول الانفعال، أجل يوجد شيء وأشياء، تذكره

ما هو أدهى وأمره، ذلك «الفكهاني»!... أيدكرها به؟... أیصفعها بما في نفسه من مرّ ذكرياته؟ أیصارحها بأنّه لم يعد جاهلاً كما تظنّ؟ وأرغمته حدّة الذكريات على الخروج عن اعتداله هذه المرّة فقال بامتعاض شديد:

- زواج وطلاق، زواج وطلاق، هذه أمور شائعة لم تكن لتليق بك، ولشدّ ما مرّقت نياط قلبي بلا رحمة...

فشبكت ذراعها على صدرها في استسلام اليأس وقالت بإشفاق حزين:

- إنّه سوء الحظّ ولا شيء غيره، إنّ سيّئة الحظّ، هذا كلّ ما هنالك.

فبادرها قائلاً، وقد تقلّصت أساريه وانتفخ لغده فلفظ الكلمات كأنّها يلفظ مستخبّئاً تعافه النفس:

- لا تحاربي أن تبرّئي ساحتك فما يزيدني هذا إلّا ألماً على ألم، من الخير أن نسدل على آلامنا ستاراً يخفيها ما دما لا نستطيع أن نمحوها من الوجود عوّاً. ولاذت بالصمت على كره والقلب يشفق إشفاقاً شديداً من هائج الذكريات على طيب اللقاء وما بعثه في نفسها من آمال، وجعلت تلحظه بقلق كأنّها تستخبره عماً يطوي عليه صدره، فلما ثقل عليها صمته قالت متشكّية:

- لا تلجّ في تعذيبي وأنت وحيد.

ووقع الكلام من نفسه موقعاً غريباً كأنّها يكشف له لأول مرّة، بيد أنّه وجد فيه باعثاً جديداً للهاج والتوتر، إنّ ابنها حقّاً، إنّها أمّه الوحيدة كذلك، ولكن كم رجلاً!... وأشاح عنها بوجهه ليخفي ما ارتسم على صفحته من أي التقرّز والغضب ثمّ أغمض عينيه فراراً من ذكريات مناظر بشعة، عند ذاك سمعها تقول برقة وتوسّل:

- دعني أعتقد بأنّ سعادتني الراهنة حقيقة لا وهم، أجل حقيقة لا وهم، وبأنّك جئتني منفضاً عن قلبك أحزان الماضي كلّهُ إلى الأبد...

فنظر إليها نظرة طويلة مركّزة وشت بخطورة أفكاره إلى حين، ولم يكن شيء في تلك اللحظة يستطيع أن

يعدل به عن النفاذ إلى غرضه ولو بتأجيله، فقال بصوت يدلّ على أنّ ألفاظه التي يتفوّه بها أقلّ بكثير من المعاني التي يوحى بها:

- لهذا يتوقّف عليك أنت، فإن شئت كان لك ما تحبّين...

فتجلّت في عيني المرأة نظرة قلق ثمّت عماً تعاني من إجهاء الخوف وقالت:

- إنّني أرغب في مودّتك من أعماق قلبي، وطالما تمّيتها، وكم سعيت إليها فردّدتني بلا رحمة. ولكنّه كان مشغولاً عن كلامها الحارّ بما يضطرب في ذهنه فقال:

- بيدك ما تتمنّين، بيدك أنت وحدك، إذا جعلت من الحكمة رائدك.

فتساءلت المرأة في انزعاج:

- ماذا تعني؟

فأحنقه تجاهلها وقال بتذمّر:

- مضمون كلامي واضح، هو أن تعدلي عماً لو صحّ ما بلغني عنه لكان فيه الضربة القاضية عليّ! فأتّسعت عينها وتجهّم وجهها في يأس غير خافٍ، وتمتمت وهي لا تدري:

- ماذا تعني؟

بيد أنّه ظلّ أنّها تصرّ على التجاهل فقال بغیظ:

- أعني أن تلغي مشروع الزواج الجديد، وألاّ تسمحني لنفسك بمعاودة التفكير في شيء من هذا القبيل، لم أعد طفلاً، وليس بصبري متّسع لطعنة جديدة.

أطرقت في حزن بالغ، ولازمت الإطراق كأنّها أخذتها سيّنة من النوم، ثمّ رفعت رأسها في بطء فلاح الحزن في وجهها أعمق ممّا قدّر، ثمّ قالت بصوت ضعيف وكأنّها تخاطب نفسها:

- إذن جئت من أجل هذا؟! ودون تفكير فيما يقول قال:

- نعم!

فوقع جوابه كطلفة نارّة فإذا بكلّ شيء حوله يتغيّر ويتبدّل سريعاً، ويكفهر الجوّ. وقد استرجع فيما بعد -



هذه الفضيحة بأيّ ثمن.  
ومن شدة اليأس والحزن خرج صوتها مثل قفص  
بالبرودة وهي تقول:  
- وماذا يهمك منها؟  
فصاح في دهش:  
- كيف لا تهمني فضيحة أمي؟!  
فقالت في حزن مشوب بما تيسر من التهميم:  
- أنت في الحق لا تعذني أمّا لك.  
- ماذا تعنين؟  
فغمغمت في يأس متجاهلة تساؤله:  
- ما دمت قد خلعتني من نفسك فيجدر بك أن  
تدعني وشأني.  
فهتف غاضباً:  
- حسي ما كان، لن أسمح لك بتلويث سمعي  
من جديد.  
فقالت وهي تزدد ريقها:  
- لا شيء هنالك مما يلوث السمعة، والله شهيد.  
فسألها مستكراً:  
- أنصرين على هذا الزواج؟  
فصمتت ملياً، مطرقة محزونة غارقة في اليأس، ثم  
نذت عنها تنهدة عميقة، ثم قالت بصوت لا يكاد  
يسمع:  
- قضي الأمر، وكتب العقد، ولم يعد بوسعي منعه!  
فانتفض ياسين قائماً وقد تصلب جسمه البدين  
وعلت وجهه صفرة وركّز بصره في رأسها المطرق وهو  
يغلي غضباً، ثم صاح بها بصوت كالزئير:  
- يا لك من امرأة... مجرمة...  
فغمغمت بصوت مغموس يدلّ على الاستسلام  
المطلق:  
- ساعحك الله.

عند ذاك خطر له أن يلطمها بما يعرف - مما نظنّ أنه  
يجهله - من ماضي سيرتها، بحديث «الفكهاني»  
الأسود، قذيفة يصبها على رأسها بغتة فتنتثر إرباً ويثار  
بها أفضع الثار، وتوهج في عينيه بريق خفيف تطاير من  
تحت جبهة عابسة مكفّهرة تجمعت في أحاديدها نُذر

وهو خالٍ إلى نفسه - ما دار من حديث بينه وبين أمّه  
في هذه المقابلة فأقرّ أقواله جميعاً حتّى بلغ هذا الجواب  
الآخر فتردّد حياله لا يدري أخطأ أم أصاب، وظلّ  
على تردّده طويلاً. أمّا المرأة فقد غمغمت وهي تنظر  
فيها أمامها:  
- لشدّ ما أتمنّى أن أكذب أذني.

وأدرك أنّه تعجّل بعد فوات الفرصة، وسخط على  
نفسه حانقاً، ثمّ صبّ سخطه على ما حوله. فاندفع  
قائلاً بلا وعي مدارياً خطاه بما هو أمعن في الخطأ:  
- إنك تفعلين ما تشائين دون تقدير للعواقب،  
وكنت أنا دائماً الضحية التي تتلقّى الإساءة بلا ذنب  
جنته، وقد ظننت العمر رادك إلى شيء من العقل فما  
أعجب إلّا لقاتل يقول إنك شارعة في الزواج من  
جديداً... يا لها من فضيحة تتجدّد كلّ بضعة أعوام  
كان لا نهاية لها...

من شدة اليأس راحت تصغي إليه فيما يشبه  
اللامبالاة، ثمّ قالت بأسمى:  
- أنت ضحية، وأنا ضحية، كلانا ضحية لما  
يوسوس به إليك أبوك وتلك المرأة التي تعيش في  
كنفها!

وعجب لهذا الانحراف في مجرى الحديث الذي بدا  
له مضحكاً، يبدّ أنه لم يضحك، ولعلّه ازداد غضباً  
وهو يقول:

- ما دخل أبي وزوجه في هذا الشأن... لا  
تتملّص من فِعالك بإلقاء التهم في وجوه الأبرياء.  
فهتفت بصوت يشبه الرنين:  
- ما رأيت ابناً أقسى منك!... أهذا خطابك لي  
بعد فراق أحد عشر عاماً!

فلقح بيده في احتجاج غاضب وقال بحدة وسخط:  
- الأمّ الخاطئة خليقة بأن تلد ابناً قاسياً.

- لست خاطئة... لست خاطئة... ولكنك

قاسٍ غليظ القلب كأبيك.

فنفخ في ملل وصاح بها:

- رجعنا إلى أبي... حسّنا ما نحن فيه... اتقي  
الله وتراجعني عن الفضيحة الجديدة... أريد أن أمنع

والمال فلم يطرقه بكلمة واحدة، أنسيه كأنما لم يكن هو  
الباعث الأول لهذه الزيارة...

## ١٩

فتحت الست أمينة الباب وأدخلت رأسها وهي  
تقول برقتها المهدودة:

- أفي حاجة إلى خدمة يا سيدي الصغير؟

فجاءها صوت فهمي قائلاً:

- تعالي يا نينة، خمس دقائق فقط...

فدخلت المرأة مسرورة بتلبية الدعوة فرأته واقفاً أمام  
مكتبه يلوح في وجهه الجذ والاهتمام فأخذها من يدها  
إلى كنبه غير بعيدة من الباب وأجلسها ثم جلس إلى  
جانبها وهو يتساءل:

- ناموا جميعاً؟

وأدركت المرأة أنها لم تُدعَ لتقديم خدمة عابرة وإلا  
ما كان هذا الاهتمام وهذه الخلوة فانتقل الاهتمام  
بسرعة إلى نفسها المطوعة للإيماء وقالت تحييه:

- ذهبت خديجة وعائشة إلى حجرتها في معياد كل  
ليلة، أما كمال فقد تركته الآن في فراشه.

كان فهمي يترقب هذه اللحظة منذ أوى إلى حجرة  
المذاكرة عند أول المساء فلم يستطع كعادته تركيز  
انتباهه في الكتاب الذي بين يديه، وجعل يتابع، بين  
أونة وأخرى، أحاديث أمه وشقيقتيه في جزع لا يدري  
متى ينتهين، ثم إلى أمه وكمال وهما يحفظان معاً جملة  
من سورة عم. حتى ساد الصمت ثم جاءت أمه  
لتحييه تحية المساء فدعاها إليه وقد تناهى به توتر  
الانتظار. ومع أن أمه بدت كالحمامة الوديدة، ومع أنه  
لم يشعر حيالها قط بتحفظ أو خوف، إلا أنه وجد  
عسراً في التعبير عما يريد الإفصاح عنه، فعلاه ارتباك  
الحياء، ومضت فترة صمت ليست بالقصيرة قبل أن  
يقول مختلج الجفنين:

- دعوتك يا نينة في أمر يهمني جداً.

واشتد الاهتمام بالمرأة حتى تمثله قلبها الرقيق خوفاً  
أو شبيهاً بالخوف وقالت:

- إني مصغية إليك يا بني...

الشّر والوعيد، وفغر فاه ليطلق قذيفته، ولكنّ لسانه لم  
يتحرك، التصق بسقف حلقه كأنما جذبه إليه مخّه الذي  
لم يُعْهِه العناء عن البلاء، ومَرّت اللحظة الرهيبة في  
سرعة الزلزال الخاطف الذي يشعر فيه الإنسان  
بأنفاس الموت تتردّد على وجهه لحظات ثم يعود كلّ  
شيء إلى مستقرّه، وزفر وهو كظيم، وتراجع غير آسف  
وجبينه يسبح عرقاً بارداً. وقد ذكر موقفه هذا - فيما  
بعد - فيما ذكر من مواقف هذه المقابلة الغريبة فارتاح  
لتراجعهِ كلّ الارتياح وإن عجب له أشدّ العجب،  
وكان أعجب ما عجبه شعوره بأنه إنمّا تراجع رحمة  
بنفسه لا رحمة بها وكأنه تسرّ على كرامته لا على  
كرامتها وإن لم يكن ثمة ما يجهله من الأمر!

وأفرغ غضبه في كفيه فجعل يضرب واحدة على  
الأخرى ويقول:

- مجرمة... فضيحة مجسمة... كم سأضحك  
من غيائي كلما أذكر أنني أملت خيراً من هذه  
الزيارة... (ثم بلهجة تهكميّة)... إني أعجب  
كيف طمعت بعد هذا في مودتي؟!

فجاء صوتها وهو يقول في انكسار وحسرة:

- متّني نفسي أن نعيش على مودة رغم كلّ  
شيء... وبعثت زيارتك المفاجئة في قلبي آمالاً حارة  
خيّل ليّ معها أنّي أستطيع أن أهبك أسمى ما في قلبي  
من حب... بلا كدر.

وابتعد عنها متفهقراً كأنما يفرّ من لين كلامها الذي  
لم يعد شيء يورث غضبه مثلما يؤرّثه. وشعر حائقاً  
يائساً بأنه لم تعد ثمة فائدة من بقائه في هذا الجوّ  
الكريه فقال وهو يستدير ليأخذ سمّته إلى الخارج:

- وددت لو أستطيع قتلك...

فغضّت بصرها وقالت في حزن بالغ:

- لو فعلت لأرحمتي من حياتي...

وبلغ به الضيق النهاية فالتقى عليها نظرة أخيرة  
مظلمة بالملت ثم غادر المكان وأرض الحجرة ترتجّ  
تحت وقع قدميه. وعندما انتهى إلى الطريق، وأخذ  
يثوب إلى نفسه، ذكر لأول مرة أنه نسي حديث العقار

يراه الغير شيئاً عادياً...  
 فقطب فهمي قائلاً:  
 - ليس في الأمر ما يدعو إلى الغضب أو الاعتراض.  
 - هذا رأيي...!  
 - وغني عن البيان أنّ الزواج سيؤجل حتى أنتم  
 دراستي وأجد نفسي عملاً...  
 - طبعاً... طبعاً...  
 - فيم يكون الاعتراض إذن؟!  
 فنظرت إليه نظرة كأنما تقول له: ومن ذا يحاسب  
 أباك إذا أراد أن ينبذ المنطق جانباً؟ هي التي لم تعرف  
 حياله إلا الطاعة العمياء أصاب أم أخطأ، عدل أم  
 ظلم، بيد أنها قالت:  
 - أرجو أن يبارك رجاءك بالقبول...  
 فقال الشاب بحماس:  
 - لقد تزوج أبي وهو في سني هذه. ولست أقصد  
 شيئاً من هذا، ولكنني سأنتظر حتى يكون الزواج طبيعياً  
 لا اعتراض عليه من أي ناحية...  
 - ربنا يحقّ رجاءنا...  
 وسكنا إلى الصمت ملياً وهما يتبادلان النظرات،  
 مجتمعين في فكرة واحدة وهما عن بداهة يدریان إذ كان  
 كلاهما يفهم صاحبه خير فهم، ويقرأ ما يدور بخاطره  
 في غير ما عسر. ثم قال فهمي مفصّحاً عما يشغلها  
 معاً:  
 - بقي أن نفكر فيمن يفاتحه بالموضوع...!  
 وابتسمت المرأة ابتسامة أفقدها التفكير والقلق  
 روحها، وأدركت أنّ ابنها الأريب يذكّرها بالسواجب  
 الذي لا يستطيع أن يؤدّيه أحد سواها بالأسرة، ولم  
 تعترض على هذا لأنه لا سبيل غيره، إلا أنّها قبلته على  
 كره كما تقبل أموراً كثيرة وهي تسأل الله حسن العاقبة،  
 وقالت برقة وعطف:  
 - ومن غيري يفاتحه؟... ربنا معنا...  
 - إني آسف... لو كان بوسعي أن أفاتحه لفعلت.  
 - سأحدّثه، وسوافق بإذن الله. مريم فتاة جميلة،  
 مؤدّبة، من أسرة كريمة...  
 وسكنت لحظة ثم استدركت متسائلة كأنما خطر لها

فتنفس تنفساً عميقاً ليخفّف عن أعصابه وقال:  
 - ما رأيك فيما لو... أعني أليس من الممكن  
 أن...  
 وتوقّف متردّداً، ثمّ غير لهجته قائلاً برقة وتردّد  
 وارتباك:  
 - ليس لي من أفضي إليه بدخيلة نفسي إلا أنت...  
 - طبعاً طبعاً يا بنيّ.  
 فقال متشجّعاً عما قبل:  
 - ما رأيك إذا اقترحت عليك أن تخطبي لي مريم  
 بنت جارنا السيّد عمّد رضوان...؟  
 وتلقّت أمينة كلماته بدهشة أولاً، فاجابته أوّل ما  
 أجابت بابتسامة تدلّ على الحيرة أكثر من الفرح ثمّ  
 انقشع الخوف الذي قبض صدرها حيناً وهي تترقّب  
 إفصاحه عما يريد، ثمّ اتسعت ابتسامتها وأشرقت  
 معلنة عن سرور صافٍ، وتردّدت لحظات لا تدري  
 ماذا تقول، ثمّ اندفعت قائلة:  
 - أهذه رغبتك حقّاً؟... سأقول لك رأيي  
 صراحة... إنّ يوماً أمضي فيه لأخطب لك بنت  
 الحلال هو أسعد أيام حياتي...  
 فتورّد وجه الشاب وقال بامتنان:  
 - شكراً لك يا أمّاه...  
 ورنّت إليه ببسمة لطيفة وقالت برجاء:  
 - يا له من يوم سعيد، لقد تعبت كثيراً وصبرت  
 كثيراً، وليس بالكثير على الله أن يجزييني على تعبتي  
 وصبري بمثل هذا اليوم المرجّي، بل بأيّام مثله كثيرة  
 ليقرّ عيني بك، وبأختيك خديجة وعائشة...  
 وغابت عيناها في رؤى الأحلام السعيدة التي بدا لها  
 ما أيقظها فجأة فتراجع رأسها في قلق كقطة أقبل  
 نحوها كلب، وتمتمت في إشفاق:  
 - ولكن... أبوك؟!  
 وابتسم فهمي متمعضاً وقال:  
 - من أجل هذا دعوتك للمشاورة...  
 ففكرت المرأة قليلاً ثمّ قالت وكأنّها تخاطب نفسها:  
 - لا أدري ماذا يكون موقفه من هذا الرجاء؟ أبوك  
 شخص غريب، غير الناس جميعاً، وقد يرى جريمة فيما

الخاطر لأول مرة:

- ولكن أليست هي في مثل سنك أو تزيد؟!

فقال الفتى جزعاً:

- لا يهمني هذا بتاتاً!

فقالت مبتسمة:

- على بركة الله، ربنا معنا... «ثم وهي تنهض»

أدعك الآن لعناية المولى، وإلى الغد...

ومالت نحوه وقبّلتته ثم غادرت الحجرة وأغلقت الباب وراءها. لكن كم أدهشها أن ترى كمال جالساً على الكنبه مكباً على كرّاسة بين يديه فتهفت به:

- ما الذي عاد بك إلى هنا؟

فنهض الغلام مبتسماً في ارتباك وقال:

- تذكّرت أنّي نسيت كرّاسة الإنجليزي فعدت

لأخذها ثم بدا لي أن أستعيد الكلمات مرة أخيرة.

وذهبت معه مرة أخرى إلى حجرة النوم ولم تتركه

حتى تمثّد تحت الغطاء، ولكنّه لم ينم. وكان النوم

أعجز من أن يغلب اليقظة الماكرة التي تنبعث في

شعوره، فلم يلبث أن وثب من السرير ومضى إلى

سمعه وقع أقدام أمّه وهي ترقى السلم إلى الدور

الأعلى، ثم فتح الباب وجرى إلى حجرة شقيقته ودفع

بابها ودخل دون أن يغلقه ليوسع للمصباح المعلق

بالصالة منفذاً يضيء منه جانباً من الظلمة الغاشية في

الداخل، وهرع إلى الفراش وهو يمس «أبلة

خديجة!» فجلست الفتاة في الفراش دهشة فوثب إلى

جانبها وهو يلهث من الانفعال، وكأنّه لم يقنع بمستمعة

واحدة ليستودعها السرّ الذي أطار النوم من عينيه فمدّ

يده إلى جسم عائشة وهزّه، ولكنّ الفتاة كانت قد

تنبّهت إلى القادم وأزاحت عنها الغطاء ثم رفعت

رأسها بين الاستطلاع والاحتجاج متسائلة:

- ماذا جاء بك الآن؟

لم يأبه لللهجة الاحتجاج لأنّه كان على يقين من أنّ

كلمة واحدة يشير بها إلى سرّه خليقة بأن تقلبها رأساً

على عقب، وقفز لهذا قلبه بهجة وسروراً، ثم قال

هامساً كأنّه يحاذر أن يسمعه رابع:

- عندي سرّ غريب...

فسألته خديجة:

- أيّ سرّ هذا؟!... هات ما عندك وأرنا

شطارتك...

ولم يعد باستطاعته الكتمان فقال:

- أخي فهمي يريد أن يخاطب مريم...

عند ذاك جلست عائشة في الفراش بدورها في

حركة آليّة سريعة كأنّها التصريح رشّة ماء بارد ألقيت

في وجهه وسنان، وتقاربت الأشباح الثلاثة في شكل

هرمي كما بدا على الضوء الخافت النافذ إلى الحجرة

والمنعكس على أرضها فيما يلي الباب المفتوح على هيئة

متوازي الأضلاع مذبذب الأطراف تبعاً للدبذبة ذبالة

المصباح الذي تعرّض - بترك الباب مفتوحاً - إلى تيّار

وإن نسّم من خصائص النافذة إلى الصالة في لطف

همسات تذيع سرّاً، ثمّ تساءلت خديجة في اهتمام:

- كيف عرفت هذا؟

- تركت فراشي لأحضر كرّاسة الإنجليزي، وعند

باب أخي جاءني صوته وهو يتكلّم فلبدت في

الكنبة...

ثمّ أعاد على مسمعيها ما تسرّب إليه من وراء

الباب الموارب وهما تنصتان إليه في اهتمام ملّك عليهما

الأنفاس حتى فرغ من حديثه، وهنا تساءلت عائشة

كأنّ بها حاجة إلى المزيد من الاقتناع:

- أتصدّقين هذا؟

فقالت خديجة بصوت كأنّه ينبعث من تليفون بمدينة

بعيدة:

- أنتصوّرين أن يخترع هذا «مشيرة إلى كمال» حكاية

طويلة عريضة كهذه؟

- لك حقّ «ثمّ ضاحكة لتخفّف من حدّة اهتمامها»

اختلاق موت غلام في الطريق شيء، أمّا هذه الحكاية

فشيء آخر.

فتساءلت خديجة دون أن تلقي بالاً إلى احتجاج

كمال الذي اعترض على التعريض به:

- كيف وقع هذا يا ترى؟!

فضحكت عائشة قائلة:

- ألم أقل لك مرةً إنّني أشكّ في أنّ اللبّاب هو الذي

جملة من العيوب والنقائص، بيد أنها لم تتألك نفسها -  
حيال وصفها بطول اللسان تلك الصفة التي لخديجة  
منها أكبر نصيب - من أن تبسم مستتر بالظلمة،  
ونحاشت إثارها فقالت بتسليم:  
- لندع الأمر لله . . .

فقالت خديجة بثقة وإيمان:  
- الأمر لله في السماء ولأي في الأرض وسوف نرى  
ماذا يكون رأيه غداً . . . «ثم موجّهة الخطاب إلى  
كمال» . . . آن لك أن تعود إلى سريرك بسلام.  
عاد كمال إلى حجرته وهو يقول لنفسه «لم يبقَ إلّا  
ياسين، وسأخبره غداً» . . .

## ٢٠

جلست خديجة وعائشة القرفصاء متواجهتين لصق  
الضلفة المغلقة من باب حجرة الوالدين بالدور الأعلى  
وهما تكتبان أنفاسهما في حذر وتعدّان أذانهما إلى الداخل  
في اهتمام وتلقّف. كان الوقت قبيل العصر بقليل،  
وكان السيّد قد نهض من قيلولته فتوضّأ وجلس كعادته  
يحتسي القهوة منتظراً الأذان ليصلي قبل عودته إلى  
الدكان، فتوقّعت الأختان أن تفتح الأم أباهما في الأمر  
الذي أنبأهما عنه كمال، إذ لم يكن أنسب لذلك  
الغرض من هذا الوقت. وتناهى إليهما من الداخل  
صوت أبيهما الجمهوريّ وهو يتحدث عن أمور البيت  
العاديّة فانصتتا في جزع وترقّب وهما تتبادلان النظر  
متسائلتين حتّى سمعتا أخيراً الأم وهي تقول في أدب  
بالغ ولهجة خاشعة:

- سيّدي، إذا أذنت لي حدّثتك عن شأن رجائي  
فهمي أن أبلغك إيّاه.

عند ذاك أوامات عائشة بذقتها إلى الداخل كسأها  
تقول «هذا هو الحديث» على حين راحت خديجة  
تتخيّل حال أمّها وهي تنهّياً للكلام الخطير فرق قلبها  
لها وعظّت على شففتها في إشفاق شديد، ثم جاءها  
صوت السيّد وهو يتساءل:

- ماذا يريد؟

وساد الصمت قليلاً، أو طويلاً بالقياس إلى اللتين

يدعو فهمي إلى السطح كلّ يوم؟!

- إنه اللباب الآخر الذي التفت حول ساقه هو.  
فترنّمت عائشة بصوت خفيض:  
- لا ملام عليك يا عيوني في حبّه.  
فنهرتها خديجة قائلة:

- هس . . . ليس هذا وقت الغناء . . . مريم في  
العشرين وفهمي في الثامنة عشرة . . . كيف توافق نينة  
على هذا؟!

- نينة؟! . . . نينة حمامة وديعة لا تدري كيف تقول  
لا، ولكن صبراً، أليس من الحق أن أقول إنّ مريم  
جميلة وطّيبة؟! . . . ثم إنّ بيتنا هو البيت الوحيد في  
الحبي الذي لم يعرف الأفراح بعد . . .

كانت خديجة - كعائشة - تحبّ مريم، ولكنّ الحب  
لم يستطع أبداً أن يخفي عن عينيها مواضع الانتقاد في  
المحبوب أيّما كان شأنه، فلم يكن يعجزها - عند  
الضرورة - الوقوف عند مواضع الانتقاد فحسب، ولما  
كانت سيرة الزواج تثير خاوفها الكامنة، وغيرتها، فقد  
انقلبت على صديقته دون مشقة، وأبى قلبها أن يقبلها  
زوجة لأخيها، ومضت تقول:

- مجنونة أنت؟! . . . مريم جميلة ولكنّها دون فهمي  
بمراحل بعيدة . . . فهمي يا حمارة طالب بالعالى،  
وسيكون قاضياً يوماً ما، فهل تصوّرين مريم زوجاً  
لِقاضٍ كبير المقام؟! . . . إنّها مثلنا على أكثر تقدير،  
بل هي دوننا في أكثر من ناحية ولن تتزوّج لإحدانا  
بقاضٍ . . .

وتساءلت عائشة في نفسها: «من قال القاضي  
أحسن من الضابط؟!» ثم سألتها محتجّة:

- لم لا؟!

فواصلت الأخرى حديثها دون اهتمام باعتراضها:  
- يستطيع فهمي أن يتزوّج بفتاة أجمل من مريم  
مائة مرة، وفي نفس الوقت تكون متعلّمة وغنيّة وبنّت  
بك أو حتّى بنت باشا، فلماذا يتسرّع بخطبة  
مريم؟! . . . ما هي إلّا أمّية طويلة اللسان، أنت لا  
تعرفنها كما أعرفها . . .

وأدركت عائشة أنّ مريم انقلبت في نظر خديجة إلى

خديجة ارتياح، ثم سمعا صوت الأم المستخذي وهي تقول:

- لا تجسّم نفسك مشقة الغضب يا سيدي، كلّ شيء يهون إلّا غضبك، ما قصدت من ناحيتي إساءة فطّ، ولا تحيلها ابني وهو يحملني رغبته براءة، ولكنّه رجائي بحسن نيّة فرأيت أن أعرض الأمر عليك، وما دام هذا هو رأيك فسأبلغه إياه، وسيدعن له بكلّ خضوع كما يذعن لأمرك دائمًا...

- سيدعن أراد أم لم يرد، ولكنّي أريد أن أقول لك إنّك أم ضعيفة لا يرجى منها خير...  
- إني أتعهدهم بما توصي به...

- خبريني عمّا دعاه إلى التفكير في هذا الرجاء؟  
وأرهفت الفتاتان السمع في اهتمام وانزعاج وقد فاجأهما هذا السؤال الذي لم تتوقّعه، ولكنّها لم تسمعا لأُمّهما جوابًا وتصوّراتها وهي ترمش في ارتباك وخوف فعطفت قلبهما في إشفاق شديد:

- ماذا أخرسك؟... خبريني هل رآها؟  
- كلّا يا سيدي، إنّ ابني لا يرفع عينيه إلى جارة ولا إلى غيرها...

- كيف رغب في خطبتها دون أن يراها؟... ما كنت أحسب أنّ لي أبناء يسترقون النظر إلى حرّمت الجيران!

- معاذ الله يا سيدي معاذ الله... إنّ ابني إذا سار في الطريق لا يلتفت يمنة ولا يسرة، وهو في البيت لا يكاد يغادر حجرته إلّا لضرورة...

- ما الذي دعاه إلى طلاها إذن؟  
- لعلّه يا سيدي سمع شقيقته وهما تتحدّثان عنها...

وسرت في بدن الفتاتين رعدة شديدة ففغرتا ثغريهما في فزع وهما تنصتان...

- ومتى كانت شقيقته خاطبتني!... يا سبهان الله أينبغي أن أهجر دكاني وعملي وأقع في البيت لأضبطه وأدفع عنه الفساد!

فهتفت الأم في نبرات باكية:  
- بيتك أشرف البيوت، بالله يا سيدي إلّا ما هوّنت

تسترقان السمع، ثم قالت المرأة برقة:

- فهمي يا سيدي شابّ طيّب، حاز رضاك بجده وتفوّقه وأدبه، حماه الله من شرّ الأعين، ولعلّه بلغني رجاءه إدلالاً بمنزلته عند والده...  
فقال الأب بلهجة تحيلته معها راضياً:  
- ماذا يريد؟... تكلمي.

ومال رأسهما نحو الباب وكلّ منهما تحملق في الأخرى ولا تكاد تراها فجاءهما الصوت المتهافت وهو يقول:

- سيدي يعرف جازنا الطيّب السيّد عمّـد رضوان...؟  
- طبعاً...

- رجل فاضل مثل سيدي وأسرة كريّة وجيران ولا كلّ الجيران...  
- نعم...  
واستطردت بعد تردّد:

- فهمي يسأل يا سيدي هل يجوز له والده أن...  
يخطب مريم كريّة جازنا الطيّب لتبقى على ذمّته حتّى يصير أهلاً للزواج؟

وهنا علا صوت السيّد وقد غلظت نبراته بالغضب والاستنكار:

- يخطب؟!... ماذا تقولين يا وليّة؟... هذا الغلام!... ما شاء الله... أعيدي على سمعي ما قلت...

فقال الأم بصوت متهدّج وقد تحيلتها خديجة وهي تنكمش في ذعر:

- ليس إلّا أنّه يتساءل، مجرّد تساؤل يا سيدي والأمر لك...

فقال الصوت المتفجّر بالغضب:

- لا عهد لي ولا له بهذا التدلّل المائع، ولا أدري ما الذي أثلث تلميذاً حتّى يتأدّى في مطالبه إلى هذا الحدّ؟... ولكنّ أمّا مثلك خليفة بأن تفسد أبناءها، فلو كنت أمّا كما ينبغي لما جسر على مفاختك بمثل هذا الهذر الوقح...

ركب الفتاتين خوف ووجوم خالطهما في قلب

التقى ببعض الأصدقاء فقصّ عليهم «نادرة اليوم» لا كفاجة لأنه يكره أن يلقي أحداً بالفاجعات، ولكن كدعابة سخيفة، فعلقوا عليها بما حلا لهم من المزاح، فلم يلبث أن شاركهم مزاحهم، فغادروه وهو يقهقه في غير تحفظ... بدت له «النادرة» في الدكان على غير ما بدت في حجرته بالبيت. وأمكنته أن يضحك منها، بل وأن يعطف عليها، حتى قال لنفسه أخيراً بأساً راضياً «من شابة أباه فما ظلم»...

## ٢١

حين مرق كمال من باب البيت كان المساء يزحف في خطوات حاسمة غاشياً الطرقات والأزقة والمآذن والقباب، ولعله لم يعدل بسروره بهذه الخرجة المفاجئة التي قل أن تُتاح له في مثل ذاك الوقت المتأخر إلا زهوه بالرسالة الشفوية التي حمّله إياها فهمي، فلم يغب عنه أنه عهد بها إليه وحده دون غيره، في جو من السرية والتكتم الأمر الذي أضفى عليها - وعليه بالتالي - أهمية خاصة أحسها قلبه الصغير ورقص لها طرباً وقخاراً. وتساءل في عجب عما زلزل فهمي حتى ركبته حال من القلق والحزن بدا في لباسها القاتم شخصاً غريباً لم يره ولم يسمعه من قبل، هو مثال وحده، إن أباه يشور كالبركان لأتفه الأسباب، وإن ياسين على حلاوة حديثه قابل للالتهاب، حتى خديجة وعائشة لا تحلوان من نوبات عفرة، هو مثال وحده، ضحكه ابتسام وغضبه تقطيب، وهذوه عميق على صدق عواطفه وأصاله حماسه، فلم يذكر أنه رآه على الحال التي رآه عليها اليوم. لن ينسى كيف خلا إليه في حجرة المذاكرة، بصر زائغ وصوت متهذج، ولا كيف خاطبه لأول مرة في حياته بلهجة توّسل حارة عجب لها أشدّ العجب حتى استوجب حفظ الرسالة التي حمّلها أن تكرر عليه مرّات ومرّات. وقد أدرك من فحوى الرسالة نفسها أنّ للأمر صلة وثيقة بالحديث الغريب الذي استرق السمع إليه من وراء الباب، والذي نقله إلى شقيقته فأنار بينها جدلاً ونزاعاً، وبالجملة أنه يتعلّق بمريم، تلك الفتاة التي كثيراً ما تعابته وبعابها، ويأنس إليها

عليك الغضب، انتهى الأمر وكأنّ ما كان لم يكن... فصاح الرجل بصوت ملؤه الوجد:

- قولي له أن يتأذّب ويستحي ويلزم حدوده، وأن من الخير أن يتفرّغ لدروسه...

وسمعت الفتاتان حركة في الداخل فقامتا في حذر وابتعدتا عن الباب على أطراف أصابعهما...

رأت الست أمينة أن تغادر الحجرة كشأنها إذا ندّ عنها عفواً ما يثير غضبه فلا تعود إليها بعد ذلك إلا إذا دعاها، إذ علّمتها التجربة أنّ مكثها بين يديه حال الغضب ثمّ سعيها إلى تسكينه بريق الكلام لا يزيد النار إلا استعاراً. ووجد السيّد نفسه وحيداً فزايّلته آثار الغضب المحسوسة التي تثور عادة في عينيه وبشرة وجهه وحركات يديه وكلامه، ولكن بقي الغضب في أعماق صدره كالعكارة في قعر القدر.

من المحقّق أنّه كان يغضب في البيت لأتفه الأسباب لا اتباعاً لحظته الموضوعية في سياسة بيته فحسب، ولكن مدفوعاً كذلك بحدة طبعه التي لا تشكّمها بين آله فرملة الكياسة التي يتقن استعمالها خارج البيت، وربّما ترويحاً عما يعاني بين الناس كثيراً من ضبط النفس والتسامح واللطف ومراعاة الخاطر واكتساب القلوب بأيّ ثمن، وليس بالنادر أن يتّضح له أنّه استسلم للغضب في غير موجب ولكنّه حتى في تلك الحال لا يندم على ما فرط منه لاعتقاده بأنّ غضبته للتأفّه من الأمر عسّية بأن تمنع وقوع الخطير منه ممّا يستحقّ الغضب عن جدارة، بيد أنّه لم يعدّ ما بلغه عن فهمي ذلك اليوم هفوة تافهة بل رأى فيها نزوة قبيحة لا يجوز أن تعتلج في نفس تلميذ من آل بيته، وما كان يتصوّر أن تتسرّب «العواطف» إلى بنيان البيت الذي يحرص على أن يشبّ في جوّ من النقاء الصارم والطهارة المنقّشة، ثمّ جاءت صلاة العصر فرصة طيّبة لرياضة النفس خرج منها أهدأ قلباً وأزوّج بالاً، فوسعه أن يترنّع على سجادة الصلاة ويسبط راحتيه ويسأل الله أن يبارك له في ذرّيته وماله، وأن يدعو خاصّة لفخر أبنائه بالهدى والرشاد والتوفيق. فلما أن غادر البيت كان تجهّمه مظاهرة يراد بها التخويف لا أكثر. وفي الدكان

متسائلاً عن «حكايتهما» فتقصّر عليه مريم من أنبائها ما تعلم وما لا تعلم بزلاقة لسان تستهويه وتستأثره. لم يكن البيت بالغريب عليه إذن، فشقّ سبيله إلى الصالة دون أن يشعر به أحد، وألقى على أولى الحجرات نظرة عابرة فلمح السيّد محمّد رضوان راقداً في فراشه كما اعتاد أن يراه منذ سنوات. كان يعلم أنّ الشيخ مريض، وقد سمع عنه كثيراً أنّه مشلول، حتّى سأل أمّه مرّة عن معنى الشلل... فجذعت وراحت تستعيد بالله من شرّ الاسم الذي نطق به فانكمش مترجعاً، ومنذ ذلك اليوم والسيّد يستثير رئاه واستطلاع المفقون بالخوف. ثمّ مرّ بالحجرة التالية فرأى أمّ مريم واقفة أمام المرأة ويدها ما يشبه العجين تمطّه فوق خدّها وعنقها وتجدبه جذبات سريعة متتابعة ثمّ تتحنّس موضعه من بشرتها بأناملها لتعرف مسّه وتطمئنّ إلى نعمته. ومع أنّها كانت فوق الأربعين إلّا أنّها كانت بارعة الحسن كابنتها، شغوفة بالضحك والدعابة، فما تلقاه حتّى تقبل عليه في مرح فتقبّله ثمّ تسأله فيما يشبه نفاذ الصبر «متى تبلغ رشذك لأنزّجك؟» فيعلوه الحياء والارتباك وإن استلذّ مداعبتها ووة الإكثار منها. وكم أثارت فضوله هذه العمليّة التي تعكف عليها من حين لآخر أمام المرأة، وقد سأل أمّه عنها مرّة فنهرته - والنهر أقصى ما تمارس من ضروب التأديب - مؤثّبة إيّاه على سؤاله عمّا لا يعنيه، بيد أنّ أمّ مريم أكبر سباحة ورقّة فلما لحظته مرّة يرمقها بدهشة أوقفته على مقعد أمامها ولزقت بأنامله ما حسبه أوّل الأمر عجيبة وبسطة له صفحة وجهها وقالت ضاحكة «اشتغل وأرني شطارتك» فمضى يقلّد حركاتها حتّى أثبت لها شطارته بخفّة غبّطته عليها، ولكنّه لم يقنع بلذّة التجربة فسألها «لماذا تفعلين هذا؟» فقهقهت «هلاً انتظرت عشرة أعوام أخرى حتّى تعرف بنفسك؟» ولكن لا داعي للانتظار أليست البشرة الناعمة أحسن من الخشنة؟... هذه هي؟...» وقد مرّ بابها بخفّة حتّى لا يشعرها بنفسه لأنّ رسالته كانت أخطر من أن تسمح له بمقابلة أحد إلّا مريم وحدها التي وجدها في الحجرة الأخيرة متربّعة على فراشها تقرّز ربّاً وبين يديها

حيثاً ويضجر منها حيثاً آخر، دون أن يعرف لها هذه الخطورة التي أحاطت بهدوء أخيه وسلامته، مريم... لماذا استطاعت دون سائر البشر أن تفعل هذا كلّها بأخيه العزيز الرائع! ووجد في الجوّ غموضاً، كذاك الغموض الذي يكتنف حياة الأرواح والأشباح، والذي طالما استثار حبّ استطلاع وخوفه، فتوتّب قلبه للنفاذ إلى مكنون سرّه في تطلّع وحيرة، ولكنّ حيرته لم تصرفه عن تسميع الرسالة لنفسه كما سمعها لأخيه من قبل حتّى يضمن ألاّ يضيع منه حرف واحد من مضمونها، فمرّ تحت بيت آل رضوان وهو يستعيدّها، ثمّ مال إلى أوّل عطفة تليه حيث يوجد باب البيت. لم يكن البيت بالغريب عنه، فطالما تسلّل إلى فئاته الصغبر حيث تنزوي في ركن منه عربة يد مندثرة العجلات كان يركبها مستعيّناً بخياله على إصلاح عجالاتها وتحريكها حيث شاء، وطالما تردّد بين حجراته بغير استئذان فقول بالترحيب والمداعبة من ربة البيت وابنتها اللتين يعدّهما «على حدائث سنّه» صديقتين قديمتين، فكان يألّف البيت بحجراته الثلاث التي تتوسّطها صالة صغيرة وضعت بها ماكينة خياطة وراء النافذة التي تطلّ على حمّام السلطان مباشرة كما يألّف بيته بحجراته الواسعة وبصالته الكبيرة حيث يجتمع مجلس القهوة مساء بعد مساء. وإلى هذا خلّفت بعض متعلّقات البيت أثراً في نفسه استجابت له عهداً طويلاً من صباه، كعشّ يمامة في أعلى المشربيّة المتصلة بحجرة مريم الذي تبدو حافته فوق ركن المشربيّة الملتصق بالجدار كقطع من محيط دائرة يشتبك حوله القشّ والريش ويلوح منه أحياناً ذيل اليمامة الّأمّ أو منقارها كيفما اتّفق وضعها فيتطلّع إليه تتنازع رغبتان، إحداهما - وهي المنبعثة من نفسه - تدعوه إلى العبث به واختطاف الصغار والأخرى - وهي المكتسبة عن أمّه - توقّفه عند حدّ التطلّع والعطف والمشاركة الخياليّة في حياة اليمامة وأسرتها، وكصورة للسفيرة عزيزة معلّقة بحجرة مريم أيضاً زاهية الألوان رقاقة البشرة وسيمة القسّات فاقت بجهاها الحسنة التي تطالعه صورتها عصر كلّ يوم بدكّان ماتوسيان فكان يديم النظر إليها



طبق فنجان قد امتلأ بالفشر فلما رآته قالت بدهشة:  
- كمال!... «كادت تسأله عما جاء به في هذه  
الساعة ولكنها عدلت عما همّت به أن تخفيه أو  
تخجله... شرفت البيت... تعال اجلس إلى

جانبي...  
فمدّ لها يده بالسلام. ثم فكّ أزرار حلّائه ذي

الرقبة الطويلة وخلعه، ووثب إلى الفراش في جلباب  
مقلّم وطاقيّة زرقاء منمنمة بخطوط حمراء. وضحكت  
مريم ضحكاتها الرقيقة ودست في يده شويّة لبّ وهي  
تقول:

- قزقز يا عصفور وحرك أسنانك اللؤلؤيّة...  
أتذكر يوم عضضت معصمي وأنا أدغدغك...  
هكذا...  
ومدّت يدها صوب إبطه ولكنّه - بحركة عكسيّة -

شبك ذراعيه على صدره ليحمي إبطيه، ونذت عنه  
ضحكة عصيّة كما لو كانت أناملها دغدغته بالفعل،  
ثم هتف بها:

- في عرضك يا أبلة مريم...  
فأمسكت عنه وهي تتعجب من خوفه قائلة:

- لماذا يقشعرّ بدنك من الدغدغة؟! انظر كيف لا  
أبالى بها.  
وراحت تدغدغ نفسها باستهانة وهي ترميه بنظرة

ازدراء فلم يملك أن قال لها متحدّياً:  
- دعيني أدغدغك أنا وسنرى!

فما كان منها إلّا أن رفعت ذراعيها فوق رأسها  
فغرس أصابعه تحت إبطها وراح يدغدغها بما وسعه  
من خفّة وسرعة، مثبتاً عينيه في عينيها السوداوين  
الجميلتين ليتلقّف أوّل بادرة تضرّع عندها، حتّى  
اضطرّ أن يستردّ يديه متنبّها في يأس وخجل فشيعته  
بضحكة رقيقة ساخرة وقالت:

- أرايت أيّها الرجل الصغير العاجز!... لا تزعم

أنك رجل بعد اليوم «ثمّ بلهجة من تذكر أمراً هاماً

بغته»... يا داهيتي!... نسيت أن تقبّلني!... ألم

أنّه عليك مراراً بأن تكون تحيّة لقائنا قبلة؟!  
وأدنت وجهها منه فمدّت شفّتيه ولثمّ خدّها، ثم رأى

فتأتًا من اللب المتسرّب من زاوية فيه قد التصق بخدّها  
فأزاله بأنامله في حياء، أمّا مريم فتناولت ذقنه بأنامل  
يمينها وقبّلت شفّتيه مرّة ومرّة، ثمّ سألته فيها يشبه  
الإعجاب:

- كيف استطعت أن تفلت من بين أيديهم في هذه

الساعة؟!... لعلّ تيزة تبحث عنك الآن في كلّ  
حجرات البيت.

آه لقد استنّام إلى الحديث واللعب حتّى أوشك أن  
ينسى الرسالة التي جاء من أجلها، ولكنّ تساؤلها ذكره  
بمهمّته فرنا إليها بعين أخرى، العين التي تودّ أن تنقّب  
في ذاتها عن السرّ الذي زلزل أخاه الرزين الطيب. إلّا  
أنّ تشوّفه نهافت حيال شعوره بأنّه يحمل أنباء غير  
سارّة، فقال بوجوم:

- فهمي الذي أرسلني.

ارتسمت في عينيها نظرة جديدة تفيض جدّاً،  
وتفرّست في وجهه باهتمام لترى ما وراءه فشعر بأنّ  
الجوّ قد تغيّر كأنّها انتقل من فصل إلى فصل، ثمّ  
سمعها تسأل بصوت خافت:

- كيه؟!  
فقال لها بصراحة دلّت على أنّه لم يقدر خطورة

الأنباء التي يحملها رغم شعوره الفطريّ بخطورتها:

- قال لي بلّغها تحيّيّاتى وقل لها إنّهُ استأذن والده في  
خطبتها ولكنّه لم يوافق على أن يعلن خطبته وهو  
تلميذ، وطلب إليه أن ينتظر حتّى يتمّ دراسته.

كانت تحدّق إلى وجهه باهتمام شديد فلما بلغ  
السكوت خفضت عينيها دون أن تنبس بكلمة،  
فغشيت الجلسة صمّة واجمة ضاق بها قلبه الصغير،  
وتلهّف على كشفها مها كلّفه الأمر فقال:

- إنّهُ يؤكّد لك أنّ الرّفص جاء على رغبته وأنّه  
يتعجّل السنين حتّى يحقّق ما يتمنّى.

ولمّا لم يجد لكلامه أثراً في إخراجها من غشاوة  
الصمت ازداد تلهّفه على إعادتها إلى ما كانت عليه من  
بهجة ومرح فقال بإغراء:

- هل أحدثك عما دار بين فهمي وبين نينة من

حديث عنك؟

فتساءلت بلهجة بين الاكتراث وعدمه :

- ماذا قال وماذا قالت؟

فانشرح صدره بهذا النجاح الجزئي وقصص عليها ما ترامى إليه من حديث من وراء الباب حتى أتى عليه، فخيّل إليه أنها تنتهد، ثم قالت بتبرّم: - إنّ والدك رجل شديد غيظ، الكلّ يعرفه هكذا.

فقال وهو لا يدري :

- نعم... أبي كذلك.

ورفع رأسه إليها في خوف وحذر ولكّنه وجدها كالغائبة، فسألها متذكّراً ما وصّاه به أخوه:

- ماذا أقول له؟

فضحكت من أنفها وهي تهزّ كتفيها، وهمت بالكلام، ولكنّها أمسكت متفكّرة مليّاً، ثمّ قالت وقد التمتعت في عينيها نظرة مأكرة:

- قل له إنّها لا تتري ماذا تفعل لو تقدّم لها خاطب

في أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظارا

وغني كمال بحفظ الرسالة الجديدة أكثر ممّا عني بفهمها، وسرعان ما شعر بأن مهمّته قد انتهت فأودع بقية اللبّ جيب جلبابه، ومدّ لها يده بالسلام، ثمّ انزلق إلى أرض الحجرة خارجاً.

## ٢٢

بدت عائشة وهي تنظر في المرأة شديدة الإعجاب بنفسها، دون الأسرة اللامعة، بل أيّ فتاة في الحيّ كلّه تتحلّى بمثل هذه الخصلات الذهبية وهاتين العينين الزرقاوين؟ إنّ ياسين يتغزّل بها جهازاً، وفهمي لا يخلو إذا تحدّث إليها لأمر أو لآخر من نظرات تنمّ عن الإعجاب، حتّى كمال الصغير لا يخلو له الشراب من قلة إلا من الموضع المبتلّ بريقها، وهذه أمّها تدلّلها فتدعوها «قمر» وإن لم تُخفّ قلقلها نحو نحافتها ورقتها الأمر الذي جعلها تحت أمّ حنفي على تركيب وصفة لتسمينها. أمّا عائشة فلعلّها كانت أعرف الجميع بحسنها البارح كما تدلّ عليه عنايتها الشديدة به واستثناسها إليه، على أنّ هذه العناية المفرطة لم تمرّ

بخديجة دون تعليق، بل مؤاخذه وتقريع، لا لأنّها تستنيم إلى الإهمال فالحق أنّ خديجة هي الورثة الأولى لأنّها في الواقع بالنظافة والأناقة، ولكن لأنّها رأت الفتاة تستقبل النهار عادة بتمشيط شعرها وإصلاح هندامها حتّى قبل القيام بواجبات المنزل كأنّها لا تطيق أن يبقى جمالها ساعة من العمر غير محاط بالعناية والرعاية، ولكن لم تكن العناية بالجمال وحدها هي الباعث على هذا التجمل الباكر، فعند ذهاب الرجال كلّ إلى عمله - تأوي إلى حجرة الاستقبال وتفرّج بين ضلّفتي الشباك المطلّ على بين القصرين زيقاً رقيقاً فتقف وراءه مائة بصرها إلى الطريق يعلوها قلق الانتظار واضطراب الخوف. هكذا وقفت ذاك الصباح فظلّ طرفها حائرّاً ما بين حمّام السلطان وسبيل بين القصرين وفؤادها الفتيّ يواصل خفقاته حتّى تراءى عن بُعد «المتنظر» وهو ينعطف قادماً من الخرنفش خاطراً في بذلته العسكرية والنجمتان تلمعان على كتفه، وجعل كلّما اقترب من البيت يرفع في حذر عينيه دون رأسه، حتّى تداين من البيت فهتت في أساريه ابتسامة خفيفة آية في الخفة - تدرك بالقلب أكثر ممّا تدرك بالحواس - كأنّها الهلال في ليلته الأولى، ثمّ اختفى تحت المشربية فاستدارت في عجلة لتتابع مشاهدته من النافذة الأخرى المطلّة على النحاسين فما راعها إلّا أن ترى خديجة منتصبة على الكنبه بين النافذتين ملقبة بنظرها على الطريق من فوق رأسها!...

فرّت منها آهة، وأتسعت عيناها في رعب فاضح، فتسمّرت في موقفها... متى وكيف جاءت! كيف علت الكنبه دون أن تشعر بها؟! وماذا رأت؟! متى وكيف وماذا؟ أمّا خديجة فقد ثبتت بصرها وهي تضيقّ عينيها رويداً صامتة، مطيلة الصمت كأنّها لتطيل تعذيبها، ثمّ تمالكت عائشة بعض نفسها فخفضت عينيها في جهد شديد ومالت نحو الفراش متظاهرة - عبثاً - بضبط الأعصاب وهي تغتم:

- أرعبتني يا شيخه!

لم تُبد خديجة اكترائاً، ظلّت بموقفها على الكنبه

اضطراب زلزل أركان نفسها فكادت تُشَرَّق بالبكاء،  
إلا أنَّ اليأس نفسه دفعها إلى الاستماتة في الدود عن  
نفسها فهتفت بصوت طمس اضطراب نبراته معانيه:

- ما هذا الكلام غير المفهوم؟

ولكن لم يَئِدْ على خديجة أنها سمعت كلامها  
فواصلت مخاطبة نفسها قائلة:

- ولهذا أيضًا تتزَيَّن في الصباح الباكر طالما ساءلت  
نفسى أيعقل أن تتبرَّج بنت قبل الكنس والمسح  
والتنفيض؟ ولكن أي كنس وأي تنفيض يا خديجة يا  
مسكينة، يا من ستعيشين بلهاء، وتموتين بلهاء، اكسبي  
أنت ونَفْضِي أنت، ولا تتزَيَّنِي لا قبل العمل ولا حتَّى  
بعده، ولماذا تتزَيَّنِي يا تعيسة؟ انظري من زيق  
الشَبَاك من اليوم إلى الغد فإن اعتنى بك عسكري  
دوريةً أقطع ذراعي!

فهتفت عائشة في اضطراب وعصبية:

- حرام عليك... حرام.

- لها حقٌّ يا خديجة، هذه فنون لا تستطيعين فهمها  
بعقلك المظلم، عيون زرق، وشعر من سبائك  
الذهب، شريط أحمر ونجمة لامعة، شيء مفهوم،  
شيء مفهوم ومعقول.

- خديجة، أنت غخطئة، كنت أنظر إلى الطريق  
فحسب، لا لأرى أحدًا ولا ليراني أحد.

فالتفت خديجة إليها كأنما تنبّه إلى اعتراضها لأوّل  
مرة وتساءلت كالمعتذرة:

- هل تخاطبيني يا شوشو؟ لا مؤاخذه إنّي أفكّر في

بعض الأمور الهامة فأجّلي حديثك إلى حين...

وعادت تهزّ رأسها في تفكير وتخطّط نفسها قائلة:

- شيء مفهوم ومعقول، ولكن ما ذنبك أنت يا سيّد  
أحمد عبد الجواد؟ أسفي عليك يا سيّد يا شريف يا  
كريم، تعال شوف حرمك يا سيدي وتاج راسي!

وقف شعر الفتاة عند سماع اسم أبيها، فدار  
رأسها، ورد على ذهنها قول السيّد لأمها وهو يعمل  
على رغبة فهمي في خطبة مريم: «أخبريني هل  
رأها؟»... «ما كنت أحسب أنّ لي أبناء يسترقون  
النظر إلى حرّات الجيران»، هذا رأيه في الابن فكيف

وعينها إلى الطريق خَلَل الزيق... ثمّ تمتعت  
ساخرة:

- أربعتك؟... اسم الله عليك!... أصلي  
بعي...!

وعصّت عائشة على نواجذها في غيظ وحنق ويأس  
بعد أن تراجعت قليلًا إلى مأمن من عينيها، إلاّ أنها  
قالت بصوت هادئ:

- رأيتك فجأة فوق رأسي دون أن أشعر بدخولك،  
لماذا تسترقين الخطو؟

فوثبت خديجة إلى الأرض، ثمّ جلست على الكنبه  
في استرخاء ساخر وهي تقول:

- أسفة يا أختي، في المرّة القادمة سأعلّق جرسًا في  
عنقي مثل عربة المطافئ لتنتهبي إلى حضوري فلا  
ترتعي.

فقالّت عائشة في ضيق والرعب لم يفارقها:

- لا لزوم لتعليق الجرس، حسبك أن تسيري  
كالناس الذين خلقهم ربنا...

فقالّت الأخرى بنفس اللهجة الساخرة وهي ترميها  
بنظرة ذات معنى:

- ربنا يعلم أنّي أسير كالناس الذين خلقهم، ولكن  
الظاهر أنّك إذا وقفت وراء النافذة - أقصد وراء هذا  
الزيق - استغرقت فيما أمامك بحيث تفقدن الوعي بما  
حولك فلا تبقين كالناس الذين خلقهم ربنا.

ففنخت عائشة مغمغة:

- هكذا أنت دائمًا.

وعادت خديجة إلى الصمت قليلًا، ثمّ حوّلت  
عينها عن فريستها، ورفعت حاجبها كأنما تفكّر في  
مشكل عسير، ثمّ تظاهرت بالسرور كأنما اهدت  
للحلّ الموقّق، وقالت مخاطبة نفسها هذه المرّة دون أن  
تنظر إلى الأخرى:

- إذن لهذا فهي تغني كثيرًا «يا بو الشريط الأحمر يا  
لي أسرتني ترحم ذي!»... وكم حسبته بسلامة نيتي  
غناء بريئًا لمجرّد التسلية!

وخفق قلب الفتاة خفقة قاسية، وقع المحذور ولم  
يعد ينفع التعلّق بأوهام الأمانى الكاذبة، وركبها

يكون في البنت! وهتفت بصوت غنوق النبرات:  
- خديجة... لا يليق هذا... أنت مخطئة...  
أنت مخطئة...

ولكن خديجة تابعت حديثها دون التفات إليها:  
- تُرى أهذا هو الحب؟! يمكن! ألم يقولوا عنه:  
«الحب كبش في قلبي... قُربت أروح منه طوكر».  
تُرى أين طوكر هذه؟! لعلها في النحاسين، بل  
لعلها في بيت السيد أحمد عبد الجواد.  
- لم أعد أحتمل كلامك، ارحمني من لسانك،  
رباه... لماذا لا تصدقيني؟!  
- تدبري أملك يا خديجة ليس ما نحن فيه لعباً،  
وأنت الأخت الكبرى، والواجب هو الواجب مهما بدا  
مرّاً، يجب أن يعلم أولو الشأن، هل تفضين بالسرّ إلى  
والدك؟! الحقّ أنّي لا أدري كيف أخاطبه في مثل هذا  
السرّ الخطير، ياسين؟! ولكنّه كعدمه وغاية ما يرجي  
منه أن يترنّم بكلام غير مفهوم، فهمي؟ ولكنّه يعطف  
بدوره على الشعر الذهبيّ أصل البلوى كلّها، أظنّ من  
الأفضل أن أخبر نينة، وأترك لها التصرف بما ترى.  
ونذت عنها حركة كأنّها تمّ بالقيام فهرعت عائشة  
إليها كدجاجة مذبوحه وأمسكت بكتفها صائحة  
بصدر يعلو وينخفض:

- ماذا تريدين؟

فتساءلت خديجة:

- أتهذبنني؟!  
هَمّت عائشة بالكلام فخنقتها العبرات بغتة وهينمت  
بكلام مَزَقه البكاء شَرَّ ممزّق، وجعلت خديجة تحلّق  
إليها صامتة متفكّرة، ثمّ زایل أساريرها عبث السخرية  
حتّى تجهم وجهها وهي تصغي في غير ارتياح إلى نشيج  
الفتاة، ثمّ قالت بلهجة جدّية لأوّل مرّة:  
- لقد أخطأت يا عائشة.  
وأمسكت وجهها يشتدّ تجهمه، وكأنّ أنفها ازداد  
بروزاً، وبدا عليها التأثر واضحاً فاستطردت قائلة:  
- يجب أن تقرّي بخطئك، خبريني كيف سرّولت  
لك نفسك هذا العبث يا مجنونة؟  
فغمغمت عائشة وهي تجفّف عينيها:

- أنت تسيئين الظنّ بي.

فنفتخت خديجة مقطّبة كأنّها ضاقت بهذه المكابرة  
الضائعة، بيد أنّها عدلت نهائياً عن نيّة الاعتداء أو  
حتّى المعابثة، إنّها تعرف دائماً أين ومتى تقف فلا تتجاوز  
الحدّ، وقد أشبعت السخرية ميولها العدوانيّة القاسية  
فقنعت بها كما تقنع بها عادة، ولكن بقيت لديها ميول  
من نوع آخر - أبعد ما تكون عن العدوان والقسوة - لم  
تشبع بعد، ميول تنبث من عاطفة الأخت الكبرى،  
بل من عاطفة أمومة لا يخطئها فيها أحد من الأسرة  
مهما اشتدّت حملتها عليه، وتحت تأثير الرغبة في إشباع  
هذه الميول الودّية قالت:

- لا تكابري، لقد رأيت كلّ شيء بعيني، لست  
الآن أهزل ولكّني أريد أن أصارحك بأنك أخطأت  
خطأ كبيراً، هذا عبث لم يعرفه هذا البيت في الماضي  
ولا يؤدّ أن يعرفه في حاضره أو مستقبله، إنّهُ الطيش  
وحده هو الذي أوقعك فيه، أصغني إلّيّ واعقلي  
نصيحتي، لا تعودِي إلى هذا أبداً، لا يخفى شيء وإن  
طال كتمانهُ، فتصوّري ماذا يكون أمرنا جميعاً لو لمحك  
أحد من الجيران، وأنت أدري بالسنة الناس، تصوّري  
ماذا يكون لو غمى الخبر إلى أبي والعياذ بالله!

فنكست عائشة رأسها تاركة الصمت يعبر عن  
اعترافها، وقد تضرّج وجهها بحمرة الخجل، ذلك  
الدم الذي ينزفه الضمير في الداخل إذا جرحته  
خطيئة، وعند ذاك تنهّدت خديجة قائلة:

- حذار، حذار، فاهمة؟... وثمّ نسمت عليها  
نسمة سخرية فغيّرت لهجتها شيئاً ما، ألم يركّ؟ فإذا  
يقعده عن أن يتقدّم لك مثل الرجال الشرفاء؟ وقتها  
نقول لك مع ألف سلامة، بل في ستّين داهية يا  
سَيّ...  
استردّت عائشة أنفاسها، فافتّر ثغرها عن ابتسامة  
لاحت كلمعة اليقظة الأولى في العين عقب غيبوبة  
طويلة، وكأنّ خديجة عزّ عليها - برؤية هذه الابتسامة -  
أن تفلت الفتاة من قبضتها بعد أن نعمت بامتلاكها  
فترة طويلة فصاحت بها:

- لا تظنّي أنّك بلغت برّ الأمان، إنّ لساني لا  
يكون في البنت! وهتفت بصوت غنوق النبرات:  
- خديجة... لا يليق هذا... أنت مخطئة...  
أنت مخطئة...  
ولكن خديجة تابعت حديثها دون التفات إليها:  
- تُرى أهذا هو الحب؟! يمكن! ألم يقولوا عنه:  
«الحب كبش في قلبي... قُربت أروح منه طوكر».  
تُرى أين طوكر هذه؟! لعلها في النحاسين، بل  
لعلها في بيت السيد أحمد عبد الجواد.  
- لم أعد أحتمل كلامك، ارحمني من لسانك،  
رباه... لماذا لا تصدقيني؟!  
- تدبري أملك يا خديجة ليس ما نحن فيه لعباً،  
وأنت الأخت الكبرى، والواجب هو الواجب مهما بدا  
مرّاً، يجب أن يعلم أولو الشأن، هل تفضين بالسرّ إلى  
والدك؟! الحقّ أنّي لا أدري كيف أخاطبه في مثل هذا  
السرّ الخطير، ياسين؟! ولكنّه كعدمه وغاية ما يرجي  
منه أن يترنّم بكلام غير مفهوم، فهمي؟ ولكنّه يعطف  
بدوره على الشعر الذهبيّ أصل البلوى كلّها، أظنّ من  
الأفضل أن أخبر نينة، وأترك لها التصرف بما ترى.  
ونذت عنها حركة كأنّها تمّ بالقيام فهرعت عائشة  
إليها كدجاجة مذبوحه وأمسكت بكتفها صائحة  
بصدر يعلو وينخفض:

- ماذا تريدين؟

فتساءلت خديجة:

- أتهذبنني؟!  
هَمّت عائشة بالكلام فخنقتها العبرات بغتة وهينمت  
بكلام مَزَقه البكاء شَرَّ ممزّق، وجعلت خديجة تحلّق  
إليها صامتة متفكّرة، ثمّ زایل أساريرها عبث السخرية  
حتّى تجهم وجهها وهي تصغي في غير ارتياح إلى نشيج  
الفتاة، ثمّ قالت بلهجة جدّية لأوّل مرّة:  
- لقد أخطأت يا عائشة.  
وأمسكت وجهها يشتدّ تجهمه، وكأنّ أنفها ازداد  
بروزاً، وبدا عليها التأثر واضحاً فاستطردت قائلة:  
- يجب أن تقرّي بخطئك، خبريني كيف سرّولت  
لك نفسك هذا العبث يا مجنونة؟  
فغمغمت عائشة وهي تجفّف عينيها:

- أنت تسيئين الظنّ بي.

فنفتخت خديجة مقطّبة كأنّها ضاقت بهذه المكابرة  
الضائعة، بيد أنّها عدلت نهائياً عن نيّة الاعتداء أو  
حتّى المعابثة، إنّها تعرف دائماً أين ومتى تقف فلا تتجاوز  
الحدّ، وقد أشبعت السخرية ميولها العدوانيّة القاسية  
فقنعت بها كما تقنع بها عادة، ولكن بقيت لديها ميول  
من نوع آخر - أبعد ما تكون عن العدوان والقسوة - لم  
تشبع بعد، ميول تنبث من عاطفة الأخت الكبرى،  
بل من عاطفة أمومة لا يخطئها فيها أحد من الأسرة  
مهما اشتدّت حملتها عليه، وتحت تأثير الرغبة في إشباع  
هذه الميول الودّية قالت:

- لا تكابري، لقد رأيت كلّ شيء بعيني، لست  
الآن أهزل ولكّني أريد أن أصارحك بأنك أخطأت  
خطأ كبيراً، هذا عبث لم يعرفه هذا البيت في الماضي  
ولا يؤدّ أن يعرفه في حاضره أو مستقبله، إنّهُ الطيش  
وحده هو الذي أوقعك فيه، أصغني إلّيّ واعقلي  
نصيحتي، لا تعودِي إلى هذا أبداً، لا يخفى شيء وإن  
طال كتمانهُ، فتصوّري ماذا يكون أمرنا جميعاً لو لمحك  
أحد من الجيران، وأنت أدري بالسنة الناس، تصوّري  
ماذا يكون لو غمى الخبر إلى أبي والعياذ بالله!

فنكست عائشة رأسها تاركة الصمت يعبر عن  
اعترافها، وقد تضرّج وجهها بحمرة الخجل، ذلك  
الدم الذي ينزفه الضمير في الداخل إذا جرحته  
خطيئة، وعند ذاك تنهّدت خديجة قائلة:

- حذار، حذار، فاهمة؟... وثمّ نسمت عليها  
نسمة سخرية فغيّرت لهجتها شيئاً ما، ألم يركّ؟ فإذا  
يقعده عن أن يتقدّم لك مثل الرجال الشرفاء؟ وقتها  
نقول لك مع ألف سلامة، بل في ستّين داهية يا  
سَيّ...  
استردّت عائشة أنفاسها، فافتّر ثغرها عن ابتسامة  
لاحت كلمعة اليقظة الأولى في العين عقب غيبوبة  
طويلة، وكأنّ خديجة عزّ عليها - برؤية هذه الابتسامة -  
أن تفلت الفتاة من قبضتها بعد أن نعمت بامتلاكها  
فترة طويلة فصاحت بها:

- لا تظنّي أنّك بلغت برّ الأمان، إنّ لساني لا  
يكون في البنت! وهتفت بصوت غنوق النبرات:  
- خديجة... لا يليق هذا... أنت مخطئة...  
أنت مخطئة...  
ولكن خديجة تابعت حديثها دون التفات إليها:  
- تُرى أهذا هو الحب؟! يمكن! ألم يقولوا عنه:  
«الحب كبش في قلبي... قُربت أروح منه طوكر».  
تُرى أين طوكر هذه؟! لعلها في النحاسين، بل  
لعلها في بيت السيد أحمد عبد الجواد.  
- لم أعد أحتمل كلامك، ارحمني من لسانك،  
رباه... لماذا لا تصدقيني؟!  
- تدبري أملك يا خديجة ليس ما نحن فيه لعباً،  
وأنت الأخت الكبرى، والواجب هو الواجب مهما بدا  
مرّاً، يجب أن يعلم أولو الشأن، هل تفضين بالسرّ إلى  
والدك؟! الحقّ أنّي لا أدري كيف أخاطبه في مثل هذا  
السرّ الخطير، ياسين؟! ولكنّه كعدمه وغاية ما يرجي  
منه أن يترنّم بكلام غير مفهوم، فهمي؟ ولكنّه يعطف  
بدوره على الشعر الذهبيّ أصل البلوى كلّها، أظنّ من  
الأفضل أن أخبر نينة، وأترك لها التصرف بما ترى.  
ونذت عنها حركة كأنّها تمّ بالقيام فهرعت عائشة  
إليها كدجاجة مذبوحه وأمسكت بكتفها صائحة  
بصدر يعلو وينخفض:

- ماذا تريدين؟

فتساءلت خديجة:

- أتهذبنني؟!  
هَمّت عائشة بالكلام فخنقتها العبرات بغتة وهينمت  
بكلام مَزَقه البكاء شَرَّ ممزّق، وجعلت خديجة تحلّق  
إليها صامتة متفكّرة، ثمّ زایل أساريرها عبث السخرية  
حتّى تجهم وجهها وهي تصغي في غير ارتياح إلى نشيج  
الفتاة، ثمّ قالت بلهجة جدّية لأوّل مرّة:  
- لقد أخطأت يا عائشة.  
وأمسكت وجهها يشتدّ تجهمه، وكأنّ أنفها ازداد  
بروزاً، وبدا عليها التأثر واضحاً فاستطردت قائلة:  
- يجب أن تقرّي بخطئك، خبريني كيف سرّولت  
لك نفسك هذا العبث يا مجنونة؟  
فغمغمت عائشة وهي تجفّف عينيها:

ولبت دون حراك ثواني، مستغرقة في خواطرها الجديده، في الحلم السعيد الذي تفتحت لها دنياه الغناء فجأة وإن بدا شغلها الشاغل طول الأعوام الأخيرة، ثم أفاقت إلى نفسها فنادت خديجة بلهجة لا تحتمل التأجيل فجاءت الفتاة على الأثر، وما إن التقت عيناهما حتى غلبها الابتسام وقالت وهي لا تملك نفسها من الفرح:

- ثلاث سيّدات غريبات في حجرة الاستقبال... ارتدي خير ملابسك... واستعدي...

ولما تورّد وجه خديجة تورّد وجهها أيضًا كأنهما انتقلت إليه عدوى الحياء، ثم غادرت الصالة إلى حجرتها في الدور الأعلى لتستعدّ بدورها لاستقبال الزائرات، وجعلت خديجة تنظر إلى الباب حيث اختفت أمها، غائبة الطرف، وقلبها يخفق لحذّ الألم متسائلة «ما وراء هذه الزيارة؟» ثم نزعَتْ نفسها من موقفها، وسرعان ما استردّت عقلها نشاطه الفائت فنادت كمال الذي جاءها من حجرة فهمي فبادرته قائلة:

- اذهب إلى أبله مريم وقل لها إنّ خديجة تفرّك السلام وترجوكم أن ترسلي لها معي علبة البودرة والكحل والأحمر...

وتلقّف الغلام الأمر وهو يعدو إلى الخارج، أما خديجة فأسرعت إلى حجرتها ومضت تحلج جلبابها وهي تقول لعائشة التي لحظتها بعين متسائلة.

- اختاري لي أحسن فستان... أحسن فستان بلا استثناء...

فتساءلت عائشة:

- ما الداعي إلى هذا الاهتمام؟... زائرة؟ من؟

فقال خديجة بصوت خافت:

- ثلاث سيّدات... «ثم وهي تضغط على مخارج اللفظ... غريبات...

فراجع رأس عائشة في دهش، ثم اتسعت عيناها الجميلتان سرورًا، وهتفت:

- آه... هل يُفهم من هذا أنّ... يا له من خبر!

- لا تسرّعي في الحكم... فمن يدري عمّا هناك...

فأنجّمت عائشة نحو صوان الملابس لتنتقي الفستان

يسكت إذا لم تحسني مشاغلته...

فتساءلت الأخرى في ارتياح:

- ماذا تعنين؟

- لا تتركه وحده حتى لا تعاوده نزعة الشرّ، أليه بشيء من الحلوى ليشغل بها عنك، علبة ملبس مثلاً من شنجري...

- لك ما تشتهين وأكثر.

وساد الصمت فشغلت كلتاها بأفكارها. على أنّ قلب خديجة كان - كما كان من بادئ الأمر - مرتعًا لضروب من المشاعر متباينة... غيرة وحنق وإشفاق وحنان...

## ٢٣

كانت ستّ أمينة مشغولة بإعداد أدوات القهوة استعدادًا لجلسة العصر التقليدية فجاءتها أمّ حنفي مهرولة، يبشّر لمعان عينيها بأنباء سارة، ثم قالت بلهجة موحية:

- ستيّ ثلاث سيّدات غريبات يرغبن في زيارتك...

أخلت الأمّ يديها من كلّ شيء، وانتصبت قامتها في عجلة دلّت على تأثير الخبر في نفسها، وحدجت الخادم بنظرة اهتمام شديدة كأنه من المحتمل أن تكون الزائرات من البيت المالك أو من السماء نفسها، ثمّ تمنت استزادة من التوكيد:

- غريبات؟!

فقالت أمّ حنفي بلهجة تنمّ عن فرحة الظفر:

- نعم يا ستيّ، طرقت الباب ففتحت لهنّ فقلن لي «أليس هذا بيت السيّد أحمد عبد الجواد؟» فقلت لهنّ «بلى» فقلن «لهوانم فوق؟» فقلت «نعم» فقلن «نريد أن نتشرف بالزيارة» فسالتهنّ «أقول من الزائرات؟» فقلت لي إحداهنّ ضاحكة «دعي هذا لنا، وما على الرسول إلّا البلاغ» فحشك يا ستيّ طائرة وأنا أقول لنفسي «يا ربّ حقّق لنا الأحلام»...

فقال أمّ بعجلة دون أن يزايل الاهتمام عينيها:

- ادعيهنّ إلى حجرة الاستقبال... أسرعي...

المناسب وهي تقول ضاحكة:

- في الجوّ شيء... إنّ الفرح يُشَمُّ كالروائح الزكيّة... .

فضحكت خديجة لتخفي اضطرابها، واقتربت من المرأة ونظرت إلى صورتها بإمعان، ثم أخفت أنفها براحتها وقالت بتهكم:

- لا بأس بوجهي الآن، وجه مقبول، «ثم رافعة راحتها»... أما على هذه الحال فرُبنا وحده المنجّي! فقالت عائشة ضاحكة وهي تساعد في نفس الوقت على ارتداء فستان أبيض موثى بأزهار بنفسجية:

- لا تغمطي نفسك... ألا يسلم شيء من لسانك!... ليست العروس أنفًا فحسب، هناك العينان والشعر الطويل، والدم الخفيف! فلوت خديجة بوزها قائلة:

- الناس لا ترى إلّا العيوب...

- هذا صحيح بالقياس إلى من على شاكلتك من الناس، ولكن ليس كلّ الناس على شاكلتك والحمد لله...

- سوف أجيبك حين أفرغ لك...

فرُبّت الأخرى على خاصرتها وهي تسوّي الفستان قائلة:

- ولا تنسي هذا الجسم البضّ الممتلئ... يا له من جسم!

فضحكت خديجة في سرور وقالت:

- لو كان العريس أعمى ما عملت حسابًا لشيء... وإني أرضى به في تلك الحال ولو كان شيخًا من شيوخ الأزهر...

- وماذا يعيب شيوخ الأزهر!... أليس منهم من خيراّه كالبحر؟! ولست فرغت من الفستان نَدت عن عائشة نغمة تأفف

فسألتها خديجة:

- ماذا بك؟

فقالت بتدّمر:

- ليس في بيتنا كلّ نقطة بودرة أو كحل أو أحمر كان

ليس به نساء... ١٩

- من الأفضل أن تبْلغي هذا الاحتجاج لوالدنا...

- أليست نينة سيّدة ومن حقّها أن تتزيّن؟

- إنّها جميلة هُكذا بلا زينة!

- وحضرتك؟ هل تلقين الزائرات هُكذا؟

فقالت خديجة ضاحكة:

- أرسلت كمال إلى مريم ليعود بالبودرة والكحل والأحمر، وهل وجهي وجه أقابل به الحاطبات عاقلًا؟! ولست كان الوقت لا يحتمل تبديد دقيقة بلا عمل فقد نزعّت خديجة منديل رأسها وأخذت تحلّ صغيرتيها الغليظتين الطويلتين، على حين جاءت عائشة بالمشط

وراحت تمشط شعرها المسترسل وهي تقول:

- يا له من شعر بسيط طويل... ما رأيك؟ سأجده

في صغيرة واحدة، ألا يكون ذلك أروع؟

- بل صغيرتين... ولكن خبريني هل أبقى الجراب

في قدمي أو أدخل عليهنّ عارية الساقين؟

- إنّ الوقت شتاء يستوجب لبس الجراب ولكي أخشى إذا أبقيته أن يحسبن بساقل عيبًا تتعمدين إخفاءه...

- صدقت، إنّ المحكمة أرحم من الحجرة التي تنتظري الآن...

- قوّي قلبك، ربّنا يوعدنا...

وهنا دخل الحجرة كمال مسرعًا وهو يلهث فقدم إلى أخته أدوات الزينة وهو يقول:

- قطعت السّلم والطريق جريًا...

فقالت له خديجة باسمه:

- عفّارم، عفّارم... ماذا قالت لك مريم؟

- سألتني هل عندنا صيوف... ومَن هنّ، فأجبته بأنّي لا أدري...

فتجلّت في عيني خديجة نظرة اهتمام وهي تسأله:

- وهل قنعت بهذه الإجابة؟

- حلّفتني بالحسين أن أصرّح لها بما عندي فحلّفت

لها بأنّه ليس عندي غير ما قلت...

فضحكت عائشة قائلة ويدأها لا تكفّان عن

العمل:

- ستخمن ما هنالك...

فقالت عائشة ضاحكة:

- طبعًا أنا...

فقالت خديجة وهي تذر البودرة على وجهها:

- إنها بنت هرمة، وهيأت أن يفوتها شيء، وأراهنك على أنها سوف تزورنا غدًا على الأكثر لإجراء تحقيق شامل...

فلكرتها بكوعها، ثم تنهدت قائلة:

- لو تعيريني أنفك كما أعارتني مريم علبة بودرتها!

- تناسي أنفك ولو الليلة على الأقل، إنَّ الأنف -

كالدمل - يضحخ بالدأب على التفكير فيه!...

ولم يشأ كمال أن يغادر الحجرة كما كان المنتظر، أو لعلّه لم يستطع مغادرتها تحت إغراء المشهد الذي يمثل أمام عينيه، والذي يراه لأول مرة في حياته فلم يسبق له أن رأى وجه أخته وهو يلقي هذا التغير الذي استحال معه وجهها جديدًا، البشرة تبيض والوجنتان تتوردان والعيان تصطبغ أشفاههما بسواد لطيف يرسم لهما حدودًا جذابة ويضفي على حديقتها صفاء بهيجًا، وجه جديد هشّ له قلبه فطرب هاتفاً:

- أنت يا أبله الآن كالعروس التي يشتريها بابا في مولد النبي...

فضحكت الفتاتان، وسألته خديجة:

- هل أعجبك الآن؟

فاقترب منها مسرعًا ومدّ يده صوب أرنية أنفها وهو يقول:

- لو تزول هذه!

فتفادت من يده، ثم قالت لأختها:

- أخرجني هذا النّام.

فقبضت عائشة على يده وجذبه إلى الخارج رغم مقاومته حتّى أخرجه وأغلقت الباب، ثم عادت إلى استئناف عملها الجميل، فواصلتا نشاطهما في صمت وجدّ. ومع أنّه كان من المتفق عليه في الأسرة أن تقتصر مقابلة الخاطبات على خديجة وحدها إلّا أنّ الفتاة قالت لعائشة على سبيل المكر:

- ينبغي أن تتأهبي أنت أيضًا لاستقبال الزائرات.

فقالت عائشة بمثل مكر أختها:

- لن يكون هذا قبل أن تزوّي إلى عريسك!

ثم استدركت قائلة قبل أن تتكلم خديجة:

- أما الآن فكيف للنجوم أن تطلع مع القمر؟!

فرمتها أختها بنظرة مستريّة وتساءلت:

- من يكون القمر؟

- بعد الشرّ عنه!

فقالت خديجة ضاحكة أيضًا:

- لا تدعي له حتّى تتأكّد أنّه من نصيبنا... آه يا

ربّي كم أنّ قلبي يذق!...

فتراجعت عائشة خطوة خطوة عن مرمى كوعها

وقالت:

- صبرك... ستجدني في المستقبل فرصًا كثيرة

للانتقام من مجلس اليوم الرهيب، فكم سيُصلين من

نار لسانك وأنت ست البيت... ولعلهن يذكرن امتحان اليوم وهن يقلن لأنفسهن يا ليت الذي جرى ما كان!...

وقنعت خديجة بالابتسام. لم يكن في الوقت متسع لرد الهجوم، ولم تجد في الهجوم - الذي تجد فيه عادة سرورًا شافيًا - لذة على الإطلاق لغلبة الرهبة على نفسها وحيرتها بين الخوف والرجاء، ولمّا فرغت من مهمتها وقفت تلقي على صورتها نظرة شاملة، وعائشة - إلى الورا خطوتين - تردّد نظرها بعناية بين الصورة والأصل، وجعلت خديجة تتمتم:

- أحسنت يدك، منظر حسن أليس كذلك؟... هذه خديجة حقًا... لا بأس بأنفي الآن... جلّت حكمتك يا ربّ، بقليل من الجهد صار كلّ شيء مقبولًا فلماذا (ثمّ مستدركة) أستغفر الله العظيم، لك في كلّ شيء حكمة...

وتراجعت خطوات وهي تفحص صورتها بعناية ثمّ قرأت الفاتحة في سرّها، والتفتت نحو عائشة قائلة:  
- ادعي لي يا بنت...  
وغادرت الحجرة...

## ٢٤

اكتسب مجلس القهوة بحلول الشتاء ميزة جديدة تمثّلت في المدافاة الكبيرة التي توسّطت الصالة فتكاكات حولها الأسرة، الذكور في معاطفهم والنساء ملتفات بخماراتهنّ، فهياً لهم المجلس إلى لذة الشراب وحلو السمر متعة الدفء. وقد بدا فهمي - على حزنه الصامت الطويل في الأيام الأخيرة - كمن يتحفّز لمواحة أهله بخبر هامّ، ولم يكن تردده وطول تفكيره إلّا دليلاً على خطورة الخبر وأهميته، بيّد أنّه انتهى من تفكيره وتردده إلى التصميم على إبلاغه ملفياً عبثه بعد ذلك على والديه والأقارب، فلذلك قال:

- عندي خبر هامّ لكم فاسمعوا...

فتطلّعت إليه الأعين باهتمام لن يشدّ عنه أحد، لأنّ ما عُرف به الشاب من أتران جعل الجميع ينتظرون خبراً هاماً حقاً كما قال، أمّا فهمي فاستطرد قائلاً:

- الخبر هو أنّ حسن أفندي إبراهيم ضابط قسم الجماليّة - وهو من معارفي كما تعلمون - قابلي ورجاني أن أبلغ والدي رغبته في خطبة عائشة!...

وأحدث الخبر - كما قدّر فهمي من قبل ما دعاه إلى التردّد وطول التفكير - آثاراً جدّ متباينة، فتطلّعت الأمّ إليه باهتمام شديد، على حين صفر ياسين وهو يرمق عائشة بنظرة مداعبة ويهزّ رأسه، وخفضت الفتاة الصغيرة رأسها حياءً ولتخفي وجهها من الأعين أن تفضحها أساريرها فتعلن للنّاظرين ما يضطرب في قلبها الخافق، أمّا خديجة فقد تلّقت الخبر بدهشة بادئ الأمر لم تلبث أن انقلبت خوفاً وتشاؤماً لم تدّر لها سبباً واضحاً ولكنّها كانت كتلميذ يتوقّع بين آونة وأخرى ظهور نتيجة الامتحان - إذا تنأى إليه نجاح زميل له بلغته النتيجة من مصدر خاصّ، وتساءلت الأمّ في ارتباك لا يتناسب ومناسبة الفرح الراهنة:

- أهذا كلّ ما قال؟

فقال فهمي وهو يتحاشى النظر ناحية خديجة:  
- بداني بقوله إنّه يؤدّ أن يتشرّف بطلب يد شقيقي الصغرى.

- وماذا قلت له؟

- شكرت له حسن ظنّه بطبيعة الحال...

لم تطرح عليه السؤال تلو السؤال في رغبة استطلاع شيء تؤدّ معرفته، ولكن لتداري ارتباكها وتنتزع من المفاجأة مهلة للتروّي. ثمّ راحت تتساءل ترى هل لهذا الطلب علاقة بالزائرات اللاتي جئنّها منذ أيام؟ وذكرت عند ذاك كيف قالت إحداهنّ - قبل ظهور خديجة - وهي بمعرض الحديث عن أسرة السيّد أحمد إنهنّ سمعن أنّ للسيّد كريمتين فأدرت وقتهما أنّهنّ جئنّ لرؤية الفاتتين ولكنّها تصامّت عن الإشارة، وقد انتسبت الزائرات إلى أسرة تاجر بالدرب الأحمر - غير والد الضابط الذي قال فهمي عنه مرّة إنّه موظّف بوزارة الأشغال - ولكن هذا لا ينفي نفيًا قاطعًا العلاقة بين الأسرتين لأنّه المؤلف أن تبعث الأسر بخاطبات من بعض فروعها دون الأصل على سبيل الحرص، وكما ودّت أن تسأل فهمي عن هذه النقطة بالذات



تساءلت:

- ألا يحسن بنا أن نفكر فيما عسى أن أجيب أباك إذا سألتني عما دعا الضابط إلى طلب عائشة بالذات، ولماذا لم يطلب يد خديجة، ما دام لم يرَ هذه ولا تلك؟...

وانتهت الفتاتان إلى ملاحظة أمهما معاً، ولعلهما ذكرتا موقفهما وراء النافذة في وقت واحد، بيد أن خديجة تلقت الذكرى بامتعاض ضاعف من امتعاضها الراهن، واحتج قلبها على الحظ الأعمى الذي يأبى إلا أن يجزي النزق والاستهتار بالإحسان، أما عائشة فقد اعترضت تيار سرورها ملاحظة أمها كما تعترض الخلق - وهو نشوان بازدراد أكلة لذيدة شهية - شوك حادة مدسوسة في الطعام، وسرعان ما امتص الخوف حرارة الفرح التي كان ينتفض بها روحها. فهمي وحده الذي ثار على قول أمه، لا دفاعاً كما بدا عن عائشة - فإنه ما كان يجيز الدفاع عن عائشة تحت سمع خديجة في هذه النقطة الحساسة بالذات - ولكن غضباً لحزنه العظيم الذي لم يسعه الجهر بالدفاع عنه حيال أبيه، فقال مختدداً يخاطب أباه في شخص أمه، وهو لا بدري:

- هذا تعسف ظالم لا مبرر له، من عقل أو حكمة ألا يعرف الرجال أشياء كثيرة عن نساء مخدرات عن طريق الفضليات من قريباتهم اللاتي لا يقصدن بحديثهن إلا الجمع بين رجل وامرأة في الحلال. ولكن الأم لم تقصد باعتراضها إلا توارياً وراء أبيه حتى تجد خرجاً من المأزق الذي وجدت فيه نفسها بين عائشة وخديجة. فلما صارحها فهمي باحتجاجه لم تجد بداً من مصارحته بما يدور:

- ألا ترى أنه من الأفضل أن ننتظر حتى يأتينا نساء الزائرات؟!

ولم تعد خديجة تطيق الصمت مدفوعة بكبريائها التي أبت عليها إلا أن تعلن عدم المبالاة بالأمر كله بالرغم مما يصطرع داخلها من القلق والتشاؤم. فقالت:

- هذا شيء وذاك شيء آخر وليس ثمة داعٍ لتأجيل

وكأنها أشفقت من أن يجيء الجواب مصداقاً لمخاوفها فيقضي على آمال ابنتها الكبرى ويسمها خيبة جديدة، بيد أن خديجة نابت عن أمها - اتفاقاً - بطرح ما يعتلج في صدرها خارجاً حين دارت هبوطها بضحكة فاترة وقالت متسائلة:

- لعله هو الذي بعث بالزائرات اللاتي زرنا منذ أيام.

ولكن فهمي بادر قائلاً:

- كلاً، فقد قال لي إنه سيرسل أمه إلينا في حالة الموافقة على طلبه...

ولكنه بخلاف لهجته الموحية بالصدق، لم يكن صادقاً فيما قال، فقد فهم من حديث الضابط أن السيدات اللاتي زررن والدته قريباته، بيد أنه أشفق من إبلام شقيقته الكبرى التي كان - على حبه عائشة واقتناعه بجدارة صديقه الضابط - يعطف عليها عطفاً أخوياً، وبالم أشد الألم لسوء حظها، ولعله كان لما مني به من خيبة أثر قوي في البلوغ بهذا العطف ذروته. وضحك ياسين ضحكة غليظة وقال بجذل صياني:

- يبدو أننا سنجمع قريباً بين فرحين...

فهتفت الأم في فرح صادق:

- ربنا يسمع منك...

- هل تخاطبين أبي نيابة عني؟...

ند عنه السؤال وهو مشغول بمسألة الخطبة عما عداها، ولكنه - عقب النطق به - وقع من أذنيه موقعاً غريباً، فكأنه ألقي عليه من حافظة ذكرياته لا من طرف لسانه، أو كأنه حين ألقي على سمعه لم يقف عند أذنيه ولكنه غاص إلى أعماقه ثم طفا عالقاً به ما علق به من ذكرياته، وللحال ذكر سؤالاً ماثلاً لهذا السؤال توجه به إلى أمه في ظروف مشابهة فانقبض قلبه، وهاجت آلامه، وعاوده إحساسه بالظلم الذي وأد أمه، وجعل يقول لنفسه كما قال لها مراراً في الأيام الأخيرة، كم كان يكون سعيداً بيومه مستبشراً بغده راضياً عن الحياة كلها لولا إرادة أبيه القاسية، وانتزعت الذكرى من الاهتمام بشئون غيره، فاستسلم للحزن الذي يقرض شغاف قلبه، أما الأم ففكرت ملياً ثم

هذا من أجل ذلك...  
فقالت الأم هدهده مؤثر:  
- كلنا متفقون على تأجيل زواج عائشة حتى تتزوج خديجة.  
ولم يسع عائشة إلا أن تقول برقة وتسليم:  
- هذا أمر مفروغ منه...  
امتلاء صدر خديجة حقًا لدى سماع النبرات الرقيقة التي تتكلم، ولعل رقتها نفسها كانت أشد ما أحققها، ربما لأنها أوحى بعطف أبته كل الإباء، أو لأنها وذت لو تعلن الفتاة معارضتها صريحة لتتيح لها فرصة لهاجتها بما يشفي حقتها على حين قام ذلك العطف الكاذب البغيض درعًا يدفع عنها الأذى ويضعف من حق المترص المتحفز، وأخيرًا لم يسعها إلا أن تقول بلهجة لم تغل من حدة:

- لا أوافق على أن هذا أمر مفروغ منه، فليس من العدل أن يملككم حظ عائر على كسر حظ سعيدا...  
ونبه فهمي إلى ما ينطوي عليه كلام خديجة من حزن غاضب بالرغم من ظاهره الموحى بالإيثار فانزع نفسه من قبضة أحزانه الشخصية نادمًا على ما صدر منه من قول في غضبه مما قد تحسبه خديجة ميلاً صريحاً منه إلى قضية أختها فقال موجهاً خطابه إليها:  
- إن مفتاح بابا عن رغبة حسن أفندي لا تعني التسليم بتقديم زواج عائشة على زواجك، وما علينا من بأس إذا نلنا موافقته على الخطبة، أن نؤجل إعلانها لوقت مناسب!...  
ولم يكن ياسين مقتنعاً بوجهة الرأي الذي يحتم تقديم زواج على زواج، ولكنّه لم يجد الشجاعة الكافية للإفصاح عن رأيه إلا أنه روج عنه بكلام يفهم منه من يشاء ما يشاء فقال:

- الزواج مصير كل حي، ومن لم تتزوج اليوم فستزوج غداً.  
وهنا انطلق صوت كمال الرقيق الذي كان يتابع الحديث باهتمام متسائلاً على غير انتظار:  
- نينة... لماذا كان الزواج مصير كل حي؟

ولكنّها لم تُعِن بالالتفات إليه، فلم يحدث تساؤله من أثر إلا عند ياسين الذي قعقع بضحكة غليظة دون أن ينبس بكلمة، على حين قالت الأم:  
- اعلم أن كل فتاة ستزوج اليوم أو غداً، ولكن هناك اعتبارات لا ينبغي إغفالها...  
وعاد كمال يسألها:  
- وهل ستزوجين أنت أيضًا يا نينة؟  
وضّح الجميع ضحكاً فحَقَف هذا من حدة التوتر، وانتهر ياسين هذه الفرصة السانحة فتشجع قائلاً:  
- اعرضي الأمر على أبي، فالكلمة كلمته على أيّ حال...  
وقالت خديجة بإصرار غريب:  
- لا بدّ من هذا... لا بدّ من هذا...  
كانت تعني ما تقول: لأنها من ناحية تعلم باستحالة إخفاء مثل هذا الأمر عن أبيها، ولأنّها من ناحية أخرى تعتقد بأن والدها لا يمكن أن يقبل تقديم زواج عائشة عليها، ولأنّها - إلى هذا وذاك - ما زالت تصرّ على التظاهر باللامبالاة، ومع أنّها لم تكن تعلم بما بين الضابط والزائرات من سبب... إلا أنّ القلق والتشاؤم اللذين شعرت بهما من بادئ الأمر لم يتخليا عنها لحظة واحدة...  
٢٥

مع أنّ السيّدة أمينة جرّبت في حياتها أكثر من سبب من الأسباب التي تكدر الصفو إلا أنّها لم تكن قديمة عهد بنوع طارئ من هذه الأسباب، امتاز بطابع خاصّ به، إذ بدا في ذاته - على خلاف سوابقه - ممّا يجمع الناس على اعتباره من أسس السعادة الجوهريّة في الدنيا، ومع هذا انقلب في بيتها، بل في قلبها خاصّة، باعثاً هاماً من بواعث القلق والكدر، وكم كانت صادقة وهي تسائل نفسها: من كان يظنّ أنّ مقدّم عريس، الأمر الذي تلهّف النفوس على استقباله، يجبر علينا هذا التعب كلّ... ولكن هكذا جرى الحال، فتنازع قلبها أكثر من رأي دون أن تطمئنّ إلى واحد منها، رأت حيناً أنّ الموافقة على زواج

أجل، علمت بهذه العلاقة، وهي منفردة بفهمي، وقد اقترح عليها الشاب أن تخفي أمرها عن والده عند مفاتحته بالخبر فوعده بالتفكير في المسألة طويلاً، وترددت بين قبولها ورفضها، ثم مالت أخيراً إلى كتمانها كما اقترح فهمي، ولكنها حين جويت بسؤال السيد وهي تشعر بنظرة عينيه كضوء الشمس الوهاج تشتتت عزيمتها وتبدد رأيها فقالت بلا تردد:

- نعم يا سيدي، علم فهمي أنهن قريبات صديقه...

فعبس السيد غاضباً وكعدهه إذا غضب امتلأت صفحة وجهه البيضاء بالدم وتطاير الشر من عينيه. من يستهن بخديجة فكأنما استهان بشخصه، ومن يمس كرامتها فكأنما طعنه في صميم كرامته، ولكنه لم يدر كيف يعلن غضبه إلا عن طريق صوته الذي علا وغلظ وهو يتساءل بحنق وازدراء:

- من هو هذا الصديق؟

فقالت وهي تجدد للنطق بالاسم قلقاً لا تدري له من سبب:

- حسن إبراهيم ضابط قسم الجبالية.

فقال السيد متسائلاً في انفعال:

- قلت لك أدخلت خديجة وحدها على السيدات؟...

- نعم يا سيدي...

- هل زرنك مرة أخرى؟

- كلا يا سيدي وإلا كنت أخبرتك.

فسألها متتيراً كأنها هي المسئولة عن هذه الغرابة:

- أرسل قريباته فرأين خديجة، وإذا به يطلب

عائشة!... ما معنى هذا؟...

فازدردت الأم ريقها الذي جف بين الأخذ والرد وتمتت:

- في مثل هذا الحال لا تدخل الخاطبات البيت المقصود إلا بعد أن يزرن كثيراً من بيوت الجيران متحريات عما يهمن، وبالفعل قد أشرن في حديثهن معي إلى أنهن سمعن بأن للسيد كريميتين، ولعل تقديم واحدة دون الأخرى...

عائشة قبل خديجة كفيلة أن تقضي على مستقبل ابنتها الكبرى، ورأت حيناً آخر أن الإلحاح في معارضة الأقدار موقف شديد الخطورة قد يعود على الفتاتين بأوخم العواقب، وإلى هذا ذاك - شق عليها أكثر أن توصل الباب في وجه عريس رائع كالضابط الشاب ليس من اليسير أن يهود الحظ بمثله مرة أخرى. ولكن ما عسى أن يكون موقف خديجة إذا تمت الموافقة وما عسى أن يكون حظها ومستقبلها؟!... لم تدبر لنفسها مستقراً، خاصة وأن ما طبعته عليه من سلبية شاملة جعلها أعجز من أن تجد حلاً موفقاً لمشكل من المشاكل، ولهذا وجدت راحة وهي تتحفظ للإلقاء العبد كله على عاتق السيد، بل وجدت هذه الراحة بالرغم مما يخامرها من خوف كلما أقدمت على مفاتحته بأمر ترتاب في حسن تقبله له، وقد انتظرت حتى فرغ من احتساء قهوته ثم قالت بصوتها المهموس الناطق بالأدب والخضوع:

- سيدي... حدثني فهمي قال إن صديقاً له رجاء أن يعرض عليك رغبته في خطبة عائشة...

سدت العينان الزرقاوان نظرة اهتمام ودهشة من فوق الكنية إلى حيث تجلس المرأة على شلثة غير بعيدة من قدميه، كأنما يقول لها: «كيف تحدثنني عن عائشة وأنا في انتظار أخبار عن خديجة بعد ما كان من نبأ الزائرات الثلاث»... ثم تساءل ليستوثق مما سمع:

- عائشة؟...

- نعم يا سيدي...

ونظر السيد أمامه في ضيق، ثم قال وكأنه يحدث نفسه:

- قررت من زمن بعيد أن هذا سابق لأوانه...

فقالت المرأة في عجلة أن يظن بها معارضة لرايه:

- إني أعلم رأيك يا سيدي، ولكن يجب أن أطلعك على كل شيء يدور بيننا...

تفحصها الرجل ببصر حاد كأنه يسر ما في قولها من صدق وإخلاص ولكن لمعت عيناه بخاطر طارئ حال بينه وبين تفحصها، فتساءل في اهتمام وقلق:

- ترى ألهذا علاقة بالسيدات اللاتي زرنك؟

- كيف يطلب هذا الضابط يد عائشة بالرغم من أن أحدًا لم يرها؟!

فقال بحرارة وقلبها يرتجف:

- قلت يا سيدي لعلهن سمعن عنها.

- ولكنه يعمل في قسم الجالية أي في حينًا، وكأنه من أهله.

فقالت الأم في تأثر شديد:

- إن عين رجل لم تقع على إحدى ابنتي منذ انقطاعها عن المدرسة في سن الطفولة.

فضرب كفًا بكف وصاح بها:

- مهلاً... مهلاً... هل حسبتني أشك في هذا يا ولية؟ لو شككت فيه ما أشبعني القتل...!

إنما تحدثت عما يجري في عقول بعض الناس ممن لا يعرفوننا، «إن عين رجل لم تقع على إحدى ابنتي»...

ما شاء الله، وهل كنت تريد أن تقع عين رجل عليها؟... يا لك من مجنونة مهذارة، إنني أردت ما

قد تشيع به السنة السفهاء من الناس، أجل... إنه ضابط الحي، سير في شوارعنا صباح مساء فلا يبعد

أن يقوم عند البعض ظن احتمال رؤيته لإحدى الفتاتين إذا علموا بزواجه منها... لا أحب، لا أريد أن

أعطي ابنتي لأحد ليشير الشبهات حول سمعتي، بل لن تنتقل ابنتي إلى بيت رجل إلا إذا ثبت لدي أن دافعه

الأول إلى الزواج منها هو رغبته الخاصة في مصاهرتي أنا... أنا... أنا... «لم تقع عين رجل على إحدى

ابنتي»... مبارك... مبارك يا ست أمينة.

وأصغت الأم دون أن تنبس بكلمة فساد الصمت الحجرية، ثم غص الرجل فأذن بها نوحه بأنه سيرفع في

ارتداء ملابسه استعدادًا للعودة إلى الدكان فبادرت بالقيام، ونزع السيد ذراعيه من الجلباب ورفع

ليخلعه، ولكنه توقف قبل أن تجاوز طاقة الجلباب ذقنه، وقال والجلباب مكمم فوق منكبه كلبدة الاسد:

- ألم يقدّر سي فهمي خطورة الطلب الذي تقدّم به صديقه؟...

(ثم عرّك رأسه في أسف)... يحسدني الناس على

أرادت أن تقول «لعلّ تقديم واحدة دون الأخرى وتكد لديهنّ ما سمعن عن جمال الصغرى» ولكنها

أمسكت خوفًا من مضاعفة غضبه من ناحية، وإشفافًا من الجهر بهذه الحقيقة التي ترتبط في ذهنها باللون قائمة

من القلق والأسى من ناحية أخرى، فأمسكت مكتفية بإتمام الحديث بإشارة من يدها كأنما تقول «الخ الخ»

وحجج السيد إليها بنظر حادّ حتّى غصّت الطرف استخذاء، وانقلب إلى حال من الامتعاض والحزن

كثفت الغضب في صدره فمضى يقرع أضلعه يروم متنفسًا أو ينشد صرخة، ثم صاح بصوت عاصف:

- عرفنا كلّ شيء، ها هو ذا عريس يتقدّم طالبًا يد ابنتك فاسمعيني رأيك؟...

شعرت بسؤاله يستدرجها إلى حفرة لا قرار لها فقالت بلا تردّد وهي تبسط راحتها في تسليم:

- رأيي رأيك يا سيدي ولا رأي لي غيره... فصاح في زجيرة:

- لو كان الأمر كما تقولين ما فاتحتني في الأمر. فقالت في لهجة ملهوجة وإشفاف:

- ما حدثك يا سيدي إلا لأخبرك عما جدّ في الأمر، لأنّ واجبي يقضي عليّ بأن أطلعك على كلّ ما

يتصل ببيتك من قريب أو بعيد... فهزّ رأسه في حقّ قائلاً:

- من يدري. إي والله من يدري... ما أنت إلا امرأة، وكلّ امرأة ناقصة عقل، والزواج خاصّة يفتنك

عن الرشاد، فلعلّك... فقاطعت بصوت متهدّج:

- سيدي أعوذ بالله مما تظنّ بي، إنّ خديجة ابنتي ومن لحمي ودمي كما هي ابنتك... وإنّ حظّها ليفتت

كبيدي، أمّا عائشة فما تزال في أوّل ربيعها ولن يضرها أن تنتظر حتّى يأخذ الله بيد شقيقتها.

فراح يمسح براحته على شاربه الغليظ بحركة عصبية حتّى توقّف فجأة، كأنما تذكر أمرًا وتساءل:

- هل علمت خديجة؟ نعم يا سيدي.

فلوّح بيده غاضبًا وهو يصيح:

نقار بريء، وإلى هذا وذاك كان إحساسه الباطني بأنه نصف أخ فقط يقعده عند مواجهة الخطير من شئون الأسرة الحساسة عن إبداء الرأي الخلق بجرح أحد من أفرادها... ولم تكن عائشة قد نسبت بكلمة ففسرت نفسها على الكلام قسراً أن يشي صمتها بآلامها التي صممت على إخفائها والتظاهر بعدم الاكتراث لها مهما سامها ذلك من عذاب وتوتر، بل أجمعت على إعلان الارتياح مجارة لجو البيت الذي لا يعترف للعواطف بحق من حقوقها... والذي تُدارى فيه أهواء القلوب بأفئدة الزهد والرياء، فقالت:

- لا يصح أن أتزوج قبل خديجة، والخير كل الخير فيما يرى أبي (ثم مبتسمة)... لماذا تتعجلون الزواج؟... ومن أذراكم بأننا سنحظى في بيوت الأزواج بحياة سعيدة كالتي نحظى بها في بيت أبينا؟ ولما تواصل الحديث كشأنه كل مساء حول المدفأة لم تمسك عن الاشتراك فيه بما وسعها قوله بالرغم من شروء ذهنها وتشتت نفسها، وكم في الواقع شابهت الدجاجة المذبوحة التي تندفع مبسوطة الجناحين - كأنما تنتفض حيوية ونشاطاً - على حين يتدفق الدم من عنقها مستصفاً آخر قطرات الحياة.

على أنها توقعت هذه النتيجة قبل عرض الأمر على أبيها، أن لا ثمة غامض داعب أحلامها كما يداعبنا الأمل في كسب النمرة الأولى في اليانصيب الكبير... وقد تطوَّعت أول الأمر للمعارضة في زواجها مدفوعة بأريحية الظفر والسعادة، وبالعطف على شقيقتها السيئة الحظ، الآن خمدت الأريحية ونضب العطف، فلم يبق إلا الامتناع والسخط والياس. ليس لها من الأمر شيء. هذه إرادة الأب ولا معقب لها، وما عليها إلا الإذعان والاستسلام، بل عليها أكثر من هذا الرضى والارتياح، لأنَّ محض الوجوم ذنب لا يغفر، أما الاحتجاج فإثم لا يطيقه أدها وحياتها. أفاق من سكرة السعادة الغامرة التي انتشت بها يوماً وليلة على يأس مظلم، ما اكتف الظلمة بجيء عقب النور الباهر، في تلك الحال لا يقتصر الألم على الظلمة الراهنة، ولكنَّه يضاعف مرَّات ومرَّات بالحسرة على

إنجاب ثلاثة ذكور، والحق أي لم أنجب إلا إنثاً... خمس إنث...

## ٢٦

على أثر مغادرة السيد للبيت ذاع رايه في خطبة عائشة، ومع أنه قوبل بتسليم عام - تسليم من لا حيلة لهم سوى التسليم - إلا أنه كان متباين الصدى في النفوس، أسف فهمي للخبر، وساءه أن تفقد عائشة زوجاً صالحاً مثل صديقه حسن إبراهيم، أجل كان قبل أن يبت أبوه في الأمر متردداً بين الترحم للعريس المتقدم وبين العطف على موقف خديجة الدقيق، فلما أن قضي الأمر واستراح جانبه المشفق على خديجة أسف جانبه الآخر الراغب في سعادة عائشة وأمكنه أن يجهر برأيه فقال:

- لا شك أن مستقبل خديجة يمتنا جميعاً ولكنني لا أوافق على الإصرار على حرمان عائشة من الفرص الحسنة التي تتاح لها، الحظ غيب لا يعلمه إلا الله، ولعلَّ الله يذخر للمتأخر حظاً أوفر من المتقدم.

ولعلَّ خديجة كانت أشدَّ الجميع شعوراً بالخرج لوقوفها للمرة الثانية عثرة في سبيل أختها، لم تكن تفكر في الخرج وهي تحت المطرقة، ولكن حين نما إليها رأي أبيها الحاسم، وتقهر الخطر الذي يتهدها، زایلها الخلق والألم وحلَّ محلَّها شعور أليم بالخلج والخرج، ومع أن حديث فهمي لم يترك في نفسها أثراً حسناً لأنها طمعت في أعماقها أن تجد من الجميع حامساً لرأي أبيها وأن تبقى هي الوحيدة المعارضة له، إلا أنها قالت معلقة عليه:

- صدق فهمي فيما قال، وكان هذا رأيي دائماً...

فعاد ياسين يؤكِّد رايه السابق قائلاً:

- الزواج مصير كل حي... لا تخافوا... ولا تجزعوا...

قنع هذه المرة بالكلام على ولعه بعائشة وشدة استيائه لما حاق بها من ظلم، ولكنَّه خاف أن يعلن رايه صراحة أن تسيء خديجة فهمه أو تظنَّ أن ثمة علاقة بين هذا الرأي وبين ما ينشب بينهما كثيراً من

وارتضى لها هذا العذاب كله، ومع أنها كانت متألّمة حائقة ساخطة إلّا أنّ ألمها وحقتها وسخطها وقفت عند شخص أبيها وارتدّت عنه خائبة ارتداد الوحش الهائج إذا اعترضه مروّضه الذي يحبه ويخافه، لم يسعها أن تحمل عليه، ولو في أعماق سريرتها، وظلّ قلبها على ولائه وحبّه فلم تضمّر له إلّا الإخلاص والوفاء كأنّه إله لا يجوز أن تقابل قضاءه إلّا بالتسليم والحب والوفاء.

شدّت الصغيرة ذاك المساء جبل اليأس حول عنقها الرقيق فأمن قلبها المتفتّح بأنّه نضب وأجذب إلى الأبد، وضاعف من توتّر أعصابها الدور الذي صمّمت على أن تمثّله بينهم، دور البشر واللامبالاة وما سامته نفسها من المشاركة في سمرهم حتّى ناءت هامتها الذهبيّة بحمله، وانقلبت الأصوات في أذنيها وقراء، فما جاء وقت الانسحاب إلى حجرة النوم حتّى مضت في إعياء كالمرضى، وهناك في أمن من ظلمة الحجرة تحبّهم وجهها لأوّل مرّة وعكس صورة صادقة من قلبها.

بيّد أنّه لحق بها رقيب - خديجة - أيقنت من بادئ الأمر أنّ تصنّعها لن يجدي معها شيئاً وقد تحامت في المجلس نظراتها أمّا الآن - إذ جلست إليها - فلا مهرب منها ولا مفرّ. وتوقّعت أن تهجم الفتاة على الموضوع بعنادها المعروف، وانتظرت تسلّل صوتها إلى أذنيها بين لحظة وأخرى، ورحّب قلبها بالحديث، لا لآله سبيعت رجاء جديداً، ولكن لأنّها أملت وراء الاعتذار والحرج اللذين ستعلنهما الفتاة صادقة حتّى شيئاً من العزاء. ولم يطل الانتظار فما لبث أن جاءها الصوت يشقّ الظلمة قائلاً:

- عائشة، إني حزينة آسفة، ولكن علم الله لا حيلة لي، وكم وددت لو تواتني الشجاعة فأرجو أبي أن يعدل عن رأيه.

وتساءلت عمّا وراء هذا الكلام من صدق أو رياء منفعة بثورة حقّ ثارت بها لدى سماع النبرات الأسيّفة مباشرة، ولكنّها اضطرّرت إلى العودة إلى استعادة النبرات التي ظلّت تتحدّث بها في مجلس أمّها فقالت:

- فيمّ الحزن والأسف، ما أخطأ أبي وما ظلم ولا

النور الذاهب وتساءل نفسها إذا كان ثمة نور أمكن أن يضيء مليّاً فلماذا لم يواصل الضياء، لماذا يخبو، لماذا خبا، فتكون حسرة جديدة تنضمّ إلى بقية الحسرات التي ينسجها الحزن حول قلبها منتزعاً إيّاها من ذكريات الماضي وواقع الحال وأحلام المستقبل، وعلى إغراقها في التفكير في هذا كله وحضوره - تبعاً لذلك - في شعورها فإنّها تعود تتساءل وكأنّها تتساءل لأوّل مرّة، وكأنّ الحقيقة المرّة ترتطم بشعورها للمرّة الأولى: هل حقّاً خبا النور؟!

هل تمرّقت الأسباب بينها وبين الشاب الذي ملأ قلبها وخيالها؟!

سؤال جديد رغم تكراره، وصدمة جديدة رغم نفاذها إلى العظام، ذلك أنّ الحسرة الكاوية لا تنفكّ يتنازعها اليأس المستقرّ في الأعماق والأمال المتطايرة في الهواء كلّما تطاير منها شعاع الأمل المتطاير، ثمّ تعود فتستقرّ في الأعماق، ثمّ تطفو مرّة أخرى، وثالثة، حتّى تأري إلى مستقرّها - وقد ودّعت النفس آخر آمالها - فلا تغادره إلى الأبد، انتهى كأن لم يكن، لا سبيل إليه أبداً، ما أهون الأمر عليهم، عاجلوه كما يعالجون أمور يومهم العادية مثل ماذا نأكل غداً، أو حلمت ليلة أمس حلماً غريباً، أو رائحة الياسمين تملأ جوّ السطح، كلمة من هنا... كلمة من هناك... واقتراح يعلن ورأي يسط، في هدوء وحلم غريبيين، ثمّ تعزية باسمة، وتشجيع كأنّه الدعابة. ثمّ تغبّر الحديث وتشتب، انتهى كلّ شيء، وأدرج في التاريخ الذي تنزل عليه الأسرة النسيان. أين قلبها من هذا كله؟... لا قلب لها، لا تصوّر وجوده أحد، لا وجود له في الواقع، ما أشدّ غربتها، ضائعة مفقودة، ليسوا منها وليست منهم، وحيدة منبوذة مقطوعة الصلات، ولكن كيف تنسى أنّ كلمة واحدة لو جاد بها لسان أبيها، كانت تكفي لتغيير وجه الدنيا وخلقها خلقاً جديداً؟... كلمة واحدة لا أكثر، لا تزيد عن لفظة «نعم» ثمّ تحدث المعجزة، لم تكن لتكلّفه إلّا عُشر ما تكلف من جهد في المناقشة الطويلة التي انتهت إلى الرفض. ولكن لم تجرّ بذلك مشيئته،

- أريد أن أعرف هل تتركان بيتنا إذا تزوجتما؟  
فصاحت به خديجة:  
- انتظر حتى يبيء الزواج!  
فتساءل في عناد:  
- ولكن ما هو الزواج؟  
- كيف أجيبك وأنا لم أتزوج... اذهب ونم الله لا  
يسيتك...  
- لن أذهب حتى أعرف.  
- يا حبيبي توكل على الله وفارقنا.  
قال بصوت حزين:  
- أريد أن أعرف هل تغادران البيت إذا تزوجتما؟  
فقال في ضجر:  
- نعم يا سيدي... ماذا تريد أيضًا؟  
فقال في جزع:  
- إذن لا تتزوجا... هذا ما أريد...  
- سمعًا وطاعة...  
فعاد يقول في احتجاج ثائر:  
- أنا لا أطيق أن تذهبا بعيدًا عنا وسادعو الله ألا  
يزوجكما...  
فهتفت:  
- من فمك لباب السما... عال... عال...  
ربنا يكرمك. تفضل فارقنا مع السلامة...

## ٢٧

سرى في البيت شعور بأنه يستقبل من حياته المرهقة  
بالتزم يوم راحة يستطيع - إذا شاء - أن يستروح فيها  
نسمة من الحرية البرية في أمن من الرقيب. فظن كمال  
أنه غدا في حل من أن يقطع اليوم كله في اللعب  
داخل البيت أو خارجه، وتساءلت خديجة وعائشة ألا  
يمكن أن تنسلا مساء إلى بيت مريم لقضاء ساعة في هو  
ومرح؟ لم تحيء هذه الراحة نتيجة لانقضاء شهور الشتاء  
الكالح وحلول بساتر الربيع ملوحة بالدفء واليشاشة،  
إذ ليس من شأن الربيع أن يهب هذه الأسرة حرية  
يحرمها إياها الشتاء، ولكنها جاءت نتيجة طبيعته لسفر  
السيد أحمد إلى بور سعيد في مهمة تجارية تدعوه كل

داعي للعجلة!  
- هذه ثاني مرة يؤجل زواجك بسبيي!  
- لست آسفة مطلقًا.  
فقال خديجة بلهجة ذات مغزى:  
- ولكن هذه المرة غير المرة الأولى.  
أدركت الفتاة ما وراء هذه الكلمات بسرعة البرق،  
فخفق قلبها خفقان اللوعة والحسرة، وبكى وذا وحبا،  
ذلك الحب الكامن يثار بالإشارة تجيئه من الخارج عفواً  
أو قصداً كما يثار الجرح أو الدمل باللمس والشك،  
وهمت بالكلام ولكنها أمسكت مضطرة لأن أنفاسها لم  
تسعهفا فخافت أن تفضحها نبراتهما، وعند ذاك تنهدت  
خديجة قائلة:  
- لهذا تجدينني في غاية الحزن والأسف، ولكن ربنا  
كريم، وما شدة إلا وبعدها الفرج، فعسى أن ينتظر  
ويصبر ويكون من نصيبك بالرغم مما بدا.  
وهتفت جوارحها: «يا ليت». أما لسانها فقال:  
- سيان عندي، الأمر أبسط مما تظنين.  
- أرجو أن يكون كذلك... إني جد حزينة وآسفة  
يا عائشة.

وفتح الباب فجأة وبدا شبح كمال في الشعاع  
الخافت الذي تسلل من فرجة الباب فصاحت به  
خديجة في ضيق:  
- لماذا جئت؟ وماذا تريد؟  
فقال الغلام بصوت يشي باحتجاجه على سوء  
مقابلتها له:  
- لا تمهيني... وأفسحي لي...  
ووثب إلى الفراش وركع بينهما، ثم دس يدا إلى  
واحدة ويداً إلى الأخرى، وراح يدغدغه ليهيئ  
لخديجة جو طيباً غير الجؤ الذي أنذرت به نبرة  
خديجة، ولكنها نترتا يديه، وقلتا بصوتين متتابعين:  
- أن لك أن تنام، فاذهب ونم.  
ولكنه هتف في غيظ:  
- لن أذهب حتى أعرف ما جئت أسأل عنه!  
- غم تسأل في هذه الساعة من الليل؟  
فقال مغزراً لهجته حتى تستجيبا له:

استجاب قلبها للنداء، ولا كيف تطلع بصرها إلى ما وراء الحدود المحرّمة، ولا كيف تراءت المغامرة ممكنة بل مغرية بل طاغية، أجل بدت زيارة الحسين عذراً قوياً - له صفة القداسة - للطفرة اليسارية التي نزعّت إليها إرادتها، ولكنها لم تكن وحدها التي تمخّضت عنها نفسها إذ لبّت دعاءها في الأعماق تيارات حبسية متلهّفة على الانطلاق كما تلبّي الغرائز المتعطّشة للقتال نداء الدعاء إلى الحرب بحجّة الدفاع عن الحرية والسلام. ولم تدر كيف تعلن عن استسلامها الخطير، ولكنها نظرت إلى ياسين وسألته بصوت متهذّب:

- زيارة الحسين منية قلبي وحياتي... ولكن...

أبوك؟

فضحك ياسين قائلاً:

- أبي في طريقه إلى بور سعيد ولن يعود قبل ضحى الغد، ويوسعك - زيادة في الحيلة - أن تستعيري ملاءة أم حنفي اللّف حتّى إذا اتّفق أن رآك أحد وأنت تغادرين البيت أو وأنت تعودين إليه ظنك زائرة... ورددت عينيها بين الأبناء في خجل وتيبّ كاتبها تنشد المزيد من التشجيع، فتحمّست خديجة وعائشة للاقتراح، وكأنّها تعبّان بحماسها عن رغبتها الحبيسة في الانطلاق، وفرحتها بزيارة مريم التي باتت - بعد هذا الانقلاب - في حكم المقرّر، وهتف كمال من أعماق قلبه:

- سأذهب معك يا نينة لأدلك على الطريق...

وحدها فهمي بنظرة عطف أثاره في نفسه ما طالعه في وجهها البريء من سرور حائر كسرور الطفل إذا مُني بلعبة جديدة فقال لها في تشجيع واستهانة:

- ألقى نظرة على الدنيا، لا عليك من هذا فإني أخاف أن تنسي المشي من طول لزومك للبيت!.. وفي فورة الحماس جرت خديجة إلى أم حنفي ثمّ عادت بملاءتها، وتزامحت الأصوات بالضحك والتعليق، فغدا اليوم عيداً سعيداً لا عهد لأحد به، واشترك الجميع - وهم لا يدرون - في الثورة على إرادة الأب الغائب. والتفت الستّ أمينة في الملاءة وأسدت البرقع الأسود على وجهها، ثمّ نظرت في المرأة فلم

عدّة أعوام إلى السفر يوماً أو بعض يوم، واتّفق أن سافر الرجل صباح الجمعة فجمعت العطلة الرسمية بين أفراد الأسرة... وتجاوبت رغباتهم الضمأى إلى الحرية في الجوّ الطليق الأمن الذي خلقه على غير انتظار رحيل الأب عن القاهرة كلّها، بيد أنّ الأمّ وقفت من رغبة الفتاتين وجماح الغلام وقفة المتردّد، لأنّها كانت تحرص على أن تواظب الأسرة على سيرتها المألوفة، وأن تلتزم - في غياب الأب - الحدود التي تلتزمها في حضوره خوفاً من مخالفته أكثر منها اقتناعاً بوجاهة شدّته وصرامته، ولكنها ما تدري إلّا وياسين يقول لها:

- لا تعارضي بالله... إنّنا نحيا حياة لا يحياها أحد من الناس، بل أريد أن أقول شيئاً جديداً... لماذا لا تروحين عن نفسك أنت؟!... ما رأيكم في هذا الاقتراح؟

وتطلّعت إليه الأعين في دهشة ولكنّ أحداً لم ينبس بكلمة، ولعلّهم - كأثمهم التي رمته بنظرة تأنيب - لم يحملوا قوله محمل الجدّ، إلّا أنّه استطرد قائلاً:

- لماذا تنظرين إليّ هكذا؟!... لم أخطئ في البخاري، وليس تمة جريمة والحمد لله، ما هو إلّا مشوار قصير ترجعين منه وقد ألقيت نظرة على جزء صغير من الحيّ الذي عشت فيه أربعين عاماً دون أن تري منه شيئاً...

فتنهّدت المرأة متمتمة:

- ساحبك الله...

فقهقه الشاب قائلاً:

- غلام يساعني؟... هل اقترفت ذنباً لا يُغتفر؟

والله لو كنت مكانك لمضيت من تويّ إلى سيّدنا الحسين ألا تسمعين؟... حبيبك الذي تهيّمين به على البعد وهو قريب، قومي إنّّه يدعوك إليه...

وخفق قلبها خفقاناً لاحت آثاره في احمرار وجهها فخفضت رأسها لتخفي تأثرها الشديد، انجذب قلبها إلى الدعاء بقوة تفجّرت في نفسها فجأة على غير انتظار لا منها ولا من أحد ممّن حولها حتّى ياسين نفسه، كأنّها زلزال قد وقع بأرض لم تعرف الزلازل، فلم تدّر كيف



تتمالك من أن تضحك طويلاً حتى اهتز جذعها، وارندى كمال بذلك وطربوشه وسبقها إلى فناء البيت، ولكنّها لم تتبعه، ركبها شعور الرهبة الذي يلازم المواقف الفاصلة، فرفعت عينها إلى فهمي وتساءلت: - ما رأيكم. هل أذهب حقاً؟ فصاح بها ياسين: - توكلّي على الله... وتقدّمت منها خديجة ووضعت يدها على منكبيها ودفعتهما برفق وهي تقول: - الفاتحة أمانة... ولم تزل تدفعها حتى أوصلتها إلى السلم، ثم رفعت يدها فنزلت المرأة والجميع في أعقابها... ووجدت أم حنفي في انتظارها، فألقت الخادم على سيّدها - أو بالأحرى على الملاة الملتقة بها - نظرة فاحصة، ثم هزّت رأسها هزّة انتقاديّة، وتقدّمت منها وأعدت لفّ الملاة حول جسمها وعلمتها كيف تمسك بطرفها في الوضع المناسب، فانقادت لها سيّدها التي كانت ترتدي الملاة اللّفت لأوّل مرّة، وعند ذاك ارتسمت ملامح قامتها وقدها في تفصيل وسيم، تخفيه عادة جلابيبها الفضفاضة، فألقت خديجة عليها نظرة إعجاب باسمه وغمزت بعينها لعائشة وأغرقتا في الضحك... ولاقت وهي تعبر عتبة الباب الخارجيّ إلى الطريق لحظة دقيقة جفّت لها ريقها فضاع السرور في نوبة القلق ووطأة الإحساس بالذنب، وتحركت في بطء وهي قابضة على يد كمال بحال عصبيّة، وبدت مشيتها مضطربة مغلخلة كأنّها عاجزة عن مبادئ المشي الأولى، إلى ما اعترأها من حياء شديد، وهي تتعرّض لأعين الناس الذين عرفتهم من عهد بعيد من وراء خصاص المشربيّة - عمّ حسنين الحلاق ودرويش بائع الفول والفولي اللبان ويومي الشربتلي وأبو سريع صاحب المقلّي - حتى توهّمت أنّهم سيعرفونها كما تعرفهم - أو لأنّها تعرفهم - ووجدت مشقة في تثبيت حقيقة بديهيّة في رأسها وهي أنّ عيّناً منهم لم تقع عليها مدى الحياة، وعلى تلك الحال عبرا الطريق إلى درب قرمز لأنّه وإن

يكن أقصر الطرق إلى جامع الحسين إلّا أنّه كان لا يمرّ - كطريق النحاسين - بدكان السيّد فضلاً عن خلّوه من الدكاكين وانقطاع المازّة عنه إلّا فيها ندر، وتوقّفت لحظة قبل أن توغل فيه، والتفتت صوب المشربيّة فرأت شبحي ابتيتها وراء ضلفة منها بينما رفعت ضلفة أخرى عن وجهي ياسين وفهمي الباسمين، فاستمدّت من منظرهما شجاعة استعانت بها على ارتباكها، ثم جدّت في السير - هي وغلماها - يقطعان الدرب المقفر في شيء من السطمأنيّة، لم يغب عنها القلق ولا الإحساس بالذنب ولكنّها تراجعا إلى حاشية الشعور الذي احتلّت مركزه عاطفة استطلاع حساسيّة نحو الدنيا التي يترأى لها درب من دروبها وميدان من ميادينها وغرائب من مبانيها وعديد من أناسها، ووجدت سروراً ساذجاً لمشاركة الأحياء في الحركة والانطلاق، سرور من قضت ربع قرن سجيّة الجدران ما عدا زيارات معدودات لأنّها في الخرنفش - بضع مرّات في العام - تقوم بها داخل حنطور بصحبة السيّد فلا تسعفها الشجاعة حتى لاستراق النظر إلى الطريق... وجعلت تسأل كمال عمّا يصادفها في طريقهما من مشاهد وأبنية وأماكن، والغلام يجذّنها في إسهاب مزهواً بدور المرشد الذي يقوم به، فهذا هو قبو قرمز المشهور الذي يجب - قبل الدخول فيه - تلاوة

الفاتحة، وقاية من المفاريت التي تسكنه، وهذا ميدان بيت القاضي بأشجاره الباسقة وكان يسمّيه ميدان «ذقن الباشا» مطلقاً عليه اسم الزهر الذي يعلو أشجاره، أو يسمّيه أحياناً أخرى «ميدان شنجرلي» ساحباً عليه اسم بائع الشيكولاتة التركيّ، أمّا هذا البناء الكبير فهو قسم الجماليّة، ومع أنّ الغلام لم يجد به ما يستحقّ اهتمامه سوى السيف المدلّي من وسط الديديبان إلّا أنّ الأم ألقت عليه نظرة مليئة بحبّ الاستطلاع الخلق بمكان يقيم به الرجل الذي سعى إلى طلب يد عائشة، حتى بلغا مدرسة خان جعفر الأولى، التي قضى بها عاماً قبل التحاقه بمدرسة خليل آغا الابتدائيّة، فأشار إلى شرفتها الأثريّة وهو يقول «في هذه الشرفة كان الشيخ مهدي يلصق وجوهنا بالجدار

ولم تزل تدفعها حتى أوصلتها إلى السلم، ثم رفعت يدها فنزلت المرأة والجميع في أعقابها... ووجدت أم حنفي في انتظارها، فألقت الخادم على سيّدها - أو بالأحرى على الملاة الملتقة بها - نظرة فاحصة، ثم هزّت رأسها هزّة انتقاديّة، وتقدّمت منها وأعدت لفّ الملاة حول جسمها وعلمتها كيف تمسك بطرفها في الوضع المناسب، فانقادت لها سيّدها التي كانت ترتدي الملاة اللّفت لأوّل مرّة، وعند ذاك ارتسمت ملامح قامتها وقدها في تفصيل وسيم، تخفيه عادة جلابيبها الفضفاضة، فألقت خديجة عليها نظرة إعجاب باسمه وغمزت بعينها لعائشة وأغرقتا في الضحك... ولاقت وهي تعبر عتبة الباب الخارجيّ إلى الطريق لحظة دقيقة جفّت لها ريقها فضاع السرور في نوبة القلق ووطأة الإحساس بالذنب، وتحركت في بطء وهي قابضة على يد كمال بحال عصبيّة، وبدت مشيتها مضطربة مغلخلة كأنّها عاجزة عن مبادئ المشي الأولى، إلى ما اعترأها من حياء شديد، وهي تتعرّض لأعين الناس الذين عرفتهم من عهد بعيد من وراء خصاص المشربيّة - عمّ حسنين الحلاق ودرويش بائع الفول والفولي اللبان ويومي الشربتلي وأبو سريع صاحب المقلّي - حتى توهّمت أنّهم سيعرفونها كما تعرفهم - أو لأنّها تعرفهم - ووجدت مشقة في تثبيت حقيقة بديهيّة في رأسها وهي أنّ عيّناً منهم لم تقع عليها مدى الحياة، وعلى تلك الحال عبرا الطريق إلى درب قرمز لأنّه وإن

لأقل هفوة، ويركلنا بحدائه خمسًا أو ستًا أو عشرًا كما يحلو له» ثم أومأ إلى دكان يقع تحت الشرفة مباشرة وقال بلهجة لم يغب عنها مغزاها وهو يتوقف عن السير «وهذا عمّ صادق بائع الحلوى»، ثم لم يقبل التزحزح عن موضعه حتى أخذ قرشًا وابتاع به ملبئًا أحمر، انعطفا بعد ذلك إلى طريق خان جعفر فلاح لهما عن بعد جانب من المنظر الخارجي للجامع الحسين، يتوسطه شبّاك عظيم الرقعة محلىّ بالزخارف العربيّة، وتعلوه فوق سور السطح شرفات مترابطة كأسنة الرماح فتساءلت والبشر يسجع في صدرها «سيدنا الحسين؟» ولما أجابها بالإيجاب مضت تقارن بين المنظر الذي تقترب منه - وقد حثت خطاها لأوّل مرّة منذ غادرت البيت - وبين الصورة التي خلقها خيالها له مستعينا في خلقه بنماذج من الجوامع التي في متناول بصرها كجامع قلاوون فوجدت الحقيقة دون الخيال لأنها كانت تنفخ في الصورة طولاً وعرضاً على قدر يناسب منزلة صاحب الجامع من نفسها بيد أنّ هذا الاختلاف بين الحقيقة والخيال لم يكن ليؤثر شيئاً في فرحة اللقاء التي ثملت بها جوانحها. ودارا حول الجامع حتى الباب الأخضر ودخلا في زحمة الدخالات. ولما وطئت قدما المرأة أرض المسجد شعرت بأنّ بدنها يدوب رقّة وعطفًا وحنانًا، وأنها تستحيل روحًا طائرًا يرفرف بجناحيه في سماء يسطع بجنابتها عرف النبوة والوحي فاغرورقت عيناها بالدمع الذي أسعفها للترويح عن جيشان صدرها وحرارة حبّها وإيمانها وأريحية امتنانها وفرحها، وراحت تلتهم بأعين شقيقة مستطلعة، جدرانه وسقفه وعمّده وأبسطته ونجفه ومنبره وعاريه، وإلى جانبها كان كمال ينظر إلى هذه الأشياء من ناحية أخرى خاصّة به ترى أنّ الجامع يكون مزارًا للناس في النهار والهزيع الأوّل من الليل، وبيتًا من بعد ذلك لصاحبه الشهيد يذهب فيه ويحيى مستعملًا ما فيه من أثاث على نحو ما يستعمل المالك ملكه، فيطوف بأرجائه ويصلي في المحراب ويرتقي المنبر ويعلو النوافذ ليشرف على حيّه المحيط، وكم تمنّى حالماً لو ينسونه في الجامع بعد أن يغلق أبوابه فيمكنه أن يلقي الحسين وجهًا لوجه وأن

يمضي في حضرته ليلة كاملة حتى الصباح، وتخيّل ما يخلق به أن يقدمه له عند اللقاء من أي الحب والخضوع وما يجدر به أن يلقيه عند قدميه من أمانيه ورغباته وما يرجوه بعد ذلك عنده من العطف والبركة، تخيّل نفسه وهو يقترب منه خافض الرأس فيسأله الشهيد برقة «من أنت؟» فيجيبه وهو يقبل يده «كمال أحمد عبد الجواد» ويسأله عن عمله فيقول له «تلميذ - ولن ينسى التنويه بتفوقه - بمدرسة خليل آغا» ويسأله عما جاء به في هذه الساعة من الليل، فيجيبه بأنّه حبّ آل البيت عامّة والحسين خاصّة، فيسم إليه عطفًا، ويدعوه إلى مرافقته في تجواله الليليّ، وعند ذاك يروح له بأمانيه جملة قائلًا: «اضمن لي أن ألعب كما أشاء داخل البيت وخارجه، وأن تبقى عائشة وخديجة في بيتنا إلى الأبد، وأن تغتفر طبع أبي، وأن تمتد في عمر أمي إلى ما لا نهاية، وأن آخذ من المصروف قدر كفايتي، وأن ندخل الجنة جميعًا بغير حساب»... هذا وتيار الزائرات الزاحف في بطن يدفعها رويدًا حتى وجدا نفسيهما في مشوى الضريح، طالما تلهّفت أشواقها على زيارة هذا المثوى كما تلهّفت على حلم يستحيل تحقيقه في هذه الدنيا، ها هي تقف بين أركانه، بل ها هي لصق جدران الضريح نفسه، تشرف نفسها عليه خلال الدموع، وتودّ لو تترثّ لتتملّى مذاق السعادة لولا شدّة ضغط الزحام، ومدّت يدها إلى الجدران الخشبيّة، واقتدى كمال بها، ثم قرأ الفاتحة، ومسحت بالجدران وقبّلتها ولسانها لا يني عن الدعاء والتوسّل، ودّت لو تقف طويلًا أو تجلس في ركن من الأركان لتعيد النظر والتأمّل ثم لتعيد الطواف، ولكن خادماً المسجد وقف للجميع بالمرصاد، لا يسمح لواحدة بالتلكؤ ويحثّ المتباطئات، ويلوح منذرًا بعصاه الطويلة، وهو يدعو الجميع إلى إتمام الزيارة قبل حلول ميعاد صلاة الجمعة، ارتوت من المنهل العذب ولكّنها لم تطفئ ظمأها، وهيئات أن يزوى لها ظمأ، لقد أهاج الطواف حينها فتضجّرت عيونها وسال وزخر ولن يزال يُشُدُّ المزيد من القرب والابتهاج، ولما وجدت نفسها مرغمة على مغادرة المسجد انتزعت نفسها منه

بكلام اختلطت أسئلته بأجوبته، وأفاق كمال من الصدمة بعض الشيء فراح يردّد عينيه بين أمّه الملقاة عند قدميه وبين الناس في حال ناطقة بالخوف والاستغاثة ثمّ ارتقى على ركبته إلى جانبها ووضع كفه على منكبيها وناداه بصوت تفتّت نبراته بحرارة الرجاء ولكنّها لم تستجب له فرفع رأسه مقلّباً عينيه في وجوه الناس، ثمّ صرخ باكياً في نحيب حارّ علا على الضجّة التي تكتنفه حتّى كاد يسكتها وتطوّع البعض لمواساته بكلمات لا معنى لها، وانحنى آخرون فوق أمّه مستطلعين بنظرات كمنت وراءها رغبتان: تشد إحداها السلامة للضحّة، وتنزع الأخرى - في حال اليأس من السلامة - إلى أن ترى الموت - ذلك الختم المؤجّل - وهو يترك باباً غير باهم، وينزع روحاً غير روحهم كأنهم يودّون أن يقوموا بشبه بروفا آمنة لأخطر دور قضي عليهم جميعاً أن يخنموا الحياة بلعبة، وصاح أحدهم قائلاً «صدمها باب السيّارة الأيسر في ظهرها»، وقال السائق الذي غادر السيّارة ووقف مختنقاً بجو الاتهام الذي يطبق عليه «لقد انحرفت عن الطوار بفتة فلم أستطع أن أتفادى من صدمها، ولكنّي قرملت بسرعة فجاءت الصدمة خفيفة، ولولا رعاية الله لدستها»... وجاء صوت من المحذّرين إليها قائلاً «ما زالت تننّس... أغمي عليها فقط»، وعاد السائق يقول وقد لمح الشرطيّ قادماً يترنّح سيفه بجنبه الأيسر «إنّها صدمة خفيفة... لم تتمكّن منها أبداً. إنّها بخير... بخير يا جماعة والله...» ثمّ انتصبت قامة أوّل رجل تقدّم لفحصها وقال كأنما يلقي خطبة «ابتعدوا ولا تمنعوا الهواء... فتحت عينيها... بخير... بخير والحمد لله...» كان يتكلّم بإبتهاج لا يخلو من زهو كأنه هو الذي ردّ إليها الحياة، ثمّ تحوّل إلى كمال الذي غلبه بكاء عصبيّ فاسترسل فيه في انفعال لم تجد معه مواساة المواسين، تحوّل إليه ورّبت على خذه بحنان وقال له «حسبك يا بني... أمك بخير... انتظر... هلمّ ساعدني على إقامتها...» ولكنّ كمال لم يمكّ عن البكاء حتّى رأى أمّه تتحرّك فبال نحوها ووضع يسراها على كتفه، وعاون الرجل

انتزاعاً، وأودعته قلبها وهي توليه ظهرها، ثمّ مضت حسرى يعلّنها شعورها بأنّها تودّعه الوداع الأخير، يبد أنّ ما طبعت عليه من قناعة واستسلام أخذها على ما استسلمت له من الحزن فردّها إلى تمليّ ما ظفرت به من سعادة طارت بها هواجس الفراق، ودعاها كمال إلى مشاهدة مدرسته فمضيا إليها في نهاية شارع الحسين. ووقفا عندها مليّاً. ولمّا أرادت الرجوع من حيث أتت أنذره ذكر العودة بانتها الرحلة السعيدة مع أمّه التي لم يحلم بمثلها من قبل فأبى التفریط فيها واستتات في الدفاع عنها فاقترح عليها أن يسيرا في السكّة الجديدة حتّى الغوريّة، ولكي يقضي على المقاومة التي بدت في صورة تفتّية باسمه من وراء البرقع حلّفها بالحسين فتنهّدت. واستسلمت ليد الصغرة، ومضيا يشقان طريقهما في زحمة شديدة وبين تيارات متلاطمة من السائرين في جميع الجهات ممّا لم تجد عشر معشاره في الطريق الهادئ الذي جاءت منه فعلاها الارتباك، وأخذت تفقد نفسها في اضطراب شامل، ولم تلبث أن شكت إليه ما تلقى من عناء وإعياء، ولكنّ تهاككه على إتمام الرحلة السعيدة جعله يصمّ أذنيه عن شكاتها ويشجّعها على مواصلة السير ويلهبها عن متاعبها بلفت نظرها إلى الدكاكين والعربات والمآزة، وهما يقتربان في بطء شديد صوب منعطف الغوريّة، وعند ذلك المنعطف لاح لناظريه دكان فطائر فسأل لعابه وثبت عيناه عليها لا تتحوّلان وراح يفكر في وسيلة لإقناع أمّه بالدخول إلى الدكان وإبتاع فطيرة، وبلغا الدكان وهو لا يزال يفكر، ولكنّه ما يدري إلّا وأمّه تفلت من يده فالتفت نحوها في ذهول ورعب دون أن يبدي حراكاً ولكنّه على ذهوله ورعبه رأى بجانب عينه - في نفس الوقت تقريباً - سيّارة تفرمل محدثة صوتاً عنيقاً ومرسلة وراءها ذيلًا من الدخان والغبار فكادت تدوس الملقاة لولا أن انحرفت عنها مقدار شبر، وتعالى صياح وحدثت ضجّة وهرع الناس إلى المكان من جميع نواحي الطريق كما تهرع الصبيّة إلى صفّارة الحاوي فضربوا حولها حلقة غليظة بدت أعياناً مستطلعة ورءوساً مشرّبة والسنة تهتف

الطريق حتى شهقت من الأعماق وخطبت كمال وكأنما تخاطب نفسها «يا ربّي ماذا حدث؟ ماذا رأيت يا كمال؟ كأنه حلم مفزع، خيّل إليّ أنّ أهوي من علّ إلى هاوية مظلمة، وأنّ الأرض تدور تحت قدمي، ثمّ غبت عن كلّ شيء حتى فتحت عينيّ على ذلك المنظر المخيف، ربّاه... هل أراد حقاً أن يذهب بي إلى القسم؟ يا لطيف يا ربّ... يا منجيّ يا ربّ، متى نبلغ بيتنا؟ بكيت كثيراً يا كمال لا دمت عينيك أبداً... جفّ عينيك بهذا المندبل حتى تغسل وجهك في البيت... آه».

وتوقّفت عن السير بعد أن أوشكا أن يطويا طريق الصاغة، واعتمدت بيدها على منكب الغلام وقد تقلّص وجهها، فرفع كمال وجهه إليها منزعجاً وسألها: - ماذا بك؟

فأغمضت عينها وهي تقول بصوت ضعيف: - إني تعب، تعب جداً، لا تكاد تحملني قدمائي، ادعُ أوّل عربة تصادفك يا كمال.

ونظر كمال فيها حوله فلم يرَ إلّا عربة كارو واقفة عند باب مستشفى قلاوون فنادى الحوذيّ الذي بادر إلى سوق العربة حتى وقف بها أمامها واقتربت الأمّ منها متكنة على كتف كمال ثمّ صعدت إلى سطحها بمعونته واعتماداً على منكب الحوذيّ الذي وطأه لها حتى تربّعت وهي تتنهد في إعياء شديد، وجلس كمال إلى جانبها ثمّ وثب الحوذيّ إلى المقدّمة ونخس الحمار بقبضة سوطه فمشى مشيته الوليدة والعربة تترنّج وراءه مقطقة... وتأوّت المرأة متممة «ما أشدّ ألمي، عظام كتفي تنفّكك» لهذا وكمال يرمقها في جزع وقلق... ومَرّت العربة في طريقها بـدكان السيّد دون أن يعراها التفاتاً، ومضى كمال يتطلّع إلى الأمام حتى لاحت لعينيه مشريّات البيت... لم يعد يذكر من الرحلة السعيدة إلّا نهايتها المحزنة...

فتحت أمّ حنفي الباب فأذهلها أن ترى سيّدتها مترتبة على عربة كارو، وقد ظنّت لأوّل وهلة أنّه ربّما

على إقامتها حتى أمكن بجهد شديد أن تقف بينها في إعياء وتحوّر وقد سقطت عنها الملاءة التي امتدّت بعض الأيدي لتعيدها إلى موضعها - بقدر الإمكان - حول كتفيها، ثمّ قدّم لها الفطائريّ الذي وقعت الحادثة أمام دكانه مقعداً فأقعدها عليه وجاءها بقدر من الماء فتجرّعت جرعة سال نصفها على عنقها وصدرها فمسحت بيدها على صدرها بحركة عكسيّة وهي تزفر زفرة عميقة. وجعلت تردّد أنفاساً مضطربة بصعوبة وتنظر في وجوه المحدقين بها في ذهول وهي تتساءل «ماذا جرى؟... ماذا جرى؟... ربّاه لماذا تبيكي يا كمال؟» وعند ذاك اقترب الشرطيّ منها وسألها «هل بك سوء يا سيّدتي؟ وهل تستطيعين السير إلى القسم؟» فصدم اسم «القسم» عقلها فرجّها من الأعماق وهتفت بفزع «لماذا أذهب إلى القسم؟... لا أذهب إلى القسم أبداً» فقال لها الشرطيّ «لقد صدمتك السيّارة فأوقعتك، فإذا كان بك سوء وجب أن تذهبي أنت وهذا السائق إلى القسم لتحرير المحضر» ولكنّها قالت وهي تلهث «كلّا... كلّا... لن أذهب... أنا بخير» فقال لها الشرطيّ «توكّدي ممّا تقولين، انهضي وامشي لئلا نرى إن كان أصابك سوء»، ولم تتردّد عن النهوض - مدفوعة بالفزع الذي أثاره ذكر القسم - فنهضت وأصلحت ملاعتها ثمّ سارت تحت الأعين المستطلعة وكمال إلى جانبها ينفض عن الملاءة ما علق بها من تراب، ثمّ قالت للشرطيّ وهي ترجو أن تنتهي هذه الحال المؤلمة بأيّ ثمن «إني بخير... (ثمّ مشيرة إلى السائق)... دعوه... لا شيء بي» لم تعد تشعر بخوّر فيما ركبها من خوف، هالها منظر الناس المحدقين بها، خاصّة الشرطيّ الذي يتقدّمهم، وارتعدت تحت وقع النظرات المصوّبة نحوها من كلّ مكان متحدّية باستهانة بالغة تاريخاً طويلاً من التسرّ والتخفيّ فتخالبت لعينها فوق هذا الجمع صورة السيّد وكأنّها تفرّس في وجهها بعينين باردتين متحرّجتين منذرتين بما لا تطيق تصوّره من الشرّ، فلم تألُ أن قبضت على يد الغلام وأنجّته به صوب الصاغة فلم يعترض سبيلها أحد وما غيّبها منعطف

يلجّ عليها من أسئلة إلى حين، وحملها الأم إلى حجرة الفتاتين وأجلسها على الكنب، ثمّ سألتها فهمي قلّقا معذّبًا:

- خبّرني عمّا بك يا نينة، أريد أن أعرف كلّ شيء.

ولكنّها مالت برأسها إلى السوراء ولم تنس بكلمة ريثما تستردّ أنفاسها على حين علا بكاء خديجة وعائشة وأمّ حنفي وكمال حتّى فقد فهمي أعصابه فثار بهنّ ونهرهنّ حتّى أمسكن، ثمّ جذب كمال إليه ليستجوبه عمّا يريد، كيف وقع الحادث، وماذا فعل الناس بالسائق، وهل أخذوكما إلى القسم، وكيف كان حال الأمّ في أثناء ذلك كلّ، هذا وكمال يبيحه على أسئلته بلا ترددّ وفي إسهاب، وعن أكثر التفاصيل، وكانت الأمّ تتابع الحديث بالرغم من وهنّها فلمّا سكّت الغلام استجمعت قواها وقالت:

- إني بخير يا فهمي، لا تزعج نفسك، كانوا يريدون أن أذهب إلى القسم فرفضت، ثمّ واصلت السير حتّى نهاية الصاغة وهناك خارت قواي فجأة، لا تنزعج، سأستردّ قواي بعد راحة قصيرة.

إلا أنّ ياسين عانى - إلى انزعاجه للحادث - حرجًا شديدًا لأنّه كان المسئول الأوّل عن الرحلة المشؤمة - بهذا وصفت بعد الحادث - فاقتراح عليهم أن يستدعوا طبيبًا، وغادر الحجرة لتنفيذ اقتراحه دون انتظار لمعرفة رأي الآخرين، وارتعدت الأمّ لذكر الطبيب كما ارتعدت من قبل لذكر القسم فرجّت فهمي أن يلحق بأخيه وأنّ يثنيه عن عزمه مؤكّدة له بأنّها ستبرأ دون حاجة إلى طبيب ولكنّ الشابّ رفض الإذعان لرجائها ميّئًا لها أوجه الفائدة المنوطة بمجيئه، وفي أثناء ذلك تعاونت الفتاتان على نزع الملاء عنها، وجاءتها أمّ حنفي بقدح ماء ثمّ أحاطوا بها جميعًا وهم يتفحصون بقلق وجهها الذي علاه الشحوب ويسألونها مرارًا وتكرارًا عمّا تجد، وهي تحاول ما استطاعت أن تتظاهر بالهدوء أو أن تقنع بأن تقول إذا ألجّ عليها الألم «ثمّة ألم خفيف في كتفي اليمنى» ثمّ تستدرك قائلة «ولكن لم يكن من داعٍ لاستدعاء طبيب»، والحق أنّها لم ترتج

يكون قد خطر لها أن تختم رحلتها بجولة في العربة على سبيل اللهو فلاححت على وجهها ابتسامة ولكن إلى لحظة قصيرة إذ ما لبثت أن رأت عيني كمال المحمرّتين من البكاء فارتدّت عينها إلى سيّدتها في انزعاج واستطاعت هذه المرّة أن تلمس ما تعاني من إعياء فنذّت عنها آهة وهرعت إلى العربة هاتفة «سقي، مالك، بُعد الشرّ عنك» فقال الحوذيّ «تعب بسيط إن شاء الله، عاونيني على إنزالها» وتلقّتها المرأة بين ذراعيها، وسارت بها إلى الداخل وتبعها كمال واجمًا محزونًا، وكانت خديجة وعائشة قد غادرتا المطبخ وانتظرتا في الفناء وكلتاها تفكّر في دعابة تلقى بها القادمين فما راعها إلا أن تطلع عليها أمّ حنفي من الدهليز الخارجيّ وهي تكاد تحمل الأمّ حملًا فنذّت عنها صرخة، وهرعتا إليها فزعتين وهما تهتفان:

- نينة... نينة... مالك!

وتعاونوا جميعًا على حملها، ولم تكفّ خديجة في أثناء ذلك عن أن تسأل كمال عمّا حدث حتّى اضطرّ الغلام إلى أن يغمغم في خوف بالغ:

- سيّارة!

- سيّارة!...

هكذا هتفت الفتاتان معًا مردّدتين الاسم الذي وقع من نفسيهما موقعًا مفرعًا فاق الاحتمال. فولولت خديجة هاتفة «يا خبر أسود... بُعد الشرّ عنك يا نينة» أمّا عائشة فانهقد لسانها وأفحمت في البكاء، ولم تكن الأمّ غائبة عن الوجود وإن كانت من الإعياء في نهاية فهمست على إعيائها رغبة في تسكين اضطرابها:

- إني بخير، لم يحدث سوء، ما بي إلاّ تعب.

وتناهت الضجّة إلى ياسين وفهمي فخرجا إلى رأس السلم، وأطلّا من فوق الدرابزين وما لبثا أن نزلا مهرولين منزعجين وهما يتساءلان عمّا حدث، ولم تملك خديجة إلاّ أن تشير إلى كمال ليحجب بنفسه مشفقة من ترديد الاسم الرهيب فأفجّه الشابان إلى الغلام الذي عاد يغمغم بحزن وارتباك:

- سيّارة!

ثمّ انتحب باكئيًا، وتحول الشابان عنه مؤجّلين ما

للخوف مطلقاً... والآن دعوني أعمل...  
ومهما يكن من أمر فقد استروحوا نسمة سلام بعد  
أن جفت منهم الحناجر، وبدا هذا الأثر واضحاً بين  
الجماعة خارج الحجرة فتمتت خديجة:  
- فلتحلّ بها بركة سيّدنا الحسين الذي ما خرجت  
إلا لزيارته.

وكأنما تذكّر كمال بقولها أمراً هاماً أنسيه طويلاً فقال  
بدهشة:

- كيف أمكن أن يقع لها هذا الحادث بعد تبرّكها  
بزيارة سيّدنا الحسين؟

ولكنّ أمّ حنفي قالت ببساطة:

- ومن أدرانا بما كان يحدث لها - والعياذ بالله - لو لم  
تتبرّك بزيارة سيّدها وسيّدنا؟

ولم تكن عائشة قد أفادت من أثر الصدمة فضاقل.  
صدرها بالحديث وهتفت برجاء حارّ:

- آه يا ربّي متى ينتهي كلّ شيء كأنه لم يكن!

وعادت خديجة تقول بأسف وحسرة:

- ما الذي ذهب بها إلى الغوريّة؟! لو رجعت بعد

الزيارة إلى البيت مباشرة لما حدث لها الذي حدث!

فدقّ قلب كمال خوفاً وانزعاجاً وتحمّساً ذنبه لعينيه  
جريمة نكراء ولكنّه حاول التملّص من الشبهات فقال  
بلهجة تنمّ عن لوم:

- أرادت أن تتمسّى في الطريق وعبتاً حاولت أن

أثنيها عن إرادتها.

فحدجته خديجة بنظرة اتهام وهمت بالردّ عليه ولكنّها  
أمسكت إشفاقاً وعطفاً على وجهه الذي علاه  
الاصفرار، ثمّ قالت لنفسها «حسبنا ما نحن فيه  
الآن».

وفتح الباب وغادر الطبيب الحجرة وهو يقول  
للشائين اللذين تبعاه:

- ينبغي أن أعودها يوماً بعد يوم حتى يجبر الكسر،  
وكما قلت لكم لا داعي للخوف مطلقاً.

واقترح الجميع الحجرة فراوا أمهم قاعدة في  
الفراش، مسندة الظهر إلى وسادة مكسورة وراءها ولم  
يكن ثمة تغيير إلا ارتفاع في كتف الفستان فوق منكبيها

لاستدعائه أبداً، لأنّها من ناحية لم تلقَ طبيباً قط - لا  
لحصانة صحتّها فحسب - ولكن لأنّها نجحت دائماً في  
مداواة ما يلمّ بها من توعك أو انحراف بطبّها الخاصّ  
فلم تؤمن بالطبّ الرسمي، إلى أنّه اقترن في ذهنها  
بالحوادث الخطيرة والخطوب الفادحة، ومن ناحية  
أخرى فقد شعرت بأنّ استدعاء الطبيب من شأنه أن  
يهوّل الأمر الذي تودّ له السرّ والطّي قبل عودة  
السيد... ولم تأل أن أفصحت لأبنائها من مخاوفها،  
ولكنّهم لم يهتموا في تلك اللحظة الدقيقة إلا بشيء  
واحد، هو سلامتها.

ولم يغب ياسين أكثر من ربع ساعة لأنّ عيادة  
الطبيب كانت في ميدان بيت القاضي، ثمّ عاد يتقدّم  
الرجل الذي أدخل على الأمّ حال حضوره، وأخلّيت  
الغرفة فلم يبق بها معه إلا ياسين وفهمي، وسأل  
الطبيب الأمّ عمّا تشكو فأشارت إلى كفها اليمنى وقالت  
وهي تزدد ريقها الذي جفّ من الخوف:

- أشعر هنا بالأم.

وعلى هذّي إشارتها، إلى ما حدّثه به ياسين في  
الطريق عن الحادث جملة، تقدّم لفحصها، وطال وقت  
الفحص في شعور الشائين المنتظرين في الداخل،  
وشعور المنتظرات وراء الباب مرهفات السمع خافقات  
القلب، وتحوّل الطبيب عن المصاغة إلى ياسين قائلاً:  
- كسر في الترقوة اليمنى، هذا كلّ ما هنالك.

وأحدثت «لفظة» الكسر ارتباغاً في الداخل  
والخارج، وعجب الجميع لقوله «هذا كلّ ما هنالك»  
كأنّ وراء الكسر شيئاً يتّسع له احتمالهم، على أنّهم  
وجدوا في ذات التعبير، واللهجة التي ألقى بها ما  
يغري بالطمأنينة فتساءل فهمي وهو بين الخوف  
والأمل:

- وهل هو شيء خطير؟

- كلّاً البتّة، سأعيد العظم إلى سابق موضعه وأشدّه  
ولكن عليها أن تنام بضع ليالٍ وهي قاعدة مسندة  
الظهر إلى وسادة لأنّه سيتعزّر عليها أن تنام على الظهر  
أو الجنين، وسوف يجبر الكسر وتعود إلى ما كانت عليه  
في ظرف أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر، لا داعي

- خصوصًا إذا قلنا له إنَّ خروجنا كان لزيارة سيِّدنا الحسين.

وردَّدت المرأة عينيها الحابيتين بين ياسين وفهمي وتساءلت:

- ما عسى أن أقول له؟

فقال ياسين الذي هاضته شدَّة مسؤوليته:

- أيَّ شيطان أضلَّني حين نصحت لك بالخروج، كلمة جرت على لساني وليَّتْها ما جَرَّتْ، ولكن هُكذا شاءت الأقدار لترمي بنا في هذا المازق الأليم، على أنِّي أقول لك بأننا سنجد ما نقوله، وإيَّا كان الأمر فلا ينبغي أن تشغلي فكرك بما سيكون. دعي الأمر لله، وحسبك ما قاسيت في يومك من آلام ومخاوف.

تكلَّم ياسين بحماس وعطف معًا، فصبَّ سخطه على نفسه، وعطف على الأمِّ عطف المتألِّم لحالها، ومع أنَّ كلامه لم يقدِّم ولم يؤخِّر إلَّا أنه رُوِّح عن شعوره الضيق بالحرج، وأفصح به في نفس الوقت عمَّا عساه يدور في عقول بعض - أو كل - من يقفون إلى جانبه فأغناهم عن الإفصاح عنه بأنفسهم إذ أنَّ التجربة علَّمته بأنَّه أحيانًا ما يكون السبيل خير السبيل للدفاع عن النفس هو الهجوم عليها وأنَّ الاعتراف بالذنب يغري بالصفح بقدر ما يغري الدفاع عنه بالغضب، وكان أخوف ما يخاف أن تنتهز خديجة الفرصة السانحة لتحمله جهازًا مسؤوليَّة ما أدَّت إليه مشورته وتتخذها سبيلًا إلى مهاجمته فسبقها إلى غرضها قاطعًا عليها الطريق، ولم يكذب ظنُّه فالحقُّ أنَّ خديجة كانت على وشك أن تطالبه - بصفته المسئول الأوَّل عمَّا وقع - بأنَّ يجد لها مخرجًا، فلمَّا ألقي خطابه استحييت من مهاجمته خاصَّة وأنها لا تتأججه عادة إلَّا على سبيل النكار لا الكراهة، بذلك تحسَّن موقفه بعض الشيء ولكنَّ الموقف العامُّ بقي على سوته، وظلَّ كذلك حتى خرجت خديجة من صحتها قائلة:

- لماذا لا ندَّعي أنَّها سقطت من السَّم؟

فتطلَّعت إليها أمُّها بوجه يتلهف على النجاة من أيَّ سبيل، وقلَّبت بين فهمي وياسين وقد لاحت بعينيها لمعة أمل، بيد أنَّ فهمي تساءل في حيرة:

الأيمن وثني بالرباط الذي تحته، فهرعوا إليها وهتفوا:  
- الحمد لله.

وكم اشتدَّ بها الألم والطبيب يعالج الكسر فأنت أنيًّا متواصلًا، ولولا ما طبعت عليه من حياء لصرخت عاليًا، ولكن زایلها الآن الألم، أو هُكذا بدا، وشعرت براحة نسبيَّة وسكينة، بيد أنَّ زوال حدَّة الألم مكَّنت لعقلها من استئناف نشاطه فاستطاعت أن تفكِّر في الموقف من مختلف نواحيه وما لبث أن ركبها الخوف فقالت متسائلة وهي تردَّد بينهم بصرا زائغًا:

- ما عسى أن أقول لأبيكم إذا رجع؟

اعترض هذا السؤال - ساخرًا متحدِّيًا - نسيات الطمأنينة التي سكنوا إليها كما تعترض الصخور الناتئة سبيل سفينة آمنة، على أنَّه لم يحنِّ مفاجئة لوعيهم، بل لعلَّه اندسَّ في زحمة المشاعر الأليمة التي ورت بها قلوبهم لدى ارتطامها بالخبر ولكنَّه ضاع في زحمتها فتأجَّل حسابه إلى حين، الآن قد عاد ليحتلَّ الصدارة من نفوسهم، فلم يجدوا مهربًا من مواجهته، ورأوا بحقَّ أنَّه أشدَّ عليهم وعلى أمِّهم من الإصابة التي خرجت منها وشيكة الشفاء. وشعرت الأم - للصمت الذي قوبل به سؤالها - بعزلة المذنب إذا تخلَّى عنه رفاقه حين انكشاف تهمة فتمتعت بنبرات شاكية:

- سيعلم حتمًا بالحادث، وسيعلم أكثر من هذا بخروجي الذي أدَّى إليه.

ومع أنَّ أمَّ حنفي لم تكن دون أفراد الأسرة قلقًا ولا أقلَّ إدراكًا لخطورة الموقف إلَّا أنَّها أرادت أن تقول كلمة طيبة، لتطيِّفًا للجوِّ من ناحية، ولأنَّها كانت تشعر من ناحية أخرى بأنَّ الواجب يقضي عليها - كخادم الأسرة القديمة الأمانة - بالآ تلوذ عند الشدائد بالصمت أن يظنَّ بها عدم اكتراث، فقالت وهي أدرى ببعده قولها عن الواقع:

- إذا علم سيِّدي بما وقع لك فلن يسعه إلَّا أن يتناسى هفوتك حامدًا الله على نجاتك.

وقوبل قولها بالإهمال الذي يستحقُّه عند قوم لا تخفى عليهم من حقيقة الموقف خافية، إلَّا أنَّ كمال آمن به، وقال متحمسًا وكأنَّه يتمَّ كلام أمَّ حنفي:

- والطبيب؟ ... سيعودها يومًا بعد يوم وسيقابل أبي بالضرورة.

ولكن ياسين أبي أن يغلق الباب الذي تسَلَّت منه نسمة أمل حرية بأن تستنقذه من آلامه وخوافه فقال: - تتفق مع الطبيب على ما ينبغي أن يقال لأبي؟

وتبدلت النظرات بين التصديق والتكذيب، ثم شاع في الوجوه البشر للإحساس المشترك بالنجاة وتغير الجو القائم إلى جو بهيج كما تبدو وسط السحاب المكفهر فجوة زرقاء على غير انتظار فتنداح بمعجزة عجيبة حتى تشمل القبة الساوية في دقائق معدودات ثم تضيء الشمس، قال ياسين وهو يتنهد: - نجونا والحمد لله.

فقالت خديجة بعد أن استعادت في الجو الجديد نشاطها المألوف:

- بل نجوت أنت يا صاحب المشورة...

فقهره ياسين حتى اهتز جسمه الضخم وقال:

- أجل نجوت من عقرب لسانك، طالما توقعت أن تمتد لي بين حين وآخر لتلسعني...

- ولكنّها هي التي أنقذتك، ومن أجل الورد يسقى العليق...

كادوا ينسون من فرحة النجاة أنّ أمهم طريحة الفراش مكسورة الترقوة، ولكنّها هي نفسها كادت أن تنسى...

## ٢٩

فتحت عينيها فوق بصرها على خديجة وعائشة جالستين على الفراش عند قدميها رانيتين إليها بعينين يتنازعهما الخوف والرجاء، فتنهّدت ثم التفت صوب النافذة فرأت خصاصها ينضح بضوء الضحى فتمتمت كالمستغربة:

- ثمت طويلاً...

فقالت عائشة:

- ساعات معدودة بعد أن طلع عليك الفجر دون أن يغمض لك جفن... يا لها من ليلة لن أنساها مهما امتد بي العمر...

وعاودتها ذكريات الليلة الماضية من الأرق والألم فنطقت عيناها بالثناء - لنفسها وللفتاتين اللتين سهرتا إلى جانبها طول الليل يبادلانا الألم والأرق - وتحركت شفتاها وهي تستعيد بالله بصوت غير مسموع ثم همست قائلة فيما يشبه الحياة:

- شدّ ما أتعبتكما!...

فقالت خديجة بلهجة توحى بالدعابة:

- تعبك راحة، ولكن إياك وأن تعودني إلى إرعابنا... (ثم بنبرات غلبها التأثر)... كيف هاجمك ذاك الألم المخيف؟!... لقد حسبتك استغرقت في النوم وأنت على أحسن حال، واستلقيت لأنام بدوري، وإذا بي أستيقظ على أنينك، ثم لم تمسكي عن آه... آه حتى مطلع الفجر...

وتهلّل وجه عائشة بالتفاؤل وهي تقول:

- على أيّ حال أبشري، لقد أخبرت فهمي عن حالك حين سألني عن صحتك في الصباح فقال لي إنّ الألم الذي انتابك دليل على أنّ العظم المكسور كان أخذًا في الالتئام...

وجذبها اسم فهمي من لجة أفكارها فتساءلت:

- ذهبوا بسلامة الله؟

فقالت خديجة:

- طبعًا، كانوا يودّون عبادتك ليطمئنوا عليك بأنفسهم ولكنّي لم أسمح لأحد بأن يوقظك من النوم الذي لم تدخليه حتى شبيبتنا...

فتنهّدت الأم في استسلام:

- الحمد لله على كلّ حال، ربّنا يجعل العواقب سليمة... في أيّ وقت نحن الآن؟...

فقالت خديجة:

- كلّها ساعة ويؤذن الظهر...

ودعاها تأخّر الوقت إلى أن تخفض عينيها متفكّرة ثم رفعتها فإذا بهما تعكسان نظرة قلق، وتمتمت:

- لعنّه الآن في الطريق إلى البيت...

وأدركتنا من تعني، ومع أنّها شعرتا بدبيب الخوف في قلبيهما إلّا أنّ عائشة قالت بثقة:

- أهلاً به وسهلاً، لا داعي للقلق، اتّفقنا على ما



كلّ سلاح - كأسلوب من أساليب الشجاعة السلبية، واستجمعت فكرها لتتذكر ما يجب قوله بيد أن الشك في سلامة تدبيرها لم يزيلها قط وكَمَن في أعماق شعورها معلناً عن ذاته بحال من القلق والتوتر وتبدد الثقة وجاءها وقع طرف عصاه على أرض الصالة فغمغمت «رحمك يا ربّ وعونك» ثمّ تطلّع بصرها إلى الباب حتّى اعترضه جسمه الطويل العريض، ورأته وهو يدخل مقترّباً ملقياً عليها نظرة متفحّصة من عينيه الواسعتين حتّى وقف في منتصف الحجرة وهو يتساءل بصوت خائئ رقيقاً على غير عادته:

- مالك؟...

ف قالت وهي تغضّ بصرها:

- حمداً لله على سلامتك يا سيّدي، بخير ما دمت

بخير...

- لكنّ أمّ حنفي قالت لي إنّك مريضة...

فأشارت بيسراها إلى كتفها وقالت:

- أصيب كتفي يا سيّدي لا أراك الله سوءاً...

فتساءل الرجل وهو يتفرّس في كتفها باهتمام وقلق:

- ماذا أصابه؟

حمّ الأمر، وجاءت الدقيقة الفاصلة، ما عليها إلّا أن تتكلّم، أن تنطق بكذبة النجاة، فتمرّ الأزمة بسلام وتستزيد من العطف المتاح، ورفعت عينها وهي تتوتّب، فالتقت عينها بعينه، أو بالأحرى عينها في عينه، فاشتدّ وجيب قلبها، وتناوب بلا رحمة، هناك تبخر ما جمعه في رأسها من رأي، وانتثر ما كتلته في إرادتها من عزم، ورمشت عينها في اضطراب وذهول، ثمّ رنت إليه بطرف حائر دون أن تنبس بكلمة، وعجب السيّد لاضطرابها فتعجّلها متسائلاً:

- ماذا حدث يا أمينة؟!

لا تدري ماذا تقول، كأنه ليس لديها ما تقوله ولكن بات في حكم اليقين أنّه لم يعد بوسعها أن تكذب، أفلتت الفرصة دون أن تدري كيف، ولو أنّها أعادت المحاولة لخرجت من صدرها مبتورة مكشوفة، كانت كمن يسير وهو منوّم تنوّمًا مغناطيسيًا على سبيل إذا دُعي إلى إعادة مخاطرته وهو صالح، وكلّما مرّت الثواني

ينبغي أن يقال وانتهى الأمر...

ولكنّ اقتراب عودته أشاع في نفسها المهزولة القلق فتساءلت:

- ثرى هل يمكن التسرّ على ما وقع؟

ف قالت خديجة بصوت ارتفعت حدّته بنسبة قلقها المتزايد:

- ولم لا؟... سنخبره بما تمّ الاتفاق عليه فيمّر الأمر بسلام...

تمنّت في تلك الساعة لو بقي ياسين وفهمي إلى جانبها ليشجّعها، تقول خديجة سنخبره بما تمّ الاتفاق عليه فيمّر الأمر بسلام، ولكن هل يظّل ما وقع سرّاً مغلقاً إلى الأبد... ألا تجد الحقيقة فرجة تنفذ منها إلى الرجل؟... كم تخاف الكذب بقدر ما تخاف الحقيقة، ولا تدري أيّ مصير يترصّص بها... ورددت عينها بعطف بين الفتاتين وفتحت فاهما لتتكلّم حين دخلت أمّ حنفي مهرولة وهي تقول بصوت مهموس كأنها تخاف أن يسمع خارج الحجرة:

- سيّدي جاء يا سيّتي...

وخفقت قلوبهنّ في اضطراب. وجلت الفتاتان عن الفراش في وثبة واحدة ثمّ وقفنا حيال أمهما يتبادلن جميعاً النظر صامتات حتّى غمغمت الأمّ:

- لا تتكلّما أنتما فإني أخاف عليكم مغبة غداً، اتركا لي القول والله ألتسّان...

وساد صمت مشحون بالتوتر كالصمت الذي يركب أطفالاً في الظلام إذا قرع أذانهم وقع أقدام من يظنّونهم عفاريت يجوسون في الخارج، حتّى ترامى إليهنّ وقع أقدام السيّد على السلم وهي تقترب فأزاحت الأمّ كابوس الصمت بمشقة وغمغمت...

- إذا تركناه صعد إلى حجرته لم يجد أحدًا!؟...

ثمّ التفتت صوب أمّ حنفي قائلة:

- أخبريه بأنني هنا، مريضة، ولا تزيدني...

وازدردت ريقها الجاف، أمّا الفتاتان فمرقتا من الحجرة مستبقتين وغادرتاهما وحيدة، ووجدت نفسها وكأنّها في عزلة عن العالم كلّ فاستسلمت للمقادير، وكثيراً ما يبدو هذا الاستسلام في سلوكها - الأعزل من

جوه المنقبض نُذِر الخوف والوعيد، وتَحَيَّرت من أمره لا تدري عن أيّ قضاء يتمخض ولا إلى أيّ مصير يقذف بها، حتّى جاءها صوته وهو يقول في هدوء غريب:

- وماذا قال الطبيب؟ ... هل ثمة خطر على الكسر؟!

فالتفت رأسها صوبه بذهول... أجل توقّعت كلّ شيء إلّا أن يجود بهذا القول اللطيف، ولولا رهبة الموقف لاستعادته لتوكّد من صحّة ما سمعت، وغلبها التأثير فطفرت من عينيها دمعان غزيران فشَدّت على شفّتيها أن تفحم في البكاء، ثم غمغمت في ذلّة وانكسار:

- قال الطبيب إنّه لا داعي للخوف مطلقاً، نجاك الله من كلّ سوء يا سيّدي... ووقف الرجل بعض الوقت وهو يقاوم رغبة تدعوه إلى المزيد من السؤال حتّى تغلّب عليها فتحولّ عن موقفه ليغادر الحجرة وهو يقول:

- الزمي فراشك حتّى يأخذ الله بيدك...

## ٣٠

هرعت خديجة وعائشة إلى الحجرة بعد ذهاب والدهما، ووقفنا حيال أمّهما تنظران إليها بعينين مستطلعتين تنطق نظراتهما بالاهتمام والقلق، ثم لاحظنا احمرار عينيها من أثر البكاء، فوجئنا وتساءلت خديجة وقد استشعر قلبها الخوف والتشاؤم:

- خير إن شاء الله؟...

فلم تعدّ الأمّ أن قالت باقتضاب وهي ترمش بعينيها ارتباكاً:

- اعترفت له بالحقيقة...

- الحقيقة!...

فقالت باستسلام:

- لم يسعني إلّا الاعتراف، فما كان من الممكن أن يخفى الأمر عليه إلى الأبد، وحسناً فعلت...

فدقّت خديجة صدرها بيدها وهتفت:

- يا نهارنا الأسود...

على حين بهتت عائشة فحملت في وجه أمّها دون

غاضت في الارتباك والهزيمة حتّى أشقّت على اليأس...

- لماذا لا تتكلّمين؟...

ها هي لهجته بدأت تنم عن نفاذ صبر ولا يبعد أن تقعق قريباً بالغضب، ربّاه لشدّ ما هي في حاجة إلى العون، أيّ شيطان أغواها بتلك الخرجة المشثومة...

- عجباً ألا تريدان أن تتكلّمي؟...

وبات السكوت فوق طاقتها فتمتعت بصوت متهذّج مدفوعة باليأس والقهر:

- أخطأت خطأ كبيراً يا سيّدي... صدمتني سيّارة...

وأتسعت عينا السيّد دهشة ولاح فيها انزعاج مقرون بالإنكار... وكأنّه بات يشكّ في صحّة قواها العقلية، ولم تعد المرأة تحتل التردّد وصمّمت على أن تبوح باعترافها كاملاً مهما تكن العواقب، كمن يقدم - مغامراً بحياته - على إجراء عملية جراحية خطيرة ليتخلص من آلام داء لا يقبل له به، وتضاعف عند ذاك شعورها بفداحة الذنب وخطورة الاعتراف فدمعت عيناها وقالت بصوت لم تُعِنْ بل إخفاء نبراته الباكية إمّا لأنّه غلبها على صوتهما أو لأنّها أرادت أن تبدّل محاولة بائسة لاستدرا العطف...

- ظننت أن سيّدنا الحسين يدعوني إلى زيارته فلبّيت... ذهبت للزيارة... وفي طريق العودة صدمتني سيّارة... قضاء الله يا سيّدي... ولقد نهضت من سقطني دون معاونة أحد (قالت العبارة الأخيرة بوضوح) ولم أشعر بادئ الأمر بأيّ ألم فحسبني بخير وواصلت السير حتّى عدت إلى البيت، وهنا تحرّك الألم فأحضروا لي الطبيب ففحص كتفي وقرّر أنّ به كسراً ووعد بأن يعودني يوماً بعد يوم حتّى يجبر الكسر، لقد أخطأت خطأ كبيراً يا سيّدي وجوزيت عليه بما أستحقّ... والله غفور رحيم...

أنصت السيّد إليها صامتاً جامداً، لم تتحوّل عنها عيناها، ولم يتبدّد في وجهه أثر غمّا يعتلج في صدره على حين نكست هي رأسها في تخشع بحال من ينتظر النطق بالحكم، وطال الصمت، واشتدّ، وشاعت في

أن تنبس بكلمة، ولكن الأم ابتسمت فيما يشبه الزهو المقرون بالحياء، وتورد وجهها الشاحب وهي تستعيد ذكرى العطف الذي شملها به حين لم تكن تتوقع منه إلا غضباً كاسحاً يعصف بها ويستقبلها... أجل شعرت بزهو وحياء وهي تنهتاً للحديث عن عطف السيد عليها في محنتها وكيف نسي غضبه فيما اعتراه من تأثر وإشفاق، ثم غمغمت بصوت لا يكاد يسمع:

- كان بي رحيماً أطل الله عمره، أنصت إلى قصتي صامتاً، ثم سألني عن رأي الطبيب في خطورة الكسر وغادري وهو يشير عليّ أن ألزم الفراش حتى يأخذ الله بيدي.

وتبادلت الفتاتان النظرات في دهشة وعدم تصديق ولكن زایلها الخوف سريعاً فتهتدتا في ارتياح عميق وأضاء وجهاهما بالبشر، وهفت خديجة:

- أرايت بركة الحسين؟

وقالت عائشة بخيلاء:

- لكل شيء حدود حتى غضب بابا، ما كان يسعه أن يغضب وهو يراها على هذه الحال، الآن عرفنا قيمتها عنده... (ثم غاطبة أمها في دعابة)... يا لك من أم محظوظة، هنيئاً لك التكريم والعطف!

فعارد وجه الأم التورد وقالت بتلعثم وحياء:

- أطل الله عمره... (ثم متنهدة) والحمد لله على النجاة!

وتذكرت أمراً فالتفتت إلى خديجة وقالت باهتمام:

- يجب أن تلحقي به لأنه سيحتاج إلى خدمتك حتى... .

وشعرت الفتاة - لما يركبها في محضر أبيها من الارتباك والاضطراب - كأنها وقعت في شرك، فقالت محتدة:

- ولماذا لا تذهب عائشة؟

ولكن الأم قالت في عتاب:

- أنت أقدر على خدمته، لا تتلكني يا شابة إذ زُيما يكون في حاجة إليك الآن... .

وكانت تعلم أن احتجاجها لن يغني عنها شيئاً كما لا يغني عنها عادة كَلِّها دعيت إلى أداء واجب ترى الأم

أنها أقدر عليه من أختها، ولكنّها أصرت على إعلانه كما تصرّ عادة على إعلانه في أمثاله من المواقف، مدفوعة بأعصابها السريعة الالتهاب، وجرياً مع نزعتها العدوانيّة التي تجد من لسانها أطوع أداة وأحدها، ثم لتحمل أمها على إعادة القول بأنّها «أقدر على كيت وكيت من عائشة» كإقرار من أمها وإنذار لشقيقتها وعزاء لها هي نفسها، والحق أنّه لو حدث أن عهدت بواجب من هذه الواجبات «الخطيرة» لعائشة دونها لثارت ثورة أشدّ ولحالت بينها وبينه، ما دامت تجد - في أعماق قلبها - أن القيام بهذه الواجبات حق من حقوقها وامتناز لها كامراً جذيرة بالمكانة التالية لأُمها في البيت، ولكنّها أبت في الوقت نفسه أن تعترف جهاراً بأنّها تمارس - بالقيام بها - حقاً من حقوقها ولكنّ واجباً ثقيلاً تقبله مضطرة، حتى تُدعى إليه - إذا دُعيت - في حرج من الداعي، ولتحتجّ عليه - إذا احتجّت - في غضب يروح عن نفسها، ولتسمع بالمناسبة التعليق الذي تودّ، ثمّ ليحسب لها بعد ذلك كلّه جيلاً تستحقّ من أجله الشكر... . ولذلك غادرت الحجرة وهي تقول:

- في كلّ مازق تنادين خديجة، كأنه لا يوجد أمامك غير خديجة، ماذا تصنعين لو لم أكن موجودة!

ولكنّ خيلاءها تحلّى عنها بمجرد مغادرتها للحجرة وحلّت محلّه رهبة واضطراب فجبت كيف يثأر لها أن تمثل بين يدي الرجل، وكيف تقوم على خدمته، وماذا تلقى منه إذا تلجلجت أو أخطأت! على أنّ السيد كان قد خلع ملابسه وارتدى جلبابه بنفسه، ولها وقفت بالباب تسأله عمّا هو في حاجة إليه أمرها بأن تصنع له فنجان قهوة، فبادرت تُعدها ثمّ قدّمتها له خافضة العينين خفيفة الخطى من الخوف والحياء... . ورجعت إلى الصالة فمكثت بها لتكون رهن إشارته إذا دعاها فلم يفارقها إحساس الرهبة حتى تساءلت كيف يا ترى يمكنها أن تواصل خدمته طوال الساعات التي يقضيها في البيت يوماً بعد يوم حتى تنقضي الأسابيع الثلاثة!... . وبدا لها الأمر شائعاً حقاً وأدركت لأول مرة خطورة الفراغ الذي تسهّل أمها في البيت فدعت لها بالشفاء، حباً فيها من ناحية ورحمة بنفسها من

أن تنبس بكلمة، ولكن الأم ابتسمت فيما يشبه الزهو المقرون بالحياء، وتورد وجهها الشاحب وهي تستعيد ذكرى العطف الذي شملها به حين لم تكن تتوقع منه إلا غضباً كاسحاً يعصف بها ويستقبلها... أجل شعرت بزهو وحياء وهي تنهتاً للحديث عن عطف السيد عليها في محنتها وكيف نسي غضبه فيما اعتراه من تأثر وإشفاق، ثم غمغمت بصوت لا يكاد يسمع:

- كان بي رحيماً أطل الله عمره، أنصت إلى قصتي صامتاً، ثم سألني عن رأي الطبيب في خطورة الكسر وغادري وهو يشير عليّ أن ألزم الفراش حتى يأخذ الله بيدي.

وتبادلت الفتاتان النظرات في دهشة وعدم تصديق ولكن زایلها الخوف سريعاً فتهتدتا في ارتياح عميق وأضاء وجهاهما بالبشر، وهفت خديجة:

- أرايت بركة الحسين؟

وقالت عائشة بخيلاء:

- لكل شيء حدود حتى غضب بابا، ما كان يسعه أن يغضب وهو يراها على هذه الحال، الآن عرفنا قيمتها عنده... (ثم غاطبة أمها في دعابة)... يا لك من أم محظوظة، هنيئاً لك التكريم والعطف!

فعارد وجه الأم التورد وقالت بتلعثم وحياء:

- أطل الله عمره... (ثم متنهدة) والحمد لله على النجاة!

وتذكرت أمراً فالتفتت إلى خديجة وقالت باهتمام:

- يجب أن تلحقي به لأنه سيحتاج إلى خدمتك حتى... .

وشعرت الفتاة - لما يركبها في محضر أبيها من الارتباك والاضطراب - كأنها وقعت في شرك، فقالت محتدة:

- ولماذا لا تذهب عائشة؟

ولكن الأم قالت في عتاب:

- أنت أقدر على خدمته، لا تتلكني يا شابة إذ زُيما يكون في حاجة إليك الآن... .

وكانت تعلم أن احتجاجها لن يغني عنها شيئاً كما لا يغني عنها عادة كَلِّها دعيت إلى أداء واجب ترى الأم

ناحية أخرى...

السؤال وكأنه لم يعبا بسماع الجواب الذي استنتجه مقدّمًا، أو لعله أراد أن يسجل عليها الخطأ بلا اكترات بإقرارهما به... ولم يزد بعد ذلك على أن يشير إلى باب الحجرة آذنا لها بالانصراف، وعندما مضيا إلى الخارج سمعاه يقول غاطبًا نفسه:

- ما دام الله لم يرزقني رجالاً فليهبني الصبر.

ومع أن الظواهر دلّت على أن الحادث قد هزّ نفس السيّد حتّى غير المألوف من سلوكه تغيّرًا دهش له الجميع إلا أنه لم يستطع أن يثني إرادته عن قضاء سهرته الليلية التقليدية... فما جاء المساء حتّى ارتدى ملابسه وغادر حجرته ناشراً بين يديه شذاً طيّباً، إلا أنه مرّ في طريقه إلى الخارج بحجرة الأم وسأل عنها فدعت له طويلاً ممّنة شاكرة... لم ترّ في ذهابه إلى سهرته - وهي طريحة الفراش - تحافياً للعطف، ولعلّها وجدت في مروّره بها وسؤاله عنها تكريماً فاق ما كانت تنتظر، بل أليس مجرد امتناعه عن صبّ غضبه عليها ممّة لم تكن تحلم بها؟... وكان الإخوة - قبل مبارحته حجرته - قد تساءلوا «تُرى هل يعدل الليلة عن سهرته؟» ولكنّ الأم أجابت قائلة «ولماذا يبقى بعد أن علم أنّ الحال مطمئنة؟» ولعلّها تمثّت فيما بينها وبين نفسها لو يتمّ نعمته عليها فيعدل عن سهرته كما يليق بزواج أصيبت زوجه بما أصيبت هي به، ولكنّها كانت أدري بطبعه فسبقته بانتهال العذر له حتّى إذا انطلق إلى سهرته كما تتوّقع أمكنها - مداراة لموقفها - أن تسوّغ انطلاقه بالعذر الذي انتحلت لا بقلّة الاكترات. ولكنّ خديجة قالت «كيف يطيق السهر وهو يراك على هذه الحال؟» فأجابها ياسين «لا عليه إذا فعل ما دام قد اطمأنّ عليها، حزن الرجال غير حزن النساء، وذهاب الرجل إلى سهرته لا يتنافى مع حزنه، بل لعلّ التفرّج عن نفسه واجب عليه ليتسنى له مواصلة حياته الشاقّة. ولم يكن ياسين يدافع عن أبيه بقدر ما كان يدافع عن رغبته في الانطلاق التي بدأت تتحرّك في أعماقه، إلا أنّ مكروه لم يجرّ على خديجة فسألته: «هل تطيق أنت مثلاً أن تسهر في قهوتك الليلة؟» فبادرها قائلاً وهو يلحنها في سرّه:

ومن سوء حظّها أنّ السيّد شعر برغبة في الراحة عقب تعب السفر فلم يذهب إلى الدكان كما كانت تأمل، واضطّرت تبعاً لذلك أن تبقى في الصالة كالسجينة، وفي أثناء ذلك صعدت عائشة إلى الدور الأعلى وتسلّلت إلى الصالة حيث تجلس أختها، دون أن تحدث صوتاً لترى نفسها وتغمز لها بعينها على سبيل التنديد بحالها ثمّ تعود إلى أمّها تاركة إياها وهي تغلي من الغيظ إذ كان ممّا يحقّقها أشدّ الحقن أن يعابها أحد بالمزاج وإن لدّها لها هي أن تعابث الجميع، ولم تستردّ حرّيّتها - إلى حين طبعاً - إلا عندما أسلم السيّد جنبه للنوم فطارت إلى أمّها وأنشأت تحدّثها عمّا قدّمت لأبيها من خدمات حقيقيّة ووهيّة وتصف لها ما قرأت في عييه من آي العطف والتقدير لخدماتها... ولم تنس أن تعرّج على عائشة فتنهال عليها بالزجر والتوبيخ على ما بدا منها من تصرّف صبيانيّ، ثمّ عادت إلى الأب بعد استيقاظه فقدّمت له الغداء، ولما فرغ الرجل من غدائه جلس يراجع بعض الأوراق وقتاً غير قصير ثمّ دعاها إليه وطلب إليها أن تبعث له ياسين وفهمي بمجرّد رجوعهما إلى البيت...

وقلقت الأم للطلب وخافت أن يكون قد حزّ في نفس الرجل غضب مكظوم وأنّه يروم الآن - في الشائين - متنقّساً عن غضبه، ولما جاء ياسين وفهمي وعلم بما كان، ثمّ بلغا أمر أبيهما بمقابلته، دار بخاطرهما ما دار بخاطر المرأة من قبل وذهبا إلى حجرته وهما يتوجّسان خيفة، ولكنّ الرجل خيّب ظنونهما فقد لاقاهما بهدوء غير معهود وسألها عن الحادث وظروفه وتقرير الطبيب. فحدّثاه طويلاً بما يعلمان وهو يصغي إليهما باهتمام، وفي النهاية سألها:

- أكنّتما في البيت حين خروجهما؟

ومع أنّ هذا السؤال كان متوقّعا من بادئ الأمر إلا أنّه وقع من نفسيهما - بعد الهدوء العجيب غير المنتظر - موقع الانزعاج فخافا أن يكون مقدّمة لتغيير طبقة النعمة التي ارتاحا إليها ارتياح النجاة، ولم يسمعها الكلام فلاذا بالصمت... بيد أنّ السيّد لم يلحف في

فربما تساءلت تُرى ألم يفقد البيت - أو أحد من أهله - بتخليها عنه شيئاً من نظامه أو راحته؟ وأنها يا تُرى أحب إليها، أن يبقى كل شيء كما كان بفضل فتاتها - غرس يديها - أم أن يختل شيء من توازنه يكون خليقاً أن يذكر الجميع بالفراغ الذي خلفته وراءها؟ وهب السيد بالذات استشعر هذا الفراغ فهل يكون ذاك مدعاة لتقديره لأهميتها أو لسخطه على ذنبها الذي جرّ هذا كله؟ تحيرت المرأة طويلاً بين عاطفتها المستحبة نحو نفسها وعاطفتها الصريحة نحو فتاتها، ولكن المحقق أنه لو اختل شيء من النظام لأحدث لها كرباً شديداً، كما أنه لو حافظ على كماله كان لم يطرأ نقص لما خلعت من ضيق...

أما الواقع فهو أن فراغها لم يسدّه أحد، وأثبت البيت أنه أكبر من الفتاتين على نشاطهما وإخلاصهما... ولم تسرّ الأم لهذا لا في الظاهر ولا في الباطن، توارى شعورها نحو ذاتها، ودافعت عن خديجة وعائشة دفاعاً حاراً صادقاً، ثم ركبتها الجزع والألم فلم تعد تطيق صبراً على انزوائها...

### ٣١

وفي فجر اليوم الموعد الذي انتظرته طويلاً هبت من الفراش في خفة صبيانية من الفرح كأنها ملك يعود إلى عرشه بعد نفي... ونزلت إلى حجرة الفرن متدركة عاداتها التي انقطعت عنها ثلاثة أسابيع فنادت أم حنفي، واستيقظت المرأة وهي لا تصدق أذنيها، ثم نهضت إلى سيدتها فعانقتها ودعت لها، ثم باشرت عمل الصباح في سرور لا يوصف، وعند شروق أول شعاع للشمس صعدت إلى الدور الأول فتلقأها الأبناء بالتهاني والقبّل، ثم مضت إلى حيث ينام كمال فأيقظته، وما فتح الغلام عينيه حتى بهت دهشة وفرحاً، ثم تعلّق بعنقها ولكنها بادرت إلى التخلص من ذراعيه برقة وهي تقول:

- ألا تخاف أن تردّ كنتي إلى ما كانت عليه؟...

فأمطرها قبلاً ثم ضحك متسائلاً في خبث:

- متى يا عزيزتي نخرج معاً مرة أخرى؟!

«طبعاً لا، ولكن أنا شيء وبابا شيء آخر».

ولمّا فارق السيد الحجرة عاودها الشعور بالراحة الذي يعقب النجاة من خطر محقق فتألّق محياها بابتسامة وقالت:

- لعلّه رأى أنّ جزائي كفاف ذنبي فعفا عني، عفا الله عنه وعنا جميعاً...

فضرب ياسين كفّاً بكفّ وهو يقول محتجاً:

- إنّ رجالاً غيورين مثله، منهم أصدقاء له، لا يرون بأساً في السماح لنسائهم بالخروج كلّما دعت ضرورة أو مجاملة، فما باله يقيم لكُنْ من البيت سجنًا مؤبداً؟!

فلحظته خديجة بهزء وسألته:

- لمّ تلتقي بدفاعك هذا وأنت بين يديه؟! فانقلب الشاب مقهقها حتى ارتجبت كرشه ثم أجابها قائلاً:

- يلزمي مثل أنفك أولاً كي أدافع به عن نفسي عند الضرورة...

وتتابعت أيام الرقاد، فلم يعاودها الألم الذي هصرها أول ليلة وإن تهدّد جذعها وكتفها الوجع لأقل حركة تأنيها، ثم تقدّمت نحو الشفاء بخطوات سريعة بفضل بنيتها القويّة وحيويّتها الدافقة التي تكره بطبعها السكون والقعود ممّا جعل الإذعان لأوامر الطبيب مهمّة شاقّة غطى عذابها على آلام الكسر إبان احتدامها، ولعلّها لولا تشدّد الأبناء في مراقبتها لخرقت وصايا الطبيب ونهضت عجلًا لأمرها... على أنّ رقادها لم يمنعها من نشر الرقابة على شئون البيت من فراشها، ومراجعة الفتاتين بدقّة متعبة فيما يعهد إليهما به... خاصّة عن دقائق الواجبات التي تخاف عليها الإهمال أو النسيان، فتسأل وتلجّ في السؤال «هل نفضت أعلى الستائر؟... وخصاص الشبايبك؟... هل بخّرت الحمام لأبيك؟... هل سقيت اللبلاب والياسمين؟» الأمر الذي أحقّ خديجة مرّة فقامت لها «اعلمي أنك إذا كنت تعنين بالبيت قيراطاً فإنّي أعني به أربعة وعشرين»... وإلى هذا كله أورثها تخليها الإجباريّ عن مركزها المرموق شعوراً معقّداً عانت منه كثيراً،

فأجابته بلهجة لا تخلو من عتاب باسم :

- عندما يهديك الله فلا تسوقني رغم إرادتي إلى الطريق الذي كدت أهلك فيه...!

وأدرك أنها تشير إلى عناده الذي كان السبب المباشر فيما وقع لها فضحك ملء فيه ضحك مذبذب وافته النجاة بعد أن ظلّ ذنبه معلّقاً فوق رأسه ثلاثة أسابيع، أجلّ لشد ما خاف أن يجرّ التحقيق الذي باشره إخوته إلى معرفة الجاني المستتر، وقد أوشكت الريبة التي سلّطتها عليه خديجة حيناً وياسين حيناً آخر تكشفه في الركن المنزوي فيه لولا صمود أمه في الدفاع عنه وتصديها لتحمل مسؤولية الحادث وحدها، فلمّا انتقل التحقيق إلى يدي والده تناهى به الخوف وتوقع بين لحظة وأخرى أن يدعى إلى مقابلته، هذا إلى عذابه - طوال الأسابيع الثلاثة - وهو يرى أمه المحبوبة طريحة الفراش، شديدة العناء، عاجزة عن الاستلقاء والنهوض معاً... الآن مضى الحادث، ومضت في أثره عقابيله، وانتهى التحقيق، وعادت أمه توقظه في الصباح، وسوف تيممه في المساء، رجع كلّ شيء إلى أصله، ونشر الأمان ألويته، فحقّ له أن يضحك ملء فيه وأن يبتئ ضميره على الراحة المتاحة...

وغادرت الأم الحجرة فصعدت إلى الدور الأعلى، ولمّا تدانت من باب حجرة السيد ترامي إليها صوته وهو يردّد في صلاته «سبحان ربّي العظيم» فحقّق قلبها ووقفت على قيد خطوة من الباب كالمترددة، ثم وجدت نفسها تتساءل «أندخل لتصيح أو الأجد أن تعدّ مائدة الفطور أولاً؟» لا على سبيل التساؤل حقاً ولكن فراهاً ممّا شاع في نفسها من الخوف والحنجل، أو كليهما معاً، كما يقع للإنسان أحياناً أن يخلق مشكلة وهمية يلوذ بها من مشكلة راهنة يشقّ عليه فضّها... ومضت إلى حجرة المائدة فأقبلت على العمل بعناية مضاعفة، إلّا أنّ قلقها تزايد، فلم تنتفع بمهلة التفكير التي اقتنصتها، ولم تجدها راحة كما أملّت ولكن عنة انتظار أشدّ عناء من الموقف الذي نكصت عن مواجهته... وعجبت كيف جفّلت من دخول «حجرتها» كأنّها كانت همّ بدخولها لأول مرة، خاصّة وأنّ السيّد لم ينقطع عن

زيارتها يوماً بعد يوم في أثناء رقادها، ولكن الحقّ أنّ برءها رفع عنها الحماية التي ضربها حولها المريض فشعرت بأنّها ستلقاه بمفردها لأول مرة مذ كشفت خطيئتها... ولمّا جاء الأبناء تبعاً خفّت وحشتها قليلاً، وما لبث أن دخل السيّد الحجرة في جلبابه الفضفاض ولكن لم يثد في وجهه أثر لدى رؤيتها، وقال بهدوء وهو يتّجه إلى مكانه في المائدة:

- جئت؟ (ثمّ مخاطباً الأبناء وهو يتخذ مجلسه)... اجلسوا...

وأخذوا في تناول فطورهم على حين وقفت هي بمكانها المعتاد، ومع أنّ الخوف تناهى بها حال دخوله إلّا أنّها مضت تستردّ أنفاسها بعد ذلك، أي بعد أن تمّ أوّل لقاء بعد الشفاء ومرّ بسلام، وشعرت عند ذاك بأنّها لن تجد مشقّة في الانفراد به في حجرته عمّا قليل... وانقضت المائدة فعاد السيّد إلى حجرته، ولحقت به بعد دقائق حاملة صينيّة القهوة التي وضعتها على الخوان وتحت جانباً في انتظار فراغه من احتسانها لتساعده على ارتداء ملابسه. وحسا السيّد قهوته في صمت عميق، لا ذاك الصمت الذي يقع عفواً أو كالراحة عقب التعب أو كغطاء لصدر فارغ من شئون الحديث، ولكنّه صمت صامت مسربل بالتمعّد، ولم تكن تعدم أملاً - ولو ضعيماً - في أن يتعطف عليها بكلمة رقيقة، أو في الأقلّ أن يلّم بشأن من شئون حديثه المعتاد في مثل هذه الساعة من الصباح، فحيرها صمته المتعمّد وعادت تسائل نفسها تُرى ألا يزال بنفسه شيء، وأخذ القلق ينشب إبره في قلبها مرة أخرى، على أنّ الصمت الغليظ لم يمتدّ طويلاً... كان الرجل يفكر في سرعة وتركيز لم يلق معها طعماً، لا ذاك التفكير الذي ينبعث من وحي الساعة، ولكن آخر عنيداً قد يما لم يزايل نفسه طوال الأيام المنقضية... وأخيراً تساءل دون أن يرفع رأسه عن فنجال القهوة الفارغ:

- استرددت صحتك؟

فقالت أمينة بصوت خفيض:

- الحمد لله يا سيّدي.

الذي صارت جزءاً منه لا يتجزأ... أما السيد فقد  
تخلص - بكلمته الأخيرة - من عبء فكر دُوخ دماغه  
طوال الأسابيع الثلاثة المنقضية... وقد بدأ الصراع في  
اللحظة التي اعترفت فيها المرأة بخطئها باكية وهي  
طريحة الفراش، لم يصدق أذنيه لأوّل وهلة، ثم أخذ  
يفيق إلى نفسه وإلى الحقيقة البغيضة التي تطالعه  
متحدّية كبرياءه وصلفه، بيد أنّه أجّل حنقه ريثما يرى  
ما أصابها، أو أنّه - وهو الأصدق - لم يسهه أن يفكر  
فيما تحدّى كبرياءه وصلفه لما اعتراه من قلق عميق بلغ  
حدّ الخوف والجزع على المرأة التي يألّفها ويعجب  
بإياها يعطف عليها عطفاً أنساه خطأها وسأل الله لها  
السلامة، انكمش جبروته حيال الخطر المحدث بها  
واستيقظ ما تنطوي عليه نفسه من حنان موفور فعاد -  
يومذاك - إلى حجرته محزوناً مكتئباً وإن لم يفصح  
وجهه... إلّا أنّه مضى يستعيد طمأننته وهو يراها  
تتمائل للشفاء بخطى سريعة ثابتة، ومضى بالتالي يعيد  
النظر إلى الحادث كلّ - أسبابه ونتائجه - بعين جديدة  
أو بالأحرى بالعين القديمة التي اعتاد أن ينظر بها في  
بيته، فكان من سوء حظّ - حظّ الأم طبعاً - أن يعيد  
النظر في هدوء وهو خالٍ إلى نفسه، وأن يقتنع بأنّه إذا  
غلب العفو ولبّى نداء العطف - وهو ما نزعّت إليه  
نفسه - فقد أضاع هيئته وكرامته وتاريخه وتقاليده جميعاً  
وأفّلت منه الزمام وانتثر عقد الأسرة التي يابى إلّا أن  
يسوسها بالحزم والصرامة، وبالجملّة لن يكون في تلك  
الحال أحمد عبد الجواد ولكن شخصاً آخر لن يرتضي  
أن يكونه أبداً... أجل كان من سوء الحظّ أن يعيد  
النظر في هدوء وهو خالٍ إلى نفسه، إذ لو أتبع له أن  
ينفّس عن غضبه حين اعترافها لانفثاً حنقه ومزّ  
الحادث دون أن يسحب وراءه عواقب خطيرة، ولكنّه  
لم يسهه الغضب في وقته كما لم يكن ممّا يرضي كبرياءه  
أن يعلن غضبه عقب شفائها - بعد هدوء دام ثلاثة  
أسابيع - إذ أنّ هذا الغضب يكون أقرب إلى الزجر  
المتعمّد منه إلى الغضب الحقيقي، ولما كانت  
حساسيته الغضبية تستعر عادة من طبع وتعمّد ممّا،  
ولما كان الجانب الطبيعي منها لم يجد متنفساً في حينه

فاستطرد الرجل قائلاً بمرارة:  
- إني أعجب - وهيئات أن ينتهي لي عجب - كيف  
أقدمت على فعلتك!  
فدق قلبها بعنف وأطرقت في وجوم... لم تكن  
تطبق غضبه وهي تدافع عن خطئ ارتكبه غيرها فكيف  
بها الآن وهي المذنبة... وعقل الخوف لسانها ولكنّه  
بانتظار الجواب واصل حديثه متسائلاً في استنكار:  
- أكنت مخدوعاً بك طوال هذه السنين وأنا لا  
أدري؟!  
عند ذاك بسطت راحتيها في جزع وألم وهمست  
بأنفاس مضطربة:  
- أعوذ بالله يا سيدي، إنّ خطئي كبير حقاً ولكنّي  
لا أستحقّ هذا القول.  
ولكنّ الرجل واصل حديثه بهدوئه الرهيب الذي  
يهون إلى جانبه الزعيق قائلاً:  
- كيف اقترفت هذا الخطأ الكبير... ألاّني ابتعدت  
عن البلد يوماً واحداً؟!  
فقالت بصوت متهدّج وشت نبراته بالرجفة التي  
ملكّت جسمها:  
- أخطأت يا سيدي، وعندك العفو، كانت نفسي  
تنوق إلى زيارة سيّدنا الحسين، وحسبت أنّ زيارته  
المباركة تشفع لي في الخروج ولو مرّة واحدة.  
فهزّ رأسه في شيء من الحذّة كأنما يقول «لا فائدة  
تُرجى من الجدال» ثم رفع إليها عينيه متجهّماً ساخطاً  
وقال بلهجة لا تقبل المراجعة:  
- ليس عندي إلّا كلمة واحدة! غادري بيتي بلا  
توان.  
هوى أمره على رأسها كالضربة القاضية فبهتت لا  
تنبس بكلمة ولا تستطيع حراكاً، طالما توقّعت في أشدّ  
أوقات محنتها - وهي تنتظر عودته من رحلة بور سعيد -  
الواناً من المخاوف، كأن يصبّ عليها غضبه أو يصمّمها  
بزعيقه وسبابه، حتّى الضرب لم تستبعده، أمّا الطرد  
من البيت فلم يزعج لها خاطراً، لا شيء إلّا أنّها  
سكنت إلى معاشرته خمساً وعشرين عاماً فلم تتصوّر أنّ  
ثمة سبباً يمكن أن يفرّق بينها أو ينزعها من البيت

فقد وجب على الجانب المتعمد - وقد أتيت له فرصة من الهدوء لمعاودة التفكير - أن يجد وسيلة فعالة لتحقيق ذاته على صورة تتناسب وخطورة الذنب، وهكذا انقلب الخطر الذي تهدد حياتها حيناً والذي أمنها من غضبه بما أثار من عطفه أداة عقاب بعيدة المدى بما أتاح له من وقت للتدبير والتفكير. . . ونهض مقلطاً فلولاً ظهره مستقبلاً ملابسه على الكتبة ثم قال بجفاء:

- سأرتدي ملابسي بنفسني.

كانت لم تنزل متسمة في مكانها ذاهلة عما حولها فافقت على صوته، وسرعان ما أدركت من قوله ووقفته أنه يأمرها بالانصراف فانجهت نحو الباب في خطى لا وقع لها، وقبل أن تجاوزه أدركها صوته وهو يقول:

- لا أحب أن أجذك هنا إذا عدت ظهراً.

### ٣٢

خارت قواها في الصالة فارتمت على طرف كنية وكلماته القاسية الحاسمة تردد في باطنها، ليس الرجل هازلاً، ومتى كان هازلاً؟! ولم تستطع مبارحة مكانها - على رغبتها في الفرار - أن يثير نزولها قبل مغادرته البيت على خلاف المألوف ريبة الأبناء الذين لا تحب لهم أن يستقبلوا يومهم أو يذهبوا إلى أعمالهم متجرعين خبر طردها، وثمة إحساس آخر - لعله الحياء - أفعدها عن أن تلقاهم في ذل المطرود وقررت أن تبقى حيث هي حتى يغادر البيت، أو أن تأوي إلى حجرة المائدة وهو الأفضل حتى لا تقع عليها عيناه إذا مضى إلى الخارج فتسللت إلى الحجرة كسيرة الفؤاد وقعدت على شلثة ساهمة واجمة. ترى ماذا يعني؟ أيطردها إلى حين أم إلى الأبد؟ إنها لا تصدق أنه ينوي تطليقها، هو أكرم من هذا وأنبى، أجل إنه غضوب جبار ولكن من الإسراف في التشاؤم أن تغيب عنها أي سهامته ومروءته ورحمته. وهل تنسى كيف حزن لخالها حين الرقاد؟ . . وكيف عادها يوماً بعد يوم مستفسراً عن صحتها؟ . . مثل هذا الرجل لا يهون عليه أن يخرب

بيتاً أو يكسر قلباً أو ينزع أماً من بين أبنائها. وجعلت تدبر هذه الأفكار في رأسها كأنها لتدخل بها بعض الطمأنينة إلى نفسها المزعزعة، وألحت في هذا إلحاحاً إن دل على شيء فعلى أن الطمأنينة لا تريد أن تستقر بنفسها كبعض المرضى الذين يزيدون تغنياً بقوتهم كلما ازدادوا إحساساً بضعفهم إذ كانت لا تدري ماذا تصنع بحياتها أو ماذا يمكن أن تغني الحياة لها لو خاب الرجاء ووقع المحذور. وترامى إلى أذنيها وقع عصاه على أرض الصالة وهو يمضي خارجاً فأطار أفكارها وأنصتت باهتمام تتابعه حتى غاب وشعرت عند ذاك بالمرح جارح لحالها وسخطها على الإرادة المتحجرة التي لم ترغ لضعفها حقاً، ثم نهضت فيما يشبه الإعياء وغادرت الحجرة لتنزل إلى الدور الأول فجاءتها عند رأس السلم أصوات الأبناء وهم ينزلون تبارعاً فمدت رأسها من فوق الدرابزين فلمحت فهمي وكمال وهما يتابعان ياسين إلى الباب المفضي إلى الفناء، هناك غمزت خطرة من الحنان قلبها فأذهلتها، وعجبت لنفسها كيف تركتها يذهبان دون أن تودعهما، أليست قد تحرم عليها رؤيتهما. . . ألياً أو أسابع؟ وربما لا تراهما مدى العمر إلا لماماً كالغريباء؟ . . وعابدها غمز الحنان متتابعاً وهي بموقفها من السلم لا تريم، بيد أن قلبها - على امتلائه - كبر عليه أن يصدق أن يكون لهذا المصير الأسود نصيبها المقدور، لإيمانها اللانهاضي بالله الذي حفظها في وحدتها الغابرة من العفاريث نفسها، ولثقتها برجلها التي تأبى أن تنهار، ولأنها لم يصيبها في حياتها الماضية شرٌ خطير خلى بأن يسلبها الطمأنينة إلى الحياة الوادعة فمالت نفسها إلى اعتبار محنتها تجربة قاسية ستمر بها دون أن تشب فيها، ووجدت خديجة وعائشة مشبكتين في جدال كعادتهما ولكنهما نزعتا عما كانتا فيه حين رأتا وجومها ونظرة عينها الخافية، ولعلها خافتا أن تكون قد برحت الفراش قبل أن تسترد كامل صحتها فسألتهما خديجة في قلق:

- ماذا بك يا نينة؟

- لا أدري والله ماذا أقول. . . إني ذاهبة. . .

ومع أن العبارة الأخيرة جاءت مقتضبة غير محدودة



فتنهت الأم محزونة وغمغت قائلة:  
- الأمر لله... يجب الآن أن أذهب.  
ولكن خديجة اعترضت سبيلها وهي تقول بصوت  
تخفق بالبكاء:  
- لن ندعك تذهبين، لا تتركي بيتك، فلا أظنه  
يصرّ على غضبه إذا عاد ووجدك بيننا.  
وقالت عائشة برجاء:  
- انتظري حتى يعود فهمي وباسين، ولن يرضى أبي  
أن ينتزعك من بيننا جميعاً.  
ولكنها قالت فيما يشبه التحذير:  
- ليس من الحكمة في شيء أن نتحدّى غضبه،  
فمثلته من يلين بالطاعة ويشتد بالعصيان.  
وهنا بالاعتراض مرة أخرى ولكنها أسكتتها بإشارة  
من يدها واستطردت قائلة:  
- لا جدوى من الكلام، لا بدّ من الذهاب،  
سأجمع ثيابي وأرحل، لا تجزعا، لن يطول افتراقنا،  
وسنجتمع مرة أخرى إن شاء الله.  
وانتقلت المرأة إلى حجرتها بالدور الثاني والفتاتان في  
أعقابها وهما تبتكيان كالأطفال، وأخذت تخرج ملابسها  
من الصندوق حتى أمسكت خديجة بيدها وسألتهما  
بانفعال:  
- ماذا تفعلين؟  
وشعرت الأم بدموعها تغالبها فامتنعت عن الكلام  
أن تفضحها نبراتهما، أن تستسلم للبكاء الذي صممت  
على مقاومته ما دامت بمراءى من ابنتيهما، فأشارت بيدها  
كأنها تقول «الحال يوجب أن أجمع ملابسي».  
ولكن خديجة قالت بحدة:  
- لن تأخذني معك إلا تغييرة واحدة... واحدة  
فقط.  
فندت عنها تنهدة. ودّت تلك اللحظة لو يكون  
الأمر كله حلمًا مزعجًا، ثم قالت:  
- أخاف أن تثور ثائرتي إذا رأى ملابسي بكانها!  
- سنحفظها عندنا.  
وجمعت عائشة الثياب إلا تغييرة واحدة كما اقترحت  
أختها فأذعنّت الأم لهما في ارتياح عميق كأنّ بقاء

الهدف إلا أنّها اكتسبت من نظرتها اليائسة ونبراتها  
الشاكية معنيّ حالئذا ريعنا له فهفتنا معاً:  
- إلى أين؟  
فقالت بانكسار وهي تشفق سلفاً من وقع كلامها  
من أذنيها بل ومن أذنيها هي نفسها:  
- إلى أمي.  
فهرعتا إليها مدعورتين وهما تقولان:  
- ماذا تقولين؟... لا تعيدي هذا القول... ماذا  
جري؟!  
وجدت في فزع فتاتيهما عزاء ولكنّه كشأنه في مثل  
هذا الموقف فجّر أشجانها فقالت بصوت متهدج وهي  
تمانع دموعها:  
- لم يَسْ شيئاً ولم يَغْفُ (رددت هذا بأشئ دلّ على  
عمق حزنها)... كان يضمر لي الغضب ويؤجّله ريثما  
أبرأ، ثم قال لي غادري بيتي بلا تَوَانٍ... وقال لي  
أيضاً لا أحبّ أن أجذك هنا إذا عدت ظهراً (ثمّ)  
بلهجة تنمّ عن عتاب أسيف وخيبة أمل) سمعاً  
وطاعة... سمعاً وطاعة...  
فصاحت خديجة بحال عصبيّة:  
- لا أصدّق. لا أصدّق، قولي قولاً آخر... ماذا  
جري للدنيا؟!  
وصاحت عائشة بصوت متهدج:  
- لن يكون هذا أبداً، أهانت عليه سعادتنا جميعاً  
لهذا الحد؟!  
وعادت خديجة تتساءل في حدة وحنق:  
- ماذا يقصد... ماذا يقصد يا نينة؟  
- لا أدري، هذا قوله بلا زيادة ولا نقصان.  
اكتفت أوّل وهلة بهذا القول، ولعلّها رغبت  
بالاقتصار عليه أن تستزيد من عطفهما وتتعرّى  
بجزعهما، ولكن غلبها الإشفاق من ناحية والرغبة في  
طمأنة نفسها من ناحية أخرى فاستطردت قائلة:  
- لا أظنه يقصد أكثر من إبعادي عنكم أيّاماً عقاباً  
لي على ما فرط مني.  
فتساءلت عائشة محتجّة:  
- أما كفاه ما وقع لك؟!

ملابسها في البيت مما يثبت لها حقاً في العودة إليه، ثم جاءت ببقعة وصرت فيها الملابس التي سمح لها بها، وجلست على الكنية لتليس جوربها وحذاءها والفئتان حيالها تنظران في حزن ذاهل حتى رقى قلبها لها فقالت متكلفة الهدوء:

- سيعود كل شيء إلى أصله، تشجعا حتى لا تستغفرا غضبه، إنّي أعهد إليكما بالبيت وآله ولي كلّ الثقة في كفاءتكما، ولا شكّ عندي في أنّك ستجدين من عائشة كلّ معاونة، قوما بما كنّا نقوم به معاً كما لو كنت معكما، كلتاكما شائبة خليقة بأن تفتتح بيتاً وتعمّره.

ونفضت إلى ملأها فارتدتتا وأسدلت على وجهها البرقع الأبيض في تمهل متعمد لتؤجل ما استطاعت اللحظة الأخيرة المعذبة المحيرة ووقفن حيال بعض لا يدرين كيف تكون الخطوة التالية. لم يسعفها صوتها على النطق بكلمة الوداع، ولم توات إحداها الشجاعة على الارتقاء في حضنها كما توذّ وعزّت الشواني محمّلة بالعذاب والقلق بيد أنّ المرأة المتجلدة خافت أن يخونها تجلدها فخطت خطوة نحوهما ومالت إليهما فقبلتهما بالتابع وهي تمس:

- تشجعا، ربّنا معنا جميعاً.

هنالك تعلّقنا بها وأفحمنا في البكاء.

وقد غادرت الأمّ البيت بعينين ذارفتين تراءى الطريق خلال دمعها وهو يتميّع...

### ٣٣

طرفت باب البيت القديم وهي تفكّر - بألم وحياء معاً - فيما سيحدثه مجيئها مغضوباً عليها من الانزعاج والكدر، وكان الباب يفتح على عطفة مسدودة متفرّعة من شارع الخرفش تنتهي بزاوية أقيمت بها الصلاة عهداً طويلاً ثم هجرت من أعوام لقدمها ولكن بقيت آثارها المتهدمة لتذكّرها - كلّما زارت أمّها - بطفولتها حين كانت تنتظر بابها أباهما حتى يفرغ من صلاته ويعود إليها، وحين تمذّ رأسها داخلها في أويقات الصلاة لتلهو بمنظر الرُكع السجود، أو حين تتفرّج على

بعض أهل الطرق الذين كانوا يجتمعون فيما يليها من العطفة فيضيئون المصابيح ويفرشون الحصر وينشدون الأذكار. ولما فتح الباب أطلّ منه رأس جارية سوداء في العقد الخامس، ما إن رأت القادمة حتى تمهل وجهها وهتفت مرحبة بها، ثم تنحّت جانباً لتوسع لها فدخلت أمينة، ولبت الخادم بموقفها كأنها تنتظر دخول قادم آخر فأدركت أمينة ما تعنيه وقفتها فهمست بامتعاض:

- أغلقي الباب يا صديقة...

فتساءلت الجارية بدهشة:

- ألم يأت السيد معك؟

فهزّت رأسها بالنفي متجاهلة دهشتها ومضت - عابرة فناء البيت الذي تصدّره حجرة الفرن وتقع البئر في ركنه الأيسر - إلى سلّم ضيق فرقيته إلى الدور الأول والأخير. ثم اجتازت دهليزاً إلى حجرة أمّها ودخلت، رأت أمّها متربّعة على كنية في صدر الحجرة الصغيرة قابضة بكلتا راحتيها على مسبحة طويلة متدلّية في حجرها، متّجهة العينين صوب الباب في تطلّع آثاره بلا ريب طرق الباب ثم وقع القدمين المقتربتين، ولما تدانست أمينة منها تساءلت:

- من...؟

وافترّ ثغرها وهي تتساءل عن ابتسامة خفيفة تنمّ عن البشّر والترحاب، كأنما حدست هويّة القادم، فأجابتها أمينة قائلة بصوت منخفض من الانقباض والحزن:

- أنا أمينة يا أمي...

فألقت العجوز بساقها إلى الأرض وتحسّست بقدميها موضع الشبشب حتى عثرت عليه فدسّتها فيه ووقفت باسطة ذراعيها منتظرة في شوق فرمت أمينة بالبقعة إلى طرف الكنية وانطوت بين ذراعي أمّها وهي تقبل جبينها وخديها والأخرى تلثم ما يتّفق وقوع شفّتها عليه من الرأس والخذ والعنق، ولما انتهى العناق ربّت العجوز على ظهرها بحنان ثم لبثت بموقفها متطلّعة صوب الباب وعلى شفّتها ابتسامة تعلن عن ترحيب جديّد، كما فعلت صديقة من قبل

فأدرت أمينة للمرة الثانية ما تعنيه هذه الوقفة وقالت  
بامتعاض واستسلام:

- جئت وحدي يا أمي...

فتحوّل الرأس إليها كالتسائل، وتمتعت المرأة:

- وحدك؟! ... (ثم مبتسمة ابتسامة متكلفة لتطرد

ما انتابها من قلق) سبحانه الذي لا يتغيرا

وتراجعت إلى الكنبه فجلست وهي تتساءل بلهجة  
أفصحت هذه المرة عن قلقها:

- كيف الحال؟! ... لماذا لم يحضر معك كعادته؟

فجلست أمينة إلى جانبها وهي تقول بلهجة التلميذ  
الذي يعترف برداءة إجاباته في الامتحان:

- إنه غاضب عليّ يا أمي...

ورمشت الأم واجبة ثم تمتعت بنبرات حزينة:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قلبي لا يكذبني

أبدأ، وقد انقبض وأنت تقولين لي «جئت وحدي يا

أمي» ترى ماذا هيّج غضبه على ملاك كريم مثلك لم

يَحْفَظَ رجل به قبله؟! ... خبريني يا بنتي...

فقال أمينة متتهدة:

- زرت سيدنا الحسين في أثناء سفره إلى بور

سعيد...

فتفكرت الأم في حزن وكآبة ثم تساءلت:

- وكيف علم بأمر الزيارة؟

حرصت أمينة من بادئ الأمر على ألا تشير إلى

حادث السيارة رحمة بالعجوز من ناحية وتحفظًا من

المسئولية من ناحية أخرى، ولهذا أجابتها بما أعدته

سلفًا لهذا السؤال قائلا:

- لعلّ أحدًا رأي فوشى بي عنده...

فقال العجوز بحدة:

- لا يعرفك أحد من البشر إلّا من اختلط بك

داخل بيتك، ألم تشكّي في أحد؟! ... هذه المرأة أمّ

حنفي؟! أو ابنه من المرأة الأخرى؟

فبادرتها أمينة قائلة بثقة ويقين:

- لعلّ جارة رأني فأخبرت زوجها بحسن نيّة فأعاد

الرجل الخبر على مسمع السيّد غير مقدّر لخطورة

عواقبه، ظنّي ما تشائين إلّا الشكّ في أحد من أهل

بيت...

فهزّت العجوز رأسها في حيرة وشكّ وأنشأت

تقول:

- طول عمرك سليمة الطوية، الله وحده هو المطلع

وهو الكفيل برّد كيد الكائد، ولكن زوجك؟! ...

الرجل العاقل... الداغل على الخمسين... ألم يجد

وسيلة لإعلان غضبه إلّا طرد عشيرة العمر من بين

أولاده؟! ... سبحانه يا ربّ... الناس تكبر تعقل

ونحن تكبر نتهوّر، هل من الكفر أن تزور امرأة فاضلة

سيدنا الحسين! ألا يسمح أصدقاؤه، وهم لا يقلّون

عنه غيرة ورجولة، لزوجاتهم بالخروج لمختلف

الأغراض؟! ... أبوك نفسه الذي كان شيخًا من حملة

كتاب الله كان يأذن لي في الذهاب إلى بيوت الجيران

للتفرّج على المحمل.

وغلب الصمت والكتابة مليًا حتّى التفتت العجوز

ناحية ابنتها وعلى شفيتها ابتسامة عتاب حائرة ثمّ

تساءلت:

- أيّ شيء أغراك بعصيانك بعد ذاك العمر الطويل

من الطاعة العمياء؟! ... لشدّ ما يحيرني هذا... إذ

مهما يكن من حيّة طبعه فهو زوجك ومن السلامة

الحرص على طاعته من أجل راحتك وسعادة الأولاد،

أليس كذلك يا ابنتي؟! ... أعجب شيء أنّي لم أجدك

يومًا في حاجة إلى نصيح ناصح...!!

فندّت عن أمينة ابتسامة ارتسمت على زاوية ثغرها

على صورة انحراف خفيف من الارتباك والحياء،

وغمغمت:

- تحكّم الشيطان!

- عليه لعنة الله، أيزلّ اللعين قدميك بعد خمسة

وعشرين عامًا من السوأم والسلام! ... ولكنّه هو

الذي أخرج أبانا آدم وأثنا حواء من الجنة! ... لشدّ ما

يحزني يا ابنتي، ولكنّها سحابة صيف ثمّ تنقشع ويعود

كلّ شيء إلى أصله... (ثمّ وهي كأنّها تحدث نفسها)

ماذا كان عليه لو استوصى بالحلم؟! ... ولكنّه رجل،

ولن يخلو رجل من عيوب تحفي عين الشمس... (ثمّ

بلهجة ترحيب وسرور متكلفة) اخلعي ملابسك

عرفتها بخبرها وشرها، فربما قالت لها على أثر مشادة مما ينشب بينهما «يا سَيِّ أليست العبادة أولى بوقتك من الشجار والنقار على التافة من الأمور؟! فتجيبها محتدة «يا لثيمة إنك لا توصيني بالعبادة حبا فيها ولكن كي يخلو لك مجال العبث والإهمال والقدارة والسلب والنهب، إنَّ الله يأمر بالنظافة والأمانة فمراقبتك ومحاسنتك عبادة وثواب!» ولأنَّ الدين قد شغل من حياتها تلك المكانة العالية فقد سما أبوها ومن بعده زوجها إلى مكانة رفيعة من نفسها فوق ما كان لهما بحكم القرابة، وطالما غبظتهما على ما شرفا به من حيازة كلمات الله ورسوله في صدرها، ولعلها ذكرت هذا حين خاطبت أمينة موسية ومشجعة فقالت:

- ما أراد السيّد بإخراجك من بيتك إلا إعلان غضبه على مخالفتك لأمره ولكنّه لن يجاوز حدود التأديب، أجل لن يحقّ سوء بمن كان لها أب كأيك أو جدّ كجدّك...

وابتَل صدر أمينة بذكر أبيها وجدّها كما يتنلّ صدر المنقطع به الطريق في الظلمات إذا ترامى إليه صوت الغفير وهو يهتف «هوه» فأمن قلبها بقول أمّها لا لتلّفها على الطمأنينة فحسب، ولكن لإيمانها قبل كلّ شيء ببركة الشيوخين الراحلين، فلم تكن إلا صورة من أمّها في حبّها وإيمانها وجلّ طابعها. واثالثت على وجدانها في تلك اللحظة ذكريات أبيها الذي أفعم قلبها وليدة بالحبّ والإيمان-فدعت الله أن ينتشلها من ورطتها إكراماً لبركتته. وعادت العجوز إلى مواساتها فقالت وعلى شفيتها الجاقتين ابتسامة رقيقة:

- إن الله يرعاك دائماً برحمته، اذكري عهد الوفاء لا أرجعه الله وكيف نجّاك الله من شرّه ففضى أخواتك ولم يمسك سوء!

غلبها الابتسام على كآبتها فابتسمت، وتفرّست في غيش من الماضي كاد يحوّه النسيان فوضحت- بعض الوضوح- من خليط الذكريات صورة أحييت في نفسها أصداء من عهد الرعب، وهي صبيّة تمجّل خارج أبواب غلقت على أخوات مستلقيات على أسرة المرض والموت، وهي وراء النافذة تنظر إلى سيل من النعوش

إلى اختيار أمر من اثنين: فلما أن تسمع للغرباء بأن يسكنوه وهو أعزّ شيء لديها بعد ابنتها وأحفادها، وإما أن تتركه مهجوراً فتتخذّه المغاريت ملعباً بعد أن ظلّ طوال عمره مقاماً لشيخ من حلة كتب الله هو زوجها، إلا أنّ انتقالها إلى بيت السيّد كان خليقاً بأن يخلق لها مشاكل معقّدة لا تفضّ في نظرها بميسور الحلول لأنّها ما انفكت تُسائل نفسها وقتذاك أتقبل ضيفاته بدون مقابل وهو ما لا ترتاح إليه بحال، أم تنزل له عن معاشها لقاء إقامتها في بيته وهو ما يقلق غريزتها في الامتلاك التي أضحت- مع الكبر- عنصراً جوهرياً من عناصر «وسوستها» العامة؟! بل قد توهمت أحياناً عند إلحاحه عليها في الانتقال إلى بيته أنّه يضمّر نيّة استغلالية نحو معاشها وبيتها الذي سيخلو بعد انتقالها ففزعت إلى الرفض لحدّ العناد الأعمى ولما نزل السيّد عند إرادتها قالت له بارتياح «لا تؤاخذني بإصراري يا ابني، ربّنا يكرمك بما أوليتني من عطف، ألا ترى أنّه لا يسعني أن أهجر بيتي؟... وما أجدرك أن تجاري عجوزاً مثلي على علّتها بيدّ آتي أستحلفك بالله إلا ما سمحت لأمينة والأولاد بزيارتي الحين بعد الحين بعد أن أمسى خروجي من البيت متعذّراً» وهكذا بقيت في بيتها كما أرادت متمتعة بسيادتها وحريّتها وكثير من عادات الماضي العزيز. وإذا كان بعض هذه العادات، كالمغلاة الشاذة في الاهتمام بشئون البيت والمال، ممّا يتنافى مع هدوء الشيخوخة الحكيمة وتساعها، وبالتالي ممّا يبدو كعارض من أعراض الهرم الانتكاسيّة، فثمّة عادة أخرى ممّا حافظت عليه جديرة بأن تزين الشباب، وبأن تضفي على الشيخوخة جلالاً، تلك هي العبادة. كانت ولم تزل مطمح حياتها ومشرق آمالها وسعادتها، رضعتها صغيرة في كنف أب شيخ من شيوخ الدين، وتغلّغت في أعماقها بزواجها من شيخ آخر لم يكن دون أبيها ورعاً وتقوى. وظلّت تمارس بحبّ وإخلاص غير مفرّقة في إخلاصها بين ما هو دين حقّاً وما هو خرافة خالصة حتّى عرفت بين جاراتها بالشيخة المباركة. صديقة الجارية وحدها هي التي

واستريحى، لا تجزعى، ماذا يضربك من قضاء عطلة قصيرة مع أمك في الحجرة التي ولدت فيها؟

فجربى بصرها في غير اكتراث على الفراش القديم الذي حال لون عمده، والسجادة البالية التي انجرت وبرها ونسلت أطرافها وإن بقيت رسوم ورودها حافظة لخميرتها وخضرتها، ولكن صدرها - لما ران عليه من فرقة الأحباب - لم يكن مهيبًا لتلقي موجات الذكريات، فلم تهج دعوة أمها في قلبها الخنان الذي تهيجه عادة ذكريات متباعدة لهذه الحجرة وهي قريرة العين، ولم يسعها إلا أن تتنهد قائلة:

- ما بي إلا قلق على الأولاد يا أمي...

- إنهم في رعاية الله، ولن يطول بُعدك عنهم بإذن الرحمن الرحيم...

قامت أمينة لتخلع ملاءتها على حين انسحبت صديقة - حزينة أسيفة لما سمعت - من موقفها عند مدخل الحجرة الذي لزمته أثناء الحديث، ثم عادت المرأة إلى مجلسها جنب أمها وما لبثتا أن قلبتا الحديث ظهرًا لبطن وهما تبدآن وتعيدان وكأنّ في تقابلها جنبًا لجنب ما يدعو إلى تأمل قوانين الوراثة العجيبة وقانون الزمن الصارم، كأنهما شخص واحد وصورته المنعكسة في مرآة المستقبل أو نفس الشخص وصورته المنعكسة في مرآة الماضي وبين الأصل والصورة على الحالين ما يشير إلى الصراع الرهيب الناشب بين قوانين الوراثة التي تعمل على التشابه والبقاء من ناحية وبين قانون الزمن الذي يدفع إلى التغير والنهاية من ناحية أخرى، ذلك الصراع الذي ينجلي عادة عن سلسلة من الهزائم تلحق تباغًا بقوانين الوراثة حتى يغدو قصارها أن تؤدّي وظيفة متواضعة في نطاق قانون الزمن الصارم.

في نطاق ذلك القانون استحالت الأمّ العجوز جسمًا نحيلًا ووجهًا ذابلًا وعينين لا تبصران إلى تطوّرات باطنية لا تناهلها الحواس، حتى لم يبق لها من بهجة الحياة إلا ما يدعونه بهجاء الشيخوخة أي السمات الهادئ والوقار المكتسب الحزين والرأس المرصع بالبياض. بيد أنها كانت تنحدر من جيل معمر عرف بصلاية المقاومة فلم يكن طعنها فيها بعد الخامسة

والسبعين بمقعدتها عن أن تنهض في الصباح كعادتها منذ نصف قرن فتحتسّس سبيلها - بدون إرشاد الجارية - إلى الحمام فتوضأ ثم تعود إلى حجرتها فتصلي، أما بقية النهار فتقطعها في التسبيح والتأمل الصامت الذي لا يدري به أحد طالما كانت الجارية مشغولة بأعمال البيت، أو مستأنسة إلى حديث المرأة إذا فرغت لمجالستها، حتى الصفات التي تلازم عادة وفرة النشاط للعمل وحدة الحواس للحياة لم تزيالها بحال، مثال هذا شدة غاسبتها للجارية على كل صغيرة وكبيرة فيما يتعلق بالمصروفات، وتنظيف البيت وترتيبه وتلكؤها إذا تلكت في مهمة، وتأخرها إذا تأخرت في مشوار، ولم يكن بالنادر أن تحلفها على المصحف لتطمئن إلى صحة تقاريرها على غسل الحمام والأواني وتنفيض النوافذ، دقة بالوسوسة أشبه، ومن الجائز أن تكون مثابرتها عليها استمرارًا لعادة تأصلت في صدر الشباب، كما أنه من الجائز أن تكون تكلمة مما يعترى الشيخوخة ويلحق بطباعها المتطرفة استمساكها بالبقاء في بيتها في شبه وحدة كاملة بعد وفاة بعلمها، ثم إصرارها على البقاء فيه حتى بعد فقدانها لبصرها، متصامته عن دعوات السيد المتكررة لها بالانتقال إلى بيته لتعيش في رعاية ابنتها وأحفادها، مما عرضها لتهمة الخرف وجعل السيد يعرض عن دعوتها نهائيًا، ولكن الحق أنها كرهت هجر بيتها لتعلقها الشديد به، ولتحاميتها ما عسى أن تلقى في البيت الجديد من إهمال غير مقصود أو ما يستوجب وجودها من إلقاء أعباء جديدة على عاتق ابنتها المقل بالواجبات، ولنفورها من الزج بنفسها في بيت اشتهر صاحبه بين آله بالشراسة والغضب أن تنزلق وهي لا تدري إلى ملاحظاته الأمر الذي تشفق من عواقبه على سعادة ابنتها، وأخيرًا لما تنطوي عليه في قرارة نفسها من حياء وكبرياء حبًا إليها الحياة في البيت الذي تملك معتمدة - بعد الله - على المعاش الذي تركه لها زوجها الراحل، على أن ثمة أسبابًا أخرى لإصرارها على البقاء في بيتها لا يمكن تبريرها برهافة الحساسية أو سداد البصيرة، كخوفها - إذا أخلت البيت - من أن تجد نفسها مضطرة

ابتتها أولاً «جاءك رقيب ليكشف عن سرقاتك؟» ولكن أمينة لم يكن يهتمها وقتذاك أن تسرق المرأة أو تلتزم الأمانة، ولم تردّ الجارية على سيّدها إكراماً للضيقة من ناحية ولأنها من ناحية أخرى ألفت مرارة سيّدها وحلاوتها فلم يعد لها غناء عن الاثنين. وباستدارة النهار اشتدّ تعلّق فكرها ببيتها وبهاالك عليه لأنه في ذلك الوقت يعود السيّد إلى البيت للغداء والقبلولة، ثمّ يرجع الأبناء تبعاً عقب خروج الرجل إلى الدكان، فرأت بخيالها الذي استمدّ من الألم والحنين قوّة خارقة، البيت وآله كأنهم شهود. رأت السيّد وهو يخلع جيّته وقفطانة دون مساعدتها التي تخاف أن يكون قد ألب الاستغناء عنها منذ رقادها الطويل. وحاولت أن تقرأ ما يدور وراء جبينه من أفكار ونوايا، هل يستشعر الفراغ الذي خلّفته وراءها، وكيف كان إحساسه حين لم يجد لها من أثر في البيت، ألم يرد لها ذكر على لسانه لسبب أو لآخر؟... وها هم الأبناء عائدون، وها هم يهرعون إلى الصالة بعد طول اشتياق إلى مجلس القهوة فيلقون مجلسها شاغراً، ويسألون عنها فتجيبهم نظرات أختيهم المتجهمة الدامعة، ترى كيف يتلقّى فهمي الخبر، وهل يدرك كمال - وهنا خفق قلبها خفقة جارحة - معنى غيابها؟ أيتشاورون طويلاً؟... ماذا ينتظرون؟... لعلمهم في الطريق يستبقون إليها... يجب أن يكونوا في الطريق، أم يكون قد أصدر أمراً بعدم زيارتها؟ يجب أن يكونوا في الخرنفش... سترى عيّاً قليل... .

- أتمدّثيني يا أمينة؟

بهذا السؤال قاطعت العجوز خيالها فانتبهت إليها في دهشة ممزوجة بالخياء، إذ فطنت إلى أنّ كلمات - من حديثها الباطن مع نفسها - قد تسلّلت في غفلة منها إلى طرف لسانها محدثة الحسّ الذي التقطته أذن أمّها المرفهة فلم ترّ بداً من أن تجيبها قائلة:

- إني أتساءل يا أمي ألا يجيء الأولاد لزيارتي؟

- أظنهم جاءوا... .

قالت العجوز وهي ترهف السمع مائة رأسها إلى الامام فأنصتت أمينة صامتة فترامى إليها صوت مطرقة

لا ينقطع والناس نفرّ من طريقها، أو وهي تسمع إلى جماهير من الشعب التقت في ذعرها وبأسها برجل من رجال الدين - كما كان يتفق لأبيها - وراحت تجار بالشكوى وترسل الدعوات إلى ربّ السماء، وعلى رغم استفحال الشرّ وهلاك أخواتها جميعاً فقد أفلتت من براثن الوباء سالمة آمنة لم يكدّر صفوها إلاّ عصير الليمون والبصل الذي كانت تجبر على تجرّعه مرّة أو مرّتين في اليوم. واستطردت الأمّ بصوت ثمت رفته وحنانه على الاسترسال في الأحلام كأنما قد ردها التذكّر إلى العهد الخالي فاستعادت حياته وذكرياته - العزيزة الغالية لاقتراها بالشباب - خالصة من شوائب الألم المنسي، فقالت:

- ولم يقنع حظّك السعيد بإنقاذك من الوباء لكنّه أبقاك وحيدة الأسرة وكلّ ما لها في الدنيا من أمل وعزاء وسعادة فترعرت في صميم قلوبنا.

لم تعد أمينة ترى الحجرة - بعد هذا الخطاب - كما كانت تراها قبله، بعثت جدّة الشباب في كلّ شيء، في الجدران والسجادة والسريّر، في أمّها وفيها هي نفسها، وردّ أبوها إلى الحياة واتخذ مجلسه المعهود، وعادت تصغي إلى مناشاة الحبّ والتدليس وتحلم بقبصص الأنبياء والمعجزات، وتستعيد نوادر السابقين من الصحابة والكفّار إلى عرابي باشا والإنجليز، بعثت الحياة الماضية بأحلامها السحرية وآمالها الواعدة وسعادتها المرجوة ثمّ قالت العجوز بلهجة من يقرّر النتيجة النهائية لما مهد به من مقدّمات منطقية:

- أليس الله حافظك وراعيك؟... .

بيد أنّ القول نفسه تضمّن عزاء موحياً ذكّرها بحالها الراهنة فاستيقظت من حلم الماضي السعيد عائدة إلى كاتبها كما يعود السالي إلى اجتراح أحزانه بكلمة مواساة تلقى إليه بحسن نية، ولبثت إلى جانب أمّها في حال من الفراغ الصارم لم تعهد لها إلاّ حين مرضها فأنكرتها وضاعت بها ولم يشغل حديثها المتواصل مع أمّها إلاّ نصف انتباهها على حين بقي النصف الآخر مرغى للضيق والقلق، ولما جاءت صديقة ظهرها بصينية الغداء قالت لها العجوز بقصد تسلية

وتردد طويلاً بين معاودة الاعتذار عن اقتراحه، على مسمع من الجدة أن تعاتبه أو تضمر له حقاً، وبين السكوت على ما به من رغبة في التنفيس عن تحرجه، ثم خرج من تردده بأن ترجم كلام فهمي إلى لغة أخرى قائلاً:

- أجل نحن المذنبون وأنت المتهم، (ثم ضاعطاً على غارج الكلمات كأنها يضغط على عناد أبيه وصلابته) ولكنك ستعودين، وسوف تنقش السحابة التي تظللنا جميعاً.

ولفت كمال وجهها إليه من ذقنها، وانهاه عليها بسيل من الأسئلة، عن معنى مغادرتها البيت، وكم تطول إقامتها في بيت جدته، وعما يحدث لو عادت معهم، وغير ذلك من الأسئلة التي لم يسمع عنها جواباً واحداً حقيقياً بأن يسكن خاطره الذي لم ينفذ في تسكينه عزمه على أن يبقى مع أمه حيث هي، ذلك العزم الذي كان أول من يرتاب في قدرته على تحقيقه، وتغيرت وجهة الحديث بعد أن فرغ كل منهم من التعبير عن عواطفه، فاخذوا يعالجون الموقف معالجة جدية لأنه - كما قال فهمي - «لا يجدي التكلم فيما كان ولكن ينبغي أن نتساءل عما سيكون» وقد أجابه ياسين على تساؤله قائلاً «إن رجلاً كائناً لا يرضى بأن يمر بحادث كخروج أمنا مرّاً كريماً، فلم يكن بدّ من أن يعلن غضبه بطريقة لا يسهل نسيانها، ولكنه لن يجاوز حدود ما فعل» بدا هذا الرأي مقتناً لما صادف من ارتياح النفوس إليه فقال فهمي مفصلاً عن اقتناعه ومرجوه معاً «والدليل على صحة رأيك أنه لم يقدم على فعل شيء آخر، ومثله لا يؤجل عزمه لو صحت نيته عليه». وتكلموا كثيراً عن «قلب» أبيهم فاتفقت كلمتهم على أنه قلب خير رغم ثورته وحذته وأن أبعد شيء عن تصوّرهم هو أن يقدم على عمل من شأنه أن يسيء إلى السمعة أو يؤذي أحداً وعند ذلك قالت الجدة على سبيل الدعابة وهي تعلم باستحالة ما تدعو إليه: - لو كنتم رجالاً حقاً لالتستم الوسيلة إلى قلب أبيكم ليتحوّل عن عناده... .

فتبادل ياسين وفهمي نظرات ساخرة من هذه

الباب وهي ترسل ضربات سريعة متلاحقة كأنها صوت بيعث في لهفة بصرخات استغاثة حارة فعرفت وراء هذه الضربات العصبية قبضة كمال الصغيرة كما كانت تعرفها وهي تدقّ عليها باب حجرة الفرن، وسرعان ما هرعت إلى رأس السلم وهي تنادي صديقة لتفتح الباب، ثم أطلت من فوق الدرابزين فرأت الغلام وهو يشب فوق درجات السلم وفي أثره فهمي وياسين وتعلّق كمال بعنقها فعاقها قليلاً عن عناق الآخرين، ثم دخلوا الحجرة وهم، من جيشان النفس وتبليل الخاطر، يتكلمون في وقت واحد لا يلمي أحدهم ما يقول الآخرون، ولما رأوا الجدة واقفة مبسطة الذراعين مشرقة الوجه بابتسامة ترحاب مفعمة بالحب أمسكوا عن الكلام إلى حين وأقبلوا عليها تباغاً فساد صمت نسبي تخلّته همسات القبل المتبادلة وأخيراً هتف ياسين بصوت ينم عن الاحتجاج والحزن:

- نحن الآن لا بيت لنا، ولن يكون لنا بيت حتى تعودى إليه.

وأوى كمال إلى حجرها كالهارب وهو يقول مفصلاً لأول مرة عن نيته التي طوى صدره عليها في البيت وفي الطريق:

- سابقى هنا مع نينة... . ولن أعود معك... . أنا فهمي فقد رنا إليها طويلاً صامتاً، كشأنه إذا أراد أن يحدثها بالنظر، فوجدت في نظراته الصامته خير معبر عما يعتلج في صدرها معاً. هذا الحبيب الذي لا يفوق حبه لها إلا حبها له، والذي يندر أن يشير في أحاديثه معها إلى عواطفه ولكن تشي به خطرات نفسه وكلماته وفعاله، وقد قرأ الفتى في عينيها نظرة تدلّ على الألم والخجل فاشتدّ تأثره وقال بحزن وتأمّل:

- نحن الذين اقترحنا عليك الخروج، وشجعناك عليه، ولكن ها أنت وحدك تلتقن العقاب... . فابتسمت الأم في ارتباك وقالت:

- لست طفلة يا فهمي، وما كان ينبغي لي أن أفعل... .

فتأثر ياسين لهذا الحوار المتبادل، واشتدّ كربه لفرط إحساسه بالحرج بصفته صاحب الاقتراح المشوم،

وعادت قدما أمينة الخفيفتان فمضت العجوز  
تنصّت في قلق حتّى هتفت بها:  
- أتبيكين؟ يا لك من عبيطة! كأنك لا تطيقين أن  
تبيقي ليلتين في حضن أمك!

## ٣٤

بدت خديجة وعائشة أضيق الجميع بغياب الأم،  
فإلى حزنها الذي يشاركها فيه الإخوة تحمّلنا وحدهما  
أعباء البيت وخدمة الأب يتبدّ أن أعباء البيت لم تكن  
لتنوء بهما، أمّا خدمة الأب فهي التي عملتا لها ألف  
حساب ونزعت عائشة إلى الهرب من منطقة أبيها معتلة  
بأنّ خديجة سبق لها أن تدرّبت على خدمته في أثناء  
رقاد الأم فوجدت خديجة نفسها مرغمة على العودة إلى  
تلك المواقف الدقيقة الرهيبة التي تكابدها وهي على  
كعب من السيّد أو وهي تقضي له حاجة من حاجاته.  
ومنذ الساعة الأولى للذهاب الأم قالت خديجة «ينبغي  
ألا تطول هذه الحال، إنّ الحياة بدونها في هذا البيت  
عناء لا يطاق» فأمنت عائشة على قولها ولكنّها لم تجد  
من حيلة في وسعها غير الدموع فذرقتها، وانتظرت  
عودة إختوتها من بيت الجدة حتّى جاءوا وقبل أن تلفظ  
كلمة ممّا يدور في نفسها راحوا يتحدثون عن حال أمهم  
في «منفاها» فوقع الحديث من نفسها موقع الغرابة  
والاستنكار لأنّها كانت تسمع عن قوم غرباء لا يتاح لها  
لقاؤهم فغلبها الانفعال وقالت بحدة:

- إذا قنع كلّ منّا بالسكوت والانتظار فرمّا تلاحقت  
الأيام والأسابيع وهي مبتعدة عن بيتها حتّى يضيئها  
الحزن، أجل إنّ مخاطبة بابا في هذا الشأن مهمة شاقّة  
ولكنّها ليست أشقّ من السكوت الذي لا يليق بنا،  
ينبغي أن نجد طريقة... ينبغي أن نتكلّم...

ومع أنّ صيغة «نتكلّم» التي خمنت بها جملتها  
جاءت شاملة لجميع الحاضرين إلّا أنّه قصد بها - كما  
فهم بالبداية - شخص أو شخصان شعر كلاهما لدى  
سماحها بارتباك لم تتخفّ بواعثه على أحد، يتبدّد أنّ  
خديجة واصلت حديثها قائلة:

- لم تكن مهمّة مخاطبته فيها يعرض من أمور بأيسر

«الرجولة» المزعومة التي تذوب لدى ذكر أبيهم،  
وخافت الأم من ناحيتها أن يتطوّر الحديث بين الشابين  
والجدة إلى ذكر حادث السيارة فافهمتها بالإشارة -  
وهي تردّد يدها بين كتفها وأمها - أنّها أخفت عنها  
الامر، ثمّ قالت تخاطب أمها وكأنّها تنبهي للدفاع عن  
رجولة الشابين:

- لا أحبّ أن تعرّض أحدهما لغضبه فلنتركه لنفسه  
حتّى يعفو...

وهنا تساءل كمال:

- متى يعفو؟

فأشارت الأم بسبابتها إلى فوق وهي تغمغم «ربّنا  
عنده العفو». وكالمألوف في مثل هذه الحال دار  
الحديث حول نفسه فأعاد كلّ ما سبق له قوله بنفس  
الألفاظ أو بالألفاظ الجديدة من إثارة متواصل للظنون  
الوردية فطال الحديث دون أن يستجدّ به جديد، حتّى  
خيّم الظلام ووجب الرحيل. وحين وجب الرحيل  
وغشيت كآبته القلوب كالضباب شغل به الفكر عن  
الكلام فساد سكوت كالسكون الذي يسبق العاصفة،  
اللهمّ إلّا كلمات لا يراد بها إلّا التخفيف من وطأة  
الصمت أو التهزّب من الاعتراف بجثوم الوداع وكأنّ  
كلّاً منهم يلقي تبعة إعلانه على عاتق غيره رحمة  
بالجانب الآخر، هنالك حدس قلب العجوز ما  
تضطرم به النفوس حولها فرمشت عينها المظلمتان  
ولعبت أصابعها بحبات السبحة في عجلة ولموجة،  
ومضت بها دقائق بدت على قصرها كاتمة للأنفاس  
كالحظات التي يترقّب فيها الحالم في كابوس سقطة من  
علوّ شاهق، حتّى جاءها صوت ياسين وهو يقول «أظنّ  
أنّ لنا أن نذهب، وسنعود لناخذك معنا قريباً إن شاء  
الله» وتسمّعت العجوز لترى كيف تهلّج نرات ابتنتها  
عند الكلام، ولكنّها لم تسمع كلاماً بل سمعت حركة  
دالة على غيوض الجلوس، وأصوات قُبَل وهمهمة  
توديع، واحتجاج كمال على انتزاعه بالقوّة فبكاه، ثمّ  
جاء دورها في التسليم في جوّ مشبع بالحزن والفتور،  
وأخيراً أخذت الأقدام تبتعد تاركة إيّاها في حدة  
وشجن.



فرجع حاجبيه في ارتباك متطلّعا إليها بنظرة كأنما يقول لها «أنت أدري بالعواقب!» حقًا كان يتمتّع بمزايا لا يتمتّع ببعضها أحد في الأسرة فهو طالب بمدرسة الحقوق، وهو أكبرهم عقلًا وأنفذهم رأيًا، وله من ضبط النفس في المواقف الحرجة ما يدلّ على الشجاعة والرجولة ولكّنه سرعان ما يفقد جملة مزاياه إذا مثل بين يدي أبيه فلا يعرف غير الطاعة العمياء. وبدا وكأنّه لا يدري ماذا يقول فحثّته على الكلام بإيماءة من رأسها فقال متحرّجًا:

- هل تريئه يقبل رجائي؟... كلاً... ولكّنه سينهري قائلاً: «لا تتدخل فيما لا يعنيك». هذا إذا لم يثر غضبه فيوجّه إليّ كلاماً أشدّ وأقسى!

وارتاح ياسين إلى هذا الكلام «الحكيم» الذي وجد فيه دفاعاً عن موقفه أيضاً فقال وكأنّه يكمل رأي أخيه:

- وربما جرّ تدخلنا إلى محاسبتنا من جديد على موقفنا يوم خروجها فنفتح على أنفسنا فتحة لا ندري كيف نسدها!

فالتفت الفتاة نحوه مغبظة محنقة وقالت بمرارة وسخرية:

- لا منك ولا كفاية شرك!

فقال فهمي الذي استمدّ من غريزة «حبّ البقاء» قوّة جديدة للدفاع عن نفسه:

- فلنفكر في الأمر بعناية شاملة... لا أظنّه يقبل لي أو لياسين رجاء ما دام يعتبرنا شريكين في الخطأ، وعليه فالقضية خاسرة إذا تقدّم أحدهما للدفاع عنها، أما إذا حدّثته واحدة منكما فلعلّها تنجح في استعطافه أو لعلّها تجد - على أسوأ الظنون - إعراضاً هادئاً لا يبلغ حدّ العنف، فلماذا لا تحدّثه إحداكما؟... أنت مثلاً يا خديجة؟

فانقبض قلب الفتاة التي وقعت في الشرك وحدجت ياسين وفهمي بنظرة غيظ وهي تقول:

- ظننت هذه المهمة أخلق بالرجال!

فقال فهمي مواصلاً هجومه السلمي:

- العكس هو الصحيح ما دما نتوسّخ نجاح

على نينة ممّا هي علينا ومع ذلك لم تكن تتردّد عن مخاطبته إكراماً لأيّ واحد منّا، فمن الإنصاف أن نتحمّل نفس التضحية من أجل خاطرها.

تبادل ياسين وفهمي نظرة فضحت إحساسهما بالخناق الذي أخذ يضيق حولهما سريعاً ولكنّ واحداً منهما لم يجرؤ على فتح فيه أن ينتهي به الكلام إلى أن يقع عليه الاختيار ليكون كبش الفداء فاستسلما لانتظار ما يجيء به النقاش كما يستسلم الفأر للهرّة، وتركت خديجة التعميم إلى التخصيص فالتفتت إلى ياسين قائلة:

- أنت أخونا الأكبر وإلى هذا فأنت موظّف، أي رجل كامل. فأنت أجدرنا بهذا الواجب.

ملأ ياسين صدره بالهواء ثمّ نفخ وهو يعبث بأنامله في ارتباك ظاهر وتتمّ قائلاً:

- والدنا رجل نارٍ الغضب لا يقبل مراجعة لرأيه، وأنا من ناحيتي لم أعد غلاماً بل صرت رجلاً وموظّفاً كما تقولين، وأخوف ما أخاف أن ينفجر في غضباً فيفلت منّي زمام نفسي ويثور غضبي بدوره!

وعليهم الابتسام على أعصابهم المتوتّرة المحزونة فابتسموا، وأوشكت عائشة أن تضحك فأخفت وجهها في كفّيهما، ولعلّ حالهم المتوتّرة نفسها ممّا هيّاهم لقبول الابتسام كمسكّن وقنيّ للتوتّر والألم كما يحدث للنفوس أحياناً عند اشتداد الحزن من الاستسلام للطرب لأنفه الأسباب على سبيل التخفيف عن حال بأضدادها، ذلك أنّهم عدّوا قوله نوعاً من الدعاية الجديرة بالضحك والسخرية، وكان هو أوّل من يعلم بعجزه التأمّ عن مجرّد التفكير في الغضب أو المقاومة حيال والده وأوّل من يعلم أنّه قال ما قال فرأوا من مواجهة أبيه واتّقاء لسخطه، فلما رأى هزءهم لم يسعه إلّا أن يبتسم بدوره وهو يهزّ منكبيه كأنما يقول لهم «دعوني وشأني». فهمي وحده بدا متحفّظاً في ابتسامه لشعوره أنّ القرعة ستصيبه قبل أن تغيب ابتسامته، وصدق شعوره إذ أعرضت خديجة عن ياسين في ازدراء ويأس وخاطبته قائلة برجاء وإشفاق:

- فهمي... أنت رجلنا!...

المسمى، ولا تنسى أنكما لم تتعرضا لغضبه طول حياتكما إلا في النادر الذي لا يقاس عليه، فهو يألف الفرق بكما كما يألف البطش بنا!

فأطرقت خديجة متفكرة في قلق غير خافٍ، وكأنتها خافت إن طال صمتها أن تشتدَّ عليها الحملة فتستقرَّ المهمة الخطيرة في قرعتها فرفعت رأسها قائلة:

- إذا كان الأمر كما تقول فعائشة أخلق مني

بالكلام!

- أنا... ليه؟!

- ما دمنا نعجز جميعاً عن مخاطبة بابا فلنستعن بجارتنا الست أمّ مريم.

وما إن نطقت باسم «مريم» حتّى لحظت فهمي بحركة عكسيّة فالتفت عيناها لحظة قصيرة في نظرة لم يرتج لها الشابّ لإيجائها فأشاح عنها بوجهه متظاهراً بعدم الاكتراث، ذلك أنّ اسم مريم لم يجرّ على لسان أمام فهمي منذ نبذت فكرة خطبتها، أمّا مراعاة لعواطفه، وإما لأنّ مريم اكتسبت معنىً جديداً بعد اعترافه بحبّها سلكها في زمرة المحرّمات التي لا تتسامح تقاليد البيت بلوكها علانية حيال صاحب الشأن، وبالرغم من أنّ مريم نفسها لم تنقطع عن زيارة الأسرة متظاهرة بجهل ما دار بشأنها وراء الأبواب... ولم تُفُت ياسين لحظة الارتباك المتبادل بين فهمي وخديجة فأراد أن يغطّي على أثرها المحتمل بتوجيه الانتباه إلى وجهة جديدة فوضع يده على كتف كمال وقال بلهجة بين التهكم والتعريض:

- هذا رجلنا الحقّ، هو وحده الذي يستطيع أن يرجو والده ليعيد إليه أمّه!

لم يحمل كلامه محمل الجدّ أحد، وأولهم كمال نفسه، بيد أنّ قول ياسين وثب إلى ذاكرته في اليوم التالي وهو يقطع ميدان بيت القاضي عائداً من المدرسة، بعد نهار مضى أكثره في التفكير في أمّه المنقّية، فتوقّف عن السير صوب درب قرمز، والتفت إلى طريق النحاسين متردداً وقلبه المحزون يتابع خفقاته في كآبة وتألّم، ثمّ غير طريقه متّجهاً نحو النحاسين في خطوات متباطئة دون أن يجمع عزمه على رأي، يسوقه العذاب الذي يعاني لفقد أمّه، ويرجعه الخوف الذي يركبه لمجرّد ذكر أبيه، فضلاً عن مخاطبته أو التوسّل

نطقت بها عائشة في فزع من وجد نفسه في مرمى الخطر بعد أن اطمأنّ طويلاً إلى موقف المتفرّج الذي ليس له من الأمر شيء خاصّة وإنّا - لحدائث سنّها وغلبة إحساس الطفولة المدلّلة عليها - لم تكن تندب لشيء هامّ فضلاً عن أخطر مهمة يمكن أن تعرض لأحد منهم، إلا أنّ خديجة نفسها لم تجد فكرة واضحة لتبرير اقتراحها بيّد أنّها أصرت عليه في عناد مشيع بالمرارة والتهكم فقالت تحجب شقيقتها:

- لأنّه ينبغي الانتفاع بصفرة شعرك وزرقة عينيك

في إنجاح مسعانا!

- وما دخل شعري وعيني في مواجهة أبي؟!

لم تكن خديجة تهتمّ في تلك اللحظة بالإقناع بقدر ما تهالكت على إيجاد مخرج لها ولو بتحويل الأذهان إلى أمور هي بالمعابة أشبه تمهيداً للتقهقر، فالفرار من أسلم السبل الممكنة كمن يقع في مأزق حرج وتعوزه الحجة في الدفاع عنه فيلجأ إلى المزاح ليمهّد لنفسه مفراً في ضجّة من السرور بدلاً من الشائنة والازدراء لذلك قالت:

- أعرف لهما تأثيراً ساحراً في كلّ من يتصل بك،

ياسين... فهمي... حتّى كمال، فلماذا لا يكون لهما نفس التأثير عند أبي؟

فتورّد وجه عائشة وقالت بانزعاج:

- كيف أخطبه في هذا الشأن وأنا لا تقع عليّ عيناه

حتّى يطير ما في رأسي؟!

عند ذاك - وبعد أن تهرّبوا تبعاً من المهمة الخطيرة -

لم يعد يشعر أحد منهم بتهديد مباشر ولكن النجاة لم

إليه، لم يكن يتصور أنه يستطيع أن يقف بين يديه محدثاً في هذا الأمر، ولم تغب عن شعوره المخاوف العسية بأن تحقيق به لو فعل، ولم يصمم على شيء إلا أنه رغم كل هذا واصل السير البطيء حتى لاح لعينه باب الدكان كأنما ينزع إلى إرضاء قلبه الملعذب ولو إرضاء عميقاً - كالخداة التي تحوم حول خاطف صغارها دون أن تجرد الشجاعة على مهاجمته - وتداني من الباب حتى وقف على بُعد أمتار منه وطال الوقوف وهو لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يستقر على رأي، وفجأة خرج من الدكان رجل وهو يقهقه عاليًا وإذا بأبيه يتبعه حتى عتبة الباب مودعًا وهو يغرق في الضحك كذلك، فاذهلته المفاجأة، فستمر في مكانه مستشرفًا وجه أبيه الضاحك الطليق في إنكار ودهشة لا توصفان، لم يصدق عينيه وخیل إليه أن شخصية جديدة قد حلت في جسم أبيه، أو أن هذا الرجل الضاحك - على ما به من شبه بأبيه - شخص آخر يراه لأول مرة، شخص يضحك، ويغرق في الضحك، وينطلق البشر من وجهه كما ينطلق الضوء من الشمس، واستدار السيد ليدخل فوق بصره على الغلام المتطلع إليه بدهول فاخذته الدهشة لموقفه وهيته على حين استردت أساريه بسرعة مظهر الجذ والرزانة، ثم سأله وهو يتفرس في وجهه:

- ماذا جاء بك؟

وللحال دبّت في أعماق الغلام غريزة الدفاع عن النفس - رغم ذهوله - فتقدم من أبيه ومدّ يده الصغيرة إلى يده وتطامن عليها حتى لثمها في أدب وخشوع دون أن ينبس بكلمة. فسأله السيد مرة أخرى:

- أتريد شيئاً؟

فازدرد كمال ريقه وهو لا يجد ما يتلفظ به إلا أن يقول مؤثراً السلامة «إنه لا يريد شيئاً وأنه كان في طريقه إلى البيت» ولكن السيد استبطاه فلاح في وجهه الضيق وقال بخشونة:

- لا تقف كالصنم وقل ماذا تريد...

ونفذت خشونة الصوت إلى قلبه فارتعد، وانعقد لسانه فكان الكلام قد التزق بسقف حلقه، فازداد

الأب ضيقاً وهتف بحدة:

- تكلم... هل فقدت النطق؟

وتجمعت قوته كلها في إرادة واحدة وهي أن يخرج من صمته بأي ثمن اتقاء لغضب أبيه ففتح فاه قائلاً كيفاً اتفق له:

- كنت عائداً من المدرسة إلى البيت...

- وماذا أوقفك هنا كالمعتوه؟

- رأيت... رأيت حضرتك فأردت أن أقبل يدك...

فتجلّت في عيني السيد نظرة استرابة، وقال بجفاء وتهكم:

- أهذا كل ما هنالك... أوحشتك لهذا الحد؟

ألم تستطع أن تنتظر إلى الصباح لتقبل يدي إذا أردت؟... اسمع... إياك وأن تكون قد عملت عملة في المدرسة... سأعرف كل شيء...

فقال كمال بسرعة واضطراب:

- لم أعمل شيئاً وحياة ربنا...

فقال الرجل بنفاد صبر:

- إذن تفضل... ضيبت وقتي بلا مناسبة... غُر من وجهي...

فغادر كمال موقفه لا يكاد يرى موضع قدمه من الاضطراب، وتحرك السيد عن مكانه ليدخل ولكن عادت الغلام الحياة بمجرد تحوّل عيني أبيه عن عينيه، وصاح بلا شعور قبل أن يغيب الرجل وتضيع الفرصة:

- رجّع نيتة الله يخليك...

وأطلق ساقيه للريح...

كان السيد يحتمي قهوة العصر في حجرته حين دخلت خديجة وقالت بصوت كاد من التخشع ألا يسمع:

- جارتنا ست أمّ مريم تريد مقابلة حضرتك...

فتساءل السيد متعجباً:

- حرم السيد محمد رضوان؟ ماذا تريد؟

إليه، لم يكن يتصور أنه يستطيع أن يقف بين يديه محدثاً في هذا الأمر، ولم تغب عن شعوره المخاوف العسية بأن تحقيق به لو فعل، ولم يصمم على شيء إلا أنه رغم كل هذا واصل السير البطيء حتى لاح لعينه باب الدكان كأنما ينزع إلى إرضاء قلبه الملعذب ولو إرضاء عميقاً - كالخداة التي تحوم حول خاطف صغارها دون أن تجرد الشجاعة على مهاجمته - وتداني من الباب حتى وقف على بُعد أمتار منه وطال الوقوف وهو لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يستقر على رأي، وفجأة خرج من الدكان رجل وهو يقهقه عاليًا وإذا بأبيه يتبعه حتى عتبة الباب مودعًا وهو يغرق في الضحك كذلك، فاذهلته المفاجأة، فستمر في مكانه مستشرفًا وجه أبيه الضاحك الطليق في إنكار ودهشة لا توصفان، لم يصدق عينيه وخیل إليه أن شخصية جديدة قد حلت في جسم أبيه، أو أن هذا الرجل الضاحك - على ما به من شبه بأبيه - شخص آخر يراه لأول مرة، شخص يضحك، ويغرق في الضحك، وينطلق البشر من وجهه كما ينطلق الضوء من الشمس، واستدار السيد ليدخل فوق بصره على الغلام المتطلع إليه بدهول فاخذته الدهشة لموقفه وهيته على حين استردت أساريه بسرعة مظهر الجذ والرزانة، ثم سأله وهو يتفرس في وجهه:

- ماذا جاء بك؟

وللحال دبّت في أعماق الغلام غريزة الدفاع عن النفس - رغم ذهوله - فتقدم من أبيه ومدّ يده الصغيرة إلى يده وتطامن عليها حتى لثمها في أدب وخشوع دون أن ينبس بكلمة. فسأله السيد مرة أخرى:

- أتريد شيئاً؟

فازدرد كمال ريقه وهو لا يجد ما يتلفظ به إلا أن يقول مؤثراً السلامة «إنه لا يريد شيئاً وأنه كان في طريقه إلى البيت» ولكن السيد استبطاه فلاح في وجهه الضيق وقال بخشونة:

- لا تقف كالصنم وقل ماذا تريد...

ونفذت خشونة الصوت إلى قلبه فارتعد، وانعقد لسانه فكان الكلام قد التزق بسقف حلقه، فازداد

الأب ضيقاً وهتف بحدة:

- تكلم... هل فقدت النطق؟

وتجمعت قوته كلها في إرادة واحدة وهي أن يخرج من صمته بأي ثمن اتقاء لغضب أبيه ففتح فاه قائلاً كيفاً اتفق له:

- كنت عائداً من المدرسة إلى البيت...

- وماذا أوقفك هنا كالمعتوه؟

- رأيت... رأيت حضرتك فأردت أن أقبل يدك...

فتجلّت في عيني السيد نظرة استرابة، وقال بجفاء وتهكم:

- أهذا كل ما هنالك... أوحشتك لهذا الحد؟

ألم تستطع أن تنتظر إلى الصباح لتقبل يدي إذا أردت؟... اسمع... إياك وأن تكون قد عملت عملة في المدرسة... سأعرف كل شيء...

فقال كمال بسرعة واضطراب:

- لم أعمل شيئاً وحياة ربنا...

فقال الرجل بنفاد صبر:

- إذن تفضل... ضيبت وقتي بلا مناسبة... غُر من وجهي...

فغادر كمال موقفه لا يكاد يرى موضع قدمه من الاضطراب، وتحرك السيد عن مكانه ليدخل ولكن عادت الغلام الحياة بمجرد تحوّل عيني أبيه عن عينيه، وصاح بلا شعور قبل أن يغيب الرجل وتضيع الفرصة:

- رجّع نيتة الله يخليك...

وأطلق ساقيه للريح...

كان السيد يحتمي قهوة العصر في حجرته حين دخلت خديجة وقالت بصوت كاد من التخشع ألا يسمع:

- جارتنا ست أمّ مريم تريد مقابلة حضرتك...

فتساءل السيد متعجباً:

- حرم السيد محمد رضوان؟ ماذا تريد؟

فقال خديجة:

- لا أعرف يا بابا...

فأمرها بإدخالها وهو يمسك عن التعجب. ومع أن مجيء بعض الفضليات من الجارات لمقابلته - لشأن يتعلق بتجارته أو لصلح يسعى به بينهن وبين أزواجهن من أصدقائه لم يكن مع ندرته بالجديد عليه إلا أنه استبعد أن يكون ما دعا هذه السيدة إلى مقابلته واحد من هذه الأسباب. وخطرت على ذهنه، وهو يتساءل، مريم وما دار عن خطبتها بينه وبين زوجها، ولكن أي علاقة ثمة بين هذا السر الذي لا يمكن أن يتعدى دائرة أسرته وبين هذه الزيارة؟ ثم ذكر السيد محمد رضوان لاحتمال أن تكون الزيارة لسبب يمت إليه بيد أنه كان ولم يزل مجرد جار، لا تربطه به إلا صلة الجيرة التي لم ترتفع يوماً لمرتبة الصداقة، فاقصر تزاورها قديماً على المناسبات الضرورية حتى شل الرجل فعاده مرّات، ثم لم يعد يطرق بابه إلا في الأعياد. على أن ست أم مريم ليست بالغريبة عليه، فإنه ليدكر أنها قصدت دكانه مرة لابتاع بعض الخواتج وهناك عرفتة بنفسها استرعاء لاهتمامه فبذل لها من كرمه ما رآه جديراً بحسن الجوار، ومرة أخرى التقى بها عند باب بيته إذ صادف خروجه قدومها للزيارة مصطحبة كرميتها وعند ذاك أدهشته بجسارتها حين حيته قائلة «مساء الخير يا سي السيد»، أجل علمه اختلاطه بالأصدقاء أن بينهم من يتسامح فيها يتشدد فيه متطرقاً من التزام الآداب المتوارثة للأسرة، فلا يرون بأساً من أن تخرج نساؤهم للزيارة أو للاستبضاع، ولا يجدون حرجاً في توجيه تحية بريئة كالتي وجهتها أم مريم إليه، ولم يكن - رغم حنبلتيه - بالذي يطعن فيما يرتضون لأنفسهم ولنسائهم، بل لم يكن يسيء الظن حتى ببعض الأعيان من أصدقائه الذين يصطحبون زوجاتهم وبناتهم في العربات للتنزه في الخلوات أو لغشيان الملاهي البريئة مكتفياً في مثل هذه الحال بترديد قوله «لكم دينكم ولي دين»، أي أنه لا ينزع إلى تطبيق آرائه على الناس تطبيقاً أعمى، إلى أنه يحسن التمييز حقاً بين ما هو خير وما هو شر، إلا أنه لا يفتح

صدره لكل «ما هو خير» ضالماً في ذلك مع طبيعته التقليدية الصارمة حتى أنه عدّ زيارة زوجته للحسين جريمة قضى فيها بأقصى عقوبة أصدرها في حياته الزوجية الثانية، ولهذا كله لاقت تحية أم مريم له من نفسه دهشة مقرونة بما يشبه الانزعاج دون أن يسيء بأخلاقها الظن. وسمع خارج باب الحجرة نحنحة فأدرك أن القادمة تنذر بالدخول، ثم دخلت ملتفة في ملاءتها، مستورة الوجه برقع أسود تنوسط عروسه الذهبية عينين مكحولتين دعجاوين وتدانت منه بجسم جسيم لحيم مترنح الأرداف، فهض السيد لاستقبالها وهو يمدّ يده قائلاً:

- أهلاً وسهلاً، شرفت البيت وأهله.

فمدت له يدها بعد أن لفتها في طرف الملاءة أن تقبض وضوءه وقالت:

- ربنا يشرف قدرك يا سي السيد...

ودعاها للجلوس فجلست، ثم جلس وهو يسألها بمجاملة:

- كيف حال السيد محمد؟...

فقالته متتهدة بصوت مسموع كأن السؤال حرك أشجانها:

- الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، ربنا يلف بنا جميعاً...

فهز السيد رأسه كالأسف وتمتم:

- ربنا يأخذ بيده ويمنحه الصبر والعافية...

وأعقب حديث المجاملات صمت قصير فأخذت السيدة تنهياً للحديث الجدّي الذي جاء من أجله كما ينهيا المطرب للغناء بعد الفراغ من عزف المقدمة الموسيقية على حين غصّ السيد بصره تحشّياً تاركاً على شفثيه ابتسامة لتعلن ترحيبه بالحديث المنتظر:

- يا سيد أحمد، أنت في المروءة مثل يضرب في الحيّ كله، فلن يخيب رجاء لمن يقصدك مستشفعاً مروءتك.

فتمتم السيد بصوت حيي وهو يتساءل في نفسه «أرى ما وراء هذا كله؟»...

- أستغفر الله...

وعذب، فلما قالت «بل أعز من الأخ» جهر الصوت بحنان دافئ نشر في الجو المحتشم نفحة طيبة، فتعجب وتساءل، ولم يعد يطبق غضب بصره على الشك فرفعه مستائياً... واسترق إلى وجهها النظر - فوجدتها - على غير ما توقع - تتطلع إليه بعينيها الدعجاوين، فجاش صدره وخفض بصره مستعجلاً بين الدهشة والخرج ثم قال مواصلاً الحديث كي يغطي على تأثيره:

- أشكرك على ما أوليتني من أخوة...

وعاد يتساءل ثرى أكانت تتطلع هكذا طوال الحديث أم صادف رفع بصره إليها تطلعها إليه؟ وما القول في أنها لم تغض بصرها عند التقاء العينين؟ ولكنه سرعان ما هزا بأفكاره قائلاً لنفسه إن ولعه بالنساء وخبرته بمعاشرتهم أرفها حاسة سوء الظن عنده، وأن الحقيقة بلا ريب أبعد ما تكون عن تصوّره، أو لعل المرأة من النساء اللاتي يفضن الحنان طبعاً وسجية فيظنه من لا يعرفهن غزلاً وما هو بالغزل، ولكي يتحقق من صدق رأيه - لأنه لم تزل ثمة حاجة إلى التحقيق - رفع بصره مرة أخرى فما هاله إلا أن يراها رانية إليه، فتشجع هذه المرة وثبت عليها عينيه قليلاً فلم تزل ترنو إليه باستسلام جسور حتى غض بصره في حيرة شاملة، وعند ذاك لاحقه صوتها الناعم وهو يقول:

- سأرى بعد هذا الرجاء إذا كنت حقاً أثيرة عنده...

أثيرة؟ لو قيلت هذه الكلمة في غير هذا الجو المشيع بالحساسية المكهرب بالشك والحيرة، لمّت دون أن تترك أثراً، أما الآن؟ عاود النظر في غير قليل من الخرج فقرأ في عينيها بعض المعاني التي عابثت ظنونه، هل يصدق إحساسه؟ وهل يمكن هذا حال استشفاعها لزوجه؟ ولكن كيف يعجب من كان في مثل خبرته بالنساء؟ سيّدة لعوب ذات بعل مشلول. وسرت في وجدانه وثبات بهيجة ملائه حرارة وزهواً، ولكن متى نشأت هذه العاطفة؟ أهي قديمة وكانت تتحيّن الفرص؟ ألم تزر دكانه مرة فلم يند عنها ما يريب... ولكن الدكان ليس بالمكان الذي تطمئن إليه مثلها في

- المسألة أنني جئت الساعة لأزور أختي ست أم فهمي فما هالني إلا أن أعلم بأنها ليست في البيت وأنت غاضب عليها...

وأمسكت المرأة لتسر أثر كلامها ولتسمع رأي السيد فيه، ولكنه لا بالصمت كأنه لا يجد ما يقوله ومع أنه شعر بعدم ارتياح إلى فتح هذا الموضوع إلا أن ابتسامة الترحيب ظلت معلقة بشفتيه...

- هل توجد ست أكمل من ست أم فهمي؟ ست العقل والحياء، جارة عشرين عاماً وأكثر، لم نسمع خلالها منها إلا ما يسر الخاطر، فما عسى يمكن أن تحني ممّا تستحقّ عليه غضب رجل عادل مثلك؟

فثابر السيد على صمته متجاهلاً تساؤلها، ثم دارت برأسه خواطر زادت من عدم ارتياحه... ثرى أجاءت زيارة المرأة للبيت اتفاقاً أم أنها استدعيت بتدبير مدبر؟ خديجة؟ عائشة؟ أمينة نفسها؟ إتهم لا يملون الدفاع عن أمهم، هل ينسى كيف قهر كمال على الصراخ في وجهه مطالباً بعودة أمه، الأمر الذي عرّضه فيما بعد لعلقة ساخنة تطاير بخارها من يافوخه؟

- يا لها من سيّدة طيبة لا تستأهل عقاباً... وبها لك من سيّد كريم لا يليق به العنف، ولكنه الشيطان اللعين أخزاه الله وما أجدر بلك بإفساد كيده... وشعر عند ذاك بأن الصمت غدا أثقل من أن يجتمل بمجاملة للزائرة فتمتم قائلاً باقتضاب متعمد:

- ربّنا يصلح الحال...

فقالت أم مريم بحماس متشجعة بما أصابت من نجاح في استدراجه إلى الكلام:

- لشّد ما يعز عليّ أن تترك جارتنا الطيبة بيتها بعد ذاك العمر الطويل من السر والكرامة...

- ستعود المياه إلى مجاريها، ولكن لكل شيء ميعاد...

- أنت أختي، بل أعز من الأخ، ولن أزيد على هذا كلمة واحدة...

جدّ جديد من الأمر لم يغب عن وعيه اليقظ فسجله كما يسجل المرصد الزلزال البعيد مهما تدقّ حركته. خيل إليه وهي تقول «أنت أختي» أن صوتها رقّ

«الصدق وذ دائم والعشيقه هوى عابر»، ولهذا قنع بانتقاء خليلاته ممن يجدهن بلا خليل، أو ينتظر حتى تنقطع علاقة فينبه لانتهاز فرصته، وأحياناً يستأذن الخليل القديم قبل أن يتوّد إلى من كانت خليلته، مواصلاً العشق في سرور لا يشوبه الندم ولا تكدر صفوه إحن النفوس. بمعنى آخر أنه نجح في التوفيق بين «الحيوان» المتهالك على اللذات وبين «الإنسان» المتطلع إلى المبادئ العالية توفيقاً اثلاثياً يجمعهما في وحدة منسجمة لا يطغى أحد طرفيها على الآخر ويستقل كل منهما بحياته الخاصة في سر وارتياح، كما وفق من قبل في الجمع بين التدين والغواية في وحدة خالية من الإحساس بالذنب والكبت معاً، غير أنه لم يكن يصدر في وفائه عن إخلاص مجرد للأخلاق ولكن - إلى هذا أو قبل هذا - عن رغبته التليدة في أن يظل حائزاً للحب متمتعاً بالسمعة العطرة، إلى أن غزواته المظفرة في العشق هزّت عليه الإعراض عن الحب الموسوم بالخيانة أو النذالة، وفضلاً عن هذا وذاك فإنه لم يعرف الحب الحقيقي الذي كان خليقاً بأن يدفعه إلى إحدى اثنتين: فلما الإذعان للعاطفة القوية دون مبالاة بالمبادئ، ولما الوقوع في أزمة عاطفية خلقية حادة لم يقدر عليه الاكتواء بنارها. فلم يكن في أم مريم إلا صنف للذيد من الطعام لن يضيره - إذ هدّه تناوله بسوء الهضم - أن يعدل عنه إلى غيره من الأصناف المأمونة الشهية التي تحفل بها المائدة، لذلك أجابها برقة قائلاً:

- شفاعتك مقبولة إن شاء الله وستسمعين ما يسرك  
عماً قريب...

فقامت المرأة وهي تقول:

- ربنا يكرمك يا سي السيد...

ومدّت له يداً بضّة فمدّ لها يده وهو يغضّ بصره فخيّل إليه - وهي تسلم - أنها ضغطت قليلاً على يده، وجعل يتساءل أهذه طريقتها في التسليم أم أنها تعمّدت الضغط على يده، وحاول أن يشدّر كيفية تسليمها عند استقبالها ولكن الذاكرة لم تسعفه، وقضى

بث هوى مكتم غير مسبوق بتمهيد كما فعلت زبيدة العالمة، أم هي عاطفة بنت ساعتها وجدت مع الفرصة السانحة في الغرفة الخالية؟ لو صحّ هذا فهي «زبيدة» أخرى في لباس سيّدة مصونة، وليس غريباً أن يجهل أمرها - وهو العليم ببنات الهوى - ما دام يحرص الحرص كلّ على احترام الجيران احتراماً مثاليّاً، وأياً كان الأمر فكيف يجيبها؟ «أنت أتر عندي ممّا تظنين؟» قول جميل ولكنها حرية بأن ترى فيه تحية استجابة لدعائها، كلّاً إنّه لا يريد هذا، إنّه ياباه كلّ الإباء، لا لأنّه لم يشبع بعد من زبيدة، ولكن لأنّه لا يقبل أن يجحد عن مبادئه في تقديس الأعراض عامّة، وما يمسّ الأصدقاء والجيران منهم خاصّة. لهذا لم تسود صفحته نقطة واحدة يمكن أن يخرى بها أمام صديق أو جار أو أحد من الأطهار على إفراطه في العشق والصبوات، ولم يزل دأبه أن يخاف الله في هواه كما يخافه في جدّه فلا يبيع نفسه إلّا ما يراه مباحاً أو في حدود الهفوات. لا يعني هذا أنّه أوتي إرادة خارقة تعصمه من الأهواء، ولكنّه لهج بالهوى المبدول، وصان طرفه عن الحرمات حتى أنّه لم يتعمّد النظر إلى وجه امرأة من حيّه طوال عمره، على أنّه ممّا يذكر له أنّه صدّ مرة عن هوى متاح رحمة بأحد معارفه، إذ جاءه يوماً رسول يدعو إلى لقاء أخت ذلك الرجل - أرملة نصف - في ليلة سهاها فتلقّى السيّد الدعوة صامتاً وصرف الرسول متلفظاً كعادته ثمّ قاطع الطريق الذي يوجد به البيت أعواماً متواصلة. ولعلّ أم مريم كانت أول تجربة - عرضت لمبادئه - يكابدها بعينيه، ومع أنّها أعجبتّه إلّا أنّه لم يستجب لنوازع الهوى، وغلب صوت الحكمة والوقار، صائناً سمعته التي يتحدّث بها الناس عن موطن المؤاخلة، كأنّ هذه السمعة الطيبة أتر عنده من اقتناص لذة مواتية، متعرّياً في نفس الوقت بما يتاح له من حين لآخر من غراميات مأمونة العواقب، وهذه الروح الراعية للعهد المخلصة للإخوان لا تزايله حتى في مغاني اللهو والشهوة، فلم يؤخذ عليه أبداً أنّه سطا على محظية صاحب أو طمح بطرف إلى خليله صديق، مؤثراً الصداقة على الأهواء، لأنّه كما اعتاد أن يقول

على البيت من حين لآخر، حرم المرحوم شوكت، والمرحوم شوكت من قبل، أسرة ارتبطت مع أسرته بأصرة الوُدِّ الخالص من عهد الجدود، كان للراحل منزلة الأب من نفسه، ولم تزل أرملة عنده - وعند أسرته بالتبعية - بمنزلة الأم، هي التي خطبت له أمانة بنفسها، وتلقت أبناءه بيديها وهم يستقبلون نور الدنيا، وإلى هذا كله قال شوكت أناس صدقاتهم شرف، لا لأصلهم التركي فحسب، ولكن لمرتبهم الاجتماعية وعقاراتهم الكثيرة ما بين الحمزاوي وبين الصوريين، وإذا كان السيد من أوساط الطبقة الوسطى فهم من أهل القمة فيها بلا جدال، ولعل الأمومة التي تشعر بها المرأة له ويشعر بها لها هي التي جعلته يقف من شفاعتها المنتظرة موقف التهيب والخرج، فليست هي بالتي تلتزم الاحترام في مخاطبته، ولا بالتي تتعب في استعطافه، فضلاً عما عرفت به من صراحة جارحة لها مبرراتها من شيخوختها ومكانتها معاً، أجل ليست هي...

وأمسك عن أفكاره لدى سماعه وقع خطواتها، ثم نهض وهو يقول بترحيب:

- أهلاً وسهلاً، زارنا النبي...

اقتربت منه سيّدة طاعنة في السن، تدبّ على مظلة وهي ترفع إليه وجهها ناصع البياض كثير التجاعيد لم يكذب يحجب منه شيئاً برقعها الأبيض الشفاف، وتلقت تحيته بابتسامة جلّت عن أسنانها الذهبية، وسلّمت، ثم اتخذت مجلسها إلى جانبه بلا كلفة وهي تقول:

- من يعيش يرّ، حتّى أنت يا زين الرجال!... وحتى هذا البيت تحدث فيه هذه الأمور التي لا يطيب التحدّث عنها!... شحّحت وربّ الحسين وبأدرك الحرف...

واسترسلت في الكلام مطلقة العنان للسانها يقول ويعيد غير تاركة للسيد من فرصة لمقاطعها أو التعقيب عليها، حدّثته كيف جاءت للزيارة، وكيف اكتشفت غياب زوجها «ظننت بادئ الأمر أنّها خرجت في زيارة فدخلت صدري بيدي دهشة وقلت ماذا حدث للدنيا!... وكيف سمح لها السيد بالخروج مستهيناً

أكثر الوقت الذي سبق عودته إلى الدكان وهو يفكر في المرأة، حديثها، ولينها، وتسليمها...

### ٣٦

- تيزة حرم المرحوم شوكت تريد مقابلة حضرتك. رمى السيد خديجة بنظرة حمراء وصاح بها: لماذا؟

ولكن أعلنت نبراته الغاضبة ونظراته النائرة على أنّه لم يقصد الوقوف عند مدلول «لماذا» وكأنّه أراد أن يقول لها «لم أكد أفرغ من وسيط الأمس حتّى جئتني بوسيط جديد اليوم، من قال لك إنّ هذه الخيل تجوز عليّ؟... كيف تجسرين أنت وإخوتك على المكر بي؟».

واصفراً وجه خديجة وهي تقول بصوت متهذّب:

- لا أدري والله...

فحرك رأسه حركة كأنّها تقول لها «بل تدرين وأدري أنا أيضاً ولن يحرك مكرك إلّا إلى أوحم العواقب» ثم قال ساخطاً:

- خليها تتفضّل، لن أشرب قهوتي براحة بال بعد الآن، أصل حجرتي محكمة وقضاة وشهود، وهذه هي الراحة التي أجدها في بيتي، لعنة الله عليكم أجمعين!...

اختفت خديجة قبل أن يتمّ كلامه كما يختفي الفأر إذا قرعت سمعه قرعة، وظلّ السيد لحظات متجهّماً حانقاً، حتّى خطرت على ذهنه خديجة وهي تنسحب خائفة فعرّثت قدمها بقبابه وكاد رأسها يصطدم بالباب، فارتسمت على شفّيته ابتسامة إشفاق مسحت غضبته المتعسّفة وقطرت على صدره عطفاً، يا لهم من أطفال يأبون أن ينسوا أمهم ولو دقيقة واحدة، وأنّجه بصره إلى الباب وهو يتهيأ لاستقبال الزائرة بوجه انبسط أساريه كأنّه لم يصب غضبه منذ ثوان على فكرة زيارتها، ولكن لم يجد له حيلة فيما يركبه من غضب - وهو في بيته - لأنّفه الأسباب أو بلا سبب على الإطلاق، وفضلاً عن هذا كله كان للقادمة منزلة خاصّة لا يرتقي إليها أحد من النساء اللاتي يتردّدن

يزوّج الصغرى حتّى تتزوّج الكبرى سيرتطم هذه المرة برغبة عزيزة لا يسعه إهمالها... رغبة عالته بها من لا تهمل تصميمه ذلك ممّا دلّ على أنّها ترفضه سلفاً وتابى أن تنزل عند حكمه...

- ما لك صامتاً كأنك لم تسمعي؟  
وابتسم السيّد ارتباكاً وحياء، ثمّ قال على سبيل الملاحظة والمجاملة ريشاً يقلّب الأمر على وجوهه:  
- هذا شرف عظيم لنا...

فرمته السيّدة بنظرة كأنما تقول له «ابحث لك عن طريقة أخرى غير معسول الكلام» وقالت بلهجة هجومية:

- لا حاجة بي إلى الضحك عليّ بأجوف الكلام، لن أرضى بغير الموافقة التامة، لقد ندبني خليل لاختيار زوجة له فقلت له عندي عروس هي خير ما يمكن أن تظهر به فسرّ لاختياري ولم يعدل بمصاهرتك شيئاً... فهل جاء زمن تقابل فيه مثل هذه الرغبة، متى أنا، بالصمت والتهرّب؟! الله... الله...

الإلم يقع في هذه المشكلة المعقّدة التي لا يمكن أن يخرج منها دون أن يصيب إحدى ابنتيه بصدمة قاسية؟!... ونظر إليها كما يستجدي عطفها على موقفه، وغمغم:

- ليس الأمر كما تتصوّرين، رغبتك فوق العين والرأس، ولكن...

- آه من لكن!... لا تقل إنك قرّرت ألا تزوّج الصغرى حتّى تتزوّج الكبرى، من أنت حتّى تقرّر هذا أو ذاك؟... دع ما لله الله وهو أرحم الراحمين. إن شئت ضربت لك عشرات الأمثال عن أخوات صغار تزوّجن قبل الكبار فلم يحلّ زواجهنّ دون زواج أخواتهنّ بأحسن الأزواج، وخديجة شابة ممتازة ولن تعدم زوجاً صالحاً عندما يشاء الله... الإلم تقف حائلاً بين عائشة وبين حفظها؟... أليست هي الأخرى جديرة بعطفك ورحمتك؟!

قال لنفسه: إذا كانت خديجة شابة ممتازة فلماذا لا تختارينها؟!... وهم بإحراجها كما أخرجته ولكنّه خاف أن ترميه بإجابة تتضمن إساءة - ولو بحسن نية -

بالشرائع الإلهية والقوانين البشرية والفرمانات العثمانية!... بيد أنّها سرعان ما عرفت الحقيقة كلّها «فثبت إلى رشدي وقلت الحمد لله الدنيا بخير، هذا حقاً هو السيّد، وهذا أقلّ ما ينتظر منه» ثمّ غيّرت لهجتها الساخرة وراحت تؤنّب على قسوته، ولم تقتصد في الرئاء لزوجها التي تعدّها آخر امرأة تستحقّ عقاباً، وجعلت كلّها همّ بمقاطعتها تصيح به «هس، ولا كلمة...» دع حديثك الحلّ الذي تحسن تنميته فلن أخدع به، إنّني أريد عملاً صالحاً لا مزوّفاً وصارحته بأنّه يغالي في المحافظة على أسرته مغالاة خرقّت المألوف، وأنّه يجعل به أن يأخذ نفسه بشيء من الهوادة والرفق، استمع السيّد إليها طويلاً، ولمّا سمحت له بالكلام - بعد أن أعياها الكلام، شرح لها وجهة نظره المعروفة ولم يمنعه دفاعها الحارّ، ولا مكانتها عنده من أن يؤكّد لها بأنّ سياسته مع أسرته عقيدة لا يتحوّل عنها وإن وعدّها في النهاية - كما وعد أمّ مريم من قبل - خيراً، وظنّ أن آن للجلسة أن تنفضّ ولكنّه ما يدري إلّا وهي تقول:

- غياب أمينة هانم مفاجأة غير سارة لي لأنّي كنت أريدها لأمر هامّ جدّاً، ولأنّ الخروج لم يعد بالمهمة اليسيرة على صحّتي، ولا أدري الآن إن كان يحسن بي أن أتكلّم فيها أردت الكلام فيه أم أنتظر عودتها؟!  
فقال السيّد مبتسماً:

- كلنا تحت أمرك...  
- وددت لو كانت هي أوّل من يسمعي وإن كنت لم تترك لها من الأمر شيئاً، ولكن لئن فاتني هذا فعزائي لها فرصة سعيدة للعودة...

فاحتار السيّد في فهم حديثها وحلج إليها متسائلاً:  
- ما وراء هذا؟

فقال وهي تنكث السجادة بسنّ مظلّتها:  
- لا أطيل عليك، لقد وقع اختياري على عائشة لتكون زوجاً لخليل ابني...

ودهش السيّد دهش من أخذ على غرّة من حيث لم يتوقّع فركبه الارتباك، بل الانزعاج، لبواعث غير خافية، أدرك من أوّل وهلة أنّ تصميمه القديم على ألاّ



يصدق هذا من لا يرونه إلا مكشراً أو صاخباً أو ضاحكاً ساخراً... إن مسّة حزن تلذع فلذة من كبده خليفة بأن تنغص العيش كله وتطين وجه الحياة في عينيه، ولكم يسعده أن يجود بكلّ غالٍ في سبيل إسعاد فتاتيه سواء هذه التي يرى في وجهها الجميل وجه أمه أو تلك التي لم تُصيب من الحسن إلا لونها شاحباً، كلتاها من نبض قلبه وعصارة روحه، بيد أن الزوج الذي تقدّمه حرم المرحوم شوكت لفتة بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى، فتّى في الخامسة والعشرين، ذو دخل شهري لا يقلّ عن الثلاثين جنيهاً، حقاً إنّه كثير من الأعيان لا عمل له، وحقاً إنّ حظّه من التعليم ضئيل لا يتعدى معرفة القراءة والكتابة، ولكنّه يتّصف بعجالة من خلال أبيه الطيبة وكرم الأخلاق، ما عسى أن يفعل؟... يجب أن يحسم أمره لأنّه لم يألف التردّد ولا الشورى ولا يقبل أن يبدو أمام أهله - ولو لحظة قصيرة - كمن لا رأي قاطعاً له، ألا يشاور خاصّته المقرّبين؟ إنّه لا يرى غضاضة في مشاورتهم كلّها جدّ أمر، والواقع أنّ سمرهم يبدأ عادة بمناقشة الهموم والمشاكل قبل أن تطير بهم الخمر إلى الدنيا التي لا تعترف بالهموم والمشاكل، ولكنّه قدر ما يستبدّ في باطنه برأيه فلا يجيد عنه، فهو من الذين يلتمسون في الشورى ما يؤيد رأيهم لا ما يعدل بهم عنه، ولكنّها حتّى في هذه الحال عزاء ومتنفس، ولما ضاق الرجل بأفكاره هتف قائلاً:

- من يصدق أنّ ما بي من همّ لا يحتمل ما هو إلا نتيجة لخير أكرمني به الله؟... ١٩

### ٣٧

لم يكن لأمية من عمل في أيام منفاه إلا الجلوس إلى جانب أمّها والاسترسال في الحديث، في كلّ ما يخطر على البال من أحاديث تجاذبها الماضي البعيد والماضي القريب والحاضر، ما بين الذكريات العزيرة والمأساة الراهنة ولولا عذاب الفراق وشبح الطلاق لاطمأنت إلى حياتها الجديدة كمطلّة للاستجمام من عناء الواجبات أو كرحلة خياليّة في عالم الذكريات.

لخديجة وبالتالي له هو، وقال بصوت ملؤه الجذّة والاهتمام:

- ليس إلا أنّي أشفق على خديجة.

فقالت بحدّة كأنّها هي المطالبة لا هو:

- كلّ يوم تقع أمور كهذه دون أن تربك أحداً، إنّ الله يكره من عبده العناد والمكابرة، اقبل رجائي وتوكّل على الله، لا ترفض يدي فأنيّ ما مددتها إلى أحد قبلك...

فدارى السيّد انفعاله بابتسامه وقال:

- هذا شرف عظيم كما قلت لك منذ لحظة... فقط أمهليني قليلاً ريثما أراجع نفسي وأرتّب أموري، وستجدني رأيي عند حسن ظنّك إن شاء الله...

فقالت بلهجة من يجهز على الحديث:

- لا يجوز أن آخذ من وقتك أكثر ممّا أخذت، ثمّ إنّه كلّما طال الاخذ والرّد خيل لي أنّك لا تقبل رغبتني بقبول حسن، ومثلي من تطمع إذا قالت لك أريد أن تبادرها بنعم دون لتّ وعجن، فلن أزيد عمّا قلت إلا كلمة واحدة: خليل ابني وابنك وعائشة بنتك وبنتي...

وقامت فقام السيّد ليودّعها، لم يكن يتوقّع إلا كلمة توديع ونحيّة، ولكنّها أبت إلا أن تذكّره بوصاياها جملة. كأنّها خافت أن يفوته شيء منها فأعادتها تفصيلاً، وما يدري - أو تدري - إلا وهي ترجع لتأييد بعض آرائها وتوكيد البعض الآخر، ثمّ غلبها تداعي الأفكار فاسترسلت فيه بلا ممانعة حتّى أعادت على مسمعه جلّ ما قالت عن الخطبة، وإلى هذا كلّه لم تشأ أن تنهي ذاك الحديث دون أن تودّع حديث الأمّ المبعدة بكلمة أو كلمتين أو ثلاث وإذا بتداعي الأفكار يغلبها مرّة أخرى فتسترسل فيه حتّى كاد الرجل يفقد أعصابه، ثمّ أوشك أن يضحك في النهاية وهي تقول له: «لا يجوز أن آخذ منك أكثر ممّا أخذت» وأوصلها إلى الباب مشفقاً في كلّ خطوة من أن تتوقّف عن المسير وتتشبك في الكلام كزّة أخرى، ثمّ عاد أخيراً إلى مجلسه وهو يتنفس من الأعياق. عاد مغتتماً مكتئباً، قلب رقيق، أرقّ ممّا يظنّ الكثيرون، بل أرقّ ممّا ينبغي، فكيف

كبيرة ولا صغيرة مما في أعقابها إلا سجلته، لشد ما ودت أن تتلقى النبأ السعيد بهدوء خليق بأمومتها، ولكن الفرح استخفها فضحكت أساريرها ونطقت بابتهاج صبياني، وفي نفس الوقت تولأها حياء لم تذر له سبباً، وطال جودها في مكانها فنفد صبر كمال فشدها من يدها رامياً بثقله إلى الوراء حتى طاعوته ناهضة، ووقفت قليلاً في ارتباك غريب وما تدري إلا وهي تلتفت إلى أمها متسائلة:

- أذهب يا أمي؟

بدا السؤال الذي ندد عنها - في نعمة الارتباك والحياء - غريباً، فابتسم فهمي وباسين، ودهش كمال وحده فيها يشبه الانزعاج وراح يؤكد لها نبأ العفو الذي جاءوا به، أما الجدة فقد شعرت بشعورها كله وحذست باطنها فرق قلبها وتحاشت أن تظهر الإنكار لسؤالها ولو بابتسامة خفيفة، وقالت بلهجة جدية:

- إلى بيتك مصحوبة بسلامة الله . . .

فذهبت أمينة لترتدي ملأتها وتصبر ثيابها وكمال أعقابها، وهنا خاطبت الجدة الشابين متسائلة بلهجة خففتها بابتسامة رقيقة:

- أما كان الأخلق بأبيكم أن يأتي بنفسه . . . ؟!

فأجابها فهمي كالمعتذر قائلاً:

- أنت أدري يا جدتي طبع أبينا . . .

على حين قال ياسين ضاحكاً:

- فلنحمد الله على ما كان . . . !

فهممت الجدة بأصوات غير مفهومة ثم تنهدت قائلة كأنما ترد على مهمتها:

- على أي حال السيد أحمد رجل ولا كل الرجال.

وغادروا البيت ودعاء الجدة لهم بالبركة يتردد في

آذانهم، وقطعوا الطريق لأول مرة في حياتهم حتى بدا

النظر في أعينهم بالغاً في غرابته فتبادل فهمي وباسين

نظرات باسمة. وتذكر كمال يوم سار - كما يسير الآن -

ممسكاً بيد أمه يقودها من عطفة إلى عطفة، ثم ما تلا

ذلك من آلام وخاوف لا يحيط بها الكابوس نفسه

فتعجب طويلاً، بيد أنه تناسى سريعاً أحزان الماضي في

فرحة الساعة، ووجد من نفسه ميلاً للدعابة فقال لأمه

بيد أن مرور الأيام دون وقوع الشيء الذي تخاف وما بلغها من شفاعاة أم مريم وحرم المرحوم شوكت لدى السيد، كل أولئك ثبت قلبها وروح عن نفسها، إلا أن زيارات الأبناء المسائية التي لم تنقطع يوماً واحداً طالت جوى صدرها بنفحات أمل متجددة. ومع أن الزمن الذي يتغيرونه عنها في البيت الجديد لم يزد كثيراً عن نظيره في البيت القديم - في كلتا الحالتين لم تكن تجتمع بهم إلا حين فراغهم في جلسة المساء - إلا أنها باتت تشتاق إليهم اشتياق المغترب في بلد بعيد إلى أحباب فرق الدهر بينه وبينهم، اشتياق من حرم عليه تنفس جوهم والعيش بين ذكرياتهم، والإشراف على مواطن جدّم وهوم، كأن الجسم كلياً قطع في طريق الفراق قراطاً كابده القلب أميلاً، ودأبت العجوز على أن تقول لها كلياً وجدت منها صمتاً أو آنست في حديثها الشرود:

- الصبر يا أمينة، إني أرثي لحالك، الأم غريبة ما ابتعدت عن أبنائها، غريبة ولو حلّت في البيت الذي ولدت فيه.

أجل إنَّها غريبة، كأنه ليس البيت الذي لم تعرف حياتها الأولى سواء موطناً، وكأنَّها ليست الأم التي لم تكن تطيق البعد عنها لحظة واحدة، لم يعد «بيتها» ما هو إلا منقَى تنتظر بين جدرانها على لف العفو من السماء. وجاء العفو بعد طول انتظار، حمله الأبناء ذات مساء، دخلوا عليها وفي أعينهم لمعة كسنا البرق خفق لها فؤادها خفقة اهتز لها الصدر كله حتى أشفقت من أن تكون ذهبت في تأويلها إلى أبعد مما تحتل، ولكن كمال جرى نحوها وتعلق بمنقها ثم هتف بها وهو لا يتألك نفسه من الفرح:

- البسي ملأتهك وهيا بنا . . .

وقهقه ياسين قائلاً:

- جاء الفرج (ثم هو وفهمي معاً) دعانا أبي وقال لنا اذهبوا فعودا بأنكم . . .

وغضت بصرها لتداري فرحتها الغامرة. ما أعجزها عن كتمان ما يضطرب في نفسها من شتى العواطف، كأن وجهها امرأة شديدة الحساسية لا تترك

ضاحكًا:

- تعالي نخطف أرجلنا إلى سيّدنا الحسين...!

فضحك ياسين بلهجة ذات معنى:

- رضي الله عنه، إنّه شهيد يحبّ الشهداء...

ولاحث لهم المشربيّة وشبحان يتحرّكان وراء خصاصها فهفا قلب الأمّ إليهما في حنوّ واشتياق، ثمّ وجدت وراء الباب أمّ حنفي في استقبالها فغمرت يدي سيّدتها بالقُبْل، والتقت في فناء الدار بخديجة وعائشة اللتين تعلّقتا بها كالأطفال، ووقوا السّلم في مظاهرة صاخبة، ونشوة من الفرح مطربة حتّى استقرّوا جميعًا في حجرتها فتبادروا إلى نزع ملابسها - رمز الفراق البغيض - وهم يضجّون بالضحك، فلمّا جلست بينهم كانت تلهث من الانفعال والتأثّر. وأراد كمال أن يعبّر عن فرحه بها فلم يجد خيرًا من أن يقول لها:

- هذا اليوم أعزّ عندي من المحمل نفسه!

واجتمع شمل الأسرة لأوّل مرّة منذ زمن غير يسير في مجلس القهوة، فعادوا إلى السمر في جوّ من المسرّة ضاعف من بهجته ما سبقه من أيّام فراق وكآبة تزداد لذّة اليوم الدفء يحيي في أعقاب أسبوع من الزمهرير، ولم تنس الأمّ - التي استيقظت غرائزها رغم فرحة اللقيا - أن تسأل الفتاتين عن شئون البيت متدرّجة من حجرة الفرن حتّى اللبالب والياسمين، كما سألت كثيرًا عن الأب، وكم سرّها أن تعلم أنّه لم يسمح لأحد بمعاونته عند خلع ملابسه أو عند ارتدائها، فمهما يكن من أمر الراحة التي تهيأت له في غيابها فثمّة تغيير قد طرأ على نظام حياته حمّله بلا ريب عناء سيزول بعودتها، عودتها التي تكفل له - وحدها - الحياة التي يألّفها ويرتاح إليها...! الشيء الوحيد الذي لم يخطر لأمنية على بال أن تكون بعض القلوب السعيدة بعودتها قد وجدت في هذه العودة بالذات مبرّرًا لاجترار الحزن والأسى! ولكنّ هكذا كان، فهذه القلوب التي شغلت بحزن الأمّ عن أحزانها عادت إلى التفكير في أشجانها بعد أن اطمأنت على سلامة الأمّ، كالمغص الشديد الطارئ ننسى به رمداً مزمنًا حتّى إذا ذهب عادتنا آلام الجفون، عاد فهمي يقول لنفسه «لكلّ حزن - فيها

يبدو - نهاية، هذه أمّي قد رفع عنها الهمّ، ولكن حزي يبدو كأن لا نهاية له»، ورجعت عائشة إلى أفكارها التي لا يطلع على سرّها أحد، تراءى لها الأحلام وتلّم بها الذكريات وإن عدّت بالقياس إلى أخيها أهدأ حالًا وأسرع إلى النسيان خطوة، ولكنّ أمانة لم تكن تقرأ الأفكار فلم ينقص عليها صفوها منقص، ولمّا آوت إلى حجرتها ليلاً تبيّن لها أنّ النوم لا يجيد منسعا في نفسها التي أفعمها الفرح فلم تدقه إلّا لما حثّ انتصف الليل فغادرت الفراش إلى المشربيّة تنتظر كمهدا مسرّحة البصر من خصائص النوافذ إلى الطريق الساهر حتّى جاءت العربة تنهادى حاملة بعلاها إلى بيته، خفق قلبها بشدّة، وتورّد وجهها حياء وارتباكًا، كأنّها ستلقاه لأوّل مرّة، وكأنّها لم تفكر طويلاً في هذه اللحظة... لحظة اللقاء المنتظر، كيف تقابله؟ كيف يعاملها بعد هذه الغيبة الطويلة؟... ما عسى أن تقول له أو يقول لها؟ لو سمعها أن تتصنّع النوم! ولكنّها لا تحيد التمثيل قطّ ولا تطيق أن يدخل عليها وهي مستلقية، بل لا يسمعها أن تهمل واجب الخروج إلى السّلم بالمصباح لتضيء له، وأكثر من هذا كلّ أنّها بعد ظفّرها بالعودة وزوال السخط عنها - شاعت أريحية الرضا في قلبها ففعت عمّا سلف بل وحملت نفسها الذنب كلّ حتّى رأت بعلاها - بالرغم من أنّه لم يُعَنّ بالذهاب إلى بيت أمّها لمصالحاتها - حقيقة بالاسترضاء، فتناولت المصباح ومضت إلى السّلم ومدّت ذراعها من فوق الدرابزين ووقفت تتابع وقع القدمين المقتربتين بفؤاد خافق حتّى صعد إليها، لقيته برأس مطاطاً فلم تَرّ وجهه عند اللقاء، ولم تدّر أيّ تغبّر طرأ عليه حين مرّأها، حتّى سمعته يقول بلهجة طبيعيّة لا أثر فيها من الماضي القريب الأسيف:

- مساء الخير.

فغمغت:

- مساء الخير يا سيّدي...

وذهب إلى الحجرة وهي في أثره رافعة يدها بالمصباح، وبدأ يخلع ملابسه صامتًا فتقدّمت منه لمعاونته وباشرت عملها وقلبها يردّد أنفاس الراحة.

ومع أنها ذكرت صباح القطيعة المشوم حين نهض لارتداء ملابسه وقال لها بجفاء «سأرتدي ملابستي بنفسني» إلا أن ذكره خطرت عارية عن أحاسيس الألم واليأس التي غشيتها وقتذاك، وشعرت وهي تتعهد هذه الخدمة التي لم يسمح بها لسواها بأنها تسترد أعز ما تملك في الوجود. واتخذ مجلسه على الكنبه فتربتت على الشلثة عند قدميه دون أن ينس أحدهما بكلمة، وكانت تتوقع أن يشبع «الماضي الأسيف»، بكلمة، نصيحة أو تحذير أو ما شابه ذلك، وعملت لذلك ألف حساب ولكنّه سألها ببساطة:

- كيف حال أمك؟

فأجابته وهي تتهدد بارتياح:

- بخير يا سيدي وتهديك التحية والدعاء.

ومضت فترة صمت أخرى قبل أن يقول فيها يشبه عدم الاكتراث:

- حرم المرحوم شوكت فاتحتني برغبتها في اختيار عائشة زوجًا لخليل.

فرفعت إليه أمينة عينها في دهشة ناطقة بأثر المفاجأة، ولكنّه هز كتفيه استهانة، وكأنما خاف أن تدلي برأي يتفق أن يكون موافقًا لقراره الذي لم يعلم به أحد فتقوم عندها شبهة ظن بأنه أخذ برأيها فسبق قائلاً:

- فكّرت في الأمر طويلاً فأنتهى بي التفكير إلى الموافقة، لا أريد أن أعترض حظّ البنت أكثر ممّا فعلت، والله الأمر من قبل ومن بعد.

### ٣٨

تلقت عائشة البشرى بفرح جدير بفتاة تستشرف حلم الزواج منذ الصبا الباكر لا يشغلها عنه شاغل، وكادت لا تصدق أذنيها حين زف إليها الخبر، هل حقًا وافق أبوها؟ هل بات الزواج حقيقة قريبة لا حلماً ذا دعابات قاسية؟... لم يكن قد فات على الختية التي منيت بها إلا قرابة أشهر ثلاثة، ومع أن وقعها في نفسها كان شديداً قاسياً إلا أنّه مضى يخف ويهون حتى أمسى ذكرى شاحبة تستثير - إذا استثيرت - حزناً رقيقاً

غير ذي خطورة، كلّ شيء في هذا البيت يخضع خضوعاً أعمى لإرادة عليا ذات سيطرة لا حد لها هي بالسيطرة الدينيّة أشبه، حتى الحب نفسه - بين جدرانها - يسترق خطاه إلى القلوب في حياء وتردد وعدم ثقة بالنفس، فلا يتمتع بما يتمتع به عادة من سطوة واستبداد، إذ لا استبداد هنا إلا لتلك الإرادة العليا، ولذلك فعندما قال الأب «لا» استقرّ قوله في أعماق نفسها وأمنت الفتاة إيماناً راسخاً أن كلّ شيء قد انتهى حقاً، لا مهرب ولا مراجعة ولا رجاء بنافع، كأنّ «لا» هذه حركة كونية كاختلاف الليل والنهار، غير مجيد أيّ اعتراض عليها، ولا محيد عن اتخاذ موقف موافق لها، وعمل هذا الإيمان من ناحيته - بشعور وبغير شعور منها - على إنهاء كلّ شيء فأنتهى، على أنها تساءلت فيما بينها وبين نفسها: إذا كانت الموافقة على زواجها قد تمّت ولما ينقض على الرفض السابق ثلاثة أشهر فلم تكن من نصيب الشاب الذي هفا فزادها إليه؟... ألا ينطوي حظّها السعيد نفسه - تبعاً لذلك - على معاكسة غير مفهومة؟ بيد أنّه تساؤل ظلّ في طيّ الكتان، لم يطلع عليه أحد ولا أمها نفسها، لأنّ إعلان الفرح بالعريس - كشخصية معنوية فحسب - عدّ استهتاراً يجافي الحياء، فما بالك بإظهار الرغبة في رجل بالذات! ولكن بالرغم من هذا كلّ، وبالرغم من أنّ العريس الجديد كان مجهولاً لديها إلاّ فيما حدّثت عنه أمّه في جملة حديثها عن أسرتها فقد سعدت بالبشرى أيّما سعادة، ووجدت عواطفها الزاخرة قطباً تنجذب إليه في هيئتها، كأنّ حبّها نوع من «القابلية» أكثر منه تعلقاً برجل بالذات، فإذا استبعد رجل وحلّ محله آخر ظفرت قابليتها بما يشبعها، ومضى كلّ شيء في سبيله، وقد يكون رجل أثر عندها من آخر ولكن ليس إلى الحدّ الذي يفسد معه طعم الحياة أو يدفع إلى التمرّد والعصيان، ولما طابت نفساً ورفّ قلبها رفيف الغبطة انبعث منها نحو أختها - كشأنها في مثل هذه الحال - عطف ورحمة غير مشوين، فودّت لو أنّها سبقتها إلى الزواج، وقالت لها بين الاعتذار والتشجيع:

فيما يتعلّق بالعواطف - عادة متأصلة وضرورة أخلاقية طبعت عليه في ظلّ الإرهاب الأبويّ، وبين الحق والامتعاض من ناحية والكتمان والتظاهر بالرضى من ناحية أخرى لاقت من حياتها عذاباً متصلاً وجهداً مطرداً. وأبوها؟ ماذا عدل به عن رأيه القديم؟ أهانت عليه بعد إعزاز؟ هل نفذ صبره في انتظار زواجها فقرّر التضحية بها وتركها للأقدار؟ لشدّ ما تعجب لتخليهم عنها كأنها شيء لا يكون، نسيت في ثورتها مواقفهم السابقة في الدفاع عنها فلم تذكر إلّا «خيانتهم» الأخيرة، على أنّ غضبتها العامة هذه لم تكن شيئاً بالقياس إلى ما تجمّع في صدرها نحو عائشة من مشاعر الغيرة والحقن! كرهت سعادتها، وكرهت أكثر مداراتها لهذه السعادة، وكرهت جمالها الذي بدا في عينيها أداة تنكيل وتعذيب كما يبدو البدر الساطع في عين المطارد، ثم كرهت الحياة التي لم تعد تدخّر لها إلّا اليأس، وتتابع الأيام لتزيدها حزنًا على حزن بما حملت إلى البيت من هدايا العريس ونفحاته وبما نشرت في الجوّ كلّ من بواعث الغبطة والفرح فوجدت نفسها في غربة موحشة تتوالد فيها الأشجان كما تتوالد الحشرات في البركة الآسنة، ثمّ شرع السيّد في تجهيز العروس فاستأثر حديث الجهاز بجلوسات الأسرة المسائية، تعرض عليها أنواع من الأثاث والشباب فتطري شيئاً وتعرض عن شيء، توازن بين لون ولون، في اهتمام نسوا فيه الشقيقة الكبرى وما يجب لها من عزاء ومجاملة، وحتىّ هي نفسها اضطرت - مجارة لما تتظاهر به من رضى - إلى المشاركة في نشاطهم وحماسهم ومناقشاتهم التي لا تنتهي. بيد أنّ هذا الموقف العاطفيّ المعقّد، الذي يبدو لعين الغريب عن الأسرة كنذير شرّ لا تحمد عواقبه، تغيّر فجأة حين انجبه التفكير إلى تفصيل ثياب العروس وبالتالي حين تعلّقت الأبصار بخديجة وتركّز فيها الاهتمام كلّ والامل كلّ. وقد توقّعت هذا الواجب كأمر لا مفرّ منه، يحقّقها قبوله أشدّ الحق ولا يسعها رفضه وإلّا فضحت خبيثتها، ولكنّها حين تطلّعت إليها الأبصار فاوصتها أنّها باختها خيراً ورنّت إليها شقيقتها بعين ملؤها الحياء والرجاء

- وددت لو تقدّمتني إلى بيت الزوجية!... ولكنّها القسمة والنصيب، وكلّ آتٍ قريب.

ولكنّ خديجة - التي تضيق عند الهزيمة بعزاء العطف - تلقت قولها بامتعاض شديد لم تحفّ عليها. وقبل ذلك اعتذرت لها أمّها قائلة برقتها وحياتها المعهودين:

- تمّينا جميعاً أن يكون دورك السابق - وعملنا على هذا أكثر من مرة، ولكن لعلّ عنادنا فيما ليس لنا فيه من حيلة هو الذي عاق حقلك إلى اليوم، فلندع الأمور تسير كما يشاء الله، وكلّ تأخيرة فيها خيرة.

وجدت من ياسين وفهمي نفس العطف يديبانه تارة بالكلام المباشر، ويصدران عنه تارة أخرى فيما يحيطانها به من مجاملة حلّت - ولو إلى حين - محلّ المزاج القارص الذي كان مألوفاً بينها وبينها وبين ياسين خاصّة، الحقّ أنّه لم يعدل حزنها على سوء حظّها إلّا نرفزتها من العطف الشائع في جوّها لا لنفور من العطف مركّب في طبعها، ولكن لأنّ مثلها مثل المصاب بالأنفلونزا يضار بالتعرّض للهواء الطلق الذي ينعشه عادة وهو صحيح، فما كانت تأبه لعطف تعلم أنّه بديل غير مجتد لأمل ضائع، ولعلّها ارتابت - إلى هذا كلّه - في البواعث التي تدفعهم إلى إغداق العطف عليها، ألم تكن أمّها الواسطة دائماً بين الخاطبات وبين أبيها؟ فمن يديرها أنّها كانت تقوم بالوساطة أداء لواجب ربة البيت لا سعياً وراء رغبة خفية في تزويج عائشة؟ أوليس فهمي هو الذي حمل رسالة ضابط قسم الجباليّة؟... ألم يكن بوسعه أن يعدل به عن رأيه من وراء وراء؟!

أوليس ياسين... ولكن بأيّ وجه تلوم ياسين وقد خانها من هو أقرب منه إليها؟... فأيّ عطف هذا؟ بل أيّ رياء وأيّ كذب! لذلك برمت بالعطف، وذكرت به الإساءة لا الإحسان، فامتلات حنقاً وامتعاضاً ولكنّها طوتها في الأعماق أن تظهر بمظهر الكاره لسعادة أختها أو تعرّض نفسها - هكذا صوّرها - سوء ظنّها - لشهامة الشامتين، على أنّه لم يكن لها محيد عن كتان عواطفها لأنّ الكتان في هذه الأسرة - خاصّة

أثنا كانت - منذ صباها - تجاري أمها في تدنيها ومحافظتها على الفرائض بمثابة دلت على يقظة عاطفتها الدينية، لا كعائشة التي تلمّ بالعبادة في نوبات حماسية متباعدة ولا تطبق المداومة عليها، وطالما تعجّبت خديجة - وهي بمعرض المقارنة بين حظها وبين حظ أختها - من سوء الجزاء الذي تثاب على إخلاصها، وحسن الجزاء الذي تثاب به الأخرى على تهاونها... «إني أحافظ على الصلاة أما هي فلم تطلق المحافظة عليها يومين متتاليين، وإني أصوم رمضان كلّ وأما هي فتصوم يوماً أو يومين ثمّ تتظاهر بالصوم على حين تنسلّ خفية إلى المخزن فتملأ بطنها بالثقل حتّى إذا أطلق مدفع الإفطار هرعت إلى المائدة قبل الصائمين!». . . . وحتّى من ناحية الجمال لم تسلّم لعائشة بدون قيد ولا شرط، نعم إنّها لم تجهر برأيها لأحد، بل لعلّها تؤثر كثيراً أن تهاجم نفسها بنفسها لتقطع الطريق على المتحمّزين ولكّنها كانت تطيل النظر إلى وجهها في المرآة وتناجي نفسها قائلة: «عائشة جميلة بلا شكّ ولكّنها نحيلة، السمنة نصف الجمال، أنا سمينة، واكتناز وجهي يكاد يغطّي على كبر أنفي، لم يبق إلّا أن يشدّ بخي حيله». على أنّها فقدت ثقّتها بنفسها في الأزمة الأخيرة، ومع أنّها عاودت كثيراً تلك المناجاة عن الجمال والسمنة والبخت إلّا أنّها عاودتها هذه المرّة لتدري - أمام نفسها - إحساسها المقلق بعدم الثقة كما نلجأ أحياناً إلى المنطق لنستمدّ منه الطمأنينة على أمور - كالصحة والمرض والسعادة والشقاء والحبّ والكراهية - لا تمتّ إلى المنطق بسبب. . . .

ولم تنس أمانة - رغم كثرة مشاغلها كأمّ العروس - خديجة، أو أنّ فرحها للعروس كان يذكّرها بحزنها على أختها كما تذكّرنا الراحة التي نحظى بها بفعل مخدّر بالألم الذي سيعاودنا بعد حين، وكان زواج عائشة قد أثار غاؤها القديمة عن خديجة فأرسلت - التماساً للطمأنينة من أيّ سبيل - أمّ حنفي إلى الشيخ رءوف بالباب الأخضر حاملة منديل خديجة ليقرأ طالعها. وعادت المرأة بنوع من البشرى فقالت لسيّدتها إنّ الشيخ قال لها «ستحملين إلى رطلين من السكر عبثاً

وقال فهمي لعائشة على مسمع منها: «لن تكوني عروساً حقاً حتّى تحيك لك خديجة ثياب العرس»، وقال ياسين معلّقاً على قوله: «صدقت... هذه الحقيقة فوق الجدل»، حين حدث هذا كلّ فتر حنقتها وعقل ثورتها الحياء فطفت عواطفها الطيبة المطمورة، كما يستخرج الماء العذب الأخضر من البذور الكامنة تحت الطين، ولم ترتّب في بواعث هذا الاهتمام كما ارتابت من قبل في بواعث العطف «الزائف» لشعورها بصدقه من ناحية ولأنّه أنجّه إلى براعتها التي لا شكّ فيها من ناحية أخرى. فكأنّه اعتراف جامع بأهمّيّتها وخطورة شأنها، وبأنّ هذه السعادة - التي أبت أن تكون من نصيبها - لن تستكمل عناصرها حتّى تسهم هي فيها، فاستقبلت العمل الجديد بنفس تحفّفت إلى أقصى حدّ ممكن من انفعالاتها السوداء، إنّ الانفعالات السوداء تلمّ بهذه الأسرة كما تلمّ بغالبية البشر ولكّنها لا تغفر منها بقلب أسود فترسب فيه وتستقرّ. منهم من قابلته للغضب كقابلية الكحول للاشتعال، ولكن سرعان ما يسكت عنهم الغضب فتصفو نفوسهم وتعفو قلوبهم كأَيّام من شتاء مصر يطلخّم سحابها حتّى تمطر رذاذاً؛ وما هي إلّا ساعة أو بعض ساعة حتّى تنقشع السحب عن زرقة صافية وشمس ضاحكة. لا يعني هذا أنّ خديجة نسبت أحزانها ولكّنها الساحة صفّتها من الضغينة والحقد، ويوماً فيوماً لم تعد تعتب على عائشة ولا على أحد من أهلها بقدر ما عتبت على بختها حتّى نصبت في النهاية هدفاً لامتعاضها وتذمرها، ذلك البخت الذي قترّ عليها في الحسن وأجل زواجها حتّى جاوزت العشرين وكدر غدها بالقلق والمخاوف، واستسلمت أخيراً - كأُمّها - للمقادير. عجز جانبها الحامي الموروث عن أبيها، كما عجز جانبها المعقّد المكتسب من موقفها حيال بيتها، عن معالجة حظّها العاثر، فوجدت السلامة في أن تلوذ بالجانب السلمي الموروث عن أمّها فاستسلمت للمقادير؛ كالفائد الذي تعيه الحيل عن بلوغ الهدف فيختار موقعاً ذا حصانة طبيعية ليثبت فيه فوله، أو يدعو إلى الصلح والسلام. وراحت تشكو بثّها في الصلاة ومناجاة الرحمن. والحقّ

العوادة مغازلة خرج بها من دور التحضير- ملازمة قهوة سي علي مساء والنظر والسير وراء عربة الكارو والابتسام وقتل الشارب وتلعيب الحجاب- إلى دور المفاوضة والتأهب للعمل. حدث ذلك في عطفة التريبة الطويلة الضيقة المسقوفة بالخيش الملتوية ذات الدكاكين الصغيرة المتلاصقة على الجانبين كخلايا النحل. ولم تكن التريبة بالجديدة عليه، كيف وهي سوق النسوان من جميع الطبقات يتقاطرن عليها لابتياح ما خف حله وجلت فوائده من مختلف صنوف العطارة ذوات البهجة والجمال والنفع، فهي هدفه كلها خلا طريقه من هدف يجذبه إليه، وهي مراحه صباح الجمعة يقطعها متمهلاً- بحكم الزحمة والرغبة معاً- من طرف إلى طرف كأنما يستعرض الدكاكين لانتقاء حاجة وهو في الحقيقة يتفحص الوجوه والأجسام وما تنحسر عنه البراقع وما تضيق به الملاءات، ما يرى جملة وما يرى تفصيلاً، ما يسطع هنا وهناك من روائح زكية، ما يندّ من حين لآخر من أصوات أو يوسوس من ضحكات، ملتزماً عادة حدود الأدب لغلبة العناصر الطيبة على الزائرات، قانئاً بالمشاهدة والموازنة والنقد، لاقطاً من المراثيات صوراً ممتازة يزين بها متحف ذاكرته، لا يفوق سعادته إذا ظفر بلون بشرية صافٍ لم يره من قبل، أو يلحظ عين لم يتعرض لمثلها، أو لثدي عجيب في نهوده، أو لعجيزة خرقت المؤلف في ضخامتها أو حسن تكوينها فيرجع مرة وهو يقول «فاز بالسبق اليوم نهد الست التي كانت واقفة أمام الدكان الفلاني» أو «هذا يوم الكفل الرباعي رقم ٥» أو «يا لها من حقيبة ويا لها من حقيبة... هذا يوم الحقائق المشرقة» إذ تأدّى به مزاجه إلى التهالك على جسم المرأة متجاهلاً شخصيتها ثم إلى تركيز العناية في أجزاء من الجسم متجاهلاً جملته، وكأنه في هذا كله ينشع آماله ويجدّها أبداً كرجل لا يقدم على النسوان غاية في دنياه- عند الفرص المحتملة المذخرة ليوم أو لغد، إلى ما يسبح له في هذه الجولات الجنسية من صيد طيب في أحوال نادرة، ففي ذات أصيل- وهو يجلسه تحت الكوة بقهوة سي علي- رأى العوادة تغادر

قريب، ومع أنها لم تكن أول بشرى من هذا النوع تزفّ إليها عن خديجة إلا أنها أثلتها خيراً ورخت بها كمسكن للقلق الذي لا يزايلها...

### ٣٩

«الم يثن الأوان يا بنت المركوب؟ ذُبت يا مسلمين، ذبت كالصابونة ولم يبق منها إلا رغوة، هي تعلم بهذا ولا تريد أن تفتح النافذة، تدلي... تدلي يا بنت المركوب، ألم تنق على هذا الميعاد؟ ولكن لك حق... فردة ثدي من صدرك تكفي لحراب مألطة... وفردة تالية تطير مخّ هندنرج، عندك كنز، ربنا يلطف بي، ربنا يلطف بي ويكلّ مسكين مثلي يؤزقه الثدي الناهد والعجيزة المدملجة والعين المكحولة، العين المكحولة في الآخر، إذ ربّ ضريبة ربّا الروادف كاعب الثديين خير ألف مرة من عجفاء مسحاء مكحولة العينين، يا بنت العالمة وجارة التريبة... تلك لفتت أصول الدلال وهذه تمثلك بأسرار الجمال، لهذا ينهد ثدياك من كثرة من عبث بها من العشاق، اتفقنا على الميعاد لست أحلم، افتحي النافذة، افتحي يا بنت المركوب، افتحي يا أجمل من اقشعرت له سرتي، ومصّ الشفة ورضع الحلمة لأنظر حتى مطلع الفجر، ستجدينني طوع بنائك، إن أردت أن أكون مؤخر عربة الكارو التي تتارجحين عليه أكنّه، إن أردت أن أكون الحمار الذي يجزّ العربة أكنه، يا وقعتك يا ياسين، يا خراب بيتك يا بن عبد الجواد، يا شيانة الأسترالين فيك... يا أنا يا طريد الأزيكية وحبيس الجالية، الحرب يا هوه، شئها غليوم في أوربّا ورحت ضحيتها أنا في النحاسين، افتحي النافذة يا روح أمك، افتحي يا روحي أنا...». وهكذا جعل ياسين يحدث نفسه وهو جالس على الأريكة بقهوة سي علي، وعيناه تتطلّعان إلى بيت زبيدة العالمة خلل الكوة المطلّة على الغورية، كلما شكّه الجزع غرق في أحلامه وخواطره فترقه جزعه وتيسج أشواقه معاً، كبعض المنومات الطيبة التي تعالج الأرق وتنعّب القلب، كان قد تقدّم خطوة في مغازلة زبونة

البيت بمفردها فنهض من توّه وتبعها، ومالت إلى عطفة التريبعة فإل وراءها، ثمّ وقفت أمام دكان فوقف إلى جانبها، وانتظرت حتّى يفرغ العطار من بعض الزبائن فانتظر ولم تلتفت ناحيته فاستدلّ بذلك «التجاهل» على أنّها فطنت لوجوده - كما لا بدّ أن تكون حدثت متابعتها لها من بادئ الأمر - فهمس قريباً من أذنها «مساء الخير» فواصلت النظر إلى الأمام إلّا أنّه لمح بجانبها فيها انحراف ابتسامة ردّاً لتحيتها، أو مكافأة له على طول متابعتها لها مساء بعد مساء، فتنهّد تنهّد الراحة والظفر مطمئناً إلى جني ثمرة صبره فسأل لعاب شهوته كما يتحلّب ريق الجائع النهم إذا تطايرت إلى أنفه رائحة الشواء الذي يبيّأ له ورأى عن حكمة أن يتظاهر بأنّها جاء ممّا فادى ثمن مشترياتها من الخناء والمغات عن طيب خاطر خليق برجل يؤمن بأنّه - بأداء هذا الواجب اللذيذ - يكتسب حقاً اللذّ وأمتع، غير مكترث لما بدا منها من الميل إلى الإكثار من المشتريات حين اطمأنت إلى أنّه سيدفع الثمن. وفي طريق العودة قال لها بعجلة من يخاف وشك انتهاء الطريق «يا ستّ الحسن والجبال قضيت العمر كما تشهدين وراءك، وجزاء المحبّ اللقاء فقط؟» فلحظته بنظرة شيطنة متسائلة في تهكّم «اللقاء فقط؟» فكاد يضحك بروحه وجسمه كحاله إذا أخذته نشوة فرح ولكنّه يبادر إلى إحكام إغلاق فيه أن يحدث ضجّة تلفت الأنظار وأجابهامها «اللقاء ولوازمه!» فقالت بلهجة انتقادية «الواحد منكم يطلب بكلّ بساطة (اللقاء)... كلمة صغيرة... ولكنّه يعني بها عملاً ضحكاً لا ينال عند بعض الناس إلّا بالسؤال والشفاعة وقراءة الفاتحة وألمهر والجهاز والمأذون، أليس كذلك يا حضرة الأفندي الذي يضاهي الجمل طولاً وعرضاً؟!» فتورّد وجهه فيها يشبه الارتباك وقال «يا له من تأديب مهما يكن من قسوته فإنّه من شفتيك كالشهد، أليس هكذا العشق يا ستّ الحسن منذ خلق الله الأرض ومن عليها؟» فقالت وهي ترفع حاجبيها حتّى حاذيا طرف عروس البرقع فبدت كيعسوب باسط جناحيه «ومن أدراني بالعشق يا جملي؟... لست إلّا عوادة، ترى

هل للعشق لوازم أيضاً؟» فقال وهو يغالب الضحك «هي ولوازم اللقاء شيء واحد» «بلا زيادة ولا نقصان؟» «بلا زيادة ولا نقصان» «ولا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة؟» «لا واحدة نازلة؟...» «لا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة» «لعلّها التي يسمونها الزنا؟!» «بلحمه وعظمه!» فنذت عنها ضحكة، قالت «أتفقنا... انتظر حيث تنتظر كلّ مساء بقهوة سيّ عليّ وعندما أفتح النافذة قم إلى البيت». انتظر مساء ومساء ومساء، مساء خرجت مع الجوقة على الكارو، ومساء ذهبت مع العالمة في حنطور، ومساء لم يثدّ على البيت أثر للحياة، وما هو ينتظر وقد أعيا أعصاب رأسه طول النظر إلى الشبّاك. وممرّ مؤين من الليل فاغلقت الدكاكين وأقفر الطريق وشمل الغوريّة ظلام، ووجد - كما يقع له كثيراً في إقفار الطريق وإظلامه مثاراً غريباً لمكمن الشهوة في جسده فازداد جزعاً على جزع، بيدّ أنّه لكلّ شيء نهاية حتّى الانتظار الذي يبدو وكأن لا نهاية له فترامى إليه من ناحية الشبّاك الغارق في الظلمة طقطقة نفخت في حواسّه روح أمل جديد كما تنبعث روح الأمل في نفس التائه في القطب إذا ترامى إلى سمعه أزيز الطائرة التي يحسّ أنّها جاءت للبحث عنه بين الثلوج، ولاحت فرجة يشعّ منها ضوء، ثمّ تنوّر شبح العوادة وسط الفرجة فقام من فوره وغادر القهوة عابراً الطريق إلى بيت العالمة ودفع الباب دون أن يطرقة فانفتح كأنّ يدا رفعت مزلاجه فمرق إلى الداخل ليجد نفسه في ظلمة دامية لم يثدّ معها إلى موقع السّلم فلزم موقفه ليأمن الاصطدام أو العثار ووثب إلى رأسه سؤال لا يخلو من قلق: ترى أدعته زنوبة على غير علم من العالمة؟ وهل تبيح لها العالمة الاجتماع بعشاقها في بيتها؟ ولكنّه أبرز لسانه استهانة لأنّ رادعاً لم يكن ليثنيه عن مغامرة، ولأنّ ضبط عاشق في بيت تقوم جدرانها على مهج العاشقين ليس ممّا تحاذر عواقبه وانقطع عن التفكير حين لاح لعينه ضوء شاحب يهبط من أعلى، ثمّ لمح يترنّع على الجدران التي وضحت رويداً فتبيّن موقفه على بعد ذراع من أولى درجات السّلم عن يمينه، وما عثم أن رأى زنوبة قادمة ويدها مصباح فمضى نحوها



لتحت ومن تحت لفوق، ولكنّه قبل أن ينقذ نية من عشرات النوايا التي اعتلجت في صدره قالت زئوبة كأنما تصل ما انقطع من حديثها:

- رجل لا نظير له في لطفه وطربه، أمّا كرمه فحدّث عنه من اليوم إلى الغد... هكذا يكون العشق وآلاً فلا...

لم يغب عنه ما في إشارتها إلى «كرم» عشيق العالة من معانٍ، ومع أنّه سلّم من بادئ الأمر بأنّ غرامه الجديد سيفرض عليه ضرائب باهظة إلا أنّ تلميحتها - الذي بدا له مبتدلاً - ضابقتها، فلم يسعه إلا أن يقول مدفوعاً بغريزة الدفاع عن النفس:

- لعلّه رجل واسع الثراء!  
فكانت وكأنّها تحبّيه على مناورته:  
- الثراء شيء والكرم شيء آخر... ربّ ثريّ بخيل...

فتساءل لا عن رغبة في المعرفة ولكن تفادياً من الصمت الذي خاف أن يفضح استياءه:

- تُرى من يكون هذا الرجل الكريم؟  
فكانت وهي تدير عجلة المصباح لترفع فتيلته:  
- إنّه من حيّنا ولا بدّ أنّك تسمع عنه... السيد أحمد عبد الجواد...  
- من...!

فالتفت نحوه دهشة ل ترى ما أفرعه فألفته متصّلّب القامة جاحظ العينين فسألته مستنكرة:

- ما لك؟  
كان تلقّي الاسم الذي نطقت به كأنّه مطرقة هوت بعنف على يافوخه فنّد عنه التسلّؤل في نبرات صارخة من الفزع وهو لا يدري، وغاب عمّا حوله لحظات مليئة بالدهول، ثمّ تراءى له وجه زئوبة في حالة من الدهشة والإنكار فخاف افتضاح أمره وركّز إرادته كلّها في الدفاع عن موقفه فعمد إلى التمثيل يداري به فزرعه فضرب كفّاً بكفّ كأنما لا يصدّق ما قيل عن الرجل لظنّه الوقار به وتمتّع مستغرباً:  
- السيّد أحمد عبد الجواد!... صاحب دكّان النحاسين؟

في سكرة من الشوق وضغط في حنان على ساعدها امتناناً ورغبة حتّى ضحككت ضحكة رقيقة أوحى على رقتها بأنّها لا تحاذر، وتساءلت بمكر:

- طال انتظارك؟  
فمسّ سوالفه بأنامله وهو يقول بصوت شاكٍ:  
- شاب شعري الله يساعك (ثمّ بصوت خافت) الستّ هنا؟

فحاكت صوته الخافت على سبيل المزاح وقالت:  
- نعم... في خلوة مع رفيق قدّ الدنيا...  
- ألا تغضب إذا علمت بحضوري في هذه الساعة؟  
فاستدارت وهي تهزّ منكبيها استهانة ورقبت الدرج وهي تقول:

- وهل أنسب من هذه الساعة لحضور عاشق مثلك؟

- إذا لا ترى بأساً في اجتماعنا ببيتها؟  
فحرّكت رأسها حركة راقصة وقالت:  
- لعلّها ترى كلّ البأس في عدم اجتماعنا!...  
- عاشت... عاشت...

فاستطردت في لهجة تنمّ عن الفخار قائلة:  
- لست عوّدة فحسب، أنا بنت أختها، وهي لا تضنّ عليّ بغال... تقدّم بسلام...

ولمّا بلغ الدهليز جاءها من الداخل صوت غناء لطيف يصاحبه عود ودقّ فأنصت ياسين قليلاً ثمّ تساءل:

- خلوة أم حفلة؟  
فهمست في أذنه:

- خلوة وحفلة معاً، عشيق السلطانة رجل صاحب طرب ومزاج، لا يطيق أن يخلو مجلسه ساعة من العود والدقّ والكاس والضحك... عقي لك...

ومالت إلى باب ففتحته ودخلت وهو وراءها، ووضعت المصباح على كورنصول ثمّ وقفت أمام المرأة لتلقي نظرة فاحصة على صورتها فتناسى ياسين زبيدة وعشيقها الطروب وسدّد عينيه المنهومتين إلى الجسم المشتبه الذي بدا لناظريه متجرّداً عن الملاة لأوّل مرّة سدّدها بقوة وتركيز وحركهما في أناة وتلذّد من فوق

كأخطر شيء في الحياة ولم يستطع لها مقاومة فابتسم إلى الفتاة وهو يهز رأسه هزة حكيمة كأنما يقول «يا لها من أيام كلَّها عجائب!» ثم سألها بلهجة من يدفعه حب الاستطلاع وحده:

- ألا أستطيع أن أراه من حيث لا يراني؟  
فقلت معترضة:

- أمرك عجيب، وما الداعي إلى هذا التجسس؟  
فقال برجاء:

- منظر يستحق المشاهدة فلا حرمتني منه...  
فضحكت باستهانة وقالت:

- عقل طفل في جسم جمل، أليس كذلك يا جملي؟... ولكن لا عاش من يخيب لك رجاء...  
أنزروا في الدهليز وسأدخل عليهما بطبق من الفاكهة تاركة الباب مفتوحاً حتى أرجع...

وغادرت الحجرة فتبعها على الأثر بفؤاد خائف وانزوى في ركن من الدهليز المظلم على حين تابعت العودة سيرها إلى المطبخ، وبعد قليل عادت حاملة طبقاً من العنب فالتجّحت إلى الباب الذي ينبعث منه الغناء فنقرت عليه، وانتظرت دقيقة ثم دفعته ودخلت دون أن تغلقه وراءها، هناك بدا مجلس الطرب في صدر الحجرة تتوسطه زبيدة محتضنة العود وهي تلعب بالأوتار بأناملها وهي تغني «يا مسلمين يا أهل الله» وعلى كئيب منها جلس «أبوه» دون غيره - وقد اشتد خفقان قلبه لدى رؤيته - متجرّداً من جبته مشمراً عن ساعديه راعشاً الدف بين يديه متطلّعا إلى العالمة بوجهه يقطر بشاشة وبشراً. لم يلبث الباب مفتوحاً إذ رثما رجعت زئوبة، دقيقة أو دقيقتين، ولكنّه رأى فيهما منظرًا عجيبًا، حياة غامضة، قصّة طويلة عريضة، استيقظ في أعقابها كالذي يستيقظ من نوم طويل عميق على قلقلة زلزال عنيف، رأى في دقيقتين عمراً كاملاً ملخصاً في صورة كمن يرى في حلم هنيهة صورة جامعة لأحداث شيء يستغرق وقوعها في عالم الحقيقة أعماراً طويلة، رأى أباه حقاً، أباه دون غيره من البشر، ولكن لا كما تعود أن يراه، فلم يسبق له أن رآه متجرّداً من جبته في جلسة مريحة مناسبة مع

فحدجته بنظرة انتقاد مرّ لإزعاجها بلا سبب وسألته مستهزئة:

- نعم هو... فماذا استصرخك كأنك عذراء تُفَضُّ بكارتها؟

فضحك ضحكة آليّة وقال كالدهاش وهو يحمد الله في سرّه على أنّه لم يذكر لها اسمه كاملاً يوم التعارف:  
- من يصدّق عن هذا الرجل الوقور الورع؟!

فرمته بنظرة ارتياب وقالت ساخرة:  
- أهذا ما أفرعك حقاً؟... ولا شيء غيره؟  
أظننته من المعصومين؟... وماذا عليه من هذا؟...  
هل يكمل الرجل إلّا بالعشق؟...  
وقال بلهجة المعتذر:

- صدقت... لا شيء يستحق الدهش في هذه الدنيا (ثم ضاحكاً في عصيّة) تصوّري هذا الرجل الوقور وهو يطارح السلطانة الغرام ويشرب الخمر ويطرب للغناء...!

فقلت وكأني تكمل حديثه بنفس لهجتها الساخرة:  
- ويلعب بالدف بيد ولا يد عيوشة الدقافة وينثر النكات كالدرر فيقتل من حوله ضحكاً، وليس عجيباً - بعد هذا كلّ - أن يرى في دكانه مثلاً للجدّ والوقار... فالجدّ جدّ واللهو لهو، وساعة لرّبك، وساعة لقلبك...

يلعب بالدف بيد ولا يد عيوشة الدقافة!... ينثر النكات فيقتل من حوله ضحكاً!... من عسى أن يكون هذا الرجل؟!

أبوه السيّد أحمد عبد الجواد؟! الصارم الجبار الرهيب التقّي الورع؟! الذي يقتل من حوله رعباً؟! كيف يصدّق ما سمعت أذنائه؟! كيف... ألا يكون ثمة تشابه في الأسماء وآلّا علاقة بين أبيه وبين هذا العاشق الدقاف؟! ولكن زئوبة وافقت على أنّه صاحب دكان «النحاسين» وليس في النحاسين من دكان تحمل هذا الاسم إلّا دكان أبيه!... ربّاه هل ما سمعه حقيقة أو أنّه يهذي؟! لشد ما يؤدّ أن يطلع على الحقيقة بنفسه، أن يرى بعينه دون وسيط، رغبة تملّكت له لحظتئذ فبدا تحقيقها

لوقوع شيء باعتباره بعيداً عن التصديق ما دمت المسه واقفاً! إنه هناك فمن السخف أن أتساءل ذاهلاً هل يمكن تصديق هذا. فلا صدق ولا تعجب... وماذا عليه من هذا! ولم يشعر إلى تفكيره بارتياح فحسب ولكنه فرح فرحة فاقت كل تقدير، لا لأنه كان بحاجة إلى مشجع ليواصل حياته الشهوية، ولكن لأنه - كأكثرية الغارقين في الشهوات المحرمة - يستأنس إلى الشيبه، فكيف إن وجد في شخص أبيه - القدوة التقليدية - الذي طالما أزعجه، بشعور وبلا شعور منه، أن يجد نفسه وإياه على طرفي نقيض، تناسى كل شيء إلا فرحته، كأنها أعز ما ظفر به في حياته، وشعر نحو أبيه بحب وإعجاب جديدين - غير الحب والإعجاب اللذين اكتسبهما قديماً تحت ستار كثيف من الإجلال والخوف. حب وإعجاب ينبعان من أعياق النفس ويختلطان بجذورها الأولى، بل كأنها وحب الذات والإعجاب بها شيء واحد، لم يعد الرجل بعيداً عزيز المنال مغلق الأبواب ولكن دانياً قريباً، قطعة من نفسه وقلبه، أباً وإبناً، روحاً واحداً، ليس الرجل الذي يرعش الدف في الداخل السيد أحمد عبد الجواد ولكنه ياسين نفسه، كما يكون وكما يجب أن يكون، وكما ينبغي أن يكون، لا يفرق بينهما إلا اعتبارات ثانوية من العمر والتجربة «هنيئاً لك يا والدي، اليوم اكتشفتك، اليوم عيد ميلادك في نفسي، يا له من يوم ويا لك من أب، لم أكن قبل الليلة إلا يتيماً، أشرب والعب بالدف لعباً، ولا يد عيوشة الدقافة، إني فخور بك، هل تغني أيضاً يا تُرى؟...».

- ألا يغني السيد أحمد عبد الجواد أحياناً...؟  
- ألا زال فكرك مشغولاً به؟! يا ويل الناس من الناس!... بل يغني أحياناً يا جملي... يشترك في الهنك إذا سكر...  
- وكيف صوته؟...  
- غليظ جميل كعنفه....

«إلى هذا الأصل ترجع الأصوات التي تغني في بيتنا، الجميع يغنون، أسرة عريقة في الطرب، ليتني أسمعك ولو مرة، لا أحفظ لك في ذاكرتي إلا الزعق

سجيتها، ولا رأى شعره الفاحم نائر الأطراف كأنما جاء بعدو حاسر الرأس، ولا رأى ساقه العارية كما لاحت على حافة الديوان تحت ذيل القفطان المنحسر، ولا رأى - إي والله - الدف بين يديه يرعش باعثاً شخصخته الراقصة المتقطع بالنقر الرشيق، ولا رأى - ولعلّه أعجب ما رأى - هذا الوجه الضاحك المتألق الريان بالود والصفاء الذي أذهله كما ذهل كمال من قبل حين رآه يضحك أمام الدكان يوم قصده مدفوعاً برغبته في الإفراج عن أمه، رأى هذا كله في دقيقتين، ولمّا أغلقت زئوبة الباب وعادت إلى حجرتها كبّت بموقعه يستمع إلى الغناء وشخصته الدف برأس دائر، نفس الصوت الذي استمع إليه حال دخوله البيت، ولكن أيّ تغير اعتور الأثر الذي ينطبع منه على نفسه، أيّ معانٍ وصور جديدة ينقلها الآن إلى وجدانه كرنين جرس المدرسة يهش له الطفل إذا سمعه وهو غريب عنها وينقلب في أذنيه نذيراً لمتاعب جمّة إذا سمعه وهو ضمن تلاميذها. ونفرت زئوبة على الحجرة كأنما تدعوه ليلحق بها فافاق من غيبوته ومضى إليها وهو يحاول أن يتمالك نفسه كيلا يبدو أمامها مضطرباً أو ذاهلاً فدخل وعلى شفتيه ابتسامة عريضة:

- هل أنساك نفسك ما رأيت؟!!

فقال بلهجة تشي بالرضا والارتياح:

- منظر نادر، وغناء بديع...

- أتحب أن نفعل مثلها؟

- في ليلتنا الأولى؟!... كلاً... لا أحب أن

أخلط بك شيئاً آخر ولو كان الغناء نفسه!...

ولئن تكلف بادئ الأمر الحديث ليبدو أمامها - وأمام نفسه على السواء - هادئاً طبيعياً فقد انتهى إلى الانهك فيه بلا تكلف ثم إلى استرداد حاله الطبيعية بأسرع مما قدر، كالذي يتصنع هيئة الباكي في مأتم فينخرط في البكاء. على أنه رجماً عاودته الدهشة فجأة فيقول لنفسه «أعجب بها من حال لم تحط لي على بال من قبل، أنا هنا مع زئوبة وأبي في الحجرة القريبة مع زبيدة، كلانا في بيت واحد!» ولكنه سرعان ما يهزّ كتفيه ويستطرد في حديثه مع نفسه «كيف أحمل نفسي مشقة العجب

والنهر، غنوتك الوحيدة المشهورة بيننا «يا ولد- يا ثور- يا بن الكلب» أريد أن أسمع منك «الوداد في الملاح صُدف» أو «حيّيت يا جميل» كيف تسكر يا أبي؟ كيف تعريدي؟ ينبغي أن أعرف لأحتذي مثالك وأحيي تقاليدك، كيف تعشق؟ كيف تعانق؟...

وانتبه إلى زُوبة فراها أمام المرأة وهي تسوي أهداب شعرها بأناملها وقد لاح إبطها من فرجة الفستان أملس ناصعاً يتصل منحدره بأصل نهد كقرصة العجين فسرت في بدنه سكرة الهياج وانقضّ عليها كأنه فيل ينقضّ على غزال...

## ٤١

وقفت ثلاث سيّارات تطوّع بتقديمها بعض الأصدقاء أمام بيت السيّد أحمد في انتظار العروس وحاشيتها لحملهنّ إلى بيت آل شوكت بالسكّرية، كان الوقت أصيلاً وقد انحسرت أشعة شمس الصيف المائلة عن الطريق واستقرّت على البيوت المواجهة لبيت العروس. ولم تكن ثمة مظاهر تدلّ على عرس، اللهمّ إلّا الورد التي أزيّنت بها أولى السيّارات الثلاث فلفتت أنظار أصحاب الدكاكين القريبة وكثير من المازّة، ومن قبل ذلك اليوم تمت الخطبة ووردت الهدايا ونُقل الجهاز وعُقد القران فلم تنطلق من البيت زغردة أو تعلق باببه زينة أو تشي بما يدور داخله علامة من علامات الأفراح المألوفة التي تفاخر الأسر بإعلانها في أمثال هذه المناسبات، وتعلّل بسوانحها لتفصح عن مكنون حنينها للمسرة بالغناء والرقص والزغاريد، ثمّ كلّ شيء في صمت وهدوء فلم يدر به إلّا الأقارب والأصدقاء وخاصّة الجيران، وأبى السيّد أن يتزحزح عن تزوّته أو أن يسمح لأحد من آل بيته بأن يتزحزح عنه ولو ساعة واحدة، وفي ظلّ هذا الجو الصامت غادرت العروس والمدعوّات البيت رغم احتجاج أمّ حنفي على الخرجة الصامتة، فمرقت عائشة إلى السيّارة في سرعة خاطفة كأنما تخاف أن يشتعل فستان العرس أو قناعه الحرير الأبيض الموشى بالفلّ والياسمين تحت نظرات المتطلّعين، وتبعته

خديجة ومريم وبعض الفتيات، واستقلّت الأمّ وبعض النسوة من الأهل والجارات السيّارتين الأخريين، على حين اتّخذ كمال مجلسه إلى جانب سائق سيّارة العروس، ورغبت الأمّ في أن يمضي الركب إلى السكّرية عن طريق الحسين لتلقي نظرة جديدة على مقامه الذي كلّفها الشوق إليه قبل ذلك غالباً ولتستوهب صاحب المقام البركة لعروسها الحسناء، فاخترقت السيّارات الطرق التي قطعتها هي ذلك اليوم مع كمال، ثمّ مالت إلى الغوريّة عند المنطف الذي كادت تلقى فيه حفها حتّى وقفت بهنّ عند بوابة المتولّي أمام مدخل السكّرية الذي يضيق عن دخول السيّارات، وترجلن جميعاً ودخلن العطفة فطالعتهنّ معالم الزينات وهرع إليهنّ غلمان الحارة هائفين وتعالّت الزغاريد من بين آل شوكت، أوّل بيت إلى يمين الداخل- حيث ازدحمت نوافذه بـروس المطلّات المزغردات، ووقف عند مدخله العريس خليل شوكت وشقيقه إبراهيم شوكت وياسين وفهمي، وتقدّم خليل مبتسماً من العروس ومنحها ساعده فارتبكت ولم تُبدي حراكاً حتّى بادرت مريم إلى يدها فشيكته بساعده، ثمّ سار بها إلى الداخل مارّاً بحذاء الفناء المزدهم والورد والملبّس ينال على أقدامها وعلى أقدام من تبعها من حاشية العروس حتّى واراهاً باب الحريم، ومع أنّ قران عائشة بخليل تمّ قبل ذلك اليوم بشهر أو أكثر إلّا أنّ منظر اشتباكها وسيرهما معاً لاقى من ياسين وفهمي - والأخير خاصّة - دهشة مقرونة بالحياء وشعوراً بالإنكار أشبه كأنّ جوّ أسرتها لا يهضم حتّى طقوس حفلات الزفاف المشروعة، وبدا هذا الأثر بصورة أوضح عند كمال الذي جعل يجذب أمّه من يدها في انزعاج وهو يشير إلى العروسين اللذين يتقدّمان الجميع على السّلم كأنه يستعديها على دفع شرّ فظيع، وخطر للشّاين أن يسرقا النظر إلى وجه أبيهما ليريا أيّ أثر تركه ذاك المنظر الفريد، فشملا المكان بنظرة سريعة ولكنّها لم يبقا له على أثر، لم يوجد عند المدخل، ولا فيما يلي هذا من فناء البيت الذي اصطفت به الأرائك والمقاعد وأقيمت في صدره منصّة

إلى الجلوس بين أفراد تحتها، وبهذا وغيره جذب الأنظار إليه فأخذت المدعوات في مداعبته، ولكن أمه لم ترح إلى الضجة التي أثارها، وآثرت على كره منها - إشفاقاً على البعض من عبثه وإشفاقاً عليه من أعين المعجبات - أن تحمله على مغادرة المكان، انضم إلى مجلس الرجال، وتردد بين الصفوف، ثم وقف بين فهمي وياسين حتى ختم صابر دور «يس له تعشق يا جميل» واستأنف تجواله حتى مر بالمنظرة فأغراه حب الاستطلاع بالنظر إلى داخلها فمد رأسه وما يدري إلا وعينه تلتقيان بعيني والده فسمّر في مكانه وعجز عن استردادهما، وراه أحد أصدقاء أبيه - السيد محمد عفت - فداده فلم يجد بداً من تلبية النداء ليتفادى من إغصاب أبيه فتداني من الرجل على كره وخوف حتى وقف أمامه منتصب القامة مضموم الذراعين إلى جانبيه كأنه عسكري في طابور، وصافحه الرجل قائلاً:

- ما شاء الله... في أي سنة يا عم؟

- سنة ثالثة رابع...

- عال... عال... سمعت صابر؟

ومع أنه كان يجب على أسئلة محمد عفت إلا أنه راعى من بادئ الأمر أن تكون إجاباته بحيث ترضي أباه... فلم يدر كيف يجيب على السؤال الأخير أو أنه تردد قبل أن يعد الإجابة ولكن الرجل بادره متلفظاً:

- ألا تحب الغناء؟

فقال الغلام بتوكيد:

- كلاً...

وبدا من بعض الحاضرين ما يدل على أنهم سيعلقون على هذه الإجابة - آخر ما ينتظر من شخص ينتمي إلى عبد الجواد - مازحين، ولكن السيد حذرهم بعينه فامسكوا، أما السيد محمد عفت فعاد يسأله:

- ألا تحب أن تسمع شيئاً؟

فقال كمال وهو يلحظ أباه:

- القرآن الشريف.

فتعالت أصوات الاستحسان وسمح للغلام بالانصراف فلم يأت له أن يسمع ما قيل عنه وراء ظهره حين قهقه السيد الفار قائلاً:

الغناء. والواقع أن السيد خلا إلى نفر من خاصة أصدقائه بمنظرة الغناء فلم يفارقها مذ حل بالبيت مصتماً على ألا يفارقها حتى ختام الليلة مبتعداً بنفسه عن «الجمهور» الصاحب خارجها، لم يكن أشد إخراجاً لنفسه من الظهور بين آله في ليلة زفاف، إذ لا يرضى أن ينشر فوقهم رقابته في يوم خالص السرور، ولا يطيق من ناحية أخرى أن يشهد عن كثب انطلاقهم مع دواعي الفرح، وفضلاً عن هذا وذاك لم يكن أكره لديه من أن يرى - بينهم - على غير ما عهدوا من وقار صارم، ولو كان الأمر بيده لتم الزفاف في صمت شامل ولكن حرم المرحوم شوكت وقفت من اقتراحه في هذا الشأن موقف معارض لا تلين صلابته، وأبت إلا أن تحييها ليلة حافلة فاتفتحت على إحيائها مع العالمة جلييلة والمغني صابر، وبدا كمال لفرط ابتهاجه عما أتيح له من حرّة وسرور كأنه عريس الليلة، وكان أحد أفراد قلائل أبيع لهم التنقل كيفما شاءوا بين الحريم في الداخل وبين مجلس الطرب في فناء الدار، لبث طويلاً مع أمه بين النساء منقلاً طرفه بين زبنتهن وحليهن مصغياً إلى دعابتهن وأحاديثهن التي يستأثر الزواج بخلاصتها، أو منصتاً معهن إلى العالمة جلييلة التي تصدّرت البهو كالمحمل ضخامة وزينة وراحت تنشّد الطقاطيق وتعاقر الشراب جهاراً، فاستأنس إلى الجوّ الضاحك لغرابته وجاذبيته - والأهم من هذا كله - لوجود عائشة على حال من التبرج لم يحلم بها من قبل، وشجّعته أمه على البقاء ليظل تحت رعايتها، بيد أنها عدلت عن موقفها بعد حين واضطرت إلى أن تحفه همساً على الانتقال إلى مجلس أخويه لأمر لم تتوقع حدوثها، من ذلك ما بدا من اهتمامه بعائشة، بفستانها حيناً وبزواقيها حيناً آخر، فخيف منه على هندامها، أو ما بدر منه من ملاحظات صبيانية صريحة نحو بعض السيدات كما هتف بأمه مرّة وهو يشير إلى امرأة من آل العريس قائلاً: «انظري يا نينة إلى أنف هذه الست...» أليس أكبر من أنف أبله خديجة أو ما فاجأ به الجميع وجلييلة تغني من الاشتراك مع التخت في ترديد «يمامة حلوة...» ومنين أجيبها حتى دعت العالمة

الراهن ينسي أشياء ما كان يتصور أن ينساها لحظة ولكن خاطرة الأسى تغشى فؤاده الجذل كما تغشى السحابة الصغيرة وجه القمر في ليلة صافية السماء، ومن عجب أن سروره بالغناء في تلك الليلة فاق أي سرور عداه، كاللعب مع الغلمان أو مشاهدة النساء والرجال في مرحهم المطلق أو حتى عيش السراي والألمظية على مائدة العشاء، ولئن أدهش اهتمامه الجذبي بسباع جلييلة وصابر - الذي لا يتفق مع سنه - كل من لاحظته من النساء والرجال، فلم يدهش أحدًا من أسرته التي تعرف سوابقه في الغناء مع معلّمته عائشة كما تعرف حسن صوته الذي تعده أحسن أصواتها بعد عائشة وإن كان صوت الأب - الذي لا يسمعونه إلا مزيجًا - أحسنها جميعًا، وقد استمع كمال طويلاً إلى جلييلة وصابر ولكنّه على غير المنتظر وجد غناء الرجل وعزف تحت أحب إلى قلبه وأخذ لنفسه، فرسخت منه في ذاكرته جمل غنائية مثل «تعشق ليه... علشان كده» لجّل يردّها بعد ليلة الزفاف طويلاً في سقيفة اللباب والياسمين فوق سطح بيتهم، وشاركت أمينة وخديجة كمال في بعض ما أتيج له من أسباب السرور والحزنة، فلم يسبق لها - مثله - أن شهدت ليلة كذلك الليلة بما حفلت من أنس وطرب ومرح، وأبهج أمينة خاصة ما لاقت من الرعاية والمعاملة بصفقتها أم العروس، هي التي لم تنعم في حياتها برعاية أو محاملة، حتى خديجة اختفى همها في أنوار الفرح كما تختفي الظلمة عند إشراق الصباح، نسيت أحزانها بين الضحكات الناعمة والأنغام العذبة والأحاديث الطليّة، وازدادت لها نسياناً بفضل حزن جديد خالص الطويّة منشؤه شعورها بفراق عائشة الوشيك، شعور أثمر حباً وعطفاً خالصين فتوارت الأحزان القديمة أمام الحزن الجديد كما تتوارى الأحقاد أمام الأريحية، أو كما يقع لشخص حيال آخر يحبّ منه جانباً ويكره جانباً أن تتوارى - ساعة الفراق مثلاً - الكراهية لجانب أمام الحزن على الجانب الآخر، هذا إلى ما شاع في نفسها من ثقة حين تبدّت في زينة أضيفت على جسمها ووجهها سواء لفت إليها أنظار

- إن صحّ هذا فالغلام ابن زنا!  
فضحك السيّد أحمد عبد الجواد وقال وهو يشير إلى حيث كان يقف كمال:  
- هل رأيتم أمكر من ابن الكلب يدعي التقوى أمامي!... رجعت مرّة إلى البيت فترامى صوته وهو يغني «يا طير يا لي على الشجر».  
فقال السيّد عليّ:  
- آه لو رأيته وهو ينصت بين أخويه إلى صابر وشفته تتحرّكان مع الغناء في انسجام تامّ ولا انسجام أحمد عبد الجواد نفسه.  
على حين خاطب محمد عفت السيّد أحمد متسائلاً:  
- المهّم أن نخبرنا هل أعجبك صوته في دور «يا طير يا لي على الشجر»؟  
فضحك السيّد قائلاً وهو يشير إلى نفسه:  
- ذاك الشبل من هذا الأسد.  
فهتف الفار قائلاً:  
- الله يرحم اللبوة الكبيرة التي أنجبتكم.  
غادر كمال النظرة إلى الحارة وكأنّه يفيق من كابوس ووقف بين الغلمان الذين ازدحم بهم الطريق، وما لبث أن استعاد ارتياحه فتمشّى مزهواً بملابسه الجديدة، مغتبطاً بحزّيته التي جعلت من المكان كلّ - فيها عدا المنظرة المخيفة - مجالاً مباهاً لتقديمه دون معترض أو رقيب، فأنيّ ليلة هذه في الزمان! شيء واحد جعل ينقص عليه صفوه كلّما خطر على فؤاده هو انتقال عائشة إلى هذا البيت الذي باتوا يدعونه «بيتها» هذا الانتقال الذي نفذ على رغمه دون أن يستطيع أحد إقناعه بوجاهته أو فائدته، تساءل طويلاً كيف سمح أبوه به وهو الذي لا يسمح لظّل امرأة من آله بأن يلوح وراء خصائص النافذة فتلقّى الجواب ضحكاً عالياً، وساءل أمّه في عتاب، كيف تفرط في عائشة لحذّ النزول عنها للغير فأجابته بأنّه سيكبر يوماً ويأخذ مثلها من بيت أبيها فتشيع إليه بالزغاريد، وسأل عائشة هل يسرها حقاً أن تهجرهم فأجابته أن لا، ولكن الجهاز هل هل إلى بيت الرجل الغريب ولحقت به عائشة التي لا يطيب له الرّيّ إلا من موقع شفتيها، حقاً أنّ الفرح

واراها باب الحريم، ثم عاد إلى مجلسه مزلول النفس كأنه قارب تعرض بغتة لإعصار، يئيد أنه كان قبل رؤيتها هادئ النفس لاهياً بشجون السمر شأن السالي الناسي، والحق تمر به أوقات فيجد نفسه على هذه الحال من السلو والنسيان كأن قلبه يستجيم من العناء، ولكن ما إن تخطر خطرة أو تهفو ذكرى، أو يجري اسمها على لسان، أو... أو، حتى يخفق فؤاده ألماً، ويفرز الحسرة تلو الحسرة كالضرس المسوس الملتهب تجيء عليه فترة فيسكن ألمه حتى إذا هرس لقمة أو مس جسماً صلباً انفجر به الألم، وهناك يقرع الحب أضلعه من الداخل كأنما يروم متنفساً، صائحاً بأعلى صوته أنه لا زال حبيساً لم يطلق سراحه العزاء أو النسيان. طالما تمقى لو يعمر عنها الراغبون حتى يستوي على قدميه رجلاً حرّ التصرف في تقرير مصيره، وقرب أمنيته كز الأيام والأسابيع والأشهر دون أن يتقدم لها خاطب، ولكنه لم ينعم بالطمأنينة الحققة، ولم يزل عرضة للقلق والخوف ويتناوبان الحين بعد الحين يتنصان صفوه ويكدران أحلامه ويخلفان له ضرراً من الألم والغيرة إن تكن وهمية فليست دون الواقع - فيما لو تحققت - ضراوة وقساوة، حتى بات التمني نفسه وتأخر وقوع البلاء من بواعث تجدد القلق والخوف وبالتالي الألم والغيرة فودّ كلّما اشتدّ به العذاب أن يقع البلاء ليلقى نصيبه من الحزن دفعة واحدة لعله بعد ذلك يبلغ باليأس ما لم يبلغ بالأماني العابثة من الراحة والسلام، ولكنه لم يستسلم للشجن في مجلس طرب تكتنفه أنظار الأصدقاء والأقرباء، إلا أنه كان تلقى من منظر مريم وهي تسير وراء أخته «أثراً» لا يمكن أن يمضي بلا رد فعل محسوس، ولما لم يسعه أن يجتر به أحزانه وأن يجلو المستور من نفسه فقد استهلكه - بطريقة عكسية - بالإغراق في الحديث والضحك والتظاهر بالغبطة والسعادة، على أنه كلّما خلا إلى نفسه ولو لحظات شعر في أعماقه بعزلة قلبية عمّا حوله، وأدرك مع مرور الوقت أنّ رؤيته مريم وهي تخطر في معية العروس قد هيّجت حبه كما تهيج ضوضاء مفاجئة مهموماً ذا قابلية للأرق، وأنه لم ينعم على الأقل هذه

بعض النساء فلهجن بالثناء عليها ثناء ملاًها أملاً وأحلاماً عاشت بها زمناً رغداً.

وجلس ياسين وفهمي جنباً لجنب - يراوحان بين السمر والسباح، وجلس خليل شوكت - العريس - ينضم إليهما بين ساعة وأخرى وكلما وجد فرجة بين أشغال ليلته الشاقة الممتعة، وبالرغم من الجوّ المشبع بالبهجة والطرب انطوى ياسين على قلق فارتسمت في عينيه نظرة شرود مزمنة وراح يسائل نفسه بين حين وآخر ترى هل يتاح له أن يروي ظمأه ولو بكأس أو بكاسين؟ لذلك مال مرة على أذن خليل شوكت - وكان صديقاً للأخوين وهمس قائلاً:

- أدركني قبل أن تضيق الليلة.

فقال له الشاب وهو يغمز بعينه مطمئناً:

- أفردت مائدة في حجرة خاصة لأمثالك من للأصدقاء.

عند ذاك اطمأنّ باله وعادته حيويته للسمر والدعابة والسباح، لم يكن في نيته أن يسكر، ففي مثل هذا المكان الحافل بالأهل والمعارف يعدّ القليل من الخمر فوزاً كبيراً، خاصة وأنّ والده وإن انزوى في المنظر - غير بعيد - فلم يكن وقوفه على أسرار حياته يزحزحه عن مكانته التقليدية من نفسه، لم يزل قائماً بحصنه الحصين من المهابة والإجلال، ولم يزل هو بموقف الطاعة والعبودية، حتى السر الذي اطلع عليه خفية لم يفكر في البوح به لإنسان ولا لفهمي نفسه أقرب المقربين إليه، لهذا كله قنع من بادئ الأمر بكأس أو بكاسين يتملّق بهما رغبته الجائعة، ويتهيأ بهما لنذوق المرح والسمر والطرب وغيرها من المسرات التي لم يعد لها عنده طعم بغير شراب. فهمي - بخلاف ياسين - لم يجد، أو لم يطمئن إلى أنه سيجد ريثاً لظمئه، ثار شجنه من حيث لا يتنظر عند مجيء العروس، ذهب مع العريس وياسين لاستقبالها بقلب خليّ فوقع بصره على مريم وهي تسير وراء العروس مباشرة ومتألقة الثغر بابتسامة تحية للمكان كلّ، لاهية بالزغاريد والورود عنه، وقد شفت قناعها الحريري عن ديباجة وجهها الصافي، فتبعها نظره بقلب خائف حتى

الليلة - بصدر مستقرّ، وأنّ شيئاً ممّا يدور حوله لن يستطيع أن ينتزع من مخيلته صورتها أو الابتسامة التي حثّت بها جوّ الاستقبال الحارّ المشبع بالزغاريد والورود، ابتسامة عذبة صافية وشت بقلب خليّ متشوّق للهدوء والسرور، ابتسامة لا يوحى رواؤها بأنّه يمكن أن ترتسم على موضعها من الشفتين تقلّصات الألم، فهزّ منظرها قلبه وكاشفه بأنّه يكابد الألم منفرداً ويحمل متاعبه وحده، ولكنّ ألا يقهقه هو الآن عاليّاً، يحرك رأسه مع الأنغام كالمنبسط الطروب؟... ألا يجوز أن يجذع الناظر بحاله ويظنّ به ما ظنّ هو بها؟... وجد في تفكيره شيئاً من العزاء ولكن ليس أؤكد من عزاء المصاب بالتيفود حين يسائل نفسه «ألا يحتمل أن أشفى كما يشفى فلان الذي أصيب به قبلي»، وما لبث أن ذكر رسالتها التي عاد بها كمال إليه منذ أشهر وهي: قل له إنّه لا تدري ماذا تفعل لو تقدّم لها خاطب أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار... وتساءل كما تسأل عشرات المرات من قبل هل ثمة عاطفة وراء هذه الكلمات؟... أجل لا يستطيع إنسان مهما بلغ به التعتّن أن يؤاخذها على كلمة منها، بل لا يستطيع أن يتجاهل ما تضمّنته من عقل وحكمة ولكنّ هذا نفسه ما أشعره بالعجز حيالها وما أحقّه بالتالي عليها، إذ يندر أن يرضي العقل والحكمة طموح عاطفة لا تعرف بطبعها الحدود، وعاد إلى الحاضر، إلى مجلس الطرب، إلى الحبّ الهائج. ليست رؤيته لها وحدها التي رجّته هذه الرجة العنيفة، فلعلّ ذلك لأنّه رآها لأول مرّة، في مكان جديد - فناء بيت آل شوكت - بعيداً عن داره التي لم يرها خارج نطاقها من قبل، كان وجودها الدائم في المقام القديم قد سلكها في آليّة العادة اليومية على حين بعث ظهورها المفاجئ في المكان الجديد - ذاك الظهور الذي خلقها في عينيه خلقاً جديداً - حياة جديدة في وجدانه، أيقظت الحياة الأصليّة الكامنة، ثمّ تعاونتا معاً على إحداث هذه الرجة العنيفة، ولعلّ ذلك أيضاً لأنّ وجودها بعيداً عن بيته وما يقترن به من تقاليد صارمة أقامت بينه وبينها سدّاً من اليأس، وجودها في جوّ من

الحزّة والانطلاق، وعلى حال لم يعهدها من التبرّج والحركة، وجودها في بيئة الزفاف وما توحى من خواطر الحبّ والوصال، كلّ أولئك أطلقها من قمقمها إلى حيث يراها القلب أملاً غير عسير، وكأنّها تقول له «انظر أين تراني الآن، ما هي إلّا خطوة أخرى فتجدي بين ذراعيك» ولكن ما لبث هذا الأمل أن ارتطم بالواقع الشائك مسهماً في إحداث الرجة العنيفة، ولعلّ ذلك أيضاً لأنّ رؤيتها والمكان الجديد زادتها رسوخاً في نفسه وتغلغلاً في حياته - ونشوها في ذكرياته، فإنّ الصور تتعمّق في أنفسنا باندماجها في مختلف الأماكن التي تمتدّ إليها تجاربنا، وكما اقترنت مريم قديماً بسطح البيت وبستان اللبلاب والياسمين وكحال وتسميع الكلمات الإنجليزيّة ومجلس القهوة وحديثه مع أمّه في حجرة المذاكرة والرسالة التي عاد بها كمال فستقرن منذ الليلة بالسكّريّة وفناء آل شوكت ومجلس الطرب وغناء صابر وزفاف عائشة وغير ذلك ممّا ينشال على سمعه وبصره وكافة حواسّه، ومثل هذه العملية... لا يمكن أن تتمّ دون أن تشارك في إحداث الرجة العنيفة التي دوّخت... وحدث في فترة الاستراحة أن ترامى صوت العالمة إلى مجلس الرجال من النوافذ المطلّة على الفناء وهي تغني «حبيبي غاب» فشط إلى السماع باهتمام شديد وجمع حواسّه كلّها في النغمات، لا لأنّ صوت جليّة أعجبه ولكن لظنّه أنّ مريم تنصت إليها في تلك اللحظة، لأنّ الجملة الغنائيّة تخاطب أذنيها في وقت واحد معاً، لأنّها ألّفت بينهما على حال واحدة من الإنصات ورتباً من الإحساس، لأنّها خلقت لهما موعداً يلتقيان فيه بروحيهما، وحمله هذا كلّ على احترام الصوت وحبّ النغمات كي يجتمع بها في إحساس واحد. وحاول طويلاً أن ينفذ إلى نفسها بالرجوع إلى نفسه، أن يتلّسذبذبذبات تأثرها بمتابعة ذبذبات تأثره، ليعيش في ذاتها لحظات بلا حجاب على بعد المسافة وكثافة الجدران، وحاول إلى هذا أن يستخير الجمل الغنائيّة على آثارها في النفس المحبوبة، ماذا تركت في قلبها جملة «حبيبي غاب» أو «بقي له زمان بما بعثت جواب»، تُرى هل غابت في لجج



لم يكن أشبه بفهمي في عزلته الباطنية - وإن اختلفت الأسباب - من أبيه الذي لزم النظرة بين نفر من خاصة خلّاته، حتى الأصدقاء الذين لم يطبقوا التوقّر، والغناء يجلجل في الخارج، انفضّوا من حوله وتفرّقوا بين المستمعين يطربون ويلهون، فلم يبقَ معه إلّا النفر الذين مجلسه أحبّ إليهم من اللهو نفسه فلبثوا جميعاً في رزاة غير معهودة كأنما يؤدّون واجباً أو يشهدون مأثماً، هذا ما قدّروه من قبل، حين دعاهم السيّد إلى ليلة الزفاف، لما خبروه من طبيعته المزوجة التي عرف بجانب منها بين أصدقائه وبالجانب الآخر بين آل بيته، ولم يفهم وجهه من وجوه التناقض بين مجلسهم الوقور هذا الذي يحتفلون فيه «بليلة زفاف» وبين مجالسهم المسائية المعربة التي لا يحتفلون فيها بشيء! وما عتّموا أن جعلوا من توقّره موضوعاً للمزاح الخفيف الهادئ فما إن علا صوت السيّد عفت مرّة وهو يضحك حتى بادره السيّد الفار واضحاً سبّابته على شفّيته كأنما يأمره بخفض صوته وهمس في أذنه محدّراً زاجراً: نحن في فرح يا رجل!... ومرة أخرى وكان الصمت قد غلبهم ملياً فإذا بالسيّد عليّ يقبّب عينيه في وجوههم ثم يقول رافعاً يده إلى رأسه كالشاكِر: «شكر الله سعيكم» وعند ذلك دعاهم السيّد إلى اللحاق بصحبه في الخارج ومشاركتهم لهوهم ولكن السيّد عفت خاطبه بلهجة تنم عن شديد العتاب قائلاً: نتركك في مثل هذه الليلة؟! وهل يعرف الصديق إلّا عند الضيق؟! فما تمالك السيّد أن ضحك قائلاً: ما هي إلّا عدّة ليالي زفاف أخرى حتى يتوب الله علينا جميعاً... على أنّ ليلة الزفاف تضمّنت في نظر السيّد أحمد معاني أخرى غير التوقّر الإجباري في مجلس أنس وطرب، معاني تخصّه وحده كآب ذي طبيعة خوقت المألوف من الطبايع، فلم يزل يجد لفكرة زواج كرمته إحساساً غريباً لا يرتاح إليه وإن لم يقرّه عقله أو دينه. لا يعني هذا أنّه ودّ ألاّ تنزوّج كرمته، فالحقّ أنّه كسائر الآباء جميعاً رجا السّر لفتاته، ولكن لعلّه تمّ كثيراً لو لم يكن الزواج الوسيلة الوحيدة لهذا «السّر» ولعلّه تمّ لو كان الله قد خلق البنات على

الذكريات؟... أو لم تنحسر موجة منه عن وجهه؟... ألم ينقبض قلبها لشكّة ألم أو لحزّة حسرة؟ أم لها سادراً طوال الوقت لا يجد في النعمة إلّا فرحة الطرب؟... وتصورها وهي تهب انتباهها للنغم سافرة متبرّجة الحيويّة أو وثغرها يفتّر عن ابتسامة كتلك التي لمحها على شفّيتها عند مجيئها فألته لأنّه توسّم فيها رمز السلوّ والنسيان، أو وهي تحدث إحدى أختيه كما يحلو لها كثيراً وهو ما يحسدّها عليه على حين لا تجدان فيه الأمر الذي يدهشه لحدّ الانزعاج إلّا حديثاً عادياً كسائر الأحاديث التي تشتبك مع غيرها من فتيات الجيران، أجل طالما عجب لموقف أختيه منها، لا لأنّها لا تكثران لها فالحقّ أنّها تحبّها، ولكن لأنّها تحبّها كما تحبّان غيرها من فتيات الجيران كأنّها مجرد «فتاة» من فتيات الجيران، وكيف تلقّيانها بترحيب عاديّ دون أن يضطرب لهما نفّس كما يلقي هو فتاة عابرة أو أيّاً من أقرانه طلبة مدرسة الحقوق، وكيف تتحدّثان عنها فتقولان «مريم قالت أو مريم فعلت» وتنطقان بالاسم كما تنطقان بأيّ اسم... أم حنفي مثلاً كأنّه ليس الاسم الذي لم ينطق به على مسمع من غيره إلّا مرّة أو مرّتين وهو يعجب لموقعه من أذنه أو كأنّه ليس الاسم الذي لا ينطق به في وحدته إلّا كما ينطق بالأسماء المبجّلة المنقوشة في خياله بتهاويل الأحلام التي لا ينطق بأحدها حتى يردف «رضي الله عنه» أو «عليه السلام»... وكيف إذن عطل الاسم - بل الشخص نفسه - عندهما من سحره وقديسيّته؟! وعندما انتهت جلييلة من الأغنية تعالى الهاتف والتصفيق فركّز فيه انتباهه باهتمام لم تحظّ الأغنية نفسها بمثله لأنّ حنجرة مريم ويديها اشتركت فيه، وتمنّى لو كان بوسعها أن يميّز صوتها من تلك الأصوات وأن يفرز تصفيقها من ذلك التصفيق ولكن لم يكن ذلك بأسهل من تمييز صوت مروة بالذات من هدير الأمواج المتلاطمة على الشاطئ، على أنّه وهب حبّه للهِتاف كلّهُ وللتصفيق كلّهُ بلا تمييز كالآم التي يترامى إلى سمعها أصوات التلاميذ من المدرسة التي يتبعها ابنها فتدعو لهم جميعاً بالبركة والسلامة.

أخيراً إلا منطقاً عاطفياً يعكس ما يكمن في نفسه من رغبة في تزويج الفتاة ونفوره من فكرة الزواج، فالاعتراف مهَّد إلى تحقيق الزواج والفحص عن العيوب نفُس عن العاطفة العدائية، كمدمن الأفيون الذي تستذلّه لذّته وترعبه خطورته فينشده بكلّ سبيل وهو يلعنه، بيد أنّه تناسى مشاعره الغريبة وهو بين أصدقائه الحميمين يتسلّى بالحديث حيناً وبالسّماع حيناً آخر، ففتح صدره للرّضى والغبطة ودعا لفتاته بالسعادة والحياة المطمئنة، حتّى نظرت الانتقاديّة لخليل شوكت استحالت إحساساً ساخراً غير مشوب بالحق. وعندما دعي المدعوّون إلى الموائد افترق فهمي وباسن لأوّل مرّة فقاد خليل شوكت الأخير إلى المائدة الخاصّة حيث بذل الشراب بغير حساب ولكنّ ياسين بدا حذراً مقدّراً للعواقب فأعلن قناعته بكأسين وقام بشجاعة - أو بجبن - بتيّار الشراب المتدفّق حتّى إذا ما لسعته النشوة فهيجت ذكرياته عن لذّة النشوات ووهنت إرادته فرغب في الاستزادة من النشوة إلى القدر الذي لا يخرجّه عن حدود الأمان فتناول كأساً ثالثة ثمّ فرّ بنفسه عن المائدة إلّا أنّه - على سبيل الاحتياط أو لأنّه لم يزل عيّناً في الجلّة وعيّناً في النار - أخفى زجاجة مملوءة حتّى النصف في مكان خفيّ للرّجوع إليها عند الضرورة القصوى، وعادوا إلى مجلسهم بأرواح جديدة راقصة انطلق منها إلى الجوّ المحيط سرور محرّر من القيود...

وفي الحريم كان السكر قد بلغ بالعالة جليّة حدّ السلطنة، وإذا بها تقلّب عينيها في وجوه المدعوّات وتتساءل:

- من منكنّ حرم السيّد أحمد عبد الجواد؟  
فجذب تساؤلها الأنظار وأثار اهتماماً شاملاً حتّى غلب الحياء أمانة فلم تنبس بكلمة وجعلت تحمّل في وجه العالة بحيرة وإنكار، ولمّا أعادت العالة السؤال تطوّعت حرم المرحوم شوكت بالإشارة إلى أمانة وهي تقول:

- ها هي حرم السيّد أحمد ففيمّ يا ثرى التساؤل؟  
فتفحصتها العالة بعينين ثاقبتين ثمّ أطلقت ضحكة

طبيعة لا تحتمّ الزواج. أولعلّه تمثّى في الأقلّ لو لم يكن أنجب إنثاً قطّ، أمّا وتلك أمان لم تتحقّق ولا سبيل إلى تحقيقها فلم يكن بدّ من أن يرجو الزواج لفتاته ولو كما يرجو الإنسان أحياناً - لياسه من دوام العمر - مئة شريفة أو مئة مريحة! طالما أفصح عن نفوره هذا بسبل متبينة سواء عن شعور أو لا شعور، فربّما حدث بعض خلصائه قائلاً: «تسألني عن إنجاب الإناث؟ إنّه شرّ لا حيلة لنا فيه ولكن الشكر إلى الله واجب على أيّ حال. لا يعني هذا أنّي لا أحبّ ابنتي فالحقّ أنّي أحبّها كما أحبّ ياسين وفهمي وكمال سواء بسواء ولكن كيف يطمئنّ خاطري وأنا أعلم بأنّي سأحملها يوماً إلى رجل غريب مهما يبدو لي من مظاهر فائه وحده المطلع على باطنه؟... ما حيلة البنت الضعيفة حيال رجل غريب وهي بعيدة عن رعاية أبيها؟... وكيف يكون مصيرها لو طلقها يوماً وقد مات أبوها فلجأت إلى بيت أخيها لتعيش عيشة المنبوذين؟ لست أخاف على أحد من أبنائي لأنّه مهما يحدث لأتهم من أمر فهو رجل قادر على أن يواجه الحياة، أمّا البنت... اللهم احفظنا!» أو يقول فيها يشبه الصراحة: «البنت مشكلة حقّاً... ألا ترى أنّنا لا نألو أن نؤدّبها ونهذّبها ونحفظها ونصونها؟... ولكن ألا ترى أنّنا بعد هذا كلّه نحملها بأنفسنا إلى رجل غريب ليفعل بها ما يشاء... الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه...» وتحمّس هذا الإحساس القلق الغريب في النظرة الانتقاديّة التي والى بها خليل شوكت «العريس» نظرة متعسّفة عيابة أبت أن ترجع قبل أن تظهر بعيب يرضي تعنتها، كأنّه ليس من آل شوكت الذين ألفت بينه وبينهم أسباب المودة والولاء من قديم الزمان، أو كأنّه ليس الشابّ الذي شهد له كلّ من رآه بالرجولة والجمال والوجاهة، لم يسهه أن ينكر مزية من مزاياه، ولكنّه وقف طويلاً عند وجهه الرّيان ونظرة عينيه الهادئة الثقيلة الموحية بالكسل فطاب له أن يستدلّ بها على ما تركه الفراغ في حياته من حيوانيّة قائلاً لنفسه «ما هو إلّا ثور يعيش ليأكل وينام!» لم يكن اعترافه بمزاياه أوّلًا ثمّ فحصه عن أيّ عيب ليلصقه به

رئانة وقالت بلهجة تنم عن الرضى:

- حسناء وحق بيت الله، إن ذوق السيد لا يُجارى...

وبدت أمينة كالعدراء في حياتها، بيد أن الحياء لم يكن كل ما تعانيه، ساءلت نفسها في حيرة وانزعاج عما يعنيه حديث العالة عن حرم السيد أحمد عبد الجواد، وعن إطرائها ذوق السيد بلهجة لا يدعها لنفسه إلا الخير به، وشاركتها شعورها عائشة وخديجة التي رددت عينيها بين العالة وبين بعض الفتيات من صديقاتها كأنما تسألن رأيهن في «هذه المرأة السكيرة»، ولكن جليلة لم تأبه لما أثاره كلامها من انزعاج فحولت عينيها إلى العروس وتفحصتها كما تفحصت أمها من قبل ثم أرعشت حاجبيها وهي تقول بإعجاب:

- قمر ورسول الله، أنت بنت أبيك حقاً، ومن ير هاتين العينين يذكر من توه عينيه... (ثم مقهقهة)... أراكن تتسألن من أين لهذه المرأة معرفة السيد أحمد؟! إني أعرفه من قبل أن تعرفه زوجه نفسها، إنه ربيب حيناً وقرين صباي، وكان والدانا صديقين، أم تحسبن العالة؟ لا أب لها؟... كان أبي شيخ كتاب من أهل البركة... ما رأيك يا زينة الستات؟...

وجّهت السؤال الأخير إلى أمينة فدفعها الخوف وما طبعت عليه من لين وتودد إلى أن تحيها - وهي تقاوم ما ركبها من ارتباك - قائلة:

- رحمه الله، كلنا أبناء حواء وآدم.

فجعلت جليلة تحرك رأسها يمنة ويسرة وهي تضيق عينيها كأنما بلغ تأثرها بالذكرى وموعظتها نهايته، أو لعل رأسها السكران وجد في هذه الحركة رياضة التذّبها، ثم استطردت قائلة:

- وكان رجلاً غيوراً، ولكنني نشأت بفطرتي لعوباً لا أبالي كأنما رضعت الغنخ في المهد، كنت أضحك الضحكة في الدور الأعلى فتضطرب لها جوانح الرجال في الشارع، فما يبلغه صوتي حتى ينهال عليّ ضرباً ويرميني بشر الصفات، ولكن ما حيلة التأديب فيمن

قدّرت عليها فنون العشق والطرب والدلال؟!... ضاع التأديب هباء، ومضى الرجل إلى الجنة ونعيمها، وقضى عليّ بأن أأخذ عما رماني به من شر الصفات شعاراً لي في الحياة... هي الدنيا... ربنا يطعمك خيرها ويكفيك شرّها... ولا حرمنا الله جميعاً من الرجال سواء في الحلال أو في الحرام...

وعزف الضحك في جنبات الحجرة حتى غطى على تأوهات الدهش التي نذت هنا وهناك، ولعل ما استثاره قبل أي شيء آخر هو وجه التناقض بين الدعاء الإباحي الأخير وبين ما سبقه من عبارات توحى - في ظاهرها على الأقل - بالجد والتأني، أو بين ما تقنعت به المرأة من ستار الجد والرزانة وما جهرت به أخيراً من مزاح مكشوف، حتى أمينة نفسها - وعلى رغم ارتباكها - ما غالكت أن ابتسمت وإن نكست وجهها لتواري ابتسامتها، على أن النساء كن يستعجن - في مثل هذا المجلس - لدعابات مهرجات العوالم ويرحبن بمزاحهن وإن خلدن الحياء أحياناً كأنما ينفسن به على طول ترمتهن، وواصلت العالة السكرانة حديثها قائلة:

- وكان جعل الله الجنة مثواه سليم الطوئة، وآي ذلك أنه جاءني يوماً برجل طيب مثله وأراد أن يزوجني منه (وكررت ضاحكة)... أيّ زواج يا عمر؟ وماذا بقي للزوج بعد ما كان مما كان؟!... وقلت لنفسي انفضحت يا جليلة وواقعتك كحل...

وأمسكت ملياً لتستزيد من التشويق، أو لتتمتع أكثر بصمت الانتباه المركّز فيها الذي لا تحظى بمثله حين الغناء نفسه، ثم عادت تقول:

- ولكن الله سلّم فأدركني النجاة قبل الفضيحة المتوقعة بأيام إذ هربت مع المرحوم حسونة البغل تاجر المنزل، وكان للمرحوم أخ عواد عند العالة نيزك فعلمني العود، ثم طاب له صوتي فعلمني الغناء، وأخذ بيدي حتى ضمّني إلى تحت نيزك التي حللت محلها بعد وفاتها، ومارست الغناء دهرًا عرفت فيه من العشاق مائة و... (وقطبت وهي تتذكر بقية العدد ثم التفتت إلى الدفافة وسألته) وكم يا فينو؟

فبادرتها الدقافة قائلة:

- وخمسة في عين من لم يصل على النبي...

وتعالى الضحك مرة أخرى فجعلت بعض المشغوفات بالحديث يسكنن الضاحكات ليصفو الجو للعائلة ولكنها نهضت بغتة واتجهت نحو باب الحجرة غير ملفية بالاً إلى اللاتي تساءلن عن وجهتها دون أن يحظين بجواب، ولكن أحداً لم يلح عليها في السؤال لما اشتهرت به عند الناس من أنها صاحبة نزوة إذا نادتها لبثت دون مراجعة، وهبطت السلم إلى باب الحريم ثم مرقت منه إلى فناء الدار، ولما جذب ظهورها المفاجئ بعض الأنظار القريبة تلبثت بمكانها لتتيح لنفسها أن ترى من الجميع فتستمتع بما يحدته منظرها فيهم من اهتمام طمعت في أن تتحدى به صابراً وهو في ذروة التطريب، وتحققت رغبتها إذ سرت عدوى الالتفات نحوها - كالتثاؤب - من فرد إلى فرد وتردد اسمها على اللسان، ثم شعر صابر نفسه - رغم انهياكه في الغناء - بالفجوة الفجائية التي فصلت بينه وبين جمهوره فمد بصره إلى الهدف الذي استشرفته الأعين حتى استقر على العالمة وهي تنظر إليه من بعيد برأس مائل إلى الوراء من سلطنة السكر والخيلاء فاضطر إلى الإمساك عن الغناء وأشار إلى تحته فتوقف عن العزف، ثم رفع يديه إلى رأسه تحية لها... كان صابر خبيراً بنزوات جلييلة - وعلى خلاف الكثيرين - عالماً بطيبة قلبها، ومقدراً في الوقت نفسه لخطر معاندتها، فأظهر لها التودد بلا تحفظ، ونجحت حيلته فانطلقت أسارير المرأة بالبشر وهفت به «واصل غناءك يا سي صابر فما جئت إلا لساعه» فصفق المدعوون وعادوا إلى صابر مهللين على حين اقترب منها إبراهيم شوكت شقيق العريس الأكبر وسألها بلطف عن حاجتها فذكرت بسؤاله السبب الحقيقي الذي دعاها إلى المجيء وسألته بدورها بصوت ترامي إلى الكثيرين ومنهم - وهو الأهم - ياسين وفهمي:

- ما لي لا أرى السيد أحمد عبد الجواد؟! أين يجتئى الرجل؟

فأخذ إبراهيم شوكت بيدها وسار بها إلى المنطرة

باسماً، على حين تبادل فهمي وياسين نظرة ملئت دهشاً واستغراباً وشيخاًهما بعينين متسائلتين حتى واراها الباب، ولم يكن السيد دون ابنه دهشاً لدى رؤيتها مقبلة نحوه تخطف فحدها بنظرة انزعاج وتساؤل بينما تبادل صاحبه نظرات باسمه ذات معانٍ، وشملت جلييلة الجميع بنظرة عابرة قائلة:

- مساء الأنس يا رجال...

وركزت عينيها في السيد فما تمالكت أن أغربت في الضحك وهي تتسأل ساخرة:

- هل أخافك مجيئي يا سيد أحمد؟!

فأشار السيد إلى الخارج محذراً وهو يقول لها جاداً:

- اعقلي يا جلييلة، ماذا حملك على المجيء إلى هنا تحت أنظار الناس جميعاً؟!

فقالت كالمعتذرة وإن لم تزيلها بسمه ساخرة:

- عز عليّ ألا أهتلك على زواج كريمك!...

فقال السيد في ضيق:

- لك الشكر يا سيّتي، ولكن أما فكّرت فيما يثيره مجيئك لدى من يشهده من ظنون؟

فضربت جلييلة كفّاً بكفت وقالت فيما يشبه العتاب:

- هذا أحسن ما عندك لي من استقبال!... (ثم موجهة الخطاب إلى صاحبه)... أشهدكم يا رجال على الرجل الذي لم يكن يتبلّ صدره حتى يغرز فردة شاربته في سرتي، انظروا إليه كيف لا يطبق الآن رؤيتي...

فلوح السيد لها بيده كأنما يقول لها «لا تزيدني الطين بلّة» وقال برجاء:

- علم الله ما بي استياء لرؤيتك ولكنه الحرج كما ترين...

هنا قال السيد عليّ كأنما ليذكرها بما لا ينبغي لها أن تنساه:

- لقد عشتما حبيين وافترقتما صديقين، وليس بينكما ثار، ولكن أهله فوق وأبناءه في الخارج...

فقالت متعادية في إغاظه السيد:

- لماذا تتظاهر بالتقوى بين أهلك وأنت بركة فسق! فرماها بنظرة احتجاج قائلاً:

على شيء من أمره قبل أن يبلغوا أشدهم أي حين لا يهّمه كثيراً أن ينكشف لهم سرّه، ولكن شيئاً من هذا لم يستطع أن يُلطّف من أسفه على ما وقع. حقاً لم يُنل من سرور ومن تيه جنسيّ، إذ أنّ عجيء امرأة كجليلية بنفسها إلى مجلسه لتهنّئه أو لتعابه أو حتى لتتهكّم بعشقه الجديد «حادث» له مغزاه الهامّ في الأوساط التي تشهد لئاليه، وظاهرة لها دلالتها البعيدة لرجل مثله لا يعدل بالهوى والطرب والأنس شيئاً، ولكن كم كانت تكون سعادته صافية لو وقع الحادث الجميل بعيداً عن هذه البيئة العائليّة!

أمّا ياسين وفهمي فلم تتحوّل عيناها عن باب المنطرة منذ ولجته جلييلة حتّى خرجت منه مصحوبة بالسيد محمّد عفت. دهش فهمي دهشة بكراً دار لها رأسه كياسين حين سمع زئوبة وهي تحبّيه قائلة: «إنّه من حيّنا ولا بدّ أنّك تسمع عنه...» السيد أحمد عبد الجواد...»، على حين ركب ياسين حبّ استطلاع نهم فأدرك - في سعادة - أيقظت في قلبه نشوة الإعجاب والمشاركة الوجدانيّة التي شعر بها نحو أبيه في حجرة زئوبة - أنّ جلييلة مغامرة أخرى في حياة أبيه التي بات يؤمن بأنّها سلسلة ذهبيّة من المغامرات، وأنّ الرجل فاق كلّ ما تصوّره خياله عنه، ولبث فهمي يأمل ويرجو أن يعلم بين حين وآخر بأنّ العائلة إنّما أرادت مقابلة والده لسبب أو لآخر يتعلّق بدعوتها إلى إحياء فرح عائشة حتّى جاء خليل شوكت وأخبرهما ضاحكاً بأنّ جلييلة «تداعب السيد» وبأنّها «تسوّد إليه تسوّد الصديق للصديق» وعند ذلك لم يطق ياسين صبراً على كتمان ما عنده من سرٍّ ووثبت نشوة الشراب به إلى الإدلاء بمعلوماته فانتظر حتّى غادر خليل ثمّ مال على أذن أخيه قائلاً وهو يغالب ضحكته «كتمت عنك أشياء تحرّجت من البوح بها في حينها، أمّا وقد رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت فسأبوح لك بها» ومضى يقصّ عليه ما سمع وما رأى في بيت زبيدة العالمة، وفهمي يقاطعه من أونة لأخرى قائلاً في ذهول «لا تقل هذا...» «هل فقدت وعيك»، «كيف تريدني على أن أصدّقك» حتّى أتى الشاب على قصّته بكلّ تفاصيلها.

- جلييلة... لا حول ولا قوّة إلّا بالله.  
- جلييلة أم زبيدة يا وليّ الله!  
- حسبي الله ونعم الوكيل..  
فأرعشت له حاجبيها كما أرعشتها لعائشة من قبل ولكن على سبيل التهكّم لا الإعجاب هذه المرّة وقالت بصوت هادئ جادّ كالقاضي ينطق بالحكم:  
- سيّان عندي أن تعشق زبيدة أم غيرها من النساء ولكن يؤسفني ورأس أمي أن تتمرّع في التراب بعد أن غرقت حتّى أذنيك (مشيرة إلى نفسها) في القشدة...  
عند ذلك نهض السيد محمّد عفت - وكان من أقرب المقرّبين إليها - وقد خاف أن يتبادى بها السكر إلى ما لا تحمد عقباه فتناول يدها وجذبها برفق صوب الباب هامساً في أذنها:  
- حلّفتك بالحسين إلّا ما رجعت إلى مستمعائك المنتظرات على نار..  
فطاوعته بعد ممانعة ولكنّها التفتت نحو السيد وهي تبتعد رويداً وقالت:  
- لا تنس أن تبلغ تحيّي إلى القارحة، ونصيحتي إليك - بحقّ الأخوة - أن تعتسل بعدها بالكحول لأنّ عرفها مصّاص للدماء.  
شيعها السيد بنظرة ساخطة وهو يلعن الحظّ الذي قضى بأنّ ينكشف أمام كثيرين خاصّة أهله - ممّن عرفوه مثلاً للجدّ والرزانة، أجل لم يزل ثمة أمل في ألاّ يبلغ الحادث أحدًا من آله ولكنّه أمل ضعيف، ولم يزل ثمة رجاء في ألاّ يفهموه إذا بلغهم - بما طبعوا عليه من براءة - على حقيقته ولكنّه رجاء غير مضمون لأكثر من سبب بيد أنّه على أسوأ الفروض لا يحقّ له أن يجزع لأنّ خضوعهم له من ناحية وسيطرته عليهم من ناحية أخرى أثبت من أن يززعزعهما مزعزع ولا هذه الفضيحة نفسها، وفضلاً عن هذا فإنّ احتمال انكشاف أمره لدى أحد من أبنائه أو لديمهم جميعاً لم يكن عنده يوماً بالفرض المستحيل، ولكنّه لم يقلق لذلك أكثر ممّا ينبغي، لثقتة بقوّته، ولأنّه لم يعتمد في تربيتهم على القدوة والإقناع فيخاف انحرافهم عن الجادة تبعاً لما قد يظهر لهم من انحرافه عنها، ولأنّه استبعد أن يطلّعو

الأكل، ويعشق والعشق كان ملهواة الخلفاء، اقرأ ديوان الحامسة والأخبار التي بهامشه، ليس على أبينا حرج، اهتف معي لِيَحْيِي السَّيِّدَ أَحْمَدَ عَبْدَ الْجَوَادِ، لِيَحْيِي أَبُونَا، سأتركك لحظة ريشا أزور- لهذه المناسبة- الزجاجة التي أخفيت تحت الكرسي.

بعودة العالة إلى التخت شاع في الحريم نبأ مقابلتها للسيد أحمد عبد الجواد فانتقل من لسان إلى لسان حتى تناهى إلى الأم وخديجة وعائشة ومع أتهن كن يسمعن شيئاً كهذا لأول مرة إلا أن سيدات كثيرات- ممن بين بعولهن وبين السيد سبب من أسباب المؤدة- تلقين النبأ في غير ما دهش وغمزن بأعينهن باسمات شأن الذي يعرف أكثر مما يقال، ولكن واحدة منهن لم تسول لها نفسها الخوض في الموضوع إما لأن الخوض فيه جهازاً أمر لا يحمل بهن أمام كرماتهن وإما لأن دواعي المجاملة أملت عليهن بأن يسكن عنه حيال أمينة وكرمتيها، غير أن حرم المرحوم شوكت قالت لأمينة مداعبة «حذار يا أمينة هانم فالظاهر أن عين جلييلة زاغت إلى السيد أحمداء» فابتسمت أمينة متظاهرة بعدم الاكتراث ودم الحياء والارتباك يخضب وجهها، لأول مرة تلمس دليلاً محسوساً على ما قام بنفسها قديماً من شكوك، ومع أنها ألفت الصبر والتسليم بما قدر عليها إلا أن ارتطامها بدليل محسوس حز في قلبها فأحسنت عذاباً لا عهد لها به وجرحاً دامياً في صميم كبرياتها، وأرادت امرأة أن تعلق على قول حرم المرحوم شوكت بكلمة مجاملة تليق بأم العروس فقالت «من يكن له وجه كوجه ست أم فهمي قسامة فلا يحق لها أن تخشى زياناً عين زوجها إلى امرأة أخرى» فاهتزت جوانحها للثناء وعادتها ابتسامتها الحية ووجدت- على أي حال- بعض العزاء عما تعانيه من ألم صامت، إلا أنه لما بدأت جلييلة أغنية جديدة فملاً صوته مسمعيها ثار بها غضب مفاجئ وشعرت ثواني بأن زمام نفسها سيفلت من قبضتها ولكنها سرعان ما كظمت بقوة خليقة بامرأة لم تعترف لنفسها قط بحق الغضب. هذا على حين تلقت خديجة وعائشة النبأ بدهش فتبادلنا نظرة حائرة وتساءلنا بعينيهما عما يعنيه الأمر كله، بيد

لم يكن فهمي، بما نشأ عليه من عقيدة ومثالية، على استعداد لفهم- بله هضم- السيرة الخفية التي تنكشف له لأول مرة خاصة وأن والده نفسه كان من أركان عقيدته ودعائمه مثاليته، ولعل ثمة وجهاً من التشابه بين شعوره وهو يعاني هذا الكشف لأول وهلة وبين شعور الجنين- إن صدق الخيال- وهو ينتقل من مستقر الرحم إلى مضطرب الحياة، ولعله لو كان قيل له إن جامع قلاوون انعكس وضعه فصارت المئذنة أسفل بنائه والضريح عاليه، أو كان قيل له إن محمد فريد خان رسالة مصطفى كامل وباع نفسه للإنجليز لما كان هذا أو ذاك بادعياً إلى إنكاره وانزعاجه. «أبي يذهب إلى بيت زبيدة ليشرب ويغني ويضرب الدف!... أبي يذعن لمداعبة جلييلة وتوددها!... أبي يقترب السكر والزنا، كيف اجتمعت الثلاث!... إذن هو غير الأب الذي عرفته في البيت مثلاً للورع والقوة!... أيها الصحيح؟... كأي أسمعه الآن وهو يردد: الله أكبر... الله أكبر، فكيف تردده للغناء!... حياة تمثيل ورياء! ولكنّه صادق، صادق إذا رفع رأسه للدعاء، صادق إذا غضب... أليكون أبي رذيلة أم يكون الفسق فضيلة!؟...»

- ذهلت!؟... ذهلت أنا أيضاً عندما نطقت زنوبة باسمه، ولكن سرعان ما استسختفت نفسي وسألتها ماذا عليه من هذا!؟... كفرا كهذا الرجال جميعاً أو كهذا يجب أن يكونوا...

«هذا القول جذير ياسين حقاً... ياسين شيء وأبي شيء آخر... ياسين!... ما ياسين!؟... ولكن كيف يحق لي أن أردد هذا الآن وأبي، أبي نفسه، لا يختلف عنه في شيء إن لم يَفْقُهْ تدهوراً... كلاً ليس تدهوراً... ثمة أمر أجهله... أبي لا يخطئ... غير قابل للخطأ. فوق الشبهات... وعلى أي حال فوق الاحتقار.

- ما زلت ذاهلاً!؟

- لا أتصور شيئاً مما قلت!

- لماذا!؟... اضحك وافهم الدنيا، يغني وماذا في الغناء من عيب؟ ويسكر وصدقني أن السكر ألد من

فأشارت بيدها إلى الأمام، في اتجاه السيد الذي كادت تبتلعه الظلمة «هس»، ولكنه كان مشغولاً باستحضار صور ممّا مرّ به في بيت العرس إلى خيّلته، رأى أنّها متناهية في غرابتها وفيها بعثه في نفسه من حيرة فجذب يدها إليه ليعتد بها عن خديجة وأمّ حنفي ثمّ هس متسائلاً وهو يشير إلى الورا:

- أما علمت بما يدور هنالك؟

- ماذا تقصد؟

- نظرت من ثقب الباب.

فانقبض قلب الأمّ جزعاً لأنّها حدثت أيّ باب يعني ولكنها سألته مكذّبة نفسها:

- أيّ باب؟

- باب غرفة العروس!

فقال المرأة بانزعاج:

- يا له من عيب أن ينظر الإنسان من ثقب الأبواب!

فهمس من فوره:

- ما رأيته أعيب!

- اخرس...

- رأيت أبله عائشة وسي خليل يجلسان على الشيزلنج... وهو...

فلكرته في كتفه بشدّة حتّى أمسك ثمّ همست في أذنه:

- يجب أن نخجل ممّا تقول، لو سمعك أبوك لقتلك.

ولكنّه قال بإصرار ويلهجة من يشعر بأنّه يكشف لها عن حقيقة لا يمكن أن تتصوّر هي وقوعها:

- كان يتناول ذقنها بيده ويقبلها.

ولكرته مرّة أخرى بقسوة لم يعهد لها من قبل فأدرك أنّه أخطأ حقاً وهو لا يدري وسكت خائفاً، ولكنّه عندما كانا يقطعان فناء البيت المظلم متأخرين عن بقية

الأسرة - وقد تخلّفت عنها أمّ حنفي لتسكّ الباب وتضبّبه وتترسه - ألحّ عليه ما يكابد من حيرة ورغبة في

الاستطلاع فخرج من صمته وخوفه وسألها برجاء:

- لماذا يقبلها يا نينة؟!

أنّ دهشها لم يقترن بانزعاج كما حدث لفهمي ولا بالم كما حدث لأمتها، ولعلّها وجدنا في قيام امرأة كجليلية من تحتها وتكبّدها مشقة النزول إلى مجلس أبيهما لتحيته ومعادته شيئاً مثيراً للإعجاب حقاً، ثمّ شعرت خديجة برغبة غريزيّة في استطلاع وجه أمّها فاسترقت إليها النظر ومع أنّها رأته تبسم إلا أنّها تكابد السّما وارتباكاً ينقصان عليها صفوها وأحسّت بضيق وما لبثت أن حنقت على العالمة وحرّم المرحوم شوكت والمجلس كلّ.

ولمّا أزفت ساعة الزّفة نسي كلّ همّه. أسابيع مضت فشهور وصورة عائشة في ثوب الزفاف لا تبرز الأذهان.

\*\*\*

بدت الغوريّة متلّعة بالظلام والصمت حينما غادرت الأسرة بيت العروس عائدة إلى النّحاسين. سار السيّد أحمد في ألفدّمة وحده، وتبعه على بعد أمتار فهمي وياسين الذي أفرغ ما في وسعه كيما يتالك نفسه ويتحكّم في مشيته أن يخونه وعيه الزائغ من فرط الشراب، ثمّ جاءت في المؤخّرة أمينة وخديجة وكمال وأمّ حنفي، انضمّ كمال إلى القافلة على رغمه فلولا الحادي الذي يتقدّمها لوجد سبيلاً إلى عصيان يد والدته وانقلب راجعاً إلى حيث غادروا عائشة، وجعل لهذا يتلقّت بين خطوة وأخرى صوب بوّابة المتوّي ليودّع أسيفاً محزوناً آخر ما لاح من مظاهر الفرح، ذلك المصباح المضيء الذي رقي عامل في سلّم خشبيّ إليه ليقتلعه من مربطه فوق مدخل السكّرية، لشدّ ما يقطع قلبه أن ينظر إلى أسرته فيجدها قد تخلّت عن أحبّ أفرادها إليه بعد أمّه، ورفع بصره إلى والدته وسألها هامساً:

- متى تعود أبله عائشة إلينا؟

فأجابته بمثل صوته:

- لا تكرّر هذا وادع لها بالسعادة، ستزورنا كثيراً ونزورها كثيراً.

فهمس مرّة أخرى محنّفاً:

- ضحكتم علي!

فقلت له بحزم:

- إذا عدت إلى هذا أخبرت والدك!

#### ٤١

أوى ياسين إلى حجرة النوم وهو على حال من السكر شديدة، ما كاد يخلو إلى فهمي ويأمن الرقباء - سرعان ما غطَّ كمال في نومه عقب وضع رأسه على المخدَّة مباشرة - حتى جمحت به رغبة في العريضة كردَّ فعل للجهد العصبي الذي بذله طوال السهرة، خاصَّة في طريق العودة، كيما يضبط نفسه ويسيطر على سلوكه، ولكَّنه وجد الحجرة أضيق من أن تتسع لعريدته فمال إلى التنفيس عن صدره بالكلام فنظر نحو فهمي وهو ينزع ملابسه وقال ساخراً:

- قارن بين خبيثتنا وبين براعة أبينا... حقاً إنه لرجل...

وعلى رغم ما حرَّك هذا الكلام من ألم فهمي وحيرته إلَّا أنَّه قنع بأن يقول وهو يرسم على شفثيه الممتعضتين شبه ابتسامة:

- البركة فيك فأنت نعم الخلف.

- أيجزلك أن يكون والدنا من كبار القناصة؟

- وددت لو تمتد يد التغيير إلى صورته المائلة في نفسي.

فقال ياسين وهو يفرك راحتيه في سرور:

- الصورة الحقيقية أبهى وأمتع، أعظم به من أب هو المثل الأعلى، آه لو رأيته وهو قابض على الدف والكأس بين يديه تزهراً عفارم... عفارم يا سيّد أحمد!

فتساءل فهمي في حيرة:

- وحزمه وتقواه؟!

فقطب ياسين ليركّز فكره في المسألة ولكَّنه وجد نفسه في حال الجمع بين الأضداد أروح لها من التوفيق بينها فقال مدفوعاً بالإعجاب وحده:

- ليس ثمة مشكلة على الإطلاق، عقلك الرعديد وحده الذي يخلق المشكلة من العدم، أبي حازم ومؤمن ويجب النسوان، شيء بسيط واضح  $1 + 1 = 2$ ،

ولعلّي أشبه الناس به على وجه التقريب لأنّي مؤمن وأحبّ النسوان وإن قلّ نصيبي من الحزم، أنت نفسك مؤمن وحازم وتحبّ النسوان، ولكن بينا نحقق إيمانك وحزمك إذا بك تنكص عن الثالثة (ثمّ صاحكاً) والثالثة هي الثابتة!

لعلّه نسي عند آخر كلامه باعث الإعجاب الذي دفعه إلى الاسترسال فيه، فجاء قوله دفاعاً عن أبيه في الظاهر فقط، أمّا في الحقيقة فلم يكن إلَّا تعبيراً عن شعور وهاجّ هاج به دمه المخمور، عن نشوة جامحة ركبته عقب اختفاء الرقباء الذين يحذرهم، شهوة أثارها خيال مكهرب بالشراب، فرغب جسده في الحب رغبة جنونيّة عجزت إرادته عن شكّمها أو ملاطفتها، ولكن أين يجد مطلبه؟ هل يتسع له الوقت؟... زنوبة؟... ماذا يحول بينه وبينها؟... طريق قصير، ضجعة قصيرة، ثمّ يعود فينام نومًا عميقًا هادئًا، هشّ للأخيلة المغرية هشاشة شخص لا عقل له يراجع فاندفع إلى تحقيقها بلا تردد، وما لبث أن قال لأخيه:

- الجوّ حارّ، سأصعد إلى السطح لأتنسّم هواء الليل الرطيب.

وغادر الحجرة إلى الدهليز الخارجي، ومضى يهبط متلمّساً طريقه في ظلمة غاشية، محاذراً غاية الحذر أن يندّ عنه صوت. تُرى كيف يستطيع الوصول إلى زنوبة في هذه الساعة من الليل؟ هل يطرق الباب؟ ومن عسى أن يجيء لفتحه؟ وبمّ يجيبه إذا سألته عن مقصده؟ وإذا لم يستيقظ أحد لفتح الباب؟ أو إذا جاء الخفير ليراقبه بتطفله المعروف؟ عامت هذه الخواطر على سطح مخّه كالفقاقيع ثمّ انداحت غارقة في تيّار الخمر الجارف فلم يتجهّم لها كعواقب ينبغي تقدير عواقبها ولكَّنه ابتسم لها كدعابات ممّا قد يؤنس وحشة مغامرته، ثمّ جاوزها خياله طائراً إلى حجرة زنوبة المطلّة على مفرق الغوريّة والصنادقيّة فتخيّلها في قميص النوم الأبيض الشّفاف الذي يتقوّس مطاوعاً فوق النهدين وحول الردفين وتنحسر حاشيته عن ساقين مدملجتين خمريتين فجّ جنونه وودّ لو يثب فوق



لها التي بدأت مع صباه، لم يلتفت إليها قط. بيد أنه كان وقتذاك على حال من الهيجان فقد معها آية قدرة على التمييز فأعتمته الشهوة، وأي شهوة؟ شهوة مولعة بالمرأة لذاتها لا لمعانيتها ولا لألوانها، تعشق الحسن ولا تعزف عن القبح، والكلّ عندها في «الأزمات» سواء كالكلب يلتهم بلا تردد ما يصادفه في القمامة، عند ذاك بدت له مغامرته الأولى - زنوبة - مخوفة بالتناعب مجهولة العواقب، ولم يعد «الوصول إليها» في هذه الساعة من الليل، وطرق الباب، وما يقول لفاتحه، والخفي «دعابات ييسم لها، ولكن عوائق يجدر به أن يتفادى منها. تقدّم في خفة وحذر فاغراً فاه، ذاهاً عن كلّ شيء إلا قنطار اللحم المنطرح عند قدميه الذي بدا لعينيه التهمتين وكأنه أخذ أهبة لاستقباله. حتى توقّف بين الساق القائمة والأخرى الممدودة، ثم انحنى عليها قليلاً قليلاً بلا وعي تقريباً، وبإغراء شديد من الداخل والخارج معاً، وما يدري إلا وهو ينبطح فوقها. لعلّه لم يتعمّد الذهاب إلى هذا الحدّ دفعة واحدة، ولعلّه هم بشيء من التمهيد كان لا ينبغي أن يسبق الحركة العنيفة الأخيرة، ولكنّ الجسم الذي انبطح عليه اضطرب اضطراباً فزع شديدة ونذّت عنه صرخة مدوينة - سبقت يده التي رامت كتفها - فمزّقت السكون الشامل ولطمت تحه لطمّة قويّة رذّت إليه وعيه فأطبق راحته على فمها وهو يهيم في أذنها بقلق وخوف بالغين:

- أنا ياسين، أنا ياسين يا أمّ حنفي، لا تخافي... وطلق يكرّر قوله حتى اطمأنّ إلى وعيها إيّاه فاستردّ راحته، ولكنّ المرأة - التي لم تمسك عن المقاومة قط - تمكّنت أخيراً من تنحيته عنها، فاستوت جالسة وهي تلهث من الجهد والانفعال ثمّ سألت بصوت أزعجه أيّما إزعاج:

- ماذا تريد يا سي ياسين؟

فقال لها بلهجة هامسة ملؤها الرجاء:

- لا ترفعي صوتك هكذا، قلت لك لا تخافي،

ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف بتاتاً...

فعدت تسأله بجفاء وإن خفضت من صوتها قليلاً:

الدرجات لولا الظلمة الغاشية. خرج - بخروجه إلى الفناء - إلى ظلمة أخفّ قليلاً بما نفضته النجوم عليها من أضواء خافتة بيد أنّها بدت لعينيه اللتين كابدتا ظلمة السكّن طويلاً نوراً أو كالنور. وعندما خطا خطوتين متجهاً إلى الباب الخارجي في آخر الفناء جذب عينيه نور ضئيل ينبعث من سراج على وضغ أمام حجرة الفرن فألقى عليه نظرة لا تخلو من استغراب حتى عثر قريباً على جسم منطرح على الأرض فتنوّره على ضوء السراج فعرف أمّ حنفي التي بدت وكأنها استحبّت النوم في الهواء الطلق فراراً من جوّ حجرة الفرن الخانق. وهمّ بمواصلة السير ولكن ثمة شيء استوقفه فغطف رأسه مرّة أخرى صوب النائمة فأمكنه أن يتبينها من موقفه، الذي لم يفصله عنها إلا بضعة أمتار، بوضوح غير منتظر، رآها مستلقية على ظهرها ثانية ساقها اليمنى التي رسمت في الهواء بحافة الجلباب المتصقة بالركبة هرمماً قائماً وكشفت في نفس الوقت عن فخذه اليسرى التي لاحت عارية فيما يلي الركبة ثم غرقت في ظلمة الفرجة التي انحسر عنها الجلباب بين الساق القائمة والأخرى الممدودة مع أنّ إحساسه بضيق الوقت ووجوب البدار إلى غايته لم يهّن إلا أنّه لم يستردّ بصره عن الجسم الملقى غير بعيد منه، أو لعلّه لم يستطع استرداده وانساق وهو لا يدري إلى تفرّسه بأمعان بدا في يقظة عينيه المحمّرتين وانفراج شفّتيه المثلثتين، فاستحالت يقظة العين - وهي تنفّخ الجسم اللحيم الذي شغل فراغاً كبيراً كأنه جاموسة مسنّنة - رغبة مريبة حتى استقرّ البصر على الفرجة المعتمّة ما بين الساق القائمة والساق الممدودة، ثمّ تحوّل التّبار المضطرم في شرايينه من التطلّع صوب باب الخروج إلى حجرة الفرن، وكأنه يكتشف لأوّل مرّة المرأة التي خالطها أعواماً طويلة بغير مبالاة. على أنّ أمّ حنفي لم تحظّ بسمّة واحدة من سمات الحسن، وبدا وجهها أكبر من سنّها الحقيقية التي لم تكد تتجاوز الأربعين، حتى اكتنازها باللحم والدهن كان - لتنافره وسوء تنسيقه - بالانتفاخ الغليظ أشبه، ولذلك، وربّما أيضاً لطول انزوائها في حجرة الفرن وقديم معاشرته

- ماذا جاء بك؟

فجعل يربت على يدها متودداً وهو يتهدد في شبه ارتياح لم يُقَلْ من عصبية كأنما رأى في خفضها لصوتها أماره مشجعة وقال لها:

- ماذا أغضبك؟ لم أُرِدْ بك سوءاً (مبتسماً ابتسامة وشت بها نبراته) هلمّي إلى حجرة الفرن...

فقالَت المرأة بصوت مضطرب ولكنّه ذو دلالة حازمة:

- كلّاً يا سيدي، اذهب إلى حجرتك، اذهب، الله يلعن الشيطان...

لم تزن أم حنفي كلماتها بميزان ولكنّها نذت عنها كما اقتضى الحال. لعلّها لم تعبّر أصدق التعبير عن رغباتها، ولكنّها عبّرت تماماً وبغير شعور منها على شدة المفاجأة، مفاجأة لم تسبق يوماً بتمهيد من أي نوع كان، التي انقضت عليها في نومها كما تنقض الحداة على الفرخ، فصذت الشاب وزجرته بلا أدنى تفكير حقيقي في الصّد أو الزجر، بيد أنّه أساء فهمها فامتلاً حنفاً وثارت برأسه الخواطر... «ما العمل مع بنت الكلب هذه! لا يمكن أن أتراجع بعد أن كشفت نفسي وتماديت إلى حدّ الفضيحة، لا بدّ مما أريد ولو لجأت إلى القوّة وفكر بعجلة في أنجع وسيلة للتغلّب على ما تراءى له من مقاومة ولكنّه - قبل أن يتخذ قراراً - سمع حركة غريبة، لعلّها أقدام، آتية من باب السّلم، فوثب قائماً وهو من الفزع في نهاية، مزدرداً شهوته كما يزدرد اللصّ فصّ الماس المسروق إذا بسوغت في مكمّنه، واستدار صوب الباب ليعاين ما هنالك فرأى والده وهو يجتاز العتبة ماذا ذراعه بالمصباح. تسمر في مكانه مخنّطف الدم مستسلماً ذاهلاً يائساً. أدرك من توه أنّ صرخة أم حنفي لم تضع هباء، وأنّ النافذة الخلفيّة لحجرة الأب كانت له بالمرصّاد، ولكن ما جدوى الإدراك المتأخّر؟... لقد وقع في فخّ القضاء والقدر.

وجعل السيّد يتفرّس في وجهه بقسوة صامتة، مطيلاً الصمت، وهو ينتفض غضباً، ودون أن يحول عينيه القاسيتين أشار بيده إلى الباب يأمره بالدخول، ومع أنّ الاختفاء كان أحبّ إليه في تلك اللحظة من الحياة

نفسها إلّا أنّه من الخوف والارتباك لم يستطع أن يحرك ساكناً، فضاق صدر الأب ولاحت في عبوسه بؤادر الانفجار ثمّ زجر صائحاً وعينه - اللتان انعكس عليهما ضوء المصباح المرتعش بارتعاش اليد القابضة عليه - ترسلان شرّاً...

- اطلع يا مجرم يا بن الكلب...

فما ازداد إلّا استمسكاً بجموده حتّى هجم عليه السيّد فقبض على ذراعه بيمنه وشدّ عليها بغلظة ثمّ جذب به شدّة نحو الباب فاندفع بقوة الجذبة الحارقة فكاد يقع على وجهه، وتمالك توازنه وهو يلتفت وراءه فرعاً، وفرّ بنفسه وثباً وهو لا يبالي ظلمة.

## ٤٢

علم بفضيحة ياسين شخصان - غير أبيه وأم حنفي - هما ستّ أمينة وفهمي، سمعا صرخة أم حنفي، فشاهدا من نافذتيهما ما دار بين الشاب وبين السيّد، ثمّ حدسا ما هنالك دون حاجة إلى كبير ذكاء، على أنّ السيّد كاشف زوجه بزلة ابنه وسألها مدقّقاً عمّا تعلم من أخلاق «أم حنفي» فدافعت أمينة عن خادماتها بما علمت من طبيعتها واستقامتها وذُكرت السيّد بأنّه لولا «صرختها» ما درى أحد بما كان، فقضى الرجل ساعة وهو يسب ويلعن، سبّ ياسين، وسبّ نفسه لأنّه «ما كان ينبغي أن ينجب أطفالاً ليكذبوا صفوه بأهوائهم الشريرة» واستفاض به الغضب فسبّ البيت وأهله جميعاً... وظلّت أمينة صامته كما واصلت صمتها فيما بعد كأنما لم تدر شيئاً، كذلك تجاهل فهمي الأمر كلّ، تظاهر بالاستغراق في النوم حين عاد أخوه إلى الحجرة لاهثاً عقب الموقعة الخاسرة، ولم يبدّ منه فيما بعد ما ينم عن علمه بشيء، كره أن يعلم الآخر بوقوفه على ما نزل به من ذلّ ومهانة إكراماً لاحترام يكنّه له بصفته أخاه الأكبر، احترام لم يُدْبه كلّ ما تكشف له من استهتاره ومجونه أو ما تقدّم هو به عليه من علم وثقافة، أو ما يبدو من ياسين نفسه من عدم مبالاة بالزمام أحد من إخوته باحترامه بما يعابثهم من مزاح ودعابة، أجل لم يزل

تعرّضت لهبة هواء عنيفة، وراح يقول لنفسه وهو شاعر بخداعه «لو طاوعت الشيطان وهجرت البيت لأحدثت تقليدًا خبيثًا لا يليق بأسرتنا، مهما يقل أبي أو يفعل فهو أبي وهيئات أن نضام حيال تأديبه» ثم قال بصراحتة التي يصطنعها إذا غلبته روح الدعابة «شيئًا من التواضع يا ياسين بك، دعنا من الكرامة وحياة أُمك، أيها أحب إليك كرامة سيادتك أو كونياك كوستاكي وسرة زُنوبة». هكذا عدل عن التفكير في مغادرة البيت ولبت ينتظر الدعوة المتوقعة حتّى وقعت فجمع نفسه ومضى كارهاً متوجّساً، دخل الحجرة خافض الرأس خفيف القدم ووقف بعيداً عن مجلس أبيه من غير أن يجرؤ على التسليم عليه، وانتظر. وألقى السيّد عليه نظرة طويلة ثم هز رأسه كالمتعجب وهو يقول:

- ما شاء الله!... طول وعرض، شارب وقفا، إذا رآك الرائي في الطريق قال لنفسه بإعجاب نعم الرجل ونعم الابن، فليت القائل يجيء إلى البيت ليراك على حقيقتك!...

ازداد الشاب ارتباكاً وحياء ولكنّه لم ينبس بكلمة ومضى السيّد يتفحصه بسخط ثم قال باقتضاب ويلهجة جافّة أمرّة:

- قرّرت أن تزوّج...!

ودهش ياسين دهشة لم يكده يصدّق معها أذنيه، كان يتوقّع سباً ولعنّاً فحسب ولكن لم يخطر له على بال أنّه سيسمع قرأراً خطيراً يغيّر مجرى حياته كلّها فما تمالك أن رفع عينيه إلى وجه أبيه حتّى إذا ما التقتا بعينيهِ الزرقاوين الحادّتين خفضهما متورّد الوجه لائثاً بالصمت، وطقن السيّد إلى أنّ ابنة بوغت بهذا القرار «السعيد» بدلاً من المعاملة الفظة التي كان يتوقّعها فثار حنقه على الظروف التي أملّت عليه أن يلقاه بجانب دمث خليق بتكذيب ظنّه بجبروته المعروف فبثّ حنقه في نبرات صوته، وهو يقول عابساً:

- الوقت ضيق وأريد أن أسمع جوابك...!

ما دام الرجل قد قرّر أن يزوّجه فهو بأبى إلا أن يسمع جواباً واحداً، ولا مانع من أن يُسمعه الجواب

يكنّ له احتراماً لعلّ حرصه على الإبقاء عليه راجع إلى ما يأخذ به نفسه من تأديب وجدّ ورزانة أكسبته مظهرًا أكبر من سنّه، يبدّ أنّ خديجة لم يفتّها أن تلاحظ - غداة الواقعة - أنّ ياسين لم يتناول فطوره على مائدة أبيه فسأته باستغراب عن المانع فأجابها بأنّه لم يهضم عشاء الفرح، وشعرت الفتاة - بسوء ظنّها الطبيعي المرهف - بأنّ ثمة علّة لتخلّفه غير عسر الهضم فسألت أمّها ولكنّها لم تجد جواباً شافياً، ثمّ رجع كمال من حجرة الطعام وهو يتساءل أيضاً، لا بدافع من حب الاستطلاع أو الأسف، ولكن أملًا أن يجد في الجواب ما يشرّه بفترة أخرى يخلو الميدان فيها من منافس خطير كياسين، وكاد الأمر ينسى لولا أنّ ياسين غادر البيت مساء من غير أن يشترك في مجلس القهوة المعهود، ومع أنّه اعتذر لفهمي والّأم بارتباطه بميعاد إلا أنّ خديجة قالت بصراحة «في الأمر شيء، لست عبيطة... أقطع ذراعي إن لم يكن ياسين متغيّراً». وعند ذلك اضطّرت الأم أن تعلن غضب السيّد على ياسين لسبب لم تعلمه... وانقضت ساعة وهم يخمنون السبب حتّى أمينة وفهمي اشتركا مع الآخرين مداراة للواقع. وظلّ ياسين على تحبّبه للمائدة أبيه حتّى دُعي ذات صباح إلى مقابلته قبل الفطور. لم تفجّاه الدعوة، وإن أزعجته رغم ذلك - فكّم توقّعه يوماً بعد يوم لاستيثاره من أنّ أباه لا يمكن أن يقنع من زلّته بتلك الجذبة العنيفة التي كادت أن تلقّيه على وجهه، وأنّه لا بدّ عائد إليها بطريق أو بآخر ولعلّه توقّع أيضاً معاملة لن تليق بحال بموظّف مثله ممّا حله حيناً على التفكير في مغادرة البيت إلى حين أو إلى الأبد. أجل لا يجمل بأبيه - أبيه كما عرفه في بيت زبيدة خاصّة - أن يلقى زلّته بهذا العنت كلّ، كما لا يجمل به هو أن يعرض نفسه لمعاملة لا تليق برجولته فالأكرم له أن يفارقه، ولكن إلى أين؟... ليس إلّا أن يعيش عيشة مستقلّة بمفرده، ولن يعجزه هذا، بيد أنّه قلب الأمر على مختلف وجوهه، قدّر النفقات وتساءل عمّا يبقى له بعدها للملاذه: لقهوة سي علي وحنانة كوستاكي وزُنوبة. هنالك فتر حماسه حتّى انطفأ كما تنطفئ شمعة سراج

الذي يريد، لا طاعة لأمره فحسب، ولكن تلبية لرغبته هو أيضًا. أجل ما كان والده يعلنه بقراره حتى انطلق خياله يصوّر له «عروسًا» حسناء، امرأة تكون ملك يمينه ورهن إشارته حين يشاء فأبهج الخيال قلبه حتى أوشك أن يفصح صوته وهو يقول:

- الرأي رأيك يا بابا...

- تريد أن تتزوّج أو لا؟... انطق...

فقال الشاب بحذر من يرغب الزواج وهو غير مستعدّ له ماليًا:

- ما دامت هذه إرادتك فأني موافق على العين والرأس.

فخفّف السيّد من خشونة لهجته وهو يقول:

- سأطلب لك كريمة صديقي السيّد محمّد عفت تاجر الأقمشة بالحمزاوي، لقيه ظفرها برقبة ثور مثلك.

فابتسم ياسين ابتسامة خفيفة وقال مدهانًا:

- ولكنّي بفضللك أصبح كفتًا لها.

فومقه بنظرة حادة كأنما لينفذ بها إلى أعماق مدهانته وقال:

- من يسمع كلامك لا يتصوّر فعالك يا منافق...

اغرب عن وجهي...

وهمّ ياسين بالتحرك ولكنّه أوقفه بإشارة من يده ثمّ تساءل مستدرّكًا كأنما عرض التساؤل له اتفاقًا:

- أظنّك حوّشت المهر؟

لم يجر جوابًا وعلاه الارتباك فاغتاز السيّد وتساءل مستنكرًا:

- ولكنّك عشت رغم توطّئك في كفّالي كما كنت تعيش وأنت تلميذ فإذا صنعت بمزبّك؟

فلم يزد على أن حرّك شفّتيه دون أن ينبس فحرّك الأب رأسه متمعضًا وذكر قوله له منذ عام ونصف وهو يوصيه لمناسبة توطّفه ولو طالبك الآن بأن تتعهد بنفقات نفسك بوصفك رجلًا مسئولًا ما خرقت المألوف بين الآباء والأبناء ولكنّي لن أطالبك بمليم واحد كي أهيئ لك فرصة لاقتصاد مقدار من المال تجده بين يديك إذا دعت الحاجة إليه» ودلّ ذلك

التصرّف من جانبه على ثقته بابنه، والحقّ أنّه لم يتصوّر أن يجنح أحد من أبنائه - بعدما نال من تأديبه وتهذيبه الصارمين - إلى هوى من الأهواء الجاحشة التي تبدّد المال، لم يتصوّر أن ينقلب ابنه «الصغير» سكريرًا ماجنًا، فالخمر والنساء التي يراها في حياته هو لوئًا من اللهو لا يمسّ رجولة ولا يؤذي إنمّا تنقلب إذا «لوئت» أحدًا من أبنائه جرعة لا تغتفر، ولذلك فإنّ زلّة الشاب التي كشفها في فناء البيت طمأنته بقدر ما أغضبتة لأنّ أمّ حنفي في نظره لا يمكن أن تغري شابًا إن لم يكن تحمّل ما فاق طاقته من الاستقامة والعفة... أجل لم يشكّ في براءة ابنه بيّد أنّه ذكر ما لاحظته كثيرًا من ولعه بالأنافة وتخيّره النفيس من البذل والقمصان وأربطة الرقبة وكيف لم يرتح إلى ذلك وحذّره الإسراف ولكنّ تحذيرًا هيئًا، إمّا لأنّه لم ير في الأنافة جرمة، وإمّا لأنّ تشبّه ابنه به وتكراره لصورة من صور سلوكه - الذي لا يرى بأسًا في أن يكرّره أبنائوه - حرّكًا في صدره العطف والتسامح، ولكن كيف كانت نتيجة ذلك التسامح؟ وهي ما وضح له الآن من تبذيره نقوده في التافه من الكياليّات. ونفخ الرجل مغيظًا محنقًا وقال له محتدًا:

- اغرب عن وجهي...

غادر ياسين الحجرة مغضوبًا عليه بسبب تبذيره لا بسبب زلّته كما توقّع وهو ذاهب إلى الحجرة، تبذيره الذي لم يكرهه من قبل فسلم إليه نفسه بلا تفكير ولا تدبّر، ينفق ما في جيبه حتى يفرغ غارقًا في ساعته، متعاميًا عمّا يسمّونه «المستقبل» كأنه شيء لا وجود له، ومع أنّه غادر الحجرة مرتبكًا وجلًا لنهرة أبيه إلّا أنّه لم يخلّ من ارتياح عميق إذ أدرك أنّ تلك النهرة لا تعني طرده فحسب ولكن أيضًا أنّ السيّد سيتكفّل بنفقات زواجه، ومضى كالطفل الذي يضيق أبوه بإلحاحه في طلب قرش فينقده إمّاه ويدفعه خارجًا فينسى شدة الدفعة في فرحة الظفر، ولبت الأب ساخطًا راح يردّد «يا له من حيوان، جسم طويل عريض ولكن بلا مخ» أغضبه إسرافه كأنّه لم يتخذ هو من الإسراف شعارًا في الحياة - ولكنّه لا يرى بأسًا في إسرافه كسائر أهوائه - ما

تتغير في الواقع بتغير الأحوال وإن عمل من جانبه على ألا يفطن أحد إلى نية التغيير الباطنة ثم قال: «الحق أني لا أقبل أن أمد يدي الآن على ياسين ولا حتى على فهمي، والحق أني جذبت ياسين تلك الجذبة تحت تأثير غضب ناثر ومن غير أن أقدر المدى الذي ذهبت إليه» ثم استطرد قائلاً وهو يكرّ إلى فترة من الماضي البعيد «كان أبي رحمة الله عليه يلتزم في تربيتي شدة تمون إلى جانبها شدتي مع أبنائي ولكنه سرعان ما غير من معاملته لي منذ أن دعاني إلى معاونته في الدكان، ثم استحالت معاملته صداقة أبوية منذ تزوجت أم ياسين، وقد بلغ بي الاعتزاز بالنفس أن عارضت في زواجه الأخير لكبره من ناحية وحداثة سن العروس من ناحية أخرى فلم يزد على أن قال لي «أتمارضني يا ثور... وما دخلك في هذا الشأن؟ إنني أقدر منك على إرضاء آية امرأة» فما تماكنت أن ضحكت وطيبت خاطره معتذراً ذكر هذا كله فورد على ذهنه المثل القائل «إذا كبر ابنك أخيه» فشعر - ربما لأول مرة في حياته - بتعقد مهمة الأبوة كما لم يشعر بها من قبل. في نفس الأسبوع أذاعت الأم خطبة ياسين في مجلس القهوة، كان فهمي قد علم بها عن طريق ياسين نفسه، أما خديجة فما تماكنت أن ربطت بين الخطبة وبين ما عرف من قبل عن غضب الأب على ياسين ظناً منها أن الغضب إنما وقع نتيجة لرغبة ياسين في الزواج قياساً على ما كان بين الأب وفهمي للسبب نفسه فصرت برأيا كالتسائلة فقال ياسين ضاحكاً وهو يخطف من الأم نظرة لا تخلو من حياء وارتباك:

- الحق أن ثمة علاقة قوية بين الغضب وبين الخطبة...

فقالت خديجة متظاهرة بالاستنكار على سبيل السخرية والمزاح:

- بابا معذور في غضبه لأن حضرتك لا يمكن أن تشرفه أمام صديق كبير مثل السيد محمد عفت...

فجاراها ياسين في سخريتها قائلاً:

- وسوف يزداد موقف أبي حرجاً إذا ما علم السيد الكبير المذكور أن للعريس اختاً مثل حضرتك!

دام لا يفقره وينسيه واجباته أو يدهور شخصيته، ولكن كيف يضمن أن يصمد أمامه ياسين؟... فلم يكن يحرم عليه ما يحل لنفسه من استبداد وأنانية فحسب ولكن شفقاً عليه وإن دلّ شفق هذا على ثقة بالنفس وعدم ثقة بالآخر لا يخلوان من غرور. وزايله الغضب كعادته، بنفس السرعة التي ركبها، فصفت نفسه وانبسخت أساريه وأخذت الأمور تتبدى له بوجه جديد لطيف مساح... «تريد أن تتشبه بأبيك يا ثور... إذن لا تأخذ جانباً وتمل الجوانب الأخرى، كن أحمد عبد الجواد كله إن استطعت أو فالزم حدودك، أحسبتي حقاً سخطت على تبذيرك لأنني كنت أرجو أن أزوجك بنقودك؟! خسئت... إنما رجوت أن أجذك مقتصدًا كي أزوجك بنقودي على وفرة النقود لديك، هذا هو الرجاء الذي خيبت. وهل حسبتي لم أفكر في اختيار زوجة لك إلا بعد ضبطك متلبساً بالزنا، وأي زنا... زنا حقير كحقارة ذوقك وذوق أمك؟! كلاً يا بغل إنني أفكر في سعادتك منذ توظفت، كيف لا وأنت أول من جعلني أباً... وأنت شريك في العذاب الذي أضلّتنا إياه أمك اللعينة؟!... ثم أليس من حقّي أن أفرح بك خصوصاً وأنه عليّ أن أنتظر طويلاً حتى أفرح بالثور الآخر أخيك أسير العشق وبأثرى من يعيش؟!...» في اللحظة التالية استرجع ذكرى ذات سبب وثيق بموقفه الراهن ذكر كيف قصّ على السيد محمد عفت «جرمة» ياسين وما كان من زجره وجذبه تلك الجذبة التي كادت تلقيه على وجهه وهو بصدد طلب يد كريمة للشباب - الواقع أن الموافقة على ذلك تمت بين الرجلين من قبل مفاتيح ياسين - وكيف قال له الرجل «ألا ترى أنه يجمل بك أن تغير من معاملتك لابنك كلما قارب سن الرشد خاصة إذا توظف وصار رجلاً مسئولاً؟ (ثم ضاحكاً) الظاهر أنك من الآباء الذين لا يرتدعون حتى يجهز أبناؤهم بالثورة عليهم». وكيف أجابه بثقة قائلاً: «هيهات أن تتمرض الرابطة بيني وبين أبنائي لتغير الزمن» صدرت عنه الإجابة الأخيرة بمباهاة وثقة لا حد لها، على أنه اعترض له بعد ذلك أن معاملته

عند ذاك تساءل كمال :

- هل سيركتنا ياسين كما تركتنا أبله عائشة؟

فقالت له أمه باسمه:

- كلاً ولكن ستنضمّ إلى بيتنا أخت جديدة هي

العروس...

ارتاح كمال إلى هذه الإجابة التي لم يكن يتوقعها،

ارتاح إلى بقاء «روايته» الذي يمتعه بحكاياته ونوادره

ومؤاسسته ولكنّه عاد يتساءل لماذا لم تبقى عائشة أيضاً؟

فأجابته أمه بأنّ العادة قضت بأنّ العروس تنتقل إلى

بيت العريس وليس العكس، لم يذّر من سنّ هذه

العادة وكم تمثّل لو كان العكس هو المتبع ولو يضحّي

بياسين ولطفاته. بيد أنّه لم يستطع أن يجهر برغبته

فأفصح عنها بنظرة ناطقة رنا بها إلى أمه، فهمي وحده

الذي أثار الخبر أشجانه لا لأنّه لم يشارك ياسين فرحته

ولكن لأنّ سيرة الزواج غدا شأنها أن توقظ عاطفته

وتستثير حزنه كما تستثير سيرة النصر حزن أمّ فقدت

ابنها... في موقعة ظافرة...

### ٤٣

تحرك الحنطور مقلداً الأم وخديجة وكمال في طريقه

إلى السكّرية. أ يكون زواج عائشة إيذاناً بعهد جديد

من الحرّية؟ أيقدر لهم أخيراً أن يطلّعو على نور الدنيا

من حين لآخر وأن يتنفّسوا هواءها الطليق؟ بيد أنّ

أمنية لم تستسلم للتفاؤل أو تسبق الحوادث، فالذي

حرّم عليها زيارة أمّها فيما ندر قادر على أن يحرّم عليها

زيارة ابنتها كذلك. ولم تنس أنّه مضت أيام كثيرة على

زواج الفتاة زارها خلالها الأب وياسين وفهمي وحتّى

أمّ حنفي دون أن يؤذن لها هي بزيارتها أو تواتيها

شجاعتها على الاستئذان للزيارة، تحرّزت من تذكيره

بأنّ لها ابنة في السكّرية يجب أن تراها، ولازمت

الصمت وإن لم تبرح صورة الصغيرة مخيلتها، على أنّه

لما ضاق صدرها بالأمّ التصبّر استجمعت إرادتها

وسألته:

- إن شاء الله يكون سيدي عازماً على زيارة عائشة

قريباً لنطمئنّ عليها؟...

فطن السيّد إلى ما وراء السؤال من رغبة خفيّة

فحقق عليها، لا لأنّه كان قرّر أن يحول بينها وبين

زيارة عائشة، ولكن لأنّه ودّ - كشأنه في مثل هذه

الحالة - أن يصدر السماح منه منحة غير مسبوقه بطلب

أن تقوم بنفسها شبهة بأنّ طلبها ذو أثر في استصدار

السماح، فكرة أن تسعى إلى تذكيره بهذا السؤال

الماكر، ومن قبل فكر في الأمر بضيق فاحنقه أن يجده

ضرورة لا محيص منها، ولذلك هتف بها حانقاً:

- عائشة في بيت زوجها ولا حاجة بها إلى أحد منا،

على أنّي زرتها كما زارها أخوها فإذا يقلّك عليها؟!

غاص قلبها في صدرها وجفّ ريقها يأساً وقهراً،

أما السيّد فقد تعمّد أن يلزم الصمت كأنّه انتهى من

الأمر كلّ معاقبة لها على ما عدّه مكرّاً منها لا يغتفر،

ثمّ أمهلها طوال الوقت وهو يختلس النظر إلى ما غشي

أساريرها من كمد، حتّى حان وقت انصرافه إلى عمله

فقال لها بجفاء واقتضاب:

- اذهبي غداً إلى زيارتها...!

تدافع دم الانشراح إلى الوجه الذي لا تخفي

بصفحته خافية فبدت في سرور الطفل فما عتّم أن

عاوده حنقه فصاح بها:

- لن تريها بعد ذلك إلّا إذا سمح لها زوجها

بزيارتنا...!

فلم تعلق على قوله بكلمة ولكنّها لم تنس عهداً

حلته وهي تشاور خديجة في مفاتحته فقالت بعد تردّد

واشفاق:

- هل يسمح سيدي بأن آخذ معي خديجة؟

فهزّ رأسه كأنما يقول «ما شاء الله... ما شاء

الله...» ثمّ قال لها معتداً:

- طبعاً... طبعاً!... ما دمت قد قبلت أن أزوّج

ابنتي فيجب أن تنضمّ أسرتي إلى أبناء الشوارع!...

خديجا، ربّنا ياخذكم جميعاً...

تمّ لها فوق ما تطلع من السرور فلم تُلقي بالاً إلى

الدعاء الأخير الذي ألفت سماعه... وأكثر - في أوقات

غضبه أو تظاهره بالغضب على السواء - كانت تعلم

بأنّه من طرف لسانه وأنّه أبعد ما يكون من قلبه، مثله

أمها وأختها وهو على ذلك الوضع !  
 بدت عائشة سعيدة كل السعادة بنفسها وبحياتها  
 الجديدة وبزيارة أهلها، حدثتهم عن زيارات أبيها  
 وياسين وفهمي، وكيف غلبها الشوق إليهم على خوفها  
 من أبيها فواتتها الجراً على أن ترجوه بالسباح لهم  
 بزيارتها... قالت «لا أدري كيف طاعني لساني  
 حتى تكلمت! لعل مظهره الجديد الذي لم يترأى لي به  
 من قبل هو الذي شجّعني، بدا لطيفاً وديعاً بأسماً، إي  
 والله بأسماً، على أنني ترددت رغم ذلك طويلاً، خفت  
 أن ينقلب فجأة فينتهرني، ثم تسوكت على الله  
 ونطقته! فسألها أمها عن رده كيف كان فقالت «قال  
 لي باقتضاب: إن شاء الله، ثم استطرد مسرعاً بلهجة  
 جدية تنم عن تحذير: ولكن لا تظني المسألة لعباً فكل  
 شيء بحساب. فحقق قلبي ورحت أدعوه طويلاً  
 تودّذا واسترضاء! ثم رجعت إلى الورا قليلاً فوصفت  
 حالها عندما قيل لها «السيد الكبير في حجرة الاستقبال»  
 قالت «ركضت إلى الحمام فغسلت وجهي لأزيل كل أثر  
 للمساحيق حتى تساءل سي خليل عما يدعوه إلى ذلك  
 كله ولكنني قلت له: أدركي، لا أستطيع أن ألقاه  
 بفستان صيفي يكشف عن ذراعي! ولم أبرح موضعي  
 حتى تلقّعت بشال كشميري! ثم قالت «ولمّا علمت  
 نينة... (ضاحكة) أعني نينة الجديدة... كما قص  
 عليها سي خليل ما جرى ضحكك وقالت له: إني  
 أعرف السيد أحمد تمام المعرفة... هو هذا وأكثر (ثم  
 ملتفتة إليّ) ولكن اعلمي يا شوشو أنك لم تعود من  
 آل عبد الجواد، أنت الآن شوكتية فلا تبالي  
 الآخرين...». أصاب منظرها البهيج وحديثها من  
 نفوسهم موضع الحب والإعجاب فحملق كمال فيها كما  
 فعل في ليلة الزفاف وتساءل محتجاً «لماذا لم تكوني  
 تبدين هكذا وأنت في بيتنا؟» فأجابته على الفور  
 ضاحكة «لم أكن وقت ذاك شوكتية» حتى خديجة رمقتها  
 بعين الحب. انقطعت بزواج الفتاة دواعي الملاحاة التي  
 كانت تنشب بينها بسبب الاختلاط، ومن ناحية أخرى  
 لم يبق من الإحساس بالحنق الذي ركبها عند السباح  
 بزواج الفتاة قبلها إلا أثر باهت حملته «بختها» من دون

كمثل القطة تبدو، حين تحمل صغارها، وكأنها  
 تلتهمها. تحقّق الرجاء وانطلقت العربية بهم في طريقها  
 إلى السكّرية. بدا كمال، لزيارة عائشة وخروجه  
 بصحبة أمّه وأخته وركوبه الحنطور، أوفر الثلاثة  
 سروراً، وكأنه لم يستطع كتمان فرحه أو أنه رغب في  
 إعلانه على الملأ أو لعله أراد لفت الأنظار إلى شخصه  
 وهو يتخذ مجلسه في الحنطور بين أمّه وأخته فما اقتربت  
 العربية من دكان عمّ حسنين الحلاق حتى وقف بغتة  
 هائفاً «يا عمّ حسنين... انظروا» فنظر الرجل إليه  
 ولمّا لم يجده وحده غضّ بصره في عجلة مبتسماً فذابت  
 الأم خجلاً وارتباكاً وجذبت من طرف جاكته أن يعيد  
 الكرة أمام الدكاكين التالية وراحت تؤثبه على فعلته  
 «الجنونية». بدا بيت السكّرية - وليس كذلك بدا في  
 حلة الأنوار ليلة الفرح - عتيقاً هرمّاً ولكن دلّ عتقه  
 نفسه فضلاً عن ضخامة بنيانه ونفاثة أثائه على السؤدد  
 والجاه، قال شوكت أسرة «قديمة» وإن لم يبق لهم من  
 عزّة القدم - خاصة بعد توزيع الثروة بالتوارث  
 والاستكبار على التعليم - إلا الاسم، وقد أقامت  
 العروس بالدور الثاني على حين نزلت حرم المرحوم  
 شوكت - ومعها ابنتها الأكبر إبراهيم - الدور الأول  
 لعجزها مع الكبر عن ارتقاء السلم فبقي دور ثالث  
 شاغراً لم يسعهم أن يشغلوه وأبوا أن يسكنوه. ولما  
 أدخلوا شقة عائشة همّ كمال، منطلقاً مع سجيته كما لو  
 كان في بيته، يجوس خلالها كي يعثر بنفسه على أخته  
 مستمتعاً بلذّة المفاجأة التي تخيلها وهو يرقى في السلم  
 ولكن أمّه لم تدعه يفلت من يدها رغم مقاومته وما  
 يدري إلا والخادم تقودهم إلى حجرة الاستقبال ثم  
 تركهم وحدهم! شعر بأنهم يعاملون معاملة «الغريباء»  
 أو «الضيوف» فانقبض صدره وانكسرت نفسه وجعل  
 يردّد في جزع «أين عائشة؟... لماذا تبقى هنا؟» فلا  
 يسمع إلا كلمة «هس» وتحذيراً من منعه من الزيارة  
 مرّة أخرى إذا علا صوته!... ولكنه سرعان ما زابله  
 الألم حين جاءت عائشة مهولة مشرقة الوجه بابتسامة  
 غطى سناها على أضواء حلتها الزاهية وزيتها الباهرة  
 فجري نحوها وتعلّق بعنقها، فتبدل التسليم بينها وبين

الفتاة، فلم يعد ينطوي قلبها إلا على الحب والشوق، لشد ما تفتقدها كلما آنتست من نفسها حاجة إلى أنيس تفضي إليه بذات نفسها. ثم تحدثت عائشة عن البيت الجديد، عن المشربية التي تطل على بوابة المتولي، والمآذن التي تنطلق عن قرب، وتيار السابلة الذي لا ينقطع. كل شيء حولها يذكرها بالبيت القديم وما يكتنفه من سبل وأبنية فلا اختلاف فيما عدا الأسماء وبعض المعالم الثانوية «ولكن على فكرة البوابة العظيمة لا نظير لها عندهم (ثم بشيء من الفتور) وإن كان المحمل لا يمر تحتها كما أخبرني سي خليل!» وواصلت حديثها «تحت المشربية مباشرة مجلس يضم ثلاثة لا يفارقونه قبل جثوم الليل: شحاذ كسيح وبائع مراكيب وضارب رمل، أولئك جبراني الجدد، إلا أن ضارب الرمل أسعدهم حظًا، لا تسألوا عن أفواج النساء والرجال الذين يجلسون القرفصاء أمامه مستخبرين عن طوالهم، كم وددت لو كانت مشربتي أوطأ كيما أسمع ما يقول لهم، والدّ منظر، منظر سوارس القادمة من الدرب الأحمر إذا تقابلت مع عربة حجارة قادمة من الغورية فضاقت عنهما مدخل البوابة وركب كل سائق رأسه متحدثًا الآخر أن يراجع ليفسح السبيل، يبدأ الكلام ليّنا بعض اللين فيحدث، ثم يخشوشن، ثم تهدر الحناجر بالسباب والشتائم، وتجيء في أثناء ذلك عربات كارو وعربات يد فيغص بها الطريق ولا يدري أحد كيف يعود الحال إلى ما كان عليه، هنالك أقف وراء الخصاص أكااتم الضحك وأتأمل الوجوه والمناظر» وما أشبه فناء البيت الجديد بفناء بيتهم، حجرة القرن والمخزن وحماها سيّدة الفناء والجارية سويدان «لا أجد لي عملاً فلا أذكر المطبخ حتى تحمل إليّ صينية الطعام» وعند ذاك لم تتمالك خديجة نفسها من أن تضحك قائلة «نلت ما طالما تمنّيته!» لم يجد كمال في الحديث شيئاً ذا بال إلا أنه أحسّ في نغمته العامة بما يوحي «باستقرار» المتحدثة فداخله الانزعاج وسألها:

- ألن تعودي إلينا؟ . . .

فملاً الحجرة صوت يقول:

- لن تعود إليكم يا سي كمال. . .

وإذا بخليل شوكت يدخل ضاحكاً وهو يرفل بجسمه الربة في جلباب حرير أبيض. كان ذا وجه بيضاويّ ممثليّ، أبيض البشرة في عينيه جحوظ خفيف وفي شفثيه غلظة، أما رأسه الكبير فينتهي بعجين ضيق يفترق عند قمّته شعر أسود كثيف يشبه في لونه وتسريحته شعر السيّد، تلوح في عينيه نظرة طيبة وخمول لعلها أثر للراحة والفراغ والرضى. انحنى على يد الأمّ ليقبلها فجذبها بسرعة في خجل وارتباك وهي تتمتم شاكراً ثم سلّم على خديجة وكمال وجلس وكأنه - على حدّ تعبير كمال فيما بعد - واحد منهم. وانتهز الغلام فرصة تشاغل العريس بتحديثهم وتفرّس في وجهه طويلاً، ذاك الوجه الغريب أصلاً الذي برز في محيط حياتهم ليوحتل مكاناً مرموقاً يؤهله لأن يكون أقرب الأقرباء أو بالأحرى أن يكون قريباً لوجه عائشة، كلما خطر هذا على باله جرّ وراءه ذاك كما يجرّ الأبيض الأسود. تفرّس فيه طويلاً وهو يرّدّد في نفسه قوله الممتلئ ثقة «لن تعود إليكم يا سي كمال» فوجد نحوه إنكاراً ونفوراً وحقداً وكادت تتمكّن من قلبه لولا أن قام الرجل فجأة ومضى إلى الخارج ثم عاد حاملاً صينية فضية ملئت حلوى من مختلف الألوان فقدم له باسمًا - وإن كشف افتراق ثغره عن يبتتين ركبت إحداهما الأخرى - نخبة من أشهى الأصناف، وجاءت حرم المرحوم شوكت معتمدة على ذراع رجل استدلّوا بمشابهته خليل على أنه أخوه الأكبر، ثم وكّد استدلالهم تقديم الأرملة بقولها «إبراهيم ابني. . . ألم تعرفوه بعد؟!» وعندما لاحظت ارتباك أمينة وخديجة حال التسليم قالت باسمه «نحن كالأسرة الواحدة من قديم الزمان ولكن بعضنا يرى البعض الآخر الساعة لأوّل مرّة. . . لا بأس. . . فطنت أمينة إلى أن المرأة تشجّعها وتهوّن عليها الأمر فابتسمت، ولكن ساورها شيء من القلق وتساءلت: ترى هل يوافق السيّد على مقابلتها لهذا الرجل - وإن عدّ عضواً جديداً في الأسرة كخليل سواء بسواء - بغير نقاب؟ . . . وهل تكاشفه بالمقابلة أو تتحاشى ذكرها إنياراً للسلامة؟ . . . كان إبراهيم و خليل أشبه بالتأمين لولا فارق



فانتقل إلى جوار العروس وأبدى لها إشارة فهتت منها أنه يريد أن يخلو بها فقامت وأخذته من يده وغادرا الحجرة، ظننته قانعاً بمجالستها في الصالة ولكنه جذبها من يدها إلى حجرة النوم ورد الباب وراءها حتى أرتج. انطلقت أساريره ولعت عيناه، وتطلع إليها طويلاً ثم تصفح الحجرة ركنًا ركنًا وهو يتشمم رائحة الأثاث الجديد مازجها أريج زكي لعله بقيّة مما انتشر من أيدي المتطهّرين وصدورهم، ثم رنا إلى الفراش الوثير، إلى النمرقتين اللوردتين المتجاورتين على الغطاء فوق الوسائد وسألها «ما هما؟» فأجابته «وسادتان صغيرتان» فسألها «أتوسدينهما؟» قالت باسم «كلاهما للزينة فقط» فأشار إلى الفراش متسائلاً «أين تنامين؟» فأجابت باسم «في الداخل» فسألها كأنه متأكد من أنه ينام معها «وسي خليل؟» فأجابت وهي تقرص خده برقة «في الخارج...» عند ذاك التفت صوب «الشيزلنج» بغرابة، وسار إليه وجلس، ودعاها إلى الجلوس جنبه فجلست، وما لبث أن غاب في الذكريات غاضباً بصره ليخفي نظرة مريبة وصمها بالريبة اشتداد أمه بالحملة عليه مساء ليلة الزفاف وهو يسر إليها بما رأى من ثقب الباب، راودته نفسه على أن ييوح لها بسرّه، أن يسألها عنه، تحت ضغط إغراء لا يخلو من قسوة، ولكنّ الخجل الناجم عن الشعور بالريبة عقله فشكّم رغبته على رغمه، ثم رفع إليها عينين صافيتين وابتسم إليها، فابتسمت إليه ومالت نحوه فقبلته، ثم نهضت قائلة وملت وجهها ابتسامة حلوة:

- لاملأَنَّ جيوبك بالشيكولاتة...

#### ٤٤

تصايح الغلمان المتجمهرون أمام البيت وعلى طوار سبيل بين القصرين مهللين، تميّز صوت كمال وهو يهتف «هلت سيّارة العروس» وردّها ثلاثاً فخرج ياسين - وهو في كامل زينته وأبهته - من بين الجساعة الواقعة عند مدخل القناء ومضى إلى الطريق فوقف أمام البيت متّجهاً صوب النحاسين فرأى موكب

السّن، على أنّ اختلافها بدا أقلّ من القليل بالقياس إلى اختلاف عمرهما، والحقّ أنّه لولا قصر شعر إبراهيم، ولولا شاربته المفتول، لما كان ثمة ما يميّزه عن خليل، كأنه لم يبلغ الأربعين، أو كأنّ شبابه ومظهره لا يتأثّران بمرور الأعوام، لذلك ذكرت أمينة ما حدّثها به السيّد مرّة عن المرحوم شوكت من أنّه «كان يبدو أقلّ من عمره الحقيقيّ بعشرين عامًا أو يزيد» أو قوله عنه «إنّه رغم طيبته ونبله كان كالحَيوان لا يسمح لفكره أبدًا بأن يتغنّص عليه صفوه!»، أليس عجيبًا أن يبدو إبراهيم في الثلاثين مع أنّه تزوّج في صدر شبابه وأنجب طفلين ثمّ ماتت زوجته وطفلاه؟! ولكنّه مرق من تجرّبه القاسية سالماً لم يمسّ، ثمّ عاود الحياة مع أمّه في خمول ودعة وفراغ شأن آل شوكت جميعاً، راق خديجة أن تسترق النظر - كلّها أمنت أعين الرقباء إلى الشقيقتين، إلى أوجه الشبه العجيبة بينهما، ببضاوئة الوجه وامتلائه، جحوظ العينين الواسعتين، البدانة، الخمول، فحرّك كلّ أولئك السخرية الكامنة في نفسها حتّى ضحكت أفكارها ومضت تذخر في ذاكرتها من الصوّر ما تعود إليه إذا ضمّتها مجلس القهوة ومالت جرياً على سنّتها في التهكّم إلى العبث والإضحاك، وإلى هذا فكّرت باهتمام في اختيار اسم وصفّيّ عيّاب لها على مثال الأسماء الوصفية التي تطلقها على ضحاياها من الناس أو بالأحرى أسوة بأئمّها التي تطلق عليها «المدفع الرشاش» لتناثر ريقها عند الحديث. واسترقت مرّة نظرة إلى إبراهيم فما راعها إلّا أن تلتقي عينها بعينيّه الواسعتين وهما تتفرّسان في وجهها باهتمام من تحت حاجبيه الكثيفين فغضّت بصرها في حياء وارتباك، وتساءلت في خوف المريب عمّا عسى أن يظنّه بنظرها، ثمّ وجدت نفسها تفكّر بقلق في منظرها وما يمكن أن يتركه في نفسه من أثر. تُرى أيسخر من أنفها كما سخرت من بدانته وخوله؟! واستغرقها التأمل والقلق...

سُم كمال الجلسة التي وإن تكن جمعتة بعائشة إلّا أنّها جمعتة بها على نحو ما تجمع بين الضيوف فلم تتحقّق - عدا ما منحت من حلوى - شيئاً من رغبته،

فقطعا الفناء بين صفين من المتظرين يتبعهما المدعوات من ألها اللواتي تعالت زغاريدهن كأنهن لا يبالين السيد أحمد وقيامه على ذراع منهن، هكذا لعلت الزغاريد في البيت الصامت لأول مرة وعلى مسمع من سيده الجبار فلعلها وقعت من آذان أهله موقع الدهشة، بيد أنها دهشة مزجت بالفرح ولم تخل من شئانة بريئة مرحة روّحت بها القلوب عن قرار الحظر الصارم الذي قضى بالآ تكون زغاريد ولا غناء ولا لهو، وبأن تمضي ليلة زفاف الابن البكر كما تمضي غيرها من الليالي. وتبادلت أمينة وخديجة وعائشة النظرات متسائلات باسمات وتكأكان على خصائص نافذة مطلة على الفناء ليشهدن أثر الزغاريد في نفس السيد فرأينه يحدث السيد محمد عفت ضاحكا فتمتعت أمينة قائلة: «لن يسعه الليلة إلا أن يضحك مهما يبدو مما لا يروقه!» وانتهزت أم حنفي الفرصة السانحة فاندست بين المزغردات كالبرميل وأطلقت زغرودة قوية مججلة غطت على الزغاريد كلها وعوّضت بها ما ضيعت - في ظلّ الإرهاب - من فرص المرح والمسرة على عهد خطبتي عائشة وياسين، وأقبلت على سيداتها الثلاث وهي تزغرد حتى استغرقن في الضحك، ثم قالت لهن «زغردن ولو مرة في العمر...» إنه لن يدري الليلة من المزغردا!»، رجع ياسين بعد إيصال العروس إلى باب الحريم فالتقى بفهمي الذي لاحت على شفثيه ابتسامة موحية بالحرج والإشفاق لعلها أثر مما خلّفته في نفسه هذه الضجة البهيجة «المحرمة»، وكان يخالس أباه النظر ثم يردّه إلى وجه أخيه ضاحكا ضحكة مقتضية مغضوضة، فما كان من ياسين إلا أن قال له بلهجة لا تخلو من استياء:

- أيّ استنكار في أن نحبي ليلة الزفاف بالفرح والزغاريد؟... وماذا كان عليه لو وافق على استدعاء عالة أو مغر؟!

تلك كانت رغبة الأسرة التي لم تجد إلى الإفصاح عنها من سبيل إلا أن تحوّل ياسين على الاستشفاع بالسيد محمد عفت على أبيه، ولكن السيد اعتذر وأبى إلا أن تكون ليلة زفاف صامتة وأن تقتصر مسراتها على

العروس وهو يتقدّم على مهل كأنه يتبختر. في تلك الساعة الحافلة بالسعادة والرهبة على رغم الأعين المحملقة فيه من داخل البيت وخارجه ومن فوق ومن تحت، بدا ثابتا غير هيّاب مفعما رجولة وفحولة، لعلّ مما أيّده في ثباته إحساسه بأنه محطّ الأنظار فغالب بشجاعة ما يخفق بين جوانحه من اضطراب أن يبدو للناظرين في حال تمجّل منها الرجولة، ولعله أيضا علم بأن أباه منكمش في مؤخرة الجماعة المنتظرة عند مدخل الفناء - التي تضمّ آل العروسين من الذكور - بحيث لا تمتدّ إليه عيناه، فوسعه أن يتالك نفسه وهو يرنو إلى السيارة الموشاة بالورود التي تحمل إليه عروسه بل زوجه منذ أكثر من شهر وإن لم تقع عيناه عليها بعد، أو الأمل الذي صاغه بأحلامه الظامنة لسعادة لا تقنع بما دون الدوام. وتوقّفت السيارة أمام البيت على رأس ذيل طويل من السيارات فأخذ أهبتها للاستقبال السعيد وقد استجدّت عنده الرغبة في أن يستشفّ النقاب الحريري ليرى وجه عروسه لأول مرة، ثم فتح باب السيارة وترجّلت جارية سوداء في الأربعين قوية البنية لسماعة البشرة نجلاء العينين فاستدلّت بما يلوح على حركاتها من الثقة والإدلال على أنها الجارية التي تقرّر إلحاقها بخدمة العروس في بيتها الجديد، تنحت جانبا ووقفت منتصبية القائمة كالديدبان ثم خاطبته بصوت كرنين النحاس وهي تبسم عن أسنان ناصعة البياض قائلة:

- تفضّل خذ عروسك...

فتقدّم ياسين من باب السيارة ومال إلى الداخل قليلا فرأى العروس في حلّتها البيضاء بين غادتين على حين استقبله عرف طيب مفتحة للجوارح فتاه في جوّ الحسن منبهرا، ومدّ لها ذراعه لا يكاد يرى شيئا كما يكلّ بصر طالع نورا ساطعا، وعقل الحياء العروس فلم تُبْدِ حراكا فتطوّعت التي إلى يمينها فتناولت يدها وطرحتها على ذراعه هامسة بنبرة ضاحكة:

- تشجعي يا زينب...

دخلا جنبًا لجنب وهي من الحياء تحول بينه وبينها بمروحة كبيرة من ريش النعام وارت بها رأسها وعنقها

العشاء الفاخر. وعاد ياسين يقول أسفًا:

- لن أجد من تزفني هذه الليلة التي لن تتكرر أبد الدهر!... سأدخل حجرة العروس غير مشيع بالأناشيد والدفوف كأنني راقص يهز جذعه دون إيقاع.

ثم لاحظ في عينيه ابتسامة مرحة مأكرة فقال:  
- الذي لا شك فيه أن أبانا لا يطيق «العالم» إلا في بيوتهم!

مكث كمال في الدور الأعلى الذي أعدّ جلوس المدعوّات ساعة ثم نزل باحثًا عن ياسين في الدور الأول الذي هُتِيَ لاستقبال المدعوّين ولكّنه وجده في فناء البيت يتفقد المطبخ المتنقل الذي أقامه الطاهي فأقبل نحوه مسرورًا إذلالًا بأداء المهمة التي عهد بها إليه وقال له:

- فعلت كما أمرتني فتبعت العروس حتّى حجرتها وتفحصتها بعد أن حسرت النقاب عن وجهها...

فانتحى به جانبًا وهو يسأله بأسًا:

- هه؟... كيف عودها؟

- في عود أبلّة خديجة...

صاحكًا:

- في هذه الناحية لا بأس؟... أتعجبك كعائشة؟

- كلًّا... أبلّة عيشة أجمل كثيرًا!...

- يخرب بيتك أتريد أن تقول إنّها كخديجة؟

- كلًّا إنّها أجمل من أبلّة خديجة...

- كثيرًا؟!

فهزّ رأسه مفكرًا فسأله الشابّ بلهفة:

- حدّثني عمّا أعجبك فيها؟...

- أنفها صغير كأنف نينة... وعيناها كعيني نينة

أيضًا...

- ثم؟...

- لونها أبيض وشعرها أسود ورائحتها حلوة

جدا...

- نعمده... ربّنا يبشرك بخير...

وخيل إليه أنّ الغلام يغالب رغبة في معاودة الكلام

فسأله في شيء من القلق:

- هات ما عندك ولا تخف!

- رأيته تخرج منديلاً ثمّ تتمسّط!

والتوت شفتاه تقزّزًا كأنّما كبر عليه أن تنذّ الفعلية عن عروس في ريق فتنتها، فما عمالك ياسين أن ضحك قائلاً:

- لحدّ هنا عال، ربّنا يجعل العواقب سليمة!

ألقي نظرة كثيفة على الفناء الخالي إلّا من الطاهي وصبيان، وبعض الأولاد والبناات فتخيل ما كان ينبغي أن يوجد من معالم الزينة وسرادق الطرق ومجلس المدعوّين، من قضى بهذا؟... أبوه!... الرجل الذي يفوح عرقه بالمجون والعريضة والطرب... أعجّب به من رجل يحلّ لنفسه اللهو الحرام ويحرّم على بيته اللهو الحلال، وراح يتخيّل مجلس السيّد كما رآه في حجرة زبيدة بين الكأس والعود فما يدري إلّا وقد وثبت إلى ذهنه فكرة غريبة لم تخطر له من قبل على شدة وضوحها فيما رأى، تلك هي التشابه بين طبيعتي أبيه وأمه! طبيعة واحدة في شهوانيتها وجريها وراء اللذة في استهتار لا يقيم وزنًا للتقاليد، ولعلّ أمّه لو كانت رجلًا لما قصّرت عن أبيه في اللّهج بالشراب والطرب أيضًا! لذلك انقطع ما بينهما - أبيه وأمه - سريعًا، فما كان لمثله أن يطبق مثلهما وما كان لمثلهما أن تطبق مثله، بل ما كانت الحياة الزوجية لتستقيم له لولا وقوعه على زوجته الراهنة! ثمّ صاحكًا ضحكة لم يتج لها روعه من هذه «الفكرة الغريبة» روجًا من السرور «عرفت الآن من أكون، لست إلّا ابن هذين الشهوانيين، وما كان لي أن أكون غير ما كنت!» في اللحظة التالية تساءل تُرى ألم يخطئه الصواب عند إغفال «دعوة أمّه إلى زفافه؟! تساءل رغم إصراره على الاعتقاد بأنّه لم يتنكّب عن الصواب، لعلّ أباه رام إراحة ضميره حينما قال له قبل ليلة الزفاف بعدّة ليالٍ «أرى أن تبلغ أمك، ولك إن شئت أن تدعوها إلى شهود زفافك» ذاك قوله بلسانه لا بقلبه فيما يعتقد، فما يتصوّر أن يرضى أبوه له بأن يذهب إلى حيث يقيم ذلك الرجل الحقير الذي اتخذته أمّه زوجًا لها من بعد أزواج كثيرين، وأن يتودّد إليها على مرأى منه بأن

الهادئة وغير قليل من الأسى. وجاء كمال الذي كان يتراءى في أي مكان فجأة وخاطب ياسين والبشر يتألق في وجهه:

- الطاهي قال لي إن الحلوى تزيد على حاجة المدعوين والمدعوات وإنه سيبقى منها مقدار وفير...

## ٤٥

زاد مجلس القهوة وجهًا جديدًا بانضمام زينب إليه، وجهًا زكاه بريق الشباب وفرحة العرس، وفيها عدا هذا، وفيها عدا فرش الحُجرات الثلاث المجاورة لحجرة الوالدين في الدور الأعلى بجهاز العروس، فلم يحدث زواج ياسين تغييرًا يذكر في النظام العام للبيت سواء من الناحية السياسية التي ظلت خاضعة بكل معاني الكلمة لسلطان السيد وإرادته أو من الناحية الإدارية الداخلية التي ظلت وحدة تابعة لهيمنة الأم كما كان الحال قبل الزواج. التغيير الجوهرى حقًا كان الذي طرأ على النفوس ودار مع الخواطر فدقت رؤيته على الحواس، إذ لم يكن من اليسير أن تشغل زينب مكانة الزوجة للابن البكر وأن يجمعها وبقيّة أفراد الأسرة بيت واحد دون أن يطرأ على العواطف والمشاعر تطوّر ذو شأن، رمقتها الأم بنظرة امتزج فيها الرجاء بالحدّر، هذه الفتاة التي قضى عليها بأن تعاشرها دهرًا طويلًا ربّما امتدّ حتّى نهاية العمر، أيّ إنسان تكون؟ ماذا تحبّ وراء ابتسامتها الرقيقة؟ بالجملة استقبلتها كما يستقبل مالك البيت ساكنًا جديدًا فيؤمّله ويحاذره، أمّا خديجة فعلى رغم المجاملات التي تبودلت بينها جعلت تسدّ نحوها عينين نافذتين مفطورتين على السخرية وسوء الظنّ، منقبة عن العيوب والمآخذ بحرص ساخط لم يلق من انضمامها إلى البيت وفوزها بالزواج من أخيها إلا ضيقًا خفيًا، فلمّا اعتكفت الفتاة في حجراتها الأولى من الزواج ساءلت خديجة أمّها وهما في حجرة الفرن «ترى هل حجرة الفرن مكان غير لائق (بها)؟» ومع أنّ الأم وجدت في تهجمها ترويضًا عن حيرة ظنونها إلا أنّها اتخذت موقف الدفاع عن الفتاة وأجابتها قائلة: «صبرك»، لم تزل عروسًا في بدء

يدعوها إلى شهود زفافه، لا كان الزفاف، ولا كانت أيّ سعادة في هذه الدنيا إن حملته يومًا على أن يصل ما انقطع بينه وبين تلك المرأة... تلك الفضيحة... تلك الذكرى المخزية! وما كان منه إلا أن أجاب أباه وقتذاك قائلًا: «لو كان لي أم حقًا لكانت أوّل من أدعو إلى زفافي!» انتبه فجأة إلى الأولاد والبنات وهم يرنون إليه ويتهايمسون فخصّ البنات بنظرة وسألن بصوت جهوريّ ضاحك «هل تحلمن بالزواج من الآن يا بنات؟» وأنّجه نحو باب الحريم وهو يذكر قول خديجة الساخر له بالأس «إيّك وأن تستسلم غدًا للحياء بين المدعوين وإلا عرفوا الحقيقة المرّة وهي أنّ أباك الذي زوّجك ونقد مهرًا وجملة تكاليف ليلتك، ولكن تحرّك بلا توقّف، تنقل بين حجرات المدعوين، ضاحك هذا وكلم ذاك، اطلع وانزل، تفقّد المطبخ، اهتف وازعق، لعلّك توهم الناس بأنك حقًا رجل الليلة وسيدّها!» فمضى ضاحكًا وفي نيّته أن يمثل النصيحة الساخرة فخطر بين المدعوين بجسمه الطويل الجسيم في أناقة بديعة ووسامة جذابة وشباب ريق، ذهب وجاء، ونزل وطلع، وإن لم يفعل شيئًا، بيد أنّ الحركة نفضت عن نفسه طوارئ الفكر فصفت نفسه لمفاتيح الليلة. ولمّا خطرت العروس على قلبه سرت في بدنه قشعريرة بهيمية، ثمّ ذكر آخر ليلة قضّاها عند زنوبة العودة من شهر، كيف أنبأها بزواجه الوشيك وهو يودّعها وكيف هتفت به بلهجة اصطنعت الغيظ «يا بن الكلب!... كتمت الخبر حتّى نلت وطرك!... مع المركب اللي توّدي أحسن من اللي تحب!»... مع ألف شبّ يا بن المركوب»، لم يعد لزنوبة من أثر في نفسه، ولا لغيرها، أسدل الستار على هذا الجانب من حياته إلى الأبد، ربّما عاود الشراب فما يظنّ أن تموت رغبته فيه، أمّا النساء فلم يتصوّر أن تزيف عيناه إلى امرأة عابرة وبين يديه حسناء طوع بنانه، عروسه لذة متجدّدة، ربيّ للظمئ الوحشيّ الذي طالما قلقل كيانه، ثمّ راح يتملّ حياته المقبلة، الليلة، والليالي الآتيات، الشهر والعام فالعمر كلّ، ووجهه يسطع بهجة ناطقة لحظها فهمي بعين مليئة بحبّ الاستطلاع والغبطة

شاهدت من رحلات في حنطور والدها وبصحبتها إلى الملاهي البريئة والحدائق فوقع الحديث كله من نفس الأم موقعاً أدهشها إلى حد الانزعاج. عجبت لتلك الحياة التي تسمع عنها لأول مرة، وأنكرتها، واستنكرت فيما بينها وبين نفسها هذه الحرية الغربية استنكاراً جاوز كل تقدير، إلى أن المباحة بالأصل التركي - وإن لطفت بالأدب والبراءة - ساءتها كثيراً لأنها كانت - على تحشعها وانطوائها - شديدة الاعتزاز بأبيها وبعلمها فترى أنها بهما في مكانة لا تدان، إلا أنها كظمت ما قام بنفسها فلم تلق زينب منها إلا اهتمام الإصغاء وابتسامه المجاملة، ولولا حرص الأم الشديد على السلام لانفجرت خديجة حنقاً ولساءت العاقبة، على أنها نفست عن غيظها بطرق ملتوية ليس من شأنها أن تعكر صفو السلام كتعليقها على أنباء الرحلات مثلاً - وهي التي لم يسمعها أن تجهر فيها برأيها - بالمبالغة في إظهار الدهشة، أو بالهتاف وهي تحمق في وجه محدثتها «يا خيراً!» أو بأن تضرب براحتها على صدرها وهي تقول: «ويراك السابلة وأنت تمشين في الحديقة!»، أو بقولها: «ما كنت أنتصور إمكان هذا يا ربي!» وغير ذلك من العبارات التي وإن لم تفصح ألفاظها عن إساءة إلا أن لهجتها المبطونة التمثيلية تضمنت أكثر من معنى كلهجة الزجر التي يصطنعها الأب وهو يتلو القرآن إذا ما أنس من ابنه غير البعيد عنه إخلالاً بالنظام أو الأدب وعزاً عليه لزجره صراحة أن يخرج من الصلاة، لذلك لم تكن تخلو إلى ياسين حتى تبادره مروحة عن غيظها الذي عز عليه المتنفس «يا سلام يا سلام على عروسك النزهية». فيقول لها ضاحكاً «هذه هي الموضة التركية التي تسمو على إدراكك!» فتذكرها صفة «التركية» بالمباهاة الثقيلة على قلبها فتقول «على فكرة، ست الدار تباهي كثيراً بأصلها التركي، لماذا؟... لأن جدّ جدّ جدّ جدّ جدّها تركي!... حذار يا أخي فإن خاتمة التركيات الجنون» ولكنه يقول لها مجازياً سخرتها «الجنون أحب إليّ من وجه أنفه يجنّ ذا الذوق السليم» تراءى لأعين المتنبئين النفاذ المتوقع بين

عهدهما الجديد! فتساءلت الأخرى بلهجة تشي بالاستنكار «ومن ذا الذي قضى بأن نكون خدماً للعرائس؟! فسألتهما أمها وكأنما تطرح السؤال على نفسها هي «أفضلين أن تستقل بمطبخها؟» فهتفت خديجة معترضة «لو كان المال مال أبيها لا مال أبي لحاز هذا! ولكني أعني أنها يجب أن تعمل معنا» على أنه لما قررت زينب، بعد انقضاء أسبوع على الزواج، أن تحمل بعض الأعباء في حجرة الفرن لم يرحب قلب خديجة بهذه الخطوة التعاونية ومضت تلاحظ عمل العروس بدقة انتقادية وتقول لأمها: «لم تجئي لتعاونك ولكن لتتأمر ما لعلها تدعيه لنفسها من حق»، أو تقول ساخرة «طالما سمعنا عن آل عقت أنهم من الصفوة وأنهم يأكلون ما لا يأكل الناس... فهل وجدت في طهيها شيئاً عجباً لم نسمع به؟!» بيد أن زينب اقترحت يوماً أن تصنع «الشركسية» باعتبارها الصنف الأثير على مائدة أبيها - وهي المرة الأولى لدخول الشركسية في بيت السيد - فحازت لدى تناوئها إعجاباً شاملاً بلغ أقصاه عند ياسين حتى أن الأم نفسها لم تبرأ من لسعة غيرة، أما خديجة فجئن جنونها وجعلت تهزأ بالصنف قائلة «قالوا شركسية قلنا يعيش المعلم يتعلم ولكن ماذا رأينا؟ أرزاً وصلصة في هيئة بوليتيكا، طعمها لا هنا ولا هناك، كالعروس تزف إلى عريسها في حلة خلابة وحليّ لالاء حتى إذا نرعت عنها ثياب العرس بدت فتاة عادية من نفس الخلطة المعروفة من قبل أي اللحم والعظم والدم!» ثم ما كاد يمضي على الزواج أسبوعان حتى قالت على مسمع من أمها وكمال إن العروس وإن كانت بيضاء البشرة وذات حظ «معتدل» من الجبال إلا أن دمها ثقيل كالشركسية سواء بسواء، قالت لهذا في نفس الوقت الذي أكبت فيه على استظهار دقائق صنع الشركسية بحذقها المعترف به! على أن ثمة أحاديث صدرت عن زينب بحسن نية - في الأقل لأن وقت سوء النية لم يثن بعد - فاثارت الخواطر وألقت عليها ظلاً من الشك إذ طاب لها كلما نهأت مناسبة أن تنوّه بأصلها التركي وإن التزمت الأدب واللفظ كما لذ لها أن تروي لهم بعض ما

تدري أنّ زواج عائشة هو الذي قدّر له أن يفتح لها أبواب الحظّ المغلقة.

- ما أجل أن تكون السلفة هي الشقيقة فيزول سبب جوهرى من أسباب وجع الدماغ في الأسر (ثمّ ضاحكة) فلا تبقى إلّا حاتها وأظنّ أمرها حينئذٍ! - إن تكن سلفتها هي شقيقته فحاتها هي أمها بلا نقصان.

لم تزل الأمان تتجاملان. لقد أحبتّ العجوز وهي تزفّ إليها البشرى بقدر ما أبغضتها يوم خطبت عائشة! يجب أن تعلم مريم بالخبر اليوم، لا تطيق أن تؤجله إلى الغد، لا تدري ما الدافع إلى هذه الرغبة الملحة، لعلّه قول مريم لها غداة خطبت عائشة «ماذا كان عليهم لو أنّهم انتظروا حتى تتمّ خطبتك أنت؟» فأغراها وقتذاك سوء ظنّها المطبوع بآثام براءته الظاهرة. ولما انصرفت أسرة شوكت قال ياسين بقصد التحرش والدعابة:

- الحقّ آتٍ مذ رأيت إبراهيم شوكت قلت لنفسي ما أجدر هذا الرجل الثور الذي لا يبدو أنّه يفرّق بين الأبيض والأسود أن يقع اختياره يوماً على زوجة مثل خديجة.

فابتسمت خديجة ابتسامة خفيفة ولم تنبس بكلمة فهتف بدهشة:

- هل عرفت الأدب والحياء أخيراً!  
بيد أنّ وجهه نطق وهو يمازحها بالرضا والغبطة فلم يعكّر صفوهم إلّا حين تساءل كمال في قلق:  
- أتركنا خديجة أيضاً؟  
فقالت الأمّ تعزّيه وتعزّي نفسها:  
- ليست السكّرية بعيدة.

على أنّ كمال لم يستطع أن يدلي بما عنده في حرّية كاملة إلّا حين انفرد بأمّه ليلاً فترتّب قبالتها على الكنبه وسأله بصوت ينمّ عن الاحتجاج واللوم:

- ماذا جرى لعقلك يا نينة؟... أنفّرطين في خديجة كما فرطت في عائشة؟  
فأفهمته أنّها لم تفرط فيهما ولكنها ترضى بما يسعدهما.

خديجة وزينب في أفق الأسرة فنّبها فهمي إلى ضبط لسانها أن يبلغ الفتاة شيء من هدرها، وأشار محدّراً إشارة خفيفة إلى كمال الذي دأب على التنقّل بينهم وبين العروس تنقّل الفراشة - حاملّة اللقاح - بين الأزهار! ولكن غاب عنه - كما غاب عن الأسرة جميعاً - أنّ القدر كان يعمل من جانبه على الخيلولة بين الفتاتين، إذ زارت البيت حرم المرحوم شوكت وعائشة زيارة لم يحلم أحد من قبل بأن تتوجّج بالنهاية التي توجّت بها، قالت العجوز مخاطبة الأمّ على مسمع من خديجة:  
- يا أمينة هانم جئتكم اليوم خاصّة لأخطب خديجة لابني إبراهيم...

فرحة بلا تمهيد وإن طال انتظارها حتّى شقّ، فلذلك سجع صوت المرأة في أذني الأمّ سجعاً جميلاً حتّى إنّها لم تذكر أنّ قولاً - قبله - بل صدرها بندى الطمأنينة والسلام كما بلّه فكاد يستخفّها الفرح وهي تقول بصوت متهلّج:

- ليس لي في خديجة أكثر ممّا لك، هي ابتك ولتجدنّ في جماك أضعاف ما تجد في بيت أبيها من السعادة...

استرسل الحديث السعيد إلّا أنّ خديجة جعلت تغيب عنه فيما يشبه الذهول، خفضت عينها في حياء وارتابك وقد زایلها روح السخريّة التي طلما توهّجت في حدقتها، فشملتها وداعة غير معهودة ثمّ جرت مع تيّار خواطرها، حاء الطلب مفاجئاً، فكما بدا عسيراً في غيابه بدا غير مصدّق في حدوثه حتّى لقد غشيت فرحتها موجة ثقيلة من الذهول... «لأخطب خديجة لابني إبراهيم»... ماذا دهاه؟... إنّهُ على خوله الذي أثار هزها حسن المحيا وجهه في الرجال، فماذا دهاه؟!

- ومن حسن الطالع أن يجمع بين الأختين في بيت واحد.

صوت حرم المرحوم شوكت يؤكّد الحقيقة ويذكّي وجوها... ليس ثمة شكّ... إبراهيم مثل خليل مألّ وجاهاً فأبى حظّ آخرته لها الأقدار، لشدّ ما أسفت على أنّ عائشة سبقتها إلى الزواج إذ لم تكن

فقال محدّراً كأنما ينّهبها إلى شيء فاتها ويوشك أن يفوتها مرّة أخرى:

- ستذهب هي الأخرى، ربّما ظننت أنّها ستعود كما ظننت بعائشة، ولكنّها لن تعود، وستزورك إذا زارتك كالضييفة فيما إن تشرب القهوة حتّى تقول لك السلام عليكم، إنّى أقولها في صراحة إنّها لن تعود.  
ثمّ محدّراً وواعظاً في آن:

- ستجددين نفسك وحدك بلا رفيق، من يعينك على الكنس والتنفيض؟... من يعينك في حجرة القرن؟ من يحالسنسا في جلسة المساء؟... من يضحكننا؟... لن تجدي إلّا أمّ حنفي التي سيخلو لها الميدان لسرقة طعامنا كلّه.

فأنهت مرّة أخرى أنّ في الزواج سعادة!...  
- أوكد لك أنّه لا سعادة مطلقاً في الزواج. كيف يحظى أحد بالسعادة بعيداً عن نينة؟  
ومردفاً بحماس:

- ثمّ إنّها لا ترغب في الزواج كما لم ترغب فيه عائشة من قبل... لقد صارحتني بذلك ذات ليلة في فراشها!

ولكنّها قالت له إنّ لا بدّ للفتاة من أن تتزوّج، فلم يتمالك من أن يقول:  
- من قال بأنّه لا بدّ للفتاة من أن تذهب إلى بيوت الغرباء!... ثمّ ماذا تفعلين لو أجلسها الآخر على الشيزلنج وتناول دفتها هي الأخرى و...  
عند ذاك زجرته وأمرته بالآ يتكلّم فيها لا يعنيه

فغضب كفاً بكفّ وهو يقول منذراً:

- أنت حرّة... وسترين!

مضى شهر العسل وياسين متفرّغ بكليّته لحياته الزوجيّة الجديدة، لا يصرفه عنها عمل في النهار حيث وافق زواجه أواسط العطلة الصيفيّة، ولا سهر بالليل خارج البيت لأنّه لم يكن يغادره إلّا للضرورة القصوى كابتياع زجاجة كونيّاك مثلاً، وفيما عدا هذا لم يجد لنفسه عملاً أو معي أو صفة خارج نطاق الزوجيّة فاندلق عليها بقوّة وحماس وتفاؤل خليقة برجل ظنّ أنّه ينقذ الخطوات الأولى في برنامج ضخّم من المتعة الجسديّة سيتمتدّ يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر وعاماً

المراة، ليس يدري كيف يخلص حقًا للنوايا الحسنة التي فرش بها طريق الزواج، يبدو جانب - على الأقل - من أحلامه الساذجة عسير التحقيق وهو ظنه بأنه سيستغني بأحضان زوجه عن العالم الخارجي، وأنه سيلبد بكنفها العمر كله، ذلك حلم من أحلام الشهوة في سذاجتها، وسيجد من الآن فصاعدًا أن الانقطاع عن عالمه وعاداته مما يشق عليه وليس ثمة ضرورة تدعو إليه، وأنه ينبغي أن يتلمس وسيلة أو أخرى - الوقت بعد الوقت - ليحسن الهرب من نفسه وأفكاره وخيبته، حتى المغني المجيد إذا طاك في تقاسيم الليالي انبعث في نفس السامع الشوق إلى الدخول في الدور، ثم إنه في الانطلاق من محبسه فرصة للاختلاط بالأصحاب المتزوجين لعله يظفر عندهم بأجوبة مسكنة للأسئلة الحيرى التي تلح عليه، ولن يتأتى له من وراء ذلك الدواء الشافي لكل داء... وكيف يؤمن بعد اليوم بوجود دواء شافٍ لكل داء؟ يحسن به من الآن ألا يرسم برامج بعيدة المدى، لا تلبث أن تنهار ساخرة من قدرته على التخيل. ليقنع من تنسيق حياته بالخطوة تلو الخطوة حتى يرى أين يرسو، وليبدأ بتنفيذ اقتراح اقترحته هي - زوجته - عليه بأن يخرجًا معًا.

ما تدري الأسرة ذات مساء إلا ويأسين وزوجه يغادران البيت من دون أن يطلعا أحداً على مقصدهما بالرغم من أنها قضيا معهم سهرة المساء. بدا الخروج بالنظر إلى وقته المتأخر من ناحية وإلى وقوعه في بيت السيد من ناحية أخرى حادثاً غريباً أثار شتى الظنون فما عثمت خديجة أن استدعت نور جارية العروس وسألتها. عما تعلم عن خروج سيدتها فأجابت الجارية بصوتها الرنان في بساطة متناهية:

- ذهبا يا ستي إلى كشكش بك.

فهتفت خديجة وأنها في نفس واحد:

- كشكش بك!

ليس الاسم غريباً عليهم، اقتحم ذكره الدور وتغنى بأغانيه كل من هبّ ودبّ ولكنه على ذلك يبدو بعيداً كابطال الخرافات أو كزبلن إبليس السماء. أن يذهب ياسين بزوجه إليه أمر مختلف جداً ليس دونه أن

بعد عام. ولكنه أدرك في الثلث الأخير من الشهر أن تفاوله لا بد أن يكون مبالغاً فيه على نحو ما أو أن خللاً لا يدري كنهه قد طرأ على حياته. كان يعاني في حيرة بالغة ولأول مرة في حياته ذاك المرض المتوطن في نفس الإنسان الملل. لم يعرفه من قبل عند زنوبة ولا حتى عند بائعة الدوم لأنه لم يملك هذه أو تلك كما يملك زينب الآن بيمينه ويجوزها تحت سقف بيته، فأى فتور يتبخر من تلك «الملكية» الأمانة المطمئنة... الملكية ذات الظاهر الحلاب المغربي لدرجة الموت والباطن الرزين الثقيل لحدّ اللامبالاة أو التقزّر كأنها الشيكولاتة المزيّفة التي تُهدى في أول إبريل بقشرة من الحلو وحشو من الثوم، وأى مأساة في أن تندمج نشوة القلب والجسد في آلية العادة المنقمة العاقلة الباردة المتكررة القاتلة للشعور والجذّة كأنها رؤية روحانية رفيقة تجسّدت في صلاة لفظية ترددها الذاكرة بلا وعي!... وراح الفتى يتساءل عما دهم ثورته، عما هدى شياطينه، عن ذاك الشيع وأين جاء، عن تلك الفتنة أين ذهب، أين ياسين وأين زينب، أين الأحلام، لهذا شأن الزواج أم شأنه هو، وكيف إذا تتابعت الشهور في أعقاب الشهور ليس أنه لم يعد له رغبة فيها، ولكنه لم تعد رغبة الصائم في لذيذ المأكّل، هاله أن يدركها الهدوء حيث انتظر لها الازدهار، وضاعف من حيرته أنه لم يبد على الفتاة عارض من عوارض ردّ الفعل أو بالأحرى أنها تزيد حيوية ورغبة فحينها يظن أن النوم بات واجباً بعد طول التعب لا يدري إلا وساقها تطرح على ساقه كأنما طرحت عفواً حتى قال لنفسه «يا عجبا... أحلامي عن الزواج تحققت عندها هي! إلى هذا كله وجد في عنفها نوعاً من الاحتشام وإن طاب له أول الأمر أنه جعله يهيم آخرًا في وديان الذكريات التي ظن أنه ودّعها إلى الأبد، طغت على رأسه من الأعماق «زنوبة» وأخريات كما تطفو ودائع البحر عند هدوء العاصفة لا لشرّ بيت فالحق أنه مرق إلى عش الزوجية عامر القلب بالنية الحسنة، ولكن للموازنة والمقارنة والتأمل، وليقتنع أخيراً أن «العروس» ليست المفتاح السحريّ لدنيا



وذاك الكرب كله، أليس كشكش هذا صاحب التمثال الصغير الذي يباع في الأسواق بجسم متوَّب في دعابة ووجه ضاحك ذي لحية عريضة وجبة فضفاضة وعمامة مقلوطة؟ أليس هو من تُنسب إليه الأغاني المرحّة التي استظهر بعضاً منها ينشده مع صديقه فؤاد بن جميل الحمزاوي وكيل أبيه؟ فبأيّ شرّ يتهمون هذه الشخصية اللطيفة التي ارتبطت في خياله بالفكاهة والمرح؟... لعلّ مصدر هذا الكدر إلى اصطحاب ياسين لزوجته لا لكشكش بك نفسه، فإن كان ذلك كذلك فهو يتفق معهم في الانزعاج من جرأة ياسين خصوصاً وأنّ زيارة أمّه للحسين وما أعقبها من أحداث لا يمكن أن تريح مخيلته، أجل كان الأجدد بياسين أن يذهب وحده أو أن يأخذه «هو» إن كان يريد رفيقاً لا سيماً وأنّه في عطلة الصيف فضلاً عن نجاحه المتفوق في المدرسة، وما يدري إلّا وهو يقول متأثراً بأفكاره:

- ألم يكن من الأفضل أن يأخذني أنا... ١٩..

اندسّ تساؤله في الحديث كما تندسّ نعمة غريبة مقتبسة في لحن شرقيّ صميم، فقالت خديجة:

- من الآن فصاعداً يحقّ علينا أن نعدرك في قلّة عقلك...!

فندّت عن فهمي ضحكة قائلاً:

- ابن الورّ عوام...!

بيد أنّ المثل رنّ في أذنيه رنيناً جافياً وكّد أثره السيئ تحديق أمّه وأخته خديجة في عينيه باستغراب فانتبه إلى خطئه غير المقصود وتداركه قائلاً وقد دخله امتعاض وخجل:

- أخو الورّ عوام!... هذا ما قصدت أقوله...

دلّ الحديث في جملة على تحامل خديجة على زينب من ناحية، وخوف الأمّ من العواقب من ناحية أخرى، بيد أنّ أمينة لم تعلن ما في نفسها كله. في تلك الليلة عرفت في نفسها أموراً لم تكن تعرفها من قبل. أجل كثيراً ما وجدت نحو زينب إنكاراً وضيقاً ولكنه لم يبلغ أن يكون نفوراً أو كراهية فعزته إلى خيلاء الفتاة بداعٍ وبغير داعٍ، ولكن هالها اليوم أن تحرق الآداب والتقاليد، وأن تحلّ لنفسها ما لا يحلّ -

يقال ذهباً إلى محكمة الجنايات. ردّدت الأمّ عينها بين خديجة وفهمي وتساءلت فيها يشبه الخوف:

- متى يعودان...

فأجابها فهمي وابتسامة لا معنى لها تغم على شفّيته:

- بعد منتصف الليل، وربما قبيل الفجر.

صرفت الأمّ الجارية وانتظرت حتّى غاب وقع أقدامها ثمّ قالت في لهجة وانفعال:

- ماذا دهمي ياسين؟! كان جالساً بيننا في كامل عقله... ألم يعد يعمل حساباً لأبيه؟ فقالت خديجة في حنق:

- ياسين أعقل من أن يدبّر رحلة كهذه، ليست قلّة العقل عيبه ولكن به خنوع لا يليق بالرجال، أقطع ذراعي إن لم تكن هي حرّضته.

فقال فهمي مدفوعاً برغبة في تلطيف الجو المتوتر وإن نفر بطبعه الموروث من جرأة أخيه:

- ياسين ذو ميل قديم إلى الملاحية.

فضاعف دفاعه من حنق خديجة التي اندفعت قائلة:

- لسا بصدد الحديث عن ياسين وميوله، له أن يحبّ الملاهي كما يحلوه، أو أن يواصل السهر في الخارج حتّى مطلع الفجر كلّما شاء، ولكنّ اصطحاب زوجته المصون معه فكرة لا يمكن أن تصدر عن ذاته فلعلّها جاءت عن إيماء عجز عن مقاومته خصوصاً وأنّه يبدو مستكيناً بين يديها كالقطة الأليفة، ثمّ إنّه فيها أرى لا تنوّع عن رغبة كهذه. ألم تسمعها وهي تروي قصص الرحلات التي شاهدتها بصحبة والدها؟! لولا إيماءها ما أخذها معه إلى كشكش بك - يا للفضيحة! - في هذه الآثام التي ينجر فيها الرجال في البيوت كالفيران رعباً من الأستراليين.

لم يقف التعليق على الحادث عند حدّ لما أثاره في النفوس - سواء المهاجمة أو المدافعة أو المحايدة - من امتعاض، كمال وحده تابع النقاش المحتدم في صمت يقط من دون أن يشطن إلى السرّ الذي جعل من كشكش بك جريمة نكراء استوجبت ذلك النقاش كله

بصوت خافت مضطرب كأنها تناجي نفسها:  
- تأخر الوقت ولما يعد ياسين وزوجه!  
فحمل السيّد في وجهها وتساءل في عجب:  
- وزوجه؟... أين ذهباً؟  
ازدردت المرأة ريقها وقد ركبتها الخوف، من السيّد  
ومن نفسها معاً، ولكن لم تجد بداً من أن تقول:  
- سمعت الجارية تقول إنهما ذهباً إلى كشكش بك!  
- كشكش!

عزف الصوت عاليًا في شراسة وتطاير الشرر من  
العينين اللتين ألهبها الكحول، وراح يطرح عليها  
السؤال تلو السؤال مزجراً مدمماً حتى طار النوم عن  
رأسه فأبى أن يزايل مجلسه حتى يعود «الضالان» فانتظر  
وهو يغلي من الحنق، ولما كان غضبه ينعكس على  
نفسها رعباً فقد ارتعت كما لو كانت هي المذنب، ثم  
غصّت بالندم على ما بدر منها، ندم عاجلها مبادراً  
عقب البوح بسرّها مباشرة كأنها لم تبج إلا كي تندم،  
فلم تكن تبخل بغالٍ مهما غلا ساعتئذ لو تستطيع أن  
تصلح خطاياها، وقست على نفسها بلا تحفظ فاتهمتها  
بالوقية والشرّ، ألم يكن الأجدر بها أن تتسرّ عليها  
على أن تنبّئها إلى خطئها غداً إن كانت تريد  
الإصلاح حقاً لا الانتقام؟.. ولكنها أذعنت لعاطفة  
شريرة، عن عمد وسوء نية، فهيأت للفتى وعروسه  
نكداً لم يدّر لها بخلد وجرت على نفسها ندماً بات  
يحرق نفسها الملعونة حرقاً بلا رحمة، وراحت تدعو  
الله - خجلى من ذكره - أن يلفظ بهم جميعاً، مضى  
الوقت تفرق دقائقه قلبها بالألم حتى انتهت على صوت  
السيّد وهو يقول متهكّياً بمرارة:

- جاء سي كشكش...

فأرهفت السمع وهي تتطلع بناظريها إلى النافذة  
الفتوحة المطلّة على الفناء فترامى إليها صرير الباب  
الكبير وهو يغلق، وقام السيّد وغادر الحجرة فقامت  
بطريقة آلية ولكنها تسمرت في مكانها جبناً وخزيًا  
وضربات قلبها تندافع حتى سمعت صوته الجهر وهو  
يخاطب القادمين قائلاً «اتبعاني إلى حجرتي» فتناهى بها  
الخوف فتسلّلت من الحجرة هاربة... عاد السيّد إلى

في نظرها هي - إلا للرجال، عابت هذا السلوك بعين  
امرأة قضت عمرها حبيسة وراء الجدران، امرأة دفعت  
صحتها وسلامتها ثمناً لزيارة بريئة لزين آل البيت لا  
لكشكش بك، فهاجج انتقادها الصامت شعور طافح  
بالمرارة والغيط كأن منطلقها غدا يردّد فيها بينها وبين  
نفسها «إما أن تنال الأخرى الجزاء أو فلتذهب الحياة  
هباء». هكذا تلوّث بالحنق والموجدة - في الشهر الأول  
من معاشرتها لامرأة جديدة - القلب الطاهر الورع  
الذي لم يعرف طول حياته المحفوفة بالجّد والصرامة  
والتعب إلا الطاعة والعفو والصفاء. ولما آوت إلى  
حجرتها لم تدر إن كانت تودّ - كما دعت بلسانها أمام  
أبنائها - أن يستر الله على «جناية» ياسين أم أنها ترجو  
أن ينال أو بالأحرى أن تنال زوجها جزاءها من الزجر  
والتأنيب؟ بدت تلك الليلة وكأنها لا يعينها من أمر  
الدنيا شيئاً إلا أن تُصان تقاليد الأسرة من كلّ عبث  
وأن يدفع عنها ما يتحرّش بها من عدوان، بدت غيوراً  
على الآداب إلى حدّ القسوة فطمرت عواطفها الرقيقة  
المالوفة في الأعماق باسم الإخلاص والفضيلة والدين  
متعلّلة بها فراراً من ضميرها المتألم كالخلم الذي ينفس  
عن غرائز مكبوتة باسم الحرية أو غيرها من المبادئ  
السامية. جاء السيّد وهي على تلك الحال من  
التصميم إلا أنّ منظره بثّ الخوف في حناياها فانعقد  
لسانها، راحت تتابع حديثه وتجبب عن أسئلته بذهن  
شارد وفؤاد خائف لا تدري كيف تنفس عمّا احتدم  
بخاطرهما، وكلّما مرّ الوقت واقترب موعد النوم ألحّت  
عليها رغبة عصبية في الكلام، كم ودّت لو تتكشّف  
الحقيقة بنفسها كأن يجيء ياسين وزوجه مثلاً قبل  
إخلاء أبيه إلى النوم فينتبه السيّد بنفسه إلى فعلته  
النكراء فيجبه العروس الرعناء برأيه في سلوكها بغير  
تدخّل منها هي - الأم - لا شكّ أنّه يحزنها بقدر ما  
يريمها... انتظرت طويلاً في لهفة وقلق أن يطرّق  
الباب الكبير، انتظرت دقيقة بعد أخرى حتى ثنّاءب  
السيّد وقال بصوت مترخّ:

- أطفئي المصباح..

حاققت بها الهزيمة فانحلت عقدة لسانها فقالت

مجلسه يتبعه على الأثر ياسين وزينب، فحجج الفتاة بنظرة عميقة متجاهلاً ياسين ثم قال بحزم وإن نقي نبراته من الغلظة والجفاء:

- أصغي إلي يا بنتي جيّدًا، أبوك أخي أو أوثق صلة وموّدّة، فأنت ابنتي كخديجة وعائشة على السواء، ما قصدت أبدًا أن أكذّر صفوك ولكن ثمة أمور أهدّ السكوت عنها جريمة لا تغتفر، من ذلك أن تبقى فتاة مثلك خارج بيتها حتّى هذه الساعة من الليل، لا تحسبي أنّ في وجود زوجك معك عذرا عن هذا السلوك الشاذّ فإنّ الزوج الذي يستهين بكرامته على هذا النحو غير خليق بأن يقلل من العثرات التي هو للأسف أول دافع إليها، ولما كنت على يقين من براءتك أو بالأحرى من أنّه لا ذنب لك إلّا أنك جاريته على هواه فرجائي إليك أن تعاونيني على إصلاح امره بالآ تسستسلمي إلى غواياته مرّة أخرى...

وجمت الفتاة واستحوذ عليها الدهول، وعلى أنّها كانت تحظى في كنف أبيها بقسط من الحرّيّة إلّا أنّها لم تجحد في نفسها شجاعة على مناقشة الرجل بله معارضته، كأنّ إقامتها في بيته شهرا أعدت شخصيّتها بعدوى الخضوع لإرادته التي يفرّق حيالها كلّ حيّ في البيت. احتجّ باطنها بأنّ أباه نفسه استساغ أكثر من مرّة أن يصطحبها إلى السينا، وأنّه لا يحقّ له منعها من شيء سمح به زوجها، إلى اقتناعها بأنّها لم تحرق أدبًا أو تهتك حرمة، قال باطنها هذا وأكثر بيد أنّها لم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة حيال عينيّه الملمّتين بالطاعة والاحترام وأنفه الكبير الذي بدا - وهو يرفع رأسه - كأنّه مسدّس مصوّب نحوها، فانكتم حديثها الباطنيّ تحت مظهر من الرضى والأدب كما تنكتم الأمواج الصوتيّة في جهاز الاستقبال بالمذياع بإغلاق مفتاحه، ثمّ ما تدري إلّا وهو يسأله وكأنّه يتبادى في تحدّيه لها:

- ألك اعتراض على قولي؟

فهزّت رأسها بالنفي ورسمت شفتها حرف «لا» دون أن تنطق به فقال لها:

- اتفقنا. تفضّلي إلى حجرتك بسلام...

غادرت الحجرة شاحبة الوجه فالتفت السيّد صوب

ياسين الذي أخفى عينيّه في الأرض، ثمّ قال وهو يهزّ رأسه في أسف شديد:

- الأمر جدّ خطير ولكن ما حيلتي؟... لم تعد طفلاً وإلّا كسرت رأسك، ولكنك وأسفاه رجل وموظّف وزوج أيضاً وإن كنت لا تتورّع عن العبث برباط الزوجيّة، فما عسى أن أصنع بك؟ أهذه نهاية تربيتي لك؟... (ثمّ بصوت أذهب في التأسف)... ماذا دهالك؟... أين الرجولة؟... أين الكرامة؟... يعزّ عليّ والله أن أصلّق ما وقع.

لم يرفع ياسين رأسه ولم يتكلّم فظنّ صمته خوفاً وشعوراً بالخطأ - إذ لم يتصوّر أن يكون ما به سكر - ولكنّه لم يجد في ذلك عزاء، بدا الخطأ أقطع من أن يترك بلا علاج حاسم، فلماذا لم يكن من سبيل إلى العلاج القديم - العصا - فلا أقلّ من الحزم وإلّا انتثر سلك الأسرة جميعاً، قال:

- ألم تعلم بأنّي أحرم على زوجي الخروج ولو لزيارة الحسين؟ كيف إذن سوّلت لك نفسك أن تأخذ زوجك إلى ملهى داعر لتسهر فيه إلى ما بعد منتصف الليل؟... يا أحمق أنت تدفع بنفسك وبزوجك إلى الهاوية فأنيّ شيطان ركبك؟

وجد ياسين في الصمت آمن ملاذ أن تفضحه نبراته أو أن يسترسل في الحديث بطلاقة مربية تنمّ في النهاية على سكره، لا سيّما وأنّ خياله أصرّ على التسلّل - هازئاً بالموقف الخطير - من الحجرة فانطلق إلى آفاق بعيدة بدت لرأسه الثمل راقصة تارة ومترنّحة أخرى، ولم يستطع صوت أبيه على ما ابتعت في نفسه من الرهبة أن يسكت الأنغام التي غناها المهرّجون في المسرح فكانت تثب إلى ذهنه - على رغمه - بين لحظة وأخرى كالأشباح في ليل المرعوب هامة:

أبيع هدومي عشان بوسة

من خدك القشدة يا ملبين

يا حلوة زئي البسبوسة

يا مهلبية كمان واحسن

تغيب تحت تأثير الخوف ثمّ تظفر راجعة، ولكنّ أباه ضاق بالصمت فصاح به غاضباً:

يعود إلى سمانتها هي قبل كل شيء! على أن «جمالها» لم يعد مثار وساوسها مذ طلب يدها رجل اتفق له أن رآها بعينه، بيد أن جميع مظاهر السعادة التي أحاطت بها لم تستطع أن تمحو من نفسها خفقات الحنين الذي دبّ في أعماقها لوشك البين، حنين خلّيق بفتاة مثلها لم يخفق قلبها بحبّ شيء في الوجود كحبّها لأهلها وبيتها جميعاً من الوالدين المعبودين إلى الدجاج والبلابل والياسمين، حتّى الزواج نفسه الذي طالما تحرّقت في انتظاره بجزع الملهوف لم يكن ليهوّن عليها مرارة الفراق، من قبل أن تطلب يدها بدت كاللاهية عن حبّ البيت وإعزازه، وربّما غلب عليها الضجر في مضطرب الحياة فوارى عواطفها العميقة الصادقة لأنّ الحبّ كالصحة، يهون في الوصال ويعزّ عند الفراق، فلما أن اطمانت على مستقبلها أبى قلبها أن ينتقل من حياة إلى حياة دون جزع شديد كأنما يكفّر عن إثم أو يضمن بغالٍ، تطلّع كمال إليها صامتاً، لم يعد يتساءل هل تعودين، بعد أن عرف أنّ التي تتزوّج لا تعود إلّا أنّه خاطب شقيقته مغنماً (سوف أزوركما كثيراً عقب الخروج من المدرسة) فرحبت به معاً بيد أنّه لم تعد تغرّر به الآمال الكاذبة، كثيراً ما زار عائشة فلم يظفر بعائشته القديمة. يجد مكانها أخرى مترجّة تلقاه بتودّد بالغ يشعره بالغربة ثمّ لا يكاد يخلو إليها حتّى يدرّكها زوجها الذي لا يغادر البيت قانعاً من ألوان التسلية بسجائره وجليونه وعود يعث بأوتاره بين حين وآخر، لن تكون خديجة خيراً من عائشة، فليس من رفيق في البيت إلّا زينب، وهي لا تتودّد إليه كما يحبّ إلّا بمشهد من أمّه كأنما تتودّد إليها هي فإذا غابت الأمّ تجاهلته كأنه لا يكون! ومع أنّ زينب لم تشعر بأنّها ستفقد عزيزاً بلذهب خديجة إلّا أنّها استنكرت الجور الرزين الصامت الذي يغشى يوم الزفاف، فتعلّلت بذلك لتفصح عمّا تكنه لروح السيّد المسيطرة من حقّ وغيط فراحت تقول متهمّة «ما راينا بيتاً يحرم فيه الحلال كبيتكم هذا... حكم!» غير أنّها لم تشأ أن تودّع خديجة من غير كلمة مجاملة فنوّت كثيراً بمقدرتها، وأنها «ست بيت» خليقة بأن يهأ عليها

- انطق حدّثني عن رأيك فإنّي مصمّم على ألا يمرّ الحادث بسلام!...

خاف عاقبة الصمت فخرج عنه متهمّاً مضطرباً ثمّ قال وهو يبذل قصارى جهده ليتمالك نفسه:

- كان والدها يعاملها بشيء من التسامح... (ثمّ متعجلاً) ولكنّي أقرّ بأنّي أخطأت...

فصاح السيّد مغضباً ومتجاهلاً الجملة الأخيرة:

- لم تعد في بيت أبيها، عليها أن تحترم آداب الأسرة التي صارت عضواً فيها، أنت زوجها وسيدها وببدك وحدك أن تصوّرها في أيّ صورة تشاء، خبرني عن المسئول عن ذهابها معك أنت أم هي؟

شعر على سكره بالفخّ المنسوب له ولكنّ الخوف دفعه إلى التوازي فغمغم:

- لِمَا علمت بنّيتي في الخروج توسّلت إليّ أن أصطحبها...

فضرب السيّد كفّاً بكفّ وهو يقول:

- أيّ رجل في الرجال أنت؟... كان الجواب الخلق بها لطمه!... إنّهُ لا يفسد النساء إلّا الرجال وليس كلّ الرجال جديراً بالقيام على النساء... وتذهب بها إلى مكان ترقص فيه النساء نصف عرايا...؟

تخالفت لعينه الصور التي أفسدها تعرّض أبيه له على رأس السّلم وعادات الانعام تتجاوب في رأسه «أبيع هدمي...» ولكن ما يدري إلّا والرجل يقول له متوعداً:

- لهذا البيت قانون أنت تعرفه فوطّن نفسك على احترامه ما رغبت في البقاء فيه...

## ٤٧

قامت عائشة بتزيين خديجة خير قيام بهمة لا تجارى ومهارة فائقة كأنّ التزيين خير مهمّة تؤدّيها في الحياة على أكمل الوجوه، فبدت خديجة عروساً حقاً تأخذ أهبتها للانتقال إلى بيت العريس وإنّ ادّعت - جرئاً على عاداتها في التقليل من شأن الخدمات التي يؤدّيها لها الغير - أنّ أكبر الفضل في إظهارها بالمظهر اللائق إنّما

- أبى السيد رضوان أن يبقى في الدنيا بعد رحيلك  
عن جواره... .

فردت عليه بابتسامة شاحبة غاب عنه ما وراءها  
فمضى يتفحصها بعناية وهو يهز رأسه متظاهراً بالرضى  
ثم قال متنهّداً:

- صدق من قال «لئس البوصة تبقى عروسة»...  
فقطّبت معلنة عدم استعدادها لمجاراته ثم نهّرت  
قائلة:

- اسكت، إنّي متطيّرة من موت السيد رضوان في  
يوم زفافي.

فقال ضاحكاً:

- لا أدري أليكم جنى على صاحبه؟

ثم وهو يواصل الضحك:

- لا أخوف عليك من موت الرجل، لا تشغلي  
فكرك به، ولكنّي أخاف عليك من لسانك فهو الأحقّ  
بأن تتطيري منه، ونصيحتي التي لا أملُ ترديدها أن  
تنقيّه في شراب مشبع بالسّكر حتّى يحلو ويصلح  
لمخاطبة العريس... .

عند ذلك قال فهمي متلفّناً:

- مهما يكن من أمر السيد رضوان فيوم زفافك لم  
يُخلّ من بركة طال انتظار الأرض لها: ألم تعلمي أنّ  
الهدنة قد أعلنت؟

فهتف ياسين:

- كدت أنسى هذا! ليس زفافك المعجزة الوحيدة في  
يومنا هذا. حصل ما لم يحصل منذ أعوام فأنتهت  
الحرب وسلم غليوم.

فتساءلت الأم:

- هل يذهب الغلاء والأسترايون؟!

فقال ياسين ضاحكاً:

- طبعاً... . طبعاً... . الغلاء والأسترايون ولسان  
خديجة هانم.

لاح التفكير في عيني فهمي، ثم قال وكأنّه يخاطب  
نفسه:

- غلب الألمان!... من كان يتصوّر هذا؟!... لا  
أمل بعد اليوم في أن يعود عبّاس أو محمّد فريد،

بعلمها، فأمنت عائشة على قولها وأردفت قائلة:

- لا عيب فيها إلّا لسانها!... ألم تجرّبه يا زينب؟

فما عمّالكت أن ضحكت قائلة:

- لم أجربه والحمد لله ولكنّي سمعته وغيري يجربه.

وتعالى الضحك، وخديجة أولى الضاحكات، حتّى

رأين الأم ترهف السمع بغتة هاتفة «هس» فأمسكن

مرّة واحدة، فترامى إليهنّ صوات من الخارج فصاحت

خديجة من فورها منزعجة:

- مات السيد رضوان!

كانت مريم وأمّها قد اعتذرتا عن عدم شهود

الزفاف لاشتداد المرض على السيد محمّد رضوان فلم

يكن غريباً أن تستدلّ خديجة بالصوات على موت

الرجل، وغادرت الأم الحجرة مهرولة فغابت دقائق ثمّ

عادت وهي تقول بأسف شديد:

- مات الشيخ محمّد رضوان حقّاً... يا له من

موقف حرج!

فقال زينب:

- عذرنا واضح كالشمس، لم يعد في وسعنا تأجيل

الزفاف أو منع العريس من الاحتفال بليته في بيته وهو

بحمد الله بعيد، أمّا أنتم فهل تطالبون بأعمق من هذا

الصمت البليغ؟!

لكنّ خديجة شردت في خواطر أخرى انقبض لها

قلبها خوفاً فتطيّرت من النّبأ المحزن وغمغمت كأنّها

تخاطب نفسها:

- يا لطيف يا ربّ... .

فقرأت الأم أفكارها فانقبض صدرها بدورها ولكنّها

أبت أن تستكين لهذا الشعور الطارئ أو أنّ ابنتها

تستكين له فقالت باستهانة متصنّعة:

- لا شأن لنا بقضاء الله فالحياة والموت بيده،

والتشاؤم من عند الشيطان... .

انضمّ ياسين وفهمي إلى المجتمعات بحجرة

العروس بعد أن فرغا من ارتداء ملابسهما فأخبرا الأم

بأنّ السيد ناب عن الأسرة - بالنظر إلى ضيق الوقت -

في تقديم واجب العزاء إلى آل السيد رضوان، ثمّ

حدج ياسين إلى خديجة وقال ضاحكاً:

وعينين مرتعشتين «ألا يعني هذا أنه يراك القدوة الصالحة للزوجة الصالحة؟ (ثم ضاحكة) يا لك من امرأة سعيدة الحظ! ولكن من عسى أن يصدق هذا كله؟ كأي كنت في حلم سعيد! أين كان يدخر هذا العطف الجميل؟» ثم دعت له طويلاً حتى اغرورقت عينها بالدموع...

وجاءت أم حنفي تعلمهم بوصول السيّارات...

## ٤٨

خلا مجلس القهوة من وجه خديجة كما خلا من وجه عائشة من قبل، على أنّ خديجة تركت فراغاً لم يسدّ فكأنّها استلّت روحه وسليته حيويته وحرمة مزايلا يستهان بها من الفكاهة والمرح والنقار، أو كما قال ياسين لنفسه «كانت في مجلسنا كالمح في الطعام، ليس الملح في ذاته لذيذاً ولكن ما لذّة الطعام من دونه؟» بيدّ أنّه لم يجهر برأيه بجمالة لزوجته إذ أنّه لم يزل - على خيبة أمله في الزواج التي لم يعد لها من دواء في البيت - يشفق من جرح مشاعرها على الأقلّ كيلا تسيء الظنّ بسهره المتواصل ليلة بعد أخرى في «القهوة» كما يزعم لها، ولكن كان مزاحه يفوق جدّه، إن كان ثمة جدّ، إلّا أنّه فقد النديم الذي طالما طارحه الدعابة وهيّا له دواعيها فلم يبق له إلّا أن يقنع بالقليل في هذه الجلسة التقليديّة، ها هو يتربّع على الكنب، يحسو القهوة، ويمدّ بصره إلى الكنبّة المقابلة له فيرى الأم وزوجه وكمال مستغرقين في أحاديث لا طائل تحتها، ولعلّه يتعجّب للمرّة المائة من رزاة زينب المعتمة فيذكر ما رمتها به خديجة من «ثقل الدم» ويسلم بوجهة نظرها... ثمّ يفتح ديوان الحياصة أو غادة كربلاء ويقراء، أو يقصّ على كمال شيئاً ممّا قرأ، ويلتفت إلى يمينه فيرى فهمي متوقّفاً للحديث، عن أيّ شيء يا ثري، محمّد فريد، مصطفى كامل،... لا يدري ولكنه سيتركّم بلا ريب، بل يبدو اليوم منذ عودته من المدرسة كالسقاء المنذرة بالمطر، هل ينكسه؟... كلّاً، لا حاجة به إلى ذلك، ها هو يستقبله باهتمام شديد، ويحدّجه بنظرة موحية ناطقة ثمّ يسأله:

كذلك آمال الخلافة قد ضاعت، لا يزال نجم الإنجليز في صعود ونجمنا في أفول فله الأمر... فقال ياسين:

- اثنان كسبا الحرب هما الإنجليز والسلطان فؤاد، فلا أولئك كانوا يعملون بالقضاء على الألمان ولا هذا كان يحلم بالعرش...

وسكت لحظة ثمّ استطرد ضاحكاً:

- وثالث لا يقلّ حظّه عن السابقين هو عروستنا

التي ما كانت تحلم بالعريس...

فرمته خديجة بنظرة وعيد وقالت:

- تأبى أن أغادر البيت من غير أن ألدغك...

فتراجع وهو يقول:

- من الخير أن أطلب الهدنة فلست أعظم شأنًا من

غليوم أو هندنبرج...

ثمّ نظر إلى فهمي الذي لاح في وجهه التفكير بحال لا يتفق مع المناسبة السعيدة فقال له:

- اطرح السياسة وراء ظهرك وتبيّاً للطرب ولذيذ المأكّل والمشارب...

ومع أنّ خديجة تناوبتها أفكار كثيرة وخطرت على قلبها أحلام وأحلام إلّا أنّ ذكرى قريبة - من ذكريات الصباح فحسب - ألحّت عليها من شدّة تأثرها بها حتى كادت تحجب غيرها من الشجون، تلك دعوة أبيها لها على انفراد لمناسبة اليوم الذي يعدّ مبدأ حياة جديدة في حياتها، قابلها بلطف ورحمة كانا بلساً شافياً من وعكة الحياء والرغبة التي اعترتها حتى تعثّرت في مشيتها، ثمّ قال لها بروقة وقعت من نفسها موقعاً غريباً لا عهد لها به:

- ربّنا يسدّد خطاك ويبيّن لك التوفيق وراحة

البال، وما من نصيحة تُسدّي إليك خيراً من أن أقول: اقتدي بأمك في كلّ كبيرة وصغيرة...

وأعطاهما يده فقَبَلَتْها ثمّ غادرت الحجرة لا تكاد ترى ما بين يديها من الانفعال والتأثر، وجعلت تردّد طول الوقت «كم أنّه لطيف رقيق رحيم!» ثمّ تذكر بقلب ملؤه السعادة قوله «اقتدي بأمك في كلّ كبيرة وصغيرة» وتقول لأمتها التي أصغت إليها بوجه متورّد

- ألم تبلغك أنباء جديدة...؟

يسأله هو عن أنباء جديدة! عندي أنباء لا عدّ لها... الزواج أكبر خدعة، الزوجة تنقلب بعد أشهر شربة زيت خروع، لا تحزن على ما فاتك من مريم أيها السياسيّ الغرّ، أتريد أنباء أخرى؟! لديّ منها الكثير لكنّها على وجه اليقين لا تهمك ألبتّة، ثم إنّ الشجاعة تخونني إذا سؤلت لي نفسي إذا عنتها على مسمع من زوجي، وما يدري إلّا وهو يستشهد - في سرّه طبعاً - بقول الشريف:

عندي رسائل شوق لست أذكرها

لولا «الرقيب» لقد بلغتها فاك

ثمّ تسأل بدوره:

- أيّ أنباء جديدة تعني؟...

فقال فهمي باهتمام شديد:

- ذاع بين الطلبة نبأ عجيب كان حديثنا اليوم كلّهُ وهو أنّ وفدًا مصريًا مكوّنًا من سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمي بك وعليّ شعراوي باشا توجّه أمس إلى دار الحماية وقابل نائب الملك للمطالبة برفع الحماية وإعلان الاستقلال...

ورفع ياسين حاجبيه في اهتمام ولاحث في عينيه نظرة شكّ مقرونة بالدهشة، لم يكن اسم سعد زغلول بالجديد عليه وإن لم يجد وراء الاسم في نفسه شيئًا ذا بال اللّهمّ إلّا ذكريات غامضة اقترنت بحوادث أتى عليها النسيان من زمن دون أن تترك في قلبه - الذي لا يكاد يعبأ بالأمر العامّة - أثرًا عاطفيًا يدلّ عليها ولو من بعيد، إلّا أنّ الاسمين الآخرين كانا يقعان في أذنه لأول مرّة، يئد أنّ غرابة الأسماء ليست شيئًا يذكر إلى جانب الحركة التي قام بها أصحابها إن صحّ ما يقول فهمي، إذ كيف يتصوّر أن يطالب الإنجليز غداة انتصارهم على الألمان والخلافة باستقلال مصر؟! وسأله:

- ماذا تعرف عن هؤلاء السادة؟

فقال فهمي بلهجة لا تخلو من امتعاض خليق بمن يؤدّ لو كان هؤلاء السادة من أعضاء الحزب الوطنيّ: - سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعيّة، وعبد

العزيز فهمي وعليّ شعراوي عضوان بها، الحقّ أنّي لا أعرف شيئًا عن الآخرين أمّا سعد فأكاد أكون عنه فكرة لا بأس بها ممّا ترامى إليّ عن كثيرين من زملائي الطلبة الوطنيّين الذين يختلفون فيه كثيرًا، منهم من يعدّه ذنبًا من أذنان الإنجليز ولا شيء أكثر من هذا ومنهم من يقرّ له مجازيا عظيمة جدية بأن ترفعه إلى مصافّ رجال الحزب الوطنيّ أنفسهم. ومهما يكن من شأن فالخطوة التي أقدم عليها مع زميله - ويقال إنّ كان الداعي إليها كذلك - عمل مجيد لعلّه لا يوجد الآن من ينهض به مثله بعد نفي المرّزين من الوطنيّين وعلى رأسهم زعيمهم محمّد فريد...

بدا ياسين جادًا أن يظنّ به الآخر استهانة بحماسة وردّد قائلاً وكأنّه يسائل نفسه:

- المطالبة برفع الحماية وإعلان الاستقلال!...

- وسمعنا أيضًا أنّهم طالبوا بالسفر إلى لندن للسعي إلى الاستقلال، وأنّهم لهذا القصد قابلوا السير «رينالد ونجت» نائب الملك!...

لم يستطع ياسين أن يواصل مداراة حيرته فأعلنها بأسايره وهو يسأله بصوت مرتفع بعض الشيء:

- الاستقلال!... أتعني هذا حقًّا؟... ماذا تعني؟...

فقال فهمي بلهجة عصبيّة:

- أعني إخراج الإنجليز من مصر، أو الجلاء كما عبّر عنه مصطفى كامل ودعا إليه...

يا له من أمل!... لم يكن السعي إلى تحديث السياسة من طبعه ولكنّه يقبل دعوة فهمي كلّها دعا إليه، اتّقاء لتكديره، وطلبًا لنوع طريف من التسلية، وربّما ثار اهتمامه بين الحين والحين وإن لم يبلغ درجة الحماس، بل ربّما شاركه أمانيه بطريقة سلبية هادئة، ولكنّه أثبت طوال حياته أنّه قليل الاكتراث بهذا الجانب من الحياة العامّة، كأنّه لا غاية له وراء التّنعّم بطيّبات الحياة ولذاتها، لذلك لم يجد في نفسه استعدادًا

للاخذ بهذه الأقوال مأخذ الجدّ وتساءل مرّة أخرى:

- هل يقع هذا في حدود الإمكان حقًّا؟

فقال فهمي بحماس لا يخلو من لوم:

- لا يأس مع الحياة يا أخي!...

فأثارت هذه الجملة في نفسه ما تثيره أمثالها من ميل إلى السخرية بيد أنه تساءل متظاهراً بالجد:

- وكيف لنا بأن نخرجهم؟

ففكر فهمي قليلاً ثم قال عابساً:

- لهذا طلب سعد وزميلاه السفر إلى لندن!

تابعت الأم الحديث باهتمام مركزة فيه وعيها كله كي تفهم أقصى ما يسعى فهمه منه كدأها كلما ثار حديث في الشؤون العامة البعيدة كل البعد عن اللغو المنزلي، تلك الأمور تشوقها، وتدعي القدرة على فهمها، ولا تتردد إذا سنحت فرصة عن المشاركة فيها غير مبالية بما تحدثه آراؤها في أحيان كثيرة من الاستهانة المشربة بالعطف، ولكن لم يكن شيء ليحطم مجاديفها أو يصدّها عن الاهتمام بهذه الشؤون «الكبيرة» التي يبدو أنها تتبعها مدفوعة بنفس البواعث التي تدفعها إلى التعلّق بدروس كمال الدينيّة أو مناقشة ما يلقي عليها من معلوماته الجغرافيّة والتاريخيّة على ضوء معارفها الدينيّة أو الأسطوريّة، وقد أكسبها هذا الجد شيئاً من الإلمام بما يقال عن مصطفى كامل ومحمد فريد وأفندينا المبعد، أولئك الرجال الذين ضاعف من حبّها لهم إخلاصهم للخلافة الأمر الذي قرّبهم في نظرها - كشخص يقدّر الرجال بحسب منازلهم الدينيّة - من مراتب الأولياء الذين تهيم بهم، ولمّا أن ذكر فهمي أنّ سعداً وزميليه يطلبان السفر إلى «لندن» خرجت عن صمتها فجأة متسائلة:

- أيّ بلاد الله لندن هذه؟

فبادرها كمال باللهجة المنغومة التي يسمّع بها التلاميذ دروسهم:

- لندن عاصمة بريطانيا العظمى وباريس عاصمة فرنسا والكاين وعاصمتها الكاب... .

ثم مال على أذنها هامساً «لندن بلاد الإنجليز» فتولّت الأم الدهشة وقالت مخاطبة فهمي:

- يذهبون إلى بلاد الإنجليز ليطالبوهم بأن يخرجوا

من مصر؟... ليس هذا من الذوق في شيء... .

كيف تزورني في بيتي وأنت تضمّر طردي من بيتك؟!

أصجرت مقاطعتها الشاب فنظر إليها باستمّاء معاتباً

في آن ولكنّها ظنّت أنّها بسبيل إقناعه فأردفت قائلة:

- وكيف يطلبون إخراجهم من ديارنا بعد إقامة

طالت هذا الدهر كله؟ لقد ولدنا وولدتم وهم في

بلادنا فهل من «الإنسانيّة» أن نتصدّى لهم بعد ذاك

العمر الطويل من العشرة والجيرة لنقول لهم بصريح

العبرة - وفي بلادهم أيضاً - اخرجوا؟!

ابتسم فهمي كاليأس على حين قهقهه ياسين، أما

زينب فقالت جادة:

- كيف تواتيهم الجراة على أن يقولوا لهم هذا في

بلادهم!... هب الإنجليز قتلهم هناك فمن ذا

يدري بهم؟... ألم يجعل جنودهم المشي في الشوارع

البعيدة من المخاطرات غير المأمونة؟... فكيف بمن

تحدّثه نفسه باقتحام ديارهم؟!

ودّ ياسين لو يسترسل مع المرأتين في حديثها الساذج

إرواء لعواطفه الظامّة إلى المزاح ولكنّه لمس ضجر

فهمي فأشفق من إغضابه، فتحوّل إليه مواصلاً ما

انقطع من الحديث وهو يقول:

- في كلامها حقّ لم تحسنا التعبير عنه، خبرني يا

أخي ما عسى أن يصنع سعد حيال دولة تعدّ الآن

سيّدة العالم بلا منازع؟

فوافقت الأم على قوله بإيماءة من رأسها كأنّ

الحديث كان موجّهاً إليها وراحت تقول:

- كان عرابي باشا أعظم الرجال وأشجعهم، لا

يقاس به سعد ولا غيره، وكان فارساً وكان مقاتلاً،

فإذا لقي من الإنجليز يا ولداه؟ أسروه ثم نفوه إلى

بلاد وراء الشمس... .

فلم يتألّك فهمي من أن يقول لها بلهجة جمعت

بين الرجاء والضيّق:

- نينة!... هلاً تركتنا نتحدّث؟!

فابتسمت فيها يشبه الحياء مشفقة كلّ الإشفاق من

إغضابه فغيّرت لهجتها الحليسيّة كأنّها هي بتغيير لهجتها

تعلن تغيّر رأيها كله ثمّ قالت برقة واعتدار:

- يا سيدي لكلّ مجتهد نصيب، فليذهبوا في رعاية

الله، وعسى أن يحظوا بعطف الملكة الكبيرة... .



له ملابسه، فشيعه فهمي بنظرة لا تخلو من غضب، غضب من لم يظفر بمشاركة وجدانية تتجاوب مع نفسه المتأججة، لشد ما تثير أحداث الوطنية أكبر الأحلام في نفسه، في دنياها الساحرة تترأى لعينيها دنيا جديدة، ووطن جديد وبيت جديد، وأهل جدد، ينتفضون جميعاً حيوية وحماسة ولكن ما إن يفیق على هذا الجوّ الخائق من الفتور والسذاجة وعدم المبالاة حتّى تشبّ بين أضلعه نار الحسرة والألم فزوم في قهرها متنفساً - أيّ ما كان - تنطلق منه إلى السماء، ودّ في تلك اللحظة بكلّ قوّته لو ينطوي الليل في غمضة عين ليجد نفسه مرّة أخرى في مجمع الطلاب من إخوانه فيروي ظمأه إلى الحساس والحريّة ويسمو في وثدة حماسهم إلى ذلك العالم الكبير من الأحلام والمجد، لقد تساءل ياسين عن ماذا يصنع سعد حيال بلد تعدّ اليوم بحقّ سيّدة العالم، وهو نفسه لا يدري على وجه التحقيق ماذا سيصنع سعد، ولا يدري ماذا يمكن أن يصنع، ولكنّه يشعر بكلّ ما في قلبه من قوّة بأنّ ثمة ما يجب عمله، ربّما لم يجده مائلاً في عالم الواقع، ولكنّه يشعر به كامناً في قلبه ودمه، فما أجدره أن يبرز إلى ضوء الحياة والواقع أو فلتتمض الحياة عبثاً من العبث وباطلاً من الأباطيل...

#### ٤٩

بدا الطريق أمام دكان السيّد أحمد - كمادته - مكتظاً بالسبلة والمركبات ورواد الدكاكين المترابطة على الجانبين إلّا أنّ هامته ازدانت بشفافية مقطرة من جوّ نوفمبر اللطيف الذي حجبت شمسها وراء سحائب رفاق لاحت رقاعها ناصعة البياض فوق مآذن قلاوون وبرقوق كأنّها بحيرات من نور، لم يكن شيء في السماء ولا في الأرض قد خرق المألوف ممّا اعتاد السيّد أن يراه كلّ يوم، ولكنّ نفس الرجل، والأنف الموصولة بنفسه وربّما أنفاس الناس جميعاً تعرّضت لموجة عاتية من الانفعال والشعور خرجت بها عن طورها أو كادت حتّى قال السيّد إنّّه لم تمرّ به أيام كهذه الأيام اجتمع الناس فيها حول نبأ واحد وخفقت قلوبهم بإحساس

فما يدري الشابّ إلّا وهو يسألها في غرابة:

- أيّ ملكة تقصدين؟

- الملكة فيكتوريا يا بنيّ، أليس هذا اسمها؟...

طلما سمعت أبي وهو يتحدث عنها، هي التي أمرت بنفي عرابي ولكنها أعجبت بشجاعته كثيراً فيها قيل...

فقال ياسين ساخراً:

- إذا كانت قد نفت عرابي الفارس فهي أجدر أن تنفي سعداً العجوزاً...

فقال الأمّ:

- مهما يكن من أمرها فهي لم تزل امرأة يحمل صدرها ولا شكّ قلباً رقيقاً فإذا أحسنوا مخاطبتها وعرفوا كيف يتردّدون إليها جرت بخاطرهم...

وجد ياسين سروراً كبيراً في منطق الأمّ التي جعلت تتحدّث عن الملكة التاريخية كما لو كانت تتحدّث عن أمّ مريم أو غيرها من الجارات، ولم يعد يرغب في مجارة فهمي، فسألها بإغراء:

- خبرينا عمّا يحسن أن يقولوه لها؟

فاعتدلت المرأة في جلستها مسرورة بهذا السؤال الذي أقرّ لها بالجدارة «السياسية» ومضت تفكر باهتمام لاح في تقارب حاجبيها في صيغة مناسبة لأوّل «مفاوضة» بيد أنّ فهمي لم يمهّلها حتّى تتمّ تفكيرها فقال لها باقتضاب واستياء:

- الملكة فيكتوريا ماتت من زمن بعيد، لا تتعبني

نفسك بلا طائل!

انتبه ياسين عند ذاك إلى غاشية المساء الزاحفة من خلال خصائص النوافذ فأدرك أنّه آن له أن يودّع المجلس ليمضي إلى سهرته، ولما كان يعلم حقّ العلم بأنّ ظمأ فهمي لم يرو بعد فقد رغب في أن يقدّم له اعتذاره عن ذهابه في صورة تأييد من نوع ما للنبا الذي أخذ بلّبه فقال له وهو ينهض:

- إنهم رجال يدركون بلا شكّ خطورة ما أقدموا عليه فعلمهم أعدوا له الوسيلة الناجحة، فلندعهم بالتوفيق.

وغادر المجلس وهو يشير إلى زينب لتلحق به فتجهّز

الهامّة من صلات القربى. كان السيّد عَفَت دائماً همزة الوصل بين جماعته الأصليّة المكوّنة من تجّار وبين من انضمّ إليها بمضيّ الزمن من موظّفين ممتازين ومحامين وإن تفرّد السيّد أحمد بمنزلة الإعزاز بفضل شخصيّته وسجاياه، غير أنّ صلة القربى هذه التي لم تفقد شيئاً من خطورتها قطّ لدى أصدقائه التجّار الذين يتطلّعون إلى الموظّفين وذوي الألقاب بنظرة ملؤها الإكبار، صلة القربى هذه قد زادت خطورة في هذه الأيام التي بات فيها «الخبر الجديد» أهمّ من الماء والغذاء... بسط السيّد عَفَت صحيفة كانت مطوّية بيمينه ثمّ قال:

- خطوة جديدة... لم أعد ناقل أنباء فحسب ولكني بئّ رسولاً أحمل إليك وإلى غيرك من الأكرمين هذا التوكيل السعيد...

وأعطاه الصحيفة وهو يغمغم مبتسماً «اقرأ» فتناولها السيّد وقرأ:

- نحن الموقعين على هذا قد أنبأنا عنّا حضرات سعد زغلول باشا وعليّ شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك ومحمّد عليّ علوية بك وعبد اللطيف المكيّاتي ومحمّد محمود باشا وأحمد لطفي السيّد بك، ولهم أن يضمّوا إليهم من يختارون، في أن يسعوا بالطرق السلميّة المشروعة حيثما وجدوا للسعي سبيلاً في استقلال مصر استقلالاً تامّاً...

فتهلّل وجه السيّد وهو يتلو أسماء أعضاء الوفد المصريّ الذين سمع بهم فيما سمع من أبناء الحياة الوطنيّة التي تردّدها الألسن، وتساءل:

- ماذا تعني هذه الورقة؟

فقال الرجل بحماس:

- ألا ترى هذه الإمضاءات؟... وقع تحتها بإمضاءك وادع جميل الحمزاوي ليوقع بإمضائه أيضاً. هذا توكيل من التوكيلات التي طبعها الوفد ليوّقعها الشعب فيتخذ بها صفة الوكالة عن الأمة المصريّة... أمسك السيّد بالقلم ووقع بإمضائه في سرور تجلّ في تألّق عينيه الزرقاوين وهو يبتسم ابتسامة رقيقة غمت عن شعوره بالسعادة والخلاء إذ يوكل عن نفسه سعداً وزملاءه، أولئك الرجال الذين ملكوا النفوس على

واحد. فهمي الذي يلوذ بالصمت بين يديه ما لم يبدأ هو بالحديث، نقل إليه في إسهاب ما اتّصل بعلمه عن مقابلة سعد لنائب الملك، وفي مساء اليوم نفسه، وفي مجلس الطرب، أكّد نفر من الصحاب أنّ الخبر حقيقة لا يرتقي إليها الشكّ، وفي دكانه حدث أكثر من مرّة أن خاض زبائن لا تربط بينهم صلة تعارف سابق في حديث المقابلة، بل ما يدري هذا الصباح إلّا والشيخ متولّي عبد الصمد يقتحم عليه الدكان بعد غيبة طويلة فلم يقنع بتلاوة الآيات وأخذ نصيبه من السكر والصابون وأبى إلّا أن يعلن نبأ الزيارة بلهجة من يزفّ البشرى لأوّل مرّة ولمّا سأله السيّد - مداعباً - عمّا يظنّ أن تكون نتيجة الزيارة أجاب الشيخ «محال!... محال أن يخرج الإنجليز من مصر، أتحسبهم مجانيين كي يجلبوا عن البلد بلا قتال!... لا بدّ من قتال، ولا قتال لنا، فلا سبيل إلى إخراجهم، فلعلّ رجالنا يوفّقون ولو إلى إبعاد الأستراليّين حتّى يعود الأمن إلى سابق عهده، والسلام؟» أيام أنباء ومشاعر فيّاضة صادفت في السيّد رجلاً ذا قابليّة شديدة لعدوى الأشواق الوطنيّة والسياسيّة فبات على حال من الانتظار والتوقّع جعلته يُقبل بانفعال على قراءة الجرائد التي بدت في الأغلب وكأنّها تصدر في بلد غريب لا انفعال فيه ولا توتّب، واستقبال الأصدقاء بنظرة استطلاع تتلّف عمّا وراءهم من جديد، وعلى تلك الحال استقبل السيّد عمّد عَفَت حين دخل الدكان مهزولاً، لم تكن نظرة القادم الحادّة ولا حركته النشيطة ممّا يوحي بأنّه مجرد زائر قد عرّج إلى الدكان لاحتساء قهوة أو رواية ملحة، فوجد السيّد في مظهره ما تجاوب مع نفسه القلقّة المشوّقة فبادره قائلاً والآخر يشقّ طريقه بين الزبائن الذين قام جميل الحمزاوي على قضاء حوائجهم:

- صباحنا نادر، ماذا وراءك يا سبع؟

اتّخذ السيّد عمّد عَفَت مجلسه لصق المكتب وهو يتبسّم ابتسامة وشت بالعجب كأنّ قول السيّد «ماذا وراءك» وهو نفس السؤال الذي يتكرّر كلّما لاقى أحداً من صحبه - إقرار بأهمّيّته في هذه الأيام البالغة في أهمّيّتها بالنظر لما يربطه ببعض الشخصيّات المصريّة

السيد فهمس في أذن صاحبه:  
- كأني لشدة سروري بهذا التوكيل الوطني ثَمِّلْ يعلَّ الكأس الثامنة بين فعذلي زبيدة...!  
فحركَ حَمْدَ عَقَّتْ رأسه في تأثر كأن الصورة التي جسَّمها خياله عند ذكر الكأس وزبيدة قد أسكرته، وغمغم:

- يا ما بكره نسمع...

ثم غادر الدكان والسيد في أعقابهِ مبتسماً:

- وبعده نشوف...!

ثم عاد إلى مكتبه وأثر المزاج منبسط في أساريه وانفعال الحماس في قلبه لا يَخمد، شأنه في كلِّ ما يعرض له من مهام الحياة بعيداً عن داره، فهو يجتد الجِدَّ كلَّه كلما دعا الداعي إلى الجِدِّ ولكنته لا يتردد عن تلطيف جُوه بالمزاج والدعابة كلما لاحت له صادراً في ذاك عن طبع لا يملك معه حيلة وإن بدا قدرة عجيبة على التوفيق بينهما، فلا جدَّه بظاهر مزاحه ولا مزاحه بمفسد جدَّه، ولما كانت دعابته ليست ترفاً مما يدور على هامش الحياة، ولكن ضرورة تنوزعها كالجِدِّ سواء بسواء، فلم يسعه يوماً الاقتصار على الجِدِّ الخالص أو تركيز هَمَّتِه فيه، وبالتالي قنع دائماً من «وطنيته» بالعاطفة والمشاركة الوجدانية دون الإقدام على عمل يغيِّر وجه الحياة الذي أنس إليه فلا يرضى عنه بديلاً، لذلك لم يدر له بخلد أن ينضمَّ إلى لجنة من لجان الحزب الوطني على شدة تعلقه بمبادئه، ولا حتَّى أن يجسِّم نفسه شهود اجتماع من اجتماعاته، أليس في ذلك إهدار لوقته «الثمين»؟ ليس الوطن في حاجة إليه على حين يتلهَّف هو على كلِّ دقيقة منه لينفقها في أسرته أو تجارتِه أو على الخصوص في لهوه بين الأحباب والخلائق؟! لكن إذن وقته خالصاً لحياته، وللوطن ما يشاء من قلبه وعواطفه، بل ماله كلما تيسَّر، إذ لم يكن يَضُنُّ به إذا وجب التبرُّع لغرض من الأغراض، وإلى ذلك فلم يشعر مطلقاً بأنَّه مقصَّر في واجبه على نحو ما، وعلى العكس عُرِف بين صحبه بالوطنية، إمَّا لأنَّ قلوبهم لم تشخَّ بعواطفها كما سخا قلبه، وإمَّا لأنَّ

حدائث شهرتهم حيث حرَّكوا منها أهواء عميقة مكبوتة كالدواء الجديد يستأثر بأفكار المرضى بداء قديم استعصى علاجه بالرغم من استعجاله لأوَّل مرَّة، ودعا الحمزاوي فوقَّع بإمضائه كذلك، ثمَّ التفت إلى صاحبه وهو يقول باهتمام شديد:

- المسألة جدَّ فيها يبدو...!

فضرب الرجل حافة المكتب بقبضة يده ثمَّ قال:  
- غاية الجِدِّ، كلُّ شيء يسير بقوة وتصميم، أما علمت بما دعا إلى طبع هذه التوكيلات؟ قيل إنَّ «الرجل» الإنجليزي تسأل عن الصفة التي كلَّمه بها سعد وزميلاه في صباح ١٣ نوفمبر الماضي فما كان من الوفد إلَّا أن عمد إلى هذه التوكيلات ليثبت أنَّه يتكلَّم باسم الأمة...

فقال السيد بتأثر:

- لو كان محمَّد فريد بيننا ما عدا هذا.

- لقد انضمَّ إلى الوفد من رجال الحزب الوطني محمَّد عليّ علوبة بك وعبد اللطيف المكباني...  
ثم هزَّ منكبيه لينفض عنها الماضي كلَّه ثمَّ قال:

- كلُّنا نذكر سعداً بما كان يثير من ضجَّة عظيمة على عهد تولَّيه لنظارة المعارف ثمَّ الحفَّانِيَّة، ما زلت أذكر ترحيب اللواء به منذ ترشيحه للوزارة وإن لم أنس حملاته عليه بعد ذلك، بل لا أنكر أنَّني ملَّتُ مع انتقاد المنتقدين له لشدة تعلُّقي بالمغفور له مصطفى كامل، ولكنَّ سعد أثبت دائماً أنَّه جدير بإعجاب المعجبين، أمَّا حركته الأخيرة فهي خليقة بأن تحمله من القلوب في أعزِّ مكان...

- صدقت... حركة مباركة، لنذُخ الله أن يتولاها بتوفيقه...

ثمَّ باهتمام:

- تُرى أيؤدَّن لهم في السفر؟... وماذا تُراهم فاعلين إذا سافروا؟...

طوى السيد محمَّد عَقَّتْ التوكيل ثمَّ نهض وهو يقول:

- ما الغد بعيد...

في طريقها إلى باب الدكان غلبت روح الدعابة

ومال الرجل نحوه ليفضي إليه كيف نعى إليه الخبر. . .

٥٠

في نفس الوقت الذي شغل فيه الوطن بحريته كان ياسين دائبًا بحزم وعزم على الاستئثار بحريته هو كذلك، فإن انطلاقه إلى سهراته الليلية - بعد امتناع موسوم بالاستقامة فيما أعقب الزواج من أسابيع - لم يفز به بلا نضال، ثمة حقيقة كثيرًا ما ردها لنفسه كاعتذار عن سلوكه الجديد. هي أنه لم يكن يتصور - وهو في سكرة حلم الزواج - أنه سيرتد إلى حياة التسكع بين القهوة وحانة كوستاكي، اعتقد مخلصًا أنه ودّع ذاك إلى الأبد مضمّرًا لحياته الزوجية أحسن النيات، حتى دهمته الخيبة المستعصية في الزواج كله فجزعت أعصابه عن تحمّل الملل أو الحياة الفارغة كما دعاها، وفزع بكلّ قوة نفسه المدلّلة الحساسة إلى الترفيه والتسلية والنسيان، إلى القهوة والحانة، لا كحياة لهو عابرة كما ظلّها في الماضي والزواج أمل مدّخر، ولكن كحياة هي كلّ ما تبقى له من متعة بعد أن غدا الزواج خيبة مريرة، كالذي تشرده الآمال عن وطنه فيرده الإخفاق إليه تائبًا، بيد أن زينب التي عهدت عنده التودّد الحارّ والتملّق النهم، بل الإعزاز الذي بلغ به يومًا أن ذهب بها إلى مسرح كشكش بك مستهينًا بالسياج المسلّح من التقاليد الصارمة الذي يضربه أبوه حول الأسرة. . . زينب هذه كابدت من انصرافه عنها إلى منتصف الليل ليلة بعد أخرى وعودته ثملًا يترنّح، صدمة عزّ عليها احتياها فما تمالكت أن كاشفته بأحزانها، وكان يعلم بداهة أن طفرة مفاجئة في حياته الزوجية لا يمكن أن تمرّ بسلام فتوقّع من بادئ الأمر المعارضة على أيّ لون جاءت، عتابًا أو خصامًا وأعدّ العدة المناسبة ليحسم موقفه بقول أبيه له ليلة ضبطه راجعًا من كشكش بك «إنه لا يفسد النساء إلّا الرجال، وليس كلّ الرجال جديرًا بالقيام على النساء» فما تشكّكت حتى قال لها: «لا داعي للحزن يا عزيزة، منذ القدم والبيوت للنساء والدنيا للرجال، هكذا

الذين سخت قلوبهم لم يذهبوا إلى حدّ التبرّع بالمال مثله، فتميّز بوطنيته، وعرف هو ذلك فأضافه إلى بقية مزاياء التي يباهي بها سرًا في أعماق قلبه، ولم يتصور أن الوطنية يمكن أن تطالبه بأكثر مما يجود به، ذاك القلب المولع بالغرام والطرب والمزاح لم يضيق - على ازدحامه - بالعاطفة القومية، وهي وإن قنعت بالقلب مجالًا لحيويتها إلّا أنها كانت قوية عميقة تشغل النفس وتهمّها، لم تحبه عرضًا ولكن نشأت مع صباه فيما تلقته أذناه من أحاديث البطولة التي رواها السلف عن عرابي، ثم اتقّدت جذوتها بمقالات اللواء وخطبه، وكم كان منظرًا فريدًا - أهاج التأثر والضحك معًا - يوم رُئي وهو يبكي كالأطفال عند وفاة مصطفى كامل، تأثر صحبه لأنّ أحدًا منهم لم يسلم من وعكة حزن ثم أغرقوا في الضحك في مجلس الطرب الليلي حين تذكروا المنظر إذ لم يكن من اليسير أن يرى «ربّ الضحك» وهو يجيش بالكاء! اليوم، بعد سني الحرب الخامدة، بعد موت الزعيم الشاب ونفي خليفته، بعد انقطاع الأمل من عودة أفندينا، بعد هزيمة تركيّا، وانتصار الإنجليز، بعد هذا كله، أو بالرغم من هذا كله، تسري أنباء عجيبة حاملة حقائق كالأساطير. . . مواجهة الرجل الإنجليزي بمطالب الاستقلال، إمضاء التوكيلات الوطنية، التساؤل عن الخطوة التالية، قلوب تنفض عن جوهرها الغبار، أنفُس تشرق بالآمال، ماذا وراء هذا كله؟! . . . إن خياله السلمي الذي ألف الاستكانة يتساءل دون جدوى، وإنه ليتعجّل الليل ليهرع إلى مجلس الطرب حيث باتت الأحاديث السياسية «مؤة» الشراب والطرب فائتلفت مع جملة المغريات التي تجذب حنانه إلى سهرته كزبيدة وحبّ الإخوان والشراب والطرب وإنه لتبدو في ذلك الجوّ الخلاب عذبة الروح لطيفة التناول تغني القلوب بشقّي عواطف الحساس والحثّ من دون أن تستأديه ما لا طاقة له به! . . . وإنه ليفكر في هذا كله إذ اقترب منه جميل الحمزاوي وهو يقول:

- أما سمعت عن الاسم الجديد الذي أطلق على بيت سعد باشا. . .؟ إنهم يدعونه «بيت الأمة». . .

مثال زوجها، فلم تَر في استمتاع ياسين بحريته عجباً ولكن شكوى زوجه بدت هي العجب. فهمي وحده قدّر أحزانها فتطوّع لترديدها على مسمع من ياسين ولو أنّه أيقن من بادئ الأمر أنّه يدافع عن قضية خاسرة، ولعلّ ما شجّعه على ذلك كان كثرة تلاقيهما في قهوة أحمد عبده بخان الخليلي، تلك القهوة التي تقع تحت سطح الأرض كأنّها كهف منحوت في جوف جبل، مسقوفة برسوع الحيّ العتيق، منعزلة عن العالم بحجراتها الضيقة المتقابلة، وباحتها التي تتوسّطها نافورة صامتة، ومصاييحها التي توقد ليل نهار، وجوها الهادئ الحالم الرطيب. كان ياسين قد مال إلى هذه القهوة لدنوّها من حانة كوستاكي من ناحية ولاضطرابه إلى هجر قهوة سي عليّ بالغوريّة بعد قطع زوّته من ناحية أخرى، ثمّ لمّا خصّت به القهوة الجديدة من طابع أثريّ صادف هوّى من نفسه الميالة للشعر، أمّا فهمي فلم يعرف طريق المقاهي لخلل طراً على سلوكه كطالب مجتهد ولكن تلبية لداء تلك الأيام الذي دعا الطلبة وغيرهم إلى التجمّع والتشاور، فاختار ونفر من زملائه قهوة أحمد عبده - لنفس ميزاتها الأثريّة التي جعلتها بئامن من العيون - للاجتماع مساء بعد مساء للحديث والتشاور والتنبؤ وانتظار الحوادث. كثيراً ما التقى الأخوان في حجرة من الحجرات الصغيرة ولو حين قليل أي حتّى يصل زملاء فهمي أو يأزف ميعاد ياسين للانتقال إلى حانة كوستاكي، وفي مرّة من هذه المرات أشار فهمي إلى كدر زينب مُبدياً دهشته لسلوك أخيه الذي لا يتفق مع حياة زوجيّة ناشئة. ضحك ياسين ضحكة رجل يرى لنفسه الحقّ، كلّ الحقّ، في أن يضحك من سداجة الآخر الذي ارتضى بأن يخاطبه بلسان الناصح فيما يجهمه، بيد أنّه لم يشأ أن يبرّر سلوكه مباشرة مؤثراً أن ينقّس عن صدره بما يعنّ له من قول، قال مخاطباً الشاب:

- رغبت يوماً في الزواج من مريم، ولست أشكّ في أنّك حزنت جدّ الحزن لموقف أبيك الذي منع تلك الرغبة من أن تتحقّق. . . أقول لك، وأنا أدري بما أقول، إنّك لو علمت وقتذاك بما يخفي الزواج وراء

الرجال جميعاً، والزوج المخلص يحافظ على أمانته وهو بعيد عن زوجته كما يحافظ عليها وهو بين يديها، ثمّ إنّني أتزوّد من السهرة ترويحاً عن النفس وبهجة يجلّان من حياتنا متعة كاملة» ولمّا عرضت بسكره محتجّة بأنّها «تخاف على صحّته» ضحك وقال بنفس اللهجة الجامعة بين الرقّة والحزم «كلّ الرجال يسكرون، إنّ صحّتي تتحسنّ بالسكر (ثمّ ضاحكاً مرّة أخرى) سلي أبي أو أبك!» إلّا أنّها همت بالاسترسال في مناقشته جرياً وراء أمل كاذب فشّد حبل الحزم متشجّعاً بملله الذي هوّن عليه ما لم يكن يهون من إغضابها فراح ينوّه بما للرجال من حقّ مطلق في أن يفعلوا ما يشاءون، وما على النساء من واجب الطاعة والزام الحدود «انظري إلى امرأة أبي هل رأيها اعترضت يوماً على تصرف لأبي؟. . . على ذلك فيها زوجان سعيدان وأسرة مطمئنة، ينبغي ألاّ نعود إلى هذا الموضوع». . . لعلّه لو كان تُرك إلى شعوره وحده ما اصطنع في خطابها ما اصطنع من سياسة فإنّ خبيته في الزواج جعلته يجد نحوها أحياناً ما يشبه الرغبة في الانتقام، وأحياناً أخرى نوعاً من الكراهية المتقطّعة وإن لم يكفّ عن الرغبة فيها بين هذا وذاك، ولكنّه راعى عواطفها إكراماً - أو خوفاً - من أبيه الذي علم بعظيم تعلّقه بأبيها السيّد محمّد عفت. والحقّ لم يكن يكرهه شيء كإشفاقه من أن تشكوه إلى أبيها فيشكوه هذا بدوره إلى أبيه، حتّى لقد صمّم جاداً، إذا وقع شيء ممّا يحاذر، أن يستقلّ بمسكن مهما تكن العواقب ولكنّ مخاوفه لم تتحقّق، أثبتت الفتاة رغم حزنها أنّها امرأة «عاقلة» كأنّها من طراز امرأة أبيه نفسها، قدّرت موضعها حقّ قدره ونزلت عند حكم الواقع، مطمئنة - لبعليها - بما يرّده دائماً من إخلاصه وبراءة سهراته، قانعة من الألم والحزن ببئها في دائرة الأسرة الضيقة - مجلس القهوة - من دون أن تظفر بتأييد جدّي، وكيف لها بذلك في بيئة ترى الخضوع للرجال ديناً وعقيدة، بل لعلّ الستّ أمينة استنكرت شكواها وسخطت على ما تطمح إليه من استئثار غريب ببعليها، لأنّها لم يكن يسعها أن تتصوّر النساء إلّا على مثالها هي ولا الرجال إلّا على

مباهجها الأحلام، وطالما ساءلت نفسي: هل يجمعي حقًا بيت واحد بغادة حسناء إلى الأبد؟ يا له من حلم!... ولكني أؤكد بأنه ليست ثمة مصيبة أفدح من أن يجمعك بيت واحد بحسنة إلى الأبد... وغمغم فهمي في حيرة رجل يعزّ عليه - فيها يكابد من أشواق الشباب - تصوّر الملل: - لعلّه بدت لعينك أشياء وراء الظاهر الذي لا يعاب!

فقال ياسين وهو يضحك بمرارة:

- لا أشكو إلّا الظاهر الذي لا يعاب!... شكواي في الحقّ منصّبة على الجمال نفسه!... هو... هو الذي مللت لحدّ السقم، كاللفظ الجديد يبهرك معناه لأوّل مرّة ثمّ لا تزال تردّده وتستعمله حتّى يستوي عندك وألفاظ مثل «الكلب» و«الدودة» و«الدرس» وسائر الأشياء المبتذلة، يفقد جدّته وحلاوته، وربّما نسيت معناه نفسه فغدا مجرّد لفظ غريب لا معنى له ولا وجه لاستعماله، ولعلّه لو عثر عليه الغير في إنشائك أخذهم العجب لبراعتك على حين يأخذك العجب لغفلتهم، ولا تسلّ عمّا في ملل الجمال من فجعية، إذ أنّه يبدو مللاً بلا عذر مقبول، وبالتالي قضاء محنّوماً... فيتعذّر التفادي من يأس ليس له من قرار. لا تعجب لقولي، إنّ عاذرك لأنك تنظر من بعيد، والجمال كالسراب لا يُرى إلّا من بعيد... على مرارة اللهجة شكّ فهمي في حقيقة بواعثها إذ أنّه مال من بادئ الأمر إلى اتّهام أخيه - لا الطبيعية البشرية - لما عرفه عنه من انحراف السلوك، ألا يجوز أن تُردّ شكواه في الحقّ إلى ما طبع به من مجون في حياته السابقة على الزواج!... أصرّ على هذا الظنّ إصرار رجل يأبى أن يفجع في أعزّ آماله، ولمّا كان ياسين لا يهتمّ بأراء أخيه بقدر ما يهتمّ بالإفصاح عمّا في صدره هو، فقد واصل حديثه وهو يبتسم لأوّل مرّة ابتسامة وضيئة:

- أصبحت أدرك موقف أبي حقّ الإدراك!... وأفهم ما جعل منه ذاك الرجل العرييد الراكض وراء العشق أبداً!... كيف كان يتأقّل له أن يصبر على

سطحه لحمدت الله على الفشل... .

دهش فهمي لحدّ الانزعاج لأنّه لم يتوقّع أن يباغت في أوّل جملة يخاطب بها بألفاظ تجمع بين «مريم» و«الزواج» و«الرغبة»، أفكار لعبت على مسرح صدره أدوارًا لا تنسى ولا تمحى آثارها، فلعلّه بالغ في إظهار دهشته ليخفي ما أثارته الذكريات في نفسه من الشجن والتأثر، ولعلّه لذلك لم يستطع أن ينبس بكلمة، فتابع ياسين حديثه وهو يلوّح بيده سأمًا ومللاً قائلاً:

- ما كنت أتصوّر أن يتجلى الزواج عن هذا الخواء، إنّهُ في الحقّ لا يعدو أن يكون حلماً كاذبًا، وقاسيًا ككلّ شيء خبيث الخداع!

بدا له قوله عسير المضمّ مثيرًا للريب كما يخلق شبّابٌ تتدفّق ينابيع حياته الوجدانيّة نحو هدف واحد لا يتمثّل له إلّا في صورة «زوجة» وتحت مقولة «الزواج» فعزّ عليه أن يتناول أخوه المستهتر مقولته المقدّسة بهذه المرارة الساخرة، وتقمّم في دهشة بالغة:

- ولكنّ زوجك سيّدة... كاملة!

فهتف ياسين ساخرًا:

- سيّدة كاملة! هو ذاك، أليست كريمة رجل فاضل؟... وربيبة أسرة كريمة؟... جميلة... مهندّبة... ولكن لا أدري أيّ شيطان موكل بالحياة الزوجيّة يجعل من جميع الزايا السالفة أعراضًا تافهة لا يُلقي إليها ببال تحت ضغط الملل المُسقيّم كأنّها بعض ما تغدق على الفقر من صفات النبل والسعادة كلّما تراءى لنا أن نعزّي فقيرًا عن فقره... .

فقال فهمي ببساطة وصدق:

- لا أفهم حرفًا ممّا تقول.

- انتظر حتّى تعرف بنفسك... .

- لماذا إذن يصّر الناس على الزواج منذ بدء الخليقة؟... .

- لأنّ الزواج - كالموت - لا ينفع معه التحذير ولا

الحذر... .

ثمّ مستطرّدًا وكأنّه يخاطب نفسه:

- لشدّ ما عبث بي الخيال فسما بي إلى عوالم تفوق

بذاك، وبذاك وحده تراءت له الحياة الزوجية محتملة، بل أثيرة ذات مزايا تفتقد. «فيم تطمح أية امرأة وراء البيت الزوجي والارتواء الجنسي؟! . لا شيء!... إنهن حيوانات أليفة كالحیوانات الأليفة ينبغي أن يعاملن، أجل لا يجوز للحيوانات الأليفة أن تتسقل على حياتنا الخاصة وإنما عليها أن تنتظر في البيت حتى نفرغ لمداعبتها، أن أكون زوجاً خالصاً للحياة الزوجية هو الموت، منظر واحد وصوت واحد وطعم واحد لا تزال تتكرر وتتكرر... حتى تنقلب الحركة والجمود سيين، والصوت والصمت توأمين، كلاً كلاً، ما لهذا تزوجت... إن قيل إنها بيضاء، ألت ذا مآرب من السمراء، بل والسوداء... وإن قيل إنها مدملجة فما عزائي عن النحيلة والجسيمة، أو أنها مهذبة سلية نبل وكرم فهل عسلت من المزايا ربيبة العربات الكارو؟!... إلى الأمام... إلى الأمام...».

## ٥١

كان السيد مكباً على دفتاره حين طرقت عتبة الدكان حذاء ذات كعب عال فرفع عينيه باهتمام غريزي، فرأى امرأة تشتمل الملاءة اللث منها على جسم لحيم وتنحسر حافة البرقع الأسود على جبين ناصع وعينين مكحولتين، فابتمت أساريره في ترحاب طال تشوقه إليه، وعرف من توه الست أم مريم أو حرم المرحوم رضوان كما صارت تدعى أخيراً، ولما كان جميل الحمزاوي مشغولاً ببعض الزبائن فقد دعاها للجلوس على كنب من مكتبه، فأقبلت المرأة تحطرت وجلست على المقعد الصغير الذي فاضت عنه أعطافها وهي تلقي إليه بتحية الصباح، ومع أن التحية من ناحيتها والترحاب من ناحيته جريا على النحو المعهود الذي يتكرر كلما جاءته «زبونة» تستحق التكریم، فإن الجو الذي غشى ركن الدكان من حول المكتب شحن بكهرباء تعوزها البراءة، لاحت أمارات لها في الجفنين المسبلين حياء حول عروس البرقع من ناحية، والنظرة المترتبة فوق سفحي الأنف العظيم من ناحية أخرى، كهرباء خفية صامتة إلا أن نورها

طعام واحد ربع قرن من الزمان وقد قتلني الملل بعد خمسة أشهر؟!

فقال فهمي وقد قلق لإقحام أبيه في الحديث:  
- حتى على افتراض أن شكواك صادرة عن تعاسة مركبة في الطبيعة البشرية، فالحل الذي تبشر به... (هم بأن يقول: بعيد عن الطبيعة السوية ثم عدل عنه ليكون أكثر منطقياً فقال)... بعيد عن الدين... فقال ياسين الذي كان يقنع من الدين دون اكتراث جذبي لأوامره ونواهيه:

- الدين يؤيد رأيي، وآي ذلك أنه سمح بالزواج من أربع غير الجوارى اللاتي كانت تكتظ بهن قصور الخلفاء والأغنياء، فقد فطن إذن إلى أن الجمال نفسه - إذا ابتذلت العادة والألفة - مل وأسقم وقتل... فقال فهمي باسماً:

- كان لنا جد يمي مع زوجة ويصبح مع أخرى فلعلك أن تكون وريثه.. فتمتم ياسين متنهداً:

- لعل... .

على أن ياسين - حتى ذاك الوقت - لم يكن أقدم على تحقيق حلم من أحلامه المتمردة، حتى أنه رجع إلى القهوة فالحانة ولكنه تردد قبل أن يخطو الخطوة الأخيرة، قبل أن ينزلق إلى زنوبة أو إلى غيرها، وما الذي جعله يفكر ويتردد؟... ربما لم يجل من إحساس بالمسؤولية حيال الحياة الزوجية، وربما لم ينبج من تهيب لرأي الدين في «الزوج الفاسق» الذي تؤكد لديه أنه غير رأيه في «الشاب الفاسق» وربما أيضاً أن خيبة أقوى أمل تردد في جوانبه صلت نفسه عن لذات الدنيا حتى يفيق، على أن واحدة من أولاء لم تكن لتقيم في سبيله عائقاً جذباً خليفاً بأن يقف مجرى حياته، إلا أنه وجد إغراء لا يصمت في سيرة أبيه التي استحوذت عليه، وما بدا من زوجه من «حكمة» قرنتها في ذهنه بامرأة أبيه فينشط خياله إلى رسم تخطيط لحياتها المستقبلية معه على مثال حياة الست أمينة مع أبيه، أجل تمت كثيراً لو تظمتن زينب إلى الحياة التي تقدر عليها كما تظمتن امرأة أبيه إلى حياتها، فينب هو مثل وثبات أبيه الموقفة ليعود آخر الليل فيحظى ببيت هادئ وزوجة مستقيمة.

تحاشى هذا الخطر أن يفسد عليه الجو كله، ثم تساءل: هل يهاجم أو يمكس حتى يستدرجها إلى الهجوم؟ لكل طريقة لذاتها... يئد أنه لم يشأ أن ينسى أن يعيشها وحده خطوة كبيرة من جانبها تستحق حسن الاستقبال من جانبه، فاستطرد قائلاً وكأنه يتم حديثه الأول:

- بل فرصة طيبة كي أراك!

تحرك الجفنان والحجابان حركة ربما دلت على الحياة أو الارتباك أو كليهما معاً، ولكنها فضحت قبل كل شيء فطنتها إلى ما وراء مجاملته الظاهرة من معانٍ خفية، على أنه رأى في حياها استجابة لشعورها الباطني الذي دفعها إلى زيارته أكثر منه استجابة لقوله، فازداد اطمئناناً إلى تخمينه الأول وراح يؤكد ما عناءه في نعمة رقيقة قائلاً:

- أجل فرصة طيبة كي أراك.

عند ذاك قالت بلهجة تتم عن عتاب حبيس:

- لا أظن أنك تعدّ رؤيتي فرصة طيبة!

فوقعت لهجة العتاب من صدره موقع الرضى والسرور، لكنه قال كالمحتج:

- صدق من قال إن بعض الظن إثم.

فهزت رأسها هزة كمن تقول له «هيهات أن يؤثر في مثل هذا الكلام» وقالت:

- ليس ظناً فحسب، إنني أعني ما أقول، إنك رجل لا يعوزك الفهم، وأنا كذلك وإن توهمت غيره... فلا يجوز لأحدنا أن يحاول خدع صاحبه.

ومع أن صدور هذا الكلام عن امرأة لم يفض على وفاة زوجها شهران أثار في نفسه شعوراً بالسخرية والمرارة، فإنه تطوّر لانتحال الأعداء لها - الأمر الذي لم يكن ليفكر فيه في ظروف أخرى - قائلاً لنفسه: ما أخرى صبرها على مرضه الطويل بأن يشفع لها، ثم تحلّص من شعوره الطارئ بقوة وقال متصنعاً الأسى:

- غاضبة عليّ؟ يا له من حظ سيئ لا أستحقّه!

فكانت في شيء من الاندفاع ربما كان الباعث عليه ضيق المكان والزمان عن ملاعبات الأخذ والرد:

- قلت لنفسى وأنا في الطريق إليك «ما ينبغي أن

الكامن كان متحفزاً في انتظار لمسة كي يسطع ويشعشع ويستعر نازاً... كأنه كان ينتظر هذه الزيارة التي انجابت عن آمال مهموسة وأحلام مكبوتة، ولكن لأن وفاة السيد محمد رضوان أثارت منه فكراً وهيّجت رغبات كما يهيج انطواء الشتاء شتى آمال الشباب في الطبيعة والأحياء، زال بموته الشجا الذي اعترض إحساسه بالمروءة فأمكنه أن يذكّر نفسه بأن المرحوم لم يكن إلّا جازاً - لا صديقاً - ورحل، كما أمكن شعوره بجمال هذه المرأة الذي أعرض عنه قديماً حفاظاً على كرامته أن يعبر عن ذاته ويطلب بنصيبه من المتعة والحياة، إلّا أن عاطفته نحو زبيدة، كان أدركها العطب كالفاكهة في نهاية موسمها، فلاقت المرأة منه - على خلاف الزيارة السابقة - ذكراً متوثباً وعاشقاً متحرّزاً... على أن خاطرة ثقيلة - أن تكون الزيارة بريئة - مرّت به ولكنه نفاها عن نفسه بقوة، مستشهداً بما بدا منها في الزيارة القديمة من رقيق الإشارات وبديع الرب، مؤكداً ظنونه بهذه الزيارة نفسها التي ليس ثمة ما يوجبها إن لم يكن مثل ما يدور بنفسه، ثم صمّم أخيراً على أن يتلمّس سبيله كخبير قديم... فقال لها برقة باسماً:

- خطوة عزيزة!

فكانت في شيء من الارتباك:

- الله يكرمك، كنت راجعة إلى البيت فمررت بالدكان فترأى لي أن آخذ لوازم الشهر بنفسى.

فطن إلى «اعتذارها» عن المجيء ولكنه أبى أن يصدقه فإن يترأى لها أن تأخذ لوازم الشهر بنفسها ليس شيئاً إن لم يكن وراءه دافع، لا سيما وأنها تدري بالبداهة والغريزة أن يجيئها بعد «مقدمات» الزيارة القديمة خليق بأن يثير في نفسه الريب، وإن يبدو لعينيه «تمحّكاً» غير خافي الدلالة، فزادته مبادرتها إلى الاعتذار ثقة وقال:

- فرصة طيبة لأحييك ولأكون في خدمتك!

فشكرته في اقتضاب أصغى إليه بنصف انتباه إذ شغل بالتفكير في الكلمة التالية، لعله كان من الطبيعي أن يعرج على ذكر الزوج الراحل مترجماً ولكنه



- العفو كثيرًا ما يكون كلمة السرّ لولوج الجنة .  
ثمّ وهو يرونو إلى ابتسامه عذبة لاحت في عينيها:  
- الجنة التي أعنيها تقع عند ملتقى بين القصرين  
بالنحاسين، ومن جميل التوفيق أنّ بابها يفتح على  
عطفة جانبيّة بعيدًا عن أعين الرقباء، وألّا حارس لها!  
وفطن إلى أنّ حارس الجنة السامويّة سمّي «المرحوم»  
الذي كان حارسًا للجنة الأرضيّة التي يتلمّس طريقه  
إليها، فشاب خاطره ضيق وخاف أن تكون المرأة قد  
فطنت إلى نفس الحقيقة الساحرة ولكنّه وجدها مهومة  
فيما يشبه الحلم فتتهّد وهو يستغفر الله في سرّه. وكان  
جميل الحمزاوي قد فرغ من زبائنه، فأقبل على السيّد  
ليقضي حوائجها فسنتح للسيد فرصة للتأمل، فراح  
يذكر كيف رغب ابنه فهمي يومًا في خطبة مريم ابنة  
هذه المرأة، ثمّ كيف ألهمه الله الرفض، وقد اعتقد  
وقتذاك أنّه إنّما يتقدّ مشيئة حرمه فحسب، فلم يدّر له  
بخلد أنّه جنبّ ابنه شرّ مأساة يُنكب بها زوج، وهل  
يمكن أن تنهج فتاة إلّا على مثال أمّها؟... وأيّ  
أمّ؟... امرأة خطيرة!... قد تكون جوهرة ثمينة  
عند أمثاله من الصيادين، ولكنّها في البيوت مأساة  
دامية، تُرى أيّ طريق سلكت طوال الأعوام التي  
عاشها زوجها ميتًا حيًّا؟... كلّ القرائن تشير إلى  
طريق واحد، ولعلّ كثيرين من الجيران يعرفون، بل  
لعلّه لو كان في بيته من يحسن ملاحظة هذه الأمور لما  
خفي عليه شيء، ولما بقيت زوجه على الولاء لها  
والإيمان بها حتّى هذه الساعة، وعادوته رغبة -  
استحوذت عليه أوّل مرّة عقب الزيارة المريبة القديمة،  
ولم يجد عندئذ سبيلًا آمنًا إلى تحقيقها دون إثارة  
الريب - وهي أن يحول بين المرأة المستهترّة وبين بيته  
الطاهر، الآن يرى الظرف مهيئًا - لتحقيق رغبته،  
وذلك بأن يوحى لها بقطع أسبابها بزوجه رويّدًا رويّدًا  
منتحلًا ما يعنّ له من أضرار حقيقة ببلوغ الهدف دون  
مساس بكرامتها، هذه المرأة التي باتت أقرب ما تكون  
إلى فؤاده وأبعد ما تكون عن احترامه في لحظة واحدة!  
ولما انتهى الحمزاوي من إعداد حوائجها نهضت مائة  
يدها إلى السيّد فسلمّ بأسًا وهو يقول بصوت خافت:

تذهبي... فلا يحقّ لي الآن أن ألوم إلّا نفسي!  
- بعض هذا الغضب يا ستّ!... إني أسائل  
نفسي عمّا جنيت؟!  
فتساءلت بلهجة ذات معنى:  
- ما عسى أن تصنع إذا حيّيت إنسانًا بتحية فلم يردّ  
بمثلها ولا حتّى بأسوأ منها؟!  
فأدرك من توهّ أنها تشير إلى ما بدا منها في الزيارة  
القديمة من تودّد قابله بالصمت، ولكنّه تجاهل  
الإشارة... وقال مجازة لأسلوبها الرمزي:  
- لعلّها لم تبلغ سمعه لسبب أو لآخر.  
- إنّه قويّ السمع والحواسّ جميعًا.  
فجرت على فمه ابتسامه عجّب لم يتالكها، قال  
بلهجة المذنب إذا أنشأ يعترف:  
- لعلّه لم يردّها حيّاء أو تقوى.  
فقال بصراحة أعجبت به وهزّت فؤاده:  
- أمّا الحياء فلا حيّاء له، وأمّا سائر الأعداء فمن  
أين للقلوب الصادقة أن تباليتها؟  
فندّت عنه ضحكة ما لبث أن اختزلها وهو يسترق  
النظر إلى جميل الحمزاوي الذي بدا منهمكًا في العمل  
بين نفر من الزبائن، ثمّ قال:  
- لا أحبّ أن أعود إلى الملابس التي قست عليّ  
وقتذاك، على أنّه لا يجوز لي أن أياس ما دام ثمة ندم  
وتوبة وعفو!  
فتساءلت في إنكار:  
- من يدرينا بالندم؟  
فقال بلهجة حارّة برع في تجويدها عامًا بعد عام:  
- تجرّعته طويلًا والله شهيد!  
- والتوبة؟  
فقال وهو يثقبها بنظرة متوهّجة:  
- أن تردّ التحية بعشر أمثالها؟!  
فتساءلت في دلال:  
- ومن أدراك بأنّ ثمة عفواً؟  
فقال بلباقة:  
- ليس العفو من شيم الكرام؟  
ثمّ في نشوة مسكرة:

- إلى اللقاء.

فغمضت وهي تهتم بالانصراف:

- نحن في الانتظار.

كان فهمي يملئ الكلمات، كلمة كلمة، في أناسة وبصوت واضح الثبرات والآم وياسين وزينب يتابعون باهتمام درس الإملاء الجديد الذي انكب كمال على كتابته، مركّزاً وعيه في ألفاظه من دون أن يفقه معنى كلمة مما كتب صواباً أو خطأ. لم يكن غريباً أن يلقي فهمي على شقيقه الصغير درساً في الإملاء أو غيرها في جلسة القهوة، ولكن موضوع الإملاء بدا جديداً حتى للآم وزينب، أما ياسين فنظر إلى أخيه مبتسماً:

- أرى هذه المعاني قد ملكت عليك نفسك...

فلم يفتح الله عليك بإملاء لهذا الغلام المسكين إلا خطبة سياسية وطنية ينفث لها المغلق من أبواب السجون.

فبادر فهمي إلى تصحيح رأي أخيه قائلاً:

- هي من خطبة سعد أمام سلاطين الاحتلال في جمعية الاقتصاد والتشريع.

فتساءل ياسين باهتمام ودهشة:

- وكيف كان ردّهم عليه؟

فقال فهمي بانفعال:

- لم يجي ردّهم بعد، والكلّ يتساءل عنه في حيرة وقلق، إنها غضبة مزعجرة في وجه أسد لم يؤثّر عنه الحلم أو العدل.

ثمّ وهو يتنهد مغنيلاً مخنقاً:

- كان لا بدّ من غضبة بعد أن مُنع الوفد من السفر، وبعد أن استقال رشدي باشا من الوزارة فخيب السلطان المأمول بقبول استقالته.

ثمّ مضى إلى حجرته مسرعاً، وعاد وهو يبسط ورقة مطوية وقدمها إلى أخيه وهو يقول:

- ليست الخطبة كلّ ما عندي، اقرأ هذا المنشور الذي يورّع سرّاً متضمناً رسالة الوفد إلى السلطان...

فتناول ياسين المنشور وراح يقرأ:

- «يا صاحب العظمة...».

يتشرّف الموقعون على هذا أعضاء الوفد المصريّ أن يرفعوا إلى مقام عظمتكم بالنيابة عن الأمة ما يلي:

لما اتّفق المحاربون على أن يجعلوا مبادئ الحرّية والعدل أساساً للصالح وأعلنوا أنّ الشعوب التي غيرت

غادرته أوفر سعادة، نشوان بالظفر والمعجب، ولكنّها خلقت له أيضاً همّاً لم يكن، همّاً جديراً بأن يحتلّ مكاناً بارزاً من مشاغله اليومية، سوف يتساءل من الآن فصاعداً عن أمن السبل للانسحاب من بيت زبيدة بنفس الاهتمام الذي يتساءل به عمّا فعلت السلطة العسكرية وعمّا يبيّت الإنجليز وعمّا ينوي سعد، أجل جدّ جديد من السعادة يجرّ وراءه - كالعادة - ذيلًا من الفكر. لولا حرصه الشديد على حبّ الناس له، ذلك الحبّ الذي يحظى منه بأسعد سعادته، لكان عليه هجر العالمه بعد أن بلي حبّه وذوت أزهاره وأغرقه الشيع في مستنقع آسن، ولكنّه يشفق دائئاً من أن يترك وراءه قلباً حائفاً أو نفساً حاقلّة، وكم يؤدّ كلّما ضيّق الملل أنفاسه لو يبدّاه الحبيب بالهجر من ناحيته فيكون مهجوراً بدل أن يكون هاجراً، وكم يؤدّ أن تنتهي علاقته بزبيدة كما انتهت أخوات لها من قبل، بكدر عابر تغسله هدايا الوداع المتتقاة، ثمّ يستحيل إلى صداقة وطيدة، فهل تقبّل زبيدة - التي يظنّ أنّها ليست دونه شعباً - اعتذاره بقبول حسن؟ وهل يطمع في أن تغفر له هداياه ما اعتزم من هجر؟... هل تثبت أنّها امرأة كبيرة القلب سخية النفس كزميلتها جليلة مثلاً؟ هذا ما ينبغي أن يفكر فيه طويلاً وأن يهيئ له أنجع الدرائع. وتنهّد تنهّد طويلة كأنّها يشكو ما جعل الحبّ فانيّاً لا يدوم ليكفي القلب متاعب الأهواء ثمّ شرد به الخيال طاوياً النهار فترأى له وهو يدبّ في الظلّاء متلمّساً سبيله إلى البيت الموعود، والمرأة تنتظر بيدها سراج.

«أعلنت إنجرلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصريّة، فهي حامية باطلة لا وجود لها قانوناً بل هي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهي بنهايتها...».

العمل لاستقلال بلادكم، غير أنَّ حلَّ المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين أظهرهما احترامهما لإرادة الأمة لا يمكن أن يتفق مع ما جُلبتم عليه من حب الخير لبلادكم، والاعتداد بمشيئة شعبكم، لذلك عجب الناس من مستشاريكم كيف أتهم لم يلتفتوا إلى الأمة في هذا الظرف العصيب وهي إنما تطلب منكم - يا أرشد أبناء عزرها الكبير عمَّد عليّ - أن تكونوا لها العون الأول على نيل استقلالها، مهما كُلفكم ذلك، فإنَّ همتكم أرفع من أن تحددها الظروف. كيف فات مستشاريكم أنَّ عبارة استقالة رشدي باشا لا تسمح لرجل مصري ذي كرامة وطنية أن يخلفه في مركزه؟!... كيف فاتهم أنَّ وزارة تؤلَّف على برنامج

مضاد لمشية الشعب مقضي عليها بالفشل؟!١

عفوًا مولانا قد تكون مدخلتنا في هذا الأمر وفي غير هذا الظرف غير لائقة... ولكنَّ الأمر قد جُلَّ الآن عن أن يُراعى فيه أيُّ اعتبار غير منفعة الوطن الذي أنت خادمه الأمين. إنَّ لمولانا أكبر مقام في البلاد فعليه أكبر مسئولية عنها، وفي أكبر رجاء لها، وإننا لا نكذبه النصيحة إذا تضرعنا إليه أن يتعرف رأي أمته قبل أن يتخذ قرارًا نهائيًا في أمر الأزمة الحالية، فإننا نؤكد لسدته العلية أنه لم يبقَ أحد في رعاياه من أقصى البلاد إلى أقصاها إلَّا وهو يطلب الاستقلال، فالحيلولة بين الأمة وبين طلبتها مسئولية لم تحتر مستشارو مولانا أمرها بالدقة الواجبة، لذلك دفعنا واجب خدمة بلادنا وإخلاصنا لمولانا أن نرفع لسدته شعور أمته التي هي الآن أشدَّ ما تكون رجاء في استقلالها وأخوف ما تكون من أن تلعب به أيدي حزب الاستعمار، والتي تطلب إليه بحقها عليه أن يغضب لغضبها ويقف في صفِّها فتنال بذلك غرضها... وأنه على ذلك قدير...».

رفع ياسين رأسه عن المنشور وفي عينيه دھول وفي قلبه نبض جديد من التأثير، يتدَّ أنه هزَّ رأسه قائلًا: - يا له من خطاب!... لا أحسبني أستطيع أن أوجَّه مثله إلى ناظر. مدرستي دون أن ينالني العقاب الرادع...!

فرغ فحمي منكبيه استهانة وقال:

الحرب مركزها يؤخذ رأيها في حكم نفسها، أخذنا على عاتقنا السعي في استقلال بلادنا والدفاع عن قضيتنا أمام مؤتمر السلام ما دام أنَّ الحقَّ للأقوى قد زال من ميدان السياسة، وما دامت بلادنا قد أصبحت بزوال السيادة التركية حرة من كلِّ حقٍّ عليها لأنَّ الحماية التي أعلنها الإنجليز بلا اتفاق بينهم وبين الأمة المصرية باطلة، ولم تكن في الواقع إلَّا ضرورة حربية نزول بزوال الحرب، اعتمادًا على هذه الظروف وعلى أنَّ مصر غرمت كلَّ ما قدرت عليه من المغارم في صفِّ القائلين بحقَّ حرية الأمم الصغرى، لا يكون لدى مؤتمر السلام ما يمنع من الاعتراف بحريتنا السياسية جريًا على المبادئ التي أسس عليها.

عرضنا رغبتنا في السفر على رئيس وزرائكم صاحب الدولة حسين رشدي باشا، فوعد بمساعدتنا على السفر وثوقًا منه بأننا إنما نعبر عن رأي الأمة كافة... فلما لم يُسمح لنا بالسفر وحبسنا داخل حدود بلادنا بقوة الاستبداد لا بقوة القانون، وحيل بيننا وبين الدفاع عن قضية هذه الأمة الأسيفة، ولما لم يستطع دولته أن يحتمل مسئولية البقاء في منصبه في حين أنَّ الشعب يصادر في مشيئته، استقال هو وزميله صاحب المعالي عدلي يكن باشا استقالة نهائية قوبلت من الشعب بتكريم شخصيهما والاعتراف بصدق وطنيتهما. ولقد كان الناس يظنون أنه كان لهما في وقفتهما الشريفة دفاعًا عن الحرية عضد قويٍّ من نفحات عظمتكم، لذلك لم يكن ليتوقع أحد في مصر أن يكون آخر حلٍّ لمسألة سفر الوفد قبول استقالة الوزيرين، لأنَّ في ذلك متابعة للطامعين في إذلالنا وتمكينًا للعقبة التي ألقيت في سبيل الإدلاء بحجة الأمة إلى المؤتمر، وإذنا بالرضى بحكم الأجنبيِّ علينا إلى الأبد.

قد نعلم أنَّ عظمتكم ربما كنتم مضطرين لاعتبارات عائلية أن تقبلوا عرش أبيكم العظيم الذي خلا بانتقال أخيك المغمور له السلطان حسين، ولكنَّ الأمة من جهة أخرى كانت تعتقد أنَّ قبولكم لهذا العرش في زمن الحماية الوقتية الباطلة رعاية لتلك الظروف العائلية ليس من شأنه أن يصرفكم عن

- الأمر قد جَلَّ الآن عن أن يراعى فيه أي اعتبار غير منفعة الوطن...!

ردَّ العبارة عن ظهر قلب كما وردت في المنشور، فلم يتمالك ياسين أن يقول ضاحكًا:

- أحفظت المنشور... ولكني لا أعجب لهذا، كأنك كنت تترصد طول حياتك لمثل هذه الحركة كي تلقى إليها بكل قلبك، ولعلِّي لا أدخل من مثل شعورك وآمالك، ولكني لا أقرُّك على الاحتفاظ بهذا المنشور... خصوصًا بعد استقالة الوزارة وتعرُّش الأحكام العرفية...!

فقال فهمي في فخار:

- إنِّي لا أحفظ بها فحسب، ولكني أقوم بتوزيعها ما سمح الجهد...!

فأستعت عينا ياسين في قلق وهمُّ بالكلام... ولكنَّ الأم كانت أسبق إليه منه فقالت بانزعاج:

- لا أكاد أصدِّق أدني، كيف تعرَّض نفسك للشرِّ وأنت سيّد العقلاء؟!

لم يذُر فهمي كيف يجيبها، ولكنَّه شعر بما جرَّه عليه تهوُّره من حرج، لم يكن أشفق عليه من محادثتها في هذا الأمر، كانت الساء أقرب إليه من إقناعها بأنَّ تعرض نفسه للخطر في سبيل الوطن واجب ما دام الوطن كلُّه لا يساوي في نظرها قلامة ظفر، بل قد بدا له أنَّ إخراج الإنجليز من مصر أيسر من حملها على الاقتناع بوجوب إخراجهم أو إغرائها ببغضهم، فما إن يدور الحديث حول ذلك حتَّى تقول ببساطة «لماذا تكرههم يا بني؟... أليسوا أناسًا مثلنا لهم أبناء وأمهات؟!» فيقول لها بحدة: «ولكنهم يحتلون بلادنا... وتحسُّ بحدة الغضب في نبراته فتلوذ بالصمت وهي تداري نظرة إشفاق لو نطقت لقاتلته «لا عليك من هذا... ومرة قال لها وقد ضاق بمنطقها: «لا حياة لقوم إذا حكمهم أجنيي» فقالت له في استغراب «ولكننا لا نزال أحياء رغم أنَّهم يحكموننا من زمن بعيد، وقد أنجبتكم جميعًا في ظلِّ حكمهم... إنهم يا بني لا يقتلون ولا يتعرَّضون للمساجد ولا تزال أمة محمد بخيرا» فقال الشاب

يائسًا: «لو كان سيِّدنا محمد حيًّا ما رضي أن يحكمه الإنجليز» فقالت بلهجة الحكيم: «هذا حقٌّ، ولكن أين نحن من الرسول عليه الصلاة والسلام؟... كان الله يعينه بملائكته...» فهتف بها حانقًا: «سيعمل سعد زغلول ما كانت الملائكة تعمله» ولكنَّها هتفت وهي ترفع ذراعها كأنما تدفع بلاء لا دافع له: «لا تقل هذا يا بني، استغفر ربك، اللهم رحمتك وغفرانك!... هذه هي، فكيف يجيبها الآن وقد استشعرت في توزيع المنشور خطرًا يتهدده؟... لم يسمعه إلَّا أن يركن إلى الكذب فقال متصنِّعًا الاستهانة:

- ما أردت إلَّا المزاح فلا تنزعجي للاشيء...

فعادت المرأة تقول بنبرات تنم عن ضراعة:

- هذا ما أومن به يا بني، هيهات أن يخيب ظني في أرشد الراشدين، ما لنا نحن وهذه الأمور إذا رأى باشواتنا أن يخرج الإنجليز من مصر فليخرجوهم بأنفسهم.

بدا كمال طوال الحديث وكأنَّه يحاول أن يتذكَّر أمرًا ذا بال، فما بلغ الحديث تلك النقطة حتَّى صاح:

- مدرِّس العربي قال لنا بالأمس إنَّ الأمم تستقلُّ بعزائم أبنائها...!

فهتفت الأم ساخطة:

- لعلَّه قصد بخطابه كبار التلاميذ، ألم تحدَّثني يومًا بأنَّ عندكم تلاميذ قد ظهرت شواربهم؟

فتساءل كمال بسداجة:

- وأخي فهمي أليس تلميذًا كبيرًا؟

فقالت الأم بحدة على غير مألوفها:

- كلًّا ليس أخوك كبيرًا، إنِّي أعجب لذلك المدرِّس كيف سوَّلت له نفسه أن يتحدَّث إليكم في غير الدرس... إذا شاء أن يكون وطنيًّا فليوجِّه هذا الكلام إلى أبنائه في البيت لا إلى أبناء الناس...!

كاد الحديث يحمَّس ويستمرُّ لولا أن سنحت كلمة عابرة فغيَّرت مجراه، أرادت زينب أن تتودَّد إلى الأم بتأييدها في دفاعها فحملت على مدرِّس العربي ونعته بأنَّه «مجاور حقير عملت الحكومة منه رجلًا ذا شأن في

- أما سمعتم بأخر الأنباء!... مألطة!  
وضرب يداً بيد وراح يقول:  
- النفي إلى مألطة، لم يعد أحد منهم بيننا، نفوا  
سعداً وأصحابه إلى جزيرة مألطة...  
وهتف الجميع في نفس واحد:  
- نفوهم!...

أثار «النفي» في نفوسهم ما خامرهم منذ الصبا من  
ذكريات قديمة أسيفة عن عرابي باشا ونهايته، ففسألوا  
وهم لا يملكون قلوبهم من الجزع: أيجري نفس المصير  
على سعد زغلول وصحبه؟... أينقطع حقاً ما بينهم  
وبين الوطن إلى الأبد؟... أتموت هذه الآمال الكبار  
وهي لا تزال في مهد الإزهار؟... وشعر السيد بحزن  
لم يشعر بمثله من قبل، حزن ثقيل غليظ شاع في  
صدره كما يشيع الغثيان، عانى تحت وطأته خموداً  
وهموداً واختناقاً وجعلوا يتبادلون نظرات ساهمة واجمة،  
ناطقة بغير لسان، صارخة بلا صوت، لاثرة بلا  
صخب، وفي الريق مرارة واحدة، ثم جاء في أثر الفار  
صاحب وثنان وثالث مرددين نفس النبا، آمليين في أن  
يجدوا عند الآخرين مسكناً لما يستتر في نفوسهم، فلا  
يظفرون إلا بالحزن الصامت والوجوم الكثيب والثوران  
الكظيم.

- هل تضيع الآمال اليوم كما ضاعت بالأمس؟  
فلم يُجِر أحد جواباً، ولبت المستأثل يقلب عينيه في  
الوجوه دون جدوى، لا جواب تآري إليه النفس من  
مضطربها وإن أبت أن تسلم جهازاً بما يميته خوفاً،  
نفي سعد... هذا حق، ولكن هل يعود سعد ولو  
بعد حين؟... وكيف يعود سعد؟... أية قوة تعيده؟  
لن يعود سعد، فأين تذهب هذه الآمال العراض؟.  
لقد انبثقت من الأمل الجديد حياة عميقة يأبى  
استحواؤها عليهم أن يسلمهم لليأس ولكنهم لا  
يدرون كيف يعلنون النفس بيعتها من جديد.  
- ولكن أليس ثمة أمل في أن يكون الخبر شائعة  
كاذبة؟

لم يُجِر أحد القائل التفاتاً في حين لم يحفل هو بهذا  
التجاهل لأنه لم يقصد بقوله في الحق إلا تلمس

غفلة من الزمان... ولكن ما إن سمعت الأم هذه  
الإهانة توجه إلى «المجاور» حتى أفادت من انفعالها  
وأبت أن تسكت عنها رغم أنها قبلت تأييداً لها،  
مدفوعة بكل ما تنطوي عليه نفسها من إجلال للذكرى  
أبيها فتحوّلت إلى زينب وقالت بهدوء:

- أنت يا ابنتي تحقرين أشرف ما فيه، الشيوخ  
خلفاء الرسل، إنما يلام الرجل على خروجه عن حدود  
وظيفته الشريفة، ألا ليته قنع بأن يكون مجاوراً  
وشيخاً!...

ولم يفت ياسين سرّ تحوّل الأم المفاجئ، فبادر  
بالتدخل ليمحو الأثر الذي تركه دفاع زوجته  
البريء...

### ٥٣

- انظر إلى الطريق، انظر إلى الناس، من يقول بعد  
هذا إن الكارثة لم تقع؟!

ولكن السيد أحمد لم يكن في حاجة إلى مزيد من  
النظر، الناس يتساءلون، ويرجفون، وأصحابه  
يخوضون في الحديث خوفاً حاراً تجاوبت فيه الحسرة  
مع الحزن مع الغضب، إلى أن أُنْ الخبر قد تردّد على  
اللسنة كافة من مرّ به من الأصدقاء والزبائن، أجمع  
الكلّ على أن سعد زغلول وصفوة أصحابه قد اعتقلوا  
وسيقوا إلى مكان مجهول في القاهرة أو خارجها، قال  
السيد عفت وهو محتقن الوجه بدم الحق:

- لا تشكّوا في صحّة الخبر فإنّ لأخبار السوء رائحة  
تزكم الأنوف... ألم يكن هذا متوقّعا بعد خطاب  
الوفد للسلطان؟... أو بعد رده على الإنذار البريطاني  
بذلك الخطاب الجبار إلى الوزارة الإنجليزية؟...  
فقال السيد بوجوم شديد:

- يعتقلون الباشوات الكبار!... يا له من حدث  
خفيف، تُرى ما عسى أن يصنعوا بهم؟  
- الله وحده يعلم، البلد يُحتقن في ظلّ الحكم  
العرفي...!

ودخل عليهم السيد إبراهيم الفار تاجر النحاس  
مهرولاً وهو يهتف لاهتاً:

مهرب - ولو وهي - من اليأس الخائق .  
 - أسره الإنجليز . . . ومن ذا يغالب الإنجليز !  
 - رجل ولا كل الرجال ، بعث لحظة من الحياة  
 باهرة ، ومضى .  
 - كالحلم . . . وسوف يُنسى فلا يبقى منه إلا ما  
 يبقى من حلم عند الضحى . . .  
 وهتف هاتف بصوت أبَّحه الألم :  
 - الله موجود . . .  
 فهتفوا بصوت واحد :  
 - نعم . . . وهو أرحم الراحمين . . .  
 ذكر اسم الله فكان كالقطب المغنط ، جذب إليه  
 شواردهم وجمع أفكارهم التي شتتها اليأس . وفي مساء  
 ذلك اليوم - ولأول مرة منذ ربع قرن أو يزيد - بدا  
 مجلس الإخوان مجافاً للهو والطرب يغشاها الوجوم ،  
 وتتجه أحاديثه جميعاً إلى الزعيم المنفي . قهرهم  
 الحزن ، وإن يكن وُجد بينهم من تنازعه الحزن والرغبة  
 في الشراب مثلاً ، فقد غلب الأولى على الثانية احتراماً  
 للشعور العام ومجارة للموقف ، بيد أنه لما طال بهم  
 مطال الحديث حتى استنفدوا أغراضه لاذوا بما يشبه  
 الصمت ، وما لبث أن ركبهم قلق خفي وشي بحكة  
 الإدمان التي تنث في أعماقهم فبدوا وكأنهم ينتظرون  
 إشارة الجسور الذي يتقدم الصفوف ، ولكن السيد  
 محمد عفت قال فجأة :  
 - آنا لنا أن نعود إلى بيوتنا . . .  
 لم يكن يعني ما يقول ، ولكن كأنما أراد أن ينذرهم  
 بأنهم إذا تركوا الوقت يمضي كما مضى فلن يبقى أمامهم  
 إلا أن يعودوا إلى بيوتهم ، وكانت المعاشرة الطويلة  
 لقنتهم دقيق التفاهم بالإشارة فتشجع علي عبد الرحيم  
 بائع الدقيق بهذا الإنذار الخفي وقال :  
 - أعود إلى البيت دون كأس تحفّف من بلوى هذا  
 اليوم !  
 فأحدث قوله في النفوس ما يحدثه الجراح في أهل  
 المريض إذا خرج عليهم من حجرة الجراحة وهو يقول  
 « الحمد لله . . . نجحت العملية » ، إلا أن الذي تنازعه  
 الحزن والرغبة في الشراب قال فيها يشبه الاحتجاج

مستترًا على ما أثلج صدره من ارتياح :  
 - نشرب في مثل هذا اليوم ؟  
 فحده السيد أحمد بنظرة ذات معنى ، ثم قال  
 متهكِّمًا :  
 - دعهم يشربوا وحدهم وهلم بنا إلى الخارج يا  
 بن . . . الكلب .  
 نذت عنهم ضحكات لأول مرة ثم جاءوا بالقوارير  
 وكأنما أراد السيد أن يعتذر عن السلوك فقال :  
 - إن الله لا يغير ما بقلوب الرجال !  
 فأمّنوا على قوله ، كانت أول ليلة يترددون طويلاً  
 قبل الاستجابة إلى نداء الصبوات ، وما لبث السيد أن  
 قال متأثراً بمنظر القوارير :  
 - إننا نأثر سعد لإسعاد المصريين لا لتعذيبهم فلا  
 تحجلوا عند الحزن عليه من معاقرة الشراب .  
 لم يكن الحزن يمنعه من المزاح ، بيد أن الليلة لم تنأ  
 بصفاء خالٍ من الكدر ، حتى وصفها السيد فيها بعد  
 بأنها « ليلة مريضة تداووا فيها بجمرات من الخمر »  
 \* \* \*

استقبلت الأسرة مجلسها التقليدي في جو من  
 الوجوم لم تعهده من قبل ، انطلق فهمي في حديث  
 ثوري والدموع في عينيه ، واستمع ياسين آسفًا حزينا ،  
 وودت الأم أن تبدد الكتابة أو تحفّف البلوى ولكنّها  
 أشفقت من انقلاب غرضها عليها ، ثم ما لبثت عدوى  
 الحزن أن انتقلت إليها فرق قلبها للشيخ العجوز الذي  
 انتزعوه من بيته وزوجته إلى منفى بعيد ، قال ياسين :  
 - أمر عزن ، رجالنا جميعاً ، عباس ومحمد فريد  
 وسعد زغلول . . . مشردون بعيداً عن الوطن . . .  
 فقال فهمي بانفعال شديد :  
 - يا لهم من أوغاد هؤلاء الإنجليز . . . نخاطبهم  
 باللغة التي كانوا يستعطفون بها الناس في محتهم  
 فيجيبون بالإنذارات العسكرية والنفي والتشريد . . .  
 لم تُطِقي الأم أن ترى ابنها منعلاً على تلك الحال  
 فنسيت مأساة الزعيم وقالت برقة واستعطف :  
 - أرحم نفسك يا بني ، ربنا يلطف بنا . . . !  
 ولكن هذه اللهجة الرقيقة زادته هياجاً فصاح دون

أن يلتفت إليها:

- إذا لم تقابل الإرهاب بالغضب الذي يستحقه فلا عاش الوطن بعد اليوم، لا يجوز أن تنعم البلاد بالسلام وزعيمها الذي قدّم نفسه فدية لها يعاني عذاب الأسر...!

فقال ياسين متفكرًا:

- من حسن الحظ أنّ الباسل باشا بين المنفيين، إنّه شيخ قبيلة مرهوبة الجانب ولا أظنّ رجاله يسكتون على نفيه...!

فقال فهمي بحدّة:

- والآخرين؟ ليس وراءهم رجال أيضًا؟... إنّا ليست قضية قبيلة ولكّنها قضية الأمة كلّها...!

جرى الحديث بلا توقّف وما يزداد إلّا حدّة وعنفاً ولكنّ المرأتين لاذتا بالصمت إشفاقاً ورعباً، لم تستطع زينب أن تدرك بواعث هذه الثورة العاطفيّة فلم تفهم لها معنًى، نفي سعد ورجاله معه، ومن المؤكّد أنّهم لو عاشوا كما يعيش «عباد الله» ما فكّر أحد في نفيهم، ولكنّهم لم يريدوا ذلك، أرادوا أموراً خطيرة مرادها وخيم العواقب دون ثمة ضرورة تدعو إليها، ومهما يكن من أمرهم فإنّما يبعث فهمي على هذا الغضب الجنونيّ كأنّ سعدًا أبوه أو أخوه؟ بل ماذا بعث ياسين - وهو الرجل الذي لا يأوي إلى فراشه إلّا مترنّحًا من السكر - على هذا الأسف؟! أيجزن حقًا من كان مثله على نفي سعد أو غيره من الناس؟! كأنّ حياتها في حاجة إلى مزيد من التنغيص حتّى يعكّر فهمي عليها صفو الجلسة القصيرة بهذه الثورة التي لا معنى لها. جعلت تفكّر في هذا كلّه وهي تلحظ زوجها من أنّ لآخر متعجّبة ساخطة ولسان حالها يقول له: «إن كنت صادقًا حقًا في حزنك فلا تذهب هذا المساء - هذا المساء فقط إلى الحانة؟» ولكنّها لم تنبس بكلمة، كانت أحكم من أن تلقي بأفكارها الباردة في هذا التيّار الناريّ، في هذه الناحية الأخيرة شابهتها الأم التي سريعًا ما تفقد شجاعتها حيال الغضب وإن هان، لذلك لاذت بالصمت وانطوت على ضيق شديد وهي تتابع مشفقة الحديث الثائر الهائج، ولكنّها كانت أعظم

من زوج ياسين إدراكًا لبواعث هذه العواصف فإنّ رأسها لم يتخلّ من ذكرى عرابي كما أنّ قلبها لم يتخلّ من أسف على أفندينا، أجل لم تكن كلمة «النفي» عاطلة من المعاني في نفسها، بل لعلّها خلت من الأمل الجدير بأن يداعب شخصًا كفهمي فقد اقترنت في ذهنها - كما اقترنت في ذهن زوجها وأصحابه - باليأس من العودة، ولأ فأن أفندينا؟... ومن أجدر منه بالعودة إلى وطنه؟... ولكن أظنّ فهمي على حزنه ما امتدّ النفي بسعد. تُرى أيّ نحس في هذه الأيام يأتى إلّا أن يبيّتهم بنبأ ويصحبهم بنبأ حتّى زلزل أمنهم وكسّر صفوهم؟! كم تتمنّى أن يعود السلام إلى ربوعه، وأن تطيب هذه الجلسة كما طابت العمر كلّ، وأن تنبسط أسارير فهمي وليدّ الحديث، كم تتمنّى...!

- مألطة...! هذه هي مألطة!

هكذا صاح كمال فجأة وهو يرفع رأسه عن خريطة البحر الأبيض وقد ثبتّ أصبعه على رسم الجزيرة ونظر إلى أخيه بظفر وسرور كأنّما عثر على سعد زغلول نفسه، ولكنّه وجد منه وجهًا متجهّمًا كالحا، لا استجاب إلى ندائه ولا أعاره أدنى اهتمام فباخ الغلام وأعاد بصره إلى رسم الجزيرة في ارتباك وحياء، ومضى يتأمّله طويلًا وهو يقيس ببصره المسافة بينه وبين الإسكندريّة وبين القاهرة ويتخيّل صورة مألطة الحقيقيّة ما شاء له الخيال، ومنظر أولئك الرجال الذين يتحدّثون عنهم وهُم مسوقون إليها. ولمّا كان قد سمع فهمي وهو يقول عن سعد إنّ الإنجليز قد انتزعوه على أسنّة الرماح فإنّه لم يسعه أن يتصوّره إلّا محمولًا على أسنّة الرماح، لا متألّمًا أو صارخًا كما يتوقّع في مثل تلك الحال ولكن «ثابتًا كالطود» كما وصفه أخوه أيضًا في مرحلة أخرى من الحديث، وكم ودّ لو يستطيع أن يسأل أخاه عن كُنّه ذلك الرجل الساحر العجيب الذي يثبت على أسنّة الرماح كالطود، ولكنّه حيال ثورة الغضب التي التهمت سلام المجلس كلّه أجلّ تحقيق رغبته إلى فرصة أنسب، وأخيرًا ضاق فهمي بمجلسه بعد أن أيقن أنّ ما يصدره من عاطفة أكبر من أن تروّج عنها محادثة أخيه في هذا المكان الذي يقف من

شعوره موقف المتفرّج إن لم يكن موقف الإنكار، نازعته نفسه إلى الاجتماع بإخوانه في قهوة أحد عبده حيث يظفر بقلوب تستجيب لقلبه ونفوس تسابقه إلى الإعراب عما يضطرم في قرارتهما من الإحساس والرأي، هناك يسمع أصداء الغضب المتقد في قلبه ويستأنس بإيجاءاته الجسورة الملهبة في جوّ باهر من التعطّش إلى الحرّية الكاملة، مال إلى أذن ياسين وهمس:

- إلى قهوة أحمد عبده...

فتنفّس ياسين من الأعماق لأنّه كان بدأ يتساءل وهو من الحرج في غايته - عن وسيلة لبقّة ينسحب بها من المجلس، ليمضي إلى سهرته، دون أن يزيد من غضب فهمي اشتعالاً، لم يكن ما به من أسف تصنّعاً، أو لم يكن تصنّعاً كلّ، هزّ النبأ الخطير قلبه، ولكنّه لو ترك إلى نفسه لتناساه بغير جهد كبير، ولمّا فرض على أعصابه ما فرض من تكلف مجازاة لفهمي ومعاملة له واحتراماً لغضبه الذي لم يسبق له أن رآه على مثله من قبل، غادر الحجرة وهو يقول لنفسه: «حسبي اليوم ما بذلت من جهد في سبيل الحركة الوطنيّة فإنّ لبدني عليّ حقّاً».

#### ٥٤

على ضربات العجن المتصاعدة من حجرة الفرن فتح فهمي عينيه، كانت الحجرة مغلقة النوافذ، في شبه ظلام إلّا ما لاح من نور باهت وراء خصاص النوافذ، ترمى إلى أذنيه همس أنفاس كمال المتردّدة فغطف رأسه إلى فراشه القريب، ثمّ انثالت عليه ذكريات الحياة، هذا صباح جديد، إنّه يستيقظ من نوم عميق سلّمه إلى تعب شمل النفس والجسم، وإنّه لا يدري إن كان يستيقظ صباح الغد بهذا الفراش أم لا يستيقظ أبداً، لا يدري ولا أحد يدري، فالموت يجوب شوارع القاهرة طولاً وعرضاً ويرقص في أركانها، يا للعجب، ها هي أمّه تعجن كعنها منذ قديم، وها هو كمال يغطّ في نومه ويتقلب في أحلامه، وذاك ياسين يدلّ وقع قدميه فوق سقف الحجرة على

أنّه انتزع نفسه من الفراش، أمّا أبوه فلعلّه الآن منتصب القامة تحت ماء الدشّ البارد، وها هو نور الصباح ذو البهاء والحياة تستأذن طلائعه في رقّة بالغة، كلّ شيء يواصل حياته المعهودة كأنّ شيئاً لم يحدث، كأنّ مصر لم تنقلب رأساً على عقب، كأنّ الرصاص لا يعزف باحثاً عن الصدور والرءوس... كأنّ الدم الزكيّ لا يخبّض الأرض والجدران. وأغمض الشابّ عينيه وهو يتنهد مبتسماً إلى تيّار مشاعره الزاخر بما يحمل في موجاته المتلاحقة من حماس وأمل وحزن وإيمان. حقّاً لقد حيي في الأيام الأربعة المنطوية حياة عربية لم يكن له بها عهد من قبل، أو أنّه لم يعرفها إلّا أطباقاً في أحلام اليقظة، حياة طاهرة رفيعة، حياة تجود بنفسها عن طيب خاطر في سبيل شيء باهر أثنى منها وأجلّ، تتعرّض للموت بلا مبالاة، وتستقبله بعناد، وتهجم عليه باستهانة، وإذا أفلتت مخالبه مرّة عادت إليه كرامة أخرى متنجّبة عن ذكر العواقب جانباً، شاخصة طوال الوقت إلى نور رافع عنه لا تحيد، مدفوعة بقوة لا قبل لها بها، مسلّمة مصيرها لله وهي تشعر به محيطاً بها كالهواء يغمرها من كلّ جانب. هانت الحياة كوسيلة حتى لم تعد تزن ذرّة، وجلّت كغاية حتى وسعت السماوات والأرض، تأخى الموت والحياة فكانا يدّاً واحدة في خدمة أمل واحد، هذه تؤيّد بالجهاد وذاك يؤيّد بالفداء، لو أنّ الانفجار الرهيب لم يقع لمات غمّاً وكمداً، فما كان يحتمل أن تواصل الحياة سيرها الهادئ الوئيد على أطلال الرجال والآمال، كان لا بدّ من انفجار ينفّس عن صدر الوطن وصدره كالزلازل الذي ينفّس عن أبخرة باطن الأرض المتجمّعة، فلمّا وقعت الواقعة وجدته على ميعاد فألقى بنفسه في خيضة... متى حدث هذا؟... وكيف حدث؟... كان راكباً ترام الجيزة في طريقه إلى مدرسة الحقوق فوجد نفسه بين شرذمة من الطلّاب يتناقشون ملوّحين بقبضاتهم: نفى سعد وهو يعبر عن قلوبنا فيما أن يعود سعد ليواصل جهاده وإمّا أن نفى معه، وانضمّ الراكبون من الأهالي إليهم في الحديث والوعيد حتّى الكمساري أهمل عمله ووقف ينصت ويتكلّم، يا لها من



الحقانية يشق طريقه بين جموعهم فقابلوه بهتاف واحد «لتسقط الحماية... لتسقط الحماية» فتلقاهم الرجل ببرود لم يخرق به حد اللطف ونصحهم بالعودة إلى دروسهم داعياً إياهم إلى ترك السياسة إلى آبائهم، هناك تصدى له أحدهم قائلاً: - إنَّ آباءنا قد سُجنوا، ولن ندرس القانون في بلد يداس فيه القانون.

وتعالى الهتاف من أعياق القلوب كهزيم الرعد فانسحب الرجل. ودَّ الشاب مرةً ثانية لو كان هو القائل، لشدَّ ما تنثال المعاني على روحه ولكن يسبقه السابقون إلى إعلانها فيشتدَّ حماسه ويتعزَّى بأنَّ فيها ينتظره عوضاً عما يفوته، وجرت الأمور سراعاً، دعا الداعي إلى الخروج فخرجوا متظاهرين وتوجَّهوا إلى مدرسة المهندسخانة فصرعان ما انضمت إليهم ثم إلى الزراعة فهرع طلبتها إليهم هاتفين كأنهم على ميعاد، ثم إلى الطب فالتجارة وما بلغوا ميدان السيِّدة زينب حتَّى انتظمتهم مظاهرة كبيرة انضمت إليها جموع الأهالي وتعالى الهتاف لمصر والاستقلال وسعد، وكلِّما تقدَّموا خطوة ازدادوا حماسة وثقة وإيماناً بما يلقون في كلِّ مكان من مشاركة تلقائية واستجابة بديهيَّة، وما يصادفون من نفوس متحفزة تصدَّعت بالغضب حتَّى وجدت في مظاهرتهم التَّنَفُّس. تساءل - ودهشته لحدوث المظاهرة تكاد تغلب انفعاله بالتظاهر نفسه - «كيف حدث هذا كله؟». لم تكن مضت إلَّا بضع ساعات على الصباح الذي شهد قنوطه وانهمزاه، ها هو الآن، قبيل الظهر، يشترك في مظاهرة ثائرة يكاشفه فيها كلُّ قلب بأنَّه صدَّى لقلبه، ويردِّد هتافه، ويناشده بإيمان لا يتزعزع أن يسير إلى النهاية، فأبى سرور سروره، وأبى حماس حماسه... لقد انطلقت روحه في سماء من الأمل لا تحدُّها الأفاق، نادمة على ما اعتورها من قنوط، خجلة بما رمت به الأبريل من ظنون، وفي ميدان السيِّدة زينب بدا له منظر جديد من مناظر ذاك اليوم العجيب. رأى مع الرائي جماعات من فرسان البوليس وعلى رأسها مفتش إنجليزي تتقدَّم ساحة وراءها ذيولاً من الغبار، والأرض تضطرب

ساعة!... فيها أشرق بنفسه الأمل من جديد بعد ليلة من الحزن واليأس قائمة، فأيقن أنَّ هذه النار المتقدة لن تبرد، ولما أقبلوا على فناء المدرسة وجدوه مكتظاً صاحباً مرعداً فسبقتهم قلوبهم إليه، تمَّ هرعوا إلى زملائهم تحدَّثهم نفوسهم بحدث وشيك، وما لبث أن انبرى أحدهم منادياً بالإضراب!... شيء جديد لم يسمع من قبل، بيد أنَّهم هتفوا بالإضراب وهم يتأبطون كتب القانون، وجاءهم ناظرهم المستر والتون في لطف غير معهود ونصحهم بالدخول إلى الفصول فكان الجواب أن صعد شاب منهم إلى أعلى السلم المفضي إلى حجرة السكرتير وراح يحطب بحماسة فائقة فلم يسع الناظر إلَّا الانسحاب. وأنصت إلى الخطيب بمجامع روحه وعيناه شاخصتان إلى عينيه، وقلبه يتابع دقَّاته في سرعة ونشاط، ثم ودَّ لو يصعد إلى موقفه فيفيض من معين قلبه المستعر، ولكنَّه لم يكن ذا استعداد قويٍّ للخطابة فقع بأن يردِّد غيره هواتف نفسه، وتابع الخطيب بانتباه حاسي حتَّى وقف عند مقطع من خطابه فصاح مع زملائه جميعاً في نفس واحد «يجي الاستقلال» ثم تابع الإنصات باهتمام بثَّ اهتمام فيه حيويَّة جديدة حتَّى انتهى الخطيب إلى مقطع ثان فهتف مع الهاتفين «لتسقط الحماية» ووالى الإصغاء بجسم متصلِّب من الانفعال وهو يعضُّ على أسنانه ليحبس الدمع الذي زفره جيَّشان نفسه حتَّى إذا بلغ الخطيب المقطع الثالث هتف مع الهاتفين «يجي سعد»، هتاف جديد، وكلَّ شيء جديداً بدا ذلك اليوم، بيد أنَّه هتاف مطرب رجَّعه قلبه من الأعماق وظلَّ يردِّده مع دقَّاته المتتابعة، كأنَّه صدَّى للسانه، بل هتاف لسانه كان صدَّى لقلبه، فإنَّه ليذكر كيف ردَّد قلبه هذا الهتاف في صمت مكثوم طوال الليلة السابقة للانفجار التي باتها مغموماً محسوراً، كانت عواطفه المكبوتة، حبَّ وحماسه وطموحه وتطلُّعه إلى المثل الأعلى وأحلامه تائهة مبعثرة حتَّى انطلق صوت سعد مدوياً فانجذبت طائفة إليه كما ينجذب الحمام السابح في الفضاء إلى صفير صاحبه، ثم لا يدرون إلَّا والمستر إيموس نائب المستشار القضائي البريطاني لوزارة

متشابهات في أفراحها وأحزانها، مظاهرات فهتاف فرصاص فضحايا، ألقى بنفسه في خضمها جميعاً يندفع بحماس، ويسمو إلى آفاق بعيدة من الإحساس النبيل، ويضطرب بالحياة ويعضه ندم على النجاة! ثم ضاعف من حماسه وأمله انتشار روح الغضب والثورة فما لبث أن أضرب عمال الترام وسائقو السيارات والكناسون فبدت العاصمة حزينة غاضبة موحشة. وترامت الأخبار حاملة البشرى بقرب إضراب المحامين والموظفين. إن قلب البلاد يخفق خفياً ثائراً ولن تذهب الدماء هدراً ولن يُنسى المنفيون في مناهم، لقد زلزلت اليقظة الواعية أرض وادي النيل.

تقلب الفتى في فراشه فاسترد وعيه من لجة الذكريات وجعل يتابع دقات العجن مرة أخرى مقلباً نظريه في أركان الحجرة التي أخلدت تستبين على النور المشرق رويداً وراء النوافذ المغلقة. أمه تعجن! ولن تزال تعجن صباحاً بعد صباح، هيهات أن يشغلها حدث عن التفكير في إعداد الموائد وغسل الثياب وتنظيف الأثاث، إن كبار الحادثات لا يعطل صغار الأعمال، وسيُتسع صدر المجتمع دائماً للجليل والتافه من الأمور فيرحب بها جنباً إلى جنب، ولكن مهلاً، ليست الأم على هامش الحياة هي التي أنجته والأبناء وقود الثورة، وهي التي تغذيه والغذاء وقود الأبناء، الحق أن ليس ثمة شيء تافه في الحياة... ولكن ألا يجيء يوم يهز فيه الحادث الكبير المصريي جميعاً فلا تفرق عنده القلوب كما تفرقت في مجلس القهوة منذ خمسة أيام؟ ألا ما أبعد هذا اليوم! ثم جرت على شفتيه ابتسامة إذ وثب إلى ذهنه هذا السؤال: «ما عسى أن يصنع والده إذا علم «بجهاده» المتواصل يوماً بعد يوم؟ ماذا يصنع أبوه الجبار المستبد وماذا تصنع أمه الرقيقة الحنون؟» ابتسم في حيرة وهو يعلم أن المتاعب التي قد تعترضه في تلك الحال ليست دون المتاعب التي قد تعترضه إذا غنى سره إلى السلطة العسكرية نفسها، ثم أزاح الغطاء عن صدره وجلس في الفراش وهو يغمغم: «سيان أن أحيا أو أن أموت، الإيمان أقوى من الموت، والموت أشرف من الدل، فهنئاً لنا الأمل

تحت وقع السنايك، إنه ليذكر كيف مدّ بصره نحوهم في دھول من لم يسبق له أن وجد نفسه عرضة لمثل ذلك الخطر الداهم، وتلفت فيها حوله فرأى وجوهاً يلمع في محاجرها الحماس والغضب فتهدد في عصبية ولوح بيده هاتفاً، أحاط الفرسان بجموعهم ولم يعد يرى من الخضم الهائل الذي يضطرب فيه إلا رقعة محدودة يغرق في رموسها المشرقة، ثم ترامى إليهم أن البوليس اعتقل طلاباً كثيرين ممن تصدوا لمخالفته أو كانوا على رأس المظاهرة فلمرة الثالثة ذلك اليوم تمى، وكان تمى أن يكون بين المعتقلين ولكن من دون أن يخرج من الدائرة التي يتحرك فيها بجهد جهيد.

على أن ذلك اليوم كان يوم سلام بالقياس إلى اليوم الذي تلاه، بدا يوم الاثنين منذ مطلع الصباح يوم إضراب شامل اشتركت فيه جميع المدارس بأعلامها وحشود من الأهالي لا يحيط بها الحصر، بُعثت مصر بلداً جديداً يهجر إلى الاحتشاد في الميادين للحرب بغضب طال كتفائه، وألقى هو بنفسه بين الجموع في نشوة فرح وحماس كأنه تائه ضالّ عثر على أهله بعد فراق طويل، وسارت المظاهرة مسيراً مشهوداً مارة بدور المعتدلين السياسيين معلنة احتجاجها بمختلف اللغات، حتى بلغت شارع الدواوين وهناك سرت بين الجموع موجة اضطراب عنيفة وصاح صائحهم: «الإنجليز!» وما لبث أن فرقع الرصاص مغطياً على أصوات الهافتين فسقط أول القتل، وواصل قوم تقدّمهم في حماس جنوبي، وتسمر آخرون، وتفرق كثيرون يلودون بالبيوت والمقاهي، وكان هو ضمن الآخرين، اندس وراء باب وقلبه يبعث ضربات فزعة متناسياً كل شيء إلا حياته، ولبت على ذلك زمناً لا يدره حتى شمل السكون الدنيا جميعها فمدّ رأسه، ثم قدّمه، ومضى إلى حال سبيله غير مصدق بالنجاة وعاد إلى بيته فيها يشبه الذهول، وفي وحدته الحزينة تمى لو كان من الداهيين أو في الأقل من الثابتين، وفي وقلة الحساب العسير وعد ضميره الفظ بالتكفير، ومن حسن الحظ أن بدا ميدان التكفير متسعاً وقريباً.

وجاء الثلاثاء والأربعاء فكانا كالأحد والاثنين، أيام

كلما تدانت منه، وأنه حتمٌ عليها أن تتأخر عنه مسيرة أمتار. على تلك الحال مضيا إلى مدرسة خليل آغا صباح الخميس وهو خامس أيام المظاهرات في القاهرة، ولما بلغا باب المدرسة اقتربت أم حنفي من البواب وسألته تنفيذاً للأمر اليومي الذي تلقته في البيت:

- هل يوجد تلاميذ في المدرسة؟

فاجابها الرجل بغير اكتراث:

- منهم من يدخل، ومنهم من يذهب، والناظر لا يتعرض لأحد!

كانت هذه الإجابة مفاجئة سيئة لكمال، كان مهبطاً النفس لسماع الإجابة التي باتت مألوفة منذ يوم الاثنين وهي «التلاميذ مضربون» فيعودان إلى البيت حيث يمضي سحابة النهار في حربة حببت إلى قلبه الثورة من بعيد، ونازعته نفسه إلى الهرب تفادياً من عواقب الإجابة الجديدة فخطب البواب قائلاً:

- أنا ممن يذهبون.

وابتعد عن المدرسة والمرأة في أثره، بيد أنها سألته: لماذا لا يدخل مع الداخلين؟ فرجاها متردداً لأول مرة في حياته - أن تقول لأمه أن التلاميذ مضربون، وزيادة في الرجاء والتودد دعا لها - وهما يمران بجامع الحسين - بطول العمر والسعادة، إلا أن أم حنفي لم تستطع إلا أن تصارح الأم بالحقيقة كما سمعتها فألبتته الأم على كسله وأمرت المرأة بأن تعود به إلى المدرسة فغادرا البيت وهو يسلفها بلسان حاد رامياً إياها بالخيانة والغدر، لم يجد في المدرسة إلا ليداته . . . ذوي الأسنان الصغيرة، أما من عداهم، وهم الأغلبية الساحقة، فكانوا مضربين، وألقى في فصله، الذي كان يتوافر له من صغار التلاميذ ما لم يتوافر لغيره من الفصول - نحوًا من ثلث التلاميذ، بيد أن المدرس أمرهم أن يراجعوا دروسهم السابقة وانكب هو على تصحيح بعض الكراسات فتركهم في شبه إضراب في الواقع. فتح كمال كتاباً متظاهراً بالقراءة دون أن يعيره أدنى انتباه فقد ساءه البقاء في المدرسة بلا عمل فلا هو مع المضربين ولا هو في البيت يتمتع بالفراغ الذي جادت،

الذي هانت إلى جانبه الحياة، أهلاً بصباح جديد من الحرية، وليقبض الله بما هو قاضٍ.

## ٥٥

لم يعد أحد يستطيع الادعاء بأن الثورة لم تغير ولو وجهها من وجوه حياته، حتى كمال نفسه عرض لحرية التي تمتع بها طويلاً في ذهابه إلى المدرسة وإيابه منها طارئ ثقيل ضاق به كل الضيق وإن لم يستطع له دفعا، ذلك أن الأم أمرت أم حنفي بأن تتبعه في ذهابه إلى المدرسة وعند إيابه منها، وألا تتخلّى عنه بحال كي تعود به إلى البيت إذا صادفتها مظاهرة دون أن تدع له فرصة للتلكؤ، أو مطاوعة نزوات الطيش، دار رأس الأم بأنباء المظاهرات والاضطرابات وارتج قلبها لحوادث الاعتداء الوحشي على الطلبة فعانت من ذلك الزمن أياماً كالحات ملأتها هلعاً وجزعاً فودت لو تستقي ابنها إلى جانبها حتى تشوب الأمور إلى مستقرها، ولكنها لم تجد إلى تحقيق مرادها من سبيل خصوصاً بعد أن وعد فهمي - وهو من ثقتها في «عقله» لا تتزعزع - أنه لا يشترك في الإضراب بتاتاً، وبعد أن رفض الأب فكرة استبقاء كمال في البيت لعلمه بأن المدرسة تحول بين صغار التلاميذ وبين الاشتراك في الإضراب. سلّمت الأم بذهاب الأخوين إلى المدرسة على كره منها ولكنها فرضت على كمال رقابة أم حنفي وهي تقول له: «لو كان بوسعي أن أخرج كما أشاء لتبعتك بنفسي» وقد عارضها كمال بما وسعه من قوة لأنه أدرك بالبداهة أن هذه الرقابة التي لن تخفي عن أمه خافية من شتونه ستقضي قضاء مبرماً على كل ما يتمتع به في الطريق من ألوان اللعب والشطارة، وإنها ستلحق هذه الفترة القصيرة السعيدة من يومه بالسجنين اللذين يتردد بينهما: البيت والمدرسة، إلى هذا امتعضت نفسه، أشد الامتعاض من السير في الطريق مصطحباً هذه المرأة التي ستلفت الأنظار حتماً ببدانتها المفرطة ومشيئها المتهاكمة، ولكنه لم يسعه إلا أن يذعن لرقابتها سيما بعد أن أمره أبوه بقبولها، فصارى ما استطاعه تنفيذاً عن صدره أنه كان ينتهرها

به هذه الأيام العجيبة بلا حسابان. ضاق بالمدرسة كما لم يضق من قبل، وهنا خياله إلى أولئك المضربين في الخارج بدهشة واستطلاع، كثيراً ما تساءل عن حقيقة أمرهم، أهم كما تدعي أمه «متهورون» لا يرحمون أنفسهم ولا أهلهم ملقين بأرواحهم إلى التهلكة، أم هم كما يصفهم فهمي أبطال فدائيون يجاهدون عدو الله وعدوهم؟! وكثيراً ما مال إلى رأي أمه لحنقه على التلاميذ الكبار - فئة المضربين - الذين خلفوا في نفسه ونفوس أضرابه من التلاميذ الصغار أسوأ الآثار بما ينالهم على أيديهم من غلظة واستكبار وهم يتحدثونهم في فناء المدرسة بضخامة أجسامهم وقحة شواربهم، يُبد أنه لن يستسلم إلى هذا الرأي كل الاستسلام طالما كان لقول فهمي من الإقناع في نفسه ما لا قبل له بالاستهانة به، لن يسعه أن يسلبهم ما يضيفه عليهم من ضروب البطولة حتى ودّ لو يطّلع من مكان آمن على معاركهم الدامية، قامت قيامة الدنيا ما في ذلك من شك، أو فلماذا يضرب المصريون وينطلقون جماعات إلى الاشتباك بالجنود؟! وإي جنود؟! الإنجليز؟ الإنجليز الذين كان يكفي ذكر اسمهم لإخلاء الطرقات... ماذا حَدَثَ للدنيا وللناس؟! ذاك صراع عجيب قضى عنفه بأن تُنقش عناصره الجوهرية في نفس الغلام بلا وعي أو قصد فتغدو أسماء سعد زغلول، الإنجليز، الطلبة، الشهداء، المشورات، المظاهرات، من القوى المؤثرة الموحية في أعياقه وإن وقف من معانيها موقف المستطلع الحائر. وضاعف من حيرته أنّ آله استجابوا للحوادث استجابة متبينة وأحياناً متناقضة، فبينا يجد فهمي نائراً يحمل على الإنجليز بحق قاتل ويحنّ إلى سعد حينئذ يفجّر الدمع، إذا بياسين يناقش الأخبار في اهتمام رصين مشوب بأسف هادئ لا يمنعه من مواصلة حياته المعتادة بين السمر والضحك وتلاوة الأشعار والقصص، ثمّ السهر حتى منتصف الليل، أمّا أمه فلا تكفّ عن دعاء الله أن ينشر السلام ويعيد الأمان ويصفّي قلوب المصريين والإنجليز جميعاً، والأدهى من كلّ أولئك زينب زوجة أخيه التي أفزعته الأحداث

فلم تجد من تصبّ عليه غضبها إلا سعد زغلول نفسه متهمّة إياه بأنه سبب هذا الشرّ كلّ، وأته «لو عاش كما يعيش عباد الله في دعة وسلام ما تعرّض له أحد بسوء ولا اشتعلت تلك النيران». لذلك كان حماس الغلام يستعر لفكرة الصراع نفسه، وحزنه يفيض بفكرة الموت في ذاته دون أن يكون لنفسه معني واضحاً لما يدور حوله من بعيد أو قريب، وكم أسف يوم دعا تلاميذ خليل آغا إلى الإضراب - لأول مرة - فساحت له فرصة ليشهد مظاهرة عن كتب أو يشترك فيها ولو في فناء المدرسة، ولكنّ الناظر بادر إلى حجز صغار التلاميذ في فصولهم فأفلتت الفرصة ووجد نفسه وراء الجدران ينصت إلى الهتافات العالية في دهشة مزوجة بسرور خفيّ، لعلّ مبعثه الفوضى التي نشبت في كلّ شيء فعصفت بالروتين اليوميّ الثقيل بلا رحمة. أفلتت ذلك اليوم فرصة الاشتراك في مظاهرة كما ضاعت اليوم فرصة الاستمتاع بالفراغ في البيت، وسيبقى مغلولاً في هذه الجلسة المملّة ينظر في الكتاب بعينين لا تريان شيئاً، ويسترق لمسات مع رفيقه على القمطر في حذر وخوف حتى يدرك نهاية النهار الطويل، ولكن نومة شيء استرعى انتباهه فجأة، قد يكون صوتاً غريباً بعيداً أو وثناً في الأذن، ولكي يسترق من حاسته نظر فيها حوله فرأى رؤوس التلاميذ مرفوعة وأعينهم تتبادل النظرات ثمّ تتجه معاً صوب النوافذ المطلّة على الطريق، إنه حقيقة وليس وهمًا ما استرعى انتباههم، إنّها أصوات مندجّة في صوت ضخم غير متمايز تسمع لبعدها كهدير الأمواج من بعيد، الآن وقد أخذت تشتدّ يمكن أن تسمّى ضوضاء، بل ضوضاء تقترب، وسرت في الفصل حركة وتعالى الهمس ثمّ ارتفع صوت قائلاً: «مظاهرة!» فخفق قلب الغلام وعلت عيناه لمعة تجمع بين السرور والاضطراب، وجعلت الضوضاء تقترب وتقترب حتى وضحت هتافاً يردد ويزجر في جميع الجهات المحيطة بالمدرسة، وعادت تقرر أذنيه الأساء التي ملأت ذهنه طوال الأيام الماضية. سعد... الاستقلال... الحماية، وتدانى الهتاف وعلا حتى أطبق على فناء المدرسة نفسها فوجمت

فقال عمّ حمدان:

- لم تر شيئاً كهذا من قبل، ربنا يجمعهم.  
تفجّر الهتاف في الحناجر يزلزل الجوّ زلزلاً، حيناً  
عن قرب كأنه يدوي في الدكان، وحيناً عن بعد في  
ضوضاء شديدة غير متميّز كهزيم الريح، وتواصل بلا  
انقطاع، في حركة بطيئة مستمرة دلّ عليها تفاوت  
درجات الشدة والارتفاع بين الأمواج القادمة  
والذاهبة، وكلّما طُنّ أنّه انقطع جاء غيره حتّى بدا وكأن  
لا نهاية له، تركّزت حياة كمال في أذنيه وهو يرهف  
السمع في اضطراب وقلق، يُبّد أنّه لمّا تتابع الوقت  
دون وقوع مكروه استردّ أنفاسه ومضى يعاوده الشعور  
بالطمأنينة، ثمّ وسعه أخيراً أن يفكر فيما يدور حوله  
كطارئ لا يلبث أن يزول فتساءل متى يجد نفسه في  
البيت ليروي لأمّه ما وقع له؟. «اقتحمت علينا  
الفصول مظاهرة لا أوّل لها ولا آخر، وما أدري إلّا  
وتيّارها الزاخر يحيط بي ويجرفني إلى الشارع، وهتفت  
مع من هتف: ليحيى سعد، لتسقط الحماية، ليحيى  
الاستقلال. وما زلت أنتقل من طريق إلى طريق حتّى  
هجم الإنجليز علينا وأطلقوا الرصاص». ستفزع عند  
ذاك لحدّ البكاء ولا تكاد تصدّق أنّه حيّ يرزق وستتلو  
آيات كثيرة وهي ترتحف. «ومرت رصاصة جنب رأسي  
ما زال زعيقها يطنّ في أذني، وتخطّ الناس كالمجانين،  
وكدت أهلك مع المالكين لولا أن جذبني رجل إلى  
دكان...».

انقطع حبل أحلامه على صياح عالٍ غير منتظم  
ووقع أقدام متدافعة في اضطراب، ففحق قلبه ونظر في  
وجوه من حوله فرآهم عمّلقين في الباب كمن يتوقّع  
ضربة على أمّ رأسه، واقترب عمّ حمدان من الباب  
وانحنى حتّى نظر من الفرجة في أسفله ثمّ تراجع وأنزله  
حتّى ألصقه بالأرض بسرعة وهو يتمتم في اضطراب:

- الإنجليز...!

وصاح كثيرون في الخارج: «الإنجليز...  
الإنجليز» ونادى آخرون «الثبات... الثبات» وهتف  
غيرهم «غوت ويحيا الوطن...» ثمّ سمع الغلام لأوّل  
مرة في حياته الصغيرة طلقات الرصاص عن بعد قريب

قلوب التلاميذ وأيقنوا أنّ الطوفان لا بدّ مغرقهم،  
ولكنّهم قابلوا ذلك بسرور صبيانيّ تنكّب عن تقدير  
العواقب في حميّة نزوعه إلى الفوضى والانطلاق، ثمّ  
ترامى إليهم وقع أقدام مقبلة في سرعة وصخب، ثمّ  
فتح الباب على مصراعيه تحت وقع صدمة عنيفة  
واندفعت إلى الحجرة جماعات من الطلبة والأزهريين  
كما تندفع المياه من فوهة الخزان وهم يصيحون:  
«إضراب... إضراب... لا ينبغي أن يبقى أحد»،  
وفي لحظات وجد نفسه غائصاً في موج مصطخب  
يدفعه أمامه دفعاً يعطّل كلّ مقاومة وهو من  
الاضطراب في غاية، تحرك في بطء شديد تحرك حبوب  
البنّ في فوهة الطاحونة لا يدري أين تقع عيناه، ولا  
يرى من الدنيا إلّا أجساماً متلاصقة في ضجّة تصكّ  
الأذان حتّى استدلّت بظهور السماء فوق رأسه على بلوغ  
الطريق، واشتدّ الضغط عليه حتّى كادت تكتم أنفاسه  
فصرخ صراخاً حادّاً عالياً متواصلًا من شدّة الفزع،  
وما يدري إلّا ويد تقبض على ذراعه وتجذبه بقوة وهي  
تشقّ بين الناس طريقاً حتّى ألصقته بجدار على  
الطوار، فراح يلهث ويتلمّس فيما حوله منجّي حتّى  
عثر على دكان حمدان بائع البسبوسة وقد أنزل بابها  
الحديديّ إلى ما فوق العتبة بقليل، فهرع إليه ودخل  
زحفاً على ركبتيه، ولما قام في الداخل رأى عمّ حمدان  
الذي كان يعرفه حتّى المعرفة وامرأتين وبعض صغار  
التلاميذ فأسند ظهره إلى جدار القائمة التي تحمل  
الصواني وصدره يعلو وينخفض بلا توانٍ وسمع عمّ  
حمدان وهو يقول:

- أزهريّون، طلبية، عمّال، أهالي... جميع  
الطرقات المؤدّية إلى الحسين مكتنّظة بالبشر... ما كنت  
أحسب قبل اليوم أنّ الأرض تستطيع أن تحمل كلّ  
هؤلاء البشر.

إحدى المرأتين بدهشة:

- كيف يصرون على التظاهر بعدما كان من إطلاق  
النار عليهم؟

المرأة الأخرى بحسرة:

- ربنا الهادي، كلّهم أبناء ناس يا ولداه.

ودفعه حتى لا يدع له فرصة للمناقشة فاندفع الغلام راكضاً حتى بلغ منعطف خان جعفر، فرأى شيخاً واقفاً وسط الطريق يشير إلى الأرض ويخاطب نفرًا من الرجال فنظر حيث يشير فرأى بقعاً حمراء ملبسة بالتراب، وسمعه يقول بلهجة رثائية:

- هذا الدم الزكيّ يستصرخنا إلى مواصلة الجهاد، وقد شاء الله أن يسفك في رحاب سيّد الشهداء لنصل في الاستشهاد حاضرينا بماضينا، والله معنا. . .

وأحسن فزغاً يركبه، فاستردّ بصره من الأرض الدامية وانطلق يعدو كالمجنون.

## ٥٦

كانت أمينة تتلمّس طريقها إلى باب الحجرة خلال ظلمة السحر، في حذر وتمهّل أن توقظ السيّد، حين ترمى إلى أذنيها لغط غريب صاعداً من الطريق يطنّ طنين النحل. لم يكن يطرق أذنيها في هذه الساعة التي اعتادت أن تستيقظ فيها إلّا صلصلة عجلات عربات الدبش وسعال العمّال المبكرين وهتاف رجل يحلو له عند مرجعه من صلاة الفجر أن يردّد في الصمت الشامل صائحاً بين حين وآخر «وحّده» أمّا هذا اللغظ الغريب فلم تسمعه من قبل، وحاترت في تفسيره فتطلّعت إلى معرفة مصدره فمضت بخطواتها الخفيفة إلى نافذة بالصالة مطلّة على الطريق ثم رفعت خصاصها وأخرجت رأسها فوجدت في الخارج ظلمة مختلطة عند الأفق ببشائر ضياء ولكن ليس إلى الحدّ الذي تستطيع معه رؤية ما يجري تحتها، بيّدت أنّ اللغظ ازداد ارتفاعاً، وازداد في الوقت نفسه غموضاً، حتى تبيّنت فيه أصواتاً آدميّة مجهولة النسب. دارت عينها في الظلام الذي أخذت تألفه شيئاً ما فرأت تحت سبيل بين القصرين وما يليه من تقاطع النحاسين مع درب قرمز أشباحاً آدميّة غير واضحة المعالم، وأشياء على هيئة أهرامات صغيرات، وأخرى كأنّها الأشجار القصار، فارتدّت في حيرة ونزلت قاصدة حجرة فهمي وكمال، ثمّ تردّدت، أتوقظه ليرى ما هنالك ويحلّ لها تلك الألغاز أم تؤجّل ذلك إلى حين استيقاظه؟! ثمّ

فرعفها بالبداهة وارتعدت أوصاله، وما إن نذت عن المرأتين صرخة حتى ألحم في البكاء، وجعل عمّ حمدان يقول بصوت متهلّج: «وحّدوا الله. . . وحّدوا الله» ولكن الغلام شعر بالخوف، بارداً كالموت يزحف على جسمه كلّ من قدميه إلى رأسه. وتوالت الطلقات، وصكّت الأذان صلصلة عجلات وصهيل خيل، تتابعت الأصوات والحركات في سرعة فائقة تلاحقها زججرات وصرائح وأنين، فترة اعتراك خاطفة بدت للقابعين وراء الباب دهرًا في حضرة الموت. . . ثمّ حلّ صمت غيف كالإغماء الذي يعقب تبريح الألم، تساءل كمال بصوت متهلّج مبجوح:

- ذهبوا؟! . . .

فوضع عمّ حمدان سبّابته على فيه وهو يغمغم «هس. . . وتلا آية الكرسيّ، فتلا كمال في سرّه. إذ خائنه قدرته على الكلام - «قُلْ هو الله أحد» لعلّها تطرد الإنجليز كما تطرد العفاريت في الظلام. على أنّ الباب لم يفتح إلّا عند الظهر فانطلق الغلام إلى الطريق المقفر ثمّ أطلق للريح ساقيه، وفيما هو يمرّ بالسلم الهابط إلى قهوة أحمد عبده لمح شخصاً صاعداً عرف فيه أخاه فهمي فهرع إليه كغريق عثرت يده على أداة النجاة وقبض على ذراعها فالتفت الشاب نحوه فزغاً، ولمّا عرفه هتف به:

- كمال؟! أين كنت أثناء الضرب؟

ولاحظ الغلام أنّ صوت أخيه مبجوح مطموس المخارج، بيّدت أنّه أجابه بقوله:

- كنت في دكان عمّ حمدان وسمعت الرصاص وكلّ

شيء. . .

فقال له بعجلته وهوجته:

- اذهب إلى البيت ولا تقل لأحد إنك قابلتني. . .

سامع؟

فسأله الغلام بارتباك:

- ألا تعود معي؟! . . .

فقال باللهجة نفسها:

- كلّاً. . . ليس الآن. . . سأعود في موعدي

المعتاد، لا تنس أنّك لم تقابلني قطّ.



- أرايتم الإنجليز...؟  
وهتفت زينب:  
- أنا التي سمعتهم ثم أطللت من النافذة فرأيتهم وأيقظت سي ياسين...  
وواصل ياسين الحديث قائلاً:  
- لقد نقرت على باب والدي حتى استيقظ وأخبرته ولما رآهم بنفسه أمر بالآ يغادر البيت أحد وآلا يرفع مزلاج البيت، ولكن ماذا هم فاعلون؟... وما عسى أن نصنع؟... ألا توجد في البلد حكومة تحميننا؟... فقال له فهمي:  
- لا اظنهم يتعرّضون لغير المتظاهرين.  
- ولكن حتى متى نظلّ محبوسين في بيوتنا؟... إنّ البيوت ملأى بالنساء والأطفال فكيف يعسكرون تحتها؟  
فغمغم فهمي في ضيق:  
- سيجري علينا ما يجري على غيرنا فلنصبر ولننتظر...  
وهتفت زينب في عصبية ظاهرة:  
- لم نعد نسمع أو نرى إلا الرعب والحزن، ربّنا على أولاد الحرام...  
عند ذاك فتح كمال عينيه فردّدها دهشاً في المجتمعين في حجرته على غير انتظار، ثمّ جلس في فراشه وتطلّع إلى أمّه بعينين متسائلتين فاقتربت من فراشه وربّت بيدها الباردة على رأسه الكبير ثمّ قرأت بصوت مهموس وعقل شارد الفاتحة، فسألها الغلام:  
- ماذا جاء بكم إلى هنا؟  
رأت أن تبلغه الخبر في أحسن صورة ممكنة فقالت برقة:  
- لن تذهب اليوم إلى المدرسة...  
فتساءل بابتهاج:  
- بسبب المظاهرات؟  
فقال فهمي بشيء من الحدة:  
- الإنجليز يسدّون الطريق!  
شعر كمال بأنّه أدرك سرّ تجمّعهم فقلّب عينيه في الوجوه مذهولاً، ثمّ وثب إلى النافذة ونظر من
- خصاصها طويلاً ثمّ عاد وهو يقول باضطراب:  
- البنادق أربع أربع...  
ونظر إلى فهمي كالمستغيث وتمتم في خوف:  
- سيقتلوننا...؟  
- لن يقتلوا أحداً، جاءوا لمطاردة المتظاهرين...  
ومضت فترة صمت قصيرة وإذا بالغلام يقول وكأنّه يخاطب نفسه:  
- ما أجل وجوههم!...  
فسأله فهمي ساخراً:  
- هل أعجبوك حقاً؟...  
فقال كمال بسداجة:  
- جدّاً، كنت أتمنّاهم كالشياطين...  
فقال فهمي بمرارة:  
- من يدري، لعلك لو رأيت الشياطين أعجبك منظرهم...!  
لم يرفع مزلاج الباب في ذلك اليوم، ولم تفتح نافذة من النوافذ المطلّة على الطريق ولو لتغيير الهواء وإدخال الشمس، ولأول مرّة تبسّط السيّد أحمد في الحديث على مائدة الإفطار فقال بلهجة العليم الخبير إنّ الإنجليز يتشدّدون في منع المظاهرات وإثم لهذا احتلّوا الأحياء التي تكثر بها المظاهرات وإنّه رأى أن يمكثوا يومهم في البيت حتى تتضح الأمور. استطاع الرجل أن يتكلّم بثقة وأن يحافظ على مظهره المعهود من الجلال وآلا يدع منفذاً لأحد يتسرّب منه إلى القلق الذي تفشى في باطنه مُدْهِباً من فراشه على نقر ياسين، ولأول مرّة كذلك جسر فهمي على مناقشة رأي أبيه فقال بأدب:  
- ولكن يا والدي قد تظنّني المدرسة إذا مكثت في البيت من المضربين!  
لم يكن السيّد يعلم شيئاً طبعاً عن اشتراك ابنه في المظاهرات فقال:  
- للضرورة أحكام، أخوك موظّف وموقفه أدقّ من موقفك ولكنّ العذر واضح...  
لم تواته شجاعته على مراجعة أبيه خشية أن يغضبه من ناحية، ولأنّه - من ناحية أخرى - وجد في أمره بمنع مغادرة البيت عدواً يبرّز به أمام ضميره امتناعه من



فلذا بهنّ نَحْذَن من  
سود الثياب شِعَارَهْ  
فطلعن مثل كواكب  
يسطن في وسط الدجْنه  
وأخذن يجترن الطريق  
ودار سقيد قصدهه  
فاهترت نفس ياسين وقال ضاحكًا:

- ما كان أجدرني أنا بحفظها...  
وفكر فهمي في خاطر طارئ ثم تساءل بحزن:  
- ترى أترامت أنباء ثورتنا إلى سعد في منفاه؟...  
أعلم الشيخ الكبير بأنّ توضيحته لم تذهب هباء أم تراه  
غارقًا في يأس المنفى؟...

#### ٥٧

لبثوا على السطح حتّى الضحى، وراق للأخوين أن  
يراقبا المعسكر البريطاني الصغير، فرأيا نفرًا من الجنود  
قد أقاموا مطبخًا وراحوا يعدّون الغداء، وتفرّق  
كثيرون ما بين مدخل درب قرمز والنحاسين وبين  
القصرين في خلاء من المازّة، وبين حين وآخر كان  
يتجمّع كثيرون في طابور على نداء النفير ثمّ يأخذون  
بنادقهم ويركبون أحد اللوريات الذي ينطلق بهم  
صوب بيت القاضي ممّا دلّ على قيام مظاهرات في  
الأحياء القريبة، وكان فهمي يراقب تجمّعهم وذهابهم  
بقلب خافق وخيال متقدّ...

وأخيرًا غادر الأخوان السطح تاركين كمال يلهو  
كيف شاء وحده، وأويا إلى حجرة المذاكرة، فأقبل  
فهمي على كتبه يراجع ما فاتّه في الأيام المنقضية،  
وتناول ياسين «ديوان الحماسة» و«غادة كربلاء» وخرج  
إلى الصالة يستعين بها على قتل الوقت الذي توافر  
وراء جدران سجنه كما يتوافر الماء وراء السدود، كانت  
الروايات - بوليصة وغيرها - أشدّ استحوادًا على قلبه  
من الشعر، ولكنّه أحبّ الشعر كذلك. وعرفه من  
أسر سبله، يفهم ما يسهل فهمه، ويقنع من الصعب  
بموسيقاه، فندر أن يلجأ إلى الهامش المشحون  
بالشروح، ورثيًا حفظ البيت وترنّم به وهو لا يفقه من

الخروج إلى الطريق المحتلّ بالجنود المتعطّشين إلى دماء  
أمثاله من الطلبة. انفضّت المائدة فأوى السيّد إلى  
حجرته، وما لبثت الأمّ وزينب أن اشتغلتا بواجباتهما  
اليوميّة، ولما كان اليوم مشمسًا، وهو يوم من أيام  
مارس الأخيرة التي تكتنز في أعطافها نسائم دافئة من  
أنفاس الربيع فقد صعد الإخوة الثلاثة وجلسوا تحت  
عرش اللباب والياسمين. ووجد كمال في حُصّ  
الدجاج تسليّة وأيّ تسليّة فانقل إلى إليها، وراح يبذر  
للدجاج الحبّ ويطاردها مسرورًا بدجديتها ويلتقط ما  
يعثر عليه من البيض في حين راح الأخوان يتحدثان  
بالأنباء المثيرة التي تتناقلها الألسنة عن الثورة المستعرة  
في جنبات الوادي من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه.  
تكلم فهمي عنيّ يعلم من قطع السكك الحديد  
والتلغرافات والتليفونات وقيام المظاهرات في شتّى  
المديريات والمعارك التي تنشب بين الإنجليز والثوّار  
والمذابيح والشهداء والجنّات الوطنيّة التي تشيع فيها  
النعوش بالعشرات والعاصمة المضربة طلبتها وعيّاها  
ومحاموها والتي لم يعد بها من وسيلة للمواصلات إلّا  
العربات الكارو، ثمّ قال الشابّ بحرارة:

- هذه الثورة حقًّا؟... فليقتلوا ما شاءت لهم  
وحشيتهم فلن يزيدنا الموت إلّا حياة...  
فقال ياسين وهو يهزّ رأسه عجبًا:  
- ما كنت أنصوّر أنّ في شعبنا هذه الروح  
المكافحة...

فقال فهمي وكأنّه نسي كيف أشفى على اليأس قبيل  
نشوب الثورة حتّى فاجأته بزلزالها وبهرته بنورها:  
- بل إنّه عمليّ بروح الكفاح الخالد التي تشتعل في  
جسده الممتدّ من أسوان إلى البحر الأبيض، استثارها  
الإنجليز حتّى ثارت ولن تخمد إلى الأبد.

فقال ياسين وعلى شفثيه ابتسامة:  
- حتّى النساء خرجن في مظاهرة...  
فتمثّل فهمي أبياتًا من قصيدة حافظ في مظاهرة  
السيدات:

خرج الغواني محتجج  
من ورخت أرقب جمعهه

معناه إلا أقله، أو يتصور له معنى لا يثبت إلى حقيقته بسبب، أو لا يدرك له معنى على الإطلاق، ولكن رغم هذا كله رسب في عقله من صوره وألفاظه ما يعدّ ثروة يتيه بها مثله حتى دأب على استغلالها لمناسبة ولغير مناسبة وهو الأكثر، فإذا عرض له يوماً أن يكتب رسالة تهنئاً لها تهنئاً الكتاب وأقحم عليها من الألفاظ الرثانة ما يعلق بحافظته، وضمّنها ما فتح الله به عليه من مآثور الشعر حتى عُرف بين معارفه بالبلاغة، لا لأنه كان بليغاً حقاً، ولكن لقصورهم عن مجاراته وارتياحهم حيال غريب محفوظاته. قبل اليوم لم يعهد مثل هذا الفراغ الطويل الذي قضى عليه بأن يكابده ساعة فساعة محروماً من أسباب الحركة والتسلية، وربما كانت القراءة خليقة بأن تسعف على تحمله لو كان به صبر عليها، ولكنه اعتاد أن يلتمّ بها في رفق، وفي الأوقات القصيرة التي تسبق خروجه إلى سهرته اليومية دون غيرها، وحتى في تلك الأوقات لم يكن يجيد بأساً في أن يقطع القراءة بالمشاركة في أحاديث مجلس القهوة، أو يطالع قليلاً ثم يدعو كمال ليروي له ما قرأ مستلداً بإقبال الغلام على الإصغاء بذلك الشغف المآثور عن الأطفال والغلّمان. إذن لم يكن الشعر ولا الرواية بالتّي تستطيع أن تؤنس وحشته يوماً كيومه هذا، وقد قرأ أبياتاً من الشعر وفصولاً من «غادة كربلاء»، ومضى يتجرّع الملل قطرة فقطرة، لاعتناً الإنجليز من أعماق قلبه، ضجراً برماً ضيق الصدر، حتى حان وقت الغداء، جمعتهم المائدة مرة أخرى، وقدمت لهم الأم حساء ودجاجات محمّرة وأرزاً، وأثمت أطباقها - التي حرمت من الخضّر بسبب الحصار المضروب حول البيت - بجبن وزيتون ومش، وأحضرت عسلأ أسود بدلاً من الحلوى، ولكن لم يأكل بشهوة إلا كمال أما السيّد والأخوان فلم يسعدوا بقبليّة قويّة للطعام لقبوعهم يومهم بلا عمل ولا حركة، بيّد أنّ الطعام هيأ لهم فرصة للهروب من الفراغ بالنوم وعلى الخصوص السيّد ياسين اللذين كان يسعهما الظفر بالنوم وقتاً شاء وكيفما أحبّا. وغادر ياسين فراشه قبيل المغرب فنزل إلى الدور التحتانيّ لشهود جلسة القهوة

ولكنّها كانت جلسة قصيرة إذ أنّ الأم لم يسعها أن تترك السيّد وحده طويلاً فودّعتهم وطلعت إليه، ولبث ياسين وزينب وفهمي وكمال يتسامرون في جوّ يغلب عليه الفتور حتى استأذن فهمي ومضى إلى حجرة المذاكرة ثمّ دعا إليه كمال فغودر الزوجان منفردين. «ما عسى أن أصنع من الآن إلى ما بعد منتصف الليل؟»... أزعه هذا السؤال الذي ألحّ عليه طويلاً وبدا له اليوم كثيباً ذميماً منتزعا بالقوة الغشوم من مجرى الزمان الذي يتدفّق في الخارج حافلاً بالسرّات كما ينتزع الغصن من الشجرة فيستحيل حظاً. لولا الحصار العسكريّ لكان الآن بمجلسه المحبوب بقهوة أحمد عبده، يحسو الشاي الأخضر، ويسامر معارفه من رّوادها ويمتّع النفس بجوّها العتيق الذي يستهوي شعوره بمقدمه ويستائر خياله بحجراته المظمورة تحت أنقاض التاريخ. قهوة أحمد عبده أحبّ المقاهي إلى قلبه، ولولا الغرض - والغرض مرض كما يقولون - ما اختار غيرها، ولكنه الغرض الذي جذبه فيها مضى إلى الكلوب المصريّ لقربه من مقام بائعة الدوم وهو نفسه الذي أغراه بالانتقال بعد ذلك إلى قهوة سيّ عليّ بالغوريّة لوقوعها أمام بيت زنوبة العرّادة. فهو يبذل المقاهي تبعاً لغرضه، بل إنّه يبذل من تعرض له صداقتهم فيها تبعاً له، ففيما وراء الغرض لا مقهى ولا أصدقاء له، أين الكلوب المصريّ وأصحابه؟... أين قهوة سيّ عليّ ومعارفها؟... من حياته ذهبوا، ولعلّه لو صادفه أحدهم تجاهله أو تهرّب منه، والدور الآن على قهوة أحمد عبده وسأرها، والله وحده يعلم ما يخبئه الغد من مقاهٍ وأصدقاء. على أنّه لم يكن يملك بقهوة أحمد عبده طويلاً فسرعان ما يسرق الخطى إلى بقالة كوستاكي أو بالأحرى إلى حانته السريّة ليحظى بالقارورة الحمراء أو «العادة» كما يحلو له أن يدعوها... أين منه «العادة» هذا المساء الكالح؟ وسرت في بدنه لتذكّر حانة كوستاكي رعدة شهوة، ثمّ ما لبث أن لاح في عينيه نظرة سام عميقة وتعلّم تعلّم السجين. بدا البقاء في البيت حسرة طويلة زاد من حدّة ألمها ما طاف بمخيّلته

لم يكن على حال يطيق معها حتى العتاب فوقع  
تساؤلها التهكمي من نفسه موقع الضربة الطاشنة من  
الدمل فاندفع قائلاً بصراحة مؤلمة وإصرار:

- بلى...

ومع أنها تحامت النقار من بادئ الأمر إلا أن لهجته  
آذنتها أشد إذاء فقالت بحدة:

- لا ذنب لي في هذا، أليس عجيبي ألا تطيق  
التخلف عن سهرتك ولو ليلة واحدة...  
فقال متسخطاً:

- دلّني على شيء واحد يجعل البيت محتملاً...

فقامت غاضبة وهي تقول في نبرات منذرة بالبكاء:

- سأخلي لك المكان لعلّه يطيب لك...

وولّت كالحاربة وهو يبتعها بصراً جامداً، ثم قال  
لنفسه «يا لها من حقاء لا تدري أنّ القدرة الإلهية  
وحدها هي التي تبقى عليها في بيتي». ومع أنّ الشجار  
نفس عن حنقه قليلاً إلا أنه كان يفضل ألا يقع حتى  
لا يضاعف من كآبة فراغه، ولم يكن يعجز عن  
استرضائها لو أراده ولكنّ عقله الفتور الذي ران على  
مشاعره جميعاً. غير أنّه لم تمض دقائق حتى شمله هدوء  
نسبيّ فرنّ صدى عباراته القاسية التي وجهها إليها في  
أذنيه فأقرّ بقسوتها، وبأنّه لم يكن ثمة ما يدعو إليها،  
وداخله شبه ندم، لا لعنوره فجأة على ثأله حبّ لها في  
زوايا قلبه ولكن لحرصه على ألا يشدّ في معاملتها عن  
حدّ الأدب - ربّما إكراماً لابيها أو خوفاً من أبيه - حتى  
في فترة الانتقال العصبية التي أخذ على نفسه فيها  
إخضاعها لسياسته بالصلابة والحزم، واعتذر عن  
إسرافها بالغضب، ولم يكن الغضب بالانفعال  
المستغرب في هذه الأسرة، فما يركبهم الحلم إلا حين  
قيام الأب بينهم مستأثراً لنفسه من دونهم بكافة حقوق  
الغضب.

بيد أنّ غضبهم كالبرق سريع الاشتعال سريع  
الانطفاء ثم يردّون إلى ألوان من الأسف والندم، إلى  
هذا كلّه خصّ ياسين بالماكبرة فلم يدفعه أسفه إلى  
مصالحة زوجته بل قال لنفسه: «هي التي استشارت  
غضبي... ألم يكن بوسعها أن تحاطبني بلهجة

من صور الهناء وذكريات النشوة المقرّنة بالحنانة  
والقارورة، فعذّبت الأحلام وضاعفت من وجّده، وقد  
جرّت حنينه الملهوف على موسيقى الخمر الباطنية  
ولعبها بالرأس ذلك اللعب المدغدغ الحارّ السائل بهجة  
وأفراحاً، فلم يدرك قبل ذاك المساء أنّه أعجز من أن  
يصبر على هجر الشراب يوماً واحداً ولم يحزن لما بدا له  
من ضعفه وعبوديته، ولا لام نفسه على إسرافها الذي  
جرّ عليه التعاسة لأهون الأسباب، كان أبعد ما يكون  
عن لوم نفسه أو السخط عليها، ولم يذكر من بواعث  
ألمه إلا الحصار الذي شتّه الإنجليز حول البيت، وأنّه  
يحترق ظمأ ومورد النشوات غير بعيد، ثمّ لاحت منه  
التفاتة إلى زينب فوجدها تتفرّس في وجهه بنظرة كأنما  
تقول له حانقة «ما لك شاردًا، ما لك واجماً، أليس  
لوجودي أيّ أثر في التسرية عنك؟... أدرك معناها  
كلّه في لحظة خاطفة التقت فيها عيناها، ولكنّه لم  
يستجب لعتابها الحائق الحزين، وبالعكس لعلّه أحقّه  
وأثار نائوته، أجل لم يحقد على شيء كما حقد على  
اضطراره للبقاء معها طوال الليل، بلا رغبة، ولا  
مسرة، وحتى محروماً من النشوة التي يستعين بها على  
تحمل حياته الزوجية. جعل يسترق إليها النظر  
ويتساءل في غرابة أليست هي هي!... أليست هي  
التي خلّبت لبيّ ليلة الزفاف؟... أليست هي التي  
شغفتني هيأماً ليالي وأسابيع؟! فما لها لا تحرك فيّ  
ساكنًا!... أيّ شيء طرأ عليها ما لي أتملّل برّماً  
وسأماً فلا أجد من حسننها وأدبها ما يغنيني عن سكرة  
تأجّلت! ومال - كما فعل مرّات من قبل - إلى رميها  
بالنقص فيما برعت فيه زنوبة ومثيلاتنا من ضروب  
الخدمة والشطارة، والحق أنّ زينب كانت أولى تجاربه  
في المعاشرة الدائمة. فلم تطل به معاشرته العوادة ولا  
بائعة الدوم، ولم يكن تعلّقه بإحداها بمآنه من التنقّل  
إذا سنحت دواعيه، وقد ذكر لحظات حيرته هذه  
وأفكاره عنها بعد كرور أعوام طوال فعرف من نفسه  
ومن الحياة عامّة ما لم يجز له في خاطر. وانتبه على  
تساؤلها:

- لعلّك غير مرتاح إلى البقاء في البيت؟!...

أرقاً». إنه يحب دائماً أن تتحلّى بالصبر والحلم والعفو كيما ينطلق على هواء مطمئناً إلى خطوطه الخلفية. اشتدّ ضيقه بسجنه بعد غضبها وانسحابها فغادر المكان إلى السطح. وجد الجو لطيفاً والليل ساجياً والظلمة شاملة إلا أنها كثيفة تحت عرش اللبلاب والياسمين، رقيقة في نصف السطح الآخر المسقوف بقبة السماء المرصعة بلائاً النجوم. وراح يقطع السطح ذهاباً وجيئة ما بين السور المطل على بيت مريم ونهاية حديقة اللبلاب المشرفة على قلاوون، مستسلماً لخالات شتى، وفيها هو يسير الهوينا عند مدخل السقيفة تسلل إلى أذنيه خفيف، أو لعلّه همس، بل أنفاس تتردد بين لحظة وأخرى فحملق في الظلام متعجباً وهتف متسائلاً:

- من هنا؟

فجاء صوت يعرفه حق المعرفة وهو يقول في نبرات نحاسية:

- أنا نور يا سيدي...

تذكر من توه أن نور جارية زوجه تأوي ليلاً إلى حجرة خشبية لصق خُصّ الدجاج تحوي بعض الكراكيب، نظر صوب السطح حتى ميّز شبحها القائم على بعد خطوة منه كأنه قطعة من الليل تكاثفت وتجمّدت، ثم تراءى له بياض عينيها الناصع كدائرتين مرسومتين بالطباشير على سبورة حالكة السواد، واصل سيره دون أن ينبس وصورتها ترتسم في تخيلته بطريقة تلقائية، سوداء في الأربعين متينة البنيان، غليظة الأطراف، ناهدة الصدر، عبلّة الأرداف، ذات وجه لامع، وعينين برّاقتين، وشفتين ممتلئتين، فيها قوة وخشونة وغرابة، أو هكذا بدت له مذ طرأت على بيته. وفجأة، وعلى حين غرة، تفجّرت في صدره نية الاعتداء كما تنفجر بعض المفرقات بلا سابق إنذار، ولكن قوية مهيمنة كأنها تركز فيها هدف حياته، فملكته كما ملكته على عتبة باب الفناء حيال أم حنفي ليلة زفاف عائشة، انبعثت في وجدانه الخامد حياة فؤارة، وانتشر القلق في دمه حتى تكهّر، وحل محلّ الملل والسأم اهتمام حارّ نائر جنونيّ، كلّ أولئك في لمح البصر، ودبّ النشاط في مشيته وفكره وخياله، وكفّ

وهو لا يدري عن قطع السطح من أوّله إلى آخره مقصراً خطّ ذهابه وإيابه إلى الثلاثين ثم إلى النصف، وكلّما مرّ بها اضطرب جسمه برغبة عارمة. جارية سوداء؟... خادم؟... وإن كانت، له سوابق غير منكورة، ليس حتماً أن تقع بغيته على طراز زنوبة، ميزة حُسن واحدة تغني كما أغنت عينا بائعة الدوم المكحولتان بحارة الوطاويط اللتان شفعتا لنتن إبطيها وتلبّد الطين على ساقيهما. بل الدمامة نفسها - ما دامت قد ركّبت على امرأة - اعتذار مقبول عند شهوته العمياء كما تطلّع إليها عند أم حنفي أو عند ضاربة رمل عوراء خلاها وراء بوابة النصر، نور على آية حال ذات جسم مكتنز صلب يوحى - لا شك - ملمسه بالقوة والصراع، إلى أنها جارية سوداء تعد بطرافة في الوصال وجدة في التجربة وتحقيق للمأثور عن بنات جنسها من بعث الحرارة والدفع. وبدا الجو من حوله مهيباً آمناً مظلماً فاستحسرت رغبته وتوثبت أعصابه واسترسل قلبه في دقات متتابعة فرمى بنظرة ثاقبة موضعها ومال في سيره إليها بحيث «يتفق» له أن يحتكّ بها على نحو ما حين مروره بها مؤجلاً الجهر برغبته حتى يتاح له جسّ النبض في جوّ من الحذر أن تكون - كما حنفي - بلهاء فتجاوب أركان البيت بفضح جديدة، تقدّم في خطوات وثيدة محملاً صوبها، يؤدّ بكلّ ما اضطرم في صدره من شهوة لو تفلّذ كلمات عينية - رغم الظلمة الفاشية - إلى نفسها، حتى اقترب منها فاختلفت دقات قلبه، ثم حاذاها فمسّ كوعه أعلى جسمها ولكنّه واصل سيره كأنّ ما وقع كان عفواً، غير أنّ رعدة سرت في بدنه عند لمس الموضع الذي لم يتحقّق من هويته في الغيبوبة التي تاه فيها عالمه فلم يبق منه عند الإفاقة النسبية في نهاية السطح إلاّ مسّ طريّ غزير الحنان وما ندّ عن صاحبه من تراجع بريء أيّد ما رجّحه من عدم ارتياحها في أمره فاستدار مصمّماً على إعادة الكرّة. أعاد نحوها ثانية ذراعه حتى مسّ كوعه لإحدى ثدييها - لم يخطئه إحساسه هذه المرّة - ثم لم يسحبها كما كان ينتظر من شخص يدعي أنّه ضلّ السبيل، بل تركه يصافح الثدي الأخرى مصافحة

شهوته من ناحية ولخلوّ لهجتها من الاحتجاج الذي يستوحيه مدلول عبارتها، فجذبها بيده وهو يغمغم:

- تعالي يا حلوة.

فسلست ليد، ربّما عن رضى وربّما عن طاعة، وهو يغمر خدّها وصفحة عنقها بقبلاته مترنّحا من شدّة الانفعال، وفي نشوة السرور جعل يقول:

- ماذا غيّبك عني طول هذه الأشهر!

فأجابته بلهجتها العادية الخالية من أيّ احتجاج:

- عيب يا سيدي.

فقال وهو يبتسم:

- ما أرقّ ممانعتك، زبديني منها!...

ولكنّها أبدت شيئا من المقاومة عند مدخل الحجرة قائلة:

- عيب يا سيدي... (ثمّ كالمحدّرة)... الحجرة ملأى بالبق.

فدفعها وهو يهمس في قفاها:

- أنام على العقارب من أجلك يا نور.

جارية، هكذا بدت بأدقّ ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ، وقفت مستسلمة بين يديه في الظلام فوضع شفّتيه على شفّتيها وقبلها بحرقه وتشوّق وهي ساكنة مستسلمة كأنّها تشاهد منظرًا لا دور لها فيه، حتّى قال لها بانفعال: «قبليني» ثمّ أعاد لصق شفّتيه بشفّتيها وقبّل فقبّلتها! ثمّ طلب إليها أن تجلس فردّدت قولها «عيب يا سيدي» الذي بدا مضحكًا من ابتذاله على وتيرة واحدة فأجلسها بنفسه فاستجابت بلا ممانعة، وما لبث أن وجد لذّة جديدة في تردّدها بين السليبة والإذعان فجذّب في طلب المزيد منه وتتابع الممانعة اللفظيّة والإذعان الفعلّي فنسي الزمن، ثمّ خيّل إليه أنّ الظلام من حوله يتحرّك أو أنّ مخلوقات غريبة في طبّاته تراقص، ربّما الجهد أصابه من طول ما لبث إن كان طال لبثه فإنّه على وجه اليقين لا يدري كم لبث، أو لعلّها التّيارات المتوقّدة المتلاطمة في رأسه تولّد من ارتطامها في بصره أنوار وهميّة، ولكن مهلّا، إنّ جدران الحجرة تتماوج، ناضحة بضوء خافت ذابت فيه الظلمة الداجنة ذوبانًا يهتك الأسرار، ورفع رأسه

رفيقة لا تبالي دفع الريب، ومضى وهو يقول لنفسه ستدرك غايقي بلا شكّ، بل لعلّها أدركتها فنذ عنها ما يوحي بأنّها أرادت أن تتنحي جانبًا ولكنّها أبطأت، أو بوغت فذهلت، على أيّ حال لم تتقيني باليد، ولم تحرك ساكنًا، فلن تصرخ فجأة كسما فعلت بنت المركوب، لنجرّب مرّة ثانية. عاد هذه المرّة متعجّلًا جزعًا، فتناقل حيالها، ثمّ مذّكوعه إلى الصدر الناهد كقربة صغيرة منتفخة، ثمّ حرّك ذراعه حركة ناطقة بالترّدّد والريبة معًا، وهمّ بمواصلّة السير مدفوعًا برغبة في الفرار لولا أن وجد منها استسلامًا أو بلادة أغرقت لثالة وعيه في تيّار من الجنون فتوقّف متسائلًا بصوت خرج من بخار الشهوة منصهرًا متهذّبًا:

- هذه أنت يا نور؟!!

فقالت الجارية وهي تتقهقر وهو يتبعها كيلا تفلت منه حتّى التصق ظهرها بالخائط وأوشك هو أن يلتصق بها:

- نعم يا سيدي...

أراد أن يقول أيّ كلام يعنّ له حتّى يتمكن من الجهر بما يضطرب في أعماقه كالملاك الذي يلوح بقبضته في الهواء متحيّنًا الفرصة ليضرب ضربته القاضية فسألها وأنفاسه تترامى على جبينها:

- لمّ لم تذهبي إلى حجرتك؟

فقالت الجارية التي تعثّرت في نطاق حصاره:

- كنت أشمّ الهواء قليلاً...

وكأنّما غلب النهم تردّده فمدّ راحته إلى خاصرتها ثمّ جذبها برفق إلى صدره وهي تبدي ممانعة تحول بينه وبين ما يريد، ثمّ همس في أذنها وهو يلصق خدّه بخدّها:

- هلمّني إلى الحجرة.

فتمتمت في ارتباك:

- عيب يا سيدي...

رنت نبراتنا النحاسيّة في الصمت رنينًا أزعجه، لم تكن تعمّدت أن ترفع صوتها ولكنّها - فيما بدا - لا يتأق لها الهمس أو أنّ من طبع همسها الرنين ولو في أخفض درجاته، على أنّه سرعان ما زايله الانزعاج لتوقّد

عملقًا فرأى نورًا خافتًا يتسلَّل من شقوق الجدار الخشبيِّ مقتحمًا عليه خلوته، ثم ارتفع صوت زوجه في الخارج وهي تنادي الجارية قائلة:

- نمت يا نور؟ ... نور. ألم تري سي ياسين؟

فانتفض قلبه فزعًا ووُثب قائمًا واندفع على عجل ولهفة يتخطف ثيابه ويرتديها وهو يتفحص الحجرة ببصر زائف لعله يجد غيبًا بين كراكيها، ولكنَّ نظرة واحدة آيسته من الاختفاء على حين صكَّ أذنيه وقع شبيب يقترب فلم تتالك الجارية من أن تقول بصوت بالك:

- أنت السبب يا سيدي، ماذا أفعل الآن؟

فلكرها في كتفها بقسوة حتى أمسكت، وحثق في الباب بفزع ورأس وهو يتقهقر - بدافع لا شعوري - إلى الركن البعيد عن المدخل حتى التصق بالجدار، وتجمد في موقفه يترقب. تتابع النداء ولا يجيب، ثم انفتح الباب ولاحت ذراع زينب يتقدمها مصباح وهي تهتف:

- نور... نور...

فلم يسع الجارية إلا أن تخرج من صمتها مغممة بصوت شاحب حزين:

- نعم يا سيدي.

فقال زينب بصوت ينم عن الحنق والتعنيف:

- ما أسرع أن تنامي يا شيخوخة! ألم تري سي ياسين؟ ... سيدي الكبير أرسل في طلبه فبحثت عنه في الدور التحتاني والغناء وما أنا لا أجده فوق السطح، هل رأيته؟

وما أتمت كلامها حتى كان رأسها قد برز داخل الحجرة وهو يطلُّ على الجارية المرتبكة في جلستها باستغراب، ثم بحركة غريزية التفت إلى يمينها فوق بصرها على زوجها الملتصق بالحائط بجسم ضخم كأنما ترهل وتخاذل من الحزي والهوان، التفت عيناها لحظة قبل أن يغض بصره، ومزت لحظة أخرى في صمت قاتل، ثم نذت عن الفتاة صرخة كالعواء وتراجعت وهي تهتف ضاربة صدرها بيسراها:

- يا فضيحتك السوداء! ... أنت! ... أنت! ...

وجعلت ترتجف كما بدا من ارتجاف المصباح بيدها وارتعاش ضوئه المنعكس على الجدار المواجه للباب ثم ولَّت هاربة وعويلها يمزق الصمت. قال ياسين لنفسه وهو يزدرد ريقه «انفضحت وما كان كان» ولبت بموقفه ذاهلاً عما حوله حتى انتبه إلى نفسه فغادر الحجرة إلى السطح دون أن يحظر له أن يتجاوزه. لم يذر ماذا يصنع ولا إلى أي مدى تذاع الفضيحة، أتنحصر في شقته أم تنتقل إلى الشقة الأخرى؟ ... ثم راح يوبخ نفسه على ذهوله وضعفه اللذين منعه من أن يلحق بها كي يحصر الفضيحة في أضيق حدود، ثم تساءل وهو في أشد حالات الضيق كيف يتلقى هذه الفضيحة؟ هل يسعفه الحزم هنا أيضًا؟ ربما لو لم يتسرَّب نبؤها إلى أبيه. وسمع حركة آتية من ناحية الحجرة المششومة فالتفت نحوها فرأى شيخ الجارية يغادرها ويده لفة كبيرة، ثم هولت نحو باب السطح ومقرت منه، هز كتفيه استهانة، وفيما هو يتحسَّن صدره بيده أدرك أنه نسي أن يرتدي الفانلة فعاد إلى الحجرة مسرعًا.

## ٥٨

في الصباح الباكر طُرق الباب، وكان الطارق شيخ الحارة، فقابل السيد أحمد وأخبره بأنه مكلف من لدن السلطات بإبلاغ سكَّان الأحياء المحتلة بأن الإنجليز لن يتعرَّضوا إلا للمتظاهرين وأنَّ عليه أن يفتح دكانه، وعلى التلميذ أن يذهب إلى مدرسته والموظف إلى وظيفته، وحذَّره من حجز التلاميذ أن يظنَّوا من المضربين لافتًا نظره إلى الأوامر المشددة بمنع المظاهرات والإضراب، بذلك استردَّ البيت نشاطه الذي يستقبل به الصباح. وتنفَّس رجاله الصعداء لإطلاق سراحهم بعد حبس البارحة، واستروحت النفوس شيئًا من الطمأنينة والسلام. قال ياسين لنفسه تعقيبًا على زورة شيخ الحارة: «الأحوال خارج البيت تتحسن أمَّا داخله فهي طين ووحل»، أجل قضت أكثرية أهل البيت ليلة نكراء أحاطت بها الفضيحة ومزق أوصالها النكد، زينب لم يستطع الصبر الذي تغلق به صدرها على حزنها وتدمرها أن يصمد للمنظر المروِّع الذي رآته

عينها في حجرة جاريتها فتفجّر صدرها قاذفًا بِشَواظهِ كَلِّ سَبِيل، تَعَمَّدَتْ تَعَمُّدًا أَنْ يَقرعَ عَويلُها أذان السَّيِّد فجاءها مَهْرولًا متسائلًا... وكانت الفضيحة... قَصَّتْ عليه كُلَّ شيءٍ متشجِّعةً بانفعالها الجنوني الذي لَعَلَّها لولاه ما واتتها شجاعته على مواجهته بما قَصَّتْ لما باتت تَجِدُ نحوه من تَهَيِّبٍ لم تَجِدْ مثله حيال أحد من الناس، انتقمَت بِذاك لكرامتها اللذيذة، وللبصير الذي تَجَرَّعته حينًا مختارة وحملت عليه في أكثر الأحيان: «جارية! خادمة! في سَنَ أُمِّه! وفي بيتي! ماذا عساه أن يفعل في الخارج إذن؟» لم تكن تبكي غيرة أو لعلَّ الغيرة توارت إلى حين وراء حجب كثيفة من التقرُّز والغضب كما تتوارى النار وراء سحب الدخان، وكأنَّما غدت تؤثر الموت على أن تبقى معه تحت سقف واحد ولو يومًا واحدًا بعد ما كان، أجل هجرت غدعها فقضت الليل في حجرة الاستقبال يقظي أكثره تهذي هذيان المحمومين ونائمة أقله نومًا ثقیلاً مريضًا مزعجًا. أصبحت وهي مصممة على هجر البيت. لعلَّ هذا التصميم وحده الذي وجدت فيه مسكِّنًا لأوجاعها. ماذا بوسع حميها نفسه أن يفعل؟... لن يستطيع أن يمنع المنكر بعد أن وقع، ولن يسعه مهما يكن جبروته أن ينزل بزوجه العقاب الذي يستحقُّه حتَّى يستشفى صدرها، أقصى ما يراه أن يـزجره، أن يصبَّ عليه غضبه، وسينصت - الفاسق - خافض الرأس كي يواصل فيها بعد سيرته الخبيثة... هيهات. لقد رجاها السَّيِّد أن تدع الأمر بين يديه، ونصحها طويلًا أن تعرض عن زلته مستوصية بصبر الفضليات من مثيلاتها، ولكنَّها لم تعد تحتمل الصبر أو العفو. جارية سوداء فوق الأربعين!... كَلَّا. ستهجره هذه المرَّة بلا تردّد، ستفضي إلى أبيها ببئها كلُّه، وستبقى في كنفه حتَّى يثوب إلى رشده، فإذا جاءها بعد ذلك نادمًا، وغير من سلوكه أو فلنذهب هذه الحياة كلَّها - بخيرها وشرِّها - إلى الشيطان، أخطأ ياسين حين ظنَّها قد طوت صدرها على كربها عقلًا وحكمة، الحقُّ أنَّه غلبها الجزع من بادئ الأمر فبثَّتْ همها إلى أمِّها، ولكنَّ الأمَّ أثبتت أنَّها

امرأة حكيمة فلم تدع الشكوى تتسرَّب إلى الأب، وأوصت ابنتها بالصبر قائلة إنَّ الرجال يسهرون - كوالدها مثلاً - وإنَّهم أيضًا يشربون، وإنَّه حسبها أنَّ بيتها عامر بالخير، وأنَّ زوجها يعود إليها مهما سهر ومهما سكر. أصغت الفتاة إلى النصيحة على مضض، وجاهدت نفسها أيَّما جهاد متحمِّلة بالصبر ولم تألُ أن تحمل نفسها على الرضى بالواقع والقناعة من أحلامها العريضة بما سمحت به الحقيقة خصوصًا وقد دبَّ الجنين في بطنها مبشِّرًا بالأمومة المروقة. ربَّما كمن التذمَّر في أعماقها بيد أنَّها راضت نفسها على التسليم متأسِّية بأمِّها تارة وطورًا بامرأة سيِّدها الكبير، ثمَّ لم يُثَلِّ الحال من ريبة تختلج في صدرها بين حين وآخر عَمَّا يمكن أن يفعل زوجها في سهراته الخمرية، وحدث أن أفضت إلى أمِّها بمخاوفها، بل لم تحفَّ عنها ما لحق بالرجل من فتور في عواطفه. ولكنَّ الأمَّ الحكيمة أفهمتها أنَّ ذاك الفتور ليس حتمًا نتيجة لما يقع في خاطرها، إنَّه «شيء طبيعي» وإنَّ الرجال جميعًا لديه سواء، وأنَّها سوف تقتنع به بنفسها كلَّما تقدَّمت بها تجارب العمر... على أنَّه لو صدقت وساوسها فماذا تراها فاعلة؟... هل تراها تهجر بيتها لأنَّ زوجها يلمَّ بغيرها من النساء؟... كَلَّا. وألف مرَّة كَلَّا، لو تخلَّت امرأة عن مكانها لسبب كهذا لأفترت البيوت من الفضليات، والرجل قد يطمح طرْفه إلى امرأة أو أخرى ولكنَّه يعود دائمًا إلى بيته ما دامت زوجه خليقة بأن تبقى عنده المرجع الأخير والمأوى الثابت، والعاقبة للصابرات. ومضت تذكِّرها بالمطلقات بلا ذنب واللائي يشركهنَّ في أزواجهنَّ أخريات، أليس طيش زوجها - إن صحَّ - خطيئًا أخفَّ من سلوك أولئك؟! ثمَّ إنَّه لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره، ومصره يعقل فيثوب إلى بيته ويشغل بذرَّيته عن الدنيا جميعًا، ومعنى هذا أنَّه ينبغي لها الصبر حتَّى لو صدقت وساوسها فما بالها والوساوس لم تصدق؟! رددت المرأة هذا، وغيره ممَّا يجري مجراه، حتَّى سلس جراح الفتاة وآمنت بالصبر وراضت نفسها عليه. بيد أنَّ واقعة السطح قضت على كلِّ ما وظَّنت النفس عليه فانهار البنيان جميعًا كان لم

يكن.

لنفسه ما لا يُحِلُّ لأحد من ذويه، له أن يفعل ما يشاء وعليه التزام الحدود التي يريد هم على أن يلتزموها فلعل غضبه على ما في ذنب ياسين من «تحدُّ» لإرادته و«استهانة» بوجوده و«تشويه» للصورة التي يجب أن يتصوَّره بها أبناؤه، كان أضعاف غضبه على الذنب نفسه، على أنَّ غضبه - كما هي عادته - لم يستمر طويلاً، ما لبث أن خبا لظاه وخمد توقُّده فعاوده الهدوء رويداً وإن شاب مظهره - مظهره فقط - الوجوم والأسى، عند ذاك أمكنه أن ينظر إلى «جريرة» ياسين من أكثر من زاوية واحدة، أمكنه أن يتأملها بعقل مستقرَّ فانجلى له قتاها عن مواضع شتى ساخرة تسلى بها عن وحدته الاضطرابية. أوَّل ما ابتدر ذهنه أن يلتمس للمذنب عذراً، لا حُجاً في التسامح فإنَّه يكره التسامح في بيته، ولكنَّ ليتَّخذ من ذاك العذر المرجى «مبرراً» لخروجه عن إرادته، كأنما يقول لنفسه «إنَّ ابني لم يشقَّ عصا الطاعة... هيهات، ولكنَّ عذره كيت وكيت...» ولكن هل يلتمس له العذر عند شبابه باعتباره عهد طيش ونزق؟... كلاً. إنَّ الشباب عذر عن الذنب وليس عذراً عن خروجه على إرادته وإلَّا لجاز لفهمي بل لكيال أن يتبادي في الاستهانة بتعاليمه، ليلتمس العذر إذن عند رجولته، هذه الرجولة التي تحلَّ له أن يستقلَّ بنفسه عن إرادته ولو شيئاً ما وتعفيه هو - السيّد - من تحمُّل مسئولية فعله، كأنما يقول لنفسه: «إنَّه لم يخرج على إرادتي، هيهات، ولكنَّه بلغ السنَّ التي لا يعدُّ فيها ذنبه خروجاً على إرادتي...» وغنيَّ عن القول إنَّه يأبى أن يعترف أمامه بهذا الحقِّ ولن يعفو عنه لو يجاسر على المطالبة به، بل إنَّه لا يعترف له به فيما بينه وبين نفسه إلَّا في حال الوقوع في معصية تستوجب مبرراً للخروج على إرادته، ولم ينس حتى في تلك الحال أن يذكر نفسه التماساً للمزيد من الطمأنينة - بأنَّه أدبه تأديباً غليظاً نادراً قلَّ من يستبيحه من الآباء فقبول بخضوع كامل قليل من يتحمَّله من الأبناء... وعرج خاطره إلى زينب متفكِّراً ولكنَّه لم يجد نحوها أيَّ عطف، لقد واساها إكراماً لأبيها العزيز الحبيب، ولكنَّه لا يظنُّ أنَّ الفتاة جديرة بأبيها حقاً، ما

ومع أنَّ السيّد لم يظنَّ إلى هذه الحقيقة المؤسفة فظنَّ الفتاة قد امتثلت لنصيحته إلَّا أنَّ غضبته كانت أشدَّ من أن تمرَّ بسلام، وقد أحسنت الجارية صنعاً بفرارها، أمَّا ياسين فلم يبرح السطح، لبث يفكر منزعجاً في العاصفة التي تتربص به، حتَّى ترمى إلى أذنيه صوت أبيه وهو يناديه بنبرات كفرقة السياط فدقَّ قلبه، ولكنَّه لم يجب ولم يستجب وتسمرَّ يائساً في مكانه، وما يدري إلَّا والرجل يقتحم عليه السطح ثمَّ يقف مدمدماً لحظات وهو يتفحص المكان حتَّى يعثر على شبحه فيتَّجه إليه ويقف على كُتُب منه شابكاً ذراعيه على صدره مصوِّباً نحوه رأساً متصلباً متعجرفاً، ملتزماً الصمت ومطيله كي يطيل له به العذاب والإرهاب، كأنما أراد بصمته أن يعبرَّ له عما يجد نحوه ممَّا يعي الألفاظ حمله، أو أنَّه أراد أن يرمز به إلى ما كان يؤدُّ أن يؤدِّبه به من مُبرِّح الركل واللکم فمنعه منه استواؤه رجلاً وزوجاً، ثمَّ لم يعد يستطيع مع الصمت صبراً فانهال عليه سباً وتعنيفاً وهو يتفضَّض غضباً وهياجاً «أنت تتحدَّاني تحت سمعي وبصري...» فلتذهب أنت وخزبك إلى جهنم... دُتست بيتي يا وغد، هيهات أن يتطهر هذا البيت ما دمت فيه... كان لك قبل الزواج عذر وإِ فأيَّ عذر لك الآن؟... «لو أصاب كلاي حيواناً لأدَّبه ولكنَّه ينصبَّ على حجر...» إنَّ بيتاً يضمُّك خليك بأن تُستنزل عليه اللعنات... نفس عن صدره المستعر بكلمات كالرصاص المنصهر وياسين بين يديه ساكن صامت خافض الرأس كأنَّه يوشك أن يذوب في الظلام، حتَّى أجهد الرجل الزعقُ فولَّاه ظهره وغادر المكان وهو يلعنه ويلعن أباه وأمه، ومضى إلى حجرته يفور بالغضب فوراً. في ثورة الغضب رأى زلَّة ياسين جريرة تستحقُّ الإبادة، وفي ثورة الغضب لم يعد يذكر أنَّ ماضيه كلَّه صورة مطوَّلة متكرِّرة من ذلَّة ياسين، وأنَّه لا يزال دائباً على سلوكه وقد انتصف به العقد الخامس وشبَّ أبناؤه فصار منهم الأزواج والزوجات. لا لأنَّه في ثورة الغضب ينسى حقاً، ولكنَّه لا يَحِلُّ



ورود الوازع الأخير على ذهنه، وخيل إليه أنه يغبط ياسين على ريق شبابه وجنون زلته معاً... مهما يكن من أمر فالطبعتان مختلفتان، لم يكن السيد - كإبنة - مغرمًا بالمرأة بلا قيد ولا شرط، امتازت شهوته دائماً بالرفاهية وحداها الانتخاب الرفيع، بل أثرت في ميزاتها ميزات اجتماعية ضمت إلى الميزات الطبيعية المألوفة، كان مغرمًا بالجمال الأنثوي في لحمه وتبخره وأناقته، فلم تخل جليلة أو زبيدة أو أم مريم وعشرات غيرهن من ميزة أو أكثر من هذه الميزات، وفضلاً عن هذا كله فلم يكن مزاجه ليصفو ويطيب إلا بالنظر البهيج وبالمجلس الأنيس وما يتبعها من شراب وسمير وغناء، فلا يكاد يمضي طويل وقت على عشيقه جديدة حتى تظن إلى هواه فتتهين له ما تنفوس إليه نفسه من جو عذب يعبق فيه الورد والبخور والمسك، وكما كان يعشق الجمال مجرداً كان يعيشه كذلك في هالاته الاجتماعية اللاألة. تجذبه المكانة المرموقة والصيت البعيد، ويلذ له أن ينوّه خاصته بعشقه ومعشوقاته إلا فيما ندر من أحوال توجب التسرّ والكتان كحال أم مريم، على أن هذا الحب «الاجتماعي» لم يكن ليفرض عليه تضحية بالجمال، فالجمال والصيت - في هذا المجال - يسيران جنباً لجنب كالشيء وظله، وغالباً ما يكون الجمال اليد الساحرة التي تشق السبيل إلى الصيت والمكانة المرموقة، وقد عشق أشهر عوالم عصره فلم تحبب إحداهن نزوعه إلى الجمال وولعه بالحسن. هذا ما جعله يذكر نزوات ياسين بازدياد وهو يردد مستنكراً «أم حنفي! نورا... يا له من حيوان» إنه بريء من هذا الشذوذ بيد أنه ليس في حاجة إلى أن يتساءل طويلاً عن مصدره فإنه لم ينس بعد ذلك المرأة التي أنجبت ياسين فأودعته طبيعتها المولعة بالقذارة، إنه مسئول عن قوة شهوته أمّا هي فمسئولة عن نوع هذه الشهوة النزاعة إلى الحضيض. وقد عاوده في الصباح التفكير «الجلدي» في المسألة فكاد يدعو الزوجين إليه كي يصقّي ما بينهما - وما بينه وبين كليهما - من حساب، ولكن أرباً ذلك إلى متسع من الوقت أنسب من الصباح.

كان يخلق بزوجة كريمة أن تفضح زوجها - مهما تكن الظروف - على النحو الذي فضحت به ياسين... لشد ما أعلت!... لشد ما صرخت!... ماذا كان يصنع هو - السيد - لو أن أمينة فجأته يوماً بمثل هذا التصرف!... ولكن أين هي من أمينة!... ثم كيف قصّت عليه ما رأت دون حياء... أف... أف! لو لم تكن هذه الفتاة كريمة عمّد عفت لحق لياسين أن يؤدّبها بل لما رضي هو أن تمرّ هذه الواقعة دون عقاب زاجر، لقد أخطأ ياسين ولكنها أخطأت خطأ أكبر. ثم عاد إلى ياسين سريعاً فراح يفكر - بباطن مبسم - في الطبيعة الواحدة التي تجمع بينهما، تلك الطبيعة الموروثة عن الجدّ بلا ريب، ومن يدري لعلها تضطرم الآن في صدر فهمي تحت قناع التهذيب والاستقامة، بل ألا يذكر كيف عاد يوماً إلى البيت على غير انتظار فترامى إلى سمعه صوت كمال وهو يغني «يا طير يا ليلى على الشجر»... تأخر لحظتك ذلك وراء الباب - لا ليتظاهر بأثّه وصل بعد انتهاء الغناء فحسب - ولكن ليتابع الصوت متذوّقاً معدنه سابراً طول نفسه، حتى إذا ما ختم الغلام النغمة صفق الباب بقوة وهو يسعل ومضى إلى الداخل طائفاً صدره على ابتهاج لم يفتن إليه أحد، كم يلذّه أن يرى نفسه مترعرة من جديد في حياة أبنائه على الأقلّ في ساعات الهدوء والصفاء، ولكن رويداً... إن لياسين طبيعة خاصة به لا يشركه هو فيها، أو أنه لا تجمع بينهما طبيعة واحدة إذا روعي المعنى الدقيق لهذه الكلمة، ياسين حيوان أعمى... ينقضّ مرة على أم حنفي ويضبط مرة أخرى مع نور، يتمرّع في التراب دون مبالاة، وما هكذا هو! أجل إنه يدرك مقدار الضيق الذي ألمّ بياسين لاضطراره إلى قضاء الليلة في شبه سجن، يدرك لأنه كابده هو أيضاً كثيراً محزوناً كمن فقد عزيزاً، ولكن هبّه كان ينتزه في بستان السطح - كما فعل الفتى - فصادف جارية - ولنفترض أنها تكون ملبّية لذوقه - أكان يقدم على المغامرة?... كلاً. مؤكّد كلاً، ولكن أيّ وازع كان يشكّمه?... لعلّه المكان؟ الأسرة! ولعلّه العمر الرشيد. آه. لقد تضايق عند



الوسكي، ملاء الامتنان والزهو، تورّد وجهه المكتنز وضحكت أساريه وكأنّ عبارة «ثانك يو» نيشان سامٍ تقلّده على الملأ، إلّا أنّها ضمنت له أن يذهب ويحيى أمام المعسكر آمنًا، وما كاد الرجل يبدي أوّل حركة للدهاب، حتّى قال له متودّدًا من أعماق فؤاده:  
- حظّ سعيد يا سيّدي.

ومضى إلى البيت كالترنّح من الفرح. أيّ حظّ سعيد ظفر به هو!... إنجليزيّ- لا أستراليّ ولا هنديّ- وابتسم له وشكره!... إنجليزيّ أي رجل يتمثّل في خياله كأثوذج لكلال الجنس البشريّ، ربّما أبغضه كما يبغضه المصريّون جميعًا، ولكنّه في قرارة نفسه يحترمه ويحبه حتّى ليخيّل إليه كثيرًا أنّه من طينة غير طينة البشر، هذا الرجل ابتسم له وشكره!.. وقد أجابه إجابات صحيحة مقلّدًا ما وسعته مرونة شذقيه طريقة النطق الإنجليزيّة فنجح نجاحًا باهرًا استحقّ عليه الشكر... كيف يصدّق ما ينسب إليهم من الأعمال الوحشيّة!! لماذا نفوا سعد زغلول إذا كانوا على هذا الظرف كلّهم؟! غير أنّ حماسه فتر بمجرّد أن وقع بصره على الستّ أمانة وفهمي واستطاع أن يقرأ نظرتها، وسرعان ما اتّصل ما كان انقطع من حين من حبل همومه، انتبه إلى أنّه يواجه مرّة أخرى المشكلة التي هرب منها مع الصباح الباكر. تساءل وهو يشير بأصبعه إلى فوق:

- لماذا لا تجلس معكم؟ ألا تزال غضبانة؟  
فتبادلت أمانة مع فهمي نظرة ثمّ غتمت بارتباك:  
- ذهبت إلى أبيها.  
فرفع حاجبيه دهشة وانزعاجًا ثمّ سألها:  
- لماذا تركتها تذهب؟  
فقالّت أمانة وهي تتنهد:  
- تسلّلت دون أن يشعر بها أحد.  
شعر بأنّه يجب أن يقول قولًا يرضي كرامته أمام أخيه وأمه فقال باستهانة:  
- إلى حيث... .

وقرّر فهمي أن يقاوم رغبته في اللواذ بالصمت كي يوهم أخاه بأنّه لم يتطلّع على سرّه وبالتالي أن ينفي

لم تنبس أمانة بكلمة كأنّ اختفاء زينب من التفاهة بحيث تكفي جملة إخباريّة وأخرى دعائيّة في معالجته، وما لبث فهمي أن دارى ابتسامه كادت تفضح تحفّظه إذ أدرك أنّ أمّه تكابد مثل شعوره وأنها تعاني ارتباكًا لعجزها الفطريّ عن التمثيل، لم تكن تحسن الكذب، وحتّى إذا اضطرتّ إليه أحيانًا كشفتها طبيعة لا تستقرّ على بساطتها الأقنعة، على أنّ ارتباكها لم يطل فما هي إلّا دقائق حتّى رأيا ياسين مقبلًا نحوهما. خيّل إليهما أنّه يطالعهما بوجه لا يقدر المتاعب التي تترصّد في البيت وإن لم يعلم بعد بمدى ما بلغته، ولم يدهش فهمي لذلك كثيرًا لما يعلمه من استهائته بالمتاعب التي تنوء بغيره من الناس، ولكنّ الحقيقة أنّ ياسين غلبه شعور باهر بأنّه اجتاز مغامرة ظافرة أنسته إلى حين جلّ متاعبه. كان في طريقه إلى باب البيت حين اعترض سبيله جنديّ كأنّما انشقت عنه الأرض فارتعدت مفاصله وتوقّع شرًّا لا قبل له به أو في الأقلّ إهانة جارحة على مرأى من أصحاب الخوانيت والمارة، ولكنّه لم يتردّد في الدفاع عن نفسه، فقال برقة وتودّد مخاطبًا الجنديّ كأنّما يستأذنه في المرور:  
- من فضلك يا سيّدي.

ولكنّ الجنديّ طلب عود ثقاب وهو يبتسم - أجل يبتسم - فذهل ياسين لابتسامته حتّى استعصى عليه أن يفهم مراده حتّى أعاده، لم يكن يتصوّر أنّ جنديًا إنجليزيًا يبتسم على هذا النحو، أو- إذا كان الجنود الإنجليز يبتسمون كسائر البشر - أن يبتسم له أحدهم فيها يشبه الأدب، فاستخفّه سرورًا أربكه حتّى لبث جامدًا لحظات لا يجري جوابًا ولا يبدي حراكًا، ثمّ توتّب بكلّ ما فيه من قوّة لأداء هذه الخدمة البسيطة لذلك الجنديّ العظيم المبتسم، ولمّا كان غير مدخّن فلا يحمل ثقابًا فقد بادر إلى الحاج درويش بائع الفول وابتاع علبة ثقاب وهرع إلى الجنديّ ماذا له يده بها فتناولها الجنديّ وهو يقول:  
- أشكرك.

لم يكن أفاق من أثر الابتسامه السحريّة فجاء الشكر كقدح البيرة الذي يعلّ به من استوفى طاقته من

شبهة إذاعته لهذا السرّ عن أمّه فسأله ببساطة:

- ما الذي دعا إلى هذا النكد؟!

فحججه ياسين بنظرة متفحصة ثمّ لَوَّح بيده الغليظة وهو يَمِطُّ بوزه كأنما يقول له «ليس ثمة ما يدعو إلى النكد» ثمّ قال:

- بنات اليوم لم تعد بهنّ طاقة على حسن المعاشرة. ثمّ ناظرًا إلى ستّ أمينة:

- أين هنّ ستّات الأمس؟!

نكّست أمينة رأسها حياء في الظاهر، وفي الحقّ لتداري ابتسامة لم تستطع مغالبتها حينما ربط ذهنها بين الصورة التي يتخذها ياسين الآن، صورة المتأمل الواعظ المجنّي عليه، والصورة التي ضُبط بها مساء أمس فوق السطح. على أنّ انزعاج ياسين كان أعظم بكثير من القدر الذي سمح له الموقف بأن يتظاهر به، فإنّه على فداحة الخيبة التي مُني بها في حياته الزوجيّة لم يفكر لحظة في قطع هذه الحياة، وجد فيها ملاذًا مستقرًا ورعاية إلى ما بشرت به من أبوة وشبكة رَحَب بها أيّما ترحيب، تمثّى دائميًا أن تبقى وراء ظهره ليعود إليها من شتّى جولاته كما يعود الرّحالة في نهاية العام إلى وطنه، ولم يغب عنه ما سيجرّه عليه ذهاب زوجته من نزاع جديد بينه وبين أبيه وبين السيّد عَقَت، إلى ما يلبس هذا كلّ من فضيحة ستفوح رائحتها حتّى تزكم الأنوف... بنت الكلب!... لشدّ ما كان مصمّمًا على أن يستدرجها إلى الاعتراف بأنّها أخطأت خطأ أكبر من خطئه، بل لعلّه اقتنع بذلك لدرجة تقرب من اليقين، فأقسم ليحملتها على الاعتذار وليأخذنّ نفسه بتأديبها بمختلف الوسائل، ولكنّها ذهبت... قلبت خططه رأسًا على عقب... وضعته في مأزق غير يسير. بنت الكلب!... وانتزع من تيّار أفكاره على صوت صراخ يمزّق الصمت المحيط بالبيت فالتفت صوب فهمي وأمّه فوجدهما يرهفان السمع باهتمام وقلق، وتواصل الصراخ فأدركوا بسهولة أنّه صادر عن امرأة، ولكنّ تساءلت أعينهم عن الناحية التي يترامى منها وعن سببه: انعي ميت أم عراك أم استغاثة، وراحت أمينة تستعيد بالله من الشورور جميعًا حتّى قال

فهمي:

- إنّه قريب... لعلّه في طريق بيتنا.

ونفض فجأة مقطّبًا جبينه وهو يتساءل:

- ألا يكون الإنجليز قد هاجموا امرأة مازّة بالطريق؟ وهرع إلى المشربيّة والأخيران في أثره، بيد أنّ الصراخ انقطع غير تارك وراءه دليلًا على الناحية التي ترامي منها، فرمى ثلاثتهم بأنظارهم خلال الخصاص يتفحصون الطريق فاستقرّت على امرأة لفتت الأنظار بوقفتها الغريبة وسط الطريق وبمن أحاط بها من المازّة وأصحاب الحوانيت، على أنّهم عرفوها لأوّل وهلة وهتفوا معًا:

- أمّ حنفي...

وتساءلت أمينة التي كانت أرسلتها لتعود بكمال من المدرسة:

- ما لي لا أرى كمال معها؟! وماذا يوقفها هُكذا كالجماد! كمال... ربّاه... أين كمال؟ ثمّ مدفوعة بشعور غريزيّ:

- هي التي كانت تصرخ... عرفت الآن صوتها... أين كمال؟... أغيثوني...

لم ينبس فهمي ولا ياسين بكلمة. استغرقتهما فحص الطريق عامّة والمعسكر الإنجليزيّ خاصّة حيث راوا أنظار المتجمّعين - وفي مقدّمهم أمّ حنفي - تتجه. لم يكن ثمة شكّ لديها في أنّ أمّ حنفي هي التي صرخت حتّى جمّعت الناس حولها، بل شعرا بالبداهة أنّها كانت تستغيث لأنّ ثمة خطرًا تهدّد كمال، ثمّ تركّزت مخاوفها في الإنجليز. ولكن أيّ خطر هو؟... وأين كمال؟... ماذا حدث للغلام؟ إنّ الأمّ لا تكفّ عن الاستغاثة بدورها وهما لا يدريان كيف يسكنّان خاطرها، لعلّهما في حاجة إلى من يسكنّ خاطرها... أين كمال؟... إنّ الجنود ما بين جالس وواقف وماض لطّيته، كلّ مشغول بشأنه كأنّ شيئًا لم يقع وكأنّ أحدًا من الناس لم يتجمّع. وهتف ياسين بغتة وهو يلكز فهمي في كتفه:

- ألا ترى هؤلاء الجنود الواقفين على هيئة دائرة تحت سبيل بين القصرين؟... إنّ كمال يقف

بينهم... انظر.

فلم تملك الأم أن صرخت قائلة:

- كمال بين الجنود... ها هو يا ربّي... ربّاه...  
أغيثوني.

أربعة جنود عمالقة وقفوا على هيئة دائرة متشابكي الأذرع، وقد مرّت عينا فهمي أكثر من مرّة دون أن تعثرا على ضالّتهما، في هذه المرّة لمح كمال واقفاً وسط الدائرة كما لاح من فرجة انشقت عنها ساقا الجندي الذي يوليهم ظهره، خيّل إليه أنّهم سيتقاذفونه بأرجلهم كالكرة حتّى يقضوا عليه، أنساه خوفه على أخيه نفسه فاستدار قائلاً بنبرات مضطربة:

- سأذهب إليه مهما تكن العواقب...

ولكنّ يد ياسين قبضت على منكبيه وهو يقول بصوت حازم «قف»... ثمّ خاطب الأم بصوت هادئ باسم قائلاً:

- لا تخافي... لو أنّهم أرادوا أن يصيبوه بسوء ما تردّدا... انظري إليه ألا يبدو منهمكاً في حديث طويل؟ ثمّ ما هذا الشيء الأحمر الذي بيده؟ أراهن على أنّها قطعة من الشيكولاتة!... هدّئي روعك... إنّهم يتسلّون به «ومتنبّها» شدّ ما أفرعنا على لا شيء.

سكن روع ياسين، وما لبث أن تدكّر مغامرته السعيدة مع الجندي فلم يستبعد أن يوجد له من زملائه نظائر في لطفه ورقة، ثمّ رأى أن يدعم قوله ويثبتّه في فؤاد الأم اللئاع فأشار إلى أمّ حنفي التي لم تزل في موقفها قائلاً:

- ألا تريان أنّ أمّ حنفي لم تكفّ عن الصراخ إلّا حين لم تجد داعياً له. ها هم الناس ينفضون من حولها تعلوهم الطمانينة.

فغمغمت أمانة بصوت مرتعش:

- لن يطمنّ قلبي حتّى يعود إليّ...

وتركّزت أعينهم في الغلام، أو فيما يلوح منه بين آونة وأخرى غير أنّ الجنود استردّوا أذرعهم المتشابكة وضمّوا سيقانهم المنفرجة كأنّما اطمأنّوا إلى عدول كمال عن التفكير في الحرب، فبدا الغلام بكامل هيئته، بدا باسمًا يتكلّم كما استدّلوا عليه من حركة شفّتيه

وإشارات يديه التي استعان بها على الإفصاح عن أفكاره فدلّ التفاهم بينه وبينهم على أنّهم يستطيعون إلى حدّ ما استعمال اللغة العربيّة، ولكنّ ماذا يقول لهم أو ماذا يقولون له؟... هذا ما لم يستطع أحد أن يخمّنه، بيد أنّهم ثابوا إلى رشدهم، حتّى الأم نفسها استطاعت أخيراً أن تشاهد المنظر العجيب الذي يمثّل تحت ناظرها بدهشة ممزوجة بقلق صامت دون عويل أو استغاثة، على حين جعل ياسين يضحك قائلاً:

- الظاهر أنّنا غالينا في التشاؤم حيننا ظنّنا أنّ احتلال هؤلاء الجنود لحينّا سيكون مصدر متاعب لنا لا تنتهي. ومع أنّ فهمي بدا ممثّناً لسلوك الجنود مع كمال، إلّا أنّه لم يرتح إلى ملاحظة ياسين فقال دون أن تتحوّل عيناه عن الغلام:

- ربّما اختلفت معاملتهم للرجال أو النساء عن معاملتهم للأطفال. لا تتغلّ في تفاؤلك.

وكاد ياسين يندفع متحدّثاً عن مغامرته السعيدة، ولكنّه أدرك لسانه في اللحظة المناسبة فأمسك تفادياً من إثارة أخيه، ثمّ قال على سبيل الملاحظة والتودّد:

- ربّنا يخلّصنا منهم على خير.

وتساءلت أمانة في لهفة:

- ألم يثنّ لهم أن يدعوه مشكورين؟

ولكنّ بدا على دائرة كمال أنّ ثمة جيّداً ينتظر، فقد تراجع أحد الجنود الأربعة إلى خيمة قريبة ثمّ عاد بعد قليل بكرسيّ خشبيّ فوضعه أمام كمال، وما لبث الغلام أن وثب إلى الكرسيّ فوقف منتصب القامة مشدود الذراعين إلى أسفل، كأنّما ينتظمه طابور القسم المخصوص، وقد انحدر طربوشه إلى قذاله - دون شعور منه في الغالب - كاشفاً عن مقدّم رأسه الكبير البارز. ما خطبه؟ ماذا وراء هذه الوقفة؟ لم يطل بأحد التساؤل إذ سرعان ما علا صوته الرفيع وهو ينشد:

يا عزيز عيني بديّ أروّح بلدي

يا عزيز عيني السلطة خدت ولدي

غناها مقطّعة مقطّعة بصوته اللطيف والجنود يتطلّعون إليه فاغري الأفواه ضاحكي الأسارير تلاحق أكفّهم تردّده بالتصفيق، وكان أحدهم قد تأنّر بما

أدركه من بعض معاني الأغنية فراح يهتف «أروّح بلدي... أروّح بلدي»... فتشجّع كمال بما حظي من سرور سامعيه وأقبل بمجود من إنشاده ويحسن من ترنمه ويعلي من صوته، حتى ختمت الأغنية بين التصفيق والاستحسان الذي شاركت فيه الأسرة من وراء الخصاص بقلوب ملؤها السرور والإشفاق. أجل شاركت الأسرة في الاستحسان بعد أن شاركت بقلوبها أيضًا. في الغناء، تتبعوه بإشفاق وقلق، دعوا له بالسلامة والإجادة، خافوا عليه الزلل أو النشاز كأنما يغني بالإنابة عنهم جميعًا، أو كأنما هم الذين يغنون من حنجرتهم، وكأنّ كرامتهم - أفرادًا ومجموعة - أمست متعلّقة بنجاح الغناء، نسيت أمانة في بطن هذا الشعور مخاوفها، حتى فهمي لم يكن يفكر في أثناء ذلك إلّا في الغناء وما يرجو له من نجاح، فلمّا انتهى بخير تنهّدوا من الأعماق وودّوا أن يبادر كمال إلى العودة قبل أن يطراً طارئ يفسد عليهم مسك هذا الختام. والظاهر أنّ الحفلة أذنت بانتهاء فقد قفز كمال إلى الأرض فسلم على الجنود فردًا فردًا ورفع يده معنيًا ثم انطلق يعدو صوب البيت. فهولت الأسرة من المشيئة إلى الصالة لتكون في استقباله. أقبل عليها لهاثًا موزّد الوجه مبتلّ الجبين تنطق عيناه وأساريه وحركات أعضائه المرسلة بلا اتزان أو غاية بالفرح والغور. أترع قلبه الصغير سعادة غامرة ما كان بوسعه إلّا أن يعلن عنها بكلّ سبيل ودعو الآخرين إلى الاشتراك فيها كالفيضان الزاخر يضيق عنه النهر فيغمر الحقول والوديان، وكانت نظرة واحدة تلقى بروية كافية لأن تريحه مغامرته معكوسة على صفحات الوجوه... ولكنّ الفرح أعماه فهتف بهم:

- عندي خبر لن تصدّقوه ولن تصوّروه...

فقهقه ياسين متسائلًا في سخرية:

- أيّ خبر يا عزيز عيني؟

كشفت هذه الجملة الغشاوة عن عينيه كأنها نور شمس فجأة في الظلام فرأى الوجوه على ضوئها مفصحة ناطقة، بيد أنّ علمه برؤيتهم لمغامرته عوضه عمّا ضاع من فرصة إدهاشهم بحديثه العجيب فأغرق

في الضحك وهو يضرب ركبتيه بكفيه، ثمّ قال وهو يغالب الضحك:

- أرايتموني حقًا...؟

عند ذاك جاء صوت أمّ حنفي وهي تقول بنبرات متشكّية:

- كان الأفضل أن يروا تعاسي... علام هذا الفرح كلّ بعد أن سيّبت مفاصلي؟... حادثة أخرى كهذه والله يرحمني...

لم تكن قد خلعت ملاءتها فبدت كزكية فحم متنفخة، يعلو وجهها الشحوب والإعياء وتلوح في عينها نظرة استسلام غريبة، فسألتها أمانة:

- ماذا حدث؟... ماذا دعاك إلى الصراخ؟...

لقد لطف الله بنا فلم نشهد شيئًا مفرعًا...

فأسندت أمّ حنفي ظهرها إلى ضلفة الباب وأخذت تقول:

- حدث ما لن أنساه يا ستي... كنّا عائدتين وإذا بشيطان من هؤلاء الجنود يقفز أمامنا ويشير إلى سيّدي كمال ليذهب إليه ففزع سيّدي وجرى إلى درب قرمز، ولكن جنديًا آخر اعترض سبيله فانحرف إلى بين القصرين وهو يصرخ فغاص قلبي من الخوف وجعلت أستغيث بأعلى صوتي وعيناي لا تفارقانه وهو يجري من جنديّ إلى جنديّ حتى أحاطوا به... كدت أموت من شدّة الخوف وزاغ بصري فلم أعد أرى شيئًا، وما أدري إلّا والناس قد اجتمعوا حولي ولكنّي لم أكفّ عن الصراخ حتى قال لي عمّ حسين الحلاق: «ربّنا يكفيه شرّ أولاد الحرام. وحدي الله... إنهم يلاطفونه...» آه يا ستي لقد حضرنا سيّدنا الحسين ودفع عنّا الشرّ...

فقال كمال معترضًا:

- لم أصرخ أبدًا...

فضربت أمّ حنفي صدرها بكفّها قائلة:

- لقد ثقب صراخك أذنيّ حتى جئتني...

فقال بصوت منخفض كالمعتذر:

- ظننتهم يريدون قتلي، ولكنّ أحدهم جعل يصفر لي ويسرّب كتفي ثمّ أعطاني (وهنا جسّ جييه)

- شيكولاتة فذهب عني الخوف... .
- زابل أمينة السرور، لعلّه كان سرورًا زائفًا متعجلًا، الحقيقة التي يجب ألا تغيب عنها هي أنّ الفزع ركب كمال دقائق، وأنه يجب أن تدعو ربّها طويلًا كي ينجّيه من عواقبه، لم تكن ترى في الفزع مجرد شعور عابر، كلّ... . إنّه شعور شاذّ تكتنفه حالة غامضة تأوي إليها العفاريث كما تأوي الخفافيش إلى الظلام، فإذا أحاط بشخص - خصوصًا الصغار - مسّه بضرّ سيئ العاقبة، لذلك فهو يستوجب في نظرها مزيدًا من العناية والحيلة، تلاوة من القرآن كانت أم بخورًا أم حجابًا، قالت بحزن:
- أفزعوك! قاتلهم الله... .
- وقرأ ياسين ما يدور في خاطرها... . فقال مداعبًا:
- الشيكولاتة رقيقة ناعمة للفزع... . (وخطبًا كمال)... هل دار الحديث بالعربي؟
- رحّب كمال بالسؤال لأنّه فتح له مرة أخرى أبواب الخيال والغامرة، مشتتًا لآئه من مضايقات الواقع، فقال وقد استعادت أساريه انبساطها:
- كلّموني بعربي غريب... ليتك سمعته بنفسك! وراح يحاكي طريقتهم في الكلام حتّى ضحك الجميع، حتّى أمّه ابتسمت... فعاد ياسين يسأله وكان يغبطه:
- ماذا قالوا لك؟
- كلامًا كثيرًا... ما اسمك، أين بيتك، أتحبّ الإنجليز؟
- فهمني ساخرًا:
- وبم أجبتهم على هذا السؤال الفريد؟
- فرمق أخاه كالمرتدّد... ولكنّ ياسين أجاب عنه قائلاً:
- طبعًا قال إنّه يحبّهم... ماذا كنت تريد أن يقول؟... .
- على أنّ كمال استطرد يقول متحمّسًا:
- ولكنّي قلت لهم أيضًا أن يعيدوا سعد باشا. فلم يتمالك فهمي أن ضحك عاليًا... وسأله:
- حقًا!... وماذا قالوا لك؟
- فقال كمال مسترّدًا ارتياحه بضحك أخيه:
- أمسك أحدهم بأذني وقال لي «سعد باشا نو...».
- فعاد ياسين يتساءل:
- وماذا قالوا أيضًا؟
- فقال كمال ببراءة:
- سألوني... ألا يوجد بنات في بيتنا؟ فتبدلت نظرة جدّية بينهم لأوّل مرّة منذ قدّم كمال، ثمّ سأله فهمي باهتمام:
- وماذا قلت لهم؟
- قلت لهم إنّ أبله عائشة وأبله خديجة تزوّجتا، ولكنّهم لم يفهموا كلامي فقلت ليس في البيت إلّا نينة، فسألوني عن معنى نينة فقلت!... .
- رمى فهمي أخاه ياسين بنظرة كأنّها يقول: «أرأيت كيف أنّ سوء ظنيّ في محلّه!» ثمّ ساخرًا:
- لم يعطوه الشيكولاتة لوجه الله... .
- فابتسم ياسين ابتسامة باهتة وغمغم قائلاً:
- ليس ثمة ما يدعو إلى القلق... .
- وأبى أن يترك هذه السحابة تغشى مجلسهم فسأل كمال:
- وكيف دعوك إلى الغناء؟
- فقال كمال ضاحكًا:
- في أثناء الحديث انطلق أحدهم يغني بصوت منخفض، فاستأذنتهم في أن أسمعهم صوتي... .
- فقهقه ياسين قائلاً:
- يا لك من فتى جريء!... ألم يعاودك الخوف وأنت بين أرجلهم؟
- فقال كمال في مباهاة:
- أبدًا... (ثمّ بتأثر)... ما أجملهم!... لم أر أجمل منهم من قبل. عيون زرق.. وشعر من ذهب... وبشرة ناصعة البياض... كأنّهم أبله عائشة!
- وجرى فجأة إلى حجرة المذاكرة ورفع رأسه إلى صورة لسعد زغلول ثبتت في الجدار إلى جانب صورة الخديو ومصطفى كامل ومحمّد فريد... ثمّ عاد وهو

يقول:

- إنهم أجل من سعد باشا كثيرًا...

فهز فهمي رأسه كالأسف وقال:

- يا لك من خائن...! اشتروك بقطعة من الشيكلانية... لست صغيرًا ليغفر لك هذا القول، من مدرستك من يستشهد كل يوم، خيبة الله عليك...

وكانت أم حنفي قد أحضرت الموقد والكنجة والفناجين وعلبة البن... وأخذت أمينة تهنئ القهوة للجلسة التقليدية، عاد كل شيء إلى أصله إلا ياسين فقد عاود التفكير في زوجه الغاضبة، على حين انتحى كمال جانبًا وأخرج الشيكلانية من جيبه وراح ينزع عنها الغلاف الموزد اللامع، بدا أن تعنيف فهمي ضاع في الهواء إذ لم يكن في قلبه وقتذاك إلا الرضى والحب...

٦٠

تعقدت مشكلة ياسين الزوجية فبلغت درجة من الخطورة لم يتوقعها أحد، وما يدري السيد أحمد إلا ومحمد عفت قادم عليه في الدكان في اليوم التالي لالتجاء زينب إلى بيته، ثم قال قبل أن يسترده يده التي شد عليها السيد بالسلام:

- يا سيد أحمد... جئتك برجاء... يجب أن تطلق زينب اليوم قبل الغد إن أمكن...

بهت السيد، أجل قد ساء سلوك ياسين أكبر إساءة، ولكنه لم يتصور أن يبعث رجلًا فاضلاً كالسيد محمد عفت إلى المطالبة بالطلاق، لم يتصور أن تدعو هذه «المفوات» إلى الطلاق مطلقًا، بل لم يحجر له على بال أن تقيء المطالبة بالطلاق من ناحية الزوجة أبدًا، فخيّل إليه أن الدنيا انقلبت رأسًا على عقب، وأبى أن يصدق أن محدثه جاد في طلبه فقال بلهجته اللطيفة التي طالما استأسرت قلوب أصدقائه:

- ليت الإخوان كانوا معنا ليشهدوا عليك وأنت تقذفني بهذه اللهجة القاسية...! أصغ إلي... باسم صداقتنا أمنعك من أن تجري للطلاق ذكرًا على

لسانك...

ثم نفرّس في وجهه ليسبر أثر كلامه فيه، ولكنه وجدته متجهّماً كالحما ينذر بالشرّ والتصميم، فبدأ يستشعر الخطورة والتشاؤم... دعاه إلى الجلوس فجلس وما تزداد صورته إلا ظلامًا. إنه يعرفه حق المعرفة، عنيد شديد المراس إذا ركب الغضب كفر بالموءة والمجاملة فتمزقت على سنان حدّته أسباب القربى والعطف جميعًا، قال السيد:

- وحّد الله... ولتحدّث في هدوء...

فقال محمد عفت وكأنه يقبس لهجته من نار الغضب الذي توهّج به حدّاه:

- صداقتنا في حرز، فلندعها جانبًا... ابنك ياسين لا يعاشر، تحققت من هذا بعد أن عرفت كل شيء، كم تصبّرت المسكينة!... حضنت همومها طويلاً، أخفت عني كل شيء، ثم بثّتها جملة حين تصدّع صدرها... يسهر طول الليل ويعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرًا، أهانها ولفظها، ثم ماذا كانت عقيب صبرها الطويل؟! أن تضبطه في بيتها مع خادماتها! (ويصق على الأرض)... جارية سوداء؟... بنتي لم تخلق لهذا... كلاً وربّ السماوات، أنت أعرف الناس بمنزلتها عندي، كلاً... وربّ السماوات، لا كنت محمد عفت إذا سكّت على هذا...

قصة معادة، ولكن ثمة جديدًا صدمه حتى زلزله هو قوله إن ياسين «يعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرًا»!... أعرف طريق الحانة أيضًا؟!... متى؟... كيف!... آه ليس في الوقت متسع للتفكير أو الانزعاج، ليخفّف انفعاله كلّ، الساعة تتطلب هدوءًا وضبطًا للنفس، يجب أن يملك الموقف ليتفادى استفحال الشر... قال بنبرات أسيفة:

- إن ما يحزنك يحزني أضعافًا، ومن سوء الحظ أن سوء من السوءات التي حدّثني عنها لم تتصل لي بعلم أو تحيّر لي على بال، اللهم إلا الحادثة الأخيرة وقد أدّبت عليها تأديبًا لا يستحيه لنفسه أب غيري، ما عسى أن أصنع؟... لقد أخذته بالتأديب العنيف منذ كان



لا يتسامح من ذرة غبار إذا مسّت لها ظفراً؟...  
لكنّه رغم هذا كلّه تعدّر عليه أن يقيس الأمور بغير  
مقياسه، وكان يفاخر دائماً، بأنّ محمّد عفت على فظاعة  
غضبه إذا غضب، لم يحتدّ عليه ولو مرة واحدة طوال  
معاشرتهما المديدة!... قال متسائلاً:

- رويدك، ألا ترى أنّ مبادئنا واحدة وإن اختلفت  
التفاصيل؟ جارية سوداء أو عالة... أليست كلتاهما  
أمرأة؟

فانتفخت أوداج محمّد عفت وضرب حافة المكتب  
بقبضته... وانفجر قائلاً:

- أنت لا تعني ما تقول! الخادمة خادمة والسيدة  
سيّدة، لماذا لا تعشق الخادِمات إذن؟! لم يشابه ياسين  
أباه، إني آسف لكون ابنتي حبلى، كم أكره أن يكون  
لي حفيد تجري في دمه القذارة!...

وخزته الجملة الأخيرة فغضب، ولكنّه استطاع أن  
يغلّق قلبه على غضبه بقوة حلمه الذي يحبوه أصدقاؤه  
وأحبابه، حلم بين الأصدقاء لا يعادله في قوّته إلّا  
غضبه بين آله... ثمّ قال بهدوء:

- أقترح عليك أن تزجّل الحديث إلى وقت  
آخر...

فقال محمّد عفت محتدّاً:

- أرجو أن تحقّق رجائي الساعة!...

آه... لقد بلغ به الامتناع حدّاً لم يكن الطلاق  
نفسه معه بالحلّ المستكره ولكنّه كان يشفق على صداقة  
العمر من ناحية، وتعرّ عليه الهزيمة من ناحية أخرى،  
أليس هو الرجل الذي يتشفع به الناس ليفضّ  
الخصومات وليصل ما انقطع من المودّات  
والزيجات؟... فكيف تحلّ به الهزيمة وهو يدافع عن  
ابنه فيرضى بحكم الطلاق؟!... أين حلمه؟...  
أين كياسته؟... أين لباقته؟...

- لقد أصهّرت إليك لأوثق أسباب الصداقة  
بيننا... فكيف أقبل أن أعرضها للوهن؟...

فقال الرجل بإنكار:

- صداقتنا في حرزنا... لسنا أطفالاً، ولكن  
كرامتي لا يمكن أن تمسّ...

صبيّاً، ولكن وراء إرادتنا دنيا وشياطين تهزّأ من  
تصميمنا وتفسد علينا نوايانا الطيّبة.

قال محمّد عفت وهو يتحاشى عيني السيّد بالنظر إلى  
المكتب:

- لم أجئ لأوجّه إليك لوماً أو أحلّك تقصيراً، أنت  
كاتب مثالي يعتذري ولا يجاري... ولكن هذا لن يغيّر  
من الحقيقة المحزنة، وهي أنّ ياسين كان غير ما أردت  
له أن يكون، وأنّه بحالته الراهنة لا يصلح للحياة  
الزوجيّة.

فقال السيّد في عتاب:

- رويدك يا سيّد محمّد!...

فقال الرجل مستدرّكاً ولكن مصمّماً على رأيه:

- على أيّ حال لن يصلح زوجاً لابنتي، سيجد من  
تقبله على علاّته ولكن غيرها، لم تخلّق ابنتي لهذا...  
أنت أدري الناس بمنزلتها عندي...

أدنى السيّد رأسه من رأس الرجل وقال بصوت  
منخفض... وكأنّما يداري ابتسامة:

- ليس ياسين بين الأزواج بنادرة، فكم منهم من  
يسكر ويعريد ويعمل البدع!

فقطّب محمّد عفت لينفي عن نفسه شبهة الاستجابة  
لهذا الكلام الموحى بالدعابة... وقال بحفّاء:

- إن كنت تشير إلى جماعتنا أو إلّئ أنا خاصّة، فالحقّ  
أنّي أسكر وأعريد، وأعشق، ولكنّي... بل نحن  
جميعاً، لا نوحل في القاذورات!... جارية  
سوداء!... أهذه التي قضى على ابنتي بأن تتخذها  
ضرة؟!... كلّاً... كلّاً وربّ السماوات... لن  
تكون له ولن يكون لها...

أدرك السيّد أحمد أنّ محمّد عفت - ربّما كابنته سواء  
بسواء - مستعدّ لأن يعفو عن أمور كثيرة، إلّا أن يخلط  
ياسين بين كرميته وبين جاريته السوداء، إنّه يعرفه  
تركياً في عناد البغل، ثمّ ورد على ذهنه قول صديقه  
إبراهيم الفار يوم كاشفه بنبّته في خطبة زينب لابنه  
ياسين، فقد قال له: «أصيلة بنت أصيل، محمّد أخونا  
وحبيبنا، ابنته ابنتنا، ولكن هل فكّرت رويداً في منزلة  
الفتاة من نفس أبيها... هل فكّرت في أنّ محمّد عفت

فقال السيد برقة:

- ماذا عسى أن يقول الناس عن زيجة انقطعت ولما تنتم عامها الأول؟

فقال محمد عفت بعجرفة:

- لن يرجع عاقل العيب إلى ابنتي...

آه... مرة أخرى... ولكنه تلقاها بنفس الحلم، بدا وكأن استيائه لعجزه عن التوفيق قد غطى استيائه من تهوّر الرجل الغاضب فلم يهتم بالرصاص المنطلق عليه اهتمامه بتبرير إخفاقه... راح يعزّي نفسه بأن الطلاق بيده هو وحده، إذا شاء منحه وإذا شاء منعه، محمد عفت يعلم ذلك حق العلم، لذلك جاء يستوهِبه إياه باسم الصداقة التي لا شفيح له غيرها، فإذا قال لا فلا رادّ لكلمته، وسترجع الفتاة إلى ابنه طوعاً أو كرهاً... ولكن تسمي الصداقة القديمة في خبر كان، أما إذا قال نعم فسيقع الطلاق ولكن تصان الصداقة ويعترف له بالجميل، وليس من العسير أن يتذرّع بكل أولئك في المستقبل لوصل ما انقطع، وإذن فالطلاق وإن يكن هزيمة إلا أنه هزيمة مؤقتة تتضمن تسامحاً ونبلاً غير منكورين وقد تنقلب فوزاً بعد حين. وما إن اطمأن إلى سلامة موقفه ولو بعض الشيء حتى شعر بالرغبة في معاتبته على ما فرط في حقه... فقال بلهجة ذات معنى:

- لن يكون الطلاق إلا بموافقتي... أليس كذلك؟... بيد أنني لن أنبذ رجاءك ما دمت مصرّاً عليه، إكراماً لك، إكراماً للصداقة التي لم ترع لها حقاً في مخاطبتي...

فتنهّد محمد عفت... إما ارتياحاً للنهاية المنشودة أو احتجاجاً على عتاب صديقه أو للإثنين معاً، ثم قال بلهجة قاطعة خلّت من حدّة الغضب ولأول مرة:

- قلت ألف مرة إن صداقتنا في حرز...! إنك لم تسئ إليّ قط، على العكس من ذلك فإنك تكسرمني بتحقيق رجائي وإن كرهته...

فردّد السيد قوله محزوناً:

- نعم... وإن كرهته...

ثار حنقه حالماً غاب الرجل عن ناظره. انفجر

الغيط المكبوت فالتهم نفسه ومحمد عفت وياسين، ياسين خاصة، ثم تساءل: ترى هل يمكن أن تبقى الصداقة في حرز حقاً فلا يصيبها رشاش الحوادث المتوقعة؟... آه. لم يكن ليضنّ بنفيس في سبيل صون حياته عن مثل هذه الهزّة القاسية... لكنه العناد التركي، لكنه الشيطان، بل لكنه ياسين، أجل ياسين دون غيره... قال له بغضب وازدراء:

- كذّرت صفو ودّ لم تكن الأيام لتكذّره ولو اجتمعت له...

ثم قال له بعد أن أعاد على مسمعيه حديث محمد عفت:

- خيّت أملي فيك فحسبي الله ونعم الوكيل، ربّيتك وأدبتك ورعيتك... ثم انجلي تعبي كله عن ماذا؟... سكير صعلوك تسوّل له نفسه الاعتداء على أحقر الخادماوات في بيت الزوجيّة، لا حول ولا قوة إلا بالله، ما كنت أتصوّر أن يخرج من حضناتي ابن على هذه الصورة فالأمر لله من قبل ومن بعد، ما عسى أن أصنع بك؟... لو كنت قاصراً لكسرت دماغك، ولكن لتكسرّتها الأيام، ها أنت تنال جزاءك الحقّ فتتبرأ منك الأسرة الكريمة وتبيعك بأبخس الأثمان!...

لعلّه وجد نحوه بعض الرثاء، بيّد أنّ سخطه غلب ثم استحال شعوره كلّ ازدراء، لم يعد يملأ عينيه رغم فتوّته وجماله وضخامته، يوحد في القذارة كما قال محمد عفت قاتله الله، وعجز عن كبح جماح امرأة، ما أصغره، سرعان ما لحقت به الهزيمة التي لم يتّجّع هو نفسه من هوانها من جرّاء طيشه. ما أحقره، ليسكر ويعربد وليعشق تحت شرط أن يظّل السيد المطاع، أما أن ينهزم على تلك الصورة المخزية فما أحقره، لم يشابه أباه كما قال أيضاً محمد عفت قاتله الله، إنّي أفعل ما أشاء ولكيّ أظّل السيد أحمد وكفي، حكمة رائعة تلك التي ألهمني أن أنشئ الأولاد على مثال فريد للاستقامة والطهارة، فإنّه لما يشقّ أن ينهجوا نهجي ويحفظوا في نفس الوقت بالكرامة والاستقرار، ولكن وأسفاه ضاع جهدي هباء مع ابن هنيء!...

- وهل وافقت يا أبي؟ ...

تردد صوت ياسين كالخشجرة ... فأجابه بخشونة قائلًا:

- نعم، إبقاء على صداقة قديمة ولأنه أوفى حل في الوقت الحاضر على الأقل.

جعلت يد ياسين تنقبض وتنسبط في حركة آلية عصبية، كأنما كانت تشفط الدم من وجهه حتى انقلب شديد الشحوب، شعر بهوان لم يشعر بمثله إلا فيما كابد من سلوك أمه، حموه يطالب بالطلاق! ... أو بمعنى آخر زينب تطالب بالطلاق أو على الأقل توافق عليه! ... أيها الرجل وأيتها المرأة! ليس عجيبي أن ينبد الإنسان حذاء أما أن ينبد حذاء صاحبه! كيف رضي أبوه له بهذا الخزي الذي لم يسمع بمثله من قبل! ... حذج أباه بنظرة حادة وإن عكست ما يعتلج في صدره من أثار الاستغائة، ثم قال بلهجة حرص الحرص كله على أن ينقيها من أي أثر للاحتجاج أو الاعتراض، كأنما يريد بها أن يذكره بما عسى أن يكون أنسب:

- ثمة طريقة لمعالجة الزوج الناشز ...

شعر السيد بشعور ابنه فادركه التأثر، ولذلك لم يبخل عليه ببعض ما يدور في نفسه ... فقال له:

- أعلم ذلك ... ولكني اخترت أن نكون من الكرماء. محمد عفت عقل تركي حجري ولكن قلبه من ذهب، هذه الخطوة ليست الأخيرة، ليست النهاية، لم أغفل مصلحتك وإن كنت لا تستأهل خيرا، دعني أنصرف كما أشاء ...

كما تشاء! ... منذًا يرد لك مشيئة! تزوجني وتطلقني ... تخيبي وتخيتي، لست هنا، خديجة عاتشة فهمي ياسين ... الكل واحد، الكل لا شيء، أنت كل شيء ... كلا ... لكل شيء حد، لم أعد طفلاً، رجلاً مثلك سواء بسواء، أنا الذي أقرر مصيري، أطلق أو أودعها بيت الطاعة، تراب حداثي بمحمد عفت وزينب وصداقتكما ...

- ما لك لا تتكلم؟ ...

فقال دون تردد:

- أمرك يا أبي ...

أي عيشة وأي بيت وأي أب، زجر وتأديب ونصائح، ازجر نفسك ... أدب نفسك ... انصح نفسك، أنسيت زبيدة؟ ... وجليدة؟ ... والغناء والشراب؟ ثم تطالعنا بعمامة شيخ الإسلام وسيف أمير المؤمنين، لم أعد طفلاً، اغتن بالقصر ودعني وشأني، تزوج ... أمرك يا فندم ... طلق ... أمرك يا فندم ... ملعون أبوك.

٦١

خفت حدة المظاهرات شيئاً ما في حي الحسين بعد احتلال الجنود الإنجليز له فأمكن للسيد أحمد أن يستأنف ممارسة عادة قديمة انقطع عنها مضطراً إلى حين، أمكنه أن يصطحب أبناءه إلى مسجد الحسين لتأدية صلاة الجمعة ... عادة قديمة دأب عليها منذ عهد بعيد ... كان يدعو ابنه إليها حالما يبلغ صباه ليوجه قلبه إلى العبادة مبكراً، مستوهياً من ورائها البركة لنفسه ولأبنائه وللأسرة جميعاً، ربما كانت أمينة وحدها التي لا ترتاح إلى تحرك القافلة في نهاية كل أسبوع حاملة رجالها، ثلاثة رجال كالجبال طولاً وعرضاً إلى فتوتهم وإشراقهم، كانت تتبعهم ناظرها من خصائص المشرية فيخيل إليها أنهم ملقني الأنظار فتجزع وتدعو الله أن يقيهم شر العين، وما ملكت يوماً أن أفضت بمخاوفها إلى السيد فبدا وكأنه تأثر لتحذيرها حيناً، بيد أنه لم يستسلم للخوف طويلاً وقال لها: «إن بركة الفريضة التي نذهب لتأديتها حقيقة بأن نحفظنا من كل شر».

وكان فهمي يلبي دعوة الجمعة ببشاشة قلب أولع بتأدية الفرائض منذ الصغر، مطيعاً في ذلك - قبل إرادة أبيه - عاطفة دينية صادقة، تمتاز إلى صدقها بقدر من الاستنارة لا بأس به، استمده مما اطلع عليه من آراء أحمد عبده وتلاميذه ... لذلك كان الوحيد في الأسرة الذي يقف من إيمانها بالتعاونيد والرقى والأحبة وكرامات الأولياء موقف المتشكك، وإن أبت عليه دماثة خلقه أن يجهر بتشككه أو يعلن استهانته،

بل كان يتقبل حجاب الشيخ متولي عبد الصمد الذي يجيء به أبوه بين حين وآخر برضى ظاهري. أما ياسين فكان يلبي دعوة أبيه لأنه لم يكن من تلبيتها بد، لعله لو ترك شأنه ما فكر يوماً في أن يدس جسمه الضخم في زحمة المصلين، لا عن تزعزع في العقيدة، ولكن استهانة وتكاسلاً... لذا كان ليوم الجمعة عنده هم يكابده مع مطلع الصباح، فإن حان وقت الذهاب إلى الجامع ارتدى بذلته في شيء من التذمر، ثم يسير وراء أبيه كالأسير، ولكن كلما اقترب من الجامع خطوة تخفف من تذمره وريداً، حتى يدخل الجامع منشرح الصدر فيؤدي الصلاة ويدعو الله أن يغفر له ويعفو عن ذنوبه، دون أن يسأله التوبة كأنما يشفق في أعماقه أن يستجاب دعاؤه فينقلب زاهداً في اللذات التي يجبها حباً لا يرى للحياة بدونه معنى. كان يعلم علم اليقين أن التوبة واجبة، وأن مغفرة لن تكتب له بدونها، ولكنه كان يرجو أن تحيى في الوقت «المناسب» حتى لا يخسر الدارين، ولذا كان على تكاسله وتذمره يحمى في النهاية الظروف التي تدفعه إلى تأدية فريضة هامة كفريضة الجمعة يمكن - عند الحساب - أن تمحو بعضاً من سيئاته وتخفف من أوزاره، خصوصاً وأنه لا يكاد يؤدي غيرها فريضة.

أما كمال فلم توجه إليه الدعوة إلا حديثاً. مذ جاوز العاشرة، نهض إلى تلبيتها في زهو وخيلاء وفرح، شعر شعوراً غامضاً بأنها تتضمن اعترافاً بشخصه، وأنها تمنحه مساواة من نوع ما مع فهمي وياسين وأبيه نفسه، ثم سره على وجه الخصوص أن يسير في ركاب أبيه آمناً دون أن يتوقع من ناحيته شراً، وأن يقف في الجامع إلى جانبه على قدم المساواة مؤمناً جميعاً بإمام واحد. بيد أنه كان يستغرق في صلاته اليومية - في البيت - استغراقاً لا يظفر بمثله في صلاة الجمعة بالنظر إلى ما يعتره من ارتباك لقيامه وسط خلق لا يحيط بهم حصر، ولإشفاقه من أن تند عنه هفوة فتلتقطها إحدى حواس أبيه، إلى أن شدة شعوره بالحسين - الذي يحبه أكثر من نفسه - وهو في مسجده كانت تحول بينه وبين التوجه الخالص لله كما ينبغي للمصلي...

هكذا رآهم طريق النحاسين مرة أخرى وهم يحثون الخطى إلى بيت القاضي، السيد في المقدمة وياسين وفهمي وكمال وراءه صفاء، حتى اتخذوا مجالسهم في الجامع وراحوا ينصتون إلى خطبة الجمعة بين رءوس مشرقة إلى المنبر في صمت شامل، لم يكن السيد على شدة إنصاته يكف عن الدعاء الباطني، وتوجه قلبه إلى ياسين خاصة، كأنما رآه بعدما لحق به من عثار الحظ أحق بالرحمة، فدعا الله طويلاً أن يصلح من شأنه ويقوم ما اعوج من أمره ويعوضه عما فقد خيراً... على أن الخطبة جبهته بمعاصيه، أخلت ما بينه وبينها فطالعتها وجهاً لوجه في حالة مرعدة من صوت الواعظ الجمهوري الرئاس الناقد حتى خيل إليه أنه يعنيه بالذات، وأنه يشد على أذنه صارخاً فيها بأعلى صوته، وأنه لا يستبعد أن يخاطبه باسمه قائلاً: «يا أحمد ازدرج... تطهر من الفسق والخمر وتب إلى الله ربك» فلم به قلق وضيق كما ألتما به يوم ناقشه الشيخ متولي عبد الصمد الحساب، وهو ما يقع له كثيراً عند سماع الخطبة فيسترسل في طلب الغفران والعفو والرحمة، ولكنه - كابنه ياسين - لم يكن يطلب التوبة وإن طلبها فبلسانه دون قلبه، يقول بلسانه «اللهم التوبة» على حين يقتصر قلبه على طلب الغفران والعفو والرحمة كأنهما ألتان موسيقيتان تعزفان معاً في أوركسترا واحد فتصدر عنهما نغمتان مختلفتان، لأنه لم يتصور أن يرى الحياة بغير العين التي يراها بها ولا أن تبدو له بغير الوجه الذي تبدو به، فإذا ألح عليه القلق والضيق المستوليان عليه نهض للدفاع عن نفسه... ولكنه يلقي دفاعه في صورة دعاء واستغفار فيقول «اللهم إنك أعلم بقلبي وإيماني وحبي، اللهم زدني استمساكاً بتأدية فرائضك وقدرة على صنع الخير، اللهم إن الحسنه بعشر أمثالها، اللهم إنك أنت الغفور الرحيم»... وبهذا الدعاء تعاوده الطمأنينة وريداً.

لم تكن لياسين مثل هذه المقدرة على التوفيق أو أنه لم يشعر قط بحاجة إليها، لم تكن موضع تفكيره يوماً، يهيم بالحياة كما يشتهي ويؤمن بالله كما يؤمن بوجوده هو، ثم يستسلم للتيار دون مقاومة أو ممانعة، قرعت

ذاك انتثر سلك النظام، استردت الحرية أنفاسها، نهض كل لوجهته، منهم من قصد الضريح للزيارة ومنهم من اتجه نحو الأبواب للخروج ومنهم من تلثت للحديث أو تريث حتى يخف الزحام... فاختلطت تياراتهم أيما انتشار، أزفت الساعة السعيدة التي مني كمال بها... ساعة الزيارة ولثم الجدران وقراءة الفاتحة إصالة عن نفسه وإنابة عن أمه كما وعداها، بدأ يتحرك ببطء في ركاب أبيه... وما يدري إلا وشاب أزهرى يبرز من الزحمة فجأة فيعترض سبيلهم في حركة عنيفة لافتة للأنظار، ثم بسط ذراعيه لينحى الناس جانباً ومضى يتقهقر أمامهم وهو يتفحص ياسين بنظرات ثابتة مريبة وقد عبس وجهه وتطايرت نار الغضب من صفحته المكفهرة. عجب السيد له فجعل يردد بصره بينه وبين ياسين، على حين بدا ياسين أشد عجباً فراح بدوره يردد بصره بينه وبين أبيه متسائلاً، ثم انتبه أناس إلى المشهد فركزوا فيه أنظارهم مترقبين في دهشة واستطلاع وعند ذاك لم يتالك السيد أن خاطبه متسائلاً في استياء:

- ما لك يا أخي تنظر إلينا هكذا؟!!

فأشار الأزهرى إلى ياسين وصاح بصوت كالرعد:

- جاسوس!

نفذت الكلمة إلى صدر الأسرة كالرصاصة فدار رأسها وحملت أعينها وجدت في أماكنها، على حين جرت التهمة على الألسن فرددتها في فزع وحنق وأخذ الناس يتجمعون حولهم وأذرعهم تشتبك في حذر لتحصرهم في دائرة ما لها من منفذ، وكان السيد أول من تاب إلى وعيه، ومع أنه لم يفهم شيئاً مما يدور حوله... إلا أنه أدرك خطورة الصمت والانكماش فهتف بالشاب غاضباً:

- ماذا تقول يا سيدنا الشيخ؟... أي جاسوس

تعني؟!

ولكن الشاب لم يابه للسيد، فأشار مرة أخرى إلى ياسين وصاح:

- حذار أيها الناس، هذا الشاب الخائن جاسوس من جواسيس الإنجليز اندس بينكم ليتسقط الأنباء ثم

أذنيه كلمات الواعظ فتحرك صوته الباطني سائلاً الرحمة والمغفرة بطريقة آلية وفي طمأنينة شاملة دون أن يستشعر خطورة حقيقية، إن الله أرحم من أن يحرق مسلماً مثله بهفوات عابرة لا تؤذي أحداً من عباده، ثم هنالك التوبة... ستأتي «يوماً» فتمحو ما قبلها، واسترق نظره إلى أبيه وتساءل وهو يعرض على شفثيه كأنما يكتنم ضحكة نادرة مما عسى أن يدور بخاطره وهو ينصت بهذا الاهتمام البادي إلى الخطيئة... أهو يعاني العذاب كل صلاة جمعة أم تراه ينافق ويخادع?... كلاً... لا هذا ولا ذاك... إنه مثله - ياسين - يؤمن برحمة الله الواسعة، لو أن الأمر بالخطورة التي يصفه بها الواعظ لاختار أبوه إحدى السبيلين، استرق إليه نظرة أخرى فرآه كالجواد الكريم الجميل بين القاعدتين المتطلعين إلى المنبر، شعر نحوه بإعجاب وحب خالصين، لم يعد للحنق أثر في نفسه، ومع أن الغضب بلغ به مداه يوم الطلاق، حتى بث همه إلى فهمي قائلاً: «لقد خرب أبوك بيتي وجعلني أضحوكة بين الناس» إلا أنه تناسى الآن حنقه كما تناسى الطلاق والفضيحة وكل شيء، ثم هذا الواعظ نفسه ليس خيراً من أبيه... بل هو على وجه اليقين أمعن في الضلال، حدثه عنه مرة أحد الأصحاب في قهوة أحمد عبده فقال: «إنه يؤمن بشيئين... بالله في السماء وبالغلمان في الأرض، إنه من طراز حساس ترف عينه وهو في الحسين إذا تأوه غلام في القلعة، بيد أنه لم يحقد عليه لذلك، وعلى العكس وجد فيه كما وجد في أبيه ما يجد الجندي في الخنادق المحفورة في الخطوط الأمامية التي على العدو أن يقتحمها قبل أن يصل إليه.

ثم دعا الداعي إلى الصلاة فقام الرجال قومة واحدة، وقفوا صفوفًا متراصة ملأت صحن الجامع الكبير، صار المسجد أجساداً ونفوساً ذكراً كمال احتشادها مشهد المحمل في النحاسين واتصلت الأزياء في خطوط طويلة متوازية وحدتها البذل والجب والجلال، ثم انقلب الجمع جسماً واحداً تصدر عنه حركة واحدة مستشرقة قبله واحدة، وترددت التلاوات الهامسة في همهمة شاملة حتى أذن بالسلام... عند

- هذا السيد أحمد عبد الجواد من أهل النحاسين المعروفين... ولا يمكن أن يضم بيته جاسوسًا، فترثوا حتى تنجلي الحقيقة.

ولكن الأزهرى صرخ حانقًا:

- لا شأن لي بالسيد أحمد أو السيد محمد، هذا الشاب جاسوس مهما يكن من أمر أبيه، رأيت يضاحك الجلادين الذين زحوا القبور بأبنائكم.

وما عثم أن صاح أناس لا حصر لهم:

- ليضرب بالأحذية...

وسرت في المتجمهرين حركة عنيفة، فأقبل متحمسون من كل صوب ملوحين بالأحذية والمراكيب حتى شعر ياسين بالانسيار واليأس، دارت عيناه فيما حوله فلم تقعا إلا على وجه متحرش يفور بالغضب والبغضاء، والتصق السيد وفهمي بجانب ياسين بحركة غريزية كأنما ليدفعا عنه الأذى أو ليقاسماه إياه، وهما على حال من اليأس والقهر لم تكن دون ما يأخذ بخناقه، على حين انقلب انتحاب كمال صراخًا كاد يغطي على أصوات الثائرين. كان الأزهرى أول المهاجمين فرمى بنفسه على ياسين قابضًا على بنيقة قميصه ثم جذبه بعنف لينزعه من المأوى الذي لاذ به بين أبيه وأخيه حتى لا تخطئه الأحذية، ولكن ياسين قبض على معصميه مقاومًا ودخل السيد بينهما، ورأى فهمي أباه في الموقف المشير لأول مرة في حياته... فاستقره غضب شديد أذهله عما يحدث بهم من خطر، دفع الأزهرى في صدره دفعة قوية رذته إلى الوراء فصاح به متوعدًا:

- حذار أن تتقدم خطوة واحدة!

فصرخ الأزهرى وقد جرت جنونه:

- أدبواهم جميعًا...

عند ذلك علا صوت قوي يقول بلهجة أمرة:

- انتظر يا سيدنا الشيخ... انتظروا جميعًا...

فالتجهت الأنظار إلى الصوت، فإذا بأفندي شاب يبرز من بين الجموع إلى الدائرة المحصورة يتبعه ثلاثة في مثل سنه وزيه، تقدموا في خطوات ثابتة توسحي بالثقة والعزم حتى وقفوا بين الشيخ وذويه، تهامس

ينقلها إلى سادته المجرمين.

ركب الغضب السيد فتقدم من الشاب خطوة وصاح به غير متمالك نفسه:

- أنت تهرف بما لا تعرف، فلما أن تكون مجرمًا أو مجنونًا، هذا الشاب ابني لا خائن ولا جاسوس، كلنا وطنيون وهذا الحي يعرفنا كما نعرف أنفسنا.

فهز الشاب منكبيه استهانة وصاح بصوته الخطابي: - جاسوس إنجليزي حقير، رأيت بعيني رأسي مرارًا وهو يناجي الإنجليز عند بين القصرين، عندي شهود على ذلك، ولن يمرؤ على تكذبي... إني أمحده... ليسقط الخائن...

وتجاوبت في أركان الجامع ددمة غاضبة، تعالي الهتاف هنا وهناك «ليسقط الجاسوس»، وصاح غيرهم «فليؤدب الخائن».

ولاحت في أعين القريين نذر الوعيد تترصد بادرة أو إشارة كي تنفض على الفريسة، لعله لم يؤخر إقدامها إلا منظر السيد المؤثر الذي وقف لصق ابنه كأنما يتلقى عنه ما يتهذه من أذى، ودموع كمال الذي أغرق في الانتحاب، أما ياسين فقد وقف بين السيد وفهمي فاقد الوعي من الاضطراب والوجل، وجعل يقول بصوت متهدج لم يسمعه أحد:

- لست جاسوسًا... لست جاسوسًا... الله على صدق قولي شهيد...

ولكن الغضب بلغ بالناس مداه، فتجمهروا حول الدائرة المحصورة وهم يتدافعون بالمنكب ويتوعدون «الجاسوس» شرا، على أن صوتًا من وسط الزحام ارتفع هاتفًا:

- تمهلوا يا سادة... هذا ياسين أفندي كاتب مدرسة النحاسين...

فانطلقت أصوات كالهدير:

- مدرسة النحاسين أو الحدادين فليؤدب الخائن. وكان رجل يشق طريقه بين الأجسام بصعوبة ولكن بعزم لا يقهر، فما بلغ الصف الأمامي حتى رفع يديه وهو يزعم: «اسمعوا... اسمعوا». ولما هدأت الأصوات قليلًا قال وهو يومئ إلى السيد أحمد:

كثيرون متسائلين «بوليس... بوليس؟» بيد أن التساؤل انقطع حينما مدّ الأزهرى يده إلى يد قائد الجماعة وشدّ عليها بحرارة، ثمّ سأل الأفندي الأزهرى بنبرات حاسمة:

- أين هذا الجاسوس؟

فاشار الشيخ إلى ياسين بازدرآء وتقرّز، فالتفت الشاب إليه وثبت عليه عينيه متفحصاً إياه بدقّة وقسوة، وقبل أن ينبس بكلمة تقدّم فهمي خطوة إلى الامام كأنما ليسترعي انتباهه فلمحه الآخر... وسرعان ما اتّسعت عيناه دهشة وإنكاراً فغمغم قائلاً:

- أنت... .

فابتسم ابتسامة شاحبة وقال بلهجة لا تخلو من تهكم:

- هذا الجاسوس أخي!

فالتفت الشاب إلى الأزهرى متسائلاً:

- أأنت متأكد مما تقول؟

فبادره فهمي قائلاً:

- ربّما صدق في قوله... . إنّه رآه يحدث الإنجليز ولكن أساء التفسير أيّما إساءة، إنّ الإنجليز معسكرون أمام بيتنا وهم يتعرّضون لنا في الذهاب والإياب فتتورّط أحياناً في محادثتهم على كره... . هذا كلّ ما هنالك.

وهّم الأزهرى بالكلام ولكنّ الشاب أسكته بإشارة من يده، ثمّ خاطب الجمع قائلاً وهو يضع يده على منكب فهمي:

- هذا الشاب من الأصدقاء المجاهدين، كلانا يعمل في لجنة واحدة فكلامه عندي مصدّق... . أخلوا سبيلهم.

لم ينبس أحد بكلمة، انسحب الأزهرى بلا تردّد ومضى الناس يتفرّقون، صافح الشاب فهمي ثمّ ذهب يتبعه رفاهه، ربّت فهمي على رأس كمال حتّى كفّ عن البكاء، ساد الصمت فأخذ كلّ يضمّد جراحه، انتبه السيّد إلى وجوه نفر من معارفه قد أحاطوا به وراحوا يواسونه ويعتذرون إليه عن الخطأ الكبير الذي وقع فيه الأزهرى ومن ضلّ به من الناس، ويؤكدون له أنّهم لم

في الطريق استردّ أنفاسه، فداخله ارتياح لابتعاده عن الناس الذين شاركوها في «الحادث» ولو بمجرّد الرؤية. كره وقتذاك كلّ شيء وراءه وقذفه باللعنات، لم يكذب يرى من الطريق الذي يسير فيه شيئاً، فتبادل التحيّة مرّتين مع اثنين من معارفه على نحو مقتضب متكلّف لم يعهد فيه من قبل، تركّز شعوره في ذاته - ذاته الجريحة - وسرعان ما فار بالغضب... . كان أحبّ إلّى أن تنتهي الحياة من أن أقف ذلك الموقف المزري، كالأسير بين طغمة من اللثام، ولهذا المجاور المقفل مدّعي الوطنية الجوعان تهجم عليّ بكلّ وقاحة، لم يترع لي حرمة سنّ أو مهابة، لم أخلق لهذا، ليس «أنا» الذي يهان بتلك الكيفيّة، وبين أنبساطي... . لا تعجب... . أناؤك هم أصل البلوى... . هذا الثور ابن المره لن يعفّيك من متاعبك أبداً. فقس الفضائح في بيتي وأوقع بيني وبين أعزّ الأصدقاء، ثمّ توجّ عامنا بالطلاق... . لم يكفه هذا كلّ، كلّاً. ابن هنيّة لا بدّ أن يسامر الإنجليز جهازاً كي أدفع أنا الثمن للسفلة المتهجمين، اذهب بهم إليها كي يكمل متحف عشاقها بالإنجليز والأستراليين.

- يبدو لي أنّي لن أخلص العمر من متاعبك؟

نذت عنه هذه الجملة بحدّة، بيد أنّه قاوم رغبته في تأديبه لأنّه رغم غضبه قدّر حاله الذي يرثى لها، رآه ذاهلاً شاحباً متوتّعاً فلم تطاوعه نفسه في الهجوم عليه، حسبه الآن ما حاق به، ليس وحده الذي يتحفه بالمتاعب، هنالك البطل، ولكن فلنؤجّل همّه حتّى نفيق من متاعب الشور، شور في البيت، في الحانة... . ثور أمام أمّ حنفي ونور، أمّا في المعركة فهو رطل خرج لا فائدة منه ولا عائدة، يا أولاد الكلب!

الله يقطع الأولاد والخلف والبيوت، آه... لمأذا تسوقني قدماي إلى البيت؟... لم لا أتناول لقمتي بعيداً عن الجوّ المسموم؟ ستولول هي الأخرى إذا علمت بالخبر، لست في حاجة إلى مزيد من القرف، إلى الدهان... سأجد حتماً صديقاً أقصّ عليه رزقي وأشكوا إليه همتي... كلاً... لديّ متاعب أخرى لا تقبل التأجيل أكثر من هذا. البطل، مصيبة جديدة يجب أن نجد لها علاجاً، إلى الغداء المسموم، ولولي... ولولي... ولولي... ملعون أبوك أنت الأخرى.

لم يكذ فهمي يغيّر ملابسه حتّى دُعي إلى مقابلة والده، فلم يملك ياسين على خموده وكربه إلّا أن يغمغم قائلاً:  
- جاء دورك...

فتساءل فهمي متجاهلاً المعنى الكامن وراء ملاحظة أخيه:

- ماذا تعني؟

فضحك ياسين - أجل وسعه أخيراً أن يضحك - وقال:

- انتهى دور الخونة وجاء دور المجاهدين...! لشّد ما تمّنى أن تغيب النعوت التي نعته بها صديقه في الجامع وراء ضجة الثورة وذوول الانفعال، ولكنّها لم تغب، ها هو ياسين يردّدها، ولا شك أنّ أباه يدعوه من أجل مناقشتها. تنهّد فهمي من الأعماق ثمّ ذهب، وجد السيّد مترّبّعاً على الكنبه يعبث بحبّات سبخته وفي عينيه نظرة تنمّ عن تفكير كثيب، فحيّاه بأدب جمّ ووقف على بعد مترين من الكنبه في خضوع وامتنال، وردّ الرجل تحيّة بحركة خفيفة من رأسه تدلّ على الضيق أكثر ممّا تدلّ على التحيّة، وكأنا تقول له: «إني أردّ تحيتك مرغماً كما تقضي اللياقة ولكن أدبك الزائف هذا لم يعد ينطلي عليّ». ثمّ حدّجه بنظرة متجهّمة ينبعث منها شعاع الارتباك كأنّه مصباح كشاف يفتش عن مخبئٍ بالظلام وقال بحزم:

- دعوتك لأعرف كلّ شيء، أريد أن أعرف كلّ شيء، ماذا قصد في لجنة واحدة؟ صارحني بكلّ شيء

دون تردّد.

ومع أنّ فهمي اعتاد في الأسابيع الأخيرة أن يواجه أخطاراً شتى، حتّى الطلقات النارية ألف أزيزها، إلّا أنّه لاقى تحقيق أبيه بقلب ما قبل الثورة، ركبته الرهبة وشعر بأنّه لا شيء، وتركّز تفكيره في تحاشي غضبه ونشّدان النجاة فقال برقة وأدب:

- الأمر بسيط جدّاً يا بابا، لعلّ صديقي بالغ في قوله كي ينتشلنا من ورطتنا.

فقال السيّد وقد نفذ صبره:

- الأمر بسيط جدّاً... عال... ولكن أيّ أمر هو؟... لا تخفّ عني أيّ شيء.

وكان فهمي يقلّب الأمر على مختلف وجوهه في سرعة خاطفة ليختار ما يصحّ قوله وتؤمن مغبّته... قال:

- سيّاه لجنة وهي لا تعدو أن تكون جماعة من الأصدقاء يتحدّثون كلّما اجتمعوا في الشؤون الوطنية.

فهتف السيّد مغنيّاً مخنقاً:

- ألّهذا استحققت لقب المجاهد...؟!

نطق صوت الرجل بالاستنكار العنيف كأنما عزّ عليه أن يحاول ابنه اللعب به... وارتسم الوعيد في تجعّدات عبوسته. فسارع فهمي - دفاعاً عن النفس - إلى الاعتراف بشيء ذي بال ليقنع أباه بأنّه امتثل لأمره كالمتّهم الذي يتطوّل بالاعتراف طمعاً في الرأفة... قال فيما يشبه الحياء:

- يحدث أحياناً أن نقوم بتوزيع بعض النداءات الحائّة على الوطنية...

فتساءل السيّد بانزعاج:

- المنشورات!... هل تعني المنشورات؟!

ولكنّ فهمي هزّ رأسه سلّماً، خاف أن يعترف بهذا الاسم الذي يقرن في البلاغات الرسمية بأقصى العقوبات، وقال بعد أن وجد صيغة مقبولة تخفّف من خطورة اعترافه:

- ليست إلّا نداءات تحثّ على حبّ الوطن.

ترك الرجل السبحة تسقط من يده إلى حجره، وراح يضرب كفّاً على كفّ ويقول وهو لا يتألّك نفسه



من الانزعاج:

- أنت من مؤرعي المنشورات... أنت!...

زاغ بصر السيد من شدة الانزعاج والغضب:

مؤرّع منشورات... من الأصدقاء المجاهدين...!

كلانا يعمل في لجنة واحدة... هل بلغ الطوفان

مرقده...! طالما راعه فهمي بأدبه وبرّه وذكائه، لولا

أنّ الشاء في نظره مفسدة وأنّ الحفاظ تهذيب وتقويم

لأوسعه ثناء، كيف انجلى هذا كله عن مؤرّع

منشورات... مجاهد... كلانا يعمل في لجنة

واحدة...! إنه لا يحتقر المجاهدين، هو أبعد ما

يكون عن ذلك، طالما تابع أبناءهم بحماس ودعا لهم

عقب كلّ صلاة بالتوفيق، طالما ملأته أخبار الإضراب

والتخريب والمعارك أملاً وإعجاباً، ولكنّ الأمر يختلف

كلّ الاختلاف إذا صدر عمل من هذه الأعمال عن ابن

من أبنائه، كأنهم جنس قام بذاته خارج نطاق

التاريخ، هو وحده الذي يرسم لهم الحدود لا الثورة

ولا الزمن ولا الناس، الثورة وأعمالها فضائل لا شكّ

فيها ما دامت بعيدة عن بيته... فإذا طرقت بابه،

وإذا تهددت أمنه وسلامه وحياة أبنائه، تغيّر طعمها

ولونها ومغزاهاء، انقلبت هوساً وجنوناً وعقوقاً وقلة

أدب، فلتشتعل الثورة في الخارج وليشارك فيها هو

بقلبه كله، وليبذل لها ما في وسعه من مال... وقد

فعل ولكنّ البيت له وحده دون شريك، ومن تحدّثه

نفسه - فيه - بالاشتراك في الثورة فهو ثائر عليه هو لا

على الإنجليز، إنّه يترحم ليل نهار على الشهداء

ويعجب كلّ الإعجاب بالشجاعة التي يتدرّع بها آلم

فيما يروي الرواة، ولكنّه لن يسمح لابن من أبنائه بأن

ينضمّ إلى الشهداء ولا تطيب نفسه بهذه الشجاعة التي

يتدرّع بها آلم، فكيف سولت نفس فهمي له بالإقدام

على هذه الخطوة الجنونية؟... كيف ارتضى - وهو خير

أبنائه - أن يعرّض نفسه إلى الهلاك المين؟... انزعج

الرجل انزعاجاً لم يشعر بمثله من قبل، فاق انزعاجه في

مازق الجامع نفسه، فلم يتمالك أن يسأله بصرامة

ووعيد كأنه أحد مفتشي البوليس الإنجليزي:

- ألا تعلم ما جزاء الذي يُضبط وهو يؤرّع

منشورات...!٩

رغم خطورة الموقف وما يقتضيه من تركيز فكره

فيه، أيقظ السؤال ذكرى قريبة اهتزت لها نفسه،

ذكرى هذا السؤال نفسه بنصّه ومعناه حينما طرحه عليه

الرئيس الأعلى للجنة الطلبة التنفيذية - بين جملة أسئلة

أخرى - وهو بصدد اختياره عضواً فيها، ثمّ ذكر بالتالي

كيف أجابه وقتذاك بعزم وحاس «كلّنا فداء للوطن»

وقارن بين الطرفين اللذين ألقى فيهما السؤال الواحد،

فاعتراه شعور بالسخرية، بيّد أنّه أجاب والده برقة

وبصوت يوحي بالتهوين:

- إنّي أقوم بالتوزيع بين الأصدقاء من الزملاء فقط،

ولا شأن لي بالتوزيع العام... فليس ثمة مخاطرة أو

خطر...

فهتف السيد بغلظة وكأنّه يداري خوفه على ابنه

بحدة الغضب:

- إنّ الله لا يكتب السلامة لمن يعرّض نفسه

للهلاك، وقد أمرنا سبحانه بالألّا نعرّض أنفسنا

للتهلكة...

ودّ الرجل أن يستشهد بالآية التي تترجم هذا

المعنى، ولكنّه لم يكن يحفظ من القرآن إلّا السو

القصيرة التي يتلوها في صلواته، فخاف أن يسهو عر

لفظ أو يحرفه فيحمل نفسه وزراً لا يغتفر، فاكتمى

بترديد المعنى وكوّره حتّى بلغ مداه، ولكنّه ما يدري إلّا

وفهمي يقول بلهجته المهذّبة:

- ولكنّ الله يحثّ المؤمنين على الجهاد كذلك يا

بابا...

ساءل فهمي نفسه فيما بعد متعجباً كيف واتته

شجاعته على مجابهة السيد بهذا القول الذي فضح ما

داراه من استمساك برأيه...! لعلّه احتفى بالقرآن

فوقف وراء معنى من معانيه مطمئناً إلى أنّ أباه

سيحجم في تلك الحال عن مهاجمته، وقد بوغت السيد

مباغته شديدة بجرأة ابنه وحجّته معاً، ولكنّه لم

يستسلم للغضب لأنّ الغضب ربّما أسكت فهمي

ولكنّه لن يسكت حجّته، فتناسى جرأته إلى حين ريثما

يقرع حجّته بحجّة مثلها من القرآن نفسه حتّى تتمّ

فرجل خفيف ومحبوب، وهو يعبد به بقدر ما يخافه فلن يهون عليه أن يصدمه بعضيان، وثمة إحساس آخر لا سبيل إلى تجاهله هو أن وراء الثورة على الإنجليز مثالية نبيلة، أما وراء التمرد على أبيه فليس إلا الخزي والتعاسة، وماذا يدعو إلى هذا كله؟... لماذا لا يعبد بالطاعة ثم يفعل ما يشاء؟... لم يكن الكذب في هذا البيت بالرديلة المخزية، ولم يكن في وسع أحد منهم أن يتمتع بالسلامة في ظل الأب دون حماية من الكذب، وهم يجاهرون به فيما بينهم وبين أنفسهم، بل ويتفقون عليه في الموقف الحرج، وهل كان في نية الأم يوم تسَلَّت في غيبة السيد إلى زيارة الحسين أن تعترف بفعلتها؟ وهل كان في وسع ياسين أن يسكر، وهو أن يحب مريم، وكحال أن يتعفرت بين خان جعفر والخرنفش بلا حماية من الكذب؟... ليس الكذب ممَّا يتورَّع عنه أحد منهم، ولو أنهم التزموا الصدق مع أبيهم ما ذاقوا للحياة طعمًا، لهذا كله قال بهدوء:

- أمرك مطاع يا بابا...

وأعقب هذا التصريح صمت تنفَّس فيه كلاهما من الراحة، فظنَّ فهمي أنَّ استجوابه قد انتهى بسلام، وظنَّ السيد أحمد أنه انتشل ابنه من الهاوية، وبينما كان فهمي ينتظر أن يؤذن له بالانصراف، قام الأب فجأة واتَّجه إلى صوان الملابس ففتحه ودسَّ يده فيه والشاب يراقبه بعينين لا تدركان شيئًا ثم عاد إلى مجلسه حاملًا القرآن، ونظر إلى فهمي مليًا ثم مدَّ يده بالكتاب إليه وهو يقول:

- أقسم لي على هذا الكتاب...

وتراجع فهمي بحركة عكسية نذت عنه قبل أن يتدبَّر أمره، كأنما يفرُّ من لسان لهب امتدَّ إليه فجأة، وتسمَّر في موقفه وهو يحلق في وجه أبيه مرتبِّكا مذعورًا يائسًا، فلبث السيد مادًّا يده بالكتاب وهو ينظر إليه في غرابة وإنكار، ثم احمرَّ وجهه كأنه يلتهب وانبعث من عينيه بريق خفيف، وتساءل في ذهول وكأنه لا يصدِّق عينيه:

- ألا تريد أن تقسم؟

ولكنَّ لسان فهمي انعقد فلم ينبس بكلمة ولم يبد

الهداية للابن الضالَّ، وله بعد ذلك أن يعود إلى محاسبته كيفما شاء، وفتح الله عليه فقال:

- ذاك كان جهادًا في سبيل الله...

اعتبر فهمي جواب أبيه قبولًا للمناقشة والمحاجة، فتشجَّع مرَّة أخرى قائلاً:

- جهادنا في سبيل الله كذلك، كلَّ جهاد شريف فهو في سبيل الله...

آمن السيد بقوله في قلبه، ولكنَّ هذا الإيمان نفسه وما خلفه من شعور بالضعف أمام عدته، هو ما جعله يرتدُّ إلى غضبه دون إبطاء... بيَّد أنه لم يكن غضبًا لكبريائه فحسب، ولكن أيضًا لإشفاقه من أن يتهادى الشاب في غيِّه حتَّى يودي بنفسه، فكفَّ عن الجدل وتساءل مستنكرًا:

- أحسبني قد دعوتك لتناقشني!

انتبه فهمي إلى ما تنطوي عليه كلمات أبيه من نذير، فضاعت أحلامه وانعقد لسانه... أما السيد أحمد فعاد يقول بحدَّة:

- لا جهاد في سبيل الله إلا ما أريد به وجه الله وحده - أي الجهاد الديني - لا جدال في هذا... والان أريد أن أعرف ألا يزال أمري مطاعًا؟ فبادره الشاب قائلاً:

- بكلِّ تأكيد يا بابا...

- إذن اقطع كلَّ صلة بينك وبين الثورة... ولو اقتصر دورك على توزيع المنشورات على خاصَّة أصدقائك!

إنَّ قوَّة في الوجود لا يمكن أن تحول بينه وبين واجبه الوطني! لن يتراجع مطلقًا ولو خطوة واحدة، انتهى زمان ذلك إلى غير رجعة، إنَّ هذه الحياة الحارَّة الباهرة التي تنبعث من أعماق قلبه وتضيء جوانب نفسه لا يمكن أن تغيض وهيئات أن يغيضها هو بيده، كلَّ هذا حقٌّ لا شك فيه، ولكن لماذا لا يلتمس وسيلة إلى إرضاء أبيه وتحمي غضبه؟... إنَّه لا يستطيع أن يتحدَّاه ولا أن يجهز بمخالفة أمره... أجل استطاع أن يثور على الإنجليز وأن يتحدَّى رصاصهم كلَّ يوم تقريبًا، ولكنَّ الإنجليز عدوٌّ خفيف ويغضب معًا أما أبوه

ناحية أخرى، فاسترسل قائلاً في ضراعة ورجاء:  
- ساحني يا بابا، أمرك مطاع فوق العين والرأس  
ولكني لا أستطيع، لأننا نعمل يداً واحدة فلا أرضى ولا  
ترضى لي أن أنكص وأتخلف على إخواني، هيهات أن  
تطيب لي الحياة إن فعلت، ليس ثمة خطر وراء ما  
نعمل، غيرنا يقوم بأعمال أجل كالأشتراك في  
المظاهرات وقد استشهد منهم كثيرون، لست خيراً  
منهم، إن الجنازات تشيع بالعشرات معاً ولا هتاف  
فيها إلا للوطن، حتى أهل الصحايا يمتضون ولا  
يكون. فما حياتي؟... وما حياة أي إنسان؟... لا  
تغضب يا بابا وفكر فيما أقول... وأكرر على مسمعك  
بأنه ليس ثمة خطر وراء عملنا السلمي الصغير...  
وغلبه الانفعال فلم يعد يستطيع مواجهة أبيه ففرّ  
من الحجرة هارباً، كاد يصطدم وراء الباب بياسين  
وكمال اللذين وقفاً ينصتان وقد ارتسم على وجهيهما  
الارتياح.

### ٦٣

كان ياسين ماضياً إلى قهوة أحمد عبده حينما التقى  
في بيت القاضي بأحد أقرباء أمه، فأقبل الرجل نحوه  
باهتمام ثم صافحه وهو يقول:  
- كنت ذاهباً إلى البيت لمقابلتك...  
حدس ياسين وراء كلامه أبناء عن أمه التي أورتته  
الهموم، فأحسن ضيقاً وتساءل بفتور:  
- خير إن شاء الله...؟  
فقال الرجل باهتمام غير عادي:  
- والدتك مريضة، مريضة جداً في الواقع، أصابها  
المرض منذ شهر أو أكثر ولكني لم أعلم به إلا في هذا  
الأسبوع، وقد ظنوه بادئ الأمر حالة عصبية فسكتوا  
عنه حتى استفحل ثم تبين بعد فحص الأطباء أنه  
ملاريا شديدة...  
دهش ياسين للخبر الذي لم يكن يتوقعه، كأنه  
يتوقع حديثاً عن طلاق أو زواج أو شجار وما شاكل  
ذلك، أما المرض فلم يقع له في حساب، تساءل وهو  
لا يكاد يتيقن مشاعره من شدة اعتلاجها:

حراكاً، فتساءل الرجل بصوت هادئ تخللته رعشة  
متهذجة أُنذرت بما يفور تحته من غضب مستعر كما  
ينذر البرق بقعقة الرعد:

- أكنت تكذب علي...؟

لم يطرأ على فهمي تغير إلا أنه غصّ بصره فراراً من  
عيني أبيه، ووضع السيد الكتاب على الكنبه ثم انفجر  
صائحاً بصوت مدوّ خاله فهمي كفوقاً تهوي على  
خذي:

- أنت تكذب علي يا بن الكلب!... أنا لا أسمع  
لمخلوق بأن يضحك على ذفتي، ماذا تظنّ بي وماذا  
تظنّ بنفسك!... أنت حشرة خبيثة مجرمة، بنت  
كلب خدعت بظاها طويلاً، لن أنقلب امرأة على  
آخر الزمن، سامع! لن أنقلب امرأة على آخر  
الزمن، حيرتوني يا أولاد الكلب وجعلتموني أضحوكة  
الناس، أنا أسلمك بنفسي إلى البوليس، فاهم!؟  
بنفسني يا بن الكلب، الكلمة هنا كلمتي أنا، أنا أنا  
أنا... (ثم متناولاً الكتاب مرة أخرى) أقسم...  
أمرك بأن تقسم...

بدا فهمي وكأنه في غيبوبة، كانت عيناه مثبتتين على  
بعض الصور الغربية المنقوشة على السجادة الفارسية  
دون أن تريا شيئاً، وكأنّ تلك النقوش قد انطبعت  
بإدانة النظر على صفحة عقله فاستحال شيئاً من  
الفوضى والخواء، وكلما مرّت ثانية أمعن في الصمت  
واللباس، لم يبق له إلا أن يلوذ بهذه المقاومة السلبية  
اليائسة، ونهض السيد والكتاب في يده فاقترب خطوة  
منه ثم زعق:

- أتوهمت أنك رجل؟... أتوهمت أنك تستطيع  
أن تفعل ما تشاء!؟... لو أشاء أضربك حتى أكسر  
رأسك..

لم يملك فهمي عند ذاك إلا أن يبكي، لا خوفاً من  
التهديد فما كان يبالي في موقفه وتأثره بأيّ أدّى بصيبه،  
ولكن تنفيساً عن قهره وترويحاً عن الصراع الناشب في  
صدره، ثم جعل يعصّ على شفتيه ليكتم البكاء، ثم  
اعتراه الخجل لما ركبته من ضعف بيد أنه وسعه أخيراً  
أن يتكلم لشدة تأثره من ناحية ومدارة لحنه من

.. وكيف حالها الآن...؟

قال الرجل بصراحة لم يخف مغزاها على ياسين:

.. حالها خطيرة! .. امتد العلاج دون أن يبشّر بأدنى تقدّم، وبالأحرى ازدادت الحال سوءاً، وقد أرسلتني إليك كي أصارحك بأنّها تشعر بدنوّ أجلها، وأنّها ترجو أن تراك دون تأخير. ..

ثمّ بلهجة ذات معنى:

.. يجب أن تذهب إليها بلا تردّد، هذه نصيحة ورجاء، والله غفور رحيم.

لعلّ كلام الرجل لم يخلّ من مبالغة أراد بها دفعه إلى الذهاب ولكنّه ليس اختلافاً كلّهُ، فليذهب ولو بدافع الواجب وحده، ها هو يخترق مرّة جديدة منحى الطريق المفضي إلى الجحائيّة بين بيت المال وحارة الوطواط، إلى يمينه عطفة التيه حيث تلبّد بائعة الدوم في ذكريات الظلام المرتعشة وإلى الأمام طريق الآلام، سبرى عمّا قليل دكّان الفاكهة فيغضّ البصر ويتسلّل كاللصّ الهارب، كلّما ظنّ أنّه لن يعود إليه عادت به تعاسته، ما من قوّة كانت تستطيع أن تعيده إليها. ..

إلّا الموت؟ الموت! .. ترى هل تحمّت النهاية حقّاً؟! .. قلبي يخفق، ألماً؟ .. حزناً؟ .. لا أدري إلّا أنّي خائف، إذا ذهب فلن أعود إلى هذا المكان مرّة أخرى. .. سيغشى النسيان سالف الذكريات. .. ثمّ تردّ إلى البقيّة الباقية من أملاكي، ولكيّني خائف. .. وحائق على هذه الأفكار الخبيثة، اللهمّ احفظنا. ..

حقّ إذا حظيت بعيشة أرغد وبأل أصفى فلن ينجو قلبي من الآلام، حين الموت ساودّع أمّا بقلب ابن. .. أمّ وابن أليس كذلك؟ .. لست إلّا معذباً لا وحشاً ولا حجراً، بيد أنّ الموت زائر جديد عليّ لم أشهد محضره من قبل، وددت لو كانت النهاية بغيره، سمنوت جميعاً. .. حقّاً؟! يجب ألاّ أستسلم للخوف، إنّ أنباء الموت لا تنقطع عنّا ليل نهار في هذه الأيام، في شارع الدواوين والمدارس والأزهر، وهنالك في أسبوط كلّ يوم ضحايا، حقّ المسكين الفولي اللبّان فقد ابنه أمس، ما عسى أن يصنع أهل الشهداء؟ .. أيقضون

العمر بكاء؟ .. إنهم يبكون ثمّ ينسون وهذا هو الموت، أف. .. يخيل لي أنّه ليس ثمة مفرّ من المتاعب الآن، ورائي في البيت فهمي وعناده وأمامي أمّي فما أبغض الحياة! وإذا كان الأمر مكيدة ووجدتها في خير وعافية؟! .. ستدفع الثمن غالياً. .. يقيّناً لتدفعنّ الثمن. .. لست لعبة أو أضحوكة، لن تحبّد «الابن» إلّا حين الموت، ترى ماذا بقي لي من ثروة؟ .. وإذا دخلت البيت ألتقي بذلك (الرجل) هنالك؟ .. لا أدري كيف أقابله. .. ستلتقي عينانا في لحظة رهيبة، الويل له، أتجاهله أو أطرده هذا هو الحلّ، هنالك ألوان من العنف لا تحظر له ببال، ولكنّ ستجمعنا الجنّازة حتّى. .. وهذا مضحك، تصوّر أن يسير وراء النعش أقدم الأزواج وأحدثهم وبينهما الابن داعم العينين. .. حتم وقتذاك أن تدمع عيناى. .. أليس كذلك؟ .. لن يكون في وسعي أن أطرده من الجنّازة فتلاحقني الفضيحة حتّى اللحظة الأخيرة. .. ثمّ تدفن، أجل تدفن وينتهي كلّ شيء، ولكيّني خائف ومتألّم ومحزون، إنّ الله وملائكته يصلّون. .. هذه هي الدكّان المجرمة. .. وهذا هو. .. لن يعرفني، هيهات، إننا نتنكر بالعمر، يا عمّ. .. أمّي تقول لك. ..

فتحت له الخادم الباب. نفس الخادم التي استقبلته منذ عام فأنكرته. فتطلّعت إليه كالمستائلة لحظة، وسرعان ما غلبت نظرة التساؤل وراء لمعة كأنما تقول له: «آه. .. أنت الذي تنتظر» ثمّ أفسحت له وهي تومئ إلى حجرة على يمين الداخل قائلة:

.. تفضّل يا سيّدي. .. لا يوجد أحد. ..

جذبت العبارة الأخيرة انتباهه بقوة كأنما جاءته جواباً شافياً لبعض حيرته، فأدرك أنّ أمّه أخلت له الطريق، اتّجه إلى الحجرة، تنحّج، ثمّ دخل، وقعت عيناه على عيني أمّه وهما ترفعان إليه من فراش على يسار الداخل، عينين حجبت صفاءهما المعهود غشاوة باهتة فلاحت نظرتيها الواهنة كأنما تتطلّع إليه من بعيد، وبالرغم من ذبولها وما أوحى به انطفاؤهما من عدم الاكتراث لشيء فقد ثبتت على وجهه ثبوت

جديدة استمدتها من محضره - تقول:

- في أول الأمر كانت تتباني رعدة غريبة فحسبتها طارفاً عصيباً، نصحوني بالطواف بيوت الله وبالتبخر فزرت الحسين والسيدة وتبخرت بأنواع شتى من البخور الهندي والسوداني والعربي، ولكن لم تكن الحال تزداد إلا سوءاً... أحياناً كانت تملكني رعدة متواصلة لا تدعني حتى أكون قد أشفيت على الهلاك، وعمر بي أوقات أجد جسمي بارداً كالثلج، وأوقات أخرى تمتد النار في جسدي حتى أصرخ من شدة الحرارة أخيراً صمتم... (أسكت عن النطق بالفاعل متبهاً في اللحظة الأخيرة إلى الخطأ الذي كانت ستقع فيه). أخيراً استحضرت الطبيب، ولكن لم يتقدم بي العلاج خطوة واحدة نحو الصحة إن لم يكن تأخر خطوات، لم تعد ثمة فائدة ترجى.

فقال ياسين وهو يضغط برقة على راحتها:

- لا تيأسي من رحمة الله، إن رحمة واسعة.

فافتتر ثغرها الممتقع عن ابتسامة ضعيفة وقالت:

- يسرني أن أسمع هذا، يسرني أن أسمع منك أنت قبل الناس جميعاً، أنت عندي أعلى من الدنيا ومن عليها، صدقت إن رحمة الله واسعة، طالما ساءني الحظ، لا أنكر الهفوات والأخطاء، العصمة لله وحده. آنس - جزعاً - من حديثها ميلاً إلى ما يشبه الاعتراف، فانقبض صدره وجفل جفولاً حادثاً من أن تردد على مسمعيه أموراً لا يطيقها ولو على سبيل الندم والتكفير. فتوترت أعصابه حتى أوشك أن تبدل حالاً بعد حال، قال بتوسل:

- لا تتبعني نفسك بالكلام.

رفعت إليه عينيها باسمه وهي تقول:

- مجيئك رد إلي الروح، دعني أقل لك إنني لم أقصد في حياتي سوءاً بإنسان، كنت أنشد كسائر الخلق راحة البال فيعاندني الحظ العاثر، لم أسئ إلى أحد ولكن كثيرين أساءوا إلي.

شعر بأن رجاءه أن تمضي الساعة بسلام سيخيب... وأن عاطفته الصافية تعاني أزمة من التغيص، فقال بلهجة التوسل السالفة:

العرفان، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة خفيفة وشت بظفر وارتياح وامتنان، لم يكن يبدو منها إلا وجهها إذ اشتملت ببطانة حتى الذقن، وجه أدركه من التغير فوق ما أدرك العينين، جف بعد اكتناز واستطال بعد استدارة وشحب بعد تورّد وشفّ جلده الرقيق عن عظام الفك والوجنتين البارزة فبدا صورة للراء والفناء، وقف ذاهلاً منكراً كأنه لا يصدق أن ثمة قوة في الوجود تجرؤ على هذا العبث القاسي، فقبض قلبه فزعاً كأنه يرى الموت نفسه، تخلّت عنه كأنما ارتدّ طفلاً وافتقد أباه آتياً افتقاد، ثم دفعه تأثر لا يقاوم إلى الفراش حتى انحنى فوقها مغمغماً في نبرات أسيفة:

- لا بأس عليك... كيف حالك؟

ملأه شعور صادق بالرحمة غابت في حرارته آلامه المزمنة كما تغيب - في أحوال نادرة - ظاهرة مرضية ميثوس منها، كالشلل، عند هجوم فزع هائل مفاجئ... كأنه يلقي أم طفولته التي أحبها قبل أن تواربها عن قلبه الآلام، فتشبّت - وعيناه مرسلتان إلى الوجه الفاني - بهذا الشعور المستجد الذي رده أعواماً طويلة إلى الوراء - إلى ما وراء الألم - كما يتشبّت المريض المتهالك بصحوة طارئة يخاف عليها إحساساً باطنياً بوشك الزوال، تشبّت به بشدة خليقة برجل يقدر القوى المضادة التي تهدهده، وإن دلّ تشبّته نفسه على أن آلامه لم تزل تضطرم في الأعماق منذرة إياه بما يترصده من حزن إذا هو تهاون فخلط بشعوره الصافي ما يفسده من مشاعر أخرى، وأخرجت المرأة من تحت الغطاء يداً معصومة معروقة اكتست بشرتها الجافة بمزيج من سواد باهت وزرقة كأنها يد مخنطة منذ آلاف السنين فتناولها بين يديه بتأثر شديد، وعند ذاك سمع صوتهما الضعيف المبحوح وهو يجيبه قائلاً:

- كما ترى، صرت خيلاً.

فغمغم:

- ربنا يدركك برحمته، ويردك إلى خير مما كنت.

فندّت عن رأسها المعصوب بخيار أبيض حركة دعائية كأنما تقول: «ربنا يسمع منك»، وأشارت إليه أن يجلس فجلس على الفراش ثم استرسلت - بقوة

- دعي الناس بخيرهم وشرهم، صحتك الآن أهم من أي شيء آخر...
- فربت على يده باستعطاف كأنما تسأله أن يترفق بها، ثم همست:
- فاتني أشياء، لم أؤد إلى الله حقّه، وددت لو طال عمري حتى أستدرك بعض ما فاتني، بيد أنّ قلبي كان دائماً مفعماً بالإيمان والله شهيد.
- فقال وكأنّه يدفع عن نفسه وعنهما معاً:
- القلب هو كلّ شيء، هو عند الله فوق الصوم والصلاة.
- فشدت على يده بامتنان ثم غيّرت مجرى الحديث قائلة بترحاب:
- وعدت إليّ أخيراً، لم أجرؤ على دعوتك حتى انتهى بي المرض إلى ما ترى، داخلي شعور بأنني أودع الحياة فلم أطق أن أفارقها قبل أن أملأ عينيّ منك، فأرسلت إليك وبني من الخوف من رفضك أكثر مما بي من خوف الموت نفسه، ولكنك رحمت أمك وأقبلت تودّعها فلك الشكر ودعاء أرجو الله أن يتقبّله.
- اشتد التأثر ولكنّه لم يدر كيف يعبر عن شعوره، تناقلت الكلمات الخنونة في فيه متعذّرة فيما يشبه الحياء أو الغرابة حالما أراد توجيهها إلى المرأة التي ألف مجافاتها وبذها، بيد أنّه وجد في يده أداة تعبير طيعة حسّاسة، فضغط على راحتها مغمغماً:
- ربّنا يكتب لك السلامة.
- وجعلت تدور حول المعنى الذي أفصحت عنه جملة الأخيرة، مردّدة نفس الألفاظ تارة أو مستبدلة بها غيرها ممّا يدلّ على نفس معناها طوّراً آخر، وراحت تفصّل الحديث بازدداد ريقها بجهد ملحوظ أو بالصمت القصير ريثما تستردّ أنفاسها، ممّا دعاه مرّات إلى أن يرجوها بالكفّ عن الحديث، ولكنّها كانت تبسم لمقاطعتها ثم تعود إلى مواصلة الحديث، حتى توقّفت وقد لاح في وجهها اهتمام طارئ كلّما تذكرت شيئاً ذا بال... وقالت:
- تزوّجت؟
- فرغ حاجبيه في شيء من الضيق وتورّد وجهه،
- ولكنّها أخطأت فهمه فبادرته كالمعتذرة:
- لا عتاب... حقّاً كنت أودّ أن أرى عروسك وذريّتك، ولكن بحسبي أن تكون سعيداً.
- فما ملك أن قال باقتضاب:
- لست متزوّجاً، طلّقت منذ شهر تقريباً.
- لأوّل مرّة لاجتّ آي الانتباه في عينيها، لو كان في الإمكان أن يلتصعا لالتصعا... ولكن انبعث منها شبه ضوء كالضوء الحالم الذي تنضح به ستارة كثيفة، وتمتعت:
- طلّقت يا بنيّ! ما أحزني!
- فابتدراها قائلاً:
- لا تحزني، لست حزينا ولا أسفاً (ثمّ بأسفاً) أخذت الشرّ وراحت.
- ولكنّها تساءلت بنفس اللهجة:
- من الذي اختارها لك... هو أم هي؟!
- فقال بلهجة نمت عن رغبته في قفل باب هذا الحديث:
- اختارها الله، كلّ شيء قسمة ونصيب!
- أعلم هذا، ولكن من الذي اختارها لك؟ امرأة أبيك؟
- كلّ أبي الذي اختارها، ولا غبار على اختياره فهي من أسرة كريمة... ولكنّها القسمة والنصيب كما قلت.
- فقال ببرود:
- القسمة والنصيب واختيار أبيك... هذه هي! ثمّ بعد وقفة قصيرة:
- حبلى...؟
- نعم...
- وهي تتنهد:
- الله ينكّد عيشة أبيك!
- تعمّد ألاّ يعقّب عليها، كما يمتنع عن حكّ قرحة تاكله لعلّها تسكن... فشمّلها صمت، وأغمضت المرأة عينيها كأنما أنهكها التعب، بيد أنّها فتحتها هنيئة فابتسمت إليه وهي تسأله بصوت رقيق لا أثر فيه لانفعال:

أنه ارتاح إلى نومها كلَّ الارتياح ولكنَّه ما كاد ينقرد بنفسه حتى هاجمه الخوف... خوف لم يدرك له سبباً فتمنَّى لو تصحو من سباتها وتعود إلى الحديث، حتّام ينتظر... هبها استغرقت في النوم حتّى الصباح... لن يسعه أن يبقى طويلاً فريسة للخوف والقلق هكذا، يجب أن يضع حدّاً لآلامه... غداً أو بعد غد تكون تهنة أو تعزية... تهنة أو تعزية؟ أيّها أحب إلى نفسه؟ يجب أن يقف عن الحركة، تهنة كانت أم تعزية لا ينبغي أن أسبق الحوادث، غاية ما يمكن قوله لو قدّر علينا أن نفرّق الآن لافترقنا صديقين، تكون خير نهاية لأسوأ حياة، أمّا إذا مدّ الله في عمرها... سرح طرفه وهو شارد فوق على مرآة الصوان - في الجهة المقابلة - التي عكست صورة الفراش فرأى جسم أمّه مطروحاً تحت البطّانية كما رأى نفسه يكاد يحجب نصفها الأعلى إلّا يدها التي أخرجتها عند استقباله فحملها برفق وأدخلها تحت الغطاء ثمّ ثبته حول عنقها بعناية، عاد ينظر إلى المرأة فخطر له هذا الخطر! ربّما عكست هذه المرأة غداً فراشاً خالياً عارياً... ليست حياتها - حياة أيّ إنسان... لم لا؟ - بأسخ دوماً من هذه الصور الوهمية!... فاشتدّ به شعور الخوف وهمس لنفسه «يجب أن أضغ حدّاً لآلامي... يجب أن أذهب»، بيد أنّ بصره تحرّك تاركاً المرأة فالتقى بخوان وضعت عليه نارجلة التفّ خرطومها حول عنقها كالشعبان فثبت عليها في دهشة وإنكار سرعان ما حلّ مكانها شعور هائج بالتقرّز والغضب، ذلك الرجل! هو بلا ريب صاحب هذه النارجيلة... تخيّلته متربّعاً على الكنبه القائمة بين الفراش والخوان وقد اندلق على النارجيلة يشهق ويزفر متلذّذاً وأمّه تروّج له على الجمرات... آه تُرى أين هو الآن، في مكان بالبيت أم في الخارج؟ هل رآه من حيث لم يره؟... لم يعد يحتمل البقاء مع النارجيلة أكثر ممّا بقي فالتقى نظرة على وجه أمّه التي وجدها مستغرقة في النوم ثمّ زایل مجلسه بخفّة وسار إلى الباب، ولما التقى بالخادم في الردهة الخارجيّة قال لها:

- ستك نامت، سأعود غداً صباحاً.

- تُرى هل يمكن أن تنسى الماضي؟  
فغضّ بصره منتفضاً وهو يشعر برغبة في الحرب لا تقاوم، ثمّ قال برجاء:

- لا تعودني إلى ذكره، فليذهب إلى غير رجعة.  
لعلّ قلبه لم ينع ما يقول، ولكنّ لسانه قال ما ينبغي أن يقال... أو لعلّ ذلك القول كان تعبيراً صادقاً عن شعوره لحظتها، تلك اللحظة التي استغرقه فيها بكليته الموقف المحيط به، ولعلّ قوله: «فليذهب إلى غير رجعة» قد وقع من مسمعه - ومن قلبه - موقعاً غريباً خلف وراءه قلماً، ولكنّه أبى أن يجعله موضوعاً لتأمّله، فرّ من ذلك فرازاً، وتشبّث بعاطفته الصافية التي عقد العزم على التشبّث بها من بادئ الأمر، أمّا أمّه فعادت تسأله:

- وهل تحبّ أمك كما كنت تحبّها في الزمن السعيد؟  
فقال وهو يربّت على راحتها:  
- أحبّها وأدعو لها بالسلامة.

سرعان ما وجد العزاء عن قلقه وجهاده الباطنيّ فيما انطبع على وجهها الذائبي من روح السلام والارتياح العميق، ثمّ شعر براحتها تضغط على يده كأنّها تبته ما يكتنه صدرها من امتنان، وتبادلا نظرة طويلة هادئة باسمه حاملة أشاعت في الحجرة جواً من الطمأنينة والمودة والحزن، لم يعد يبدو منها ما يدلّ على رغبتها في الحديث أو لعلّ الجهد حال بينها وبين هذه الرغبة، ثمّ تراخت جفونها رويداً حتّى انطبقت، جعل ينظر إليها كالمتسائل ولكنّ لم تندّ عنه حركة، ثمّ انفرجت شفتاها قليلاً وانبعث منها شخير خفيف متقطّع. اعتدل في جلسته وهو يتوسّم وجهها ثمّ أغمض عينيه قليلاً ريثما يستحضر صورة الوجه الآخر الذي طالعه به منذ عام فانقبض صدره وعادوه شعور الخوف الذي طارده طوال الطريق، ترى هل يتاح له أن يرى ذلك الوجه مرّة أخرى؟ وبأيّ قلب يلقاه إن عاد؟ لا يدري، لا يحبّ أن يتصوّر المضمّر في علم الغيب، يؤدّ أن يقف عقله عن الحركة وأن يتبع الحوادث لا أن يسبقها، وأحاط به شعور الخوف والقلق، عجباً! لقد ركبتة رغبة في الحرب وهو ينصت إلى حديثها حتّى خيّل إليه

والتفت إليها مرة أخرى وهو يغادر الباب الخارجي قائلاً:

- غداً صباحاً.

كأنما ينبه الرجل نفسه إلى موعد حضوره ليختفي من وجهه، مضى إلى حانة كُستاكى رأساً. شرب كعادته ولكنّه لم يطب بالشراب نفساً، أعياءه أن يطرد عن قلبه الخوف والقلق، ومع أنّ أحلام الثروة وراحة البال لم تغب عن ذهنه إلا أنها لم تستطع أن تمحو عن مخيلته صورة المرض وخواطر الفناء. ولما عاد إلى البيت عند منتصف الليل وجد امرأة أبيه في انتظاره بالدور الأول فنظر إليها متعجباً ثم تساءل خافق القلب:

- أمي؟!

فأحنت أمينة رأسها وقالت بصوت خافت:

- جاءنا رسول من قصر الشوق قبل مجيئك بساعة، العمر الطويل لك يا ابني...

## ٦٤

تطوّرت العلاقة بين كمال والجنود البريطانيين إلى صداقة متبادلة، وقد حاولت الاسرة أن تتدرّج بماسة ياسين في جامع الحسين لتقنع الغلام بقطع علاقته مع أصدقائه ولكنّه أجابهم بأنّه «صغير»، أصغر من أن يتهم بالجاسوسية، ولكي يتفادى من منعهم إتياء بالقوة كان يمضي إلى المعسكر رأساً بعد عودته من المدرسة تاركاً حقيبة كتبه مع أم حنفي فلم تكن ثمة وسيلة إلى منعه إلا باستعمال القوة الأمر الذي لم يروا له موجباً لا سيّما وأنّه يرح في المعسكر تحت أعينهم متقبلاً في كلّ موضع بالترحيب والتكريم، حتّى فهمي نفسه أغضى عنه ولم يكن يجد بأساً في التسليّ بمشاهدته وهو يتنقل بين الجنود «كقرد يلهو في غابة من الوحوش».

- قولوا لسَيدي الكبير.

هكذا اقترحت أم حنفي وهي تشكو تجرؤ الجنود عليها - بسبب الصداقة اللعينة - ومحاكاة بعضهم لمشيئها بطريقة «يستحقّون عليها قطع رقبتهم» ولكنّ أحداً لم يأخذ اقتراحها مأخذ الجدّ، لا رحمة بالغلام

فحسب، ولكن رحمة بهم هم أنفسهم خشية أن يجرّ التحقيق إلى معرفة تسرّهم الطويل على هذه الصداقة، فتركوا الغلام وشأنه، ولعلّهم لم يخلوا من رجاء في أن يقوم الشعور الطيّب المتبادل بين الغلام والجنود حائلاً بينهم وبين ما يحتمل أن يتعرّضوا له من عبث وأذى في الذهاب والإياب! أسعد ساعات يومه كانت تلك التي يدخل فيها المعسكر، لم يكن جميع الجنود «أصدقاء» بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ولكن لم يعد أحد منهم يجهل شخصه، كان يصافح الأصدقاء ويشدّ على أيديهم بحرارة على حين يكتفي برفع يده، تحية للآخرين، وربما صادف مجيئه قيام أحد الأصدقاء بنوبة الحراسة فيقبل الغلام عليه هائشاً باشاً وهو يمدّ يده فما يروعه إلا أن يلقي منه جوذاً غريباً مثيراً كأنما يتجاهله أو كأنما تحوّل إلى صنم فلا يدرك أن ليس في الأمر تجاهل أو غضب إلا من إغراق الآخرين في الضحك. ولم يكن من النادر أن يباغت وهو بين الأصدقاء بصغير الإنذار، هنالك يهرعون إلى الخيام ثم يعودون بعد قليل وقد ارتدوا ملابسهم ونحوذاتهم وحملوا بنادقهم، ويتحرّك لوري من موقفه وراء سبيل بين القصرين إلى وسط الطريق فيمضون إليه ويقفزون إلى داخله حتّى يكتظّ بهم، بات يدرك من المنظر الذي أمامه أنّ مظاهرات قامت في جهة ما وأنّ الجنود ذاهبون لتفريقها وأنّ قتلاً سينشب بينهم وبين المتظاهرين، ولكن لم يكن يهّمه في تلك الأوقات إلا أن يتفقّد الأصدقاء ببصره حتّى يعثر عليهم في زحمة اللوري وأن يملاّ منهم عينيه كأنما يودّعهم، وأن يبسط كفيه واللوري يتعد بهم صوب النحاسين داعياً لهم بالسلامة ثمّ نالياً الفاتحة... على أنّه لم يكن يقضي في المعسكر أكثر من نصف ساعة كلّ أصيل وهو أقصى ما وسعه أن يتغيّبه عن البيت عقب عودته من المدرسة، نصف ساعة لم تكّد تغفو فيها حاسّة من حواسّه دقيقة واحدة، يدور حول الخيام، يسير بين اللوريات مستطلماً قطعها قطعة قطعة، يقف حيال أهرام البنادق طويلاً متفحّصاً أجزاءها جزءاً جزءاً خاصة فوهة الماسورة التي يكمن فيها الموت... يقف على بعد لا



النتيجة مجهولة والاحتمال متأرجحاً بين الطرفين على أن المعركة لا تلبث طويلاً حتى تستوجب نهاية تنتهي إليها، هنالك يجد نفسه في موقف حائر، أيّ جانب ينتصر؟... في جانب أصدقائه الأربعة وعلى رأسهم جوليون، وفي الجانب الآخر مصريون يخفق معهم قلب فهمي... في اللحظة الأخيرة يقرّر النصر للمتظاهرين فينسحب اللوري بقلة من الجنود بينهم الأصدقاء الأربعة وإن كان قد ختم المعركة مرةً بصلح شريف احتفل به المتحاربون من الطرفين بالغناء حول مائدة حفلت بأقداح الشاي ومختلف ألوان الحلوى... وكان جوليون أعزّ أصدقائه، امتاز إلى جماله بدمائه الخلق فضلاً عن براعته النسبية في التكلم بالعربية، وهو الذي جعل دعوته إلى الشاي حقاً ثانياً كما بدا أشدّ الجنود تأثراً بغنائه حتى كان يدعو كل يوم تقريباً إلى غناء «يا عزيز عيني» فيتابعه باهتمام ثم يغمغم في تشوّق وحنين:

- أروح بلدي... أروح بلدي!

وأنس كمال منه هذه الروح فازداد له ألفة واطمئناناً حتى قال له مرةً جاداً وكأنما يدلّه عن مخرج من كربه:

- أرجعوا سعد باشا وعدودا إلى بلادكم!...

ولكنّ جوليون لم يلقَ اقتراحه بالارتياح الذي كان ينتظر وعلى العكس طلب إليه - كما فعل من قبل في ظرف مشابه - ألا يعود إلى ذكر سعد باشا قائلاً:

«سعد باشا... نوا» وهكذا فشل - على حدّ تعبير

ياسين - أول مفاوض مصري!... ما يدري يوماً إلا

وأحد «الأصدقاء» يقدّم له صورة كاريكاتورية رسمها،

فنظر كمال إليها بدهشة وانزعاج وهو يقول لنفسه

«صورتى؟! ليست هذه صورتى!» ولكنه شعر في قرارة

نفسه بأنها صورته دون غيره ولو على وجه ما، ثم رفع

عينيه للواقفين فالفهم يضحكون فأدرك أنها نوع من

المزاح وأنّ عليه أن يتقبّله بسرور فجاراهم في

ضحكهم مدارياً بالضحك خجله، ولما أطلع عليها

فهمي ففرّس هذا فيها بدهشة ثم قال:

- ربّاه... لم تترك عيباً إلا أبرزته!... الجسم

النحيف الصغير، الرقبة الطويلة الهزيلة، الأنف

يسمح له بتجاوزه ونفسه ذاهبة حشرات على اللعب بها أو على الأقلّ لسهها، ولما كانت زيارته توافق ميعاد الشاي فكان يمضي مع أصدقائه إلى المطبخ القائم عند مدخل درب قمرز ويأخذ مكانه في نهاية طابور «الشاي» كما يدعوّه ثم يعود وراءهم حاملاً قدح شاي باللبن وقطعة من الشيكولاتة فيجلسون على سور السبيل يحسّون شراهم وينشد الجنود أغاني جماعية وهو ينصت لهم باهتمام منتظراً دوره في الغناء، تركت حياة المعسكر في نفسه أثراً عميقاً بثّ في خياله وأحلامه يقظة شاملة، أثراً نقش على صفحة قلبه إلى جانب الآثار التي نقشتها حكايات أمينة عن عالم الغيب والأساطير، وقصص ياسين الذي جذب روحه إلى دنيها الساحرة، والأطياب والرؤى التي تتخيل له في أحلام اليقظة وراء أغصان الياسمين والبلابل وأصص الزهور - فوق السطح - عن حياة النمل والعصافير والدجاج، من ثم أنشأ عند سور السطح الملاصق لسطح بيت أم مريم معسكراً كامل العدة والعدد، أقام خيامه بالمناديل والأقلام، وأسلحته بعيّدان الخشب، ولورياته من القباقيب وجنوده من نوى التمر، وعلى كنب من المعسكر مثل المتظاهرين بالحصى. يبدأ التمثيل عادة بنشر النوى جماعات بعضها في الخيام وعند مداخلها وبعضها حول البنادق غير أربع بينها حصاة (تمثله هو) ينتحون جانباً، يأخذ في محاكاة الغناء الإنجليزيّ ثم يبيء دور الحصاة لتغني «زوروني كلّ سنة مرة» أو «يا عزيز عيني»، ينتقل إلى الحصى فينضّده صفوفاً ويهتف «يحيا الوطن... تسقط الحماية... يحيا سعد»، يعود إلى المعسكر مصفراً فتتنظم النوى صفوفاً كذلك وعلى رأس كلّ صفّ قرمة، ثم يدفع قباقيباً وهو ينفخ محاكياً أزيز اللوري، ويضع النوى على سطح القباقيب ثم يدفعه مرةً أخرى صوب الحصى فتتشب المعركة وتسقط الضحايا من الجانبين!... ولم يكن يسمح لمواطنه الشخصية بأن تؤثر في سير المعركة، على الأقلّ في بدنها ووسطها، كانت تتحكّم فيه رغبة واحدة هي أن يجعلها معركة «صادقة مشوّقة» يتنازعها الدفع والجذب من الجانبين وتتعاذل الإصابات فتظّل

الكبير، الرأس الضخم، العينان الصغيرتان...  
ثم صاحكًا:

- الشيء الوحيد الذي يبدو أن «صديقك» يضمّر نحوه إعجابًا هو بذلتك الأنيقة المهندمة ولا فضل لك في ذلك وإنما الفضل لنينة التي لا تترك شيئًا في البيت إلا هندمتها!

ورمى إليه بطرف شامت ثم قال:

- بان السرّ الذي حبّيك إليهم!... إنهم يتسلّون بالضحك على شكلك وأناقتك المفرطة، يعني بالعربي لست إلا «قره جوز» في نظرهم... ماذا كسبت من وراء خيانتك؟!...

ولكنّ كلام فهمي لم يحدث أثرًا لأنّ الغلام كان يدرك مدى عداوته للإنجليز فظنّها مناورة يراد بها التفرقة بينه وبينهم!... وجاء يومًا المعسكر كعادته فرأى جوليون عند أقصى جدار السيل يتطلّع باهتمام إلى العطفة التي يفتح عليها بيت المرحوم السيّد عمّاد رضوان فمضى نحوه ولكنّه رآه يلوح بيده محدّدًا إشارات غامضة لم يفقه لها معنى بيّد أنّه توقّف عن التقدّم ملبيًا إحساسًا غريزيًا خفي عنه معناه، ثم أغراه حبّ الاستطلاع بأن يدور حول الخيام المنصوبة أمام واجهة السيل متسلّلًا إلى ما وراء جوليون وأن يمدّ بصره إلى الهدف الذي يتطلّع إليه، هنالك رأى كوة في جناح بيت آل رضوان الذي يسدّ العطفة القصيرة يلوح منها وجه مريم واضحًا باسماً مستجيبًا وقف يرّد النظر بين الجنديّ وبين الفتاة في ذهول كأنّها يابى أن يصدّق عينيه، كيف اقترفت مريم الظهور في الكوة؟!... كيف تصدّت لجوليون على هذا النحو الفاضح؟! هو يلوح بيديه وهي تبتسم!... أجل ها هي الابتسامة لا تزال مطبوعة على شفتيها!... وها هما عيناها يستغرقهما النظر إليه حتّى أنّها لم تفتن بعد إلى وجوده هو! ونذت عنه حركة لفتت إليه جوليون فما كاد يطلع على موقفه حتّى أغرق في الضحك وهو يرطن على حين تراجعت مريم بسرعة خاطفة في دعر بين. راح يتطلّع إلى الجنديّ في ذهول وقد زاده فرار مريم ريبة على ريبة وإن بدا له الأمر كلّ غموضًا في

غموض.

سأله جوليون متودّدًا:

- تعرفها؟!...

فأخى رأسه بالإيجاب ولم ينبس. غاب جوليون دقائق ثم عاد حاملًا لفافة كبيرة قدّمها إلى كمال قائلاً وهو يشير إلى بيت مريم:

- اذهب بها إليها!...

ولكنّ كمال تراجع جافلاً وهو يهزّ رأسه بمنة ويسرة في عناده، لم تبرح تلك الحادثة مخيلته، ومع أنّه شعر بخطورتها من بادئ الأمر إلا أنّه لم يدرك مدى الخطورة على حقيقتها إلا حين قصّ القصّة في مجلس القهوة مساء. استوت أمينة في جلستها وهي تتباعد وقد ظلّ فنجان القهوة معلقًا بين أصبعيها لا هي تقربه من فيها ولا هي تضعه على الصينية على حين غادر فهمي وياسين الكنية المواجهة لمجلس الأمّ مهرولين إلى الكنية التي تجلس عليها هي وكمال وجعللا يحدّقان إليه باهتمام ودهش وانزعاج فاق كلّ ما توقّع.

قالت أمينة وهي تزدرد ريقها:

- رأيت هذا حقًا!... ألم تخدعك عيناك؟! وتأنّف فهمي:

- مريم؟! مريم؟! أمّاكّد أنت ممّا تقول؟! وتساءل ياسين:

- أكان يشير إليها وكانت تبتسم إليه؟!... أرايتها تبتسم حقًا؟!...

وأعادت أمينة الفنجان إلى الصينية فأسندت رأسها إلى راحتها قائلة بلهجة تنمّ عن الوعيد:

- كمال! الكذب في مثل هذا الأمر جريمة لا يغفرها

الله... راجع نفسك يا ابني... ألم تعدّ الحقّ في شيء؟!...

وحلف كمال بأغلظ الأيمان فقال فهمي بيأس

ومرارة:

- إنّه لا يكذب، ليس في وسع عاقل أن يتهمه

بالكذب فيما قال، ألا تدركون أنّ اختراع مثل هذه

القصة هو أبعد ما يكون عن تصوّر واحد في

سنّه؟!...

- فتساءلت الأم بصوت حزين:  
- وكيف يسعني أن أصدقَه!  
فقال فهمي وكأنه يحدث نفسه:  
- أجل كيف يمكن تصديقه!... (ثم بصوت حاد)  
ولكنه وقع... وقع...!  
وقعت الكلمة الأخيرة من نفسه موقع الخنجر،  
كرّرها وكأنما يكرّر الطعن متعمداً، حقاً شغلته عن  
مريم الشواغل فلم تعد ذكرها تلوح إلّا في حاشية  
أحلام يقظته، ولكن الطعنة التي أصابت سمعتها  
نفذت إليها خلال قلبه. إنّه ذاهل... ذاهل...  
ذاهل، لا يدري إن كان نسي أم لم ينس، يحب أم  
يكره، يغضب للكرامة أم للغيرة... ورقة شجر جافة  
في مهبّ زوبعة متناوحة...  
- كيف يسعني أن أصدقَه؟... طالما كانت ثقّي في  
مريم كنتقي في خديجة أو عائشة، أمّها من الفضليات،  
أبوها طيّب الله ثراه كان من الأكرمين... جيران  
العمر ونعم الجيران...  
قال ياسين - الذي بدا طول الوقت مستغرقاً  
بالفكير - بلهجة لم تخلُ من سخرية:  
- علام تعجبون؟... منذ القدم والله يخلق من  
صلب الأبرار أشراراً.  
فقالت أمينة محتجة كأنما تأبى أن تصدّق أنّها خدعت  
طوال ذلك الدهر:  
- يشهد الله أنّي لم ألاحظ عليها ما يسوء فقط...  
فقال ياسين بحذر:  
- ولا أحد منّا، حتّى خديجة العيّابة الكبرى، بل  
خدع بها من هو أفطن منك وميّي!  
فهتف فهمي متألماً:  
- من أين لي أن أطلع على الغيب؟! إنّه أمر يشقّ  
تصوّره.  
وحق على ياسين لدرجة الغليان، ثمّ بدا له الخلق  
جميعاً بغضاً، الإنجليز والمصريّون على السواء...  
الرجال والنساء - والنساء خاصّة - إنّه يختنق... هفت  
نفسه إلى الاختفاء ليتنشّق في وحدته نسمة راحة بيّد  
أنّه لم يبرح مكانه كأنما شدّ إليه بحبال غلاظ...  
أنّجه ياسين إلى كمال متسائلاً:  
- متى رأتك؟  
- عندما التفت إليّ جوليون...  
- ثمّ فرّرت من النافذة؟  
- نعم...  
- هل رأت أنّك رأيتها؟  
- التقت عينانا لحظة...  
ياسين ساخراً:  
- مسكينة!... إنّها دون شكّ تتخيّل الآن مجلسنا  
هَذَا وحديثنا ذا الشجون!  
- إنجليزيّ!...  
هتف فهمي وهو يضرب كفّاً على كفّ.  
- بنت السيّد محمّد رضوان!...  
غمغمت أمينة متتّلة وهي تمهّز رأسها عجباً...  
فقال ياسين متفكراً:  
- مغاللة إنجليزيّ ليست بالمسألة الهيّنة على فتاة،  
هذه درجة من الفساد لا يمكن أن تظهر طفرة...  
فسأله فهمي:  
- ماذا تعني؟  
- أعني أنّه لا بدّ أن تسبقها درجات من الفساد!  
فقالت أمينة برجاء:  
- أستحلفكم بالله أن تمسكوا عن هذا الحديث...  
فواصل ياسين حديثه، كأنه لم يسمع رجاءها،  
فائلاً:  
- مريم بنت سيّدة لها في التبرّج فنون بشهادتك  
أنت وخديجة وعائشة...!  
فهتفت أمينة بصوت ملؤه العتاب والزجر:  
- ياسين!...  
فقال ياسين كالمراجع:  
- أريد أن أقول إنّنا أسرة تعيش في حقّ مغلق لا  
تكاد تعلم شيئاً عمّا يدور حولها، قصارى جهدنا أن  
نتصوّر الناس على مثالنا، اختلطت بنا مريم أعواماً  
طوالاً ولكننا لم نعرفها على حقيقتها حتّى كشفها لنا  
آخر من ينشد عنده كشف الحقائق...  
وربّت على رأس كمال ضاحكاً، ولكنّ أمينة عادت

تقول بتوسّل حاز:

- أستحلفكم بالله أن تغيروا مجرى الحديث...

ابتسم ياسين ولم ينبس، فأطبق الصمت، لم يعد فهمي يتحمّل البقاء بينهم فاستجاب إلى الصوت الباطنيّ الذي يستصرخه ملهوفًا على الفرار... بعيدًا عن الأنظار والأسباع، هنالك يستطيع أن يخلو إلى نفسه، أن يعيد إليها الحديث من ألفه إلى يائه، كلمة كلمة، عبارة عبارة، جملة جملة، ليفهمه ويفهمه ثم ينظر أين يكون وضعه...

## ٦٥

كان الليل قد جاوز منتصفه عندما غادر السيّد أحمد عبد الجواد بيت أمّ مريم متلفعًا بظلمة العطفة المسدودة. بدا الحيّ كلّهُ - كما أمسى يبدو مع الهزيع الأوّل من الليل مذ عسكر الإنجليز فيه - غارقًا في النوم متدنّزًا بالظلام، لا مقهى يسمر ولا بائع يسرح ولا دكان يسهر ولا مارّ يدبّ، فلم يكن فيه أثر للحياة أو النور إلّا ما انبعث من المعسكر، ومع أنّ أحدًا من الجنود لم يتعرّض له بسوء في الذهاب أو الإياب إلّا أنّه لم يكن يخلو قطّ في قلق وتوجّس كلّما اقترب من المعسكر في طريقه إلى البيت خاصّة وأنّه يعود - آخر الليل - على حال من الإعياء والاسترخاء والذهول يشقّ معها مجرد التفكير في السير الآمن المطمئنّ، انحدر إلى طريق النحاسين ثمّ انعطف يمينًا متّجهًا إلى البيت وهو يختلس النظر إلى الديديبان حتّى دخل أشدّ مناطق الطريق خطورة... تلك التي ينتشر فيها النور المنبعث من قلب المعسكر، هنالك عاوده الإحساس الذي يخامره كلّما دخلها وهو أنّه هدف يسير لأيّ صائد، فحثّ خطاه ليخرج منها إلى الظلام المفضي إلى مدخل بيته ولكنّه ما كاد يخطو خطوة حتّى صكّ أذنيه صوت أجشّ غليظ يزعم وراءه راطنًا فادرك على جهله رطائه - من عنف اللهجة واقتضاها - أنّه رماه بأمر لا يقبل المناقشة فتوقّف عن السير والتفت وراءه مرتاعًا فرأى جنديًا - غير الديديبان - يتّجه نحوه بقوة شاكي السلاح، ماذا جدّ حتّى دعا إلى هذه المعاملة...؟

أ يكون الرجل ثملًا؟ أم لعله أذعن لنزوة اعتداء طارئة؟ أم هو يتبغي السلب والنهب؟ جعل يرقب اقترابه بقلب خائف وحلق جافّ وقد طار الخمار من رأسه. وقف الجنديّ على بعد خطوة منه ثمّ وجّه إليه بلهجة أمرة كلامًا سريعًا قصيرًا - لم يفهم منه بطبيعة الحال كلمة واحدة - وهو يشير بيده الخالية صوب شارع بين القصرين فحملك السيّد في وجهه بيأس واستعطاف وهو يعاني مرارة العجز عن التفاهم معه كي يقنعه ببراءته ممّا يتّهمه به أو كي يعرف على الأقلّ ما يريد، ثمّ خطر له أنّه قصد بإشارته إلى بين القصرين أن يأمره بالابتعاد ظنًا منه أنّه غريب فراح يشير إلى بيته بدوره ليفهمه أنّه من سكّانه وأنّه عائد إليه ولكنّ الجنديّ تجاهل حركته وهو يدمدم ثمّ أصرّ على إشارته وهو يهزّ رأسه في نفس الاتجاه كأنّما يحثّه على الذهاب، ثمّ بدا أنّه ضاق به فقبض على منكبه وأداره بقوة فدفعه في ظهره فوجد السيّد نفسه يتحرّك متّجهًا نحو بين القصرين والآخر وراءه فاستسلم - ومفاصله تكاد تسبب - إلى المقادير، جاوز في مسيره المجهول المعسكر ثمّ سبيل بين القصرين وهناك اختفى آخر أثر للضوء المنبعث من المعسكر فخاض أمواج الظلام الدامس والصمت الثقيل، لا منظر يرى إلّا أشباح البيوت ولا صوت يسمع إلّا وقع القدمين الغليظتين اللتين تتبعانه في نظام ميكانيكيّ كأنّهما بعدّان الدقائق الباقية له في الحياة، ولعلّها ثوان، أجل كان يتوقّع في أيّة لحظة أن ينقضّ عليه بخيطة تهوي به إلى النهاية فمضى يترقّبها بعينين محمّلتين في الظلام وفم مطبق من الجزع وحرقة تتحرّك حركة عصبيّة من أن لأن كلّما ازدرد ريقه الجافّ الملتهب حتّى بوغت بوميض يجذب بصره إلى أسفل فكاد يصرخ كالأطفال من الملح وقد تهاوى قلبه ولكنّه تببّنه دائرة من الضوء تذهب ونحيي فادرك أنّها شعاع من بطّارية أضواءها سائقه ليتعرّف على طريقه خلال الظلمات. استردّ أنفاسه بعد أن تحفّف من الذعر المبالغ ولكنّه لم يستشعر نسمة راحة حتّى تلقّفه خوفه الأوّل، خوف الموت الذي يساق إليه، فعاد يترقّب حتفه بين لحظة وأخرى كأنّه

غريق توهم في تحبّطه أنّه يرى تمساحًا يتوتّب لمهاجمته ثمّ تبين له أنّ ما رأى أعشاب طافية ولكن فرحته للنجاة من الخطر الوهمي لم تكد تنفّس حتّى اختفت تحت ضغط الخطر الحقيقي المحيط به، إلى أين يسوقه؟ لو يستطيع أن يراطنه فيسأله! يبدو أنّه سيواصل سوقه حتّى يدفع به إلى قرافة باب النصر، لا أثر لإنسان ولا لحيوان، أين الغفير؟ وحيد تحت رحمة من لا يرحم، متى كان مثل هذا العذاب... هل يذكر؟ الكبوس... أجل إنّ الكبوس. كابدّه أكثر من مرّة خلال نوم مريض، إنّ ظلمة الكبوس نفسها لا تخلو أحيانًا من بارقة أمل قد يشرق بنفس النائم إحساس حنون بأنّ ما يعانيه حلم لا حقيقة وبأنّه سينجو من شرّه الآن أو بعد حين، هيهات أن يجود الدهر بمثل ذلك الأمل، أنّه صاحب لا نائم وهذا الجنديّ الشاكي السلاح حقيقة لا خيال وهذا الطريق الذي يشهد ذلّه وأسرّه شيء ملموس خفيف لا وهم، عذابه حقيقة لا سبيل إلى الشكّ فيها، إنّ أقلّ حركة عانعة تندّ عنه خليقة بأن تطيح رأسه... لا سبيل إلى الشكّ في هذا أيضًا. قالت له أمّ مريم وهي تودّعه: «إلى الغدّ الغدّ؟! هل يطلع ذلك الغدّ؟! سل القدمين الثقيلتين اللتين ترجّان الأرض وراء ظهرك... سل البندقية ذات السونكي الحاذّ المدبّ، قالت له أيضًا وهي تمزّحه «تكاد رائحة الخمر المتطايرة من فيك أن تسكرني»، الآن طارت الخمر وطار عقله، ولّت ساعة الصبوة، منذ دقائق معدودة... كانت الصبوة كلّ شيء في الحياة. الآن العذاب هو كلّ شيء... وليس بين هذا وذاك إلّا دقائق معدودة، دقائق معدودة!... عندما بلغ منعطف الخرنفش جذب عينيه شعاع يومض في الظلام فلحظ الطريق فرأى بطّارئة تتحرّك في يد جنديّ آخر يسوق بين يديه أشباحًا لم يتبين عددهم!... تساءل ترى هل صدرت إلى الجنود أوامر بالقبض على من يصادفون من الرجال ليلاً؟!... وإلى أين يسوقونهم؟!... وأيّ عقاب سيقضون به عليهم؟ تساءل طويلًا وهو من الدهش والانزعاج في نهاية بيد أنّ رؤيته للضحايا الجدد

أدخلت على قلبه شيئًا من العزاء والارتياح، لم يعد على الأقلّ وحيدًا كما كان يظنّ، وجد في بلواه أنسًا يؤنسون وحشته ويشاركونه المصير، كان يتقدّم قافلتهُم بمسافة قصيرة فراح ينصت إلى وقع أقدامهم مستأنسًا إليها كما يستأنس الضالّ في مفازة إلى أصوات آدمية ترامت إليه مع الريح، ولم تكن أمنية أعزّ على نفسه آنئذ من أن يلحقوا به لينضمّ إلى جماعتهم، سواء كانوا معارف أو غرباء، لتخفق قلوبهم معًا وهم يحشّون الخطى نحو المصير المجهول. هؤلاء الرجال أبرياء وهو بريء فقيم القبض عليهم؟ فيم القبض عليه هو مثلاً؟ لا هو من الثوار ولا من المشتغلين بالسياسة ولا حتّى من الشبان فهل يطلعون على الأفئدة ويحاسبون على المشاعر؟... أو تراهم يعتقلون أفراد الشعب بعد أن فرغوا من اعتقال الزعّاء! لو كان يعرف الإنجليزيّة فيسأل أسرّه؟... أين فهمي ليحادثة نيابة عنه؟... وخزه الألم والحزن، أين فهمي وباسين وكمال وخديجة وعائشة وأتهم؟ هل يمكن أن تتصوّر أسرته ما آل إليه حاله من هوان وهي التي لم تره إلّا جبارًا جليلاً؟ هل تتصوّر أنّ جنديًا دفعه بعنف حتّى أوشك أن يطرحه أرضًا وأن يسوقه كما تساق السائمة؟ وجد لذكر آله ألماً وحنينًا فكادت تدمع عيناه. كان يمرّ في طريقه بأشباح بيوت ودكاكين يعرف أصحابها، ومقامه كان يومًا - خاصّة عهد الصبا والشباب - من سمارها، فأحزنه أن يمضي بها سيرًا دون أن تنهض لنجدته أو حتّى ترثي لحاله، شعر حقًا بأنّ أحزن صنوف الهوان ما حاق به في حيّه، ثمّ رفع عينيه إلى السماء باعثًا بفكره إلى الله المطلع على قلبه، بعث إليه بفكره دون أن يجري له ذكرًا على لسانه ولو همسًا مستحيًا من أن ينطق باسمه وجسمه لم يتطهر من أنفاس الشراب وعرق الغرام، وما لبث أن تضاعف خوفه من أن يباعد دنسه بينه وبين النجاة، أو أن يلقي مصيرًا كفاء لما سلف من استهتاره، فغشي صدره تطير وكآبة، وأشفى على اليأس، حينما شارف سوق الليمون ترامى إلى الصمت الذي لا يؤنسه إلّا وقع أقدام أصوات مبهمة فأرهف محمّلًا في الظلام - وهو يتقدّم بين

ويفرغونها فيها، الكلّ يعمل بهمة وسرعة والأعين تسترق النظر في خوف إلى الجنود الإنجليز الذين رابطوا عند مدخل البوابة. اقترب منه شرطيّ ورمى إليه بمقطف وهو يقول بصوت غليظ ينم عن وعيد:

- افعل كما يفعل الآخرون...

ثم همساً:

- أسرع حتى لا يصيبك أذى...

كانت هذه الجملة أول تعبير «إنساني» يلقاه في رحلته المخيفة فسرت في صدره سرى النسمة في حلق المختنق، انحنى على المقطف فتناوله من علاقته وهو يسأل الشرطيّ همساً:

- هل يطلق سراحنا إذا تمّ العمل؟

فأجابه بنفس الصوت:

- إن شاء الله.

تنهد من الأعماق، راودته نفسه على البكاء، شعر بأنه يولد من جديد. رفع يسراه الجثة من طرفها ودسّه في حزام القفطان كيلا تعوقه عن العمل ومضى بالمقطف إلى طوار البوابة حيث تراكت الأتربة فوضعه بين قدميه وراح يملأ كفيه بالتراب ويفرغها في المقطف حتى امتلأ ثم حمله بيده وذهب إلى الحفرة فأفرغه فيها وعاد إلى الطوار، واصل العمل بين جماعات مختلفة من الناس ضمت الأفندية والمعممين، الهرمين والشبان، يعملون جميعاً بهمة عالية مستمدة من رغبتهم في الحياة، وإنه ليملاً مقطفه إذ لكزه كوع فالنفت إلى مصدره فرأى صديقاً يدعى غنيم حميدو صاحب معصرة زيتون بالجمالية ثمن يلثون بمجالس لهو بين حين وآخر ففرح به فرحة عظيمة كما فرح به الآخر، وسرعان ما تهاوسا:

- أنت وقعت أيضاً!..

- قبلك.. وصلت قبيل منتصف الليل ورأيتك وأنت تتسلم مقطفك فجعلت في ذهابي وإياي أتبع طريقاً يميل إليك رويداً رويداً حتى جاورتك.

- أهلاً.. أهلاً، أليس ثمة أحد من أصدقائنا؟!

- لم أعثر على غيرك.

- قال لي الشرطيّ إنهم سيطلقون سراحنا حالما نتمّ

الخوف والرجاء - فتناهد إلى أذنيه لجة لم يدر إن كان مصدرها إنسان أو حيوان، غير أنه تبين بعد قليل لغظاً فلم يتمالك أن قال لنفسه في لهفة «أصوات آدمية!» ومال مع الطريق فلاححت لعينه أضواء متحركة حسبها بادئ الأمر بطاريات جديدة ولكنها وضحت مشاعل رأى على نورها جانباً من بوابة الفتوح يقف تحته جنود بريطانيون، ثم تراءى له جنود من البوليس المصري ردّ منظرهم إلى صدره الدماء، سأعرف ما يراد بي، لم يبق إلا مسيرة خطوات، ماذا دعا إلى تجمعهم الجنود الإنجليز والمصريين عند البوابة؟ لماذا يسوقون الأهالي من شتى أنحاء الحي؟ عما قليل أعرف كل شيء، كل شيء؟ فلاستعد بالله ولاسلم إليه أمري، سأذكر هذه الساعة الرهيبة مدى العمر إن كان في العمر بقية، الرصاص... المشقة... دنشواي... أنضمّ إلى سجلّ الشهداء؟ أصبح نبأ من أنباء الثورة يتناقله محمد عفت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار كما كنا نتناقل الأخبار في سهرات المساء؟ تصوّر السهرة ومكانك شاغر؟ رحمة الله عليك... كان وكان... لشدّ ما يبكونك، وسيتذكرونك طويلاً، ثم تنسى، ما أشدّ اضطراب قلبي، سلم أملك للذي خلّقتك، اللهمّ حوالينا ولا علينا. ما إن اقترب من موقف الجنود حتى اتجهت الأنظار إليه باردة قاسية متوعدة فغاص قلبه في الأعماق مخلّفاً وراءه في الأضلع ألماً حاداً، ثرى هل أن له أن يتوقّف؟ تشاقلت قدماه ولغّه التردد والحيرة...

- ادخل...

هتف بها شرطيّ وهو يشير إلى داخل البوابة فنظر السيّد إليه نظرة ناطقة بالتساؤل والاستعطاف والاستغاثة، ثم مرّ بين الجنود لا يكاد يرى ما بين يديه من شدة الفزع ويودّ لو يغطي رأسه بذراعيه استجابة لغريزة الخوف التي تستصرخه. هنالك تحت قبة البوابة رأى منظرًا عرفه بما يراد به بغير حاجة إلى سؤال، رأى حفرة عميقة كالحندق تعترض الطريق، كما رأى جمهوراً من الأهالي يعملون بلا توقّف وتحت إشراف الشرطة لسدّ الحفرة بأن يحملوا الأتربة في مقاطف

العمل.

- قيل لي ذلك أيضًا، ربنا يسمع منك.

- سيّبا ركبى الله يخرب بيوتهم..

- لم تعد لي ركب على ما أظن!

وتبادلا ابتسامة مقتضبة..

- ما أصل هذه الحفرة؟

- يقال إنّ فتّات الحسنيّة حفروها أوّل الليل

ليمنعوا مسير اللوريات ويقال أيضًا إنّ لوريًا وقع فيها!

- إن صبحّ هذا فقلّ علينا السلام!

وعندما تجاورا مرّة ثانية عند كوم الأتربة كانا قد ألفا

الموقف بعض الشيء فعاودتهما الروح حتّى أنّهما لم يتمالكما

أن ابتسما وهما يملآن مقطفيهما بالتراب كعمال البناء

فهمس غنيم:

- حسبنا الله ونعم الوكيل على أولاد الكلب..

فهمس السيّد بأسًا:

- أرجو أن يعطونا أجرًا مناسبًا!

- أين قبض عليك؟

- أمام البيت.

- طبعًا!

- وأنت؟

- كنت بالعمّا منزولة، ولكنّي أفقت تمامًا، الإنجليز

أقوى من الكوكابين!

- أقوى من القيء نفسه!

مضى الرجال يذهبون ويحيثون عجّلين ما بين طوار

الأتربة والحفرة على ضوء المشاعل، أثاروا التراب حتّى

انتشر في فراغ القبة خالفاً جوّاً خانقاً فعلاهم البهر

وتصبّب منهم العرق من جبهاتهم واغرّرت وجوههم

وتتابع من انتشاق الغبار سعالهم فكأنتهم أشباح انشقت

عنهم الحفرة، على أيّ حال لم يعد وحده، هذا

الصديق وهؤلاء الرجال من حيّه، جنود البوليس

المصريّون معهم بقلوبهم، أيّ ذلك أنّهم جرّدوا من

سلاحهم.. لم يعد السيف ذو الغمد المعدنيّ يتدلّل

من أحزمتهم، اصبر.. اصبر لعلّ هذه الغمّة أن

تنكشف، هل كنت تتصوّر أنّك ستعمل حتّى مطلع

الصبح وربّما حتّى الضحى، شدّ حيلك، ليس ثمة

أنّك ستحمل التراب وتُسجّر في سدّ الحفرة؟ لا تريد

الحفرة أن تمتلئ، لا فائدة ترجى من الشكوى، ولن

تشكو؟ جسمك قويّ صلب العود يستطيع أن يتحمّل

رغم سكرة الليلة وعبثها. كم الساعة الآن؟ ليس من

الحيطة أن تنظر فيها، لو لم يقع لي هذا لكنت الآن

مستلقياً على الفراش منعماً بلذيد المنام، كنت أستطيع

أن أغسل رأسي ووجهي وأشرب شربة رويّة من القلّة

المعطّرة بالزهر، هنيئاً لنا هذه المشاركة في جحيم

الثورة، لم لا؟ البلد ثائر.. كلّ يوم.. كلّ ساعة

ضحايا وشهداء، بيد أنّ قراءة الصحف وتناقل الأخبار

شيء أمّا حمل التراب تحت تهديد البنادق فشيء آخر،

هنيئاً لكم أيّها النائمون في أسرّتكم، اللّهمّ احفظنا،

لست لها.. لست لها، اللّهمّ اهزم المشركين بقوّتك،

نحن ضعفاء.. لست لها، هل يتصوّر فهمي أيّ خطر

يتهدّده؟ إنّهُ يستذكر دروسه الآن غير عالم بما يحيق

بأبيه، قال لي: «لا، لأوّل مرّة في حياته، قالها بدموعه

ولكن سيّان عندي. المعنى واحد، لم أقل لأّمه، لن

أقول لها، أأكشف لها عن عجزتي؟ أستعين بضعفها

بعد أن أخفقت بقوّتي؟ كلّاً.. ليتّبقّ جاهلة بكلّ شيء،

يقول إنّهُ لا يعرّض نفسه للخطر، حقّاً؟ اللّهمّ

استجب، لولا هذا ما رحمته أبداً، اللّهمّ احفظه،

اللّهمّ احفظنا جميعاً من شرّ هذه الأيّام، كم الساعة

الآن؟ إن طلع علينا الصباح أمّا القتل، لن يقتلونا

أمام الخلق. الصباح؟

- بصقت على الأرض كي أتخلّص من الغبار اللازق

بسقف حلقي فرماني أحد الأبالسّة بنظرة وقف لها شعر

رأسي!

- لا تبصق، تشبّه بي، لقد بلعت من التراب قدرًا

يكفي لسدّ هذه الحفرة.

- لعلّ زبيدة دعت عليك!

- لعلّها..

- ألم يكن سدّ حفرتها أطيب من سدّ هذه الحفرة؟

- بل أشقّ!

تبادلا ابتسامة سريعة ثمّ قال غنيم متنبّها:

- انقصم ظهري يا هو!

- مثلك، عراؤنا أننا نشارك المجاهدين بعض آلامهم.

- ما رأيك في أن أرمي بالمقطف في وجه الجنود وأهتف بأعلى صوتي «يحيى سعد»؟!

- اشتغلت المنزل من جديد؟

- يا للخسارة!.. كانت قطعة «قد فص العين» حرّكتها بالشاي مرّة ومرتين وثلاثاً، ثمّ ذهبت إلى الطمبكشيّة أسمع الشيخ علي محمود في بيت الحمزاوي، وعدت قبيل منتصف الليل وأنا أقول لنفسني «الوليّة الآن تنتظرك لا أفلح من خيب لها رجاء» حين طلع ابن القرد وساقني من قفائي..

- ربّنا يعرض عليك.

- آمين.

جاء الجنود برجال آخرين بعضهم من ناحية الحسينيّة والبعض الآخر من ناحية النحاسين وسرعان ما انضَمُّوا إلى «العَمَل». ألقى على المكان نظرة فوجده ازدحم بالجمهور أو كاد وقد انتشروا حول الحفرة في جميع الجهات، يذهبون إلى الطوار ويرجعون إليها في حركة لا تنقطع وأنوار المشاعل تضيء منهم وجوهاً لاهثة نال منها الإعياء والذلّ والخوف كلّ منال. الكثرة بركة وأمان، لن يذبّحو هذا الجمع الغفير من الناس، لن يأخذوا البريء بالذنب، تُرى أين المذنبون؟ أين هؤلاء الفتّوات؟ هل يعلمون الآن أنّ إخواننا لهم وقعوا في الحفرة التي حفروا؟ قاتلهم الله هل حسبوا أنّ حفر حفرة سعيّد سعداً أو يخرج الإنجليز من مصر! لأنقطعن عن السهر إن كتب الله لي عمراً جديداً، أنقطع عن السهر! لم يعد السهر بأمّون، كيف يكون طعم الحياة، لا طعم للحياة في ظلّ الثورة، الثورة.. أيّ جنديّ يقبض عليك.. تحمل التراب بكفّيك، فهمي يقول لك لا، متى تعود الدنيا إلى أصلها؟

صداع؟.. بل صداع وغثيان، دقائق من الراحة.. لا أطمع في مزيد! بهيجة في سابع نومة، أمينة تنتظر كما تنتظر «وليّة» غنيم، هيهات أن يخطر لكم ما حاق بآبيكم، ربّاه إنّ التراب يملأ أنفي وعيني، يا سيّدنا الحسين، امتلئي.. امتلئي.. أما كفّاك هذا التراب

كلّه؟! يا بن بنت رسول الله، غزوة الخندق.. هُكِّذا دعاها سيّدنا الواعظ، كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع العاملين ويرفع التراب بيديه.. كافرون وكافرون لماذا ينتصر كافرو اليوم! فساد الزمن.. فسادي أنا، هل يعسكرون أمام البيت حتّى تنتهي الثورة؟

- ألم تسمع الديكة؟

أرهف السيّد أذنيه ثمّ غمغم:

- الديكة تصيح! الفجر؟

- نعم.. ولكنّها لن تمثّل قبل الصباح.

- الصباح!

- المهّمّ أنّي محصور، محصور جدّاً.

اتّجه ذهن السيّد إلى أسفل فشعر بأنّه محصور أيضاً، وبأنّ جانباً من آلامه يعود بلا شكّ إلى ذلك، وسرعان ما اشتدّ ضغط المثانة عليه كأنّها هيّجها تفكيره فيها، قال:

- وأنا كذلك.

- والعمل؟

- ما باليد حيلة!

- انظر هناك إلى ابن القرد الذي وقف يبول أمام دُكان على الزجاج!

- آه..

- إخراج شويّة بول أهمّ الآن عندي من إخراج الإنجليز من مصر كلّها..

- إخراج الإنجليز من مصر كلّها؟! ليخرجوا أولاً من النحاسين.

- ربّاه.. انظر.. لا يزال الجنود يأتون بالناس!

رأى السيّد جماعة جديدة تشقّ طريقها صوب الحفرة.

استيقظ السيّد أحمد من نومه حوالى العصر وكان نبأ واقعه قد ذاع في الأهل والأصدقاء فوفدوا على البيت واجتمعوا به مهتئين بالسلامة فراح يقصّ القصّة ويعيدها بأسلوب لم يُخلّ - رغم جدّيّة الأمر - من فكاهة وتهويل حتّى أثار شتّى التعليقات. كانت أمينة



لم تتكرم إحدى شقيقتيه - ولو مرة واحدة - بأن تحبها قائلة مثلاً «أذهب أنت وسألتك بك غداً!» بيد أنه بمرور الزمن اعتاد الصلة العجيبة التي تربط بين شقيقتيه وزوجيهما وسلم بحكمها وقنع بالزيارة القصيرة تحيء بين الحين والحين فيسعد بها دون طمع في مزيد. وبالرغم من هذا فلم يكن يتمالك أحياناً إذا رأهما مقبلتين من أن يقول متمنياً «لو تعودان إلى البيت فتقيان فيه كما كنتم!» فبادره أمه قائلة «ربنا يكفيهما شرّ تمنياتك الطيبة!». بيد أن أعجب ما صادفه في حياتها الزوجية كان ذلك التغير الذي طرأ على البطن.. وما صاحبه من أعراض بدت تارة مرعبة كالمرض وطوراً غريبة كالأساطير، وفدت على حافظته ألفاظاً جديدة كالحبل والوحم وما اكتنف الأخير من قيء وتوَعَك والتهم الحَبات الطين الجافة.. ثم ما شأن بطن عائشة؟.. متى يقف عن النمو الذي جعله كالقربة المنفوخة؟. وهذا بطن خديجة بدا - فيها يبدو - يخطو نفس الخطوات، وإذا كانت عائشة ذات البشرة العاجية والشعر الذهبي قد وجمت على الطين فعلى أي شيء توجم خديجة؟! غير أن خديجة لم تحقّق مخاوفه فتوجّمت على المخلّل حتى استثارت منه أسئلة لا حصر لها لم يظفر أحدها بجواب مقنع!.. وتقول أمه إن بطن عائشة - وبطن خديجة بالتالي - سيتمخض عن طفل صغير سوف يكون قرّة عينه.. ولكن أين يقيم هذا الطفل، وكيف يعيش، وهل يسمع ويرى، وماذا يسمع وماذا يرى، وكيف وجد، ومن أين جاء؟.. على أن هذه الأسئلة لم تهمل، ظفر عنها بأجوبة جديرة حقاً بأن تلحق بمعارفه عن الأولياء والعفاريت والرقى والتعاويذ وغير ذلك من المواد التي تزخر بها دائرة معارف أمه.. لذلك سأل عائشة مستطعلاً باهتمام:

- متى يخرج الطفل؟.

فأجابته ضاحكة:

- اصبر لم يبق إلا قليل.

فتساءل ياسين:

- أظنك في الشهر التاسع؟.

فأجابته:

أول من سمع القصة، ألقاها عليها وهو مشّت النفس خائر القوى لا يكاد يصدّق حقاً أنه نجا فتلقّت وحدها الجانب المفجع خالصاً، وما كادت تغادره نائماً حتى استرسلت في البكاء وجعلت تدعو الله أن يرعى أسرتها بعنايته ورحمته، ودعت الله طويلاً حتى كلّ لسانها. ولكنّه حينها وجد نفسه محوطاً بأصدقائه خاصة المقرّبين منهم أمثال إبراهيم الفار وعلي عبد الرحيم ومحمد عفت، استردّ الكثير من روحه المعنوية فتغذّر عليه أن يغفل الجانب الفكاهي من الحادث حتى غلب على ما عداه فأنتهى الحديث إلى نوع من المزاح كأنما كان يقصّ عليهم مغامرة من مغامراته. وبينما حفل الدور الأعلى بالزائرين اجتمع شمل الأسرة بالدور التحتانيّ فيما عدا الأم التي شغلت مع أم حنفي بتهيئة القهوة والأشربة، شهدت الصلاة من جديد اجتماع ياسين وفهمي وكمال وخديجة وعائشة في مجلس الأم التقليدي، وقد انضمّ إليهم خليل شوكت وإبراهيم شوكت سحابة النهار ولكنّها صعدا إلى حجرة الأب عقب استيقاظه بقليل فخلا الجو للإخوة، وكان الحزن الذي غشيهم طوال النهار على ما أصاب والدهم قد زایلهم بعودة الطمأنينة إلى نفوسهم فنبضت قلوبهم بالعواطف الأخوية وتوتّبوا للسمر والمرح كعهدهم في الأيام الخوالي. على أن الطمأنينة لم تستقرّ بنفوسهم حتى رأوا والدهم بأعينهم، أقبلوا عليه واحداً في إثر واحد فقبلوا يده ودعوا له بطول العمر والسلامة ثم غادروا الحجرة في نظام وأدب عسكريين. ومع أن السيد اكتفى بمدّ يده لياسين وفهمي وكمال بالتتابع دون أن ينبس بكلمة إلا أنه ابتسم إلى خديجة وعائشة وسأها في رقة عن الحال والصحة، رقة لم تحظيا بها إلا بعد زواجهما، وكان كمال يلاحظها بدهشة مقرونة بسرور كأنما هو الذي يحظى بها. والحق أن كمال كان أسعد الجميع بزيارات شقيقته كلّما هلّت.. كان ينعم في أثنائها بسعادة عميقة لا يعكّر عليه صفوها إلا التفكير في النهاية المتوقعة. ودائماً كان يحجيء النذير بهذه النهاية من أحد الرجلين - إبراهيم أو خليل - إذا تمطى أو تشاءب ثم قال «أن لنا أن نذهب» أمر مطاع لا يردّ،

- نعم ولو أن حاتي تصرّ على أنّي في الثامن!

فقالت خديجة بحدّة:

- أصل حمانك تصرّ دائماً على أن يكون لها رأي مخالف، هذا كلّ ما هنالك!

ولما كان الجميع على علم بما ينشب كثيراً بين خديجة وحاماتها من نزاع فقد تبادلوا النظرات ثمّ ضحكوا. وقالت عائشة:

- أودّ أن أقترح عليكم أن تنتقلوا إلى بيتنا فتبقوا معنا حتّى يجلو الإنجليز عن شارعكم.

فقالت خديجة بحماس:

- أجل، لم لا؟. إنّ البيت كبير وستنزلون على الرحب والسعة، فيقيم بابا وبنينة عند عائشة لأنّها في الدور الأوسط، وقيمون أنتم عندي.

رحّب كمال بالاقتراح فتساءل بلهجة تنمّ عن التحريض:

- من يقول لبابا؟

ولكنّ فهمي قال وهو يهزّ منكبيه:

- إنكمّا تعلّمان حتّى العلم أنّ بابا لا يمكن أن يوافق.

فقالت خديجة بأسف:

- ولكنّه يحبّ السهر فيكون عرضة لتحرش الجنود، يا لهم من مجرمين!

ساقوه في الظلام وحملوه التراب!... آه. رأسي يدور كلّما تصوّرت هذا.

فقالت عائشة:

- كنت أنتظر دوري لتقبيل يده وأنا أتفحص جسمه جزءاً جزءاً لأطمئنّ عليه، كان قلبي يدقّ... وعينياني تغالبان الدمع... لعنة الله على الكلاب أولاد الكلاب!

فابتسم ياسين... وقال لعائشة محدّراً وهو يلحظ كمال غامراً بعينه:

- لا تسيّ الإنجليز هكذا فإنّ لهم بيننا أصدقاء! فقال فهمي متهمكاً:

- لعلّه ممّا يسرّ له بابا أن يعلم أنّ الجنديّ الذي يقبض عليه ليلاً ما هو إلّا صديق من أصدقاء كمال. فابتسمت عائشة إلى كمال متسائلة:

- ألا تزال تحبّهم بعد ما كان منهم؟

فغمغم كمال وقد تورّد وجهه حياءً وارتباكاً:

- لو عرفوا أنّه أبي ما تعرّضوا له بسوء!

فما غمالك ياسين إلّا أن يضحك ضحكة عالية حتّى أنّه غطّى فمه بيده وهو ينظر في حذر إلى السقف كأنّما خاف أن يترامى صوت ضحكته إلى الدور الأعلى... ثمّ قال ساخراً:

- الأحرى بك أن تقول: إنهم لو عرفوا أنّك مصريّ ما صبّوا العذاب على مصر والمصريّين، ولكنهم لا يعرفون؟

فقالت خديجة بلهجة لاذعة:

- دع هذا الكلام لغيرك أنت...! أتكر أنّك من أصدقائهم كذلك؟!

ثمّ مخاطبة كمال بلهجة لاذعة:

- أتواتيك الشجاعة بعد ما عرف عن صداقتك لهم على أن تصلّي الجمعة في سيّدنا الحسين؟

فقطن ياسين إلى مرمى هجومها وقال مظهرًا الأسف:

- يحقّ لك أن تتطاولي عليّ ما دمت قد تزوّجت فاكتسبت بعض حقوق الأدميّين...

- ألم يكن لي هذا الحقّ من قبل؟!

- الله يرحم أيام زمان... ولكنّه الزواج يعيد إلى البائسات الروح... اسجدي شكراً للأولياء... ولتعاويد وأقراص أمّ حنفي.

فقالت خديجة وهي تغالب ضحكة:

- يحقّ لك أن تتهجّم على الناس بالحقّ وبالباطل بعد أن ورثت المرحومة وصرت من عداد الملاك.

فقالت عائشة بفرح صبيانيّ كأنّما لم تدّر من الأمر شيئاً:

- أخني في عداد الملاك!... ما أجل أن أسمع هذا!... أنت غنيّ حقّاً يا سي ياسين؟!

فقالت خديجة:

- دعيني أعّدّ لك أملاكه، اسمعي يا ستي: دكان الحمزاوي وربع الغوريّة وبيت قصر الشوق...

فقال ياسين وهو يهزّ رأسه مغمضاً عينيه:

- النساء . . . ومن شرّ حاسد إذا حسد . . .  
فتابعت خديجة حديثها دون مبالاة بمقاطعته:  
- وما خفي من الخلي والنقود المحبّاة أعظم . . .  
فهتفت ياسين في أسف صادق:  
- اختفت كلّها وحياتك، سرت، سرقها ابن  
الكلب، جعلت أبي يسأله عمّا إذا كانت تركت حلياً أو  
نقوداً فقال اللصّ «ابحثوا بأنفسكم، علم الله أنّي كنت  
أنفق عليها في أثناء مرضها من جيبى الخاصّ» . . .  
اسمعوا يا هوه . . . جيبه الخاصّ ابن الغسّالة! . . .  
فقال عائشة بتأثّر:  
- يا ولدا! . . . مريضة طريجة الفراش تحت رحمة  
رجل طامع في مالها! . . . لا صديق ولا حبيب،  
غادرت الدنيا من دون أن يحزن عليها أحد.  
فتساءل ياسين:  
- من دون أن يحزن عليها أحد؟!  
فأشارت خديجة من خلال باب موارب إلى ملابس  
ياسين المعلقة بالمشجب وقالت محتجّة احتجاجاً  
ساخراً:  
- وهذا البايون الأسود؟! . . . أليس آية على  
الحزن؟!  
فقال ياسين جاداً:  
- لقد حزنّت عليها حقّاً، ربّنا يرحمها ويغفر لها، ألم  
نكن تصافينا في آخر لقاء؟ الله يرحمها ويغفر لها  
ولنا . . .  
فخففت خديجة رأسها قليلاً رافعة حاجبيها ثمّ  
نظرت إليه من أعلى كمن ينظر من فوق نظّارته وهي  
تقول:  
- إحم . . . إحم . . . اسمعوا سيّدنا الواعظ (ثمّ  
وهي ترميه بنظرة شكّ) ولكن لم يبد عليك فيما أظنّ  
حزن شديد؟!  
فرماها بنظرة مغيظة قائلاً:  
- ما قصّرت في واجبي نحوها والحمد لله، أقمت  
لها مأتماً استمرّ ثلاث ليالٍ، وكلّ جمعة أزور القرافة  
محمّلاً بالرياحين والفواكه . . . أم تريدني ألطم وأعول  
وأحشو التراب على رأسي! إنّ للرجال حزناً غير حزن
- النساء .  
فهزّت رأسها كأنما تقول «أفدّني أفاذك الله» ثمّ  
قالت متنبّدة:  
- آه من حزن الرجال! . . . ولكن خبرني وحياتي  
عندك ألم يخفّف الدكّان والريح والبيت من لوعة  
الحزن؟!  
فقال متأفّفاً:  
- صدق من قال: إنّ قبح اللسان من قبح  
الوجه . . .  
- من قائل هذا؟! . . .  
أجابها بأساً:  
- حماك!  
فضحكت عائشة، وضحك فهمي وهو يسأل  
خديجة:  
- ألم تتحسّن العلاقات بينكما؟  
فأجابته عائشة بالنيابة عنها قائلة:  
- سوف يتحسّن ما بين الإنجليز والمصريّين قبل أن  
يتحسّن ما بينها . . .  
فقال خديجة بحقّ لأول مرّة:  
- امرأة قويّة، ربّنا عليها، والله أنا بريئة  
ومظلومة . . .  
فقال ياسين متهمّاً:  
- نصّدّقك يا أختي بلا قسم، هذا شيء نشهد به  
أمام الله في يوم العذاب!  
فعاد فهمي يسأل عائشة:  
- وأنت كيف حالك معها؟  
فقال عائشة وهي تلحظ خديجة بإشفاق:  
- على ما يرام . . .  
فهتفت خديجة:  
- آه من أحتك عائشة . . . تعرف كيف تسوس  
وتطاطئ الرأس . . . اتفوخخص . . .  
فقال ياسين متصنّفاً الجذّ:  
- على أيّ حال فلحماتك الرحمة ولك صادق  
التهنئة!  
فقال بسخرية:

- التهنته الحقة لك أنت قريباً إن شاء الله حين تزف  
إلى عروسك الثانية!... أليس كذلك؟

فما تمالك إلا أن ضحك ثم قال:

- ربنا يسمع منك...

فتساءلت عائشة باهتمام:

- حقاً؟...

ففكر قليلاً... ثم قال في شيء من الجذ:

- المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، ولكن من يعلم

بما يأتي به الغد؟! ربما ثانية وثالثة ورابعة...

فهتفت خديجة:

- هذا ما أتوقعه. الله يرحم جدك!

فضحكوا جميعاً حتى كمال، ثم عادت عائشة تقول

بصوت أسيف:

- مسكينة زينب!... كانت فتاة لطيفة وطيبة...

- كانت...! وكانت حمقاء أيضاً، أبوها - مثل

أبي - لا يطاق، لورضيت بمعاشرتي كما أحب ما فرطت

فيها أبداً...

- لا تعترف بهذا، حافظ على كرامتك، لا تشمت

بك خديجة...

قال باستهانة:

- نالت الجزاء الذي تستحقه، فلينقعها أبوها

ويشرب ماءها.

فغمغت عائشة:

- ولكيها حبل ي ولداه!... أترضى لوليدك بأن

ينمو بعيداً عن رعايتك حتى تسترده غلاماً؟!

آه، أصابت مقتللاً، ينمو في حضانة أمه كما نما أبوه

من قبل، ربما كابد تعاسة كتعاسته أو أشد... ربما تمت

معه كراهية لأمه أو لأبيه، تعاسة على أي حال. قال

عائساً:

- ليكن حظّه كحظّ أبيه، ما باليد حيلة!

وساد الصمت قليلاً حتى سأل كمال خديجة:

- وأنت يا أبله متى يخرج الطفل...؟

فأجابته ضاحكة وهي تتحسّس بطنها:

- إنه لا يزال في سنة أولى.

فعاد يقول لها ببراءة وهو يتفرّس في وجهها:

- نحفت جدّاً يا أبله وصار وجهك قبيحاً...!

ضحكوا جميعاً وهم يغطّون أفواههم بأيديهم،

ضحكوا حتى شعر كمال بالحياء والارتباك، أمّا خديجة

التي لم يكن الاستياء من كمال ممّا تستطيعه فقد مالت

إلى أن تجاري الثّيار فقالت ضاحكة:

- اعترف لكم بأنّي خسرت في أيام الوحش كلّ

اللحم الذي تعبت أمّ حنفي أعواماً في جمعه ولمّه،

نحفت وبسرر أنفي وغارت عيناي وخيل إليّ أنّ

«الرجل» يقلّب عينيه مفتشاً عبثاً عن العروس التي

زفوها إليه؟...

ثمّ ضحكوا ثانية حين قال ياسين:

- الحقّ أنّ زوجك مظلوم لأنّه على غباوته البادية

وسيم الطلعة فسبحان من جمع الشاميّ على

المغربيّ...

تجاهلته خديجة وخاطبت فهمي قائلة وهي تومئ إلى

عائشة:

- كلاهما - زوجي وزوجها - في الغباء سواء! لا

يكادان يبرحان البيت ليل نهار، لا هم ولا عمل، أمّا

زوجها فوقته كلّ ضائع بين التدخين وعزف العود كأنّه

شحاذ من الشحاذين الذين يمرّون على البيوت في

الأعياد، وأمّا زوجي فلا تراه إلاّ مستلقياً يدخن ويثرثر

حتى يدوخ دماغه..

فقالت عائشة للمعتدرة:

- الأعيان لا يعملون!

فقالت خديجة هازئة:

- العفو... يحقّ لك أن تدافعي عن هذه الحياة،

الحقّ أنّ الله لم يجمع بين متشابهين كما جمع بينكنا،

كلاكنا في الكسل والدعة والحمول شخص واحد،

والنبيّ يا سيّ فهمي يمرّ اليوم كلّ وهو يدخن ويعزف

وهي تزوّق نفسها وتذهب وتجيء أمام المرأة...

تساءل ياسين:

- لم لا ما دامت ترى منظرًا حسنًا...؟!

وقبل أن تفتح خديجة فاهها سألتها مستعجلاً:

- خبريني يا أختاه ماذا تصنعين لو جاء وليدك شبيهاً

بك؟

نفساً مسباحة فإنّه لم يَلَقْ هذه المرّة إلّا حنقاً وامتناعاً، ربّما كان ذلك لما عاناه في الأيام الأخيرة. كثيراً ما توقّع أن يسمع عن زواج مريم، كان ذلك همّه وكرهه بيد أنّه سلّم به سلفاً تسليم اليأس، وكاد يألّفه بكرور الأيام، إلّا أنّ حبه نفسه تراجع عن بؤرة شعوره الذي شغلته الشواغل الكبرى، حتّى وقعت واقعة جوليون فزلزل زلزالاً. تغازل إنجليزياً لا مطمع لها في الزواج منه فأبى معنّى تتضمّن هذه المغازلة؟ هل تصدر إلّا عن متهتكة؟ مريم متهتكة؟ وفيّمْ كانت أحلامه الماضية؟ ولم يكن يخلو بكمال حتّى يدعوه إلى إعادة القصّة من جديد محتّماً عليه أن يصف التفاصيل بدقّة، كيف لاحظ ما يدور، وأين كان موقف الجنديّ، وأين كان موقفه هو، وهل هو متأكّد من أنّ مريم نفسها التي كانت في الكوّة؟ وأنها كانت تنظر حقّاً إلى الجنديّ؟ وهل رآها بتبسّم إليه، وهل وهل وهل، ثمّ يسأله وهو يعضّ على أسنانه كأنّما يهرس الشقاء الذي يعذّبه: وهل تراجعت في خوف حين وقعت عيناها عليك؟ ثمّ يمضي متخيلاً المواقف والمناظر، موقفاً موقفاً، ومنظراً منظراً، وتخيّل الابتسامة طويلاً حتّى كأنّه يرى الشفتين المفترتين كما رآهما يوم زفاف عائشة وصاحبتهما تتبع العروس في فناء بيت آل شوكت.

- يبدو أنّ نينة لن نجالسنا اليوم.

قالته عائشة بصوت يدلّ على الأسف.

فقالته خديجة:

- الزوّار يملأون البيت.

ياسين ضاحكاً:

- أخاف أن يشتهب الجنود في كثرة القادمين فيظنّوا أنّ اجتماعاً سياسياً ينعقد في بيتنا.

خديجة في مباهاة:

- إنّ أصدقاء بابا يحبّون عين الشمس...

فقالته عائشة:

- رأيت السيّد محمّد عتّت نفسه على رأس القادمين.

فأمّنت خديجة على قولها قائلة:

- كان صديقاً حميماً لبابا من قبل أن نرى نور

كانت شبتت من مهاجته فأجابته جادّة:

- سيّجيء بإذن الله شبيبها بأبيه أو جدّه أو جدّته أو خالته، أمّا... (ثمّ ضاحكة) أمّا إذا أبى إلّا أن يجيء شبيبها بأتمه فالنفي يكون أحقّ به من سعد باشا! ولكنّ كمال قال بلهجة خبير عليم:

- الإنجليز لا يهتمّهم الجمال يا أبلّا، إنهم يحبّون كثيراً براسي وأنفي...

فصربت خديجة صدرها بيدها هاتفة:

- يدّعون صداقتك وهم يعيشون بك... ربّنا يسلّط عليهم زبلن من جديد.

ورمت عائشة فهمي بنظرة رقيقة وهي تقول:

- كم يسرّ دعاؤك بعض الناس...

فابتسم فهمي مغمغماً:

- كيف أسرّ ولهم في بيتنا أصدقاء مغفلون؟

- يا خسارة تربيتك له...

- من الناس من لا تنفع فيه التربية.

فتساءل كمال محتجّاً:

- ألم أزعّ جوليون أن يعيد سعد باشا؟

فقالته خديجة ضاحكة:

- في المرّة القادمة حلّفه برأسك الذي يعجب به.

شعر فهمي أكثر من مرّة بأنّ من حوله يسعون كلّما بدت فرصة إلى استدراجه إلى الحديث والتسلية، بيد أنّ ذلك لم يجد شيئاً في التخفيف من الإحساس بالغربة الذي غشيه طوال الوقت، هو إحساس كثيراً ما يفصله عن آله وهو بينهم فيشعر بالغربة أو الوحدة رغم زحمة المجلس، ينفرد بقلبه وحزنه وحامسه بين أناس لا هين ضاحكين، حتّى نفي سعد يتخذون منه دعاية إذا لزم الأمر... إختلس منهم النظرات تباعاً فوجدهم راضين، عائشة... هانئة وإن تكن تعبت قليلاً بسبب الحمل ولكنّها سعيدة بكلّ شيء حتّى بتعبها، خديجة... متوتّبة ضاحكة، ياسين... صحّة وعافية وغبطة، ممّن من هؤلاء يكثرث لحوادث هذه الأيام! من منهم يهّمه بقي سعد أم نفي، جلا الإنجليز أم مكثوا! إنّه غريب، أو غريب على الأقلّ بين هؤلاء. ومع أنّ هذا الإحساس كان يلقي منه عادة

الدنيا.

فقال ياسين وهو يهز رأسه:

- اتهمني بابا ظلمًا بأنني قطعت ما بينها.

- ألا يفرق الطلاق بين أعز الأصدقاء؟!

ياسين بأسًا:

- إلّا أصدقاء أبيك!

عائشة بفخار:

- من ذا تطاوعه نفسه على مخاصمة بابا؟ والله ما في

الدنيا كلُّها نظير له...

ثم وهي تنتهد:

- كلِّما تصوَّرت ما وقع له أمس شاب شعر

رأسي...

أحيرًا ضاقت خديجة بوجوم فهمي فعزمت على أن

تعالجه بطريقة مباشرة بعد أن أخفقت - فيما رأت -

الطرق غير المباشرة، فالتفتت إليه متسائلة:

- أرايت يا أخي كيف أنّ ربنا أكرمك يوم لم يأذن

بتحقيق رغبتك نحو... مريم؟!

نظر فهمي إليها بين الدهشة والحياء، سرعان ما

تركزت فيه الألبصار حتّى كمال تطلّع إليه باهتمام، وساد

صمت نَم عمقه عن شعور مكبوت طال في الصدر

تجاهله أو إخفاؤه حتّى أفصحت عنه خديجة بجرأة

فتطلّعا إلى الشاب في صمت المنتظر للجواب كأنّما هو

نفسه الذي طرح السؤال، غير أنّ ياسين رأى أن ينهي

الصمت قبل أن يستفحل فيبعث على الألم فقال

متظاهراً بالسرور:

- أصل أخيك وليّ والله يحبّ أوليائه...

وكان فهمي يكابد حرجًا وحياء فقال باقتضاب:

- هذه مسألة قديمة عفاها النسيان...

فقال عائشة بلهجة المعتذر:

- لم يكن سي فهمي وحده الذي خدع بها، كلُّنا

خدعنا بها...

فقال خديجة مدافعة عن نفسها - بأقصى ما في

وسعها - تهمة الغفلة:

- على أيّ حال أنا لم أقتنع لحظة واحدة فيما مضى،

حتّى مع اعتقادي ببراءتها، بأنّها جديرة به...

فعاد فهمي يقول متظاهراً بالاستهانة:

- هذه مسألة قديمة عفاها النسيان، إنجليزي...

مصري... سيّان، دعونا من هذا كله...

وجد ياسين نفسه تعاود التفكير في «مسألة»

مريم... مريم؟!... لم يكن ينظر إليها فيما مضى -

إن مرّت في مجال بصره - إلّا عابراً، ثمّ زاده زهدًا فيها

تعلّق فهمي بها، حتّى ذاعت فضيحتها في الأسرة...

هناك ثار اهتمامه، تساءل طويلاً أيّ فتاة هي؟ ودّ لو

ملأ عينيه منها، تمثّى لو كان سبر الفتاة التي استرعت

تشوّق «إنجليزي»... إنجليزيّ جاء الحيّ مقاتلاً لا

مغالزاً، لم يبد سخطه عليها إلّا مجارة للحديث كلّما

تناولها أمّا في الباطن فقد أطربه غاية الطرب وجود

«مفضوحة» جريئة مثلها على كذب منه فلا يفصله عنها

إلّا جدار، شاع في صدره العريض المكتنز ذاك الطرب

البهيميّ الذي يدعوه إلى الصيد وإن وقف - احتراماً

لحزن فهمي الذي يحبه - عند حدّ الشعور واللذة

السلبية المجردة، لم يعد في الحيّ من يستثير اهتمامه

كمريم.

- أن أوّان الذهاب.

قالت خديجة ذلك وهي تنهض على حين ترامى

إليهم صوت إبراهيم وخليل وهما يتحدثان قادمين من

الردهة الخارجية. قام الجميع، من يتمطى ومن يحبك

ملايسه، إلّا كمال فقد لزم مجلسه وهو يتطلّع إلى باب

الصالة بحزن وقلب خافق...

٦٧

جلس السيّد أحمد إلى مكتبه، مكبًا على دفاتره،

يزاول عمله اليوميّ الذي يتناسى به - ولو إلى حين -

هشومته الشخصية والهجوم العامّة التي تنطأير بها الأنباء

الدامية. غدا يحبّ الدكان حبه مجالس الأنس والطرب

لأنّه على الحالين يظفر بما ينتزعه من جحيم الفكر، إلّا

أنّ جوّ الدكان حافل بالمساومة والبيع والشراء والربح

وغير ذلك من شئون الحياة العادية، حياة كلّ يوم، فلا

تخلو من أن تبعث في نفسه شيئاً من الثقة الموحية

بإمكان عودة كلّ شيء إلى أصله، إلى حالته الأولى من

بين الورا والأمام كأنه راكب جملاً، فإل السيد فوق مكتبه ومد يده حتى التقت بيد الرجل وشد عليها متمتاً «الكريسي على يمينك، تفضل بالجلوس» فأسند الشيخ متوكي عصاه إلى المكتب وجلس على الكريسي ثم اعتمد يديه على ركبتيه وهو يقول:

- الله يحفظك ويصونك...

فقال السيد من قلبه:

- ما أطيب دعاءك وما أحوجني إليه!

ثم ملتفتاً صوب جميل الحمزاوي الذي كان يزن أرزاً لزبون:

- لا تشن أن تهين لفة سيدنا الشيخ...

فجاء صوت جميل الحمزاوي قائلاً:

- من ذا الذي ينسى سيدنا الشيخ!

فبسط الشيخ راحتيه ورفع رأسه وهو يحرك شفتيه بالدعاء في هيمنة لم يسمع منها إلا وسوسة متقطعة، ثم عاد إلى وضعه الأول فصمت لحظة ثم قال بلهجة الافتتاح:

- أبداً بالصلاة على نور الهدى.

فقال السيد بحرارة:

- عليه أزكى الصلاة والسلام...

- وأثني بالترحم على أبيك طيب الذكر.

- رحمه الله رحمة واسعة.

- ثم أسأل الله أن يقر عينيك بأسرتك وذريتك وذرية ذريتك وذرية ذريتك.

- آمين.

متنهداً:

- وأدعوه أن يعيد إلينا أفندينا عباس ومحمد فريد

وسعد زغلول...

- اللهم استجب.

- وأن يخرب بيت الإنجليز بما أثموا وبما

يأثمون...

- سبحان المتقّم الجبار.

عند ذاك تنحنح الشيخ ومسح على وجهه بكفه ثم

قال:

- أما بعد فقد رأيتك في منامي تلوح بيدك فيما

الاستقرار والسلام. السلام؟ أين ذهب ومتى يأذن بالعودة؟... حتى في هذا الدكان تجري أحاديث الدماء همساً مفجعاً، لم يعد الزبائن يقنعون بالمساومة والشراء فيما تالو ألسنتهم أن تردّد الأنباء وتندب الأحداث، فوق زكائب الأرز والبرن سمع عن معركة بولاق ومذابح أسيوط واجنازات التي تشيع فيها النعوش بالعشرات والشباب الذي انتزع من العدو مدفعا رشاشاً أراد أن يدخل به الأزهر لولا أن سبقته المنيّة فانغrust في جسمه عشرات المقدوفات، هذه الأنباء وغيرها مما يصطبغ بلونها القاني تفرع أذنيه بين حين وآخر في المكان الذي يلوذ به ناشداً النسيان. ما أتمس الحياة في ظل الموت، هلاً عجّلت الثورة بتحقيق غايتها من قبل أن يمتدّ أذاها إليه أو إلى أحد من ذويه!... إنه لا يخلج بمال ولا يضرّ بعاطفة أما بذل الحياة فأمر آخر، أيّ عذاب صبه الله على العباد فهانت النفوس وجرت الدماء! لم تعد الثورة «فرجة» حماسية، إنها تهدّد أمنه في الذهاب والإياب، وتتوعد ابنه «العاصي». فترحماسه لها، هي دون غايتها، يحلم بالاستقلال ويعودة سعد ولكن دون ثورة أو دعاء، أو زعر، يهتف مع الهاتفين ويتحمس مع المتحمسين ولكن عقله يقاوم التيار متعلّقاً بالحياة فمكث وحده في المجري كأصل شجرة اقتلعت العواصف أغصانها، لن يوهن شيء وإن جلّ من حبّه للحياة، فلتبقّ له إلى آخر العمر، وليؤمن فهمي إيمانه لتبقى له حياته إلى آخر العمر كذلك، فهمي العاق الذي رمى بنفسه إلى التيار بلا حزام نجاة...

- هل السيد أحمد موجود؟

سمع السيد صوت السائل وهو يشعر باندفاع شخص داخل الدكان كأنه مقدوف آدمي رفع رأسه عن مكتبه فرأى الشيخ متوكي عبد الصمد يتوسط المكان رامشاً بعينيه الملتهبتين مدقّقاً النظر - عبثاً - صوب المكتب فهشّ قلبه وابتسمت أساريره ثم هتف بالقادم:

- تفضل يا شيخ متوكي، حلّت البركة...

فلاح الاطمئنان في وجه الشيخ وتقدّم يهتّز أعلاه ما

فتحت عيني حتى صبح عزمي على زيارتك.  
فابتسم السيد ابتسامة لا تخلو من حزن وقال:  
- لا أعجب لذلك فإني في مسيس الحاجة إلى  
بركتك، زادك الله بركة على بركة..

فمال وجه الشيخ نحو السيد في عطف وتساءل:  
- أحق ما بلغني عن حادث بوابة الفتوح؟  
فأجاب السيد مبتسماً:

- نعم... من أبلغك يا ترى؟

- كنت ماراً بمعصرة حميدو غنيم فاستوقفني وقال لي  
«ألم يبلغك ما فعل الإنجليز بحبيبك السيد أحمد وبى؟»  
فاستوضحته منزعاً فقص عليّ العجب العجائب...  
قص عليه السيد الحادث بتفاصيله، لم يكن يملّ  
ترديده، ولعلّه قصّه في الأيام القلائل الأخيرة عشرات  
المرّات.

وأصغى الشيخ وهو يتلو همساً آية الكرسي: أفزعت  
يا بني؟ كيف كان فزعك... خبرني.... لا حول  
ولا قوة إلا بالله... ولكن هل تقعت بالسلامة?...  
أنسيت أنّ الفزع لا يمضي إلى حال سبيله?... صليت  
طويلاً وسألت الله النجاة! هذا جميل ولكن يلزمك  
حجاب..

- كيف لا!... يزيدنا بركة يا شيخ متولي...  
والأولاد وأمهم، ألم يدركهم الفزع؟  
- طبعاً... قلوب ضعيفة لا عهد لها بالقسوة  
والإرهاب، الحجاب... الحجاب... وفيه  
الشفاء...

- أنت الخير والبركة يا شيخ متولي.. فقد نجاني الله  
من شرّ كبير، ولكن ثمة شرّ لا يزال يتهدّدي ويقصّر  
مضجعي.

مال وجه الشيخ نحو السيد في عطف مرّة أخرى  
وتساءل:

- ماذا بك يا بني عفا الله عنك؟

فرنا السيد إليه بطرف واجم وغمغم في ضجر:

- ابني فهمي...

فرغ الشيخ حاجبيه الأشيبين متسائلاً أو منزعاً ثم  
قال برجاء:

- محفوظ بإذن الرحمن...

فهز السيد رأسه بأسى وقال:

- عفتي لأوّل مرّة والأمر لله...

فبسط الشيخ متولي ذراعيه أمامه كأنما يتقي بهما  
البلاء وهتف:

- معاذ الله، فهمي ابني، وأنا أعلم علم اليقين أنّه  
طبع على البرّ.

فقال السيد أحمد متسخطاً:

- يابى حضرته إلّا أن يفعل كما يفعل الشبان في هذه  
الأيام الدامية...

فقال الشيخ في دهش واستنكار:

- أنت أب حازم ما في ذلك شك، ما كنت أتصوّر  
أنّ ابناً من أبنائك يجرؤ على أن يردّ لك أمراً...

حرّ هذا القول في قلبه حتى أدماه وضاق به صدره،  
ثم وجد من نفسه نزوعاً إلى التهوين من عصيان ابنه  
ليدفع عن شخصه تهمة الضعف أمام الشيخ وأمام  
نفسه معاً فقال:

- لم يجرؤ على هذا صراحة طبعاً ولكنّي دعوته إلى  
أن يحلف على المصحف بأنّ لا يشترك في أيّ عمل من  
أعمال الثورة فبكي، بكى من دون أن يجسر على قول  
لا، ما عسى أن أصنع؟ لا أستطيع أن أحبسه في البيت  
ولا يسعني أن أراقبه في المدرسة، وأخاف أن يكون تيار  
هذه الأيام أقوى من أن يقاومه شاب مثله، ماذا  
أصنع?... أأهّده بالضرب?... أضربه?... لكن  
ما عسى أن يجدي التهديد مع شخص لا يبالي تعريض  
نفسه للموت!

فمسح الشيخ على وجهه وتساءل بقلق:

- وهل ألقى بنفسه في المظاهرات؟

فقال السيد وهو يهزّ منكبيه العريضين:

- كلّاً ولكنّه يؤرّع المنشورات، لَمّا ضيّقت عليه

زعم أنّه يكتفي بالتوزيع على خاصّة أصدقائه.

- ما له ولهذا الأعمال!... إنّه الوديع ابن الوديع

ولهذا الأعمال رجال من صنف آخر، ألم يعرف أنّ

الإنجليز وحوش لا تتطرّق الرحمة إلى قلوبهم

الغليظة?... وإنهم يتغلّدون صباح مساء بدماء



صغارها، بالأمس قال ابني فؤاد لأمنه إنه ودّ لو يشترك في مظاهرة!

فقال السيّد بقلق:

- يعملها الصغار ويقع فيها الكبار!... ابنك فؤاد صديق ابني كمال وكلاهما في مدرسة واحدة، ألا تحدّثه نفسه... ألا تحدّثهما نفسيهما مرّة بأن يسيرا في مظاهرة!... هه... ما من عجيبة تعدّ الآن عجيبة!...

فقال الحمزاوي وقد ندم على ما فرط منه:

- ليس إلى هذا الحدّ يا سي السيّد، على أيّ أدبته بلا رحمة على تمثّياته الساذجة، إنّ سي كمال لا يخرج إلّا مصحوبًا بأمّ حنفي حفظه الله ورعا...

ساد الصمت فلم يعد يسمع في الدكان إلّا خشخشة الورقة التي يلفّ فيها الحمزاوي هديّة الشيخ متولّي عبد الصمد، ثمّ تنهّد الشيخ وقال:

- فهمي ولد عاقل، لا ينبغي أن يمكّن الإنجليز من نفسه العريضة، الإنجليز... حسبي الله... ألم تسمع بما فعلوا في العزيزة والبدرشين؟...

كان السيّد على حال من القلق لم يجد معها رغبة صادقة في التّساؤل، إلّا أنّه لم يتوقّع جديدًا فوق ما يقرع سمعه هذه الأيام، فاكتمى بأن يرفع حاجبيه متظاهرًا بالاهتمام فأنشأ الشيخ يقول:

- كنت أوّل أمس في زيارة الحسيب النسيب شدّاد بك عبد الحميد بسرايه العامرة بالعبّاسيّة، دعاني إلى الغداء والعشاء فأتخفّفته بأحجية له ولآل بيته، وهناك حدّثني بحديث العزيزة والبدرشين...

سكت الشيخ قليلاً فتساءل السيّد أحمد:

- تاجر الأقطان المعروف؟

- شدّاد بك عبد الحميد أكبر تاجر قطن، لعلّك عرفت ابنه عبد الحميد بك شدّاد فقد كان يومًا على صلة وثيقة بالسيّد محمّد عفت؟...

فقال السيّد ببطء ليملي لنفسه في التذكير:

- أذكر أنّي رأيته مرّة في مجلس السيّد محمّد عفت قبل نشوب الحرب، ثمّ سمعت عن إبعاده عن القطر عقب عزل أفندينا، أما من جديد عنه...؟

المصريّين المساكين؟... كلّهم بالحسنى، عظه، بين له النور من الظلام، قل له إنّك أبوه وإنّك تحبّه وتحاف عليه، أمّا أنا فسأعمل من ناحيتي على إعداد حجاب من نوع خاصّ وأدعوه في صلاتي وخاصّة صلاة الفجر، والله المستعان من قبل ومن بعد...

قال السيّد بحزن:

- إنّ أنباء القتل تتواتر كلّ ساعة معلنة أي التحذير لمن يعتبر فما الذي أصاب عقله؟ لقد ضاع ابن الفولي اللبّان في غمضة عين فشهد مأتمه معي وعزّى والده المسكين، كان الشابّ يوزّع سلاطين اللبن الزبادي فصادف في طريقه مظاهرة فأغراه القضاء بالاشتراك فيها بلا وعي، وما هي إلّا ساعة أو نحوها حتّى خرّ صريعًا في ساحة الأزهر، لا حول ولا قوّة إلّا بالله... إنّنا لله وإنّا إليه راجعون، لمّا تأخّر عن ميعاد عودته قلق أبوه فمضى إلى زبائنه يسأل عنه، قال له بعضهم إنّهم جاءهم بالزبادي وذهب وقال آخرون إنّهم لم يمسّ عليهم كعادته، حتّى بلغ حروشًا بائع الكنافة فوجد عنده الصبيّة وما تبقي من السلاطين التي لم توزّع وأخبره الرجل بأنّه تركها عنده واشترك في مظاهرة المساء، فجئن جنون المسكين وقصد من توه قسم الجماليّة فوجّهوه إلى قصر العيني وهناك عثر على ابنه في المشرحة، لقد علم بالقصّة بحذافيرها كما قصّها علينا الفولي ونحن في بيته نعرّيه، علم كيف فقد الشابّ وكأنّ لم يوجد ولمس حزن أبيه المبرّح وسمع صوات أهله، هلك المسكين فلم يعد سعد ولم يخرج الإنجليز، لو كان حجرًا لعقل ولكنته خير أبنائي فلله الحمد والشكر...

فقال الشيخ متولّي بصوت أسيف:

- أعرف ذلك الشابّ المسكين، إنّ أكبر أبناء الفولي ليس كذلك؟... كان جدّه مكاريًا وكنت أكرتي حمارة للذهاب إلى سيّدي أبي السعود، إنّ للفولي أربعة أولاد ولكنّ الفقيد كان أحبّهم إلى قلبه.

هنا اشترك جميل الحمزاوي لأوّل مرّة في الحديث قائلاً:

- أيّامنا هذه مجنونة وقد تلفت عقول الناس حتّى

ينلم... أين رحمة الله؟... أين انتقامه؟...  
الطوفان... نوح... مصطفى كامل. تصوّر...!  
كيف يمكن أن تبقى معه بعد ذلك تحت سقف واحد!  
أيّ ذنب جنت!... وهو بأيّ وجه؟...!

ضرب الشيخ بيده ثلاثاً على ركبتيه ثم عاد إلى  
الحديث وقد تهّدج صوته فصار بالنواح أشبه، قال:  
- وأضرمو النار في البلدتين مستعنيين بما على  
أسقف الدور من حطب وقشّ وما صبوا عليها من  
بترول، استيقظت القرى في فزع رهيب وفرّ أهلوها  
عن بيوتهم كالمجانين، وعلا الصراخ والأنين، وامتدّت  
ألسنّة اللهب في كلّ مكان حتّى استحالت البلدتان  
شعلة من النيران...!

هتف السيّد بلا وعي:

- يا ربّ السماوات والأرض!

فمضى الشيخ قائلاً:

- وضرب الجنود نطاقاً حول البلدتين المشتعلتين من  
بعيد يتربصون بالأهالي البؤساء الذين انطلقوا هائمين  
على وجوههم تتبعهم الأغنام والكلاب والققط يرومون  
سبيلاً للنجاة من النار، فما إن بلغوا مواقف الجنود حتّى  
انهال هؤلاء على الذكور ضرباً وركلاً، ثمّ حجزوا  
النساء ليسلبوا حليهنّ ويهتكوا أعراضهنّ، فإذا قاومت  
إحداهنّ قتلت، وإذا نذت عن زوج أو أب أو أخ  
حركة دفاع رمي بالرصاص...  
ثمّ التفت الشيخ متولّي إلى السيّد الذاهل وضرب  
كفّاً على كفّ وهو يهتف:

- وساقوا بقيّة الضحايا إلى معسكر قريب وهناك  
أجبروهم على التوقيع على مكتوب يتضمّن اعترافهم  
بجرائم لم يرتكبوها وإقراراً بأنّ ما أنزله الإنجليز بهم  
جزاء حقّ على ما فعلوا، هذا ما حصل يا سيّد أحمد  
للعزيزيّة والبدرشين، هذا مثل من أمثلة التنكيل التي  
نسأها بلا رحمة ولا شفقة، اللهمّ فاشهد...!

وساد صمت كثيب اليم خلا فيه كلّ إلى أفكاره  
وتخيّلاته حتّى قطعه جميل الحمزاوي وهو يهتف متأوّهاً:

- ربّنا موجود...!

فهتف السيّد مؤمّناً على قوله:

فقال الشيخ متولّي بلهجة سريعة عابرة كأنّما يضع  
كلامه بين قوسين ليعود إلى حديثه الأوّل:

- لا يزال مبعداً عن البلاد، وهو يقيم في بلاد  
فرنسا ومعه زوجه وأولاده، لشدّ ما يخاف شدّاد بك أن  
يموت قبل أن يرى ابنه في هذه الدنيا...!

وسكت مرّة أخرى، ثمّ مضى يهرّ رأسه يمنة ويسرة  
ويقول بصوت منغوم كأنّما ينشد مطلع توشيح نبويّ:

- بعد انتصاف الليل بساعتين أو ثلاث والناس نيام  
حاصر البلدتين بضلع مئآت من الجنود البريطانيين  
مدجّجين بالسلاح...!

انتبه السيّد انتباهة قاسية... حاصروا البلدتين  
والناس نيام؟... أليس أولئك المحاصرون من جنس  
هؤلاء الذين يعسكرون أمام البيت؟... بدءوا  
بالاعتداء عليّ فأنيّ خطوة تالية يضمرون؟...!

ضرب الشيخ على ركبتيه كأنّما إنشاده ينوّع من  
الإيقاع ثمّ استطرد قائلاً:

- واقتحموا على العمّدين دارهما فأمرهما بتسليم  
السلاح ثمّ مرقوا إلى الحرّيم فنهبوا الحلّى وأهانوا النساء  
وجرّوهنّ من شعورهنّ إلى الخارج وهنّ يولولن  
ويستغثنّ وما من مغيث، عطفك اللهمّ على  
المستضعفين من عبادك...!

دار العمّدين!... العمدة شخصيّة حكوميّة أليس  
كذلك؟... لست عمدة ولا داري بدار عمديّة، ما  
أنا إلّا رجل كسائر الناس، ما عسى أن يصنعوا  
بأمثالنا. تصوّر أمانة مجرورة من شعرها، أيقضى  
عليّ بأنّ أتمتّ الجنون!... الجنون؟...!

واصل الشيخ حديثه وهو يهرّ رأسه قائلاً:

- وأجبروا العمّدين على أن يدلّوهم على بيوت  
مشايخ البلدتين وأعيانها ثمّ اقتحموا البيوت محطّمين  
الأبواب، نهبوا كلّ ثمين، اعتدّوا على النساء اعتداء  
إجرامياً بعد أن قتلوا اللاتي حاولن الدفاع عن  
أنفسهنّ، وضربوا الرجال ضرباً مبرّحاً، ثمّ غادروها  
بعد أن لم يبقوا فيهما على ثمين لم يسلب أو عرض لم  
ينلم...!

ليذهب كلّ ثمين إلى الجحيم... «أو عرض لم

بنفسها. ها هي عائشة تتأهب لاستقبال أول مولود تستهلّ به أمومتها، كما استهلّت هي أمومتها بخديجة، هكذا تمتد الحياة التي انبثقت منها إلى غير نهاية، ومضت إلى الأب فزّلت إليه البشرى بنبرات رقيقة مهذّبة، مبالغة هذه المرّة في حيائها وتهذيبها أن يستشف وراء صوتها رغبتها الحارّة في الانطلاق إلى ابنتها غير أنّ السيّد تلقى الخبر في هدوء ثم أمرها بالذهاب دون إبطاء... راحت ترتدي ملابسها على عجل وقد شعرت بأنّ المزاي التي تكسبها امرأة ضعيفة مثلها بإنجاب الأطفال خليقة بصنع المعجزات أحياناً، وعلم الأخوة بالخبر عند استيقاظهم عقب ذهاب الأم بقليل. علت وجوههم ابتسامة وتبادلو نظرة متسائلة. عائشة أم! ليس ذلك غريباً؟ ما وجه الغرابة فيه. كانت نينة أصغر منها يوم ولدت خديجة. هل ذهبت نينة لتخرج الطفل بيديها؟ ابتسامتان. هذا نذير لي، عمّا قليل تلد بنت الكلب أيضاً... من تعني؟! زينب. آه لو سمعك بابا. عائشة أم، وأنا أب، وأنا خال وعمّ، ستكون أنت أيضاً خال وعمّ يا سي كمال، يجب أن تخلف اليوم عن المدرسة لأذهب إلى أبلّا عائشة. جميل جدّاً، استأذن بابا إن استطعت على المائدة... أووه. نحن في حاجة إلى مزيد من المواليد لنسدّ العجز الذي أوقعه الإنجليز بنا... لو تخلفت عن المدرسة ما حدث شيء غير عاديّ، ثلاثة أرباع التلاميذ مضربون أكثر من شهر، قل هذا لبابا وسيقتنع حتّى بحجّتك فيضربك بطبق الفول في وجهك. أووه. مولود جديد، بعد ساعة أو ساعتين يصير بابا جدّاً ونينة جدّة ونحن أخوالاً. شيء خطير، كم مولوداً يا ترى يرى نور الدنيا في هذه اللحظة؟... وكم إنساناً يغيب عنه هذا النور في هذه اللحظة؟... يجب أن نبليج جدّي. أستطيع أن أذهب إلى الخرنفش لإبلاغها إذا تخلفت عن المدرسة! قلنا لك لا شأن لنا بمدرستك، قل لبابا وسيرحب بفكرتك. أووه. لعلّ عائشة تتأمّل الآن. مسكينة المحبوبة، إنّ الطلق لا يلين للشعر الذهبيّ والأعين الزرق ربّنا يقرّنها بالسلامة، عند ذاك نشرب المغات

- نعم! (ومشيّراً إلى الجهات الأربع) في كلّ مكان... .

وخاطب الشيخ متوّلي السيّد قائلاً:

- قل لفهمي إنّ الشيخ متوّلي ينصحه بالابتعاد عن موارد التهلكة، قل له سلّم إلى الله ربّك فهو القادر وحده على إهلاك الإنجليز كما أهلك من قبلهم يمين شقوا عصا طاعته... .

ثمّ مال الشيخ نحو عصاه ليتناولها فأشار السيّد إلى جميل الحمزاوي فجاءه بالهدية ووضعها في يده ثمّ ساعده على النهوض. صافح الشيخ الرجلين ومضى وهو يقول:

- «غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون»... صدق الله العظيم... .

## ٦٨

عند الغلس، ونور الصباح يولد رويداً من ظلمة الفجر، طرقت خادم من السكّرية بيت السيّد فأخبرت أمينة بأنّ عائشة قد جاءها المخاض. كانت أمينة في حجرة القرن فعهدت بالعمل إلى أمّ حنفي وهرعت إلى باب السكّم. بدا على أمّ حنفي الاستياء ربّما لأوّل مرّة في تاريخ خدمتها الطويل بهذا البيت، أما كان يحقّ لها أن تشهد ولادة عائشة؟ لها كلّ الحق... . كأمينة سواء بسواء، فتحت عائشة عينيها في حجرها، كلّ ابن في هذا البيت له أمان: أمينة وأمّ حنفي، كيف يحال بينها وبين ابنتها في هذه الساعة الرهيبة... هل تذكرين ولادتك؟... وربع الطمبكشيّة، كان المعلّم في الخارج كعادته وكانت وحيدة بعد منتصف الليل، وجدت في أمّ حسنيّة صديقة وقابلة معاً... ترى أين أمّ حسنيّة الآن؟... ألا زالت على قيد الحياة؟ ثمّ جاء حنفي بعد تأوهات الألم، ذهب بين تأوهات الألم أيضاً، وهو في المهد، لو عاش لكان ابن عشرين الآن؟... سيّدتي الصغيرة تتأمّل وأنا هنا أهنيّ الطعام. امتلأ قلب أمينة بفرح موصول بلشفاق، هو الإحساس الذي خفق به قلبها أوّل مرّة يوم استقبلت التجربة

مع شخص يجلس إلى جانبه فالتفت نحوه فاسترد كمال عينيه وهو يزدرد ريقه، عند ذلك لمح في داخل المنظرة إبراهيم شوكت وباسين وفهمي قبل أن يفر إلى الداخل، رقي في السلم وثبأ حتى انتهى إلى دور عائشة فدفع باباً موارباً ودخل فالتقى بخليل شوكت زوج أخته واقفاً في الصلاة، ورأى باب حجرة النوم مغلقاً وقد تراسى من ورائه إلى سمعه أصوات تتحدث مبرّ منها أمّه وحرّم المرحوم شوكت وصوتاً ثالثاً لا يعرفه، سلّم على زوج أخته ثمّ سأله وهو يتطلّع إليه بطرف باسم:

- أبلأ عائشة ولدت؟

فرفع الرجل سبّابته إلى شفّتيه محدّراً وهو يقول:

- هس...؟

أدرك كمال أنّه لم يرحّب بالسؤال، بل أنّه لم يرحّب بمقدّمه كسالف عادته فخجل وعانى قلقاً لم يدبر له سبباً، وأراد أن يتقدّم من الباب المغلق ولكنّ صوت خليل أوقفه وهو يهتف باقتضاب ينم عن الضجر:

- لا...!

فتحوّل نحوه متسائلاً ولكنّ الرجل قال له في عجلة ولهجة:

- انزل يا شاطر والعب تحت...!

انكسرت نفس الغلام فتقهقر متثاقلاً بائئناً وقد عزّ عليه أن يجزى على عذاب انتظاره طوال اليوم هذا الجزءاء البخن، ولمّا بلغ عتبة الصلاة صكّ أذنيه صوت غريب أت من الحجرة المغلقة، بدأ رفيعاً حاداً عاليّاً، ثمّ غلظ وترهّل حتى بحّ، وانتهى بحشرجة طويلة قاسية، ثمّ غاب لحظة مقدارها تردّد النفس المقطوع، ثمّ بعث آهة عميقة شاكية، بدا له غريباً أوّل الأمر كأنّه لم يعرف صاحبه، ولكنّ نبرة من نبراته المعبّبة تميّزت وسط الحدة والغلظة والحشرجة فوشّت بهويّة مصدره، صوت عائشة بلا ريب، أو هو عائشة مذابة منصهرة، ثمّ تأكّد من طنّه عند تردّد الآهة العميقة الشاكية، فارتعشت جوارحه، وخيل إليه أنّه يراها تتلوّى على حال من الألم دعت إلى مخيلته بصورة القطة القديمة، وعطف رأسه صوب خليل فآلفاه

ونشعل الشموع، ذكر أم أنثى؟... أيّها تفضّل؟... الذكر طبعاً، ربّما بدأت بأنثى كماها. لم لا تبدأ بذكر كأيها؟ هاها، عندما يحين ميعاد انصراف المدرسة يكون الطفل قد خرج فلن أتمكّن من مشاهدة خروجه. أتريد أن تراه وهو يخرج؟ طبعاً. أجل هذه الرغبة حتى يكون المولود ابنك أنت!... كان كمال أشدّ الجميع تأثراً بالخبر، شغل به عقلاً وقلباً وخيالاً، لولا شعوره برقابة ضابط المدرسة عليه وأنّه يحصى حركاته وسكناته ليبلغها أوّل فأول إلى أبيه لما كان في وسعه أن يقاوم الإغراء الذي يناديه للذهاب إلى السكّرية. ومكث في المدرسة جسداً بلا روح، هامت روحه في السكّرية تتساءل عن القادم الجديد الذي ترقّب مقدمه أشهراً وهو يمّني النفس بالاطلاع على سرّه المكنون. شهد مرّة ولادة قطّة وهو دون السادسة إذ استرعت انتباهه بموائها الحادّ فهرع إليها تحت عرش اللبلاب فوق السطح فوجدها تتلوّى السّما وقد جمحت عيناها، ثمّ رأى جسمها يتصدّع عن فلذة ملتبهة فتراجع متقرّراً وهو يصرخ بأعلى صوته. طافت هذه الذكري بمخيلته وألحت عليه حتى عاوده تقزّه القديم وانتشرت حوله مضجرة مقلقة كالضباب غير أنّه لم يستسلم للخوف، أبى أن يتصوّر أنّ ثمة علاقة بين القطة وعائشة إلّا ما يكون بين الحيوان والإنسان وهو- في إيمانه- أبعد ممّا بين الأرض والسماء، ولكن ماذا يحدث في السكّرية إذن؟... ماذا طراً على عائشة من غرائب الأمور؟... ثمة أسئلة حيارى لا تنعم بجواب... ما كاد يغادر المدرسة عصرًا حتى اندفع يقطع الطريق عدواً إلى السكّرية.

دخل فناء بيت آل شوكت وهو يلث، ومضى إلى باب الحريم فلاحته منه التفاتة إلى المنظرة فما يدري إلّا وعيناه تلقيان بعيني والده الذي جلس شابكاً راحتيه على مقبض عصاه القائمة بين رجليه. تسمر في مكانه جامداً محمّلاً كأنّما نؤمّ تنويماً مغناطيسياً، لم يطف ولم يد حراكاً، ركه شعور بالذنب لا يدري فلبث يترقّب انقباض العقاب عليه وبرودة الخوف تسري في أطرافه حتى اشتبك السيّد أحمد في حديث

ابني بدا اليوم خوفاً على غير عادته، على أنه لا ضرر  
ألبسة من مجيء الطبيب (ثم مناجية نفسها بصوت  
خفيض) الطبيب ربنا وربنا هو الطبيب...

لم يعد السيد يطبق ما يلتزم به عادة من وقار وبرود  
أمام أبنائه فسألها في قلق غير خاف:

- ماذا بها؟... ألا أستطيع أن أراها؟...

فابتسمت المرأة وقالت:

- سترأها عما قريب وهي بخير وعافية، الحق على  
ابني المجنون هو الذي أزعجكم بغير موجب...

كان وراء الصدر العريض القوي والوقار الحازم  
المهيب قلب يتعذب أشد العذاب، كان وراء العينين  
الواجبتين الرزيتين دمع متجمد... ماذا دهم  
الصغيرة؟ الطبيب؟ لماذا تحول العجوز بيني وبينها؟  
ابتسامة رقيقة أو كلمة حنونة مني أنا، مني أنا خاصة،  
حقيقة بأن تخفف من آلامها، زواج وزوج والم، لم  
تذق في بيتي مرارة الألم قط، العزيرة الجميلة الصغيرة  
رحمتك اللهم، فسد طعم الحياة، إنه ليفسد لأهون  
أذى يتهددهم، فهمي... أراه واجماً مثلكم... هل  
أدرك معنى الألم؟... من أين له أن يعرف قلب الأم!

العجوز مطمئنة واثقة بما تقول، ابنها أزعجنا بغير  
موجب، اللهم استجب، أنت أعلم بحالي بأن تنجيها  
كما نجيتني من الإنجليز، قلبي لا يطيق هذا العذاب،  
عند الله الرحمة، وهو قادر على حفظ أبنائي من كل  
سوء، لا طعم للحياة بغير ذلك، لا طعم للسرور  
والطرب واللهو إذا انغرست في جنبي شوكة حادة،  
قلبي يدعو لهم بالسلامة، لأنه قلب أب، ولأنه لا  
تطيب المسرات إلا للخلي، هل ألقى سمار الليل بقلب  
سعيد؟... أحب إذا ضحكت أن تنطلق الضحكة  
من أعماق قلبي صافية، القلب القلبي كالوتر المختل،  
حسبي فهمي، إنه يلح علي كوجع الأسنان، ما أبغض  
الألم، دنيا بلا ألم، لا شيء على الله بكثير، دنيا بلا ألم  
ولو تكون قصيرة، دنيا تقر فيها عيني بهم جميعاً.  
هنالك أضحك وأغني وأهو، يا أرحم الراحمين،  
عائشة يا أرحم الراحمين!

بعد غيبة ثلث ساعة عاد خليل مصحوباً بالطبيب

يقبض راحته ويبسطها وهو يتمتم «يا لطيف يا رب»  
فخيل إليه مرة أخرى أن جسم عائشة ينقبض وينبسط  
مثل راحة الرجل، لم يعد يملك من نفسه شيئاً فركض  
إلى الخارج مفتحاً في البكاء، وعندما انتهى إلى باب  
الحريم استرعى سمعه وقع أقدام هابطة وراءه فرفع  
رأسه فرأى الجارية سويدان نازلة على عجل فمرت به  
دون أن تنتبه إليه حتى وقفت على عتبة باب الحريم ثم  
نادت سيدها إبراهيم فجاء الرجل مسرعاً فقالت له  
«الحمد لله يا سيدي»، لم ترد على ذلك شيئاً ولم تنتظر  
حتى تسمع ما يقول ولكنها دارت على عقبيها وهرعت  
إلى السلم فركبت فيه دون تردد، رجع إبراهيم إلى  
المنظرة مهتلل الوجه فلبث كمال وحده لا يدري ما  
يفعل ولكن لم تمض دقيقة حتى عاد إبراهيم يتبعه  
السيد أحمد فياسين ثم فهمي فتتخى الغلام جانباً حتى  
مرّوا ثم صعد في أعقابهم خافق القلب، وقابل خليل  
الآتين أمام مدخل الشقة فسمع أباه وهو يقول له:

- الحمد لله على السلامة...

فغمغم خليل في وجوم:

- الحمد لله على كافة الأحوال!...

فسأله السيد باهتمام:

- مالك...؟

فقال بصوت منخفض:

- إني ذاهب لاستدعاء الطبيب...

فتساءل السيد قلقاً:

- المولود...؟

فأجابه وهو يهز رأسه سلماً:

- عائشة!... ليست على ما يرام، سأجيء  
بالطبيب حالاً...

وذهب غلغلاً وراءه وجوماً وقلقاً واضحين، ثم  
دعاهم إبراهيم شوكت إلى حجرة الاستقبال فمضوا  
إليها صامتين. وجاءت حرم المرحوم شوكت بعد قليل  
فسلمت وهي تبسم لتدخل الطمانينة إلى قلوبهم ثم  
جلست وهي تقول:

- قاست المسكينة طويلاً حتى أنهكت قواها، ولكنها  
حال عارضة وستزول وشيئاً، إني واثقة بما أقول ولكن

فدخلوا الحجرة من فورهما ثم أغلق الباب وراءهما، وعلم السيد بمقدمهما فقام وأتجه إلى باب حجرة الاستقبال ووقف على العتبة قليلاً وهو يمدّ البصر إلى الباب المغلق ثم عاد إلى مجلسه فجلس. قالت حرم المرحوم شوكت:

- لَتَعْلَمَنَّ صدق رأيي حالما يتكلم الطبيب...

فغمغم السيد وهو يرفع رأسه إلى أعلى:

- عنده العفو...

عَمَّا قليل يعرف الحقيقة فيمرق من ضباب الشك مهما تكن العواقب. إِنَّ قلبه يخفق خفقاناً سريعاً متواصلًا، فليصبر، لم يبق إلا القليل. إِنَّ إيمانه بالله قويٌّ عميق لا يتزعزع فليسلم إليه أمره، سيخرج الطبيب طال مكثه أم قصر وعند ذلك يسأله عَمَّا وراءه، الطبيب؟... لم يفكر في ذلك من قبل، طبيب عند نفساء؟... مع الرحم وجهًا لوجه، أليس كذلك؟ ولكنه طبيب!... ما الحيلة؟ المهمَّ أَنَّ ربنا يأخذ بيدها فلنساله السلامة، وجد السيد إلى قلقه حياة وامتعاضًا. واستمرَّ الفحص زهاء ثلث ساعة ثم فتح الباب فنفض السيد ومضى من تَوْه إلى الصلاة، وتبعه الأبناء حتَّى تجمَّعوا حول الطبيب. كان الطبيب من معارف السيد فصافحه باسمًا ثم قال:

- بخير وعافية...

ثم في شيء من الجَدِّ:

- جاءوا بي للولادة ولكني وجدت أَنَّ التي في حاجة

إلى العناية حقًا هي المولودة...

تنفَّس السيد بارتياح لأوَّل مرَّة منذ حوالي الساعة فتساءل ووجهه يشرق بابتسامة لطيفة:

- أأطمئنَّ إذن على عهدتك؟

فقال الطبيب وهو يتظاهر بالدَّهش:

- نعم، ولكن ألا تهَمُّك حفيدتك؟

فقال السيد باسمًا:

- لا عهد لي بعد بواجبات الجدِّ...

وتساءل خليل:

- أليس ثَمَّة أمل في حياتها؟

فقال الرجل وهو يزوي ما بين حاجبيه:

- الأعمار بيد الله، ولكني وجدت قلبها ضعيفًا، من المحتمل أن تموت الليلة، وإذا مرَّت الليلة بسلام جازت الخطر المائل ولكني لا أظنَّ أنَّها تعمَّر طويلًا، في تقديري أَنَّهُ لا يمكن أن يمتدَّ بها العمر إلى ما بعد العشرين، ولكن من يعلم؟ الأعمار بيد الله وحده...

ولمَّا ذهب الطبيب إلى طَبَّتِه التفت خليل نحو أمه وعلى شفثيه ابتسامة خفيفة تنمُّ عن أسف وقال:

- كان في نيَّتي أن أسميها نعيمة باسمك...

فقال المرأة وهي تلوح بيدها مؤثِّبة:

- الطبيب نفسه قال: إِنَّ الأعمار بيد الله أفنكون أنت أضعف إيمانًا منه، سمَّها نعيمة، يجب أن نسميها نعيمة إكرامًا لي، وسيكون عمرها بإذن الله مديدًا كعمر جدِّتها!

كان السيد يحدث نفسه: دعا الأحمق الطبيب ليطلع على زوجه بغير موجب، بغير موجب!... يا له من أحمق. ولم يستطع أن يكتم غيظه فقال وهو يداريه بلهجة رقيقة:

- حقًّا الخوف يفقد الرجال حسن الروية، أما كان يجمل بك أن تفكر قليلًا قبل أن تبادر إلى إحضار رجل غريب ليرى زوجك بملء عينيه؟!

لم يجب خليل، ولكنَّه نظر فيمن حوله وقال بجَدِّ:

- لا يجوز أن تعلم عائشة بما قال الطبيب...

- ماذا في الطريق؟...

تساءل السيد أحمد وهو ينهض في عجلة من وراء مكتبه، فذهب صوب باب الدَّكَّان يتبعه جميل الحمزاوي وبعض الزبائن. لم يكن طريق النحاسين طريقًا هادئًا. كان أبعد ما يكون عن الهدوء، صوته الجهر لا يخفت من الفجر إلى ما قبل الفجر، حناجر عالية هتَّافة بنداوات الباعة ومساومات الشارين ودعوات المجذوبين ودعابات السابلة، يتحادثون وكأَنهم يخطبون، حتَّى أخصَّ الشئون تترامى إلى جوانبه وتطير حتَّى مآذنه، إلى ضوضاء شاملة تصدر عن صليل سوارس حينًا وطققة الكارو حينًا آخر، لم

التي تألفت ارتجالاً ما بين النحاسين والصباغة وبيت القاضي هاتفة قلوبها لسعد، وسعد وسعد ثم سعد، في المآذن التي اعتل المؤذنون شرفاتها يشكرون ويدعون ويهتفون، في العربات الكارو التي تجمعت بالعشرات حاملة المئات من النسوة المتلفعات بالملاءات اللف وهن يرقصن ويرددن الأغاني الوطنية، لم يعد يرى إلا آدميين أو بالأحرى هاتفين، اختفت الأرض وتوارت الجدران وتعالى الهاتف لسعد في كل مكان كأنما الجو قد انقلب اسطوانة هائلة تدور بلا توقف مرددة اسمه. وجرى نبأ فوق الرؤوس الحاشدة أن الإنجليز يجمعون معسكراتهم القائمة عند مفترق الطرق تأهباً للرحيل إلى العباسية فاستمرّ الحماس وحست النشوات. لم ير السيد أحمد منظرًا كهذا من قبل فراح يقلب عينين متألقتين وفؤاده يخفق وثبًا وباطنه يردد مع النسوة الراقصات «يا حسين... حلة وانشالت!» حتى أذن جميل الحمزاوي رأسه من أذنه قائلاً:

- الدكاكين توزع الشربات وترفع الأعلام...  
فقال له بحماس:

- اصنع كما يصنعون وأكثر، أرنى همتك...!  
ثم بصوت متهذج:

- علّق صورة سعد تحت البسملة...  
فنظر إليه جميل الحمزاوي كالمرتد ثم قال محدّثاً:  
- هذا موضع ترى فيه الصورة من الخارج ألا يحسن بنا أن نزيّث حتى تستتب الأمور؟  
فقال السيد باستهانة:

- مضى عهد الخوف والدماء إلى غير رجعة، ألا ترى أن المظاهرات تمرّ تحت أعين الإنجليز دون أن يتعرّضوا لها بسوء؟ علّق الصورة وتوكل على الله.  
غار عهد الخوف والدماء، أليس كذلك؟ سعد حرّ طليق ولعلّه في طريقه الآن إلى أوروبا، لم يعد بيننا وبين الاستقلال إلا خطوة أو كلمة، مظاهرات الزغاريد بدلاً من مظاهرات الرصاص، الأحياء من قوم سعداء، اخترقوا النيران وخرجوا سالمين، رحمة الله على الشهداء، فهمي؟! نجا من خطر لم يقدره، والحمد لله والشكر لله، أجل نجا فهمي، ماذا تنتظر؟... صلّ

يكن طريقاً هادئاً بحال ولكن تعالت ضجّة فجائية وفدت من بعيد في بادئ الأمر كهدير الأمواج ثم غلظت واشتدّت حتى صارت بعزيف الريح أشبه وقد لُقّت الحيّ كلّه قريبه وبعيده، بدت غريبة شاذة حتى في هذا الطريق الصاخب، ظلّها السيد أحمد مظهرة نائمة كما ينبغي لرجل عاش في تلك الأيام، ولكن جلبجت في طيّاتها زغاريد مبشرة بالأفراح، فمضى الرجل متسائلاً إلى الباب ولم يكد يبلغه حتى اصطدم بشيخ الحارة الذي أقبل مندفعاً وهو يهتف بوجه ظفر منه البشر:

- أبلغك الخبر؟

فقال السيد وعينه تلمعان تفاؤلاً من قبل أن يسمع شيئاً:

- كلّ... ماذا وراءك؟

قال الرجل بحماس:

- سعد باشا أفرج عنه...

فما تمالك السيد أن تساءل صائحاً:

- حقاً؟!

فقال شيخ الحارة بيقين:

- أذاع اللنبي الساعة بياناً بهذه البشري...

في اللحظة التالية كانا يتعانقان، واشتدّ التأثر بالسيد أحمد فاغرورقت عيناه ثم قال وهو يضحك مداراة لتأثره:

- كان العهد به دائماً أن يذيع الإنذارات لا

البشريات فماذا غيّر ابن الهرمة؟!

فقال شيخ الحارة:

- سبحان الذي لا يتغير...

وصافح السيد ثم غادر الدكان وهو يصيح «الله أكبر، الله أكبر، النصر للمؤمنين!».

وقف السيد على عتبة الدكان مقلّباً عينيه في أنحاء الطريق بقلب ارتدّ إلى براة الطفولة وبهجتها، طالع أثر الخبر السعيد في كلّ مكان... في الدكاكين التي سدّت مداخلها بأصحابها وزبائنهم وهم يتبادلون التهاني، في النوافذ التي تزاوجت فيها الأحداث وانطلقت الزغاريد من وراء خصاصها، في المظاهرات

إلى الله ربّك.

الحال التي تلبّسته في المظاهرات على ضوء ملاحظة فهمي حتّى قال بغرابة:

- الواحد ممّا ينسى نفسه وهو بين الناس نسياناً غريباً فكأنّه يبعث شخصاً جديداً...

سأله فهمي باهتمام:

- أكنت تشعر بحماس صادق؟

- هتفت لسعد حتّى يَحْ صوتي واغرورقت عيني مرة أو مرتين.

- كيف اشتركت في المظاهرة؟

- بلغنا نبأ الإفراج عن سعد ونحن في المدرسة ففرحت فرحاً عظيماً حقاً، أكنت تتوقّع غير هذا؟...

وإذا بالمدرّسين يقرّحون الانضمام إلى المظاهرة الكبيرة في الخارج فلم أجد من نفسي ميلاً إلى مجاراتهم وفكرت في التسلّل إلى البيت، غير أنّي اضطررت إلى السير معهم حتّى تسنح لي فرصة للزيغان، ماذا حصل بعد ذلك! وجدت نفسي في بحر متلاطم من الناس وجوّ مكهرب من الحساس فما ملكت أن ذهلت عن نفسي واندجيت في التيار كأشدّ ما يكون المرء - صدّقني في هذا - حماساً وأملاً...

فهزّ فهمي رأسه وهو يغمغم:

- شيء عجيب...

ضحك ياسين عاليّاً ثمّ قال:

- أحسبتي فاقد الوطنية؟! المسألة أنّي لا أحبّ الزياط والعنف، ولا أجد حرجاً في التوفيق بين حبّ الوطن وحبّ السلامة...

- وإذا شقّ التوفيق بينها...؟

فقال مهتسماً ولكن دون تردّد:

- قدّمت حبّ السلامة! نفسي أولاً... ألا يستطيع الوطن أن يسعد إلّا بالتهم حياتي؟! يفتح الله، أنا لا أفرط في حياتي ولكّني ساحب الوطن ما دمت «حيّاً».

قالت أمينة:

- هذا عين العقل (ثمّ متطلّعة إلى فهمي) هل عند سيدي رأي آخر...؟

قال فهمي بهدوء:

- كلّاً طبعاً، إنّه عين العقل كما قلت...

لَمّا اجتمعت الأسرة مساء وشت الحناجر المبحوحة بيوم مليء بالهتاف، كان مساء سعيداً، ثمّت عن سعاده الأعين والثغور والحركة والكلام حتّى أمينة نهل قلبها من نخب السعادة المبدول مشاركة للأبناء واستبشّاراً بعودة السلام وفرحاً بالإفراج عن سعد:

- من المشريّة رأيت ما لم ترّ عين من قبل، هل قامت القيامة ونصب الميزان؟! وأولئك النسوة هل جُنّين؟! لا يزال صدى ترددهنّ يرنّ في أذني «يا حسين... حملة وانشالت».

قال ياسين ضاحكاً وهو يبعث بشعر كمال:

- تحيّة شبيّوها الإنجليز الراحلين كما يشيّع الضيف الثقيل بكسر القلّة وراءه!... نظر إليه كمال من دون أن ينبس على حين عادت أمينة تتساءل:

- أرضي الله عنا أخيراً...؟

فأجابها ياسين قائلاً:

- بلا ريب (ثمّ غاطباً فهمي) ماذا تظنّ؟

قال فهمي الذي بدا في فرح الأطفال:

- لو لم يسلم الإنجليز بمطالبنا لما أفرجوا عن سعد، سوف يسافر إلى أوروبا ثمّ يعود بالاستقلال، هذا ما يؤكّده الجميع، ومهما يكن من أمر سيبقى يوم ٧ إبريل سنة ١٩١٩ رمزاً لانتصار الثورة.

فعاد ياسين يقول:

- يا له من يوم! اشترك الموظّفون في المظاهرات علانية، ما كنت أظنّ أنّ بي هذه القدرة العظيمة على السير المتواصل والهتاف العالي...!

فضحك فهمي قائلاً:

- وددت لو رأيته وأنت تهتف متحمّساً، ياسين يتظاهر ويتحمّس ويهتف!... يا له من منظر فريد! يوم عجيب في الأيام حقاً، اكتسحه سيله الزاخر فحمله بين أمواجه العاتية كورقة لا وزن لها حتّى طار به كلّ مطار، لا يكاد يصدّق أنّه ثابت إلى رشده وأنّه أوى إلى برج المراقبة الهادئ يشاهد من منظاره الحوادث في هدوء وعدم اكتراث!... جعل يستحضر



- كنت كلما بلغني نبأ أسيف تقطع قلبي حزناً وقلت لنفسي «يا ترى أكان يقع هذا لو لم يقم سعد قومته؟!» على أن رجلاً يجمع الكل على حبه لا بد أن الله يحبه كذلك...

ثم متنبهة بصوت مسموع:  
- أسفي على الهالكين، كم أمّا تبكي الآن بحرارة؟... كم أمّا لم تزدها فرحة اليوم إلا حسرة على حسرة.

قال لها فهمي وهو يغمز ياسين بطرفه:  
- الأمّ الوطنية حقاً تزغرد لاستشهاد ابنها...  
فوضعت أصبعيها في أذنيها وهتفت:  
- اللهم إني أشهدك على ما يقول سيدي الصغير!... أمّ تزغرد لاستشهاد ابنها! أين؟! على هذه الأرض؟ ولأ تحت الأرض في عالم الشياطين!...  
فهقه فهمي عالياً ومضى يفكر ملياً، ثم قال وعيناه تلمعان باسمتين:

- نية...! سأبوح لك بسرّ خطير أن له أن يداع. لقد اشتركت في المظاهرات وقابلت الموت وجهاً لوجه...

سهمت إليه غير مصدقة ثم قالت وعلى شفيتها ابتسامة باهتة:  
- أنت؟!... محال... إنك من لحمي ودمي وقلبك من قلبي، لست كالأخرين...

فقال بيقين وهو يبتسم إليها:  
- أقسم لك على ذلك بالله العظيم...  
اختفت الابتسامة واتسعت العينان في ذهول، ثم ردّدت بصرها بينه وبين ياسين الذي حدّجه بدوره بنظرة متسائلة، ثم غمغمت وهي تزدد ريقها:

- ربّاه!... كيف أصدّق أذنّي!  
ثم بعد أن هزّت رأسها في حيرة أليمة:  
- أنت!...

كان يتوقّع انزعاجها ولكن ليس - بالنظر لمجيء اعترافه بعد زوال الخطر- إلى الحدّ الذي بدا عليها، فبادرها قائلاً:

- ذاك تاريخ مضى وانتهى، لا داعي الآن

ولم يَر كمال أن يبقى بمعزل عن الحديث لا سيّما أنّه كان مقتنعاً بأنّه لعب في يومه دوراً خطيراً حقاً فقال:

- وأضرّبنا نحن كذلك ولكنّ الناظر قال لنا: إنّنا ما زلنا صغاراً، وإنّنا إذا خرجنا من المدرسة داستنا الأقدام، ثمّ سمح لنا بالتظاهر في فناء المدرسة فتجمّعنا فيه وهتفنا (هنا هتف عالياً: يحيا سعد) طويلاً جدّاً، ثمّ لم نعد إلى الفصول لأنّ المدرّسين كانوا قد غادروا المدرسة منضمّين إلى المتظاهرين في الخارج...!

رماه ياسين بنظرة ساخرة وقال:  
- ولكنّ أصدقاءك ذهبوا...!  
- في داهية...!

نذت عنه هذه العبارة بلا تفكير وهي أبعد ما تكون عن حقيقة شعوره، لأنّ الحال تقتضيها من ناحية، ولأنّه أراد أن يداري بها هزيمته أمام سخرية ياسين من ناحية أخرى، أمّا قلبه فكان يكابد دهشة وغمزاً، لم ينس كيف وقف لدى عودته من المدرسة في المكان المهجور الذي كان يحتله المعسكر يقلّب عينيه في أرجائه في صمت أليم وعيناه مغرورتان. سوف يمضي وقت طويل قبل أن ينسى مجلس الشاي على طوار سبيل بين القصرين والإعجاب الذي كان يحظى به غناؤه، والمودة التي كان يلقاها من الجنود خاصّة جوليون، والصدقة التي ربطته بالسادة المتفوقين الذين يعلنون في اعتقاده على سائر البشر! قالت أمينة:

- سعد باشا رجل سعيد الحظّ، الدنيا كلّها تهتف باسمه، ولا أفندينا في زمانه... رجل مؤمن بلا ريب لأنّ الله لا ينصر إلّا المؤمنين. نصره على الإنجليز الذين غلبوا زبلن نفسه، أيّ فوز وراء هذا؟!...  
لقد ولد الرجل في ليلة القدر.

سألها فهمي بأسياً:  
- أنحبّه...؟

- أحبه ما دمت تحبه...  
بسط فهمي راحتيه ورفع حاجبيه مستنكراً ثمّ قال:  
- لا يعني هذا شيئاً...!

فتنهّدت فيها يشبه الارتباك ثمّ قالت:

فقال بإصرار ونرفزة:

- صه... أنت لا تحب... أمك، ساعحك الله...

فضحك فهمي في شيء من الارتباك. قال كمال لأمه وهو يتسهم بمكر:

- أذكركين يوم دكان البسبوسة وضرب النار؟ رأيته وأنا عائد في الطريق المقفر فنبه عليّ بالأخبر أحدًا يأتي رأيته...

ثم نظر إلى فهمي وسأله باهتمام وتشوق:

- قصص علينا يا سي فهمي ما لقيت في المظاهرات، كيف كانت تقع المعارك؟ وكيف يصرخ القتلى؟ ألم تطلق النار قط؟...

فدخل ياسين في الحديث قائلاً للأم:

- ذاك تاريخ مضى وانتهى، اشكري الله على نجاته، هذا أولى بك من الانزعاج...

سألته بجفاء:

- أكنت تعلم بذلك...؟

فبادرها قائلاً:

- لا وحياء تربة أمي (ثم مستدركاً) وديني وأيماني وربّي...

ثم نهض من مجلسه، منتقلاً إلى جوارها فوضع يده على منكبيها وقال برقة:

- أنطمئين حين كان ينبغي الانزعاج وتنزعجين حين ينبغي الاطمئنان! وحدي الله، زال الخطر وعاد السلام، ها هو فهمي بين يديك... (وضاحكاً) ابتداء من الغد سنقطع القاهرة طولاً وعرضاً، ليلاً ونهاراً، بلا خوف أو قلق...

وقال فهمي جاداً:

- نينة، رجائي إليك ألا تكذري صفونا بحزن لا موجب له...

تنهدت... فتحت فاهها لتتكلم ولكنها حركت شفتيها دون أن تنبس، ابتسمت ابتسامة شاحبة لتعلن استجابتها لرجائه، ثم نكست وجهها لتخفي عينيها المغرورتين...

بات فهمي تلك الليلة وهو عاقد العزم على استرضاء أبيه مهما كلفه الأمر، وفي صباح اليوم التالي صمّ على تنفيذ عزمه دون تردد، ومع أنه لم يضمّر لآبيه - طول فترة العصيان - أي إحساس بالغضب أو التحدي فإن ضميره كابد شعوراً بالذنب ناء به قلبه الحساس المشرب بالطاعة والولاء. حقاً لم يتحذاه بلسانه ولكنه خالف إرادته بالفعل، بل خالفها مراراً وتكراراً، فضلاً عن امتناعه عن القسم يوم دعاه إليه في حجرته وإعلانه بالبكاء تمسكه برأيه رغم إرادة الرجل، كل أولئك أحله - على حسن نيته - موقفاً عاقباً شريفاً لا يرضاه لنفسه ولا يحتمله، ولم يكن سعى إلى استرضائه من قبل خشية أن ينكأ الجرح دون أن يسعه أن يلامه، لأنه قدّر أن يدعو السيد إلى القسم تكفيراً عما بدر منه فيضطر مرة أخرى إلى الامتناع مؤكداً عصيانه من حيث أراد أن يعتذر عنه. الحال اليوم غيرها بالأمس، انتشى قلبه بالسرور والظفر، الوطن كله ثمل بخمر السعادة والفوز، فلا يطيق أن يقوم بينه وبين أبيه حجاب من سوء الظن ولو لحظة واحدة، الاسترضاء، فالعفو الذي يهفو إليه، ثم السعادة الحقة التي لا تشوبها شائبة، دخل حجرة أبيه قبيل ميعاد الفطور بربع ساعة فوجده يطوي سجادة الصلاة مغمغماً بالدعاء، لمح الرجل بلا ريب ولكنه تجاهله فمضى إلى الكنية دون أن يلتفت صوبه وجلس. عند ذلك تراءى فهمي بموقفه عند الباب ملفوفاً بالارتباك والحياء فحده بنظرة جافة مستنكرة كأنما تتساءل «من هذا الواقف وماذا جاء به؟» فتغلب فهمي على ارتبائه وتقدم من مجلس أبيه في خطى خفيفة حتى انحنى على يده فتناولها فلتشمها باحترام لا حد له، وصمت ملياً ثم قال بصوت لا يكاد يسمع:

- صباح الخير يا بابا.

واصل التحديق فيه صامتاً كأنه لم يسمع تحيته حتى غصّ الشاب بصره ارتباكاً وغمغم في نبرات تمت عن اليأس:

- إني آسف...

صمت وإصرار على الصمت...  
 - أسف جدًا، لم أذق طعم السكينة منذ...  
 وجد أن الكلام كاد يستدرجه إلى ذكر ما وء من  
 كل قلبه أن يتحاشاه فأمسك، وما يدري إلا والسيد  
 يسأله بجفاء وتبرم:  
 - وماذا تريد؟...  
 رحب بإقلاقه عن الصمت آتيا ترحيب فتهد  
 بارتياح كأنه لم يستشعر جفاءه وقال برجاء:  
 - أريد أن تكون راضيًا عني...  
 قال السيد بضجر:  
 - عُر من وجهي...  
 فقال فهمي وهو يشعر بقبضة اليأس تراخي قليلًا  
 عن عنقه:  
 - عندما أنال رضاك...  
 تساءل السيد متحوّلًا فجأة إلى التهكم:  
 - رضاي... لم لا؟... هل فعلت لا سمح الله  
 ما يستوجب السخط؟!  
 رحب بالتهكم أضعاف ترحيبه بالإقلاق عن  
 الصمت، التهكم عند أبيه أول خطوة نحو الصفح،  
 غضبه الحقيقي صفع أو لكم أو ركل أو سب أو كل  
 أولئك جميعًا، التهكم أول بشير بالتحوّل، انتهز  
 الفرصة وتكلّم، تكلّم كما ينبغي لرجل قد يعمل في  
 المحاماة غداً أو بعد غد، هذه فرصتك! وتكلّم،  
 الاستجابة لنداء الوطن لا تعدّ عصيًّا لإرادة  
 حضرتك، لم أفعل شيئًا يحسب بين الأعمال الوطنيّة  
 حقًا، توزيع منشورات على الأصدقاء... وما توزيع  
 المنشورات على الأصدقاء؟ أين أنا من بذلوا الحياة  
 رخيصة؟ فهمت من كلام حضرتك أنك تخاف على  
 حياتي لا لأنك تستنكر حقًا الواجبات الوطنيّة، ففمت  
 بشيء من الواجب وأنا مطمئن إلى آتي - في الواقع - لا  
 أخالف لك إرادة... إلخ... إلخ...  
 - علم الله أنه لم يخطر ببال قط أن أعصي لك أمرًا.  
 قال السيد بحدة:  
 - كلام فارغ، تتظاهر بالطاعة الآن لأنه لم يعد ثمة  
 داع إلى العصيان، لم لم تطلب رضاي قبل اليوم...؟  
 قال فهمي بحزن:  
 - كانت الدنيا في دم وكرب وكنت من الحزن في  
 شغل شاغل...  
 - شغلك عن طلب رضاي؟  
 قال بحرارة:  
 - شغلني عن نفسي لا عن طلب رضاك...  
 ثم بصوت منخفض:  
 - لن أستطيع أن أعيش بغير رضاك...  
 قطّب السيد، لا غضبًا كما تظاهر، ولكن ليخفي  
 الأثر اللطيف الذي بعثه كلام الشاب في نفسه، هكذا  
 يكون الكلام وإلا فلا، يجيد صناعة الكلام حقًا، هذه  
 هي البلاغة أليس كذلك؟ سأعيد أقواله على مسامع  
 الأصدقاء الليلة لأمتحن أثره في نفوسهم، ترى ما  
 عسى أن يقولوا؟ الولد سرّ أبيه... هذا ما ينبغي أن  
 يقال، قديمًا قيل لي إنني لو أتممت مراحل التعليم  
 لكنت أبلغ المحامين، إنّي أبلغ الناس بغير التعليم  
 والمحاماة، الحديث اليومي كالقانون سواء بسواء في  
 الكشف عن موهبة البلاغة، كم من محامٍ أو من  
 موظف كبير ينكمش في المجلس أمامي كالعصفور ولا  
 فهمي نفسه بمستطيع أن يسدّ مكاني يومًا ما، سيقولون  
 لي وهم يضحكون حقًا الولد سرّ أبيه، امتناعه عن  
 القسم لا يزال يحزّ في نفسي، لكن أليس من دواعي  
 الفخر لي أنه اشترك في الثورة ولو من بعيد؟ ليته  
 اشترك في الأعمال الكبيرة ما دام الله قد كتب له العمر  
 حتى اليوم، سأقول من الآن فصاعدًا إنه خاض غمار  
 الثورة، أنظّون أنه اكتفى بتوزيع المنشورات كما كان  
 يؤكّد لي؟ لقد رمى ابن الكلب بنفسه في التيار  
 الدامي، يا سيد أحمد ينبغي أن تشهد لابنك بالوطنية  
 والشجاعة... لم نشأ أن نقول لك هذا في إبان الخطر  
 أمّا وقد استقرّ السلام فلا حرج من قوله... أتتكبر  
 أنت شعورك الوطني؟... ألم يش عليك جامعو  
 التبرعات من مندوبي الوفد... والله لو كنت شابًا  
 لفعلت ما لم يفعله ابنك ولكّنه عصاني! عصي لسانك  
 وأطاع قلبك! الآن ما عسى أن أفعل؟ يريد قلبي أن  
 يبه العفو ولكّني أخاف أن يستهين بمخالفتي!

- وأنا لن أستطيع أن أنسى أنك خالفت إرادتي، أحسبت أن الخطبة الفارغة التي صَبَحْتَنِي بها على غيار الريق يمكن أن تؤثر في؟  
هم فهمي بالكلام ولكن أمه دخلت في تلك اللحظة وهي تقول:  
- الفطور جاهز يا سيدي.

وقد دهشت لوجود فهمي على غير انتظار فرددت عينيها بينهما، وتلکأت قليلاً لعلها تسمع شيئاً مما يدور ولكنها رأت في الصمت - الذي خافت أن يكون عجيباً باعته - ما دعاها إلى مغادرة الحجرة على عجل. نهض السيد للانتقال إلى حجرة المائدة فتنحى فهمي جانباً وقد علاه حزن شديد لم يتحَفْ أثره عن عيني الرجل فتردد لحظات ثم قال أخيراً بصوت سلمي:  
- أريد مستقبلاً ألا تصرّ على حماقتك وأنت تخاطبني..

وسار فتبعه الشاب ممثناً باسم الأسارى، ثم سمعه يقول متهمكاً وهما يقطعان الصالة:  
- أظنك حاسب نفسك على رأس الذين أفرجوا عن سعدا

غادر فهمي البيت قرير العين فمضى من توه إلى الأزهر حيث اجتمع بزملائه أعضاء لجنة الطلبة العليا للنظر في تنظيم المظاهرات السلمية الكبرى التي سمحت السلطة بقيامها للإعراب عن ابتهاج الشعب والتي تقرر أن يشترك فيها ممثلو الأمة بكافة طبقاتها، دام الاجتماع وقتاً غير قصير، ثم تفرق المجتمعون كل إلى وجهته فركب الشاب إلى ميدان المحطة بعد أن عرف الدور الذي عهد به إليه وهو الإشراف على تجمعات طلبة المدارس الثانوية. لئن كان يعدّ ما يعهد عادة إليه - بالقياس إلى غيره، من الأدوار الثانوية إلا أنه كان يقوم به بدقّة وعناية وغبطة كأنما هو أسعد ما يحظى به في حياته غير أنه لم يكن يخلو في جهاده من تعاسة خفيفة لم يعلم بها أحد سواه، منشوها ما اقتنع به من أنه دون الكثيرين من أقرانه جرأة وإقداماً.. أجل لم ينكص عن مظاهرة من المظاهرات التي دعت إليها اللجنة ولكنه كان يفقد جنانه عند ظهور

اللوريات المحملة بالجنود وخاصّة عند إطلاق الرصاص وتساقط الضحايا.. فمرة لاذ بمقهى وهو يرتعد، ومرة أخرى جرى على وجهه شوطاً بعيداً حتى وجد نفسه في قفافة المجاورين، أين هو من حامل اللواء في مظاهرة بولاق، أو مذبحة بولاق كما غدت تسمّى، الذي استشهد ويده قابضتان على اللواء وقدماه ثابتان في الطليعة وحجرتة تهتف بالنبات؟ أين هو من أقران ذلك الشهيد الذين تبادروا إلى اللواء ليرفعوه فسقطوا فوقه وقد تقلدت صدورهم نياشين الرصاص؟ أين هو من ذلك الشهيد الذي استترع المدفع الرشاش من أيدي الجنود في الأزهر؟ أين هو من هؤلاء جميعاً وغيرهم ممن تطير الأنباء بأي بطولتهم واستشهادهم؟ كانت أعمال البطولة تترأى لعينيه رائعة باهرة تحطف الأبصار، وطالما أنصت إلى نداء باطني يهيب به إلى الإقدام والتأسي بالأبطال، ولكن كانت تحذله أعصابه في اللحظة الحاسمة فما إن تنحسر موجة المعركة حتى يجد نفسه في المؤخرة إن لم يكن مختبئاً أو هارباً، ثم يعود إلى التصميم على مضاعفة البذل والكفاح والتياسك بضمير معذب وقلب حائر ورغبة في الكمال لا تحدّ، متعزّياً أحياناً بقوله «ما أنا إلا محارب أعزل، ولئن فاتني الرائع من أعمال البطولة فحسبي أنني لم أتردد مرة واحدة عن الإلقاء بنفسي في أتون المعركة». في طريقه إلى ميدان المحطة جعل يراقب الطرق والمركبات، كان الجميع يتوجّهون - فيما بدا - وجهته، طلبة وعمّالاً وموظفين وأهلين راكبين وراجلين، تظلمهم جميعاً طمانينة خليقة يقوم ذاهبين إلى مظاهرة سلمية مصرّح بها، إنّه مثلهم، يشعر بشعورهم، لا كعهده القديم حين كان يلتمس طريقه إلى موعد المظاهرة بنفس نائرة وقلب تثقل ضرباته كلّما تخاليل لعينيه شبح الهلاك. ذاك عهد مضى، اليوم يمضي مطمئنّ الجانب باسم الثغر.. انتهى الجهاد؟ خرج منه سليماً لا عليه ولا له. ولا له؟ ليت عانى شيئاً مما تعرّض له الآلاف كالسجن أو الضرب أو إصابة غير مميتة! أليس من المحزن أن تكون السلامة المطلقة جزاء من أوتي قلباً كقلبه وحاساً كحاسه!

الحاذء بالحقيقة العارية. موزء منشورات وجنديء من جنود المؤخرة! هذا هو بلا زيادة، اليوم يوكل به قيادة المدارس الثانوية فيواجه زعامة كبيرة. ترى هل يقدر الآخرون عمله أكثر مما يقدره هو؟ أشد ما يحبونه بالاحترام والمحبة، لم يعقد اجتماع إلا وكان له فيه رأي مسموع، والخطابة؟ ليس من الضروري أن تكون خطيباً... أليس كذلك؟ ليس محالاً أن تكون عظيمًا وأنت غير خطيب ولكن أي خسارة ستمنى بها يوم تمثل اللجنة العليا بين يدي الزعيم فيسبق الخطباء وتلوذ أنت بالصمت، كلاً لن ألذ بالصمت، سوف أتكلّم، سأطلق لقلبي العنان أجاد أم لم يجد، متى تقف بين يدي سعد؟ متى تراه لأول مرة فتملأ منه عينيك؟ إن قلبي يخفق وعيناي تحنان للدموع، سيكون يوماً عظيماً، ستخرج مصر كلها لاستقباله، لن يكون يوماً هذا إلى ذلك إلا كالقطرة إلى البحر، رباه! امتلأ الميدان، امتلأت الشوارع المفضية إليه. عباس نوبار الفجالة، لم تسبق كهذه مظاهرة، مائة ألف، طرابيش عظام، طلبة... عيال... موقطفون... الشيوخ والقساوسة، القضاة... من كان يتصور هذا، لا يبالون الشمس... هذه مصر، لم أذع باباً؟ صدق ياسين... الواحد منا ينسى بين الناس نفسه، يعلو على نفسه، أين همومي الشخصية؟... لا شيء، أشد ما يخفق قلبي، سأحدث عن هذا طويلاً الليلة وما بعدها. ترى هل ترتعد نية مرة أخرى؟ منظر جليل تخشع له القلوب وتطمئن، أريد أن ألس أثره في وجوه الشياطين! ها هي ثكناتهم تشرف على الميدان، الراية اللعينة ترفرف، هناك رءوس في النوافذ... فيم تهامس؟! الديدبان تمال لا يرى شيئاً، لم تقص. رشاشاتكم على الثورة، افقهوا هذا، سترون عماً قريب سعد في هذا الميدان عائداً مطلقاً تنفونه بالسلاح ونعيده بغير سلاح، سوف ترون قبل الجلاء. تحرك المركب العظيم فتدققت موجاته تابعاً مرددة الهتافات الوطنية، بدت مصر مظاهرة واحدة، بل رجلاً واحداً، بل هتافاً واحداً، تابعت طواير الطوائف طويلاً، طويلاً جداً، حتى خيل إليه أن الطلائع

كطالب مجتهد لم يتح له أن يظفر بأية شهادة... أتذكر سرورك بالنجاة؟ أكنت تفضل أن تكون من الشهداء؟ كلاً، أكنت تتمنى لو كنت من المصابين غير المالكين؟ نعم، كان ذلك في وسعك فلم تكصت؟ لم تكن تضمن أن تقع الإصابة غير ميمّة أو أن يكون السجن عابراً، أنت لا تكره النجاة الراهنة ولكنك تتمنى لو كان أصابك شيء دون أن يغير من هذه النهاية الجميلة، ينبغي إذا جاهدت مرة أخرى أن أطلع على الغيب؟ امضي إلى المظاهرة السلمية بقلب مطمئن وضمير قلق - بلغ الميدان زهاء الواحدة بعد الظهر، قبل الميعاد المحدد لقيام المظاهرة بساعتين فأخذ مكانه في الموضع الذي حدّد له! باب المحطة. لم يكن بالميدان إلا المشرفون وجماعات متفرقة من شتى الطوائف، وكان الجو معتدلاً إلا أن شمس أبريل صبّت على من تعرّض لأشعتها لظى، ولم يطل الانتظار فأخذت الجموع تتوافد على الميدان من مختلف الطرق المفضية إليه، ومضت كلّ جماعة صوب عملها، بذلك شرع فهمي في عمله بلذة وفخار، بالرغم من بساطة العمل الذي لم يعد أن يكون ترتيباً للمدارس كلّ وراء علمها إلا أنه ملأ نفسه زهواً وخيلاء سبياً وأنه كان يشرف على طلبة كثيرين ممن يكبرونه سنّاً حتى بدت التسعة عشر عاماً التي يجربها وراءه ذيلًا قصيراً في زحمة التلاميذ الذين ناهز كثير منهم الثانية والعشرين والرابعة والعشرين وقتلت شوارعهم، ولاحظ أعياناً ترمقه باهتمام وشفاهها تتهاشم عليه كما سمع اسمه - مقروناً بصفته الشعبية - يجري على بعض الألسن «فهمي أحمد عبد الجواد مندوب اللجنة العليا» فحرك أوتار قلبه حتى أطبق شفثيه دون أن تند عنها بسمه حياء أو ارتباك من «مهابته». أجل ينبغي أن يحافظ على منظر مندوب اللجنة العليا، على الجد والصرامة الخليقتين بالرعيل الأول من شباب المجاهدين كي يفسح المجال لأخيلة المتطلعين لحدس ما يخفي وراءه من أعمال البطولة والكفاح، فلتتحقق تلك الأعمال الحارقة - التي عجز عن تحقيقها في الواقع في أخيلتهم، لن تفر له رغبة في المزيد منها وإن وخز قلبه إحساسه

النسيان؟ بل إنك نسيت بالفعل، مريم... من هي؟! ذلك التاريخ القديم؟! نحن نعيش للمستقبل لا للماضي... جيز... جيز... مستر جيز... مستر جيز... هذا هو اسم وكيل الحكمدار لعنة الله عليه، عد إلى الهاتف كي تنفض عن نفسك هذا الغبار الطارئ. مضت «مظاهرتة» تقرب رويداً من حديقة الأزيكية التي لاحت أشجارها الباسقة فوق الأعلام المنتشرة بطول الطريق على حين بدا ميدان الأوبرا من بعيد رهوئاً متلاصقة كأنها تنبت من جسد واحد ملأ الأرض طولاً وعرضاً. كان يهتف بقوة وحماس والجمهور يردد هتافه بصوت ملأ الجو كهزيم الرعد، ولما شارفوا سور الحديقة دوت - على حين بغتة - فرقة حادة فشلت حنجرتة وتلفت فيها حوالبه متسائلاً في انزعاج، صوت معهود كثيراً ما صك أذنيه في الشهر المنصرم وكثيراً ما تردّد صداه في ذاكرته في هدأة الليل بيد أنه لم يستطع أن يألّفه فما يكاد يدوي حتى يخطف دمه ويوقف قلبه على الخفقان...

- رصاص...!

- غير معقول، ألم يصّرحوا بالمظاهرة؟...

- أسقطت من حسابك الغدر؟

- ولكن لا أرى جنوداً...!

- حديقة الأزيكية معسكر هائل مكتظ بهم...

- لعلها فرقة عجلة سيارة...

- لعلها...

أرهف أذنيه لما يدور حوله من دون أن يثوب إلى السكينة، وما هي إلا لحظات حتى دوت فرقة ثانية... أه... لم يعد ثمة شك، رصاصة كسابقتها، أين ترى استقرت؟ ليس يوم سلام؟! شعر بحركة اضطراب تسري بين المتظاهرين وافدة من الأمام كالموجة الثقيلة التي تدفعها إلى الشاطئ باخرة تمخر وسط النهر، ثم تراجع الألوف وانتشروا باعئين في كل ناحية دفعات جاحجة جنوبية من الاضطراب والارتباك والارتطام، تعلوها صيحات مفزعة من الغضب والخوف، وسرعان ما انتثرت الصفوف المتناسقة وانهدّ البنيان المشيد. تلاحقت جملة من

ستشارف عابدين قبل أن يتزحزح هو وجماعته أمام باب المحطة، أول مظاهرة تسير دون أن تقطع المدافع الرشاشة الطريق عليها، لا رصاص من ناحية ولا زلّط من الناحية الأخرى، وافتّر ثغره عن ابتسامة، رأى الجماعة التي تعسكر أمامه مباشرة تتحرك فدار على عقبه كي يواجه مظاهرتة «الخاصة» ورفع يديه فسترت في الصفوف حركة تأهب وتوثّب، ثم هتف بأعلى صوته وهو يسير مقهقراً. واصل مهمة القيادة والهتاف حتى مدخل شارع نوبار ثم تخلّى عن الثانية لغيره ممن أحاطوا به مترصدين دورهم بأفواه قلقة متحركة كأنما قد جاءها المخاض والطلق فلا تستريح حتى تقذف بهتافاتها، دار على عقبه مرة أخرى سائراً بوجهه، يشرب بعنقه تارة لمشاهد ما تقدّم من جسم المظاهرة التي لم يعد يرى لها أولاً وتلفت بمنة ويسرة تارة أخرى ليرى من اكتظت بهم الأرصفة والنوافذ والشرفات والأسطح من جموع المشاهدين الذين جعلوا يرددون الهتافات. امتلأت نفسه بمنظر الألوف الحاشدة قوة إلى قوة وطمانينة على طمانينة، كأنها دروع منصوبة حوالبه، قوة متماسكة لا ينفذ منها الرصاص، إن قوات البوليس تتعهد النظام بعد أن أعيها الطعان والهجوم، إن منظر هؤلاء الرجال الداهيين الجائين على صهوات جيادهم كأنهم حراس تابعون للمظاهرة قائمون على خدمتها، لأبلغ دليل على انتصار الثورة، الحكمدار؟! ليس هذا هو رسل بك... بل هو إنه يعرفه حق المعرفة، وهذا وكيل الحكمدار يحب وراءه ملقياً على الأفق نظرة جامدة مترقعة كأنما تحتج احتجاجاً صامتاً على السلام الذي احتضن المظاهرة، ما اسمه؟ هل يمكن أن ينسى الاسم الذي ملأ الأسباع في الأيام السود الدامية؟! أوله جيم ليس كذلك؟ جا... جو... جي... يأبى أن يستجيب إلى الذاكرة، جوليون!! أوه كيف تسّل هذا الاسم البغيض إلى وعيه؟! هوى عليه كالتراب فاطفاً حماسه، كيف لنا أن نلبي نداء الحماس والظفر ما دام القلب ميتاً! قلب ميت؟! لم يكن ميتاً منذ دقيقة، لا تستسلم للحزن، لا تدع قلبك يبتعد عن المظاهرة، ألم تعاهد نفسك على

واللهجة الجذبة التي يتكلمون بها! ثم الساعة جاوزت السابعة مساءً. ألا يرون الحمزاوي وهو يرفع الزكائب إلى الرفوف إيداناً بإغلاق الدكان؟ أليكونون من جامعي التبرعات، لكن سعد قد أفرج عنه وانتهت الثورة، وأنا لم أعد صالحاً الآن إلا للسهرة! يا هؤلاء اعلّموا أنّي لم أغسل رأسي ووجهي بالكولونيا وأمشط شعري وشاربي وأحبك جيتي وقفطاني كي ألقى وجوهكم! ماذا تريدون؟ غير أنه خجل إليه وهو يرنو إلى محدته أنّ وجهه ليس غريباً عليه، رآه من قبل؟ أين؟ متى؟ تذكر، من المؤكد أنه لا يراه لأول مرة، آه... قال باسماً وقد شاع الارتياح في وجهه:

- أليس حضرتك الشاب النبيل الذي تقدّم لإنقاذنا في الوقت المناسب يوم حل الناس علينا في مسجد الحسين رضي الله عنه؟

فقال الشاب بصوت خفيض:

- بلى يا سيدي...

صدق ظني، يقول البلهاء إنّ الخمر تضعف الذاكرة؟ لكن ما بالهم ينظرون إليّ هكذا؟ انظر، انظر؟ هذه النظرات لا تنبئ عن خير، اللهم اجعله خيراً، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. قلبي ينقبض لأمر ما، جاءوا لأمر يتعلّق ب...

- فهمي!؟ جتّم تريدونه... لعلكم؟!

نكس الشاب عينيه ثم قال بصوت متهدّج:

- مهمّتنا شاقة يا سيدي ولكنها فرض واجب، ربّنا يلهمك الصبر!...

مال السيّد فجأة إلى الأمام معتمداً على حافة المكتب وهتف:

- الصبر؟ علام؟... فهمي!؟...

قال الشاب بحزن بالغ:

- يؤسفنا أن ننعي إليك أخانا المجاهد فهمي أحمد...

صاح بلهجة منكّرة وإن لاحظت في عينيه نظرة قاطعة بالتصديق واليأس:

- فهمي!؟...

- استشهد في مظاهرة اليوم...

الطلقات الحادة فتعالى صراخ الغضب وأنين الألم، ماج بحر الخلق وهاج وتدافعت موجاته إلى جميع المنافذ لا تبقي على شيء في طريقها ولا تذر. اهرب، ما من الهرب بدّ، إن لم يقتلك الرصاص قتلتك الأذرع والأقدام، همّ بالهرب أو بالتراجع أو حتّى التحول عن موقفه ولكنّه لم يفعل شيئاً، ما وقوفك وقد تشتت الجمع!؟ في خلاء أنت، اهرب... صدرت عن ذراعيه وساقيه حركة بطيئة وانية متراخية. ما أشدّ الضوضاء، ولكن بَمَ علا صراخها؟ هل تذكر؟ ما أسرع ما نفلت منك الذكريات. ماذا تريد؟ أن تهتف؟ أيّ هتاف؟ أو نداء فحسب... من؟ ما؟ في باطنك يتكلّم، هل تسمع؟ هل ترى؟ ولكن أين؟ لا شيء، لا شيء، ظلام في ظلام، حركة لطيفة تطرد بانتظام كدقات الساعة ينساب معها القلب... تصاحبها وشوشة. باب الحديقة. أليس كذلك؟ يتحرّك حركة تموجيّة سائلة، يذوب رويداً، الشجرة السامقة ترقص في هواده، السماء... السماء؟ منبسطة عالية، لا شيء إلا السماء هادئة باسمّة يقطر منها السلام.

## ٧١

سمع السيّد أحمد عبد الجواد وقع أقدام على مدخل الدكان فرفع رأسه عن مكتبه فرأى ثلاثة شبّان يتقدّمون نحوه تعلوهم سيّما الجدّ والرزانة حتّى وقفوا لصق مكتبه وهم يقولون:

- السلام عليكم ورحمة الله...

فنهض السيّد قائلاً بأدبه المعهود:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (ثمّ مشيراً إلى الكرسي) تفضّلوا...

ولكنّهم لم يلبّوا الإشارة شاكرين وقال أوسطهم:

- حضرتك السيّد أحمد عبد الجواد؟

فقال السيّد باسماً وإن لاح في عينيه التساؤل:

- نعم يا سيدي...

ماذا يريدون يا ترى؟ الشراء مستبعد...

للشراء والمشية العسكرية التي جاءوا عليها! ما للشراء

وقال الذي إلى يمينه :

- انتقل إلى جوار الله وطنياً نبيلًا وشهيدًا كريمًا. . .  
تلقى كلماتهم بأذن أصمها الشقاء على حين ختم  
الصمت شفثيه واسترسلت عيناه في نظرة شاردة غائبة .  
مضت هنيهة خيم الصمت فيها عليهم أجمعين حتى  
جميل الحمزاوي تسمّر تحت الرفوف ذاهلاً يمدّ إلى  
الرجل بصراً ملؤه الجزع، أخيراً عاد الشاب يغمغم :  
- لشدّ ما أحزننا فقده ولكن ليس لنا إلا أن نتلقّى  
قضاء الله بصبر المؤمنين، وإنك لمن المؤمنين يا  
سيدي . . .

إنهم يعزّونك، لا يعلم هذا الشاب أنك أوّل من  
يحسن إلقاء التعازي في مثل هذا الموقف! . . . ماذا  
تعني هي للقلب المصاب؟ لا شيء! من أين للكلام أن  
يطفىئ النار؟ . . . مهلاً . . . ألم تحطّر الرزية بقلبك قبل  
أن يتكلّم قائلهم؟ بل . . . تخايل لعينيّ شبح الموت،  
الآن والموت حقيقة تلقى إلى سمعك تأبى أن تصدّق،  
أو تخونك شجاعتك فلا تريد أن تصدّق، كيف أصدّق  
أنّ فهمي مات حقاً، كيف تصدّق أنّ فهمي الذي  
كان يطلب رضاك من ساعات فتناقلت عنه، فهمي  
الذي تركنا هذا الصباح ممثلاً صحّة وعافية وأملًا  
وسروراً، مات . . . مات! لن أراه بعد اليوم لا في  
البيت ولا في أيّ مكان من ظهر الأرض؟ كيف يكون  
البيت من غيره؟ كيف أكون أنا بعده؟ أين تذهب  
الآمال المعقودة عليه؟ لم يعد ثمة أمل إلا في  
الصبر . . . الصبر؟ آه . . . هل تشعر بوخز الألم الحاد؟  
هذا هو الألم حقاً . . . كنت تخدع أحياناً فتزعم أنك  
متألم . كلاً . لم تتألم قبل اليوم، هذا هو الألم حقاً . . .  
- سيدي، شدّ حيلك وسلّم أمرك إلى الله . . .

رفع السيّد رأسه إلى الشاب، ثمّ قال بصوت  
مريض :

- ظننت عهد القتل قد انتهى . . .

فقال الشاب بنبرات غاضبة :

- كانت مظاهرة اليوم سلمية، وقد أذنت بها  
السلطات فاشترك فيها صفوة الرجال من شتى  
الهيئات، وسارت أوّل الأمر في أمان حتى بلغ منتصفها

حديقة الأزيكية، وما ندري إلا والرصاص ينهال علينا  
من وراء السور بلا سبب، لم يتعرّض أحد للجنود لا  
بخير ولا بشرٍ حتىّ الهتاف بالإنجليزية امتنعنا عنه  
تفادياً من الاستفزاز، ولكنهم مشهم جنون القتل فجأة  
فعمدوا إلى بنادقهم وأطلقوا النار، وقد انعقد الإجماع  
على توجيه احتجاج شديد إلى دار الحماية، بل قيل : إنّ  
أللنبي سوف يعلن أسفه عمّا بدر من الجنود . . .

قال السيّد بنفس اللهجة المريضة :

- ولكنّه لن يردّ حياة إلى ميت . . .

- وأسفاه! . . .

قال السيّد بتفجع :

- لم يشترك في المظاهرات الخطرة، هذه أوّل مظاهرة  
ينضمّ إليها! . . .

تبادل الشبان نظرة ذات معنى فلم ينبس أحدهم  
بكلمة . . . وكأنما ضاق السيّد بالحصار المضروب حوله  
فقال وهو يزفر :

- الأمر لصاحب الأمر، أين أجده الآن؟

قال الشاب :

- في قصر العيني «ثمّ وهو يشير إلى السيّد متمهلاً  
ليّاً رآه يتعجل الذهاب» ستشيع جنازته مع ثلاثة عشر  
شهيداً من إخواننا في تمام الساعة الثالثة من مساء  
الغد . . .

هتف السيّد في جزع :

- ألا يترك لي تشيع جنازته من بيته! . . .

فقال الشاب بقوة :

- بل تشيع جنازته مع إخوانه في احتفال شعبيّ . . .  
ثمّ برجاء :

- القصر محاصر الآن بقوّة من البوليس، ولا بأس  
من الانتظار ما دمنا نحرس على تمكين أهالي الشهداء  
من توديعهم قبل تشييع الجنازة، لا يليق أن يشيع  
فهمي في جنازة عادية كمن قضوا في بيوتهم . . .

ثمّ مدّ له يده مودّعاً وهو يقول :

- اصبر وما صبرك إلا بالله . . .

وصافحه الآخرون مكرّرين له العزاء، ثمّ ذهبوا  
جميعاً . . . أسند رأسه إلى راحته وهو يغمض عينيه



فجاءه صوت جميل الحمزاوي وهو يعزّيه بنبرات باكية، ولكنه بدا ضيق الصدر بالتعزية، ولم يعد يحتمل البقاء فزائل موضعه يسير بخطى بطيئة ثقيلة حتى غادر الدكان، ينبغي أن يخرج من حيرته، فإنه لا يدري حتى كيف يحزن، يودّ لو يخلو إلى نفسه ولكن أين؟ سينقلب البيت جحيمًا بعد دقيقة أو دقيقتين، وسيلحق به الأصدقاء فلا يدعون له فرصة للتفكير... متى يتأمل الخسارة التي مني بها... متى يتهيا له أن يغيب فيها عن الدنيا جميعًا؟ يبدو هذا بعيدًا... ولكنه آتٍ لا ريب فيه، وهذا قصارى ما يجيد من عزاء في راحته... أجل سيأتي وقت يخلو فيه إلى نفسه ويفرغ إلى حزنه بكل كيانه، هنالك ينعم النظر في موقفه على ضوء الماضي والحاضر والمستقبل، أطوار حياته كلها من طفولته وصباه إلى ريق شبابه، ما أثار من آمال وما خلّف من ذكريات مطلقًا لدموعه العنان حتى يستنفدها عن آخرها، حقًا أن أمامه فسحة من الوقت يحسد عليها فلا داعي للجزع، انظر إلى ذكرى الملاحاة التي نشبت بينهما عقب صلاة الجمعة أو ذكرى ما دار بينهما هذا الصباح من استعطاف وعتاب، كم يستغرقان من وقته تأملًا وتذكرًا وشجنا؟ كم يستهلكان من قلبه؟ كم يهيجان دموعه؟ كيف يجزع؟ الأيام تذخر له كل هذه

السعادة؟ رفع رأسه المثقل بالفكر فلاححت لعينيه المظلمتين مشربيات البيت فذكر أمينة لأول مرة حتى أوشكت أن تخونه قدامه... ما عسى أن يقول لها؟ كيف تتلقّى الخبر؟ الضعيفة الرقيقة التي تبكي لمصرع عصفورا أتذكر كيف هملت دموعها لمقتل ابن الفولي اللبان؟! ماذا تصنع لمقتل فهمي؟... مقتل فهمي... أهذه هي نهايتك حقًا يا بني؟... يا بني العزيز التعميس!... أمينة... ابننا قتل، فهمي قتل... يا له... أنا ممنع الصوت كما أمرت بمنع الزغاريد من قبل؟... أم تصوت بنفسك أم تدعو النائحات؟!... لعلها تتوسط الآن مجلس القهوة بين ياسين وكمال متسائلة عما أحر فهمي، سوف يتأخر طويلاً، لن تريه أبدًا... ولا جثته، ولا نعشه، يا للقسوة، سأراه أنا في القصر أما أنت فلن تريه، لن أسمع بهذا... قسوة أم رحمة؟ ما الفائدة؟... وجد نفسه أمام البيت فامتدت يده إلى المطرقة ثم تذكر أن المفتاح في جيبه فأخرجه وفتح الباب ثم دخل... ترامى عند ذلك إلى سمعه صوت كمال وهو يغني بعدوية:

زوروني كل سنة مرة حرام الهجر بالمرّة



قصر الشوق



- ١ -

أغلق السيد أحمد عبد الجواد باب البيت وراءه، ومضى يقطع الفناء على ضوء النجوم الباهت في خطوات مترامية، وطرف عصاه ينغرز في الأرض التربة كلما توكأ عليها في مشيته المتثابة. تشوّق وحوانبه تحمى بمثل الوهج إلى الماء البارد الذي سيغسل به وجهه ورأسه وعنقه كي يلطّف - ولو إلى حين - من حرارة يوليه والنار المستعرة في جوفه ورأسه، فهشّ لفكرة الماء البارد حتى انبسطت أساريه. ولما جاز باب السلم لاح له الضوء الواني المهابط من أعلى يتحرّك على الجدران وأشيأ بحركة اليد القابضة على المصباح، فرقي على السلم يداً على الدرايزين ويّداً على عصاه التي بعث طرفها دقات متتابعة اكتسبت من قديم إيقاعاً خاصاً غدا ينمّ عنه كما تنمّ عنه سماته. وعند رأس السلم بدت أمينة والمصباح في يدها، حتى إذا انتهى إليها توقّف وصدره يعلو وينخفض ريثما يستردّ أنفاسه، ثم حيّاها تحيّة الليلية المألوفة قائلاً:

- مساء الخير.

فغمغمت أمينة وهي تتقدّمه بالمصباح:

- مساء الخير يا سيدي!..

في الحجرة هرع إلى الكنية فتهالك عليها، ثم تخلّص من عصاه وخلع طربوشه، وطرح قداله على المسند ماداً ساقيه إلى الأمام حتى انحسر جناحا الجبة عن قفطانها، وكشف القفطان عن رجلي سرواله

المتداخلتين في جوربه، وأغمض عينيه وهو يجفّف بمنديله جبهته وخديّه وعنقه؛ على حين كانت أمينة تضع المصباح على الخوان، ثم وقفت تترقّب قيامه لتساعده في نزع ثيابه، وهي تنظر إليه باهتمام مشوب بقلق، وتودّ لو تواتيها شجاعتها فتسأله أن يعفي نفسه من الدأب على السهر الذي لم تعد تنهض به صحته بالاستخفاف المعهود قديماً. ولكنّها لم تدر كيف تفصح عن أفكارها الأسيفة! تالت دقائق قبل أن يفتح عينيه، ثم نزع الساعة الذهبية من قفطانها والخاتم الماسي فأودعهما داخل الطربوش، ثم هض ليخلع الجبة والقفطان بمعاونة أمينة، هناك بدا جسمه كالعهد به: طويلاً، وعرضاً، وامتلاءً. لولا شعيرات اغتصبها المشيب من فوديه، وعندما أدخل رأسه في طاقة الجلباب الأبيض غلبه الابتسام فجأة، إذ ذكر كيف تقياً السيد عليّ عبد الرحيم الليلة في مجلس الأنس، وكيف اعتذر عن ضعفه ببرد أصاب معدته. وكيف تعمّدوا أن يعيروه به زاعمين أنّه لم يعد يحتمل الشراب، وأنّه ليس كلّ الرجال من يستطيعون معاشره الخمر إلى نهاية العمر ألخ ألخ، وذكر كيف غضب السيد عليّ وجداً في دفع الريبة عنه، يا عجباً.. لهذا الحدّ يعير بعض الناس أهميّة لهذه الأمور الترافه؟! ولكن إذا لم يكن ذلك كذلك فلم فخر هو في صخب الحديث الضاحك بأنّه يستطيع أن يشرب حانة دون أن تضطرب له معدة؟! تضطرب له معدة؟! تضطرب له معدة! تضطرب له معدة!

لسان، وذو الصوت المبحوح الذي يعقّب على حوادث اليوم بلا تعب أو ضجر، وذو الصوت العصبيّ الذي يتصيد بخته في «الكومي» و«الولد»، ووالد هنيئة الطفلة المصابة بالسعال الديكيّ الذي يُسأل عنها فيجيب ليلة بعد أخرى «عند الله الشفاء»، آه.. كأنّ المشربّة ركن من القهوة هي جليسته. كانت ذكريات الطريق ترسم على مخيلتها وراء عينيّن لا تفارقان الرأس المتوسّد لمسند الكنبه، فلمّا انقطع التّيار تركّز انتباهها في الرجل فتبيّنت في صفحتيّ وجهه حمرة شديدة اعتادت أن تظاها في أعقاب الليالي الأخيرة، ولم تكن تتراح إليها فتساءلت في إشفاق:

- سيّدي بخير..؟

فاعتدل رأسه، وهو يتمتم:

١- بخير، والحمد لله (مستدركاً) ما أفضح الجوّ!!  
الزبيب خير مُسكّر في الصيف.. هكذا قالوا له وأعادوا، ولكنّه لا يطيقه، فإمّا الويسكي وإلّا فلا. عليه إذن أن يعاني خمار سكرة صيف - وصيف شديد - كلّ ليلة. شدّ ما ضحك هذه الليلة.. ضحك حتّى كلّت عروق عنقه. ولكنّ فيم كان الضحك؟! لا يكاد يذكر شيئاً، وليس هناك شيء يروى أو يعاد، ولكنّ جوّ المجلس كان مشحوناً بكهرباء لطيفة بحيث إنّ أيّ لمسة كانت تُحدث اشتعّالاً، فما هو إلّا أن قال السيّد إبراهيم الفار: «أبحر الإسكندريّة من سعد اليوم إلى باريس» وكان يقصد أن يقول: «أبحر سعد من الإسكندريّة اليوم إلى باريس» حتّى انفجروا ضاحكين، فعُدّت «نادرة» من نوادر الخمر اللسانية. وابتدروه قائلين: «وسيمكث في المفاوضة ريثما يستردّ صحته، ثمّ يبحر إلى الدعوة تلبية للندن التي تلقّاها من» أو «وسينال رامزاي مكدونالد من الاستقلال على الموافقة» و«سيعود حاملاً مصر إلى الاستقلال»، وجعلوا يتحدّثون عن المفاوضة المنتظرة ويعلّقون عليها بما يحلو لهم من المداعبات..

حقّاً.. إنّ دنيا الأصدقاء على رحابتها تتلخّص في ثلاثة: عمّد عفت، وعليّ عبد الرحيم، وإبراهيم الفار.. فهل يستطيع أن يتصوّر للعالم وجوداً من دون

جلس على الكنبه مرّة أخرى ومدّ ساقه للمرأة التي راحت تخلع الحذاء والجورب، وغابت عن الحجرة قليلاً، وعادت بالطست والإبريق وجعلت تصبّ له الماء فيغسل رأسه ووجهه وعنقه ويتمضمض، وأخيراً ترتّب في جلسته مستعرضاً نسمة الهواء التي تهفو في لطف ما بين المشربّة والنافذة المطلّة على الفناء.

- يا له من صيف فظيع صيف هذا العام!

فقالت أمينة وهي تسحب الشلّة من تحت السرير، وترتّب بدورها عليها على كتب من قدميه:

- ربّنا يلفظ بنا (ثمّ وهي تنتهّد) الدنيا كلّها كوم وحجرة الفرن كوم! السطح هو المتنفّس الوحيد في الصيف بعد مغيب الشمس.

بدت في جلستها غيرها بالأمس، نحفت واستطال وجهها، أو لعلّه تراءى أطول ممّا هو لما حلّ بالخدين من رقة، وقد انتشر المشيب فيما انحسر عنه منديل رأسها من خصلات، فأضفى عليها روح كبر أكثر ممّا تستحقّ.. وغلظت الشامة في وجنتها قليلاً، على حين نمت عيناها - إلى نظرة الخضوع القديمة - عن شرود مُزج بالحزن، كما اشتدّت حيرتها لما طرأ عليها من تغير. ولئن كانت قد رحّبت به بادئ الأمر على سبيل التعزّي إلّا أنّها أخذت تتساءل في قلق: أليست هي في حاجة إلى صحّتها ما دام في العمر بقية؟ بلى! والآخرين في حاجة إلى صحّتها أيضاً، ولكن كيف يعاد الشيء إلى أصله؟! ثمّ إنّها تقدّمت سنين، لعلّها لم تكن بالكثرة التي تبرّر هذا التغير ولكنّها ممّا يترك أثراً ولا شكّ.

هكذا كانت تقف في المشربّة الليالي المتعاقبة تراقب الطريق من وراء الخصاص، فتري طريقاً لا يتغير، والتغير يدبّ إليها غير متوانٍ. وعلا صوت النادل في القهوة فتطاير إلى الحجرة الصامتة كالصدى، فابتسمت وهي تسترق النظر إلى السيّد.

ما أحبّ هذا الطريق الذي يسهر الليالي سامراً إلى قلبها، إنّهُ الصديق الغافل عن القلب الذي يحبه من وراء خصائص، معالمة ملء نفسها، سُماره أصوات حيّة تعيش في مسامعها، هذا النادل الذي لا يستكنّ له

- نعم، أخبرني محمد عفت بذلك الليلة! .  
 - من؟  
 - موظف يدعى محمد حسن، رئيس إدارة المحفوظات بالمعارف.  
 فتساءلت بوجوم:  
 - يبدو أنه متقدم في السن؟  
 فقال كالمعتز:  
 - كلاً، في الحلقة الرابعة، خمسة وثلاثين. . ستة وثلاثين. . أربعين عاماً على الأكثر!  
 ثم بلهجة تهكمية:  
 - جربت حفظها مع الشباب فأخفقت، أعني الشباب الذين لا يرفعون رأساً، فلتجرب حفظها مع الرجال العقلاء!  
 فقالت أمينة بأسف:  
 - كان ياسين أولى بها، على الأقل من أجل خاطر ابنها. .  
 كان هذا رأي السيد، وعنه دافع طويلاً لدى محمد عفت، بيد أنه لم يعلن موافقته على رأيها مدارة لخبية مسعاه، فقال متسخطاً:  
 - لم يعد للرجل به من ثقة، والحق أنه غير جدير بالثقة، لذلك لم ألح عليه، لم أقبل أن أستغل صداقتنا في حمله على ما لا خير فيه. .  
 فغمغمت أمينة في شيء من الإشفاق:  
 - هفوة شباب لا يضيق عنها العفو!  
 هان على السيد أن يعترف بجانب من مسعاه الخائب، فقال:  
 - لم أقصر في حقّه ولكني لم أصادف ترحيباً، وقال لي محمد عفت برجاء: «إنّ السبب الأول في اعتذاري هو إشفاقي من تعريض صداقتنا إلى الشقاق»، وقال لي أيضاً: «لا أستطيع أن أرفض لك رجاء، ولكنّ صداقتنا أعزّ لديّ من رجائك». . فأمسكت عن الكلام. .  
 قال محمد عفت هذا حقاً، ولكنّه لم يصرح به إلا مدافعة لإلحاحه. والحق أنّ السيد كان شديد الرغبة في وصل ما انقطع من مصاهرة محمد عفت لمكانته من

وجودهم؟! إنّ إشراق وجوههم بالبشر الصادق حين رؤيته، سعادة لا تدانيها سعادة. التقت عيناه الحاملتان بعيني أمينة المستطلعتين، فقال وكأنّه يذكرها بأمر هام:  
 - غداً. .  
 فقالت، وقد شاعت في وجهها ابتسامة:  
 - كيف أنسى!  
 فقال بشيء من الفخار لم يحاول مداراته:  
 - قبل لي إنّ نتيجة البكالوريا كانت سيئة هذا العام. .  
 فقالت وهي تشاركه فخاره بمعاودة الابتسام:  
 - ربّنا ينتج مقاصده، ويمدّ في عمرنا حتّى نشهد نجاحه في الدبلوم. .  
 فتساءل:  
 - هل ذهبت اليوم إلى السكّرية؟  
 - نعم، ودعوتهم جميعاً، وسوف يحضرون إلّا الست الكبيرة التي اعتذرت بتعبها، فقالت: إنّ ابنها سينوبان عنها في تهنئة كمال.  
 فقال السيد، وهو يومئ بذقنه صوب جبهته:  
 - جاءني اليوم الشيخ متوّي عبد الصمد بأحجية لأولاد خديجة وعائشة، ودعا لي قائلاً: «إن شاء الله أعمل لك أحجية لأولاد أحفادك». .  
 ثمّ وهو يهزّ رأسه بأسماً:  
 - لا شيء على الله بهيد، ها هو الشيخ متوّي نفسه كالخديد رغم الثمانين! . .  
 - ربّنا يمتّعك بالصحة والعافية!  
 فتفكّر ملياً، وهو يعدّ على أصابعه، ثمّ قال:  
 - لو امتدّ العمر بأبي - رحمه الله - ما زاد على عمر الشيخ كثيراً. .  
 - رحم الله الراحلين. .  
 وخيم الصمت ريثما ذهب الأثر الذي تركه ذكر «الراجلين»، ثمّ قال الرجل بلهجة من تذكر أمراً هاماً:  
 - زينب خطبت!

اتسعت عينا أمينة، وهي ترفع رأسها قائلة:  
 - حقّاً! . .

- نفسه ومكانة أسرته من المجتمع، ولم يكن يطمع في أن يجد لياسين زوجة خيراً من زينب، ولكنه لم يسعه إلا التسليم بالهزيمة، خاصة بعد أن صارحه الرجل بما يعلم عن حياة ياسين الخاصة، حتى قال له: «لا تقل لي إننا نحن أنفسنا لا نختلف عن ياسين، فالحق أننا نختلف بعض الشيء، والحق أنني لا أرتضي لزيب ما ارتضيت لأمتها!». تساءلت أمينة:
- هل علم ياسين بما كان؟
- سيعلم غداً أو بعد غد، هل ترينه يكثرث لذلك؟ إنه أبعد ما يكون عن تقدير الزيجة المشرفة.. فهزت أمينة رأسها أسفاً، ثم تساءلت:
- ورضوان؟
- فقال السيد مقتطاً:
- سيبقى عند جدّه، أو يلحق بأمّه إن لم يصبر على فراقها، الله يخيّر من حيّره..!
- مسكين يا ربّي، أمّه في ناحية وأبوه في ناحية، أتطبق زينب فراقه..؟
- فقال السيد فيما يشبه الازدراء:
- للضرورة أحكام (ثم متسائلاً) متى يبلغ السنّ؟.. ألا تذكرين؟
- فتفكرت أمينة قليلاً، ثم قالت:
- إنه أصغر قليلاً من نعيمة بنت عائشة، وأكبر قليلاً من عبد النعم ابن خديجة، فيكون في الخامسة يا سيدي، سوف يستردّه أبوه بعد عامين، أليس كذلك يا سيدي؟
- قال السيد، وهو يتأهب:
- يا ترى من يعيش (ثم مستطرداً) وكان متزوّجاً، أعني الزوج الجديد!
- وله أولاد؟
- كلّاً لم ينجب من زوجه الأولى..
- لعلّ هذا ما حسّنه في عينيّ السيد محمّد عفت..
- فقال السيد بامتعاض:
- ولا تنسنيّ مقامه..
- فقال أمينة معترضة:
- لو أنّ الأمر أمر مقام ما عدل بابتك أحداً، على الأقلّ من أجلك أنت..
- فشعر باستياء حتى لعن في سرّه - على حبّه - محمّد عفت، ولكنه عاد يجرّ خطاً تحت النقطة التي يتعرّى بها، فقال:
- لا تنسنيّ أنّه لولا حرصه على أن يضع صداقتنا في حرز حريز ما تردّد عن قبول رجائي..
- فقال أمينة معربة عن نفس الإحساس:
- طبعاً، طبعاً يا سيدي، إنها صداقة العمر، وليست لهواً ولعباً.
- عواده التثاؤب مرّة أخرى، فتمتم قائلاً:
- نخذي المصباح خارجاً..
- قامت أمينة لتنفيذ أمره فأغمض عينيه قليلاً، ثم نهض دفعة واحدة كأنّها ليقاوم الكسل وأنجّه نحو الفراش فاستلقى عليه.. إنه الآن خير حالاً! ما أهنا الرفاد بعد التعب! أجل. لا يخلو رأسه من نبض قارع، ولكنّ رأسه لا يكاد يخلو من شيء ما، فليحمد الله على أيّ حال الصفاء الكامل ماضٍ مضى، ثمّة شيء نفتقده كلّما خلونا إلى أنفسنا ولكنه لا يعود، يلوح لنا من الماضي بذكرى شاحبة كهذا الضوء الخافت الذي تشفّ عنه شرّاعة الباب. فليحمد الله على أيّ حال! ولينعم بحياة يغبط عليها الغابطون! الأجدى أن يقطع برأي فيها إذا كان سيقبل الدعوة أم لا، أو فليدع ما للغد للغد، إلا ياسين.. فإنه مسألة الأمس واليوم والغد، ليس صغيراً من بلغ الثامنة والعشرين، وليس المشكل أن يبحث له عن زوجة أخرى، ولكنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم. متى تسطع هداية الله فتملأ الأرض حتى يبهز نورها الأعين؟ هنالك يهتف من الأعماق أنّ الحمد لله، ولكن ماذا قال محمّد عفت؟ إنّ ياسين يصول ويجول في الأزبكية حتى سراديبها.. كانت الأزبكية معنى آخر حينها كان هو يصول فيها ويجول، وهوّ الحنين مرّات إلى معاودة بعض مشاربها إحياء للذكريات، فليحمد الله على أنّه علم بسرّ ياسين قبل أن يُقيم، وإلّا لضحك الشيطان من أعماق قلبه



كيف تكون مسرة دون تأنيب أو توجس خيفة.  
قديمًا استخبرت السنين فأجابت بأن تاريخ ابتدائية هذا  
سيوافق تاريخ ليسانس ذاك، حفل لم يجئ ونذر لم  
يوف. ١٩.. ٢٠.. ٢١.. ٢٢.. ٢٣.. ٢٤..  
شباب العمر اليافع الذي حُرمت من احتضان ينعه،  
من قسمة التراب كان، يا انصداع القلب الذي  
يسمونه الحسرة.

- ستفرح ست عائشة بالبقلاوة، وتذكر أيام زمان يا  
سني...

ستفرح عائشة وأم عائشة ستفرح أيضًا، نهار وليل  
وشبع وجوع ويقظة ونوم، وكأن شيئًا لم يكن. سلي  
الزعيم الذي زعم بأنك لن تعيشي بعده يومًا واحدًا،  
عشت لتحلفي بترته، إذا زلزل القلب فليس معناه أن  
تزلزل الدنيا، كأنه نسي منسي حتى تزار المقابر، كنت  
ملء العين والنفس يا بني ثم لا يذكرونك إلا في  
المواسم، أين أنتم يا هؤلاء؟ كل مشغول بشواغله،  
إلا أنت يا خديجة قلب أمك وروحها حتى وصيتك  
يومًا بالصبر، لم تكن كذلك عائشة، مهلاً لا ينبغي  
أن أكون ظلمة، حزنت حزنها كما ينبغي، كمال لا لوم  
عليه، رفقًا بالقلوب الغضة، بات الأول والأخير،  
شاب شعرك وصرت كالخيال، هكذا تقول أم حنفي،  
لا كانت الصحة ولا كان الشباب، تقاريرن الخمسين  
وهو لم يتم العشرين، حبل ووجم وولادة ورضاعة  
وحب وآمال، ثم لا شيء... ترى هل خلا من  
الأفكار رأس سيدي؟ دعيه وشأنه! ليس حزن الرجال  
كحزن النساء، هكذا قولك يا أمي جعل الله الجنة  
مثواك، يحز في نفسي يا أمي أنه عاد إلى سيرته، كأن  
فهمني لم يم، وكأن ذكره قد تبخرت، بل يلومني كلًا  
لج بي الحزن، أليس هو أباه كما أنا أمه؟... يا أمينة  
يا مسكينة... لا تفتحي صدرك لهذه الأفكار... لو  
صح أن نحكم على القلوب بقلب الأم لبدت القلوب  
أحجارًا... إنه رجل وليس حزن الرجال كحزن  
النساء... لو استسلم الرجال للأحزان لناءت بها  
كواهلهم المثقلة بالأعباء، عليك إذا أنست منه حزنًا أن  
تسري عنه... إنه ركنك يا ابنتي المسكينة». غاب

الهازي. أوسيعوا الطريق للأبناء فقد شبوا، عنها صدك  
الاستراتيجيون أول الأمر، وأخيرًا هذا البغل  
الاستراتيجي...

## - ٢ -

تتابع دقات العجين من حجرة الفرن في هدأة  
السحر مع صباح الديكة، كانت أم حنفي مكبة على  
جرة العجين بحسمها اللحيم، يلوح وجهها ريان على  
ضوء المصباح المنبعث من فوق سطح الفرن، لم ينل  
الكبر من شعرها ولا شحمها ولكن شابت ملامحها  
جهامة واخشوشنت قسائمها، وإلى يمينها قعدت أمينة  
على كرسي المطبخ تفرش ألواح العجين بالردة استعدادًا  
لاستقبال الأقراص، تواصل العمل - في صمت - حتى  
توقفت أم حنفي عن العجين. فاستخرجت يدها من  
الجرة ومسحت على جبينها المبتل بالعرق ببطن مرفقها،  
ثم لوحت بقبضتها المغطاة بالعجين كقفاز ملاكمة  
أبيض، وقالت:

- أمامك يا سني يوم شاق ولكنه لذيذ، كثر الله من  
أيام السرور...

فغمغت أمينة دون أن ترفع رأسها عن عملها:

- علينا أن نقدّم مائدة شهية...

فابتسمت أم حنفي، وهي تومئ بذقنها إلى سيدتها،  
قائلة:

- البركة في المعلمة...

ثم غرست يديها في الجرة مرة أخرى، وعادت إلى  
ملاكمة العجين.

- وددت لو قنعنا بتوزيع الثريد على فقراء الحسين.

فقالت أم حنفي بلهجة معاتبة:

- لن يكون بيننا غريب.

فتمتمت أمينة بصوت لم يخل من ضيق:

- ولكنّها وليمة وضجة على أي حال، فؤاد ابن  
جميل الحمزاوي نال البكالوريا أيضًا، ولا من رأى ولا  
من سمع!

ولكن أم حنفي أصرت على المعاتبة، قائلة:

- ما هي إلا فرصة نجتمع فيها بمن نحب.

ذلك الصوت الحنون وصادف فقدته قلباً مترعة بالحزن فلم يكذب يكيه أحد، وشهد شاهد حكمتها ليلة عاد في أخريات الليل ثملاً، ثم ارتقى على الكنبه مجهشاً في البكاء، وتمنيت ليلتئذ له السلامة ولو بالنسيان الأبدى، أنت نفسك ألا تنسين أحياناً؟ ثمّة ما هو أظف من ذلك، هو تتمتع بالحياة وحرصك عليها. هذه هي الدنيا. هكذا يقولون! فترددت ما يقولون وتؤمنين به. كيف جاز لك - يوماً - بعد هذا أن تحنني على ياسين براه ومواصلته مألوف الحياة! مهلاً، الإيمان والصبر... سلمني إلى الله، فكل ما جاءك من عنده، «أم فهمي» إلى الأبد، سوف أظل ما حييت أملك يا بني وتظل ابني...

تتابعت دقات العجن، ففتح السيد عينيه على نور الصباح الباكر، وراح يتمطى ويتأهب بصوت مرتفع مطوط، تصاعد كالتذمر أو الاحتجاج، ثم جلس في الفراش مستنداً براحتيه على ساقيه الممدودتين، فبدأ ظهره مقوساً وقد نضح أعلى الجلباب الأبيض بالعرق، وجعل يحرك رأسه يمنة ويسرة كأنما لينفض عنه وطأة الوحش، ثم انزلق إلى أرض الحجرة، ومضى متهاذياً إلى الحمام إلى الدش البارد... الدواء الوحيد الذي يغيّر عليه بدنه فيعيد إلى رأسه اتزانته وإلى نفسه اعتدالها، تجرد من ثيابه، ولما تعرض لرشاش الماء وردت ذهنه ذكرى الدعوة التي وُجّهت إليه أمس، فحفق فؤاده الذي تلقى الذكرى والإحساس المنعش بالماء البارد معاً، عليّ عبد الرحيم قال: «نظرة إلى الوراء، إلى حبيبات رمان، لا يمكن أن تمضي الحياة هكذا إلى الأبد، إنّي أعرف الناس بك». أتقيد على هذه الخطوة الأخيرة؟ خمس سنوات مضت وهو يأبى أن يخطوها. أكان تاب إلى الله توبة مؤمن مصاب؟ أم أضمر التوبة وخاف أن يجهر بها؟ أم أطلقها نية صادقة دون تورط في التوبة؟... لا يذكر، ولا يريد أن يذكر، ليس صغيراً من يدنو من الخامسة والخمسين. ولكن ما لفكره قد تقلقل وتزلزل! كحاله يوم دُعي إلى السماع فلتني، هل يلتي النداء إلى حبيبات زمان بالمثل؟ متى يبعث الحزن ميتاً؟ هل أمرنا الله أن نهلك

أنفسنا وراء من نحبهم إذا ذهبوا؟! في عام الحداد والتشّف كاد الحزن يقتله قتلاً، عام طويل لم يذق فيه شرباً، ولم يسمع نغمًا، ولم تندّ عن فيه ملحّة حتّى شابت شعيراته... أجل لم يتسلّل الشيب إلى شعره إلّا في ذلك العام، رغم أنّه عاد إلى الشراب والسّماع رحمة بالأصدقاء المقرّين الذين انقطعوا عن اللذات إكراماً لحزنه، كذب وصدق، عاد إلى الشراب لنفاد صبره ورحمة بالأصدقاء الثلاثة، لم يكونوا كالآخرين، وما على الآخرين من ملام، حزنوا لحزنك، ثم جعلوا يراوحون بين مجلسك الجاف ومجالسهم النديّة فأبى تثرّب عليهم؟ بيد أنّ الثلاثة المحبّين أبوا أن ينالوا من الحياة نصيباً أوفى ممّا ارتضيت لنفسك، وعدت رويداً إلى أشياء، إلّا المرأة رأيتها كبيرة فلم يلتوا عليك أول الأمر، لشد ما تأبّيت وحزنت، لم يؤثر فيك رسول زبيدة، رددت أمّ مريم بوقار حزين حازم وأنت تكابد آلاماً لا قبّل لك بها، ظننت أن لن تعود أبداً، وخاطبت نفسك المرّة تلو المرّة... «أعود إلى أحضان الغواني وفهمي في قبضة التراب؟!» آه... ما أحوجتنا في ضعفنا وتعاستنا إلى الرحمة! فليداوم على الحزن من يضمن ألا يموت غداً، من قائل هذه الحكمة؟ واحد من اثنين: عليّ عبد الرحيم أو إبراهيم الفار. محمّد عفت بك لا يجود بالحكم. رفض رجائي، وزوّج البنت من رجل غريب، ثم ضحك عليّ بالقبل، لا ينكر غضبه ويشفق من أن يطالعني به كما وقع قديماً، الله هو أيّ وفاء وأيّ ود أتذكر كيف امتزج دمه بدمعك في القرافة؟ ولكنّه القائل فيما بعد «أخاف عليك الكبر إن لم تفعل... تعال إلى العوامة». ولما آنس تردّداً قال: «لتكن زيارة بريئة... لن يجردك أحد من ملابسك ويرميك على امرأة». لم أحزن قليلاً علم الله، بموته مات جزء جسيم منّي. مات أملي الأوّل في الدنيا، منذ يلومني على الصبر والعزاء؟ قلبي جريح وإن ضحك! ترى، كيف هنّ؟ ماذا فعل بهنّ الزمان في خمسة أعوام؟ خمسة أعوام طوال؟

\*\*\*

كان شخير ياسين أوّل ما تلقى كمال من عالم

عابرة. صادفها بعد ذلك في الموسكي مع أمها، فالتقت العين على سهوة، ولكن سرعان ما لاح فيها العرفان، وتمت بسيمات لا تكاد تُرى بالعين المجردة عن عرفانها، فتحرك قلبه، تحرك للعرفان - فحسب - أول الأمر، ثم للطيف الأثر الذي خلّفه وجه عاجي مكحول العينين، وجسم نابض بالفتوة والحيوة، ذكره بزنب في إبانها... فمضى إلى طيّته متفكراً هائجاً. غير أنه بعد خطوات، أو حال هبوطه إلى قهوة أحد عبده، هُتّت عليه ذكرى محزنة بعثت في قلبه الشجن، بُعث فهمي في خياله بشئ ذكرياته: صورته وأماراته وأسلوبه في الحديث والحركة ففتر وجهه وباح وغشيه حزن غليظ، يجب أن ينتهي كل شيء... لم؟... عاد يتساءل بعد ساعة، أو بعد أيام، فكان الجواب: فهمي... أية علاقة بين الاثنين؟. ودّ يوماً أن يخطبها، ولم لم يفعل؟... أبوك لم يوافق. فقط؟... هذا في الأقل أصل المسألة. ثم؟ جاءت فضيحة الإنجليزي، فمحت ما بقي من أثر باهت... أثر باهت؟... أجل لأنه على الأرجح كان نسي. إذن نسي أولاً، ونبد أخيراً؟ نعم، فآية علاقة هنالك؟... لا علاقة؟ ولكن!!... أعني شعور الأخوة، هل يمكن أن يرقى شك إلى شعورك؟... كلاً وألف مرة كلاً. الفناة تستحق...؟ نعم، وجهها وجسماً؟... وجهها وجسماً فما انتظارك؟... في النافذة كان يلمحها حيناً بعد حين، ثم فوق السطح... فوق السطح مرّات، ومرّات... لم طلّقت؟... لسوء في خلق زوجها، فيكون الطلاق من حسن حظها. أو لسوء في خلقها فيكون الطلاق من حسن حظك أنت.

- قم ولأ غلبك النوم.  
فتنأب وهو يتخلّل شعره الملهوج بأصابعه الغلاظ، ثم قال:  
- يا بختك بعطلتك المدرسيّة الطويلة!  
- ألم أستيقظ قبلك؟  
- ولكن بوسعك أن تواصل النوم إذا شئت...  
- لا أشاء كما ترى...

البقطة، فلم يتالك أن يناديه وهو إلى معاكسته أرغب منه إلى إيقاظه في ميعاده، ولاحقه بصوته غير متوانٍ حتى رَدّ عليه الآخر بصوت كالنزع تشكياً وتذمّراً، ثم تقلّب بجسمه الضخم فطقطق الفراش فيما يشبه الأنين والتوجّع ثم فتح عينين حراوين وتأوه.

لم يكن ثمة - في رأيه - ما يدعو إلى هذه العجلة ما دام أحد منها لن يذهب إلى الحتام قبل عودة الأب منه، لم يعد من اليسر استعمال حَمّام الدور الأول منذ قضى التنظيم الجديد للبيت - منذ خمسة أعوام - بنقل الحجرات إلى الدور الأعلى فيما عدا حجرة الاستقبال والصالة المتصلة بها التي فُرشت بأثاث بسيط باعتبارها مدخلها، ومع أن ياسين وكمال لم يرحبا - قط - بالإقامة مع الأب في دور واحد، إلّا أنّها لم يجدا بداً من احترام الرغبة في مقاطعة الدور الأول الذي لم تعد تدخله قدم إلّا حين يلتم بالبيت زائر. أغمض ياسين عينيه، ولكنّه لم ينم، لا لأنّ معاودة النوم كانت عبثاً فحسب، ولكن لأنّ صورة انبعثت في خياله فأشعلت إحساسه... وجه مستدير، تتوسط صفحته العاجية عينان سوداوان. مريم! فاستجاب لداعي الأحلام... واستسلم لتخدير الذّ من تخدير المنام.

قبل أشهر معدودات، لم تكن بالنسبة إليه موجودة قط، وكأنّها لم تكن، حتى سمع أم حنفي تتحدّث - ذات مساء - إلى امرأة أبيه، فنقول: «أما سمعت بالخبر يا ستي؟... ست مريم طلّقت من زوجها وعادت إلى أمها» هنالك عاوده ذكر مريم، وفهمي، والجنديّ الإنجليزيّ، صديق كمال وإن غاب عنه اسمه، ثم ذكر بالتالي اهتمامه القديم بشخصيتها الذي جاش بها صدره عقب ذبوع الفضيحة، ما يدري إلّا وقد أضاءت فجأة في نفسه لوحة معبرة، كما تضيء الإعلانات الكهربائية في الليل، سَطّر عليها «مريم... جارتك... الجدار لصق الجدار... مطلقاً... ذات تاريخ وأي تاريخ... أبشر»، ولكنّه ما لبث أن جفل من نفسه، لأنّ اقترانها بذكرى فهمي صدّه وآلمه وأهاب به أن يغلق هذا الباب وأن يُحكم إغلاقه، وأن يندم - إن كان ثمة ندم - على فكرة خفيّة

ضحكك ياسين ضحكة لا معنى لها، ثم تساءل:

- ما اسم الجندي الإنجليزي صديقك القديم؟

- أوه... جوليون...

- أجل جوليون...

- ما الذي دعاك إلى السؤال عنه؟

- لا شيء!!

لا شيء؟ ما أسخف لساننا، أليس ياسين خيرًا من جوليون؟ في الأقل جوليون عابر وياسين مقيم، في وجهها شيء يتسم إليك دوامًا، ألم تلاحظ مئابرتك على الظهور فوق السطح؟ بلى وذكر جوليون، ليست ممن يفوتهن معنى، ردّت تحيّنك... أول مرة أدارت رأسها باسمه، في المرة الثانية ضحكت، ما أجل ضحكته! في الثالثة أشارت إلى أسطح البيوت محدّرة، سأعود بعد الغروب. هكذا قلت في جراءة، ألم يرسل جوليون إشارته من الطريق العام؟

- لشّد ما أحببت الإنجليزي في صغري!... انظر كيف أمقتهم الآن مقتًا...

- سعد بطلك سافر ينشد صداقتهم!

هتف كمال بحدة:

- والله لأبغضنهم ولو وحدي...

وتبادلا نظرة أسي صامتة، تناهى إليها وقع قبقاب السيد وهو راجع إلى حجرته مبسملاً محوّلًا، فانزلق ياسين إلى الأرض وغادر الحجرة وهو يتشاءب.

تقلّب كمال على جنبه ثم استلقى على ظهره مسترخيًا وثني ساعديه شابكًا راحته تحت رأسه، ومضى ينظر فيها أمامه بعينين لا تريان شيئًا... لتسعد بك رأس البر، لم تخلق بشرتك الملائكية لتصلّى حرّ القاهرة، فلتطّب بموطئ قدميك الرمال، ولبهنا بمشهدك الماء والهواء، سوف تشيدن بالمصيف، وعيناك تنطقان بالمسرة والحنين، فأتطلع إليهما بقلب مشوق وعين تسائل الغيب - في حسرة - عن المكان الذي استهواك فاستحقّ عن جدارة رضاك... ولكن متى تعودين ومتى ينسكب في أذني تغريدك المسحور؟ كيف المصيف؟ ليتني أدري... قيل إنه حرّة كالهواء، ولقاء بين أحضان الماء، وأهواء بعدد حبّات

الرمال... وخلق كثيرون يحظون بمحبّاك... أنا... أنا الذي خفقات قلبه تشّ لشكايتها الجدران فأتلظى في سعي الانتظار. هيهات! أن تنسى وجهك المنطلق بالبشر وأنت تغمغمين: «سنسافر غدًا... ما أجل رأس البر!» ولا اكتثابي وأنا أتلقى نذير الفراق من ثغر يومض بسنا السرور كمن يتلقى السمّ مدسوسًا في طاقة من الزهر الفواح، ولا غيّرني من الجهاد الذي قدر على إسعادك حين عجزت وحظي بمودتك حين حرمت. ألم تلحظي حين الوداع اكتثابي؟ كلّ لم تلحظي شيئًا، لا لأنّي كنت واحدًا بين كثيرين ولكن لأنك يا حبيبة لا تلحظين... كأنما كنت شيئًا لا يسترعي انتباهك... أو كأنما أنت مخلوق بديع غريب استوى فوق الحياة يطالعا من علّ بعينين هائمتين في ملكوت لا ندره... هكذا وقفنا وجهًا لوجه... أنت شعلة من سعادة سادرة، وأنا رماد من وجوم وكآبة... تحظين بحرّة مطلقة أو تدعنين لسنن فوق مداركنا، وأنا أدور في فلكك مجذوبًا بقوة هائلة... كأنك الشمس، وكأنّي الأرض، هل وجدت عند الشاطئ حرّة لم تنعمي بها في مغاني العباسية؟ كلًّا، وحقّ قدرك عندي... لست كالأخريات... في حديقة القصر والطريق، آثار عطران لقدميك... وفي قلب كلّ صديق ذكريات وآمال... آنسة سهلة متمتعة، تطوف بنا على غير مثال، كأنّ الشرق قد استوهبها الغرب في ليلة القدر... أيّ جديد من الجلود ترى تهين إذا امتدّ الشاطئ وترامى الأفق واكتظّ الساحل بالمعجبين؟ أيّ جديد يا أملي وحسرتي؟! القاهرة في غيبتك خواء تنضح كآبة ووحشة، كأنها عكّارة الحياة والأحياء... ثمة مناظر ومعالم، ولكنّها لا تخاطب وجدًا ولا تحرك قلبًا، كأنها عاديّات الدنيا وذكرياتها في قبر فرعوني لم يفضّ... ما من مكان بها يعدني بعزاء أو تسلية أو مسرة... إخالني حيّا نخشعًا وحيّا سجيّا وحيّا مفقودًا ضالّا غير مفتقد. يا عجبًا أكان وجودك ينبل أملًا أفقدنيه البعاد؟ كلًّا يا قضائي وقذري، ولكنك كالأمنية، الاستغلال بجناحها برّد وسلام وإن

اعتصمت بالمحال، هل يُغني المشتاق المتطلع إلى ظلمة السماء معرفته أنَّ البدر يسطع فوق المكان الآخر من الأرض؟... كلاً وإن لم يدر للبدر امتلاكاً. إنما أطمع إلى الحياة في صميمها ونشوتها ولو بفادح الألم، بل أنت حائل في ما خفق الفؤاد والفضل لهذا المخلوق السحري: الذاكرة. عن إعجازها غفلت حتى عرفتكَ، اليوم أو غداً أو بعد دهر في العباسية أو رأس البر أو في أقصى الأرض لن تبحر غيظي عيناك السوداوان الساجيتان، وحاجباك المقرونان، وأنفك السوي اللطيف، ووجهك الدرّي الخمرّي، وجيدك الطويل، وقامتكَ الهيفاء، وما شئت من سحر يكتنفك مزرباً بكل وصف مسكراً كعرف الفلّ والياسمين، لأملكّن هذه الصورة ما ملكت الحياة، وبعد الحياة لتقوّض عوائق وموانع فيكون المصير إليّ... إليّ وحدي بما أحببت هذا الحب كله... وإلا فخبرني عن معنى هذه الحياة ينشد أو عن طعم للخلود يرام. لا تزعم أنك سبرت جوهر الحياة إلا أن تحب، السمع والبصر والذوق والحدّ واللهم والمودة والظفر مسرات تهوي عند من فعم الحب قلبه، من أول نظرة، يا قلبي. ما ارتدت عنها عيناك حتى آمنت بآثار زيارة مقيم لا زيارة عابر، لحظة خاطفة حاسمة، ولكن في مثلها تُخلق الأرواح في الأرحام وتزلزل الأرض... ربّاه لم أعد أنا... قلبي تلاطمه جدران الأضلع، أسرار السحر تنفث معانيها، العقل يتهادى حتى يمسّ الجنون، اللذة تسطع حتى تعانق الألم، أوتار الوجود والنفس تجود بالنغم المكنون، دمي يصرخ مستغيثاً لا يدري ممّ يستغيث، الأعمى يبصر والكسيح يسير والميت يحيا، حلفتك بكل عزيز ألا تذهبي أبداً، أنت يا إلهي في السماء وهي في الأرض، آمنت بأن ما مضى من حياتي كان تمهيداً لبشارة الحب، لم أمت صغيراً ولم ألحق بمدرسة غير فؤاد الأول ولم أصادق أول ما صادقت من تلاميذها حسين ولم... ولم... كلّ أولئك كي أذع يوماً إلى قصر آل شدّاد، يا للذكرى! يكاد القلب من وقعها يقتلع، كنت وحسين وإسماعيل وحسن منهمكين في شقّ الأحاديث حين ورد مسامعنا

صوت رخيّم محيياً، التفّت وأنا من الدهول في غاية... من تكون القادمة؟... كيف لفشة أن تقتحم على غرباء مجلسهم؟... ثم سرعان ما انقطعت عن التساؤل... وتناسيت التقاليد جميعاً... وجدتي حيال مخلوق لا يمكن أن يكون من هذه الأرض جاء. بدت وكأنّها صديقة للجميع إلّا، فقال حسين يعارف بيننا: «صديقي كمال... أختي عايدة» ليلتذّ عرفت لم خلقت... لم لم أمت... لم دفعتني المقادير إلى العباسية، وحسين، وقصر آل شدّاد، متى كان ذلك؟ كان الزمان نسيّاً منسياً وأسفاً! إلّا اليوم، كان يوم الأحد... عطلة مدرستها الفرنسية الذي صادف عطلة رسمية لعلها مولد النبي، وعلى اليقين كانت مولدي أنا، ما قيمة التاريخ؟ سحر التقويم أنّه يومنا بأنّ الذكرى تُبعث حياة وتعود ولو أنّ شيئاً لا يعود، لن تفتأ تجذّ في البحث عن التاريخ، ولن تفتأ تردّد: مطلع السنة الثانية بالمدرسة... أكتوبر نوفمبر... حين زيارة سعد للصعيد وقبل نفيه للمرة الثانية... مستخيراً الذاكرة والشواهد والأحداث وليس إلا أنك تشبّث تشبّث اليأس باستعادة سعادة مفقودة وعهد مضى إلى الأبد. لو مددت يدك عند التعارف كما كدت لصافحتك فعرفت مسّها، وهو ما تتخيّله حيناً بعد حين بشعور ملؤه الشكّ والهيام، كأنّما هي مخلوق غير جسماني لا مسّ له... وهكذا ضاعت فرصة كالخلم كما ضاع الزمان، ثمّ أقبلت على صديقها تحادثها ومحادثاتها - بغير كلفة - وأنت قابع في مقعدك تحت الكشك تكابد حيرة التشبّع بتقاليد حيّ الحسين، حتى عدت تتساءل: ترى، أهي تقاليد خاصّة بالقصور، أم نفحة من باريس التي نشأ المعبود بين أحضانها؟... ثمّ تستغرق في رخامة الصوت وتستطعم نبراته وتنتشي بتغريده وتمتلئ بكلّ حرف ينذّ عنه، ولعلك - يا مسكين - لم تدرك وقتها أنك تولد من جديد، وأنت كالوليد سوف تستقبل دنياك الجديدة بالارتياح والدموع. وقالت ذات الصوت الرخيّم: «سندهب هذا المساء لمشاهدة الغندورة». فسألها إسماعيل باسمًا:

«أتحبين منيرة المهدية؟»... فترددت كما ينبغي لأنسة نصف باريسية، ثم أجابت: «ماما تحبها»، ثم اشترك حسين وإسماعيل وحسن في حديث عن منيرة وسيد درويش وصالح وعبد اللطيف البنا، ثم ما أدري إلّا والصوت الرخيم يسأل: «وأنت يا كمال، ألا تحب منيرة؟»، أتذكر ذلك النداء الذي نزل على غير انتظار؟ أعني أتذكر النغمة الطبيعية التي تجسمها؟ لم يكن قولاً، ولكن نغماً وسحراً استقرّ في الأعماق كي يغرد دوماً بصوت غير مسموع ينصبّ فؤادك إليه في سعادة ساوية لا يدرها أحد سواك، كم روعك وأنت تتلقاه، كأنّ هاتفاً من السماء اصطفاك فردّد اسمك، سقيت المجد كلّهُ والسعادة كلّها والامتنان كلّهُ في نهلة واحدة وددت بعدها لو تتفّ مستنجدًا: «زملوني... دثروني»، ثم أجبت وإن كنت لا أذكر بماذا أجبت، لبثت دقائق ثم ودّعنا ومضت، في عينيها السوداوين نظرة أنيقة، تنمّ إلى جمالها الفاتن عن صراحة محبة وجرأة مصدرها الثقة - لا الاستهتار أو القحة - وترفع مروع، كأنها تجذبك وتدفعك معاً... جمالها فتنة لا أدرك له كنّها ولا أدري له شبها، وكان يجلّ إليّ كثيراً أنّه ليس إلّا ظلاً لسحر أعظم يكمن في شخصها... من أجل أيّ هذين أحبها؟... كلاهما لغز، ولغز ثالث هو حبي. يتراجع ذلك اليوم كلّ يوم يوماً إلّا أنّ ذكرياته ناشبة في قلبي أبداً. لبناتها مكان وزمان وأسماء وصحاب وأحاديث يتقلب القلب في جنباتها نشوان حتّى يخال أنّها الحياة جيّماً، فيتساءل فيها يشبه الشك: هل كانت ثمّة وراء ذلك حياة؟... هل حقاً مضى زمن قبلها حلا من الحبّ قلبي وأقصر من تلك الصورة الإلهية نفسي؟. ربّما أسكرتك السعادة حتّى تحزن على ما ضاع من ماضٍ جديب وربّما لسعك الألم حتّى تلدّب حشرات على السلام الذي ولّى، وبين هذا وذاك لا يجد قلبك إلى الاستقرار سبيلاً، فيمضي ملتصقاً الشفاء في شقّ العقاقير الروحية، يستمدّها من الطبيعة آناء، ومن العلم آناء، ومن الفنّ حيناً، وفي العبادة أحياناً كثيرة... قلب استيقظ فانطلقت من صميمه شهوة مولعة بالمسرات الإلهية... أيّها الناس

حبّوا أو موتوا... لسان حالك وأنت تسير مزهواً فخوراً بما تحمل بين جنبيك من نور الحبّ وأسراره... يزدريك علوّ فوق الحياة والأحياء، ويصل أسبابك بالسموات جسر مفروش بورود السعادة، وأنت أنت الذي تخلو حيناً آخر إلى نفسك فتطغى عليك حساسية الأيمة مريضة بإحصاء النقائص وتقصيها بلا رحمة في كائنك الصغير ودنياك المتواضعة وهناتك الأدمية... ربّاه، كيف تخلق نفسك من جديد؟ هذا الحبّ طاغية يتيه فوق كافّة القيم وفي ركابه يتألّق معبودك، لا تكملهُ الفضائل ولا تنقصه المثالب، النقيصة تلوح في تاجه الدرّي حسناً يشغلك إعجاباً، هل أزرى بها في نظرك أن تخرج على التقاليد المرعية؟ كلّاً، بل إنّ خروجها بالتقاليد المرعية أزرى. يطيب لك أحياناً أن تسأل نفسك: ماذا تروم من حبّها؟ أجب بكلّ بساطة: أن أحبّها، أيجوز أن تنبثق في النفس هذه الحياة كلّها ثمّ يتساءل عن غاية وراءها؟ لا شيء وراءها. العادة هي التي ربطت بين لفظي الحبّ والزواج، ليست فوارق السنّ والطبقة هي وحدها التي تجعل من الزواج غاية مستحيلة في مثل حالي، ولكنّ الزواج نفسه، بما يستنزل الحبّ من سائه إلى أرض العقود والعرق... ويسألك الذي يأبى إلّا أن يحاسبك، يَمّ جادت عليك لقاء التهانك في حبّها؟. أجهه بلا تردد: ابتسامة فاتنة، و«يا كمال» الغالية، وزيارتها للحديقة في الأوقات السعيدة النادرة، وترائيها مع الصباح النديّ، وسيارة المدرسة غضي بها، ومعايشتها الخيال في سباحات البقطة وتهويم الأحلام. ثمّ تسألك النفس الطمّاعة المجنونة: أمن المحال أن يكون المعبود مشغولاً بأمر عابده؟... أجبها غير مستسلم لإغراء الآمال الكواذب: حسن أن يذكر عند العودة اسمنا...».

- بسرعة إلى الحثام، هل تأخّرت؟!

مالت عينا كمال - وقد لاح فيهما رجع المفاجئة - إلى ياسين الذي عاد إلى الحجرة وهو ينشّف رأسه بالفوطة، ثمّ وثب إلى الأرض فبدا فرعه الطويل نحيفاً، وألقى نظرة طويلة على المرأة كأنّها يتفحص

أن يتعرف على تاريخ آخر شتمة تلقاها من أبيه، حتى تذكر أنه كان ذلك قبل عامين على وجه التقريب، أو بعد حبه - الذي غدا يؤرخ به - بعام، إذ شعر وقتذاك بأن مصادقته لشبان من طراز حسين شذاد وحسن سليم وإسماعيل لطيف تتطلب زيادة كبيرة في مصروفه كي يتأتى له مجاراتهم في هوهم البريء، فشكا أمره إلى أمه راجياً إياها أن تخاطب أباه في شأن الزيادة المأمولة، ومع أن غاطبة الأب - في مثل هذا الأمر - لم تكن يسيرة على الأم، إلا أنها هانت بعض الشيء بتغير معاملته لها عقب وفاة فهمي، فحدثته منوّهة بعلاقة جديدة مشرفة لابنتها بأصدقاء من «الأكابر»، وعند ذلك دعا السيد كمال، وصب عليه غضبه، حتى صاح به: «هل ظننتني تحت أمرك أو أمر أصحابك!... ملعون أبوك وأبوه»، فغادره كمال خائب الرجاء وقد ظن أن الأمر انتهى عند ذلك... ولكنّه ما يدري إلا والرجل يسأله عن هوية أصدقائه على مائدة إفطار اليوم التالي، وما إن سمع اسم حسين عبد الحميد شذاد، حتى سأله باهتمام: «من العباسية صاحبك؟». فأجاب كمال بالإيجاب، وقلبه يخفق، فقال السيد: «كنت أعرف جدّه شذاد بك، وأعرف أيضاً أن أباه عبد الحميد بك كان مبعداً في الخارج لسابق علاقته بالخديو عباس... ليس كذلك؟»، فأجاب كمال بالإيجاب مرة أخرى، وهو يغالب وجده الذي أهاجه الحديث عن والد معبودته وذكر لثوّه ما علم عن الأعوام التي قضتها الأسرة في باريس، حيث ترعرعت معبودته في نور مدينة النور، فما تمالك أن شعر نحو أبيه بإجلال وإكبار جديدين ومودة مضاعفة، وعدّ معرفته لجدّ معبودته رقية سحرية تنسبه - ولو من بعيد - إلى منزل الوحي ومبعث السنا. ثم ما لبثت أنه أن رقت إليه بشرى موافقة والده على مضاعفة مصروفه.

منذ ذلك اليوم لم يتعرّض لشتمة جديدة، إمّا لأنه لم يرتكب ما يستوجبها، وإمّا لأنّ أباه رأى أن يعفيه من الشتم إطلاقاً... وقف كمال إلى جانب أمه في المشربة يشاهدان السيد أحمد في الطريق، وهو يردّد - في وقار ولطف - تحيات عمّ حسين الحلاق والحاج

رأسه الضخم وجبينه البارز وأنفه الذي تراءى لكبره وقوّته كأنه منحوت من الجرانيت، ثم تناول فوطته من على شبك السرير ومضى إلى الحمام.

وكان السيد أحمد قد فرغ من الصلاة، فعلا صوته الغليظ بالدعاء المعتاد للأولاد ولنفسه، سائلاً الله الهداية والستر في الدارين... وفي أثناء ذلك كانت أمينة تعدّ المائدة، ثم ذهبت إلى حجرة السيد، فدعته - بصوتها الوديع - إلى تناول الفطور، وانجذبت إلى حجرة ياسين وكمال فكرّرت الدعوة.

اتخذ الثلاثة أماكنهم حول الصينية، ويسمل الأب وهو يتناول رغيفاً معلناً بدء الأكل، فتبعه ياسين ثم كمال، على حين وقفت الأم وقفتها التقليدية إلى جانب صينية القل. كان مظهر الأخوين يدلّ على الأدب والخشوع، ولكن خلا قلبهما - أو كادا - من الخوف الذي كان يركبهما - قديماً - في حضرة الأب، ياسين: لأنّ بلوغه الثامنة والعشرين منحه امتيازاً من امتيازات الرجولة، وضمناً ضدّ الإهانات الجارحة والاعتداءات التعيسة، وكمال: لأنّ بلوغه السابعة عشرة، وتقّده في الدراسة وهباه نوعاً من الضمان أيضاً إلا يكن بقوة ضمان ياسين، فإنّه لم يخجل من العفو والتسامح على الأقلّ في الهفوات النافهة، إلى أنه آنس من أبيه في السنوات الأخيرة أسلوباً من المعاملة تخفّف من البطش والإرهاب بدرجة محسوسة، ولم يكن من النادر أن يدور حديث مقتضب بين الأكلين بعد أن كان الصمت يتحكّم في مجلسهم تحكّماً خفيفاً، إلا أن يسأل الأب أحدهم فيجيب بعجلة ولهجة ولو بفهم متملّ بالطعام. أجل لم يعد غريباً أن يخاطب ياسين أباه، فيقول مثلاً: «زرت أمس رضوان في بيت جدّه، وهو يقرنكم السلام ويقبل يدكم»، فلا يعدّ السيد الخطاب جراً غير محمود، ولكنّه يقول له ببساطة: «ربّنا يحفظه ويرعاه»... ولا يبعد عند ذلك أن يتساءل كمال بأدب، محدثاً بذلك تطوّراً خطيراً في علاقته التاريخية بأبيه: «متى يستحقّ رضوان شرعاً لأبيه يا بابا؟». فيجيبه السيد: «عندما يبلغ السابعة»، بدلاً من أن يصبح به: «اخرس يا ابن الكلب». طاب لكamal يوماً

درويش بائع الفول والفولبي اللبان ويومي الشربتي، وأبو سريع صاحب المقل. ثم رجع إلى الحجرة حيث وجد ياسين واقفاً أمام المرأة يثأق في عناية وصبر. جلس على كنية بين السريرين، وراح يتأمل جسم أخيه الطويل البدين ووجهه المورّد المكتنز بنظرة باسمه غامضة، كان يَكُنْ له حباً أخوياً صادقا، بيد أنه لم يكن يستطيع - كلما أنعم فيه الفكر أو النظر - أن يقاوم شعوراً خفياً بأنه حيال «حيوان أليف جميل»، على رغم أنه أول من هز أوتار أذنيه بأنغام الشعر ونفثات القصص، ربّما تساءل، تساؤل من يرى في الحب جوهر الحياة والروح، أمن الممكن أن يتصور ياسين عاشقاً؟ فيتمثل الجواب ضحكة باطنية أو منطلقة، أجل ما للحب وهذه الكرش المترعة! ما للحب وهذا الجسم اللحيم! ما للحب وهذه النظرة الشهوانية الساخرة! ثم لا يتالك أن يجد نحوه إحساساً بالازدراء الملطف بالعطف والود، وإن لم يخل أحياناً - خاصة في الأوقات التي تعترى حبه فيها نوبة من نوبات الألم والهبوط - من عاطفة إعجاب بل حسد، كذلك بدا ياسين لعينه أبعد ما يكون عن عرش الثقافة، الذي بؤاه إياه قديماً حينما كان يظنه عالماً ساحراً مالكا لفنون الشعر والقصص، تكشف له قارئاً سطحياً يقنع من وقت مجلس القهوة بضغ ساعة يتنقل فيها بلا جهد أو عناء بين الحماسة وقصة من القصص قبل انطلاقة إلى قهوة أحمد عبده، حياة عاطلة من بهاء الحب وأشواق المعرفة الحقيقية وإن كنّ لصاحبها حباً أخوياً لا تشوبه شائبة... لم يكن كذلك فهمي، كان مثله الأعلى في الحب والعقل، ولكنّه بدا أخيراً كالمختلّف بعض الشيء عمّا يطمح إليه، أجل ساوره شك يقارب اليقين في أنّ فتاة كبريم يمكن أن تبعث في النفس حباً حقيقياً كالحب الذي يضيء به نفسه، كما ارتاب في أن تضاهي الثقافة القانونية التي نزع إليها أخوه الراحل المعرفة الإنسانية التي يتشوقها بكلّ قوّة نفسه، كان يتأمل من حوله بعين تنفتح على التأمل والنقد، وذهب في ذلك كلّ مذهب، إلّا أنّه وقف عند عتبة أبيه لا يجرؤ على أن يرفع قدماً، لاح الرجل لعينه شيئاً هائلاً يترّبع على

عرشه فوق النقدا!

- أنت اليوم عريس! اليوم عيد من أعيادك الظافرة، أليس كذلك؟ لولا نحافتك ما وجدت ما أواخذك عليه...

قال كمال مبتسماً:

- إنّي راضٍ عنها.

ألقي ياسين على صورته نظرة أخيرة، ثم وضع الطربوش على رأسه وأماله مينة بعناية حتى أوشك أن يمسّ حاجبه، ثم قال وهو يتجشأ:

- أنت حمار كبير يحمل البكالوريا، تمتّع بالطعام والراحة فهذه هي العطلة، كيف تسوّل لك نفسك أن تقرأ في العطلة أضعاف ما تقرأ في عامك الدراسي؟! اللهمّ إنّي بريء من النحافة وأصحابها!

ثم، وهو يغادر الغرفة والمنشأة العاجية في يده:

- لا تنس أن تختار لي قصة جيّدة، مثل «باردليان»، و«فوستا»، هه... مضى زمن كنت تستجديني فصلاً من رواية، هاك زمناً أغبر أشحذك فيه القصص!

ارتاح إلى الوحدة التي يخلو فيها إلى نفسه، فنهض وهو يغتمغ: من أين له بالبدانة والقلب لا ينام؟! لم تكن تحلو له الصلاة إلّا خالياً، صلاة بالجهاد أشبه ويشترك فيها القلب والعقل والروح، جهاد من لا يضنّ بجهد للفوز بالضمير الطاهر النقي ولو لاحق نفسه بالحساب تلو الحساب على الهفوة والخطاة... أمّا الدعاء في أعقاب الصلاة، فلها، لها وحدها...

- ٣ -

عبد المنعم : الفناء أوسع من السطح، ولا بدّ أن نزيح الغطاء عن البئر لنرى ما فيها...

نعيمة : ستغضب ماما وخالتي وجدتي...

عشان : لن يرانا أحد...

أحمد : البئر فظيعة، وموت من ينظر فيها.

عبد المنعم : نرفع الغطاء، ثم ننظر من بعيد... (ثم بصوت مرتفع)... هيّا بنا نزل.

أم حنفي : (معتزلة باب السطح) لم يبق في حَيْل للنزول والطلوع، قلت نطلع السطح فطلعنا السطح،



وقلتم نزل الفناء فنزلنا إلى الفناء، نطلع السطح مرة ثانية فطلعنا السطح مرة ثانية، ماذا تريدون من الفناء؟... الجوّ حارّ تحت، أمّا هنا فالنسمة جارية، وعمّا قليل تغيب الشمس.

نعيمة : سيرفعون غطاء البشر لينظروا فيها...  
 أمّ حنفي : سأنادي ستّ خديجة وستّ عائشة.  
 عبد المنعم : نعيمة كذّابة، لن نرفع الغطاء، ولن نقترّب منه، سنلعب في الفناء قليلاً ثمّ نعود، ابقِ هنا حتّى نعود.

أمّ حنفي : أبقى هنا؟ رجّلي على رجلكم، الله يسديكم... ليس في البيت كلّ مكان أجمل من السطح، انظروا إلى هذا البستان!

محمّد : نامي لأركبك...  
 أمّ حنفي : كفاية ركوب، اختر لنفسك لعبة أخرى، الله، الله... انظروا إلى الياسمين واللبّاب، انظروا إلى الحمام...  
 عثمان : أنت قبيحة كالجاموسة، ورائحتك نتنة...  
 أمّ حنفي : الله يسامحك، عرقي سال من الجري وراءكم.

عثمان : خلّينا نر البشر ولو شوية صغيرة.  
 أمّ حنفي : البشر ملأى بالعفاريات، ولذلك سدناها. عبد المنعم : كذّابة، لم تقل ماما ولا خالتي هذا...  
 أمّ حنفي : الحقيقة عندي أنا، أنا وستّي الكبيرة، كنّا نراهم رؤية العين، فانظرنا حتّى دخلوا، وألقينا على فوهة البشر الغطاء الخشبيّ وأثقلناه بالحجارة. لا تذكروا البشر، وقولوا معي: «باسم الله الرحمن الرحيم»...

محمّد : نامي لأركبك.  
 أمّ حنفي : انظروا إلى اللبّاب والياسمين! ليت عندكم مثلهما، ليس في سطحكم إلّا الدجاج والخروفان اللذان تسمّونهما للعيد.

أحمد : ماء... ماء... ماء...  
 عبد المنعم : هاتي سلّمًا لنطلع عليها!  
 أمّ حنفي : يا ساتر يا ربّ، الولد لخاله، العبوا في الأرض لا في السماء.

رضوان : في شرفة بيتنا وفي السلامك أصص ورد أحمر وأبيض وقرنفل...  
 عثمان : عندنا خروفان ودجاج...  
 أحمد : ماء... ماء... ماء...  
 عبد المنعم : أنا في الكتاب، من منكم في الكتاب؟  
 رضوان : أنا حافظ «الحمد».  
 عبد المنعم : الحمد، كُبة لمه!  
 رضوان : إخّص، أنت كافر.  
 عبد المنعم : هذا ما يتغنّى به العريف في الطريق...  
 نعيمة : قلنا ألف مرة لا تردّد كلامه...  
 عبد المنعم : (لرضوان) لماذا لا تعيش مع باباك خالي ياسين؟  
 رضوان : أنا عند ماما.  
 أحمد : أين ماما؟  
 رضوان : عند جدّي الآخر!  
 عثمان : أين جدّك الآخر؟  
 رضوان : في الجيالّة!... في بيت كبير وسلامك.  
 عبد المنعم : لماذا أمك في بيت، وأبوك في بيت؟  
 رضوان : ماما عند جدّي هناك، وبابا عند جدّي هنا...  
 عثمان : لمّ لا يوجدان في بيت واحد مثل بابا وماما...؟  
 رضوان : القسمة والنصيب، هذا ما تقوله جدّي الأخرى!  
 أمّ حنفي : قرّعوه حتّى أقرّ، لا حول ولا قوّة إلّا بالله! ارحموا والعبوا...  
 أحمد : نامي لأركبك...  
 رضوان : انظروا إلى العصفورة فوق عود اللبّاب...  
 عبد المنعم : هاتوا سلّمًا، وأنا أقبض عليها...  
 أحمد : لا ترفع صوتك، إنّها تنظر إلينا وتسمع كلّ كلمة نقولها...  
 نعيمة : ما أجملها، عرفتها! هي العصفورة التي رأيتها أمس فوق جبل الغسيل عندنا...  
 أحمد : الأخرى في السكّريّة، فكيف عرفت الطريق إلى بيت جدّي...؟

عبد المنعم : يا حمار، العصفورة تطير من السَّكْرِيَّة إلى هنا وتعود قبل المساء .

عثمان : أهلها هناك وأقاربها هنا . . .

محمَّد : نامي لأركبك، أو أبكي حتى تسمعي ماما . . .

نعيمَة . . . بلعب الحجلة؟

عبد المنعم : بل نتسابق . . .

أم حنفي : من غير شجار بين السابق والمسبق .

عبد المنعم : اسكتي يا جاموسة . . .

عثمان : ناع ع . . . ناع ع .

أحمد : ماء . . . ماء . . . ماء .

محمَّد : سأدخل السباق راكبًا، نامي لأركبك . . .

عبد المنعم : واحد . . . اثنان . . . ثلاثة . . .

احتفى السيّد أحمد عبد الجواد بالمدعوّين فأخلى نفسه لهم النصف الأوّل من النهار كلّهُ، ثمّ توسّط مائدة الوليمة التي ضمّت: إبراهيم شوكت، و خليل شوكت، وياسين وكمال. ثمّ دعا بالرجلين إلى حجرة نومه في جلسة عائليّة، فمضوا يتسامرون في جوّ من المودّة والمؤانسة وإن لم يخلُ من تحفّظ من ناحية السيّد وتآذّب من ناحية صهره، مصدره ما يلتزمه الرجل في المعاملة مع آل بيته حتّى الوارد من الخارج منهم على رغم المقاربة في السنّ بينه وبين إبراهيم شوكت زوج خديجة .

ودعي الأطفال إلى حجرة الجدّ ليقبّلوا يده ويتلقّوا هداياه النفيسة من الشيكولاطة والملمن، فتقدّموا إليه بترتيب أسنانهم: نعيمة بنت عائشة أوّلًا، فرضوان بن ياسين، فعبد المنعم بن خديجة، فعثمان بن عائشة، فأحمد بن خديجة، ثمّ محمّد بن عائشة. راعى السيّد المساواة المطلقة في توزيع عطفه وابتساماته على أحفاده، منتهزًا فرصة خلوّ الحجرة من مراقبين - عدا إبراهيم و خليل - ليتخفّف بعض الشيء من تحفّظه الماثور، فهزّ الأيدي الصغيرة بترحاب، وقرص الخدود المورّدة بحنان، ولثم الجباه وهو يداعب هذا ويمازح ذاك، وظلّ مراعيًا المساواة حريصًا عليها حتّى مع رضوان أخطى الصغار بحبّه .

كان من عادته إذا خلا إلى أحد من أحفاده أن يتفحصه بشغف، مدفوعًا بعواطف أصيلة كالأبوة وأخرى دخيلة كحبّ الاستطلاع. وكان يجد لذة كبيرة في تتبّع ملامح الأجداد والآباء والأمّهات في السلالات الجديدة الصاخبة التي لم تكد تلقّن احترامه فضلًا عن خافته، وقد أسره جمال نعيمة ذات الشعر الذهبيّ والعينين الزرقاوين التي فاقت أمّها نفسها حسنًا ورواءً، فالتحفت الأسرة بقسمات غنيّة من الحسن بعضها مشتقّ من أمّها والبعض الآخر متوارث عن آل شوكت، وعلى هذا المنهج من الجمال سار شقيقاها عثمان ومحمّد مع ميل واضح إلى ملامح الأب - خليل شوكت - خاصّة في عينيه الواسعتين البارزتين ذواتي النظرة الهادئة الخاملة، وعلى خلاف هذا تبدّى عبد المنعم وأحمد ابنا خديجة، فبشرتهما وإن تكن شوكتيّة، إلّا أنّ عينيها هما عينا الأمّ أو الجدّة الصغيرتان الجميلتان، أمّا الأنف فيتندر بمشابهة أنف الأمّ أو الجدّ على الأصحّ، أمّا رضوان فما كان له إلّا أن يكون جميلًا حظي بعيني أبيه أو عيني هنيّة السوداوين المكحولتين وبشرة آل عفت العاجيّة، وأنف ياسين المستقيم. أجل تفرقت الملاحاة في وجهه أسرة. مضى زمن طويل مذ كان يتعلّق به أطفاله بلا خوف من ناحيتهم ولا تكلف من ناحيته كما يفعل الأطفال اليوم، يا لها من أيام! ويا لها من ذكريات! ياسين وخديجة وفهمي ثمّ عائشة وكمال، ما منهم إلّا وقد دغدغه تحت إبطه وأركبه منكبيه، ترى هل يتذكرون؟ لقد كاد هو ينسى، على أنّ نعيمة تبدو رغم ابتسامتها الوضيئة متحلّية بالحياء والأدب، أمّا أحمد فلم يكفّ عن المطالبة بالمزيد من الشيكولاطة والملمن، على حين وقف عثمان ينتظر نتيجة المطالبة بفارغ الصبر، وأمّا محمّد فهول إلى الساعة الذهبيّة والخاتم الماسيّ في جوف الطربوش وكبشهما فما استخلصهما خليل شوكت من يده إلّا بالقوّة. ومّرت لحظات توزّع السيّد الارتباك والحيرة، فلم يدر ماذا يفعل وهو محاط، بل مهذّب من كلّ جانب بالأحفاد الأعزّاء . . . وقبيل العصر غادر السيّد البيت إلى الدكان، وبذاهبه تمتعت الصالة - حيث اجتمع بقيّة

أفراد الأسرة - بكامل حرّيتها. ورثت صالة الدور الأعلى أختها بالدور المهجور، ففرشت بحصيرها وكنباتها، وعلّق بسقفها الفانوس الكبير، فغدّت مجلساً ومقهى لمن تبقّى من الأسرة في البيت القديم. وقد حافظت طوال اليوم - رغم امتلائها - على هدوئها، حتى إذا لم يعد يبقى من السيّد إلا ما سطع في الجوّ من عرف الكولونيا التي تغطّيب بها، استردّت أنفاسها، فتعالت بها الأصوات والضحكات، ودبّت فيها الحركة، واتّخذ المجلس هيئته كالعهد القديم، فتربّعت أمانة على كنية أمام أدوات القهوة، وعلى الأخرى المواجهة لها جلست خديجة وعائشة، وعلى ثالثة جانبية قعد ياسين وكمال، وما لبث أن انضمّ إليهم إبراهيم شوكت، وخليل شوكت - بعد ذهاب السيّد - فجلس إبراهيم إلى يمين حماته، وخليل إلى يسارها. لم يكذب إبراهيم يستقرّ على مجلسه، حتى خاطب أمانة قائلاً بلهجة متودّدة:

- بارك الله في اليد التي قدّمت لنا أشهى الطعام وألذّه (ثمّ وهو يردّد عينيّه البارزتين الخاملتين في الجلوس كأنهما يلقي محاضرة) الطواجين... الطواجين!... معجزة هذا البيت، ليس الطاجين بما يحويه من المأكول - وإن لدّ وطاب - ولكن بتسييحه قبل كلّ شيء. التسييك هو كلّ شيء. هو الصنعة، وهو المعجزة، دلوّني على طواجين كالتّي التهمناها اليوم!...

كانت خديجة تتابع كلامه باهتمام، وهي بين التأييد له اعترافاً بمهارة أمّها والاحتجاج عليه لتجاهله إيّاها، فلمّا أمسك كي يهين للمنصّتين فرصة للإقرار برأيه، لم تتمالك من أن تقول:

- هذا حكم مسلّم به وليس في حاجة إلى شهادة شاهد، غير أنّي أذكّر - وأحبّ أن أفكر أيضاً - بأنك ملأت بطنك في بيتك مراراً من طواجين لا تقلّ صنعة عن طواجين اليوم!

ارتسمت ابتسامة - ذات معنى - على وجوه عائشة وياسين وكمال، وبدا على الأمّ أنّها تغالب حياءها، لتقول كلمة تجمع بين الشكر لإبراهيم وإرضاء أفراد الأسرة - بكامل حرّيتها. ولكنّ خليل شوكت بادر قائلاً:

- صدقت خديجة هانم، إنّ لطواجينها فضلاً علينا جميعاً، لا يمكن أن تنسى ذلك يا أخي... فردّد إبراهيم نظره بين زوجته وحماته، وهو يتبسّم كالمتنذر، ثمّ قال:

- معاذ الله أن أنكر هذا الفضل، ولكنّي بصدد التحدّث عن المعلّمة الكبيرة (ثمّ وهو يضحك) وعلى أيّ حال فانا أنوّه بفضل والدتك لا والدتي أنا! وانتظر حتى خفّت أصوات الضحك التي أثارها قوله الأخير، ثمّ واصل تقرّظه مُتلفّناً نحو الأمّ، وهو يقول:

- نعود إلى الطواجين، ولكنّ لم نقصر كلامنا على الطواجين!؟ الحقّ أنّ الصنوف الأخرى لم تكن دون الطواجين لذّة وفخامة، خذوا مثلاً: البطاطس المحشوّة، الملوخية، الأرزّ المفلفل بالكبد والقوانص، المحاشي المتنوّعة، والله أكبر على الدجاج ولحمه المكتنز... خبّرني أيّ غذاء تطعمينه يا حماتي؟ أجابته خديجة في تهكّم:

- من الطواجين تطعمه!

- سأقفر طويلاً عن إقرارى بالفضل لأهله، ولكنّ الله غفور رحيم، مهما يكن من أمر فلندعُ الله أن يكثر من أيّام الأفراح... مبارك عليك البكالوريا يا سيّ كمال، وعقبى للدبلوم إن شاء الله... قالت أمانة بامتنان، وكانت مورّدة الوجه من الحياء والسرور:

- ربّنا يفرّحك بعبد النعم وأحمد، ويفرّح سيّ خليل بنعيمة وعثمان ومحمّد، (ثمّ ملتفتة إلى ياسين) ويفرّح ياسين برضوان... كان كمال يسترقّ النظر إلى إبراهيم حيناً وإلى خليل آخر، وعلى شفّيته ابتسامة ثابتة يداري بها عادة مله من الحديث، الذي تنعدم متعته وتقضي اللياقة بالاشتراك فيه ولو بحسن الإنصات. إنّ الرجل يحدث عن الطعام وكأنّه لم يزل على المائدة سكران بشهوة الأكل. الطعام... الطعام... الطعام... لم استحقّ هذا التقديس كلّهُ؟ هذان الرجلان العجيبان

لا يبدو أنّها يتغيّران مع الزمن، كأنّهما بنأى عن تيّاره. وبينما عاد خليل إلى توكيد النّاء، أنّجّته عينا إبراهيم اليوم هو إبراهيم الأمس، لم يكّد يطرأ عليه من إشرافه على الخمسين إلّا أثر غير ملحوظ تحت العينين أو فيها حول طرفيّ الفم، ونظرة رزينة ثقيلة لم تكسبه وقارًا بقدر ما أكسبته مزيدًا من الخمول، ولكنّ شعرة واحدة - سواء في رأسه أم في شاربه المفتول - لم تشب، وبدانته لم تزل مدججة قويّة لم يعثرها ترهل، إلى أنّ التشابه الذي جمع بين الشقيقتين إلّا في أغراض لا يعتدّ بها: كالاختلاف بين شعر خليل السبط المرسل وشعر إبراهيم القصير المحلوق، وتماثلهما في الصّحة والنظرة الخاملة كان ممّا يبعث على الضحك والازدراء حقًا. وكنا يرتديان بذلتين من الحرير الأبيض وقد نزع كلّ منهما جاكته فلاح قميصه الحريريّ والأزرار الذهبيّة تلمع في عرا أكمّاه. مظهر ينمّ على وجاهة هي كلّ ما هنالك. في بحر السنوات السبع التي وصلت بين الأسرتين، كان يخلو إلى هذا أو ذاك منها كثيرًا أو قليلًا، ولكنّ حديثًا واحدًا ذا طعم لم يجرّ بينهم!... فيمّ الانتقاد؟ ولولا ذاك ما كان هذا الانسجام الموفّق بينها وبين شقيقته! إنّ الازدراء - من حسن الحظّ - لا يناقض العطف والإيثار بالخير والمودة. أوه... يبدو أنّ حديث الطواجن لم ينته بعد، ها هو سيّ خليل شوكت يهتّب ليلقي كلمته:

- لم يَعدْ أخي إبراهيم الحقّ فيما قال، يَدّ لا عدمنها، ومائدة جديرة بأن ينادي بها المنادون... كانت أمينة في أعماقها تحبّ النّاء، وكثيرًا ما تعاني مرارة الحرمان منه، لشعورها بالجهد الدائب الذي تبدّله عن حبّ وطوعية في خدمة البيت وآله، وكثيرًا ما نهمت إلى سماع كلمة طيّبة من السيّد، ولكنّ السيّد لم يكن من عادته أن يجود بالثناء عليها وإذا جاد ففي اقتضاب وفي أحوال نادرة لا تكاد تذكر، لذلك وجدت نفسها بين إبراهيم و خليل في موقف عجب غير مألوف ملأها سرورًا حقًا، ولكنّه هبّج لحدّ الارتباك حيّاهها، فقالت تداري مشاعرها:

- لا تبالغ يا سيّ خليل، أنت لك أمّ من يالّف طعامها يزهّد في أيّ طعام سواه!... لا يبدو أنّها يتغيّران مع الزمن، كأنّهما بنأى عن تيّاره. وبينما عاد خليل إلى توكيد النّاء، أنّجّته عينا إبراهيم اليوم هو إبراهيم الأمس، لم يكّد يطرأ عليه من إشرافه على الخمسين إلّا أثر غير ملحوظ تحت العينين أو فيها حول طرفيّ الفم، ونظرة رزينة ثقيلة لم تكسبه وقارًا بقدر ما أكسبته مزيدًا من الخمول، ولكنّ شعرة واحدة - سواء في رأسه أم في شاربه المفتول - لم تشب، وبدانته لم تزل مدججة قويّة لم يعثرها ترهل، إلى أنّ التشابه الذي جمع بين الشقيقتين إلّا في أغراض لا يعتدّ بها: كالاختلاف بين شعر خليل السبط المرسل وشعر إبراهيم القصير المحلوق، وتماثلهما في الصّحة والنظرة الخاملة كان ممّا يبعث على الضحك والازدراء حقًا. وكنا يرتديان بذلتين من الحرير الأبيض وقد نزع كلّ منهما جاكته فلاح قميصه الحريريّ والأزرار الذهبيّة تلمع في عرا أكمّاه. مظهر ينمّ على وجاهة هي كلّ ما هنالك. في بحر السنوات السبع التي وصلت بين الأسرتين، كان يخلو إلى هذا أو ذاك منها كثيرًا أو قليلًا، ولكنّ حديثًا واحدًا ذا طعم لم يجرّ بينهم!... فيمّ الانتقاد؟ ولولا ذاك ما كان هذا الانسجام الموفّق بينها وبين شقيقته! إنّ الازدراء - من حسن الحظّ - لا يناقض العطف والإيثار بالخير والمودة. أوه... يبدو أنّ حديث الطواجن لم ينته بعد، ها هو سيّ خليل شوكت يهتّب ليلقي كلمته:

- لم يَعدْ أخي إبراهيم الحقّ فيما قال، يَدّ لا عدمنها، ومائدة جديرة بأن ينادي بها المنادون... كانت أمينة في أعماقها تحبّ النّاء، وكثيرًا ما تعاني مرارة الحرمان منه، لشعورها بالجهد الدائب الذي تبدّله عن حبّ وطوعية في خدمة البيت وآله، وكثيرًا ما نهمت إلى سماع كلمة طيّبة من السيّد، ولكنّ السيّد لم يكن من عادته أن يجود بالثناء عليها وإذا جاد ففي اقتضاب وفي أحوال نادرة لا تكاد تذكر، لذلك وجدت نفسها بين إبراهيم و خليل في موقف عجب غير مألوف ملأها سرورًا حقًا، ولكنّه هبّج لحدّ الارتباك حيّاهها، فقالت تداري مشاعرها:

- لا تبالغ يا سيّ خليل، أنت لك أمّ من يالّف طعامها يزهّد في أيّ طعام سواه!... لا يبدو أنّها يتغيّران مع الزمن، كأنّهما بنأى عن تيّاره. وبينما عاد خليل إلى توكيد النّاء، أنّجّته عينا إبراهيم اليوم هو إبراهيم الأمس، لم يكّد يطرأ عليه من إشرافه على الخمسين إلّا أثر غير ملحوظ تحت العينين أو فيها حول طرفيّ الفم، ونظرة رزينة ثقيلة لم تكسبه وقارًا بقدر ما أكسبته مزيدًا من الخمول، ولكنّ شعرة واحدة - سواء في رأسه أم في شاربه المفتول - لم تشب، وبدانته لم تزل مدججة قويّة لم يعثرها ترهل، إلى أنّ التشابه الذي جمع بين الشقيقتين إلّا في أغراض لا يعتدّ بها: كالاختلاف بين شعر خليل السبط المرسل وشعر إبراهيم القصير المحلوق، وتماثلهما في الصّحة والنظرة الخاملة كان ممّا يبعث على الضحك والازدراء حقًا. وكنا يرتديان بذلتين من الحرير الأبيض وقد نزع كلّ منهما جاكته فلاح قميصه الحريريّ والأزرار الذهبيّة تلمع في عرا أكمّاه. مظهر ينمّ على وجاهة هي كلّ ما هنالك. في بحر السنوات السبع التي وصلت بين الأسرتين، كان يخلو إلى هذا أو ذاك منها كثيرًا أو قليلًا، ولكنّ حديثًا واحدًا ذا طعم لم يجرّ بينهم!... فيمّ الانتقاد؟ ولولا ذاك ما كان هذا الانسجام الموفّق بينها وبين شقيقته! إنّ الازدراء - من حسن الحظّ - لا يناقض العطف والإيثار بالخير والمودة. أوه... يبدو أنّ حديث الطواجن لم ينته بعد، ها هو سيّ خليل شوكت يهتّب ليلقي كلمته:

فوقفت عند التصميم على نيل ما تراه حقاً لها دون اللجوء إلى حدة لسانها الماثورة، لسابق منزلة العجوز من ناحية، ولخوفها من أن تشكوها إلى أبيها من ناحية أخرى، ثم هذاها مكرها إلى أن تحرض عائشة على العصيان، ولكنها وجدت من الفتاة الكسول إعراضاً وجبناً، لا حباً في الحياة ولكن إثارة للراحة والدعة اللتين تمتعت بهما - بغير حساب - في ظل الحضانة الإجبارية التي فرضتها حماها على الجميع، فصبت غضبها عليها ورمتها بالضعف والتنبلة، ثم ركبها العناد فواصلت «الجهاد» بلا توانٍ أو تردد حتى ضاق صدر العجوز فسلمت كارها بحق كبتها «العجورية» بالاستقلال بمطبخها وهي تقول لابنها الأكبر: «أنت وشأنك. إنك رجل ضعيف لا قبل لك بتأديب زوجك، وجزاؤك الحق أن تحرم من طعامي إلى الأبد!». ظفرت خديجة ببغيها فاستردت أدوات جهازها النحاسية، وهياً لها إبراهيم المطبخ كما رسمت، ولكنها خسرت حماها وفتكت بأسباب المودة التي ربطت بينها مذ درجت في المهدي، ولم تحتل أمانة فكرة الخصام فصبرت حتى هدأت النفوس ثم سعت سعيها عند السيدة المبجلة مستعينة بإبراهيم وخليل حتى تم صلح، ولكن أي صلح كان؟... كان صلحاً لا يكاد يستقر حتى يصطدم بنقار، ثم يعقبه صلح، فنقار من جديد، وهكذا... وكل واحدة منها تلقي التبعة على الأخرى، وأمانة بينهما حائرة، وإبراهيم واقف موقف المحايد أو المتفرج، كأن الأمر لا يعنيه، فإذا رأى أن يتدخل تدخل وائياً وقنع بترديد النصيحة في هدوء بل برود غير مبالٍ بتوبيخ أمه أو عتاب زوجها، ولولا إخلاص أمانة ودماثة خلقها لسارت العجوز يشكوها إلى السيد أحمد، ولكنها عدلت عن ذلك كارها ومضت تنفس عن صدرها في أحاديث الطويلة مع كل من يلقاها من الأهل والجيران، معلنة على رؤوس الأشهاد بأن اختيارها خديجة زوجة لابنها كان أكبر غلطة ارتكبتها في حياتها وأن عليها أن تتحمل الجزاء.

قال إبراهيم معقّباً على كلام خديجة، وهو يبتسم، كأنما ليخفف بابتسامته من وقع تعقيبه: - ولكنك لم تكتف بالمطالبة بحقك، بل طعنت بلسانك ما حلا لك الطعن، هذا إذا لم تكن خائتي الذاكرة... ورفعت خديجة رأسها المعصوب بمنديل بني في تحد، وقالت وهي ترمق زوجها بنظرة تهكم وغيظ: - ولم تخونك الذاكرة؟! هل من أفكار أو مشاغل ترهقها حتى تخونك؟! ليت للناس جميعاً ذاكرة هادئة مطمئنة خالية البال كذاكرتك! لم تخنك ذاكرتك يا سي إبراهيم، ولكنها خائنتني أنا! والحق أنني لم أتعرض لمقدرة نيتك، ولم يكن لي بها شأن ولا حاجة إليها، فإني أعرف بحمد الله كافة واجباتي وأعرف كيف أؤديها على خير وجه، ولكني كرهت أن أقبع في بيتي وأن يبيثن الطعم من الخارج كنزلاء الفنادق، وفضلاً عن هذا كله فإني لم أطق - كما يحلو «لبعض الناس» - أن أمضي نهاري نائمة أو لاهية وغيري يقوم بمهام بيتي. أدركت عائشة من توهها المقصود من «بعض الناس»، فضحكت ولما تكمل خديجة كلامها، ثم قالت بلهجة لطيفة كأنما دافعها الإشفاق: - افعل ما يحلو لك ودعي الناس - أو بعض الناس - وشأنهم، لا شيء الآن يدعو إلى كدرك، فانت سيدة مستقلة - عقبى لمصر - وتعملين من طلوع الفجر إلى نزول الليل: في المطبخ، والحمام، وفوق السطح، وتعين في وقت واحد بالأثاث والدجاج والأولاد، والجارية سويدان لا تجرؤ على الاقتراب من شفتك أو حمل ابن من أبنائك، رباه... لم هذا العناء وقليل منه يغني؟! أجابت خديجة بحركة من ذقنها، وهي تغالب ابتسامة دلت على أنها وجدت في كلام عائشة ما استأنست إليه، وعند ذلك قال ياسين: - بعض الناس يُخلقون للسيادة، وبعضهم يُخلقون للعبودية... فقال خليل شوكت، وهو يبتسم كاشفاً عن ثنيته المترابطين: - خديجة هائم مثال صالح لست البيت، غير أنها

شعرت بأنحاء رأس خديجة نحوها، أو على الأقل  
فالنحافة موضة كذلك عند كثيرات... !  
فقال خديجة بتهكم:

- النحافة موضة العاجزات عن السمانة.

خفق قلب كمال عندما تناهت كلمة «النحافة» إلى  
سمعه، فوثب من باطنه إلى مخيلته صورة القامة  
الفارعة والقَد المشوق، فرقص قلبه بطرب روحاني  
وانبثقت منه النشوات، ثم احتضنته فرحة صافية نسي  
في حلمها الهادئ العميق نفسه ومكانه وزمانه. فلم  
يذكر كم فيها لبث حتى انتبه على ظل سحابة من الأسى  
تجيء كثيرًا ذيلًا لحلمه، لا كما يجيء الغريب الدخيل  
أو العنصر المتنافر، ولكنها تتسرب إلى الحلم الباهر  
كأنها خيط من نسجه أو نعمة من هارمونيته. تنفس  
تنفسًا عميقًا، ثم جال بصره الحالم في الوجوه التي  
يجبها من قديم، والتي يبدو أنها تتباهى على نحو أو  
آخر بحسنها، خاصة الوجه الأشقر الذي هام زمانًا  
باحتماء الماء من موضع شفثيه... استرجع هذه  
الذكرى في حياء - وما يشبه التأفف - ف شعر بأن أي  
نموذج من الجمال خلا النموذج المعبود خليف بأن يثير  
تعصبه وإن حظي بعطفه وحبه.

- لن أرضى عن النحافة ولو في الرجال (واصلت  
خديجة حديثها). انظروا إلى كمال ما أجدره بأن يعنى  
بزيادة وزنه، لا تظن يا بني أن طلب العلم هو كل  
شيء.

أصغى كمال إليها باسماً في استهانة وهو يتفحص  
جسمها الذي تراكم لحمه وشحمه، ووجهها الذي  
توارت بالاكتناز عيوبه، معجباً بروح السعادة والفوز  
التي تكتنفها، غير أنه لم يجد في نفسه الرغبة في مناقشة  
رأيها، أمّا ياسين، فقال بتحدٍّ وسخرية معاً:

- إذا فانت راضية عني، لا تكابري في هذا!

كان ثانياً ساقه اليمنى تحته طارحاً الأخرى على  
الأرض، وقد فتح - من الحر - طوق جلبابه، فبدت  
من فتحة فائلته الواسعة خصلات من شعر صدره  
الأسود الأثيث، فألقت عليه نظرة نافذة، ثم قالت:

- لكنك زدتها حبتين، ثم إن شحمتك وصل إلى

تتجاهل حقها من الراحة.

فقال إبراهيم شوكت مؤمناً على قوله:

- هذا رأيي بالتهايم، صارحتها به مراراً، ثم أثرت  
السكوت تفادياً من وجع الدماغ...

نظر كمال إلى أمه، وكانت غماً فنجان خليل للمرأة  
الثانية واستحضر صورة أبيه مقرونة بذكريات جبروته،  
فعلت شفثيه ابتساماً، ثم مدَّ بصره إلى إبراهيم  
مدهوشاً وهو يقول:

- كائنك نحافها!

فقال الرجل وهو يهز رأسه الكبير:

- أنا أنفادي من النكد ما وجدت سبيلاً إلى  
السلامة، وأختك تفادي من السلامة ما وجدت سبيلاً  
إلى النكد!  
هتفت خديجة:

- اسمعوا الحُكم (ثم وهي تشير إليه كالمثدِّية)  
أنت تفادي من اليقظة ما وجدت سبيلاً إلى النوم!  
فقال لها أمها، وهي تحدجها بنظرة تحذير:

- خديجة!

فربت إبراهيم على منكب حماته، قائلاً:

- عندنا من هذا كثير... ولكن اشهدي بنفسك!  
وكان ياسين يردّد بصره بين خديجة القويّة المثلثة،  
وعائشة النحيقة الرقيقة بحركة متعمّدة للفت الأنظار،  
ثم قال كالمستنكر:

- حدّثتمونا عن تعب خديجة المتصل من الفجر إلى  
الليل، فأين أثر ذلك التعب؟!... كأنها هي اللاحية  
وكان عائشة هي العاملة!...

فقال خديجة، وهي تبسط راحة يدها في وجهه  
مفرجة بين أصابعها اللحم:

- ومن شرّ حاسد إذا حسداً

ولكنّ عائشة لم ترتع لمجرى الحديث الأخير،  
فلاحت في عينيها الزرقاوين الصافيتين نظرة اعتراض،  
واندفعت للذود عن نحافتها متجاهلة الغاية الواضحة  
من ملاحظة ياسين، وهي تعاني شيئاً من الغيرة  
فقال:

- لم تعد السمانة موضة العصر (ثم مستدركة عندما

المنع، وهذا شيء آخر.

نفخ ياسين كالياس، ثم التفت إلى إبراهيم شوكت متسائلاً في إشفاق وعطف:

- خبّرني عمّا تصنع بين زوجك - وهذه حالها - وبين والدتك؟

أشعل إبراهيم سيجارة، وأخذ نفساً، ثم نفخه وهو يمتدّ بوزه مشاركاً أخاه خليل - الذي لم يكن ينزع غليونه من فيه إلا حين يتكلّم - في تعفير جو الصالة، ثم قال في عدم اكتراث:

- أذنّا من طين وأذنّا من عجين، هذا ما تعلّمته من التجربة!

فقال خديجة، مخاطبة ياسين بصوت مرتفع وشي بغيتها:

- لا دخل للتجربة في ذلك، التجربة بريئة وحياتك عندي. المسألة أنّ ربّنا أعطاه طبعاً مثل دندورمة عمّ بدر التركي، ولو تحرّكت مثدنة الحسين ما اهتزّت له شعرة...!

رفعت أمينة رأسها، فرمقت خديجة بنظرة عتاب وتحذير حتّى ابستمت الابنة وخفضت عينيها فيما يشبه الحياء، وإذا بخليل شوكت يقول في فخار لطيف:

- هذا طبع آل شوكت، وهو طبع سلطاني. أليس كذلك؟!

فقال خديجة - بلهجة ذات مغزى - وهي تضحك لتخفّف من وقع كلامها:

- من سوء حظّي يا سيّ خليل أنّ والدتك لم تتطّبع بهذا الطبع السلطاني!

فبادرتها أمينة قائلة وقد نفذ صبرها:

- حمائك لا نظير لها في النساء، سيّدة جلييلة بكلّ معنى الكلمة!

فمال رأس إبراهيم يسرة، وهو يحدج زوجه بنظرة من علّ التمتع بها عينا البارزتان، ثم قال وهو يتنهد في ظفر:

- وشهد شاهد من أهلها، الله يكرمك يا حماتي...

(ثمّ مخاطباً الجميع) يا هوه أُمّي ستّ كبيرة، وفي سنّ تستوجب الرعاية والحلم، وزوجي لا تعرف عن الحلم شيئاً...

فانبرت خديجة للدفاع عن نفسها قائلة:

- أنا لا أغضب بلا سبب، ولم يكن الغضب من طبعي في يوم من الأيام، وهاك أهلي فسلهم عمّا تشاء! ساد الصمت. كان أهلها لا يدرون ما يقولون، حتّى نذّت عن كمال ضحكة، فلفتت إليه الأنظار، فلم يتألّك أن يقول:

- أبلّة خديجة أغضب حليمة عرفتها! فتشجّع ياسين قائلاً:

- أو هي أحلم غضوب، والله أعلم...

انتظرت خديجة حتّى هدأت ثائرة الضحك التي أعقبت ذلك. ثمّ أومات إلى كمال وهي تمزّ رأسها في حسرة، قائلة:

- خاني الذي حملته على حجري أكثر ممّا حملت أحمد وعبد المنعم.

فقال كمال كالمعتذر:

- لا أظنّني أفشيت سرّاً...

وسرعان ما اتّخذت أمينة موقفاً جديداً للدفاع عن خديجة التي بدت في مركز لا تُحسد عليه، فقالت باسمّة:

- جُلّ مَنْ له الكيال...

وجارها إبراهيم شوكت في لباقة قائلاً:

- صدقت، إنّ لزوجي مزايا لا يُستهان بها، لعنة الله على الغضب الذي يصيب أوّل ما يصيب صاحبه، لا شيء في الدنيا يستحقّ في نظري الغضب! فقالت خديجة ضاحكة:

- يا بختك!... لذلك تمضي الأيام - عيني عليك

باردة - وأنت من التغيّر في حصن!

بدا على أمينة الاستياء - لأوّل مرّة - بصورة جدّيّة، فقالت في عتاب:

- ربّنا يصون له شبابه، هو وأمّثاله!

تساءل إبراهيم ضاحكاً، وهو لا يخفي سروره بدعاء حماته:

- شبابه؟!

فقال خليل شوكت يمينه، وإنّ وجه الخطاب لأمينة:

- إنَّ التاسعة والأربعين في آل شوكت تُعدُّ من مراحل الشباب!

فعادت أمينة تقول في إشفاق:

- يا بني لا تتكلَّم هكذا ودعونا من هذه السيرة...

ابتسمت خديجة لما بدا من أمِّها من إشفاق كانت هي على علم وإيمان بأسبابه وبواعثه، ذلك أنَّ الإشادة بالصحة جهراً في البيت القديم - صراحة - مكروهة، لتجاهلها «العين» وشرَّها، وهي نفسها - خديجة - لم تكن لتعالن بقوة صحة زوجها لو لم تكن قضت السنوات الست الأخيرة من حياتها بين آل شوكت، حيث لا تحظى عقائد كثيرة - كالحسد مثلاً - بإيمان عميق، وحيث يخوضون في أمور شتى بلا خوف - كبير الجرن والموت والمرض - يحول الإشفاق والحذر دون الخوض فيها في البيت القديم، إلى هذا كله، كانت العلاقة بين الزوجين أوثق مما تبدو في الظاهر، فلم يكن ثمة ما يتهذدها من قول أو فعل، كانا زوجين موفقين، يشعر كلاهما في أعماقه بأنَّه لا غنى له عن الآخر رغم شتى المآخذ، وقد كان مرض إبراهيم يوماً فرصة غريبة جَلَّتْ مكنون ما يعمر صدر خديجة من محبة ووفاء. أجل! لم يكن النقرار ليسكت بينهما، على الأقل من ناحيتها هي، فلم تكن أمُّه هدفها الوحيد، ورغم سياسة الرجل وبروده لم يُعيها أن تكتشف فيه موضعاً كلَّ يوم لانتقاد. مثل: كثرة نومه، قبوعه في البيت بلا عمل، تكبره على مجرد فكرة أن يكون له عمل في الحياة، ثرثرته التي لا تنتهي، تجاهله لما ينشب بينها وبين أمِّه من نزاع وملاحاة... حتى مرَّت أيام وأيام - على حدِّ تعبير عائشة - لم يكن لها من حديث إلا شكّه ولسعه - ولكن رغم هذا كله - أو بفضل هذا، من يدري؟! فالنقرار نفسه يقوم أحياناً بوظيفة الشطة في تهيج شهوة الطعام. ظلَّت عواطفها قوية ثابتة لا تتأثر بما يكدّر الظاهر، كما أنَّ التيارات المائية العميقة التي لا يتحوّل مجراها بفورات السطح وتشنجاته، إلى ذلك لم يسع الرجل إلا أن يقدّر نشاطها حقَّ قدره، بعد أن لس آثاره في رونق مسكنه ولذة مطعمه وأناقته وملبسه وهندمة ابنيه. فكان

يقول لها مداعباً: «الحقَّ أنَّك لقيَّة يا غجرية!» رغم رأي أمِّه في هذا النشاط الذي لم تتردد عن الجهر به في أوقات الخصام، وما أكثرها، فتقول لخديجة ساخرة: «هذه فضيلة الخدم لا الهوانم»، فتبادرها خديجة قائلة: «أنتم أناس لا عمل لكم إلا الأكل والشرب، سيّد البيت الحقيقي من يخدمه»، فتقول العجوز مواصلة تهكمها: «لَقْنُوكَ هذا الكلام في بيتك كي يخفوا عنك أنَّك لم تكوني تصلحين في نظرهم إلا للخدمة!»، فتصيح خديجة: «أنا أعلم بسبب حنقك عليّ، أعلم به منذ لم أجعل لك وزناً في بيتي»، فتصرخ العجوز: «يا ربِّ اشهد. السيّد أحمد عبد الجواد رجل طيّب، ولكنّه أنجب شيطانة، أنا أستحقّ ضرب الششب جزء اختياري لك». فتمضي خديجة وهي تغمغم، حتّى لا تتبيّن المرأة كلامها: «أنت تستحقّين ضرب الششب... لا أجادل في هذا».

نظر ياسين إلى عائشة، وقال وهو يبتسم في خبث: - ما أسعدك بنفسك يا عائشة، علاقتك حسنة مع جميع الأحزاب!

فأدركت خديجة ما وراء كلامه من التعريض بها، وقالت له وهي تهزّ كتفها متظاهرة بالاستهانة:

- وقاع يسعى بوقية بين أختين!

- أنا؟!... حسبي الله، فهو المطلع على حسن نيتي!

وهي تهزّ رأسها كالأسفة:

- لم تكن يوماً ذا نية حسنة!

وقال خليل شوكت، معلقاً على كلام ياسين:

- نحن نعيش في سلام، وشعارنا: «عش ودع غيرك يعيش»!

فضحكت خديجة حتّى بدت أسنانها اللامعة الدقيقة، وقالت بلهجة لم تحلّ من تهكم:

- بيت سي خليل بيت أفرح، لا يزال هو يلعب باوتار العود، والهانم تسمع أو تستعرض نفسها في المرأة أو تحدث هذه أو تلك من صويحباتها من النافذة أو المشربية، ونعيمة وعشيان ومحمد يلعبون بالمقاعد والوسائد، حتّى إنَّ عبد المنعم وأحمد إذا ضاقا برفايتي فرّا إلى شقة خالتهما فانضمّا إلى فرقة التخريب...!



أغلظ في عمرها كما يجدر بالأمهات!  
فتساءل ياسين بعدم اكتراث:  
- لماذا يشترط الناس أن تكون العروس أحدث سنًا  
من العريس؟

فلم يجبه أحد، حتى قالت أمينة:  
- لن يطول انتظار نعيمة للعريس المناسب!  
فعدت خديجة تقول:  
- ما أجملها يا ربّي! لم أرَ لجمالها مثيلاً...  
فتساءلت عائشة ضاحكة:  
- وأمها؟... ألم تري أمها؟  
فقطبت خديجة لتضفي على كلامها صفة الجدّة،  
وهي تقول:

- هي أجل منك يا عائشة، لن تستطيعي المكابرة  
في هذا!  
ثم ما لبثت أن عاودتها سخريتها فقالت:  
- وأنا أجل منك معاً!

«هؤلاء الناس يتحدثون عن الجمال! ماذا عرفوا من  
كنه الجمال؟ تعجبهم ألوان: بياض العاج، وسبائك  
الذهب. سلوني أنا عنه، ولن أحدثكم عن السمرة  
الصفاء والأعين السود السواجي والقامة الهيفاء  
والأناقة الباريسية. كلاً أولئك جميل، ولكنّه  
خطوط وشكول وألوان تخضع في النهاية للحواس  
والقياس. الجمال هزة في القلب جارحة وحياة في  
النفس عامرة وهيمان تسبح الروح على أثره حتى تعانق  
السموات... حدثوني عن هذا إن استطعتم...»  
- لم يلتبس نساء السكرية وخديجة هانم؟..  
ربّما كان لها مزايا - كما يشهد بذلك زوجها - ولكنّ  
الناس عامّة يستهويها الوجه الصبيح واللسان  
الحلو...!

قال ياسين ذلك كي ينكش خديجة من جديد، بعد  
أن رأى الحديث يتحوّل عنها في سلام، فرمته بنظرة  
كأنما تقول له: «تأبى أن أرحمك».

ثم قالت وهي تتنهد بصوت مسموع:  
- حسبي الله ونعم الوكيل، لم أكن أعلم أنّ لي هنا  
حياة أخرى.

تساءلت عائشة باسمّة:  
- أهذا كلّ ما ترين في بيتنا السعيد؟  
قالت خديجة بنفس اللهجة:  
- أو تغنين ونعيمة ترقص...!  
عائشة بمباهاة:  
- حسبي أنّ جميع الجارات يجيبني، وأنّ حماتي تحبّني  
كذلك...!

- لا أتصوّر أن أفتح صدري لإحدى أولئك النسوة  
الثرثارات، أمّا حماتك فتحبّ من يتملّقها ويسجد  
لها...  
- يجب أن نحبّ الناس، وما أسعد أن يحبّنا الناس  
كذلك، حقاً من القلب للقلب رسول، إنّهنّ جميعاً  
يخشينك وكثيراً ما قلن لي: «أختك لا ترحبّ بنا ولا  
تعجب من تقصّصنا!»... (ثمّ مخاطبة أمها وهي  
تضحك)... لا تزال تسمّي الناس بأسماء هزليّة،  
ثمّ تتنذّر بها في البيت، فيحفظها عبد المنعم وأحد،  
ويردّانها في الحارة بين الغلمان فتذيع!

عاود الضحك الصامت أمينة، كذلك ضحكت  
خديجة في شيء من الارتباك، كأنما طافت بها ذكريات  
بعض مواقف محرّجة، على حين راح خليل يقول في  
ابتهاج غير خاف:  
- بالجملة نحن تحت صغير، فيه العواد والمطربة  
والراقصة! حقاً لا يزال ينقصنا جماعة المنشدين  
والمرددين، ولكنّي أتوسّم في أولادي خيراً، والمسألة  
مسألة وقت!

فقال إبراهيم شوكت، موجّها الخطاب إلى أمينة:  
- أشهد أنّ بنت بنتك نعيمة راقصة بارعة!  
ضحكت أمينة حتى تورّد وجهها الشاحب، ثمّ  
قالت:

- رأيته وهي ترقص، ما أطفها!  
قالت خديجة بحماس نطق بحنانها العائليّ الماثور:  
- ما أجملها! كأنّها صورة من صور الإعلانات.  
فقال ياسين:

- ما أجملها عروساً لرضوان!  
فقالت عائشة ضاحكة:  
- ولكنّها بكرية الأسرة!... آه... لم يمكنني أن

الناس...»

قال إبراهيم شوكت، مخاطبًا كمال:

- لسنا كما تَتهَمُّنا أختك. لقد دخلت امتحان

الابتدائية سنة ١٨٩٥ ودخله خليل سنة ١٩١١، كانت الابتدائية على أيّامنا شيئًا عظيمًا على خلاف الحاصل الآن حيث لا يكاد يقنع بها أحد، لم نواصل التعليم، لأنّه لم يكن في نيتنا أن نتوقّف، أو بمعنى آخر لم نكن في حاجة إلى الوظيفة!...

أعجب كمال إعجابًا ساخرًا بقوله «دخلت امتحان الابتدائية»، ولكنّه قال مجاملًا:  
- هذا أمر طبيعي...

كيف يكون للعلم قيمة ذاتيّة عند ثورين سعيدين؟، كلاهما تجربة ثمينة علّمتني أنّه من الجائز أن أحبّ - أيّ حبّ كان - من أحتقر... أو أن أفتقّ الخير - كلّ الخير - لشخص تثير مبادئه في الحياة نفوري وتقرّزي، لا أملك إلّا أن أكره الحيوانيّة من صميم قلبي، صار ذلك حقيقة وحقًا مذ هفّت على القلب نسمة الساء!

هتف ياسين في حماس هزلي:

- لتحمي الابتدائية القديمة!

- نحن حزب الأغليّة على أيّ حال!

تضايق ياسين من إقحام خليل نفسه - وأخاه ضمنا

- على حزب الابتدائية التي لم ينالها، ولكنّه لم يجد بدًّا من التسليم، على حين راحت خديجة تقول:

- سيواصل عبد المنعم وأحمد التعليم حتّى ينالا

الدبلوم العالي، سيكونان عهدًا جديدًا في آل شوكت،

اسمعوا وقع هذين الاسمين جيّدًا: عبد المنعم إبراهيم

شوكت، أحمد إبراهيم شوكت... ألا يرنّ الاسم

رنين «سعد زغلول»؟!

فصاح إبراهيم ضاحكًا:

- من أين لك هذا الطموح كلّهُ؟

- لمّ لا؟... ألم يكن سعد باشا مجاورًا بالأزهر؟!

من الجراية إلى رئاسة الوزراء، وكلمة منه تقيم الدنيا

وتقعدها، ليس شيء على الله بكثير!

تساءل ياسين متهمكًا:

- هَلّا قنعت بأن يكونا مثل عدلي أو ثروت؟

ثمّ إذا بها تعود من جديد إلى ذلك الموضوع، ولكن بلهجة جدّية تاركة ياسين وشأنه على غير ما توقّع، فتقول:

- ليس عندي متّسع من الوقت كي أضيّعه في الزيارات، البيت والأولاد يلتهمون وقتي كلّهُ، خاصّة وأنّ زوجي لا يهتمّ لا بالبيت ولا بالأولاد!

قال إبراهيم شوكت، مدافعًا عن نفسه:

- اتّقي الله ولا تغالي شأنك في كلّ شيء، الأمر وما فيه أنّه ينبغي لمن كان له زوجة كزوجتي أن يقف موقف الدفاع من حين لآخر، الدفاع عن قطع الأثاث التي تكاد تنبري من كثرة النفّض والمسح، والدفاع عن الأولاد الذين تحمّلهم فوق ما يطيقون... آخر العهد بذلك، ما علمتم من دفعها عبد المنعم إلى الكتاب ولما يبلغ الخامسة من عمره!

قالت خديجة بفخار:

- لو اتّبع رأيكم لاستبقيته في البيت حتّى يبلغ سنّ الرشد! كان بينكم وبين العلم عداوة، كلّ يا حبيبي، سينشأ أولادي على ما نشأ عليه أخوالهم. إلّا إذاكر عبد المنعم في دروسه بنفسه!

ياسين مستنكرًا:

- أنت تذاكرينه؟!

- لمّ لا؟! كما كانت نية تذاكر كمال، أجالسه كلّ مساء فيسمعي ما يحفظونه في الكتاب.

ثمّ وهي تضحك:

- وبذلك أيضًا استذكر مبادئ القراءة والكتابة التي أخاف أن أنساها بمرور الزمن...

تورّد وجه أمينة حياء وسرورًا، فرنت إلى كمال كأنما

تستجديه إشارة إلى ذكر الليالي الخوالي فابتسم إليها

ابتسامة ذكور «لتنشئ خديجة ابنيها على ما نشأ عليه

أخوالها، ليكن منها من يتأثر كمال الذي يشقّ السبيل

إلى المدرسة العليا، ليكن منها من يشبّه ب... آه

ما أضعف الصدور المتصدّعة عن تحمّل الخفقات

الواهة، لو امتدّ به العمر لكان اليوم قاضيًا أو في

الطريق إليها، كم حدّثك عن آماله أو آمالك! أين

مضى كلّ ذلك؟ ليتّه عاش ولو فردًا من غسار

عائشة وسائر ألوان الجمال إلّا تسمية العاجز عن معرفة الاسم الحقيقي، هاك حياتي أكرّسها لمعرفتك، هل ثمة وراء ذلك ظمأ لعرفان؟».

- يا ترى ما أخبار مريم؟  
تساءلت عائشة حال خطرت صديقتها القديمة بها، فأحدث الاسم آثاراً متباينة في كثير من الجالسين، تغيّر وجه أمينة حتّى نمت أساريره عن الامتناع الشديد، تجاهل ياسين السؤال كأنه لم يسمعه متشاغلاً بتفحص أظافره، وردت رأس كمال جملة من ذكريات هزّت نفسه هزّاً، أمّا خديجة فأجابتها بلهجة باردة:

- أيّ أخبار جديدة تتوقّعين؟ طلّقت وعادت إلى بيتها!

انتهت عائشة - بعد فوات الفرصة - إلى أنّها انزلت سهواً إلى ورطة، وأنّها أساءت إلى أمّها بهفوة لسان. ذلك أنّ أمّها أمنت منذ عهد بعيد بأنّ مريم وأمّ مريم لم تصدقا في حزنها على فهمي، إن لم تكونا شمتتا بهم من أجل ذلك، لما سبق من معارضة السيّد في خطبة مريم للفقيد. وكانت خديجة البادئة بترديد ذلك الظنّ، فتابعها الأمّ عليه بلا تردّد أو تفكير، وسرعان ما تغيّرت عواطفهما نحو جاريتها القديمة حتّى أوحى ذلك بالتنگر الفالطعية.

قالت عائشة بارتباك، محاولة الاعتذار عمّا بدر منها:  
- لا أدري ماذا دعاني للسؤال عنها؟  
فقال أمينة بانفعال ظاهر:

- ما ينبغي لك أن تفكر في فيها.  
كانت عائشة قد أعلنت شكّها - عند ذلك التاريخ - في واقعة التهمة التي ألصقت بصديقتها، معتلة بأنّ الخطبة وما دار حولها بقي طي الكتمان، فلم يتناه نبؤه إلى بيت مريم في حينه، ممّا ينفي على الفتاة وأهلها دواعي الشائنة... ولكنّ أمّها لم تر رأيها محتجة بأنّ مسألة خطبة كهذه المسألة ممّا يتعدّر منع تسرّب خبرها إلى أصحاب الشأن فيها، فلم تلبث عائشة وراء رأيها طويلاً خشية أن تُتهم بمحاباة مريم أو بفنور حماسها لذكرى شقيقها، لكنّها بإزاء انفعال أمّها، وجدت

فصاحت كالمستعيزة بالله:  
- الخونة! لن يكونا من الذين يهتف الناس بسقوطهم ليل نهار!

أخرج إبراهيم من جيب بنطلونه منديلاً، ومسح به وجهه الذي زادت حمرة عمقا بحرارة الجوّ ونضح عرقاً بما يشرب من ماء مثلوج وقهوة ساخنة، ثمّ قال وهو آخذ في تحفيفه:

- لو أنّ لشدة الأمّهات فضلاً في خلق العظماء، فأبشري من الآن بما ينتظر ابنك من مجد كبير!  
- تريدني على أن أتركها وشأنها؟  
قالت عائشة برقة:

- لا أذكر أنّ نينة انتهرت أحداً منّا فضلاً عن ضربه، ألا تذكّرين؟  
فقال خديجة كالأسفة:

- لم تلجأ نينة إلى الشدة، لأنّ بابا كان هناك! كان ذكره كافياً للإلزام كلّ حدّه، أمّا عندي، أو عندك فالحال من بعضه، فالأب غير موجود إلّا بالاسم (اضطرت أن تضحك) ما عسى أن أفعل والحال كذلك؟ إذا كان الأب أمّا، فعلى الأمّ أن تكون أباً...!

ياسين مبتهجا:  
- يقيني أنّك نجحت في أبوتك! أنت أب... هذا ما شعرت به طويلاً، ولكن كانت تنقصني معرفته!  
فتظاهرت بالرضى قائلة:  
- أشكرك يا بمة كثر...

«خديجة وعائشة، صورتان متعارضتان... تأمل جيّداً، أيّهما تظنّ الأجدر بأن تكون معبودتك على مثالها؟... أستغفر الله! معبودتي على غير مثال، لا أتصوّرها ربّة بيت. ما أبعد هذا عن التصوّر! معبودته في ثياب البيت تنهه طفلاً أو ترعى مطبخاً؟! يا للفرع ويا للثقرز، بل لاهية أو سادرة أو رافلة في حلّة باهرة في حديقة أو سيّارة أو ملهى، ملاك في زيارة طارئة سعيدة للعالم، جنس مفرد غير سائر الأجناس لا يعرفه إلّا قلبي، لا يجمعها وهؤلاء النسوة إلّا تسمية العاجز عن معرفة الاسم الحقيقي، لا يجمع جمالها وجمال

نفسها مسافة إلى تلطيف وقع هفوتها، فقالت :  
 - لا يدري بالحقيقة يا نينة إلا الله . . . لعلها بريئة  
 مما رميناها به .  
 فاشتدّ امتعاض أمينة على خلاف ما توقّعت عائشة ،  
 حتّى لاحت في وجهها بواذر غضب بدت غريبة عنها لما  
 عُرف عنها من حلم وهذوء، وقالت بصوت متهدّج :  
 - لا تحدّثيني عن مريم يا عائشة .  
 وصاحت خديجة مشاركة أمّها في عواطفها :  
 - قطعت مريم وسيرتها !

فابتسمت عائشة في ارتباك دون أن تنبس . وقد  
 لبث ياسين متشاعلاً بأظافره حتّى انتهى ذاك الحديث  
 الحامي، وأوشك مرّة أن يشترك فيه متشجعاً بقول  
 عائشة «لا يدري بالحقيقة يا نينة إلا الله . . .»، ولكنّ  
 اندفاع أمينة إلى الردّ عليها بذاك الصوت المتهدّج غير  
 المعهود أسكته . أجل أسكته وانطلق لسانه باطنياً  
 بالشكر على نعمة السكوت . وكان كمال يتابع الحديث  
 باهتمام وإن لم يبدُ أثره على وجهه، وقد أكسبه حمل  
 الحبّ عهداً طويلاً - في ظروف حسّاسة غير مواتية -  
 قدرة على التمثيل تحكّم بها في كتمان عواطفه ومطالعة  
 الناس - إن دعت الضرورة - بمظهر على نقيض مخبره،  
 فذكر ما سمع قديماً من «شبهة» آل مريم، ومع أنّه لم  
 يأخذ التهمة مأخذ الجدّ إلا أنّه تذكّر عهد الرسالة  
 السريّة التي ذهب بها إلى مريم والردّ الذي عاد به إلى  
 فهمي، ذلك سرّ قديم صانه ولم يزل مستمسكاً بصونه  
 رعاية لعهد أخيه واحتراماً لرغبته، وقد لذّ له أن  
 يعجب كيف لم يفقه معنى الرسالة التي حملها إلّا  
 أخيراً، حين انبثقت معانيها في نفسه خلقاً جديداً . . .  
 كان - على حدّ تعبيره - حجراً يحمل نقوشاً مبهمّة حتّى  
 جاء الحبّ فحلّ رموزها، ولم يفته أن يلاحظ غضب  
 أمّه، وهو ظاهرة جديدة في حياتها لم تكن تعرفها قبل  
 العهد المشوم، لم تعد كما عهد، أجل لم تتغيّر تغيّراً  
 خطيراً أو دائماً ولكنّها غدت عرضة بين الحين والحين  
 لنوبات لم تكن تطرأ عليها ولم تكن إذا طرأت تستسلم  
 لها، ما عسى أن يقول في ذلك؟ إنّ قلب الأمّ الجريح  
 الذي لا يعرف عنه إلا شذرات وقع عليها ضمن

مطالعائه، شدّ ما يتألم لها، ثمّ ما وراء عائشة وخديجة؟  
 هل يمكن أن تُرمى عائشة ببرود نحو ذكرى فهمي؟ لا  
 يتصوّر هذا ولا يطيقه، إنّها امرأة سليمة الطويّة وفي  
 قلبها متّسع للصدّاقة والمودّة، تميل فيما يبدو - ولها  
 عذرها - إلى تربة مريم، ولعلّها تحنّ إلى عهد هذا  
 القلب المفتوح للناس جميعاً، أمّا خديجة فقد ازدردتها  
 الحياة الزوجيّة، لم تعد إلّا أمّاً وربّة بيت، لا حاجة بها  
 إلى مريم أو غيرها، لم يبق لها من ماضيها إلّا عواطفها  
 الثابتة نحو أسرتها، نحو أمّها خاصّة، فهي تدور حيث  
 تدور، ما أعجب هذا كلّهُ !

- وأنت يا سي ياسين إلّا ما تبقى أعزب؟  
 وجّه إبراهيم لهذا السؤال إلى ياسين، مدفوعاً برغبة  
 صادقة في تنقية الجوّ ممّا شابهُ، فأجابه ياسين مازحاً :  
 - غادري الشباب وقضي الأمرا!  
 فقال خليل شوكت بلهجة جدّيّة، دلّت على أنّه لم  
 يفظن إلى ما في قول ياسين من مزاح :  
 - لقد تزوّجت وأنا في مثل سنّك تقريباً، ألسنت في  
 الثامنة والعشرين؟  
 فتضايقت خديجة من ذكر سنّ ياسين الذي كشف  
 بطريقة غير مباشرة عن سنّها، فخاطبت ياسين قائلة  
 بلهجة حادّة :  
 - هلّا تزوّجت وأرحت الناس من حديث  
 عزوبيّتك؟  
 فقال ياسين رامياً - قبل كلّ شيء - إلى التودّد إلى  
 أمينة :

- مرّت بنا أعوام أنست الإنسان رغائبه!  
 ارتدّ رأس خديجة إلى الورا، كأنّها دفعت قبضة يد،  
 ثمّ رمته بنظرة كأنّها تقول «غلبتني يا شيطان»، ثمّ  
 قالت وهي تتنهد :  
 - آه منك! قل إنّ الزواج لم يعد يروقك وهو  
 الأصديق!  
 فقالت أمينة ممثّنة لتودّده :

- ياسين رجل طيّب، والرجل الطيّب لا يمتنع عن  
 الزواج إلّا مضطراً، الحقّ أنّ لك أن تفكّر في استكمال  
 دينك . . .

باب النصر وهي قرية من بيت جدك، فخذها ولا تتشاجر!

فقال رضوان، وهو يهز رأسه بإباء:

- فيها أموات لا كنوز، فليأخذها هوا

عند ذاك علا صوت عائشة، وهي تقول برجاء وإغراء:

- صلّوا على النبي، أمامكم فرصة نادرة كي تسمعوا نعيمة وهي تغني، ما رأيكم في هذا الاقتراح؟...

فجاءها الاستحسان والتشجيع من أركان الصالة جميعاً، حتّى رفع خليل نعيمة بين يديه ووضعها على حجره، وهو يقول لها «أسمعي هذا الجمهور صوتك. الله... الله... إياك والخلجل، أنا لا أحبّ الخلجل»، ولكنّ نعيمة غلب عليها الخلجل، فدفنت وجهها في حجر أبيها حتّى لم يعد يبدو منه إلّا هالة من نضار الذهب، وحانت من عائشة التفاتة، فرأت عمّد وهو يحاول عبثاً أن ينزع الشامة من خدّ جدّته، وقامت إليه وعادت به إلى مجلسها رغم ممانعته، ثمّ واصلت تشجيع نعيمة على الغناء، وألحّ معها خليل حتّى همست الصغيرة في أذن أبيها بأنّها لن تغني إلّا إذا توارت عن الأنظار وراء ظهره، فسمح لها بما أرادت، فزحفت على أربع حتّى لبدت بين ظهره ومسند الكنية... وعند ذاك شمل الصالة سكون بابيم مترقب، وامتدّت فترة السكوت فأوشك خليل أن يفقد صبره، ولكنّ صوتاً رقيقاً لطيفاً بدأ يتكلّم فيها يشبه الهمس، ثمّ أخذ يتشجّع رويداً رويداً، حتّى سرت في نبراته الحرارة فعلاً مغنّياً:

حوّد من هنا وتعال عندنا يا اللي أنا وانت نحبّ بعضنا وراحت الأيدي الصغيرة تصفّق على إيقاعه.

- ٤ -

- آن لك أن تخبرني عن المدرسة التي تنسوي الالتحاق بها... .

كان السيّد أحمد عبد الجواد متربّعاً على الكنية

يا طالما فكّر في استكمال دينه، لا ليجرب حظّه من جديد فحسب ولكن رغبة في ردّ الإهانة التي لحقت به يوم اضطرّ - بدافع من أبيه - إلى تطبيق زينب إنفاذاً «المشيئة» أبيها محمّد عفت! ثمّ كان مصرع فهمي فصرفه عن التفكير في الزواج حتّى كاد يآلف هذه الحياة الطليقة ويعتادها، غير أنّه قال لأميّة، وكان يؤمن بما يقول:

- لا بدّ ممّا ليس منه بدّ، وكلّ شيء رهن بوقته... . قطع عليهم أفكارهم بغتة ضجّة وصياح وضوضاء جاءت من ناحية السّلم، مختلطة بوقع أقدام متدافعة، فالتجّعت الأبصار متسائلة نحو باب السّلم، وما هي إلّا لحظة حتّى ظهرت أمّ حنفي على عتبة الباب عابسة لاهثة، وهي تصيح:

- الأولاد يا ستي، سي عبد المنعم وسي رضوان متشابكان، رموني بالحصى وأنا أخلّص بينهما... .

قام ياسين وخديجة، فهرعا إلى الباب، ثمّ نفذا إلى السّلم، ومضت دقيقة أو دقيقتان عادا بعدها، ياسين قابضاً على يد رضوان، وخديجة دافعة أمامها عبد المنعم وهي تلكمه برحمة في ظهره، ثمّ تابعت البقيّة مهلّلة، فجسّرت نعيمة إلى أبيها خليل، وعثمان إلى عائشة، ومحمّد إلى جدّته أمنيّة، وأحمد إلى أبيه إبراهيم، ثمّ جعلت خديجة تنتهر عبد المنعم وتنذره بأنّه لن يرى بيت جدّه مرّة أخرى، حتّى صاح بصوت بالّ، وهو يشير متهمّاً إلى رضوان الذي جلس بين أبيه وكمال:

- قال إنهم أغنى منّا... .

فصاح رضوان محتجّاً:

- هو الذي قال لي إنهم أغنى منّا، وقال أيضاً: إنهم يملكون بؤابة المتويّ بكنوزها!

فطّيب ياسين خاطره، وهو يقول ضاحكاً:

- اعذره يا بنيّ، إنّه مزّاع مثل أمّه... !

فقالّت خديجة لرضوان، وهي لا تتمالك نفسها من الضحك:

- تتشاجران على بؤابة المتويّ؟ عندك يا سيّدي

بحجرة نومه، على حين جلس كمال على طرفها المواجه للباب شابكاً ذراعيه على حجره يكتنفه الأدب والطاعة. ود السيد لو يبيح الفتى قائلاً: «الرأي رأيك يا أبي». بيد أنه كان مسلماً بأن اختيار المدرسة ليس من الأمور التي يدعي لنفسه فيها حقاً مطلقاً، وأن موافقة الابن عامل جوهري في الاختيار، إلى أن مدى علمه بالموضوع كله كان محدوداً جداً، وقد استمد أكثره مما يثار أحياناً في بعض مجالسه بين أصحابه من الموظفين والمحامين الذين أجمعوا على الإقرار بحق الابن في اختيار نوع دراسته تفضيلاً من الإخفاق والفشل، لهذا كله لم يستنكف أن يجعل الأمر شوري مسلماً أمره إلى الله...

- نويت يا بابا بإذن الله، ويعد موافقة حضرتك طبعاً، الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا!  
نذت عن رأس السيد حركة موحية بالانزعاج، واتسعت عيناه الزرقاوان الواسعتان، وهو يحدج ابنه بغرابة، ثم قال بنبرات ناطقة بالاستنكار:  
- المعلمين العليا!... مدرسة المجانية! أليس كذلك؟

فقال كمال بعد تردد:  
- رجباً، لا أدري شيئاً عن هذا الموضوع...  
فلوح السيد بيده مستهزئاً، كأنما أراد أن يقول له:  
«ينبغي أن تتجمل بالصبر قبل أن تقطع برأي فيما ليس لك به علم»، ثم قال بازدراء:  
- هي كما قلت لك، ولذلك يندر أن تجذب أحداً من أولاد الناس الطيبين، ثم إن مهنة المعلم...  
أتدري شيئاً عن مهنة المعلم أم أن علمك بها لا يعدو علمك بمدرستها؟ هي مهنة تعيسة لا تحوز احترام أحد من الناس، إني عليم بما يقال عن هذه الشئون، أما أنت فغر صغير لا تدري من أمور الدنيا شيئاً، هي مهنة يختلط فيها الأفندي بالمجاور، خالية من كل معاني العظمة والجلال، ولقد عرفت أناساً من الأعيان والموظفين المحترمين يابون - الإباء كله - أن يزوجوا بناتهم من معلم مها تكن مكانته...

ثم بعد أن تحشأ ونفخ طويلاً:  
فقال بمكر:  
- فؤاد بن جميل الحمزاوي، وهو من كنت تخلع عليه البالي من بذلك سيلتحق بمدرسة الحقوق، ولد ذكي متفوق ولكنه ليس أذكى منك، وقد وعدت أباه بالمعونة في تسديد مصروفاته حتى تتحقق له المجانية، فكيف أنفق على أولاد الناس في المدارس المحترمة وابني يتعلم بالمجان في المدارس الحقيرة!...  
كان هذا التقرير الخطير عن «المعلم ورسالته» مفاجأة مزعجة لكمال. لم هذا التحامل كله؟ لا يمكن أن يرجع ذلك إلى علم المعلم الذي هو تلقين العلم، فهل يرجع إلى مجانية المدرسة التي تخرجه؟ لم يكن يتصور أن يكون للغي أو للفقر دخل في تقدير العلم أو أن يكون للعلم قيمة خارجة عن ذاته. كان يؤمن بذلك إيماناً عميقاً لا يمكن أن يتزعزع، كما يؤمن بكفالة الآراء السامية التي يطلع عليها في مؤلفات رجال يحبهم ويعتز بهم، مثل: المنفلوطي، والمويلحي وغيرهما. كان يعيش بكل قلبه في عالم «المثال» كما ينعكس على صفحات الكتب، فلم يتردد فيما بينه وبين نفسه عن تحطئة رأي أبيه رغم جلاله ومكانته من نفسه، معتزلاً عن ذلك بجناية المجتمع المتأخر عليه، وأثر «الجهلاء» من أصحابه فيه، وهو ما أسف له كل الأسف، بيد أنه لم يسعه إلا أن يقول ملتزماً غاية ما يستطيع من الأدب والرقّة، وكان في الواقع يردّد نصاً من مطالعته:  
- العلم فوق الجاه والمال يا بابا...  
ردّد السيد رأسه بين كمال وبين صوان الملابس، كأنما يشهد شخصاً غير منظور على خرق الرأي الذي سمع، ثم قال باستياء:  
- حقاً؟! عشت حتى أسمع هذا الكلام الفارغ، كأن ثمة فرقاً بين الجاه والعلم! لا علم حقيقي بلا جاه ومال. ثم ما لك تتكلم عن العلم كأنه علم واحداً ألم أقل لك إنك غر صغير؟ هنالك علوم لا علم واحد. للصعاليك علومهم، وللباشوات علومهم. افهم يا جاهل قبل أن تندم!  
كان على يقين من احترام أبيه للدين ولاهله بالتالي، فقال بمكر:

- لا يجب! وما دخل الحب في العلم والمدارس؟! قل لي ماذا تحب في مدرسة المعلمين؟ أريد أن أعرف أمارات الحسن التي فتنتك فيها، أم أنت ممن يحبون الرمامة؟ تكلم ها أنا مصغٍ إليك...

نذت عنه حركة، كأنه يستجمع قواه لإيضاح ما غمض على أبيه من الرأي، ولكنه كان مسلماً بصعوبة مهمته، ومقتنعاً في الوقت نفسه بأنها ستجر عليه مزيداً من السخريات التي ذاق أمثلة منها فيما سلف من النقاش، وفضلاً عن هذا كله، فلم يكن يستبين هدفاً واضحاً محدداً حتى يستطيع بدوره أن يوضحه لأبيه، فما عسى أن يقول؟ في وسعه إذا تأمل قليلاً أن يعرف ما لا يريد، فليس القانون ببعيثة ولا الاقتصاد ولا الجغرافيا ولا التاريخ ولا اللغة الإنجليزية وإن كان يقدر أهمية المادتين الأخيرتين لما يتطلع إليه، هذا ما لا يريد، فما الذي يريد؟ إن في نفسه أشواقاً تحتاج إلى عناية وتأمل حتى تتضح أهدافها، ولعله غير متأكد من أنه سيظفر بها في مدرسة المعلمين، وإن رجح عنده أن تكون - هذه المدرسة - أقصر سبيل إليها. أشواق تهرها مطالعات شتى لا تكاد تجمعها صفة واحدة: مقالات أدبية، واجتماعية، ودينية، وملحمة عنتر، وألف ليلة وليلة، والحياة، والمنفلوطي، ومبادئ الفلسفة، إلى أنها ربما لم تكن مقطوعة الصلة بالأحلام التي كاشفه بها ياسين قديماً، بل والأساطير التي سكبتها في روحه أمه من قبل ذلك... كان يحلوه أن يطلق على هذا العالم الغامض اسم «الفكر»، وعلى نفسه اسم «المفكر»، فيؤمن بأن حياة الفكر أسمى غاية للإنسان تتعالى بطبيعتها النوراني على المادة والجاه والألقاب وسائر ألوان العظمة الزائفة... هي كذلك! وضحت معالمها أم لم تتضح، فاز بها في مدرسة المعلمين أم لم تكن هذه المدرسة إلا وسيلة إليها، لا يملك عقله أن يتحول عن هذه الغاية أبداً، ولكن من الحق كذلك أن يقر بأن ثمة صلة قوية تربطها بقلبه أو بالحرية بحبه! كيف كان ذلك؟ ليس بين «معبودته» وبين القانون أو الاقتصاد من سبب، ولكن ثمة أسباب وإن دقت وخفيت بينها وبين الدين والروح والخلق والفلسفة وما

- إن الأزهرين يتعلمون كذلك بالمجان ويشغلون بالتدريس، ولكن أحداً لا يستطيع أن يحتقر علومهم...

فأوما له بدقته باحتقار، وهو يقول:

- الدين شيء، ورجال الدين شيء آخر!

فقال مستمداً من اليأس قوة يستعين بها على مناقشة الرجل الذي لم يتعود إلا طاعته:

- ولكنك يا بابا تحترم علماء الدين وتحبهم!

فقال السيد بلهجة لم تخل من حدة:

- لا تخلط بين الأمور، أنا أحترم الشيخ متولي عبد الصمد وأحبه كذلك، ولكن أن أراك موظفاً محترماً أحب إلي من أن أراك مثله، ولو سرت بالبركة بين الناس ودفعت عنهم سوء بالأحجية والتعاويد... لكل زمان رجال، ولكنك لا تريد أن تفهم!

تفحص الرجل الشاب ليسبر أثر كلامه فيه، فغض كمال بصره، وعض على شفته السفلى، وجعل يرمش، ويحرك زاوية فيه اليسرى في عصبية. يا عجباً! لهذا الحاضر يصر الناس على ما فيه ضرر محقق لهم؟ وأوشك أن ينفجر غاضباً، ولكنه تذكر أنه إنما يعالج أمراً خارجاً عن نطاق سلطته المطلقة، فكظم غيظه، وساءله:

- ولكن ما الذي جعلك تتحمس لمدرسة المعلمين وحدها كأنها استأثرت بالعلم كله؟ ما الذي لا يروقك في مدرسة الحقوق مثلاً؟ أليست هي المدرسة التي تخرج الكبراء والوزراء؟ أليست هي المدرسة التي تثقف بعلموها سعد باشا وأضرابه من الرجال؟ ثم بصوت منخفض، وقد عكست عيناه نظرة واجهة:

- وهي المدرسة التي وقع اختيار المرحوم فهمي عليها بعد روية وتفكير، ولو لم يعاجله الأجل لكان اليوم من رجال النيابة أو القضاء، أليس كذلك؟ قال كمال بتأثر:

- جميع قولك حق يا بابا، ولكنني لا أحب دراسة القانون!

ضرب الرجل كفاً بكف، وهو يقول:

شاكل ذلك من المعارف التي يستهويه النهل من منابعها، على نحو يشبه ما بينها وبين الغناء والموسيقى من أسرار يتشوّف إليها في هزة الطرب وأريج النشوة. إنه يجد هذا كله في نفسه ويؤمن به كل الإيمان، ولكن ما عسى أن يقول لأبيه؟ لجا مرة أخرى إلى المكر، وهو يقول:

- إن مدرسة المعلمين تدرّس علومًا جليّة، كتاريخ الإنسان الخافل بالعظّات، وكاللغة الإنجليزيّة!

كان السيّد يتفحصه وهو يتكلّم، وإذا بمشاعر الاستياء والحق تراه فجأة. تأمل - وكأنّه يراه لأوّل مرّة - نحافته وضخامة رأسه وكبر أنفه وطول عنقه، فوجد في منظره غرابة تضاهي ما في آرائه من شذوذ، وأوشكت روحه الساخرة أن تضحك في باطنه، ولكنّ عطفه وحبّه أيا عليه ذلك، غير أنّه تساءل فيما بينه وبين نفسه: النحافة ظاهرة مؤقتة، الأنف عندي مصدره، ولكن من أين له هذا الرأس العجيب؟ ليس من المحتمل أن يعرض له شخص - مثلي - ممّن ينقّبون عن العيوب صيدًا لمزاحهم؟ ضابقت هذه الفكرة مضايقة ضاعفت من عطفه عليه، فعندما تكلم جاء صوته أهدأ نبرة وأذن إلى الحلم والنصح، قال:

- العلم في ذاته لا شيء، والعبرة بالنتيجة، القانون يفضي بك إلى وظيفة القضاء، أمّا التاريخ والعظّات فمؤدّاها أن تكون معلمًا بائسًا، عند هذه النتيجة قف طويلًا وتأمل (ثمّ ونبرات صوته تعلو قليلًا في شيء من الحدة) لا حول ولا قوّة إلّا بالله، عظّات وتاريخ وسخام، هلّا حدّثني بكلام معقول؟!

تورّد وجه كمال حياء وألمًا وهو يستمع إلى رأي أبيه في المعارف والقيم السامية التي يقدّسها، وكيف استنزها إلى مستوى السخام وقرنها به، غير أنّه لم يُعَدِّمْ عزاء فيها ورد ذهنه - في لحظته تلك - جليل دون شكّ، إلّا أنّه ضحيّة زمان ومكان ورفاق. ترى هل يجدي معه النقاش؟ هل يجربّ حظّه مرّة أخرى مستعينًا بمكر جديد؟

- الواقع يا بابا أنّ هذه العلوم تحوز أكبر التقدير في الأمم الراقية؟ إنّ الأوروبيّين يقدّسونها، وقيّمون تورّد وجه كمال حياء وألمًا وهو يستمع إلى رأي أبيه في المعارف والقيم السامية التي يقدّسها، وكيف استنزها إلى مستوى السخام وقرنها به، غير أنّه لم يُعَدِّمْ عزاء فيها ورد ذهنه - في لحظته تلك - جليل دون شكّ، إلّا أنّه ضحيّة زمان ومكان ورفاق. ترى هل يجدي معه النقاش؟ هل يجربّ حظّه مرّة أخرى مستعينًا بمكر جديد؟

الواقع يا بابا أنّ هذه العلوم تحوز أكبر التقدير في الأمم الراقية؟ إنّ الأوروبيّين يقدّسونها، وقيّمون

التهايل للناغيين فيها! حوّل السيّد وجهه عنه، ولسان حاله يقول: «اللهمّ طوّلك يا روح»، بيد أنّه لم يكن غاضبًا حقًا، ولعلّه رأى الأمر كلّهُ مفاجأة مضحكة لم تخطر له ببال، ثمّ أعاد إليه وجهه، وهو يقول:

- بصفتي والدك أريد أن أطمئنّ على مستقبلك، أريد لك وظيفة محترمة، هل يختلف اثنان في هذا؟ الذي يهمني حقًا أن أراك موظفًا مهذبًا لا مدرّسًا بائسًا وإن أقاموا له تمثالًا كإبراهيم باشا أبي أصبح! يا سبحان الله! عشنا وشفنا وسمعنا العجب! ما لنا نحن وأوروبا؟ أنت تعيش في هذا البلد، فهل هو يقيم التهايل للمعلّمين؟... دلّني على تمثال واحد لمعلّم! (ثمّ بلهجة استنكاريّة) خبّرني يا بني: أتريد وظيفة أم تمثالاً؟!

ولمّا لم يجد إلّا الصمت والارتباك، قال فيما يشبه الحزن:

- في رأسك أفكار لا أدري كيف اندسّت إليه، إنّي أدعوك إلى أن تكون واحدًا من الرجال العظّاء الذين يهزّون الدنيا بجلالهم ومراكزهم، فهل عندك مثال تتطلّع إليه لا أدريه؟ صارحني بما في نفسك حتّى يرتاح بالي وأدرك غرضك، الحقّ أنّي في حيرة من أمرك!! فليتقدّم خطوة جديدة بفصح بها عن بعض ما في نفسه وأمره الله، قال:

- هل من العيب يا بابا أن أتطلّع إلى أن أكون كالمنفلوطي يومًا ما؟ قال السيّد بدهشة:

- السيّد مصطفى لطفي المنفلوطي؟ رحمة الله عليه رأيته أكثر من مرّة في سيّدنا الحسين... لكنّه لم يكن معلّمًا فيها أعلم، كان أعظم من هذا بكثير، كان من جلساء سعد وكتّابه، ثمّ إنّ كان من الأزهر لا من المعلّمين، ولا شأن للأزهر نفسه بعظمته، كان هبة من الله... هكذا يقولون عنه!! نحن نبحت في مستقبلك والمدرسة التي ينبغي أن تدخلها ولندعّ ما لله الله، فإن كنت أنت الآخر هبة من الله أيضًا، فستكون في عظمة المنفلوطي وأنت وكيل نيابة أو قاضٍ، لم لا؟!



- اعذرني يا بابا إذا لم أكن أحسنت التعبير عن رأيي، أريد أن أواصل دراستي الأدبية التي بدأتها بعد الكفاءة، أن أدرس التاريخ واللغات والأخلاق والشعر، أما المستقبل فأمره بيد الله!  
فهتف السيد متهكِّمًا حانقًا، وكأنما يُتمّ سرد ما سكت كمال عنه:

- وادرس أيضًا فنَّ الحواة والقره جوز وفتح المندل وبنين زين بنين. لم لا، اللهم غفرانك، أكنت حقًا تَدخِر لي هذه المفاجأة؟... لا حول ولا قوة إلا بالله!  
اقتنع السيد أحمد بأنَّ الحال أخطر مما قدَّر، فحار في أمره، وجعل يسائل نفسه: أأخطأ فيها أباح لابنه من حرّية القول والرأي؟ كلِّما مدَّ له في جبل الصبر والتسامح لَجَّ الآخر في العناد وتجادى في الجدل... وما لبث أن قام في نفسه صراع بين نزعته الاستبدادية وبين تسليمه بحقَّ «اختيار المدرسة»، حرصًا على مستقبل كمال من ناحية وكرامية للانضمام من ناحية أخرى، ولكنّه انتهى على غير عادته - أو بالأحرى على غير عادته في الزمن القديم - بتغليب الحكمة، فعاد إلى النقاش وهو يقول:

- لا تكن غرًّا، ثمة شيء في عقلك لا أدريه أسأل الله لك منه النجاة، ليس المستقبل لهوًا ولعبًا، ولكنّه حياتك التي لن تكون لك حياة غيرها، فكّر في الأمر طويلاً، الحقوق خير مدرسة لك، إنِّي أفهم الدنيا خير منك، ولي أصدقاء من كافّة الطبقات ولا خلاف بينهم في ذلك، أنت طفل أحمق، ألا تدري ما هي النبابة وما هو القضاء؟ هذه وظائف تهزُّ الأرض هزًّا وفي وسعك أن تتبوّأ واحدة منها، كيف تُعرّض عنها بكلِّ بساطة وتختار أن تكون... معلمًا!

شدَّ ما يتألَّم - لا غضبًا لكرامة المعلم فحسب - ولكن غضبًا لكرامة العلم أولًا وأخيرًا، العلم الحقيقي في نظره! لم يكن حسن الظنِّ بالوظائف التي تهزُّ الأرض هزًّا، فطالما وجد الكتاب المسيطرين على روجه يطلقون عليها العظمة الزائفة والمجد الزائل وغير ذلك من نعوت الاستهانة والاستخفاف، فأمن - تبعًا لأقوالهم - بالأعظمة حقيقةً إلا في حياة العلم

كمال، وهو يناضل في استماتة:  
- لست أنطلّع إلى شخص المنفلوطي فحسب ولكن إلى ثقافته أيضًا، ولا أجد مدرسة هي أقرب إلى تحقيق غرضي، أو في الأقلّ إلى تمهيد السبيل إليه من مدرسة المعلمين، لذلك أثرتها، ليس بي من رغبة خاصّة في أن أكون معلمًا، بل لعليّ لم أقبل هذا إلا لأنّه السبيل المتاح إلى ثقافة الفكر...

الفكر؟!... ورّد مقطع أغنية الحامولي «الفكر تاه اسعفيني يا دموع العين» الذي طلما أحبّه واستعاده فيما مضى من زمانه، أهذا هو الفكر الذي يسعى وراءه ابنه؟ سأله بدهشة:

- ما هي ثقافة الفكر؟  
لجّث به الحيرة، فازدرد ريقه، وقال بصوت منخفض:

- لعليّ لا أعرفها، (ثمّ يتسم متودّدًا) لو كنت أعرفها لما كان بي حاجة إلى طلب تعلّمها!  
فسأله مستنكرًا:

- إذا كنت لا تعرفها فبأيّ حقّ اخترتها؟...  
هه...؟ هل تهيم بالضعة لوجه الله؟

تغلّب على ارتباكها بجهد شديد، وقال مدفوعًا باستماتته في الدفاع عن سعادته:  
- إنَّها أكبر من أن يحاط بها، إنَّها تبحث فيها تبحث عن أصل الحياة ومآلها!

تأمّله مليًا في ذهول قبل أن يقول:  
- أمن أجل هذا تريد أن تضخّي بمستقبلك؟ أصل الحياة ومآلها؟ أصل الحياة آدم، ومصيرنا إلى الجنّة أو النار، أم جدّ جديد في ذلك؟  
- كلاً، أعلم هذا، أريد أن أقول...

فعاجله قائلاً:  
- هل جننت؟... أسألك عن مستقبلك، فتجيبني بأنك تريد أن تعرف أصل الحياة ومآلها؟!... وماذا تعمل بعد ذلك؟... تفتح دكانًا لاستطلاع الغيب؟!  
خاف كمال إن هو استسلم للارتباك والصمت أن يُغلب على أمره أو يضطرّ إلى التسليم بوجهة نظر أبيه، فقال مستنجدًا شجاعته:

بنفسه، سواء في أصدقائه من الموظفين أو في بعض اتصالاته الحكومية المتعلقة بعمله، فأراد أبناءه على أن يكونوا موظفين وأعدّهم لذلك، كذلك لم يكن يخفى عليه أن التجارة لا تحظى بربح ما تحظى به الوظيفة من التقدير في نظر الناس وإن أخلفت أضعافها من المال.

وهو نفسه شارك الناس شعورهم وإن لم يعترف بذلك بلسانه، بل كان يعتز بإكبار الموظفين له فيعدّ نفسه من الناحية «العقلية» موظفًا أو نذا للموظفين، ولكن من غيره يسعه أن يكون تاجرًا ونذا للموظفين معًا؟ ومن أين لأبنائه بشخصية مثل شخصيته؟ آه يا لها من خيبة أمل! كم تمخى قديمًا أن يرى ابنًا من أبنائه طبيبًا، وكم ناط بفهمي أمنيته حتى قيل له إن البكالوريا الآداب لا تؤدي إلى مدرسة الطب فرضي بالحقوق واستبشر بما بعدها خيرًا، ثم علّق أمله بكال فاختار قسم الآداب فعاد الرجل يحلم بما بعد الحقوق، ولكنه لم يتصور قط أن تنجلي المعركة بين آماله وبين الأقدار بوفاة «نابغة» الأسرة، وبإصرار كمال على أن يكون معلمًا! أي خيبة أمل! وبدا السيد حزينًا حقًا، وهو يقول:

- لقد أخلصت لك النصيحة وأنت حرّ فيما تختار لنفسك، ولكن ينبغي أن تذكر دائمًا أنني لم أوافقك على رأيك، فكّر في الأمر طويلًا، لا تتعجل، فما يزال أمامك فسحة من الوقت وآلا ندمت على سوء اختيارك مدى الحياة، أعوذ بالله من الحمق والجهل والسخف!! وطرح الرجل رجله على الأرض آتيا حركة دلت على شروعه في القيام لياخذ أهبة لمغادرة البيت، فنهض كمال في أدب وحياء، وانصرف.

عاد إلى الصالة فوجد أمه ياسين جالسين يتحادثان، وكان مؤرّع النفس كايّف البال لمعارضته لأبيه ولإصراره على معارضته رغم ما أبدى الرجل من حلم ولين، ثم لما بدا عليه أخيرًا من ضيق وحزن، فقصّ على ياسين خلاصة ما دار في الحجرة من نقاش، وأنصت إليه الشاب وعلى جبهته علامة احتجاج وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة، وسرعان ما صارحه بأنّه من رأي السيد وأنه يعجب لجهله للقيم

والحقيقة، واقرنت من ثمّ كلّ مظاهر السلطان والجاه في ذهنه بالزيف والتفاهة، غير أنّه تحاشى الإفصاح عن إيمانه هذا أن يستفحل غضب أبيه، وقال برقة وتودّد:

- على أيّ حال مدرسة المعلمين مدرسة عليا!

تفكّر السيد مليًا، ثمّ قال متبرّمًا يائسًا:

- إذا لم تكن بك رغبة في الحقوق، وبعض الناس يعشقون التعاسة، فاختر مدرسة محترمة: الحرية، البوليس... وشيء خير من لا شيء!

فقال كمال منزعجًا:

- أدخل الحرية أو البوليس وقد نلت البكالوريا؟

- ما حيلتي إذا لم يكن لك في الطب نصيب؟

عند ذاك شعر بضوء آتٍ من ناحية المرأة ألقى عينه اليسرى، فمدّ بصره صوب الصوان، فرأى أشعة شمس العصر المائلة التسرّبة إلى الحجرة من النافذة المطلّة على الفناء، وقد زحفت من الجدار المواجه للفرّاش حتى غيّبت جانب المرأة، مؤذنة باقتراب موعد انصرافه إلى الدكان، فترجّح قليلًا مبتعدًا عن الضوء المنعكس، ثمّ نفخ نفخة وشت بضيقه وأنذرت - أو بئّرت - في الوقت نفسه بوشك انتهاء الحديث، وتساءل واجمًا:

- ألا توجد مدرسة أخرى غير هذه المدارس المغضوب عليها؟

فقال كمال وهو يغضّ بصره حرجًا لعجزه عن إرضاء أبيه:

- لم يبقَ إلّا مدرسة التجارة ولا أرب لي فيها!

ومع أنّ مبادرته إلى الرفض أحقته، إلّا أنّه لم يجد من نفسه نحو المدرسة الجديدة إلّا الفتور، لظنّه أنّها إنّما تخرّج «تجارًا»، ولم يكن يرضى لابنه أن يكون تاجرًا. لم يغيب عن علمه أول الأمر أنّ متجرًا كمتجره - وإن هيأ له حياة صالحة - فإنّه أعزّ من أن يبيّ هذه الحياة لمن يخلّفه فيها من أبنائه إذا روعي ما سيفرّق من دخله على بقية المستحقين، فلن يعمل على إعداد أحد منهم ليحلّ محله، على أنّ ذلك لم يكن السبب الجوهري لفتوره، كان في الحقّ يكبر الوظيفة والموظفين ويدرك خطورهم ومنزلهم في الحياة العامة كما لمس ذلك

- ولكنهم يقولون إِنَّ المعلمَ لا حظَّ له في المناصب الرفيعة!

فلوحت بيدها باستهانة قائلة:

- المعلم موفور الرزق. أليس كذلك؟ حسبك هذا، إِنِّي أسأل الله لك الصحة وطول العمر وصالح العلم، كان جدك يقول: «إِنَّ العلم أعزُّ من المال»!

أليس عجيبي أن يكون رأي أمه خيرًا من رأي أبيه؟ ولكنه ليس برأي، إنه شعور سليم، لم تفسده ممارسة الحياة الواقعية التي أنسدت رأي أبيه. ولعلَّ جهلها بشئون العالم هو الذي صان شعورها عن الفساد، ترى ما قيمة شعور - وإن سما - إذا كان مصدره الجهل؟ وألا يكون لهذا الجهل نفسه أثره في تكوين آرائه؟... ثار على هذا المنطق، وقال يحاوره: إنه عرف الدنيا خيرها وشرها في الكتب وأثر الخير عن إيمان وتفكير، وقد يلتقي الشعور الفطري الساذج بالرأي الحكيم دون أن تهوي سذاجة الفطرة من أصالة الحكمة.

أجل! إنه لا يشك لحظة في صدق رأيه وجلاله، ولكن هل يدري ماذا يريد؟ ليست مهنة المعلم بالتي تجذبه، إنه يحلم أن يؤلف كتابًا، هذه هي الحقيقة، أيّ كتاب؟ لن يكون شعرًا، إذا كانت كراسة أسرارهِ تحوي شعرًا، فمرجع ذلك إلى أنَّ عابدة تحبيل النثر شعرًا لا إلى شاعرية أصيلة فيه، فالكتاب سيكون نثرًا، وسيكون مجلدًا ضخماً في حجم القرآن الكريم وشكله، وستحديق بصفحاته هوامش الشرح والتفسير كذلك، ولكن عمّ يكتب؟ ألم يحو القرآن كلَّ شيء؟ لا ينبغي أن يأس، ليجد موضوعه يومًا ما، حسبه الآن أنّه عرف حجم الكتاب وشكله وهوامشه، أليس كتاب يهز الأرض خيرًا من وظيفة وإن هزّت الأرض؟ كلّ المتعلمين يعرفون سقراط، ولكن من منهم يعرف القضاة الذين حاكموه؟!

- ٥ -

- مساء النور!...

لا تحيب! هذا ما قدرته وما أنا به عليم. هي البداية دائمًا... منذ قديم وإلى الأبد، ها هي توليك

الجليلة في هذه الحياة، وتطلّعه لأخرى وهمية أو سخيفة. تريد أن تجود بحياتك للعلم؟ ما معنى هذا؟! إنه سلوك رائع كما يبدو في فصل من فصول المنفلوطي أو في نظرة من نظراته، أمّا في الحياة فما هو إلا عبث لا يقدّم ولا يؤخّر، وأنت تعيش في الحياة لا في كتب المنفلوطي... أليس كذلك؟ الكتب تقرّر أمورًا غريبة وخارقة، مثال ذلك، أنك تقرأ فيها أحيانًا «كاد المعلم أن يكون رسولاً»، ولكن هل صادفت مرة معلمًا يكاد أن يكون رسولاً؟ تعال معي إلى مدرسة النحاسين أو تذكر من تشاء من معلميك، ودلّني على واحد منهم يستحق أن يكون آدميًا لا رسولاً! وما هذا العلم الذي تريد؟ أخلاق وتاريخ وشعر؟ كلّ أولئك جميل للتسلية، حاذر من أن تغفل من يدك فرصة الحياة الرفيعة، كم أتمحّر أحيانًا على معاكسة الظروف التي حالت بيني وبين مواصلة الدراسة!

تساءل عندما خلا إلى أمه على أثر ذهاب الأب وياسين، ترى ما رأيها؟... لم تكن ممن يؤخذ رأيهم في مثل هذا الأمر، بيد أنها تابعت أكثر حديثه مع ياسين، إلى أنها كانت على علم برغبة السيد في إلحاقه بمدرسة الحقوق، الأمر الذي باتت تتطّير منه فلم ترتج إليه، على أن كمال كان يعرف كيف يظفر بموافقتها من أقصر سبيل، قال لها:

- إنَّ العلم الذي أرغب في دراسته وثيق الصلة بالدين، ومن فروعه: الحكمة والأخلاق، وتأمّل صفات الله وكنه آياته ومخلوقاته! فتطلّق وجه أمينة، وقالت بحماس:

- هذا هو العلم حقًا، علم أبي، علم جدك، إنه أجلّ العلوم!

وفكرت قليلًا وهو ينظر إليها من طرف خفيّ باسمًا، ثم عادت تقول بنفس الحماس:

- منذ الذي يحتقر المعلم يا بني؟ ألم يقولوا في الأمثال «من علّمني حرفًا صرت له عبدًا»؟

فقال مردّدًا حجّة أبيه الذي هاجم بها اختياره، وكأنما يستوهمها رأيًا يؤكّد به موقفه:

ظهرها، ابتعدت عن الحائط نحو حبل الغسيل، تحبك المشابك، ألم تحبكيها من قبل؟ ... بل ولكنتك تدارين موقفك، إني أفهم كلّ الفهم، عشرة أعوام في المجون ليست بالخبرة القليلة، متّع عينيك بمنظرها قبل أن يستقرّ الظلام الزاحف فلا تبدو إلا شبحًا، سمنت واكتنرت، زادت حسنا عما كانت أيام صباها. كالغزال كانت ولكتها لم تكن تلك هذه الأداف العبله، رويدًا... لم يزل لها من رشاقة البكارة نصيب محترم، ما عمرك يا شاطرة؟ زعم أهلك قديمًا أنك في سنّ خديجة. رأي خديجة أنك تكبرينها بسنوات وسنوات. امرأة أبي تؤكّد هذه الأيام أنك في الثلاثين مستشهدة بذكريات قديمة من نوع: أيام كنت حبل في خديجة كانت صبية في الخامسة ألخ، ما قيمة العمر؟ هل أنت ستعاشرها حتى الكبر؟! في الأيام القصيرة تستوي الشابة والنصف، جميلة وجذابة ومشبعة دسمة، آه، نظرت صوب الطريق ولحظتك، أرايت مقتلها وهي تلحظك كالدجاجة؟ لن أبرح موقفك يا مليحة، فتي تعرفين الشيء الكثير عن جماله وقوّته وماله، أليس هو خيرًا من ذلك الإنجليزي القديم...؟

- هل التحية عندهم لا تستحقّ ردًا ولو بمثلها؟  
ولئك قذالها مرة أخرى، مهلاً... ألم تبتسم؟ بل ومن سوى جمالها فجعله فتنة، لقد ابتسمت، مهّدت لهذه الخطوة الأخيرة فأحسنتم التمهيد، لا شكّ أنّها تعلم بكلّ حركاتي ومناوراتي السابقة، آن لي... وأنّ لك... من حسن حظّي أنّك لست من المصابات بداء الخشمة، ذاك الإنجليزي... جوليون، الجواد الكريم القائم أمامك موطأ المتن، ألا تسمعين حمحمته؟

- ليس للجار عندهم إكرام؟... إني أشحذك تحية هي من صميم حقوقي!  
جاءه صوت رقيق خافت - بدا لتحول الوجه عنه كأنه آت من بعيد - وهو يقول:  
- ليست من حقك... على هذا النحو!  
أجيب الطارق. رُفعت سقّاطة الباب. لن تنظفر بالمناعة حتى تلعق الزجر. اثبت، الثبات... .

الثبات... كما يهتف به المجاورون.  
- إذا كان صدر مّي ما أغضبك فلن أغتفره لنفسي ما حييت؟  
هي في عتاب:  
- إنّ سطح بيت أم عليّ، الداية، في مستوى سطحنا وسطحكم، ما عسى أن يظنّ الناظر إذا رأى موقفك مّي وأنا أنشر الغسيل؟...  
ثمّ في تساؤل هازئ:  
- أم تريد أن تجعل مّي أحدوثة؟  
بُعد الشرّ عنك؟ هل راعيت هذا الحذر في موقفك مع جوليون في الزمن القديم؟ لكن مهلاً، إنّ جمال عينيك وعجيزتك يغفر ما تقدّم وما تأخّر من ذنبك!  
- لا أبقاني الله في الحياة لحظة واحدة إن كنت قصدتك بسوء، لقد تواريت تحت سقيفة الياسمين حتى غابت الشمس، ولم أقرب من السور حتى ثبت عندي خلوّ سطح أم عليّ الداية...  
ثمّ وهو يتنهد بصوت مسموع:  
- وعذري بعد ذلك آني والبيت صعود السطح أبدًا كي أظفر بهذه الخلوة... فلما وجدتها الساعة استخفّني السرور، وعلى أيّ حال ربّنا يستر...  
- عجيبة!... لم هذا التعب كله؟  
سؤال لا يبعث عليه الجهل، يسألنّ عما يعرفنّ، ارتضت أن تحاورك فاهنا بحوارها...  
- قلت لنفسي: أن تحيّيها وتردّ تحيتك الدّ من الصّحة والعافية!  
التفتت إليه برأس دلت حركته في شبه الظلام على تكتم الضحك، وقالت:  
- لسانك أطول من جسمك، ترى ماذا وراء كلامك؟  
- وراءه؟! هلاً اقتربت من السور؟ عندي حديث طويل، منذ أيام وأنا أغادر البيت إلى الطريق، لاحت مّي التفاتة إلى الأرض فرايت ظلّ يد تتحرّك، فنظرت إلى فوق فرايتك مظلة من السور، رايت منظرًا جميلًا لا يمكن أن يُنسى...  
دارت على عقبيها ولكنها لم تقترب خطوة، ثمّ قالت

- ثم رأيتك أخيراً فرأيت شابة جميلة كالزهرة،  
تتطلع في ظلام الليل فتنوره، فكأنما أراك لأول مرة،  
ساءلت نفسي أكون هذه جارتنا مريم التي كانت  
تلعب مع خديجة وعائشة؟ كلا... هذه فتاة اكتمل  
لها الحسن ونضج، وشعرت بأن الدنيا تتغير من  
حولي...

قالت، وقد عاود صوتها عبثه:  
- في تلك الأيام لم تكن عينك تستبحان التطلع إلى  
أحد! كنت جازاً بمعنى الكلمة، ولكن ماذا بقي من  
تلك الأيام؟ تغير كل شيء، عدنا كالأغراب، وكأننا لم  
نبادل كلمة، ولم نشأ معاً نشأة الأسرة الواحدة. هذا  
ما أراده أهلك.

- دعينا من هذا، لا تحمليني همًا إلى هم.  
- اليوم تتطلع بعينيك... في النافذة، وفي  
الطريق، وما أنت تقطع علي السطح!  
ماذا يمنعك من الذهاب إن كنت حقاً تريدته؟  
كذلك ألد من الشهد يا نور الظلام...

- هذا قليل من كثير، إنني أطلع إليك أيضاً من  
حيث لا تدرين، وأراك في الخيال أكثر مما تتصورين،  
أقول لنفسي الآن وأنا على بيته مما أقول: إنا القرب  
وإنا الموت!

هسيس ضحكة مكتومة اهتز لها قلبه، ثم تساءلت:  
- من أين لك هذا الكلام؟  
أشار إلى صدره، وهو يقول:  
- من قلبي!

مسحت بقدمها على أرض السطح محدثة بالشبشب  
حقيقاً ينذر بالتحرك ولكنها لم تزايل موضعها، وقالت:  
- ما دام الأمر قد بلغ القلب، فينبغي أن أذهب!  
بحماس علا به صوته أولاً حتى انتبه إلى نفسه  
فخفضه:

- بل يجب أن تأتي، أن تأتي إلي، الآن وإلى  
الأبد... (ثم بكى) إلى قلبي... هو لك وما يملك!  
وبلهجة وعظية عابثة:

- لا تفرط في نفسك على هذا النحو، حرام علي أن  
أحرمك قلبك وما يملك...

في لهجة تنم عن الاهتمام:

- كيف تنظر إلى فوق؟!... ولو كنت جازاً حقاً  
كما تقول ما سمحت لنفسك بأن تجرح جارتك،  
ولكنك سيئ النية فيما بدا منك باعترافك فيما يبدو  
منك الساعة!

حق أنه سيئ النية، أليس الفسق من سوء النية؟  
سوء نية من النوع الذي تحببته، آه من النسوان، بعد  
ساعة ستطالبين به كحق من حقوقك، بعد ساعتين  
سأهرب وتجدين في أثري، على أي حال ليلتنا فل...  
- ربنا يعلم بحسن نيتي، نظرت إلى فوق لأني لا  
أستطيع أن أمنع النظر عن مكان تكونين فيه، ألم  
تدركي هذا؟ ألم تشعرني به؟ جارك القديم يتكلم وإن  
تأخر به الزمن.

هازئة:

- تكلم. أطلق الحرية للسانك الطويل، ارفع  
صوتك، ماذا تفعل لو اقتحمت عليك السطح امرأة  
أبيك فرأتك ورأتني؟

لا تزوغي يا بنت اللبوة، سيكون من المعجزات أن  
أطوي عقلك، أخافين امرأة أبي حقاً؟ آه... إن ليلة  
في حضنها تساوي العمر كله!

- سأسمع وقع الأقدام قبل مجيئها، خلينا فيما نحن  
فيه...

- ما هذا الذي نحن فيه؟

- إنه يجلّ عن الوصف!

- لا أجد شيئاً مما تقول، لعل هذا ما أنت وحدك  
فيه!

- لعله، إنه لأمر مؤسف حقاً، أمر مؤسف أن  
يتكلم قلب فلا يجد من يستجيب له، إنني أذكر أيام  
زياراتك لبيتنا. تلك الأيام التي كنا فيها وكأننا أسرة  
واحدة، وأتحسّر...

غمغمت وهي تهز رأسها:

- تلك الأيام!

لم عدت إلى الماضي؟ أخطأت خطأ كبيراً، احذر أن  
يفسد عليك الألم جهدك كله، ركز إرادتك كي تنسى  
كل شيء إلا الحاضر...

- إلى أي مدى ذهب بك الفهم؟ إنّي أحاطب فيك  
اللبوة التي أحبّها، لست بلهاء وحقّ ذكرى جوليون،  
تعالى يا بنت القديمة، أخاف أن أضيء في الظلام من  
شدة النار التي تستعر في جسدي ...  
- هو وما يملك لك عن طيب خاطر، سعادته في أن  
تقبله وتملكيه، وأن تكوني له وحده!  
قالت ضاحكة:  
- أرايت يا ماكر؟ ... تريد أن تأخذ لا أن  
تعطي ...  
من أين لك بهذا اللسان؟ ولا زنوبة في زمانها،  
ملعونة الدنيا من غيرك! ...  
- أريد أن تكوني لي كما أكون لك ... أين الظلم  
في هذا؟  
صمت، ونظر متبادل بين الشبيين، حتّى قالت:  
- لعلهم يتساءلون الآن عمّا أخرّك!  
فقال مستعظفاً بمكر:  
- ليس ثمة في الدنيا من يهتمّ بأمرى!  
عند ذلك غيّرت لهجتها متسائلة بجذّة:  
- كيف ابنك؟ ... لا يزال عند جدّه؟  
ماذا وراء هذا السؤال الغريب؟  
- بلى ...  
- ما عمره الآن؟  
- خمس سنوات ...  
- وما أخبار والدته؟  
- إنّها تزوّجت أو ستزوّج في القريب العاجل ...  
- خسارة! ... لم تردّها ولو إكراماً لرضوان؟  
يا بنت اللبوة! ... أفصحى عمّا ترومين ...  
- أهذه رغبتك حقّاً؟  
وهي تضحك ضحكة خافتة:  
- يا بخت من وفق رأسين في الحلال!  
وفي الحرام؟!  
- لكنني لا أنظر إلى الوراء ...  
ساد صمت بدا غريباً مليئاً بالفكر ... حتّى قالت  
صوت جمع بين التحذير واللين:  
- إنّك وأن تقطع عليّ السطح مرّة أخرى.
- فقال بجرأة:  
- أمرك مطاع، ليس السطح بالمكان المأمون، ألم  
تعلمي بأنّ لي بيتاً في قصر الشوق؟  
هتفت مستنكرة:  
- بيتك! أهلاً يا سيّ بيته!  
فسكت قليلاً، كأنّها يحاذر، ثمّ تساءل:  
- حمّي فيم أفكر؟  
- لا شأن لي بهذا ...  
صمت، ظلام، خلوة، ما أفضع تأثير الظلام في  
أعصابي ...  
- إنّي أفكر في سوزي سطحننا المتلاصقين، بم  
يوحي منظرهما إليك؟  
- لا شيء ...  
- منظر حبيين متلاصقين ...  
- لا أحبّ سماع هذا الكلام ...  
- تلاصقها يذكر أيضاً بأنّه ليس ثمة ما يفصل  
بينهما.  
- هيه!  
نذت عنها كاستدراج مليء بالوعيد، فقال ضاحكاً:  
- كأنّها يقولان لي: اعبرا!  
تراجعت خطوتين حتّى التصق ظهرها بملاءة  
منشورة، ثمّ همست في تحذير جدّي:  
- لا أسمع بهذا!  
- هذا ... ما هذا؟  
- هذا الكلام.  
- والفعل؟  
- سأتركك غاضبة!  
كلّا وحياتك الغالية ... أتعنين ما تقولين؟ أنا  
أغبي عمّا أظنّ؟ أم أنت أمكر عمّا أتصوّر؟ لم تكلمت  
عن رضوان وأمه؟ هل تلوّح بالزواج؟ ما أشدّ رغبتك  
إليها؟ رغبة جنونيّة ...  
قالت مريم بغتة:  
- آه ... ما الذي يدعوني إلى البقاء؟  
ودارت حول نفسها، ثمّ تظامن رأسها لتمرّ من  
تحت الغسيل، فأرسل صوته وراءها قائلاً في جزع:

رجع ياسين من الحجرة وقد ارتدى ملابسه وأخذ زيتته، فحيّاهما وانصرف، وبعد قليل سمعا نقر استئذان على باب الصالة فدعا كمال القادم - وهو على يقين من هويته - فدخل شابٌ يمثله في السن، قصير القامة، وسيم الطلعة، مرتدياً جلباباً وجاكته، فقصده أمينة وقُبِلَ يدها، ثم صافح كمال وجلس إلى جانبه... كان في سلوكه - رغم ما أخذ به نفسه من التأدب - ألفة كأنما كان واحداً من أهل البيت، وأكثر من هذا فقد أقبلت أمينة تحادثه وهي تدعوه بكل بساطة «يا فؤاد»، وتساله عن صحّة أبيه جميل الحمزاوي والدته، فيجيبها مستشعراً السرور، والامتنان في حسن استقبالها، وترك كمال صديقه مع والدته، ومضى إلى حجراته ليرتدي جاكته، ثم يعود إليه فينطلقاً معاً.

#### - ٦ -

سارا جنباً إلى جنب صوب درب قمرز، متجئتين طريق النحاسين، ليتفاديا من المرور بالدكان حيث يوجد والداهما... كمال يقامته الطويلة النحيلة، وفؤاد بقامته القصيرة، تكاد صورتاهما تلفتان الأنظار بتناقضهما. تساءل فؤاد بصوت هادئ:

- أين تذهب هذا المساء؟

فأجابه كمال بصوته الانفعالي:

- قهوة أحمد عبده...

كان كمال - عادة - يقرّر، وفؤاد يوافق رغم ما عُرف عن الأخير من رجاحة العقل، ورغم نزوات كمال التي كانت تبدو مضحكة في عين رفيقه، مثل دعواته المتكررة له للذهاب إلى جبل المقطم والقلعة والخيمية لتسريح النظر - على حدّ تعبيره - في مخلفات التاريخ وعجائب الحاضر، ولكن الحق أنّ العلاقة بين الصديقين لم تحلّ من تأثر بفارق طبقيتهما، وكون الأول ابن صاحب الدكان والأخر ابن وكيله، وعمق هذا التأثير أنّ فؤاد اعتاد في صباه أن يؤدّي ما يكلف به من شراء بعض حوائج لبيت السيّد أحمد، وأن يكون صنيعة لكرم أمينة التي لم تكن ترضى عليه بأحسن ما

- تذهبين دون تحية!

اشترأت رأسها فوق جبل الغسيل، ثم قالت:

- البيوت من أبوابها، هذه تحيتي...

وأنجّبت مسرعة نحو باب السطح فمرت منه.

عاد ياسين إلى الصالة فاعتذر لأمينة عن طول غيبته بحرارة الجوّ في الداخل، ثم ذهب إلى حجراته ليرتدي بذلته. كان كمال يُتبعه عينيه في دهشة وتفكير. ونظر إلى أمّه فالفأها هادئة مطمئنة وكانت فرغت من احتساء قهوتها وقراءة الفنجان، فتساءل ترى ماذا يحدث لها لو علمت بما دار فوق السطح؟... هو نفسه لم يزايله القلق منذ اطلع مصادفة على منظر المتناجين حين مضى وراء أخيه مستطلعاً غيبته، فعل ياسين ذلك، هل هانت عليه ذكرى فهمي؟ لا يستطيع أن يتصوّر هذا، كان ياسين يحب فهمي حباً صادقاً، وقد حزن عليه حزناً شديداً، لا يجوز أن يرتاب في إخلاصه، إلى أنّ هذه «الحوادث» كثيراً ما تقح، ثم إنّه لم يدري لم يربطون دائماً بين فهمي ومريم؟! لقد علم المرحوم بواقعة جوليون في حينها، ثم مرّ زمن طويل بدا عليه أنّه نسيها نسيّاً تاماً وشغل عنها بما هو أجل وأخطر، وما كانت تستحقّ غير ذلك وما كانت يوماً كفتاً له. إنّه ممّا يدعو إلى النظر حقّاً أن يتساءل: هل يمكن أن ينسى الحب؟ الحب لا يُنسى، هذا ما يؤمن به، ولكن من أدراه أنّ فهمي أحبّ مريم بالمعنى الذي يفهمه - أو يشعر به - هو من الحب؟ لعلّها كانت رغبة قويّة، كهذه الرغبة التي تستحوذ الساعة على ياسين، بل كذلك الرغبة القديمة إلى مريم نفسها التي ناوشته هو على عهد البلوغ وعاشت أحلامه، أجل وقع هذا أيضاً، وعانى منها المين: ألم الرغبة وألم الندم، وكانا في القوّة متعادلين فلم ينقلده من شرهما إلّا زواج مريم واختفاؤهما. يسمّه أن يعلم الآن هل تألم ياسين وهل وخزه الندم؟ وإلى أيّ مدى؟ لا يتصوّر أن يكون الأمر جرى سهلاً مهما يكن ظنّه بحيوانيّة ياسين وفتور حماسه للمثل العليا، وعلى رغم نظراته المتساعحة للأمر كلّه شعر بامتعاض وقلق كما ينبغي لإنسان لا يعدل بمثاليته شيئاً في الوجود.

عندها من مأكّل - وكثيراً ما يصادف مجيئه أوقات الغدّا - وأصلح ما يمكن استغناء عنه من ملابس كمال، فربط بينها منذ البدء شعور باستعلاء من ناحية وبالتبعية من ناحية أخرى... وهو وإن مضى يزول بحلول شعور الصداقة محله، إلّا أنّ أثره النفسي لم يُقتلَع من الأعماق، وقد قضت ظروف بالآ يجد كمال من رفيق تقريباً طوال العطلة الصيفيّة إلّا فؤاد الحمزاوي، ذلك أنّ رفاق صباه من أهل الحيّ لم يواصلوا التعليم إلى النهاية: منهم من توظّف بالابتدائية أو الكفاءة، ومنهم من اضطرّ إلى مزاولة عمل من الأعمال البسيطة مثل صبيّ قهوة بين القصرين وصبيّ الكوّاء البلديّ بخان جعفر. كان كلاهما من أقرانه في الكتّاب، وما زال ثلاثتهم يتبادلون تحية الزمالة القديمة كلّما اتّفق لهم اللقاء، تحية مشربة بالاحترام من ناحيتها لما يضيئه طلب العلم عليه من امتياز، مشبعة من ناحيته بالموّدة الصادرة عن نفس مطبوعة على التواضع والبساطة، أمّا أصدقائه الجدد الذين اكتسب صداقتهم في العباسيّة: حسن سليم، وإسماعيل لطيف، وحسين شدّاد فكانوا يقضون العطلة في الإسكندرية ورأس البرّ، فلم يبقَ له من رفيق إلّا فؤاد.

بلغا مدخل قهوة أحمد عبده بعد مسيرة دقائق، فهبطا إلى مستقرّها الغريب في جوف الأرض تحت حيّ خان الخليلي، وأنجّهما إلى مقصورة خالية، وفيها هما يجلسان متقابلين حول المائدة تتمم فؤاد في شيء من الحياء:

- ظننتك ستذهب هذا المساء إلى السينا!

وشئ قوله برغبته في الذهاب إلى السينا، ولعلّها راودته قبل أن يذهب إلى مقابلة كمال في بيته ولكّنه لم يفصح عنها، لا لأنّه لا يستطيع أن يثني كمال عن رأي فحسب، وإنّما لأنّ كمال هو الذي يقوم بنفقات السينا إذا ذهب إليها معاً، فلم تواته شجاعته على التلميح إلى رغبته حتّى استقرّ بها المجلس بالقهوة حيث يمكن أن يؤخذ قوله مأخذ الملاحظة البريئة العابرة.

- سنذهب يوم الخميس القادم إلى الكلوب المصريّ

لمشاهدة شارلي شابلن، فلنلعب الآن عشرة دومينو...

خلعا طربوشيهما ووضعاهما على مقعد ثالث، ثم نادى كمال النادل، طلب شايًا أخضر ودومينو. بدا المقهى المدفون كجوف حيوان من الحيوانات المنقرضة، طُمر تحت ركام التاريخ إلّا رأسه الكبير، فقد تشبّث بسطح الأرض فاغراً فاه عن أنياب بارزة على هيئة مدحل ذي سلّم طويل، وثمة في الداخل صحن واسع مربّع الشكل مبلّط بالبلاط المعصرانيّ تتوسطه فسقيّة رُصّت على حافتها أصص القرنفل، وأحدقت بها من الجهات الأربع أرائك فُرشت بالحصير المزركش والوسائد، أمّا جدرانها فقد انتظمتها مقاصير صغيرة الحجم متجاورة، كأنّ الواحد منها كهف منحوت في الحائط، لا نافذة بها ولا باب لها، واقتصر أثاثها على مائدة خشبيّة وأربعة مقاعد ومصباح صغير يشتعل ليل نهار في كوة بأعلى الجدار المواجه للمدخل. وكأنّ القهوة اكتسبت من موقعها الغريب بعض صفاته، فهي تهمّ في هدوء غير مألوف لسائر المقاهي، وضوء غير باهر، وجوّ رطيب، وقد انطوت كلّ جماعة على نفسها في مقصورتها أو فوق أريكتها، تدخّن النارجيلة وتحسو الشاي وتهيم في دردشة لا نهاية لها، تكاد تشملها نغمة صبا وانية متصلة إلّا أن تقطعها في فترات متباعدة سعلة أو ضحكة أو قرقرة مدخّن منهم. كانت قهوة أحمد عبده في نظر كمال مجتلى للمتأمل وتحفه للحالم، أمّا فؤاد - وإن لم تغب عنه طرافتها أوّل عهده بها - فلم يعد يجد فيها إلّا مجلسًا كثيبًا تغشاه الرطوبة والهواء الفاسد، ولكّنه لم يكن يملك إلّا أن يلبيّ كلّما دُعي إليها!

- أتذكر يوم أن رأنا أخوك سي ياسين ونحن في مجلسنا هذا؟

قال كمال بآسًا:

- نعم، سي ياسين متسامح ولطيف ولم يشعرني أبدًا بأنّه أخي الأكبر، بيد أنّ رجوته يومذاك ألا يشير إلى مجلسنا في البيت لا خوفًا من أبي، فإنّ أحدًا عندنا لا يجروّ على مكاشفته بمثل هذا الأمر، ولكن إشفافًا من



والتسلية، بل الحق لم يكن ثمة فارق - في اهتمامه وحماسه - بين جدّه ولطوه. على أن تفوّق فؤاد في المدرسة لم يكن دون تفوّقه في الدومينو، كان أول فرقته بينما كان هو في الخمسة الأوائل، فهل ثمة دور للحفظ في ذلك أيضًا؟ كيف يعمل تفوّق الشاب الذي ينطوي له في الأعماق على شعور بالاستعلاء ظلّ أنه ينبغي أن يمتدّ إلى المواهب العقلية على السواء؟ لم يُعدم رأيًا يهون به من تفوّق صاحبه، فهو يقول إنه يكرّس وقته كلّهُ للمذاكرة وإنّه لو كان عقله بالتفوّق الذي يزعمون لأغنى عنه بعض هذا الوقت، ويقول أيضًا: إنّه يتجنّب الألعاب الرياضية وقد برّز هو في أكثر من نوع منها، ويقول أخيرًا: إنّ فؤاد يقتصر في مطالعته على الكتب المدرسية، وإذا تراءى له أن يقرأ كتابًا غير مدرسيّ في العطلة لاحظ في اختياره أن يكون مفيدًا لدراسته اللاحقة، أمّا هو فلا تحدّ مطالعته حدود ولا توجهها منفعة، فما وجه الغرابة في ذلك في أن يسبقه الشاب في الترتيب؟ غير أنّ سخطه هذا لم يعرّض صداقتها للوهن، كان يحبّه ويحيد في رفقة مؤانسة ومسرّة إلى أنّه لم يرضَ - على الأقلّ فيها بينه وبين نفسه - بالإقرار بفضائله ومزاياه.

تواصل اللعب وانتهت العشرة - على غير ما أُنذر به مطلعها - بانتصار كمال! فطلّق وجهه، وضحك ضحكة عالية، ثمّ سأل غريمه: «عشرة أخرى؟» لكنّ فؤاد قال بأسًا: «حسبنا اليوم ما كان» لعلّه كان ملّ اللعب، أو لعلّه أشفق من أن تحيى نتيجة العشرة المقترحة بخيبة لآمال كمال فينقلب سروره غمًا، فهزّ كمال رأسه كالمتعجّب وقال:

- إنك كالمسك من ذوي الدم البارد!  
ثمّ بلهجة المنتقد، وهو يدلّك أرنبة أنفه العظيم بإبهامه وسبّأته:

- إني أعجب لك، إذا غلبت لم تأبه للأخذ بثأرك، وتحبّ سعد ولكنك تنكص عن الاشتراك في مظاهرة أريد بها تحيية يوم ولي الوزارة، وتبارك بسيدنا الحسين ولكن لم تهتزّ لك شعرة يوم ثبت لنا من تاريخه أنّ جيشانه غير ناوٍ في ضريحه القريب! إني أعجب لك...

إزعاج والدي، تصوّر أنّها ترتعب إذا علمت بتردّدنا على هذه القهوة أو غيرها، وتظنّ أنّ أغلبية رواد المقاهي من الحشّاشين وسيّئ السمعة!

- وسي ياسين، ألم تعلم بأنّه من رواد المقاهي؟  
- إذا قلت لها هذا قالت لي: إنّ ياسين «كبير» ولا خوف عليه، أمّا أنا فصغيرا الظاهر أنّي سأظلّ معدودًا في الصغار في بيتنا حتّى يدركني المشيب!

جاء النادل بالدومينو، وقدحين من الشاي على صينية فاقعة الاصفرار، فتركها جميعًا على المائدة وذهب، تناول كمال قدحه من فوره وراح يحسبه من قبل أن تحفّ حرارته، ينفخ السائل ثمّ يتمرّزه، وينفخ مرّة أخرى ويمصّص شفتيه كلّما لسعته الحرارة، ولكنّ ذلك لا يردعه فيعاود المحاولة في عناد وجزع كأنّه محكوم عليه بالفراغ منه في دقيقة أو دقيقتين، على حين جعل فؤاد يراقبه صامتًا أو يمدّ بصره إلى لا شيء وهو مستند إلى ظهر مقعده في رزانة أكبر من سنّه، تلوح في عينيه الواسعتين الجميلتين نظرة عميقة هادئة، ولم يمدّ يده إلى قدحه حتّى كان كمال قد فرغ من مغالبة قدحه، وعند ذلك أقبل يتحسّى الشاي في تأنّ مستطعمًا مذاقه مستلذًا نكهته، وهو يغمغم بعد كلّ حسوة «الله... ما أطيبه!»، والآخر يحثّه على الفراغ منه بصبر نافذ كي يأخذ في اللعب، وهو يقول منذرًا:  
- لأهزمتك اليوم. لن يحالفك الحظّ أبد الدهر...  
فيبتسم فؤاد مغمغمًا:

- سنرى...  
وأخذًا يلعبان...

كان كمال يولي المباراة اهتمامًا عصبياً، كأنّه يخوض معركة تتوقّف على نتائجها حياته أو كرامته، بينما مضى فؤاد في نظّم. قطعهُ همدوء ومهارة فلم تفارق الابتسامة شفتيه، أقبل الحظّ أم أدبر، هشّ كمال أم عبس، وقد خرج كمال - كماداته - عن طوره، فهتف به: «لعب سخيف، وحظّ سعيد». فلم يزد الآخر عن أن ضحك ضحكة مهذّبة لا تثير حنقًا ولا توحى بتحذّر. طالما قال كمال لنفسه وهو يتميّر غيظًا «لن يبرح حفظه راكبًا حظّي»، ولم يكن يلقي اللعب بالتسامح بالخليق باللهو

- شدّ ما يحقنه البرود، إنّ ما يسمّونه «العقل» لا يطيقه، وكأنّه يحبّ الجنون ويهيم به، إنّّه يذكر يوم قيل لها في المدرسة: «إنّ ضريح الحسين رمز له ولا شيء غير ذلك». عادا يومذاك معاً وفؤاد يردّد ما قاله مدرّس التاريخ الإسلاميّ، وكان كمال يتساءل منزعجاً: كيف أوتي صاحبه تلك القوة التي تحمّل بها الخبر كأنّه شأن لا يعنيه؟! أمّا هو فلم يستسلم لتفكيره، لم يستطع أن يفكر البتّة، وكيف لاثار أن يفكر؟ سار كالمترنّح من هول الطعنة التي نفذت إلى صميم قلبه، كان يبكي خيالاً نضب وحلماً تبدّد، لم يعد الحسين بجارهم، بل لم يكن بجارهم يوماً من الأيام، أين ذهبت القبلات التي طُبعت على باب الضريح في صدق وحرارة؟ أين يذهب الاعتزاز بالقرب والإدلال بالجوار؟ لا شيء من هذا كلّهُ، لم يبقَ إلّا رمز في الجامع ووحشة وخيبة في القلب، وبكى ليلئذاك حتّى بلّل وسادته، تلك كانت الصدمة التي لم تحرك في صديقه العاقل إلّا لسانه حين علّق عليها مرّداً أقوال مدرّس التاريخ، ألا ما أبشع العقل!
- هل علم والدك برغبتك في دخول مدرسة المعلمين؟
- قال كمال بحسّة جاءت معبّرة عن ضيقه بهرود صاحبه وألمه المتخلّف عن مناقشة أبيه معاً:
- نعم!...
- وماذا قال لك؟
- فقال يروّج عن صدره بمهاجمة محدّثه عن طريق غير مباشر:
- وأسفاه!... إنّ والدي كأكثر الناس ممن يهيمون بالمظاهر الزائفة، الوظيفة... النيابة... القضاء... هذا كلّ ما يهيمه، لم أدري كيف أقنعه بجلال الفكر والقيم السامية الحقيقة بالشندان في هذه الحياة! غير أنّه ترك لي حرّية التصرف...
- جعلت أصابع فؤاد تعبت بقطعة من الدومينو، وهو يقول في حذر وإشفاق:
- قيم جليّة بلا شك، ولكن أين البيئة التي ترفعها الطويلة وهو حبيس هذا الحيّ ولا رفيق له إلّا هذا «العاقل»؟ ثمّة حياة أخرى تعارض حياة الحيّ العتيق إلى المنزلة اللاتقة بها؟
- لا يمكن أن أنبذ عقيدة سامية لا لشيء إلّا أن من حولي لا يؤمنون بها...  
فعاد يقول في هدوء مسكّن:
- روح جديرة بالإعجاب!... ولكن ألا يحسن بك أن تقدّر مستقبلك في ضوء الواقع؟  
فتساءل كمال بازدياء:
- ترى لو كان زعيمنا قد أخذ بهذه النصيحة، أكان يفكر جدّياً في أن يذهب إلى دار الحماية للمطالبة بالاستقلال؟  
ابتسم فؤاد ابتسامة كأنّها تقول «رغم ما في حجتك من وجهة فهي لا تصلح قاعدة عامّة في الحياة»، ثمّ قال:
- ادخل الحقوق حتّى تضمن عملاً محترماً، ولك بعد ذلك أن تواصل ثقافتك كما تشاء!
- لم يجعل الله لامرئ من قلوب في جوفه، ثمّ دعني أحتجّ على ربطك العمل المحترم بالحقوق! كأنّ التدريس ليس عملاً محترماً!!
- فبادر فؤاد يقول بتوكيد يدفع به عن نفسه الشبهة:
- لم أقصد هذا مطلقاً، ومنذا الذي يقول إنّ حفظ العلم ونشره ليس عملاً محترماً؟... لمعني كنت أردّد رأي الناس وأنا لا أدري، والناس كما أشرت إليّ شيء من هذا تبهرهم أضواء القوة والنفوذ!
- فهزّ كمال منكبّه استهانة، وقال بإصرار:
- إنّ حياة تكسّر للفكر هي أجلّ حياة...  
هزّ فؤاد رأسه كالموافق دون أن ينبس، وظلّ لاثداً بالصمت حتّى سأله كمال:
- ما الذي دعاك إلى اختيار الحقوق؟  
ففكر قليلاً ثمّ أجابه:
- لم أكن مثلك واقعاً في غرام الفكر، فكان عليّ أن أختار دراسة عالية على ضوء المستقبل وحده، فاخترت الحقوق...
- أليس هذا هو صوت العقل؟ بل إنّهُ هو، شدّ ما يثير حنقه، تمرّده، أليس من الظلم أن يمضي العطلة الطويلة وهو حبيس هذا الحيّ ولا رفيق له إلّا هذا «العاقل»؟ ثمّة حياة أخرى تعارض حياة الحيّ العتيق

- كلاً؟ ظننتك ترحب بلقاء تحت القبو أو في فناء البيت المهجور. نضج جسماهما، وعمّا قليل تصيران امرأتين بكلّ معنى الكلمة، وعلى فكرة كانت قمر مرتدية الملاء اللفّ ولكنّها كانت سافرة فقلت لها صاحكاً: لو لبست البرقع ما تجرّأت على محادثتك!

قال كمال بإصرار:

- كلاً...

- لمّ؟

- لمّ أعد أطيق القذارة!

ثمّ بحدة ثمت عن ألم دفين:

- لا أستطيع أن ألقى الله في صلاتي وثيابي الداخلية ملوثة!

فقال فؤاد بسداجة:

- تطهّر واغتسل قبل الصلاة!

فقال كمال، وهو يهزّ رأسه للاستعارة الضائعة:

- إنّ الماء لا يطهّر من الدنس...

ذلك الصراع القديم، كان يمضي في لقاء قمر مضطرباً بالشهوة والقلق ويعود بضمير معذب وقلب باك، ثمّ عقب الصلاة يستغفر استغفاراً حارّاً طويلاً، لكنّه يمضي مرّة أخرى مغلوباً على أمره ثمّ يعود بالعذاب ليستغفر من جديد... يا لها من آيا نضحت بالشهوة والمرارة والعذاب، ثمّ انبثق النور. هناك وسعه أن يحبّ وأن يصلي معاً، كيف لا؟ والحبّ من منبع الدين يقطر صافياً! قال فؤاد في شيء من الحسرة:

- انقطعت علاقتي بنرجس منذ مُنعت من اللعب في

الحارة!

فسأله كمال باهتمام:

- ألم تكن - وأنت المؤمن - تتعذب بتلك العلاقة؟

فقال فؤاد، وهو يغمض البصر حياء:

- هنالك أمور ما منها بدّ...

ثمّ متسائلاً وكأنّه يداري حياء:

- أترفض حقاً انتهاز هذه الفرصة؟

- بكلّ تأكيد!

- لوجه الدين وحده!

معارضة الضدّ للضدّ، وثمة رفاق آخرون يخالفون فؤاد مخالفة النقيض للنقيض، إلى تلك الحياة وإلى أولئك الرفاق تهفو نفسه، إلى العباسيّة، إلى الطراز الطريف من الشباب، وقبل كلّ شيء إلى الأناقة الرفيعة والنعمة الباريسيّة والحلم البديع... إلى معبودته، آه... إنّ نفسه تنازعه إلى البيت، إلى حجرته كي يخلو إلى نفسه فيدعو كراسته، يراجع تاريخاً أو يستعيد ذكرى أو يسجل نفشة. ألم يشأ له أن يقوِّض هذا المجلس ويذهب؟

- قابلت أناشاً فسألوني عنك...

تساءل كمال، وهو ينزع نفسه بمشقة من تيار الوجد:

- من؟

فؤاد ضاحكاً:

- قمر ونرجس!

قمر ونرجس ابنتا أبو سريع صاحب المقل، قبو قرمز، الأزقة المظلمة بعد الغروب، العبث المشوب بالسداجة الدنسة أو الدنس الساذج، المراهقة المحمومة، ألا يذكر هذا كلّ؟ ما لشفتيه تنقلصان تقزّزا؟ ذلك التاريخ قديم نسيّاً، قبل حلول الروح القدس، لا يذكره إلا ويثور قلبه سخطاً وألماً وخجلاً كما ينبغي لقلب أترع بشراب الحبّ الطهور. كيف قابلتهما؟

- في زحمة مولد الحسين، فسرت إلى جانبها دون تردّد أو ارتباك، كأننا أسرة واحدة جاءت لتطوف بالمولدا!

- يا لك من جريء!

- أحياناً، سلّمت فسلّمتنا، وتحادثنا مليّاً، ثمّ سالتني

قمر عنك!

تورّد وجهه قليلاً، وهو يسأل:

- ثمّ؟

- اتّفقنا مبدئياً على أن أخبرك، ثمّ نتقابل جميعاً!

هزّ كمال رأسه في نفور، ثمّ قال باقتضاب:

- كلاً...

فقال فؤاد في دهش:

إلى كلماته عن الزواج والذرية، فصمّم على مداراة هفوته وعلى تصحيح معناها ما أمكن، فقال:  
- الذين يحبّون ما فوق الحياة لا يتزوّجون، هذا ما عנית.

ابتسم فؤاد ابتسامة خفيفة أو لعله كان يقاوم ضحكة، غير أنّ عينيه العميقتين لم تنمّا عمّا وراءهما، واكتفى بأن قال:  
- هذه أمور خطيرة، والحديث عنها الآن سابق لأوانه، فلندعها مرهونة بأوقاتها...  
فرجع كمال منكبته استهانة وثقة، وقال:  
- فلندعها ولنتنظر...

فؤاد في وادٍ وهو في وادٍ، على ذلك فهما صديقان، لا يسعه أن ينكر أنّ الخلاف في نفسه يجذبه إليه على ما في ذلك من جهد تعانیه أعصابه المرّة بعد المرّة، ألم يثنّ له أن يعود إلى البيت؟ الوحدة ومناجاة النفس تتجاذبان، الكرامة النائمة في درج مكتبته تهيج جيشان صدره، لا بدّ للمكدود في مكابدة الواقع من انتجاع بعض الراحة في الانطواء...  
آن أن نعود...

## - ٧ -

كان الحنطور يتابع سيره على شاطئ النيل حتّى وقف أمام عوامة في نهاية الثلث الأول من طريق أمبابة، وما لبث أن غادره السيّد أحمد عبد الجواد ثمّ تبعه على الأثر السيّد عليّ عبد الرحيم.  
كان الليل قد جثم في مجثمه وغشيت الظلمة كلّ شيء إلّا أضواء متباعدة تطلّ من نوافذ العوامات والذهبيّات التي ينتظمها الشاطئان من جسر الزمالك فهابطاً، وأنوار خافتة لاحت عند موقع القرية في نهاية الطريق كالسحابة الناصحة بوهج الشمس في سماء ملبّدة بالغيوم الدكن.

كان السيّد أحمد يميء للعوامة للمرّة الأولى على رغم اكتراء محمّد عفت لها منذ أربع سنوات - ذلك أنّ صاحبها خصّصها لمجالس الغرام وقد حرّمها السيّد أحمد على نفسه منذ مصرع فهمي - فتقدّمه عليّ عبد

- أليس هذا كافياً؟  
ابتسم فؤاد ابتسامة عريضة، وقال:  
- كم تحمّل نفسك ما لا يُحتمل...  
فقال كمال بإصرار:  
- إنّني لكذلك وما ينبغي لي أن أكون غير ذلك...  
وتبادلا نظرة طويلة، أفصحت في عيني كمال عن الإصرار والتحدّي، فانعكست في عيني فؤاد مهادنة وابتسامة كأشعة الشمس الجهنميّة التي تنعكس على سطح الماء للألاء ضاحكاً، ثمّ واصل كمال حديثه:  
- إنّني أرى الشهوة غريزة حقيرة، وأمقت فكرة الاستسلام لها، لعلّها لم تخلق فينا إلّا كي تلهمنا الشعور بالمقاومة والتسامي حتّى تلعو عن جدارة إلى مرتبة الإنسانيّة الحقّة، إمّا أن أكون إنساناً وإمّا أن أكون حيواناً...

فترث فؤاد قليلاً، ثمّ قال بهدوء:  
- أظنّ أنّها ليست شراً خالصاً، فهي الدافع إلى الزواج، فالذرية!!

خفق قلب كمال خفقة عنيفة لم تجر لفؤاد في خاطره، لهذا هو الزواج في النهاية؟ لكنّه لم يكن يجهل هذه الحقيقة في جملتها وإن كان في حيرة لا يدري كيف يوفق الناس بين الحب والزواج، إنّها مشكلة لم يرتطم بها في حبّه، لأنّ الزواج بدا دائماً - ولأكثر من سبب - فوق مرتقى أمانيه ولكنّ ذلك لم يمنع من قيامه مشكلة تتطلّب الحلّ. ما كان يتصوّر أن يكون اتّصال سعيد بينه وبين معبودته إلّا عن طريق العطف الروحيّ من ناحيتها والتطلّع الهيمان من ناحيته، طريق بالعبادة أشبه، بل هو لعبادة نفسها، فأيّ شأن للزواج في هذا؟

- الذين يحبّون حقّاً لا يتزوّجون.  
تساءل فؤاد بدهش:  
- ماذا قلت؟...

فطن حتّى قبل تساؤل فؤاد إلى أنّ لسانه خان إرادته، فبدا عليه الارتباك لحظة حرجة، وراح يتذكّر آخر أقوال فؤاد قبل ندود هذه الجملة الغريبة عنه حتّى اهتدى بشيء من الجهد - على حداثة العهد بساعها -

الرحيم ليده على المعبر، حتّى إذا قارب السّلم، قال  
محدّراً:

- طلع البدر علينا...

ثمّ عانقه إبراهيم الفار، قائلاً:

- أثنائي زماني بما أرضني...

وتنحّى الرجال جانباً، فرأى جلييلة، وزبيدة،  
وامرأة ثالثة وقفت متأخّرة عنها خطوتين ما لبث أن  
تذكر فيها زُتوبة العوّدة. آه... الماضي كلّه قد جُمع  
في إطار واحد، وتطلّقت أساريه وإن بدا عليه شيء  
من الارتباك، ولكنّ جلييلة ضحكت ضحكة طويلة،  
ثمّ فتحت ذراعيها وعانقته، وهي تقول بنبرات غنائية:  
- كنت فين يا حلو غايب...

ولمّا أطلقته رأى زبيدة على بعد ذراع كالتردّة وإن  
أضاء وجهها نور الترحيب والسرور، فمدّ نحوها  
ذراعه فشدّت عليها، وعند ذاك زوّت ما بين حاجبيها  
المزجوجين في عتاب، قائلة بلهجة لم تخلُ من تهكّم:

- من بعد تلتاشر سنة...

فما غمالك أن ضحك من أعناق صدره، وأخيراً رأى  
زُتوبة بموقفها لم تبرحه، وقد ارتسمت على ثغرها  
ابتسامة حياء كأنّها لم تجد من ماضيها ما يعطيها حقّاً في  
رفع الكلفة بينها، فمدّ لها يده مصافحاً، وهو يقول  
مشجعاً ومجاملاً:

- أهلاً بأميرة العوّادات...

ورجعوا إلى مجالسهم، فشبك محمّد عفت ذراعه  
بذراع أحمد ومضى به إلى مجلسه، فأجلسه إلى جانبه،  
وهو يتساءل ضاحكاً:

- وقعت أم الهوى رماك؟

فغمغم السيّد أحمد:

- رماني الهوى فوقعت...

أخذ المكان يستين لعينيه اللتين غابتا عنه أوّل الأمر  
في حرارة اللقاء ومزاج المرحّين، فوجد نفسه في حجرة  
متوسطة الحجم، طليت جدرانها وسقفها بلون  
زمرديّ، تطلّ على النيل بنافذتين وعلى الطريق  
بنافذتين، وقد أغلق خصاص نوافذها وفتح زجاجها،  
يتدلّى من سقفها مصباح كهربائيّ ذو غطاء مخروطيّ  
من البلّور يركّز نوره على سطح خوان توسط الحجرة

- السّلم ضيق ودرجاته مرتفعة ولا درابزين له،  
ضع يدك على كتفي وانزل على مهل...

هبطا بحذر شديد، وخيرير الماء المتلاطم على  
الشاطئ ومقدّم العوّمة يداعب آذانها، وقد فغمت  
أنفيها رائحة نباتيّة مازجها عرف الطمي الذي جاد به  
الفيضان في ذلك الوقت من أوّل سبتمبر، قال عليّ عبد  
الرحيم وهو يتحسّس زرّ الجرس على جدار المدخل:

- هذه ليلة تاريخيّة في حياتك وحياتنا، ينبغي أن  
نطلق عليها اسماً مناسباً احتفالاً بها، ليلة رجوع  
الشيخ؟... ما رأيك؟...

قال السيّد أحمد، وهو يشدّ قبضته على منكبه:

- لكنّي لست شيخاً، الشيخ الحقيقيّ كان  
أبوك!...

عليّ عبد الرحيم وهو يضحك:

- سترى الآن وجوهاً لم ترها منذ خمس سنوات...

قال السيّد كالتردّد:

- لا يعني هذا أنّي أغير من سلوكي أو أحيد عن  
خطّي (ثمّ بعد لحظة سكوت) قد... قد...

- تصوّر كلّنا يعد بالألّا يقرب اللحم إذا ترك في  
المطبخ!

- الكلب الحقيقيّ كان أبوك يا بن الكلب...

رنّ الجرس، فُتح الباب بعد نصف دقيقة عن وجه  
نوبيّ عجوز، تنحّى جانباً وهو يرفع يديه إلى رأسه تحية  
للقادمين، فدخل الرجلان ومالا إلى باب على يسار  
الداخل فجازاه إلى دهليز قصير مضاء بمصباح كهربائيّ  
يتدلّى من السقف، وقد حلّي جداراه المتقابلان بمزتين  
قام تحت كلّ منها مقعد جلديّ كبير وخوان، وكان في  
نهاية الدهليز المواجه لمدخله باب آخر موارب وشي  
بأصوات السّمار التي اهتز لها صدر أحمد عبد الجواد،  
فدفعه عليّ عبد الرحيم ودخل، فتبعه السيّد، ولكنّه ما  
كاد يعبر عتبة حتّى وجد نفسه حيال الحاضرين وهم  
وقوف، وقد أقبلوا نحوه مرّحين مهلّلين يكاد يطفّر  
البشر من وجوههم، وكان محمّد عفت أسرعهم إليه

روحًا خائبًا رغم ما يكتنفه من لآلاء بَرّاق يستخفي  
حيثًا وراء الابتسام واللعب ثم يبين على حقيقته فيما  
بين ذلك فتقرأ فيه نعي الشباب، إنه الرثاء الصامت،  
أليست زبيدة في الخمسين من عمرها؟ وجليلة جاوزتها  
بأعوام، إنها لدته ولن تكابر في هذا مهما أنكره لسانها،  
ثمة تغير في قلبه أيضًا ينذر بالنفور والتقلص، لم يكن  
كذلك حين جاء، جاء يجري لاهثًا وراء صورة لم يعد  
لها من وجود، ليكن، حاشا أن يستسلم للهزيمة...  
اشرب، واطرب، واضحك، لن يدفحك أحد على  
رغمك إلى ما لا تود...

قالت جليلة:

- لم أكن أصدق أنّ عينيّ ستعان عليك في هذه  
الدنيا!

وجد إغراء شديدًا في أن يسألها:

- كيف ترييني؟

فتدخّلت زبيدة بينهما قائلة:

- كالعهد بك، جل ولا كلّ الجمال، شعرة بيضاء  
تلمع تحت طربوشك ولا شيء خلاف ذلك!

فقال لها جليلة محتجة:

- دعيني أجب أنا، لأنّ سؤاله كان لي (ثم غاطبة  
السيد) أراك كما كنت، لا غرابة في ذلك، ما «نحن»  
إلا أبناء الأمس القريب!

فطن السيد إلى ما رمت إليه، فقال متكلمًا الجذّ  
والصدق:

- أما أنتما فقد ازدتما حسنا ورواء، لم أكن أنتظر  
هذا كلّ.

زبيدة، وهي تتفحصه باهتمام:

- ما الذي غيّبك عنّا ذلك العمر كلّ؟ (ثم  
ضاحكة) كان بوسعك، لو كان فيك خير، أن تلقانا  
لقاء بريئًا، ألا يكون لقاء بيننا إلا إذا كان الفراش  
تحتنا؟

قال السيد إبراهيم الفار، وهو يعرش ذراعه في  
الهواء ليحسر كمّ القفطان عنه:

- لا علم له ولنا بأنّ ثمة لقاء بريئًا يمكن أن يجمع  
بيننا وبينكن!

حاملًا الأقداح وقوارير الويسكي، وقد فُرشت الأرض  
ببساط متجانس اللون مع الجدران والسقف، وقامت  
في كلّ جانب من الحجرة كنبه كبيرة شطرت بنمرقة  
وعُشيت بغطاء مزركش، أما الزوايا فقد احتُلت  
بشلت ووسائد. جلست جليلة وزبيدة وزنوبة على  
الكنبة المجاورة للنيل، واقعدت الرجال الثلاثة الكنبه  
المواجهة لها، بينا انتشرت على الشلت آلات الطرب  
كالعود والدقّ والدربجة والصنج. أجال بصره في  
المكان مليًا، ثم تنهّد بارتياح، وقال بتلذذ:

- الله... الله، كلّ شيء جميل، لم لا تفتحون  
النافذتين المطلّتين على النيل؟

فأجابه محمد عفت:

- يُفتحان عندما ينقطع مرور السفن الشراعية،  
وإذا بُليت فاستروا...

فبادره السيد أحمد بأسًا:

- وإذا استترتم فابتلوا!

فهتفت جليلة كالمتحدية:

- أرنا شطارة زمان!

لم يقصد بقوله إلا المزاح، والحق أنّ إقدامه على  
هذه الخطوة الثورية - بحيته إلى العوامة - بعد طول  
الإحجام أورثه قلقًا وترددًا، لكنّ ثمة شيء آخر، تغير  
من نوع ما عليه أن يكتشفه بنفسه ولنفسه، فليست  
بصره وليمعن النظر، ماذا يرى؟ هاك جليلة وزبيدة،  
كلتاها كالمحمل - كما كان يقول قديمًا - أو لعلها  
ازدادتا شحًا ولحًا، ولكن ثمة شيء يكتنفهما، لعله إلى  
متناول الشعور أقرب منه إلى تناول الحس، إلا أنّه  
وجه من وجوه الكبر بلا مرأ، لعل أصحابه لم يفتنوا  
إليه لأنهم لم ينقطعوا عن المراتين مثلما انقطع، ترى  
ألم يطرأ عليه هو أيضًا مثل الذي طرأ عليهما؟ انقبض  
قلبه وقر حماسه، الصديق العائد بعد غيبة طويلة هو  
أفصح مرآة للإنسان، لكن كيف السبيل إلى هذا  
التغير حتّى يقبض عليه؟ ليست هنالك شعرة بيضاء  
واحدة في رأسها... ولكن ما للشيب ورءوس  
الغواني؟. وليس ثمة تجدّات كذلك. هل غلبت على  
أمرك؟ كلا، إليك نظرة هاتين العينين، إنها تعكس

زبيدة متأففة:

- أعوذ بالله منكم يا رجال، لا تودّون المرأة إلّا مطيّة!

فقهت جلييلة قائلة:

- يا ست أمك احمدي ربنا على ذلك، أكنت تكتنزين هذا الشحم كلّ لو لم تضمري في نفسك أن تكوني مطيّة أو حشية؟

فقال لها زبيدة معاتبه:

- خلّي بيني وبين المتهم كي أحقق معه...

قال السيّد أحمد بأساً:

- كنت محكوماً عليّ بخمس سنوات بريئة بدون شغل...

فعدت زبيدة تهاجمه قائلة في تهكم:

- يا ولداه! حرّمت على نفسك اللذات كلّها، كلّها يا ولداه، حتّى لم يبق لك منها إلّا الطعام والخمر والطرب والمزاج والسهر حتّى مطلع الفجر كلّ ليلة!

فقال السيّد كالمعتذر:

- هذه أشياء لا بدّ منها للقلب الحزين، أمّا الأخرى...

زبيدة وهي تلوّح له بيدها كأنما تقول له «آه منك آه»:

- علمت الآن أنك تعدّنا شرّاً من كافّة الذنوب والخطايا...

محمّد عفت هاتفاً مقاطعاً، كأنما تذكّر أمراً هاماً كاد يفلت منه:

- هل جئنا من أقصى الأرض كي نتكلّم، على حين نطلّ علينا الأقداح ولا نجد من يعنى بها! املاّ الأقداح يا عليّ، اربطي الأوتار يا زُتوبة؟ اخلع ملابسك يا حضرة المحترم، أنت حاسب نفسك في مدرسة؟ انزع الجبّة والطربوش، لا تظنّ أنك أعفيت من التحقيق، ولكن يجب أولاً أن تسكر المحكمة وأن تسكر النيابة ثمّ نعود إلى التحقيق، جلييلة أصرت على تأجيل السكر حتّى يحضر سلطان الفرشة أو كما قالت، هذه الوليّة تعزّك إعزاز الشيطان للضالّ المزمّن، بارك الله لك فيها وبارك لها فيك...

نهض السيّد أحمد ليخلع الجبّة، قام عليّ عبد الرحيم ليتولّى - كعادته - مهمّة الساقى، صدرت عن أوتار العود همسات غير مؤتلفة للاختبار، دندنت زبيدة في غمغمة، سوّت جلييلة بأناملها خصلات شعرها وطوق الفستان فيها بين ثدييها، تابعت أعين بتشوّق يذّي عليّ عبد الرحيم وهو يملأ الأقداح، تربّع السيّد أحمد في مجلسه وهو يحيل بصره في المكان والناس حتّى التقت عيناه اتفاقاً بعينيّ زُتوبة فابتسمت الأعين تحيّة، قدّم عليّ عبد الرحيم الدفعة الأولى من الكئوس. قال محمّد عفت: صحتكم ومحبتكم، قالت جلييلة: نخب العودة يا سيّ أحمد، قالت زبيدة: نخب الهداية بعد الضلال، قال أحمد: نخب الأحباب الذين فرّق الحزن بيني وبينهم... شربوا عندما رفع السيّد أحد كأسه إلى شفّتيه، رأى من فوق سفح الكأس وجه زُتوبة مرفوعاً كذلك إلى كأسه فهزّته نضارته، قال محمّد عفت لعليّ عبد الرحيم: املاّ الثاني، وقال له إبراهيم الفار: والثالث في أثره حتّى نثبت الأساس، قال عليّ عبد الرحيم وهو يشمّر: خادم القوم سيّدهم. وجد أحمد عبد الجواد نفسه يتابع أنامل زُتوبة وهي تربط الأوتار، فتساءل عن عمرها ثمّ قدّره بين الخامسة والعشرين وبين الثلاثين، ساءل نفسه مرّة أخرى عمّا جاء بها... العود؟!... أم أنّ خالّتها زبيدة تهبّ لها سبيل الرزق؟ قال السيّد إبراهيم الفار: إنّ النظر إلى ماء النيل يدوّخه. فهتفت به جلييلة: يا ابن الدايّة! سأل عليّ عبد الرحيم: إذا رميت امرأة في حجم جلييلة أو زبيدة إلى الماء فهل تغرق أم تطفو؟ فأجابه السيّد أحمد بأنّها تطفو إلّا إذا كان بها ثقب، ساءل السيّد أحمد نفسه عمّا يحدث لو نزعته به نفسه إلى زُتوبة، فأجابت نفسه بأنّ ذلك يكون فضيحة لو أراده الآن، أمّا بعد خمس كئوس فلن يغلو من حرج، وأمّا بعد زجاجة فيكون واجباً... اقترح محمّد عفت أن يشربوا كأساً في صحّة سعد زغلول ومصطفى النحاس اللذين سيسافران في نهاية الشهر من باريس إلى لندن للمفاوضة، اقترح إبراهيم الفار أن يشربوا كأساً آخر في صحّة مكدونالد صديق المصريين، تساءل عليّ عبد

قالت جلييلة بظفر وارتياح:

- لست ممن يحب عندهم الرجاء.

هم بأن يقول «عند الامتحان يُكرم المرء أو يهان»،  
ولكنه خاف أن يُدعى للامتحان أو أن يُفهم قوله على  
أنه تقديم في الامتحان، على حين كان كلما أنعم النظر  
تمكّن منه شعور بالنفور وبالزهد لم يجرّ له في خاطر قبل  
المجيء. أجل ثمة تغير لا ينكر، مضى الأمس، وليس  
اليوم كالأمس، لا زبيدة بزبيدة ولا جلييلة بجلييلة،  
وليس ثمة ما يستحقّ المغامرة، ليقنع بالأخوة التي  
نوّعت بها جلييلة، وليمدّها حتى تظلّل زبيدة نفسها،  
قال برقة:

- من أين للكبر أن يدرك آدمياً وهو بينكن؟!

تساءلت زبيدة وهي تقلّب عينيها في الرجال  
الثلاثة:

- أيكم الأكبر؟

فقال السيّد أحمد براءة:

- أنا ولدت في أعقاب ثورة عرابي...!

فقال محمّد عفت عجباً:

- قل كلاماً غير هذا، لقد بلغني أنك كنت من

جنود عرابي...!

فقال السيّد أحمد:

- كنت جندياً من بطونهم، كما يقال الآن: تلميذ

من منازلهم...

فتساءل عليّ عبد الرحيم كالداهش:

- وماذا صنعت المرحومة والدتك وأنت داخل

خارج إلى المعركة؟!

صاحت زبيدة بعد أن أفرغت الكأس في فيها:

- لا تهربوا بالهزار، إني أسألكم عن أعماركم...

قال إبراهيم الفار بتحدّ:

- ثلاثتنا بين الخمسين والخمسة والخمسين، فهل

تكاشفاننا بعمركما؟...

هزّت زبيدة كتفيها استهانة، وقالت:

- أنا ولدت...

ثم ضاقت عيناها المكحولتان وهما تُرفعان إلى  
المصباح في حال تذكّر، غير أنّ السيّد أحمد عاجلها

الرحيم عمّا عناه مكدونالد بقوله: «إنّه يستطيع أن يحلّ  
القضية المصرية قبل أن يفرغ من فنجان القهوة الذي  
كان بين يديه». فأجابه أحمد عبد الجواد بأنّ ذلك يعني  
أنّ الإنجليزي يشرب فنجان القهوة - في المتوسط - في  
نصف قرن، تذكّر السيّد أحمد كيف ثار على الثورة  
عقب مصرع فهمي وكيف ثاب رويداً إلى مشاعره  
الوطنية الأولى لما أسبغه الناس عليه من تقدير وإكبار  
بصفته والد لشهيد نبيل، ثم كيف انقلبت مأساة  
فهمي مع الزمن مفخرة يباهي بها وهو لا يدري!

رفعت جلييلة كأسها صوب السيّد أحمد وهي تقول:  
- صحتك يا جملي، طالما كنت أسألك نفسي هل  
نسيتنا حقاً السيّد أحمد؟ ولكنّي علم الله عذرتك  
ودعوت الله أن يلهمك الصبر والعزاء، لا تعجب فأنا  
أحتك وأنت أخي...

فسأها محمّد عفت بخبث:

- إذا كنت أخته وكان أخاك كما تدّعين، فهل يفعل  
الأخوان ما فعلتما في زمانكما؟

فاطلقت ضحكة أعادت إلى الأذهان ذكريات عام  
١٩١٨ وما قبله، وقالت:

- سل أخوالك يا روح أمك...

قالت زبيدة وهي تلحظ أحمد عبد الجواد بمكر:

- بدا لي رأي آخر في تفسير غيبته الطويلة...

سأها أكثر من صوت عمّا بدا لها، على حين تتمم  
السيّد أحمد بصوت المستعيز:

- يا ساتر استر...

- بدا لي أنّه ربّما كان حصل عنده ضعف ممّا يدرك  
الكهول أمثاله، فاعتلّ بالحزن واختفى...

قالت جلييلة معترضة وهي تهزّ رأسها على أسلوب  
العالم:

- إنّه آخر من يدركه الكبر!

فسأل السيّد محمّد عفت السيّد أحمد:

- أيّ الرايين أصحّ؟

فقال السيّد أحمد بلهجة ذات معنى:

- الرأي الأوّل يعبر عن الخوف والآخر يعبر عن  
الرجاء؟



متممًا ما توقفت عن إتمامه:

- عقب ثورة سعد باشا؟!

ضحكوا طويلاً حتى ألعبت لهم الوسطى، ولكنّ جلييلة لم ترحّب بالحديث فيما بدا، فصاحت بهم: - دعونا من هذه السيرة المقطّرة! ما لنا نحن والأعيار! ليسأل عنها صاحب الأمر في سهاواته، أمّا نحن فالمرأة منّا شابة ما وجدت من يرغب فيها، والرجل منكم شاب ما وجد من ترغب فيه...

هتف عليّ عبد الرحيم بغتة:

- هتثوني!

وسئل عليّ مهتاً عليه، فواصل الهتاف قائلاً:

- سكرت...

قال أحمد عبد الجواد: إنهم ينبغي أن يلحقوا به قبل أن يضلّ وحده في عالم السكر، حتّهم جلييلة على أن يتركوه وحده جزاء تعجّله، أوى عليّ عبد الرحيم في ركن وفي يده كأس مترعة وهو يقول لهم: ابحثوا عن ساقٍ غيري. قامت زبيدة إلى حيث تركت ملابسها الخارجية وفحصت في حقيبتها عن حقّ الكوكابين حتى اطمأنت إلى أنّه في مكانه، اغتم إبراهيم الفار فرصة خلّو مكان زبيدة فجلس فيه ثمّ أسند رأسه إلى كتف جلييلة وهو يتنهد بصوت مسموع، نهض محمّد عفت إلى النافذتين المطلّتين على النيل وأزاح الخصاص عنها جانباً فلاح سطح الماء ظلّما متحرّكة عدا خطوط من الضياء الهادئ رسمتها على الأمواج الأشعة المرسلّة من مصابيح الدهيّات الساهرة، لعبت زنبوبة بأوتار العود محدثة نغمة راقصة فأنجّحت عينا السيّد إليها ملياً ثمّ قام ليملأ كأسه لنفسه، عادت زبيدة فجلست بين عمّد عفت وأحمد عبد الجواد وهي تضرب الأخير على سلسلة ظهره، علا صوت جلييلة وهي تغني:

«يوم ما عصّتي العضة...»

هتف إبراهيم الفار بدوره: هتثوني... اشترك عمّد عفت وزبيدة في غناء جلييلة عند جملة: «وجابولي طاسة الخضة»، اشتركت زنبوبة في الأغنية، فعاود السيّد أحمد النظر إليها وما يدري إلّا وهو ينضمّ إلى المغنّين. جاء صوت عليّ عبد الرحيم من ركن الحجرة

مؤيِّداً. هتف إبراهيم الفار ورأسه لا يزال مسنّداً إلى كتف جلييلة: مغثون ستّة وسَميع واحد هو أنا. قال السيّد أحمد لنفسه دون أن يتوقّف عن الغناء: سوف تلّبي وهي من الرضى والسرور في نهاية، ثمّ ساءل نفسه أيضاً: إلّيلة عابرة أم معاشرة طويلة؟ قام إبراهيم الفار فجأة واندفع يرقص، جعل الجميع يصفقون على الواحدة ثمّ غنّوا معاً:

«خذني في جيبك بقه... بين الحزام والمنطقة».

ساءل السيّد أحمد نفسه: ترى أتعجب زبيدة أن يكون اللقاء في بيتها؟... انتهت الأغنية والرقص فاستبقوا إلى التراسق بالدعابات دون توقّف، جعل أحمد عبد الجواد كلياً أطلق دعابة يسترق النظر إلى وجه زنبوبة ليرى أثرها فيه، اشتدّ المهرج والمرج، ومضى الوقت منسرقاً...

- آن لي أن أذهب...

قال عليّ عبد الرحيم ذلك، وهو ينهض متّجهاً إلى ملابسه. فصاح به محمّد عفت ساخطاً: - قلت لك أن أحضرها معك حتى لا تقطع السهرة!

تساءلت زبيدة وهي ترفع حاجبيها:

- من هي المحروسة؟

فقال إبراهيم الفار:

- رفيقة جديدة، معلّمة قذ الدنيا وصاحبة بيت بوجه البركة...

فسأله السيّد أحمد باهتمام:

- من...؟

أجاب عليّ عبد الرحيم، وهو يحبك الجبة ضاحكاً:

- صاحبك القديمة سنّية القلي...

فأتسعت عينا السيّد الزرقاوان، وتجلّت فيها نظرة حاملة، ثمّ قال باسماً:

- اذكرني عندها وأقرئها السلام...

قال عليّ عبد الرحيم، وهو يقتل شاربه ويتأهب للذهاب:

- سألتك عنك واقتربت عليّ أن أدعوك إلى قضاء

سهرة في بيتها بعد مواعيد العمل، فقلت لها إنّ بكره

«تانا خطي العتبة... تانا خطي العتبة». الخمر تشلّ العضو الذي يفرز الحزن، غمغمت جليلة قائلة: «حسبنا»، ونهضت فغادرت الحجرة إلى ردهة تفضي إلى مخدعين متقابلين، فالت إلى المخدع المجاور للنيل ودخلت، وما لبث أن ترامت إليهم طقطقة الفراش وهو يلتقي جسمها العظيم، راقّ زبيدة تصرّف جليلة فاتّبع أثرها إلى المخدع الآخر باعثة وراءها طقطقة أعنف، قال إبراهيم الفار: «إنّ لسان السرير قد نطق». تناهى إليهم من المخدع الأوّل صوت وإن يترنّم عاكياً بحّة منيرة: «يا حبيبي تعالى»، فقام محمّد عفت وهو يجيب مترنماً كذلك: «آديني جي». نظر إبراهيم الفار إلى أحمد عبد الجواد متسائلاً، فقال له السيّد: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»، فقام وهو يقول: «لا حياء في العوامة!... خلا الجوّ، ها هي الساعة التي رصدتها طويلاً، نحت الصغيرة العود جانباً وتربعت وهي تسيل حاشية الفستان على ساقها المتشابكتين. ساد صمت وتبديل نظر ثمّ مدّت بصرها إلى لا شيء، تكهرب الصمت فلم يعد يُحتمل، نهضت فجأة فسألها: إلى أين؟ فغمغمت وهي تمزق من الباب: «الحمام»، قام بدوه إلى مجلسها فجلس وتناول العود وراح يعبث بأوتاره، وهو يتساءل: «أليس ثمة حجرة ثالثة؟» لا ينبغي لقلبك أن يدقّ هكذا كأنما الجنديّ الإنجليزي يسوقك أمامه في الظلام، ليلة أمّ مريم هل تذكر؟ لا تعد إلى ذكراها فهي ألم، عادت من الحمام... ما أنضرها!...

- أنضرب العود؟

أجاب باسمًا:

- علميني...

- حسبك الدفّ فإنّك من رجاله!

وهو يتنهد:

- تلك أيّام خلت، ما أطفها، كنت طفلة! ما لك

لا تجلسين؟

تكاد تلمسك، ما أحلّ أوّل الصيد!

- خذي العود وأسمعي...

اسم النبيّ حارسه قد بلغ السنّ التي تعدّ في أسرهم موجبة للدخول في وجه البركة وغيرها من وجوه الفسق، فلا يأمن أبوه إن جاء أن يلتقي به في إحدى جولاته!...

وضحك الرجل ملء شذقيه، ثمّ سلّم وغادر الحجرة إلى الدهليز، فتبعه على الأثر محمّد عفت وأحمد عبد الجواد ليوصلاه إلى الباب الخارجيّ واستمرّوا يتحدّثون ويتضاحكون حتّى غادر السيّد عليّ العوامة، وعند ذاك غمز محمّد عفت دراع أحمد عبد الجواد، وهو يتساءل:

- زبيدة أم جليلة؟

فقال السيّد أحمد ببساطة:

- لا هذه ولا تلك!

- لم؟ كفى الله الشرّ!

فقال بلهجة القانع:

- خطورة خطوة، سوف أكتفي ما بقي من هذه الليلة بالشراب وسماع العود!...

ألحّ عليه أن يقدّم رجله خطوة أخرى، ولكنّه اعتذر فلم يثقل عليه، عادا إلى الحجرة المبعثرة الفاقدة الوعي فاستردّا مجلسيهما. قام إبراهيم الفار مقام الساقى، افتضحت أمارات السكر في وهج العيون وسلس الحديث وتحرّز الأعضاء، غثّوا جميعاً وراء زبيدة:

«البحر يبضحك ليه...».

لوحظ أنّ صوت السيّد أحمد عبد الجواد علا حتّى كاد يغطّي على صوت زبيدة، روت جليلة تناتيش من مغامراتها. مذ وقع بصري عليك شعرت بأنّ الليلة لن تمرّ بلا مغامرة، ما أملح الصغيرة، الصغيرة؟ هي كذلك ما دمت تكبرها بربع قرن. تحسّر إبراهيم الفار على العصر الذهبيّ للنحاس على أيّام الحرب، فقال لهم بلسان ثقل «كنتم تقبلون يدي من أجل رطل نحاس» فقال له السيّد أحمد: «إن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيّدي». اشتكت زبيدة شدّة السكر فقامت تتمشّي ذهاباً وحيثة، وعند ذاك جعلوا يصفّقون على إيقاع مشيتها المترنحة ويصفّون بها:

الصامت حتى عجب الرجل لشأنها فباخ حماسه ووجد  
وخزة في كبريائه، ثم جعل ينظر إليها وعلى شفثيه  
ابتسامة متكلفة حتى سأها:

- ماذا أغضبك؟

فلازمت الصمت مليًا، ثم شبكت ذراعيها على  
صدرها.

- إني أتساءل عما أغضبك؟

قالت باقتضاب:

- لا تسل عما تعلم...

ضحك فجأة ضحكة عالية معلًا بها عن استهانتها  
وعدم تصديقه، وقام بدوره فملاً الكأسين ثم قدّم لها  
كأسها، وهو يقول:

- روقي مزاجك...

فتناولت الكأس تآديًا ثم أعادتها إلى المائدة، وهي  
تغمغم «أشكرك» فتراجع إلى مجلسه وقعد، ثم رفع  
كأسه إلى شفثيه وتجرّعها دفعة واحدة وقهقه ضاحكًا.

أكان في وسعك أن تتوقع هذه المفاجأة؟ لو أستطيع  
أن أرجع في الزمن ربع ساعة إلى الوراء، زُتوبة...

زُتوبة... ولا شيء غير زُتوبة فهل تصدّق ذلك؟ لا  
تشتت حيال الصدمة، من يدري لعلّه دلال موضّة

١٩٢٤ يا حمصائي ١٩٠٠، ماذا تغيّر في؟... لا  
شيء... لكنّها زُتوبة... أليس ذلك هو اسمها؟

لكلّ رجل حتّى من امرأة تعرض عنه، وما دامت زبيدة  
وجلييلة وأمّ مريم يسعين إليك فمّن غير زُتوبة - هذه

الخنفساء - تعرض عنك؟ تحمّل حتّى تحتمل، ليس  
الأمر على أيّ حال بكارثة، آه، انظر انظر، ساقها

مليحة مدملجة، أساسها متين، لم تظنّ أنّها أعرضت  
عنك حقًا؟...

- اشربي يا حلوة...

قالت بصوت يجمع بين الأدب والحزم:

- عندما يروق لي الشراب...

فسدّد نحوها بصره، ثمّ تساءل بلهجة ذات معنى:

- ومتى يروق لك...؟

فقطّبت معلنة عن مدى فهمها لإشارته ولم  
تجب...

- شبعنا غناء وعزفًا وضحكًا، عرفت الليلة أكثر من  
ذي قبل لماذا يفتقدونك في كلّ سهرة!

فابتسم ابتسامة وشت بسروره، ثمّ قال بمكر:

- ولكنك لم تشبعي شربًا؟

فأجابت بالإيجاب وهي تضحك، فوثب كالجواد إلى  
المائدة، ثمّ عاد بزجاجة مملوءة حتّى النصف، وكأسين،

وجلس وهو يقول: «لنشرب معًا. الشرهة اللذيذة  
تنفث عيناها شيطنة وسحرًا، سلها عن الحجرة

الثالثة... سلّ نفسك: ليلة أمّ معاشرة... وعن  
العواقب لا تسل، أحمد عبد الجواد بجلالة قدره يفتح

ذراعيه لزُتوبة العوادة... بصحاف الفكاهة كانت  
تقف بين يديك... لكن لتحلّ بك السعادة جزاء

نضارتك، أمّا الكبر فلم يكن أبدًا من شيمي... رأى  
كفّها القابضة على الكأس قريبة من ركبته، فمدّ راحته

وربّت عليها بلطف، ولكنّها سحبتها في صمت إلى  
حجرها دون أن تلتفت إليه، فسأله نفسه ترى هل

يحلو التدلّل في هذا الوقت المتأخّر خاصّة إذا كان  
الداعي مثله وكانت المدعوّة مثلها؟ غير أنّه لم يجد عن

سنن الملاينة والملاطفة، فسألها بلهجة ذات معنى:

- أليس ثمة حجرة ثالثة في العوامة؟

قالت تحييب على ظاهر السؤال متجاهلة مغزاه وهي  
تشير صوب باب الدهليز:

- في الناحية الأخرى...

تساءل وهو يقتل شاربه مبتسمًا:

- أليست تسع كلينا؟

فقال بصوت لا أثر للدلال فيه، وإن لم يجاوز  
حدود الأدب:

- تسعك وحدك إن طاب لك النوم!

فسألها كالداهش:

- وأنت؟

فقال بنفس اللهجة:

- مستريحة كما أنا...

نزحزح قليلًا مقتربًا منها، ولكنّها قامت فوضعت  
كأسها على المائدة، ثمّ مضت إلى الكنبّة المقابلة له،

فجلست راسمة على وجهها صورة الجدّ والاحتجاج

متدَلِّلة... اسلخها بلسانك... اركلها بقدمك...  
ادفعها أمامك إلى الحجرة قهراً. الأجدر أن تشيح عنها  
بوجهك وتغادر المكان فوراً، في أعيننا لعنة تذُلُّ  
الأعناق، ما ألطف جيدها، لا تمار في حلاوتها، طاش  
الرأي ووجب الألم...

- لم أكن أتوقَّع هذا الجفاء...  
وقطَّب مصمَّماً وقد تجمَّهم وجهه، فنهض رافعاً كتفيه  
في استهانة، وهو يقول:  
- ظننتك مثل خالتك لطافة وذوقاً فخاب ظني، ولن  
ألوم إلا نفسي...

سمع وسوسة شفيتها وهي تمتص ريقها مصَّة  
الاحتجاج والانتقاد. ولكنَّه مضى إلى ملابسه فأخذ  
يلبسها على عجل حتَّى انتهى منها في أقلَّ من نصف  
المدة التي تتطلبها عادة أناقته. كان مصمَّماً غاضباً،  
ولكنَّ اليأس لم يبلغ به نهايته، ظلَّ جزء من نفسه  
متمرداً يأبى أن يصدِّق ما وقع أو يعزَّ عليه أن يسلم  
به، فتناول عصاه وهو يترقَّب بين لحظة وأخرى أن  
يحدث شيء فيكذب ظنَّه ويصدِّق أمانيَّ كبريائه  
الجرَّيح، كأن تضحك فجأة حاسرة عن وجهها قناع  
الجدِّ الزائف، أو أن يهرع إليه مستنكرة غضبه، أو أن  
تتب أمامه لتحول بينه وبين الذهاب، أجل كثيراً ما  
تكون مصَّة الريق التي نلَّت عنها مناورة يعقبها  
الاستسلام، غير أنَّ شيئاً من ذلك لم يحدث.

ولبثت وهي بمجلسها تنظر إلى لا شيء، متجاهلة  
إيَّاه كأنَّها لا تراه، فغادر الحجرة إلى الدهليز ومنه إلى  
الباب الخارجي ثمَّ إلى الطريق وهو يتنَّهَّد في حزن  
وأسف وغيظ. قطع الطريق المظلم مشياً على الأقدام  
حتَّى بلغ جسر الزمالك وجَّوَّ الخريف الرطب يتسلَّل  
في لطف إلى داخل ملابسه، ومن هناك استقلَّ  
تاكسي، فطوى به الأرض طياً وهو ذاهل من السكر  
والفكر، حتَّى انتبه إلى ما حوله في ميدان الأوبرا  
والسيارة تدور به في طريقها إلى العتبة الخضراء، في  
أثناء دورانها حانت منه التفاتة فلمح على ضوء  
المصابيح سور حديقة الأزبكية فعلق به بصره حتَّى  
غَيَّبه عنه منعطف الطريق، ثمَّ أغمض عينيه وهو يشعر

تساءل السيِّد، وكان يشعر في تلك اللحظة أنَّه  
يتدهور:

- ألم يصادف توذدي القبول؟  
فطامنت من رأسها لتخفي وجهها عن عينيه،  
وقالت برجاء حازم:

- هلَّا كففت عن هذا؟  
تملكه غضب فجائي فجاء كردُّ فعل لإحساسه  
بالتدهور، فتساءل داهشاً:  
- لم تحيئين إلى هنا؟

قالت باحتجاج، وهي تشير إلى العود المستلقي على  
الكنبة غير بعيد عنه:

- أجيء من أجل هذا...  
- فقط؟... لا تناقض بين هذا وبين ما أدعوك  
إليه...!

تساءلت باستياء:  
- بالقوة؟

فقال وهو يعاني سكرات الخيبة والحنق:  
- كلاً، ولكنِّي لا أجد سبباً للرفض!  
فقالت برود:

- لعلَّ عندي أسباباً...  
ضحك ضحكة عالية فاضية، ثمَّ غلبه الحنق،  
فقال هازئاً:

- لعلَّك تخافين على بكارتك!  
رنت إليه بنظرة طويلة قاسية، ثمَّ قالت بحنق  
وتشفُّ:

- أنا لا أرضى إلا بمن أحبه...  
همَّ بأن يضحك مرَّة أخرى، ولكنَّه أمسك بعد أن  
ضاق صدره بهذه الضحكات الآليَّة المحزنة، ومدَّ يده  
إلى القارورة فصبَّ منها في كأسه بلا تدبُّر حتَّى امتلأت  
إلى النصف، ولكنَّه تركها على المائدة، وراح ينظر إلى  
المرأة في حيرة لا يدري كيف يخرج من المأزق الذي  
دفع نفسه إليه... الأفعى بنت الأفعى لا ترضى إلا  
بمن تحبه، هل يعني هذا إلا أنَّها تحبُّ كلَّ ليلة رجلاً!  
هيهات أن تمحى من صفحتك فضيحة الليلة! السادة  
هناك في الداخل، وأنت هنا تحت رحمة عوادة

هذا القلق كله؟ إني أنألم، أجل! إني أنألم، إني مكروب بما نزل بي من مهانة، أتوعدها بالازدراء ثم تحطرها منها على القلب خطرة فتستعر عروقي... استبق الحياء ولا تجعل من نفسك أضحوكة، إني أستحلفك بالأولاد من بقي منهم ومن ذهب... هتية كانت المرأة الوحيدة التي هجرتك فجريت وراءها، ماذا لقيت منها؟ ألا تذكر! فتوة الزفة يرقص ويسكر ويصول ويجول، ثم يعمل عصاه في المصاييح وطاقت الورد والمزامير والمدعوين، حتى يغطي الصلوات على الزغاريد... ذاك رجل! كن فتوة العوامة واقتل أعداءك بالتجاهل والإعراض. ما أضعف أعداءك وما أقواهم، ساق مسترخية لا تكاد تقوى على المشي غير أنها تهد الجبال الرواسي، ما أقطع سبتمبر إذا ارتفعت حرارته المشبعة بالرطوبة، ما أطفئ أماسيه خاصة ما يكون منها في العوامة. إن بعد العسر يسرا...

فكر في أمرك وانظر في أي اتجاه تسير، المکتوب لازم تشوفه العين، الإقدام مر والنكوص مرعب، كم كنت تراها وهي في ميعه الصبا فلم توقظ فيك نائما ومررت بها كأنها شيء لم يكن، ماذا جد حتى زهدت فيمن أحببت وأحببت من كنت تزهد، ليست أجمل من زبيدة ولا جلييلة ولو كان بها جمال يتنافس جمال خالتها ما اصطحبتهما، على ذلك فانت تريدها وتريدها بكل قوة نفسك... أه! ما جدوى المكابرة؟ لا أرضى إلا بمن أحبه! أحبك برص يا بنت اللبوة... تألم حتى تختق، ما أذل الإنسان مثل نفسه، هل تذهب إلى العوامة؟ ليست خير مكان لإذاعة الفضائح، البيت؟ هناك زبيدة! أهلاً أهلاً! أعدت أخيراً إلى عرينك؟ بم تجيها؟ لم أعد لذلك، ولكني أريد بنت أحتك! يا له من سخف! دع الهذر. هل فقدت صوابك؟ استعن بالفار أو بمحمد عفت. السيد أحمد عبد الجواد يبحث لنفسه عن شفيع إلى... زبوة... ليس من الأفضل أن تفصد نفسك حتى يتفصد الدم الخبيث الذي يسمك الذل!

كان الليل قد غشي الغورية وأغلقت أبواب حوانيتها، حين أقبل أحمد عبد الجواد من دكانه عقب

بشكة تنفذ إلى أعماق قلبه، ووجد في باطنه صوتاً كالأنين يهتف في عالمه الصامت داعياً بالرحمة للفقيد العزيز، فلم يجرو على ترديد الدعاء بلسانه أن يذكر اسم الله بلسان مشبع بالخمر، وعندما رفع جفنيه، ذرفت عيناه دموعين غزيرتين...

## - ٨ -

لم يدري ماذا ركب! شيطان رجيم أم داء وبيل؟ نام وهو يأمل أن يكون انتهى من سخب الليلة الماضية، بسخب السكر دعاه، وللسكر سخب لا ريب فيه يفسد لذاته ويقلب مسراته، وعندما ألقى عليه الصباح نوره وجده من قلق يتقلب، ورشاش الدش يترشش على جسده العاري تشتت فكره وخفق قلبه، تخايل لعينيه وجهها وطلت في أذنيه وسوسة شفيتها ورجع قلبه صدى الألم، ثم تجر أذكارك الظائمة كفتي مراهق والطريق من حولك يحميك تحية الإجلال. يحيون فيك الوقار والورع وحسن الجوار، ولو علموا أنك ترد تحياتهم في آتية وفكرك عنهم غائب مهموم في حلم جارية عالة... عوادة... امرأة تعرض جسدها كل ليلة في سوق المضاجع... لو علموا ذلك، لأولوك بدل التحية ابتسامة هزة وثناء. فلتقل الأفعى «نعم» وعند ذلك أعرض عنها بكل ازدراء وارتياح، ماذا دهاني وماذا أروم، هل أدركك الكبر؟ أتذكر ما ابتلى جلييلة وزبيدة من عادييات الزمن؟ تلك أثار بغضة يجدها القلب ولا يدركها الحس، لكن مهلاً، حذار أن تسلم للوهم فيسلمك الوهم لقمة سائغة للانبهار... ما هي إلا شعرة بيضاء، لغير ذلك من البواعث أعرضت عنك العوادة الحفيرة... الفظها كما تلفظ ذبابة اندست في فيك وأنت تتأهب، وأسفاه! أنت تعلم أنك لن تلفظها، لعلها الرغبة في الانتقام ولا شيء سوى ذلك. رد اعتبار ليس إلا. ينبغي أن تقول الجارية «نعم»، ولك أن تهجرها بعد ذلك قريبر العين. لا شيء فيها يستحق النضال. أتذكر ساقها وجيدها وشهوة عينيها؟ لو داويت كبرياتك بلعقة من الصبر لفزت - من ليلتك - بالمتعة والبهجة، ماذا وراء

كلّهُ؟ هل يسرّك حقّاً أن تترك من وراء الخصاص  
لتهزأ من تدهورك؟ إنك لا تدري ماذا تصنع بنفسك،  
أنتبت عينيك في حجرهما ودوّخت دماغك، لن تبدو  
لك، والأدهى من هذا أن تتفرّج عليك ساخرة من  
وراء خصاص، ماذا جاء بك؟ تريد أن تملأ عينيك  
منها. اعترف، تريد أن تقيس أبعاد جسمها اللدن...

أن ترى ابتسامتها وإغضاءتها... أن تتابع أناملها  
المخضبة، فيم هذا كلّهُ؟ لم يسلف لك شيء كهذا مع  
من فُقتها حسناً ورواء وشهرة، أفضي عليك أن تتعذّب  
وتهون في سبيل الشيء الحقير. لن تبدو... تطلّع  
كيفما شئت... الفُت إليك الأنظار... السيّد أحمد  
عبد الجواد في قهوة سي عليّ يسترق النظر من الكوة،  
لشدّ ما تدهورت! من أدراك أنها لم تفش سرّك؟

لعلّ التخت يدري، ولعلّ زبيدة نفسها تدري، ولعلّ  
الجميع يدرون! مدّ يده المحلّة بالختام الماسيّ إلى  
فصده ثمّ توسّل إليّ فأصررت على صدّه... هذا  
هو السيّد أحمد عبد الجواد الذي تشيدون به!

لشدّ ما تدهورت! أقصى التدهور ما تنحدر إليه، بل  
ما تصرّ على الانحدار إليه وأنت أعلم الناس بما  
ينطوي عليه فلكك المشين من مذلّة وهوان، إذا عرف  
السّر أصحابك وزبيدة وجليلة، فماذا أنت صانع؟  
حقّاً أنت ماهر في مداراة الحرج بالنكتة، ولكن سوف  
تنحسر موجات الضحك والقهقهة عن الحقيقة

المرة... هذا مؤلم وآلم منه أنك تريدها. لا تكذب  
على نفسك، فأنت تريدها حتّى المساء. ماذا  
أرى؟... تساءل وهو ينظر إلى عربة كارو جاءت

فوقفت أمام بيت العالمة، ثمّ ما لبث أن فُتح الباب  
فخرجت عيّوشة الدقّافة ساجدة وراءها عبده  
القانونجيّ، ثمّ تبعها بقيّة الجوقة، فأدرك أنّهم ذاهبون  
إلى فرج من الأفراح. وشعر الرجل شعوراً غنيماً  
بخفقان قلبه وهو يتطلّع إلى الباب في ترقّب مشوق

مخزن. اشرب بعنقه في غير ما حيطة متجاهلاً ما حوله  
من الناس، ثمّ رنّت ضحكة وراء الباب، ثمّ برز  
العود في جراب بمبيّ يسبق صاحبه التي خرجت في  
نشاط ثوريّ ضاحكة ثمّ وضعت العود على مقدّم

إغلاقها، يسير في خطوات وثيدة وعيناه تتفحصان  
الطريق والنوافذ، لاح وراء نافذتي زبيدة ضوء، ولكّنه  
لم يدّر ماذا كان يدور وراءهما، أوغل في الطريق وقتاً  
ثمّ عاد من حيث أتى، فوصل مسيره إلى بيت عمّده  
عفت بالجلاليّة حيث يلتقي الأصدقاء الأربعة قبل  
انطلاقهم إلى السهرة معاً. قال السيّد غاطباً محمّد  
عفت:

- ما ألطف ليالي العوامة، لا يزال قلبي يحنّ إليها!  
فقال محمّد عفت ضاحكاً في ظفر:

- هي رهن إشارتك في أيّ وقت تشاء...

وعقب عليّ عبد الرحيم على ذلك بقوله:

- حننت إلى زبيدة، يا عكروت...

فبادر السيّد قائلاً في جدّ:

- كلّاً...

- جليلة؟

- العوامة ولا شيء عداها...

فسأله محمّد عفت بمر:

- أتريدها سهرة قاصرة علينا، أم ندعو إليها  
صديقات الزمان الأوّل؟

فضحك السيّد ضحكة أعلن بها هزيمته، ثمّ قال:

- بل تدعوهم يا بن الماكرة، وليكن ذلك مساء  
الغد، لأنّ الوقت تأخّر بنا الليلة، ولكّني لن أجاوز  
الاستمتاع بالمجالسة والمؤانسة...

قال إبراهيم الفار «إحم»، وقال عليّ عبد الرحيم:

«على روعي أنا الجاني»، وقال محمّد عفت ساخرًا:

«سمّه كما تشاء، تعدّدت الأسماء والفعل واحد».

ثمّ كان اليوم التالي كأنّما اكتشف قهوة سي عليّ  
لأوّل مرّة. انجذب إليها قبيل الأصيل، وجلس على  
الأريكة تحت الكوة، فأقبل عليه صاحب القهوة  
مرحبًا، فقال له السيّد وكأنّه يبرّر مجيئه إلى القهوة لأوّل  
مرّة:

- كنت راجعاً من بعض الأعمال، فنازعني النفس  
إلى احتساء شايك العذب.

زيارة لا يبدو أنّها من السهل أن تتكرّر... رويدًا

رويدًا! ستفصح نفسك أمام الناس، ما جدوى هذا

نفسها بيد أنه ضبط نفسه فخرج من أزمته مصون السر والكرامة.

ولما قام عليّ عبد الرحيم عند منتصف الليل ليذهب إلى رفيقته بوجه البركة، قام معه على غير توقّع من أحد ليعود إلى بيته، وعبثًا حاولوا أن يشنوه عن عزمه أو أن يستنظروه ساعة، فذهب مخلّفًا وراءه دهشة، وخيبة للذين حدسوا وراء مجيئه المرسوم ظنونًا لم تقع.

ثمّ كان يوم الجمعة فخرج إلى جامع الحسين قبيل الصلاة بقليل، وإنّه ليسير في شارع خان جعفر، إذ رآها عابرة من حارة الوطاويط في طريق الجامع!... آه... لم يخفق قلبه مثل تلك الخفقة من قبل، وأعقبها على الأثر جود شمل حركته النفسية كلّها، حتّى خيل إليه - فيما يشبه الغيبوبة، وخلافًا للواقع - أنّه توقّف عن السير، وأنّ العالم من حوله صمّت صمّت القبور، كمثّل السيّارات التي تتوقّف محرّكاتنا عن الدفع فيخرس أزيها ولكنّها تسير بقوة القصور الذاتي في سكون شامل، ولما أفاق إلى نفسه وجدها تتقدّمه بمسافة غير قصيرة، فتبعها على الأثر دون تدبّر أو روية، فمرّ بالجامع دون أن يعرّج إليه، ثمّ مال وراءها عن بُعد إلى السكّة الجديدة. ماذا ينبغي؟. إنّه لا يدري!! كان يطيح ردّ الفعل طاعة عمياء، لم يكن سبق له أن تعقّب امرأة في الطريق ولا في أيّام شبابه الأوّل فأخذ ينتابه الحرج والحذر، ثمّ دهشته فكرة ساهرة مفزعة معًا: أن يهتّك سرّ المطاردة الخفية، ياسين أو كمال! على أنّه حرص على ألاّ تقصر المسافة بينه وبينها عمّا كانت عليه مذ بدأت المطاردة، وراحت عيناه ترتويان من هيئة جسمها اللطيف بنهم وظمًا وهو يستقبل موجات متتابعة من الأشواق والآلام، حتّى رآها تعدل عن الطريق إلى دكان صائغ من معارفه يدعى يعقوب، تباطأت قدماه كي يتيح لنفسه فرصة للتدبّر وتضاعف شعوره بالحرج والحذر: ألا يعود من حيث أتى؟ أم يمرّ بالدكان دون أن يلتفت نحوها؟ أم ينظر إلى الداخل وينتظر ما يحدث؟

كان يقترب من الدكان وريدًا، حتّى إذا لم يبق بينه

العربة، وصعدت إليها بمعونة عيوشة، وجلست في الوسط حتّى لم يعد يرى منها إلّا منكبًا يبدو خلال زاوية انفرجت ما بين عيوشة وعبد الضير. أصرّ السيّد على أسنانه حنيًا وحنقًا معًا. أتبع العربة عينيه وهي تتساييل ذات اليمين وذات الشمال موغلة في الطريق، مخلّفة في صدره إحساسًا عميقًا بالكآبة والهوان، وتساءل: هل يقوم فيتبعها؟ غير أنّه لم يحرك ساكنًا ولم يزد على أن قال لنفسه: «وكان المجيء إلى هنا حافّة جنونية».

ذهب في المساء الموعود إلى العوامة بإمبابية، لم يكن استقرّ على رأي فيما ينبغي أن يفعل على كثرة ما أدار الأمر في ذهنه. ثمّ أخيرًا، رهن حلّ مشاكله بيد الظروف والفرص... حسبه أنّه ضمن رؤيتها ومجالستها والانفراد بها في آخر الليل، سوف يجسّ النبض من جديد وربما أعاد الكرة مستعينًا هذه المرّة بكافة ضروب الإغراء، دخل العوامة كالوَجَل، وعلى حال لو رآها على غيره وحدس بواعثها لأغرقه ضحكًا وسخرية. هنالك وجد الإخوان وجيلية وزبيدة ولكنّه لم يعثر للعوادة على أثر!! وقد استقبل استقبالًا حارًّا، وما كاد يخلع جيّته وطربوشه ويتخذ مجلسه حتّى انفجرت القهقهات من حوله فاندمج في جوّها بقوة مرونته. حدّث ونكّت ومازح وداعب مغالبًا قلقه محاورًا همّه، غير أنّ مخاوفه كمنت تحت تيّار المرح دون أن تتبدّد كما يكمن الألم إلى حين تحت تأثير المخدّر، وما برح يأمل أن يفتح باب فتأتي منه أو أن يشير إليها بكلمة تفسّر غيابها أو تعبّد بقرب حضورها، وكلّما مضى الوقت متناقلًا متناثبًا شحب أمله وفتّر حماسه وغيم المأمول من صفوه.

ترى أيّهما كان الطارئ: حضورها أوّل أمس، أم تخلفها اليوم؟ لن أسأل أحدًا، الظواهر تنمّ على أنّ سرّك لا يزال مصوّنًا، لو علمت به زبيدة ما توزّعت أن تجعل منه فضيحة وجرسه. ضحك كثيرًا وشرب أكثر، سأل زبيدة أن تغنيه وأضحك من الفم وأبكي من صميم قلبي، أوشك مرّة أن يخلو بمحمّد عفت ليكاشفه بما يريد، أوشك مرّة أن يجسّ نبض زبيدة

الشجاعة على الانتقال المباشر من تعقب امرأة وقت الصلاة إلى الجامع، ألم ينقض نزقه وضوءه؟ بل ألم يجعله غير أهل للوقوف بين يدي الرحمن؟ عدل عن الصلاة محزونًا متألِّمًا فسار في الطرقات ساعة على غير هدى، ثم عاد إلى البيت معاودًا التفكير في ذنبه، على أن رأسه - حتى في تلك اللحظات الحساسة المليئة بالندم - لم يغلق بابه دون زُتوبة! قال مخاطبًا محمد عفت، وكان قد سبق إلى بيته مساء ليخلو إليه قبل توافد الأصدقاء:

- أريد منك خدمة، أن تدعو مساء الغد زبيدة إلى العوامة!

ضحك محمد عفت، وقال له:

- إن كنت تريدها فلم هذا اللف والدوران! لو طلبتها أول ليلة لفتحت لك ذراعيها على الرحب والسعة...

فقال أحمد عبد الجواد في شيء من الحرج:

- أريد أن تدعوها وحدها...!

- وحدها؟! يا لك من رجل أناني لا تفكر إلا في نفسك، والفار وأنا؟! بل لنجعلها ليلة من ليالي العمر، ولنُدعُ زبيدة وجلييلة وزُتوبة أيضًا...

تساءل أحمد عبد الجواد فيها يشبه الاستنكار:

- زُتوبة؟!...

- لم لا؟! إنها احتياطي لا بأس به، يُرجع إليه عند الضرورة...

ما آلني! كيف تمنعت بنت القديمة ولم؟!...

- أنت لم تدرك بعد غايتي، الحق آتي لا أنوي المجيء غدًا!

قال محمد عفت في استغراب:

- تطلب أن أدعو زبيدة! وتقول إنك لن تحيء غدًا! ما هذه الألغاز!

ضحك أحمد ضحكة عالية يداري بها ارتباكها، ثم لم يجد بداً من أن يقول كاليائس:

- لا تكن بغلاً، سألتك أن تدعو زبيدة وحدها،

كي تبقى زُتوبة في البيت وحدها!

- زُتوبة يا بن أم أحد؟!...

وبينها إلا أقدام خطرت له خاطرة جريئة، فاندفع إلى تنفيذها بلا تردد متجاهلاً خطورتها، وهي أن ينتقل إلى الطوار ثم يسير متمهلاً أمام الدكان على أمل أن يراه صاحبه فيدعوه كمادته إلى الجلوس فيلتي دعوته! مضى متمهلاً فوق الطوار حتى بلغ الدكان، فنظر إلى الداخل كأنما ينظر عفوًا، فالتقت عيناه بعيني يعقوب... وإذا بالخواجيا يهتف به:

- أهلاً بالسيد أحمد، تفضل...

ابتسم السيد متوِّدًا ثم عرج إلى الداخل فتصافحا بحرارة ودعاه الخواجيا إلى كوب خروب، فقبل الدعوة قبول الكرام، وجلس على طرف كنية جلدية من قبل الخوان المنسوب عليه الميزان. لم يبدُ عليه أنه فطن إلى وجود ثالث في الدكان حتى جلس فترأت أمام عينيه زُتوبة وهي واقفة حيال الخواجيا تقلب بين يديها قرطاً فتظاهر بالدهش، والتقت عيناهما وهو على تلك الحال... ابتسمت فابتسم، ثم بسط راحته على صدره محيياً، وهو يقول:

- صباح الخير... كيف حالك؟

فقال وهي تعاود النظر إلى القرط:

- بخير ربنا يكرمك...

كان الخواجيا يعقوب يعرض استبدال القرط بأسورة مع دفع فرق اختلافًا عليه، فانتهمز السيد فرصة انشغالها ليملا عينيه من صفحة خدّها، ولم يغب عليه ما في المساومة والاستبدال من فرص تتيح له التدخل بالحسن، لعل وعسى... غير أنها قطعت عليه سبيله وإن لم تدري بما أضمر، فردّت القرط إلى صاحبه وهي تعلنه بأنها عدلت نهائياً عن المبادلة، وطلبت إليه إصلاح الأسورة، ثم حيته، وحيّت السيد بإحشاء من رأسها وغادرت الدكان! حدث هذا كله بسرعة لم يكن ثمة داعٍ إليها فيها بدا له، فأخذ وانزعج واستحوذ عليه الفتور والضيق. ولبت مع الخواجيا يعقوب يتبادلان حديث المجاملات المألوف حتى شرب كوب الخروب، ثم استأذن في الانصراف وذهب.

ذكر - في خجل شديد - صلاة الجمعة التي أوشكت أن تفوته، ولكنه تردد في المضي إلى الجامع، لم تواته



مضى إلى الحجرة ثم جلس في الموضع الذي كان يجلس فيه في العهد القديم على الكنية الوسطى، فنزع طربوشه وحطه على النمرقة التي تشطر الكنية، ومد ساقه وهو يلقي نظرة فاحصة على ما حوله... إنه يذكر المكان كما لو كان لم يغادره إلا أمس القريب، هذه الكنيات الثلاث، وهذه المقاعد، وهذا البساط الفارسي، وهذه الأخوة الثلاثة المطعمة بالصدف، كل شيء كان بصفة عامة كما كان! هل يذكر متى جلس آخر مرة في هذا المكان؟ إن ذكرياته عن بهو الطرب وحجرة النوم أوضح وأثبت، بيد أنه لا يمكن أن ينسى أول لقاء تم بينه وبين زبيدة في هذه الحجرة، في هذا الموضع بالذات! وجلة ما دار فيه، لم يكن أحد يومذاك مثله خلّو بال وثقة بالنفس؟ ترى متى تعود؟ ماذا أحدثت زيارته في نفسها؟ إلى أي درجة سيرتفع غرورها؟ وهل أدركت أنه جاء من أجلها هي لا من أجل خالتها؟ إن أخفق هذه المرة فقل عليه السلام!

سمع وقع شبشب خفيف، ثم بدت زئوبة عند الباب في فستان أبيض منمنم بورد أحمر، ملتفة بوشاح مرصع بالترتر، أما رأسها فحاسر، وأما شعرها فمجدول في ضفيرتين غليظتين استرسلتا على ظهرها... استقبلها واقفاً باسماً متفائلاً بالزينة التي تبدت فيها، فحيته بابتسامة، وأشارت إليه أن يجلس، ثم جلست على الكنية التي تتوسط الجدار الذي إلى يمينه، وهي تقول بصوت لم يخل من دهش:

- أهلاً وسهلاً، أيّ مفاجأة!

فابتسم السيد متسائلاً:

- من أي نوع يا ترى هذه المفاجأة؟

قالت وهي ترفع حاجبها في حركة غامضة لم تنم عمّا إذا كانت ستتكلم جادة أم ساخرة:

- سارة طبعاً!

ما دنا قد أطعنا أقدامنا حتى جاءت بنا إلى هنا فعلياً أن نتحمّل الدلال بكافة أنواعه: ثقيله وخفيفه. تفحص جسمها ووجهها - في هدوء - كأنما ينقب فيها عمّا لوّعه وعبث بوقاره، فساد الصمت حتى رفعت إليه وجهها دون أن تنبس، ولكن في حركة تمت

ثم وهو يسترسل في الضحك:

- لم كلّ هذا التعب؟ لم تطلبيها أول ليلة في العمومة؟! ولو أشرت إليها بأصبعك لطارت إليك، ولزقت فيك بالغراء!

ابتسم ابتسامة فارغة، رغم شعوره الأليم بالامتعاض، ثم قال:

- نفّذ ما أمرت به، هذا ما أريد...

قال محمّد عقت وهو يفتل شاربه:

- ضعّف الطالب والمطلوب!

فقال أحمد عبد الجواد جاداً جداً:

- ليكن هذا سرّاً بيننا...

طرق الباب في ظلام دامس وفي خلاء من المازّة، وكانت الساعة تدور في التاسعة، فُتح الباب بعد حين دون أن يبدو الفاتح، ثم جاءه صوت ارتجّ له فؤاده ارتجّاجاً يتساءل قائلاً: «من؟» فقال بهدوء «أنا»، وهو يدخل بغير استئذان، ثم ردّ الباب وراءه فوجد نفسه قبالتها وهي واقفة على آخر درجة من السلم مائة ذراعها بالمصباح، حدجته بنظرة داهشة، ثم غمغمت:

- أنت!

فوقف صامتاً ملياً، وعلى فيه ابتسامة خفيفة تنم عن الإشفاق والقلق، ولما لم يأنس منها اعتراضاً أو غضباً تشجّع قائلاً:

- أهذا هو استقبالك لصديق قديم؟!

فولّته كشحها، ومضت ترقى في الدرج، وهي تقول:

- تفضّل...

تبعها صامتاً، وقد استتج من فتحها الباب بنفسها أنها بمفردها في البيت، وأن مكان الجارية جلجل التي ماتت منذ عامين لا يزال شاغراً... تبعها حتى دخلا إلى الدهليز، فعلفت المصباح بمسار في الجدار على كتب من الباب، ثم دخلت وحدها حجرة الاستقبال، فأوقدت المصباح الكبير المدلّى من السقف - زادته هذه الحركة اطمئناناً إلى استنتاجه - ثم خرجت فأومأت له بالدخول وذهبت...

- عن تساؤل مُشربٍ بأدب، كأنما تقول له: «نحن في الخدمة».
- فتساءل السيد في مكر:
- هل يطول انتظارنا للسلطنة؟ ألم تفرغ بعد من ارتداء ملابسها؟
- فحدجته بنظرة غريبة وهي تضيق عينيها، ثم قالت:
- السلطنة ليست في البيت...
- فتساءل متظاهراً بالدهشة:
- أين هي يا ترى؟
- فقال وهي تهز رأسها، راسمة على شفثيها ابتسامة غامضة:
- علمي علمك...
- فكر في إجابتها قليلاً، ثم قال:
- ظننتها تطلعك على خط سيرها؟
- فلوحت بيدها كالستنكرة، وقالت:
- إنك حسن الظن بنا (ثم ضاحكة) السلطة العسكرية زمانها انتهى! وإن شئت فأنت أحقّ منّي بالاطلاع على خط سيرها!
- أنا؟
- لم لا، أليست صديقتها القديم؟
- قال، وهو يحدها بنظرة باسمية عميقة ناطقة:
- الصديق القديم والغريب سواء، ترى هل يطلع أصدقاؤك القدماء على خط سيرك؟
- رفعت منكبها الأيمن وهي تمكّ بوزها، قائلة:
- ليس لي أصدقاء، لا قدماء ولا حديثون...
- فراح يعبث بفردة شاربه وهو يقول:
- هذا كلام لمن لا عقل له، أما من له ولو شيء من العقل فلا يتصور كيف يمكن أن تكوني بين قوم يصرون ولا يستبقوا إلى صداقتك...
- إن هي إلّا تصوّرات الكرماء أمثالك! ولكنّها لا تعدو التّصوّرات الخياليّة، الدليل على هذا أنّك صديق قديم لهذا البيت، فهل راق لك يوماً أن تهني قسماً من صداقتك؟
- قطّب في ارتباك، ثم قال بعد تردّد:
- كنت وقتذاك، أعني أنّه كانت ثمة ظروف...
- ففرقت بأصابعها، وقالت ساخرة:
- لعلّها نفس الظروف التي حالت بيني - يا عيني - وبين الآخرين!
- ألقي بظهره إلى مسند الكنبه في حركة سريعة تمثيلية ثم مدّ نظره إليها من فوق أنفه العظيم، وهو يهزّ رأسه كالمتعبد بالله منها، ثم قال:
- أنت عقدة، وها أنا أعترف بأنّي لا قبل لي بك! فدارت ابتسامة بعثها النشاء، ثم تظاهرت بالدهشة، وهي تقول:
- لا أفهم ممّا تعني شيئاً، الظاهر أنّك في وادٍ وأنّي في وادٍ، المهمّ أنّك قلت إنّك جئت لمقابلة خالتي، فهل من رسالة أبلغها إياها عند عودتها؟
- ضحك السيد ضحكة قصيرة، ثم قال:
- قولي لها إنّ أحمد عبد الجواد جاء ليشكوني إليك، فلم يجدها!
- تشكوني أنا! ماذا صنعت؟
- قولي لها إنّني جئت أشكو إليها ما لقيت منك من قسوة ليست من شيم الحسان!
- يا له من قول خليق برجل يجعل من كلّ شيء مادة لمزاحه ودعابته!
- فاعتدل في جلسته، وقال جاداً:
- معاذ الله أن أجعل منك مادة للمزاح أو الدعابة؟! إنّ شكواي صادقة، ويخيّل إليّ أنّك وافقة على سرّها، ولكنّه دلال الحسان، وللحسان الحقّ كلّ الحقّ في التدلّل، ولكنّ عليهنّ مراعاة الرحمة أيضاً.
- فمصممت بشفتيها قائلة:
- عجب!...
- لا عجب البتّة! أنذكرين ما كان بالأمس في دكان يعقوب الصائغ؟ هل يستحقّ ذلك اللقاء الجاف من كان يعتزّ بمثل مودّتي لكم وقدم عهدي بكم؟ وددت لو استعنت بي مثلاً فيها كان بينك وبين الصائغ، ووددت لو أنحت لي الفرصة كي أضع خبرتي في خدمتك، أو أن تتواضعي درجة أخرى فتسمحي لي بأن أنهض بالامر كلّ كما لو كانت الأسورة أسوري

أرعت حاجبها الأيمن وهي تتساءل:  
 - ألا تخاف أن تكبنا السلطنة على غفلة؟  
 - لا تخافي، لن تعود السلطنة الليلة...  
 فحدجته بنظرة حادة مريبة، وتساءلت:  
 - من أدراك بذلك؟  
 انتبه إلى عثرة لسانه، فأوشك لحظة أن يغلبه  
 الارتباك، ولكنه تخلّص منه قائلاً في لباقة:  
 - السلطنة لا تبقى في الخارج حتى هذه الساعة إلا  
 لضرورة تستدعي بقاءها حتى الصباح!  
 جعلت تحدّق في وجهه طويلاً دون أن تنبس، ثم  
 هزّت رأسها في سخريّة ظاهرة، ثم قالت بصوت مليء  
 بالثقة:  
 - يا لمكر الكهول! يضعف فيهم كلّ شيء إلا  
 مكرهم! هل حسبتني غفلة؟ كلّاً وحياتك، إني أعلم  
 كلّ شيء...  
 عاد إلى العبت بفردة شاربه في شيء من الضيق،  
 ثم سألها:  
 - ماذا تعلمين؟  
 - كلّ شيء!  
 وترثت قليلاً لتزيد من ارتباكها، ثم استطردت:  
 - أتذكر يوم جلست على قهوة سي عليّ لتسترق  
 النظر من نافذة القهوة؟ يومها عينك حفرت جدار بيتنا  
 من شدّة النظرا ولما ركبت العربة الكارو مع أفراد  
 التخت ساءلت نفسي: ترى هل يتبعنا مهلاً ورانا كما  
 يفعل الصبية؟ ولكنك عقلت وانتظرت فرصة أحسن!  
 قهقه الرجل حتى اشتدّت حمرة وجهه، ثم قال  
 بتسليم:  
 - اللهم اعف عنا...  
 - ولكنك نسيت عقلك أمس، عندما رأيتني أمام  
 خان جعفر فتبعته حتى دخلت ورائي دكان  
 يعقوب...  
 - عرفت هذا أيضًا يا بنت أخت زبيدة؟  
 - نعم يا زين العشاق، بيد أنّي لم أكن أتصوّر أنّك  
 ستدخل ورائي الدكان، ولكنّي ما لبثت أن وجدت  
 جالساً فوق الكنية ولا عفريت النسوان نفسه، ولما

أو كانت صاحبها صاحبي...  
 ابتسمت، وهي ترفع حاجبها في شيء من  
 الارتباك، ثم قالت باقتضاب:  
 - تشكر...  
 تنفّس الرجل تنفّساً عميقاً ملأ به صدره العريض،  
 ثم قال بحماس:  
 - مثلي لا يقنع بالشكر، ماذا يفيد الجائع إن  
 أعرضت عنه، وأنت تقولين له: «على الله؟!»، الجائع  
 يريد الطعام، الطعام الشهيّ اللذيذ.  
 شبكت ذراعيها على صدرها وهي تتظاهر  
 بالدهش، ثم قالت ساخرة:  
 - أنت جائع يا سي السيّد؟! عندنا ملوخيّة وأرانب  
 تستاهل فمك...  
 وهو يضحك عاليًا:  
 - عال، اتفقنا، ملوخيّة وأرانب، تضاف إليها  
 زجاجة ويسكي، ثم نحليّ بشيء من العود والرقص،  
 ونتمدّد ساعة معاً حتى نهضم...  
 فلوّحت له بيدها كأنها تهتف به «إلى الورا»،  
 وقالت:  
 - الله الله، سكتنا له دخل بحارّه... بُعدك!  
 ضمّ أصابع يمينه الخمس، حتى صارت كفم  
 مزوم، وجعل يرفعها ويخفضها بتؤدة، وهو يقول  
 بلهجة وعظيمة:  
 - يا بنت الحلال لا تضيّعي الوقت الغالي في  
 الكلام...  
 وهي تهزّ رأسها في زهو ودلال:  
 - بل قل لا تضيّعي الوقت الغالي مع الكهول...!  
 مسح السيّد صدره العريض بكفّه في حركة توحى  
 بالتحذّيّ الباسم، ولكنها هزّت منكبيها ضاحكة،  
 وهي تقول:  
 - ولو...  
 - ولو؟ يا لك من طفلة، حرام عليّ النوم إن لم  
 أعلمك ما ينبغي أن تعلميه، هاتي الملوخيّة والأرانب  
 والويسكي والعود وزنار الرقص، هيا... هيا...  
 ثنت سبابة يسراها وألصقتها بحاجبها الأيسر، ثم

- لم تسألني عَمَّا جعلني أَخْلَفَ عن الذهاب إلى  
العَوامة - يوم دعانا مُحَمَّد عَقَّت - بناء على  
اقتراحك...

- كي تزيدي النار اشتعالاً!!  
ضحكت ثلاث ضحكات متقطعة، ثُمَّ صمتت  
ملياً، ثُمَّ قالت:

- فكرة لا بأس بها ولكنها قديمة، أليس كذلك يا  
زين الفسّاق؟... ستظلّ الحقيقة سرّاً حتّى أرى أن  
أفشيهِ عندما يحلّو لي...

- أقدم حياتي ثمنًا له...  
ابتسمت ابتسامة صافية لأوّل مرّة، ولاحت في  
عينها نظرة رقيقة جاءت في أعقاب سخرياتها، كما  
يجيء الهدوء في أعقاب زوبعة، وبشّر حالها بسياسة  
جديدة ومعنى جديد، فاقتربت منه خطوة ومدّت يديها  
إلى شاربه برشاقة وراحت تجذله بعناية، ثُمَّ قالت  
بنبرات لم يسمعها من قبل:

- إذا قدّمت حياتك ثمنًا لهذا، فإذا بقي لي أنا؟  
وجد راحة عميقة لم يجد مثلها منذ تلك الليلة  
الخاسرة في العَوامة، وكأنّما كان يفوز بامرأة لأوّل مرّة  
في حياته، تناول يديها من فوق شاربه وأودعها بين  
راحتيه الكبيرتين، ثُمَّ قال بحنان وامتنان:  
- أنا نشوان يا ست الكلّ، نشوان لحدّ يعجزني عن  
الوصف، دمت لي إلى الأبد، إلى الأبد، لا عاش من  
ردّ لك رجاء أو طلبًا، أتمّي نعمتك عليّ وهيّبي  
مجلسنا، الليلة ليست كالليالي الأخريات، وهي  
تستحقّ أن نحتفل بها حتّى مطلع الفجر...  
قالت وهي تلعب بأناملها بين راحتيه:  
- ليست هذه الليلة كالليالي الأخريات حقًا، ولكن  
ينبغي أن نقنع منها بالقليل...

القليل! هل ثمة صدّد بعد هذا اللطف كلّهُ؟ لم يعد  
بك صبر.

مضى يربّت كفّيها، ثُمَّ بسط راحتيها، ونظر بافتتان  
في لون الحنّاء الورديّ الذي يصبغها، وما يدري إلّا  
وهي تسأله بصوت ضاحك:

- هل تقرأ الكفّ يا سيّدنا الشيخ؟

تظاهرت بالدهشة لرؤيتي كدت أطلق لساني فيك بما  
قسم، ولكنّ الموقف أملّى عليّ الأدب...

تساءل ضاحكًا، وهو يضرب كفًّا بكفّ:  
- ألم أقل إنّك عقدة؟  
فواصلت الحديث وهي في نشوة من الفوز  
والسرور:

- وما أدري ليلة إلّا والسلطانة تقول لي: استعدي،  
إنّنا ذاهبتان إلى عَوامة مُحَمَّد عَقَّت، فمضيت لاستعدّ،  
ولكنّي سمعتها تقول يعدّ ذلك: إنّ السيّد أحمد هو  
الذي اقترح الدعوة! لعب في عَمِّي الفسار، وقلت  
لنفسِي: السيّد أحمد لا يقترح شيئًا لوجه الله، وفهمت  
الفولة، فلم أذهب معتلةً بصداع!  
- يا لي من مسكين! وقعت في مغالب من لا يرحم،  
هل عندك مزيد؟...

- لو اطلّعت على الغيب لاخترتم الواقع...  
- ما أحلّ هذا الكلام! قلّد الوعّاظ، يا أفسق خلق!

الله!  
وهو يضحك عاليًا:  
- الله يسامحك...  
ثُمَّ متسائلًا في سرور غير خافٍ:  
- فهمت الفولة هذه المرّة أيضًا، ولكنّك بقيت،  
فلم تغادري البيت أو تخفي نفسك...

ونفض قبل أن يتمّ جملة فأنجّه نحوها، وجلس إلى  
جانها، ثُمَّ تناول طرف الوشاح المرصّع بالترتر فقَبّله،  
وهو يقول:

- اللّهُمّ إني أشهد بأنّ هذه المخلوقة الجميلة الّذ من  
أنعام عودها، لسانها سوط، وحبّها نار، وعاشقها  
شهيد، وسوف يكون لهذه الليلة شأن في التاريخ  
كلّه...

أبعدته عنها بكفّها قائلة:  
- لا تاخذني في دوكة، هوه! عد إلى مجلسك...

- لن يفصل بيننا شيء بعد الآن...  
جذبت وشاحها فجأة من يده ونفضت مبتعدة  
قليلاً، ثُمَّ وقفت على بعد ذراع منه تمنع فيه نظرًا  
صامتًا، وكأنّما تراجع نفسها في أمور ذات شأن، ثُمَّ  
قالت:

- ابتسم، وقال مداعبًا:  
- أنا من المشهود لهم في قراءته، اتَّحَيَّن أن أقرأ لك كَفْكَ؟  
أحنت رأسها بالإيجاب. فراح يتأمل راحتها اليمنى متظاهراً بالتفكير، ثم قال باهتمام:  
- في طريقك رجل سيكون له شأن في حياتك...  
تساءلت ضاحكة:  
- في الحلال يا ترى؟  
ارتفع حاجباه وهو يمعن النظر في كفِّها، ثم قال دون أن يبدو على وجهه أثر ولو خفيف للمزاح:  
- بل في الحرام!  
- أعوذ بالله! ما عمره؟  
نظر إليها من تحت حاجبيه، ثم قال:  
- غير واضح ولكن إذا قسته بمقياس مقدرته فهو في عنفوان الشباب...  
فتساءلت بمكر:  
- أهو كريم يا ترى؟  
آه، لم يكن الكرم مِمَّا يزكِّيك عندهنَّ قديمًا.  
- لم يعرف البخل قلبه...  
فكرت قليلاً ثم عادت تتساءل:  
- هل يرضيه أن أبقى كالتابعة في هذا البيت؟  
العجل وقع هاتوا السكاكين...  
- بل سيجعلك سيِّدة قَدِّ الدنيا...  
- أين يا ترى سأقيم في كنفه؟  
زبيدة نفسها لم تكلفك شيئاً من هذا، سيقولون فيك ويعيدون...  
- شقَّة جميلة...  
- شقَّة!؟...  
عجب للبهجة المستنكرة، فسألها داهشًا:  
- ألا يعجبك هذا؟  
قالت وهي تشير إلى راحتها:  
- ألا ترى ماء يجري؟... انظر جيِّدًا...  
- ماء يجري!... أتودِّين السكنى في حَمَّام؟  
- ألا ترى الليل... عوامة أو ذهبيَّة... ١٩...  
أربعة جنيهاً أو خمسة شهريًّا دفعة واحدة، غير عندي وحياتي عندك...!
- النفقات الأخرى، آه، لا تعشقوا أولاد السفلة!...  
- لماذا تختارين مكانًا بعيدًا عن العمران؟...  
اقتربت منه حتَّى مسَّت ركبتيها ركبتيه، وقالت:  
- لست دون محمَّد عَفَّت جأها، ولست دون السلطانة حَفَّا ما دمت تحبِّي كما تقول، وفي وسعك أن تسهر فيها أنت وأصحابك، إنَّها حلمي فحقَّقته لي...!  
أحاط وسطها بذراعيه، ولبث صامتًا ليستشعر في هدوء مسَّها ولينها، ثم قال:  
- لك ما تشائين يا أملي...  
فكان الشكر أن ألصقت راحتها بخدِّيه، ثم قالت:  
- لا تظنَّ أنك تعطي دون أن تأخذ، اذكر دائمًا أنَّه من أجلك سأغادر هذا البيت الذي عشت عمري فيه إلى غير رجعة، واذكر أنَّي إذ أطلبك بأن تجعلني سيِّدة فما ذلك إلَّا لأنَّه لا يليق بمن كانت صاحبة لك أن تكون أقلَّ من سيِّدة...!  
شدَّ ذراعيه حول وسطها حتَّى التصق صدرها بوجهه، ثم قال:  
- إنِّي أدرك كلَّ شيء يا نظري، سيكون لك ما تحبِّين وأكثر، أحبُّ أن أراك كما تحبِّين أن تري نفسك، والآن هيَّئي لنا مجلسنا، أريد أن أبدأ حياتي من الليلة...  
أمسكت بساعديه، ثم ابتسمت إليه ابتسامة اعتذار، وقالت برقة:  
- عندما نجتمع في عوَّامتنا على النيل...  
قال لها محدِّثًا:  
- لا تشيرني جنوني، هل تستطيعين أن تقاومي صولتي؟  
فتراجعت وهي تقول بلهجة تجمع بين التوسُّل والإصرار:  
- ليس في البيت الذي عملت فيه وصيفة، انتظر حتَّى يجمعنا المسكن الجديد، مسكنك ومسكني، عند ذاك أكون لك إلى الأبد، ليس قبل ذلك وحياتك عندي وحياتي عندك...!

- ١٠ -

«خير إن شاء الله»...

هذا ما رددّه أحمد عبد الجواد في نفسه وهو يطالع ياسين مقبلاً نحوه في الدكان... كانت زيارة غريبة وغير متوقّعة، أعادت إلى ذاكرته زيارته القديمة لدكانه، يوم جاءه ليشاوره فيها ترامى إليه من اعتزام المرحومة أمّه الزواج للمرّة الرابعة، والحقّ أنّه أيقن أنّه لم يجيء لتبادل التحيّة والسلام ولا للحديث في شأن عاديّ ممّا يمكن أن يحدثه في البيت، أجل إنّ ياسين لا يجيء إلى مقابلته في الدكان إلّا لشأن خطير. صافحه، ثمّ دعاه إلى الجلوس، وهو يقول:

- خير إن شاء الله...

جلس ياسين على كرسيّ قريب من مجلس أبيه وراء مكتبه، مولياً بقية الدكان ظهره حيث وقف جميل الحمزاوي أمام الميزان يزن بضاعة لبعض الزبائن، ونظر إلى أبيه في شيء من ارتباك وكّد حدسه، فأغلق الرجل دفترًا كان يسجّل فيه أرقامًا واعتدل في جلسته متأهبًا لما يجيء، وقد بدت إلى يمينه الخزينة نصف مفتوحة، وفوق رأسه صورة سعد زغلول في بدلة الرياضة معلقة في الجدار تحت إطار البسملة القديم. ولم يكن قصد الدكان اعتبارًا ولكن عن تدبّر وتفكير باعتباره آمن مكان لمقابلة أبيه بما جاء من أجله، إذ أنّ وجود جميل الحمزاوي به ومن يتفق وجودهم من الزبائن خليف بأن يهتّم له درعًا واقياً من الغضب إذا جاءت دواعيه، وكان يحسب ألف حساب لغضب أبيه رغم الحصانة التي اكتسبها بتقدّم العمر والمعاملة الطيبة التي يحظى بها بوجه عام... قال ياسين بأدب بالغ:

- اسمح لي بقليل من وقتك الغالي، لولا الضرورة ما تجرأت على إزعاجك، ولكنّي لا يمكن أن أخطو خطوة دون استنارة برأيك، واعتاد على رضاك...

ابتسم باطن السيّد أحمد هازئًا من هذا الأدب الجفّ، وجعل يتأمّل فناه الضخم الجميل الأنيق في حذر، ملفّيًا عليه نظرة إجمالية شملت شاربته المجدول على طريقته - هو - وبذلتة الكحلّية وقميصه ذا البنيقة

المنشيّة والبابيون الأزرق والمنشّة العاجيّة والحذاء الأسود اللامع، ولم يكن ياسين قد مسّ مظهره - تأدّبًا في محضر أبيه - إلّا في نقطتين، فأخفى طرف منديله الحريريّ الذي يطلّ من جيب جاكته الأعلى، وعدّل طربوشه الذي يعوجه عادة إلى اليمين. يقول: إنّ لا يمكن أن يخطو خطوة دون استنارة برأيه! مرحى... هل استنار به وهو يسكر؟ وهو يسبح على وجهه في وجه البركة الذي حرّمه عليه؟ هل استنار به ليلة وثب على الجارية فوق السطح؟ مرحى! مرحى! ماذا وراء هذه الخطبة المنبريّة؟

- طبعًا، هذا أقلّ ما يُنتظر من رجل عاقل مثلك،

خير إن شاء الله؟

التفت ياسين التفاتة سريعة لحظ بها جميل الحمزاوي ومن معه، ثمّ قرّب الكرسيّ من المكتب، واستجمع شجاعته، قائلاً:

- اعتزمت - بعد موافقتك ورضاك - أن أكمل نصف ديني...

مفاجأة حقيقة! غير أنّها مفاجأة سارة على غير ما توقّع، ولكن مهلاً! لن تكون سارة حقًا إلّا بشروط، فليستظر حتّى يسمع الأهمّ من الحديث! أليس ثمة ما يدعو إلى القلق؟ بل! تلك المقدّمة البالغة في الأدب والتودّد، إثارة الدكان مكانًا للحديث لدواعٍ لا يمكن أن تخفى عن فطنة الفطن، أمّا الزواج في ذاته فطالما تمناه له، تمنّاه حين ألحّ على محمّد عفت ليردّ إليه زوجته، وتمناه حين دعا الله في أعقاب صلواته أن يهديه إلى الرشاد وبنت الحلال، بل لعلّه لولا إشفاقه من أن يخرجه مع أصدقائه كما أخرجته من قبل مع محمّد عفت لما تردّد من تزويجه مرّة أخرى، فليستظرا وعسى إلّا يتحقّق شيء من مخاوفه...

- اعتزام جميل أوافق عليه كلّ الموافقة، فهل وقع اختيارك على أسرة معيّنة؟

خفض ياسين عينيه لحظة، ثمّ رفعها قائلاً:

- وجدت بغيتي، بيت كريم خبرناه بطول الجوار، وكان ربّه من معارفك المحمودين...

معذور ويبدو - ولهذا طبيعي - أنه لا يدري شيئاً عن سيرة أم الفتاة التي يرومها زوجة، تلك سيرة يعرفها هو وحده معرفة الفاعل، ولعلّ آخرين سبقوه إليها أو لحقوا به، فما العمل؟ أجل قد تكون الفتاة مهذّبة، ولكن من المؤكّد أنّها لم تظفر بأحسن أم ولا بأحسن بيئة، ومن المؤسف أنه لا يستطيع أن يجرّ برأيه - ذاك - ما دام لا يسهه أن يقرن القول بالدليل، خاصّة وأنّه رأي خليك بأن يقابل - ممّن يسمعه لأول مرّة - بالإنكار والانزعاج، والأدهى من ذلك أنه يخاف أن يلتمح إليه فيدفع ياسين إلى البحث والاستقصاء فيعثر آخر الأمر على أثر بصماته هو - أبيه - فتكون الفضيحة التي ليس وراءها فضيحة.

المسألة إذن دقيقة حرجة، ثم إنّ ثمة شوكة حادة تكمن في تضاعفها - هي - تاريخ قديم يتّصل بفهمي، ألا يذكر ياسين ذلك؟ كيف هان عليه أن يرغب في فتاة تطلّع إليها قديماً أخوه الراحل؟ أليس هذا سلوكاً بغيضاً؟ بل إنّه كذلك وإن كان لا يشكّ في إخلاص الشاب لأخيه الراحل، إنّ منطق الحياة القاسي يقيم عدراً لأمثاله، إنّ الرغبة طاغية أعمى لا يرحم وهو أخبر الناس بذلك!

قطّب الرجل ليشعره بتضايقه، ثم قال:

- إنّ قلبي لم يرتح لاختيارك، لا أدري لماذا، كان المرحوم السيّد محمّد رضوان رجلاً طيباً حقاً، ولكنّ الشلل حال بينه وبين رعاية بيته من زمن بعيد سابق لوفاته، لم أقصد بهذه الملاحظة إساءة الظنّ بأحد، كلّاً! ولكنّه كلام يقال، ربّما ردّه بعض الناس، هه؟ الأهمّ عندي أنّ الفتاة مطلّقة، لماذا طُلّقت؟ هذا سؤال من أسئلة كثيرة ينبغي أن تعلم جوابها، لا يصحّ أن تأمن مطلّقة حتّى تستقصي كلّ شيء عنها، لعلّ هذا ما أردت قوله، والدنيا ملأى ببنات الناس الطيّبين.

قال ياسين متشجّعاً بأسلوب أبيه، الذي اقتصر على النقاش والنصح:

- بحثت بنفسي وبواسطة آخرين، فتبيّن لي أنّ الحقّ كان على الزوج، إذ كان متزوّجاً وأخفى عنهم

رفع السيّد حاجبيه متسائلاً دون أن ينبس، فقال ياسين:

- المرحوم السيّد عمّد رضوان!

- لا...!

نذت عن السيّد أحمد قبل أن يتمالك نفسه، نذت عنه في تأقّف واحتجاج حتّى شعر بأنّه ينبغي أن يبرّر تأقّفه واحتجاجه بسبب وجيه يداري به حقيقة مشاعره، ولم يعوزه ذلك، فقال:

- أليست كرمته مطلّقة؟! فهل ضاقت الدنيا حتّى تتزوّج من ثيب؟!...

لم يفاعاً ياسين بهذا الاعتراض، كان يتوقّعه منذ اللحظة التي عزم فيها على الزواج من مريم، غير أنّه كان قويّ الأمل في التغلّب على معارضة أبيه التي لم يتصوّر أن تكون إلّا صدى لتفضيل البكر على الثيب أو تمجّياً لامرأة عسيّة بأن تذكره بمأساة ابنه الراحل، وكان يؤمن بحكمة أبيه ويرجو أن تستهين في النهاية بهذين الماخذين الواهين، بل كان يعتمد كلّ الاعتماد على موافقته في التغلّب على المعارضة الحقيقية التي يتوقّعها عند امرأة أبيه... تلك المعارضة التي وقف أمام التفكير فيها حائراً حتّى خطر له أن يغادر البيت مغادرة الهارب كي يتزوّج كما يحلو له مواجهها الجميع بالأمر الواقع، ولولا أنّ إغضاب أبيه كان فوق طاقته لفعل، إلّا أنّه عزّ عليه أن يتجاهل عواطف أمّه الثانية - بل أمّه الأولى - قبل أن يبذل قصاراه لاستمالتها واقتناعها برأيه، قال:

- لم تضق بي الدنيا، ولكنّها القسمة والنصيب... أنا لا أبحث عن المال أو الجاه، وحسبي الأصل الطيّب والخلق القويم...

إن كان ثمة عزاء وسط هذه الأمور المعقّدة المؤسفة، فهو صدق رأيه الذي لا يكذب أبداً. هذا هو ياسين بلا زيادة ولا نقصان، إنسان - أو حيوان - تسير المتاعب بين يديه ومن خلفه، ولو جاء نبأ سعيد أو زفّت إليه بشرى سارة لما كان ياسين ولخاب تقديره ورأيه فيه، لعلّه ممّا لا يعيبه ألا يبحث في الزوجة عن المال أو الجاه أمّا الخلق فمسألة أخرى، ولكنّ البغل

- إني على يقين مما أقول! خبرته بنفسه وسمعته بأذني، لا شك في ذلك مطلقاً... .

في ظروف أخرى لم يكن هذا القول - ولا أبلغ منه - كافياً لإقناعه بصدق ياسين، لكنه كان في الحق متعظشاً إلى تصديقه، فصدقه وآمن به، وامتلأ قلبه نحوه بامتنان عميق وسلام شامل. لم تعد مسألة الزواج - في تلك اللحظة على الأقل - مما يكرهه، ولاذ بالصمت ملياً هائثاً بالسلام الذي غمر قلبه، ورويداً رويداً! مضى يسترد شعوره بالموقف ويرى ياسين بعد أن غيبه عن عينيه الانفعال، فعاد يفكر في مريم وأم مريم وزواج ياسين وواجبه وما يستطيع قوله وما لا يستطيع قوله، قال:

- مهما يكن من أمر فلإني أود أن تولي المسألة تفكيراً أعمق، وحذراً أشد، لا تتعجل، مدّ لنفسك فسحة التدبّر والمراجعة، إنها مسألة مستقبل وكرامة وسعادة، وإني على استعداد لأن أختار لك بنفسه مرة أخرى إذا وعدتني وعد رجل صادق ألا تجعلني أندم على تدخلتي لما فيه صلاحك، هه؟ ما رأيك؟

صمت ياسين متفكراً، مستاء من تحول الحديث إلى مجرى ضيق محفوف بالخرج، حقاً أن الرجل يتحدث بحلم عجيب، ولكنه لم يخف قلقه وعدم ارتياحه. فإذا أصرّ على رأيه بعد ذلك فقد يجرح النقاش إلى شقاق غير مستحب، ولكن هل ينكص تفاقماً من هذه الغائبة؟ كلا! لم يعد طفلاً سيتزوج بمن يشاء كما يشاء، ولكن فليعنه الله على الاحتفاظ بمودة أبيه! قال:

- لا أريد أن أجسمك تعباً جديداً، شكرًا لك يا بابا، غاية ما أتمنى أن أحظى بموافقتك ورضاك... .  
لوح السيد يده في نفاذ صبر، وقال بلهجة لم تخل من حدة:

- تأبى أن تفتح عينيك على ما في رأيي من حكمة... .

فقال ياسين برجاء حاز:

- لا تغضب يا بابا، أستحلفك بالله ألا تغضب، إن رضاك بركة، ولا أطيق أن تضنّ عليّ بها، دعني أجرب حظي وادع لي بالتوفيق... .

ذلك، فضلاً عن عجزه عن الإنفاق على بيتين في وقت واحد وسوء خلقه!

سوء خلقه! إنه يتكلّم - بلا حياء - عن سوء الخلق، البغل يمدك بمادة بكر لمزاح سهرة كاملة! قال:

- إذن فرغت من البحث والتقصي!

قال ياسين بحياء، وهو يتهرب من عيني أبيه الحادتين:

- تلك خطوة بديهة... .

فسأله الرجل وهو يخفض عينيه:

- ألم تدرك أن تلك الفتاة ترتبط بذكريات أليمة لنا؟

اعتراه الارتباك حتى اختطف لونه، وهو يقول:

- لم يكن من الممكن أن يغيب عني هذا، ولكنه وهم لا أصل له، فلإني أعرف عن يقين أن المرحوم لم يهتم بالأمر كله إلا أياماً معدودات ثم نسيه نسياناً تاماً، وأكاد أجزم بأنّه ارتاح فيما بعد إلى فشل مسعاه إذ اقتنع بأن الفتاة لم تكن طلبته كما توهم... .

ترى: أيقول ياسين الحق، أم يدافع عن موقفه؟ كان نجى المرحوم ولعله الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يزعم أنه مطلع على ما لا علم للآخرين به من خاصة شونه، فليته كان صادقاً! أجل، ليته كان صادقاً إذن لأعفاء من عذاب يؤرقه كلما ذكر أنه وقف يوماً عثرة في سبيل سعادة الفقيد أو كلما خطر بباله أنه ربّما مات تعيس القلب أو ناقلاً عليه استبداده وتعتته، تلك الآلام التي نهشت قلبه، هل يريد ياسين أن يعفيه منها؟

سأل ياسين بلهفة لم يظن الشاب إلى عمقها:

- أأنت حقاً على يقين مما تقول؟ هل صارحك به؟ ولثاني مرة في حياته رأى ياسين أباه على حال من الانكسار لم يشهد مثلها إلا يوم مصرع فهمي، وهو يقول له:

- كاشفني الحقيقة عارية عن كلّ تخفيف، الحقيقة الكاملة، هذا يهمني فوق ما تتصور، (وكاد يعترف له بآلمه، ولكنه أمسك الاعتراف وهو على طرف لسانه)... الحقيقة الكاملة يا ياسين!

فقال ياسين دون تردد:



لا يعني أنه أضمر نحوه سوءاً أو أنه اتخذ ذريعة مؤقتة لقضاء ليلته، فالحق أيضاً أن نفسه - رغم تقلباتها التي لا تنفك عنها - كانت تنفخ إلى حياة الزوجية والبيت المستقر...

مرّ هذا كلّ بخاطره وهو متخذ مكانه - إلى جنب كمال - بمجلس القهوة، ذلك المجلس الذي يبدو أنه يشهد آخر أيامه فيه، ومضى يجيل طرفه بين كتباته وحصره الملوّنة والفانوس الكبير المدلّى من سقفه في كثير من الأسى، وكانت أمينة متربّعة كعادتها على الكتبة القائمة بين بابي حجرة نوم السيد وحجرة المائدة، عاكفة على المعجزة رغم دفء الجوّ لتصنع قهوتها، وقد تلعّفت بخمار أبيض فوق جلباب بنفسجيّ ثمّ عن ضمورها، واكتنفها هدوء يشاب عند الصمت بأمارات الحزن، كما الشاطئ إذا استكنّ شفت عمّا في باطنه. شدّ ما شعر بالأسف والحرج وهو يأخذ أهبتها للإفصاح عمّا في ضميره، ولكن لم يكن من الإفصاح بدّ، فقال بعد أن فرغ من احتساء قهوته دون أن يذوق لها طعمًا: - والله يا نينة لديّ مسألة أريد أن أستشيرك فيها...

وتبادل مع كمال نظرة دلّت على أنّ الأخير على علم سابق بموضوع الحديث، وأنه يترقب عواقبه باهتمام لا يقلّ عن اهتمام ياسين نفسه. قالت أمينة:

- خير يا بنيّ...

قال ياسين باقتضاب:

- قرّرت أن أتزوّج...

فتجلّى في عينيها العسليّتين الصغيرتين اهتمام باسم، ثمّ قالت:

- خير ما قرّرت يا بنيّ، لا ينبغي أن يطول انتظارك أكثر ممّا طال.

ثمّ لاحت في عينيها نظرة متسائلة، ولكّنها بدل أن تفصح عن تساؤلها، قالت وكأنّها تستدرجه إلى الاعتراف كأنّ ثمة سرّ:

- خاطب والدك أو دعني أخاطبه، ولن يعجزه أن يجد لك زوجة جديدة خيرًا من الأولى...

قال ياسين في رزاة بلدت لها أكثر ممّا يستدعي الأمر:

اقتنع أحمد عبد الجواد بأنّ عليه أن يسلم بالأمر الواقع، فسلم به في حزن ويأس... أجل! ربّما كانت مريم - رغم استهتار أمّها - فتاة شريفة وزوجة صالحة، ولكن لا شكّ كذلك في أنّ ياسين لم يوفّق إلى اختيار أصلح الزوجات ولا أفضل البيوت.

الأمر لله، مضى الزمن الذي كان يملّي فيه إرادته إملاء فلا يجد رادًا لها، وياسين اليوم رجل مستول ولن يجني من محاولة فرض رأيه عليه إلّا العصيان... فليسلم بالأمر الواقع، ويسأل الله السلامة...

عاود النصيح والتبصير فلجأ ياسين كزّة أخرى إلى الاعتذار والتودّد حتّى لم يعد ثمة زيادة لمستزيد... غادر الدكان وهو يقنع نفسه بأنّه نال موافقة أبيه ورضاه، على أنّه كان يعلم أنّ الأزمة الخطيرة حقًا هي التي تنتظره في البيت، وكان يعلم أيضًا أنّه سيترك البيت حتّى، لأنّ مجرد التفكير في إمكان ضمّ مريم إلى الأسرة ضرب من الجنون، فرجا أن يتركه بسلام غير مخلف وراءه عداوة أو حقّدًا، إذ لم يكن من اليسير عليه أن يستهين بامرأة أبيه أو يتنكّر لعهداها وفضلها عليه، لم يكن يتصوّر أن تدفعه الأيام إلى وقوف هذا الموقف الغريب من البيت وآلله، ولكن تعقّدت الأمور وضائق السبل حتّى لم يبق من منفذ إلّا الزواج. والعجب أنّه لم تغب عن فطنته السياسة النسائية التي رُسمت للإيقاع به، سياسة قديمة تتلخّص في كلمتين: التودّد والتمنّع. ولكنّ الرغبة في الفتاة كانت قد تسرّبت إلى دمه ولم يعد بدّ من إروائها بأيّ سبيل ولو كان الزواج، وأعجب من ذلك أنّه كان يعلم من تاريخ مريم ما يعلمه أفراد أسرته جميعًا - عدا والده بطبيعة الحال - ولكنّ رغبته طغت فلم يصدّه ذلك عن فكرته أو يزهده فيها، وقال لنفسه: لم أكرب قلبي على ماضٍ فات لست مسئولًا عنه، سنبدأ معًا حياة جديدة، ومن هنا تبدأ مسئوليتي، وإنّ لفتي بنفسي لا حدّ لها، وإذا حدث أن خيبت ظنيّ نبذتها كما يُنبذ الحذاء البالي... والحقّ أنّه لم يستلهم فيما عزم فكره ولكّنه استخدمه في تبرير رغبته الجائعة التي لا تزدرج، فأقبل على الزواج هذه المرّة كبديل من مخادعة امتنعت عليه، غير أنّ ذلك

- خاطبت أبي بالفعل، وليس هناك حاجة إلى تكليفه عناء جديدًا لأنّي اخترت نفسي، وقد وافق أبي، فأرجو أن أحوز موافقتك أيضًا.
- تورّد وجهها حياءً وسرورًا بما أولاها من أهميّة، فقالت:
- ربّنا يوفّقك إلى ما فيه الخير، عجل حتّى تعمّر لنا الدور المهجور، ولكنّ من بنت الحلال التي قرّرت أن تتخذها زوجة؟
- تبادل مع كمال نظرة أخرى، ثمّ قال في عناء:
- جيران تعرفينهم!...
- ارتسم بين حاجبيها تقطيب التذكّر وهي تمدّ نظرها إلى لا شيء، محرّكة سبّابها كأنّما تحصي من في غيّلتها من الجيران، ثمّ قالت:
- إنك تحبّري يا ياسين، هلّا تكلمت وأرحتني!
- قال وهو يتسم ابتسامة شاحبة:
- جيراننا الأقربون!
- من... ١٩.
- نذت عنها في إنكار وانزعاج وهي تحملق في وجهه، فخفض رأسه وأطبّق شفّته متجهّم الوجه، فعادت تقول بصوت متهدّج، وهي تشير بإبهامها إلى الوراء:
- أولئك؟! مستحيل، هل تعني ما تقول يا ياسين؟!
- فأجاب بالصمت المتجهّم حتّى زعقت:
- خبر أسود... أولئك الذين شمتوا بنا في أجلّ مصاب؟!
- فلم يتمالك أن هتف بها:
- أستحلفك بالله ألا ترددي هذا القول، إنّه وهم باطل، ولو اقتنع به قلبي لحظة واحدة...
- طبعا تدافع عنهم، ولكنّه دفاع لا ينطلي على أحد، لا تعب نفسك في إقناعي بالحال، يا ربّي!
- أيّ ضرورة تدعو إلى هذه الفضيحة؟ كلّهم نقائص وعيوب، فهل من فضيلة واحدة تبرّر هذا الاختيار الجائر؟ قلت إنك نلت موافقة أبيك، الرجل لا يعلم عن هذه الأمور شيئًا، قل إنك خدعته...
- قال ياسين بتوسّل:
- هدّئي روعك، ليس أكره عندي من إغضابك، هدّئي روعك ولتكلّم في هدوء...
- كيف أسمع لك وأنا أتلقّى منك هذه اللطمة القاسية؟! قل إن الأمر لا يعدو أن يكون مزاحًا سخيفًا، مريم؟! الفتاة المستهترّة التي تعرف من أمرها ما نعرف جميعًا؟... هل نسيت تاريخها الفاضح؟... هل نسيت حقًا أن تريد أن تحيي بهذه الفتاة إلى بيتنا؟!
- قال وهو يزفر كأنّما يطرد من صدره الكرب والاضطراب:
- لم أقل هذا قطّ، هذا أمر لا أهميّة له، المهمّ عندي حقًا أن تنظري إلى المسألة كلّها نظرة جديدة خالية من التحامل...
- أيّ تحامل يا هذا؟! هل ادّعت عليها بالباطل؟ تقول إنّ أبك وافق، فهل أخبرته عن عبثها الفاضح مع الجنود الإنجليز؟ ماذا جرى لأولاد الناس الطيّبين يا ربّي؟!
- هدّئي روعك، دعينا نتحدّث في هدوء، ماذا يجدي هذا الهياج؟!
- صاحت بحدّة لم تكن من طباعها في الزمن الأوّل:
- إنّ روعي لا يمكن أن يبدأ ما دام الأمر يتعلّق بالكرامة.
- ثمّ بصوتٍ باكٍ:
- وأنت تسيء إلى ذكرى أخيك الغالي.
- ياسين وهو يزدرد ريقه:
- أخي؟ رحمه الله وأسكنه فسيح جنّاته، إنّ هذا الأمر لا يمّس ذكره في أيّ شيء، صدّقيني فلمّا أدري بما أقول، لا تقلّقي مرقده!
- لست أنا التي ألقى مرقده، إنّما يقلق مرقده حقًا أخوه الذي يتطلّع إلى هذه الفتاة، أنت تعلم لهذا يا ياسين! ولا تستطيع أن تنكره...
- ثمّ في انفعال شديد:
- لعلّك كنت تتطلّع إليها حتّى في ذلك الزمن البعيد!
- نينة!

بإساءة ساعة، إنها معذورة كما قلت، ولكن كيف أطلعها بوجهي صباح مساء، وهذا ظنّها بي؟  
ثم بعد لحظات صمت مشحونة بالكآبة:  
- لا تصدّق أنّ مريم أدمت قلب المرحوم، لقد استأذن المرحوم يومًا في أن يخطفها فرفض أبوك، وتناهى المرحوم الأمر حتى نسيه فأنتهى كلّ شيء، فما ذنب الفتاة في ذلك، وما ذنبي أنا إذا أردت أن أتزوجها بعد ست سنوات من ذلك التاريخ؟  
قال كمال برجاء:

- لم تعد الحقّ فيما قلت، وسوف تقتنع نينة به عاجلاً، فأرجو أن يكون كلامك عن عدم البقاء في البيت مجرد هفوة لسانية...

فقال ياسين وهو يهزّ رأسه في حزن:  
- أنا أوّل من يعزّ عليه هجر هذا البيت، ولكنّي سأتركه عاجلاً أو آجلاً ما دام انتقال مريم إليه مستحيلاً، فلا تنظر إلى مسألة ذهابي إلّا من هذه الزاوية، سأنتقل إلى بيتي بقصر الشوق، ومن حسن الحظّ أنّ شقّة أمي لا تزال خالية، وسأقابل والدي في الدكان وأوضح له أسباب ذهابي متحاشياً كلّ ما يعكر صفوه، لست غاضباً، سأترك البيت أسفاً عليه كلّ الأسف، أسفاً على فراق أهله وأولهم نينة، لا تحزن ستعود المياه إلى مجاريها في وقت قريب، ليس في هذه الأسرة قلب أسود، وقلب والدتك أنصعها بياضاً...  
ومضى إلى صوان ملابسه ففتحه، وجعل ينظر إلى ملابسه ولوازمه، وتردّد قليلاً قبل أن ينفذ ما عقد العزم عليه، فالتفت إلى كمال، وهو يقول:

- سأتزوّج من هذه الفتاة كما قضت بذلك المقادير، ولكنّي - علم الله - مقتنع كلّ الاقتناع بأنّي لم أسئ إلى ذكرى فهمي، أنت أعلم يا كمال بما كان من حيي له، كيف لا؟ إذا كان هناك من سيساء بهذا الزواج، فهو أنا...!

- ١١ -

قادت خادم صغيرة ياسين إلى حجرة الاستقبال ثمّ انصرفت. كان يقوم بزيارة بيت المرحوم السيّد محمّد رضوان لأوّل مرّة في حياته، وكانت الحجرة - على

- لم تعد لي ثقة في شيء، كيف تبقى لك ثقة في شيء بعد هذا الغدر؟ هل ضاقت الدنيا وأقفرت حتى لم تجد من فتياتها زوجة إلّا الفتاة التي أدمت قلب أخيك؟ ألا تذكر ما أصابه من حزن وهو يستمع معنا إلى قصّة الجنديّ الإنجليزي؟...!

بسط ياسين ذراعيه في توسّل، قائلاً:  
- فلنؤجّل هذا الحديث إلى وقت آخر، سأثبت لك فيما بعد أنّ المرحوم لم يندأ ربه وليس في قلبه أيّ أثر لهذه الفتاة، أمّا الآن فلم يعد الجوّ صالحاً للكلام...  
صاحت به غاضبة:

- هيهات أن يصلح عندي جوّ هذا الكلام، إنك لا ترعى ذكرى فهمي...!

- لبتك تصوّرين ما يُحدثه فيّ كلامك من حزن! صاحت، وقد بلغ بها الغضب متناه:  
- أيّ حزن؟ إنك لم تحزن على أخيك! من الغرباء من حزن عليه أكثر منك!  
- نينة...!

وهمّ كمال بالتدخل في الحديث، ولكنّها أسكتته بإشارة من يدها، وهتفت:

- لا تدعني نينة، لقد كنت لك أمّا حقاً، ولكنك لم تكن لي ابناً ولم تكن لابني أخاً!  
لم يعد يحتمل البقاء، فنهض محزوناً مكتئباً، وغادر الصالة إلى حجرته، وما لبث كمال أن لحق به ولم يكن دونه حزناً وكآبة فقال له:

- ألم أحذرك؟...  
فقال ياسين مقتطّباً:  
- لن أبقى في هذا البيت دقيقة واحدة بعد الآن...!

فقال كمال بجزع:  
- يجب أن تعذرها، أنت تعلم أنّ والدتي لم تعد كما كانت، إنّ أبي نفسه يغضي عن بعض هفواتها أحياناً، ما هي إلّا غصبة لا تلبث أن تسكت فلا تحاسبها على كلامها، هذا رجائي إليك...!

قال ياسين، وهو يتنهّد:  
- لن أحاسبها يا كمال، لن أبيع جميل الأعوام

يحملها على السكوت... في قصر الشوق صادفتك أول مفاجأة سعيدة في هذا الجو العاصف!! هو موت الفكاهي وحلول ساعاتي محله، إلى القبر...! سمع نحنحة عند الباب، فأنجبه بصره إليه وهو ينهض، وما لبث أن رأى ست بهيجة وهي تدخل بجنبها، إذ أن مصراع الباب المفتوح لم يكن ليتسع لها إذا دخلت بعرضها، ولمح عن غير قصد الخطوط التي تحدد تفاصيل جسمها الجسيم، فلم يتمالك من العجب عندما مرت أمام عينيه عجيزتها التي كادت قمتها تبلغ منتصف ظهرها ويفيض أسفلها على فخذيها، فكأنتا كرة منطاد!! وأقبلت نحوه في خطوات متمهلة ناءت بقناطير اللحم والشحم، ثم مدت له يداً بضمة بيضاء برزت من كم فستانها الأبيض الفضفاض، وهي تقول:

- أهلاً وسهلاً، شرفت ونورت...

فصافحها ياسين بأدب، ولبت واقفاً حتى جلست على الكنية المجاورة فجلس... كان يراها عن كثب لأول مرة، إذ أن علاقتها القديمة بأسرته واكتسابها مع الأيام منزلة أشبه بمنزلة الأم في السن والاحترام حملاه على تجنب تفحصها - كما يفعل مع غيرها من النساء - كلها لمحها عن بُعد في الطريق، لذلك خيل إليه أنه عثر على كشف جديد. وكانت ترتدي فستاناً قد غطى على جسمها من العنق إلى ما فوق القدمين، وحتى القدمان وارتبها في جورب أبيض رغم دفء الجو، بينا امتد كُما الفستان على ذراعيها وساعديها حتى المعصمين، ولقت رأسها وعنقها بخيار أبيض طرح ذيله العريض على أعلى الصدر والظهر فبدت في احتشام يناسب المقام ويوافق العمر الذي قارب الخمسين - فيما علم - وإن تبدت في صحّة ريانة تنطق بصفاء المزاج وشباب القلب. ولاحظ فيما لاحظ أنها تطالع بوجه طبيعي لم يمسه زخرف أو زواق رغم ما عُرف عنها من حب التبرج وإتقان التزيّن، الأمر الذي نصّبها من قديم مرجحاً لكل ما يتعلّق بالدوق النسائي من ملابس وزواق في الحيّ كله. وذكر بهذه المناسبة كيف كانت أمينة تدافع عن هذه المرأة كلما عنّ لأحد أن ينتقد

طراز الحجرات بيت أبيه - واسعة الأركان، مرتفعة السقف، فيها مشربية تشرف على شارع بين القصرين ونافذتان تطلّان على العطفة الجانبية التي يفتح عليها مدخل البيت، وقد فُرشت أرضها ببسط صغيرة، واصطفت في جوانبها الكنبات والمقاعد، وأسدت على الباب والمنافذ ستائر من غمّل رماديّ باهت من القُدَم، وعلى الجدار المواجه للباب علقت البسملة في إطار أسود كبير، بينا توسّطت الجدار الأيمن - فوق الكنية الرئيسية - صورة للمرحوم السيّد محمّد رضوان تمثله في أوسط العمر...

اختار ياسين أول كنية صادفته إلى يمين المدخل، فجلس وهو يتفحص المكان بعناية حتى ثبتت عيناه على وجه السيّد محمّد رضوان الذي بدا وكأنه يبادل النظر بعيني مريم! ابتسم ابتسامة راضية وراح ينشئ لا شيء بمنشئته العاجية... ثمّة مشكلة قد واجهته مذ فكّر في المجيء لخطبة مريم، هي خلوّ البيت من جنس الرجال وعدم توفيقه إلى إنابة أحد من جنس النساء عنه. فكانت النتيجة أن جاء وحده كأنه مقطوع من شجرة - على حدّ تعبيره - الأمر الذي أخجله بعض الشيء كرجل ورث عن وسطه الاعتزاز بالأهل والأسرة، غير أنه كان مطمئناً من ناحية أخرى إلى أن مريم لا بدّ وأن تكون قد مهّدت له السبيل عند أمها، بحيث أن مجرد إعلان زيارته سيثبي بما جاء من أجله، ومن ثمّ يهين له جواً طيباً لإنجاز مهمّته.

عادت الخادم إلى الظهور حاملة صينية القهوة، فوضعتها على المنضدة أمامه، وتراجعت وهي تخبره بأن ستها الكبيرة في الطريق إليه... وستها الصغيرة ترى هل علمت بحضوره؟ وما صدى ذلك في نفسها الرقيقة؟ سوف يحملها بحسنها إلى قصر الشوق، ولتفعل بنا القوّة ما تشاء! من كان يظنّ لأمنية هذه القدرة على الغضب؟ كانت في وداعة الملاك. قاتل الله الحزن!! كذلك غضب أبوه وهو يعترف له في الدكان بأنّه هجر البيت ولكن غضب رحيم كشف عن تأثره وحزنه. ترى: هل تُطلعه أمينة على تاريخ مريم؟ غضب الكل شيء خفيف، ولكن كمال وعد بأن

إفراطها في التبرّج، ثم كيف انقلبت تحمل عليها لأتفه الأسباب في السنوات الأخيرة رامية إياها بقلّة الحياء وتجاهل ما يستوجبه عمرها من احتشام.  
- خطوة عزيزة يا ياسين أفندي...  
- الله يكرمك!!

كاد يجتم جملة بقوله «يا تيزة» ولكن إحساساً غريزياً خوّفه في اللحظة الأخيرة من النطق بها، خاصّة وأنه لاحظ أنّها لم تدّعه «بيا ابني» كما كان المنتظر، وعادت المرأة تسأل:

- كيف حالكم؟ والدك وأمّ فهمي وخديجة وعائشة وكيال؟

أجاب، وهو يشعر بحياء لسؤالها عن الذين ناصبوا العداء بلا سبب وجيه:  
- كلّهم بخير، سألت عنك العافية... لا شك أنّها تفكر الآن في الجفاء الذي قوبلت به في بيت أبيه عقب وفاة فهمي فاضطرّها إلى الانقطاع عن أسرته بعد معاشرة دامت العمر كلّها. يا له من جفاء!! بل يا لها من عداوة صامتة!! لم يكن إلّا أن أعلنت امرأة أبيه يوماً أنّ «شعورها» يتحدثها بأنّ مريم وأمّها لم تصدقا في حزنهما على فهمي! لم كفى الله الشرّ؟

قالت إنّ من غير المعقول أن يكون رفض السيّد لخطبة مريم لم يبلغها في حينه عن طريق أو آخر أو حتّى استنتاجاً، ومن غير المعقول أن تعلما به ولا تضطغنا عليهم! ورددت كثيراً أنّها سمعت أنّ مريم تنذب فهمي في المآتم فتقول: «أسفي على شبابك الذي لم تتمتع به» فترجتها إلى «أسفي على شبابك الذي وقف أهلك في سبيله فلم تتمتع به!». وزادت على ذلك ما شاء لها حزنها وقهرها، ولم تنفع معها حيلة في تحوّلها عن «شعورها»، وسرعان ما تغبّر سلوكها نحو مريم وأمّها حتّى كانت القطيعة... قال وهو لم يزل تحت تأثير الحياء والخرج:

- لمن الله الشيطان!  
فقالت بهيجة مؤكّنة على قوله:  
- ألف لعنة!... طالما ساءلت نفسي عمّا جنيت حتّى الآن ما لاقيت من السّ أمّ فهمي، ولُكّي

أعود فأدعو لها بالصبر... المسكينة!  
- جزاك الله كلّ خير على نبل خلقك وطيبة قلبك، حقّاً إنّها مسكينة وفي حاجة إلى الصبر!!  
- ولكن ما ذنبي أنا؟!  
- لا ذنب لك، إنّ الشيطان لعنة الله عليه...  
هزّت المرأة رأسها هزّة الضحية البريّة، وصمتت قليلاً، حتّى حانت منها التفاتة إلى فنجال القهوة الذي بدا كالمسيّ على صينيّة القهوة، فقالت وهي تومئ إليه:

- ألم تشرب قهوتك بعد؟  
فرفع ياسين الفنجال إلى فيه، وحسا الحسوة الأخيرة، ثمّ أعاده إلى الصينيّة، وتنحنح قليلاً، ثمّ أنشأ يقول:

- شدّ ما ساءني ما انتهت إليه صداقة الأسرتين، ولكن ما باليد حيلة، على أيّ حال ينبغي أن نتناسى ذلك تاركين أمره للزمن، والواقع أنّي لم أكن أحبّ أن أثير أسيف الذكريات، فما لهذا جئت، إنّما جئت لضرر آخر هو أبعد ما يكون عن الذكريات الأسيفة...  
هزّت المرأة رأسها هزّة كأنّها تطرد الذكريات الأسيفة، ثمّ ابتسمت ابتسامة استعداد لسماع جديد، كانت تهزّ رأسها وابتسامتها كالآلة الموسيقيّة المصاحبة للمغنيّ إذا غيّرت عزفها تمهيداً لدخول المغنيّ في طبقة جديدة من النغم، قال ياسين مستمداً من ابتسامتها طلاقة:

- أنا نفسي لا تخلو حياتي من ذكريات أسيفة تتصل بحياتي الماضية... أعني تجربتي الأولى في الزواج الذي لم يوقّني الله فيه إلى بنت الحلال! ولُكّي لا أريد أن أرجع إلى ذلك، الواقع أنّي جئت بعد أن عزمت - متوكّلاً على الله - على فتح صفحة جديدة مستبشراً الخير كلّها فيها اعترمت...

ولكن هيتها - بعد ابتسامتها - تقول له أيضًا «رأيتك!». لينس الهفوة فهذا خير حل، ولكن هل تصير مريم مثل أمها يومًا ما؟ متى يجيء هذا اليوم؟! للألم مزايا لا يجود بها الزمان إلا في النادر، يا لها من امرأة!! إن خير وسيلة لتغيير أفكاره وتبديد سحابة الشك هي أن يمزق الصمت، قال:

- إذا حاز طلبي القبول، فستجدي رهن إشارتك لمناقشة التفاصيل الهامة...

ضحكت ضحكة قصيرة، فبدا وجهها في إشرقتها لطيفًا شابًا، وقالت:

- كيف لا يحوز القبول يا ياسين أفندي؟! أصل وجوار على رأي المثل...

قال، وقد تورّد وجهه:

- إنك تأسريني بلطفك!

- ما عدوت الحق، والله شهيد!

ثم متسائلة بعد فاصل صمت قصير:

- هل تمت موافقة البيت؟

تجلّت في عينيه نظرة جدّ لحظة، ثم ضحك ضحكة فائرة من أنفه، وقال:

- دعينا من البيت وسيرته!

- لم كفى الله الشر؟

- ليس البيت على ما يرام!

- ألم تشاور السيد أحمد؟

- أبي موافق...

فصبرت يداً على يد، وقالت:

- فهمت، أم فهمي؟! أليس كذلك؟! إنها أوّل من تبادر إلى ذهني وأنت تفانحي بالموضوع، طبعًا لم توافق، هه؟ سبحان الذي لا يتغيّر، امرأة أهلك امرأة غريبة!

هزّ كتفيه استهانة، وهو يقول:

- لا يقدّم هذا ولا يؤخّر...

قالت متشجّية:

- طالما ساءلت نفسي عمّا جنيت؟ أيّ إساءة أسأت بها إليها!

- لا أحبّ أن أقدم على حديثنا حديثًا آخر لا يجني

بالك، إن ملاحظها الجميلة توحى بالتسامح إلى غير حدّ، ملاحظها الجميلة!! أليس كذلك؟ بلى، لولا فارق السنّ لكانت أجمل من مريم، كانت بلا مرء أجمل من مريم في شبابها الذاهب... كلاً! إنها أجمل من مريم رغم فارق السنّ... إنها لكذلك...

- أظنّك فطنت إلى مقصدي، أعني إلى أنّي جئت طالبًا يد كريمتك مريم هانم...

أضواء الوجه الرقراق ابتسامة بثّت فيه حيويّة جديدة، وقالت:

- لا يسعني إلا أن أقول أهلاً وسهلاً، نغم الأسرة ونغم الرجل، أمس أوقعنا سوء الحظّ فيمن لا خلاق له، اليوم يسعى إلى مريم رجل جدير حقًا بإسعادها، وستكون بفضل الله جديرة بإسعاده، ونحن - مهما فرّق

بيننا سوء التفاهم - أسرة واحدة من قديم الزمن...

اغتنبت ياسين حتّى راحت أصابعه تسوّي البايون بلمسات سريعة غير مقصودة، ثم قال وقد تورّد وجهه

الأسمر الجميل:

- أشكرك من صميم قلبي، جزى الله عني لسانك الحلو، نحن أسرة واحدة كما قلت رغم أيّ شيء، ومريم هانم فتاة يزدان بها حينًا كلّ أصلًا وخلقًا، أرجو أن يعوّضها الله من صبرها خيرًا وأن يعوّضني بها من صبري خيرًا.

غمغمت «آمين» وهي تنهض، ثم أقبلت بجسمها المفتخر نحو المنضدة، فتناولت صينيّة القهوة وهي تنادي باسمينة، ثم استدارت حاملة إياها فأعطتها الخادم التي جاءت على عجل، ولفتت عنقها فجأة لتقول له «آنستنا» فباغتته وهو يحمق في رديفها الثقيلتين!! وشعر لتوّه بأنّه «ضبط في حالة تلبّس» فبادر بخفض عينيه ليوهمها بأنّه كان ينظر إلى الأرض، ولكن بعد فوات الأوان... وارتيك وجعل يسأل نفسه عمّا عسى أن تظنّ به، ثم اختلس منها نظرة بعد أن عادت إلى مجلسها فلمح على شفّيتها ابتسامة خفيفة

كأنّها تقول له «رأيتك». لعن عينيه اللتين لا تعرفان الحياء، وتسأله عمّا يمكن أن يكون قد دار في رأسها...

أجل إنها تحاول أن تبدو كأنّها لم تر شيئًا،

أجل إنها تحاول أن تبدو كأنّها لم تر شيئًا،

بخطورة الموقف. إما أن يكون مجنوناً وإما أن تكون - هي - المجنونة، أو فلا هذا ولا ذاك؟ مَنْ له بمن يتشله من حيرته! استقام جسمها المائل، فوقفت، ثم تحولت عن النافذة متجهة إلى مجلسها. فبادر إلى رفع عينيه صوب البسملة - قبل تحوّلها - متظاهراً بالاستغراق في تفحصها، ولم يلفت رأسه نحوها حتى صدرت عن الكنبه طقطقة تنبئ بجلوسها، وعند ذاك التفت عيناهما، فرأى في عينها نظرة باسمه مأكرة أشعرته بأنه لم تحف عنها خافية، وكأنّها تقول له بأفصح لسان «رأيتك!». لبث حيناً مضطرب النفس وال خاطر، ولم يكن على بينة من شيء فخاف أن يكون ظلمها أو أن يكون عرض نفسه أمامها للاتهام، وبدا له أنه سيحاسب على كلّ حركة تبدر منه، وأنّ أيّ هفوة قد تنقلب فضيحة.

- ما زال الجوّ مائلاً إلى الحرارة والرطوبة...  
جاء صوتها هادئاً طبيعياً، ودلّ - إلى ذلك - على رغبتها في إزاحة الصمت، فقال بارتياح:  
- أجل إنه كذلك...

عاودته الطمأنينة، غير أنه ما لبث أن تخايل لعينه المنظر الذي رآه عند النافذة، وجد نفسه على رغمه يجترّه ويتيه في جاذبيته، ويتمنّى لو كان عثر على مثله في إحدى مغامراته. لو كان لريم مثل هذا الجسم! ألا في مثله فليتنافس المتنافسون. ولعلّها ظنّته - لصمته - لا يزال مشغولاً بما أثارته من حديث خلاصه مع امرأة أبيه، فقالت فيما يشبه الدعابة:

- لا تشغل بالك، لا شيء في هذه الدنيا يستحقّ شغلة البال!

ثمّ لوّحت يديها ورأسها - واهترّ جسمها فيما بين ذلك اهتزازة خاصّة - كأنّها لتحنّ على الاستهانة بالهموم، فابتسم مطوّعاً وهو يغتم: «نطقت بالحقّ». غير أنّه كان يبذل قصاره ليملك نفسه. أجل فقد حدث أمر جلل. لم يكن في ظاهره إلّا تلك الحركة الشاملة التي أرادت بها الإفصاح عن الاستهانة وحته عليها، إلّا أنّها كانت حركة بالغة الخطورة من حيث دلالتها على الخلاعة والدلال والاستهتار، وقد

منه الإنسان إلّا وجع الدماغ، ليكن ظلّها ما يكون، المهمّ أنّي ماضٍ إلى هدفي، ولا يعنيني إلّا موافقتك أنت...

- إذا لم يتسع لك بيتك فبيتنا تحت أمرك...  
- شكراً... لديّ بيتي بقصر الشوق بعيداً عن الحيّ كلّها، أمّا بيت أبي فقد غادرته من أيام...  
ضربت صدرها بيدها هاتفة:

- طردتك!...

قال ضاحكاً:

- كلّاً لم يبلغ الأمر إلى هذا الحدّ، المسألة وما فيها أنّ اختياري أُلهمها لأسباب قديمة لها صلة بالمرحوم أخي (هنا نظر إليها نظرة ذات معنى)، ومع أنّي لم أجد في معارضتها وجه حقّ مقنع، فلمّا رأيت من اللياقة أن أعدّ للزوجيّة بيتاً جديداً...

سألته، وهي ترفع حاجبيها وتهزّ رأسها فيما يشبه الشكّ:

- لم لم تنتظر في بيتك حتّى يحين ميعاد الزواج؟

فضحك ضحكة تسليم، وقال:

- أثرت الابتعاد خوفاً من تفاقم الخلاف!

فقالت كالتهكم:

- ربّنا يصلح الحال...

وقامت مرّة أخرى قبل أن تتمّ جملتها، فأنجّمت إلى النافذة المطوّلة على العطفة الجانبية وفتحتها لتفتح لنور الأصيل بعد أن بات باب المشربية غير كافٍ لإضاءة الغرفة، وجد نفسه على رغمه وحذره يسترق النظر إلى كنزها النفيس وهو يطالعه كالقبة. رآها وهي تعتمد على الكنبه بركبتها ثمّ تميل على حافة النافذة لتشيك مصراعها فرأى منظراً عجيباً ترك في نفسه أثراً دامياً. تساءل وهو يشعر بجفاف حلقه: لم لم تدعّ الخادم لتفتح النافذة؟ كيف ارتضت أن تعرض أمام ناظريه - اللذين باغتتهما منذ قليل في حالة «تلبّس»- هذا المنظر الذي لا يخفى عنها مغزاه؟ لم وكيف وكيف ولم؟ كان فيما يتّصل بالنساء مرهف الحسّ سيئ الظنّ، فلاح له شيء كالشكّ يتردّد على عتبة إدراكه لا يريد أن يدخل ولا يريد أن يختفي، ولكنّه بادر فأغمض عينيه متأثراً

نَدَّت عنها في لحظة نسيان فخرجت بها عما التزمته طوال الجلسة من تأدب واحتشام وكشفت عن خبيثة طبيعتها وهي لا تدري، أو وهي تدري؟ لا يستطيع أن يقطع بهذا أو بذلك ولكنه لم يعد به شك في أنه حيال امرأة جديدة حقًا بأن تكون أم مريم ذات التاريخ القديم! أبى أن يتراجع عن رأيه مهما يكن من أمر، فهذه الحركة الراقصة المغناج لا يمكن أن تصدر عن سيِّدة مصون! ولم يكن لإزعاجه إلا لحظة عابرة، فسرعان ما حلَّ محلّه إحساس بسرور شهوانيٍّ مأكراً، وراح يتذكَّر أين ومتى رأى هذه الحركة من قبل، على زُنوبة؟ جليلة ليلة اقتحمت على أبيه المنظرة ببيت آل شوكت؟ آه... هذه هي! وخيّل إليه أنها رغم سنها أشهى من مريم والدِّ، وغلبته فطرته فحدّثته نفسه بأن يجسَّ النبض وألا يقف إن أمكن عند حدٍّ! وشعر برغبة في الضحك من غرابة أفكاره، وبأنه سيسلك طريقاً وعراً لم يطرّق من قبل، ولكنه لم يعتد يوماً أن يزجر النفس عن هوى... أين يتأدّى به هذا المسلك؟ هل يمكن أن يعدل عن مريم إلى أمها! كلا! إنه لا يضمّر ذلك قطّ، ولكن تصوّروا كلِّنا قد عثر على عظمة وهو في طريقه إلى المطبخ فهل يتعقّف؟... بيد أنها مجرد أفكار وتخيّلات وفروض! فلأنتظروا... وتبادل ابتسامة في الصمت الذي عاد فسحب ذيله بينهما، أمّا ابتسامتها فكانت فيما بدا تحيّة مضيف لضيف، وأمّا ابتسامته فقد انفغمت، على فم حائر بهمسات الاعتداء المختنق.

- نوّرت بيتنا يا ياسين أفندي...  
- يا سَيِّ بيتك لا ينقصه النور، أنت تنورين البلد وما فيها...  
ضحكت ضحكة مالت برأسها إلى الوراء، وهي تتمتم:  
- الله يكرمك يا ياسين أفندي...  
كان ينبغي أن يعود إلى الحديث عن طلبه أو أن يستأذن في الانصراف على أن يسمّي موعداً آخر لمواصلة الحديث، ولكنه لم يعد إلى الحديث ولم يستأذن في الانصراف... بل راح يمدجها بنظرات ربية تطول نَدَّت عنها في لحظة نسيان فخرجت بها عما التزمته طوال الجلسة من تأدب واحتشام وكشفت عن خبيثة طبيعتها وهي لا تدري، أو وهي تدري؟ لا يستطيع أن يقطع بهذا أو بذلك ولكنه لم يعد به شك في أنه حيال امرأة جديدة حقًا بأن تكون أم مريم ذات التاريخ القديم! أبى أن يتراجع عن رأيه مهما يكن من أمر، فهذه الحركة الراقصة المغناج لا يمكن أن تصدر عن سيِّدة مصون! ولم يكن لإزعاجه إلا لحظة عابرة، فسرعان ما حلَّ محلّه إحساس بسرور شهوانيٍّ مأكراً، وراح يتذكَّر أين ومتى رأى هذه الحركة من قبل، على زُنوبة؟ جليلة ليلة اقتحمت على أبيه المنظرة ببيت آل شوكت؟ آه... هذه هي! وخيّل إليه أنها رغم سنها أشهى من مريم والدِّ، وغلبته فطرته فحدّثته نفسه بأن يجسَّ النبض وألا يقف إن أمكن عند حدٍّ! وشعر برغبة في الضحك من غرابة أفكاره، وبأنه سيسلك طريقاً وعراً لم يطرّق من قبل، ولكنه لم يعتد يوماً أن يزجر النفس عن هوى... أين يتأدّى به هذا المسلك؟ هل يمكن أن يعدل عن مريم إلى أمها! كلا! إنه لا يضمّر ذلك قطّ، ولكن تصوّروا كلِّنا قد عثر على عظمة وهو في طريقه إلى المطبخ فهل يتعقّف؟... بيد أنها مجرد أفكار وتخيّلات وفروض! فلأنتظروا... وتبادل ابتسامة في الصمت الذي عاد فسحب ذيله بينهما، أمّا ابتسامتها فكانت فيما بدا تحيّة مضيف لضيف، وأمّا ابتسامته فقد انفغمت، على فم حائر بهمسات الاعتداء المختنق.

- خذي راحتك، أنت في بيتك، ولا غريب في البيت...  
- ليت أن مريم كانت في البيت لأزفَ إليها الخبر! خفق قلبه خفقة حادة كإشارة الهجوم، وتساءل:  
- وأين هي؟  
- عند جماعة من معارفنا في الدرب الأحمر.  
وداعاً يا عقلي! خاطب بنتك يريديك وأنت تريدينه،



لمريم ذكر بينها إلا حين قالت له مرة:  
- لم أستطع أن أخفي عن مريم نبأ زيارتك، لأنّ  
خادمتنا تعرفك، ولكنّي قلت لها: إنك فانتحني برغبتك  
في خطبتها بعد تذليل العقبات التي تعترض سبيلك في  
محيط الأسرة!

ووجد نفسه مذهولاً عن مناقشتها، فأبدى موافقته  
واستحسانه. واستقبلاً معاً حياة حافلة بالمتع، وجد  
ياسين ذات «الكنز» مليئة بين يديه، فانطلق انطلاق  
الجواد الجامح، ولم تكن الحجرة التي أنشئت على عجل  
واقتصاد بالمكان الصالح لمطارحة الغرام، ولكنّه لم يأل  
عن تهيئة الجوّ الخلّاب بتوفير الطعام والشراب حتّى  
يطيب له الوصال فيواصل صولاته بذلك النهم  
الغريزيّ الذي لا يعرف حدّاً أو اعتدالاً. وما لبث أن  
أدركه الملل قبل أن يتمّ الأسبوع الأوّل دورته. هي  
نفس الحلقة التي تدور فيها شهوته حتّى غدا الدواء  
نوّعاً من الداء بيد أنّه لم يؤخذ على غرة، كلّاً ولم  
يضمّر نحو تلك العلاقة الغريبة من بادئ الأمر أيّ نية  
حسنة ولا قدر لها أيّ دوام، بل لعلّه لم يبلغ من وراء  
المغازلة في حجرة الاستقبال إلا ضجعة عابرة، غير أنّه  
وجد من المرأة تعلّقاً به وحرصاً عليه وأملًا في أن يكون  
قنع بها راضياً وعدل عن مشروع الزواج، فلم يرَ بدءاً  
من مجاراتها كيلا يفسد على نفسه لذتها مؤمناً بأنّ الزمن  
وحده كفيل بإرجاع كلّ شيء إلى أصله! وما أسرع أن  
رجع كلّ شيء إلى أصله بالنسبة إليه هو، بل ربّما  
أسرع ممّا قدّر، وكان جاراها وهو يظنّ أنّ جدّة محاسنها  
خليقة بأن تحتفظ برونقها أسابيع أو شهرًا، ألا يا ربّما  
كذب الظنّ!... أمّا عن مظهرها الشهويّ فبحسبه أن  
جعله يرتكب أكبر حماقة في حياته العامرة بالحماقات،  
ولكنّ الكهولة تكمن وراء ذلك كما تكمن الحمى وراء  
تورّد الخدين الكاذب، وإنّ القناطير المقلّطة من اللحم  
البشريّ المتحبّكة تحت طيّات الثياب - على حدّ قوله -

غيرها إذا تجرّدت، للعيان، وليس كاللحم البشريّ  
مسجل لأثار العمر الحزينة، حتّى قال لنفسه «الآن  
أدرك لماذا تعبد النساء الملبّسات» لم يكن عجيّباً بعد  
ذلك أن يقول عنها وقد ضاق باندلاقها عليه أنّها

ليرحم الله من يحسنون الظنّ بالنساء، لا يمكن أن  
يكون في رأس هذه المرأة عقل، جارة العمر ولا تعرفها  
إلا اليوم!... مجنونة... مراهقة في الخمسين!...

- متى تعود مريم هانم؟

- قبيل المساء ..

قال بخبث:

- أشعر بأنّ زيارتي قد طالت...

- لم تطل زيارتك، أنت في بيتك...

فسألها بخبث أيضاً:

- ترى هل أطمع في أن تردي لي الزيارة؟

فابتسمت ابتسامة عريضة، كأنما تقول له «إنّي أدرك  
ما وراء هذه الدعوة»، ثمّ أطرقت في حياء وإن لم يغب  
عنه ما في حركتها من تمثيل، ولكنّه لم يبالها، وراح  
يصف لها موقع بيته من الحارة وموضع شقّته من  
البيت، وهي مطرقة صامته باسمه. ترى ألم تشعر بأنّها  
تسيء إلى ابنتها بأبلغ إساءة، وأنّها تعتدي عليها أنكر  
اعتداء؟!

- متى تتكرّمين بالزيارة؟

غمغمت وهي ترفع وجهها:

- لا أدري ماذا أقول!

فقال بتوكيد وثقة:

- أقول أنا بالنيابة عنك، مساء الغد، ستجدني في  
انتظارك!

- ثمة أمور يجب أن نعمل حسابها!

- سنعمل حسابها معاً... في بيتي!

وقام من فوره وهمّ بأن يتقدّم نحوها، فأشارت إليه  
وهي تلتفت نحو الباب محدّرة، ثمّ قالت وكأنما لا  
تقصد إلا التفادي من صولته:

- غداً مساء...!

- ١٢ -

وعرف بيت قصر الشوق بهيجة زائرة مواظبة.  
كانت إذا نشر الظلام ستاره، تلتفّع بملاءتها، وتمضي  
إلى الجماليّة، فإلى بيت هنيء... وهنالك تجد ياسين في  
انتظارها بالحجرة الوحيدة المفروشة في الشقّة. لم يجر

«مرض»، وأن يجمع العزم على قطع علاقته بها. وعادت مريم - بعد اخمود النزوة الجنونية - إلى سابق مكانتها من نفسه، كلاً، لم تكن بارحتها، ولكن النزوة الطارئة غشيتها كما تغشى السحابة العجل وجه القمر، عجباً! لم تعد رغبته في مريم مجرد استجابة لولعه الخالد بجنسها وإن غلب ذلك عليها، ولكنها أرضت من ناحية أخرى حنينه إلى تكوين الأسرة التي كان يعتدها مصيراً محتوماً ومرغوباً فيه أيضاً. واستوصى بالصبر - كارهاً - على أن تثوب بهيجة إلى رشدتها، أن تقول له يوماً «حسبنا لعباً وهلم إلى عروسك» ولكنه لم يجد لأمله صدى في نفسها، كانت تواظب على الزيارة ليلة بعد أخرى، وما تزداد إلا إغراقاً وتهالكاً، وشعر بأنها تمتلئ مع الزمن إيماناً بحقها عليه كأنه بات محور حياتها وملك ميمتها.

أجل! لم تكن تنظر إلى الأمر بعين الاستهانة أو اللهو، وإلى هذا تكشف نفسها له عن خفة وطيش ونزق أفتنته جميعاً بأن سلوكها الشاذ معه في أول مقابلة لم يكن أمراً مستغرباً، فاستهان بها وازدراها وتضخمت عيوبها في عيني الزاريتين حتى ضاق بها كل الضيق وصمم على التخلص منها في أول فرصة تسنح، وإن حرص على تحبب الفظاظ أن تبعثر العراقيل في طريق مريم. قال لها مرة:

- ألا تتساءل مريم عن سرّ اختفائي؟

فقال وهي تطمئن بحركة من رأسها:

- إنها على بينة من معارضة أسرتك.

فقال بعد تردد:

- أصارحك بأننا كنا نتحدث أحياناً فوق السطح،

وأنّي ردّدت لها مرّات بأنني مصمّم على الزواج منها مهما يكن من معارضة المعارضين.

فحدجته بنظرة نافذة، وهي تتساءل:

- ماذا تريد؟

قال متظاهراً بالبراءة:

- أريد أن أقول إنها سمعت منّي ذلك التوكيد،

وإنها علمت بعد ذلك بزيارتي لك، فينبغي أن تقتنع

بسبب وجيه لاختفائي!...

فقال بغير مبالاة أدهشته:

- لن يضيرها ألا تقتنع، فليس كلّ كلام بمفضّ إلى خطبة ولا كلّ خطبة بمفضية إلى زواج، إنها تعلم علم اليقين...

ثم بصوت منخفض:

- ولن يضيرها أن تفقدك، إنها شابة في عزّ جمالها، ولن تُعدم خاطباً اليوم أو غداً...

كانها تعتذر عن أنانيّتها، أو تلمح إلى أنها هي - لا ابنتها - التي يضيرها فقده، فلم يزد قولا إلا ضيقاً وملأ، إلى أنه أخذ يتوجّس خيفة من معاشرته امرأة تكبره بعشرين عاماً، متأثراً بما يتردّد بين العامة من أنّ مخادعة الكهلات تدبّل الشبان، حتى شحنت ساعات اللقاء - من ناحيته - بالتوتر والحذر فمقتها مقتاً...

وإنه لعلّ ذلك إذ صادف مريم يوماً في السكة الجديدة، فتقدّم منها دون تردد، وسلّم عليها، وسار إلى جانبها كأنه من ذوي قرباها، كانت قلقة عابسة، فأخبرها بأنه كان يقنع والده بالمرافقة حتى ظفر بها، وأنه يعدّ مسكنه بقصر الشوق ليكون صالِحاً لهما، واعتذر عن طول غيبته بكثرة مشاغله، ثم قال لها: «أخبري والدتك بأنني ساجيء غداً لمقابلتها للاتفاق على عقد القران!» ومضى سعيداً بانتهاز الفرصة التي سنحت على غير ميعاد، غير عابٍ - في عمرة السعادة - بما سيكون موقف بهيجة منه. وفي مساء ذلك اليوم جاءت بهيجة في ميعادها إلى قصر الشوق، ولكنها جاءت هذه المرة كسيرة النفس، بادرت هاتفة قبل أن ترفع برقعها:

- بعثني غيلة وغدراً...

ثم انحطّت على الفراش، وهي تنزع برقعها في نرفزة، وتقول:

- لم يطف بخاطري أنك تضمر لي هذا الغدر كلّ، ولكنك جبان غادر كسائر الرجال...

قال ياسين برقة المعتذر:

- ليس الأمر كما تتصوّرين، الحقّ أنّي قابلتها صدفة...

فصاحت بوجه مكفهراً:

أدرك خطورة التسليم بذلك، فغضّ بصره ولاذ بالصمت، فقالت وهي تزفر من الغيظ:

- أرايت أنك كذاب كما قلت لك؟

ثم صارخة:

- أرايت؟ أرايت يا غادر يا ابن الغادر؟

قال بعد تردد:

- إنَّ سرّاً لا يمكن أن يخفى إلى الأبد، تصوّري

ماذا يقول الناس لو كشفوا سرّ علاقتنا، بل تصوّري

ماذا تقول مريم!

فصرفت بأسنانها من الحق، وقالت:

- يا لك من خنزير! لم تذكر هذه الاعتبارات يوم

وقفت أمامي سائل اللعاب كالكلب؟ آه يا جنس

الرجال، جهنّم الحمراء عقوبة نافهة لكم!

ابتسم خفياً، وكان أوْشك أن يضحك لولا فرملة

الجبن، ثم قال بتودّد ورقة:

- لقد قضينا وقتاً طيباً سوف أذكره دائماً بكلّ خير،

حسبك غضباً واستياء، ما مريم إلّا ابنتك، وإنك أوّل

من يروم سعادتها...

وهي تهزّ رأسها بتهكّم:

- أنت الذي ستسعدّها؟! اسمعي يا حيّطان،

المسكينة لا تدري أيّ إبليس ستزوّج، أنت دائر ابن

دائرة، وربّنا يكفينّا شرّاً ما وقعت فيه...

قال بهدوء الذي التزمه من أوّل الأمر:

- عند ربّنا الصلاح، إنّي أرغب رغبة صادقة في

بيت مستقرّ، وزوجة بنت حلال!!

قالت هازئة:

- أقطع ذراعي إن صدقت، سوف نرى، لا تظنّ

بأمومي الظنون، إنّ سعادة ابنتي مقدّمة عندي على كلّ

اعتبار، ولولا أنّك خدعتني وغدرت بي ما كان يهمني

أن أهديك إليها على الحذاء!

ساءل ياسين نفسه: ترى هل مرّت الأزمة بسلام؟

وانتظر أن تلبس برقعها وتودّعه، ولكنّها لم تحرك

سائناً، ومضى الوقت - وهي بمجلسها من الفراش،

وهو بمجلسه على الكرسيّ قبالتها - لا يدري كيف، ولا

متى تقوِّض هذه الجلسة الغريبة المتوتّرة، واسترق

- كذاب! كذاب! وحقّ من هو قادر على أن يريني

فيك ما أشتهي. هل تظنّني أصدّقك ما حييت بعد ما

كان (ثمّ وهي تحاكيه محاكاة كاريكاتورية) الحقّ أنّي

قابلتها صدفة! أيّ صدفة يا عمر؟! وهبها صدفة

حقّاً، فلمّ كلمتها في الطريق أمام الرائع والغادي؟

ليس هذا فعل الغادر السعّ النيّ؟ (ثمّ وهي تعود إلى

المحاكاة الكاريكاتورية) الحقّ أنّي قابلتها صدفة...!

فقال في شيء من الارتباك:

- وجدّتي معها فجأة - وجّها لوجه - فامتدّت يدي

بالسلام عليها! ما كان بوسعي تجاهلها بعد ما كان من

تحادثنا فوق السطح.

فصاحت به بوجه مصفرّ من الغضب:

- فامتدّت يدي بالسلام عليها! اليد لا تمتدّ إلّا إذا

مدّها صاحبها، قطعت اليد وصاحبها، قل إنك

مددت يدك إليها لتتخلّص مني...

- لم يكن من السلام بدّ، أنا إنسان وفي وجهي دم!

- دم؟! أين هو ذاك؟ دم يلطشك يا غادر يا ابن

الغادر...

ثمّ بعد أن ازدردت ريقها:

- ووعدك إيّاها بالمجيء للاتّفاق على عقد القران،

هل أفلت منك أيضاً كما أفلتت يدك؟... تكلم يا

سي دم...

قال بهدوء عجيب:

- إنّ كلّ الحيّ يعلم الآن بأنّي هجرت بيت أبي

لأنزوّج من ابنتك، فلم يكن من المستطاع تجاهل ذلك

وأنا أحدثّها...

فصاحت بحدّة:

- كان بوسعك أن تتحلّ من الأعداء ما تشاء لو

كانت بك رغبة إلى ذلك، لست بمن يعيهم الكذب،

ولكنك أردت التخلّص منّي، هذه هي الحقيقة...

قال وهو يتحاشى نظرتها:

- ربّنا يعلم بحسن نيّتي!

فحدّجته بنظرة طويلة، ثمّ سأله في تحدّ:

- أعني أنّك توّطت في وعدك لها على غير رغبة

منك؟

- ١٣ -

- يا سيّد أحد لا تؤاخذني إذا صارحتك بأنك تبدّر  
نقودك هذه الأيام بلا حساب... .

قال جميل الحمزاوي ذلك بلهجة جمعت بين أدب  
المستخدم وإدلال الصديق. وكان الرجل لا يزال قويّ  
البنية جيّد الصحة على بلوغه السابعة والخمسين من  
عمره، أمّا رأسه فقد رصّعه المشيب، ولم تؤثر السنون  
في نشاطه شيئاً فلم يزل يومه ينقضي على حركة دائبة في  
خدمة الدكان وعملائه كعهده منذ التحق به على أيام  
منشئه الأول. وقد اكتسب مع طول العهد حقوقاً ثابتة  
واحتراماً جديراً بنشاطه وأمانته، فنزل من نفس أحد  
عبد الجواد منزلة الصديق، ولم يكن عطف الرجل عليه  
الذي تمثّل أخيراً في معاونته على إلحاق ابنه فؤاد بمدرسة  
الحقوق إلّا مضاعفاً لإخلاصه وموجباً عليه مصارحته  
عندما تحب المصارحة لدفع ضرر أو تحقيق منفعة. على  
أنّ أحمد قال بلهجة مطمئنة، ولعلّه كان يشير إلى  
الرواج الذي لم تزل تشمل السوق بسكرته:

- الحال معدن، والحمد لله... .

فقال جميل الحمزاوي باسمًا:

- ربّنا يزيد وبارك، غير أنّي لا أزال أكرّر القول  
عليك بأنك لو كنت اتخذت من التجار خلقهم كما  
اتخذت حرفتهم، لكنت الآن من كبار الأغنياء... .

ابتسم أحمد ابتسامة الرضى والقناعة وهو يهزّ منكبيه  
استهانة. ربح كثيرًا وأنفق كثيرًا، فكيف يأسف على ما  
جنى من لذات العيش؟ لم يفقد يوماً حاسة التوازن بين  
دخله ومنصرفه، ولم يخلُ رصيده من الستر، وقد  
تزوّجت عائشة وتزوّجت خديجة، وطرق كمال باب  
المرحلة النهائية من حياته الدراسية، فإذا عليه لو تمتّع  
بعد ذلك بطيبات الحياة؟ على أنّ الحمزاوي لم يعد  
الحقّ في ملاحظته على تبيده. فالحقّ أنّه يبدو - هذه  
الأيام - أبعد ما يكون عن الاعتدال والقصد، تشعبت  
وجوه نفقاته: فالهدايا تستنزف مالا لا يُستهان به،  
والعمامة تستحلب دسمه، ومحطّيته تستأديه القرايين،  
وفي الجملة فإنّ زنوبه تدفعه إلى الإسراف دفعًا، وهو  
من ناحيته يدفع بلا مقاومة تُذكر، لم يكن كذلك في

النظر إليها، فوجدتها ترنو إلى الأرض كالسارحة على  
حال من التسليم نزعت به إلى العطف عليها، هل  
تعود مرّة أخرى إلى المهاترة؟ غير مستبعد! ولكنّها -  
فيما يبدو - تفكّر في موقفها الدقيق بينه وبين ابنتها  
وتنحني أمام مقتضياته، وما يدري إلّا وهي تنزع  
الملاءة عن نصفها الأعلى وتغمغم «الجوّ حارٌّ» ثمّ  
تزحزحت حتّى نهاية الفراش فاستندت إلى شباكه،  
ومدّت ساقها غير عابثة بالخذاء الذي انغرز كعبه في  
طيات اللحاف، ثمّ واصلت شرودها، ترى: ألا يزال  
لديها ما تقول؟ سأله بلهجة بالغ في رقتها:

- هل تسمحين لي بأن أزورك غداً... ؟

تجاهلت سؤاله دقيقة أو نحوها، ثمّ حدجته بنظرة  
كاللعة، وقالت:

- على الرحب والسعة يا بن القديمة!

ابتسم قانعًا وهو يشعر بنظراتها تلهب وجهه،  
وعادت هي تقول بعد هنيهة:

- لا تظنّني بلهاء، كنت موطنة النفس على توقّع  
هذه النهاية عاجلاً أو آجلاً، ولولا أنّك تعجّلتها  
بطريقة... (ثمّ بتسليم وازدراء معًا)... ما  
علينا... .

لم يصدّقها، ولكنّه تظاهر بتصديقها، ومضى يقول:  
إنّه كان واثقًا من ذلك، وإنّه يرجو أن تغفو عنه  
وتشمله برضاها، ولكنّها لم تمنّ بالإصغاء إليه،  
وتزحزحت - مرّة أخرى - إلى حافة الفراش، فطرحت  
ساقها على الأرض، وقامت فاخذت تحبّك ملاءتها،  
وهي تقول: «أستودعك الله»... . فقام صامتًا وتقدّمها  
إلى الباب وفتحها، ثمّ تقدّمها مرّة أخرى إلى الخارج،  
وما يدري إلّا وصفعة تهوي على قفاه، على حين مرقت  
المرأة من جانبه إلى السلم وتركته وراءها كالذاهل وكفّه  
منطرحه على موضع الصفعة، التفتت نحوه ويدها على  
الدرازين، وقالت:

- تعيش وتأخذ غيرها، آذيتني أكثر من هذا، ألا  
يحقّ لي أن أشفي غليلي ولو بصفعة يا ابن  
الكلب... ؟!

عينها، وذكر بها جليلة وزبيدة، شدّ ما يستبسل أولئك النسوة في معركة الحياة والشباب، أما أمينة فسرعان ما تهاوت فريسة للحزن والذبول!... وقربت بهيجة الكرسي من المكتب، ثم قالت بصوت خافت:

- لا تؤاخذي يا سي السيد على هذه الزيارة، فللضرورة أحكام...

فقال أحمد - من فوره - وقد كان يبدو رزيناً جاداً:  
- أهلاً وسهلاً، إنّ زيارتك تشريف لنا وتكريم...

فقالت باسمه، وقد ثمت نبرات صوتها على الامتنان:

- تشكر، والحمد لله على أنّي وجدتتك بخير وعافية!

فشكرها بدوره، ودعا لها بالصحة والعافية، فعادت تشكر له شكره ودعائه وتدعو له من جديد، ثم سكت لحظات، وقالت باهتمام:

- جئتكم لأمر هامّ، قيل لي: إنّهُ بلغ إليك في حينه، وإنّه نال موافقتك، وأعني طلب ياسين أفندي ليد ابنتي مريم، فهل صحيح ما قيل لي؟ هذا ما جئت من أجل التحقق منه...

خفض أحمد عبد الجواد عينه أن تقرأ فيها الخلق الذي اشتعلت به جوانحه وهو يتابع كلامها، ولم يخلع بتظاهرها بالاهتمام بموافقتها، فلتحاول خداع غيره ممن يجهلون خباياه، أمّا هو فيعلم علم اليقين أنّ موافقته وعدمها عندها سواء، بل ألم تدرك ما وراء تخلفه عن زيارتها مع ابنه؟... ولكنّها جاءت لتحمله على الإقرار بالموافقة، وربما لغرض آخر لا يلبث أن يستبينه، رفع إليها عينين هادئتين، وقال:

- حدّثني ياسين عن رغبته فدعوت له بالتوفيق، كانت مريم ولم تزل ابنتنا...

- الله يبارك لي في عمرك يا سي السيد. هذه المصاهرة ستشرفنا بين الناس...

- أشكر حسن ظنّك...

فقالت بحماس:

الأيام الخالية، حقّاً كان ينفق عن سعة!! ولكنّ امرأة لم تستطع أن تخرجه عن حدّ الاعتدال أو تضطرّه إلى ركوب الإسراف. كان بالأمر مستشعراً قوّته، ولم يكن يبالي كثيراً أن تجاب كلّ مطالبه الحبيبة، ولم يكن يبالي إن تدلّت عليه أن يتدلّل عليها تيّاهاً بفتوّته وفحولته. اليوم أذلّ حرصه على حبيبته عنقه فهان عليه الغالي، وكأنّه لم يعد يروم من مطلب في هذه الحياة وراء استبقاء مودّتها واستئالة قلبها، وبها لها من مودة متعزّزة، وبها له من قلب عصيّ!! ولم يكن في واقع حاله ليغيب عن فطنته، شعر به شعور الألم والحزن، وذكر به أيام عزّته في لفة وأسى وإن لم يقرّ بأنّها ذهبت وتولّت، ولكنّه لم يحرك إصبعاً للمقاومة الجدّيّة ولم يكن ذلك في طوقه! وقال مخاطباً جميل الحمزاوي فيما يشبه السخرية:

- لعنّه من الظلم أن تعدّني تاجرّاً!!... (ثمّ في تسليم)... الله هو الغنيّ...

وجاء نفر من الناس فشغل بهم الحمزاوي، وما كاد أحمد يخلو إلى نفسه حتّى رأى قادماً يزحم الباب على سمته ويتّجه إليه متبخّراً. كانت مفاجأة وذكر لثوّ أنّه لم تقع عيناه على القادم منذ أربع سنوات أو يزيد، ثمّ نهض مرحّباً مدفوعاً بأدبه وحده، وهو يقول:

- أهلاً وسهلاً، بجارتنا المكرّمة...

فمدّت له أمّ مريم يدها ملفوفة في طرف ملائتها قائلة:

- أهلاً بك يا سيّد أحمد...

ودعاها إلى الجلوس فجلست على الكرسيّ الذي جلست عليه يوماً يُعتبر الآن من التاريخ، ثمّ قعد وهو يتساءل... لم يكن رآها منذ جاءت لمقابلته في هذا الدكان بعد مرور عام على وفاة فهمي محاولة استدراجه إلى بيتها مرّة أخرى. عجب يومئذٍ لجرأتها - ولم يكن أفاق من الحزن - فقابلها بجفاء وشيّعها ببرود. ترى ما الذي جاء بها اليوم؟! وألقى عليها نظرة شاملة فوجدتها كالعهد بها: جسامه وأناقة، يفوح من أعطافها الطيب، وتتلألأ عيناها فوق البرقع. غير أنّ تبرّجها لم يجيد في إخفاء ديب الزمن، فلاح أمارات الكبر تحت

- ويسرني أن أصارك بأني أجلت إعلان موافقتي  
حتى أتأكد من موافقتك أنت!  
قارحة! . لعلها أعلنت موافقتها حتى قبل أن ترى  
ياسين!

- أكرّر الشكر، يا ست أم مريم...  
- لذلك كان أول ما قلت لياسين أفندي، دعني  
أتأكد أولاً من موافقة والدك، فإن كل شيء يهون إلا  
سخطه!

الله... الله! . لم تكذ تسرق البغل حتى نشطت  
لرمي الأحابيل حول صاحبه...  
- ليس بمستغرب أن يصدر عنك ذلك القول  
النبيل!

فواصلت حديثها في حماس مظفر، قائلة:  
- إنك يا سي السيد رجُلنا، وخير من يفخر به حيناً  
كله!

مكر النساء، ودلال النساء، ما أضيقة بهما معاً،  
هل خطر لها ببال أنه يتمرغ في التراب مناشدة لعطف  
عوادة زهد فيها السكاري؟!  
قال في تواضع:  
- أستغفر الله...  
فقالت بلهجة حزينة علا بها صوتها قليلاً، حتى  
خاف أن يبلغ الموجودين بالناحية الأخرى من الدكان،  
فحرّك رأسه نحوهم محذراً:  
- لشدة ما حزنّت عندما أنبأني بأنه هجر بيت  
والده...  
فبادرها قائلاً وقد تهيم وجهه:  
- الحق أن سلوكه أغضبني. فعمجت كيف تأق له  
أن يرتكب تلك الحماقة، كان ينبغي أن يستشيرني  
أولاً، ولكنّه حمل متاعه إلى قصر الشوق، ثم جاء  
يعتذر إليّ! عبت صبياني يا ست أم مريم. وقد  
وبخته ولم أكثرث لخلافه المزعوم مع أمينة. ذلك تعلّل  
سخيف حاول به أن يبرّر حماقة أسخف منه!  
- هذا ما قلته له وحياتك، ولكنّ الشيطان شاطر،  
وقلت له أيضاً: إن ست أمينة معذورة، ربّنا يصبرها  
على ما ابتلاها به... وعلى أيّ حال فمثلك يرجى منه

الصفح يا سي السيد...  
فأشار بيده إشارة قصيرة، كأنما تقول «دعينا من  
هذا» فقالت متودّدة:  
- لكنني لا أقنع إلا بالصفح والرضى...  
أف، ليت يستطيع أن يصارحها بمدى اشمزازه  
منهم جميعاً، هي وابنتها والبغل الكبير...  
- ياسين ابني على كلّ حال، وقّعه الله إلى  
الهداية...  
أملت رأسها إلى الوراء قليلاً، وأبقته على وضعه  
ملياً ريثما تستمتع بلذة النجاح والارتياح، ثم عادت  
تقول في نبرات لطيفة:  
- ربّنا يجبر خاطرك يا سيّد أحمد، ساءلت نفسي وأنا  
قادمة إليك؛ ترى: أيكسفيني ويردني خائبة، أم يعامل  
جارته القديمة بما تعود أن يعاملها به في الأيام الخالية؟  
الحمد لله فانت دائماً عند حسن الظنّ بك، مدّ الله في  
عمرك ومثّعك بالصحة والعافية!!  
تظنّ أنّها ضحكت على ذقته، يحقّ لها هذا، ما أنت  
إلا أب خائب مات خير أبنائه، وخاب الابن الثاني،  
وركب الثالث رأسه، كلّ هذا على رغمي يا  
قارحة...  
- إنّي عاجز عن شكرك...  
وهي تخفض رأسها:  
- مهما قلت فيك فهو دون ما تستحقّ، طالما أقررت  
لك به فيها مضي...  
آه، ذلك الماضي! أوصدي ذلك الباب وحيّة البغل  
الذي جثت تسجّلين حتى ملكيته! وبسط راحته على  
صدره آية على الشكر، فراحت تقول بلهجة حاملة:  
- كيف لا، ألم أعزّك إعزازاً لم يحظّ به إنسان قبلك  
ولا بعدك؟  
هذا هو المطلوب، كيف لم يظن إليه من أول  
لحظة؟! لم تحيي من أجل ياسين ولا من أجل مريم،  
ولكن من أجلي أنا، بل من أجل نفسك! أنت أنت لم  
يغيّر الزمن منك شيئاً، إلا شبابك، ولكن رويدك!!  
هل تستطيعين أن تردّي الأمس الذي وتي؟ مرّ بقولها  
دون تعليق مكتئباً بابتسامة شكر، فابتسمت ابتسامة

قال بأدب، ولكن بلهجة تعبر بلطف عن رغبته في إنهاء الحديث:

- اطمئني يا ست أم مريم إلى أنني لا أقتل نفسي حزناً، فلأني أتسلّى عن همّ بشيّ ضروب التسلية...  
تساءلت وقد فتر حماسها قليلاً:  
- أيكفي هذا للترفيه عن رجل مثلك؟  
فقال بقناعة:

- لا تتطّلع النفس إلى شيء وراءه...  
بدا أنه تنّصّ صفوها، وإن تظاهرت بالارتياح وهي تقول:  
- أحمد الله على أنني وجدتك على ما أحب لك من راحة البال وصفائه...

لم يعد ثمة قول يقال، فنهضت وهي تمدّ له يدها ملفوفة في طرف الملاعة، فتصافحا، ثم قالت وهي تهيم بالذهاب:  
- فتك بعافية...

وذهبت وهي تحوّل عنه عينين لم يجد التصنّع في إخفاء ما غشيها من خيبة...  
- ١٤ -

طوت سوارس شارع الحسينية، ثم أخذ جوادها المزهولان يجنّان فوق أسفلت العباسية والسائق يلهمها بسوطة الطويل. كان كمال جالساً في مقدّمة العربة على طرف المقعد الطويل فيما يلي السائق، فأمكنه أن يرى بلفتة من رأسه - في غير جهد - شارع العباسية ممنداً أمام عينيه، في اتّساع لا عهد للحَيّ القديم به وطول الجانبيين ضخمة ذوات أفنية رحبية بعضها يزدان بحدائق غناء.

كان يضرر للعباسية إعجاباً كبيراً ويكرّ لها حبّاً وإجلالاً يبلغان حدّ التقديس، أمّا الإعجاب فمرّده إلى نظافتها وهندستها والهدوء المريح المخيم على ربوعها، وكلّ أولئك سمات لا يعرفها حيّ العتيق الزياط. وأمّا الحبّ والإجلال فمرجعها إلى أنّها وطن قلبه ومنزل وحي حبّه ومثوى قصر معبودته.  
منذ أعوام أربعة وهو يتردّد عليها بقلب مرهف

عريضة كشفت عن أسنانها من ثقب الربّيع، وقالت فيها يشبه العتاب:

- يبدو أنّك لا تذكر شيئاً...  
أراد أن يعتذر عن فتوره دون أن يمسي إحساسها فقال:  
- لم يبق في الرأس عقل أتذكّر به...  
فهتفت بلشفاق:

- لشّد ما أغرقت في الحزن، الحياة لا تحمل هذا ولا تسخغه، وأنت - ولا تؤاخذني على ما سأقول - رجل ألفت الحياة المليحة، فالخزن إذا أثر في الإنسان العاديّ قيراً يؤثّر فيك أربعة وعشرين قيراً...

موعظة يراد بها منفعة الواعظ، ليت أنّ ياسين كان يعتصم بمثل شعبي، لماذا أتقرّز منك؟ أنت دون شكّ أطوع من زُتوبة وأقلّ نفقة بما لا يقاس، ولكن يبدو أنّ قلبي أصبح مولعاً بالمتاعب. قال بدهاء ومسكنة معاً:  
- من أين للقلب المحزون أن يضحك؟

اندفعت تقول بحماس وكأنتا شامت برق أمل:  
- اضحك يضحك قلبك، لا تنتظر حتّى يضحك هو، هيهات أن يضحك وحده بعد ما عانى من طول الوجوم، عد إلى حياتك القديمة تعد إليك بهجتها الغافية، ابحث عن مسرات زمانك الأوّل وأحبابه، من أدراك أن ليس ثمة قلوب تهفو إليك وتقيم على عهدك رغم إغراضك الطويل عنها؟

طرب الفؤاد على رغمه وتاه هذا ما ينبغي أن يقال حقاً لأحمد عبد الجواد، وما كان يسكب في أذنيه على قرع الكئوس في ليالي الطرب، أين العوادة لتسمع هذا المديح علّها تخفّف من غلوائها؟ لكن يردّده من أنت عنه راغب! قال بصوت لا أثر فيه للطرب:

- ولّي ذلك الزمان...  
مال نصفها الأعلى إلى الوراء استنكاراً، وقالت:  
- لم تزل شاباً وربّ الحسين!... (ثم وهي تبتسم في حياء) جل له طلعة البدر لم يولّ زمانك ولن يولّي أبداً، لا تكبر نفسك قبل الأوان، أو دع الحكم على ذلك للآخرين فلعلهم يرونك بغير العين التي ترى بها نفسك...  
مال نصفها الأعلى إلى الوراء استنكاراً، وقالت:

وحواس مشحونة حتى حفظها عن ظهر قلب، فحيثما مدَّ بصره ارتدَّ إليه بصورة مألوفة كأنها وجه صديق قديم، وجميع معالمها ومناظرها ودروبها وعدد من أهلها قد اقترن في ذهنه بأفكار وعواطف وأخيلة أمست - في جملتها - جوهر حياته ومعقد أحلامه، فحيثما ولى وجهه فثمة منادٍ يدعو القلب للسجود.

وأخرج من جيبه خطاباً تلقاه من البريد أول أمس، وكان مرسله حسين شذاد يبنه فيه بعودته - وصديقيه

حسن سليم وإسماعيل لطيف - من المصيف، ويدعوه إلى مقابلتهم جميعاً في بيته الذي تسير به سوارس إليه. . . نظر إلى الخطاب بعين حاملة شاكرة وامقة ساجدة عابدة متعبدة، لا لأن مرسله شقيق محبوبته فحسب، ولكن لظنه أن الخطاب كان مودعاً في مكان ما بالبيت قبل أن يكتب حسين عليه رسالته، وأنه والحال كذلك غير مستبعد أن تكون عينها الجميلة قد وقعت عليه في ذهابها أو مجيئها أو أن تكون أناملها قد لمست له سبب أو لآخر أو حتى عفواً، بل حسبه أن يظن أنه كان مودعاً في نفس المكان الذي يحل فيه جسمها وتعمره روحها كي يستحيل الخطاب إلى رمز قدسي تهفو إليه روحه ويشتاق إليه قلبه. ومضى يقرأ الخطاب للمرة العاشرة حتى وقف عند هذه الجملة «عدنا إلى القاهرة مساء أول أكتوبر» أي أنها شرّفت العاصمة منذ أربعة أيام وهو لا يدرى، كيف لم يدر؟ كيف لم يظن إلى وجودها سواء بالغريزة أو بالشعور أو بالبصيرة؟ كيف جاز للوحشة التي غشيت طوال الصيف أن غمّ ظلها الثقيل على هذه الأيام الأربعة المباركة؟ هل رانت الكتابة المتواصلة على حساسيته ببطء من البلادة والجمود؟ على أي حال فالساعة يرف قلبه وتحلّق روحه في أجواء من السمر والسعادة! الساعة يشرف على الدنيا من ذروة رفيعة تبدو منها معالمها في هالة من الشفافية والنورانية كأنها أطياف في دنيا الملائكية! الساعة يضطرم وجدانه بنشاط الحيوة ونشوة الحبور وسكرة الطرب! الساعة - أو حتى في هذه الساعة - يطوف به طائف الألم الذي يلزم مسرة الحبّ عنده ملازمة الصدى للصوت. قديماً كانت

تحملة سوارس في هذا الطريق نفسه وقلبه من الحب خالٍ لم يمّس، ماذا كان يجد من مشاعر وآمال وخوف ورجاء؟ لا يذكر حياة ما قبل الحبّ إلا ذكرى مجردة، ينكرها ما عرف للحبّ قدره، ويحنّ إليها كلما نبا به ألم، ولكنّها لشدة إحساسه بخاطره كادت تلحق بالأساطير، لذلك بات يؤرّخ بالحبّ حياته، فيقول: كان ذلك قبل الحبّ «ق. ح»، وحدث ذلك بعد الحبّ «ب. ح».

وقفت العربة عند الوايلية، فأعاد الخطاب إلى جيبه، وغادرها متجهاً إلى شارع السرايات وعيناه تتطلّعان إلى أول قصر على اليمين فيما يلي صحراء العباسية. بدا القصر بدوريه من الخارج بناء ضخماً عالياً، يتصل مقدّمه بشارع السرايات ويستهي مؤخره بحديقة رحيبة تراءت رؤوس أشجارها العالية من وراء سور رماديّ متوسط الارتفاع يحيط بالقصر والحديقة معاً ويرسم مستطيلاً هائلاً ممتداً في الصحراء التي تكتنفه من الجنوب والشرق. كان منظره مطبوعاً على صفحة نفسه، يستأسره جلاله وتفتته أي فخامته، ويرى في عظمته تحية مزجاة عن جدارة بصاحبه، وتلوح لعينه نوافذ مغلقة وأخرى مرخاة الستائر، فيلمح في تحفّظها وانطوائها ما يرمز إلى عزّة محبوبه وعصمته وامتناعه وغموضه، وهي معانٍ تؤكدها الحديقة المترامية والصحراء الغارقة في الأفق، وتعرض هنا أو هناك نخلة سامقة أو لبلاب متسلق جداراً أو جدائل ياسمين مسترسلة فوق سور فتناوش قلبه بذكريات انعقدت فوق هاماتها كالثمار تسارّه بحديث الوجد والألم والعبادة وقد غدت طلاً للحبيب ونفحة من روحه وانعكاساً للملامحه، ناشرة بجملتها - وبما عرف من أن باريس كانت لأهل القصر منفى - جواً من الجمال والحلم توائم مع حبّه في سموّه وقداسته وبذخه وتطلّعه إلى المجهول.

رأى وهو يقترب من مدخل القصر البوّاب والطاهي وسائق السيارة جالسين فوق أريكة على كنب من الباب كعادتهم في العصري، فلما بلغ مجلسهم وقف البوّاب، وقال له «حسين بك ينتظرك في الكشك»



فدخل مستقبلاً مزيجاً من عرف الفلّ والقرنفل والورد التي نُصّدت أصصها على جانبي السلم المفضي إلى الفراندا الكبيرة التي تطالع القادم على بعد يسير من الباب، ثمّ مال يمينه إلى ممرّ جانبيّ يفصل القصر عن السور ويسير بينهما حتى مشارف الحديقة فيما يلي الفراندا الخلفيّة للقصر.

ليس من الهين على قلبه الخفاق أن يمشي في هذا المحراب الكبير، ولا أن يطأ أديمًا وطئت قدمها من قبل، إنّه يكاد من إجلال يتوقّف، أو يمدّ يده إلى جدار البيت تبرّكًا، كما كان يمدّها إلى ضريح الحسين من قبل أن يعلم أنّه لم يكن إلّا رمزًا، ترى: في أيّ مكان من القصر يمرح محبوبه الساعة؟ وما عسى أن يفعل إذا طالعت بلفتها الفاتنة؟ ليت يجدّها في الكشك كي تجزى عين عن طول التصبّر والتشوّق والتسهّد!

ألقي على الحديقة نظرة شاملة حتى سورها الخلفي الذي ترامت وراءه الصحراء، وكانت الشمس المائلة فوق القصر صوب الشوارع تجلو منها أعالي الأشجار والنخيل وسقائف الياسمين المبطنّة للسور من كافّة نواحيه، ودوائر الأزهار والورود ومربعاتها وأهلتها تكتنفها ممرّات الفسيفساء، ثمّ سار في ممشى وسيط يفضي إلى كشك قائم وسط الحديقة، وقد تراءى فيه عن بعد حسين شذّاد، وضيّفاء: حسن سليم وإسماعيل لطيف جلوسًا على كراسي خيزران حول مائدة مستديرة خشبيّة انثرت عليها أكواب حول دورق ماء. سمع هتاف ترحيب صدر عن حسين فأذنه بانتباههم إلى مقدمه، وما لبثوا أن قاموا للقائه فعانقهم واحدًا واحدًا بعد فراق دام الصيف كلّهُ، حمداً لله على السلامة، أنت أوحشتنا جدًّا، شدّد ما اسمرت وجوهكم فلا خلاف الآن بينكما وبين إسماعيل، بل أنت بيننا كأوروبيّ بين ملوّنين، عمّا قليل يعود كلّ شيء إلى أصله، كنّا نساءل لم لا تلوّنا شمس القاهرة؟ منذ يجرؤ على التعرّض لشمس القاهرة إلّا من رام ضربة شمس! ولكن ما سرّ هذه السمرة المكتسبة؟... أذكر أنّنا تلقينا تفسيرًا لهذا في بعض دروسنا، أجل لعلّه في الكيمياء، لقد درسنا الشمس

خلال علوم شتى كالجغرافيا الفلكيّة والكيمياء والطبيعة، ففي أيّ من أولئك نجد تفسيرًا لسمرة الصيف! هذا سؤال متأخّر عن أوانه لأننا انتهينا من الدراسة الثانويّة! إلينا إذن بأخبار القاهرة، بل عليك أنت أن تحدّثنا عن رأس البرّ، وعلى حسن وإسماعيل أن محدّثانا بعدك عن الإسكندريّة، انتظروا فلكلّ وقت حديثه...

لم يكن الكشك إلّا مظلة خشبيّة مستديرة تقوم على عمود ضخّم، وأرضه رملية تحلق بها أصص الورد، ويقتصر أثاثه على المائدة الخشبيّة والكراسي الخيزران، وقد جلسوا وراء المائدة على هيئة نصف دائرة مؤنّين وجوههم شطر الحديقة. بدؤا سعداء باللقاء وكان الصيف يفرّق بينهم فيما عدا حسن سليم وإسماعيل لطيف اللذين يصيّقان عادة في الإسكندريّة، ومضوا يتباحثون لأقلّ سبب، وأحياناً لمجرّد تبادل النظر كأنما يجتريون ذكريات مزاح ماضية. وكان الأصدقاء الثلاثة يرتدون قمصاناً حريريّة وبنطلونات رماديّة. كمال وحده بدا في بدلة رصاصيّة خفيفة، إذ كان يعتبر رحلة العبّاسيّة ذات صفة رسميّة على خلاف حيّه الذي يجول فيه مكتفياً بلبس الجاكّة فوق الجلباب. كلّ شيء من حوله كان يخاطب قلبه فيهرّه من الأعماق. هذا الكشك الذي تلقّى فيه رسالة الحبّ، وهذه الحديقة التي خصّصت وحدها بسرّه، وهؤلاء الأصدقاء الذين يجتمعهم للصداقة ويحبّهم مرّة أخرى لاقترانهم بسيرة حبّه، كلّ شيء يخاطب حبّه وقلبه، يتساءل متى تجيء؟ وهل يمكن أن تمضي الجلسة دون أن تقع عليها عيناه المشوّقتان؟ وعلى سبيل التعويض راح يطيل النظر إلى حسين شذّاد ما وسعه ذلك، ولم يكن ينظر إليه بعين الصديق فحسب، لأنّ أخوّته لمعبودته أضفت عليه سحرًا من السحر وسرًا من السرّ، فبات يكرّ له - إلى الحبّ - إكبارًا وتقديسًا ودهشًا. وكان حسين يشبه شقيقته إلى حدّ كبير بعينييه السوداوين وقامته الطويلة الرشيقة وشعره السبط العميق السودا ولفتاته وسكناته الجامعة بين السموّ واللطافة، فلم يكن ثمة فارق جوهريّ بينهما إلّا في أنفه الأقنى الممتلئ وبشرته التي

غشيتها سمرة المصطاف. ولمّا كان كمال وحسين وإسماعيل من الناجحين في امتحان البكالوريا ذلك العام - مع ملاحظة أنّ الأولين كانا في السابعة عشرة والأخير في الحادية والعشرين - فقد تحدّثوا عن الامتحان وما تفرّج عنه من شئون المستقبل، وكان البادئ بالحديث إسماعيل لطيف، وكان إذا تحدّث تطاول بعنقه كأنما ليداري قصر قامته وضآلة حجمه - على الأقلّ بالقياس إلى أصدقائه الثلاثة غير أنّه كان مدمج الخلق مفتول العضلات، وفي نظرة عينيه الضيّقتين الحادة الساخرة وأنفه المدبّب الحادّ وحاجبيه الكثيفين وفمه العريض القويّ ما يكفي لتحذير من تحدّثه نفسه بالتهجّم عليه. قال:

- نتيجتنا هذا العام مائة في المائة، لم يحصل شيء كهذا من قبل - على الأقلّ - فيما يخصني أنا. كان ينبغي أن أكون في السنة النهائية من التعليم العالي كحسن الذي دخل معي مدرسة فؤاد الأوّل في يوم واحد وسنّ واحدة، وقد سألني أبي ساخراً لمّا رأى رقمي في الجريدة بين الناجحين «ترى هل يمدّ الله في عمري حتّى أراك من حملة الدبلوم؟!». قال حسين شذاد:

- لست متأخّراً إلى الحدّ الذي يبرّر يأس والدك...

قال إسماعيل ساخراً:

- صدقت فقضاء عامين في كلّ فصل ليس بالشيء الكثير...

ثمّ موجّهاً الخطاب إلى حسن سليم:

- أمّا أنت فلعلّك مشغول منذ الآن بما بعد الليسانس؟

كان حسن سليم بالسنة النهائية بمدرسة الحقوق، فأدرك أنّ إسماعيل لطيف يدعوه إلى إعلان رأيه فيما ينويه عقب الفراغ من الدراسة، غير أنّ حسين شذاد سبقه إلى الردّ على إسماعيل قائلاً:

- لا داعي لأن يشغل نفسه، سوف يحصل حقاً على وظيفة في النيابة أو في السلك السياسي!

خرج حسن سليم عن هدوئه المتسم بالكبرياء،

ولاح في وجهه الحسن الدقيق القسّات التحفّز للنضال، فتساءل متحدّياً:

- من أين لي بما يجعلني أطمئنّ إلى رأيك؟

وكان يعتزّ بجتهاده وذكائه ويريد الجميع أن يقرّوا له بها، ولم يكن أحد يماري في ذلك، ولكن لم يكن أحد كذلك ينسى أنّه نجل سليم بك صبري المستشار بحكمة الاستئناف، وأنّ تمتّعه بهذه الأبوّة ميزة يفوق أثرها كلّ ما للذكاء والاجتهاد من أثر، بيد أنّ حسين شذاد تحاشى ما يهيجه، فقال:

- في تفوّك الضمان الذي تسأل عنه...

ولم يتركه إسماعيل لطيف كي يستمتع بإطراء حسين له، فقال:

- وهناك والدك، وهو فيما أعتقد أهمّ من التفوّك بكثير...

ولكنّ حسن قابل الهجوم باستماتة غير متوقّعة، إمّا لأنّه ملّ مناخزة إسماعيل الذي لم يكده يفتقر عنه يوماً طيلة اصطيفاتها بالإسكندرية، وإمّا لأنّه بات يرى في صاحبه مشاكساً «عترفاً» لا يصلح أن يأخذ أقواله دائماً مأخذ الجدّ. على أنّ رابطة الأصدقاء لم تكن تخلو من نقار جدليّ يبلغ أحياناً حدّ الشغب دون أن يوهن من قوّتها. تساءل حسن سليم وهو يرمق إسماعيل متهمكاً:

- وأنت كيف انتهى سعي الساعين لك؟

ضحك إسماعيل ضحكة عالية، كشف عن أسنانه الحادة المصفرة من أثر التدخين الذي كان من أوائل رواده من تلاميذ الثانويّ، وقال:

- نتيجة لا تسرّ، لم تقبلني الطبّ ولا الهندسة لنقص المجموع، فلم يبقّ أمامي إلّا التجارة والزراعة، فاخترت أولاهما...

لاحظ كمال في تأثر كيف تجاهل صاحبه مدرسة المعلمين كأنما ليست في الحسبان، غير أنّه وجد في إثارة لها، مع قدرته على دخول الحقوق التي لا نزاع في مكانتها، وجد في ذلك مثاليّة تعزّي بها على حزنه ووحشته. ضحك حسين شذاد ضحكته اللطيفة التي تجلو جمال ثغره وعينه، وقال:

- آه لو اخترت الزراعة! تصوّروا إسماعيل في حقل

- أجل بصفة مؤقتة أيها المشاكس، فمن غير المستبعد إذا سارت الأمور على ما أشتهي أن أقطع دراستي المحليّة كي أسافر ولو بحجّة دراسة القانون في معاهدها، وهناك أهل من منابع الثقافات بغير قيد، وهناك أفكر وأرى وأسمع...

إسماعيل لطيف مصرًا على محاكاة لهجته وحركاته، وكأنما يتم ما ظنّ أنّ الآخر سكت عنه:

- وأذوق والمس وأشم...

واصل حسين شدّاد حديثه بعد فاصل ضحك قائلاً:

- ثق بأنّ مقصدي غير ما تحلم به!

صدّقه كمال بكلّ قلبه بلا حاجة إلى دليل لا لأنّه يكرمه عن شبهة الكذب فحسب، ولكن لأنّه يؤمن بأنّ الحياة التي يتطلّع إلى الاستمتاع بها في فرنسا خليقة «وحدّها» باستهواء النفوس، هيهات أن يدرك إسماعيل هذه الحقيقة على بساطتها، لا هو ولا أضرابه ممّن لا يؤمنون إلّا بالأرقام والمظاهر. طالما أثار حسين أحلامه، هذا حلم منها يمتاز بالرحابة والجمال، حلم عامر بشار الروح والفكر والسمع والبصر! كم طاف بي في نومي أو في يقظتي، ثم بعد شدة التطلّع وطول السعي انتهى المطاف بي وبه إلى مدرسة المعلمين!! وسأل حسين:

- أتعني حقًا ما قلت من أنّك لا تريد أن تعمل؟! فقال حسين شدّاد وفي عينيه السوداوين الجميلتين نظرة حاملة:

- لن أكون مضاربًا في البورصة كأبي؛ لأنّي لا أطيق حياة: العمل المتواصل جوهرها والمال غايتها، ولن أكون موظفًا، لأنّ الوظيفة عبوديّة في سبيل الرزق، ورزقي موفور. أريد أن أحيّا في الدنيا سائحًا، أقرأ وأرى وأسمع وأفكر، وأنقل من جبل إلى سهل ومن سهل إلى جبل...

قال حسن سليم معترضًا، وكان يرمقه طيلة الحديث بنظرة استخفاف دارها بتحفظه الأرستقراطي:

- ليست الوظيفة وسيلة إلى الرزق دائمًا، إنّي مثلاً

يقضي عمره بين الفلاحين...

قال إسماعيل بقناعة:

- لا عليّ من هذا لو كان الحقل في عماد الدين... عند ذاك نظر كمال إلى حسين شدّاد متسائلًا:

- وأنت؟

مدّ حسين بصره إلى بعيد متفكرًا قبل أن يجيب، فأتاح لكمال فرصة كي يتوسّمه، شدّ ما تفتنه فكرة أنّه شقيقها، أي أنّ بينهما ما قام يومًا بينه وبين خديجة وعائشة من مخالطة وألفة، تصوّر يعزّ عليه أن يعتنقه، لكنّه يجالسها ويحادثها ويفرد بها ويلمسها، يلمسها! ويؤاكلها! ترى كيف تتناول طعامها؟ هل تتمطّق؟ هل تأكل الملوخية والمدّس مثلاً؟ ما أبعد هذا عن التصرّو أيضًا! المهمّ أنّه شقيقها، وأنّه - كمال - يلمس يده التي تلمس يدها، لو أتيح له أن يشمّ أنفاسه التي تمائل ولا شكّ أنفاسها! أجاب حسين شدّاد:

- مدرسة الحقوق بصفة مؤقتة...

ألا يحتمل أن يتخذ من فؤاد جميل الحمزاوي صديقًا؟ لمّ لا؟ لا شكّ أنّ الحقوق مدرسة جليّة الشأن حقًا ما دام حسين سيلتحق بها، من المجازفة أن تحاول إقناع الناس بقيمة مثال معنوي...

قال إسماعيل لطيف ساخرًا:

- لم أكن أعلم أنّ من الطّلاب من يلتحق بمدرسة ما بصفة مؤقتة! حدّثنا عن هذا من فضلك... قال حسين شدّاد جادًا:

- جميع المدارس عندي سواء، ليس في هذه المدرسة أو تلك ما يجذبني إليها، حقًا أريد أن أتعلم، ولكّني لا أريد أن أعمل، ولن أجد في مدرسة من مدارسنا ما أبتغيه من علم لا يراد به عمل، ولكّني لم أظفر في بيتنا بشخص يوافقني على رأيي، ولا أرى مناصًا من أن أجاريهم إلى حدّ ما، وساءلهم أيّ مدرسة تختارون؟ فأجاب أبي: وهل يوجد غير الحقوق؟ فقلت إذن لتكن الحقوق!

إسماعيل لطيف محاكيًا لهجته وحركاته:

- بصفة مؤقتة...

ضحك عام، ثمّ استطرد حسين شدّاد قائلاً:

- وربما تزوّجت هناك كي أفضي العمر سائحاً في عالمي الواقع والخيال!

لم يبدو على وجه حسن سليم أنّه يولي الحديث اهتماماً جدّياً، أمّا إسماعيل لطيف فرفع حاجبيه الكثيفين، تاركاً عينيه تُفصّحان عمّا يضطرب في صدره من مكر وسخرية. كمال وحده الذي بدا متأثراً متحمّساً، إنّهُ يستشرف نفس الآمال مع شيء من تعديل لا يمسّ الجوهر، لا تتمّه السياحة ولا الزواج في فرنسا، ولكن مَنْ له بهذه المعارف التي لا تتقيد بنظام أو امتحان؟ إنّها أجدى بلا جدال من التراب الذي سيشحن به رأسه في المعلمين كي يفوز في النهاية بلذات من التبر، باريس؟! غدت حلماً جليلاً منذ علّم بأنها احتضنت عهداً غصّاً من عمر معبودته، لا تزال تدعو حسين بسحرها، وتفتن خياله هو بشقّي وعودها، كيف الشفاء من لوعة الآمال؟ قال بعد تردّد وإشفاق:

- يخيّل إليّ أنّ أقرب المدارس في مصر إلى تحقيق ولو جزء يسير من رغبتك هي المعلمين العليا!

تحول إسماعيل لطيف نحوه فيما يشبه القلق، وسأله:

- ماذا اخترت أنت؟ لا تقل مدرسة المعلمين! ربّاه، نسيت أنّ بك لومة قربة الشبه بلوثة حسين! ابتسم كمال ابتسامة عريضة كشفت عن مرونة منخرية العظمين، وقال:

- التحقت بالمعلمين للسبب الذي ذكرت!... فنظر حسين شدّاد إليه باهتمام، ثمّ قال باسماً:

- لا شك أنّ ميولك الثقافية أتعبتك كثيراً قبل أن يقع اختيارك...

فقال له إسماعيل لطيف بلهجة تمّت عن الاهتمام:

- إنّك مسئول لدرجة كبيرة عن توكيد ميوله هذه، بل الحقّ أنّك تتكلّم كثيراً وتقرأ قليلاً، أمّا المسكين فيأخذ الأمر مأخذ الجدّ ويقرأ لحّد العمى، انظر إلى تأثيرك السيئ فيه كيف دفع به إلى المعلمين نهاية الأمر!...

استطرد حسين حديثه متجاهلاً مقاطعة إسماعيل:

- هل ثبت لديك أنّ في المعلمين ما تؤدّ؟!

في غنى عن السعي إلى الرزق، ولكن يهمني بلا شك أن أشغل وظيفة سامية، فإنّه يجب على الإنسان أن يعمل، وإنّ العمل السامي هدف يُراد لذاته.

وقال إسماعيل لطيف، مصدّقاً على قول حسن:

- هذا حقّ، الأعمال القضائية والدبلوماسية وظائف يتمناها أغنياء (ثمّ ملتفتاً إلى حسين شدّاد) لم لا تختار لنفسك وظيفة من هذه الوظائف وهي في حدود طاقتك...؟

وقال كمال غاطباً حسين أيضاً:

- السلك السياسيّ حقيق بأن يهني لك العمل السامي والسياسيّ معاً!

ولكنّ حسن سليم قال بلهجة ذات معنى:

- إنّ باب ضيق!

فقال حسين شدّاد:

- للسلك السياسيّ مزايا رائعة بلا ريب، إلّا أنّه في الغالب وظيفة شرفيّة فلا يتعارض كثيراً مع رغبتني عن عبوديّة العمل، وهو سياحة وفراغ يتيحان لي ما أحب من الحياة الروحيّة والجماليّة، ولكنني لا أظنني بالغه، لا لأنّه باب ضيق كما قال حسن، ولكن لأنّي أشكّ في أنّي سأواصل التعليم النظاميّ حتّى نهايته...

إسماعيل لطيف، وهو يضحك متخابثاً:

- يغلب على ظنيّ أنّك تريد فرنسا لأمر لا شأن لها بالثقافة، وحسنّاً تفعل...

ضحك حسين شدّاد وهو يهزّ رأسه سلماً، ثمّ قال:

- كلّاً، أنت تفكّر بأهوائك، إنّ لرغبتني عن التعليم المدرسيّ أسباباً أخرى، أوّلاً: أنّي غير مكترث لدراسة القانون، ثانياً: أنّه لا توجد مدرسة يمكن أن تمدّني بما أريد الإلمام به من شقّي المعارف والفنون، كالسرح والتصوير والموسيقى والفلسفة. ما من مدرسة إلّا وستشحن رأسك بالتراب كي تعثر فيه - إن عثرت - على ذرات من التبر، في باريس يتاح لك أن تشهد محاضرات في شقّي الفنون والمعارف دون تقيد بنظام أو امتحان، إلى ما يتهيأ لك من الحياة السامية الجميلة...

ثمّ مستطرداً بصوت خافت، وكأنّه يخاطب نفسه:

تخرجوا في المدرسة... انقطع حديث المدرسة عند ذاك، فساد الصمت، وحاول كمال أن يلقي بروحه في أحضان الحديقة، غير أنَّ الحديث ترك في رأسه حرارة كان عليه أن ينتظر حتى تبرد، وسنحت منه نظرة، فرأى دورق الماء المثلوج على المائدة، فخطرت له خاطرة قديمة طالما مثته بالسعادة في مثل ظرفه هذا، أن يملاً كوباً ويشربه لعله يلمس بشفتيه موضعاً منه يكون قد اتفق أن لمسته شفتاها وهي تشرب مرة، فقام إلى المائدة، وملاً من الدورق كوباً وشربه، ثم عاد إلى مجلسه مركزاً انتباهه في نفسه وهو يترقب، كأنما كان ينتظر - فيها لو حالفه الحظ فأصاب الهدف - أن يتغير شأنه، أن تنبثق من روحه قوة سحرية لا عهد له بها، أن يتشبي بنشوة إلهية يرقى بها في معارج السماوات السعيدة، ولكنه، أجل!! ولكنه قنع في النهاية بلذة المغامرة وبهجة الأمل، ثم راح يتساءل في قلق: متى تهيء؟... هل يمكن أن تلحق هذه الفترة الراحدة بأشهر الفراق الثلاثة الماضية؟... وعادت عيناه إلى الدورق، فطافت به ذكرى حديث قديم دار بينه وبين إسماعيل لطيف عن هذا الدورق أو بالحري عن الماء المثلوج الذي لا يقدم شيء خلافه في سراي شدادا وكان إسماعيل قد أشار - وهو بصدد الحديث عن ذلك - إلى النظام الاقتصادي الدقيق الذي تخضع له السراي من السطح إلى البدر، وتساءل: أليس ذلك نوعاً من البخل؟، غير أنَّ كمال أبي أن توصم أسرة معبودته بما يشين، فدفع عنها التهمة مستشهداً ببذخها وخدمها وحشمها والسيارتين اللتين تملكهما: الميرفا، والفياث التي يكاد يختص بها حسين، فكيف تُتهم بعد ذلك بالبخل؟! هنالك قال إسماعيل - ولم يكن يعوزه طول اللسان - إنَّ البخل أنواع، وإنه لَمَّا كان شداد بك مليونيراً بكل معنى الكلمة، فإنه رأى لزماً عليه أن يحيط نفسه بمظاهر الجاه، ولكنه اكتفى بما يعد في «بيته» من الضروريات، أما القاعلة المتبعة التي لا يحيد عنها فرد من الأسرة، فهي ألا يتسامح في إنفاق مليم واحد في غير موضعه وبلا موجب... الخدم

قال كمال بحماس، وقد انشرح صدره بأول صوت يتساءل عن مدرسته بلا احتقار أو استنكار:

- حسبي أن تتاح لي دراسة الإنجليزية لأتخذ منها وسيلة ناجعة للاطلاع غير المحدود، وإلى هذا فهناك فرصة طيبة - فيما أظن - لدراسة التاريخ والتربية وعلم النفس...

فكر حسين شداد قليلاً، ثم قال:

- عرفت كثيراً من المعلمين الذين خالطتهم عن كتب في دروسي الخصوصية، لم يكونوا مثلاً طيباً للرجل المثقف، ولكن لعل النظام الدراسي العتيق هو المسئول عن ذلك...

فقال كمال بحماس لم يفتّر:

- حسبي الوسيلة، الثقافة الحقّة تتوقف على الإنسان لا المدرسة!

وتساءل حسن سليم:

- أتتوي أن تصير معلماً؟

ومع أنَّ حسن طرح سؤاله بأدب، فإنَّ كمال لم يطمئن إليه كلَّ الاطمئنان، إذ أنَّ التزامه الأدب كان طبعاً ماثوراً عنه فلا يزيله إلا عند الضرورة القصوى أو حيث يشرع غيره في العراك، وذلك نتيجة طبيعية لرزاقته من ناحية، ولتربيته الأرستقراطية النبيلة من ناحية أخرى، فلم يكن من اليسير على كمال أن يعرف إن كان سؤال صاحبه يخلو حقاً من الاستنكار أو الازدراء، لذلك حرك منكميه استهانة، وقال:

- لا مفر من ذلك ما دمت مصمماً على تعلُّم ما

أروم من العلم!

وكان إسماعيل لطيف يتفحص كمال من طرف خفي... رأسه وأنفه، وعنفقه الطويل وقامته النحيلة، وكأنما كان يتخيل أثر هذه الصورة في التلاميذ عامة وفي أشقيائهم خاصة، فما ملك أن غمغم:

- تلك لعمرى كارثة!

أما حسين شداد، فعاد يقول في لطف وشي بميله

إلى كمال:

- الوظيفة شيء ثانوي عند ذوي الأهداف البعيدة، على أنه لا ينبغي أن ننسى أنَّ نخبة من نابي مصر قد

لم يبدُ على حسن سليم أنه اكتثرت لحديث العظمة، ولم يكن كمال يتوقع غير ذلك، فطالما صاوله حتى وقف على رأيه العنيد المتعجرف - ولعلّه رأي أبيه المستشار أيضًا - في سعد زغلول الذي يكاد هو من حب وإخلاص أن يقّده. لم يكن سعد زغلول إلا مهرجًا شعبيًا في نظر حسن سليم، وكان يرّد هذا الوصف في تقرّز وازدراء مثيرين خارقًا المعتاد من أدبه ودمائه، ثم يمضي في السخرية من سياسته ومأثوراته البلاغية، منوها في الوقت نفسه بعظمة عدلي وثروت وعحمّد محمود وغيرهم من الأحرار الدستوريين الذين لم يكونوا في نظر كمال إلا «خونة» أو إنجليز مطرشين! أجاب حسن سليم بهدوء:

- كُنّا نتحدّث عن المفاوضات التي لم تستمرّ إلا ثلاثة أيّام، ثم قُطعت!  
فقال كمال بحماس:

- يا له من موقف وطني جدير بسعد حقًا، طالب بحقوقنا الوطنية مترفعًا عن المساومة، ثم قطع المفاوضات حين وجب قطعها، وقال قوله الخالدة: «لقد دعونا إلى هنا لكي نتنحّر، ولكننا رفضنا الانتحار، وهذا كلّ ما جرى».

قال إساعيل لطيف، وكان يجيد في السياسة مادة للعبث:

- لو قبل أن يتنحّر لتؤجّ حياتاه بأجلّ خدمة يمكن أن يؤدّيها إلى بلاده!

انتظر حسن سليم حتى فرغ إساعيل وحسين من الضحك، ثم قال:

- ماذا أفدنا من هذه المأثورة؟ ليست الوطنية عند سعد إلا نوعًا من البلاغة التي تستهوي العامة، «لقد دعونا إلى هنا لكي نتنحّر الخ الخ»، «يعجبني الصدق في القول الخ الخ»... كلام في كلام، هنالك رجال لا يتكلّمون ولكنهم يعملون في صمت، وقد حقّقوا للوطن الفائدة الوحيدة التي جناها في تاريخه الحديث...

احتدم الغيظ في قلب كمال، ولولا ما يكنّه لحسن من احترام لشخصيته وسنّه لانفجر، وعجب كيف

يتناولون أدنى الأجور ويأكلون أقلّ الطعام، وإن كسر أحدهم طبقًا خصم ثمنه من مرتبّه. حسين شدّد نفسه فتى الأسرة الوحيد لا يعطى مصروفًا أسوة بأمثاله من الأبناء أن يتعوّد بعثرة النقود بلا ضرورة، أجل ربّما ابتاع له أبوه كلّ عيد عددًا من الأسهم أو السندات، ولكنّه لا يعطيه قرشًا في يده... أمّا زوّار النجل العزيز، فلا يقدّم لهم إلا الماء المثلوج!... أليس هذا بخلاً، وإن يكن بخلاً أرستقراطيًا؟! ذكر كمال ذلك الحديث وهو ينظر إلى الدورق، وتساءل كما تساءل قديمًا في ارتياح: أمن الممكن أن ترتقي إلى أسرة معبودته هنة من الهنات؟ أبى قلبه أن يصدّق هذا إباء من ينزّه الكمال عن المآخذ وإن هانت بيد أنّه خيّل إليه أن ثمة شعورًا بما يشبه الارتياح يعابه هامسًا في أذنه «لا تفرح... أليس هذا النقص إن صبحّ مما ينزلها ولو درجة إليك، أو يرفعك ولو درجة إليها؟!»، ومع أنّه وقف من أقوال إساعيل موقف التحقّق والارتياح، فإنّه وجد نفسه يعيد النظر وهو لا يدري في «رديلة» البخل، فيقسّمها إلى نوع دنيء وآخر ليس إلا سياسة حكيمة تدّ الحياة الاقتصادية بأسس بارعة من النظام والدقّة، فمن الإسراف كلّ الإسراف تسميته بخلاً أو اعتباره رديلة، كيف لا، وهو لا يتعارض مع تشييد القصور واقتناء السيّارات واتّخاذ كافّة مظاهر البذخ والبلهنية؟ كيف لا، وهو يصدر عن نفوس سامية مطهّرة من الخبايا والضعف؟!  
استيقظ من أفكاره على يد إساعيل لطيف وهي تقبض على ذراعه وتهزّه، ثم سمعه وهو يقول مخاطبًا حسن سليم:

- حذار، ها هو مندوب الوفد يرّد عليك!  
أدرك من فوره أنهم طرّقوا حديث السياسة وهو عنهم ساء، حديث السياسة... ما أشقّه وما ألّده، دعاه إساعيل «مندوب الوفد» فلعنّه يتهكّم، فليتهكّم ما شاء له أن يتهكّم، الوفد عقيدة تلقّاها عن فهمي واقترنت في قلبه باستشهادته وتضحّيته. نظر إلى حسن سليم، وقال بأسًا:

- أيّها الصديق الذي لا تبهره إلا العظمة، ماذا قلت عن سعد؟

يتابع «شاب» مثله أباه - وهو من جيل قديم على أي حال - في انحرافه السياسي!

- أنت تقلل من شأن الكلام كأنه لا شيء، الحق أن أخطر ما تمخض عنه تاريخ البشرية من جلائل الأمور يمكن إرجاعه في النهاية إلى كلمات، الكلمة العظيمة تتضمن الأمل والقوة والحقيقة، نحن نسير في الحياة على ضوء كلمات، على أن سعد ليس صانع كلمات فحسب، إن سجله حافل بالأعمال والمواقف! تخلل حسين شذاد شعره الفاحم بأنامله الطويلة الرشيقة وهو يقول:

- أوافق على ما قلت عن قيمة الكلمة بصرف النظر عن سعد...! لم يعبأ حسن بمقاطعة حسين شذاد، فقال مخاطباً كمال: - إن الأمم تحيا وتتقدم بالعقول والحكمة السياسية والسواعد، لا بالخطب والتهريج الشعبي الرخيص... نظر لإسماعيل لطيف إلى حسين شذاد، وهو يتساءل ساخراً:

- ألا ترى أن من يُتعب نفسه في الكلام عن إصلاح هذا البلد كالنافخ في قربة مثقوبة؟ التفت كمال إلى إسماعيل ليخاطب من وراء حسن بما تردّد عن مخاطبته وجهاً لوجه، قال منفساً عن غيظه:

- أنت لا تهتم السياسة في شيء، لكن مزاحك يفصح أحياناً عن موقف «قلّة» من المحسوبين على المصريين كأنك ناطق بلسانهم، تراهم يائسين من نهوض الوطن، يأس الاحتقار والتعالي لا يأس الطموح والتطوّر، ولولا أن السياسة مطيّة لأطباعهم لاعتزلوها كما تفعل أنت! ضحك حسين شذاد ضحكته اللطيفة، ومدّ يده إلى ذراع كمال، فشّد عليها قائلاً:

- أنت مجادل عنيد، يعجبني حماسك وإن لم أشارك الإيمان به، على أنني كما تعلم محايّد، لا من الوفديين ولا من الدستوريين، لا استهانة كإسماعيل لطيف، ولكن لاعتقادي بأن السياسة تفسد الفكر

والقلب، ينبغي أن تعلو عليها حتّى تتراءى لك الحياة ميداناً لانهائياً للحكمة والجمال والتسامح، لا معترك صراع وكيد...

ارتاح إلى صوت حسين فسكنت فورته، كان يطرب لموافقة إذا وافقه على رأي، ويتسع صدره لمعارضته إذا عارضه فيه، ومع أنه كان يشعر بأن تبريره للحياة ما هو إلا اعتذار عن ضعف وطنيته، فإنه لم يحنق عليه لذلك ولم ير فيه نقیصة ولكن وسّعها عفوه وحلمه وتسامحه، قال يجاريه:

- الحياة هي لهذا كله، هي الصراع والكيد والحكمة والجمال، فأني وجه تتجاهله من وجوها تفقد به فرصة لاستكمال فهمك لها وقد تركت على التأثير فيها بما يوجهها نحو الأحسن، لا تحتقر السياسة أبداً، فالسياسة هي نصف الحياة، أو هي الحياة كلها إذا عدت الحكمة والجمال ممّا فوق الحياة... حسين شذاد كالمعتذر:

- فيما يتعلّق بالسياسة، أصارحك بأنني لا أثق في جميع أولئك الرجال... سأله كمال كالمتموّد:

- ماذا نزع ثقتك من سعد؟ - بل دعني أسألك عما يجعلني أضع ثقتي فيه... سعد وعدلي وعدلي وسعد، ما أسخف هذا كله، على أنه إذا كان سعد وعدلي سيّين عندي في الناحية السياسية فإنني لا أراهما كذلك كرجلين، إذ لا يمكن أن أتجاهل ما يمتاز به عدلي من كريم الأصل وعظيم الجاه والثقافة، أمّا سعد - وإياك أن تغضب - فما هو إلا أزهرى قديم...!

آه، شدّ ما يحزّ في نفسه أن يندّ عن حسين أحياناً ما يشي بتعالیه عن الشعب فيشعر وهو من الحزن في نهاية كأنه يتعالى عنه هو أو - وهو الأدهى والأمر - كأنه ينطق بلسان الأسرة جميعاً، أجل، إنّه إذا حادثه أشعره كأنما يتكلّم عن شعب غريب «عنهما» معاً، ولكن أكان ذلك عن خطأ في التصوير أم عن مجاملة؟ ومن عجب أن موقف حسين لهذا لم يغضبه من ناحية دلالة العامة بقدر ما أحزنه من ناحية دلالة الخاصّة به، فلم يستر

- لم أسمع عن هذا الذكر إلا منكم، والحق الذي لا ريب فيه، أنه لم يعد بين أبي وبين الخديو إلا الصداقة والوفاء، وفضلاً عن ذلك فليس ثمة حزب - كما تعلمون - يدعو اليوم إلى عودة الخديو...

قال حسن سليم:

- أمسى الرجل وعهده في ذمة التاريخ، الحاضر يمكن تلخيصه في كلمتين، وهما، أنّ سعد يأبى أن يقوم في مصر من يتكلم باسمها غيره ولو كان خير الرجال وأحكمهم!

لم يكذب يتلقى الضربة كمال حتى جاوبه قائلاً:

- الحاضر في كلمة واحدة، أن ليس في مصر من يتكلم باسمها إلا سعد، وأن التفاف الأمة حوله جدير في النهاية بأن يبلغ بها ما نرجو من الآمال...

وشبك ذراعيه على صدره، ومدّ ساقيه حتى مسّ طرف حذاءه رجل المائدة، وهمّ بالاسترسال في حديثه لولا أن جاءهم من وراء صوت غير بعيد يتساءل «ألا تريدان يا بدور أن تحيي أصدقاء القدماء؟» فانعقد لسانه، ووثب قلبه وثبة عنيفة رجّت صدره رجاً أفزعه أوّل الأمر وآله، وفي أسرع من لمعان البرق استغرقت سكرة طاغية من السعادة كاد يغمض لها عينيه من شدة التأثر، ثم وجد أنّ كلّ خاطرة تنبض بها نفسه قد اتجهت صوب السماء، قام مع الأصدقاء كما قاموا، واستدار معهم إلى وراء، فرأى على بعد خطوة من الكشك عابدة واقفة ممسكة بيد بدور شقيقته الصغرى ذات الأعوام الثلاثة، وهما يتطلّعان إليهم بأعين هادئة باسمه... ها هي ذي بعد انتظار ثلاثة أشهر أو يزيد، ها هو «الأصل» الذي تملأ «صورته» روحه وجوارحه ويقظته، ونومه، ها هي قائمة أمام عينيه شاهداً على أنّ الألم الذي لا حدّ له والسرور الذي لا وصف له واليقظة المحرقة للنفس والحلم المدوم في السماء، إنّ كلّ أولئك ربّما رجعت في آخر الأمر إلى آدمي لطيف ترك قدماه انطباعاتها على أرض الحديقة! ورنّا إليها فجلذب مغناطيسها شعوره كلّ حتى سلبه الإحساس بالزمان والمكان والأناسي والنفس، فعاد وكأنّه روح مجرّدة تسبح في فراغ نحو معبودها... على

عداوته الطبقية ولا إحساسه الوطني... انهزمت هذه المشاعر حيال بشاشة وضيفة تنم عن الصراحة وحسن الطوية، وتراجعت أمام حبّ لا تنال منه الآراء والأحداث، على الضدّ من هذا كان شعوره حيال موقف حسين شدّاد منه، فكان - رغم صداقتهما - يبيح غضبه لوطنه، ولم يشفع له عنده تأذبه في الخطاب وتحفّظه في إظهار مشاعره، بل لعلّه آنس فيهما «حكمة» تضاعف من مسئوليته وتؤكد تعصّبه الأرستقراطي المربّح ضدّ الشعب، قال مخاطباً حسين: - أفي حاجة أنا أن أذكرك بأنّ العظمة شيء غير العسامة والطربوش أو الفقر والغنى؟ يبدو لي أنّ السياسة تضطرنا أحياناً إلى مناقشة البدييات!...

قال إسمايل لطيف:

- إنّ ما يعجبني في الوفدين - أمثال كمال - هو شدة تعصّبهم!

ثمّ وهو يجيل بصره في الجالسين:

- أمّا ما يسوءني منهم، فهو شدة تعصّبهم أيضاً!

قال حسين شدّاد ضاحكاً:

- أنت سعيد الحظّ، لأنك مهما أبديت في السياسة من رأي، فلن يعترض سيالك معقّب...! هنا سأل حسن سليم حسين شدّاد قائلاً:

- تزعم أنّك تربّاً بنفسك عن السياسة، فهل تصرّ على ذلك حتى إذا تعلّق الأمر بالخديو السابق؟

اتجهت الأعين نحو حسين في تحدّ باسم لما هو معروف عن تشييع والده شدّاد بك للخديو السابق، الأمر الذي أبعد من أجله أعواماً قضاها في باريس، ولكنّ حسين قال في غير مبالاة:

- لا تعنيني هذه الأمور في كثير أو قليل، كان والذي ولا يزال من رجال الخديو، ولكنني لست مطالباً باعتناق آرائه...

سأله إسمايل لطيف، وفي عينيه الضيقتين بريق ضاحك:

- أكان والدك من الذين يهتفون «الله حيّ»...

عبّاس جي؟

فقال حسين شدّاد ضاحكاً:



سعيداً فخوراً، ليست التي بين يديه إلا فلذة من جسد الأسرة، فهو يضمّ الكلّ إذ يضمّ الجزء إلى صدره، هل أمكن اتصال العبد بمعبوده إلا عن وساطة كهذه الوساطة؟... والسحر كلّ السحر في هذا الشبه الغريب بين الطفلة وشقيقتها، كأنّ المطمئنة إلى صدره عائدة نفسها في طور من أطوار حياتها الماضية، كانت يوماً مثل بدور سناً وحجماً وجوداً فتأمل!... فليهنأه هذا الحب الطاهر... ليسعد بعناق جسم تعانقه هي... ويتقبل وجنة تقبلها هي... وليحلم حتى يشرّد منه العقل والقلب. إنه يدري لم يحبّ بدور ولم يحبّ حسين ولم يحبّ القصر وحديقته وخدمه، إنه يحبّها جميعاً إكراماً لعائده، أمّا الذي لا يدريه فهو حبّ عائده نفسها!... رددت عائده عينها بين حسن سليم وإسماعيل لطيف، ثمّ سألتها:

- كيف وجدتما الإسكندرية؟

فقال حسن:

- رائعة!...

على حين تساءل إسماعيل:

- ماذا يجذبكم إلى رأس البرّ دوماً؟

فقال بصوت رخيم مشربة نبراته بعدوية

موسيقية:

- صبقنا مرّات في الإسكندرية، ولكنّ الاصطيفات لا يطيب لنا إلا في رأس البرّ، هنالك الهدوء والبساطة واللفة لا تجدها إلا في بيتك!

فقال إسماعيل ضاحكاً:

- من سوء الحظّ أنّ الهدوء لا يطيب لنا...

ما أسعده بهذا المنظر... هذا الحديث... هذا الصوت، تأمل أليست هذه هي السعادة؟! فراشة كنسمة الفجر تقطر ألواناً بهيجة وترشّف رحيق الأزاهر... هذا أنا، لو يدوم هذا الموقف إلى الأبد!...

قالت عائده:

- كانت رحلة ممتعة، ألم يجذبكم حسين عنها؟

قال حسين بلهجة انتقادية:

- بل كانوا يتناقشون في السياسة!

أنّ إدراكه لها هي نفسها لم يكن حسياً بقدر ما كان روحياً، تمثّل في نشوة ساحرة وغبطة شادية وسبحة عالية، بينا وهنت منه الرؤية أو تلاشت، كأنّ قوّة انفعاله الروحي استأثرت بكلّ حيويته فغودرت حواسه وقواه العاقلة والمدرّكة والملاحظة في سبات أشرف به على نوع من الفناء، لذلك كانت دائماً أطوع لذاكرته منها إلى حواسه، لا يكاد يرى منها وهو في محضرها شيئاً، ولكنّها تتراءى فيها بعد في ذاكرته بقامتها الهيفاء ووجهها البدريّ الخمرّيّ وشعر عميق السواد مقصوص «ألا جرسون» ذي قصّة مسترسلة على الجبين كأسنان المشط وعينين ساجيتين تلوح فيها نظرة لها هدوء الفجر ولطفه وعظمته، كان يرى هذه الصورة بذاكرته لا بحواسه كالنغمة الساحرة نفث في سماعها فلا تذكر منها شيئاً حتى تفاجئنا مفاجأة سعيدة في اللحظات الأولى من الاستيقاظ أو في ساعة انسجام، فتتردّد في أعماق الشعور في لحن متكامل. وتساءلت أحلامه وأمانيه: ترى هل تغير من طريقته المألوفة فتمدّ يدها للمصافحة فيلمسها ولو مرّة في الحياة؟ لكنّها حينهم بابتسامة وتحنية من رأسها، وهي تتساءل بذلك الصوت الذي يزري بأحبّ الألحان إليه:

- كيف حالكم جميعاً؟

فاستبقت الأصوات إليها بالتحية والشكر والتهنئة على سلامة العودة، عند ذاك عبثت أناملها الرشيقة برأس بدور وهي تقول لها:

- صافحي أصدقاءك!

فئنّت بدور شفتيها داخل فيها وعضّت عليهما وهي تردّد عينها بينهم في حياء حتى استقرّتا على كمال، فابتسمت وابتسم! قال حسين شدّاد، وكان على علم بما بين الطفلة وكمال من مودة:

- إنّها تبتسم لمن تحبّه!

- أنحنّين لهذا حقّاً؟ (ثمّ وهي تدفعها نحوه) إذن

سلمي عليه...

مدّ لها كمال يديه متورّد الوجه من السرور، فأقبلت نحوه، فرفعها بين يديه حتى أفرّها في حضنه، وراح يقبل خديّها في حنان وتأثّر شديدين، كان بهذا الحبّ

فالتفتت ناحية كمال قائلة:

- هنا شخص لا يجلو له إلّا حديثها...

- أفذاذا...

من عينيها نظرة تلقى إليك كالرحمة، صفاؤها يجلو روحاً ملائكيّاً، بعثت كما يبعث عبّاد الشمس في ضوئها المشرق، لو يدوم هذا الموقف إلى الأبد!...

- لم أكن المسئول عن إثارة المناقشة اليوم...

فقلت باسمه:

- لكُنْكَ اغتنمت الفرصة...

ابتسم في تسليم، وعند ذاك حوّلت عينيها إلى بدور هاتفة:

- أنسون أن تنامي بين ذراعيه!... كفساك سلاماً...

غلب الحياء بدور، فدفت رأسها في صدره، فجعل يرتّب على ظهرها في حنان، غير أنّ عابدة توعدتها قائلة:

- إذن سأتركك وأرجع وحدي...

فرفعت بدور رأسها ومدّت لها يدها وهي تغتمغ «لا»، فقبلها كمال وأنزلها إلى الأرض، فجرت إلى

عابدة وقبضت على يدها، ألقت عابدة عليهم نظرة شاملة ثم لوّحت بيدها تحيةً وذهبت من حيث أتت.

عادوا إلى مقاعدهم فواصلوا الحديث كيفما اتفق. هكذا كانت تقع زيارات عابدة في كشك الحديقة،

مفاجأة سعيدة قصيرة ولكنّه بدا قانعاً، وشعر بأنّ تصبّره طيلة أشهر الصيف لم يذهب هدراً، لم لا يتتحرر

الناس ضناً بالسعادة كما يتتحررون فراراً من الشقاء؟ ليس من الضروري أن تسبح كما يؤدّ حسين أن يسبح

كي تلقى متع الحواس والعقل والروح، فمن الجائز أن تفوز بكلّ أولئك في لحظة خاطفة دون أن تبرح

مكانك! من أين لبشر أن يؤقّ القدرة على إحداث هذا كلّ؟! أين فورة السياسة وحرارة الجدل واحتدام

الخصام وتصادم الطبقات؟... ذابت كلّها وتوارت تحت نظرة من عينيك يا معبودتي، ما الفاصل بين

الحلم والحقيقة وفي أيّهما تراني أهيم الساعة؟

- موسم الكرة سيبدأ عمّا قريب...

- كان الموسم الماضي موسم الأهلّيّ دون شريك!

- هُزم المختلط بالرغم من أنّ فريقه يضمّ أبطالاً

أفذاذا...

انبرى كمال للدفاع عن المختلط - كما دافع عن سعد - صاداً عنه هجيات حسن سليم. كان أربعتهم من

لاعبي الكرة على تفاوت في الخدق والحساس، فكان إسماعيل أمهرهم إلى حدّ أنّه برز بينهم كالمحترف بين

الهواة، على حين كان حسين شدّاد أضعفهم، أمّا كمال وحسن فكانا بين ذلك، وقد اشتدّت المناظرة بين كمال

وحسن، ذاك يُرجع هزيمة المختلط إلى سوء الحظّ وهذا يردّها إلى تفوّق لاعبي الأهلّيّ الجدد... واستمرّ

الجدل دون أن ينزل أحدهما عن رأيه. تساءل كمال: لم يجد نفسه دائماً في الجانب المضادّ للجانب الذي يقف

فيه حسن سليم؟ الوفد الأحرار، المختلط الأهلّيّ، حجازي مختار، وفي السينما يفضّل شارلي شابلن

يفضّل الآخر ماكس لندرا

غادر المجلس قبيل الغيب، وفيما هو يسير في الممرّ الجانبيّ المفضي إلى الباب الخارجيّ إذ سمع صوتاً

يهتف:

- ها هو ذا...

رفع رأسه مسحوراً فرأى عابدة في إحدى نوافذ الدور الأول، مُجلّسة بدور على حافة النافذة بين يديها

وهي تشير لها إليه، وقف تحت النافذة مباشرة مرفوع الرأس، يتطلّع بوجه باسم إلى الطفلة التي لوّحت له

بيدها الصغيرة، ويلمح بين لحظة وأخرى إلى الوجه الذي استقرّت في هيئته ورموزه آماله في الحياة وما بعد

الحياة، وقلبه يتلاطم بين الضلوع سكرّاً، لوّحت له بدور بيدها مرّة أخرى، فسألته عابدة:

- تذهين إليه؟

حنّت الصغيرة رأسها بالإيجاب، فضحكت عابدة من هذه الرغبة التي لن تتحقّق، على حين مضى هو

يتوسّمها متشجّعاً بضحكاتها - غارقاً بروحه في حور عينيها وملتقى حاجبيها مسترجعاً صدى ضحكاتها

المرّة ونبرات صوتها الدافئ حتّى اضطربت أنفاسه من وجد وهيام، ولما كان الموقف يملي عليه أن يتكلّم،

فقد سأل معبودته وهو يشير إلى محبوبته الصغيرة:

الفكر بأمر ذي بال.

آنس من صوتها ما يشبه العتاب، فقال:

- العقل يجد دائماً ما يشغله!

فرفعت إليه عينيها الصغيرتين العسلتين كالمسائلة،

ثم قالت في شيء من الحياء:

- مضى زمن كنا لا نجد وقتاً يتسع لحديثنا!

حقاً؟ ذلك ماضٍ مضى، عهد الدروس الدينية

وقصص الأنبياء والشياطين، عهد تعلّقه بها لحدّ

الجنون، انقضى ذلك العهد، فيم يتحدثان اليوم؟ إلا

تكن دردشة لا معنى لها فلا وجه للكلام على

الإطلاق، ابتسم كأنها يعتذر بابتسامته عن صمته

السابق واللاحق معاً، ثم قال:

- نحن نتكلّم كلّما وجدنا للكلام موضوعاً.

فقال برقة:

- ليس للكلام حدود لمن أراد أن يتكلّم، ولكنك

تبدو غائباً دائماً أو كالغائب...

ثم بعد تفكير:

- أنت تقرأ كثيراً، في عطلتك تقرأ كما تقرأ في وقت

دراستك، لم تستوف يوماً حظّك من الراحة، أخاف

أن تكون أتعبت نفسك أكثر ممّا ينبغي...

فقال كمال بلهجة دلّت على أنّه لم يرحّب بهذا

التحقيق:

- اليوم طويل جدّاً، وقراءة ساعات لا يمكن أن

تُعب إنساناً، ليست إلا نوعاً من التسلية وإن تكن

تسلية مفيدة...

فقال بعد تردّد:

- أخاف أن تكون القراءة سبب ما يبدو عليك كثيراً

من الصمت والشرود...

كلاً ليست القراءة، القراءة ملاذ من التعب لو

تعلّمين، شيء آخر يشغل عقله طيلة الوقت ولا يسلم

منه وقت القراءة نفسه، شيء لا علاج له عندها ولا

عند غيرها من البشر، إنّه مرض قلب يتعبّد حائراً ولا

يدري ماذا وراء عنائه يروم! قال بمكر:

- القراءة كالقهوة لا ضرر منها! ألا تحبّين أن أصير

«عالماً» كجدي؟

- هل ذكّرتني في المصيف؟

قالت عائدة وهي تتراجع برأسها قليلاً:

- سلها هي، لا شأن لي بما بينك وبينها!

ثم مستدركة قبل أن ينبس هو بكلمة:

- هل ذكّرتها أنت؟

آه، موقفك فوق السطح بين مريم وفهمي، قال

بحرارة:

- لم تغب عن ذاكرتي يوماً واحداً...

نادى عند ذاك صوت من داخل القصر فاعتدلت

عائدة في وقفها ورفعت بدور بين يديها، ثم قالت

معلّقة على كلامه وهي تهّم بالذهاب:

- يا له من حبّ عجيب!

وغابت عن الناظرة...

## - ١٥ -

لم يبق من رواد مجلس القهوة إلا أمينة وكمال،

وحقّ كمال كان يبرحه عند الأصيل إلى الخارج فتلبث

الأم بمفردها أو تدعو أم حنفي إلى مؤانستها حتى يحين

وقت النوم. وكان ياسين قد خلف وراءه فراغاً، ومع

أن أمينة حرصت دائماً على ألا تعود إلى ذكرها فإنّ كمال

شعر لغيبه بوحشة غاضت أبهج ما كان يجد في مجلس

القهوة من متعة. وكانت القهوة - قديماً - شراب

المجلس الذي يجتمع حوله الأبناء للسمر. فانقلب

اليوم - عند الأم - كلّ شيء فيه، فأسرفت في حسوها

إسرافاً وهي لا تدري حتى صار صنع القهوة وحسوها

سلوة وحدتها، فربّما احتست خمسة أو ستة - وأحياناً

عشرة - فناجيل تباعاً، وكان كمال يتابع إفراطها بقلق

ويحدّرها من عواقبه، فتردّ عليه بابتسامة كأنها تقول له

«وماذا أفعل إذا لم أشرب؟» ثم تقول له بلهجة الواثق

المطمئن «لا ضرر من القهوة»... جلسا متقابلين،

هي على الكنبه الفاصلة بين حجرتي النوم والمائدة،

وهو على الكنبه المتوسطة لحجرتي نومه ومكتبه، وكانت

عاكفة على المجمرة التي دفنت الكنبه حتى نصفها في

جراتها، وكان صامتاً شارد النظرة، وفجأة سأله:

- فيم تفكر يا ترى؟ دائماً تُرى وكأنك مشغول

كلّما أردت، تصوّري أيّ حرمان كنت تمثّين به نفسك  
لو لم يفكّ أبي قيودك!

رفعت إليه عينيها فيها يشبه الارتباك أو الخجل،  
كأنّما كبر عليها أن تذكّر بامتياز نالته نتيجة لشكلها، ثمّ  
أطرقت في وجوم ولسان حالها يقول «ليتنى بقيت كما  
كنت وبقي لي فقيدي»، غير أنّها تحاشت الإفصاح عمّا  
جاش به صدرها إشفاقاً من تكدير صفوه، وقنعت بأن  
تقول وكأنّها تعتذر عمّا حظيت به من حرّية:

- ليس خروجي بين حين وآخر فرجة أستمتع بها،  
إني أزور الحسين لأدعوك، وأزور أختيك لأطمئنّ  
عليهما ولأحلّ مشكلات لا أدري من كان غيري  
يحلّها!

فابتدته المشكلات التي تعني، ولما كان يعلم أنّها  
زارت السكّرية اليوم، فقد تساءل:

- هل من جديد في السكّرية؟

قالت وهي تتنهد:

- العادة...!

هزّ رأسه أسفاً، وهو يبتسم قائلاً:

- مخلوقة للنقار، هذه هي خديجة...

قالت أمينة بحزن:

- قالت لي حماتها: إنّ أيّ محادثة معها مخاطرة غير  
محمودة العواقب...

- الظاهر أنّ حماتها - نفسها - قد خرفت!

- لها من الكبر أعداء، ولكن ما عذر اختك؟

- ترى آثارها على الحقّ أم أثرت الحقّ عليها؟

وضحك ضحكة ذات مغزى، فتنهدت أمينة مرّة  
أخرى، وقالت:

- اختك حامية الطبع، وسرعان ما تضيق حتّى  
بالنصيحة الخالصة، ويا ويلي إذا جاملت حماتها مراعاة  
لسنّها ومكانتها، هنالك تسألني وعيناها تمحاران «أنت  
معي أم عليّ؟»، لا حول ولا قوّة إلّا بالله، معي أم  
عليّ!... هل نحن في حرب يا ابني؟ ومن الغريب  
أن يكون الحقّ أحياناً على حماتها ولكتّها تتأدّى في  
الخصام حتّى ينقلب الحقّ عليها هي...!

هيهات أن يسخطه عليها شيء، كانت ولا تزال أمّه

فشاعت البهجة والفخار في الوجه المستطيل  
الشاحب، وقالت:

- بل، إني أودّ ذلك بكلّ قلبي، ولكنتي أحبّ أن  
أراك دائماً منشراح الصدر...

قال بأسفاً:

- إني منشراح الصدر كما تحبين، فلا تشغلي البال  
بمحض أوهام.

كان يلاحظ أنّ رعايتها له ازدادت في السنوات  
الأخيرة أكثر ممّا ينبغي، وأكثر ممّا يودّ، وأنّ تعلّقها به  
وحدها عليه وإشفاقها ممّا يضرّه - أو ممّا تنوّه أنّه  
يضرّه - باتت شغلها الشاغل إلى حدّ ضايقه واستفزه  
للذود عن حرّيته وكرامته، بيد أنّه لم تغب عنه أسباب  
هذا التطوّر الذي بدأ عقب مصرع فهمي وابتلائها  
بفقدته، فلم يجاوز أبداً في ذوده عن حرّيته حدود  
اللطف والأدب:

- يسرّني أن أسمع هذا منك وأن يكون حقّاً  
وصدقاً، لست أبغي إلّا سعادتك، ولقد دعوت لك  
اليوم في سيّدنا الحسين دعاء أرجو أن يمنّ الله  
باستجابته!

- آمين...

ونظر إليها وهي ترفع الكنجة لتملأ فنجانها للمرّة  
الرابعة، فانفجرت ركناً فيه عن ابتسامة خفيفة... ذكر  
كيف كانت زيارة الحسين لديها أمنية في حكم  
المستحيل، ها هي اليوم تزوره كلّما زارت القرافة أو  
السكّرية، ولكن ما أفدح الثمن الذي دفعته نظير هذه  
الحرّية الضئيلة! هو نفسه له أمانيه التي في حكم  
المستحيل فأيّ ثمن تقتضيه كي تتحقّق؟ ألا إنّ أيّ  
ثمن - وإنّ جلّ - يهون في سبيل ذلك، عاد يقول  
ضاحكاً ضحكة مقتضية:

- إنّ لزيارة الحسين ذكريات لا تُنسى...

تحسّست ترقوتها بيديها، وهي تبتسم قائلة:

- وأثر باقي لا يزول...

فقال كمال في شيء من الحماس:

- لست اليوم حبيسة البيت كما كنت قديماً، أصبح  
من حقّك أن تزوري خديجة وعائشة أو سيّدنا الحسين

دون الوجه الملائكي بما لا يقاس، وتنتشر فيها حولها شذى عطرًا وروعة أسرة، ودّ لو يعلم كيف يتحادثان وكيف يأثلفان، وكيف يتخاصمان إن كانا يتخاصمان. شغفا بمعرفة حياة تمتّ إلى حياة معبودته بأوثق الوشائج والصلات، أتذكر كيف كنت تطالعهما بين المتعبّد الراي إلى كبار الكهنة والسدنة؟ قال بهدوء:

- لو تطبّعت خديجة ببعض طباعك لضمنت حياة سعيدة...

ابتسمت أساريرها في سرور، غير أنّ سرورها ارتطم بالحقيقة المرّة، وهي أنّ طباعها لم تستطع على دمائها أن تضمن لها السعادة دأماً، ثمّ قالت والابتسامة لا تفارق شفيتها لتداري بها أفكارها السوداء التي تشفق من إطلاعه عليها:

- هو وحده الهادي، ربّنا يزيد طبعك حلوة حتّى تكون من الذين يحبّون الناس ويحبّهم الناس...

فبأدراها متسائلًا:

- كيف تجديني؟

فقالت بإيمان:

- أنت كذلك، وأكثر...

لكن كيف يتأتّى لك أن تحبّك الملائكة؟! ادعُ صورتها السعيدة وتأمّل قليلاً، هل يمكن أن تنخلّجها مسهّدة طريحة حبّ وجوى؟ وما أبعد ذلك عن خوارق الظنون، إنّها فوق الحبّ ما دام الحبّ نقصاً لا يدرك الكمال إلّا بالحبيب، اصبر ولا تلو قلبك من الألم، حسبك أن تحبّ، حسبك منظرها الذي يشعشع بالنور روحك، وأنغام نبراتها التي تسكر بالتسطريب جوارحك، من المعبودة ينبثق نور تتبدّى فيه الكائنات خلقاً جديداً، الياسمين واللبلاب من بعد صمت يتناجان، والمآذن والقباب تطير فوق بساط الشفق صوب السماء، معالم الحيّ العتيق تنطق عن حكمة الأجيال، أوركسترا الوجود تستأنف زفريات الصراير، الحنان يفيض من الجحور، الأناقة تزخر في الأزقة والدروب، عصافير الغبطة ترقز فوق القبور، الجهادات تته في صمت التأملات، قوس قزح يتجلّى في الخسيرة التي تطرح عليها قدميك، هذه دنيا معبودتي!

الثانية ومورد حنان لا ينضب، أين منها عائشة الجميلة السادرة التي تشبّعت بالشوكيّة حتّى ذوّبتها!

- وعمّ أسفر التحقيق؟

- بدأ الشجار بالزوج هذه المرّة وعلى غير المألوف، دخلت الشقة وهما يتجادلان في عنف حتّى عجبت لما أهاج الرجل الطيّب، فتدخلت بينهما بالسلام، ثمّ عرفت سبب هذا كلّ، كانت معترمة أن تنفض الشقة، ولكنّه ظلّ نائماً حتّى التاسعة فأصرت على إبقائه حتّى استيقظ غاضباً، وركبه عناد مفاجئ فأبى أن يغادر الفراش، وسمعت والدته الزعق، فجاءت على عجل، وما لبثت النار أن اشتعلت، ولم يكد هذا الشجار أن ينتهي حتّى شبّ آخر بسبب أحمد الذي عاد من الطريق مطيّب الجلباب، فضرته وأرادت أن يستحمّ من جديد، فاستغت الولد بأبيه، وتصدّى الرجل لحمايته، فكان الشجار الثاني في نصف نهار!

وهو يضحك:

- وماذا فعلت؟

- بذلت ما في وسعي ولكنّي لم أسلم، فلامتني طويلاً على وقوفي موقف الوسيط، وقالت لي: كان ينبغي أن تنضمّي إليّ كما انضمت أمّه إليه! ثمّ وهي تتهدّ لثالث مرّة:

- قلت لخديجة: ألا تذكرين كيف كنت ترينني أمام والدك، فقالت بحدّة: «هل تظنّين أنّه يوجد رجل مثل أبي في هذه الدنيا؟!».

وردت مخيلته على غير معاد صورة عبد الحميد بك شدّاد وحرمة سنيّة هانم، وهما يسيران جنباً إلى جنب، من الفراندا إلى السيّارة المنيرفا المنتظرة أمام باب القصر، لا سيّد ولا مسود ولكن صديقين متساوين، يتحادثان في غير كلفة وهي تتأبط ذراعه، حتّى إذا بلغا السيّارة تنحى البك جانباً حتّى تركب هي أولاً. هل يتأتّى لك أن ترى والدك في مثل هذه الصورة؟! يا لها من خاطرة مضحكة! يتحرّكان في جلال خليف بالمعبودة التي أنجبها، ولو أنّ الهانم لم تكن دون أمّه كهولة إلّا أنّها كانت ترتدي معطفاً نفيساً آية في اللوق والأناقة والغندرة، وتنطلق سافرة الوجه، وجه مليح وإن يكن

ترضى أن تدفن أبناً في كل خمسة أعوام، لا بدّ للحياة  
المثالية من قرايين وشهداء... الجسم والعقل  
والروح قرايينها، فهمي ضحى بحياة واعدة في سبيل  
ميتة رائعة، فهل تستطيع أن تلقى الموت كما لقيه؟  
قلبك لا يتردد عن الاختيار ولو حطّم قلب هذه الأمّ  
التعيسة، ميتة تستنزف جرحاً وتضمّد جروحاً، يا له  
من حبّ... أجل، ولكّنه ليس الذي بيني وبين بدور  
وأنت تعلمين، الحبّ العجيب حقاً هو حبّي لك، هو  
شهادة للدنيا ضدّ المشائمين من خصومها، علّمني أنّ  
الموت ليس أفظع ما نخاف وأنّ الحياة ليست أبهج ما  
نبتغي، وأنّ من الحياة ما يغلظ ويفرّ حتى يلتبس  
الموت، ومنها ما يرقّ ويثرى حتى يهفو إلى الخلود،  
ومناداتها لك ما أطربها، بصوت لا تدري كيف تصفه،  
لا رفيع النبرة ولا غليظها، مثل «فا» السلم الموسيقيّ  
المنبعث من كيان، رنينه في صفاء النور، ولونه لو  
تخيّل له لوناً في زرقة السماء العميقة، دافئ الإيمان،  
داعية إلى السماء...

- ١٦ -

- يوم الخميس القادم ساعقد زواجي متوكّلاً على  
الله...  
- ربّنا يوفّقك!  
- سيكون التوفيق من نصيبك إذا رضي عني  
أبي...  
- إنّه راض عنك، والحمد لله...  
- سيقصر الحضور على الأهل، ولن تلقى هنالك  
ما يضايق حضرتك.  
- عظيم عظيم!!  
- وددت لو كانت نينة في الحاضرين، ولكن...  
- ما علينا، المهمّ أن تمرّ الليلة في هدوء...  
- لم يغب عني هذا بطبيعة الحال، أنا أعرف الناس  
بطبعك، ولن يعدو اليوم كتابة العقد وشرب  
الشربات...  
- عظيم، ربّنا يهديك إلى سواء السبيل...  
- كلّفت كمال أن يبلغ والدته تحيَّاتي وأن يرجوها

- كنت مازّة بالأزهر في الطريق إلى الحسين،  
فقابلتني مظاهرة كبيرة تهتف بهتافات ذكّرتني بالماضي،  
هل جدّ جديد يا بني؟

قال:

- الإنجليز لا يريدون أن يذهبوا بسلام!  
قالت بحذّة، وفي عينيها نظرة غضب تبرى:  
- الإنجليز... الإنجليز!... متى تنزل عليهم  
نقمة الله العادل؟

انطوت دهرًا لسعد نفسه عن مثل هذه الكراهية،  
لولا أن أقنعها في النهاية بأنّه لا يجوز أن يعضوا  
شخصاً أحبه فهمي!.. وعادت تتساءل في قلق ظاهر:  
- ماذا تعني يا كمال؟ هل نعود إلى أيّام البلاء؟

فقال بامتعاض:

- لا يعلم الغيب إلّا الله!  
فاعترأها ضيق بدا في تقلّصات وجهها الشاحب،  
وقالت:

- اللّهمّ قنا العذاب فلنتركهم لغضب القهّار، هذه  
هي الخطّة المثلّ، أمّا أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة فهو  
الجنون والعياذ بالله!

- هدّئي من روعك، لا محيد من الموت، الناس  
يموتون بسبب أو بآخر، وبلا سبب على الإطلاق!  
قالت في استياء:

- لا أنكر أنّ قولك حقّ، ولكنّ لهجتك لا تعجبني!  
- كيف تريدان أن أتكلّم؟  
قالت بصوت مؤثّر:

- أريد أن تعلن موافقتك على أنّه من الكفر أن  
يعرّض الإنسان نفسه للتهلكة...  
قال في تسليم، وهو يداري ابتسامة:  
- أوافق...

فرمقته بارتياح، وقالت بتوسّل:  
- وأن تقول ذلك بالقلب لا باللسان...  
- بالقلب أتكلّم...

ما أعظم الفارق بين الواقع والمثالي، أنت تتطلّع  
بحماس إلى المثل الأعلى في الدين والسياسة والفكر  
والحبّ، الأمّهات لا يفكرن إلّا في السلامة، أيّ أمّ

معالم مألوفة في البيت، مرّ بها من قبل في ظروف جدّ مختلفة، فهجمت عليه ذكريات الماضي محدثة في نفسه ألواناً من الاستياء والضجر لسخريتها الصامتة من الدور الجديد الذي جاء يمثله كوالد وقور للعريس، وراح يلعن في سرّه ياسين الذي أوقعه - وأوقع نفسه وهو لا يدري - في هذا المأزق، غير أنّ الأمر الواقع حمله على أن يراجع نفسه وعيها قائلاً: إنّهُ ليس على الله بكثير أن يخلّق البنت على غير مثال الأمّ، وأن يجد ياسين في مريم زوجاً صالحة - بكلّ معنى الكلمة - وأن يقبّه نزع أمّها، ثمّ سأل الله السّرا

وكان ياسين آخذاً زيتته، بادى السرور رغم تواضع الحفل المقام لزواجه، وسرّه - على وجه الخصوص - أن لم يتخلّف أحد من إخوته عن الحضور، وكان يشفق من أن تؤثر الأمّ في بعضهم فيتخلّف! أكان في وسعه أن يستغني عن مريم إكراماً لهم؟ كلّاً، أحبّها، ولم تجعل هي من سبيل إليها إلّا الزواج فلم يكن من الزواج بدّ، لمّ لا؟ ليست اعتراضات والده أو زوجه بعبادلة أو ممّا يكثرث لعواقبها، ثمّ إنّ مريم أوّل امرأة يرغب الزواج منها عن معرفة ونظر، وهو إلى هذا متفائل جدّاً بزواجه ويرجو أن تستقرّ به حياة زوجيّة دائمة، أليس كذلك؟ بلى وهو يشعر أنّه سيكون زوجاً طيباً وستكون زوجة طيبة وسيجد رضوان في مقبل الأيام بيتاً سعيداً ينمو فيه وينضج، لقد دار كثيراً وأنّ له أن يستكنّ، في غير الظروف التي اكتنفت زواجه لم يكن يتردّد عن أن يحتفل به احتفالاً شاملاً لشقّي ألوان البهجة والسرور، ليس كهلاً ولا فقيراً ولا هو ممّن «يدّعون» كراهية الليالي الملاح حتّى يرضى بهذا الحفل الموحش الصامت الذي هو بالمأتمّ أشبه، ولكن مهلاً، فللضرورة أحكام، ولينزع نقشفه هذا تحيّة لذكرى فهمي .

وكان لقاء مريم بخديجة وعائشة - بعد فراق طال أعواماً - مؤثراً على تحفّظه ولم يخلُ من حرج بين . تبادلن القبلات والتهاني، وتحادثن طويلاً فشرّقن وغرّبن، ولكنهنّ تجنّبن الماضي ما استطعن إلى ذلك سبيلاً. وكانت اللحظات الأولى أخرجها جميعاً.

عني ألاّ تحرمني من دعائها الطيب كما عودتني من قديم، وأن تغفو عنيّ كان... .

- طبعاً... طبعاً!!

- أرجو أن تكرّر على سمعي أنّك راضٍ عنيّ.

- إنّني راضٍ عنك، والله أسأل أن يكتب لك

التوفيق والفلاح، إنّهُ سميع الدعاء... .

هكذا سارت الأمور ضدّ مشيئة السيّد أحمد، واضطرّ إلى مجاراتها أن يتصدع ما بينه وبين ابنه، وكان قلبه في الحقّ أرقّ من أن يتصدّى لياسين بخصام جدّي فضلاً عن القطيعة، فقبل أن يسلم بيده ابنه البكر إلى بنت بهيجة، وأن يبارك - بنفسه - العلاقة التي ستضمّ خليلته السابقة إلى صميم أسرته! بل لم يقبل تدخّل أمينة حين أعربت له عن رجاها في أن يمتنع «إخوة فهمي» عن شهود زواج ياسين من مريم، فقال لها بلهجة حاسمة «فكرة سخيفة، من الناس من يتزوّج من أرملة أخيه على حبّه والوفاء له، ومريم لم تكن زوجة فهمي ولا حتّى خطيبته، وذلك تاريخ قديم مضى عليه سنّة أعوام، لست أنكر أنّه لم يوفّق في اختياره ولكنّه حسن النية بقدر ما هو بغل، ولم يسيء إلى أحد كما أساء إلى نفسه، أسرة كان بوسعه أن يصهر إلى خير منها، وفنّاة مطلّقة، الأمر لله وذنبه على جنبه»... . سكنت أمينة كأنّها سلّمت بحجّته، فإلّا وإن كانت اكتسبت مع الأيام السود بعض جرأة تعينها على الإفصاح عن رأيها للسيّد إلّا أنّها لم تكن من القوّة بحيث تجعلها تراجع أو تجادله، ولذلك فعندما زارتها خديجة لتخبرها بأنّ ياسين دعاها إلى حضور زواجه، وأنّها تفكّر في ادّعاء المرض لتتخلّف عن الذهاب لم توافقها على رأيها ونصحتها بقبول دعوة أخيها.

وجاء يوم الخميس، فذهب السيّد أحمد عبد الجواد إلى بيت المرحوم عمّد رضوان، حيث وجد ياسين وكهال - الذي سبقه إليه - في استقباله، ثمّ لحق بهم بعد قليل إبراهيم شوكت و خليل شوكت مصحوبين بخديجة وعائشة، ولم يكن في البيت من آل مريم سوى بضع نساء، فاطمأنّ السيّد أحمد إلى مرور اليوم بسلام! وكان في طريقه إلى حجرة الاستقبال قد رأى

فتوَّعت كلَّ واحدةٍ منهنَّ تردِّداً لذكرى ماضية على نحوٍ يثير عتاباً أو ملاماً، ماذا دعا إلى تقاطعهنَّ أو لمَ تعكَّر الجوُّ، ولكنَّها مرَّت بسلام، ثمَّ وجَّهت مريم الحديث بلباقةٍ إلى ثياب خديجة ورشاقةٍ عائشة التي لا زالت تحافظ عليها رغم إنجابها ثلاثة، ثمَّ سألت مريم وأمَّها عن «الوالدة»، فكان الجواب أنَّها بخير ولم يزدن حرقاً. ونظرت عائشة إلى صديقتها القديمة بعين ملؤها المودة والحنان وقلب متعطِّش إلى حبِّ الناس دواماً، ولولا إحساس بالإشفاق لسألت الكلام إلى الذكريات الماضية ولضحكت ملء فيها، أمَّا خديجة فجعلت تسترق إليها نظرات متفحَّصة، ومع أنَّ مريم ظلَّت سنوات لا تحظر لها على بال فإنَّ أنباء زواجها من ياسين أطلقت لسانها بالملاحظات المرَّة، وراحت تذكَّر عائشة بواقعة «الإنجليزيِّ» وتتساءل عمَّا أعمى ياسين وأصمَّه! على أنَّ شعور خديجة العائليِّ المرهف الذي يتقدَّم سائر مزاياها، لم يسمح لها بلوِّك شيءٍ من ذلك على مسمع من آل شوكت غير مستثنية زوجها نفسه، حتَّى نُبَّهت أمَّها إلى ذلك قائلة «سواء رضينا أم لم نرضُ فستصبح مريم من أسرتنا»... ولا عجب، فما زالت خديجة حتَّى بعد إنجاب عبد المنعم شوكت واحد شوكت تعدُّ آل شوكت «أغراباً» لدرجة ما.

وجاء المآذون في مطلع المساء، ثمَّ عقد الزواج، ودارت أكواب الشرابات، وانطلقت زغرودة واحدة، وتلقَّى ياسين التهاني والدعوات الصالحات، ودُعيت العروس إلى مقابلة «سَيِّدها الكبير» وآل زوجها، فجاءت محاطة بأمَّها وخديجة وعائشة وقبَّلت يده وصافحت الآخرين وعند ذلك قدَّم السيِّد لها هديَّة الزواج، أسورة ذهبية ذات فصوص دقيقة من الماس والزمرد، واستمرَّت الجلسة العائلية وقتاً غير قصير، وحوالي التاسعة أخذ الحاضرون في الانصراف تباعاً، ثمَّ جاء حنطور فحمل العروسين إلى بيت ياسين بقصر الشوق الذي جُهِّز دوره الثالث لاستقبال العروس، وظنَّ الجميع أنَّ الستار قد أسدل على الزواج الثاني لياسين بخيره وشرِّه؛ ولكن حدث بعد مرور أسبوعين من تاريخ الزواج أن شهد بيت المرحوم محمَّد رضوان

حفلاً آخر لزواج جديد، عُدَّ بحقٍّ مفاجأة غريبة في بيت السيِّد أحمد والسُّكرية وقصر الشوق بل في حيِّ بين القصرين جميعاً! فعلى حين غرَّة - ودون سابق إنذار - لم يدرِ الناس إلَّا وبهيجة تعقد زواجها على بيومي الشربتلي... عجب الناس لهذا الزواج كلَّ العجب، وكأنَّما كانوا يفتنون - لأوَّل مرَّة - إلى أنَّ دكان بيومي الشربتلي تقع على ناصية عطفة بيت آل رضوان تحت إحدى مشربيات البيت العتيقة مباشرة، فوقفوا أمام هذه الحقيقة يتساءلون، وحقَّ للناس أن يعجبوا، فالعروس أرملة رجل عُرف في حياته بينهم بالطيبة والتقوى، وهي معدودة من «سَيِّدات» الحيِّ المحترمات رغم ولعها بالتبرُّج، فضلاً عن بلوغها الخمسين من عمرها، بينما كان الزوج من العامة ذوي الجلايب يبيع الخُروب والتمرهندي في دكان صغير، ولم يجاوز الأربعين من عمره إلى كونه زوجاً رسخت قدمه في الحياة الزوجية عشرين عاماً، أنجب خلالها تسعاً من الإناث والذكور! كلُّ ذلك أثار القيل والقال! فحاض الناس - دون تورُّع - في مقدمات الزواج التي لم يشعر بها أحد، متى وكيف بدأت ثمَّ كيف نضجت حتَّى انتهت بالزواج؟! وأيَّ الطرفين كان البادئ الداعي وأيهما كان المستجيب للمتي؟...

قال عمَّ حسنين الحلاق، وكان دكانه يقع في الجانب الآخر من الطريق لصق سبيل بين القصرين إنَّه كثيراً ما كان يرى ستَّ بهيجة واقفة أمام دكان بيومي تشرب الخُروب، ربَّما تبادلاً حديثاً قصيراً، فلا يظنُّ - لحسن نيَّته - إلَّا خيراً... وقال أبو سريع صاحب المقل، وكان دكانه يتأخَّر ميعاد إغلاقه عن بقية الدكاكين: بأنَّه - استغفر الله - لاحظ مرَّات أنَّ قوماً يتسلَّلون بليل إلى داخل البيت، ولكنَّه لم يكن يعلم أنَّ بيومي بينهم! وتكلَّم درويش بائع الفول، وتكلَّم الفوليُّ اللبَّان، ومع أنَّهم تظاهروا بالثناء للآب المليل وانتقدوا - بمرارة - الرجل الأخرق الذي تزوج امرأة في سنِّ أمِّه، فإنَّهم في قرارة النفس نفسوا عليه حقَّه ونقموا عليه ارتفاعه عن طبقتهم بهذه الحيلة «غير المناسبة»، ثمَّ طال الحديث بعد ذلك عن تقدير



دفع بهيجة إلى هذا الزواج الغريب، خاصة وهو يعلم علم اليقين أنه لم يكن يعزّ عليها إرضاء قلبها لو كان به رغبة إلى بيومي الشربتلي دون حاجة إلى تعريض نفسها وآلها لشقى القلاقل بالاقتران منه، لم أقدمت على هذه الحفاقة غير مبالية بزواج الرجل وعياله ولا عابثة بعواطف ابنتها وآلها الجدد كأنما قد أصابها مس؟ ألا يكون الإحساس المحزون بالكبر هو الذي جعلها تفرع إلى الزواج، بل والتضحية بكثير مما تملك جرباً وراء سعادة كان يضمها لها الشباب الذي تحلى عنها؟ تأمل هذه الفكرة في حزن واكتئاب، وذكر مذلة بين يدي زئوبة العودة التي أبت أن تجود عليه بنظرة عطف حتى حملها إلى العوامة، تلك المذلة التي زعزعت ثقته بنفسه وحملته - على طمانينته الظاهرة - على التجهّم للزمان الذي سبق فتحّمه.

على أيّ حال لم تتمتع بهيجة بزواجها طويلاً! مع نهاية الأسبوع الثالث منه شكت دماً في ساقها، ثم تبين بالكشف الطبي أنها مصابة بمرض السكر فقلّت إلى قصر العيني، وترامت الأخبار عن خطورة حالها أياماً، ثم وافاها الأجل المحتوم.

#### - ١٧ -

أمام سراي آل شداد وقف كمال متأبطاً حقيية صغيرة، في بدلة رمادية أنيقة، وحذاء أسود لامع، وقد استقام طربوشه فوق رأسه الكبير. . . بدا طويلاً نحيفاً، وبرز عنقه من فوق بنينة القميص غير عابئ بحمل الرأس الكبير والأنف العظيم. وكان الجوّ لطيفاً تتخلله نسائم باردة تؤذن باقتراب ديسمبر، وكان في السماء سحب متفرّق ناصع البياض يتحرك وائياً فيحجب شمس الصباح حيناً بعد حين. وقف كمال وقفة المنتظر وعيناه متجهتان نحو الجراج، حتى خرجت منه الفيات يسوقها حسين شداد ثم دارت في شارع السرايات ووقفت أمامه، وأخرج حسين شداد رأسه من نافذتها وهو يسأل كمال:

- ألم تجيئنا بعد؟

\* نفخ في البوق ثلاثاً، ثم عاد يقول وهو يفتح الباب:

«ميراثه» المنتظر في البيت، وعن الغنائم المحتملة من نقود وحلي!

أما بيت السيّد وبيت السكرية بل وبيت قصر الشوق قد زلزلوا زلزلاً شديداً، يا للفضيحة! . . . هكذا هتفت الستهم، وغضب السيّد أحمد غضباً أروع آل بيته فتجنّبوا غاطبته أياماً متتابعات، أليس من حقّ بيومي الشربتلي أن يدّعي قرابته من الآن فصاعداً؟ ملعون ياسين وملعون شهواته، بيومي الشربتلي أصبح «عمّه» وأنف الجميع في الرغام، وصاحت خديجة عندما تلقت النبا «يا خير أسود»، ثم قالت لعائشة «منذا يلوم نينة بعد الآن؟ إنّ قلبها لا يكذبها أبداً»، وأقسم ياسين - بين يدي أبيه - على أنّ الأمر وقع على غير علم منه ولا من زوجه، وأنه أحزنها حزناً فاق كلّ تصوّر، ولكن ما حيلتها؟! ولم تقف الفضيحة عند هذا الحدّ، فإنّه ما كادت زوجة بيومي الأولى تعلم بالخبر حتى طاش عقلها، فغادرت بيتها كالمجنونة سائقة أمامها ذريّتها جميعاً، ثم انقضّت على بيومي في دكانه، فنشب بينهما عراك عنيف استعمل فيه اللسان واليد والقدم والزعم والصراخ على مرأى ومسمع من الأطفال الذين جعلوا يعولون ويستجدون بالمآزة حتى تجمهر الناس أمام الدكان السابلة وأصحاب الدكاكين والنساء والأطفال، فخلّصوا بين الزوجين وجروا المرأة جراً إلى الطريق، فوقفت تحت مشرّبة بهيجة مشفوقة الجلباب مزقّة الملاء منفوشة الشعر دامية الأنف، ثم رفعت رأسها إلى النوافذ المغلقة وأطلقت لسانها كالسوط المحمّلة أطرافه بالرصاص المنقوع في السمّ، والأدهى من هذا كلّ أنّها برحت موقفها رأساً إلى دكان السيّد أحمد بصفته والد زوج بنت زوجها، وتوسّلت إليه بلهجة خطابية باكية أن يستعمل نفوذه لإقناع زوجها في الرجوع عن غيّه، فاستمع السيّد إليها وهو يكظم غيظه وحزنه على ما آل إليه أمره، ثم أفهمها برقة - ما استطاع - أنّ هذا الأمر كلّ خارج عن دائرة نفوذه بخلاف ما تتصوّر، وما زال بها حتى صرفها عن الدكان وهو يغلي من الحنق، على أنه رغم حنقه فكّر طويلاً وهو بين الحيرة والتساؤل فيما

- تعال اجلس إلى جانبي...

ولكن كمال اكتفى بإدخال الحقيبة وهو يغمغم «صبراً». وترامى إليه صوت بدور من ناحية الحديقة، فالتفت صوبه فرأها مقبلة تركض وفي أثرها عابدة... أجل، المعبودة تحط بقوامها البديع في فستان سنجابي قصير على أحدث موضة، توارى أعلاه تحت درّاعة من الحرير كحلّة اللون كشفت عن ساعديها الخمريتين الصافيتين، وكانت هالة شعرها الأسود تحرق بقذالتها وعارضيهما وتنوس بحركة مشيها نوساناً مَوْجِيّاً، أما أسلاك قصّتها الحريرية فاستكنت على الجبين كأسنان المشط، وفي وسط هذه الهالة بدا الوجه البدرى في طابع من الحسن أنيق ملائكيّ كأنه سفير سامٍ لدولة الأحلام السعيدة. تسرّ في موضعه تحت تأثير التيار المغناطيسيّ، على حال بين البقطة والنوم، ولم يبقَ من الدنيا في وعيه إلّا عاطفة امتنان وجيشة وجدان، وجعلت هي تقرب في خفّة وتبختر كأنها نغمة حلوة مجسّمة حتّى سطعه من أعطافها عبر باريسيّ، ولما التقت العين لمعت في ناظرها وشفّتها المضمومتين ابتسامة موسومة بالبشاشة والهدوء والأرستقراطية معاً فردّ عليها كمال بابتسامة حائرة وسجدة من رأسه، عند ذاك خاطبها حسين قائلاً:

- اجلسي أنت وبدور في المقعد الخلفيّ.

تأخّر كمال خطوة ففتح باب السيّارة الخلفيّ ووقف منتصب القامة كأحد الحاشية، فكانت مكافأته ابتسامة وكلمة شكر بالفرنسيّة، وانتظر حتّى دخلت بدور فالمعبودة، ثمّ أغلقه واندسّ إلى جانب حسين، ونفخ حسين مرّة أخرى وهو ينظر صوب القصر، فما لبث أن جاء البوّاب حاملاً سلّة صغيرة فوضعها لصق حقيبة كمال فيما بينه وبين حسين، فقال الأخير ضاحكاً وهو ينقر بأصبعه على السلّة والحقيبة:

- ما جدوى رحلة بلا طعام؟!

وزبحرت السيّارة وهي تتحرّك، ثمّ انطلقت إلى شارع العباسيّة وحسين شدّاد يقول غاطباً كمال:

- عرفت عنك أشياء كثيرة، اليوم يتاح لي أن أضيف إليها معلومات جديدة عن معدتك، ويبدو لي

أنك رغم نحافتك أكول، فهل تراني مخطئاً؟

فقال كمال باسماً، وكان سعيّداً منشرحاً فوق مطمح البشر:

- انتظر حتّى تعرف بنفسك...

سيّارة واحدة تحملها معاً، مشاركة من نوع ما تعرّز فيما عدا الأحلام، تهمس الأمانى: لو جلست أنت في المقعد الخلفيّ وجلست هي في المقعد الأماميّ للمأت عينيك منها طوال الطريق ولا رقيب، لا تكن طمّاعاً جحوداً واسجد حمداً وشكراً، استنقذ رأسك من شقّ الفكر وخلّص نفسك من تيّار الوجد وعش بكلّ وعيك في الساعة الراحنة، أليست ساعة بالعممر أو أكثر؟

- لم أستطع أن أدعو حسن وإساعيل إلى رحلتنا هذه!

نظر كمال إليه كالمسائل دون أن ينبس. بيد أنّ قلبه خفق في سرور وحياء لهذا الامتياز الذي حُصّ به وحده، على حين استطرد حسين قائلاً بلهجة المعتذر:

- السيّارة كما ترى لا يمكن أن تتسع للجميع...

فقال كمال بصوت خافت:

- هذا واضح...

فعاد الآخر يقول باسماً:

- وإذا لم يكن من الانتخاب بدّ فانتخب من يشابهك، ولا شك أنّ ميلونا متقاربة في هذه الحياة، أليس كذلك؟

فقال كمال بوجه وشت أساريره بالفرحة التي غمرت قلبه:

- بلى...

ثمّ وهو يضحك:

- غير أنّي قانع بالرحلة الروحيّة، أمّا أنت فيبدو أنّك لن تقنع حتّى تصل الرحلة الروحيّة بالرحلة حول الأرض...

- ألا تنهو نفسك إلى السياحة في جنبات الأرض الواسعة؟

فكر كمال قليلاً، ثمّ قال:

- يخيّل إليّ أنّي مطبوع على حبّ الاستقرار وكأنّي

الزمالك في سرعة عدّها كمال جنوبيّة:  
- في السماء غيم، ولكنّا في حاجة إلى مزيد منه  
لنضمن نهراً سعيداً في سفع الهرم.  
وعلا الصوت البديع وهو يخاطب بدور فيما بدا  
قائلاً:

- انتظري حتّى نصل إلى الهرم، وهنالك اجلسي  
معه كيفما يحلو لك...

فسألها حسين صاحكاً:

- ماذا تريد بدور؟

- تريد يا سيدي أن تجلس مع صاحبك...

صاحبك! لم تقولي «كمال»؟ هلّا أسعدت الاسم  
بما لا يطمح إليه صاحبه؟ وخاطبه حسين قائلاً:

- أمس سمعها بابا وهي تسألني: هل يجيء معنا  
أنكل كمال إلى الهرم؟ فسألني من يكون كمال؟ ولست  
أجبتة سألها: «أتحبّ أن تنزّجي أنكل كمال؟» فأجابته  
بكلّ بساطة «نعم».

فالتفت كمال إلى السوراء، ولكنّها تراجعت حتّى  
التصقت بمسند المقعد وأخفت وجهها في كتف أختها،  
فتزوّد كمال من الوجه البديع بنظرة خاطفة ثمّ أعاد  
رأسه، وهو يقول بلهجة الرجاء:

- لعلّها عند الجدّ لا تنسى كلمتها!

ولست بلغت السيّارة طريق الجيزة ضاعف حسين من  
سرعتها فعلا أزيها وساد الصمت، رحبّ كمال  
بالصمت ليفرغ إلى نفسه ويتملّى سعادته، كان أمس  
حديث الأسرة فاختره ربّها زوجاً للصغيرة، يا أغاريد  
الزهور والسعادة، احفظ عن ظهر قلب كلّ كلمة  
تقال... املاّ نفسك بعبير باريس، زوّد أذنك  
بالمهديل والبغام، علّك تعود إليها إذا عادت ليالي  
السهاد، كلمات المعبودة عاطلة عن حكمة الحكماء  
ودرر الأدباء، فما بالها تمزّك حتّى الأعماق وفي فؤادك  
تفجّر ينابيع السعادة! هذا الذي جعل السعادة سراً  
تتبه فيه العقول والأفهام، أيّها الجدّون اللاهثون وراء  
السعادة إنّي وجدتها في الكلمة الفارغة والبطانة  
الغامضة والصمت أيضاً وفي لا شيء، ربّاه ما أعظم  
هذه الأشجار الباسقة على الجانبين تتعاقب أعاليها فوق

أجفل من فكرة الرحلات، أعني من الحركة  
والاضطراب لا من الرؤية والاستطلاع، وددت لو كان  
من الميسور أن يطوف بي العالم حيث أنا!  
ضحك حسين شدّاد ضحكته اللطيفة المنبئة من  
القلب، وقال:

- قف في منطاد ثابت إن استطعت، وانظر إلى  
الأرض وهي تدور من تحتك!

تملّى كمال ضحكة حسين اللطيفة الجذابة ملياً،  
فوردت ذهنه صورة حسن سليم وراح يقارن بين  
هذين اللونين من الأرستقراطية: أحدهما يمتاز باللفظ  
والبشاشة، والآخر يتسم بالحفظ والكبرياء، وكلاهما  
بعد ذلك جليل. وقال كمال:

- من حسن الحظّ أنّ الرحلات الفكرية لا تقتضي  
التنقل حتّى...

فرفع حسين شدّاد حاجبيه فيما يشبه الشكّ، غير  
أنّه عدل عن متابعة الموضوع قائلاً بابتهاج:

- المهمّ الآن أننا نقوم برحلة قصيرة معاً، وأنّ ميولنا  
مقاربة في هذه الحياة...

وما يدري إلّا والصوت العذب يجيء من السوراء  
قائلاً:

- وبالاختصار فإنّ حسين يحبّك كما تحبّك  
بدور...

نفذت هذه الجملة المعطرة بالحبّ الملحّنة بالصوت  
الملائكيّ في قلبه فطيرته نشوة وطرباً، كالنخمة الساحرة  
التي تنّد فجأة في تضاعيف أغنية فوق المنتظر والمألوف  
والتخيّل من الأنغام، فتترك السامع بين العقل  
والجنون. المعبود يعبث بالفاظ الحبّ سادراً، يلقيها  
عليك غافلاً عن أنّه يلقي مغسوساً على قلب يحترق،  
استرجع صداها لتستعيد رنين الحبّ في أوتار ثغره،  
والحبّ لحن قديم غير أنّه يضحى جديداً عجيباً في  
ترنيمة خالقة، يا إلهي! إنّي أفنى من فرط السعادة.  
قال حسين معلّقاً على قول أخته:

- عابدة تترجم أفكارها بلغتها النسائية الخاصة...  
انطلقت السيّارة إلى السكاكيني فإلى شارع الملكة  
نازلي ثمّ إلى شارع فؤاد الأوّل، ومنه مرقت إلى

الطريق فتتشر ساء من الخضرة اليانعة، ولهذا النيل الجاري مكتسباً من وشي الشمس غلالة من اللآلئ، متى رأيت هذا الطريق آخر مرة؟ في رحلة إلى الهرم وأنا في السنة الثالثة، في كل رحلة عاهدت نفسي بالعودة إليه منفرداً، وراءك تجلس من ترى بوحيا كل شيء جديداً وجميلاً حتى مجرى الحياة الأثرية في الحي العتيق، هل لك أمنية فوق ما أنت فيه؟ ... نعم: أن تواصل السيارة انطلاقها على هذه الحال التي نحن عليها إلى الأبد، رباه ألهذا هو الجانب الذي طالما أعيالك وأنت تتساءل عما تريد من هذا الحب؟ هبط عليك من وحي الساعة يكتفه المحال، اسعد بالساعة المتاحة، ها هو الهرم يلوح من بعيد صغيراً، وعما قليل تقف عند قدميه كالنملة عند أصل الشجرة الفارعة. ...

- نحن ذاهبون إلى زيارة قرافة جدنا الأول!

فقال كمال ضاحكاً:

- لنقرأ الفاتحة بالهيروغليفية. ...

فقال حسين ساخراً:

- وطن أجل مخلفاته قبور وجثث! ... (وهو يشير

صوب الهرم) انظر إلى الجهد الضائع. ...

قال كمال بحماس:

- ذلك الخلود! ...

- أوه. ... سوف تنشط كعادتك للدفاع، أنت وطني

لحد المرض، لن نختلف في هذا، ربما كان أحب إلي أن أكون في فرنسا من أن أكون في مصر. ...

فقال كمال وهو يوارى أله تحت ابتسامة رقيقة:

- ستجد هنالك الفرنسيين أعظم أمم الأرض وطنية! ...

- نعم، الوطنية مرض عالمي، لكنني أحب فرنسا نفسها، وأحب في الفرنسيين مزايا لا تمت إلى الوطنية بسبب. ...

هذا محزن مؤسف حقاً بيد أنه لا يثير حفيظته، لأنه صادر عن حسين شدداد. ... إسماعيل لطيف يحنقه أحياناً باستهائته. ... حسن سليم يغضبه أحياناً بتكبره. ... أما حسين شدداد فيحظى برضاه على أي

حال من الأمر.

وقفت السيارة غير بعيد من سفح الهرم الأكبر منضمة إلى صف طويل من السيارات الفارغة، ولاح خلق كثيرون هنا وهناك، تفرقوا جماعات صغيرة، ومنهم من امتطى حملاً أو جملًا أو تسلق الهرم، غير باعة ومكاريين وجمالين، أرض واسعة لا تحدد إلا أن الهرم انطلق في وسطها كمارد خرافي، أما تحت المنحدر من الناحية الأخرى فقد ترامت المدينة، رؤوس أشجار وخط مياه وأسطح عيارات، ترى أين يقع بين القصرين من هذا كله؟ والبيت القديم؟ أين أمه وهي تسقي الدجاج تحت سقيفة الياسمين؟

- فلترك كل شيء في السيارة لتتجول أحراراً. ...

غادروا السيارة، ومضوا صفًا واحدًا بدأ من السيارة بعيدة فحسين ثم بدور، وأخيراً كمال الذي أمسك بيد صديقه الصغيرة، وطاقوا بالهرم الأكبر متفحصين أركانه ثم أوغلوا في الصحراء. وكانت الرمال تقام أقدامهم فتعرقل انطلاقهم، غير أن الهواء هنا لطيفاً منعشاً، وراوحت الشمس بين الظهور والاختفاء، وانتشرت تجمعات السحب في أفاق السماء ترسم في اللوحة العالية صوراً تلقائية تعبت بها يد الهواء كيفها اتفق. قال حسين وهو يميلاً رثيه بالهواء:

- جميل. ... جميل. ...

ورطنت عائدة بالفرنسية، فأدرك كمال بمعلوماته المحدودة في تلك اللغة أنها تترجم قول أخيها، وكانت الرطانة عادة مألوفة لديها، فخففت من غلوائه في التعصب للغة القومية من ناحية، وفرضت على ذوقه كأماراة من أمارات الحسن النسائي من ناحية أخرى. قال كمال بتأثر، وهو يتأمل ما حوله:

- جميل حقاً، سبحان الله العظيم!

فقال حسين ضاحكاً:

- إنك تجد دائماً وراء الأمور إما الله وإما سعد

زغلول. ...

- أظن أنه لا خلاف بيننا فيما يتعلق بالأول!

- ولكن دأبك على ذكره يضي عليك مسحة دينية خاصة كائنك من رجال الدين، (ثم بلهجة تسليم) فيم

- هذا هو رأي الإنجليز، ألم تقرأ برقيات الأهرام؟  
فليس عجيبي أن يردده الأحرار الدستوريون، إن من  
مفاخر سعد أن يثر العداوة ضد الإنجليز...  
تدخلت عائدة متسائلة، وفي عينيها نظرة عتاب أو  
تحذير مازجتها ابتسامة جذابة:

- رحلة أم سياسة؟  
فأشار كمال إلى حسين، وهو يقول معتذراً:  
- إليك المسئول عن فتح هذا الموضوع...  
فقال حسين ضاحكاً، وهو يتخلل شعره الحريري  
الأسود بأصابعه الرشيقة:  
- رأيت أن أقدم تعزيتي في استقالة الزعيم، هذا  
كل ما هنالك!

ثم متسائلاً بلهجة جدية:  
- ألم تشترك في المظاهرات الخطيرة التي كانت تقوم  
في حيكم على عهد الثورة؟  
- كنت دون السن القانونية!  
فقال حسين بلهجة لم تخل من سخرية لطيفة:  
- على أي حال تعدد واقعة دكان البسيوسة اشتراكاً  
في الثورة!

وضحكوا جميعاً، حتى بدور اشتركت في الضحك  
محاكاة لهم، فصدر عنهم أوركسترا رباعي مكون من  
بوقين وكمبان وصفارة، وبعد هنيهة صمت، قالت  
عائدة كأنها لتدافع عنه:  
- كفاية أنه فقد أخاه!...

فقال كمال مدفوعاً بشعور الفخار الذي دب في  
قلبه، واستزادة من عطفها:  
- أجل، فقدنا خير أسرتنا...  
فعدت تسأله باهتمام:  
- كان في الحقوق... أليس كذلك؟ كم كان يكون

عمره لو عاش حتى الآن؟  
- كان يكون في الخامسة والعشرين... (ثم بلهجة  
أسيفة)... كان نابغة بكل معنى الكلمة...  
فقال حسين، وهو يفرقع بأصبعيه:  
- كان!... هذه هي الوطنية، كيف تتعلق بها بعد  
ذلك؟!

العجب وأنت من حي الدين؟!  
أنكمن وراء هذه الجملة سخرية ما؟ وهل يمكن أن  
تشاركه عائدة في سخريته؟ ترى ما رأيها في الحي  
القديم؟ وبأي عين تنظر العباسية إلى بين القصرين  
والنحاسين؟ هل مسك الحجل؟ مهلاً إن حسين لا  
يكاد يبدي أي اهتمام بالدين، المعبودة فيما يبدو أقل  
اهتماماً منه، ألم تقل يوماً إنها تحضر دروس الدين  
المسيحي في الميردي ديه وإنها تشهد الصلاة وترنم  
بأناشيدها؟ ولكنّها مسلمة! مسلمة رغم أنها لا تعرف  
عن الإسلام شيئاً يذكر! ما رأيك في هذا؟ أحبها،  
أحبها لحدّ العبادة، وأحب دينها رغم وخز الضمير،  
أعترف بهذا مستغفراً ربّي!

أشار حسين بيده إلى ما يحيط بهم من آي الجمال  
والجلال، ثم قال:

- هذا ما يستهويني حقاً، أما أنت فمجنون  
بالوطنية، قارن بين هذه الطبيعة الجميلة وبين  
المظاهرات وسعد وعدلي واللوريات المحملة بالجنود!  
فقال كمال باسماً:

- الطبيعة والسياسة كلتاهما شيء جليل!...  
تساءل حسين فجأة كأنما قد تذكر بشداعي المعاني  
أمراً هاماً:

- كدت أنسى، لقد استقال زعيمك!  
فابتسم كمال ابتسامة حزينة ولم يجب، فقال الآخر  
بقصد إغاضته:

- استقال بعد أن ضيع السودان والدستور، هه؟!  
قال كمال بهدوء لم يكن يُنتظر منه في غير هذه  
الظروف:  
- كان قتل سير لي ستاك ضربة موجّهة إلى وزارة  
سعد...!

- دعني أكرّر على سمعك ما قاله حسن سليم،  
قال: إن هذا الاعتداء مظهر للكراهية التي يضمهرها  
البعض - ومنهم القتلة - للإنجليز، وسعد زغلول هو  
المسئول الأول عن تهيج هذه الكراهية!

كظم كمال الغيظ الذي أثاره «رأي» حسن سليم في  
نفسه، وقال بالهدوء الواجب في حضرة المعبودة:

فقال كمال بأسًا:

- سوف نكون جميعًا في خبر كان، ولكن شتان بين مية ومية!

فرقع حسين بأصبعيه مرة أخرى دون تعليق، يبدو أنه لا يرى في قوله معنى، ماذا أقحم حديث السياسة عليهم؟ لم يعد به ما يسرّ، شغل الشعب بعداوته الحزبية عن الإنجليز، سحقًا لهذا كله، يخلق بمن يتنسم الفردوس ألا يكرب صدره بهوم الأرض، ولو إلى حين، أنت تمشي في مية عائدة في صحراء الهرم، تأمل هذه الحقيقة الرائعة واهتف بها حتى تسمع بناء الهرم، معبود وعابده يسيران معًا فوق الرمال، العابد من شدة الوله يكاد يذروه الهواء والمعبود يتسلّى بعد الحصى، لو كان مرض الحب معديًا، ما باليت بالامه، الهواء يهفو بأهداب فستانها ويتخلّل هالة شعرها ويسري في أعماق صدرها... ألا ما أسعد الهواء! أرواح العاشقين فوق الهرم تبارك القافلة معجبة بالمعبود رائية للعابد مدّدة بلسان الزمان: ليس أقوى من الموت إلا الهوى، تراها على بعد أشبار منك ولكتها في الحق كالافتق تخاله منطبقًا على الأرض وهو في ذروة السماء يخلق... كم متيت النفس بأن تمسّ في هذه الرحلة راحتها، ولكن يبدو أنك سترحل عن هذه الدنيا قبل أن تعرف مسها، لم لا تكون شجاعًا فتهدوي إلى انطباعة قدمها فتلثمها؟... أو تأخذ منها حفنة فتجعلها حجابًا بقي من آلام الحب في ليالي الفكر؟ وأسفاه! كلّ الدلائل تشير إلى أنه لا اتصال بالمعبود إلا بالتراتيل أو الجنون، فرتل أو جُنْ...

شعر باليد الصغيرة تجذب يده، فنظر إليها، فرفعت نحوه ذراعها داعية إياه إلى حملها، فأنحنى فوقها ثم رفعها بين يديه غير أنّ عائدة قالت معترضة:

- كلاً، بدأ التعب يساورنا، فلنسترح قليلاً...

على صخرة عند رأس المنحدر المفضي إلى أبي الهول جلسوا على نفس الترتيب الذي ساروا عليه، مدّ حسين ساقيه غارًا كعبيه في الرمال، جلس كمال واضعًا رجلًا على رجل ضامًا بدور إلى جنبه، على حين عدت عائدة إلى يسار أخوها فتناولت مشطها وراحت

تسرح شعرها وترتّب خصلاته بأناملها.

وحانت من حسين نظرة إلى طربوش كمال، فسأله منتقدًا:

- لماذا تلبس الطربوش في هذه الرحلة؟

فتزع كمال طربوشه ووضعه في حجره قائلاً:

- ليس من المألوف عندي أن أسير بدون... فضحك حسين قائلاً:

- إنك مثال طيب للرجل المحافظ!

تساءل كمال: ترى هل يعني بقوله مدحًا أم ذمًا؟ وأراد أن يستدرجه للإيضاح، ولكنّ عائدة مالت إلى الأمام قليلًا ملتفتة نحوه لتلقي نظرة على رأسه فنسي ما كان بسييله، وتحول انتباهه إلى منطقة الرأس في قلق، إنّ رأسه يبدو الآن حاسرًا فيكشف عن ضخامته ويعرض شعره الأجرد العاطل عن الزينة، وما هما العينان الجميلتان ترنوان إليه، فأني أثر يعكسه عليهما؟ تساءل الصوت الموسيقي:

- لماذا لا ترني شعر رأسك؟

سؤال لم يخطر له على بال من قبل، هكذا رأس فؤاد جميل الحمزاوي وجميع الرفاق بالحى العتيق، ياسين لم يُر يطلق شعره وشاربه حتى توظف، هل يتصور أن يلقي أباه كل صباح على مائدة الفطور بشعر مصبّف؟

- ولم أربيّه؟

فتساءل حسين مفكرًا:

- ألا يكون أجمل؟

- ليس هذا بذى بال...

حسين ضاحكًا:

- يخيّل إليّ أنك خلقت لتكون معلمًا.

مدح أم ذم، على أي حال ليهنا رأسك بالرعاية السامية.

- أنا خلقت لأكون طالبًا...

- جواب جميل... (ثم رفع طبقة صوته متسائلًا)... لم تحدّثني عن مدرسة المعلمين حديثًا شافيًا، كيف وجدتها بعد مرور ما يقرب من الشهرين؟ - أرجو أن تكون مدخلًا لا بأس به للدنيا التي

- أتطلع إليها، وتراني أحاول الآن أن أعرف عن سبيل الأساتذة الإنجليز معاني للكلمات المحيرة مثل «أدب» و«فلسفة» و«فكر»...
- هذه هي الثقافة الإنسانية التي نتطلع إليها...
- فقال كيال بحيرة:
- ولكنها خضيم مضطرب فيما يبدو، ينبغي أن نعرف الحدود، ينبغي أن نعرف ما نريد على نحو أوضح، إنها مشكلة...
- لاح الاهتمام في عيني حسين الجميلتين وهو يقول:
- الأمر بالنسبة إلي لا يعدّ مشكلة، إنّي أقرأ قصصاً ومسرحيات فرنسية مستعياً بعائدة على فهم الصعب من نصوصها، وأستمع معها أيضاً إلى مختارات من الموسيقى الغربية تعزف هي بعضها بمهارة على البيانو، وقد طالعت أخيراً كتاباً يلخص الفلسفة الإغريقية في يسر وسهولة، لست أبغي إلّا السباحة للعقل والجسم، أما أنت فتريد أيضاً أن تكتب، وهذا يقتضي أن تعرف الحدود والأهداف...
- الأدهى من ذلك أنني لا أدري فيم أكتب على وجه التحديد!
- تساءلت عائدة بلهجة باسمه:
- أتريد أن تكون مؤلفاً؟
- فقال وهو يتلقى موجة عالية من السعادة التي عزّت على البشر:
- ربّما!...
- شاعراً أم ناثراً... (وهي تميل إلى الأمام لتمكن من رؤيته)... دعني أحنّ بفراستي...
- استنفدت الشعر في مناجاة طيفك، الشعر لغتك المقدسة فلا أمتنه، غاضت دموعي ينايحه في سواد الليالي، ما أسعدني في مرمى ناظريك وما أتعسني، إنّي أحياناً تحت نظرتك كما تحيا اليابسة بمقلة الشمس...
- شاعر، أجل أنت شاعر...
- حقاً؟ كيف عرفت هذا؟
- اعتدلت في جلستها، فنّدت عنها ضحكة خافتة كأنها وسوسة الأمانى، ثمّ قالت:
- الفراسة بداهة، فكيف تطالب بتفسير لها؟
- إنّها تعبت!
- قال حسين ذلك وهو يضحك، فبادرت تقول:
- كلّاً، إذا كان الشاعر لا يعجبك فلا تُكُنّه...
- النحلة فطرتها الطبيعة ملكة، البستان مغناها، رحيق الزهر شرابها، الشهد نفثها، وجزاء الأدمي الطائف بعرشها... لسعة... لكنّها قالت «كلّاً».
- عادت تسأله:
- هل قرأت من القصص الفرنسية شيئاً؟
- بعض ما تُرجم عن ميشيل زيفاكو، لا أستطيع أن أقرأ الفرنسية كما تعلمين...
- فقالت بحماس:
- لن تكون مؤلفاً حتّى تتقن الفرنسية، اقرأ بلزك وجورج صاند، ومدام دي ستال ولوتي، واكتب بعد ذلك قصّة...
- فقال كيال باستنكار:
- قصّة؟! إنّها فنّ على الهامش، إنّما أُنطّل على عمل جدّي...
- فقال حسين جاداً:
- القصّة في أوروبا عمل جدّي، ثمّة كتاب ينفرغون لها دون غيرها من فنون الكتابة فترفعهم إلى درجة الخالدين، لست أهرف بما لا أعرف، ولكن أستاذ اللغة الفرنسية أكّد لي ذلك...
- هزّ كيال رأسه الكبير في شكّ، فاستطرد حسين قائلاً:
- حاذر أن تُغضب عائدة، إنّها قارئة معجبة بالقصّة الفرنسية، بل إنّها بطلة من بطلاتها!
- فقال كيال إلى الأمام قليلاً، ومدّ إليها بصره ليقرأ أثر قول حسين فيها مقتباً الفرصة المتاحة ليملا عينيه من منظرها البهيج، ثمّ تساءل:
- كيف كان ذلك؟
- إنّ القصّة تستغرقها استغراقاً غريباً، فرأسها مفعم بحياة خيالية، مرّة رأيتهما تحتال أمام المرأة، فسألتهما عمّا بهما؟ فأجابتي «هكذا كانت تسير أفروديت على ساحل البحر بالإسكندرية!».
- قالت عائدة وهي تقطب تقطية باسمه:

- لا تصدّقه، إنّه أغرق مَنّي في الخيال، ولكنّه لا يرتاح حتّى يرميني بما ليس فيّ...  
أفروديت؟... ما أفروديت يا معبودتي؟! يحزنني

وحقّ كمالك أن تتخيّل نفسك في صورة غير ذاتك!  
قال بإخلاص:

- لا عليك من هذا، إنّ أبطال المنفلوطي وريدر هجارد يستأثرون بخيالي...!

فضحك حسين ضحكة رائعة، وهو يهتف:

- ما أحرى أن يجمعنا كتاب واحد! لماذا نبقى على

الأرض ما دمنا نفهّم هكذا إلى الخيال؟ عليك أنت أن

تحقّق هذا الحلم، لست كاتباً ولا أريد أن أكون كاتباً،

ولكن في وسعك أنت أن تجمعنا إذا شئت في كتاب

واحد.

عايدة في كتاب تكون أنت مؤلّفه! صلاة أم تصوّف

أم جنون؟!  
- وأنا؟!!

علا صوت بدور فجأة متسائلاً في احتجاج فضجّ

ثلاثتهم بالضحك، وقال حسين في لهجة تنبيه:

- لا تنس أن تحجز مكاناً لبدورا!

فقال كمال وهو يضمّ الصغيرة بساعده في حنان:

- ستكونين في الصفحة الأولى...

تساءلت عايدة وهي ترمي بناظرها إلى الأفق:

- ماذا نكتب عنّا؟

لم يدّر ماذا يقول، فدارى ارتباكّه بضحكة وانية،

ولكنّ حسين أجاب عنه قائلاً:

- كما يكتب المؤلفون، قصّة غراميّة عنيفة تنتهي

بالموت أو الانتحار!

يقذفون كرة قلبك بالأقدام وهم يلعبون.

- أرجو أن تكون هذه النهاية من نصيب البطل

وحده؟

قالت عايدة ذلك ضاحكة.

البطل أعجز من أن يتصوّر معبوده فانيّاً، وتساءل:

- هل حُتم أن تنتهي بالموت أو الانتحار؟

فأجاب حسين ضاحكاً:

- هي النهاية الطبيعيّة لقصّة غرام عنيف!

فراّوا من الألم أو ضناً بالسعادة تراءى الموت أمينة.  
قال كالساخر:

- شيء مؤسف حقّاً...

- ألم تكن تعرف هذا؟ يبدو أنّك لم تجرّب الغرام

بعد...!

من لحظات الحياة الحيّة لحظة يقوم البكاء فيها مقام

البنج في العمليّة الجراحية، وعاد حسين يقول:

- المهمّ عندي ألا تنسى أن تحجز لي مكاناً أيضاً في

كتابك ولو كنت بعيداً عن الوطن...

حدّجه كمال بنظرة طويلة، ثمّ سأله:

- ألا تزال تراودك فكرة السفر؟

فانساب الجّد في لهجة حسين شدّاد، وهو يقول:

- كلّ ساعة، أريد أن أحيّا، أريد أن أسيح على

وجهي طويلاً وعرضاً وارتفاعاً وعمقاً، ثمّ ليأت الموت

بعد ذلك...

وإن جاء قبل ذلك؟ هل يمكن أن يحدث هذا؟ ما

للحزن يكاد أن يقتلك؟ أنسيّت فهمي؟ الحياة لا

تقاس بالطول والعرض دائماً، كانت حياتك لمحة

ولكنّها كانت كاملة، أو فما جدوى الفضيلة والخلود؟

لكنك حزين لسبب آخر، كأنما عزّ عليك أن يهون

فراقك على الصديق المتشوّق إلى السفر، كيف تكون

دنياك من بعده؟ كيف تكون إذا حال رحيله بينك

وبين القصر الحبيب؟ ما أكذب ابتسامة اليوم، إنّها

الآن قريبة، صوتها في أذنك وعبيرها في أنفك فهل

تستطيع أن توقف عجلة الزمن؟ هل تعيش بقيّة العمر

حائثاً من بعيد حول القصر كالمجانين...

- إن أردت رأيي فأجلّ سفرك حتّى تتمّ

دراسك...

فقالت عايدة بحماس:

- هذا ما قاله له بابا مراراً...

- هو الرأي الصواب...

فتساءل حسين متهمكاً:

- أمن الضروريّ أن أحفظ المدنيّ والرومانيّ كي

أثدّق جمال دنياي؟

عادت عايدة تخاطب كمال قائلة:



- شدّ ما يسخر أبي من أحلامه، إنّه يتمنى أن يراه قضائياً أو عاملاً معه في دنيا المال... .

- القضاء... المال! لن أكون قضائياً، حتّى إذا نلت الليسانس وفكرت جدّاً في اختيار وظيفة فسيكون السلك السياسيّ وجهتي، أمّا المال فهل تطمعون في مزيد منه؟ إننا أغنى ممّا يطيق الإنسان... .

ما أعجب أن تكون ثروة الإنسان أعظم ممّا يطيق، قديماً تحيّلت أن تكون تاجراً كأبيك وأن تملك خزانة كخزائنه، لم تعد الثروة من أحلامك، ولكن ألا تتمنى أن تكون قادراً على تجريد نفسك للمغامرات الروحيّة؟ ما أتعس حياة تستغرقها مطالب الرزق.

- إنّ أسرتي جيئاً لا تفهم آمالي، يروني طفلاً مدللاً، قال خالي مرّة متهمكاً على مسمع منّي «لا ينتظر أن يكون الذكر الوحيد في الأسرة خيراً من هذا»، لم هذا كله؟، لأني لا أعبد المال ولأنني أوثر الحياة عليه، أرايت؟ إنّ أسرتنا تؤمن بأنّ أيّ نشاط لا يؤدّي إلى أيّ زيادة في الثروة ضرب من العبث الباطل، وتراهم يجلّمون بالألقاب كأنّها الفردوس المفقود، أتدري لم يحبّون الخديو؟ طالما قالت لي ماما: «لو بقي أفندينا على العرش لنال أبوك الباشويّة من زمن بعيد»، والمال العزيز يهون ويُنقّ بلا حساب في استقبال أمير إذا شرفنا بزيارته... (ثمّ وهو يضحك)... لا تنس أن تسجّل هذه الغرائب إذا فرغت يوماً لتأليف الكتاب الذي اقترحتّه عليك.

لم يكّد يفرغ من حديثه حتّى بادرت عايده تخاطب كمال قائلة:

- أرجو ألاّ تتأثّر في تأليفك بتحمّل هذا الأخ العاق حتّى لا تظلم أسرتنا!

فقال كمال بلهجة ساجدة:

- معاذ الله أن ينال أسرتك ظلم على يديّ! وفضلاً عن ذلك فليس فيها قال ما يشين... .

فضحكت عايده في ظفر، على حين ارتسمت على شفطيّ حسين ابتسامة ارتياح رغم ارتفاع حاجبيه كالداهش. وكان الأثر الذي تركه حديث حسين في نفسه أنّه لم يكن صادقاً كلّ الصدق في حملته على

أسرته، أجل لم يشكّ في قوله أنّه لا يعبد المال وأنّه يؤثر الحياة عليه، وأبى - إلى ذلك - أن يُرجع هذا الخلق إلى وفرة المال وحدها ولكن إلى اتّساع أفق صاحبه أوّلاً ما دام الثراء لا يحول دون عبادة المال عند الكثيرين ولكنّه خيّل إليه أنّ ما ورد في حديثه عن الخديو والألقاب واستقبال الأمراء إنّما ورد على سبيل الفخر المدغم في الانتقاد، لا الفخر وحده ولا الانتقاد وحده، كأنّما كان يفاخر بها بقلبه وينتقدها بعقله، أو لعلّه كان يسخر منها حقّاً، ولكنّه لم يجد غضاضة في التشهير بها أمام شخص لا يشكّ في أنّها تبهره وتفتنه مهما يكن من مجاراته له في انتقاده. عاد حسين يتساءل في هدوء باسم:

- أيّنا سيكون بطل الكتاب، أنا أم عايده أم بدور؟ هتفت بدور «أنا!»، فقال لها كمال وهو يشدّ عليها «أتفقنا»... ثمّ أجاب حسين:

- سيقى هذا سرّاً حتّى يولد الكتاب!

- وأيّ عنوان ستختار له؟

- حسين حول العالم!

فضجّ ثلاثتهم بالضحك بما ذكرهم هذا العنوان المفتوح باسم تمثيليّة «البربريّ حول العالم» التي كانت تمثّل في الماجستيك، وسأله حسين بالمناسبة قائلاً:

- ألم تعرف الطريق إلى المسرح بعد؟

- كلا، في السبينا الكفاية الآن... .

قال حسين مخاطباً عايده:

- إنّ مؤلّف كتابنا غير مسموح له بالسهر خارج البيت إلى ما بعد التاسعة مساءً!

فقالت له عايده متهمّة:

- على أيّ حال فهو خير من الذين يُسمح لهم بالطواف حول العالم!

ثمّ التفتت صوب كمال، وسألته برقة خليقة بجذبه إلى رأيها سلفاً:

- أمن العيب حقّاً أن يتمنّى أب أن ينشأ ابنه على مثاله في النشاط والجاه؟! أمن العيب أن يسعى في الحياة إلى المال والجاه والألقاب والقيم العالية؟

أبقي حيث أنت يسعى إليك المال والجاه والألقاب

والقيم العالية كي تسمو جميعًا بلشم موطئ قدميك، كيف أجيب وفي الجواب الذي تودين انتحاري؟ يا وريح قلبك من مرام لا يُرام!

- لا عيب في هذا أبدًا... (ثم بعد انقطاع قصير) على شرط أن يوافق مزاج الشخص!

فاستطردت قائلة:

- وأيّ مزاج لا يوافق هذا؟! والعجيب أن حسين لا يزهد في هذه الحياة الرفيعة طموحًا إلى ما هو أرفع منها، كلًا يا سيدي، إنه يعلم بأن يحيا بلا عمل، في فراغ وبطالة! أليس هذا بعجيب؟!...

تساءل حسين ضاحكًا في سخرية:

- ألا يعيش هكذا الأمراء الذين تعبدونهم؟

- لأنه ليس فوق حياتهم حياة يتطلع إليها، أين أنت من أولئك يا تنبل؟

التفت حسين ناحية كمال قائلاً بصوت لم يخل من أثر للغضب:

- القاعدة المتبعة في أسرتنا هي العمل على زيادة الثروة ومصادقة ذوي النفوذ فتأمل من وراء ذلك في رتبة البكوة، وعليك بعد ذلك مضاعفة الجهد لإثراء الثروة ومصادقة النخبة الممتازة حتى تنال الباشوية، وأخيرًا أن تجعل غايتك العليا في الحياة التودد إلى الأمراء والقناعة بذلك ما دامت الإمارة لا تُنال بالعمل أو اللباقة، أتدري كم كلفتنا زيارة الأمير الأخيرة؟... عشرات الألوف من الجنيهات ضاعت في ابتغاء أثاث جديد وتحف نادرة من باريس!

فعارضته عائدة قائلة:

- لم يُنفق ذلك المال توددًا لأمر من حيث هو أمير فحسب، ولكن لكونه شقيق الخديو، فالدافع إلى المجاملة كان الوفاء والصداقة لا التودد والزلفى، وهو بعد شرف لا يماري فيه عاقل.

ولكن حسين تمادى في عناده قائلاً:

- ولكن بابا لا يفتأ يوطد علاقته بعبدلي وثروت ورشدي وغيرهم ممن لا يمكن أن يُتهموا بالإخلاص للخديو!... أليس في ذلك تسليم بالحكمة القائلة بأن الغاية تبرّر الوسيلة؟...

- حسين!...

هتفت به بصوت لم يسمعه من قبل، بصوت نَم عن الكبرياء والاستياء والتأنيب، كأنما أرادت أن تنبيهه إلى أن هذا الكلام لا يجوز أن يقال أو في الأقل أن يجهر به على مسمع من «غريب» فاحمرّ وجهه خجلًا وألَمًا وفترت السعادة التي حلّت في أجوائها ساعة بالاندماج في هذه الأسرة الحبيبة. وكانت هامتها مرفوعة وشفتاها مضمومتين وفي عينيها نظرة موحية بالتقطيع وإن لم يلمح له أثر في جبينها، كانت بالجملة غصبي ولكن كما يخلت بالملكة العريقة أن تغضب، ولم يكن رأيها من قبل متفعلة، ولم يكن يتصور أنها تنفعل، فرنا إلى وجهها في دهش وارتياح، وامتلأ إحساسًا بالخرج حقّ ودّ لو ينتحل عذرًا يتنصّب به عن متابعة الحديث، ولكن لم يحضر على ذلك ثوان حتى أفاق من غشيته وراح يتملّ جمال الغضب الملكي في الوجه الملائكي، ويتذوّق لفحة الكبرياء واستعلاء الإباء وتجهّم الساء، ثم عادت كأنما لسمعته هو:

- إن صداقة بابا لمن ذكرت تعود إلى تاريخ قديم سابق على خلع الخديو...

عند ذلك رغب كمال صادقًا في أن يبّد هذه السحابة، فسأل حسين مداعبًا:

- إذا كان هذا رأيك فكيف تحقر سعد لأنه كان أزهريًا؟

فضحك حسين ضحكته الصافية وهو يقول:

- إنّي أكره التودد إلى الكبراء، ولكن لا يعني هذا أن أحترم العامة... إنّي أحبّ الجمال وأزدري القبح، ومن المؤسف أن الجمال قلّ أن يوجد في العامة!...

ولكن عائدة تدخلت في الحديث قائلة بصوت معتدل:

- ماذا تعني بالتودد إلى الكبراء؟ إنّه سلوك يُعاب على من ليس منهم، ولكن أظننا من الكبراء أيضًا، وليس توددنا إليهم دون توددهم إلينا...

فتطوّع كمال للإجابة عن حسين قائلاً بإيمان:

- هذا حقّ لا مرأى فيه...

وما لبث أن نهض حسين وهو يقول:

- حسبنا جلوسًا، هلموا نواصل السير... نهضوا فاستأنفوا السير متجهين نحو أبي الهول في جو ظليل انتشرت تجمعات السحب في آفاقه حتى تعانقت وحجبت الشمس بستار شفاف فاكتسى منها لونًا أبيض ناصعًا يقطر صفاء وملاحة، والتقوا في طريقهم بجاعات من الطلبة والأوربيين نساء ورجالًا، فقال حسين غاطبًا عابدة، ولعله أراد أن يسترضيها بطريق غير مباشر: - إنَّ الأوربيين يتفرَّسن في فستانك باهتمام،

مبسوطة؟

فافتّر ثغرها عن ابتسامة عجب وارتياح، وقالت بلهجة تنم عن ثقة مكينة بالنفس وهي ترفع رأسها في كبرياء لطيف:

- طبعي...!

فضحك حسين وابتسم كمال، ثم قال الأوّل يخاطب الآخر:

- عابدة تُعدّ مرجعًا للذوق الباريسيّ في حيننا جميعه...

فقال كمال وهو لا يزال يبتسم:

- طبعي...

فكافأته عابدة بضحكة رقيقة خافتة كسجع الحمام، مسحت عن قلبه الأثر الخفيف الذي تركه النزاع الأرستقراطيّ البديع!... العاقل من يعرف لقدمه قبل الخطو موضعها. فاعرف أين أنت من هؤلاء الملائكة، المعبود الذي يشرف عليك من فوق السحاب يتعالى حتى على أهله المقرّبين، فما وجه العجب في هذا؟! ما كان ينبغي أن يكون له أهل أو أسرة، فلعله اتخذهم ليكونوا وسطاء بين ذاته وبين عابديه، أعجب به في هدوئه وحدته وتواضعه وتكبّره وإقباله وإدباره ورضاه وغضبه، كلّ أولئك صفاته فارو بالعشق قلبك الظامئ. انظر إليها، إنَّ الرمال تعوق مشيتها فتوانت خطتها واتسعت خطواتها وتمايل أعلاها كالغصن الثمل بالنسيم الواني ولكّتها وهبت الأبصار صورة جديدة من محاسن المشي تضارع في جمالها مشيتها المعروفة فوق فسيفساء الحديقة، وإذا التفّت إلى الوراء فرأيت آثار

القدمين اللطيفتين مطبوعة فوق الرمال، فاعلم أنّها تقيم معالم للطريق المجهول يتهدي بها السالكون إلى سبحات الوجد وإشراقات السعادة، في زيارتك السالفة هذه الصحراء كان نهارك ينقضي في اللعب والوثب سادرًا عن نفحات المعاني لأنّ برعمة قلبك لم تكن تفتّحت... أمّا اليوم فأوراقها نديّة برضاب الهوى تقطر بهجة وتنزّ السّما فإن تكن سلبت طمأنينة الجهالة فقد وهبت القلق السامي... حياة القلب وأنشودة النور...

- جئت...

نذت الشكوى عن ثغر بدور، فقال حسين: - آنّ لنا أن نعود، ما رأيكم؟ على أيّ حال أماننا مسافة طويلة سيجوع في نهايتها من لم يجع...

ولمّا بلغوا السيّارة أخرج حسين الحقيرة والسّلة المملوءتين بالطعام، فوضعهما على مقدّمة السيّارة وراح يزيح الغطاء عن سلّته، غير أنّ عابدة اقترحت أن يتناولوا الطعام على درجة من درجات الهرم، فمضوا إليه وارتقوا درجة من درجات الأساس فحفظوا الحقيرة والسّلة في وسطها، وجلسوا على حافتها تاركين أرجلهم تتدلى. بسط كمال جريدة كانت في حقيبته وطرح عليها الطعام الذي جاء به، دجاجتين وبطاطس وجبنًا وموزًا وبرتقالًا، ثمّ تابع يذّي حسين وهو يستخرج من السّلة طعام «الملائكة»، فإذا به: سندوتشات أنيقة، وأكواب أربع، وتروموت... ومع أنّ طعامه كان أدسم فإنّه بدا - في ناظره على الأقلّ - عاطلاً عن حلية الأناقة فساوره قلق وحياء، وتساءل حسين وهو يرمق الدجاجتين بنظرة ترحاب عمّا إذا كان صاحبه قد أحضر أدوات مائدة، فأخرج كمال من الحقيرة سكاكين وشوكتا وشرع يقطع الدجاجتين شرائح، وهنا نزعت عابدة سدّادة التروموت وراحت تملأ الأكواب الأربع، فإذا بها تمتلئ بسائل أصفر كالذهب، فلم يملك كمال أن يسأل داهشًا:

- ما هذا؟

فضحكت عابدة ولم تجب، أمّا حسين فقال ببساطة وهو يغمز أخته بعينه:

- بيرة...!

- بيرة؟!

هتف كمال كالحائف، فقال حسين بتحدٍّ وهو يشير إلى السندوتشات:

- ولحم خنزير!...

- أنت تعبت بي! لا أصدِّق هذا...

- بل صدِّق وكُل، يا لك من جحود! جئناك بأنفس ما يؤكل والذَّ ما يُشرب!

أفصحت عينا كمال عن دهش وانزعاج، وانعقد لسانه فلم يدر ماذا يقول، وكان أشدَّ ما يزعجه أنَّ هذا الطعام والشراب جُهِز في البيت، وبالتالي عن علم أهله ورضاهم!

- ألم تذق شيئاً من هذا من قبل؟

- سؤال في غير حاجة إلى جواب.

- إذن ستذوقه لأول مرة، والفضل لنا!

- هذا محال...

- له؟

- له؟! سؤال في غير حاجة إلى جواب أيضاً...

رفع حسين وعابدة ويدور أكوابهم وشربوا جرعات ثم أعادوها، ونظر الأولان إلى كمال مبتسمين كأنما يقولان له «أرايت أنه لم يحدث لنا شيء!»، ثم قال حسين:

- الدين!.. هه؟ كوب البيرة لا يُسكر، ولحم الخنزير كلُّه لذَّة وفوائد، لست أدري ما حكمة الدين في شئون الطعام!

تقلَّص قلب كمال لوقع هذا الكلام، بيد أنه لم يخرج عن رفته وهو يقول معاتباً:

- حسين. لا تجذِّف...

ولأول مرة منذ افتُتحت المأدبة تكلمت عابدة فقالت:

- لا تسيِّ بنا الظنَّ، نحن نشرب البيرة لفتح النفس ليس إلَّا، ولعلَّ مشاركة بدور لنا تقنعك بحسن نيَّتنا، أمَّا لحم الخنزير فللذِّب جدًّا، جرِّبه ولا تكن حنبليًّا، لا تزال أمامك فرصة كبيرة كي تطيع الدين فيها هو أهمُّ من هذا كله...

ومع أنَّ كلامها لم يختلف في جوهره عن كلام حسين، فإنَّه نزل على قلبه المتألم برَّدًا وسلامًا، وإلى هذا فقد صادف منه نفسًا حريصة كلَّ الحرص على ألا تكذِّر لهم صفوًّا أو تخدش لهم شعورًا، فابتسم في تسامح رقيق، ومضى يتناول طعامه وهو يقول:

- دعوني أكل الطعام الذي آلفه، وأكرموني بالمشاركة فيه.

ضحك حسين، ثم قال مخاطبًا كمال وهو يشير إلى أخته:

- اتَّفَقنا في البيت على أن نقاطع طعامك إذا قاطعت طعامنا، ولكن يخيِّل إليَّ أنَّنا لم نحسن تقدير ظروفك، على هذا فإنَّني سأتحلَّل من ذلك الاتِّفاق إكرامًا لك، ولعلَّ عابدة أن تقتدي بي...

فنظر كمال نحوها برجاء، فقالت باسمه:

- إذا وعدتني بآلا تسيء الظنَّ بنا...!

فقال كمال بابتهاج:

- لا عاش من أساء بكم الظنَّ...

أكلوا بشهوة عظيمة، حسين وعابدة أولًا ثم تشبَّع كمال بهما فتابعهما، وكان يقدِّم الطعام بنفسه إلى بدور التي اكتفت بسندوتش وقطعة من صدر الدجاجة ثم أقبلت على الفاكهة، ولم يستطع كمال أن يقاوم الرغبة في استراق النظر إلى حسين وعابدة وهما يأكلان ليرى كيف يتناولان طعامهما، أمَّا حسين فكان يلتهم الطعام دون مبالاة كأنَّه منفرد، غير أنَّه لم يفقد طابعه الممتاز الذي يمثِّل في عيني كمال الأرسقراطية المحبوبة المنطلقة على سجيَّتها، وأمَّا عابدة فقد كشفت عن أسلوب جديد من الرشاقة والأناقة والتهذيب في طبيعتها الملائكيَّة سواء في قطع اللحم أو القبض بأطراف الأنامل على السندوتش أو حركات الشعر عند المضغ، ومضى هذا كلُّه يسيرًا هيَّأ لا أثر للتكلُّف أو القلق فيه، الحقَّ أنَّه انتظر هذه الساعة بشوِّف وإنكار كأنما كان في شكٍّ من أنَّها تأكل الطعام كسائر البشر... ومع أنَّ معرفته لنوع الطعام أزعجت ضميره الدينيَّ أيَّما إزعاج فإنَّه وجد في «غرابته» وخروجه عن مألوف ما يتناوله الناس الذين عهدهم مشابهة تربطه بآكله،

يكن عند بابا وماما معلومات تستحق الذكر، وكانت مربيتنا يونانية، وعائدة تعرف عن المسيحية وطقوسها أكثر مما تعرف عن الإسلام، نحن بالقياس إليك في حكم الوثنيين... (ثم مخاطباً عائدة)... إنه يقرأ القرآن والسيرة...!

فقلت بلهجة رثما دلت على شيء من الإعجاب:  
- حقاً؟! برفو، ولكن أرجو ألا تسيء بي الظن أكثر مما ينبغي، فإني أحفظ أكثر من سورة...  
فغمغم كمال كالحالم:

- بديع، بديع جداً، مثل ماذا؟  
فكفّت عن الأكل حتى تتذكر، ثم قالت باسمه:  
- أعني أي كنت أحفظ بعض السور، لا أدري ماذا تبقى منها... (ثم رفعت صوتها فجأة شأن من تذكر شيئاً أعياه طلابه) مثل السورة التي يقول فيها إن ربنا واحد الخ...!

ابتسم كمال، وقدم لها شريحة من صدر الدجاجة فتناولتها شاكراً، ولكنها اعترفت بأنها أكلت أكثر مما تأكل عادة، ثم قالت:  
- لو كان الناس يتناولون الطعام عادة كما في الرحلات لاختفت الرشاقة من الوجود...  
فقال كمال بعد تردد:  
- إن نساءنا لا تستهيننّ بالنعافة...  
فوافقه حسين على رأيه قائلاً:  
- ماما نفسها من هذا الرأي، ولكن عائدة تعدّ نفسها باريسية...!

عفا الله عن استهانة معبودتي، شدّ ما أزعجت نفسك المؤمنة، كما أزعجتها من قبل خطرات الشكّ التي صادفتها في مطالعك، هل تستطيع أن تلقى استهانة المعبود بما لقيت به من خطرات الشكّ من نقد وغضب؟ هيهات، نفسك لا تنطوي لها إلا على الحبّ الخالص، حتى عيوبها فأتت تحبها، عيوبها؟ لا عيب لها ولو كان ما بها خفة في الدين واجترأ على المحرمات، تلك عيوب لو وُجدت في غيرها، أخشى ما أخشاه ألا تروق في عيني حسناء بعد اليوم إذا لم يكن بها خفة في الدين واجترأ على المحرمات، هل مسك القلق؟

فارتاح لها خياله الحائر المتسائل، وتناوبه شعوران متناقضان، قلق بادئ الأمر وهو يراها تقوم بهذه الوظيفة التي يشترك فيها الإنسان والحيوان، ثم داخله شيء من الارتياح لما قربت هذه الوظيفة بينه وبينها ولو درجة واحدة! على أن نفسه لم تعفه من علامات الاستفهام عند هذا الحدّ، فوجدها تدفعه إلى التساؤل عما إذا كانت تؤدي سائر الوظائف الطبيعية الأخرى؟ لم يسعه أن يقول لا، ولم يهن عليه أن يقول نعم، فأضرب عن الإجابة وهو يعاني إحساساً لم يعرفه من قبل تضمّن - فيما تضمّن - احتجاجاً صامتاً على نوايس الطبيعة!

- إني معجب بشعورك الديني ومثاليّتك الأخلاقية...  
نظر كمال إليه في حذر المرتاب، فقال حسين بتوكيد:

- عن صدق تكلمت لا عن دعاية...  
ابتسم كمال في حياء، ثم أشار إلى ما تبقى من السندوتشات والبيرة قائلاً:  
- بالرغم من هذا، فإنّ احتفالكم بشهر رمضان يفوق كلّ وصف، أنوار تضاء، قرآن يتلى في بهو الاستقبال، المؤذّنون يؤذّنون في السلاسل، هه؟  
- إنّ أبي يحيي ليالي رمضان حباً وكرامة واستمسكاً بالتقاليد التي أتبعها جدّي، وإلى هذا فهو وماما يواظبان على الصوم...  
قالت عائدة باسمه:

- وأنا...  
فقال حسين بجذّ أريد به السخرية:  
- عائدة تصوم يوماً واحداً من الشهر، وربما أفلست قبيل العصر!

فقلت عائدة على سبيل الانتقام:  
- وحسين يأكل في رمضان أربع وجبات يوميّاً، الوجبات الثلاث المعتادة ووجبة السحور!  
فقال حسين ضاحكاً، وقد كاد الطعام يسقط من فيه لولا أن رفع رأسه بحركة سريعة:

- أليس غريباً ألا نعرف عن ديننا شيئاً ذا بال؟! لم

الباردة - وأنَّ الفرص بالتالي ستسنىح لرؤية عابدة التي لا يتاح لقاءها إلَّا في الحديقة، على أنَّ الشتاء إذا كان يحرمه من لقاءها في الحديقة، فإنَّه لم يحلِّ دون رؤيتها في النافذة المشرفة على الممرِّ الجانبيِّ للحديقة أو في الشرفة المطلَّة على مدخل القصر، في هذه أو تلك، عند مقدمه أو حال منصرفه، ربَّما لمحها وهي معتمدة الحافة بمرفقيها أو مفترشة راحتها بذقنها، فيرفع نحوها عينيه حائثًا رأسه في ولاء العابد، فتردُّ تحيته بابتسامة رقيقة ذات وميض يضيء له أحلام اليقظة وأحلام المنام. على أمل رؤيتها اختلس من الشرفة نظرة وهو يدخل القصر، ثمَّ من النافذة وهو يقطع الممرَّ الجانبيِّ ولكنَّه لم يجدها لا في هذه ولا في تلك، فأنجبه - وهو يمتني النفس باللقاء في الحديقة - نحو الكشك حيث رأى حسين جالسًا بمفرده على غير العادة. تصافحا وقلبه يشرق بهجة المودة التي تبعثها في نفسه مطالعة هذا الوجه الصبيح، أليف روحه وعقله، واستمع إليه وهو يرحب به في لهجته المرحية الصافية قائلاً:

- أهلاً بالمعلم! الطربوش والمعطف! لا تنس في المرَّة القادمة الكوفيَّة والعصا، أهلاً... أهلاً...

خلع كمال طربوشه ووضعه على المنضدة، وطرح المعطف على كرميِّ وهو يتساءل:

- أين إسماعيل وحسن؟

- إسماعيل سافر إلى البلد مع والده فلن تراه اليوم، أمَّا حسن فقد تلقن لي صباحًا بأنَّه سيتأخَّر ساعة أو أكثر لكتابة بعض المحاضرات... أنت تعلم أنَّه طالب مثاليٌّ مثل حضرتك، وهو مصمَّم على نيل الليسانس هذا العام...

جلسا على كرسيَّين متقابلين مولين القصر ظهرهما وقد وعد انفرادهما كمال بجلسة هادئة لا شقاق فيها، جلسة يرحب صدرها بالتأملات غير أنَّها ستخلو في الوقت نفسه من النضال المتعب اللذيل معًا الذي يدعو إليه حسن سليم، والملاحظات التهكميَّة اللاذعة التي يبعثها إسماعيل لطيف دون حساب، استطرد حسين قائلاً:

- أنا على العكس منكما طالب رديء، أجل إنِّي

استغفر الله لنفسك ولها، وقل إنَّ هذا كلُّه عجيب، عجيب كأبي الهول، ما أشبه حبَّك به أو ما أشبهه بحبِّك، كلاهما لغز وخلود!

أفرغت عابدة آخر ما في الترموث في الكوب الرابع، ثمَّ قالت لكمال بإغراء:

- هلَّا غيَّرت رأيك؟ ما هي إلَّا شراب منعش... فابتسم ابتسامة اعتذار وشكر، وعند ذاك خطف حسين الكوب ورفعهُ إلى فيه، وهو يقول:

- أنا بدل كمال... (ثمَّ وهو يتأوَّه)... يجب أن نمسك وإلَّا متنا امتلاء...

فرغوا من الطعام، ولكن فضل منه نصف دجاجة وثلاثة سندوتشات، فخطر لكمال أن يوزَّعها على الغلمان الذين يتجولون في المكان، غير أنَّه رأى عابدة وهي تعيد السندوتشات مع الأكواب والترموث إلى السلَّة، فلم يرَ بداً من أن يعيد بقية طعامه إلى الحقيبة وقد وردته ذكرى حديث إسماعيل لطيف عن الروح الاقتصادية لال شدَّاد! ووثب حسين إلى الأرض وهو يقول:

- لدينا مفاجأة سائِّة لك، أحضرنا معنا فونوغرافًا وبعض الأسطوانات لتساعدنا على الهضم، ستسمع أسطوانات أوربيَّة من مختارات عابدة وأخرى مصريَّة مثل «حرَّز فرَّز»، و«بعد العشي»، و«حوود من هنا»... ما رأيك في هذه المفاجأة؟...

#### - ١٨ -

انتصف ديسمبر، غير أنَّ الجوَّ لم يجاوز حدَّ الاعتدال إلَّا قليلاً على رغم أنَّ الشهر هلَّ بعاصفة من الرياح والأمطار والبرد القارص. وكان كمال يقترب من سراي آل شدَّاد في خطوات متَّسدة سعيدة طارحًا معطفه المطويَّ على ساعده الأيسر وقد دلَّ مظهره الأنيق - خاصَّة مع ملاحظة ميل الجوّ إلى الاعتدال - على أنَّه جاء بمعطفه استكمالاً لمظاهر الأناقة والوجاهة أكثر منه حيطة لتقلُّب الجوّ، وكانت شمس الضحى ساطعة فرجح عنده أنَّ مجلس الأصدقاء سينعقد في الأيام كشك الحديقة - لا في الثرى حيث يجتمعون في الأيام

أستمع إلى المحاضرات مفيداً من قدرتي على تركيز الانتباه، غير أنني لا أكاد أطيق مراجعة كتيبي المدرسية، قالوا لي كثيراً: إن دراسة القانون تتطلب ذكاء نادراً، الأحرى أن يقولوا: إنها تتطلب غباء وصبراً. حسن سليم طالب مجتهد شأن الذين يحدهم الطموح، طالما تساءلت عما يجعله يحمل نفسه فوق ما تطيق من العمل والسهر، وهو لو شاء - كأمثاله من أبناء المستشارين - لقمع من العمل بما يكفل له النجاح اعتماداً على نفوذ أبيه الذي سيضمن له في النهاية نيل الوظيفة التي يتطلع إليها، فلم أجد تفسيراً لذلك إلا كبرياء الذي يجيب إليه التفوق ويدفعه إليه دفعا لا هوادة فيه، أليس كذلك؟ ما رأيك فيه؟

قال كمال في صدق:

- حسن شاب جدير بالإعجاب لخلقه وذكائه...  
- سمعت أبي يقول مرة عن أبيه سليم بك صبري:  
إنه مستشار فذ عادل، فيما عدا القضايا السياسية...  
صادف هذا الرأي هوى في نفس كمال، لما سبق إلى علمه من تشييع سليم بك صبري إلى الأحرار الدستوريين، فقال ساخراً:

- معنى هذا أنه قانوني بارع، ولكنه غير أهل للقضاء.

فضحك حسين ضحكة عالية، وقال:

- نسيت أنني أخاطب وفدياً...

فقال كمال وهو يرفع منكبيه:

- لكن والدك ليس وفدياً! تصوّر أن يجلس سليم بك صبري للفصل في قضية عبد الرحمن فهمي والنقراشي!

هل صادف قوله عن سليم بك صبري ارتياحاً في نفس حسين؟ نعم، هذا يبدو جلياً في العينين الجميلتين اللتين لم تألفا الكذب أو الرياء، ولعلّه راجع إلى المنافسة التي تقوم عادة - مهما اتسمت بالتهذيب وآداب اللياقة - بين الأنداد، وقد كان شذاد بك مليونيراً ومن رجال المال ذوي المكانة والجاه فضلاً عن صلته التاريخية بالخدو عبّاس، غير أن سليم بك صبري مستشار في أكبر هيئة قضائية وفي بلد تفتتها

المناصب إلى حدّ التقديس، فلم يكن بدّ من أن يتبادل المنصب الرفيع والمال الوفير نظرات الشزر أحياناً. ألقى حسين على الحديقة المترامية أمام ناظره نظرات هادئة يشوبها شيء من الأسف، فقد تجرّدت جدائل النخيل وتعرّت شجيرات الورد، وشحبت الخضرة اليانعة واختفت ابتسامات الزهور من ثغور البرام، وبدت الحديقة غارقة في الحزن حيال زحف الشتاء، ثم قال وهو يشير أمامه:

- انظر إلى فعل الشتاء، هذه آخر جلسة لنا في الحديقة، ولكنك من هواة الشتاء...

إنه يهوى الشتاء حقاً، ولكن عابدة أحبّ إليه من الشتاء والصيف والخريف والربيع معاً، فلن يغفر للشتاء حرمانه من مقابلات الكشك السعيدة، غير أنه قال موافقاً:

- الشتاء فصل جميل وقصير، وفي البرد والغيمة والرضا حياة يستجيب لها القلب.

- يحيل إليّ أنّ هواة الشتاء يكونون عادة من ذوي النشاط والاجتهاد، فهكذا أنت، وهكذا حسن سليم...

ارتاح كمال إلى هذا الثناء ولكنه أراد أن يخصّ - من دون حسن سليم - بأكثره، فقال:

- ولكني لا أعطي وإجابتي المدرسية إلا نصف نشاطي فحسب، الحق أنّ حياة العقل أوسع من المدرسة بكثير...

هزّ حسين رأسه مستحسناً، وقال:

- لا أظنّ أنّ ثمة مدرسة يمكن أن تستهلك الوقت الطويل الذي تكرّسه للعمل يومياً... على فكرة: أنا لا أوافقك على هذا الإسراف وإن أكن أغبطك أحياناً، خبرني ماذا تقرأ الآن؟

ابتهج كمال بهذا الحديث الذي كان - بعد عابدة - أحبّ شيء إلى نفسه وأجاب قائلاً:

- أستطيع أن أقول لك الآن: إنّ مطالعتي أخذت تتبع نوعاً من النظام، لم تعد قراءة حرة كيفاً اتفق ما بين قصص مترجمة ومختارات شعرية ومقالات نقدية، أصبحت ألتمس سبيلي على قدر من الضوء لا بأس

بالاطلاع ولكنك تريد أن تفكر وأن تكتب، ولن يتاح لك - فيما أعتقد - أن تكون فيلسوفاً وأديباً في آنٍ...  
- لن ينقطع ما بيني وبين الأدب، إنَّ حبَّ الحقيقة لا يناقض تذوق الجمال، ولكنَّ العمل شيء والراحة شيء آخر، وقد عزمت على أن أجعل الفلسفة عملي والأدب راحتي...

فضحك حسين فجأة، ثم قال:  
- هكذا تتملّص من تعهدك لنا بأن تكتب عنا قصة جامعة!

فلم يملك كمال أن يضحك قائلاً:  
- ولكني أأمل أن أكتب يومًا عن «الإنسان» فيشملكم ضمنًا!  
- لا يهمني الإنسان بقدر ما يهمني أشخاصنا، انتظر حتى أشكوك إلى عايده!

خفق قلبه لدى سماع الاسم خفقة تحية وحنان وشوق، فانقلب نشوان كأنما قد ثمل روحه بلحن معرب بالطرب، هل يرى حسين حقاً أنه أتى من الأمر ما يستأهل عليه مؤاخذه عايده؟ ما أجهل حسين! كيف غاب عنه أنه ما من شعور يستشعره أو فكرة يتأملها أو شوق يستشرفه إلّا وآفاقها تترقق ببهاء عايده وروحها!

- انتظر أنت، وسوف تثبت لك الأيام أنني لن أنحلّ عن عهدي ما حييت...

ثمّ متسائلاً بعد قليل بلهجة جدية:  
- لم لا تفكر في أن تكون كاتباً؟ كلّ الظروف الراهنة والآتية تمهيّ لك التفرغ لهذا الفنّ!  
فهزّ حسين كتفيه استهانة، وقال:

- أأكتب ليقرا الناس؟ ولم لا يكتب الناس لأقرا أنا؟

- أيها أعظم شأنًا؟  
- لا تسألني أيها أعظم شأنًا، ولكن سلني أيها أسعد حالاً، إنّي أعدّ العمل لعنة البشرية، لا لأتي كسول، كلّاً، ولكن لأنّ العمل مضيق للوقت وسجن للفرد وحائل منيع دون الحياة، الحياة السعيدة هي الفراغ السعيد...

به، فعمدت أخيراً إلى تخصيص ساعتين كلّ مساء للقراءة في دار الكتب وهناك أنظر في دائرة المعارف باحثاً عن معاني الكلمات الغامضة الساحرة، كالأدب والفلسفة والفكر والثقافة، مسجلاً في الوقت نفسه أسماء الكتب التي تصادفني، إنّه عالم بديع تدوب فيه النفس شغفاً واستطلاعاً...

كان حسين يصغي إليه بانتباه واهتمام طارحاً ظهره على مسند الكرسيّ الخيزران، واضعاً يديه في جيبي جاكته الكحلّية الإنجليزّية، وعلى شفّتيه العميقتين ابتسامة مشاركة وجدانيّة صافية، قال:

- جميل جداً، بالأمس كنت أحياناً تسألني عما ينبغي أن يُقرأ، اليوم جاءت نوبتي لأسألك أنا، هل وضع لك الطريق؟  
- رويداً... رويداً، يغلب على ظنيّ أنني سأتمجه نحو الفلسفة!

ارتفع حاجبا حسين كالمسائل، ثمّ قال بأسياً:  
- الفلسفة؟ إنَّها كلمة مثيرة، حذار أن تذكرها على مسمع من إسماعيل! طالما اعتقدت أنك ستّجبه نحو الأدب...

- لا لوم عليك، الأدب متعة سامية بيد أنه لا يملأ عيني، إنّ مطلبي الأوّل الحقيقة، ما الله، ما الإنسان، ما الروح، ما المادّة؟ الفلسفة هي التي تجمع كلّ أولئك في وحدة منطقيّة مضيئة كما عرفت أخيراً، هذا ما أروم معرفته من كلّ قلبي، وهذه هي الرحلة الحقيقيّة التي تُعدّ رحلتك حول العالم بالقياس إليها مطلباً ثانوياً، تصوّر أنه سيمكّني أن أجد أجوبة شافية لهذه المسائل جميعاً...

نور الشوق والحماس وجه حسين وهو يقول:  
- هذا بديع حقاً، لن أتوانى عن مرافقتك في هذا العالم الساحر، بل لقد طالعت بالفعل فصولاً عن الفلسفة الإغريقيّة وإن لم أخرج منها بشيء يعتدّ به، لست أحبّ الاندفاع مثلك، ولكنّي أقطف زهرة من هنا وزهرة من هناك وأسلك بين هذا وذاك سبيلاً، والآن دعني أصارحك بأنّي أخاف أن تقطع الفلسفة ما كان بينك وبين الأدب من أسباب، فأنت لا تقنع



حدجه كمال بنظرة دلت على أنه لم يأخذ قوله مأخذ الجذ، ثم قال:

- لا أدري ماذا كانت تكون حياة الإنسان لولا العمل؟. إن ساعة من الفراغ المطلق تنقضي أثقل من عام حافل بالعمل... .

- يا للتعاسة! إن صدق قولك نفسه هو ما يؤكد هذه التعاسة، هل حسبتني أطيق الفراغ المطلق؟ كلاً وأسفاه، لا أزال أشغل وقتي بالنافع والضار، ولكني أمل يوماً أن أعاشر الفراغ المطلق معاشرة سعيدة... .

هم بالتعليق على قوله، ولكن جاء صوت من ورائها يتساءل «فيم تتحدثان يا ترى»، صوت أو بالحرى نغمة حلوة ما إن تردّد في سمعيه حتى تعزف أوتار قلبه بجأوة إيّاه من الأعماق كأنها عناصر مؤتلفة في لحن واحد وسرعان ما خلعت نفسه من متوائب الفكر فغمرها فراغ مطلق - ترى أهو الفراغ المطلق الذي يحلم به حسين؟ - هو ذاته لا شيء، ولكنّه السعادة كلّها... .

والنفت إلى الورا، فرأى عايذة قادمة على بعد خطوات تتقدّمها بدور حتى وقفنا أمامها، كانت ترتدي فستاناً كمّونياً وسترة صوفيّة زرقاء ذات أزرار مذهبة، وقد تجلّت بشرتها السمراء في عمق السماء الصافية وصفاء الماء المقطر. وهرعت بدور إليه فتلقّفها بين ذراعيه وضّمّها إلى صدره كأنما ليواري في عناقها ما اعتراه من هيمان، وعند ذاك جاء خادم مسرعاً فوقف أمام حسين وهو يقول بأدب «التليفون». فقام حسين مستأذناً، ومضى نحو السلاملك والخادم يتبعه... .

وهكذا وجد نفسه معها على انفراد - وجود بدور لم يكن ليغيّر من هذا المعنى - لأول مرة في حياته، تساءل في إشفاق: ترى أتبقي أم تذهب؟ ولكنّها تقدّمت بخطوتين حتى صارت تحت مظلة الكشك جاعلة المنضدة بينها وبينه، فدعاها إلى الجلوس بإشارة من يده، ولكنّها هزّت رأسها بالرفض باسمه، فقام واقفاً ورفع بدور بين يديه فأجلسها على المنضدة، ولبت يرت رأس الصغيرة في ارتباك وهو يبذل كلّ قوّته كي يملك عواطفه ويتغلّب على انفعاله... . مضت فترة

صمت لم يسمع خلالها إلّا حفيف الغصون وخشخشة أوراق جافة متناثرة وزقزقة عصقور، فبدأ المكان فيها لمحت عيناه من أرضه وسبائه وأشجاره وسوره البعيد الفاصل بين الحديقة والصحراء وقصّة المعبودة المسبلة على جبينها والنور البديع المنبثق من حور مقلتيها، بدا كلّ أولئك كأنه منظر بهيج من حلم سعيد، لم يدري - على وجه اليقين - إن كان حقيقة ماثلة أمام ناظريه أم خيالة ملوحة حيال ذاكرته، حتى سجع الصوت الرخيم وهو يقول مخاطباً بدور فيما يشبه التحذير: «لا تضايقيه يا بدورا» فكان جوابه أن ضمّ بدور إلى صدره قائلاً: «إن تكن هذه هي المضايقة فما أحبّها إلى نفسي!»، ورنا إليها وفي عينيه أشواق، وراح يتملّى منظرها آمناً هذه المرة من الرقباء منعماً فيها التأمّل كأنما يستكنه أسرارها ويطلع على صفحة تخيلته ملاحظها ورموزها، فتاه في سحر المنظر حتى بدا ذاهلاً أو غائباً، وما يدري إلّا وهي تتساءل:

- ما لك تنظر إليّ هكذا... ١٩

فأفاق من غشيته، وتجلّى في عينيه الارتباك فابتسمت متسائلة:

- هل تريد أن تقول شيئاً؟

هل يريد أن يقول شيئاً؟ إنه لا يدري ماذا يريد، حقاً إنه لا يدري ماذا يريد، وتساءل بدوره:

- هل قرأت في عينيّ هذا؟

أجابت وثغرها يفتّر عن ابتسامة غامضة:

- نعم... .

- ماذا قرأت فيها؟

فرفعت حاجبيها كالمتعجبة، وهي تقول:

- هذا ما أردت معرفته... .

أيوب لها بسرّه المكنون قائلاً بكلّ بساطة «أحبك» وليكن ما يكون! لكن ما جدوى البوح؟ وماذا يكون من أمره لو قطع الاعتراف ما بينه وبينها من صداقة ومودة - كما هو الراجح - إلى الأبد؟ ١٩ وانتهى - وهو يتأمّل - إلى النظرة التي تلوح في عينيها الجميلتين، نظرة مطمئنة شديدة الثقة بنفسها جريئة لا يعترها ارتباك أو خجل، نظرة كأنما تهبط عليه من علّ بالرغم

المنطق وحده، فلو صحَّ منطقُه لوجب أن يكون أسعد الناس بحبِّه ومحَبِّيه، ولكن، أين هو من ذلك؟ الحقُّ أن تاريخ حَبِّه الطويل لم يعدم لحظات أمل خلت كان يضيء ظلمات قلبه بسعادة ومِمة على أثر ابتسامة حلوة يجود بها المحبوب أو كلمة عابرة قابلة للتأويل أو حلم سعيد عقب ليلة فكر وسهاد ولوإذا بقول سائر له احترامه في نفسه مثل «من القلب للقلب رسول»، فكان يتعلَّق بالأمل الخَلَب في إصرار اليائس حتَّى تعيده الحقيقة إلى وعيه، ها هو الساعة يتلقَّى هذه الجملة الساخرة الحاسمة كالدواء المرَّ ليتداوى بها مُستقبلاً من كواذب الآمال، وليعرف على وجه اليقين موضعه أين يكون، ولما لم يُجِرْ جواباً على سؤالها الذي تحدّته به، هتفت معبودته ومعذِّبته بلهجة المنتصر:

- عُلِّيت ...!

واستحكم الصمت مرّة أخرى، فعاود مسمعيه خفيف الغصون وخشخشة الأوراق الجافّة وزقزقة العصفور، غير أنّه تلقّاها هذه المرّة بوجد فاتر وقلب خائب، ولاحظ أنّ عينيها تنفخصانه بإمعان لا داعي له، وأنّ نظرتها تزداد جرأة وثقة وما يوحي بالعبث، وأنها أبعد ما يكون عن منظر أنثى تصدّت للذكر، فشعر بغمز في قلبه وبرودة، وتساءل هل قُدِّر له أن ينفرد بها لتقوِّص أحلامه دفعة واحدة؟! ولاحظت قلقه، فضحكت ضحكة لاهية، وقالت في دعابة وهي تومئ إلى رأسه:

- لا يبدو أنّك شرعت في تربية شعرك؟

فقال باقتضاب:

- كلّاً ...

- ألا يروك ذلك؟

وهو يحطّ بوزّه باستخفاف:

- كلّاً ...

- قلنا لك إنّه أجهل ...

- هل ينبغي للرجل أن يكون جليلاً ...؟

فقال باستغراب:

- طبعاً الجمال محبوب، سواء في الرجال

والنساء ...؟

من أنّها في مستوى نظره، فلم يرتح لها وزادته تردّداً، ماذا وراءها يا ترى؟ وراءها فيما رأى شعور بالاستهانة، وربّما العبث كأنّما هي بالغ ينظر إلى طفل، ولعلّها لم تخلُ كذلك من تعالٍ لا يمكن أن يبرّره فارق السنّ وحده إذ لم تكن تكبره إلّا بعامين على أكثر تقدير، أفلا تكون هذه النظرة الخليفة بأن يلقبها هذا القصر الشامخ بشارع السرايات على البيت القديم بين القصرين؟ ولكن لم لم يلمحهما في عينيها من قبل ذلك؟ ربّما لأنّها لم تنفرد به من قبل أو لأنّه لم يتح له أن ينعم فيها النظر إلّا هذه الساعة، وآله ذلك وأحزنه حتّى فترت نشوته أو كادت. ورفعت بدور نحوه يديها داعية إيّاه لحملها، فتناولها في حضنه، وإذا بعابدة تقول:

- يا للعجب!، لماذا تحبّك بدور كلّ هذا الحبّ؟

فقال وهو ينظر في عينيها:

- لأنّي أكنّ لها مثله وأكثر ...

فتساءلت كالرتابة:

- أهذا قانون يُركن إليه؟

- الحكمة السائرة تقول «من القلب للقلب

رسول» ...

فجعلت تنقر المنضدة بأظفارها وهي تتساءل:

- هب فتاة جميلة أحبّها كثيرون، فهل تحبّهم جميعاً؟

أرني كيف يصدق قانونك في هذه الحال ...

فقال وقد أذهله سحر الحوار عن كلّ شيء حتّى

أحزانه:

- يكون من أمرها أن تحبّ أصدقهم حبّاً لها ...

- وكيف تفرزه من الآخرين؟ ...

لو يدوم هذا الحوار إلى الأبد!

- أحيلك مرّة أخرى إلى الحكمة السائرة «من

القلب للقلب رسول»!

فضحكت ضحكة مقتضبة مثل رنة الوتر، وقالت

في تحدّ:

- لو صحَّ هذا ما خاب محبّ صادق في حبّه! فهل

هذا صحيح؟!

صدمه قولها كما تصدم حقائق الحياة المستنيم إلى

فأغرقت عايده في الضحك وهي تميل برأسها إلى الوراء، ولم يملك هو أيضًا إلا أن يضحك، ثم سأل بدور مداراة لارتبائه:

- وأنت يا بدور، هل هالك أنفي؟...

وترامى إليهم صوت حسين وهو يهبط سلم الفراندا، فغيّرت عايده من لهجتها فجأة، وقالت له بصوت جمع بين الرجاء والتحذير:

- إناك أن تزعل من مزاحي!...

عاد حسين إلى الكشك، فجلس على كرسيه داعيًا كمال إلى الجلوس فاقتدى به - بعد تردد - واضعًا بدور على حجره، غير أن عايده لم تلبث بعد ذلك إلا قليلًا فأخذت بدور وحيتها، ثم انصرفت وهي تلحظ كمال بنظرة ذات معنى خاص، وكأنها تكرر تحذيره من الزل، لم يجد من نفسه أي رغبة في استئناف الحديث فاكتمى بالإصغاء أو بالتظاهر بالإصغاء مع المشاركة فيه بين حين وآخر يسؤال أو تعجب أو استحسان أو استهجان لإثبات وجوده ليس إلا، وكان من حسن حظه أن عاد حسين إلى طرق موضوع قديم لا يتطلب انتباهًا أكثر مما عنده، وهو رغبته في السفر إلى فرنسا ومعارضه أبيه التي يأمل في التغلب عليها قريبًا. أما الذي كان يشغل قلبه وفكره معًا فهو ذلك المظهر الجديد الذي تبدت به عايده في الدقائق التي جمعت بينها على انفراد أو على شبه انفراد، ذلك المظهر الموسوم بالاستخفاف والسخرية والقسوة، أجل القسوة! فقد عبثت به بدون رحمة وأعملت فيه دعابتها كما يُعَمِّل المصوّر ريشته في الخلقة الأدمية ليستخرج منها صورة كاريكاتورية فذة في قبحها وصدقها معًا.

ذكر ذلك المظهر ذاهلاً، ومع أن الألم كان يسري في روحه كما يسري السم في الدم ناشراً فيها ظلاً ثقیلاً من القنوط والكآبة، فإنه لم يجد في نفسه سخطاً أو غضباً أو احتقاراً له، اليس هو صفة جديدة من صفاتها؟ بلى، لعله أن يكون غريباً كولعها بالبطانة وشرب البيرة وأكل لحم الخنزير، ولكنه ككل أولئك صفة منسوبة إلى ذاتها، خليقة بأن تشرف بهذا الانتساب وإن عُدّت في غيرها نقیصة أو استهتاراً أو

هم بأن يردّد محفوظاته مثل «جمال الرجل في أخلاقه» الخ، ولكن غريزة من غرائزه أوحى إليه بأن مثل هذا القول - مع صدوره عن شخص في صورته - لن يلقى عند معبودته إلا الهزء والسخرية، فقال وهو يعاني وخزاً في قلبه داراه بضحكة مصطنعة:

- لست من رأيك...

- أو لعلك تنفر من الجهال كما تنفر من البيرة ولحم

الخنزير!

فضحك ضحكة يعالج بها بأسه وقهره، فعادت تقول:

- الشعر الطبيعي غطاء طبيعي اعتقد أن رأسك في حاجة إليه، ألا تعلم أن رأسك كبير جداً؟

ذو الرأسين! أنسيت ذلك النداء القديم؟... يا للتعاسة!

- هو كذلك...

- له؟...

أجاب وهو يهز رأسه في إنكار:

- سليه بنفسك فإنني لا أدري.

ضحكت ضحكة خافتة، أعقبها صمت، معبودك جميل فائن ساحر، ولكنه ذو جبروت كما ينبغي له، دُق جبروته وتلقن شتى أنواع الألم. ولم ترحه فيما بدا، لم تزل عينها الجميلتان تصعدان البصر في وجهه وتصوبان حتى تثبتا على...، أجل على أنفه!... هنالك وجد قشعريرة في أعماقه حتى قفّ شعره وغضّ البصر وهو خائف يترقب، وسمعتها تضحك، فرفع عينيه وهو يتساءل:

- ماذا يضحكك؟

- ذكرت أموراً مثيرة طالعتها في مسرحية فرنسية معروفة، ألم تقرأ «سيرانودي ببرجراك»؟.

أنسب الأوقات للاستخفاف بالألم وقت يزيد فيه الألم عن حدّه، قال بهوده واستهانة:

- لا داعي للمداراة، أنا أعرف أن أنفي أكبر من رأسي، ولكن أرجو ألا تسألني مرة أخرى «له؟» سليه بنفسك إن شئت...!

وإذا ببذور تمدّ يدها فجأة فتقبض على أنفه،

معصية، ولا ذنب لها هي أن نشأ عن صفة من صفاتها  
 ألم في قلبه أو يأس في نفسه ما دام العيب عيبه هو لا  
 عيبها هي، وهل كانت هي التي كُتِرَ رأسه أو  
 غلُظت أنفه؟ أو هل تراها جارت بدعاباتها على  
 الصدق والواقع؟ لم يحدث شيء من هذا فانتفى عنها  
 الملام وحقّ عليه الألم، وعليه أن يتقبّله بتسليم صوفيّ  
 كما يتقبّل العابد القضاء وهو أصدق ما يكون إيماناً بأنّه

### - ١٩ -

غادر حسن وكمال سراي آل شدّاد والساعة تدور في  
 الواحدة، وهم كمال بافراق عن صاحبه أمام باب  
 القصر، ولكنّ الآخر قال له برجاء:

- هلاً تمشيت معي قليلاً من الوقت...!

فلبّي كمال الدعوة عن طيب خاطر، وسارا في  
 شارع السرايات جنباً إلى جنب... كمال بقامته  
 الطويلة، وحسن لا يكاد يبلغ رأسه منكب صاحبه، لم  
 يكن يخلو من تساؤل!! خاصّة وأنّ الوقت لم يكن  
 أنسب الأوقات للمشي الذي ليس وراءه هدف، وما  
 يدري إلّا وحسن يلتفت إليه متسائلاً:

- فيم كنتما تتحدثان؟

فأجاب كمال وهو يزداد تساؤلاً:

- في أمور شتى كالعادة، سياسة... ثقافة الخ...

فكانت مفاجأة حقاً أن يقول له بصوته الهادئ  
 المتزن:

- أعني أنت وعائدة...!

فاستولت الدهشة على كمال، حتّى لبث ثواني لا  
 يتكلّم، ثمّ تمالك نفسه فسأله:

- كيف عرفت هذا ولم تكن معنا؟

فقال حسن سليم دون أن يلوح في وجهه أيّ  
 تغيير:

- جئت في أثناء حديثكما، فترأى لي أن أذهب إلى  
 حين حتّى لا أقطعك عليكما...

ترى أكان يسلك مسلكه لو وجد نفسه في موقفه؟  
 واشتدّت به الحيرة وخالطه شعور بأنّه مقبل على حديث  
 مثير ذي شجون، قال:

- لا أدري ماذا حملك على ذلك التصرف، ولو  
 لمحتك ما تركتك تذهب...

معصية، ولا ذنب لها هي أن نشأ عن صفة من صفاتها  
 ألم في قلبه أو يأس في نفسه ما دام العيب عيبه هو لا  
 عيبها هي، وهل كانت هي التي كُتِرَ رأسه أو  
 غلُظت أنفه؟ أو هل تراها جارت بدعاباتها على  
 الصدق والواقع؟ لم يحدث شيء من هذا فانتفى عنها  
 الملام وحقّ عليه الألم، وعليه أن يتقبّله بتسليم صوفيّ  
 كما يتقبّل العابد القضاء وهو أصدق ما يكون إيماناً بأنّه  
 قضاء عادل مهما يكن من قسوته، وأنّه صادر عن  
 معبود كامل لا مظنة في صفة من صفاته أو إرادة من  
 إراداته... هكذا خرج من التجربة القصيرة العنيفة  
 التي صهرته منذ دقائق وهو أشدّ ما يكون ألماً وعذاباً  
 ولكن دون أن ينال ذلك من قوّة حبه وافتنانه  
 بالحبيب!... الساعة يحظى بمعرفة ألم جديد، ألم  
 الرضى بحكم قاسم قضى عليه بعدم الأهلية، كما  
 عرف من قبل - عن طريق الحبّ أيضاً - ألم الفراق وألم  
 الإغضاء وألم الوداع وألم الشكّ وألم اليأس، وكما عرف  
 أيضاً ألماً يُجتمَلُ وألماً يُستلذّ وألماً لا يسكن مهما قدّم  
 له من فرايب التأوّهات والدموع، كأنما أحبّ ليتفقه في  
 معجم الألم، ولكنّه على الشراع الشر المتطايير من  
 ارتطام آلامه يرى نفسه ويعرف أشياء، ليس الله  
 والروح والمادة - فحسب - ما يجب أن تعرفه، ما  
 الحبّ؟... ما البغض؟... ما الجسال؟... ما  
 القبح؟... ما المرأة؟... ما الرجل؟... كلّ أولئك  
 يجب أن تعرف أيضاً، أقصى درجات الهلاك تماسّ أولى  
 درجات النجاة، اذكر ضاحكاً أو اضحك ذاكرًا أنّك  
 هممت بالإفضاء إليها بمكنون سرّك؟ اذكر باكياً أنّ  
 أحذب نوتردام ملأ حبيته رعباً وهو يخنو عليها  
 مواسياً، وأنّه - أحذب نوتردام - لم يستثر عطفها  
 البريء إلّا وهو يلفظ آخر أنفاسه الأخيرة، «إياك أن  
 تزعل من مزاحي»! حتّى راحة اليأس تضنّ بها  
 عليك، فليفصح المعبود عن ذات نفسه علناً نخرج من  
 جحيم الحيرة ونطمئنّ في قبر اليأس، هيهات أن يقتلع  
 اليأس جذور الحبّ من قلبي، ولكنّه على أيّ حال  
 مناجاة من كواذب الآمال!...

والتفت حسين نحوه ليسأله عن سرّ صمته، ولكنّه

يستحق أن أخبرك به ما كتبتك عنك، ليس إلا أننا  
تكلّمنا بعض الوقت في شئون عادية وهذا كلّ ما  
هنالك، غير أنك أيقظت حبّ الاستطلاع في نفسي  
فهل لي أن أسألك - ولو من باب العلم بالشيء - عن  
الأسباب التي تراها مبرّرة لسؤالك؟. لست ألحّ بطبيعة  
الحال، بل إنّي على أتمّ الاستعداد للنزول عن سؤالي  
إذا لم يصادف منك قبولاً...!

قال حسن سليم بهدوئه وأثرانه المألوفين:

- سأحدّثك عمّا تسأل عنه، ولكن أرجو أن تنتظر  
قليلاً، يبدو أنك لا تودّ إخباري عمّا دار بينكما من  
حديث، وهذا حقّك لا ريب فيه، بل لا أجد فيه  
إخلالاً بواجب الصداقة، ولكيّ أودّ أن ألفت نظرك  
إلى أنّ كثيرين يُخدعون بحديث عابدة ويفسرونه تفسيراً  
لا يمتّ للواقع بسبب، وربما أحدثوا لأنفسهم بسبب  
ذلك متاعب لا داعي لها...!

أفصح عمّا تريد قوله، في الجوّ نذر نجهم لا يلبث  
أن ينقلب إعصاراً فيعصف بقلبك المطعون، كأنّ به  
موضعاً سليماً لم يُطعن! أنت أنت المخدوع يا صاح،  
ألا تدري أنّه الحياء وحده الذي يعني من أن أفضي  
إليك بما كان؟! فلتصعقني الصواعق إن أرحت لك  
بالأ!

- لم أفهم ممّا قلت حرفاً...!

علا صوت حسن قليلاً، وهو يقول:

- لسانها يجود في يسر بالطف الكلام، فيحسبه  
السامع ذا مغزى أو أنّ وراءه عاطفة ما، ولكنّه محض  
كلام لطيف تخاطب به كلّ من يحادثها سرّاً أو جهراً!  
وكم خدع كثيرين...!

برح الخفاء، صاحبك مصاب بالداء الذي هصره!  
من يكون حتّى يدّعي العلم بالباطن؟! شدّ ما يشير  
حنقي! قال بأسماً وهو يتظاهر بعدم الاكتراث:

- يبدو أنك واثق ممّا تقول؟!!

- إنّي أعرف عابدة حقّ المعرفة، نحن جيران منذ  
بعيد...!

الاسم الذي يهاب النطق به في السرّ فضلاً عن  
الجهر ينطق به هذا الشابّ المفتون بلا مبالاة، كأنّه

- للياقة أحكام! أعترف بأنّي شديد الحساسية في  
هذه الناحية...!

آداب أرسقراطية!... أين أنت من إدراكها.

- لا تؤاخذني إذا صارحتك بأنك تدقّق أكثر ممّا  
ينبغي...!

ابتسم حسين ابتسامة خفيفة لم تمكث على شفّيته،  
ثمّ بدا كالمتنظّر، ولمّا طال به الانتظار عاد يتساءل:

- نعم؟... فيما كتبنا تتحدّثان؟

كيف إذن ارتضت آداب اللياقة مثل هذا  
الاستجواب؟! وفكّر لحظات في توجيه هذه الملاحظة  
إليه، غير أنّه دقّق في اختيار الصياغة الجديرة بالاحترام  
الذي يكتنه له - احترام يرجع إلى شخصيّته أكثر ممّا  
يرجع إلى سنّه - حتّى قال:

- المسألة أبسط من أن تحتاج إلى هذا كلّ، غير أنّي  
أتساءل عن مدى التزامي بالإجابة!

فبادره حسن قائلاً بلهجة المعتذر:

- أرجو ألاّ ترميني بلهجة المتطفّل أو بدسّ أنفي في  
خاصّ شئونك، فإنّ لديّ من الأسباب ما يبرّر هذا  
السؤال، وسوف أحدّثك عن أمور لم تعرض مناسبة  
تجعلني أحدّثك عنها من قبل، غير أنّي اعتقدت -  
اعتماداً على ما بيننا من صداقة - أنك لن تضيق  
بسؤالي، أرجو ألاّ تفهم الأمر على غير هذا  
الوجه...!

خفّ التوتر، ولعلّه سرّ لتلقّي هذا الكلام الرقيق  
عن حسن سليم بالذات، الشخص الذي طالما رآه  
مثالاً للأرسقراطية والنبيل والكبرياء، فضلاً عن أنّه  
كان أرغب منه في استفاد أوجه الحديث عن أمر يتعلّق  
بمعبودته. لو كان إسماعيل لطيف هو صاحب السؤال  
ما احتاج الأمر إلى شيء من هذا اللفّ والدوران حول  
ما يجب وما لا يجب وما يليق وما لا يليق، وربّما كان  
أفضى إليه بكلّ شيء وهما يتضاحكان، ولكنّ حسن  
سليم لا يخرج عن تحفّظه أبداً ولا يخلط بين الصداقة  
ورفع الكلفة، فلا بأس من أن يؤدّي ثمن تحفّظه!  
قال:

- أشكرك على حسن ظنّك، وثق بأنّه لو كان ثمة ما

الآخرين أيضًا... هزّ حسن رأسه كأنما يتمنى لو يستطيع أن يؤمن برأيه في «الآخرين»، غير أن كمال لم يعنٍ بالتعليق على ملاحظته الصامتة، كان سعيدًا بالدفاع عن معبودته، سعيدًا بالفرصة التي تهيأت له لإعلان رأيه في طهارتها وبراءتها، أجل لم يكن صادقًا في حماسه، لا لأنه كان يبطن غير ما يعلن - فطالما آمن بأن معبودته فوق مثال الشبهات - ولكن حزنًا على الأحلام السعيدة التي قامت على افتراض وجود «سر» وراء دعايات المعبودة وتلميحاتها الرقيقة، إنَّ حسن يبذل تلك الأحلام كما يبذلها حديث اليوم تحت الكشك، ومع أن قلبه المكشوف كان يجاهد سرًا للاستمسك ولو بخيط وإيه من خيوط الأمل، فإنه جارى حسن سليم مجارة المؤمن برأيه تغطية لموقفه ومدايرة لهزيمته وباطلاً لادعاء الآخر بأنه «العارف» وحده لحقيقة المعبودة! عاد حسن يقول:

- لا غرابة في أن تدرك هذا فأنت شاب لبيب، الواقع كما قلت إنَّ عايده بريئة ولكن... معذرة إذا صارتك بخصلة فيها ربما بدت غريبة في عينيك، ربما كانت مسئلة لحد كبير عن سوء فهم الكثيرين لها، أعني شغفها بأن تكون «فتاة أحلام» كل من يتصل بها من الشباب!... لا تنس أنه شغف بريء، فأنتي أشهد بأنني لم أصادف فتاة أحفظ لكرامتها منها، ولكنها مولعة بقراءة الروايات الفرنسية، كثيرة التحدث عن بطلاتها، مفعمة الرأس بالخيال!

ابتسم كمال ابتسامة مطمئنة أراد بها عن أنه لم يسمع جديدًا فيها قال صاحبه، ثم قال مدفوعًا برغبة في إغاضته:

- عرفت هذا كله من قبل، دار حديثنا يومًا - أنا وحسين وهي - عن الموضوع ذاته!

تمكّن أخيرًا أن يخرجها عن وقاره الأرستقراطي، فنطقت أساريه بالدهش وتساءل كالمنزعج:

- متى كان ذلك؟ لا أذكر أنني حضرت هذا الحديث! هل قيل أمام عايده أنها تود أن تكون «فتاة أحلام» كل شاب؟...

رمى كمال ما طرأ عليه من تغير بعين الظفر

اسم فرد من غمار الملايين! هذه الجرأة فيه تخفضه في قلبه درجات وترفعه في خياله درجات، وجملة «نحن جيران منذ بعيد» حزت في قلبه كالخنجر فاطاحت به كما تطيح النوى بالغريب. سألته بلهجة مؤدبة وإن لم يخل مدلولها من سخرية:

- ألا يجوز أن تكون خُدت أيضًا كالآخرين؟

فترجع رأس حسن في كبرياء، وهو يقول في يقين:

- لست كالآخرين!...

شدّ ما أحقّه عطوسته، شدّ ما أحقّه جماله وثقته بنفسه، هذا الابن المدلل للمستشار الخطير الذي ترتقي الشبهات إلى أحكامه السياسية! ونذت عن حسن «هه» كأنه ذيل ضحكة وإن لم تضحك أساريه، أراد أن يمهد بها للانتقال من طبقة صوتية متغطسة إلى طبقة أخرى لطيفة، ثم قال:

- إنَّها فتاة ممتازة لا تشوبها شائبة، ولو أن مظهرها وحديثها وأنسها تجر عليها الظنون أحيانًا!

فبادره كمال قائلاً بحماس:

- إنَّ مظهرها ومخبرها على السواء لفوق كل ظن!

فحنى حسن رأسه بامتنان كأنما يقول له «أحسن»، ثم قال:

- هذا ما ينبغي أن تراه عين بصيرة سليمة، غير أنَّ ثمة أمورًا تحير بعض الأفهام، سأضرب لك أمثلة على سبيل التوضيح: إنَّ البعض يسيء فهم اختلاطها في الخديقة بأصدقاء أخيها حسين، نابذة ما جرت به التقاليد الشرقية، والبعض الآخر يقف متسائلًا حيال عمادتها لهذا وملاطفتها لذلك، وآخرون يتوهمون وراء الدعابة اللطيفة - تصدر عنها عفواً - سرًا خطيرًا، هل أدركت ما أعني؟!

فقال كمال بنفس الحماس السابق:

- إنِّي أدرك ما تعني طبعًا، ولكنني أخشى أن تكون مغاليًا في ظنونك، عني أنا شخصيًا لم يساورني شك قط في أيّ تصرف من تصرفاتها، لأنَّ أحاديثها ودعاياتها ظاهرة البراءة، ولأنَّها من ناحية أخرى لم تتلقَّ تربية شرقيّة خالصة حتّى تطالب بالمحافظة على التقاليد أو تؤاخذ على الخروج عليها، وأظنَّ أن هذا هو رأي

- ولكنتك لا تستطيع أن تؤكّد أنّها لا تحب إطلاقاً؟  
- لم يقل هذا...

فرمقه بالعين التي يتطلّع بها الإنسان إلى العرّاف،  
ثمّ سألّه:

- أتدري إذن أنّها تحبّ؟

فحنى رأسه بالإيجاب، وقال:

- إنّما دعوتك إلى المشي لأحدّتك عن هذا...

غاص قلبه في أعماق صدره كأنّما يحاول الفرار من  
الأمّ ولكنته غرق في عباب الأمّ، كان قبل ذلك يتألّم  
لأنّها لا يمكن أن تحبّه، ها هو معذّب به يؤكّد له أنّها  
تحبّ... إنّ العبادة تحبّ... إنّ قلبها الملائكيّ  
يخضع لنواميس الشوق والحنين والرغبة واللهفة الموجهة  
جميعاً إلى شخص معيّن! أجل كان عقله - لا شعوره -  
يسلم أحياناً بإمكان ذلك، ولكن كما يسلم بالموت  
كفكرة مجردة لا كحقيقة باردة ناشبة في جسد عزيز أو  
في جسده هو بالذات، لذلك فاجأه الخبر كأنّه يتحقّق  
لأوّل مرّة في الوجود والفكر معاً، تأمل هذه الحقائق  
جميعاً واعترف بأنّ ثمة آلاماً في هذه الدنيا لم تخطر لك  
على بال رغم خبرتك العميقة بالأمّ، استطرّد حسن  
قائلاً:

- قلت لك من بادئ الأمر إنّ لديّ من الأسباب ما  
يبرّر هذا الحديث معك، وآلاً ما سمحت لنفسني  
بالتدخّل في خاصّ شئونك...  
ينبغي أن تلتهمه النار المقدّسة حتّى آخر ذرّة من  
رماد.

- إنّ مقتنع بما تقول، وها أنا مصغر إليك...  
ابتسم حسن ابتسامة خفيفة أوحى بتردّده حيال  
الكلمة الأخيرة الفاصلة، فصبر كمال، ثمّ تعجّله -  
رغم أنّ قلبه استشفّ الحقيقة المفجعة - قائلاً:  
- قلت إنّك تدري أنّها تحبّ...؟  
فنبذ حسن التردّد قائلاً:

- نعم، يوجد بيننا ما يجعل لي الحقّ في ادّعاء ما  
قلت...  
عابدة تحبّ آيتها السباوات! أوتار قلبك تنقبض  
باعثة لحناً جنائزياً، هل يكنّ قلبها لهذا الشاب السعيد

والارتياح، غير أنّه أشفق من النّادي، فقال بحذر:  
- لم يرد ذكر هذا بلفظه ولكن بالمعنى الذي يؤدّي  
إليه خلال حديث دار حول ولعها بالروايات الفرنسيّة  
ولإغراقها في الخيال!

استردّ حسن هدوئه واتّزانه، ولزم الصمت ملياً  
كأنّه يحاول أن يستجمع فكره الذي نجح كمال في  
تشثيته إلى حين، وبدأ كالمتردّد لحظات حتّى شعر كمال  
بأنّه يؤدّ أن يعرف كلّ شيء عن الحديث الذي دار بينه  
وبين عابدة وحسين، متى وقع؟! ماذا جعلهم يطرقون  
هذه الشئون الحسّاسة؟! وما تفصيل ما قيل فيه؟! لولا  
أنّ كبرياءه كان يمنعه من السؤال، وأخيراً قال:

- ها أنت نفسك تشهد لصدق رأيي، ولكن من  
سوء الحظّ أنّ كثيرين لم يفهموا سلوك عابدة كما فهمته  
أنت، فلم يفتنوا إلى حقيقة هامة وهي أنّها تحبّ حبّ  
الشخص لها لا الشخص نفسه!

لو اطّلع الأحقّ على الواقع ما تحسّم كلّ هذا  
التعب المضاعف، ألا يعلم بأنّي لا أطمع حتّى في أن  
تحبّ حبّي؟ انظر إلى رأسي وأنفي وانعم بالآ! قال  
بصوت لم يخلُ من تهكّم:

- تحبّ حبّ الشخص لها لا الشخص نفسه! يا لها  
من فلسفة!

- هي حقيقة أنا بها عليم!  
- ولكنتك لا تستطيع أن تضمن صدقها في جميع  
الأحوال؟

- بلى أستطيع وأنا مغمض العينين.  
غالب كمال حزنه وهو يتساءل متظاهراً بالدهش:  
- أستطيع أن تؤكّد عن يقين أنّها لا تحبّ هذا  
الشخص أو ذاك؟

فقال حسن بثقة واطمئنان:  
- أستطيع أن أوكّد أنّها لم تحبّ أحداً ممّن يتوهمون  
أحياناً أنّها تحبّهم!

اثنان بحقّ لها أن يتكلّم بهذه الثقة: المؤمن والأحقّ،  
وهو ليس بالأحقّ، ترى لم يتحرّك الأمّ ولا جديد فيها  
سمعت؟! الحقّ أنّي تألّمت اليوم تألّم عام من أعوام  
الحبّ.

لنا فرص للحديث...

- على انفراد؟

أفلتت العبارة منه بلا وعي، فارتبك نادماً وتورد وجهه، ولكن الآخر قال ببساطة:

- أحياناً...

كم يود أن يراها في هذا الدور - دور المحبة - الذي لم يخطر له في خيال، كيف تتجلى في العين الساجية التي تلقي إليه بنظرها من علّ لمعة الوجد والحنان؟ منظر يضيء العقل بقبس من الحقيقة المقدسة ويقتل القلب قتلاً، بهذا تُستباح لعنة الكفر الأبديّة، روحك يتمللم كطائر سجين يود أن ينطلق، العالم ملتقى خرابات يستعذب عنه الرحيل، لكنك حتى إذا صحّ عندك أن الشفاء تلاقت في قبلة وردية فلن تُعدم في دوامة الجنون لذّة الحرّة المطلقة، وسأله مدفوعاً برغبة انتحارية لم يستطع مقاومتها فضلاً عن فهمها:

- كيف إذن توافق على اختلاطها بأصدقاء حسين؟ تريث حسن قليلاً قبل أن يجيب قائلاً:

- لعلّي لا أرتاح إلى ذلك كلّ الارتياح، ولكنّي لا أجد فيه مأخذاً وهي تمارسه على مرأى من أخيها ومن الجميع ويحكم تربيتها الأوربية، ولا أخفي عليك أنّي فكرت أحياناً في مكاشفتها بامتعاضي ولكنّي كرهت أن ترميني بالغيرة، وكم تودّ لو تثير غيقي! أنت تعرف طبعاً هذه الحيل النسائية وأعترف لك بأنّي لا أستسيغها...

لا عجب أنّ إثبات دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس قد أطاح بأوهام ودوخ رءوساً.

- كأنّها تتعمّد مضايقتك!

فقال حسن بلهجته الناطقة بالثقة:

- على أنّه في وسعي دائماً أن أحملها على الإذعان لمشيئتي إذا أردت!

أثارته هذه الجملة واللّهجة التي قيلت بها إلى حدّ الجنون، وتمنّى لو يجد سبباً يعتلّ به على ضربه ليمرّغه - وإنّه لقادر - في التراب، ولحظه من علّ فلاح له الفارق بين طوليهما أكثر من الواقع بكثير، لم لم تحبّ أيضاً الذي دونها سنّاً وآمن قلبه بأنّه خسر الدنيا.

مثل ما يكنّه لها قلبك، إن صحّ أنّ هذا من الممكنات فأحرى بالعالم أن يتصدّع، ليس صاحبك بكاذب لأنّ النبيل الجميل لا يكذب، قصارى أملك أن يكون حبّها من جنس خلاف حبّك، وإذا لم يكن من الفاجعة بدّ فمن العزاء أن يكون حسن هو المحبوب، من العزاء أيضاً أنّ الحزن والغيرة لا يطمسان الحقيقة أمام عينيك، هذا الغنى الساحر العجيب! قال كالذي يضغظ على زناد المسدّس وهو يعلم أنّه فارغ:

- يبدو أنّك مطمئنّ إلى أنّها تحبّ - هذه المرّة - الشخص نفسه لا حبّ الشخص لها!

فندّت عنه «هه» مرّة أخرى ليعرب بها عن ثقته. ولمحه بنظرة سريعة ليرى مدى إيمانه بما يقول، ثمّ قال:

- لم يكن حديثنا قطّ - أنا وهي - من النوع الذي يحتمل معنيين!

أيّ نوع من الحديث هو؟ حياتي كلّها أهبها ثمناً لكلمة منه، أعرف الحقيقة كلّها وأتجرّع العذاب حتى الثمالة، ترى هل سمع الصوت المطرب وهو يقول له «أحبّك»؟ بالفرنسيّة قالها أم بالعربيّة؟ بمثل هذا العذاب تشتعل النيران، قال بهدوء:

- أهنتك، كلاهما فيما أرى جدير بصاحبه!

- شكراً...

- غير أنّي أتساءل عمّا دعاك إلى الإفضاء إلّى بهذا السرّ الثمين؟

فرفع حاجبيه حسن، وهو يقول:

- لمّا وجدتكما تتحدّثان على انفراد أشفقت أن تُخدع ببعض القول كما تُخدع كثيرون، فصمّمت على مصارحتك بالحقيقة، لأنّي كرهت فكرة انخداعك أنت بالذات...

غمغم كمال قائلاً «شكراً» تأثراً بالعطف السامي، عطف الشاب الموهوب الذي تحبه عابدة، الذي كره له الانخداع فقتله بالحقيقة، ترى ألم تكن أوهام الغيرة بين البواعث التي أغرته بمصارحته بسرّه؟ ولكن أليس له عينان يرى بهما رأسه وأنفه؟! استطرد حسن قائلاً:

- إنّها ووالدتها كثيراً ما تزوران بيتنا، وهناك تسنح



له بيدها المطلقة، فتقدم منها ليأخذها بين ذراعيه، ولكن عائدة جذبتها نحوها وهي تقول: «أَنْ لَنَا أَنْ نذهب»، ثم حَيْثُهم ومضت إلى حال سبيلها!

آه، ما معنى هذا؟ إِنَّ عائدة غضبانة عليه وما أرادت بمجيئها إِلَّا أَنْ تعالنه بغضبها، ولكن فيم آخذته؟ أيّ ذنب جنى؟ أيّ هفوة كبيرة أو صغيرة أتى؟ يا لها من حيرة هزّت بمنطقه وشئتت يقينه، بيد أنه قبض على زمام نفسه بيد قوّة أن تفضحه شجونه، وكان على ضبط النفس قادراً، فمثل دوره المؤلف تمثيلاً حسناً ووارى أثر الضربة القاصمة عن أعين الصحاب، وقال لنفسه بعد تقوُّض المجلس: إِنَّه يحسن به أن يواجه الحقيقة مهما تكن قاسية، وأن يسلم بأن عائدة حرمة - اليوم على الأقل - من نعمة صداقتها... إِنَّ في قلبه العاشق مسجلاً كهربائياً دقيقاً لا يترك للحبيب همسة أو خطرة أو لمحة إِلَّا سجلها.

حتى النوايا يطلع عليها وحتى الآتي البعيد يتندهه، ليكون السبب ما يكون أو ليكون الأمر بلا سبب كمرض استعصى على الطب سرّه، فإنّه في الحالين يرى كأنه ورقة شجر انتزعته ريح عاتية من فتن غصن وألقت بها في غثّ النفايات.

ووجد فكره يحوم حول حسن سليم، ألم يختم حديثه معه بقوله «على أنّه في وسعي دائماً أن أحملها على الإذعان لمشيئتي إذا أردت؟» ولكنها جاءت اليوم كعادتها، إِنَّ بلواه من تجاهلها إيّاه لا من غيابها، ثمّ إنه وحسن افتراقاً على صفاء، وليس ثمة ما يدعو حسن إلى مطالبتها بتجاهله، وليست هي بالتي تمتثل أمر إنسان مهما يكن شأنه، وليس هو بالذنب، فما سرّ التجنّي يا ربّ السواوات؟ إِنَّ لقاء الكشك - بينه وبينها - على قسوته وعبه الجارح برأسه وأنفه وكرامته لم يخلُ من مودة ودعابة ثمّ ختم بما يشبه الاعتذار، ربّما يكون قد قضى على أمله في الحبّ ولكنه لم يكن في حبه أمل، أمّا لقاء اليوم فابتلاه بالتجاهل، بالنبد، بالصمت، بالموت، ولأنّ يحفو الحبيب أو يقسو خير على أيّ حال من أن يمرّ بعابده وكأنه شيء لم يكن، يا للتعاسة! ألم جديد يضاف إلى معجم الآلام الذي

ودعاه حسن إلى تناول الغداء على مائدته، فاعتذر شاكرًا، ثمّ تصافحا وافترقا.

عاد فاطر النفس مثقل القلب بالقنوط، وكان يودّ أن يخلو إلى نفسه ليحتضن أحداث يومه متأملاً حتى يستصفي معانيها كلّها، بدت الحياة متلفعة بشوب حداد، ولكن ألم يكن يعلم من أول الأمر أنّ هذا الحبّ ضائع؟ فأيّ جديد جلبت به الحوادث؟ على أيّ حال ليكن عزّاه أنّ الآخرين يتكلمون عن الحبّ، أمّا هو فيحبّ ملء قلبه. إِنَّ الحبّ الذي ينور روحه لا يستطيعه أحد سواه، فهذا هو امتيازه وتفوّقه، ولن يتخلّى عن حلمه القديم بأن يظفر بمعبودته في الساء، في الساء حيث لا فوارق مصطنعة ولا رأس كبير ولا أنف غليظ، في الساء ستكون عائدة لي وحدي بحكم قوانين الساء...

## - ٢٠ -

كأنه لم يعد له وجود، تجاهلته بحال لا يمكن أن يتأتّى إِلَّا عن تعمد، فطن إلى ذلك أول ما فطن إليه صباح الجمعة التالي - بعد مضيّ أسبوع على حديث حسن سليم بشارع السرايات - في اجتماع الأصدقاء بكشك الحديقة بسراي آل شدّاد. كانوا يتحدثون فجاءت عائدة كعادتها مصطحبة بدور، لبثت عندهم قليلاً تخاطب هذا وتداعب ذاك دون أن تعيره التفاتاً، فظنّ أول وهلة أنّ دوره سيجيء. ولكن طال به الترقب، ولاحظ إلى هذا أنّ عينيها لا تريدان أن تلتقيا بعينيّه أو لعلهما تجتنباه فخرج عن موقفه السلبي واعترض حديثها بملاحظة عابرة ليحملها على غخطبته، ولكنها واصلت الحديث متجاهلة إيّاه، ومع أنّ أحداً لم يتنبّه فيما بدا إلى مناوئته الفاشلة - لانهاكهم في الحديث المحبوب - فإنّ ذلك لم يخفّف من وقع اللطمة التي تلقّاها من غير أن يدرك لها سبباً، غير أنّه مال إلى تكذيب ما قام بنفسه ودارى شكوكه، وجعل يتحيّن الفرص لتجربة حقله من جديد وهو من الإشفاق في غاية، وإذا بدور تحاول الإفلات من يد عائدة ملوحة

على غير انتظار وبلا سبب كما غضب على غير انتظار وبلا سبب؟ أو أنه يستريد من الجحيم ناراً ظمأً إلى برودة الرماد؟! سار في ممر الذكريات إلى الحديقة، وإذا به يرى عابدة جالسة على كرسي واضعة بدور على حافة المائدة أمامها، وليس في الكشك سواها أحداً! توقّف عن المسير وفكّر في العودة إلى الخلوّج قبل أن تلتفت ناحيته، ولكنه نبذ هذه الفكرة بشحّ وازدراء، وتقدّم صوب الكشك تدفعه رغبة شديدة في مواجهة العذاب وكشف النقاب عن اللغز الذي فتك بأمّنه وسلامه، هذا الكائن اللطيف الجميل، هذا الروح الشفاف المتنكر في فستان امرأة، هل يدري ماذا فعل به جفاه؟ هل ينام ضميره قرير العين لو شكا إليه ما عاناه، ما أشبه استبداده باستبداد الشمس بالأرض الذي قضى عليها بأن تدور حولها في دائرة مرسومة - لا تقرب منها فتندمج ولا تبتعد عنها فتنتهي - إلى الأبد! لو تجوّد بابتسامة فيندأوى بها من آلامه جميعاً؟! وكان يقرب منها متعمداً أن يحدث في مشيته صوتاً لتنبيهها، فادارت رأسها نحوه كالتسائلة، ثم لم تنصح أساريرها عن شيء، فوقف على بعد ذراعين من مجلسها، وحنى رأسه في خشوع، وقال باسماً:

- صباح الخير...

فحنت رأسها حنوة صغيرة، ولكنها لم تنبس، ثم نظرت فيها أمامها.

لم يعد ثمة شك في أنّ الأمل جنة هادمة، وخيل إليه أنّها ستصبح به «أذهب عني برأسك وأنفك حتّى لا يحجبا عني ضوء الشمس!»، غير أنّ بدور لوّحت له بيدها، فمالت عيناه إلى وجهها الجميل المشرق ومضى نحوها ليداري في عطفها البريء هزيمته فتعلقت بذراعيه، فهوى رأسه إليها وقبّل خدّها قبله حنان وامتنان، وإذا بالصوت الذي فتح له فيها مضى أبواب الموسيقى الإلهية يقول بجفاه:

- من فضلك لا تقبلها، القبلة تحية غير صحيّة...!

نذت عنه ضحكة حائرة لم يدرك كيف ولا لم نذت، ثم امتنع لونه، وبعد دقيقة واجمة ذاهلة قال منكرًا:

يحمّله على صدره، ضريبة جديدة للحب، وما أفدح ضرائبه، يؤدّي بها ثمن النور الذي يضيئه ويحرّقه.

واحتقن بالغضب صدره، عزّ عليه جدّاً ألا يحظى على حبّه العظيم إلا بهذا الإعراض البارد المتعجرف، وحزّ في نفسه ألا يتمخض غضبه إلا عن الحبّ والولاء، وألا يردّ اللطمة إلا بالابتهاال والدعاء، ولو كان المتجنّي عليها شخصاً آخر ولو كان حسين شدّاد نفسه لقطعه دون تردّد، أمّا وهو المعبود فقد رُدّت شظايا الغضب إلى نحره، وانصبت العداوة على هدف واحد هو نفسه، فنزعت به الرغبة في الانتقام إلى إنزال العقاب بالجاني - الذي هو نفسه - قضى عليها بالحرمان من الدنيا، وامتلأ بشعور عنيد محزون أملى عليه الإعراض عنها إلى الأبد! رضي فيها رضي بصداقتها، بل اعتبرها فوق أحلام مطعمه بالرغم من أنّ قوّة حبّه تضيق عنها السماوات والأرض، ورضي أكثر من هذا باليأس من حبّها قائماً من عريضة الأمانى بابتسامة حلوة أو كلمة رقيقة ولو تكون ابتسامة الوداع وكلمته، غير أنّ التجاهل أحزنه وأذهله وخبله ثمّ من الدنيا جميعاً نبذه، ولعلّه أتاح له أن يشعر بشعور الميت لو كان ميت يشعر، لم ترحمه الفكر ساعة من ساعات يقظته طول الأسبوع الذي قضاه بعيداً عن قصر آل شدّاد، وتهالك شعوره في اجترار الحية التي قرعته لحظة بعد أخرى، وهو في البيت صباحاً يفطر على مائدة أبيه، وهو في الطريق يسير بحواسّ زائفة، وهو في مدرسة المعلمين يسمع بعقل غائب، وهو يقرأ مساء بانتباه مشتت، وهو يتذلّل للنوم كي يقبله في ملكوته، ثمّ وهو يفتح عينيه في الصباح الباكر فإذا بالفكر تتخاطفه كأنما كانت على عتبة الوعي ترصده أو كأنما هي التي طرقت بجزع النهم كي تواصل التهامه كزّة أخرى، ألا ما أفضّل النّفس إذا خانت صاحبها!...

ويوم الجمعة ذهب إلى قصر الحبّ والعذاب، فبلغه قبل الميعاد المعتاد بقليل. لماذا ترقّب هذا اليوم بصبر نافذ؟ ماذا يرجو عنده؟ هل يطمح أن يجد ولو نبضاً بطيئاً ضعيفاً ليوهم نفسه بأنّ جنة الأمل لم تفارقها الحياة بعد؟ هل يحلم بمعجزة تردّ معبوده إلى الرضى

- إنها ليست القبلية الأولى فيها أذكرا

فرفعت كتفها كأنما تقول «هذا لا يغير من الحقيقة شيئاً». آه، أيمضي إلى أسبوع جديد من العذاب دون أن ينطق بكلمة دفاعاً عن نفسه؟

- اسمحي لي أن أتساءل عن سرّ هذا التغير الغريب، فقد جعلت أتساءل عنه طوال الأسبوع الماضي دون أن أظفر بجواب؟

لم يبدُ عليها أنها سمعته، وبالتالي لم تعنَ بالردّ عليه، فعاد يقول وقد وشتى صوته بحيرته وألمه:

- إن ما يميزني حقاً هو أنّي بريء لم أجنّ ما أستحقّ عليه العقاب!

ولم تنزل مصرةً على الصمت، فخاف أن يبيء حسين قبل أن يستدرجها إلى الكلام، فبادر يقول بلهجة جمعت بين التشكي والترحي:

- ألا يستحقّ صديق قديم مثلي أن يكشف على الأقلّ بذنبه؟

فرفعت نحوه جانب رأسها، ولحظته بنظرة مكفّهرة اكفهرار السحاب المنذر بالمطر، ثم قالت بلهجة غاضبة:

- لا تدعِ البراءة الكاذبة...

يا ربّ السماوات هل تُرتكب الذنوب بلا وعي من الجاني؟ قال في نبرات متدافعة، وهو يرتّب بحركة آليّة يديّ بدور التي حاولت أن تجذبه إليها وهي لا تدرك ممّا يدور شيئاً:

- صدقت ظنوني وأسفاه! هذا ما حدّثني به قلبي فكذبته، إنّني مذنب في نظرك، أليس كذلك؟ ولكن بأيّ ذنب تتهميني؟ خبريني وحياتك، لا تنتظري أن أكون البادئ بالاعتراف لسبب بسيط، وهو أنّني لم أجنّ شيئاً يستحقّ الاعتراف، مهما أنقّب في زوايا نفسي وحياتي وتاريخي فلن أعرّ على نية أو كلمة أو فعل وجّه صدك بسوء، إنّني أعجب كيف لا تأخذين هذا مأخذ البديهيّات من الأمور؟

فقال بازدياء:

- لست بمن يؤثّر فيهنّ التمثيل، سل نفسك عمّا قلت عني!

فقال بانزعاج:

- ماذا قلت عنك؟ ولبن قلته؟ أقسم لك... فقاطعته بضيق قائلة:

- لا يهمني القسم في كثير أو قليل، وقره لنفسك، إنّ الذي يغتاب الناس لا يؤثّر على قسم، المهم أن تذكر ماذا قلت عني...

رمى بمعطفه على مقعد كأنما ليأخذ كامل أهبتة للنضال، وابتعد خطوة عن بدور ليتخلّص من محاولتها البريئة في الاستئثار بانتباهه، ثم قال بحرارة ناطقة بالصدق:

- لم أقل عنك كلمة أخجل من إعادتها الآن على مسمّعك، لم أتفوّه عنك بكلمة سوء في حياتي وما كان ذلك في وسعي لو تعلمين، وإذا كان «بعضهم» قد أبلغك عني ما أغضبك، فهو واثق لا يستحقّ ثقتك، وإنّي على استعداد لمواجهة أمامك لتري بنفسك مبلغ صدقه أو بالحرّي مدى كذبه. ماذا بك من عيب حتّى أتحدّث به؟ لشدّ ما أسأت بي الظنّ! فالتت بهتّم:

- شكراً على هذا الثناء الذي لا أستحقّه، لا أظنني أخلو من نقص، على الأقلّ فإنّي لم أتلثّ تربية شرقيّة خالصة!

نشبت هذه الجملة الأخيرة في انتباهه، فذكر كيف وردت على لسانه وهو يحاور حسن سليم دافعاً الشبهات عن معبودته، فهل يكون حسن أعادها بطريقة أثارت الشكّ في حُسن مقصده؟ حسن سليم النبيل؟ هل يتأتّى هذا حقّاً؟ شدّ ما يدور رأسه! قال وعينه تنطقان بالدهش والأسف:

- ماذا تقصدين؟ اعترف لك بأنّي قاتل هذه الجملة، ولكن سلي حسن سليم يخبرك، أو ينبغي له أن يخبرك، بأنّي قتلها وأنا أنوء بمزايك...

فحدجته بنظرة باردة، وتساءلت:

- مزايي؟ وهل رغبت في أن أكون «فتاة أحلام» كلّ شاب من بين هذه المزاي؟

فهتف كمال بانزعاج وغيظ:

- هو قاتل هذا عنك لا أنا، هلاً انتظرت حتّى

يحضر لأخذاه أمامك؟! ...

فواصلت تساؤلها الذي تتابع في مرارة وسخرية  
قائلة:

- وهل ملاطفتي إياك من بين هذه المزايا أيضًا؟

قال يائسًا وقد عجز، حيال انصباب التهم، عن  
الدفاع:

- ملاطفتك إياي؟! أين؟ ومتى؟

- في هذا الكشك؟! هل نسيت؟! أتُنكر أنك  
أوهمت ذلك؟!!

آلتها سخريتها وهي تتساءل «هل نسيت؟!» وأدرك  
لنوه أن حسن سليم - يا للحماقة - قد ظنّ بلقاء  
الكشك الظنون، فكاشف حبيته بشكوكه أو نسبها  
إليه ليتحقق منها... جيل خبيثة راح هو ضحيتها!  
قال بحزن وحقن:

- أنكر، أنكر بكلّ قوة وصدق، إني نادم على حُسن  
ظنيّ بحسن!

فقالت بكبرياء، كأنما اعتبرت جملته الأخيرة موجّهة  
إليها هي:

- إنه عند حُسن الظنّ دائمًا...

زفر غبارًا، وخيل إليه أن أبا الهول قد رفع قبضته  
الجرانيتية الهائلة التي لم تتحرك منذ آلاف السنين، ثم  
هوى بها عليه، فهرسه وواراه تحتها إلى الأبد، قال  
بصوت متهدج:

- إذا كان حسن هو الذي أبلغك عني هذه  
الأكاذيب فهو كاذب وضيع، ويكون هو الذي اغتابني  
لا أنا الذي اغتبتك...

لاحت في عينيها الجميلتين نظرة قاسية، وتساءلت  
بحدة:

- أتُنكر أنك انتقدت أمامه اختلاطي بأصدقاء  
حسن؟!!

أهكذا يحرف النبيل الأرستقراطي الكلام؟! قال  
بتأثر شديد:

- كلاً، لم يحصل ذلك، علم الله أنني لم أقله  
منتقداً، ولكنّه ادّعى ادّعاءات كبيرة، قال... قال  
إنك تحبّينه! وقال إنه إن شاء منعك من الاختلاط بنا!

ولم أكن أقصد...

قاطعته قائلة بازدياد وهي تقف منتصبّة القامة في  
كبرياء، حتّى تموجت هالة شعرها الأسود بحركة رأسها  
المرفوع:

- أنت تهذي! لا يهمني ما يقال عني، إني فوق هذا  
كلّه، ولا خطأ لي فيها أعتقد إلّا أنني أهب صداقتي  
دون تمييز...

وانزلت بدور إلى الأرض وهي تتكلم، فتناولت  
يدها ثمّ ولّته ظهرها، وغادرت الكشك، فهتف بها  
متوسلاً:

- انتظري لحظة من فضلك كي...

ولكنّها كانت قد ابتعدت، وكان صوته قد علا أكثر  
ثمّا ينبغي حتّى خيل إليه أنّه أسمع الحديقة كلّها، وأنّ  
الأشجار والكشك والكراسيّ ترمقه بنظرة جامدة  
ساخرة، فأطبق فاه واعتمد براحتيه حافة المائدة، فقال  
فرعه الطويل كأنما انحنى تحت ضغط القهر، لم يحكث  
وحده طويلاً، فما لبث أن جاء حسن شذاد طلق  
المحيّا كعادته، فحيّاه تحيّة الصافية الحلوة وجلسا على  
كرسيّين متجاورين، وتبعه بعد قليل إسماعيل لطيف،  
وأخيراً جاء حسن سليم يسير في خطواته المتمهّلة  
وحركاته المترقّعة. وتساءل كمال في حيرة: ترى ألم  
يلمحها حسن من بعيد كما لمحها في المرّة السابقة؟  
ومتى - وكيف - يدري بما دار بينهما من حديث قاطع  
أسيف! وانفجر في صدره الغيظ والغيرة كما تنفجر  
الزائدة، بيد أنّه آلى على نفسه ألاّ يُشمت به غريباً،  
وألاّ يضع شخصه موضع السخرية أو العطف  
الزائف، وألاّ يميّز أحداً من أن يطالع في صفحة  
وجهه أثراً ممّا تضطرب به جوانحه، فألقى بنفسه في  
تيار الحديث، ضحك للملاحظات إسماعيل لطيف،  
وعلق طويلاً على تكوّن حزب الاتحاد وخروج  
الخارجين على سعد زغلول والوفد ودور نشأت باشا في  
هذا كلّ، بالاختصار ممثّل دوره خير تمثيل حتّى انفضّ  
المجلس بسلام، وغادر كمال وإسماعيل وحسن سراي  
آل شذاد عند الظهر، وكان كمال لم يعد يحتمل مزيداً  
من الصبر، فخطب حسن قائلاً:

- أريد أن أحدثك قليلاً...  
فقال حسن بهدوء:  
- تفضل...  
فنظر كمال إلى إسماعيل كالمعتذر، وقال:  
- على انفراد!  
هم إسماعيل بالانسحاب، فوقفه حسن بإشارة من يده، وقال:  
- لست أخفي عن إسماعيل شيئاً...  
فأحسنته هذه الحركة فاستشف وراءها مريباً يتوجس، غير أنه قال دون مبالاة:  
- إذن فليسمعنا، فلست أخفي عنه شيئاً أيضاً...  
وانتظر قليلاً حتى باعد المشي بينهم وبين سراي آل شداد، ثم قال:  
- قبل حضوركم اليوم اتفق لي أن قابلت عايدة في الكشك على انفراد، فدار بيننا حديث غريب أدركت منه أنك نقلت إليها بعض حديثنا في شارع السرايات - أتذكره؟ - مشوهاً مخوفاً حتى دخل في روعها أنني حملت عليها حملة ظالمة باغية...  
رد حسن بين شفتين تمتعضتين لفظي «مشوّه ومخوّف» ثم قال ببرود وهو يلقي عليه نظرة كأنما يريد بها أن يذكره بأنه إنما يخاطب «حسن سليم» لا شخصاً آخر:  
- يحسن بك أن تكلف نفسك بعض الجهد في تخيير الألفاظ...  
فقال كمال بانفعال:  
- هذا ما فعلته! فالحق أن كلامها لم يدع لي شكاً في أنك أردت الوقعة بيني وبينها!  
حال لون حسن غضباً، ولكنه لم يستسلم له، فقال بصوت أمعن في البرود:  
- يؤسفني أنني أحسن الظن طويلاً بفهمك وتقديرك للأمور (ثم بلهجة ساخرة) هلاً أخبرني عما عسى أن أجنّيه من وراء هذه الوقعة المزعومة؟! الحق أنك تندفع بلا روية أو عقل...  
فاشتد الغضب بكمال، وهتف قائلاً:  
- بل سؤلت لك نفسك سلوكاً شائناً...!
- وهنا تدخل إسماعيل قائلاً:  
- إني أقترح عليكما تأجيل الحديث إلى وقت آخر تكونان فيه أملك لأعصابكما!  
فقال كمال بإصرار:  
- إن الأمر من الجلاء بحيث لا يحتاج إلى مناقشة، وهو عارف وأنا عارف!  
فعاد إسماعيل يقول:  
- قص علينا ما دار في الكشك بينك وبينها لعنا...  
ولكن حسن قال بكبرياء:  
- أنا لا أقبل عاكمة...!  
فهتف كمال متفصلاً عن غيظه، وإن كان يعلم أنه من الكاذبين:  
- على أي حال أخبرتها بالحقيقة لتعلم أننا أصدق قولاً!  
فصاح حسن بوجه ممتنع:  
- فلندعها توازن بين ما قال ابن التاجر وما قال ابن المستشار!  
اندفع كمال نحوه مكوراً قبضته فحال إسماعيل بينهما، وكان أقوى الثلاثة رغم صالة حجمه، ثم قال بحزم:  
- لا أسمح بهذا، كلاكما صديق، محترم ابن محترم، دعانا من هذا العبث الخليق بالأطفال...  
عاد ثائراً هائجاً جريماً يقطع الطريق بخطوات حادة اعتدائية وباطنه يستعر بالآلم، طعن في قلبه وكرامته، معبودته وأبيه، فما بقي له في الدنيا؟! وحسن، الذي لم يحترم زميلاً كما أحترمه ولا أعجب بخلق أحد كما أعجب بخلقه، كيف انقلب في ساعة من الزمان وقاعاً سباً؟! الحق أنه رغم حنقه عليه لم يستطع أن يؤمن بالتهمة التي اتهمه بها إيماناً خالصاً من كل شك أو تردد، فلم يزل يعاوده التفكير في الأمر، فيسائل نفسه: ألا يجوز أن يكون من وراء ذلك الموقف الأليم ما وراءه من أسرار؟! أليكون حسن شوّه كلامه، أم تكون عايدة قد أساءت الفهم أو بالغت في التكهن أو استسلمت للغضب؟ غير أن الموازنة بين ابن التاجر

بل عن الحيّ كلّهُ، بل عن الدنيا كلّها فما عاد يجد لها طعمًا، أيمن أن يطول هَذَا الفراق إلى ما لا نهاية؟... ودّ لو كان قصدها أن تعاقبه حينًا ثمّ تعفو، أو في الأقلّ أن يذكر حسين شَدَاد سببًا لغياها يكذب مخاوفه، ودّ هذا أو ذاك كثيرًا، وانتظر وطال انتظاره بلا فائدة.

كان إذا مضى لزيارة السراي أقبل عليها بعينين تلتفتين تضطربان في محرجيهما بين اليأس والرجاء، فيسترق إلى شرفة المدخل نظرة، وإلى نافذة الممرّ الجانبيّ نظرة، ثمّ يلحظ شرفة الحديقة وهو في طريق الكشك أو السلامك، ويجلس بين الأصدقاء ليحلم طويلًا بالمفاجأة السعيدة التي لا تريد أن تقع، وينفضّ المجلس فيغادره ليختلس نظرات متعبّة حزينة من النافذة والشرفات، خاصّة نافذة الممرّ الجانبيّ التي كثيرًا ما تظهر في أحلام يقظته إطارًا للصورة المعبودة، ثمّ يذهب متجرّعًا اليأس زافرًا الكرب، وبلغ به اليأس أن كاد يسأل حسين شَدَاد عن سرّ اختفاء عايدة، غير أنّ تقاليد الحيّ العتيق الذي تشبّع بها عقلته فلم ينطق، وجعل يتساءل في قلق عن مدى إلام حسين بالظروف التي أدّت إلى توارى المعبودة، أمّا حسن سليم فلم يشر إلى «الماضي» بكلمة ولم يبدُ في صفحة وجهه أنّه يفكر على أيّ وجه فيه، ولكن لا شكّ أنّه كان يرى في كلّ جلسة تجمعهم شاهدًا على هزيمته - كمال - المجسّمة، وكم كان يتألم كمال لهذا الخاطر، تعذب كثيرًا، شعر بالعذاب ينفذ إلى نخاعه، وبهذيان العذاب يخالط عقله، وكان شرّ ما يعذّبه لوعة الفراق ومرارة الهزيمة وضيق اليأس، وأفطع من هذا كلّهُ الإحساس بالهوان، بأنّه المنبوذ من روضة الرضى، المحروم من أنغام المعبود وأضوائه، فجعل يردّد وروحه تذرّف دموع الأسى والقهر «أين أنت من أولئك السعداء أيّها المخلوق المشوّه»، ما معنى الحياة إن أصرت على الاختفاء؟ أين تجد عيناه النور؟ وتتلقّى قلبه الحرارة؟ وتنعم بروحه بالغبطة؟ فلتبّد المعبودة بأيّ ثمن ترضاه، فلتبّد لتحبّ من تشاء حسن كان أو غيره، فلتبّد، ولتهزأ برأسه وأنفه ما شاء لها المزاح

وابن المستشار رمت به في جحيم من الغضب والألم جعلًا من محاولة إنصاف حسن ضربًا من العيث. وقد ذهب بعد ذلك إلى سراي آل شَدَاد في موعد اللقاء المعهود، فوجد حسن معتذرًا عن التخلف بطاري، وأخبره إسماعيل لطيف عقب انفضاض المجلس: بأنّه - حسن - آسف جدًّا على ما بدر منه حين الغضب عن «ابن التاجر وابن المستشار»، وأنّه مؤمن بأنّه - كمال - ظلمه ظلمًا فادحًا باستنتاجاته الواهمة وأنّه يرجو ألا تقطع هذه الحادثة العارضة أسباب الصداقة بينهما، وأنّه - حسن - كلّفه بإبلاغه ذلك عن لسانه، ثمّ تلقى منه خطابًا بهذا المعنى مشدّدًا الرجاء في ألا يعودا إلى الماضي إذا تلاقيا وأن يسدلا عليه ستار النسيان، وختمه بقوله «أذكر جملة ما أسأت به إليّ وجملة ما أسأت به إليك لعلك تقتنع معي بأنّ كلانا مخطئ وأنّه لا يصحّ لأحدنا تبًا لذلك أن يرفض اعتذار صاحبه!». وطابت نفس كمال بالرسالة حينًا، بيد أنّه لاحظ أنّ ثمة تناقضًا بين كبرياء حسن المعروف وبين هذا الاعتذار الرقيق غير المتوقع، أجل غير المتوقع!! فما كان يتصور أنّه يعتذر لأيّ سبب من الأسباب؟ فإذا غيرّه؟ لا يمكن أن يكون لصداقته هو هذا التأثير الضخم في كبرياء صاحبه، فلعلّه - حسن - أراد أن يستردّ سمعته المهذّبة أكثر ممّا أراد استرداد صداقته، ولعلّه حرص أيضًا على ألا يستفحل الشقاق فتترامى أنباؤه إلى حسين شَدَاد أن يستاء الشاب لموقف شقيقته من النزاع أو يغضب بدوره إذا بلغه ما قيل عن ابن التاجر - وهو ابن تاجر - وابن المستشار! أيّ سبب من أولئك له وجاهته وهو أدنى إلى المنطق في حال حسن من اعتذار لا يراد به إلّا وجه الصداقة وحدها؟! كلّ شيء يهون، فليصالحه حسن أو فليخاصمه، المهمّ حقًا أن يعرف هل قرّرت عايدة الاختفاء؟ لم تعد تطوف بمجلسهم، أو تبدو في النافذة، أو تلوح في الشرفة. لقد أفشى لها قول حسن بأنّه إذا شاء منعها من الاختلاط بأحد ليضمن - اعتمادًا على كبريائها - إصرارها على زيارة الكشك فلا يُجرم من رؤيتها. لكنّها اختفت رغم ذلك، كأنما رحلت عن البيت كلّهُ،

إنسان هو أعرف بطفولة معبودته من هذه الأم السعيدة المقدسة! سوف تبقى الألام ما بقي في متاهة الحياة أو في الأقل لن تمحي آثارها. أين تذهب ليالي يناير الطوال وهو دافن في الوسادة عينيه الدامعتين؟ وبسط راحتيه إلى ربّ السواوات وهو يدعو من الأعماق «اللهم قل لهذا الحب كُنْ رماً كما قلت لنار إبراهيم كوني برّداً وسلاماً؟! وتمنّيه لو كان للحب مركز معروف في الكائن البشري لعلّه يستره كما يُستر العضو النائر بالجراحة؟ وهتافه باسمها المحبوب ليتلقّى صدها في سكون الحجرة الصامتة بقلب خاشع كأنما كان غيره المتأذى؟ ومحاكاته لصوتها حينما دعت باسمه ليستعيد حلم السعادة المفقودة؟ وتقليبه البصر في كرامة الذكريات للتثبت من أنّ ما كان حقيقة لا وهماً من الخيال؟!

ولأول مرة منذ أعوام تطلّع إلى ما قبل الحب من الماضي بلهفة كما يتطلّع السجين إلى ذكريات الحرية الضائعة، أجل لم يتصور شخصاً هو أشبه بحاله من السجين، غير أنّ قضبان السجن بدت أطوع للتخيط وأرقّ أمام الزمام من أغلال الحب الأثيرية التي تستأثر المشاعر في القلب والأفكار في العقل والأعصاب في الجسد ثم لا تؤذن بالتحلل، ووجد نفسه يوماً يتساءل: ترى هل ذاق فهمي مثل هذا العذاب الذي يعاينه؟ وهفّت عليه ذكريات أخيه الراحل مثل لحن كامن حزين. تنهّد في أعماق النفس. فذكر كيف قصّ يوماً على مسمعه مغامرة مريم مع جولبون، فأغمد خنجرًا مسمومًا في قلبه بلا حيلة أو حذر. وجعل يستحضر في ذاكرته وجه فهمي، فتخيّل إليه هدوءه الذي انخدع به وقتذاك، ثمّ تصوّر تقلّصات الألم في قسياته الجميلة حين خلا إلى نفسه، ومناجاته الشاكية التي لا شك غرق فيها كما هو يفرق الآن في تأوهات وأنيته. فشعر بغمز في قلبه وراح يقول: لقد عانى فهمي ما هو أشدّ من الرصاص قبل أن يستقرّ الرصاص في صدره! ومن عجب أنّه وجد في الحياة السياسية صورة مكبرة لحياته. فكان يطالع أنباءها في الصحف وكأنما يطالع مواقف ممّا مرّ به في بين

واللعب، إنّ اشتياقه إلى اجتلاء طلعتها وسباع صوتها فاق طاقة النفس على الاشتياق، فأين منه نظرة رانية لتمسح عن صدره سخام الكآبة والوحشة، ولتسرّ قلباً أمسى مفتقد السرور منه كالنور من فقيد البصر، فلتبذّر وإن تتجاهله، فإنّه إن خسر سعادة القبول عندها فلن تضيع سعادة رؤيتها ورؤية الدنيا بعد ذلك في مجتلى ضوئها البهيج، أمّا بغير ذلك فلن تكون الحياة إلّا لحظات متصلة من الألم المخلخل بالجنون، وهل كان خروجها من حياته إلّا كخروج العمود الفقري من الجسم الإنساني يرده من بعد توازن وتكامل إلى شبه جثة ناطقة؟

وأخرجه الألم والقلق عن الصبر، فلم يعد يحتمل الانتظار حتّى يجيء يوم الجمعة فكان يذهب مع الأصدقاء إلى العباسية فيحوم حول السراي من بعيد لعلّه يلمحها في نافذة أو شرفة أو في خطراتها وهي تظنّ أنّها بمنأى عن عينيه، على أنّ الانتظار في بين القصرين كان من فضائل اليأس بخلاف حومان المحموم حول مقام المعبودة، كحومان مجموعة من الديناميت حول عمود من النيران. لم يرها، ولكنّه رأى مرّات أحد الخدم وهو ذاهب إلى الطريق أو عائد منه، فكان يُتبعه عينا متفحصة متعجّبة كأنما تُسائل المقادير عمّا جعلها تخصّ هذا الإنسان بحظوة القرب من المعبودة والاختلاط بها والاطّلاع على شئ أحوالها، مستلقية أو مترنمة أو لاهية، كلّ ذلك من حظّ هذا الإنسان الذي يعيش في المحراب ولا تشغل قلبه العبادة!

وفي جولة من جولاته رأى عبد الحميد بك شدّاد وحرمة المصون وهما يغادران القصر ليركبا المنرفا التي كانت في انتظارهما أمام الباب، رأى الشخصيتين السعيدين اللذين تقف عابدة أمامهما - من دون العالمين - بإجلال واحترام، اللذين يخاطبانهما بلسان الأمر أحياناً فلا تملك إلّا أن تطيع! وهذه الأم المقدسة التي حملتها في بطنها تسعة أشهر، فما من رب في أنّ عابدة كانت جنيّاً فوليدة كتلك المخلوقات التي كان يرنو إليها طويلاً في فراشي عائشة وخديجة. وليس من

على كئيبتين متقابلتين، وكانت الوجوه جادة، وكانت خديجة متجهمّة، وكانوا يتبادلون نظرات ذات معنى، ولكنّ أحداً منهم لم يشأ أن يطرق الأمر الذي جمعهم حتّى قالت خديجة بنبرة شاكية حانقة معاً:

- هذه المنازعات تقع في كلّ بيت، هكذا كانت الدنيا منذ خلقها ربّنا وليس معنى هذا أن ننشر متاعبنا على الناس، خصوصاً أولئك الذين لا ينبغي أن يشغلوا بالكلام الفارغ، ولكنّها أبت إلا أن تجعل من شئون بيتنا فضائح عامّة، حسبي الله ونعم الركيل...  
تحرك إبراهيم في معطفه كأنّه يستوي في مجلسه، ثمّ ضحك ضحكة مختزلة لم يدرّ أحد على وجه الدقّة ماذا أراد بها، فحدجته خديجة بنظرة ارتباب وهي تتساءل:  
- ماذا تعني بهيئ هي؟... ألا يهتمّ قلبك بشيء في الدنيا؟

وأعرضت عنه كاليائسة، ثمّ استطردت تقول مخاطبة خليل وعائشة:

- هل يرضيكما ذهابها إلى أبي في الدكان لتشكوني إليه؟ هل يجوز إقحام الرجال - خاصة من كان على شاكلة أبي - في منازعات النسوان؟ ما كان ينبغي أن يعلم بشيء من هذا، ولا شكّ أنّه تضايق من زيارتها وشكواها، ولولا أدبه لصارحها بذلك... ولكنّها ما زالت تلحّ عليه حتّى وعدها بالمجيء، ما أبشع تصرّفها، لم يخلّق أبي هذه الصغائر، فهل يرضيك هذا التصرف يا سيّ خليل؟

فقطّب خليل في استياء، وقال:

- أمي أخطأت، صارحتها أنا نفسي بذلك حتّى صبّت عليّ غضبها، غير أنّها ستّ كبيرة، وأنت تعلمين أنّ الإنسان في مثل ستّها يحتاج إلى المداواة والحلم كالاطفال، حبّذا...

فقاطعه إبراهيم في ضجر قائلاً:

- حبّذا... حبّذا... كم كرّرت حبّذا هذه حتّى مللتها، أمك كما قلت ستّ كبيرة، ولكنّ قرعتها وقعت على من لا ترحم...!

التفتت خديجة إليه بحدّة وقد عبس وجهها واتسع منخراها، وقالت:

القصرين أو العباسيّة. هذا سعد زغلول - مثله هو - شبه سجين وهدف للطعنات الباغية والحملات الظالمة وخيانة الأصدقاء وغدرهم، وكلاهما - هو وسعد - يكابدان أحزاناً من اتّصالهما بأناس علوا بأسرستقراطيّتهم وسفلوا بفعلهم. تقمّص شخص الزعيم في كدره كما تقمّص حال الوطن في قهره، وكان يلاقي الموقف السياسيّ وموقفه الشخصيّ بعاطفة واحدة وانفعال واحد، فكأنّما كان يعني نفسه وهو يقول عن سعد زغلول «أتليق هذه المعاملة الظالمة بهذا الرجل المخلص؟»، وكأنّما كان يعني حسن سليم وهو يقول عن زيور «خان الأمانة واستحلّ القبيح في سبيل الاستيلاء على الحكومة»، وكأنّما كان يعني عايدة وهو يقول عن مصر «هل تخلّت عن ربّجها الأمين وهو يذود عن حقوقها؟»!

## - ٢١ -

كان بيت آل شوكت بالسجّريّة من البيوت التي لا تحظى بنعمة الهدوء والسكينة، لا لأنّ أدواره الثلاثة أصبحت مأهولة بالسكّان من آل شوكت فحسب، ولكن بسبب خديجة قبل أيّ شيء آخر. كانت الأمّ العجوز تقيم في الدور التحتانيّ، وخليل وعائشة وأبناؤهما: نعيمة، وعثمان، وعمد في الدور الفوقانيّ، ولكنّ ضوضاء أولئك جميعاً لم تكن شيئاً بالقياس إلى ضوضاء خديجة وحدها. سواء ما يصدر عنها مباشرة أو ما يصدر عن الآخرين بسببها، وقد حدثت تغيّرات في نظام البيت كانت خليقة بحصر أسباب الضوضاء في أضيق الحدود، كاستقلال خديجة ببيتها ومطبخها، وكاستئثارها بالسطح لتربية دواجنها، وغرس بستان متواضع في جانب منه على مثال بستان البيت القديم بعد أن أجلّت عنه حماها ودواجنها، كان كلّ ذلك خليفاً بتخفيف الضوضاء إلى حدّ كبير، ولكنّ الضوضاء لم تخفّ، أو لعلّها خفّت بقدر لم يلحظه أحد، على أنّ روح خديجة اعتورها هذا اليوم فتور، ولم يكن سيره - فيها بدا - خافياً، فإنّ عائشة وخليل انتفلا إلى شفتيها ليشاركا في تفريج الأزمة - أجلّ الأزمة - التي أزمتهما، جلسوا: الأخوان، والأختان في الصالة



- الله... الله...، لم يبق إلّا أن تعيد هذا الكلام الجائر أمام بابا...!

فقال إبراهيم وهو يلوح بيده آسفًا:

- بابا ليس معنا الآن، وهو إن جاء فلن يجيء ليستمع إليّ أنا، ولكنّي أقرّر الحقيقة التي يسلم بها الجميع ولا تستطيعين أنت إنكارها، أنت لا تطيقين أمّي ولا تحتملين ظلّها، أعوذ بالله، لم كلّ هذا يا شيخة؟ بشيء قليل من الحلم والكياسة كان يسعك أن تأسريها، ولكنّ القمر أقرب منالاً من حلمك، هل تستطيعين أن تنكري كلمة واحدة ممّا قلت؟!

فردّت عينها بين خليل وعائشة لتشهدهما على هذا «الظلم» الصارخ، فبدوا حائرين بين الحقّ والسلامة، حتّى تمت عائشة وهي من الإشفاق في نهاية:

- سي إبراهيم يقصد أن تغضي قليلاً عمّا يبدر منها...

وهزّ خليل رأسه بالموافقة في ارتياح من ظفر أخيراً بسلم النجاة، ثمّ قال:

- هو ذلك، أمّي سريعة الغضب ولكنّها بمنزلة والدتك، وبشيء من الحلم تغفين أعصابك من مشقة المشاحنة...

فنفتخت خديجة وهي تقول:

- الأصوب أن يقال إنّها هي التي لا تحتمل لي ظلّاً، لقد أتلّفت أعصابي، وما من مرّة نتلاقى إلّا وتُسمعني - تصرّيحاً أو تلميحاً - كلمة تهيج الدم وتسمّ البدن، ثمّ أطلب أنا بالحلم! كائن مخلوق من ثلج، أليس يكفيني عبد المنعم وأحمد اللذان استنفدا صبري وحلمي؟ يا هو أين أجد منصفاً؟!

فقال إبراهيم في تهكم وهو يتسم:

- لعلّك تجددين هذا النصف في شخص أبيك؟!

فهتفت قائلة:

- أنت شامت بي، أنا أفهم كلّ شيء، ومع ذلك فرّبنا موجوداً!

فقال إبراهيم بصوت ممطوط يدلّ على التسليم والتحدّي في آن:

- ربّنا موجوداً!

وقال خليل بعطف:

- هدّئي روعك حتّى تلقّي والدك بنفس مطمئنة!

من أين لها بالنفس المطمئنة؟ لقد انتقمت العجوز منها شرّ انتقام، وعمّا قليل تُدعى إلى لقاء أبيها في موقف يقرّ منه قلبها ودمها. وهنا ترمى إليهم صباح عبد المنعم وأحمد من وراء باب حجرتها وأعقبه صوت أحمد وهو يبكي. فقامت على عجل رغم سماتها وأنجحت نحو الحجرة، فدفعت الباب ودخلت وهي تصيح بدورها:

- ما معنى هذا؟! ألم أنهيكم عن الشجار ألف مرّة؟ خصيمي المعتدي منكها...

قال إبراهيم بعد أن توارت وراء الباب:

- مسكينة كأنّ بينها وبين الراحة عداء مستحكماً، منذ الصباح الباكر تبدأ بخوض معركة طويلة تستغرق النهار كلّها فلا تسكن حتّى تأوي إلى الفراش، يجب أن يذعن كلّ شيء إلى إرادتها وتفكيرها، الخادم، الأكل، الشرب، الأثاث، الدجاج، عبد المنعم، أحمد، أنا، الكلّ يجب أن يذعن لتنظيمها، إنّني أشفق عليها، وأؤكّد لكم أنّ بيتنا يمكن أن ينعم بأحسن حال من النظام والدقة دون حاجة إلى هذه الوسوسة...

فقال خليل بأساً:

- ربّنا يعينها...

- ويعيني معها!

قال إبراهيم ذلك وهو يهزّ رأسه بأساً أيضاً، ثمّ أخرج من جيب معطفه الأسود علبة سجائره، ونهض متّجهاً إلى أخيه فقدّمها له فتناول خليل سيجارة، ودعا عائشة لتتناول واحدة ولكنّها رفضت ضاحكة، وأومات إلى الباب الذي توارت وراءه خديجة، وهي تقول:

- خلّ الساعة تمرّ بسلام...

فعاد إبراهيم إلى مجلسه وهو يشعل سيجارة، ويقول مشيراً إلى الباب نفسه:

- محكمة، في الداخل الآن محكمة، ولكنّها ستعامل هذين المتهمين بالرحمة ولو على رغمها...

عادت خديجة وهي تقول متأفّة:

- كيف يمكن أن أذوق طعم الراحة في هذا البيت؟ كيف ومتى؟!

وتكاثر وجفّ جلده فلم يبق شيء منه على ما كان عليه إلا أسنانه الذهبية، ولم تكن هذه الحجرة بالغريبة على السيد أحمد، ولم يهونَ قَدَمُها من فخامتها، وإذا كانت الستائر قد بهتت وقطيفة بعض المقاعد والكنبات قد انجردت أو تهتكت عند المقابض والمساند، فإنّ بساطها العجيب قد صان رونقه أو استجدّ نفاسته، إلى أنّ جوّها تنسّم برائحة بخور لطيفة ممّا تولع به العجوز، وكانت المرأة تميل على مظلتها وتقول:

- قلت لنفسي إذا لم يحضر السيد أحمد كما وعدني، فلا هو ابني ولا أنا أمه...

فابتسم السيد قائلاً:

- لا سمح الله، إني طوع أمرك، فانا ابنك وخديجة ابنتك!

فمطّعت بوزها، وقالت:

- كلّكم ابنائي! أمينة هانم ابنتي الطيبة، أنت سيّد الناس، أما خديجة (ورنت إليه وعيناها تتسعان) فلم ترث سجيّة واحدة من سجايا والديها الطيّبين... (ثمّ وهي تهزّ رأسها) يا لطيف الطّف...

فقال السيّد بلهجة المعتذر:

- إني أعجب كيف أغضبتك لهذا الحدّ؟ كان الأمر كلّهُ مفاجأة شديدة عليّ، لا أقبل هذا مطلقاً، ولكنّ هلاًّ حدّثني عمّا فعلت؟

فقالت المرأة مقبّبة:

- هذا شيء قديم، كنّا نخفي عنك كلّ شيء إكراماً لتوسّلات والدتها التي أعيتها الحيل في إصلاحها، ولكّني لن أقول كلمة واحدة إلاّ في وجهها، في وجهها يا سيّ السيّد كما عزمت أمامك في الدكّان...

عند ذاك جاءت الجماعة، دخل إبراهيم في المقدّمة، وتبعه خليل، فعائشة، ثمّ خديجة، وصافحوا السيّد واحداً فواحداً حتّى جاء دور خديجة، فانحنت في أدب مثاليّ حتّى لثمت يده، فلم تسهالك العجوز من أن تقول في عجب:

- ربّاه ما هذه البوليتيكا، أأنت خديجة حقّاً؟ لا تحدّثك الظواهر يا سيّد أحمد...

فقال خليل معاتباً أمه:

وجلست وهي تتنهد، ثمّ قالت مخاطبة عائشة: - نظرت من المشريّة فوجدت الطين المتخلف من مطر الأمس لا يزال يغطّي أرض الحارة، فخبّرني ورثك كيف يشقّ أبي سيّله؟... ولمّ هذا العناد كلّهُ؟

فسألته عائشة:

- والسواء؟ كيف حالها الآن؟

- قطران! ستجعل الحارات بحوراً قبل الليل، ولكن هل أجدي ذلك في حمل حاتك على تأجيل ما بيّنت من شرّ ولو إلى يوم آخر؟ كلّاً، ذهبت إلى الدكّان رغم ما يسببه المشي لها من متاعب، وما زالت بالرجل حتّى تعهد لها بالحضور، ولو سمعها سامع في الدكّان وهي تشكو في هذه الظروف العسيرة لحسبي ربّاً أو سكيناً!

وضحكوا جميعاً مغتنمين الفرصة التي أتاحها لهم للتفيس عن صدورهم، وتساءل إبراهيم:

- أحسّين نفسك أقلّ شأنًا من ربّاً وسكيناً؟

وسمّع نقر على الباب، ولما فتحت الخادم لاح وجهه الجارية سويدان فنظرت إلى خديجة بخوف، وقالت:

- سيّدي الكبير حضر...

ثمّ سرعان ما توارت، وقامت خديجة شاحبة اللون وهي تقول بصوت خافت:

- لا تتركونا وحدنا...

فقال خليل ضاحكاً:

- معك إلى النهاية يا خديجة هانم...

فقالت بلهجة وشت بالرجاء والتوسّل:

- كونوا في جانبي...

وغادرت الشقّة بعد أن ألقت عائشة نظرة متفحّصة على صورتها في المرآة لتتوكّد من خلوّ وجهها من أيّ أثر للأصباغ.

كان السيّد أحمد عبد الجواد يجلس على كنبه في صدر الحجرة القديمة تحت صورة كبيرة للمرحوم شوكت، على حين جلست الأم على مقعد قريب في معطف كثيف لم تعيد كثافته في إخفاء ضالّة جسمها الذي احدودب أعلاه، وقد نحل وجهها وعمقت تجاعيده

واحتملته وصبرت عليه، وقد ظننت بعد الانفصال أن أسباب الشقاق ستنتهي، ولكن هل صدق ظني؟. كلاً وحياتك.

انقطعت عن الحديث لسعال غلبها، وراحت تسعل حتى انتفخت أوداجها، وخديجة تلحظها وهي تدعو الله في سرّها أن يأخذها قبل أن تتم حديثها، ولكن السعال سكت فازدردت ريقها وتشهدت، ثم رفعت إلى السيّد عينيّن دامتين، وسألته بصوت لم يخلُ من يَحْ:

- أتستكف أنت يا سيّد أحمد أن تقول لي يا أمّي؟ فقال الرجل الذي تظاهر بالعبوس رغم ابتسام إبراهيم وخليّل:

- معاذ الله يا أمّي...

- عوفيت يا سيّد أحمد، لكنّ ابنتك تستكف من هذا، تدعوني «تيزة»، أقول لها مراراً ادعيني «نينة»، فتقول لي «وماذا أدعو التي في بين القصرين؟»، أقول لها أنا نينة، وأمك نينة، فتقول لي «ليس لي إلا نينة واحدة ربّنا يخلّيها لي». انظر يا سي السيّد، أنا التي تلقّيتها بيديّ من عالم الغيب!

ألقي السيّد أحمد على خديجة نظرة غاضبة، وسألها محتئداً:

- صحيح هذا يا خديجة؟ يجب أن تتكلّمي...

كانت خديجة كأثما فقدت القدرة على النطق، كانت من الغيظ في نهاية، وكانت من الخوف في نهاية، وإلى هذا كلّه كانت يائسة من نتيجة المناقشة فحدثها غرائز الدفاع عن النفس على التدرّج بكافّة ضروب الضراعة والمسكنة، قالت بصوت خافت:

- أنا مظلومة، كلّ واحد هنا يعلم بأنّي مظلومة، مظلومة والله يا بابا...

كان السيّد أحمد في دهش ممّا يسمع، ومع أنّه فطن من أوّل الأمر إلى حال «الكبر» التي تسيطر على المرأة، ومع أنّه لم يرغب عن ملاحظته ما يكتنف الجوّ من فكاكة بدت آثارها في وجهي إبراهيم وخليّل، لأنّه صمّم على التظاهر بالجدّ والصرامة إرضاء للعجوز وإرهاّباً لخديجة، وكان يعجب لما يتكشف له من عناد

- هلّا تركت والدنا حتى يستريح! ليس ثمة ما يدعو إلى محاكمة على الإطلاق!

فعلا صوت المرأة وهي تحبّيه قائلة:

- ما الذي جاء بك؟! ما الذي جاء بكم؟ دعوها

واذهبوا عنّا بسلام...

فقال إبراهيم برقة:

- وحّدي الله...

فصاحت به:

- أنا موحدّة أحسن منك يا بغل! لو كنت رجلاً

حقاً ما أحوجتني إلى استدعاء هذا الرجل الطيّب، ما الذي جاء بك؟ وكان يجب أن تكون غاطاً في نومك كالعادة؟!

ابتلّ صدر خديجة ارتياحاً إلى هذه البداية، فتمنّت لو تشدّد حتى تغطّي على قضيتها، ولكن السيّد سألها بصوت مرتفع سدّ الطريق في وجه المعركة المأمولة:

- ما هذا الذي سمعته عنك يا خديجة؟! أحقّ أنّك لست الابنة المؤدّبة المطيعة لوالدتك، استغفر الله، بل لوالدتنا جميعاً؟!

خاب أمل خديجة، فغضّت بصرها، وتحركت شفتاها في همس دون أن تبين وهي تهزّ رأسها نفياً، ولكنّ الأمّ لوحت بيدها للجميع كي ينصتوا، ثمّ أنشأت تقول:

- هذا تاريخ قديم لن أستطيع أن أسرده عليك في هذه الجلسة، منذ أوّل يوم لها في هذا البيت وهي تخصمني بلا سبب، وتخاطبني بأطول لسان عرفته في حياتي، لا أحبّ أن أعيد عليك ما سمعته طوال خمس سنوات، أو يزيد، كثير كثير، وقبيح قبيح!! عابت إشرافي على البيت وتنقّصت طهبي - هل تتصوّر هذا يا سي السيّد؟- وما زالت حتى انفصلت بشقّتها عنيّ فانشطر البيت الواحد بيتين، حتى الجارية سويدان حرّمت عليها دخول شقّتها لأنّها جاريتي، وجاءت بخادم خصوصيّة لها، السطح، السطح على سعته يا سي السيّد، ضيّقته عليّ حتى اضطررت إلى نقل دواجني إلى الفناء!! ماذا أقول أيضاً يا بّي؟ هذا قليل من كثير، ولكن ما علينا، قلت لنفسي ما فات فات،

خديجة وحدة طباعها، الأمر الذي لم يخطر له في خيال من قبل، أكانت على هذا الخلق مذ كانت في بيته؟ أعلم أمينة من أمرها ما لا يعلم؟ هل يكتشف على آخر الزمن صورة جديدة لابنته مناقضة للصورة التي كونها كما سبق أن اكتشف لياسين؟

- أريد أن أعرف الحقيقة؟ أريد أن أعرف حقيقتك، إن التي تحدثت عنها والدتنا امرأة أخرى غير التي عهدتها، فأيتها تكون الصادقة؟

ضمت المرأة أناملها وهزت يدها داعية إياه إلى الصبر حتى تتم حديثها، ثم استطردت قائلة:

- قلت لها: إنّي تلقّيتك ببيدي من عالم الغيب، فقلت لي بلهجة شريرة لم أسمع بمثلها من قبل: «إذن أكون نجوت من الموت بأعجوبة!».

ضحك إبراهيم وخليل، وخفضت عائشة رأسها لتخفي ابتسامتها، فقالت العجوز غاطبة ابنيها «اضحكا، اضحكا، اضحكا من أمكما»، ولكنّ السيّد تجهّم وإن يكن باطنه ضحك، ترى أخلقت بناته على مثاله أيضًا؟ أليس هذا ممّا يستحقّ أن يروى على إبراهيم الفار وعليّ عبد الرحيم ومحمد عفت؟ قال لخديجة بغلظة:

- كلّاً... كلّاً، لأعرفن كيف أحاسبك على هذا حساباً عسيراً...

فواصلت العجوز حديثها بارتياح قائلة:

- أمّا سبب شجار الأمس، فهو أنّ إبراهيم دعا بعض أصدقائه إلى وليمة فقدّمت لهم الشركيّة فيها قدّم من أطعمة، وفي المساء سهر عندي إبراهيم وخليل وعائشة وخديجة، وجاء ذكر الوليمة فنوّه إبراهيم بثناء المدعوّين على الشركيّة، فانبسطت ستّ خديجة، ولكنّها لم تقنع بذلك، بل راحت تؤكّد أنّ الشركيّة هي الصنف المأثور عن بيتها الأوّل، فقلت بحسن نيّة: إنّ زينب زوجة ياسين الأولى هي التي أدخلت الشركيّة في بيتكم، وإنّ خديجة لا بدّ وأن تكون تعلّمتها منها، أقسم لك أنّي ما تكلمت إلّا عن حسن نيّة وأنّي ما قصدت أحدًا بسوء، ولكن أجارك الله يا حبيب، انتفضت غاضبة وصاحت وجهي

«هل تعرفين عن بيتنا أكثر ممّا نعرف؟» فقلت لها: إنّي أعرف بيتكم من قبل أن تعرفيه أنت بعمر مديد، فصرخت قائلة: «أنت لا تحيّن لنا الخير ولا تطيقين أن يُنسب لنا شيء حميد ولو كان طهي الشركيّة، الشركيّة تؤكّل في بيتنا قبل أن تولد زينب وعيب أن تكذب واحدة في مثل سنّك، أي والله هذا يا سي السيّد ما قذفتني به أمام الجميع، فأيتها الكاذبة برّك وصلاتك؟»

قال السيّد غاضبًا ساخطًا:

- رمتك بالكذب في وجهك! يا ربّ السماوات والأرض، ما هذه ابنتي...

غير أنّ خليل قال لأمه باستياء:

- ألهذا جئت بوالدنا؟ أيصحّ أن نكدر خاطره ونضيع وقته بسبب نزاع صبياني حول الشركيّة؟ هذا كثير يا أمّاه...

فحملت المرأة في وجهه مقبّبة وصاحت به:

- اخرس، اغرب عن وجهي، لست كاذبة، ولا يصحّ أن يرميني مخلوق بالكذب، إنّي أعرف ما أقول ولا حياء في الحقّ، لم تكن الشركيّة بالطعام المعروف في بيت السيّد قبل أن تدخله زينب، وليس في ذلك ما يعيب أحدًا أو يتقصه، ولكنّها الحقيقة. هاكم السيّد فليكدّني إن كنت كاذبة، إنّ طواجن بيته مضرب الأمثال ويليها الأرزّ المحشو، أمّا الشركيّة فلم تقدّم على مائدته قبل عجيّ زينب، تكلم يا سي السيّد أنت وحدك الحكم...

قاوم السيّد أحمد إغراء الضحك طيلة حديث المرأة، ثمّ قال بلهجة عنيفة:

- ليت ذنبها اقصر على الكذب والادّعاء الباطل من دون أن تضيف إليه سوء الأدب، هل شجّعك على هذا السلوك السيّئ ابتعادك عن قبضة يدي؟ إنّ يدي تمتدّ إلى حيث يجب أن تمتدّ بلا تردّد، من المؤسف حقًا أن يجد أب ابنته مستحقّة للتأديب والعقاب بعد أن اكتمل نضجها واستوت بين النساء زوجة وأمًا... واستطرد ملوِّحًا بيده:

- إنّي غاضب عليك، والله إنّه ليؤلمني أن أرى

- لم أسمع من قبل أَنَّ أختًا دُعيت للشهادة على أختها...!

فصاحت به أمه:

- ولم أسمع من قبل أَنَّ أبناء يتكفلون ضدَّ أمهم كما تفعلون. (ثمَّ ملتفتة إلى السيد) ولكن حسي صمتها، إِنَّ صمت عائشة شهادة لي يا سي السيد...  
ظنَّت عائشة أَنَّ عذابها قد انتهى عند هذا الحدِّ، ولكنَّها ما تدري إلَّا وخديجة تقول لها برجاء وهي تجفِّف عينيها:

- تكلمي يا عائشة، هل سمعتني أشتمها؟

لعتها في سرِّها من صميم قلبها، وراح رأسها الذهبي يهتزُّ اهتزازة عصبية، فهتفت العجوز:  
- جاءنا الفرج، هي التي تطالب بالشهادة، لم يبق لك عذر يا شوشو. يا ربِّي إذا كنت ظالمة حقًّا كما تقول خديجة فلمَ لم أظلم عائشة؟ لمَ تسير الأمور بيني وبينها على خير حال، لمَ يا ربِّي لمَ؟

نفض إبراهيم شوكت من مجلسه، ثمَّ جلس إلى جانب السيد، وقال له:

- يا والدي، يؤسفني أننا أتعبتك وأضعنا وقتك الثمين هباء، فلندعِ الشكوى والشهادة جانبًا، لندعِ الماضي كلَّه جانبًا ولننظر فيما هو أهمُّ وأجدى، ينبغي أن يكون محضرك خيرًا وبركة، فلنعقد الصلح بين أُمِّي وزوجي، ولتعهدا لك بأن تحافظا عليه على الدوام...

ارتاح السيد أحمد إلى هذا الاقتراح، غير أنَّه قال بلباقة وهو يهزُّ رأسه معترضًا:

- كلاً، لن أقبل أن أعقد صلحًا، فإنَّ الصلح لا يكون إلَّا بين نَدِينٍ، والطرفان هنا هما والدتنا من ناحية وابنتنا من ناحية أخرى، وليست الابنة كالأمِّ، فيجب أوَّلًا أن تعتذر خديجة إلى أمِّها عمَّا سلف، لتعفو أمُّها عنها إذا شاءت، ثمَّ نتكلَّم بعد ذلك في الصلح...

ابتسمت العجوز حتَّى تضامَّت تجاعيدها، غير أنَّها نظرت نحو خديجة بحذر، ثمَّ أعادت بصرها إلى السيد ولم تنبس، فاستطرد السيد قائلاً:

وجبهك أمامي...

أجهشت خديجة بالبكاء فجأة، جاء ذلك عن تأثير وتدبير معًا، ولم يكن ثمة وسيلة أخرى للدفاع، ثمَّ قالت بصوت مهتدج تخنقه العبرات.

- أنا مظلومة، والله أنا مظلومة، إنَّها لا ترى وجهي حتَّى ترميني بكلمات قاسية، ولا تفتأ تقول لي «لولاى لفضيت العمر عانسًا» وأنا لم أنلها بسوء أبدًا، وكلَّهم شهود على ذلك...

لم تعدم الحركة التمثيلية - الصادقة الكاذبة - أثرًا تركته في النفوس: قطَّب خليل شوكت حانقًا، ونكس إبراهيم شوكت رأسه، والسيد نفسه ولو أنَّ مظهره لم يعتوره تغيير إلَّا أنَّ قلبه انقبض عند سماعه ما قيل عن العنوس كعهده من قديم، أمَّا العجوز فجعلت تنظر إلى خديجة نظرات نافذة من تحت حاجبيها الأشبيين، وكأنَّها تقول لها «مئلي دورك يا مأكرة لن يجوز عليّ»، ولمَّا استشعرت في الجوّ عطفًا على الممثلة قالت بتحدٍّ:  
- هاكم عائشة أختها؟ إنِّي أستحلفك بعينيك، أستحلفك بالقرآن الشريف إلَّا ما شهدت بما سمعت ورايت، ألم ترميني أحتك بالكذب في وجهي؟ ألم أصف نزاع الشركسية دون مبالغة أو تجاوز، تكلمي يا بنية تكلمي، إِنَّ أختك ترميني الآن بالظلم بعد أن رمتني بالكذب، تكلمي ليعلم السيد من الظالم ومن المعتدي...

روَّعت عائشة بجرحها المباغت إلى حومة القضية التي ظنَّت أنَّها ستقف منها موقف المشاهد إلى النهاية، وشعرت بالخطر يحرق بها من كلِّ جانب، فردَّدت عينيها الجميلتين بين زوجها وأخيه كالمستغيثة، فهمَّ إبراهيم بالتدخل، ولكنَّ السيد أحمد سبقه إلى الكلام، فخطب عائشة قائلاً:

- إِنَّ والدتنا تستشهد بك يا عائشة، فيجب أن تتكلمي...

فاضطربت عائشة حتَّى شحب لونها، ولكنَّ شفيتها لم تتحرَّك إلَّا عند ازدراد ريقها، وغمضت عينيها فرائًا من عيني أبيها وأصرَّت على الصمت. قال خليل محتجًا:

- ٢٢ -

- يبدو أن اقتراحي لم يصادف قبولاً ...

فقلت العجوز بامتنان:

- إنك لا تنطق إلا عن الصواب: سلم فوك،  
وبارك الله في عمرك ...وأشار السيد إلى خديجة فقامت دون تردد واقتربت  
منه في انكسار لم تشعر بمثله من قبل حتى مثلت بين  
يديه، فقال لها بحزم:- قبلي يد والدتك، وقولي لها: اصفحي عني يا  
نية ...آه، ما كانت تتخيل - ولا في الكابوس - أنها يمكن  
أن تقف هذا الموقف أبداً، ولكن أباه - أباه المعبود -  
هو الذي قضى به، أجل قضى به من لا تستطيع  
لقضائه رداً. فلتكن مشيئة الله. تحولت خديجة إلى  
العجوز، ومالت نحوها، ثم تناولت اليد التي رفعها  
إليها - إي والله رفعها إليها دون عانعة ولو في الظاهر  
- ولثمتها، وهي تشعر باشمزاز وتقزز وقهر اليم، ثم  
غمغمت قائلة:

- اصفحي عني يا نية! ...

فنظرت العجوز إليها ملياً وقد شاع البشر في  
وجهها، ثم قالت:- صفحت عنك يا خديجة، صفحت عنك إكراماً  
لأبيك، وقبولاً لثورتك ...ونذت عنها ضحكة صبيانية، ثم استطردت تقول  
بتحذير:- لا جدال بعد اليوم في الشركسية، ألا يكفيكم  
أنكم فقمتم الدنيا في الطواجن والأرز المحشو ...؟

قال السيد بسرور:

- الحمد لله على الصلح (ثم وهو يرفع رأسه إلى  
خديجة) ... نية دائماً ليست تيزة، هذه نية كالأخرى  
سواء بسوء ...

ثم بصوت خفيض أسيف:

- من أين جئت بهذا الخلق يا خديجة؟ ما كان  
ينبغي لأحد نشأ في بيتي أن يعرفه، أنسيت أمك وما  
تتحلى به من أدب ودمائة؟ أنسيت أن أي شر تأتيه إنما  
يسود وجهي أنا؟ لقد عجبت والله وأنا أستمع إلى  
حديث أمك، ولسوف أعجب طويلاً ...رقيت الجماعة في السلم عائدة إلى مساكنها عقب  
رحيل السيد أحمد عبد الجواد، كانت خديجة تتقدم  
القافلة بوجه مريد تعلوه صفرة الغضب والحنق، وكان  
الآخرون يشعرون بأن الصفاء لم يزل أبعد ما يكون  
عن القلوب فاشفقوا مما سيتمخص عنه صمت  
خديجة، لذلك صحب خليل وعائشة خديجة وإبراهيم  
إلى شقتهم، رغم أن زياط نعيمة وعثمان ومحمد كان  
حرماً بأن يعيدهما إلى شقتهم فوراً، ولما عادوا إلى  
مجلسهم بالصالة قال خليل - وهو بسبيل جس النبض  
- مخاطباً أخاه:- كانت كلمتك الختامية حاسمة فأنت بخير  
النتائج ...

فتكلمت خديجة لأول مرة قائلة بانفعال:

- أتت بالصلح أليس كذلك؟ هي السبب فيما نزل  
بي من مذلة لم أتعرض لمثلها من قبل ...

فتمسك إبراهيم كالمتنكر:

- لا مذلة في أن تقبلي يد أمي أو تستصفحها ...  
فقلت دون مبالاة:- إنها أمك أنت، ولكنك عدوتي أنا، ما كنت  
لأدعوها نية لولا أمر بابا، أجل فما هي إلا نية بأمر  
بابا، وبأمر بابا وحده!مال إبراهيم إلى مسند الكنية وهو يتهد يائساً،  
وكانت عائشة قلقة ولا تدري أي أثر تركه امتناعها عن  
الشهادة في نفس أختها، وزاد من قلقها تجنب خديجة  
النظر إليها، صممت على محادثتها لتحملها على  
معاللتها بحقيقة مشاعرها، فقالت برقة:- ليس في الأمر مذلة وقد تصافيتنا، ويجب ألا  
تذكري إلا حسن الختام ...فتصلب جلد خديجة ورمقتها بنظرة غاضبة، ثم  
قالت بحدة:- لا تكلميني يا عائشة، أنت آخر شخص في الدنيا  
يحق له أن يكلمني ...فتظاهرت عائشة بالدش، وتساءلت وهي تقلب  
عينها بين إبراهيم وخليل:

- أنا؟! لماذا لا سمح الله؟!  
فأبنتسمت الأم ابتسامة عتاب، وقالت:  
- لا تقولي هذا، لا تصوّري هذا يا بنتي، ولكن  
خبريني ماذا وجدت من عائشة؟  
وهي تدفع بيدها الهواء كأنها تلمطم عدواً:  
- كل شرّ، شهدت عليّ، فأوقعت بي شرّ هزيمة...  
- ماذا قالت؟  
- لم تقل شيئاً...  
- الحمد لله...  
- إنّ المصيبة جاءت من أنّها لم تقل شيئاً...  
تساءلت أمينة، وهي تبسم في عطف:  
- وماذا كان في وسعها أن تقول؟  
وكأنما كبر عليها تساؤل أمها، فقالت بعبوس  
وحدة:  
- كان في وسعها بأن تشهد بأنّي لم أعتد على المرأة،  
لم لا، لو فعلت ما جاوزت واجبات الأخوة، كان في  
وسعها على الأقل أن تقول إنّها لم تسمع شيئاً، الحقّ  
أنّها أثرت المرأة عليّ، خللتني وتركتني أقع تحت رحمة  
الماكرة الشامتة، لن أنسى هذا لعائشة ما حييت!...  
قالت أمينة، بإشفاق ولم:  
- خديجة لا ترعيني، كان يجب أن يكون كلّ شيء  
قد نُسي في الصباح...  
- نُسي؟! لم أنم من الليل ساعة، شهدت وبراسي  
مثل النار، كلّ مصيبة كانت تهون لو لم تحييء من  
عائشة، من أختي؟! لقد ارتضت أن تنضمّ إلى حزب  
الشیطان، حسناً، ليكن ما تشاء! كان لي حماة فأصبح  
لي اثنتان، عائشة... ربّاه طالما سترتها، لو كنت  
خاتنة مثلها لقصصت على أبي ما تزخر به حياتها من  
قلّة الأدب، إنّها تحبّ أن يعرف عنها أنّها ملك كريم  
وأني شيطان رجيّم. كلّاً، أنا خير منها ألف مرّة، إنّ  
لي كرامة لا يعلو إليها التراب، ولولا أبي (وهنا اشتدّت  
نبراتها حدّة) لما استطاعت قوّة في الأرض أن تحملني  
على أن أقبل يد عدوّي أو أن أدعوها نينة!  
ربّنت أمينة كفتها برقّة، وهي تقول:  
- أنت غضبي، دائماً غضبي، هدّئي من روعك،  
فأبنتسمت كالرصاص برودة وحدة:  
- لأنك ختنتني وشهدت بصمتك عليّ! لأنك أثرت  
إرضاء الأخرى على مظاهره أختك، هذه هي الخيانة  
بعينها!...  
- أمرك عجيب يا خديجة!... كلّ واحد يعلم بأنّ  
الصمت كان في صالحك!  
فأقلت بنفس اللهجة أو أشدّ:  
- لو راعيت صالحني حقاً لشهدت لي بالحقّ أو  
بالباطل لا يهّم، ولكنك أثرت التي تُطعمك على  
أختك، لا تكلميني، ولا كلمة واحدة، لنا أمّ يكون  
عندها الكلام.  
وفي ضحى اليوم التالي ذهبت خديجة لزيارة أمها  
رغم توخّل الطرقات وامتلأ منخفصاتها بالمياه  
الراكدة، ومضت إلى حجرة الفرن، فنفضت أمها  
لاستقبالها في سرور وحرارة، وأقبلت نحوها أمّ حنفي  
مهلّلة، ولكنّها ردّت السلام بكلمات مقتضبة حتّى  
تفحصتها أمها بنظرة متسائلة، فقالت دون تمهيد:  
- جئتك لثري رأيك في عائشة... فلم يعد بي  
طاقة لأتحمل أكثر ممّا تحمّلت...  
لاح في وجه أمينة اهتمام مقرون بالأسى، فقالت  
وهي تشير إليها برأسها كي تسبقها إلى الخارج:  
- ماذا حدث كفى الله الشرّ؟ حدّثني أبوك بما كان  
في السكّريّة، فما دخل عائشة في ذلك؟ (ثمّ وهما  
ترقيان في السّلم)... ربّاه يا خديجة، طالما رجوتك  
أن توسعي من صدرك، حماك عجزوز ينبغي مراعاة  
سنّها، إنّ ذهابها إلى الدكان وحده في جوّ كجوّ أمس  
برهان على ضعف عقلها، ولكن ما الحيلة؟ كم غضب  
أبوك! لم يكن يصدّق أنّه يمكن أن تندّ عنك كلمة  
سوء، ولكن ماذا أغضبك من عائشة؟ لقد صمتت  
أليس كذلك؟ لم يكن في وسعها أن تخرج عن  
الصمت...  
وجلسا في الصالة - مجلس القهوة - على كنية جنباً  
إلى جنب، وخديجة تقول محدّرة:  
- نينة أرجو ألا تنضمّي إليهم، ما لي يا ربّي لا أجد

ستبقين معي حتى نتغدى معا ثم نتحدث في

هدوء...

قبل أن تقول:

- إن زوجها يدلّكها تدليلاً معيياً حتى أفسدها وأشركها في كافة معاصيه، ليس التدخين بشرّ عاداته، ولكنّه يشرب الخمر في بيته دون حياء، إنّ بيته لا يخلو من الزجاجة كأنّها ضرورة من ضرورات الحياة وسوف يوقعها في الخمر كما أوقعها في التدخين، لم لا؟ العجوز تعلم بأنّ شقة ابنها حانة ولكنّها لا تكثرث لذلك، سوف يسقيها الخمر، بل إنّّي أقطع بأنّه فعل فإني شممت مرّة في فمها رائحة غريبة، وسألته عنها وضيقت عليها رغم إنكارها، أوكد لك أنّها شربت الخمر وأنّها بسبيل اعتيادها كالتدخين...

صاحت الأم في ياس:

- ألا هذا يا ربّ، ارحمني نفسك وارحمنا، اتقي الله يا خديجة...

- إنّّي تقية وربنا عالم، لا أدخن ولا تفوح من في روائح مريبة! ولا أسمح للخمر بأن تدخل شقتي! ألم تعلمي بأنّ البغل الآخر حاول أن يقتني هذه الزجاجة المحرّمة؟ ولكنّي وقفت له بالمرصاد، قلت له بصريح العبارة: إنّّي لا أبقي مع زجاجة خمر في شقة واحدة، فتراجع أمام تصميمي، وجعل يحتفظ بزجاجته عند أخيه في شقة الهانم التي خانتني بالأمس، وكلّما صرخت لاعة الخمر وشاربيها، قال لي - قطع الله لسانه - «من أين جئت بهذه الحنبلية؟ هذا أبوك منع الأنس كلّه وقلّ أن يخلو له مجلس من الكاس والعودا»

أسمعت ماذا يقال عن أبي في بيت آل شوكت؟!

لاحت في عيني أمينة نظرة حزن وجزع، وجعلت تقبض راحتها وتبسطها في اضطراب وقلق، ثمّ قالت بصوت ثمت نبرات عن التشكي والتألم:

- رحماك يا ربّي، لم نخلق لشيء من هذا، عندك العفو والرحمة، يا ويل النساء من الرجال، لن أسكت ولا يصحّ أن أسكت، ساحاسب عائشة حساباً عسيراً، ولكنّي لا أصدّق ما تقولين عنها، إنّ سوء ظنّك بها جعلك تتخيلين ما لا أصل له، ابنتي طاهرة وستظلّ طاهرة ولو انقلب زوجها شيطاناً رجيماً، سأحدّثها حديثاً صريحاً، وسأحدث سي خليل نفسه إن

- إنّّي في كامل عقلي وأعرف معنى ما أقول، أريد أن أسأل أبي، أيتها خبير من الأخرى: التي تلزم بيتها، أم التي تزور بيت الجيران فتغني وترقص ابنتها؟!

تهدّدت أمينة، وقالت بحزن:

- إنّ رأي أبيك في هذا لا يحتاج إلى سؤال، ولكنّ عائشة سيّدة متزوجة والرأي الأعلى في سلوكها لزوجها، وما دام يسمح لها بزيارة الجيران ويعلم بأنّها تغني بين صديقاتها اللاتي يحبين صوتها في شأننا نحن؟! لك الله يا خديجة!... أتمسّين هذا قلّة أدب؟! هل يُغضبك حقاً أن ترقص نعيمة؟! إنّها في السادسة وما رقصها إلّا لعباً، لست إلّا غاضبة يا خديجة، ساحك الله...

فقال خديجة بإصرار:

- إنّّي أعني كلّ كلمة قلته، وإذا كان يعجبك أن تغني ابنتك عند الجيران وترقص ابنتها، فهل يعجبك أيضاً أن تدخن، كالرجال؟! نعم، ها أنت تدهشين! أكرّر على مسمعك أنّ عائشة تدخن، وأنّ التدخين صار لها كيفاً لا تملك الامتناع عنه، وأنّ زوجها يعطيها العلبه ويقول لها بكلّ بساطة «علبتك يا شوشو»، رأيتها بنفسها وهي تأخذ النّفس وهي تُخرجه من فمها وأنفها، أنفها أسمعين؟ لم تعد تخفي عني ذلك كما كانت تفعل أوّل الأمر، بل دعيتي إليه مرّة بحجّة أنّه مهذّب للأعصاب الحامية. هذه هي عائشة، فما قولك؟ وما قول أبي يا ترى؟

ساد الصمت، وبدت أمينة في حيرة شائكة، غير أنّها صمّمت على خطّة التهذبة التي التزمتها، قالت:

- التدخين عادة قبيحة بالقياس إلى الرجال أنفسهم، أبوك لم يدخن قطّ، فماذا أقول عليه بالنسبة إلى النساء؟! ولكن ما القول أيضاً إذا كان زوجها هو الذي أغراها به وعلمها إيّاه؟ ما الحيلة يا خديجة؟ إنّها لزوجها لا لنا، ولم يبق إلّا النصيح إن كان يجدي... فجعلت خديجة تنظر إليها في صمت وشئ بترددها



ياسين إلى زيارة قصر الشوق، ولست في حاجة إلى أن أقول لك إنني لم أذهب، وتكررت الزيارة دون أن يغير ذلك من تصميمي حتى قالت لي مريم «لم لا تزورينا ونحن أختان من قديم الزمان؟» ولكنني اعتذرت بشق المعاذير، وبذلت كل حيلها لاجتدائي، وجعلت تشكو لي معاملة ياسين لها واعوجاج سلوكه وانصرافه عنها، عليها ترقق قلبي ولكنني لم أفتح لها صدري... عائشة على خلاف ذلك، تستقبلها بالترحاب والقبل، الأدهى من ذلك أنها تبادلها الزيارة، وقد صحبت معها مرة سي خليل، وفي مرة أخرى صحبت نعيمة وعشيان ومحمد، لشدة ما تبدو سعيدة بتجديد صداقتها لمريم، وقد نبهتها إلى مجاوزتها الحد في ذلك فقالت لي «لا تأخذ على مريم إلا أننا رفضنا يوماً أن نجعل منها خطيبة للمرحوم العالي، فأني وجه للعدل في هذا؟»، قلت لها «أنسيت الجندى الإنجليزي؟» فقالت لي «لا ينبغي أن نذكر إلا أنها زوجة أخينا الأكبر». هل سمعت يا نينة عن شيء كهذا من قبل؟

استسلمت أمينة للحزن، فنكست رأسها ولاذت بالصمت، فجعلت خديجة تنظر إليها ملياً، ثم عادت تقول:

- هذه هي عائشة بلا زيادة ولا نقصان، عائشة التي شهدت عليّ أمس فأذلتني أمام العجوز المخرفة...

تنهدت أمينة من الأعماق، ورمقت خديجة بعينين فاترتين، ثم قالت بصوت خافت:

- عائشة طفلة تأتي أن يكون لها عقل أو وزن، ولن تزال كذلك مهما امتد بها العمر، فهل يسعني أن أقول غير ذلك؟ لا أودّ ولا أستطيع، هل هانت عليها ذكرى فهمي؟ لا أستطيع أن أصدق ذلك، ألم يكن في وسعها أن تقتصد في عواطفها حيال تلك المرأة ولو إكراماً لي؟ لكن لن أسكت عن هذا، سأقول لها إنها أساءت لي وإنني غاضبة حزينة لأرى ما يكون منها بعد ذلك...

فأمسكت خديجة بخصلة من سوارفها، وقالت:

- أحلق هذا لو صلح لها حال! إنها تعيش في دنيا

لزم الأمر، فليشرب كما يشاء حتى يتوب الله عليه... أما ابنتي فحدّ الله بينها وبين الشيطان...

هفت على نفس خديجة نسمة راحة لأول مرة، فتابعت جزع أمها بعين راضية واطمأنت إلى أن عائشة ستشعر قريباً بمدى الخسران الذي مُنيت به جزاء خيانتها، ولم تأبه كثيراً لما أضفت على الوقائع من مبالغة في التصوير أو حدة في الوصف مما جعلها تسمي شقة أختها حانة، وهي تعلم بأن إبراهيم و خليل لا يقربان الخمر إلا في أحوال نادرة وفي اعتدال لم يبلغ حدّ السكر أبداً، ولكنها كانت حانقة ثائرة، أما ما قيل عن أبيها من أنه منبع الأنس... إلخ، فقول أعادته على أمها بلهجة استنكار لا تدع مجالاً للشك في كفرها به، ولكن الحقيقة أنها اضطرت من زمن إلى التسليم بما يقال أمام إجماع إبراهيم و خليل وأمه العجوز، خصوصاً وأنهم كاشفوها بما يعلمون عنه في غير ما تحامل عليه أو انتقاد له، بل وهم ينوّهون بأريحيته ويعقدون له زعامة الظرف في عصره، قابلت ذلك الإجماع بادئ الأمر بعناد غليظ، ثم داخلها الشك رويداً وإن لم تعلنه، ووجدت عسراً شديداً في مزج هذه الصفات الجديدة بالشخصية الوقور الجبارة التي آمنت بها طوال حياتها، غير أن هذا الشك لم يهون من شأنها وجلاها، بل لعلها أثرت في نظرها بما انضاف إليها من ظرف وأريحية. لم تقنع بما أحرزت من نصر، فعادت تقول بلهجة التحريض:

- عائشة لم تخني فحسب، ولكنها خانتك أيضاً...

وصمتت ريثما يتغلغل قولها في الأعماق، ثم استطردت قائلة:

- إنها تزور ياسين ومريم في قصر الشوق...

هتفت أمينة وهي تحمق فيها بفزع:

- ماذا قلت؟

فقالت وهي تشعر بأنها تسوّرت ذروة الظفر:

- هذه هي الحقيقة المحزنة! زارنا ياسين ومريم أكثر من مرة، زارا عائشة وزاراني، أقول الحق إنني

اضطّرت لاستقبالها وما كاد يسعني إلا أن أفعل إكراماً لياسين غير أنه كان استقبلاً متحفّظاً، ودعاني

غير الدنيا التي نعيش فيها، لست أتحامل عليها وربنا يعلم، إنني لم أخاصمها ولا مرة مذ تزوجت، حتى أنني طالما حملت عليها لما يقع منها من إهمال لأطفالها أو غمَلَق مزِر لحمايتها وغير ذلك مما حدّثتك عنه في حينه، ولكنّ حملتي لم تتجاوز حدّ النصح الحازم أو النقد الصريح، هذه أوّل مرة يضيق بها صدري فأعالتها الخصام:

- ٢٣ -

- آه...!

نذت عنه بغتة مفعمة بالحرارة والانفعال عندما رأى عابدة خارجة من باب القصر. كان يقف كعادته كلّ أصيل على طوار العباسية يراقب البيت من بعيد وغاية أمانيه أن يلمحها في شرفة أو نافذة. وكان يرتدي بدلة رصاصية أنيقة كأنما أراد أن يجاري الجوّ الذي بعثت فيه الأيام الأخيرة من مارس أريجاً ولطفاً وبشاشة، فضلاً عن أنّه كان يزداد تأثّقاً كلّما ازداد السّما وقنوطاً. وكانت عيناه لم ترياها مذ خاصمته في الكشك، ولكنّ الحياة لم تكن تتيسّر له إلّا أن يحجّ كلّ أصيل إلى العباسية فيطوف بالقصر من بعيد في مثابة لا تعرف اليأس، معلّلاً نفسه بالأحلام، قانئاً إلى حين باجتلاء المقام واجترار الذكريات. وكان الألم في الأيام الأولى للفراق كالجنون في هذيانه ووسوسته، ولو طال به الأمد على ذلك لقضى عليه، ولكنّه نجا من تلك المرحلة الخطيرة بفضل اليأس الذي وطّن النفس عليه من قديم، فانسرب الألم إلى مستقرّ له في الأعماق يؤذي فيه وظيفته من غير أن يعطل سائر الوظائف الحيويّة كأنّه عضو أصيل في الجسم أو قوّة جوهريّة في الروح، أو أنّه كان مرضاً حاداً هائجاً ثمّ أزمّن فزايسته الأعراض العنيفة واستقرّ، غير أنّه لم يتعزّز - وكيف يتعزّى عن الحبّ، وهو أجلّ ما كاشفته به الحياة؟ - ولكنّه كان يؤمن إيماناً عميقاً بخلود الحبّ، فكان عليه أن يصبر كما ينبغي لإنسان مقدور عليه بأن يصاحب داء إلى آخر العمر.

ولمّا رآها وهي تغادر القصر فجأة نذت عنه هذه الالهة، وتابعت عيناه عن بعد مشيتها الرشيقة التي طال تشوّقه إليها حتّى رقصت روحه رقصة قطر هيئاتها حينئذٍ وطرباً، ومالت العبادة إلى اليمين وسارت في شارع السرايات، فشبت في روحه ثورة اجتاحت

فقالَت الأمّ برجاء وإن ظلّ وجهها ممتعضاً:

- دعي الأمر لي يا خديجة، أمّا أنت فلا أحبّ أن يفصل بينك وبينها خصام أبداً، لا يصحّ أن يفترق قلبكما وأنّتا تعيشان معاً في بيت واحد، لا تنسي أنّها أختك وأنتك أختها، بل أختها الكبرى، إنّ قلبك أبيض والحمد لله، وهو مترع بالحبّ لأهلك جميعاً، إنّّي كلّما اشتدّ أمر لم أجد عزاء إلّا في قلبك، وعائشة مهما يكن من هفواتها هي أختك، لا تنسي هذا...!

فهتفت في تأثر:

- إنّّي أغفر لها كلّ شيء إلّا شهادتها عليّ...!

- لم تشهد عليك، خافت أن تغضبك كما خافت أن تغضب حاتمها فلاذت بالصمت، إنّها تكره أن تغضب أحداً - كما تعلمين - وإن كانت رعونتها كثيراً ما تغضب الكثيرين، لم تقصد الإساءة إليك أبداً، فلا تحملي تصرفها أكثر ممّا يحتمل، سأزورك غداً لأصفي حسابي معها، ولكنّي سأصلح بينكما وإنّك أن تمتنعي عن الصلح...

ولأوّل مرة تتجلّى في عينيّ خديجة نظرة قلقة مشفقة حتّى أنّها غصّت عينها لتخفيها عن أمّها، وصمتت قليلاً، ثمّ قالت بصوت خافت:

- ستجيبين غداً...؟

- نعم، لم يعد الحال يحتمل الصبر.

خديجة كأنما تحدّث نفسها:

- سوف تتهمني بأنّي أفشيت أسرارها...!

- ولو...!

ولمّا آنست منها مزيداً من القلق والإشفاق، عادت تقول:

- على أيّ حال أنا أعرف ما يقال وما لا يقال...!

فقالَت خديجة بارتياح:

- أعاقبتك أنا؟!

تغاضى عن الحديث لحظة خاطفة كي يتملّ سحر الحال، فقد رضيت أن تحاوره، وأن تتمهلّ في خطواتها السعيد، وسواء أكان هذا لأنها تؤدّ أن تستمع إليه أم لأنها تتعمّد إطالة المسافة حتّى تتخلّص منه قبل بلوغ هدفها فلن يغيّر هذا من الحقيقة الباهرة، وهي أنّها يسيران جنباً إلى جنب في شارع السرايات، تحفّ بهما أشجار الطريق الباسقة، وترون إليهما من فوق أسوار القصور عيون النرجس الساجية وثغور الياسمين الباسمة، في هدوء عميق يتعطّش قلبه المستعر إلى نفحة منه، وقال:

- عاقبتني أشدّ عقاب باختفائك عنيّ ثلاثة أشهر كاملة وأنا أتعذّب عذاب المتهّم البريء...  
- بحسن ألا نعود إلى ذلك...

في انفعال وضراعة:

- بل يجب أن نعود إليه، إنّي مُصرّ على ذلك وأتوسّل إليك باسم العذاب الذي عانيته حتّى لم يعد بي قوّة لتحملّ المزيد منه...  
تساءلت في هدوء:

- ما ذنبي أنا في ذلك؟

- أريد أن أعرف: ألا تزالين تعذّبتني معتدياً؟ الأمر المؤكّد أنّي لا أستطيع أن أسيء إليك بحال، ولو تذكّرت مودتي طوال الأعوام الماضية لاقتنعت برأيي دون عناء، دعيني أفصل لك الأمر بكلّ صراحة، لقد دعاني حسن سليم إلى مقابلته عقب الحديث الذي دار بيننا في الكشك.

قاطعته فيها يشبه الرجاء:

- دعنا من هذا، إنّه ماضٍ انتهى...

وقعت الجملة الأخيرة من أذنه موقع النياحة من أذن الميت لو كان ميت يسمع، ثمّ قال بتأثّر بدا في نبراته كالنغمة إذا هبطت من الجواب إلى القرار:

- انتهى... أعلم أنّه انتهى، لكنّي أطمع في حسن الختام، لا أريد أن تذهبي وأنت تظنّين بي الغدر، أو الغيبة، إنّي بريء ويعزّ عليّ أن تسيئي الظنّ بشخص يكرّ لك كلّ إعزاز واحترام، فلا يجري

الهزيمة التي راضٍ عليها النفس قرابة ثلاثة أشهر ففزع به قلبه إلى أن يطرح همومه عند قدميها وليكن ما يكون. وأنّجه دون تردّد إلى شارع السرايات. كان في الماضي يحذر الكلام أن يفقدها، الآن ليس ثمة ما يخاف عليه، إلى أنّ العذاب الذي عاناه طيلة الأشهر الثلاثة الماضية لم يدع له سبيلاً إلى التردّد أو التراجع. ولم تلبث أن انتبهت إلى اقتراب خطاه، فالتفتت إلى الوراء فرأته على بعد خطوات منها، ولكنّها أعادت رأسها إلى وضعه الأوّل دون مبالاة. لم يكن يتوقّع استقبالا لطف، ولكنّه قال معاتباً:

- أهكذا يكون اللقاء بين الأصدقاء القدماء؟!

فكان الجواب أن حثّت الخطى دون أن تعيره أدنى التفات، فأوسع خطوه مستمداً من أله عناداً، ثمّ قال وهو يوشك أن يحاذيها:

- لا تتجاهليني فهذا شيء يفوق الاحتمال ولا داعي له لو راعيت الإنصاف...

وكان أخوف ما يخاف أن تصرّ على تجاهله حتّى تبلغ هدفها المقصود، ولكنّ الصوت الرخيم خاطبه قائلاً:  
- من فضلك ابتعد عنيّ، ودعني أسير في سلام.

فقال بإصرار وتوسّل معاً:

- ستسيرين بسلام، ولكن بعد أن نصقّي الحساب...

فقات بصوت تردّد عميقاً واضحاً في صمت الطريق الأرستقراطيّ الذي بدا خالياً أو شبه خالٍ:  
- لا أدري شيئاً عن هذا الحساب، ولا أريد أن

أدري، أرجو أن تسلك سلوك الجنتلمان...

فقال بحرارة ووجد:

- أعدك بأن أسلك سلوكاً يُعتبر بالقياس إلى الجنتلمان نفسه مثاليّاً، وليس في وسعي أن أفعل غير هذا، إذ إنك أنت التي توحين إليّ بسلوكي.

قالت ولم تكن تنظر إلى ناحيته:

- أعني أن تركني في سلام، هذا ما عنيته...

- لا أستطيع، لا أستطيع قبل أن تعلن براءتي من التهم الظالمة التي عاقبتني عليها دون استماع إلى دفاعي...

لك ذكر على لسانه إلا مقرونًا بكلّ ثناء...  
 ألفت عليه نظرة وهي تميل برأسها إلى الناحية  
 الأخرى كأنما تداعبه قائلة «من أين لك بهذه البلاغة  
 كلّها؟»، ثمّ قالت بشيء من الرقة:  
 - يبدو أنّه وقع سوء تفاهم غير مقصود، ولكن ما  
 فات فات...  
 بحماس وأمل:

- بل لا يزال في النفس شيء من الشكّ فيما أرى.  
 فقالت بتسليم:  
 - كلاً، لا أنكر أنّ أسأت الظنّ حيناً، ولكنّ تبيّن  
 لي الحقّ بعد ذلك...  
 فطفأ قلبه فوق موجة من السعادة ترنّح فوقها  
 كالشمّل، ثمّ تساءل:  
 - متى عرفت ذلك؟  
 - منذ زمن غير قصير...  
 ورنّا إليها بامتنان، وعبرته حال من الوجد يحلو  
 معها نوع من البكاء، ثمّ قال:  
 - عرفت أنّي بريء؟...  
 - نعم...

- بل، وكانت التهمة أخفّ الآلام، أمّا أشدّها  
 فكان اختفاؤك، كان لكلّ ساعة من ساعات الأشهر  
 الثلاثة الماضية نصيبها من الآمي، عشت أشبه ما  
 يكون بالمجانين، لهذا أدعو الله صادقاً ألاّ يمتحنك  
 بالآلم، دعاء مجرّب، فإنّ لي بالآلم تجربة وأيّ تجربة،  
 وأقنعتني هذه التجربة القاسية بأنّه إذا كان مقدوراً عليّ  
 أن تحتفي من حياتي، فمن الحكمة أن أبحث لي عن  
 حياة أخرى، كان كلّ شيء كلعة طويلة مقيّنة، لا  
 تهزّئي بي، أنا أتوجّس من ناحيتك شيئاً كهذا دائماً،  
 ولكنّ الآلم أجلّ من أن يُهزأ به، لا أتصوّر أن يهزأ  
 ملاك كريم مثلك من عذاب الآخرين ودعي جانباً  
 أنّك سبيه، لكن ما الحيلة؟ قضّي عليّ من قديم أن  
 أحبّك بكلّ قوّة نفسي...  
 ساد صمت مقطّع بأنفاسه المتردّدة، وكانت تنظر  
 إلى الأمام فلم يطلع عينيها ولكنّه وجد في صمتها  
 راحة لأنّه على أيّ حال أخفّ من كلمة سادرة وعده  
 توفيقاً. تصوّر أن يجيئك صوتها ناعماً عذباً محرباً عن  
 الشعور نفسه! يا له من مجنون! لماذا سكب ماء قلبه  
 المكنون؟ لم يكن إلاّ كفافز رامّ الارتفاع قدّمًا فوجد  
 نفسه يحلّق فوق هامة الجوّ ولكن أيّ قوّة نستطيع أن  
 تشكّمه بعد ذلك؟  
 - لا تذكّريني بما لا أحبّ سماعه فإنّي في غنى عن  
 ذلك، لن أنسى رأسي لأنّي أحمله ليل نهار، ولا أنفي  
 فإنّي أراه مرّات كلّ يوم، ولكنّ عندي شيء لا نظير له

هل يستردّ حسن سليم احترامه عن جدارة؟  
 - وكيف عرفت الحقيقة؟  
 فقالت بعجلة توحّي الرغبة في إنهاء التحقيق:  
 - عرفتها... وهذا هو المهمّ...  
 تجنّب الإلحاح أن يضايقها، ولكنّ خاطراً خطراً  
 فاضطّلت على قلبه سحابة من الكدر حتّى قال متشكّكاً:  
 - ومع ذلك أصررت على الاختفاء! لم تكلفني  
 نفسك إعلان العفو ولو بإشارة أو كلمة مع أنّك  
 افتننت في إعلان الغضب! ولكنّ عذرک واضح، وهو  
 عندي مقبول...  
 - أيّ عذر هذا؟  
 بصوت حزين:  
 - إنّك لا تعرفين الآلم، وإنّي أسأل الله مخلصاً ألاّ  
 تعرفيه أبداً...  
 قالت كالمتذكرة:  
 - ظننت أنّه لا يهّمك أن تكون متهمّاً...!

الأنغام الكامنة في نفسه حتّى برز منها لحن مليح، عند ذلك تراءت قسّات المعبودة رموزًا موسيقية للحن ساوي مرموقة على صفحة الوجه الملائكيّ.

- ستجدينني قانعًا بما دون الرجاء، لأنّي كما قلت لك: أحبك... .

والفتت صوبه في رشاقة طبيعية، فألقت عليه نظرة باسمه ثم استردتها على عجل قبل أن يتمكن من قراءتها، آية نظرة كانت يا ترى؟... نظرة رضى؟ تأثر؟ عطف؟ استجابة؟ سخريّة مهذّبة؟ وهل أصابت الوجه جملة أم اختصّت بالراس والأنف؟ وجاءه صوته قائلاً:

- لا يسعني إلّا أن أشكرك، وأعتذر لك عن إيلاّمك الذي لم أتعّمده، أنت رقيق وكريم... .

ونزعت به النفس إلى الارتغاء في أحضان الأحلام السعيدة، ولكنّها استطردت قائلة بصوت خافت:

- الآن دعني أتساءل عمّا وراء ذلك؟

ترى أسمع صوت معبودته أم صدى صوته هو؟ هذه الجملة بنصّها محلّقة في مكان ما من سماء بين القصرين مخفوفة بتنّهّداته، هل آنّ له أن يجد لها جوابًا؟... تساءل في حيرة:

- هل وراء الحبّ شيء؟!

ها هي تبسم، ترى ما معنى ابتسامتها؟ لكّنك غير الابتسام تروم، عادت تقول.

- إنّ الاعتراف بداية وليس نهاية، إنّّي أتساءل عمّا تريد... ؟

فاجاب بحيرة أيضًا:

- أريد... أريد أن تأذني لي بأنّ أحبك... .

فما ملكت أن ضحكت، ثمّ تساءلت:

- أهذا ما تريد حقًّا؟ ولكن ماذا أنت فاعل إذا لم آذن لك؟

فقال وهو يتنّهّد:

- في هذه الحال أحبك أيضًا.

فتساءلت فيما يشبه الدعابة، الأمر الذي أُرعبه:

- فيم إذن كان الاستئذان؟

حقًّا ما أسخف هفوات اللسان، إنّ أخوف ما

عند الآخرين، حبّي لا نظير له، إنّّي فخور به، ويجب أن تكوني به فخورًا أيضًا ولو زهدت فيه، هكذا كان مذ رأيته أوّل مرّة في الحديقة، ألم تشعري به؟ لم أفكر في الاعتراف من قبل لأنّي خفت أن يقطع ما بيننا من مودة وأن يطردني من الفردوس، لم يكن من اليسير عليّ أن أغامر بسعادتي، أمّا وقد طردت من الفردوس فعلام أخاف؟!

سال سرّه على لسانه كأنّه دم تعذّر منعه، ولم يكن يرى من الوجود إلّا شخصها البديع، كأنّ الطريق والأشجار والقصور والقلة العابرة قد غابت وراء سحابة شاملة لم تنحسر إلّا عن فرجة لاحت منها المعبودة الصامته بقامتها الهيفاء وهالتها السوداء وعارضها الموسم بالملاحة المنظوي على الأسرار، يبدو في الظلّ حينًا أسمر صافيًا، وحينًا - إذا مرّ بطريق جانبيّ - وضّاء منيرًا تحت شعاع الشمس المائلة للغروب، ولم يكن يبالي أن يسترسل في الحديث حتّى الصباح!

- أقلت لك إنّني لم أفكر في الاعتراف من قبل؟ في هذا تجاوز، الواقع أنّي هممت بالاعتراف يوم التقينا في الكشك ونودي حسين للتليفون، كدت أعترف لولا أن عاجلتي بمهاجمة رأسي وأنفي، فكنت (وهو يضحك ضحكة مقتضبة) كالخطيب الذي همّ بفتح فيه فأنهال عليه الحصى من جمهور المستمعين؟

هادئة صامته كما ينبغي لها، ملاك من عالم آخر لا يطيب له التحدّث بلغة البشر أو الاهتمام بشئونهم، أما كان من الأكرم له أن يصون سرّه؟... الأكرم؟! الكبرياء حيال المعبود كفر، مواجهة القاتل بالقتيل فنّ من الحكمة، أتذكر الحلم السعيد الذي استيقظت منه ذات صباح فبكيت عليه؟... الحلم سرعان ما يتلعه النسيان، أمّا الدموع أو بالحرّي ذكرها فتبقى رمزًا خالّدًا، وإذا بها تقول:

- لم أقل ما قلت إلّا على سبيل الدعابة، ورجوتك حينذاك ألا تغضب... .

هذا الشعور الرطيب جدير بالتذوّق، كالفرحة السعيدة على أثر وجع ضرس وضرباته، وتداعت

يخاف أن ينحط على الأرض فجأة كما سما عنها فجأة،  
وسمعتها تقول:

- أنت تحبني، ويبدو لي أنك تحب نفسك أيضًا...  
قال بجزع:

- إني... حائر؟ ربما، ولكني أحبك، ماذا وراء  
ذلك؟ يخيّل إليّ أحيانًا أنني أطمع إلى أمور تعجز  
الأرض عن حملها، ولكني إذا تأملت قليلاً عجزت عن  
تحديد هدف لي، خبريني أنت عن معنى هذا كله،  
أريد أن تتحدثني وأن أستمع، هل عندك ما يتشلىني  
من حيرتي؟...

قالت باسمه:

- ليس عندي مما تسأل شيء، كان ينبغي أن تكون  
أنت المتحدث وأنا المستمعة، ألسنت فيلسوفًا؟

قال ورجاءً ووجهه يتورّد:

- أنت تسخرين مني...!

فكانت بعجلة:

- كلاً، غير أنني لم أكن أتوقع هذا الحديث عندما  
غادرت البيت، فاجأني بما لم أتوقع، وعلى أي حال  
فإنّي شاكرة ممّنّة، ولا يسع إنسان أن ينسى عواطفك  
الريقة المهدّبة، أما أن يسخر منها فهذا ما لا يحظر على  
بال...

نغمة آسرة ومناعمة عذبة، ولكنّه لا يدري أيّجّد  
المعبود أم يلهو، وهل تتفتح أبواب الأمل أم توصل في  
خفة النسيم، وقد سأله عما يريد فما أجاب لأنّه لا  
يدري ماذا يريد، ولكن ماذا عليه لو قال إنّه يطمح  
إلى الوصال، وصال الروح بالروح، وأن يطرق باب  
السّر المغلق بعناق أو قبلة، ألا يكون هذا هو  
الجواب؟! وعند مفترق الطرق الذي ينتهي عند شارع  
السرايات، توقّفت عابدة عن السير، ثمّ قالت برقة  
ولكن بلهجة قاطعة:

- هنا...!

فتوقّف عن السير أيضًا وهو يحمق في وجهها  
بدهش، «هنا» تعني أنّه يجب أن نفرّق هنا، لم يكن  
جملة «أحبك» هذا الامتداد في المعنى الذي يغني عن  
السؤال، قال دون تدبّر أو تفكير:

- كلاً...!

ثمّ هاتفاً، كمن ظفر بكشف مضى بغتة:

- ماذا وراء الحب؟ أليس هذا سؤالك؟ هاك

الجواب: ألا نفرّق...!

قالت بهدوء باسم:

- ولكن يجب أن نفرّق الآن...!

تساءل بحرارة:

- لا كدر ولا سوء ظنّ؟

- كلاً...!

- أعودين إلى زيارة الكشك؟

- إذا سمحت الظروف.

بقلق:

- كانت الظروف تسمح في الماضي!

- الماضي غير الحاضر...

آله الجواب إيلاًماً عميقاً، فقال:

- يبدو أنك لن تعودين...

فكانت كأنما تنبّه إلى وجوب الافتراق:

- سأزور الكشك كلّما سمحت الظروف،

سعيدة...

وغادرت موقفها متّجهة نحو شارع المدرسة فوقف  
يرنو إليها كالسحور، وعند منعطف الطريق التفتت  
نحوه فألقت عليه نظرة باسمه ثمّ غابت عن ناظره.  
ماذا قال وماذا سمع؟ سيخلو إلى هذا عمّا قليل،  
بعد أن يفق، متى يفق؟! إنّه يسير الآن وحده،  
وحده؟ وخفقات القلب وهيمان الروح وأصداء النغم؟  
ومع ذلك شعر بالوحدة بقوة هزّت صميم فؤاده،  
وفغمة شذا ياسمين ساحراً آسراً ولكن ما هوئته؟ ما  
أشبهه بالحبّ في سحره وأسرّه وغموضه، لعلّ سرّ هذا  
يفضي إلى ذلك، ولكنّه لن يحلّ هذا اللغز حتّى يأتي على  
تراثيل الحيرة...

- ٢٤ -

قال حسين شدّاد:

- هذه جلسة الوداع وأأسفاه!

امتعض كمال لدى ذكر كلمة الوداع، ورمق حسين

بنظرة سريعة ليرى إن كان وجهه ينطق بالأسف حقًا  
كما نطق به لسانه! على أنه استشعر جو الوداع منذ أكثر  
من أسبوع، إذ إن مجيء يونيه يؤذن عادة برحيل  
الأصدقاء إلى رأس البر والإسكندرية، فما هي إلا أيام  
حتى تغيب عن أفقه الحديقة والكشك والأصدقاء، أما  
المعبودة فقد ارتضت الاختفاء من قبل أن يقضي به  
الرحيل، وأصرّت عليه رغم الصلح الذي تُوج به  
حديث شارع السرايات، لكن هل يمضي يوم الوداع  
دون زيارة؟ هل هانت المودة إلى حدّ الضنّ بنظرة  
عابرة قبل سفر ثلاثة أشهر؟ تساءل كمال بأسًا:  
- لمّ قلت «وأسفاه»؟  
فقال حسين شذاد باهتمام:  
- وددت لو سافرتم معي إلى رأس البر، يا  
سلام!... أيّ تصنيف كان يكون؟!...  
كان يكون عجبًا بلا ريب، حسب أنه المعبودة لا  
تستطيع مواصلة الاختفاء هناك! وخاطبه إسماعيل  
لطيف:  
- كان الله في عونك! كيف تحتمل حرّ الصيف هنا،  
إنّ الصيف لم يكد يبدأ بعد، ومع ذلك انظر إلى حرّ  
اليوم!  
كان الجو شديد الحرارة رغم تقلص ذيل الشمس  
عن الحديقة والصحراء الممتدة وراءها، غير أنّ كمال  
قال بهدوء:  
- لا شيء في الحياة لا يمكن احتياله...  
وفي اللحظة التالية كان يسخر من إجابته ويتساءل  
كيف أجاب بها، وإلى أيّ حدّ يمكن اعتبار أنّ أقوالنا  
تعبير صادق عبثًا في نفوسنا؟ ونظر فيها حوله فرأى أناسًا  
سعداء ما في ذلك ريب، بدوا في قمصانهم ذوات  
الأكمام القصيرة وبنطلوناتهم الرمادية كأنما يتحدثون  
الحرّ، كان هو وحده الذي يرتدي بدلة كاملة - وإن  
تكن بدلة خفيفة بيضاء - وطربوشًا وقد وضعه على  
المنضدة، وإذا بإسماعيل لطيف ينوء بنتيجة الامتحان  
قائلًا:  
- نتيجة نجاح مائة في المائة، حسن سليم نال  
الليسانس، كمال أحمد عبد الجواد منقول، حسين

شذاد منقول، إسماعيل لطيف منقول...  
قال كمال ضاحكًا:  
- لو اكتفيت بذكر النتيجة الأخيرة لعرفنا الأخريات  
بداهة!  
فقال إسماعيل وهو يرفع منكبيه استهانة:  
- كلانا بلغ هدفًا واحدًا، أنت بعد كدّ وتعب  
تواصلنا طول العام، وأنا بعد تعب شهر واحد!  
- لهذا دليل على أنّك عالم بالفطرة!  
فتساءل إسماعيل ساخرًا:  
- ألم تقل مرة في أحد أحاديثك التافهة إنّ برنارد شو  
كان أخيب تلميذ في عصره؟  
فقال كمال ضاحكًا:  
- الآن آمنت بأنّ عندنا نظيرًا لشو، على الأقلّ في  
حييته...!  
عند ذاك قال حسين شذاد:  
- عندي خبر ينبغي إذاعته قبل أن يسرقنا  
الحديث...  
ولمّا وجد أنّ قوله لم يجد كثيرًا في لغت الأنظار إليه  
نهض فجأة، ثمّ قال بلهجة لم تخلّ من تمثيل:  
- دعوني أرتّب إليكم خبرًا طريفًا وسعيديًا (ثمّ  
مستدركًا وهو ينظر نحو حسن سليم) أليس كذلك؟  
(ثمّ وهو يعود برأسه نحو كمال وإسماعيل) تمّت أمس  
خطبة الأستاذ حسن سليم على أختي عايدة...  
وجد كمال نفسه أمام هذا الخبر بغتة كما يجد لإنسان  
نفسه تحت الترام وكان أنعم ما يكون عينًا بالسلامة  
والأمن، خفق قلبه خفقة عنيفة كسقطه طيارة منطلقة  
في فراغ هوائي، بل هي صرخة فزع باطنية تصدّعت  
الضلوع دون تسرّبها إلى الخارج، وقد عجب -  
خصوصًا فيما بعد - كيف استطاع أن يضبط مشاعره  
ويلاقي حسين شذاد بابتسامة التهنية، فلعلّه شغل عن  
القارة - ولو إلى حين - بالصراع الذي نشب بين  
نفسه وبين الدهول الذي طوّقها، وكان إسماعيل  
لطيف أول من تكلم فردّد عينيه بين حسين شذاد  
وحسن سليم الذي بدا هادئًا رزينًا كعادته وإن شابه  
هذه المرة شيء من الحياء أو الارتباك، ثمّ هتف:

- حقاً؟ يا له من خبر سار، سار ومفاجئ، سار ومفاجئ وغادراً غير أنني سأؤجل الحديث عن الغدر إلى حين، حسبي الآن أن أقدم خالص التهاني...  
ونهض فصافح حسين وحسن، فقام كمال من فوره للتهنئة كذلك، وكان مأخوذاً رغم ابتسامته الظاهرة بسرعة الحوادث وغرابة الأقوال حتى خيل إليه أنه في حلم غريب وأن المطر ينهمر فوق رأسه وأنه يتلفت باحثاً عن مأوى، وقال وهو يصافح الشائين:  
- خبر سار حقاً، تهاني القلبية...  
عاد المجلس إلى سابق هيئته، واختلس كمال من حسن سليم نظرة على رغبته فراه هادئاً رزيناً، وكان يشفق من أن يجده مختلاً أو شامتا - كما تصوّر هذا - فداخله شيء من الارتياح العابر، وراح يستجدي نفسه أقصى ما لديها من قوة ليسترجع جرحه الدامي عن العيون البواقظ ولينفادي من موضع الهزء والزراية، تجلّدي يا نفسي وأنا أعدك بأن نعود إلى هذا كله فيما بعد، بأن نتألم معاً حتى نهلك، وبأن نفكر في كل شيء حتى ننجّ، ما أمتع هذا الموعد في هدأة الليل حيث لا عين ترى ولا أذن تسمع، حيث يباح الألم والهديان والدموع دون زراية زارٍ أو لومة لائم. وثمة البشر القديمة أرخ عن فوهتها الغطاء وصرخ فيها غاطباً الشياطين ومناجياً الدموع المتجمعة في جوف الأرض من أعين المحزونين، لا تستسلم، حذار، فالدنيا تبدو لناظريك حمراء كعين الجحيم. عاد إسماعيل لطيف يقول متخذاً لهجة الاتهام:  
- مهلاً، لنا عندكم حساب، كيف حدث هذا ودون سابق إنذار؟ أو فلندع هذا إلى حين، ولنسأل كيف تمّت الخطبة دون حضورنا؟  
قال حسين شذاد مدافعاً عن موقفه:  
- لم يكن هناك حفل كبير أو صغير، اقتصر الجمع على خاصّة الأهل، موعدنا يوم الكتاب وعليك خير، ستكونان من الداعين لا المدعوين...  
يوم الكتاب! كأنه عنوان لحن جنائزي، حيث يشيع قلب إلى مقرّه الأخير محفوفاً بالورود مودعاً بالزغاريد، وباسم الحبّ تعنو ربيبة باريس لشيخ معمم يتلو فاتحة
- الكتاب، وباسم الكبرياء هجر إبليس الجنة. قال كمال باسمًا:  
- العذر مقبول والوعد مأمول.  
فصاح إسماعيل لطيف محتجاً:  
- هذه بلاغة أزهرية إذا لاحت لها في الأفق مائدة تناست دواعي العتاب، وتغنّت بالتسامح والثناء، كلّ ذلك في سبيل لقمة دسمة! حقاً إنك أديب أو فيلسوف أو ما شاكل ذلك من ضروب الشحاذة، أمّا أنا فلست كذلك...  
ثمّ مواصلاً حملة الاتهام على حسين شذاد وحسن سليم:  
- يا لكما من داهيتين، صمت طويل يعقبه فجأة إعلان خطية، هه؟ حقاً يا أستاذ أنك الخليفة المنتظر لثروت باشا...  
قال حسن سليم وهو يبتسم معتذراً:  
- إنّ حسين نفسه لم يعلم بالأمر إلّا قبيله أيام معدودات...  
فتساءل إسماعيل:  
- خطبة من جانب واحد كتصريح ٢٨ فبراير؟ رفضته الأمة المغلوبة على أمرها بإباء ولكنّه فرض عليها وما كان كان، وضحك كمال ضحكة عالية، فقال إسماعيل وهو يغمز حسن سليم بعينه:  
- استعينوا على قضاء... لا أذكر ماذا بالكتان! قالها عمر بن الخطّاب، أو عمر بن أبي ربيعة، أو عمر أفندي، والله أعلم...  
وقال كمال فجأة:  
- جرت العادة بأن تنضج هذه الأمور في صمت، على أنني أقرّ بأنّ الأستاذ حسن أشار في حديث له معي مرّة إلى شيء كهذا!  
فرمقه إسماعيل بارتياح، على حين ألقى عليه حسن نظرة واسعة، وقال مستدرّكاً:  
- كان كلاماً أشبه بالعناوين...!  
تساءل كمال في دهش كيف ندّ عنه ذلك القول؟ إنّه كذب أو شبه كذب على أحسن تقدير، كيف يطمع - بهذا الأسلوب الشاذّ - أن يقنع حسن بأنّه كان على



- ينبغي أن أعرف أولاً إن كنت سأبقى في مصر أم لا...؟  
فقال حسين شذاد معقّباً:  
- إمّا أن يعيّن في النيابة، أو في السلك السياسي... .

هكذا يبدو حسين شذاد مسروراً بالخطبة، فاستطيع أن أزعّم أنّي كرهته ولو دقيقة عابرة، كأنه خانني فيمن خانوني، أخانني أحد؟ اختلطت الأمور عليّ، غير أنّ هذا المساء يعدني بخلوة حافلة... .

- أيّها تفضّل يا أستاذ حسن؟  
فليختر ما يحلو له، النيابة... . السلك السياسي... . السودان... . سوريا إن أمكن... .  
- النيابة بهدلة، إنّني أفضل السلك السياسي... .  
- يحسن أن تُفهم والدك ذلك جيّداً حتّى يركّز عنايته في إلحاقك بالسلك السياسي... .

أفلتت هذه الجملة أيضاً؟ ولا شكّ أنّها أصابت الهدف، ينبغي أن يتألك أعصابه وإلاّ وجد نفسه مشتبكاً مع حسن في نزاع عليّ، ثمّ ينبغي أن يراعي خاطر حسين شذاد، فهما الآن أسرة واحدة، ما أفسى هذه الشكّة من الألم. هزّ إسماعيل رأسه كالأسف، وقال:

- هذه آخر أيّامك معنا يا حسن، بعد عشرة العمر كلّه، يا لها من نهاية محزنة!  
يا للحقاقة! يحسب أنّ الحزن يمسّ قلباً واحة العبود مرتعه.

- الواقع أنّها نهاية محزنة يا إسماعيل... .  
كذب في كذب، مثل تهنتك له، يستوي في هذا ابن التاجر وابن المستشار. قال:  
- أيّني هذا أنّك ستقضي عمرك كلّ خارج الفطر؟  
- هذا هو المتوقّع، لن نرى مصر إلّا في القليل النادر... .

قال إسماعيل متعجباً:  
- حياة غريبة! هلاًّ فكّرت فيها ينتظر أولادك من متاعب؟  
واقبلها! أيليق هذا العبث بالمعاني! يحسب الشرير

علم بنواياه وأنّه لم يفاجأ بها أو يكثر لها؟ يا للحقاقة! أمّا إسماعيل فقد قال لحسن وهو يحده بنظرة عتاب:  
- ولكيّني لم أحظّ بعنوان واحد من هذه العناوين!  
قال حسن بجدّ:

- أوّكد لك أنّه إذا كان كمال قد وجد في حديثي معه ما اعتبره إشارة إلى الخطبة، فإنّما يكون قد استعان على ذلك بخياله لا بكلماتي.  
ضحك حسين شذاد ضحكة عالية، وقال مخاطباً حسن سليم:

- إسماعيل زميلك القديم، وهو يريد أن يقول لك إنّّه إذا كنت سبقتّه إلى الليسانس بثلاث سنوات فلا يعني هذا أن تضنّ عليه بأسرارك أو أن تؤثر بها غيره!  
فقال إسماعيل باسمًا، وكأنّما كان يداري مضايقته:  
- إنّني لا أرتاب في زمائلته القديمة، ولكيّني أحاسبه حتّى لا يعود إلى الوقوع في الإهمال يوم القران!  
فقال كمال باسمًا:

- نحن أصدقاء الطرفين، فإذا أهملنا العريس فلن تهملنا العروس... .

إنّه تكلم ليثبت أنّه حيّ، لكنّه حيّ يتألّم، شدّ ما يتألّم، ترى هل جرى في خاطره يوماً أن يكون لحبه نهاية غير هذه النهاية؟ كلّاً، غير أنّ الإيمان بأنّ الموت حتم مقدّر لا يمنع من الجزع حين حضوره، وهو ألم مفترس لا يعرف المنطق أو الرحمة، لو يستطيع أن يشخصه ليعلم في أيّ موضع يكمن أو عن أيّ ميكروب يصدر؟! وبين نوبات الألم يرشح بالملل والفتور... .

- ومتى يُعقد القران؟  
إنّ إسماعيل يسأل عمّا يدور بخاطره كأنّه موكل بأفكاره، ولكنّه لا ينبغي له أن يصمت. قال:  
- نعم، هذا مهمّ جدّاً حتّى لا تؤخّذ على غزّة، متى يُعقد القران؟

فتساءل حسين شذاد ضاحكاً:  
- لمّ تتعجلان الأمر؟ فليهنّا العريس بما بقي من عهد عزوبيّته... .  
وقال حسن بهدوئه المعتاد:

- أن المعبودة تحبل وتتوخم وتنداح بطنها وتتكور ثم يجيئها المخاض فلدا! أتذكر خديجة وعائشة في الأشهر الأخيرة؟ هو الكفر، لم لم تشترك في جمعية الكفّ السوداء؟ الاغتيال خير من الكفر وأنجع، وتجد نفسك يوماً في قفص الاتهام وعلى المنصة سليم بك صبري والد صديقك الدبلوماسي وهو معبودتك، كما مثل بين يديه قتلة السردار في هذا الأسبوع، الخائن!...
- حسين شدّاد ضاحكاً:
- أتقطع الدول علاقاتها السياسية حتى يربّي أولاد الدبلوماسيين في بلادهم؟!
- بل تقطع الرؤوس! عبد الحميد عنایت... الخراط... محمود راشد... علي إبراهيم... راغب حسن... شفيق منصور... محمود إسماعيل...
- كمال أحمد عبد الجواد الإعدام شقاً، القاضي الوطني سليم بك صبري، القاضي الإنجليزي مستر كرشو، الاغتيال هو الجواب، أتريد أن تقتل أم تُقتل!...
- وخاطب إسماعيل حسين قائلاً:
- رحيل أختك سيحمل والدك على الإصرار على رفض فكرة سفرك أنت!...
- فقال حسين شدّاد باطمئنان:
- قضيتي تقرب من الحلّ الموفّق بخطى ثابتة... عائدة وحسين في أوروبا! إنسان يفقد في ساعة حبيبه وصديقه، تفتقد روحك معبودها فلا تجده ويفتقد عقلك أليفه فلا يجده، وفي الحيّ العتيق تعيش وحيداً مهجوراً كأنك صدى حنين هائم منذ أجيال، تأمل الآلام التي ترصدك، أن لك أن تحصد ثمار ما زرعت من أحلام في قلبك الغمر، توصل إلى الله أن يجعل الدموع دواءً للأحزان، وعلّق إن استطعت جسمك بحبال المشائت أو وضعه على رأس قوّة مدمّرة تنقضّ بها على العدو، غداً تلقى روحك خلاء كما لقيت بالأمس ضريح الحسين، يا خيبة الآمال، والمخلصون قتل أماً أبناء الخونة فسفراء. قال إسماعيل لطيف وكأنما يخاطب نفسه:
- لن يبقى في مصر إلّا أنا وكمال، وكمال غير مأمون الجانب، لأنّ صديقه الأوّل - قبل أو بعد أو مع حسين - هو الكتاب...
- فقال حسين في ثقة وإيمان:
- لن يقطع الرحيل ما بيننا من أسباب... فحق قلب كمال رغم فتوره، وقال:
- على أنّ قلبي يجذّني بأنك لن تحتمل الغربة إلى الأبد...
- هذا هو الراجح، ولكنك ستفيد من رحلي بما سأرسله لك من كتب، سواصل أحاديثنا بالرسائل والكتب...
- هكذا يتكلّم حسين كما لو كان السفر قد بات أمراً مفروغاً منه، هذا الصديق الذي يسعد ببقياه سعادة فاتنة فحتى الصمت يستمتع به في محضره، ولكلّ عزاء فذهاب المعبودة سيعلّمه كيف يستهين بالخطب وإن جلّ، هكذا هانت وفاة جدّته المحبوبة على النفس التي اكتوت بنار الحزن على فهمي، غير أنّه ينبغي أن يذكر دائماً أنّه في جلسة الوداع كي يملأ عينيه من الورود والأزهار الثملة بالنضرة لا تبالي في أيّ حزن يهيم، وثمة مشكلة ينبغي أن يجد لها حلاً: كيف يسمو بشر إلى معاشرّة المعبود أو كيف يهبط المعبود حتى يعاشره بشراً؟! فإذا لم يجد لذلك حلاً فسوف يسير في طريقه بقدمين ترسّفتان في الأغلال وفي حلقة شحماً، والحبّ حل ذو مقبضين متباعدين تُخلّق لتحمله يدان... فكيف يحمله وحده؟ وكان الحديث يطّرد ويتفرّع وهو يتابعه بعينه وهزّات رأسه وكلّيات يثبت بها أنّ الخطب لم يقض عليه بعد، وكان الأمل معقوداً بأنّ قاطرة الحياة تسير وأنّ محطة الموت في الطريق على أيّ حال، وها هي ساعة الغروب... ساعة الظلام والهدوء... تحبّها كما تحبّ الفجر، وعائدة واللم لفظان لمعنى واحد فينبغي أن تحبّ الألم وأن تطرب للهزيمة منذ اليوم؛ ولا تزال عجلة الحديث في دوران غير منقطع والأصدقاء يتضاحكون ويتناظرون كأنّ واحداً منهم لم يعرف الحبّ قلبه... حسين ضحكة الصبحة والصفاء، وإسماعيل ضحكة العريضة والعدوان، وحسن ضحكة التحفّظ والاستعلاء، وبأبي حسين إلّا أن يتحدث عن رأس البر، أعدك بأن أحجّ إليها يوماً وأن أسأل عن الرمال

- نعم أنت، لم يكن حسن يرتاح إلى صداقتكما، هذا يبدو لي محققاً رغم أنه لم ينس لي عنه بكلمة، إنه ذو كبرياء شديد - كما تعلم - ولكني أعرف كيف أصل إلى ما أريد، أؤكد لك أنه لم يكن يرتاح إلى صداقتكما، أتذكر ما نشب بينكما ذلك اليوم؟ الظاهر أنه طالبا بأن تحمّد من حرّيتها في الاختلاط بالأصدقاء، والظاهر أنها ذكرته بأنه لا حقّ له في مطالبتة فأقدم على هذه الخطوة الكبيرة ليكون من أصحاب الحقوق!

قال كمال وخفقان قلبه يكاد يعلو على صوته:  
- لكنني لم أكن الصديق الوحيد! كانت عابدة صديقتنا جميعاً!  
فقال إسماعيل متهمكاً:  
- ولكنّها اختارتك أنت لتثير قلقه! ربّما لأنّها آنست في صداقتك حرارة لم تجدّها عند غيرك، على أيّ حال، إنّها لا تلقى الأمور ارتجالياً، وقد صمّمت منذ قديم على الظفر بحسن فجئت أخيراً ثمرة صبرها!  
«الظفر بحسن»؟ «ثمرة صبرها»! ما أشبه هاتين العبارتين بقول مأفون «شروق الشمس من الغرب»، قال وقلبه يتأوّه:  
- ما أسوأ ظنّك بالناس! إنّها ليست على شيء ممّا تتصوّر!

فقال إسماعيل دون أن يفطن إلى شعور صاحبه:  
- لعلّ الأمر وقع اتّفاقاً أو لعلّ حسن كان واهماً، على أيّ حال جاءت العواقب في صالحها...  
هتف كمال غاضباً:  
- صالحها! ماذا تظنّ؟! سبحان الله، إنّك تتحدّث عنها كما لو كانت خطبتها لحسن تعتبر ظفراً لها لا له!!  
فحدّجه إسماعيل بنظرة غريبة، ثمّ قال:  
- إنّك فيما يبدو غير مقتنع بأنّ أمثال حسن قليلون؟  
أسرة ومركز ومستقبل، أمّا مثيلات عابدة فلسن قليلات، هنّ أكثر ممّا تتصوّر، ترى هل تقدّرهما أكثر ممّا تستحقّ؟ إنّ أسرة حسن ارتضت زواجه منها لثروة أبيها الهائلة فيما اعتقد، إنّها فساة... (ثمّ بعد تردّد)... ليست بارعة الجمال على أيّ حال!...

التي وطئتها أقدام المعبودة لآلئها ساجداً، الآخرين يتغيّبان بسان استغنان ويتحدّثان عن أمواج كالجمال، حقّاً؟ تصوّر جثة تقذف بها الأمواج إلى الشاطئ وقد امتصّ البحر الرهيب جماها ونبلها؟ ولتعرّف بعد هذا كلّه بأنّ الملل يطوّق الكائنات وأنّ السعادة ربّما كانت وراء أبواب الموت، وتواصل السمر حتّى أنّ للجمع أن يتفرّق، فتصافحوا بحرارة... شدّ كمال على يد حسين، وشدّ حسين على يد كمال، ثمّ مضى وهو يقول:

- إلى اللقاء... في أكتوبر!  
كان في مثل هذا الموقف من العام الماضي وما قبله يتساءل في لهفة متى يعود الأصدقاء؟ الآن ليست أشواقه رهينة بعودة أحد، ستظلّ مستعرة جاء أكتوبر أو لم يجرّ، عاد الأصدقاء أو لم يعودوا. لن يلوم شهور الصيف بعد الآن لأنّها تُبعد بينه وبين عابدة، فالهوة التي تفصل بينهما أعمق من الزمن، وقد كان يعالج الزمن بجراحات الصبر والأمل، ولكنّه يخاصم اليوم عدواً مجهولاً وقوة خارقة غامضة لا يدري من تعاويذها ورقاها حرّاً واحداً... فليس أمامه إلّا الصمت والتعاسة حتّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. تراءى له حبه معلّقاً فوق رأسه كالقَدَر، يشدّه إليه بأسلاك من الألم المبرّح، أشبه ما يكون في جبريّته وقوّته بالظاهرة الكونيّة، فتأمّله بعين ملؤها الإكبار والحزن.

افترق الأصدقاء الثلاثة أمام سراي آل شدّاد: فسار حسن سليم إلى شارع السرايات، وأنجبه كمال وإسماعيل نحو الحسينيّة في طريقهما المعهود الذي يفترقان في نهايته، فيمضي إسماعيل إلى غمرة، ويمضي كمال إلى الحيّ العتيق، وما إن انفردا حتّى ضحك إسماعيل ضحكة عالية طويلة، فسأله كمال عمّا أضحكك، فقال في خبث:

- ألم تظن بعد إلى أنّك كنت في الأسباب الجوهرية التي دعت إلى الإسراع في إعلان الخطبة؟  
.. أنا؟!!

ندّت عن كمال وعيناه تتسعان في ذهول، فقال إسماعيل في استهانة:

سمرة حاملة، وعلى الأرائك والرفوف جوائق مرصوفة  
مرتعة بالخناء الخضراء والشفقة الحمراء والفلفل الأسود  
وقوارير السورد والعطر والقرطاس الملونة والموازين  
الصغيرة، وتندلى من علّ الشموع في أحجام وألوان  
شقي كأنها التهاويل، في جوّ مفعم بشذا العطارة  
والعطر كأنها أنفاس حلم قديم تائه لا يذكر متى رآه،  
أما الملاءات اللث والبراقع السود والعرائس الذهبية  
والأعين الكحيلة والأرداف الثقيلة فمنا جميعاً أستعيد  
بواهب النعم، سير الحالم في تهاويل حلم جميل رياضة  
محبوبة بيّدت أيّ أشكو ضيّي القلب والعين، إن تعدّ  
النسوان هنا لا تحصيهنّ، مبارك المكان الذي يضمهنّ  
ولا منجى لك إلّا أن تهتف من أعماق الفؤاد: يا  
خراب بيتك يا ياسين، هنالك يجيبك صوت أن افتح  
دكان في التريعة واستقرّ، أبوك تاجر. سيّد نفسه...  
ينفق في مسرّاته أضعاف أضعاف مرتّبك، افتحها  
وتوكّل ولو بعث لذلك ربع الغورية ودكان الحمزاوي،  
تحجّ مع الصبح كالسلطان لا ميعاد يربطك ولا رئيس  
يرعبك، تجلس وراء الميزان فيجيبك النسوان من كلّ  
فجّ: صباح الخير يا سي ياسين، واقعد بالعافية يا سي  
ياسين، عليّ وعليّ إن تركت مصونة دون تحية أو  
متهتكة دون ميعاد! ما ألذّ الخيال وأقساه على من  
سبقي إلى آخر العمر ضابطاً بمدرسة النحاسين،  
والعشق داء أعراضه جوع دائم وقلب قُلّب فوارحته  
لمن خلق بشهوة خليفة وسلطان ضابط مدرسة، تهذّم  
الرجاء فلا جدوى من الكذب، ويوم حملتها إلى قصر  
الشوق كان الأمل يعدك بحياة هادئة مطمئنة، قاتل  
الله الملل كيف يمازج النفس كما تمازج مرارة المرض  
اللعاب! عدوت وراها عاملاً ثمّ مللتها في أسابيع فما  
التعاسة إن لم تكن هذا؟ بيتك أوّل بيت يضجّ  
بالشكوى في شهر العسل، سلّ قلبك أين  
مريم؟... أين الملاحه التي لوّعتك؟... يجيبك  
بضحكة كالتأوه ويقول أكلنا وشبعنا وصرنا نتقرّز من  
رائحة الطعام، وهي مأكرة يستعذب اللعب بها ولا  
تفوتها شاردة، مرّة بنت مرّة، اذكروا حسنات موتاكم  
هل كانت أمك خيراً من أمها؟! المهمّ أنّها ليست

إمّا أن يكون مجنوناً وإمّا أن تكون مجنوناً أنت! حزّه  
ألم كهذا من قبل يوم أطلع على كلمة جارحة تهجم بها  
كاتبها على نظام الزواج في الإسلام، ألا لعنة الله على  
الكافرين جميعاً، تساءل بهدوء يغطي به على لوعته:  
- لمّ إذن كثُر المعجبون من حولها؟

أبرز إسماعيل فكّه الأسفل فارتفع ذقنه في حركة  
استهانة، ثمّ قال:

- لعلّك تعني فيمن تقصدا لا أنكر أنّها خفيفة  
الروح، وطراز وحدها في الأناسفة، إلى أنّ أسلوبها  
الغريب في البلياقة الاجتماعية يريق عليها فتنة وإغراء،  
لكنّها بعد ذلك سمراء نحيلة لا شيء فيها يُشتهي!  
تعال معي إلى غمرة ترّ ألواناً من الجمال تزري بجمالها  
جملة وتفصيلاً، هنالك ترى الملاحه الحقّة في البشرة  
الوضيئة والنهد الكاعب والردف المليء، هذا هو الجمال  
إن أردته... لا شيء فيها يُشتهي!...

كأنّها شيء يُشتهي كقمر ومريم! عهد كاعب وردف  
مليء... كمن يصف الروح بصفات الجسد! يا لشدة  
الآلم، كُتب عليه اليوم أن يتجرّع كأس الآلم حتّى  
ثمّلتها، إذا توالى الضربات القاتلة فمن الخير أن  
ترحبّ بالموت...

وعند الحسنيّة افترقا، فسار كلّ إلى سبيله...

## - ٢٥ -

تنقضي السنون ولا يفتر حبّه لهذا الطريق، قال  
لنفسه، وهو يلقي على ما حوله نظرة ضيقة: «لو شابة  
حبي للمرأة التي يختارها قلبي حبي لهذا الطريق  
لأراحتني من متاعب جنة»، أعجب به من طريق  
كالتيه، لا يكاد يمتدّ بضعة أمتار طويلاً حتّى ينعطف يمينه  
أو يساره، وفي أيّ موضع منه يطالعك منحني يطوي  
وراءه مجهولاً، وضيق ما بين جانبيه يريق عليه تواضعاً  
والفة فهو كالحيوان الأليف، والجالس في دكان على  
يمينه يستطيع أن يصفاح الجالس في دكان على يساره،  
سقوف بمظلات الخيش تمتدّ بين أعالي الحوانيت  
فتحجب أشعة الشمس المحرقة وتنفث في الجوّ الرطب

- كزينب يسهل خداعها وما أثقل غضبها إذا غضبت،  
لا هي بالتي تغضي ولا أنت بالذي يقنع، هيهات أن  
تُشبع جوعك المستعر امرأة أو يعرف الاستقرار قلبك،  
ومع ذلك توهمت أنك ستظفر بحياة زوجية سعيدة! ما  
أعظم أباك وما أحقرك! لم تستطع أن تكون مثله  
ودواؤك أن تكون مثله؟! رباه ما هذا الذي أرى؟!  
أهذه امرأة حقاً؟! كم قنطاراً يا ترى تزن؟! اللهم إني  
لم أر من قبل طولاً كهذا الطول ولا عرضاً كهذا  
العرض، كيف تملك هذه الضئيلة؟! إني أنذر إذا  
وقعت بين يدي امرأة في قدرها أن أنيمها في وسط  
الحجرة عارية، وأن أدور حولها سبعا وأنا أفقر...  
- أنت...!
- جاء الصوت من وراء فاهتز له قلبه، وسرعان ما  
تحولت عيناه عن المرأة الضخمة إليه، فرأى شابة في  
معطف أبيض، فما تمالك أن هتف:  
- زنوبة...!
- وتصافحا في حرارة وهي تضحك، غير أنه حثها  
على السير حتى لا يلتفتا إلیها الأنظار، فسارا جنباً إلى  
جنب يشقان الزحام. هكذا التقيا بعد طول الفراق،  
ولم تكن ترد على خاطره إلا في القليل النادر بعد أن  
شغلته عنها الشواغل، ولكنّه وجدها جميلة كيوم  
هجرها أو لعلها ازدادت جمالاً، ثم ما هذا الزئ  
الحديث الذي استبدلته بالملاءة اللف؟ وانبعثت فيه  
موجة من النشاط والسرور، وإذا بها تتساءل:  
- كيف حالك؟  
- عال، وأنت؟  
- كما ترى...  
- عال جداً والحمد لله، أنت غيّرت زيك، لم أكن  
أعرفك عند أول نظرة، لا أزال أذكر مشيتك في الملاءة  
اللف...  
- وأنت لم تتغير، لم تكبر، ازدادت سمانه، هذا كلّ  
ما في الأمر...  
- أنت الآن شيء آخر! بنت أفرنجية... (وهو  
يبتسم في حذر)... إلا أنّ ردّها من الغورية!  
- لسانك!
- أربعتني! كأنك تبت أو تزوجت...!  
- لا شيء على الله بكثير...  
- أما التوبة فهذا المعطف الأبيض يكذبها، وأما  
الزواج فلا يبعد أن تسوقك قلّة العقل يوماً إليه!  
- حاسب، إني متزوجة تقريباً...!  
ضحك - وكانا يميلان إلى الموسكي - قائلاً:  
- مثلي تماماً...  
- لكنك متزوج بالفعل، أليس كذلك؟  
- كيف عرفت هذا؟... (لَمْ مستدرّكاً) أوه...  
كيف نسيت أنّ أصرارنا عندكم أول بأول!  
وضحك مرة أخرى ضحكة ذات معنى، فابتسمت  
ابتسامة غامضة، وقالت:  
- تقصد بيت السلطانة؟  
- أو بيت أبي، أليس الود متصلاً؟  
- تقريباً!  
- كلّ شيء عندك الآن بالتقريب! أنا كذلك متزوج  
تقريباً، أعني أنّي متزوج وأبحث عن رفيقة...  
هشّت بيدها ذبابة على وجهها، فوسوست أساورها  
الذهبية المحيطة بساعدها وهي تقول:  
- أنا مرافقة وأبحث عن زوج!  
- مرافقة؟! من السعيد ابن ال...  
قاطعته وهي تشير إليه مخدرة:  
- إياك والسب، إنه رجل ذو مقام...  
فقال وهو يلحظها ساخرًا:  
- ذو مقام؟! حق حق، زنوبة!... أودّ لو  
أنطحك...  
- أتذكر متى تقابلنا آخر مرة؟  
- أوه، ابني رضوان عمره الآن سنّة أعوام، فنكون  
قد تقابلنا آخر مرة منذ سبعة أعوام... تقريباً!  
- عمر طويل...  
- ولكن لا ينبغي لي أن يأس في هذه الدنيا من  
اللقاء...  
- ولا الفراق...  
- الظاهر أنّك خلعت الوفاء مع الملاءة اللف!  
فحدجته بنظرة مقبلة وهي تقول:

- أتتحدّث عن الوفاء يا ثورا!  
فسره رفع الكلفة إلى هذا الحدّ وشجّع مطامعه،  
فقال:  
- الله وحده يعلم كم سررت بلقائك، كثيرا ما  
كنت تخطرين ببالي، ولكنّها الدنيا!  
- دنيا النسوان، هه؟  
فقال متظاهرا بالتأثر:  
- دنيا الموت، ودنيا المتاعب...  
- لا يبدو أنّك تحمل للمتاعب هه، إنّ البغال  
لتحسدك على صحتك...  
- لولا أنّ العين الجميلة لا تحسد...  
- أخاف على نفسك! كأنك عبد الحليم المصري  
طولا وعرضا...  
فضحك غنالا، وصمت قليلا، ثمّ قال بلهجة  
جديدة جادة:  
- أين كنت ذاهبة؟  
- لم تذهب الواحدة إلى التريفة؟ أم ظننت الناس  
مثلك لا همّ لهم إلّا التحكّك بالنسوان؟  
- مظلوم والله...  
- مظلوم! لهما لمحتك وجدتك تغوص بعينيك في  
امرأة كالبوبة...  
- بل كنت شارداً أفكر لا أعي فيم أنظر...  
- أنت! إني أنصح من يروم لقاءك أن يتقبّ في  
التريفة عن أضخم امرأة، وأنا كفيلة بأنّه سيجدك  
وراءها لا بدّا كما تلبّد القراصة في الكلب...  
- أنت يا وليّة لسانك كلّ يوم يطول عن يوم...  
- اسم الله على لسانك أنت...  
- ما علينا، خلّينا في الأهمّ، أين أنت ذاهبة الآن؟  
- سأتسوّق قليلا، ثمّ أعود إلى بيتي!  
فصمت لحظة كالمتردّد، ثمّ قال:  
- ما رأيك في أن نقضي معا بعض الوقت؟  
فلحظته بعينها السوداوين اللعوبتين، وقالت:  
- ورائي رجل غيور...  
فقال وكأنّه لم يسمع اعتراضها:  
- في مكان لطيف لنشرب كأسين!...

فعادت تقول بصوت أعلى من سابقه:  
- قلت لك ورائي رجل غيور...  
فاستطرد قائلا دون اكتراث:  
- توفايان، ما رأيك؟ إنّهُ مكان لطيف وابن  
حلال، سأنادي هذا التاكسي...  
فندّ عنها صوت احتجاج، ثمّ تساءلت في استياء  
وشى وجهها بغيره قائلة: «بالقوة؟!» ثمّ نظرت في  
ساعتها بمعصمها - وقد كادت هذه الحركة الجديدة  
تضحكه - وقالت بلهجة الشارط:  
- على ألاّ أتأخّر، الساعة الآن السادسة، وينبغي  
أن أكون في البيت قبل الثامنة...  
تساءل والتاكسي يطوي بهما الطريق: ترى هل  
لمحتها عين ما بين التريفة والموسكي؟ غير أنّه هزّ  
كتفيه استهانة وهو يزحلق طربوشه المائل فوق حاجبه  
الأيمن إلى الوراء بمقبض منشّته العاجية، ماذا يهّمه؟!  
مريم وحيدة وليس وراءها وحش مثل محمّد عفت  
الذي قوّض أوّل بيت زوجيّة بناه، وأمّا أبوه فرجل لبق  
وهو يعلم أنّه لم يعد الطفل الغريب الذي تكلّ به في  
فناء البيت القديم. وفي حديقة توفايان جلسا حول  
مائدة متقابلين، كان المشرب غاصّا بالنساء والرجال،  
والبيانو الميكانيكيّ يعزف مقطوعاته الرتيبة، على حين  
هفّت رائحة الشواء مع نسيم الأصيل من ركن قصيّ.  
وأدرك من ارتباكها أنّها تجلس في مكان عام لأول مرة  
فداخله سرور حريف، ثمّ أيقن في اللحظة التالية أنّ  
ما به حنيئا حقّا لا محض رغبة عابرة، وبدت له أيامها  
الغابرة أسعد الأيام كلّها. وطلب قارورة كونياك ثمّ  
طلب شواء، وجرى ماء الحياة في خديّه، ثمّ خلّع  
طربوشه فبدا شعره الأسود مفروقا من الوسط على  
جانبي الرأس كشعر أبيه، فما إن لمحت زئوبة حتّى  
ارتسمت على شفّتها ابتسامة خفيفة لم يفتن بطبيعة  
الحال إلى ما وراءها. كانت أوّل مرّة يجالس فيها امرأة  
في حانة غير حانات وجه البركة، وكانت أوّل مغامرة له  
بعد زواجه الثاني مع استثناء المامة واحدة بدرب عبد  
الخالق. وربّما كانت أوّل مرّة كذلك يشرب فيها  
كونياك «راقيا» خارج البيت، إذ أنّه لا يتناول الجيد

- منه إلا فيها يقتني من زجاجات في البيت للاستعمال  
«الشرعي» على حدّ تعبيره. ملأ الكأسين في زهو  
وارتياح، ثم رفع كأسه وهو يقول لها:  
- صحّة زنوبة مارتل!  
فقالت بكبرياء خفيف الظلّ:  
- إني أشرب الديوارس مع البك...  
فقال متأنّقاً:  
- دعينا من سيرته، ربّنا يقدّرنا على جعله في خبر  
كان...  
- بعدك!...  
- سنرى، كلّما شربنا كأساً تفتّحت لنا أبواب  
وانحلت عقد...  
ولاحساسهما بقصر الوقت المتاح تعجّلا الشراب  
فامتلا الكأسان وفرغا تباغاً، وهكذا أخذ الكونيك  
يزغرد بلسانه الناريّ في معدتيهما فيرتفع زئبق النشوة في  
ترمومتر العروق، أما الأوراق الخضراء المتطلّعة من  
الأصص وراء سور الحديقة الخشبيّة فاقتزّت ثغورها  
عن بسمات متألّفة، وأخيراً وجد البيانو آذاناً متساحمة،  
والوجوه الخاملة المعريدة تلاقى أعينها مراراً في أنس  
ومودة، وجوّ الأصيل سبّح في موجات موسيقيّة  
صامته، وبدأ كلّ شيء طيّباً وجميلاً:  
- أتعرف ماذا طفر إلى لساني أوّل ما رأيته اليوم  
وأنت تحملي في المرأة كالسورور؟  
- أفندم؟... ولكن أفرغي كأسك أوّلاً حتّى  
أملأه...  
وهي تتناول ريشة شواء:  
- كدت أصيح بك: يا بن الكلب...  
وهو يضحك ضحكة ريانة:  
- ولم لم تفعلني يا بنت القارحة؟  
- أصلي لا أشتّم إلاّ الأحباء! وكنت وقتها غريباً أو  
كالغريب!  
- والآن ماذا تريئني؟  
- ابن ستين...  
- يا سلام، الشتيمة تُسكر أكثر من الخمر أحياناً،  
هذه الليلة المباركة ستحدّث عنها الجرائد غداً...  
- لم كفى الله الشرّ؟ ناوي تعمل حادثة؟  
- الطفّ يا ربّ بي وبها...  
وعند ذاك قالت في شيء من الاهتمام:  
- لم تحدّثني عن زوجك الجديدة...؟  
فربت ياسين شاربه وهو يقول:  
- حزينه المسكينه! ماتت أمها هذا العام...  
- العمر الطويل لك، كانت غنيّة؟  
- تركت بيتاً، البيت المجاور لبيتنا، أعني المجاور  
لبيت والدي، ولكنّها تركت في نفس الوقت شريكاً  
لزوجي فيه وهو زوجها!  
- لا بدّ أنّ زوجك جميلة، فأنت لا تقع إلاّ على  
النقاوة...  
فقال بحذر:  
- لها جمالها، غير أنّه لا يقاس بجمالك أنت...  
- آه منك آه...!  
- هل عرفتي كاذباً أبداً؟  
- أنت؟! أنا أشكّ أحياناً في أنّ اسمك هو ياسين  
حقاً...  
- إذن فلنشرب هذه الكأس أيضاً...  
- تُسكّرني كي أصدّقك؟!  
- إذا قلت لك إنّني أرغب فيك وأحنّ إليك فهل  
تشكّين في صدقي؟ انظري في عينيّ، وجسّني  
نبضي...  
- أنت خليك بأن تقول هذا الكلام لأية امرأة  
تصادفك...  
- هذا كما يقال إنّ الجائع يودّ ألوان الطعام جميعاً،  
ولكنّ الملوخيّة مثلاً قد تستأثر بمنزلة خاصّة...  
- الرجل الذي يحبّ امرأة حقاً لا يتردّد عن الزواج  
منها...  
فنفخ، ثم قال:  
- أنت مخطئة، بودّي لو أقف فوق هذه المائدة  
وأصرخ بأعلى صوتي: من يحبّ منكم امرأة فلا  
يتزوّجها، أجل، لا شيء يقتل الحبّ كالزواج.  
صدّقيني، إني مجرّب، وقد تزوّجت مرّة وأخرى وأعرف  
مدى صدق ما أقول...  
- لم كفى الله الشرّ؟ ناوي تعمل حادثة؟  
- الطفّ يا ربّ بي وبها...  
وعند ذاك قالت في شيء من الاهتمام:  
- لم تحدّثني عن زوجك الجديدة...؟  
فربت ياسين شاربه وهو يقول:  
- حزينه المسكينه! ماتت أمها هذا العام...  
- العمر الطويل لك، كانت غنيّة؟  
- تركت بيتاً، البيت المجاور لبيتنا، أعني المجاور  
لبيت والدي، ولكنّها تركت في نفس الوقت شريكاً  
لزوجي فيه وهو زوجها!  
- لا بدّ أنّ زوجك جميلة، فأنت لا تقع إلاّ على  
النقاوة...  
فقال بحذر:  
- لها جمالها، غير أنّه لا يقاس بجمالك أنت...  
- آه منك آه...!  
- هل عرفتي كاذباً أبداً؟  
- أنت؟! أنا أشكّ أحياناً في أنّ اسمك هو ياسين  
حقاً...  
- إذن فلنشرب هذه الكأس أيضاً...  
- تُسكّرني كي أصدّقك؟!  
- إذا قلت لك إنّني أرغب فيك وأحنّ إليك فهل  
تشكّين في صدقي؟ انظري في عينيّ، وجسّني  
نبضي...  
- أنت خليك بأن تقول هذا الكلام لأية امرأة  
تصادفك...  
- هذا كما يقال إنّ الجائع يودّ ألوان الطعام جميعاً،  
ولكنّ الملوخيّة مثلاً قد تستأثر بمنزلة خاصّة...  
- الرجل الذي يحبّ امرأة حقاً لا يتردّد عن الزواج  
منها...  
فنفخ، ثم قال:  
- أنت مخطئة، بودّي لو أقف فوق هذه المائدة  
وأصرخ بأعلى صوتي: من يحبّ منكم امرأة فلا  
يتزوّجها، أجل، لا شيء يقتل الحبّ كالزواج.  
صدّقيني، إني مجرّب، وقد تزوّجت مرّة وأخرى وأعرف  
مدى صدق ما أقول...

- لعلك لم تهتدي بعد إلى المرأة التي تناسبك...  
 - تناسبني؟ كيف تكون هذه المرأة؟ وبأي حاسة  
 يُهتدى إليها؟ وأين تكون هذه المرأة التي لا تُمل؟  
 فضحكت في فتور، وقالت:  
 - كأنك تتمنى أن تكون نورًا في حديقة أبقار، هذا  
 هو أنت!

ففرق بأصبعه طربًا، وقال:  
 - الله... الله، منذ الذي كان في زمان مضى  
 يدعوني بالثور؟... إنه أبي ربنا يسميه بالخير، كم أودُّ  
 لو أكون مثله، حظي بامرأة هي آية الطاعة والقناعة،  
 وانطلق على هواه لا يجد في حياته المتاعب، موفِّقًا في  
 زواجه، موفِّقًا في عشقه... هذا ما أريد...  
 - ما عمره؟

- أظنه في الخامسة والخمسين، بيد أنه أقوى من  
 الشباب...  
 - لا عظيم أمام السنين، ربنا يمتعه بصحته...  
 - إلا أبي، إنه معشوق المعشوقات من النساء، ألا  
 تريه الآن في بيتكم؟

فقال ضاحكة وهي ترمي بعظمة إلى قطة تموء  
 تحت قدميها:

- هجرت ذلك البيت منذ أشهر، الآن لي بيتي  
 الخاص وأنا سيّده!  
 - حقًا؟ حسبك تمزحين، وهل هجرت التخت  
 أيضًا؟

- هجرته، إنك تحدث سيّدة بكل معنى الكلمة...  
 ففقهه في انبساط، ثم قال:

- إذن اشربي ودعيني أشرب، وربنا يلفظ بنا...  
 في النفس فتنة وفي الجوف فتنة، ولكن أيها الصوت  
 وأيتها الصدى؟ وأعجب من هذا أن الحياة تدب في  
 الجهادات، الأصص تترنح هامسة والأركان تتناجى،  
 السماء ترنو إلى الأرض بأعين النجوم الناعسة وتتكلم،  
 وبينه وبين صاحبه رسائل متبادلة تفصح عن المكنون  
 في جو مشحون بالأضواء المنظورة وغير المنظورة يبهز  
 الفؤاد ويزغل العين، وفي الدنيا شيء يدغدغ البشر  
 فلا يتركها حتى تغرق بالضحك، الوجوه والكلمات

والحركات وغيرها تغري جميعًا بالضحك، والوقت يمر  
 كالشهاب، وحاملو ميكروب العريضة يوزعون بين  
 الموائد بوجوه أثقلتها الرزاة، أما أنغام البيانو فتترامى  
 من بعيد فيكاد يغطي عليها صليل عجلات الترام،  
 وغلجان الطوار ولاقطو الأعقاب ينشرون حولهم لغطًا  
 كطين الذباب، وجحافل الليل تعسكر فوق الربوع  
 وتستقر، كأنك تنتظر حتى يجيئك الساق فيسالك:  
 أليس للشوان مقر؟ وأنت عن ذلك وما هو أجل لا  
 سادر، لو تسجد مريم بين يديك هامسة: حسبي  
 غرفة أمارس فيها طاعتك وأملأ الحجرات بمن تهوى  
 من النساء، أو يربت ناظر المدرسة كتفك كل صباح  
 قائلاً: كيف حال والدك يا بني؟ لو تشق الحكومة  
 طريقًا جديدًا أمام دكان الحمزاوي وربيع الغورية، أو  
 تقول لك زنوبة: ساهجر غدا بيت صاحبي وأكون  
 طوع بنانك، لو حدث هذا لاجتمع الناس عقب  
 صلاة الجمعة يتبادلون قبل الصفاء، أما حكمة الليلة  
 فهي أن تجلس على الكنبه وأن ترقص زنوبة عارية بين  
 يدك، هنالك يتاح لك أن ترعى شامة الحسن النابتة  
 فوق سرتها:

- كيف حال الشامة المحبوبة؟  
 تساءل وهو يشير إلى بطنه باسمًا، فقالت ضاحكة:  
 - تبوس يدك...

فألقي نظرة زائغة على المكان، وقال:  
 - أترين هؤلاء الناس، ما منهم إلا فاسق وابن  
 فاسق، هكذا كل الناس السكيرين...

- تشرّفنا، أما أنا فمخّي يتطاير...  
 - أرجو أن يطير الجزء الذي يقيم فيه رفيقك...  
 - آه لو علم بما هو حاصل لنا! سوف يطعنك يومًا  
 بفردة شاربه

- أهو شامي من ذوي الشوارب الجبّارة...  
 - شامي؟... (ثم ترنمت بصوت مسموع) برهوم  
 يا برهوم.

- هس، لا تلتفتي إلينا الأنظار...  
 - أي أنظار يا أعمى! لم يبق إلا نفر قليل...  
 وهو يمسخ على بطنه نافخًا:



- الخمر مجنونة...  
- المجنونة أمك...  
- صوتك يعلو أكثر مما ينبغي، قومي بنا...  
- إلى أين؟  
- عمرك أطول من عمري، لنسرع الأمر إلى قدمينا...  
- وهل يفلح من يترك قياده إلى قدميه؟  
- إنها آمن على كل حال من مخ مبعثر...  
- فكّر قليلاً في...  
فقاطعها وهو ينفض مترنحاً:  
- علينا أن ندبر أمورنا بلا تفكير، لأن التفكير لن يذعن لنا قبل صباح الغد، قومي بنا...  
- ٢٦ -  
أسبلت المساكن جفونها، وأفقرت الطرقات إلا من نسمة شاردة أو ضوء مصباح مهوم، أما الصمت فقد خلا له الجوّ فتاة ونشر جناحيه، وما جدوى الفنادق إذا كان أصحابها لا يلقونك إلا بالنظرة الشزراء، كأنك مريض يترنح فهم يجنبونه، أجل إنك تلاقى الإعراض بالازدراء ولكنك ستظل بلا مأوى، وقد ضم الرقاد العاشقين فإلام تهيم على وجهك، وها هو حوزي يرفع رأسه المثقل بالنعاس ويسرنو إليك بنظرة ترحاب، فوارحمته للذي يسحب المرأة في أذيال الليل وهو يتساءل إلى أين...؟  
- إلى أين؟  
أجاب الحوزي بأسياً:  
- تحت الأمر...  
فقال له ياسين:  
- لم أقصداك بسؤال...  
فقال الرجل:  
- تحت الأمر على أي حال...  
عند ذاك قالت زنوبة:  
- لا تسألني أنا سل نفسك، لم تفكر في ذلك قبل أن تسكر؟  
عاد الحوزي يقول متشجعاً بوقوفها أمام العربة:
- النيل! أحسن مكان، هل أذهب بكما إلى شاطئ النيل؟  
فتساءل ياسين محتدّاً:  
- أحوزي أنت أم نوتي؟ ماذا نفعل عند النيل في هذا الوقت من الليل؟  
قال الحوزي بإغراء:  
- هنالك النور ضئيل والمكان خال...  
- جو مناسب لقطاع الطرق!  
زنوبة بخوف:  
- يا خير أسود، أذناي وعنقي وساعداي محملة بالذهب!  
فقال الحوزي وهو يهز منكبيه:  
- الدنيا بخير، أنا كل ليلة أذهب إلى هناك بأناس طيبين مثلكما، ونعود على أحسن حال...  
زنوبة بحدة:  
- لا تذكر النيل على لسانك، إنّ بدني يقشعرّ لذكره!  
- بعد الشرّ عن بدنك...  
صاح ياسين وكان قد اتخذ مجلسه في العربة إلى جانب زنوبة:  
- كلمني أنا، مالك أنت وبدنها!  
- يا بك أنا خدامك...  
- الليلة كل شيء متعقد...  
- ربنا يحلّ عسيرها، إن أردت فندقاً ذهبنا إلى فندق...  
- تشاجرنا في ثلاثة فنادق، ثلاثة أم أربعة يا زنوبة؟ شُفّ غيرها.  
- نرجع إلى النيل...  
زنوبة بغضب:  
- الذهب يا عمر...  
ياسين وهو يطرح ساقيه على المقعد الخلفي:  
- فضلاً عن أنّه ليس هناك مكان...  
فقال الحوزي:  
- أما عن المكان فلديك العربة...  
هتفت زنوبة:

- هل أنذرنا مضايقتي؟

فقال ياسين وهو يفتل شاربه:

- لك حق، لك حق، ثم إنَّ العربَ مكان غير صالح، ولن أرضى بعبث الأطفال على آخر الزمن، اسمع...

مدَّ الرجل أذنه، فصاح ياسين بنفخة آمرة:

- إلى قصر الشوق!

طق طق طق، تخوض الظلمات ولا أنيس إلا النجوم، في الأفق قلق يلوح، ثم لا يلبث أن يغرق في بحر النسيان كالذكرى المستعصية، ذلك أنَّ الإرادة ذائبة في كأس من الخمر، وإذا رفيقة الهناء تساءلت بلسان ملعثم عن: أين يقصد في قصر الشوق؟ أجاب إلى بيتي الذي ورثته عن أمي، قضت مقادير بأن تعيش فيه للغرام وأن توقفه بعد مماتها على الغرام، استقبل بقلب شيق أم مريم ومريم، والليله يحتضن سيِّدة الليالي الخوالي، وزوجك أيها السكران؟ في النوم مغرقة، أليس لكل شيء حساب... وأنت مع رجل لا يعرف الخوف قلبه، اقظني من لآلئ النجوم ما ترصعين به جبينك، وغني في أذني وحدي: هاتيلي حبي يا نينة الليلة...

- وأين أقضي بقية الليل...؟

- سأوصلك إلى حيث تريد...

- لن تستطيع أن توصل قسَّة.

- باريس في الوجه البحري...

- لولا أنَّ أخافه!

- من هو؟

بصوت منكسر وهي تلقي برأسها إلى الوراء:

- من يدري؟ نسيت...

غشي الجمالية ظلام دامس، حتى القهوة أغلقت أبوابها. وقفت العربية عند مدخل قصر الشوق فغادرتها ياسين وهو يتجشأ، وتبعته زئوبة معتمدة على ذراعه، ثم مضيا معًا في حذر لم يغني عن الترنح، يتعقبهما

سعال الحوذني وأطيط حذاء الخفير الذي مرَّ بالعربة وهي تدور مستطلعا، وقالت له: إنَّ الطريق وعمر، فقال لها: لكنَّ الدار أمان، وقال لها أيضًا: لا تشغلي

البال. وعبثًا حاولت أن تذكره بأنَّ زوجته في الشقة التي إليها يسعيان، فضلًا عن أنَّها كانت تحاول تذكره وهي تبتسم في الظلام ابتسامة بلهاء، وكادت قدمها تعثر مرتين وهي ترقى السلم، حتى وقفا أمام الشقة وهما يلهتان، بعث رهبة الموقف في شعورهما المبعثر يقظة عابرة حاولت أن تلتم شتاته بقبضة وانية، فأدار المفتاح في القفل بحذر ثم دفع الباب برفق بالغ، وبحث في الظلام عن أذن زئوبة حتى عثر عليها، فمال نحوها وهمس أن تخلع الحذاء، وفعل مثلها، ثم تقدَّمتها خطوة فوضع راحتها على كتفه ثم مضى إلى حجرة الاستقبال لقاء المدخل، ثم دفع بابها وانسلَّ إلى الداخل وهي في أثره. تنهَّدًا معًا بارتياح، وردَّ الباب ثم قادها إلى الكنية وجلسا معًا، قالت متضايقه:

- الظلام شديد، أنا لا أحب الظلام!

فقال وهو يضع الحذاءين تحت الكنية:

- ستألفينه بعد قليل...

- بدأ تحي يدور...

- الآن فقط؟!

وقام فجأة دون أن يلقي إلى ما أجابت به بالأ وهو يهمس في ارتياح:

- لم أغلق الباب الخارجي...

ومدَّ يده ليخلع طربوشه فهتف:

- نسيت الطربوش أيضًا! في العربية يا ترى أم في توفايان؟

- الطربوش في داهية، أغلق الباب يا عمر...

تسلَّل مرَّة أخرى إلى الصالة، ثم إلى الباب الخارجي فأغلقه بحذر شديد، وفي طريق عودته خطرت له فكرة مغرية، فأنجبه نحو الكنصول وهو يمدُّ يده أمامه رائدة لتقيه الاصطدام بكرسيِّ السفرة، ثم عاد إلى حجرة الاستقبال قابضًا على زجاجة كونيكا مملوءة حتى نصفها، وضع الزجاجة في حجرها وهو يقول:

- جئتكَ بدواء لكل شيء...

فتحسَّست يداها الزجاجة، وقالت:

- خمر؟! ... حسبك! أتريد أن نطفح؟!

بحق، ثم تكلمت لأول مرة وكان صوتها جافاً متهذباً  
مخشوشاً بالحق والغضب، قالت:  
- في بيتي! ... في بيتي!، في بيتي يا مجرم يا بن  
الشياطين!

ودوى صوتها كالرعد يصب على اللعنات وينعته  
بكل خبيث، صرخت وصوتت حتى شق صوتها  
الجدران، ونادت السكبان والجيران وهي تحلف  
لتنفضحه وتشهد عليه النائم. وكان ياسين ينذرها  
بشئ الوسائل ليسكتها، لوح لها بيده وحمل فيهما  
بعينه، وصاح بها مزجراً، فلما خابت وسائله نهض  
منفعلاً وأجبه نحوها بخطوات واسعة ليلبغها في أقصر  
وقت دون اندفاع خشية أن يختل توازنه، ثم انقض  
عليها مسدداً راحته إلى فيها ليسده، ولكنها صرخت في  
وجهه كالهرة اليائسة وركلته بقدمها في بطنه، فتراجع  
مرتجاً مكفهراً الوجه من الحق والألم ثم سقط على  
وجهه كالبيان المتهدم، انطلقت من زئوبة صرخة  
مدوية فجرت مريم نحوها وارتمت عليها، وجذبت  
شعرها بيدها وأنشبت أظفارها الأخرى في عنقها  
وجعلت تبصق في وجهها وهي تسب وتلعن، وما لبث  
ياسين أن نهض ثانياً هائلاً رأسه بعنف كأنما ليطرده عنه  
الخسار، فتحوّل إلى الكنية وسدد نحو ظهر زوجته  
الراقدة فوق غريمته قبضة شديدة فصرخت مريم  
وتراجعت زائغة عنه، فتبعها وقد أعماه الغضب موجهاً  
إليها ضربات متتابعة حتى فصلت بينها السفرة، وعند  
ذاك تناولت الشبشب من قدمها وقذفته به فأصاب  
صدره فجري نحوها، وراحا يدوران في الصالة وهو  
يصيح بها «اغربي عن وجهي، أنت طالقة...  
طالقة... طالقة...». وإذا بيد تنقر الباب وصوت  
الجارقة المقيمة في الدور الثاني ينادي «ست مريم...  
ست مريم»، فتوقّف ياسين عن الجري وهو يلهث،  
أمّا مريم ففتحت الباب وبادرت تقول بصوت ملأ  
السلم كله:

- تعالي انظري داخل الحجرة وخبريني هل رأيت  
مثل هذا من قبل؟ عاهرة في بيتي تسكر وتعربد،  
ادخلي وانظري.

- جرعة نسترة بها أنفاسنا بعد هذا الجهد!  
شرب حتى ظن أنه قادر على كل شيء، وأن الجنون  
حال تستطاب، وهاج البحر فعلاً مع موجه وسفل ثم  
دار في دوامة ما لها من قرار، وسلت في أركان الحجرة  
السنة تنطق في الظلماء لغواً وهذراً، وتند عنها  
ضحكات معربة، في ضجة كضوضاء السوق حتى  
الغناء جرى في أثيرها، وهوت الزجاج على الأرض  
فأحدثت صوتاً كالندير، ولكن كان أمامه شوط عليه  
أن يقطعه ولو في بحر من العرق، طال الوقت أم قصر  
فليس الزمان في حسبانها، لذلك تحرك الظلام وشاب  
إهابه والجفون المغلقة عنه غافلة، وكما يستيقظ الحالم  
السعيد وهو يمد اليد ليقطف لذة جديدة استيقظ هو  
على صوت وحركة، فتح عينيه فرأى نوراً وظلاً  
يتراقص على الجدران، وثني رقبته فلمح عند الباب  
مريم قابضة على مصباح قد جلا من وجهها ملامح  
عابسة وعينين تشعان شر الغضب. تبودل بين  
المنظرين على الكنية والواقفة عند الباب نظرات  
طويلة غريبة، زائغة بالذهول من ناحية مستعرة  
بالغضب من الناحية الأخرى، ثم لم يعد الصمت ثماً  
يُستطاع. أعربت زئوبة عن قلقها بأن فتحت فاهها  
لتتكلم ولكنها لم تقل شيئاً، ثم غلبها بغتة ضحك  
طارئ فأغرقت فيه حتى اضطرت إلى إخفاء وجهها  
بكفيها، وإذا بياسين يصيح بها بلسان ثقيل:

- كفّي عن الضحك!... لهذا بيت محترم!  
وبدا أنّ مريم أرادت أن تتكلم فلم يسعها لسانها  
أو أعجزها الغضب، فقال لها ياسين ولم يكن يدري  
ماذا يقول:

- وجدت هذه «السّ» في حالة سكر شديد،  
فجئت بها إلى هنا حتى تفيق...

ولم تسكت زئوبة، فقالت معترضة:  
- هو السكران كما ترين، وقد جاء بي بالقوة...

نذت عن مريم حركة خطيرة كأنما همّت بأن تقذفها  
بالمصباح، فنصّبت قامة ياسين ونظر إليها متحفزاً،  
ولكنها سرعان ما تراجعت متأثرة بخضورة الإقدام،  
فوضعت المصباح على منضدة وهي تصر على أسنانها

فقال الجارة باستحياء:

- هذئي نفسك يا ست مريم، تعالي معي حتى الصباح...

هتف ياسين دون مبالاة:

- اذهبي معها، لا حق لك في البقاء في بيتي...

فصرخت مريم في وجهه:

- يا فاسق، يا مجرم، تحيئي بعاهرة في بيت الزوجية...

فضرب الجدار بقبضته وصاح بها:

- أنت العاهرة، أنت وأهلك...

- تسب أمي وهي بين يدي الله!

- أنت عاهرة، أنا أعلم ذلك عن يقين، ألا تذكرين الجنود الإنجليز! الحق عليّ لآني لم أستجب إلى تحذير الناس الطيبين!

- أنا ستك وناج رأسك، أنا أشرف من أهلك ومن أهلك، سل نفسك عن الرجل الذي يتزوج امرأة وهو يعلم أنها عاهرة كما قلت! هل يكون إلا قوادًا خسيسًا؟! .. (وهي تشير إلى حجرة الاستقبال)...

تزوج من هذه، إنها من النوع الذي يوافق مزاجك القدر...

- كلمة أخرى، ويسيل دمك حيث تقفين...

ولكن حنجرتها عادت تصرخ وتكذف اللهب حتى تدخلت الجارة لتحول بينها إذا دعا داع، وجعلت تربت منكبها متوسلة إليها أن تمضي معها حتى يطلع الصبح، واشتد الضيق بياسين فصاح بها:

- خذي ثيابك واخرجي، ابعدي عن وجهي، لا أنت زوجي ولا أنا أعرفك، أنا داخل الحجرة الآن وإياك أن أجده إذا عدت...

واندفع إلى حجرة الاستقبال ودفع الباب وراءه دفعة عنيفة ارتجت لها الجدران، ثم ارتقى على الكنبه وهو يجفف عرق جبينه، همست زنوبة قائلة:

- إني خائفة...

فقال بخشونة:

- اسكتي، مم تخافين؟! (ثم بصوت مرتفع) أنا حر... أنا حر...

فقال وكأنها تخاطب نفسها:

- ماذا أصابني في عقلي حتى طاوعتك وجئت معك إلى هنا؟

- اسكتي!... ما كان كان ولست أسفًا على شيء... أف...

وترامت إليهما الأصوات خلال الباب المغلق، فدلّت على أنّ أكثر من جارة قد أحاطت بالزوجة الغاضبة، ثم سمع صوت مريم وهي تقول بلهجة باكية:

- هل سمعتم عن هذا من قبل؟ عاهرة من عرض الطريق في بيت الزوجية؟ استيقظت على ضوضائهما وهما يضحكان ويغنيان! إي والله كانا يغنيان بلا حياء بعد أن أذهلهما السكر، خبروني أهذا بيت أم ماخور؟!!

وإذا بصوت امرأة تقول محتجة:

- أجمعين ثيابك وتغادرين بيتك؟! هذا بيتك يا ست مريم ولا يصح أن تغادره، فلتنادره الأخرى...

فهتفت مريم:

- لم يعد بيتي، لقد طلقني المحترم!

فقال أخرى:

- لم يكن في وعيه، تعالي الآن معنا ولنؤجل الحديث إلى الصباح، ومهما يكن من أمر فياسين أفندي رجل طيب وابن ناس طيبين، لعنة الله على الشيطان، تعالي يا ابنتي ولا تحزني...

فصاحت مريم:

- لا كلام ولا حساب، لا طلع الصباح عليه المجرم ابن المجرة...

ثم تابع وقع الأقدام مبتعدًا حتى لم يعد يسمع من المتحدثات إلا أصوات مبهمه، ثم دوت صفقة الباب وهو يغلق. نفخ ياسين طويلًا ثم استلقى على ظهره...

عندما فتح عينيه كان نور الضحى قد ملأ الحجرة، وجد في رأسه ثقلاً لا عهد له به رغم أنها لم تكن أول

يقول عنك الناس أيتها المفترية؟ وشعر بحاجة ماسة إلى فنجان قهوة يُعَشِّش به حواسه، فغادر الحُجَّام إلى المطبخ، وفي أثناء عبوره الدهليز الذي يفصل بينهما لمح الكنصول في الصالة فذكر زجاجة الكونياك المهرقة في غرفة الاستقبال، وتساءل لحظة عما أصاب السجادة، ثم ذكر في اللحظة التالية وفي أسف ساخر أنَّ اثاث الشقة كله لم يعد ملكه وأنه سيلحق عسًا قليل بصاحبته، وبعد دقائق معدودات كان يحمل كوبًا مملوءًا حتى نصفه بالقهوة ويسير نحو حجرة النوم، وهناك وجد زنوبة جالسة في الفراش تتمسكي وتتشاب، فالتفت نحوه وقالت:

- صباحنا خير، وإن شاء الله نغير ريقنا في القسم! فرشف رشفة وهو ينظر إليها من فوق الكوب، ثم قال:

- قولي يا فتاح يا عليم...  
فلوحت يديها حتى وسوست الأساور الذهبية حول ساعديها، وقالت:

- أنت السبب في كل ما حصل...  
فجلس على حافة السرير فيسما يلي ساقها الممدودتين، وقال بضيق:

- محكمة! هه! قلت لك قولي يا فتاح يا عليم!  
فربت سلسلة ظهره بكمب قدميها، وهي تقول متأوهة:

- خربت بيتي، الله وحده يعلم ما ينتظرني هناك...

فوضع ساقًا على ركبته حتى انحسر الجلباب عن الأخرى فبدت مكتنزة مغطاة بغابة من الشعر الفاحم، وقال:

- رفيقك؟ خيبة الله عليه! ما يكون هذا إلى طلاق زوجي؟! أنت التي خربت بيتي، وبيتي أنا السدي خرب...

قالت وكأنها تحدث نفسها:  
- ليلة سوداء لم أعرف لي فيها رأسًا من قدمين، لا تزال الضوضاء تدوي في رأسي، لكن الحق علي، ما كان ينبغي لي أن أطاوعك من بادئ الأمر...

مرة يستيقظ بعد ليلة مغمورة، وبحركة من رأسه غير مقصودة وقعت عيناه على زنوبة وهي تغط في نومها إلى جانبه، هنالك استعادت ذاكرته حوادث الليلة الماضية في لقطة واحدة: زنوبة في فراش مريم، ومريم؟ عند الجيران، والفضيحة؟ في كل مكان، يا لها من وثبة جبارة في هاوية التدهور، ما جدوى الغضب أو الندم الآن؟ ما كان كان وكل شيء قد يتغير إلا أمس، أيوقظها؟ ولكن له؟ فلتتملئ نومًا حتى تشبع، ولتبق حيث هي فما ينبغي أن تغادر البيت قبل أن يُقبل الظلام، ولم يكن بد من استعادة شيء من حيويته ليلاقي به يومه العسير، فأزاح الغطاء الخفيف عن جسمه وانزلق إلى أرض الغرفة ثم مضى إلى الخارج ثقيلًا منغوش الشعر منتفخ الجفون عمر العنين.

تثاءب في الصالة بصوت كالخوار ثم نفخ وهو ينظر إلى باب حجرة الاستقبال المفتوح ثم أغمض عينيه متأوهًا من ثقل رأسه وقصد إلى الحُجَّام. أمامه يوم عسير حقًا، مريم عند الجيران والأخرى محتلة فراشها وقد أدركها النهار قبل أن يخفي أثار جرمته، فيا للجنون! كان يجب أن يسربها قبل أن يأي إلى فراشه فكيف توانى عما يجب؟! أي غاشية غشيتها؟! بل ومتى وكيف مضى بها من حجرة الاستقبال إلى حجرة النوم؟! إنه لا يذكر شيئًا، لا يذكر حتى كيف ومتى استجاب للنوم، والجملة أنها فضيحة كبرى بلا ثمن، وليلة بريئة ولكنها مثقلة بالعار مثل رأسه المثقل بالهم والصداع...

ولكن لا عجب فهذه الشقة مسكونة من قديم بشياطين الفضائح، تركة أم غفر الله لها، مضت الأم وبقي الابن ليكون مضغة الأفواه ونادرة السكّان والجيران وغدا تهرع الأنباء إلى بين القصرين... فإلى الأمام! قرار هاوية سحيقة من العريضة والسفالة فليت هذا الماء البارد الذي تغتسل به يطهر النفس من ذكريات السوء، ومن يدري فلعلك إذا أطللت من النافذة وجدت أمام بابك لمة ترصد خروج المرأة التي طردت الزوجة واحتلت مكانها، كلاً لن تسمح لها بالخروج معها يكن من أمر، أما مريم فقد طلقها! طلقها وما أردت ذلك وأما لم يجف ماؤها في قبرها بعد، فإذا

- كانت تستطيع أن تعالج الأمور بحكمة لو كانت عاقلة، الغرباء في الطريق يتساحون مع السكاري المرعدين، هي التي جئت على نفسها بالطلاق، وماذا كنت تقول لها؟... يا عاهرة يا بنت العاهرة، هه؟ وكلام آخر عن الجنود الإنجليز...؟

تذكر هذا الآن فقط وهو يحدها بنظرة عنيفة متسائل كيف رسخت هذه الألفاظ في ذاكرتها، وغمغم في ضيق:

- كنت غاضباً لا أدري ماذا أقول!

- إحم!

- إحم في يافوخك!...

- الجنود الإنجليز؟... هل جئت بها من بار فنشي؟!

- أستغفر الله، إنها بنت ناس وجيران العمر، ولكنّه الغضب عليه ألف لعنة...

- لولا الغضب ما انكشفت الأسرار!

- حياة خالتك حسبتنا ما نحن به...

- خبّرني عن الجنود الإنجليز وخذ شعر رأسي... بصوت عال محتد:

- قلت إنه الغضب وكفى...

شهقت ساخرة، ثم قالت:

- أتدافع عنها؟... اذهب فاستردّها...

- ملعون أبو البارد الذي لا يستحي...

- ملعون أبوه...

غادرت الفراش إلى المرأة فتناولت مشط مريم، وراحت تمشط شعرها بعجل وهي تتساءل:

- ما عسى أن أفعل لو قطع الرجل علاقته بي؟

- قولي له مع السلامة، أمّا بيتي فمفتوح لك على الدوام...

فالتفتت إليه قائلة بلهجة أسيفة:

- أنت لا تفقه معنى ما تقول! كنّا بسبيل التفكير الجدّي في الزواج.

- الزواج! وهل ما زلت تفكرين فيه بعد ما رأيت

من أحواله في الليلة الماضية؟!

قالت في دهاء:

خيّل إليه أنّها راضية رغم تشكيها، أو أنّها تدعي التشكيّ ادّعاء، ألم يعرف في الأزبكية نساء يتباهين بكلّ عراك دمويّ ينشب من أجلهنّ؟! على أنّه لم يغضب، كانت الأمور قد بلغت حدّ اليأس فأعفته من مشقة النهوض لمعالجتها، فلم يملك إلّا أن يضحك وهو يقول:

- شرّ البليّة ما يضحك! اضحك، خربت بيتي واحتلته، قومي فاصلحي من شأنك واستعدي لإقامة طويلة حتّى يقبل الليل، لن تغادري البيت حتّى يأتي الليل...

- يا خبر أسودا سجيّة! أين زوجك؟

- لم يعد لي زوجة...

- أين هي؟

- في المحكمة الشرعيّة إن صدق ظنيّ...

- أخاف أن تعتدي عليّ عند خروجي...

- تخافين؟! ربّنا يرحمنا! إنّ ليلة أمس على فظاعتها

لم توهن من مكرك وخبتك يا بنت أخت زبيدة!

ضحكت ضحكة طويلة فبدأ أنّها تقرّ بالتهمة الموجّهة إليها، وفي مباهاة أيضاً، ثمّ مدّت يدها إلى كوب القهوة فتناولته واحتست قليلاً منها، ثمّ ردّها إليه وهي تتساءل:

- والان؟

- كما ترين، لا علم لي أكثر منك، ولكنّ يحزّ في نفسي أن أنكشف أمام الناس كما انكشفت في الليلة الماضية...

هزّت منكبيها في استهانة قائلة:

- لا تهتمّ بذلك، ما من رجل إلّا ويخفي تحت ذقنه مخازي تضيق عنها الأرض.

- رغم هذا فالفضيحة فضيحة، تصوّري الشجار والعيول والطلاق عند الفجر! تصوّري الجيران وقد فزعوا إلى شقّتي مستطلعين فرأت أعينهم كلّ شيء. قطّبت قائلة:

- كانت هي البادئة!

لم يملك أن ضحك ضحكة ساخرة، فعادت تقول بإصرار:

- أنت لا تفهمني! لقد ضقت ذرعًا بالحياة الحرام، ليس وراءها إلا البوار، إنَّ مثلي إذا تزوجت قدَّرت الحياة الزوجية خير قدرها!
- من المغفل يا ترى؟! التخت لم يكن يعدّها بأكثر من عوادة، وحياة الهوى ليس وراءها بعد الثلاثين - وستبلغها قريبًا - إلا التلف، فالزواج هو الأمل الموعود، هل تقصدك بهذا الحديث؟... ما ألدَّ الشيطانة! لا أنكر أنني أريدها، أريدها بكلِّ قوَّة، وفضيحتي تشهد على ذلك...
- أتحبُّه؟  
كالغاضبة:
- لو كنت أحبُّه ما وجدتي الآن سجينه هنا... اهتزَّ صدره حنَّانًا رغم ارتيابه في صدقها، أجل إذا لم يكن يعرف الإخلاص قلبها أبدت له ميلًا لا شك فيه.
- لا غنى لي عنك يا زُتوبة، في سبيلك ارتكبت جنونًا غير مبال بالعواقب، أنت لي وأنا لك من قديم الزمان...
- وساد الصمت، بدت كأنها تنتظر مزيدًا على لَهْف، ولكنَّه لم ينبس فقالت:
- هل أقطع أسبابي بذلك الرجل؟ لست من اللاتي يستطعن أن يجتمعن بين رجلين...
- من هو؟
- تاجر من ناحية القلعة يدعى محمد القللي...
- متزوج؟
- وله أولاد، ولكنَّه كثير المال...
- وعدك بالزواج؟
- يغريني به، ولكنني مترددة، لأنَّ ظروفه وكونه زوجًا وأبًا ممَّا يندر بالمناعب...
- احتمل مكرها من أجل جمال عينيها.
- لمَ لا نعود كما كنَّا؟... لست فقيرًا على أيِّ حال...
- لا يعنيني مالك، ولكن ضقت بحياة الحرام والعمل؟
- لهذا ما أسأل عنه...
- أفصحني...
- قلت ما فيه الكفاية...
- يا له من هجوم غير متوقَّع، أجل إنَّه يبدو أوَّل ما يبدو مضحكًا، غير أنَّه يريدُها فلا يسعه أن يردَّ على الهجوم بمثله، قال بعد صمت:
- لا أخفي عنك أيُّ بُتٍ أنطير من الزواج...
- كما أنطير من الحرام...
- لم تكوني كذلك أمس!
- كان في قبضة يدي زوج، أمَّا اليوم...
- قليل من المرونة حتَّى نتلاقى، شيء واحد لا ينبغي أن يغيب لك عن بال، وهو أيُّ مهمل تطلُّ بي عشتك فلن أتخلَّى عنك...
- فهتفت محتدة:
- سوابقك تشهد على صدقك...
- فقال بلهجة جدِّية يداري بها ضعف مركزه:
- الإنسان لا يتعلَّم بلا ثمن...
- لم تعد تغرَّر بي الأقوال، آه منكم يا رجال!
- ومنكنَّ يا نساء أليس ثمة آه؟! يا بنت أخت زبيدة رحمتك، جاءت بعد منتصف الليل سكرى وفي الصباح ضاقت بالحرام، لعلَّها قالت لنفسها: إذا كانت زوجة الثانية عاهرة فلم لا أكون زوجة الثالثة؟! هانَّ يامسين، أنسيت ما ينتظرك في الخارج من المتاعب؟ دع المتاعب تنتظرك ولكن لا تفقد زُتوبة بكلمة نابية، كما فقدت مريم، مريم؟ الآن كُفَّرت عن ذنبي يا أخي، قال بهدوء:
- يجب ألاَّ ينقطع ما اتَّصل بيننا...
- بيدك انقطاعه واتَّصاله...
- يجب أن نلتقي كثيرًا ونفكر كثيرًا...
- من جانبي لا حاجة بي إلى تفكير جديد!
- فليمَّا أن أفتعلك برأيي، ولمَّا أن تقنعيني برأيك...
- لن أفتنع برأيك...
- وغادرت الحجرة وهي تداري عنه ابتسامة فاتتة ظهرها المتأوِّد نظرة استغراب، أجل كلُّ شيء يبدو غريبًا، ولكن أين مريم؟ وحيدة على أيِّ حال ولن

صحَّ عنده صدق هذه الشيطانة، فليصحَّ له صدقها ولو يفقد ما بقي من عمره، هل آنَّ له أن يثوب إلى رشده؟ مهلاً...

- متى عدت إلى العوامة؟

فرفعت ساقها حتى مستوى المقعد، وراحت تتأمل شبشبها البمبيّ ذا الوردة البيضاء وأصابها المخضبة بالحناء، ثم قالت:

- هلاً جلست أولاً وخلعت طربوشك لأرى مفرق

شعر رأسك؟ عدت يا سيدي مع الضحى...

- كذابة!

انطلقت من فيه كالرصاص مفعمة غضباً ويأساً، ثم استطرد قائلاً في عنف قبل أن تفتح فاه:

- كذابة، لم تعودى مع الضحى ولا مع العصر،

لقد جئت إلى هنا أثناء النهار مرتين فلم أجذك...

وجمت قليلاً ثم قالت بلهجة جمعت بين التسليم والضحك:

- الحقّ أنّي عدت قبيل المغرب، منذ ساعة تقريباً،

لم يكن ثمة ما يدعوني إلى اختلاق الكذب لولا أنّي

لمحت في عينيك استياء لا أساس له فأردت أن أزيله،

الحقّ أنّ ياسمينه ألحت عليّ في الصباح كي أتسوّق

معه، ولما علمت بانفصالي عن خالتي عرضت عليّ

أن أنضمّ إلى تحتها على أن تنييني عنها في بعض

الأفراح، وطبعاً لم أوافق، لسابق علمي بأنك لن

ترضى عن سهري مع التخت، المقصود أنّي بقيت معها

لعلمي بأنك لن تحيى إلى هنا قبل التاسعة مساءً، هذه

هي الحكاية فاجلس وصلّ على النبي...

حكاية مختلقة أم صادقة؟ لو يطلع أصحابك على

موقفك هذا؟ لشدّ ما تهزأ بك المقادير، على أنّي أعفو

على أضعاف هذا في سبيل قطرة من الراحة، تشجّد

الراحة وما اعتدت الشحاذة من قبل، هكذا هانت

عليك نفسك أمام العوادة، كانت موكلة يوماً بخدمتك

تقدّم لك في مجلس الأناجى الفاكهة وتنصرف في صمت

وأدب، إمّا الراحة أو فلتستعير نيران الجحيم.

- ياسمينه العالمة ليست في جبال الواق، سوف

أسألها عن حقيقة الحكاية...

تذوق نفسه الراحة والسلام، وسيُسال غداً في بين القصرين وبعد غد في المحكمة الشرعية، ولكن كانت حياتها في الأيام الأخيرة تضالاً متواصلاً، حتى قالت له بصريح العبارة: كرهتك وكرهت عيشتك، لم أخلق كي أوفّق في الزواج، أهكذا كانت حياة جدّي؟ إنّني أشبه الأسرة فيما يقال، ورغم هذا كله تريد المجنونة أن تتزوّج منّي...

- ٢٨ -

كانت الشمس تؤذن بالمغيب عندما عبر السيّد أحمد عبد الجواد القنطرة الخشبية المؤدية إلى العوامة، ودقّ الجرس ففتح الباب بعد قليل عن زئوبة في فستان من الحرير الأبيض نمت شفافيته عن محاسن جسدها، فلما رأيته هتفت:

- أهلاً... أهلاً، قل ماذا فعلت أمس؟ تصوّرت

حضورك ودقّ الجرس دون نتيجة ووقوفك حيناً ثمّ

ذهابك... (وهي تضحك) ووساوسك، قل ماذا

فعلت؟

بالرغم من أناقة مظهره والعرف الطيب الذي يتطاير منه بدا وجهه متجهماً وعينه جامدتين تعكس حداثتهما استياء، سأل قائلاً:

- أين كنت أمس؟

فتقدّمته إلى حجرة الجلوس وتبعها حتى وسط

الحجرة بين نافذتين مفتوحتين على الليل ولم يجلس، أمّا

هي فجلست على مقعد بين النافذتين وهي تتظاهر

بالهدوء والثقة والابتسام، ثمّ قالت:

- خرجت - كما تعلم - أمس لأستبضع، فقابلت في

بعض الطريق ياسمينه العالمة فدعيتني إلى بيتها،

وهناك أبت عليّ أن أنصرف، وما زالت بي حتى

أجبرتني على المبيت عندها، لم أكن رأيته منذ انتقلت

إلى هذه العوامة، لو سمعتها وهي تطعن في وفائي

وتسألني عن سرّ الرجل الذي أنساني عشيرتي وجيراني!

صادقة أم كاذبة؟ هل عانى آلام أمس واليوم بلا

سبب حقاً؟ إنّ لا يريح مليّاً ولا يخسر مليّاً بلا سبب،

فكيف عانى تلك الآلام المروعة بلا سبب؟! دنيا

ماكرة... غير أنّه على استعداد لأن يلثم تراها إذا



قالت وهي تلوح بيدها في استهانة واستياء: - سألها كيف بدأ لك...  
وغلته أعصابه الثائرة المنهكة فجأة، فقال بعناد: - سوف أسألك هذا المساء، إنني ذاهب إليها، الآن... حققت لك كل رغباتك فينبغي أن تحترمي حقوقي كاملة...  
وانتقلت إليها عدوى هياجه، فقالت بحدة: - مهلاً، لا ترميني في وجهي بالتهم، فقد اتسع لك حلمي حتى الآن، ولكن لكل شيء حد، أنا إنسانة من لحم ودم، ففتح عينك وصل على أبي فاطمة...  
تساءل في ذهول: - أهذه اللهجة تخاطبيني؟  
- نعم ما دمت تخاطبني بمثلها!  
اشتدت قبضة يده على مقبض عصاه وهو يهتف: - أنا أستاذك، فأنا الذي خلقت منك سيّدة وهيأت لك حياة تحسدك عليها زبيدة نفسها...  
واستفزها قوله فبدت كاللبوة الهائجة، وصاحت: - خلقتني الله سيّدة لا أنت، لقد ارتضيت هذه الحياة بعد توسلاتك الحارة، فهل نسيت هذا؟! لست أسيرة أو عبدة لك، تحقيق وعجز، ماذا تظن بي؟ هل اشتريتني بمالك؟ إذا كانت حياتي لا تعجبك فليذهب كل منّا إلى حال سبيله...  
يا ربّ السماوات أهلكذا تستحيل الأظافر المدلّلة إلى مغالب؟ إن كنت في شك من الليلة البارحة فاستخير هذه اللهجة الوقحة، جنس غرود ابتليت به فتجرّع الألم حتى الثمالة، انهل من الإهانة حتى تكتفي، والآن ما جوابك! بأعلى صوتك اصرخ في وجهها: اخرجني إلى الطريق الذي التقطت منك. اصرخ، أجل اصرخ، ماذا يمنعك؟! لعنة الله على ما يمنعك، خيانة القلب شر من ألف خيانة، هذا هو ذلّ القلوب الذي كنت تسمع عنه وتهزأ منه، شدّ ما أكره نفسي إذ تحبها...  
- تطرديني؟  
بنفس النبرات المحتدة الغاضبة: - إذا كان معنى هذه الحياة أن تحبني هنا كالرقيق وأن ترميني بالتهم كلما حلا لك، فمن الخير لي ولك أن تنتهي...  
وأدارت عنه وجهها فتأمل عارضها وصفحة عنقها في هدوء غير طبيعي بالذهول أشبه. أقصى ما أسأل الله من سعادة أن أنبذها دون مبالاة، هي ذلك وحققك ولكن تطيق أن تعود إلى هذا المكان فلا تجد لها من أثر؟  
- لم أكن شديد الثقة في نبلك، ولكنّي لم أتصوّر أن يذهب بك الجحود هذا المذهب!  
- تريدني حجراً لا شعور له ولا كرامة!  
أنت أحقر من هذا لو تعلمين...  
- بل أريدك شخصاً يعرف للجميل حقّه وللعشرة حقّها...  
مغيرة لهجتها من الغضب إلى السخط والتشكي: - فعلت لك أكثر مما تتصوّر، ارتضيت أن أهجر أهلي وعملي لأبقى حيث تريد، حتى الشكوى كنتها كي لا أكدر صفوك فلم أشأ أن أصارحك بأنّ «بعض الناس» يودّ لي حياة خير من هذه فلم ألقي إليهم بالاً! أثمة متاعب أخرى لم تقع لي في حسابان؟ تساءل كالجريح: - ماذا تعنين؟  
فحكفت على أسورة ذهبيّة تديرها حول ساعدها الأيسر، وهي تقول: - رجل محترم يريد أن يتزوّجني ويلجّ في ذلك بلا ملل...  
الحرارة والرطوبة يخفقانك خفقاً أمّا «العكنة» فقد فغرت فاهاً لتبتلعك، ما أسعد هذا الملاح الذي يطوي شراعه أمام النافذة...  
- من هو؟  
- رجل لا تعرفه، فسّمه كيف شئت!  
تراجع خطوة، ثمّ جلس على كنبه تتوسط مقعدين كبيرين، وشبك راحتيه فوق مقبض عصاه وهو يسألك: - متى رأك؟ وكيف علمت برغبته؟  
- كان يراني كثيراً حينما كنت أقيم مع خالتي، وفي الأيام الأخيرة كان يحاول مكالمتي كلما صادفني في

طريقه، ولكي تجاهلته فحرض إحدى صديقاتي على  
إبلاغي رغبته، هذه هي الحكاية!  
ما أكثر حكاياتك، عندما افتقدتك أمس قاتلني ألم  
واحد، لم أفطن وقتذاك إلى كل هذه الآلام والمتاعب،  
اتركها إن استطعت، اهجرها فهجرها هو سبيل  
السلام. أليس الناس غطئين في تصوّرهم أنّ الموت  
شرّ ما يتلون؟!  
- أحب أن أعرف صراحة، هل تؤدّين قبول هذا  
العرض؟  
تركت ساعدها بحركة عصبية وشخصت إليه  
بوجهها فيها يشبه الكبرياء، ثم قالت بتوكيد:  
- قلت لك إنّ تجاهلته، يجب أن تفهم معنى ما  
أقول...  
يجب ألا تعود الليلة إلى فراشك بأفكار قاتلة حتّى لا  
تتكرّر ليلة أمس، غربل نفسك من الهواجس.  
- صارحيني هل زارك أحد في العوامة؟  
- أحد؟! أيّ أحد تعني؟ لم يدخل هذه العوامة أحد  
سواك...  
- زئوبة، إنّني أستطيع أن أعرف كلّ شيء، لا تخفي  
عني شيئاً، صارحيني بكلّ كبيرة وصغيرة ولك عندي  
بعد ذلك العفو مهما يكن من أمرك...  
قالت محتجة غاضبة:  
- إذا أصررت على الشكّ في صدقي فخير لنا أن  
نفترق...  
أذكر الذبابة التي رأيتهما تحتضر في صباح اليوم في  
خيط العنكبوت؟!  
- حسبتنا، دعيني أسألك الآن، هل قابلتك هذا  
الرجل أمس؟!  
- أخبرتك أين كنت أمس...  
نافحاً على رغبته:  
- لماذا تعذّبيني، وما حرصت على شيء حرصي على  
سعادتك؟  
ضربت كفّاً بكفّ، كأنما قد كبر عليها شكّه، ثمّ  
قالت:  
- لم لا تريد أن تفهمني؟... إنّني أرفض كلّ غالٍ  
طريقه، ولكي تجاهلته فحرض إحدى صديقاتي على  
إبلاغي رغبته، هذه هي الحكاية!  
ما أكثر حكاياتك، عندما افتقدتك أمس قاتلني ألم  
واحد، لم أفطن وقتذاك إلى كل هذه الآلام والمتاعب،  
اتركها إن استطعت، اهجرها فهجرها هو سبيل  
السلام. أليس الناس غطئين في تصوّرهم أنّ الموت  
شرّ ما يتلون؟!  
- أحب أن أعرف صراحة، هل تؤدّين قبول هذا  
العرض؟  
تركت ساعدها بحركة عصبية وشخصت إليه  
بوجهها فيها يشبه الكبرياء، ثم قالت بتوكيد:  
- قلت لك إنّ تجاهلته، يجب أن تفهم معنى ما  
أقول...  
يجب ألا تعود الليلة إلى فراشك بأفكار قاتلة حتّى لا  
تتكرّر ليلة أمس، غربل نفسك من الهواجس.  
- صارحيني هل زارك أحد في العوامة؟  
- أحد؟! أيّ أحد تعني؟ لم يدخل هذه العوامة أحد  
سواك...  
- زئوبة، إنّني أستطيع أن أعرف كلّ شيء، لا تخفي  
عني شيئاً، صارحيني بكلّ كبيرة وصغيرة ولك عندي  
بعد ذلك العفو مهما يكن من أمرك...  
قالت محتجة غاضبة:  
- إذا أصررت على الشكّ في صدقي فخير لنا أن  
نفترق...  
أذكر الذبابة التي رأيتهما تحتضر في صباح اليوم في  
خيط العنكبوت؟!  
- حسبتنا، دعيني أسألك الآن، هل قابلتك هذا  
الرجل أمس؟!  
- أخبرتك أين كنت أمس...  
نافحاً على رغبته:  
- لماذا تعذّبيني، وما حرصت على شيء حرصي على  
سعادتك؟  
ضربت كفّاً بكفّ، كأنما قد كبر عليها شكّه، ثمّ  
قالت:  
- لم لا تريد أن تفهمني؟... إنّني أرفض كلّ غالٍ

ما أجل هذه النعمة، المأساة أنّها يمكن أن تصدر  
عن قلب فارغ، كالمغني الذي يذوب في نغمة حزينة  
شاكبة وقلبه ثمل بالسعادة والفوز.  
- إنّني أشهد الله على قولك، صارحيني الآن: من  
يكون هذا الرجل؟  
- ماذا يهمّك منه؟ قلت لك إنّك لا تعرفه، تاجر  
من غير حيّنا ولكنّه كان يجلس من حين لآخر في قهوة  
سي علي...  
- اسمه؟  
- عبد التوّاب ياسين، هل عرفته؟...  
اكتريت هذه العوامة لقضاء وقت سعيد، هل تذكر  
أوقاتك السعيدة؟! أنّها الدنيا هل تذكرين أحد عبد  
الجواد الذي لم يكن يبالي شيئاً؟، زبيدة...  
جليلة... بهيجة... سليهن عنه، إنّهُ بلا ريب غير  
هذا الرجل الخائر الذي اشتعل الشيب في فوديه...  
- إنّ شيطان النكد هو أنشط الشياطين...  
- بل هو شيطان الشكّ لأنّه يخلق من لا شيء...  
جعل ينقر الأرض بطرف عصاه، ثمّ قال بصوت  
عميق:  
- لا أريد أن أعيش أعمى، كلّاً ولا شيء بقادر  
على أن يجعلني أتهاون في رجولتي وكرامتي، بالاختصار  
لا أستطيع أن أهضم ميتك في الخارج ليلة أمس...  
- رجعتنا مرّة أخرى!  
- وثالثة ورابعة، لست طفلة، أنت امرأة ناضجة  
عاقلة، واليوم تحدّثيني عن ذلك الرجل! هل غرّك  
حقاً وعده بالزواج منه؟  
أجابت بكبرياء قائلة:  
- إنّني أعلم أنّه لا يخدعني، وآي ذلك أنّه وعدني  
بالأ يقربني حتّى يعقد زواجه مني...  
- أترغبين في هذا الزواج؟  
قطّبت في استياء، ثمّ قالت بلهجة المتعجّب:  
- ألم تسمع ما قلت؟! إنّني أعجب لما تبدي اليوم  
من كسل، لكن على أيّ حال لست الساعة كالعهد  
بك، إنّني من الكدر الذي جلبته على نفسك بلا سبب

الأمل، إني مستعد أن أنسى ليلة أمس المشومة...  
أنسى شُكِّي وألمي... على أن تقلع عن هذا المكر  
الخبث...

- كنّا نعيش في سعادة ووثام، فهل هانت عليك  
العشرة؟

- لم تنه ولُكْنِي أريد أن أجعل منها شيئاً أفضل،  
أليس الحلال خيراً من الحرام؟  
تقلّصت شفّته السفلى محدثة ابتسامة لا معنى لها،  
ثم قال بصوت خافت:

- الأمر بالنسبة لي مختلف جداً...

- كيف؟

- أنا زوج، وابني زوج، وبناتي أزواج، الأمر دقيق  
جداً كما ترين... (ثم بلهفة) ألم تكن نعيش في سعادة  
كاملة؟

قالت بضجر:

- لم أقل لك طلق زوجتك وتبرأ من ذريّتك!  
كثيرون هم الذين يجمعون بين أكثر من زوجة!  
فقال بإشفاق:

- ليس الزواج في مثل... حالي ممّا يهون أمره، أو  
يعرض في حياة الإنسان بلا قليل وقال:

ضحكت ساخرة، ثم قالت:

- كلّ الناس يعلمون أنّك عشيق وأنت لا تبالي  
بهم، فكيف تشفق من قيلهم وقاهم على زواج مشروع  
إن أردت الزواج...

قال بأسماً في ارتباك وضيق:

- قليل من الناس من يطلع على أسراري، إلى أنّ  
أهل بيتي هم أبعد الناس عن الشك في أمري...  
رفعت حاجبها المزجّجين في إنكار، ثم قالت:  
- هذا ظنّك، أمّا الحقيقة فلا يعلمها إلا الله، أيّ

سرّ يسان ووراء السنة الناس؟

ثم استدركت غاضبة قبل أن يتكلّم:

- أم لعلّك لا تراني أهلاً للتشرف بالانتساب  
إليك؟

استغفر الله، زوج زنوبة العوادة على سنّ ورمح!

- ما قصدت هذا يا زنوبة...

واسمع منّي للمرأة الأخيرة: لقد تجاهلت الرجل ورغبته  
إكراماً لك...

رغب أن يعرف سنّه ولكنّه لم يدر كيف يصوغ  
السؤال، الشباب والكهولة أمور لم تجر له في حساب  
من قبل، قال بعد تردّد:

- لعلّه من الأغرار الذين يلقون القول بلا تردّد!

- ليس طفلاً، إنّه في الثلاثين من عمره!

أي أنّه يتأخّر عنه بربع قرن، والتأخّر مكروه إلّا في  
العمر، أمّا الغيرة فتقتلنا بلا حياة.

وعادت هي تقول:

- تجاهلته رغم أنّه وعدني بالحياة التي أتمناها!

يا بنت القديمة! فات زبيدة أن تتعلّم منك  
الكثير...

- حقاً؟

- دعني أصارحك بأنّي لم أعد أطيق هذه الحياة...

اذكر مرّة أخرى الذبابة والعنكبوت...

- حقاً!

- أجل، أريد حياة مطمئنة في ظلّ الحلال، أم  
تراني مخطئة؟

جئت للتحقيق معها فأين تقف الآن؟ هي التي  
طردتك فمن أين لك هذا الحلم كلّ؟ احتجل من  
نفسك ما بقي لك من أيام، أتفهم ما تعني إيماءاتها؟  
ما أجل الأمواج المتلاطمة في ساعة المغيب! ولما طال  
به الصمت استطردت قائلة بهدوء:

- لن يغضبك هذا، أنت رجل تقّي رغم كلّ  
شيء، فلا يمكن أن تحول بين امرأة وبين الحلال الذي  
تودّه، لا أودّ أن أكون بردعة لكلّ راكب، لست  
كخالتي، لي قلب مؤمن وأخاف الله، وقد صدق عزمي  
على هجر الحرام...

استمع إلى قولها الأخير بدهشة وانزعاج، وجعل  
يتفحصها بحنق داراه بابتسامة باهتة، ثم قال:

- لم تحدّثيني عن هذا من قبل، كنّا حتّى أوّل أمس

على خير حال!

- لم أكن أدري كيف أكشفك بما في نفسي...

إنّها تبتعد عنك بسرعة مخيفة خبيثة، يا خيبة

فقلت باستياء:

- لن تخفي عني مشاعرك طويلاً، سأعرفها غداً إن لم أعرّفها اليوم، فلن كان زواجي يعرّك فمع السلامة...

تحيي لتطردها فتطردك، لم تعد تسألها أين كانت ولكنها تخبرك بين الزواج أو الذهاب، ماذا أنت صانع؟ ماذا يقيك بلا حراك؟ إنه القلب الخائن، إن نزع عظامك من لحمك أهون من هجر هذه العوادة، ليس من المحزن ألا تبتي بهذا الحب الأعمى إلا على كبرا؟

تساءل في عتاب:

- ألهذا هو قدرتي عندك؟

- لا قدر عندي لمن يأنف مني كآتي بصقة معدية!

قال بهدوء حزين:

- أنت أعز علي من نفسي...

- كلام سمعنا منه الكثير...

- ولكنه صدق وحق...

- أن لي أن أعرف هذا من غير اللسان!

غضّ بصره في كرب ويأس، لم يكن يدري كيف يقبل ولم يكن بوسعه أن يرفض، وكان حرصه عليها من وراء ذلك يغله ويشّت فكره، قال بصوت خفيض:

- أعطني مهلة كي أدبر أمري...

فقلت بهدوء وهي تخفي ابتسامة مأكرة:

- لو كنت تحبني حقاً ما ترددت...

فقال بعجلة:

- ليس هذا، أعني أموري الأخرى...

وحرك يده كأنها يفسر بها قوله وإن كان لا يدري على وجه التحديد ما تعني فابتسمت قائلة:

- إذا كان الأمر كذلك فأنا رهن انتظارك...

فشعر براحة وقتية، كالراحة التي يجدها الملاكم الموشك على السقوط إذا أدركه الجرس المؤذن بانتهاء الجولة غير الأخيرة، وانبعثت في نفسه رغبة إلى الترويح عن همه والتنفيس عن قلقه، فقال لها وهو يمدّ نحوها يده:

- تعالي إلى جانبي...

فتراجعت في مقعدها إلى الوراء بإصرار وهي تقول:

- عندما يأذن الله...

## - ٢٩ -

غادر العوامة يشقّ سبيله في ظلام وسار وشاطئ النيل في طريق مقفر متجهاً إلى جسر الزمالك. كان الهواء يهفو لطيفاً فنفس رأسه الملتهب، وبعث في أغصان الأشجار الهائلة المشابكة حركة وانية نذ عنها هسيس كالهمس، وكانت تبدو في الظلام كالكتبان أو السحب الجون، كلما رفع رأسه وجدها مطبقة عليه كالهّم الجاثم على صدره، وهذه الأضواء المنبعثة من نوافذ العوامات هل تنبعث من بيوت خلت من الهم؟ ولكن ليس كهّمك هم، ليس من يموت كمن ينتحر، وأنت بلا جدال قد وافقت على الانتحار. واصل السير، لم يكن أحب إليه وقتذاك من المشي ليريح أعصابه ويستعيد أفكاره قبل أن يمضي إلى الإخوان، وهنالكَ يخلو إليهم ويكشفهم بكل شيء، لن يقدم على هذه الخطوة حتى يشاورهم وإن خُن سلفاً ما سيقولون، ولكنه سيترف أمامهم مهما كلّفه الأمر، وإنه ليجد إلى مكاشفتهم رغبة دافعة كأنها استغاثة غريق يتخطفه الموج العاتي، لم يغب عنه أنه يُعدّ في حكم الموافق على الزواج من زئوبة، ولم ينكر شعوره الدليل بالرغبة فيها والحرص عليها ولكنه لم يتصور كيف يمكن أن يتحقّق هذا في صورة زواج رسمي ولا كيف يزفّ البشرى إلى الأهل والأبناء والناس جميعاً. ومع أنه كان يريد أن يطيل المشي ما وسعه ذلك إلا أنه اندفع يسير بسرعة وفي خطوات واسعة وعصاه تضرب الأرض التربة كأنها يتعجّل الذهاب إلى هدف ولا هدف له. تأبّت عليه وصدّته، هل تغيب عن تجربته وحنكته هذه الأساليب؟... ولكن الضعيف يقع في الشرك وهو يدري. ومع أنه استجذّ بالمشي والهواء النقي بعض الراحة إلا أنه لم يزل مشّت الفكر مشعت الوجدان، ولم تزل الأفكار تطرق رأسه بغير انتظام

في كهولتنا! لشرب هذه الليلة حتى يرفعوك على الأعناق، ما أحته إلى الشراب، كأنك لم تشرب منذ عام الفيل، إن الآلام التي تجرعتها في عامك هذا خليقة بأن تمحو حسنات السعادة التي ثمتت بها العمر كله.

ضرب بعصاه الأرض، ثم توقف عن السير، ضاق بالظلام والسكون والطريق الحاشد والأشجار وفزع قلبه إلى الإخوان، ليس هو بالذي يستطيع أن يخلو إلى نفسه طويلاً، فما هو إلا عضو في جماعة وجزء من كل، وهنالك تحل المشكلات كما اعتادت أن تحل. واستدار ليرجع إلى الجسر، وعند ذاك انتفض جسمه غضباً وتقزّزاً، فقال بصوت غريب تمزّقه الشكوى والألم والحنق: «ليلة كاملة تبيتها في الخارج... في مكان مجهول... ثم توافق على الزواج منها!» وطئه إحساس ثقيل بازدياد النفس عصر جذعه وعصر قلبه. يasmine؟... يا للسخرية! بل أمضت ليلتها في حضن الرجل الذي لم يزايلها حتى وافاهما عصر اليوم التالي، لبثت عنده وهي عالمة بمواعيد حضوره فماذا يعني هذا؟! ليس إلا الغرام أنساها الوقت. يا جحيم الآخرة! أو أنك هنت للحمد الذي لا تبالي عنده بغضبك، كيف حاورتها مسترضياً بعد ذلك أيها السحور؟ وكيف تمضي حاملاً وعد الزواج بها يا عار الدنيا والآخرة، كأنك لم تشعر بالقرن الذي ارتضيته من شدة ضغط المهّم على رأسك، قرن تكلّل به هامة أسرة لتخزي به جيلاً بعد جيل، ما عسى أن يقول الناس عن هذا القرن فوق الجبين الأغر؟ إن الغضب والمقت والدم والدموع لا تكفي للتكفير عن استسلامك وضعفك، لشدة ما تضحك منك الآن وهي مستلقية على ظهرها في العوامة، ولعلها لم تغتسل بعد من عرق رجّلها الذي سيضحك منك بدوره، لا ينبغي أن يطلع الغد وفم يضحك منك، اعترف بخورك واعرضه على مائدة الإخوان لتسمع قهقهاتهم... اعذروه كبر وخرّف... اعذروه فقد جرب كل شيء إلا متعة القرون! زبيدة: أبيت أن تكون سيّداً في بيتي وارترضيت أن تكون قواداً في بيت

حتى لم يعد يحتمل حاله فخلّ إليه أنّه سيجنّ إن لم يحسم الأمر بحلّ ولو يكن الضلال نفسه.

في هذا الظلام يستطيع أن يخاطب نفسه بلا تردد أو حياء، تحجبه الأغصان المتلاحمة عن السماء، وتواري خواطره الحقول المترامية إلى يمينه، ويتلج مشاعره ماء النيل الجاري إلى يساره، ولكن حذار من النور، حذار أن تكتنفه هالة منه فينطلق كعربة السيرك داعياً وراءه الغلمان وهواة العجائب، أما سمته وجلاله وكرامته فسلام الله عليها، كان ولم يزل ذا شخصيتين، يعيش بوحدة بين الإخوان والأحباب، ويطلق بالأخرى الأهل وسائر الناس، وهذه الأخيرة التي تمسك عليه جلالة ووقاره وتقرّر له منزلة لا يطعم إليها أحد، وهي هي التي تتآمر نزواته عليها وتهدّدها بالفناء الأبدي. وتراءى له الجسر بمصايحه الوهاجة فتساءل إلى أين؟... بيد أنّه رغب في مزيد من الوحدة والظلام فمرّ أمام الجسر إلى طريق الجيزة. ياسين! ذكره يربحك، جبينك يحترق خجلاً، لم؟ سيكون أول من يفهمك ويتسامح معك أم تراه يشمت بك ويتندر؟ طالما زجرته وأدبته ولكنّ قدمه لم تنزلق بعد إلى مثل هاويتك؟ كمال؟ يجب أن تلقاه منذ الساعة بقناع غليظ أن يطلع على الذنب في أسارك، خديجة وعائشة؟ سينكس منها الجبين في بيت آل شوكت، زنوبة امرأة أبيك، زفاف يصنّف له أهل المجون. في صدرك غوايات فاختر مسرحاً غير دنياك لها، هل ثمة مملكة ظلام بعيداً عن متناول البشر كي تمارس رذائلك في سلام؟ غداً فلتنظر إلى نسيج العنكبوت لترى ماذا تبقى من الذبابة؟ استمع إلى نقيق الضفادع وزفرات الصراصير، ما أسعد هذه الحشرات، كن حشرة لتسعد بلا حساب، أما فوق سطح الأرض فلن يسعك إلا أن تكون «السيد» أحمد، مرّ الليلة بأهل بيتك جيّماً... زوجك... كمال... ياسين... خديجة... عائشة... ثم كاشفهم بئيتك إن استطعت، وإن استطعت فاعقد زواجك بعد ذلك. هنية! أتذكر كيف نبذتها على جيّها؟ لم تحب امرأة كما أحبتها، ولكن يبدو... وأسفاه... أننا نخسر العقول

عوادتي، جلييلة: لست أخفي ولا حتى أخفي! إنني أشهد  
هَذَا الطريق الرهيب وَهَذَا الظلام الكثيف وَهَذِهِ  
الأشجار الهرمة على هرولي في الظلام باكيًا كالطفل  
الغريز، لا بَت ليّتي حتى أرَدَ الإهانة إلى الطاغية!  
وتمنعت عليك! لم؟ لأنها ضاقت بالحرام! الحرام الذي  
لم تغتسل منه، قل إنها لم تعد تطيقك وكفى، ما أفضح  
الآلم، ولكنه حق عليّ وعبادة، كمن ينطح الجدار حتى  
يهشُم رأسه تكفيرًا عن ذنب، الشيخ متوليّ عبد  
الصمد يظنُّ أَنَّهُ يعرف أمورًا كثيرة، ألا ما أجهله! مرَّ  
بجسر الزمالك مرّة أخرى إلى طريق أمبابة، وجعل  
يحثُّ خطاه بعزم وعناد مصمِّمًا على غسل ما لَطَّخه من  
خزي، وكلَّمَا ألَحَّ عليه الألم جدًّا في السير ضاربًا بعصاه  
الأرض كأنما يسير على ثلاث.

وبدت له العوامة يلوح من نافذتها الضوء فاشتدَّ  
هياجه بيد أَنَّهُ كان قد استعاد ثقته بنفسه وشعوره  
برجولته وكرامته واطمأنَّ خاطره بعد أن استقرَّ على  
رأي، وانحدر على السَّلم فمرَّ فوق الجسر الخشبيّ ثمَّ  
طرق الباب بعصاه، وكرَّر ذلك بعنف، حتى جاءه  
الصوت متسائلًا في انزعاج:

- من الطارق؟!

فأجاب بقوة:

- أنا...

افتتح الباب عن وجهها المتعجَّب، فأفسحت له  
وهي تغتمغم «خيرًا»، فمرق إلى حجرة الجلوس حتى  
توسَّطها ثمَّ استدار ووقف ينظر إليها وهي تقترب منه  
متسائلة حتى وقفت حياله وراحت تتفحص وجهه  
المتجهَّم بقلق، قالت:

- خير إن شاء الله!! ما عاد بك؟!

فقال بهدوء مريب:

- خير والحمد لله كما ستعلمين...

جعلت تتساءل بعينها دون أن تتكلَّم، فاستطرد  
قائلًا:

- جئت لأخبرك بالألّ تتعلَّقني بما قلْتُ، فإنَّ الأمر  
كلُّه لم يكن إلَّا دعابة سخيفة.

هبط جذعها هبوط الخيبة ونطق وجهها بالإنكار

والحق، ثمَّ هتفت:  
- دعابة سخيفة! كيف لا تفرَّق بين دعابة سخيفة  
وبين كلمة شرف ارتبطت بها؟  
قال ووجهه يزداد اكفهرًا:  
- يحسن بك وأنت تخاطبينني أن تلتزمي حدَّ الأدب  
الراجب، فإنَّ نساء من طبقتك يرتزقن في بيتي  
خادما...

صاحت وهي تمحلق في وجهه:  
- هل رجعت لتسمعي هَذَا الكلام؟ لم تم تفلّه من  
قبل؟ لم وعدتني واستعطفتني وتوددت إليّ؟ أتحسب أنَّ  
هَذَا الكلام يخيفني؟ لم يعد بي متَّسعٌ للدعابات  
السخيفة.

لَوَّح لها بيده غاضبًا فأسكتها، ثمَّ هتف:  
- جئت كي أقول لك إنَّ الزواج من واحدة مثلك  
خزي لا يليق بكرامتي، وإنَّه لا يصلح أكثر من أن  
يكون دعابة يتندَّر بها هواة الدعابات المخجلة، وإنَّه ما  
دامت أمثال هَذِهِ الأفكار تدور برأسك فأنت لم تعودي  
أهلًا لمعاشرتي، إذ لا يصحُّ أن أعاشر المجانين...

كانت تصغي إليه وشرر الغضب يتطاير من  
حدقتيها، بيد أَنَّهُ لم تستسلم لتيّار الغضب كما تمَنَّى،  
ولعلَّ منظر غضبه بَتَّ في حناياها خوفًا وتقديرًا  
للعواقب، فقالت بلهجة أخفَّ من السابقة:

- لن أنزوَّجك بالقوَّة، لقد كاشفتك بما يجوز  
بخاطري تاركة لك الخيار، الآن تريد أن تتحلَّل من  
وعدك، لك ما تشاء، ولا داعي لسبِّي وإهانتي،  
ليذهب كلُّ منَّا إلى حال سبيله في سلام...

أهلدا قصارى جهدها في الحرص عليك! ألم تكن  
تكون أسعد حالًا لو - في سبيل امتلاكك - أنشبت  
فيك الأظافر؟ استمدَّ من أملك غضبًا:

- سيذهب كلُّ منَّا إلى حال سبيله، غير أنَّي أردت  
أن أصارحك برأيي فيك قبل أن أذهب، لا أنكر أنَّي  
سمعت إليك بنفسِي، ربَّما لأنَّ النفس تولع أحيانًا  
بالقاذورات، فهجرت من كنت تسعدين بخدمتهنَّ كي  
أرفعك إلى هَذِهِ الحياة، لذلك لا أدهش لآتي لم أحظ  
عندك بما حظيت به عندهنَّ من الحبِّ والتقدير، ذلك

من الفكر، وكان كلُّها نزع به الخيال إلى منظر من مناظر حياته القريبة أو الماضية صدّه بعزم، اللهمَّ إلَّا منظراً واحداً رَحَّبَ باستعادته عن طيب خاطر، ذلك هو المنظر الأخير الذي سجَّل انتصاره على المرأة وعلى نفسه معاً، وراح يؤكِّد الأمر لنفسه فيقول: «انتهى كلُّ شيء والحمد لله ولاكوننَّ شديد الحذر فيما يُقبل من أيام حياتي».

بدا اليوم هادئاً في مطلعته، فاستطاع أن يفكر في فوزه المبين وأن يهيئ نفسه عليه، ولكن انقلب اليوم بعد ذلك خاملاً بل خامداً، فلم يجد من تفسير لذلك إلَّا أنه ردُّ الفعل للجهد العصبي المضني الذي بذله في اليومين الماضيين، بل في الأشهر الماضية على تفاوت في الدرجة، إذ الحقُّ أن معاشرته لزَّوْية بدت لعينه في تلك اللحظة مأساة خاسرة من أولها لآخرها. لم يكن من الهيئ عليه أن يسلم بأول هزيمة تلحقه في حياته الغرامية الطويلة، كان لذلك رجوع شديد الأثر في قلبه وخياله، وكان يثور كلُّها همس له عقله بأنَّ الشباب قد ولَّى، معترّاً بقوَّته وجماله وحيرته، ثمَّ يصرَّ على ذلك التعليل الذي جاهر به المرأة أمس وهو أنَّها لم تحبَّه لأنَّ القدر لا يقدر إلَّا القدر! لشدَّ ما تشوَّق طوال يومه إلى مجلس الإخوان، فلما دنا موعده فقد صبره فمضى متعجلاً إلى بيت محمَّد عَفَّت بالجلالَّة، فاجتمع به قبل أن يتوافد الإخوان، وسرعان ما قال له:

- انتهت منها. . .

فتساءل محمَّد عَفَّت:

- زَّوْية؟!

فأوماً بالإيجاب، فتساءل الآخر بأسها:

- بهذه السرعة؟

ضحك كالساخر، ثمَّ قال:

- هل تصدَّقني إذا قلت إنَّها طالبتني بالزواج حتَّى

ضقت بها؟!

فضحك كالساخر، ثمَّ قال:

- زبيدة نفسها لم تفكر في ذلك! يا للعجب! لكنَّها

معذورة، فقد وجدتكَ تدلُّها أكثر ممَّا تحلم به فطمعت في المزيد. . .

أنَّ القدر لا يقدر إلَّا مَنْ كان على شاكلته، وقد آن لي أن أربأ بنفسي عنك، وأن أعود إلى حظيرتي الأولى. . .

بدا في وجهها القهر، قهر من يحجزه الخوف عن التنفيس عن صدره المستعر، وتمت بصوت مرتعش النبرات:

- مع السلامة، اذهب ودعني في سلام. . .

قال بحنق وهو يكظم آلامه:

- لقد نزلت فهنت. . .

هنا أفلت الزمام، فصاحت به:

- حسبك، كفاية، ارحم الحشرة القذرة واحذرهما،

اذكر كيف كنت تقبِّل يدها والخشوع في عينيك، نزلت فهنت؟. . . هه؟. . . الحقُّ أنك كبرت، قبلتك على كبر وها أنا أتلقَّى الجزاء. . .

لوح بعصاه وهو يصيح بغضب:

- اخروسي يا بنت الكلب، اخروسي يا دون، لمي

ثيابك وغادري العوامة. . .

فصاحت بدورها وهي ترفع رأسها في تشنُّج:

- املا أذنك بما أقول، كلمة أخرى أملاً عليك

العوامة والنيل والطريق صوأتاً حتَّى تحضر الحكمداية كلها، سامع؟. . . لست لقمة سائغة، أنا زَّوْية والأجر على الله، اذهب أنت، هذه العوامة عوامتي وعقد إيجارها باسمي، فاذهب بالسلامة قبل أن تذهب في زفة. . .

لبث قليلاً كالمتردّد ينظر إليها باحتقار وازدراء، ولكنَّه عدل عن مغامرة قاسية تفادياً من الفضيحة، ثمَّ بصق على الأرض ومضى إلى الخارج في خطوات واسعة ثابتة. . .

- ٣٠ -

ذهب من توه إلى الإخوان، فوجد محمَّد عَفَّت وعليَّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار وآخرين. شرب حتَّى سكر كعادته وتعدَّى عادته، وضحك كثيراً وأضحك كثيراً، ثمَّ مضى في الهزيع الأخير من الليل إلى بيته فنام نومًا عميقاً. واستقبل مع الصباح يوماً هادئاً، خلا في أوله

فغمغم السيد أحمد قائلاً باستهانة:

- مجنونة...

فضحك محمد عفت مرة أخرى، وقال:

- لعلها تهالكت في حبك؟

يا لها من طعنة! اضحك بقدر ما تجد من ألم...

- قلت إنها مجنونة وكفى...

- وماذا فعلت؟

- صارحتها بأنني ذاهب إلى غير رجعة،

وذهبت...

- كيف تلتفت ذلك؟

- سبت مرة، وهذت أخرى، وقالت في داهية

ثالثة، ثم تركتها كالمجنونة، كانت غلطة من بادئ الأمر.

قال محمد عفت وهو يهز رأسه مقتنعاً:

- نعم، ما منّا إلّا من ضاجعها، ولكنّ أحدًا لم

يفكر حتى في مجرد معاشرتها...

تصول وتجول في ميادين الأسود ثم تُهزم أمام فارة، أخفّ عارك حتى عن أقرب المقرّبين واحد الله على أنّ كلّ شيء قد انتهى...

لكنّ شيئاً في الواقع لم ينته، لم تبرح مخيلته، وصحّ لديه فيما تلا ذلك من أيام أنّ تفكيره فيها لم يكن مجرداً ولكنّه اقترن بآلم عميق تزايد وتفشّى، وصحّ لديه أيضاً أنّ ذلك الألم لم يكن غضباً لكرامته فحسب ولكن كان ألم الحسرة والحنين، وأنّه فيها بدا عاطفة طاغية لا تقتنع بأقلّ من تدمير من يعانيتها. بيد أنّه كان شديد الاعتزاز بما سجّل ساعة انتصاره، فمضى نفسه بقهر مشاعره المستبدة الخائنة في مهلة تطول أو تقصر كيفما اتفق.

ومهما يكن من أمر فقد غادره السلام فأمضى وقته متفكراً مجتثاً أحزانه معدّياً بخيالاته وذكرياته. وكان يبلغ به الضعف أحياناً أن يفكر في مصارحة محمد عفت بما ينوء به من آلام، بل تمادى به الخاطر مرة إلى حدّ الاستعانة بزييدة نفسها، ولكنّها كانت فترات ضعف كنوبات الحمى ثمّ فيق إلى نفسه وهو يهزّ رأسه متعجباً متحيراً.

وقد صبغت أزمته سلوكه العام بلون من القسوة

قاومه ما استطاع بحلمه وكياسته، فلم يفلت منه الزمام إلّا قليلاً، وهذا القليل لم يلحظه إلّا الأصدقاء والمعارف الذين ألفوا منه الدماعة والتسامح والرقّة، أمّا أهل بيته فلم يفلتوا إلى شيء، لأنّ سلوكه حيالهم بقي هو هو لم يكد يتغيّر، إذ أنّ الذي تغيّر حقّاً هو العاطفة المسترة وراءه فاستحالت من شدّة مصطنعة إلى شدّة حقيقية لم يدرك مداها سواه. على أنّه هو نفسه لم ينبج من قسوته هذه، بل لعلّه كان هدفها الأوّل، فيها حمل به على نفسه من تقريع وما عبرها به من مهانة، وأخيراً بما أخذ يفرّ به رويداً رويداً من ذلّه وتعاسته وهجران شبابه، ثمّ يعزّي نفسه فيقول: لن أتحرك، لن أسيم نفسي مزيداً من الذلّ، فلتدّر بي الأفكار كلّ مدار، ولتنقلب بي العواطف كلّ منقلب، ولأبقين حيث أنا لا يعلم بالمي إلّا الله الغفور الرحيم. لكنّه ما يدري إلّا وهو يسائل نفسه: ترى ألا تزال في العوامة أم تركتها؟ وإذا كانت بها، فهل ما يزال لديها بقية من ماله تغنيها عن الناس، أم يكون الرجل قد لحق بها هنالك؟ تساءل كثيراً وفي كلّ مرة يلقي عذاباً ينفذ من روحه إلى لحمه وعظمه فيهصره هصرًا، لم يكن يجد شيئاً من القرار إلّا عند استحضاره المنظر الأخير في العوامة الذي أوهمها فيه - وتوهم - أنّه نبذها وعلا عليها، ولكنّه كان يستدعي مناظر أخرى سجّلت ذلّه وضعفه، ومناظر غيرها سجّلت ألواناً من السعادة لا تنسى!.

وخلق الخيال له مناظر جديدة التقيا فيها، فتشاجرا، وتحاسبا، وتعاتبا، ثمّ أدركهما سلام الصلح والوصال... حلم كثيراً ما يترأى له في عالم الباطن الزاجر بما لا يحصى من ألوان الشقاء والسعادة، لم لا يتأكد بنفسه ممّا طرأ على العوامة وسكائها؟ في الظلام يستطيع أن يسير هنالك دون أن يراه أحد...

وذهب متستراً بالظلام كاللص، فمرّ أمام العوامة ورأى النور يوصوص من خصائص النافذة، ولكنّه لم يدرك إن كانت هي التي تستضيء به أم ساكن جديد، بيد أنّ قلبه شعر بأنّ النور نورها هي دون غيرها، وخيل إليه وهو يتطلّع إلى العوامة أنّه يستشفّ روح صاحبتها، وأنّه ليس بينه وبين رؤيتها رؤية العين إلّا



فتبعها على بعد مرتجبا بظلمة الطريق، ترى هل عاودت الاتصال بخالتها؟ أم تراها ماضية إلى السيد الجديد؟ ولكن ماذا دعاها إلى الذهاب إليه وعندها عوامة تنادي العاشقين؟! وبلغت حي الحسين فضاعف انتباهه أن تضيق منه في زحمة الملاءات اللث. لم تستن له غاية وراء هذه المطاردة الخفية، ولكن كان مدفوعا برغبة في الاستطلاع اليمية وعقيمة وإن تكن في نفس الوقت عنيفة لا تجدي معها المقاومة... سارت أمام الجامع فأنجحت إلى حارة الوطاويط حيث يقل المارة ولبلد الشحاذون المتعبون، ثم إلى الجمالية حتى مالت إلى قصر الشوق فتبعها مشفقا من أن يلقيه ياسين في الطريق أو يراه من نافذة، فارتأى إن صادفه أن يزعم له أنه ذاهب لزيارة صديقه غنيم حميدو صاحب معصرة الزيوت وجار ياسين بقصر الشوق، وما يدري إلا وهي تنعطف إلى أول حارة، تلك الحارة التي لم يكن بها من بيت إلى بيت ياسين، فدق قلبه بقوة وثقلت قدماه! كان يعرف سكان الدورين الأول والثاني، وهما أسرتان لا يمكن أن تربطهما بزوبة رابطة! وزاغ بصره قلنا واضطرابا، غير أنه وجد نفسه يميل إلى العطفة غير مقدّر للعواقب، فأنجحه نحو الباب حتى ترامي إلى سمعه وقع الأقدام الصاعدة، ثم دخل بثر السلم رافعا رأسه منصتا إلى وقع الأقدام فشعر بمرورها بالباب الأول ثم الثاني، ثم وهي تطرق باب ياسين!...

تسمر في مكانه وهو يلهث، فدار رأسه وشعر بخور وتهلّم، ثم تنهد من الأعماق وانتزع نفسه من موضعه راجعا من حيث أتى وقد غاب الطريق عن عينيه في زحمة الأفكار وارتظام الخواطر...

ياسين كان الرجل! فترى هل علمت زوبة بعلاقته الأبوية بياسين؟! وراح يدفع الطمانينة في نفسه كما يدفع سدا غليظا في فوهة ضيقة قائلا: إنه لم يجر على لسانه ذكر لأحد أبنائه أمامها، فضلا عن أنه من غير المعقول أن يكون واقفا على سره، وأنه ليذكر كيف جاءه منذ أيام لينهي إليه طلاق مريم، فطالعه بوجه المذنب المرتبك ولكن في براءة وإخلاص لا تشوبها

أن يطرق الباب فيفتح عن وجهها كما كان يفتح في الأيام الذاهبة، السعيد منها والتعيس على السواء، ولكن ما عسى أن يفعل لو طالعه وجه الرجل؟! حقا أنها قريبة ولكن ما أبدها، وقد حرّم عليه هذا المعبر إلى الأبد. آه... هل مرّت به هذه الحالة في حلم من الأحلام! قالت له اذهب، قالتها من قلبها ثم مضت في سبيلها كأنه لم يعرض لها يوما وكأنها لا تشعر له بوجودها إذا كان الإنسان بهذه القسوة فكيف يتطلع إلى طلب الرحمة أو المغفرة!

وذهب مرّات ومرّات حتى صار التردد أمام العوامة بد جثوم الليل عادة يمرّ بها قبل ذهابه إلى مجلس الإخوان، ولم يبد عليه أنه يريد أن يفعل شيئا ذا بال، وكأنه كان يرضي بها حب استطلاع عقيم جنوني. وكان بهم بالعودة مرة إذ انفتح الباب وخرج شبح لم يتبيّن في الظلام فدق قلبه في خوف ورجاء، ثم عبر الطريق مسرعا ووقف في جوار شجرة وعيناه محملقان في الظلام. قطع الشبح المعبر الخشبي إلى الطريق ثم سار في اتجاه جسر الزمالك، فوضح له أنه امرأة... وحذّث قلبه بأنّها هي. وتبعها عن بعد وهو لا يدري على أيّ وجه تنتهي الليلة. هي أو غيرها فإذا يقصده! غير أنه واصل سيره مركزا انتباهه في شبحها، ولما بلغت الجسر ودخلت في مرمى مصابيحها توكد إحساس قلبه وأيقن أنّها زوبة، غير أنّها كانت ملتفة في الملاءة اللث التي تحلّت عن ارتدائها طوال معاشرتها له. عجب لذلك وتساءل عن معناه فظنّ - ما أكثر ظنونه - وراءه أمرا. رآها تتجه إلى محطة ترام الجزيرة وتنتظر، فسار محاذيا للحقول حتى جاوز الموضع قبالتها، ثم عبر إلى ناحيتها ووقف بعيدا عن مرمى بصرها. وجاء التزام فاستقلته، وعند ذاك هروا إليه فركب جاعلا مجلسه في نهاية المقعد المطلة على السلم ليراقب النازلين، وعند كلّ محطة راح يتطلع إلى الطريق وقد زايله الإشفاق من اكتشاف أمره لأنه حتى إذا وقع فقد فاتها أن تعلم أنه كان يرصدها أمام العوامة متجسسا. نزلت في العتبة الخضراء فنزل وراءها ورآها تتجه إلى الموسكي مشيا على الأقدام

شائبة، وإنه ليفترض كل شيء إلا أن يقدم ياسين. على خيائته وهو عالم بما يفعل، بل من أين لياسين أن يعلم بأن أباه ذو صلة أو كان ذا صلة بأي امرأة في الوجود، فله أن يطمئن من هذه الناحية، وحتى إذا كانت زنوبة قد عرفت علاقته بياسين، أو إذا عرفت يومًا من الأيام، فلن تطلع ياسين على سرّ خليق فإن يقطع ما بينها، وواصل السير مؤجلًا الذهاب إلى الإخوان ريثما يسترد أنفاسه ويملك جنانه فمضى في اتجاه العتبة على تعبه وإعيائه.

أردت أن تعرف وها أنت قد عرفت، ألم يكن الأفضل أن تنفض يديك من الأمر كله قانعًا بالصبر؟! احمد الله على أن الظروف لم تجمعك بياسين وجهاً لوجه في بؤرة الفضيحة، كان ياسين هو الرجل، متى عرفته؟ وأين؟ وكم من مرة خائنه معه وهو لا يدري؟! أسئلة لن تبحث لها عن جواب، افترض إذا شئت أسوأ الفروض فلن يغير هذا من الأمر شيئاً، وهل عرفها قبل أن يطلق مريم أم بعد الطلاق أم كانت الشيطانة الباعث على الطلاق؟ أسئلة أخرى لن تعرف الجواب عنها ولن تبحث عنه، فافترض أسوأ الفروض أيضاً إراحة لرأسك المصدوع، ياسين كان الرجل! قال إنه طلقها لقلّة أدها! كلام كان يمكن أن يعلل به طلاق زينب لو لم يطلع هو على السبب الحقيقي حال وقوعه، سوف تعرف الحقيقة يوماً، ولكن ماذا يهّمك من أمرها؟ ألا زلت مشغولاً بالجري وراء الحقيقة؟! أنت مبعثر الرأس معذب القلب، أيمكن أن تغار من ياسين؟ كلاً ليست هذه بالغيرة، على العكس مما تظن أنت خليق بالعزّي، إذا لم يكن بدّ من أن يكون لك قاتل فليكن ابنك هو قاتلك، ياسين جزء منك، جزء منك انهزم وجزء منك انتصر، أنت المغلوب وأنت الغالب، ياسين قلب مغزى المعركة، كنت تشرب كأساً مزاجها الألم والهزيمة فصار مزاجها الألم والهزيمة والفوز والعزاء، لن تتحسر على زنوبة بعد اليوم، غالبت في الاعتداد بنفسك، عاهد نفسك على ألا تُسقط الزمن من حسابك بعد الآن، ليتك تستطيع أن توجه هذه النصيحة إلى ياسين حتى لا يؤخذ على غرة إذا جاء

دوره، أنت سعيد، لا داعي للندم، ينبغي أن تواجه الحياة بخطة جديدة وقلب جديد وعقل جديد، دع الراية في يد ياسين، وسوف تفيق من دوارك وعيضي كل شيء وكأنه لم يكن، لن يُتاح لك أن تجعل من حوادث الأيام الأخيرة حديثاً يدار على مائدة الإخوان كسابق عهدك، علمتك هذه الأيام المخيفة أن تطوي الصدر على أمور كثيرة، آه... ما أعظم تشوّقي إلى الشراب!...

أثبت السيد أحمد في الأيام التالية أنه أقوى مما اعترضه من أحداث، فسار في طريقه قدماً، وقد ترامت إليه أنباء طلاق ياسين على حقيقتها من السيد عليّ عبد الرحيم نقلاً عن غنيم حميدو وآخرين، وإن لم يتعرف الراوون على حقيقة المرأة التي نجم عن مغامرتها طلاق الزوجة... وابتمس السيد، وضحك طويلاً من كل شيء، وكان ماضياً إلى بيت عمّد عقت - ذات مساء - حين شعر بثقل قبيح في أعلى الظهر والرأس حتى هث. لم يكن الأمر جديداً كلّ الجدة، فقد جعل الصداق ينتابه كثيراً في الأيام السابقة ولكنّه لم يشتدّ عليه كهذه المرة، ولما شكّا حاله إلى عمّد عقت أمر له بقدر من شراب الليمون المثلوج، وأمضى سهرته حتى نهايتها، ولكنّه استيقظ في اليوم التالي أسوأ حالاً من الأمس، وبلغ به الضجر أن فكر في استشارة الطبيب، والواقع أنه لم يكن يفكر في استشارة الطبيب إلا حين الضرورة القصوى.

### - ٣١ -

تتطور الأشياء بالمناسبات كما تتطور الألفاظ بما يستجدّ من معاني جديدة، لم يكن قصر آل شدّاد في حاجة جديدة كي يزداد في عيني كمال جلالاً، ولكنّه بدا في ذلك المساء من ديسمبر في زيّ جديد من أزياء الحياة. أريقت عليه الأنوار حتى غمرته. أجل: كان كل ركن من أركانه وكل موضع من جدرانته يتقلّد عقداً من اللالئ المضيئة... مصابيح كهربائية مختلفة الألوان تومض فوق رقعة جسده من أعلى السطح إلى أسفل الجدار، كذلك السور الكبير، والباب الضخم،

تغنيه، كان حسين يفكر في دعوة بعض الزملاء إلى هنا ولكنتي منعتة فاكنتى بأن يدعوهم إلى مائدتنا، سيكون لنا مائدة خاصة، هذا أهم خبر أرفقه إليك الليلة... هنالك ما هو أهم، سوف أعجب من نفسي طويلاً لقبولي هذه الدعوة، لم قبلتها؟! لتبدو كأنك لا تبالي، أم لأنك غدوت مغرمًا بالمغامرات المخيفة؟! - هذا حسن، ولكن لم لا نذهب ولو قليلاً إلى البهو الكبير لنشاهد المدعوين؟..

قال إسماعيل لطيف بازدرآه:  
- لن نحظى بما تريد حتى لو ذهبنا، فإن الباشوات والبيكوات خصّوا بالبهو الأمامي وحدهم، فإذا ذهبت فستجد نفسك بين الشباب من الأهل والأصدقاء في البهو الخلفي وليس هذا ما تريد، وددت لو أمكن أن نندسّ في الحجرات العليا التي تخرج بأفخر مُثُل الجبال... .

مثال واحد يعنيني، مثال المثل، الذي لم تقع عليه عيناى منذ يوم الاعتراف، هتك سرّي وذهب.  
- لا أكتمك أيّ مشوّق إلى رؤية الكبراء، قال حسين لي إنّ والده قد دعا كثيرين تَمَنّ أقرأ عنهم في الصحف... .

ضحك إسماعيل ضحكة عالية، وقال:  
- أتحمّل بأن ترى كبيراً وله أربع أعين أو ست أرجل؟! إنهم أناس مثلي ومثلك فضلاً عن أنهم طاعنون في السنّ وذوو منظر لا يسرّ كثيراً، إنّي أفهم سرّ تطلّعك إليهم، ما هو إلّا ذيل لاهتمامك المفرط بالسياسة... .

يجدر بي ألا أهتمّ بشيء ما في هذه الدنيا، لم تعد لي ولم أعد لها، غير أنّ اهتمامي بالكبراء مستمّد في الحقيقة من هيامي بالعظمة، أنت توّد أن تكون عظيمًا لا تنكر، ولك مؤهلاتك الواعدة من خلقة سقراط وآلام بتهوفن، أنت مدين بهذا التطلّع للتي حرمتك النور بذهابها، غداً لن تجد لها أثراً في مصر كلّها، يا جنون الأمل إنّ لك لسكرة!... قال بتشوّف:

- قال لي حسين إنّ الحفلة ستجمع بين رجال من جميع الأحزاب... .

كذلك أشجار الحديقة بدت كأنما استحالت أزهارها وثمارها أنواراً حمراً وخضراً وبيضاء، ومن التوافد جميعاً انبعثت الأضواء، فكلّ شيء يهتف مؤذناً بالفرح، وعندما رأى كمال وهو مقبل ذلك المنظر آمن بأنّه يميّج إلى مملكة النور لأول مرّة في حياته. وازدحم الطوار المواجه لمدخل البيت بالغلّمان، وقُرش المدخل برمل فاقع لونه كالذهب، وفُتح الباب على مصراعيه، كذلك باب السلامك فلاح من داخله نجفة كبيرة في سقف البهو المعدّ لاستقبال المدعوين، على حين امتلأت الشرفة العليا الكبيرة بمجموعة وضيفة من الغيد في ثياب السهرة البهيجة. ووقف شدّاد بك وجماعة من رجال الأسرة في مدخل السلامك يستقبلون الوافدين، أما شرفة السلامك فقد ازدانت برجال أوركسترا عجيب ترامت أنغامه إلى حدود الصحراء.

ألقي كمال على المنظر كلّ نظرة شاملة سريعة، ثمّ تساءل: ترى أعائدة في الشرفة العليا بين المطلّات؟ وهل وقعت عيناها عليه وهو يُقبل مع المقبلين بقامته الفارعة وزينته الكاملة والمعطف على ساعده يتقدّمه رأسه الكبير وأنفه الشهير؟ لم يخلُ من إحساس بالارتباك وهو يجتاز الباب، ولكنّه لم يتّجه إلى السلامك كالآخرين، وأنما مال إلى «ممرّه» القديم المفضي إلى الحديقة كما نبّه حسين شدّاد من قبل كي يتاح لجماعتهم البقاء ممّا أطول مدّة ممكنة في الكشك المحبوب. كأنما كان يخوض بحرًا من نور، وقد وجد السلامك الخلفي - كالأمامي - مفتوح الباب، مضاء بالأنوار، يعجّ بالمدعوين، كذلك الشرفة العليا معمورة بأسراب الحسان، أمّا في الكشك فلم يجد سوى إسماعيل لطيف في بدلة سوداء أنيقة أضفت على منظره العدوانيّ هيئة لطيفة لم يره في مثلها من قبل، ألقي إسماعيل عليه نظرة سريعة، ثمّ قال:

- بديع، لكن لم أتيت بالمعطف؟ حسين لم يمكث معي إلّا ربع ساعة ولكنّه سيعود إلينا حين يفرغ من الاستقبالات، أمّا حسن فقد لبث معي دقائق ولا أظنّه سيتمكّن من مجالستنا كما نوّد، هذا يومه وله عتّا أمور

- صحيح ، بالأمس دعا سعد الأحرار والوطنيين إلى حفلة الشاي المعروفة بالنادي السعودي ، واليوم شذاد بك يدعوهم إلى زفاف كرمته ، رأيت من أصدقائك الوفدين ، فتح الله بركات ، وحمد الباسل ، وجاء من الآخرين : ثروت ، وإسماعيل صدقي ، وعبد العزيز فهمي . شذاد بك يعمل بهمة عالية ، وحسنًا فعل ، لقد ولّى عهد أفندينا ، كان الشعب يهتف منشداً : «الله حيّ... عباس جي» ، ولكن الحقيقة أنه ذهب إلى غير رجعة فكان من الحكمة أن يعمل شذاد بك للمستقبل حسابه ، ويجب أن يسافر كل أعوام قلائل إلى سويسرا ليقدم إلى الخديو فروض طاعة كاذبة من باب الخيطة ، ثم يعود ليواصل سيره الموفق... .

قلبك يمت هذه الحكمة ، إن عنة سعد بالأمس القريب أثبتت أن الوطن مليء بهؤلاء الحكماء ، ترى أشذاد بك واحد منهم؟ والد المعبودة؟ مهلاً ، إن المعبودة نفسها نزلت من علياء السماء لتقترن بواحد من البشر ، ليتفت قلبك حتى يعجزك لم أجزائه المتناثرة .

- تصوّر أن حفلة كهذه تمضي بلا مطرب ولا مطربة!

قال إسماعيل بلهجة ساخرة:

- آل شذاد نصف باريسين ، ينظرون إلى تقاليد الأفراح بازدراء غير قليل ، ولا يسمحون لعائلة بأن تحيي حفلة في بيتهم ولا يعترفون بمطرب من مطربينا ، ألا تذكر حديث حسين عن هذا الأوركسترا الذي أراه الليلة لأول مرة في حياتي؟ إنه يعزف مساء الأحد من كل أسبوع في جروبي ، وسينتقل إلى البهو بعد العشاء ليضطرب الكبراء ، دع هذا واعلم أن زينة الليلة هي العشاء والشمبانيا!

جليلة وصابر وزفاف عائشة وخديجة؟ شتان بين الجوين ، كم كنت سعيداً في تلك الأيام! الليلة يشيع الأوركسترا حلمك إلى القبر ، أتذكر الذي رأيت من ثقب الباب... . أسفي على الآلهة التي تتمرغ في التراب... .

- هذا شيء يهون ، الذي آسف عليه حقاً وسأسف عليه طويلاً هو أنني لم أتمكن من مشاهدة الكبراء عن

كتب ، كنت أتطلع إلى سماع حديثهم لأفهم أمرين هامّين : أولهما الموقف السياسي على حقيقته وهل بات من المأمول حقاً بعد الائتلاف أن يعود الدستور والحياة النيابية؟ والثاني كلام هؤلاء الناس العادي الذي يتبادلونه في مناسبة سعيدة كهذه ، أليس بديعاً أن تصغي إلى ثروة باشا مثلاً وهو يثرثر ويمزح؟!

قال إسماعيل لطيف وهو يتظاهر بالاستهانة وإن تمت حركات الاستهانة نفسها عن مباهاة:

- أتيج لي أكثر من مرة أن أجلس مع أصدقاء أبي من أمثال سليم بك والد حسن وشذاد بك ، أؤكد لك أنك لن تجد لديهم ما يستحق هذا الاهتمام... .

من أين جاء الفارق إذن بين ابن المستشار وابن التاجر؟ كيف كان جلّ حظ أحدهما أن يعبد المعبود على حين يتزوج الآخر منه؟! أليس هذا الزواج آية على أن هؤلاء القوم من طينة غير طينة البشر... .

لكنك لا تدري كيف يتكلم أبوك بين أصحابه وأقرانه...!

- على أيّ حال سليم بك ليس من العظماء الذين أعني...!

ابتسم إسماعيل لهذه الملاحظة الأخيرة دون أن يعلق عليها . هذه الضحكات تحيي من الداخل مفعمة بالغبطة ، وأخرى تهبط من الشرفة العليا معبقة بشذا الأنوثة الساحر ، وبين هذه وتلك تمجّاب كالذي بين أنغام الآلات المترامية من بعيد تستقبلها الأذن وحده حيناً وطاقه من الحان شتى حيناً آخر ، ثم تكون كلها - الضحكات والأنغام - إطاراً وردياً يبدو فيه القلب الحزين المترع بالوحشة كبطاقة سوداء في طاقة ورد... .

وما لبث حسين شذاد أن جاء متهللاً بقامته الفارعة ووجهه المتألق يخال في الدرنجوت ، فتح ذراعيه عندما اقترب ففعل كمال مثله وتعانقا بحرارة ، ثم لحق به حسن سليم في برّته الرسمية ، جيلاً في كبرائه الطبيعي الملفوف في مظهره المؤدّب المهذب وإن بدا إلى جانب حسين قصيراً صغيراً ، فتصافحا أيضاً بحرارة ، وهنّاه كمال من أعماق لسانه . وقال إسماعيل لطيف بصراحته المعهودة التي لا تكاد في أغلب الأحيان تتميز

اللعن إلى ذروته العليا، تلك الذروة التي توحى بتداني الختام. انجذب وعيه إلى الأنغام المستعرة رغم استغراقه بالشجن، فانهخرط في غدوها حتى تدافع دمه وهطت منه الأنفاس، وسرعان ما داخلته رقة وأسكرته أريججة جعلت من حزنه نشوة دامعة، فتنهّد مع النهاية من الأعماق، وعمل أصداء اللحن المترنمة في روحه بانفعال وتأثر، فخيّل إليه أنّه يتساءل: ألا يمكن أن تنتهي عواطفه المتأججة في ذروتها إلى ختام كذلك؟ ألا يمكن أن يكون للحب - كهذا اللحن وككل شيء - نهاية؟! وذكر أحوالاً مرّت به في أوقات نادرة، فترات من الفطور حتى بدا وكأنه لم يبق من عابدة إلا اسمها، أتذكر هذه الفترات؟ وكان يهرّ رأسه حيرة ثمّ يتساءل: هل انتهى حقاً كل شيء؟ وإذا بخيال يطوف أو فكرة تخطر أو منظر يرى فيستيقظ من غفوته ويلقى نفسه غريقاً في بحر الهوى مكبلاً بأصفاد الأشر. جرب إذا حلّت بك فترة من هذه الفترات أن تقبض عليها بكل قواك وألا تدعها تفلت حتى يستقرّ بك الشقاء، أجل حاول أن تفني خلود الحب. قال حسين شذاد بأساً:

- بدأت الحفلة بتلاوة سورة على سبيل البركة!

القرآن؟! ما ألطف هذا! الباريسية الحسناء نفسها لا تستطيع أن تعقد قرانها إلا بماذون وقرآن! وهكذا سيقتزن زواجها في ذهنك بالقرآن والشمبانيا.

- حدّثنا عن نظام الحفلة؟

قال حسين وهو يشير براحته إلى البيت:

- عمّا قليل يُعقد القران، وبعد ساعة يُدعى الجميع إلى الموائد، ثمّ ينتهي كلّ شيء، وتبيت عابدة هذه الليلة في بيتنا لآخر مرّة ثمّ تسافر مع الصباح إلى الإسكندرية لتستقلّ بعد غد الباخرة إلى أوروبا...

ستضيع منك مناظر ما أخلقها بالتسجيل لتكون زاذاً لألك الشره، كرؤية اسمها الجميل وهو يكتب في الوثيقة الشرعية، ومنظر وجهها المتطّلع إلى إعلان النبا السعيد، ولون الابتسامة التي يفتّر عنها ثغرها عند زفاف البشرى، ثمّ منظر العروسين وهما يتلاقيان، حتى ألك يعوزه الزاد...

- وهل يعقد القران مآذون؟!

عن المكر السيئ:

- كمال آسف لأنه لم تُنخّ له مجالسة ثروت باشا وصحبه!

فقال حسن سليم بمرح غريب أطاح بتحفظه المعهود:

- فلينتظر حتى يسجل مؤلفاته المنتظرة، وعندها يجد نفسه واحداً منهم!...

أما حسين شذاد فقال محتجاً:

- أهأوي تزمت أنت؟! إنّما أريد أن تمرّ الليلة كلها ونحن مستمتعون بحرّيتنا الكاملة...

وقبل أن يجلس حسين استأذن حسن سليم منصرفاً، إذ كان في الواقع كالغراشة لا يستقرّ بموضع. ومدّ حسين ساقه أمامه، وراح يقول:

- غداً يسافرون إلى بروكسل، سباني إلى أوربا، ولكنّ بقائي هنا لن يطول، وغداً تكون ملهاتي التنقل ما بين باريس وبروكسل...

وتنتقل أنت ما بين النحاسين والغورية، بلا حبيب ولا صديق، هذا جزء من يتطلّع إلى السماء، ستردد بصرك بين أركان المدينة حائراً ولن تبرا عيناك من لوعة الشوق، املاً رئيسيك من هذا الهواء الذي تعبه أنفاسها، غداً سوف ترثي لنفسك.

- يجيّل إليّ أيّ سألحك بك يوماً...

تساءل حسين وإسماعيل معاً:

- كيف؟

لنكن كذبتك ضخمة كالك...

- ثمة اتفاق بيني وبين أبي على أن أسافر في بعثة على حسابي الخاص بعد إتمام دراستي...

هتف حسين بسرور:

- لو تحقّق هذا الحلم!

أما إسماعيل فقال ضاحكاً:

- أخاف أن أجد نفسي وحيداً بعد بضع سنين!

تلاقت آلات الأوركسترا جميعاً في حركة متدفقة سريعة، أعلنت - فيما أعلنت - عمّا في كلّ آلة من مرونة وقوة، كأنما تشترك كلها في سباق عنيف بات الهدف منه في مرمى العين ومتناول الطموح، فسما بهما

- طبعاً!

هكذا أجاب حسين، أما إسماعيل فضحك ضحكة عالية، وقال:

- بل قسيس!

أي سخافة في سؤالك!... سَلْ أيضًا هل يبيتان الليلة معًا أليس من المحزن أن يسد مجرى حياتك رجل لا شأن له كهذا المأذون؟ ولكن دودة حقيرة هي التي تأكل جدث أكبر الكبراء، فكيف ستكون جنازتك حين يحتم القضاء؟ شيء هائل يملأ الطريق أم لمة تمضي؟... وإذا بالصمت يشمل البيت حتى استحال نورًا بلا تغاريد فشعر بخوف وانقباض. الآن، في مكان ما، لعلها هذه الحجرة أو تلك، ثم لعلت زغرودة طويلة مجلجلة أحييت ذكرى قديمة، زغرودة كتلك الزغاريد التي عرفها من قبل فلا تمت إلى باريس بسبب، ثم تبعها زغاريد مجتمعة كالصواريخ، لشد ما يبدو هذا القصر الليلة كأي بيت من بيوت القاهرة. وتابعت دقات قلبه الزغاريد حتى لثت، ثم سمع إسماعيل يهتف فهتأ بدوره، وعثى عند ذاك لو كان منفردًا، ثم تعزى بأنه سيفنرد بنفسه أيامًا وليالي فوعد ألمه بزاد لا يفنى. وانبعثت الأوركسترا تعزف مقطوعة يعرفها حتى المعرفة هي «الغنوا يا سيد الملاح» فنادى قدرته الهائلة على التحمل والتصبر وإن كانت كل قطرة من دمه تطرق جدران عروقه مؤذنة بأن كل شيء قد انتهى، إن التاريخ نفسه قد انتهى، إن الحقيقة جميعًا قد انتهت، إن الأحلام التي فوق الحياة قد انتهت، وإنه يواجه الصخر المدبب الأطراف ولا شيء غيره. قال حسين متأملًا:

- كلمة ثم زغرودة ويدخل الواحد منا في دنيا جديدة، سوف نعرف ذلك كلنا يومًا ما...

فقال إسماعيل لطيف:

- سوف أباعد ما استطعت بيني وبين ذلك اليوم...

كلنا؟! إنا النساء وإنا لا شيء!

- لن أذعن لذلك اليوم أبدًا...

بدا عليهما أنها لم يكرثا لقوله أو أنها لم يحمله على

عمل الجذ، بيد أن إسماعيل عاد يقول:

- لن أتزوج حتى أقتنع بأن الزواج ضرورة لا يحصى عنها...

وجاء نوبًا حاملاً أكوام الشرابات، ثم تبعه آخر بصنيّة محملة بعلب الحلوى الفاخرة. علبة من البلور على قوائم أربع مذهبة، موه زجاجها الكحلي بزخارف فضيّة، وقد انعقد عليها شريط أخضر من الحرير سجل على لافتة هلالية في عقدته الحرفان الأولان لاسمي العروسين «ع. ح». شعر وهو يتناول العلبة بارتياح لعله كان أول شعور بالارتياح يحظى به في ذلك اليوم. فقد وعدته العلبة الفاخرة بأن معبودته ستترك وراءها أثرًا خالداً كحبها، وأن هذا الأثر سيبقى ما بقي هو على الأرض رمزًا لماضٍ غريب وحلم سعيد وفنتة سامية وخيبة رائعة. ثم لفه شعور بأنه ضحية اعتداء منكر تأمر به عليه القدر وقانون الوراثة ونظام الطبقات وعابدة وحسن سليم وقوة خفية غامضة لم يشأ أن يسميها... وتراءى له شخصه التعيس وهو يقف وحده أمام هذه القوى مجتمعة وجرحه ينزف فلا يظفر بأسمى، ولم يجد ما يرد به على هذا الاعتداء إلا ثورة مكبوتة حُرمت من الإفصاح، بل أجبرته الظروف على التظاهر بالسرور كأنما يهتف القوى الباغية على تنكيلها به ونبذها خارج حدود البشرية السعيدة، فأضمر لها جميعًا حنقًا خالداً ترك للمستقبل أمر تكييفه وتوجيهه، أجل شعر بأنه لن يأخذ الحياة بعد تلك الزغرودة الفاصلة مأخذًا سهلًا أو يرضى فيها بالقرب أو يتسامح معها تسامح الكرم والصفاء، وأن طريقه سيكون شاقًا عسيرًا ملتويًا غاصًا بالمضض والغضاضة والألم، ولكنه لم يفكر في التراجع. قَبِل الحرب وأبى الصلح، وأندر وتوعد، غير أنه ترك للقدر اختيار الغريم الذي سينازله والوسيلة التي سيحارب بها. قال حسين شدداد وهو يزدرد ريقه المشرب بالشرابات:

- لا تعلن الثورة على الزواج، أعتقد - إذا أتيت لك

أن تسافر كما تقول - أنك ستجد زوجة تعجبك...

كأنك لم تجد التي تعجبك هنا، ابحث عن وطن

وقالت له نفسه «اشرب» لا رغبة في الشراب فإنه لم يعرفه ولكن رغبة في الثورة، بيد أن إيمانه كان أقوى من حزنه وتمردّه، قال مبتسماً:

- أمّا هذه فلا، شكرًا...

قال إسماعيل لطيف وهو يرفع كأسًا مترعة:

- لا حقّ لك في هذا، حتّى الورع يبيع لنفسه السكر في حفلات الزفاف...

مضى يتناول طعامه الشهيّ في هدوء، وكان يراقب بين حين وآخر الأكلين والشاربين أو يشترك معهم في الحديث والضحك. إن سعادة المرء تناسب تناسبًا طرديًا مع عدد مرّات شهوده لمقاصف الأفراح، ولكن هل مقصف الباشوات مثل مقصفنا؟! نلتهم طعامهم ونحقّق معهم! شمبانيا!... هذه فرصة لتذوّق الشمبانيا... شمبانيا آل شدّاد ماذا قلتم؟ ما لأستاذ كمال لا يقرب الخمر؟ لعلّه ملأ بطنه فلم تعد تتسع لمزيد، الحقّ أنّي أكل شهوة لا تجارى، كأنما أعصاب معدني لا تتأثّر بالحزن أو أنّها تتأثّر به تأثّرًا عكسيًا...

هكذا تغذيت في مائتم فهمي، امنعوا إسماعيل عن الأكل والشرب ولأ نفق. موت المنفلوطي وسيّد درويش وضياع السودان أحداث كلّت زماننا بالسواد، لكنّ الائتلاف وهذا المقصف من أنباء زماننا السارة، أكلنا ثلاثة من الديكة الروميّة وثمة رابع لم يمّس بعد... هو هذا ربّاه إنّه يشير إلى أنفي فيضحّون جميعًا بالضحك! إنهم سكارى فلا تغصب! اضحك معهم متظاهرًا بالاستهانة والمرح، أمّا قلبي فيبتفض غضبًا، إن استطعت أن تغزو العالم فاغزه، أمّا آثار هذه الليلة البهيجة فهيها أن تنجو منها أبد الدهر، وهاك اسم فؤاد الحمزاوي تتناقله الألسن، عن تفوّقه ونبوغه يتحدثون فهل لذعتك الغيرة؟ سيكون حديثك عنه مدعاة لإكبارك ولو على نحو ما:

- كان طالبًا مجدًا منذ طفولته!

- أتعرفه؟

أجاب حسين شدّاد عنه:

- والده موظّف في متجر والد كمال...

في قلبي ارتياح لعن الله القلوب...

جديد لا يتأذى جنسه اللطيف بمنظر الرعوس الشاذّة، والأنوف الكبيرة، إمّا السماء وإمّا الموت. قال وهو يهزّ رأسه كالقنّاع:

- هذا رأيي...

فقال إسماعيل لطيف ساخرًا:

- أتعرف ماذا يعني الزواج من أوريّة؟ إنّه كلمة واحدة «الظفر» بامرأة من أحط طبقات الشعب، امرأة ترضى بأن تكون تحت رَجُل تشعر في أعماقها بأنّه عبد من العبيد.

حظيت بهذه العبوديّة في وطنك الكريم لا في أوربا التي لن تراها.

قال حسين مستنكرًا:

- مغالاة!...

- انظر إلى المدرّسين الإنجليز كيف يعاملوننا!

قال حسين شدّاد بحماس هو بالرجاء أشبه:

- الأوروبيون في بلادهم غيرهم في بلادنا!

هل من سبيل إلى قوّة القاهرة تبيد الظلم والظالمين؟ يا ربّ العالمين أين عدالتك السماويّة؟!

دعا الداعي إلى الموائد فمضى الأصدقاء الثلاثة إلى السلامك، ثمّ إلى حجرة جانبيّة تتفرّع عن البهو الخلفي، فوجدوا مقصفًا صغيرًا يتسع لعشرة على الأقلّ، ولحق بهم شبّان بعضهم من أقرباء آل شدّاد والبعض من أصدقاء المدرسة، ومع أنّ العدد دون الحدّ المقرّر للمقصف وهو ما شكر عليه حسين من الأعماق، إلّا أنّهم سرعان ما اندفعوا إلى الطعام بقوّة وعنف حتّى ساد الجوّ نشاط السباق، وكان ينبغي لهم أن يتحرّكوا دوائماً ليطوفوا بشقّ ألوان الطعام التي امتدّت صحافها على طول المائدة تفصل بين كلّ مجموعة منها وأخرى طاقة صغيرة من الورود. ولوّح حسين بإشارة من يده إلى السفّرجي، فجاء بقوارير الويسكي وزجاجات الصودا، فهتف إسماعيل لطيف:

- أقسم أنّي تفاءلت خيرًا بهذه الإشارة من قبل أن أعرف مغزاها.

ومال حسين على أذن كمال قائلاً برجاء:

- كأسًا واحدة من أجل خاطري...

قال كمال:

- كان والده ولا يزال الرجل المجذ الأمين.

- وما تجارة والدك؟

كم أحيط «التاجر» في خيالي بهالة الإكبار، حتى قيل لك ابن تاجر وابن مستشار:

- تاجر جملة للبقالة...

الكذب أداة نجاة حقيرة، انظر إليهم كي تستشف ما يدور وراء أقنعة وجوههم ولكن أي رجل في هذا البيت يضارع أباك جمالاً وقوة؟

وعقب الانصراف عن المواعيد عادت الأكثرية إلى مجالسها في البهو، وانطلق كثيرون إلى الحديقة يتمشون، فمر وقت هادئ خامل، ثم أخذ المدعوون في الانصراف، أما الأهل فصعدوا إلى الدور الثاني ليقدموا التهاني إلى العروسين، وما لبث الأوركسترا أن انتقل إليهم ليعزف مختاراته الرائعة في المجلس السعيد. ارتدى كمال معطفه وحمل علبة الحلوى الفاخرة ثم تأبط ذراع إسماعيل وغادر سراي آل شداد، قال إسماعيل وهو يلقي على صاحبه نظرة غمורה:

- الساعة الحادية عشرة، ما رأيك في أن نتمشى في شارع السرايات حتى أفيق قليلاً؟ فوافق كمال عن طيب خاطر، لأنه وجد في المشي وقتل الوقت فرصة مواتية يبتها، سارا معاً في نفس الطريق الذي سار فيه من قبل إلى جانب عائدة، يعترف لها بحبه ويبثها آلامه. لن يغيب عن رأسه منظر هذا الطريق ذي القصور الجليلة الصامته، والأشجار الباسقة على جانبيه تطالع المساء بهدوء النفس المطمئنة وروعة الخيال السامي، ولن يفتأ قلبك كلما وطئته قدماك أو استدعاه خيالك يرعش باعثاً بخفقات الحنين والوجد والألم كالشجرة المقلقلة بالرياح ترمي أوراقها وثمارها، ومهما يكن من فشل رحلتك القديمة على أديمه فلن يزال يذخر لك ذكرى حلم غابر وأمل ضائع وسعادة موهومة وحياة دافقة مترعة بالمشاعر هي على أسوأ التقديرات خير من راحة العدم ووحشة الهجر وخمود العاطفة، وهل أنت واجد في مستقبلك زاداً للقلب إلا

أماكن تنطلع إليها بعين الخيال وأساءة تمد لها أذان الشوق؟! تساءل كمال:

- ترى ماذا يحدث الآن في الدور الأعلى؟

فأجاب إسماعيل بصوت مرتفع أزعج الصمت الجاثم:

- أوركسترا يعزف مقطوعات غربية، العروسان فوق المنصة يسيان وحولها آل شداد وآل سليم، رأيت مثل هذا الجمع مرّات عديدة... عائدة في ثياب العرس! يا له من منظر! هل رأيت شيئاً كهذا ولو فيما يرى النائم؟ - وإلامّ يمتدّ الحفل؟

- ساعة على الأكثر كي يتمكن العروسان من النوم ما داما سيسافران في الصباح إلى الإسكندرية. كلمات كالحناجر، اغرز منها ما تشاء في قلبك... غير أن إسماعيل عاد يقول متسائلاً:

- ولكن متى عرفت ليالي الزفاف النوم؟! وضحك ضحكة عالية معربة، ثم تجشأ ونفخ أبخرة الخمر وهو يقطب متأففاً ثم بسط صفحة وجهه، وقال:

- ربنا لا يحكم عليك بنوم العشاق، لا نوم لهم يا عيني، لا يغرنك تحف حسن سليم، سيصول ويجول كالفحول حتى مطلع الصبح، هذا قضاء لا نجاة منه...

تذوق هذا النوع الجديد من الألم المقطر، روح الألم أو ألم الألم، ليكن عزائك أنك انفردت بألم لم يشعر به إنسان قبلك، وأنه سيهون عليك الجحيم إذا قدر عليك يوماً أن تحملك الزبانية وترقص بك فوق ألسنة لحيه، ألم!! لا لفقد الحبيب فإنيك ما طمحت يوماً في امتلاكه، ولكن لنزوله من علياء سائه، لتمرّغه في الوحل بعد حياة عريضة فوق السحاب... لأنه رضي لخذه أن يقبل، ودمه أن يسفح! وجسده أن يبتذل. ما أشدّ حسرتي وألمي...

- أحتقّ ما يقال عن ليلة الدخلة؟

هتف إسماعيل:

- أتجهل بالله هذه الأمور؟



- كيف يقدّسون الدنس؟ ...
- لا أجهلها طبعًا، كنت حتّى زمن قريب لا أدري عنها شيئًا، وثمة أمور أودّ أن تعاد على مسمعي ...
- قال إسماعيل ضاحكًا:
- إنك تبدو لي أحيانًا أحمق أو أبله ...
- دعني أسألك، أيهون عليك أن يفعل هذا بشخص تقدّسه؟
- تجسّأ مرّة ثانية حتّى تطايرت رائحة الخمر اللعينة إلى أنف كمال، وقال:
- لا يوجد شخص يستحقّ أن يقدّس ...
- ابنتك مثلاً، لو كان لك ابنة ...؟
- لا ابنتي ولا أمي، كيف جئنا نحن؟ هذا هو قانون الطبيعة ...
- نحن! الحقيقة نور لآلاء، فغُضّ الطرف، وراء ستار القداسة الذي سجدت أمامه طيلة حياتك يعبثان كالأطفال، ما لكل شيء يبدو خاويًا! الأم ...
- الأب ... عابدة، كذلك ضريح الحسين ... مهنة التجارة ... أرسقراطية شّداد بك، يا لشدة الألم.
- ما أقدر قانون الطبيعة! ...
- تجسّأ إسماعيل للمرّة الثالثة، وقال وقد نمّ صوته عن الضحك وإن لم يُسمع له ضحك:
- الحقيقة أنّ قلبك موجد، إنّه يغنيّ مع المطربة الجديدة أمّ كلثوم «أفديه إن حفظ الهوى أو ضيّع» ...
- كمال في انزعاج:
- ماذا تعني؟
- فقال إسماعيل بلهجة تعمّد أن تشي بسكره أكثر من الواقع:
- أعني أنّك تحبّ عابدة!
- ربّاه! كيف افترض سرّه؟ ...
- أنت سكران! ...
- هي الحقيقة والجميع يعرفونها!
- هتف وهو يحملق صوبه في الظلام:
- ماذا تقول؟
- أقول إنّها الحقيقة، والجميع يعرفونها.
- الجميع؟! من هم؟! من افترى هذا عليّ؟
- عابدة!
- عابدة؟
- عابدة هي التي أذاعت سرّك ...
- عابدة؟ لا أصدّق هذا، أنت سكران.
- نعم أنا سكران ولكن هذه هي الحقيقة أيضًا، من فضائل السكران أنّه لا يكذب ... (ثمّ بعد ضحكة رقيقة) ... هل أغضبك هذا؟ عابدة كما تعلم شابّة لطيفة، حاملًا لفتت الأنظار سرًّا إلى عينيك المغرمتين وأنت لا تدري، لا بدافع السخرية ولكن لأنّها تنيه دلالةً بالمغرمين، وقد كاشفت حسن أوّل الأمر فوجّه حسن نظري إليك مرّات، ثمّ أفضى بالسرّ إلى حسين، بل علمت أنّ سنيّة هانم سمعت عن العاشق الولهان كما كانوا يدعونك! وغير مستبعد أن يكون الخدم قد استرقوا السمع إلى ما دار عنك بين سادتهم، فالكمل يعرف قصّة العاشق الولهان ...
- شعر بخور، وخيل إليه أنّ الأقدام المتحرّكة تطأ كرامته بقسوة، فانطبقت شفتاه على حزن مرير، أهكذا يبعثر السرّ المصنوع. وعاد الآخر يقول:
- لا تتأثر، كان الأمر كلّه دعاية بريئة صدرت عن قلوب تكنّ لك الودّ، حتّى عابدة لم تدع سرّك إلّا بدافع المباهاة!
- توهّمت فأنخذعت! ...
- فقال إسماعيل ضاحكًا:
- إنكار حبّك عبث كإبكار الشمس في رابعة النهار ...
- صمت كمال صمتًا مليئًا بالشجن والاستسلام، وفجأة تساءل:
- ماذا قال حسين؟
- ارتفع صوت إسماعيل وهو يقول:
- حسين؟! إنّه صديقك الأمين، طالما أعلن عن عدم ارتياحه لأسلوب أخته البريء، وكان يجيبها منوّهاً بمزايك!
- تنهّد في ارتياح. إذا كان في الحبّ قد خاب أمله، فقد بقيت له الصداقة، آه، كيف يسعه أن يدخل

سراي آل شدّاد بعد الليلة؟

وقال إسماعيل بلهجة جدّية كأنما يشجع صاحبه على مواجهة الموقف:

- كانت عابدة في حكم المخطوبة لحسن من قبل إعلان الخطوبة بأعوام، ثمّ إنّها أكبر منك سنًا، وهذه العواطف تُنسى عقب النوم، فلا تهتمّ ولا تحزن. هذه العواطف تنسى! تساءل باهتمام غير خاف:

- أكانت تسخر منّي وهي تنوّه بهذا الغرام المزعوم؟ - كلّاً، قلت لك إنّها تسعد بالحديث عن عشاقها! كانت معبودتك إلهاً قاسياً ساخرًا ينشر صدره للهزء بعابديه، أتذكر يوم مثّلث برأسك وأنفك؟ ما أشبهها بقانون الطبيعة في قوّته وقسوته، كيف هرعت بعد ذلك منهلّة إلى ليلة الدخلة كأني فتاة؟ أمّا أمك فسيمتها الحياء كأنما تشعر بذنبها!

وكانا قد توغّلا في الطريق فاستدارا راجعين في صمت كأنما قد تعبنا من الحديث وشجونته، وما لبث إسماعيل أن اندفع يغنيّ بصوت رديء «يا ما شاء الله ع التحفّجية»، ولكنّ الآخر لم يخرج عن صمته فضلاً عن أنّه لم يدع عليه أنّه انتبه إلى غناؤه، ما أخجله! أحذوثة كان، وكأنّه بأهل البيت والأصدقاء والخدم وهم يتغامزون من وراء ظهره وهو عنهم غافل، معاملة فظّة لا يستحقّها، فهل يكون هذا جزاء الحبّ والعبادة؟ ما أقسى المعبودة وما أظفّع الألم! لعلّ نبرون عندما غنىّ وروما تحترق كان يتقمّم لحال كحاله هذه. كن قائداً غازياً يخال على متن جواد، أو زعيماً يُحمل على الأعناق، أو تمثالاً من صلب فوق سارية، أو ساحراً يتصوّر في أيّ صورة شاء، أو ملاكاً يطير فوق السحاب، أو راهباً منزوياً في صحراء، أو مجرماً خطيراً يزلزل الأمنين، أو مهرجاً يأسر الضاحكين، أو منتحراً يهزّ الرائيين. لو علم فؤاد الحمزاوي بقصّته لقال له وهو يوارى سحرته تحت طلاء أدبه المعهود: الحقّ عليك، فأنّت الذي هجرتنا من أجل هؤلاء الناس، احتقرت قمر وبرزجس فدقّ هجر الألهة. الساء أو لا شيء هذا هو جوابي. فلتتزوج كما تحبّ، وتذهب إلى بروكسل أو باريس، وليتقدّم بها العمر حتّى يذوي

عودها الرّيان، فلن تظفر بحبّ كحبي. لا تنس هذا الطريق فوق أديمه سكرت بخلبّ الأمال ثمّ تجرّعت غصص اليأس، لم أعد من سكّان هذا الكوكب، غريب أنا وينبغي أن أحيا حياة الغرياء.

عندما مرّا بسراي آل شدّاد في طريق العودة وجدا العمّال عاكفين على نزع الزينات وأسلالك المصابيح الكهربائية من فوق الجدران والأشجار، فتجرّد البيت الكبير من حلية الزفاف واشتمل بالظلام، إلّا حجرات ظلّ النور ينبعث من شرفاتها ونوافذها. انتهى الحفل وتفرّق الجمع وأذن الحال بأنّ لكلّ شيء نهاية، وما هو يعود حاملاً علبة الحلوى كأنّه طفل يلهمي عن البكاء ببضع قطع من الشيكولاتة، وواصل السير على مهل حتّى بلغا مطلع الحسينيّة، فتصافحا، وافترقا. . .

لم يكد كمال يتقدّم في شارع الحسينيّة أمّتاراً حتّى توقّف، ثمّ انقلب عائداً إلى العباسيّة التي بدت مقفرة مغرقة في النوم، وحثّ خطاه صوب سراي آل شدّاد، وعندما شارف البيت مال يمينه إلى الصحراء التي تكتنفه وأوغل فيها حتّى بلغ موضعاً فيما وراء السور الخلفيّ للحديقة يطلّ على السراي على بعد، وكان الظلام كثيفاً شاملاً يطمئنّ الرقباء ستائره، ولأوّل مرّة في ليلته شعر بالبرودة في ذلك الخلاء العاري، فحبك المعطف حول جسده النحيل الطويل. . . تراءى له شبح البيت وراء سوره العالي كالقلعة الضخمة، فجالّت عيناه باحثة عن هدف غالي حتّى استقرّتا على نافذة مغلقة يوصوص النور من خلال خصائصها في أقصى الجناح الأيمن من الدور الثاني، تلك غرفة العرس، الغرفة الوحيدة اليقظى في هذا الجانب من القصر، كانت بالأمس حجرة نوم عابدة وبدور، وأزّينت الليلة لشهود أعجب ما جرت به المقادير. تطلّع إليها طويلاً، أوّل الأمر بلهفة كأنّه طائر مقصوص الجناح يتطلّع إلى عشّه فوق الشجرة، ثمّ بحزن عميق كأنما يرى بعينه مصرعه فيما وراء الغيب، ماذا يدور وراء هذه النافذة؟ . . . لو يتاح له أن يتسلّق هذه الشجرة في الحديقة ليرى إنّ البقيّة الباقية من عمره ثمن زهيد يؤدّيه عن طيب خاطر لقاء نظرة خلال هذه النافذة،

وهل قليل أن ترى المعبود في خلوة زفافه؟ كيف يقينان وكيف تلتقي العينان؟ وبأي حديث يتناحيان؟ وفي أي مكان من الدنيا ينزوي الآن كبرياء عابدة؟ إنه يتحرّق شغفاً إلى الرؤية وإلى تسجيل كلّ كلمة تندّ أو حركة تصدر أو أمانة تنطق بها أسارير الوجه، بل إلى خطرات النفس وتصوّرات الخيال ونفثات العاطفة وفورات الغرائز... كلّ شيء ولو كان بشعاً مرعباً أو محرّناً مؤلماً، ولتذهب الحياة بعد ذلك دون أسف، ولبت بمكانه والوقت يمضي لا هو يبرح ولا النور ينطفئ ولا خياله يملّ التساؤل. ماذا كان يفعل لو كان في مكان حسن سليم؟ ودوّخته الحيرة دون الجواب، إنّ العبادة لن تغني عن هذه الليلة شيئاً، وخلا العبادة من مطالب النفس لم يتوجّه إلى عابدة، أمّا حسن سليم فمن طائفة لا تتقيّد بالعبادة. هكذا يتعذّب في الصحراء وهناك تُتبادل قبل ممّا عهدته الناس وتنهدات تتصبّب عرفاً وغيوبة تنزّ دماً وغلالة تنحسر عن جسد فان، كهذا العالم الفاني وآماله الخاوية وأحلامه الطائشة... فابك ما بدا لك على هوان الآلهة، وليمتلّ قلبك بالمأساة، ولكن أين يمضي الشعور الباهر الرائع الذي نور قلبه أربعة أعوام؟ لم يكن وهماً ولا صدق لوهيم، إنّ حياة الحياة، ولئن تسيطر الظروف على الجسد فأيّ قوّة تستطيع أن تتناول إلى الروح، وهكذا لتبتقن المعبودة معبودته، والحبّ عذابه وملاذه، والخيرة ملهاته، حتّى يقف أمام الخالق يوماً يسائله عما حرّره من معضلات الأمور، آه لو يطلع على ما وراء النافذة، لو يكشف سرّ أسرار وجوده؟... وكان البرد يقرصه أحياناً فيذكره بموقفه وبالوقت الذي يمرّ سادراً، ولكن فيم يتعجّل العودة؟... أيطمع حقاً أن يطرق النوم جفونه هذه الليلة؟

- ٣٢ -

جئتاك بحنطور، وكان الأسلم أن نجيشك بقارب... وكانت الأمطار قد انهملت يوماً ونصف يوم حتّى سالت الأرض وغرقت الحواري والأزقة، ومع أنّ السياء أمسكت - بعد ذلك - إلّا أنّ تجهّمها لم ينكشف، وظلّ وجهها متوارياً وراء سحب جون أظّل الأرض بمظلة قائمة بعثت في الجوّ عكارة كأنها نذير ليل بهيم. واستقبل أحمد عبد الجواد صاحبه بترحاب ودعاه إلى الجلوس، وما كاد محمّد عفت يطمئنّ إلى مجلسه عند ركن المكتب حتّى قال كأنما ليجلو سرّ مجيئه:

- لا تعجب لمجيئي في هذا الجوّ رغم أننا سنلتقي في مجلسنا المعتاد بعد ساعات، ولكّني اشتقت إلى الانفراد بك!

وضحك محمّد عفت، كأنما ليعتذر عن غرابة قوله، فضحك السيّد أيضاً، ولكّنها كانت ضحكة إلى التساؤل أقرب. وذهب جميل الحمزاوي - وكان ملتفّعاً بكوفيّة ضمّت قمّة رأسه وما تحت ذقنه - إلى الباب، فنادى صبيّ قهوة قلاوون ليحضّر قهوة، ثمّ عاد إلى كرسيه وقد أعفاه المطر والبرد من العمل، أمّا السيّد أحمد فقد حدّثه قلبه بأنّ وراء الزيارة أمراً، فقد وقعت في وقت لا تدفع إليه إلّا ضرورة، إلى أنّ الأزمات النفسية التي عاناها الرجل منذ قريب وما انتابه من مرض أخيراً، كلّ أولئك جعله عرضة للقلق على غير عادته، غير أنّه دارى قلقه بضحكة لطيفة، ثمّ قال:

- كنت قبيل حضورك أتذكّر سهرة الأمس وأستعيد منظر الفار وهو يرقص! الله يقطعه.

فقال محمّد عفت بأسياً:

- كلّنا تلاميذك! وبهذه المناسبة دعني أنقل إليك ما يشيعه عليّ عبد الرحيم عنك، إنّ يقول إنّ الصداق الذي انتابك في الأسابيع الماضية ما هو إلّا عارض خلّو حياتك من النساء في الأيام الأخيرة!...

- خلّو حياتي من النساء! وهل للصداق من سبب غير النساء؟

وجاء صبيّ القهوة بأقداح القهوة والماء على صينية صفراء، فوضعها على ركن المكتب الذي يجلس حوله

وقف الحنطور أمام دكان أحمد عبد الجواد، وقد لَطّخ عجلاته الوحل المتراكم في شارع النحاسين والمياه المتجمّعة في فجواته، فنادره السيّد محمّد عفت في جبة صوفية، ودخل الدكان وهو يقول بأسياً:

جعلت يسراه تعبت بشاربه بسرعة عصبية، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه:

- لهذا الحد! كيف أصدق هذا! كيف أخفى عني الأمر؟!

- الحال تقتضي الكتمان! اصغ إلي، لقد أثرت أن أكاشفك بالحقيقة قبل أن تفاجأ بها مفاجأة غير كريمة، ولكن لا يصح أن نعيها أكثر مما تستحق، وينبغي قبل كل شيء ألا تستسلم للغضب، لم يعد الغضب ممّا تحتمله، اذكر تعبك الأخير وارحم نفسك.

قال السيد يائسا:

- في الأمر فضيحة؟! هذا ما حدثني به قلبي، هات ما عندك يا سيد محمد...

هزّ محمد عفت رأسه أسفاً، ثم قال بصوت منخفض:

- كن دائماً أحمد عبد الجواد الذي عهدناه، لقد تزوّج من زُوبة العوادة!  
- زُوبة!...

وتبادلا نظرة ذات دلالة، وسرعان ما بدا الارتباك في وجه أحمد والإشفاق في وجه صاحبه، ثم لم تعد مسألة الزواج ذاتها بالأولى في الأهمية، فتساءل السيد أحمد بلهجة لاهثة:

- ترى هل تعلم زُوبة بأنه ابني؟!

- لا يداخلني في هذا شك، غير أنني أكاد أوقن بأنها لم تطلع على سرّك لتتمكن من إبقاعه في الشرك، وقد نجحت نجاحاً تستحقّ عليه كلّ تهنة!

ولكنّ أحمد عبد الجواد عاد يتساءل بنفس اللهجة اللاهثة:

- أم تراه أخفى عني الأمر لعلمه بما كان؟

- كلا، لا أصدق هذا، لو سبق لهذا إلى علمه ما أقدم على الزواج منها، إنه شاب طائش ما في ذلك من ريب، ولكنّه ليس ندلاً، وإذا كان قد أخفى عنك الأمر، فما ذلك إلاّ لأنّه لم يجد الشجاعة ليصارحك بأنّه تزوّج من عوادة! يا ويل الآباء من الأبناء الطائشين، الحقّ أنني تألّلت كثيراً، ولكنّي أكرّر الرجاء بالألا تستسلم للغضب، ذنبه على جنبه، وأنت بريء من فعلته ولا لوم عليك.

الصديقان، ومضى، وشرب محمد عفت شربة ماء، ثم قال:

- شرب الماء البارد في الشتاء لذيذ، ما رأيك في هذا؟ لكن فيم سؤالي وأنت من عشاق الشتاء الذين يستحمّون كلّ صباح بالماء البارد حتّى في هذه الأيام من فبراير... الآن خبرني، هل أعجبتك أنباء المؤتمر الوطني الذي احتشد في بيت محمد محمود؟ عشنا وشفنا مرة أخرى سعد وعدلي وثروت في جبهة واحدة! فتمتم السيد قائلاً:

- ربّنا من حكمته أنّه يقبل التوبة...

- إني لا أتق في هؤلاء الكلاب...

- ولا أنا، ولكن ما العمل؟ الملك فؤاد طيّها، ومن المحزن أنّ المعركة لم تعد بيننا وبين الإنجليز.

ثمّ مضيا يجتسيان القهوة في صمت إن دلّ على شيء فعلى أنّ الحديث العابر لم يعد له علل، وأنّ على محمد عفت أن يدلي بما عنده. واعتدل الرجل في جلسته، وخاطب السيد بلهجة جدّية متسائلاً:

- أعندك أخبار عن ياسين؟

انعكس السؤال في عيني السيد الواسعتين اهتماماً مشوّباً بقلق، وفي الوقت ذاته خفق قلبه خفقة مروعة، قال:

- خيراً! إنّه يزورني من حين لآخر، وكانت زيارته الأخيرة يوم الاثنين الماضي فهل من جديد؟ أمر يتعلّق بريم؟ لقد رحلت إلى جهة مجهولة، وعلمت أخيراً أنّ بيومي الشربلي اشترى نصيبها في بيت أمها.

قال محمد عفت وهو يتكلّف ابتسامة:

- الأمر لا يتعلّق بريم، من يدري لعلّها غابت عن ذاكرته، المسألة دون لفّ أو دوران زواج جديد.

فخفق قلبه مرة أخرى فيما يشبه الفزع وهو يقول:  
- زواج جديد؟! ولكنّه لم يشر إلى ذلك بتاتاً في أحاديثه معي!

هزّ محمد عفت رأسه أسفاً، وقال:

- لقد تزوّج بالفعل من شهر أو أكثر، حدثني بذلك غنيم حميدو منذ ساعة فقط، وكان يظنّ أنّك تعلم كلّ شيء!

خلق أحمد في وجهه، ثم قَطَبَ منعلاً، وهتف حائفاً:

- كأني غير موجود في هذه الدنيا! ... حتى في هذا لا يشاورني! ...

ثم وهو يضرب كفاً بكف:

- ضحكوا عليه بلا ريب، وجدوا في طريقهم لقية، بغلاً بلا سانس في ثياب أفندي ...

فقال محمد عفت متأثراً:

- تصرفات أطفال! ... نسي أباه ونسي ابنه! ولكن ما الفائدة من الغضب؟!

صاح أحمد عبد الجواد:

- يخيل إليّ أنه ينبغي أن آخذه بالحزم مهما تكن العواقب ...

مدّ محمد عفت ذراعيه كأنما يدفع رزّة، وقال بتوسّل:

- إن كبر ابنك آخيه، لا تخطئ وأنت سيّد العارفين، ليس عليك إلا النصيحة وليقض الله بما هو قاض ...

وخفض محمد عفت عينيه متفكراً، وبدا لحظات كالمتردد، ثم قال:

- ثمة أمر يهمني كما يهّمك ألا وهو رضوان! وتبادل الرجلان نظرة طويلة، ثم استطرد محمد عفت قائلاً:

- سيبلغ الغلام السابعة من عمره بعد أشهر، وأخاف أن يطالب به فينشأ بين أحضان زُتوبة، هذا شرّ يجب دفعه، ولا إخالك توافق عليه، فأقنعه بأن يترك الغلام عندنا حتى يقضي الله أمراً ...

لم يكن من طبع أحمد عبد الجواد أن يرحّب بأن يبقى ابن ابنه عند آل أمّه بعد انقضاء فترة الحضانة الشرعية، ولكنّه من ناحية أخرى لم يشأ أن يقترح ضمّه إلى بيته هو حتى لا يضيف إلى أعباء أمينة عبثاً جديداً لم تعد بحكم سنّها أهلاً لحمله، فقال في استسلام أسيف:

- لا يصحّ أن يترنّ رضوان في بيت زُتوبة هذا ما أقرّك عليه ...

تهدّد أحمد عبد الجواد بصوت مسموع، ثم سأل صاحبه:

- خبّرني كيف علّق غنيم حميدو على الخبر؟

فلوّح محمد عفت بيده مستهيناً، وقال:

- سألني: كيف يرضى السيّد أحمد عن هذا؟ فقلت له: إنّ الرجل لا يعلم شيئاً. فتأسّف وقال لي: انظر إلى المدى البعيد بين الأب وابنه! كان الله في عونه.

قال أحمد بلهجة رائية:

- أهذه عاقبة تربيتي لهم؟ إني في حيرة شديدة يا سيّد محمد، المصيبة أننا نفتقد السيطرة الفعلية عليهم في الوقت الذي تستوجب مصلحتهم الحقيقية سيطرتنا، إنهم بحكم العمر يتحمّلون مسئولية أنفسهم، ولكنهم يسيئون استعمالها دون أن نستطيع تقويم ما يعوجّ منهم، نحن رجال ولكننا لم نلد رجالاً، من أين جاء العيب يا ترى؟ هذا الثور! امرأة في متناول كلّ يد فماذا دعاه إلى الزواج منها؟! فلنبيك على أنفسنا، لا حول ولا قوّة إلّا بالله.

وضع محمد عفت يده على منكب صاحبه بحنو، وقال:

- لقد أذينا ما علينا من واجب، الأمر بعد ذلك لصاحب الأمر، وهيهات أن يراك أحد مستحقاً للوم. عند ذاك جاء صوت الحمزاوي الأسيف وهو يقول:

- لا يستطيع منصف أن يلومك على أمر كهذا يا سي السيّد، على أنّه يخيل إليّ أنّ الأمل في الإصلاح لم ينعدم، انصحه يا سي السيّد ...

- إنّه يبدو بين يديك طفلاً مطيعاً، وهو سيطلقها حتماً غداً أو بعد غد فخير البرّ عاجله ...

فتساءل السيّد متشكّكاً:

- وإن كانت قد حبلت؟

فجاء صوت الحمزاوي وهو يقول جزعاً:

- لا قدّر الله ولا سمح ...

وبدا أنّ عند محمد عفت مزيداً من القول، فنظر إلى صاحبه بإشفاق، ثم قال:

- ومن المؤسف حقاً أنّه باع دكانه بالحمزاوي ليؤثث بيته من جديد!

فقال محمد عفت وهو يتهدد بارتياح:

- إن جدته تحبه من كل قلبها، وحتى لو دعت ظروف قهرية في المستقبل إلى أن ينتقل إلى بيت أمه فسوف يجد هناك جواً صالحاً، إذ أن زوج أمه رجل في الأربعين أو جاوزها، وقد حرمه الله من نعمة الذرية...

فقال أحمد عبد الجواد برجاء:

- لكنني أفضل أن يبقى عندك...

- طبعاً... طبعاً، إنني تكلمت عن احتمالات بعيدة أسأل الله ألا تضطر إليهما، الآن لم يبق لي إلا أن أرجوك أن تترقق في مخاطبته وعماسته حتى يتيسر إقناعه بترك رضوان لي...

وهنا جاء صوت الحمزاوي المسالم وهو يقول:

- السيد أحمد سيد الحكماء، وهل يغيب عنه أن ياسين رجل؟ وأنه مثل كافة الرجال حر التصرف في شئونه وأملأك؟ هذا ما لا يمكن أن يغيب عن السيد، وما عليه إلا النصيحة، والباقي على الله...

استسلم أحمد عبد الجواد بقية النهار إلى التفكير والحزن. قال لنفسه: إن ياسين في كلمة ابن غريب للآمال، وليس أفجع من ابن غريب للآمال، إن ماله بين ويا للأسف! ولن يحتاج إلى قوة بصيرة كي يتصوره، أجل سوف ينحدر من سبيل أسوأ وعند الله اللطف. وقد رجاه جميل الحمزاوي أن يؤجل مخاطبة ياسين إلى الغد، فأنصاع لرجائه يائساً أكثر منه قادراً لوجاهة النصيح.

وعند عصر اليوم التالي استدعاه إلى مقابلته، فلبى ياسين مبادراً كما ينبغي للابن المطيع. والحق أن ياسين لم يقطع ما بينه وبين أهله من أسباب. كان البيت القديم المكان الوحيد الذي لم يجد الشجاعة للعودة إليه على شدة حنينه إليه، وما من مرة كان يلتقي فيها بأبيه أو خديجة أو عائشة إلا ويحملهم السلام إلى امرأة أبيه. أجل لم ينس قلبه غضبها عليه ولم تمح من صفحته آثار ما سبها تعنتها معه، بيد أنه أبى أن ينسى كذلك العهد القديم، عهد لم يكن يعرف أمّاً إلهاً. ولم ينقطع عن زيارة أخته، كما كان يقابل كمال أحياناً في قهوة أحمد

عبد أو يدعوه إلى بيته حيث عرف الشاب مريم أولاً ثم زئوبة أخيراً. أما أبوه فكان يزوره في دكانه مرة على الأقل كل أسبوع، وهنا أتبع ياسين أن يعرف شخصية أبيه الثانية التي يأسر الناس بها، فنشأت بين الرجلين صداقة وطيدة ومودة وثيقة، غدت صلة الرحم من ناحية وفرحة اكتشاف الأب على حقيقته من ناحية أخرى. غير أن ياسين وهو يتفرس في وجه أبيه ذلك اليوم لمح فيه ما ذكره بالوجه القديم الذي طالما بعث في أطرافه الرعب، ولم يتسائل عما طرأ عليه، لأنه كان واثقاً من أنه سيقف على سره عاجلاً أو آجلاً، فلم يشك في أنه ملأقي العاصفة التي توقع هبوما منذ أقدم على فعلته. بادره الرجل قائلاً:

- يحزنني أن أجد نفسي بهذا الهوان، وماذا وراء أن أعرف أبناء ابني من الآخرين؟

فطامن ياسين رأسه ولم ينس، فشار الرجل على طلاء المسكنة الكاذب الذي يطالعه به، وصاح:

- اخلع هذا القناع، دعك من النفاق وأسمعي صوتك، طبعاً أنت تعلم ما أعنيه!

فقال ياسين بصوت لم يكذب يسمع:

- لم أجد الشجاعة لإخبارك...

- هذا شأن من يتسر على ذنب أو فضيحة!

حذرت غريزته من أن يلجأ إلى أي نوع من أنواع المعارضة، فقال باستسلام:

- نعم...

فسأله السيد ذاهلاً:

- إذا كان هذا هو رأيك حقاً، فلم فعلتها؟!

لاذ ياسين بالصمت مرة أخرى، فخيّل إلى الأب أنه يقول له بصمته «عرفت أنها فضيحة ولكنني أذعنت للحب!»، وذكره هذا بموقفه المخزي أمام المرأة ذاتها، يا للعار! غسلت خزيك بغضبة كبرى، ولكنك عدت تسعى إليها! أما هذا الثور فما أضيعة!

- فضيحة ارتضيها أنت دون تقدير للعواقب لتتعذب بها نحن جميعاً!

هتف بسداجة قائلاً:

- أنتم جميعاً؟ معاذ الله...

- طَلَّقْهَا؟ طَلَّقْهَا قَبْلَ أَنْ تُصِيرَ أُمًّا وَتَفْضَحْنَا إِلَى أَبَدِ  
الْأَبَدِينَ! ...  
تَرَدَّدَ يَاسِينَ مَلِيًّا، ثُمَّ تَمَتَّ:  
- حَرَامٌ عَلَيَّ أَنْ أَطْلُقَهَا بِلا ذَنْبٍ!  
يَا بَنَ الْكَلْبِ! ... أَتُحَفِّتُنِي بِنَكْتَةٍ بَارِعَةٍ لِسَهْرَةِ  
الليلة! ...  
- سَوْفَ تَطْلُقُهَا عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ  
تَتَجَبَّ لَكَ طِفْلًا يَكُونُ مُشْكَلْتِكَ وَمُشْكَلْتَنَا ...  
تَنْهَدُ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ مُسْتَغْنِيًا بِذَلِكَ عَنِ الْكَلَامِ،  
عَلَى حَيْنِ رَاحِ الْأَبِ يَنْفَحُصُهُ فِيمَا يُشْبِهُ الْحِرَّةَ، فَهَمِي  
مَاتَ، كِهَالِ أَبْلِهِ أَوْ مَجْنُونٍ، وَهَذَا يَاسِينَ لَا أَمَلَ فِيهِ.  
الْمَحْزُونُ أَنَّهُ أَعَزَّ الْجَمِيعِ لَدَيَّ. دَعِ الْأَمْرَ لِلَّهِ، رَبَّنَا! مَاذَا  
يَكُونُ الْحَالُ لَوْ زِلْتُ قَدَمِي إِلَى الزَّوْجِ ...  
- بِكُمْ بَعْتَ الدِّكَانَ؟  
- مَائَتِي جَنِيهِ ...  
- تَسْتَحَقُّ ثَلَاثِيَّةً، مَوْقِعَهَا عِمْتَازٌ جَدًّا يَا جَاهِلُ، لِمَنْ  
بَعْتَهَا؟  
- عَلَيَّ طَوْلُونُ، بَائِعُ الْخَرْدَوَاتِ.  
- مَبَارَكُ مَبَارَكُ، هَلْ ضَاعَ الْمُبْلَغُ فِي الْجِهَازِ الْجَدِيدِ؟  
- لَدَيَّ مِنْهُ مَائَةٌ ...  
بِلَهْجَةٍ سَاخِرَةٍ:  
- أَحْسَنْتَ، فَالْعَرِيسُ لَا يَسْتَغْنِي عَنِ النُّقُودِ ...  
ثُمَّ بِلَهْجَةٍ جَادَّةٍ حَزِينَةٍ:  
- يَا يَاسِينَ اسْمِعْ كَلَامِي، أَنَا أَبُوكَ، احْتَرَسْ وَغَيْرِ  
سِيرَتِكَ، أَنْتَ نَفْسُكَ أَبُ، أَلَا تَتَفَكَّرُ فِي ابْنِكَ وَمُسْتَقْبَلِهِ؟  
فَقَالَ مَدَافِعًا مُتَحَمِّسًا:  
- إِنَّ نَفَقَتَهُ الشَّهْرِيَّةَ تُصَلِّهِ عَلَى آخِرِ مَلِيْمٍ!  
- أَهِيَ مَسْأَلَةٌ تِجَارِيَّةٌ؟ إِيَّيْ أَنْكَلَمُ عَنْ مُسْتَقْبَلِهِ، بَلْ  
عَنْ مُسْتَقْبَلِ الْآخَرِينَ الَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ!  
فَقَالَ يَاسِينَ بِاطْمَئِنَّانٍ:  
- رَبَّنَا يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَحَضْرَتِكَ تَبَدُّدًا قَلِيًّا ...  
واعتدل في جلسته، ثُمَّ تساءل وهو يركِّز فيه عينيه  
القويَّتين:

عاود السيّد الغضب، فصاح به:  
- لَا تَتَصَتَّعِ الْجَهْلُ، لَا تُدْعِ الْبَرَاءَةَ، أَنْتَ تَعْلَمُ  
أَنَّكَ فِي سَبِيلِ شَهْوَاتِكَ لَا تَبَالِي مَا يُصِيبُ سَمْعَةَ أَبِيكَ  
وَإِخْوَتِكَ، أَفَحَمَتِ عَلَى الْأُسْرَةِ عَوَادَةٌ لَتَكُونَ هِيَ وَمَنْ  
بَعْدَهَا ذَرِيَّتَهَا مَنًّا، لَا إِخَالَكَ كُنْتَ تَجْهَلُ هَذَا قَبْلَ أَنْ  
أَذْكُرَهُ، وَلَكِنَّكَ تَسْتَهِينُ بِكُلِّ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ شَهْوَتِكَ،  
هَانَتْ كِرَامَةُ الْأُسْرَةِ عَلَى يَدَيْكَ، وَأَنْتَ نَفْسُكَ تَنَارُ  
حَجَرًا بَعْدَ حَجَرٍ، وَسَوْفَ تَجِدُ نَفْسُكَ فِي النِّهَايَةِ  
خَرَابًا ...  
غَضَّ الْبَصَرَ لَانْدًا بِالصَّمْتِ حَتَّى نَطَقَتْ حَالَهُ  
بِالذَّنْبِ وَالتَّسْلِيمِ، لَنْ تَكْلُفَكَ هَذِهِ الْفَضِيحَةُ إِلَّا قَدْرًا  
مِنَ التَّمْثِيلِ كَمَا أَرَى، حَسْبُكَ هَذَا، أَمَّا أَنَا فَسَارِزُ  
غَدًا بِحَفِيدِ أُمِّهِ زَنُوبَةٍ وَخَالَاتِهِ زَبِيدَةٍ، مُصَاهِرَةٌ طَرِيفَةً  
بَيْنَ السَّيِّدِ أَحْمَدِ التَّاجِرِ الْمَعْرُوفِ وَزَبِيدَةِ الْعَالَةِ الذَّائِعَةِ  
الصَّبِيحِ، لَعَلَّنَا نَكْفُرُ عَنْ ذُنُوبٍ لَا نَدْرِيهَا!  
- إِنَّ بَدَنِي يَقْشَعُرُ كُلَّمَا فَكَّرْتُ فِي مُسْتَقْبَلِكَ، قُلْتَ  
لَكَ إِنَّكَ تَنَارُ وَسَوْفَ تَنَارُ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ، خَبَّرَنِي مَاذَا  
فَعَلْتَ بِدِّكَانِ الْحَمْزَاوِيِّ؟  
رَفَعَ إِلَيْهِ عَيْنَيْنِ كَثِيبَتَيْنِ، وَتَرَدَّدَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ:  
- كُنْتُ فِي حَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى الْمَالِ ...  
ثُمَّ وَهُوَ يُخَفِّضُ عَيْنَيْهِ:  
- لَوْ كَانَتْ الظُّرُوفُ غَيْرَ الظُّرُوفِ لَاقْتَرَضْتُ مَا  
أَحْتَاجُهُ مِنْ حَضْرَتِكَ وَلَكِنَّ الْأَمْرَ كَانَ مُحَرِّجًا ...  
السَّيِّدُ حَانَقًا:  
- يَا لَكَ مِنْ مَرَاءٍ! أَلَا تَحْجُلُ مِنْ نَفْسِكَ؟ أَرَاهُنِ  
عَلَى أَنَّكَ لَمْ تَجِدْ فِي كُلِّ مَا فَعَلْتَهُ أَيُّ غَرَابَةٍ أَوْ إِنْكَارٍ، أَنَا  
عَارِفُكَ وَفَاهِمُكَ فَلَا تَحَاوُلْ أَنْ تُخَدِّعَنِي، لَيْسَ عِنْدِي إِلَّا  
كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ وَإِنْ كُنْتَ أَعْلَمُ مَقْدَمًا إِلَّا طَائِلَ نَحْتِهَا:  
أَنْتَ تَخْرُبُ نَفْسُكَ بِنَفْسِكَ وَنَهَايَتُكَ سُودَاء ...  
عَادَ يَاسِينَ إِلَى صَمْتِهِ مُتَظَاهِرًا بِالْأَسَى. الثُّورُ هِيَ  
جَذَابَةٌ شَيْطَانَةٌ وَلَكِنْ مَاذَا اضْطَرَّكَ بِالزَّوْجِ مِنْهَا؟ كُنْتَ  
أَظُنُّ أَنَّهَا طَالِبَتُنِي بِالزَّوْجِ طَعْمًا فِي تَقَدُّمِ عَمْرِي، لَكِنَّهَا  
أَوْقَعَتْ هَذَا الثُّورَ عَلَى شَبَابِهِ. وَوَجَدَ عِنْدَ ذَلِكَ شَيْئًا مِنْ  
الْإِرْتِيَاحِ وَالْعِزَاءِ. كَانَتْ خَطَّتُهَا الْمُدْبِرَةُ أَنْ تَتَزَوَّجَ بِأَيِّ  
ثَمَنِ إِلَّا أَنَّهَا أَثَرَتْ غَيْرِي عَلَيَّ، فَوَقَعَ هَذَا الْأَحَقُّ:

- رضوان على عتبة السابعة، فإذا أنت صانع به؟  
أناخذة لينشأ في أحضان حرمكم؟

لاح في الوجه الممتلئ الارتباك، ثم تساءل بدوره:  
- ماذا أفعل إذن؟ لم أعمل في الأمر فكري...

هز الرجل رأسه في أسى ساخر، وقال:

- دفع الله عنك شرّ الفكر! وهل لديك وقت لتبذره  
فيه؟! دعني أفكر عنك، دعني أقول إنّ رضوان يجب  
أن يبقى في حضنة جدّه...

فكر قليلاً، ثم خفض رأسه بالإيجاب قائلاً بانصياح:  
- الرأي رأيك يا أبي، هذا في صالحه ولا شك...

قال الأب متهمكماً:

- يبدو لي أنّه في صالحك أيضاً كيلا تشغل نفسك  
بأمور تافهة!

ابتسم دون تعليق، كأنما يقول له «إني واثق من  
أنك تمزح ولا بأس من ذلك».

- ظننت أنّه سيشتق عليّ إقناعك بالتخلي عنه!

- إنّ ثقتي في رأيك هي التي جعلتني أبادر إلى  
الموافقة!

فساءل السيّد بدهشة ساخرة:

- أتثق حقاً في رأيي؟ لم لم تعمل به في الأمور  
الأخرى؟! ثم وهو يتندّد أسفاً:

- القصد! ربّنا يهديك، وذنبك على جنبك،  
سأحدثت محمّد عفت الليلة في شأن الاحتفاظ  
برضوان، على أن تقوم بكلّ نفقاته فعسى أن  
يوافق...

عند ذلك نهض ياسين وسلّم على أبيه وأتمّه نحو  
باب الدكان، وما إن خطا خطوتين حتّى أدركه صوت  
أبيه وهو يسأله:

- ألا تحبّ ابنك ككلّ الآباء؟

فتوقّف ياسين متلفّظاً نحوه، وهو يقول بإنكار:

- وهل يحتاج هذا إلى قرار يا أبي! إنّ أعزّ شيء في  
الحياة...

فرفع السيّد حاجبيه، وقال وهو يهزّ رأسه هزّة  
غامضة:

- مع السلامة...

- ٣٣ -

قبل الخروج إلى صلاة الجمعة بساعة، دعا أحد  
عبد الجواد كمال إلى حجرته، لم يكن يدعو أحداً من  
أهل بيته إلى مقابلته إلّا لأمر هامّ، والحقّ أنّه كان  
مبلبل الفكر، متحمّزاً لاستجواب ابنه عمّا يشغله.  
وكان بعض أصحابه قد وجّهوا نظره مساء أمس إلى  
مقال ظهر في البلاغ الأسبوعيّ بقلم الأديب الناشئ  
«كمال أحمد عبد الجواد»، ومع أنّ أحداً منهم لم يقرأ  
من المقال إلّا العنوان وهو «أصل الإنسان» والإمضاء  
وهو الأديب الناشئ «كمال أحمد عبد الجواد» فلمّتهم  
أخذوا منه مادةً للتعليق والتهنئة وممازحة السيّد، حتّى  
فكر الرجل جاداً في أن يكلف الشيخ متولّي عبد  
الصمد بعمل حجاب للشابّ. قال له محمّد عفت  
«سجّل اسم ابنك مع أسماء كبار الكتاب في مجلّة  
واحدة، طب نفساً وادعُ الله أن يكتب له مستقبلاً  
باهراً كما كتب لهم»، وقال له عليّ عبد الرحيم  
«سمعت من شخص محترم أنّ المرحوم المنفلوطي ابتاع  
عزبة بقلمه فأبشر خيراً»، وحلّثه آخرون عن القلم  
وكيف شقّ السبيل لكثيرين إلى حظوة الحكّام  
والزعماء، ضاربين الأمثال بشوقي وحافظ والمنفلوطي،  
وعندما جاء دور إبراهيم الفار داعبه قائلاً «سبحان  
الذي خلق من ظهر الجاهل عالماً»، أما السيّد فقد  
ألقي نظرة على العنوان ونظرة على «الأديب الناشئ»،  
ثمّ وضع المجلّة فوق جبهته التي كان قد نزعها بسبب  
حرارة يونه وحمياً الويسكي مؤجّلاً قراءتها حتّى ينفرد  
بنفسه في البيت أو في الدكان، ثمّ واصل سهرته بصدر  
منشرح وضمير ثيّه فخور، بل جعل يراجع نفسه لأوّل  
مرّة في سخطه المكثوم على إشار الشابّ لمدرسة  
المعلّمين قائلاً إنّ «الولد» فيما يبدو سيكون «شيئاً» رغم  
اختياره غير الموقّ، وبني أحلاماً على ما قيل عن  
«القلم» وحظوة الكبراء وعزبة المنفلوطي، أجل، من  
يسدري؟ لعلّه لا يكون معلّماً فحسب ولكن يشقّ



عاطفيّة، وهو آمن كلّ الأمن من ناحية اطلاع أبيه عليها، فلم يدر بها أحد من أسرته إلا ياسين الذي كان هو نفسه يقرأها عليه فينصت الآخر، ثمّ يقول له معلّقاً «هذا ثمرة توجيحي الأوّل لك، أنا الذي علّمتك الشعر والقصص، جميل يا أستاذ، ولكن هذه فلسفة عميقة جدّاً فمن أين جئت بها؟» أو يقول مداعباً «من الحسنة التي ألهمتكَ هذه الشكوى الرقيقة؟ ستعلم يا أستاذ يوماً أنّهنّ لا يجدي معهنّ إلا ضرب المراكيب»، ولكنّها هي التي يطلع على أخطرها ما كتب، تلك المقالة التي شبّ التفكير فيها معركة جهنميّة في صدره وعقله كاد يحترق في أنوثها، فكيف حدث هذا؟ وهل يجد له من تفسير إلا عند أصدقاء أبيه الوفديّين الذين يحرصون على اقتناء كافّة الجرائد والمجلّات الوفديّة؟ وهل يطمع في أن يخرج سالماً من هذا المأزق؟ رفع عينيه عن المجلّة، ثمّ قال بلهجة لم يمكنها من الإنصاح عن اضطرابه:

- بلى، خطر لي أن أكتب موضوعاً تثبّيتاً للمعلوماتي وتشجيعاً لنفسي على مواصلة الدرس...

قال السيّد أحمد بهدوء المصطنع:

- لا عيب في ذلك، الكتابة في الصحف كانت ولم تزل الوسيلة إلى الجاه والخطوة عند الكبراء، ولكنّ المهمّ الموضوع الذي يكتب فيه الكاتب، ماذا أردت بهذه المقالة؟ أقرأها وأشرحها لي، فقد غمض عليّ مرماك...

يا للتعاسة! ليس هذا المقال للجهر، وخاصّة على مسمع من أبيه!

- إنّه مقال طويل يا بابا، ألم تقرأه حضرتك؟ إليّ أشرح فيه نظريّة علميّة...

حدّجه الرجل بنظرة برّاقة متحقّرة، أهدأ ما يدعونه بالعلم الآن؟ ألا لعنة الله على العلم والعلماء...

- ماذا تقول في هذه النظريّة؟ لقد فلتت نظري عبارات غريبة تقول إنّ الإنسان سلالة حيوانيّة، أو شيئاً من هذا القبيل، أحقّ هذا؟

بالأمس ناضل نفسه وعقيدته وربّه نضالاً عنيقاً أعيا روحه وجسده، واليوم عليه أن يناضل أباه، غير أنّه

السبيل حقّاً إلى حياة لم تخطر له هو على بال. وعند ضحى اليوم، وعند فراغه من الصلاة والإفطار، تربّع على الكنبه وفتح المجلّة باهتمام وراح يقرأ بصوت مرتفع ليتملّ بمعانيها، لكن ماذا وجد فيها؟ إنّه يقرأ المقالات السياسيّة فيفهمها دون عناء، أمّا هذه المقالة فإنّها دارت برأسه وأفزعت قلبه، وأعاد تلاوتها بعناية فطال كلاً عن عالم يدعى «دارون» ومجهوده في جزر نائية، ومقارنات ثقيلة بين شئى الحيوانات حتّى وقف مبهوئاً عند تقرير غريب يزعم أنّ الإنسان سلالة حيوانيّة! بل أنّه متطوّر عن نوع من القردة! وكرّر تلاوة الفقرة الخطيرة منزعجاً، ثمّ لبث ذاهلاً أمام هذه الحقيقة الأسيفة وهي أنّ ابناً من صلبه يقرّر - دون اعتراض أو مناقشة - أنّ الإنسان سلالة حيوانيّة! انزعج الرجل انزعاجاً شديداً وتساءل في حيرة: هل حقّاً يعلمون الأولاد هذه المعلومات الخطيرة في مدارس الحكومة؟ ثمّ أرسل في طلب كمال.

وجاء كمال وهو أبعد ما يكون عمّا يختلج في رأس أبيه، وكان قد استدعاه قبل ذلك بأيّام ليهنّئه على النقل إلى السنة الثالثة فظنّ بالدعوة الجديدة خيراً. وبدا صاحب الوجه ضامر الجسم كمعهده في الفترة الأخيرة في حال علّقتها الأسرة بالجهد الشديد الذي بذله قبيل الامتحان، ولكن غاب عنها سرّها الحقيقيّ وهو ما عاناه طيلة الأشهر الخمسة الماضية من ألم وعذاب أسيراً لعاطفة مستبّدة جهنميّة كادت تودي به، وأشار السيّد إليه بالجلوس، فجلس على طرف الكنبه متّجهاً نحو أبيه بأدب، وعند ذاك لمح أمّه جالسة أمام الصوان مشغولة بترتيب الثياب وخطّطها، أمّا الرجل فقد رمى بالبلاغ الأسبوعيّ إلى الفراغ الذي يفصل بينهما على الكنبه وقال بهدوء مصطنع:

- لك مقال في هذه المجلّة، أليس كذلك؟

خطف غلاف المجلّة عيني كمال فرنا إليه بعين ذاهلة دلّت على أنّه لم يكن يتوقّع هذه المفاجأة قطّ... من أين لأبيه هذا الاطلاع المستجدّ على المجلّات الأدبيّة؟ لقد سبق أن نشر في الصباح «تأمّلات» بين النثر والشعر المنشور ضمّنها نظرات فلسفيّة بريئة وأنات

كان في الجولة الأولى معذباً عمومًا. . . أما في هذه الجولة فهو خائف مرتعب، إنَّ الله قد يؤجِّل عقابه، أمَّا أبوه فشيمته التعجيل بالعقاب. . .

- هذا ما قرَّره هذه النظرية!

علا صوت السيّد وهو يتساءل في انزعاج:

- وآدم أبو البشر الذي خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه، ماذا تقول عنه هذه النظرية العلمية؟!

طالما طرح هذا السؤال على نفسه، لم يكن دون أبيه انزعاجًا، ولم يغمض له عين ليلتها حتّى الصباح، وتقلَّب في الفراش متسائلًا عن آدم والخالق والقرآن، وقال لنفسه مرّة وعشرًا: القرآن إمّا أن يكون حقًّا كلّهُ أو لا يكون قرآنًا، إنَّك تحمل عليّ لأنك لم تدبر بعذابي، لو لم أكن قد اعتدت العذاب وألفته لأدركني الموت تلك الليلة. قال بصوت خافت:

- دارون صاحب هذه النظرية لم يتكلَّم عن «سيدنا» آدم. . .

هتف الرجل غاضبًا:

- لقد كفر دارون ووقع في حبائل الشيطان، إذا كان أصل الإنسان قرودًا أو أيّ حيوان آخر، فلم يكن آدم أبًا للبشر. . . هذا هو الكفر عينه، هذا هو الاجترأ الوقح على مقام الله وجلاله! إني أعرف أقباطًا ويهودًا في الصاغة وكلّهم يؤمنون بآدم، كلّ الأديان تؤمن بآدم فمن أيّ ملّة دارون هذا؟ إنّه كافر وكلامه كفر، ونقل كلامه استهتار، خبرني أهو من أساتذتك في المدرسة؟

ما أدعى هذا إلى الضحك لو كان في القلب فراغ للضحك، لكنّه قلب أفعمته الآلام، ألم الحبّ الخائب، وألم الشكّ وألم العقيدة المحتضرة، إنَّ الموقف الرهيب بين الدين والعلم أحرقك، ولكن كيف يَسع عاقل أن يتنكر للعلم، قال بصوت متواضع:

- دارون عالم إنجليزيّ مات منذ زمن بعيد. . .

وهنا نذ عن الأمّ صوت يقول بهتَج:

- لعنة الله على الإنجليزيّ أجمعين. . .

فالتفتا نحوها التفاتة قصيرة، فوجداها قد تركت الثياب والإبرة وتابعت الحديث، ولكن سرعان ما

انصرفا عنها وعاد الأب يقول:

- خبرني، هل تدرسون هذه النظرية في المدرسة؟  
التقف حبل النجاة الذي تدلّي إليه فجأة، فقال  
لائدًا بالكذب:

- نعم. . .

- أمر غريب! وهل تدرّس هذه النظرية فيها بعد لتلاميذك؟!

- كلاً، سأكون مدرّس آداب لا علاقة لها بالنظريات العلمية. . .

ضرب السيّد كفًا بكفّ، ودّ في تلك اللحظة لو كان له على العلم بعض ما له على الأسرة من سلطان، وهتف محنقًا:

- إذن لماذا يدرّسونها لكم؟! هل الغاية إدخال الكفر في قلوبكم؟

فقال كمال بلهجة المحتجّ:

- معاذ الله أن يؤثّر في عقيدتنا مؤثّر. . .

فتفحصه بارتياح وهو يقول:

- ولكنك نشرت الكفر بمقالك!

- أستغفر الله، إني أشرح النظرية ليلّم بها القارئ لا ليؤمن بها، هيهات أن يؤثّر في قلب المؤمن رأي كافر. . .

- ألم تجد موضوعًا غير هذه النظرية المجرمة لتكتب فيه؟

لماذا كتب مقالته؟ لقد تردّد طويلًا قبل أن يرسلها إلى المجلّة، ولكنّه كان كأنما يودّ أن ينعي إلى الناس عقيدته. لقد ثبتت عقيدته طوال العامين الماضيين أمام عواصف الشكّ التي أرسلها المعريّ والخيام، حتّى هوت عليها قبضة العلم الحديديّة فكانت القاضية، على أنّي لست كافرًا، لا زلت أومن بالله، أمّا السدين. . .؟ أين السدين؟ ذهب! كما ذهب رأس الحسين، وكما ذهبت عابدة، وكما ذهبت ثقتي بنفسي! ثمّ قال بصوت حزين:

- لعليّ أخطأت، عذري أنّي كنت أدرس هذه النظرية. . .

- ليس هذا بعذر، وعليك أن تصلح خطأك. . .

تفهمين، انتهي إلى عملك، الله يقطعك...  
ثم ملتفتاً إلى كمال بوجه متجهّم:  
- خبرني، هل أنت فاعل ما قلت لك؟  
عليك رقيب في البيت لم يتبلّ الأحرار بمثله في  
الدول، لكنك كما تخافه تحبه، فلن يطاوعك قلبك على  
الإساءة إليه. تجرّع الألم فقد اخترت حياة النضال...  
- كيف يمكن أن أردّ على هذه النظرية؟ لو  
انحصرت مناقشتي في الاستشهاد بالقرآن لما جاءت  
بجديد، فالكلّ يعلم بما عندي ويؤمن به، أمّا  
مناقشتها علمياً فشأن المختصين من العلماء...  
- ولماذا تكتب فيما لا شأن لك به؟  
اعتراض وجهه في ذاته، غير أنّه من المؤسف أنّه لا  
يحدّ الشجاعة للاعتراف لأبيه بأنّه آمن بالنظرية بصفتها  
حقيقة علمية، وأنها بهذه الصفة يمكن الاعتماد عليها  
في إنشاء فلسفة عامّة للوجود خارج نطاق العلم، أمّا  
السيد فقد ظلّ صمته إقراراً بالخطأ فتضاعف أسفه  
وحقته. إنّ الضلال في هذا الميدان شديد الخطورة  
سبب العاقبة، وهو ميدان لا سلطان له عليه، وربما  
وجد فيه نفسه مكتوف اليدين أمام الشاب الضالّ كما  
وجد نفسه من قبل أمام ياسين بعد انقلابه من  
وصايته، فهل يجري عليه ما جرى على الآباء الآخرين  
في هذه الأيام الغريبة؟ إنّ أبناء كالأساطير تترامى إليه  
عن شباب «اليوم»، منهم تلاميذ قد اعتادوا التدخين،  
وآخرون يعيثون بكرامات المدرّسين، وغير هؤلاء  
وأولئك قد تمرّدوا على آبائهم. أجل لم تكن هيئته،  
ولكنّ عمّ أسفر ذلك التاريخ الطويل من الخزم  
والصرامة؟ ها هو ياسين يتدهور ويضمحلّ، وها هو  
كمال يناقش ويجادل ويحاول التملّص من قبضته:  
- أصغ إليّ بكلّ وعيك، لا أريد أن أقسو عليك  
فإنّك مؤدّب ومطيع، أمّا عن موضوعنا فلا أملك لك  
إلاّ النصيحة، وينبغي أن تذكر أنّه ما من أحد قد  
خالف نصيحتي وسلم...  
ثمّ بعد صمت قصير:  
- إليك ياسين شاهداً عمّا أقول، وقد نصحت قديماً  
«المرحوم» بالآل يلقي بنفسه إلى التهلكة، ولو امتدّ به

يا له من رجل طيّب! إنّهُ يطمع في أن يحمل على  
مهاجمة العلم في سبيل الدفاع عن أسطورة. حقّاً لقد  
تعذّب كثيراً ولكنّه لن يقبل أن يفتح قلبه من جديد  
للأساطير والخرافات التي طهره منها، كفى عذاباً  
وخداغاً، لن تعبت بي الأوهام بعد اليوم، النور النور،  
أبونا آدم! لا أب لي، ليكن أبي قسداً إن شاءت  
الحقيقة، إنّهُ خير من آدميّين لا عدد لهم، لو كنت من  
سلالة نبيّ حقّاً ما سخرت منّي سخرتها القاتلة...  
- وكيف أصلح الخطأ؟  
فقال السيد ببساطة وحلّة معاً:  
- عندك حقيقة لا شك فيها، وهي أنّ الله خلق  
آدم من تراب، وأنّ آدم هو أبو البشر، هذا مذكور في  
القرآن، فما عليك إلّا أن تبين أوجه الخطأ وهو عليك  
هيّن، وإلاّ فما فائدة ثقافتك؟  
وهنا جاء صوت الأم قائلاً:  
- ما أيسر أن تبين خطأ من يعارض قول الرحمن،  
قل لهذا الإنجليزيّ الكافر: إنّ الله يقول في كتابه  
العزیز: إنّ آدم هو أبو البشر، كان جدّك من حملة  
كتاب الله فعليك أن تتهجّج سبيله، لقد سرّني أنّك  
تبغي أن تكون مثله من العلماء...  
لاح الضيق في وجه السيد، فانتهرها قائلاً:  
- ماذا تفهمين أنت من كتاب الله أو من العلم؟  
دعينا من جدّه وانتهي إلى ما بين يديك...  
فقال في حياء:  
- أريد يا سيدي أن يكون كجدّه من العلماء الذين  
يضيئون الدنيا بنور الله...  
فصاح الرجل ساخطاً:  
- ها هو قد بدأ ينشر الظلام...  
فقال المرأة بإشفاق:  
- معاذ الله يا سيدي، لعلّك لم تفهم...  
حدجها السيد بنظرة قاسية. لقد خفّف من شدّته  
في معاملتهم فماذا كانت النتيجة؟ ها هو كمال يذيع أنّ  
أصل الإنسان قرد، وها هي أمّه تناقشه وتقول له لم  
تفهم؟ صاح بها:  
- دعيني أتكلّم، لا تقاطعيني، ولا تتدخل فيّ لا

- ٣٤ -

العمر لكان رجلاً ناهياً.

وهنا قالت الأم بصوت كالآنين:

- قتلوه الإنجليز، إنهم إما يقتلون وإما يكفرون!  
وواصل السيد حديثه قائلاً:

- إذا وجدت في دروسك ما يخالف الدين، واضطرت إلى حفظه كي تنجح في الامتحان، فلا تؤمن به، ومن باب أولى لا تنشره في الصحف وإلا حملت وزره، ليكن موقفك من علم الإنجليز كموقفنا من احتلالهم، وهو عدم الإقرار بشرعيته ولو فرض علينا بالقوة الجبرية...

تدخل الصوت الرقيق الحبيّ مرة أخرى قائلاً:

- ولتكرس حياتك بعد ذلك لفضح أكاذيب هذا العلم ونشر نور الله...

فصاح بها السيد:

- قلت ما فيه الكفاية دون الحاجة الى آرائك!

فعدت إلى ما بين يديها، وجعل السيد يحدّق فيها متوعداً حتى اطمأن إلى صمتها، فالتفت إلى كمال متسائلاً:

- مفهوم؟

فقال كمال بلهجة موحية بالثقة:

- بكل تأكيد.

إذا أراد أن يكتب بعد اليوم فعلية بالسياسة الأسبوعية حيث لا تمتد يد أبيه الوفدي، أما عن أمه فقد وعدا في سره بأن يكرس حياته لنشر نور الله، ليس هو نور الحقيقة؟ بلى، وسيكون في تحرره من الدين أقرب إلى الله مما كان في إيمانه به، فما الدين الحقيقي إلا العلم، هو مفتاح أسرار الكون وجلاله، ولو بُعث الأنبياء اليوم ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم، هكذا يستيقظ من حلم الأساطير ليواجه الحقيقة المجردة، مخلفاً وراءه تلك العاصفة - التي صارح فيها الجهل حتى صرعه - حدّاً فاصلاً بين ماضٍ خرافيّ وغد نورانيّ، بذلك تفتّح له السبل المؤدية إلى الله، سبل العلم والخير والجمال، وبذلك يودّع الماضي بأحلامه الخادعة وآماله الكاذبة وآلامه البالغة...

بعناية واهتمام جعل يتفحص ما تقع عليه عيناه وهو مقبل على سراي آل شدّاد، فلمّا عبر مدخلها تضاعفت عنايته واهتمامه بتفحص ما حوله، فقد آمن أخيراً بأن هذه الزيارة ستكون آخر عهده بالبيت وآله وذكرياته، كيف لا وقد انتزع حسين في النهاية موافقة أبيه على سفره إلى فرنسا؟ تأمل بملء عينيه ووجدانه المرّ الجانيّ المفضي إلى الحديقة، والنافذة المطلّة عليه وكان طيفها الرقيق الأنيق يطالعه منها بنظرة حلوة لا تعني شيئاً كنظرات النجوم أو تحية رقيقة لا يقصد بها شخصه كتغريد البلبل المشغول بفرحته عن السامعين، ثمّ المنظر الكئيّ للحديقة المبسوط بين مؤخر القصر والصور العريض المشرف على الصحراء، وما بين هذا وذاك من أعراش الياسمين وجماعات النخيل وشجيرات الورد، وأخيراً الكشك العتيد الذي تملّى تحت سقفه بنشوات الحبّ والصدقة. وذكر المثل الإنجليزّي الذي يقول «لا تضع كلّ بيضك في سلّة واحدة» وابتسم ابتسامة حزينة، فإنّه وإن حفظه منذ عهد بعيد إلا أنّه لم ينتفع به فوضع عن سهو أو حماقة أو قضاء وقدر كلّ قلبه في هذا البيت، بعضه للحبّ وبعضه للصدقة، وقد ضاع الحبّ وما هو الصديق يحزم أمتعته استعداداً للرحيل، ومن الغد سيلقى نفسه بلا حبيب ولا صديق، كيف يمكن أن يتعزّى عن هذا المنظر؟ قد انطبع في صدره وعلق قلبه وبات ذا ألفة وحنين، القصر والحديقة والصحراء، جملة وتفصيلاً، كانطباع أسماء عايذة وحسين شدّاد في حافظته، فكيف ينقطع عنه أو يقنع برؤيته من بعيد كسائر المازّة؟ هو الذي لشدة ولعه بالبيت دعا نفسه يوماً مداعباً بالوثنيّ...

وكان حسين شدّاد وإسماعيل لطيف جالسين على كرسيّين متقابلين أمام المنضدة التي وُضع عليها الدورق التقليديّ والأكواب الثلاثة، وكانا كعادتهما في الصيف يرتديان قميصاً مفتوح الطوق وبنطلوناً من الفانلة البيضاء، فطالعا بوجهيهما المتناقضين: حسين بوجهه الجميل الرضيء، وإسماعيل بوجهه الحادّ القسما

ونظراته التهجّمية، فأقبل عليهما ببذلته البيضاء ممسكاً بطربوشه الذي تدلّ دلّ زره، وتصافحوا، ثمّ جلس جاعلاً ظهره إلى البيت، البيت الذي ولّاه - من قبل - ظهره! وسرعان ما قال إسماعيل مخاطباً كمال، وهو يضحك ضحكة ذات معنى:

- يتعيّن علينا من الآن أن نبحث عن مكان جديد نتقابل فيه...

ابتسم كمال ابتسامة باهتة. ما أسعد إسماعيل بسخريته التي لم تعرف الألم، وهو وفؤاد الحمزاوي اللذان بقيا له، صديقان يؤنان القلب ولا يمازجان، يهرع إليهما هرباً من الوحشة، ولا حيلة إلّا أن يرضى بما قسم له.

- سنلتقي في المقاهي أو الطرقات ما دام حسين قد قرّر هجرنا...

هزّ حسين رأسه في أسف، أسف الفائز بأمنية عزيزة وهو يجمّل بإعلان حزنه على فراق يهون، ثمّ قال:

- سأغادر مصر وفي قلبي حسرة على فراقكها، الصداقة عاطفة مقدّسة، إنّي أقدرها من أعماق قلبي، والصديق هو القرين الذي يعكس نفسك فيكون صدى لعواطفك وأفكارك، لا يهّم أن نختلف في كثير ما دام الجوهر متشابهاً، لن أنسى هذه الصداقة أبداً، وستصل الرسائل ما بيننا حتّى نعود إلى اللقاء مرّة أخرى...

كلام جميل هو العزاء للقلب المكلم المهجور. ألم يكن ما أصابه على يد أخته كافياً؟ هكذا تركني وحيداً بلا صديق حقيقيّ، وغداً يُقتل المهجور ظلماً إلى الألفة الروحية الساخرة. تساءل في كآبة:

- متى نعود إلى اللقاء مرّة أخرى؟ لم أنس بعد تطلّعك الحارّ إلى السياحة الدائمة، فمن يضمن لي إلّا يكون ذهابك إلى الأبد؟

فأمن إسماعيل على قوله قائلاً:

- قلبي يحدّثني بأنّ العصفور لن يعود إلى القفص...

ضحك حسين ضحكة قصيرة، غير أنّها وشت

بسروره، ثمّ قال:

- لم أظفر بموافقة أبي على سفري حتّى وعدته بمواصلة دراستي القانونية، ولكيّ لا أدري إلى أيّ مدى سيمكّني المحافظة على وعدي؟ لا استلطف بيني وبين القانون، أكثر من هذا يخيّل إليّ أنّي لن أصبر على الدراسة النظامية، لا أريد إلّا ما أحبّه، وقلبي موزّع بين معارف شتّى لا تجمعها كلّية واحدة كما قلت مراراً وتكراراً، أريد أن ألتقى محاضرات في فلسفة الفنّ، وأخرى في الشعر والقصص، وأن أرتاد المتاحف ومعازف الموسيقى، وأن أعشق وألهو، فأنيّ كلّية تحوي هذه الألوان جميعاً؟! وثمة حقيقة أخرى تعرفانها وهي أنّي أفضل أن أسمع على أن أقرأ، أريد أن يشرح غيري لأستمع أنا، ثمّ أنطلق بحواسّ مجلّوة وعقل مضيء إلى سفوح الجبال وشواطئ البحور والمشارب والمقاهي والمراقص، وسوف تصلكم تباعاً تقاريري عن هذه التجارب الفدّة!

كأنّه يصف الجنة التي نبذ هو الإيمان بها! بيد أنّها جنة سلبية تأخذ ولا تعطي، وهو يطمح إلى مثال آخر، أمّا حسين فبهيات أن يجرّ إلى مغناه القديم، إذا ضمّته تلك الحياة الوردية إلى صدرها الرغيد. وكأنّ إسماعيل كان يردّد خواطره حين قال مخاطباً حسين:

- لن تعود إلينا، الدواع يا حسين! حلّمنا واحد على وجه التقريب، دع جانباً فلسفة الفنّ والمتاحف والموسيقى والشعر وسفوح الجبال... إلخ، فنكون شخصاً واحداً! أذكرك للمرّة الأخيرة بأنّك لن تعود إلينا...

وحده كمال بنظرة متسائلة، كأنما تطالبه برأيه فيما قال إسماعيل، فقال:

- بل سأعود كثيراً، ستكون مصر ضمن سياحتي الطويلة لأرى الأهل والأصدقاء (ثمّ موجّها الخطاب إلى كمال) سوف أنتظر سفرك إلى الخارج بجزع أكاد أشعر به من الآن!

من يدري لعلّ كذبه تصدق فيجوب تلك الآفاق، مهما يكن من أمر فقلبه يحدّثه بأنّ حسين سيعود يوماً

وأن هذه الصداقة العميقة لن تضيع هباء. إن قلبه الصدوق يؤمن بهذا كما يؤمن بأن الحب لا تقتل جذوره من القلب والأسفاه! قال برجاء:

- سافر وافعل ما تحب ثم عد إلى مصر لتجعلها مقامك، على أن تخرج منها سائحاً كلما طابت لك السياحة.

فأمن إسماعيل على رأيه:  
- لو أنك ابن حلال حقاً لقبلت هذا الحلّ الوجيه الذي يوفق بين رغبتك ورغبتنا...

قال حسين وهو يطامن رأسه كأنما قد اقتنع:  
- سيتهي بي المطاف إلى هذا الحلّ فيما أعتقد...

كان يصغي إليه وهو يملأ من منظره ناظره، خاصة العينين السوداوين اللتين تشبهان عيني عايدة، ولفتاته الجامعة بين السمو واللطف، وروحه الشفاف الذي يكاد يتمثل أمامه خلقاً يرى ويحس، إذا غاب هذا العزيز فماذا يبقى من نعمة الصداقة وذكرى الحب؟ الصداقة التي تلقّتها على يديه ألفة روحية وسعادة مطمئنة، والحب الذي ألهمه على يد أخته فرحة سماء وعذاب جحيم؟ وعاد حسين يقول وهو يشير إليهما واحداً بعد الآخر:

- عندما أعود إلى مصر ستكون أنت محاسباً في وزارة المالية، وأنت مدرّساً، ولا يبعد أن أجذكما والدين! ما أعجب هذا!

تساءل إسماعيل ضاحكاً:  
- هل تستطيع أن تتخيلنا موظفين؟ تصوّر كمال مدرّساً! (ثم موجّهاً الخطاب إلى كمال) يجب أن تسمع كثيراً قبل أن تواجه التلاميذ، سوف تلقى جيلاً من العفاريات نحن نعدّ بالقياس إليهم من الملائكة، وسوف نحد نفسك وأنت الوفديّ العنيد مضطراً بحكم الوظيفة إلى معاقبة المضرين بأمر الوفد!

أخرجته ملاحظة إسماعيل عن مجرى التفكير الذي كان مسترسلاً فيه، فوجد نفسه يتساءل: كيف يستطيع مواجهة التلاميذ برأسه وأنفه المشهورين؟ وجد امتعاضاً ومرارة، وخيل إليه - قياساً على شواذ المدرسين الذين عرفهم في حياته - أنه سيلتزم القسوة

في معاملته التلاميذ ليحمي شخصيته المهددة! غير أنه تساءل: ترى هل يسعه أن يكون قاسياً على غيره كما يقسو على نفسه؟ قال ارتجلاً:  
- لا أظن أنني سأمتعن مهنة التدريس إلى النهاية...

لاحظ في عيني حسين نظرة حاملة وهو يقول:  
- من التعليم إلى الصحافة على ما أظن، أليس كذلك؟

وجد نفسه يفكر في المستقبل، فعاودته فكرة الكتاب الجامع الذي حلم كثيراً بتأليفه، ولكن ماذا بقي من موضوعه الأول؟ لم يعد الأنبياء أنبياء، ولا الجنة والجحيم، وليس علم الإنسان إلا فصلاً من علم الحيوان، فعليه أن يبحث عن موضوع جديد، قال مرتجلاً أيضاً:

- لو أتمكّن يوماً من إنشاء مجلة للدعاية للفكر الجديد!

فقال إسماعيل لطيف بلهجة الوعظ والإرشاد:  
- بل السياسة هي السلعة الرائجة، خصّص للفكر إذا شئت عاموداً في الصفحة الأخيرة، وفي البلد متسع لكاتب وفديّ هجاء جديد...

فضحك حسين ضحكة عالية، وقال:  
- لا يبدو أن صاحبنا سياسيّ إيجابيّ، حسب أسرته ما قدمت من فدية، أما الفكر فالمجال أمامه واسع فيه... (ثم غاطباً كمال) لديك ما تقوله، لقد كانت ثورتك الإلحادية طفرة مفاجئة لم أتوقعها من قبل...

ما أسعده بهذه الصفة الجديدة التي وجد فيها تحية لثورته وتعلّقاً لغروره، قال وقد تورّد وجهه:  
- ما أجهل أن يكرّس الإنسان حياته للحق والخير والجمال!...

صفر إسماعيل ثلاثاً، لكل قيمة صغيراً، ثم قال متهمكاً:  
- اسمعوا وعوا!

أما حسين فقال جاداً:  
- إنّي مثلك! ولكي نافع بالمعرفة والمتعة!

- فقال كمال بحماس وإخلاص:  
- الأمر أجلّ من هذا، إنّه كفاح في سبيل الحقّ يستهدف خير الإنسانية جميعاً، وبغيره لا يكون للحياة معنى في نظري...  
ضرب إسماعيل كفاً بكفّ - وقد ذكرته هذه الحركة بأبيه - وقال:  
- إذن فالواجب ألا يكون للحياة معنى! كم تعبت وشقيت حتّى تحرّرت من الدين! لم أتعب أنا تعبك، ولكنّ الدين لم يكن شغلي أبداً فهل تعدّني يا ترى فيلسوفاً بالفطرة؟! حسبي أن أعيش الحياة التي لا تحتاج إلى تعريف، غير أنّ هذا الذي أتبعه بالفطرة لا تبلغه أنت إلا بالكفاح المرير، أستغفر الله، بل أنت لم تبلغه بعد فلا زلت - حتّى بعد إلحادك - تؤمن بالحقيقة والخير والجمال وتريد أن تكرّس لها حياتك، أليس هذا ممّا يدعو إليه الدين؟! فكيف تكفر بالأصل وتؤمن بالفرع؟  
لا تبال رفيق المزاح، لكنّ لم يبدو ما يؤمن به من القيم مثاراً للسخرية؟! هبك خُيرت بين عايده وبين الحياة السامية فأنتها تختار؟!... لكنّ عايده تتخايل لعيني دائماً وراء المُثل...  
قال حسين يجيب عن كمال، إذ طال به الصمت:  
- المؤمن يستمدّ حبه لهذه القيم من الدين، أمّا الحرّ فيحبّها لذاتها.  
ربّاه متى أراك مرّة أخرى؟ أمّا إسماعيل فضحك ضحكة وشت بانحراف تفكيره إلى ناحية جديدة، وسأل كمال:  
- خبرني ألا زلت تصلي؟ وهل تنوي أن تصوم رمضان القادم؟  
كان دعائي لها أمتع ما في الصلاة، وليالي هذا القصر أسعد ما في رمضان...  
- لم أعد من المصلّين، ولن أكون من الصائمين...  
- وهل تعلن إفطارك...  
ضحكاً:  
- كلّاً...
- آثرت النفاق!  
فقال ممتعضاً:  
- ليس من ضرورة تدعوني إلى إسلام الذين أحبّهم...  
فتساءل إسماعيل ساخراً:  
- أنظنّ أنّك بهذا القلب تستطيع أن تواجه المجتمع يوماً بما يكرهه!  
كليلة ودمنة؟! بهجة الخاطرة غطّت على الامتعاض، ربّاه هل عبرت على أساس الكتاب الذي لم يتبلور في ذهني بعد؟  
- مخاطبة القراء شيء، ومخاطبة والدين على الفطرة شيء آخر!  
فخاطب إسماعيل حسين وهو يشير إلى كمال قائلاً:  
- إليك فيلسوفاً من أسرة عريقة في الجهل! لن يعوزك أن تجد أصدقاء للهو واللغو، ولكنك لن تحظى لروحك بصديق يحاورها، فازضّ بالصمت أو حاور نفسك كالمجانين. وساد الصمت قليلاً. وكانت الحديقة صامته أيضاً فلا نسمة تهفو، أمّا الورد والقرنفل والبنفسج فبدت وحدها سعيدة بالحرّ، وحسرت الشمس ثوبها المضيء عن الحديقة فلم يبق منه إلّا حاشية في أعلى السور الشرقيّ. أنهى إسماعيل الصمت بأن التفت إلى حسين شذاد، وسأله:  
- ترى هل يتاح لك أن تزور حسن سليم وعايده هانم؟  
يا لله!... خفقة قلب أم القيسامة قامت في صدري؟  
- عندما يستقرّ بي المقام في باريس، سأفكر حتّى في القيام برحلة إلى بروكسل...  
ثمّ وهو يبتسم:  
- تلقّينا خطاباً من عايده الأسبوع الماضي، يبدو أنّها تعاني متاعب الرحم...  
هكذا الألم والحياة توأمان، لست الآن إلّا ألماً خالصاً في ثياب رجل، عايده منداحة البطن سائلة الإفرازات؟! مأساة أم مهزلة الحياة؟! نعمة الحياة الفناء، ليتني أستطيع أن أعرف كنه هذا الألم. قال

إسماعيل لطيف: - نترككم وأنتم على خير حال من الوحدة والائتلاف، فعسى أن تسبقنا أنباء الاستقلال إلى باريس... من المتفق عليه أن يرسلوا إلى مصر إذا جاوزوا طور الطفولة.

هل تراهم يوماً بين تلاميذك؟ تسائل نفسك أين رأيت هذه الأعين فيجيب القلب الخافق أنها مقيمة هنا منذ قديم، وإذا سخر الصغير من رأسك وأنفك فبأي قلب تعاقبه! أنها النسيان... هل أنت خرافة أيضاً؟ عاد حسين يقول:

- شد ما أسهيت في الحديث عن حياتها الجديدة، لم تخف سرورها بها حتى بدا حنينها إلى الأهل مجرد مجاملة... مهادة الأعداء والخونة خيبة أخرى تتجرعها، أي شيء في هذه الدنيا لم ينجب فيه أملك؟ غير أنه ضحك عاليًا، ثم قال:

- بل يشاء هذا الائتلاف أن يفرض على دائرتنا نائباً من الأحرار! وضح ثلاثهم بالضحك. وعند ذاك دبّت في مرمى البصر منهم ضفدعة ما لبثت أن توارت في العشب، وهقت نسمة مؤذنة بتداني المساء، وتخفّف العالم المحلق بهم من زياطه وضوضائه، فأذن المجلس بالختام، وملأه ذلك بالجرع فجعلت عيناه تتقلبان في المكان لتمثلتا من منظره. هنا بدت أول مرة باعثة شعاع الحب، وهنا صدح الصوت الملائكي بـ «يا كمال» وهنا دار حوار العذاب حول الرأس والأنف، وهنا علن المعبود بخضام التجني، وفي تضاعيف هذا الجو ترقد ذكريات عواطف ومشاعر وانفعالات لو مستها يد العبت يوماً لأحيت الصحراء ونضرت وجهها، املاً من هذا كله عينيك وأرخه فإن حوادث كثيرة تبدو وكأنها لم تقع لو لم يقيد بها يوم وشهر وعام، إنما نستعدي الشمس والقمر على خط الزمان المستقيم لندوره لتعود إلينا الذكريات الضائعة، ولكن لا شيء يعود أبداً، فذبّ في الدموع أو تسلّ بالابتسام.

وقف إسماعيل لطيف وهو يقول: - آن لنا أن نذهب... ترك إسماعيل يسبقه إلى عناق صاحبه، ثم جاء دوره فتعانقا طويلاً، طبع على خده قبلة وتلقّى مثلها، فغمت خياشيمه رائحة آل شداد ممثلة في صاحبه،

فراق الأحباب العن... متى تسافر إلى المصيف؟ - في آخر يونيه.

أجاب إسماعيل بارتياح، فعاد حسين يقول: - سنسافر غداً إلى رأس البر حيث أمكث أسبوعاً معهم، ثم أسافر بصحبة أبي إلى الاسكندرية فاستقل الباخرة في ٣٠ يونيه.

وينتهي تاريخ فترة من الزمن، وربما انتهى قلب. حذق حسين إلى كمال ملياً، ثم ضحك قائلاً:



الخيال، الزبيب أقبحها رغم أنف صالح، فيه طعم  
الأنيسون الذي تجزع منه معدتي، فلا تقاطعني...

- معذرة...!

- وهناك البيرة، ولكنّها شراب الحرّ ونحن والحمد  
لله في سبتمبر. وهناك النبيذ، غير أنّ عاقبته لطسة بنت  
كلب...

- إذن... إذن... فهر الويسكي...

- برافوا توسّمت فيك النجاجة من قديم، ولعلّك  
توافقني بعد قليل على أنّ استعدادك للهزل يفوق  
استعدادك للحقيقة والخير والجمال والوطنية والإنسانية  
إلى آخر هذه القائمة من الخزعبلات التي تُتعب بها  
قلبك دون جدوى...

ونادى النادل، فطلب كأسين من الويسكي.

- من الحكمة أن أقنع بكأس واحدة...

- قد تكون هذه هي الحكمة، غير أنّنا لم نجئ هنا  
لطلب الحكمة، وسوف تعلم بنفسك أنّ الجنون الدّ  
من الحكمة، وأنّ الحياة أخطر من الكتب والفكر،  
اذكر هذا اليوم ولا تنس صاحب الفضل عليك...

- لا أحبّ أن أفقد الوعي، أخاف أن...

- كن حكيم نفسك...

- المهمّ عندي أن أجد الشجاعة للسير في الدرب  
إيّاها بلا تردّد، وأن أدخل عند الحاجة...

- اشرب حتّى تشعر بأنك لا تبالي أن تدخل...

- حسن، أرجو ألا أندم على فعلتي فيما بعد...

- تندم؟! طالما دعوتك من قبل فكنت تعتذر  
بالتقوى والدين، ثمّ جاهرت بأنك لم تعد تؤمن  
بالدين، فكثرت عليك الدعوة، فما أعجب إلا  
لرفضك باسم الخلق! لكن يجب أن اعترف بأنك  
اتبعت المنطق أخيراً...

أجل أخيراً. بعد فترة من القلق والحيرة بين أبي  
العلاء والخيام، أو بين التقشف واللذة. وقد نزع به  
طبعه إلى مذهب الأول، فإنّه وإن بشرّ بحياة قاسية إلا  
أنّها وافقت ما نشأ عليه من تقاليد، ولكنّه لم يدر إلا  
ونفسه تهفو إلى الفناء، وكأنّ صوتاً خفياً راح يهمس في  
أذنه: لا دين ولا عابدة ولا أمل، فليكن الموت. عند

زكية لطيفة كأنّها عير غير آدمي، أو نفثات حلم دؤم  
في سماء مليئة بالمسرات والالام، فأفعم بها حناياه حتّى  
ثمل، ولبت صامتاً مليّاً حتّى يملك عواطفه، غير أنّه  
عندما تكلم تهّدج صوته وهو يقول:  
- إلى اللقاء ولو بعد حين...

- ٣٥ -

- لا يوجد أحد إلا الخدم!

- ذلك لأنّ ضوء النهار لم يكد يخفني بعد، والزبائن  
يفدون عادة مع الليل، هل ضايقتك خلوّ المكان؟  
- أبداً. خلوّ المكان عامل مشجّع على البقاء،  
خاصّة وأتّها أوّل مرّة.

- للحنانات هنا ميزات لا تقدّر بثمن، فهي تقوم في  
طريق لا يقتحمه إلا ساعٍ وراء لذة محرّمة، فلن يكتر  
صفوك هنا لائم ولا زاجر. وإذا عثر بك شخص  
تحرّمه كأبيك أو وليّ أمرك، كان هو الأحقّ باللوم  
والأخلق بأن يتجاهلك أو يفرّ من سبيلك إن  
استطاع...

- اسم الشارع وحده فضيحة!

- لكنّه أدعى إلى الطمأنينة من غيره، لو أنّنا ذهبنا  
إلى إحدى حانات شارع الألفي أو عماد الدين أو حتّى  
محمد عليّ، لما أمنا أن يرانا أب أو أخ أو عمّ أو ذو  
مال! ولكنهم لا يجيئون إلى وجه البركة فيما أرجو.  
- منطقتك سليم، غير أنّي لا زلت مضطرباً.

- صبرك، الخطوة الأولى دائماً عسيرة، ولكنّ الخمر  
مفتاح الفرج، لذلك أعدك بأنك ستجد الدنيا عند  
ذهابنا اللف وأعذب ممّا عهدتها قبل ذلك...

- حدّثني عن أنواع الخمر، أيّها الأوفى أن أبدأ  
به؟

- الكونياك عنيف وإذا مُزج بالبيرة فقلّ على شاربه  
السلام، الويسكي مقبول الطعم جيّد الأثر، أمّا  
الزبيب...

- لعلّ الزبيب ألذّها! ألم تسمع صالح وهو يغني  
«وسقاني شراب الزبيب»...

- طالما قلت لك إنّّه لا عيب فيك إلا الإغراق في

ذاك ناداه الخيام بلسان هذا الصديق فلبى محتفظاً بمبادئه السامية رغم هذا، وإن يكن قد وسَّع من معنى الخير حتى وسع مسرات الحياة جميعاً، قائلاً لنفسه: إن الإيمان بالحقيقة والجمال والإنسانية أسمى أنواع الخير، وإنه لذلك كان ابن سينا يختم يوم الفكر بالشراب والحسان، ومهما يكن من أمر فإنه لم يجد سوى هذه الحياة الواعدة منقذاً من الموت...

- إني معك في هذا، ولكني لم اتخلَّ عن مبادئتي...

- أعلم أنك لن تتخلَّى عن أوهامك، طول العشرة

جعلها حقيقة أكثر من الحقيقة نفسها، لا بأس أن نقرأ

بل وأن نكتب ما وجدت قراء، اجعل من الكتابة

وسيلة للشهرة والثروة، ولكن لا تأخذها مأخذ الجد،

كنت متدينًا عنيفًا، وأنت الآن ملحد عنيف، دائماً

عنيف، قلق كأنك مسئول عن البشرية، الحياة أبسط

من هذا كله، مركز في الحكومة يرضي النفس ويهيئ

مستوى لا بأس به من المعيشة، استمتع بلذات الحياة

بقلب متفتح خالٍ من الهموم، استمسك بقدر من

القوة والاعتداء عند اللزوم يضمن لك الكرامة

والفوز، فإذا وافقت هذه الحياة الدين فيها ونعمت،

ولاً فذنبه على جنبه...

الحياة أعمق وأعرض من أن تنحصر في شيء واحد

ولو يكون السعادة نفسها، اللذة ملاذي ولكن ارتقاء

الجمال الصعبة سيظل مطلبتي، عائدة ذهبت فيجب أن

أخلق عائدة أخرى بكل ما ترمز إليه من معاني، أو

فلتذهب الحياة غير مأسوف عليها.

- ألم تشغل فكرك أبداً بما فوق هذه الحياة من

معاني؟

- هؤا شغلت عن ذلك بالحياة نفسها أو بالحري

بحياتي أنا، ليس في بيتنا كافر وليس فيه متدين،

وهكذا أنا!

صديق ضروري مثل وقت الفراغ، شاذ المنظر مثل

منظرك، موصول الذكريات بعائدة فهو في القلب، رائد

هذه الدروب الغشاء، جبار إذا تحدّيته، يُفقد في

المسرات دون الجسد والملمات، ليس فيه للروح

موضوع، غاب وراء البحار صديق الروح والعقل...

فؤاد الحمزاوي ذكي ولكن لا فلسفة له؛ نفعي حتى في تذوق الجمال... ينبغي وراء الأدب بلاغة ينتفع بها في تحبير المرافعات، من لي بوجه حسين وروحه؟ وجاء النادل فوضع على المنضدة كأسين طويلين مضملي الكعب، وفَضَّ سداة قارورة الصودا وصَبَّ في الكأسين فتحول الذهب إلى بلاتين عمّوه باللائق، ورصَّ أطبق السلطة والجبن والزيتون والمرتدلاً، ثم ذهب. ردّد كمال بصره بين كأسه وبين إسمايل، فقال الأخير بأسياً:

- افعل كما أفعل، ابدأ بجرعة كبيرة، صحتك...

غير أنه اكتفى بحسوة وراح يتذوّقها، ثم لبث

يترقّب... ولكن عقله لم يطر كما كان يتوقع فتجرّع

جرعة كبيرة، ثم تناول قطعة من الجبن ليغيّر الطعم

الغريب الذي انتشر في فيه.

- لا تتعجلني!

- العجلة من الشيطان، المهم أن تترك مكانك

وأنت على حال نمّكتك من اقتحام ما تريد...

ما الذي يريد؟ امرأة تمن استرثن تقزّه ونفوره وهو

مفيق فهل يحلّي الشراب مرارة الابتذال. كان يناضل

الغريزة بالدين وعائدة، أما الآن فقد خلا للغريزة

الجوّ. غير أن حافزاً آخر للمغامرة هو أن يكتشف المرأة

ذلك المخلوق الغامض الذي تنطوي عايدة نفسها تحت

جنسه ولو كره. لعلّ في ذلك عزاء عن السهاد

والدموع المطوي سرّها في جوف الليل المكتوم،

وتكفيراً عن العذاب الدامي الذي لا أمل في التداوي

منه إلا باليأس والذهول. الآن يستطيع أن يقول إنه

خرج من زنزانة الاستسلام ليخطو الخطوة الأولى في

طريق الخلاص وإن يكن طريقاً خموراً مخفوقاً

بالشهوات والمكاه. وتجرع جرعة أخرى وانتظر، ثم

ابتسم... أما باطنه فكان يحتفل بمولد إحساس جديد

ينفث حرارة وصبوة، فتابعه مستسلماً كما يتابع نعمة

حلوة. وكان إسمايل يراقبه بإمعان، فقال بأسياً:

- أين حسين ليشهد بنفسه هذا المنظر؟

أين حسين أين؟

- سوف أكتب له عنه بنفسي، هل رددت على

رسائله الأخيرة؟

- نعم، رددت برسالة موجزة كرسالته...

له وحده أسهب وأفاض حتى سجل كل خاطرة، يا للسعادة التي خُص بها وحده، ولكن لا ينبغي أن ييوس بسرّ رسالته أن يثير غيرة مدرّبه...

- كانت رسالته إليّ موجزة أيضًا فيما عدا الحديث الذي تعرفه ولا تحبه!

- الفكر! (ثمّ وهو يضحك)... ما حاجته إلى هذا هو الذي سيرث ثروة تملأ المحيط، ما سرّ ولعه بهذه الخزعيلات؟ التكلف أم الغرور أم اللثام معاً؟

جاء دور حسين ليُمدّ تحت المطرقة، ترى ماذا تقول عني في غيابي؟!

- لا تناقض بين الفكر والغنى كما تظنّ، لقد ازدهر الفكر في اليونان القديمة بفضل بعض السادة الذين لم يشغلهم طلب الرزق عن التفرّغ للعلم...

- صحتك يا أرسطو...

أفرغ بقية كأسه وترقب. ثمّ تساءل هل مرّت به حال كهذه من قبل؟ نافث الحرارة الوجدانية ينطلق في الدورة الدموية، يحرف في طريقه الفجوة التي تتجمع بها نقايات الأكدار، قمقم النفس يتفكك لحام أحزانه فتطير منه عصافير المسرات مترنمة، وهذا صدى نغمة مطربة، وهذه ذكرى أمل واعد، وذاك طيف بهجة عابرة، الخمر لعاب كلّ السعادة.

- ما رأيك في كأسين آخرين؟

- عمرك أطول من عمري...

ضحك إسماعيل ضحكة عالية وهو يوميّ إلى النادل بإصبعه، ثمّ قال بارتياح:

- أنت سريع الاعتراف بالجميل...

- هذا من فضل ربّي...

وجاء النادل بالكاسين والمزّة. وأخذ الزبائن يفدون مطربشين ومقبّعين ومعتمّين، فيستقبلهم النادل بمسح وجوه المناضد بالمناشف إذ كان الليل قد أقبل وأضيئت المصابيح فتألقت المرايا اللتصقة بالجدران مصوّراً على أسطحها قوارير الديوارس والجون ووكر، وترامت من الخارج ضحكات مللعة كالآذان غير أنّها تدعو

للفجور، وصوّت نحو منضدة الصديقين المراهقين نظرات إنكار متسامح باسم، ثمّ ورد من الطريق بائع جبري صعيديّ فبائعة فول ذات ثنتين ذهبيتين، وماسح أحذية، وصبيّ كباجي هو في الوقت ذاته قواد كما دلّ ترحيب الجلوس به، وقارئ كفّ هنديّ، ثمّ لا تسمع هنا وهناك إلّا «صحتك» وها ها، وفي مرآة تلي رأس كمال مباشرة نظر فرأى وجهه مورّداً ويصره لامعاً باسمًا، وفيها وراء صورته عكست المرأة منظر رجل عجوز وهو يرفع كأسه إلى فيه ثمّ يتمضمض بحركة أرنيّة ويزدرد الشراب، ثمّ يقول لجليسه بصوت مسموع «المضمضة بالويسكي سنّة عن جدّ لي مات وهو يسكر» فحوّل كمال وجهه عن المرأة، وقال لإسماعيل:

- نحن أسرة محافظة جدّاً، أنا أوّل ذائق للخمر فيها...

فهزّ إسماعيل منكبيه هازئاً، ثمّ قال:

- كيف تحكم على ما ليس لك به علم؟ هل شاهدت شباب والدك؟ أمّا أبي فيتناول كأساً مع الغداء وأخرى مع العشاء، وقد أمسك عن الشراب في الخارج، أو لهذا ما يدّعيه أمام والدتي...  
لعاب إله السعادة يتسرّب إلى مملكة الروح، ولهذا الانقلاب الغريب الذي حدث في لحظات لا تقدر البشرية على إدراكه في أجيال وأجيال، وهو في جملته يوجد بمعنى باهر جديد للكلمة «السحر»، وأعجب شيء أنّه لم يكن جديداً كلّ الجدّة فلعلّه طاف بالروح مرّة ولكن متى وكيف وأين؟ إنّهُ موسيقى باطنية تعزفها الروح وما الموسيقى المعهودة بالقياس إليها إلّا كقشور التفّاح بالقياس إلى لبابه، ترى ما سرّ السائل الذهبيّ الذي صنع هذه المعجزة في لحظات معدودات؟ لعلّه طهر مجرى الحياة من الزبد والرواسب فانطلقت وثبة الحياة المكبوتة كما انطلقت أوّل مرّة حرّة مطلقة ونشوة خالصة، فهذا هو الشعور الطبيعيّ بوثبة الحياة إذا تحرّرت من ربة الجسد وأغلال المجتمع وذكريات التاريخ ومخاوف المستقبل، موسيقى رائقة نقيّة تقطر طرباً وتصدر عن طرب، مثلها طاف بروحي من قبل

ولكن متى وكيف وأين؟ آه... يا للذكرى... إنها  
الحب! يوم نادت «يا كمال» أسكرتك وأنت لا تدري  
ما السكر فقرّ بأنك سكير قديم، وأنت عربرت دهرًا  
في طريق الهوى المخمور المعبد بالأزهار والرياحين،  
كان ذلك قبل أن يتحوّل قطر الندى الشفاف إلى  
وحل، فالخمر روح الحب إذا انجابت عنه بطانة  
الآلام، فحبّ نسكر أو اسكر تحبّ...

- الحياة جميلة مهما قلت وأعدت...  
- ها ها، أنت الذي تقول وتعيد...

طبع المقاتل على خدّ غريمه قبلة صافية فحلّ السلام  
على الأرض، وغرّد البلبيل فوق غصن ريان، فطرب  
العاشقون في أربعة أركان العمورة، وطار طائر  
الأشواق من القاهرة إلى بروكسل مارًا بباريس فاستقبل  
بالحنان والأناشيد، وغمس الحكيم شباة قلمه في مداد  
قلبه فسجّل وحيا منزلا، ثم أوى المجرّب إلى  
شيوخه فالتّمّت به ذكرى دامعة بعثت في صدره ريحا  
مكتّبا، أما أسلاك الشعر الأسود المسدل على الجبين  
فكعبة يتّجه إليها الثملون في حانات الوجد.

- كتاب وكأس وحساء وارمني في البحرا

- ها ها، سيفسد الكتاب الكأس والحساء  
والبحر.

- لسنّا متفقين في فهم معنى اللذة، تراها أنت لهوا  
وعبثا وهي عندي الجدّ كلّ الجدّ، هذه النشوة الأسرة  
هي سرّ الحياة وغايتها العليا، وما الخمر إلّا بشيرها  
والمثال المحسوس المتاح لها، وكما كانت الهدأة مقدّمة  
لاختراع الطائرات، والسلمة تمهيدا لاختراع  
الغواصة، فالخمر ينبغي أن تكون رائد السعادة  
البشرية، والمسألة تتلخّص في هذه الكلمة: كيف  
نجعل من الحياة نشوة دائمة كنشوة الخمر دون  
الالتجاء إلى الخمر؟ لن نجد الجواب في النضال  
والتعمير والقتال والسعي، فكلّ أولئك وسائل وليست  
بغايات، السعادة لن تتحقّق حتّى نفرغ من استغلال  
الوسائل كلّها لتتمكّن من أن نحيا حياة عقلية وروحية  
خالصة لا يكدّرها مكدر، هذه هي السعادة التي  
أعطينا الخمر مثالها، كلّ عمل وسيلة إليها أمّا هي

فليست وسيلة لشيء...

- الله يجرب بيتك...

- لمه؟!

- كان أمني أن أجذك في نشوتك محدثا طريقا  
لطيفا، ولكنتك كالمريض يزيد مرضه الخمر استفحالاً،  
فيم تتحدّث يا ترى إذا شربت الكأس الثالثة؟

- لن أشرب أكثر ممّا شربت، إنّي الآن سعيد وفي  
وسعي أن أدعو آية امرأة تعجّبي...

- هلا انتظرت قليلا؟

- ولا دقيقة واحدة...

سار متأبطا ذراع صاحبه غير هيّاب ولا متردّد،  
يتنظّمه تيار من البشر يتلاطم مع تيار آخر قادم من  
الوجهة المضادة، في طريق ملتو ضيق برّواده. كانت  
الرؤوس تدور إلى اليمين تارة وإلى اليسار أخرى،  
وعلى الجانبين بدت مضيقات الطريق قائمات وقاعدات  
يقلّبن في وجوههنّ المفتحات بالزواق الفاقع أعين  
الترحيب والإغراء، ولا تمض آونة حتّى يبرق أحدهم  
من التيار إلى إحداهنّ فتتبعه إلى الداخل وقد مسحت  
عن عينيها نظرة الإغراء لتحلّ محلّها نظرة الجدّ  
والعمل. وكانت المصابيح المركّبة فوق أبواب البيوت  
والمقاهي تضيء الطريق بأنوار ساطعة انعقدت في  
أعاليها سحب الدخان المتطاير من بخور المجامر وتبغ  
الجوز والنارجيلات، أمّا الأصوات فقد تلاقت  
واختلطت في دوامة صاخبة دارت بها الضحكات  
والهتافات وصرير الأبواب والنوافذ وعزف البيانو  
ومزيكة اليد وتصفيق الأيدي الراقصة وزعيق الشرطي  
والشخير والنخير وسعال الحشّاشين وصراخ السكّاري  
واستغاثات مجهولة وقرع عصي وغناء فرديّ وجماعيّ،  
وفوق الجميع لاحت السماء قريية من أسطح البيوت  
البالية ترنو إلى الأرض بأعين لا تطرف. كلّ حسناء  
هنا في متناول اليد، تجود بحسنها وأسرارها نظير عشرة  
قروش لا غير، فمن كان يصدّق هذا قبل أن يراه؟  
وخاطب إسماعيل قائلاً:

- هارون الرشيد يخطر في بهو الحريم...

فتساءل إسماعيل ضاحكاً:

ذلك جأذاً بل أقرب إلى العبوس والصرامة حتى تساءل  
ساخرًا عما تبيته له، ثم واجهته وراحت تقيسه بعينيها  
طولاً وعرضاً، ولمّا مرّتا برأسه وأنفه داخلاً قلق، غير  
أنّه أراد أن يتغلّب على قلقه فاقترب منها فالتحّا ذراعيه،  
ولكنّها استنظرت به حركة جافّة من يدها وهي تقول  
«انتظر» فتسمّر في مكانه. بيد أنّه كان مصمّماً على  
تدليل العراقيّ، فقال باسمًا فيها يشبه السداجة:

- أنا اسمي كمال...

فمدجته بنظرة داهشة وهي تقول:

- تشرّفنا!...

- ناديني! قولي لي «يا كمال»!

فقلت وما تزداد إلا دهشة:

- لماذا أناذك وأنت أمامي كالرزية؟!

أعوذ بالله! ترى أتمازحه؟ وازداد تصميماً على إنقاذ  
الموقف، فقال:

- قلت لي انتظر، ماذا أنتظر؟

- في هذا لك حق...

قالت ذلك، ثمّ نزعت ثوبها بحركة بهلوانيّة ووثبت  
إلى الفراش ففرقع تحت ثقلها، واستلقت على ظهرها  
وراحت ترتّب بطنها بأناملها المهضبة بالحناء. اتّسعت  
عيناه إنكاراً، لم يكن يتوقّع هذه المفاجأة البهلوانيّة،  
وشعر بأنّ كلّاً منها في وادٍ، وما أبعد المدى بين وادي  
اللذة ووادي العمل... انهدم في لحظة ما أقامه الخيال  
في أيام، وجرت مرارة الامتعاض في ريقه، غير أنّ  
الرغبة في الاكتشاف لم تفتر فغالب انزعاجه ثمّ حرّك  
ناظريه صوب الجسد العاري حتى استقرّ على هدف  
وبدا حيناً كأنّه لا يصدّق عينيه، وأحدّ بصره في انزعاج  
وتقرّر حتى شعر في النهاية بما يشبه الرعب. ألهذه هي  
الحقيقة أم أنّه أساء اختيار المثال؟ ولكنّ مهما يكن من  
سوء اختياره فهل يغيّر هذا من الجوهر؟! ونزعم أنّنا  
نحبّ الحقيقة! شدّ ما ظلموا رأسك وأنفك! وحذّثه  
نفسه بالهرب، وأوشك أن يصغي إليها، ولكنّه تساءل  
فجأة لماذا لم يهرب الرجل الذي سبقه؟ وماذا يقول  
لإسماعيل إذا عاد إليه؟ كلّاً لن يهرب، لن يتراجع أمام  
المحنة...

- ألم تعجبك جارية يا أمير المؤمنين؟

فاشار كمال إلى بيت، وقال:

- كانت تقف عند هذا الباب الخالي، ترى أين  
ذهبت؟

- مع زبون في الداخل يا أمير المؤمنين، فليتنظر  
مولانا حتى يقضي أحد رعاياه وطره...

- وأنت ألم تجد ضالّتك؟...

- لآني قديم عهد بالطريق وأهله، ولكنّي لن أمضي  
إلى وجهتي حتى أسلمك إلى صاحبك، ماذا أعجبك  
فيها؟! يوجد أجهل منها كثيرات...

سمراء لم يطمس الزواق سمرتها، وفي حنجرتها وتر  
يذكّر من بعيد بتلك الموسيقى الخالدة، وقد تجد العين  
نوعاً من الشبه بين بشرة المختق وأديم السساء  
الصفافية:

- أتعرفها؟!

- تدعى هنا وردة، واسمها الحقيقيّ عيوشة.

عيوشة - وردة! لو يستطيع الإنسان أن يغيّر ماهيّة  
كما يغيّر اسمه! في عايده نفسها شيء يشبه مركّب  
عيوشة - وردة، وفي الدين، وفي عبد الحميد بك  
شدّاد، وفي الأمال العريضة، أوّاه! لكنّ الخمر  
ترفعك إلى عرش الألهة فترى هذه المتناقضات غارقة في  
أمواج الفكاهة المقهقهة، مستحقّة للعطف، وشعر  
بكوع لإسماعيل ينهز في جنبه وهو يقول (دورك)، فنظر  
صوب الباب فرأى رجلاً يغادر البيت متعجّلاً، وإذا  
بالمرأة تعود إلى موقفها كما رآها أوّل مرّة، فاتّجه نحوها  
بقدمين ثابتتين فتلقّته بابتسامة، ثمّ مضى إلى الداخل  
وهي في أثره تغني «ارخي الستارة الي في ريمنا»...  
ووجد سلماً ضيقاً فرقي فيه وقلبه يخفق حتى انتهى إلى  
دهليز يفضي إلى صالة، وصوتها يلاحقه قائلًا من حين  
لآخر «مينك»، «سالك»، «هذا الباب الموارب»...  
حجرة صغيرة مورقة الجدران، مكوّنة من فراش  
وتسريحة ومشجب وكرسّي خشب وطست وإبريق...  
ووقف في وسط الحجرة كالمرتّب وعيناه تراقبانهما.  
ومضت هي تغلق الباب والنافذة التي كان يترامى منها  
صوت دفّ وصفارة وتصفيق، ولاح وجهها في أثناء

- ما لك واقفًا كالتمثال؟  
هذه النبرة التي هزّت الفؤاد، لم تكذب الأذن  
ولكنّ الجهل كذاب، سوف تضحك كثيرًا من نفسك  
ولكن وأنت ظافر لا هارب، هب الحياة مأساة فعليك  
أن تلعب دورك.  
- أتقف هكذا حتى الفجر؟  
قال بهدوء غريب:  
- تطفئ النور...  
فهبّت جالسة في الفراش وهي تقول بجفاء وحذر:  
- بشرط أن أراك في النور!  
تساءل في إنكار:  
- له؟  
- حتى أطمئن إلى صحتك!  
وتجرّد للاختبار الصبحي في منظر بدا له آية في  
الهزل، ثم ساد ظلام دامس.  
وعندما عاد إلى الطريق كان يحمل بين جنبيه قلبًا  
فاترًا مليئًا بالحزن، وخيل إليه أنه وسائر البشر يعانون  
تدهورًا مؤلّمًا وأن الخلاص منه بعيد. ورأى إسماعيل  
مقبلًا نحوه راضيًا ساخرًا متعبًا وهو يتساءل:  
- كيف حال الفلسفة؟  
فتأبط ذراعًا وسار به يسأله بدوره جادًا:  
- هل النساء جميعًا متشابهات؟  
فألقي عليه الشاب نظرة متسائلة، فأفصح له كمال  
عن شكوكه ومخاوفه في عبارة موجزة، فقال إسماعيل  
باسمًا:  
- على العموم الأصل واحد وإن اختلفت  
الأعراض! إنك مضحك لدرجة تستحقّ الرثاء، هل  
أستنتج من حالك أنك لن تعود إلى هنا مرة أخرى؟  
- بل سأعود أكثر مما تظنّ، دعنا نشرب كأسًا  
أخرى...  
ثم وكأنه يحدث نفسه:  
- الجمال... الجمال!... ما هو الجمال؟

الأبد. أيجعل من الإعراض عن هذه الحقيقة مذهبه؟  
سار متفكرًا في طريق الحانة يكاد لا يلقي بالاً إلى ثرثرة  
إسماعيل. إذا كانت الحقيقة قاسية فالكذب دميم،  
ليست الحقيقة قاسية ولكنّ الانفلات من الجهل مؤلم  
كالولادة، اجبر وراء الحقيقة حتى تنقطع منك  
الأنفاس. ارضَ بالألم حتى تخلق نفسك من جديد،  
هذه المعاني تحتاج إلى عمر لاستيعابها. عمر من التعب  
تتخلّله سويغات من الخمر...

### - ٣٦ -

أما هذا المساء فقد جاء كمال الدرب وحده، جاء  
ثملاً يترنم بصوت هامس، غير هيّاب وهو يشقّ بين  
تيار البشر الصاحب سبيلاً، ووجد باب وردة خاليًا  
ولكنّه لم يتردد كما فعل أول عهده بالدرب، وإنما قصد  
البيت ودخل دون استئذان فارتقى السلم حتى انتهى  
إلى الدهليز، وهناك مدّ بصره إلى الباب المغلق الذي  
بدا ضوء في ثقب مفتاحه، ثم مال إلى حجرة انتظار  
فألغاهما لحسن الحظّ خالية وجلس على مقعد خشبيّ  
مأدًا ساقيه في ارتياح. وبعد مرور دقائق سمع صرير  
الباب وهو يفتح فتوتّب للقيام، وغادر الرجل الآخر  
الحجرة كما نمت عليه أقدامه متّجهاً نحو السلم،  
فترتّب لحظات ثم نهض وذهب إلى الدهليز، فرأى  
وردة خلال باب حجرتها المفتوح وهي تعيد ترتيب  
الفراش، فلما لمحته ابتسمت وهتفت به أن يعود إلى  
مجلسه دقيقة واحدة، فعاد من حيث أتى وهو يتسم في  
ثقة، ثقة الزبون الذي جاز فترة الحضانة. ولم تكد تمرّ  
دقيقة على جلوسه حتى ترامى إليه وقع أقدام صاعدة  
فاستقبلها بضيق، لأنّه يكره البقاء مع غيره من  
المتظرين غير أنّ القادم اتّجه نحو حجرة وردة، وما  
لبث كمال أن سمع المرأة وهي تحاطب القادم قائلة  
برقة:

- عندي زبون فاذهب إلى الحجرة وانتظر...  
ثم رفعت صوتها منادية إياه وهي تقول «تفضّل»،  
فقام كمال وغادر الحجرة دون تردد فالتقى بالقادم في  
الدهليز، وجد نفسه وجهاً لوجه مع ياسين! التقت

تأقت نفسه في هذه اللحظة إلى التطهّر والانزعال  
والتأمل، وحنّ إلى ذكرى الحياة التي عاشها معذبًا في  
ظلّ المعبودة، ثم بدا وكأنّه آمن بقسوة الحقيقة إلى

عينها في نظرة ذاهلة، وسرعان ما غَضَّ كمال جفنيه وهو يذوب خجلاً وارتباكاً واضطراباً، وأوشك أن يندفع هارباً لولا أن عاجله ياسين بضحكة عالية رثت في سقف الدهليز رنيناً عجيباً، فرغ الشاب إليه عينيه فرآه فاتحاً ذراعيه وهو يهتف في سرور:

- يا ألف ليلة بيضا! ... يا ألف نهار سلطاني! \* أبيض! نحن أصدقاء من قديم الزمان، أنا أول من عد...

- الله الله! ... هل أنتظر حتى مطلع الفجر! دفع ياسين كمال وهو يقول:

- ادخل معها وسوف أنتظر أنا... ولكن كمال تقهقر وهو يهز رأسه بالرفض القاطع، ثم تكلم لأول مرة قائلاً:

- كلاً... ليس... ليس الليلة. ودسَّ يده في جيبه فأخرج نصف ريال ثم أعطاه المرأة. فهتف ياسين بإعجاب:

- تحيا الشهامة! لكنني لن أتركك وحدك... وربت كتف وردة مودعاً، ثم تأبط ذراع كمال وذهبا معاً حتى غادرا البيت، قال ياسين:

- يجب أن نحتفل بهذه الليلة، فلنمض بعض الوقت في بار، إني عادة أشرب في شارع محمد علي مع نفر من الموظفين وغيرهم، ولكن المكان غير مناسب لك فضلاً عن بعده، فلنختر مكاناً قريباً حتى نتمكن من العودة مبكرين، بت حريصاً مثلك على العودة المبكرة منذ زواجي الأخير، أين سكرت يا بطل؟ ... غمغم كمال في حياء:

- فنش... - فقال ياسين ضاحكاً:

- بل أخي ابن أبي وأ... كلاً ابن أبي فقط، رأيت أنك معشوقة الأسرة يا بنت اللذين؟ فتمتمت قائلة «عفارم»، ثم خاطبت كمال قائلة:

- واجب الأدب يقضي بأن تنزل لأخيك الأكبر عن دورك يا نونو... فضحك ياسين ضحكته الكبيرة، وقال:

- واجب الأدب! مندا الذي علمك آداب الوصل؟ تصوّري أخاً ينتظر أخاه على الباب! ... ها... ها... فرمقته بنظرة تحذير وهي تقول:

- اضحك بصوتك المخيف حتى تسمع البوليس يا سكير، ولكنك تعذر ما دام أخوك النونو لا يبحثني إلا مترنحاً

حدج ياسين كمال بنظرة دهش وإكبار، ثم قال:

- أعرفت هذا أيضاً! رباه حقاً إننا أولاد حلال، أولاد حلال بالمعنى، قرب فاك لأسمه! ولكن لا فائدة

العلاقة بين ياسين وكمال لم تفسر بعد هجرة ياسين للبيت القديم، ولم يكن بينهما كلفة، إذ كان من طبع ياسين ألا يعنى بحقوقه التي تكفلها له مكانته في

سريع صاحب المقل، تارة بالعين وتارة بالإشارة، هه؟ هذه الأمور لا تخفى على الخبير يا عكروت، ولكن لا شك أنك قنعت بالعبث السطحي حتى لا تجد نفسك مضطراً إلى مصاهرة عمّ أبو سريع، كما صاهرت حماي السابقة بيومي الشريتلي، هه؟ وما هو قد أصبح من ذوي الأملاك وجاركم الملاصق! ترى أين اختفت مريم؟ لا أحد يعلم عنها شيئاً، كان أبوها رجلاً طيباً، ألا تذكر السيّد محمد رضوان؟ فانظر ما آل إليه بيته! لكنّها الأخلاق لا تستهين بها امرأة إلا هانت!

فما تمالك كمال أن ضحك متسائلاً:

- والرجل ألا يلحقه من استهانتته شيء؟

فضحك ياسين ضحكته الكبيرة، وقال:

- الرجل غير المرأة يا طويل اللسان، خبرني كيف حال والدتك؟ الست الطيبة، ألا زالت حانقة عليّ حتى بعد طلاق مريم؟

- لا أظنّها تذكر شيئاً من الأمر كلّ، قلب أبيض كما تعلم...

فأمن على قوله، ثم هزّ رأسه كالأسف. وجاء النادل بالشراب والمزّة وسرعان ما رفع ياسين كأسه وهو يقول: «صحّة آل أحمد»، فرفع كمال كأسه ثم شرب نصفها على أمل أن يستردّ ما ذهب من مرحه، وقال ياسين بضم مملوء بالخبز الأسود والجبن:

- كان يخيّل إليّ أنك ستكون أقرب إلى خلق والدتك، كما كان المرحوم، فتنبأت لك بالاستقامة، ولكنك، ولكنك...

وحدجه كمال بنظرة متسائلة، فعاد يقول بأسماً:

- لكننا خلّقنا على مثال أبينا...

- أبينا! إنّه الجذّ الذي لا تطاق معه الحياة!

فقهقه ياسين عاليّاً، وترثّ قليلاً، ثم قال:

- إنك لا تعرف أباك، وقد كنت أجهله مثلك، ثم

تكشّف لي عن رجل آخر قلّ أن يجود الزمان بمثله.

وتوقّف عن الكلام، فقال كمال بحبّ استطلاع

واهتمام:

- ماذا عرفت ممّا لم أعرف...؟

- عرفت أنّه قطب اللطافة والطرب، لا تحمق في

الأسرة، إلى أنّ مخالطة كمال له وأطلّعه على سيرته عن كذب واستماعه إلى ما يقال عنه جعلته يؤمن بولع أخيه بالنساء وميله مع الأهواء، ولكنّه رغم هذا كلّه قد بوغت بلفائه في بيت وردة مباغته عنيفة، إذ لم يذهب به الخيال إلى حدّ تصوّر ياسين سكيراً أو متسكّفاً في هذا الدرب! وبعمر الوقت أخذ يتخفّف رويداً رويداً من وقع المفاجأة، كما مضى الشعور بالانزعاج يزايله، ثم حلّ محلّه إحساس بالطمأنينة بل بالارتياح. ولمّا بلغا فنش وجداه مكتنّظاً بالجلوس، فاقترح ياسين أن يجلسا في الخارج، واختار مائدة عند طرف الطوار على ناصية الطريق ليبتعدا ما أمكن عن الناس، ثم جلسا متقابلين وهما يبتسان:

- أشربت كثيراً؟

أجاب كمال بعد تردّد:

- كأسين...

- لا شك أنّ لقاءنا غير المتوقع طيّر أثرهما، فلنجد الكرة، أمّا أنا فلا أشرب إلا قليلاً، سبعة أو ثمانية...

- يا خبر! أيّعدّ هذا قليلاً؟

- لا تدهش كالسدّج فإنك لم تعد ساذجاً...

- على فكرة، قبل شهرين لم أكن أدري شيئاً عن طعمها...

فقال ياسين كالمستنكر:

- شهرين!! يبدو أنّي احترمتك أكثر ممّا تستحق!

وضحكا معاً. ثم طلب ياسين كأسين، وعاد

يتساءل:

- ومتى عرفت وردة؟

- عرفت وردة والويسكي في ليلة واحدة...

- وما خبرتك بالنساء عدا ذلك؟

- لا شيء...

فحنّ ياسين رأسه وهو ينظر إليه من تحت حاجبيه مقطّياً في ابتسام، كأنما يقول له «اطلع من دول»، ثم قال:

- إنّك وادّعاء البلاهة، لم يفتني أن أطلع في زمن

مضى على مناورات كانت تدور بينك وبين بنت أبو



عايدة المعبودة وعايدة الحبلى؟ أنا نفسي ما أنا؟ لماذا تأملت ذلك الألم الوحشي الذي لم أبرأ منه بعد؟ اضحك حتى تنفخ.

- ما عسى أن يقع لو رأنا بمجلسنا هذا؟

فرقع ياسين بأصبعه، ثم قال:

- أعوذ بالله!

- وهل زبيدة جميلة حقاً؟

فصفر ياسين وهو يرعش حاجبيه.

- أليس من الظلم أن يتمتع أبونا بالدسم، على

حين لا نجد نحن إلا الفتات؟

- انتظر حظك، ما زلت في أول الطريق.

- ألم يتغير سلوكك معه بعد وقوفك على سرّه؟

- إلا هذا!

لاحظت نظرة حاملة في عيني كمال وهو يقول:

- ليته أعطانا من لطفه نصيباً!

- ليته . . .

- ما كان أمرنا ليفسد أكثر مما فسد!

- حبّ النساء والخمر ليس من الفساد في شيء . . .

- وكيف تفسّر سلوكه على ضوء إيمانه العميق؟

- وهل أنا كافر؟ وهل أنت كافر؟ وهل كان

الخلفاء كفرة؟ الله غفور رحيم! . . .

ما عسى أن يكون جواب أبي؟ شدّ ما أتوق إلى

مناقشته، كلّ شيء محتمل إلا أن يكون منافقاً، كلّ

ليس هو بالمنافق، وما ازداد له إلا حبّاً وغمرته الجرعة

الأخيرة رغبة في الدعابة، فقال:

- من المؤسف أنّه لم يتعلّم فنّ التمثيل!

فضحك ياسين ضحكة عالية، وقال:

- لو علم بما يتهيأ للممثل من حياة حافلة بالنساء

والخمر لكّرّس حياته للفنّ! . . .

أهذا الكلام الهازئ عن السيّد أحمد عبد الجواد

حقّاً! ولكن هل يكون هو أجّل من آدم؟ ومع ذلك

فالمصادفة وحدها هي التي عرّفتك بحقيقة الرجل،

والمصادفة هي التي لعبت في حياتك أخطر الأدوار، لو

لم أصادف ياسين في الدرب لما انقشعت عن عينيّ

غشاوة الجهل، لو لم يجذبني ياسين على جهله إلى

كالمعتوه، ولا تظنّني سكران، والدك عمدة الفكاهة والطرب والعشق!

- أبي؟ . . .

- أول ما عرفته في بيت زبيدة العالمة . . .

- زبيدة ماذا؟ . . . ها . . . ها . . .

ولكنّ وجه ياسين بدا أبعد ما يكون عن الهزل،

فكفّ كمال عن الضحك قبل أن تزايل أساريره هيئة

الضحك، ثم أخذ فمه يضيّق رويداً رويداً حتى

انطبقت شفتاه فحملق في وجه أخيه صامتاً وهذا يحدثه

عماً رأى أو سمع عن أبيهما في تبسّط وإسهاب. هل

يفتري ياسين على أبيه كذباً؟ كيف يمكن أن يقع هذا

وأبيّ بواعث تبرّره؟ كلاً إنّه لا ينطق إلا بما علم،

وهذا إذن هو أبوه، ربّه! والجّد والجلال والوقار ما

أمرها؟ إذا سمعت غداً أنّ الأرض مسطّحة أو أنّ

أصل الإنسان هو آدم فلا تدهش ولا تنزعج، وأخيراً

تساءل:

- أتدري والدتي بذلك؟

ياسين وهو يضحك:

- لا شك أنّها تدري بسكره على الأقلّ . . .

ترى كيف كان أثر ذلك في نفسها هي التي تفزع

من لا شيء؟ أأتكون أمّي - مثلي - ظاهراً من السعادة

وباطناً من الشقاء؟ قال وكأنّه يتنحل أسباباً للدفاع لا

يؤمن بها:

- الناس هواة مبالغة فلا تصدّق جميع ما يزعمون،

ثم إنّ صحّته تدلّ على أنّه رجل معتدل في حياته.

فقال ياسين بإعجاب، وهو يشير إلى النادل أن يعيد

الكرة:

- إنّه أعجوبة! جسمه معجزة، وروحه معجزة،

كلّ شيء فيه معجزة، حتى طول لسانه (ضحك منها

معاً). . . تصوّر أنّه بعد هذا كلّه يحكم آله كما تعلم

ويحافظ على جلاله واحترامه كما ترى! . . ما

أضيعني! . . .

تأمل هذه العجائب: أنت وياسين تشاريان! أبوك

شيخ ماجن! هل ثمة حقيقيّ وغير حقيقيّ؟! ما علاقة

الواقع بما في رؤوسنا؟ ما قيمة التاريخ؟ ما العلاقة بين

القراءة لكنت اليوم في مدرسة الطبّ كما تمقّي أبي، ولو التحقت بالسعيدية ما عرفت عايدة، ولو لم أعرف عايدة لكنت إنساناً غير الإنسان ولكن الكون غير الكون، ثمّ يحلو للبعض أن يعيب على دارون اعتياده على المصادفة في تفسير آلية مذهبه. قال ياسين مستعيراً لهجة الحكيم:

- سوف تعلّمك الأيام ما لم تعلم...

ثمّ وهو يسخر من نفسه:

- ها هي تعلّمني أن أقضي لذاتي مبكراً حتى لا أثير شكوك زوجتي...

وهزّ رأسه وهو ينظر إلى عيني كمال المتسائلتين الباسمتين، ثمّ استطرد:

- إنها أقوى زوجاتي الثلاث، ويخيل إليّ أنّي لن أنخلص منها!

فسأله كمال باهتمام وهو يشير ناحية الدرب:

- ما الذي جاء بك إلى هذا وأنت متزوّج للمرة الثالثة؟

فردّد ياسين الجملة المشهورة من الأغنية التي سمعها كمال أوّل ما سمعها في دخلة عائشة:

- علشان كده... علشان كده... علشان كده...

ثمّ قال مبتسماً في شيء من الارتباك:

- قالت لي زُتوبة مرّة «أنت لم تتزوّج قطّ، كنت

تعتبر الزواج نوعاً من العشق، وقد آن لك أن تنظر

إليه بعين الجدل»، أليس غريباً أن يصدر هذا القول عن

عوادة؟! ولكنّها فيما يبدو أحرص على الحياة الزوجية

من سابقتها، وهي مصمّمة على أن تبقى زوجة لي

حتىّ تغمض عينيّ، لكنّني لا أستطيع أن أقاوم

النسوان، سرعان ما أحبّهنّ وسرعان ما أمْلهنّ، لذلك

عمدت إلى هذه الدروب لأقضي اللبانة مبكراً دون

التورط في عشق طويل، ولولا الملل ما سمعت إلى

امرأة في درب طياب!

فسأله كمال باهتمام متزايد:

- أليست هي امرأة ككلّ النساء؟

- كلاً، إنّها امرأة بلا قلب، الهوى عندها سلعة!

فعاد كمال يسأل وعيناه تلمعان بالأمل:

- ماذا ترى من اختلاف بين امرأة وأخرى؟

هزّ ياسين رأسه في زهو إدلّالاً بالمكانة التي وضعت

فيها أسئلة كمال، ثمّ أجاب بلهجة خيبر:

- درجة المرأة تتقرّر في كادر النساء تبعاً لمزاياها

الأخلاقيّة والعاطفيّة بصرف النظر عن أسرتها

ومركزها، فزُتوبة أفضل عندي من زينب لأنّها أعمق

عاطفة وأشدّ إخلاصاً وحرصاً على الحياة الزوجية،

ولكنّك في النهاية تجهّدين شيئاً راحداً، عاشر الملكة

بلفيس نفسها فلا محيص من أن تجهدها آخر الأمر

منظراً معاداً ونعمة مكرّرة...

خبا اللمعان في عيني كمال، ترى هل أمست عايدة

منظراً معاداً ونعمة مكرّرة؟! ما أبعد هذا التصوّر عن

التصديق! ولكن ما أنت إلّا صريع الواقع، وحتىّ

الشهامة بها تكبر عليك وتعزّز، وإنّه لما يبعث على

الجنون أن يعلم المعبود الذي تذهب النفس حسرة

عليه أنّه كان في وسع الأيام أن تجعل منه منظراً معاداً

ونعمة مكرّرة، بل أيّ الحالين أحبّ إليك إن

استطعت جواباً؟ غير أنّي أتحسّر أحياناً على الملل من

شدّة الشوق كما يتحسّر ياسين على الشوق من شدّة

الملل، وارفع رأسك أخيراً إلى ربّ السماوات وسله عن

حلّ سعيد:

- ألم تحبّ أبداً؟

- إذن ما هذا الذي أنا غارق فيه؟!

- أعني حبّاً حقيقياً لا هذه الشهوة العابرة...؟

أفرغ كأسه الثالثة، ومسح على فمه بظاهر كفّه، ثمّ

قتل شاربه وقال:

- لا تؤاخذي، الحبّ يتركز عندي في بعض مواضع

كالقلم واليد الخ الخ.

ياسين جميل، ما كانت لتسخر من رأسه أو أنفه،

ولكنّه بما قال يبدو حقيقياً بالثناء، كأنّ الإنسان لا

يكون إنساناً إلّا أن يحبّ، ولكن ما جدوى ذلك وما

جنيت من الحبّ إلّا الألم؟! واستطرد ياسين قائلاً،

وهو يميّته بالإشارة على الفراغ من كأسه:

- لا تصدّق ما يقال عن الحبّ في الروايات، الحبّ

وحياً ملائكيًا ولكن لم يعد للملائكة وجود فابحث في ذات الإنسان واسلكه ضمن الحقائق الفلسفية والعلمية التي تتشوق إلى اقتحامها، بذلك تقف على سرّ مأساتك وتكشف النقاب عن سرّ عايدة المكنون، لن تجدها ملائكة ولكن باب السحر سيفتح لك مصراعيه، أما الوحم والحبل والمنظر المعاد وسائر الروائح فما أتعسني!

قال كمال بأسى لم يفتن إليه أخوه:

- الإنسان مخلوق قدر، ألم يكن من الممكن أن يُخلق خيرًا وأنظف ممّا كان؟!

رفع ياسين رأسه دون أن ينظر إلى شيء بالذات، وقال بسرور عجيب:

- الله... الله، النفس شعشت واستحالت أغنية، وانقلبت الأعضاء آلات طرب، والدنيا حلوة، والكائنات حبيبة للقلب، والجو عذب، والحقيقة خيال، والخيال حقيقة، أما المنقصات فأسطورة، الله... الله، ما أجمل الخمر يا كمال، الله يطول عمرها ويدعيها علينا ويعطينا الصحة والعافية لنشربها حتى آخر العمر، ويخرب بيت الذي يمسها بسوء أو يتقول عليها بغير الحق، تأمل هذه النشوة الحلوة، تأمل، أغمض عينيك، هل وجدت لذة كهذه؟... الله... الله... الله، (ثم وهو يخفض رأسه ناظرًا إلى كمال) ... ماذا قلت يا ولدي؟ الإنسان مخلوق قدر؟ أساءك ما قلت عن المرأة؟ لم أتكلّم لأثير اشمسزازك منها، الواقع أنّي أحبها، أحبها بكلّ ما فيها، ولكنّي أردت أن أبرهن لك على أنّ المرأة الملاك لا وجود لها بل لا أدري إن كنت أحبها إن وُجدت! فلنّي مثلاً - كأبيك - أحبّ الأرداف الثقيلة، ولو كان الملاك ذا أرداف ثقيلة لتعذّر عليه الطيران، انهمني جيّدًا ولا تسيّ فهمًا وحياة أينا السيّد أحمد...

وما لبث كمال أن شاركه نشوته، فقال:

- لشدّ ما تبدو الدنيا محبوبة إذا سرّت الخمر في الروح!...

- يسلم فمك، حتّى النغمة المألوفة يترنّم بها شحاذ الطريق تقع من الأذن موقع السحر...

عاطفة أيام أو أسابيع مع حسن الظن!

كفرت بالخلود ولكن هل نسيان الحبّ ممكن؟ لم أعد كما كنت، إنّني أتسلّل من جحيم العذاب فتشغلني الحياة حينًا حتى أرجع إليه، وكان الموت قبلي واليوم ثمة حياة ولو بلا أمل، العجب أنّك تنور على فكرة النسيان كلّما خطرت، كأنما تعاني تبكيت الضمير، أو لعلّك تخاف أن ينكشف أجلّ ما قدّست عن وهم، أو أنّك تأبى على يد العدم أن تعبت بالحياة الرائعة التي بدونها تغدو ومن لم يولد سواء، لكن ألا تذكر لمّ بسطت الراحتين داعيًا الله أن يتشكّل من العذاب وأن يلهمك النسيان؟!

- ولكنّ الحبّ الحقيقي موجود، نقرأ حوادثه في الصحف لا في الروايات...

ابتسم ياسين ابتسامة ساخرة، ثم قال:

- بالرغم من أنّي مبتلى بحبّ النسوان فلنّني لا أعترف بهذا الحبّ، إنّ المآسي التي تقرأ أخبارها تحدث في الواقع عن شبّان غير مجرّبين، أسمعت عن مجنون ليلي؟ لعلّ له نظائر في هذه الحكايات، ولكنّ المجنون لم يتزوّج من ليلي؟ دلّني على شخص واحد جنّ بحبّ زوجته! وأسفاه! إنّ الأزواج عقلاء جدًّا، عقلاء ولو كرهوا، أمّا الزوجة فيبدأ بالزواج جنونها، لأنّها لا تقتنع بأقلّ من أن تزدرد زوجها، ويخيّل لي أنّ المجانين يصيرون عشاقًا لأنهم مجانين لا أنّ العشاق يصيرون مجانين لأنهم عشاق، تراهم يتحدثون عن المرأة كأنّما يتحدثون عن ملك، والمرأة ليست إلّا امرأة، طعام لذيذ سرعان ما تشبع منه، دعهم يشاركونها الفراش ليطلّعوا على منظرها عند الاستيقاظ وليشمّوا رائحة عرقها وسائر الروائح التي قد تصدر عنها وليحدّثوني بعد ذلك عن الملك. فتنة المرأة ما هي إلّا طلاء أو أداة إغراء حتّى تقع في الشرك وعند ذلك يبدو لك المخلوق الآدمي على حقيقته: لذلك فالأبناء ومؤثّر الصداق والنفقة الشرعية هي سرّ قوّة الزواج لا الجمال أو الفتنة...

ما كان أجدره أن يغيّر رأيه لو رأى عابدة، غير أنّه ينبغي أن تفكّر من جديد في أمر الحبّ. كنت تراه

- حتّى أحزاننا تبدو كأنّها أحزان شخص آخر...  
- بخلاف نساء الشخص الآخر، فإنّها تبدو وكأنّها  
نساؤنا...

- هما شيء واحد يا بن أبي...  
- الله... الله، لا أريد أن أفيق...  
- من رذالة الحياة أنّها لا تمكّننا من الاستمرار في  
السكر كما نهوى...

- ليكن في معلومك أنّي لا أرى في السكر لهوًا،  
ولكن غاية سامية كالعرفة والمثل الأعلى...

- إذن فانا فيلسوف كبير!  
- عندما تؤمن بما قلت وليس قبل ذلك...  
- الله يطوّل عمرك يا أبي، فقد أنجبت فلاسفة  
مثلك!

- لم يبدو الإنسان تعيشًا مع أنّه لا يطلب أحسن من  
كأس وما أكثر القوارير، وامرأة وما أكثر النساء!  
- له؟... له؟...  
- ساجييك عندما أشرب كأسًا أخرى...

- كلّ...  
قال ياسين ذلك بصوت وشى بصحوة طارئة، ثمّ  
استطرد عذرًا:

- لا تفرط، إنّ شريكك الليلة فانا مسئول عنك،  
كم الساعة الآن؟...  
وأخرج ساعته فنظر فيها، ثمّ هتف:

- منتصف الواحدة، وقع المحذور يا بطل، كلانا  
قد تأخّر، وراءك أبونا وورائي زنوبة، قم بنا...

ولم تمض دقائق حتّى غادرا البار، فاستقلّا عربية  
انطلقت بهما صوب العتبة، دارت العربية حول سور  
الأزبكية في طريق يسوده الظلام، وبين آونة وأخرى  
يرى عابر مهوولًا أو مترنّحًا، وكلّما مرّت العربية بشارع  
مقاطع ترمى إليهما صوت غناء تحمله نسمة رطبية،  
أما فوق المباني وأشجار الحديقة الباسقة فقد تألّقت  
النجوم اليواظ.

قال ياسين ضاحكًا:  
- أستطيع الليلة أن أحلف غير متحرّج بأنّي لم أت  
منكرًا...

فقال كمال في شيء من القلق:

- أرجو أن أصل البيت قبل أبي...  
- الخوف شرّ أنواع التعاسة، لتحيا الثورة!  
- أجل لتحيا الثورة!  
- لتسقط الزوجة المستبدة!  
- ليسقط الأب المستبد!

- ٣٧ -

طرق كمال الباب في خفّة حتّى فُتح عن شيخ أمّ  
حنفي، ولما عرفته قالت بصوت هامس:

- سيّدي الكبير على السّلم...  
فانتظر وراء الباب حتّى يطمئنّ إلى وصول أبيه إلى  
الدور الأعلى، غير أنّ صوته جاء من داخل السّلم وهو  
يسأل بشدّة:

- من الطارق؟  
فخفق قلبه ولم ير بدءًا من التّقدّم وهو يجيبه:  
- أنا يا بابا...

ترأى له شيخ أبيه على بسطة الدور الأوّل على  
حين لاح ضوء الصباح الذي تمسك به الأمّ في أعلى  
السّلم، ونظر السيّد إليه من فوق الدرابزين، وهو  
يتساءل في دهش:

- كمال؟... ما الذي أثّرَكَ خارج البيت حتّى  
هذه الساعة؟  
أخبرني الذي أثّرَكَ...

قال بلشفاق:  
- ذهبت إلى المسرح لأشهد التمثيلية المقرّرة علينا  
هذا العام...

فصاح ساخطًا:  
- هل أصبحت المذاكرة في المسارح؟ ألا يكفي أن  
تقرأ وتحفظ؟ كلام فارغ سمع، ولمّ لم تستأذني؟  
توقّف كمال على بعد درجات من موقف أبيه، وقال  
معتذرًا:

- لم ألتوقع أن تمتدّ السهرة إلى هذه الساعة المتأخّرة.  
فقال الرجل بغضب:

يواظب هو عليه!

حال الظلام دون رؤية ما ارتسم على وجهها من دهش وإنكار، لَكِنَّه سمعها تضحك من أنفها لتوهمه بأنها لم تحمل قوله على محمل الجد، وقالت:

- كلَّ الرجال يسهرون، وسوف تصير رجلًا عَمَّا قريب، أما الآن! وأنت طالب...

فقاطعها قائلاً بلهجة من يودُّ الفراغ من الحديث:  
- مفهوم... مفهوم، لم أقصد بقولي شيئاً، لماذا تعبت نفسك بالمجيء إليّ؟ عودي مصحوبة بالسلامة...

قالت برقة:

- خفت أن تكون متكذِّراً، سأتركك الآن ولكن عدني بأن تنام صافي النفس، اقرأ الصمدية حتّى يأتنيك النوم...

وشعر بابتعادها، ثمَّ سمع الباب وهو يغلق وصوتها يقول «مساء الخير»، نفخ مرّة أخرى، وراح يمسح صدره وبطنه وهو يحملك في الظلام... أما مذاق الحياة كلّها فكان مرّاً، أين ذهبت نشوة الخمر الساحرة؟ وما هذا الكرب الخائق الذي حلَّ محلّها؟ ما أشبهه بخيبة الحبّ التي ورثت أحلامه السايّية، ومع ذلك فلولا الأب ما انقلب حاله. هذه القوّة الجبّارة التي يخافها كلّ الخوف، يخافها ويحبّها معاً، ما كنهها؟ ليس إلّا رجلاً لولا مرحه الذي خصّ به الغرباء لم يكن شيئاً، فكيف يخافه؟ وحتّى متى يدعن لقوّة هذا الخوف؟ إنّه وهم كسائر الأوهام التي امْتُنحن بها، ولكن ما جدوى المنطق في مقاومة العواطف الثابتة؟ وقد قرعت يده يوماً أبواب عابدين في المظاهرة الكبرى التي تحدّت الملك هاتفة «سعد أو الثورة»، فتراجع الملك واستقال سعد من الوزارة... أما حيال أبيه فإنّه يصير لا شيء. كلُّ شيء تغير مدلوله ومعناه، الله... آدم... الحسين... الحب... عايده نفسها... الخلود. قلت الخلود؟ نعم، فيما يجري على الحبّ وفيما جرى على فهمي، ذلك الأخ الشهيد الذي استضافه الفناء إلى الأبد، أنذكر التجربة التي قمت بها وأنت في الثانية عشرة من عمرك لتعرف

- شُفّ لك طريقة أخرى للمذاكرة ودعك من الأذكار السخيفة...

ومضى يرقى في السلم وهو يدمدم، فترامت إليه كلمات من دمدّمته مثل «مذاكرة المسارح على آخر الزمن»، «الساعة واحدة بعد منتصف الليل»، «حتّى الأطفال»، «ملعون أبوك وأبو التمثيلية المقرّرة». ارتقى السلم حتّى الدور الأخير ومضى إلى الصالة، فتناول مصباحاً مضاء من فوق منضدة ودخل حجرته مكفهرّ الوجه، وضع المصباح على المكتب ووقف مستنذاً بكلتا يديه يتساءل عن تاريخ آخر شتيمة قذفه بها أبوه فلم يتذكّره على وجه التحديد، ولكنّه كان واثقاً من أنّ سنوات دراسته العالية مرّت في سلام وكرامة، ولذلك وقعت اللعنة من نفسه - رغم أنّه لم يواجهها - موقفاً أليماً. وتحول عن مكتبه فخلع طربوشه وشرع في نزع ملابسه، وعلى حين فجأة شعر بدوار في رأسه وجزع في معدته، فغادر الحجرة مسرعاً إلى الحمام حيث قذف جوفه بما فيه في عنف ومرارة، وعاد إلى الحجرة مرّة أخرى منهوك القوى متقرّز النفس يحد في صدره ألماً أشدّ وأعمق، وخلع ملابسه وأطفأ المصباح ثمَّ استلقى على الفراش وهو ينفخ في ضيق وضجر، ولكن لم تمض دقائق حتّى سمع الباب وهو يُفتّح برفق، ثمَّ جاءه صوت أمّه متسائلاً في إشفاق:

- نمت...؟

فقال بلهجة طبيعيّة راضية ليصرفها عنه ويخلو إلى ما هو فيه:

- نعم...

فتداني شبحها من الفراش حتّى وقفت فوق رأسه، ثمَّ قالت كالمعتذرة:

- لا تتكذّر، أنت أعلم الناس بأبيك...

- مفهوم... مفهوم!

فقالت وكأنّها أرادت أن تفصح عمّا ساورها هي:

- إنّه مطلق على جدّك واستقامتك، ومن هنا جاء إنكاره لتأخّرك غير المألوف حتّى هذه الساعة...

فركبه الغيظ حتّى لم يتألّك من أن يقول:

- إذا كان السهر يستوجب كلّ هذا الإنكار، فلماذا

مصيره المجهول؟... يا للذكرى الحزينة!... اقتنصت عصفورة من عشها ثم خنقتها، وكفنتها وحفرت لها قبراً صغيراً في فناء البيت على كتب من البشر القديم ثم دفنتها فيه، وبعد أيام أو أسابيع نبشت القبر وأخرجت الجثة، فإذا رأيت وماذا شممت؟ وذهبت إلى أمك باكياً تسألها عن مصير الميت، كل ميت، ومصير فهمي خاصة فلم يصدك عنها إلا إفحامها في البكاء، فماذا بقي من فهمي بعد سبع سنوات؟ وماذا سيبقى من الحب؟ وعمّ تمخض الأب الجليل؟

ألفت عيناه ظلام الحجرة فترأى المكتب والمشجب والكرسي والصوان أنشباخاً قائمة، ونذت عن الصمت نفسه أصوات مبهمه، وامتلاً رأسه بالأرق المحموم، أما مذاق الحياة فازداد مرارة، وتساءل هل غط ياسين في نومه؟ وعلى أي حال كان لقاء زنوبة له؟ وهل آوى حسين إلى فراشه الباريسي؟ وعلى أي جانب تنام عايدة الآن؟ وهل تكوّر بطنها وانداح؟ وماذا يفعلون في نصف الكرة الآخر الذي تتربّع الشمس في كبد سائه؟... والكواكب المنيرة، أليس ثمة حياة تعمرها خالية من التعاسة؟ وهل يمكن أن يُسمع أنينه الخافت في ذلك الأوركسترا الكوني اللانهائي؟!

أبي! دعني أكاشفك بما في نفسي، لست ساخطاً على ما تكشف لي من شخصك، فإن ما كنت أجهله منك أحب إليّ مما كنت أعرف، إني معجب بلطفك وظرفك ومجونك وعربدتك ومغامراتك، ذلك الجانب الدميث منك الذي يعشقه جميع عارفيه، وهو إن دلّ على شيء فعلى حيوتك وهيامك بالحياة والناس، ولكني أسألك لم ارتضيت أن تطالعلنا بهذا القناع الفظ المخيف؟ لا تعتلّ بأصول التربية فانت أجهل الناس بها، وأي ذلك ما ترى وما لا ترى من سلوك ياسين وسلوكي، فما فعلت إلا أن أذبتنا كثيراً وعذبنا كثيراً بجهل لا يشفع لك فيه حسن نيّتك، لا تجزع فإني ما زلت أحببك وأعجب بك، وسأبقى على الدوام مخلصاً لحبك والإعجاب بك، غير أن نفسي تضمر لك لوماً شديداً يعادل ما جرّعتني من ألم، لم نعرفك صديقاً كما عرفك

الغرباء، ولكن عرفناك حاكماً مستبداً شرساً طاغية، كأنما كنت أول مقصود بالمثل القائل «عدوّ عاقل خير من صديق جاهل»، لذا سأكره الجهل أكثر من أي شيء في الحياة، فهو المفسد لكل شيء حتى الأبوة المقدسة. خير منك أب له نصف جهلك ونصف حبك لابنائك، وإني أعاهد نفسي - إذا صرت يوماً أباً - أن أكون لابنائي الصديق قبل أن أكون المرءي، غير أنني ما زلت أحببك وأعجب بك حتى بعد أن زایلتك صفات الألوهية التي توفّمتها فيما مضى عيناى المسحورتان. أجل لم تعد قوتك إلا أسطورة، فلست مستشاراً كسليم بك ولا غنياً كشّداد بك ولا زعيماً كسعد زغلول ولا داهية كثروت ولا نبيلاً كعدلي. ولكنك صديق محبوب وحسبك هذا، وما هو بالقليل، فليتك لم تضنّ علينا بصداقتك، ولكن لست وحدك الذي تغيّرت فكرته، الله نفسه لم يعد الله الذي عبدته قديماً، إني أغربل صفات ذاته لأنقيها من الجبروت والاستبداد والقهر والدكتاتورية وسائر الغرائز البشرية، ولست أدري أين ينبغي أن أشكم الفكر ولا إن كان من الفضيلة أن أشكمه، بل إن نفسي تحدّثني بأنني لن أقف عند حدّ وبأنّ النضال على عذابه خير من الاستكانة والنوم. قد لا يهّمك هذا بقدر ما يهّمك أن تعلم أنني قرّرت أن أضع حداً لاستبدادك، استبدادك الذي يغشاني كما يغشاني هذا الظلام المحيط، والذي يؤلني كما يؤلني هذا الأرق اللعين، أما الخمر فلن أذوقها جزاء خيانتها لي، وأأسفاه إذا كانت الخمر أيضاً وهماً خادعاً فما بقي للإنسان؟ أقول لك إني قرّرت أن أضع حداً لاستبدادك، لا بالتحديّ والعصيان فانت أكرم على نفسي من أن أفعل بك هذا، ولكن بالهجرة! أجل لأهاجرن من بيتك حال أقف على قدمي، وفي أحياء القاهرة متّسع لكل مضطهد، أتدري ماذا كانت عواقب حبّي لك رغم استبدادك بي؟ أنني عبدت مستبداً آخر طالما ظلّمني بظاهره وباطنه معاً، استبدّ بي دون أن يحبّني، ورغم ذلك كلّه عبده من أعماقي ولا زلت أعبدّه، فانت أول مسئول عن حبّي وعذابي. ترى ما نصيب هذه الفكرة من الحقيقة؟! لست مرتاحاً

مثلي من الخمار والغثيان فادعُ لها بالشفاء العاجل . . .

### - ٣٨ -

فتر حماس ياسين حال انفراده بنفسه في العربة بعد ذهاب كمال، وبدا كالمثفكر رغم سكره، إذ جاوزت الساعة الواحدة ودخل الوقت منذ كثير في الهزيع المريب من الليل، وسوف يجد زُتوبة إمّا يقظى تنتظر وتغلي وإمّا ستستيقظ حين دخوله، وعلى أيّ حال فلن تمرّ الليلة بسلام، بسلام كامل على الأقلّ.

غادر العربة عند منعطف قصر الشوق ومضى يخوض الظلام الدامس وهو يهزّ كتفيه العريضين في استهانة ويقول لنفسه بصوت هامس «ليس ياسين الذي يعمل حساباً لامرأة»، وكرّر هذا القول وهو يرقى في الدرج مسترشداً في الظلام بالدرازين، غير أنّ تكراره إيّاه لم ينمّ عن طمأنينة قاطعة. وفتح الباب ودخل، ثمّ مضى إلى حجرة النوم على ضوء مصباح الصالة، وألقى على الفراش نظرة فراها نائمة، فردّ الباب ليحول دون تسرّب الضوء الخافت الآتي من الصالة، وراح يخلع ملابسه في هدوء وحذر وهو يزداد اطمئناناً إلى استغراقها في النوم، ويرسم في ذهنه خطة للتسلّل إلى موضعه في الفراش دون أن يحدث صوتاً.

- أشعل المصباح لأكلّ عينيّ برؤيتك!

التفت رأسه نحو الفراش ثمّ ابتسم في تسليم، وأخيراً تساءل كالداهش:

- أأنت يقظى؟! ظننتك نائمة فلم أشأ أن

أزعجك!

- قلبك طيّب، كم الساعة الآن؟

- الثانية عشرة على الأكثر، فإني غادرت المجلس حوالي الحادية عشرة، وجئت ماشياً واحدة واحدة . . .

- لازم كان مجلسك في بنها!

- لماذا؟ . . . هل تأخّرت؟

- انتظر حتّى يجيبك ديك الفجر بنفسه.

- لعلّه لم ينم بعد!

وجلس على الكنبه ليخلع حذاءه وجوبه ولم يكن عليه إلّا القميص والسروال، وعند ذاك ندّت عن

إليها ولا متحمّساً لها، ومهما يكن من واقعية الحبّ فلا شكّ أنّه يرجع إلى أسباب أعمق أصالة في النفس، فلنتركها الآن معلّقة حتّى نعود إليها بالدرس فيها بعد، وعلى أيّ حال فانت يا أبي الذي هوّنت على الإحساس بالظلم بمداومتك على الاستبداد بي، وأنت يا أمّي لا تحملقي في وجهي بإنكار أو تنسائي ما ذنبي وما جنيت على أحد، إنّهُ الجهل. هو جنابتك. الجهل . . . الجهل . . . الجهل . . . أبي هو الفظاظة الجاهلة، وأنت الرقة الجاهلة، وسوف أظللّ ما حييت ضحيّة هذين الضدّين، وجهلك أيضاً هو الذي ملأ روحي بالأساطير، فانت همزة الوصل بيني وبين عالم الكهوف. وكم أشقى اليوم في سبيل التحرّر من آثارك كما سأشقى غداً في سبيل التحرّر من أبي، وما كان أحراركم أن توفّرا عليّ هذا الجهد المضني، لذلك أقترح - وظلام هذه الحجرة شهيد - أن تلغي الأسرة - هذه الحفرة التي يتجمّع فيها الماء الأسن - وأن تزول الأبوة والأمومة، بل هبني وطناً بلا تاريخ وحياة بلا ماضٍ، ولننظر الآن في المرأة فماذا نرى؟ هذا الأنف الضخم وهذا الرأس الكبير. أعطيتني أنفك يا أبي دون مشورة أو رحمة فانت تستبدّ بي حتّى قبل أن أولد، ومع أنّه يبدو في وجهك مهيّياً جليلاً فإنّه - بذاته وشكله - يلوح مضحكاً في صفحة وجهي الضيقة كأنّه جنديّ إنجليزيّ في حلقة ذكر، وأعجب منه رأسي لأنّه لا إلى فصيلة رأسك ينتمي ولا إلى فصيلة رأس أمّي فعن أيّ جدّ بعيد انحدر إليّ؟ فليظّلّ ذنبه معلّقاً فوق رأسيكما حتّى يتّضح لي الحقّ. قبيل النوم يجب أن نقول «الوداع» فقد لا يطلع الصبح علينا. إني أحبّ الحياة رغم ما فعلته بي على طريقة حبّي إياك يا أبي. وفي الحياة أشياء جديدة بالحبّ وصفحة وجهها مليئة بعلامات الاستفهام مثيرة للشغف، غير أنّ النافع فيها لا نفع فيه وما لا نفع فيه عظيم الشأن، والراجح أنّي لن أعود إلى تقبيل الكأس فقل وداعاً أيّتها الخمر، ولكن مهلاً. أذكر ليلة غادرت بيت عيوشة عاقداً العزم على ألاّ أقرب النساء ما حييت وكيف انقلبت بعد ذلك زبونها الأثير، ويخيّل إليّ أنّ الإنسانيّة تتنّ

- السريـر طقـطقة ورأى شـبـحـها يـسـتـوي جـالـسـًا، ثـم سمعـها تـقـول فـي حـدة:
- أشـعـل المـصـباح.
- لا داعي لـذـلك، فـقـد فرغت من خـلـع مـلـابـسي.
- أريد أن نصـفـي حـسابنا فـي النـور...
- تصفية الحـسـاب فـي الظلام الطـف!
- وصـدـرت عـنـها نـفـخة غـيـظ ثـم غـادرت الفـراش، ولـكـنـه مـدّ ذراعـيـه من مـجـلـسـه القـريـب فأصـاب منـكـبـها فـجـذبـها إـلى الكـتـبة وأجـلـسـها إـلى جـانـبـه و هو يـقـول:
- لا تـشـعـلي الفـتـنة...
- تـخـلـصـت من يـدـه، وقـالـت:
- أين ما تـعـاهدنا عـلـيـه؟ لـقـد قـبـلت أن تـسـكر فـي الحـانـات كـما تـحـب عـلى شـرط أن تـعـود إـلى بـيـتـك فـي وـقـت مـبـكـر، قـبـلت هـذا عـلى رـغـمـي لأنـك لو سـكـرت فـي بـيـتـك لو فـرت عـلى نـفـسـك مـآلاً كـثـيـراً يـضـيع هـبـاء، و مع ذـلك فـها أنـت تـعـود قـيـل الفـجـر غـير مـبالٍ بـما تـعـاهدنا عـلـيـه! من يـسـتـطـيع أن يـخـادع رـبـيـة التـخـت والعـود؟ وإـذا ثـبـت لـها خـيـانـتـك يـومـًا فـهـل تـقف عـند حـدّ الشـعـجار أم...؟ فـكـرُ مـرّـيـن، ولا تـنس كـذـلك أن فـقـدهـا لا يـهـون، إنـها أحـبّ زـوجـاتـي إلـي، خـبـيرة بـما يـسـعـدني، مـتـمـسـكة بـحـياتـنا، لـولا المـلـل...!
- كـنت فـي مـجـلـس كـلّ لـيـلة لم أـغـادره إلـّا إـلى بـيـتي، وعـندـي شـاهد تـعـرفـيـنـه، أتـدريـن من هـو؟ (وـضـحـك بصـوت عـالٍ)
- ولـكـنـها قـالـت بـرود:
- تـكـلـم فـي المـوـضـوع!
- فـقال و هو لا يـزال يـضـحـك:
- كان جـليـسي اللـيـلة أخـي كـمال!
- فـلم تـدهـش كـما تـوقـع، وقـالـت فـي نـفـاد صـبر:
- مـن يـشـهد للـعـروس؟!
- لا تـكـابـري... بـراءـتي كـالـشـمـس!... (ثـم متأفـفًا)... يـجـزني والـله أن تـرتـاي فـي سـلـوكـي، شـبـعت من الدـوران حـتّى المـرض، ولا رـغـبة لـي الآن إلـّا الحـياة الهـادئة، أمّا الحـانة فتـسـلية بـريـئة لا غـبار عـلـيـها، ولا بـدّ لـلـإنـسان من مـخـالـطة النـاس...
- فـقالـت بصـوت دلت نـبـراتـه عـلى الـانـفـعال:
- آه منـك. أنـت تـعـلم أنـي لـست طـفـلة، وأنّ الضـحـك عـلـيّ مـطـلـب عـسـير، وأنـه من الخـير لـكـلـينا إلـّا تـدخـل بـيـننا الرـيـة!...
- مـوعـظـة أم وعـيد؟! أين مـتي حـياة أبي المـثـالـيـة، الرـجـل الـذي يـفـعل ما يـشـاء فـإذا رـجـع إـلى بـيـتـه و جـد الـاسـتـقـرار والـحـب والطـاعة، لم يـتـحـقّق لـي هـذا الحـلم عـلى يـد زـينـب ولا مـريـم وأخـلق بـه إلّا يـتـحـقّق عـلى يـد زـنـوبـة، لا يـنـبـغي هـذه العـوادة الجـمـيلة أن تـيأس طـالـما هـي عـلى ذمّـي! قال بـحـزم:
- لو كان بـي رـغـبة إـلى مـزـيد من الحـرام ما تـزـوجـتـك!...
- فـهتـفت بـحـدة:
- ولـكـنـك تـزـوجـت من قـبـل مـرّـيـن، فـلم يـمـنعك الزـواج من الحـرام!
- نـفـخ نـاشـراً أنـفـاساً مـخـمـورة، ثـم قال:
- حـالـتـك غـير الحـالـتين السـابـقتـين يا غـيـبة، الزـوجـة الـأوـلى اخـتـارها أبي وفـرضـها عـلـي، والزـوجـة الثـانـيـة لم تـجـعـل لـي من سـبـيل إـلـيـها إلّا بالزـواج فتـزـوجـتـها، أمّا أنـت فـلم يـفـرضـك أحـد عـلـي، ولم يـغـلق بابـك دـونـي قـبـل الزـواج، ولم يـكن الزـواج مـنـك لـيـعـدني بـشـيء جـديـد لم أـعـرفـه، فـلـم تـزـوجـتـك يا غـيـبة إن لم يـكن الزـواج نـفـسـه - أي الحـياة المـسـتـقيـمة المـسـتـقرّة - مـطـلـبـي؟! والـله لو كان بـك ذرّة من عـقل ما سـمـحت لـنـفـسـك بـالشـكّ فـي أبـد!...
- حـتّى إن جـئتـني عـند الفـجـر؟!
- حـتّى إن جـئتـك عـند الصـبـح!
- فـهتـفت بـحـدة:
- نه، قل كـلاماً آخـر أو فـعل الأـمـن السـلام!
- فـقال بـحـدة و هو يـقـطـب فـي نـرـفـزة:
- ألف سـلام!
- أرحـل، أرض الله واسـعة والرـزق عـلى الله...!
- فـقال فـي اسـتـهانة مـتـعـمّداً:
- أنـت وشـأنـك...!
- فـقالـت بصـوت واثـنٍ بالوعـيد:



الدوران ولم يبق لي في حياتي إلا أنت!  
تنهدت بصوت مسموع، وكأنما أرادت أن تقول له  
«أودّ أن تكون صادقاً فيما تقول»، فمدّ يده لاعباً وهو  
يقول:

- يا سلام، هذه التنهيدة حترقت قلبي، الله  
يقطعني...

قالت برجاء وهي تستجيب ليد رويداً رويداً:  
- لو ربنا يهديك!

من يصدّق أنّ هذه الأمنية صادرة عن عوادة!  
- لا تقابليني بالشجار أبداً، إنّ الشجار يشبط  
النشاط!

علاج ناجع ولكنّه لا ينفع في جميع الأحوال، لو  
نلت عيوشة الليلة ما تيسّر...

- أرايت أنّ ارتياك لم يكن في محله؟!

### - ٣٩ -

كان السيّد أحمد عبد الجواد منهمكاً في عمله وإذا  
بياسين يدخل الدكان مقبلاً على مكتبه، فما إن تصفّح  
وجهه حتّى أدرك أنّه جاء مستنجداً: كانت في عينيه  
نظرة حائرة شاردة، ومع أنّه تبسّم له في أدب ومال  
على يده ليقبلها إلا أنّه شعر بأنّه يقوم بهذه الحركات  
التقليدية بلا وعي، وأنّ وجدانه كلّه غائب في مكان لا  
يعلمه إلا الله. أشار إليه بالجلوس فقرب الكرسيّ من  
مجلس أبيه ثمّ جلس، وجعل ينظر إليه حيّاً ثمّ يخفض  
بصره أو يتبسّم ابتسامة باهتة، تسأل السيّد عنّا دعا  
إلى هذه الزيارة، وكأنّما أشفق من أن يترك ابنه  
الصامت إلى صمته، فقال كالمسائل:

- خير؟... ماذا بك؟ لست كعادتك...

فنظر ياسين إليه طويلاً كأنّما يستشير عطفه، ثمّ قال  
وهو يخفض عينيه:

- سينقلونني إلى أقاصي الصعيد!

- الوزارة؟

- نعم...

- له؟

- أرحل غير أنّي كالشوكة لا تنزع بيسر.  
فتمادى في الاستهانة بها قائلاً:  
- خزعبلات! تذهين بآيسر ممّا يُخلع الحذاء..  
ولكنّها غيّرت النغمة من التحدي والتهديد إلى  
التشكي، فهتفت:

- أأرمي بنفسي من النافذة فأريح وأستريح...!  
فهزّ كتفيه استهانة، ثمّ نهض وهو يقول بلهجة  
أخفّ:

- ثمّة طريق أفضل هو أن تقومي إلى الفراش،  
هلمّي لننام واخزي الشيطان...

أنجّه نحو الفراش فاستلقى عليه وهو يتأوّه كأنّما طال  
به الشوق للرقاد، أمّا هي فعادت تقول وكأنّها تحدّث  
نفسها:

- مكتوب على من يعاشرك التعب...

التعب مكتوب عليّ أنا أيضاً، جنسك هو المسئول،  
لا واحدة تغني عن الأخريات وقهر الملل فوق  
طاقتهنّ، ولكنّ لن أعود إلى العزوبة مختاراً، لا  
أستطيع أن أبيع كلّ عام دكاناً في سبيل زواج جديد،  
فلتبقّ زنوبة على شرط ألاّ تركبني، الرجل المجنون  
يحتاج إلى امرأة عاقلة، زنوبة وعاقلة؟!

- أتبقي على الكنبه حتّى الصبح؟  
- لن يغمض لي جفن، دعني لما بي وثمّ أنت  
بالنوم...

لا بدّ ممّا ليس منه بدّ، مدّ ذراعيه حتّى قبض على  
منكبها، ثمّ جذبها إليه وهو يغمغم:

- فراشك!

فقاومت مقاومة غير عسيرة، ثمّ استسلمت ليد  
فمضت إلى الفراش وهي تقول متأوّهة:

- متى تُتاح لي راحة البال كسائر النساء؟

- اطمئني، ينبغي أن تضعي في كلّ ثقتك، إنّ  
أهل للثقة، مثلي لا يكون سعيداً إلاّ إذا سهر، ولن  
تسعدني أنت إذا أتعبتني بوجع الدماغ، حسبك أن  
تؤمنني ببراءة سهري، صدّقيني ولن تندمي، لست جباناً  
ولا كذاباً، ألم أجيّ بك ليلة إلى هذا البيت وفيه  
زوجتي؟ فهل يفعل هذا جبان أو كذاب؟ شبت من

هز رأسه كالمعترض، وقال:  
 - سألت الناظر فحدّثني عن أمور لا علاقة لها بالعمل، ظلم...  
 سأله الرجل بارتياح:  
 - أيّ أمور؟ أوضح.  
 - وشايات وضيمة... (ثم بعد تردد) عن زوجتي...  
 تضاعف اهتمام السيّد، فسأله فيما يشبه الإشفاق:  
 - ماذا قالوا؟  
 لاح الضيق في وجه ياسين حينئذ، ثم قال:  
 - قال السفهاء إنني متزوّج من... عوادة!  
 ألقى السيّد نظرة جزعة على الدكان، فرأى جميل الحمزاوي يعمل بين رجل قائم وامرأة جالسة لا يفصلهم عنه إلّا أذرع، فكظم غيظه وقال بصوت منخفض وإن لم يخلّ انخفاضه من تهلّج الغضب:  
 - لعلهم سفهاء حقاً، ولكن هذا ما حدّرتك من عواقبه، إنك ترتكب كلّ كبيرة دون مبالاة ولكنّ العواقب لن تغفل عنك إلى الأبد، ماذا أقول؟ إنك ضابط مدرسة ويجب أن تكون سمعتك بمنأى عن الشبهات، طالما قلت لك هذا مراراً وتكراراً، فلا حول ولا قوّة إلّا بالله، كأنّي يجب أن أخلص من هموم الدنيا جميعاً لأفترّغ لهومك أنت وحدها!  
 فقال ياسين في ارتباك وحيرة:  
 - ولكنّها زوجتي الشرعيّة، ولا لوم على الإنسان في حدود الشرع، فما شأن الوزارة في ذلك؟  
 قال السيّد بغيط مكتوم:  
 - يجب أن تخرص الوزارة على سمعة موظفيها... هلاً تركت الكلام عن السمعة لغيرك!  
 - ولكن هذا تحجّ و ظلم بالنسبة لرجل متزوّج وهو يلوح بيده ساخطاً:  
 - أتريدني أن أرسم لوزارة المعارف سياستها؟ فقال بانكسار ورجاء:  
 - كلا، ولكنّي أرجو أن توقف النقل بنفوذك... وجعلت يسراه تعبث بشاربه وهو يحدج ياسين بنظرة لم تره لأتّها بدت مشغولة بالتفكير، وراح ياسين

يستعطفه ويعتذر له عن إزعاجه ويؤكد له أنّ كلّ اعتياده بعد الله عليه، ولم يغادر الدكان حتّى وعده الرجل بالسعي في وقف نقله.  
 وعند مساء اليوم نفسه ذهب السيّد أحمد إلى قهوة الجنديّ بميدان الأوبرا لمقابلة ناظر المدرسة، فما إن رآه الرجل حتّى دعاه إلى الجلوس وهو يقول له:  
 - كنت منتظراً جيّثك، فياسين جاوز كلّ حدّ، إنّي أسف لما يسبّبه لك من متاعب...  
 فقال السيّد وهو يجلس قبالة في الشرفة المطلّة على الميدان:  
 - على أيّ حال فياسين ابنك أيضاً...  
 - طبعاً، ولكن لا شأن لي بالمسألة كلّها، إنّها محصورة بينه وبين الوزارة...  
 فقال السيّد كالمحتجّ وإن بدا وجهه مبتسماً:  
 - أليس عجيباً أن يعاقبوا موظّفاً لأنّه تزوّج من عوادة! أليس هذا شأننا عينيه وحده؟ ثم إنّ الزواج علاقة شرعيّة لا يصحّ أن يتعرّض لها أحد بسوء!...  
 قطّب الناظر متفكّراً متسائلاً، كأنّه لم يفهم ما قال صاحبه، ثم قال:  
 - لم يجرّ ذكر الزواج إلّا عرضاً وأخيراً! أما علمت بالخبر كلّ؟ يخيّل إليّ أنّك لم تعلم بكلّ شيء!  
 انقبض صدر الرجل، فتساءل في إشفاق وقلق:  
 - أيوجد مطعن آخر؟  
 فقال الناظر نحوه قليلاً، وقال بأسف:  
 - المسألة يا سيّد أحمد أنّ ياسين تعارك في درب طياب مع ساقطة، فحرّز له محضر بلغت صورته إلى الوزارة...  
 بهت الرجل فأتسعت حدقتاه واصفرّ وجهه، حتّى لم يتمالك الناظر من أن يهزّ رأسه أسفاً وهو يقول:  
 - هذه هي الحقيقة، وقد بذلت قصارى جهدي لأخفّف العقوبة، حتّى وقّفت إلى إلغاء فكرة إحالته إلى مجلس تأديب فاكنتني بنقله إلى الصعيد...  
 تنهّد السيّد مغمغماً:  
 - الكلب...!  
 فقال الناظر وهو يرمقه بعطف:

تحاشى السيّد أن يطرق في حديثه مع ياسين موضوع  
الفضيحة الحقيقيّة، واكتفى بأن قال له حين وُفّق إلى  
إلغاء النقل:

- ما كلّ مرّة تسلم الجرّة! لقد أتعبتني وأخجلتني،  
ولن أتدخل في أمورك بعد اليوم، فافعل ما بدا لك،  
وربّنا بيني وبينك!...

ولكنّه لم يستطع أن يسقط أمره من حسابه، فدعاه  
يومًا إلى الدكان، وقال له:

- أنّ لك أن تفكر في حياتك تفكيرًا جديدًا يعود  
بك إلى طريق الكرامة ويتشكك من الحياة المبوذة التي  
تحياها، لا يزال في الوقت متّسع كي تبدأ عهدًا  
جديدًا، وإني أستطيع أن أهنيّ لك الحياة التي تليق  
بك فأصنع ليّ وأطعني...

ثمّ عرض عليه مقترحاته قائلاً:

- طلق زوجك وعُدّ إلى بيتك، وإني، اتعهد بأن  
أزوّجك زواجًا لائقًا فتبدأ حياة كريّة!

فتورّد وجه ياسين، وقال بصوت خافت:

- إني أقدر رغبتك الصادقة في إصلاح شأني،  
وسوف أعمل من ناحيتي على تحقيق هذه الرغبة دون  
إيذاء أحد...

فهتف الرجل ساخطًا:

- وعد جديد كوعود الإنجليز! الظاهر أنّ نفسك  
تراودك على زيارة السجن، أجل سيجيتني صراخك  
المرة القادمة من وراء القضبان، لا زلت أكرّر عليك  
أن تطلق هذه المرأة وتعود إلى بيتك...

فقال ياسين وهو يتنهد، متعمّدًا أن يسمع أباه  
تنهّده:

- لئنما حبلى يا أبي، ولا أريد أن أضيف ذنبًا جديدًا  
إلى ذنوبي!...

اللهم احفظنا! في بطن زنوبة حفيد لك يتكوّن!  
أكان في وسعك أن تتصوّر ما يدخر لك هذا الشاب  
من متاعب ساعة تلقّيته وليدًا في يوم عُدّ من أسعد أيام  
حياتك؟!...

- حبلى؟!...

- نعم...

- إني أسف جدًا يا سيّد أحمد، غير أنّ هذا السلوك  
لا يليق بموظّف، لا أنكر أنّه شابّ طيّب ومثابر على  
عمله، بل أصارحك بأنّي أحبه، لا لأنّه ابنك فحسب  
ولكن لشخصه أيضًا، ولكن ما أعجب ما يقال عنه!  
ينبغي أن يصلح من شأنه ويقوّم سلوكه وإلا خسر  
مستقبله!

صمت السيّد طويلاً والغضب مرتسم على وجهه،  
ثمّ قال وكأنّه يخاطب نفسه:

- معركة مع ساقطة! فليذهب إذن في داهية!...

ولكنّه لم يتركه للداهية وإنّما بادر إلى مقابلة معارفه  
من النّوّاب وعليّة القوم مستشفّعًا بهم في وقف النقل،  
وكان محمّد عفتّ على رأس الساعين معه، فتوالى  
الشفاعات على كبار رجال المعارف حتّى أثمرت فألغى  
النقل، ولكنّ الوزارة أصرت على ندمه للعمل  
بديوانها، ثمّ أعلن رئيس المحفوظات - صهر محمّد  
عفتّ أو زوج زوجة ياسين الأولى - عن استعداده  
لقبوله في إدارته - بإيعاز من محمّد عفتّ - فتّمّت  
الموافقة على ذلك، وتقلّ ياسين في أوّل شتاء سنة  
١٩٢٦ إلى إدارة المحفوظات. ولم تمرّ المسألة في سلام  
تأمّ فقد سجّل عليه عدم صلاحيّته للعمل في  
المدارس، كما صُرف النظر عن بحث ترقّيته إلى  
الدرجة السابعة رغم أقدميّته في الثامنة التي جاوزت  
عشرة أعوام، ومع أنّ محمّد عفتّ قصد من إلحاقه  
بإدارة صهره ألاّ تساء معاملته فإنّ ياسين لم يرتح إلى  
وضعه الجديد تحت رئاسة زوج زينب، وقد عبّر عن  
مشاعره حين قال يومًا لكّمال:

- لعلّها سرّت بما وقع لي، ووجدت فيه تأييدًا  
لموقف أبيها حين رفض إرجاعها إليّ، إني خير بعقول  
النساء ولا شكّ في أنّها شمعت بي وإنّه لمن سوء الحظّ  
ألاّ أجد مكانًا كريمًا إلاّ تحت رئاسة هذا التيس! ما هو  
إلاّ كهل لا خير فيه للنساء، وما أعجزه عن أن يسدّ  
الفراغ الذي تركه ياسين، فلتشمت الحمقاء فإني  
شامت...!

ولم تقف زنوبة على سرّ النقل، وقصارى ما علمت  
أنّ زوجها نُدب للعمل بمركز أفضل في الوزارة، كذلك

- وتحاف أن تضيف ذنبًا جديدًا إلى ذنوبك؟! -

ثم منفجرًا قبل أن يفتح الآخر فاه:

- لم لم يؤنبك ضميرك وأنت تعتدي على الطيبات من بنات الطيبين! أنت لعنة وحقّ كتاب الله!...

وعند انصرافه من الدكان أتبعه عينين مليئتين بالرائاء والازدراء. لم يكن بوسعه إلا أن يعجب بمظهره الذي ورثه عنه، أما مخبره الذي ورثه عن أمه... وذكر بغتة كيف أوشك هو يومًا أن يتردى في الهاوية على يد زنوبة نفسها! ولكنّه ذكر في الوقت نفسه كيف شكّم نفسه في اللحظة المناسبة. شكّم نفسه؟! وشعر بامتعاض وقلقى، فلعن ياسين، ثم لعن... ياسين!

- ٤٠ -

جاء يوم ٢٠ ديسمبر فشرع بأنّه يوم لا كبقية الأيام، على الأقلّ بالقياس إليه هو، ففي ساعة منه وجد نفسه في هذه الدنيا، وسجّل ذلك في شهادة حقّ لا يمكث أكثر أو أقلّ مما تمّ الاتفاق عليه... وكان يرتدي معطفه ويقطع حجرته ذهابًا وجيئة، ثمّ يلقي نظرة على مكتبه فيرى كشكول الذكريات مفتوحًا على صفحة بيضاء رُقم أعلاها بتاريخ الميلاد، فيفكر فيما يريد أن يكتبه لمناسبة الذكرى، ويواصل حركته مستمّدًا منها شيئًا من الدفء يستعين به على مقاومة البرودة القارسة. وكانت السماء كما تبدو من زجاج النافذة - متوارية وراء سحب متجهّم والمطر ينزل قليلًا ويسكت قليلًا محرّكًا في نفسه بواعث التأمل والحلم. لا بدّ من الاحتفال بالميلاد ولو اقتصر الحفل على صاحب الميلاد وحده، ذلك أنّ البيت القديم لم يعرف تقاليد الاحتفال بأعياد الميلاد. وأمّه نفسها لم تدر أنّ اليوم من الأيام التي لا ينبغي أن تنساها، فلم يبق من تواريخ الميلاد نفسها إلا ذكريات غامضة عن الفصول التي وقعت فيها والألام التي صاحبته فهي لا تعرف عن ميلاده إلا أنّه «كان في الشتاء وكانت الولادة عسيرة فجعلت أتوجّع وأصرخ يومين متتابعين» قديمًا كان يذكر أبناء ميلاده فيملاً الرثاء لأمه قلبه، ثمّ تضاعف شعوره بالرثاء عندما شاهد ميلاد نعيمة فحُفّق

قلبه ألماً لعائشة، أمّا اليوم فإنّه يفكر في ميلاده بعقل جديد، عقل قد علّ من منهل الفلسفة المادّية حتّى ألمّ في شهرين بما تمخّض عنه تفكير الإنسانية في قرن من الزمان. تساءل عن عسر ولادته وهل يرجع بعضه أو كلّه إلى الإهمال أو الجهل، وكان يتساءل وكأنّما يستجوب متهمًا قائمًا بين يديه. ففكر في عسر الولادة وما عسى أن ينجم عنه من آثار تلحق بالملحّ أو الجهاز العصبيّ فتلعب دورًا خطيرًا في حياة الوليد ومصيره وما قد يساق إليه من خير أو شرّ. ألا يمكن أن يكون تمالّكه في الحبّ نتيجة لصدمات أصابت يافوخه أو جدار رأسه الكبير في غيابات الرحم منذ تسعة عشر عامًا؟ أو أن تكون تلك المثلّية التي أضلّته طويلاً في مجاهل الخيال وأسالت منه الدمع مدرارًا فوق مذبح العذاب ما هي إلاّ عاقبة محزنة لعبث داية جاهلة؟! وفكر فيما قبل الولادة، بل فيما قبل الحمل، في المجهول الذي تنبثق منه الحياة، في تلك المعادلة الكيميائية الآلية التي تستوي كائنًا حيًّا فيثور أوّل ما يثور على أصله مزدريًا، ويتطلّع إلى النجوم مدّعيًا له نسبًا في مداراتها. بيد أنّه قد عرف له بداية قريبة دعاها بالنطفة، فهو على ذلك لم يكن قبل تسعة عشر عامًا وتسعة أشهر إلاّ نطفة، نطفة قدفت بها رغبة بريئة في اللذة أو حاجة ملحة إلى العزاء أو صولة هياج بعثتها سكرة غاب فيها الرشد أو حتّى مجرد إحساس بالواجب نحو الزوجة القابعة في البيت، فابن أيّ حال من تلك الأحوال كان! لعلّه جاء إلى هذه الدنيا نتيجة الواجب، فإنّ الشعور بالواجب لا يزايله، وحتّى اللذات لم يُقبل على ممارستها إلاّ بعد أن تمثّلت له فلسفة تتّبع ورأيًا يُعتنق، إلى أنّه لم يخلُ من الصراع والألم ولم يأخذ الحياة أخذًا سهلاً، ومن النطفة مرق حيوان فالتقى ببويضة في البوق وثقبها، ثمّ انزلقا إلى الرحم معًا، فتحوّلا إلى علقة، فكسيت العلقة لحمًا وعظمًا، ثمّ خرجت إلى النور والألم بين يديها يسير، ثمّ بكّت قبل أن تستبين معالمها، ومضت الغرائز المودعة بها تنمو وتتبلور مستجدة على مرّ الأيام عقائد وآراء حتّى أُنحمت، وعشقت عشقًا زعمت لنفسها به نوعًا

هذا منظر الساء يخاطب الوجدان بلسان الوجد فما أجدره أن يستلهمه طويلاً ليتأمل موقفه من الحياة في مطلع عامه الجديد. لم يعد يجد رفيقاً يحاوره بمكنون روحه مذ غادر حسين شذاد أرض الوطن، فلم تبق له إلا نفسه ليحاورها إذا استشعر حاجة إلى الحوار، فأتخذ من روحه صديقاً بعد أن فارق صديق الروح، وسأل روحه: هل تؤمن بوجود الله؟ فسألته بدورها لماذا لا تحاول أن تثب من نجم إلى نجم ومن كوكب إلى كوكب كما تثب من درجة إلى درجة فوق السلم؟ وعن الصفوة المختارة من أبناء السماء فقد رفعوا الأرض إلى مركز الكون وجعلوا الملائكة تسجد للطين حتى جاء أخوهم كوبر نيكوس فأنزل الأرض بحيث أنزلها الكون جارية صغيرة للشمس، ثم تلاه أخوه داروين فهتك سر الأمير الزائف وأعلن على الملأ أن أباه الحقيقي هو حبيس قفصه الذي يدعو الأصدقاء للفرج عليه في الأعياد والمواسم، وفي الأصل كان السديم فتناثر منه النجوم كالرشاش المتطاير من عجلة الدراجة، وتجاذبت النجوم في لهوها الأزلي فأنجبت الكواكب، وانطلقت الأرض كرة سائلة والقمر في أثرها يعابها وهي تقطب له بجانب من وجهها وتبسم له بجانب آخر حتى فتر حماسها فاستقرت سياتها جبلاً ونجوداً وقيعاً وصخوراً ثم حياة تدب، وجاء ابن الأرض يزحف على أربع ويسائل من يصادفه عن المثل الأعلى. لا أخفي عنك أنني ضقت بالأساطير ذرعاً، غير أنني في خضم الموج العاتي عثرت على صخرة مثقلة الأضلاع سادعوها من الآن فصاعداً صخرة العلم والفلسفة والمثل الأعلى. ولا تقل إن الفلسفة كالدين أسطورية المزاج، فالحق أنها تقوم على دعائم ثابتة من العلوم وتتجه بها إلى غايتها، أما الفن فمتعة سامية وامتداد للحياة غير أن مطمعي أبعد من الفن مثلاً، لأنه لا يرتوي إلا بالحقيقة، والفن بالقياس إلى الحقيقة يبدو فناً انثوياً، وفي سبيل هذه الغاية تراني مستعداً للتضحية بكل شيء إلا ما يمسك عليّ الحياة، أما عن مؤهلاتي للدور الخطير فرأس كبير وأنف ضخمة وحب خائب وأمل في

من الألوهية، ثم زلزلت فتهاوت عقائدها وانقلبت أفكارها وخاب قلبها فرُدت إلى مكانة أدل من التي جاءت منها أول مرة! إذن فقد مضى من العمر تسعة عشر عاماً يا له من عهد طويل! ويا للشباب الذي ينطوي بسرعة البرق، هل من عزاء إلا أن تمتلئ الحياة ساعة فساعة بل دقيقة فدقيقة قبل أن ينق غراب الغروب؟ مضى عهد البراءة، ولحق به العهد الذي كانت تؤرخ فيه الحياة بالحب - ق. ح، ب. ح - اليوم الأشواق كثيرة إلا أن المحبوب مجهول الكنه، فلم يجد على محبه إلا ببعض أسائه الحسن، فهو الحقيقة ومسرّة الحياة ونور العلم، والسفر فيما يبدو طويل، وكأنّ المحب قد استقل قطار أوجست كونت فمرّ بمحطة اللاهوتية التي كان شعارها «نعم يا أمّاه»، وما هو يطوي الأرض في إقليم الميتافيزيقية التي شعارها «كلّاً يا أمّاه» وعن بعد تتراءى خلال المنظار المكبر «الواقعية» وعلى قمتها سجل شعارها «فتح عينيك وكن شجاعاً». وتوقف عن السير أمام المكتب فثبتت عيناه على كشكول الذكريات، وتساءل: أيجلس ليسود صفحة الميلاد كيفما يوحى القلم، أم يؤجل ذلك حتى تتبلور الأفكار في رأسه؟ وعند ذاك طرق أذنيه وقع المطر على الجدران كاللدندنة، فأنه بصره إلى زجاج النافذة المطلة على بين القصرين فرأى لآلئ عالققة برقعه المموهة برطوبة الجو، وما لبثت لؤلؤة أن انسابت إلى حافة الإطار السفلي راسمة على الرقعة المموهة خطاً ناصعاً منعطفاً كالشهاب فمضى إلى النافذة ورفع عينيه يتابع الأمطار المنهلة من السحب المترعة وقد وصلت الساء بالأرض بأسلاك لؤلؤية، على حين لاحت المآذن والقباب غير عابئة بالمطر وقد بدا الأفق وراءها إطاراً من فضة، واكتنف المنظر كله لسون أبيض مشرب بسمرة ساجية يقطر جلالاً وأحلاماً... وترامت من الطريق صيحات أطفال، فألقى نظرة إلى تحت ليرى الأرض تسيل بالمياه والأركان تعج بالوحد وقد تعثرت العربات وتطاير الرشاش من عجلاتها وخلت معارض الدكاكين من السلع ولاذ المارة بالحوانيت والمقاهي وما تحت الشرفات.

بالتغلب عليها إذا كُوتنا عنها فكرة واضحة متميزة. أسرك أن وجدت الحب يُنسى؟... سرّي لأنه يعدني بالنجاة من الأسر، وأحزني بما كان تجربة خبرت بها الموت قبل حضوره، ومهما يكن من أمر فسأملت ما حييت الأثر وأعشق الحرّة المطلقة.

سعيد من لا يفكر في الانتحار أو يتمنى الموت، سعيد من تتوهج في قلبه شعلة الحواس، وخالد من يعمل أو يتهيا صادقاً للعمل، حيّ من يتأثر الحيام بكتاب وكأس ومعشوق، والقلب اللهب بالأمال ينسى أو يتناسى الزواج كالكأس المترعة بالويسكي لا تتسع للصودا، وحسبك أن غرامك بالشراب يسير سيراً حسناً وأن إقبالك على المرأة لا تعرّض عقبات من تفرّز أو نفور، أما حنينك من حين لآخر إلى الطهر والتشّيف فلعلّه بقية من تديك القديم.

ولم ينقطع المطر عن الانهلال لحظة، وقعقع الرعد، وبلغ البرق، وأقفر الطريق، وسكت الصياح، وخطر له أن يلقي نظرة على فناء الدار فغادر الحجرة إلى الصالة ثم إلى النافذة، ونظر من خلال خصاصها فرأى المياه تجرف سطح الأرض اللين فتخذه ثم تتدفق صوب البئر القديمة، وفاض عنها جانب فتجمّع في نفرة بين حجرة الفرن والمخزن، هذه النفرة التي ينجم فيها غبّ الجفاف - مما يتساقط عفواً من حنطة أو شعير أو حلبة من يدي أم حنفي - نبت يكسوها حلّة سندسية فيترعرع أياماً حتى تدوسه الأقدام، وقد كانت على عهد دولة الطفولة حقل تجاربه ومراح أحلامه، ومن ينبوع ذكرياتها يمتلئ قلبه الآن شوقاً وحنيناً، ومسرة يغشاها حزن وإن كسحابة شفاة تغشى وجه القمر. وتحول عن النافذة ليعود إلى حجرتة فانتبه إلى وجود من كان بالصالة، إلى الذكرى الباقية من مجلس القهوة القديم، إلى أمّه مترتبة على الكنبه باسطة ذراعيها فوق المجرمة ولا جليس لها إلا أم حنفي وقد تربعت على فروة قبالتها. فذكر المجلس القديم في أيامه الزاهرة وما أودعه من جميل الذكريات، وكانت المجرمة هي الأثر الوحيد فيه الذي لم يكد يطرأ عليه تغير ينكره الرائي.

المرض. واحذر أن تسخر من أحلام الشباب فما السخرية منها إلا عراض من أعراض مرض الشيخوخة يدعو المرضي بالحكمة، وليس من تناقض في أن تعجب بسعد زغلول كما تعجب بكوبر نيكوس واستولد وماخ، فالجهاد في سبيل ربط مصر المتأخرة بركب الإنسانية عمل نبيل وإنساني كذلك. والوطنية فضيلة ما لم تتلوّث بالكراهية العدوانية، غير أن كره إنجلترا نوع من الدفاع عن النفس، وليست الوطنية على ذاك إلا إنسانية محليّة، وتساّلي هل أومن بالحب؟ فأجيب: بأنّ الحب لم يبرح فؤادي بعد، فلا يسعني إلا أن أقرّ بحقيقة الإنسانية، ومع أن جذوره كانت مشبّكة بجذور الدين والأساطير فإنّ تقوُّص المعابد المقدّسة لم يزعه أركانه أو يقلل من خطورة شأنه اقتحام محرابه بالدراسة والتحليل، وفرز عناصره البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية، فكلّ أولئك لم يوهن من خفة القلب إذا هفت ذكرى أو تخاللت صورة، ألا زلت تؤمن بخلود الحب؟ ليس الخلود أسطورة. فلعلّ الحب يُنسى ككلّ شيء في هذه الدنيا، وقد انقضى على زواج... عابدة - لم تتردّد قبل التفوّع باسمها؟ - عام فقطعت شوطاً في طريق النسيان، مرت بطور الجنون فطور الدهول فطور الألم الحاذ ثم طور الألم المتقطع، الآن قد يمضي يوم بأكمله فلا تخطر لي على بال إلا حين الاستيقاظ وحين النوم ومرة أو مرتين في أثناء النهار، ويتفاوت تأثري بالتذكّر ما بين حنين ينبعث معتدلاً أو حزن يمرّ مرور السحاب أو حسرة تلسع ولا تحرق إلا أن تشور النفس بغتة كالبركان فتدور بي الأرض، وعلى أيّ حال غدت أومن بأنّي سأواصل الحياة بلا عابدة. علام تُعوّل في طلب النسيان؟... على دراسة الحب وتعليقه كما سلف، والتهوين من الآلام الفردية بالتأملات الكونية التي يبدو عالم الإنسان في مداراتها هباءة تافهة، والترويح عن النفس بالشراب والجنس، والتساس العزاء عند فلاسفة العزاء كإسبينوزا الذي يرى الزمن شيئاً غير حقيقي وبالتالي فالانفعالات المرتبطة بحادث في الماضي أو المستقبل مضادة للعقل، ونحن خليقون

فقالت جليلة كأنما تشجعه :

- لا شأن لك به فلا حجاب بيننا وبينه . . .

وسرعان ما ضحكت زبيدة قائلة بتهكم :

- أنا أحقّ الناس بأن أقول ذلك، أليس هو

بنسيبي؟!

فقط السيد إلى ما تُعرّض به، وتساءل في قلق عن مدى ما أتصل بعلمها في هذا الشأن كله، ولكنّه قال برقة :

- لي الشرف يا سلطنة!

فتساءلت زبيدة وهي ترمقه بنظرة ارتياب :

- أنت مسرور حقًا بما كان؟

فقال بلباقة :

- ما دمت خالتها . . .

فقالت وهي تلوح بيدها في استياء :

- أمّا أنا فلن يرضى عنها قلبي أبدًا . . .

وقبل أن يسألها السيد عن السبب، هتف عليّ عبد الرحيم وهو يفرك يديه :

- أجّلوا الحديث حتّى نغمّر رؤوسنا . . .

ونضض إلى المائدة ففضّ زجاجة وملاّ الكؤوس ثمّ قدّمها إليهم واحدًا واحدًا بعناية ثمّت عن ارتياحه المهود إلى القيام بمهمّة الساقى، ثمّ انتظر حتّى تهيّأ كلّ للشرب، وقال «صحة الأحباب والإخوان والطرب دامت جميعًا لنا»، فرفعوا الكؤوس إلى شفاههم باسمين، ونظر أحمد عبد الجواد من فوق حافة كأسه إلى وجوه أصحابه . . . هؤلاء الأصحاب الذين شاطروه حمل المودة والوفاء قرابة الأربعين عامًا، فكان كأنّه يرى فلذات من صميم نفسه، ما ملك أن جاش صدره بعواطف الأخوة الصادقة. ومالت عيناه إلى زبيدة، فعاد إلى حديثها متسائلًا :

- ولماذا لا يرضى عنها قلبك؟

فانجّحت إليه بنظرة أشعرته بترحيبها بالحديث معه، وأجابته :

- لأنّها خاتنة لا ترعى العهود، خانتني منذ أكثر من عام فغادرت بيتي دون استئذان وذهبت إلى حيث لم أعلم . . .

- ٤١ -

كان أحمد عبد الجواد يسير الهوينى على شاطئ النيل في طريقه إلى عوامة محمّد عفت، وكان الليل ساجيًا والسماء صافية متألّقة النجوم، والهواء مائلًا للبرودة، فلما انتهى إلى هدفه وهمّ بالميل إليه لم ينس - بحكم العادة وحدها - أن يرمي ببصره بعيدًا إلى حيث تقوم العوامة التي دعاها يومًا «عوامة زُتوبة». كان قد انتهى على الذكريات الأليمة عام فلم يعد يبقى في قلبه إلّا الامتعاض والخجل، وكان من آثارها المتخلّفة أن هجر مجالس النساء كما فعل عقب مصرع فهمي، فثابر على ذلك عامًا حتّى ضجر، فرجع عن عزمه وعاد ساعيًا على قدميه إلى المجلس المحرّم، وما هي إلّا دقيقة حتّى أقبل على المجلس فطالع المجموعة المحبوبة المؤلفة من أصدقائه الثلاثة والمرايين، أمّا الأصدقاء فكان آخر لقاء بينه وبينهم ليلة أمس، وأمّا المرأتان فلم تقع عليهما عيناه منذ نحو عام ونصف أو - على وجه التحديد - منذ تلك الليلة التي أقحم فيها زُتوبة في حياته. ولم يكن شيء قد بدأ بعد، فالقوارير لم تنفضّ والنظام لم يمسّ، وكانت جليلة محتلة كنبه الصدارة، تعبت بأساورها الذهبية وكأنما تنصت إلى وسوستها، على حين قامت زبيدة تحت المصباح المتدليّ من السقف، تنظر في مرآة صغيرة بيدها، متفحّصة زينتها، جاعلة ظهرها إلى المائدة الحافلة بقوارير الويسكي وصحافة المزة. وتفرّق الأصدقاء حاسري الرؤوس وقد خلّعوا جباههم فصافحهم أحمد عبد الجواد ثمّ صافح المرأتين بحرارة، فرحّبت به جليلة قائلة «أهلاً بأخي الحبيب» أمّا زبيدة فقالت له باسمه في عتاب «أهلاً بالذي لولا الأدب ما استحقّ منا السلام». ونزع الرجل جبّته وطربوشه، ثمّ ألقي نظرة على الأماكن الخالية - وكانت زبيدة قد جلست إلى جانب جليلة - وتردّد قليلًا قبل أن يمضي إلى كنبه المرأتين ويتخذ مجلسه عليهما، ولم يغب تردّده عن عين عليّ عبد الرحيم، فقال :

- هكذا تبدو كأنك تلميذ مبتدئ!

ترى ألم تعلم حقاً أين ذهبت في ذلك الوقت؟ ولم يشأ أن يعلّق على قولها بحرف، فعادت تسأله:

- ألم يبلغك ذلك؟

فقال هدهوء:

- بلغني في حينه!

- أنا التي كفلتها من الصغر ورعيتها بقلب الأم،

فانظر كيف كان الجزاء! سفخص على الدم النجس!

فقال عليّ عبد الرحيم مازحاً، وهو يتظاهر بالاحتجاج:

- لا تسيّ دمها فإنّ دمها هو دمك!...

ولكنّ زبيدة قالت جادة:

- دمي بريء منها!

وهنا سألهما السيّد أحمد:

- من كان أباهما يا ترى؟

- أباهما؟!

نذت هذه الكلمة عن إبراهيم الفار بصوت أنذر بسيل من السخریات، ولكنّ محمّد عفتّ بادره قائلاً:

- تذكر أنّ الحديث عن حرم ياسين!

فزايلت وجه الفار هيئة المزاح ولاذ بالصمت في شيء من الاتباك، على حين عادت زبيدة تقول:

- أمّا أنا فلا أهزل فيما أقول عنها، وطالما رمقتني بعين الحسد وطمعت في منافستي وهي في رعايتي، فكنت أداريها وأفضّ عن مساوئها (ثمّ وهي تضحك) كانت تحلم بأن تكون عالمة!

وردّدت عينيها في الحاضرين، ثمّ قالت بلهجة ساخرة:

- لكنّها أفلست فتزوّجت!...

تساءل عليّ عبد الرحيم في إنكار:

- هل الزواج في عرفك إفلاس؟!

فضيّقت له عيناً، ورفعت حاجب الأخرى، وهي تقول:

- نعم يا عمر!... العالة لا تهجر التخت حتّى تفلس...

وهنا غنّت جلييلة هذا المقطع «أنت المدام يا روعي أنت أنستنا»، فابتسم السيّد ابتسامة عريضة وحيّاهما

بأهة لطيفة وشت بانبساطه، غير أنّ عليّ عبد الرحيم نهض مرّة أخرى وهو يقول:

- لحظة سكوت حتّى نستوعب هذه الكأس...

وملأ الكئوس ووزّعها بينهم، ثمّ عاد بكأسه إلى مجلسه. وقبض أحمد عبد الجواد على كأسه ولحظ زبيدة، فالتفتت نحوه باسمه ورفعت يدها بكأسها كأنّها تقول له «صحتك»، ففعل مثلها وتشارباً، وجعلت في أثناء ذلك ترنو إليه بنظرة باسمه. مضى عام دون أن تثب به رغبة إلى طلاب امرأة، كأنّ التجربة القاسية التي امتحن بها قد أخذت حماسه، أو لعلّه الكبرياء أو لعلّه المرض، غير أنّ نشوة الخمر ونظرة التودّد حرّكتا فؤاده فاستشعر عذوبة الإقبال بعد مرارة الصّد، واعتدّها تحية طيبة من الجنس الذي هام به حياته، لعلّها تضمّد جرح كرامته التي قست عليها الخيانة وتقشّر العمر، وكأنّ ابتسامة زبيدة الناطقة كانت تقول له: «لم يولّ عهدك بعدا» فلم يحول عن نظرتها عينية ولم يبلغ ابتسامته.

وجاء محمّد عفتّ بعود ووضعه بين المرأتين، فتناولته جلييلة وراحت تلعب بأوتاره، ولما أنست من السامعين انتباهاً غنّت «وعدي عليك ياللي بحبك»، وتظاهر أحمد عبد الجواد بالانسجام كعادته كلّما سمع جلييلة أو زبيدة، وذهب مع النغمة برأسه وجاء، كأنّها يريد أن يخلق الطرب بتمثيل حركاته. والحقّ أنّه لم يعد يبقى له من عالم الغناء إلّا ذكريات، فقد ذهب الحامولي وعثمان والمينلاوي وعبد الحيّ، كما ذهب شبابه وكما ولّت أيام النصر، ولكن ينبغي أن يوطّن النفس على الرضى بالموجود وأن يبتعت عاطفة الطرب ولو بتمثيل حركاته، وقد دعاه حبّه للغناء وغرامه بالطرب إلى ارتياد مسرح منيرة المهديّة غير أنّه لم يهوَ الغناء التمثيليّ، فضلاً عن أنّه ضاق بجلسة المسرح الذي شَبَّهه بالمدرسة، كما استمع في بيت محمّد عفتّ إلى أسطوانات المطربة الجديدة أمّ كلثوم ولكنّه أعارها أدناً حذرة مضمرة سوء الظنّ، فلم يتذوّقها رغم ما قيل من أنّ سعد زغلول أثنى على جمال صوتها. بيد أنّ مظهره لم يشر بحقيقة موقفه من الغناء، فما زال يتطلّع



- الصبّ تفضحه عينه...  
وتساءل إبراهيم الفار منكراً:  
- أم تحسبن نفسك في زاوية العميان؟  
فقال أحمد عبد الجواد متظاهراً بالأسف:  
- بهذه الصراحة لن نكونوا قوادين كما تحبون!  
أما زبيدة فقد أجابت محمد عفت:  
- أنا لا أنظر إليه لغرض لا يسمح الله ولكني أحسده على شبابه؟ انظروا إلى رأسه الأسود بين رموسكم البيض وأجيبوني هل تعطونه يوماً واحداً فوق الأربعين؟  
- أنا أعطيه قرناً...  
فقال أحمد عبد الجواد:  
- من بعض ما عندهم!  
وعند ذاك ترنمت جلييلة بمطلع الأغنية «عين الحسود فيها عود يا حلييلة»، فقالت زبيدة:  
- لا خوف عليه من الحسد، فإن عيني لا تؤذيه؟!  
فقال محمد عفت وهو يهز رأسه هزة ذات معنى:  
- أصل الأذى كله من عيونك!  
وهنا قال أحمد عبد الجواد موجّهاً الخطاب إلى زبيدة:  
- أتحدثين عن شبابي؟ أما سمعت بما قال الطبيب؟  
فقالت كالمتنكرة:  
- أخبرني محمد عفت، ولكن ما هذا الضغط الذي يتهمك به؟  
- لفتّ حول ذراعي قربة غريبة، وراح ينفخ بمنفاخ جلديّ، ثم قال لي «عندك ضغط»...  
- ومن أين جاء الضغط؟  
فأجاب السيد ضاحكاً:  
- لا أظنه جاء إلّا من ذات النفخ!  
قال إبراهيم الفار وهو يضرب كفّاً بكفّ:  
- لعلّه مرض معديّ، فإنه لم يكد يمضي شهر على إصابة المحروس به حتّى ذهبنا جميعاً تبعاً إلى الطبيب وكانت نتيجة الكشف في جميع الحالات واحدة: الضغط!...

إلى جلييلة راضياً سعيداً ويردّد مع الجميع لازمة «وعدي عليك» بصوته الرخيم، حتّى هتف الفار بحسرة:  
- أين أين الدفّ؟! أين الدفّ لنسمع ابن عبد الجواد؟  
سأل أين أحمد عبد الجواد الذي كان ينقر على الدفّ؟! آه، لم يغيّرنا الزمان؟ وختمت جلييلة غناءها في هالة من الاستحسان، ولكتّها قالت في لهجة اعتذار وهي تبسم شاكرة:  
- إني متعبة...  
ولكنّ زبيدة كيّلت لها الشاء كما يدور بينهما كثيراً على سبيل المجاملة أو حرصاً على السلام العام، ولم يكن يخفى على أحد أنّ نجم جلييلة كعالمّة أخذ في الأفول السريع الذي كان آخر آياته هجر الدقّافة فينو لتختها والتحاقها بتخت آخر، وهو أفول طبيعيّ إذ كان الذبول قد أدرك كافّة المزاي التي قام عليها مجدها القديم من الفتنة وجمال الصوت، ولذلك لم تعد زبيدة تجدها نحوها غيرة تذكر فوسّعها أن تجاملها دون مضض، خاصّة وأنها كانت بلغت ذروة حياتها، تلك الذروة التي لا خطوة بعدها إلّا نحو الانحدار. وكان الأصدقاء كثيراً ما يتساءلون عمّا إذا كانت جلييلة قد أعدت العدة لهذه المرحلة الخطيرة من الحياة، وكان رأي أحمد عبد الجواد أنّها لم تفعل، وأنهم بعض من عشقتهم بتبديد الكثرة من ثروتها، ولكنّه جاهر في الوقت ذاته بأنّها امرأة تعرف كيف تحصل على المال بأيّ سبيل، وأيّده على ذلك عليّ عبد الرحيم قائلاً:  
إنّها تتاجر بجمال نساء تحتها وإنّ بيتها يتحوّل رويداً رويداً إلى شيء آخر. أما زبيدة فقد انعقد إجماعهم على أنّها - رغم مهاراتها في ابتزاز الأموال - جوّادة مفتونة بالمظاهر التي تحرق المال حرقاً، إلى ولعها بالشراب والمخدّرات وخاصّة الكوكايين. قال محمد عفت مخاطباً زبيدة:  
- اسمحي لي بأن أبدي إعجابي بنظراتك الحلوة التي تخصّن بها بعضنا؟  
فضحكت جلييلة، وقالت بصوت خافت:

فقال عليّ عبد الرحيم:  
 - أنا أقول لكم سرّه، إنّه عرض من أعراض  
 الثورة، وآي ذلك أنّه لم يسمع به أحد قبل اشتعالها  
 وسألت جلييلة السيّد أحمد:  
 - وما أعراض الضغط؟  
 - صداع ابن كلب، وتعب في التنفّس عند  
 المشي...  
 فتمتعت زبيدة وهي تبتسم ابتسامة دارت بها شيئاً  
 من القلق:  
 - ومن يخلو ولو مرّة من هذه الأعراض؟ ما رأيكم  
 أنا عندي ضغط أيضاً...  
 فسألها أحمد عبد الجواد:  
 - من فوق أم من تحت؟  
 وضحكوا بلا استثناء زبيدة نفسها، حتّى قالت  
 جلييلة:  
 - ما دمت قد خبرت الضغط، فاكشف عليها لعلّك  
 تعرف علّتها!  
 فقال أحمد عبد الجواد:  
 - عليها أن تحضر القرية وعليّ أن أحضر المنفاخ!  
 فضحكوا مرّة أخرى، ثمّ قال محمّد عفت  
 كالمحتج:  
 - ضغط... ضغط... ضغط... لا نسمع الآن  
 إلّا الطبيب وهو يقول كأنّنا يأمر عبيده: لا تشرب  
 الخمر، لا تأكل اللحوم الحمراء، احذر البيض...  
 فتساءل أحمد عبد الجواد ساخراً:  
 - وماذا يصنع إنسان مثلي لا يأكل إلّا اللحوم  
 الحمراء والبيض ولا يشرب إلّا الخمر؟  
 فقالت زبيدة من فورها:  
 - كُل واشرب بالهنا والشفا، الإنسان طبيب نفسه،  
 وربّنا هو الطبيب...  
 ومع ذلك فقد اتّبع تعاليم الطبيب في الفترة التي  
 اضطرّ فيها إلى الرقاد، فلمّا نهض تناسى نصيح الطبيب  
 جملة وتفصيلاً. عادت جلييلة تقول:  
 - أنا لا أومن بالأطباء، ولكنّي أقيم لهم العذر فيما  
 يقولون ويفعلون، فإنّهم يتعيّشون من الأمراض كما  
 تتعيّش نحن العوالم من الأفراح، ولا غناء لهم عن  
 القرية والمنفاخ والأوامر والنواهي كما لا غناء لنا عن  
 الدفّ والعود والأغاني...  
 فقال السيّد بارتياح ومحاسن:  
 - صدقت، فالمرض والصحة والحياة والموت بأمر  
 الله وحده، ومن توكل على الله فلا يحزن...  
 إبراهيم الفار ضاحكاً:  
 - اشهدوا يا ناس على هذا الرجل، إنّه يشرب بفيه  
 ويفسق بعينه ويعظ بلسانه!  
 أحمد عبد الجواد مقهقهةً:  
 - لا عليّ من ذلك ما دمت أعظ في ماخورا...  
 عمّد عفت وهو يتفحص أحمد عبد الجواد، ويهرّ  
 رأسه متعجباً:  
 - وددت لو كان كمال بيننا لينتفع معنا  
 بوعظك!...  
 فتساءل عليّ عبد الرحيم:  
 - على فكرة، ألا يزال على رأيه من أنّ أصل  
 الإنسان هو القرد؟  
 فضربت جلييلة صدرها بيدها هاتفة:  
 - يا ندامتي!...  
 زبيدة في دهش:  
 - قرد؟!... (ثمّ كالستدركة) لعلّه يقصد أصله  
 هو!  
 قال لها السيّد محدّراً:  
 - وأثبت أيضاً أنّ المرأة أصلها لبؤة!  
 فقالت وهي تنهأه:  
 - ليتني أرى سليل القرد واللبؤة!  
 فقال إبراهيم الفار:  
 - سيكبر يوماً فيخرج عن عيط أسرته، ويقتنع بأنّ  
 البشر من آدم وحواء...  
 فبادره أحمد عبد الجواد:  
 - أو أحضره معي يوماً إلى هنا ليقتنع بأنّ الإنسان  
 أصله كلب!  
 وقام عليّ عبد الرحيم إلى المائدة ليملا الكئوس،  
 وهو يسأل زبيدة:

- أنت رجل رجعي، تتعلّق دائماً بالماضي... (ثمّ وهو يغمز بعينه)... ألسنت تصرّ على حكم بيتك بالحديد والنار حتّى في عهد الديمقراطية والبرلمان؟

السيد ساخراً:

- الديمقراطية للشعب لا للأسرة...

عليّ عبد الرحيم جاداً:

- أنظرن أنّه يمكن التحكّم بالطريقة القديمة في شبّان اليوم؟ هؤلاء الشبّان الذين اعتادوا القيام بالمظاهرات والوقوف في وجه الجنود؟

فقال إبراهيم الفار:

- لا أدري عمّا تتكلّم، ولكنّي متّفق في الرأي مع أحمد، كلانا أب للذكور، والله المستعان...

محمّد عقّت مداعباً:

- كلاكما متحمّس للحكم الديمقراطيّ باللسان ولكنكما مستبدّان في بيتكما...!

فقال أحمد عبد الجواد كالمحتجّ:

- أتريدني على ألاّ أبتّ في مسألة حتّى أجمع كمال وياسين وأمّ كمال، ثمّ نأخذ الأصوات؟!

فهاهنا زبيدة قائلة:

- لا تنس زنوبة من فضلك...

وقال إبراهيم الفار:

- إذا كانت الثورة هي سبب ما نعاني من أولادنا، فالله يسامح سعد باشا...

وتواصل الشرب والسمر والغناء والمزاح، وتعالّت الضجّة واختلطت الأصوات، وتقدّم الليل غير عابئ بشيء، وكان ينظر إليها فيجدها تنظر إليه أو تنظر إليه فتجده ينظر إليها، وقال لنفسه: إنّه ليس في هذا الوجود إلّا لذّة واحدة، وأراد أن يفصح عن فكرته ولكنّه لم يفصح، إمّا لأنّ حماسه للإفصاح فتر أو لأنّه لم يستطع، ولكن كيف جاء هذا... الفتور؟! وتساءل مرّة أخرى: أتكون لذّة ساعة أم معاشرة طويلة؟ ونزعت نفسه إلى الناس التسلية والعزاء، ولكنّ ثمة وشّ كأنّ أمواج النيل تمسّ في أذنيه، ومع ذلك فمتمتصّف الحلقة السادسة في متناول اليد، سلّ

- أنت أعرف منا بالسيد فإلى أيّ حيوان ترجعينه؟ فتفكرت قليلاً وهي تتابع يديّ عبد الرحيم وهما تصبّان الويسكي في الكئوس، ثمّ قالت باسمّة:

- الحمار!

فتساءلت جلييلة:

- ذمّ هذا أم مدح؟

فقال أحمد عبد الجواد:

- المعنى في بطن القاتل!

وعاودوا الشراب على أصفى حال، وتناولت زبيدة العود وغنّت «ارخي الستارة اللي في ربحنا».

وفي نشوة غامرة راح جسد أحمد عبد الجواد يرقص مع النغمة، رافعاً الكأس التي لم يبق فيها إلّا الثمالة أمام عينيه، ناظرًا خلالها إلى المرأة كأنّما يروم أن يراها بمنظار خريّ. وبرح الخفاء إن كان ثمة خفاء ووضح أنّ كلّ شيء - بين أحمد وزبيدة - قد عاد إلى قديمه، وردّدوا الغناء وراء زبيدة، فعلا صوت أحمد في طرب وسرور حتّى ختمت الأغنية بالتهليل والتصفيق. وما لبث محمّد عقّت أن قال لجلييلة:

- لمناسبة «الصبّ تفضحه عينه» ما رأيك في أمّ كلثوم؟

فقالت جلييلة:

- صوتها - والشهادة لله - جميل، غير أنّها كثيراً ما تصرّع كالأطفال!

- البعض يقولون إنّها ستكون خليفة منيرة المهدية، ومنهم من يقول بأنّ صوتها أعجب من صوت منيرة نفسها...

فهتفت جلييلة:

- كلام فارغ! أين هذه الصرصة من بحّة منيرة؟ وقالت زبيدة بازدرأ:

- في صوتها شيء يذكّر بالمقرئين، كأنّها مطربة بعمامة!

فقال أحمد عبد الجواد:

- لم أستطعهما، ولكن ما أكثر الذين يبيمون بها، والحقّ أنّ دولة الصوت زالت بموت سي عبده...

فقال محمّد عقّت مداعباً:

الحكماء كيف ينطوي العمر ونحن نندري دون أن الطبيب إنَّها أزمة ضغط، وحُجْم المريض فملاً طسْتاً من دمه، دم أسود كما قالت خديجة في وصفه نندري...

- ماذا أسكتك كفى الله الشر؟

- أنا؟... شوية راحة...

أجل ما أَلَدَّ الراحة! ضجعة طويلة تقوم بعدها كمال ذاهلاً كأنَّما يتساءل كيف تقع هذه الأمور الخطيرة صحيحاً، ما أَلَدَّ الصحة، ولكنهم يطاردونك ولا يدعون لك لحظة واحدة تنعم فيها بالسلام، وهذه النظرة أليست فاتنة ولكن همسات الأمواج تملو فكيف تسمع الغناء؟

- كسلاً، لن نتركه حتى يزف، ما رأيكم؟ يندري إلى تصوّر النهاية التي يخافها قلبه، تصوّر عالم لا يوجد فيه الأب، فضاق صدره وجزع قلبه، وتساءل في إشفاق كيف يمكن أن تتحمّل هذه النهاية أمه؟ إنَّها تبدو الآن كالمنتهية ولما يقع شيء، ثم وردت ذهنه ذكرى فهمي، فتساءل: أيمن أن ينسى هذا كما نسي الغورية...

- الزفة... الزفة!...

- قُم يا جلي...

- أنا؟... شوية راحة...

- الزفة... الزفة، كما حدث أول مرة في بيت الغورية... ذاك؟ وتراءت له الدنيا ظلمات فوق ظلمات.

- ذلك عهد قديم...

- نجدّه، الزفة... الزفة...

لا يرحمون، وذلك زمن خلا تحجبه عن عينيك وظلمات، ألا ما أكتف الظلام! وما أشدّ الوش! وما أغلظ النسيان!...

- انظروا!...

- ما له؟!...

- قليلاً من الماء... افتحوا النافذة!...

- يا لطيف يا رب...

- خير... خير، بلّ هذا المنديل بالماء البارد...

مضى أسبوع على «حادث» الأب، وكان الطبيب يزوره يومياً، وكانت الحال من الشدة بحيث لم يسمح لأحد بمقابلته، حتى الأبناء كانوا يتسلّلون إلى الحجرة على أطراف أصابعهم فيلقون بنظرة على الراقد متفحصين ما يكسو وجهه من ذبول واستسلام، ثم ينسحبون وفي الوجوه اكفهرار وفي الصدور انقباض، يتبادلون النظرات ويتهرّبون منها في ذات الوقت. قال

ما تعافه نفسه في مكان واحد هو فراشه. وكان نومه متقطّعاً، وكان ضجيره متصلاً، غير أنّ أول ما سأل عنه كان خاصاً بكيفية إحضاره إلى البيت مغشياً عليه، وأجابته أمينة بأنّه جيء به في خنطور مع صاحبه محمد عفت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار، وأنهم حملوه برفق إلى فراشه، ثم أحضروا له الطبيب رغم تأخّر الوقت. وسأل بعد ذلك باهتمام عن عوّاده فقالت له المرأة إنَّهم لا ينقطعون ولكنّ الطبيب منع المقابلة إلى

حين مرض وبرىء معه حين من الله عليه بالشفاء .  
فتطلق وجه الرجل الشاحب بالبشر وحدثهم طويلاً  
عن قضاء الله ورحمته ولطفه وأن على المؤمن أن يواجه  
مصيره بصبر وإيمان متوكلاً على الله وحده، وغادروا  
الحجرة إلى حجرة كمال - تخليين الصالة لمرور العمود  
المنتظر توافدهم - وهناك أقبل ياسين على أمينة، فشذ  
على يدها وهو يقول :

- لم أحدثك بما في نفسي طيلة الأسبوعين الماضيين،  
لأن مرض بابا لم يترك لي عقلاً أفكر به، أما الآن وقد  
أمر الله بالسلامة فأود أن أعتذر عن رجوعي إلى البيت  
دون استئذانك، الحق أنك استقبلتني بالعطف الذي  
عهدته منك في الأيام السعيدة الخالية، ولكن علي الآن  
أن أقدم فروض الاعتذار . . .

فتورد وجه أمينة وهي تقول بتأثر :

- ما فات فات يا ياسين، هذا بيتك تحمل فيه أهلاً  
وسهلاً حين تشاء . . .

فقال ياسين ممتناً :

- لا أحب أن أعود إلى الماضي، ولكن أحلف برأس  
أبي وحياة رضوان ابني أن قلبي لم يحمل قط سوءاً لأحد  
من أهل هذا البيت، وأني أحببتهم جميعاً كما أحب  
نفسي، ربما يكون الشيطان قد دفعني إلى خطأ، وكل  
إنسان عرضة لهذا، ولكن قلبي لم تشبه شائبة أبداً . . .  
فوضعت أمينة يدها على منكبه العريض، وقالت  
بإخلاص :

- كنت دائماً واحداً من أنساني، ولا أنكر أنني  
غضبت مرة، ولكن زال الغضب والحمد لله، فلم يبق  
إلا الحب القديم، هذا بيتك يا ياسين، أهلاً بك  
أهلاً . . .

وجلس ياسين ممتناً، فلما غادرت أمينة الحجرة، قال  
للحاضرين بلهجة خطابية :

- ما أطيب هذه المرأة، إن الله لا يغفر لمن يسيء  
إليها، لعن الله الشيطان الذي أورطني يوماً فيما جرح  
مشاعرها . . .

فقال له خديجة وهي تحدجه بنظرة ذات معنى :

- لا يكاد يمضي عام حتى يورطك الشيطان في

حين . وكان يردد بصوت خافت «الأمر لله من قبل  
ومن بعد» و «نسأل الله حسن الختام»، ولكن الحق أنه  
لم يستشعر اليأس، ولم يحس بدنو النهاية، ولم تضعف  
ثقته بالحياة التي يحبها رغم آلامه وخوفه، عاوده الأمل  
بمجرد عودة الوعي إليه، فلم يتحدث أحداً بحديث  
الراجلين كان يوصي أو يودع أو يعهد لمن يهّمه الأمر  
بأسرار عمله وثروته، وعلى العكس من ذلك استدعى  
جميل الحمزاوي وكلفه ببعض أعمال المبادلة التي لم يكن  
يعلم عنها شيئاً، كما أرسل كمال إلى خياطه البلدي  
بخان جعفر ليحضّر ملابس جديدة كان عهد بها إليه  
وليدفع ثمن خياطها، لم يكن يذكر الموت إلا بتلك  
العبارات يرددها كأنما يداري بها قسوة الأقدار. وعند  
ختام الأسبوع الأول صرح الطبيب بأن مريضه اجتاز  
المرحلة الدقيقة بسلام، وأنه لم يعد يلزمه إلا بعض  
الصبر كي يستردّ صحته كاملة ويستأنف نشاطه . وأعاد  
الطبيب على مسمعه ما سبق أن حذّره منه عند ارتفاع  
ضغطه أول مرة فوعده بالطاعة وعاهد نفسه صادقاً على  
الإقلاع عن الاستهتار بعد ما تبين له من عواقبه  
الوخيمة التي أقنعت به بأن الأمر جد لا هزل، وجعل  
يتعزى قائلاً: إن الحياة السليمة مع شيء من الحرمان  
خير على أي حال من المرض .

وهكذا مرت الأزمة بسلام، فاستردت الأسرة  
أنفاسها ولهجت قلوبها بالشكر، وعند نهاية الأسبوع  
الثاني سُمح للسيد بمقابلة عوّاده فكان يوم سعيد،  
وكانت أسرته أول من احتفل بهذا اليوم فزاره أبنائه  
وأصهاره وتحذّثوا إليه لأول مرة منذ الرقاد، وقلب  
الرجل عينيه في وجوههم - ياسين وخديجة وعائشة  
وإبراهيم شوكت وخليل شوكت - وراح بلباقته - التي  
لم تخنه في موقفه هذا - يسأل عن الأطفال رضوان وعبد  
المنعم وأحمد ونعيمة وعثمان ومحمد، فقالوا له: إنهم لم  
يحيثوا بهم حرصاً على راحته، ودعوا له بطول العمر  
وقام الصحة والعافية، ثم حدّثوه عن حزنهم لما ألم به  
وسرورهم بسلامته، تكلمت خديجة بصوت متهلج،  
وتركت عائشة على يده وهي تقبلها دمعة تغني عن كلّ  
بيان، أما ياسين فقال بزلاقة لسان: إنه مرض معه

مصيبة، كأنك لعبة في يديه...  
فنظر إليها بعين كأنما يتوسل إليها أن تعفيه من مباحة:

- زوّار من الأكابر!

لسانها، وإذا بعائشة تقول مدافعة عنه:

- ذاك تاريخ مضى وانتهى...

فتساءلت خديجة في تهكم:

- لمّ لم تأتِ معك بالدمام «لتُخَيِّ» لنا هذا اليوم المبارك؟

فقال ياسين في كبرياء مصطنع:

- لم تعد زوجتي تحيي أفرأحا بعد، إنها الآن سيّدة بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى...

فقال خديجة بلهجة جدّية، لا أثر للتهكم فيها:

- يا خسارتك يا ياسين، ربّنا يتوب عليك ويهديك...

قال إبراهيم شوكت، كأنما يعتذر عن صراحة زوجته:

- لا تؤاخذني يا سي ياسين، ولكن ما حيلتي إنّا أختك!

فقال ياسين بأسماً:

- كان الله في عونك يا سي إبراهيم!

وهنا قالت عائشة وهي تنتهد:

- الآن وقد أخذ الله بيد بابا، فإنّي أصارحكم بأنّي لن أنسى ما حبيت منظرة أول يوم رأيته، ربّنا لا يحكم على أحد بالمرض...

خديجة بصدق وحماس:

- هذه الحياة لا تساوي بدونه قلامة ظفر...

فقال ياسين بتأثر:

- إنّه ملاذنا عند كلّ شدّة، رجل ولا كلّ

الرجال...

وأنا؟ أتذكر موقفك بركن الحجرة وقد أطبق عليك اليأس؟ وكيف تقطّع قلبي وأنا أرى تهافت أني، نعرف الموت معنى من المعاني أمّا إذا هلّ ظلّه من بعيد فتدور بنا الأرض، ومع ذلك فستسوالى طعنات الألم بعدد من نفقد من الأحباء، وستموت أنت أيضاً مخلّقاً وراءك الآمال، والحياة رغبة ولو ابتليت بالحبّ. وتعالى من الطريق رنين جرس حنطور، فوثبت عائشة

وتتابع وصول العوّاد من الأصدقاء الكثيرين الذين امتلأت بهم حياة الأب، موظّفين وعاميين وأعيان وتجّار، وكانت منهم قلة لم تحي البيت من قبل، وآخرون لم يأتوا إلّا مدعّرين لبعض الولائم التي يولمها السيّد في المناسبات، وغير هؤلاء وأولئك رجال تُرى وجوههم كثيراً في الصاغة والسكّة الجديدة، والجميع أصدقاء ولكنهم ليسوا من طبقة محمّد عفت وصاحبيه. وقد مكثوا قليلاً مراعاة لظروف الزيارة، ولكنّ الأبناء وجدوا في مظاهرهم الفاخرة وعرباتهم ذوات الجياد المظّهمة ما أشبع خيالاتهم وزهوهم، وقالت عائشة وهي لا تزال بموقف المراقبة:

- ها هم الأحباب قد وصلوا...

وترامت أصوات محمّد عفت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار وهم يتصاحكون ويرفعون أصواتهم بالشكر والحمد، فقال ياسين:

- لم يعد في الدنيا أصدقاء مثل هؤلاء...

فأمن على قوله إبراهيم شوكت وبخيل، على حين قال كمال بحزن لم يفتن إليه أحد:

- قلّ أن تتيح الحياة لأصدقاء أن يجتمع شملهم طويلاً كما أتاحت هؤلاء!

وعاد ياسين يقول كالمتمعّب:

- لم يمرّ يوم دون أن يزوروا البيت، وما غادروه في

أيّام الشدّة إلّا والدموع في أعينهم...

فقال إبراهيم شوكت:

- لا تعجب، فقد عاشروه أكثر منكم أنتم!

وهنا ذهبت خديجة إلى المطبخ لتقدّم مساعداتها. أمّا تيار العوّاد فلم ينقطع، وقد جاء جميل الحمزاوي بعد أن أغلق الدكان، وتبعه غنيم حميدو صاحب معصرة الجماليّة، ثمّ محمّد العجمي بائع الكسكسي بالصالحية. وإذا بعائشة تهتف وهي تشير إلى الطريق من وراء النافذة:

- الشيخ متولّي عبد الصمد! ترى أيسطيع أن

يصعد إلى الدور فوقاني؟!

وراح الشيخ يقطع الفناء متوكِّئًا على عصاه،  
منتحنًا - من حين لآخر - لينبّه من في طريقه إلى  
حضوره. وأجاب ياسين:

- إنه يستطيع أن يصعد إلى قَمّة مثذنة... (ثمّ  
مجيئًا خليل شوكت الذي تساءل عن عمر الرجل بعينه  
وأصابه)... بين الثمانين والتسعين! ولكن لا تسل  
عن صحّته!...

وتساءل كمال:

- ألم يتزوَّج في حياته الطويلة؟

فقال ياسين:

- يقال إنه كان زوجًا وأبًا، ولكنّ زوجته وأبناءه  
انتقلوا إلى رحمة الله.

وهتفت عائشة مرّة أخرى، ولم تكن برحت موقفها  
من النافذة:

- انظروا! هذا خواجه! من يكون يا ترى؟...

كان يقطع الفناء ملقيًا على ما حوله نظرة متردّدة  
متسائلة، واضعًا على رأسه قُبعة مستديرة من الخوص  
لاح تحت حافتها أنف مجذور مقوَّس وشارب منقوش،  
فقال إبراهيم:

- لعلّه صائغ من تجار الصاغة!...

فتمتم ياسين في حيرة:

- ولكنّه يونانيّ السحنة، أين يا ترى رأيت هذا

الوجه؟!

وجاء شابّ ضريّر ذو نظّارة سوداء، يجرّه من يده  
رجل من أهل البلد ملثًّا بكوفيّة رافلاً في معطف أسود  
طويل يبرز من تحت طرفه جلباب مقلّم، فعرفهما  
ياسين - من أوّل نظرة - وهو من الدهش في نهاية: أمّا  
الشابّ الضريّر فكان عبده عازف القانون بتخت  
زبيدة، وأمّا الآخر فصاحب قهوة مشهورة بوجه البركة  
يدعى الهمايوني، فتوّه وبلطجي وبرجي الخ...،  
وسمع خليل وهو يقول:

- الضريّر قانونجيّ العالمة زبيدة!...

فتساءل ياسين متصنّعًا الدهش:

- وكيف عرف بابا؟

فابتسم إبراهيم شوكت وهو يقول:

- والدك من السّميعة القدامى، ولا غرابة في أن  
يعرفه جميع أهل الفنّ!...

وابتسمت عائشة دون أن تدبر رأسها المتّجه إلى  
الطريق لتداري ابتسامتها، ياسين وكمال رأيا ابتسامة  
إبراهيم وفطنا إلى ما وراءها. وأخيرًا جاءت سويدان  
جارية آل شوكت تتعزّز في خطوات الكبر، فتمتم خليل  
وهو يشير إليها «رسول أمّنا للسؤال عن السيّد».

وكانت حرم المرحوم شوكت قد زارت السيّد مرّة،  
ولكنّها لم تستطع أن تعيد الكرّة لما اعتراها في الأيام  
الأخيرة من آلام روماتيزميّة تحالفت مع الكبر عليها.  
وما لبثت خديجة أن عادت من المطبخ وهي تقول  
مبدية التشكّي مضمرة المباهاة:

- يلزمنا قهوجيّ ليقدم القهوة بنفسه!...

كان السيّد جالسًا في فراشه، مسند الظهر إلى  
وسادة منكسرة، ساحبًا الغطاء حتّى عنقه، على حين  
جلس العوّاد على الكنبّة والكراسيّ التي أحدثت  
بالفراش، وبدأ سعيّدًا رغم ضعفه، فلم يكن يسعده  
شيء كالتفاف الأصدقاء حوله وتسابقهم إلى مجاملته  
ورعاية عهده، وإذا كان قد بلاه المرض بالشرّ فإنّه  
ينكر حسنته فيسا وجد من جزع إخوانه لما أصاب  
وتحسّروهم على غيابه ومدى إحساسهم بالوحشة في  
مجالسهم أثناء اعتكافه، وكأنّما أراد أن يستزيد من  
العطف، فجعل يقصّ عليهم ما لاقى من آلام وسأم،  
واستباح في سبيل ذلك أن يهول ويبالغ، فقال متنهّدًا:  
- في الأيام الأولى من المرض اقتنعت فيما بيني وبين  
نفسي بأنّي انتهيت، فجعلت أنشّهد وأقرأ الصمديّة،  
وفيا بين هذا وذاك أذكركم كثيرًا فتقسو عليّ فكرة  
فراقكم...

فعلا أكثر من صوت قائلًا:

- لا كانت الدنيا بدونك يا سيّد أحمد!...

وقال عليّ عبد الرحيم بتأثّر:

- سترك مرضك هذا في نفسي أثرًا لن يزول مع

الأيّام...

وقال محمّد عتّ بصوت خافت:

هتف الشيخ متولي عبد الصمد، وهو يلتفت نحو الخواجا مسدداً نحوه بصراً لا يكاد يرى:

- الآن عرفتك يا وجه المصائب، عندما سمعت صوتك في المرة الأولى تساءلت أين سمعت هذا الشيطان؟

وسأل محمد العجمي بائع الكسكسي الخواجا مانولي، وهو يغمز بعينه ناحية الشيخ متولي:

- ألم يكن الشيخ متولي من زبائنك يا مانولي؟ فقال الخواجا باسماً:

- فمه ملآن بالطعام، فأين يضع الخمر يا حبيبي؟ وصاح عبد الصمد وهو يشد على مقبض عصاه:

- تأذّب يا مانولي!

فصاح به العجمي:

- أتتكر يا شيخ متولي أنك كنت أكبر حشاش قبل أن يقطع الكبر أنفاسك؟

فلوح الشيخ بيده محتجاً، وهو يقول:

- ليس الحشيش حراماً، أجريت صلاة الفجر وأنت مسطول؟ الله أكبر.. الله أكبر!

ووجد أحمد عبد الجواد الهايوني صامتاً، فالتفت إليه باسماً وهو يقول على سبيل المجاملة:

- كيف حالك يا معلّم؟ والله زمان!...

فقال الهايوني بصوت كالنعير:

- والله زمان زمان والله! أنت السبب يا سيّد أحمد

وأنت الهاجر، ولكن لما قال لي السيّد عليّ عبد الرحيم إنّ عدوك رافد ذكرت أيام الصبوات كأنها لم تنقطع،

وقلت لنفسي: لا كان الوفاء إن لم أزر بنفسي الرجل الحبيب، رجل المروءة والفرشة والأنس، ولولا الملامة

لجئت معي بفطومة وتملّي ودولت ونهاوند، كلّهن مشتاقات إلى رؤيتك، يا سلام يا سي أحمد، أنت أنت

سواء شرفتنا كلّ ليلة أم هجرتنا سنين!...

ثمّ وهو يجيل عينيه الحديديتين:

- هجرتمونا كلّكم، البركة في السيّد عليّ، ربّنا يخلّي

لنا سنّة القلي التي تجذبه إلينا، من فات قديمه تاه،

عندنا أصل الأنس، ماذا غيّبكم عنّا؟ لو كانت التوبة لعذرناكم، ولكنّ التوبة لم يثن أوانها، ربّنا يبعدها

- أتذكر تلك الليلة؟ ربّاه لقد شبيّتنا!...

فمال غنيم حميدو نحو الفراش قليلاً، وقال:

- نجّاك الذي نجّانا من الإنجليز ليلة بؤابة الفتوح!...

تلك الأيام السعيدة، أيام الصحة والعشق، وفهمي كان النجاة والأمل الموعود.

- الحمد لله يا سيّد حميدو!...

وقال الشيخ متولي عبد الصمد:

- إني أسألك كم أعطيت الطبيب بدون وجه حق؟

ولا داعي للجواب، ولكنّي أدعوك إلى إطعام أولياء الحسين...

فقاطعه محمد عفت متسائلاً:

- وأنت يا شيخ متولي، ألسنت من أولياء الحسين؟

وضّح هذه النقطة...

فاستطرد الشيخ - دون مبالاة - وهو يضرب الأرض بعصاه عقب كلّ عبارة:

- أطعم أولياء الحسين وأنا على رأسهم، أراد محمد

عفت أم لم يرد، وعليه هو أيضاً أن يطعمهم إكراماً لك، وأنا على رأسهم، وعليك أن تؤدّي فريضة الحجّ

هذا العام، وبأحبّذا لو أخذتني معك ليضاعف الله لك الجزاء...

ما أطيبك وأقربك إلى قلبي يا شيخ متولي، أنت من معالم الزمن.

- أعدك يا شيخ متولي بأن آخذك معي إلى الحجاز، إذا أذن الرحمن.

عند ذاك قال الخواجا، وكان قد خلع قبّعه عن شعر خفيف ناصع البياض:

- شويّة زعل، الزعل سبب كلّ شيء، اترك الزعل ترجع مثل البمب.

مانولي الذي باعك الخمر طيلة خمسة وثلاثين عاماً، بائع السعادة وسمسار القرافة.

- هذه عاقبة بضاعتك يا مانولي!

فنظر الخواجا في بقية وجوه الزبائن، وقال:

- لم يقل أحد إنّ الخمر تأتي بالمرض، كلام فارغ، الانبساط والضحك والفرشة تسبّب المرض!



بطول العمر والأفراح!

أحمد عبد الجواد وهو يشير إلى نفسه:

- ها أنت ترى أننا قد انتهينا!...

فقال المعلم بحماس:

- لا تقل هذا يا سيّد الرجال، وعكة وتمضي إلى غير

رجعة، لن أتركك حتّى تنذر أن تعود إلى وجه الدركة -

ولو مرّة - إذا أخذ الله بيدك وقمت بالسلامة!...

فقال محمّد عفت:

- الزمن تغير يا معلّم همايوني، أين وجه البركة

الذي عرفناه قديمًا؟ ابحت عنه في التاريخ، أمّا ما بقي

منه فمراح الشبان من أهل اليوم، كيف نسير بينهم

وفيهم أبناؤنا؟

وقال إبراهيم الفار:

- ولا تنس أننا لا نستطيع أن نغالط ربّنا في العمر

والصحة، انتهينا كما قال سي أحمد، ما منّا إلّا من

اضطرّ إلى زيارة الطبيب ليقول له عندك وعندك، لا

تشرب... لا تأكل... لا تنفّس، وغير ذلك من

الوصايا المقرّفة، ألم تسمع عن مرض الضغط يا معلّم

همايوني؟

فقال المعلّم وهو يحدّجه بنظرة:

- داو أيّ مرض بسكرة وضحكة ولعبة، وإن

وجدت له أثرًا بعد ذلك الزقه في كبدي!

فصاح مانولي:

- قلت له هذا وحياتك أنت!

وقال محمّد العجمي، كأنما يُتمّ ما بدأ صاحبه:

- ولا تنس المنزل الأصيل يا معلّم...

فهزّ الشيخ متولّي عبد الصمد رأسه متعجّبًا،

وتساءل في حيرة:

- دلّوني يا أهل الخبر أين أنا، أفي بيت ابن عبد

الجواد أم في غرزة أم في حانة؟ دلّوني يا هو!...

تساءل همايوني وهو يرمق الشيخ متولّي شزّرًا:

- من صاحبكم؟

- وليّ كلّ خير...

فقال له متهمّكًا:

- اقرأ لي الطالع إن كنت وليّا!

فهتف متولّي عبد الصمد:

- إمّا السجن وإمّا المشنقة!...

فلم يتالك همايوني من أن يضحك عاليًا، ثمّ

قال:

- حقًّا إنّه وليّ، فهذه هي النهاية المتوقّعة (ثمّ مخاطبًا

الشيخ) لكن اضبط لسانك، وإلّا حققت بك

نبوءتك!...

علّي عبد الرحيم، وهو يقرب رأسه من وجه

السيد:

- قم يا حبيبي، الدنيا لا تساوي قشرة بصلّة من

غيرك، ماذا جرى لنا يا أحمد؟ أترى أنّه يحسن بنا ألا

نستهين بالمرض بعد ذلك؟ كان آباؤنا يتزوّجون وهم

فوق السبعين، فماذا جرى؟!

متولّي عبد الصمد بعنف تطاير معه الرذاذ من فيه:

- كان آباؤكم مؤمنين طاهرين، لم يسكروا ولم

يفسقوا، في هذا الجواب الذي تريد...

وأجاب أحمد عبد الجواد صديقه قائلاً:

- قال لي الطبيب إنّ التباذي في الاستهانة مع

الضغط عاقبته الشلل والعياذ بالله. هذا ما وقع

لصاحبنا الوديني أكرمه الله بحسن الختام، إنّي أسأل

الله إذا حمّ القضاء أن يكرمني بالموت، أمّا الرقاد

أعوامًا بلا حراك...! اللهمّ رحمتك!

وهنا استأذن العجمي وحيدو ومانولي في

الانصراف، وذهبوا وهم يدعون للسيد بالصحة

والعمر المديد. ومال محمّد عفت على السيد، ثمّ همس

بصوت هامس:

- جلييلة تقرّئك السلام، وكم ودّت لو تراك

بنفسها!...

فالتقطت أذن عبده القانونجي مقالته، ففرقع

بأصابعه، وقال:

- وأنا مبعوث السلطنة إليك، وقد كادت أن تنزّي

بزيّ الرجال لتحضر إليك بنفسها لولا أن أشفقت

عليك من العواقب غير المتوقّعة، فأرسلتني وقالت لي

قل له:

وتنحنح مرّة ثمّ مرّة، وغنّى بصوت خافت:

الحسين والصلاة في مسجده شكراً لله . وكان نبأ وفاة عليّ فهمي كامل فد نشر في الصحف، فتأمله السيد أحمد طويلاً وخاطب ابنه - وهم يغادرون البيت - قائلاً: - سقط ميتاً وهو يخطب في جمع حافل، وها أنا أسعى على قدمي بعد رقاد كدت أرى فيه الموت رؤية العين، فمنذا يستطيع أن يعلم الغيب؟! حقاً إنّ الأعمار بيد الله، وإنّه لكلّ أجل كتاب. . .

كان عليه أن يصبر أياماً وأسابيع حتّى يستردّ وزنه، غير أنّه بدا رغم ذلك مستوفياً أي وقاره وجماله. وقد سار في المقدّمة وتبعه ياسين وكمال. وهو منظر لم يُرَ بهيئته الكاملة منذ وفاة فهمي. وفي الطريق ما بين بين القصرين والجامع لمس الشبان المكائنة التي يحظى بها أبوهما في الحيّ كلّهُ، فما من تاجر من أصحاب الدكاكين القائمة على جانبي الطريق إلّا وقد صافحه وتلقاه بين ذراعيه وهو يهنّئ بالسلامة. واستجابت نفسا ياسين وكمال لهذه المودة الحارة المتبادلة، فملكهما السرور والزهو وارتسمت على ثغريهما ابتسامة لم تفارقهما طوال الطريق، غير أنّ ياسين تساءل في براءة: لم لم يحظ بمثل مكانة أبيه وكلاهما في الجلال والجمال والعيوب سواء؟! أمّا كمال فبالرغم من تأثره الوقتيّ استدعى أفكاره الغابرة عن هذه المكائنة المرموقة ليسيرها بعين جديدة. كانت في الماضي تتمثّل لعينه الصغيرتين آية للجلال والعظمة أمّا الآن فإنّه يراها لا شيء أو لا شيء بالقياس إلى مثله العليا، ما هي إلّا المكائنة التي يحظى بها رجل طيّب القلب لطيف المعشر جمّ المروءة، والعظمة شيء قد يناقض ذلك كلّ المناقضة، فهي دويّ يزلزل قلوب الحاملين ويطيّر النوم عن أعين الراقدين، وهي عسيّة بأن تستثير الكراهية لا الحبّ، والسخط لا الرضى، والعداوة لا المودة، إنّها الكشف والهدم والبناء، ولكن أليس من السعادة أن ينعم الإنسان بمثل هذا الحبّ والإجلال؟ بلى وأي ذلك أنّ عظمة العظماء تقاس أحياناً بمقدار تضحيّتهم بالحبّ والطمأنينة في سبيل أهداف أسمى، على أيّ حال هو رجل سعيد فليهنأ بسعادته. انظر إليه ما أجمله! كذلك ياسين ما لطفه! وما أعجب منظري

أمانة يا رايح يته تبوس لي الحلو من فمه  
وقل له عبدك المغرم ذليل  
فابتسم الهمايوني كاشفاً عن طاقم ذهبيّ، وقال:  
- نعم الدواء، جرّب هذا ولا تلقِ بالألّا إلى وليّ الله  
المتنبّي بالمشانق.  
زبيدة؟! لا شوق بي إلى شيء. دنيا المرض شيء  
كريح، ولو وقع المحذور لمثّ سكران، ألا يعني هذا أنّه  
لا بدّ من صفحة جديدة؟!

وقال له إبراهيم الفار بصوت خافت:  
- تعاهدنا على ألاّ ندوق الخمر وأنت راقد. . .  
- إني أعفيتكم من تعهّدكم، وسأحوي عمّا فات!  
عليّ عبد الرحيم مبتسماً في إغراء:  
- لو كان في الإمكان أن نحفل هنا الليلة بشفائك!  
متولّي عبد الصمد موجّها خطابه للجميع:  
- أدعوكم إلى التوبة والحجّ. . .  
الهمايوني محقّقاً:  
- كائنك عسكريّ في غرزة.  
وبإشارة متوقّ عليها من الفار، تقاربت رءوس  
محمد عفت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار فوق رأس  
السيد، وراحوا يثنون بصوت خافت:  
أمّا إنت مش قدّ الخمرة بس تسكرليه.  
على نعمة:

أمّا إنت مش قدّ الهوى بس تعشقليه.  
على حين جعل الشيخ متولّي عبد الصمد يتلو آيات  
من سورة التوبة، أمّا أحمد عبد الجود فقد أغرق في  
الضحك حتّى دمعت عيناه، ومزّ الوقت بلا حساب  
حتّى بدا في وجه الشيخ متولّي عبد الصمد الجزع،  
فقال:

- ليكن في معلومكم أنّي آخر من سيخادر هذه  
الحجرة، لأنّي أريد أن أدخل إلى ابن عبد الجواد. . .

#### - ٤٣ -

غادر أحمد عبد الجواد البيت بعد أسبوعين آخرين،  
فكان أوّل ما فعله أن صحب ياسين وكمال إلى زيارة

بينهما كَأَنِّي صورة تنكّرت في كرنفال، ازعج ما شاء لك الزعم أَنَّ الجمال حلية النساء لا الرجال فلن يحو هذا من ذاكرتك موقف الكشك الرهيب. وقد برئ أبي من الضغط فمضى أبرأ من الحب؟ والحب مرض غير أنه كالسرطان لم تُكتشف جرثومته بعد. إِنَّ حسين شدّاد يقول في رسالته الأخيرة: «إِنَّ باريس عاصمة الجمال والحب» فهل هي أيضًا عاصمة العذاب. وقد بدأ العزيز يخل برسالته كأنما يقطرها من دمه الغالي، أريد عالمًا لا تُخدع فيه القلوب ولا تُخدع.

عند منعطف خان جعفر لاح لهم الجامع الكبير، فسمع أباه وهو يقول من الأعماق بصوت جمع بين رقة التحية وحرارة الاستغاثة «يا حسين» ثم حث خطاه فتبعه ياسين وهو ينظر إلى الجامع وعلى شفثيه ابتسامة غامضة. أيدور بخلد أبيه أنه لم يتبعه إلى هذه الزيارة المباركة إلّا استجابة لرغبته هو دون أدنى مشاركة في عقيدته؟! أمّا هذا الجامع فلم يعد في نظره إلّا رمزًا من رموز الخيبة التي ابتلي بها قلبه. كان في الماضي يقف تحت مثننته وقلبه خفاق ودمعه متحفّز وصدرة مرتعش لجيشات الوجد والإيمان والأمل، واليوم يقترب منه وهو لا يراه إلّا مجموعة ضخمة من الأحجار والحديد والخشب والطلاء تحتل مساحة واسعة من الأرض بغير وجه حق! بيد أنه لا مناص من تمثيل دور المؤمن حتى تنتهي الزيارة رعاية لحقوق الأبوّة واحترامًا للناس أو اتقاء لشُرهم، وهو سلوك ينافي الكرامة والصدق، أريد عالمًا يعيش فيه الإنسان حرًا بلا خوف ولا إكراه!

عند منعطف خان جعفر لاح لهم الجامع الكبير، فسمع أباه وهو يقول من الأعماق بصوت جمع بين رقة التحية وحرارة الاستغاثة «يا حسين» ثم حث خطاه فتبعه ياسين وهو ينظر إلى الجامع وعلى شفثيه ابتسامة غامضة. أيدور بخلد أبيه أنه لم يتبعه إلى هذه الزيارة المباركة إلّا استجابة لرغبته هو دون أدنى مشاركة في عقيدته؟! أمّا هذا الجامع فلم يعد في نظره إلّا رمزًا من رموز الخيبة التي ابتلي بها قلبه. كان في الماضي يقف تحت مثننته وقلبه خفاق ودمعه متحفّز وصدرة مرتعش لجيشات الوجد والإيمان والأمل، واليوم يقترب منه وهو لا يراه إلّا مجموعة ضخمة من الأحجار والحديد والخشب والطلاء تحتل مساحة واسعة من الأرض بغير وجه حق! بيد أنه لا مناص من تمثيل دور المؤمن حتى تنتهي الزيارة رعاية لحقوق الأبوّة واحترامًا للناس أو اتقاء لشُرهم، وهو سلوك ينافي الكرامة والصدق، أريد عالمًا يعيش فيه الإنسان حرًا بلا خوف ولا إكراه!

عند منعطف خان جعفر لاح لهم الجامع الكبير، فسمع أباه وهو يقول من الأعماق بصوت جمع بين رقة التحية وحرارة الاستغاثة «يا حسين» ثم حث خطاه فتبعه ياسين وهو ينظر إلى الجامع وعلى شفثيه ابتسامة غامضة. أيدور بخلد أبيه أنه لم يتبعه إلى هذه الزيارة المباركة إلّا استجابة لرغبته هو دون أدنى مشاركة في عقيدته؟! أمّا هذا الجامع فلم يعد في نظره إلّا رمزًا من رموز الخيبة التي ابتلي بها قلبه. كان في الماضي يقف تحت مثننته وقلبه خفاق ودمعه متحفّز وصدرة مرتعش لجيشات الوجد والإيمان والأمل، واليوم يقترب منه وهو لا يراه إلّا مجموعة ضخمة من الأحجار والحديد والخشب والطلاء تحتل مساحة واسعة من الأرض بغير وجه حق! بيد أنه لا مناص من تمثيل دور المؤمن حتى تنتهي الزيارة رعاية لحقوق الأبوّة واحترامًا للناس أو اتقاء لشُرهم، وهو سلوك ينافي الكرامة والصدق، أريد عالمًا يعيش فيه الإنسان حرًا بلا خوف ولا إكراه!

دخلوا أحذيتهم ودخلوا تباغًا، فأنجبه الأب إلى المحراب ودعا ابنه إلى الصلاة تحية للمسجد، ثم رفع يديه إلى رأسه مقيمًا الصلاة فائتًا به. استغرق الأب في الصلاة كمعادته فأرخى جفونه وامتلأ، ونسي ياسين كلّ شيء إلّا أنه بين يدي الله الغفور الرحيم. وجعل هو يحرك شفثيه دون أن يقول شيئًا، وانحنى واستوى ثم ركع وسجد وكأنه يؤدّي بعض الحركات الرياضية الفاترة، وقال لنفسه: إِنَّ أقدم الآثار المتخلفة على وجه الأرض أو في باطنها معابد وحتى اليوم لا يخلو منها

دوهم إلى أقصى الأرض؟  
ولمّا فرغوا من صلاتهم، قال الأب:  
- لنمكث قليلًا قبل أن نقوم للطواف.  
وظلّوا متربّعين صامتين، حتى عاد الأب يقول بصوت رقيق:  
- لم نجتمع هنا منذ ذلك اليوم!  
فقال ياسين بتأثر:  
- الفاتحة على روح فهمي...  
وتليت الفاتحة، ثم سأل الأب ياسين فيما يشبه الارتياح:  
- ترى هل شغلّتك أمور الدنيا عن زيارة الحسين؟  
فقال ياسين الذي لم يزر الجامع طوال هذه الأعوام إلّا مرّات معدودات:  
- لا يمكن أن يمرّ أسبوع دون أن أزور سيدي!  
فالتفت الأب نحو كمال، ورمقه بنظرة كأنما تسأله «وأنت؟»، فقال كمال وهو يجد استحياء:

- وأنا كذلك!  
فقال الأب بخشوع:  
- إنّه حبيبنا وشفيعنا إلى جدّه يوم لا ترجى فيه أم ولا أب...  
قام من المرض هذه المرّة - بعد أن ألقى عليه درسًا لا يُنسى - وهو يؤمن ببطشه ويخاف عواقبه فصدمت نيّته على التوبة، وقد كان يؤمن دائمًا بأنّ التوبة آتية مهما طال بها الانتظار، فافتنع بأنّ تأجيلها بعد ذلك ضرب من السفه والكفر بنعمة الله الرحيم. وكان كلّما

طافت به ذكريات اللّهُ تعزّى بما ينتظره في حياته من مسرّات بريئة، كالصداقة والطرب والفكاهة، لذلك دعا الله أن يحفظه من وساوس الشيطان وأن يثبت قدميه فيها اعتزم من توبة وراح يتلو ما تيسر من السور القصار التي يحفظها.

في مقام الحمد والتوبة أمام ضريح الحسين. وقد بعث ذلك ياسين على التفكير في مستقبل أبيه، فتساءل: ترى هل يعود إلى مسرّاته المعروفة بعد ما كان من أمر المرض معه...؟ وقال لنفسه: «إن معرفة ذلك عندي من الدرجة الأولى من الأهمية».

#### - ٤٤ -

وتنهض فنهضا وراه، ثم مضوا إلى الضريح، وهناك استقبلهم عرف طيّب يذكو في المكان وغمغمة تلاوات تهمس في الأركان، فطافوا بالضريح بين جموع الطائفين، وارتفعت عينها كمال إلى العمامة الكبيرة الخضراء، ثم استقرّت ملياً فوق الباب الخشبي الذي طالما لثمته شفته. فبقارن بين عهد وعهد، وحال وحال، وذكر كيف انجلى سرّ هذا القبر عن أول مأساة في حياته، ثم كيف تتابعت المآسي بعد ذلك غير مبقية على حبّ أو عقيدة أو صداقة، وكيف أنّه رغم ذلك كلّ لا يزال واقفاً على قدميه، يرنو إلى الحقيقة رنو العابد، غير آبه لطعنات الألم، حتّى المرارة انداحت على شفثيه فارتسمت ابتسامة، أمّا السعادة العمياء التي تضيء وجوه الطائفين من حوله فقد نبذها غير آسف، وكيف يشترى السعادة بالنور وقد عاهد نفسه على أن يعيش مفتّح العينين، مؤثراً القلق الحيّ على الطمأنينة الخاملة، وبقطة السهاد على راحة النوم.

كانت أم حنفي متربّعة على الحصيرة بالصالة، بينما جلست نعيمة ابنة عائشة وعبد المنعم وأحمد ابنا خديجة على الكنبه قبالتها. وكانت النافذتان المطلتان على فناء البيت مفتوحتين ليلطفا من جوّ أغسطس المفعم بالحرارة والرطوبة، غير أنّه لم تكد تهفو نسمة واحدة فظلّ المصباح الكبير المتدلي من السقف يرسل نوره على الصالة وهو ثابت، أمّا الحجرات فبدت مظلمة صامتة. وكانت أم حنفي خافضة الرأس، شابكة ذراعها فوق صدرها، ترفع عينيها إلى الصغار الجالسين على الكنبه لحظة ثم تغمضها، ولم تكن تتكلّم ولكنّ شفثيها لم تتوقفا عن الحركة، وتساءل عبد المنعم:

- إلى متى يبقى خالي كمال فوق السطح؟

فتمتمت أم حنفي:

- الجوّ حارّ هنا، لم يبقوا معه؟

- الدنيا ظلام، ونعيمة تخاف الحشرات.

وهنا قال أحمد في ضجر:

- إلى متى نبقى هنا؟ هذا هو الأسبوع الثاني، إنّي

أعدّ الأيّام يوماً يوماً، وأريد أن أعود إلى بابا وماما...

أم حنفي برجاء:

- إن شاء الله تعودون جميعاً وأنتم على أسعد حال،

ادعوا الله فإنّه يستجيب للصغار الأطهار...

فقال عبد المنعم:

- إننا ندعوه قبل النوم وعقب الاستيقاظ كما

توصيننا...

فقال المرأة:

- ادعوه في كلّ وقت، ادعوه الآن، هو وحده القادر

على كشف غمّتنا...

ولمّا فرغوا من طوافهم دعاهما الأب إلى الجلوس ملياً في مثنوى الضريح، فاتّجهوا إلى ركن وجلسوا متقاربين، ولمح السيّد بعض معارفه، فأقبلوا عليه مصافحين مهثئين، وجالسه نفر منهم، وكان أكثرهم يعرفون ياسين - إمّا عن طريق دكان والده وإمّا عن طريق مدرسة النحاسين - أمّا كمال فلم يكده يعرفه أحد منهم، وقد لفتت نحافته أنظار بعضهم فداعب السيّد قائلاً:

- ما لابتك هذا كالبرص؟

فبادره السيّد قائلاً، وكأنّه يردّ تحية بأحسن منها:

- أنت الأبرص!

وابتسم ياسين، وابتسم كمال، وكان أول مرّة يطلع فيها على شخصيّة أبيه «السريّة» التي سمع عنها الكثير. هكذا بدا الأب رجلاً لا تفوته النكتة حتّى وهو

سي عبد المنعم وسي أحمد ليلعبا معك، وخالك كمال يحبك قد عينيه، وستعودين قريباً إلى ماما وبابا وعثمان ومحمد... لا تبكي يا ستي الصغيرة وادعي لبابا وأخويك بالشفاء...

أحمد متأقفاً:

- أسبوعان عددتها على أصابعي، ثم إن شققتنا في الدور الثالث والمرض في الدور الثاني، لم لا نعود إلى شققتنا ونأخذ معنا نعيمة؟  
أم حنفي كالمحدرة وهي تضع أصبعها على شفيتها:

- سيغضب خالك كمال إذا سمع بما قلت، إنه يشتري لكم الشكولاتة واللّب، فكيف تقول إنك لا ترغب في البقاء معه؟ لم تعودوا صغاراً، أنت يا سي عبد المنعم ستدخل المدرسة الابتدائية بعد شهر، وكذلك أنت يا نعيمة!

فقال أحمد متراجعاً بعض الشيء:

- دعونا على الأقل نخرج لنلعب في الطريق!  
فأمن عبد المنعم على الاقتراح قائلاً:  
- كلام معقول يا أم حنفي، لم لا نخرج إلى الطريق لنلعب؟

فقالت أم حنفي بحزم:

- عندكم الفناء وهو يسع الدنيا والآخرة، وعندكم السطح أيضاً، ماذا تريدون أكثر من ذلك؟ كان سي كمال وهو صغير لا يلعب إلا في البيت، وعندما أفرغ من شغلي أقص عليكم الحكايات... ألا تحبون ذلك؟

أحمد محتجاً:

- أمس قلت لنا إن حكاياتك انتهت!  
نعيمة وهي تحقّف عينها:  
- خالتي خديجة عندها حكايات أكثر، وأين ماما لنغني معاً؟

أم حنفي باستعطاف:

- طالما رجوتك أن تغني لنا وأنت ترفضين!  
- لا أغني هنا! لا أغني وعثمان ومحمد مرضى...  
المرأة وهي تنهض:

وبسط عبد المنعم راحتيه، ثم نظر إلى أحمد داعياً إيّاه إلى مشاركته، ففعل الآخر مثله دون أن يزايل الضجر وجهه، ثم قالاً معاً كما تعودا أن يقولاً في الأيام الأخيرة:

- يا رب اشفِ عمنا خليل، وعثمان ومحمد ابني عمنا، حتى نعود إلى بيتنا مجبورين الخاطر...

وبدا التأثير في وجه نعيمة فأرخت أساريرها في حزن واغترورت عينها الزرقاوان بالدموع، وهتفت:

- بابا وعثمان ومحمد كيف حالهم؟ وماما أريد أن أراها، أريد أن أراهم جميعاً...

فتحوّل عبد المنعم إليها قائلاً بصوت المواسي:

- لا تبكي يا نعيمة. قلت لك كثيراً لا تبكي، عمي بخير، عثمان بخير، محمد بخير، وسنعود قريباً إلى بيتنا، جدتي تؤكد هذا، وخالي كمال أكدّه أيضاً منذ قليل...

فقالت نعيمة وهي تجهش في البكاء:

- كلّ يوم أسمع هذا، ولكنهم لا يسمحون لنا بالعودة إليهم، أريد أن أرى بابا وعثمان ومحمد، أريد ماما...

قال أحمد بتذمر:

- أنا أريد بابا وماما أيضاً...

عبد المنعم:

- سنعود عندما يشفون.

هتفت نعيمة بجزع:

- لنعد الآن، أريد أن أرجع، لم يبعدونا عنهم؟

فأجابها عبد المنعم:

- إنهم يخافون أن نشم المرض!

قالت نعيمة بعناد:

- ماما هناك، وخالتي خديجة هناك، وعمي إبراهيم هناك، وجدتي هناك، فلماذا لا يشمون المرض؟

- لأنهم كبار!...

- إذا كان الكبار لا يشمون المرض، فلماذا مرض

بابا؟...

تنهدت أم حنفي، وقالت برقة:

- هل ضايقتك شيء؟... هذا بيتك أيضاً، وما هو

أشهر؟ وما هو أبوه يسعى في كامل صحته وعافيته، وقد استردت عضلاته قوتها، وعيناه بريقهما الجذاب، ثم رجع إلى أصحابه وأحبابه كما يرجع الطير إلى الشجرة الغناء، فمنذا يعترض على أنه يمكن أن يتغير كل شيء في غمضة عين؟!

- أنت هنا وحدك؟

عرف كمال الصوت، فقام متلفتًا صوب باب السطح، ومدّ يده للقدام وهو يقول:

- كيف حالك يا أخي؟ تفضل...

وقدّم له مقعدًا، فتنفس ياسين تنفسًا عميقًا ليعيد إلى رثيته توازنها الذي اضطرب بصعود السلم، فامتلاً صدره بشذا الياسمين، ثم جلس وهو يقول:

- الأولاد ناموا، وأمّ حنفي نامت كذلك...

فسأله كمال وهو يتخذ مجلسه مرة أخرى:

- مساكين، لا يستريحون ولا يريحون، كم الساعة الآن؟

- في الحادية عشرة، الجوّ هنا اللطيف من الطريق بكثير...

- وأين كنت؟!

- متردّدًا ما بين قصر الشوق والسكرية، وعلى فكرة والدتك لن تعود الليلة...

- سويدان أبلغتني ذلك، ماذا جدّ؟ كنت من القلق في نهاية...

ياسين وهو يتنهد:

- كلنا في القلق سواء، وربّنا عنده اللطف، والدك هناك أيضًا...

- في هذه الساعة؟!

- تركته في البيت... (ثمّ مستطرّدًا بعد قليل)...

كنت في السكرية حتّى الثامنة مساء، وإذا برسول يحضر من قصر الشوق ليخبرني بأنّ زوجي قد جاءها الطلق، فذهبت من فوري إلى أمّ عليّ الداية ومضيت بها إلى البيت حيث وجدت زوجي في رعاية بعض الجارات، ومكثت هناك ساعة غير أنّي لم أطق سماع الأنين والصراخ طويلاً، فعدت إلى السكرية مرة أخرى فوجدت والدك جالسًا مع إبراهيم شوكت...

- ساجّهز لكم العشاء ثمّ ننام، جبن ويطيخ وشام، هه؟!

كان كمال جالسًا على كرسيّ في جانب السطح المكشوف فيما يلي سقيفة الياسمين واللبلاب، لا يكاد يرى في الظلام لولا جلبابه الأبيض الفضفاض، وكان ماذا ساقبه في استرخاء، مصعدًا رأسه إلى الأفق المرصع بالنجوم، مستغرقًا في التفكير، يكتنفه صمت لا يكدّره شيء إلّا أن يرتفع صوت من الطريق أو تنبعث قوّة عن حجرة الدجاج، وكان في وجهه أثر نما طرا على الأسرة في الأسبوعين الأخيرين، فقد اختلّ نظام البيت المعهود واختفت منه أمّه إلّا في أوقات نادرة، وتشبّع جوّه بتدّثر المساجين الصغار الثلاثة الذين يهيمون في رجاّته متسائلين عن «بابا» و«ماما» حتّى أعيته الخيل في ملاطفتهم وملاعبتهم.

أمّا في السكرية فإنّ عائشة لم تعد تغني وتضحك كما قيل كثيرًا عنها، ولكنّها تقضي الليل ساهرة بين أسرة المرضى الأعزّاء، زوجها وطفليها، وكم تمّنى صغيرًا لو تعود عائشة إلى بيتها القديم، وكم يشفق اليوم من أن تضطرّ إلى العودة مهيضة الجناح كسيرة القلب، وأمّا أمّه فهمس في أذنه «لا تزر السكرية، وإذا زرتها فلا تمكث طويلاً» وإنّه ليزورها من حين لآخر، ثمّ يغادرها تفوح من راحته رائحة المطهّرات الغربية ويستحوذ القلق على فؤاده، وأعجب شيء أنّ جرائيم التفود - كسائر الجرائيم - آية في الضالة، لا تراها العين، ولكنّها تستطيع أن توقف تيار الحياة، وأن تتحكّم في مصير العباد، وأن تشبّت إذا أرادت الأسرة. محمّد المسكين كان أول المرضى، ثمّ تبعه عثمان، وأخيرًا - وعلى غير توقّع - وقع الأب، والليلة جاءت الجارية سويدان لتخبره بأنّ أمّه ستبيت في السكرية، ثمّ قالت - عن أمّه وعن نفسها - إنّه ليس ثمة ما يدعو إلى القلق! إذن لم تبيت الأمّ في السكرية؟ ولمّ ينقبض صدره؟ على أنّه - رغم هذا كله - من الممكن أن يصفو الجوّ في غمضة عين، فيشفى خليل شوكت وطفلاه العزيزان، ويتألّق وجه عائشة ويضيء، وهل نسي كيف ابتلي بيته بمثل هذه المحنة منذ ثمانية

تلاقيه بالابتسام إذا تصدّيت له دواءًا بالتأمل الصادق  
والفهم الصحيح والتجرّد الأصيل، ذلك هو الانتصار  
على الحياة والموت معًا، ولكن أين من عائشة ذلك  
كلّهُ؟!

- رأسي يدور يا أخي!  
فقال ياسين بلهجة الحكيم، ولأوّل مرّة فيما سمع  
كها:!

- هذه هي الدنيا، ويجب أن تعرفها على  
حقيقتها...

ثمّ قام فجأة وهو يقول:

- يجب أن أذهب الآن...

فقال كمال كالمستغيث:

- ابقى معي بعض الوقت...

ولكنّه قال كالمعتذر.

- الساعة الحادية عشرة، ويجب أن أذهب إلى قصر  
الشوق لأطمئنّ على زُنبوبة، ثمّ أعود إلى السكّرية  
لأكون إلى جانبهم، لن أنام من الليل فيما يبدو ساعة  
واحدة، والله أعلم بما ينتظرنا غدًا...

فقام كمال وهو يقول في جزع:

- إنك تتكلّم كما لو كان كلّ شيء قد انتهى،

سأذهب من فوري إلى السكّرية...

- بل يجب أن تبقى مع الأطفال حتّى مطلع النهار،  
وحاول أن تنام ولّا نندمت على مصارحتي إيّاك  
بالحقيقة!

وغادر ياسين السطح فتبعه كمال ليوصله إلى باب  
البيت، وعندما مرّا بالدور الأعلى حيث ينام الأطفال،  
قال كمال بأسف:

- يا لهم من مساكن هؤلاء الأطفال، وشدّ ما بكّت  
نعيمه في الأيام الأخيرة كأنّ قلبها حدّس ما  
هنالك...

فقال ياسين باستهانة:

- الأطفال سرعان ما ينسون، ادعُ بالرحمة

للكبار...

ولمّا خرجا إلى الفناء، ترامى إليهما من الطريق

- ماذا يعني هذا، خبرني بما عندك...

ياسين بصوت منخفض:

- الحال خطيرة جدًّا...

- خطيرة؟!

- نعم، جئت إلى هنا لأريح أعصابي قليلاً، ألم تجد  
زُنبوبة ليلة تلد فيها إلّا هذه الليلة؟ لشدّ ما تعبت بين  
قصر الشوق والسكّرية، وبين الداية والدكتور، والحال  
خطيرة، وقد نظرت حرم المرحوم شوكت في وجه ابنها  
وهتفت «أمان يا رب... كان يجب أن تأخذني قبله!»  
فانزعجت أمك انزعاجاً شديداً، ولكنّها لم تحفل بها،  
وقالت بصوت مبسوح: «هذه صورة آل شوكت إذا  
حضرهم الموت، رأيت أباه وعمّه وجده من قبل!»، لم  
يبقَ من خليل إلّا خيال، وكذا الطفلان، لا حول ولا  
قوة إلّا بالله...

ازدرد كمال ريقه، ثمّ قال:

- عسى أن تخيّب الظنون!

- عسى! كمال... لست صغيراً، ينبغي أن تعلم  
بما أعلم أنا على الأقلّ، الطبيب يقول إنّ الأمر جدّ  
خطيراً...

- عن الكلّ؟!

- الكلّ!... خليل وعثمان وعمّده، ربّاه! ما أتعس  
حظّك يا عائشة...

ثمّلت لعينيه في الظلام أسرة عائشة الضاحكة كما  
كانت تبدو له في الماضي. السعداء الضاحكون الذين  
مارسوا الحياة كأنّها هو خالص، متى تضحك عائشة  
من قلبها مرّة أخرى؟ كما اختطف فهمي، الإنجليز أو  
التيفود سيّان، أو غير ذلك من الأسباب، الإيمان بالله  
هو الذي جعل من الموت قضاءً وحكمة يبعثان على  
الحيرة، وهو ليس في الحقيقة إلّا نوعاً من العبث.

- أفضح ما سمعت في حياتي...

- هو ذلك، ولكن ما الحيلة؟ وماذا جنت عائشة

حتّى تستحقّ هذا كلّهُ؟! اللهمّ عفوك ورحمتك...

هل ثمة حكمة رفيعة يمكن أن تبرّر القتل بالجملة؟  
إنّ الموت يتبع قوانين «النكته» بدقّة، ولكن كيف لنا  
أن نضحك ونحن هدف النكته؟ ولعلّك تستطيع أن

صوت يصيح بقوّة «ملحق المقطّم» فتمتم كمال  
متسائلاً:  
- ملحق المقطّم؟  
فقال ياسين بلهجة أسيفة:  
- أوه إنّي أعرف عبّاً ينادي فقد سمعت الناس  
يتناقضونه وأنا قادم إليك... سعد زغلول مات...  
هتف كمال من الأعماق:  
- سعد؟  
فتوقّف ياسين عن السير، والتفت نحوه قائلاً:  
- هوّن عليك وحسبنا ما نحن فيه...  
فحملق كمال في الظلام دون أن ينطق أو يأتي  
حراكاً، كأنّما قد ذهل عن خليل وعثمان ومحمّد  
وعائشة، عن كلّ شيء إلّا أنّ سعد زغلول قد مات،  
وواصل ياسين السير وهو يقول:  
- مات مستوفياً حظّه من العمر والعظمة فإذا تريد  
له أكثر من ذلك! ليرحمه الله...

فتبعه صامتاً ولمّا يفق من ذهو له، لو في غير هذا  
الظرف الحزين ما درى كيف يتحمّل النبأ، ولكنّ  
المصائب إذا تلاقت تحدّى بعضها بعضاً، هكّذا ماتت  
جدّته في أعقاب مصرع فهمي فلم تجد لها باكياً - إذن  
مات سعد. النفي والشورة والحريّة والدستور مات  
صاحبها، كيف لا يحزن وخير ما في روحه من وحيه  
وتربيته!

ووقف ياسين مرّة أخرى ليفتح الباب، ثمّ مدّ يده  
له فتصافحا، وعند ذلك تذكّر كمال أمراً طال نسيانه  
له، فقال لأخيه وهو يجد من نسيانه حياءً:  
- أدعو الله أن تجد زوجك قد ولدت بالسلامة...  
فقال ياسين وهو يهّم بالذهاب:  
- إن شاء الله، وأرجو أن تنام نوماً هادئاً...



السُّكْرِيَّة



من عمرها، مجللة الشعر بهالة ذهبية، مزينة الوجه بعينين زرقاوين، كعائشة في شبابها أو أفتن ملاحه، ولكنها كانت نحيفة رقيقة كالخيال، تعكس عيناها نظرة وديعة حاملة تقطر طهارة وسداجة وغرابة عن هذا العالم، وكانت ملتصقة بمنكب أمها كأنها لا تود أن تفارقها لحظة. وقالت أم حنفي وهي تفرك يديها فوق المجرمة:

- سينزل البناون عن العمارة في هذا الأسبوع بعد عام ونصف من العمل...

فقال نعيمة في نغمة ساخرة:

- عمارة عمّ بيومي الشرباتي...

ارتفعت عينا عائشة عن المجرمة إلى وجه أم حنفي لحظة ولكنها لم تعلق بكلمة، قد علموا في حينه بهدم البيت الذي كان يومًا بيت السيد محمد رضوان ثم إعادة بنائه عمارة مكوّنة من أربعة أدوار باسم عمّ بيومي الشرباتي، تلك الذكريات القديمة، مريم وياسين ولكن ترى أين مريم، وأم مريم وبيومي الشرباتي الذي استولى على البيت بالوراثة والشراء، أيام كانت الحياة حياة والقلب ناعم البال! وعادت أم حنفي تقول:

- أجل ما فيها يا ستي دكان عمّ بيومي الجديدة، ثريات ودندمة وحلوى، كلها مرايا وكهرباء، والراديو ليل نهار، يا عيني على حسنين الحلاق ودرويش بائع الفول والفول اللبان وأبو سريع صاحب المقلي وهم ينظرون من دكاكينهم البالية إلى دكان زميلهم القديم وعمارته...

فقال نعيمة وهي تشبك الشال حول منكبيها:

- سبحان ربك الوهاب...

فعدت نعيمة تقول وهي تحيط عنق أمها بذراعيها:

تقاربت الرؤوس حول المجرمة وانبسطلت فوق وهجها الأيدي، يدا أمينة النحيلتان المعروقتان، ويذا عائشة المتحجرتان، ويذا أم حنفي اللتان بدتا كغطاء السلحفاة، وأما هاتان اليدان الناصعتا البياض الجميلتان فكانتا يدي نعيمة. وكان برد يناير يكاد يتجمد ثلجًا في أركان الصالة، تلك الصالة التي بقيت على حالها القديم بحصرها الملونة وكتباتها الموزعة على الأركان، إلا أن الفانوس القديم بمصباحه الغازي قد اختفى وتدلّى مكانه من السقف مصباح كهربائي، كذلك تغير المكان فقد رجع مجلس القهوة إلى الدور الأول. بل انتقل الدور الأعلى جميعه إلى هذا الدور تيسيرًا للأب الذي لم يعد قلبه يسعفه على ارتقاء السلم العالي. ثمّة تغير أدرك أهل البيت أنفسهم، فقد جفّ عود أمينة واشتعل رأسها شيئًا، ومع أنها لم تكذب تبلغ الستين إلا أنها بدت أكبر من ذلك بعشر، ولكنّ تغير أمينة كان لا شيء بالقياس إلى ما جرى لعائشة من تدهور وانحلال، كان ممّا يدعو إلى السخرية أو الرثاء أن شعرها لم يزل مذهّبًا وعينيها زرقاوان، ولكنّ هذه النظرة الخامدة لا توحى بحياة، وهذه البشرة الشاحبة بأيّ مرض تنضح؟ وهذا الوجه الذي نثأت عظامه وغارت فيه العينان والوجنتان أهو وجه امرأة في الرابعة والثلاثين؟ وأما أم حنفي فبدا أن الأعوام تتراكم عليها ولا تنال من جوهريها، لم تكذب تمسّ لحمها وشحمها فتكاففت كالغبار أو كالقشور فوق جلدها وحول رقبتها وثغريها، غير أن عينيها الساهمتين لاحتا مشاركتين لأهل البيت في حزنهم الصامت. نعيمة وحدها بدت في هذه المجموعة كالوردة المغروسة في حوش مقبرة، استوت شابة جميلة في السادسة عشرة

- سدّ جدار العمارة سطحنها من هذه الناحية، وإذا عمرت بالسكان فكيف نستطيع أن نغضي الوقت فوق السطح؟

لم يكن في وسع أمينة أن تتجاهل سؤالاً توجهه حفيدتها الجميلة مراعاة لحاظ عائشة قبل كلّ شيء فقالت:

- لا يهّمك السكان، امرحي كيف شئت...

واستقرت النظر إلى عائشة لترى وقع إجابتها اللطيفة، إذ إنّها باتت من شدّة الخوف عليها وكأنّها تخافها، ولكنّ عائشة كانت مشغولة في تلك اللحظة بالتطلّع إلى مرآة فوق نضد بين حجرة السيّد وحجرتها، لم تزايلها عادة التطلّع إلى المرآة وإن لم يعد لها معنى، وعرور الزمن لم يعد يروّعها منظر وجهها الضحل، وكلّما سألتها صوت باطنيّ «أين عائشة زمان؟» أجابت دون اكتراث «أين عمّد وعثمان و خليل؟»، وكانت أمينة تلاحظ ذلك فينبض قلبها، وسرعان ما يسري الانقباض إلى أمّ حنفي التي اندمجت في الأسرة حتّى ورثت عنها هومها. ونهضت نعيمة إلى الراديو القائم ما بين حجرة الاستقبال وحجرة السفرة وأدارت مفتاحه وهي تقول:

- ميعاد إذاعة الأسطوانات يا ماما...

وأشعلت عائشة سيجارة وأخذت نفساً عميقاً، وجعلت أمينة ترنو إلى الدخان وهو ينبسط سحابة خفيفة فوق المحجرة، وانبعث من الراديو صوت يغني «يا عشرة الماضي الجميل يا ريت تعودتي». وعادت نعيمة إلى مجلسها وهي تحبك الروب حول جسمها. كانت - كماها في الزمان الخالي - تهوى الغناء. وهبت كيف تسمعه وكيف تحفظه وكيف تعيده بصوت حسن. لم ينل من هذا الهوى شعورها الدينيّ الذي غلب على كافّة مشاعرها، فهي تواظب على الصلاة، وتصوم رمضان مذ بلغت العاشرة، وتحلم كثيراً بعالم الغيب، وترحب بغبطة لا حدّ لها بزيارة الحسين إذا دعته جدّتها إليها، ولكنّها في الوقت نفسه لم تقلع عن حبّ الغناء، فهي تغني كلّما خلت إلى نفسها في حجرتها أو في الحفّام. وكانت عائشة ترضى عن كلّ ما

يصدر عن وحيدتها، الأمل المضيء في أفقها المظلم، تعجب بتديّنها كما تعجب بصوتها، وحقّ عن التصاق الفتاة بها - ذلك الالتصاق الذي بدا خارقاً للحدّ - فهي تشجّعه وتحبّه ولا تطيق أن تسمع عنه آية ملاحظة، بل هي تضيق بالنقد عامّة وإن هانّ وحسن القصد فيه. من ذلك أنّه لم يكن لها من عمل في البيت غير القعود وحسو القهوة والتدخين، فإذا دعته أمّها إلى المشاركة في عمل - لا لحاجتها إلى مساعدتها ولكن لتخلّق لها ما تتسلّى به عن أفكارها - امتعضت وقالت جللتها المشهورة «أف... دعيني وشأني». ولم تكن تسمح لنعيمة بأن تمّد للعمل يداً، كأنّها كانت تخاف عليها أقلّ حركة، ولو أمكن أن تصلّي نيابة عنها لفعلت وكفّتها جهد الصلاة. وكم من مرّة حدّثتها أمّها في هذا الشأن قائلة إنّ نعيمة أصبحت «عروساً» وينبغي لها أن تلّم بواجبات «ست البيت» فكانت تقول لها بصوت ينمّ عن الضجر «ألا ترينها كالحبال؟. إنّ ابنتي لن تتحمّل أيّ جهد فدعيها وشأنها، لم يعد لي من أمل في الدنيا سواها». ولم تكن أمينة لتعيد القول. كان قلبها يتقطّع حزناً عليها، وتنظر إليها فتجدها مثلاً مجسّماً لخيبة الأمل، وترى وجهها التعيس الذي فقد كلّ معنى للحياة فتذهب نفسها حشرات، لذلك أشفقت من مضايقتها، ولذلك اعتادت أن تتحمّل ما قد ينمّ عنها من جفاء في الردّ أو قسوة في الملاحظة بصدر رحيب وعطف سمح. لم يزل الصوت يغني «يا عشرة الماضي الجميل». وجعلت عائشة تدخن سيجارتها وتصغي إليه. هذا الغناء الذي كانت تحبّه، ولا زالت تحبّه، فالحزن واليأس لم يقتلا الإحساس به، بل لعلّها قوّياه في نفسها بما يرّدّه عادة من معاني الشجن والحسرات، ولو أنّ شيئاً في الوجود ليس بمستطيع أن يعيد عشرة الماضي الجميل، بل إنّها لتساءل أحياناً أكان هذا الماضي حقيقة لا حلماً ولا خيالاً؟ إذن أين البيت العامر؟ وأين الزوج الكريم؟ وأين عثمان وأين عمّد؟ وهل لا يفصلها عن ذلك الماضي إلّا ثمانية أعوام؟. ولم تكن أمينة ترتاح إلى هذه الأغاني إلّا في النادر. إنّ فضيلة الراديو الأولى في

اليوم كالصبيان... فقالت أم حنفي باحتقار:  
- يتعلّمن لأنهنّ لا يجدن العريس، أمّا الجميلة  
مثلك...

فهزّت أمينة رأسها موافقة ثمّ قالت:  
- وأنت متعلّمة يا ستّ البنات. حائزة على  
الابتدائية، ماذا تريدن أكثر من ذلك؟، ولست في  
حاجة إلى الوظيفة، فلندعُ الله أن يقوِّيك وأن يكسو  
جمالك الفتان بالعافية واللحم والدهن.  
فقالت عائشة بحدّة:

- أريد لها العافية لا السيانة، السيانة من العيوب  
خاصّة في البنات، أمّها كانت زين أيامها ولم تكن  
سمنية.

فابتسمت أمينة وقالت برقّة:  
- حقاً أمك يا نعيمة كانت زين أيامها...

فقالت عائشة وهي تتنهد:

- ثمّ صارت عبدة الأيام!

فغمغمت أم حنفي:

- ربّنا يفرّحك بنعيمة...

فقالت أمينة وهي تربّت على ظهر نعيمة بحنان:

- آمين يا ربّ العالمين...

وعُدنّ إلى الصمت، وإلى سماع الصوت الجديد  
الذي كان يغني «أحبّ أشوفك كلّ يوم»، وإذا بباب  
البيت يُفتح ثمّ يُغلق فقالت أم حنفي «سيدي الكبير»  
وقامت مسرعة إلى الخارج لتضيء مصباح السّلم. وما  
لبش أن سمعن دقّات عصاه المعهودة، ثمّ تراءى عند  
مدخل الصّالة فوقفن جميعاً في أدب. ووقف قليلاً ينظر  
إليهنّ خلال أنفاسه المبهورة ثمّ قال: «مساء الخير»  
فردّدن في صوت واحد: «يسعد مساك»، وسبقت أمينة  
إلى حجرته فأضاءتها، ومضى الرجل على أثرها في حالة  
من وقار الشيخوخة البيضاء. وجلس كي يستردّ  
أنفاسه. ولم تكن الساعة قد جاوزت التاسعة مساء.  
ظلّت أناسه كما كانت في الماضي، فالجبّة الجوخ  
والقفطان الشامي والكوفيّة الحريري كالعهد القديم، أمّا  
هذا الرأس المرصّع بالبياض، والشارب الفضيّ،  
والجسم التحيل الذي خلا من سكّانه، فكانت جميعاً -

نظرها أنّه أتاح لها سماع القرآن الكريم والأخبار، أمّا  
الأغاني فكانت تجزع عند تلقّي معانيها الحزينة وتشفق  
على ابتها من سماعها حتّى قالت مرّة لأمّ حنفي «أليس  
هذا هو النواح؟». كانت لا تني عن التفكير في عائشة  
حتّى كادت تنسى ما أخذ يتأبها هي من أعراض  
الضغط ومتاعبه، ولم تكن تجد فرجة إلّا في زيارة  
الحسين وغيره من الأولياء، وشكرًا للسيد الذي لم يعد  
يحجر عليها فتركها تنطلق إلى بيوت الله كما تحبّ. لم  
تعد - هي أيضًا - أمينة العهد الماضي. غيّر لها كثيرًا  
الحزن والتوعلك. وقد فقدت مع الزمان مشابرتها  
العجيبة على العمل وطاقتها الخارقة في التنسيق  
والتنظيف والتدبير، ففيها عدا شئون السيد وكمال لم  
تكن تعني بشيء. عهدت بحجرة الفرن والمخزن لأمّ  
حنفي، قائمة بالإشراف وحده، وحتّى الإشراف كانت  
تتهاون فيه. وكانت ثقتها في أمّ حنفي لا حدّ لها،  
فليست هي بالغريبة عن الدار وأهلها، ثمّ إنّها شريكة  
العمر ورفيقة السراء والضراء، وقد اندمجت في الأسرة  
حتّى صارت قطعة منها، وتمثّلت بكلّ قلبها مسرّاتها  
وأحزانها. وساد الصمت حيناً كأنما استأثر الغناء  
بوعيمهم، حتّى قالت نعيمة:

- لمحت في الطريق اليوم صديقتي سلمى، كانت  
معي في الابتدائية، وستقدّم العام المقبل في امتحان  
البكالوريا...

فقالت عائشة بامتناع:

- لو سمع جدّك لك بالاستمرار في الدراسة لتفوّقت  
عليها، ولكنّه لم يسمح!  
وفطنت أمينة لما أوحى به جملة «ولكنّه لم يسمح»  
من الاحتجاج فقالت:

- جدّها له آراؤه التي لا ينزل عنها، ترى أكنت  
ترخين باستمرارها في التعليم رغم ما في ذلك من  
تعب وهي العزيزة الرقيقة التي لا تتحمّل  
التعب!...

فهزّت عائشة رأسها دون أن تنبس، أمّا نعيمة  
فقالت بحسرة:

- وددت لو أنمت تعليمي، كلّ البنات يتعلّمن

من المأكّل والمشرب والهنا؟، وأين مسيره في الأرض كالجمل وضحكته المجلجلة من الأعماق؟ وطلوع الفجر عليه وهو ثمل بشئى المسرات؟، اليوم يُقضى عليه بأن يعود من سهرته في التاسعة كي ينام في العاشرة والأكل والشرب والمشي بحساب دقيق مسجل في دفتر الطبيب، وهكذا البيت الذي غشاه الزمن بالكآبة هو قلبه ومقامه، وعائشة التعيسة شوكة في جنبه لا يستطيع أن يصلح ما فسد من حياته وهيهات أن يطمئن على حالها، أليس قد ينكشف عنها الغد وحيدة بائسة بلا أب ولا أم؟ وما يعاينه من قلق على صحته هو المهذبة بالمضاعفات وأخوف ما يخاف أن تخونه قواه فيلزم الفراش كالميت وليس بميت مثل الكثيرين من أصدقائه وأحبائه، وهذه الأفكار التي تحوم حوله كالذباب فيستعيد بالله من شرّها، أجل ينبغي أن يسمع الأغاني القديمة ولو لينام على الأنعام...

- اتركي الراديو مفتوحاً حتى لو نمت...

فهرّت رأسها بالإيجاب باسمه، فعاد يقول متنهّداً:

- ما أشقّ السّلم عليّ!

- استرح يا سيّدي عند كلّ بسطة...

- لكنّ جوّ السّلم شديد الرطوبة، ما ألعن هذا

الشتاء... «ثمّ متسانلاً»... أراهن على أنّك زرت

الحسين كالعادة رغم هذا البرد...

فقال في حياء وارتيابك:

- في سبيل زيارته يهون كلّ صعب يا سيّدي...

- الحقّ عليّ وحدي!...

فقال في استرضاء:

- إنّني أطوف بالضريح الطاهر وأدعو لك بالصّحة

والعافية.

ما أمسّ حاجته إلى صادق الدعاء، فكلّ طبّيب يدبر عنه، حتّى الدشّ البارد الذي اعتاد أن ينعش به جسده كلّ صباح حُرّم عليه لخطورته - فيما قيل - على شرايينه، وإذا صار كلّ طبّيب ضارّاً فليرحمنا الله. ومضى وقت قصير ثمّ ترامت إلى الحجرة صفقة باب البيت وهو يغلق فرفعت أمانة عينها متمتمة «كمال». ولم تكد تمرّ دقائق حتّى دخل كمال الحجرة في معطفه

كعودته المبكّرة - من طوارئ الزمن الجديد. ومن طوارئ هذا الزمن أيضاً سلطانيّة اللبن الزباديّ والبرتقالة اللتان أعدتا لعشائه، فلا خمر ولا مرّة ولا لحوم ولا بيض، وإن بقي بريق عينيه الزرقاوين الواسعتين آية على أنّ رغبته في الحياة لم تفتّر ولم ته. ومضى يخلع ملابسه بمعاونة أمانة كالمعتاد، ثمّ ارتدى جلبابه الصوفيّ وتلّغف بالعباءة ولبس طاقية ثمّ ترتع على الكنية. وقدّمت له صينيّة العشاء فتناوله دون حماس، ثمّ قدّمت له أمانة قدحاً مملوءاً حتّى نصفه بالماء فأخذ زجاجة الدواء وسكب في القدح ستّ نقط، ثمّ تجرّعه بوجه مقطب متقرّز، ثمّ تتمم «الحمد لله ربّ العالمين». طالما قال له الطبيب إنّ الدواء مؤقّت أمّا «الرجيم» فدائمه، وطالما حدّره من الاستهتار أو الإهمال، فالضغط قد استفحل، والقلب قد تأثّر به. وأجبرته التجربة على الإيمان بتعليمات الطبيب بعد أن عانى من الاستهانة بها ما عانى، فما من مرّة خرج عن حدّه حتّى تداركه الجزاء، وأخيراً أذعن لحكمه، لا يأكل ولا يشرب إلّا ما يسمح به، ولا يسهر إلى ما بعد التاسعة، ولكنّ قلبه لم يتخلّ عن الأمل في أن يستردّ يوماً - بقدرة قادر - صحته وأن ينعم بحياة طبيّة هادئة، وإن تكن حياة الماضي قد ولّت إلى الأبد. وامتدّت أذنه إلى الغناء المترامي من الراديو في ارتياح، وكانت أمانة تحدّثه من مجلسها فوق الشلّة عن برد اليوم والمطر الذي انهمر في الضحى فلم يلتجئ إليها بالأ وقال في سرور:

- قيل لي أنّه ستُذاع الليلة بعض الأغاني القديمة...

فابتسمت المرأة في ترحيب إذ كانت تحبّ هذا اللون من الغناء، ربّما متابعة لحبّ السيّد له أكثر من أيّ شيء آخر، ولبت السرور متألّفاً في عينيّ الرجل لحظات حتّى أدركه فتور. لم يعد بمستطيع أن ينعم بشعور سائر دون تحفّظ، أو دون أن ينقلب عليه فجأة فيستيقظ من حلمه مرتبطلاً بالواقع، الواقع يحدق به من جميع النواحي، أمّا الماضي فحلم، فيمّ السرور وقد ولّت إلى الأبد أيام الأنس والطرب والعافية؟. وانطوى اللذيد

فلم ينبس كمال بكلمة وإن نطق وجهه بالرفض المؤدب، فعاد الرجل يقول متأسفًا:

- تأبى هذا كي تصيح وقتك في قراءة لا نهاية لها وكتابة بلا أجر، أيصح هذا من عاقل مثلك؟  
وهنا خاطبت أمينة كمال قائلة:

- ينبغي أن تحب المال كما تحب العلم (ثم موجّهة الخطاب إلى السيّد وهي تبسم في خيلاء) إنّه كجده لا يعدل بحب العلم شيئًا... .

فقال السيّد متأفّفًا:

- رجعنا إلى جدّه!... يعني كان الإمام محمّد عبده؟

ومع أنّها لم تعرف شيئًا عن الإمام إلا أنّها قالت بحماس:

- لم لا يا سيّدي؟! كان كلّ الجيران يقصدونه في شئون دينهم وديارهم!

فغلبت روح الفكاهة على السيّد فقال ضاحكًا:

- مثله الآن كلّ عشرة بقرش!

واحتجّ وجه المرأة دون لسانها. وابتسم كمال بعطف وارتباك، واستأذن في الانصراف ثم غادر الحجرة. وفي الصالة اعترضت نعيمة طريقه لتريه فستانها الجديد، وذهبت لتجيء به، فجلس إلى جانب عائشة ينتظر، كان - كبقية أهل البيت - يجامل عائشة في شخص نعيمة، ولكنّه إلى هذا كان معجبًا بالفتاة الحسنة إعجابه بأنّها قديمًا. وجاءت نعيمة بالفستان فبسّطه على يديه وراح يتفحصه وهو يبدي الإعجاب، وكان يتأمل صاحبة الفستان بعطف وحبّ. مأخوذًا بجهاها البديع الهادئ الذي اكتسى من صفاتها ورقّتها نورانيّة ذات بهاء. ومضى عن المكان بقلب لا يخلو من شجن، إنّ مصاحبة أسرة حتّى شيخوختها لجمّاً يُحزن. ليس ممّا يهون أن يرى أباه في وهنه بعد سطوة وجبروت أو يرى ذبول أمّه وتواربها وراء الكبر، أو يرى انحلال عائشة وتدهورها، هذا الجوّ المشحون بنذر التعاسة والنهاية. ورفي في السّلم إلى الدور الأعلى - شقّته كما يسمّيه - حيث يعيش منفردًا بين حجرة نومه ومكتبته المطلّتين على بين القصرين. وخلع ملابسه ومضى

الأسود الذي نمّ على نحافته وطوله، يتطلّع إلى أبيه خلال نظّارته الذهبية، وقد أضفى عليه شاربه المربّع الغزير الأسود وقارًا ورجولة. انحنى على يد والده مسلّمًا فدعاه إلى الجلوس وهو يسأله كالعادة بأسبًا:

- أين كنت يا أستاذ؟

وكان كمال يحبّ هذه اللهجة الودّية اللطيفة التي لم يحظّ بها إلا بعد عمر طويل، فأجاب وهو يجلس على الكنية:

- كنت في القهوة مع الأصحاب.

ترى أيّ نوع من الأصحاب؟ بيد أنّه يبدو جادًا رزينًا وقورًا أكثر من سنّه، ثمّ إنّ أكثر لباييه تقضى في مكتبته، شتّان ما بينه وبين ياسين، وإن كان لكلّ آفته، وعاد يسأله بأسبًا:

- أشهدت اليوم المؤتمر الوفدي؟

- نعم، وسمعنا خطبة مصطفى النحاس، كان يومًا مشهودًا.

- قيل لنا إنّ كان حدثًا عظيمًا ولكنّي لم أستطع حضوره فنزلت عن بطاقة الدعوة لأحد الأصدقاء، لم تعد الصّحة تحتل التعب...

فداخل كمال العطف وتتم:

- ربّنا يقوّيك...

- ألم تقع حوادث؟

- كلّ مرّة اليوم بسلام، واكتفى البوليس بخلاف عاداته بالمراقبة...

فهزّ الرجل رأسه في ارتياح، ثمّ قال في لهجة ذات معنى:

- نعود لموضوعنا القديم، ألا زلت عند رأيك الخاطي عن الدروس الخصوصية؟

لم يزل يشعر بالارتباك والخرج كلّما وجد نفسه مضطرًا إلى إعلان مخالفته لرأي والده، فقال برقة:

- لقد انتهينا من هذا الموضوع!

- في كلّ يوم يطلب إليّ أصدقاء أن تعطي دروسًا خصوصيةً لأبنائهم، لا ترفض الرزق الحلال، إنّ الدروس الخصوصية مصدر رزق واسع للمدرّسين، والذين يطلبونك من أعيان الحيّ...

مرتدياً جلبابه متلفعاً بالروب إلى المكتبة، وكانت مكتونة من مكتب كبير فيها يلي المشرية وصقن من خزانات الكتب على جانبيها. وكان يريد أن يقرأ فصلاً على الأقل في كتاب «منبع الدين والأخلاق» لبرجسون، وأن يراجع مراجعة أخيرة مقاله الشهري لمجلة «الفكر» الذي اتفق أن كان عن البراجمزم. هذه السويغات الموهوبة للفلسفة، التي تمتد حتى منتصف الليل هي أسعد أوقات يومه، وهي التي يشعر فيها - على حد تعبيره - بأنه إنسان، أما بقية اليوم الذي ينقضي في عمله كمدرس بمدرسة السلحدار الابتدائية أو في إشباع شئ مطالب الحياة الضرورية، فمداره الحيوان الكامن فيه، المستهدف أبداً تأمين ذاته وتحقيق شهوراته، ولم يكن يحب عمله الرسمي ولا يحترمه، ولكنه لم يعلن سخطه، خاصة في بيته، أن يشمت به الشامتون، ومع ذلك فقد كان مدرّساً ممتازاً حائزاً للتقدير، وكان الناظر يعهد إليه ببعض النشاط المدرسي، حتى رمى نفسه متفكهاً بالعبودية، ليس هو العبد الذي يتقن العمل الذي لا يحبه ١٩. والحق أن ولعه بالتفوق الذي اعتاده منذ الصغر هو الذي دفعه إلى الاجتهاد والامتنياز دفعا لا هواده فيه. وقد صمم من بادئ الأمر على أن يكون شخصية محترمة بين التلاميذ والمدرسين فكان له ما أراد، بل كان شخصية محترمة ومحبوبة معاً، رغم رأسه وأنفه العظيمين. . . ولا شك أنه كان لها - رأسه وأنفه - أو كان لإحساسه الألمي بها الفضل الأول في هذا التصميم القوي الذي خلق منه هذه الشخصية المهابة. كان يعلم بأن رأسه وأنفه سيثيران من حوله الفتن فاستل عزمه ليرد عنها وعنه كيد العائيش. أجل لم ينجأ أحياناً من غمز وتعريض في أثناء الدرس أو في ملعب المدرسة، فكان يلقي الهجوم بحزم شديد، ثم يلفظه بعطفه المطبوع، إلى ما أثر عنه من مقدرة في الشرح والتفهم، وما يأخذ فيه بين آونة وأخرى من موضوعات طريفة حماسية تمس القومية أو ذكريات الثورة، كل أولئك جعله يستميل إليه «الرأي العام» بين التلاميذ، وكان ذلك إلى حزمه المتوثب عند الضرورة - كفيلاً بالقضاء - على الفتن في مهدها! . ولشد ما آله أول الأمر الغمز

الجراح، ولشد ما استثار المشي من أحزانه، بيد أنه سر آخر الأمر بالمنزلة الرفيعة التي بات يحتلها في نفوس الصغار الذين كانوا يتطلعون إليه بإعجاب وحب وإجلال. وواجهته مشكلة أخرى تتعلق بمقالاته الشهرية في مجلة «الفكر»، وكان يخاف هذه المرة الناظر والمدرسين أن يسألوه عما يعرض فيها من فلسفات قديمة وحديثة تنقد أحياناً العقائد والأخلاق بما لا يتفق ومسئولية «المدرّس» ولكن من حسن الحظ أن أحداً من المستولين لم يكن بين قراء «الفكر»، ثم تبين له بعد ذلك أن المجلة لا تطبع أكثر من ألف نسخة يصدر نصفها إلى البلاد العربية، فشجعه ذلك على الكتابة إليها وهو أمين على نفسه ووظيفته. وفي هذه السويغات القلائل ينقلب «مدرّس اللغة الإنجليزية بالسلحدار الابتدائية» سائحاً حراً يجوب أجواء لا تحدد من الفكر، فيقرأ ويدون الملاحظات التي يجمعها بعد ذلك في مقالاته الشهرية، تحت على جهاده الرغبة في المعرفة وحب الحقيقة وروح المغامرة النظرية والخنين إلى العزاء والتخفيف من جو الكآبة الذي يغشاها والشعور بالوحلة الذي يستكن في أعماقه. قد يلوذ من الوحشة بوحدة الوجود عند سبينوزا، أو يتعزى عن هوان شأنه بالمشاركة في الانتصار على الرغبة مع شوبنهاور، أو يهون من إحساسه بتعاسة عائشة بجرعة من فلسفة ليبنتز في تفسير الشر، أو يروي قلبه المتعطش إلى الحب من شاعرية برجسون، بيد أن جهاده المتواصل لم يجد في تقليد مخالب الحيرة التي تبلغ حد العذاب، فالحقيقة معشوق ليس دون المعشوق الآدمي دلالاً وغمغماً ولعباً بالعقول وإثارة للشك والغيرة مع إغراء عنيف بالتملك والوصال، وهي كالمعشوق الآدمي عرضة لأن تكون ذات وجوه وأهواء وتقالبات، ولا تخلو في كثير من الأحيان من مكر وخداع وقسوة وكبرياء، وكان إذا ركبته الحيرة وأغياه الجهد يقول متعزياً «قد أكون معذباً حقاً ولكنني حي، إنسان حي، ولن تكون حياة الإنسان الخليفة بهذا الاسم بلا ثمن».



فخفض الحمزاوي عينيه وقال:  
- موقفي لا أحسد عليه، ولا أدري كيف  
أتكلم...

فقال السيد مشجعاً:  
- ولكني عاشرتك أكثر مما عاشرت أهلي فتستطيع أن  
تفضي إليّ بكلّ ما في نفسك...

- العشرة هي التي تصعب عليّ يا سي السيد...

العشرة؟! لم يخطر له هذا على بال...

- أتريد؟... حقاً!

قال الحمزاوي بحزن:

- أن لي أن أعترل، الله لا يكلف نفساً إلّا  
وسعها...

وانقبض قلب السيد، فاعتزال الحمزاوي للعمل  
ليس إلّا نذيراً له بالاعتزال، كيف ينهض بأعباء العمل  
في دكانه وهو على ما هو عليه من مرض وكبر؟ ونظر  
إلى وكيله في حيرة فعاد الرجل يقول متأثراً:

- إني آسف جداً، ولكني لم أعد أطيق العمل، ولّي  
ذلك الزمان، غير أنّي دبّرت الأمر فلن أتركك وحدك،  
سيملاً مكاني من هو أقدر منّي...

إنّ ثقته في أمانة الحمزاوي قد رفعت عن كاهله  
نصف متاعبه، فكيف يعود ابن الثالثة والسّتين إلى  
ملازمة الدكان من طلعة الشمس إلى مغيبها؟ قال:  
- ولكنّي اعتزال العمل والقبوع في البيت يسرعان  
بالإنسان إلى التدهور، ألا ترى هذا في أصحاب  
المعاش من الموظفين؟

فقال الحمزاوي باستياء:

- التدهور موجود قبل الاعتزال.

وضحك السيد فجأة كأنما ليداري الحرج الذي  
شعر به مقدماً قبل أن يقول له:

- يا عجوز يا مكّار، أنت تهجرني تلبية لإلحاح  
ابنك فؤاد.

فهتف الحمزاوي متأثراً:

- معاذ الله، إنّ حالتي الصحيّة لا تخفى على أحد،  
وهي السبب الأوّل والأخير...

من يدري؟ فؤاد وكيل نيابة ومثله لا يرتاح لبقاء  
أبيه عاملاً بسيطاً في دكان ولو كان صاحب الدكان هو

اليوم السابق، كلّ ذلك كان أحمد عبد الجواد يؤدّيه  
على خير الوجه وبالدفّة المهودة فيه من قديم غير أنّه  
يؤدّيه اليوم بمشقة لم يكن يجدها من قبل أن يركبه العمر  
والمرض. وكان منظره وهو منكّب على دفاتره تحت  
لافتة البسملة، وشاربه الفضيّ يكاد يختفي تحت أنفه  
الكبير الذي زاده ضمور الوجه ضخامة، كان ذلك  
المنظر ممّا يستحقّ العطف، غير أنّ منظر وكيله  
ومساعدته جميل الحمزاوي الذي كان يهدف إلى  
السبعين كان ممّا يستحقّ الرثاء، ولم يكن يفرغ من  
زبون حتّى يتهالك على مقعده وهو يلهث فكان أحمد  
يقول لنفسه في شيء من الامتعاض «لو كنّا موظّفين  
لأغنانا المعاش في مثل سنّا من الكدّ والعمل!». ورفع  
السيد رأسه عن الدفتر وهو يقول:

- لا زالت الحالة متأثرة بعض الشيء بالآزمة  
الاقتصادية...

فارتسم الامتعاض على شفطي الحمزاوي الباهتين  
وقال:

- بدون شكّ، غير أنّ هذا العام خير من العام  
السابق، والعام السابق خير من الذي قبله، الحمد لله  
على أيّ حال...

عام ١٩٣٠ وما تلاه من أعوام، تلك الفترة التي  
كان التّجار من أصحابها يسمّونها أيام الرعب. حين  
استبدّ إسماعيل صدقي بالحياة السياسيّة وسيطر القحط  
على الحياة الاقتصادية، ويقبلون الأكفّ وهم يتساءلون  
عمّا يجيئ لهم الغد، وقد كان من المحظوظين بغير شكّ  
لأنّ ضيقته لم تبلغ به الإفلاس الذي تهدّده عامّاً بعد  
عام.

- أجل الحمد لله على أيّ حال...

ووجد جميل الحمزاوي يرونو إليه بنظرة غريبة، فيها  
تردّد وحرج، ماذا عنده يا ترى؟ وقام الرجل فقرب  
مقعده من المكتب ثمّ جلس وهو يتسمّم في ارتباك.  
وكان البرد قاسياً رغم سطوع الشمس، وكان للهواء  
حملات قويّة ارتجت لها الأبواب والنوافذ وتعالى  
الصفيّر. قال السيد وهو يعتدل في جلسته:

- هات ما عندك، إني موقن بأنك ستقول شيئاً  
هاماً.

- لا أحب أن أضيع وقتك وأنت مشغول، ولكنك أنبل من عرفت في حياتي، فإما أن تمدني بسلفة أخرى، وإما أن تجد لبيتي شاريًا، ويا حُذا لو تكون أنت الشاري!

فقال أحمد عبد الجواد متنهّدًا:

- أنا؟ يا ليت، الزمن غير الزمن يا سلطنة، طالما صارحتك بالحقيقة ولكن يبدو أنك لا تصدّقين يا سلطنة...

فضحكت ضحكة دارت بها خيبة أملها وقالت:  
- السلطنة مفلسة، فما العمل؟  
- في المرة السابقة أعطيتك ما قدرت عليه، ولكن الحال لا يسمح بتكرار ذلك...

فتساءلت في قلق:

- ألا يمكن أن تجد لبيتي شاريًا؟  
- سأبحث لك عن شاري. أعدك بذلك.

فقالت عمتة:

- هذا ما يُنتظر منك يا سيّد الكرماء (ثمّ بلهجة حزينة) ليست الدنيا وحدها التي تغيّرت ولكنّ الناس تغيّروا أكثر، سامح الله الناس، في أيام العزّ كانوا يستبقون إلى تقبيل حذائي، والان إذا لمحوني على جانب الطريق مالوا إلى الجانب الآخر.  
لا بدّ أن يتنكر للإنسان شيء، بل أشياء، الصّحة أو الشباب أو الناس، أمّا أيام العزّ، أيام الأنغام والحبّ فاين هي؟  
- ومن ناحية أخرى فانت يا سلطنة لم تعملي للأيام حسابها...

فتنهّدت آسفة وهي تقول:

- نعم، لست كأختك جليلة التي تتاجر بالأعراض وتقتني المال والبيوت، وفضلاً عن ذلك فقد ابتلاني الله بأولاد الحرام حتّى بلغ الفجر بحسن غير أنّه كان يبيعني شمة الكوكابين - عندما ندر في الأسواق - بجنّيه!

- لعنه الله.

- حسن عنبر؟... ألف لعنة!

- بل الكوكابين.

- والله الكوكابين أرحم من الإنسان.

الذي مهّد له السبيل ليتبوأ مركزه في النيابة، ولكنّه شعر بأنّ تصرّجه قد آلم وكيله الطيّب فراجع متسائلاً في لطف:

- متى يُنقل فؤاد إلى القاهرة؟

- في صيف هذا العام أو في صيف العام القادم على الأكثر...

ومضت فترة سكون مشحونة بالحرج حتّى قال الحمزاوي مجاريًا السيّد في لطفه:

- وإذا أقام معي في القاهرة وجب التفكير في تزويجه، أليس كذلك يا سي السيّد؟ إنّه ابني الوحيد على سبع بنات، ولا بدّ من تزويجه، وكلّما فكّرت في ذلك جرت في خاطري الانسة المهذّبة حفيدتك...

واسترق إلى وجه السيّد نظرة استطلاع ثمّ غتم:

- لسنا قدّ المقام طبعًا...

فلم يَسع السيّد إلّا أن يقول:

- أستغفر الله يا عمّ جيل، نحن أخوان من قديم الزمن...

ترى أحزّضه فؤاد على جسّ النبض؟ وكيل نيابة شيء عظيم والعبرة في الأصل بالطيبة، ولكن أهذا وقت التحدّث في الزواج؟

- حدّثني أوّلًا أنت مصمّم على اعتزال العمل؟

وجاءه صوت من باب الدكان يقول:

- يا ألف صباح الخير...

- أهلاً وسهلاً... (ثمّ وهو يشير إلى المقعد الذي أخلاه الحمزاوي) تفضّل!

جلست زبيدة بجسم قد ترهّل، ووجه قد تقنّع بالأصباغ، أمّا الحليّ فلم يعد لها أثر في عنقها أو أذنيها أو ساعدها، ولا للجبال القديم مكان، وجعل السيّد يرحّب بها كعادته مع كلّ زائر لا أكثر، أمّا قلبه فلم يرتج للزيارة، فما من مرّة تحييه إلّا وترهقه بالمطالب. سالها عن الصّحة فأجابت وهي لا تعني شيئاً «الحمد لله» وقال لها بعد هنيهة صمت... أهلاً... أهلاً، فابتسمت شاكرة ولكن بدا أنّها استشعرت الفتور الكامن في مجاملاته. وضحكت متجاهلة الجوّ الذي يكتنفها. وكانت الأيام قد علّمتها البرود، ثمّ قالت:

بصوت عتيق يتعالى من الباب قائلاً في لهجة الغزل:  
- من هذا الذي يجلس وراء المكتب كالقمر؟  
بدا الشيخ متوتراً عبد الصمد في جلباب خشن رث  
لا لون له، ومركوب متفزز، معصوب الرأس بتلفيفة  
من وبر، مستند القامة على عكاز، وكان يرمش بعينه  
الحماويين مسدداً بصره نحو الجدار الملاصق لمكتب  
السيد وهو يظن أنه يسدده نحوه... فابتسم السيد  
رغم همه قائلاً:  
- تعال يا شيخ متولي، كيف حالك؟  
فكشف الرجل عن فم لم يبق فيه ناب واحد وهو  
يهتف:  
- يا ضغط زُل، يا صمحة عودي إلى سيد  
الناس...  
وقام السيد فألقه نحوه فاعتدل بصر الشيخ إليه  
ولكنه تراجع في الوقت نفسه كالهارب، ثم جعل يدور  
حول نفسه، مشيراً إلى الجهات الأربع وهو يصيح «من  
هنا تفرج... ومن هنا تفرج». ثم تحول إلى الطريق  
قائلاً:  
- ليس اليوم، غداً، أو بعد غد، قل الله أعلم...  
ومشى في خطوات واسعة لا يناسب نشاطها مظهره  
البالي...

### ٣

يوم الجمعة رجعت الفروع إلى الأصل وعمر البيت  
القديم بالأبناء والأحفاد، ذلك تقليد سعيد لم ينقطعوا  
عنه. ولم تعد أمينة «بطلة» يوم الجمعة كما كانت قديماً،  
فأم حنفي تبوّأت المركز الأول في المطبخ، ولم تكن  
أمينة تني عن تذكير القوم بأن أم حنفي تلميذتها فإن  
غرامها بالثناء كان يتشجع على الإفصاح عن ذاته كلما  
شعرت بقلّة استحقاقها له، إلى أن خديجة - رغم أنها  
في حكم الضيفة - لم تقصّر في إهداء معونتها. وقبل  
ذهاب السيد إلى الدكان التفّ به الضيوف، إبراهيم  
شوكت وابناه عبد المنعم وأحمد، وياسين وابناه رضوان  
وكرمة، يكتنفهم ذلك الخشوع الذي يجعل من  
ضحكهم ابتساماً ومن حديثهم همساً. وكان السيد يجد  
في حضورهم سروراً يزداد تعلقاً به كلما تقدّم به

- لا... لا، من المحزن حقاً أنك وقعت في شره.  
فقال بتسليم وقنوط:  
- هذ حيلي وضبيع مالي، ما علينا، متى تجد لي  
شارياً؟  
- إن شاء الله عند أول فرصة.  
فقال في عتاب وهي تنهض:  
- اسمع، إذا زرتك في المرة القادمة فابتسم من  
قلبك، كل إساءة تهون إلا التي تحبثني من ناحيتك، أنا  
عارفة أنني أضايقتك بمطالبي ولكنني في ضيق لا يعلم به  
إلا الله، وأنت أنبل الناس في نظري.  
فقال لها معتذراً:  
- لا تتوهمي ما ليس فيّ، الأمر أنني كنت مشغولاً  
بمسألة هامة عند قدومك، وهموم التجار لا تنتهي كما  
تعلمين!  
- رفع الله عنك الهموم.  
فحنى رأسه شاكراً وهو يوصلها، ثم ودّعها قائلاً:  
- أهلاً بك من القلب في كل حين...  
ولمّح في عينيها نظرة خابية تفيض غماً فرق لها،  
وعاد إلى مجلسه منقبض الصدر فالتفت إلى جميل  
الحماوي وقال:  
- دنيا...  
- كفكك شرها وأطعمك خيرها.

غير أن نبرات الحماوي قست وهو يستدرك قائلاً:  
- ولكنّها عاقبة عادلة لامرأة مستهترّة!  
فهزّ أحمد عبد الجواد رأسه هزّة مقتضبة سريعة كأنما  
يعلن بها احتجاجاً صامتاً على قسوة هذه الموعظة، ثم  
سأله بصوت رجح به إلى النعمة التي قطعها مجيء  
زبيدة:  
- ألا تزال مصمّماً على رأيك في هجرنا؟  
فقال الرجل في حرج:  
- ليس هجرًا ولكنّه تقاعد وأنا آسف من كل  
قلبي.

- كلام كالذي داريت به زبيدة منذ دقيقة!  
- استغفر الله، إنّي أتكلّم من قلبي، ألا ترى يا  
سيدي أنّ الكبر يكاد يعجزني؟  
ثم دخل الدكان زبون فمضى الحماوي إليه، وإذا

العمر، فعتب على ياسين انقطاعه عن زيارته في الدكان اكتفاء بزيارة يوم الجمعة، ألا يريد هذا البغل أن يفهم أنه يتوق إلى رؤيته كل حين؟. وابنه رضوان جميل المحيّا ذو العينين المكحولتين والبشرة الوردية الذي يعكس جماله ألواناً متنوّعة تذكّره مرّة بياسين ومرّة بهنية أم ياسين وثلاثة بصديقه الحبيب عمّد عفت فهذا أحبّ الأحفاد إلى قلبه، وكرمة أخته مصغر شابة في الثامنة من عمرها سوف تنضج نضجاً عجيباً كما تشهد عينها السوداوان - عينا زنوبة أمها - اللتان ييسم لهما

خاطره ابتسامة ندية بالحياء والذكريات. أمّا عبد المنعم وأحمد فحسبه أن يرى في وجهيهما قدراً لا يُستهان به من أنفه العظيم كما يرى عيني خديجة الصغيرتين، غير أنها أجراً من الآخرين في مخاطبته، وكلّهم - هؤلاء الأحفاد - يشقّون طريق دراستهم بنجاح يدعوا إلى الفخار، لكنّهم يدون مشغولين بأنفسهم عن جدّهم، فمن ناحية يعزّونه بأنّ حياته لم ولن تنقطع ومن ناحية أخرى يذكّرونه بأنّ شخصه يراجع رويداً عن مركز الاهتمام الذي كان يستأثّره، ولم يكن ذلك ليحزنه، فإنّ الإيغال بالعمريجيء بالحكمة كما يجيء بالوهن والمرض. ولكن هيهات أن يمنع ذلك الذكريات من أن تتدفّق، عندما كان مثل هؤلاء في مطلع العمر، وعندما كان العام ١٨٩٠، وكان يتعلّم قليلاً ويلهو كثيراً ما بين مغاني الجالية ومرثد الأزيكية، وفي ركابه يجري عمّد عفت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار، وكان أبوه يملأ الدكان نفسها يزجر وحيداً قليلاً، ويرقّ له كثيراً، وكان العمر صفحة مطوّنة مكتنّزة بالأمال، ثمّ كانت هنيئة... ولكن مهلاً لا ينبغي أن تستخفّ الذكريات.

وقام لبصليّ العصر فكان ذلك إيذاناً بالانصراف، ثم ارتدى ملاپسه ومضى إلى الدكان، وتجمّعوا هم في مجلس القهوة حول مجمرة الجدة، في جوّ التلاقي والسمر. احتلت الكنبه الرئيسة أمينة وعائشة ونعيمة، أمّا الكنبه اليمنى فجلس عليها ياسين وزنوبة وكرمة، وعلى الكنبه اليسرى قعد إبراهيم شوكت وخديجة وكمال، على حين اتخذ رضوان وعبد المنعم وأحمد

مجالسهم على كرسيّ توسّطت الصالة تحت المصباح العكبري، فعتب على ياسين انقطاعه عن زيارته في الدكان اكتفاء بزيارة يوم الجمعة، ألا يريد هذا البغل أن يفهم أنه يتوق إلى رؤيته كل حين؟. وابنه رضوان جميل المحيّا ذو العينين المكحولتين والبشرة الوردية الذي يعكس جماله ألواناً متنوّعة تذكّره مرّة بياسين ومرّة بهنية أم ياسين وثلاثة بصديقه الحبيب عمّد عفت فهذا أحبّ الأحفاد إلى قلبه، وكرمة أخته مصغر شابة في الثامنة من عمرها سوف تنضج نضجاً عجيباً كما تشهد عينها السوداوان - عينا زنوبة أمها - اللتان ييسم لهما

خاطره ابتسامة ندية بالحياء والذكريات. أمّا عبد المنعم وأحمد فحسبه أن يرى في وجهيهما قدراً لا يُستهان به من أنفه العظيم كما يرى عيني خديجة الصغيرتين، غير أنها أجراً من الآخرين في مخاطبته، وكلّهم - هؤلاء الأحفاد - يشقّون طريق دراستهم بنجاح يدعوا إلى الفخار، لكنّهم يدون مشغولين بأنفسهم عن جدّهم، فمن ناحية يعزّونه بأنّ حياته لم ولن تنقطع ومن ناحية أخرى يذكّرونه بأنّ شخصه يراجع رويداً عن مركز الاهتمام الذي كان يستأثّره، ولم يكن ذلك ليحزنه، فإنّ الإيغال بالعمريجيء بالحكمة كما يجيء بالوهن والمرض. ولكن هيهات أن يمنع ذلك الذكريات من أن تتدفّق، عندما كان مثل هؤلاء في مطلع العمر، وعندما كان العام ١٨٩٠، وكان يتعلّم قليلاً ويلهو كثيراً ما بين مغاني الجالية ومرثد الأزيكية، وفي ركابه يجري عمّد عفت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار، وكان أبوه يملأ الدكان نفسها يزجر وحيداً قليلاً، ويرقّ له كثيراً، وكان العمر صفحة مطوّنة مكتنّزة بالأمال، ثمّ كانت هنيئة... ولكن مهلاً لا ينبغي أن تستخفّ الذكريات.

وقام لبصليّ العصر فكان ذلك إيذاناً بالانصراف، ثم ارتدى ملاپسه ومضى إلى الدكان، وتجمّعوا هم في مجلس القهوة حول مجمرة الجدة، في جوّ التلاقي والسمر. احتلت الكنبه الرئيسة أمينة وعائشة ونعيمة، أمّا الكنبه اليمنى فجلس عليها ياسين وزنوبة وكرمة، وعلى الكنبه اليسرى قعد إبراهيم شوكت وخديجة وكمال، على حين اتخذ رضوان وعبد المنعم وأحمد مجالسهم على كرسيّ توسّطت الصالة تحت المصباح

يتنفس في جو الآمال القديمة، بيد أن الحياة تجبهه  
بصلدمات قاسية كل يوم، فوكيل النيابة مثلاً لا يحتاج  
إلى تعريف أما كاتب مقالات مجلة «الفكر» فربما احتاج  
إلى تعريف أكثر من مقالاته الغامضة نفسها. ولم يدعه  
أحمد إبراهيم شوكت لحيرته فنظر إليه بعينه الصغيرتين  
البارزتين وهو يقول:

- إنني أترك الجواب لخالي كمال...

وابتسم إبراهيم شوكت ابتسامة يداري بها حرجه،  
أما كمال فقال دون حماس:

- ادُرْش ما تشعر بأنه يوافق موهبتك.

ويدا الظفر في وجه أحمد فردد رأسه الرشيق بين  
أخيه وأبيه غير أن كمال عاد يقول:

- ولكن ينبغي أن تعلم أن الحقوق تفتح لك مجالاً  
من الحياة العملية الممتازة لا تستطيعه الآداب. سيكون  
مستقبلك إذا اخترت الآداب في التعليم وهو مهنة شاقة  
ولا جاء لها...

- بل سأنتج إلى العمل في الصحافة.

- الصحافة!... «صاح إبراهيم شوكت»... إنه  
لا يدري ماذا يقول.

فقال أحمد غاطساً كمال:

- إن قيادة الفكر وقيادة عربة كارو شيء واحد في  
أسرتنا!

فقال رضوان ياسين بأسماً:

- إن أكبر قادة الفكر في وطننا من الحقوق...

فقال أحمد في كبرياء:

- إن الفكر الذي أعنيه شيء آخر!

فقال عبد المنعم شوكت عابساً:

- وهو شيء خيف هدام، إنني أعلم وأأسفاه بما  
تعني...

وعاد إبراهيم شوكت يقول لأحمد وهو ينظر إلى  
الآخرين كأنما يشهدهم على ما يقول:

- فكَرُّ قبل أن تقدم، إنك لا زلت في السنة  
الرابعة، لن يعدو ميراثك المائة جنيه في العام، وإن  
بعض أصحابي يشكون من الشكوى من أن أبناءهم  
الجامعيين لا يجدون عملاً، أو يعملون كَتَبَةً بِمَرْتَبَات  
تافهة، وأنت حر بعد ذلك فيها تختار...

إبراهيم شوكت أن ينزل عن حقه المشروع في ميراث  
أخيه المتوفى لنعمة فال الميراث كله لعائشة وكرمتها  
دون شريك. وأملت خديجة أن يذكر صنيعها في حينه  
ولكن عائشة استغرقها دُحول غيب عنها كرم أختها فلم  
يقعد ذلك بخديجة عن غمرها بالعطف والرحمة  
والتسامح كأنما انقلبت أمماً أخرى لها، ولم تكن تطمع  
في أكثر من رضاها ومودتها كي تطمئن على أسباب  
التوفيق التي هيأها لها الله. وأخرج إبراهيم شوكت  
عليه سجائره وقدمها لعائشة فتناولت سيجارة شاكراً،  
وتناول أخرى وراحا يدخنان. كثيراً ما يكون إفراط  
عائشة في التدخين وتعاطي القهوة ملتقى ملاحظات  
وإن تكن تقابل منها عادة بهز الكتفين. أما أمها فتقنع  
بأن تقول في لهجة الدعاء «ربنا يصبرها» وأما ياسين  
فكان أجراً الأهل في نصحتها كأنما قد أهله لذلك فقد  
وليده، غير أن عائشة لم تكن تعدّه مصاباً مثلها وتضنّ  
عليه بمكانة مرموقة في دولة البتلين إذ إن ابنه مات وهو  
دون العام لا كعثان أو عمّمد، والواقع أن حديث  
المصائب كان يبدو كثيراً هوايتها المفضلة، كأنما كانت  
تعتزّ بدرجة الممتازة في دنيا الشقاء، واستمع كمال إلى  
ما يدور من حديث عن المستقبل بين رضوان وعبد  
المنعم وأحمد فأرهف السمع باسماء، وكان رضوان  
ياسين يقول:

- كلنا من القسم الأدبي، فليس أمامنا كلّية جديدة  
بالاختيار إلّا الحقوق.

فأجابه عبد المنعم إبراهيم شوكت بصوته القوي  
المفعم بنبرات التوكيد، وكان يهز رأسه الضخم الذي  
جعله أقرب الشبان شبهاً إلى كمال:

- مفهوم... مفهوم، ولكنّه لا يريد أن يفهم!

وأوماً عند عبارته الأخيرة إلى أخيه أحمد الذي  
ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، فانتهاز إبراهيم  
شوكت الفرصة وقال مشيراً إلى أحمد أيضاً:

- ليدخل الآداب إذا شاء ولكن عليه أن يقنعني  
بقيمتها، أنا أفهم الحقوق ولكنني لا أفهم الآداب!  
وغضّ كمال بصره فيها يشبه الأسى، إذ عاودته  
أصداء نقاش قديم عن الحقوق والمعلمين. إنه لا زال

شعر كمال كأنّ هذا القول انتقاد مرّ موجه إلى شخصه، أمّا عائشة فقالت لأوّل مرّة:

- إنه يريد أن يخطب نعيمة.

وفي فترة الصمت التي استقبل بها الخبر قالت أمينة:

- أبوه فاتح جدّها أمس...

وتساءل ياسين جادًا:

- وهل وافق أبي؟

- لهذا سابق لأوانه.

فتساءل إبراهيم شوكت بحذر وهو ينظر إلى عائشة:

- وما رأي عائشة هانم؟

فقالت عائشة دون أن تنظر إلى أحد:

- لا أدري...

فقالت خديجة وهي تتفحصها بعمق:

- ولُكُنْكِ أَنْتِ الْكَلِّ فِي الْكَلِّ...

وأراد كمال أن يشهد بشهادة طيّبة لصديقه فقال:

- فؤاد شابّ ممتاز حقًا...

فقال إبراهيم شوكت بحذر كالتسائل:

- أظنّ أهله من السوق؟

فقال عبد المنعم شوكت بصوته القوي:

- نعم، خاله مكاري، وخاله الآخر قران، وعمّه كاتب محامٍ (ثمّ بلهجة استدرائية ضعيفة) ولكنّ هذا لا ينقص من قدر الإنسان فالإنسان بنفسه لا بأهله!

وأدرك كمال أنّ ابن أخته يريد أن يقرّر حقيقتين

يؤمن بهما على تنافرهما، أوّلًا وضاعة أصل فؤاد، وثانيًا

أنّ وضاعة الأصل لا تنقص من قدر الشخص. بل

أدرك أكثر من هذا أنّه يحمل في الأولى على فؤاد وأنّه

يكفرّ في الثانية عن حملته الظالمة مرضاة لعقيدته الدينيّة

القويّة. ومن عجب أنّ تقرير هاتين الحقيقتين أراحه

وكفاه شرّ الإفصاح عنهما بنفسه، فإنّه كابن أخته لم

يكن يؤمن بفوارق الطبقات، وكان مثله أيضًا يميل

للحملة على فؤاد والخطّ من شأنه الذي يدرك خطورته

وتفاهته هو بالقياس إليه. والظاهر أنّ أمينة لم ترتح

لهذه الحملة فقالت:

- أبوه رجل طيّب، خدّمنا العمر كلّه بأمانة

وإخلاص.

فجمعت خديجة شجاعتها وقالت:

وتدخّل ياسين في المناقشة بأن اقترح قائلاً:

- لنسمع رأي خديجة، إنّها المدرّسة الأولى لأحمد،

وهي أقدرنا على الاختيار بين الحقوق والآداب...

وامتلات الثغور بالابتسام، حتّى أمينة ابتسمت

وهي عاكفة على كنجة القهوة، بل حتّى عائشة

ابتسمت، فتشجّعت خديجة بابتسامة عائشة فقالت:

- سأقصّ عليكم قصّة طريفة، أمس بعد العصر

بقليل - والدنيا تظلم بسرعة في الشتاء كما تعرفون -

كنت راجعة من الدرب الأحمر إلى السكرية، فشعرت

كأنّ رجلاً يتبعني، وإذا به يمرّ بي تحت قبة المتولّي وهو

يقول «على فين يا جميل»، فالتفت نحوه قائلة: «على

البيت يا سي ياسين!».

وضجّت الصالة بالضحك. ونظرت إليه زئوبة

نظرة ذات معنى تجلّي فيها الانتقاد واليأس، أمّا ياسين

فجعل يشير للضحاكين بيده حتّى عاد السكون، ثمّ

تساءل:

- أمن المعقول أن يصيبني العمى إلى هذا الحدّ؟

فحدّره إبراهيم شوكت قائلاً:

- حاسب!

أمّا كريمة فأمسكت بيد أبيها وضحكت كأنّها رغم

كونها بنت ثمانية قد فهمت المقصود من قصّة عمّتها،

وقالت زئوبة تعليقًا على الحال:

- شرّ الأمور ما يضحك.

وحلج ياسين خديجة بنظرة مغيظة وهو يقول

«حفرت لي حفرة يا بنت الإيه» فقالت خديجة:

- إذا كان أحد في الموجودين في حاجة إلى الآداب

فهو أنت لا أحمد ابني المجنون!

وصدّقت زئوبة على قولها، أمّا رضوان فدافع عن

أبيه ودعاه بالبريء المظلوم، وظلّ أحمد ينظر إلى كمال

متعلّقًا به كالأمل، أمّا عبد المنعم فكان يسترق النظر

إلى نعيمة التي تبدّت لصق أمّها كالوردة البيضاء،

وكانت كلّها شعرت بعينيه الصغيرتين توّرد وجهها

الشاحب الرقيق، حتّى عاد إبراهيم شوكت يقول مغيرًا

مجرى الحديث مخاطبًا أحمد:

- انظر إلى الحقوق وكيف جعلت من ابن الحمزاوي

وكيل نيابة قُدّ الدنيا...

ثم قالت في حياء واستياء:  
 - لا رأي لي، دعني وشأني!...  
 فقال أحمد ساخراً:  
 - الحياء الكاذب...  
 ولكن عائشة قاطعتة متسائلة:  
 - الكاذب؟!  
 فاستدرك قائلاً:  
 - الحياء موضحة قديمة، ينبغي أن تتكلمي وألا ضاعت منك الحياة...  
 فقالت عائشة بمرارة:  
 - إنا لا نعرف هذا الكلام.  
 فقال أحمد متشككاً دون أن يعبا بنظرة أمه المندرة:  
 - أراهن على أن أسرتنا متأخرة عن العصر الحديث بأربعة قرون!  
 فسأله عبد المنعم ساخراً:  
 - لم حدّتها بأربعة؟  
 فقال دون اكتراث:  
 - على سبيل الرأفة!  
 وإذا بخديجة توجّه الخطاب إلى كمال متسائلة:  
 - وأنت!... متى تتزوّج أنت؟!  
 بوغت كمال بالسؤال فتهرّب قائلاً:  
 - حديث قديم!  
 - وجديد في الوقت نفسه، ولن نتركه حتّى يجمع الله شملك على بنت الحلال...  
 تابعت أمينة الحديث الأخير باهتمام مضاعف، فزواج كمال أعزّ أمانيتها، وكم رجته أن يحقّق أمنيّتها حتّى تقرّ عينها بحفيد من صلب ابنها الوحيد، قالت:  
 - عرض عليه أبوه عرائس من أحسن الأسر، ولكنّه يتعلّل دائماً بعذر أو بآخر...  
 - أعذار واهية، كم عمرك الآن يا سي كمال؟...  
 تساءل إبراهيم شوكت ضاحكاً...  
 - ثمانية وعشرون عاماً!... فات الوقت...  
 أنصتت أمينة إلى رقم العمر بدش كائناً لا تريد أن تصدّق، أمّا خديجة فاحتدّت وهي تقول:  
 - أنت مغرم بتكبير عمرك!  
 أجل فهو الأخ الأصغر، فالكشف عن عمره كشف

- ولكن ربّما عاشرت نعيمة - لو تمّ هذا الزواج -  
 أناساً ليسوا أهلاً للمعاشرة، الأصل كلّ شيء.  
 وجاءها تأييد من حيث لم يتتظر أحد، فقالت زئوبة:  
 - صدقت، الأصل كلّ شيء!  
 واضطرب ياسين، واسترق إلى خديجة نظرة سريعة وهو يتساءل عن رجوع قول زوجته في نفسها، وتعليقها الباطنيّ عليه وما يستدعيه ذلك إلى خواطرها عن عالم العوالم والتخت. حتّى لعن زئوبة في سرّه على «فنزحتها» الفارغة واضطّر أن يتكلّم ليغطّي على كلام زوجته، فقال:  
 - تذكّروا أنكم تتحدّثون عن وكيل نيابة...  
 فقالت خديجة متشجّعة بسكوت عائشة:  
 - أبي الذي جعل منه وكيل نيابة، أموالنا نحن التي صنّعتها!  
 فقال أحمد شوكت في سخرية نطقت بها عيناه البارزتان اللتان تذكّران بالمرحوم خليل شوكت:  
 - نحن مدينون لأبيه أكثر ممّا هو مدين لنا!  
 فأشارت إليه خديجة بسبّابتها وهي تقول بلهجة ملؤها الانتقاد:  
 - أنت دائماً ترمينا بكلام غير مفهوم.  
 فقال ياسين بلهجة من يأمل في إنهاء الموضوع:  
 - أريخو أنفسكم فالكلمة الأخيرة لبابا...  
 ورّعت أمينة فناجيل القهوة، وأتجهت أعين الشباب إلى حيث جلست نعيمة لصقّ أمّها. قال رضوان لنفسه: بنت لطيفة وجميلة، ليته كان في الإمكان أن أصادقها وأزاملها، لو مشينا في الطريق معاً لاحتار الرجال أيّنا الأجل، وقال أحمد لنفسه أيضاً: جميلة جدّاً، ولكنّها كائناً هي ملزوقة في خالتي بالغرا، ولا حظّ لها من الثقافة. أمّا عبد المنعم فقال: جميلة وست بيت وشديدة التقوى، لا يعيبها إلّا ضعفها، وحتّى ضعفها جميل، خسارة في عين فؤاد، ثمّ جاوز الحديث الباطنيّ فسألها:  
 - وأنت يا نعيمة خبرينا عن رأيك؟  
 فتورّد الوجه الشاحب، وقطّبت ثمّ ابتسمت، وتوتّر حالمها وهي تمزج الابتسام بالتقطيب لتخلص منها معاً،

فابتسمت زئوبة ابتسامة أرجعتها إلى الوراء عشرة أعوام وتساءلت:

- ولم لا ترغب في الزواج؟

فقال كمال فيها يشبه الضجر:

- الزواج حبة وأنتم تجعلون منه قبة...

ولكنه كان يؤمن في أعماقه بأن الزواج قبة لا حبة، وكان يساوره شعور غريب بأنه يوم يذعن للزواج فسيفضي عليه قضاء مبرماً. وأنقذه من موقفه صوت أحمد وهو يقول له:

- أن لنا أن نصعد إلى المكتبة.

فنهض مرحباً بدعوته، ومضى خارجاً وعبد المنعم وأحمد ورضوان في أثره، وصعدوا إلى حجرة المكتب لاستعارة بعض الكتب كمعادتهم كلماً جاءوا إلى البيت القديم زائرين. وكان مكتب كمال يتوسط الحجرة تحت المصباح الكهربائي بين صفين من خزائن الكتب، فجلس إلى مكتبه على حين رأى الشبان يطالعون عناوين الكتب المصفوفة على الأرفف، ثم اختار عبد المنعم كتاب «محاضرات في تاريخ الإسلام»، وجاء أحمد بكتاب «مبادئ الفلسفة»، ثم وقفوا حول مكتبه وهو يردد بصره بينهم صامتاً، حتى قال أحمد متضايقاً:

- لن أقرأ كما أحب حتى أتقن لغة أجنبية واحدة على الأقل.

وتمت عبد المنعم وهو يقرأ صفحات كتابه:

- لا أحد يعرف الإسلام على حقيقته.

فقال أحمد ساخطاً:

- أخي يتلقى حقيقة الإسلام على يد رجل شبه عامي في خان الخليلي...

فصاح به عبد المنعم:

- صه يا زنديق!

ونظر كمال إلى رضوان متسائلاً:

- وأنت ألا تريد كتاباً؟

فاجاب عنه عبد المنعم:

- وقته مشغول بقراءة الجرائد الوفدية!

فقال رضوان وهو يوميء إلى كمال:

- في هذا يتفق معي عمي!

عمه لا يؤمن بشيء ورغم ذلك فهو وفدي! كما أنه

غير مباشر عن عمرها. مع أن زوجها بلغ الستين إلا أنها كانت تكره أن تذكر بأنها في الثامنة والثلاثين، أما كمال فلم يكن يدري ماذا يقول، ولم يكن الموضوع في نظره مما يحسم بكلمة، ولكنه كان يشعر دائماً أنه مطالب بإيضاح موقفه فقال بلهجة المعتذر:

- إني مشغول نهاري بالمدرسة وليلي بمكتبي!

فقال أحمد بحماس:

- حياة عظيمة يا خالي، ولكن الإنسان ينبغي مع ذلك أن يتزوج.

وقال ياسين الذي كان أعرف الجميع بكمال:

- أنت تتجنب الشواغل حتى لا تشغلك عن طلب «الحقيقي» ولكن الحقيقة في هذه الشواغل، لن تعرف الحياة في المكتبة، ولكن الحقيقة في البيت والشارع...

فقال كمال ممعناً في الهرب:

- تعودت أن أنفق مرتبتي لآخر ملّيم، ليس عندي مدخر، كيف أتزوج؟

فالت خديجة تحاصره:

- اتو الزواج مرة وستعرف كيف تستعد له.

وقال ياسين ضاحكاً:

- إنك تنفق مرتبك لآخر ملّيم حتى لا تتزوج... كأنها شيء واحد. ولكن لم يتزوج رغم استجابة الظروف ورغبة الوالدين؟ أجل مضت فترة في ظل الحب فكان الزواج ضرباً من العبث، وتبعتها فترة حل محل الحب فيها بديل هو الفكر فاستغرق الحياة بنهم، وكانت فرحة الأفراح أن يعثر على كتاب جميل أو يظفر بنشر مقالة. وقال لنفسه إن المفكر لا يتزوج وما ينبغي له. كان ينظر إلى فوق ويظن أن الزواج سيحمله على النظر إلى تحت. وكان - وما زال - يلد له موقف المشاهد المتأمل بقدر ما ينفر من الاندماج في ميكانيكية الحياة. وإنه ليضن بحريته كما يضن البخيل بماله، ثم إنه لم يبق عنده من المرأة إلا شهوة تقضي، وإلى هذا كله فالشباب لم يضع هباء ما دام لا ينقضي أسبوع دون مسرات فكرية ولذات جسدية، ثم إنه حائر يداخله الشك في كل شيء، والزواج نوع من الإيمان، قال:

- أريحوا أنفسكم، سأتزوج عندما أرغب في الزواج.



وقد انحشر كمال بين الواقفين وكأنه يطلّ عليهم بقامته الطويلة النحيلة. كانوا مثله - فيما بدا له - يقصدون مكان الاحتفال بالعيد الوطني - عيد ١٣ نوفمبر - فردّد عينيه في الوجوه مستطلعًا ومرحبًا.

والحقّ أنّه يشارك في هذه الأعياد كأشدّ المؤمنين بها وإن آمن في الوقت نفسه بآلأ إيمان له. وكان الناس يتحادثون معلقين على الموقف دون سابق تعارف مكتفين بوحدة الهدف وبرابطة «السودانية» التي ألّفت بين قلوبهم، قال أحدهم:

- عيد الجهاد هذا العام عيد جهاد بكلّ معنى الكلمة، أو هذا ما يجب أن يكون...  
فقال آخر:

- يجب أن يردّ فيه على هور وتصريحه المشؤم.  
وثار ثالث لذكر هور فصاح:  
- ابن الكلب قال: نصحنأ بأن لا يعاد دستور ١٩٢٣، ولا دستور ١٩٣٠، ما شأنه هو ودستورنا؟  
فأجابه رابع:  
- لا تنس أنّه قال قبل ذلك: «على أنّنا عندما استشارونا نصحنأ إلخ...»

- أجل، من الذين استشاروه؟  
- سلّ عن ذلك حكومة القرايين.  
- توفيق نسيم... كفى! أنسيتموه؟ ولكن لماذا هادنه الوفد؟

- لكلّ شيء نهاية، انتظروا خطبة اليوم.  
أصغى كمال إليهم، بل اشترك في حديثهم، وأعجب من هذا أنّه لم يكن من دونهم حماسًا، وكان هذا ثامن عيد جهاد يشهده، وكان كالأخريين قد امتلأ بمראה التجارب السياسيّة التي خلّفتها الأعوام السابقة. أجل «لقد عاصرت عهد محمّد محمود الذي عطّل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد واغتصب حرّية الشعب في نظير وعده له بتجفيف البرك والمستنقعات! كما عشت سنين الإرهاب التي فرضها إسماعيل صدقي على البلاد، كان الشعب يثق في قوم ويريدهم حكمًا له ولكنّه يجد فوق رأسه دائمًا أولئك الجلاّدين البغضاء، تمحيهم هراوات الكونستبلات الإنجليز ورصاصهم، وسرعان ما يقولون له بلغة أو

يشكّ في الحقيقة عامّة، ورغم ذلك فهو يتعامل مع الناس والواقع. تساءل وهو يرّدّد عينيه بين عبد المنعم وأحمد:

- وأنتمأ وفدّيآن كذلك فما وجه الغرابة؟ وكلّ وطنيّ فهو وفدّي، أليس كذلك؟

فقال عبد المنعم بصوته اليقينيّ:  
- الوفد أفضل الأحزاب بلا ريب، ولكنّه في ذاته لم يعد مقنعا كلّ الإقناع...  
فقال أحمد ضاحكًا:

- إنّي أوافق أخي على رأيه هذا، أو بالأحرى لا أوافق على رأيي إلأ هذا، وربّما اختلفنا في درجة الإقناع الخاصّة بالوفد، أكثر من ذلك فإنّ الوطنيّة نفسها يجب أن تكون موضع استفهام، أجل إنّ الاستقلال فوق كلّ نزاع، أمّا معنى الوطنيّة بعد ذلك فينبغي أن يتطوّر حتّى يفنى في معنى أشمل وأسمى، وليس بعيد أن ننظر في المستقبل إلى شهداء الوطنيّة كما ننظر الآن إلى ضحايا المعارك الحمقاء التي تنشب بين القبائل والأسر!

معارك حمقاء يا أحق! فهمي لم يستشهد في معركة حمقاء، ولكن أين وجه اليقين؟ ورغم خواطره قال بحدّة:

- أيّ قتيل في سبيل شيء فوق نفسه فهو شهيد، وقد تتغيّر قيم الأشياء أمّا موقف الإنسان منها فهو قيمة لا تتغيّر...

وغادروا حجرة المكتب ورضوان يقول مخاطبًا عبد المنعم ردًا على ملاحظة له:

- السياسة أخطر وظيفة في المجتمع...  
ولما عادوا إلى مجلس القهوة كان إبراهيم شوكت يقول لياسين:

- وهكذا فنحن نرّي ونوجّه وننصح ولكن كلّ ولد يندمج في مكتبة، وهي عالم مستقلّ عنّا، يزحمنا فيه أناس غريباء، لا ندرى عنهم شيئًا فما عسى أن نصنع؟!

فياشارك في حياتهم ويعتق آلامهم وآلامهم. إنّه بطبعه لا يطيق أن يتخذ من هذه الحياة حياة ثابتة له ولكن لا بدّ منها بين حين وآخر حتى لا ينقطع ما بينه وبين الحياة اليومية، حياة الناس، فلتؤجل مشكلات المادّة والروح والطبيعة وما وراء الطبيعة، وليمثل اهتمامًا بما يحبّ هؤلاء الناس وما يكرهون، بالدستور... بالآزمة الاقتصادية... بالموقف السياسي... بالقضية الوطنية. لذلك لم يكن عجيبًا أن يهتف «الوفد عقيدة الأمة» غداة ليل قضاءه في تأمل عبث الوجود وقبض الريح، والعقل يحرم صاحبه نعمة الراحة، فهو يعيش الحقيقة ويهرى النزاهة ويتطلع إلى التسامح ويرتطم بالشكّ ويشقى في نزاعه الدائم مع الغرائز والانفعالات، فلا بدّ من ساعة يأوي فيها المتعب إلى حضن الجماعة ليجدد دماءه ويستمدّ حرارة وشبابًا. في المكتبة أصدقاء قليلون ممتازون مثل دارون وبرجسون ورسل. في هذا السراقد آلاف من الأصدقاء، يبدون بلا عقول، ولكن يتمثل في مجتمعهم شرف الغرائز الواعية، وليسوا في النهاية دون الأزل خلّقًا للحوادث وصنمًا للتاريخ. في هذه الحياة السياسية يحبّ ويكره ويرضى ويغضب ويبدو كلّ شيء ولا قيمة له. وكلّما واجه هذا التناقض في حياته زعزعه القلق. ولكن ليس ثمة موضع في حياته يخلو من تناقض وبالتالي من قلق. لذلك شدّ ما يحنّ قلبه إلى تحقيق وحدة منسجمة تتسم بالكمال والسعادة، ولكن أين هذه الوحدة؟

ويشعر بأنّ الحياة العقلية لا مفرّ منها ما دام به عقل يفكر فلا يقعه ذلك عن التطلع إلى الحياة الأخرى تدفعه كافة القوى المعطلة المكبوتة، فهي صخرة النجاة. فلعلّه لذلك بدا هذا الجمع رائعا، وكلّما ازداد كثرة ازداد روعة. وها هو القلب ينتظر ظهور الزعماء بنفس الحرارة واللهفة كالآخرين. وقد جلس عبد المنعم وأحمد على مقعدين متجاورين، أمّا رضوان وصاحبه حلمي عزّت فيسيران في الممرّ الذي يشقّ السراقد ذهابًا وحيث أو يقفان عند المدخل يتبادلان الحديث مع بعض المشرفين على الاحتفال فيا لها من شائين ذوي نفوذ! وكانت همسات القوم تتجمع فتحدث لغطا عامًا أمّا الأركان التي احتلّها الشباب

بأخرى أنت شعب قاصر ونحن الأوصياء، والشعب يخوض المعارك دون توقّف فيخرج من كلّ وهو يلهث، حتى التخذ في النهاية موقفًا سلبيا، شعاره الصبر والسخرية، فخلا الميدان إلّا من الوفديين من ناحية والطفة من ناحية أخرى، وقنع الشعب بمجلس المتفرّج وراح يشجّع رجاله في همس دون أن يمدّ لهم يدًا. إنّ قلبه لا يستطيع أن يتجاهل حياة الشعب، إنّه يخفق معه دائماً، رغم عقله التائه في ضباب الشكّ. غادر الترام عند شارع سعد زغلول، وسار في طابور غير منتظم نحو سراقد الاحتفال المقام في جوار بيت الأمة، تقابلهم بين كلّ عشرة أمتار مجموعة من الجنود تحت رئاسة كونستبل إنجليزي تنطق وجوههم بالصرامة والبلادة. والتقى قبيل السراقد بعبد المنعم وأحمد ورضوان وشابّ لا يعرفه وقد وقفوا معًا يتحدّثون، فأقبلوا نحوه مسلمين ولبثوا معه بعض الوقت. منذ شهر تقريبًا ورضوان وعبد المنعم بين طلبة الحقوق أمّا أحمد فقد انتقل إلى السنة النهائية بالثانوي، وإنّه ليراهم في الطريق «رجالاً» بخلاف ما يراهم في البيت فليسوا إلّا أبناء أخته وأخيه. وما أجمل رضوانا، كذلك جميل، صاحبه الذي قدّمه إليه باسم حلمي عزّت وقد صدق من قال إنّ الطيور على أشكالها تقع. وكان أحمد يسره، ويتنظر منه دائماً قولاً غريباً متمعاً أو سلوكاً لا يقلّ عنه غرابة، إنّه أقرب الجميع إلى روحه، أمّا عبد المنعم فما أشبهه به لولا ميله إلى القصر والامتلاء، لذلك فحسب يحبه، أمّا يقينه وتعصّبه فما أردلها!

وأقبل على السراقد الضخم، وألقى نظرة شاملة على الجموع الحاشدة، مسروراً بكثرتها الهائلة، وتطلّع ملياً إلى المنصة التي سيعلو عندها عملاً قليل صوت الشعب، ثمّ التخذ بمجلسه. إنّ وجوده في مثل هذا الجمع الحاشد يطلق من أعماق ذاته الغارقة في الوحدة شخصاً جديداً ينتفض حياة وحماساً. هنا ينحبس العقل في قمقم إلى حين وتنطلق قوى النفس المكبوتة طامحة إلى حياة مفعمة بالمواطف والأحاسيس دافعة إلى الكفاح والأمل، وعند ذاك تتجدّد حياته وتنبعث غرائزه وتتبدّد وحشته ويتصل ما بينه وبين الناس

المقاعد ترتجّ بمن فوقها، فما الخطوة التالية؟ ما يدري إلا والجموع تتجه نحو الخارج. وغادر موضعه وهو يلقي نظرة عامّة باحثًا عن شباب أسرته ولكنه لم يعثر لهم على أثر. وغادر السراقق من الباب الجانبي، ثم سار مستهدفًا شارع قصر العيني في خطوات سريعة حتّى يسبق الجموع. ومَرَّ في طريقه بيت الأُمّة وكان كلّما مرَّ به يعلّق به بصره ورَدَدَ عينيه بين الشرفة التاريخية والفناء الذي شهد أجلّ الذكريات الوطنية، أجل لهذا البيت مثل السحر في نفسه، فها هنا كان يقف سعد، وها هنا كان يقف فهمي وأقرانه، وفي هذا الطريق الذي يسير فيه الآن كان ينطلق الرصاص ليستقرّ في صدور الشهداء، إنّ قومه في حاجة دائمة إلى الثورة ليقاوموا موجات الطغيان التي تترصّد سبيل نهضتهم، في حاجة إلى ثورات دورية تكون بمثابة التطعيم ضدّ الأمراض الخبيثة، والحقّ أنّ الاستبداد هو مرضهم المتوطّن. هكذا نجح اشتراكه في العيد الوطني في تجديد نفسه فلم يكن يمهّ في تلك اللحظة إلا أن تحجب مصر على تصريح هور إجابة حاسمة كاللكمة القاضية. وانتصبت قامته النحيلة الطويلة، وارتفع رأسه الكبير، واشتدّ وقع خطاه وهو يتقدّم أمام الجامعة الأمريكية متخيّلًا أمورًا جلييلة وفعالًا خطيرة. حتّى المدرّس ينبغي أن يثور أحيانًا مع تلاميذه. وابتسم فيما يشبه الكتابة. . . مدرّس كبير الرأس مقضيّ عليه بأنّ يعلم مبادئ الإنجليزّة - المبادئ فحسب - رغم أنّه يطلّع بها على أسرار وأسرار، يحتلّ جسمه من مزدحم الأرض موضعًا ضئيلاً أمّا خياله فيضطرب في الدوامة التي تحيط بمغالق الطبيعة. يسأل في الصباح عن معنى كلمة وهجاء أخرى ويتساءل بالليل عن معنى وجوده ذلك اللغز القائم بين لغزين، وفي الصباح أيضًا يضطرب فؤاده بالثورة على الإنجليز وفي الليل تدعوه الأخوة العامّة المعذّبة - أحوتّه لبني الإنسان - للتعاون أمام لغز القضاء. وهزّ رأسه في شيء من العنف كأنّما ليطرد عنه هذه الخيالات، وقد ترامت إلى مسامعه أصوات الهتاف وهو يقترب من ميدان الإسماعيلية فأدرك أنّ المتظاهرين قد وصلوا إلى شارع قصر العيني، ودعاه الشعور بالنضال الذي يعمر صدره

فعلًا ضجيجها وتخلّلت الهتافات، ثمّ ترامى هتاف قويّ ذو دلالة من الخارج فتطلّعت الرؤوس إلى مدخل السراقق الخلفي، ثمّ هبّوا واقفين، وتعالى هتاف يصمّ الأذان، ثمّ لاح مصطفى النحاس فوق المنصة وهو يحیی الألف بابتسامة وضيفة ويدين قويتين. وتطلّع إليه بعينين اختفت منها نظرة الشكّ إلى حين، وكان يتساءل كيف أومن بهذا الرجل بعد أن فقدت الإيمان بكلّ شيء؟. ألأنّه رمز الاستقلال والديمقراطية؟. مهما يكن من أمر فإنّ التجاوب الحارّ المتبادل بين الرجل والشعب ظاهرة جديرة بالنظر، وهي بلا شكّ قوّة خطيرة تلعب دورها التاريخي في بناء القومية المصرية. وتشبّع الجوّ بالحساس والحرارة، وتعب المشرفون على الحفل حتّى نشروا السكون في الأركان، كي يسمع الناس المقرئ وهو يتلو ما تيسر من القرآن مردّدًا فيما يتلو «يا أيّها النبي حرّض المؤمنين على القتال»، وكان الناس يتظنون هذا النداء فتعالى الهتاف والتصفيق حتّى احتجّ بعض المتزمتين وطالبوا بالصمت احترامًا لكتاب الله. وأثار قولهم في نفسه ذكريات قديمة يوم كان يُدّ واحدًا من هؤلاء المتزمتين فارتسمت على شفثيه ابتسامة ما واستشعر من توهّ عالمه الخاصّ الخافل بالمتناقضات الذي يبدو من تعارض متناقضاته وكأنّه فراغ. ووقف الزعيم وراح يلقي خطابه. ألقاه بصوت رنان وبيان نافذ فاستغرق إلقاؤه ساعتين، ثمّ ختمه جاهرًا في عنف سافر بالدعوة إلى الثورة، وبلغ الحساس من القوم مداه فوقفوا على المقاعد، وجعلوا يهتفون بحساس جنونيّ. ولم يكن دونهم حماسًا وهتافًا، نسي أنّه مدرّس مُطالب بالوقار وخيّل إليه أنّه رجع إلى الأيام المجيدة التي سمع عنها وحال عمره دون الاشتراك فيها. أكانت الخطب تُلقى بهذه القوّة؟. أكان الناس يتلقونها بمثل هذا الحساس؟. أكان الموت لذلك يهون؟. من مثل هذا الموقف بدأ فهمي دون ريب، ثمّ اندفع إلى الموت، إلى الخلود أم إلى الفناء؟. أأمن الممكن أن يستشهد رجل في مثل حاله من الشكّ؟. لعلّ الوطنية - كالحبّ - من القوى التي ندعن لها وإن لم نؤمن بها. . .

إنّ فورة الحساس عالية، الهتافات حارة متوعدة،

الجنود المصريين ليسوا دونهم وحشيّة، إنّها مذبحه مدبّرة يا إلهي!» وجاء صوت من آخر المقهى يقول: «كان قلبي يحدّثني بأنّ اليوم لن يمضي على خير، فأجاب آخر: «أيّام تنذر بالشرّ، فمنذ أعلن هور تصريحه والناس تتوقّع أحداثاً خطيرة، هذه معركة وستلونها معارك، وأؤكد لكم هذا!».

- الضحايا الطلبة دائباً، أعزّ أبناء الأمة، وا

أسفاه!...

- ولكنّ الضرب سكت أليس كذلك!؟، أنصتوا...  
- المظاهرة الأصليّة عند بيت الأمة، وسيستمرّ الضرب هنالك ساعات طويلة!...

ولكنّ الصمت ساد الميدان، ومضى الوقت ثقيلاً مشحوناً بالتوتر، وأخذت الظلمة تدنو حتّى أضيئت أنوار المقهى ثمّ لم يعد يُسمع صوت كأنّما حلّ بالميدان والشوارع المحيطة به الموت، وفتح باب المقهى على مصراعيه فترأى الميدان خالياً من المازّة والمركبات. ثمّ جاء طابور من فرسان البوليس ذوي الخوذات الفولاذيّة فطاف بالميدان يتقدّمه الرؤساء الإنجليز. وكان باطن كمال لا يكفّ عن التساؤل عن مصير الأبناء. ولما دبّت الحركة في الميدان غادر المقهى متعجّلاً، ولم يعد إلى بيته حتّى مرّ بالسكّريّة وقصر الشوق واطمأنّ على عبد المنعم وأحمد ورضوان.

وخلا إلى نفسه في مكتبته بقلب مليء بالحزن والأسى والغضب، لم يقرأ كلمة ولم يكتب كلمة وظلّ عقله غائباً في منطقة بيت الأمة، في هور والخطبة الثائرة والهتاف الوطنيّ وأزيز الرصاص وصرخات الضحايا، ووجد نفسه يحاول أن يتذكّر اسم صاحب دكان البسبوسة التي اختبأ بها قديماً ولكنّ الذاكرة لم تسعها!.



كان منظر بيت عمّاد عفت بالجماليّة من المناظر المألوفة المحبوبة لدى أحمد عبد الجواد. هذه البوابة الخشبيّة التي تبدو من الخارج كأنّها مدخل وكالة قديمة، وذلك السور العالي الذي يخفي ما وراءه خلا رءوس

إلى التوقّف لعلّه يشترك على نحو ما في مظاهرة ١٣ نوفمبر. شدّ ما طال بالوطن موقف الصابر الذي يتلقّى الضربات. اليوم توفيق نسيم وأمس إسماعيل صدقي وأوّل أمس محمّد محمود، تلك السلسلة المشثومة من الطغاة التي تمتدّ إلى ما قبل التاريخ، كلّ ابن كلب غرّته قوّته يزعم لنا أنّه الوصيّ المختار وأنّ الشعب قاصر.

مهلاً!... إنّ المظاهرة تغلي وتغور، ولكن ما هذا!؟، التفت كمال إلى الوراء في اضطراب. سمع صوتاً اهتزّ له قلبه، وأنصت في انتباه فصلك الصوت مسامعه مرّة أخرى. إنّ الرصاص. ورأى المتظاهرين عن بعد يضطربون في دوامة خطيرة لا يتّضح له أمرها، ولكنّ جماعات كانوا يسرعون نحو الميدان، وآخرين إلى الشوارع الجانبية، وكثير من الكونستبلات الإنجليز فوق الجياد يهبون الأرض. وعلا الهتاف واختلط بأصوات الغضب والصراخ واشتدّ انطلاق الرصاص. وخفق قلبه وتساءلت دقّاته عن عبد المنعم وأحمد ورضوان، وامتلاً اضطراباً وغضباً، وتلفّت يمنة ويسرة فرأى قهوة غير بعيد على الناصية فاتّجه إليها. وقد أغلق بابها نصف إغلاق. وما إن مرق منها حتّى تذكر دكان البسبوسة بالحسين حيث سمع طلقات الرصاص لأوّل مرّة، وشاع الاضطراب في كلّ مكان. وانطلق الرصاص في غزارة غيفة ثمّ متقطّعا. وتراكت أصوات كسر زجاج وصهيل خيل، وعلت أصوات مزججة دلّت على أنّ تجمّعات ثائرة تنتقل من مكان إلى مكان بسرعة خاطفة. ودخل المشروب شيخ وقال قبل أن يسأله أحد عمّا وراءه: «إنّ رصاص الكونستبلات ينهال على الطلبة والله أعلم بعدد الضحايا، ثمّ جلس وهو يلهث وعاد يقول بصوت متهدّج: «غدروا بالأبرياء غدرًا، لو كان تفريق المظاهرة غايتهم لأطلقوا الرصاص في الهواء من مواقعهم البعيدة، ولكنّهم سايروا المظاهرة في هدوء مصطنع، وجعلوا يوزّعون أنفسهم على مخرج الطريق، وفجأة أشبهروا المسدّسات وأطلقوا الرصاص، على ألقاثل أطلقوا بلا رحمة، وسقط الصغار يتخبّطون في دمهم، الإنجليز وحوش ولكنّ

بصينية عليها ثلاثة أقداح شاي وكأس ويسكي بالصودا فتناول محمد عفت الكأس باسمًا وتناول الثلاثة الآخرون أقداح الشاي. وكان هذا التوزيع الذي يتكرر كل مساء كثيرًا ما يضحكهم؛ فقال محمد عفت وهو يلوح بالكأس في يده ويشير إلى أقداح الشاي في أيديهم:

- عفا الله عن الأيام التي أدبتكم!

فقال أحمد عبد الجواد متنهدًا:

- إنها أدبتنا جميعًا، وأنت أولنا، غير أنك قليل الأدب...

وكان صدر إليهم أمر طيب واحد في أوقات مقاربة من عام واحد بالامتناع عن تناول الخمر، غير أن طبيب محمد عفت سمح له بكأس واحدة في اليوم، وظن أحمد عبد الجواد يومذاك أن طبيب صديقه يتسامح فيما يتشدّد فيه طبيبه هو، فما كان منه إلا أن عرض نفسه عليه ولكن الطبيب حذره في جدّ وحزم قائلاً: «إن حالتك غير حالة صديقك»، وقد افتضح أمر سعيه إلى طبيب محمد عفت فكان موضع نقاش وتندر طويلين. وعاد أحمد يقول ضاحكًا:

- لا شك أنك نفحت طبيبك برشوة كبيرة حتى سمح لك بهذه الكأس!

فقال الفار متأوّهًا وهو يرنو إلى الكأس بيد محمد عفت:

- كدت والله أنسى نشوتها!

فقال له عليّ عبد الرحيم مازحًا:

- فسدت توبتك بهذا القول يا عرييد.

فاستغفر الفار ربّه ثمّ ثتم في استسلام:

- الحمد لله...

- بتنا نُحسد على كأس واحدة!... أين... أين النشوات؟!

فقال أحمد عبد الجواد ضاحكًا:

- إذا ندمتم فاندموا على الشرّ لا على الخير يا أولاد الكلب!

- إنك كسائر الوعاظ، أستهتم في دنيا وقلوبهم في دنيا أخرى...

الأشجار العالية، أما هذه الحديقة المظللة بأشجار التوت والجَمَيز والمهندسة بأشجار الحناء والليمون والفَلّ والياسمين فشأنها عجيب، وعجيب أيضًا بركة المياه التي تتوسطها، ثمّ الفراندا الخشبية التي تمتدّ بعرض الحديقة. وكان محمد عفت واقفًا على سلم الفراندا ينتظر القادم وهو يحبك عباءته المنزلية، أما عليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار فقد جلسا على كرسيين متجاورين. وسلم أحمد على الإخوان ثمّ تبع محمد عفت إلى الكنبه التي تتوسط الفراندا وجلسا معًا. وكانت بدانتهم قد زایلتهن جميعًا فيما عدا محمد عفت الذي بدا مترهلًا كما بدا وجهه شديد الاحمرار، وقد صلع عليّ عبد الرحيم واشتعلت رءوس الآخرين شيئًا، وانتشرت في صفحات الوجوه التجاعيد، وبدا عليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار أشدّ إذعائًا للكبر، غير أنّ حمرة وجه محمد عفت كانت بالاحتقان أشبه، وبقي أحمد رغم ضموره وشبهه جميلًا صافيًا. وكان أحمد يحبّ هذا المجلس حبًا جمًّا، كما يحبّ منظر الحديقة التي تترامى حتى السور العالي المشرف على الجمالية، وقد مال برأسه إلى الوراء قليلًا كأنما ليتمكن أنفه العظيم من الارتواء بعبر الفلّ والياسمين والحناء، وربما أغمض عينيه أحيانًا ليخلص لسماع زقزقة العصافير اللاهية فوق أغصان التوت والجَمَيز. غير أنّ أنبل ما خالط قلبه في تلك اللحظة كان شعور الأخوة والصداقة الذي يكنّه هؤلاء الرجال. كان يرنو بعينه الزرقاوين الواسعتين إلى وجوههم الحبيبة التي نكرها الكبر فيفيض قلبه بالأسى والحنان عليهم وعلى نفسه، وكان أشدهم تعلقًا بالماضي وذكرياته، يفتنه كلّ ما يذكر بجمال الشباب وصبوة العواطف ومغامرات الفتوة. وقام إبراهيم الفار إلى خوان قريب وضع عليه صندوق النرد فجاء به وهو يتساءل:

- مَنْ يلاعبني؟

فقال أحمد مستنكرًا وكان قليلًا ما يشترك في ألعابهم:

- أجّل اللعب إلى حين، لا يجوز أن نشغل به عن أنفسنا من أول الجلسة.

فاعاد الفار الصندوق إلى مكانه، ثمّ جاء نوب

- إذا ذهب الإنجليز فلن يبقى لأحد من هؤلاء شأن، ستصبح الانقلابات في خبر كان...

- نعم، وإذا فكر الملك أن يلعب بذيله فلن يجد من يسأله.

وعاد محمد عفت يقول:

- سيجد الملك نفسه بين اثنتين فأما احترام الدستور

ولما السلام عليكم!

وتساءل إبراهيم الفار فيما يشبه الشك:

- وهل يتخلى عنه الإنجليز إذا طلب حمايتهم؟

- وإذا سلم الإنجليز بالجللاء فلماذا يحمون الملك؟

فتساءل الفار مرة أخرى:

- وهل يسلم الإنجليز بالجللاء حقاً؟

قال محمد عفت في ثقة من يعتز بثقافته السياسية:

- لقد دهمونا بتصريح هور فكأنات المظاهرات،

وكان الشهداء رحمة الله عليهم، ثم كانت الدعوة إلى

الائتلاف، ثم عاد دستور سنة ١٩٢٣، أوكد لكم أن

الإنجليز راغبون الآن في المفاوضة، حقاً إن الإنسان لا

يدري كيف تنكشف هذه الغمسة، كيف يمكن أن

يذهب الإنجليز أو ينتهي نفوذ الخوارج، ولكن ثقتنا

في مصطفى النحاس لا نهاية لها...

- ثلاثة وخمسون عاماً من الاحتلال تنتهي بشوئية

كلام حول مائدة؟

- كلام قد سبق بدم زكي مسفوح...

- ولوا...

فقال محمد عفت وهو يغمز بعينه:

- سيجدون أنفسهم في مركز حرج وسط حالة دولية

خطيرة!

- يستطيعون أن يجدوا دائماً من يؤمن ظهرهم،

ولإسماعيل صدقي حي لم يمّا...

فعاد محمد عفت يقول بلهجة العارف:

- حادثت كثيرين من المظلمين فوجدتهم متفائلين،

يقولون إن العالم مهتد بحرب طاحنة، وإن مصر في

فوهة المدفع، وإن من صالح الطرفين الاتفاق

المشرف...

ثم واصل حديثه بعد أن مسح على كرشه في ثقة

واطمئنان:

وإذا بعليّ عبد الرحيم يقول رافعاً صوته إلى درجة جديدة منذرة بتغيير مجرى الحديث:

- يا رجال! ما رأيكم في مصطفى النحاس؟

الرجل الذي لم تؤثر فيه دموع الملك الشيخ المريض

فأب أن ينسى ثانية واحدة مطلبه الأسمى «دستور سنة

١٩٢٣»...

ففرق محمد عفت بأصابعه وقال في سرور:

- برافو... برافو... إنه أصلب من سعد

زغلول نفسه، من كان يرى الملك الجبار مريضاً باكياً

ثم يصمد أمامه بهذه الشجاعة النادرة ويردّد في ثبات

صوت الأئمة التي أولته زعامتها قائلاً: «دستور سنة

١٩٢٣ أولاً، وهكذا عاد الدستور، فمن كان يتصور

ذلك؟

فقال إبراهيم الفار وهو يهز رأسه في عجب:

- تصوّروا هذا المنظر، الملك فؤاد وقد حطّمه

المرض والشيخوخة، يضع يده على كتف مصطفى

النحاس في مودة بالغة! ثم يدعوه إلى تأليف وزارة

ائتلافية، فلا يتأثر النحاس لذلك كله، ولا ينسى

واجبه كزعيم أمين، يغفل لحظة واحدة عن الدستور

الذي توشك الديموع الملكية أن تغطي عليه، لا يتأثر

لشيء من هذا ويقول بشجاعة وصلابة: دستور سنة

١٩٢٣ أولاً يا مولاي.

عليّ عبد الرحيم محاكياً نفس اللهجة:

- أو الخازوق أولاً يا مولاي!

أحمد عبد الجواد ضاحكاً:

- قسماً بمن جرت مقاديره بأن نرى الويسكي بيننا

ونتجنّبه لأنه لموقف عظيم!

وشرب محمد عفت بقية كأسه ثم قال:

- نحن في عام ١٩٣٥، ثماني سنوات مرت على

موت سعد، وخمسة عشر عاماً على الثورة، ولا يزال

الإنجليز في كلّ مكان، في الثكنات والبوليس والجيش

وشقّي الوزارات، الامتيازات الأجنبية التي تجعل من

كلّ ابن لبوة سيّداً مهاباً ما زالت قائمة، ينبغي أن

تنتهي هذه الحال المؤسفة...

- ولا تنس الجلاّدين أمثال إسماعيل صدقي ومحمد

محمود والإبراشي!

الجامع الحرام، فقلت في نفسي خفف الوطء يا ابن المركوب!

وعلا الضحك، أما أحمد عبد الجواد فلم يكن أفاق من ذهوله ولكنه رأى أن يتخفف منه بالمشاركة في الضحك. وتساءل محمد عفت بلهجة ذات مغزى وهو يتحدث في وجه أحمد:

- ما وجه العجب في ذلك أليس هو ابن حضرتك؟!

فقال أحمد عبد الجواد وهو يهز رأسه عجباً:  
- عرفته دائماً مؤذناً مهذباً هادئ الطبع، لا يرى إلا في مكتبته وهو يقرأ أو يكتب حتى أشفقت عليه من الإغراق في الانزواء والإفراط في عمل لا جدوى منه...

فقال إبراهيم الفار مداعباً:  
- من يدري فلعل في بيت جلييلة فرعاً من دار الكتب!

وقال عليّ عبد الرحيم:  
- أو لعله يعتزل في مكتبته لمطالعة كتاب رجوع الشيخ، ماذا تنتظر من رجل بدأ حياته بتقرير أن الإنسان أصله قرد؟!

وصحكوا فضحك معهم أحمد عبد الجواد الذي كان يعلم بخبرته أن الاستسلام للجد في أمثال هذه الأحوال يجعل منه هدفاً سهلاً للمزاح والقفش، ثم قال:

- لهذا لا يفكر الملعون في الزواج حتى ظننت به الظنون!...

- ما عمر المحروس الآن؟  
- في التاسعة والعشرين!...

- يا سلام! . يجب أن تزوجه، لماذا يرغب عن الزواج؟

تجشأ محمد عفت ثم مسح على كرشه وهو يقول:  
- هذه موضحة فحسب ولكن بنات اليوم يزحن الشوارع فضعفت الثقة بهن، ألم تسمعوا الشيخ حسين وهو يغني «يا ما نشوف حاجات تجنن، البيه والهانم عند مزين؟».

- ولا تنس الأزمة الاقتصادية وضيق المستقبل أمام

- إليكم خبراً هاماً، وعدت بأن أرشح في دائرة الجبالية في الانتخابات القادمة، وعدني النقراشي نفسه.

وتهللت وجوه الأصدقاء سروراً، ثم لما جاء دور التعليق قال عليّ عبد الرحيم متصنعاً الجد:

- لا يعيب الوفد إلا أنه يرشح حيوانات أحياناً باسم نواب!

فقال أحمد عبد الجواد كأنما يدافع عن عيب الوفد:  
- وماذا يفعل الوفد؟ إنه يريد أن يمثل الأمة كلها، أبناء حلال وأبناء سفلة، فمن يمثل أولاد السفلة إلا الحيوانات؟!

فلكره محمد عفت في جنبه وهو يقول:  
- عجوز وقارح، أنت وجليلة شخص واحد، كلاهما عجوز وقارح!...

- إني أرضى لو رشحوا جليلة، فهي عند اللزوم قد تفرش الملاية للملك نفسه!

وهنا قال عليّ عبد الرحيم باسمياً:  
- قابلتها أول أمس أمام عطفها، ما زالت كالمحمل ولكن الكبر أكل عليها وبال!

فقال الفار:  
- صارت معلمة قد الدنيا، بيتها شغال ليل نهار، ويموت الزمار وصباغه ييلعب.

فضحك عليّ عبد الرحيم طويلاً ثم قال:  
- كنت ماراً أمام باب بيتها فرأيت رجلاً يتسلل إليه وهو يظن أنه بمأمن من الرقباء، فمن تظنونه كان؟...

(ثم أجاب وهو يغمز بعينه صوب أحمد عبد الجواد)... المحروس كمال أفندي أحمد خوجة مدرسة السلحدار!...

ضحك محمد عفت والفار ضحكة عالية، أما أحمد عبد الجواد فقد اتسعت عيناه دهشاً وانزعاجاً، ثم تساءل في ذهول:

- كمال ابني؟!...

- أي نعم، كان ملتقاً في معطفه، وعلى عينه نظارته الذهبية، وشاربه الغليظ يجتال وقاراً، كان يسير في رزاة ومهابة كأنما ليس هو ابن «ضحكجي أغا»، وبفس الوقار انعطف إلى البيت كأنما ينعطف إلى

متعزياً لأنه رباه فأحسن تربيته حتى حصل على الشهادة العليا وصار مدرّساً محترماً فله أن يفعل ما يشاء. ولعله من حسن التوفيق أن يعرف كيف يلهو رغم عوده الرفيع ورأسه وأنفه العظيمين! ولو أنصف الحفظ لتزوّج كمال منذ سنوات، ولما تزوّج ياسين أبداً، ولكن من يدعي القدرة على حلّ هذه الرموز؟ وإذا بالفار يسأله:

- متى رأيت زبيدة آخر مرة؟

فأجاب أحمد بعد تذكّر:

- في يناير الماضي، أي منذ عام تقريباً، يوم جاءني في الدكان لأبيع لها البيت...

فقال إبراهيم الفار:

- اشتريته جليلة، ثم وقعت المجنونة في حبّ عريجي كارو فتركها على الحديدة، وهي الآن تقيم بحجرة على سطح بيت سوسن العاملة في حال من الاضمحلال يرثى لها!

فهزّ أحمد عبد الجواد رأسه في أسف، وتمتم:

- السلطانة في حجرة فوق السطح! سبحان من له الدوام. فقال عليّ عبد الرحيم:

- نهاية مخزنة، بيد أنّها كانت متوقّعة...

فندّت عن محمّد عفت ضحكة رثاء وقال:

- فليرحم الله من يأمن إلى هذه الدنيا!

ثم دعا الفار إلى اللعب فتحذّاه محمّد عفت، وسرعان ما التقوا جميعاً حول النرد، وأحمد عبد الجواد يقول:

- ترى من يكون حظّه كجليلة، ومن يكون كزبيدة!

## ٦

في إحدى حجرات قهوة أحمد عبده، جلس كمال وإسماعيل لطيف. وهي نفس الحجرة التي كان كمال يجالس فيها فؤاد الحمزاوي في مطلع شبابه. وبالرغم من برودة ديسمبر كان جوّ القهوة دافئاً، إذ أنّه بإغلاق مدخلها يسدّ المنفذ الوحيد لها إلى سطح الأرض، فكان من الطبيعي أن تدفأ وإن انتشرت الرطوبة في جنباتها بدرجة محسوسة. ولم يكن لإسماعيل لطيف

الشباب، إن خربجي الجامعة يتوظّفون بعشرة جنيهات إن وجدوا وظيفة بطلوع الروح!

وتساءل أحمد عبد الجواد في قلق يئن:

- أخاف أن يعرف أنّ جليلة كانت يوماً صاحبتني أو تعرف هي أنّه ابني!

فتساءل عليّ عبد الرحيم ضاحكاً:

- أحسبتها تستجوب الزبائن؟!

فقال محمّد عفت وهو يغمز بعينه:

- لو عرفته الفاجرة لقصّت عليه قصّة أبيه من الألف إلى الياء!

فهتف أحمد عبد الجواد وهو ينفخ:

- لا قدر الله ولا كان...

فتساءل إبراهيم الفار:

- اتحسب أنّ الذي يستطيع أن يعرف أنّ جدّه الأوّل قرد يعجز عن معرفة أنّ أباه فاسق فاجر؟!

فضحك محمّد عفت عالياً حتى سعل، وصمت لحظات ثم قال:

- الحقّ أنّ مظهر كمال خدّاع، رزين هادئ متزمّت، خوجة بكلّ معنى الكلمة...

فقال عليّ عبد الرحيم بلهجة الترضية:

- يا سيّدي ربّنا يخلّيه ويطول عمره، ومن شابهه أباه فما ظلم... فعاد محمّد عفت يتساءل:

- المهمّ أهو «حلنج» كأبيه؟... أعني هل يجيد معاملة النساء والاستحواذ عليهنّ؟

فقال عليّ عبد الرحيم:

- أمّا هذا فلا أظنّ! يخيل لي أنّه يظلّ متقدّماً برزانه ووفاره حتى يغلق الباب عليه وعلى صاحبة النصيب، ثم يأخذ في نزع ثيابه بنفس الرزانة والوقار، ثم يرمي عليها، وهو في الغاية من الجذّ والرزانة كأنما يلقي درساً خطيراً!

- يخلّق من ظهر الحلنج دهل!

وساءل أحمد عبد الجواد نفسه فيما يشبه السخط: لماذا يبدو لي الأمر غريباً؟! وصمّم على أن يتناسى الخبر. ولما رأى الفار يذهب إلى صندوق النرد ويعود به، قال دون تردّد أنّه آن لهم أن يلعبوا. بيد أنّ أفكاره ظلّت تدور حول الخبر الجديد. وقال لنفسه



الذي زامله فيما بين عامي ١٩٢١ و ١٩٢٧، تلك الفترة الفدّة في حياته التي عاشها بكلّ جوارحه، فلم تمض دقيقة من زمانها دون سرور عميق أو ألم شديد، فكانت عهد الصداقة الحقّة متمثلة في حسين شّداد، وعهد الحبّ الصادق متبلورًا في عابدة، وعهد الحفاصة العامرة مستمّدة من شعلة الثورة المصريّة الرائعة، ثمّ عهد التجارب العنيفة التي قدّفت بها الشكّ والمجون والأهواء، وقد كان إسماعيل لطيف هذا رمز العهد الأخير، ودليله الخطير، فإين هو اليوم من ذلك؟

وعاد إسماعيل لطيف يقول في شيء من التذمّر:  
- بيد أنّ هناك أمورًا تشغل بالنا باستمرار، كالكاثر الجديد ووقف الترقّيات والعلاوات، وأنت تعلم أنّي تعودت على الحياة الرغيدة في كنف أبي، ولكنّ أبي لم يترك ميراثًا، ووالدي بدورها تستهلك كلّ معاشها، لذلك رضيت في سبيل الرزق أن أعمل في طنطا، وهل كان مثلي يرضى بذلك؟

فضحك كمال قائلاً:

- مثلك ما كان يرضى بشيء!

فابتسم إسماعيل فيما يشبه الزهو اعتراضًا بماضيه الحافل الذي هجره بمحض اختياره. وسأله كمال:

- ألا تنازعك نفسك إلى معاودة شيء من الماضي؟

- كلًّا شبت من كلّ شيء، وأستطيع أن أقول بأنّي لم أضجر من حياتي الجديدة بعد، كلّ المطلوب منّي أن أبدي شيئًا من المهارة بين حين وآخر، حتّى أفوز ببعض النقود من والدي، كذلك على زوجي أن تلعب نفس الدور مع أبيها، إذ إنّني لا زلت مغرمًا بالحياة الرغيدة...

فلم يملك كمال أن يقول ضاحكًا:

- علّمتنا وتركنا وحدنا على الطريق...

فضحك إسماعيل ضحكة عالية أعادت إلى وجهه الرزين كثيرًا من ملامح الماضي الماكرة، وقال:

- آسف أنت على ذلك؟. كلًّا، أنت تحبّ هذه

الحياة بإخلاص عجيب، غير أنّك رجل معتدل، إنّني فعلت في سنوات لعبي القلائل ما لن تفعل مثله مدى عمرك «ثمّ بلهجة جدّية». . . تزوّج وغيّر حياتك!

ليرضى بالجلوس في قهوة أحمد عبده، لولا رغبته في مجارة كمال. إنّ الصديق القديم الذي لم تنقطع بكمال أسبابه، رغم أنّ مطالب الرزق دفعت به إلى طنطا خبيرًا محاسبًا مذ تخرّج في مدرسة التجارة. فكان إذا عاد إلى القاهرة في إجازة اتّصل به تليفونيًا بمدرسة السلحدار، ونال منه موعدًا للقاء في هذا الركن الأثري. وجعل كمال ينظر إلى صديقه القديم، كما بدا له بمنظره المدمج وملاحمه المدبّبة الحاذة. ويعجب لما آل إليه حاله من رزانة وأدب واستقامة، جعلته مثلاً طيّبًا للزوج والأب، الذي كان يومًا مثلاً فذاً للقحة والاستهتار والفظاظة. وصبّ كمال الشاي الأخضر في قدح صاحبه ثمّ في قدحه وهو يقول بأسما:

- يبدو أنّ قهوة أحمد عبده لا تعجبك!

فارتفع رأس إسماعيل في تطاوله المعهود، وقال:

- إنّها غريبة حقًا، ولكن لماذا لا نختار مكانًا فوق سطح الأرض؟

- على أيّ حال هي أنسب مكان للناس المستقيمين أمثالك.

فضحك إسماعيل وهو يهزّ رأسه في تسليم، كأنّما يقرّ بأنّه أصبح جدّيرًا حقًا بفضيلة الاستقامة، هو الذي كان وكان، وعند ذلك سأله كمال مجاملًا:

- كيف الحال في طنطا؟

- عال، أمّا النهار فعمل متواصل في المصلحة، وأمّا الليل فأقضيه مع زوجي وأولادي.

- وكيف حال الأبناء؟

- نعمده، إنّ راجتهم دائمًا على حساب تعبنا، ولكن نعمده في جميع الأحوال...

فسأله كمال مدفوعًا بحبّ الاستطلاع الذي يثيره في نفسه حديث الأسرة بصفة عامّة:

- وهل وجدّتهم حقًا السعادة الحقيقيّة، كما يقول العارفون؟

- نعم، إنّهم لكذلك.

- رغم متاعبهم؟

- رغم كلّ شيء!

وجعل كمال ينظر إلى صاحبه بفضول أشدّ. هذا شخص جديد لا يكاد يمتّ بصلة إلى إسماعيل لطيف

فقال كمال بلهجة عابئة:

- هذا أمر جدير بالتفكير!

ما بين ١٩٢٤ و ١٩٣٥ تُلحق إسماعيل لطيف جديد جدير بأن يزوره غواة الأعاجيب. على أي حال إنه الصديق القديم الباقي، أما حسين شذاد فقد اختطفته فرنسا من وطنه، وكذلك حسن سليم أمسى الخارج مقامه ومعاشه، لم يعد لهما من سبب في القلب وأسفاه، لم يكن إسماعيل لطيف يوماً صديق الروح. ولكنه ذكرى حيّة من الماضي العجيب، لذلك فهو خليق بأن يعترّ به، وأعترّ به أيضاً لوفائه، لا مسرة روحية في مصاحبته، ولكنه آية حيّة على أنّ الماضي لم يكن خيالاً، ذلك الماضي الذي أحرص على إثبات حقيقته حرصي على الحياة نفسها، ترى ماذا تصنع عابدة في هذه اللحظة من الزمان؟ وأين هي في عالم المكان؟ وكيف استطاع القلب أن يبرأ من مرض حبها؟... كل أولئك أعاجيب...

- إني معجب، يا سيّد إسماعيل، أنت شخص جدير بكل توفيق.

وألقي إسماعيل نظرة على ما حوله، استعرض بها السقف والفوانيس والحجرات والوجوه الحاملة والعاكفين على السمر واللعب، ثمّ تساءل:

- ماذا يعجبك في هذه القهوة؟

فلم يجبه كمال على سؤاله، ولكنه قال بلهجة آسفة:

- أما علمت؟! سوف تهدم في القريب ليقام على أنقاضها عمارة جديدة، سيخفي هذا الأثر إلى الأبد!

- مع ألف سلامة، فلتختف هذه المقبرة ليقوم فوقها عمران جديد.

أنطق بالحق؟. ربّما، ولكنّ للقلب لواعجه، يا

قهوتي العزيزة أنت قطعة من نفسي، فيك حلمت كثيراً

وفكرت كثيراً، وفيك سكن ياسين أعواماً، واجتمع

فهمني بالثوار ليفكروا ويعملوا من أجل عالم أفضل،

ثمّ إني أحبّك لأنك مصنوعة من مادة الحلم، ولكن ما

جدوى هذا كلّ؟. وما قيمة الحنين إلى الماضي؟. ربّما

ظلّ الماضي أفيونة أصحاب القلوب، وأشقى ما تصاب

به أن تكون ذا قلب حنون وعقل شاكّ: فلنقل أيّ

كلام ما دمنا لا نؤمن بشيء.

- في هذا صدقت، إني أقترح أن يهدموا الهرم إذا وجدوا لأحجاره فائدة ما للمستقبل!

- الهرم! ما دخل الهرم في قهوة أحمد عبده؟!

- أعني الآثار، أعني أن نهدم كلّ شيء في سبيل اليوم والغد.

فضحك إسماعيل لطيف، وتطاول بعنقه - كما كان يفعل قديماً كلّما تحدّى - ثمّ قال:

- أحياناً تكتب كلاماً يناقض هذا القول، إني كما

تعلم أقرأ بين حين وآخر مجلّة الفكر إكراماً لك،

وسبق أن صارحتك برأيي، أي نعم، مقالاتك

عسيرة، المجلّة كلّها جافّة والعياذ بالله، لم أستطع

المثابرة على اقتنائها لأن زوجتي لا تجد فيها شيئاً يُقرأ،

ولا تؤاخذني فهذا قولها! أقول إني وجدت أحياناً فيها

تكتب نقيض ما تقول الآن، ولكنّي لا أزعج أنّي أفهم

كثيراً - وبينني وبينك ولا قليلاً - ممّا تكتب، وهذه

المناسبة أليس من الأفضل أن تكتب كما يكتب الكتاب

المحبوبون؟، لو فعلت لوجدت جمهوراً كبيراً،

ولربحت مالاً وفيراً.

في زمن مضى كان يحقر هذا الرأي في عناد وثورة،

الآن لا زال يحقره ولكن دون ثورة، لكنّه يشكّ في

هذا الاحتقار، لا لشبهة في أنّه في غير موضعه، ولكن

لأنه يرتاب أحياناً في قيمة ما يكتب، وربّما ارتاب في

ارتبابه نفسه، وسرعان ما اعترف فيما بينه وبين نفسه

بأنّه قد ضاق بكلّ شيء ذرعاً، وأن الدنيا تبدو أحياناً

كلفظة قديمة اندثر معناها.

- إنك لم ترض يوماً عن عقلي!

إسماعيل وهو يقهقه:

- أتذكر؟. يا لها من أيام!

أيام مضت، لم تعد نيرانها تحرق، لكنّها مصنوعة في

موضعها كالجئة العريضة، أو كعلبة الملابس المستكنة في

مكانها منذ ليلة عائدة...

- ألم يبلغك شيء عن حسين شذاد أو حسن

سليم؟!

رفع إسماعيل حاجبيه الكثيفين، وقال:

- ذكرتني! حدثت أمور في العام الماضي الذي

قضيته بعيداً عن القاهرة...

- لا شك أنه عاد عقب الحادث، كذلك حسن سليم وعائدة، ولكن لا أحد منهم في مصر الآن.  
- وكيف عاد حسين تاركاً أسرته على حالها؟ ومن أين له أن ينفق بعد إفلاس والده؟

- سمعت أنه تزوج هناك، ولا يبعد أن يكون قد وجد عملاً في أثناء إقامته الطويلة في فرنسا، لا أدري شيئاً عن هذا، فأنا لم أره منذ ودّعناه معاً، كم مضى على ذلك؟. عشرة أعوام على وجه التقريب. أليس كذلك؟. إنه تاريخ قديم، كم أثار شجوني!

كم وكم، أما هو فالدموع لا تزال تطرق أبواب عينيه الخلفية، إنها لم تفتح منذ ذلك العهد وعلاها الصدا، وقلبه يقطر حزناً، فيذكر بذلك القلب الذي اتخذ من الحزن شعاراً، إن هذا الخبر قد رجّحه رجلاً عنيقاً حتى كاد ينفذ عنه الحاضر كله، ويكشف عن الإنسان القديم الذي كان حباً خالصاً وحزناً خالصاً، أهذه هي نهاية الحلم القديم؟ الإفلاس والانتحار. كأنما قضي بأن تؤذبه هذه الأسرة بأدب الالهة الساقطين! الإفلاس والانتحار، وإذا كانت عابدة لا تزال في بحيرة من العيش بفضل مكانة زوجها، فإذا طرأ على كبرياتها الملائكي؟. وهل هبطت الأحداث بشقيقتها الصغيرة إلى...  
- كان لحسين أخت صغيرة. ما اسمها؟. إنّي أذكره

حيثاً وأنساه أحياناً كثيرة!  
- بدور، إنها تعيش مع والدتها وتقاسمها متاعب الحياة الجديدة...  
تصوّر آل عائدة في حياة متواضعة. كحياة هؤلاء الناس حولنا، فهل تمضي بدور يوماً بجورب مرقو؟. وهل تتخذ من الترام مركباً؟. آه... لا تغالط نفسك

فأنت اليوم حزين ومهما يكن لعقلك من رأي في الطبقات وفوارقها، فإنك تشعر من جرّاء هذا الانقلاب بانهايار خفيف، ويعزّ عليك أن تسمع بأن مثلك العليا تتمرّغ في التراب، فلتهنأ على أيّ حال بأنه لم يبق من الحب شيء، أجل... ماذا بقي من الحب القديم؟. إذا قال لا شيء فإن قلبه يخفق في حنان عجيب عند تردد أيّ أغنية من أغاني ذلك العهد، رغم ابتذال ألفاظها ومعانيها وأنغامها، فما

ثم استطرد في اهتمام متزايد:  
- علمت حال عودتي من طنطا أن أسرة شدّاد انتهت.

تفجّرت في قلب كمال ثورة اهتمام طاغية، وعانى كثيراً وهو يغالب آثارها الظاهرة، ثم تساءل:  
- ماذا تعني؟

- أخبرني والدتي أنّ شدّاد بك أفلس، التهمت البورصة آخر مليم في حوزته، انتهى شدّاد، ثم إنه لم يتحمّل الصدمة فانتحرا.

- يا له من خبرا. متى حدث ذلك؟  
- منذ أشهر، وضاع القصر الكبير فيما ضاع من متاع، ذلك القصر الذي عشنا في حديقته زمناً لا ينسى...  
أيّ زمن وأيّ قصر، وأيّ حديقة، أيّ ذكريات، أيّ ألم نسي، أيّ نسيان مؤلم، الأسرة الرفيعة، الرجل العظيم، الحلم الكبير، أليس هذا الجيشان أضخم مما ينبغي أن يستدعيه الحال؟. وهذه الحقيقة التي تمخّض عنها القلب أشدّ مما تستحقّ ذكريات عفى عليها النسيان؟.

قال كمال بصوت حزين:  
- انتحر البيك، وضاع القصر، ولكن ما مصير أهله؟  
قال إسماعيل في امتعاض:  
- لم تعد لأمّ صديقنا إلا خمسة عشر جنيهاً شهرياً من ريع وقف، وقد انتقلت إلى شقّة متواضعة بالعباسية، وقد زارتها والدتي فعاتت تصف حالها وهي تبكي، تلك السيّدة التي تقلّبت في نعيم لا يتصوّره الخيال، ألا تذكر؟

يذكر ولا شك، أم يظنّه نسي؟. يذكر الحديقة والكشك والنعيم الذي كان يترنم به الهواء، ويذكر السرور والحزن، بل إنه الساعة حزين حقاً، إنّ الدموع تطرق أبواب عينيه الخلفية، ولن يحقّ له أن يحزن بعد الساعة على قهوة أحمد عبده التي يتهدّدها الزوال، فكلّ شيء ينبغي أن ينقلب رأساً على عقب.  
- إنه لشيء عزن، ومما يضاعف الحزن أننا لم نقم بواجب العزاء، ترى ألم يعد حسين من فرنسا؟

يذكر ولا شك، أم يظنّه نسي؟. يذكر الحديقة والكشك والنعيم الذي كان يترنم به الهواء، ويذكر السرور والحزن، بل إنه الساعة حزين حقاً، إنّ الدموع تطرق أبواب عينيه الخلفية، ولن يحقّ له أن يحزن بعد الساعة على قهوة أحمد عبده التي يتهدّدها الزوال، فكلّ شيء ينبغي أن ينقلب رأساً على عقب.  
- إنه لشيء عزن، ومما يضاعف الحزن أننا لم نقم بواجب العزاء، ترى ألم يعد حسين من فرنسا؟

## ٧

مليح هذا المجلس... غير أن اليد قصيرة، من هذا الموضع الدافئ ترى الغادي والرائح... من شارع فاروق وإليه... ومن الموسكي وإليه... ومن العتبة وإليها، ولولا برودة ينابير القاسية لما توارى المشتاق وراء زجاج القهوة، تاركاً رغم أنه الركن البديع التابع للقهوة على الطوار المقابل، ولكن سيأتي الربيع يوماً... أجل سيأتي غير أن اليد قصيرة، ستة عشر عاماً أو يزيد وأنت حبس الدرجة السابعة، دكان الحمزاوي بيع بأبخس الأثمان... وربع الغورية على ضخمته لا يدر إلا جنهات... أما بيت قصر الشوق فمُسكني وماواي، وإذا كان لرضوان جدٌ غني فكريمة لا عائل لها غيري، رب أسرة وعشيق، ولكن للأسف اليد قصيرة.

وفجأة وقعت عيناه الحائرتان على شاب طويل نحيل ذي شارب مرتب ونظارة ذهبية، يخطر في معطفه الأسود قادماً من الموسكي متجهاً نحو العتبة، فابتسم ونهض بنصفه الأعلى كأنما يهيم بالقيام، ولكنه لم يفارق مجلسه. ولولا أن الشاب كان مسرعاً لمضى إليه ودعاه إلى مجالسته. كمال خير سميح حين الضجر، لم يخطر الزواج له على بال رغم اقترابه من الثلاثين، لم تعجلت الزواج قبل الأوان؟. ولم وقعت فيه مرة أخرى قبل أن أفيق من لطمته الأولى؟. ولكن من ذا الذي لا يشكو: أعزب كان أم متزوجاً؟. وكانت الأزيكية ملاذاً ومتعة، ثم حل بها البوار فهي اليوم بؤرة الخالة والسفلة، لم يبق لك من عالم المسرات إلا لذة المشاهدة في هذا المفرق من الطريق ثم، الصيد الرخيص، وخير الصيد الرخيص خادمة مصرية من العاملات في الأسر الإفرنجية... فهي في الغالب مهذبة المظهر نظيفة، أما سيد مزايها دون منازع فضعف الخلق، وتوجد أكثر ما توجد بسوق الخضار بميدان الأزهار.

كان قد فرغ من حسو قهوته، وجلس وراء زجاج النافذة المغلقة يرسل طرفه إلى ملتقى الطرق، يتابع كل ذات حسن، فتتطبع على عدسة عينه صور النساء

معنى ذلك؟. لكن مهلاً، إنها ذكرى الحب لا الحب نفسه، ونحن نحب الحب في جميع الأحوال خاصة الأحوال التي لا حب فيها، أما في هذه اللحظة فإنني أشعر كأني غريق في بحر الهوى، ذلك أن المرض الكامن ينث سموه حين الضعف الطارئ، وما الحيلة ما دام الشك زلزل الحقائق جميعاً يقف عند الحب في حذر، لا لأنه شيء فوق الشك، ولكن احتراماً للحزن، وحرصاً على حقيقة الماضي.

وعاد إسماعيل إلى المسألة سائلاً كثيراً من التفاصيل، حتى ضاق بها فيها بدا، فقال بلهجة من يود الفراغ من السيرة كلها:

- الدوام لله إنه شيء مؤسف حقاً، ولكن حسبنا نكد...

ولم يحاول كمال أن يدعوه إلى مزيد. كان فيها قال الكفاية، إلى أن وجد رغبة إلى الصمت والتأمل. وكان يبكي بكاء صامتاً بدموع غير منظورة يذرفها قلبه. وأدهشه ذلك بصفته مريضاً قديماً قد برئ من مرضه، وقال لنفسه متعجباً: تسعة أعوام أو عشرة! ما أطولها وما أقصرها، ترى ما صورة عايده الآن؟. كم يود أن يديم إليها النظر ليطلع على سر ذلك الماضي الساحر. بل ليقف على سر نفسه. إنه الآن لا يراها إلا لمحا خاطفاً في نغمة قديمة معادة، أو صورة في إعلان صابون. أو من سباته كالفرع وهو يهيم: هذه هي! ولكن ما هي على الحقيقة قسمة من قسومات نجمة سينائية، أو ذكرى متسللة، فيستيقظ والواقع؟ ونبا به مجلسه، فتأقت نفسه إلى رحلة مغامرة في دنيا الغيب، فقال لإسماعيل:

- أتقبل دعوتي إلى كاسين في مكان لطيف مأمون؟  
فقحه إسماعيل قائلاً:

- إن زوجتي تنتظرني لنذهب معاً إلى زيارة خالتها...

ولم يكثرث لرفض دعوته. طالما كانت نفسه نديمه. وغادرا المكان وهما يتبادلان الحديث. أي حديث. وفيما بين ذلك قال كمال لنفسه: قد نصيق بالحب إذا وجد، ولكن شد ما نفتقده إذا ذهب.

يكن بها إلا نافذة واحدة ذات قضبان حديدية تطلّ على عطفة الماوري، قد صفت بها ثلاث موائد متفرقة في الأركان، خلت اثنتان وأحدهن بالثلاثة أصحابه الذين استقبلوه مهّلّين، شأنهم كلّ مساء. كان ياسين - رغم شكواه - أصغرهم سنًا، أمّا أكبرهم فكان أعزب من أصحاب المعاشات، يليه في مجلسه باشكاتب بالأوقاف، فرئيس المستخدمين بإدارة الجامعة، ثمّ محامٍ من ذوي الأملاك غير مشغول. كان الإدمان يلوح في سحناتهم نظرة ذابلة وبشرة محتقنة أو بالغة الشحوب، وكانوا يتوافدون إلى الحانة فيما بين الثامنة والتاسعة فلا يفارقونها إلا في الهزيع الأخير من الليل، يتجرّعون أردًا أنواع الخمر وأشدها مفعولًا وأرخصها ثمنًا، غير أنّ ياسين لم يكن يلازمهم من البداية إلى النهاية، أو لم يكن يفعل ذلك إلا في القليل النادر، وفيما عدا ذلك فكان يمضي معهم ساعتين أو ثلاثًا كيفما اتفق، وكالعادة استقبله الأعزب العجوز قائلاً:

- أهلاً بالحاج ياسين. . .

وكان يصّر على وصفه بالحاج إكرامًا لاسمه المبارك، أمّا المحامي وكان أشدهم إدمانًا فقال:

- تأخّرت يا بطل، حتّى قلنا لقد عثر في امرأة ستحرمننا من أنسه الليلة كلّها. . .

فعلّق الأعزب العجوز على كلام المحامي متفلسفًا:

- لا يفرّق بين الرجل والرجل إلا امرأة.

فقال له ياسين مداعبًا، وكان قد جلس فيما بينه وبين باشكاتب الأوقاف:

- لا خوف عليك من هذه الناحية. . .

فقال العجوز وهو يرفع الكأس إلى فيه:

- إلا لحظات شيطانية، فقد تستشيرني بنت في الرابعة عشرة.

فقال الباشكاتب:

- الاسم لطوبة والفعل لأمشيرا.

- لا أفهم ما تقصد بهذا الكلام البارد.

- ولا أنا فاهم!

وجاء خالو بالكأس والتمرس، فتناول ياسين

الكأس وهو يقول:

من ذوات المعاطف والملاءات اللفّ، يَراها كلاً وأجزاء في مثابة لا تعرف الكلال. كان يجلس أحيانًا فيطول به الجلوس حتّى العاشرة، وفي أحيان أخرى ربّما لم يطل به الجلوس إلا ريثما يشرب قهوته، ثمّ ينهض مسرعًا في أثر صيد قد آنس منه استجابة ورخصًا، كأنّه تاجر روبايكيا. ولكنّه يقنع في الغالب بالمشاهدة، وربّما تبع الحساء دون مقصد جدّي، أمّا الإقدام الحقّ، كان يصطاد خادماً خليعة أو أرملة فوق الأربعين، فكان يقع على فترات وفي حرص شديد. إذ إنّه لم يعد الرجل الذي كان، لا لأنّ الموارد ناءت بالأعباء فحسب، ولكن لسنّ الأربعين التي نزلت به ضيقًا دون دعوة أو استئذان. يا لها من حقيقة مرعبة! «وشعرة بيضاء في عارضني طالما أوصيت الحلاق بمعالجتها، وقال الحلاق إنّ أمر الشعرة هيّن، ولكنّ الشيب لا يلبث أن ينفجر. ثبّا لها، للحلاق وللشيب، ووصف الرجل صيغة مفيدة ولكنّي لن ألجأ إليها. بيد أنّ أبي بلغ الخمسين دون أن تحترق له شعرة، أين أنا من أبي؟ لا في الشيب وحده، كان شابًا في الأربعين، وكان شابًا في الخمسين، أمّا أنا! ربّاه لم أفرط أكثر ممّا أفرط أبي». أريح رأسك وأتعب قلبك، ترى أكانت حياة هارون الرشيد حقًا كما يروها الرواة؟ أين زنوبية من هذا كلّها؟. جانب من الزواج خدعة بنت كلب، ولكنّ قوّته في أنّك تحتضن الخدعة ما حييت، وسوف تدول دول وتنقلب أزمان، ولم يزل الدهر يتمخّض عن امرأة سارحة ورجل جادّ في أثرها، الشباب لعنة، والكهولة لعنة، فأين راحة القلب أين؟. وأتعس ما في الدنيا أن تتساءل يومًا ذاهلاً أين أنا؟!

وغادر القهوة في منتصف العاشرة، فقطع العتبة متمهلاً إلى شارع محمّد عليّ، ثمّ مال إلى حانة «النجمة»، وحيّا «خالو» المائل وراء البار في وقفته التقليدية، فردّ الرجل تحيّة بابتسامة عريضة كشفت عن أنياب صفراء مژمّة، ثمّ أشار بذقنه إلى الحجرة الداخلة كأنّها ليخبره بأنّ أصحابه في الانتظار. وكان يمتدّ أمام البار دهليز ينتهي إلى ثلاث حجرات متداخلة يضيح جوّها بالعريضة، فمضى إلى الأخيرة منها، ولم

- يناير هذا العام شايف كيفه.

فقال رئيس المستخدمين:

- لله في خلقه شئون، جاء يناير بالبرودة ولكنّه ذهب بتوفيق نسيم إلى غير رجعة!

فصاح المحامي:

- أنقلونا من السياسة، ما زلنا نسكر ونمّر بالسياسة حتّى أخذت أنفاسنا، شوفوا حكاية ثانية...

فقال رئيس المستخدمين:

- حياتنا في الواقع سياسيّة ولا شيء غير هذا...

- أنت رئيس مستخدمين درجة سادسة، مالك أنت والسياسة؟

فقال الرئيس محتدًا:

- درجة سادسة قديم من فضلك، من أيّام سعدا

فقال الأعزب العجوز:

- أنا درجتي السادسة من أيّام مصطفى كامل، لذلك أحلت بها على المعاش إكرامًا لذكراه... اسمعوا، أليس من الأفضل أن نسكر ونغني؟

فقال ياسين وهو يهيم بإفراغ كأسه:

- لنسكر أولًا يا والدي...

لم يتمتّع ياسين في حياته بنعمة الصداقة العميقة، ولكنّه كان له في كلّ مجلس - قهوة أو حانة - أصحاب، وكان يألّف بسرعة ويؤلّف بأسرع من ذلك. ومنذ اتّخذ هذه الحانة - تبعًا لتطوّر حالته المادّيّة - مجلسًا ليليًا مختارًا عرف هذه الجماعة، وتوقّعت أسباب السمر بينهم، غير أنّه لم يقابل أحدًا منهم في الخارج، ولم يسعَ إلى ذلك، جمع بينهم الإدمان والاسترخا، وكان رئيس المستخدمين أرفاهم مركّزًا، ولكنّه كان كثير العيال، أمّا المحامي فقد جاء هذه الحانة جريًا وراء سمعة خمرها القويّة، بعد أن لم تعد تؤثّر فيه الخمور النظيفة إلّا في النادر، ثمّ ألفها واعتادها، وجعل ياسين يشرب ويثرثر، قاذفًا بنفسه في دوامة العريضة التي تحتاح المكان وترتطم بأركانه. وكان العجوز الأعزب أحبّ أفراد الجماعة إليه. ولم يكن يشبع من مداعبته خاصّة فيمَا يتعلق بالرموز الجنسيّة، فكان الرجل يحذّره من الإفراط. ويذكره بمسؤوليّاته العائليّة، فيقول له ياسين في استهانة ومباهاة، نحن قوم خلقنا لهذا، هكذا أبي،

وهكذا كان جدّي من قبل، وأعاد هذا القول في هذه السهرة، فتساءل المحامي مازحًا:

- وأمّك؟... أكانت كذلك أيضًا؟

وضحكوا كثيرًا وضحك ياسين، غير أنّ قلبه غاص في صدره متوجّعًا وأفراط في الشراب. وخيّل إليه رغم نشوئه أنّه يتدهور، فلا المكان مكانه، ولا الخمر خمره، ولا اليوم يومه «وفي كلّ مكان يتغامزون عليّ، فأين أنا من أبي؟. ليس أتعس من أن يزيد عمرك وتنقص نقودك، بيد أنّ رحمة الشراب واسعة، تفيض عليك أنسا، أنسا رقيقًا وعزاء جميلًا يهون عنده كلّ خطب، فقل ما أعظم مسرّتي، لن يعود العقار الذي ضاع، ولا الشباب الذي انقضى، ولكنّ الخمر تصلح أن تكون خير رفيق على مدى العمر، رضعتها شابًا يافعًا، وها هي تؤنس رجولتي، وسوف يهتّر لها طربًا رأسي المجللّ بالمشيب، بذلك يفرح منّي القلب رغم العناء، وغدًا عندما يستوي رضوان رجلًا وتهادى كريمة عروسًا، أشرب أنخاب السعادة في العتبة الخضراء، فما أعظم مسرّتي».

وإذا بالجماعة تغني «أسير العشق ياما يشوف هوان» ثمّ غنّت «يا جارة الوادي» في جوّ صاحب وأصوات معربة، فردّد الغناء أقوام من سائر الحجرات والدهليز، ثمّ ساد صمت مرهق فعاد رئيس المستخدمين يتحدّث عن استقالة توفيق نسيم، ويتساءل عن المعاهدة التي تهدف إلى حماية مصر من خطر إيطاليا، ذلك الجار الثقيل القائم في ليبيا، فما كان من الجماعة إلّا أن ردّدت في صوت واحد «إرخي الستارة اللي في ريحنا... أحسن جيرانا تبحرنا». ورغم إفراط العجوز في الشراب والعريضة، فقد احتجّ على هذه الإجابة الماجنة، ورماهم بالهذر فيها يليق به الجحدّ. فاجابوه في صوت واحد مردّدين «صحيح خصامك وإلا هزار» فلم يسعَ الشيخ إلّا أن يضحك، وأن يعود إلى مشاركتهم بلا تحفّظ.

وغادر ياسين الحانة عند منتصف الليل، فبلغ بيته في قصر الشوق حوالى الواحدة صباحًا. وكعادته كلّ ليلة جعل يمرّ بحجرات شقّته كأنما يقوم بجولة تفقيشيّة، فوجد رضوان في حجّرتة يذاكر، وقد رفع

الليل كان يفصح عن ولعه بهم دون تحفظ، وهو في نشوة من الخمر والحب، كان يمازحهم ويسامرهم، وربما قصّ عليهم نوادر السكاري الذين صادفهم في الحانة، غير عابئٍ بأثر ذلك في الأنفس البريئة، مستهينًا باحتجاجات زُنوبة التي تومئ بها إليه من وراء وراء، فيبدو وكأنما نسي نفسه وجرى على سجيته دون حذر أو مبالاة.

وفي حجرته وجد زُنوبة - كالعادة - نائمة وليست بنائمة. هكذا كانت أسدًا، فقبل أن يلج الحجرة يترامى إليه شخيرها، حتى إذا توسّطها تحوّكت وفتحت عينيها وقالت بلهجتها الساخرة «حمداً لله على السلامة». ثم تنهض لمعاونته على خلع ثيابه وترتيبها. وقد بدت في صورتها الطبيعية أكبر من سنّها، وكثيراً ما ظلّها تماثله سنّها. ولكنّها باتت أليفته واشتبكت جذورها بجذوره، تلك الغانية القديمة التي نجحت في معاشرته فيما لم تنجح فيه سيّدة من قبل، فأرست حياته الزوجية على أساس متين، نعم لقد انثابت حياتها في أوّل الأمر معارك وعلا بها زئير ولكنّها بدت دائئاً حريصة على حياتها الزوجية كلّ الحرص. ومع الأيام صارت أمّا، ومنيت بالثكل، فلم يبق لها غير كريمة، غير أنّ ذلك دعاها إلى مضاعفة الاستمسك بحياتها الزوجية، خاصّة بعد أن تهدّها الذبول وناوأها الكبر المبكر، ثم علّمتها الأيام أن تتحلّى بالصبر والمهادنة، وأن تتمرّس بدور «السيدة» بكلّ معنى الكلمة، وغالت في ذلك إلى حدّ أنّها لم تكن تتبرّج خارج بيتها حتى فازت أخيراً باحترام بين القصرين والسكزية إلى حدّ ما، وكان من حسن سياستها أن تحمل نفسها على معاملة رضوان معاملة كريمة بالغة الرقة والمودة، على الرغم من أنّها لم تكن تجد نحوه حبّاً، خاصّة بعد أن ثكلت في الذكّر الوحيد الذي أنجبته لياسين، وكانت رغم تغيرها شديدة العناية بحسن هندامها وأناقها ونظافتها، وقد لاحظها ياسين باسماً وهي تعيد ترتيب شعرها أمام المراة، ومع أنّه كان يضيّق بها أحياناً إلى حدّ الضجر، إلّا أنّه كان يشعر بحقّ بأنّها أصبحت شيئاً ثميناً في حياته لا يمكنه الاستغناء عنه بحال. وجاءت بشال فتلقّفت به وهي تقفّف من البرد، وقالت متشكّية:

الشابّ رأسه عن كتاب القانون ليتبادل مع والده ابتسامة. وكان الحبّ بينهما عميقاً، كذلك الاحترام رغم أنّ رضوان كان يعلم أنّ والده لا يعود هذه الساعة إلّا ثملاً. أمّا ياسين فكان يعجب بجياله ابنه أيّما إعجاب، كما يعجب بذكائه واجتهاده، ويرى فيه وكيل نيابة المستقبل الذي سيرفع من شأنه، ويعزّز من كبريائه، ويعزّيه عن أمور كثيرة، سأله:

- كيف تجد دروسك؟

وأشار إلى نفسه كأنّما يقول له «نحن هنا». فابتسم رضوان، وابتسمت فيه عينا هنيئة المكحولتان، فعاد أبوه يسأل:

- أيزعجك إذا أدت الفونوغراف؟

- أمّا عني فلا. ولكنّ الجيران نائمون في هذه الساعة المتأخّرة.

فابتعد عن الحجرة وهو يقول هازئاً:

- نوم العافية!

ومرّ بحجرة نوم «الأولاد» فوجد كريمة تغطّ في نومها على فراش صغير، على حين بقي فراش رضوان في الجانب الآخر من الحجرة خالياً ينتظر فراغه من مذاكرته. وخطر له لحظة أن يوقظها ليداعبها، ولكنّه ذكر ما يصحب إيقاظها في تلك الساعة من تدمّر فعدل عن خاطرته. وأنجّه صوب حجرته. أجلّ الليالي في هذا البيت حقّاً هي ليلة الجمعة، تلك العطلة المقدّسة، فإذا عاد إلى بيته ليلة الجمعة - بصرف النظر عن الساعة التي يعود فيها - فإنّه لا يتردّد في أن يدعو رضوان إلى مجلسه بالصلاة، ثمّ يوقظ كريمة وزُنوبة، ويدير الفونوغراف، ويمضي في محادثتهم وممازحتهم حتى الهزيع الأخير من الليل. كان مغرماً بأسرته - خاصّة رضوان - أجلّ لم يكن يشغل نفسه - أو لم يكن لديه من الوقت - ليتابعهم برعايته وتوجيهه، تاركاً أمرهم لعناية زُنوبة وحكمتهم الفطرية! ومهما يكن الأمر فإنّه لم يطق لحظة واحدة أن يمثّل حيالهم الدور القاسي الذي مثله أبوه حياله، وكره من صميم قلبه أن يخلق في قلب رضوان شعور الرهبة والخوف الذي كان يجده نحو أبيه! والحقّ أنّه لم يكن يستطيع ذلك حتى لو أَراده. وعندما كان يجمعهم حوله بعد منتصف

- ما أشدَّ البرد! هلاً رحمت نفسك من السهر في الشتاء!.

فقال سانحاً:

- الخمر تغَيَّرَ الفصول كما تعلمين، لم تتعين نفسك بالاستيقاظ؟

فنفضت قائلة:

- فعلك متعب وكلامك متعب!

بدا في جلبابه كالمنطاد، ومسح بيده على كرشه وهو يرنو إلى المرأة في ارتياح، وكانت عيناه السوداوان تشعلان، ثم ضحك فجأة قائلاً:

- لو رأيته وأنا أتبادل التحية مع العساكر! أمسى عساكر آخر الليل أصدقائي الأعزاء!

فغمغمت وهي تتنهد:

- يا فرحتي!

## ٨

كان منظر رضوان ياسين وهو يسير في الغورية بخطواته المثبثة مما يلتفت الأنظار حقاً. كان في السابعة عشرة من عمره، مكحول العينين، متوسط القامة مع ميل خفيف إلى الامتلاء، أنيق اللبس إلى حد التبرُّج، ينتسب ببشرته الوردية إلى آل عفت، فهو يشعُّ بهاءً ونوراً، وتنمَّ حركاته عن دلال من لا يخفى عليه جماله، وعندما مرَّ بالسكرية اتَّجه رأسه إليها فيما يشبه الابتسام، وذكر لثوته عمته خديجة وابنيها عبد المنعم وأحمد، فوجد لذكرهما شعوراً لا يخلو من فتور، والحقَّ أنه لم يجد من نفسه مشجّعاً - ولو مرة - على أن يتخذ أحداً من أقربائه صديقاً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة.

وسرعان ما اجتاز بوابة التوتّي، ثم مال إلى الدرب الأحمر، حتّى بلغ به المسير باب بيت قديم فطره وانتظر، وفتح الباب عن وجه حلمي عزّت، صديق صباه، وزميله اليوم بكلّية الحقوق، ومنافسه - فيما بدا - في الجمال. وتهلّل وجه حلمي لرؤياه، ثم تعانقا وتبادلا قبلة كعادتهما عند اللقاء. ومضيا معاً يصعدان السلم، وفي أثناء ذلك جعل حلمي يئنّو بربطة رقبته صديقه وتحاوّب لونها مع قميصه وجوربه، وكان يضرب بهما المثل في الأناقة وحسن الدوق، فضلاً عن

أنَّ اهتمامهما بالملابس والموضة لم يكن دون اهتمامهما بالسياسة أو دراسة القانون. وانتهيا إلى حجرة كبيرة عالية السقف، دلَّ وجود الفراش والمكتب بها على أنّها معدّة للنوم والذاكرة معاً. والحقَّ أنّها طالما سهرا بها يذاكران، ثمّ ناما جنباً إلى جنب على الفراش الكبير ذي الأعمدة السوداء والناموسية. ولم يكن بيتا رضوان خارج البيت بالشئ الجديد، فقد اعتاد منذ صباه أن يدعى إلى أكثر من بيت لقضاء عدّة أيّام، كبيت جدّه محمّد عفت بالجمالية، أو بيت أمّه بالميرة التي لم تنجب غيره رغم زواجها من محمّد حسن، ولذلك ليل أبيه الطبيعيّ إلى اللامبالاة، وترحيب زئوبة الخفيّ بكلّ ما يبعده عن بيتها ولو إلى حين، لم يجد معارضة في البيات عند صديقه في مواسم المذاكرة، ثمّ صار الأمر بعد ذلك مألوفاً فلم يكن أحد ليعيره أيّ اهتمام، وفي مثل هذا الجوّ من اللامبالاة نشأ حلمي عزّت. توفي أبوه - وكان مأمور قسم - منذ عشرة أعوام. وفي ذلك الوقت كانت أخواته الست قد تزوّجن، فعاش وحده مع أمّه العجوز، ووجدت المرأة صعوبة في بادئ الأمر في السيطرة عليه، ثمّ ما لبث أن صار هو المسيطر على البيت كلّهُ. وكانت المرأة تعيش على معاش زوجها الصغير، وإيجار الدور الأوّل من بيتها القديم، فلم تعرف الأسرة الحياة الرهيفة منذ وفاة الأب، ولكنّ حلمي لم يعجز عن مواصلة حياته المدرسية حتّى التحق بكلّية الحقوق، عافطاً في أثناء ذلك كلّهُ على ما تتطلبه حياته من مظاهر الاحترام. وكان سرور حلمي بقاء صديقه لا يعادله سرور، ولم تكن تطيب له أوقات العمل أو الراحة إلّا به، لذلك بعث وجوده في نفسه نشاطاً وحماسة، فأجلسه على الكنبه الملاصقة لباب المشربية وجلس إلى جانبه، وراح يفكر في اختيار موضوع - وما أكثر المواضيع لمحدثته - غير أنّ نظرة واجهة لاحت في عيني رضوان اعترضت ثيار حماسه، فرنا إليه متسائلاً، ثمّ تخنّ ما هنالك فتمتم:

- زرت والدتك؟ أراهن أنّك قادم من هناك...

أدرك رضوان أنّ صدق تخمين صاحبه يرجع إلى وجهه هو، فلاح الضجر في عينيه، وهزّ رأسه



الصمت وهما يذبيان السكر. وتغير تعبير وجه رضوان  
فأذن ذلك بإنهاء السيرة المحزنة، ورغب حلمي بذلك  
فقال في ارتياح:

- تعودت المذاكرة معك، فلا أدري كيف أذاكر  
وحدي...

فابتسم رضوان متجاوبًا مع هذا الشعور الرقيق،  
ولكنه سأل فجأة:

- هل أطلعت على المرسوم الصادر بتأليف وفد  
المفاوضة؟

- نعم. ولكن كثيرين يغطون متشائمين بالجو  
الذي يحيط بالمفاوضة، ويبدو أن إيطاليا - التي تهّد  
حدودنا - هي محور المفاوضة الحقيقي، والإنجليز من  
جانبهم يهّدون في حال فشل الاتفاق!  
- إن دماء الشهداء لم تبرد بعد، وعندنا دماء  
جديدة!

فهز حلمي رأسه قائلاً:

- هذا كلام يقال، لقد سكت القتال وبدأ الكلام،  
ما رأيك؟

- على أي حال فإن للوفد أغلبية ساحقة في هيئة  
المفاوضة، تصوّر أنّي سألت محمد حسن زوج أمي عن  
رأيه في الموقف، فقال لي ساخراً: «أتوهم حقاً أن  
الإنجليز يمكن أن يخرجوا من مصر؟!»، هذا هو  
الرجل الذي ارتضته أمي زوجاً!

فضحك حلمي عزّت عالياً وسأله:

- وهل يختلف رأي أبيك عن ذلك؟

- إن أبي يكره الإنجليز، وحسبه ذلك.

- أكرههم من صميم قلبه؟

- إن أبي لا يكره ولا يحب شيئاً من صميم قلبه!

- إنّي أسألك عن رأيك أنت، فهل أنت مطمئن؟

- لم لا، حتّى متى تبقى القضية معلقة؟ أربعة  
وخمسون عاماً من الاحتلال، أف، لست أنا النعيس  
وحدي!

فتناول حلمي عزّت آخر رشفة من قدحه وقال  
باسماً:

- يبدو لي أنّك كنت تحاذني بهذه الحفاضة عندما  
وقعت عيناه عليك!

بالإيجاب دون أن يتكلّم، فسأله حلمي:

- وكيف حالها؟

- عال...

ثمّ وهو يتنهّد:

- ولكنّ هذا المدعوّ محمد حسن!!، أنت لم تعرف

معنى أن يكون لأهلك زوج غير أبيك!

فقال حلمي موسماً:

- كثيراً ما يقع هذا، لا عيب فيه، ثمّ إنّه شيء

قديم!

فهتف رضوان حائفاً:

- لا لا لا، إنّه دائماً في البيت، لا يرحله إلّا إلى

عمله في الوزارة، نفسي مرّة أزورها فأجدها وحدها،  
ويطيب له أن يمثّل دور الوالد والمرشد، سحقاً له،  
وعند كلّ مناسبة يذكرني بأنّه رئيس أبي في إدارة  
المحفوظات، ولا يتردّد عن انتقاد مسلكه في عمله،  
ولكنّي من ناحيتي لا أسكت له...

وصمت دقيقة حتّى يبدأ انفعاله، ثمّ واصل

حديثه:

- أمي حمقاء إذ رضيت أن تتزوّج من هذا الرجل،

لم يكن من الأفضل أن تعود إلى أبي؟

وكان حلمي يعرف الكثير عن سيرة ياسين  
المشهورة، فقال باسماً:

- في العشق يا ما كنت أنوح!

فلوّح رضوان بيده معانداً وهو يقول:

- ولوا إنّ ذوق النساء سرّ خيف والأدهى من ذلك

أنّها فيما يبدو راضية!

- لا تسع وراء ما ينغص صفوك.

فقال رضوان في نبرات حزينة:

- يا للعجب، إنّ جانباً عريضاً من حياتي ينضح

بالتعاسة، إنّي أمقت زوج أمي ولا أحب امرأة أبي،  
جوّ مشحون بالبغضاء، إنّ أبي - كأمي - لم يحسن  
الاختيار، ولكنّ ماذا في وسعي أن أفعل؟!، وامرأة  
أبي تحسن معاملتي ولكن لا أتصوّر أنّها تحبّني، هذه  
الحياة ما أردّها!

وجاءت خادماً عجوز بالشاي، فتحلّب ريق رضوان

الذي عانى في الطريق من رياح فزاير القاسية. وساد

- من؟  
فابتسم حلمي عزت ابتسامة غريبة، وقال:  
- كلنا تحمست تورّد وجهك وبرز جمالك في أحسن أحواله، وفي لحظة من تلك اللحظات السعيدة رآك ولا شكّ وأنت تحدّثني، كان ذلك يوم ذهب وفد الطلبة إلى بيت الأمة داعين إلى الاتحاد، ألا تذكر ذلك اليوم؟  
فتساءل رضوان باهتمام لم يحاول إخفائه:  
- نعم، ولكن من هو؟  
- عبد الرحيم باشا عيسى!  
فتفكّر رضوان قليلاً ثمّ تمتم:  
- رأيته مرّة عن بُعد...  
- أما هو فقد رآك اليوم لأوّل مرّة.  
وارتسمت على وجه رضوان علامة استفهام، فعاد حلمي يقول:  
- وعندما قابلني عقب انصرافك سألني عنك، وطلب إليّ أن أفدّمك إليه في أوّل فرصة!  
وتبسّم رضوان ثمّ قال:  
- هات كلّ ما عندك.  
فقال حلمي وهو يرتّب منكب صاحبه:  
- دعاني وسألني بخفّة - على فكرة هو خفيف جداً -: «من المليح الذي كان يحدثك؟» فأجبت أنّه زميل في الحقوق وصديق قديم واسمه كذا ألخ.  
فسألني باهتمام: «ومتى تقدّمه إليّ؟» فسألته بدوري متجاهلاً غرضه: «ولم يا باشا؟» فانفجر قائلاً كالغاضب - هكذا تبلغ به خفّة الروح أحياناً -:  
«لأعطيهِ درساً في الديانة يا بن الكلب». فضحكت بدوري حتّى كتم فمي بيده...  
وساد الصمت لحظة دوت فيها الريح في الخارج، وترامى صوت ارتطام ضلفة شبّاك بجدار، ثمّ علا صوت رضوان وهو يتساءل:  
- سمعت عنه كثيراً، أهو كما يقال؟  
- وأكثر...  
- لكنّه عجوز!

- هذا في المرتبة الأخيرة من الأهميّة، إنّ رجل كبير المقام، ظريف، ذو نفوذ ولعلّ شيخوخته أجّل فائدة من الشباب...  
فعاود رضوان الابتسام، ثمّ تساءل:  
- أين منزله؟  
- فيلاً هادئة في حلوان.  
- آه تكتنّظ بالقاصدين من كافّة الطبقات!  
- سنكون ضمن مريدبه، لمّ لا؟، إنّهُ من شيوخ الساسة ونحن من شبابه!

فتساءل رضوان في شيء من الحذر:  
- وزوجه وأولاده؟  
- يا لك من جاهل، إنّهُ أعزب، لم يتزوّج قطّ ولا يحبّ هذه السيرة، كان وحيد أبويه، وهو يعيش وحده مع خدمه كأنّه مقطوع من شجرة، وإذا عرفته فلن تسلو عنه أبداً...  
وتبادلا نظرة باسمّة طويلة تفيض بالمؤامرات، حتّى قال حلمي عزت في شيء من الجزع:  
- سلمي متى نذهب لزيارته من فضلك؟  
فقال رضوان وهو ينظر إلى ثالثة الشاي في قدحه:  
- متى نذهب لزيارته؟

## ٩

لاح بيت عبد الرحيم باشا عيسى على ناصية شارع النجاة بحلوان آية في البساطة والأناقة. فيلاً سمراء مكوّنة من دور واحد يعلو عن الأرض بمقدار ثلاثة أمتار تكتنفه حديقة أزهار، ويستهلّ بسلامك. وكان البيت والطريق والمنطقة المحيطة به غارقة في صمت مريح. وكان يجلس على أريكة عند الباب البوّاب وسائق السيّارة، بوّاب نوبيّ بارع القسمات ممشوق القوام، وسائق في ريق الشباب موّرّد الخدين. وهمس حلمي عزت في أذن رضوان وهو يمدّ بصره نحو السلامك:

- صدق الباشا فيما وعد، فلا زائر اليوم غيرنا!

وكان حلمي عزت معروفاً لدى البوّاب والسائق، فوفقا لاستقباله في أدب، ولما داعبها مهازحاً انطلقا

فقال حلمي عزت وأسايره تنطق بالضحك دون صوت:

- المخابرة يا سعادة الباشا مع وليّ الأمر؟  
فضحك عبد الرحيم باشا واكتفى بمصافحة  
رضوان، ثمّ دعاهما إلى الجلوس وهو يجلس على مقعد  
كبير على كنب منها، وقال باسماً:  
- وليّ أمرك هذا ملعون يا رضوان، أليس هذا هو  
اسمك؟ أهلاً وسهلاً، لقد رأيتك في صحبة هذا  
الولد الشقيّ، فراقت أدبك وتغيّيت لقاءك، وما أنت لم  
تضنّ عليّ به... .

- لمّا سعيد بالشرّف بمعرفتكم يا سعادة الباشا.  
فقال الرجل وهو يدير خاتماً ذهبياً كبيراً في بنصر  
يسراه:

- أستغفر الله يا بنيّ، لا تستعمل عبارات التعظيم  
وألقاب التّفخيم، لأنّي لا أحبّ شيئاً من هذا كلّ،  
الذي يعمّي حقّاً هو الروح اللطيف والنفس الصافية  
والإخلاص، أمّا سعادة الباشا وسعادة البك فكأنّا أبناء  
آدم وحواء، الواقع لقد راقتي أدبك فوددت لو أدعوك  
إلى بيتي، فأهلاً وسهلاً، أنت زميل حلمي في كلّية  
الحقوق، أليس كذلك؟

- نعم يا فندم، إنّنا زملاء من عهد خليل آغا  
الابتدائية... .

فرغ الرجل حاجبيه الأشبيين في إعجاب قائلاً:  
- زمالة صبا!... (ثمّ وهو يهزّ رأسه)... جميل،  
جميل، لعلّك مثله من حيّ الحسين؟  
- نعم يا سيّدي، ولدت في بيت جدّي السيّد محمّد  
عقّت بالجمالية، وأقيم الآن بمنزل والسدي بقصر  
الشوق... .

- أحياء مصر الأصيلة، البقاع الطيبة، ما رأيك لقد  
عشت فيها دهرًا مع المرحوم أبي في بيرجوان، كنت  
وحيد أبويّ، وكنت عفريّتا، وطالما جمعت الصبيان في  
شبه زفة ومضيّنا من حارة إلى حارة نعاكس طوب  
الأرض، ويا ويل الدنف لو رماه القدر إلى طريقنا،  
وكان أبي يثور غضبه فيجري ورائي بالعصا... . قلت  
يا بنيّ إنّ جدّك هو محمّد عقّت؟

فقال رضوان بفخار:

- نعم يا سيّدي... .

فتفكّر الباشا قليلاً ثمّ قال:

يضحكان دون كلفة. وكان الجوّ قارص البرودة رغم  
جفائه، فدخل بهو استقبال آية في الفخامة، تتصدّره  
صورة كبيرة لسعد زغلول في بذلة التشريفة، ومال  
حلمي عزّت إلى مرآة ممتدّة طولاً حتّى السقف تتوسّط  
الجدار الأيمن، فألقى على صورته نظرة متفحّصة  
طويلة، فلم يتردّد رضوان أن يلحق به. وأن يمتحن  
منظره بنظرة مثلها، حتّى قال حلمي باسماً:

- قمران يرتديان بذلة وطربوشاً، واللي يعيش جمال  
النبيّ يصليّ عليه!.

وجلسا متجاورين على كنبه مذهّبة ذات غطاء أزرق  
وثير. ومزّت دقائق ثمّ سُمعت حركة آتية من وراء  
الستار المسدل على باب كبير تحت صورة سعد، فأتمّجه  
ناحيتهما رأس رضوان وقلبه يخفق باهتمام. وما لبث أن  
ترأى الرجل في بذلة سوداء أنيقة، تنتشر بين يديه  
رائحة زكية، وقد بدا دكان السمرة، حليق الوجه،  
نحيل الجسم، مائلاً إلى الطول نوعاً، ذا قسّات دقيقة  
براهما الكبير، وعينين صغيرتين ذابلتين، أمّا طربوشه  
فقد مال إلى الأمام حتّى كاد يمسّ حاجبيه، وكان يتقدّم  
هادئاً وقوراً في خطوات متقاربة وبطيئة معاً، فانعكس  
منه إلى قلب الشابّ إجلالاً وطمأنينة. ولزم الصمت  
حتّى وقف أمام الشابين اللذين وقفا لاستقباله، ثمّ  
تفحّصهما بنظرة ثاقبة ثبتت على رضوان طويلاً حتّى  
اختلج جفناه، ثمّ ابتسم فجأة، فشاع في الوجه  
القديم إناس وجاذبية قربت المسافة التي تفصل بينه  
وبينها حتّى لم تعد شيئاً. ومدّ حلمي يده فتناولها الآخر  
واستبقاها في يده، ثمّ مدّ بوزه وانتظر، فأدرك حلمي  
غرضه، وسرعان ما عرض له خنّده فقبّله، ثمّ نظر  
صوب رضوان قائلاً بصوت رقيق:

- لا تؤاخذني يا بنيّ، فهذه هي طريقة السلام  
عندي... .

ومدّ رضوان يده في حياء، فتناولها الرجل وهو  
يتساءل ضاحكاً:

- وخذك؟

فتورّد وجهه رضوان، وهتف حلمي مشيراً إلى  
نفسه:

وسوف نتحدث طويلاً وتندارس العبر كيما تكون لنا حياة موفورة الكمال والسعادة . . .

فنظر حلمي إلى رضوان قائلاً:

- ألم أقل لك إنّ صداقة الباشا كنز لا يفنى؟

فقال عبد الرحيم عيسى موجّهاً الخطاب إلى رضوان الذي لم تكذب تتحوّل عنه عيناه:

- إنّني أحبّ العلم وأحبّ الحياة وأحبّ الناس، وديدي أن أخد بيد الصغير حتى يكبر، وأنّي شيء في الدنيا خير من الحبّ؟. يجب إذا واجهتنا مشكلة قانونيّة أن نحلّها معاً، وإذا فكرنا في المستقبل أن نفكر معاً، وإذا نازعنا أنفسنا إلى الراحة أن نرتاح معاً، ما وجدت رجلاً حكيمًا مثل حسن بك عماد، اليوم هو من رجال السلك السياسيّ العدودين، ودعك أنّه من أعدائي السياسيين. ولكنّه كان إذا تفرّغ لبحث قتله، وإذا طرب رقص عاريًا، الدنيا حلوة على شرط أن تكون حكيمًا واسع . . . الإدراك! أليس واسع الإدراك يا رضوان؟

فأجاب عنه حلمي عزّت من فوره:

- إذا لم يكن فنحن على استعداد لتوسيعه! . . .

فأشرق وجه الباشا بابتسامة طفليّة نمت عن رغبته التي لا حدّ لها في المسرّة، وقال:

- هذا الولد عفريت يا رضوان، ولكن ما حيلتي؟ إنّ زميل صباك يا بخته، ولست أنا القائل إنّ الطيور على أشكالها تقع. لازم أنت أيضًا عفريت، خبرني يا رضوان من أنت؟. هه. إنّك تركتني أنكلّم بلا وعي وأنت صامت كدهاء السياسة، هه؟ قل يا رضوان ماذا تحبّ وماذا تكره؟.

عند ذاك دخل الخادم حاملًا صينيّة القهوة، وكان فتى أمرد شبيهاً بالبواب والسائق، فشرّبوا أكواب الماء الممزوجة بالزهر، وجعل الباشا يقول:

- الماء بالزهر شراب أهل الحسين، أليس كذلك؟.

فغمغم رضوان باسماً:

- نعم يا سيّدي.

فقال الباشا وهو يهزّ رأسه طرباً:

- يا أهل الحسين مدّدا.

وضحكوا جميعاً، حتّى الخادم ابتسم وهو يفاد

- أذكر أنّي رأيته مرّة في بيت نائب الجاليّة، رجل وجيه ووطيّ صادق، كاد يرشّح نائباً في الانتخابات القادمة لولا تنحيّه في آخر لحظة لصديقه النائب القديم، إنّ الاتحاد الأخير أوجب الصداقة في الانتخابات حتّى يظفر إخواننا الأحرار الدستوريّون ببعض المقاعد، إذن أنت زميل حلمي في الحقوق! جميل، القانون سيّد الدراسات، وهو يتطلّب لدراسته ذكاءً ملامحاً، أمّا عن المستقبل فما عليك إلّا الاجتهاد! وجد في نبراته الأخيرة ما يوحي بالوعد والتشجيع، فدبّ في قلبه الطموح والحماسة فقال:

- نحن لم نفشل ولا مرّة واحدة في حياتنا الدراسية!.

- برافو، هذا هو الأساس، بعد ذلك تحيي النياية ثمّ القضاء وسيوجد دائماً من يفتح الأبواب المغلقة أمام المجتهدين، حياة القضاء شيء عظيم، عمادها الذكاء اليقظ والضمير الحيّ، لقد كنت بفضل الله من أبنائها الصادقين، وقد تركت القضاء للاشتغال بالسياسة، فالوطنية تحمّت علينا أحياناً أن نهجر أعمالنا المحبوبة ولكن إلى اليوم تجد من يضرب بنا المثل في العدالة والنزاهة، فضع نصب عينيك في الاجتهاد والنزاهة وأنت حرّ بعد ذلك في حياتك الخاصّة، قم بواجبك وافعل ما تشاء، أمّا إذا قصّرت في الواجب فلن يرى الناس فيك إلّا النقص، ألا ترى أنّه لا يحلو لكثير من الفضوليين إلّا أن يقولوا فلان الوزير به الداء الفلانيّ. وفلان الشاعر به الداء العلانيّ. حسن، ولكن ليس كلّ المصابين وزراء وشعراء، فكن وزيراً وشاعراً أولاً وافعل بعد ذلك ما تشاء، لا يغيّن عن ذكائك هذا الدرس يا أستاذ رضوان . . .

وهنا قال حلمي عزّت بخبث:

- كفى المرء نبلاً أن تعدّ معاييه، أليس كذلك يا سعادة الباشا؟

فثنى الرجل رأسه إلى منكبه الأيمن، وقال:

- طبعاً، سبحان من له الكمال وحده، الإنسان ضعيف جدّاً يا رضوان، ولكن عليه أن يكون قويّاً في الجوانب الأخرى. مفهوم؟. لو تشاء أحدّثك عن كبار الرجال في الدولة ولن نجد واحداً خالياً من داء،

فؤاد هو الذي عارض في ترقيتي يومًا، والمملك فؤاد آخر من يتكلم في الأخلاق، وعلى أيّ حال سأقابلك غدًا في النادي، سلام عليكم يا باشا...

وعاد الرجل متجهّم الوجه، ولكنّه ما كاد يرى وجه رضوان حتّى عاوده الانشراح فواصل حديثه قائلاً:

- نعم يا سيّد رضوان، تعارفنا وما أجمل التعارف، أنصحك بالاجتهاد، أنصحك بالألّا تتخلّى عن الواجب والمثل الأعلى، بعد ذلك أحدثك عن الطرب والهناء.

وهنا نظر رضوان في ساعته، فلاح الجزع في وجه الباشا وقال:

- إلّا هذا! الساعة عدوّ مجالس الأُنس.

فتمتم رضوان في شيء من الارتباك:

- ولكنّا تأخّرنا يا سعادة الباشا.

- تأخّرنا! اتعني أنّه تأخّر بي العمر! أخطأت يا بنيّ، ما زلت أحبّ السهر والجمال والغناء بعد الساعة الواحدة، السهرة لم تبدأ بعد، لم نقل إلّا بسم الله الرحمن الرحيم، لا تعترض. السيّارة تحت أمركما حتّى الصباح، وبلغني أنّك تبيت خارج البيت للمذاكرة، فلندأكر، لِمَ لا؟ ما أحلى أن أعود إلى المدخل في القانون العامّ أو شيء من الشريعة، بهذه المناسبة من يدرّس لكم الشريعة؟ الشيخ إبراهيم نديم، مسأه الله بالخير، إنّهُ كابتن عظيم، لا تدهش، سنؤرّخ يومًا لكلّ رجال العصر، يجب أن تفهم كلّ شيء، ليلتنا ليلة محبّة وصداقة، خبرني يا حلمي ما أنسب شراب لمثل هذه الليلة؟

فقال حلمي باطمئنان:

- ويسكي وصودا وشواء.

فقال الباشا ضاحكًا:

- وهل الشواء شراب يا شقيّ؟

١٠

عقب الغداء من يوم الخميس يلتئم شمل أسرة خديجة على نحو لا يكاد يتغيّر. وهكذا جمعت الصلاة بين الأب إبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد، ولَمّا كان من النادر أن تبقى خديجة بدون عمل فقد جلست

البهو، واستطرد الباشا متسائلًا:

- ماذا تحبّ؟ وماذا تكره؟ تكلم بصراحة يا رضوان، دعني أيسّر لك الجواب، أنّت مهتمّ بالسياسة؟

فقال حلمي عزّت:

- كلانا في لجنة الطلبة.

- هذا أوّل سبب للمقاربة بيننا، وهل لك في الأدب؟

فأجاب حلمي عزّت:

- إنّهُ مغرم بشوقي وحافظ والمنفلوطي...

فنهز الباشا قائلاً:

- اسكت أنت، أريد يا أخي أن أسمع صوته...

فضحكوا، وقال رضوان باسماً:

- لاني أموت في شوقي وحافظ والمنفلوطي...

فقال الباشا بإعجاب:

- «أموت في» يا له من تعبير، لا تسمعه إلّا في الجماليّة، أهي نسبة إلى الجمال يا رضوان؟ إذن أنت من هواة «فضّة ذهب» و«في الليل كما خلى» و«من يكن» و«فنن يشيله وفنن يحطه»، الله... الله، هذا سبب آخر للمقاربة بيننا يا جماليّة، وهل تحبّ الغناء؟

- إنّهُ من غواة...

- اسكت أنت.

فضحكوا مرّة أخرى، وقال رضوان:

- أمّ كلثوم.

- جميل، لعلّي من عشاق القديم، ولكنّ الغناء كلّهُ جميل، فانا أحبه، ثقيله وخفيفه، كما يقول المعريّ، وأموت فيه كما تقول حضرتك. جميل جدًّا، الليلة عجب.

ودقّ جرس التليفون، فنهض الباشا إليه، ووضع السيّاعة على أذنه وهو يقول: آلو.

- أهلاً أهلاً معالي الباشا.

- ... ..

- أنا قلت رأيي للزعيم صراحة، وهو رأي ماهر والنقاشي أيضًا.

- ... ..

- آسف يا باشا، لا أستطيع. أنا لا أنسى أنّ المملك

المنعم وأحمد لم تكن تعجبها كثيرًا، كما أنّ نحافتها كانت تغيظها فقالت باستياء:

- قلت ألف مرة أنّه يجب أن تغتبرا ريفكما على البابونج ليفتح شهيتكما، يجب أن تأكلا جيّدًا، ألا تريان أباكما كيف يأكل؟

وابتسم الشابان وهما ينظران نحو أبيهما، فقال الرجل:

- ولماذا لا تضرين المثل بنفسك، وأنت تأكلين كالطاحونة؟

فقالت باسمّة:

- إنّني أترك لها الحكم والخيار.

فقال إبراهيم محتجًا:

- عينك يا شبيخة أصابني! لذلك نصحني الدكتور بأن أخلع أسناني...

فلاحت في عينيها نظرة رقيقة، وقالت:

- لا تجزع، ستذهب بشرّها، ولن تشكو ألّا بعد ذلك إن شاء الله...

وهنا خاطبها أحمد قائلاً:

- جارنا ساكن الدور الثاني يرجو أن يؤجّل دفع الأجرة حتّى الشهر القادم، قابلي على السّلم فرجاني في ذلك!

فسألته وهي تنظر إليه مقطبة:

- وماذا قلت له؟

- وعدته بأن أحدث أبي...

- وهل حدّثت أباك؟

- ها أنا أحدثك أنت!

- إنّنا لا نشاركه في شقته فلا يجوز له أن يشاركنا في رزقنا، ولو تساهلنا معه لنبهه ساكن الدور الأول،

أنت لا تعرف الناس فلا تتدخّل فيها لا عينيك...

فنظر أحمد إلى أبيه متسائلاً:

- ما رأيك يا بابا؟

فابتسم إبراهيم شوكت قائلاً:

- في عرضك لا تصدع دماغي، عندك أمك...

فعاد أحمد إلى أمّه قائلاً:

- إذا تساهلنا مع رجل مزنون فلن نجوع...

فقالت خديجة بامتعاض:

بينهم وهي نظرت غطاء مائدة، وقد بدا الكبر أخيراً على إبراهيم شوكت بعد مقاومة طويلة جّبارة، فشاب شعره وترهل بعض الشيء، وإن حافظ فيها عدا ذلك على صحّة يجسد عليها، وكان يدخن سيجارة، ويأخذ مكانه بين ابنه في هدوء وطمأنينة. تعكس عيناه البارزتان نظرة الحمول واللامبالاة التقليديّة، على حين لم ينقطع الشابان عن الحديث، فيها بينهما حيناً، أو مع الأب أو الأمّ التي شاركت في الحديث دون أن ترفع رأسها عن عملها، وقد بدت كتلة عظيمة من الشحم واللحم. لم يعد في الجوّ ما ينقص على خديجة صفوها، إذ لم يبق من ينازعها السيادة في بيتها منذ توفيت حماتها. كانت تقوم بواجباتها بهمة لا تحذلها أبداً، وترعى سماتها بعناية فائقة وهي جوهر جمالها كلّها، وتحاول فرض رعايتها على الجميع، الأب والابن، فيطاول الرجل، وأمّا عبد المنعم وأحمد فيشق كلّ سبيله كما يرى مستعيزين بحبّها من سطوتها. وقد نجحت منذ سنوات في حمل زوجها على احترام تقاليد الدين، فمارس الرجل الصلاة والصوم واعتادهما، وكان عبد المنعم وأحمد قد شبّا على ذلك من قبل، غير أنّ أحمد توقف عن أداء الفريضة منذ عامين، وجعل يتهرّب من استحواب أمّه كلّما استجوبته أو يتعلّل بعذر أو بآخر. وكان إبراهيم شوكت يحبّ ابنه حبّاً جماً، ويعجب بها أشدّ الإعجاب، وينوّه في كلّ فرصة بنجاحها المتواصل الذي بلغ بعدد المنعم كلّية الحقوق ويأخذ نهاية المرحلة الثانوية، وفي ذلك كانت خديجة تقول في مباحة:

- كلّ هذا ثمرة اهتمامي أنا، لو ترك الأمر لك ما فلع أحدهما ولا كان له شأن...

وقد ثبت أخيراً أنّها نسيت مبادئ القراءة والكتابة لعدم الاستعمال ممّا جعلها هدفاً لسخرية إبراهيم، حتّى اقترح ابنها أن يذكرها بما نسيت ردّاً لجميلها الذي تباهي به، فغضبت قليلاً وضحكت كثيراً، ثمّ لحقت الحال في كلمة قائلة:

- لا حاجة بامرأة إلى الكتابة والقراءة ما دامت لا تكتب رسائل غرام!

بدت في أسرتها سعيده راضية، ولعلّ شهية عبد

- بالصراحة إن رأسه يحتاج إلى تطهير من الداخل...  
- إنه...  
- اسمعي، هذا الشاب لا دين له، هذا ما بت أعنقه...  
فلوح أحمد بيده كالغاضب، وهتف متسائلاً:

- من أين لك الحق في الحكم على القلوب؟  
- الأفعال تنم عن السرائر (ثم وهو يداري ابتسامة)  
يا عدو الله!

فقال إبراهيم شوكت دون أن يخرج من هدوئه وطمانيته:  
- لا تتهم أخاك ظمناً.

وقالت خديجة مخاطبة عبد المنعم وهي تلحظ أحمد:  
- لا تسلب أخاك أعز ما يملك الإنسان، كيف لا يكون مؤمناً؟، إن آل أمه لا تنقصهم إلا العرائم ليكونوا من رجال الدين، وكان جدّه من صميم رجال الدين، لقد نشأنا فوجدنا من حولنا يصلّون ويتعبّدون كأننا في جامع!  
فقال أحمد متهكّماً:

- مثل خالي ياسين...!  
ونذت عن إبراهيم شوكت ضحكة، فقالت خديجة متظاهرة بالغضب:  
- تكلم عن خالك بأدب، ماله؟ قلبه عامر بالإيمان وربّنا يهديه، انظر إلى جدّك وجدّتك.  
- وخالي كمال؟  
- خالك كمال من محاسيب الحسين، أنت لا تدري شيئاً.

- بعض الناس لا يدرون شيئاً...  
فسأله عبد المنعم محتثاً:  
- لو كان الناس جميعاً مهملين في دينهم، فهل يشفع لك ذلك؟

فقال أحمد في هدوء:  
- على أيّ حال اطمئن، فلن تؤخذ يوماً بذنبي!  
وهنا قال إبراهيم شوكت:  
- كفاساً خصاماً، نفسي أراكما كرضوان ابن خالكما...

- لقد حدّثني زوجة وأجلت لها الدفع فليترع بالك، ولكني أفهمتها أن أجرة المسكن واجبة كمصروفات الأكل والشرب، أفي ذلك خطأ؟، إني ألام أحياناً لأني لم أأخذ من جارتي صديقات، ولكن من يعرف الناس يحمّد الله على الوحدة...  
فعاد أحمد يتساءل وهو يغمز بعينه:

- وهل نحن خير الناس؟  
فعبست خديجة قائلة:  
- نعم، إلّا إذا كان لك في نفسك رأي آخر!  
فقال عبد المنعم:

- رأيي في نفسه أنه خير الناس جميعاً، لا رأيي إلّا رأيي، والحكمة موقوفة على رأسه!  
فقال خديجة متهكّمة:  
- ومن رأيي أيضاً أن يستأجر الناس البيوت دون دفع أجرتها!

فقال عبد المنعم ضاحكاً:  
- إنه غير مقتنع بأنّه من حقّ بعض الناس أن يملكوا بيوتاً على الإطلاق...

فقال خديجة وهي تهزّ رأسها:  
- يا عيني على الرأي الفقري...  
وحدج أحمد أخاه بنظرة غاضبة، فهزّ عبد المنعم منكبيه باستهانة وهو يقول:  
- راجع نفسك قبل أن تغضب...  
فقال أحمد محتثاً:

- يحسن بنا ألاّ نتناقش معاً!  
- بل انتظر حتّى تكبر...  
- إنك أكبر مني بعام لا أكثر...  
- أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة...  
- هذا المثل لا أومن به!

- اسمع، لا يهمني إلّا شيء واحد، هو أن تعود إلى الصلاة معي...

فهزّت خديجة رأسها بأسف وهي تقول:  
- صدق أخوك، الناس تكبر تعقل أمّا أنت فأعوذ بالله منك، حتّى أبوك صلّى وصام، فكيف فعلت بنفسك ما فعلت؟، إني أتساءل ليل نهار!  
فقال عبد المنعم بصوت قويّ شديد الثقة بنفسه:

السائكة في الدور الأول، فقالت خديجة وهي تهتم بالقيام:

- ماذا تريد يا ترى؟... إن كان في الأمر تأجيل دفع أجرة فلن يفصل بيننا إلا قسم الجمالية!

## ١١

كان الموسكي شديد الزحام، اكتظّ بأهله وما أكثرهم فضلاً عما استجدّ عليه ذلك اليوم من تيارات بشرية تدفقت من ناحية العتبة. وكانت شمس إبريل الصافية تقذف لهباً، فشقّ عبد المنعم وأحد سيبلهما في جهد غير يسير وهما يتصببان عرقاً. وقال أحمد وهو يتأبط ذراع أخيه:

- حدّثني عن شعورك...

فتفكّر عبد المنعم قليلاً، ثم راح يقول:

- لا أدري، الموت رهيب، فما بالك بموت ملك، وكان طريق الجنازة مكتظاً بالناس بصورة لم أشهدها من قبل، أنا لم أشهد جنازة سعد زغلول حتى أستطيع المقارنة بين الجنائزين، ولكن يبدو لي أنّ أكثر الناس كان متأثراً على نحو ما، وبعض النساء يبكين، نحن المصريين قوم عاطفيون...

- لكنّي أسألك عن شعورك أنت؟

فعاد عبد المنعم يفكّر وهو يتفادى من الارتطام بالناس، ثم قال:

- لم أكن أحبه، وهذا اعتنقناه جميعاً فأننا لم أحزن، ولكنّي لم أَسِرْ كذلك، تابعت النعش بعين من لا قلب له، لا له ولا عليه، غير أنّ فكرة الجثّة في النعش أثرت فيّ، لا يمكن أن يمرّ منظر كهذا دون أن يؤثر فيّ، لله الملك جميعاً، هو الحيّ الباقي فليت الناس يعلمون، غير أنّه لو مات الملك قبل أن تتغيّر الحالة السياسية التي كانت قائمة لزگرد كثيرون وكثيرون جدّاً، وأنت ما شعورك؟

- أنا لا أحبّ الطغاة أيّاً كانت الحالة السياسيّة!

- هذا حسن، ولكن منظر الموت؟

- ولا أحبّ الرومانتيكية المريضة!

فتساءل عبد المنعم في ضجر:

فحدّجته خديجة بنظرة استياء، كأنما عزّ عليها أن يعدّ رضوان خيراً من ابنها، فقال إبراهيم موضوعاً رآه:

- لهذا الشاب على صلة بكبار الساسة، شاب ذكيّ، وقد ضمن بذلك مستقبلًا باهرًا...  
فقالت خديجة غاضبة:

- لست من رأيك، رضوان شاب سيمّ الحظّ، ككلّ شابّ يحرمه سوء الحظّ من رعاية أمّه، وزنوبة «هانم» لا تهتمّ في الواقع بأمره، أنا لا أنخدع بحسن معاملتها له فهذه سياسة كسياسة الإنجليز، لذلك لا يقرّ للمسكين قرار، وأكثر أياّمه يبيتها خارج بيته، أما صلته بالكبراء فلا معنى لها، إنّهُ طالب مع عبد المنعم في سنة واحدة، فما معنى هذا التداخل الخطير؟ أنت لا تعرف كيف تضرب الأمثال...

فرمقها إبراهيم بنظرة كأنما يقول لها: «لا يمكن أن تقرّني على رأي»، ثم قال مواصلاً إيضاح رأيه:

- ليس الشبان اليوم كما كانوا في الزمن الماضي، السياسة غيّرت كلّ شيء، فكلّ كبير له مريدوه منهم، والطموح الذي يريد أن يشقّ سبيله في الحياة لا بدّ له من كبير يرجع إليه، إنّ مكانة والدك الكبيرة تقوم على اتصالاته الوثيقة بالكبراء!

فقالت خديجة بكبرياء:

- أبي يسعى الناس إلى التعرّف به ولا يسعى هو إلى أحد، أمّا عن السياسة فأبناي لا شأن لهم بها، لو أتيح لها أن يريا خالهما الشهيد لأدركا من نفسيهما معنى كلامي، بين يحيا فلان ويسقط فلان يهلك أبناء الناس، ولو عاش المرحوم فهمي لكان من أكبر القضاة اليوم...

فقال عبد المنعم:

- لكلّ طريقته، نحن لا نقلّد أحداً، ولو أردنا أن نكون كرضوان لكنا...

فقالت خديجة:

- أحسنت!

وقال له أبوه بأساً:

- أنت كأهلك، وكلاهما لا تساويان شيئاً...

ودقّ الباب، فجاءت الخادم تؤذن بقدوم الجارية



- أشرت إذن؟  
- تمنت أن يمتد بي العمر حتى أرى العالم وقد  
خلص من كافة الطغاة على اختلاف أسمائهم  
وأوصافهم...  
وسكتنا قليلاً وكان التعب قد نال منها كل منال، ثم  
عاد أحمد يتساءل:  
- وماذا عمّا بعد ذلك؟  
فقال عبد المنعم بلهجة اليقين التي اشتهر بها:  
- فاروق غلام، ليس له دهاء أبيه ولا نابه الأزرق،  
فإذا سارت الأمور سيراً حسناً، فنجحت المفاوضات،  
وعاد الوفد إلى الحكم، فسوف تستقر الأمور وينقضي  
عهد المؤامرات... المستقبل حسن فيما يبدو...  
- والإنجليز؟  
- إذا نجحت المفاوضات انقلب الإنجليز أصدقاء،  
وبالتالي ينقطع التحالف القائم بين السراي والإنجليز  
ضدّ الشعب، فلا يجد الملك بدءاً من احترام الدستور.  
- الوفد خير من غيره...  
- بلا شك، إنه لم يحكم طويلاً حتى يعرف مدى  
قدرته، وقریباً تكشف التجربة عن إمكانياته الحقيقية،  
إني أوافئك على أنه خير من غيره، ولكنّ طموحنا لن  
يقف عنده!.  
- طبعاً، إني أومن بأنّ حكم الوفد نقطة ابتداء  
حسنة لتطوّر أعظم، وهذا كلّ ما هنالك، ولكن هل  
تتفق مع الإنجليز حقاً؟  
- إنا الاتفاق وإما العودة إلى حكم صدقي، في  
أمتنا احتياطي من الخونة لا ينفد، كلّ مهمته دائماً  
تأديب الوفد إذا قال للإنجليز «لا»، وإنهم لفي  
الانتظار، هذه هي المسألة...  
وعندما بلغا السكّة الجديدة وجدا نفسيهما فجأة  
أمام جدّهما أحمد عبد الجواد الذي كان متّجهاً صوب  
الصاغة، فتقدّما إليه وسلما عليه بإجلال، فسألها  
باسماً:  
- من أين وإلى أين؟  
فقال عبد المنعم:  
- كنّا نتفرّج على جنازة الملك فؤاد...  
فقال الرجل دون أن تفارق الابتسامة شفّتيه:  
- سعيكما مشكوراً!  
ثمّ صافحهما ومضى كلّ إلى حال سبيله، وأتبعه  
أحمد نظره قليلاً، ثمّ قال:  
- جدّنا ظريف وأنيق، لقد ملأ أنفي شذاً طيّباً...  
- نينة تروي عن جبروته الأعاجيب...  
- لا أظنه جباراً، هذا شيء لا يصدّق.  
فضحك عبد المنعم قائلاً:  
- إنّ الملك فؤاد نفسه بدا في أواخر عهده لطيفاً  
طيّباً...  
وضحكا معاً. ومضيا إلى قهوة أحمد عبده. وفي  
الحجرة المواجهة للنافورة رأى أحمد شيئاً مرسل اللحية  
حادّ البصر يتوسط جمعاً من الشبان يتطلّعون إليه في  
اهتمام، فتوقّف وهو يقول لأخيه:  
- الشيخ عليّ المنوفي صديقك، أخرجت الأرض  
أثقالها، ينبغي أن أتركك هنا...  
فقال عبد المنعم:  
- تعال اجلس معنا، أحبّ أن تجالس وتسمع له،  
ناقشه كيفما شئت، كثير ممّن حوله من طلبه  
الجامعة...  
فقال أحمد وهو يخلّص ذراعه من ذراع أخيه:  
- لا يا عمّ، كدت مرّة أشتبك معه في عراك، أنا لا  
أحبّ المتعصّبين، مع السلامة...  
فحدّجه عبد المنعم بنظرة انتقاد، ثمّ قال بحدّة:  
- مع السلامة، ربّنا يهديك...  
وأقبل عبد المنعم على مجلس الشيخ عليّ المنوفي ناظر  
مدرسة الحسين الأولى، فهض الرجل لاستقباله - وقد  
نهض معه جميع الجلوس حوله - وتعانقا، ثمّ جلس  
الشيخ وجلسوا وهو يتساءل متفحّصاً عبد المنعم بعينيّه  
الحادثتين:  
- لم ترك أمس؟...  
- المذاكرة...  
- الاجتهاد عذر مقبول، وما لأخيك قد تركك  
وذهب؟  
فابتسم عبد المنعم ولم يجب، فقال الشيخ عليّ  
المنوفي:  
- ربّنا الهادي، لا تعجبوا له، لقد صادف مرشدنا

نكون مسلمين فعلاً، لقد منّ الله علينا بكتابه فتجاهلناه فحقّت الذلّة علينا، فلنعد إلى الكتاب، لهذا هو شعارنا، العودة إلى القرآن، بذلك نادى المرشد في الإسماعيلية، ومن ساعتها ودعوته تسري في الأرواح، غازية القرى والدساكر حتّى تملأ القلوب جميعاً. . .

- ولكن أليس من الحكمة أن نتجنّب السياسة؟  
- الدين هو العقيدة والشريعة والسياسة، إنّ الله أرحم من أن يترك أخطر الأمور الإنسانية دون تشريع وتوجيه، ولهذا في الواقع هو درسنا الليلة. . .

كان الشيخ شديد الحماسة، وكانت طريقته أن يقرّر حقيقة ما، ثمّ تدور حولها المناقشات ما بين أسئلة من مريديه وأجوبة عليها منه، يقوم أكثرها على الاستشهاد بالقرآن والحديث. وكان يتحدث وكأنّه يخاطب، أو كأنّه يخاطب الجالسين في القهوة جميعاً. فسمعه أحمد وهو جالس في أقصى المكان، يحتسي الشاي الأخضر، وعلى شفّته ابتسامة ساخرة. وكان يقيس الشقّة بينه وبين هذه المجموعة المتحمّسة في عجب، ويمجد نحوها ازدياداً وغضباً، وثار به التحديّ مرّة فهم بأن يطلب من الشيخ أن يخفض من صوته حتّى لا يعرّك على رواد القهوة صفاء راحتهم، ولكنّه عدل عمّا هم به في اللحظة التي تذكّر وجود أخيه بينهم. وأخيراً لم يجد بداً من مغادرة القهوة، فقام ساخطاً وغادرها. . .

## ١٢

عاد عبد المنعم إلى السكّرية حوالى الثامنة مساءً. وكان الجو سكّنت حنقه فقال إلى اللطافة وشاعت فيه رقة الربيع. كان الدرس ما يزال يكبر في رأسه ويتردّد في قلبه، ولكن أعياه الجهد والفكر. وعبر حوش البيت في ظلام دامس ثمّ اتّجه إلى السكّ، وفي تلك اللحظة فتح باب الدور الأوّل، وعلى الضوء المنبعث من داخل الشقّة رأى شبّحاً يتسلّل إلى الخارج ثمّ أغلق الباب وراءه وسبقه إلى السكّ. وخفق قلبه وجرى دمه حارّاً كحشرة هيّجها القيظ. رآها في الظلام تنتظر عند أوّل بسطة وتطلّع نحوه فتطلّع نحوها، ولم يتحوّل عنها رأسه. وعجب كيف يستغل الصغار الكبار، فهذه الصغيرة غادرت بيتها بحبّة زيارة الجيران، وسوف

كثيرين من أمثاله هم اليوم من أشدّ المخلصين لدعوته، ذلك أنّ الله إذا أراد لقرم هداية فلن يكون للشيطان عليهم من سلطان، ونحن جنود الله، نشر نوره، ونحارب عدوّه، وهبنا أرواحنا له من دون الناس، فما أسعدكم جنود الله. . .

وقال أحد الجالسين:

- ولكنّ ملكة الشيطان كبيرة!

فقال الشيخ على المنوفي معاتباً:

- انظروا إلى من يخاف دنيا الشيطان والله معه.

ماذا نقول له؟ نحن مع الله والله معنا فماذا نخاف؟. من جنود الأرض يتمتّع بقوّتكم؟ وأيّ سلاح أحد من سلاحكم؟. الإنجليز والفرنسيّون والألمان والطيّان جلّ اعتمادهم على الحضارة المادّيّة، أمّا أنتم فاعتمادكم على الإيمان الصادق، إنّ الإيمان يفلّ الحديد، الإيمان أقوى قوّة في العالم، املاؤا قلوبكم الطاهرة بالإيمان تخلص الدنيا لكم. . .

فقال آخر:

- نحن مؤمنون، ولكننا أمة ضعيفة.

فكّور الشيخ قبضته وشدّ عليها وهو يهتف:

- إذا كنت تستشعر ضعفاً فيإيمانك يعتبره نقص وأنت لا تدري، الإيمان خالق القوّة وباعثها، إنّ القنابل تصنعها أيدي كأيدينا وهي ثمرة القوّة قبل أن تكون من مسبباتها، كيف انتصر النبيّ على أهل الجزيرة؟ وكيف قهر العرب العالم كلّهُ؟.

فقال عبد المنعم بحماسة:

- الإيمان. . . الإيمان. . .

غير أن صوتاً رابعاً تساءل:

- ولكن كيف كان للإنجليز هذه القوّة وهم قوم غير مؤمنين؟

فابتسم الشيخ متخلّلاً لحيته بأصابعه وهو يقول:

- لكلّ قوّةٍ لإيمانه، إنهم يؤمنون بالوطن

وبالمصلحة، أمّا الإيمان بالله فهو فوق كلّ شيء، وأحرى بالمؤمنين بالله أن يكونوا أقوى من المؤمنين بالحياة الدنيا، فتحت أيدينا نحن المسلمين ذخيرة مدفونة يجب أن نستخرجها. يجب أن يُبعث الإسلام كما بُعث أوّل مرّة، نحن مسلمون اسمًا فيجب أن

- نحن في بيتنا، في غرفتنا، هذه البسطة هي غرفتنا.

- العصر وأنا ذاهبة إلى خالتي نظرت إلى فوق لعلي أراك في النافذة، فإذا بوالدتك تطلّ على الحارة فالتقت عيني بعينها فارتعدت من الخوف.

- ماذا خفت؟

- خيّل إليّ أنّها عرفت عمّن أبحث وأنها كشفت سرّي...

- تعنين سرّنا، إنّ شيء واحد يربطنا، السنا الآن شيئاً واحداً؟

وضمّتها إلى صدره بعنف في رغبة جامحة، وفي الوقت نفسه كأنما كان يجذّ هارباً من أصوات المعارضة الخافتة في أعماقه باستسلام يائس، فلفحته نيران متأججة، واحتوته قوّة قادرة على إذابة اثنين في دوامة واحدة...

ونذّ عن الصمت تهبدة ثمّ تردّد أنفاس، وشعر أخيراً بأنّه هو وأنها هي وأنّ الظلام يضمّ شبحين. ثمّ جاءه همسها الرقيق يقول في استحياء:

- نتقابل غداً؟

فرّد في امتعاض حاول ما استطاع التسرّع عليه:

- نعم... نعم، ستعلمين في حينه...

- أخبرني الآن...

فقال والامتعاض يزداد ثقلاً على قلبه:

- لا أدري كيف يكون وقتي غداً!

- كيّه؟...

- اذهبي بالسلامة، سمعت صوتاً!

- كلاً، لا صوت هناك...

- لا ينبغي أن يجدها أحد هكذا...

وربّت كتفها كأنما يربّت خرقة ملوّنة، وتخلّص من ذراعها في رقّة مفتعلة ثمّ رقي في السلم على عجل. كان والداه جالسين في الصالة يستمعان إلى الراديو، وكانت حجرة المكتب مغلقة الباب مضاءة الشّراعة ممّا دلّ على أنّ أحمد يذاكر، فحيّاهما تحيّة المساء وقصد حجرة النوم ليخلع ملابسه. واستحمّ، وتوضّأ، وعاد إلى حجرته فصلّى، ثمّ تربّع على سجادة الصلاة وراح في تأمل عميق. كانت عيناه ترنوان بنظرة حزينة،

تزور الجيران، ولكن بعد خوض مغامرة خطيرة فوق بسطة السلم المستكنّة في الظلام. ولتوّه وجد رأسه فارغاً، تبخّر ما كان يصطرع فيه من أفكار وتطايّر، وتركزّ هو في رغبة واحدة هي أن يشبع النهم الذي بات يؤزّق أعصابه وأعضائه. أمّا ذلك الإيمان الصادق فيبدو أنّه ولّى غاضباً، أو غاص في الأعماق يدمدم حانقاً ولكنّ صوته ضاع في أزيز النار المستعرة. أليست هي فتاته؟ بلى، تشهد بذلك حنايا الحوش وبثر السلم وركن السطح المطلّ على السكّرية. وكانت بلا ريب ترقب عودته لتلتقي به في اللحظة المناسبة. كلّ هذا العناء من أجله هوا. ومضى متعجّلاً حذراً حتّى وقف إزاءها على البسطة، لا يكاد يفصل بينها شيء، وقد سطع أنفه شداً شعرها، ودغدغ عنقه تردّد أنفاسها. وربّت منكبها برقّة هامساً:

- نصعد إلى البسطة الثانية فنكون في موضع آمن من هذا.

تقدّمت دون أن تبس فتبعها عاذراً. وبلغا البسطة الثانية فيما بين الدورين. فوقفت مستندة إلى الجدار ووقف بين يديها، ثمّ أحاطها بذراعيه فقاومه بحكم العادة مقدار ثانية ثمّ سكنت في حضنه...

- حبيبي...

- انتظرتك في النافذة، نينة مشغولة باستعدادات شمّ النسيم.

- كلّ سنة وأنت طيّبة، دعيني أشمّ النسيم بين شفتيك...

والتقت شفتاهما في قبلة طويلة جائعة. ثمّ نساءلت:

- أين كنت؟

ذكر في سرعة خاطفة درس السياسة في الإسلام، ولكنّه أجاب:

- مع بعض الأصدقاء في القهوة...

قالت بلهجة تشي بالاحتجاج:

- القهوة ولم يبق على الامتحان إلّا شهر؟

- ولكنّي أعرف واجبي، سأقبلك قبلة ثانية جزاء سوء ظنّك بي...

- صوتك عال، أنسيت أين نحن؟

ثمّ جلس بعد أن جلس الرجل وأذن له في الجلوس. شعر بالارتياح والزهو وهو يرنو إلى الأستاذ الكبير الذي تلقى عنه النور والعرفان في الأعوام الثلاثة الماضية، سواء عن مؤلفاته أم مجلته، فراح يملأ عينيه من الوجه الشاحب الذي وخط الشيب شعره وعلاه الكبر فلم يبق له من أمارات الفتوة إلا عينان عميقتان تشعان بريقاً نقاداً. لهذا أستاذة، أو أبوه الروحي كما يدعوه، وإنه الآن في حجرة الوحي التي لا جدران لها ولكن رفوف الكتب تمتدّ عاليًا حتى السقف.

وقال الأستاذ بلهجة المتسائل:

- أهلاً وسهلاً؟

فقال أحمد بلباقة:

- جئت لأسدّد الاشتراك.

ولما اطمأن إلى الأثر الطيب الذي أحدثه قوله استدرك قائلاً:

- وأسأل عن مصير مقالة أرسلتها إلى المجلة من أسبوعين.

فابتسم الأستاذ عدلي كريم وهو يتساءل:

- اسم حضرتك؟

- أحمد إبراهيم شوكت.

فارتسمت على جبين الأستاذ تقطعية التذكر ثم قال:

- إني أذكرك، أنت أول مشترك في مجلتي، نعم،

وجئتني بثلاثة مشتركين، هه؟ إني أذكر اسم شوكت،

وأظنني أرسلت لك خطاب شكر باسم المجلة؟

فقال أحمد بارتياح ممتناً لهذا التذكر الجميل:

- جاءني كتاب حضرتك، اعتبرتني فيه «صديق

المجلة الأول»!

- هذا حق، إن مجلة الإنسان الجديد مجلة مبدأ ولا

بد لها من أصدقاء مؤمنين لشق طريقها في زحمة

مجلات الصور والاحتكار، فأنت صديق المجلة، أهلاً

وسهلاً، ولكنك لم تشرفنا بالزيارة من قبل؟

- كلاً، إني لم آخذ البكالوريا إلا في هذا الشهر.

فضحك الأستاذ عدلي كريم قائلاً:

- أنت فاهم أن المجلة لا يزورها إلا الحاصل على

البكالوريا؟

فابتسم أحمد في ارتباك وقال:

وكان صدره يضطرم شجناً، وهفت نفسه إلى البكاء، ودعا ربّه أن يطرد الشيطان عن سبيله وأن يشدّ أزره في مقاومة الغواية. ذلك الشيطان الذي يعترضه في صورة فتاة ويندفع في دمه رغبة جامحة. ودائماً أبداً يقول عقله لا فيقول قلبه نعم، ثمّ يتلقفه ذلك الصراع المخيف الذي ينتهي بالهزيمة والندم. كل يوم تجربة وكلّ تجربة جحيم فتمتّ ينقضي هذا العذاب؟، إن نضاله الروحي كلّ مهّد بالخراب وكأثماً يبني قصوراً في الهواء ولن يقرّ قرار لغارق في الطين، فليت الندم يستطيع أن يرجع ساعة مضت.

## ١٣

أخيراً اهتدى أحمد إبراهيم شوكت إلى مبنى مجلة «الإنسان الجديد» بغمرة. كان المبنى يقع في مكان وسط بين محطتي الترام، وكان مكوّناً من دورين وبدروم، فأدرك لأول وهلة أنّ الدور الأعلى مسكن كما استدلّ من الغسيل المعلق في شرفته، أمّا الدور الأول فقد ثبتت لافتة باسم المجلة على بابه، وأمّا البدروم فقد خصّص للمطبعة التي رأى آلائها خلل قضبان النوافذ. وصعد درجات أربعا إلى الدور الأول، ثمّ سأل أول من التقى به - وكان عاملاً يحمل بروفات - عن الأستاذ عدلي كريم صاحب المجلة، فأشار الرجل إلى باب مغلق في نهاية صالة خالية من الأثاث حيث تراءت لافتة رئيس التحرير، فمضى وهو يتلقف فيها حوالبه على يجد حاجباً ولكنه ألفى نفسه منفرداً بالباب فتردّد لحظة ثمّ طرق برقة حتى جاءه صوت من الداخل يقول «ادخل» ففتح الباب ودخل، فالتقت عيناه في نهاية الصالة بعينين واسعتين تحدّقان به متسائلتين من تحت حاجبين كثيفين أشيبين، فردّ الباب وراءه وقال بصوت المعتذر:

- لا مؤاخذه، دقيقة واحدة...

فقال الرجل بصوت رقيق:

- تفضّل...

وتقدّم أحمد من مكتب كُسدست فوقه الكتب والأوراق، ثمّ سلّم على الأستاذ الذي قام لاستقباله،

- كلاً طبعاً، أعني أي كنت صغيراً.

فقال الأستاذ جاداً:

- لا يليق بقارئ الإنسان الجديد أن يحسب العمر بالسنين، في بلادنا شيوخ جاوزوا الستين ولكنهم ما زالوا شباباً بعقولهم، وفيها شبان في ربيع العمر ولكنهم معمرّون - منذ ألف سنة أو أكثر - بعقولهم، وهذا هو داء الشرق... (ثم بلهجة أرق) وهل أرسلت إلينا مقالات من قبل؟

- ثلاث مقالات كان مصيرها الإهمال، ثم مقالة أخيرة كنت أطمح في نشرها!

- عن ماذا؟، لا تؤاخذني فإني أتلقى عشرات المقالات يومياً؟

- عن رأي لوبون في التعليم وتعليقي عليه!  
- على أي حال ستبحث عنها في السكينة -  
الحجرة المجاورة للحجرتي - وتعلم بمصيرها...

وهم أحمد بالقيام ولكن الأستاذ عدلي أشار إليه بالاستمرار في الجلوس وهو يقول:  
- المجلة اليوم في شبه إجازة، أرجو أن تمكث معي قليلاً لتحدث.

فتمتم أحمد بارتياح عميق:

- بكل سرور يا فندم.

- قلت إنك أخذت البكالوريا هذا العام، كم سنك؟

- ستة عشر عاماً.

- سن مبكرة، حسن، هل المجلة منتشرة في المدارس الثانوية؟

- كلام للأسف...

- أعلم هذا، أكثرية قرائنا في الجامعة، القراءة في مصر ملهاة رخيصة، ولن تتطور حتى نؤمن بأن القراءة ضرورة حيوية.

ثم بعد قليل من الصمت:

- وما حال التلاميذ؟

فنظر إليه أحمد متسائلاً كأنما يستزيده تفسيراً لقوله، فقال الرجل:

- إني أسأل عن الناحية السياسية باعتبارها أوضح من غيرها...

- الأغلبية الساحقة من التلاميذ وفديون...

- ولكن ثمة كلام عن حركات جديدة؟

- مصر الفتاة؟... لا وزن لها، فرقة تُعدّ على الأصابع، الأحزاب الأخرى لا أنصار لها إلا أقارب زعمائها، وهناك قلة لا تهتم بشئون الأحزاب كافة، وآخرون - وأنا منهم - نفضل الوفد على غيره ولكننا نطمح فيما هو أكمل...

فقال الرجل بارتياح:

- هذا ما أسأل عنه، الوفد حزب الشعب، وهو خطرة تطورية خطيرة وطبيعية في آن واحد، كان الحزب الوطني حزباً تركياً دينياً رجعياً، أما الوفد فهو مبلور القومية المصرية ومظهرها من الشوايب والحيثات، إلى أنه مدرسة الوطنية والديمقراطية، ولكن المسألة أن الوطن لا يقنع وما ينبغي له أن يقنع بهذه المدرسة، نريد مرحلة جديدة من التطور، نريد مدرسة اجتماعية، لأن الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة، ولكنه الوسيلة لنيل حقوق الشعب الدستورية والاقتصادية والإنسانية.

فهتف أحمد بحماس:

- ما أجل هذا الكلام!

- ولكن ينبغي أن يكون الوفد نقطة البدء، أما مصر الفتاة فحركة فاشستية رجعية مجرمة، ليست دون الرجعية الدينية خطراً وهي ليست إلا صدى للعسكرية الألمانية والإيطالية التي تعبد القوة وتقوم على الاستبداد وتزري بالقيم الإنسانية والكرامة البشرية، إن الرجعية داء مستوطن في الشرق كالكوليرا والتيفود فينبغي استئصاله...

فعاد أحمد يقول متحمساً:

- إن جماعة «الإنسان الجديد» تؤمن بهذا كل الإيمان...

فهزّ الرجل رأسه الكبير في أسف وهو يقول:

- ولذلك فالمجلة هدف للرجعيين من كافة النحل،

إنهم يرمونني بإفساد الشباب!

- كما اتهموا سقراط من قبل...

فابتسم الأستاذ عدلي كريم في ارتياح وقال:

- وما وجهتك؟ أعني أي كلية تقصد؟

- الآداب . . .

فاعتدل الأستاذ في جلسته، وقال:

- الأدب وسيلة من وسائل التحرير الكبرى، ولكنّه قد يكون وسيلة للرجعية، فاعرف سبيلك، فمن الأزهر ودار العلوم خرجت آداب مَرَضِيَّة عملت أجيالاً على تهميد العقل وقتل الروح، ومهما يكن من أمر - ولا تدهش أن يصارحك بهذا الرأي رجل محدود في الأدباء - فالعلم أساس الحياة الحديثة، ينبغي أن ندرس العلوم وأن نشبع بالعقلية العملية، الجاهل بالعلم ليس من سگان القرن العشرين ولو كان عبقرياً، وعلى الأدباء أن ينالوا حظهم منه. لم يعد العلم وفقاً على العلماء، أجل لهؤلاء التضلع والتعمق والبحث والكشف، ولكن على كلّ مثقّف أن يضيء نفسه بنوره وأن يعتنق مبادئه ومناهجه ويتحلّى بأسلوبه، ينبغي أن يحلّ العلم محلّ الكهانة والدين في العالم القديم . . .

فقال أحمد مؤمناً على قول أستاذه:

- ولذلك كانت رسالة «الإنسان الجديد» هي تطوير المجتمع على أساس علمي . . .

فقال عدلي كريم باهتمام:

- أجل على كلّ منا أن يقوم بواجبه، ولو وُجد وحيداً في الميدان . . .

فهزّ أحمد رأسه موافقاً فعاد الآخر يقول:

- ادرس الآداب كما تشاء، واعنّ بعقلك أكثر ما تعنى بالمحفوظات، ولا تنسّ العلم الحديث، ولا يجب أن تخلو مكتبتك - إلى جانب شكسبير وشوبنهاور - من كونت ودارون وفرويد وماركس وإنجلز، لتكون لك حماسة أهل الدين ولكن ينبغي أن تذكر أنّ لكلّ عصر أنبياءه، وأنّ أنبياء هذا العصر هم العلماء.

وابتسم الأستاذ ابتسامة أوحّت بأنّها تحية الختام فنهض أحمد مادّاً يده، وسلّم ثمّ غادر الحجرة ممثلاً حياة وسعادة. وفي الصالة الخارجية ذكر الاشتراك والمقالة فسأل إلى الحجرة المجاورة، وطرق الباب مستأذناً ثمّ دخل. رأى حجرة بها ثلاثة مكاتب، اثنان خاليان، والثالث جلست عليه فتاة. لم يكن يتوقع هذا فوقف ينظر إليها في حيرة وتساؤل. كانت في

العشرين، عميقة السمرة، سوداء العينين والشعر، وكان في أنفها الدقيق وذقنها المدبّب وفمها الرقيق ما يوحي بالقوة، دون أن يفسد ملاحظتها. ساءلت وهي تتفحصه:

- أفندم؟

فقال يعزّز مركزه:

- الاشتراك . . .

ودفع المبلغ وأخذ الإيصال، وفي أثناء ذلك كان قد تغلّب على ارتبائه فقال:

- كنت قد أرسلت مقالة إلى المجلة، وأخبرني الأستاذ عدلي كريم بأنّها في السكّرية.

وهنا دعتة للجلوس على كرسيّ أمام المكتب فجلس ثمّ سألت:

- عنوان المقالة من فضلك؟

قال دون أن يشعر بارتياح لموقفه هذا أمام فتاة:

- التعليم عند لوبون.

فتفتحت دوسيتها، وفُزّت أوراقاً حتّى استخرجت المقال، ولح أحمد خطّه فحفق قلبه، وحاول أن يقرأ التوقيع الأحمر عليه من مجلسه غير أنّها وقّرت عليه عناء المحاولة إذ قالت:

- موقع عليه بما يأتي «يلخص وينشر في باب رسائل القراء».

فشعر أحمد بخيبة أمل، ولبت لحظات ينظر إليها دون أن ينبس، ثمّ تساءل:

- في أيّ عدد؟

- في العدد القادم.

فسأل بعد تردّد:

- ومن الذي يلخصه؟

- أنا.

وداخله شعور بالامتعاض، ولكنّه سأل:

- ويوقع عليه باسمي؟

فقال ضاحكة:

- طبعاً، يُنشر عادة ما يفيد بأنّه جاءتنا رسالة من الأديب (ثمّ وهي تنظر إلى الإمضاء) أحمد إبراهيم شوكت ثمّ نورد تلخيصاً وافياً لفكرتك! فتردّد قليلاً ثمّ قال:

أمه وهي همس قائلة:

- سوف يطلب يد نعيمة...

ولما شعرت بوجوده التفتت إليه قائلة:

- صديقك بالداخل، ما الطفه، أراد أن يقبل يدي

فمنعته!

ورأى والده مترعًا على الكنية وفؤاد جالسًا على

مقعد قبالة، فتصافح الصديقان القديمان وكما يقول:

- حمدًا لله على السلامة، أهلاً وسهلاً... أنت في

إجازة؟

فأجاب عنه السيد أحمد باسمًا:

- بل نُقل إلى نيابة القاهرة، نُقل أخيرًا بعد غربة

طويلة في الصعيد...

فجلس كمال على الكنية وهو يقول:

- مبارك، من الآن فصاعدًا نرجو أن نراك من آن

لآخر.

فقال فؤاد:

- طبعًا، وسنقيم من أول الشهر القادم بالعباسية،

استأجرنا شقة بجوار قسم الوايلي...

لم تتغير هيئة فؤاد كثيرًا، ولكن صحته تقدّمت

بدرجة محسوسة فامتلاً عوده وتورّد وجهه، أما عيناه

فلا زالتا تشعان ذلك الريمض الذكي. وسأل السيد

أحمد الشاب قائلاً:

- وكيف حال والدك؟... لم أراه منذ أسبوع.

- ليست صحته على ما يرام، إنه لا يزال أسفًا على

ترك المحلّ، لكنّ المأمول أن يكون خليفته قائمًا

بالواجب.

- الأمر يقتضي اليوم بقطة متواصلة، كان والدك

يقوم بكلّ شيء شفاه الله وعافاه...

واعتدل فؤاد في جلسته ووضع رجلًا على رجل

فلقت هذه الحركة انتباه كمال فيما يشبه الانزعاج، أما

السيد فلم يبدُ عليه حتّى أنه لاحظها. أهكذا تتطوّر

الأمور؟ أجل إنه وكيل نيابة قذّ الدنيا، ولكن أنسي من

يكون الشخص المتربّع أمامه؟، ربّاه ليس هذا

فحسب، لقد أخرج عليه سجانر وقدمها للسيد فاعتذر

شاكراً! حقاً إنّ النيابة تُنسي، ولكن من المؤسف أن

يمتدّ نسيانها إلى وليّ النعمة الذي يبدو أنّ فضله تبدّد

- كنت أفضل لو نُشرت بأكملها...

فقالت باسمّة:

- المرّة القادمة إن شاء الله...

فجعل ينظر إليها صامتًا ثمّ سألها:

- حضرتك موظّفة هنا؟

- كما تراني!

نازعته نفسه أن يسألها عن مؤهلاتها ولكنّ شجاعته

خذلته في اللحظة الأخيرة فسألها:

- اسم حضرتك من فضلك لأطلبك في التليفون

إذا لزم الأمر!

- سوسن حماد.

- متشكّر جدًّا.

ونفض محبّا إياها بيده، وقبل أن يغادر الحجرة

التفت نحوها قائلاً:

- أرجو أن تلخصيها بعناية.

فقالت دون أن تنظر إليه:

- إني أعرف واجبي!

فغادر الغرفة نادماً على قوله...

## ١٤

كان كمال في حجرة مكتبه عندما جاءت أمّ حنفي

لتقول له:

- سي فؤاد الحمزاوي عند سيدي الكبير...

ونفض كمال بجلبابه الفضفاض وغادر الحجرة

مسرّعًا إلى تحت. إذن عاد فؤاد إلى القاهرة بعد غيبة

عام، عاد وكيل نيابة قنا العتيدي. وكانت تحيش

بصدره مشاعر صداقة ومودة بيد أنّ شوائب عدم

الارتياح شابتها، فصادفته لفؤاد كانت ولا تزال

تنطوي على نوع من الصراع، صراع من الحبّ

والنفور، بين المودة والغيرة، ومهما يحاول أن يتسامى

بعقله فالغرائز تشده على رغمه إلى الإسفاف الدنيوي.

فلم يكن يشكّ وهو يهبط السلم في أنّ هذه الزيارة

ستثير عنده ذكريات سعيدة ولكنها في الوقت نفسه

ستنكأ جروحًا كادت أن تندمل. وعندما مرّ في الصالة

بمجلس القهوة المكوّن من الأمّ وعائشة ونعيمة سمع

في الهواء كدخان هذه السيجارة الفاخرة. ولم يكن في حركات فؤاد تكلف من أي نوع كان، كان سيّدًا قد تعود السيادة، وقال السيّد مخاطبًا كمال:

- وهنّهُ أيضًا فقد رُفّي من مساعد إلى وكيل نيابة. فقال كمال بأسًا:

- مبارك. مبارك، أرجو أن أهتلك قريبًا بكرسيّ القضاء.

فقال فؤاد:

- الخطوة التالية إن شاء الله.

ربّما استباح لنفسه - عندما يصير قاضيًا - أن يبول أمام الرجل المترع أمامه! أمّا مدرّس ابتدائيّ فيظلّ مدرّسًا ابتدائيًا، وحسبه شاربه الخليط وأطنان الثقافة التي عوّجت رأسه.

ونظر السيّد أحمد إلى فؤاد باهتمام وهو يسأل:

- وكيف حال السياسة؟

فقال فؤاد بارتياح:

- وقّعت المعجزة! وقّعت المعاهدة في لندن، أصغيت إلى الراديو وهو يعلن استقلال مصر وانقضاء عهد التحفّظات الأربعة فلم أصدّق أذنيّ، من كان يصدّق هذا؟

- إذن أنت من الراضين على المعاهدة؟

فقال وهو يهزّ رأسه هزّة أصحاب الشأن:

- في الجملة نعم، للمعاهدة أعداء مخلصون وآخرون غير مخلصين، فإذا تأملنا الظروف التي تحيط بنا، وذكرنا أنّ شعبنا صبر على عهد صدقي رغم مرارته دون أن يثور عليه، فينبغي أن نعدّ المعاهدة خطوة موفّقة، أزالنا التحفّظات ومهدت الطريق لإلغاء الامتيازات الأجنبية، وحددت مدّة الاحتلال بعد قُصره على منطقة معيّنة، إنها خطوة عظيمة بلا شكّ.

كان حماس السيّد أحمد للمعاهدة أقوى وإحاطته بظروفها أقلّ، وكان يؤدّ أن يتجاوب الآخر معه تحاوبًا أشدّ، فلمّا خاب ظنّه قال بعناد:

- على أيّ حال ينبغي أن نذكر أنّ الوفد قد أعاد إلى الأمة دستورها وحقق لها الاستقلال ولو بعد حين... وفكّر كمال: كان فؤاد دائميًا «باردًا» في الناحية

السياسيّة، ولعلّه لم يتغيّر، ولكنّه يبدو مائلًا إلى الوفد، أمّا أنا فطالما كنت مندفعًا مع العاطفة، ثمّ انقلبت لا أومن بشيء، والسياسة نفسها لم تسلم من شكّي النهم، ولكنّ قلبي لا يزال ينبض بالوطنية رغم عقلي. وعاد فؤاد يقول ضاحكًا:

- إنّ النيابة في عهود الانقلاب تنكمش إلى الوراء على حين يحتلّ البوليس المقدّمة، إذ إنّ عهود الانقلاب عهود بوليسيّة، فإذا عاد الوفد إلى الحكم رُدّت للنيابة مكانتها ولزم البوليس حدوده، ففي عهد الحكم الطبيعيّ يكون القانون هو الكلمة العليا. فعلق السيّد على ذلك قائلاً:

- وهل يمكن أن ننسى عهد صدقي؟!، لقد كان الجنود يجمعون الأهالي بالعصيّ أيام الانتخابات، وكثير من الأعيان من أصدقائنا خربت بيوتهم وأشهرها إفلاسهم ثمناً لثباتهم على مبدأ الوفد، ثمّ إذا بنا نرى «الشیطان» ضمن هيئة المفاوضات في لباس الوطنيّين الأحرار!

فقال فؤاد:

- كانت الظروف توجب الاتّحاد، ولم يكن هذا الاتّحاد ليكمل دون أن ينضمّ إليه الشيطان وأعوانه، والعبرة بالخواتيم.

وليث فؤاد في حضرة السيّد فترة غير يسيرة، احتسى في أثنائها القهوة، وجعل كمال يتفحصه بعناية فانتبه إلى بذلته الحريريّة البيضاء الأنيقة، والوردة الحمراء التي تزين عروتها، وإلى الشخصيّة القويّة التي أضفتها عليه الوظيفة، فشعر في أعياقه بأنّه سيسرّ - رغم كلّ شيء - إذا طلب هذا الشاب يد بنت أخته، غير أنّ فؤاد لم يطرق هذا الموضوع، وبدأ عليه أنّه يرغب في الذهاب وما لبث أن قال للسيّد:

- آن وقت ذهابك إلى الدكان، سأملك بكية الوقت مع كمال، وسوف أزور حضرتك قبل سفري إلى الاسكندرية، حيث أئني قرّرت أن أقضي بقيّة أغسطس وبعض سبتمبر في المصيف.

ونفض قائمًا فصافح السيّد مودّعًا ثمّ غادر الحجرة يتقدّمه كمال، وصعدا معًا إلى الدور الأعلى حيث استقرا في حجرة المكتب، وجعل فؤاد يتصفّح الكتب



المصروفة على الأرفف بأسيا ثم تساءل:

- ألا أستطيع أن أستعير منك كتابًا؟

فقال كمال وهو يداري عدم ارتياحه:

- بكل سرور، ماذا تقرأ عادة في أوقات فراغك؟

- عندي دواوين شوقي وحافظ ومطران، وبعض

كتب الجاحظ والمعري، وأحب بصفة خاصة وأدب

الدنيا والدين، إلى مؤلفات كتّابنا المعاصرين، هذا

إلى بعض مؤلفات ديكنز وكونان دويل، ولكنّ انكبابي

على القانون يلتهم أكثر وقتي...

ثم نهض فجاء جولة استعراضية بين الكتب قارئًا

عناوينها ثم عاد وهو ينفخ قائلاً:

- مكتبة فلسفية قحة، لا ناقة لي فيها ولا جمل، إني

أقرأ مجلة الفكر التي تكتب فيها، وأتابع مقالاتك التي

تظهر تباعًا منذ سنوات، لا أزعج أي قراءتها جميعًا، أو

أي أذكر منها شيئًا، إنّ المقالة الفلسفية أثقل ما يُقرأ،

ووكيل النيابة رجل مرهق بالعمل، لماذا لا تكتب في

الموضوعات الجذابة؟

طالما سمع بأذنه نعي مجهوده، ولكنه لم يحزن لذلك

كثيرًا كأنما اعتاده، إنّ الشكّ يلتهم فيما يلتهم الحزن

نفسه، والشهرة ما هي؟ والجاهلية ما هي؟ ولكنّ بما

يسره حقًا ألا يجد فيه فؤاد تزجية لأوقات فراغه.

وسأله:

- ماذا تعني بالموضوعات الجذابة؟

- الأدب مثلاً.

- قرأت لطائف منه منذ كنتًا معًا ولكنني لست

أدبياً...

فضحك فؤاد قائلاً:

- إذن ابق في الفلسفة وحده، ألسنت فيلسوفًا؟

ألسنت فيلسوفًا؟ عبارة مطبوعة في أعماقه، ارتجف

من هول وقعها قلبه، هكذا هي منذ ألقى عليه في

شارع السرايات من ثغر عايدة، ولكي يداري جيشة

صدره ضحك ضحكة عالية، ثم ذكر الأيام التي كان

فؤاد يتودّده ويتبعه كظله، ها هو الآن يطالعه رجلاً

خطيرًا جدًّا بالتودّد والولاء! ماذا جنيت من

حياتي؟ وكان فؤاد يتفحص شارب صاحبه ثم ضحك

فجأة قائلاً:

- ولوا...

فتساءل كمال بعينه عن معنى هذا فعاد الآخر

يقول:

- كلانا يجري نحو الثلاثين دون أن يتزوَّج، جيلنا

مكتنَّظ بالعزَّاب، جيل الأزمة، ألا زلت عند رأيك؟

- لا أنزعج...

- لا أدري لم أعتقد بأنك لن تتزوَّج أبدًا.

- أنت بعيد النظر طول عمرك.

فقال وهو يتسم ابتسامة رقيقة كأنما ليعتذر بها سلفًا

عما سيقول:

- أنت رجل أناني، تأبى إلّا أن تستأثر بكلّ حياتك

لنفسك، يا أخي لقد تزوّج النبي ولم يمنعه ذلك من

ممارسة حياته الروحية العظيمة...

ثم مستدركًا وهو يضحك:

- لا تؤاخذني على ضرب المثل بالنبي، كدت أنسى

أنك... ولكن مهلاً، إنك لم تعد الملحد القديم،

أنت الآن تشكّ حتى في الإلحاد، وهذه خطوة كسب

للإيمان...

فقال كمال بهدوء:

- دعنا من التفلسف فإنك لا تحبّه وخبرني لم آلم

تتزوَّج أنت ما دام هذا هو رأيك في العزوبية؟

وشعر لتوه بأنه ما كان ينبغي له أن يطرح هذا

السؤال خشية أن يفسره الآخر بأنه استدراج إلى

الكلام في خطبة نعيمة ولكنّ فؤاد لم يبدُ عليه أنّه فُكر

في هذا، بل ضحك ضحكة عالية وإن لم تخرج به عن

حدّ الوقار، وقال:

- أنت تعلم أنّي لم أفسد إلّا متأخرًا، لم أفسد مثلك

في زمن مبكر، فانا لم أشبع بعدا

- أنتزوَّج إذا شبع؟

فضرب فؤاد الهواء بظاهر يده كأنما يطرد الكذب

وقال بلهجة المعترف:

- ما دمت قد صبرت حتى اليوم فلأصبر فترة

أخرى، أصبر حتى أرقى قاضيًا مثلاً فيسعي أن أصاهر

وزيرًا إذا شئت...

يا بن جميل الحمزاوي! عروس من صلب وزير

وحاتها من المبيضة! اتحدى لينتّر أن يبرّر هذا ولو كما

يبرّر وجود الشرّ في الخليقة!

- أنت تنظر إلى الزواج نظرة...

فقاطعه قبل أن يكمل كلامه ضاحكًا:

- خير من الذي لا يعبره نظرة على الإطلاق!...

- ولكنّ السعادة...

- لا تتفلسف! السعادة فنّ ذاتيّ، قد تجدها عند

كريمة وزير بينا لا تجد إلاّ التعاسة في وسطك، الزواج

معاهدة كالتّي وقّعها النّحاس بالأمس، مساومة وتقدير

ودهاء ويُعدّ نظر وفوائد وخسائر، وفي بلدنا لا تأتي

الرفعة إلاّ عن هذا السبيل، في الأسبوع الماضي عُيّن

مستشارًا رجل لم يبلغ الأربعين من عمره، وقد أخدم

القضاء عمري مجتهدًا ناصبًا دون أن أظفر بهذا المركز

السامي!

ومعلّم ابتدائيّ ما قوله؟ في الدرجة السادسة

ينقضي عمره، ولو طُفح بالفلسفة رأسه...

- إنّ مركزك يغيّك عن أمثال هذه المغامرات...

- لولا هذه المغامرات ما استطاع رئيس أن يؤلّف

وزارته!

فضحك كمال ضحكة لا طعم لها وقال:

- أنت في حاجة إلى شيء من الفلسفة، تحتاج إلى

جرعة من سينوزا...

- اشبع منه أنت، لكن دعنا من هذا، وخبرني عن

أماكن اللهو والشراب، في قنا كنت أختلس اللذة في

حذر، إنّ مركزنا يحتم علينا الانزواء ومجانبة البشر،

والصراع الأبديّ بيننا وبين البوليس يوجب الحذر

أكثر، وكيل النيابة مركز خطير متعب...

عودة إلى الحديث الذي هدّد مرارتي بالانفجار،

حياتي في ضوئك تأديب وتهذيب وأشدّ امتحانًا لفلسفتي

الخائرة في هذه الحياة...

- تصوّر أنّ الظروف تعميّن بكثير من الأعيان، ثمّ

يدعوني إلى سراياتهم، فأجد أنّ الواجب يقضي بأنّ

أرفض دعوتهم كيلا يؤثّر مؤثّر في قياي بواجبي، ولكنّ

عقليّتهم لا تفهم هذا، فأعيان الإقليم جميعًا يرموني

بالكبر وأنا منه براء.

«بل أنت غرور وكبر وغيره على الواجب معًا».

وقال موافقًا:

- نعم...

- ولنفس الأسباب خسرت رجال البوليس، أنا لا

أرضى عن طرقهم الملتوية، لذلك أقف لهم بالمرصاد،

ورائي القانون، ووراءهم همجية القرون الوسطى، إنّ

الجميع يكرهوني ولكنّ الحقّ معي...

الحقّ معك، هذا ما أعرفه فيك من قديم، الذكاء

والنزاهة، ولكنّك لا تحبّ ولا يمكن أن تحبّ، أنت لا

تتمسك بالحقّ لوجه الحقّ وحده ولكن لوجه الحقّ

والغرور والكبرياء والشعور بالنقص، هكذا الإنسان،

إنّي أصطدم بأمثالك حتّى في الوظائف الحقيرة،

الإنسان العذب القويّ أسطورة، ولكن ما قيمة

الحبّ؟ وما المثالية؟ وما أيّ شيء؟!

وهكذا طال بهما الحديث، وعندما همّ فؤاد

بالذهاب مال على أذن كمال متسائلًا:

- أنا جديد في القاهرة، طبعًا أنت تعرف بيتًا بل

بيوتًا، مستورة طبعًا؟

فقال كمال باسما:

- إنّ المدرّس كوكيل النيابة يتحرّى السّر دائمًا...

- عال. سنلتقي قريبًا، إنّي مشغول الآن بترتيب

الشقّة الجديدة ولا بدّ أن نسهر كم مرّة معًا!

- اتّفقنا...

وغادرا الحجرة معًا فلم يتركه حتّى أوصله إلى باب

السكّة، وعندما مرّ بالدور الأوّل في أثناء عودته التقى

بأمّه واقفة تنتظره عند المدخل، فسألته بلهفة:

- ألم يكلمك؟

فأدرك ما تسأل عنه، وشعر لذلك بألم لم يشعر

بمثله، ولكنّه تجاهل الأمر وتساءل بدوره:

- عن ماذا؟

- نعيمة!...

فأجاب ممتعضًا:

- كلًّا...

- عجيبه!...

وتبادلا نظرة طويلة، ثمّ عادت أمينة تقول:

- ولكنّ الحمزاوي كلّم أبلك!

فقال كمال وهو يداري ما استطاع من ثورة حنقه:

- لعلّه لم يكن فيما قال ناثبًا عن ابنه...

إليه بمقالاته الفلسفية، ثم مضت ستة أعوام وهما على تعاون صادق غير مأجور، والواقع أن جميع كتّاب المجلة كانوا من المتعاونين في سبيل الفلسفة والثقافة لوجه الله وحده!...

وكان عبد العزيز يرحّب بكافة الكتّاب المتطوِّعين حتّى المختصّين - مثله - في الفلسفة الإسلامية، ومع أنّه كان أزهرىّ النشأة إلّا أنّه سافر إلى فرنسا حيث قضى هنالك أربعة أعوام محضاً ومستمعاً دون أن يحصل على درجة علميّة، وكان في غنى عن السعي للرزق بعقار يملكه يدرّ عليه شهرياً خمسين جنيهاً ولكنّه أنشأ مجلّة «الفكر» في عام ١٩٢٣، وثابر على إصدارها بالرغم من أنّها لم تكن تزيد دخله شيئاً يضاهي بعض ما يبذله فيها من جهد. وما كاد يستقرّ المجلس بكهال حتّى دخل الحجرة رجل في مثل سنّه، يرتدي بذلة من التيل الرماديّ، طويل القامة، وإن كان دون كهال طولاً، نحيفاً، ولكنّه أكثر امتلاء منه، مستطيل الوجه، متوسط الجبين، يمتلئ الشفتين، ذو أنف دقيق وذقن مدبّب أضفى على سمته طابعاً خاصاً. تقدّم خفياً باسم الثغر فمدّ يده إلى الأستاذ عبد العزيز فصافحه هذا ثمّ قدّمه إلى كهال قائلاً:

- الأستاذ رياض قلّدت مترجم بوزارة المعارف، انضمّ حديثاً إلى جماعة كتّاب «الفكر»، وقد أمدّ مجلّتنا العلميّة بدم جديد بتلخيصه الشهريّ للمسرحيّات العالميّة وكتابة القصّة القصيرة.

ثمّ قدّم كهال قائلاً:

- الأستاذ كهال أحمد عبد الجواد، لعلّك من قراء

مقالاته!

فتصافح الرجلان ورياض يقول بإعجاب:

- إنّي أقرأ مقالاته منذ سنوات، مقالات قيمة بكلّ معنى الكلمة...

فشكر كهال متلقياً ثناءه بحذر، ثمّ جلسا على كرسيّين متقابلين أمام مكتب الأستاذ عبد العزيز الذي مضى يقول:

- لا تنتظري أستاذ رياض أن يرّد عليك بالمثل قائلاً إنّهُ قرأ قصصك القيّمة، إنّهُ لا يقرأ قصصاً البتّة... فضحك رياض ضحكة جذابة كشفت عن أسنان

فقال أمينة غاضبة:

- هذا عبث لا يليق... ألا يدري من يكون هو ومن تكون هي؟ كان ينبغي أن يفهمه جدّك حقيقة مركزه.

- إنّ فؤاد بريّ، لعلّ والده أسرع دون تدبّر بحسن نيّة...

- ولكن حدّث ابنه دون شكّ فهل رفض الآخر؟ ذلك الذي جعلناه موظّفاً محترماً بنقودنا!...

- لا داعي للكلام في هذا الموضوع...

- إنّ هذا يا بنيّ أمر لا يتصوّره العقل، ألا يدري أنّ مصاهرته لا تشرفنا!...

- إذن لا تأسفي عليها...

- لست أسفة ولكيّ غاضبة للإهانة...

- لا إهانة هنالك، ليس إلّا سوء تفاهم...

وعاد إلى حجرته حزناً خجلاً، وجعل يحدث نفسه: نعيمة وردة جميلة، بيد أنّي رجل لم يبق لي من الفضائل إلّا حبّ الحقيقة فينبغي أن أسأل نفسي أهى حقاً كفء لوكيل نيابة؟. يستطيع رغم وضاعة أصله أن يشرك في حياته من هي أجلّ ثقافة وأعزّ محتداً وأكثر مالأً وجمالاً أيضاً، لقد تسرّع أبوه الطيّب وليس هذا خطاه، ولكنّه كان وقحاً في حديثه معي، وهو وقح بلا شكّ، إنّهُ رجل ذكيّ نزيه كفء وقح مغرور، وما هذا بذنبه ولكنّ اللذب ذنب هذه الفوارق التي تخلق فينا شتى الأمراض.

كانت مجلّة «الفكر» تشغل الدور الأرضيّ بالعمارة رقم ٢١ بشارع عبد العزيز، وكان حجرة صاحبها الأستاذ عبد العزيز الأسيوطي تطلّ بنافذة ذات قضبان على عطفة بركات المظلمة فكانت تضاء ليل نهار، والحقّ أنّه كلّما أقبل كهال على إدارة المجلّة ذكره موضعها الأرضيّ وراثته أثارها بمكانة «الفكر» في بلده، وبمكانته هو في مجتمعه. واستقبله الأستاذ عبد العزيز بابتسامة ترحيب وودّ، ولا عجب فقد اتّصلت بينهما أسباب المعرفة منذ عام ١٩٣٠ أي منذ بدأ كهال يبعث

نضيدة لامعة فلجاء الثنيتين ثم قال :

- ألا تحبّ الأدب إذن؟ ما من فيلسوف إلّا وله فلسفة خاصة عن الجمال، وهي لا تتأقّق له إلّا بعد اطلاع واسع على شتى الفنون ومنها الأدب طبعاً. . .

فقال كمال في شيء من الارتباك :

- لست أكره الأدب، طالما ارتحت في جنّات شعره ونثره، ولكنّ أوقات الراحة قليلة!

- معنى ذلك أنّك قرأت ما استطعت من القصص إذ إنّ الأدب الحديث يكاد يقتصر على القصّة والتمثيلية. . .

فعاد كمال يقول :

- قرأت عدداً وفيراً منها على مدى العمر، بيد أنّي. . .

وهنا قاطعه عبد العزيز الأسيوطي قائلاً وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

- عليك يا أستاذ رياض من الآن فصاعداً أن تقنعه بأفكارك الجديدة، وحسبك أن تعلم الآن أنّه فيلسوف، وأنّ ولعه مركّز في الفكر.

ثمّ التفت إلى كمال متسائلاً :

- جئت بمقال الشهر؟

فأخرج كمال ظرفاً متوسطاً ووضعه في سكّون أمام الأستاذ الذي تناوله بدوره فاستخرج منه أوراق المقالة ثمّ تصفّح العنوان وهو يقول :

- عن برجسون؟ . . . حسن!

فقال كمال :

- فكرة تقديم عامّة تبين الدور الذي لعبته فلسفته في تاريخ الفكر الحديث، وربما ألحقتها بمقالات آخر تفصيلية. . .

وكان رياض قلّس يتابع الحديث باهتمام فتساءل وهو يحدّج كمال بنظرة لطيفة :

- تتبعت مقالاتك منذ سنوات، منذ بدأت تكتب عن فلاسفة الإغريق، وهي مقالات متنوعة وأحياناً تكون متناقضة بالقياس إلى ما تعرض من فلسفات، فادركت أنّك مؤرّخ، بيد أنّي حاولت عبثاً أن أهتدي إلى موقفك أنت ممّا تكتب، وأيّ فلسفة تنتمي إليها. . .؟

فقال عبد العزيز الأسيوطي :

- نحن حديثو عهد بالدراسات الفلسفية فيجب أن نبدأ بالعرض العام، ولعلّ الأستاذ كمال يتمخّض فيما بعد عن فلسفة جديدة، ولعلّك تكون يا أستاذ رياض من دعاة الكماليزم!

فضحكوا جميعاً، وخلع كمال نظّارته وراح يجلو ناظرهما، وكان سرعان ما يندمج في الحديث خاصّة إذا أنس إلى محدّثه، وبدأ الجوّ صائفاً عذّباً، وقال كمال :

- إني سائح في متحف لا أملك فيه شيئاً، مؤرّخ فحسب، لا أدري أين أقف. . .

فقال رياض قلّس في اهتمام يتزايد :

- أي في مفترق الطريق، وقفت في ميدانك عهداً قبل أن أعرف وجهتي، ولكنّي أرجّح أنه موقف ذو قصّة، لأنّه عادة يكون نهاية مرحلة وبدء مرحلة جديدة، ألم تعرف ألواناً من الإيمان قبل موقفك هذا؟ نغمة هذا الحديث تعيد إليه ذكرى أغنية قديمة عالقة جذورها بالقلب، هذا الشاب وهذا الحديث، خلت سنين ناضبة من الصداقة الروحية حتّى اعتاد أن يحدّث نفسه كلّما افتقد من محدّثه، ومنذ عهد بعيد لم يستطع أن يبعث هذا النشاط الروحيّ في صدره، لا إسماعيل لطيف ولا فؤاد الحمزاوي ولا عشرات المدرّسين، هل آن للمكان الذي خلا بذهاب حسين شدّاد أن يُشغل؟! وأعاد وضع النظّارة على عينيه وابتسم قائلاً :

- لذلك قصّة طبعاً، وكالعادة كان لي إيماني الدينيّ، ثمّ إيماني بالحقيقة. . .

- أذكر أنّك عرضت الفلسفة المادّية بحماس يدعو للرية. . .

- كان حماساً صادقاً ثمّ لم ألبث أن حرّكت رأسي مرتاباً. . .

- لعلّها الفلسفة العقلية؟

- ثمّ لم ألبث أن حرّكت رأسي مرتاباً، الفلسفات قصور جميلة ولكنّها لا تصلح للسكّي. . .

فقال عبد العزيز باسمًا :

- وشهد شاهد من أهلها!

فهو كمال كتفيه استهانة، أما رياض فواصل تحقيقه قائلاً:

- هنالك العلم فلعله نجا من شكك؟

- إنه دنيا مغلفة حيالنا لا نعرف إلا بعض نتائجها القريبة، ثم اطلعت على آراء نخبة من العلماء يرتابون في مطابقة الحقيقة العلمية للحقيقة الواقعية، وآخرين ينوّهون بقانون الاحتمال، وغيرهم ممن تراجعوا عن ادعاء الحقيقة المطلقة، فلم ألبث أن حرّكت رأسي مرتاباً!

فابتسم رياض قلّس دون أن ينبس فعاد الآخر يقول:

- حتى مغامرات الروحية الحديثة وتحضير الأرواح غرقت فيها حتى أذني، ودار رأسي، وما زال يدور في فضاء مخيف، ما الحقيقة؟ ما القيم؟ ما أي شيء؟، إني أحياناً أشعر بتأنيب ضمير لفعل الخير كالذي أشعر به عند الوقوع في الشر!...

فضحك عبد العزيز ضحكة عالية، وقال:

- لقد انتقم الدين منك، هجرته جرياً وراء الحقائق العليا فعدت صفر اليمين!

وقال رياض قلّس، وكان يبدو في قوله مجاملاً لا أكثر:

- موقف الشك هذا لذيذ! مشاهدة وتأمل وحرية مطلقة، وأخذ من كلّ شيء أخذ السائح!

فقال عبد العزيز مخاطباً كمال:

- أنت أعزب في فكرك، كما أنت أعزب في حياتك! وانتبه كمال إلى هذه الملاحظة العابرة باهتمام، ترى أعزوبته نتيجة لفكره أم العكس هو الصحيح؟ أم إن الاثنين نتيجة لشيء ثالث؟ وقال رياض قلّس:

- العزوبة حال مؤقتة، وربما كان الشك كذلك!

فقال عبد العزيز:

- ولكنّه فيما يبدو لن يميل إلى الزواج أبداً...

فقال رياض متعجباً:

- ما الذي يحول بين الشك والحب؟ وما الذي يمنع حباً من الزواج؟، أما الإصرار على العزوبة فليس من الشك في شيء، الشك لا يعرف الإصرار! فتساءل كمال، وهو غير جاذٍ في باطنه:

- ألا يحتاج الحب إلى شيء من الإيمان؟

فقال رياض قلّس ضاحكاً:

- كلاً، إنّ الحب كالزلازل الذي يربح الجامع والكنيسة والمآخور على السواء...

زلازل؟ ما أصدقه من تشبيه، زلازل يهدم كلّ شيء يفرقه في صمت الموت.

- وأنت يا أستاذ قلّس، لقد أطريت الشك، فهل أنت من أهله؟

فقال عبد العزيز ضاحكاً:

- إنه ذلك نفسه!

وضجوا بالضحك، ثم قال رياض وكأنما كان يقدم نفسه:

- لبث فيه فترة ثم مرقت منه، لم أعد أشك في الدين لأنّي كفرت به، ولكنّي أومن بالعلم والفنّ، إلى الأبد إن شاء الله!

عبد العزيز متسائلاً في تهكم:

- إن شاء الله الذي لا تؤمن به؟

فقال رياض قلّس باسماً:

- الدين ملك الناس، أما الله فلا علّم لنا به، منذ الذي يستطيع أن يقول لا أومن بالله، أو يقول أومن بالله؟. الأنبياء هم المؤمنون الحقيقيون، وذلك أتهم رأوه أو سمعوه أو خاطبوا رسل وحيه!

فقال كمال:

- ولكنك تؤمن بالعلم والفنّ؟

- نعم...

- الإيمان بالعلم له وجاهته، ولكن الفنّ...؟ أنا أفضل أن أومن بالأرواح على أن أومن بالقصة مثلاً!

فحدجه رياض بنظرة عاتية، وقال بهدوء:

- العلم لغة العقول، والفنّ لغة الشخصية الإنسانية جميعاً!

- ما أشبه هذا الكلام بالشعر!

فتقبّل رياض تهكم كمال بابتسامة متساحمة، وقال:

- العلم يجمع البشر في نور أفكاره، والفنّ يجمعهم في عاطفة سامية إنسانية، وكلاهما يطرّو البشرية ويدفعها إلى مستقبل أفضل...

يا للغرور! يكتب قصّة من صفحتين كلّ شهر،

افترق الصديقان الجديدان عند العتبة، فعاد كمال من الموسيقى والساعة تدور في الثامنة مساءً، يتنفس جواً خائفاً شديد الحرارة، وتمهل عند عطفة الجوهرى ثم مال إليها، ومرق من ثالث باب على يسار الداخل، ورقى في الدرج حتى الدور الثاني، ثم دق الجرس، ففتحت الشراعة عن وجه امرأة قد جاوزت الستين، حيته بابتسامة كشفت عن أسنان ذهبية، وفتحت الباب فدخل صامتاً، أما المرأة فقالت ترتب به:

- أهلاً بابن الحبيب، أهلاً بابن أخي...

وتبعها إلى صالة تتوسط حجرات، فيها كنيستان متقابلتان بينهما سجادة قصيرة مزركشة وخوان ونارجيلة، وشذا بخور في الأركان، كانت المرأة بدينة، هشة من كبر، عاصبة الرأس بمنديل منمنم يترتر، مكحولة العينين تلوح فيهما نظرة ثقيلة تشي بوطاة الكيف، وفي تضاعيف وجهها آثار جمال دابر واستهتار مقيم، تربعت على الكنبه أمام النارجيلة، وأومات إليه ليجلس إلى جانبها، فجلس وهو يسأل باسماً:

- كيف حال الست جلييلة؟

فهتفت محتجة:

- قل عمّي...

- كيف حالك يا عمّي؟

- الحال معدن يا بن عبد الجواد... (ثم بصوت مرتفع أجش)... بنت يا نظلة...

وبعد دقائق جاءت الخادم بكأسين مترعتين ووضعتهما على الخوان، فقالت جلييلة:

- اشرب، طامسا قلتما لأبيك في الأيام الحلوة الماضية...

فتناول كمال الكأس، وهو يقول ضاحكاً:

- من المؤسف حقاً أنّ جئت بعد فوات الأوان!

وهي تلكمه لكمة وسوست لها الأساور الذهبية التي تغطي ساعديها:

- يا عيب الشم، أكنت تريد أن تعيث فساداً حيث سجد أبوك؟!

ويظن أنه يطور البشرية، وأنا لست دونه ساجدة، فلأني ألخص فصلاً من كتاب تاريخ الفلسفة لفدنج، أطالب في أعماقي بالمساواة على الأقل بفؤاد جميل الحمزاوي وكيل نيابة الدرب الأحمر، ولكن كيف تطاق الحياة دون ذلك؟ مجانين نحن أم عقلاء أو مجرد أحياء؟ أف من كل شيء!

- وما قولك في العلماء الذين لا يشاركونك في حماسك للعلم؟

- لا ينبغي أن نفسر تواضع العلم بالعجز أو اليأس، العلم سحر البشرية ونورها ومرشدها ومعجزاتها، وهو دين المستقبل... والقصة؟

بدا رياض لأول مرة وهو يداري استياءه، فاستدرك الآخر كالمعتذر:

- أعني الفن عموماً؟

فقال رياض قلّس متسائلاً في حاسة:

- أتستطيع أن تعيش في وحدة مطلقة؟ لا بد من النجوى، من العزاء، من المسرة، من الهداية، من النور، من الرحلة في أنحاء المعمورة والنفس هذا هو الفن...

وهنا قال الأستاذ عبد العزيز:

- خطر لي خاطر... أن نجتمع نحن وبعض الزملاء مرة كل شهر للحديث في شتى الفكر، على أن ينشر حديثنا بعنوان «محاورة شهر كذا»...

فقال رياض قلّس وهو يرمق كمال بنظرة ودّية:

- إن حديثنا لن ينقطع، أو هذا ما أودّه، أنعد أنفسنا أصدقاء؟

فقال كمال بحماسة صادقة:

- بكل تأكيد، يجب أن نتقابل في كل فرصة...

شمل كمال إحساس بالسعادة لهذه «الصدادة الجديدة»، كان يشعر بأن جانباً سامياً من قلبه استيقظ بعد سبات عميق، فاقتنع أكثر من قبل بخطورة الدور الذي تلعبه الصدادة في حياته، وبأنها عنصر حيوي لا غنى له عنه، أو يظل كالظلمة المحترق في صحراء...

«كلّما لجّت بي الحيرة، إنّ الحيرة تدفعني إليك قبل الشهوة».

- كلّما ماذا يا سيّد نينة؟

- كلّما فرغت من العمل...

- قل غير هذا الكلام. أت من زمانكم أفت، كانت فلوسنا من الذهب وفلوسكم من الحديد والنحاس، وطربنا كان من لحم ودم وطربكم راديو، وكان رجالنا من صلب آدم ورجالكم من صلب حواء، عندك كلام يا خوجة البنات؟

وأخذت من النارجيلة نفساً ثم غثت:

يا خوجة البنات علّمهم ضرب الآلات ونغمهم فضحك كمال، ومال نحوها فقبّل خذها قبلة جمعت بين المودة والمداعة، فهتفت:

- شاربك كالشوك، كان الله في عون عطية!

- إنّها تحبّ الأشواك...

- بهذه المناسبة كان عندي بالأمس ضابط النقطة على سنّ ورمح، ولا فخر، كافّة زبائني من سادة القوم، أم نظنّ أنّك تتصدّق عليّ بزيارتك؟!  
- يا ستّ جلييلة، إنّك جلييلة...

- أحبك إذا سكرت، فإنّ السكر يُذهب عنك وقار الخوجة ويردّك إلى شيء من أيبك، لكن خبّرني ألا تحبّ عطية؟... إنّها تحبك!

هذه القلوب التي حجّرتها فظافة الحياة كيف تحبّ؟ ولكن ماذا كان نصيبه من القلوب التي تجود بالحبّ وتستطيعه؟ فإمّا أن تحبه بنت صاحب المقلي فيعرض عن حبّها، وإمّا أن يحبّ عايذة فتعرض عن حبّه، فقاموس حياته لم يعرف للحبّ من معنى سوى الألم، ذلك الألم العجيب الذي يحرق النفس حتّى تبصر على ضوء نيرانه المتقدّة عجائب من أسرار الحياة، ثمّ لا تخلف وراءها إلّا حطاماً، قال يعلّق على قولها متهمكماً:  
- أحبتك العافية...

- لم تعمل في المقدّر إلّا منذ طلاقها!

- الحمد لله الذي لا يحمد على مكروهه سواء...

- الحمد لله في جميع الأحوال.

وابتسم ابتسامة ذات معنى، فأدركت معناها وقالت كالاحتجّة:

ثمّ مستدركة:

- ولكن أين أنت من أيبك؟ كان متزوّجاً للمرّة الثانية حين عرفته، تزوّج مبكّراً على عادة أهل زمان، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يرافقني زمناً كان أحلى الحياة، ثمّ رافق زبيدة ربّنا يأخذ بيدها، ثمّ عشرات غيرنا ساعه الله، أمّا أنت فلا تزال أعزب، ولا تزور بيتي مع ذلك إلّا كلّ ليلة جمعة، يا عيب الشوم، أين الرجولة أين؟!

أبوه الذي عرفه عن لسانها غير أبيه الذي عرفه بنفسه، بل غير أبيه الذي حدّثه عنه ياسين، رجل الغريزة، والحياة العارمة، لم تشغل هموم الفكر قلبه فأين هو منه؟ حتّى ليلة الجمعة التي يزور فيها هذا البيت لا يصفو له «الحب» فيها إلّا بالخمر، فلولا السكر لبدا له الجوّ متجهّماً باعثاً على الانزمام، وأوّل ليلة رمت به المقادير إلى هذا البيت ليلة لا تُنسى، رأى المرأة لأوّل مرّة فدعته إلى مجالستها ريثما تفرّغ له فتاة، ولما جرّه الحديث إلى ذكر اسمه بالكامل هتفت المرأة: أنت ابن السيّد أحمد عبد الجواد التاجر بالنحاسين؟ نعم أتعرفين أبي؟. يا ألف أهلاً وسهلاً... أتعرفين أبي... أعرفه أكثر ممّا تعرفه أنت... مازج عرقه عرقي... وزفت له أختك... كنت في أيّامي كأمّ كلثوم في أيّامك الكالحة... سل عتيّ طوب الأرض، تشرفنا يا ستيّ، اختر من بناتي من تعجبك وليس بين الخيّرين حساب، هكذا فسق أوّل مرّة في هذا البيت على حساب والده. ولولا الأدب لأعلنت دهشتها، إذ حتّى انقبض قلبه، ولولا الأدب لأعلنت دهشتها، إذ أين هذا الرأس الغريب وذلك الأنف العجيب من الوجه البدريّ المورّد؟ ثمّ طال الحديث كلّ مطال، فعرف عنها تاريخ أبيه السريّ، ميزاته وجلائل أعماله ومغامراته وخفيّ صفاته، «وأنا من شدّة الحيرة متردّد أبداً بين وهج الغريزة ونسمة التصوّف».

فقال كمال يحييها:

- لا تبالغي يا عتيّ، أنا مدرّس والمدرّس يحبّ الستر، ولا تنسي أنّي في العطلة أزورك كلّ أسبوع مرّات لا مرّة، ألم أكن عندك أوّل أمس؟ إني أزورك كلّما...

والنحافة ما ارتضى أن يبتاعها بريال، فكيف كان هذا الحب؟ وكيف ظلت ذكره مصونة بالإجلال والتقديس رغم ازدرائه لكل شيء؟

- الدنيا حرّ، أف... .

- إذا لطستنا الخمر استوى لدينا الحرّ والبرد... .

- لا تأكلني بعينيك، وارفع نظارتك!

مطلقة ذات بَين، تغطّي كآبتها المعتمة بالعريضة، وتمتصّ الليالي النهمة أنوثتها وإنسانيتها دون مبالاة، يختلط في أنفاسها الوجد الكاذب بالمت، وهي للاستعباد شرّ صورة، لذلك كانت الخمر نجاة من العذاب كما هي نجاة من الفكر!

وارتمت إلى جانبه ومدّت يدها البضة إلى الزجاجية وأخذت تملأ الكأسين، هذه الزجاجية تباع في هذا البيت بضعف ثمنها، كل شيء هنا غال إلا المرأة، إلا الإنسان، ولولا الخمر ما أمكن ذلك المجلس، كي يغيب عن عين البشرية المحملقة في اشمزاز، غير أن حياتنا لا تخلو من مومسات من نوع آخر، منهم وزراء وكتاب!

ويحلول الكأس الثانية في جوفه لاحت بشائر النسيان والمسرّة. «هذه المرأة أشتيهها منذ زمن وحتى متى لا أدري، الشهوة سلطان مستبدّ أما الحب فشيء آخر، وكم يبدو في لباس عجيب إذا برئ من الشهوة، وإذا أتيج لي يوماً أن أجدها في كائن بشريّ عرفت الاستقرار المنشود، ولذلك فلن تزال الحياة تبدو لي عناصر يعوزها الانسجام، أنا أنشد «الزواج» في الحياتين العامّة والخاصّة، لا أدري أيّهما أصل الأخرى، ولكنّي متأكّد أنّي تعس رغم سلوكي في الحياة الذي ضيّع لي حظّي من مسرّات الفكر ولذّات الجسد، كالقطار الذي ينطلق في قوّة ولكنّه لا يدري من أين ولا إلى أين. والشهوة حسناء طاغية سرعان ما يصرعها القرف، ويهتف القلب ناشداً في يأس اليم السعادة السرمديّة، عبثاً، لذلك فالشكوى لا تنقطع، والحياة خدعة كبرى، وينبغي أن نتجاوب مع حكمتها الخفيّة كي نتقبّل هذه الخدع راضين، فنكون كالممثل الذي يُعيي دوره الكاذب على المسرح، ولكنّه رغم ذلك يعبد فنّه.

- أتستكثر عليّ أن أنوّه بحمد الله؟ آه منك يا بن عبد الجواد، اسمع لا ابن لي ولا بنت، وقد شبعت من الدنيا، وعند الله العفو.

من عجب أن حديث المرأة تتردّد فيه كثيراً هذه النغمة الموحية بالزهدي. وجعل يختلس إليها النظر وهو يتجرّع بقية كأسه. وكانت الخمر تأخذ في نفث سحرها معه من أول كأس. ووجد نفسه يتذكّر عهداً مضى أيام كان للكأس فرحة سبّوّة، ما أكثر الأفراح التي ولّت، في البدء كانت الشهوة ثورة وانتصاراً، ثم انقلبت مع الزمن فلسفة حمراء، ثم أخذ نشواتها الزمن والعادة، ولم تخل في أحيان كثيرة من عذاب التردّد بين السماء والأرض، ذلك قبل أن يسري الشكّ بين الأرض والسماء.

ودقّ الجرس. ودخلت عطية، ببضاء لدنة ممثلة، لحذاها أطيّط ولضحكتها رنين، فقبّلت يد المعلمة، ثم ألقت نظرة باسمّة على الكأسين الفارغتين وهي تقول مداعبة كمال:

- ختني!

ومالت على أذن المعلمة فهمست قليلاً، ثم رمقت كمال بنظرة ضاحكة، وسارت إلى الحجرة إلى يمين مجلس المعلمة، فلكرته جليّة قائلة:

- قم يا نور العين... .

تناول طربوشه ومضى إلى الحجرة، ولم تلبث نظلة أن لحقت به حاملة صينيّة عليها زجاجة وكأسان ومِرّة خفيفة، فقالت لها عطية:

- هاتي لنا رطلين من العجّاتي، أنا جوعانة!

خلع الجاكّة ومدّ ساقيه في ارتياح، ثم جلس يراقبها وهي تخلع حذاءها وفستانها، ثم وهي تسوّي قميصها أمام المرأة وتسرح شعرها. الجسم الذي يحبه، الأبيض اللدن الممتلئ، ترى كيف كان جسم عابدة؟ كثيراً ما تبدو لذاكرته وكأنّها لم يكن لها جسم، وحتى ما يذكره من نحافتها وسمرتها ورشاقتها فإنّها تستقرّ في روحه كالمعاني المجردة، أمّا ما يلتصق عادة بالذاكرة من محاسن الأجساد كالصدور والسيقان والأرداف فلا يذكر ألبة أنّ حواسّه اتّجهت إلى شيء منها، واليوم لو عرضت له حسناء كلّ ميزات الرشاقة والسمرّة



- مساء الخير...  
فجاء الصوت الرقيق يقول:  
- مساء الخير، أشكرك لأنك سمعت نصيحتي  
ولبست معطفك...  
فغلبه التأثر لرقتها، ذابت في حلقه كلمة أوشك أن  
يجهها بها، ثم قال مدارياً ارتبكه:  
- خشيت أن تمطر السماء...  
فرفعت رأسها إلى أعلى كأنها تنظر إلى السماء،  
وقالت:  
- ستمطر عاجلاً أو آجلاً، ليس في السماء نجم،  
وقد ميّزتك بصعوبة عندما دخلت الحارة.  
فاستجمع قواه المتلاطمة، وقال فيها يشبه التحذير:  
- الجوّ بارد، وجوّ السّلم خاصّة شديد الرطوبة!  
فقالت الصغيرة بصراحة تعلّمتها على يديه:  
- لا أشعر بالبرد في قربك!...  
فلفحت وجهه حرارة منبعثة من الداخل، ونمّ حاله  
على أنّه سيعاود الخطأ على رغمه، وجعل يستعدي  
إرادته ليتغلّب على الرجفة السارية في بدنه، فسألته:  
- ما لك لا تتكلّم؟  
وأحسّ بيدها على منكبه تضغطه برقة، فما عمّالك أن  
طوّقها بذراعه، وقبّلها قبلة طويلة، ثمّ أمطرها قبلات  
حتى سمع صوتها الرقيق يقول لاهثاً:  
- لا أطيق البعد عنك...  
فواصل عنقه متداوياً في حضنها، وهي تهمس في  
أذنه:  
- أتمنى لو أبقى هكذا إلى الأبد...  
فشدّ عليها الوثاق قائلاً بصوت متهذّب:  
- يا للأسف!  
فتباعد رأسها في الظلام قليلاً، وهي تتساءل:  
- علام تأسف يا حبيبي؟  
فقال بعد تردّد:  
- على الخطأ الذي نتردى فيه...  
- أيّ خطأ بالله؟  
تخلّص منها برقة، وراح يخلع معطفه، فطواه، ثمّ  
همّ بأن يضعه على الدرابزين، ولكنّه عدل عن فكرته  
في اللحظة الأخيرة - لحظة هائلة - فثناه على ذراعه ثمّ

ونجّرع كأسه الثالثة دفعة واحدة حتى أغرقت عطية  
في الضحك، وهي تحبّ السكر من صميم قلبها ولكنّه  
يفعل بها الأفاعيل، فإذا لم يوقفها عند حدّها علا  
صوتها فتشّجت ثمّ بكت وتقايات. ولعبت الخمر  
برأسه فهاهتزّ طرباً، ومدّ إليها بصره فانيسطت  
أساريه. هي الآن امرأة فحسب لا مشكلة، وكأنّه لم  
تعد ثمة مشكلة في الوجود، الوجود نفسه - أثقل  
مشكلة في الحياة - لم يعد مشكلة، ولكن اشرب واغرق  
في القتل...  
- ما أطفك إذا ضحكك بلا سبب!  
- إذا ضحكك بلا سبب فاعلمي أنّ الأسباب أجلّ  
من أن تُذكر...

## ١٧

عاد عبد المنعم إلى السكرية ملتقاً في معطفه، يحبك  
من آن لآخر طاقته ليتقي بها برد الشتاء القارص،  
وكان الظلام شاملاً رغم أنّ الساعة لم تجاوز السادسة  
مساء، وما كاد يبلغ مدخل السّلم حتى فتح باب الدور  
الأوّل وتسلك الشّيح اللطيف الذي كان ينتظر. وخفق  
قلبه وجعل يحمّل في الظلام بعينين متقدّتين، وتابع  
شبهها وهو يرقى في السّلم في خفة وحذر أن يحدث  
صوتاً، فوجد نفسه موزعاً بين رغبة تغريه بالاستسلام  
 وإرادة تحمّسه على السيطرة على أعصابه التي تلوح  
بالخيانة والانقياد. وذكر - الآن فقط - أنّها واعدته  
الليلة من قبل، وقد كان بوسعه أن يقدّم موعد عودته  
أو يؤخّره فيتجنّب هذا اللقاء، ولكنّه نسي ذلك كلّه،  
لشدّ ما ينسى! ولم يكن ثمة وقت للتدبّر والتذكّر،  
فليترك هذا إلى حينه، عندما يخلو إلى نفسه في  
حجرته، إلى تلك اللحظة التي ستشهده. 'منتصراً'  
ظافراً أو منهزماً مغلوباً على أمره، وارتقى السّلم في  
أعقابها دون أن يعزم على أمر، ملقياً بنفسه في خضمّ  
الامتحان، ولم يكن شيء لبنيته آلام صراعه الأبديّ.  
وفوق البسطة خيّل إليه أنّ شبهها يضخم حتى ملأ  
عليه المكان والزمان. وقال وهو يخفي قلقه ويضمّر  
الصمود مهما كلفه الأمر:

درسًا لك، احذري الظلام قد تكون فيه هائيتك، أنت صغيرة، فمن أين لك هذه الجراءة؟

تردد في الظلام انتحايها، ولكنه لم يرق قلبه، كان منتشياً بلذّة نصر قاسية:

- عي كل كلمة، ولا تغضبي، واذكري أنني لو كنت نذلًا ما ارتضيت أن أتركك قبل أن أقضي عليك، أستودعك الله...

ورقي في السلم وثيًا، انتهى من العذاب، ولن يكون طعمة لأنياب الندم، ولكن ليذكر قول أستاذه الشيخ عليّ المنوفي: إنّ مغالبة الشيطان لن تكون بتجاهل سنن الطبيعة. أجل ليذكر هذا. وخلع ملابسه على عجل وارتدى الجلباب، ثم قال لأخيه أحمد وهو يغادر الحجرة:

- أريد أن أدخل قليلاً إلى والدي في حجرة المكتب، فانتظر قليلاً من فضلك...

وفي طريقه إلى الحجرة رجا والده أن يتبعه، فرفعت خديجة رأسها إليه متسائلة:

- خير؟...

- سأحدث أبي أولاً، ثم يأتي دورك...

وتبعه إبراهيم شوكت صامتاً، كان الرجل قد ركب طاقم أسنانه الجديد، وعادته طمأنينته الحاملة بعد أن واجه الحياة بلا أسنان ستة أشهر كاملة. وجلسا جنباً إلى جنب والأب يقول:

- خير إن شاء الله!

فقال عبد المنعم دون تردد أو تمهيد:

- أريد يا أبي أن أتزوج!

فحمل الرجل في وجهه، ثم قطب باسماً كأنه لم يفهم شيئاً، وهز رأسه في حيرة ثم قال:

- الزواج؟ كل شيء رهن بوقته، لماذا تحدّثني عن ذلك الآن؟

- أريد أن أتزوج الآن...

- الآن؟، ما زلت في الثامنة عشرة من عمرك، ألا تنتظر حتى تأخذ شهادتك؟

- لا أستطيع...

وهنا فُتح الباب ودخلت خديجة، وهي تتساءل:

- ماذا يدور وراء ذلك الباب؟ هل توجد أسرار

تراجع إلى وراء خطوة. كانت أنفاسه تضطرب ولكن عزيمة اعترضت تيار استسلامه فقلبت كل شيء. وعادت يدها تتلمس السبيل إلى عنقه فأمسك بها، وانتظر حتى هدأت أنفاسه، ثم قال بهدوء:

- هذا خطأ كبير...

- أيّ خطأ؟. لست أفهم شيئاً...

صغيرة لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، أنت تعبت بها إشباعاً لرغبة لا ترحم، ولن يكون لهذا اللعب من غاية، ليس إلّا عبثاً تجلب به غضب الله ومقته.

- يجب أن تفهمي، أنستطيع أن نعلن ما نفعل؟

- نعلنه؟

- انظري كيف تستنكرين! ولكن لماذا لا نعلنه إن لم يكن عيباً مزرئياً؟

وشعر بيدها تنصيده، فارتقت إلى أولى درجات السلم التالية، وكان مطمئناً إلى أنه جاز منطقة الخطر بسلام:

- اعترفي بأننا غطشان، فلا ينبغي أن نصرّ على الخطأ...

- عجيب أن أسمع منك هذا الكلام...

- لا عجب، إنّ ضميري لم يعد يحتمل الخطيئة، إنّها تعذبني وتفسد عليّ صلاتي.

«صامتة!». أذيتها فليسأخني الله، يا للآلم، ولكنّي لن أتراجع، أحمد الله على أنّ الخطأ لم يدفعك إلى ما هو شرّ منه...

- يجب أن يكون ما حصل درساً لنا فلا نعود إلى مثله، أنت صغيرة، وقد أخطأت، فلا تجري مرة أخرى وراء الخطأ.

وقالت في نبرات باكية:

- لم أخطئ... أتتوي هجري؟. ماذا تقصد؟

وكان قد تمالك قوّته فقال:

- عودي إلى بيتك، لا تفعلي شيئاً ترين وجوب التسرّ عليه، لا تقابلي أحداً في الظلام...

فقال الصوت متهدجاً:

- أتهجرني؟. أنسيت كلامك عن حبّنا؟

- كلام من لا عقل له، أنت مخطئة، ليكن هذا

- أبداً، صدّقي، اختاري لي بنفسك...  
 - وما الداعي إلى السرعة إذن؟ دعني أختار لك،  
 أعطني مهلة، إنها مسألة عام أو عامين!  
 فعلاً صوته وهو يقول:  
 - أنا لا أهزل، دعيني فهو يفهمني خيراً منك!  
 فسأله أبوه بهدوء:  
 - ما وجه السرعة؟  
 فقال عبد المنعم وهو يغضّ بصره:  
 - لا أستطيع البقاء دون زواج.  
 فتساءلت خديجة:  
 - وآلاف الشبان أمثالك كيف يستطيعون؟  
 فقال الشاب غاطباً أباه:  
 - لا أقبل أن أفعل ما يفعله الآخرون!  
 فتفكّر إبراهيم قليلاً، ثم قال حسناً للموقف:  
 - يكفي هذا الآن، وسنعود إلى الموضوع في فرصة  
 أخرى...

وهمت خديجة بالكلام ولكن زوجها منعها، وأخذها  
 من يدها فغادرا الحجرة إلى مجلسها في الصالة.  
 وتحادث الزوجان مقلّبين الأمر على جميع وجوهه، وبعد  
 أخذ وردّ طويلين مال إبراهيم إلى تأييد طلب ابنه،  
 وتولّى بنفسه إقناع زوجته، حتى سلّمت بالمبدأ، وعند  
 ذاك قال إبراهيم:  
 - عندنا نعيمة بنت أخي، فلن نتعب في البحث  
 عن عروس...

فقال خديجة باستسلام:  
 - أنا التي أقنعتك بالنزول عن نصيبك من ميراث  
 المرحوم إكراماً لعائشة، فلا اعتراض لي على اختيار  
 نعيمة زوجة لابني، إنّ سعادة عائشة تهمّني جداً كما  
 تعلم، ولكنّي أخاف تفكيرها، وأحسب ألف حساب  
 للشذوذ الذي طرأ عليها، ألم نلمح أمامها مرّات عن  
 رغبتنا في تزويج نعيمة من عبد المنعم؟ ومع ذلك خيل  
 إلّي أنّها كانت ترحّب بابن جميل الحمزاوي عندما قيل  
 إنّ والده طلب له يدها...

- هذا تاريخ قديم، مضى عليه عام أو أكثر،  
 والحمد لله أنّه لم يتم، فما كان يشرفني أن يأخذ بنت  
 أخي شاب مثله معها تكن وظيفته، الأصل عندي كلّ

تحلّ لأبيك وتحرم عليّ؟  
 فقطّب عبد المنعم مترفّزاً، على حين راح إبراهيم  
 يقول وهو لا يكاد يفقه معنى ما يقول:  
 - عبد المنعم يريد أن يتزوّج...  
 فتفحصته خديجة كأنّها تخاف عليه الجنون،  
 وهتفت:  
 - يتزوّج؟ ماذا أسمع؟ هل قرّرت أن تترك  
 الجامعة؟  
 فقال عبد المنعم بصوت قويّ غاضب:  
 - قلت إلّي أريد أن أتزوّج لا أن أهرب من  
 المدرسة، سأواصل الدراسة متزوّجاً، هذا كلّ ما  
 هنالك...

فقال خديجة وهي تردّد عينيها بينه وبين أبيه:  
 - عبد المنعم أنت جاد حقاً؟  
 فصاح:  
 - كلّ الجّد...

فضربت المرأة كفّاً على كفّ وقالت:  
 - أصابتك عين، ماذا حصل لعقلك يا ابني؟  
 فنهض عبد المنعم غاضباً وهو يقول:  
 - ما الذي جاء بك؟ كنت أريد أن أختلي بأبي أولاً  
 ولكنك لا صبر لك، أصغيا إلّي، أريد أن أتزوّج،  
 أمامي عامان حتى أنتهي من دراستي، وأنت يا أبي  
 تستطيع أن تعولني هذين العامين، لولا تأكّدي من  
 هذا، ما عرضت طلبتي...

فجعلت خديجة تقول:  
 - يا لطف الله! أكلوا عقله!  
 - من هم الذين أكلوا عقلي؟  
 - الله بهم أعلم... منهم الله، أنت أدري بهم،  
 وسنعرفهم عمّا قليل...  
 فخاطب الشاب أباه قائلاً:

- لا تصغ إلّيا، إلّي لا أدري حتى الساعة من التي  
 ستكون من نصيبي، اختاروها بأنفسكم، أريد زوجة  
 لائقة، أيّ زوجة!  
 فسألته داهشة:

- أتعني أنّه لا توجد واحدة بالذات هي السبب في  
 هذه البلوى؟

شيء، نعيمة عندنا على العين والرأس...  
فقال خديجة وهي تتنهد:

- على العين والرأس، ترى ماذا يقول أبي عن هذا  
اللعب إذا علم به؟  
فقال إبراهيم:

- سيرحب به دون شك، كل شيء يبدو كالعلم،  
ولكن لن أندم، فإنني موقن بأن تجاهل رغبة عبد المنعم  
خطأ لا يُغتفر، ما دام في الإمكان تحقيقها...

## ١٨

لم يطرأ على البيت القديم في بين القصرين أي تغيير  
يذكر، إلا أن الجيران بما فيهم حسنين الحلاق ودرويش  
الغول والفولي اللبان وأبو سريع صاحب المظلي ويومي  
الشرباتي، كل أولئك قد علموا بطريقة أو بأخرى أن  
اليوم تزوج حفيدة السيد أحمد من ابن عمها -  
وخالتها - عبد المنعم. حافظ السيد أحمد على تقاليده  
القديمة فمضى اليوم كثيره من الأيام، فالتصر على  
دعوة الأهل، وغاية الأمر أن أعدت العدة لوليمة  
عشاء. وكان الوقت في مطلع الصيف، وقد اجتمعوا  
جميعاً في حجرة الاستقبال، السيد أحمد عبد الجواد  
وأمنية وخديجة وإبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد  
وباسين وزنوبة ورضوان وكريمة، ما عدا نعيمة التي  
كانت تأخذ زيتنها في الدور الأعلى بمعاونة عائشة.  
ولعل السيد قد شعر بأن وجوده بينهم يلقي على  
الاجتماع العائلي ظلماً من الوقار الذي لا تستسيغه  
المناسبة السعيدة، فانتقل عقب الاستقبال بقليل إلى  
حجرتة، حيث لبث ينتظر حضور المأذون. وكان  
السيد قد صفى تجارته وباع الدكان مؤثراً الراحة  
لشيخوخته، لا لأنه بلغ الخامسة والستين فحسب،  
ولكن لأن استعفاء جميل الحمزاوي اضطره إلى بذل  
نشاط مضاعف لم يعد يحتمله، فقرر إنهاء حياته  
العملية، قانعاً بما تخلف له من تصفية دكانه وما اذخر  
من مال من قبل قدر أن يكفيه بقية العمر. وكان حدثاً  
هاماً في حياة الأسرة، جعل كمال يتساءل عن حقيقة  
الدور الذي كان يلعبه جميل الحمزاوي في حياته عامة

وحياة أبيه خاصة، ولبت السيد في حجرتة منفرداً،  
يتأمل أحداث اليوم في صمت، كأنما لا يصدق حقاً أن  
العريس هو عبد المنعم حفيده. ويوم فاتحه إبراهيم  
شوكت في الأمر عجب، واستنكر، كيف تسمح لابنك  
بأن يخذلك بهذه الصراحة وأن يملإ إرادته عليك،  
إنكم آباء خلقتكم لإفساد الأجيال، ولو في غير الظرف  
الذي يدرك دقته لقال لا، ولكن كانت هناك عائشة،  
فحيال تعاستها تخلى عن عناده التقليدي كله، ولم  
يطلق - خاصة بعد ما ثار حول صمت فؤاد الحمزاوي  
من تعليقات - أن يخيب لها رجاء، وإذا كان زواج  
نعيمة يخفف من لوعة قلبها فأهلاً به وسهلاً. هكذا  
دفعه الحرج إلى أن يقول نعم، وأن يسمح للصبيان أن  
يملوا إرادتهم على الكبار وأن يتزوجوا قبل أن يتجاوزوا  
مرحلة التلمذة.

ودعا عبد المنعم إلى مقابلته، وطلب إليه أن يتعهد  
بإتمام دراسته، فتكلم عبد المنعم كلاماً جميلاً مريحاً  
مستشهداً في أثناء ذلك بالقرآن والحديث، فترك في  
نفس جلده آثاراً متباينة من الإعجاب والسخرية،  
هكذا يتزوج التلميذ اليوم على حين أن كمال لم يفكر  
في الزواج بعد، وعلى حين رفض هو يوماً أن تعلن  
خطبة المرحوم فهمي - مجرد إعلان خطبة - الذي مات  
قبل أن يجني ثمرة شبابه الغض، وهكذا يبدو أن العالم  
قد انقلب على رأسه، وأن دنيا عجيبة أخرى تشب،  
وأننا غرباء بين أهلينا، اليوم يتزوج التلاميذ ولا ندري  
ماذا يصنعون غداً.

وفي حجرة الاستقبال كانت خديجة تقول من ضمن  
حديث طويل:

- لذلك أخلينا الدور الثاني من سگانه، وسيستقبل  
الليلة العروسين وهو على أحسن حال.

فقال لها ياسين بلهجة غادرة:

- عندك كافة المواهب التي تجعل منك «حاة» لا  
نظير لها، ولكنك لن تستطعي استغلال مواهبك الفذة  
مع هذه العروس!

فأدركت ما يرمي إليه، ولكنها تجاهلته قائلة:

- العروس ابنتي وابنة أختي...

وقالت زنوبة تلطف من تعريض ياسين:

منذ تسع سنوات تحلّت بثوب جميل وعقصت شعرها. وكانت ترقب ابتها التي تبدّت كقبضة من نور بعينين حالمتين، فإذا غلبها الدمع أخفت عنها وجهها الشاحب الذابل، وقد لمحتها أمّها مرّة وهي تبكي، فنظرت إليها معاتبة وهي تقول:

- لا يصحّ أن تترك نعيمة البيت وفي قلبها حزن!  
فانتحبت عائشة قائلة:

- ألا ترينها وحيدة في هذا اليوم لا أب ولا أخ؟  
فقال أمينة:

- البركة في أمّها، ربّنا يغلبها لها، وهي ذاهبة إلى خالتها وعمّها، ولها بعد ذلك الله خالق الملك كله...  
فجفقت عائشة عينيها وهي تقول:

- ذكريات الأموات الأعزّاء تغمرني من طلعة الصبح، ووجوههم تلوح لي، ثمّ إنني بعد ذهابها سأبقى وحيدة...  
فقال أمينة في عتاب:

- لست وحيدة...  
وكانت نعيمة تربّت خدّ أمّها وتقول:

- كيف أستطيع أن أغيب عنك يا ماما؟  
فتجيبها عائشة بحنان وهي تبتسم:

- سيعلمك بيت زوجك كيف تستطيعين!  
فقال نعيمة بقلق:

- ستزوريني كلّ يوم، كنت تتحاشين الاقتراب من السكينة، ولكن يجب أن تتخلّي عن هذه العادة منذ اليوم.

- طبعا، هل تشكين في ذلك؟  
وإذا بكما يقبل عليهما قائلاً:

- استعدّا جاء المأذون!...

وعلقت عيناه بنعيمة في إعجاب. يا للجمال، والرقّة، والشفافيّة، كيف يكون للحياة دور في هذا الكائن اللطيف؟

ولما عرف أنّ الكتاب قد كُتب، تبودلت التهاني، وإذا بزغرودة تقتحم على البيت وقاره وتلعلع في جوّ الصامت، فاتجهت الرؤوس في دهش إلى حيث وقفت أمّ حنفي في نهاية الصالة. ولما جاء وقت الوليمة وتوارد المدعوون إلى المائدة، انقبض صدر عائشة وتركز

- خديجة هانم سيّدة كاملة!

فشكرتها خديجة، وكانت تقابل توددها بالشكر والاحترام إكراماً لياسين. على الرغم من احتقارها الباطني لها، وكانت كريمة تتألّق في سنّها العاشرة ممّا جعل ياسين ينوّه بأنوثتها المنتظرة! أمّا عبد المنعم فراح يحادث جدّته أمينة المعجبة بتدنيّه، وكانت تقطع حديثه بالدعاء له. وسأل كمال أحمد مازحاً:

- وأنت تزوّج في العام المقبل؟

فقال أحمد ضاحكاً:

- إلّا إذا أتجت سنّك يا خالي!

وكانت زُوبة تتابع حديثها، فقالت موجّهة الخطاب إلى كمال:

- لو سمح لي سيّ كمال فلنّي أعيد بأن أزوّجه في أيّام!

فقال لها ياسين وهو يشير إلى نفسه:

- إنّي مستعدّ لأن أسمح لك عن نفسي!

فقال وهي تهزّ رأسها تهكّماً:

- لقد تزوّجت بما فيه الكفاية، وأخذت نصيبك ونصيب أخيك...

وانتهت أمينة إلى موضوع الحديث، فقالت لزُوبة:

- إذا زوّجت كمال، فسأحاول أن أزگرد لأوّل مرّة في حياتي!

وتخيّل كمال أمّه وهي تزگرد فضحك، ثمّ تخيّل نفسه في مجلس عبد المنعم ينتظر المأذون فوجم. الزواج يهيج دوامة في أعماقه كما يهيج الشتاء الربو عند المريض، وهو يرفضه عند كلّ مناسبة، لكنّه لا يستطيع أن يتجاهله، وهو خالي القلب ولكنّه يضيق بخلوّه كما كان يضيق قديماً بامتلائه، واليوم إذا أراد الزواج فليس أمامه إلّا الطريق التقليديّ الذي يبدأ بالخطابة، وينتهي بالأسرة والأطفال والاندماج في ميكانيزم الحياة، فلا يكاد يجد المولع بالتأمّل موضعاً للتأمّل، وسوف يرى الزواج دائماً أبداً في مركز عجيب بين الحنين من ناحية والاشمئزاز من ناحية أخرى، أمّا في نهاية العمر فلن تجد إلّا الوحدة والكآبة...

السعيدة حقّاً في ذلك اليوم كانت عائشة، لأوّل مرّة

التفكيرها في الفراق الوشيك، فلم تفتتح نفسها للطعام، ثم جاءت أم حنفي فأبلغت أن الشيخ متوًّى عبد الصمد جالس على الأرض في الحوش، وأنه طلب عشاءه خاصة من اللحم، فضحك السيد وأمر بأن تُهيأ له صينية وتُحمل إليه. وما لبث أن ترامى إليهم صوته صاعداً من الحوش وهو يدعو بطول العمر لحبيه «ابن عبد الجواد» ويتساءل في الوقت نفسه عن أسماء أبنائه وأحفاده ليدعو لهم، فقال السيد باسمًا:

- يا للخسارة!... نسي الشيخ متوًّى أسماءكم، سامح الله الشيخوخة...

فقال إبراهيم شوكت:

- إنه في المائة من عمره، أليس كذلك؟

فاجاب أحمد عبد الجواد بالإيجاب، وعند ذلك تعالى صوت الشيخ مرة أخرى وهو يصيح:

- باسم الحسين الشهيد أكثروا من اللحم!

فضحك السيد قائلاً:

- سرّ ولايته قاصر اليوم على اللحوم!

وحين ساعة الوداع سبق كمال إلى الحوش ليتجنب ذلك المنظر، ومع أنه لم يزد على انتقال يسير إلى السكرية إلا أنه كان ذا وقع شديد كالصداع في قلبي الأم وأبتها. والواقع أن كمال كان ينظر إلى هذا الزواج بعين ملوّهة الشك، بالنظر إلى جدارة نعيمة للحياة الزوجية. وفي الحوش رأى الشيخ متوًّى عبد الصمد جالساً على الأرض تحت المصباح الكهربائي المثبت في جدار البيت ليضيء المكان، ماداً ساقيه، مرتدياً جلباباً أبيض باهتاً وطاقيّة بيضاء، خالماً نعليه مستنداً إلى الجدار كالنائم ليريح جوفه ممّا امتلأ به من طعام، ورأى بين ساقيه ماء يسيل، فأدرك من النظرة الأولى أن الشيخ يبول وهو لا يشعر، وكانت أنفاسه تتردّد فتسمع كالفحيح. حدّجه كمال بنظرة جمعت بين التفوّز والرثاء، ثم خطر له خاطر فابتسم على رغبته، وقال لنفسه:

- لعلّه كان طفلاً مدللاً عام ١٨٣٠ م.

وهو يقول:

- كنت في سيرتك يا خالتي، فقد قرّ رأينا على أن ندعوك للإقامة معنا... ١٩٠٠

فابتسمت عائشة قائلة:

- أمّا هذا فلا، سأزورك كلّ يوم فتكون فرصة للفسحة، ما أحوجنني إلى الحركة!

فقال عبد المنعم بصراحته المعهودة:

- نعوّمة قالت لي إنك لا تحتملين المكوث هنا خشية أن تطاردك الذكريات، إنّ الذكريات الحزينة لا تطارد المؤمن، وذلك أمر الله وقد مضى منذ عهد بعيد، ونحن أولادك فقد عوّضك الله!

في اليوم التالي مباشرة ذهبت عائشة لزيارة

رضوان وكريمة، تدارك نفسك بالتي هي أحسن! .  
وسأله أحمد:

- بدأت العطلة المدرسية يا خالي؟  
فأجاب كمال وهو ينزع طربوشه ويرنو إلى العروس الجميلة:  
- لم تبق إلا فترة يسيرة للمراقبة والتصحيح في الابتدائية!

وغابت نعمة لتعود مرة أخرى بصينية فضية حافلة بشتى أنواع الحلوى، مختلفة الألوان والطعوم، فمضت فترة لم يسمع خلالها إلا التملق والمصمصة، ثم راح إبراهيم يحكي ذكريات فرحه، الحفل، والمغني، والعالمة. وتابعت عائشة بوجه باسم وقلب محزون، وتابعه كمال بشغف إذ كان يعيد عليه صوراً ما زال يذكر بعضها ويودّ لو يعرف ما فاتته منها. قال إبراهيم ضاحكاً:

- السيد أحمد كان كما هو اليوم أو أشدّ، ولكنّ أمي رحما الله قالت بحزم: ليفعل السيد ما يشاء في بيته، أمّا عندنا فنحن نفرح كما نشاء، وقد كان. وجاء السيد يوم الفرح ومعه أصحابه مساهم الله بالخير جميعاً، أذكر منهم السيد محمد عفت جدّ رضوان، فجلسوا جميعاً في المنطرة بعيداً عن الزياطة.  
وقالت خديجة:

- أحييت الليلة جلييلة أشهر عالمة في عصرها...  
وابتسم قلب كمال، وذكر الدرورة العجوز التي ما تزال تنوّه بعهد أبيه!...

وقال إبراهيم مسترقاً النظر إلى عائشة:  
- وكان لنا عالمة خصوصية لبنتنا، ولكنّ صوتها كان أجمل من العالمة المحترفة، كان يذكّرنا بصوت منيرة المهديّة في عزّها!

فتورّد وجه عائشة، وقالت بهدوء:  
- سكّت صوتها منذ عهد بعيد، حتّى نسيت الغناء...

فقال كمال:  
- نعمة تغني كذلك، ألم تسمعها؟  
فقال إبراهيم:  
- سمعت عنها ولكنّي لم أسمعها بعد، الحقّ أنا

هذا الشابّ طيّب صريح ولكنّه لا يبالي أين يقع كلامه من القلوب الجريحة.

- طبعاً يا عبد المنعم، ولكنّي مرتاحة في بيتي، هذا أفضل...  
وإذا بخديجة وإبراهيم وأحمد يدخلون، فيصافحونها، ثمّ تقول خديجة لعائشة:  
- لو عرفت أنّ هذا الذي يعيدك إلى زيارتنا لزوّجتهما قبل البلوغ!

فضحكت عائشة، وقالت تذكّر خديجة بالماضي البعيد:

- المطبخ واحد؟! أم تطالب العروس بالاستقلال من حاتها؟  
فضحكت خديجة وإبراهيم معاً، وقالت خديجة بلهجة لم تخلّ من معنى:  
- العروس كأماها لا تعنى بالسفاسف!.

وقال إبراهيم ليفسر لابنيه ما غمض من تلميح عائشة:

- بدأت المعارك بين أمكما وأمي بسبب مشكلة المطبخ الذي كانت أمي تستقلّ به، ومطالبة أمكما بالاستقلال المطبخي...  
فقال العريس متعجباً:

- كنت تتعاريكن يا نينة بسبب المطبخ!...  
فقال أحمد ضاحكاً:

- وهل من سبب للمعارك التي تدور بين الأمم إلا هذا المطبخ؟!  
فقال إبراهيم في تهكم:

- أمكما قويّة كالإنجلترا، أمّا أمي فرحمة الله عليها...

وجاء كمال، كان يرتدي بذلة بيضاء أنيقة؛ أمّا وجهه فيتكوّن من الطاقم المألوف المركّب من جبينه البارز وأنفه العظيم ونظاراته الذهبية وشاربه المربع الغليظ، وكان يحمل بيده لفّة كبيرة بشرت بهديّة ممتازة، فقالت خديجة باسمه وهي تتفحص الهدية:

- حذار يا أخي، إذا لم تدارك نفسك بالزواج فستظلّ تحيىء بالهدايا دون أن يُردّ لك الجميل، الأسرة كلّها اليوم موشكة على الزواج، هذا أحد، وهناك

عرفناها شيخخة لا عالة! وبالأمر قلت لها: زوجك شيخ المؤمنين، ولكن ينبغي أن تزجلي الصلاة والعبادة إلى حين!

وضحكوا جميعاً، وقال أحمد مخاطباً أخاه:

- لا ينقص عروسك إلا أن تضمها إلى شعبة الشيخ علي المنوفي معك.

فقال العريس:

- إن شيخنا أول من نصحني بالزواج...

فقال أحمد مخاطباً أخاه:

- لعل الإخوان يعتبرون الزواج مادة من دستورهم السياسي!

والفتت إبراهيم إلى كمال قائلاً:

- أما أنت فكنت - أقصد أيام دخلتي - صغيراً، وكان شعرك غزيراً لا كما هو اليوم، وكنت تتهمنا بسرقة أختيك فلم تغفر لنا ذلك أبداً...

«كنت ميداناً خالياً لم تبدأ به المعارك بعد، يتحدثون عن سعادة الزواج، لو يعرفون ما يحدث به الأزواج الشاكرون؟ نعمة أعز علي من أن يملأ مخلوق، أي شيء لا ينكشف عن خدعة في هذه الحياة؟»

فقال خديجة معلقة على قول زوجها:

- كنا نظن ذلك حباً لنا، ولكن اتضح مع الأيام أنه ليس إلا عداوة للزواج نشأت معه منذ الصغرة!

وضحك كمال كما ضحكوا جميعاً. إنه يحب خديجة، ويزيد من حبه علمه بحبها الشديد له، أما تعصب العريس فشد ما يزعجه، ولكنه من ناحية أخرى يحب

أحمد ويعجب به، وهو نافر من الزواج ولكن يطيب له أن تذكره خديجة به في كل مناسبة، وكان قلبه شديد التأثر بجو الزواج المحيط به، فانتشى قلبه وحواسه، ووجد حينئذ وإن يكن بلا هدف، ثم تساءل كأنما

يتساءل لأول مرة: ماذا يعني من الزواج؟... حياة الفكر كما كان يزعم قديماً؟ إنني أشك اليوم في الفكر والمفكر معاً، أهو الخوف، أم الانتقام، أم

الفرجة في الألم، أم رد الفعل الصادر من الحب القديم؟ في حياتي مسوخ لأي من هذه الأسباب!

وسأل إبراهيم شوكت كمال:

- أندري لماذا أسف على عزوبتك؟

- نعم؟...

- إنني أعتقد أنك زوج مثالي إذا تزوجت، فأنت رجل بيت بطبعك، منظم، مستقيم، موظف محترم، ولا شك أنه توجد فتاة في مكان ما من الأرض تستحقك، وأنت مضيع عليها حظها!

حتى البغال أحياناً تنطق بالحكم، فتاة في مكان ما من الأرض، ولكن أين؟ أما عن اتهامه بالاستقامة فما هو إلا كافر فاسق سكير منافق، فتاة في مكان ما من الأرض، فلعله غير بيت جلييلة بعطفة الجوهري، وفهذه الآلام التي تتطاحن في قلبه ما علتها؟ والخيرة التي لا مهرب منها إلا بالخمر والشهوات، ويقولون تزوج حتى تنجب فتخلد، وشد ما طمح إلى الخلود في شتى أشكاله وألوانه، فهل يركن يائساً في النهاية إلى هذه الوسيلة الفطرية المبتذلة؟ وثمة أمل أن يجيء الموت بلا ألم يشوه راحته الأبدية، كم بدا الموت خفيفاً لا معنى له؛ ولكنه - بعد أن فقدت الحياة كل معانيها - يبدو اللذة الحقيقية في الحياة، ما أعجب العاكفين على العلم في معاملهم، ما أعجب الزعماء الذين يلقون بأنفسهم بالمهالك في سبيل الدستور، أما الذين يدورون حول أنفسهم في حيرة وعذاب فالرحمة لهم! وردد بصره بين أحمد وعبد المنعم، في إعجاب مقرون بالغبطة، إن الجيل الجديد يشق سبيله العسير إلى هدف بين دون شك أو حيرة، ترى ما سر دائي الويل؟!

قال أحمد:

- سأدعو العروسين والدي وخالتي إلى لوج في الريحاني الخميس القادم.

فتساءلت خديجة:

- الريحاني؟

فقال لها إبراهيم مفسراً:

- كشكش بك!

فضحكت خديجة وقالت:

- كاد ياسين يُطرد من بيتنا وهو عريس بسبب أخذه أم رضوان ليلة إلى كشكش!

فقال أحمد باستهانة:

- كان زمان وجبر، جدّي الآن لا يمانع في ذهاب



- جمعفة دفةة هدف إلى إءفاء الإسلام علمًا وعملاً،  
 ألم تسمع بشعبها التي بدأت تتكون في الأءفاء؟  
 - غير الشبان المسلمين؟  
 - نعم...  
 - وما الفرق؟  
 فأءاب وهو فشر إلى عبد المنعم شوكت:  
 - سل الأخ...  
 فقال عبد المنعم بصوته القوفف:  
 - لسا جمعفة للتعلفم والتهدفب فءسب، ولكننا  
 نءاول فهم الإسلام كما خلقه الله، دفنا ودنفا وشرفة  
 ونظام ءكم...  
 - أهذا كلام فقال في القرن العشرفن؟...  
 فقال الصوت القوفف:  
 - وفف القرن العشرفن بعد المائة...  
 - اءترنا فا هوه بفن الءفموقراطفة والفاشسفة  
 والشفوفة، هذا ءازوق ءفدفا!  
 فقال أءمء ضاءكًا:  
 - لكف ءازوق ربانف!  
 فعلت ضءة ضءك، إلا أن عبد المنعم ءءءه  
 بنظرة غاضبة، وكان رضوان فاسفن ساءه التعبفر،  
 فقال:  
 - ءازوق تعبر فر موفف...  
 وعاء الطالب فسال عبد المنعم:  
 - وهل ءرءون الناس إذا ءالفوكم؟  
 - إن الشبان فتهءءهم زفغ فف العففة، وانءلال فف  
 الءلق، فلفس الرءم بأفء ما فسءءقونه، ولكننا لا  
 نرءم، وإنما بالموعظة الءسنة والمسال الطفب ففدف  
 ونرشد، وآفة ذلك أن بفنا فضم، أءا فم فسءءقون  
 الرءم، وها هو فرء أمامكم، ففءاول على ءالفه  
 سبءانه!

فضءك أءمء، وقال ءلمف عزت مءاطبًا ففاه:  
 - إذا أنست من أءفك ءطرًا، فأنفف أءوك للإقامة  
 معف فف الءرب الأحمر...  
 - أفنت مثله؟  
 - كلاً، ولكننا معشر الوفدففن قوم متساعفون،  
 المسءشار الأول لزعفمنا قبطف، ففذا نحن...  
 فءف إلى ءشءش بك!  
 فقالت ءءففة:  
 - ءء العروسفن وأباك، أما أنا فكففاة عفف  
 الرافف...  
 وقالت عائشة:  
 - وكففاة عفف أنا بففكم...  
 وراءت ءءففة فقصف قصفة فاسفن وكشءش بك  
 ءفف ءائف من كمال نظرة إلى ساعفه ففءكر موعء  
 رفاض قلءس، فففض مسافنا فف الانصراف.

## ٢٠

- أنسطفف أن تسفمع بفءال الطففة ءفًا بالرءم  
 من أن الامءءان لم فبق عفله إلا أفام؟  
 كان السائل طالبًا، والمسؤل طالبًا كذلك، فف  
 ءماة من الطالباف افءرشت العشب على هفئة نصف  
 ءائرة فوق هضبة ءضراء فف أعلاها ءشك ءشفف  
 اءفله طالباف آفرون، وعلى مرمف البصر ءراءف  
 ءماعات النءفل وءفضان الأزهار ففءللها مماشف  
 الفسففساء، قال الطالب المسؤل:  
 - كما فسفمع عبد المنعم شوكت بالءفاة الزوففة،  
 رءم اقءراب الامءءان.  
 كان عبد المنعم شوكت ءالسًا فف مءف نصف  
 ءائرة، وكذلك أءمء شوكت، فقال عبد المنعم:  
 - الزواج بفءلاف ما فظفون، ففمف للطالب أءسن  
 فرصة للنفءا.  
 فقال ءلمف عزت، وكان فءلس لصق رضوان  
 فاسفن فف الطرف الآخر من نصف ءائرة:  
 - هذا إذا كان الزوج من الإءوان المسلمين!  
 وضءك رضوان عن فغره اللؤلؤفف، رءم ما أثاره  
 الءفء فف نفسه من غفم، أءل إن سفرة الزواج ففر  
 قلفه، فلا فءرف إن كان فءم ففمًا على هذه المامرة  
 أم لا، مامارة مءفة بقءر ما هف ضرورفة، ولكن ما  
 أبءءها عن روفه وءسءه! وساءل طالب:  
 - وما الإءوان المسلمون؟  
 فأءابه ءلمف عزت:

وعاد الطالب الأول يقول:

- كيف تدعون إلى هذا الهراء في نفس الشهر الذي ألغيت فيه الامتيازات الأجنبية؟

فقال عبد المنعم متسائلاً:

- أنبطل ديننا إكراماً للأجانب؟

وإذا برضوان ياسين يقول وكأنما كان في وادٍ آخر:

- ألغيت الامتيازات، فدع الذين انتقدوا المعاهدة يتكلمون...

فقال حلمي عزت:

- هؤلاء النقاد غير مخلصين، إنها الكراهية والحسد،

إن الاستقلال الحقيقي الكامل لا يؤخذ إلا بالحرب؛

فكيف يطمعون في أن ننال بالكلام أكثر مما نلنا؟

فجاء صوت يقول في ضجر:

- دعونا نساءل عن المستقبل...

- المستقبل لا يُبحث في شهر مايو والامتحان على

الأبواب، أريحونا... لن أعود إلى الكلية بعد اليوم

حتى يتسع لي الوقت للمذاكرة...

- مهلاً، إن الوظائف لا تنتظرنا، ما مستقبل

الحقوق أو الآداب؟ التسكع أو الوظائف الكتابية،

تساءلوا عن المستقبل إذا شئتم...

- أما وقد ألغيت الامتيازات فستفتح الأبواب!

- الأبواب؟! السكّان أكثر من الأبواب!

- اسمعوا... النحاس أدخل الطلبة الجامعة

وكانت أبوابها مغلقة، وأتاح لهم النجاح بعد أن

أعجزهم المجموع المتعسف فهل يعجز عن توظيفنا؟

ولاح في أقصى الحديقة سرب، فانعقدت الألسنة

وأجهت نحوه الرعوس، كان مكوّناً من أربع فتيات

قادمات من الجامعة متجهات صوب مديرية الجيزة، لم

تكذ تميزهنّ الأبصار بعد، ولكنهنّ تقدّمن متمهلات

يسقن الأمل في رؤيتهنّ عن قرب، إذ كان الممرّ الذي

يسرنّ فيه ينعطف أمام مجلس الصحاب في مسيره نحو

الشمال. وصرنّ في مجال البصر، وردّدت الألسن

أسماءهنّ وأسماء كليّاتهنّ، واحدة من الحقوق وثلاث

من الآداب، وقال أحمد لنفسه وهو ينظر إلى إحدهنّ:

«علوية صبري»، وجذب الاسم شوارد نفسه، فتاة

ذات جمال تركي ممصّر، معتدلة الطول نحيلة، بيضاء

ذات شعر أسود فاحم، وعينين سوداوين واسعتين

عاليقي الجفون، مقرونة الحاجبين، ذات سمّت

أرستقراطيّ ولفات رفيعة، وإلى ذلك كلّه فهي زميلة

في القسم الإعدادي، وقد علم - والباحث يظفر

بمعلومات شتى - أنها سجّلت اسمها مثله في قسم

الاجتماع، ولم تكن تميّات فرصة ليبادلها كلمة واحدة،

ولكنّها أثارت اهتمامه من أوّل نظرة، طالما رمت ملامح

نعيمة بإعجاب ولكنّها لم تهزّ أعماقه، هذه الفتاة لها

شأن، فيشّر قريباً بصداقة العقل، والقلب... ١٩٠٠

قال حلمي عزت عقب تسواري السرب عن

الأنظار:

- عمّا قريب تصبح كتيبة الآداب وكأنّها كتيبة

بنات!

فقال رضوان ياسين وهو يردّد بصره بين طلاب

الآداب في نصف الدائرة:

- لا تثقوا بصداقة طلاب الحقوق الذين يكثرون

من زياراتكم في كليّتكم بين الحصص، فالغرض

مفضوح!

ثمّ ضحك ضحكة عالية، ولكنّه لم يكن سعيداً في

تلك اللحظة، فإنّ حديث الفتيات يثير في نفسه

اضطراباً وحزناً.

- لم تقبل الفتيات على كتيبة الآداب؟

- لأنّ وظيفة التدريس هي أوسع الوظائف صدراً

لهنّ...

فقال حلمي عزت:

- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فدراسة

الآداب دراسة نسائية، الراجح والمانيكور والكحل

والشعر والقصص، كلّها باب واحد!

فضحكوا جميعاً حتّى أحمد، وبقيّة طلاب الآداب

ضحكوا رغم توبّهم للاحتجاج، ثمّ قال أحمد:

- يصدق هذا الحكم الجائر على الطبّ، فطالما كان

التمريض نسائياً، أمّا الحقّ الذي لم يستقرّ بعد في

نفوسكم فهو الإيمان بالمساواة بين الرجل والمرأة.

فقال عبد المنعم بأسماً:

- لا أدري إن كان مدحاً أم ذمّاً أن نقول للنساء

إنهنّ مثلنا؟

التقدمية، ما عدا ذلك فهو نوع من الغرامل الضاغطة على عجلة الإنسانية الحرة!

فقال عبد المنعم، وكان في تلك اللحظة يكره فكرة أخوة أحمد له:

- الإلحاد سهل، حلّ سهل هروبيّ، هروبيّ من الواجبات التي يلتزمها المؤمن حيال ربّه ونفسه والناس، وليس من برهان على الإلحاد يمكن أن يُعدّ أقوى من البرهان على الإيمان، فنحن لا نختار هذا أو ذلك بقولنا بقدر ما نختاره بأخلاقنا...

وتدخّل رضوان قائلاً:

- لا تستسلما لعنف المناقشة، كان من الأفضل لكما كأخوين أن تكونا من حزب واحد...

وإذا حلّمني عزّت يندفع قائلاً، وكان أحياناً تعتريه نوبات نائرة غامضة:

- إيمان... إنسانية... الغدا. كلام فارغ، النظام القائم على العلم وحده ينبغي أن يكون كلّ شيء، يجب أن تؤمن بشيء واحد هو استئصال الضعف البشريّ بكافة أنواعه، ومهما بدا علمنا قاسياً، وذلك للوصول بالبشرية إلى مثال قويّ نظيف!

- أهذه مبادئ الوفد الجديدة بعد المعاهدة!

فضحك حلّمني عزّت ضحكة عادت به إلى حالته الطبيعية، وقال عنه رضوان:

- إنه حقاً وفديّ، ولكن تطوف به أحياناً مذاهب طارئة غريبة فيدعو إلى القتل بالجملة، وربما دلّ ذلك على أنّه لم ينم أمس نوماً مريحاً!

وكان لشدة الخصام ردّ فعل فساد الصمت، فسرّ بذلك رضوان، وسرّح بصره فيما حوله فراح يتابع بعض الحدأ المدوّمة في السماء، أو يرنو إلى أسراب النخيل، الكلّ يعلن رأيه حتّى ما يتهمّم به على الخالق، ولكّنه لا يسعه إلّا أن يكتّم ما يضطرم في أعماق نفسه، وسيظلّ سرّاً مرعباً يتهذّده، فهو كالمطاردة، أو كالغريب، من الذي قسم البشر إلى طبعين وشاذّ؟، وكيف تكون الخصم والحكم في آن؟، ولمّ نهزأ كثيراً بالتعساء؟. قال رضوان مخاطباً عبد المنعم:

- إذا تعلّق الأمر بالحقوق والواجبات فهو مدح لا ذمّ...

فقال عبد المنعم:

- لقد سوى الإسلام بين الرجل والمرأة فيما عدا الميراث.

فقال أحمد متهمكماً:

- حتّى في الرقّ ساوى بينهما!

فاحتدّ عبد المنعم قائلاً:

- أنتم لا تعرفون دينكم، هذه هي المأساة...

والتفت حلّمني عزّت إلى رضوان ياسين، وسأله بأسياً:

- ماذا تعرف عن الإسلام؟

فسأله الآخر بنفس لهجته:

- وماذا تعرف أنت عنه؟

فسأل عبد المنعم أخاه أحمد:

- وأنت ماذا تعرف عنه حتّى لا تهرف بما لا تعرف؟

فقال أحمد بهدوء:

- أعرف أنّه دين، وحسيّ ذلك، لا أومن بالآديان...

فتساءل عبد المنعم مستنكراً:

- ألدّيك برهان على بطلان الآديان؟

- ألدّيك أنت برهان على حقيقتها؟

فقال عبد المنعم وقد ارتفع صوته حتّى جعل الشاب الذي يجلس بينه وبين أخيه يردّد رأسه بينهما كالمنزعج:

- عندي، وعند كلّ مؤمن، ولكن دعني أسالك أولاً كيف تعيش؟

- بإيماني الخاص، إيماني بالعلم والإنسانية وبالغد، وبما ألزّمه من واجبات ترمي في النهاية إلى تمهيد الأرض لبناء جديد.

- هدمت كلّ ما الإنسان إنساناً به...

- بل قل بقاء عقيدة أكثر من ألف سنة آية لا على قوّتها، ولكن على خطّة بعض بني الإنسان، ذلك ضدّ معنى الحياة المتجدّدة، ما يصلح لي وأنا طفل يجب أن أغيّره وأنا رجل، طالما كان الإنسان عبداً للطبيعة والإنسان، وهو يقاوم عبوديّة الطبيعة بالعلم والاختراع، كما يقاوم عبوديّة الإنسان بالمذاهب

- لا تزعل، إنّ للدين ربّاً يحميه، أمّا أنت فبعد تسعة أشهر على الأكثر ستكون أباً!

- حقاً... ١٩

فقال أحمد مداعباً أخاه ليمسح عنه آثار الحدة:  
- أهون عليّ أن أتعرض لغضب الله من أن أتعرض لغضبك!

ثمّ مضى أحمد يحدث نفسه: غضب أم لم يغضب فسيجد عند عودته إلى السكرية صدراً حائثاً، أمن المستحيل أن أعود يوماً فأجد علوية صبري في الدور الأول بالسكرية؟  
ونذت عنه ضحكة، ولكنّ أحداً لم يحدّث السبب الحقيقي لضحكته...

## ٢١

بدا بيت عبد الرحيم باشا عيسى في حركة غير مألوفة، ففي الحديقة وقف أناس كثيرون، وفي الفراندا جلس آخرون، وكثر الداخل والخارج، فلكر حلمي عزّت ذراع رضوان ياسين وهما يقتربان من البيت، وقال له بارتياح:

- لسنا بلا أنصار كما تزعم جرائدهم...

وعندما أخذوا يشقان سبيلهما إلى الداخل، هتف بعض الشبان «يحيا التضامن» فتورد وجه رضوان تأثراً. كان متحمساً ثائراً مثلهم، بيد أنّه ساءل نفسه في قلق: ترى ألا يشكّ أحد في الجانب غير السياسي من زيارته؟ وقد أفضى مرةً بمخاوفه إلى حلمي عزّت، فقال له: «إنّ الريبة لا تلحق إلّا بالخوفاً! سير مرفوع الرأس ثابت الأقدام، يجدر بالذين يعدّون أنفسهم للحياة العامة ألا يكثرُوا لآراء الناس أكثر مما يجب». وكان بهو الاستقبال مكتظاً بالجالسين، منهم طلبة وعيال وبعض أعضاء الهيئة الوفدية، وفي صدر المكان جلس عبد الرحيم باشا عيسى، متجهّماً على غير عادته، جاداً صارماً، تكتنفه هالة الرجل السياسي الخطير، وتقذما إليه فنهض لاستقبالها في رزاة، وصافحها ثمّ أشار لهما بالجلوس. وقال أحد

الجالسين، وكان قد توقّف عن الحديث أثناء استقبال الشابين:

- شدّ ما فوجئ الرأي العامّ وهو يطلع على أسماء الوزراء الجدد، فلا يجد بينهم النقراشي!

فقال عبد الرحيم باشا عيسى:  
- توقّعنا عند الاستقالة أمراً، خاصّة وأنّ الاختلاف كان قد ذاع حتّى تحدّثت به المقاهي، ولكنّ النقراشي ليس كغيره من أعضاء الوفد. لقد فصل الوفد من قبله كثيرين فلم تقم لهم قائمة، أمّا النقراشي فله شأن آخر، ولا ننسوا أنّ النقراشي معناه أحمد ماهر أيضاً، هما الوفد، الوفد المجاهد المناضل المحارب، سلوا المشائق والسجون والقنابل، وليس الخلاف هذه المرة بالذي يشين الخارج، هي نزاهة الحكم، قضية القنابل، وإذا وقع المحذور وانشقّ الوفد، فالوفد هو الذي سيخرج لا النقراشي ولا ماهر!...

- لقد كشف مكرم عبيد عن وجهه أخيراً...  
ووقع هذا القول من أذني رضوان موقعاً غريباً، فلم يكن ممّا يسهل تصديقه أن يهاجم قطب الوفد بهذا الأسلوب في بيّنة وفدية صميّة، وإذا بآخري يقول:  
- مكرم عبيد هو رأس هذا الشرّ كلّ يا سعادة الباشا...

فقال عبد الرحيم باشا:

- ليس الآخرون أصفاً...  
- لكنّه هو الذي لا يطبق منافسيه، إنّه يريد أن يستحوذ على النحاس وحده دون شريك، وإذا خلا له الجوّ من ماهر والنقراشي فلن يقف في سبيله شيء...  
- لو أمكنه إزالة النحاس نفسه لآزاله...  
فقال شيخ من الجلوس:  
- أرجوكم، لا تسرفوا في القول، قد تعود المياه إلى مجاريها.

- بعد أن تألّفت الوزارة دون النقراشي؟  
- كلّ شيء ممكن...  
- كان من الممكن هذا على عهد سعد، أمّا النحاس فرجل عنيد، وهو إذا ركب رأسه...  
وهنا دخل البهو رجل مهرولاً، فاستقبله الباشا وسط المكان وتعانقا بحرارة والباشا يتساءل:

وراءه، وجلس ثلاثتهم حول منضدة، وسرعان ما حملت إليهم أقذاح الليمون، وما لبث أن تراءى عند الباب رجل في الأربعين، عرفه رضوان في بعض زيارته السابقة، يدعى عليّ مهران، يعمل وكيلًا للبasha، وكان منظره يوحى بما طُبع عليه من ميل للمزاح والمجون، وكان يصحب معه شابًا في العشرين من عمره، جميل المَحْيَا، يبدو من منظر شعره الهائج وسوالفه الطويلة وربطة عنقه العريضة أنّه من أهل الفنّ. وقد أقبل عليّ مهران باسم الثغر فقبل يد الباشا، وصافح الشابين، ثمّ قدّم الشاب قائلاً:

- الأستاذ عطية جودت، مُعَنَّ ناشئ لكُنّه موهوب، وقد سبق أن حدّثتك عنه يا معالي الباشا!

فلبس الباشا نظارته التي كان وضعها على المنضدة، وتفحص الشاب بعناية، ثمّ قال باسمًا:

- أهلاً وسهلاً يا سيّ عطية، سمعت عنك كثيرًا، فلعننا نسمعك هذه المرّة...

فدعا للبasha باسمًا، ثمّ جلس، على حين مال عليّ مهران على البasha وهو يقول:

- كيف حال عمّي؟

هكذا كان يخاطب البasha إذا زالت دواعي الكلفة، وأجابه الرجل باسمًا:

- أحسن منك ألف مرّة!

فقال عليّ مهران جادًا على خلاف عادته:

- يتهامسون في بار الأنجلو عن وزارة قوميّة قريبة برياسة النقراشي...

فابتسم البasha ابتسامة سياسيّة وتمتم:

- لسنا من المستوزرين...

وتساءل رضوان باهتمام وقلق:

- على أيّ أساس؟ طبعًا لا أستطيع أن أنصوّر أن يقوم النقراشي بانقلاب سياسيّ كمحمد محمود أو إسماعيل صدقي؟!

فقال عليّ مهران:

- انقلاب! كلّ، المسألة تنحصر الآن في إقناع أكثرية الشيوخ والنواب بالانضمام إلينا، ولا تنس أنّ الملك معنا، فعليّ ماهر يعمل بحكمة وأناة!

وعاد رضوان يتساءل في كآبة:

- متى عدت؟ كيف الحال في الإسكندرية؟

- عال... عال، استقبل النقراشي في محطة سيدي جابر استقبالًا شعبيًّا منقطع النظير، هفت له الجماهير المثقفة من الأعيان، الجميع غاضبون، الكلّ ثائر لنزاهة الحكم، هتفوا: يحيا النقراشي النزيه... يحيا النقراشي ابن سعد... وهتف كثيرون يحيا النقراشي زعيم الأمة...

وكان الرجل يتكلّم بصوت مرتفع، فردّد هتافه كثيرون حتّى اضطرّ عبد الرحيم باشا أن يلوح لهم داعيًا إلى التزام الهدوء. وعاد الرجل يقول:

- الرأي العامّ ساخط على الوزارة، غاضب لإخراج النقراشي منها، لقد خسر النحاس خسارة لا تعوّض، وارضى أن يؤثّر الشيطان ضدّ الملاك الطاهر...

وهنا قال عبد الرحيم باشا:

- نحن الآن في أغسطس، وفي أكتوبر تفتح الجامعة، فليكن افتتاح الجامعة موقعة فاصلة، يجب أن نستعدّ منذ الآن للمظاهرات فإنّما أن يشوب النحاس إلى رشده، وإنّما فليذهب إلى الهاوية...

فقال حلمي عزّت:

- أستطيع أن أوكد أنّ مظاهرات الجامعيين ستتدفّق على بيت النقراشي...

فقال عبد الرحيم باشا:

- كلّ شيء يحتاج إلى التنظيم، اجتمعوا بأنصارنا من الطلبة وأعدّوا العدة، وفضلاً عن هذا فإنّ الأخبار التي عندي تؤكد أنّ كثرة لا تصدّق من النواب والشيوخ سينضمّون إلينا...

- النقراشي هو خالق لجان الوفد، لا تنسوا ذلك، إنّ تلغرافات الولاء تتسابق إلى مكتبه صباح مساء...

وتساءل رضوان ماذا يحدث في الدنيا؟ ترى أينقسم الوفد مرّة أخرى؟ وهل يتحمّل مسؤولية ذلك حقًا مكرم عبيد؟ وهل تتفق مصلحة الوطن وانقسام الحزب الذي نهض برسالته ثمانية عشر عامًا؟ وطال الأخذ والردّ، وبحث المجتمعون اقتراحات شتى خاصّة بالدعاية وتدبير المظاهرات، ثمّ أخذوا في الانصراف حتّى لم يبق في البهو إلّا الباشا ورضوان وحلمي عزّت، وعند ذاك دعاهما للجلوس في الفراندا، فمضيا

- أنكون في النهاية من رجال السراي؟

فقال عبد الرحيم باشا:

- العبارة واحدة، ولكن المعنى تغير، فاروق غير فؤاد، والظروف غير الظروف، الملك شاب وطني متحمس، وهو مجني عليه أمام هجمات النحاس الجائرة!

ففرح عليّ مهران يديه في حبور وهو يقول:

- ترى متى ننتي الباشا بالوزارة؟ وهل تختارني وكيلاً لوزارتك كما اخترتني وكيلاً لأعمالك؟  
فقال الباشا ضاحكاً:

- بل أعينك مديراً عاماً للسجون، إن مكانك الطبيعي هو السجن.

- السجن؟ لكنهم يقولون إن السجن للجدعان؟

- ولغيرهم، فليطمئن بالك!

ثم ركب الضجر فجأة فهتف:

- خسينا سياسة، غيروا الجو من فضلكم!...

والتفت نحو الأستاذ عطية متسائلاً:

- ماذا تسمعون؟

فأجاب عنه عليّ مهران:

- الباشا سمع وابن حظ، وإذا رُقّت في نظره تفتحت لك أبواب الإذاعة...

فقال عطية جودت برقة:

- لحنت أخيراً أغنية «شيكوني وشيكوه» وهي من

تأليف الأستاذ مهران!

فرمق الباشا وكيله، وسأله:

- منذ متى تؤلف أغاني؟

- ألم أجاور في الأزهر سبع سنوات، غرقت فيها في مفاعيل وفعلات؟

- وما للأزهر وأغانيك الخليفة؟ شيكوني وشيكوه!

من هو يا حضرة المجاور؟

- المعنى يا معالي الباشا في ذقن الباشا!

- يا ابن الهرمة!...

ونادى عليّ مهران السفرجي، فسأله الباشا:

- لماذا تناديه؟

- ليهيئ لنا مجلس الطرب!...

فقال الرجل وهو ينهض:

- انتظر حتى أصلي العشاء!...

فتساءل مهران باسمًا في خبث:

- ألم يتقضى سلامنا وضوءك؟

## ٢٢

غادر أحمد عبد الجواد بيته، ناقلًا خطاه على مهل، متوكئًا على عصاه، لم يعد اليوم كالأمس، فمئذ أن صفى دكانه لم يكن ليغادر بيته إلا مرة واحدة في اليوم، كي يعفي نفسه ما استطاع من الجهد الذي يتحمّله قلبه عند ارتقاء السلم. ومع أن الوقت لم يعد سبتمبر إلا أنه رأى أن يرتدي الملابس الصوفية، إذ إن الجسم النحيل لم يعد يطيق الجو اللطيف الذي كان يرح فيه الجسم البدين القوي الذي كان. والعصا التي صاحبه منذ الصغر رمزًا للرجولة وآية على الأناقة باتت متوكّاه في مشيته المتمهلة، التي لا يطبقها قلبه إلا بجهد ومشقة، ولكن بقي له رونقه وأناقه، فما زال يحرص على انتقاء الأزياء الفاخرة، ويتطيّب بالعطر الفواح متمتعًا بجبال الشيوخوخة ووقارها، وعندما اقترب من الدكان مالت نحوه عيناه بحركة لا إرادية. رفعت اللقطة التي حملت اسمه واسم أبيه أعوامًا وأعوامًا، وتغير مظهر الدكان ومخبره، فانقلب دكان طرايش للبيع والكمي، وتقدمه الوابور والقوالب النحاسية، وتحايلت لعينيه لافتة وهيمية، لم ترها عين سواه، عالتته بأن زمانه قد ولّى، زمان الجدّ والكفاح والمسرات، وها هو في ركن المعاش ينزوي، يستدير دنيا الآمال ويستقبل دنيا الشيوخوخة والمرض والانتظار، وتقبّض القلب الذي طالما - وما زال - يهيم بحبّ الدنيا وأفراحها، حتى إن الإيمان نفسه لم يكن في نظره إلا مسرة من مسراتها ودافعًا إلى أحضانها، فلم يعرف - حتى اليوم - العبادة الزاهدة التي تدير الظهر للدنيا وتطلّع إلى الآخرة وحدها. لم يعد الدكان دكانه ولكن كيف تمحى ذكره من ذهنه وهو الذي كان مركز النشاط، ومحطّ الأنظار، وملتقى الأصحاب والأحباب، ومبعث العزة والجاه؟. «ولك أن تعزّي نفسك فتقول: زوجنا البنات، ورينا الصبيان، ورأينا

- تأخّرت عن ميعادكم، ساعحكم الله...  
بأنّ صجر الرقاد في عينيه، فلم يعد يعرف الابتسام  
إلا ساعة اجتماعه بهم، وجعل يقول:  
- لا عمل لي طول اليوم إلا الاستماع إلى الراديو،  
ماذا كنت أصنع لو تأخّر استعماله في مصر حتى اليوم!  
كلّ ما يذيعه يطيب لي حتى المحاضرات التي لا أكاد  
أفهمها، ومع ذلك فلم نكبر إلى الحدّ الذي يستوجب  
هذا العذاب، أجدادنا كانوا يتزوجون في مثل  
أعمارنا... .

فغلبت روح الفكاهة أحمد عبد الجواد، فقال:  
- فكرة! ما رأيكم في أن نتزوّج من جديد، لعلّ  
ذلك يحدّد شبابنا وينفضّ عنا الأمراض؟! .  
فابتسم عليّ عبد الرحيم - كان يتجنّب الضحك أن  
تدركه نوبة السعال فتؤذي قلبه - وقال:  
- معكم! اختاروا لي عروسًا، ولكن صارحوها بأنّ  
العريس لا يستطيع الحركة، وعليها الباقي... .  
وهنا خاطبه الفار وكأنا نذكر أمرًا فجأة:  
- أحمد عبد الجواد سيسبقك إلى رؤية وليد حفيدته،  
ربّنا يحدّد في عمره! .

- مبارك مقدّمًا يا بن عبد الجواد!... .  
ولكنّ السيّد أحمد تجهّم قائلاً:  
- نعيمة حبل حقًا ولكنّي غير مطمئنّ، ما زلت أذكر  
ما قيل عن قلبها يوم مولدها، طالما حاولت أن أنسى  
ذلك عبثًا... .  
- يا لك من رجل جاحد! منذ متى تؤمن بنبوءات  
الأطباء?... .

فضحك السيّد أحمد قائلاً:  
- منذ باتت اللقمة التي أتناولها على غير مشورتهم  
تؤزّقني حتى مطلع الفجر... .  
فتساءل عليّ عبد الرحيم:  
- ورحمة ربّنا؟!... .  
- الحمد لله ربّ العالمين.  
ثمّ مستدركًا:

- لست بالغافل عن رحمة الله، ولكنّ الخوف يبعث  
على الخوف، والحقّ فإنّ نعيمة لا تهمني بقدر ما تهمني  
عائشة يا عليّ، عائشة هي مركز القلق في حياتي،

الأحفاد، ولنا مال موفور يسترنا حتى الموت، وذقنا حلو  
الدنيا سنين - سنين حقًا؟ - وآن لنا أن نشكر، والشكر  
لله واجب، دائميًا أبدًا، ولكن آه من الحنين، وسامح  
الله الزمن، الزمن الذي مجرّد حياته - حياته التي لا  
تتوقّف لحظة - خيانة وأيّ خيانة للإنسان. لو أنّ  
الأحجار تنطق لسألت هذه الأماكن أن تحدّثني عن  
الماضي، لتخبرني أحقًا كان هذا الجسم يهدّ الجبال؟،  
وهذا القلب المريض لا يكفّ عن الخفقان؟، وهذا  
الثغر لا يمكّ عن الضحك؟، وهذا الشعور لا يعرف  
الأم؟، وهذه الصورة معلقة في كلّ قلب؟ ومرة أخرى  
سامح الله الزمن! .

وعندما انتهى به المسير الوئيد إلى جامع الحسين،  
خلع حذاءه ودخل وهو يتلو الفاتحة، ومضى إلى المنبر  
حيث وجد في انتظاره محمّد عفت وإبراهيم الفار  
فصلّوا المغرب جميعًا، ثمّ غادروا المسجد متجهين نحو  
الطمبيكشيّة لزيارة عليّ عبد الرحيم، كان ثلاثتهم قد  
اعتزلوا العمل ليتفرّغوا لمقاومة الأمراض، غير أنّهم  
كانوا أحسن حالًا من عليّ عبد الرحيم الذي لم يعد  
بوسعه أن يفارق الفراش، وقال السيّد أحمد متنبّهًا:  
- يجيّل إليّ أيّ عمّا قريب لن أستطيع الذهاب إلى  
الجامع إلا راكبًا... .

- الحال من بعضه... .  
فعاد الرجل يقول في قلق:  
- شدّ ما أخاف أن أضطرّ إلى ملازمة الفراش  
كالسيّد عليّ، إني أدعو الله أن يكرمني بالموت قبل أن  
يدركني العجز... .

- ربّنا يكفيك ويكفينا كلّ سوء... .  
فبدأ كالحائف وهو يقول:  
- غنيم حميدو لبث مشلولًا في الفراش زهاء العام،  
وصادق الماوردي عانى العذاب شهورًا، فاللّهمّ أكرمنا  
بالنهاية السريعة إذا حمّ القضاء.  
فضحك محمّد عفت قائلاً:

- إذا غلبتك الأفكار السوداء انقلبت امرأة، وحّد  
الله يا أخي!... .  
ولما بلغوا بيت عليّ عبد الرحيم أدخلوا إلى حجرته،  
فبادرهم يقول في جزع:

التعيسة المسكينة، سأتركها إذا تركتها وحيدة في هذه الدنيا...

فقال إبراهيم الفار:

- ربنا موجود، وهو الراعي الأكبر...

وساد الصمت ملياً، حتى قطعه صوت عليّ عبد الرحيم قائلاً:

- وسأني دوري بعدك في رؤية وليد حفيدي...

فضحك السيد أحمد قائلاً:

- سامح الله البنات، فإني يكرهن أهلهن قبل الألوان.

فهتف محمد عفت:

- يا عجوز! اعترف بالكبر وكفأك مكابرة...

- لا ترفع صوتك خشية أن يسمعك قلبي فيسوق

العوج، أصبح قلبي كالطفل المدلل...

فقال إبراهيم الفار وهو يمز رأسه أسفاً:

- يا له من عام ذلك العام الماضي، كان علينا

شديداً، فما ترك واحداً منا سليماً كأننا كنا على ميعادا.

- على رأي عبد الوهاب: لنعيش سوا لنموت سوا...

فضحكوا معاً، وإذا بعليّ عبد الرحيم يغير لهجته ويتساءل جاداً:

- أهذا يصح؟ أعني ما فعله النقراشي؟

فتجهّم وجه أحمد عبد الجواد وقال:

- كم أملنا أن تعود المياه إلى مجاريها، أستغفر الله العظيم...

- أخوة الجهاد والعمر ضاعت هباءاً.

- في هذا الزمن كلّ جميل يضيع هباء...

وعاد أحمد عبد الجواد يقول:

- لم أحزن لشيء كما حزنت لخروج النقراشي، ما كان ينبغي أن يذهب به الخصام إلى هذا الحد...

- ترى ما هي النهاية التي تنتظره؟

- النهاية المحتومة، أين الباسل والشمسي؟ لقد قضى الرجل المجاهد على نفسه وأخذ في رجله أحمد ماهر.

وهنا قال محمد عفت متنرفزاً:

- دعونا من هذه السيرة! أنا أكاد أطلق السياسة!

وخطر للفار خاطر، فتساءل باسماً:

- لو اضطررنا - لا سمح الله - إلى ملازمة الفراش

كالسيد عليّ، فكيف نتقابل ونتحدث؟

فتمتم محمد عفت:

- فال الله ولا فالك...

فضحك أحمد عبد الجواد وقال:

- لو وقع المحذور نتخاطب بالراديو، كما يخاطب

بابا «سخام» الأطفال!...

وضحكوا جميعاً، وأخرج محمد عفت ساعته ونظر

فيها، ولكنّ عليّ عبد الرحيم جزع وقال:

- ستبقون معي حتى يحضر الطبيب لتسمعوا ماذا

يقول، ملعون أبوه، وأبو أيّامه...

## ٢٣

كانت الغوريّة تغلق أبوابها، فقلت السابلة واشتدّت البرودة، وكان الزمن في أواسط ديسمبر، ولكنّ الشتاء جاء متعجلاً هذا العام. ولم يكن كمال قد وجد صعوبة في جذب رياض قلّدس إلى حيّ الحسين، أجل كان الشاب غريباً عن الحيّ، ولكنّه وجد من نفسه شوقاً للتقلب في أنحائه، والجلوس في مقاهيه. وكان قد مضى على تعارفها في مجلّة الفكر أكثر من عام ونصف عام، لم يمرّ أسبوع خلاله دون أن يتقابلا مرة أو مرتين، بخلاف العطلة التي تجمع بينهما كلّ مساء على وجه التقريب في مجلّة الفكر، أو بيت بين القصرين، أو بيت رياض بمنشيّة البكري، أو مقاهي عباد الدين، أو قهوة الحسين الكبرى التي لجأ إليها كمال بعد أن أتت المعاول على قهوة أحمد عبده التاريخيّة فمحتها من الوجود إلى الأبد. كانا سعيدين بصداقتهما، وقد قال كمال لنفسه مرّة «جعلت أفتقد حسين شذاد أعواماً، وظلّ مكانه شاغراً، حتى ملأه رياض قلّدس» ففي محضره تستيقظ روحه وتستشعر ذلك الانبشاق الذي يبلغ نشوته في عناق الفكر المتبادل، هذا على الرغم من أنّها لم يكونا شيئاً واحداً، وإن كانا متكاملين فيما بدا. وظلّت صداقتهما شعوراً متبادلاً في صمت، لم ينوّها به، فلم يقل أحدهما للآخر



فقال رياض دون تردّد:

- إنّ الأقباط جميعاً وفديّون، ذلك أنّ الوفد حزب القومية الخالصة، ليس حزباً دينياً تركياً كالحزب الوطني، ولكنّه حزب القومية التي تجعل مصر وطناً حراً للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم، أعداء الشعب يعلمون ذلك، ولذلك كان الأقباط هدفاً للاضطهاد السافر طوال عهد صدقي، وسيعانون ذلك منذ اليوم...

ورحب كمال بهذه الصراحة التي تشهد لصداقتها بالكمال، غير أنّه راق له أن يتساءل في دعابة: - ها أنت تتحدّث عن الأقباط! أنت الذي لا يؤمن إلّا بالعلم والفنّ!...

فلاذ رياض بالصمت. وكنا قد بلغنا شارع الأزهر حيث يتدافع الهواء البارد في شيء من العنف. ثمّ مرّا في طريقهما بدكان يسبوسة فدعاه كمال إلى تناول شيء منها، وما لبث أن أخذ كلّ منهما طبقاً صغيراً وانتحيا ناحية ياكلاان، وعند ذلك قال رياض:

- إنّني حرّ وقبطني في آن، بل إنّني لا ديني وقبطني معاً، أشعر في أحيان كثيرة بأنّ المسيحية وطني لا ديني، وربّما إذا عرضت هذا الشعور على عقلي اضطربت. ولكن مهلاً، أليس من الجين أن أنسى قومي؟ شيء واحد خليق بأنّ ينسني هذا النزاع، ألا وهو الفناء في القومية المصرية الخالصة كما أرادها سعد زغلول، إنّ النحاس مسلم ديناً، ولكنّه قوميّ بكلّ معنى الكلمة أيضاً، فلا نشعر حياله إلّا بأننا مصريّون لا مسلم ولا قبطي، بوسعي أن أعيش سعيداً دون أن أكرّر صفوي هذه الأفكار، ولكنّ الحياة الحقّة مسئولية في الوقت نفسه.

كان كمال يتمطّץ ويفكرّ وصدره يجيش بالعواطف، كانت سحنة رياض المصرية الصميّة التي تذكّره بالصور الفرعونية تثير تأملات شتى في نفسه. إنّ موقف رياض له وجاهته التي لا تجحد، وأنا نفسي - بين عقلي وقلبي - شخص يعاني انقسام الشخصية، فكذلك هو، كيف يتأتّى لأقلية أن تعيش وسط أغلبية تضطهدها؟ وجدارة الرسائل السامية تقاس عادة بما تحقّقه من سعادة للبشر تتمثّل أوّل ما تتمثّل في الأخذ

«أنت الصديق» ولا قال له «لا أتصوّر الحياة بدونك» ولكن كان ذلك كذلك، وعلى برودة الجوّ لم تفتّر رغبتها في السير، فقرّرا أن يسيرا على الأقدام حتّى قهوة عماد الدين. ولم يكن رياض قلّداً سعيداً ذلك المساء، كان يقول بانفعال شديد: - انتهت الأزمة الدستورية بهزيمة الشعب، فليست إقالة النحاس إلّا هزيمة للشعب في نضاله التاريخي مع السراي...

فقال كمال في أسف:

- ثبت الآن أنّ فاروق كأبيه...

- فاروق ليس المشوّل وحده، ولكن دبرها أعداء الشعب التقليديّون، فهذه يد عليّ ماهر ومحمّد محمود، ومن المبكي أن ينضمّ إلى أعداء الشعب اثنان من أبنائه، ماهر والنقراشي، ولوطيّه الوطن من الخونة لما وجد الملك من يملكه من هضم حقوق الشعب... ثمّ استطرد بعد صمت قليل:

- ليس الإنجليز اليوم في الميدان، ولكنّ الشعب والملك وجهها لوجه، الاستقلال ليس كلّ شيء، هنالك حقّ الشعب المقدّس في أن يتمتّع بسيادته وحقوقه، ليحيا حياة الإنسان لا حياة العبيد...

لم يكن كمال غارقاً في السياسة كرياض، أجل لم يستطع الشكّ أن يدمرها فيما دمر فلبث حيّة في عواطفه، كان يؤمن بحقوق الشعب بقلبه، وإن كان عقله لا يدري أين المفرّ. عقله يقول حيناً «حقوق الإنسان» وحيناً آخر يقول «بل البقاء للأصلح وما الجاهل إلّا قطيع» وربّما قال «والشيوعية أليست تجربة جديدة بالاختبار؟». أمّا قلبه فلم يتخلّص من عواطفه الشعبية التي صاحبت منذ صباه متزجة بذكرى فهمي، أمّا رياض فكانت السياسة جوهرها أصيلاً في نشاطه الذهنيّ. وعاد رياض يقول:

- أيمن أن ننسى الإهانة التي تلقّاها مكرم في ميدان عابدين؟ وهذه الإقالة المجرمة، سبّ وقذف وبصقة في وجه الأمة؟ والحقد الأعمى يجعل البعض يهلّلون، واحسرتاه...

فقال كمال مداعباً:

- أنت غاضب لمكرم!

بيد المضطهدين». قال:

- لا تؤاخذني، فقد عشت حتى الآن دون أن اصطدم بمشكلة العنصرية، فمعد البدء لقتني أمي أن أحب الجميع، ثم شبت في جو الثورة المطهر من شوائب التعصب، فلم أعرف هذه المشكلة.

فقال رياض وهما يستأنفان المسير:

- المرجو ألا تكون ثمة مشكلة على الإطلاق، يؤسفني أن اصارحك بأننا نشأنا في بيوت لا تخلو من ذكريات سود محزنة، لست متعصبًا، ولكن من يستهين بحق إنسان في أقصى الأرض - لا في بيته - فقد استهان بحقوق الإنسانية جميعًا...

- جميل هذا القول، لا عجب أن رسالات الإنسانية الحقة كثيرًا ما تتبع من أوساط الأقلية، أو من رجال مشغولي الضائير بالأقلية البشرية، ولكن ثمة متعصبون دائمًا...

- دائمًا وفي كل مكان، الإنسان حديث والحيوان قديم، وهم عندهم يعتبروننا كقارًا ملاعين، وهم عندنا يعتبرونكم كقارًا معتصبين، ويقولون عن أنفسهم إنهم سلالة من ملوك مصر الذين استطاعوا أن يحافظوا على دينهم بدفع الجزية...

فضحك كمال ضحكة عالية، وقال:

- هذا قولنا وذاك قولكم، ترى الأصل في هذا الخلاف الدين أم الطبيعة البشرية المتطلعة أبدًا إلى الخصام؟! لا المسلمون على وفاق، ولا المسيحيون على وفاق، وستجد نزاعًا مستمرًا بين الشيعي والسني، وبين الحجازي والعراقي، كالذي بين الوفدي والدستوري، وطالب الآداب وطالب العلوم، والنادي الأهلي والترسانة، ولكن رغم ذلك كله فشد ما نحزن إذا ما طالعنا في الصحف خبر زلزال باليابان! اسمع، لماذا لا تعالج ذلك في قصصك؟

- مشكلة الأقباط والمسلمين...

فصمت رياض قلوس مليًا، ثم قال:

- أخاف سوء الفهم...

ثم مستطرًا بعد فترة صمت أخرى:

- ثم لا تنس أننا رغم كل شيء في عصرنا الذهبي، كان الشيخ عبد العزيز جاويش يقترح في الماضي أن

يصنع المسلمون من جلودنا أحذيتهم...

- وكيف نستأصل هذه المشكلة من جذورها؟

- من حسن الحظ أنها ذابت في مشكلة الشعب كله، مشكلة الأقباط اليوم هي مشكلة الشعب، إذا اضطهد اضطهدنا وإذا تحرر تحررنا...

«السعادة والسلام... ذلك الحلم المنشود، قلبك يحيا بالحب وحده، فمتى يعرف عقلي سبيله؟ متى أقول بلهجة ابن أختي عبد النعم «نعم. نعم»، إن صداقتي لرياض علمتني كيف أقرأ قصصه، ولكن كيف أومن بالفن، في الوقت الذي وجدت الفلسفة نفسها قصورًا غير صالحة للسكنى؟»

وسأله رياض فجأة، وهو يسترق إليه النظر:

- فيم تفكر الآن؟... أصدقني!

وفطن إلى ما وراء سؤاله، فأجابه بصراحة:

- كنت أفكر في قصصك.

- ألم تتألم لصراحتي؟

- أنا، ساعك الله...

فضحك كالمعتذر، ثم سأل:

- أقرأت قصتي الأخيرة؟

- نعم، وهي لطيفة، ولكن يخيّل لي أن الفن نشاط غير جدّي، مع ملاحظة أيها أخطر في حياة الإنسانية: الجدّ أم اللهو؟! أنت مثقف ثقافة علمية عالية، ولعلك أدري «غير العلماء» بالعلم، ولكن نشاطك كله يضيع في كتابة القصص ولأيّ لاتساءل أحيانًا: ماذا أفدت من العلم؟

فقال رياض قلوس في حماسة:

- أخذت من العلم للفن عبادة الحقيقة، والإخلاص لها، ومواجهتها بشجاعة مهما تكن مرة، والنزاهة في الحكم، والتسامح الشامل مع المخلوقات...

كلمات ضخمة، ولكن ما علاقتها بملهة القصص؟ ونظر رياض قلوس إليه، فقرأ الشك في وجهه، فضحك عاليًا ثم قال:

- أنت تسيء الظنّ بالفن، ولكن عزائي أن شيئًا في الدنيا لا يمكن أن يسلم من شكك، نحن نرى بعقولنا ولكننا نعيش بقلوبنا، أنت مثلاً - رغم موقفك

خاليًا من مآسي الخلافات العنصرية والدينية  
والمنازعات الطبقيّة، بيد أن الاهتمام الأوّل مرّكز في  
فني... .

فقال كمال وكان في صوته دعابة:

- ولكنّ الإسلام قد خلق هذا العالم الذي تتحدّث  
عنه منذ أكثر من ألف عام... .

- لكنّه دين، الشيوعيّة علم أمّا الدين  
فأسطورة... .

ثمّ مستدركًا وهو يبتسم:

- ونحن نتعامل مع المسلمين لا الإسلام... .

وجدا شارع فؤاد كثير الزحام رغم شدّة البرودة،  
فتوقّف رياض فجأة وهو يتساءل:

- ما رأيك في عشاء من المكرونة والنبذ الجيّد؟

- لا أشرب في الأماكن المأهولة، فلنذهب إلى قهوة  
عكاشة إذا شئت... .

فضحك رياض قلّلس قائلاً:

- كيف تطيق هذا الوقار كلّ؟ نظارة وشارب  
وتقاليد! حرّرت عقلك من كلّ قيد، أمّا جسمك فكأنّه  
قيود، أنت خلقت - بجسمك على الأقلّ - لتكون  
مدرّسًا... .

وذكّره تنويه رياض بجسمه بحادثة أليمة، فقد  
اشترك في حفل ميلاد أحد زملائه، وشربوا جميعًا حتّى  
سكروا، وهناك تحلّ أحدهم عليه معرّضًا برأسه وأنفه  
حتّى أضحك الجميع. وإذ ذكر أنفه أو رأسه فقد ذكر  
عايدة، وتلك الأيام، عايدة خالقة أنفه ورأسه، ومن  
عجب أن يغضب الحبّ فيمسي لا شيء، ثمّ تبقى هذه  
الرواسب المؤلمة... .

وجذبه رياض من ذراعه وهو يقول:

- هلّمّ نشرب نبيذًا وتحدّث عن فنّ القصّة، ثمّ  
نذهب بعد ذلك إلى بيت الستّ جليّة بعطفة  
الجوهريّ، وإذا كنت تقول لها يا عمّتي، فساقول لها يا  
خالتي... .

الشكّي - تحبّ وتتعامل وتشارك مشاركة ما في حياة  
بلدك السياسيّة، ووراء كلّ ناحية من هذه النواحي  
مبدأ شعوريّ أو لا شعوريّ لا يقلّ عن الإيمان قوّة،  
الفنّ هو المعبر عن عالم الإنسان، وإلى هذا فمن الأدباء  
من أسهم بفنّه في معركة الآراء العالميّة، فانقلب الفنّ  
على يديه عدّة من عدّ الكفاح في ميدان الجهاد  
العالميّ، لا يمكن أن يكون الفنّ نشاطًا غير جدّي... .

دفاع عن الفنّ أم عن قيمة الفنّان؟ لو أنّ لبائع  
اللّب قدرة على الجدل لدلّل أنّه يلعب دورًا خطيرًا في  
حياة البشر، ولا يبعد أن يكون لكلّ شيء قيمة ذاتيّة،  
ولا يبعد كذلك ألا يكون لشيء قيمة البتّة، كم مليونًا  
من البشر يلفظون أنفسهم في هذه اللحظة؟! في  
الوقت نفسه يرتفع صوت طفل بالبكاء على فقدّ لعبة،  
أو صوت عاشق يبثّ الليل والكون متاعب قلبه،  
أضحك أم أبكي؟ قال:

- لمناسبة ما قلت عن معركة الآراء العالميّة، دعني  
أخبرك بأنّها تنعكس على صورة مصغّرة في أسرتنا، لي  
ابن أخت من الإخوان، والآخر من الشيوعيّين!  
- ينبغي أن يكون لها صورة في كلّ بيت، عاجلاً أو  
آجلاً، لم نعد نعيش في قمقم، وأنّت ألم تفكّر في هذه  
الأمور؟

- قرأت عن الشيوعيّة ضمن دراسيّ للفلسفة  
المادّيّة، كما قرأت كتبًا عن الفاشستيّة والنازيّة... .  
- تقرأ وتفهم، مؤرّخ بلا تاريخ، أرجو أن تعدّ يوم  
خروجك من هذا الموقف يوم عيد ميلادك السعيد.  
فاستاء كمال لهذه الملاحظة، لأنّها نقد لاذع من  
ناحية، ولأنّها لا تخلو من حقّ من ناحية أخرى، ثمّ  
قال متهمّاً من التعقيب عليها:

- كلّ من الشيوعيّ والإخوانيّ في أسرتنا على غير  
علم مكين بما يؤمن به! -  
الإيمان إرادة لا علم، إنّ أنفه مسيحيّ اليوم  
يعرف عن المسيحيّة أضعاف ما عرف الشهداء، كذلك  
عندكم في الإسلام... .

- وهل تؤمن بمذهب من هذه المذاهب؟

- لا شكّ في احتقاري للفاشيّة والنازيّة وكافة النظم  
الديكتاتوريّة، أمّا الشيوعيّة فخليقة بأن تخلّق عالمًا

كانت شقة عبد المنعم شوكت، ففي حجرة النوم اجتمعت حول فراش نعيمة أمينة وخديجة وعائشة وزنوبة والحكيمة المولدة، أما في حجرة الاستقبال فقد جلس مع عبد المنعم والده إبراهيم وأخوه أحمد وياسين وكمال، وكان ياسين يداعب عبد المنعم قائلاً:

- اعمل حسابك أن تكون الولادة القادمة في غير هذا الوقت الذي تستعد فيه للامتحان . . .

كانوا في أواخر إبريل، وكان عبد المنعم متعباً بقدر ما كان مبهجاً، بقدر ما كان قلقاً. وكان صوت الطلق يتراعى من وراء الباب المغلق حاداً يحمل كل معاني الألم، فقال عبد المنعم:

- إنَّ الحمل أتعبها جدًّا، وبلغ بها درجة من الضعف لا يتصورها عقل، وكأنَّ وجهها لم تعد به نقطة دم واحدة . . .

فتجشأ ياسين في ارتياح، ثم قال:

- هذه أمور عادية، وكلهنَّ سواء . . .

وقال كمال بأسياً:

- ما زلت أذكر ولادة نعيمة، كانت ولادة عسيرة عانت منها عائشة ما عانت، وكنت متألِّماً، وكنت وافقاً في هذا المكان مع المرحوم خليل . . . فتساءل عبد المنعم:

- هل أفهم من هذا أنَّ عسر الولادة وراثي؟

فقال ياسين وهو يشير بأصبعه إلى فوق:

- عنده اليسر . . .

فقال عبد المنعم:

- جئنا بحكيمة معروفة في الحيِّ كلِّه، كانت أمِّي تفضِّل إحضار الداية التي ولَّدتها، ولكنِّي أصررت على الحكيمة، فهي أنظف وأمهر بلا ريب.

فقال ياسين:

- طبعاً، ولو أنَّ الولادة بجملتها بأمر الله وعنايته.

فقال إبراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة:

- جاءها الطلق في الصباح الباكر، والساعة تدور الآن في الخامسة مساءً، مسكينة، إنَّها رقيقة كالخيال، ربَّنا يأخذ بيدها.

ثمَّ وهو يردِّد عينيه الحاملتين في الجالسين عامَّة، وابنيه عبد المنعم وأحمد خاصَّة:

- آه لو تذكر الآلام التي تتحمَّلها الأم!

فقال أحمد ضاحكاً:

- كيف تطالب الجنين بأن يتذكَّر يا بابا؟

فقال الرجل موبِّخاً:

- إذا أردت أن تعترف بالجميل فلا تعتمد على الذاكرة وحدها . . .

وانقطع الطلق، وخيم على الحجرة المغلقة السكون فانجبت الرءوس إليهما، ومَرَّت فترة فنقد صبر عبد المنعم فقام ماضياً إلى الباب ونقره، ففتح ربع فتحة عن وجه خديجة المكتنز، فطالعها بعينين متسائلتين، وهمَّ بإدخال رأسه، ولكنَّها صدَّته براحتها وهي تقول:

- لم يأذن الله بالفرج بعد . . .

- طال الوقت، ألا يكون طلقاً كاذباً؟

- الحكيمة أدري بذلك ممَّا، اطمئنَّ وادعُ لنا بالفرج . . .

وأغلقت الباب، فعاد الشاب إلى مجلسه بجوار أبيه الذي علَّق على قلقه بقوله:

- اعذروه فإنَّه محدث ولادة.

وأراد كمال أن يتسلَّى، فأخرج من جيبه جريدة البلاغ حيث كانت مطوية فيه وراح يتفحصها، فقال أحمد:

- أعلنت في الراديو النتائج الأخيرة للمعركة الانتخابية . . . (ثمَّ وهو يتسم في سخرية) . . . ويا لها من نتائج مضحكة! . . .

فتساءل والده دون اكتراث:

- ما مجموع الناجحين من الوفديين؟

- ثلاثة عشر على ما أذكر!

ثمَّ قال أحمد موجِّهاً خطابه إلى خاله ياسين:

- لعلكَّ مسرور يا خالي إكراً لسرور رضوان؟! .

فقال ياسين وهو يهزُّ منكبيه باستهانة:

- لا هو وزير ولا هو نائب، فماذا يهمني من الأمر كلِّه؟

وقال إبراهيم شوكت ضاحكاً:

- كان الوفديون يظنون أنَّ عهد الانتخابات المزورة قد انتهى، ولكنَّ شهاب الدين أضرب من أخيه! . . .

فقال أحمد في امتعاض:

- الظاهر أنّ الاستثناء هو القاعدة في مصر!

- حتّى النحاس ومكرم قد سقطا في الانتخابات،  
ليس هذا هزلاً؟

وهنا قال إبراهيم شوكت في شيء من الحدة:

- لكن لا ينكر أحد أنّها أساء الأدب حيال الملك،  
إنّ للملوك مقامهم، وليس على ذلك النحو تساس  
الأمور...

فقال أحمد:

- إنّ بلادنا في حاجة إلى جبرعات قويّة من قلة  
الأدب حيال الملوك، حتّى تفيق من إغماؤها  
الطويل...

فقال كمال:

- ولكنّ الكلاب يعيدونها إلى الحكم المطلق، تحت  
ستار برلمان مزيف، وفي نهاية التجربة ستجد فاروق في  
قوة فؤاد واستبداده أو أشدّ، كلّ هذا يُرتكب بأيدي  
بعض أبناء الوطن...

فضحك ياسين، وقال وكأنّه يفسّر ويوضّح:

- كمال ولو أنّه كان على صباه من محبّي الإنجليز  
كشاهين وعدلي وثروت وحيدر، إلّا أنّه انقلب وفديّاً  
بعد ذلك...

فقال كمال جاداً، وهو ينظر إلى أحمد خاصّة:

- انتخابات مزوّرة، كلّ شخص في البلد يعلم بأنّها  
مزوّرة، ومع ذلك يُعترف بها رسمياً وتُحكم بها البلاد،  
ويعني هذا أن يستقرّ في ضمير الشعب أنّ نوابه  
لصوص سرقوا كراسيهم، وأنّ وزراءه لصوص سرقوا  
بالتالي مناصبهم، وأنّ سلطاته وحكومته مزوّرة،  
وأنّ السرقة والتزييف والتضليل مشروعة رسمياً، أفلا  
يُعذر الرجل العاديّ إذا كفر بالبادئ والخلق وآمن  
بالزيف والانتهازية؟

فقال أحمد متحمّساً:

- دعهم يحكمون، في كلّ شرّ جانب خير، ومن  
الأفضل لشعبنا أن يسام الخسف من أن يُحدّر بحكم  
يخبّه ويثق به دون أن يتحقّق له - هذا الحكم - آماله  
الحقيقيّة، طالما فكّرت في هذا حتّى انقلبت أرحب

بحكم الطغاة من أمثال محمّد محمود وإسماعيل  
صدقي...

ولاحظ كمال أنّ عبد المنعم لا يشترك في الحديث  
كعادته، فأراد أن يجزّه إليه فقال:

- لماذا لا تحدّثنا عن رأيك؟

فابتسم عبد المنعم ابتسامة لا معنى لها، وقال:

- دعني اليوم أستمع...

فضحك ياسين قائلاً:

- فرُفِش حتّى لا يجدك المولود واجماً، فيفكر في

العودة من حيث أتى...

ونذت عن ياسين حركة أدرك كمال منها أنّه يهّم  
بانتحال عذر للذهاب، أجل جاء وقت القهوة، ونظام  
«السهر» عنده لا يمكن أن يغيّره شيء، وفكّر كمال في  
الخروج معه حيث لا ضرورة لوجوده، وجعل يراقبه  
متوتّباً، وإذا بصرخة تنطلق من حجرة نعيمة عنيفة  
قاسية تحمل في طيّاتها أنغام الأعماق البشريّة، وتتابع  
الصرخات في عنف، وتطلّعت الأعين نحو باب  
الحجرة، وساد بينهم صمت، حتّى همس إبراهيم في  
رجاء:

- لعلّه الطلق الأخير إن شاء الله...

حقّاً؟ بيد أنّه تواصل حتّى وجوا، وامتقع لون عبد  
المنعم، ثمّ عاد الصمت مرّة أخرى ولكن إلى حين،  
ورجع الطلق ولكنّه كان خواء، تقذف به حنجرة  
بُحّت وصدر تصدّع فكأنّه النزاع. ودلّت حال عبد  
المنعم على أنّه في حاجة إلى تشجيع، فقال له ياسين:  
- كلّ ما تسمع أحوال مألوفة في الولادة  
العسيرة...

فقال عبد المنعم بصوت متهدّج:

- العسيرة! العسيرة! ولكن لماذا كانت عسيرة؟

وفُتح الباب فخرجت زئوبة ثمّ أغلقته، فتطلّعا  
إليها، فاقتربت حتّى وقفت أمام ياسين وقالت:

- كلّ شيء على ما يرام، غير أنّ الحكمة زيادة في

الحيطة ترجو أن تحضروا الدكتور سيّد محمّد...

فوقف عبد المنعم قائلاً:

- لا شك أنّ الحال استوجبت إحضاره، خبريني عمّا

بها؟

فقال زَنُوبَةُ بصوت هادئ مؤكد:

- كل شيء على ما يرام، وإذا أردت أن تزيدنا اطمئناناً فأسرع في إحضار الطبيب...

ولم يُضَيِّعْ عَبْدُ الْمَنَعَمِ وقته فمضى إلى حجرته ليستكمل ملابسه، ومضى في أثره أحمد، ثم خرجا معاً ليأتيا بالدكتور، وعند ذلك قال ياسين:

- ماذا هناك؟

فقال زَنُوبَةُ، وقد نَمَّ وجهها لأول مرة عن قلق:

- تعبانة المسكينة كان الله في عونها.

- والحكيمة ألم تقل شيئاً؟

فقال زَنُوبَةُ بتسليم:

- قالت إنها تريد الدكتور...

وعادت زَنُوبَةُ إلى الحجرة تاركة وراءها ظلاً ثقيلاً من القلق...

تساءل ياسين:

- أهذا الطبيب بعيد؟

فأجابه إبراهيم شوكت:

- في العمارة التي فوق قهوتك بالعتبة.

ودَوَّتْ صرخة فانعقدت الألسن، هل عاد الطلق الأليم؟ ومتى يحضر الطبيب، ودَوَّتْ الصرخة مرة أخرى، فازداد التوتر، وإذا بياسين يهتف مرتاعاً:

- هذا صوت عائشة!

فأرهفوا السمع، وعرفوا صوت عائشة، فقام إبراهيم في الحجرة ونقر الباب، ففتحت زَنُوبَةُ بوجه باهت، سألها بلهفة:

- ما لكم؟ مال عائشة هانم؟ أليس من المستحسن

أن تغادر الحجرة؟...

فقال زَنُوبَةُ وهي تزدد ريقها:

- كلاً... الحال شديدة يا سي إبراهيم...

- ماذا حدث؟!

- فجأة، إنها... انظر...

في أقل من ثانية كان الرجال الثلاثة على باب الحجرة ينظرون. كانت نعيمة مغطاة حتى الصدر، خاليتها وجدتها والحكيمة حولها في الفراش، أمها واقفة وسط الحجرة تحملق في بنتها من بعيد بعينين زائغتين وكأنها فقدت الوعي، وكانت نعيمة مغمضة العينين،

صدرها يعلو وينخفض كأنما قد أفلت زمامه من بقية الجسد الساكن، أما الوجه فأبيض باهت كالمرت.

هتفت الحكيمة: «الدكتور!». وجعلت أمينة تهتف:

«يا رب!» وخديجة تنادي بصوت مدعور «نعيمة ردي

علي»، أما عائشة فلم تنطق كأن الأمر لا يعينها في شيء.

تساءل كمال «ماذا هنالك؟» وسأل أخاه في

ذهول: «ماذا هنالك؟» ولكنه لم يجبه، أي ولادة

عسيرة؟!، ودار بصره بعائشة وإبراهيم وياسين فتقهقر

قلبه في صدره، ليس هنالك إلا معنى واحد...

ودخلوا الحجرة جميعاً، لم تعد حجرة ولادة وإلا ما

دخلوا، وكانت عائشة في حال بالغ الشدة ولكن أحداً

لم يوجّه إليها كلمة، وفتحت نعيمة عينها فبدت

مظلمتين، وأتت حركة كأنما تريد أن تجلس فأجلستها

جذتها وحوتها في حضنها، شهقت الفتاة، ونذت عنها

أهة عميقة، ثم بغتة هتفت كأنما تستغيث:

- ماما... أنا ذاهبة... أنا ذاهبة...

ثم سقط رأسها على صدر جدتها، وضجت الحجرة

بالصوات، ولطمت خديجة خديها، وتشهدت أمينة في

وجه الفتاة، أما عائشة فرمت بناظرها من النافذة

المطلّة على السجّرية، وثبتت عينها على ماذا؟ ثم تردّد

صوتها كالخشخشة:

- ما هذا يا ربّي؟ ما هذا الذي تفعله؟، لماذا؟،

لماذا؟، أريد أن أفهم...

واقترب منها إبراهيم شوكت ومدّ لها يده، فأبعدتها

بحركة عصبية وهي تقول:

- لا يلمسني منكم أحد، دعوني، دعوني...

ثم ردّت بصرها بينهم قائلة:

- اخرجوا من فضلكم، لا تكلموني، هل عندكم

كلام يجدي؟ لن ينفعني الكلام، ماتت نعيمة كما

ترون، كانت كلّ ما تبقى لي فلم يبق لي شيء في

الدنيا، اذهبوا من فضلكم...

كان الظلام حالاً عندما مضى ياسين وكمال في

طريقهما إلى بين القصرين، وكان ياسين يقول:

- ما أثقل أن أبلغ والدك الخبر!

فأجاب كمال وهو يحقّف عينيه:

- نعم...

الأمر الذي لم يُتَّخَ له هذا العام في زحمة طلبية القسم الإعدادي. على أنه لم يسبق له أن وجدها هكذا قريبة منه دون كثرة من الرقباء، فحدثته نفسه بأن يمضي إلى رفوف المراجع كأنما ليطلع على أحدها، ثم يجيئها في طريقه. وألقى نظرة على ما حوله فرأى عددًا من الطلاب منتشرين هنا وهناك لا يتجاوز عددهم أصابع اليد، فقام دون تردد وسار في الممر بين المقاعد، وعندما مرَّ بها التفت عيناها فحنى رأسه تحية مؤدبة، فبدا في ملاحها وقع المفاجأة، ولكنها ردت تحيته برأسها ونظرت فيما أمامها. وتساءل ترى هل أخطأ؟. كلاً إنها زميلة منذ عام طويل، ومن واجبه أن يجيئها إذا التقيا هكذا وجهًا لوجه في مكان يكاد يكون خاليًا. وواصل مسيره إلى خزانة الكتب الحايوية لدائرة المعارف، ثم اختار مجلدًا وراح يقلب صفحاته دون أن يقرأ كلمة. كان سروره برد التحية عظيمًا فزايله التعب واهتز صدره نشاطًا. يا لها من حسناء ملأت عليه جوانب نفسه إعجابًا وانجذابًا حتى صارت شغله الشاغل. إن كافة أحوالها تدلُّ على أنها من «أسرة» كما يقولون، وأخشى ما يخشاه أن يكون لها من كبرياء الطبقة نصيب يخفيه أدبها الجَمِّ، وإنه يستطيع أن يعترف لها - صادقًا - بأنه من أسرة كذلك إذا دعا الأمر، أليس آل شوكت «أسرة»؟. بلى... وذات ملك، فسيكون له يومًا ريع ومرتب معًا. وافتتر ثغره عن ابتسامة ساخرة، ريع... مرتب... أسرة! إذن فأين مبادؤه؟. وشعر بشيء من الخجل. إن القلب في أهوائه لا يعرف المبادئ، فالناس يحبون ويتزوجون خارج دائرة مبادئهم ودون مراعاة لها، وعليهم أن يخلقوا أنصافهم الجميلة خلقًا جديدًا، كمن يدخل بلدًا غريبًا فعليه أن يتكلم بلغته حتى يبلغ ما يريد. ثم إن الطبقة والملكية حقيقتان واقعيَّتان لم يخلقها هو ولا أبوه ولا جدّه، فليس هو بالمسئول عنها، والعلم والجهاد هما الكفيلان بمحو هذه السخافات التي تفرق بين البشر. من الممكن ربما أن يغيّر نظام الطبقات، ولكن كيف يستطيع أن يغيّر الماضي وهو أنه من أسرة موفورة الدخل؟. وهيهات أن تتعارض المبادئ الشعبوية مع الحبّ الأرستقراطي، وكارل ماركس نفسه تزوج

- لا تبك، أعصابي لم تعد تتحمل...  
فقال كمال متنهدًا:  
- كانت عزيزة جدًا عليّ، أنا حزين جدًا يا أخي، وعائشة المسكينة...  
- هذه هي الكارثة! عائشة! سنسى جميعًا إلا عائشة...  
«سنسى جميعًا؟ لا أدري. إن وجهها لا يغيب عني مدى العمر، ولو أن لي مع النسيان تجربة فلذة، هو نعمة كبرى، ولكن متى يجود ببلسمه؟». وعاد ياسين يقول:  
- كنت متشائمًا عند زواجها، ألا تدري؟ لقد تنبأ لها الدكتور يوم مولدها بأن قلبها لن يسعفها على الحياة بعد العشرين! والدك يذكر هذا في الغالب...  
- لا أدري شيئًا، أكانت عائشة تدري؟  
- كلاً، إنه تاريخ قديم، وقضاء الله لا بد منه...  
- ما أتعسك يا عائشة!...  
- أجل ما أتعسها المسكينة!...

## ٢٥

كان أحمد إبراهيم شوكت جالسًا في قاعة المطالعة بمكتبة الجامعة، مكبًا على متابعة كتاب بين يديه. لم يكن بقي على الامتحان إلا أسبوع، وكان الجهد قد نال منه كلَّ منال، وشعر بأن شخصًا قد دخل القاعة وجلس خلفه فالتفت إلى الوراء مستطلعًا فرأى علوية صبري! نعم هي، ولعلها جلست تنتظر كتابًا استعارته، وعند تلك الالتفاتة التقت عيناه بالعينين السوداوين، ثم أعاد رأسه إلى وضعه الأول متشبي القلب والحواس. ما من شك في أنها باتت تعرف شكله، كما تعرف أنه مغرم بها، فمثل هذه الأمور لا تخفى، إلى أنها كلما التفتت هنا أو هناك - سواء في فصول المحاضرات أم حديقة الأورمان - وجدته مسترقًا إليها النظر. وقد حال حضورها بينه وبين متابعة ما يقرأ، ولكن فرحته فاقت حتى ما كان يقدر. وكان - منذ أن علم بأنها ستخصص في الاجتماع مثله - يؤمل أن يتم التعارف بينها في غضون العام الدراسي المقبل،

من جيني فون وستفال حفيذة الدوق برونشويك،  
وكانوا يسمونها «الأميرة الساحرة» و«ملكة الرقص»،  
وها هي أميرة ساحرة أخرى ولو رقصت لكانت ملكة  
الرقص. وأعاد المجلد إلى موضعه ثم رجع، وجعل  
يملاً ناظره مما بدا من قامتها، جانب من أعلى الظهر،  
وصفحة العنق الرقيق، والقدال المزدان بالشعر  
المقصوص، ما أجمل المنظر، ومَرَّ بها خفيفاً إلى مقعده  
وجلس. ولم تمضِ دقائق حتى سمع وقع أقدامها  
الخفيفة، فنظر إلى الوراء أسفاً وهو يظنها منصرفه  
ولكنه رآها قادمة، فلما حاذته وقفت بشيء من  
الارتباك، وهو لا يصدق عينيه، وقالت:  
- لا مؤاخذه، هل أجد عندك محاضرات التاريخ؟  
نهض كالجندي، وبادر يقول:  
- بكل تأكيد...  
فقالت كالمعتذرة:  
- لم أستطع متابعة الأستاذ الإنجليزي كما يجب،  
فقاتني تعقيد كثير من النقط الهامة، وأنا لا أرجع إلى  
المراجع إلا في المواد التي سأختصص فيها فيما بعد، ولا  
يتسع الوقت للمراجعة في سائر المواد...  
- مفهوم... مفهوم...  
- وقد علمت أن مذكراتك مستوفاة، وأنت أعرتها  
لكثيرين لينقلوا منها ما فاتهم؟...  
- نعم، ستكون تحت أمرك غداً...  
- متشجرة جداً (ثم وهي تبسم) لا تظن بي  
الكسل، ولكن إنجليزي متوسطة!...  
- لا بأس، أنا بدوري دون المتوسط في الفرنسية،  
ولعله نتاح لنا الفرص للتعاون، ولكن معذرة تفضلي  
بالجلوس، قد يهتك الاطلاع على هذا الكتاب،  
مدخل الاجتماع هالكتر...  
ولكنها قالت:  
- متشجرة، لقد رجعت إليه مرّات، قلت إنك دون  
المتوسط في الفرنسية، فلعلك في حاجة إلى مذكرات  
السيكولوجي؟  
فأجاب دون تردّد:  
- أكون شاكرًا لو تفضّلت...  
- غداً نتبادل المذكرات؟

- بكل سرور، ولكن معذرة، ستجدين أكثر  
الدراسات بقسم الاجتماع بالإنجليزية...  
فتساءلت وهي تداري مؤلدة ابتسامة:  
- أتعرف أنني اخترت قسم الاجتماع؟  
ابتسم كأنما ليداري حيائه، ولم يكن ثمة حياة  
ولكنه شعر بأنه «وقع» ولكنّه قال ببساطة:  
- نعم!.  
- المناسبة آية مصادفة!  
فقال بجرأة:  
- بل سألت فعملت...  
وضغطت شفّتيها القرمزيتين، ثم قالت وكأنها لم  
تسمع جوابه:  
- غداً نتبادل المذكرات...  
- صباحاً...  
- إلى اللقاء وشكرًا...  
فبادرها:  
- أي سعيد بالتعرف إليك، إلى اللقاء.  
لبث واقفاً حتى واراها الباب ثم جلس. ولحظ أن  
البعض كان ينظر مستطلعا نحوه، ولكنّه كان ثملاً  
بالسعادة. ترى أكان حديثها استجابة لما بدا من إعجابه  
بها، أم لحاجتها الملحة إلى مذكراته؟ لم تسنح قبل  
الساعة فرصة للتعارف. كان يجدها دائماً بصحبة  
الأتراب. هذه أول فرصة، وقد فاز بما تمنى طويلاً فيها  
يشبه المعجزة. إن كلمة من ثغر نحبّه خليقة بأن تجعل  
من كلّ شيء كلا شيء...  
٢٦

بدا ياسين قلقاً رغم إرادته. وكان قد تظاهر طويلاً  
بأنه لا يهتم شيء، لا الدرجة ولا الماهية ولا الحكومة  
نفسها، لا أمام زملائه الموقّفين فحسب ولكن حيال  
نفسه أيضاً. إن الدرجة السادسة - إذا رُقّي إليها -  
ستزيد مرتبه جنهين لا غيراً. ويا ما ضييع ياسين!.  
ويقولون إنها ستجعل منه رئيس قلم بعد مراجع،  
ولكن متى كان يكثرث يامين للرياسات؟ بيد أنه كان  
قلقاً، خاصة بعد أن استدعى مدير الإدارة محمد



- تولد تزهق، كل واحد وقسمته...  
 - والكفاءة؟...  
 فقال ياسين منفعلًا:  
 - الكفاءة؟ هل نقيم جسورًا أو ننشئ محطات كهربائية؟ كفاءة! ماذا يتطلب عملنا الكتابي من كفاءة؟ كلانا بالابتدائية، وفضلًا عن ذلك فانا رجل مثقف...  
 فضحك إبراهيم أفندي ضحكة ساخرة، وقال:  
 - مثقف؟ أهلاً يا سي مثقف!... أنظر نفسك مثقفًا بالشعر الذي تحفظه؟ أو بالإنشاء الذي تكتب به خطابات الإدارة كأنك تؤدي امتحان الابتدائية من جديد؟... أنا تارك أمري لله...  
 وافترق الرجلان على أسوأ حال، وعاد ياسين إلى مكتبه، كانت الحجرة كبيرة، صُفّت بها المكاتب متقابلة على الجانبين، وغطّت الجدران بالرفوف المكتظة بالملفات. وكان البعض مكبًا على الأوراق والآخرين يتحدثون ويدخنون؛ على حين ذهب وجاء عدد من السعاة بالملفات، قال جار ياسين له:  
 - ستأخذ ابنتي البكالوريا هذا العام، وسألحقها بمعهد التربية فأرتاح من ناحيتها، لا مصروفات ولا تعب قلب في البحث عن وظيفة بعد التخرج.  
 فقال ياسين:  
 - خير ما تفعل...  
 فسأله الرجل مجادلًا:  
 - وماذا أعددت لكريمة؟ كم بلغت من العمر على فكرة؟  
 فابتسمت أسارير ياسين رغم انفعاله، وقال:  
 - في الحادية عشرة، وسوف تأخذ الابتدائية في الصيف القادم إن شاء الله (وهو يعدّ على أصابعه): نحن في نوفمبر فيبقى سبعة أشهر بالتعام والكمال...  
 - ما دامت تنجح في ابتدائي فستنجح في ثانوي، البنات أضمن اليوم من الصبيان...  
 ثانوي؟ هذا ما تريده زُتوبة. كلاً إنّه لا يطيق أن يرى ابنته تسير في الطريق ونهداها يهترآن. ثم المصروفات؟...

أفندي حسن - زوج زينب أم رضوان - لمقابلة وكيل الوزارة، وذاع بين موظفي المحفوظات أنّ الوكيل استدعاه لسمع رأيه في موظفيه للمرّة الأخيرة قبل توقع الكشف الخاصّ بالترقيات. محمد حسن؟. خليفته اللدود الذي لولا السيّد محمد عفت لبطش به من زمن بعيداً. أيمن أن يشهد له هذا الرجل شهادة طيبة؟. وانتهاز فرصة خلّو حجرة المدير فهرع إلى التليفون، وطلب كتيّة الحقوق، وكان يتصل بها ذلك اليوم للمرّة الثالثة، مستدعيًا رضوان ياسين...  
 - آلو، رضوان؟، أنا والدك.  
 - أهلاً وسهلاً، كلّ شيء عال.  
 كان صوته ينم عن ثقة، الابن واسطة للأب...  
 - الحركة رهن التوقيع الآن؟  
 - اطمئن، الوزير نفسه هو الذي أوصى بك، كلمه نواب وشيوخ ووعدهم بكلّ خير.  
 - ألا تحتاج المسألة لتوصية أخيرة؟  
 - أبداً، الباشا هتاني هذا الصباح كما أخبرتك، اطمئن جدّاً.  
 - أشكرك يا ابني، سلام عليكم.  
 - وعليكم السلام يا بابا، مبارك مقبلاً...  
 ووضع السّاعة وغادر الحجرة، فالتقى بإبراهيم أفندي فتح الله - زميله ومنافسه في الدرجة - قادماً يحمل بعض الملفات، فتبادلا التحيّة في تحفّظ، وعند ذلك قال ياسين:  
 - ليكن بيننا مباراة رياضية يا إبراهيم أفندي، ولتقبل النتيجة أيّا كانت بشهامة...  
 فقال الرجل في امتعاض:  
 - على شرط أن تكون مباراة شريفة!  
 - ماذا تعني؟  
 - أن يكون الاختيار لوجه الله لا لوساطة...  
 - غريب رأيك! وهل يوجد رزق بدون وساطة في هذه الدنيا؟. اسع كما تشاء وأسعى كما أشاء، وسيأخذ الدرجة صاحب القسمة والنصيب...  
 - أنا أقدم منك...  
 - كلانا موظف قديم، سنة لا تقدّم ولا تؤخّر!...  
 - في سنة تولّد نفوس وتزهق نفوس!

- لو صبحت هذه النظرية، لاستحقّ عمّ حسنين  
فراش مكتبنا أن يكون وزير المعارف!...

وضرب إبراهيم فتح الله كفًا بكفّ، وقال مسائلاً  
زملاءه جميعاً:

- يا إخوان، هذا الرجل (مشيرًا إلى ياسين) طيّب  
وظريف وابن حلال، ولكن هل يشتغل بمليّمْ؟... أنا  
راضٍ بدمتكم!...

فقال ياسين هازئاً:

- دقيقة عمل متّي تساوي شغل يوم منك!...  
- الحكاية أنّ المدير يترقّق بك، وأنك تتوكّل على  
ابنك في هذا العهد الأغبر!...  
فقال ياسين ملجأً في إغاضته:

- وفي كلّ عهد وحياتك، ابني في هذا العهد، فإذا  
جاء الوفد عندك ابن أختي وأبي، قل من عندك  
أنت؟

فقال الرجل وهو يرفع رأسه إلى السقف:

- عندي ربّنا!...

- وهو سبحانه عندي أيضاً، اليس برّب الجميع؟

- ولكنّه لن يرضى عن زباين محمّد عليّ!...

- وهل يرضى عن مدمني الأفيون والمنزول؟

- ليس أبشع في الوجود من السكّير!...

- الخمر شراب الوزراء والسفراء، ألا تراهم في

الصحف وهم يشربون الانخاب؟ ولكن هل رأيت

سياسياً يقدّم قطعة أفيون في حفل سياسيّ في صحّة

عقد معاهدة مثلاً؟!

فقال جار ياسين وهو يغالب الضحك:

- هس يا جماعة، ولّا قضيتم مدّة خدمتكم في  
السجن!...

فبادر ياسين مشيراً إلى غريمه:

- كان يقرّني في السجن وحياتك، ويقول لي أنا  
أقدم منك!...

وإذا بمحمّد حسن يعود من مقابلة وكيل الوزارة،

فساد الصمت وتطلّعت نحوه الرؤوس.

وانتبه الرجل نحو حجرته لا يلوي على شيء،

فتبادلوا النظرات متسائلين. لا يبعد أن يكون أحد

المتخاصمين الآن رئيس قلم، ولكن من صاحب الحظّ

- نحن لا نلحق نباتنا بالثانويّ، ولماذا؟... إنّا  
لن نتوظّف!...

فسأل ثالث:

- ألهذا يقال في عام ١٩٣٨؟

- يقال في أسرتنا ولو في عام ١٢٠٣٨.

فضحك رابع وهو يقول:

- قل إنك لا تستطيع أن تنفق عليها وعلى نفسك  
معاً!.. قهوة العتبة وخمارة محمّد عليّ، وحبّ البنات  
البكاري هذ متّي الحيل. هذه هي الحكاية...

فضحك ياسين ثمّ قال:

- ربّنا ساترها... ولكن كما قلت لك نحن لا  
نعلم البنت أكثر من الابتدائية...

وتعالّت سعلة من الركن القصيّ فيما يلي مدخل  
الحجرة، فالتفت ياسين إلى صاحبها، ثمّ وقف وكأنّه  
تذكر أمراً هاماً، فمضى إلى مكتبه حتّى شعر الرجل به  
فرفع نحوه رأسه، فقال ياسين فوقه قائلاً:

- وعدتني بالوصفة...

فمدّ الرجل أذنه متسائلاً:

- نعم؟...

فتضايق ياسين من أذن الرجل الثقيلة، واستحى  
أن يرفع من صوته وإذا بصوت يجيء من وسط الحجرة  
عالياً وهو يقول:

- أراهم على أنّه يسألك عن الوصفة، وصفتك التي  
ستذهب بنا جميعاً إلى القبر...

وتراجع ياسين متبرّماً إلى مكتبه، فقال له الرجل  
دون مبالة بإحراج، ويصوت سمعته الحجرة كلّها:

- أنا أقول لك عنها: هات قشر مانجو، اغله غلياً  
شديداً، وداوم على ذلك حتّى يصير سائلاً لزجاً  
كالعسل، ونخذ منه ملعقة على غيار الريق...

وضحكوا جميعاً، غير أنّ إبراهيم فتح الله قال  
متهكّماً:

- فايق ورايق، انتظر حتّى تأخذ الدرجة السادسة  
وهي تشدّ حيلك؟...

فتساءل ياسين ضاحكاً:

- وهل تنفع الدرجة في هذه المسألة؟...

فقال جار ياسين ضاحكاً أيضاً:

فاستاء ياسين بالتعريض بسيرته، وقال:  
- لا أقبل أن يمسّ إنسان سلوكي الخاص بكلمة،  
أنا حرّ خارج الوزارة! ...  
- ودخلها؟  
- سأعمل ما يعمل رؤساء الأقسام، أنا اشتغلت في  
ماضي ما يكفي طوال العمر...  
عاد ياسين إلى مكتبه متكلّفاً الابتسام رغم جيشان  
صدره بالغضب، وذاع النبا فتلقّى التهاني...  
وكان إبراهيم فتح الله يميل على أذن جاره هامساً في  
حقن:  
- ابنه!... هذه هي الحكاية! عبد الرحيم باشا  
عيسى... فهمت؟... اسفخص!...

## ٢٧

كان السيّد أحمد عبد الجواد جالساً على كرسيّ كبير  
في المشريّة ينظر إلى الطريق حيناً، وحيناً في جريدة  
الأهرام المبسوطة على حجره، وكانت ثقبو المشريّة  
تعكس على جلابيه الفضفاض وطاقيته نقطاً من  
الضياء، وقد ترك باب حجرته مفتوحاً ليتمكن من  
سماع الراديو القائم في الصالة، غير أنّه بدا ناحلاً  
ضامراً، كما لاحت في عينيه نظرة ثقيلة تنمّ عن  
استسلام حزين. وكان كأنما يكتشف الطريق - من  
مجلسه بالمشريّة - لأوّل مرّة في حياته، فلم يسبق له أن  
رأه من هذه الزاوية في أيّام حياته الماضية، إذ إنّ لم  
يمكث في البيت إلّا ساعات النوم على وجه التقريب،  
أمّا اليوم فلم تعد له من تسليه - بعد الراديو - إلّا هذه  
الجلسة في المشريّة، ينظر من ثقبها شمالاً وجنوباً،  
وإنّه لطريق حيّ، مسلّ لطيف، وله إلى هذا طابعه  
الذي يميّزه عن طريق النحاسين الذي ألف رؤيته من  
دكانه - السابق - زهاء نصف قرن من الزمان، وهذه  
دكاكين حسنين الحلاق ودرويش الفوّال والقولي اللّبان  
ويومي الشرباتي وأبو سريع صاحب المقلي، تقوم في  
الطريق كالقسيات في الوجه حتّى عُرف بها وعُرفت به،  
أيّ عشرة وأيّ جواره، ترى ما أعمال هؤلاء الناس؟  
حسين الحلاق مدمج الخلّق، من نوع قلّ أن يبدو

السعيد؟! وتفتح باب المدير، وظهر رأسه الأصلع وهو  
ينادي بصوت جافّ «ياسين أفندي». فنهض ياسين  
بجسمه الضخم، ومضى نحو الحجره وقلبه يخفق،  
وتفتّحه المدير بنظرة غريبة ثمّ قال:  
- رُقيت إلى الدرجة السادسة! ...  
فقال ياسين وقد انشرح صدره:  
- شكراً يا أفندم! ...  
فقال الرجل بلهجة لا تخلو من جفاف:  
- من الإنصاف أن أصارحك بأنّه يوجد من هو  
أحقّ بها منك... ولكنّها الوساطة!  
فغضب ياسين، وكان كثيراً ما يغضب حيال هذا  
الرجل، وقال:  
- الوساطة! ما لها؟ هل تتمّ حركة كبيرة أو صغيرة  
دون وساطة؟ هل ترقّى مخلوق في هذه الإدارة، في هذه  
الوزارة، بما فيهم حضرتك، دون وساطة؟  
فكظم الرجل غيظه، ثمّ قال:  
- لا يأتيني من ناحيتك إلّا وجع الدماغ، تترقّى  
بدون وجه حقّ، ثمّ تنور لأقلّ ملاحظة عادلة، ما  
علينا، مبارك، مبارك يا سيّدي، فقط أرجو أن تشدّ  
حيلك، أنت الآن رئيس قلم! ...  
فتشجّع ياسين بتراجع المدير، وقال دون أن يخفّف  
من حدّته:  
- أنا موظّف منذ أكثر من عشرين عاماً، وعمرى  
اثنان وأربعون عاماً، فهل تستكثر عليّ الدرجة  
السادسة؟ إنّ الغلمان يعيّنون فيها بمجرد تحرّجهم من  
الجامعة! ...  
- المهمّ أن تشدّ حيلك، أرجو أن أعتمد عليك  
كقيّة زملائك، فقد كنت وأنت ضابط مدرسة  
النحاسين مثال الموظّف المجتهد، ولولا تلك الحادثة  
القدية...  
- شيء قديم فلا داعي لذكره الآن، وكلّ واحد له  
أخطاؤه...  
- أنت الآن في سنّ الرجولة الناضجة، فإذا لم  
يستقم سلوكك تعذّر عليك أن تقوم بواجبك، كلّ  
ليلة سهر، فبأيّ مخّ تعمل في الصباح؟ أريد أن  
تنهض بالإدارة، هذا كلّ ما هنالك...

المصحف، وسمع الراديو وانعم بأسرتك، ويوم الجمعة زر الحسين راكباً، حسبك هذا!، الأمر لصاحب الأمر، متولي عبد الصمد لا يزال يتخبط في الطرقات!، ويقول وانعم بأسرتك! لم تعد أمينة تمكث في البيت، انقلبت الآية، أنا في المشربة وأمينة تحول في القاهرة من مسجد إلى مسجد، كمال يجالسني خفياً كالضيف، عائشة؟ آه يا عائشة، أمن الأحياء أنت أم من الأموات؟ ثم يرددون من قلبي أن يبرأ ويستريح!...

- سيدي...

والفتت إلى الورا صوب الصوت، فرأى أم حنفي حاملة صينية صغيرة عليها قارورة الدواء وفنجان قهوة فارغ وكوب ماء مملوء لنصفه.

- الدواء يا سيدي...

رائحة المطبخ تتطاير من ثوبها الأسود، هذه المرأة التي صارت مع الزمن واحدة من أسرتنا. وتناول الكوب وملاً الفنجان حتى نصفه، وفَضَّ سداد القارورة ونَقَطَ منها أربع نقط في الفنجان، وقَلَصَ وجهه قبل أن يتقلص من طعم الدواء، ثم تجرعه.

- بالشفأ يا سيدي...

- متشكر، أين عائشة؟

- في حجرتها، الله يصبر قلبها!

- ناديا يا أم حنفي...

في حجرتها، أو على السطح، ثم ماذا؟. وكان الراديو ما زال يذيع أغانيه ساخراً من حزن البيت الصامت ولم يكن السيد اضطرَّ إلى ملازمة البيت إلا منذ شهرين، وكان قد مضى على وفاة نعيمة عام وأربعة أشهر، فاستأذن الرجل في سماع الراديو لحاجته الملحة إلى التسلية، فقالت له عائشة: «طبعاً يا بابا، ربنا يكفيك شرَّ قعدة البيت». وسمع حفيف ثوب فالتفت فراها قادمة في ثوب أسود، متشحة بخمار أسود رغم حرارة الجو، تشوب بشرتها البيضاء زرقة غريبة، عنوان العناسة يا ابنتي، قال برقة:

- هاتي الكرسي واجلسي معي قليلاً.

ولكنها لم تتزحج عن موقفها قائلة:

- مرتاحة هكذا يا بابا.

عليه أثر الزمن، لم يكد يتغير منه شيء إلا شعره، ولكنه جاوز الخمسين بلا ريب، من لطف الله بهؤلاء الناس أنه يحفظ عليهم صحتهم! ودرويش؟. أصلح، هكذا كان دائماً، ولكنه في الستين، ما أقوى جسمه! كذلك كنت أنا في الستين، ولكنني أمسيت في السابعة والستين فيا له من عمرا. وأعدت تفصيل ثيابي لتناسب ما تبقى من جسدي، وإذا نظرت إلى هذه الصورة المعلقة في حجرتي أنكرت نفسي. الفولي أصغر من درويش، ذلك الأعمش المسكين، ولولا غلامه ما عرف كيف يهتدي إلى سبيله، أبو سريع رجل عجوز، عجوز؟ ولكنه ما زال يعمل، لم يفارق واحد منهم دكانه، ألا إن فراق الدكان لشديد! ثم لا يبقى لك إلا هذا المجلس، والقنبر في البيت ليل نهار، لو أستطيع أن أخرج ساعة واحدة كل يوم! ولكن علي أن أنتظر يوم الجمعة، ثم لا بد من العصا، ولا بد من كمال ليصحبني، الحمد لله رب العالمين، بيومي أصغرهم وأسعدهم حظاً، من أم مريم بدأ، أما أنا فعندها انتهيت، وهو اليوم مالك أحدث عبارة في الحى، هكذا كان مصير بيت السيد رضوان، أنشأ هذا المشرب المضاء بالكهرباء، حظ رجل يبدأ بخداع امرأة، سبحان العاطي وجلت حكمته! كل شيء يتجدد، الطريق ممهد بالأسفلت، وأضيء بالمصابيح، أتذكر ليالي عودتك آخر الليل في الظلام الدامس؟ لكن أين مبي هاتيك الليالي؟ وفي كل دكان كهرباء وراديو، كل شيء جديد، إلا أنا، عجوز في السابعة والستين، لا يستطيع مغادرة داره إلا يوماً واحداً في الأسبوع وهو يلهث. القلب! كله من القلب، القلب الذي طالما عشق وطالما ضحك وطالما انبسط وغنى، يقضي اليوم بالقعود ولا راد لقضائه. قال الطبيب «خذ الدواء والزم البيت واتبع نظامي الغذائي»، حسن، ولكن هل يعيد ذلك إلي قوتي؟. أعني بعض قوتي؟ فأجاب الطبيب «حسبنا أن نمنع المضاعفات، ولكن الجهد أو الحركة شيء خطير... (ثم ضاحكاً)...

لماذا تريد أن تسترد قوتك؟ أجل لماذا؟ إنه لشيء محزن مضحك معاً، ومع ذلك قال «أريد أن أذهب وأجيء» فقال الطبيب «لكل حال مسراتها، جلسة هادئة، اقرا

معطفاً، وعلى وجهها ببشة، وتنقل خطاها في بطة. شدّ ما ركبها الكبرا. كان يُحسن الظنّ بصحتها متذكّراً أنّها المعمّرة، ولكنّها هي تبدو أكبر من سنّها - اثنين وستين عامًا - بعشرة أعوام على الأقلّ، ومرّ وقت غير قصير قبل أن تدخل عليه وهي تتساءل:

- كيف حال سيّدي؟

فقال بصوت مرتفع نفخ فيه نبرات الحدة المطلوبة: - كيف حالك أنت! ما شاء الله! من طلّعة الصبح

يا وليّة!

فابتسمت قائلة:

- زرت سيّدتك، وزرت سيّدك، ودعوت لك

وللجميع...

عاودته بعودتها طمأنينة وسلام، وشعر بأنّه يستطيع الآن أن يطلب ما يشاء دون حرج:

- أيصحّ أن تركبني وحدي كلّ هذا الوقت؟!

- أنت أذنت لي يا سيّدي، لم أغب طويلاً، ولكنّها

الضرورة يا سيّدي، ما أحوّجنا إلى الدعاء، توسّلت

إلى سيّدي أن يرّد إليك صحتك حتّى تروح وتغدو كما

تشاء، كما دعوت لعائشة وللجميع...

وجاءت بكرسيّ وجلست، ثمّ سألته:

- هل تناولت الدواء يا سيّدي؟ أنا تبهت على أمّ

حنفي...

- ليتك تبهتها على شيء أحسن!

- بالشفاء يا سيّدي، سمعت في المسجد درساً جميلاً

من الشيخ عبد الرحمن، تحدّث يا سيّدي عن الكفّارة

عن الذنب وكيف تمسح السيّئات، كلام جميل جدّاً يا

سيّدي، ليتني أستطيع أن أحفظ كأيّام زمان!...

- وجهك شاحب من المشي، كلّها كم يوم

وتصبحين من زبائن الدكتور!...

- ربّنا الحافظ، أنا لا أخرج إلّا لزيارة آل البيت،

فكيف يقع لي سوء؟! -

ثمّ متداركة:

- آه يا سيّدي، كدت أنسى، يتحدّثون في كلّ

مكان عن الحرب، يقولون إنّ هتلر هجم...!

تساءل الرجل باهتمام:

- متأكّدة؟ -

علّمته الأيام الأخيرة ألاّ يحاول أن يعدل بها عن رأي.

- ماذا كنت تفعلين؟

فقالت دون أن ينمّ وجهها عن أيّ معنى:

- لا شيء أفعله يا بابا.

- لماذا لا تخرجين مع نيتشك لتزوري الأضرحة

المباركة، أليس هذا أفضل من بقائك هنا وحدك؟

- ولماذا أزور الأضرحة؟

وكأنّما فوجئ بقولها، بيد أنّه قال بهدوء:

- تتوسّلين إلى الله أن يصبر قلبك.

- الله هنا معنا في البيت!

- طبعاً، أقصد أن تتركّي هذه العزلة يا عائشة،

زوري أختك، زوري الجيران، وروحي عن

نفسك...

- لا أستطيع أن أرى السكّرية، ولا معارف لي، لم

يعد لي معارف، لا أطيع زيارة أحد...

قال الرجل وهو يولي عنها رأسه:

- أحبّ أن تتصبري، وأن تهتمّي بصحتك...

- صحتي!...

قالتها فيها يشبه العجب، فقال بتوكيد:

- نعم، ما فائدة الحزن يا عائشة؟...

فقالت وكانت رغم حالها تحافظ على الأدب الذي

تعوّدت أن تلتزمه حياله:

- وما فائدة الحياة يا بابا؟

- لا تقولي هذا، إنّ أجرك عند الله عظيم!...

فحنّت رأسها لتخفي عينيها الدامعتين، وقالت:

- أوّد أن أذهب عنده لأنال هذا الأجر، ليس هنا يا

بابا!...

ثمّ انسحبت برقة، وقبل أن تغادر الحجرة توقّفت

قليلاً كأنّما تذكّرت أمراً، فسألته:

- كيف صحتك اليوم؟

فابتسم قائلاً:

- الحمد لله، المهمّ صحتك أنت يا عائشة...

وغادرت الحجرة، من أين تأتيه الراحة في هذا

البيت؟. وراح يرّدّ بصره في الطريق حتّى ثبت على

أمنية وهي راجعة من جولتها اليومية، كانت ترتدي

- سمعتها بدل المرة مائة مرة، هتلر هجم... هتلر هجم...  
فقال الرجل لُينهمها أُنْها لم تسبقه بالأخبار:

- كان هذا متوقَّعًا من لحظة لأخرى...

- بعيد عَنَّا إن شاء الله يا سيدي؟...

- قالوا هتلر فقط؟ وموسوليني؟ ألم تسمعي هذا الاسم؟...

- اسم هتلر فقط...

- ربَّنَا يلطف بنا، إذا سمعتم نداء عن ملحق البلاغ أو المقطم فاشتروه...  
فالت المرأة:

- كَأَيَّام غليوم وزبلن، أتذكر يا سيدي؟. سبحان من له الدوام!...

## ٢٨

كانت زيارة جامعة وذات معنى كما قالت خديجة فيما بعد، فعندما فُتِح باب الشَّقة ملأ فراغه ياسين في بذلة بيضاء من تيل المحلَّة، تتقدَّمه الوردة الحمراء والمنشَّة العاجية، يكاد جسمه الضخم يدفع الهواء بين يديه، وتبعه ابنه رضوان في بذلته الحريرية آية في الأناقة والجمال، ثم زُنوبة في ثوب سنجابيَّ تعلوها الحشمة التي صارت جزءًا لا يتجزأ منها، وأخيرًا كريمة في فستان أزرق بدیع كشف عن أعلى النحر والذراعين، وقد تبلورت أنوثتها المبكرة - لم تكن تزيد عن الثالثة عشرة - فبدت جاذبيَّتها صارخة. وضمتهم حجرة الاستقبال مع خديجة وإبراهيم وعبد المنعم وأحمد، وسرعان ما قال ياسين:

- أسمعتم عن شيء كهذا من قبل؟ ابني سكرتير الوزير الذي أنا في وزارته مجرد رئيس قلم في المحفوظات، تُتَبَّدُّ له الأرض إذا سار، وأنا لا يكاد يشعر بي إنسانا.

كان مدلول كلامه الاحتجاج، ولكن لم يخف على أحد ما انطوت عليه نفسه من تيه وفخار بابنه. وفي الحق قد حصل رضوان على الليسانس في مايو من هذا العام، وما لبث أن تعيَّن في يونيه سكرتيرًا للوزير، في

الدرجة السادسة، على حين يتعيَّن خريجو الجامعات في الدرجة الثامنة الكتابية، وقد حصل عبد المنعم على الليسانس في نفس التاريخ، ولكنَّه لم يكن يدري ما المصير، قالت خديجة باسمه، وكانت تشعر بشيء من الغيرة:

- رضوان صديق الحُكَّام، ولكنَّ العين لا تَعْلُو على الحاجب...

فقال ياسين في سرور لم يفلح في مداراته:

- ألم تروا صورته مع الوزير في أهرام أمس؟...  
بتنا لا ندري كيف نكلِّمه!...

فأشار إبراهيم شوكت إلى عبد المنعم وأحمد قائلاً:

- هُذان الولدان خائبان، ضيَّعا عمرهما في مناقشات حادَّة لا معنى لها، وكان خير مَن عرفا من رجالات البلد الشيخ عليَّ المنوفي ناظر مدرسة الحسين الأوليَّة، وسخام البرك عدلي كريم صاحب مجلَّة الضوء أو الهباب لا أدري!

وكان أحمد ساخطًا وإن بدا طبيعيًا. أثاره زهو خاله ياسين كما أثاره تعليق والده، أمَّا عبد المنعم فقد غطَّى ما كان ينتظره من وراء هذه الزيارة الجامعة على الغضب الذي كان خليفًا أن يشتعل في صدره في ظروف أخرى. وكان يسترق النظر في وجه رضوان متسائلًا عمَّا وراءه، غير أنَّ قلبه استبشر خيرًا بالزيارة، فلعلَّها لم تكن تقع لولا أنَّها تحمل البشرية. وعاد ياسين يقول معلقًا على كلام إبراهيم:

- لو سألتني عن رأيي لقلت لك نِعَم الولدان! ألم يقولوا في الأمثال: السلطان مَن ابتعد عن باب السلطان؟

كلَّا لم يفلح ياسين في مداراة سروره، كما لم يفلح في إقناع أحد بإيمانه بما قال، غير أنَّ خديجة قالت مشيرة إلى رضوان:

- ربَّنَا يطعمه خيرهم ويكفيه شرَّهم...

وأخيرًا التفت رضوان إلى عبد المنعم قائلاً:

- أرجو أن أهتلك عمَّا قريب...

فقطَّلع إليه عبد المنعم متسائلًا وقد تورَّد وجهه، فعاد رضوان يقول:

- وعدني الوزير بأن يعيِّنك في إدارة التحقيقات...

- قعدة البيت لعنة، إلا مَنْ كان صاحب ملك فهو سلطان! ...

فقال أحمد وفي عينيه بسمه خبيثة:

- خالي ياسين صاحب ملك، ولكنّه صاحب وظيفة أيضًا! ...

فضحك ياسين ضحكة عالية، وقال:

- صاحب وظيفة ويس من فضلك، أمّا الملك! كان يا ما كان، كيف يحتفظ بملكه مَنْ كان له أسرة كاسري!؟

فهتفت زُئوبة في ارتباك:

- أسرتك!؟

والتفت رضوان - قاطعًا الحديث الذي لا يحبّه - إلى أحمد قائلاً:

- إن شاء الله نجدنا في خدمتك في العام المقبل عندما تأخذ الليسانس! ...

فقال أحمد:

- أشكرك جدًّا، لكنني لن أتوظّف! ...

- كيف!؟ ...

- الوظيفة خليقة بقتل أمثالي، مستقبل في الميدان الحر! ...

وهمت خديجة بالاحتجاج، ولكنّها آثرت تأجيل العراك إلى حينه، أمّا رضوان فقال باسماً:

- إذا غيّرت رأيك فستجدي في خدمتك!

فرفع أحمد يده إلى رأسه شاكرًا. وجاءت الخادم بأكواب الليمون المثلّجة، وفي فترة الصمت التي جعلوا فيها يحتسون، حانت التفاتة من خديجة نحو كريمة فكأنما كانت تراها لأول مرّة منذ إفاقتها من مسألة عبد المنعم، فقالت برقة:

- كيف حالك يا كريمة؟

فأجابتها الفتاة بصوت فيه رخامة:

- بخير يا عمّي، متشكّرة ...

وكادت خديجة تأخذ في إطراء جمالها، ولكن شيئًا - كالخذر - أوقفها. الواقع أنّها لم تكن أوّل مرّة نجى بها زُئوبة معها مذ حجزت في البيت بعد أخذها الابتدائية. وقالت خديجة لنفسها إنّ هذه الأمور تُسمّ

كانت أسرة خديجة ترتقّب على لَهف هذا التقرير، فركّزت أبصارهم في رضوان، طالبة المزيد من التأكيد، فمضى الشاب يقول:

- أوّل الشهر القادم على أكثر تقدير ...

وقال ياسين معقبًا على قول ابنه:

- إنّها وظيفة قضائية، لقد عيّن عندنا في إدارة المحفوظات شابّان من حملة الليسانس في الدرجة الثامنة بثمانية جنيهات!

وكانت خديجة هي التي طلبت من ياسين أن يكلم ابنه بشأن عبد المنعم، فقالت في امتنان:

- الشكر لله ولك يا أخي (ثمّ) وهي تلتفت إلى رضوان) وطبعًا جميل رضوان فوق رءوسنا ...

وأمن إبراهيم على قولها قائلاً:

- طبعًا، إنّهُ أخوه، ونعم الأخ.

وقالت زُئوبة باسمة، لكي تخرج من هامش الجلسة:

- رضوان أخو عبد المنعم وعبد المنعم أخو رضوان، ما في ذلك كلام.

وتساءل عبد المنعم الذي كان يشعر بحياء لم يشعر به من قبل حيال رضوان:

- أعطاك كلمة جدّيّة؟

فقال ياسين باهتمام:

- كلمة وزير! ... إنّني متبّع المسألة!

وقال رضوان:

- وأنا من ناحيتي سأدّلك لك الصعاب في إدارة المستخدمين، ولي فيهم أصدقاء كثيرون، ولو أنّ موظفي المستخدمين لا صديق لهم! فقال إبراهيم شوكت وهو يتهدّد:

- الحمد لله. لقد أراحنا الله من الوظيفة

والموظفين! ...

فقال ياسين:

- عشت ملكًا يا أبا خليل ...

ولكنّ خديجة قالت متهكّمة:

- ربّنا لا يحكم على أحد بقعدة البيت! ...

وتدخّلت زُئوبة بجمالة كعادتها، فقالت:

- في الهواء شمسًا! وإن كريمة إذ كانت ابنة زُتوبة فهي في الوقت نفسه ابنة ياسين، ومن هنا نجيء دقة المسألة! ولم يكن عبد المنعم يوفي كريمة حقها من النظر لانشغاله بموضوعه، ولكن كان يعرفها حق المعرفة، على أنه لم يكن قد برأ كل البرء من اثر وفاة زوجها، أما أحمد فلم يكن في فؤاده متسع! وقال ياسين:
- كريمة ما زالت آسفة على عدم التحاقها بالمدرسة الثانوية.
- فقال زُتوبة مقطبة:
- وأنا آسفة أكثر. . .
- فقال إبراهيم شوكت:
- إنني أشفق على البنات من جهد الدراسة، ثم إن البنات في النهاية لبيتهن، فلن يمضِ عام أو آخر حتى تزف كريمة إلى صاحب القسمة السعيد. . .
- يا مقطوع اللسان، هكذا قالت خديجة لنفسها، يفتح المواضيع الخطيرة وهو في غفلة عن نتائجها، يا له من موقف! كريمة ابنة ياسين وأخت رضوان صاحب الفضل، لعله لا يكون لهذا القلق من سبب إلا الوهم، ولكن لماذا تكثر زُتوبة من زيارتنا جارة في يدها كريمة؟ ياسين لا يسمح له وقته بالتفكير والتدبير، أما ربيبة التخت! . . .
- وقالت زُتوبة:
- هذا الكلام كان يقال في الزمن الماضي، أما اليوم فالبنات كلهن يذهبن إلى المدارس. . .
- فقال خديجة:
- في حارتنا بنات في المدارس العالية، ولكن شكلهن والعباد بالله! . . .
- فسأل ياسين أحمد:
- أليس في بنات كليتك جمال؟
- وخفق قلب أحمد، وتمثلت لعينيه الصورة المعششة في قلبه، ثم أجاب:
- حُبّ العلم ليس قاصرًا على الدميات. . .
- فقال كريمة باسمه، وهي تنظر صوب أبيها:
- المسألة تتوقف على الآباء.
- فضحك ياسين قائلاً:
- عفارم يا ابني! هكذا تتحدث البنات الطيبة عن
- أبيها، وهكذا كانت تخاطب عمّتك جدك!.
- فقال خديجة متهمّة:
- المسألة تتوقف على الآباء حقًا. . .
- فبادرتها زُتوبة قائلة:
- البنت معذورة، آه لو سمعت حديثه بين أولاده!.
- فقال خديجة:
- أنا عارفة وفاهمة! . . .
- فقال ياسين:
- أنا رجل له آراؤه في التربية، أنا الأب الصديق، لا أحب أن يرتعد أبنائي خوفًا في حضري، أنا حتى اليوم يتباني الارتباك أمام أبي! . . .
- فقال إبراهيم شوكت:
- الله يقوّيه ويصبره على قعدة البيت! السيد أحمد جيل وحده، وليس مثله أحد في الرجال. . .
- فقال خديجة منتقدة:
- قل له!.
- فقال ياسين كالمعتذر:
- أبي جيل وحده، وا أسفاه أصبح هو وأصحابه قعيدي بيوتهم، ولم تكن الدنيا لتسمعهم على رحابتها! . . .
- وكان رضوان يقول لأحمد في حديث جانبيّ مستقل:
- بدخول إيطاليا الحرب أصبح الموقف بالنسبة لمصر شديد الخطورة. . .
- ربّما تحوّلت هذه الغارات الإسميّة إلى غارات فعلية. . .
- ولكن هل لدى الإنجليز قوّة كافية لصدّ الزحف الإيطاليّ المتوقّع؟ لا شك أنّ هتلر سيرتك مهمة الاستيلاء على قناة السويس لموسوليني. . .
- فتساءل عبد المنعم:
- هل تقف أمريكا متفرجة؟
- فقال أحمد:
- مفتاح الموقف الحقيقيّ في يد روسيا!.
- لكنّها حليفة هتلر؟ . . .
- الشيوعيّة عدوّ النازيّة، ثم إن الشرّ الذي يتهدّد



التي كانت من سگان المعادي. وألقى نظرة على الحديقة فرأى مائدة طويلة ممتدة في أرض فضاء معشوشبة، تكتنفها من الجانبين أشجار الصنصناف والنخيل، وقد صُفَّت فوقها أبريق الشاي وأوعية اللبن وأطباق الحلوى. ثم سمع طالبًا يتساءل:

- نلتزم بالأداب الإنجليزية أم نقصص على المائدة كالنور؟

فأجابه آخر فيما يشبه الأسف:

- آه لو لم توجد لادي فورستر!

كان الوقت أصيلًا، ولكنَّ الجوَّ كان لطيفًا رغم شخصية يونيه الثقيلة، ثم ما لبث أن لاج السرب المنتظر عند مدخل الفيلا. جئن معًا كأنهنَّ على ميعدا، وكُنَّ أربعًا هنَّ جملة الطالبات بالقسم وبدت علوية صبري وهي تخطر في فستان ناصع البياض مهفوف، جعل من كائنها اللطيف لونًا واحدًا بديعًا فيما عدا الشعر الأسود الفاحم، وعند ذاك شعر أحمد بقدم هازئة تحتك بقدمه كأنما تنبئه إن كان في حاجة إلى من ينبئه، وكان سره قد ذاع من زمن... وتابعهنَّ حتَّى استقرَّ بهنَّ المجلس في ركن أخلي هنَّ بالفراندا، ثم جاء مستر فورستر وزوجه، وقالت الزوجة موجَّهة الخطاب إلى الطلبة، وهي تشير إلى الفتيات:

- هل تحتاجون إلى تعارف؟

فارتفع الضحك، وقال الأستاذ وكان ذا شخصية فائقة رغم مشاركته الخمسين:

- الأجدر أن تعرّفهم بي أنا!

وضجُّوا بالضحك مرّة أخرى، حتَّى عاد مستر فورستر يقول:

- في مثل هذا الوقت من كلّ عام كنّا نغادر مصر إلى إنجلترا لقضاء العطلة، هذه المرّة لا ندري إن كنّا سنرى مصر مرّة أخرى أم لا...!

فقاطعت زوجته قائلة:

- ولا حتَّى إن كنّا سنرى إنجلترا...!

وأدركوا أنها تلمح إلى خطر الغواصات، فقال لها أكثر من صوت:

- حفّ سعيد يا سيّدي...

وعاد الرجل يقول:

العالم بانتصار الألمان أضعاف ما يتهدّده بانتصار الديموقراطيات...

فقال خديجة:

- أظلموا لنا الدنيا يظلم عيشتهم، وما هذه الأشياء التي لم نعرفها من قبل؟... صفّرات إنذارا... مدافع مضادة... كشافات، مصائب تشيب الإنسان قبل الأوان!

فقال إبراهيم في سخرية هادئة:

- على أيّ حال الشيب في بيتنا ليس قبل الأوان...

- هذا عندك أنت وحدك!

كان إبراهيم في الخامسة والستين، ولكنّه يبدو بالقياس إلى السيّد أحمد - الذي لم يكن يكبره إلّا بثلاث سنوات - كأنما يصغره بعشرات السنين.

وعند انتهاء الزيارة، قال رضوان لعبد المنعم:

- زرني في الوزارة.

وكما أغلق الباب وراء الذاهبين، قال أحمد لعبد المنعم:

- خذ بالك أن تدخل عليه دون استئذان، ادرس كيف تزور سكرتير وزير!

فلم يجبه ولم ينظر ناحيته...

## ٢٩

لم يجد أحمد مشقة تُذكر في الاهتمام إلى فيلا مستر فورستر - أستاذ علم الاجتماع - بالمعادي. وقد أدرك حال دخوله أنّه جاء متأخراً بعض الوقت، وأنّ كثيراً من الطلبة الذين دُعوا مثله إلى الحفل الذي أقامه الأستاذ لمناسبة سفره إلى إنجلترا قد سبقوه إليه، واستقبله الأستاذ وحرمه، وقد قدّمه إليها باعتباره طالبًا من خير طلبة القسم، ثم مضى الشاب إلى حيث جلس الطلبة في الفراندا، كان المجلس يتكوّن من طلبة قسم الاجتماع كافّة، وكان أحمد ضمن القلة المنقولة للسنة النهائية، يشاركهم ذلك الشعور بالامتياز والتفوّق. ولم تكن واحدة من الطالبات قد حضرت، ولكنّه كان مطمئنًا إلى مجيئهنَّ، أو إلى مجيء «صديقتة»

الشاي بعد!  
ومال مستر فورستر على أذن أحمد - وكان يجلس إلى يساره - وسأله:

- كيف تمضي العطلة؟ أعني ماذا تقرأ؟  
- كثيرًا في الاقتصاد وقليلًا في السياسة، وأكتب بعض المقالات في المجالات.

- أنصحك بأن تقدّم في الماجستير بعد الليسانس.  
فقال أحمد بعد الانتهاء ممّا في فيه:  
- ربّما فيما بعد، سأبدأ بالعمل في الصحافة، هذه خطّتي من قديم.  
- حسن!

الصديقة العزيزة تحدث لادي فورستر بطلاقة، ما أسرع ما أتقنت الإنجليزية، والورد والأزهار تنضج بالحرمة والألوان كما ينضج القلب بالحبّ، في عالم الحرّيّة يزدهر الحبّ كالأزهار، الحبّ لا يكون عاطفة صحيحة طبيعيّة إلّا في بلد شيوعيّ. وقال مستر فورستر:

- من المؤسف أنّي لم أستكمل دراستي للغة العربيّة، كنت أودّ أن أقرأ مجنون ليلي دون مساعدة أحد منكم.

- المؤسف أنّك ستقطع عن دراستها...  
- إلّا إذا سمحت الظروف فيما بعد...

وربّما وجدت نفسك مضطّرّاً إلى تعلّم الألمانية، ألا يكون مضحكاً لو شهدت لندن مظاهرات تطالب بالجلاء وتهتف له؟ في أخلاق الإنجليز الشخصية فتنة، أمّا فتنة الصديقة العزيزة فمن نوع لا مثيل له، عمّا قليل تغيب الشمس فيجمعنا الليل في مكان واحد لأوّل مرّة، وإذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام عليّ! وسأل أستاذة:

- وماذا أنت فاعل عقب وصولك إلى لندن؟

- دُعيت للعمل في الإذاعة.

- إذن لن ينقطع عنّا صوتك.

«بجمالة تُغتفر في هذا المجلس الذي تزيّنه صديقتي، إنّنا لا نسمع هنا إلّا الإذاعة الألمانية، شعبنا يحبّ الألمان ولو على سبيل الكراهية للإنجليز، والاستعمار أعلى مراحل الرأسماليّة، اجتماعنا بأستاذنا يخلق موقفاً

- سأحمل معي ذكريات جميلة من حياتنا المشتركة في كلّيّة الآداب، وعن مقاطعة المعادي المهادنة الجميلة، وعنكم أنتم الذين ساعترّ حتى بهذركم!  
فقال أحمد مجاملاً:

- أمّا ذكراك فستبقى في نفوسنا دائماً، وتنمو بنمو عقولنا...

- شكرًا... (ثمّ غاطبًا وزوجه وهو يتسم)...  
أحمد شابّ جامعيّ كما ينبغي، وإن تكن له آراء ممّا تسبّب المتاعب عادة في بلده!  
فقال زميل موضحاً:  
- يعني أنّه شيوعيّ!

فرفعت السيّدّة حاجبها باسمه، أمّا مستر فورستر فقال بلهجة ذات معنى:

- لم أقل أنا ذلك، ولكنّ زميله الذي قال!  
ثمّ نهض الأستاذ وهو يقول:  
- آن وقت الشاي، يجب ألا يسرقنا الوقت، وسوف نجد بعد ذلك متنسّعاً للسمر واللهو...

وكان عمّال جروبي قد أعدّوا المائدة ووقفوا متأهّبين للخدمة... وتوسّطت لادي فورستر جانب المائدة الذي جلس إليه الفتيات، على حين توسّط الأستاذ الجانب الآخر، وهو يقول معلّقاً على نظام الجلوس:

- كنا نودّ أن تكون الجلسة أكثر اختلاطاً، ولكنّا راعينا الآداب الشرقيّة، أليس كذلك؟

فأجابه طالب بلا تردّد:

- للأسف هذا ما لإحفظناه يا سيّدي!

وصبّ الخادم الشاي واللبن وبدأت المادبة. لاحظ أحمد اختلاصاً أنّ علويّة صبري كانت أبرع زميلاتها ممارسة لآداب المائدة وأقلهنّ ارتباكاً، بدت ألفة للحياة الاجتماعيّة، كأنّها في بيتها، وشعر بأنّ ملاحظة تناوّلها للحلوى ألذّ من الحلوى نفسها، هذه صديقتة العزيزة التي تبادلته الصداقة والمودّة دون أن تشجّع على عبور حدودهما، وقال لنفسه: إن لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام عليّ! وعلا صوت لادي فورستر وهي تقول:

- أرى ألا تؤثّر قيود الحرب في تناولكم للحلوى!  
فعلّق طالب على قولها قائلاً:  
- من المصادفات السعيدة أنّ الرقابة لم تفرض على

بالتقدّم لخطبتك؟

فارتفع رأسها الجميل كردّ فعل لوقع المفاجأة، ولكن لم يندّ عنها صوت كأنها لم تجد ما تقوله، وكان الطريق خاليًا وأضواء المصابيح متوارية خلف الظلاء الأزرق، فعاد يسألها:

- أسمحين لي؟

فقلت بصوت خافت لم يخلّ من عتاب:

- هذه طريقتك في الكلام ويا لها من طريقة،

الواقع أنك أذهلتني!

فضحك ضحكة خفيفة، وقال:

- اعتذر عن ذلك، وإن كنت أظنّ أنّ تاريخ صداقتنا الطويل لا يجعل من قولي مفاجأة تذهل.

- تعني صداقتنا وتعاوننا الثقافي؟

فلم يرتح لقولها، ولكنّه قال:

- أعني عاطفتي غير الخفيّة التي اتخذت شكل الصداقة والتعاون الثقافيّ كما قلت... .

فتساءلت في صوت باسم غير خال من اضطراب:

- عاطفتك الخفيّة؟!

فقال بعناد وإخلاص:

- أعني حبّي! الحبّ لا يخفى، إنّنا عادة لا نتكلّم لنعلنه، وإنّما لتسعد بسماع إعلاننا له... .

فقلت عاطلة حتّى تستردّ هدوءها:

- الأمر كلّه مفاجأة لي... .

- يؤسفني أن أسمع هذا.

- لماذا تأسف؟ الواقع أنّي لا أدري ماذا أقول... .

ضاحكًا:

- قولي «أسمح لك» ودعي الباقي لي... .

- ولكن، ولكن... أنا لا أعرف شيئًا، معدرة، كلّنا أصدقاء حقًا ولكنك لم تحدّثني عن... ، أعني لم تسمح الظروف بأن تحدّثني عن شخصك... .

- ألم تعرفيني؟

- عرفتك طبعًا، ولكن ثمة أمور أخرى ينبغي أن

تعرف... .

أتعني هذه الأمور التقليدية؟ يا لها من أسئلة خليقة بقلب لم يأسره الحبّ! وشعر بامتعاض، بيد أنّه ازداد عنادًا فقال:

جديرًا بالتأمّل، نبرزه بالروح العلميّة ولكن ثمة ارتطام بين حبّنا لأستاذنا وبغضنا لجنسه، والمأمول أن تقضي الحرب على النازيّة والاستعمار معًا، هنالك أخلص للحبّ وحده».

ثمّ عادوا إلى مجالسهم بالفراندا التي أضيّت مصابيحها، ولم تلبث لادي فورستر أن قالت:

- إليكم البيانو فليفضّل أحدكم بإساعنا لحنا.

فرجاها طالب قائلاً:

- تفضّلي أنت بإساعنا... .

فنهضت في رشاقة الشباب الذي جاوزته بأعوام، ثمّ جلست إلى البيانو وفتحت النوبة وراحت تعزف لحنا، لم يكن أحد منهم ذا إلمام بالموسيقى الغربيّة أو تذوّق لها، ولكنهم أنصتوا في اهتمام بدافع الأدب والمجاملة. وحاول أن يستمدّ من حبّه قوّة سحرية يفتح لها مغاليق اللحن، ولكنّه نسي اللحن في استراق النظر إلى وجه فتاته، والتفت عنهما مرّة، فتبادلا ابتسامة لم تغب عن كثيرين، وفي نشوة الفرحه قال لنفسه: «أجل، إذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام عليّ»، وعلى أثر فراغ لادي فورستر من عزفها، عزف طالب لحنا شرقيا، ثمّ خلصوا للسمر وقتًا غير قصير، وحوالي الساعة الثامنة مساء ودّعوا أستاذهم وأخذوا في الانصراف. ولبد أحمد عند منخرج طريق في ليل بالغ في جماله وحنانه، تحت مظلة من الأشجار الباسقة، حتّى رآها قادمة وحيدة في طريقها إلى مسكنها، فبرز لها من المنعطف قاطمًا عليها الطريق، فتوقّفت في دهش وقالت:

- ألم تذهب معهم؟

فنفخ فيها يشبه التتهّد ليخفّف صدره من جيشانه، وقال بهدوء:

- تخلّفت عن القافلة لأقابلك!

- ترى ماذا يظنّون بتخلّفك؟

فقال باستهانة:

- هذا شأنهم!

وسارت في ببطء وسار إلى جانبها، ثمّ تمخّض صبر الأيام الطويلة عنه وهو يقول:

- أريد أن أسألك قبل عودتي: هل تسمحين لي

متفقون على هذا، لن أشتغل.  
 وكان قد بردت عواطفه واستغرقه البحث، فقال:  
 - ليكن، أشتغل أنا...  
 فقالت بصوت كأنها تعمدت أن يكون رقيقاً فوق  
 العادة:  
 - أستاذ أحمد، فلنؤجل الحديث، أعطني مهلة  
 للتفكير...  
 فضحك ضحكة فاترة، وقال:  
 - قلبنا الأمر على كافة وجوهه، ولكّثك في حاجة  
 إلى مهلة لتدبّري الرفض!  
 فقالت بصوت حيي:  
 - ينبغي أن أحادث والدي.  
 - هذا بدهي، ولكن كان من الممكن أن تنتهي إلى  
 رأي قبل ذلك!  
 - مهلة ولو قصيرة!...  
 - نحن في يونيه، وستسافرين إلى المصيف، ولن  
 نلتقي إلّا في أكتوبر القادم في الكلية؟!  
 قالت بإصرار:  
 - لا بدّ من مهلة للتفكير والتشاور!  
 - إنك لا تريدين أن تتكلّمي...  
 وإذا بها تتوقّف عن المسير فجأة، وتقول في دأب  
 وعزم معاً:  
 - أستاذ أحمد، إنك تأبى إلّا أن تحملي على  
 الكلام، أرجو أن تتقبّل كلامي بصدر سمح، لقد  
 فُكّرت في موضوع الزواج من قبل كثيراً، لا بالقياس  
 إليك ولكن بصفة عامة، وانتهيت منه - ووافقي على  
 ذلك والدي - بأنّ حياتي لن تستقيم، وإنّي لن أحافظ  
 على مستواي، إلّا إذا تمّ لي ما لا يقلّ عن خمسين  
 جنيهًا شهريًا...  
 وتجرّع خيبة مريرة لم يتوقّع - على أسوأ الفروض -  
 أن تبلغ مرارتها هذه الدرجة، وتساءل:  
 - وهل يملك موظّف - أعني في سنّ الزواج - هذا  
 المرتّب الضخم؟  
 ولكنّها لم تنبس، فعاد يقول:  
 - إنك تريدين زوجًا ثريًا!  
 - أسفة جدًّا، ولكنك أجبرتني على مصارحتك برأيي.

- سيجيء كلّ شيء في حينه...  
 فتساءلت، وكانت قد ملكت زمام نفسها:  
 - ليس الآن حينه؟  
 فابتسم ابتسامة فاترة، وقال:  
 - لك حقّ، تعنين المستقبل؟  
 - طبعًا!  
 وأحففته «طبعًا». أمل أن يسمع أغنية فسمع  
 محاضرة معادة! ولكن يجب إلّا تخونه ثقته في نفسه  
 مهما يكن الأمر. العزيزة الباردة لا تدري كم يسعده  
 إيساعدها!.  
 - سأجد بعد تخرّجي عملاً...  
 ثمّ بعد لحظات من الصمت:  
 - وسيكون لي يومًا دخل لا بأس به!  
 فتمتعت في حياء:  
 - كلام عام...  
 فقال وهو يداري ألمه بالهدوء:  
 - سيكون المرتّب في الحدود المعروفة، أمّا الدخل  
 فحوالي عشرة جنيهات...  
 وساد الصمت. لعلّها ترن الأمور وتفكر. هذا هو  
 التفسير المادّي للحبّ! كان يحلم بالجنون العذب  
 ولكن أين منه هذا؟! هذا البلد عجيب يندفع في  
 السياسة وراء العاطفة، ويتبع في الحبّ دقّة  
 المحاسين. وأخيرًا جاء الصوت الرقيق قائلاً:  
 - لنُدع الدخل جانبًا، فلا يجمل أن ترتّب حياتك  
 على أساس تقدير اختفاء الأعرّاء من حياتك...  
 - أردت أن أقول لك إنّ والدي من ذوي  
 الأملاك...  
 فقالت بجهد برّ فترة التردّد التي سبقته:  
 - فلنكن واقعيّين...  
 - قلت إنّني سأجد عملاً، وستجدين من ناحيتك  
 عملاً أيضًا...  
 فضحكت ضحكة غريبة:  
 - كلّ لن أشتغل، لم أذهب إلى الجامعة لأتوظّف  
 كسائر الزميلات...  
 - ليس العمل عيبًا...  
 - طبعًا، ولكنّ والدي... الواقع أنّنا جميعًا

فقال بصوت غليظ:

- هذا أفضل على أي حال...

فعدت تغنم:

- أسفة!...

ونار غضبه، ولكنه بذل جهداً صادقاً كيلا يخرج  
عن حدود الأدب، ثم وجد رغبة لا تقاوم في أن  
يصارحها برأيه فتساءل:

- أسمح لي أن أصارحك برأيي؟

فبادرت قائلة:

- كلا، إني أعرف الكثير عن آرائك، وأرجو أن  
يبقى صديقين كما كنا!...

ورثي رغم غضبه لحالها، هذه هي الحقيقة العارية  
قبل أن يلففها الحب. التي تهرب مع خادمها امرأة  
طبيعية وإن عدت - بعين التقاليد - شاذة. في المجتمع  
المختل يبدو الصحيح مريضاً والمريض صحيحاً، إنه  
غاضب ولكن تعاسته أكبر من غضبه، إنها على أي  
حال تمسك برأيه وفي هذا عزاء، ومدت يدها  
للمصافحة فتلقاها بيده، ثم أبقاها فيها حتى وسعه أن  
يقول:

- قلت إنك لم تدخلي الجامعة لتتوظفي، قول جميل  
في ذاته، ولكن إلى أي مدى انتفعت بالجامعة؟

وارتفع ذهنها كالمثسالة، لكنه قال بلهجة لم تخل من  
سخرية:

- معذرة عن سخاوتي، لعل المسألة أنك لم تحبي  
بعد، مع السلامة...

ودار على عقبه، ثم ولّى مسرعاً.

٣٠

قال إسماعيل لطيف:

- لعلّي أخطأت بحمل زوجي إلى القاهرة كي تلد  
فيها، كل ليلة تنطلق صفارة الإنذار، أما طنطا فلم  
نكن نعرف شيئاً عن أهوال هذه الحرب.

فقال كمال:

- إنها غارات رمزية لو أرادوا بنا شراً ما منعهم  
قوة!

فضحك رياض قلديس، وقال مخاطباً إسماعيل  
لطيف، وكانت هذه ثاني مقابلة بينهما في مدى تعارف  
عام:

- أنت مخاطب رجلاً لا يشعر بمسئولية الزوج!

فسأله إسماعيل متهمكاً:

- وهل تشعر بها أنت؟

- حقاً أنا أعزب مثله، غير أنني لست عدواً  
للزواج...

كانوا يسرون في شارع فؤاد الأول، في مطلع  
الليل، في ظلام لم تخففه الأضواء الضئيلة التي تنسرب  
من أبواب المحال العامة، وكان الشارع رغم ذلك  
مكتظاً بالنساء والرجال والجنود البريطانيين على  
اختلاف أنواعهم. وكان الخريف يبعث أنفاساً رطبة،  
ولكن أكثر الناس مضوا في الملابس الصيفية. ونظر  
رياض قلديس إلى جماعة من الجنود الهنود وقال:

- من المحزن أن يبتعد الإنسان عن وطنه هذه  
المسافة المديدة، ليقتل في سبيل غيره!

فقال إسماعيل لطيف:

- ترى كيف يتأق لهذا التعساء أن يضحكوا؟!

فقال كمال ممتعضاً:

- كما فضحك نحن في هذه الدنيا الغريبة، الخمر  
والمخدرات والياس.

فضحك رياض قلديس قائلاً:

- إنك تعاني أزمة فريدة، كل ما عندك مززعج  
الأركان، عبث وقبض الريح، نضال اليم مع أسرار  
الحياة والنفس، وملل وسقم، إني أرثي لك.

فقال إسماعيل لطيف ببساطة:

- تزوج، إني مررت بهذا الملل قبل زواجي...

فقال رياض قلديس:

- قل له!...

فقال كمال، وكأنما يخاطب نفسه:

- الزواج هو التسليم الأخير في هذه المعركة  
الفاشلة...

وأخطأ إسماعيل في المقارنة، لأنه حيوان مهذب،  
ولكن مهلاً لعله الغرور، فيم الغرور وأنت ترقد فوق  
نل من الحية والفشل، إسماعيل لا يدري شيئاً عن

يتضاعف شقاء العالم تحت أقدامها الحديدية...  
فقال إسماعيل:  
- ليكن ما يكون، المهم أن نرى الإنجليز في نفس  
الموضع الذي فرضوه على العالم الضعيف...  
وقال كمال:

- ليس الألمان بخير من الإنجليز...  
فقال رياض قلدس:  
- ولكننا انتهينا مع الإنجليز إلى برّ، والاستعمار  
البريطاني يوغل في الشيوخوخة، ولعله قد تلطّف ببعض  
المبادئ الإنسانية، ولكننا سنتعامل غداً مع استعمار فتيّ  
مغرور شرّه غنى حرب، فما العمل؟  
فضحك كمال ضحكة تحمل نعمة جديدة، وقال:  
- نشرب كأسين ونحلم بعالم واحد تسيطر عليه  
حكومة واحدة عادلة...  
- سنحتاج حتّى إلى أكثر من كأسين...

ووجدوا أنفسهم أمام حانة جديدة لم يروها من  
قبل، لعلّها من الحانات «الشيطنية» التي تخلفها ظروف  
الحرب بين يوم وليلة، وحانت من كمال نظرة إلى  
داخلها فرأى امرأة بيضاء ذات جسم شرقيّ تقوم على  
إدارة الحانة، ثمّ جدت قدماء فلم يتحرّك من موقفه،  
أو بالأحرى لم يستطع أن يتحرّك حتّى اضطرّ صاحبا  
أن يتوقّفا عن المسير وينظرا إلى حيث ينظر...  
مريم! لم تكن إلّا مريم دون غيرها، مريم الزوجة  
الثانية لياسين، مريم جارة العمر، في هذه الحانة بعد  
اختفاء طويل، مريم التي ظنّ بها أنّها لحقت  
بأمّها...  
- أتريد أن تجلس ها هنا؟ هلمّ فليس بالداخل  
إلّا أربعة جنود...  
وتردّد مليّاً، ولكنّ شجاعته لم تواته فقال ولما يفق  
من ذهوله:

- كلّا...

وألقى نظرة على المرأة التي ذكّرت به أمّاها في أيّامها  
الأخيرة، ثمّ انطلقوا في طريقهم، متى رآها آخر  
مرّة؟ منذ ثلاثة أو أربعة عشر عاماً على الأقلّ، إنّها  
معلم من معالم الماضي الذي لا يُنسى، ماضيه...  
تاريخه... ماهيته... كلّ أولئك شيء واحد، وقد

دنيا الفكر، ولكنّ السعادة المستمّدة من العمل  
والزوجة والأولاد، أليست سعادة جديدة بأن تسخر من  
احتقارك لها؟ قال رياض:

- إذا قرّرت يوماً أن أوّلّف رواية، فستكون أحد  
أبطالها!

فأثّبه كمال نحوه في اهتمام صبيانيّ، وسأله:

- ماذا ستصنع منّي؟  
- لا أدري، ولكن ينبغي أن توطّن نفسك على ألا  
تزعل، فإنّ كثيرين ممّن قرأوا أنفسهم في أقاصيصي قد  
زعلوا...  
- لماذا؟...

- لعله لأنّ لكلّ إنسان فكرة عن شخصه من خلقه  
هو، فإذا جرّده الروائيّ منها أبى وغضب...  
فتساءل كمال في قلبي:

- أليدك فكرة عنيّ غير ما تعلن؟

فبادره في تأكيد قائلاً:

- كلّاً، ولكنّ الروائيّ قد يبدأ من شخص ثمّ ينسأه  
كلّيّة وهو بصدد خلق نموذج بشريّ جديد، لا صلة  
بينه وبين الأصل إلّا الإيماء، وإنّك توحى إليّ  
بشخصيّة الرجل الشرقيّ الحائر بين الشرق والغرب،  
الذي دار حول نفسه كثيراً حتّى أصابه الدوار.  
«يتكلّم عن الشرق والغرب، ولكن من أين له أن  
يعرف عابدة؟» قد تكون التعاسة متعدّدة الجوانب.

وقال إسماعيل لطيف في بساطة مرّة أخرى:

- طول عمرك تخلق لنفسك المتاعب، الكتب في  
نظري أساس بلواك، لماذا لا تجرّب الحياة الطبيعيّة؟  
وبلغوا في مسيرهم منعطف عماد الدين فبالوا إليه،  
وقد اعترضهم جماعة كبيرة من الإنجليز فتفادوا منها،  
وقال إسماعيل لطيف:

- إلى جهنّم، من أين لهم بهذا الأمل؟ ترى هل  
يصدّقون أنفسهم؟

فقال كمال:

- يجنّ إلى أنّ نتيجة الحرب قد تقرّرت غايتها  
الربيع القادم...

فقال رياض قلدس ممتعضاً:

- النازيّة حركة رجعيّة غير إنسانيّة، وسوف

فقال له كمال مداعبًا:  
 - قد لا تتمكّن من العيث بشخصي في روايتك...  
 فضحك ضحكة عصبيّة وقال وهو يرمي إلى  
 الناس:  
 - البشريّة ممثلة بنسبة عادلة في هذا المخبأ...  
 فقال كمال متهكّجًا:  
 - لو اجتمعوا على خير كما يجتمعون على  
 الخوف!...  
 وهتف إساعيل مترفّفًا:  
 - زمان زوجي نازلة على السلم تنلمس طريقها في  
 الظلام، إني أفكر جدّيًا في العودة إلى طنطا غدًا...  
 - إن عشنا.  
 - مساكين حقًا أهل لندن!  
 - لكنهم أصل البلاء كله...  
 وكان وجه رياض قلّس يزداد شحوبًا، ولكنّه  
 دارى اضطرابه بالكلام فسأل كمال:  
 - سمعتك تتساءل مرّة أين محطة الموت لأغادر  
 مركبة الحياة المملّة، فهل يهون عليك أن تنسفنا قنبلة  
 الآن؟  
 فابتسم كمال، وكان يرهف السمع في قلق متزايد  
 متوقّعًا بين لحظة وأخرى أن ينطلق مدفع فيصكّ  
 الأذان، وأجاب:  
 - كلّ... (ثمّ كالمستأثّر)... لعلّه الخوف من  
 الألم؟  
 - أم ثمة أمل غامض في الحياة ما زال يضطرب في  
 أعماقك؟  
 لماذا لم ينتحر؟ ولم يبدو ظاهر حياته كأنّما يمتلئ  
 حماسًا وإيمانًا؟ طالما نازعته النفس إلى النقيضين: وكر  
 الشهوات والتصوّف، ولكنّه لم يكن ليطبق حياة  
 خالصة للدعة والشهوات، ومن ناحية أخرى كان ثمة  
 شيء في أعماقه ينفر من فكرة السليبيّة والهروب،  
 ولعلّه - هذا الشيء - الذي حال بينه وبين الانتحار،  
 وفي ذات الوقت فإنّ استمساكه بحبل الحياة المضطرب  
 في يديه مناقض لصميم شكّه القاتل، والخلاصة في  
 كلمتين: حيرة وعذاب!  
 وفجأة انطلقت المدافع كالطرر، لا تتيح للصدر

استقبلته في قصر الشوق في آخر زيارة لهذا البيت قبل  
 طلاقها، وما زال يذكر كيف شكت إليه اعوجاج أخيه  
 وارتداده إلى حياة العريضة والمجنون، شكوى لم يكن  
 يقدر عواقبها وقد انتهت بها إلى ذلك الدور الذي تلعبه  
 في هذه الحانة «الشيطانيّة»، ومن قبل ذلك كانت كريمة  
 السيّد محمّد رضوان، وكانت صديقته وملهمه أحلامه  
 في الصبا الأوّل، في ذلك الزمان الذي شهد البيت  
 القديم عامرًا بالأفراح والسلام، كانت مريم وردة  
 وكانت عائشة وردة ولكنّ الزمن عدوّ للدود للورود،  
 وربّما كان من المحتمل أن يعثر عليها في بيت من هذه  
 البيوت كما عثر بالسّت جليّة، ولو وقع هذا لكان وجد  
 نفسه في مأزق وأيّ مأزق، هكّذا بدأت مريم  
 بالإنجليز وانتهت بالإنجليز...  
 - أتعرف هذه المرأة؟  
 - نعم...  
 - كيف؟  
 - امرأة من هاتيك النسوة، ولعلّها نسيته!...  
 - أوه، الحانات ملأى بهنّ، مومسات قديمات،  
 وخادعات متمرّدات، ومن كلّ لون...  
 - نعم...  
 - ولم تَدْخُل فلعلّها كانت ترحّب بنا لإكرامًا  
 لك...؟  
 - لم نعد في طور الشباب ولدينا أماكن أفضل...  
 تقدّم به العمر وهو لا يدري، منتصف الحلقة  
 الرابعة، وكأنّما قد استهلك نصيبه من السعادة، وإذا  
 قارن بين تعاسته الراهنة وتعاسته الماضية لم يدر أيّهما  
 أشدّ، ولكن ماذا يهّم العمر وقد ضاق بالحياة؟ حقًا إنّ  
 الموت لذّة الحياة، ولكن ما هذا الصوت؟  
 - غارة!...  
 - أين نذهب؟...  
 - إلى مخبأ قهوة ركس...  
 لم يجدوا في المخبأ مكانًا خاليًا للجلوس فوقفوا،  
 وكان ثمة أفنديّة وخواجهات وسيّدات وأطفال، وكان  
 الكلام يدور بشقّي اللغات واللهجات. وأصوات  
 رجال المقاومة المدنيّة في الخارج تهتف «أطفئ النور»،  
 وبدا وجه رياض شاحبًا، وكان يمقت دويّ المدافع،

متفئساً، وزاغت الأبصار، وضلّت اللسن، ولكنّ الضرب لم يستمرّ أكثر من دقيقتين بالحساب الزمنيّ، وتوقّع الناس عودة بغیضة إلى الدويّ المرعب، واستبدّ الفزع بالنفوس، غير أنّ الصمت ساد وعمق، وتساءل إسماعيل لطيف:

- إني أتخيل حال زوجي الآن، ترى متى تنتهي الغارة؟

فتساءل رياض قلّس:

- متى تنتهي الحرب؟

وما لبث أن انطلقت صفارة الأمان فنذّ عن المخبأ تنهّد عميق، وقال كمال:

- ليست إلّا مداعة إيطالية!...

وغادروا المخبأ في الظلام كاخفافيش، ولفظت الأبواب أشباحاً وراء أشباح، ثمّ تساقط الضوء الباهت متتابعاً من النوافذ، وملأت الضجة الأركان... يبدو أنّ الحياة - في هذه اللحظة السريعة المعتمة - ذكّرت كلّ غافل بمدى قيمتها الذي لا يُقاس به شيء في الوجود...

### ٣١

اتخذ البيت القديم مع الزمن صورة جديدة تنذر بالانحلال والتدهور. انفرط نظامه وتقوّض مجلسه، وكان النظام والمجلس روحه الأصيل. ففي نصف النهار الأوّل يغيب كمال في المدرسة، وتقضي أمينة إلى جولتها الروحية ما بين الحسين والسيدة، وتنزل أم حنفي إلى حجرة الفرن، ويتمدّد السيّد على الكنبه في حجرته أو يجلس على كرسيّ في المشربية، وتهميم عائشة على وجهها ما بين السطح وحجرتها، ويظلّ الراديو في الصالة يهتف وحده، وعند الأصيل تجتمع أمينة وأمّ حنفي في الصالة، وتلبث عائشة في حجرتها، أو تمكث معها بعض الوقت ثمّ تذهب، أمّا السيّد فلا يغادر حجرته، وكمال إن عاد من الخارج مبكراً فليكي يقبع في الدور الأعلى في مكتبه. وكان اعتكاف السيّد أوّل الأمر محزناً، ثمّ صار عادة عنده وعند الآخرين، وكان حزن عائشة مفاجئاً ثمّ صار عادة عندها وعند

الآخرين، وما زالت أمينة أوّل من يستيقظ، فتوقظ بدورها أم حنفي، ثمّ تتوضأ وتصلّي، وتهض أمّ حنفي - وكانت نسيّاً خير الجميع صحّة - فتقصد حجرة الفرن، وتفتح عائشة عينين ثقيلتين فتقوم لتحسو أقذاح القهوة تباغاً وتحرق السجائر الواحدة تلو الأخرى حتّى إذا دُعيت للفطور تناولت لقيات. وقد اضمحلّت أيّما اضمحلال، وانقلبت هيكلًا عظيمًا كسيّ جلدًا باهتًا، وأخذ شعرها في السقوط حتّى اضطرّت إلى اللجوء إلى الطبيب قبل أن يدركها الصلع، وتكالبت عليها العلل حتّى أشار عليها الطبيب بالتخلّص من أسنانها، فلم يبق من شخصها القديم إلّا الاسم. ولم تكن أقفّلت عن عادة النظر في المرأة، لا لتأخذ زينة، ولكن بحكم العادة من ناحية، وللامعان في الحزن من ناحية أخرى، وربّما بدت أحياناً وكأنّها أذعنّت للمقادير في استسلام لطيف، فتطيل من جلستها مع أمّها، وتشارك في الحديث الدائر، وربّما افترت شفتاها الذابلتان عن ابتسامة، أو تزور والدها لتسأل عن صحّته، أو تتمشّي في حديقة السطح وترمي بالحبّ إلى الدجاج، هناك تقول أمّها برجاء:

- كم أسعدت قلبي يا عائشة، ليتني أراك دائماً على

هذه الحال!

على حين تحفّف أمّ حنفي عينها قائلة:

- فلنذهب إلى حجرة الفرن لنصنع شيئاً جيلاً!

ولكن عند منتصف الليل استيقظت أمّها على صوت بكاء آت من حجرتها، فهرعت إليها مخاذرة أن توقظ الرجل النائم، فوجدتها جالسة في الظلام تتحبّب، ولما شعرت بدنو أمّها تعلّقت بها هاتفة:

- لو تركت لي ما كان في بطنها! ظلّاً منها يداي فارغتان، والدنيا لا شيء فيها...

فاحتضنتها أمّها وهي تقول:

- إني أعلم الناس بحزنك، حزن يجلّ عن العزاء،

ليتني كنت فداهم، ولكنّ الله جلّ وعلا حكمته، وما جدوى الحزن يا مسكينة؟!...

- كلّما نمت حلمت بهم، أو حلمت بالحياة

الأولى...



- وحّدي الله، ذقت ما تعانين طويلاً، أنسيت فهمي؟ ولكنّ المؤمن أَلصَّاب مطالب بالصبر، أين إيمانك؟  
فهتفت في امتعاض:  
- إيماني!...  
- نعم، اذكري إيمانك، وتوسّلي إلى ربّك تنزل عليك الرحمة من حيث لا تدريين...  
- الرحمة!... أين الرحمة أين؟  
- رحمتي وسعت كلّ شيء، طاوعيني وتعالى معي إلى الحسين، ضعي يدك على الضريح واتلي الفاتحة تتحوّل نارك إلى برد وسلام كنار سيّدنا إبراهيم...  
ولم يكن موقفها حيال صحتها دون ذلك اضطراباً، فحينئذ تتردّد على الأطباء في مثابة وانتظام حتى يظنّ بها العودة إلى الاستمساك بأهداب الحياة، وحينئذ تحمل نفسها وتزدرى كافّة النصائح لدرجة الانتحار. أمّا زيارة القرافة فهي التقليد الوحيد الذي لم تشدّ عنه مرّة واحدة، وكانت تنفق فيها بسخاء وتهبها عن طيب خاطر كلّ ما ملكت يمينها من ميراث زوجها وابنتها حتّى استحال حول المقبرة حديقة غناء موشاة بالأزهار والرياحين. ويوم جاءها إبراهيم شوكت لإتمام إجراءات الميراث ضحكت ضحكة مجنونة وقالت لأُمّها:  
- هنيئني على ميراثي من نعيمة...  
وكان كمال يمسّ بها كلّما أنس منها استقراراً، فيجالسها مليّاً ملاطفاً متودّداً. كان يتأمّلها طويلاً صامتاً، ويتخيّل محزوناً الصورة الذاهبة التي أبدع الله صنعها، ثمّ يتفحص ما آلت إليه. لم تكن هزيلة فحسب، ولا مريضة فحسب، ولكن محزنة بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معنى، ولم يغب عنه ما بينها من أوجه الشبه في الحظّ، فهي قد فقدت ذريّتها وهو قد فقد آماله، وانتهت إلى لا شيء كما انتهى إلى لا شيء، بل كان أبناؤها لحماً ودماً أمّا آماله فكانت كذباً وأوهاماً! وقال لهم يوماً:  
- ليس من الأفضل أن تذهبوا إلى المخبأ إذا أطلقت صفّارة الإنذار؟  
فقالت عائشة:

- لن أغادر حجرتي...

وقالت الأم:

- إنّها غارات أمانة ومدافع كالصواريخ...

أمّا أبوه فجاء صوته من الداخل وهو يقول:

- لو أنّ بي قدرة على الذهاب إلى المخبأ لذهبت إلى

الجامع أو إلى بيت عمّده عفت...

ويومًا جاءت عائشة من السطح مهرولة وهي تلهث وقالت لأُمّها:

- حدث شيء عجيب!...

فنظرت إليها أمّها في استطلاع مشوب بالرجاء، فعادت تقول وهي ما تزال تلهث:

- كنت في السطح أراقب غروب الشمس، وكنت على حال من اليأس لم أشعر بمثلها من قبل، وفجأة فتحت في السماء نافذة من نور بهيج فصحت بأعلى صوتي «يا ربّ».

اتّسعت عينا الأمّ في تساؤل، أهي الرحمة المنشودة أم هاهوية جديدة من الأحزان؟ وتمتمت:

- لعلّها رحمة ربّنا يا ابنتي!...

فقالت ووجهها يتهلّل بشرّاً:

- نعم، صحت يا ربّ، وكان النور يملأ الدنيا...  
وراحوا جميعاً يفكّرون في الأمر ويراقبون الحال في قلق بالغ. أمّا عائشة فكانت تقف الساعات بموقفها من السطح مترقّبة النور أن يومض مرّة أخرى، حتّى قال كمال لنفسه «ترى أهي النهاية التي يهون إلى جانبها الموت؟» ولكن من حسن الحظّ - حفظ الجميع - أنّها تناسّت الأمر مع الأيام ولم تعد تذكره، ثمّ لم تزل توغل في دنيا خاصّة خلقتها لنفسها، وعاشت فيها وحدها، وحدها سواء أكانت منفردة في حجرتها أو جالسة بينهم، إلّا ساعات متباعدة تثوب فيها إليهم كالعائلة من سفر، ثمّ لا تلبث أن تواصل الرحيل. والتصقت بها عادة جديدة هي محادثة نفسها، خاصّة حين انفرادها، وشدّ ما أثارت بذلك القلق، غير أنّها كانت تخاطب أمواتاً وهي مدركة لحال موتهم، ولم تتخيّل أمواتاً أو أشباحاً، وفي ذلك كان عزاء المحيطين بها...

وكان كمال يمسّ بها كلّما أنس منها استقراراً، فيجالسها مليّاً ملاطفاً متودّداً. كان يتأمّلها طويلاً صامتاً، ويتخيّل محزوناً الصورة الذاهبة التي أبدع الله صنعها، ثمّ يتفحص ما آلت إليه. لم تكن هزيلة فحسب، ولا مريضة فحسب، ولكن محزنة بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معنى، ولم يغب عنه ما بينها من أوجه الشبه في الحظّ، فهي قد فقدت ذريّتها وهو قد فقد آماله، وانتهت إلى لا شيء كما انتهى إلى لا شيء، بل كان أبناؤها لحماً ودماً أمّا آماله فكانت كذباً وأوهاماً! وقال لهم يوماً:  
- ليس من الأفضل أن تذهبوا إلى المخبأ إذا أطلقت صفّارة الإنذار؟  
فقالت عائشة:

طريقه إلى مخدعه، هكذا انطوى حبيب العمر. وعليّ  
عبد الرحيم الذي احتضر ثلاثة أيام كاملة، سعال حادّ  
مقطع حتّى فزعنا إلى الله أن يحسن خاقته ويرميه من  
الأم، واختفى من دنياي أليف الروح عليّ عبد  
الرحيم، وقد ودّع هذين الحبيين أمّا إبراهيم الفار فلم  
يودّعه، كان اشتداد المرض قد أقعده في فراشه ومنعه  
عن عيادته فنعاه إليه خادمه، وحتّى الجنازة لم يشيّعها  
فشيّعها عنه ياسين وكمال. فللى رحمة الله يا الطفل  
الناس طرأ، ومن قبل هؤلاء مات حميدو والحزواوي  
وعشرات من المعارف والأصحاب، تركوه وحيداً كأنه  
لم يعرف من الناس أحداً، لا زائر له ولا عائده،  
وجنازته لن يشيّعها صديق، حتّى الصلاة حيل بينه  
وبينها، وهل يتمتّع بالطهر إلّا ساعات عقب استحمام  
لا يجود به أولياء الأمر إلّا مرّة كلّ أشهر؟ فحرم من  
الصلاة وهو أشدّ ما يكون حاجة إلى مناجاة الرحمن في  
هذه الوحدة الموحشة. هكذا تمضي الأيام، الراديو  
يتكلّم وهو يسمع، وأمينة تذهب وتجيء، وشدّ ما  
ركبها الوهن، غير أنّها لم تعد الشكوى، إنّها مرّضته  
وأخوف ما يخاف أن تحتاج غداً إلى من يرضعها، وهي  
كلّ ما بقي له، أمّا ياسين وكمال فيمكنان عنده ساعة  
ثمّ يذهبان، ودّ لو لم يفارقاه، ولكنّها أمانة لا يستطيع  
أن يعلنها ولن يستطيع أن يحقّقها، أمانة وحدها التي  
لا تمّله، وإذا ذهبت لزيارة الحسين فلكي تدعو له،  
والعالم بعد ذلك فراغ. وإنّ يوم زيارة خديجة له ليوم  
يستحقّ الانتظار، تحيى وفي صحبتها إبراهيم شوكت  
وعبد المنعم وأحمد، فتمتلىّ الحجرة بالأحياء وتبتدّد  
وحشتها، وقليلاً ما يتكلّم هو أمّا هم فيتكلّمون كثيراً،  
ومرّة خاطبهم إبراهيم قائلاً: «أريحوا السيّد من  
ثرثرتك»، فقال له معاتباً: «دعهم يتكلّموا... أريد  
أن أسمعهم!». ودعا لابنته بالصحة وطول العمر ودعا  
لزوجها وابنيها، وكان يعلم بأنها تودّ لو تسهر على  
راحته بنفسها، وكان يطالع في عينيها حناناً ما وراءه  
حنان، ويوماً سأل ياسين في شوق واستطلاع باسماً:

- أين تمضي سهراتك؟

فقال في حياء:

- اليوم الإنجليز في كلّ مكان كأيام زمان...

ما أقسى البرد هذا الشتاء! يذكرّ بشتاء قديم ظلّ  
الناس يؤرّخون به جيلاً، شتاء أيّ عام يا ترى؟ ربّاه  
أين الذاكرة التي تعي ذلك أين؟ غير أنّ القلب  
العجوز يحنّ إليه في مجهوله، فهو جزء من الماضي الذي  
تمتّج ذكره الدموع في مكانها، الماضي الذي كان  
يستيقظ فيه مبكراً فيستحمّ تحت الدشّ غير مبالٍ برد  
الشتاء ثمّ يملاّ بطنه وينطلق إلى دنيا الناس، دنيا  
الحركة والحريّة التي لا يعرف اليوم عنها شيئاً اللهمّ إلّا  
ما يجود به الرواة، وكأنّهم يحدثون عن عالم في أقصى  
الأرض. كانت له الحريّة والقدرة على أن يجلس على  
الكنبة في الحجرة أو على الكرسيّ في المشيئة وكان مع  
ذلك يضيق بسجن البيت، وكان يذهب حين الحاجة  
إلى الحثام أو يغيّر ملابسه بنفسه ومع ذلك لعن قعدة  
البيت، وكان له يوم في الأسبوع يستطيع أن يغادر  
البيت متوكّئاً على عصاه أو راكباً عربية فيزور الحسين أو  
بيت أحد الأصدقاء ومع ذلك فظالماً دعا الله أن ينقذه  
من محبس البيت. أمّا اليوم فلم يسعه أن يغادر  
الفراش، ولم تعد حدود عالمه تجاوز أطراف هذه  
الحشّية، حتّى الحثام يجيء إليه ولا يذهب هو إليه،  
قدارة لم تكن في الحسبان، حتّى استقرّ الامتعاض على  
شفتيه، وأسكنت المرارة في لعابه، على هذه الحشّية  
يرقد نهاراً وينام ليلاً ويتناول طعامه ويقضي حاجته.  
وهو من كان يُضرب بأناقته المثل ويسير الشذا الطيّب  
بين يديه، وفي هذا البيت الذي استكان عمره لإرادته  
المطلقة غداً ينظر فلا يلقى إلّا نظرات الرثاء أو يرجو  
فيعاتب كالأطفال، وذهب الأحباب في فترات متقاربة  
من الزمن كأنّهم كانوا على ميعاد، ذهبوا وتركوه  
وحيداً، عليك رحمة الله يا محمّد يا عفت، كان آخر  
العهد به سهرة من ليالي رمضان في السلامك المطلّ  
على الحديقة، ثمّ ودّعه ومضى وضحكته العالية توصله  
إلى الباب، وما كاد يأوي إلى حجرته حتّى طرق الباب  
طارق وهرع إليه رضوان وهو يقول «جدي مات يا  
جدي»، يا سبحان الله... متى؟ وكيف؟...  
لم يضحكنا منذ دقائق؟ ولكنّه سقط على وجهه وهو في

أن يكون مدرّساً أعزب «قعيداً مقطوعاً» في حجرته. وكان يتجنّب أن يتقل عليه بسيرة الزواج أو الدروس الخصوصية، كما كان يدعو الله أن يكفيه مدّخره من النقود حتّى الرمق الأخير كيلا يكون يوماً عالة عليه، ويوماً سأل:

- هل تعجبك هذه الأيام؟

فابتسم كمال ابتسامة حائرة، وتردّد في الجواب، فاستطرد الرجل قائلاً:

- الأيام الحقيقية كانت أيامنا! كانت يسراً ورجداً، وصحةً وعافية، شهدنا سعد زغلول، وسمعنا سي عبده، ماذا في أيامكم؟!

فأجاب كمال مأخوذاً بتداعي معاني الحديث فحسب:

- لكلّ زمان محاسنه ومعايبه...

فهزّ الرجل رأسه المسند إلى مخدّة مكسورة وراء ظهره وقال:

- كلام يقال ليس إلّا...

ثمّ بعد فترة صمت ودون تمهيد:

- عجزى عن الصلاة يحزّ في نفسي حزاً، فالعباد عزاء الوحدة، ومع ذلك تمرّ بي أوقات غريبة أنسى فيها كآفة وجوه الحرمان التي أعانيها من مأكّل ومشرب وحرّيّة وعافية، تصفو نفسي صفاء عجيباً حتّى يخيّل إليّ أنّي متّصل بالسّاعات، وأنّ ثمة سعادة مجهولة تزري بالحياة وما فيها...

فتمتم كمال:

- ربّنا يمدّ في عمرك ويردّ إليك العافية...

فهزّ رأسه مرّة أخرى في استسلام، وقال:

- هذه ساعة طيبة، لا ألم في الصدر، ولا ضيق في التنفّس، وورم ساقي آخذ في الزوال، وموعداً في الراديو مع ما يطلبه المستمعون...

وإذا بصوت أمينة يقول:

- سيدي بخير؟

- الحمد لله.

- هل آتي بالعشاء؟

- العشاء؟! أما زلت تسمّينه العشاء؟! هاتي سلطانيّة اللبن!...

أيّام زمان! أيّام القوّة والبأس، والضحك الذي تهرّز له الجدران، وسهرات الغوريّة والجلاليّة، والناس الذين لم يبق منهم إلّا أسماء، زبيدة وجيليلة وهنية، ترى ألا تذكر أمك يا ياسين؟ وما هي زنوبة وكرامة تجلسان إلى جانب والدها، ودواماً ستطلب الرحمة والغفران...

- من بقي من معارفنا القدامى في وزارتك يا ياسين؟

- أحيلوا جميعاً إلى المعاش، ولم أعد أدري عنهم شيئاً!

ولا هم يدرون عنّا شيئاً، أصدقاء القلب ماتوا فما لنا نسأل عن المعارف، ولكن ما أجل كريمة! فاقت أمّها في زمانها، ومع ذلك لم تتعدّ الرابعة عشرة، ونعيمة ألم تكن آية في الجمال؟!

- ياسين إن استطعت أن تُقنع عائشة بزيارتك فافعل، انتشلوها من وحدتها فلنّي أخاف عليها منها...

فقلت زنوبة:

- طالما دعوتها لزيارة قصر الشوق ولكنّها... كان الله في عونها...

ولاحت في عيني الرجل نظرة قائمة، ثمّ إذا به يسأل ياسين:

- ألا تصادف في طريقك الشيخ متوّليّ عبد الصمد؟

فقال ياسين باسمًا:

- أحياناً، إنّه لا يكاد يعرف أحداً، ولكنّه ما زال يسير على قدمين قويّتين...

يا للرجل! ألم تنازعه نفسه مرّة إلى زيارتي؟ أم نسيبي كما نسي أبنائي من قبل؟!

ولما ذهب الأصدقاء اتّخذ الرجل من كمال صديقاً، ولعلّه فاجأه بصداقته، لم يعد الأب الذي عهد، وغدا صديقاً ينجيه ويشقّق إلى مناجاته، وكان يقول عنه أسفاً: «أعزب في الرابعة والثلاثين من عمره، يعيش أكثر حياته في حجرة مكتبه، كان الله في عون»، ولم يكن يعدّ نفسه مسئولاً عنّا صار إليه أمره، فقد أبى من أوّل الأمر أن يصنع نفسه بنفسه، وانتهى به الحال إلى

فقال كمال في لهجة ساخرة:

- كفاه الله شر مهنة التدريس!

فقالت خديجة في انزعاج:

- وهل يسرك أن يشتغل جورنالجيًا؟

وهنا قال عبد المنعم ملطفًا الجوّ:

- لم تعد الوظيفة بال مطلب السعيد!

فقالت أمّه بحدة:

- لكنك موظف يا سي عبد المنعم...

- في كادر ممتاز، ولكنّي لا أرضى له وظيفة كتابيّة،

وها هو خالي كمال يستعيد في مهنته...

- في أيّ نوع من الصحافة تريد أن تعمل؟

- الأستاذ عدلي كريم موافق على قبولي في مجلّته

تحت التمرين لأقوم بالترجمة أوّلًا ثمّ بالتحرير فيما

بعد...

- ولكنّ «الإنسان الجديد» مجلّة ثقافيّة محدودة الموارد

والمجال؟...

- هي خطوة أولى للتمرين حتّى يتيسّر لي عمل

أهمّ، وعلى أيّ حال ففي وسعي أن أنتظر دون أن

أجوع...

فنظر كمال إلى خديجة قائلاً:

- دعي الأمور تجري كما يشاء، إنّه راشد مثقف

وأدرى بما يفعل.

ولكنّ خديجة لم تسلّم بالهزيمة بسهولة، وعادت

تحاول إقناع ابنها بقبول الوظيفة حتّى علا صوتها واحتدّ

فتدخل كمال ليخلّص بينها، ثمّ تكذّر جوّ المجلس

وساد صمت ثقيل حتّى قال كمال ضاحكًا:

- جئت طامعًا في شرب الشربات فكانت هذه

العكنة نصيبي.

وفي أثناء ذلك ارتدى أحمد ملاپسه ليغادر البيت،

فاستأذن كمال وخرجا معًا، وسارا في شارع الأزهر،

وقد صارح أحمد خاله بأنّه ماضٍ إلى مجلّة «الإنسان

الجديد» ليتسلّم عمله كما وعده الأستاذ عدلي كريم،

فقال له كمال:

- افعل ما تشاء ولكنّ تجنّب إيذاء والديك...

فقال أحمد ضاحكًا:

- إنّي أحبهما وأجلّهما ولكن...

بلغ كمال بيت أخته بالسكّريّة حوالي العصر  
فوجد الأسرة مجتمعة في الصالة بكامل هيئتها،  
فصافحهم وهو يقول مخاطبًا أحمد:

- مبارك اللبسانس...

فأجابته خديجة بلهجة خالية من معاني الابتهاج:

- مبارك عليك، ولكنّ تعال اسمع آخر خبر، البك

لا يريد أن يتوظّف...

وقال إبراهيم شوكت:

- ابن خاله رضوان مستعدّ لتوظيفه إذا وافق ولكنّه

يصرّ على الرفض، كلّمه يا أستاذ كمال لعلّه يقتنع

برأيك أنت...

خلع كمال طربوشه، ونزع - من شدّة الحرّ - الجاكّة

البيضاء فالبسها مسند كرسي، ومع أنّه كان يتوقّع

معركة إلّا أنّه قال بأسفًا:

- حسبت أنّ اليوم سيكون خالصًا للتهنئة، ولكنّ

هذا البيت لا يسلو النزاع أبدًا!

فقالت خديجة بلهجة أسيفة:

- قسمي، الناس كلّهم حال ونحن وحدنا حال.

وخاطب أحمد خاله قائلاً:

- الأمر بسيط، ليس أمامي الآن إلّا وظيفة كتابيّة،

فقد أخبرني رضوان أنّه يمكن تعييني الآن في وظيفة

كتابيّة خالية بإدارة المحفوظات عند خالي ياسين،

واقترح عليّ أن أنتظر ثلاثة أشهر حتّى بدء العام

الدراسيّ الجديد لعلّي أعيّن مدرّس لغة فرنسيّة في

إحدى المدارس، ولكنّي لا أريد الوظيفة أيّا كان

نوعها!

فهتفت خديجة:

- قل له ماذا تريد؟

فأجاب الشابّ ببساطة وحزم:

- سأعمل في الصحافة.

فنفخ إبراهيم شوكت قائلاً:

- جورنالجي! كنّا نسمع هذا الكلام فنظّنه ضحكًا

وعبثًا، يابّ أن يكون مدرّسًا مثلك ويسعى إلى أن

يكون جورنالجيًا...

في العقد الأخير من الشباب، وكان مظهره ينم عن الحذق والذكاء. ورمى ببصره إلى سوسن حماد وهو يسائل نفسه ترى هل تذكره؟. ولم يكن رآها منذ أول مقابلة عام ١٩٣٦. والتقت عيناها فساها باسما مدفوعا برغبة في الخروج عن صمته:

- قابلت حضرتك هنا منذ خمس سنوات...

فلاح التذكر في عينيها اللامعتين فاستدرك قائلا:

- كنت أسأل عن مصير مقالة تأخر نشرها!

فقال باسمه:

- أكاد أذكرك، وعلى كل فقد نشرنا منذ ذلك التاريخ مقالات كثيرة!...

فقال يوسف الجميل معلقا:

- مقالات تنم عن روح تقدمية طيبة...

وقال إبراهيم رزق:

- إن الوعي اليوم غيره بالأمس، كلما نظرت في الطريق قرأت على الجدران عبارة «الحزب والحزبية» هذا شعار الشعب الجديد.

فقال سوسن حماد باهتمام:

- ما أمله من شعار، خاصة في هذا الوقت الذي أطبق فيه الظلام على العالم!...

وأدرك أحمد ما يعنيه قولها فاستجابت نفسه سريعا. وفي حماس وسرور- للجو المحيط به وقال:

- الظلام يطبق على العالم حقا، ولكن ما دام هتلر لم يهجم على بريطانيا فثمة أمل في النجاة.

فقال سوسن حماد:

- إنني أنظر إلى الموقف من زاوية أخرى، ألا ترى أن هتلر لو هاجم بريطانيا فمن المحتمل أن يهلكا معا أو في الأقل أن ينتقل مركز القوة إلى روسيا؟...

- وإذا حدث العكس؟ أعني أن يحتاج هتلر الجزيرة ويبلغ ذروة القوة!...

فقال يوسف الجميل:

- كان نابليون كهتلر غازي أوروبا ولكن روسيا كانت مقبرته.

ووجد أحمد نشاطا وحماسا لم يشعر بمثلها من قبل. هذا الهواء النقي، وهؤلاء الزملاء الأحرار، وهذه الزميلة المستنيرة الحسنة. ولداغ أو لآخر ذكر علوية

- ولكن...؟

- من الخطأ أن يكون للإنسان والدان!

كمال ضاحكا:

- كيف هان عليك أن تقول ذلك؟

- لا أعني حرفيته، ولكن ما يرمز إليه الوالدان من تقاليد الماضي، فالأبوة على وجه العموم قُرْمَلَة، وما حاجتنا في مصر إلى الفرامل ونحن نسير بأرجل مكبلَة بالأغلال!؟

ثم مواصلا الحديث بعد تفكير:

- إن مثلي لن يعرف الكفاح بمعناه المر ما دام لي بيت ولأبي دخل، ولا أنكر أنني مطمئن بذلك ولكن في الوقت نفسه خجل منه!

- متى ينتظر منك أن تؤجر على عملك؟

- لم يحذد الأستاذ وقتا...

وعند العتبة الخضراء افترقا، فمضى أحمد إلى مجلة «الإنسان الجديد»، وقد استقبله الأستاذ عدلي كريم مشجعا، وذهب معه إلى حجرة السكرتارية حيث خاطب من فيها قائلا:

- زميلكم الجديد الأستاذ أحمد إبراهيم شوكت...

ثم قدم إليه زملاءه قائلا:

- آنسة سوسن حماد، الأستاذ إبراهيم رزق، الأستاذ يوسف الجميل... وصافحوه مرحبين، ثم قال إبراهيم رزق مجاملا:

- اسمه معروف في مجلتنا...

وقال الأستاذ عدلي كريم باسم:

- إنه الابن البكر للإنسان الجديد... (ثم وهو يشير إلى مكتب يوسف الجميل)... ستعمل على هذا المكتب فإن عمل صاحبه في الخارج إلّا فيما ندر...

وغادر عدلي كريم الحجرة فدعا يوسف الجميل أحمد إلى الجلوس على كرسي قريب من مكتبه، وانتظر حتى جلس ثم قال:

- ستوجهك الأنسة سوسن إلى العمل الذي سيناط بك، ولا بأس الآن أن تشرب فنجان قهوة... وضغط على زر الجرس على حين راح أحمد يتصفح الوجوه والمكان، كان إبراهيم رزق كهلا مهتما يبدو أكبر من سنه بعشرة أعوام، أما يوسف الجميل فكان

- إن الرقابة تقف لنا بالمرصاد...  
فقلت بصوت يدلّ على الحلق والازدراء:  
- أنت لم تر شيئاً بعد، مجلّتنا «مشبوهة» في الدوائر العليا. ولها الشرف!  
فقال أحمد بأساً:  
- تذكّرين طبعاً افتتاحيات الأستاذ عدلي كريم قبل الحرب؟

- لقد عُظِلت مجلّتنا مرّة في عهد عليّ ماهر بسبب مقال عن ذكرى الثورة العراقيّة أنّهم فيه الأستاذ الخديو توفيق بالخيانة.

ويوماً سألته ضمن حديث عابر:  
- لماذا اخترت الصحافة؟...

فتفكّر قليلاً، إلى أيّ درجة يجوز له أن يكشف عن ذات نفسه لهذه الفتاة التي تبدو طرازاً وحدها بين مَنْ عرف من بنات جنسها:

- لم أدخل الجامعة لأتوظّف، ولكنّ عندي أفكار أريد التعبير عنها ونشرها وما من سبيل إلى ذلك خير من الصحافة...

فقلت باهتمام سرّاً له من أعماقه:

- أمّا أنا فلم أدرس في الجامعة، أو بالحرّيّ لم تتح لي فرصة (سرّته صراحتها كذلك وإن أكّدت في نفسه مخالفتها لبنات جنسها)... إلني متخرّجة في مدرسة الأستاذ عدلي كريم، وهي ليست دون الجامعة منزلة، درست عليه منذ حصولي على البكالوريا، وأصارحك بأنك أحسنت تعريف الصحافة، أو الصحافة التي نعمل فيها، بيد أنّك تنفّس عن أفكارك - حتّى الآن - عن طريق غيرك، أعني بالترجمة، ألم تفكّر في اختيار الشكل الذي يناسبك من أشكال الكتابة؟

فصمت مفكّراً كأنما أغلق عليه المعنى المقصود ثمّ

تساءل:

- ماذا تعنين؟

- المقالة، الشعر، القصّة، المسرحيّة؟

- لا أدري، المقالة أوّل ما يتبادر إلى الخاطر...

فقلت بلهجة ذات معنى:

- نعم، ولكنّها لظروفنا السياسيّة، لم تعد مطلباً سيراً، لذلك يضطرّ الأحرار إلى إذاعة آرائهم

صبري، وعام العذاب الذي صار فيه الحبّ الخائب حتّى صرعه، حين كان يصبح ويمسي وهو يلعن الحبّ من صميم قلبه حين تطاير في الهواء تاركاً في أعماق النفس آثاراً من الامتناع والتمرد لا تزول. إنّها الآن في بيتها في المعادي تنتظر زوجاً ذا خمسين جنيهاً شهرياً على الأقلّ، أمّا هذه الفتاة التي تدعو بالنصر لروسيا فماذا تنتظر يا ترى؟...

وإذا بسوسن تلوّح برزمة أوراق في وجهه وهي تقول برقة:  
- تسمح!...

فنهض، ثمّ مضى إلى مكتبها باسمّاً لبدء عمله الجديد...

### ٣٤

لم يكن يوسف الجميل يمرّ بالمجلّة إلّا يومياً في الأسبوع أو يومين إذ كان جلّ نشاطه موجّهاً للإعلانات والاشتراكات، كذلك إبراهيم رزق لم يمكث في السكرتارية أكثر من ساعة ثمّ يدور على بقية المجالات التي يعمل بها، فكان أكثر الوقت يمضي وهما منفردان. أحمد وسوسن. ومرة جاء رئيس عمّال المطبعة ليأخذ بعض الأصول فما راعه إلّا أن يسمعها وهي تدعو «أبي». وعلم بعد ذلك أنّ ثمة صلة قرى تربط الأستاذ عدلي كريم نفسه برئيس عمّال المطبعة. كان ذلك مفاجئاً ومثيراً، وراعه أكثر من سوسن مشايرتها على العمل، كانت محوّر التحرير ومركز نشاطه، بيد أنّها كانت تعمل أكثر ممّا يستوجبه تحرير المجلّة، فما تزال تقرأ أو تكتب. وبدت جادة حادة شديدة الذكاء، وشعر من أوّل الأمر بقوة شخصيّتها، حتّى كان يخيّل إليه بعض الأحيان - رغم عينيها السوداوين الجذّابتين وجسمها الأنثويّ اللطيف - أنّه حيال رجل قويّ الإرادة حسن التنظيم، ثمّ تأثّر بنشاطها فشاير على عمله بهمة لا تعرف الكلل أو الملل، وقد أخذ على عاتقه ترجمة المختارات من مجلّات العالم الثقافيّة، إلى ترجمة بعض المقالات ذات الشأن، وقد قال لها يوماً:

فقال سوسن في حماس:

- هذا مناقض لما تكتب، فأراهن على أنك متأثر بالوفاء لخالك! عندما يكون الإنسان متأثراً يركز اهتمامه في إزالة أسباب الألم، مجتمعنا متألم جداً فيجب أن نزيل الألم قبل كل شيء، ولنا بعد ذلك أن نلهم وتفلسف! ولكن تصوّر إنساناً يتفلسف لاهياً وبه جرح ينزف لا يعيره أدنى التفات، ماذا تقول عن مثل هذا الإنسان؟

أهذا خاله حقاً؟ لكن فليقر بأن كلامها يلقي تحجواً كاملاً في نفسه، وبأن عينيه جميلتان، وبأنها رغم غرابتها و«جذبتها» جذابة... جذابة...  
- الواقع أن خالي لا يعير هذه الأمور التفاتاً جذياً، لقد حدثته كثيراً عنها فوجدته إنساناً يدرس النازية كما يدرس الديمقراطية أو الشيوعية، ولكنه لا هو بارد ولا هو حار، ولم أستطع أن أتبين موقفه...  
قالت باسمه:

- لا موقف له، إن موقف الكاتب لا يمكن أن يخفى، إنه مثل من المثقفين البورجوازيين يقرأ ويستمتع ويتساءل، وقد تجده في حيرة أمام «المطلق»، وربما بلغت به الحيرة حد الألم، ولكنه يمر سادراً بالمتألمين الحقيقيين في طريقه...  
فقال ضاحكاً:

- ليس خالي كذلك...  
- أنت أدري، كذلك قصص رياض قلدي ليست بالقصص المنشودة، إنها واقعية وصفية تحليلية، ولا تتقدم عن ذلك خطوة، لا توجيه بها ولا تبشيراً  
ففكر أحمد قليلاً ثم قال:

- ولكنه كثيراً ما يصف حال الكادحين من العمال والفلاحين، ومعنى هذا أنه يهب مسرح البطولة في أقاصيصه للطبقة الكادحة!

- ولكنه يقتصر على الوصف والتحليل، إنه لعمل سلبي بالنسبة للمعركة الحقيقية!...

يا لها من فتاة تروم العراك! شديدة الجذبة فيها يبدو، ولكن أين المرأة؟

- وكيف تريدني أن يكتب؟

- أقرأت شيئاً عن الأدب السوفييتي الحديث، بل

بالمنشورات السريّة، المقالة صريحة ومباشرة ولذلك فهي خطيرة، خاصّة وأنّ الأعين محمّلة فينا، أمّا القصة فذات حيّل لا حصر لها، إنها فنّ ماهر، وقد غدت شكلاً أدبياً شائعاً سوف ينتزع الإمامة في عالم الأدب في وقت قصير، ألا ترى أنّه ما من كبير من شيوخ الأدب إلّا وهو يثبت وجوده في مجال نشاطها ولو بمؤلف واحد؟

- نعم، قرأت أكثر هذه المؤلفات، ألم تقرّني للأستاذ رياض قلدي الكاتب بمجلة الفكر؟

- هذا واحد من كثيرين، وليس خيراً لهم!

- ربّما، لقد لفتني إليه خالي الأستاذ كمال أحمد عبد الجواد الكاتب بنفس المجلة...

فقلت باسمه:

- هو خالك؟ قرأت له مرّات، ولكن...

- ؟...

- معذرة إنّه من الكتاب الذين يهيمون في تيه الميتافيزيقا!

فتساءل فيما يشبه القلق:

- ألم يعجبك؟

- الإعجاب شيء آخر، إنّه يكتب كثيراً عن الحقائق القديمة: الروح... المطلق... نظرية المعرفة، هذا جميل، ولكنه - فيما عدا المتعة الذهنية والترف الفكري - لا يفضي إلى غاية، ينبغي أن تكون الكتابة وسيلة محدّدة الهدف، وأن يكون هدفها الأخير تطوير هذا العالم والصعود بالإنسان في سلم الرقي والتحرّر، الإنسانية في معركة متواصلة والكاتب الخلق بهذا الاسم حقاً يجب أن يكون على رأس المجاهدين، أمّا وثبة الحياة فلنذعها لبرجسون وحده...

- ولكنّ كارل ماركس نفسه بدأ فيلسوفاً ناشئاً بهيم في تيه الميتافيزيقا.

- وانتهى بعلم الاجتماع العلمي، فمن هنا نبدأ لا من حيث بدأ.

لم يرتح أحمد إلى نقد خاله على هذا النحو، فقال بغية الدفاع عنه قبل كل شيء:

- الحقيقة جديرة دائماً بأن تعرف، مهما تكن، ومهما

يكن الرأي في آثارها...

أقرأت مكسيم جوركي؟

فصمت بأسماً، لا داعي للخجل، كان طالب اجتماع لا طالب أدب، ثم إنها تكبره بسنوات، ترى ما عمرها؟ ربما كانت في الرابعة والعشرين أو أكثرًا. وعادت تقول:

- هذا ما ينبغي أن تقرأ من ألوان الأدب، سأعيرك بعضه إذا شئت...

- بكل سرور...

فابتسمت قائلة:

- ولكن الإنسان «الحر» لا يكفي أن يكون قارئاً أو كاتباً! إن المبادئ تتعلق بالإرادة قبل كل شيء، الإرادة أولاً وقبل كل شيء.

مع ذلك رأها أنيقة، أجل ليس في وجهها زواقي، ولكن عنايتها بظهورها وأناقتها ليست دون غيرها من بنات جنسها، هذا الصدر الحي مؤثر كغيره من الصدور الفاتنة، ولكن مهلاً هل يختلف هو عن غيره من الرجال بما يعتنق من مبدأ؟ طبقتنا غريبة تأبى أن تنظر إلى المرأة إلا من زاوية خاصة!...

- إني مسرور بمعرفتك، وأرى أنه أمامنا أكثر من مجال للعمل معاً كيد واحدة...

فقالت باسمه، وكانت عند الابتسام تبدو أنثى قبل كل شيء:

- هذا إطراء!

- إني مسرور بمعرفتك حقاً...

أجل إنه كذلك، ولكن ينبغي ألا يسيء فهم ما ينفعل به صدره فلعلّه الاستجابة الطبيعية لمراقب مثله، واصطنع الحذر حتى لا ترمي بنفسك إلى مثل موقفك بالمعادي، فإن الحزن لم يمتح بعد من صفحة قلبي...

### ٣٥

- مساء الخير يا عمّي.

وتبع جلييلة إلى مجلسها المختار في الصالة، وما استقرّ بهما المجلس فوق الكنبه حتى نادى المرأة خادمتها فجاءت حاملة الشراب وجعلت ترقيها وهي تعدّ الخوان حتى فرغت من مهمتها وذهبت، وعند ذاك

التفتت جلييلة إلى كمال قائلة:

- يا ابن أخي، أقسم لك أنني لم أعد أشرب إلا معك، كل ليلة جمعة، كما كان يحلّو لي أن أشارب أباك في الزمن القديم، ولكن في ذلك الزمن أشارب الكثيرين أيضاً...

وقال كمال في نفسه: «ما أحوجني إلى الشراب، لا أدري ماذا كانت تكون الحياة بدونه!» ثم قال بمجاورها:

- ولكنّ الويسكي اختفى يا عمّي، وكذلك كافة المشروبات النظيفة، ويقال إن الغارة الألمانية الأخيرة على اسكتلندا أصابت مخزن خور عالمي حتى سألت الوديان بالويسكي الأصيل...

- يا روحي على غارة من هذا النوع! ولكن خبرني قبل أن تسكر كيف حال السيد أحمد؟

- لا تقدّم ولا تأخر، يعزّ عليّ يا ستّ جلييلة مرقده، ربّنا يلفظ به...

- يا ما نفسي أزوره، ألا تجد الشجاعة فتبلّغه عني السلام؟

- يا خيراً. لم يبق إلا هذا حتى تقوم الساعة!

فضحكت العجوز ثم قالت:

- أتحسب أنّ رجلاً مثل السيد أحمد يمكن أن يتصور البراءة في إنسان خاصة إذا كان من صلبه؟

- ولو يا زين الستات!... صحتك...

- صحتك...، ربّما تأخّرت عطية إذ إنّ ابنها مريض...

فقال كمال في شيء من الاهتمام:

- في آخر مرة لم يكن بها شيء!...

- نعم ولكنّ ابنها مرض يوم السبت الماضي، روحها المسكينة في ابنها، وإذا مسّه سوء طارت أبراج عقلها...

- يا لها من امرأة طيبة عائرة الحظّ، طالما أقنعتني أحوالها بأنّها لا تمارس هذه الحياة إلا مضطّرة...

فقالت جلييلة باسمه أو ساخرة:

- إذا كان مثلك يضيق بمهنته الشريفة فكيف ترضى هي بمهنتها؟

ومرّت الخادم بمجمرة تنفث بخوراً لطيفاً، وكان جو



- وهل تحسبني أشرب الآن؟ مضى ذلك الزمان، لا طعم لها اليوم ولا اثر، كالكهوة لا أكثر ولا أقل، في الزمان الأول سكرت مرة في فرح بيرجوان حتى اضطرر التخت أن يحملني إلى عربتي آخر الليل، ربنا يكفيك شرها!...

«لكنها خير من لا خير له»...

- وذروة النشوة هل عرفتها؟ كنت أبلغها بكأسين، اليوم يلزمني ثمانية كئوس كي أبلغها، ولا أدري كم غدا، ولكنها ضرورية يا عمّتي، فعندها يرقص القلب المكلم طربا...  
- قلبك طروب يا بن أخي دون الحاجة إلى الخمر...

قلبه طروب! وهذا الحزن الصديق؟ والرماد المتخلف من محترق الآمال؟ لم يبق للملوك إلا الامتلاء بالخمر، في هذه الصالة أو في تلك الحجرة إذا جاءت التي تداوي ابنها، هو وهي في موضع واحد من الحياة، حياة من لا حياة لهم.

- أحشى آل نجيء عطية!...

- ستجيء حتّى، أليس المرض في حاجة إلى النقود؟ يا له من جواب! بيد أنها لم تمكّنه من التفكير إذ مالت نحوه في اهتمام، ونظرت إليه مليّا، ثم قالت بصوت منخفض:

- لم يبق إلا أيام!...

فقال دون أن يدرك حقيقة مرادها:

- ربنا يطول عمرك ولا يحرمي منك!

فقالت باسمه:

- ساهجر هذه الحياة!

فانتصب نصفه الأعلى في دهشة وهتف:

- ماذا قلت؟!

فضحكت ثم قالت بلهجة لم تخل من سخرية:

- لا تخف، ستذهب بك عطية إلى بيت آمن كهذا

البيت...

-!؟...

- ولكن ماذا حدث؟

- كبرت يا ابن أخي، وأغواني الله فوق حاجتي،

وبالأمس ضُبط بيت قريب وسيقت صاحبتة إلى

الخريف يهفو رطيبًا من نافذة في نهاية الصالة، وكانت الخمر شديدة المرارة ولكنها قوية الأثر، غير أن كلام جلييلة عن المهنة ذكره بأمر كاد ينساها فقال:

- كدت أنقل من مصر يا عمّتي، ولو وقع المحذور لكنت الآن أعدّ الحقائق للسفر إلى أسبوط!...

فضربت جلييلة صدرها بكفّها وقالت:

- أسبوط يا بلح! أسبوط في عين عدوك، وماذا حصل؟

- سليمة والحمد لله!

- معارف والدك يملأون الدواوين كالنمل...

فهزّ رأسه كالموافق دون تعليق. إنها ما زالت ترى أباه في حالة المجد القديم، لا تدري أنه - حين أخبره عما تقرر عن نقله - قال محزونًا أسفًا «لم يعد يعرفنا أحد، أين أصدقاؤنا أين؟»، وقبل ذلك مضى إلى صديقه القديم فؤاد جميل الحمزاوي لعله يعرف أحدًا من كبار رجال المعارف ولكن القاضي الخطير قال له «إني أسف جدًا يا كمال فأنا بصفتي قاضيًا لا أستطيع أن أرجو أحدًا». وأخيرًا لجأ إلى رضوان ابن أخيه وهو يتعزّز بخجله، وفي نفس اليوم عدل عن نقله! «يا له من شاب خطير! كلاهما موقوف في وزارة واحدة وفي درجة واحدة رغم أنه في الخامسة والثلاثين والشاب في الثانية والعشرين، ولكن كيف ينتظر من خوجة ابتدائي أفضل من هذا؟» ولم يعد من الممكن أن يتعزّى بالفلسفة أو بدعيتها، فليس الفيلسوف من ردّد قول الفلاسفة، كالبيغاء، واليوم كلّ متخرج في كلية الآداب يستطيع أن يكتب كما يكتب هو أو أحسن، وقد كان هناك ثمة أمل في أن يجمع ناشر مقالاته في كتاب، ولكن لم يعد لمثل هذه المقالات التعليمية من قيمة تذكر، وما أكثر الكتب هذه الأيام، وهو في هذا الخضم لا شيء، وقد ملّ حتى طفح بالملل. فمتى يدرك قطاره محطة الموت؟. ونظر إلى الكأس في يد عمّته، ثم إلى وجهها الناطق بعمرها المديد فلم يسعه إلا الإعجاب بها، ثم تساءل:

- ماذا تمجدين في الشراب يا عمّتي؟

فافتّر فوها عن أسنان ذهبية وهي تقول:

- ساعك الله، هذا بيتك ما دام بيتي، وكل بيت  
أحل فيه فهو بيتك يا ابن أخي...  
أئمة لعنة قديمة مجهولة قضي عليه بأن يكفر  
عنها؟. كيف المخرج من هذه الحيرة التي تغشى  
حياته؟. حتى جلييلة تفكر جادة في تغيير حياتها فلم لا  
يتخذ منها أسوة؟ لا بد للغريق من صخرة يلوذ بها أو  
فليغرق، وإذا لم يكن للحياة معنى فلم لا نخلق لها  
معنى؟...  
- ربما كان من الخطأ أن نبحث في هذه الدنيا عن  
معنى بينما أن مهمتنا الأولى أن نخلق هذا المعنى...  
وحديثه جلييلة بنظرة غريبة فانتبه بعد فوات الوقت  
إلى ما بدر منه دون شعور. وضحكت جلييلة متسائلة:  
- سكرت بهذه السرعة؟  
فدارى ارتباكها بضحكة عالية، وقال:  
- خمر الحرب كالسم، لا تؤاخذيني، ترى متى تأتي  
عطية؟

## ٣٦

غادر كمال بيت جلييلة عند منتصف الساعة الثانية  
صباحًا، كان كل شيء غارقًا في الظلام، وكان الظلام  
غارقًا في الصمت، وسار على مهل نحو السكة الجديدة  
ثم مال إلى الحسين. حتى متى يعيش في هذا الحي  
المقدس الذي لم يمت إليه بصلة؟. وابتسم ابتسامة  
فاترة، لم يكن بقي من الخمر إلا خمارها، أما الجسد  
فقد خمدت لواعجه، فنقل خطاه في إعياء وكسل.  
عادة في مثل هذه اللحظة الخاملة يصرخ شيء في  
أعماقه - لا هو التوبة ولا الندم - ناشدًا التطهر،  
ملتصًا بالخلاص من قبضة الشهوات إلى الأبد، كأن  
موجة شهواته تنحصر عن صخور تقشّف كاملة. ورفع  
رأسه إلى السماء، كأنما ليستأنس بالنجوم فانطلقت في  
السكون صفارة الإنذار. ودق قلبه دقة عنيفة ثم  
حملت عيناه النائمات، ثم بدافع غريزي مال إلى  
أقرب جدار وسار بحدائه، ونظر إلى السماء مرة أخرى  
فرأى أضواء الكشافات الكهربائية تلمس صفحاتها في  
سرعة شديدة، تلتقي أحيانًا ثم تفرق في جنون.

القسم، حسبي، إنّي أفكر في التوبة، ينبغي أن أقابل  
ربّي على غير ما أنا عليه!  
أتى على بقية كاسه، وملاه كأنما لم يصدق ما  
سمعه:  
- لم يبق إلا أن تستقلّ السفينة إلى مكة!  
- ربّنا يقدرني على فعل الخير...  
وتساءل ولم يفق من دهشته:  
- أ جاء هذا كله فجأة؟!  
- كلاً، إنّي لا أروح بسرّ إلا عند العمل، طالما  
فكرت في هذا من زمن...  
- جد؟!  
- كلّ الجد، ربّنا معنا!  
- لا أدري ماذا أقول، ولكن ربّنا يقدرك على فعل  
الخير.

- آمين...  
ثم ضاحكة:  
- ولكن اطمئن فلن أغلق هذا البيت حتى أطمئن  
على مستقبلك!...  
فضحك ضحكة عالية وقال:

- هيهات أن أجد بيتاً أرتاح فيه كهذا البيت!  
- لك عليّ أن أوصي بك البدرونة الجديدة ولو كنت  
في مكة!  
كل شيء يبدو مضحكاً ولكنّ الخمر ستظلّ قبله  
المحزون، وتتغير الأوضاع فيعلو فؤاد جميل الحمزاوي  
ويسفل كمال أحمد عبد الجواد، ولكنّ الخمر ستظلّ  
بشاشة المكروب، ويوماً يجمل كمال رضوان على كتفه  
ليدله ثم يجيء يوم فيحمل رضوان كمال ليقيله من  
عثرته ولكنّ الخمر ستظلّ نجدة الملهوف، وحتى الست  
جلييلة تفكر في التوبة في الوقت الذي يبحث هو عن  
ماخور جديد ولكنّ الخمر ستظلّ الماوي الأخير، ويملّ  
السقيم كل شيء حتى يملّ الملل ولكنّ الخمر ستظلّ  
مفتاح الفرج.

- يسعدني أن أسمع عنك دائماً ما يسرّ.

- الله يهديك ويسعدك...

- إذا كان وجودي يضايقك؟...

وسدّت فاه بأصبعها، وقالت:

لم يجب أبوه، وكان ملقياً بظهره في إعياء إلى جدار القبر بين الأم وعائشة، أما الأم فقالت:

- كمال؟. الحمد لله، شيء فطيع يا بني، ليست ككل مرة، خيّل إلينا أنّ البيت سينقضّ فوق رؤوسنا، وربّنا شدّ حيل أليك فنهض وجاء بيننا، لا أدري كيف جاء ولا كيف جئنا. . .

وغمغمت أم حنفي:

- عنده الرحمة، ما هذا الهول؟. ربّنا يلفف بنا. . .

وفجأة هتفت عائشة:

- متى تسكت هذه المدافع؟!

وخيّل إلى كمال أنّ صوتها ينذر بانهيار عصبيّ فاقترب منها وأمسك بكفّها بين يديه وكأنّه قد استردّ بعض وعيه المفقود عندما وجد نفسه حيال من هم في حاجة إلى تشجيعه. وكانت المدافع ما تزال تنطلق في غضبها الجنوني، غير أنّ وطأتها أخذت تخفّ بدرجة غير محسوسة، ومال كمال نحو أبيه وسأله:

- كيف حالك يا أبي؟

فجاءه صوته وهو يهمس في خور:

- أين كنت يا كمال؟. أين كنت حين وقعت الغارة؟. . .

فقال يطمئنه:

- كنت على مقربة من القبر، كيف حالك؟

فأجاب بصوت متقطع:

- الله أعلم. . . كيف غادرت فراشي وهرولت في الطريق؟. الله أعلم. . . لم أشعر بشيء. . . متى تعود الحال إلى الهدوء؟

- أأخلع لك جاكيتي لتجلس عليها؟

- كلّاً، أنا قادر على الوقوف، ولكن متى تعود الحال إلى الهدوء؟. . .

- الغارة انتهت فيا يبدو، أمّا قيامك المفاجئ فلا تخفّه. إنّ المفاجآت كثيراً ما تصنع المعجزات مع المرض! . . .

وما كاد ينتهي من قوله حتّى زلزلت الأرض بثلاثة انفجارات متتابعة فثار جنون المدافع المضادة مرة أخرى وضجّ القبر بالصراخ:

وحثّ خطاه دون أن يفارق الجدران وقد شعر شعوراً موحشاً بوحده كأنّ وجه الأرض قد خلا إلّا منه!.

وإذا بصفير مبحوح يتهاوى لم يطرق أذنه من قبل، يعقبه انفجار شديد ارتجّت له الأرض تحت قدميه، قريب أم بعيد؟ ولم يتسع له الوقت لمراجعة معلوماته عن الغارات، إذ تتابعت الانفجارات بسرعة تكتم

الأنفاس، وانطلقت المدافع المضادة جماعات جماعات، والتمتع الجوّ بأضواء كالبرق لم يعرف مصدرها ولا كنهها فخيّل إليه أنّ الأرض تتطاير. وانطلق يعدو بسرعة لا يلوي على شيء صوب درب قرمز ملتصقاً في قبوها

التاريخي غيباً. وكانت المدافع تنطلق في غضب جنونيّ، والقنابل تدكّ مراميها دكّاً، والأرض تميد. وفي ثوانٍ من الفزع بلغ القبر، وكان يكتظّ بخلق كثيرين تكاثفت بهم ظلمته، فاندسّ بينهم وهو يلهث. وكان

جوه يسوده الرعب ويمتلئ بهمهمات الفزع في ظلام دامس، أمّا مدخل القبر ومخرجه فيضيئان من آن لآخر بانعكاسات الإشعاعات المنطلقة في الفضاء، وقد توقّف سقوط القنابل أو هذا ما خيّل إليهم، أمّا

المدافع فلم يخفّ جنونها ولم يكن رجّعها في النفوس دون رجح القنابل، واختلطت أصوات صراخ وبكاء وزجر وانتهار صادرة عن نسوة وأطفال ورجال.

- هذه غارة جديدة وليست كالسابقات. . .

- ولهذا الحيّ القديم هل يتحمّل الغارات الجديدة؟!

- اعفونا من هذه الثثرة وقولوا يا ربّ!.

- كلّنا يقول يا ربّ! . . .

- اسكتوا. . . اسكتوا يرحمكم الله!.

وكان كمال يلاحظ الضوء الذي ينير مخرج القبر حين رأى جماعة جديدة قادمة فخيّل إليه أنّه ملح هيئة أبيه بينها، وخفق قلبه، أيكون حقّاً أباه؟ وكيف استطاع أن يقطع الطريق إلى القبر؟ بل كيف استطاع أن يغادر فراشه؟ وشقّ طريقاً إلى نهاية القبر مخترقاً

الكتل البشريّة المضطربة، فتبيّن على التمازج الضوء أسرته جميعاً، أباه وأمه وعائشة وأمّ حنفي! وأنجبه نحوهم حتّى وقف بينهم وهو يهمس:

- أنا كمال! كلّكم بخير؟

الأطفال عقب مدافع الأعياد، وضجّ المكان وما حوله  
بحركة ما لها من آخر. صفقات أبواب ونوافذ، هدير  
كلام عصبيّ، ثمّ تتابع انصراف المنحشرين في القبو،  
وقال كمال وهو يتنهد:  
.. فلنعد..

وضع الأب ذراعًا على كتف كمال والأخرى على  
كتف الأم وسار بينهما خطوة خطوة. وبدءوا يتساءلون  
عن الرجل، كيف هو، وماذا أصابه أثر مغامرته  
الخطيرة. غير أنّ الأب توقّف عن المشي وهو يقول  
بصوت ضعيف:

- أشعر بأنني يجب أن أجلس...

فقال له كمال:

- دعني أحملك.

فقال في إعياء:

- لن تستطيع...

ولكنّ كمال أحاطه بذراع من وراء ظهره ووضع  
الأخرى تحت ساقيه، ورفع. لم يكن حملًا خفيفًا  
ولكنّ ما بقي من أبيه كان على أيّ حال هيئًا. وسار في  
بطء شديد، والآخرين يتبعونه مشفقين. وانتحبت  
عائشة فجأة فقال الأب بصوت متعب:

- لا داعي للفضيحة!

فكتمت فاما يدها، وكما بلغوا البيت عاوت أم  
حنفي في حمل السيّد، فصعدا به السلم على مهل  
وحذر، وكان مستسلمًا ولكنّ هممته الاستغفارية  
المتواصلة ثمت عن حزنه وضيقه، حتّى طرحاه بعناية  
على فراشه، وكما أضيء نور الحجرة بدا وجه الأب  
شديد الشحوب كأنّ الجهد قد استصفى دمه، وكان  
صدره يعلو وينخفض بعنف، فأغمض عينيه إعياء،  
ثمّ راح يتأوّه، ولكنّه غالب ألمه حتّى استطاع أخيرًا أن  
يلوذ بالصمت. وكان الجميع يقفون صفًا بإزاء فراشه  
ويتطلّعون إليه في وجل وإشفاق، وأخيرًا تساءلت أمينة  
بصوت متهذّب:

- سيدي بخير؟

فتفتح عينيه، وجعل ينظر في الوجوه مليًا، وبدا  
لحظات كأنّه لا يعرفها، ثمّ تنهد وقال بصوت لا يكاد  
يسمع:

- إنّها فوق رءوسنا!

- وُحد الله...

- أسكتوا هذا الشؤم!

وترك كمال يد عائشة ليأخذ يدي أبيه بين يديه،  
وكان يفعل ذلك لأوّل مرّة في حياته، وكانت يدا  
الرجل ترتجفان، وكانت يدا كمال ترتجفان كذلك، أمّا  
أمّ حنفي فقد انبطحت على الأرض وهي تولول. وعاد  
الصوت العصبيّ يصيح في هياج:  
- إياكم والصراخ، سأقتل الصراخ!...

وعلا الصراخ، وتلاحقت طلقات المدافع، واشتدّ  
توتّر الأعصاب، في توقّع زلازل جديدة، ولكنّ المدافع  
استمرت تنطلق وحدها، وظلّ توقّع انفجارات جديدة  
يخنق الأرواح.

- انتهت القنابل!

- إنّها تغيب ثمّ تنفجر...

- إنّها بعيدة، لو كانت قريبة ما سلمت البيوت من  
حولنا!

- بل سقطت في النحاسين!

- هكذا يخيّل إليك ولعلّها في الأورنس!

- أنصتوا يا هوه، ألم تحفّ المدافع؟

بلى خفّت طلقاتها، ثمّ لم تعد تُسمع إلّا من بعيد،  
ثمّ متقطّعة ثمّ متباعدة، ثمّ بين الطلقة والأخرى دقيقة  
كاملة، ثمّ أناخ الصمت، وامتدّ، وطال وعمق، ثمّ  
انعقدت الألسن، حتّى مضت تتعالى همسات الأمل  
الباكى، وأخذ كثيرون يتذكّرون أشياء وأشياء، ويحيون  
من جديد، ويتنهدون في ارتياح حذر مشوب  
بالإشفاق، وعينًا حاول كمال أن يرى وجه أبيه بعد أن  
عادت التجمعات الضوء الخاطف وخيم الظلام...

- أبي، ستعود الحال إلى الهدوء...

فلم يجب الرجل ولكنّه حرّك يديه بين يدي ابنه  
كأنّما ليقنعه بأنّه ما زال حيًّا...

- هل أنت بخير؟...

فحرّك يديه مرّة أخرى، وشعر كمال بحزن أوشك  
أن يهيج دموعه.

وانطلقت صفّارة الأمان...

وأعقبها صياح تهليل من جميع الأركان كصياح

- ولكنّ التعب قد أنهك قوى بابا...  
فقال ياسين:  
- ولكنّه سيستردّ صحّته بالنوم...  
- وما عسى أن نفعل به إذا وقعت غارة  
أخرى؟!...  
ولم يُجِرْ أحد جوابًا فساد صمت ثقيل حتّى قال  
أحمد:

- بيوتنا قديمة ولن تتحمّل الغارات...  
وعند ذاك أراد كمال أن يبدّد سحب الكآبة المخيّمّة  
التي أرهقت أعصابه فقال منتزعًا من شفتيه ابتسامة:  
- إذا هدمت بيوتنا فحسبها شرقًا أنّ هدمها سيكون  
بأحدث أساليب العلم الحديث...

### ٣٧

أوصل كمال زوّار آخر الليل حتّى الباب الخارجيّ،  
ولم يكد يعود إلى باب السّلم حتّى ترامت إليه من فوق  
ضجّة مريّة، وكانت أعصابه ما تزال متوتّرة فداخلته  
كآبة وراقي السّلم وثبًا. وجد الصّالة خالية، وحجرة  
الأب مغلقة، وخليطًا من الأصوات يعلو خلف بابها  
المغلق، فهرع إلى الحجرة ودفع الباب ثمّ دخل، وكان  
يتوقّع شرًّا أبى أن يفكر في كنهه. كان صوت الأمّ  
المبحوح يهتف «سيّدي»، وكانت عائشة تنادي بصوت  
غليظ «بابا» على حين تسمّرت أمّ حنفي عند رأس  
الفرّاش فدهمه شعور بالفزع واليأس والاستسلام  
الحزين؛ رأى نصف أبيه الأسفل مطروحًا على  
الفرّاش، ونصفه الأعلى ملقى على صدر الأمّ التي  
تربّعت وراء ظهره، وصدره يعلو وينخفض في حركة  
آليّة تندّ عنها حشرجة غريبة ليست من أصوات هذا  
العالم، وعينيه مفتوحتين عن نظرة مظلمة جديدة لا  
ترى ولا تعي ولا تملك أن تحبّر عيًّا يعتلج وراءها،  
فتسمّرت قدماه وراء شبّاك السرير، وانعقد لسانه،  
وتحبّرت عيناه، لم يجد شيئًا يقوله أو شيئًا يفعل،  
وعانى شعورًا فاهرًا بالعجز المطلق، واليأس المطلق  
والنفاهة المطلقة وكأنّه فقد الوعي لولا إدراكه أنّ أباه  
يودّع الحياة. وردّدت عائشة بصرا زائغًا بين وجه أبيها

- الحمد لله...  
- ثمّ يا سيّدي... ثمّ كي تستريح...  
وترامى إليهم رنين الجرس الخارجيّ فمضت أمّ  
حنفي لتفتح الباب، وتبادلوا نظرات متسائلة فقال  
كمال:  
- لعلّ أحدًا من السكزية أو قصر الشوق قد جاء  
ليطمئنّ علينا.

وصدق حدسه فما لبث أن دخل الحجرة عبد المنعم  
وأحمد ثمّ تبعهما ياسين ورضوان فأقبلوا على فراش  
الأب وهم يحيون الموجودين، فوجّه إليهم الرجل  
نظرات فاترة، وكأنّ الكلام لم يسعفه فاكتفى برفع يده  
النحيلة تحيّة، وقصّ عليهم كمال في اقتضاب ما عاناه  
والده في ليلته المزعجة، ثمّ قالت أمينة همّسًا:  
- ليلة فظيعة ربّنا لا يعيدها...

وقالت أمّ حنفي:  
- الحركة أتعبته قليلًا ولكنّه سيستردّ بالراحة  
عافيته...  
ومال ياسين فوق أبيه وهو يقول:  
- ينبغي أن تنام، كيف حالك الآن؟  
فرنا الرجل إليه ببصر خاب وغمغم:  
- الحمد لله... أشعر بتعب في جنبي الأيسر...  
فسأله ياسين:  
- أأحضر لك الطبيب؟  
فأشار بيده في ضجر ثمّ همس:  
- كلّ خير لي أن أنام...

فأشار ياسين إلى الموجودين بالخروج، وتراجع إلى  
الوراء قليلًا فرفع الرجل يده النحيلة مرّة أخرى.  
وغادروا الحجرة واحدًا في إثر واحد فلم يبق فيها مع  
الرجل إلّا أمينة، ولما جمعتهم الصّالة سأل عبد المنعم  
خاله كمال:  
- ماذا فعلتم؟ أمّا نحن فقد هرعنا إلى المنظرة في  
الحوش.

وقال ياسين:  
- ونحن نزلنا إلى شقّة الدور الأرضيّ عند  
جيراننا...  
فقال كمال في قلق:

ووجه كمال ثم هتفت:

- أي، هذا كمال يريد أن يحدثك!

وخرجت أم حنفي عن غمغمتها المتصلة قائلة في نبرات ممزقة:

- أحضروا الطبيب!...

فأنت الأم في حزن غاضب:

- أي طبيب يا حمقاء!...

ثم نذت عن الأب حركة كأنها يحاول الجلوس، وازداد صدره تشنجا واضطرابا، ومد سبابة يمينه ثم سبابة يسراه، فلما رأت الأم ذلك تقلص وجهها من الألم ثم مالت على أذنه وتشهدت بصوت مسموع وكزرت ذلك حتى سكنت يدها. وأدرك كمال أن أباه لم يعد يستطيع النطق وأنه دعا الأم لتشهد نيابة عنه، وأن كنه هذه الساعة الأخيرة سيقى سرا إلى الأبد، وأن وصفه بالألم أو الفزع أو الغيوبة رجم بالغيبة، ولكنه على كل حال لا ينبغي أن تطول، إنها أجل وأخطر من أن تبتذل، أما أعصابه فقد انهارت حيالها، وخجل من نفسه إذ نزعت لحظات إلى تحليل الموقف ودراسته، كأن احتضار أبيه يجوز أن يكون زادا لتأمله ومادة لمعرفته، وضاعف ذلك من حزنه ومن ألمه، وقد اشتدت حركة الصدر وعلت حشرجته، ثم ما هذا؟ أيهم بالقيام؟ أم يحاول الكلام؟ أم يخاطب شيئا مجهولا؟ أين أم؟ أم يفزع؟... آه...!

وشهق الأب شهقة عميقة ثم ارتقى رأسه على صدره.

صرخت عائشة من الأعياق: «يا أبي... يا نعيمة... يا عثمان، يا محمد» فهرعت إليها أم حنفي ودفعته أمامها برقة إلى الخارج، ورفعت الأم وجهها الشاحب إلى كمال وأشارت إلى الخارج، ولكنه لم يتحرك، فهست في رأس:

- دعني أقم بواجبي الأخير نحو أبيك...

فتحول عن موقفه ومضى خارجا، وكانت عائشة مرتقية على الكنية وهي تعول، فمضى إلى الكنية المقابلة لها وجلس، أما أم حنفي فذهبت إلى الحجرة لتساعد سيدها وأغلقت الباب وراءها. ولم يعد بكاء عائشة مما يُحتمل فقام واقفا وراح يقطع الصالة ذهابا وإيابا دون

أن يوجه إليها خطابا، وكان من حين لآخر يرنو إلى باب الحجرة المغلق ثم يضغط على شفتيه بشدة، وتساءل لم يبدو لنا الموت بهذه الغرابة؟. وكان كلما جمع أفكاره ليتأمل تشنت وغلبه الانفعال. كان الأب - حتى بعد انزوائه - يملا هذه الحياة، فلن يكون غريبا إذا وجد غذا البيت غير البيت الذي عهدته، والحياة غير الحياة التي ألفها، بل عليه منذ اللحظة أن يعد نفسه لدور جديد. واشتد ضيقه بنحيب عائشة وهم مرة بأن يُسكتها ولكنه لم يفعل، وعجب من أين لها بهذا الشعور وقد كانت تبدو جامدة غريبة عن كل شيء. وعاد يفكر في اختفاء أبيه من هذه الحياة فكبر عليه تصور هذا، ثم ذكر حاله الأخير فأكل الحزن شغاف قلبه. وذكر صورته القديمة الماثلة في خاطره، وهو في تمام أبعثته وقوته، فشر برثاء عميق للكائنات جميعا، ولكن متى يسكت نحيب عائشة!... ألا تستطيع أن تبكي - مثله - بغير دموع!؟

وفتح باب الحجرة وخرجت منه أم حنفي، وترامى إليه من خلال الباب قبل أن يغلق نحيب الأم، فأدرك أنها فرغت من أداء واجبها وخلصت للبكاء، وتقدمت أم حنفي من عائشة وقالت لها بصوت غليظ:

- كفاية بكاء يا سيدي...

ثم تحولت إليه قائلة:

- الفجر لاح يا سيدي، نم ولو قليلا فأمامك غد

عصيب...

ثم أفحمت في البكاء، ثم غادرت المكان وهي تقول في صوت بالك:

- سأذهب إلى السكرية وقصر الشوق لإبلاغ الخبر الأسود...

\*\*\*

وجاء ياسين مهرولا تتبعه زنوبة ورضوان، ثم ترامى إليهم من الطريق الصامت صوت خديجة. وبوصول خديجة استعرت النار في البيت جميعا فاختلفت الأصوات بالصراخ والبكاء. وتعدر على الرجال البقاء في الدور الأول فصعدوا إلى المكتبة في الدور الأعلى وجلسوا واجمين، وغشيم الصمت والوجوم حتى قال إبراهيم شوكت:

كان الأب في الساعة الخامسة اليوم في فراشه يتابع الراديو أما في نفس الساعة غداً... إلى جانب فهمي وابني ياسين الصغيرين، ترى ماذا تبقى من فهمي؟ لم يخفّف العمر من رغبته القديمة في التطلع إلى جوف القبر، ترى هل كان الأب حقاً يرغب في قول شيء كما تمهّياً له؟ ماذا كان يريد أن يقول؟ والتفت ياسين إليه متسائلاً:

- هل شهدت احتضاره؟

- نعم، عقب انصرافك مباشرة.

- تألم؟

- لا أدري، من يدري يا أخي؟ ولكنه لم يستغرق

أكثر من خمس دقائق...

تهنّد ياسين ثمّ تساءل:

- ألم يقل شيئاً؟

- كلاً، والغالب أنه فقد النطق...

- ألم يتشهّد؟

فقال كمال وهو يغضّ بصره ليداري تأثّره:

- قامت أمّي بذلك نيابة عنه...

- ليرحمه الله...

- آمين...

وساد الصمت ملياً حتّى خرّقه رضوان قائلاً:

- يجب أن يكون السردق كبيراً ليتّسع

للمعزّين...

فقال ياسين:

- طبعاً، أصدقاؤنا كثيرون... (ثمّ وهو ينظر نحو

عبد المنعم)... وهناك شعبة الإخوان المسلمين!...

ثمّ متنهّداً:

- لو كان أصحابه أحياء لحملوا النعش على

أكتافهم!...

\*\*\*

ثمّ كانت الجنازة كما رسموا، وكان أصدقاء عبد

المنعم أكثر عدداً، أما أصدقاء رضوان فكانوا أعلى

مقاماً، ولفت نفر منهم الأنظار بشخصياتهم المعروفة

لقراء الجرائد والمجلاّت، وكان رضوان بهم مزهواً حتّى

كاد يغطّي زهوه على حزنه. وشيّع أهل الحيّ «جار

العمر» حتّى الذين لم يصلهم به سبب من أسباب

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله، قضت عليه الغارة،

رحمه الله رحمة واسعة كان رجلاً ولا كلّ الرجال...

ولم يتألّك ياسين نفسه فبكى، وعند ذاك انفجر

كمال باكياً، فعاد إبراهيم شوكت يقول:

- وحّدوا الله، لقد ترككم رجالاً...

وكان رضوان وعبد المنعم وأحمد يتطلّعون إلى

الرجلين الباكيين في حزن ووجوم وشيء من الدهش.

وسرعان ما جفّف الرجلان دمعهما ولاذا بالصمت،

فقال إبراهيم شوكت:

- الصباح قريب، فلنفكّر فيما يجب عمله...

فقال ياسين في اقتضاب حزين:

- لا جدديد في الأمر فقد جرّبناه مرّات...

فقال إبراهيم شوكت:

- يجب أن تكون الجنازة جدديدة بمقامه...

فقال ياسين بتوكيد:

- هذا أقلّ ما يجب!

وهنا قال رضوان:

- الشارع أمام البيت ضيّق لا يتّسع للسردق

المناسب فلنقم سردق العزاء في ميدان بيت

القاضي...

فقال إبراهيم شوكت:

- ولكنّ العادة جرت بأن يقام سردق العزاء أمام

بيت المتوفّى!...

فقال رضوان:

- ليس هذا بالمكان الأوّل من الأهميّة خاصّة وأنّه

سيؤمّ السردق وزراء وشيوخ ونوّاب!.

وأدرك المستمعون أنّه يشير إلى معارفه هو فقال

ياسين دون مبالاة:

- نقيمه هناك...

وكان أحمد يفكّر في الدور المنوط به فقال:

- لن نتمكّن من نشر النعيّ في جرائد الصباح...

فقال كمال:

- جرائد المساء تصدر حوالى الساعة الثالثة بعد

الظهر فلنجعل ميّعاد الجنازة في الساعة الخامسة...

- ليكن، القرافة قريبة على أيّ حال...

وتأمّل كمال مجرى الحديث في شيء من العجب.

الذي تدور حوله فكيف أطبقها ولم يعد له فيها ظل؟ وأنا أوّل من اقترح تغيير معالم الحجرة العزيزة... ما حيلني ما داموا لا يدخلونها حتّى تتعلّق أبصارهم بمكانه الخالي ويجهشون بالبكاء... وسيدي يستحقّ الدموع التي تسيل من أجله، ولكنّي لا أطيق بكاءهم وأخاف على قلوبهم الغضّة فأعزّيم بما تعزّيني به أمّ حنفي وأطالبهم بالتسليم لله وقضائه، ولذلك أخليت الحجرة من أثائها القديم وانتقلت إلى حجرة عائشة، ولكيلا تُهجر الحجرة وتستوحش نقلت إليها أثاث الصالة فانتقل إليها مجلس القهوة حيث نجتمع حول المجرمة نتحدّث كثيرًا ونقطع أحاديثنا الدموع، ولا يشغلنا شيء كما يشغلنا الأعداد للقرافة وأشرف بنفسني على تجهيز الرحمة فلعلّه الواجب الأوحّد الذي لم أتخلّ عنه لأنّ حنفي كما تخلّيت لها عن كلّ شيء، تلك المرأة العزيزة الوفيّة التي دخلت بجدارة في صميم أسرنا، فنحن نعدّ الرحمة معًا ونبكي معًا ونذكّر الأيام الجميلة معًا فهي دائماً معي بروحها وذاكرتها، وأمس جرّ الحديث إلى ذكر ليالي رمضان فبادرت تحدّث عن سيرة سيدي في رمضان منذ ساعة استيقاظه في الضحى حتّى حين عودته إلينا عند السحور، فذكرت بدوري كيف كنت أهرع إلى المشرّبة لأرى الحنطور الذي يعيده وأستمع إلى ضحكات راكميه أولئك الذين ذهبوا تباً إلى رحمة الله كما ذهبت الأيام الحلوة وكما ذهب الشباب والصحة والعافية فاللهمّ معّ الأبناء بطول العمر وقرّ أعينهم بأفراح الحياة، وهذا الصباح رأيت قطننا تشمّ الأرض تحت الفراش حيث كانت ترضع فلذات كبدها التي أهديناها إلى الجيران فقطّع قلبي منظرها الحائر الحزين وهتفت من أعماق قلبي الله يصبرك يا عائشة... عائشة المسكينة التي هاج موت أبيها حزنها فهي تبكي أباها وابنتها وابنها وزوجها فما أحرّ الدموع وأنا التي تجرّعت مرارة الشكل قديماً حتّى سال قلبي دماً واليوم أفجع ب وفاة سيدي وتخلو حياتي منه وكان ملء حياتي جميعاً ولا يبقى لي من الواجبات إلّا أن أعدّ له الرحمة أو أتلقّاها من السكّرية وقصر الشوق فهذا كلّ ما بقي لي، كلّاً يا بنيّ، اختر لنفسك هذه الأيام مجلساً غير مجلسنا الحزين حتّى لا تسري إليك عدواه... لماذا

التعارف الشخصي، فلم تكذّ الجنّازة تخلو إلّا من أصدقاء المرحوم نفسه الذين سبقوه إلى الدار الآخرة. وعند باب النصر ظهر الشيخ متولّي عبد الصمد في الطريق، وكان يترنّح من الكبر فرفع رأسه نحو النعش وهو يضيّق عينيه ثمّ سال:

- من هذا؟

فأجابه رجل من أهل الحيّ:

- المرحوم السيّد أحمد عبد الجواد!

فجعل وجه الرجل يهتزّ يميناً ويسرة في ارتعاش، وملاحظته تتساءل في حيرة، ثمّ إذا به يسأل:

- من أين؟...

فأجابه الرجل وهو يهزّ رأسه في شيء من الحزن:

- من هذا الحيّ، كيف لا تعرفه! ألا تذكر السيّد

أحمد عبد الجواد؟...

ولكن لم يبد عليه أنّه تذكّر شيئاً، وألقى نظرة أخيرة على النعش ثمّ سار في سبيله...

### ٣٨

خلا البيت من سيدي فليس هو البيت الذي عاشته أكثر من خمسين عاماً، والجميع يبكون حولي، وخديجة لا تفارقني فهي قلبي العامر بالحزن والذكريات وهي قلب كلّ قلب بل هي ابنتي وأختي وأمي أحياناً، وأكثر بكائي خلسة حين أدخل إلى نفسي إذ ينبغي أن أشجّعهم على النسيان فما يهون عليّ أن يمزقوا أو- لا قدر الله- أن ينال منهم الحزن أيّ منال. أمّا إذا خلوت إلى نفسي فلا أجد عزاء إلّا في البكاء فأبكي حتّى تحفّ دموعي، وأقول لأنّ حنفي إذا تسلّلت إلى وحدتي الباكّة دعيني وشأني يرحمك الله. فنقول لي كيف أتركك وأنت على هذه الحال؟ أنا عارفة بحالك... ولكنك ستّ مؤمنة بل أنت ستّ المؤمنات فعندك تتعلّم العزاء والتسليم لقضاء الله... قول جميل يا أمّ حنفي ولكن أنّى للقلب المحزون أن يفقه معناه، ولم يعد لي شأن في هذه الدنيا ولم يعد لي عمل وكلّ ساعة من ساعات يومي مرتبطة بذكرى من ذكريات سيدي... لم أعرف الحياة إلّا وهو محورها



الملابس إلى سعاة ديوانه وفراشي مدرسة كمال فليس أحقّ بها من الفقراء أمثالهم الذين سيدعون له بالرحمة في مقرّه الأخير، أمّا المسبحة العزيزة فلن تفارق يدي حتّى أفارق الحياة، والقبر كم يبدو حلو المزار على ما يثير من شجن ولم أكن انقطعت عنه منذ انتقل إليه الشهيد الغالي، ومنذ ذلك الوقت وأنا اعتبره حجرة من بيتنا لكنّها في أطراف حيّنا، ويجمعنا القبر جميعًا كما كان يجمعنا مجلس القهوة في الزمن الحالي، وتنوح خديجة حتّى ينال منها الإعياء ثمّ نؤمر بالسكوت تأدّبًا لاستماع القرآن، ثمّ يشغلهم الحديث حيّنا فأتسرّ بما يصرف أعزّائي عن الحزن، ويشتبك رضوان وعبد المنعم وأحمد في نقاش طويل وتنضمّ إليهم كريمة أحيانًا فذاك ما يغري كمال بمشاركتهم الحديث ويلطف من كآبة المقام، ويسأل عبد المنعم عن خاله الشهيد فيقصّ ياسين القصص فتنبعث الحياة في الأيام القديمة ويعود غائب الذكريات ويخفق قلبي فلا أدري كيف أدري دموعي، وكثيرًا ما أرى كمال واجمًا فأسأله عمّا به فيقول لي إنّ صورته لا تفارقني خاصّة منظر الاحتضار فلو كانت نهايته أخفّ! فقلت له برقة عليك أن تنسى هذا كلّهُ. فتساءل كيف يكون النسيان؟ فقلت له بالإيمان فابتسم ابتسامة حزينة وقال: كم كنت أخافه في مطلع حياتي ولكنّه تكشف لي في عهده الأخير عن إنسان جديد بل صديق حبيب. ألا ما كان أظرفه وأرقّه وألطفه، لم يكن في الرجال مثله. وياسين يبكي كلّما أهاجته الذكرى... كمال حزنه في صمته الواجم أمّا ياسين الضخم فيبكي كالأطفال ويقول لي إنّ الرجل الوحيد الذي أحببته في حياتي، أجل كان أباه وكان أمّه ولم ينعم بالعطف والحنان والرعاية إلّا في كنفه حتّى شيدته كانت رحمة ولن أنسى يوم عفا عني ورُدّني إلى بيته فصدّق فراسة أمّي رحمها الله التي ما انفكت تقول لي إنّ السيّد ليس بالرجل الذي يقطع أمّ أولاده، وكان يجمعنا حبّه فالיום تجمعنا ذكراه، أمّا بيتنا فلا يخلو من الزوّار غير أنّ قلبي لا يسكن حتّى أجد خديجة وياسين وأهلها حوالي... حتّى زُتوبة فما أصدق حزنها، وقالت لي كريمة الصغيرة الجميلة: يا جدّتي تعالي عندنا فهذه أيام مولد الحسين وتحت بيتنا تقام

أنت واجم؟. الحزن لم يُخلق للرجال فالرجل لا يستطيع أن يحمل الأعباء والأحزان معًا... اصعد إلى حجرتك وتسلّ بالقراءة والكتابة كما تفعل أو انطلق إلى أصحابك فاسهر، ومن بدء الخليفة فالأعزّاء يفارقون ذويمهم، فلو كان الاستسلام إلى الحزن هو المتبع لما بقي على ظهر الأرض حيّ... لست حزينة كما تتوهم وما ينبغي لمؤمن أن يحزن، وسوف نعيش إذا أراد الله وسوف ننسى ولا سبيل إلى العزيز الذي سبق إلّا حين يشاء الله، هكذا أقول له ولا ألو أن أتكلّف ما ليس بي من الصبر والتجلّد إلّا إذا هلّت خديجة قلب بيتنا الحيّ وذرفت الدموع بلا حساب هنالك لا أملك أن أجهش في البكاء، وقالت لي عائشة إنّها رأت أباه في المنام قابضًا على ساعد نعيمة بيدٍ وعلى ساعد محمّد بيدٍ حاملًا عشان على كتفه وقال لها إنّه بخير وإنهم بخير فسألته عن سرّ النافذة التي نورّت لها في السماء ثمّ توارت إلى الأبد فتجلّت في عينيه نظرة عتاب ولم ينبس. ثمّ سألتني عن معنى الحلم. يا حيرة أملك يا عائشة... غير أنّي قلت لها إنّ العزيز مات وهو مشغول القلب بها ولذلك زارها في الحلم وجاءها بأولادها من الجنة لتقرّ برؤيتهم عينا فلا تنفّصي عليهم صفوهم باستسلامك للحزن، ليت عائشة الزمان الأوّل تعود ولو ساعة، ليت الذين حولي يبرءون من حزنهم حتّى لا يشغلني شاغل عن واجب الحزن العميق، وجمعت ياسين وكمال وقلت لهما: هذه المخلفات العزيزة ماذا نفعل بها؟ فقال ياسين: آخذ الخاتم فإنّه على قدّ أصبعي، ولك الساعة يا كمال أمّا السبحة فلك أنت يا نينة... والجيب والقفاطين؟... وذكرت من توي الشيخ متويّ عبد الصمد الذكرى الباقية من عهد العزيز فقال ياسين: لقد انتهى الرجل فهو في غيبوبة ولا يُعرف له مقرّ، وقال كمال مقطّبًا: لم يعرف أبي!... نسي اسمه وتولّى عن الجنّاة دون اكتراث. فانزعجت وأنا أقول: يا للعجب متى حدث هذا؟ كان سيّدي يسأل عنه حتّى أيامه الأخيرة وكان دائميًا يحبه ولم يره إلّا مرّة أو مرّتين مدّ زار بيتنا ليلة دخله نعيمة، ولكن ربّاه أين نعيمة وأين ذلك التاريخ كلّهُ؟ ثمّ اقترح ياسين أن تهدى

دلّت على أنّه لم يفاجأ بالخبر، على حين تركت خديجة الشال الذي تطوّره وحجّته بنظرة غريبة غير مصدّقة ثمّ نظرت إلى زوجها وهي تتساءل:

- ماذا قال؟

فعاد عبد المنعم يقول:

- سأتركك على الله وأخطب كريمة بنت أخيك...

فبسطت خديجة يديها في حيرة وقالت:

- هل أفلس الدنيا من الذوق؟ أهذا الوقت مناسب لحديث الخطبة حتّى مع صرف النظر عن المخطوبة؟

فقال عبد المنعم بأساً:

- كلّ الأوقات مناسبة للخطبة...

فهزّت رأسها في حيرة وهي تتساءل:

- وجذّك؟... (ثمّ وهي تردّد عينيها بين أحمد وإبراهيم)...

هل سمعتم عن شيء كهذا من قبل؟

فقال عبد المنعم في شيء من الحدة:

- خطبة لا زواج ولا فرح، وقد انقضى على وفاة جدّي أربعة أشهر كاملة...

وقال إبراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة:

- كريمة ما زالت صغيرة، مظهرها أكبر من سنّها فيما اعتقد...

فقال عبد المنعم:

- هي في الخامسة عشرة ولن يُكتب الكتاب قبل عام...

فقال خديجة في تهكّم ومرارة:

- هل أطلعتك زُتوبة هانم على شهادة الميلاد؟

فضحك إبراهيم شوكت، وضحك أحمد، أمّا عبد المنعم فقال جاداً:

- لن يتمّ شيء قبل عام، وبعد عام سيكون قد مضى على وفاة جدّي حوالى العام والنصف وتكون كريمة قد بلغت سنّ الزواج...

- ولماذا توجع دماغنا الآن؟

- لأنّه لا بأس من إعلان الخطبة في الوقت الحاضر.

فتساءلت خديجة في سخرية:

- وهل تحمّض الخطبة إذا أُجلّت عاماً؟

- أرجوك... أرجوك أن تكفّي عن المزاح...

الأذكار وأنت تحيّن ذلك، فقبّلتها شاكرة وقلت لها: يا بنيّتي جدّتك لم تعدد البيات خارج بيتها... إنّها لا تدري شيئاً عن آداب بيت جدّها في تلك الأيام التي خلّت. ما أجمل ذكراها والمشريّة آخر حدود دنياي حيث أنتظر عودة سيّدي آخر الليل وهو من قوّته يكاد يهذّ الأرض عند مغادرته للحنطور ثمّ يملأ الحجرة بطوله وعرضه والعافية تكاد تثب من وجهه أمّا اليوم فلا يعود ولن يعود وقبل ذلك ذبل وانزوى ولزم الفراش ورقّ جسمه وخفّت وزنه حتّى تحلّ بيد واحدة. يا حزني الذي لن يذهب! وقالت عائشة في غضب إنّ هؤلاء الأحفاد لم يمزّنوا على جدّهم، إنّهم لا يمزّنون، فقلت لها بل حزنوا ولكنّهم صغار ومن رحمة الله بهم ألاّ يغرقوا في الحزن، فقالت: انظري إلى عبد المنعم لا ينتهي نقاشه، وهو لم يمزّن على ابنتي وسرعان ما نسيها كأنّها شيء لم يكن. فقلت لها: بل حزن عليها طويلاً وبكى كثيراً وحزن الرجال غير حزن النساء وقلب الأمّ غير القلوب جميعاً، ومنذا الذي لا ينسى يا عائشة، ونحن ألاّ ننسى بالحديث أو يدركنا الابتسام أحياناً وسوف يأتي يوم لا يكون فيه دموعي، ثمّ أين فهمي أين؟. وقالت لي أمّ حنفي: لماذا امتنعت عن زيارة الحسين؟ فقلت: نفسي فاترة عن كلّ شيء أحبّته وسأزور سيّدي عندما يبرأ الجرح. فقالت لي: وهل يبرأ الجرح إلّا بزيارة سيّدك؟ هكذا ترعاني أمّ حنفي وهي ربّة بيتنا ولولاها ما كان لنا بيت، إنّك يا ربّي ربّ الجميع أنت القاضي ولا رادّ لقضائك ولك أصليّ، وددت لو أبقيت على سيّدي قوّته حتّى النهاية فما ألمّي شيء كما ألمّي رقادته، هو الذي كانت الدنيا تضيق عن مساحته... حتّى الصلاة عجز عنها وما عاناه قلبه الضعيف وعودته محمّولاً على الأيدي كالطفل لذلك تسيل دموعي ويتكاثف حزني...

- سأتركك على الله وأخطب كريمة بنت خالي...

رفع إبراهيم شوكت عينيه إلى ابنه في شيء من الدهش، أمّا أحمد فأحنى رأسه وهو يبتسم ابتسامة

الدعوات المتتابعة إلى ولائم قصر الشوق، وإذا بك  
تقع كالجرذل!

فردد عبد المنعم عينيه غاضباً بين أبيه وأخيه ثم  
تساءل:

- أهذا الكلام يليق بنا؟ أسمعاني رأيكما!...

فقال إبراهيم شوكت متثاقلاً:

- لا داعي لكثرة الكلام، عبد المنعم سيتزوج إن  
اليوم أو غداً، وأنت تودّين هذا، وكرمة ابنتنا، وهي  
بنت جميلة ولطيفة، لا داعي للشوشرة...

وقال أحمد:

- أنت يا نينة أول من يودّ إرضاء خالي ياسين!

فقال خديجة محتدة:

- كلّكم ضدي كالعادة، ولا حاجة لكم إلّا خالي  
ياسين، ياسين أخي، وكان خطؤه الأول أنّه لم يعرف  
كيف يتزوج، وعنه ورث ابن أخته هذا المزاج  
الغريب!...

فتساءل عبد المنعم في عجب:

- أليست امرأة خالي صديقك؟! من يراكها وأنتما  
تتناجيان يظنّكما شقيقتين!...

- ما حيلتي في امرأة سياسية مثل النبي؟ لكن لو  
ترك لي الأمر أو لو لم أزع خاطر ياسين ما سمحت لها  
بدخول بيتي، وماذا كانت النتيجة؟... أكلت مخك

بالولائم المغرصة، وعليه العوض؟

عند ذاك قال أحمد مخاطباً أخاه:

- اخطبها وقتها نشاء، نينة لسانها كثير الكلام ولكنّ  
قلبها طيب...

فضحكت ضحكة عصبية وقالت:

- عفارم يا ولدا! تختلفان في كلّ شيء... في الدين  
والملة والسياسة، أما عليّ فتتحدّان!...

فقال أحمد في مزح:

- خالي ياسين أغلّ الناس عندك، وسوف ترخّين  
بكرمته كأحسن ما يكون الترحيب، الحكاية أنّك  
تودّين عروساً غريبة حتىّ تتمكّني - كحياة - من  
اضطهادها، حسن، عليّ أنا أن أحقّق لك هذا الأمل،  
سوف أجيئك بالعروس الغريبة لتشفي غليلك!

فصاحت خديجة:

- لو وقع هذا لكان فضيحة.

فقال عبد المنعم في هدوء ما استطاع:

- دعي جدّي لي، ستفهمني خيراً منك، إنّها جدّي  
وجدة كريمة على السواء.

فقال بخشونة:

- ليست جدّة لكريمة...

فسكت عبد المنعم وقد تجهّم وجهه فبادره أبوه  
قائلاً:

- المسألة مسألة ذوق فيحسن أن تنتظر قليلاً...

فهتفت خديجة حانقة:

- يعني أنّه لا اعتراض لك إلّا على الوقت؟

فتساءل عبد المنعم متغابياً:

- هل ثمة اعتراض آخر؟

فلم تجب خديجة وعادت تتشاغل بتطريز الشال  
فاستطرد عبد المنعم قائلاً:

- كريمة ابنة ياسين أخيك أليس كذلك؟

فتركت خديجة الشال وقالت بمبراة:

- هي ابنة أخي حقاً ولكن كان ينبغي أن تذكر أمّها  
أيضاً!

وتبادلوا النظرات في إشفاق، ثمّ اندفع عبد المنعم  
قائلاً في حدة:

- أمّها زوجة أخيك كذلك!

فارتفع صوتها وهي تقول:

- أعلم هذا، وهو ممّا يؤسف له!

- ذلك الماضي المنسي! من يذكره الآن؟! لم تعد إلّا

سيّدة محترمة مثلك!

فقال بصوت غليظ:

- ليست مثلي ولن تكون مثلي أبداً!

- ماذا يعيبيها؟! عرفناها منذ صغرنا سيّدة محترمة

بكلّ معنى الكلمة، والإنسان إذا تاب واستقام عيت  
صفحة سوابقه فلا يدركه بها بعد ذلك إلّا...

وأمسك، فقالت وهي تهزّ رأسها في أسف:

- نعم؟ صفتي! سبّ أمك إكراماً لهذه المرأة التي  
عرفت كيف تاكل مخك، طالما تساءلت عني وراء

وكان إسماعيل لطيف يقول:  
 - أنا في إجازة للاستعداد ومن ثم أسافر...  
 فتساءل كمال في أسف:  
 - ستغيب عنا ثلاثة أعوام؟  
 - نعم، لا بد من المغامرة، مرتب ضخم لا أنخيل  
 أن أناله يوماً هنا، ثم إن العراق بلد عربي لا يختلف  
 عن مصر كثيراً...  
 سيختلف وحشة، لم يكن صديق الروح ولكنه  
 صديق العمر، وتساءل رياض قلندس ضاحكاً:  
 - ألا يحتاج العراق إلى مترجمين؟  
 فسأله كمال:  
 - أتسافر إذا سنحت لك فرصة كفرصة إسماعيل؟  
 - لو حدثت في الماضي ما ترددت أما اليوم فلا...  
 - وما الفرق بين الماضي والحاضر؟  
 فقال رياض قلندس ضاحكاً:  
 - بالنسبة لك لا شيء، أما بالنسبة لي فهو كل  
 شيء، الظاهر أنني سأنضم قريباً إلى جماعة المتزوجين!  
 دهش كمال للخبر الذي وقع عليه دون تمهيد وقد  
 ساوره قلق لم يدرك كنهه:  
 - حقاً؟! لم تُثير إلى ذلك من قبل!  
 - بلى، جاء بغتة، في آخر مقابلة، في آخر مقابلة  
 بيننا لم يكن في البال شيء!  
 ضحك إسماعيل لطيف في ظفر، أما كمال فتساءل  
 وهو يحاول أن يتسّم:  
 - كيف؟

- كيف؟! كما يحدث كل يوم، مدرسة جاءت لزيارة  
 أخيها في إدارة الترجمة فأعجبني، فجسست النبض  
 فوجدت من يقول: «تفضل»...  
 تساءل إسماعيل ضاحكاً وهو يتناول خرطوم  
 النارجيلة من كمال:  
 - ترى متى يحسّ هذا (مشيراً إلى كمال) النبض؟  
 هكذا إسماعيل لا يفوت فرصة أبداً لإثارة هذا  
 الموضوع المعاد، ولكن ثمة أمر أخطر من هذا، فجميع  
 الأصدقاء المتزوجين يقولون إن الزواج «زنزانة»، فمن  
 المحتمل جداً ألا يرى رياض - إذا تزوج - إلا في  
 القليل النادر، وربما تغير وتبدل فيصبح صديقاً

- لا عجب إن جئتني غداً براقصة! علام  
 تضحكون؟! هذا شيخ الإسلام سيصاهر عائلة فماذا  
 أتوقع منك أنت المتهم في دينه والعياذ بالله؟!  
 - نحن في حاجة إلى راقصة بالفعل!  
 وإذا بخديجة تقول وكأنما تذكرت أمراً خطيراً:  
 - وعائشة يا ربّي ترى ماذا تقول عنا؟!  
 فقال عبد المنعم محتجاً:  
 - ماذا تقول؟ لقد توقّيت زوجتي منذ أربع سنوات  
 كاملة فهل تودّ أن أبقي أرمل مدى العمر؟  
 فقال إبراهيم شوكت في ضجر:  
 - لا تخلقوا من الحبّة قبة، المسألة أبسط من هذا  
 كله، كريمة ابنة ياسين، ياسين أخو خديجة وعائشة،  
 حسينا هذا. أف. كل شيء عندكم نقار حتى  
 الأفراح؟!  
 واختلس أحد من أمه نظرة باسمه، وجعل يراقبها  
 حتى قامت كالغاضبة وغادرت الصالة، وراح يقول  
 لنفسه: هذه الطبقة البورجوازية كلها عقد، تحتاج إلى  
 محلّ نفسانيّ بارع ليشفّيها من كافة عللها، محلّ له  
 قوة التاريخ نفسه! لو هادني الحظّ لسبقت أخي إلى  
 الزواج ولكنّ البورجوازية الأخرى اشتربت مرتباً لا  
 يقلّ عن خمسين جنيهًا، هكذا تُجرح قلوب لأمر لا  
 شأن لها بالقلوب، ترى ماذا يكون رأي سوسن حماد لو  
 علمت بمغامرتي الفاشلة؟!.

## ٤٠

كان الجو شديد البرودة، ولم يكن خان الخليلي  
 الرطب ممّا يؤثر شتاء، ولكنّ رياض قلندس نفسه الذي  
 أشار ذلك المساء بالذهاب إلى قهوة خان الخليلي التي  
 شيّدت مكان قهوة أحمد عبده فوق سطح الأرض، أو  
 كما قال: «علمني كمال عليّ آخر الزمن أن أكون من  
 غواة الغرائب». كانت قهوة صغيرة، بابها يفتح على  
 حيّ الحسين، ثمّ تمتدّ طولاً في شبه ممّرتصّفت على  
 جانبيه الموائد ويتبهي بشرفة خشبيّة تطلّ على خان  
 الخليلي الجديد. جلس الأصدقاء في جناح الشرفة  
 الأيمن يحتمسون الشاي ويدخنون نارجيلة بالمناوية.

- دعونا من حديث الزواج، لقد انتهت منه وعقبى لك، على أن ثمة أحداثاً سياسية هامة هي التي ينبغي أن تستأثر اليوم باهتمامنا.

وكان كمال يشاركه مشاعره هذه غير أنه لم يستطع أن يفيق من المفاجأة فتلقى دعوة الآخر بفتور ظاهر ولم ينبس، أما إسماعيل لطيف فقال ضاحكاً:

- عرف النحاس كيف ينتقم لإقالة ديسمبر سنة ١٩٣٧ فانتحم عابدين على رأس الدبابات البريطانية! وترث رياض قليلاً ليعطي كمال فرصة للرد غير أن هذا لم ينشط للكلام، فقال رياض في لهجة متجهمّة: - انتقام! إن خيالك يصوّر لك المسألة على وجه هو أبعد ما يكون عن الحقيقة...

- فما الحقيقة؟

والقى رياض نظرة على كمال كأنما يحثّه على الكلام فلما لم يستجب استطرد قائلاً:

- ليس النحاس بالرجل الذي يتأمر مع الإنجليز في سبيل العودة إلى الحكم، إن أحمد ماهر مجنون، هو الذي خان الشعب وانضمّ إلى الملك، ثم أراد أن يغطي مركزه المضطرب بتصريحه الأحمق الذي أعلنه أمام الصحفيين!

ثم نظر إلى كمال مستطعاً رأيه، وكان حديث السياسة قد جذب أخيراً بعض اهتمامه غير أنه شعر برغبة في معارضة رياض ولو بعض الشيء فقال:

- لا شك أن النحاس قد أنقذ الموقف، ولست أشك في وطنيته مطلقاً، إن الإنسان لا يتقلب في هذه السنّ إلى خائن ليتولى وظيفة تولّاها خمس مرّات أو سناً من قبل، ولكن هل كان تصرفه هو التصرف المثالي؟...

- أنت شكّك لا نهاية لشكّك، ما الموقف المثالي؟ - أن يصرّ على رفض الوزارة حتّى لا يخضع للإنذار البريطاني وليكن ما يكون.

- ولو عزل الملك وتولى أمر البلاد حاكم عسكري بريطاني؟

- ولوا...

تنهّد رياض في غيظ وقال:

- نحن نلهو بالحديث أمام النارجيلة، أما السياسي

بالمراسلة، وهو وديع رقيق فما أسهل هضمه، ولكن كيف تمضي الحياة بدونه؟ وإذا جعل الزواج منه شخصاً جديداً كإسماعيل فسلام على كافّة مسرّات الحياة! وسأله:

- ومتى تتزوّج؟

- في الشتاء القادم على أبعد الفروض.

كأنما قضي عليه أن يفقد دواماً صديقاً لروحه المعذب:

- عند ذاك ستكون رياض قلّس آخر!

- له!... أنت وأهم جداً...

فقال وهو يداري قلقة بابتسامة:

- وأهم! رياض اليوم شخص لا يُشبع روحه شيء ويقنع جيبه بلا شيء، أما الزوج فلن يشبع جيبه أبداً ولن يجد فرصة لمتاع الروح...

- يا له من تعريف جارح للزوج! ولكنّي لا أوافقك عليه...

- كإسماعيل الذي اضطرّ إلى الهجرة إلى العراق، لست أسخر من هذا، فهو طبيعي فوق أنه بطولة، ولكنّه في الوقت نفسه بشع، تصوّر أن تغرق حتّى قمّة رأسك في هموم الحياة اليومية، ألا تفكر إلّا في مشكلات الرزق، أن يحسب وقتك بالقروش أو اللاليم، أن تسمي شاعرية الحياة ضياع وقت!

فقال رياض في استهانة:

- أوهام مبعثها الخوف!

وقال إسماعيل لطيف:

- آه لو تعرف الزواج والأبوة! لقد فاتك حتّى اليوم أن تعرف حقيقة الحياة...

لا يبعد أن يكون الصواب رأيه، ولو صحّ هذا فحياته مأساة سخيفة، ولكن ما السعادة وماذا يروم على وجه التحقيق؟ غير أن الذي يكرهه الآن أنّه بات مهذّباً بالوحدة المرعبة مرّة أخرى، كما عانى عقب اختفاء حسين شّداد من حياته، لو كان من الممكن أن يجد زوجة لها جسم عطية وروح رياض! هذا ما يروم حقاً، جسم عطية وروح رياض في شخص واحد يتزوّجه فلا يتهذّب الشعور بالوحدة حتّى الموت، هذه هي المشكلة، وإذا برياض يقول في ضجر:

فأمامه مسئولية خطيرة، في هذه الظروف الحربية الدقيقة كيف يقبل النحاس أن يعزل الملك ويحكم البلاد حاكم عسكري إنجليزي؟ وإذا انتصر الحلفاء - ويجب أن نفترض هذا أيضًا - فنكون في صفوف الأعداء المهزمين، السياسة ليست مثالية شرعية ولكنها واقعية حكيمة...

- لا زلت أومن بالنحاس، ولكن لعله أخطأ، لا أقول تأمر أو خان...

- المسئولية تقع على العاشرين الذين مالوا الفاشست من وراء ظهور الإنجليز كأن الفاشست سيحترمون استقلالنا، أليس بيننا وبين الإنجليز معاهدة؟ وأليس الشرف يقضي علينا باحترام كلمتنا؟ ثم ألسنا ديمقراطيين يهنا أن تنتصر الديمقراطية على النازية التي تضعا في جدول الأمم والأجناس في أحط طبقة وتثير شحناء الجنسية والعنصرية والطائفية؟...

- معك في هذا كله، ولكن الخضوع للإنذار البريطاني جعل من استقلالنا وهماً...  
- احتجّ الرجل على الإنذار ونزل الإنجليز عند رأيه...

فضحك إسماعيل عاليًا ثم قال:

- يا عيني على الاحتجاج الأنجلو أجيشيان!...

غير أنه سرعان ما قال جادًا:

- إني أقره على ما فعل، ولو كنت مكانه لفعلته، رجل أبعد رغم أغليته وأهين فعرف كيف ينتقم لنفسه، والواقع أنه ليس هنالك استقلال ولا كلام فارغ، ففي سبيل أي شيء يعزل الملك ويحكمنا حاكم عسكري إنجليزي؟!

وازداد وجه رياض تجهّلاً، أما كمال فابتسم قائلاً في هدوء بدا غريبًا:

- أخطأ الآخرون وتحمل النحاس نتيجة الخطأ، لا شك أنه أنقذ الموقف، أنقذ العرش والبلاد، ثم إن العبرة بالخاتمة، فإذا ذكر له الإنجليز صنيعة بعد الحرب فلن يذكر أحد ٤ فبراير!...

إسماعيل هازناً وهو يصفق طالباً جرات للنارجيلة:  
- إذا ذكر الإنجليز صنيعة! وأنا أقول لك من الآن بأنهم سيقبلونه قبل ذلك!

فقال رياض بإيمان:

- الرجل تقدّم لحمل أكبر مسئولية في أخرج الظروف...

فقال كمال بأسياً:

- كما ستتقدّم لحمل أكبر مسئولية في حياتك!...  
فضحك رياض، ثم نهض قائلاً «عن إذنتكم» ومضى في اتجاه دورة المياه، وعند ذاك مال إسماعيل نحو كمال وقال وهو يتبسم:

- في الأسبوع الماضي زار والدتي «جماعة» لا شك أنك تذكرهم!

فنظر كمال إليه مستظلاً وهو يتساءل:

- من؟...

فقال الآخر وهو يتبسم ابتسامة ذات معنى:

- عايدة!

وقع الاسم من أذنيه موقعاً غريباً، فغطّت غرابية موقعه على كافة الانفعالات التي كان حرياً بأن يثيرها، وبدا حيناً كأنما هو صادر من أعماقه هو لا من لسان صاحبه، وكل شيء كان متوقعاً إلا هذا، ومضت لحظات وكأن الاسم ليس له معنى، من عايدة؟ أي عايدة؟ يا للتاريخ! كم عامًا مضى دون أن يطرق هذا الاسم مسامعه منذ ١٩٢٦، أو ١٩٢٧؟ ستة عشر عامًا أو عمر شاب يافع بالكمال لعله أحبّ وميّن بالإخفاق! لقد طعن في السنّ حقًا، عايدة! ترى ماذا أصابه بهذه الذكرى؟ لا شيء! ليس إلا اهتماماً عاطفياً مشوباً بشيء من الانفعال كمن تمسّ يده موضع عملية جراحية ملتئم من قديم فيذكر ما اكتنفها من ظرف خطير مضى وانقضى، وتمتم متسائلاً:

- عايدة؟!

- نعم، عايدة شدّاد ألا تذكرها؟ أخت حسين

شدّاد!...

وشعر بمضايقة تحت عيني إسماعيل فقال متهرباً:

- حسين! ترى ما أخبر حسين؟

- من يدري؟

وشعر بسخف تهربه، ولكن ما حيلته وقد أحسّ بوجهه يسخن رغم برودة فبراير الشديدة؟ وبدا له الحبّ على مثال غريب بعض الشيء... كالطعام!

وعاد رياض إلى مجلسه فخاف كمال أن يقطع  
إسمايل حديثه ولكّنه واصله قائلاً:

- وسألوا عنك!

ردّد رياض نظره بينهما فأدرك أنّ حديثاً خاصّاً يدور  
بينهما فعدل عنها إلى النارجيلة، أمّا كمال فقد شعر بأنّ  
جملة «سألوا عنك» توشك أن تودي بقرّة مناعته كاشد  
الميكروبات فتكّاً، وتساءل وهو يبذل أقصى ما يملك من  
قرّة ليبدو طبيعياً:

- لماذا؟

- سألوا عن فلان وعلان من أصحاب زمان ثمّ  
سألوا عنك فقلت مدرّس بمدرسة السلاحدار وفيلسوف  
كبير ينشر مقالات لا أفهمها في جملة الفكر التي لا  
أفتحها فضحكوا ثمّ سألوا «هل تزوّج؟» فقلت  
كلّاً...

فوجد نفسه يسأل:

- ماذا قالوا؟

- لا أذكر ماذا حوّلنا عن هذا الحديث؟

إنّ المرض الكامن يهدّد بالانفجار، والذي مرض  
قديماً بالسّل يجب أن يحذر البرد، أمّا جملة سألوا عنك  
فما أشبهها بأنغام الصبا في بساطة معناها وشديد نفاذها  
في النفس، وقد يطرا ظرف فتعبّر النفس حال عاطفيّة  
مندثرة بكامل قوتها الماضية ثمّ تنقطع... كالسطر في  
غير أوانه، على ذلك شعر في هذه اللحظة العابرة بأنّه  
انقلب ذلك العاشق القديم، وأنّه يعاني الحبّ حياً  
بكافّة أنفاسه الساوّة والحزينة، ولكنّ الخطر لم يكن  
يتهدّد بصفة جدّيّة فهو كالحالم المكروب الذي يداخله  
شعور ملطّف بأنّ ما يراه حلم لا حقيقة، لكنّه تمخّ في  
تلك اللحظة لو تقع معجزة من السماء فيلقاها ولو  
لبضع دقائق فتعترف له بأنّها بادلت عافطته يوماً أو  
بعض يوم وأنّ فارق السنّ أو غيره هو الذي فرق  
بينهما! لو وقعت هذه المعجزة لعزّته عن كاشّة آلامه  
قديماً وحديثاً ولعدّ نفسه سعيداً في الخلق وأنّ الحياة  
لم تمض عبثاً، بيد أنّها صحوة كاذبة كصحوة الموت،  
والأحرى به أن يقنع بالنسيان، وهو نصر ولو انطوى  
على هزيمة، وليكن عزّاه أنّه ليس الوحيد في البرّ الذي  
مُنّي بخيبة الحياة، وتساءل:

تشعر به بقرّة وهو على المائدة، ثمّ وهو في المعدة، ثمّ  
وهو في الأمعاء على نحو ما، ثمّ وهو في الدم على نحو  
آخر، حتّى يستحيل خلّايا ثمّ تتجدّد الخلّيا بمرور  
الزمن فلا يبقى منه أثر، لكن ربّما بقي منه صدى في  
الأعناق هو ما نسمّيه بالنسيان، وقد يعرض للإنسان  
«صوت» قديم فيدفع بهذا النسيان إلى قريب من  
منطقة الوعي فيسمع الصدى على وجه ما، وإلا فما  
هذا الاضطراب؟ أم لعله الحنين إلى عايده لا باعتبارها  
المحبوبة التي كانت - فقد انتهى هذا إلى غير رجعة -  
ولكن باعتبارها رمزاً للحبّ الذي كان كثيراً ما  
يستوحش غيبته الطويلة، مجرّد رمز كالخربة المهجورة  
التي تثير ذكريات تاريخيّة جليّة.

وعاد إسمايل يقول:

- وتحدّثنا طويلاً - أنا وعايده وأمي وزوجي - فروت  
لنا كيف هربت هي وزوجها بل وجميع ممثلي الدول  
السياسيّين أمام الجيوش الألمانية حتّى لاذا بأسبانيا،  
وأنتها نُقلّا أخيراً إلى إيران؛ ثمّ رجعنا إلى أيّام زمان  
وضحكنا كثيراً...

مهما يكن من أمر الحبّ الذي مات فقلبه يبعث  
حينئذ مسكراً، وأوتار الأعناق التي تهتكت أخذت  
تصعد أنغاماً بالغة في الخفوت والحزن، وتساءل:

- ما شكلها الآن؟

- لعلّها في الأربعين، كلّاً أنا أكبر منها بعامين،  
عايده في السابعة والثلاثين، وامتلأت قليلاً عمّا كانت،  
لكنّها ما زالت محتفظة برشاقتها، ووجهها هو هو تقريباً  
فيما عدا نظرة عينيها التي أصبحت توحى بالجدّ  
والرزانة، وقالت إنّها أنجبت ابناً في الرابعة عشرة وبنّاً  
في العاشرة...

هذه هي عايده إذن، لم تكن حلماً ولم يكن تاريخها  
وهماً، فقد تمرّ لحظات فيبدو ذلك الماضي كأنّه لم يكن،  
وهي زوجة وأمّ وتذكر الماضي وتضحك كثيراً، ولكن  
ما حقيقة صورتها؟ وماذا بقي من هذه الحقيقة في  
الذاكرة؟ فلنشدّ ما تتغيّر المناظر في أثناء حفظها  
بالذاكرة، وهو يؤدّ أن يلقي نظرة ثابتة على هذا الكائن  
البشريّ لعله يقف على السرّ الذي مكّنه قديماً من أن  
يفعل به الأفاعيل.

- متى يسافرون إلى إيران؟

- سافروا أمس أو هذا ما أخبرني به في زيارتها...

- وكيف تلقت كارثة أسرتها؟

- تجبّت هذا الحديث بطبيعة الحال ولم تشر هي إليه!

وإذا برياض قلّس يهتف مشيراً أمامه «انظروا» فنظروا إلى الجناح الأيسر من الشرفة فرأوا امرأة غريبة الشكل، كانت في الحلقة السابعة، نحيلة الجسد، حافية القدمين، ترتدي جلباباً مما يرتدي الرجال، وتضع على رأسها طاقية لا يبدو تحت حافتها أي أثر للشعر فهي صلعاء أو قرعاء، أما وجهها فبدا غارقاً في أصباغ الزواق على هيئة مزرية مضحكة معاً، ولم يكن فيها ناب واحد على حين راحت عينها ترسلان في جميع الجهات نظرات تودّد واستعطاف بايسم. تساءل رياض باهتمام:

- شحاذة؟

فقال إسماعيل:

- مجذوبة على الأرجح!

وقفت تنظر إلى المقاعد الخالية في الجناح الأيسر ثم اختارت مقعداً وجلست، عند ذلك انتبهت إلى أعين المحلقين فيها فابتسمت ابتسامة عريضة وقالت:

- مساء الخير يا رجال!

فرحب رياض بتحيّتها وقال بحرارة:

- مساء الخير يا حاجة!

فندّت عنها ضحكة ذكرت إسماعيل - على حدّ قوله - بالأزبكية في عزّها... وقالت:

- حاجة! نعم أنا كذلك إن كنت تقصد المسجد «الحرام»!

وضحكوا ثلاثتهم فتشجعت وقالت بإغراء:

- اطلبوا لي الشاي والنارجيلة ولكم الأجر عند الله...

فصقّ رياض بحاس ليطلب لها ما أرادت ومال على أذن كمال هامساً «هكذا تبدأ بعض القصص» أما العجوز فقد ضحكت في سرور وقالت:

- هذا كرم أيام زمان!... أغنياء حرب يا أولادي؟...

فقال كمال ضاحكاً:

- نحن فقراء حرب، أي موظفين يا حاجة...

وسألها رياض:

- ما الاسم الكريم؟

فارتفع رأسها في كبرياء مضحك وقالت:

- السلطانة زبيدة على سنّ ورمح!

- السلطانة؟!

- نعم... (ثم وهي تضحك)... ولكنّ رعيتي ماتوا!

- الله يرحمهم!

- الله يرحم الأحياء أمّا الأموات فحسبهم أتهم بين يدي الله...، خبروني من أنتم؟

وجاء النادل بالنارجيلة والشاي وهو يبتسم، ثم اقترب من مجلس الأصحاب وسألهم:

- تعرفونها؟

- من هي؟

- زبيدة العالة، أشهر عالة في زمانها، ثم انتهى بها العمر والكوكابين إلى ما ترون!

خيّل إلى كمال أنّه لا يسمع هذا الاسم للمرة الأولى أمّا رياض قلّس فقد ارتفع اهتمامه إلى الذروة فجعل يحثّ أصحابه على أن يعرفوها بأنفسهم كما طلبت حتى تنفتح نفسها للكلام فقال إسماعيل مقدّماً نفسه:

- إسماعيل لطيف.

فقال ضاحكاً وهي ترشف الشاي قبل أن يرد:

- عاشت الأسماء ولو أنّه اسم لا معنى له...

فضحكوا، وفي ذات الوقت سبّها إسماعيل بصوت لم تسمعه، أمّا رياض قلّس فقال:

- رياض قلّس.

- كافر؟! عشقني واحد منكم كان تاجرًا في الموسكي اسمه يوسف غفّاس، كان قدّ الدنيا، وكنت أصلبه على السرير حتى يطلع الصبح!...

وشاركتهم ضحكهم وقد لاحت الغبطة في وجهها ثمّ اتّجه بصرها إلى كمال فقال:

- كمال أحمد عبد الجواد.

وكانت تقرّب قدح الشاي من فيها فتوقّفت يدها في بقظة طارئة ثمّ حملت في وجهه متسائلة:



الزياط فالباب من هنا...  
فلاذت بالصمت حتى ذهب الرجل، ثم نظرت  
إليهم باسمه، ثم سألت كمال:  
- وأنت كأبيك أم لا...؟  
وأنت بيدها حركة شاذة فضحك الأصدقاء وقال  
إسماعيل:  
- إنه لم يتزوج بعدا...  
فقال في لهجة ارتياب عابث:  
- الظاهر أنك ابن أونطة!...  
فضحكوا، ثم نهض رياض، ومضى إليها فجلس  
إلى جانبها وهو يقول:  
- حصل لنا الشرف يا سلطنة، ولكني أود أن  
أسمع لك وأنت تحدثنا عن أيام السلطنة!...

## ٤١

لم يبق إلا ثلث ساعة ثم تلقى المحاضرة، أما قاعة  
إيوارت فقد قاربت الامتلاء، إن مستر روجر - كما قال  
رياض قلديس - أستاذ خطير، وهو كأخطر ما يكون  
حين يتكلم عن شكسبير. أجل قيل إن المحاضرة لن  
تخلو في النهاية من نوع من الدعاية السياسية ولكن ماذا  
يهم في ذلك ما دام المحاضر هو مستر روجر والموضوع  
هو وليام شكسبير. غير أن رياض كان مغتماً واجماً،  
ولولا أنه هو الذي دعا كمال إلى سماع المحاضرة  
لتخلف عن شهودها، وكان حزيناً كما ينبغي لرجل  
مثله تستأثر السياسة باهتمامه كل هذا الاستئثار. وكان  
يهمس في أذن كمال بانفعال غير خاف:  
- يُفصل مكرم من الوفد! كيف تقع هذه الخوارق؟!  
ولم يكن كمال قد أفاق من الخبر كذلك فهو رأسه في  
وجوم دون أن ينبس:  
- إنها كارثة قومية يا كمال، ما كان ينبغي أن  
تتهاوى الأمور حتى هذا الحضيض...  
- نعم، ولكن من المسئول؟  
- النحاس! قد يكون مكرم عصياً، ولكن الفساد  
الذي تسرب إلى الحكومة أمر واقع ولا يصح السكوت  
عليه.

- قلت ماذا؟  
فأجاب عنه رياض قلديس:  
- كمال أحمد عبد الجواد.  
فأخذت نفساً من النارجيلة وقالت وكأنها تخاطب  
نفسها:  
- أحمد عبد الجواد! ولكن ما أكثر الأسماء!  
كالفروش أيام زمان... (ثم غطابة كمال)... والدك  
تاجر النحاسين؟  
فدهش كمال وقال:  
- نعم.  
فقامت من مجلسها واقتربت منهم حتى وقفت أمامه  
ثم ضحكت ضحكة عالية أقوى من هيكليها بأجيال  
وهتفت:  
- أنت ابن عبد الجواد! يا ابن الرفيق الغالي!  
ولكنك لا تشبهه! هذا أنفه حقاً، ولكنه كان كالبدري  
ليلته، ما عليك إلا أن تذكره بالسلطنة زبيدة وهو  
يحذرك عني بما فيه الكفاية!  
أغرق رياض وإسماعيل في الضحك، على حين  
ابتسم كمال وهو يغالب ما ركبته من ارتباك، وهنا فقط  
تذكر حديث ياسين في الزمن الخالي، بل أحاديثه عن  
أبيه وزبيدة العالة! وعادت تسأله:  
- كيف حال السيد؟ انقطع من زمن طويل عن  
حيكم الذي نبذني، أنا الآن من أهل الإمام، ولكني  
أحن إلى الحسين فأزوره كل حين ومين، وكنت مريضة  
وطال بي المرض حتى ضاق بي الجيران فلولا الملام  
لرموني في القبر حيّة، كيف حال السيد؟  
فقال كمال في شيء من الوجوم:  
- توفي منذ أربعة أشهر...  
فقطبت قليلاً وقالت:  
- إلى رحمة الله، يا خسارة، كان رجلاً ولا كل  
الرجال...  
ثم عادت إلى مجلسها، وبغته ضحكت ضحكة  
عالية، وما لبث أن ظهر صاحب القهوة عند مدخل  
الشرفة وهو يقول لها منذراً:  
- كفاية ضحك، سكتنا له دخل بحماره، كثر خير  
البكوات على إكرامهم لك، ولكن إن عدت إلى

فقال كمال بأسًا:

- دعنا من الفساد الحكومي، ثورة مكرم ليست على الفساد بقدر ما هي لضياح النفوذ...  
فتساءل رياض في شيء من التسليم:  
- أبيع مكرم المجاهد بعاطفة زائلة؟...  
فلم يتمالك كمال أن ضحك قائلاً:  
- لقد بعث نفسك أنت بهذه العاطفة الزائلة...  
ولكن رياض قال دون أن يتبسم:  
- أجبي...!

- مكرم عصبي، شاعر ومغنٍ! عنده أن يكون كل شيء أو لا يكون شيئاً على الإطلاق، وجد نفوذه المأثور يتقلص فنار، ثم وقف لهم وقفته في مجلس الوزراء منذاً علانية بالاستثناءات فاستحال التفاهم أو التعاون، حدث يؤسف له!  
- والنتيجة؟

- هناك السراي تبارك ولا شك هذا الانشقاق الجديد في الوفد، وستحتضن مكرم في الوقت المناسب كما احتضنت غيره من قبل، سنرى من الآن فصاعداً مكرم وهو يلعب دوره الجديد مع الأقليات السياسية ورجال السراي، إما هذا وإما العزلة، لعلهم يكرهونه كما يكرهون النحاس أو أكثر، ومنهم أناس لم يكرهوا الوفد إلا كراهة في مكرم ولكنهم سيحتضنونه ليهدموا به الوفد، أما عن المصير بعد ذلك فلا يمكن التنبؤ به...!

فعبس رياض وقال:

- صورة بشعة، أخطأ الاثنان، النحاس ومكرم، إن قلبي متشائم من هذه الحركة...  
ثم بصوت أشد انخفاضاً:

- سيجد الأقباط أنفسهم بلا مأوى، أو يأوون إلى حصن عدوهم اللدود «الملك» وهو مأوى لن يدوم لهم طويلاً، وإذا اضطهدنا الوفد كما تضطهدنا الأقليات فكيف يكون الحال؟

فتساءل كمال متغابياً:

- لماذا تدفع بالأمر خارج حدود الطبيعة؟ مكرم ليس الأقباط والأقباط ليسوا مكرم، إنه شخص ذهب أما مبدأ الوفد القومي فلن يذهب...!

فهز رياض رأسه في أسف ساخر وقال:

- هذا ما قد يكتب في الجرائد، أما الحقيقة فهي ما أعني، لقد شعر الأقباط بأنهم طُردوا من الوفد، وهم يتلمسون الأمان وأخشى ألا يظفروا به أبداً، لقد جاءني السياسة أخيراً بعقدة جديدة كعقدة الدين، فكما كنت أنبد الدين بعقلي وأميل إليه بقلبي بصفته رابطة قومية فكذلك سأنبذ الوفد بقلبي وأميل إليه بعقلي، إذا قلت إنني وفدي فقد كذبت قلبي وإذا قلت إنني عدو للوفد خنت عقلي، إنها كارثة لم تخطر لي على بال، والظاهر أنه مقضي علينا نحن الأقباط بأن نعيش في شخصيات منقسمة أبداً، لو كانت مجموعتنا فرداً واحداً لجن...!

شعر كمال بامتعاض وألم، وبدت له لحظتك ذلك جماعات البشر وكأنها تمثل مهزلة ساخرة ذات نهاية مفاجئة، ثم قال في صوت لا ينم عن إيمان:

- عسى أن تكون مشكلة وهمية، إذا نظرتم إلى مكرم كرجل سياسي لا الأمة القبطية جميعاً...  
- هل ينظر إليه المسلمون أنفسهم على هذا النحو؟  
- هكذا أنظر إليه أنا!

فابتسمت شفتا رياض رغم كآبته وقال:

- إنني أتساءل عن المسلمين فما دخلك أنت؟

- أليس موقفنا واحداً أعني أنا وأنت؟

- بلى مع فارق بسيط، وهو أنك لست من الأقلية... (ثم وهو يتبسم) لو عشت في عصر الفتح الإسلامي وتكشّف لي الغيب لدعوت الأقباط جميعاً إلى الدخول في دين الله...!

ثم في شيء من الاحتجاج:

- إنك لا تصغي إليّ...!

أجل! كانت عيناه مصوّبتين نحو مدخل القاعة، ونظر رياض إلى حيث ينظر فرأى فتاة في مقتبل العمر، ترتدي فستاناً رمادياً بسيطاً، في هيئة الطالبات، وقد جلست في المقاعد الامامية المخصصة للسيدات.

- تعرفها؟...

- لا أدري...!

وانقطعت فرصة الكلام إذ ظهر الأستاذ المحاضر على المنصة ودوّت القاعة بالتصفيق الحاد، ثم ساد

الصمت الذي تبدو فيه السعلة كالذنب الفاضح، ثم قدّمه مدير الجامعة الأمريكية بكلمة مناسبة، ثم بدأ الرجل في إلقاء محاضرته. وظلّ كمال أكثر الوقت متّجه العينين نحو رأس الفتاة في تساؤل واهتمام. وكان قد رآها مصادفة عند دخولها، فدهمه منظرها، وانتزعته بقوة من تيار أفكاره، ثم قذفت به في الماضي عشرين عامًا ثم استردّته إلى الحاضر وهو يلهث. خيّل إليه أوّل الأمر أنّه يرى عايدة، غير أنّها لم تكن عايدة دون ريب... هذه الفتاة التي لا يمكن أن تجاوز العشرين، ولم يتح له وقت كافٍ كي يتفحص قسائما ولكنّ جملة منظرها كان فيه الكفاية، هيئة الوجه والقامة والروح ومجئى العينين، أجل لم ير هاتين العينين في غير وجه عايدة من قبل. أتكون شقيقتها؟ خطر له هذا الرأي أوّل ما خطر، بدور، ولم يغب عنه الاسم هذه المرّة، وسرعان ما ذكر صداقتها له في الماضي البعيد، ولكن هيهات - أن تكون حقًا هي - أن تتذكّره، المهمّ أنّ صورتها أبقظت قلبه، ردّته ولو إلى حين إلى شيء من تلك الحياة الغامرة التي اكتظّ بها زمناً، فهو في اضطراب، يسمع إلى الأستاذ المحاضر دقائق ثم ينظر إلى رأس الفتاة أكثر الوقت، ثم يغرق في موجة الذكريات، مستشعرًا في أناة جملة المشاعر التي تتلاحم وتصطرع في وجدانه. فلا تبعها لأعرف حقيقتها، لا غاية لي ولكنّ ألكلّول مشاء، إنّي أتوق لأيّ شيء قد يمسح عن روحي الصدا المتكاثف فوقها. وتربّص مبيتًا هذه النية، ترى أطالت المحاضرة أم قصرت؟ لا يدري. ولكنّه عند انتهائها أفضى بغرضه إلى رياض ثم ودّعه وسار في أثر الفتاة. تابع بعناية مشيتها، مشية رشيقة، قامة هيفاء، لا يستطيع أن يقارن بين المشيتين لأنّ الأخرى لم يعد متوكّدًا منها، أمّا القامة فأغلب الظنّ أنّها هي، وكان شعر الأخرى «الأجرسون» أمّا هذا الشعر فغزير معقوص، ولكنّ اللون الأسود واحد في الحالين ما في ذلك شكّ، ولم يستطع أيضًا أن يتفحص وجهها على محطّة الترام لازدحامها بجمهور المستمعين، ولكنّها استقلّت الترام رقم ١٥ الذاهب إلى العتبة وانحشرت في الحريم فاستقلّه وراءها وهو يتساءل ترى أهي في طريقها إلى العباسية أم إنّ ما

يفترضه ليس إلّا أضغاث أحلام؟. عايدة لم تستقلّ ترامًا في حياتها قطّ، كان رهن أمرها سيّارتان، أمّا هذه المسكينة...! وداخله حزن كحزنه يوم استمع إلى قصّة إفلاس شدّاد بك وانتحاره. وأفرغ الترام أكثر حمولته في العتبة فاختر موقفًا غير بعيد منها فوق طوار المحطّة، وجعلت تنظر صوب الناحية التي تترقّب عجيء الترام منها فرأى جديها الطويل النحيل، ذلك العهد القديم، ثم لاحظ أنّ بشرتها قمحية اللون مع ميل إلى البياض، ليست خمرة كالصورة الذاهية، فشعر لذلك بأوّل أسف منذ تبعها، كأنما تبعها ليرى الأخرى. ثمّ جاء ترام العباسية فتأهّبت للركوب. وكما وجدت الحريم مزدحمة استقلّت عربة الدرجة الثانية، ولم يتردّد فكان في أعقابها، وجلست فجلس إلى جانبها، ثمّ امتلأت المقاعد على الصّفين، ثمّ امتلأ ما بينها بالواقفين. ووجد لتوقيفه في الجلوس إلى جانبها ارتياحًا لا مزيد عليه، غير أنّ جلوسها بين جمهور الدرجة الثانية أحزنه مرّة أخرى، ربّما لما يحدثه ذلك من تباين عند مطابقة الصورتين، القديمة الخالدة والمائلة إلى جانبهِ. وكان منكبه يلامس منكبه ملاسة خفيفة كلّما نذّ عن الترام حركة مفاجئة خاصّة عند القيام والوقوف، وجعل يلاحظها كلّما أمكن ويتفحصها ما استطاع. هاتان العينان السوداوان الساجيتان، والحاجبان المقرونان، والأنف السويّ اللطيف، والوجه البدريّ، كأنّه ينظر إلى عايدة. حقًا؟ كلًّا، ثمّة تباين في لون البشرة، ولمسة اختلاف هنا أو هناك، لا يذكر إن كانت إلى الزيادة هي أم إلى النقصان، ومع أنّ تباينها كان يسيرًا إلّا أنّ إحساسه به كان خطيرًا فهو كدرجة الحرارة الواحدة التي قد تكون فاصلًا بين الصّحة والمرض، ولكنّه كان في الوقت نفسه حيال أقرب مثال إلى عايدة التي خيّل إليه أنّه بات يذكرها أوضح من أيّ وقت مضى على ضوء هذا الوجه الجميل. والجسم لعلّه هو هو، ما أكثر ما تساءل عنه، فعلمه الآن يراه، وهو رشيق نحيل، صدره آية في الحياء، كذلك هو في جلسته، لا يمتّ بسبب إلى جسم عطية البضّ المدملج الذي يتعشّقه! فهل فسد ذوقه على مرّ الأيام؟ أو إنّ حبّه القديم كان ثائرًا على غريزته

انحدرت إلينا نحن جمهور الدرجة الثانية، ألا تذكرين صديقك الذي كنت تتعلقين بعنقه وتبادلينه القبل؟ كيف تعيشين اليوم يا صغيرتي؟ وهل تعملين مثلي في النهاية مدرّسة في إحدى المدارس الابتدائية؟ ومرّ الترام بمكان القصر القديم الذي قام في موضعه بناء ضخم جديد، وقد رآه قبل ذلك في المرات القلائل التي زار فيها العباسية منذ انقطاعه التاريخي عنها خاصة في العهد الأخير وهو يتردّد على بيت فؤاد جميل الحمزاوي. العباسية نفسها تغيّرت كبيتكم يا صغيرتي، اختفت قصورها وحدائقها التي عاصرت حبي وحزني، وقامت مكانها العمارات الضخمة المكتظة بالسكان والخوانيت والمقاهي والسينيات، فليسّر بذلك أحد المفتون بمتابعة صراع الطبقات أمّا أنا فكيف أشمت بالقصر وآله على حين أنّ قلبي مطمور في أنقاضه؟ أو كيف أحترق المخلوق البديع الذي لم يذق نكد العيش ولا زحمة الشعب إذ كان يخطر كالمعنى الجميل وقلبي له ساجد؟

وعندما توقّف الترام في المحطة التالية لقسم الوايلي غادرته فتبعها ووقف على طوار المحطة يراقبها، فرآها وهي تعبر الطريق إلى شارع «ابن زيدون» الذي يواجه المحطة مباشرة. كان شارعاً ضيقاً تقوم على جانبيه بيوت قديمة من بيوت الطبقة الوسطى وتغطي وجهه الممهّد بالأسفلت الأتربة والحصى والأوراق المبعثرة وقد دخلت ثالث بيت إلى اليسار من باب ضيق تلاصقه دكان كوّاء. ووقف ينظر إلى الطريق والبيت في صمت واجم، ذلك المكان الذي تقيم فيه اليوم سنيّة هانم حرم شذاد بك! وهذه الشقة لا يزيد إيجارها على ثلاثة جنيهات، وليت سنيّة هانم تخرج إلى الشرفة ليلقي عليها نظرة وقيس ما حاق بها من تغيّر لا شك أنّه خطير، ولعلّه لم ينس بعد منظرها النفيس حين كانت تغادر السلامك متأبطة ذراع زوجها إلى حيث تنتظر السيّارة، كانت تحتال عجباً في معطفها الوثير وتلقي على ما حولها نظرات مليئة بالسؤدد والطمأنينة، ولن يبنى الإنسان بعدوً أشدّ فتكاً من الزمن. في هذه الشقة نزلت عايده في أثناء إقامتها بالقاهرة، ولعلّها جلست بعد العصارى في هذه الشرفة البالية، ولعلّها قاسمت

الكامنة؟. بيد أنّه كان حباً سعيّداً حالماً ثمل القلب بنشوات الذكريات، وكانت ملامساته المتقطعة لها تزيده نشوة وإغراقاً في التأملات، إنّ لم يمسّ عايده، كان يراها أبداً مستحيلة المنال، أمّا هذه الصغيرة فهي تسير في الأسواق وتجلس في تواضع بين جمهور الدرجة الثانية، فما أشدّ حزنه! وذلك التباين الطفيف الذي أحنقه وخيّب أمله، وقضى على حبه القديم بأن يبقى لغزاً إلى الأبد. وجاء الكمساري منادياً «التذاكر والأبونيّهات» ففتحت حقيبتها وأخرجت تذكرة الاشتراك وانتظرت حتّى يصل الرجل إليها. فاسترق إلى التذكرة النظر حتّى عثر على اسمها «بدور عبد الحميد شذاد... طالبة بكلّيّة الآداب»، لم يعد ثمة شك، إنّ قلبي يخفق أكثر عمّا ينبغي، لو أستطيع أن أنشل هذا الاشتراك كي أحفظ بأقرب صورة لعايده، آه لو كان في الإمكان هذا، مدرّس في السادسة والثلاثين ينشل طالبة بكلّيّة الآداب! يا له من عنوان مثير تتمناه الجرائد، فيلسوف فاشل في حدود الأربعين! ترى ما سنّ بدور؟ لم تكن تجاوز الخامسة عام ١٩٢٦ فهي في الواحدة والعشرين من عمرها السعيد، السعيد! لا قصر ولا سيّارة ولا خدم ولا حشم، ولم تكن دون الرابعة عشرة حين حلّت الكارثة بأسرتها، وهو عمر حريّ بأن يدرك معنى الكارثة ويذوق الألم، تألّت المسكينه وذعرت، ابتليت بهذا الشعور القاسي الذي أصبحت به جدّ خبير، جمعنا الألم على تفاوت في الزمن كما جمعتنا الصداقة القديمة المنسية، وجاءها الكمساري فسمعها وهي تقول له «تفضّل» ثمّ ناولته التذكرة. وطرق الصوت مسمعه كنغمة قديمة محبوبة طواها النسيان دهرًا طويلاً ثمّ انبعثت في السمع بكلّ حلاوتها وجميع ذكرياتها فأحييت فترة سايوة من الزمن، دوّمت أذنه في مملكة الطرب الإلهيّة مستهدفة أحلام الزمان الغابر، هذه النغمة السدافنة الرخيمة المفعمة بسحر الطرب. أسمعيني صوتك وما هو بصوتك، يا صديقتي القديمة السيّئة الحظّ، من حسن الحظّ أنّ صاحبة هذا الصوت الأصلية ما زالت تنعم بمثل حياتها الأولى، لم ترتق إليها الأحزان التي أغرقت أسرتها، أمّا أنت فقد

طريق محفوف بالتزمّت والتقاليد من ناحية، وبالسبب المتوتّب للسخرية من ناحية أخرى. كان غارقاً في اليأس والملل فجري ملهوفاً وراء هذا الشيء الذي لا يشكّ في أنّه تسليّة وأيّ تسليّة، وحياة وأيّ حياة، وبحسبه أنّه انقلب يهتّم بالزمن وينشد الأمل ويأمل في المسرة، بل وها هو قلبه يخفق وكان قبل ذلك ميتاً، وكان يشعر بضيق الوقت، فالعام الدراسي يشارف نهايته المحتومة، بيد أنّ نهايته لم تضع هباء، فبدور قد رآته كما رآه الجميع، ولعلّها شاركت فيها يدور من همس حوله، إلى أنّ عينيها قد تلاقتا أكثر من مرّة، ولعلّها طالعت في عينيها ما يضطرم في ذاته من الاهتمام والإعجاب، من يدرى؟ وفضلاً عن هذا كلّه فعند العودة يستقلّان ترام الجيزة معاً ثمّ ترام العبّاسيّة، وكثيراً ما يجلسان في مكان واحد، فباتت تعرفه جيّداً، وهو نجاح لا بأس به لشخص بعيد عن حيّتها كلّها، خاصّة إذا كان مدرّساً حريضاً على مظاهر مهنته وما تقتضيه من استقامة ووقار. أمّا عن غايته من هذا كلّه فلم يشقّ على نفسه في تحقيقها، لقد دبّت فيه الحياة بعد موات فتهاك عليها، وهو توّاق بكلّ قوّة نفسه المعذّبة إلى أن يعود ذلك الإنسان الذي تعتلج في وجدانه المشاعر وتهيم في عقله الخواطر وتنجلي في حواسّه المناظر، وأن ينسى بهذا السحر ضحرة وسقمه وحيرته أمام الغاز لا تحلّ، كأنّها الخمر ولكنّها أعمق متاعاً ولطف عاقبة. وفي الأسبوع الماضي حدث شيء تأثّر له قلبه أيّما تأثّر، فقد عاقه إشرافه على النشاط الرياضي بمدرسة السلحدار عن الوصول إلى الكليّة في الوقت المناسب، فدخل حجرة الدرس متأخّراً، والتقت عيناها عند دخوله وهو يسير على أطراف أصابعه أن يحدث صوتاً، التقت عيناها التقاء خاطفاً سحريراً وسرعان ما أرخت جفونها فيها يشبه الحياة. لم تكن إذن مجرد نظرة تلتقي فيها عيناها معابدتان، وبات مرجّحاً أنّها استشعرت شيئاً من الحياة، فهل كان يقع هذا لو كان نشاط عينيها قد ضاع عبثاً؟! الصغيرة باتت تستحي من نظراته فلعلّها أخذت تدرك أنّها ليست بالنظرات البريئة التي توجّهها المصادفة، وأثار ذلك في نفسه جملة من الذكريات واستدعى كثيراً من الصور،

أمّها وأختها فراشهما الواحد ما في ذلك ريب، فليتي علمت بوجودها في الوقت المناسب، وليتي رأيها بعد ذلك التاريخ الطويل، كان ينبغي أن أراها وأنا متحرّر من استبدادها، كي أعرفها على حقيقتها، وبالتالي كي أعرف نفسي أنا ولكن ضاعت هذه الفرصة النادرة...

## ٤٢

جلس كمال بين طلبة وطالبات قسم اللغة الإنجليزيّة بكليّة الآداب يصغي إلى الدرس الذي يلقيه الأستاذ الإنجليزيّ، لم تكن أوّل مرّة يحضر فيها هذا الدرس ولا آخر مرّة فيها بدا له، ولم يكن قد وجد صعوبة تذكر عند الاستئذان في الحضور - كمستمع - لمتابعة الدروس المسائيّة التي تلقى ثلاث مرّات في الأسبوع، وأكثر من هذا فإنّ الأستاذ قد رحّب به عندما علم أنّه مدرّس لغة إنجليزيّة. أجل كان غريباً بعض الشيء أن يعنى بمتابعة هذه الدروس في أواخر العام الدراسيّ ولكنّه علّل ذلك أمام الأستاذ بأنّه يقوم ببحث استدعى متابعة هذه المحاضرات رغم ما فاتته منها، وكان قد علم بوجود بدور في هذا القسم عن طريق رياض قلّس الذي عرفه بدوره عن طريق صديقه سكرتير الكليّة. وبدا منظره، ببذلتة الأنيقة ونظّارته الذهبية وطوله ونحوه وشاربه الغليظ وشعيراته البيض التي تلتصق في سوائفه إلى رأسه الضخم وأنفه الكبير، بدا كلّ أولئك ملفّناً للنظار خاصّة وهو يجلس بين عدد محدود من الشباب الغضّ، فكّم بدوا كالمسائلين وكم حدجوه بنظرات لم يرتح لها، حتّى خيّل إليه أنّه يسمع ما يدور في نفوسهم من ملاحظات وتعليقات هو أدري بها وأخيراً. هو نفسه كان يعجب هذه الخطوة الخارقة التي أقدم عليها دون مبالاة على ما جسّمته من جهد وحرص، ما بواعثها الحقيقيّة وما هدفها؟ لا يدرى شيئاً على وجه التحقيق ولكنّه ما إن رأى بارقة نور في ظلمة حياته الداكنة حتّى انزلق يتسمّته وهو لا يلوي على شيء مدفوعاً بقوى هائلة من اليأس والأشواق والأمل، غير مبالٍ بما قد يعثر به في

مع أختها بهذه الجراءة، ولكنها كانت الكبرى وكان الصغير الساذج.

- حضرتك من العباسية فيما اعتقد؟

- نعم...

لا تريد أن تدفع الحديث من ناحيتها!

- من المؤسف أنني لم أتابع المحاضرات إلا أخيراً...

- نعم...

- أرجو أن أعوض ما فاتني في المستقبل...

فابتسمت دون أن تبس، «زيدني من سماع صوتك فإنك النعمة الوحيدة من الماضي التي لم يغيرها الزمن»...

- ماذا تنوين بعد الليسانس؟ معهد التربية؟

فقلت باهتمام لأول مرة:

- لا حاجة بي إلى ذلك لأن الوزارة محتاجة إلى مدرّسات ومدرّسين بسبب ظروف الحرب والتوسع الجديد في التعليم...

طمع في نعمة واحدة فوهب لحناً كاملاً!

- إذن ستعملين مدرّسة!

- نعم، لم لا؟

- إنّها مهنة شاقة، سليبي عنها.

- حضرتك مدرّس فيما سمعت؟

- نعم، أوه، نسيت أن أقدم نفسي، كمال أحمد عبد الجواد.

- تشرفنا...

فقال باستيا:

- ولكنك لم تشرفني بعد؟

- بدور عبد الحميد شداد!

- تشرفنا يا أفندم...

ثم مستدركاً كمن فوجئ بشيء فريد:

- عبد الحميد شداد! ومن العباسية؟ حضرتك أخت حسين شداد؟

فلمعت عينها في اهتمام وقالت:

- نعم.

فضحك كمال كأنما يضحك عجباً من غرابية

المصادفات وقال:

حتى وجد نفسه يتذكر عابدة ويتخيلها، ولكنه لم يدري لماذا، فإن عابدة لم تغض الطرف حياء حياله قط، فلعل شيئاً آخر الذي ذكره بها، لفنة أو رنوة أو ذلك السر الساحر الذي ندعوه بالروح. وأول أمس حدث شيء آخر له خطورته كذلك، انظر كيف ردت الحياة إليك قبل ذلك لم يكن لشيء خطورة قط، أو لم تكن تضفي الخطورة إلا على هذه الألباز العقيمة كالإرادة عند شوبنهاور أو المطلق عند هيجل أو وثبة الحياة عند برجسون، كانت الحياة كلها صماء لا خطر لها، انظر اليوم كيف أن رنوة أو لفنة أو ابتسامة قد تزلزل لها الأرض جميعاً! حدث ذلك وهو ماضٍ إلى الكلية قبل الخامسة مساءً مغترقاً حديقة الأورمان، فيما يدري إلا وبدور وثلاث فتيات يطالعهن على أريكة ينتظرن عليها ميعاد الدرس، والتقت عيناهما التقاء عميقاً كما وقع في حجرة الدرس، وكان يؤد أن يجيها عند الاقتراب ولكن المشي الذي يسير فيه عرج به بعيداً عنهن كأنه أب أن يشترك في هذه المؤامرة العاطفية المرتجلة، ولما ابتعد قليلاً التفت وراءه فرأهن يهمن في أذنها باسبات وهي مسندة رأسها إلى راحتها كأنها تخفي وجهها! ما هذا المنظر البديع؟! لو كان رياض معه لأحسن تحليله وتفسيره، ولكنه لا يحتاج إلى براعة رياض، لا شك أنهن يهمن لها عنه حتى أخفت وجهها حياء! هل ثمة معنى غير هذا؟. فلعل الصب فضحته عيونه، ولعله جاوز المدى وهو لا يدري حتى صار أحدثه، وماذا يكون من أمره لو انقلب الهمس تعريضاً يتنازع به الطلبة الشياطين؟! وفكر جاداً في الانقطاع عن الكلية، ولكنه وجدها تجلس إلى جانبه في ترام العباسية ذلك المساء كما حدث أول يوم تبعها فيه! وترصد التفاتنا ناحيته ليحييها وليكن ما يكون، فلما طال انتظاره بعض الشيء التفت هو ثم تظاهر بأنه فوجئ بجلوسها لصقه فهمس في أدب:

- مساء الخير...

فنظرت نحوه كالداهشة - لم تترك له عابدة ذكرى تصنع أنثوي من أي نوع كان - ثم همست:

- مساء الخير...

زميلان يتبادلان التحية ولا غبار على ذلك، لم يكن

الذكريات وعلبة الملبس التي أهديت إليه ليلة الزفاف. ثم جاش صدره بالحنين حتى تساءل ترى أيمكن أن يقع الإنسان في الحب وهو يحسن فهمه ويلم بعناصر تركيبه البيولوجية والاجتماعية والنفسية؟ ولكن هل بقي الكيميائي علمه بالسموم من أن يموت بها كضحاياها الآخرين؟ أو فلماذا يجيش صدره هذا الجيشان؟ رغم ما مُني به من خيبة الأمل، رغم الفارق الكبير بين الماضي والحاضر، رغم أنه لا يدري إن كان من أهل الماضي أم من أهل الحاضر، رغم هذا كله فصدره جياش وقلبه يخفق...

### ٤٣

هنا حديقة الشاي، سماؤها أفرع وغصون ريانة، ومرتاد النظر البطء السابع في البحيرة الزمردية، والجلابية فيها وراء ذلك، واليوم عطلة مجلّة الإنسان الجديد، وما هي سوسن حماد تبدو رائعة في فستان أزرق خفيف كشف عن ذراعيها السمراوين، وهي آخذة زيتنها ولكن في لباقة وحذر، وكان قد مضى على زمالتها عام فجلسا متقابلين يضيء وجهيهما ابتسام التفاهم، بينهما مائدة عليها دورق ماء وكأسا ذندورمة لم يبق فيها إلّا ذوب ثالثة الحليب المورّد بالفراولا، «إنها أعزّ شيء لديّ في هذه الدنيا، أدين لها بمسراتي جميعا وهي قبله آمالي أيضا، ونحن زميلان مخلصان، لم ينطق الحب بيننا ولكنتي لا أشك في أننا متحابان، ومتعاونان كأحسن ما يكون التعاون، بدأنا رفيقين في ميدان الحرّية، وعملنا يداً واحدة، وكلانا مرشّح للسجن، وكنت كلّما نوهت بجمالها حملت في وجهي محتجة وزجرتني مقطبة كأنّ الحب شيء لا يليق بنا فأبتسم وأعود إلى ما كنّا فيه من عمل، ويوما قلت لها: «إني أحبّك... إني أحبّك... فافعلي ما بدا لك»، فقالت لي: «هذه الحياة هي الجسد كلّ الجسد وأنت تعبت»، فقلت لها: «إني مشكك أرى أنّ الرأسمالية في طور الاحتضار وأنها استنفدت كافة أغراضها، وأنّ على الطبقة العاملة أن تطلق إرادتها لتدور آلة التطور إذ إنّ الثمرة لن تسقط وحدها، وإنّ

- يا سلام! كان أعزّ أصدقائي، وقضينا معاً أياماً سعيدة جداً، رباه! أنت أخته الصغيرة التي كانت تلعب في الحديقة؟

فحدجته بنظرة استطلاع. هيهات أن تتذكّره! «في ذلك العهد كنت مغرمة بي كما كنت مغرماً بأختك».

- لا أذكر شيئاً طبعاً...

- طبعاً، هذا تاريخ يرجع إلى عام ١٩٢٣ وما بعده حتى عام ١٩٢٦، تاريخ سفر حسين إلى أوروبا، ماذا يفعل الآن؟

- في فرنسا في القسم الجنوبي الذي انتقلت إليه الحكومة الفرنسية عقب الاحتلال الألماني...

- وكيف حاله؟ من زمن طويل انقطعت عني أخباره ورسائله...

- بخير...

نطقت بها في لهجة تمت عن رغبة في الخوض في الموضوع أكثر من ذلك، وتساءل كمال والترام يمرّ بمكان القصر القديم: ترى ألم يخطئ بمكاشفتها بصداقتها القديمة لأخيها؟ أليس في ذلك حدّاً من حرّيته فيها هو بسيله؟ ولما جاءت المحطة التالية لقسم الوايلي حيّته وغادرت الترام، فلبث في مكانه كأنما نسي نفسه. كان طوال الطريق يتفحصها كلّما سنحت فرصة لعلّه يبتدي إلى السرّ الذي سحره قديماً، ولكنّه لم يجده وإن شعر مراراً بأنّه منه قريب. وكانت تبدو لطيفة وديعة، وكانت تبدو قريبة المنال، وهو الآن يشعر كأنما يعاني خيبة أمل غامضة وحزناً غير بيّن الأسباب، لو أراد الزواج من هذه الفتاة ما اعترضه عائق جدّي. أجل إنّها تبدو مستجيبة ملّبية، رغم فارق السنّ المحسوس أو بسبب فارق السنّ! ثم إنّ التجارب قد علّمتها أنّ شكله لن يعوقه عن الزواج إذا أراد. وهو إذا تزوّجها انتقل بقدرة قادر إلى عضوية أسرة عابدة، ولكن ما كنه هذا الخيال السخيف؟ وما عابدة الآن بالنسبة إليه؟ الحقّ أنّه لا يريد عابدة، ولكنّه لا يكف عن التطلع إلى معرفة سرّها، لعلّه يقتنع في الأقلّ بأنّ أزهى عصور العمر لم يضع هباء. ووجد رغبة - طالما ألحّت عليه على فترات من العمر - في مراجعة كراسة

علينا أن نخلق الوعي ولكن بعد ذلك أو قبل ذلك أحبك» فقطبت تقطيعاً متكلفاً بعض الشيء وقالت: «إنك تصرّ على إسماعي ما لا أحب»، وشجّعني خلوّ حجرة السكرتارية فهويت إلى وجهها فجأة ولثمت خذها فحدجنتني بنظرة قاسية وأكبّت على ترجمة ما تبقى من الفصل الثامن من كتاب نظام الأسرة في الاتحاد السوفييتي الذي كنّا نترجمه معاً.

- هذا الحرّ كلّ في يونيه فكيف إذا جاء يوليو وأغسطس يا عزيزتي؟

- يبدو أنّ الإسكندرية لم تخلق لأمثالنا.

فضحك قائلاً:

- ولكنّ الإسكندرية لم تعد مصيفاً، كانت كذلك قبل الحرب أمّا اليوم فالإشاعات قد جعلتها خراباً. . .  
- الأستاذ عدلي كريم يؤكّد أنّ أغلبية سكّانها قد هجروها وأنّ طرقاتها ملأى بالقطط الهائمة على وجهها!

- هي كذلك، وعمّا قليل يدخلها رومل بجيوشه. . .

ثمّ بعد صمت قصير:

- وسوف يلتقي في السويس بالجيوش اليابانية الزاحفة على آسيا ويعود العهد الفاشستي كما كان في العصر الحجري!

فقلت سوسن في شيء من الانفعال:

- روسيا لن تهزم، وإنّ آمال البشرية مصونة خلف جبال الأورال. . .

- نعم لكنّ الألمان على أبواب الإسكندرية!

تساءلت وهي تنفخ:

- لماذا يحبّ المصريون الألمان؟

- كراهة في الإنجليز، وسوف يفتونهم في الغد القريب، إنّ الملك يبدو اليوم كالسجين ولكّنه سينطلق من سجنه ليستقبل رومل ثمّ يشربان معاً نخب وأد الديمقراطية الناشئة في بلادنا، ومن المضحك أنّ الفلاحين يظنّون أنّ رومل سيوزّع الأرض عليهم!

- أعداؤنا كثيرون، الألمان في الخارج، والإخوان والرجعية في الداخل وكلاهما شيء واحد. . .

- لو سمعك أخي عبد المنعم لثار على رأيك، يعتبر

الإخوانية فكرة تقدّمية تزري بالاشتراكية المادّية. . .

- قد يكون في الإسلام اشتراكية، ولكنّها اشتراكية خياليّة كالتي بشّر بها توماس مور ولويس بلان وسان سيمو، إنّّه يبحث عن حلّ للظلم الاجتماعيّ في ضمير الإنسان بينما أنّ الحلّ موجود في تطوّر المجتمع نفسه، إنّّه لا ينظر إلى طبقات المجتمع ولكن إلى أفراده، وليس فيه بطبيعة الحال أيّة فكرة عن الاشتراكية العلميّة، وفضلاً عن هذا كلّ فتعاليم الإسلام تستند إلى ميتافيزيقا أسطوريّة تلعب فيها الملائكة دوراً خطيراً، لا ينبغي أن نبحث عن حلول لمشكلات حاضرتنا في الماضي البعيد، قل هذا لأخيك. . .

فضحك أحمد في سرور غير خافٍ وقال:

- أخي شابّ مثقّف وقانونيّ ذكيّ، إنّني أعجب كيف يتحمّس أمثاله للإخوان!

فقلت بازدياء:

- الإخوان يصطنعون عمليّة تزيف هائلة، فهم حيال المثقّفين يقدّمون الإسلام في ثوب عصريّ، وهم حيال البسطاء يتحدثون عن الجنة والنار، فينتشرون باسم الاشتراكية والوطنية والديموقراطية.

حبيبي لا تمّل الحديث عن مبادئها، قلت حبيبي؟ نعم فمنذ القبلة التي اختلستها دأبت على أن أدعوها بحبيبي وكانت تحتجّ بالكلام تارة وبالإشارة تارة أخرى ثمّ جعلت تتجاهله كأنّها قد يشّت من إصلاح، وعندما قلت لها إنّني توّاق إلى سماع كلمات الحبّ من فمها المشغول بالاشتراكية وبُختني قائلة باحتقار: «هذه النظرة البورجوازية العتيقة إلى المرأة. . . هه؟!» فقلت لها جزعاً: إنّ احترامي لك فوق كلّ كلام وإنّي لأعترف بأنّي تلميذك في أنبل ما صنعت في حياتي ولكنّي أحبّك كذلك وما في ذلك من بأس. فذهب غضبها فيما شعرت ولكنّها استبقت مظاهره فيما رأيت، واقتربت منها مضمرّاً تقبيلها فلا أدري كيف حذرت غرضي فدفعني في صدري ولكنّي رغم ذلك لثمت خذها وما دام المحذور قد وقع - وقد كان بوسمها منعه جدّياً - فقد اعتبرتها راضية، وإنّها لكائن بديع جميل العقل والجسم معاً رغم إغراقها في السياسة، وعندما دعوتها للنزهة في الحديقة قالت: «على شرط أن نأخذ



فقال بلهجة لم تخل من حدة:

- أنت مخطئة يا ظالمة! لا يعينني ما ورثته، فكما أن  
الفقر لا يعينك فالغنى لا يعينني، أعني الدخول القليل  
الذي عاشت به أسرتنا عيشة التناوب، لا يعين أحدًا  
أن يجد نفسه بورجوازيًا، ولا عيب إلا في الجمود  
والتخلف عن روح العصر...

فقلت وهي تبسم:

- لا تغضب، كلانا ظاهرة طبيعية علمية، لا نسأل  
عما وجدنا أنفسنا عليه ولكننا مسئولون عما نعتنق  
ونفعل، إنني أعتذر إليك يا إنجلز، ولكن خبرني هل  
أنت على استعداد لمواصلة إلقاء المحاضرات على العمال  
مهما تكن العواقب؟

فقال بإدلال:

- لقد حضرت حتى أمس خمس مرات، وحزرت  
منشورين خطيرين، ووزعت عشرات المنشورات،  
وللحكومة دين في عنقي جاوز العامين سجنًا!...  
- ولها في عنقي أضعاف ذلك!...

مدّ يده في خفة فوضعها على يدها السمراء البضة  
في حنان وإعجاب. نعم إنه يجيها، ولكنه لا يندفع في  
جهاده باسم الحب، ترى ألم تبتدأ أحيانًا وكأنتها تشك  
فيه؟ أهي مداعبة من المداعبات أو توجس خيفة من  
البورجوازية التي تحسبها كائمة فيه؟ إنه مؤمن بالمبدأ  
كما إنه مغرم بها، لا غنى له عن هذا ولا ذاك، «أليس  
من السعادة أن تحظى بشخص يفهمك حتى الفهم  
وتفهمه حتى الفهم؟ وألا يحول بينك وبينه أي نوع من  
المكر؟ إنني أعيدها إذ قالت «لقد ذقت الفقر طويلاً»،  
هذا القول الصريح الذي سماها عن بنات جنسها  
جميعًا ومزجها بنفسها، لكننا محبون غافلون والسجن  
يترصص بنا، ويوسعنا أن ننزّج وأن نتجنب المتاعب  
ونقنع برغد العيش، ولكنها تكون حياة بلا روح، لشد  
ما يبدو لي المبدأ أحيانًا كأنه لعنة مصوبة علينا من  
القضاء والقدر، إنه دمي وروحي، كائنني المشلول  
الأول عن الإنسانية جميعًا...

- أحبك...

- ما المناسبة لهذا؟

- في كل مناسبة وبلا مناسبة...

معنا الكتاب لنواصل الترجمة قلت لها: بل للفرجة  
والمناجاة ولألا كفرت بالاشتراكية جميعًا ولعلّه مما  
يزعجني كثيرًا حيال نفسي المشبعة بالسكينة أنني ما  
زلت أنظر أحيانًا إلى المرأة بالعين التقليدية البورجوازية  
فيخيل لي في بعض ساعات التقهقر والحقور أن  
الاشتراكية عند المرأة التقدمية ليست إلا نوعًا من الفتنة  
كضرب البيان والتبرج ولكن من المسلم به كذلك أن  
العام الذي زاملت فيه سوسن قد غيّرني كثيرًا وطهرني  
لدرجة محمودة من البورجوازية المستوطنة في  
أعماقي!...

- من المؤسف أن زملاءنا يُعتقلون بلا حساب!...

- نعم يا حبيبي، الاعتقال موضوعة تشيع أيام  
الحروب وآيام الإرهاب على السواء، غير أن القانون لا  
يرى بأسًا في اعتناق المبدأ إذا لم يقترن بالدعوة إلى  
العنف...

فضحك أحمد وقال:

- سيلقى القبض علينا إن آجلًا وإن عاجلاً  
إلا...

فحدجته بنظرة متسائلة فعاد يقول:

- إلا إذا أدبنا الزواج!

فهزّت منكبيها في ازدراء وقالت:

- من أدراك بأنني أوافق على الزواج من رجل  
مزيّف مثلك؟

- مزيّف؟!

ففكرت قليلاً ثم قالت باهتمام جدّي:

- لست من طبقة العمال مثلي! كلانا يحارب عدوًا  
واحدًا ولكنك لم تحبّه كما تحبته، لقد ذقت الفقر  
طويلاً، ولمست آثاره الكريمة في أسرتي، وغالبته أخت  
لي حتى غلبها فماتت، أما أنت فلست... لست من  
طبقة العمال!

فقال بهدوء:

- ولا كان إنجلز من هذه الطبقة...

فضحكت ضحكة قصيرة بعثت أنوثتها وقالت:

- كيف أدعوك؟ البرنس أحمدي؟! هه لا أنكر

عليك مبدأك، ولكن بك بقايا بورجوازية عتيقة، يخيّل

لي أنك تُسرّ أحيانًا لكونك من آل شوكت!

- إنيك تتحدّث عن الجهاد ولكنّ قلبك يتغنّى بالهناء! ...
- التفريق بين هذين سخف كالتفريق بيني وبينك! ...
- ألا يعني الحبّ الهناء والاستقرار وكرامة السجن؟
- ألم تسمعي عن النبيّ الذي كان يجاهد ليل نهار دون أن يمنعه من أن يتزوّج تسعاً! ...
- ففرقت بأصابعها هاتفة:
- ها هو أخوك قد أعارك فاه، أيّ نبيّ يا هذا؟ فقال ضاحكاً:
- نبيّ المسلمين!
- دعني أحدثك عن كارل ماركس الذي عكف على تأليف «رأس المال» تاركاً زوجته وأولاده للجوع والبهلة!
- كان متزوّجاً على أيّ حال! ...
- كان ماء البركة عصير زمرد، وهذه النسمة اللطيفة تهفر في خلصة من يونه، والبطّ يسبح مسنداً منقاره لالتقاط فتات الخبز، وأنت سعيد جداً، والحبيبة المتعبة ألدّ من الطبيعة، يخيّل إليّ أنّ وجهها تورّد، فلعلمها تناسست السياسة قليلاً وأخذت تفكر في ...
- كان المأمول يا زميلي العزيزة أن نحظى في هذه الحديقة بحديث عذب!
- أعذب ممّا كنّا نتحدّث به؟
- أعني حبّنا! ...
- حبّنا؟ ...
- نعم وأنت تعلمين!
- وساد الصمت ملياً حتّى غصّت عينيها متسائلة:
- ماذا تريد؟
- قولي إنّنا نريد شيئاً واحداً!
- فقالت كأنّها لتطيعه فحسب:
- نعم، ولكن ما هو؟
- حسبنا لفّ ودوران!
- كأنّها تفكر، فما أمر الانتظار على قصره، وإذا بها تقول:
- ما دام كلّ شيء واضحاً فلمّ تعذبني؟
- فتنهّد في ارتياح عميق وقال:
- ما أبهج حبّي!
- وساد الصمت مرّة أخرى كاللازمة بين النغمة والنغمة، ثمّ قالت:
- يهمني شيء واحد.
- أفندم!
- كرامتي!
- فقال كالمنزعج:
- هي وكرامتي شيء واحد!
- فقالت بامتناع:
- أنت أدري بتقاليد أناسك! ستسمع كثيراً عن الأصل والفصل! ...
- كلام فارغ، أتظنّيني طفلاً؟ وتردّدت قليلاً ثمّ قالت:
- لا يهدّنا إلّا شيء واحد هو «العقليّة البورجوازية»! ...
- فقال بقوة جعلته في تلك اللحظة أشبه ما يكون بأخيه عبد المنعم:
- لست منها في شيء!
- هل تدرك مدى خطورة قولك؟ ... لقد عنيت أشياء تخصّ علاقة الرجل بالمرأة في صميمها الشخصي والاجتماعي!
- مفهوم جداً.
- سوف تطالب بقاموس جديد عند الكشف عن الكلمات الماثورة مثل: حبّ، زواج، غيرة، الوفاء، الماضي! ...
- نعم! ...
- قد يعني هذا لا شيء، وقد يعني كلّ شيء، وكم من مرّة خطرت له أفكار، ولكنّ الموقف يتطلّب شجاعة فائقة، ما هو إلّا امتحان لعقليّته الموروثة والمكتسبة جميعاً، امتحان رهيب، خيّل إليه أنّه أدرك ما تعني، ولعلّ الأمر لا يعدو أنّها تمتحنه، ولكن حتّى لو كان الذي أدركه فلن يتراجع، لقد اعتراه ألم ودبت في أعماقه الغيرة ولكنّه لن يتراجع! ...
- إني مسلم بما تعنين، ولكن دعيني أصارحك بأنّي كنت آمل أن أحظى بفنّاة عاطفيّة لا يفكر بحاسب مدقّق!

عقلك وحده؟  
- أبداً، والمشورة جائزة في كل شيء إلا الزواج فهو  
كالطعام سواء بسواء! ...  
- الطعام! ... إنك لا تتزوج من فتاة فحسب  
ولكن من أسرته كلها، ونحن - أهلك - نتزوج بالتبعية  
معك ...

فضحك أحمد ضحكة عالية وقال:  
- كلكم! هذا أكثر مما يُحتمل، خالي كمال لا يريد  
أن يتزوج، وخالي ياسين يودّ لو يتزوجها وحده ...  
وضحكوا جميعاً إلا خديجة، ثم قال ياسين قبل أن  
تزايل وجهه هيئة الضحك:

- إذا كان في هذا فضّ المشكلة فأنا على أتمّ  
استعداد للتضحية.  
فهتفت خديجة:

- اضحكوا، إنّه يتشجّع بضحكتكم، خير من ذلك  
أن تصارحوه بآرائكم، فما رأيكم فيمن يرغب في  
الزواج من «كريمة» عامل المطبعة التي يعمل بمجلتها؟  
إنّه يعزّ علينا أن تعمل بالمجلة «جورنالجي» فكيف  
وأنت تريد أن تصاهر عمّالها! أليس لك رأي يا سي  
إبراهيم؟

فرجع إبراهيم شوكت حاجبيه كأنهما يريد أن يقول  
شيئاً، ولكنّه سكت، فعادت تقول:  
- لو وقعت هذه المصيبة فسيمتلئ بيتك ليلة الزفاف  
بعمال المطبعة والعنابر والحدوذية، والله أعلم بما  
خفي! ...

فقال أحمد بتأثر:  
- لا تتكلّمي هكذا عن أهلي!  
- يا ربّ السماوات، أنتكر أنّ هؤلاء هم أهلها؟  
- سأتزوّجها هي وحدها، إليّ لا أتزوج  
بالجملة ...

فقال إبراهيم شوكت في ضجر:  
- لن تتزوّجها وحدها، الله يتعبك كما تتعبنا!  
فقال خديجة متشجّعة بمعارضة زوجها:

- ذهبت لزيارة بيتها كما تقضي العادة، قلت أرى  
عروس ابني، فوجدتهم يقيمون في بدروم في شارع كلّه  
يهود على الصّفين، وأمّها لا تفرّق في هيئتها عن

فتساءلت وعيناها تتابعان البطّ السابح:  
- لتقول لك أحبّك وأوافق على الزواج منك؟  
- نعم! ...  
صاحكة:  
- وهل تراني كنت أدخل في التفاصيل ما لم أكن  
موافقة على المبدأ؟!

فضغط على راحتها في رقّة، فعادت تقول:  
- وأنت تعرف كل شيء، ولكنك تودّ سماعه!  
- ولا أملّ سماعه! ...

## ٤٤

- إنّه سمعة أسرتنا جميعاً، وهو على أيّ حال  
ابنكم، وأنتم بعد ذلك أحرار فيها ترون! ...  
كانت خديجة تخطب وعيناها تنتقلان بسرعة وقلق  
من وجه إلى وجه، من زوجها إبراهيم الذي جلس إلى  
يمينها إلى ابنها أحمد في الناحية المقابلة من الصالة،  
مارّتين بياسين وكمال وعبد المنعم ...  
وقال أحمد مداعباً وهو يقلّد لهجتها:  
- انتبهوا جميعاً، إنّه سمعة أسرة، وأنا على أيّ حال  
ابنكم!

فقال له بصوت متشكّ مليء بالمرارة:  
- ما هذا البلاء يا ابني؟ أنت لا ترضى أن يحكمك  
أحد ولو كان أباك، وتأتي المشورة ولو كانت في  
صالحك، دائماً أنت على صواب والناس جميعاً على  
خطأ، تركت الصلاة قلنا ربّنا يهديه، رفضت أن  
تدخل الحقوق كأخيك قلنا المستقبل بيد الله، قلت  
أشتغل جورنالجي قلنا اشتغل عربجي! ...  
فقال باسمًا:

- والان أريد أن أتزوج!  
- تزوّج، كلّنا يسرّ لهذا، ولكنّ الزواج له  
شروط ...

- ومن يضع شروطه؟  
- العقل السليم.  
- عقلي اختار لي ...  
- ألم تثبت لك الأيام بعد أنّه لا يصحّ الاعتماد على

عن نفسه، أنا لم يستقرّ بي بيت إلا بزّوية كما تعلمين! فعسى أن يكون الخير فيما اختار، ثمّ إنّنا لا نعقل بالكلام ولكنّ بالتجارب.

ثمّ مستدرّكاً وهو يضحك:

- ولو أنّه لا الكلام ولا التجارب عقلتي!

وعلق كمال على قول ياسين قائلاً:

- الحقّ فيما قال أخي...

فحدّثته بنظرة عتاب قائلة:

- اهَذَا كُلّ ما عندك يا كمال؟ إنّهُ يَحْبُك فلو أنّك

حدّثته على انفراد...

فقال كمال:

- إنّني خارج معه وسأحدّثه، ولكن كَفّي عن

الشجار، إنّهُ رجل حرّ، ومن حقّه أن يتزوَّج ممّن

يشاء، أتستطيعين منعه أم تنوين مقاطعته؟

وقال ياسين باسماً:

- الأمر بسيط يا أختي، يتزوَّج اليوم ويطلّق غداً،

نحن مسلمون لا كاثوليك...

فضيّقت عينها الصغيرتين وقالت بضم شبه مغلق:

- طبعاً، من عامٍّ غيرك يدافع عنه؟ صدق مَنْ قال

إنّ الولد لخاله!

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال:

- الله يسامحك، لو ترك النساء تحت رحمة النساء لما

تزوَّجت امرأة قطّاً...

فأشارت إلى زوجها وقالت:

- أمّه الله يرحمها هي التي اختارتني بنفسها!

فقال إبراهيم وهو يتنهد باسماً:

- ودفعت الثمن، الله يرحمها ويعفو عنها!

ولكنّها لم تأبه لتعليقه وعادت تقول متحرّرة:

- لو كانت جميلة!... إنّهُ أعمى!

فقال إبراهيم ضاحكاً:

- مثل أبيه!

فالتفت نحوه غاضبة وقالت:

- أنت جاحد كجنس الرجال!

فقال الرجل بهدوء:

- بل نحن صابرون ولنا الجثّة...

الخادّات المحترفات، والعروس نفسها لا يقلّ عمرها

عن ثلاثين عاماً، أي والله، ولو كان بها ذرّة من جمال

لعذّرت، لماذا يريد أن يتزوَّجها؟ إنّهُ مسحور، سحرته

بحيلة، إنّها تعمل معه في المجلّة المشؤومة، لعلّها

غافلت فوضعت له شيئاً في القهوة أو الماء، اذهبوا

وشوفوا واحكموا، أنا غلبت، لقد عدت من الزيارة لا

أكاد أرى الطريق من حزني وأسفي...

- إنّك تغضبيني، لن أغفر لك كلامك هذا...

- العفو، العفو يا سيّد الملاح! الحقّ عليّ، أنا طول

عمري عيّابة فرماني ربّنا في أولادي بكلّ العيوب،

أستغفر الله العظيم.

- مهما تقوّلت عنهم فليس فيهم من يرمي الناس

بالباطل... مثلك!

- بكرة يا ما تسمع، ويا ما تعرف، سامحك الله على

إهانتي.

- أنت التي أهتني بما فيه الكفاية!...

- إنّها تطمع في مالك، ولولا خيبتك ما طمعت في

أحسن من بيّاع جرائد...

- إنّها محرّرة في المجلّة بمرتّب ضعف مرتّبي...

- جورنالجيّة هي الأخرى!... ما شاء الله، وهل

تتوظّف إلا الفتاة البائرة أو القبيحة أو المسترجلة!...

- سامحك الله...

- فليسامحك أنت على ما تصبّ علينا من عذاب!

وهنا قال ياسين الذي كان يتابع الحديث ويده لا

تمسك عن قتل شاربه:

- اسمعي يا أختي لا داعي للنقار، سنصّارح أحمد

بما ينبغي قوله ولكن لا جدوى من الشجار...

وهض أحمد كالغاضب وهو يقول:

- عن إذنكم سأرتدي ملابس لي لأذهب إلى

عملي...

ولما ذهب انتقل ياسين إلى جانب أخته ومال عليها

قائلاً:

- لن يفيدك الشجار شيئاً، نحن لا نحكم أبناءنا،

إنّهم يرون أنفسهم خيراً منّا وأذكى، إذا كان لا بدّ من

الزواج فليتزوّج، فإن سعد كان بها وإلا فهو المسئول

- خالي، ستعجبك جدًا، سترى وتحكم بنفسك،  
إنها شخصية ممتازة بكل معنى الكلمة.

فصاحت به:  
- إذا كنت ستدخلها فبفضلي... أنا التي علمتكم  
دينك!...

## ٤٥

\*\*\*

يا لها من حيرة! كأنها مريض مزمن، فكل أمر يبدو  
ذا وجوه متعددة متساوية يتعذر فيها الاختيار، تستوي  
في ذلك المسألة الميتافيزيقية والتجربة البسيطة من الحياة  
اليومية، فلإزاء كل تعترض الحيرة والتردد، أيتزوج أم  
لا؟، كان ينبغي أن يقطع برأي لكنه يدور حول  
نفسه حتى يصيبه الدوار ويختل منه ميزان الروح  
والعقل والحواس ثم تنجلي الدوامية عن موقف لم يتغير  
وسؤال لم يظفر بالجواب بعد وهو: أيتزوج أم لا؟. قد  
يضيق أحيانًا بحزبته فينقل عليه الشعور بالوحدة أو  
يضجر من معاشره الأسيح الفكرية الخاوية فيحن إلى  
الآليف وتتن في عجبته غرائز الأسرة والحب تروم  
متنفسًا، ثم يتخيل نفسه زوجًا قد برأ من التركيز في  
ذاته وتبددت أوهامه لكنه في الوقت نفسه في الأبناء  
واستغرقه الرزق ومطالبه فتراكت عليه مشاغل الحياة  
اليومية فينزعه آتيا انزعاج ويقرر الاستمسك بانطلاقه  
مهما تجشم من وحشة وعذاب، بيد أنه لا ينعم  
بالاستقرار طويلاً فلا يلبث أن يعود إلى التساؤل كرة  
أخرى، وهكذا وهكذا، فأين المقر؟ وبدور فتاة ممتازة  
حقًا، لا يعيها اليوم أن تركب الترام ما دامت قد  
ولدت وشبت في جنة الملائكة التي شغفت قلبه قديمًا،  
فهو كالشهاب الساقط، وهي فتاة ممتازة حقًا في حسنها  
وخلقها وثقافتها، ثم إنها ليست عسيرة المنال فهي  
الزوجة الواعدة بكل معنى الكلمة إذا أراد أن يتقدم،  
وما عليه إلا أن يتقدم، وإلى هذا كله فهو لا يسمع إلا  
أن يسلم باحتلالها مركز الاهتمام من وعيه، فهي آخر  
ما يودع من أطيايف الحياة قبل النوم وهي أول من  
يستقبل من أطيايفها عند الاستيقاظ، ثم لا تكاد تغادر  
خياله طوال يومه، وما إن يحظى برؤيتها البصر حتى  
يخفق الفؤاد مرددًا أنغامًا شجية من أوتار علاها  
الصدأ، ثم إن دنياه لم تبق كما كانت، دنيا حيرة  
وعذاب ووحشة، داخلتها نسايم وجرى فيها ماء

غادر كمال وأحمد السكينة معًا، وكان يقف من  
مشروع هذا الزواج موقف الشك والتردد، إنه لا يمكن  
أن يهتم نفسه بالمحافظة على التقاليد السخيفة، أو  
بالتفكير حيال مبادئ المساواة والإنسانية، ومع ذلك  
فالواقع الاجتماعي الذي لا يد له في بشاعته حقيقة  
واقعة لا يجوز أن يتجاهلها إنسان، وقدنما ولع عهدًا  
بقمر بنت أبي سريع صاحب الملقى، فكادت - رغم  
جاذبيتها - تحدث له عقدة برائحة جسدها المحزنة. غير  
أنه كان رغم هذا معجبًا بالشاب، غابطًا له شجاعته  
وقوة إرادته وغيرهما من المزايا التي حرم هو منها وعلى  
رأسها الإيمان والعمل والزواج، كأنما قد بعث في  
الأسرة كفاءة عن جوده وسليته. ما الذي يجعل  
للزواج هذه الخطورة في نظره بينما هو في نظر الآخرين  
لا يزيد عن السلام عليكم... وعليكم السلام؟!

- إلى أين يا فتى؟

- المجلة يا خالي، وأنت؟

- مجلة الفكر لأقابل رياض قلديس، ألا تفكر قليلًا  
قبل أن تخطو هذه الخطوة؟

- أي خطوة يا خالي! لقد تزوجت بالفعل!...

- حقًا؟!

- حقًا، وسوف أقيم في الدور الأول من بيتنا نظرًا  
لأزمة المساكن...

- يا له من تحد سافرا...

- نعم، ولكننا لن توجد في البيت إلا حين تكون  
أمي قد نامت...

وبعد أن أفاق من وقع الخبر سأله بأسًا:

- وهل تزوجت على سنة الله ورسوله؟

فضحك أحمد أيضًا وقال:

- طبعًا، الزواج والدفن على سنن ديننا القديم، أما  
الحياة فعلى دين ماركس!  
ثم وهو يودعه:

الحياة، فإن لم يكن هذا هو الحب فما عسى أن يكون؟! وطوال الشهرين الماضيين جعل من شارع ابن زيدون مقصده كل أصيل، يقطعه على مهل، مسدداً عينيه إلى الشرفة حتى تلتقي بعينيها ثم يتبادلان الابتسام كما يجدر بزميلين، وقد بدا ذلك كما تقع المصادفات، ثم تكرر وقوعه كأنما عن عمد، فما يجد معاده حتى يجدها بجلسها من الشرفة تقرأ في كتاب أو تسرح الطرف، فأيقن أنها تنتظره، إذ لو شاءت أن تحو هذا المعنى من ذهنه ما كلفها ذلك إلا تحبب الشرفة دقائق كل أصيل. ولكن ماذا تظن بمروره وابتسامته وتحيته؟ لكن مهلاً، إن الغرائز لا تخطئ، كلاهما يود أن يلقي صاحبه، وقد استخفه لذلك الطرب وأسكره السرور، وملاء إحساس بجدوى الحياة لم يشعر به من قبل، غير أن هذا الهناء كله لم يمس دون قلق يشوبه، كيف لا وهو لم يجمع بعد على عزم، ولم يتضح له سبيل، ولكن تياراً جرفه فاستسلم له وهو لا يدري كيف مجراه ولا أين مرساه! قليل من العقل يوجب عليه أن يتدبر أمره ولكن فرحة الحياة صدفته في إشفاق. فتمل مسروراً دون أن يخلو من قلق. وقال له رياض: أقدم فهذه فرصتك، ورياض منذ أن لبس خاتم الخطوبة وهو يتحدث عن الزواج كأنه غاية الإنسان الأولى والأخيرة في هذه الحياة، فيقول مزهواً إنه سيقتم هذه التجربة الفريدة غير هباب فيتاح له أن يفهم الحياة فهماً جديداً صادقاً ومن ثم يفتح أبواب قصصه للحياة الزوجية والأطفال... أليست هذه هي الحياة أيها الفيلسوف السابح فوق الحياة؟ فأجابه متهزناً: أنت اليوم خصم فأنت آخر من يصلح حكماً وسوف أفتقد فيك المشير الصادق؟ وبدا له الحب من ناحية أخرى «دكتاتوراً» وقد علمته الحياة السياسية في مصر أن يمقت الدكتاتور من صميم قلبه. ففي بيت عمته جليلة كان يهب عطية جسده ثم سرعان ما يسترده وكأن ما كان لم يكن، أما هذه الفتاة المستكنة في حياتها فلن تقنع بما دون روحه وجسده جميعاً إلى الأبد، ولن يجد من شعار يأت به بعد ذلك إلا الكفاح المرير في سبيل الرزق ليؤمن حياة الأسرة والأبناء، مصير غريب يجعل من الحياة الحافلة بالجلال مجرد وسيلة «لتحصيل» الرزق، وقد يكون

الفقير الهندي سخيماً أو مجنوناً ولكنه أحكم ألف مرة من الغارق حتى أذنيه في سبيل الرزق، فأنعم بالحب الذي كنت تفتقده وتتحرر عليه... ها هو يبعث حباً في فؤادك جازاً وراءه المتاعب! وقال له رياض: «أمن المعقول أن تحبها وأن يكون في وسعك أن تزوجها... ثم تمتنع عن زواجها؟»، فأجابه بأنه يحبها ولكنه لا يحب الزواج! فقال محتجاً: «إن الحب هو الذي يسلمنا للزواج فما دمت لا تحب الزواج كما تقول فأنت لا تحب الفتاة!»، فأجابه بإصرار: «بل أحبها وأكره الزواج»، فقال: «لعلك تخاف المسؤولية»، فأجابه محتجاً: «إنني أحمل من أعباء المسؤولية في بيتي وفي عملي ما لا تحمل بعضه»، فقال: «لعلك أناني أكثر مما أتصور»، فقال ساخراً: «وهل يتزوج الفرد إلا مدفوعاً بأنانيته الظاهرة أو الخفية؟» فقال باسماً: «لعلك مريض فإذهب إلى دكتور نفساني لعله يحللك»، فقال له: «من الطريف أن مقالتي القادمة في مجلة الفكر عن: كيف تحمل نفسك»، فقال له: «أشهد لقد حيرتني»، فقال له: «أنا الحائر إلى الأبد». ومرة وهو يقطع كعادته شارع ابن زيدون صادف في طريقه أم حبيبته متجهة نحو البيت، عرفها من أول نظرة رغم أنه لم يرها منذ سبعة عشر عاماً على الأقل. ولم تكن «الهانم» التي عرفها قديماً. ذبلت ذبولاً محزناً وركبها الهم قبل الكبر ولم يكن في وسع إنسان أن يتصور أن هذه المرأة الساعية في هزالها هي نفس الهانم التي كانت تخطر في حديقة القصر في نهاية من الجمال والكمال. ورغم هذا كله قد ذكرته هيئة رأسها بعائدة فقطع قلبه منظرها، وكان حسن الحظ أنه تبادل مع بدور الابتسام قبل رؤيتها وإلا ما استطاع أن يبتسم، ثم ما يدري إلا وهو يتذكر عائشة! ثم يذكر كيف أثارت عاصفة من النكد هذا الصباح في البيت وهي تبحث عن طاقم أسنانها التي نسيت أين أودعته قبل نومها. وأول أمس رأى بدور واقفة في الشرفة على غير عادتها ثم تبين أنها متهية للخروج! وتساءل أخرج وحدها؟ وما لبثت أن غابت من الشرفة فمضى في سبيله متمهلاً متفكراً. حقاً لو جاءت وحدها فإنا نجيء له، هذا الظفر المسكر لعله يغسل إهانة حلت

- فرصة سعيدة! . . .

- شكرًا! .

ثم ماذا؟ يبدو أنها تنتظر خطوة جديدة من ناحيته،  
وها هي نهاية الطريق تقترب، يجب أن يقطع برأي  
فإنما التورط وإما الوداع، لعلها لا تتصور أبدًا أن  
يفترقا ببساطة، ولو كلمة واحدة، وها المفترق على بعد  
خطوات، إنه يشعر شعورًا مؤلمًا بمدى الخيبة التي  
ستمى بها، وبأى لسانه أن ينطق، أم يتكلم وليكن ما  
يكون؟! وتوقفت عن المسير وابتسمت ابتسامة مرتبكة  
كأنما تقول أن لنا أن نفترق فبلغ به الاضطراب نهايته،  
ثم مدت يدها، فتلقاها بيده وصمت فترة رهيبة، ثم  
غمغم:

- مع السلامة! . . .

واستردت يدها ثم مالت إلى عطفة جانبية. أوشك  
أن يناديها، إن ذهبها متعثرة بالخبية والخلج كابوس لا  
يُحتمل، وأنت أدري بهذه المواقف التعيسة، غير أن  
لسانه انعقد. فيم كانت متابعتها لها طوال الشهرين  
الماضين؟ أمن الذوق أن ترفضها وقد جاءتك  
بنفسها؟ أمن الرحمة أن تعاملها نفس المعاملة التاريخية  
التي عاملتك بها أختها؟ وأنت تحبها؟! وهل تلقى من  
ليها ما لقيت من ليلتك التي خلقتها وراءك كالمجمرة  
المتقدة تضيء في غياهب الماضي بالألم المنصهر؟!

وواصل سيره وهو يتساءل ترى أريد حقًا أن يبقى  
أعزب لكي يكون فيلسوفًا أم أنه يدعي الفلسفة ليقى  
أعزب؟ وقال له رياض: هذا شيء لا يصدق ولسوف  
تندم! وهو شيء لا يصدق حقًا ولكن هل يندم أيضًا؟  
وقال له: كيف هان عليك أن تقطعها وقد كنت  
تحدث عنها وكأنها فتاة أحلامك؟ ليست فتاة  
أحلامه. . . إن فتاة أحلامه لم تكن لتسعى إليه أبدًا.  
وأخيرًا قال له. إنك في نهاية السادسة والثلاثين من  
عمرك ولن تكون بعد ذلك صالحًا للزواج. فامتنع  
لقوله وداخلته كتابة. . .

منذ سنين! ولكن هل كانت عابدة تفعل هذا ولو  
انشق القمر؟! وعندما بلغ منتصف الطريق التفت  
إلى الوراء فرآها قادمة. . . وحدها! وخيل إليه أن  
خفقان قلبه سيطرق مسامع الجيران. وسرعان ما شعر  
بخطورة الموقف الوشيك الحدوث حتى نازعته بعض  
جوانب نفسه إلى الهروب! كان تبادل الابتسام قبل  
ذلك لهوا عاطفيًا بريئًا أما اللقاء فسيكون له شأن وأي  
شأن. هو مسئولية وخطورة ومطالبة بالحسم في  
الاختيار. ولو هرب الآن لمنح نفسه مزيدًا من  
الترويح! ولكنه لم يهرب، وتقدم في خطاه المتمهلة  
كالمخدر حتى أدركته عند منعطف الطريق إلى شارع  
الجلال، وفي التفاتة منه التقت عيناهما في ابتسامة،  
فقال:

- مساء الخير. . .

- مساء الخير. . .

وتساءل وشعوره بالخطورة يتزايد:

- إلى أين؟

- عند واحدة صاحبتني، هناك في هذا الاتجاه. . .

وأشارت صوب شارع الملكة نازلي، فقال في  
استهتار:

- إنه طريقي فهل تسمحين بأن نسير معًا. . . ؟

فقالت وهي تداري ابتسامة:

- تفضل. . .

وسارا جنبًا إلى جنب، إنها لم تتحل بهذا الفستان  
الجميل لتقابل واحدة صاحبته ولكن لتقابله هو، وها  
هو قلبه يستقبلها بالوجد والحنان، ولكن كيف يكون  
مسلكه؟ لعلها ضاقت بجموده فجاءت بنفسها لتهيئ  
له فرصة مواتية وإنما ينتهزها إكرامًا لها وإنما يتجاهلها  
فيفتقدها إلى الأبد، هي كلمة قد تقال فيتورط قائلها  
مدى العمر أو تحبس فيندم حابسها مدى العمر، هكذا  
دفع إلى مازق وهو لا يدري، وها هو الطريق يطوى  
ولعلها تترقب، وهي تبدو مستجيبة ملبية كأنها ليست  
من آل شداد، أجل ليست من آل شداد في شيء، لقد  
انتهى آل شداد، وولى زمانهم، وليست التي تسارك  
إلا فتاة سيئة الحظ، والتفت نحوه كالباسمة فقال  
برقة:





متعجبة من «استرجالها» في الحديث، فما تمالك أن قالت:

- المفروض أننا في فرح، تكلموا في أمور مناسبة! ولاذت سوسن بالصمت دون اصطدام، على حين تبادل أحمد وكمال نظرة باسمه، أما إبراهيم شوكت فقال ضاحكًا:

- عذرهم أن أفراحنا لم تعد أفراحًا، الله يرحم السيد أحمد ويسكنه فسيح جناته...

فقال ياسين متحسرًا:

- تزوجت ثلاث مرّات ولكنني لم أزد مرّة واحدة! فقالت زُئوبة في انتقاد مرّ:

- أتذكر نفسك وتنسى ابتنتك؟

فقال ياسين ضاحكًا:

- نُزف في الرابعة إن شاء الله...

فقالت زُئوبة في تمكّم:

- أجّلها حتّى تزف رضوان!

فغضب رضوان دون أن ينبس. لعنة الله عليكم جميعًا وعلى الزواج أيضًا، ألا تدركون أنني لن أتزوج أبدًا! وأنتي أودّ أن أقتل من يفاخني بهذه السيرة اللعينة. وعقب صمت قصير قال ياسين:

- ليتني أبقي في بوفيه السيّدات حتّى لا أقف بين

أصحاب اللحى الذين يخيفونني!

أدركته زُئوبة قائلة:

- لو عرفوا سيرتك لرجوك!

فقال أحمد ساخرًا:

- ستخوض لحاهم في الصحاف، وتكون معركة،

ونخالي كمال هل يحبّ الإخوان؟

فقال كمال باسمًا:

- أحبّ منهم واحدًا على الأقل!

والتفت سوسن إلى العروس وسألته بمودة:

- وما رأي كريمة في لحية زوجها؟

فدارت كريمة ضحكة خفيفة بحني رأسها المتوجّج ولم

تتكلم، فأجابت عنها زُئوبة قائلة:

- قليل من الشبان من هم في تدئين عبد المنعم...

فقالت خديجة:

- إنه ينعم الآن بثروة جدّي التي آلت إلى أمّي!

وقال ياسين محتجًا:

- ميراث لا يُستهان به، وكلّمنا قصدها رضوان معونة للترفيه أو خلافه تصدّى له الصفيق وناقشه الحساب!

فقالت خديجة مخاطبة رضوان:

- إنّه لم تنجب غيرك، وخير لها أن تمتّعك بما لها في حياتها... ثمّ مستدركة:

- وقد آن لك أن تتزوّج، أليس كذلك؟

فضحك رضوان ضحكة فائرة ثمّ قال:

- عندما يتزوّج عمّي كمال!

- لقد يشت من عمك كمال ولكن لا ينبغي أن تقلّده...

وأصغى كمال لما يدور حوله بامتعاظ وإن لم يبدّ

أثره في وجهه. لقد يشت منه ويش هو من نفسه.

وكان قد انقطع عن المرور بشارع ابن زيدون معلّنًا

بذلك عن شعوره بذنبه، غير أنّه كان يقف عند طرف

المحطة ليراها في شرفتها من حيث لا تراه، لم يستطع

أن يقاوم رغبته في رؤيتها، ولا أن ينكر حبّه لها، أو

يتجاهل نفوره وجفوله من فكرة التزوّج منها! حتّى قال

له رياض إنك مريض وثأبي أن تبرأ!

وسأل أحمد شوكت رضوان بلهجة ذات معنى:

- أكان محمّد حسن يناقشك الحساب لو كان

السعديّون في الحكم؟

فضحك رضوان ضحكة حانقة وقال:

- إنه ليس الوحيد الذي يناقشني الحساب اليوم،

ولكن صبرًا، إن هي إلاّ أيام أو أسابيع.

فسألته سوسن حماد:

- أنظرنّ أيام الوفد معدودة كما يشيع خصومه؟

- أيامه رهن بمشيئة الإنجليز، وعلى أيّ حال فلن

تطول الحرب إلى الأبد... ثمّ يجيء وقت الحساب!

فقالت سوسن في جدّ ظاهر:

- المسئول الأوّل عن المأساة هم الذين ظاهروا

الفاشيست لطنع الإنجليز من الخلف...

وكانت خديجة ترمق سوسن بنظرة ساخرة منتقدة،

- تفضّلوا إلى البوفيه، احتفالنا اليوم قاصر على المعدة...

## ٤٧

كان كمال يسير متسكّفاً في شارع فؤاد الأوّل، وكانت الساعة تدور في العاشرة من صباح الجمعة فلقي طريقاً غاصّاً بالمارة والواقفين، نساء ورجالاً، وكان الجوّ لطيفاً كأكثر أيّام نوفمبر، يغري بالمشي، وقد ألف أن يتخفّف من عزلته القليبة بالاندساس بين الناس في يوم عطلته، فيمضي على وجهه بلا غاية، متسلّياً بمشاهدة الناس والأشياء، وصادفه في طريقه أكثر من واحد من تلاميذه الصغار فحيّوه برفع أيديهم إلى رءوسهم فردّ تحيتهم بأحسن منها باسمًا. ما أكثر تلاميذه منهم من توقّف، ومنهم من لا يزال بالجامعة، وغالبيتهم بين الابتدائي والثانويّ فليس بالعمر القصير أن تخدم العلم والتعليم أربعة عشر عاماً. وكان منظره التقليدي لا يكاد يتغيّر، البذلة الأنيقة والحذاء اللامع والطربوش المستقيم والنظارة الذهبية والشارب الغليظ، حتّى درجته السادسة لم تتغيّر أربعة عشر عاماً رغم ما يشاع عن تفكير الوفد في إنصاف الهيئات المظلومة، شيء واحد تغيّر هو رأسه الذي انتشر المشيب في سوائفه. وبدا سعيداً بتحيات تلاميذه الذين يحبّونه ويحترمونه، وتلك منزلة لم يظفر بمثلها أحد من المدرّسين، ظفر بها هو رغم رأسه وأنفه، وبالرغم ممّا اعتري تلاميذه هذه الأيام من شيطنة وجوح!

وعندما بلغ تسكّعه تقاطع عماد الدين مع فؤاد الأوّل ما يدري إلّا وبدور تطالعه وجهها لوجه، وخفقت جوانحه كأنما انطلقت بها صفارة الإنذار، وجد بصره لحظات، ثمّ همّ بالابتسام ليتفادى من الموقف الحرج، غير أنّها حوّلت عنه عينيها في تجاهل بين ودون أن تلين أساريرها ثمّ مرقت من جانبه، وعند ذلك فحسب رأى أنّها تتأبّط ذراع شابّ تسير في صحبته! وتوقّف عن المسير، ثمّ أتبعها ناظره، أجل هي بدور، في معطف أسود أنيق، ولهذا صاحبها في

- يعجبني تديّته، لهذا خلق في دم أسرتنا، ولكن لا تعجبني لحيته...

فقال إبراهيم شوكت ضاحكاً:

- أعتزّ بأنّ ابنيّ - المؤمن والمارق على السواء -

مجنونان!

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال:

- المجنون خلق في دم أسرتنا أيضاً!

فحدجته خديجة بنظرة احتجاج فعالجها قائلاً قبل أن تنبس:

- أعني أنّي مجنون، وأظنّ كمال أيضاً مجنون، وإن شئت فانا المجنون وحدي!

- هذا هو الحقّ دون زيادة.

- وهل من العقل أن يقضي إنسان على نفسه بالعزوبة ليتفرّغ للقراءة والكتابة؟

- سيتزوّج عاجلاً أو آجلاً ويكون سيّد العقلاء.

فسأل رضوان عمّه كمال قائلاً:

- لم لا تزوّج يا عمّي؟ أريد أن أقف على الأقلّ على وجه اعتراضك لأدافع به عن نفسي حين الضرورة!

فقال ياسين:

- أنتوي الإضراب عن الزواج؟ لن أسمح بهذا ما حييت، ولكن انتظر حتّى تعودوا للحكم ثمّ تزوّج زواجاً سياسياً رائعاً!

أمّا كمال فقال له:

- إذا لم يكن عندك مانع فتزوّج في الحال...

لهذا الشابّ ما أجمله! هو مرشّح للجهاد والمال! لو رآته عايده في زمانها لعشقتّه، ولو ألقي نظرة عابرة على بدور لشغفها حبّاً، أمّا هو فيدور على نفسه والدنيا كلّها تتقدّم، ولا يزال يتساءل: أتزوّج أم لا أتزوّج؟! والحياة تبدو حيرة مظلّمة، فلا هي فرصة سانحة ولا هي فرصة ضائعة، والحبّ عسير طبعه الخصام والعذاب، فليتها تزوّج حتّى يخلص من حيرته وعذابه!

وإذا بعد المنعم يدخل عليهم تقدّمه لحيته وهو يقول:

مثل أنافتها، ولعلّه لم يبلغ الثلاثين بعد. وبذل جهداً صادقاً ليتهاك نفسه التي هزتها المفاجأة ثم تساءل في اهتمام من يكون هذا الشاب؟ ليس أخا لها، ولا هو بالعاشق إذ إن العشاق لا يجاهرون بحبهم في شارع فؤاد الأول خاصة صباح الجمعة، فهل يكون...؟! وتتابعت دقات قلبه في إشفاق، ثم تبعها دون تردد، وعيناه لا تفارقانها، ووعيه مركز فيهما حتى شعر بأن حرارته ترتفع وأن ضغطه يصعد وأن دقات قلبه تنعاه، ورأهما يتوقفان أمام معرض محلّ لبيع الحقايب فدنا منها متباطئاً مصوباً عينيه نحو يد الفتاة اليمنى حتى استقرّ بصره على الخاتم الذهبيّ! ولفحه إحساس حارّ كأنه مزيج من الألم العميق، وكان قد مضى على موقف شارع ابن زيدون أربعة أشهر، فهل كان هذا الشاب يرصده في نهاية الطريق ليحلّ محله؟ وما ينبغي أن يدهش فإن أربعة شهور زمن طويل قد تنقلب فيه الدنيا رأساً على عقب، ووقف أمام محلّ اللعب على بعد يسير من موقفهما، يلحظهما وكأنه يتفرّج على اللعب. إنها اليوم تبدو أجمل مما كانت في أيّ يوم مضى، كالعروس بكلّ معنى الكلمة! ولكن ما هذا السواد الذي يشيع في كافة ملابسها؟ إن سواد المعطف أمر مألوف بل فاخر ولكن ما بال فستانها أسود كذلك؟ موضة أم حداد؟ أ تكون أمها قد توفيت؟ ليس من عادته تصفّح الرفيات في الصحف ولكن ماذا يهمه من ذلك؟ الذي يهمه حقاً أن صفحة بدور قد انطوت في كتاب حياته، انتهت بدور، وعرف السؤال الحائر «أتزوج أم لا أتزوج» جوابه المحتمل! فليهنأ بالطمأنينة بعد الحيرة والعذاب! وكم تمحّى لو تتزوج ليخلص من عذابه فهذا هي قد تزوجت فليهنأ بالخلاص من العذاب! وخيل إليه أن إنساناً لو دُبح لعانى مثل الإحساس الذي يعانيه في موقفه. إن أبواب الحياة تغلق في وجهه وقد نبذ خارج أسوارها. ثم رأها يتحوّلان عن موقفهما، ويتجهان نحوه، ومراً به في سلام وأتبعهما عينيه وهنّ بالمسير في أثرهما ولكنّه عدل عن ذلك فيما يشبه الضجر، ولبث أمام معرض اللعب، ينظر ولا يرى شيئاً، ونظر صوبها مرة أخرى كأنما ليلقي عليها نظرة الوداع، وكانت تتبعد دون

توقّف تختفي تارة وراء المازة وتبدو تارة، ويرى منها جانب مرة ثم يرى جانب آخر. وكان كلّ وتر من أوتار قلبه يغمغم: «وداعاً». ونفذ إلى أعماقه شعور العذاب مصحوباً بأنغام حزينة ليست بالجديدة. فذكر بها حالاً مماثلة ماضية، دبت في أعماقه جازة وراءها شقّ ذكرياتها المدغمة، كأنها لحن غامض مثير لأجل الألم وهو في الوقت نفسه لا يخلو من لذة خفيفة مبهمة! شعور واحد يلتقي فيه الألم باللذة كالفجر تلتقي عنده حاشية الليل بأهداب النهار. ثم اختفت عن ناظره، وربما اختفت إلى الأبد، كما اختفت أخت لها من قبل! ووجد نفسه يتساءل من عسى أن يكون خطيبها؟ لم يستطيع أن يتفحصه وكم يؤدّ أن يفعل، وودّ أن يكون موظّفاً - أن يكون من طبقة أدنى من طبقة المعلمين! ولكن ما هذه الأفكار الصبائية؟ إنّه لأمر مخجل، أما عن الألم فجدير بالخبر به أن يطمئن إذ إنّه عرف بالتجربة أنّ مصيره - ككلّ شيء - إلى الموت. وانتبه أول مرة إلى معرض اللعب الذي ينسبط تحت عينيه، كان آية في التنسيق والجمال، حاوياً لشقّ فتون اللعب التي يهيم بها الأطفال من قطارات وسيارات وأراجيح وأدوات موسيقية وبيوت وحدائق، فأنجذب إلى المنظر أمامه بقوة غريبة تفجّرت عنها نفسه المعذبة حتى تشبّثت بها عيناه، لم يتح له في طفولته أن ينعم بهذه الجنة فكبر طويلاً نفسه على غريزة لم تشبع وفات أوان إشباعها. وهؤلاء الذين يتحدثون عن سعادة الطفولة من أدهام بها؟ ومنذا يستطيع أن يجزم بأنّه كان طفلاً سعيداً؟ لذلك فما أسخف هذه الرغبة الطارئة البائسة التي تحلم بأن ترده طفلاً مثل هذا الطفل الخشبيّ الذي يلعب في هذه الحديقة الوهميّة الجميلة! إنها رغبة سخيفة ومحزنة في آن. ولعلّ الأطفال في الأصل كائنات لا تحتمل، ولعلّها المهنة وحدها التي علّمتها كيف يمكن التفاهم معهم وتوجيههم. ولكن كيف كانت تكون الحياة لو رُدّ إلى الطفولة محتفظاً في ذات الوقت بعقله النامي وذاكرته؟ فيعود إلى اللعب في بستان السطح بقلب عامر بذكريات عابدة، أو يمضي إلى العباسية عام ١٩١٤ فيرى عابدة وهي تلعب في الحديقة ويعرف في الوقت

- كم يوافق أحدنا الآخر!  
فقلت له بسخرية مستسلمة:  
- ما أطفك في سكرك! ...  
فاستطرد:  
- ما أسعدنا من زوجين لو تزوّجنا! ...  
فقلت مقطبة:  
- لا تهزأ بي فقد كنت «سيّدة» بكلّ معنى الكلمة ...  
- نعم، نعم، إنك ألدّ من الفاكهة في إبانها! ...  
فقرصته هازئة وقالت:  
- هذا قولك ولكنني إذا سألتك رياءاً فوق ما تعطيني هربت!  
- إنّ ما بيننا ليسمو فوق النقود!  
فحدجته بنظرة احتجاج وقالت:  
- ولكن لي طفلان يفضّلان النقود على ما بيننا!  
فبلغ به السكر والحزن غايتهما وقال ساخراً:  
- أنا أفكر في التوبة أسوة بالسّ جليّة، ويوم يختارني التّصوّف فسأنزل لك عن ثروتي!  
فقلت ضاحكة:  
- إذا وصلت التوبة إليك فقل علينا السلام ...  
فضحك ضحكة عالية وقال:  
- لا كانت التوبة المضرة بميثلاتك!  
إلى هذا يفزع من السهاد! ثمّ شعر بأنّ وفقته أمام معرض اللعب قد طالت فتحول عنه وذهب ...

## ٤٨

تساءل خالو صاحب حانة النجمة:  
- حقيقيّ يا حبيبي أنّهم سيغلّقون الخمارات؟  
فأجاب ياسين بثقة واطمئنان:  
- لا سمح الله يا خالو! من عادة النّوّاب أن يثرثروا عند نظر الميزانيّة، ومن عادة الحكومة أن تعيد بالنظر في تحقيق رغبات النّوّاب في أقرب فرصة، ومن عادة هذه الفرصة ألا تقترب أبداً ...  
واستبقت جماعة ياسين بحانة محمّد على المشاركة في التحقيق، فقال رئيس المستخدمين:

نفسه ما لقيه منها عام ١٩٢٤ وما بعده! أو يخاطب أباه وهو يلثغ فيقول له إنّ الحرب ستقع عام ١٩٣٩ إنّهُ سيقضى عليه عقب إحدى غاراتها! يا لها من أفكار سخيفة ولكنّها خير على أيّ حال من التركيز في هذه الخيبة الجديدة التي ارتطم بها الآن في شارع فؤاد، خير من التفكير في بدور وخطيبتها وموقفه منها، ولعلّ ثمة خطأ في الماضي يكفّر عنه وهو لا يدري، كيف ومتى وقع هذا الخطأ؟ لعلّه حادث عرضيّ أو كلمة قيلت أو موقف كابده، هذا أو ذاك هو المسئول عن هذا العذاب الذي يعاني. يجب أن يعرف نفسه حتّى يتيسّر له أن يخلصها من آلامها، فالمعركة لم تنته بعد، والتسليم لم يقع، وما ينبغي له أن يقع، ولعلّه المسئول عن ذلك التردّد الجهتميّ الذي انتهى به إلى قضم الأظافر على حين مضت بدور متأبطة ذراع خطيبتها! وينبغي التفكير مرتين في هذا العذاب المبطن بلذّة غامضة، أليس هو الذي ذاقه قديماً في صحراء العباسيّة وهو يتطلّع إلى الضوء المنبعث من نافذة حجرة الزفاف؟ فهل كان تردّده حيال بدور حيلة لدفع نفسه إلى موقف مماثل ليستعيد مشاعر قديمة فيشمل بعذابها ولذتها معاً؟! يحسن به قبل أن يحرك يده للكتابة عن الله والروح والمادة أن يعرف نفسه، بل شخصه المفرد، كمال أفندي أحمد، بل كمال أحمد، بل كمال فقط، حتّى يتسنى له أن يخلقه من جديد، وليبدأ الليلة بمعاودة كراسة الذكريات لينفّخ الماضي جيّداً، وستكون ليلة بلا نوم، ولكنّها ليست الأولى من نوعها، فعنده منها ذخيرة يصحّ جمعها في مؤلّف واحد تحت عنوان «ليالي بلا نوم»، ولن يقول إنّ حياته عبث، ففي النهاية سيخلف عظاماً قد تصنع منها الأجيال القادمة أداة للهوا! أمّا بدور فقد ولّت من حياته إلى الأبد، يا لها من حقيقة مليئة بالشجن، كاللحن الجنائزيّ، ولم تترك ذكرى حنان واحدة، لا عناق ولا قبّل، حتّى ولا لمسة أو كلمة طيبة، ولكنّه لم يعد يخشى السهاد. فقدنيما كان يلقيه وحيداً، أمّا اليوم فدون ذلك أفانين تغيب فيها العقول والقلوب، ثمّ يذهب إلى عطية في البيت الجديد بشارع محمّد عليّ، ثمّ يواصل أحاديثها التي لا تنقضي. وفي آخر مرّة قال لها بلسان أثقله السكر:

- لئنّا عروس كالوردة، زينة السكرية، ولكنّها أول  
فتاة في أسرتنا يمرّ عليها عام على زواجها دون أن  
تحمل، لهذا جزعت أمها!

- وأبوها فيها يبدو

فقال ياسين وهو يتسم ابتسامة بلهاء:

- إذا جزعت الزوجة جزع زوجها...

- لو يتذكر الإنسان قَرْف الأولاد لكره الحبل!...

- ولو! الناس يتزوجون عادة لإنجاب الذرية...

- لهم حق! لولا الأطفال ما طاق الحياة الزوجية  
أحد...

فشرب ياسين كأسه وهو يقول:

- أخشى أن يكون ابن أخي من أتباع هذا

الرأي...

- بعض الرجال ينجبون الأطفال ليشغلوا زوجاتهم

بهم فيستردوا شيئاً من حرّيتهم المفقودة!

فقال ياسين:

- هيهات! المرأة ترضع طفلاً وتهدهد آخر ولكنّها في

نفس الوقت تمحلق في زوجها «أين كنت؟. لماذا غبت

إلى هذه الساعة؟» ومع ذلك فالحكماء لم يستطيعوا أن

يغيروا هذا النظام الكوفي.

- ماذا منعهم؟

- أزواجهم! لم يدعن لهم فرصة للتفكير في

ذلك...

- اطمئن يا ياسين أفندي، فإنّ زوج ابنتك لا يمكن

أن ينسى فضل ابنتك في توظيفه.

- كلّ شيء يُنسى...

ثمّ - وهو يضحك - وقد دغدغت الخمر رأسه:

- ثمّ إنّ «المحروس» نفسه خارج الحكم الآن!

- آه! والوفد سيعمر هذه المرّة فيما يبدو...

وإذا بالمحامي يقول بلهجة خطابية:

- لو سارت الأمور سيراً طبيعياً في مصر لحكم الوفد

إلى الأبد!...

فقال ياسين ضاحكاً:

- هذا القول له وجهته لولا خروج ابني على الوفد!

- ولا تنسوا حادث القصاصين! إذا مات الملك قُتل

على أعداء الوفد السلام!

- طول عمرهم يُعدّون بإخراج الإنجليز، ويفتح  
جامعة جديدة، وبتوسيع شارع الخليج، فهل تمّ شيء  
من هذا يا خالو؟

وقال عميد ذوي المعاشات:

- لعلّ النائب مقدّم الاقتراح قد شرب خمرًا زعافًا

من خور الحرب فانتقم بتقديم اقتراحه...

وقال المحامي:

- ومهما يكن من أمر، فإنّ حانات الشوارع

الإفرنجية لن تمسّ بسوء، فما عليك يا خالو إذا وقع

المحذور، إلّا أن تسهم في تافرنّا أو غيرها... والختار

للختار كالبيان يشدّ بعضه بعضًا...

وقال باشكاتب الأوقاف:

- إذا كان الإنجليز قد دفعوا بدبّاباتهم إلى عابدين

لمسألة تافهة هي إعادة النحاس إلى الحكم، فهل تظنّهم

يسكتون عن إغلاق الخيّارات؟!

وكان بالحجرة - إلى جماعة ياسين - نفر من أهل

البلد من التجّار، ولكن على الرغم من ذلك اقترح

الباشكاتب أن يمزجوا سكرهم بشيء من الغناء قائلاً:

- هلمّوا نغني «أسير العشق».

فبادر خالو بالعودة إلى موقفه وراء الطاولة، وراح

الأصدقاء يغنون: «أسير العشق يا ما يشوف هوان»،

وبدت نغمة السكر أوضح الأنغام في أصواتهم حتّى

لاحت في وجوه أهل البلد بسّات ساخرة، غير أنّ

الغناء لم يستمرّ طويلاً، وكان ياسين أول المنسحجين،

ثمّ تبعه الآخرون فلم يُتمّ الدور إلّا الباشكاتب، ثمّ

ساد سكوت تقطعه من حين إلى حين مصمصة أو

تمطّق أو يد تصفّق في طلب كأس أو مرّة، وإذا بياسين

يقول:

- أما من وسيلة ناجعة للحبل!

فقال الموظّف المعجوز كالمحتجّ:

- لا تفتنّا تسأل هذا السؤال وتعيده!... صبرك

بالله يا أخي!...

وقال باشكاتب الأوقاف:

- لا داعي للجزع يا ياسين أفندي، ومسير بنتك

تحبل!

فقال ياسين وهو يتسم ابتسامة بلهاء:

يوم المعركة الكبرى سرت على رأس المظاهرة أنا وأخي  
أول شهداء الحركة الوطنية، فسمعت أزيز الرصاص  
وهو يمرق لصق أذني ويستقر في أخي، يا للذكرى! لو  
امتدّ به العمر للحق يركب الوزراء المجاهدين!

- ولكنّ العمر امتدّ بك أنت!

- نعم، ولكن ما كان بوسعي أن أكون وزيراً  
بالابتدائية، ثمّ إنّنا في جهادنا توقعنا الموت لا  
المنصب، غير أنّه لا بدّ أن يموت أناس ويتبوأ المناصب  
آخرون، وفي جنازة أخي مشى سعد زغلول فقذمني  
إليه زعيم الطلبة، هذه ذكرى عظيمة أخرى!

- ولكن كيف وجسدت - رغم جهادك - متسّعاً  
للعريضة والعشق؟!

- اسمعوا يا هوه، وهؤلاء الجنود الذين يضاجعون  
النساء في الطرق اليسوا هم الذين ردّوا رومل على  
أعقابهم؟! فالجهاد لا يكره الفرفشة، والخمر لو علمتم  
روح الفروسيّة، والمجاهد والسكران أخوان يا أولي  
الألباب!

- وسعد زغلول ألم يقل لك شيئاً في جنازة  
أخيك...؟

فأجاب عنه المحامي قائلاً:

- قال له ليتك كنت الشهيد أنت!...

وضحكوا، وكانوا في هذه الحال يضحكون أولاً ثمّ  
يتساءلون عن السبب، وضحك معهم ياسين في أريحية  
صافية ثمّ واصل حديثه قائلاً:

- لم يقل هذا، كان رحمه الله مؤدّباً لا كحضرتك،  
وكان ابن حظّ أيضاً، ولذلك كان واسع الأفاق، فكان  
سياسياً ومجاهداً وأديباً وفيلسوفاً وقانونياً، وكانت كلمة  
منه تحيي وتميت!

- الله يرحمه.

- ويرحم الجميع، كلّ ميت يستحقّ الرحمة، بحسبه  
أنّه فقد الحياة، حتّى المومس وحتّى القوّاد، وحتّى الأمّ  
التي كانت تبعت بابنها إلى رفيقها ليعود إليها به...

- وهل يمكن أن توجد هذه الأمّ؟!

- كلّ ما تصوّر وما لا تصوّر يوجد في الحياة!

- ألم تجد إلّا ابنها؟

- الملك بسلام!

- الأمير محمّد عليّ يُعَدّ بذلة التشريف! وهو منسجم  
مع الوفد طول عمره...

- الجالس على العرش - أيّا كان اسمه - هو عدوّ  
للوفد بحكم مركزه كالويسكي والخلوى لا يتفقان!

فقال ياسين وهو يضحك نشوة:

- لعلّ الحقّ معكم، فأكرم منك بيوم يعرف أكثر  
منك بسنة، وأنتم منكم من بلغ أذّل العمر ومنكم  
من يوشك أن يدركه!

- اسم الله عليك يا بن السبعة والأربعين!

- على أيّ حال فأنا أصغركم سنّاً...

ثمّ فرقع بأصابعه وهو يتمايل نشوة وخيلاء،  
واستطرد:

- ولكنّ العمر الحقيقي لا يقاس بالسنين، ولكن  
بالنشوة ينبغي أن يقاس، والخمر قد انحطّت نوعاً  
ومذاقاً في أيّام الحرب ولكنّ نشوتها هي هي، وعند  
الاستيقاظ صباحاً يدقّ رأسك الصداق فتفتح عينيك  
بكأشة ثمّ تتجشّأ كحولاً، غير أنّي أقول لكم إنّ في  
سبيل النشوة يموت أيّ شيء، وربّ أخ يتساءل  
والصحة؟ أجل لم تعد الصحة كما كانت، وابن السبعة  
والأربعين غير مثيله في الزمن الأوّل ممّا يدلّ على أنّ كلّ  
شيء قد غلا ثمنه في الحرب إلّا العمر فلا ثمن له، في  
الزمن الأوّل كان الرجل يتزوّج في السّتين من عمره أمّا  
في زماننا الغادر فابن الأربعين يسأل أهل العلم عن  
الوصفات المقويّة، والعريس في شهر العسل قد يوحل  
في شبر ماء!

- الزمن الأوّل!، أهل الدنيا جميعاً يسألون عنه!

فعاد ياسين يقول وقد أخذت أنغام السكر ترنّ في  
أوتار صوته:

- الزمن الأوّل، اللهمّ ارحم أبي، شدّ ما ضربني  
ليمنعي من الاشتراك الدمويّ في الثورة! ولكنّ الذي  
لا تُرهبه قنابل الإنجليز لا يُرهبه الزجرا وفي قهوة أحمد  
عبده كنّا نجتمع لتبدير المظاهرات وقذف القنابل...

- هذه الأسطوانة من جديد! خبّرني يا ياسين أفندي

أكان وزنك أيّام الجهاد كوزنك اليوم؟

- وأثقل، غير أنّي كنت حين الجدلّ كالنحلة، وفي

كتب، وكان لي منهم أصدقاء على عهد الثورة!  
فهتف المحامي:

- ولكنك كنت تجاهدهم... أنسيت؟!

- نعم... نعم، لكلّ حال ما يناسبها، وفي مرة  
ظنوني جاسوساً لولا أن سارع إليّ زعيم الطلبة في  
اللحظة المناسبة فدلّ القوم على حقيقتي فهتفوا لي،  
وكان ذلك في جامع الحسين!

- يعيش ياسين... يعيش ياسين! ولكن ماذا كنت  
تفعل في جامع الحسين؟

- أجب، هذه نقطة هامة جداً...

فضحك ياسين ثم قال:

- كنّا نصلي الجمعة، وكان من عادة أبي أن يأخذنا  
معه لصلاة الجمعة، ألا تصدّقون؟ سلوا أهل الحسين!  
- كنت تصلي زلفى لأبيك؟

- والله، لا تسيئوا الظنّ بنا، نحن أسرة دينية، أجل  
كلّنا سكيرون فاسقون، ولكن في النهاية تنتظرنا التوبة!  
وهنا تأوه المحامي قائلاً:

- ألا نعاود الغناء قليلاً؟

فبادره ياسين قائلاً:

- أمس غادرت الحانة وأنا أغني فاعترضني شرطي  
وهتف بي محذراً: «يا أفندي!» فسأله: «ألا يحقّ لي أن  
أغني؟»، فقال: «ممنوع الزعيق بعد الساعة ١٢» فقلد  
محتجاً: «ولكنني أغني!» فقال بحدة: «كلّه زعق! أما  
القانون»، فسأله: «والقنابل التي تنفجر بعد الساعة  
١٢ ألا تعدّ زعقاً؟» فقال مهذّباً: «الظاهر أنك ترغب  
في البيات في القسم» فابتعدت عنه وأنا أقول: «بل  
الأفضل أن أبيت في البيت!»، كيف نكون أمة  
متحضّرة والعساكر تحكمننا؟! وفي البيت تلقى زوجك  
بالمرصاد وهناك في الوزارة رئيسك، حتّى في التربة  
يستقبلك ملاكان بالمراوات...

وعاد المحامي يقول:

- فلنمرّ بشيء من الغناء...

فتحنح عميد ذوي المعاشات ثمّ راح يترنّم:

جوزي التجوّز عليّه  
ولسّه الحنّة في إيديّه  
يوم ما جه وجبها عليّه  
دي نار يا ناس وآدت فيّه

- ومن أروعٍ للألم من الابن؟! ثمّ إنكم جميعاً أبناء  
المضاجعة!

- الشرعيّة!

- هذه شكليات أما الحقيقة فواحدة، وقد عرفت  
موسسات بائسات كان فراشهّن يخلو من ضجيج أسبوعاً  
أو أكثر، دلّوني على أمّ من أمهاتكم قضت مثل هذه  
الفترة بعيداً عن قرينها!

- لا أعرف شعباً كالشعب المصريّ ولعاً بالخوض في  
أعراض الأمهات!

- نحن شعب قليل الأدب...

فقال ياسين ضاحكاً:

- إنّ الزمن أدبنا أكثر ممّا ينبغي، والشيء إذا زاد  
عن حدّه انقلب إلى ضده، ولذلك فنحن غير مؤدّين!  
ولكن تغلب علينا الطيبة رغم ذلك، فالتوبة عادة  
ختامنا!...

- ها أنا من ذوي المعاشات ولكنني لم أتب بعد!

- التوبة لا تخضع لكادر الموظّفين، ثمّ إنك لا تفعل  
شيئاً ضارّاً، أنت تسكر ساعات كلّ ليلة وليس في  
ذلك من بأس، وسوف يمتنع عن السكر يوماً المرض  
أو الطبيب وكلاهما شيء واحد، ونحن بطبعنا ضعفاء،  
ولولا ذلك ما ألفنا الخمر ولا صبرنا على الحياة  
الزوجيّة، وزداد بمرور الأيام ضعفاً ولكنّ رغائبنا لا  
تقف عند حدّ، هيهات، فتعذّب ثمّ نسكر مرة  
أخرى، ويشيب شعرنا فيفضح ممّا المستور وإذا بصفيق  
يعترض سبيلك في الطريق وهو يقول: «عيب أن  
تطارد امرأة وشعرك شايب!» يا سبحان الله ما لك  
أنت إذا كنت شاباً أو شيخاً، أتبع امرأة أم أتبع حمارة!  
حتّى تخال حيناً أنّ الناس متأمرون مع زوجك عليك،  
وهناك إلى ذلك كلّ الدلال بثقله والعسكريّ  
بهرأوته، حتّى الخادمة تتيه دلالاً في سوق الخضار،  
وهكذا تجهد نفسك في عالم مشاكس لا صديق لك فيه  
إلا الكأس، ثمّ يجيء دور المرتزقة من الأطباء فيقولون  
لك بكلّ بساطة: «لا تشرب!»

- ومع ذلك أتذكر أنّنا نحبّ الدنيا بكلّ قلوبنا؟

- بكلّ قلوبنا! والشرّ نفسه لا يخلو من خير، حتّى  
الإنجليز لا يخلون من خير، لقد عرفتهم يوماً عن

وسرعان ما ردّوا المطلق في حماس همجي، وكان ياسين يغرق في الضحك حتّى دمعت عيناه...

## ٤٩

كثيرًا ما كانت تشعر خديجة بأنّها وحيدة. ومع أنّ إبراهيم شوكت - خاصّة منذ أن قارب السبعين - كان يعتكف في بيته طوال أيام الشتاء، إلّا أنّه لم يستطع أن يبدّد وحشتها، ولم تن في القيام بواجبات بيتها، غير أنّها - الواجبات - باتت أهون من أن تستغرق حيويّتها ونشاطها، فعلى تجاوزها السادسة والأربعين لم تزل قويّة نشيطة وازدادت جسامة. وأسوأ من هذا أنّ وظيفتها كأمّ قد انقطعت على حين أنّ دورها كحماة لم ولن يبدأ أبدًا فيها بدا. فإحدى الزوجتين ابنة أخيها، والأخرى موظفة لا تكاد تلتقي بها إلّا فيما ندر من الأوقات والمناسبات. فكانت تروّج عن صدرها المكبوت فيما يدور بينها وبين زوجها المثلّغ بعباءته.

- مضى أكثر من عام على زواجهما ولم نوقد شموعًا! فهزّ الرجل منكبيه استهانة دون تعليق فعادت تقول:

- لعلّ عبد المنعم وأحد يعدّان الذرّيّة موضحة قديمة كطاعة الوالدين!

فقال الرجل في ضجر:

- أريحي نفسك فهما سعيدان وحسبنا هذا.

فتساءلت في حدة:

- إذا كانت العروس لا تحبل ولا تلد فما فائدتها؟

- لعلّ إبنك يخالفناك في هذا الرأي!

- لقد خالفنا في كلّ شيء، ما أضيع تعبي

وأملّي ..

- أيجزلك ألّا تكوني جدّة؟

فقالت في حدة تعالت درجتها:

- إنّ حزني عليهما لا على نفسي!

- لقد عرض عبد المنعم كريمة على الطبيب فبشره

خيرًا...

- أنفق المسكين كثيرًا وسيفنق غدًا أكثر، إنّ عرائس

اليوم غالية الثمن كالطاطم واللحم

فضحك الرجل دون تعليق فاستطردت تقول:

- أمّا الأخرى فاستعين عليها بسيدي المتويّ.

- اعترفي بأنّ لسانها كالشهد!

- مكر ودهاء، ماذا تتوقّع من ابنة العنابر؟

- اتقي الله يا شيخة!

- ترى متى يذهب بها «الاستاذ» إلى الطبيب؟

- إنّها زاهدان في هذا!

- طبعًا، إنّها موظفة، فمن أين تجد الوقت للحبل

والولادة؟

- إنّها سعيدان ما في ذلك شلّ.

- الموظفة لا يمكن أن تكون زوجة صالحة،

وسيعرف ذلك بعد فوات الأوان...

- أنّه رجل ولن يضره ذلك...

- ليس في هذا الحيّ كلّ شابان كولديّ فيا خسارة!

\*\*\*

وكان عبد المنعم قد تبلور طابعه وأنجاهه، فأثبت أنّه موظف كفاء و«أخ» نشيط، وقد انتهى الإشراف على شعبة الجماليّة إليه فعُيّن مستشارًا قانونيًا لها، وأسهم في تحرير المجلّة، وكان يلقي المواعظ أحيانًا في المساجد الأهليّة. وجعل من شقته ناديًا لإخوانه يسهرون عنده كلّ ليلة وعلى رأسهم الشيخ عليّ المنوفي. وكان الشاب شديد التحمّس موفور الاستعداد كي يضع جميع ما يملك من جهد ومال وعقل في خدمة الدعوة التي آمن بكلّ قلبه - على حدّ تعبير المرشد - بأنّها دعوة سلفيّة وطريقة سنيّة وحقيقة صوفيّة وهيئة سياسيّة وجماعة رياضيّة ورابطة علميّة ثقافيّة وشركة اقتصاديّة وفكرة اجتماعيّة، وكان الشيخ عليّ المنوفي يقول:

- تعاليم الإسلام وأحكامه شاملة تنظيم شؤون الناس في الدنيا والآخرة، وإنّ الدين يظنون أنّ هذه التعاليم إنّما تتناول الناحية الروحيّة أو العبادة دون غيرها من النواحي مخطئون في هذا الظنّ، فالإسلام عقيدة وعبادة ووطن وجنسيّة ودين ودولة وروحانيّة ومصحف وسيف...

فيقول شاب من المجتمعين:

- هذا هو ديننا، ولكنّا جامدون لا نفعل شيئًا والكفر يحكمنا بقوانينه وتقاليده ورجاله...



العمّال المجاهدين، وكلا العاملين واجب لا غنى عنه...

فقال الأستاذ:

- ولكنّ المجتمع الفاسد لن يتطوّر إلّا باليد العاملة، وحين يمتلئ وعيمها بالإيمان الجديد، ويمسي الشعب كلّ كتلة واحدة من الإرادة، فهناك لن تقف في سبيلنا القوانين الممبّجة ولا المدافع...

- كلّنا مؤمنون بذلك، غير أنّ كسب العقول المثقفة يعني السيطرة على الفئة المرشحة للتوجيه والحكم... وإذا بأحمد يقول:

- سيّدي الأستاذ، ثمة ملاحظة أوّد إبداءها، عرفت بالتجربة أنّه ليس من العسير إقناع المثقفين بأنّ الدين خرافة وأنّ الغيبات تخدير وتضليل، ولكن من الخطورة بمكان مخاطبة الشعب بهذه الآراء، وإنّ أكبر تهمة يستغلّها أعداؤنا هي رمي حركتنا بالإلحاد أو الكفر...؟

- إنّ مهمتنا الأولى أن نحارب روح القناعة والحمول والاستسلام، أمّا الدين فلن يتأتّى القضاء عليه إلّا في ظلّ الحكم الحرّ، ولن يتحقّق هذا الحكم إلّا بالانقلاب، وعلى العموم فالفقر أقوى من الإيمان، ومن الحكمة دائماً أن تتخاطب الناس على قدر عقولهم...

ونظر الأستاذ إلى سوسن باسماً وهو يقول:

- كنت تؤمنين بالعمل فهل بتّ تقنعين بالنقاش في ظلّ الزواج...؟

وكانت تدرك أنّه يداعبها وأنّه لا يعني ما يقول، ومع ذلك فقد قالت جادة:

- إنّ زوجي يحاضر العمّال في الخرابات النائية، وأنا لا أتي أوزع المنشورات بنفسي...

ثمّ قال أحمد مغتماً:

- إنّ عيب حركتنا أنّها تجذب إليها كثيرين من النفعيين غير المخلصين، من هؤلاء من يعمل بغية الأجر أو من يعمل للمصلحة الحزبية!

فقال الأستاذ عدلي كريم وهو يهزّ رأسه الكبير في استهانة واضحة:

- أعلم هذا حقّ العلم، ولكنّي أعلم أيضاً أنّ

فيقول الشيخ عليّ:

- لا بدّ من الدعاية والتبشير، وتكوين الأنصار المجاهدين، ثمّ تحيي مرحلة التنفيذ...

- وإلّا منتظر؟

- لنتنظر حتّى تنتهي الحرب. إنّ الحقل مهيباً لدعوتنا، وقد نزح الناس ثقتهم من الأحزاب، وعندما يهتف الداعي في الوقت المناسب يهبّ الإخوان وكلّ مدرّج بقرّانه وسلاحه...

عبد المنعم بصوته القويّ العميق:

- فلنوطّن النفس على جهاد طويل، إنّ دعوتنا ليست موجّهة إلى مصر وحدها. ولكن إلى كافّة المسلمين في الأرض، ولن يتحقّق لها النجاح حتّى تجمع مصر والأمم الإسلاميّة على هذه المبادئ القرآنية، فلن نغمد السلاح حتّى نرى القرآن دستوراً للمسلمين أجمعين...

الشيخ عليّ المتوفي:

- أبشركم بأنّ دعوتنا تنتشر بفضل الله في كلّ بيئة، لها اليوم مركز في كلّ قرية، إنّها دعوة الله، والله لا يخذل قوماً ينصرونه...

وفي نفس الوقت، كان يستعر نشاط آخر في الدور التحتانيّ وإن اختلف الهدف، ولم يكن وفيه العدد كهذا، فإنّ أحمد وسوسن كانا يجتمعان في كثير من الليالي بعدد محدود من الأصدقاء مختلفي النحل والمثل، أكثرهم من البيئة الصحفية. وقد زارهم الأستاذ عدلي كريم ذات مساء، وكان على علم بما يدور بينهم من مناقشات نظريّة. فقال لهم:

- حسن أن تدرسوا الماركسيّة، ولكن تذكّروا أنّها وإن تكن ضرورة تاريخيّة إلّا أنّ حتميّةها ليست من حتميّة الظواهر الفلكيّة. إنّها لن توجد إلّا بإرادة البشر وجهادهم، فواجبنا الأوّل ليس في أن نتفلسف كثيراً ولكن في أن نملأ وعي الطبقة الكادحة بمعنى الدور التاريخي الذي عليها أن تلعبه لإنقاذ نفسها والعالم جميعاً...

أحمد:

- إنّنا نترجم الكتب القيّمة عن هذه الفلسفة للخاصّة من المثقّفين، ونلقي المحاضرات الحماسيّة على

كانت فيلاً عبد الرحيم باشا عيسى بحلولان تودع الفوج الأخير من الزوّار الذين جاءوا يودّعون قبيل سفره إلى الأراضي الحجازية لأداء فريضة الحجّ . . .

- إنّ الحجّ أمنية قديمة، لعن الله السياسة فهي التي شغلتنى عنه عامًا بعد عام، ولكن في مثل عمري يجب أن يفكر المرء في أداء اللقاء القريب بربه .

فقال عليّ مهران وكيل الباشا:

- لعن الله السياسة!

فرّد الباشا عينيه الدابلتين بين رضوان وبين حلمي متفكرًا ثمّ قال:

- قل فيها ما شئت، غير أنّ لها جيلًا في عنقي لا أنساه وهو أنّها سلّتنى عن وحشتي، إنّ الأعزب العجوز مثلي يلتبس الأنس ولو في الجحيم!

فلقّب عليّ مهران حاجبيه وقال:

- ونحن يا باشا ألم نقم بواجبنا في تسليتك؟

- دون شكّ، ولكن يوم الأعزب طويل قليل

الشتاء، ولا بدّ للإنسان من رفيق، وإنّي لاعترف بأنّ المرأة ضرورة خطيرة، وكم أذكر أمي هذه الأيام! إنّ المرأة ضرورة حتّى لمن لا يتعشّقها!

وكان رضوان يفكر في أمور بعيدة فإذا به يسأل الباشا:

- هبّ النحاس باشا يسقط أفلا تعدل عن السفر؟!

فلوّح الباشا بيده ساخطًا وقال:

- فليبق بنحسه حتّى أعود على الأقلّ من الحجّ . . .

ثمّ وهو يهزّ رأسه:

- كلّنا مذنب، والحجّ يغسل الذنوب . . .

فضحك حلمي عزّت قائلاً:

- إنّك يا باشا مؤمن، وإنّ إيمانك كما يحزّ الكثيرين!

- له؟ إنّ الإيمان واسع الصدر، والمنافق وحده

الذي يدّعي البراءة المطلقة، ومن الغباء أن تظنّ أنّ الإنسان لا يقترف الذنوب إلّا على جثة الإيمان، ثمّ إنّ

ذنوبنا أشبه بالعبث الصبيانّي البريء!

فقال عليّ مهران متنهّدًا في ارتياح:

الأمويّين قد ورثوا الإسلام وهم لا يؤمنون به ومع ذلك فهم الذين نشره في بقاع العالم القديم حتّى إسبانيا! فمن حقّنا أن نستفيد من هؤلاء، علينا أن نحذّره في الوقت نفسه، ولا تنسوا أنّ الزمن معنا على شرط أن نبذل ما في وسعنا من جهد وتضحية . . . - والإخوان يا أستاذ! لقد بتنا نشعر بأنهم عقبة خطيرة في سبيلنا!

- لا أنكر هذا، ولكنهم ليسوا بالخطورة التي تتخيلها، ألا ترى أنّهم يخاطبون العقول بلغتنا فيقولون اشتراكية الإسلام؟ فحقّ الرجعيّون لم يجدوا بدءًا من استعارة اصطلاحاتنا، وهم لو سبقونا إلى الانقلاب فسوف يحققون بعض مبادئنا ولو تحقيقًا جزئيًا، ولكنهم لن يوقفوا حركة الزمن المتقدّمة إلى هدفها المحتوم، ثمّ إنّ نشر العلم كفيل بطردهم كما يطرد النور الخفافيش!

\*\*\*

ومضت خديجة تراقب مظاهر هذا النشاط الغريب في دهشة مقرونة بالامتعاض والسخط، حتّى قالت يومًا لزوجها:

- لم أر بيتًا كبيتك عبد المنعم وأحد، لعلّها قهوتان وأنا لا أدري، فلا يجيء المساء حتّى يمتلئ الطريق بالزوّار من أصحاب اللحي والخواجات، لم أسمع عن شيء كهذا من قبل . . .

فهزّ الرجل رأسه قائلاً:

- أن لك أن تسمعي . . .

فقالت بحدّة:

- إنّ مرتبتيهما لن يكفيا ثمن القهوة التي تقدّم للضيوف!

- هل اشتكيا إليك الفقر؟

- والناس؟ ماذا يقولون وهم يرون أفواجًا تدخل

وأفواجًا تخرج؟

- كلّ واحد حرّ في بيته . . .

فنفضت قائلة:

- إنّ أصوات أحاديثهم التي لا تنتهي تعلو أحيانًا

حتّى تخرج إلى الحارة . . .

- فلتخرج إلى الحارة أو فلتصعد إلى السّماء! . . .

وتنهّدت خديجة من الأعياق وهي تضرب كفًا بكفّ . . .

- فشر! إذا تحدّثتي فسوف أستقبلك حين العودة  
من الحجّ بقمر ولا كلّ الأقيار ثمّ ننظر ماذا يكون من  
أمرك!

فقال الباشا بأسياً:

- ستكون النتيجة مثل وجهك يا بوز الإخص،  
أنت شيطان يا مهران، شيطان لا غنى للإنسان  
عنه...

- أحمد الله على ذلك...

رضوان وحلمي في وقت واحد تقريباً:

- ونحمده عليه...

فقال الباشا في خيلاء وسرور:

- أنتم أنسي، ما الحياة بدون المودة والصداقة؟  
الحياة جميلة، الجمال جميل، الطرب جميل، العفو  
جميل، أنتم شباب وتنظرون إلى الدنيا من زاوية  
خاصّة، وسوف تعلّمكم العمر الكثير، إني أحبكم  
وأحبّ الدنيا، وإنّ زيارتي لبيت الله للشكر والاعتذار  
وطلب الهداية...

فقال رضوان بأسياً:

- ما أجل منظر! إنّك تقطر صفاء...

فقال عليّ مهران بكراً:

- ولكنّ حركة صغيرة تجعله يقطر أشياء أخرى،  
حقّاً يا باشا إنّك معلّم الجيل!

- وأنت إبليس نفسه يا ابن الهرمة! اللهمّ إني إذا  
قدمت يوماً للحساب فسأشير إليك وكفى!

- أنا! مظلوم والله، لست إلاّ عبداً مأموراً...

- بل أنت شيطان...

- ولكن لا غنى للإنسان عنه؟!

فضحك الباشا قائلاً:

- نعم يا عكروت...

- كنت وما أزال في حياتك العامرة نغمًا مطربًا  
ووجهًا مليحًا وهناء متجدّدًا، وأخيرًا لا تنس أيام  
شبابي يا سعادة الغادرا...

فتأوّه الباشا قائلاً:

- أيام زمان! آه من الزمان! يا أولاد لمّ تكبروا؟!

جلّت حكمتك يا ربّي وعلّت!...

- يا له من قول جميل! والآن دعني أصارحك بأنّي  
تشاءمت كثيرًا حين حدّثني عن اعتزامك الحجّ،  
وساءلت نفسي ترى أمي التوبة؟ وهل تنتهي بالنسبة  
لنا مسرّات الحياة؟!

فضحك الباشا حتّى اهتزّ جذعه وقال:

- أنت شيطان من صلب شيطان، أتحزنون حقّاً إذا  
علمتم أنّها التوبة؟

فقال حلمي متأوّهًا:

- كمن ذبح وليدها في حجرها!...

فضحك عبد الرحيم باشا مرّة أخرى وقال:

- آه منكم يا أولاد الإيه، على مثلي إذا أراد التوبة  
حقّاً أن ينأى بنفسه عن العيون النجل والحدود  
الوردية، وأن يعكف على مجاورة قبر النبيّ عليه الصلاة  
والسلام...

فهتف مهران في شماتة:

- الحجاز وما أدراك ما الحجاز، لقد حدّثني عنها  
العارفون، ستكون كالمستجير من الرمضاء بالنار!

فقال حلمي عزّت كالمحتجّ:

- لعلّها دعاية كاذبة كاللّغويات الإنجليزية، وهل  
يوجد في الحجاز كلّ وجه كوجه رضوان؟!

فهتف عبد الرحيم عيسى:

- ولا في الجنة!.. (ثمّ متراجفًا).. لكنّنا يا أولاد  
الحرام بصدد حديث التوبة!

فقال عليّ مهران:

- مهلاً يا باشا، لقد أخبرتني يومًا عن الصوفيّ الذي  
تاب سبعين مرّة، أليس معنى هذا أنّه أذنب سبعين  
مرّة؟

فقال رضوان:

- أو مائة مرّة!

فقال عليّ مهران:

- أنا راض بسبعين!

فتساءل الباشا ووجهه يتهلّل بشرًا:

- وهل في العمر بقيّة؟

- ربّنا يطوّل عمرك يا باشا، طمئننا وقل إنّها التوبة  
الأولى!

- والآخرّة!

كانت قناتي لا تميل لغامز  
فألأنها الإصباح والإمساء

فقال مهران ملقبًا حاجبيه:

- لغامز؟ بل قل لا تميل لمهران!

- يا ابن الكلب لا تفسد الجوّ بهدرك! لا يجوز أن  
نعبث عند ذكر الأيام الجميلة، الدموع أحيانًا أجمل من  
الابتسام وأضحك إنسانية وأشدّ عرفانًا بالجميل،  
اسمعوا هذا أيضًا:

واستنكرتني وما كان الذي نكرت

من الحوادث إلّا الشيب والصلصا

- ما رأيكم في قول «من الحوادث»؟

وإذا بمهران ينادي على طريقة باعة الصحف:

- الحوادث والأهرام والمصري... .

الباشا يائسًا:

- الحقّ ليس عليك ولكن عد... .

- عليك أنت!

- أنا! أنا بريء منك، عندما عرفتك كنت على  
حال يحسدك عليها إبليس، ولكنّي لن أسمح لك أن  
تنزعني من جوّ الذكريات، نعم اسمعوا إلى هذا  
أيضًا:

عريت من الشباب وكان غضًا

كما يعرى من الورق القضييب

فتساءل مهران كالمتزعج:

- القضييب يا باشا.

الباشا وهو يردّد ناظره بين رضوان وحلمي

المغربين في الضحك:

- صاحبكم جثة لا يؤثّر فيها الشعرا ولكنّه سيلبغ

قريبًا فترة الحسرات، حين يصير كلّ جميل خبرًا لكان

أو إحدى أخواتها، (ثمّ متلفّئًا إلى مهران) وأصحاب

زمان يا ابن الهرمة هل نسيتمهم؟

- أوه، الله يسيهم بالخير... كانوا الجمال كلّ

والدلال كلّ... .

- ماذا تعرف عن شاكر سليان؟

- كان وكيل الداخلية وفرخة بكشك عند الإنجليز

حتّى أحيل على المعاش قبل الأوان في وزارة النحاس

الثانية أو الثالثة لا أذكر، وأظنّه الآن معتكفًا في عزبته  
بكوم حمادة... .

- يا عيني على أيّامه! وحامد النجدي؟

- هذا أسوأ أحببنا حقًا! خسر الجلد والسقط،

ولأنّه ليطوف الآن ليلاً بالمراحيض العموميّة... .

- كان خفيّفًا ظريفًا ولكنّه كان كذلك مقامرًا

وعريبًا. وعليّ رأفت؟

- لقد بلغ «باجتهاده» أن صار عضوًا في مجلس إدارة

عدّة شركات، ولكنّ سمعته ضيّعت عليه الوزارة فيما

يقال!... .

- لا تصدّق ما يقال، وليّ الوزارة أناس جاوزت

شهرتهم حدود المملكة، غير أنّ هذا الرأي الذي طالما

نوّهت لكم عنه وهو أنّ التحلّي بالفضائل العامّة واجب

علينا أكثر من بقية الناس! فإذا تحقّق لأحدكم هذا فلا

تثريب عليه بعد ذلك، لقد حكم المهالك مصر

أجيالًا، وما زالت ذرارهم تنعم بالجاه والمال، وما

المملوك؟! هو ذلك نفسه! ساقصّ عليكم قصّة عظيمة

المغزى... .

وصمت الباشا قليلًا كأنّما ليجمع شتات فكره ثمّ

قال:

- كنت في ذلك الوقت رئيس محكمة، وحدث أن

عُرضت عليّ قضية مدنيّة عن ميراث غتلفّ عليه،

وقبل نظر القضية عرّفني بعضهم بشابّ جميل له وجه

رضوان وقوام حلّمي... . (ثمّ مشيرًا إلى مهران)

ورشاقة هذا الكلب في عزّ أيّامه! فتصادقنا عهدًا وأنا

لا أدري عن سرّه شيئًا، حتّى إذا كان يوم نظر القضية

ما أدري إلّا وهو يقف أمامي ممثلاً لأحد طرفي النزاع!

ماذا تظنّون فعلت؟

فتتمت رضوان:

- يا له من موقف! .

- تنحّيت عن نظر القضية دون تردّد!

وأبدى رضوان وحلمي عن إعجابها أمّا مهران

فقال كالمتحجّ:

- وضيّعت عليه كفاحه!؟

فقال الباشا دون اكتراث لهذر مهران:

- ليس هذا فحسب، ولكنّي قطعته احتقارًا لسوء

ودموعي تتساقط فوق جبينها وخدّيهما، وكم أودّ لو  
تغلّب على متاعبك يا رضوان . . .

فقال رضوان وكان يبدو شاردًا ساهمًا:

- يستطيع الإنسان أن يعيش بلا امرأة . . . ليس  
الأمر مشكلة!

- يستطيع الإنسان أن يعيش بلا امرأة، ولكنّ الأمر  
مشكلة، وقد لا تبالي تساؤل الناس ولكن ماذا عن  
تساؤل أنت؟ من الممكن أن تقول إنّ المرأة مشيرة  
للاشمئزاز، ولكن لماذا هي لا تثير اشمئزاز الآخرين؟  
هنالك يركبك إحساس كالمرض، مرض لا تعرف له  
دواء، فتعزل العالم به، وهو شرّ رفيق في الوحدة،  
وربّما أخجلك بعد ذلك أن تحتقر المرأة وإن تكن

مضطّرًا إلى مواصلة احتقارها!

وهنا نفخ عليّ مهران فيما يشبه اليأس ثم قال:

- منيت النفس بلبلة مرحة جدية بالوداع!

فضحك عبد الرحيم باشا ثم قال:

- ولكنّه وداع حاج! ماذا تعرف أنت عن توديع  
الحجاج؟

- سأودّعك بالدعاء ثمّ أستقبلك بالورود والحدود،  
ويومئذٍ نرى ماذا أنت فاعل!

فضرب الباشا كفًا بكفّ وهو يقول ضاحكًا:

- إني مفوّض أمري إلى الله ذي الجلال . . .

## ٥١

عند تقاطع شارعي شريف وقصر النيل، أمام  
مقهى رتز، وفجأة، وجد كمال نفسه أمام حسين  
شدّادًا وتوقّفًا عن السير وكلاهما يحملق في وجه صاحبه  
حتى هتف كمال:

- حسين . . .

فهتف الآخر بدوره:

- كمال!

ثمّ تصافحا في حرارة وهما يضحكان ضحكة الغبطة  
والسرور.

- آية مفاجأة سعيدة بعد ذلك التاريخ الطويل!

- آية مفاجأة سعيدة! تغيّرت كثيرًا يا كمال، ولكن

خلقه، أجل، لا قيمة للإنسان بلا خلق، ليس  
الإنجليز بأذكي الناس، الفرنسيون والإيطاليون أذكي  
منهم ولكنّهم سادة الخلق فهم سادة العالم! لذلك أنبد  
الجمال التافه المنحطّ.

فتساءل عليّ مهران ضاحكًا:

- هل أفهم من إبقائك عليّ أيّ ذو خلق؟ . . .

فأشار الباشا نحوه جادًا وهو يقول:

- الأخلاق متنوّعة، فالقاضي مطالب بالنزاهة  
والعدل، والوزير بالواجب والشعور بالمسؤوليّة العامّة،  
والصديق بالصفاء والوفاء، وأنت عرييد بلا شكّ  
ووغد في أحيان كثيرة، ولكنّك أمين وفي . . .

- أرجو أن يكون وجهي قد تورّد!

- الله لا يكلف نفسًا إلّا وسعها! والحقّ أيّ قانع بما  
فيك من خير، ثمّ إنك زوج وأب وهذه فضيلة  
أخرى، وهي سعادة لا يقدرها إلّا من عانى صمت  
البيوت، إلّا أنّ صمت المقام عذاب الشيوخوخة!

فقال رضوان كالمنكر:

- حسبت الشيوخوخة محبة للهدوء.

- تحيّلات الشباب عن الشيوخوخة ضلال، تحيّلات  
الشيوخوخة عن الشباب حشرات، خبّرني يا رضوان  
عن رأيك في الزواج؟

وانقبضت أسارير رضوان وهو يقول:

- هو الرأي الذي حدّثتك عنه من قبل يا باشا.

- لا أمل في العدول عنه؟

- لا أظنّ.

- لمه؟

تردّد رضوان قليلًا ثمّ قال:

- شيء عجيب، لا أدري كنهه، ولكنّ المرأة تبدو  
لي مخلوقًا مثيرًا للاشمئزاز . . .

فتجلّت في العينين الذابلتين نظرة حزينة وقال:

- يا للأسف، ألا ترى أنّ عليّ مهران زوج وأب؟  
وأنّ صديقك حلمي من أنصار الزواج؟ إني أرثي لك  
رثاء مضاعفًا إذ إنّ رثاء لنفسي أيضًا، طالما حيّرتي ما  
قرأت وما سمعت عن جمال المرأة، غير أنّي طويت  
نفسي على رأيي الخاصّ إكرامًا لذكرى أمّي، كنت  
أحبّها حبًّا جمًّا، وقد أسلمت الروح بين ذراعي

والدتي... وجدت الهموم في انتظاري كما قلت، ثم كان عليّ أن أعمل، وأن أعمل ليل نهار! هذا حسين شذاد طبعة ١٩٤٤ ذلك الذي يعد العمل جريمة إنسانية، أحقّ وجد ذلك الماضي؟ لعله لا دليل عليه إلّا خفقان هذا القلب.  
- أنذكر آخر مرة تلاقينا؟  
- أوه!...

وجاء النادل بالشاي والقهوة قبل أن يتمّ كلامه غير أنّه لم يبد متحمّساً للذكريات!...  
- دعني أذكرك، كان ذلك عام ١٩٢٦.  
- عفارم على ذاكرتك!... (ثمّ شارداً)... سبعة عشر عامًا في أوروبا!...

- حدّثني عن حياتك هنالك!  
فهزّ رأسه الذي لم يشب منه إلّا سوائفه وقال:  
- دع ذلك إلى حينه، واقع الآن بهذه العناوين:  
أعوام سياحية وفرحة كالحلم، حبّ فزواج من باريسية من أسرة محترمة، الحرب والهجرة إلى الجنوب، إفلاس أبي، العمل في متجر حمائي، عودتي إلى مصر دون زوجي حتّى أهبط لها حياة مستقرة، ماذا تريد أكثر من ذلك؟  
- أنجبت أطفالاً!

- كلّ...  
كأنّما لا يؤدّ أن يتكلّم، ولكن ماذا بقي من الصداقة القديمة حتّى يأسف على ذلك؟ ورغم هذا وجد رغبة قويّة في طرق أبواب الماضي فتساءل:  
- وماذا عن فلسفتك القديمة؟  
وتفكرّ حسين ملياً، ثمّ ضحك ضحكة ساخرة وقال:

- إنّي غارق في العمل منذ أعوام وأعوام، لست إلّا رجل أعمال!

أين روح حسين شذاد الذي كان يأوي منها إلى ظلّ ظليل من الغبطة الروحية؟ ليست في هذا الرجل الضخم، لعلّها استقرّت في رياض قلّس، أمّا هذا الرجل فإنّه لا يعرفه، ولا يربطه به إلّا ماضٍ مجهول، ماضٍ ودّ في تلك اللحظة لو كان يحتفظ له بصورة حيّة لا صورة فوتوغرافية باردة.

مهلاً لعلّي أبالغ! عودك هو هو، جملة منظرك، ولكن ما هذا الشارب المحترم؟ وهذه النظارة الكلاسيكية وهذه العصا! وهذا الطربوش الذي لم يعد أحد يلبسه غيرك!  
- وأنت شدّ ما تغيّرت! سممت أكثر ممّا كنت أنصوّر، أهذا يتفق وتقالييد باريس؟ أين حسين زمان؟

- وأين باريس زمان؟ أين هتلر وموسوليني؟ ما علينا، كنت ذاهباً إلى ريتز لأشرب قدح شاي فهل عندك مانع من الجلوس معي قليلاً؟  
- بكلّ سرور...

فمالاً إلى ريتز ثمّ جلسا حول مائدة وراء النافذة الزجاجيّة المطلّة على الطريق، وطلب حسين شذاد الشاي وطلب كمال قهوة ثمّ عادا يتفحصان بعضهما البعض في ابتسام. لقد ضخم حسين فامتدّ طولاً وعرضاً. ولكن ماذا فعل بحياته يا ترى؟ هل ساح في الأرض والسواء كما كان يؤدّ قديماً؟ لكنّ عينيه تعكسان رغم ابتسامهما نظرة غليظة كأنّما بدّلت من طفولة الحياة جدّاً. وكان قد مضى عام على التقائه ببدور في شارع فؤاد الأوّل فبرئ في أثنائه من نكسة الحبّ وانزوى آل شذاد جميعاً في ركن النسيان، غير أنّ ظهور حسين قد أيقظ النفس من سباتها، فبدأ الماضي وكأنّه يتمطّى ناشراً أفراده وآلامه.

- متى عدت من الخارج؟  
- منذ عام تقريباً...  
ولم يحاول مقابله على الإطلاق؟ ولكن علام يلموه وهو نفسه قد نسيه وفرغ من صداقته منذ دهر؟  
- لو علمت أنّك عدت إلى مصر لسعيت إلى لقاءك!

ولم يبد على حسين أنّه أخرج أو ارتبك ولكنّه قال ببساطة:

- عدت فوجدت الهموم في انتظاري، ألم تبلغك أشياء عنّا؟

فتجهّم وجه كمال وقال باقتضاب وأسف:  
- بلى، عن طريق صديقنا إسمايل لطيف.  
- لقد سافر إلى العراق منذ عامين كما أخبرتني

- لا اختيار لي، ومرجوي الوحيد أن أستعيد شيئاً من مستوى الماضي...  
وساد الصمت ملياً، وكان كمال يتفحص حسين باهتمام، وكانت صورة من الماضي تنبثق خلال تفحصه، حتى وجد نفسه يسأله قائلاً:  
- وكيف حال الأسرة؟  
فقال دون اكتراث:  
- بخير...  
فتردد كمال قليلاً ثم قال:  
- كانت لك أخت صغيرة نسيت اسمها فكيف صارت اليوم؟  
- بدوراء، تزوجت في العام الماضي...  
- ما شاء الله، أولادنا يتزوجون!  
- وأنت ألم تتزوج؟  
تري ألم تعاوده الذكريات؟  
- كلاً...  
- أسرع وإلا فاتك القطار...  
فقال ضاحكاً:  
- فاتني بأميل...  
- ربّما تزوجت من حيث لا تدري، صدّقي، لم يكن الزواج ضمن خطّتي ولكنّي متزوّج منذ أكثر من عشر سنوات...  
فهزّ كمال كتفيه دون اكتراث وقال:  
- خبّرني كيف تجد الحياة هنا بعد إقامتك الطويلة في فرنسا؟  
- لم تكن الحياة في فرنسا عقب الغزو ممّا يسرّ، أمّا هنا فالحياة يسيرة بالقياس إلى هناك. (ثمّ بحنان)  
ولكن باريس، أين أين باريس؟!  
- لم لم تبقى في فرنسا؟  
فقال باستنكار:  
- أعيش كلّاً على حمي؟!، كلاً، كان ثمة عذر عندما حالت ظروف الحرب دون السفر، أمّا بعد ذلك فلم يكن من السفر بدّاً!  
تري أهو شذا من الكبرياء القديم؟ ثمّ وجد نفسه مدفوعاً إلى مغامرة خطيرة عذبة معاً، فتساءل بمكر:

- وماذا تعمل الآن؟  
- ألحقني أحد أصدقاء أبي بوظيفة في الرقابة حيث أعمل ابتداء من منتصف الليل حتى الفجر، وإلى هذا فإنّي أقوم بالترجمة في بعض الصحف الإفرنجية...  
- ومتى تخلو من العمل؟  
- فيما ندر، والذي يهوّن عليّ المشقّة أنّي لست أدعو زوجي إلى مصر حتى أهتئ لها حياة تناسبها، فهي من أسرة محترمة، وكنت حين تزوّجت منها معدوداً من الأغنياء...  
قال ذلك وضحك ضحكة كأنما يسخر بها من نفسه فابتسم كمال ابتسامة كأنما يشجّعه بها، وراح يقول لنفسه: من حسن حظّي أنّي سلوتك من زمن طويل، ولولا ذلك لبيكت عليك من أعماق قلبي!  
- وأنت يا كمال ماذا تعمل؟  
ثمّ مستدركاً:  
- أذكر أنّك كنت مغرماً بالثقافة؟  
ما أجدره بالشكر على هذا التذكّر! فهو ميت بالنسبة إليه كما أنّ الآخر ميت بالنسبة إليه هو، وأنا لنموت ونحيا كلّ يوم مرّات! وأجابه:  
- إنّني مدرّس لغة إنجليزية...  
- مدرّس! نعم... نعم. تذكّرت الآن أشياء، وكنت ترغب في أن تكون مؤلّفاً؟  
يا للترغبات الخائبة...  
- إنّني أنشر مقالاتي في مجلّة الفكر، ولعلّي أجمع بعضها في كتاب عمّا قريب!  
فابتسم حسين ابتسامة كثيفة وقال:  
- أنت سعيد لأنك حققت أحلام صباك، أمّا أنا...!  
وضحك مرّة أخرى، أمّا كمال فقد وقعت جملة «أنت سعيد» من أذنيه موقعاً غريباً، ولم يكن أغرب منها إلّا اللهجة التي قيلت بها الدالة على الحسد، فوجد نفسه مرّة واحدة سعيداً ومحسوداً! ومَن؟ من عميد آل شدّاد! غير أنّه قال على سبيل المجاملة:  
- حياتك العملية أجلّ حياة!  
فقال الآخر بأسماً:

الأعلى لهيئته التعليمية، ولعله تشرف بمقابلته مرّات وهو زوج لعائدة. ربّاه... إنه ليذكر الآن أنّه شيع جنازة حرم المراقب منذ عام أفكانت هي عايدة؟. ولكن كيف لم يلتقي بحسين؟

- هل حضرت وفاتها؟

- كلّاً، توقّيت قبل عودتي إلى مصر...

فقال وهو يهزّ رأسه تعجباً:

- لقد سرت في جنازتها وأنا لا أدري أنّها أختك!

- كيف؟

- علمت في المدرسة ذلك اليوم بأنّ حرم كبير المفتشين قد توقّيت وأنّ الجنازة ستشيع من ميدان الإسماعيلية، فذهبت مع زملائي المدرسين دون أن أطلع على النعي في الصحف، وسرنا بين المشيعين حتّى جامع جركس، كان ذلك منذ عام...

فابتسم حسين ابتسامة حزينة وهو يقول:

- سعيكم مشكور...

لو وقعت هذه الوفاة عام ١٩٢٦ لجنّ أو انتحر، اليوم نمرّ به كخبر من الأخبار، ومن عجب أن يشيع جنازتها وهو لا يدري، وكان وقتذاك ما يزال أسيراً لمرارة التجربة التي تخلّفت عن زواج بدور فلعلّ صاحبة النعش طافت برأسه فيها طاف به من خواطر بدور وأسرتها، وما زال يذكر يوم الجنازة حين تقدّم من أنور بك زكي معزّياً ثمّ جلس بين المشيعين، قالوا قياماً لقد حضر النعش فمدّ عينيه فرأى نعشاً جميلاً مكلاً بالحرير الأبيض حتّى تهاوس بعض زملائه إنّها عروس... الزوجة الثانية للمفتش... وقد ذهبت ضحيّةً للالتهاب الرئويّ، وودّع النعش وهو لا يدري أنّه يودّع ماضيه، ومن كان زوجها؟ رجل فوق الخمسين ذو زوجة وأبناء فكيف رضي به ملاك الزمان الخالي؟ وكنت نظّمها فوق الزواج فإذا هي تعنو للطلاق ثمّ تقنع بنصيب الزوجة الثانية! وسوف يمضي وقت طويل قبل أن يسكن جيشان هذا الصدر لا من الحزن أو الألم ولكن من الدهول والدهشة، ومن خلّو العالم من مباحج الأحلام، ومن ضياع سرّ الماضي الساحر إلى الأبد، وإن كان ثمة حزن فعلى أنّك لم تحزن كما كان يجدر بك!

- وما أخبار صاحبنا حسن سليم؟

فحججه بنظرة ارتياب لحظة ثمّ قال ببرود:

- لا أدري عنه شيئاً!

- كيف؟

فقال وهو يمدّ بصره إلى الطريق خلل الزجاج:

- انتهى ما بيننا وبينه منذ حوالى العامين!

فقال كمال في دهشة لم يستطع إخفاءها:

- اتعني...؟

ولم يتمّ كلامه. غلبته المفاجأة. هل عادت عايدة إلى العباسية مرّة أخرى؟ امرأة مطلّقة؟ فليؤجل التفكير في هذا كلّه إلى حين، وقال بهدوء:

- كان سفره إلى إيران آخر ما حدّثني به إسماعيل لطيف عنه!

فقال حسين بكتابة:

- لم تمكث أختي معه في هذه الرحلة إلّا شهرًا واحدًا، ثمّ عادت بمفردها... (ثمّ بصوت منخفض) يرحمها الله!

- هه...؟

نذت عن كمال في صوت ترامي إلى الموائد القريبة من حوهم. فنظر إليه حسين كالداهش وقال:

- لم تكن تدري! لقد ماتت منذ عام!

- عايدة؟

فهزّ الآخر رأسه بالإيجاب، وفي نفس الوقت خجل كمال من نطقه الاسم مجرّداً بصوت مسموع، ولكنّه لم يقف عند هذا إلّا أقلّ من لحظة. وبدت الألفاظ جميعاً وكأنّ لا معنى لها. وشعر بدوامة الفناء تدور برأس. وكان ما به دهشة وارتياح، لا حزن ولا ألم، وتكلّم أخيراً فقال:

- يا له من خبر محزن! البقيّة في حياتك!

فقال حسين:

- عادت من إيران وحيدة، ومكثت مع أمّي شهرًا، ثمّ تزوّجت من أنور بك زكي كبير مفتشي اللغة الإنجليزية ولكنّها لم تعاشره إلّا شهرين، ثمّ مرضت، ثمّ توقّيت في المستشفى القبطي.

كيف لرأسه أن يتابع هذه الأحداث في سرعتها الجنونية! ولكنّه يقول أنور بك زكي، وهو المراقب



إبراهيم المقيمين في هذا البيت؟  
فأجاب الرجل وقد امتقع وجهه:  
- بلى...  
- عندنا أوامر بتفتيش البيت جميعه...  
- لماذا يا حضرة المأمور؟  
فلم يأبه له والتفت نحو معاونيه أمراً:  
- فتشوا...  
واندفع الرجال إلى الحجرات صادعين بالأمر على  
حين تساءل إبراهيم شوكت:  
- لماذا تفتشون شقتي؟  
ولكن المأمور تجاهل، وعند ذلك اضطرت خديجة  
إلى مغادرة حجرة النوم - التي اقتحمها المخبرون -  
متلعة بشال أسود وهي تبتف غاضبة:  
- أليس للنساء حرمة؟! هل نحن لصوص يا حضرة  
المأمور؟!  
كانت تحق في وجهه غاضبة، وإذا بها تشعر بغتة  
بأنها رأت هذا الوجه من قبل، أو بمعنى أصح أنها رأت  
صورته الأولى قبل أن يتورها تقدم السن، متى وأين؟  
رباه إته هو دون ريب، لم يكذب يتغير كثيراً، واسمه؟  
وقالت دون تردد:  
- حضرتك كنت ضابطاً بقسم الجمالية، منذ  
عشرين عاماً، بل منذ ثلاثين عاماً لا أذكر الزمن  
بالضبط...

فرغ المأمور إليها عينين متسائلتين، وردد إبراهيم  
شوكت ناظريه بينهما متسائلاً كذلك، وإذا بها تقول:  
- اسمك حسن إبراهيم، أليس كذلك؟  
- حضرتك تعرفيني؟  
فقال ببراءة:  
- أنا بنت السيد أحمد عبد الجواد وأخت فهمي  
أحمد الذي قتله الإنجليز أيام الثورة، ألا تذكره؟  
فلاححت الدهشة في عيني المأمور وتمتم بصوت  
مهذب لأول مرة:  
- رحمه الله رحمة واسعة...  
فقال ببراءة أشد:  
- أنا أخته فهل ترضى لبيتي هذه البهولة؟  
فأشاح المأمور عنها بوجهه وهو يقول كالمعتذر:

- لكن ماذا غير حسن سليم؟  
فهز حسين رأسه بازدراء وقال:  
- عشق الوغد موظفة بمفوضية بلجيكا بإيران  
فغضبت المرحومة لكرامتها وطالبت بالانفصال...  
ومما يعزّي المرء في مثل هذا الموقف أن بدييات  
إقليدس لم تعد بالبدييات المطلقة!...  
- وأولادها؟  
- عند جدتهم لأبيهم.  
وهي أين هي؟ وماذا جدّ عليها في هذا العام؟  
وهل يمكن أن يعرفها فهمي أو السيد أحمد عبد الجواد  
أو نعيمة؟  
وإذا بحسين شداد ينهض وهو يقول:  
- آن لي أن أذهب، دعني أراك، إنّي أتناول عشائي  
عادة في رتر.  
فنهض بدوره، وتصافحا وهو يتمتم:  
- إن شاء الله...

وافترقا عند ذلك وهو يشعر بأنه لن يراه مرة أخرى،  
وبأنه ليس به حاجة إلى معاودة رؤيته، كما ليس بالآخر  
حاجة إلى ذلك، وغادر المشرب وهو يقول لنفسه: «إنّي  
حزين يا عايدة لأنّي لم أحزن عليك كما كان يجدر  
بي...».

## ٥٢

في سكّون الهزيع الأخير من الليل طرق طارق باب  
بيت آل شوكت بالسكريّة، ثمّ تسابع الطرق حتّى  
استيقظ النائمون، وما إن فتحت خادم الباب حتّى  
تدافعت إلى الداخل أقدام ثقيلة شديدة الوقع،  
انتشرت في الفناء والسلم وأطبقت على الشقق  
الثلاث. وخرج إبراهيم شوكت إلى الصالة مثقل  
الرأس بالنوم متعباً بالكبر فرأى ضابطاً كبيراً يتوسط  
مجموعة من الجنود والمخبرين، فدهش الرجل وتساءل  
منزعجاً:

- ماذا هنالك كفى الله الشر؟!  
فسأله الضابط الكبير بخشونة:  
- أأنت والد أحمد إبراهيم شوكت وعبد المنعم

- هدّثني روعك، لم يعثروا على شيء مريب، ولن يثبت ضدّها شيء، لا تجري وراءهم حفظًا لكرامة عبد المنعم وأحمد...

فصاحت بها:

- هذا الهدوء تحسدين عليه!

فقالّت سوسن برقةً وصبر:

- سيعودان إلى بيتها بخير، اطمئني...

فتساءلت بحدة:

- من أدراك؟

- إني واثقة بما أقول...

فلم تكثر لقولها والتفتت نحو زوجها ثم ضربت كفًا بكف وهي تقول:

- انعدم الوفاء، أقول لهما إنهما ابنا أخت فهمي فيقول لي عندي أوامر، لماذا يأخذ ربنا الناس الطيبين ويترك الأرزال؟

والتهبّت سوسن نحو إبراهيم وقالت:

- سيفتشون بيت الجماعة في بين القصرين! سمعت خبرًا يقول للمأمور إنّه يعرف بيت جدّها في بين القصرين فاقترح عليه الضابط المساعد تفتيشه تنفيذًا للأوامر على سبيل الحيلة أن يكونا قد أخفيا فيه منشورات!

فصاحت خديجة:

- إني ذاهبة إلى أمي، لعلّ كمال يستطيع شيئًا، آه يا ربّي إني أحترق...

وجاءت بمعطفها وغادرت السكّرية في خطوات متلاحقة مضطربة، كان الجوّ باردًا والظلام ما يزال كثيفًا، وكانت الديكة تصيح في تجاوّب متواصل، انطلقت من الغوريّة مخترقة الصاغة إلى النحاسين. وجدت عند باب البيت خبرًا، ووجدت في الفناء خبرًا آخر، ثمّ صعدت السلم وهي تلهث...

وكانت الأسرة قد استيقظت مضطربة على رنين الجرس، ثمّ جاءتهم أمّ حنفي وهي تقول في ذعر: «بوليس»، وهرع كمال إلى الحوش حيث التقى بالمأمور فتساءل منزعًا:

- أفندم؟

فسأله المأمور:

- إننا نفدّ الأوامر يا هانم.

- ولكن لماذا يا حضرة المأمور، نحن أناس طيّبون! فقال المأمور برقة:

- نعم، ولكن ليس كذلك نجلاك...

فهتفت خديجة باضطراب:

- إنهما ابنا أخت صديقك القديم!

فقال المأمور دون أن ينظر نحوها.

- إننا نفدّ أوامر الداخلية.

- لم يفعلًا شيئًا ضارًا، إنهما ولدان طيّبان وأقسم لك على ذلك...

وعاد الجنود والمخبرون إلى الصالة دون أن يعثروا على شيء فأمرهم المأمور بمغادرة الشقة، ثمّ التفت إلى الزوجين المائلين أمامه وقال:

- أبلغنا عن اجتماعات مريبة تُعقد في شقتيها...

- هذا كذب يا حضرة المأمور!

- أرجو أن يكون الأمر كذلك، لكنني مضطرّ الآن إلى القبض عليهما وسوف يبقيان حتّى يتمّ التحقيق معهما، ولعلّ العاقبة أن تكون سليمة!

هتفت خديجة بصوت متهدّج وثنى بدموعها:

- أتسرقهما حقًا إلى القسم؟، هذا... لا

أتصوّر... اعف عنها وحياء أولادك!

- ليس بوسعي ذلك، لديّ أوامر صريحة بالقبض

عليهما، طاب مساؤكما!

وغادر الرجل الشقة، وما لبث أن غادرتها خديجة وفي أعقابها الرجل المعجوز ونزلا السلم لا يلويان على شيء، وراتهما كريمة وكانت واقفة أمام شقتها في حال شديدة من الفزع فهتفت:

- أخذه يا عمّي، أخذه إلى السجن...

فالتفت خديجة على الشقة نظرة متحجرة، ونزلت مسرعة إلى الشقة الأولى حيث وجدت سوسن على باب شقتها كذلك تتطلّع إلى الفناء بوجه كالح، فنظرت حيث تنظر فرأت القوّة تحيط بعبد المنعم وأحمد، متّجهة بها إلى الخارج، فلم تتمالك أن تصرخ

من أعماق قلبها وهتّت بالانطلاق في أثرهما لولا أن أمسكت بها يد سوسن، فالتفتت نحوها هائجة، غير

أن سوسن قالت لها بصوت هادئ حزين:

- أتعرف عبد المنعم إبراهيم وأحمد إبراهيم؟

- أنا خالهما!

- صناعتك؟

- مدرّس بمدرسة السلاحدار...

- عندنا أوامر بتفتيش البيت!

- ولكن لماذا؟ أيّ تهمة توجّهها إليّ؟

- إنّنا نفّش عن منشورات تخصّ الشايّين لعلّهما

أخفياها هنا!

- أوّكد لحضرتك أنّه ليس في بيتنا منشورات،

تفضّل فتش كما تشاء...

ولاحظ كمال أنّه أمر القوّه باحتلال السّلم والسطح

وأ أنّه مضى معه بمفرده، وما كان تفتيشاً يقلّب البيت

رأساً على عقب ولكنّ المأمور اكتفى بتفقدّ الحجرات

والقاء نظرة سطحيّة على المكتب وخزانات الكتب

فاستردّ أنفاسه، واستطاع أن يسأله وقد أنس إليه:

- فتشتم بيتها؟

- طبعاً...

ثمّ بعد لحظة قصيرة:

- إنّهما الآن في سجن القسم!

فسأله كمال في انزعاج:

- هل ثبت عليها شيء؟

فأجاب الرجل برقّة غير معهودة في أمثاله:

- أرجو ألاّ يصل الأمر إلى هذا الحدّ، غير أنّ

التحقيق متروك للنيابة.

- أشكر لك جميل عواطفك!

فقال المأمور بهدوء وهو يبتسم:

- ولا تنس أنّي لم أهدل البيت!

- نعم يا سيّدي، إنّني لا أدري كيف أشكرك!

وإذا به يلتفت نحوه متسائلاً:

- حضرتك أخو المرحوم فهمي؟

فأنّسعت عينا كمال دهشة وقال:

- نعم، أكنت تعرفه؟

- كنّا أصدقاء رحمه الله...

فقال كمال بربّاه:

- مصادفة سعيدة... (وهو يمدّ له يده)... كمال

أحمد عبد الجواد...

فصافحه الرجل قائلاً:

- حسن إبراهيم مأمور قسم الجليّة! بدأت فيه

ملازمًا وعدت إليه في آخر المطاف مأمورًا...

ثمّ وهو يهزّ رأسه:

- كانت الأوامر صريحة، أرجو ألاّ يثبت عليهما ما

يدينها.

وهنا ترامى إليها صوت خديجة وهي تحدّث أمّها

وعائشة بما كان وتبكي فقال:

- هذه أمّها، عرفنتي بذاكرتها العجيبة ثمّ ذكرّني

بالمرحوم ولكن بعد أن كان التفتيش الدقيق قد وقع،

طمئنها ما أمكنك.

ثمّ نزلا معًا جنبًا إلى جنب، وعند مرورهما بالدور

الثاني مرقت عائشة من الباب في حدّة بادية وحدجت

المأمور بنظرة قاسية وصاحت به:

- لماذا تقبضون على أولاد الناس بلا سبب؟ ألا

تسمع بكاء أمّها؟ فانهرف بصر المأمور إليها كردّ فعل

للمفاجأة ثمّ غصّ بصره تأدّبًا وهو يقول:

- سيطلق سراحها عمّا قريب إن شاء الله...

ثمّ سأل كمال بعد أن ابتعدا عن مدخل الدور

الثاني:

- والدتك؟

- بل شقيقتي! لم تجاوز الرابعة والأربعين ولكنّها

عانت من سوء الحظّ ما حطّمها...

والفت المأمور إليه كالدهش، وشخّل إليه بأنّه همّ

أن يطرح سؤالًا، ولكنّه تردّد لحظة ثمّ عدل عمّا كان

همّ به، وتصافحا في الفناء، وقبل أن يمضي الرجل إلى

سبيله سأله كمال:

- أمن المستطاع أن أزورهما في السجن؟

- نعم...

- شكرًا...

وعاد كمال إلى الصالة فانضمّ إلى أمّه وشقيقتيه وهو

يقول:

- سأزورهما غدًا، لا داعي للخوف، وسوف يطلق

سراحهما عقب التحقيق معهما...

وكانت خديجة لا تمسك عن البكاء فصاحت عائشة

في نرفزة:

- لا تبك، كفانا بكاء، سيعودان إليك ألا

تسمعين؟

فولولت خديجة قائلة:

- لا أدري... لا أدري. في السجن يا ولداه!  
وكانت أمينة صامئة كأن الحزن أخرسها، فقال كمال  
في هجة توحى بالطمأنينة:

- المأمور يعرفنا، كان صديق المرحوم فهمي، وقد  
تلطف بنا في التفتيش لدرجة لا تصدق، ولا شك أنه  
سيرعاهما بعطفه!

فرفعت الأم رأسها كالمثائلة فقالت خديجة في  
حنق:

- حسن إبراهيم، ألا تذكرينه يا أمي؟ وقد أخبرته  
بأنني أخت فهمي فما كان منه إلا أن قال: إننا ننقل  
الأوامر يا هانم! أوامر في عينه...!  
وانجھت عينا الأم نحو عائشة ولكنها لم يبد عليها  
أنها ذكرت شيئاً...

ثم انتحلت أمينة بكمال جانباً وراحت تقول له في  
قلق بالغ:

- لم أفهم شيئاً يا بني، لماذا قبض عليهما؟

فتفكر كمال فيما ينبغي قوله، ثم قال:

- الحكومة تظن خطأ أنها يعملان ضدها!

فهزت رأسها في حيرة وقالت:

- أختك تقول إنهم قد قبضوا على عبد المنعم لأنه  
من الإخوان المسلمين، لماذا يقبضون على المسلمين؟

- الحكومة تظنهم يعملون ضدها...

- وأحمد؟، قالت إنه... نسيت الكلمة يا  
بني؟

- شيسوعي؟. الشيوعيون كالإخوان في ظن  
الحكومة!

- الشيوعيون؟! أشياء سيدنا علي؟

فدارى كمال ابتسامة وقال:

- الشيوعيون لا الشيعة، هم حزب ضد الحكومة  
والإنجليز...

فتنهت المرأة في حيرة وقالت:

- متى يفرج عنهما؟ انظر إلى أختك المسكينة!  
الحكومة والإنجليز لم يجدوا إلا بيتنا المصاب!

كان أذان الفجر يسري في الصمت الشامل حين  
استدعى مأمور قسم الجالية عبد المنعم وأحمد إلى  
حجرتهم، ومثلاً أمام مكتبه يسوقها جندي مسلح،  
فأمره المأمور بالانصراف، ومضى يتفحصهما باهتمام،  
ثم نظر إلى عبد المنعم وسأله:

- اسمك وسنك وصناعتك؟

فأجاب عبد المنعم بهدوء وثبات:

- عبد المنعم إبراهيم شوكت، خمسة وعشرون  
عاماً، محقق بإدارة التحقيقات بوزارة المعارف.

- كيف تحرق قوانين الدولة وأنت من رجال  
القانون؟!

- لم أحرق قانوناً، ونحن نعمل جهازاً فنكتب في  
الصحف ونخطب في المساجد، إن الذين يدعون إلى  
الله لا يجدون ما يخفونه.

- ألم تحدث في بيتك اجتماعات مريبة؟

- كلاً، كانت اجتماعات عادية مما تجمع بين  
الأصدقاء لتبادل الرأي والمشورة والتفقه في الدين...

- وهل يدخل ضمن هذه الأغراض التحريض على  
معاداة دول حليفة؟

- أتعني بريطانيا يا سيدي؟ إنها عدو غادر، الدولة  
التي تدوس كرامتنا بالدبابات لا يمكن أن تكون دولة  
حليفة...

- إنك رجل مثقف، وكان ينبغي أن تدرك أن  
للحرب ظروفًا تبيح المحظورات!

- إني أدرك أن بريطانيا هي عدونا الأول في هذا  
الوجود!

والفت المأمور إلى أحمد متسائلاً:

- وأنت؟

فأجاب أحمد وعلى شفثته شبه ابتسامة:

- أحمد إبراهيم شوكت، أربعة وعشرون عاماً،  
محرم بمجلة الإنسان الجديد...

- هنالك تقارير خطيرة عن مقالاتك المتطرفة،  
فضلاً عن أنه من المسلم به أن مجلتك سيئة  
السمعة...

وغادرا الحجرة حيث تسلمهما أونيشتي وجنديان مسلحان، ومضوا جميعاً إلى الدور الأرضي، ثم عرجوا إلى بهو مظلم شديد الرطوبة فساروا فيه قليلاً حتى استقبلهم السجنان بكشافه الكهربائي كأنما ليدّمهم على باب السجن، وفتح الرجل الباب وأدخلهما، ثم صوّب ضوءه إلى الداخل ليهتديا به إلى بُرشيهما، وأضاء الكشاف المكان فبدأ متوسط المساحة عالي السقف، ذا نافذة صغيرة في أعلى جداره تعترضها القضبان الحديدية. وكان عامراً بالضيوف، فيهم شابان على هيئة الطلبة، وثلاثة رجال حفاة مجفوي المنظر شائهي الخلفة. وما لبث أن أغلق الباب وساد الظلام، غير أنّ الضوء وحركة القادمين كانت قد أيقظت النائمين، وقال أحمد لأخيه همساً:

- لن أجلس ولّا قتلني الرطوبة، فلننتظر الصبح واقفين!

- سنضطرّ إلى الجلوس عاجلاً أو آجلاً، أعلمت متى نبرح هذا السجن؟

وإذا بصوت - أدركا بالبداية أنّه لأحد الشابين - يقول:

- لا بدّ من الجلوس، ليس هو بالشيء السارّ ولكنّه أخفّ من الوقوف أيّاماً...

- هل مكثنا طويلاً؟

- منذ ثلاثة أيّام!

وساد الصمت حتى عاد الصوت يسأل:

- لماذا قبض عليكما؟

فأجاب عبد المنعم باقتضاب قائلاً:

- أسباب سياسية فيما يبدو...

فقال الصوت ضاحكاً:

- صارت الأغلبية أخيراً للسياسيين في هذا السجن، كنّا قبل تشريفكما أقلية...

فسأله أحمد:

- وما تهتمكما؟

- تكلمنا أننا أولاً، فأتينا أحدث مقاماً! وإن يكن لا داعي للسؤال بعد أن رأينا حية أحدكما الإخوانية؟

فسأله أحمد وهو يبتسم في الظلام:

- وأنتما؟

- مقالتي لا تعدو الدفاع عن مبادئ العدالة الاجتماعية...

- شيوعيّ حضرتك؟

- إنّي اشتراكيّ، وكثير من النّوّاب يدعون إلى الاشتراكية، والقانون نفسه لا يؤاخذ الشيوعيّ على رأيه ما دام لا يلجأ إلى أساليب العنف...

- أكان ينبغي أن ننتظر حتى تتمخّص الاجتماعات التي تعقد كلّ مساء في شقّتك عن العنف؟

وتساءل في نفسه ترى هل وقفوا على سرّ المنشورات والمحاضرات الليلية؟! وأجاب:

- إنّي لا أجتمع في بيتي إلّا بالأصدقاء المقربين، ولم يزد عدد زوّاري يوماً عن أربعة أو خمسة، وكان تفكيرنا أبعد ما يكون عن العنف...

وردّد المأمور نظره بينها ثمّ قال بعد تردّد:

- إنكما مثقفان و... مهذبان، ومتزوّجان أليس كذلك؟ حسن، أليس من الأفضل لكما أن تهتما بشئونكما الخاصة وأن تجنّبا نفسيكما الهلاك؟...

فقال عبد المنعم بصوته القويّ:

- إنّي أشكر لك نصيحتك التي لن أعمل بها... فنذت عن المأمور ضحكة مقتضبة كأنما على رغمه، ثمّ قال:

- علمت في أثناء التفتيش أنكما حفيدا المرحوم أحمد عبد الجواد، وقد كان خالكما المرحوم فهمي صديقاً حميماً لي، وأظنكما تعلمان أنّه فقد حياته في ربيع العمر على حين أنّ زملاءه ظلّوا على قيد الحياة حتى تبوّأوا أكبر المناصب...

فقال أحمد وقد أدرك السرّ في لطف المأمور الذي حيّره:

- دعني أسألك يا سيّدي عمّا كانت تكون عليه مصر لولا توضحية خالي وأمثاله؟!

فهزّ الرجل رأسه وقال:

- فكّرنا في نصيحتي بعقل وروية ودعكمنا من هذه الفلسفة المهلكة!

ثمّ وهو يقف:

- ستبقيان ضيفين في سجننا حتى تُدْعَوا إلى التحقيق، أرجو لكما حظاً سعيداً...

قله يزحف نحوهما دائبًا، هذا هو الشعب الذي تعيش من أجله فكيف تجزع عن فكرة ملامسته؟ هذا الرجل المناط به خلاص الإنسانية ينبغي أن يمكسك عن شخيره وأن يعي موقفه التاريخي حتى ينهض لإنقاذ العالم جميعًا. وقال لنفسه: «إنَّ موقفًا إنسانيًا واحدًا هو الذي جمعنا على اختلاف مشاربنا في هذا المكان المظلم الرطب. الأخ والشيوعي والسكّير والسارق على السواء، كلنا واحد على تفاوت في قوة المناصرة أو الحظ». وحدث نفسه مرة أخرى فقال: لماذا لا أتعنى بشئونك الخاصة، هكذا يقول المأمور، ولي زوجة محبوبة ورزق موفور، والحق أنَّ الإنسان قد يسعد بما هو زوج أو موظف أو أب أو ابن ولكنَّه مقضي عليه بالمنازع أو بالموت نفسه بما هو إنسان. وسواء أقضي عليه بالسجن هذه المرة أم أطلق سراحه فباب السجن الغليظ المتجهّم هو ما يترأى لعيني في أفق حياته، وعاد يتساءل: ماذا يدفعني في هذا السبيل الخطير الباهر؟ ألا إنَّه الإنسان الكامن في أعماقي، الإنسان الواعي لذاته المدرك لموقفه الإنساني التاريخي العام، وإنَّ ميزة الإنسان على سائر المخلوقات هي أنه يستطيع أن يقضي على نفسه بالموت بمحض اختياره ورضاه... وشعر بالرطوبة تسري في ساقيه والإعياء يتخلّل مفاصله، وكان الشخير يتردّد في الأركان بإيقاع موصول، ثمّ لاحت خلال قضبان النافذة الصغيرة طلائع من النور وانية رقيقة...

## ٥٤

غادر الطبيب الحجرة وكمال يتبعه واجمًا، ثمّ لحق به في الصالة وحده بعينين متسائلتين، قال الطبيب بهدوء:

- يؤسفني أن أخبرك بأنّها حالة شلل كلي... فانقبض صدر كمال انقباضًا شديدًا وسأله:

- حالة خطيرة؟

- طبعًا! وقد أصيبت في الوقت نفسه بالتهاب رئوي، ولذلك فالحقن ضرورية لإزالتها.

- أليس هناك أمل في الشفاء؟

- كلانا طالب في الحقوق متّهم بتوزيع منشورات هدامة كما يقولون... فثار أحمد وسأله:

- أضبطتما متلبسين!

- نعم... وماذا كان في المنشورات؟

- بيان بتوزيع الثروة الزراعية في مصر...

- هذا ممّا تنشره الصحف في ظلّ الأحكام العرفية نفسها!

- يضاف إليه شوية توجيهات حماسية!

فابتسم أحمد مرة أخرى في الظلام وقد تحقّف من وحشته لأوّل مرّة، وعاد صاحب الصوت يقول:

- إننا لا نخاف القانون بقدر ما نخاف الاعتقال...

- إنّ الأمور تشتر بتغيّر شامل...

- لكننا سنظلّ الهدف في جميع العهود...

وإذا بصوت غليظ يعلو في خشونة قائلاً:

- كفاكم كلامًا ودعونا ننام...

ولكنّ صوته أيقظ زميلًا من زميله فتشاءب متسائلًا:

- طلع الصبح؟

فأجابه الأوّل هازئًا:

- كلاً، ولكنّ أصحابنا يحسبون أنفسهم في غرزة...

تنهّد عبد النعم وهمس بصوت لم يسمعه إلّا أحمد:

- أيزج بي إلى هذا المكان لا لسبب إلّا أنني أعبد الله؟!

فهمس أحمد في أذنه بأسًا:

- وما ذنبي أنا الذي لا أعبد؟!

لم يشأ أحد بعد ذلك أن يرفع صوته، وراح أحمد يسأل نفسه عمّا دعا إلى القبض على الآخرين، سرقة أم مشاجرة أم سكر وعريضة؟ طالما كتب عن الشعب وهو مدثر بمعطف في حجرة مكتبه الجميلة، ها هو الشعب يلعن أو يغطّ في نومه، وهذه الوجوه الكالحة البائسة التي رآها على ضوء الكشافات لحظات، وذلك الرجل الذي كان يحكّ رأسه وما تحت إبطيه فلعلّ

وكان هذا آخر عهده بيقظتها، وقد جاءه نبأ مرضها  
ظهرًا في المدرسة فعاد مصطحبًا الطبيب الذي نعاها  
إليه سلفًا منذ دقائق. أجل لم يبق إلا ثلاثة أيام! ترى  
كم يومًا تبقى له هو؟ واقترب من عائشة وسألها:

- متى وكيف وقع لها ما وقع؟

فأجابت عنها أم حنفي قائلة:

- كنا جالسين في الصالة، ثم قامت متجهة نحو  
حجرتها لترتدي معطفها وتخرج وهي تقول لي «عندما  
أفرغ من زيارة الحسين سأزور خديجة»، وذهبت إلى  
الحجرة، وبعد دخولها مباشرة ترامى إلى أذني صوت  
وقوع شيء فهرعت إلى الداخل فوجدتها ملقاة على  
الأرض بين السرير والدولاب، فجريت نحوها وأنا  
أنادي ست عائشة...

وقالت عائشة:

- جئت مسرعة فوجدتها في هذا المكان، فحملناها  
إلى السرير، وجعلت أسألها عما بها ولكنها لم تجبني، ولم  
تتكلم، متى تتكلم يا أخي؟

فأجاب في ضيق:

- عندما يشاء الله!...

وتراجع إلى الكنية ثم جلس، ومضى ينظر في حزن  
إلى الوجه الشاحب الصامت، أجل لينظر إليه طويلًا  
فعمًا قريب لن يكون له إلى رؤيته سبيل. هذه الحجرة  
نفسها ستتغير معالمها وستتغير بالتالي معالم البيت في  
مجموعه، ولن ينادي به أحد «أمي»، لم يكن يتصور أن  
موتها سيحمل قلبه هذا الألم كله، ألم يالف الموت  
بعد؟... بلى، ولديه من العمر والتجربة ما يقيه  
الجزع، ولكن لدعة الفراق الأبدية موجعة، ولعله مما  
يلام عليه قلبه أنه رغم ما كابد من ألم يتألم كالقلب  
الغض. وكم أحبته، وكم أحببت الجميع، وكم أحببت  
كل شيء في الوجود، ولكن هذه السجايا الطيبة لا  
تعيها النفس إلا عند الفراق، ففي هذه اللحظة  
الخطيرة تزدحم ذاكرتك بصور أماكن وأزمنة وحوادث  
يهتز لها من أعماقه، وها هي يخالط نورها الظلام،  
وتتزعج فيها زرقعة الفجر بحديقة السطح، وبجمرة  
مجلس القهوة بالأساطير، وهديل الحمام بأغنيات حلوة،  
وكان حبًا رائئًا أيها القلب الجاحد، ولعلك تقول غداً

فصمت الطبيب قليلاً ثم قال:

- الأعمار بيد الله، أما الطبيب فيقرر في حدوده أن  
هذه الحال لا يمكن أن تستمر أكثر من ثلاثة أيام...

وتلقى كمال نذير الموت بتجلد، وأوصل الطبيب إلى  
الباب الخارجي ثم عاد إلى الحجرة. وكانت الأم  
نائمة، أو كالنائمة، لا يبدو من الغطاء الكثيف إلا  
وجهها الشاحب وفوها المطبق في شيء من الاعوجاج،  
وكانت عائشة واقفة حيال السرير فأقبلت نحوه  
متسائلة:

- ما لها يا أخي؟ ماذا قال الطبيب؟

وقالت أم حنفي من موقفها عند مقدم الفراش:

- إنها لا تتكلم يا سيدي، لم تتكلم كلمة واحدة.

وقال لنفسه: ولن يسمع لها صوت بعد الآن، ثم

قال جيبًا أخته:

- حالة ضغط مصحوبة بإصابة برد خفيفة، سوف

ترجيحها الحقن!

فقالت عائشة، ولعلها كانت تخاطب نفسها:

- إني خائفة، وإذا كانت سترقد هكذا طويلًا فكيف

تُحتمل الحياة في هذا البيت؟

فتحوّل عنها إلى أم حنفي وسألها:

- هل أخبرت الجماعة؟

- نعم يا سيدي، وستحضر ست خديجة وسي

ياسين في الحال، ما لها يا سيدي؟ كانت في الصباح في

تمام الصحة والعافية...

كانت!... وهو يشهد بذلك! وقد مرّ بالصالة

كعادته كل صباح قبل انطلاقه إلى مدرسة السلحدار،

فتناول فنجان القهوة الذي قدّمته له وهو يقول:

- لا تغادري البيت اليوم فالجو بارد جدًا...

فابتسمت ابتسامتها الرقيقة وقالت:

- وكيف يطيب لي اليوم دون زيارة سيّدك؟

فقال محتجًا:

- افعلي ما يحلو لك، إنك عنيدة يا أمّاه!

فتمتعت:

- ربك الحافظ...

ثم وهو يغادر المكان:

- ربنا يسعد أيامك...

- ستلد في بحر هذا الأسبوع، أو لهذا ما تؤكد  
الحكمة...

فتمت كمال:

- ربنا يأخذ بيدها...

فقال ياسين:

- سيخرج الوليد إلى الدنيا وأبوه في المعتقل...

ودق الجرس، فكان القادم رياض قلدر، وقد

استقبله كمال ومضى به إلى حجرة مكتبه، وفي الطريق

إلى الحجرة قال رياض:

- سألت عنك في المدرسة فأخبرني السكربتير بالخبر،

كيف حالها؟

- أصيبت بشلل وأخبرني الطبيب بأنها ستتهي في

ظرف ثلاثة أيام...

فوجم رياض وتساءل:

- أليس هنالك حيلة ما؟

فهز كمال رأسه يائسا، وقال:

- لعل من حسن الحظ أنها في غيبوبة لا تدري عما

ينتظرها شيئا...

ثم في لهجة ساخرة وهما يجلسان:

- ولكن هل ندري نحن عما ينتظرنا شيئا؟

وابتسم رياض دون أن ينبس، فعاد الآخر يقول:

- كثيرون يرون أن من الحكمة أن نتخذ من الموت

ذريعة للتفكير في الموت، والحق أنه يجب أن نتخذ من

الموت ذريعة للتفكير في الحياة...

فقال رياض باسما:

- هذا أفضل فيما أرى، كذلك فلنسأل أنفسنا عند

الموت - أي موت - ماذا صنعنا بحياتنا؟

- أما أنا فلم أصنع بحياتي شيئا، هذا ما كنت أفكر

فيه...

- بيد أنك ما زلت في منتصف الطريق!...

ربما نعم، وربما لا، غير أنه من المستحسن دائما أن

يتأمل الإنسان ما يراود نفسه من أحلام، على ذلك

فالتصوف هروب، كما إن الإيمان السليبي بالعلم

هروب، وإذن فلا بد من عمل، ولا بد للعمل من

إيمان، والمسألة هي كيف نخلق لأنفسنا إيمانا جديرا

بالحياة. قال:

بحق إن الموت استأثر بأحب الناس إليك، ولعل

عينيك أن تدمعا حتى يزجرك المشيب. والنظر إلى

الحياة كمأساة لا يخلو من رومانتيكية طفلية والأجدر

بك أن تنظر إليها في شجاعة كدراما ذات نهاية سعيدة

هي الموت. ثم سأئل نفسك إلام تضيع حياتك هباء؟

إن الأم تموت وقد صنعت بناء كاملا فإذا صنعت

أنت؟

\*\*\*

واستيقظ على صوت أقدام، وإذا بخديجة تدخل

الحجرة مرتاعة وتتجه نحو الفراش وهي تنادي أمها

وتسألهم عما حل بها. وتضاعف ألمه حتى خاف أن

يخونه تمهلده فغادر الحجرة إلى الصلاة، وما لبث أن

جاء ياسين وزئبة ورضوان، فصافحوه، وأخبرهم عن

مرضها دون التفاصيل، فذهبوا إلى الحجرة ولبث

وحيدا حتى عاد إليه ياسين وهو يسأله:

- ماذا قال لك الطبيب؟

فقال في وجوم:

- شلل والتهاب رئوي، سيتهي كل شيء في خلال

ثلاثة أيام...

فعض ياسين على شفته وقال بحزن:

- لا حول ولا قوة إلا بالله...

ثم جلس وهو يتمتم:

- مسكينة، كان كل شيء مفاجئا! ألم تشك تعباً في

الأيام الأخيرة؟

- كلاً، إنها لم تعتد الشكوى كما تعلم، ولكنها

كانت تبدو أحياناً كالتعب...

- ليتك عرضتها على الطبيب من قبل!

- لم يكن أبغض إلى نفسها من سيرة الطبيب!

وانضم إليها رضوان بعد حين فقال لكمال:

- أرى أن نُقل إلى المستشفى يا عمي!

فقال كمال وهو يهز رأسه في حزن:

- لا داعي إلى ذلك، وسيرسل الصيدلي ممرضة

يعرفها لتحققها...

ولاذوا بالصمت والرجوم يعلو وجوههم، وعند ذاك

ذكر كمال أمرا تفتضي المجاملة ألا يجعله فسأل ياسين:

- كيف حال كريمة؟...



بعذاب الضمير الخلق بكلّ خائن، قد يبدو يسيراً أن تعيش في قمقم أنايتك ولكن من العسير أن تسعد بذلك إذا كنت إنساناً حقاً...

فأشرق وجه رياض على رغم كآبة المناسبة وقال:  
- هذا بشير بانقلاب خطير يوشك أن يقع!  
فقال كمال في حذر:

- لا تسخر مني، إنّ مشكلة الإيمان ما زالت قائمة بدون حلّ، وغاية ما أستطيع أن أعزّي به نفسي هو أنّ المعركة لم تنته، ولن تنتهي ولو لم يبق من عمري إلا ثلاثة أيّام كأمي...  
ثمّ وهو يتنهد:

- أتعلم ماذا قال أيضاً؟ قال: إني أومن بالحياة وبالناس، وأرى نفسي ملزماً باتّباع مثلهم العليا ما دمت أعتقد أنّها الحقّ إذ النكوص عن ذلك جبن وهروب، كما أرى نفسي ملزماً بالثورة على مثلهم ما اعتقدت أنّها باطل إذ النكوص عن ذلك خيانة، وهذا هو معنى الثورة الأبدية!

وجعل رياض ينصت وهو يهزّ رأسه موافقاً، ثمّ بدا على كمال الإعياء والضيّق فقال رياض:

- أنا مضطّرّ إلى الذهاب فإ رأيك في أن تصحبني إلى محطة الترام لعلّ المشي يريح أعصابك!

ونخضا ممّا وغادرا الحجرة، وقابلا ياسين عند مدخل الدور الأوّل - وكان على معرفة سطحيّة برياض - فدعاه كمال إلى مصاحبته. غير أنّه استأذن منهما دقائق ريثما يلقي نظرة على أمّه، ومضى إلى حجرتها فوجدتها كما تركها في غيبوبة. وكانت خديجة جالسة في الفراش عند قدميها وقد احمرّت عيناها من البكاء، وعلت وجهها الكآبة التي لم تفارقه منذ امتدّت يد الحكومة إلى ابنيها، أمّا زُوبة وعائشة وأمّ حنفي فقد جلسن على الكنب صامتات، وكانت عائشة تدخّن سيجارة في سرعة وقلق، على حين راحت عيناها تجولان في المكان في اضطراب عصبيّ، وسألن:

- كيف حالها؟

فأجابت عائشة بصوت مرتفع ينمّ عن الضيق والاحتجاج:

- لا تريد أن تصحوا!

- حسبتي قد أدّيت للحياة واجبها بالإخلاص لمهنتي كمعلم وبكتابة المقالات الفلسفيّة...

قال رياض بعطف:

- وقد أدّيت واجباً بلا شك!

- ولكنني عشت معذب الضمير كما ينبغي لكلّ خائن!

- خائن؟!

فتنهد كمال وقال:

- دعني أخبرك بما قال لي أحمد ابن أخي عندما زرته في سجن القسم قبل نقله إلى المعتقل...

- على فكرة، أما من جديد عنها؟

- لقد رحلا مع كثيرين إلى معتقل الطور...

فتساءل رياض باسماً:

- الذي يعبد الله والذي لا يعبد؟

- يجب أن تعبد الحكومة أولاً كي تعيش مطمئناً...

- على أيّ حال الاعتقال أخفّ في نظري من المحاكمة!

- هذا رأي، ولكن متى تنكشف هذه الغمّة؟ متى تُرفع الأحكام العرفيّة؟ متى يعود السلطان إلى القانون الطبيعيّ والدستور؟ متى يعامل المصريون كالأدمنين؟

فجعل رياض يعثّ بخاتم الزواج في يسراه، ثمّ قال بحزن:

- نعم متى؟ ما علينا، ماذا قال أحمد في سجن القسم؟

- نعم، قال لي إنّ الحياة عمل وزواج واجب إنسانيّ عامّ، وليست هذه المناسبة للحديث عن واجب الفرد نحو مهنته أو زوجه أمّا الواجب الإنسانيّ العامّ فهو الثورة الأبدية، وما ذلك إلا العمل الدائب على تحقيق إرادة الحياة ممثلة في تطوّرنا نحو المثل الأعلى...

فتفكّر رياض قليلاً ثمّ قال:

- رأي جميل، ولكنّه يتّسع لكافة المتناقضات...

- نعم، ولذلك وافقه عليه أخوه ونقيضه عبد المنعم، ولذلك فهمته على أنّه دعوة إلى الإيمان أيّما كان مشربه وأيّا كانت غايته، ولذلك فإني أعلّل تعاسي

وكان كمال من أعراف الناس بمزاج أخيه، فقال:  
- لا داعي إلى ذلك ألبتة...

فدفعه ياسين أمامه وهو يقول:

- إنها أمي كما إنها أمك!

وداخل كمال بغتة شعور بالخوف على ياسين! حقاً  
إنه يسير مكتنفاً بالحياة في ضخامة الجمل ولكن إلام  
يحتمل حياته المفعمة بالأهواء؟ وطفح فؤاده بالكآبة،  
غير أن فكره طار فجأة إلى الطور، إلى المعتقل. إنني  
أومن بالحياة وبالناس، هكذا قال، وأرى نفسي ملزماً  
باتباع مثلهم العليا ما دمت أعتقد أنها الحق! إذ  
النكوص عن ذلك جبن وهروب، كما أرى نفسي ملزماً  
بالثورة على مثلهم ما اعتقدت أنها باطل! إذ النكوص  
عن ذلك خيانة! وقد تسأل ما الحق وما الباطل، ولكن  
لعل الشك نوع من الهروب كالتصوف والإيمان السليبي  
بالعلم. فهل تستطيع أن تكون مدرّساً مثاليًا وزوجاً  
مثاليًا وثائرًا أبدياً؟!

وعندما مرّا بدكان الشراقوي توقّف ياسين وهو  
يقول:

- كلّفني كريمة بأن استبضع لها بعض اللوازم  
للمولود المنتظر... عن إذنك...

ودخلا الدكان الصغير، وراح ياسين ينتقي ما يريد  
من لوازم المولود المنتظر: قماطاً وطاقيّة ومنامة، وعند  
ذلك تدبّر كمال أن رباط عنقه الأسود الذي استعمله  
عاماً حداً على والده قد استهلك، وأنه يلزمه آخر  
جديد ليواجه به اليوم الحزين، فقال للرجل حين فرغ  
من ياسين:

- رباط عنق أسود من فضلك...

وتناول كل لفافته، وغادرا الدكان.

وكان المغيب يقطر سمرة هادئة فمضيا جنباً إلى  
جنب نحو البيت...

وحانت منه التفاتة إلى خديجة فتبادلا نظرة طويلة  
دلت على تفاهم حزين ويأس مشترك فلم يتمالك إلا  
أن يغادر الحجرة ويلحق بصاحبيه...

وساروا في الطريق متهملين، فقطعوا الصاغة إلى  
الغوريّة في شبه صمت، وعندما بلغوا الصنادقيّة  
صادفوا الشيخ متوليّ عبد الصمد ينحدر منها إلى  
الغوريّة متوكّئاً على عصاه، في خطوات غلخللة، وقد  
كفّ بصره وارتعشت أطرافه، وكان يتلقت فيها حوله  
متسائلًا في صوت مرتفع:

- من أين طريق الجنة؟

فأجابه ماّ وهو يضحك:

- أوّل عطفة على يمينك...

وقال ياسين لرياض قلّس:

- أتصدّق أنّ هذا الرجل قد جاوز المئة بما يقرب  
من عشرة أعوام؟...

فقال رياض بأسياً:

- إنّه لم يعد رجلاً على أيّ حال...

وكان كمال ينظر نحو الشيخ متوليّ بعطف، كان  
يذكر به أباه، وكان يعدّه معلماً من معالم الحيّ كالسبيل  
القديم وجامع قلاوون وقبو قرمز، ووجد كثيرين وهم  
يعطفون عليه، غير أنّ العجوز لم يسلم من شقاوة  
بعض الغلّبان الذين راحوا يصفّرون في وجهه أو  
يتبعونه محاكين حركاته.

وأوصلا رياض حتّى محطة الترام، وانتظرا معه حتّى  
ركب، ثمّ عادا معاً إلى الغوريّة، وتوقّف كمال عن  
السير فجأة وقال لأخيه:

- أن لك أن تذهب إلى القهوة...

فقال ياسين بحذّة:

- كلا، سأبقى معك...







